مِنْهَاجُ القَاصِدِين

وَمُفِيدُ الصَّادِقِين

تأليف

أبي الفرج عبد الرحمن بن علي

ابن الجوزي

ت ٥٩٧ هـ

تحقيق
كامل محمد الخراط

قدم له فضيلة الشيخ
محمد نعيم العرقسوسي

المجلد الأول

العبادات - العادات

دار التوفيق
للطباعة والنشر والتوزيع

مِنهاج القاصِدين

ومفيد الصادقين

أبي الفرج عبد الرحمن بن علي

ابن الجوزي

تحقيق

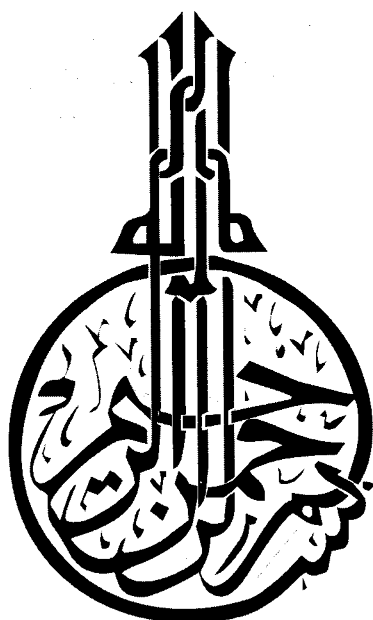
كامل محمد الخراط

المجلد الأول

العبادات - العادات

دار التوفيق

للطباعة والنشر والتوزيع





الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978 - 9933 - 411 - 16 - 9

العنوان : منهاج القاصدين ومفيد الصادقين

المؤلف : أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي

المحقق : كامل محمد الخراط

عدد المجلدات : ٣ مجلدات

عدد الصفحات : ١٥٧٦ صفحة

عدد الألوان : ٢ لون



دار التوفيق

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشـــق - ســورية

Email: tawfiqdar@hotmail.com

tawfiqdar@yahoo.com

هاتـف : ٦٦٦٠٩٠٥ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس : ٦٦٦٠٩٠٥ ١١ ٠٠٩٦٣

موبـايل : ٤٦٣٣٣٧٥ ٩٤٤ ٠٠٩٦٣

ص. ب/ ١٦٣٥٠

مقدمة الناشر

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين. نحمد الله سبحانه وتعالى ونشكره على نعمه التي لا تحصى ونستغفره ونستهديه ونسترشده.

نقدم بين يدي القراء الكرام والمكتبة العربية والإسلامية هذا الكتاب الجامع النفيس الذي طالما سألت وسأل مثلي كثيرون عن هذا الكتاب الذي لم يرَ النّور إلى وقتنا هذا، مع كثرة طبعات كتاب «إحياء علوم الدين» وكذلك كتاب «مختصر منهاج القاصدين»، وكنت دائم البحث عن مخطوطات هذا الكتاب منذ سنوات عديدة وعزمت على أن أبذل كل الجهد للعمل على إظهار هذا السفر العظيم.

وبفضل الله عثرت على نسخة خطية كاملة بعد جهد جهيد في مكتبة جور ليلى بتركيا، فأخبرت صديقي الأستاذ كامل الخراط عن المخطوط وطلبت منه تحقيق الكتاب فكانت سعادته كبيرة بظهور هذا الكتاب، وبَذَل كل الجهد لإعطاء الكتاب حقه، مستفيداً من خبرته الطويلة في هذا المجال فقد أمضى جلَّ عمره في العلم والبحث والتحقيق وكانت له مشاركات كثيرة في مجال التحقيق والبحث نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: «سير أعلام النبلاء»، «مسند الإمام أحمد»، «تفسير الطبري». وقام مشكورا بتحقيق الكتاب فجزاه الله خير الجزاء وبارك له في علمه ووقته.

وقد رأينا أن يخرج الكتاب محققاً مدققاً مخرَّج الأحاديث والآيات مع شرح غريب الكلمات والمصطلحات والتعريف ببعض الأعلام والأماكن دون إسهاب يرهق القارئ أو اختصار يضيع حق الكتاب، فكان أن ظهر الكتاب بهذه الحلة التي تليق به ككتاب نفيس جامع.

وبكل تواضع تفخر دار التوفيق للنشر والتوزيع بإظهار كتاب منهاج القاصدين للعالَم الإسلامي بعد أن بقي لمئات السنين راقدا بين المخطوطات النادرة والنفيسة بانتظار الظهور والطبع ليستفيد منه القاصي والداني على امتداد العالم الإسلامي.

ونرجو من الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا وأن يتقبل منا صالح أعمالنا ويغفر لنا ذنوبنا وخطايانا انه على كل شيء قدير.

والحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام رسوله الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الناشر

المقدمة

الحمدُ لله نَحمده ونَستعينه ونَستغفره، ونعوذ بالله من شُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يَهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فكثيراً ما كنتُ أقرأ ـ وأنا في بدايات مرحلة الطَّلَب ـ في كتاب (مختصر منهاج القاصدين)، للعلَّامة أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت ٧٤٢هـ)، حيث كان يَشدني إليه كثرةُ ما فيه من علمٍ جَمٍّ وَوَعظٍ وتذكير تحتاجُه النَّفسُ بين الفَينة والفَينة، لكبحِ جماح شَهوتها وضَبطٍ عنان سَطوتها، وسألتُ كثيراً أنا وعدد من الأصحاب عن أَصل هذا المختصر وهو كتاب (منهاج القاصدين) للعلامة أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، ولكنّا لم نظفر به، ولم نقف له على أثر، حيث إنه مازال مخطوطاً لم يُطبع بعد، وكم كانت سعادتي كبيرة عندما أخبرني صديقي الأستاذ محمد توفيق القوتلي ـ صاحب دار التوفيق ـ أنه قد وقف على نسخةٍ خطيةٍ للمنهاج في إحدى مكتبات المخطوطات بتركيا، وأنه قام بتصويرها، وطلبَ مني أن أقوم بتحقيقه لكي يَخرج إلى النور، ولا يظلَّ حَبيس خزائن مكتبات المخطوطات، وليُنتفَعَ بما فيه من علمٍ غَزير، فشحَذَ هِمَّتي وشَدَّ عزيمتي، وبحثتُ عن نسخٍ خطيةٍ أخرى له، فوقفتُ على نسخةٍ خطية في المكتبة الظاهرية بدمشق، أُدرِجَت خطأً تحت اسم (مختصر منهاج القاصدين)، وبعد البحث والتدقيق تبين أنها نسخةٌ للمنهاج، ووقفت على نسخةٍ أخرى في مكتبة جامعة برنستون بأمريكا، منها نسخة مصورة في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، عندها عقدتُ العزمَ على خوض غمار تحقيق هذا السِّفر العظيم، مستعيناً بالله عزَّ وجلَّ، وطالباً منه التوفيق والسَّداد.

مؤلف الكتاب ونسبته إليه:

الكتاب من تأليف العلامةِ المحدِّث الواعظ صاحبِ التصانيف السائرة أبي الفَرَج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عبيد الله بن الجَوزي القُرشي التَّيمي البكري البغدادي، المتوفى سنة (٥٩٧هـ)، ولشهرته وغَنائه عن التعريف لم أذكر له ترجمة خشية الإطالة.

ومن المؤكد نسبة كتاب (منهاج القاصدين) لابن الجوزي، حيث نسبه له ابن قُدامة في مقدمة المختصر، ومعظم المصادر التي ترجمت له ذكرته ضمن مصنَّفاته، والمصنف نفسه ذكره في مقدمته فقال: «وسميتُ كتابي هذا: منهاج القاصدين ومُفيد الصادقين». وكذلك ذكره باسمٍ آخر وهو يخاطب ولده أبا القاسم قائلاً: «وعليك بكتاب منهاج المريدين، فإنه يُعلمك السلوك، فاجعله جَليسَكَ ومعلمَّك...»، وذلك في رسالته المسماة: «لفتة الكبد في نَصيحة الولد»[1]. ويؤكد نسبته له أيضاً ذِكرُه الكثيرَ من أسماء مصنفاته الأخرى ضمنه، ككتاب (تَلبيس إبليس)، وكتاب (ذم الهوى)، وكتاب (صفة الصفوة) وغيرها.

بين الإحياء والمنهاج والمختصر:

من المعروف أن ابن الجوزي رحمه الله، اختصر كتابه (المنهاج) من كتاب (إحياء علوم الدين) للعلامة حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، ولكنه تصرَّف في اختصاره تصرفاً كبيراً، فهو لم يلتزم بذكر ما أورده الغزالي فحسب، وإنما أضاف وزاد من عنده الكثير، وأوضح ذلك في مقدمته حيث قال: «وسأكتبه لك في كتاب لا يُخِلُّ بفوائده، ويَخلو عن مَفاسِده، أعتمدُ فيه من المنقولِ الأصحَّ والأشهرَ، ومن المعنى الأثبتَ والأجودَ، وأحذفُ ما يصلحُ حذفُه، وأزيدُ ما يصلحُ أن يُزاد، ولا أُطيل بما لا طائل فيه، شُحًّا عليك وعلى أمثالك أن يتشاغلوا بفاسِدٍ، ويحملوا في مفاوز المخاطرة المتاعَ الكاسد، وربما رأيتَني أُقصِّرُ في بعض الأبواب والفصول، وأحذفُ كثيراً من الأخبار والآثار، فلا تَظُنَّنَّ ذلك مني سهواً بل عمداً؛ لأني لم أترك

(١) طبعت في مطبعة الترقي بدمشق سنة (١٩٥٥م)، تقديم وتعليق الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، ومحمود مهدي استانبولي.

ذلك إلا لآفةٍ في المتروك، فربما كانت الأحاديث لا تثبت، والآثار لا تصحُّ، وربما قَلَّت فائدتها، وربما تكون قد سبقت فاعرف ذلك».

وقد أورد ابن الجوزي في المنهاج العديد من الأبواب والفصول التي ليست في الإحياء، ففي كتاب أسرار الصلاة ذكر فصولاً كثيرةً ليست في الإحياء، كفصلٍ في رفع الصوت بالأذان، وإجابة المؤذن بمثل قوله، وذكر ما يُقال عند الأذان من الدعاء، والدعاء بين الأذان والإقامة، وفضيلة الخُطا إلى المساجد، وفضيلة الصف الأول وغيرها.

وقد يُخالف ابن الجوزي في بعض الأحيان الغزالي فيما أورده، ففي كتاب رياضة النفس وأمراض القلوب في فصل بَيان الشواهد على أن الطريق في معالجة أمراض القلوب بترك الشهوات، خالف ابنُ الجوزي الغَزاليَّ فيما ذكره في هذا الفصل من ترك المباحات والمشتهيات، وذكر أمثلةً عن النبي ﷺ أنه كان يحب الحلواء والعسلَ وذراعَ الشاة وغير ذلك، وكذلك في كتاب الصَّبر ذكر فصولاً لم يذكرها الغزالي، كذكر آداب الصبر، والصبر على مصائب البَدَن، كالحُمّى والصداع والطاعون، والصبر على موت الولد وغير ذلك، وفي باب معاقبة النفس على تقصيرها من كتاب المحاسبة ذكر الغزالي قصصاً عن عقوبات كثيرة للنفس فيها جَورٌ عليها، فقال ابنُ الجوزي: «ولا يغتَرَّ بما يَسمع من أن رجلاً من بني إسرائيل وضع يده على فخذ امرأةٍ، فوضعها في النار حتى شَلَّت، وأن آخر حوَّلَ رجله لينزل إلى امرأةٍ، ثم تفكَّر فقال: ماذا أردتُ أن أصنع؟! فلما أراد أن يُعيد رجله قال: هَيهات! رِجلٌ خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطَّعَت بالمطر والرِّياح، وأن آخر نظر إلى امرأةٍ فقلع عَينَه، فهذا كله ربما كان جائزاً في شريعتهم، فأما في شَرعنا فمُحرَّم، وقد سلكَ نحوه خَلقٌ من أهل مِلَّتِنا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، مع كون أكثرهم من أهل الخير، ولكن العلم شيءٌ آخر».

وكثيراً ما يستشهد ابن الجوزي في فصول الكتاب بأحاديث من روايته عن مشايخه لم يذكرها الغزالي في الإحياء، فيذكر حديثاً أو حديثين مما ذكره الغزالي، ويردف ذلك بعشرة أحاديث أو أكثر، وبقصص وروايات عن الصالحين توضح المقصود.

ويمتاز المنهاج أيضاً بسلاسة الأسلوب وعذوبة العبارة، فابن الجوزي فارس لا يُشق له غبار في ميدان البلاغة والفصاحة، فقد كان يَخلُبُ الألبابَ ويَسحر العقول في مجلس وَعظِه.

أما ابن قدامة فقد اختصر المنهاج، وحذف في مختصره الكثير من الأبواب والفصول، ولم يكتَفِ باختصار العبارة فقط، فالمقارن بين الكتب الثلاثة يجد أن في الإحياء بعض التطويل الممل، وفي المختصر بعض الحذف المُخِل، ويبقى المنهاج وسطاً بينهما، وهي ميزة له عليهما.

وصف النسخ الخطية:

١ـ نسخة محفوظة في مكتبة جورليلى علي باشا باستانبول برقم (٢٩٨)، وهي نسخة كاملة، نُسخت عن نسخة المصنف، وقد أثبت ناسخها أرقام أجزاء نسخة المصنف بهامشها، وفي الورقة (٢٠٠) منها ورد بياض بقدر سطر واحد، فقال الناسخ: «هذا السطر كان قد انطمس بالتصاقِ جزء المصنف، فليُحقَّق من مناقب الحسن».

وورد في عدة صفحات منها ختم وقفيةٍ نصها: «هذا مما وَقَفه الوزير الأعظم علي باشا ابن الحاج محمد آغا عفا الله عنهما سنة ١١٣٠هـ»، وقد نُسخت بخط نسخي جميل مجوَّد، نسخها أحمد بن عمر الشهير بحافظ كلام الله القديم سنة (١٠٨٤هـ)، وعدد أوراقها (٣٩٤) ورقة، ومسطرتها (٢٦) سطراً، ورغم تأخر تاريخ نسخها فقد اتَّخذتُها أصلاً لكمالها وجودة خطها، ولأنها منسوخة عن أصل المصنف.

٢ـ نسخة محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق، برقم (٢٤) تصوف، وهي تُشكل الجزء الأول من الكتاب، وقد نقص من أولها اثنا عشر ورقةً، فظنَّ أحدهم أن هذا الكتاب هو المختصر لابن قدامة، فكتب بخطٍ مغايرٍ الورقات الناقصة، نقلها من المختصر وأثبتها في بداية هذه النسخة من المنهاج، فمن هنا جاء اللَّبْسُ بأن هذا الكتاب هو المختصر وليس المنهاج، وظنه أحد مالكيه ـ وهو عبد الله باشا ـ أنه الإحياء حيث كتب على غلافه ما يلي: «الواقع أن هذا هو الجزء الأول من الإحياء... عبد الله باشا»، ولكن أحدهم اهتدى إلى أن الكتاب لابن الجوزي دون

معرفة اسمه، وذلك من كثرة ذكره لمصنفاته العديدة داخل الكتاب، فكتب على صفحة الغلاف ما يلي: «التحقيق أن هذا الكتاب للعلامة ابن الجوزي كما يظهر من أسماء التآليف فيه».

وعلى الغلاف وقفية نصها: «جدَّد وقف هذا الكتاب فقير عفو الله تعالى خليل بركات وقفاً صحيحاً، وشرطه أن يوضع في مدرسة المرحوم الحاج عبد الله باشا عظم زاده، فمن بدَّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، وذلك في ذي الحجة سنة (١٢٤٣هـ)، غفر الله له ولوالديه، ولمن دعا لهما بالمغفرة وللمسلمين أجمعين إنه غفور رحيم».

وعليه تملك نصه: «الحمد لله على كل حال، ملكه من فضل الله تعالى ولطفه الخفي، الفقير رمضان بن موسى المطيعي الحنفي، غفر اللهُ تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين أجمعين آمين».

تقع هذه النسخة في (٢١٨) ورقة، ومسطرتها (٢٥) سطراً، ونُسخت بخط نسخي جميل، نسخها محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن الخراساني سنة (٥٩٢هـ)، أي في حياة المصنّف رحمه الله، وقد رمزتُ لها بالحرف (ظ).

٣ـ نسخة محفوظة في مكتبة جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية، ضمن مجموعة برقم (٢١٤٦)، منها صورة محفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، وهي ناقصة من أولها وآخرها، تبدأ من كتاب ذم الجاه والرياء، وتنتهي بنهاية كتاب الصبر والشكر، وهي منقولة من أصل المصنف وخطه كما ورد في آخرها، وهي خِلْوٌ من صفحة الغلاف واسم الناسخ وتاريخ النسخ، وخطها نسخي معتاد، ولكن ناسخها حرَّفَ وصحَّفَ الكثير من الكلمات، وعدد ورقاتها (١٩٤) ورقة، ومسطرتها (١٩) سطراً، وقد رمزتُ لها بالحرف (ف).

منهج التحقيق:

قمت أولاً بنسخ الكتاب بكامله عن نسخة الأصل، ثم قمت بمقابلة المنسوخ على الأصل، ثم على الموجود من النسخة (ظ) والنسخة (ف) وأثبت فوارق النسخ المهمة في الحاشية، وقد صَبَبتُ جُلَّ اهتمامي على إخراج نص الكتاب بشكلٍ

سليم، خالٍ من التصحيف والتحريف، وخاصةً في القسم الذي اعتمدت فيه على نسخة الأصل فقط، حيث كانت ترد كلمةً مطموسة أو محرَّفة أو مصحَّفَة، فكنت أعود إلى الإحياء أو إلى المختصر أو إلى المصادر التي نقل عنها المصنف لتكميل النقص وتصحيح الخطأ، ثم قمت بضبط النَّص وترقيمه وتفصيله، وتخريج الآيات والأحاديث، ثم التعريف ببعض الأعلام والأماكن والفِرق باختصار خشية الإطالة، وشرح الكلمات الغريبة والمصطلحات الواردة، وذلك بالرجوع إلى كتب اللغة وكتاب «إتحاف المتَّقين بشرح إحياء علوم الدين» للزَّبيدي.

ولا بد لي من أن أشكر زوجتي (منى محمد زياد خراط) التي ساعدتني في مقابة النسخ الخطية كلها، وفي استخراج الكثير من النصوص من مصادرها والتأكد من صحتها، وغير ذلك، مما قَرَّبَ لي الغاية وأدنى لي الهدف في تحقيق هذا الكتاب العظيم، فجزاها الله عني خير الجزاء، ووفقها لكل خير.

وأسأله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يعم بنفعه المسلمين، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

كامل محمد الخراط

دمشق

١٧/ محرم ١٤٢٨ هـ

٤/ ٢/ ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم ۞ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ۞

الحمد لله منبه الراقدين في غفلاتهم بمزعجات الإيقاظ ۞ ومنزه التائبين من هفواتهم بملاطفات
الوعاظ ۞ ومحدث العارفين في خلواتهم لا بالكلمات والألفاظ ۞ ومحذر الزاهدين شرب شهواتهم
حتى قدموا على الظما يسير اللماظ ۞ وغضوا عن غض المشتهى أبصار المنى وانتهوا تقوا من اللحاظ ۞ وقاموا
إلى محاربة الهوى قيام الليث العبوس الحرب المغتاظ ۞ وحفظوا ما استحفظوا وإنما الحفظ للحفاظ
أحمده حمدًا كثيرًا فائت العد دائم الالتظاظ ۞ وأصلي على نبيه الذي أعجز الفصحاء بما جاء به ففني
قس يوم عكاظ ۞ وعلى أصحابه أهل اليقين والتقى والاستيقاظ ۞ وعلى أزواجه المبرآت من قول
كل جعظري جواظ ۞ صلاة أتقي بها يوم البعث حر لظى وشواظ ۞ نار وقودها الناس والحجارة
عليها ملائكة غلاظ أما بعد فإني رأيتك أيها المريد الصادق الحازم العازم قد وطنت نفسك
على التخلي عن فضول الدنيا الشاغلة وصممت على الانقطاع إلى الآخرة علمًا منك أن مخالطة الخلق توجب
التخليط وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط وأن العمر إن لم يستدرك أدركه الفوت وأن مراحل
الأنفاس تسرع بالراكب إلى منزل الموت فنظرت أي أنيس من الكتب تستصحبه في خلوتك وتستنطقه في حال
صمتك فإذا أنت قد آثرت كتاب إحياء علوم الدين وعلمت انفراده عن جنسه ونفاسته في نفسه فأخبرتك أن العلم
مستند العمل والمستند ينبغي أن يكون وثيقًا وفي كتاب الإحياء آفات لا يعلمها إلا العلماء وأقلها الأحاديث
الباطلة الموضوعة والموقوفة وقد جعلها مرفوعة وإنما نقلها كما اقترفها لا أنه افتراها فلا ينبغي التعبد
بحديث موضوع ولا اغترار بلفظ مصنوع وكيف أرتضي لك أن تصلي صلوات الأيام ولياليها التي ذكرها
عن الرسول وسطرها وليس فيها كلمة قالها رسول الله ولا ذكرها وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام
المتصوفة الذي جمعه وندب إلى العمل به ما لا حاصل له ولا عند الشريعة منه خبر وكم شرعة ابتدعها
القوم مثل الكلام في الفناء والبقاء والأمر بشدة الجوع والتقلل الخارج عن المعهود والخروج إلى السياحة
لا في حاجة ودخول الفلاة بغير زاد إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره في كتابي المسمى بتلبيس إبليس فملت
لي القول وحثثتني من هذا الكتاب بعد أني فعلت أنا أردت لك ما أردت لنفسي وسأكتبه لك في كتاب لا يخل

الصفحة الأولى من نسخة الأصل

عندنا حسنة فيبهت الرجل فيقول لا يا رب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم
فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقول
فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة
والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء اسم الله وكان الفضيل
بن عياض يقول ما من ليلة اختلط ظلامها إلا نادى الجليل جل جلاله من أعظم مني جوداً
الخلائق لي عاصون وأنا أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا
بأتفضل على العاصي وأتفضل على المسيء من ذا الذي دعاني فلم ألبه أو من ذا الذي سألني فلم
أعطه أنا الجواد ومني الجود أنا الكريم ومني الكرم فأين عصى بي هرب الخلق وأين عن بابي يتنحى العاصون
ونظر الفضيل إلى تسبيح الناس وبكائهم يوم عرفة فقال أرأيتم لو أن هؤلاء صاروا إلى رجل
فسألوه دانقاً أكان يردهم قيل لا فقال والله للمغفرة عند الله عز وجل أهون من إجابة
رجل لهم بدانق أنا ابن بشران عن أبي القاسم بن البسري عن أبي عبد الله بن بطة قال أنا أبو بكر بن
المطيري قال حدثني عبد الله بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن حنان الحمصي قال أنا بقية بن الوليد
عن إبراهيم بن أدهم قال خلا لي الطواف في ليلة مظلمة شديدة المطر فلم أزل أطوف إلى السحر
الأعلى ثم رفعت يدي إلى السماء فقلت اللهم إني أسألك أن تعصمني عن جميع ما تكره فإذا
قائل يقول من الهواء أنت تسألني العصمة وكل خلقي تسألني العصمة فإذا عصمتكم فعلى من أتكرم
فهذه الأحاديث مع ما ذكرناه في كتاب الرجاء تبشرنا بسعة رحمة الله تعالى وجوده ونحن
نرجو من الله عز وجل أن لا يعاملنا بما نستحقه وأن يتفضل علينا بما هو أهله ونحن
نستغفر الله عز وجل من أقوالنا التي تخالف أعمالنا ومن كل تصنع تزيناً به للناس
كل كتاب ألفناه أو علم أفدناه ومن كل علم وعمل قصدناه به ثم خالطه ما يكدره ونحن
نستشفع إلى كرمه وبجوده نسأل من جوده إنه قريب مجيب تم الكتاب ولله الحمد
والمنة ونسأل الله عز وجل أن ينفعنا به والمسلمين أجمعين ممن قرأه ونفع
به فيدعو لمؤلفه بالعفو فرب دعاء لا يرد وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى
وآله وصحبه وسلم وقد وقع الفراغ من كتابة هذه النسخة الشريفة
على يد الفقير الحقير أحمد بن عمر الشهير بحافظ كلام الله القديم
في شهر ربيع الأول سنة هجرة من له العز والشرف
سنة تسع وثمانين وألف راجياً من
الله تعالى لطفه الخفي والجلي



الصفحة الأخيرة من نسخة الأصل

صفحة الغلافة من نسخة الظاهرية

ق ١٣

العادة احوال غريبة في الشخص المسحور بهذه الاسباب من حيث انها معرفة فليست مذمومة
ولكنها ليست تصلح الا للاضرار بالخلق والوسيلة الى الشر شر فلذلك وقع الذم ه م
الثاني ان يكون مضرا بصاحبه في غالب الامر كعلم النجوم فانه قسمان احدهما
حسابي والثاني الاحكام فيرجع الى انهم يستدلون على الحوادث بالاسباب وهذا ممنوع منه في
الشرع لثلثة اوجه احدها انه اذا القي الى الناس ان هذه الاثار تحدث عقيب سير الكواكب وقع في
انفسهم ان الكواكب هي المؤثرة والمدبرة معظم وقعها في القلوب فالتفت اليها وزال الخير من جوانحها
والشر محذور من جهتها فيمحى حينئذ ذكر الله تعالى عن القلب ما سير الخلق لا نظر في نظرهم بل يقف
على الاسباب القريبة الثاني ان احكام النجوم تخمين محض فالحكم به حكم بجهل وانما تقع
الاصابة اتفاقا في بعض الاحوال والثالث انه خوض في فضول لا يغني وتضييع العمر النفيس
بغير فائدة واما السبب الثالث في ذم بعض العلوم فهو الخوض في علم لا يستقل الخائض
فيه بعلم دقيق العلوم قبل جليلها والبحث عن اسرار الالهية فان الفلاسفة
والمتكلمين تطلعوا الى ذلك ولم يستقلوا به فيجب كف الناس عن البحث عن ذلك م
وردهم الى ما نطق به الشرع ففيه مقنع فكم من خاض في ذلك فاستضر وقد يضر العلم
بعض الناس كما يضر اللحم الطفل وليقتصر على اتباع السنة وليحذر من البحث عما
لا يؤمن عاقبة البحث فيه واعلم ان الانبياء كالاطباء وهم اعرف بالدواء ورب شاك
الى الطبيب من ضربة في اليمنى وصف له ان يعالج اليد الاخرى فاستبعد ذلك لجهله بانشعاب
الاعصاب ومنابتها فكذلك امور العقائد والاخرة فيها لطائف ليس في قوة العقل الاحاطة
بها كما ان في خواص الاحجار امورا خفي علمها عن ارباب الصناعة حتى انه لم يعرف احد
منهم السبب الذي يجذب المغناطيس الحديد فليستفد من منفعة العقل ان يدل على
صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ويفهم موارد اشاراته ثم يعزله عن النظر ويلزم الاتباع
لتسلم

بيان ما بدل من الفاظ العلوم

اعلم ان منشا التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الاسامي المحمودة وتبديلها
ونقلها بالاغراض الفاسدة الى معان لم يردها السلف الصالح وهي خمسة الفاظ
الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة اما الفقه فانهم تصرفوا
فيه بالتخصيص لا بالنقل فخصصوه بمعرفة الفروع وعللها ولقد كان اسم الفقه في العصر

بداية نسخة الظاهرية

[illegible]

السخي وإن الله آخذ بيده كلما عثر. وروي عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال السخي

الأسخياء وما جبل ولي لله عز وجل إلا على السخاء والسخي قريب من الله بعيد من النار قريب من

الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار والجاهل السخي أحب إلى الله من

العابد البخيل. وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخياً

أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة والشح شجرة في النار فمن كان شحيحاً

أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار. وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم

قال إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا بصيام ولكن دخلوها بسخاء الأنفس وسلامة

الصدور والنصح للمسلمين. وروى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن أحب عباد الله عز وجل

إلى الله من حبب إليه المعروف وحبب إليه فعاله وفعل المعروف يقي مصارع السوء وإن الله عز وجل

جعل للمعروف وجوهاً من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب

المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى البلدة الجدبة فيحييها ويحيي بها أهلها

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عليكم باصطناع المعروف فإنه يمنع مصارع

السوء. وروى عنه حذيفة أنه قال كل معروف صدقة. وروى عنه ابن عمر أنه قال إن لله عز وجل

قوماً يختصهم بالنعم لمنافع العباد ويقرها فيهم ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى

غيرهم. وقال ابن السماك عجبت لمن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه

آخر الجزء الأول من كتاب منهاج القاصدين

يتلوه في الثاني إن شاء الله تعالى حكايات عن الأسخياء

واتفق الفراغ منه يوم الثلاثاء تاسع عشر من جمادى الأولى سنة

اثنتي وتسعين وخمسمائة وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين

كتبه محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن الحسين الخراساني عفا الله عنه

ولوالديه ولجميع المسلمين

وحسبنا الله ونعم الوكيل

وقف

الصفحة الأخيرة من نسخة الظاهرية

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن

كتاب ذم الجاه والريا

الحمد لله المطلع على سرائر القلوب المتجاوز عن كبائر الذنوب العالم بكوامن الغيوب البصير ببواطن العيوب لا يعزب عنه ما يعرض في السر ويثوب ولا خالص المقصود من الطلب المشوب كل عمل لا يراد به وجهه يضمحل ويذوب وكل طاعة يتزين بها لخلقه أثره محجوب أحمده حمد معترف بأنه مربوب وأصلي على رسوله محمد أشرف مولود وخير منسوب وعلى أصحابه وأتباعه ما اختلف الشمال والجنوب وأسلم تسليماً كثيراً أما بعد فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن أخوف ما أخاف على أمتي الريا والشهوة الخفية والريا من الشهوة الخفية وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلما فضلاً عن عامة العباد والأتقيا وهي من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها وإنما يبتلى بها العلما والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فإنهم لما قهروا نفوسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات لم يطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح واستراحت إلى التظاهر بالعلم والعمل ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم فتوصلوا إلى اطلاع الخلق ولم يقنعوا باطلاع الخالق وفرحوا بحمد الناس ولم يقنعوا بحمد الله وحده وعلموا أن الناس إذا عرفوا منهم ترك الشهوات وتحمل العبادات بالغوا في مدحهم واحترامهم وتبركوا بمشاهدتهم ولقائهم ودعائهم وسامحوهم في المعاملات وتواضعوا

الصفحة الأولى من نسخة برنستون

الادب من يدي المنعم شكر وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام
صغيرها فيما يندرج من الاعمال والاحوال تحت اسم الشكر والصبر لا
ينحصر وهي درجات مختلفة فكيف يمكن احتمال القول بتفضيل
احدهما على الاخر الاعلى سبيل ارادة الخصوص باللفظ العام قال
بعض السلف رايت في سفري شيخا كبيرا قد طعن في السن فسالته
عن حاله فقال اني كنت في ابتدا عمري اهوى ابنة عم لي وكانت تهواني
تزوجتها فقلت لها الليلة زفافها تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكرا
لله على جمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ احدنا لصاحبه فلما
كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فمنذ سبعين
او ثمانين نحن على تلك الحالة كل ليلة اليس كذلك يا فلانه فقالت العجوز
هو كما قال الشيخ فانظر الى هاذين لو صبرا على بلا الفرقة ان لو
لم يجمع الله بينهما وانسب صبر الفرقة الى شكر الوصال على هذا
الوجه فلا يخفى عليك ان هذا الشكر افضل فاذا لا وقوف على حقائق
المفاضلات لا بتفصيل كما سبق والله اعلم اخر كتاب الصبر والشكر
وهو اخر الجز الثالث من كتاب منهاج القاصدين من اصل
المصنف وخطه ويليه كتاب الرجا والخوف والحمد لله رب العالمين
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الصفحة الأخيرة من نسخة برنستون

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في مكتبتنا الإسلامية كتبٌ عديدة يعتزُّ بها المسلمون، ويفخرون أنهم قدموا للإنسانية أنواعاً من المعارف تميَّزوا بها عن سائر الأمم، وذلك ككتاب «الرسالة» للإمام الشافعي، في علم الأصول، وكتاب «الموافقات» للإمام الشاطبي في مقاصد الشريعة، و «مقدمة» ابن خلدون في علم الاجتماع، وغير ذلك من المؤلفات في سائر المجالات.

ومن هذه الكتب التي تُشكل معالم هامة في تاريخ العلوم الإنسانية كتابُ «إحياء علوم الدين» للإمام المجدِّد حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى، هذا الكتاب الذي يعدُّ من أعظم الكتب في مجال تزكية النفوس وتهذيبها، من خلال كشفِ أمراضها وعللها، ووصفِ أدويتها وسُبُل علاجها، فقد سلط الغزاليُّ فيه الضوء على أعماق النفس الإنسانية، وما يُلمُّ بها من أمراض، وما يعشِّشُ فيها من آفات، وما يطوف بها من خواطر، وما يعصِفُ بها من وساوس، وما يعتريها من المهلكات، ويذكر بتفصيلٍ دقيق كيف تتسربُ هذه الأخطار إلى منحنيات النفس،

وكيف تستقرُّ فيها وتتمكن منها، وما تُحدث فيها من خلل واضطراب، وما يتبع ذلك من اختلال في السلوك الشخصي، وفي الحياة الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية، ثم يذكر الغزاليُّ بعد ذلك السبيلَ إلى معالجة هاتيك الآفات، والطريقَ إلى اجتثاثها واستئصالها، ويصفُ الدواء الناجع للتخلُّص منها ومحوِ آثارها السيئة، ويفصِّلُ القول في المُنجيات من تلك المهلكات، لترقى نفسُ المؤمن إلى مقام النفس المطمئنة ويغدو قلبه ذلك القلب السليم النقي الصالح، وإذا صلح قلبُ المرء صلح جسدُه كله، وصلحت حياتهُ كلها، وصفَتْ صلتُه بخالقه سبحانه وتعالى، وصار قلبهُ مرآةً صافيةً للأنوار الإلهية، ومهبطاً للنفحات الربانية، ويغدو إنساناً حراً قد انعتق من كل ما يعكر عليه صفو حياته، ويُضيقُ عليه سعةَ صدره ورحابةَ عيشه، وانفتحت له أبواب السعادة الحقة والحياة الحقة، ويوم القيامة يتبوأ الدرجات العلى، ويتقلبُ في النعيم المقيم، ذلك لأن صلاح القلب وتزكية النفس هما سبيلُ نجاة المرء يوم القيامة، كما أشار إليه ربنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

وقد كان كتابُ «الإحياء» موضعَ تقدير العلماء والباحثين وإعجابهم، ومحلَّ عنايتهم واهتمامهم، فمن شارحٍ له، أو مختصر، أو مخرجٍ لأحاديثه، وكان من بين هؤلاء المُعجبين به الإمامُ الحافظ المفسر شيخُ الإسلام أبو الفرج ابن الجوزي، وقد لمسَ أهميةَ الكتاب، ورأى إقبالَ المريدين على قراءته، وعكوفَهم على مطالعته، غير أنه أخَذَ عليه ما أودعه الإمام الغزالي فيه من أحاديث لا تثبت، أو روايات لا أصل لها،

وذلك لعدم اشتغاله بعلوم الحديث، وما أورده فيه من حكايات غريبة، ذُكر فيها ما جرى لبعض الصالحين من أحوال خاصة، وما أتوه من مجاهدات ورياضات غالَوا فيها، فنأت بهم عن حد الاعتدال الشرعي، ومن ثَمَّ لم تعد صالحة لأن تذكر في مقام القدوة، إذ فيها مجافاةٌ لهَدْي النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيهه لمريدي الآخرة أن يُوغلوا في الدين برفق، وأن يأخذوا من الأعمال ما يطيقون، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «والقَصْدَ القَصْدَ تبلغوا».

وإدراكاً من ابن الجوزي لأهمية كتاب «الإحياء» وإشفاقاً منه على محبيه أن يأخذوا بكل ما فيه، عكف على الكتاب يُهذِّبه ويُنَقِّيه مما يَزيغُ بقارئه عن القصد، أو يُجاوز به الحد، وسمى تأليفه هذا «منهاج القاصدين»، للإشارة إلى أنه التزم فيه القصد النبوي، والمنهج الوسطي، وأبان في مقدمته للكتاب ما الذي حدا به إلى هذا العمل ودفعه إلى هذا التأليف، وذكر ما الذي حذفه منه، وما الذي زاده فيه، مع تعليل ذلك كله، وإن فاتته أشياء لم يتنبه لها أو لم ينبه عليها[1].

وقد بقي هذا الكتابُ «منهاج القاصدين» إلى زماننا هذا بعيداً عن أعين الباحثين، محجوباً في تضاعيف ما تركه علماؤنا من تراثهم العظيم، إلى أن يسَّر اللهُ تعالى العُثور على نُسخ خطية منه، وُضعت بين يدي الأستاذ كامل الخراط، وهو الذي عمل في مجال تحقيق التراث مدة طويلة من الزمن، وكانت لديه رغبة قوية في تحقيق الكتاب، فقام بتحقيقه، بغية إصداره ووضعه بين أيدي الناس، لينتفعوا مما فيه من علم بديع، وأدب رفيع.

---

(١) وقد نبه على بعض ما فات الإمام ابن الجوزي محققُ الكتاب في مقدمته له.

واتَّبعَ الأستاذ كامل في إخراجه بهذه الحلَّة القشيبة ما اصطلح عليه الباحثون في منهج تحقيق المخطوطات من توثيق النص وضبطه، وشرحِ غريبه، والتعريف بالأعلام الواردة فيه، وعزو ما فيه من الآيات الكريمة إلى موضعها من كتاب الله عز وجل، وتخريج ما فيه من الأحاديث الشريفة، إلى غير ذلك مما هو معروف عند أهل الصنعة، وبذل في ذلك جهداً طيباً مشكوراً، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، ونفع الأمة بهذا الكتاب، ورجعها إلى جادَّة الحق والصواب.

اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزَكِّها أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها

وكتبه

محمد نعيم عرقسوسي

دمشق ٢٣/ ذي الحجة/ ١٤٣٠هـ

١٠/ ١٢/ ٢٠٠٩م



وما توفيقي إِلَّا بالله عليه تَوكَّلتُ وإِليهِ أُنيبُ

الحمدُ للهِ مُنَبِّهِ الراقدينَ في غَفلاتِهم بمُزْعجاتِ الإيقاظِ، ومُنَزِّهِ التائبينَ من هَفواتِهم بملاطفاتِ الوُعَّاظِ، ومُحدِّثِ العارفينَ في خَلواتِهم لا بالكلماتِ والألفاظِ، ومُحذِّرِ الزاهدينَ شَوبَ(١) شَهواتِهم حتى قَذَفُوا على الظَّلماءِ يَسيرَ اللُّماظِ(٢)، وغَضُّوا عن غَضِّ المُشتهى أبصارَ المُنى، واستوثَقوا من اللِّحاظِ(٣)، وقاموا إلى مُحاربةِ الهَوى قيامَ اللَّيثِ العَبوسِ الحَربِ(٤) المُغتاظِ، وحَفِظوا ما استُحفِظوا فَحُفِظوا، وإنَّما الحِفظُ للحُفَّاظِ.

أحمَدُه حمداً كثيراً فائتَ العددِ، دائمَ الإِلْظاظِ(٥)، وأُصلي وأُسلِّمُ على نَبيِّه محمدٍ، الذي أعجزَ الفُصحاءَ بما جاء به، فَنُسِيَ قُسٌّ(٦) يومَ عُكاظٍ(٧)، وعلى

---

(١) الشَّوب: الخلط، والشوبة: الخديعة. القاموس (شوب).

(٢) اللُّماظ: جمع لُمْظة، وهي النكتة من البياض.

(٣) اللِّحاظ: مُؤخِر العين، والجمع لُحُظ.

(٤) يقال: رجل حَرْبٌ، أي: شديد الحرب شجاع.

(٥) الإلظاظ: لزوم الشيء والمثابرة عليه، والفعل: أَلَظَّ، أي: لازمَ ودام، وفي الحديث: «أَلِظّوا بياذا الجلال والإكرام».

(٦) هو قُسُّ بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب وحكيمهم، مُعمَّر من أهل الفترة. أدركه رسول الله ﷺ قبل البعثة. توفي نحو سنة ١٠ قبل البعثة. الإصابة ٥/ ١، والأعلام ٥/ ١٩٦.

(٧) عكاظ: سوق بين نخلة والطائف، كانت تقوم هلال ذي القَعدة، وتستمر عشرين يوماً، تجتمع فيها قبائل العرب، فيتعاكَظون، أي: يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر. اللسان (عكظ).

آله[١] وأصحابه أهلِ اليقينِ والتُّقى والاستيقاظِ، وعلى أزواجِه المبرَّآتِ من قولِ كُلِّ جَعْظَرِيٍّ[٢] جَوَّاظٍ[٣]، صلاةً أَتَّقي بها يومَ البعثِ حَرَّ لظىً وشُوَاظَ[٤] نارٍ وَقُودُها الناسُ والحجارةُ عليها ملائكةٌ غلاظٌ.

أما بعدُ:

فإنِّي رأيتُكَ أيُّها المريدُ الصادقُ، الحازمُ العازمُ، قد وطَّنتَ نَفْسَكَ على التَّخَلِّي عن فُضولِ الدنيا الشاغلةِ، وصمَّمتَ على الانقطاعِ إلى الآخرةِ، عِلماً منك أن مخالطةَ الخلقِ توجبُ التخليطَ، وإهمالَ المحاسبةِ للنفسِ أصلُ التَّفريطِ، وأنَّ العمرَ إن لم يُستدرَكْ أَدركَهُ[٥] الفَوتُ، وأنَّ مراحلَ الأنفاسِ تُسرِعُ بالراكبِ إلى منزلِ الموتِ.

فنظرتُ، أيَّ أنيسٍ من الكتبِ تستصحبُهُ في خلوتِكَ؟ وتَسْتَنْطِقُهُ في حالِ صمتِكَ؟ فإذا أنتَ تُؤْثِرُ كتابَ «إحياءِ علومِ الدينِ»[٦]، وتَعْلَمُ انفرادَه عن جِنْسِهِ، ونفاستَه في نفسِه، فأَخبرتُك أَنَّ العِلمَ مُسْتَنَدُ العملِ، والمُسْتَنَدُ ينبغي أن يكونَ وثيقاً.

وفي كتابِ (الإحياءِ) آفاتٌ لا يعلمُها إلا العلماءُ، وأَقلُّها الأحاديثُ الباطلةُ الموضوعةُ، والموقوفةُ، وقد جعلَها مرفوعةً[٧]، وإنَّما نَقلَها كما اقْتراها[٨]، لا أَنَّه افْتَراها. فلا ينبغي التعبدُ بحديثٍ موضوعٍ، ولا اغترارٌ بلفظٍ مصنوعٍ.

---

(١) سقطت من الأصل، واستُدركت من المختصر.

(٢) الجعظري: الفظ الغليظ، المتكبر الجافي عن الموعظة، البَطِر الكفور. اللسان (جعظ).

(٣) الجوّاظ: الضخم الغليظ، المتكبر المختال، الكثير الكلام والجلبة في الشر، الفاجر الشرير الضَّجر البَطر. اللسان (جوظ).

(٤) الشُّواظ: لهبٌ لا دُخان فيه. اللسان (شوظ).

(٥) في الأصل: «أدرك»، والمثبت من «المختصر».

(٦) هو تأليف العلامة حجة الإسلام، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، وكتابه (الإحياء) أصل هذا الكتاب الذي بين أيدينا، كما هو مبينٌ في المقدمة.

(٧) الحديث الموقوف هو: ما روي عن الصحابة رضي الله عنهم من أقوالهم أو أفعالهم، والحديث المرفوع هو: ما أضيف إلى رسول الله ﷺ. (إرشاد طلاب الحقائق) ص٧٥.

(٨) اقتراها: أي نقلها قراءةً كما رويت.

وكيفَ أَرتَضي لكَ أن تُصلّيَ صلواتَ الأيّامِ ولياليها، التي حكاها عن الرسول ﷺ وسَطَّرها، وليسَ فيها كلمةٌ قالَها رسولُ الله ﷺ ولا ذَكَرها؟

وكيف أُوثرُ أن يَطرُقَ سمعَكَ من كلامِ المتصوِّفةِ، الذي جمعَه، ونَدبَ إلى العملِ به ما لا حاصِلَ لَهُ، ولا عندَ الشريعةِ منه خبرٌ؟ وكأنَّه شريعةٌ ابتداها القومُ، مِثلَ الكلامِ في الفَناءِ والبقاءِ، والأمرِ بشدَّةِ الجوعِ، والتقلُّلِ الخارجِ عن المعهودِ، والخروجِ إلى السِّياحةِ لا في حاجةٍ، ودخولِ الفلاةِ بغيرِ زادٍ، إلى غيرِ ذلك مِمَّا قد كَشَفتُ عن عُوارِه(١) في كتابيَ المسمّى بـ «تَلْبيس إبْليس»(٢).

فقلتَ لي: قد أَوحشتني من هذا الكتابِ(٣) بعد أُنْسي. فقلتُ: إنَّما أردتُّ لك ما أردتُّ لنفسي، وسأكتُبُه لك في كتابٍ لا يُخِلُّ بفوائدِه، ويَخلو عن مَفاسدِه، أعتمدُ فيه من المنْقولِ الأصحَّ والأشهرَ، ومنَ المعنى الأثبتَ والأَجوَدَ، وأَحذِفُ ما يَصلُحُ حَذفُه، وأَزيدُ ما يَصلُحُ أن يُزادَ، ولا أُطيلُ بما لا طائلَ فيه، شُحّاً عليكَ وعلى أمثالِكَ، أن يَتشاغلوا بفاسدٍ، ويحملوا في مفاوزِ(٤) المخاطرةِ المتاعَ الكاسدَ، وقد جاء في الأخبارِ الصحيحةِ: «الدينُ النصيحةُ»(٥).

فصل
[في المحذوف من كتاب الإحياء]

ورُبَّما رَأَيتَني أُقصِّر في بعضِ الأبوابِ والفصولِ، وأَحذِفُ كثيراً منَ الأخبارَ

---

(١) العُوارُ: بضم العين وفتحها: العيبْ. القاموس واللسان: (عور).

(٢) كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي، طبعاته كثيرة، منها نشر المكتب الثقافي، وأخرى نشر المكتب الإسلامي. ينظر «مؤلفات ابن الجوزي»: ص١١٢.

(٣) يعني: كتاب «إحياء علوم الدين».

(٤) المفاوز: جمع مفازة، وهي: المَنجاة والمهلكة، والفلاة لا ماء بها، وهي من الأضداد، القاموس واللسان: (فوز).

(٥) أخرجه مسلم (٥٥) (٩٦)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي في المجتبى ٧/ ١٥٦ـ ٧ وأحمد (١٦٩٤٠)، وعلقه البخاري في صحيحه كما في الفتح ١/ ١٣٧. من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

والآثارِ، فلا تَظُنَّنَّ ذلك مِنِّي سَهواً، بل عمداً؛ لأَنِّي لم أَترُكْ ذلكَ إلَّا لآفةٍ في المتروكِ، فَرُبَّما كانتِ الأحاديثُ لا تثبتُ، والآثارُ لا تَصحُّ، ورُبَّما قَلَّتْ فائدتُها، ورُبَّما تكونُ قد سَبقَتْ، فاعرفْ ذلك.

فصل
[في تصنيف كتابٍ بأَغلاط الإحياء]

ولمَّا خِفتُ أَنْ تَتوقَ[١] إلى ذلك الكتابِ لمكانِ أُلْفِك له، أفردتُ في كتابٍ[٢] ذِكْرَ عُيونِ عُيوبه، وأورَدْتُ هُنالِكَ بعضَ زَلَّاته، لِتَعْلم عِلَّةَ نَهيي، وتكتفي عن ثَمْدِهِ[٣] بِنِهْيي[٤] وإنَّما لم أَذكرْ أَغلاطَه ها هنا لِئلَّا يتكدَّرَ قلبٌ قد شَرَعنا في تَصْفِيَتِه، أَوْ يتأذَّى بالتَّخليطِ سقيمٌ قد رَأينا أَوَّلَ عافِيَتِه.

فصل
[في ذكرِ السببِ الباعثِ على حذفِ أكثرِ الأسانيدِ]

وقد كنتُ أُوثِرُ أن لا أذكرَ منقولاً إلا بإسناده، غيرَ أَنِّي رأيتُ الإطالةَ سبباً للمللِ، فحذفتُ أكثرَ الأسانيد، ولم أَرَ حذفَ الكُلِّ، لأَنَّ الإسنادَ أقوى للأَسناد.

فصل
[في بيان أهمية العلم لإصلاحِ النفس والتحذيرِ من أهلِ الأهواء]

وإذْ قد صحَّ عزمُكَ على العُزلَةِ لاستيفاءِ حقِّ الحقِّ منَ النفس، والأخذِ على يدِها، فليكُن وكيلُكَ عليها العلم، وكن باحثاً عن دَفائنِ هواها لعلك تَسلَم، واحذر

---

(١) تاق إليه توقاً، أي: اشتاق. القاموس واللسان (تاق).

(٢) يريد المصنف كتابَهُ: «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»، ذكره حاجي خليفة في «كَشف الظنون» ١/ ٢٤، وإسماعيل البغدادي في «هَدية العارفين» ٥/ ٥٢١، وابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة» ١/ ٤١٦ـ ٤٢١، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي» ص٩٤.

(٣) الثَّمْدُ: الماءُ القليل، لا مادّةَ له. القاموس واللسان: (ثمد).

(٤) النِّهيُ: بكسر النون وفتحها: الغَدير. القاموس واللسان: (نَهى).

سبيلَ أحدِ رَجُلينِ: عالمٍ عَرَفَ الجدالَ في الفقهِ، فاقتنعَ برئاستِه، أو نالَ القضاءَ فسعى في حفظِ منزلتِه، أو زَخرَفَ المواعظَ فَضَيَّقَ أعيُنَ شبكتِه. أو زاهدٍ يَتقلبُ برأيه الفاسدِ في جَهالتِه، ويُتقربُ بتقبيلِ يدِه واعتادِ بركتِه، ويُعملُ بهواهُ دونَ شرعِ اللهِ وسُنَّتِه، فهذانِ عادلانِ عن[1] منهجِ الصوابِ، مقتنعانِ بقشورِ الأعمالِ عن خالصِ اللُّبابِ، خادعانِ للمبتدئينَ بلامعِ السَّرابِ، وطريقُهما بمعزلٍ عن سَنَنِ[2] السَّلفِ الصالحِ، الذي هو جادَّةُ الاستقامةِ، ولَقَمُ[3] السلامةِ، وسأُدرجُ لكَ في هذا الكتابِ ـ إن شاءَ اللهُ ـ مِنْ أخبارِهم[4]، ما يَدُلُّكَ على آثارِهم.

وكتابُنا هذا يحتاجُ إليه المُنتهي، كما يَفتقرُ إليه المُبتدي، لأنَّ فيه أسرارَ العباداتِ، والتحذيرَ[5] من آفاتِ المعاملاتِ، وقد أتيتُكَ به على ترتيبِ كتابِ الإحياءِ، لعلمي بإيثارِكَ ذلكَ الترتيبَ، وما تَوفيقي إلَّا باللهِ عليهِ تَوَكَّلتُ وإليهِ أُنيبُ.

[6]وسميتُ كتابي هذا: «منهاجَ القاصدين ومُفيدَ الصادقين»، وأسألُ اللهَ سبحانه وتعالى أن ينفعَنا به، ومن قرأه، أو سمعَه، أو نظرَ فيه، وأن يجعلَه خالصاً لوجهه الكريمِ، وأن يختمَ لنا بخيرٍ، ويوفقَنا لما يُرضيهِ منَ القولِ والعملِ والنيّةِ، وأن يُسامحَنَا في تقصيرِنا وتفريطِنا، ولا يَكِلَنا إلى أَنفُسِنا طرفةَ عينٍ، ولا إلى أحدٍ من خلقِه، فإنَّه حَسْبُنَا ونِعْمَ الوكيلُ[6].

---

(١) في الأصل: «على»، والمثبت من المختصر.
(٢) السَّنَن: المنهج والطريقة. القاموس واللسان: (سنن).
(٣) اللَّقَمُ: معظم الطريق ووسطه ومَتنه. القاموس واللسان: (لقم).
(٤) في الأصل: «آثارهم»، والمثبت من المختصر.
(٥) في الأصل: «يحذر»، والمثبت من المختصر.
(٦ـ٦) سقط من الأصل، وأثبت من المختصر.

بابُ بيانِ وضعِ الكتابِ

هذا الكتابُ مقسومٌ أربعةَ أرباعٍ:

الأولُ: رُبعُ العباداتِ، **والثاني**: رُبعُ العاداتِ، **والثالثُ**: رُبعُ المُهلكاتِ، **والرابعُ**: رُبعُ المنجياتِ.

فأمّا **رُبعُ العباداتِ**، فيشْتَمِلُ على عَشَرةِ كُتبٍ:

١ـ كتابُ العلم. ٢ـ كتابُ قواعدِ العقائدِ. ٣ـ كتابُ أسرارِ الطهارةِ. ٤ـ كتابُ أسرارِ الصلاةِ. ٥ـ كتابُ أسرارِ الزكاةِ. ٦ـ كتابُ أسرارِ الصومِ. ٧ـ كتابُ أسرارِ الحجِّ. ٨ـ كتابُ تلاوةِ القرآنِ. ٩ـ كتابُ الأذكارِ والدعواتِ. ١٠ـ كتابُ الأورادِ في الأوقاتِ.

وأما **رُبعُ العاداتِ**، فيشتَمِلُ على عَشَرةِ كتبٍ:

١ـ كتابُ آدابِ الأكلِ. ٢ـ كتابُ آدابِ النكاحِ. ٣ـ كتابُ أحكامِ الكَسبِ. ٤ـ كتابُ الحلالِ والحرامِ. ٥ـ كتابُ آدابِ الصحبةِ والمعاشرةِ معَ الخلقِ. ٦ـ كتابُ العُزلةِ. ٧ـ كتابُ آدابِ السفرِ. ٨ـ كتابُ السَّماعِ والوَجْدِ. ٩ـ كتابُ الأمرِ بالمعروفِ. ١٠ـ كتابُ آدابِ المعيشةِ وأخلاقِ النبوَّة.

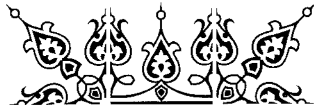
وأما **رُبعُ المهلكاتِ**، فيشتَمِلُ على عَشَرةِ كتبٍ:

١ـ كتابُ سِرِّ عجائبِ القلبِ. ٢ـ كتابُ رياضةِ النفسِ. ٣ـ كتابُ آفةِ الشَّهوتينِ، البطنِ والفَرجِ. ٤ـ كتابُ آفاتِ اللِّسانِ. ٥ـ كتابُ آفةِ الغضبِ والحقدِ والحسدِ. ٦ـ كتابُ ذَمِّ الدنيا. ٧ـ كتابُ ذَمِّ المالِ والبُخلِ. ٨ـ كتابُ ذَمِّ الجاهِ والرِّيَاء. ٩ـ كتابُ ذَمِّ الكبرِ والعُجْبِ. ١٠ـ كتابُ الغُرورِ.

وأما **رُبعُ المنجياتِ**، فيشتَمِلُ على عَشَرةِ كتبٍ:

١ـ كتابُ التوبةِ. ٢ـ كتابُ الصبرِ والشُّكرِ. ٣ـ كتابُ الخوفِ والرجاءِ. ٤ـ كتابُ الفقرِ والزُّهدِ. ٥ـ كتابُ التوحيدِ والتوكُّلِ. ٦ـ كتابُ المحبَّةِ والشوقِ والرضا. ٧ـ كتابُ النيَّةِ والصدقِ والإخلاصِ. ٨ـ كتابُ المراقبةِ والمحاسبةِ. ٩ـ كتابُ التفكُّرِ. ١٠ـ كتابُ ذكرِ الموتِ.

فنذكُرُ في كُلِّ كتابٍ خَفايا آدابِهِ، ودقائقَ سُنَنِهِ، وأسرارَ معانيه، والله الموفِّقُ.





ربع العبادات

كتابُ العلمِ

وفيه سبعةُ أبوابٍ:

البابُ الأول

في فضيلة العلم والتَّعَلُّمِ والتعليم

فضيلةُ العلم:

أما فَضلُ العلمِ، فقد دَلَّ عليه القرآنُ والسنةُ والمعقولُ.

أمَّا القرآنُ، فقولُه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]. فَبدأَ بنفسه، ثم ثنّى بملائكتِه، ثُمَّ ثَلَّثَ بأهلِ العلم، وناهيك[١] بهذا شرفاً. وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «للعلماءِ دَرجاتٌ فوقَ المؤمنينَ بسبعِمئَةِ درجةٍ، ما بينَ الدرجتينِ مسيرةُ خمسمِئَةِ عام»[٢]. وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

---

(١) ناهيك: أي حسبك ويكفيك.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ١/ ٢٢، من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة». وإسناده ضعيف.

وأما السُّنَّةُ: فأخبرنا هِبةُ الله بنُ محمدِ ابنِ الحُصين، قال: أخبرنا الحسن بنُ علي ابنِ المُذْهِب، قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر، قال: حدثنا عبد الله بنُ أحمدَ ابنِ حنبل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا كثير بن هشام، قال: حدثنا جعفر، قال حدثنا يزيدُ بن الأَصمّ، قال: سمعتُ معاويةَ بنَ أبي سفيان رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين» أخرجاه في الصحيحين[(١)].

أخبرنا ابن الحُصين، قال: أخبرنا ابن المُذْهِب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بنُ أحمدَ ابنِ حنبل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا هيثم بن خارجة، قال: حدثنا رِشْدِينُ بنُ سعد، عن عبد الله بن الوليد، عن أبي حفص، حدّثَه أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ العُلماءِ في الأرضِ كَمَثَلِ النُّجوم في السَّماءِ، يُهتدى بها في ظلماتِ البَرِّ والبَحرِ، فإذا انطَمَسَتِ النُّجومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الهُداةُ»[(٢)]. أبو حفصٍ اسمُه: عُمرُ بنُ مهاجرٍ الأنصاري[(٣)].

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم الكَرُوخيّ، قال: حدثنا أبو بكر الغُورَجيُّ وأبو عامر الأَزْديّ، قالا: أخبرنا الجرَّاحيُّ، قال: أخبرنا المحبوبي، قال: حدثنا التِّرْمِذي، قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا سلمةُ بن رجاء، قال: حدثنا الوليد بن جميل، قال: حدثنا القاسم أبو عبد الرحمن، عن أبي أُمامةَ رضي الله عنه، قال: ذُكر لرسولِ اللهِ ﷺ رجلانِ، أحدُهما عابدٌ، والآخرُ عالمٌ، فقال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ العالمِ على العابدِ كفَضْلي على أَدْناكم»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، (٣١١٦)، (٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) إسناده ضعيف جداً، أخرجه أحمد في المسند في الأمثال (٥١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه ٢/ ٧٠.

(٣) ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» مرتين؛ الترجمة (٧٣٩) و(١٦٤٢) ولم يذكر فيه شيئاً. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١/ ١٢١: مجهول.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في الكبير (٧٩١١) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم»، والخطيب البغدادي في تاريخه ٨/ ١٠٧.

وقد روى النعمانُ بنُ بَشير رضي الله عنهما، عن النَّبي ﷺ، أنه قال: «يُوزَنُ مِدادُ[١] العلماءِ مع دَمِ الشهداءِ، فيَرجَحُ مدادُ العلماءِ على دمِ الشُّهداء»[٢].

وروى أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «فَضلُ العالِم على العابدِ، كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكب، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا دِرهماً، إنَّما[٣] وَرَّثوا العلم، فمن أَخَذَهُ أَخذَ بِحَظّ وافرٍ»[٤].

وروى أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أَنَّه قال: «مَن تَعَلَّمَ باباً مِنَ العِلمِ فعَمِلَ به، أو عَلَّمه جاهلاً يَعْملُ به، كان خيراً له مِن أنْ لو كانتِ الدنيا ما بينَ المشرقِ والمغربِ له ذهبةً حمراءَ، فأَنفَقَها في سبيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ»[٥].

ذِكرُ الآثارِ في فَضلِ العِلم

أخبرنا عبد الله بنُ علي المُقرئ، قال: أخبرنا حمزةُ بنُ محمد الزُّبيري، قال: أخبرنا عبدُ الرحمنِ بنُ عبيدِ اللهِ، أبو القاسمِ الحُرْفي، قال: حدثنا حَبيبُ بنُ الحسنِ بنِ داودَ القزَّاز، قال: حدثنا موسى بنُ إسحاقَ الأنصاري، قال: حدثنا ضِرارُ بنُ صُرَد، قال: حدثنا عاصمُ بنُ حُمَيد، عن أبي حمزةَ الثُّمالِيِّ، عن

(١) المِداد: الحِبر.

(٢) أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (٨٥) وقال: لا يصح، ويروى عن ابن عُمر، وابن عَمرو، وعمران بن حصين، وأنس، وأبي الدرداء، ولا يخلو إسناد واحدٍ منهم من كذابٍ أو وَضّاعٍ أو متروك. وذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» ٣/ ١٧ وقال: مَتنه موضوع، وتبعه ابن حجر في «لسان الميزان» ٥/ ١٢٥ ونقل عن شيخه في ٥/ ٢٢٦ قوله: إنه كذب. ويروى عن الحسن البصري من كلامه كما في «المقاصد الحسنة»: (١٠٠٥).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) و(٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٣٩) وأحمد (٢١٧١٥)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٣٧.

(٥) لم أجده بلفظه، لكن أخرج ابن ماجه (٢١٩) من حديث أبي ذر مرفوعاً بلفظ: «ولأن تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ باباً من العِلم، عُمِلَ به أَوْ لَم يُعملْ، خيرٌ من أن تُصلِّيَ أَلفَ رَكعَةٍ». وإسناده ضعيف. وأخرج الخطيب في (الفقيه والمتفقه) ١/ ١٦ نحوه موقوفاً على أبي هريرة بإسنادٍ حسن، وآخر من كلام الحسن البصري بإسناد صحيح.

عبدِ الرحمنِ بنِ جُنْدب، عن كُمَيلِ بنِ زياد النَّخَعِي، قال: أَخَذَ عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه بيدي، فأخرجَني إلى ناحيةِ الجَبَّان[١]، فَلمَّا أَصحرنا[٢] جلس، ثم تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ[٣]، ثم قال:

يا كُمَيلُ بن زيادٍ، القُلُوبُ أَوْعِيَةٌ، فخيرُها أَوْعاها، فاحفظ عنّي ما أَقولُ لك:

الناسُ ثلاثةٌ: عالمٌ ربّانيٌ، ومُتعلِّمٌ على سَبيلِ نَجَاةٍ، وهَمَجٌ[٤] رَعَاعٌ[٥] أَتباعُ كُلِّ ناعقٍ، يَميلونَ مَعَ كُلِّ ريحٍ، لَمْ يَستضيئُوا بِنورِ العِلمِ، ولَمْ يَلجؤوا إلى رُكنٍ وَثيقٍ.

العِلمُ خيرٌ مِنَ المالِ، العِلمُ يَحرسُكَ، وأنتَ تَحرُسُ المالَ، المالُ تُنْقِصُهُ النَّفقَةُ، والعِلمُ يَزْكُو على الإنْفَاقِ[٦]، وصَنيعةُ المالِ تَزولُ بِزوالِهِ، ومَحبّةُ العَالمِ دينٌ يُدانُ به، تُكْسِبُهُ الطاعةَ في حَياتِه، وجميلَ الأُحْدوثةِ بعدَ موتِهِ، والعِلمُ حاكمٌ، والمالُ محكومٌ عليه.

ماتَ خُزّانُ المالِ وهُم أَحياءٌ، والعُلماءُ باقونَ ما بقيَ الدهرُ، أَعْيَانُهم مَفْقُودةٌ، وأَمثالُهُمْ في القلوبِ مَوْجُودةٌ، هَاه. إنَّ هَاهُنا ـ وَأَشارَ بيدِهِ إلى صَدْرِهِ ـ عِلْماً، لو أَصَبْتُ له حَمَلَةً، بلى أصبتُهُ لَقِناً غيرَ مأمونٍ عليه، يَستعملُ آلةَ الدِّينِ للدنيا، يَستظهِرُ بنِعَمِ اللهِ على عِبادِه، وبحُجَجِهِ على كِتَابِه، أو مُنقاداً لأَهْلِ الحقِّ، لا بَصيرةَ لَهُ في أَحْنَائِهِ[٧]، يَنْقدِحُ الشَّكُّ في قَلْبِهِ بِأَوّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لا ذَا ولا ذَاك،

---

(١) الجبَّان والجبَّانة: المقبرة والصحراء. القاموس: (جبن).

(٢) كذا في «تهذيب الكمال» و«حلية الأولياء»، وفي الأصل: (أصحر). يُقال: أصحر القوم، إذا برزوا في الصحراء. القاموس واللسان: (صحر).

(٣) ليست في الأصل، بل زيدت من العقد الفريد ونهج البلاغة ص٥٩٤، يُقال: تَنَفَّسَ الصُّعَداءَ: إذا تنفّس تَنَفُساً طويلاً أو بتوجُّع. القاموس واللسان: (صعد).

(٤) الهَمَج: الحَمقى والهَمَل الذين لا نظام لهم ولا مروءة ولا عقل، وأراذل الناس. اللسان: (همج).

(٥) الرَّعاع: الأحداث الأوغاد من الناس وسُقّاطُهم وسفلتهم. اللسان: (رعع)

(٦) في الأصل: «والعلم»، والمثبت من «الإحياء» و«نهج البلاغة».

(٧) أحنائِه: جوانبه وأطرافه، مفردها: حِنْو. اللسان: (حنو).

فَمنْهُومٌ باللذَّاتِ، سَلِسُ القِيادِ للشَّهواتِ، أو مُغْرى بجَمعِ الأموالِ والادِّخارِ، (١لَيسَا مِنْ رُعاةِ الدِّينِ في شيءٍ١)، أَقْرَبُ شَبَهاً بِهِما الأَنْعامُ السَّائِمَةُ، كَذلِكَ يَمُوتُ العِلْمُ بِمَوْتِ حَامِلِيه.

اللَّهُمَّ بَلى! لَا تَخلُو الأرضُ مِن قائمٍ للهِ بِحُجَّةٍ، (٢إمَّا ظاهراً مَشهُوراً، أَوْ خَائِفاً مَغموراً٢)، لِئَلَّا تَبطُلَ حُجَجُ اللهِ وبَيِّنَاتُهُ، وكَمْ ذَا... وأَينَ أُولئِكَ؟

أُولئِكَ واللهِ(٣) الأَقَلُّونَ عَدداً، الأَعظَمُونَ عِندَ اللهِ قَدْراً، بِهِم يَحْفَظُ اللهُ تعالى حُجَجَهُ، حتَّى يُؤَدُّوها إلى نُظَرائِهِم، ويَزْرَعُوها في قُلوبِ أَشْباهِهِم، هجمَ بِهِمُ العِلمُ على حقيقةِ الأمرِ، (٤وباشروا رُوحَ اليقينِ٤)، فاسْتَلَانوا ما استَوْعَرَ مِنْه الْمُتْرَفُونَ، وأَنِسُوا بما اسْتَوحَشَ منه الجاهِلُونَ، صَحِبُوا الدنيا بأبدانٍ أَرواحُها مُعلَّقَةٌ بِالمَحَلِّ الأَعلى.

يا كُميلُ، أُولئِكَ خُلَفاءُ اللهِ في أَرْضِهِ، والدُّعَاةُ إلى دِينهِ، هاه هاه، شَوْقَاً إلى رُؤْيَتِهِم، وأَسْتَغْفِرُ اللهَ لي ولكَ، إذا شِئتَ فَقُم(٥).

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: إنَّ العَالِمَ أَعْظَمُ أَجْراً مِنَ الصائمِ القائمِ، الغازي في سبيلِ اللهِ، وإذا ماتَ العالمُ انْثَلمت في الإسلامِ ثُلْمَةٌ(٦)، لا يَسُدُّها شيءٌ إلى يومِ القيامة(٧).

(١-١) سقط من الأصل، واستدرك من «الحلية» و«العقد الفريد». و«تهذيب الكمال».

(٢-٢) سقط من الأصل، واستدرك من «الحلية» و«العقد الفريد».

(٣) ليست في الأصل.

(٤-٤) سقط من الأصل، واستدرك من «الحلية» و«العقد الفريد».

(٥) إسناده تالف، كُميل بن زياد من المفرطين في علي رضي الله عنه يروي عنه المعضل؟؟؟ ويضع فيه الموضوعات، والأثر في «حلية الأولياء» ١/ ٧٩، و«تهذيب الكمال» ٦/ ٧٦، ١٧٧، و«تذكرة الحفاظ» ١/ ١١، و«العقد الفريد» ٢/ ٢١١، و«تاريخ بغداد» ٦/ ٣٧٩. و«الفقيه والمتفقه» ١/ ٥٠، و«التدوين» للقزويني ٣/ ٢٠٨.

(٦) الثُّلْمَةُ: الفُرجَةُ والكَسْرُ في الحائط والبناء وغيره «اللسان»: (ثلم).

(٧) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٣٥٠) بتمامه، بإسناد ضعيف مُعضَل، يرويه محمد بن سلّام الجُمَحي المولود سنة ١٥٠هـ، عن علي رضي الله عنه المتوفى =

وأخبرنا محمدُ بنُ عبدِ الباقي البَزَّارُ، قال: أخبرنا أبو محمدٍ الجوهريُّ، قال: أخبرنا عليُّ بنُ محمدِ ابنِ لؤلؤ، قال: أخبرنا حمزةُ بنُ محمدٍ الكاتبُ، قال: حدثنا نُعَيمُ بنُ حمادٍ، قال: أخبرنا خارجةُ بنُ مُصعبٍ، عن داودَ بنِ أبي هِند، عن الشعبيِّ، عن ابنِ عباس رضي اللهُ عنهما قال: واللهِ لعالمٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطانِ من ألفِ عابدٍ(١). وقد رُويَ مرفوعاً، ولا يَصحُّ رَفْعُهُ(٢).

وقال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: تذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلةٍ أحبُّ إليَّ مِن إحيائِها(٣).

وقال مُجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩] قال: أُولو العلم. وفي روايةٍ عنه: هُمُ الفقهاءُ والعلماءُ(٤).

وكذلكَ روى أبو زُرعةَ عنِ الإمامِ أحمدَ ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي

= سنة ٤٠هـ، وابن سلّام لا يُكتَبُ حديثه (ميزان الاعتدال) ٣/ ٥٦٧ـ ٥٦٨. ويُروى مرفوعاً، ولا يصح. وأخرجه أحمد في «الزهد» ص٣٢١، والدارمي (٣٣٣)، عن الحسن البصري قال: كانوا يقولون: إذا مات العالم... فذكره، ولم يُسمِّ الذين كانوا يقولون.
لكن أخرجه البيهقي في «شُعَب الإيمان»: (١٧١٩) عن الحسن البصري قال: قال ابن مسعود... فذكره موقوفاً. ولا يُعرَفُ للحسن البصري سماع من ابن مسعود.

(١) إسناده تالف ساقط، أخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (١٩٣) والبيهقي في شُعب الإيمان (١٧١٣) و(١٧١٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» ١/ ١٨.

(٢) رُويَ مرفوعاً عن ابن عباس، أخرجه الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (١٧١٥)، وابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١٩٢)، كلهم من طريق رَوح بن جناح. قال البيهقي: تفرد به روح.
ورَوح هذا حديثه منكر جداً، واتهمه ابن حبان بالوضع، وقال أبو سعيد النقاش: يروي عن مجاهد أحاديث موضوعة، «تهذيب التهذيب» ٣/ ٢٩٢ـ ٢٩٣.

(٣) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله»: ٢٤.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره: ٧/ ١٧٩، وسعيد بن منصور في سننه (٦٥٣) وأبو خَيثمة في العلم (٦٢) ومن طريقه تمام في الفوائد (١٣٣٥ـ الروض البسام)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٩٢ والخطيب في الفقيه والمتفقه (٩٣، ٩٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٢/ ١٧٦ إلى عبد بن حُميد.

﴿ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] قال: هم أهلُ العلم، ألا تَراه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[١]؟ [النساء: ٨٣].

وقال سعيدُ بنُ جُبير: الرَّبَّانيُّونَ: الفقهاءُ العلماءُ[٢].

وقال مجاهدٌ: الرَّبَّانيُّونَ: الفقهاءُ المعلِّمون[٣].

وقال في قوله سبحانه: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] قال[٤]: الفقهُ والعلمُ[٥].

وقال قتادةُ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] قال: بعلمائِهم[٦].

وقال زيدُ بنُ أسلمَ في قوله سبحانه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣ ويوسف: ٧٦] قال: بالعلم[٧].

وقال الزبيرُ بنُ بَكَّارٍ: كتبَ إليَّ أبي: عليكَ بالعلمِ، فإنِ افْتَقَرْتَ كانَ لكَ مالاً، وإنِ اسْتَغْنَيْتَ كانَ جَمالاً.

وقال عبيدُ اللهِ ابنُ عائشَة: إذا استَرْذَلَ اللهُ عبداً حَظَرَ عليه العلمَ.

وكان بعضُ الحكماءِ يقولُ: ليتَ شِعري، أَيُّ شيءٍ أدركَ من فاتَهُ العلم، وأيُّ شيءٍ فاتَ من أدركَ العلمَ؟!.

وقد رَوينا عنِ ابنِ المباركِ أنَّه سُئِل: مَنِ الناسُ؟ فقال: العلماءُ. وَإِنَّما أَخرجَ

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٧/ ١٨٠ من كلام أبي العالية، ولم أقف عليه من كلام الإمام أحمد.
(٢) أخرجه الطبري في التفسير ٥/ ٥٢٨ عن سعيد بلفظ: حكماء أتقياء.
(٣) أخرجه الطبري في التفسير ٥/ ٥٢٧.
(٤) يعني: مجاهداً.
(٥) أخرجه الطبري في التفسير ٥/ ٩.
(٦) تفسير القرطبي ١٠/ ٢٩٧.
(٧) أورده السيوطي في «الدر المنثور» ٣/ ١٨، ونسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

الجُهَّالَ مِنَ الناسِ؛ لأَنَّ الخاصِيَّةَ التي تَميَّزَ بها الآدميُّ العلمُ، فَإِنَّه لم يُفَضَّلْ بِقُوَّتِهِ، فإِنَّ الجملَ أقوى منه، ولا بشجاعتِه، فَإِنَّ الأسدَ أشجعُ منه، ولا بكثرةِ أكله، فإن بطنَ البعيرِ أوسعُ من بَطنِه، ولا بكثرةِ سِفادِه[١]، فإِنَّ العُصفورَ أقوى على السِفَادِ منه، وإِنَّما خَصيصَتُهُ التي بها فُضِّلَ: العلمُ، وبتلك العِلَّةِ أَسْجَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الملائكة لآدمَ، ومِن أَعجبِ فضائلِ العلم أَنَّهُ يَفرَحُ من نُسِبَ إليه وإن لم يكن من أهله، ويَحزَنُ من سُلِبَ عنه وإن كان جاهلاً.

الشواهد العقلية

إذا أَردْتَ أن تَعْلَمَ فضيلةَ الشيءِ، فافهم ما الفضيلةُ، فإِنَّك لو أَرَدْتَ أن تعلمَ هل زيدٌ فقيهٌ أم لا؟ لم تَقْدِرْ على ذلكَ حتى تَعرِفَ ما الفقهُ.

والفضيلةُ مأخوذةٌ من الفضلِ، وهو الزيادةُ، فإذا اشتركَ شيئَانِ في أمرٍ، وزادَ أَحدُهما في ذلكَ الأمرِ، قيل: له فضيلةٌ، غيرَ أَنَّ تلكَ الزيادَةَ إِنَّما تكونُ فيما هو كمالُ ذلكَ الشيءِ، كما يُقالُ: الفرسُ أَفْضَلُ مِنَ الحمارِ. بمعنى: أنه يُشاركُه في قُوَّةِ الحَمْلِ، ويَزيدُ عليه في الكَرِّ والفَرِّ، وحُسْنِ الصورةِ، ولو زادَ بعضُ الناسِ بزيادةِ أصبعٍ، كانت تلكَ الزيادةُ نقصاً في المعنى؛ لأَنَّها ليست مِنَ الكمالِ في شيءٍ، فإذا عَرَفْتَ أَنَّ العِلمَ فَضيلةٌ؛ لأَنَّهُ زيادةٌ يُتَمِّمُ المعنى، وعلى مِقدارِ التزيُّدِ منه تَزيدُ الفَضيلةُ.

واعلم أَنَّ الشيءَ النَّفيسَ المرغوبَ فيه ينقسمُ إلى ما يُطلَبُ لغيره، كالدراهمِ، وإلى ما يُطلَبُ لِذاته، كالسعادةِ في الآخرةِ، وإلى ما يُطلَبُ لذاته ولغيره، كسَلامةِ البَدَنِ، فإِنَّها تُطلَبُ لنفسِها من حيثُ إِنَّها سلامةٌ مِنَ الألَمِ، ومطلوبةٌ لِغيرِها من جهةِ التَّوَصُّلِ بها إلى المآربِ.

فإذا نظرتَ إلى العِلْمِ رأيتَهُ مطلوباً لذاته، ووسيلةً إلى تحصيلِ المنافعِ في الدنيا والآخرة، وذريعةً إلى القُربِ مِنَ اللهِ عَزَّ وجلَّ، فلا يُتَوَصَّلُ إليه إلَّا بِهِ، وإذا كانَ العِلمُ سَبباً لذلك دَلَّ على أَنَّهُ أفضلُ الأشياءِ.

---

(١) السِّفاد: نَزو الذكرِ على الأنثى، وهو الجماع.

ومن وجهٍ آخَرَ؛ وهو أَنَّكَ إذا أردتَ أن تعرفَ فضلَ الشيءِ، فانظر في ثَمَرتِهِ، ومعلومٌ أَنَّ ثمرةَ العلمِ في الدنيا العِزُّ والوَقارُ، ونفوذُ الحُكْمِ على الملوكِ، ونيلُ الاحترامِ مِنَ الخلقِ، حتى إنَّ أغبياءَ التُّرْكِ، وأجلافَ العربِ، يُعَظِّمونَ أشيَاخَهُم، لاختِصاصِهِم بمزيدِ علمٍ مُستفادٍ من التجربَةِ، بلِ البهيمةُ بطبعِها تُوَقِّرُ الإنسانَ، لشعورِها بِتَمَيُّزِهِ بكمالٍ مُجاوِزٍ لدرجتِها.

وأما ثمرتُه في الآخرةِ، فالقُربُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجلَّ، ونَيلُ السعادةِ التامَّةِ الأبديَّةِ، ويُوضِّحُ ما ذكرنا؛ أَنَّ مقاصدَ الخلقِ مجموعةٌ في الدينِ والدنيا، ولا يَنتظِمُ الدينُ إِلَّا بانتظامِ الدنيا؛ لأَنَّها مَزْرعةُ الآخرةِ، ولا يَنتظمُ أمرُ الدنيا إلا بصناعةِ الآدَمِيِّينَ، وصناعاتُهم على ثلاثةِ أقسامٍ: **أحدُها**: أُصولٌ لا قِوامَ[1] للعَالَمِ بدونها، وهيَ أربعةٌ: ١ـ الزراعةُ، وهيَ للمَطعَم، ٢ـ والحياكةُ، للمَلْبَسِ، ٣ـ والبناءُ، للسُّكْنى، ٤ـ والسياسةُ، للتأليفِ والاجتماعِ، والتعاونِ على أسبابِ المعاشِ.

والقسمُ الثاني: ما هو كالخادِمِ لهذه الأُصولِ، كالحِدادةِ، فإِنَّها تَخْدِمُ الزِّراعةَ، والغَزْلِ والحَلْجِ[2]، فإِنَّهُ كالخادمِ للحياكةِ.

والقسمُ الثالثُ: ما هو مُتَمِّمٌ للأُصولِ ومُزَيِّنٌ لها، كالطحْنِ والخَبْزِ للزِّراعةِ، والقِصارَةِ[3] والخياطةِ للحِياكَةِ، وذلك بالإضافةِ إلى قِوامِ أَمرِ العَالَمِ الأرضيِّ، مثلُ أجزاءِ الشخصِ بالإضافةِ إليه، فإِنَّها على ثلاثةِ أَضرُبٍ:

١ـ أَمَّا الأُصولُ: فكالقلبِ والكَبِدِ والدماغِ.

٢ـ وأَمَّا الخادمُ لها: فكالعروقِ والمَعِدةِ والأعصابِ ونحوِها.

٣ـ وأَمَّا المُكَمِّلُ والمُزَيِّنُ: فكالأظفارِ والأَصابعِ والحاجبَينِ.

---

(١) القِوام: بكسر القاف: نظام الأمرِ، وعِماده ومِلاكُه. اللسان: (قوم).

(٢) الحَلج: ويقال: حَلَجَ القُطنَ يَحْلِجُهُ ويَحْلُجُه حَلْجاً بِالمِحْلاج: نَدَفه. تاج العروس: (حلج).

(٣) القِصَارة، بكسر القاف: تبييضُ الثياب بالمِقْصَرةِ وهي: خشبة تُدَقُّ بها الثياب، والعامل فيها: قَصَّار ومُقَصِّر، والفعلُ: قَصَرَ يَقْصُرُ. اللسان وتاج العروس: (قصر).

وأشرفُ هذهِ الصناعاتِ أصولُها، وأشرفُ أُصولِها السياسةُ؛ لأنَّها سببٌ لإصلاحِ الأُمورِ واستقامَتِها، ولذلك تستدعي السياسةُ من كمالِ القائمِ بها ما لا تستدعي سائرُ الصناعاتِ، ولذلك يَستَخْدِمُ السائسُ(١) سائرَ الصُّنَّاعِ، فقد بانَ فضلُ السائسِ على غيره لمزيَّةِ العلمِ بالتَّصَرُّفِ، وشرفُ الصناعةِ يُعرَفُ إمَّا بالآلةِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى تحصيلِها، كفضلِ العلومِ العقليَّةِ على اللُّغوية، مِنْ جهةِ أَنَّ الحكمةَ تُدْرَكُ بالعقلِ، واللُّغةَ بالسَّمعِ، والعقلُ أشرفُ مِنَ السَّمعِ، وإمَّا بالنَّظرِ إلى عمومِ النَّفعِ، كفضلِ الزراعةِ على الصِّياغةِ، وإمَّا بملاحظةِ المحَلِّ الذي فيه التصرُّفُ، كفضلِ الصِّياغةِ على الدِّباغةِ، لأَنَّ مَحَلَّ أحدِهما الذهبُ، ومَحَلَّ الآخرِ جِلدُ الميتة، وهذه الأمور قد اجتمعت في العلمِ.

أَمَّا الآلةُ، فإنَّ العلمَ يُدْرَكُ بصفاءِ الذَّكاءِ، وكمالِ العقلِ، وجَوْدَةِ الفَهْمِ.

وأَمَّا عمومُ النفعِ، فَإِنَّ نَفْعَ العلمِ أَعَمُّ، وثمرتَه سعادةُ الآخرةِ، وأَمَّا المحَلُّ، فإنَّ أَشرفَ الموجوداتِ على ظهرِ الأرضِ جِنسُ الإنْسِ، وأشرفَ جُزْءٍ مِنَ الإنسانِ قَلْبُهُ، والمعلِّمُ مُشتَغِلٌ بتَطهيرِه وتكميلِه، فهوَ كالخليفةِ عنِ اللهِ تعالى في تثقيفِ عبدِه، وإِصلاحِه لخدمتِه، وهو بذلك مُتَعَبِّدٌ للهِ عَزَّ وجَلَّ، وكيفَ لا، وهو واسِطةٌ بينَ الربِّ والعبدِ؟!.

فصل
[الاشتغالُ بالعلمِ خيرٌ مِنَ الاشتغالِ بالنافلة]

وقد يَقعُ لبعضِ مَن يَقِلُّ فهمُه أَنَ العَمَلَ أفضلُ مِنَ العلمِ، ويُشيرُ بذلكَ إلى النَّفلِ بالصلاةِ والصومِ، ويحتجُّ بأنَّ المرادَ مِنَ العلمِ العملُ، وهذا غلطٌ؛ لأَنَّ العلمَ يَحصُلُ بسَعيِ القلبِ، وإنْضاءِ(٢) راحلةِ الفكرِ، فكيفَ لا يكونُ أفضلَ مِنْ أعمالِ

(١) السائسُ: من يقومُ على الشيءِ بما يُصْلِحُهُ، أو الوالي يَسُوسُ رَعِيَّته، أو القائمُ على شؤون الدواب وتذليلها. القاموس واللسان: (سوس).

(٢) يقال: نَضا الرجلُ السيفَ، إذا سَلَّه مِن غِمدِهِ. اللسان: (نضو).

الجوارحِ الظاهرة، وهو عملُ أشرفِ الجَوارحِ الباطنة؟! فالتعلُّمُ والتعليمُ أفضلُ مِنْ كُلِّ نافلةٍ. قال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله: فضلُ العلمِ خيرٌ مِنْ فَضلِ العبادةِ(١).

قلتُ: وَكَمْ مِنْ عابدٍ قَلَّ عِلمُه، فحرَّكَهُ الشيطانُ إلى التَّخاشُعِ وإقامةِ الناموسِ(٢)، فربَّما توقَّعَ إجابةَ دعائِهِ عاجلاً، لِمكانِ ما يَعْتَقِدُهُ مِنَ الجاهِ لَهُ عندَ اللهِ، فإذا لم يَرَ لذلك أثراً تَأَفَّفَ في باطنه تَأَفُّفَ الأجيرِ الذي لم يُوَفَّ أُجرتَه، وكُلُّ هذه الآفاتِ سببُها قِلَّةُ العلمِ.

ولقد حَسَّنَ إبليسُ لأقوامٍ كثيرينَ دَفنَ كُتُبِ العلمِ ليمشوا في الظُّلامةِ؛ لأَنَّ العلمَ نورٌ.

فإيَّاكَ إِيَّاكَ والإعراضَ عنِ العلمِ، أَوْ أَنْ تُؤْثِرَ عليه التَّعبدَ بغيرِه.

فَضيلةُ التَّعَلُّم

أَمَّا الآياتُ: فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣ والأنبياء: ٧].

وأما الأخبار: فقد أخبرنا ابنُ الحُصَين، قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِب، قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جعفرٍ، قال: أخبرنا عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ، قال: حدثني أبي، قال: أخبرني يونسُ، قال: أخبرنا حمادٌ ـ يعني ابنَ سلمة ـ، عن عاصمٍ، عن زِرٍّ، عن صفوانَ بنِ عَسَّالٍ، أَنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الملائِكةَ لتَضَعُ أَجْنِحَتها لِطَالِبِ العِلْمِ رِضىً بما يَطْلُب»(٣).

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» ٧/ ١٤٢، وأبو خيثمة في «العلم»: (١٣) والفسوي في «المعرفة والتاريخ» ٢/ ٨٢ـ ٨٣، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١٧٠٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٢٣ـ ٢٤ بإسناد صحيح من قول مُطرِّف.

(٢) الناموس: بيت الراهب. تاج العروس: (نمس).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٨٩) و(١٨٠٩٥) و(١٨١٠٠) والطيالسي (١١٦٥)، والترمذي (٣٥٣٥) و(٣٥٣٦)، والنسائي ١/ ٩٨، وابن ماجه (٢٢٦) وابن حبان (١٣١٩) و(١٣٢١)
=

وقد ذَكر أبو سليمانَ الخطابيُّ[١] في معنى وضعِ الملائكةِ أجنحتَها ثلاثةَ أقوالٍ:

أحدُها: أنه بَسْطُ الأجنحةِ.

والثاني: أنه بمعنى التواضعِ منَ الملائكةِ تعظيماً للطالب.

والثالثُ: أن يُرادَ به النزولُ عندَ مجالسِ العلم، وتركُ الطيران، كقوله ﷺ: «ما مِن قَومٍ يذكرونَ اللهَ إلَّا حَفَّتْ بِهِمُ الملائكةُ»[٢].

وقد رُويَ عنِ النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ خرجَ في طلبِ العلمِ، فهوَ في سبيلِ الله حَتَّى يَرجع»[٣].

وقال ﷺ: «مَن سَلكَ طريقاً يبتغي فيهِ علماً سَهَّلَ اللهُ له بِهِ طريقاً إلى الجنة»[٤].

وقال ﷺ: «من جَاءَهُ الموتُ وهُوَ يطلبُ العلمَ ليُحْيِي به الإسلامَ، فبينَه وبينَ الأنبياءِ في الجنَّةِ درجةٌ واحدةٌ»[٥].

= و(١٣٢٥)، والطبراني في الكبير ٨/ (٧٣٥٢) و(٧٣٥٣) و(٧٣٥٩) و(٧٣٦٠) وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٣٢ـ ٣٣، وأبو خيثمة في «العلم»: (٥).

(١) في كتابه «معالم السُّنَن» ٥/ ٢٤٣ـ ٢٤٤.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٠)، والترمذي (٣٣٧٨)، وابن ماجه (٣٧٩١) وأحمد (٧٤٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧)، والطبراني في «الصغير»: (٣٨٠) من حديث أنس.

(٤) حديث صحيح، أخرجه أحمد (٧٤٢٧)، ومسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٣٦٤٣)، والترمذي (٢٦٤٦) و(٢٩٤٥)، وابن ماجه (٢٢٥) من حديث أبي هريرة. وتقدم تخريجه ص١٤ من حديث أبي الدرداء.

(٥) حديث ضعيف، أخرجه الطبراني في (الأوسط): (٩٤٥٠)، والخَطيب في «الفقيه والمتفقه» ٢/ ٨٥، وتاريخ بغداد: ٣/ ٧٨: وابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ٩٥، بإسناد تالف عن ابن عباس. وأخرجه ابن النجار في الذيل على تاريخ بغداد ١٨/ ١٣٦ عن أنس، قال العراقي: وإسناده ضعيف (إتحاف السادة المتقين) ١/ ١٠١.
وأخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ٤٦، عن الحسن مرسلاً. وفيه اختلاف كبير في وصله وإرساله.

وأما الآثار: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذَلَلْتُ طالباً، فعزَزْتُ مطلوباً.

وقالَ أبو الدرداءِ: لأَنْ أتعلّمَ مَسألةً أَحبُّ إليَّ مِن قيامِ ليلة[١]. وقال أيضاً: العالمُ والمتعلمُ شريكانِ في الخير، وسائرُ الناسِ هَمَجٌ لا خيرَ فيهم[٢]. وقال أيضاً: كُنْ عالماً أو مُتعلِّماً أو مُسْتمعاً أو مُحِبّاً، ولا تكنِ الخامسَ فتهلك[٣].

وقالَ لُقمانُ لابنه: جالسِ العلماءَ، وزاحِمْهُم برُكْبَتيك، فإنَّ اللهَ يُحيي القلوبَ بنورِ الحكمةِ، كما يُحيي الأرضَ بِوابِلِ السَّماءِ[٤].

وقال سفيانُ الثوري: ليسَ بعدَ الفرائضِ عملٌ أفضل من طلبِ العلم[٥].

---

(١) أخرجه الخطيب في (الفقيه والمتفقه) ١/ ١٦ و١٧، بإسنادين فيهما انقطاع.

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٥٤٣)، وابن أبي شيبة في (المصنف): (٦١٧٢) و(٦١٧٣)، والفَسوي في (المعرفة والتاريخ) ٣/ ٣٩٨، وأبو نعيم في (الحلية) ١/ ٢١٢ـ ٢١٣، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١/ ٢٧ و٢٨، بإسنادين فيهما انقطاع موقوفاً على أبي الدرداء، وروي مرفوعاً عن أبي الدرداء وأبي سعيد وابن مسعود وأبي أمامة وابن عباس رضي الله عنهم، ولا يخلو إسنادٌ واحدٌ من مقال، وانظر (إرواء الغليل) (٤١٤).

(٣) أخرجه الفسوي في (المعرفة والتاريخ) ٣/ ٣٩٨، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١/ ٢٨ـ ٢٩، عن أبي الدرداء موقوفاً بإسناد منقطع.
وأخرجه ابن عبد البر ١/ ٢٩ عن ابن مسعود موقوفاً بأسانيدَ مجموعُها حسنٌ.
وأخرجه أيضاً في ١/ ٣٠ عن أبي بكرة مرفوعاً بإسناد ضعيف.
وقوله: (ولا تكن الخامس) أي: لا تكن مبتدعاً، أو لا تكن مبغضاً لعلم وأهله.

(٤) أخرجه الطبراني في (الكبير) ٨/ (٧٨١٠)، عن أبي أمامة الباهلي، مرفوعاً بإسناد ضعيف جداً.
وأخرجه ابن المبارك في (الزهد) (١٣٨٧) عن عبد الوهاب بن بُخْت المكي، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١/ ١٠٦، عن سليمان بن طرخان التيمي، وعن سليمان بن حبيب المحاربي، فَرَّقهما، قالوا: قال لقمان لابنه: .... فذكروه، والثلاثة تابعيون، لم يذكروا ممن سمعوه، ورجال ابن المبارك، ورجال أحد إسنادي ابن عبد البر ثقات.

(٥) أخرجه البيهقي في (مناقب الشافعي) ٢/ ١٣٨، بإسناد صحيح من كلام الشافعي رحمه الله، وهو الصواب.
وأخرجه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١/ ٢٥، بإسناد ضعيف، عن الثوري بلفظ: (لا أعلمُ من العبادة شيئاً أفضل من أن يُعَلِّمَ الناسُ العلمَ).

وقال المعافى بنُ عمرانَ: كتابةُ حديثٍ واحدٍ أَحبُّ إليَّ من صلاةِ ليلة(١).

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المبارك: عجبتُ لمن لم يطلبِ العلمَ كيفَ تدعوهُ نفسُه إلى مَكْرُمَةٍ(٢).

وقال الشافعيُّ رحمه الله: طلبُ العلمِ أفضلُ من صلاةِ نافلةٍ(٣).

وسَأَلَ رجلٌ أحمدَ بنَ حنبلٍ رحمه الله، فقال: أَنسخُ في الليلِ أو أُصلي؟ فقال له: إن كنتَ متعلِّماً تَنسخ.

وقال يوسفُ بنُ أسباط: بابٌ مِنَ العلمِ تتعلَّمُهُ أفضلُ من سبعينَ غزوة(٤).

فَضيلةُ التَّعليم

أما الآياتُ: فقد قال اللهُ عَزَّ وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾، [آل عمران: ١٨٧]. وقالَ عزَّ وجل: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾، [التوبة: ١٢٢]. وقال الله عز وجل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، [النحل: ١٢٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، [فصلت: ٣٣]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

وأما الأخبار: فأخبرنا هبةُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ الحُصَين، قال: أخبرنا أبو علي الحسنُ بنُ علي ابنِ المُذْهِب، قال: أخبرنا أبو بكر أحمدُ بنُ جعفر القَطِيعي، قال: حدثنا عبدُ الله بنُ أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا قُتيبةُ، قال: حدثنا يعقوبُ بنُ عبد الرحمن، عن أبي حازمٍ، عن سهل بن سعد، أَنَّ رسول الله ﷺ قال

(١) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث»: (١٨٤)، وذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٢٤.
(٢) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٥٧ و٦٠.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ٩/ ١١٩، والبيهقي في «مناقب الشافعي» ٢/ ١٣٨، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٢٥، والرازي في آداب الشافعي: ٩٧.
(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» ١/ ١٦ عن أبي هريرة بنحوه موقوفاً عليه.

لعليٍّ رضي الله عنه: «والله لأَنْ يهديَ اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِنْ أَنْ يكونَ لَكَ حُمرُ النَّعَمِ» أخرجاه في الصحيحين[١].

أخبرنا يحيى بن علي المدير، قال: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون، قال: أخبرنا علي بن عمر الدارَ قُطْني، قال: أخبرنا القاضي المَحَامِلي، قال: حدثنا يوسفُ بن موسى، قال: حدثنا حَمَّادُ بنُ أسامة، عن بُرَيدِ بنِ عبد الله، عن أبي بُرْدَةَ، عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به منَ الهُدى والعِلمِ كمَثَلِ غيثٍ أَصابَ أَرْضاً، فكانت منها طائفةٌ نَقِيَّةٌ، قَبِلتِ الماءَ فأنبتتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانت منها أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الماءَ، فنفعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوا وزَرَعُوا[٢]، وأصابَ منها طائِفَةً أُخرى، إنَّما هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأً، فذلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ اللهِ ونَفَعَهُ اللهُ بما بَعَثَني به، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ به[٣] رَأْساً، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلْتُ به» أخرجاه في الصحيحين[٤].

فانظر ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ إلى هذا الحديثِ، ما أَوْقَعَهُ[٥] على الخَلْقِ!! فإنَّ الفقهاءَ أُولي الفَهْمِ كمَثَلِ البِقاعِ التي قَبِلَتِ الماءَ فأنبتت؛ لأَنَّهم عَلِموا وفَهِمُوا، وفَرَّعوا وعَلَّموا، وإنَّ عَامَّة الناقلين مِنَ المُحدِّثين الذين لم يُرْزَقُوا الفِقهَ والفَهْمَ، كمَثَلِ الأَجادِبِ، حَفِظَتِ الماءَ، وهؤلاءِ حفِظوا ما عندَهُم فانْتُفِعَ به. وأما الذين سمِعوا ولم يَتَعَلَّموا ولم يَحفَظوا، فَهُمُ العَوَامُّ الجَهَلَةُ.

أخبرنا هبةُ الله بنُ محمد، قال: أخبرنا الحسن بن علي[٦]، قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثنا أبي، قال: حدثنا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٢) كذا في الأصل والبخاري، وعند مسلم: «وَرَعَوا».
(٣) كذا في الأصل، وفي الصحيحين: «بذلك».
(٤) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).
(٥) ما أوقعه على الخلق، أي: كم هو موافق لأحوال وأنواع الخلق.
(٦) هو: ابن المُذْهِب.

وَكيع، قال: أخبرنا هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَقبِضُ العِلمَ انتزاعاً يَنتَزِعُه مِنَ الناسِ، ولكنْ يَقْبِضُ العِلمَ بقَبضِ العلماء، حَتَّى إذا لم يُبْقِ عالماً اتَّخَذَ الناسُ رُؤُوساً جُهّالاً، فَسُئِلوا، فَأَفتَوا بغيرِ علمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا» أخرجاه في الصحيحين(١).

أخبرنا سعيدُ بنُ أحمدَ بنِ الحسنِ ابنِ البَنَّاء، قال: أخبرنا أبو القاسم بن البُسْري، قال: أخبرنا أبو طاهر المُخَلِّص، قال: أخبرنا ابن صاعد، قال: حدثنا الربيعُ بن سليمانَ، قال: حدثنا عبدُ اللهِ بنُ وَهبٍ، عن سليمانَ بنِ بلال، قال: أخبرنا العلاءُ، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطَعَ عملُهُ إلَّا من ثلاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» انفرد بإخراجه مسلم(٢).

وقد رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «رحمةُ اللهِ على خُلفائي» قيل: ومَن خُلفاؤك؟ قال: «الذين يُحيونَ سُنَّتي، ويُعَلِّمُونَها عبادَ اللهِ عَزَّ وَجلّ»(٣).

وأما الآثار: فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: مَنْ حَدَّثَ بحديثٍ فعُمِلَ به فلَهُ مِثْلُ أجرِ ذلكَ العَمَل(٤).

وقال أيضاً: الأُمَّةُ: الذي يُعَلِّمُ الناسَ الخيرَ(٥). وكذلكَ قالَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: الأُمَّةُ: مُتَعَلِّمُ الخيرِ ومُعَلِّمُهُ(٦).

أخبرنا عبد الوهاب الأنماطي، قال: أخبرنا أبو محمد الصَّرِيفيني، قال:

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (٣٨)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي ٦/ ٢٥١.
(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط»: (٥٨٤٢)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل»: (٢)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث»: ٥٨.
(٤) أخرجه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١/ ٥٢.
(٥) ذكره ابن كثير في التفسير ٢/ ٥٩٠.
(٦) أخرجه الطبري في التفسير ١٧/ ٣١٦ـ ٣١٧.

أخبرنا أبو حَفص الكَتَّاني، قال: حدثنا البَغَوي، قال: حدثنا زهير بن حرب، قال: حدثنا محمد بن خازم، قال: حدثنا الأعمش، عن شِمْر، عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: إن الذي يُعَلِّمُ الناسَ الخيرَ تَستغفرُ له كُلُّ دابة حتى الحوت في البحر[١].

فإن قيلَ: ما وجهُ استغفارِ الحوتِ للمعلِّم؟ فالجواب: إنَّ نَفْعَ العلمِ يَعُمُّ كُلَّ شيءٍ حَتَّى الحوتَ، فَإِنَّ العلماءَ عَرَفوا بالعلمِ ما يَحِلُّ مما يحرم، وأوصَوا بالإحسانِ إلى كلِّ شيءٍ، حَتَّى إلى المذبوحِ والحوتِ، فألْهَمَ اللهُ الكلَّ الاستغفارَ لهم جزاءً لِحُسْنِ صَنيعهم.

وقال معاذُ بن جَبل: تَعَلَّمُوا العلمَ، فإِنَّ تَعَلُّمَهُ للهِ خَشيةٌ، وطلَبَه عبادةٌ، ومُدارسَتَهُ تَسبيحٌ، والبحثَ عنه جهادٌ، وتعليمَهُ لمن لا يعلمُهُ صدقةٌ، وبذلَهُ لأهلِهِ قربةٌ، وهو الأُنسُ في الوَحدةِ، والصاحبُ في الخَلوةِ[٢].

وقال كعب[٣]: أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: أن تعلم يا موسى الخيرَ، وعلّمه الناسَ، فإني مُنَوِّرٌ لمعلِّمِ الخيرِ ومتعلِّمِه في قُبورهم، حتى لا يستوحشوا بمكانهم[٤].

وقال عيسى عليه السلام: من تعلَّم وعلَّم وعَمِل، فذاك يُدعى عظيماً في ملكوت السماء[٥].

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في «العلم»: (٦). وقد صحَّ الحديث بشواهده مرفوعاً، أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة، وأخرجه الطبراني في «الأوسط»: (٦٢١٥) من حديث جابر وأخرجه أحمد ٥/ ١٩٦، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٥٤ـ ٥٥.

(٣) يعني كعبَ بن ماتع الحميري، المشهور بكعب الأحبار، التابعي، أسلم زمن أبي بكر رضي الله عنه، وقدم المدينة زمن عمر رضي الله عنه، وتوفي زمن عثمان رضي الله عنه سنة ٣٢هـ «الإصابة» ٥/ ٦٤٧.

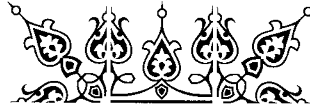
(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ٦١.

(٥) أخرجه أبو خَيثمه في «العلم»: (٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب =

وقال الحسن[١]: لولا العلماءُ لصارَ الناسُ مثلَ البهائمِ. وإنَّما أرادَ بذلكَ: أَنَّ الناسَ يخرجون بالتعليم عن حَدِّ البهيمة إلى حَدِّ الإنسانِيَّة.

وقال عطاء: دخلتُ على سعيدِ بنِ المسيِّبِ وهو يَبكي، فقلتُ: ما يبكيكَ؟ فقال: ما يَسألُني أحدٌ عن شيءٍ.

ودخلَ سفيانُ الثوريُّ إلى عَسْقَلان[٢]، فمكثَ لا يَسْأَلُهُ أحدٌ عن شيء، فقال: اكْتَرُوا[٣] لي لأخرجَ مِنْ هذا البلد، هذا بلدٌ يموتُ فيه العلمُ.



= السامع»: (٣٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١٧٩٩).

(١) يعني: الحسن البصري.

(٢) عسقلان: بلدة في فلسطين بين غزة وبيت جبرين. «معجم البلدان» ٤/ ١٢٢.

(٣) أي: استأجروا لي دابة لأرحل عليها.

البابُ الثاني

في بيانِ العِلمِ المحمودِ والمذمومِ وما هو فرضُ عينٍ

أخبرنا محمدُ بنُ أبي منصور، قال: أخبرنا أبو سهلٍ بنُ سَعْدَوَيْه، قال: أخبرنا أبو الفَضلِ محمدُ بنُ الفضلِ القُرشي، قال: أخبرنا أبو بكر بن مَرْدَوَيْه، قال: حدثني عليُّ بنُ الفَضلِ، قال: أخبرنا عبدُ اللهِ بنُ سليمانَ، قال: أخبرنا جعفرُ بنُ مسافرٍ، قال: أخبرنا يحيى بنُ حَسَّان، عن سليمانَ بن قَرْمٍ، عن ثابت، عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فريضةٌ على كُلِّ مُسْلمٍ»(١).

قال عليُّ بنُ الفَضل: قال ابنُ أبي داود: سمعتُ أبي يقول: ليسَ في: «طلبُ العلمِ فريضةٌ» أصحُّ من هذا.

قلتُ: وقد اختلفَ الناسُ في العلمِ الذي هو فريضةٌ على كُلِّ مسلم:

فقال المتكلمون: هو علمُ الكلام، إِذْ بِهِ يُدْرَكُ التوحيدُ ومعرفةُ اللهِ عزَّ وجل.

وقال الفقهاء: هو عِلمُ الفقهِ، إِذْ به يُعْرَفُ الحلالُ والحرامُ.

وقال المفسِّرونَ والمحدِّثون: هو علمُ الكتابِ والسُّنَّةِ، إِذْ بهما يُتَوَصَّلُ إلى العلومِ كُلِّها.

وقالت الصوفيةُ: هو علمُ الإخلاصِ، وآفاتِ النفوسِ. إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الأقوالِ التي ليسَ فيها مَرْضِيّ:

---

(١) إسناده ضعيف، وهذا حديث حسن بطرقه وشواهده، أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) بإسناد ضعيف، لكن ذكر في الزوائد نقلاً عن السيوطي أنه روي من طرق تبلغ رتبة الحسن، رآها نحواً من خمسين طريقاً، والله أعلم.
وقد روي عن جمع من الصحابة بطُرق لا يخلو إسنادُ واحد منهم من مقال، ترتقي بمجموعها إلى رتبة الحسن إن شاء الله تعالى.

وقال أبو طالب المكي رحمه الله: هو العلم بمباني الإسلام الخمس.

والصحيح: أنه علمُ معاملةِ العبدِ لربِّه. والمعاملة التي كُلِّفَها على ثلاثةِ أقسام: اعتقادٌ، وفعلٌ، وتركٌ.

فإذا بلغَ الصبيُّ فأولُ واجبٍ عليه تَعَلُّمُ كلمتي الشهادة، وفهمُ معناها، وإنْ لم يُحَصِّلْ ذلكَ بالنَّظرِ والدليلِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ اكتفى من أجلافِ العربِ بالتَّصديقِ من غير تعليمِ دليل، فذلك فرضُ الوقت، ثم يجبُ عليه النظرُ والاستدلالُ المؤديانِ إلى معرفةِ اللهِ عز وجل، فإذا جاءَ وقتُ الصلاةِ وجبَ عليه تعلُّمُ الطَّهارةِ والصلاةِ، فإذا عاشَ إلى رمضانَ وجبَ عليه تعلُّمُ الصومِ، فإنْ كانَ له مالٌ، فدارَ عليه الحولُ، وجبَ عليه تَعَلُّمُ الزكاة، فإذا جاءَ وقتُ الحجِّ، وهو مستطيعٌ، وجبَ عليه تَعَلُّمُ المناسكِ.

وأمّا المتروكُ فبحسبِ ما يَتجدَّدُ مِنَ الأحوال، إذْ لا يَجبُ على الأعمى تَعلُّمُ ما يحرمُ مِنَ النظرِ، ولا على الأبكمِ تعلُّمُ ما يَحرمُ مِنَ الكلامِ، فإنْ كانَ في بلدٍ يُتَعاطى فيه شُربُ الخمرِ ولُبْسُ الحريرِ وجبَ أن يَعرِفَ تحريمَ ذلك.

وأَمَّا الاعتقاداتُ فيجبُ عِلْمُها بحسبِ الخواطرِ، فإنْ خَطَرَ له شَكٌّ في المعاني التي تَدُلُّ عليها كلمتا الشهادةِ، وجبَ عليه تَعَلُّمُ ما يُتَوَصَّلُ به إلى إزالةِ الشكِّ، وإن كان في بلدٍ قد كَثُرت فيه البِدَعُ، وجبَ أَنْ يُلَقَّنَ الحقَّ، كما لو كان تاجراً في بلدٍ قد شاعَ فيه التعاملُ بالرِّبا، وجبَ عليه تعلُّمُ الحذَرِ من الرِّبا.

وينبغي أَنْ يتعلم الإيمانَ بالبعثِ والجنةِ والنارِ، فبانَ بِما ذَكَرْنا أَنَّ المرادَ بطلبِ العلمِ الذي هو فرضُ عينٍ ما يَتعيَّنُ وُجوبُه على الشَّخصِ.

بيانُ العلمِ الذي هو فرضُ كفايةٍ

العلومُ بالإضافةِ إلى الغَرض الذي نحنُ بصدده تنقسم إلى:

شرعية: وهي ما يُستفاد مِنَ الأنبياء، ولا يُرشِدُ العقلُ إليها كالحِسابِ، ولا التجربةُ كالطبِّ، ولا السماعُ كاللغة.

والعلوم التي ليست شرعية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ـ محمود ٢ـ ومَذموم ٣ـ ومُباح.

١ـ فالمحمودُ ما تَرتبطُ به مصالحُ الدنيا، كالطبِّ والحسابِ، وذلكَ ينقسمُ إلى: أ ـ ما هو فرضُ كفايةٍ. ب ـ وإلى ما هو فضيلةٌ لا فريضةٌ:

أ ـ أمَّا فرضُ الكفاية: فهوَ كلُّ علم لا يُستغنى عنه في قِوام أُمورِ الدنيا كالطبِّ، إذْ هوَ ضروريٌ في حاجةِ بقاءِ الأبدانِ على الصحةِ، وكالحسابِ، فإنَّه ضروريٌّ في قِسمةِ المواريثِ والوصايا وغيرِها، فهذه العلومُ هي التي لو خلا البلدُ عَمَّنْ يَقومُ بها حَرِجَ(١) أهلُ البلدِ، وإذا قام بها واحدٌ كَفى، وسقطَ الفرضُ عنِ الآخَرين، ولا تتعجبْ من قولنا: إنَّ الطبَّ والحسابَ من فروضِ الكفايةِ، فإنَّ أُصولَ الصناعاتِ أيضاً من فروضِ الكفايةِ، كالفلاحةِ والحياكةِ والسياسةِ، بل الحجامة، فإنَّه لو خلا البلدُ عن حَجَّامٍ حاذِقٍ لأسرعَ الهلاكُ إليهم، ولحَرِجُوا بتعريضِهِمْ أنفسَهُم للهلاكِ، فإنَّ الذي أنزلَ الداءَ أنزل الدواءَ، وأَرشد إلى استعمالِهِ، فلا يجوزُ التعرضُ للهلاكِ بإهماله.

ب ـ وأما ما يُعَدُّ فضيلةً لا فريضةً؛ فالتعمُّقُ في دقائقِ الحسابِ، وحقائقِ الطبِّ وغيرِ ذلكَ، مما يُستغنى عنه، ولكنه يُفيدُ زيادةَ قوةٍ في قَدْرِ ما يُحتاجُ إليه.

٢ـ وأما المذمومُ مِنْهُ فعِلْمُ السحرِ والطِّلَّسْماتِ(٢) والشَّعْبذة(٣) والتَّلبيسات(٤).

٣ـ وأما المباحُ منه؛ فالعلمُ بالأشعارِ التي لا سُخْفَ فيها، وتواريخِ الأخبارِ، وما يَجري مَجرى ذلك.

فأمَّا العلومُ الشرعيةُ، فَكُلُّها محمودٌ، ولكن قد يَلْتَبِسُ بها ما يُظنُّ أنه شرعيٌّ، ويكون مذموماً، فَلْنَقْسِم المحمودةَ والمذمومةَ، فنقول:

(١) حَرِجَ: أَثِمَ. اللسان (حرج).
(٢) الطِّلَّسْمات: جمع طِلَّسم، وهو لفظ غير عربي، معناه: عبارة عن علم بأحوال تمزيج القوى الفعالة السماوية بالقوى المنفعلة لأجل التمكن من إظهار ما يخالف العادة، والمنع مما يوافقها «قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل»: ٢/ ٢٦٤، وفي «المحيط في اللغة» ٨/ ٤٢٦: هي ضرب من السحر.
(٣) الشعبذة: بمعنى الشعوذة، وهي خفةٌ في اليد وشيءٌ كالسحر. «اللسان»: (شعوذ).
(٤) التلبيس: هو تخليط الأمر، والتدليس فيه «اللسان»: (لبس).

أما المحمودةُ، فلها أصولٌ وفروعٌ ومقدِّماتٌ ومُتَمِّماتٌ، فهيَ أربعةُ أضربٍ:

الضربُ الأوَّلُ: الأصولُ، وهي أربعةٌ: كتابُ اللهِ تعالى، وسُنَّةُ رسولِهِ ﷺ، وإِجماعُ الأُمَّةِ، وآثارُ الصحابةِ رضوان الله عليهم.

وإِنَّما كانَ الإجماعُ أصلاً لأَنَّه يَدُلُّ على السنَّةِ، وكذلكَ أقوالُ الصحابةِ؛ لأَنَّهم قد شاهدوا الوحيَ والتَّنزيلَ، وأدرَكوا بقرائنِ الأحوالِ ما غابَ عن غيرهم، ورُبَّما لا تُحيطُ العباراتُ بما أَدرَكوا بالقرائنِ.

الضربُ الثاني: الفروعُ، وهو ما فُهِم من هذه الأصولِ، لا بموجبِ ألفاظِها، بل بمعانٍ تَنَبَّهَتْ لها العقولُ، فاتَّسعَ بسببها الفهمُ، حتى فُهِمَ مِنَ اللفظِ الملفوظُ وغيرُه، كما فُهِمَ من قوله ﷺ: «لا يَقضي القاضي وهو غَضبان»[1] أنَّه لا يقضي حاقِناً[2] ولا جائعاً.

الضربُ الثالثُ: المقدماتُ، وهيَ التي تجري مَجرى الآلاتِ، كعلمِ النحوِ واللغةِ، فإنهما آلةٌ لعلمِ كتابِ اللهِ تعالى وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ.

الضربُ الرابعُ: المتمماتُ، وذلكَ ينقسمُ في علمِ القرآنِ إلى ما يَتعلَّقُ باللَّفْظِ، كعلمِ القراءاتِ، ومخارجِ الحروفِ، وإلى ما يَتعلَّقُ بالمعنى كالتفسيرِ، وإلى ما يتعلَّقُ بأحكامه، كمعرفةِ الناسخِ والمنسوخِ، والعامِّ والخاصِّ، والنصِّ والظاهرِ، وهوَ العلمُ الذي يُسمى: أصولَ الفقه، ويَتناوَلُ السُّنَّةَ أيضاً.

وأما المُتمّماتُ في الأخبارِ والآثارِ، فهي: العلمُ بالرجالِ وأسمائِهم، وأسماءِ الصحابةِ وصفاتِهم، وعدالةِ الرواةِ وأحوالِهم، والعلمُ بأعمارِهم لتَمَيُّزِ المُسْنَدِ مِنَ المرسلِ.

فهذه هيَ العلومُ الشرعيةُ، وكلُّها محمودٌ، بل كُلُّها مِنْ فروضِ الكفاياتِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)، مِنْ حديث أبي بكرة مرفوعاً، ولفظ البخاري: «لا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بينَ اثنين وهو غضبان»، ولفظ مسلم: «لا يحكم أحدٌ بين اثنين وهو غضبان».

(٢) الحاقن: من زَحَمَهُ البولُ أو احتبسَ عليه: «اللسان»: (حقن).

فَصْلٌ
[في بيانِ علمِ المُعاملة]

فأمّا علمُ المعاملةِ، وهو علمُ أحوالِ القلبِ، كالخوفِ والرجاءِ، والرضا، والصدقِ، والإخلاصِ، إلى غير ذلك فيهِ ارتفعَ كبارُ العلماءِ، وبتحقيقِهِ اشتَهرتْ أذكارُهُم، كسفيانَ، ومالكٍ، والشافعيِّ، وأحمدَ رحمهم الله، وسيأتي من أخبارِهم في غضونِ كتابِنا ما يَدُلُّ على بُلوغِهِمْ نهايةَ المعاملة.

وقد أفردتُ لسفيان كتاباً كبيراً[1]، جمعتُ فيه أخبارَه وفضائِلَه، وللإمامِ أحمدَ أيضاً[2]، وذكرتُ مالكاً والشافعيَّ[3] في كتابي المسمى بـ «صفة الصفوةِ»، فلتطالعْ أخبارهم من تلكَ المواضعِ.

وإنَّما انْحطَّتْ رُتَبُ المُتَسَمِّينَ بالفقهاءِ والعُلَماءِ عن تلكَ المقاماتِ لتشاغُلِهم بصُوَرِ العِلْمِ من غيرِ أخذٍ على النَّفْسِ أن تبلُغَ إلى حقائِقِه، وتعملَ بخَفاياه، وأنتَ تجدُ الفقيهَ يَتَكَلَّمُ في اللِّعَانِ، والظِّهارِ، والسَّبْقِ، والرَّمي، ويُفَرِّعُ التفريعاتِ التي تَمْضي الدهورُ ولا يُحتاجُ إلى مسألةٍ منها، ولا يَتَكَلَّمُ في الإخلاصِ، ولا يُحَذِّرُ مِنَ الرِّياءِ، وهذا فرضُ عينِهِ الذي في إهمالِه هَلَاكُهُ، والأَوَّلُ فرضُ كفايةٍ.

ولو أَنَّه سُئِلَ عن عِلَّة تركِه المناقشَة للنفسِ في الإخلاصِ والرياءِ لم يكن له جوابٌ، ولو سُئِلَ عن عِلَّةِ تشاغُلِهِ بمسائِلِ اللِّعانِ والرمي لقال: هذا فرضُ كفايةٍ. ولقد صدقَ، ولكن خفيَ عليه أَنَّ الحسابَ فرضُ كفايةٍ أيضاً، فهلَّا تَشاغلَ به؟! وإنما تُبَهْرِجُ[4] عليهِ النفسُ، لأَنَّ مقصودَها مِنَ الرِّياءِ والسُّمعةِ يَحْصُلُ بالمناظرةِ لا بالحسابِ.

---

(١) يعني كتابه: «مناقب سفيان الثوري». انظر «مؤلفات ابن الجوزي» لعبد الحميد العلوجي: ٢٢٦ـ ٢٢٧.

(٢) يعني كتابه: «مناقب الإمام أحمد» وقد طُبع بدار هجر في القاهرة سنة ١٤٠٩هـ، ١٩٩٨م، بتحقيق الدكتور عبد الله التركي.

(٣) للمؤلف كتاب بعنوان «مناقب الشافعي». انظر «مؤلفات ابن الجوزي»: ٢٢٤.

(٤) البَهْرَجُ: الباطل والرديء، والبَهْرَجة: أن يَعْدِلَ بالشيء عن الجادَّةِ، أي: أن ينحرف عن الصواب. القاموس والسان: (بهرج).

البابُ الثالثُ

فيما يَعُدُّهُ العَامَّةُ مِنَ العُلومِ المحمودَةِ وليسَ منها وفيهِ بيانُ الوجهِ الذي يكونُ به بعضُ العلومِ مذموماً وبيانُ تبديلِ أسامي العلومِ وهي الفقهُ والعلمُ والتوحيدُ والتذكيرُ والحكمةُ وبيانُ القدرِ المحمودِ مِنَ العلومِ الشرعيةِ والقدرِ المذمومِ منها

اعلم أنَّ العلمَ لا يُذَمُّ لعَينِهِ، إنَّما يُذَمُّ في حَقِّ النَّاسِ لأَحَدِ أسبابٍ ثلاثةٍ:

الأَوَّلُ: أن يكونَ مُؤَدِّياً إلى ضررٍ، إمَّا بصاحبِه أو بغيرِه، كما يُذَمُّ عِلْمُ السِّحرِ والطِّلَّسْمَاتِ، وَقَدْ سُحِرَ رسول الله ﷺ ومَرِضَ بسببه[١].

والسحرُ نوعٌ يُسْتَفَادُ مِنَ العلمِ بِخَواصِّ الجوهرِ بأُمورٍ حسابيَّةٍ في مَطالعِ النجومِ، فَيُتَّخَذُ مِنْ تلكَ الجواهرِ هيكلٌ على صورةِ الشخصِ المسحورِ، ويُتَرَصَّدُ لَهُ وقتٌ مخصوصٌ في المطالعِ، ويُقْرَنُ به كلماتٌ يُتَلَفَّظُ بها مِنَ الكُفرِ والفُحْشِ، ويُتَوَسَّلُ بسببها إلى الاستعانةِ بالشياطينِ، ويَحصُلُ من مجموعِ ذلك بحُكْمِ إجراءِ اللهِ سبحانَهُ العادة[٢] أحوالٌ غريبةٌ في الشخصِ المسحورِ، فمعرفة[٣] هذه الأسبابِ من

(١) حديثُ سِحْر لَبيد بن الأعصم لرسولِ الله ﷺ حديثٌ صحيح، أخرجه البخاري (٥٧٦٣) ومسلم (٢١٨٩) وغيرُهما، وهذا الأمرُ لا يُنافي العصمة كما يعتقد جَهلةُ الناس، بل هو كأيِّ مرضٍ، لم يؤثِّر على الوحي والرسالة، ولا على قلبه وعقله عليه الصلاة والسلام.

(٢) من هنا بدأت نسخة المكتبة الظاهرية، وما قبله ساقط، ضاعت أوراقه بما يعادل اثنتي عشرة ورقة، فحسبه بعضهم أنه إحياء علوم الدين، فكتب اثنتا عشرة ورقة من الإحياء، وجعلها في أول الكتاب بدل الأوراق الساقطة، وهي مكتوبة بخط مختلف ونوع الورق مختلف أيضاً.

(٣) سقطت من (ظ)، وجاء بعدها: (فهذه) بدل: (هذه).

حيثُ أنَّها معرفةٌ ليست مذمومةً، ولكنّها ليست تصلُح إلَّا للإضرار بالخلق، والوسيلةُ إلى الشرِّ شرٌّ(١)، فلذلك وَقَعَ الذمُّ(٢).

والثاني: أنّ أحكامَ النجومِ تخمينٌ محضٌ، فالحُكْمُ به حُكْمٌ بجهلٍ، وإنّما تقعُ الإصابةُ اتفاقاً في بعضِ الأحوالِ(٣).

والثالث: أنَّه خوضٌ في فضولٍ لا تُغني، وتَضييعُ العمرِ النفيسِ بغيرِ فائدةٍ.

وأما السببُ الثالثُ في ذمِّ بعضِ العلوم: فهو الخوضُ في علمٍ لا يَستقلُّ الخائضُ فيه به، كتَعَلُّمِ(٤) دقيقِ العلوم قبل جَليِّها، والبحثِ عن أسرارِ الإلهيَّة، فإنَّ الفلاسفةَ والمتكلمينَ تطلَّعوا إلى ذلك ولم يَستقلُّوا به، فيجبُ كفُّ الناسِ عن البحثِ عن ذلك، وردُّهم إلى ما نطقَ الشرعُ به، ففيه مَقْنَع، فكم ممن خاضَ في ذلك فاستَضَرَّ، وقد يَضرُّ العلمُ بعضَ الناسِ، كما يَضرُّ اللحمُ الطفلَ الصغيرَ(٥)، فاقتصرْ على اتِّباعِ السنَّة، واحذَرْ من البحث عما لا تُؤمَنْ عاقبةُ البحثِ فيه(٦).

واعلم أنّ الأنبياءَ كالأطباءِ، وهم أعرفُ بالدواء، ورُبَّ شاكٍ إلى الطبيبِ مَرَضَ يده اليمنى وصفَ له أن يعالج اليدَ الأخرى، فاستَبعَدَ ذلكَ لجهله بانشعابِ

---

(١) سقطت من (ظ).

(٢) جمهور العلماء على تحريم تَعَلُّم السحر، أما ما هو مشتهر على ألسنة الناس «تعلموا السحر ولا تعملوا به» فهو حديث باطل لا أصل له، وهو كذب وافتراء على رسول الله ﷺ بل الصحيح حديث رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله والسحر» الحديث أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٣) ومثل هذا ما هو منتشر بين الجهلة من الناس من سماع وقراءة الأبراج من وسائل الإعلام، وهذه بدعة قبيحة منكرة، يصدق عليها حديث رسول الله ﷺ: «من أتى كاهناً أو عَرَّافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ» وهذا حديث صحيح، أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٤٢٩، ورجاله رجال الشيخين. وانظر البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨).

(٤) كذا في (ظ) والإحياء، وفي الأصل: «كتعليم».

(٥) سقطت من (ظ).

(٦) كذا في (ظ)، وفي الأصل: «عنه».

الأعصابِ ومنابتِها[١]، فكذلك أمورُ العقائد والآخرة، فيها لطائفُ ليس في قوةِ العقلِ الإحاطةُ بها، كما أنَّ في خواصِّ الأحجارِ أموراً خفيَ علمُها على[٢] أربابِ الصناعةِ، حتى إنَّه لم يَعرفْ أحدٌ[٣] منهم السببَ الذي به يجذبُ المغناطيسُ الحديدَ، فليكفِكَ من منفعة العقلِ أنْ يَدُلَّكَ على صدقِ الرسول ﷺ، ويُفَهِّمَك مواردَ إشاراته، ثم اعزله عن التصرُّفِ[٤]، ولازمِ الاتِّباعَ تَسلَم.

بيان ما بُدِّل من ألفاظِ العلوم

اعلم أن مَنْشأَ التباسِ العلومِ المذمومةِ بالعلومِ الشرعيَّةِ تحريفُ الأسامي المحمودةِ وتبديلُها، ونقلُها بالأغراضِ الفاسدةِ إلى معانٍ لم يُرِدْها السلفُ الصالح، وهي خمسةُ ألفاظٍ: الفقهُ والعلمُ والتوحيدُ والتذكيرُ والحكمةُ.

أما الفقهُ فإنَّهم تصرَّفوا فيه بالتخصيصِ لا بالنقل، فخصُّوه بمعرفةِ الفروعِ وعِلَلِها، ولقد كانَ اسمُ الفقهِ في العصرِ الأَوَّل مُطلَقاً على علمِ طريقِ الآخرةِ، ومعرفةِ دقائقِ آفاتِ النفوسِ ومُفْسِداتِ الأعمال، وقُوَّةِ الإحاطةِ بحقارةِ الدنيا، وشدَّةِ التطلُّعِ إلى نعيم الآخرة، واستيلاءِ الخوفِ على القلب، ويَدلُّك على ذلك قولُه تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وإنما يَحصُلُ[٥] الإنذارُ بما ذكرنا.

وقد سُئل سعدُ بن إبراهيم[٦]: أيُّ أهلِ المدينةِ أفقه؟ فقال: أتقاهم. وقال الحسن[٧]: إنما الفقيهُ الزاهدُ في الدنيا، الراغبُ في الآخرة، البصيرُ بدينه،

---

(١) كذا في الأصل والإحياء، وفي (ظ): (مبانيها).
(٢) في (ظ): «عن».
(٣) كذا في (ظ) والإحياء، وفي الأصل: «واحد».
(٤) في (ظ): «النظر».
(٥) في (ظ): «الأصل».
(٦) هو سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، تابعي جليل، توفي سنة ١٢٥هـ. «سير أعلام النبلاء» ٥/ ٤١٨.
(٧) يعني الحسن البصري.

المداومُ على عبادةِ ربه، الورِعُ، الكافُّ عن أعراضِ المسلمين، العفيفُ عن أموالهم، الناصحُ لهم.

قُلتُ[١]: ولسنا نعني أنَّ اسمَ الفقهِ لم يكن متناوِلاً للفتاوي، ولكن كان بطريقِ العمومِ والشمولِ والاستتباعِ، وكان إطلاقُهم له على علمِ الآخرةِ أكثر، فبان من هذا التخصيصِ تلبيسُ بعثِ الناسِ على التجرُّدِ[٢] لعلمِ الفتاوى الظاهرة، والإعراضِ عن علمِ المعاملةِ للآخرة.

اللفظ الثاني: العلمُ، وقد كان ذلك[٣] يُطلق على العلم بالله تعالى وبآياته، وأفعاله في عباده، فخصَّصُوه، وسَمَّوا به في الغالبِ المُناظرَ في مسائلِ الفقه، وإن كان جاهلاً بالتفسيرِ والأخبار.

اللفظ الثالث: التوحيدُ، وقد كان ذلكَ إشارةً إلى أن تُرى الأمورُ كُلُّها من الله رؤيةً تقطعُ الالتفاتَ إلى الأسبابِ والوسائطِ، فيُثمرُ ذلك التوكُّلَ والرضا، وقد جُعلَ الآنَ عبارةً عن صناعةِ[٤] الكلامِ في الأصول، وذلكَ من المنكراتِ عند السلف.

اللفظ الرابع: الذِّكرُ والتَّذكيرُ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنَّة فارتعوا» قالوا: وما رياضُ الجنَّة؟ قال: «مجالسُ الذِّكرِ»[٥].

فنقلوا ذلك إلى القصصِ وما يحتوي عليه اليومَ مجلسُ القاصِّ منَ الشطحِ[٦]

(١) في (ظ): «قال المصنف».
(٢) تجرَّدَ للأمر: جَدَّ فيه وتفرغ له دون غيره.
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في (ظ): «صياغة».
(٥) أخرجه أحمد ٣/ ١٥٠، والترمذي (٣٥١٠)، وأبو يعلى (٣٤٤٢) من حديث أنس، وقال الترمذي حديث حسن غريب. وأخرجه الحاكم ١/ ٤٩٤ من حديث جابر، والطبراني في (الكبير) (١١١٥٨) من حديث ابن عباس، فالحديث حسن بشواهده.
(٦) الشطح: هو كلام غير متزن، فيه رائحة رعونة ودعوى، يصدر في حال اضطراب، لا مساغَ له في الشريعة، فلا يقبل بحال؛ لأنه صادر ممن لا عصمة له، ولأن ظاهرَه مخالفٌ =

والطامات. وقد جَمعتُ كتاباً في القُصَّاص والمُذَكِّرين[١]، وذكرتُ المحمودَ والمذمومَ هنالك، إلَّا أني أُشيرُ هاهنا إلى ذلك، فأقول:

مَنْ تشاغَل بقصصِ الأَوَّلين في مجلسِ وعظه، فليعلم أن أكثرَ ما يُحكى في ذلك لا يثبت، كما ينقلون أنَّ يوسف عليه السلام حلَّ تِكَّتَه[٢]، وأنه رأى يعقوب عليه السلام عاضّاً على يده، وأن داود عليه السلام بَذْرَقَ[٣] بأورْيَاء حتى قُتِلَ[٤]، ومثلُ هذا يَضُرُّ[٥] سماعُه، وإن كانت تلك القصَّةُ[٦] من مجاهدات الرُّهبان فأكثرُ ما ينقل عنهم لا يجوز في شرعنا، فَيَستضرُّ العاميُّ بسماعِ ذلك؛ لأنَّه يَظُنُّ أن مثْلَ ذلك يُحتذى، كما يروى أن بعضهم ثقب تَرْقُوَتَهُ[٧].

وأما الشَّطْحُ والطَّامات فمن أشدِّ ما يؤذي العوام؛ لأنها تشتملُ على ذِكرِ المحبةِ والوِصالِ، وألمِ الفِراقِ، وعَامةُ الحاضرينَ أجلافٌ، وبواطنُهم محشوَّةٌ بالشَّهواتِ، وقلوبُهم ممتلئةٌ بحبِّ الصورِ، فلا يُحرِّكُ ذلكَ من قلوبهم إلا ما هو مُسْتَكِنٌّ فيها، فتشتعلُ فيها نارُ الشَّهوةِ، فيصيحونَ، وكلُّ ذلك فسادٌ، وربما احتوى الشَّطحُ على الدعاوى العريضة في محبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وربما استَشهدوا بقول أبي

= للشريعة، ولم يَذكر هذا اللفظَ أئمةُ اللغة في كتبهم، والظاهر أنها لفظة عامية. «تاج العروس»، و«كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم»: (شطح).

(١) هو كتاب «القُصَّاص والمُذَكِّرين» صدر عن المكتب الإسلامي، بتحقيق د. محمد لطفي الصبّاغ.

(٢) التِّكَّةُ: بكسر التاء: رباط السراويل، «القاموس المحيط»: (تك).

(٣) البَذْرَقَةُ: الحراسة والخفارة، وبَذْرَقَ بالرجلِ: أرسله يُقاتل حتى يُقْتَل. «تاج العروس»: (بَذرقَ).

(٤) يدعي اليهود كذباً أن داود عليه السلام أرسل أُورْيَاء ـ أحد قادة جنده ـ إلى الحرب، وتركه يقاتل حتى قُتل، ليتزوج زوجته، وهذا من الإسرائيليات الباطلة، التي يجب على المسلم تَنزيهُ سمعه عنها.

(٥) في (ظ): «مُضرٌّ».

(٦) في (ظ): «القضية».

(٧) التَّرْقُوَةَ: بفتح التاء ليس غير، وهو العظم بين ثُغْرَة النحر والعاتق، والجمع: تراقي وترايق، «القاموس المحيط»: (ترق).

يَزيد[١]: سبحاني. وبقول الحلَّاج[٢]: أنا الحق. وهذا فنٌّ عَظُمَ ضررُه، حتى تركَ جماعةٌ من الفلَّاحين فِلاحتَهم، وأظهروا مثلَ هذه الدعاوي.

اللفظُ الخامسُ: الحكمةُ، والحكمةُ: العِلمُ والعملُ به. قال ابنُ قُتَيبة[٣] رحمه الله: لا يكونُ الرجلُ حكيماً حتى يجمعَ العلمَ والعملَ. وقد صارَ هذا الاسمُ يُطلق على الطبيبِ والمنجِّمِ.

بيانُ القدْرِ المحمودِ منَ العلومِ المحمودةِ

اعلم أنَّ العلمَ بهذا الاعتبارِ ثلاثةُ أقسام:

١ـ قسمٌ هو[٤] مذمومٌ قليلُه وكثيرُه.

٢ـ وقسمٌ هو محمودٌ قليلُه وكثيرُه، وكلَّما كانَ أكثر كان أحسنَ وأفضلَ.

٣ـ وقسمٌ يُحمدُ منه مقدارُ الكفايةِ، ولا يُحمدُ الفاضلُ عليه والاستقصاءُ فيه. وهو مثلُ أحوالِ البَدنِ، فإن منه ما يُحمدُ قليلُه وكثيره، كالصحةِ والجمالِ، ومنه ما يُذَمُّ قليله وكثيره، كالقبحِ وسوءِ الخُلُق، ومنه ما يُحمد الاقتصادُ فيه، كبذلِ المالِ،

---

(١) هو أبو يزيد طَيفور بن عيسى البِسطامي، زاهد متصوف، كان جده مجوسياً فأسلم، قال الذهبي: وردت عنه أشياء مُشكلة لا مَساغ لها، فتُطوى ولا يحتج بها، توفي بِبِسطام سنة ٢٦١هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٣/ ٨٦.

(٢) هو حسين بن منصور الحلاج، متألِّهٌ زنديقٌ، كان يدعي العلمَ وهو فارغ من ذلك، ادعى النبوة أول أمره، ثم الإلهية، وقال بالحلول، روَّجَ له أهلُ الضلال والجهلةُ من الناس، أفتى علماء عصره بقتله بالإجماع لكفره وزندقته، فقُبِضَ عليه وسُجن سنة ٣٠١هـ، ثم أَمر الخليفةُ المقتدر بقتله وإحراق جثته، فقُطعت يداه ورجلاه، وضُربت عنقه، وأُحرقت جثته، ونُصِبَ رأسه على جسر بغداد، وذلك سنة ٣٠٩هـ. وقد صنَّف ابن الجوزي فيه كتاباً بعنوان: «القاطع بمُحال المحاج بحال الحلاج». يُنظر سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، لغويٌ أديب، وعلامةٌ مُصَنِّف من أهم كتبه: تأويل مختلف الحديث، أدب الكاتب، أدب القاضي، الشعر والشعراء، عيون الأخبار، وغيرها كثير، توفي سنة ٢٧٦هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٣/ ٢٩٦.

(٤) سقطت من الأصل، وأثبتت من (ظ) والإحياء.

فإنَّ التَّبذيرَ لا يُحمدُ فيه وهو بَذْلٌ، وكالشجاعةِ، فإن التهوُّرَ لا يُحمدُ فيها، وإن كانَ من جنسِ الشجاعةِ، وكذلكَ العلمُ.

فالقسم المذموم قليله وكثيره: ما لا فائدة فيه في دينٍ ولا دنيا، أو فيه ضَررٌ يغلبُ[١] نَفْعَه، كعلمِ السِّحرِ والطِّلَّمْسَاتِ والنجومِ، فصَرفُ العمر ـ الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان ـ إليه إضاعة، وإضاعة النفائس مذموم.

وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات[٢] الاستقصاء: فهو العلم بالله تعالى بصفاته وأفعاله، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإنَّ هذا علمٌ مطلوبٌ لذاته، وللتَّوَصُّل به إلى سعادة الآخرة، وهو البحر الذي لا يُدْرَك غورُه[٣]، وإنما يحوم المحوِّمون على سواحله وأطرافه بقدْر ما يُسِّرَ لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياءُ، والأولياءُ، والراسخون في العلم على اختلاف درجاتهم، بحسَب اختلاف قُوَّتهم، ويُعيْنُ على نَيلِ بعضِه المجاهدةُ والرياضةُ، وتَصفيةُ القلب، وتفريغُه من علائق الدنيا.

وأما العلوم التي لا يُحمدُ منها إلا مقدارٌ مخصوص: فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات، فإن في كل علمٍ منها اقتصاراً، وهو الأقل، واقتصاداً، وهو الوسط، واستقصاءً وراء الاقتصاد، لا مَردَّ له إلى آخر العمر.

فكن أحدَ رجلين: إمّا مشغولاً بنفسك، وإمّا متفرِّغاً إلى غيرك بعدَ الفراغ من نفسك، وإيَّاك أن تَشتغل بما يُصلح غيرَك قبل إصلاح نفسك، فإن كنت مشغولاً بنفسك، فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عينك، بِحَسْبِ ما يقتضيه حالُك، وانظر في المهمِّ المهْمَل، وهو صفات القلب وما يُحمد منها ويُذَمُّ، كالحرص والحسد والرِّياء والعُجب ونحو ذلك، فكلُّها مهلكاتٌ، والاشتغالُ

(١) بَعدها في (ظ): «على».
(٢) في الأصل: «غاية».
(٣) الغَوْر: القَعرُ من الشيء وعمقه وبُعده. «اللسان»: (غَورَ).

بالأعمال الظاهرة عن إصلاح هذه الأحوال، كطِلاءِ ظاهرِ البدن عند التأذِّي بالجَرَب والدّماميل(١)، مع التهاون بإخراج المادَّة بالفَصد(٢) والإسهال.

وعلماء الآخرة إنّما يُشيرون إلى تطهير الباطن، وقطْعِ موادِّ الشرِّ بقلع مغارسه التي في القلب، وإنّما فزِعَ الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة، وأعرضوا عن تطهير القلوب لسهولةِ أعمال الجوارح، وصعوبةِ أعمال القلوب، كما يَختارُ طليَ البدن مَن يستصعبُ شُربَ الدواءِ المرِّ.

فإن كنت مُريداً للآخرة وطالباً للنَّجاة، فانظر إلى العلل الباطنة، وعالجها بما سيأتي في ربع المُهلكات، فحينئذٍ تتأهّل للمقامات المحمودة، وإن لم تتفرَّغ لذلك، فلا تشتغل بفروض الكفايات، ففي الخلقِ خلقٌ كثيرٌ يقومون بذلك، فإن مُهْلِكَ نفسِه في طلب صلاحِ غيره سفيهٌ، ومَثَلُه كمَثَل من دخلت العقارب تحت ثيابه، وهو يَذُبُّ الذبابَ عن غيره، وإن تفرغتَ من نفسِكَ وتطهيرِها، وقَدَرْتَ على ترك ظاهر الإثم وباطنه ـ وما أبعد ذلك ـ فاشتغِل بفروض الكفايات، وراعِ التَّدريج في ذلك، فابتدِئ بكتاب الله عز وجل، ثم بسُنَّة رسوله ﷺ، ثم بعلوم القرآن من تفسيرٍ، وناسخ ومنسوخ، ومُحكَمٍ ومُتشابه، إلى غير ذلك، وكذلك في السنَّة، ثم اشتغل بالفروع، وأصول الفقه، وهكذا إلى بقية العلوم(٣)، على ما يتَّسِع له العُمُر، ويُساعد فيه الوقت، ولا تَستغرق عُمُركَ في فَنٍّ واحد منه طالباً للاستقصاء، فإنَّ العلمَ كثيرٌ، والعُمُرَ قصيرٌ، وهذه العلوم آلات، يُراد بها غيرُها، وكلُّ شيءٍ يُطلَبُ(٤) لغيرِه، فلا ينبغي أن يُنسى فيه المطلوب، وقد بَيَّنّا: أنه ما من علمٍ إلَّا وَلَه اقتصار واقتصاد واستقصاء، ونحن نُشير إلى ذلك:

---

(١) الدماميل: جمع دُمَّل ودُمَل، وهي: القروح. «اللسان»: (دمل).
(٢) الفَصد: هو إخراج الدم عن طريق شَق العِرْق للتداوي. «اللسان»: (فصد).
(٣) في (ظ): «العلم».
(٤) تحرفت في (ظ) إلى: «مطلب».

بيان الكتب المهمة لطالب العلم

فأما الاقتصار في **الأصول**: فالاعتمادُ فيه يصلُح على ما رتَّبناه في كتاب: «منتقد المعتقد»[(١)]، وأبسَط[(٢)] منه ما رتبناه في كتاب: «منهاج الوصول إلى علم الأصول»[(٣)]، ولا يصلح ما يزيد على ذلك.

وأما الاقتصارُ في **النحو**: فيصلُحُ الاعتمادُ[(٤)] فيه على «اللُّمع»[(٥)]، وكتابِ الجَرمي[(٦)]، وإذا اتَّسعَ الزمانُ لما يَزيدُ على ذلك من الكتبِ التي هي أكثرُ من ذلكَ، فلا بأس.

وأما اللغة: فينبغي الاعتماد منها على معرفة ما في كتاب الله عز وجل، وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وكلامِ السَّلفِ، ويكفي في ذلك كتاب: «الغريبَين»[(٧)] للهَرَوي[(٨)].

---

(١) كتاب «منتقد المعتقد»: هو جزء في علم أصول الفقه للمصنف، ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وابن رجب الحنبلي في «الذيل على طبقات الحنابلة»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (٥٠٢).

(٢) في (ظ): «أوسط».

(٣) كتاب «منهاج الوصول» ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وابن رجب في «الذيل»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وحاجي خليفة في «كشف الظنون»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي».

(٤) في (ظ): «الاقتصار».

(٥) هو كتاب «اللمع في العربية»، ومؤلفه: أبو الفتح عُثمان بن جِنِّي، من أحذق أئمة العربية في النحو والأدب والتصريف، مولده بالموصل قبل ٣٣٠هـ، توفي ببغداد سنة ٣٩٢هـ. سير أعلام النبلاء ١٧/١٧، ومعجم الأدباء ٤/ ٣٨١.

(٦) هو كتاب «مقدمة في النحو» ويعرف بالمختصَر، كان الجَرمي كلما صنف منه باباً صلى ركعتين بالمقام، ودعا بأن يُنتَفَع به. والجَرمي هو: أبو عمر صالح بن إسحاق البصري النحوي. من كبار علماء العربية، من كتبه: شرح غريب سيبويه، الأبنية، العروض، السِّيَر، القوافي، التثنية والجمع، التنبيه في النحو، توفي سنة ٢٢٥هـ: «سير أعلام النبلاء» ١٠/ ٥٦١.

(٧) هما كتاب: «غريب القرآن» و«غريب الحديث».

(٨) هو: أبو عُبيد القاسم بن سَلَّام الهروي، من رؤوس اللغة والحديث والفقه في عصره، من =

ومما يُفْتَقَرُ إلى معرفته في الكلام الدائر بين الناس كتاب: «إصلاحُ المنطق»[(١)]، و«أدبُ الكاتب»[(٢)]، و«معرفة ما يَلحن فيه العوام»[(٣)]، وفي كتابنا المسمى بـ «تقويم اللسان»[(٤)] كفاية في ذلك.

وأما الاقتصار في **التفسير**، فيصلُحُ الاعتمادُ [(٥]فيه على كتابنا المسمى بـ «تذكرة الأريب في غريب الغريب»[(٦)]، وأما الاقتصادُ فيه فيصلُحُ الاعتماد فيه[٥)] على كتابنا المسمى بـ «زاد المسير في علم التفسير»[(٧)]، وأما الاستقصاء فيه، فيصلح الاعتماد فيه[(٨)]

= كتبه: «الطهور»، و«الأمثال»، و«الأموال»، وغيرها، توفي سنة ٢٢٤هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٠/ ٤٩٠.

(١) كتاب (إصلاح المنطق) هو لابن السِّكِّيت، طبع في دار المعارف (مصر)، بتحقيق الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون، وابن السِّكِّيت هو:
أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق البغدادي النحوي، إمامٌ حجةٌ في العربية، من كتبه: «الألفاظ»، «الأضداد»، «القلب والإبدال»، «الأجناس»، توفي سنة ٢٢٤هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٢/ ٩٦.

(٢) كتاب «أدب الكاتب» هو لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، طبع في مؤسسة الرسالة بتحقيق الدكتور محمد الدالي.

(٣) كتاب «معرفة ما يلحن فيه العوام» هو لأبي الحسين علي بن حمزة الكسائي، نشرته مكتبة الخانجي بتحقيق رمضان عبد التواب.
وفي هذا الباب كتب منها: «خطأ العوام» للجواليقي، و«لحن العوام» لأبي بكر الزبيدي، ولابن الجوزي «غَلطات العوام» منه نسخة مخطوطة في مكتبة يحيى أفندي (استنبول) برقم (٤٣٩)، وله «ما يلحن فيه العامة» منه نسخة مخطوطة في مكتبة جامعة برنستون (أمريكا) برقم (٢٧٤٥).

(٤) كتاب: «تقويم اللسان» طبع بدار المعرفة بالقاهرة، بتحقيق عبد العزيز مطر، ولابن الجوزي كتاب آخر بعنوان: «تقويم اللغة»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (١٠٠) و(١٠١).

(٥ـ٥) سقط من (ظ).

(٦) هذا الكتاب طبع بعنوان: «تذكرة الأريب في تفسير الغريب» بدار المعارف (الرياض) بتحقيق علي حسين البواب، وانظر (مؤلفات ابن الجوزي) فله أسماءُ أُخرى.

(٧) كتاب «زاد المسير» صدر عن المكتب الإسلامي في تسعة أجزاء محققاً، سنة ١٣٨٤هـ.

(٨) سقطت من (ظ).

على كتابنا المسمى بـ «المغني في التفسير»[١]، وما وراء ذلك لا مُنتهى له.

وأما الحديث: فاعتمِد على الصَّحيحَين، وقد لَخَّص متونَهما أبو عبد الله الحُمَيدي[٢] فأحسن، وقد فسرناهما في كتابنا المسمى بـ «الكشف لمشكل الصحيحين»[٣]، فإن شئتَ أن تُضيفَ إلى ذلك زيادةً ففي كتابنا المسمى[٤] بـ «الحدائق»[٥] مقصودك، وإذا أردت الزيادة فطالع مسندَ الإمام أحمدَ[٦] رحمه الله، وسُنن أبي داود رحمه الله، [٧]وكتابنا الجامع للمسانيد[٨] عَلَّه يغني عن غيره،[٧] وأما

---

(١) كتاب «المغني في التفسير» ذكره ابن الجوزي في «القصاص والمذكرين» وابن رجب في «الذيل على الطبقات» والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (٤٥٣).

(٢) هو: أبو عبد الله محمد بن فُتُوح بن عبد الله الأزدي الحميدي، الإمام الحافظ، من كتبه: «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»، و«تسهيل السبيل إلى علم الترسيل» و«تفسير غريب ما في الصحيحين» توفي ببغداد سنة ٤٨٨هـ. «سير أعلام النبلاء» ١٩/ ١٢٠.
أما كتابه الذي أشار إليه المصنف فهو: «الجمع بين الصحيحين» رَتَّبَه مؤلفه على المسانيد لتسهيل مراجعة الطرق، وقد صدر عن دار ابن حزم في أربع مجلدات، بتحقيق: علي حسين البواب. وممن صنف في الجمع بين الصحيحين: أبو الفضائل الصاغاني، وأبو حفص عمر الموصلي.

(٣) كتاب «الكشف لمشكل الصحيحين» صدر عن دار الحديث بتحقيق د. مصطفى الذهبي، وقد رتبه محققه على صحيح البخاري، وهذا أنفع، وكان مؤلفه قد رتبه على المسانيد.

(٤) سقطت من (ظ).

(٥) كتاب «الحدائق» صدر عن دار الكتب العلمية بتحقيق مصطفى السبكي، وتوجد نسخة منه مخطوطة في مكتبة بايزيد خان في استنبول، وانظر (مؤلفات ابن الجوزي): (١٢٨).

(٦) صدر «مسند الإمام أحمد» عن مؤسسة الرسالة مؤخراً في طبعةٍ جديدة في (٥٠) جزءاً بتحقيق عدد من الأساتذة وإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، وقد حُققت هذه الطبعة تحقيقاً علمياً من حيث ضبط النص، والحكم على الحديث، وجمع طرقه، وبيان علله وكشف مُشكله، وحَلِّ مُعضلاته، وأُتبعت بفهارس علمية كثيرة تجعل المسند داني الجنى لكل طالب علم. ومن فضل الله عليَّ أني كنت من المشاركين في تحقيق هذا السِّفر العظيم.

(٧-٧) سقط من (ظ).

(٨) هو كتاب «الجامع للمسانيد بألخص الأسانيد» ذكره ابن الجوزي في كتاب: «القصاص والمذكرين»، وابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة»، وسبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وورد في (فهرست كتب ابن الجوزي): أنه استوعب غالب مسند أحمد

=

الاستقصاء فهو الذي لا يسعه العمر، من معرفةِ الرجال وأسمائهم، وجَرحِهم وتَعديلهم، واستيعابِ الطرق[١]، وكلُّ ذلك فضيلةٌ في حقِّ كُلِّ شخص، ولو أنَّ العمر يتسع كنا أمرنا بالاقتصاد في شيء من هذه العلوم؛ لأن الزيادة فيها مطلوبة، غيرَ أَنَّ العمر يضيق، فمتى صح التزيُّد مع إحكام الأصولِ المتعلقة بتهذيب النفس، فذلك الغاية.

وأما **الفقه**: فالاقتصار فيه على كتابنا المسمى بـ «أسباب الهداية لأرباب البداية»[٢]، فإنا قد أشرنا فيه إلى العبادات الخمس[٣]، فمن [٤]أراد الاطلاع على ما يزيد على ذلك، فكتابنا المسمى بـ «المُذْهَب في المَذْهب»[٥]، فمن[٦] أراد الاطلاع على ما يزيد على ذلك، فكتاب الخِرَقي[٧]، فإن أراد أكثر من ذلك فكتاب «الهداية»[٨] لأبي الخطاب[٤]، ومَن طلب الاستقصاء فعليه بكتاب

= والصحيحين وجامع الترمذي، ومنه نسخة مخطوطة في جامعة الدول العربية. انظر (مؤلفات ابن الجوزي): (١١٢) و(١١٣).

(١) من الكتب التي تختص بها: «تهذيب الكمال» للمزي، و«الجرح والتعديل» للرازي، و«ميزان الاعتدال» للذهبي، و«لسان الميزان» لابن حجر، و«التاريخ الكبير» و«الأوسط» للبخاري، وكتب الضعفاء وغيرها.

(٢) كتاب «أسباب الهداية» ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان» وابن رجب في «الذيل على طبقات الحنابلة»، والذهبي في «تاريخ الإسلام». انظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (٣١).

(٣) سقطت من الأصل.

(٤-٤) سقط من (ظ).

(٥) كتاب «المُذْهَب في المَذْهَب» ذكره سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، وابن رجب في «الذيل»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (٤٢٠).

(٦) سقط من الأصل.

(٧) هو الكتاب المشهور بـ (مختصر الخرقي) صدر عن المكتب الإسلامي بتحقيق الأستاذ زهير شاويش، وللكتاب شروح من أجلِّها: (المغني) لابن قدامة، صدر عن دار هجر بتحقيق د. عبد الله التركي.
أما الخِرَقي فهو: أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله البغدادي الخِرَقي الحنبلي، من كبار شيوخ الحنابلة، من أهل بغداد، ونسبته إلى بيع الثياب والخِرَق، تفقه بوالده، وأكثر التصنيف، رحل عن بغداد لما ظهر فيها سب الصحابة، وأودع كتبه داراً فاحترقت، بقي من كتبه «المختصر»، قدم دمشق وتوفي فيها سنة ٣٣٤هـ، ودُفِن في مقبرة الباب الصغير. «تاريخ بغداد» ١١/ ٢٣٤، و«سير أعلام النبلاء» ١٥/ ٣٦٣.

(٨) كتاب «الهداية» في الفروع، ذكره حاجي خليفة في (كشف الظنون) ٢/ ٢٠٣١، والذهبي =

«الفُصول»[١] لابن عقيلٍ رحمه الله.

وأما علمُ الخلافِ والمناظرةِ فقد رتَّبنا فيه كُتباً منها (جُنَّةُ النّظر)[٢]، ومنها «الدلائل الزَّواهر في المسائل الظَّواهر»[٣]، فمن حَسُنَ قصدُه لمعرفةِ الدليلِ فلا بأسَ له بالمناظرةِ، وقد كانَ السَّلفُ رضي الله عنهم يَقصدونَ بالنظرِ استخراجَ الحقِّ والاطِّلاعَ على عللِ الشرعِ، فأحدثَ المتأخرونَ الجدلَ[٤] الذي يَبْعُدُ عن ذوقِ الفقه، ويَخْرُجُ إلى المنافَسةِ والمباهاةِ.

= في «السيَر» ١٩/ ٣٤٩، وإسماعيل البغدادي في «هدية العارفين» ٦/ ٦، ومصنفه هو أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن الحسن الكلوذاني البغدادي شيخ الحنابلة في عصره، صنَّف: التمهيد، والانتصار، وعقيدة أهل الأثر، توفي ببغداد سنة (٥١٠هـ). «سير أعلام النبلاء» ١٩/ ٣٤٨.

(١) كتاب «الفصول» ذكره إسماعيل البغدادي في «هدية العارفين» ٥/ ٦٩٥، وابن رجب في «الذيل» ترجمة (٦٦)، وتوجد قطعة منه في مكتبة الأسد بدمشق برقم (٢٧٥٢)، ومصنفه هو: أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الظفَري شيخ الحنابلة في وقته، من تصانيفه كتاب «الفنون»، و«الواضح» في أصول الفقه، والجدل وغيرها، توفي سنة (٥١٣)هـ، «سير أعلام النبلاء» ١٩/ ٤٤٣.

(٢) كتاب «جنة النظر» ذكره ابن رجب في «الذيل» والبغدادي في «هدية العارفين»، وانظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (١٢٠).

(٣) لم نقف عليه بهذا الاسم، لكن ورد في «تذكرة الحفاظ» للذهبي «الدلائل في منثور المسائل»، وفي «الوافي بالوفيات» للصفدي: «الدلائل في مشتبه المسائل» وفي «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي: «الدلائل في مشهور المسائل». وينظر «مؤلفات ابن الجوزي»: (١٥٠) و(١٧٧).

(٤) الجدل: طريقة في المناقشة والاستدلال صورها الفلاسفة بصورٍ مختلفة وهو عند مناطقة المسلمين: قياسٌ مؤلف من مشهوراتٍ أو مُسَلَّمات. وقد صُنِّفَ فيه مصنفات عدة، منها: كتاب «الجدل على طريقة الفقهاء»، لابن عقيل البغدادي، وكتاب «عَلَمُ الجَذِل في عِلْم الجَدَل» للطوفي، و«الكافية في الجدل» للجويني.

الباب الرابع

في سببِ إقبالِ الناس على علم الخلاف وتفصيلِ آفات المناظرة والجَدَل، وشُروط إباحتها

لما تولّى الخلافةَ بعد رسول الله ﷺ الخلفاءُ الراشدونَ رضوانُ الله عليهم، وكانوا أئمةً علماءَ بالله، فقهاءَ في أحكام شَرعه، فلم يَحتاجوا إلى الاستعانة بالفُقهاء إلا على سبيل الندور، في وقائعَ لا يُستغنى فيها عنِ المشاورة، فَتَفرَّغَ العلماءُ لعلم الآخرة، وتَجرَّدوا لها، وكانوا يَتدافعون الفَتوى.

فلما صارتِ السَّلْطَنَةُ إلى أقوامٍ يَفتقرون إلى الفقهاءِ، طَلبوا الفقهاءَ، وكان قد بقيَ من التابعين مَن هو مُستمرٌّ على الطريق الأوَّل، فكانوا يَهربون منهم، فاشتَغل أقوامٌ بالفقه ـ إذْ رَأَوا عِزَّةَ أَهلِهِ ـ لإدراكِ الجاه، وتحصيلِ الدنيا، وطلبِ الولايات، ثم مالَ بعضُ السلاطين إلى الكلام في المعتقدات، فاشتَغلَ الناسُ بعلم الكلام، وَصنَّفوا فيه، وزعموا: إنَّ غرضَنا الذبُّ عن دين الله.

ثمَّ ظهرَ من السلاطينِ مَن لم يَسْتَصْوِبِ الخوضَ في الأصول، واستَحسنَ النظرَ في الفقهِ، فاشتَغلَ الناسُ بمسائل الخلاف بينَ أبي حنيفةَ والشافعي، وأعرضوا عن الخلاف مع مالكٍ وسفيانَ وأحمدَ رحمهم الله.

وزعموا أنَّ غرضَهم استنباطُ دقائقِ الشرع، وتقريرُ عللِ المذهب، ورتَّبوا[١] أنواعَ المجادلات، والله أعلم بالضمائر، وعليها يُجازي، ومن هذا الجنسِ مَيلُ أكثرِ الناسِ إلى الوعظ لاستجلابِ العوام بما يُميلُهم، و«إنما الأعمال بالنيات»[٢].

---

(١) في (ظ): «وزينوا».

(٢) أخرجه البخاري(١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

بيان التلبيس
في تشبيه هذه المناظرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات[1] السلف

أما التعاونُ على طلبِ الحقِّ فمِنَ الدينِ، إلَّا أنَّ له علاماتٍ، منها:

أن لا يَشتغلَ بالمناظرةِ ـ التي هي من فروضِ الكفايات ـ من لم يَتفرَّغْ مِن فروضِ الأعيانِ، فإنَّه إن فعلَ ذلكَ وزعمَ أنَّ مقصودَه الحقُّ، فهو كاذبٌ، ويكونُ كمن يتركُ الصلاةَ ثم يَنسُجُ الثيابَ ويَتَّجِرُ فيها، ويزعمُ أن غرضَه من ذلك سترُ عورةِ من يُصلي عُرياناً ولا يَجدُ ثوباً، أو كمن تَوَجَّه عليه رَدُّ وَديعةٍ في الحالِ، فقامَ يُحرِمُ بالصلاةِ فإنَّه لا يجوزُ له.

ومنه أن يَقصِدَ الحقَّ لا الغلبةَ.

ويُذْعِنَ للصوابِ.

وأن تكونَ المناظرةُ في الخلوةِ أَحبَّ إليهِ من المناظرة في المَحافلِ، وللأكابرِ الذينَ يُستفادُ منهم، لا لِمَن يُظَنُّ به العجزُ فَينقطع.

ولا يَمنعْ مناظِرَهُ مِنَ الانتقالِ عن دليلٍ إلى دليل، إن كان المقصودُ إصابةَ الصواب.

وأكثرُ المجالسِ اليومَ تنقضي في المدافعات والمجادلات، حتى إن المستدلَّ يقيسُ على أصلٍ بعلَّةٍ يظنُّها، فيُقال له: وما الدليلُ على أنَّ الحكمَ في الأصل معلَّلٌ بهذه العلة؟ فيقول: هذا[2] الذي ظهر لي، فإن ظهر لكَ ما هو أوضحُ من هذا فاذْكُرْهُ لي حتى أنظرَ فيه. فيقولُ المعترضُ: فيه معانٍ غير ما ذكرتَ، ولا أذكرُهُ لك، ولا يلزمني ذِكْرُه. فإن كان لا يعرفُ معنًى فقد كذب بدعواه: أني أعرف[3]، وإن كان صادقاً فقد أخفى ما عَلِمَه[4] من أمرِ الشرع عن أخيه المسلم، «ومَن كَتَم

(١) في (ظ): «ومشاورات».
(٢) في (ظ): «هو».
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في (ظ): «عرفه».

علماً عَلِمَه ألجمَهُ اللهُ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نار»[١]. وإنما يريد بقوله: لا يلزمني ذكره. أي: في شرعِ الجدَل الذي ابتدَعناه.

فأما مناظراتُ السلفِ فليسَ فيها من هذا الجنس، بل كانوا ينتقلون من دليلٍ إلى دليلٍ، ويذكرونَ كُلَّ ما يَخْطُرُ لهم.

فصل

في بيان آفات المناظرة ومَذموم أخلاق المُناظر

واعلم أنَّ المناظرةَ الموضوعةَ لقصدِ الغَلَبةِ والمباهاةِ منبعُ الأخلاق[٢] المذمومةِ، ولا يَسلَمُ صاحبُ هذه المناظرةِ من كِبرٍ لاحتقارِ المقصِّرين عنه، وعُجْبٍ بنفسِه لارتفاعِهِ على كثيرٍ من نظرائِهِ، وحَسَدٍ لمن هو أنظرُ منه، وحقدٍ على مناظرِهِ إذا أحسَّ منه بِقِلَّةِ مبالاةٍ بكلامِهِ، وغيبةٍ يَحكي بها مِنْ كلام مُناظِرِهِ ما يَدُلُّ على قصورِهِ. فإن كَذَبَ عليه فبهتان، وكراهيّةٍ لظهورِ الحقِّ على لسانِ خصمِهِ. وقد قال الشافعي رحمه الله: ما ناظرني أحدٌ فباليتُ مع أيِّنا كانت الحجة، فإن[٣] كانت معه صرتُ إليه[٤].

ومكابرةٍ[٥] على الحقِّ بعد وضوحه، قال الشافعي رحمه الله: ما قَبِلَ أحدٌ مني الحُجَّةَ إلا عَظُمَ في عيني، ولا دفَعَها إلا هانَ عندي.

ورياءٍ[٦]؛ لأن جمهورَ مقصود المُناظرِ اليومَ عِلْمُ الناسِ بغلبته، وانطلاقُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وروي عن عبد الله بن عمرو، وابن عمر، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وعمرو بن عبسة، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك وطلق بن علي رضي الله عنهم، ولا يخلو إسنادُ واحدٍ منهم من مقال، وأجودها حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ظ): «للأخلاق».

(٣) في (ظ): «إنْ».

(٤) «مناقب الشافعي» للبيهقي ١/ ١٧٣.

(٥) في (ظ): «ولا أكابره».

(٦) في (ظ): «ثم لا يسلم من رياء الخلق».

ألسنتهم بشكره[١] ومدحه، فهو يُذْهِبُ عُمُرَهُ في العلومِ التي تُعينُ على المناظرة، مما لا ينفع في الآخرة، كتحسين[٢] اللفظ، وحفظِ النوادر.

وتزكيةِ النفس بمدحِ كلامها، وفرحٍ بمَساءةِ خَصمه، فأين الإخاءُ المنعقدُ بالعلم بينَ أهله؟!

قال الشافعي رحمه الله: العلمُ[٣] بينَ أهلِ العقلِ رحمٌ متصل.

وكان الإمامُ أحمد رحمه الله يقول لابن الشافعي[٤] رحمه الله: أبوكَ من الستةِ الذينَ أدعو لهم وقتَ السحر[٥].

وهذه الرذائلُ لا يكادُ المناظرُ يخلو من بعضِها، وإنما غايةُ العاقلِ منهم أن يجاهدَ النفسَ في الحاصل منها.

فأما الرَّعاع[٦] من المناظرين فربما خَرَجوا إلى المجالدة[٧] عن المجادلة.

وهذه الآفاتُ المذكورةُ للواعظِ أيضاً، ولكلٍّ من يَطلُبُ علماً، إلا من وفقه الله لِحُسْنِ قَصْدِه، وقد قال النبي ﷺ: «أَشَدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالمٌ لا ينفعُهُ الله بعلمه»[٨].

---

(١) في (ظ): «بكثرة».
(٢) في (ظ): «لتحسين».
(٣) سقطت من (ظ).
(٤) هو محمد ابن الشافعي رحمهما الله، أكبر أولاد الشافعي، كان من أهل العلم، وتولى القضاء بالجزيرة وأعمالها، توفي فيها بعد سنة (٢٤٠ هـ). «طبقات الشافعية» للسبكي ٢/ ٧١.
(٥) أخرجه السبكي في «طبقات الشافعية» ٢/ ٧٢.
(٦) الرَّعاع هم سفلة الناس وسُقّاطهم وغَوغاؤهم: «اللسان»: (رعع).
(٧) المجالدة: أن يضرب القوم بعضهم. «اللسان»: (جلد).
(٨) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٥٠٧)، وابن عدي في «الكامل» ٣/ ٤٧٤ و٦/ ٢٦٩، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (١٧٧٨)، والخطيب في «الكفاية» ص ٢١ ـ ٢٢، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) ١/ ١٦٢، وأخرجه أبو القاسم الهمداني في «الفوائد» ١/ ١٩٦ والبيهقي في «الشُّعَب»: (٧٨٨٨) عن ابن عباس، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد»: (٤٠)، وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ٢٢٣ عن أبي الدرداء.

الباب الخامس

في آداب المُتعلِّم والمُعلِّم

آدابُ المتعلمِ كثيرةٌ، لكن تَنْظُمُ تفاريقَها تسعُ وظائف[(١)]:

الوظيفة الأولى: تقديمُ طهارةِ النَّفْسِ عن رذائلِ الأخلاقِ ومَذمومِ الصفات، إذِ العلمُ عبادةُ القلب، وصلاةُ السرِّ، وقُربةُ الباطنِ إلى اللهِ تعالى، وكما لا تصحُّ الصلاةُ التي هيَ وظيفة الجوارحِ الظاهرةِ إلَّا بتطهيرِ الظاهرِ عنِ الأحداثِ والأنجاسِ؛ فكذلكَ لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعِمَارةُ القلبِ بالعلم إلَّا بعدَ طهارتِه عن خبائثِ الأخلاقِ وأنجاسِ الأوصاف.

وخبائثُ الباطنِ أهمُّ بالاجتنابِ من خبائثِ الظاهر، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بيتاً فيه كَلْبٌ»[(٢)] فكيفَ يَدْخُلُ نورُ العِلْمِ بيتَ القلبِ المشحونِ بالهوى والشهوةِ، والحسدِ والحقدِ، والكبرِ والعُجْبِ، وكلُّها كلابٌ نابحة؟ لا بلِ القلبُ المشحونُ بهذه الأشياءِ قلبٌ في الصورةِ، وكلبٌ في المعنى.

فإن قيل: إنما أُزيلُ رذائلَ الأخلاقِ بالعلم، فكيفَ أرفعُها قبلَ العلمِ؟

فالجواب: إنَّ الرفعَ لهذهِ الرذائلِ هوَ العلمُ بأمرِ اللهِ، فإذا ارتفعت حصل العلمُ باللهِ، فأوجبَ معرفتَه.

الوظيفة الثانية: تقليلُ العلائقِ الشاغلةِ، ومتى تَوَزَّعَتِ الفكرةُ قَصُرَتْ عن إدراكِ الحقائقِ، فتكونُ كجدولٍ تَفَرَّقَ ماؤُه، فأنشفتِ الأرضُ بعضَه، واختطفَ الهواءُ

---

(١) في (ظ): «عشر جمل».

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦)، وغيرهما من حديث أبي طلحة، وتمامه: «ولا صورة»، وفي الباب عن علي وأبي أيوب وأبي أمامة وأبي رافع وابن عمر وابن عباس وابن عمرو وأسامة وبريدة وعائشة وميمونة رضي الله عنهم.

بعضَه، فلا يَبقى منه ما يَبلُغُ المُزْدَرَعَ[(١)]، فإن بقيَ لم يفِ بالسَّقي.

وقد كان السلفُ يؤثرونَ العلمَ على كُلِّ شيءٍ، فرُوي عنِ الإمامِ أحمدَ ابنِ حنبل رحمه الله، أنه لم يتزوج إلا بعدَ الأربعين[(٢)].

وأُهديَت إلى أبي بكر ابنِ الأنباري[(٣)] جاريةٌ، فَلمَّا دخلت عليه تَفكَّرَ في استخراج مسألةٍ، فعَزَبَتْ[(٤)] عن خاطِرِه، فقال: أخرجوها إلى النَّخَّاسِ[(٥)]. فقالت: هل لي من ذنبٍ؟ قال: لا، إلَّا أنَّ قلبي اشتغلَ بكِ، وما قَدْرُ مثلِكِ أن يمنَعني مِنْ علمي[(٦)].

وقد أنشدوا:

ما للمُعيلِ وللمعالي إنَّما ... يَسعى إلَيْهِنَّ الفَريدُ الواحدُ
كالشمسِ تجتابُ السماءَ وحيدةً ... وأبو بناتِ النَّعشِ[(٧)] فيها قاعدُ

الوظيفة الثالثة: أن يُلقيَ زمامَه إلى المعلم، إلقاءَ المريضِ زمامَ أمرِه إلى الطبيبِ، فيَتواضع له، ويُبالغ في خدمته، وقد كانَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما يأخذُ بركابِ زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه، ويقول: هكذا أُمرنا أن نفعلَ بالعلماء[(٨)].

---

(١) المزدرع: هو موضع الزرع، والشيء المزروع «القاموس واللسان»: (زرع).
(٢) «مناقب الإمام أحمد» للمصنف: ٤٠٢.
(٣) هو محمد بن القاسم بن بشار ابن الأنباري، أبو بكر المقرئ النحوي اللغوي، توفي سنة ٣٢٨هـ، صنف «الوقف والابتدا» و«المشكل». يُنظر «سير أعلام النبلاء» ١٥/ ٢٧٤.
(٤) عَزبت: غابت وذهبت. «اللسان»: (عزب).
(٥) النخاس: بائع الجواري والعبيد. «اللسان»: (نخس).
(٦) «تاريخ بغداد» ٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٧) بنات نعش: مجموعتا كواكب، كبرى وصغرى، كل منها سبعة كواكب، أربعة منها نَعشٌ، وثلاثُ بناتٌ، والواحد: ابن نعش. قيل: شُبِّهت بحَملة النعش في تربيعها. «اللسان»: (نعش).
(٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦٠، والفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٨٤، والطبري في الكبير ٥/ ٤٧٤٦، والحاكم في المستدرك ٣/ ٤٢٣ و٤٢٨، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٣١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ١٢٨، وصححه ابن حجر في الإصابة ٢/ ٥٩٤، والهيثمي في المجمع ٩/ ٣٤٥.

ومتى تكبَّر المتعلمُ أن يستفيدَ من غير مرموقٍ بالتقدُّمِ، فهو جاهلٌ؛ لأنَّ «الحكمةَ ضالَّةُ المؤمنِ، أينما وَجَدَها أخذَها»(١).

ثم يُحْضِرُ(٢) قلبَهُ، ويَجْمَعُ هَمَّهُ وَفَهْمَه، لتستويَ أجزاءُ القلبِ في تناولِ العلم استواءَ الأرضِ الدَّمِثَةِ في نَيلِ المطرِ، وَلْيَدَعْ رأيَهُ لرأيِ معلِّمِهِ، فإنَّ خطأَ المعلِّمِ أنفعُ للمتَعَلِّمِ مِنْ صَوَابِ نَفْسِهِ.

وقد نَبَّهَ اللهُ تعالى المتعلِّمينَ بقصَّةِ موسى والخَضِرِ بقوله: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

فإن قلتَ: كيفَ يُمنَعُ عنِ السؤالِ وبالسؤالِ يُنالُ العلمُ؟

فالجوابُ: أنَّه يَستأذنُ في السؤالِ، ثم يَسألُ، وقد قال أميرُ المؤمنينَ عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ من حقِّ العالم عليك أن تُسلِّم على القوم عامَّةً وتَخُصَّهُ بالتحيةِ، وأن تجلسَ أمامَهُ، ولا تُشيرنَّ عندَه بيدكَ، ولا تغمزَنَّ بعينكَ، ولا تُكثرْ عليه السؤالَ، ولا تُعنِتْه(٣) في الجوابِ، ولا تُلِحَّ عليه إذا كَسِلَ، ولا تُراجعْهُ إذا امتنعَ، ولا تأخذْ بثوبِهِ إذا نَهضَ، ولا تُفْشِ له سِرًّا، ولا تَغتابَنَّ عندَهُ أَحداً، ولا تَطلُبنَّ عَثْرتَه، وإن زَلَّ قَبِلتَ مَعذرتَه، ولا تقولنَّ له: سمعتُ فلاناً يقولُ كذا، ولا أنَّ فلاناً يقولُ خلافَكَ، ولا تَصِفَنَّ عندَه عالماً، ولا تَغْرَضْ(٤) من طول صُحبتِه، ولا ترفعْ نفسَكَ عن خِدْمَتِه، فإذا عَرَضَتْ له حاجةٌ سبقتَ القومَ إليها، كأَنَّما هوَ بمنزلَةِ النخلةِ تَنتظرُ متى يسقطُ عليك(٥) منها شيء(٦).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٢) من حديث أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً، وأخرجه القضاعي أيضاً (١٤٦) عن زيد بن أسلم مرسلاً.
(٢) في الأصل: «يخطر».
(٣) أي: ولا تُشَدِّد عليه فيه وتُلزمه بما يصعب عليه.
(٤) أي: لا تَضْجَر.
(٥) في (ظ): «عليه».
(٦) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٣٥٠)، و«الفقيه والمتفقه» ٢/ ٩٩، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» ١/ ١٢٩.

الوظيفة الرابعة: أن يحترزَ الخائضُ في العلمِ في مبدأ الأمرِ عنِ الإصغاءِ إلى اختلافِ الناسِ، سواءٌ كانَ ما خاض فيه من علومِ الدنيا أو علومِ الآخرة، فإنَّ ذلكَ يُحيِّرُ عقلَه، ويُفَتِّرُ ذِهنَه، ويُؤْيِسُه من الإدراكِ للمقصودِ، بل ينبغي أن يستأنسَ بطريقةِ شَيخِه، ثم يُصغي بعدَ ذلكَ إلى المذاهبِ والشُّبَهِ[١]، فإنْ لم يكن شيخُه مُشْتغلاً[٢] برأيٍ واحدٍ، وإنَّما عادتُه نقلُ المذاهبِ وما قيلَ فيها، فَلْيَحْتَرِزْ منه، فإنَّ إضلالَ هذا أكثرُ مِنْ إرشادِه.

الوظيفة الخامسة: أن لا يَدعَ فَنّاً مِنَ العلومِ المحمودةِ إلَّا وينظرَ فيه نظراً يَطَّلعُ به على مقصِده وغايَتِه، ثم إنْ ساعدَهُ العُمُرُ طلبَ التبحُّرَ فيه، وإلَّا اشتغلَ بِالأهمِّ منه، فإنَّ العلومَ على درجاتِها، إمَّا سالكةٌ بالعبدِ إلى الله سبحانَه، أو معينةٌ على السلوكِ نوعاً من الإعانةِ.

الوظيفة السادسة: أَنْ يأخذَ مِنْ كلِّ شيءٍ أحسنَه؛ لأَنَّ العُمُرَ لا يَتَّسِعُ لجميعِ العلومِ، ثم يَصرِفَ جَمَامَ[٣] قُوَّتِه إلى أشرفِ العلومِ، وهوَ العلمُ المتعلقُ بالآخرةِ، الذي به يُكتسَبُ اليقينُ الذي حَصَّلَه أبو بكر رضي الله عنه، حتى شهد له الرسول ﷺ، فقال: «ولكنْ بشَيءٍ وَقَرَ في صَدْرِه»[٤].

الوظيفة السابعة: أن يعرفَ السبب الذي به يُدْرَكُ شرفُ العلومِ، وأشرفُ العلومِ[٥] العلم بالله وملائكته وكتبه ورُسله، والعلمُ بالطريقِ الموصلِ إلى هذهِ العلوم.

---

(١) في (ظ): «والسنة».
(٢) في الأصل: «مستقلاً».
(٣) جَمام قوته، أي: كلَّ قوته وتَمامها.
(٤) قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٨٥): لا أصل لهذا مرفوعاً، وإنما يُعرف من قول بكر بن عبد الله المُزني: وذكره مُلّا علي القاري في «الأسرار المرفوعة» ص ٤٥٤، وابن القيم في «المنار المنيف» (٢٤٦) وقال: ومما وضعه جَهَلة المنتسبين إلى السنَّة في فضل الصديق. . . ـ فَسَاقَ أحاديثَ منها ـ: «ما سَبقكُم أبو بكر بكثرة صومٍ ولا صلاة، وإنما سبقكم بشيء وَقَرَ في صدره». وهذا من كلام أبي بكر بن عياش.
وذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»: ٢٦١ و٣٤٥، من كلام بكر بن عبد الله المزني.
(٥) في الأصل: «العلم».

الوظيفة الثامنة: أن يكونَ قصدُ المتعلمِ في الحالِ تَحليةَ باطنِهِ وتجميلَه بالفَضيلةِ، وفي المآلِ القربَ من اللهِ سبحانَه، والترقِّي إلى مجاورةِ المُقرَّبين، ولا يقصد به الرياسةَ والمالَ، ومباهاةَ الأقرانِ، ومتى صَحَّ قصدُه هذا لم يَطلبْ إلا علمَ الآخرة، فعلمُ الآخرةِ بالنسبةِ إلى غيرِه مِنَ العلومِ، كقصدِ المجاهدِ وجهَ اللهِ سبحانَه، فهذا له المَغنمُ[1] في الدنيا، والأجرُ في الآخرةِ، ولا شَكَّ في أن للرِّدءِ[2] في الجهادِ ثوابٌ، ولساقي الغُزاةِ الماءَ أجرٌ، ولحافظِ الدوابِّ، إلَّا أنَّ الأعلى هوَ الصادقُ في جهادِه.

الوظيفةُ التاسعةُ: أن يعلمَ نسبةَ العلومِ إلى المقصِد، ليؤثِرَ الرفيعَ القريبَ على البعيدِ، والمهمَّ على غيرِه، فإنَّ علمَ الفقهِ كإعداد الزادِ والراحلةِ، وتطهيرَ الباطنِ عن الكدرِ كسلوكِ البوادي وقطعِ العِقاب[3]، والعِلمَ بالله وصفاتِهِ وأفعالِهِ يجري مجرى نفسِ الحجِّ وأركانِه، ولكلِّ قومٍ مَرتبةٌ، فليسَ من أُخْبِرَ فَصَدَّقَ كمن شاهدَ وتَحقَّقَ.

واعلم أَنَّ الساعيَ إلى اللهِ عَزَّ وجلَّ لينالَ قُربَهُ هو القلبُ دونَ البدنِ، ولسنا نعني بالقلبِ اللحمَ المُحَسَّ، بل هو سِرٌّ من أسرارِ اللهِ تعالى، لا يُدرِكُهُ الحسُّ، ولَطيفةٌ من لطائفِهِ، تارةً يُعَبَّرُ عنها بالروحِ، وتارةً بالنفسِ المطمئِنَّةِ.

وقد عَبَّرَ الشرعُ عنهُ بالقلبِ؛ لأَنَّه المطيةُ الأولى، كذلك السرُّ، وبواسطَتِهِ صارَ جميعُ البدنِ مطيةً وآلةً لتلكَ اللطيفةِ، فهوَ كالناقةِ للبدنِ في طريقِ الحجِّ.

فالمتجردُ لعلمِ الفقهِ إذا لم يُجاهدْ نفسَهُ ولم يُصلحْ قلبَهُ، كالمتجردِ لشراءِ الناقةِ وعَلْفِها، وشراءِ المزادَةِ وخَرْزِها[4]، ولم يَسلُكْ باديةَ الحجِّ.

---

(١) في الأصل: «النعيم».

(٢) الرِّدْءُ: المعين والناصر، والقوي الذي يُعتمدُ عليه، وفلانٌ رِدْءٌ لفلان، أي: ينصرُهُ ويشدُّ ظهره. «القاموس واللسان»: (ردء).

(٣) العِقاب: جمع عَقَبة، وهي: طريقٌ في الجبل وَعْرٌ، أو هي: جبل طويل، يعرض للطريق، وهو صعب شديد «لسان العرب»: (عقب).

(٤) الخَرْزُ: خياطةُ الجلدِ بعضه على بعض (لسان العرب): (خرز).

والمستغرقُ عُمُرَهُ في مجادلاتِ الفقهِ، كالمُحْكِمِ للخيوطِ التي بها تُخرَزُ المزادةُ، ونسبةُ هذين إلى السالكِ لطريقِ إصلاحِ القلبِ كنِسبتهم إلى سالكي طريقِ الحجِّ ومُباشري أركانِهِ.

بَيانُ وَظائِفِ المُرْشِدِ المُعَلِّم

اعلم أَنَّ للإِنسانِ في علمِهِ أربعةُ أحوالٍ، كما له في اقتناءِ الأموال.

إذ لصاحبِ المالِ حالةُ استفادةٍ، فيكونُ مكتسِباً، وحالةُ ادِّخارٍ لِمَا اكتسبَهُ، فيكونُ به غَنيّاً عنِ السؤالِ، وحالةُ إنفاقٍ على نفسِه فيكونُ به منتفِعاً، وحالةُ بَذْلٍ لغيرِه، فيكونُ به سخيًّا مُتَفَضِّلاً، وهو أشرفُ أحوالِه، فكذلكَ العلمُ يُقتنى كالمالِ[1]، فلَهُ حالةُ طلبٍ واكتسابٍ، وحالةُ تحصيلٍ تُغني عنِ السؤالِ، وحالةُ استِبصارٍ، وهو التفكُّر في المُحَصَّلِ والتمتُّعُ به، وحالةُ تَبصيرٍ وهو أشرفُ الأحوالِ.

فمن عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّمَ فهو الذي يُدعى عظيماً في ملكوتِ السماءِ؛ لأَنَّه يكونُ كالشَّمْسِ [٢المضيئَةِ في نفسِها٢] المُضيئَةِ لغيرِها، وكالمسكِ الطيِّبِ في نفسِه المُطَيِّبِ لغيرِهِ.

فأمَّا الذي يُعَلِّمُ ولا يَعْمَلُ فكالكتابِ، يفيدُ غيرَه وهو خالٍ منَ العلم، والْمِسَنِّ الذي يَشحَذُ غيرَهُ ولا يَقطع، والإبرةِ تكسو غيرَها وهيَ عاريةٌ، وذُبَالَةِ[3] المصباحِ تُضيءُ لغيرِها وهيَ تحترقُ.

وإذا أقبلَ العالمُ على التعليمِ فقد تَقَلَّدَ أمراً عظيماً، فليحفظْ آدابَه ووظائفَه، وأمهاتُها ثمانيةٌ:

الوظيفةُ الأولى: الشَّفقةُ على المتعلمين، وأن يُجريهم مجرى بنيه، فإنَّ النبيَّ ﷺ

---

(١) في (ظ): «بالمال».

(٢-٢) سقط من الأصل.

(٣) الذُّبالة هي: الفتيلة، وجمعها: ذُبال. «اللسان»: (ذبل).

قال: «إنَّما أنا لكم كالوالد»[(١)]. فإنَّ قَصدَه إنقاذُهم مِنْ نارِ الآخرةِ، وهوَ أهمُّ من (٢إنقاذِ الأبوينِ ولدَهما من نارِ الدنيا٢)، ولذلك صارَ حقُّ المعلِّمِ أعظمَ مِنْ حَقِّ الوالدينِ، فإنَّ الوالدَ سببُ الوجودِ الحاضرِ، والحياةِ الفانيةِ، والمعلمُ هوَ المفيدُ للحياةِ الأُخرويةِ الدائمةِ، وكما أَنَّ حقَّ أبناءِ الرجلِ الواحدِ أن يَتَحابُّوا ويتعاوَنوا، فحقُّ تلامذةُ الرجلِ الواحدِ التحابُّ.

ولا يصحُّ ذلكَ إلَّا أن يكونَ مقصودُهم الآخرةَ، فأَمَّا إنْ كانَ مقصودُهُمُ الدنيا، فإنَّهُ يُوقِعُ بينَهمُ التحاسدَ والتباغضَ.

واعلم أَنَّ أبناءَ الآخرةِ مُسافرونَ إلى اللهِ سبحانَه وتعالى، وسالكونَ إليه الطريقَ، والسنونُ والشهورُ منازلُ الطريقِ، والترافقُ في الطريقِ للمسافرينَ، إلى الأمصارِ سببُ التوادِّ والتحابِّ، فكيفَ السفرُ إلى الفردوسِ الأعلى، والترافقُ في طريقه؟!

ولا ضَيقَ في سعاداتِ الآخرةِ، فلذلكَ لا يكونُ بينَ أبناءِ الآخرةِ تنازعٌ. ولا سَعَةَ في سعاداتِ الدنيا، فلذلكَ لا يَنفكُّ عن ضَيقِ التزاحُمِ.

والعادلونَ إلى طلبِ الرئاسةِ بالعلومِ خارجونَ عن مُوجبِ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] داخلونَ في مُقتضى قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الوظيفة الثانيةُ: أن يقتديَ بصاحبِ الشرعِ ﷺ، فلا يَطلبُ على إفاضةِ العلمِ أجراً، ولا يَقصُدُ به جزاءً ولا شكراً، بل يُعَلِّمُ لوجهِ اللهِ سبحانَه، والتقربِ إليه، ولا يَرى لنفسِهِ مِنَّةً على المُتَعَلِّمينَ، بل يَرى الفضلَ لهم، إذ هَيَّأوا قُلوبَهم للتقرُّب على المُتَعَلِّمينَ، بل يَرى الفضلَ لهم، إذ هَيَّأُوا قُلوبَهم للتقرُّبِ إلى الله سبحانه

---

(١) أخرجه الشافعي في «المسند» (٦٤): بترتيب السندي، وأحمد (٧٣٦٨) و(٧٤٠٩)، وأبو داود (٨)، والنسائي ١/٣٨، وابن ماجه (٣١٣)، وابن خزيمة (٨٠)، وابن حبان (١٤٣١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢-٢) سقط من الأصل.

بزراعةِ العلم فيها، فهم كالذي يُعيرُ الأرضَ لمن يزرعُ فيها، فإنَّ انتفاعَ صاحبِ الزرعِ أكثرُ من انتفاعِ صاحبِ الأرضِ، فكذلكَ ثوابُ المُعَلِّمِ أكثرُ من ثوابِ المُتَعَلِّمِ، ولولا المُتَعَلِّمُ ما نالَ المُعلِّمُ أجرَ التعليم.

ولا ينبغي أن يطلبَ المعلمُ الأجرَ إلَّا مِنَ اللهِ سبحانَهُ، وقد كان مُعلِّمو السَّلفِ يمتنعونَ عن قَبولِ هَدِيَّةِ المتعلِّم.

قال جريرُ بنُ عبدِ الحميد: مَرَّ بنا حمزةُ الزيات، فاستسقى ماءً، فلمَّا أردتُ أن أُناوِلَه قال: أنتَ هو؟ قلتُ: نعم. قال: أليسَ تَحْضُرُنا في القراءة؟ قلتُ: نعم. قال: رُدَّهُ. وأبى أن يَشربَ(١).

وقال مَتُّ البلخي(٢): أهديتُ لسفيانَ الثوريِّ رحمه اللهُ ثوباً، فردَّه عليَّ، فقلتُ: يا أبا عبد الله، لستُ أنا ممن يَسمعُ الحديثَ حتى تَرُدَّ عليَّ. فقال: قد علمتُ، ولكنْ أخوكَ يَسمَعُ مِنِّي الحديثَ، فأخافُ أن يَلينَ قلبي لأخيكَ أكثر مما يلينُ لغيره.

وقال الحسنُ بنُ الربيع: كنتُ عند عبد الله بنِ إدريس، فلما قمتُ قال: سَلْ عن سعرِ الأُشْنانِ(٣). فلما مشيتُ رَدَّني وقال: لا تَسأَلْ عنهُ، فإنكَ تكتبُ مِنِّي الحديثَ، وأنا أكرَهُ أَنْ أَسأَلَ من يَسمعُ مِنِّي الحديثَ حاجةً.

وجاءَ رجلٌ إلى الإمامِ أحمدَ رحمه الله بدواءٍ لجربٍ كانَ به، فأخذَه ثُمَّ ردَّه عليه، فقيل له: لمَ رَدَدْتَه؟ فقال: أنتم تسمعونَ مِنِّي(٤).

الوظيفةُ الثالثةُ: أن لا يَدَّخِرَ مِنْ نُصحِ المتعلِّمِ شيئاً، مثلَ أن يمنعَهُ مِنَ التشاغلِ

---

(١) «معرفة القراء الكبار» ١/١١٦.

(٢) هو عبد الله بن محمد بن سَورة البلخي، ولقبُه: مَتٌّ، وهو اسمٌ أعجميٌّ. «نزهة الألباب» (٢٤٨٨)، ولم أجد من ترجمه، وجاء في هامش (ظ): «البلخي مَتٌّ بالتاء المعجمة بنقطتين، كذا هو بخطِّ الشيخِ المصنِّفِ» اهـ. قلت: يَدُلُّ هذا على أَنَّ نسخةَ (ظ) نُسِخَتْ عن نسخةِ الإمامِ ابنِ الجوزي المصنِّفِ رحمه الله تعالى.

(٣) الأشنان: دواء تُغسَل به الأيدي والثياب، نافع للجرب والحكة وله منافع أخرى. «اللسان» (أشن).

(٤) «مناقب الإمام أحمد» للمصنف: ٣٥٥.

بعلم خَفيٍّ قبلَ الفراغِ منَ الجَليِّ، ويمنعَه من التَّصدي لرتبةٍ قبلَ استحقاقِها، وينبهَهُ على أنَّ المطلوبَ مِنَ العلومِ القربُ مِنَ الله تعالى دونَ الرياسةِ والمباهاة، ويُقدِّمَ تقبيحَ ذلكَ في نفسِهِ، وذلكَ يَبينُ له بما يَطلُبُه المتعلمُ من العلم، مثلَ علوم الجدلِ والكلام، فإن رآه يتعلَّمُ التفسيرَ والحديثَ والمواعظَ وعَلِمَ أنَّ قَصْدَهُ بذلكَ الدنيا لم يمنعْهُ من التَّعَلُّم، ولكنَّه يُدْرِجُ له النَّصيحةَ ويُنبِهُهُ عليها؛ لأنَّ فيما يَتَعَلَّمُهُ صاداً عن ذلكَ القصدِ الفاسدِ.

وقد رُؤيَ سفيانُ الثوريُّ يوماً حزيناً، فقيلَ له: ما لَكَ؟ فقال: صِرنا متجراً لأبناءِ الدنيا، يَلزمُنا أَحدُهم، فإذا تَعَلَّمَ جُعِلَ عاملاً[١] أو قاضياً.

الوظيفة الرابعة: وهي من دقائقِ التعليمِ، أَنْ يَزجُرَ المُتَعَلِّمَ عن سوءِ الأخلاقِ، بطريقِ التعريضِ مهما أمكن، لا على وجهِ التوبيخِ، فإنَّ التصريحَ يَهتِكُ حجابَ الهيبةِ، ويورثُ الجرأةَ على الهجومِ بالخلافِ، والتعريضُ يُحرِّكُ الذهنَ إلى استنباطِ معاني ذلك.

الوظيفة الخامسةُ: أَنَّ المُتَكَفِّلَ ببعضِ العلومِ، لا ينبغي أن يُقَبِّحَ في نفسِ المُتعلِّمِ العلومَ التي وراءَ عِلْمِهِ، كمُعلِّمِ اللغةِ، فإنَّه لا يَجوزُ أن يُقَبِّحَ عِلْمَ الفقهِ، ومُعلِّمِ الفقهِ لا يجوزُ أن يُقَبِّحَ التشاغلَ بالحديثِ، بل ينبغي أن يُوسِّعَ على المتعلِّمِ طريقَ التَّعلُّمِ[٢] من غَيره[٣] ما لا يَعرِفُهُ، وإن كان هو كافلاً بكثيرٍ من العلومِ، دَرَّجَ المتعلِّمَ مِنْ رُتبةٍ إلى رُتبةٍ.

الوظيفة السادسة: أن يَنظرَ في فهمِ المتعلِّمِ ومِقدارِ عقلِهِ، فلا يُلقي إليه ما لا يُدركُه فَهمُهُ، ولا يُحيطُ به عَقلُهُ، فقد رُويَ عن النبي ﷺ أَنَّه قال: «أُمرنا أن نُكلِّمَ الناسَ على قدْرِ عقولِهِمْ»[٤].

---

(١) أي: والياً.

(٢) في (ظ): «التعليم».

(٣) في (ظ): «غير».

(٤) حديث ضعيف، وانظر «كشف الخفاء» (٥٩٢)، و«تخريج أحاديث الإحياء»: (٣٣٠٢). وقد =

وقال علي رضي الله عنه: إن ها هنا علماً جماً ـ وأشار إلى صدره ـ لو أصبتُ له حَمَلَةً(١).

وهذا صحيحٌ، فَإِنَّه لا يَجوزُ لعالـمٍ، في جوهَرِهِ فَهْمُ شيءٍ، أن يُلقيَهُ إلى من يَعْجَزُ عن حملِهِ. وقد نَبَّهَ على هذا قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥].

وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

أَأَنْثُرُ دُرًّا بَينَ سَارِحَةِ النَّعَمْ ... أَأَنْظُمُ مَنْثُوراً لِرَاعِيَةِ الغَنَمْ

ومَنْ مَنَحَ الجُهَّالَ عِلْماً أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ المُستَوجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ(٢)

الوظيفة السابعة: أَنَّ المُتعلِّمَ القاصرَ ينبغي أن يُلقى إليه الجَليُّ اللائقُ به، ولا يُذْكَرُ له أَنَّ وراءَ هذا تدقيقاً، وأَنَّه مستورٌ عنك؛ لأنَّ هذا يُفَتِّرُ رغبتهُ في الجليِّ، ويُخيِّلُ إليه البخلُ بذلك عنه؛ لأَنَّه يَظُنُّ مِنْ نفسِهِ أَنَّه يُدرِكُ الخفيَّ.

مثال هذا: أنك(٣) إذا رأيتَ العاميَّ يعتقدُ المنقولاتِ في الصفات، ويقول: لا أُشَبِّهُ ولا أَتأَوَّلُ، فلا يُغَيَّرُ عليه حالُه، فإنه لو ذُكِرَ له تأويلٌ لبعضِ الظواهرِ انحلَّ عنه قيدُ العوام، ولم يَتَيَسَّر تقييدُه بقيدِ الخواص، فيتأذى.

ولا ينبغي أن يُخاضَ بالعوام في حقائقِ العلومِ الدقيقةِ، بل تُملأُ قلوبُهم من الرَّغبة والرَّهبة بذكر الجنة والنار، ولا يُحرَّكُ عليهم شُبهة؛ لأنه رُبَّما تعلَّقتِ الشبهةُ بقلوبهم وعَسُرَ حَلُّها فهلكوا.

= صح عن علي رضي الله عنه من كلامه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله. أخرجه البخاري (١٢٧)، ومن كلام ابن مسعود: ما أنت مُحدِّثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، أخرجه مسلم في (مقدمة صحيحه): (باب: ٣).

(١) تقدم في الصفحة: ١٨.

(٢) أوردهما البيهقي في «مناقب الشافعي» ٢/ ٧٢، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» ٩/ ١٥٣، والسبكي في «طبقات الشافعية» ١/ ٢٩٤.

(٣) ليست في الأصل.

وفي الجملة لا ينبغي أن يُفتَح لهم بابُ البحث، فإنه يُخَبِّط عليهمُ العقائدَ، ويُبطلُ عليهمُ المعايشَ.

الوظيفة الثامنة: أن يكون المُعَلِّمُ عاملاً بعلمه، لا يُكذِّب قولُه بفعله[1]؛ لأنَّ العِلمَ يُدرَكُ بالبصائر، والعملَ بالأبصارِ، وأربابُ الأبصارِ أكثرُ، فإذا خالفَ العملُ العلمَ منع الرَّشدَ، وكلُّ من تناولَ شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنَّه سُمٌّ مُهلكٌ، سخر الناس به، واتهموه، وزادَ حرصُهم على ما منعَ منه، فيقولون: لولا أنه أطيبُ الأشياء وألذُّها ما كان يستأثرُ به، قال الله عزَّ وجَلّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

ويُروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: قَصَم ظهري رجلان: عالِمٌ مُتهتِّكٌ، وجاهلٌ مُتَنَسِّكٌ، فالجاهلُ يغرُّ الناسَ بِتَنَسُّكِه، والعالمُ يُنَفِّرُهُمْ بِتَهَتُّكِهِ.

وقال الشاعر:

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتيَ مِثْلَهُ　　عارٌ عليكَ إذا فَعَلْتَ عظيمُ[2]

---

(١) في الأصل: «فعله».

(٢) البيت لأبي الأسود الدُّؤلي على الأرجح، وهو في «ديوانه»: ٤٠٤، و«خزانة الأدب» ٣/ ٦١٨، و«شرح الشذور»: ٣١٠، وينسب البيت أيضاً للأخطل، والسابق البربري، والطِّرِمَّاح كما في «خزانة الأدب»، وينسب للمتوكل الليثي كما في «العقد الفريد» ٢/ ٣١١، ولحسان بن ثابت كما في «شرح أبيات سيبويه» ٢/ ١٨٨.

الباب السادس

آفاتُ العلم وبَيان علامات عُلماء الآخرة وعُلماء السُّوء

عُلماءُ السُّوء هم الذين قَصدُهم من العلم التَّنعُّم بالدُّنيا، والتوصل إلى المنزلة عند أهلها، وقد ضَرَبَ اللهُ تعالى للعالم إذا لم يعمل بعلمه مثلاً فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقد قال ﷺ: «مَن تعلَّم العلم ليُباهي به العُلماء أو يُماري به السُّفهاء أو يَصرف به وجوه الناس، فهو في النار»[١]، وقال ﷺ: «لا تَعلَّموا العِلم لتُباهوا به العلماء، ولا لتُماروا به السُّفَهاء، ولا لتُحبِّروا[٢] به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[٣].

أخبرنا ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا شُريح بن النُّعمان قال: حدَّثنا فُلَيح عن عبد الله بن عبد الرحمن أبي طُوالَة عن سعيد بن يَسار عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من تَعلَّم علماً مما يُبْتَغَى به وجهُ الله عزَّ وجل، لا يتعلمه إلا ليُصيب به عَرَضاً من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يومَ القِيامة»[٤] يعني: ريحها.

قال أحمد: وحدثنا وكيع قال: حدَّثنا حَماد بن سلَمة عن علي بن زيد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على قومٍ تُقرضُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥)، وقال: هذا حديث غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير بنحوه.

(٢) تصحفت في (ظ) إلى: «لتخيروا».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، والحاكم ١/ ٨٦، وابن حبان في صحيحه (٧٧) من حديث جابر.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥١٧)، وابن ماجه (٢٥٢)، والحاكم ١/ ٨٥ وقال: حديث صحيح سنده، ثقاتٌ رواته، على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

شِفاهُهم بمقَاريضَ من نار، قلتُ: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: خُطباءُ من أُمتك أهلِ الدنيا، كانوا يأمرون الناس بالبر ويَنسون أنفسهم وهم يَتلون الكتاب، أفلا يعقلون»[(١)].

أخبرنا عبدُ الأوَّل بن عيسى قال: أنبأنا الداودي قال: أنبأنا ابن أَعْين السَّرخسي قال: أنبأنا الفِرَبْري قال: أَنبأنا البخاري قال: أنبأنا علي بنُ عبد الله قال: حدَّثنا سُفيان قال: حدثنا الأعمش عن أبي وائل عن أُسامة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرَّجلِ يومَ القِيامة، فيُلقى في النار، فَتَندلق أَقْتَابُه، فيدور كما يدور الحمار برَحاه، فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليسَ كنتَ تأمُرنا بالمعروف وتَنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأَنهاكم عن المنكر وآتيه» أخرجاه في الصحيحين[(٢)]. وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أول الناس يُقضي فيه يوم القيامة ثلاثةٌ: . . . رَجلٌ تعلَّمَ العِلمَ، وعلَّمه، وقرأ القرآنَ، فَأُتيَ به فعرَّفه نِعمه فَعرَفها، فقال: ما عَمِلتَ فيها؟ قال: تعلمتُ فيك العلم وعلَّمتُه، وقرأتُ القرآنَ. فقال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ ليُقال: هو عالمٌ، فقد قيل، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ: هو قارِئٌ، فقد قيل. ثم أُمِرَ به فسُحب على وَجهه حتى أُلقي في النار»[(٣)] وذكر باقي الحديث، وسيأتي في كتاب الرِّياء إن شاء الله تعالى

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: يا مَعشر العُلماء، إلى متى تصفون الطريق للمُدْلجين وأنتم مُقيمون مع المُتحيِّرين، مَثلكم مَثل الدِّفْلَى[(٤)] يُعْجبُ وَردُه من نَظر إليه ويَقتل طَعمه من أَكَله، كَلامكم يُبرِئُ الدَّاء، وأعمالكم دَاءٌ لا يَقبل الدواء، الحِكمة تخرج من أَفواهكم وليس بينَها وبين آذانكم إلا أربع أصابع ثم لا تَعيها قلوبكم، معشر العلماء، كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلامَ ليخبر به،

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٢٠، (١٢٢١١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٤) الدِّفلى: نبتُ مرٌّ قَتّال، زهره كالورد الأحمر، وحمله كالخرنوب. القاموس المحيط: (دفل).

ولا يطلبه ليعمل به، العلم فوق رؤوسكم، والعمل تحت أَقدامكم، فلا أحرارٌ كِرامٌ، ولا عَبيدٌ أَتقياء.

وقال بعضُ السلف: أشدُّ الناس ندامةً عند الموت؛ عالم مُفرط.

وكتبَ حكيمٌ إلى حكيم: إنك قد أوتيتَ علماً فلا تُدنِّس عِلمكَ بظُلمة الذنوب، فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وقال سُفيان بن عُيينة: العلم يضرك إن لم ينفعك. وهذا صحيح، فإنه يزيد في الحجة على صاحبه، فالعالم الذي لا يَعمل به أشد عذاباً من الجاهل.

واعلم أن المأخوذ على العالِم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهداً ولا مُعرِضاً عن المُباحات، إلا أنه ينبغي له أن يتقلّل من الدنيا مهما استطاعَ، فإن دليل الفعل آكد من دليل القول؛ لأن مَنْ ذَمَّ الدنيا واستَوعب مُباحَها لم تَفهم العامة عنه ما ذَمَّ، على أنه إذا تحقق علمه قَنع باليسير من الدنيا ودخل في جملة الزُّهاد عملاً بالفضائل ومزاحمةً على المناقب، إلا أنه ليس كل جسم يقبل التقلُّل، ولا يطيق خشونة العيش.

ومِن الغَلط إنكارُ الجهال على العالم إذا رفق بنفسه في مَطعمه ومَلبَسه خُصوصاً عند كبر السن، فقد كان الحَسن البصري كثيراً ما يأكل اللَّحم، فيقال له، فيَقول: نعم لا صحناهُ[1] فرقَد، ولا رَغيفي مالك. ولبسَ يوماً ثوباً جَيداً فجعل فَرْقَد يلمَسُه ويَتعجب، وكان على فَرقد كساء فقال له الحسن: أما بَلغك أن أكثر أهل النار أصحاب الأَكْسِية. يشير إلى الرهبان.

وكان سُفيان الثوري حَسن المطعم، وقال: إنَّ الدابة إذا لم تُحسن إليها في علفها لم تَعمل.

وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يصبر من خشونة العيش على أمرٍ عظيم، فالطباع تتفاوت، فإياك أن تُنكر على العالم مباحاً استعمله، كما أنكر حاتم الأَصم

(١) الصَّحناة: إدامٌ يُتخذ من السَّمك الصغار مُشَهٍ مصلح للمعدة. القاموس المحيط: (صحن).

على مُحمد بن مُقاتل قاضي الرَّي توسُّعَه في المُباحات، وقد ذكرتُ حكايته معه في «تلبيس إبليس» وبينتُ أن طلب العامي من الفقيه أن يكون معرضاً عن المباحات جهلٌ من العامي، وظنٌّ أن المباح مذموم، وهذا فَساد تَلمُّح، فإنَّ اللهَ تعالى لا يُبيح ما يُذَمُّ فاعله. إلا أَنّا قد بَينّا أن الأَولى بالعالم رَفض كل ما يُستَغنى عنه من المباحات لئلا يَستكثر منها مَن لم يعرف كيفية استعمال العالم لها؛ لأن العالم كالطبيب وإذا خلط لم يقبل قوله، وإن كان تخليطه بعلم. على أنَّ الاستكثار من المباحات يوجب الأُنس بها ولا تكاد تُنال إلا بشُبهاتٍ.

فقد بانَ لك بما ذكرنا غلط من يذم المباحات مطلقاً من العوام وجُهّال الزُّهاد، وكل ذلك لقلَّة العلم حتى أن خلقاً من المُتَزهِّدين دَفنوا كُتب العلم، وقالوا: المقصود العمل. وقد بيَّنا فيما تقدَّم أن العلم أفضل الأعمال؛ لأنه يحصل بالقلب بخلاف الأعمال التي تَحصل بالبَدن، ونَشْرُه مع صِحة النية أفضل من كل نافلةٍ، وقد حصل لهم في دَفن الكُتب محنٌ منها: إطفاءُ مِصباح الطريق، وهو العلم، فإنه نورُ السالك. ومنها: إفسادُ المال، وذلك حرام. ومِنها: مَحْوُ الشَّرع، فإن العلماء تَعِبوا في جمع الأحاديث وتصنيفها، فَمَن دفنها فَقد محاها وضَادَّ المقصود من قوله ﷺ: «بَلِّغوا عَنّي»[1] وقوله: «نَضَّر اللهُ امرأً سَمع مَقالتي فَوعاها، فأداها كما سمعها»[2].

وفيهم من احتج بأني اشتهي أن أُحَدِّث، فأنا أمنع نفسي شَهوتها. وهذه حيلةٌ من إبليس ليمنع نَشْرَ العلم، فإن فَرَحَ النفس بالإمارة لا يمكن دَفعه، والإمارة فضيلة، وكذلك الإمامَة، وكذلك الالتِذاذُ بالجماع الذي يُطلَبُ منه الوَلد، فَميلُ النَّفسِ إلى هذه الأشياء مُعينٌ على تَحصيلها ولا يمكن محو أثره من النفس، فمن تَخايل له أنه يمكن أن يُجامع ولا يَلتذَّ، أو يُحَدِّثَ ولا يَفرح بالرئاسة، فقد تخايل

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١)، وأحمد (٦٤٨٦)، والترمذي (٢٦٦٩)، وعبد الرزاق (١٠١٥٧) و(١٩٢١٠)، وابن أبي شيبة ٨/ ٧٦٠ من حديث عمرو بن العاص.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧٣٨)، والدارمي ١/ ٧٤ ـ ٧٥، وابن ماجه (٢٣١)، والطبراني في الكبير (١٥٤١)، والحاكم ١/ ٨٧، وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

له الممتنع، وليس في وجود ذلك ما يؤذي الدين، إنما ينبغي أن تَقع المجاهدة لقصد الرئاسة بالكِبر والعُجب، فأما أن يترك العلم، فلا.

فاعتمد على هذا، وانظر إلى أئمة الدين من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار هل فيهم من امتَنع من نشر العلم لهذا الخاطر؟ وقد كان مالك بن أنس يتوضّأ ويتطيب ويَستند ويتمكن ويقول: حَدَّثنا فلان. ولا يلتفت إلى ما يُروَى عن بِشر الحافي أنه قال: حَدَّثنا، بابٌ من أبواب الدنيا. وأنه دفن كُتبه، فإنه لو وافَقه الأَئِمة في زمانه على هذا دَرَسَ العلم.

ولا ينكر أن للنفس في نَشر العلم دَفينة، ولكن يَنبغي أن تُجاهَد وتُترك أسبابها وقد حصلت السلامة. فإن قُلتَ: فقد رُوي عن سفيان أنه دَفَنَ كُتُبَه. فاعلم أن سُفيان كان يُحدّث عن قومٍ ضعفاء فَيُدلِّسهم، فَنَدِمَ على ذلك واختلط حديثه، فدفَنَ الكُلَّ، فهذا سَببٌ يُجيزُ ما منعنا منه.

فصل

ومن صِفات علماء الآخرة أن يَعلموا أن الدُّنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة، وأنهما كالضَّرتين، فيؤثرون الآخرة، فلا تُخالف أفعالُهم أقوالَهم، ويكون مَيلهم إلى العِلم النافع في الآخرة، ويجتنبون العلومَ التي يقلُّ نفعها إيثاراً لما يعظم نَفعه، كما روي عن شَقيق البَلْخي أنه قال لحاتم: قد صَحِبتَني مدة فماذا تَعلّمتَ؟ قال: ثَمان مسائل:

أما الأولى: فإني نَظرتُ إلى الخلق، فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القَبر فارقه محبوبه، فجعلتُ محبوبي حَسناتي لتكون في القبر معي.

وأما الثانية: فإني نَظرتُ في قوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] فأَجهدتُها في دَفع الهوى حتى استقرَّت على طاعة الله سبحانه.

وأما الثالثة: فإني رأيت أن كلَّ من معه شيءٌ له قيمة عنده يَحفظه، ثم نظرت في قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. فكلما وقع معي شيء له قيمة وَجَّهتُه إليه ليبقى لي عنده.

وأما الرابعة: فإني رأيتُ الناس يرجعون إلى المال والحَسَب والشرف وليست بشيء، فنظرت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فعملتُ في التقوى لأكون عنده كريماً.

وأما الخامسة: فإني رأيتُ الناس يتحاسدون، ونظرت في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركتُ الحَسَد.

والسادسة: أني رأيتُهم يتعادَون، فتركت عَداوتهم واتَّخذت الشَّيطان وحده عدواً.

والسابعة: أني رأيتُهم يذلّون في طلب الرزق، ونظرتُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] فاشتغلتُ بما له عليَّ، وتركت مالي عنده.

والثامنة: أني رأيتهم مُتوكِّلين على تجاراتهم وصَنايعهم وصِحَّة أبدانهم، فتوكلتُ على الله.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا مُنقبضين عن السَّلاطين، محترزين من مخالطتهم، فإن الدنيا حُلوةٌ خَضِرَة، وزمامها بأيدي السلاطين، والمُخالِطُ لهم بعيدُ السلامة من وجوه؛ منها: أنه يجب عليه الإنْكار، وقد يقدر عليه فلا يَفعله، فيصير مُداهناً، وربما حَسَّنَ أحوالهم القَبيحة طمعاً في أموالهم الكَدِرة، وأقل الأحوال أن يرى نَعيمهم فَيَزْدَري نعمةَ الله عليه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَن أتى السُّلطانَ افتَتَن»(١). وقال: «سيكونُ بَعدي أمراء عليكم تَعرفون منهم وتنكرون، فمن أنكر فقد بَرِئ، ومن كره فقد سَلِم، ولكن من رَضي وتابَع»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨٣٦)، والبزار (١٦١٨)، والبيهقي في السنن ١٠/ ١٠١، وفي الشُّعَب (٩٤٠٣)، وابن حبان في المجروحين ١/ ٢٣٣، وابن عدي في الكامل ١/ ٣١٢، من حديث أبي هريرة، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٤)(٦٤)، وأبو داود (٤٧٦٠)، والترمذي (٢٢٦٥)، وأحمد (٢٦٥٢٨)، وابن أبي شيبة ١٥/ ٧١، وأبو يعلى (٦٩٨٠)، والطبراني في الكبير ٢٣/ ٧٦١ و٧٦٢، والبيهقي في السنن ٣/ ٣٦٧، عن أم سلمة رضي الله عنها.

قال حُذيفة: إياكم ومَواقف الفِتَن، قيل: وما هي؟ قال: أبواب الأُمراء، يدخل أحدكم على الأمير فَيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه.

وقال سَعيد بن المسيّب: إذا رأيتم العالم يَغشى الأُمراء فإنه لص، فاحتَرزوا منه.

وما أحسن قول بعض السلف: إنك لا تُصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه.

ومن صفات علماء الآخرة أن لا يتسرَّعوا إلى الفَتوى (١وأن لا يُفتوا١) إلا بما يتيقنون صحته من غير تَردُّد، وقد كان السَّلف يتدافعون الفتاوى حتى يُرجع إلى الأول. قال عبد الرحمن بن أبي لَيلى: أَدركتُ في هذا المسجد(٢) مِئةً(٣) وعشرين من أصحابِ رسول الله ﷺ ما منهم أحدٌ يُسأل عن حديثٍ أو فَتوى إلا وَدَّ أنَّ أخاه كَفاه ذلك.

وكتب سَلمان إلى أبي الدَّرداء: بَلغني أنك قد أُقْعِدتَ طبيباً، فاحذَر أن تَقتُلَ مُسلماً.

وكان ابنُ عمر رضي الله عنه إذا سُئل يقول: سلوا سَعيد بن المسيّب. وكان مالك كثيراً ما يقول: لا أدري. وكان النخعي إذا سُئل عن مَسألةٍ بكى، وقال: لم تَجدوا غيري.

ثم قَدْ آلَ الأمرُ إلى إِقْدام أقوامٍ ـ يَدّعون العلمَ اليوم ـ على الجواب في مسائل لو عَرَضت لعمر بن الخطاب لجمع لها أهلَ بدرٍ واستشارهم.

ومن صفات عُلماء الآخرة: أن يكونَ جُلُّ اهتمامهم بمداواة الباطن والدَّلالة على طَريق الآخرة، وأن يكثر اهتمامهم بتقوية اليقين، واليقين عرفانٌ حاصلٌ

(١ـ١) سقط من (ظ).

(٢) يعني المسجد النبوي في المدينة المنورة.

(٣) تحرفت في (ظ) إلى: «مئتين».

بالبرهان الذي لا يُشَكُّ فيه، ولا يتصور التشكيك فيه، مثل وجود القديم، فإن العامَّة تُثبت قديماً على وَجه الاعتقاد، ولا تَعرفُ البرهان على ذلك، والعلماء يَعرفون ذلك يقيناً؛ لأنهم يقولون: قد ثَبت حُدوث[١] المُحْدَثات، ولا يجوز حُدوثها بلا سَبب، فَثَبتَ وجود القديم ضرورة، فصار علمهم بذلك يقيناً، ومن ثمرات اليقين أن يَرى الموقنُ جميعَ الأسباب من المُسبِّبِ، وأن الأسباب مُسخَّرة لا حكم لها، بل هي كاليد والقَلم في حق من يُوقّع له بنعمةٍ. وأنْ ينصب الجزاء الموعود به بين يديه كأنه يراه، وأن الله يراه في كل حال، فيوجب هذا صدق المراقبة، وحُسنَ الأدب، وحراسة الخواطر، فيكون كالجالس بين يدي مَلِكٍ معظَّم، وهذا المقام يورث الحَياءَ والخَوف والخُضوع والذُّل، وكل خَلَّةٍ من هذه تورث أنواعاً من الطاعات.

ومن صفات علماء الآخرة: أن يكونوا أرباب حُزنٍ وانكسار وصمت، فَتَظهر عليهم الخَشية، فَيُعرَفون بسيماهم بخلافِ علماء الدنيا الذين ليس عندهم ما يَكفُّ عن قَهقهةٍ وتَشَدُّقٍ وبَطَرٍ، وقد رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال في خُطبة له: ذِمّتي رهينةٌ وأنا زَعيمٌ، لا يَهيجُ على التقوى زَرعُ قوم، ولا يَظمأ على الهُدَى سِنْخُ أَصلٍ، وإنَّ أجهلَ الناس من لا يَعرف قَدرَه، وإن أبغضَ الخلقِ إلى الله تعالى رَجلٌ قَمَّشَ[٢] علماً حتى إذا ارتَوى من ماءٍ آجن وأَكثرَ من غيرِ طائلٍ، جَلس للناس مفتياً لتخليص ما التَبس على غيره، وإنْ نَزلت به إحْدى المُهِمَّات هَيَّأَ حَشْوَ الرَّأي من رَأيه، فهو مِن قَطع الشُّبهات في مثل غَزلِ العنكبوت لا يدري أَخطأَ أم أصاب، رَكَّابُ جَهالات، خَبّاطُ عَشوات، لا يَعتذر مما لا يعلم فَيَسْلَم، ولا يَعضُّ على العلم بضرسٍ قاطعٍ فيَغنم، تبكي منه الدماء وتُستَحلُّ بقَضائِه الفُروجُ الحرام.

ومن صِفات علماء الآخرة: أن يكون أكثر بَحثهم في علم الأعمال عن ما يفسدها، ويُكدر القلوب، ويهيج الوساوس، فإن صور الأعمال قريبة، وإنما التَّعب

(١) في (ظ): «حدث».
(٢) قَمَّش علماً: أي جمعه من هنا وهناك.

في تَصفيتها، وأصل الدين التَّوَقِّي من الشَّر، ولا يصح أن يُتَوقَّى حتى يُعْرَف، كما قال حُذيفة: كان الناسُ يَسألون رسولَ الله ﷺ عن الخَير، وأنا أسألُه عن الشَّر مَخافة أنْ أَقعَ فيه.

فالعِناية بمقامات القَلب وأحواله هو دَأبُ علماء الآخرة؛ لأن القلب هو الساعي إلى قُرب الله عزَّ وجل، وقد صار هذا العلم مهجوراً غريباً حتى لو عرض به عالم قيل: هذا كلام الوعاظ. وسببُ أكثر نفور الخلق منه أنه مُباينٌ لطِباعهم شاقٌّ على أسماعهم؛ لأنه يأمر بمخالفة الهَوى.

ومن صِفات علماء الآخرة: البحث عن أسرار الأعمال الشرعية، والملاحظة لحكمها؛ لأن المقتصر على صُور المنقولات وعاء، والباحث[1] عن العلل عالم، فإن عجز عن الاطّلاع على العلّة كَفاه التسليم للشرع.

ومن صفاتهم: اتّباع الصَّحابة وخِيار التابعين، وتَوقّي كل مُحدث، وقد قال حُذيفة: إنَّ مَعروفكم اليوم منكَرُ زمانٍ قَدْ مَضى، وإنَّ منكركم اليوم معروفُ زمانٍ ما أتى. وهذا قولٌ صحيح، فإن من محاسن المعروف في زماننا زَخرفة المساجد والمصاحف، وقراءة الألحان، والتَّشاغل بدقائق الجَدَل، والتقشف في النَّظافة، وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب مع التَّساهل في حِلِّ الأطعمة وتَحريمها إلى غير ذلك من البِدَع.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الباعث».

الباب السابع

في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل من جهة النقل

أخبرنا علي بن محمد بن أبي عمر قال: أخبرنا علي بن الحسين بن أيوب قال: أخبرنا عبد الغفار بن محمد المؤدب قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مخلد الجوهري، قال: حَدّثنا الحارث بن محمد بن أبي أسامة قال: حدثنا داود بن المحبر قال: حدّثنا عباد بن كثير عن ابن جُريج عن عطاء عن ابن عباس أنه دخل على عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أم المؤمنين أرأيتِ الرجل يقلّ قيامه و يُكثر رُقاده، وآخر يكثر قيامه ويقلّ رقاده أيهما أحب إليك؟ قالت: سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: «أَحسَنهما عَقلاً» فقلتُ: يا رسول الله، إنما أسألك عن عبادتهما. فقال: «يا عائشة إنهما لا يُسألان عن عبادتهما إنما يُسألان عن عقولهما، فمن كان أعقل كان أفضل في الدنيا والآخرة»(١).

أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا الحسن بن أحمد قال: أخبرنا أبو الحسن أحمد بن علي قال: أخبرنا عبد الباقي قال: حدثنا بشر بن موسى قال: حدثنا منصور بن صُقَير قال: حدثنا موسى بن أَعين عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل يكونُ من أهل الصيام، وأهل الصلاة، وأهل الحج، وأهل الجهاد فما يُجزى يوم القيامة إلا بقَدر عقله»(٢).

---

(١) موضوع، أورده ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة ١/ ١٧٦، والمصنف في الموضوعات ١/ ١٧٦، والشوكاني في الفوائد المجموعة ٤٧٧، وقال الدارقطني: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة.

(٢) أورده ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٠٣، وقال: رواه الخطيب في تاريخه ١٣/ ٧٩ من حديث ابن عمر، ولا يصح. وأخرجه المصنف في الموضوعات ١/ ١٧٢، والذهبي في =

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله الأنماطي قال: أخبرنا أحمد بن الحسين المروزي قال: أخبرنا أحمد بن الحارث قال: حدثنا جدي محمد بن عبد الكريم قال: حدثنا الهيثم بن عدي قال: حدثنا الأعمش عن عمرو بن مُرَّة عن عبد الرحمن بن سابط عن ابن عباس قال: «لما خلقَ اللهُ العقل قال له: أدبِر فأَدبر، ثم قال له: أَقبِل فأَقبل، فقال: وعِزَّتي ما خلقتُ خلقاً قط أحسن منك، فبِك أُعطي، وبكَ آخُذ، وبك أُعاقب»[1].

وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: إني وجدتُ في بعض ما أنزلَ الله على أنبيائه: إن الشيطانَ لم يُكابد شيئاً أشدّ عليه من مؤمن عاقل، وأنه يكابد مئةَ جاهل فيَستجِرُّهُم حتى يركب رِقابهم، فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه حتى ينال منه حاجته.

وقال معاذُ بن جبل: لو أن العاقل أمسى وأصبح وله ذنوبٌ بعدد الرمل، كان وشيكاً بالسلامة والنجاة والتخلص منها، ولو أن الجاهل أمسى وأصبح وله من الحسنات وأعمال البرّ عدد الرمل، لكان وشيكاً أن لا يسلم له منها مثقال ذَرّة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن العاقل إذا زَلَّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي قسم له، والجاهل إنما هو بمنزلة الذي يَبني فيهدم فيأتيه مِنْ جهله ما يُفسد صالح عمله.
وقال الحسن: لا يَتم دينُ الرجل حتى يَتمَّ عقلُه، وما أودعَ الله امرءاً عَقْلاً إلا استَنْقَذه به يوماً ما.

= ميزان الاعتدال (٨٧٨)، والشوكاني في الفوائد المجموعة: ٤٧٥، وابن أبي الدنيا في كتاب العقل: ١٢، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٠، وقال ابن معين: هذا الحديث باطل.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٣٩٠ و٦/ ١٤ من حديث أبي هريرة، وأورده ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٠٣، والشوكاني في الفوائد المجموعة: ٤٧٧، والمصنف في الموضوعات ١/ ٧٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٨، والزبيدي في الإتحاف ١/ ٤٥٥.

بيان شرف العقل من جهة المعنى

بيان شرف العقل أمرٌ ظاهر؛ لأن العقل مَنبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، وكيف لا يَشْرُف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة، وكيف يشك في ذلك والبهائم تَحترم العاقل لشعورها بفضله واحتياله، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجْلاف الخلق مع قُرب رتبتهم من البهائم يوقّرون المشايخ بالطبع، وقد تَبين آثار العقلِ على وجه العاقل فيصير له بذلك سَمْتٌ وسِيمَا، ولهذا أَذعن كثيرٌ من المعاندين لرسول الله ﷺ بنفس رُؤيته، وقال عبد الله بن سلام: لمَّا رأيتُه علمتُ أن وجهه ليس بوجهِ كذّاب.

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اختلف الناس في حَدِّه وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم ينطلق بالاشتراك على أربعة مَعانٍ، كما يُطلق اسم العَين مثلاً على معانٍ عدة وما يجري هذا المجرى، فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حدٌّ واحدٌ بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

فالأول: الوصف الذي به يفارق الإنسانُ البهائمَ، وهو الذي به استعدَّ لقبول العلوم النظرية وتدبير[1] الصناعات الخَفية الفِكرية، وهو الذي أراده الحارث المُحاسِبي حين قال في حَدِّ العقل: إنه غريزة يتهيَّا بها دَرْك العلوم النظرية، وكأنه نور يُقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء.

والثاني: ما وضع في الطباع من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وهذا الذي عناه بعضهم بقوله في حد العقل: إنه بعض العلوم الضرورية، وهو صحيح في نفسه؛ لأن هذه العلوم موجودة، وتسميتها عقلاً ظاهر، وإنما الفاسد أن تُنكرَ تلك الغريزة، ويقال: لا موجود إلا هذه العلوم.

(١) سقطت من (ظ).

والثالث: علوم تُستفاد من التجارب تُسمى عقلاً.

والرابع: أن تَنتهي قوة الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويَقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويَقهرها، وإذا حصلت هذه القوة سُمِّي صاحبها عاقلاً من حيث أن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذا من خصائص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوانات.

فالأول هو الأصل، والثاني الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثاني، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تُستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة والغاية القصوى.

والأول هو المراد بقوله ﷺ: «ما خَلق الله خَلقاً أكرم عليه من العقل»[1]. والأخير هو المراد بقوله: «إذا تقربَ الناسُ بأبواب البر، فتقرَّب أنتَ بعقلك»[2].

وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة، ولكنها تظهر إلى الوجود إذا جرى سبب يُخرجها إلى الوجود، كالدهن في اللوز وماء الورد في الورد، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] والمراد به: إقرار نفوسهم لا إقرار ألسنتهم، فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة لما وجدت، ولذلك قال: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] أي: إن كل آدمي فُطِرَ على الإيمان بالله ومعرفة الأشياء على ما هي عليه ثم من الناس من أعرض فنسي، وهم الكفار، ومنهم من أجال خاطره فذكر، فكان كمن حُمِّلَ شهادة فنسيها ثم تذكرها، ولهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] و﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢] وهذا تذكر

(١) أورده العراقي في المغني عن حمل الأسفار ١/ ٨٥ و٣/ ١٦، وقال: رواه الحكيم الترمذي في النوادر بإسناد ضعيف من رواية الحسن البصري. وذكره الزبيدي في الإتحاف ١/ ٤٦١ و٧/ ١. والفُتَّني في تذكرة الموضوعات: ٢٩.

(٢) أورده الذهبي في ميزان الاعتدال (٦٢٥) في ترجمة أحمد بن المفضل الكوفي، وقال: قال الأزدي: منكر الحديث. وذكره الزبيدي في الإتحاف ١/ ٤٧٥.

صورة كانت في النفس مُضمنة بالفطرة ومن لم تكن بصيرتُه الباطنة ثاقبة لم يعلق به من الدين إلا قُشورُه وأمثلته دون لُبابه وحَقائقه.

بيان تفاوت الناس في العقل

التفاوت يتطرق إلى ثلاثة أقسام من الأربعة المتقدمة، ولا يتطرّق إلى القسم الثاني، وهو العلم الضروري بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فأما القسم الرابع؛ وهو استيلاء القوة على قَمع الشهوات، فلا يخفى تفاوت الناس فيه، وهذا التفاوت قد يكون لتفاوت الشَّهوة، وقد يكون لتفاوت العلم المُعرِّف لغائِلةِ تلك الشهوة، ولهذا يَقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المُضرَّة ولا يقدر من يساويه في العقل إذا لم يكن طبيباً، وكذلك يقدر العالم من ترك المعاصي على ما لا يقدر العامي، وقد يكون التفاوت في غريزة العقل، فإنها إذا قويت كان قَمعها للشهوة أشد، وهذه الغريزة كنورٍ يُشرق على النفس، وتكون مبادئ إشراقه عند سن التمييز، ثم لا يَزال ينمى ويَزداد نمواً خفيَّ التَّدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، كما أن أوائل الصبح تَخفى، ثم تَتَدرج إلى الوضوح إلى أن يكمل قرص الشمس، وكيف ننكر تفاوت الغريزة ولولاه ما اختلف الناس في فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يَفهم بالتَّفهيم، وإلى زكي يفهم بأدنى رمزٍ وإشارة، وإلى كامل تَنبعث من نفسه حقائق الأمور دون التعليم ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ [النور: ٣٥] وذلك مثل الأنبياء صلوات الله عليهم، إذ تَتَّضح لهم في باطنهم أمور غامضة من غير تَعلُّم وسماع، ويعبر عن ذلك بالإلهام، وفي مثل هذا [(١]قال ﷺ[١)]: «إن روحَ القُدس نَفَثَ في رُوعي»[(٢)].

(١ـ١) سقط من الأصل.

(٢) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١١٥١)، والبغوي في شرح السنة ١٤/ ٣٠٤، وابن عبد البر في التمهيد ١٤/ ٤٠٦ من حديث ابن مسعود.

كتاب قواعد العقائد

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول
في ترجمة عَقيدة أهل السنة

الحمدُ لله الذي وفَّق أهلَ السنة لحُسنِ الاعتقاد، وسلك بهم منهج الهُدى والرشاد، وحفظهم من شك في العقائد وتَرداد، فَعرفوه قديماً بلا بداية، مستمرَّ الوجود بلا نهاية، لا يُشبه المصنوعات بحال، ولا يُدرَك عرفانه بحسنٍ ولا خيال، فلا بالتشبيه قالوا، ولا إلى التَّعطيل مالوا، ولا عن حكم المنقول والمعقول زالوا.

أحمده حمدَ من ينزِّهه عن شَبَه، وأوحده توحيداً خالياً عن شُبَه، وأُصلي على خاتم أنبيائه وأكرم أصفيائه، وعلى أصحابه وأتباعه وأزواجه وأشياعه وأُسلِّم.

أما اعتقادُ أهل السنة، فهو: أن الله سبحانه موجود، واحد لا شريك له، فَردٌ لا مِثل له، صَمَد لا ضِدَ له، مُتَفرِّدٌ لا نِدَّ له، قديمٌ لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمرُّ الوجود لا آخر له، وأنه ليس بجسم، ولا يماثل الأجسام لا في التقدير و لا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر، ولا تَحلُّه الجواهر، ولا بِعَرَض، ولا تحله الأعراض، ولا يماثل موجوداً، ولا يماثله موجود، وليس كمثله شيء، وأنه مُستَوٍ على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواءً منزهاً عن المماسَّة والحلول، لا يحمله العَرش، بل العَرش وحَملته محمولون بلطيف قُدرته ومقهورون في قبضته، وأنه لا يحل في شيءٍ، ولا يحل فيه شيء، ولا تَحلُّه الحوادث، ولا تَعتريه العوارض، ولا يتغير، وأنه مَرْئي يَراه المؤمنون في الجنة، وهو حي قادر

لا يعتريه عَجز، ولا تَأخذه سِنَةٌ ولا نَوم، وأنه عالم بجميع المعلومات، لا يَعزُب عنه مثقال ذرة (١في الأرض ولا في السماء١)، يعلم السِّرَّ وأخفى، ويطلع على هواجس(٢) الضَّمائر وحركات الخَواطر، وخَفِيَّات السرائر بعلمٍ قديم لم يزل موصوفاً به، وأنه مريدٌ للكائنات، مدبرٌ للحادثات، فلا يجري أمرٌ إلا بقضائه وقدرِه وحُكمه ومشيئته، وأنه سميعٌ بصير لا يَعزبُ عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مَرئي وإن دَقَّ، وأنه متكلمٌ بكلامٍ قديم وكلامه مسموع لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. وأنه خلق الخلق وأعمالهم، وقدَّر أرزاقهم وآجالهم، وأنه يُثيبُ عباده على الطاعات بحكم الوعد والكرم، لا بحكم الاستحقاق واللزوم، إذ لا يجب عليه فعل، ولا يُتَصوَّر منه ظلم، وأنه بعثَ النبيَّ محمداً ﷺ إلى الخلق كافة، فَنَسخَ بشرعه الشرائع إلا ما قرره، وفضَّله على سائر الأنبياء، فيجب على العبد امتثال ما أمر به وتصديقه فيما وعد به بعد الموت من سؤال مُنكرٍ ونَكيرٍ، وعذاب القبر، والميزان، والحساب، والصراط، والحوض، والشفاعة، وأن يعتقد فضلَ أبي بكرٍ ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، وأن يُحسن الظن بجميع الصحابة، ويثني عليهم، فهذا مُعتقد أهل السنة(٣).

الفصل الثاني
في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

ينبغي أن يحفظ الصبي ما ذكرناه في المعتقد في أول نشوئِه، فإذا تَرعرع فَهمُهُ اعتقده، ثم أيقن به وصدقه، ولا تزال أدلّة القرآن وحُجَجه تزيد هذا الاعتقاد عنده رسوخاً، كما يَنْمي(٤) البذر بالسَّقي والتربية، وينبغي أن يُصان سَمعه عن الجدل

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) هَجَس الشيء في صدره يَهجِس: خطر بباله، أو هو أن يُحدِّث نفسه في صدره مثل الوسواس. القاموس المحيط: (هجس).

(٣) ورد في هامش (ظ) ما نصه: «هذا مذهب السلف الصالح وما صحَّ عن الرسول ﷺ، وما لا يصح يُترك ولا يُعتَقد».

(٤) في (ظ): «يثمر».

والكلام غاية الحراسة، فإن ما يفسده الجدل أكثر مما يصلحه، خصوصاً للقلب الضعيف، فإن اشتغل الصبي بكسب الدنيا، ولم يُقبل على سلوك طريق المعاملة فقد يسلم في الآخرة بما اعتقد؛ لأن الشرع لم يكلِّف أَجْلاف العرب أكثر من التصديق الجزم بالظواهر، ولم يكلفهم البحثَ والتفتيش ونظمَ الأدلة، وإن سلك طريق الآخرة وساعده التوفيق على استعمال الرياضة والمجاهدة انفتحت له أبوابٌ من الهُدى تَكشِف له حقائق هذه العقيدة بنورٍ إلهي يُقذَفُ في قلبه بسبب المجاهدة، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ومتى كان ممن له بحث ونظر، فسمع كلام أهل البدع، وعلقت بقلبه شُبهة[١]، فينبغي أن يَحذر عن مساكنتها، فإن لم يمكن، فلينظر في كتابنا المسمى بمنهاج الوصول إلى علم الأصول[٢]، فإنه كافٍ.

الفصل الثالث
في الإشارة إلى أدلة العقيدة التي ذكرناها

من تأمل وجود المخلوقات ونظر في ترتيبها المحكم علم قطعاً أنها لا تَستغني عن موجد أوجدها وصانعٍ دبَّرها، فإن الحادث لا يَستغني في حدوثه عن سبب يُحدثه، والعالَم حادث، فلا يستغني عن مُحدِث، ولو كان الخالق حادثاً لافتقر إلى محدِث، فدل على أنه قديم، ولا يجوز أن ينعدم؛ لأن طَريان العدم يحتاج إلى سبب كطريان الوجود، وما ثبت قِدَمه استحال عَدمه، وليس بجوهرٍ؛ لأن كل جوهر مختص بحيِّزه، فهو ساكن فيه أو متحرك عنه، والحركة والسكون حادثان وما لا يخلو عن الحوادث حادث، وليس بجسمٍ؛ لأن الجسمَ مؤلف، وإذا بطل كونه جوهراً بطل كونه جسماً، وليس بعَرَض؛ لأنَ العَرَض ما يحل في الجسم، وقد كان قبل الأجسام، فكيف يحلها؟! فإذن لا يُشبهه شَيءُ ولا يشبه شيئاً، وهو موصوف بالحياة؛ لأنه قد ثبت أنه عالم قادر، فتَثبت بالضرورة حياته، وقد أخبر القرآن

---

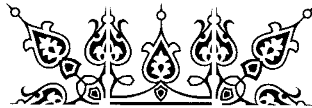
(١) في (ظ): «شُبَه».
(٢) تقدم الكلام عليه في الصفحة ٤٦.

بصفاته فَليُتلقَّ منه، وذلك يكفي المبتدئ، وفي كتابنا المسمى بمنهاج الوصول ما يشفي في الأدلة من حيث المعنى في هذا وفي غيره مما ذكرناه متعلقاً بالأصول، فلم نَرَ التطويل ها هنا بذلك.

الفصل الرابع

في ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما ووجه زيادة الإيمان ونقصانه.

وكل ذلك مستوفى في كتابنا المسمى بالمنهاج، فليكتف بالإحالة عليه.



كتاب أسرار الطهارة
ومهماتها

الحمد لله الذي بنى الأَبدان على الأدْرَان وأمر بالنظافة، وخلق الماء ذا رِقَّةٍ وقوةٍ ولَطافة، وأكثر من إيجاده لعموم الحاجة إليه رحمةً ورأفة.

أحمده حَمْدَ من يعرف نِعمه وألطافه، وأقر له بالتوحيد إقراراً سليماً من آفة، وأُصلي على رسوله محمد الذي مَلأ بدعوته الكون وأكنافه، والعالم وأطرافَه، وشافَهَ الضلال بالمَحو فَاستأصل مِنه الشأفة[1]، وعلى أصحابه أهل الفَهم والعلم والظرافة، صلاةً تؤمن روعة المصلي عليهم يوم المخافة، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد أمر الله عز وجل بالطهارة، ومدح عليها، فقال عز وجل: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وفي أفراد مسلم من حديث أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «الطهور شَطرُ الإيمان»[2].

واعلم أن الطهارة لها أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفَضلات.

والثانية: تطهير الجوارح من الذنوب والآثام.

---

(١) الشَّأفة: الأصل، يقال: استأصلَ اللهُ شأفته، أي: أزاله من أصله. القاموس المحيط: (شأف).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٢).

والثالثة: تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

والرابعة: تطهير السرِّ عن ما سوى الله عز وجل، فهذا هو الغاية القصوى، فمن قويت بصيرته سَمَتَ[١] إلى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى، فتراه يُضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغَسلِ الثياب ظناً منه بحكم الوَسْوسة وقلَّة العلم أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط، وجهلاً بسِيَرِ المتقدمين واستغراقهم جميع الزمان في تَطهير القلوب وتَساهلهم في أمر الظاهر حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ من جَرَّةِ نَصْرانيةٍ[٢]، وكانوا لا يكادون يغسلون أيديهم من الزَّهَم[٣]، ويُصلّون على الأرض، ويمشون حُفاة، ويقتصرون في الاستنجاء على الحجارة.

ثم قد انتَهى الأمر إلى قومٍ يسمون الرُّعونة نَظافة، ويقولون: هي من الدين، فأكثرُ زمانِهم يمضي في تزيين الظواهر، وبواطنهم خراب محشوة بخبائثِ الكِبر والعجب والجهل والرياء والنفاق، فلو رأو مقتصراً في الاستنجاء على الحجر أو حَافياً يمشي على الأرض، أو مصلياً على بَواري[٤] المسجد من غير سجادة مفروشة، أو ماشياً على الفُرُش من غير غلافٍ للقدم، أو متوضئاً من آنية عجوزٍ أقاموا في ذلك القيامة، وشددوا الإنكار، ولقبوه بالقَذِر، واستنكفوا من مُؤاكلته، فسمّوا البَذاذة[٥] التي هي من الإيمان قَذارة، والرعونة نَظافة، فانظر كيف كان المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

فإن قال قائل: فما تقول فيما قد أحدثوه من هذه الأشياء أتدخل في المنكر أو في المباح؟

---

(١) سَمَتَ: قَصَد. القاموس المحيط: (سمت).

(٢) أخرجه الدارقطني في باب الوضوء بماء أهل الكتاب من كتاب الطهارة، سنن الدارقطني: ١/ ٣٢.

(٣) الزَّهم: الرائحة التي تصيب اليد من الدسم. النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣٢٣.

(٤) البواري، جمع بارِيَّة، وهي: الحصير المنسوج. القاموس المحيط: (بور).

(٥) البذاذة: رثاثة الهيئة والتواضع في اللباس.

فالجواب: إننا ننظر في كل شيء قد أحدثوه وفي المقصود به، فإن كان فعله مباحاً، وهو غير موجب لإسراف، والمقصود به زيادة النظافة لم يُنكَر، وإن كان موجباً للإسراف؛ مثل استعمال الماء الكثير ثم اعتقد أن ذلك أصل الدين، فهذا منكر، وربما رأى العاميُّ عالماً يُشدّد في الشَّيء فيظنه واجباً، وإن قصد به تزيين الظاهر لرؤية الخلق كان أَفظع وأقبح، أخبرنا محمد بن أبي القاسم قال: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله الحافظ قال: حدثنا أبو حامد بن محمد بن عبد الوهّاب قال: حدثنا محمد بن إسحاق النيسابوري قال: حدثنا محمد بن الصبَّاح قال: حدثنا حاتم ـ يعني بن إسماعيل ـ قال: حدثني جعفر عن أبيه أن علي بن الحسين قال: يا بُنيَّ، لو اتَّخذتَ [لي][1] ثوباً للغائط، رأيتُ الذباب يقع على الشيء ثم يَقع عَليَّ، ثمَّ انتبه فقال: ما كان لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه إلا ثوبٌ[2].

فصل

وينبغي للعالم بشرف الزمان أن لا يتفقَّه إلا في الأفضل، فإذا رأيتَ عالماً لا يلبس الثوب المقصور حتى يغسله مخافة أن يكون القَصّار قَصَّر في الغسل، فهذا تدقيق لم يكن في الصحابة، فقد كانوا يصلّون في ثياب الكفار إذا غَنِموها، ولا ينظرون في الاحتمالات الدقيقة في هذا الفن شُحّاً على الزمان وإنفاقاً له في الأفضل من النظر في دقائق المعاملات.

فصل

وإذ قد بينا مراتب الطهارة فنحن نتكلم في نظافة الظاهر فحسب ـ فأما باقي المراتب، فستأتي في ربع المُنجيات وربع المُهلكات إن شاء الله تعالى ـ فنقول:

طهارة الظاهر ثلاثة أقسام:

أحدها: طهارةٌ عن النَّجس.

والثاني: طهارةٌ عن الحَدث.

---

(١) ليست في النسخ، وهي من مصدر التخريج.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/ ١٣٣.

والثالث: طهارةٌ عن فضلات البدن، كتقليم الأظفار والاستحداد، ونحو ذلك.

فأما **القسم الأول**: فإن غسل الأنجاس يجب سَبعاً عندنا، ولا يُعفى عن يَسير نجاسةٍ إلا أن تكون دماً أو قيحاً أو أثر استنجاء، واختلفت الرواية في ريقِ البغل والحمار وسِباع البهائم وجوارح الطير وعَرقهن، وبول الخُفَّاش، والنَّبيذ، والمذي والمني، إذا قلنا: إنه نجس، فروي عن أحمد أنه لا يُعفى عن يسير ذلك، وروي عنه أنه كالدم، وجميع الدماء نجسة إلا الكبد والطحال ودم السمك، وفي دم البَق والبراغيث روايتان، ولنرجع في معرفة الأنجاس إلى كتب الفقه، فإن هذا الكتاب إنما هو للآداب، ويندر ذكر الفقه فيه.

وأما **القسم الثاني**: هو طهارة الأحداث ففيه فصول:

الفصل الأول
فيه آداب قضاء الحاجة

ينبغي لمن أراد ذلك أن يبعد عن أعين الناظرين، وأن يستتر بشيء إن وجده، وإن كان معه شيء فيه ذكر الله تعالى أزاله، ويُقدم رجله اليسرى في الدخول واليمنى في الخروج، ويقول عند دخوله: بسم الله أعوذ بالله من الخُبث والخَبائث، ومن الرِّجْس النَّجس الشيطانِ الرجيم. ولا يَكشف عورته قبل الوصول إلى موضع الجلوس، ويرتاد موضعاً رخواً لبوله لئلا يعود رشاشه عليه، ولا يستقبل الشمسَ ولا القمرَ ولا القبلة إذا كان في الفَضاء، ولا يستدبرها، فإن كان بين البُنيان، فعلى روايتين، ويعتمد في جلوسه على رجله اليسرى وينصب اليمنى، ولا يبول في شَقٍّ ولا سَرَبٍ(١)، ولا تحت شجرة مثمرةٍ، ولا في ظل، ولا قارعة الطريق، ولا يتكلم، فإن عطس حمد الله بقلبه، وإذا انقطع البول مسح بيده اليُسرى من أصل ذكره إلى رأسه، ثم يَنتُرهُ ثلاثاً، ولا يطيل المقام وأما ما قد أَلِفه المتوسوسون من القيام والمشي والتَّنحنح الكثير ورفع رِجلٍ وحَطِّ أخرى، فإن ذلك يُضعف المثانة

(١) السرب: بيت يتخذه الوحش والدبيب في الأرض. اللسان: (سرب).

ويَستجلب درور البول، وليس من الشريعة في شيء، وليرشَّ المتوسوس على فَرجه الماء ليدفع وسوسته إن عرضت.

وإن أرادَ الاستنجاء تحوّل عن مَوضعه، والاستنجاء واجب لكل ما يخرج من السَّبيلين إلا الريح، والأفضل أن يبدأ بالقُبُل، ويَستجمر بالحجر ثم يُتبعه الماء، وإن أراد الاقتصار على أحدهما فالماء أَفضل، فإن عدل عن الماء إلى الحجر أجزأه، ولا يُجزئ أقل من ثلاث مَسحات، وإن حصل النَّقاءُ بدونها، فإن لم تَزل العين بالثلاث زاد حتى ينقى، فإن حصل النَّقاءُ بالحجر بالرابع أضاف إليه خامساً؛ لأنه يستحب الإيتارُ، وإنما يجوز الاستجمار إذا لم ينتشر الخارج إلى[1] المخرج إلا بقدر ما جَرت به العادة، فإن انتشر إلى الصَّفحتين ومعظم الحَشفة لم يُجزه غير الماء.

وصِفة ما يجوزُ الاستجمار به أن يكون جامداً طاهراً مُنقياً غير مَطعوم، لا حُرمة له، غير متصل لحيوان، فيدخل في هذا الحَجَر وما قام مقامه من الخَشب والخَزَف والخِرَقِ والتراب، ويخرج منه المأكولات والرَّوث والرّمة وإن كانا طاهرين؛ لأنهما من طعام الجن، وما فيه ذكر الله تعالى من الكاغد[2] وغيره.

فأما صفة الاستجمار فعلى أي وجهٍ حصل الإنقاء جاز، غير أن المستحب عند أكثر أصحابنا أن يُمِرَّ حجراً من مُقدَّم صفحته اليُمنى إلى مؤخّرها، ثم يُديره على اليسرى حتى يرجع به إلى الموضع الذي بَدأ منه، ثم يُمِرّ الثاني من مقدم صفحته اليسرى كذلك ثم يُمر الثالث على المَسْربة[3] والصفحتين، وذهب الشريف أبو جَعفر[4] إلى أنه يَعمُّ بكلّ حجرٍ جميع المحل؛ لأنه إذا لم يعمَّ كان تَلفيقاً لا تكراراً،

(١) في (ظ): «عن».

(٢) الكاغَد: القرطاس، وهي الصحيفة يكتب فيها.

(٣) المَسْرَبَة: مجرى الغائط ومخرجه سميت بذلك لانسراب الخارج منها. الإتحاف للزبيدي ٥٤٦/٢.

(٤) هو عبد الخالق بن عيسى بن أحمد بن محمد العباسي الهاشمي البغدادي، إمام الحنابلة في عصره، صنف «رؤوس المسائل» و«شرح المذهب» و«أدب الفقه»، توفي سنة (٤٧٠هـ). طبقات الحنابلة ٢/ ٢٣٧.

وهذا اختيار ابن عقيل، ولا يستجمر بيمينه ولا يستعين بها في ذلك، ولا يُكره أن يستعين بها في استعمال الماء للحاجة إلى ذلك.

وقد تأملت في استعمال الماء صناعةً ما رأيتُها في الكتب؛ وذلك أن حركة الكَفِّ في دَلْك الدُّبر عند غسله ربما أصابت باطن جلد الأُنْثيين، وربما لم تأتِ الغسلة الثانية والثالثة على ما أصابته فيَبقى نجساً، فمن الاحتراز البداية بالقُبل، فإذا فرغ منه مدَّ جلدةَ الأنثيين فجعلها بين الفخذ والبَطن، فحينئذ ينكشف الدبر ويكفي فيه قليل الماء وتؤمَن المخاطرة، فإذا فرغ دَلَك يده بالحائطِ أو بالأرض ليُزيل أثر الرائحة، فإذا خرج قال: «غُفرانك»[١]، «الحمدُ لله الذي أذهبَ عني الأذى وعافاني»[٢].

الفصل الثاني
في ذكر الوضوء

من المستحب لمن أَحدث أن يتطهر ليستديم الطهارة، أخبرنا ابن الحصين قال: أنبأنا ابن المذهب قال: أنبأنا أحمد بن جعفر قال: أنبأنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد بن الحباب قال: حدثني حسين بن واقد قال: أخبرني عبد الله بن بريدة قال: سمعتُ أبي يقول: أصبح رسول الله ﷺ فدعى بلالاً، فقال: «يا بلال بِمَ سَبقتني إلى الجنة؟ ما دخلتُ الجنة قَط إلا سمعتُ خَشْخَشتك[٣] بين يَدي» قال: ما أحدثتُ إلا توضأت وصليت ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: «بهذا»[٤].

وينبغي لمن أراد الوضوء أن يستقي الماء لنفسه، فقد روينا من حديث عمر بن

(١) أخرجه الترمذي (٧) من حديث عائشة

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠١) من حديث أنس.

(٣) هي حركة لها صوت كصوت السلاح.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٦)، والترمذي (٣٦٨٩)، وابن أبي شيبة ١٢/ ١٥٠، وابن حبان (٧٠٨٦)، و(٧٠٨٧)، والطبراني في الكبير (١٠١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٦٩).

الخطاب أنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ يَستقي ماء لوضوئه، فبادرتُ أستقي له فقال: «مَهْ يا عُمر إني لا أريد أن يُعينني على صَلاتي أحد»[١].

وينبغي للمتوضئ تقديم السواك، ويَنوي بذلك تطهير فمه للذكر، أخبرنا عبد الأول قال: أنبأنا الداودي قال: أنبأنا ابن أعين السرخسي قال: أخبرنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: أنبأنا عبد الله بن يوسف قال: أنبأنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أَشُقَّ على أُمتي ـ أو على الناس ـ لأَمرتهم بالسواك عند كُل صلاة». وأخرجه مسلم أيضاً[٢]. وأخرجا من حديث حُذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يَشوصُ فاه بالسواك[٣]. قال أبو عبيد: الشَّوص والمَوْص: الغَسل. وقال ابن الأعرابي الشَّوص: الدَّلك والمَوص: الغَسل.

وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «السِّواك مَطهرة للفم، مَرضاةٌ للرب عز وجل»[٤] وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أُمِرت بالسواك حتى ظَننت ـ أوحَسِبْتُ[٥] ـ أنه سينزل عليَّ فيه قرآن»[٦].

ويُستحب السواك عند كل وضوء، وعند كل صلاة، وعند تَغير النكهة بالنوم أو طول الأَزْم[٧] أو أكل ما تكره رائحته.

ويكون السواك عَرضاً بعودِ أَراك أو زَيتون أو عرجون، ويكون يابساً قد نُدِّيَ بالماء، ويكره أن يَستاك بما يتفتَّت في الفم أو يجرحه، فإن استاكَ بإصبعه أو بخرقةٍ لم يُصِب السنَّة، وقيل: قد أصاب.

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٢٣١)، والبزار، (٢٦٠)، وذكره الهيثمي في المجمع ١/ ٢٣٧.
(٢) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢)، وأبو داود (٤٦)، والترمذي (٢٢)، وأحمد (٧٨٥٣)، والنسائي في الكبرى (٣٠٤٢)، وابن ماجه (٢٨٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥)، ومسلم (٢٥٥) (٤٧).
(٤) أخرجه أحمد (٧) و(٦٢)، وأبو يَعلى (١٠٩) و(١١٠)، والمروزي (١٠٨) و(١١٠).
(٥) ليست في (ظ).
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١/ ١٧١، وأحمد (٢١٢٥)، وأبو يعلى (٢٣٣٠).
(٧) الأَزْم: ترك الأكل. القاموس المحيط: (أزم).

فإذا جلس للوضوء نَوى رفعَ الحدث أو الطهارة لكل أمرٍ لا يُستباح إلا بالطهارة، كالصلاة والطَّواف ومَسِّ المصحف، ويستحب أن يأتي بالنية عند غَسل يده فإن أخرها إلى حين المضمضمة جاز، ثم يعقب النية بالتسمية وهي واجبة، في أصح الروايتين، وفي الأخرى: هي سُنة، ويغسل كفيه ثلاثاً، فإن كان قد قام من نومِ الليل كان غَسلهما ثلاثاً واجباً في إحدى الروايتين ينوي له ويُسمي، وفي الأخرى: سُنة.

ثم يتمضمض ويَستنشق ثلاثاً، فإن شاء جمع بينهما بغَرفة، وإن شاء أَفرد، ويبالغ فيهما إلا أن يكون صائماً، ثم يغسل وجهه ثلاثاً، وحدُّ الوجه من منابت الشعر إلى ما انحدر من اللَّحْيَين والذَّقن طولاً، ومن وتد الأذن إلى وتد الأذن عرضاً، فإن كان عليه شعر كَثيف لم يجب غَسل ما تحته لكن يُستحب تَخليله، وإن كن يَصف البشرةَ وجب، ويجب غسل العِذارِ[(١)] والعارض وما استرسَل من اللِّحية، ثم يغسل يديه إلى المِرفقين ثلاثاً، ويُدخل المرفقين في الغسل، ثم يَمسح رأسه فيبدأ بيديه من مُقدمه ثم يُمرهما إلى القَفا، ويعيدهما إلى الموضع الذي بدأ منه، ويمسح أُذنيه بماء رأسه، وهل يستحب أخذ ماء جديد لهما؟ على روايتين. واستيعابُ الرأس بالمسح واجب في أصح الروايتين، وفي الأخرى يجب مسح أكثره، ويستحب تكرار مسح الرأس في أصح الروايتين، ولا يستحب مسح العنق في أصح الروايتين، ثم يغسل رجليه ثلاثاً، ويدخل الكعبين في الغسل، وهما العظمان الناتئان في آخر الساق ويُخلل بين أصابعه، ويبدأ بيمنى يديه ورجليه.

ويجب ترتيب الوضوء على ما ذكرنا، فإن[(٢)] لم يرتب لم يصح في الصحيح[(٣)] من المذهب، وعنه: أنه يصح[(٤)].

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الإزار».
(٢) في (ظ): «فإن نكسه».
(٣) في (ظ): «المشهور».
(٤) ليست في الأصل.

وتفريق الوضوء إن كان يسيراً ـ وحَدُّه أَن لا يَنْشَفَ ما غَسَله قبله ـ لم يبطل، وإن كان فاحشاً أبطل في أصح الروايتين.

ويُكره الإكثار من الماء في الوضوء، فقد أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني محمد بن المُثنى قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا خارجة بن مُصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يَحيى[(١)] عن أُبي عن النبي ﷺ أنه قال: «للوضوء شَيطان يقال له: الوَلَهان، فاتقوه ـ أو قال: فاحذروه»[(٢)]. قال عبد الله بن أحمد: وحدثني أبي قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا ابن لهيعة عن يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحُبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ، مَرَّ بسعدٍ وهو يتوضأ، فقال: «ما هذا السَّرف يا سَعد؟!» قال: أَفي الوضوء سَرف؟ فقال: «نعم، وإن كنتَ على نَهرٍ جارٍ»[(٣)].

فأما تَنشيف الأعضاء عند الفراغ من الوضوء[(٤)]، فليس بمستحب، وهل يُكره؟ فيه روايتان عن أحمد رضي الله عنه[(٥)] فإذا فرغ من الوضوء استُحبَّ له أن يقول: أَشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فإنه قد رَوى مسلم في أفراده من حديث عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحدٍ يتوضأ، فيبلغ أو فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عَبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية»، وفي بعض الألفاظ: «وَحده لا شريك له»[(٦)].

---

(١) تحرفت في النسخ إلى: «عُتي». ويحيى هو ابن ضمرة السعدي.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٣٨)، والطيالسي (٥٤٧)، وابن ماجه (٤٢١)، والترمذي (٥٧)، وابن خزيمة (١٢٢)، وابن عدي في الكامل ٣/ ٩٢٣، والضياء في المختارة (١٢٤٧) و(١٢٤٩)، والحاكم ١/ ١٦٢، والبيهقي في السنن ١/ ١٩٧.
(٣) أخرجه أحمد (٧٠٦٥)، وابن ماجه (٤٢٥).
(٤) ليس في (ظ).
(٥) ليس في الأصل.
(٦) أخرجه مسلم (٢٣٤)، وأحمد (١٧٣١٤)، وابن أبي شيبة ١/ ٣ ـ ٤، وأبو عوانة ١/ ٢٢٤، والترمذي (٥٥)، والبيهقي في السنن ١/ ٧٨، والنسائي في الكبرى (١٤١).

فأما ما يذكره أقوام من الذِّكْر عند غَسل الأعضاء، كقولهم عند غَسل الوجه: اللهمَّ بَيِّض وَجهي يوم تَسودُّ فيه وجوه. وعند غسل اليد: اللهمَّ أَعطِني كتابي بيَميني ولا تُعطنيه بشمالي ولا من وراء ظَهري. وعند مسح الرأس: اللهمَّ أَظللني بظلِّ عرشك يوم لا ظلَّ إلا ظلك. وعند غسل الرجلين: «اللهمَّ ثَبِّت قدمي على الصِّراط يوم تَزل فيه الأقدام. فإنه لم يَثبت عندنا في ذلك سُنَّة، فلذلك لم نَذكره، وإن قيل، فَلا بأس به».

ذكر ما يَشتمل عليه الوضوء من واجبٍ وسُنّة

واجبات الوضوء عشرة: النِّية، والتَّسمية، والمَضمضة، والاستنشاق، وغَسل الوجه، وغسل اليدين، ومسح جميع الرأس، وغسل الرجلين، والترتيب، والموالاة.

ومَسنوناته عشرة: غسل اليدين قبل إدخالهما الإناء، والسواك، والمبالغة في المضمضة والاستنشاق، وتخليل اللِّحية، وغسل داخل العينين، والبداية باليمين، وأخذ ماء جديد للأذنين، ومسح العنق، وتخليل مابين الأصابع، والغسلة الثانية والثالثة[١].

ذكر فَضائل الوضوء

روى مُسلم في أفراده من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «مَن تَوضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»[٢]. وفي أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا توضأ العبد المُسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خَطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة

(١) ورد في هامش النسخة (ظ) ما نصه: «آخر الجزء الأول من أجزاء الشيخ المصنف».
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٥) (٣٣)، وأحمد (٤٧٦)، والبزار (٤٣٣)، وابن أبي شيبة ١/ ٧، وأبو عوانة ١/ ٢٢٩.

بَطشتها يداه مع الماء أو مع آخر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مَشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نَقياً من الذنوب»(١). وفي أفراده من حديث عمرو بن عَبَسة قال: قلت: يا نَبي الله، أخبرني عن الوضوء. قال: «ما منكم أحدٌ يُقرِّب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق ويَنتثر إلا خَرَّت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح برأسه إلا خرَّت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله عز وجل إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء»(٢). وفي أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات ويمحو به الخطايا: إسباغ الوضوء في المَكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة»(٣). وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أمتي يُدعون يوم القيامة غُرًّا مُحجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»(٤).

ويستحب لمن توضأ أن يركع ركعتين، فقد ذكرنا في أول الفصل حديث بلال: ما أحدثتُ إلا توضأت وصليت ركعتين(٥). وفي الصحيحين من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ، وقال: رأيتُ رسول الله ﷺ توضأ نحواً من وضوئي هذا ثم قال: «مَن توضأ وضوئي هذا ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه غُفِر له ما تقدم من ذنبه»(٦). وفي أفراد مسلم من حديث عُقبة بن عامر عن النبي ﷺ أنه

(١) أخرجه مسلم (٢٤٤)، وأحمد (٨٠٢٠)، والترمذي (٢)، والدارمي (٧١٨)، وابن خزيمة (٤)، وابن حبان (١٠٤٠)، والبيهقي ١/ ٨١.
(٢) أخرجه مسلم (٨٣٢)، وأحمد (١٧٠١٩)، وأبو عوانة ١/ ٣٨٦، والبيهقي في السنن ١/ ٨١ و٢/ ٤٥٤، وابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٥٣.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥١)، وأحمد (٨٠٢١)، ومالك في الموطأ ١/ ١٦١، وابن حبان (١٠٣٨)، والبيهقي في السنن ١/ ٨٢.
(٤) أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦)(٣٥).
(٥) تقدم في الصفحة ٩٠.
(٦) أخرجه البخاري (٦٤٣٣)، ومسلم (٢٢٦) و(٢٢٧) و(٢٢٩).

قال: «ما من مُسلم يتوضأ فَيُحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلا وَجبت له الجنة»[١].

فصل

ونواقض الوضوء سبعة: الخارج من السبيلين سواء كان طَاهراً، كالرِّيح، أو نجساً، كالبول والدود، وسواء كان قليلاً أو كثيراً، نادراً أو معتاداً.

والثاني: خروج النجاسات من بقية البدن، فإن كانت بولاً أو عَذِرةً فلا فرق بين قليلها وكثيرها، وإن كانت غير ذلك لم يَنقض قليلها ونَقَض كثيرها، وهو ما فَحش في النفس.

والثالث: زوال العقل إلا بالنوم اليسير جالساً أو قائماً أو راكعاً أو ساجداً، وعن الإمام أحمد: أن نوم الراكع والساجد يَنقض بكل حال، وعنه: أن النوم يَنقض في جميع الأحوال إلا اليَسير في حال الجلوس[٢].

والرابع: أن تمس بَشرته بشرةَ أُنثى لشهوة، وفي نَقض وضوء المَلْموس روايتان.

والخامس: مَسّ فَرج الآدمي قُبلاً كان أو دبراً، كبيراً أو صغيراً، حياً أو ميتاً، وهل ينقض مَسَّ الذَّكَر بالذراع؟ على روايتين، وعن الإمام أحمد: لا ينقض مس الفرج بحال.

والسادس: أكل لحم الجزور في أظهر الروايتين، فإن شرب من ألبانها، فعلى روايتين، فإن أكل من كبدها أو طحالها، فعلى وجهين.

والسابع: غَسل الميت.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٤).

(٢) ينظر شرح منتهى الإرادات لمنصور البهوتي ١/ ١٣٩.

فصول في ذكر الغُسل[١]

فصل فيما يوجب الغُسل

الموجب للغسل سبعة أشياء[٢]:

أحدها: خُروج المني على وجه الدَّفق واللَّذة، فأما إذا خرج لمرضٍ أو إبرِدَةٍ[٣] لم يجب الغسل، فإن أحسَّ بانتقال المني عند الشهوة فأَمسك ذَكره فلم يخرج، وجب الغُسل في المشهور من الروايتين، فإن خرج بعد الغُسل، فهو كبقية المني إذا ظهر بعد الغُسل، وفي ذلك ثلاث روايات، إحداها: لا يجب الغُسل، والثانية: يجب، والثالثة: إن ظهر قبل البول وجب الغُسل، وإن ظهر بعده لم يجب.

والثاني: تَغييب الحَشفة في الفرج، وسواء في ذلك القُبل والدبر من جميع الحيوان الناطق والبَهيم الحَيّ من ذلك والميت.

والثالث: إسلام الكافر سواء كان أَصلياً أو مُرتداً، وقال أبو بكر[٤] من أصحابنا: هو مُستحب.

والرابع: الموت، فهذه الأربعة يشترك فيها الرجال والنساء، ويختص النساء بوجوب الغُسل من الحيض والنِّفاس والولادة على أحد الوجهين.

فصل
في ذكر كيفية الغُسل

الغُسل على ضربين؛ كاملٌ، ومُجزئ، فالكامل يأتي فيه بعشرة أشياء: النية،

---

(١) ليس في (ظ).

(٢) ليست في (ظ).

(٣) الإبْردة: بَردٌ في الجوف. القاموس المحيط: (برد).

(٤) هو أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد البغدادي المعروف بغُلام الخَلّال صنَّفَ الشافي والتنبيه وزاد المسافر، وغيرها، توفي سنة ٣٦٣ هـ. طبقات الحنابلة ٢/ ١٢٠.

والتسمية، وغسل اليدين ثلاثاً، وغسل ما به من أذى، والوضوء، وأن يَحثي على رأسه ثلاث حَثيات من الماء يُروّي بها أصول شعره، ويفيض الماء على سائر بدنه ثلاثاً، ويَدلك بدنه بيده[(١)]، ويبدأ بشقِّه الأيمن، وينتقل من موضع غسله، فيغسل قدميه؛ لأنه إذا غسلهما ثم وضعهما على الأرض احتاج إلى غَسلهما مرة أخرى وضاع الماء الأول.

والمُجزئ: أن يغسل فرجه، وينوي، ويسمي، ويعم بدنه بالغَسل، وبأي مقدارٍ من الماء أسبغ أجزأه، غير أنه يُستحب أن لا ينقص في الغُسل من صاعٍ، وفي الوضوء من مُدٍّ.

ذكر الأغسال المستحبة

وهي ثلاثة عشر غسلاً: للجمعة، والعيدين، والكسوفين، والاستِسقاء، ومن غَسل الميت، وغُسل المجنون والمُغمى عليه، إذا أفاقا من غير احتلام، وغُسل المستحاضة لكل صلاة، والغُسل للإحرام، ولدخول مكة، والوقوف بعرفة، وللمبيت بمزدلفة، ولرمي الجمار، والطواف.

ذِكر التَّيمم

من فَقَد الماء أو مَنَعَه من استعماله مانع، كَسَبعٍ، أو جِراحٍ، أو كان يحتاج إلى شُربه، أو لم يُبَع إلا بزيادةٍ كثيرة جاز له التَّيمم.

ولا يجوز أن يتيمم لفريضة حتى يدخل وقتها، ولا لنافلةٍ في وقت النهي عن فِعلها، فإذا تيمَّم صلى المكتوبة وقضى به فوائت إن كانت عليه ما دام الوقت[(٢)]، فإن كان بعض بدنه صحيحاً وبعضه جريحاً غَسل الصحيح وتيمَّم للجريح، وإن كان معه ماء يسير[(٣)] يكفي بعض أعضائه استعملَه وتيمّم لما لم يُصِبْه الماءُ، وإذا كان

(١) ليست في الأصل.
(٢) ليست في (ظ).
(٣) ليست في (ظ).

معه إناآنِ نَجسٌ وطاهر واشتَبها عليه أراقهما وتيمَّم، ومتى رجا وجودَ الماء استُحب له تأخير التيمم إلى آخر الوقت.

ويقصد الصعيدَ الطيب، وهو التراب الطاهر الذي له غبار يعلق باليد، فإن خالطه ما لا يجوز التيمم به كالنُّورةِ[١] والجِصِّ، فحكمه حكم الماء إذا خالطته الطاهرات، وينوي بتيممه استباحةَ صلاةٍ مفروضة، فإن نوى نفلاً أو أطلق النية لم يجز أن يُصلي به إلا النافلة، فإن كان جنباً وجب عليه أن ينوي الجنابة والحَدَث، ثم يُسمي، وينزع خاتمه إن كان في يده خاتم، ويضرب بيديه وهما مُفرَّجَتا الأصابع ضربةً واحدةً على التراب، ويمسح وجهه بباطن أصابع يديه، وظاهر كفيه بباطن راحتيه. قال أبو الخطَّاب: هذا هو المَسْنون عند الإمام أحمد رحمه الله، وقال القاضي أبو يَعْلَى: هذا صفة المجزئ، وإنما المسنونُ أن يَضرب ضربتين يمسح بإحداهما جَميع ما يجب غسله من الوجه مما لا يشق، ويمسح بالأخرى يديه إلى المرفقين، فيضع بُطون أصابع يده اليسرى على ظهور أصابع يده اليمنى، ويُمرُّها على ظهر الكف، فإذا بلغ الكوعَ قبض أطرافَ أصابعه على حرف الذراع، ثم يُمرُّها إلى مرفقه، ثم يُدير بَطن كفه إلى بطن الذِّراع ويُمره عليها، ويرفع إبهامه، فإذا بلغ الكوع أمرَّ الإبهام على ظهر إبهامِ يده اليمنى، ثم يمسح بيده اليمنى يده اليسرى كذلك، ثم يمسح إحدى الراحتين بالأخرى ويُخلِّل بين أصابعهما، ويجب ترتيب الوجه على اليدين والموالاة في إحدى الروايتين.

وأما **القسم الثالث** من النظافة، وهو: التَّنَظُّف عن الفَضلات الظاهرة، وهي نوعان: أوساخ تُزال، وأجزاءٌ تُحذَف.

فأما الأوساخ فثمانية:

الأول: ما يجتمع في شَعر الرأس من الدَّرن والقَمل، فيُستحب تنظيفه بالغسل والتَّرجل والتَّدهين لإزالة الشَّعث، وقد كان رسول الله ﷺ يدهن الشعر ويُرجِّله

(١) النُّورة: حجر الكلس، ثم غلبت على أخلاطٍ تُضاف إلى الكلس من زرنيخٍ وغيره، وتُستعمل لإزالة الشعر. «المصباح المنير»: (نور).

ويأمر بذلك، ويقول: «ادَّهِنوا غِبّاً»(١). ورُوِيَ أن رجلاً دخل عليه وهو ثائر الرأس أشعث اللِّحية، فقال: «أما كان لهذا دهنٌ يُسكِّنُ به شَعره»(٢).

الثاني: ما يجتمع من الوسَخ في معاطف الأُذن، والمسح يزيل ذلك، وما يجتمع في قَعر الصِّماخ، فينبغي أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام، فإن كثرة ذلك ربما أضرَّ بالسمع.

الثالث: ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات، والاستنشاق والاستنثار يزيل ذلك.

الرابع: ما يجتمع على الأسنان وأطراف اللسان من القَلَح، والسِّواكُ، والمضمضة يُزيلانه.

الخامس: ما يجتمع في اللِّحية من الوسَخ والقَمل، وإزالة ذلك بالغسل والتسريح، وقد كان رسول الله ﷺ لا يُفارقه المشط والمِدْرَى في سَفرٍ ولا حَضر(٣). وكان ينظر في المرآة، وربما ظَنَّ الجاهلُ أن هذا من حب التزين المذموم وليس كذلك، لأن الإنسان لا يؤثر أن يُرى إلا على وجه حسن، و إذا قصد ذلك كان قصده صحيحاً.

السادس: وسَخُ البراجم(٤).

السابع: تنظيف الرَّواجب، فإن الوسخ قد يجتمع فيهن، قال ابن الأنباري: البراجم عند العرب الفُصوص التي في فصول ظهور الأصابع تَبدو إذا جُمعت وتغمض إذا بُسطت، والرواجب: ما بين البراجم بين كل برجمتين راجِبَة.

الثامن: الدَّرَن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق وذلك يزيله الحمّام.

---

(١) قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٢/٦٢٦: وأما قوله: ادهنوا غبّاً. فقال ابنُ الصلاح: لم أجد له أصلاً، وقال النووي: غير معروف.

(٢) أورده الزبيدي في الإتحاف ٢/٦٢٧.

(٣) أورده الزبيدي في الإتحاف ٢/٦٢٨، والمِدرَى: المِرآة.

(٤) البراجم: معاطف ظهور الأنامل.

فصل

ولا بأس بدخول الحمّام، فقد دخله جماعةٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ، لكن على داخلِه صيانةُ عورته من نَظرِ الغَير إليها ولمسِه إياها.

وينبغي للداخل أن يتحيَّن وقتَ فراغ الحمام فإنه أَسْتَر إذْ لو اجتمع فيه أهل خيرٍ ودين لم يؤمن في حركاتهم من انعطاف الأُزُرِ فيقع بصرُ بعضهم على عورة بعض.

وينبغي دُخول الحمام بتدريجٍ إلى أن يدخل إلى المكان الحار، وأن لا يصب من الماء إلا ما يحتاج إليه خصوصاً من الماء الحار؛ لأن كُلفته أكثر، وأن يتذكر بحرارته حرَّ النار، فإن فكرة المؤمن لا تَزال تجول في كل شيء من أمور الدنيا، فتذكَّرَ به أمور الآخرة؛ لأن الغالب على المؤمن أمر الآخرة، وكل إناء ينضح بما فيه، ألا ترى أنه لو دخل بَزَّازٌ ونَجَّارٌ وبَنَّاءٌ وحائِكٌ إلى دارٍ معمورة رأيتَ البزَّازَ يَنظر إلى الفُرش يتأمل قيمته، والحائك ينظر إلى نَسج الثياب، والنجار إلى السَّقف، والبَنّاء إلى الحيطان، فكذلك المؤمن إن رأى ظُلمةً ذَكَرَ ظُلمة القبر، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكّر نفخَ الصّور، وإن رأى نعيماً ذكر الجنة، وإن رأى عذاباً ذكر النار.

ولا يُسنُّ في الحمام سلام، ويُكره دخوله قريباً من الغروب وما بين العِشائين، فإنه وقت انتشار الشياطين، ولا بأس بالتَّدليك والتغميز لكنه يمنع المدلِّك من مَسِّ عورته، وقد ذكرتُ مما يُستعمل في الحمّام من جهة الطب في كتاب «لَقْط المَنافِع» أشياء نافعة ليس هذا الكتاب موضعها، فلتُطالَع من ثَمَّ.

فصل

وأما الأجزاء التي تحذف فثمانية أيضاً:

الأول: شَعر الرأس، وما كان رسول الله ﷺ يحلق رأسه إلا في الحج، وكذلك أصحابه، وعامة العلماء بعدهم، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله: هل يُكره حلق الرأس أم لا؟ ويُكره القزع، وهو: أن يحلق بعض الشعر ويَترِكَ بعضه.

والثاني: شَعر الشارب، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «اَحْفُوا الشَّوارب»[١]. وذلك يكون بالاستقصاء في القَصِّ، ولما كانت الفرس تُطيل شواربها وتَقُص لحاها أمر رسول الله ﷺ بعكس ذلك فقال: «احفُوا الشوارب واعفوا اللِّحى». وأما حلق الشارب فمكروه.

الثالث: شَعر الإبط ويُستحب نَتفه، وقد كان الشافعي رحمه الله يقول: إني لأعلمُ أن السنَّة نَتفه، ولكني لا أقوى على ذلك. وإذا كان المقصود النظافة جاز خَلعُه إما بالنُّورة أو بالحديد.

الرابع: شَعر العَانة، ويُستحب حَلقه بالموسى أو بالنُّورة، ولا يؤخر أكثر من أربعين يوماً.

الخامس: تَقليم الأظفار، وفي ذلك تحسينٌ للصورة وإزالة للوسخ، وقد روي أن النبي ﷺ بدأ بُمسبِّحةِ يده اليُمنى إلى الخِنْصَر، وابتدأ في اليُسرى بالخِنصر إلى الإبهام، خَتم بإبهام اليمنى[٢]، فإن ثبتَ هذا عنه فوجهه أنه بدأ باليد؛ لأنها أشرف من الرِّجل، ثم باليُمنى؛ لأنها أشرفُ من اليسار، ثم بالمُسَبِّحة؛ لأنها المُشيرة بالتَّوحيد، ثم بما عن يمينها لاستحباب إدارة الطَّهور وغيره عن اليمين، ثم إذا وضعت الكَف على الكَف كانت في حكم دائرة فاقتضى ترتيب الدور البداية بخنصر اليسرى.

فأما أصابع الرجل، فالأولى أن يَبتدئ بخنصر اليُمنى ويختم بخنصر اليُسرى، كما في التَّخليل إذ لا مُسَبِّحةَ في الرِّجل.

فهذه الأسرار لا تَكادُ تَقَع للعالم ابتداء إنما يدركها الأنبياء بنور النُّبوة ثم تنبَّه العلماء لاستنباط معانيها ليتحقق الفَضل بين الوارث والموروث، فإن الموروث هو الذي حصل المالُ له فاستقلَّ بتحصيله، والوارث لم يُحصِّله ابتداءً إنما تلقَّاهُ من المُحصِّل.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٩٣)، ومسلم (٢٥٩)(٥٢)، والنسائي في الكبرى (٩٢٩٤) وابن أبي شيبة ٨/ ٥٦٤، والترمذي (٢٧٦٣)، وأحمد (٤٦٥٤) من حديث ابن عمر.

(٢) يُنظر المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

السادس: زيادة السُّرَّة، وذلك يُقطَع في أول زمان الوِلادة.

السابع: القُلْفة، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الخِتان سُنّة، وهو عندنا واجب، وينبغي أن لا يبالغ في خَفْضِ[١] المرأةِ، فقد قال ﷺ لأم عَطية وكانت تَخفِض: «أشمي ولا تُنهِكي، فإنه أسرى للوجه، وأحظى عند الزوج»[٢] أي: أكثر لماء الوجه ودَمُه، وأجودُ في الجِماع، فانظر إلى ما لاحظه ﷺ من مصالح الدين والدنيا لتعلم أنه أُعطِي الكمال.

الثامن: ما طال من اللِّحية، فقد كان ابنُ عمر في جماعةٍ يقبضون على لحاهم ويأخذون ما بعد القَبْضة وكرهه آخرون لقوله: «اعفوا اللِّحى»، والأول أصح؛ لأن التكثير ينبغي أن يكون إلى حدٍ ولا يخرج إلى التَّشويه.

فصل

ويُكره للإنسان نَتف الشَّيب، والمَسنون خِضابه، وقد أمر رسول الله ﷺ بتغيير الشَّيب، فروى الزُّبير، وعبد الرحمن بن عوف، وابن عمر، وأبو هريرة، وأنس، وعائشة، وأسماء عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «غَيِّروا الشَّيب»[٣]، وفي بعض رواياتهم: «ولا تَشبَّهوا باليهود والنَّصارى». وأمر ﷺ بالخضاب؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن اليهودَ والنَّصارى لا يَصبغون، فخالفوهم»[٤]. وَروى ابنُ عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «اخْتَضبوا فإن المَلائكة

(١) الخَفْضُ للمرأةِ كالخِتان للرجل.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨١٣٧)، والحاكم ٣/ ٥٢٥، من حديث الضحاك بن قيس.

(٣) أخرجه من حديث الزبير: أحمد في المسند (١٤١٥)، ومن حديث ابن عمر: النسائي ٨/ ١٣٧، ومن حديث أبي هريرة: الترمذي (١٧٥٢)، والبيهقي ٧/ ٣١١، ومن حديث أنس أحمد (١٣٥٨٨)، والبزار (٢٩٨٠). ومن حديث أسماء: أحمد (٢٦٩٥٦)، وابن حبان (٣٢٠٨)، والطبراني في الكبير ٢٤/ ٢٣٧، والحاكم ٣/ ٤٦، والبيهقي ٩/ ١٢١، ولم أقف عليه من حديث ابن عوف وعائشة.

(٤) أخرجه البخاري (٥٨٩٩)، ومسلم (٢٦٠٣)(٨٠).

لتَستبشر لخضاب المؤمن»[١]. وروى صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل قال: دخلَ على أبي رجلٌ قد خَضَبَ، فقال: إني لأرى الرجلَ يُحْيي شَيئاً من السُّنَّةِ فَأَفرحُ به[٢].

فأما ما يُختَضَبُ به فقد كانَ قومٌ يخضبون بالحِنَّاء والكَتَم، أخبرنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا سَلَّام بن أبي مُطيع عن عثمان بن عبد الله بن مَوهب، قال: دَخلنا على أُم سَلَمة، فأخرجت إلينا شَعراً من شَعر رسول الله ﷺ مَخضوباً بالحنّاء والكَتَم[٣]. وكذلك [٤]روى أبو رِمْثَة قال: كان رسول الله ﷺ يَخضب بالحنَّاء، والكَتم[٥]. وكذلك[٤] كان يفعلُ أبو بكرٍ الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عُبيدة، وواثِلة رضي الله عنهم، وكان آخرون يختضبون بالحِنَّاء البَحْتِ، أخبرنا علي بن عبيد الله قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد الصَّريفيني قال: أَخبرتنا أَمَةُ السَّلام بنتُ أحمد بن كامل، قالت: أخبرنا محمد بن إسماعيل البُنْدار، قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله بن علي بن سُويد بن منجوف، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، قال: حدثنا سفيان عن إياد ابن لقيط عن أبي رِمْثَة، قال: أتيتُ النبي ﷺ فَرأيتُه قد لَطَخَ لحيتَه بالحِنّاء[٦]. وقد روينا عن عمر بن الخطاب، وصُهيب، وأبي هُريرة، وعبد الله بن أبي أَوفى، وأنس بن مالك أنهم كانوا يَخضبون بالحناء، وفعله من كبار التابعين ومن بعدهم محمد ابن الحَنفية، وعطاء، وابن سيرين، وعمرو بن دينار، وجعفر بن محمد

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٦٦، وقال: كذب موضوع.
(٢) المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف ١/ ٢٦٤.
(٣) أخرجه البخاري (٥٨٩٦) و(٥٨٩٨)، وأحمد (٢٦٥٣٥)، وابن ماجه (٣٦٢٣)، والطبراني في الكبير ٢٣/ ٧٦٥.
(٤ـ٤) سقط من (ظ).
(٥) أخرجه أحمد (١٧٤٩٧)، والطبراني في الكبير ٢٢/ ٧٢٦، والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ٢٣٨.
(٦) أخرجه أبو داود (٤٢٠٨).

ومَنصور بن المعتمر، والثوري، وابن مَهدي، وأبو سليمان الداراني، والشافعي وأحمد بن حنبل في آخرين.

وكان آخرون يخضبون بالصُّفرة؛ أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا القَطيعي، قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: حدثنا مالك عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري عن عُبيد بن جريج أنه قال لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن، رأيتُك تَصبغ بالصُّفرة. فقال: إني رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغَ بها. أخرجاه في الصحيحين[1]. وروى زَيدُ بن أَسْلم عن عُبيد قال: رأيتُ ابنَ عمر يُصَفِّر لحيته، فقلت له في ذلك، فقال: إني رأيتُ رسول الله ﷺ يُصفر لحيته[2]. وممن كان يفعل ذلك عُثمان بن عفان، ومعاوية، وابنُ عمر، والمِقداد، وابنُ عباس، والمغيرة بن شُعبة، وأنس، وسهل بن سعد، وجابر بن عبد الله في آخرين.

وكان آخرون يخضبون بالسَّواد منهم: الحسن، والحُسين، وعبد الله بن جعفر، وسَعد بن أبي وقاص، وعُقبة بن عامر، والمغيرة بن شُعبة، وجرير بن عبد الله، وقد روينا عن عثمان بن عفان أيضاً، ومن كبار التابعين ومَن بعدهم: عمرو بن عثمان بن عفان، وعَلي بن عبد الله بن العباس، وموسى بن طَلحة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، والزهري، وهشام بن عبد الملك، والمنصور، وعبد الله بن المعتمر، والحجاج بن أَرْطاة، ومحمد بن إسحاق، وابن أبي لَيلى، وأيوب السَّخْتياني، وأبو عُبيد القاسم بن سَلَّام في آخرين.

وإنما يُكره هذا إذا قُصِدَ به التَّدليس، فإذا سَلم من تدليسٍ، فلا بأس به.

آخِر كتاب الطَّهارة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٦) و(٥٨٥١)، ومسلم (١١٨٧) (٢٥).

(٢) ينظر التخريج السابق.

كتاب أسرار الصلاة ومُهماتها

الحمدُ لله الذي لا حاجب له يُرشَى، ولا وَزير يُؤتَى، ولا بابَ يُغلق عن من يناجي أو يطلب قوتاً، من شاء دخل عليه بالصَّلاة فقد هيَّأ لها بُيوتاً جعل المتنفل بها محبوباً، وكتب التارك لفرضها ممقوتاً ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، أحمدُه حَمْدَ من إذا سجد اقترب، وأُصلي على رسوله محمدٍ أشرفِ العجم والعَرب، وعلى أصحابه وأتباعه ما دخل وقت فرضٍ فَوَجَبْ، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإنَّ الصلاة عماد الدين، وغُرة الطاعات، ونحن نذكر ما لا بد للمُريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة، ونكشف من دقائق معانيها الخَفية في الخشوع والإخلاص والنية ما يصلح كشفه، فأما تفاريعها النادرة ووقائعها الشاذة، فإنما يؤخذ من كتب الفقه، وقد رتبنا هذا الكتاب سبعة أبواب:

الباب الأول: في فضائل الصلوات.

الباب الثاني: في تفصيل الأعمال الظاهرة من الصلوات.

الباب الثالث: في تفصيل الأعمال الباطنة منها.

الباب الرابع: في الإمامة والقدوة.

الباب الخامس: في صلاة الجماعة(١) وآدابها.

الباب السادس: في مسائل متفرقة تعم بها البَلوى.

الباب السابع: في التَّطوعات.

---

(١) في (ظ): «الجمعة».

الباب الأول

في فَضائل الصلوات والركوع والسجود والجماعة والأذان وغير ذلك

فضيلة الأذان والمؤذنين

قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣]، قيل: هو المؤذن، أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الملك بن عمرو، قال: حدثنا هشام عن يحيى بن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا نُوديَ للصلاة أَدبر الشيطان وله ضُراط حتى لا يَسمع الأذان، فإذا قُضي الأذان أقبل، فإذا ثُوِّبَ بها أَدبر، فإذا قُضي التَّثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقَلبه ـ أو قال: ونفسه ـ فيقول: اذكر كذا وكذا، لما لم يكن يذكر، حتى يَظل الرجل لا يدري كم صلى» أخرجاه في الصحيحين[1]. والتثويب ههنا الإقامة، كذلك قال الخطابي. وفي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أَذَّنَ المؤذن هرب الشيطان حتى يكون بالرَّوحاء»[2] وهي من المدينة على ستة وثلاثين ميلاً. أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي بن المُذهب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابن النُّمير ويَعلى قالا: حدثنا طلحة ـ يعني بن يحيى ـ عن عيسى بن طلحة قال: سمعت معاوية يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤذنين أطول الناس أَعناقاً يومَ القيامة»

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٦)(١١).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٨).

انفرد بإخراجه مسلم[١]. وروى ابنُ عُمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أذَّنَ سبعَ سِنين كتبَ اللهُ له براءةً من النار»[٢].

رَفعُ الصوت بالأذان

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: حدثنا القَطيعي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حَدثني أبي قال: قرأتُ على عبد الرحمن: مالكٌ عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد ا لرحمن بن أبي صعصعة المازني عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد قال له: إني أراك تُحب الغنم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة، فارفع صوتك بالنّداء، فإنه لا يَسمع مَدى صوت المؤذن جِنٌّ ولا إنس ولا شَيء إلا شَهِد له يومَ القيامة. قال أبو سعيد: سمعتُه من رسول الله ﷺ. انفردَ بإخراجه البخاري[٣]. وروى أبو داود في سُننه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤذِّنُ يُغفَر له مَدى صَوته، ويَشهد له كل رَطبٍ ويابسٍ»[٤].

إجابةُ المؤذّن بمثل قوله

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا مُصعب الزبيري وعبد الله بن عون قالا: حدثنا مالك بن أنس عن الزهري عن عطاء بن يزيد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سَمعتم النِّداء فقولوا كما يقول المؤذِّن» أخرجاه في الصحيحين[٥]. وفي أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: قال

(١) أخرجه مسلم (٣٨٧)(١٤).
(٢) أخرجه المصنف في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية (٦٦٧)، وقال: هذا حديث لا يصح.
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩)، و(٣٢٩٦)، و(٧٥٤٨). وهو في موطأ مالك ١/ ٦٩، ومسند الإمام أحمد (١١٣٠٥).
(٤) أخرجه أبو داود (٥١٥).
(٥) أخرجه البخاري (٦١١) ومسلم (٣٨٣)(١٠).

رسول الله ﷺ: «إذا قالَ المؤذِّن: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبر، فقال أحدكم: اللهُ أكبر الله أكبرُ، فقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، فقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، ثم قال: أشهدُ أن محمداً رسول الله، فقال: أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله، ثم قال: حَيَّ على الصلاةِ، فقال: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، ثم قال: حيَّ على الفلاح، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهُ أكبر اللهُ أكبر فقال: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله، فقال: لا إله إلا الله مِن قلبه دخلَ الجنة»[١].

ذِكرُ ما يُقال عند الأذان من الدعاء

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعْيَن قال: أخبرنا الفِرَبْرِي قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا علي بن عَياش قال: حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن مُحمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قال حين يَسمع النِّداء: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت مُحمداً الوسيلة والفَضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلَّت له شَفاعتي يومَ القيامة» انفردَ بإخراجه البُخاري[٢]. وفي أفراد مسلم من حديث عبد الله بن عَمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتُم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صَلُّوا عليَّ، فإنه من صَلَّى عليَّ صلاةً صلى اللهُ عليه بها عَشراً، ثم سَلوا الله لي الوَسيلة، فإنها مَنزلةٌ في الجنَّة لا تَنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمن سألَ لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة»[٣].

الدُّعاء بين الأذان والإقامة

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا أسود وحسين بن

(١) أخرجه مسلم (٣٨٥).
(٢) أخرجه البخاري (٦١٤).
(٣) أخرجه مسلم (٣٨٤).

محمد قالا: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن بُرَيد[١] بن أبي مَريم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدعاء لا يُرد بين الأذان والإقامة، فادعوا»[٢]. أخبرنا أبو القاسم الحريري، قال: أخبرنا أبو طالب العُشاري، قال: أخبرنا أبو الحسين بن سَمعون قال: حدثنا أحمد بن محمد بن سَلْم الكاتب، قال: حدثنا حفص بن عَمرو الرَّبالي، قال: حدثنا سَهل بن زياد، قال: حدثنا سليمان التَّيمي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة فُتحت أبواب السماء، واستُجيب الدعاء»[٣].

فَضيلة المسجد

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الكَبير بن عبد المجيد، قال: حدثنا عبد الحميد[٤]، يعني ابن جعفر، عن أبيه عن محمود بن لبيد عن عثمان بن عفان قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ بَنَى لله مَسجداً بنى الله له بيتاً مثله في الجنة»[٥] انفرد بإخراجه مسلم. وفي أفراده من حديث أبي هُريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ البلادِ إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أَسواقها»[٦].

وقال مالك بن دينار: لولا البَول ما خرجتُ من المسجد.

---

(١) تصحفت في الأصل إلى: «يزيد».
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٢٦، وابن خزيمة (٤٢٧)، وأبو يعلى (٣٦٧٩)، وابن حبان (١٦٩٦)، وأحمد (١٢٥٨٤)، والترمذي (٢١٢).
(٣) أخرجه الخطيب في تاريخه ٨/ ٢٠٤، والطيالسي (٢٢٢٠)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٢٢٦، وأبو يعلى (٤١٠٩)، والطبراني في الدعاء (٤٨٥) و(٤٨٦).
(٤) تحرفت في (ظ) إلى: «المجيد».
(٥) أخرجه مسلم (٥٣٣).
(٦) أخرجه مسلم (٦٧١).

فَضيلة الخُطا إلى المساجد

روى البُخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ غدا إلى المسجد أو راح أعدَّ اللهُ له في الجنة نُزُلاً كُلَّما غَدا أو راح»(١). وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن تَطهَّر في بيته ثم مَشَى إلى بيتٍ من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خُطوتاه إحداهما تَحطُّ خَطيئةً، والأخرى ترفع دَرجَةً»(٢). وفي لفظ آخر: «إلا كتبَ اللهُ له بكلِّ خطوةٍ يَخطوها حَسَنة، ورفعه بها درجة وحطَّ عنه بها سَيِّئة»(٣). وقال ابنُ مسعود: كُنا نُقارب بن الخُطا. وفي أفرادِ مسلم من حديث أُبَيّ بن كعب قال: كانَ رجلٌ لا أعلم رجلاً أبعدَ من المسجد منه، وكان لا تُخْطِئه صَلاة، فقيل له ـ أو قُلتُ له ـ: لو اشتريتَ حماراً تركبه في الظَّلماء وفي الرَّمضاء، فقال: ما يَسرُّني أنّ منزلي إلى جَنب المسجد، إني أُريد أن يُكتب لي مَمْشايَ إلى المسجد ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي. فقال رسول الله ﷺ: «قَدْ جَمعَ اللهُ لكَ ذلك كُلَّه»(٤). وقال ابن عباس: كانت الأنصار مَنازلهم بعيدة من المسجد، فأرادوا أن ينتقلوا فيكونوا قريباً من المسجد، فنزلَت هذه الآية ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] فقالوا: لا بَل نَثبتُ مكاننا(٥). أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا هاشم، قال: حدثنا ليث، قال: حدثني سَعيد ـ يعني المَقْبُري ـ عن أبي عُبيدَة عن سَعيد بن يَسارٍ أنه سمع أبا هريرة يَقول: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا يَتوضأ أحدٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢)، ومسلم (٦٦٩).
(٢) أخرجه مسلم (٦٦٦).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن ٣/ ٦٢.
(٤) أخرجه مسلم (٦٦٣).
(٥) أخرجه الطبري في التفسير ١٦/ ٤٠٩، والطبراني في الكبير (١٢٣١٠)، وابن ماجه (٧٨٥).

فيُحسِنُ وُضوءه، ويُسبِغَه، ثم يأتيَ المَسجد لا يُريد إلا الصَّلاة فيه، إلّا تَبَشْبَشَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ كما يَتَبَشْبَشُ أهلُ الغائبِ بطَلْعَته»[١].

فضيلة الصَّفِّ الأول

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: قرأتُ على عبد الرحمن: مالكٌ، عن سُمَيّ، عن أبي صالحٍ السمّان، عن أبي هُريرة أن رسولَ الله ﷺ قال: «لو يعلم الناس ما في النِّداءِ والصفِّ الأول، ثم لم يَجدوا إلا أنْ يَسْتهموا عليه لاستَهموا»[٢]، أخرجاه في الصحيحين.

فَضيلة المكتوبة

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣] أخبرنا أبو الفَتح الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزدي وأبو بكر الغُورَجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حَدثنا المَحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا قُتيبة قال: حدثنا اللَّيث عن ابن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سَلَمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتُم لو أنَّ نَهراً ببابِ أحدكم يَغتسل منه كلَّ يوم خَمسَ مرات هل يبقى من دَرَنِه؟ قالوا: لا يبقى من دَرَنِه شيء. قال: فذلك مَثَلُ الصلوات الخَمس يمحو الله بهنَّ الخَطايا»[٣]، أخرجاه في الصحيحين. وقد روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الصلوات الخَمس المكتوبات، كمثل نَهرٍ جارٍ بباب أحدكم يَغتسل منه كل يوم خَمس مرات»[٤]. وفي أفراد مسلم من حديث

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٤٩١)، وأحمد (٨٠٦٥). والبَشُّ، قال ابنُ الأثير في النهاية ١/ ١٣٠: فَرَحُ الصديق بالصديق، واللُّطفُ في المسألة والإقبال عليه، وقد بَشِشْتُ به أَبَشُّ، وهذا مَثَلٌ ضربه لتلقِّيه إياه بِبرِّه وتقريبه وإكرامه.
(٢) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).
(٤) أخرجه مسلم (٦٦٨)، وابن أبي شيبة ٢/ ٣٨٩، وأحمد (١٤٤٠٨)، وأبو يعلى (١٩٤١).

عثمان عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن توضأ للصلاة فأسبغَ الوضوء، ثم مَشى إلى الصلاة المكتوبة، فصلّاها مع الناس أو مع الجماعة أو في المسجد، غفر الله له ذُنوبه»[(١)]. وأخرجه بلفظ آخر عن عثمان عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امرئٍ مسلمٍ تَحضُره صلاةٌ مكتوبةٌ فيُحسن وضوءها وخُشوعها ورُكوعها إلا كانَت كفارةً لما قبلها من الذنوب ما لم يَأتِ كبيرةً، وذلك الدهرَ كُلَّه»[(٢)]. وأخرجه بلفظ آخر أن النبي ﷺ قال: «ما من مُسلمٍ يتطهر، فيُتم الطَّهارة التي كتبَ الله عليه، فيصلي هذه الصلوات الخمس إلا كانت كفاراتٌ لما بَينها»[(٣)]. وفي حديث عُبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن توضَّأ فأبلغَ الوضوء، ثم قام إلى الصلاة، فأتمَّ ركوعها وسجودها والقراءة فيها، قالت: حفظك الله كما حَفِظتني، ثم يُصعَد بها إلى السماء ولها ضوءٌ ونورٌ ففُتحت لها أبواب السماء حتى تَنتهي إلى الله، فتَشفع لصاحبها، وإذا لم يُتم وضوءها ولا ركوعها ولا سُجودها، ولا القراءة فيها، قالت: ضَيَّعَكَ الله كما ضَيَّعتني، ثم أُصعِدَ بها إلى السماء وعليها ظُلمةٌ فَغُلِّقت دونَها أبوابُ السماء فلُفَّت كما يُلَفُّ الثوبُ الخَلقُ، فيُضرَبُ بها وَجهُ صاحِبها»[(٤)].

فضيلة الجماعة

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرجل في جَماعةٍ تزيد على صَلاتِه في بَيته وصَلاته في سُوقِه بضعاً وعشرين دَرجةً»[(٥)]. قال أحمد: وقرأتُ على عبد الرحمن: مالكٌ عن نافعٍ عن ابن عُمر أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢)(١٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣١).
(٤) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (١٩٠٥٣) ونسبه لسعيد بن منصور في سننه.
(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧)، ومسلم (٢٧٢).

قال: «صلاةُ الجماعة تَفضُل على صَلاةِ الفَذِّ بسبعٍ وعشرين درجةً»[١]. قال أحمد: وحدثنا أبو معاوية قال: حدثنا إبراهيم بن مُسلم الهَجَري عن أبي الأحوص عن عبد الله[٢] قال: من سَرَّه أن يَلقى اللهَ عزَّ وجل غَداً مُسلماً، فليُحافِظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات حيث يُنادَى بهن، فإنهنَّ من سُنَنِ الهُدَى، وإن الله عز وجل شَرع لنبيكم سُنَن الهُدى، وما منكم أحدٌ إلا وله مَسجد في بيته، ولو صليتم في بيوتكم كما يُصلي هذا المتخلِّف في بيته لتَركتُم سُنة نبيكم ﷺ، ولو تركتم سُنَّة نبيكم لضللتم، ولقد رَأَيتُنا وما يتخلَّف عنها إلا مُنافقٌ معلومٌ نِفاقُه، ولقد رأيتُ الرجلَ يُهادَى بينَ الرَّجُلَين حتى يُقامَ في الصَّف[٣]. انفرد بإخراج هذا الحديث مسلم واتفقا على الحديثين اللذين قبله.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صَلاةُ العشاء. وصلاةُ الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأَتوهما ولو حَبْواً، ولقد هَممتُ أن آمرَ بالصلاة فتقامَ، ثم آمرَ رجلاً يُصلي بالناس، ثم أنطلقَ معي برجالٍ معهم حُزَمُ الحَطَب إلى قوم يتخلَّفون عن الصلاة، فأحرِّقَ عليهم بُيوتهم بالنار»[٤]. أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسحاق بن يوسف قال: حدثنا سفيان عن أبي سَهل يَعني عثمان بن حكيم، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي عَمرة عن عثمان بن عفان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن صلى العِشاء في جماعةٍ كان كقيام نصفِ ليلةٍ، ومَن صلّى العشاء والفَجر في جماعةٍ كان كقيام لَيلةٍ»[٥] انفرد بإخراجه مسلم. وقد كان السَّلف يُبالغون في المحافظة على الجماعة، فروينا عن سَعيد بن المسيّب أنه قال: ما أُذِّنَ منذُ ثلاثين سنَة إلا وأنا في المَسجِد.

(١) أخرجه البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠)(٢٤٩).
(٢) يعني: ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٦٥٤) (٢٥٧).
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١)(٢٥٢).
(٥) أخرجه مسلم (٦٥٦).

فضيلة السُّجود

أخبرنا هِبة الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعتُ الأوزاعي يقول: حدثني الوليد بن هشام قال: حدثني مَعْدان بن طلحة اليَعْمري قال: لقيتُ ثَوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلتُ: أخبرني بعملٍ أعمله يُدخلني اللهُ به الجنَّة، أو قال: قلت: بأحبِّ الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة، فقال: سألتُ عن ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «عليكَ بكثرةِ السجود، فإنه لا تَسجد لله سَجدةً إلا رفعكَ الله بها درجةً، وحطَّ عنك بها خَطيئةً» قال مَعدان: ثم لقيتُ أبا الدرداء فسألته، فقال لي مثل ما قال لي ثوبان. انفرد بإخراجه مسلم[1]. وفي أفراده من حديث ربيعة بن كعب قال: كنت أبيتُ مع النبي ﷺ، فأتيته بوَضوئه وحاجته فقال لي: «سَلْ» فقلت: أسألكَ مرافقتك في الجنَّة، قال: «أَو غير ذلك؟» قلتُ: هو ذاك. قال: «فأَعني على نَفسك بكثرة السجود»[2]. وفي أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قرأ ابنُ آدم السَّجدة اعتزلَ الشيطانُ يَبكي يقول: يا وَيلي أُمر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فَأبيتُ فلي النار»[3]. وفي أفراده من حديث أبي هُريرة أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «أَقربُ ما يكونُ العبد من رَبِّه وهو سَاجد، فأكثروا الدعاء»[4]. وقال عمر بن الخطاب: لولا ثلاث لأحببتُ أن أكونَ قد لقيتُ الله عز وجل؛ لولا أن أَضَعَ جبهتي لله عز وجل، أو أجلس في مجالس يُنتقَى فيها طيب الكلام، كما يُنتَقى جَيّد التَّمر، أو أن أَسيرَ في سبيل الله عز وجل. وقال كعب: إنَّ العبدَ ليحط عنه الخطايا ما دام ساجداً. وكان عليُّ بن عبد الله بن العباس يَسجد كل يوم ألف سَجْدَة فسُمِّي السَّجّاد. وقال سَعيد بن جُبير: ما آسى على شيءٍ من الدنيا إلا على السُّجود.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٨).
(٢) أخرجه مسلم (٤٨٩)(٢٦).
(٣) أخرجه مسلم (٨١).
(٤) أخرجه مسلم (٤٨٢)(٢١٥).

فَضيلة الخشوع وجمع الهَمِّ في الصّلاة

قد ذكرنا آنفاً من حديث عُثمان بن عَفان عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من امرئٍ مسلمٍ تَحضُره صلاةٌ مكتوبة، فيُحسن وضوءها وخُشوعها وركوعها إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب، ما لم تُؤتَ كَبيرة»(١). ومن حديثه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن صلى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نَفسه، غُفِر لَه»(٢). وذكرنا عن عقبة بن عامر نحو ذلك(٣). وقد أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا شُرَيح قال: حدثنا عبد العزيز ـ يَعني الدَّراوَرْدي ـ عن زَيد بن أسلم عن زيد بن خالدٍ الجُهني قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى سَجدتين لا يَسهو فيهما غفر الله له ما تَقدَّم من ذنبه»(٤). وقال ابن عباس: ركعتان مُقتصدتان في تَفَكُّرٍ خَيرٌ من قيام ليلةٍ والقَلْبُ ساهٍ. وكان ابنُ الزُّبَير إذا قام في(٥) الصلاة كأنه عودٌ من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العَصافير على ظهره ولا تحسبه إلا جِذْمُ حائطٍ. وصلَّى يوماً في الحِجْر فجاء حَجَرُ قَذَّافةٍ فذهبَ ببعض ثوبه فما انفتلَ. وقال ميمونُ بن جابان: ما رأيتُ مُسلمَ بن يسار مُلتفتاً في صلاةٍ قط، ولقد انهدمت ناحيةٌ من المسجد ففَزِع أهلُ السوق لهَدْمِهِ وإنه لفي المسجد في صلاةٍ فما التفتَ. وروى عنه ابنُه عبد الله قال: كان أبي مُسلم بن يَسار إذا دخل المنزل سكتَ أهلُ البيت فلا يُسمع لهم كلامٌ وإذا قامَ يُصلي تكلَّموا وضحكوا. وكان عليُّ بن الحسين إذا توضَّأ اصفرَّ لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بينَ يدي من أُريد أن أقوم؟!

---

(١) تقدم تخريجه في الصفحة ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩) و(١٩٣٤)، ومسلم (٢٢٦) (٣).

(٣) تقدم في الصفحة ٩٥ ـ ٩٦.

(٤) أخرجه أحمد (٢١٦٩١).

(٥) في (ظ): «إلى».

أخبرنا المُحمَّدان: ابنُ ناصر وابنُ عبد الباقي قالا: أخبرنا حَمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم الحافظ قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: حدثني علوان بن الحسين الربعي قال: حدثنا رباح ابن أحمد الهَرَوي قال: مَرَّ عصام بن يوسف بحاتم الأَصم وهو يتكلم في مجلسه فقال: يا حاتم كيف تُصلي؟ قال حاتم: أقومُ بالأًمر، وأمشي بالسَّكينة، وأدخُل بالنِّية، وأُكَبر بالعَظَمة، وأَقرأ بالتَّرتيل والتفكر، وأَركَعُ بالخُشوع، وأَسجُدُ بالتواضع، وأُسَلِّم بالسنَّةِ، وأُسلمها بالإخلاص إلى الله تعالى، وأخاف أن لا تُقْبَل مني. فقال: تكلَّم فأنتَ تُحسِنُ تُصَلِّي[1].

(١) حلية الأولياء ٨/ ٧٤ ـ ٧٥.

الباب الثاني

في كَيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة

إذا قال المؤذنُ: قَد قامت الصلاة قامَ إلى الصلاة، ثم ينوي الصلاة بعينها، ويجوزُ أن يُقدم النيَّة على التكبير بزمانٍ يسير بشرطِ أن لا يَفسخها ويَفتتح الصلاةَ بقوله: اللهُ أكبرُ، ويمدُّ أصابعه، ويضم بعضها إلى بعض، ثم يرفع يديه مع ابتداء التكبير إلى منكبيه وإلى فروع أذنيه، فإذا انقضى التكبير حَطَّ يديه وأخذ بكفه الأيمن كوعه الأيسر ويجعلهما تحت سُرته، وعن الإمام أحمد: تحت صَدره، وعنه أنه مُخيَّر في ذلك وينظر إلى موضع سجوده، ثم يستفتح فيقول: سُبحانَك اللهم وبحمدك وتبارك اسمُك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك، ثم يستعيذ فيقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم يقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا يجهر بجميع ذلك، ثم يقرأ الفاتحة ويأتي فيها بإحدى عشرة تَشديدة، فإذا ترك تشديدةً منها أعاد، وإذا قال: ولا الضَّالين، قال: آمين، يجهر بها الإمام والمأموم فيما يجهر فيه بالقراءة، ثم يقرأ بعد الفاتحة سورةً تكون في الصبح من طِوال المفصَّل وفي المغربِ من قِصارِه وفي بَقية الصلوات من أوساطه.

ومن لا يحسن الفاتحة وضاقَ وقتُ الصلاة عن تعلُّمها قرأ بعدها في عدد الحروف فإن لم يُحسن إلا آيةً كررها بقدرها، ومن قرأ بما يخرج عن مصحف عثمان كقراءة ابن مسعودٍ وغيره لم تصحَّ صلاتُه في إحدى الروايتين، ومن لم يُحسن شيئاً من القُرآن بالعربية لكن قدر أن يُترجم عنه بلغةٍ أخرى لم يُجْزِهِ ذلك، ولزمه أن يقول: سُبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإن لم يُحسن شيئاً من الذِّكر وَقف بقدر القراءة، ولا يكره قراءة آخر السُّوَر وأوساطها على أصحِّ الروايتين. ثم يرفع يديه ويركع مُكبراً حتى يَضَع يديه على ركبتيه، ويمد ظَهره مستوياً ويجعل رأسه حيال ظهره غير مرفوعٍ ولا مخفوض،

ويجافي مرفقيه عن جَنْبيه وقدر الإجزاء أن يَنْحني حتى يمكنه مَسّ ركبتيه بيديه، ويقول: سُبحان ربي العظيم ثلاثاً، وهو أدنى الكمال، ثم يرفع رأسه قائلاً: سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَه، ويرفع يديه، فإذا اعتدل قائماً قال: ربَّنا ولك الحمد ملءَ السماء وملءَ الأرض وملءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد. لا يزيد على ذلك، ثم يُكبر ويَخِرُّ ساجداً، فيضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه، ويجعل صدور أصابع قدميه على الأرض، والسجود على جميع هذه الأعضاء واجب إلا الأنف فإنه على روايتين. ولا يجبُ عليه مباشرة المصلَّى بشيءٍ من الأعضاء إلا الجبهة، فإنها على روايتين، ويُستحب له أن يُجافيَ عَضُديه عن جَنبيه وبَطنه عن فَخذيه، ويضع يديه حذو منكبيه، ويفرق بين ركبتيه، ويقول: سُبحانَ ربي الأعلى. ثلاثاً، وهو أدنى الكمال ثم يرفع رأسه مكبراً ويجلس مُفترشاً؛ وهو أن يَفرش رجله اليُسرى ويجلس عليها، وينصب اليُمنى، ثم يقول: رَبِّ اغفِرْ لي. ثلاثاً، ثم يسجد السجدة الثانية مكبراً ويقول: سبحان ربي الأعلى. ثلاثاً[1]، ثم يرفع رأسَه مُكبراً، وهل يجلس جلسة الاستراحة؟ على روايتين؛ إحداهما: لا يجلس، بل يقومُ على صدور قَدميه معتمداً على ركبتيه، والثاني: يجلس على قدميه وأَلْيَتيْهِ، ويَنْهض مُكبِّراً معتمداً على رُكبتيه، ثم يصلي الركعة الثانية كذلك إلا أنه لا يَستفتح ولا يَستَعيذ، فإن كانت صَلاته رَكعتين جلس مُفترشاً، وجَعل يده اليمنى على فخذه اليمنى يقبض منها الخِنصَر والبِنصر، ويُحَلِّقُ الإبهام مع الوسطى، ويشير بالسَّبَّاحة في تَشهده مراراً، ويبسط اليدَ اليُسرى[2] مضمومةَ الأصابع على الفخذ اليسرى، ويتشهد فيقول: التَّحيات لله والصلواتُ الطيبات، السلام عليكَ أيها النَّبي ورحمةُ الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ثم يصلي على النبي فيقول: اللهمَّ صَلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما باركتَ على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد. وعن الإمام أحمدَ رحمه الله أنه يقول:

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «اليمنى».

كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. وكذلك: كما باركتَ على إبراهيم وآلِ إبراهيم.

ويُستحب له أن يَستعيذَ من أربعٍ، فيقول: أعوذُ بالله من عذابِ القَبر، ومن عذاب النار، ومن فِتنة المَسيح الدَّجالِ، ومن فتنة المَحيا والممات.

ثم يَدعو بما ورد في الأخبار؛ فمن ذلك أن يقول: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفورُ الرحيم، اللهم إني أسألُكَ من الخيرِ كلِّه ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشرِّ كلِّه ما علمتُ منه وما لم أعلم، اللهمّ إني أَسألكَ من خيرِ ما سألكَ عبادك الصالحون، وأعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبادك الصالحون، اللهم إني أسألك الجنة وما قرَّب إليها من قولٍ وعَمل، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ وعمل، ربَّنا آتِنا في الدنيا حَسَنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

ثم يسلم تسليمتين ينوي بهما الخروجَ من الصلاة، وهل نية الخروج واجبةٌ أم لا؟ على وَجهين، والتسليمتان واجبتان في إحدى الروايتين، والأخرى: أن الثانية سُنّة. وقدر الواجب: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم يستقبل المأمومين إن كان إماماً بوجهه بعد السلام في الفَجر والعَصر؛ لأنه لا صلاةَ بعدهما، ويقول: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، اللهمَّ اجعل خير أعمارنا آخرها، وخير أعمالنا آخرها، وخير أيامنا يوم لقائك. ويدعو بما يجوز من أمر الدين والدنيا.

وإن كانت الصلاةُ رُباعية أو مَغرباً جلسَ بين الركعتين مُفترشاً، ولم يزد على التشهد فإن نَسي التشهد وقام إلى ثالثةٍ رجع إن لم يكن قد انتصب قائماً، وإن انتصب لم يُستحب له الرجوع، فإن شَرع في القِراءة لم يَجُز له الرجوع، ثم يُصلي بقية صلاته مثل الركعة الثانية إلا أنه لا يقرأ شيئاً بعد الفاتحة، ويجلس في تشهده الثاني مُتوركاً يَفرش رجله اليسرى، وينصب اليمنى، ويخرجهما من تحته إلى جانب يمينه، ويجعل أَلْيَتَيهِ على الأرض.

ذِكرُ ما تَشْتمل عليه الصلاة من واجبٍ ومَسْنون

للصلاة شرائط، وأركان، وواجبات، ومسنونات، وهيئات: **فشرائطها**: ما يجب لها قبلها، وهي سِتٌّ: دُخولُ الوَقت، والطهارةُ، والسِّتارَةُ، والمَوضع، واستِقبالُ القِبلة، والنِّية.

وأركانها خمسة عشر:

القيامُ، وتكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة، والركوع، والطمأنينة فيه، والاعتدالُ، والطمأنينة فيه، والسجود، والطمأنينة فيه، والجلوسُ بين السجدتين، والطمأنينة فيه، والتَّشهد الأخير، والجلوسُ له، والصلاةُ على النبي ﷺ، وترتيبها على ما ذكرنا.

وواجباتها تسعة: التكبير غير تكبيرة الإحرام، والتَّسميع والتحميد في الرفعِ من الركوع، والتسبيح في الركوع والسجود مرةً مرةً، وسؤالُ المغفرة في الجلسة بين السجدتين مرةً، والتشهد الأول، والجلوس له، ونيةُ الخروج من الصلاة في سَلامه.

ومسنوناتها أربعة عشر: الاستِفتاح، والتَّعوذ، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم، وقول: آمين، وقراءة السورة بعد الفاتحة، وقول: ملء السماء، بعد التحميد، وما زاد على التسبيحة الواحدة في الركوع والسجود وعلى المرة في سؤال المغفرة، والسجود على الأنف، وجلسة الاستراحة على إحدى الروايتين، والتعوُّذ، والدعاء بعد الصلاة على النبي ﷺ في التَّشهد الأخير، ودعاء القُنوت في الوتر، والتسليمة الثانية في رواية.

وهيئاتها: مسنونات أيضاً إلا أنها صفات في غيرها، فلذلك سميت: هيئات، وهي خمس وعشرون: رفعُ اليدين عند الافتتاح والركوع والرفع منه، وإرسالهما بعد الرفع، ووضع اليمين على الشمال، وجعلهما تحت السرة، والنظر إلى موضع السجود، والجهر والإسرار بالقراءة وبآمين، ووضع اليدين على الركبتين في الركوع، ومَدُّ الظهر ومُجافاة عَضُديه عن جَنْبيه فيه، والبداية بوضع الركبة ثم اليد

في السجود، ومُجافاة البطن عن الفَخذين والفخذين عن الساقين فيه، والتفريق بين الركبتين، ووضع اليدين حَذو المنكبين فيه، والافتراش في الجلوس بين السجدتين والتشهد الأول، والتورك في التشهد الثاني، ووضع اليد اليمنى على الفخذ اليمنى مقبوضة محلَّقة، والإشارة بالسَّباحة، ووضع اليُسرى على الفَخذ مبسوطة.

ومن أَخلَّ بشرطٍ لغير عُذر لم تنعقد صلاته، فإن ترك ركناً فلم يذكره حتى سلَّم بَطلت صلاته، سواء تركه عمداً أو سَهواً.

وإن ترك واجباً عمداً بَطلت صلاته[١]، وإن تركه سهواً سجد للسهو، وإن ترك سُنَّة أو هَيْئَةً لم تَبطُل صلاته بحال[٢]، وهل يسجد للسهو؟ يُخَرَّجُ على رِوايتين.

فصل

واعلم أن مَثل الصلاة كالإنسان، فإنه لا يكون إنساناً كاملاً إلا بوجود أعضاءٍ ظاهرة، ومعنى باطن وهو الروح، فمن الأعضاء ما يعدم الإنسان إذا عدم، كالقَلب والكبد والدماغ، ومنها ما لا يعدم بعدَمِه، ولكنه يُفَوِّتُ بعض المقاصد، كالعين واليَد والرِّجل، ومنها ما لا يُفَوِّت عَدَمَه الحياةَ ولا مَقاصدها، ولكنه يُفوِّتُ الحُسْنَ، كالحاجبين واللِّحية والأهداب، ومنها ما لا يُفَوِّت عَدمه أصل الحُسن، بل كماله، كتقويس الحاجبين وسَواد الشَّعر، فكذلك الصلاة أركانها تجري مَجرى أصول البَدن، وهي: القلبُ والكبدُ والدِّماغ، وواجباتها تَجري مجرى العين واليد والرِّجل، وإن كان تعمد ترك الواجبات يُبطِلُ، لكنها تَنقص عن مرتبة الأركان في أن ترك تلك يُبطل كيف كان، ولا تُجبَر بخلاف هذه. ومَسنوناتها تجري مجرى الحاجبين واللِّحية والأهداب. وهَيْآتها تجري مَجرى تَقويس الحاجبين وسَواء الشَّعر.

وروحُ الصَّلاة النِّيةُ، والإخلاصُ، والخُشوعُ، وحُضور القلب.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) سقطت من (ظ).

الباب الثالث

في الشروط الباطنة من أعمال القلب

واعلم أن جميع العبادات ما عدا الصلاة قد لا يقدح فيها عدم حضور القلب؛ لأن الابتلاء بها يحصل مع عدم حضوره، كالحج؛ فإنه أفعالٌ شاقة وإن لم يحضر القلب، والزكاة؛ فإنها إخراج مالٍ محبوبٍ، والصوم؛ فإنه تَركُ شَهوات النفس.

فأما الصلاة، فإنها تشتمل على أذكارٍ ومُناجاة وأفعال، ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالأذكار والمناجاة؛ لأن النطق إذا لم يُعرِب عما في الضَّمير كان هَذَياناً، وكذلك لا يحصل المقصود من الأفعال؛ لأنه إذا كان المقصود من القيام الخدمة، ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم، ثم كان القلب غائباً عن ذلك لم يحصل المقصود، كما لو كان بين يَدي الإنسان صَنم وهو غافل عنه لجاز أن يُقال إنه مُعَظِّم للصنم، فلما لم يقل ذلك دلَّ على أن العمل على القصد بالفعل، ومتى خرج الفعل عن مقصوده بقي صورةً لا اعتبار بها، وقد قال الله عز وجل: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

والمقصود: أن الواصل إلى الله عز وجل هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة.

فإن قيل: أفتبطل الصلاة مع غَيبة القلب؟ قلنا: لا بد من حضورٍ في الدخولِ في الصلاة ينسحب حكمه على باقيها، فتَسامحَ[1] الشرعُ في غَفلةٍ تَطْرأ، وأوجَبَ سجودَ السهو فيما وقعت الغَفْلة عن الإتيان به، فالحضور حين الدخول كرمَقِ الروح في البدن، وبقدر قُوته تَنبسط الروح في آخر الصلاة، وبقدر ضعفِه تَضعف قوى ذلك الحي، وكم قد رأينا مِن حيٍّ لا حراك به.

---

(١) في (ظ): «فسامح».

بيان المعاني الباطنة التي بها تَتِمُّ حياة الصلاة

هذه المعاني تكثر العبارات عنها، ولكن تجمعها سِتُّ جُمل: حُضورُ القلب، والتَّفهم، والتَّعظيم، والهَيبة، والرَّجاء، والحياء.

فلنذكر تَفاصيلها[1]، ثم أسبابها، ثم العلاج في اكتِسابها:

ذكر التفاصيل

الأول: **حضور القلب**: ونَعني به: أن يُفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له.

والتَّفهم لمعنى الكلام أمر وراء حُضور القلب، فربما كان القَلب حاضراً مع اللفظ غير حاضر مع معنى اللفظ، واشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي نُريدُ بالتَّفَهُّم، وهذا مقامٌ يتفاوتُ الناس فيه؛ لأنهم لا يشتركون في تَفهُّمِ معاني التلاوة والأذكار، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفَحشاء والمنكر؛ لأنها تُفهِّمُ أموراً تمنع تلك الأمور من الفواحش.

وأما **التعظيم** فهو أمرٌ وراء حُضور القلب والفَهم؛ لأن الرجل قد يخاطب عَبْدَه بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهمٌ لمعناه، ولا يكون معظماً له.

وأما **الهيبة**، فأمر زائد على التعظيم، بل هو عبارة عن خوف مَنْشؤه التعظيم، فإن الخوف من العَقرب لا يُسمى مهابةً بل من السلطان المعظَّم، فالهَيبة خوفٌ مصدره الإجْلال.

وأما **الرجاء**، فلا شك في أنه زائد، فكم من معظم ملكاً يهابه لخوفِ سطوته ولا يرجو بِرَّهُ، والمصلي ينبغي ان يكون راجياً بصلاته الثوابَ، كما يخاف من تقصيره العقاب.

وأما **الحياء**، فإنه زائد على الجملة؛ لأن مُستَنده استشعارُ تقصيرٍ وتَوهُّمُ ذَنبٍ.

---

(١) في (ظ): «تَفصيلها».

بيانُ أسباب هذه المعاني الستَّة

أما **حضور القلب**، فسببه الهمَّة؛ لأن القلب تابع للهمم[١] لا يَحضر إلا فيما أهمَّ، ومتى أهمك أمر حضر قلبك شاء أم أبى، فلا علاج لإحضار القلب إلا صرفُ الهمة إلى الصلاة، ولا تَنصرف الهمة إليها ما لم يحصل الإيمان بالآخرة، وإن الصلاة وسيلة إليها، فإذا ضُمَّ إلى ذلك احتقار الدنيا زاد حُضور القلب. ومتى رأيتَ قَلبكَ لا يحضر في الصلاة، فاعلم أنه لا سبب لذلك إلا ضعف الإيمان فاجتهد في تقويته.

وأما **التَّفهم**، فسببه صرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفِكر، والتشمير لدفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها، ومتى لم تقطع المواد لم تَنصرف الخواطر عنها.

وأما **التعظيم**، فهو حالة للقلب تَتحصل من شيئين، أحدهما: معرفة جلال الله وعظمته، والثانية: معرفة حَقارة النفس وأنها مُستعبدة، فَيتولَّد من المعرفتين الاستكانة والخشوع، فيحصل التعظيم.

وأما **الهيبة** والخوف، فحالة للنفس تَتحصل من المعرفة بقدرة الله وسَطوته، وأنه لو أهلك الخلق لم ينقص من ملكه ذَرة، مع مطالعة ما قد جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع عنهم، فكلما زاد العلم بالله زادت الهيبة، وستَأتي أسباب ذلك في كتاب الخوف من ربع المنجيات إن شاء الله.

وأما **الرجاء**، فسببه معرفة لُطف الله وكرمه وإنعامه، وتصديق وعده، فإذا حصلت المعرفة بلطفه واليقين بوعده انبعث الرجاء.

وأما **الحياء**، فاستشعار التقصير في العبادة، والعلم بالعجز عن القيام بتعظيم حق الله تعالى، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتها، وميلها إلى العاجل.

---

(١) في الأصل «الهمة».

فهذه أسبابُ [هذه][(١)] الصفات، وكل ما طُلب تحصيله، فعلاجه إحضارُ سَببه، ففي معرفة السبب معرفةُ العلاج، وقد ذكرنا عن جماعةٍ استغرقتهم الهَيْبة في الصَّلاة حتى فقدوا الإحساس بما يجري عِندهم، منهم مُسلم بن يَسار حين سقطت أُسطوانةٌ إلى جانِبه وهو لا يَعلم، ولا يستنكر مثل هذا، فإن الإنسان قَد يدخل على مَلِكٍ من ملوك الدنيا فتَجري بينهما محادثات، ثم يخرج فيُسأل: مَن كانَ عند الملك؟ أو: أيّ لونٍ ثوبُ الملك؟ فلا يَدري؛ لاشتغال قلبه بالمَلِكِ عن جَليسه وثَوبه، فحظُّ كلّ مصلٍ من صَلاته على مِقدار خَوفه وخُشوعه وتَعظيمه، وذلك بمقدار يقينه ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٢]، ومَوضع نظر الله سُبحانه إنما هو القُلوب.

بَيان الدواء النافع في حُضور القَلب

اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون مُعظماً لله سبحانه، وخائفاً له، وراجياً، ومستحيياً من تقصيره، وإن كانت هذه الصفات تَقْوَى بقدر قوة اليقين، وليس لانفكاكه عن هذه الصفات في الصلاة سببٌ إلا تفرُّق الفِكر وتَقَسُّمُ الخاطرِ وغَيبةُ القلب عن المناجاة، والدواء في إحضار القلب دفع الخواطر، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سَببه، وسبب توارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو باطناً، فأما الخارج؛ فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهمَّ حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم يَنجرُّ منه الفِكر إلى غيره، فيكون النظر سبباً للتفكر، ثم يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض ومن قويت رتبته وعلَت هِمَّته لم يُلهِهِ ما يجري على حواسه، لكن الضعيف لا بد أن يتفرق به فكره، فعلاجه قطع هذه الأسباب بالقُرب من القِبلة، والنظر إلى موضع السجود، وأن لا يترك عنده ما يشغل حِسَّه، ويحترز من الصلاة في المواضع المنقوشة.

وأما الأسباب الباطنة فهي أشد، فإن من تشعَّبت به الهموم في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فَنٍّ واحد، ولم يغنه غض البصر؛ لأن ما قد وقع في القلب كافٍ

(١) زيادة من الإحياء تستقيم بها العبارة.

في الاشتغال به، وطريق هذا أن يَرد النَّفس قَهراً إلى فهم ما يقرأ في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد لذلك قبل الدخول في الصلاة بأن يفرغ قلبه عن ما يهمه، ويقضي أشغاله ثم يُجدِّد على نفسه ذِكر الآخرة، وخَطر القيام بين يدي الله عز وجل، وهَوْل المطلع، فإن لم تَسكن الأفكار بذلك، فليعلم أنه إنما يفكر فيما أهمَّه، وإنما أهمه ما اشتَهاه، فليترك تلك الشهوات، وليقطع تلك العَلائق[١] فإن النبي ﷺ لما صَلَّى في أنْبِجانِيَّةٍ[٢] لها عَلَمٌ نَزَعها وقال: «إنها أَلْهتني آنفاً عن صَلاتي»[٣]، فهذا هو الدواء القامع لمادة العلة لا يُغْني غَيرُه.

وإنما الأول لتسكين ما يحوم حول حواشي القلب، ومع تمكن العلة لا ينفع إلا الدواء القوي، وهذه العلة إذا قويت جاذَبت المصلِّي وجاذبها إلى أن تَنقضي الصلاة في المجاذبة، ومثاله مثال رجل تحت شَجرةٍ أراد أن يَصفو له فِكره، وكانت أصوات العصافير تُشوِّشُ عليه وهو يطيرها بخَشبةٍ في يده، فإذا عاد إلى فِكره عادت، فقيل له: هذا سَير السَّواني[٤]، وهو سفر لا ينقطع، فإذا أردت الخلاص فاقلع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوة[٥]، إذا اشتَعلَت وتفرقت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار والذباب إلى الأقذار، فذهب العمر النفيس في دَفع ما لا يندفع[٦]، وسبب هذه الشهوات التي توجب هذه الأفكار حُبُّ الدنيا، قال معروف الكَرخي يَصف الصالحين: لو كان في قلوبهم حب الدنيا ما صحَّت لهم سجدة. قيل لعامر بن عبدِ قَيس: هل تُحدثك نفسك بشيءٍ من أمور الدنيا في الصلاة؟ فقال: لأَن تَختلف الأسِنَّة فيَّ أحب إليَّ من أن أجد هذا.

---

(١) في الأصل «العوائق».

(٢) الأنْبجانية: كساء غليظ منسوب إلى منبج ـ على غير قياس ـ وهي مدينة من أعمال حلب، وقيل: إلى موضع اسمه أَنْبجان.

(٣) أخرجه البخاري (٧١٩)، ومسلم (٥٥٦).

(٤) السواني: جمع سانية، وهي البعير يُستَقى عليه، والسانية: الدولاب الذي يدور بالماء، ويضرب المثل في سير السواني في كل ما لا ثمرة في حركته، وأن آخره كأوله.

(٥) في (ظ): «السهو».

(٦) في الأصل: «ينفع».

واعلم أن قَلع حُب الدنيا من القلب أمرٌ صعب، ولشدة مرارة الدواء بقيت العِلل مُزمنة وصار الداء عُضالاً، وعلى قدر الاجتهاد في قَلع ما يمكن يَحصل الصفاء، وزوالُ ذلك المُؤذي بالكُليَّةِ أمرٌ عزيز، فليقع الاجتهاد في الممكن منه، والله الموفِّق.

بيان تفصيل ما ينبغي أن يَحضر في القلب عند كل شيء من الصلاة

إذا سمعتَ نداء المؤذن فمَثِّل نداء القيامة، وشمِّر للإجابة، وانظر بماذا تُجيب وبأي بدنٍ تحضر، وإذا أتيتَ بالطهارة في مكانِ الصلاة وهو ظَرفك الأَبعد، ثم في الثياب وهي غِلافك الأقرب، ثم في البَدَن وهو القِشر الأَدنى، فلا تغفل عن تَطهير[1] لبك، وهو القلب، فإنه محل نظر المعبود وتَطهيره بالندم على ما فرط، والعزم على ترك العَوْد، وإذا سترتَ عورتَك، فاعلم أن المرادَ من ذلك تَغطية مقابح بَدَنك عن أبصار الخلق، فما رأيك في عورات باطنك وفضائح سرك التي لا يطَّلع عليها إلا ربك، وليس لها عنه ساتر، وإنما يُكَفرها النَّدم والحياء والخوف.

وإذا استقبلتَ القِبلة فقد صرفتَ وجهك عن الجهات إلى جهة بيت الله، فاعلم أن صرفَ قلبك إلى الله أوفى من ذلك المطلوب، وكما أنه لا يتوجه الوجد إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها، فكذلك القلب لا ينصرف إلى الله تعالى إلا بالانصراف عن ما سواه، وإذا استقام بدنك في قيامه، فأقم قلبك متواضعاً لعظمة ربهن وتذكر قيامك لديه في القيامة، فإن لم تعرف كُنهَ جلاله فقُم قيامَ عبدٍ بين يدي ملكٍ من الملوك.

وإذا نويتَ الصلاة فاعزم على إجابته في امتثال أوامره، وإذا كبَّرت فلا يُكذِّبَنَّ قلبُك لسانَك؛ لأنه إذا كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى، فقد كذبت، واحذر أن يكون الهوى عندك أكبر بدليل إيثارك موافقته عل طاعة ربك، واحذر من الكذب في قولك: وجَّهتُ وَجهي فإنه إن كان متوجهاً إلى هَواه فما توجّه إلى الله.

---

(١) في (ظ): «تطهر».

فإذا استعذتَ فاعلم أن الاستعاذة لَجأٌ إلى الله سُبحانه، فإذا لم تَلجأ إليه ولم تَبرح من حِزب الشيطان كان كلامك لَغواً وتَفهَّم معنى ما تَتلو، وأخطر النِّعَم بقلبك عند قولك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ٢]، ولطفه عند قولك: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ٣] وعظمته عند قولك: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]، وكذلك في جميع ما تتلو، وقد روينا عن زُرارة بن أَوفى أنه قرأ في صلاته: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر: ٨] فخرَّ ميتاً، وما كان ذلك إلا لأنه صَوَّرَ تلك الحال فأثرت عنده التَّلف.

واستشعِر في ركوعك التواضع، وفي سجودك زيادة الذلِّ؛ لأنك وضعت النفس موضعها، ورددت الفرع إلى أصله بالسجود على التراب الذي خُلقت منه.

وتَفهَّم معنى الأذكار بالذَّوق(١).

واعلم أن أداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سببٌ لجلاء القلب من الصَّدأ، وحصول الأنوار فيه التي بها يَتلمَّح عظمةَ المعبود ويَطلع على أسراره، وما يعقلها إلا العالمون، فأما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها، فإنه لا يَطلع على شيء من ذلك بل ينكر وجوده، كما أن الجنين لو كان له عقلٌ لأنكر وهو في مكانه وجود مكانٍ مُتَّسعٍ ولو كان للطفل تمييز لأنكر ما يُخبر به العُقلاء من ملكوت السماوات والأرض.

---

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «الذنوب».

الباب الرابع

في الإمامة والقُدوة

ينبغي للإمام أن لا يَتقدم على قومٍ يكرهونه، فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين إلا أن يكون الأقلون أهل الدين، ولا يتقدم على من هو أفقه منه وأقرأ، وقد فضل أصحابنا الأذان على الإمامة، والذي أراه تفضيل الإمامة؛ لأن الأذان إنما يُراد للصلاة، ولأن رسولَ الله ﷺ وكبار أصحابه اختاروا الإمامة على الأذان.

وينبغي للإمام أن يراعي الوَقت ليصلي في أوله، ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وَقتها»[1]. وينبغي أن يَؤُمَّ مُخلصاً لا لأجل[2] أجر، وليحذر من الفسوق، وما يخرج به عن العَدالة، ولينظر في طهارته من الأحداث والأنجاس، فإنه أمر لا يعلمه غيره، وينبغي له أن يأمر بتسوية الصفوف وأن يَرفع صوته بالتكبير، وأن يُخفف، فقد قال النبي ﷺ: «أيّكُم ما أمَّ الناس فليتجوَّز، فإن فيهم الضَّعيف والكبير وذا الحاجة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥)(١٣٩).
(٢) في (ظ): «لأخذ».
(٣) أخرجه البخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) (١٨٥).

الباب الخامس

في فضل الجمعة ووجوبها وآدابها

فضيلة الجمعة

قال الله عز وجل: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] أخبرنا هِبةُ الله بن محمد، قال: أخبرنا الحَسن بن علي، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا علي بن إسحاق قال: حدثنا عبد الله، قال: حدثنا يونس عن الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «خَيرُ يومٍ طَلعت عليه الشَّمس يوم الجمعة، فيه خُلقَ آدم، وفيه أُدخِلَ الجنة، وفيه أُخرجَ منها»[١] انفرد بإخراجه مسلم. وفي بعض ألفاظه: «ولا تقومُ الساعة إلا في يوم الجمعة»[٢]. وفي رواية أبي لُبابة البَدْري عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيد الأيام يوم الجمعة، وأعظمها عنده، وفيه تقوم الساعة، وما مِن مَلكٍ مُقرّب ولا سماءٍ ولا أرضٍ ولا رياحٍ ولا جبالٍ ولا بَحرٍ إلا هُنَّ يُشفِقْنَ من يوم الجمعة»[٣]. وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قَبلنا، وأوتيناه من بَعدهم، فهذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له فَهم لنا فيه تَبَع، ولليهود غداً وللنَّصارى بعد غد»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٤)(١٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٥٤٨)، وابن أبي شيبة ٢/ ١٥٠، وابن ماجه (١٠٨٤)، والطبراني في الكبير (٤٥١١)، والبيهقي في شُعب الإيمان (٢٩٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٨) و(٨٧٦) و(٨٩٦) و(٢٩٥٦) و(٣٤٨٦) و(٦٦٢٤) و(٦٨٨٧) و(٧٠٣٦) و(٧٤٩٥)، ومسلم (٨٥٥).

ذِكر وجوب الجمعة

كل مَن لزمته المكتوبة لزمه فرض الجمعة إذا كان مُستوطناً يسمع النداء، أو بينه وبين الموضع الذي تُقام فيه الجمعة فَرسخ إلا المرأة والخُنثى والعبد على إحدى الروايتين، فلا جُمعة عليهم، وهم مخيرون بينها وبين الظُّهر.

ومن لزمه فرض الجمعة لم يجز له أن يسافر بعد الزوال ويشترط في انعقاد الجمعة حضور أربعين نفساً ممن تجب عليهم الجمعة، وعن الإمام أحمد حضور خمسين، وعنه حضور ثلاثة، وأن يتقدمها خُطبتان من شرط صحتهما حَمْد الله تعالى، والصلاة على رسوله محمد وقراءة آية فصاعداً، والوصية بتقوى الله، وحضور العدد المشترط في الجمعة، وهل يُشترط في انعقاد الجمعة إذن الإمام؟ فيه روايتان.

وتصح إقامتها في القُرى، وفيما قارب البنيان من الصَّحراء، وفي موضعين من[1] البلد مع الحاجة، فإن لم تكن حاجة فالثانية باطلة، ومن أدرك منها ركعة مع الإمام أتمها جمعة، فإن أدرك أقل من ركعة أتمها ظهراً، وما الذي ينوي في حال دخوله معه؟ قال الخِرقي: يَنوي ظهراً، وقال ابن شاقْلا: يَنوي جمعة ثم يَبني عليها ظُهراً.

بَيان آداب الجمعة

وهي عشرة:

الأول: أن يستعد لها من يوم الخميس، وفي ليلة الجمعة بالتَّنظُّفِ، وغَسل الثياب، وإعداد ما يصلح للجمعة.

الثاني: الاغتِسال، فَفي الصحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة، ثم راح، فكأنما قَرَّبَ بَدَنة»[2].

---

(١) في (ظ): «في».

(٢) أخرجه البخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠).

وفي أفراد البخاري من حديث سَلمان الفارسي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَغتسل رجلٌ يوم الجمعة، ويتطهر ما استَطاع من طُهرٍ، ويَدَّهِن من دُهْنِه أو يمس من طيبِ بيته، ثم يخرج، فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم يُنصت إذا تكلم الإمام، إلا غُفِرَ له ما بَينه وبين الجُمعة الأخرى»[1]. وروى الترمذي من حديث أوس بن أَوس عن النبي ﷺ أنه قال: «من اغتسل يوم الجمعة وغَسَّلَ، وبكَّرَ وابتكر، ودنا واستَمع، وأنصتَ كان له بكلِّ خطوةٍ يخطوها أَجر سنة، صيامها وقيامها»[2]. قال ابنُ المبارك: مَعنى الحديث: غَسَّلَ رأسَه واغتسل. [3]وقال وكيع[3]: اغتسل هو، وغَسَّل امرأتَه.

واعلم أن من اغتسل بعد طلوع الفجر فقد أصاب السنة غير أن الأفضل أن يكون الاغتسال قُبيل الرَّواح، لئلا يعود الوسَخ.

والثالث: التزيّن، وذلك في ثلاثة أشياء:

أحدها: تَنظيف البدن، وذلك بالغَسل، وقَصِّ الأظفار، والسِّواك، وغير ذلك مما قد تَقدَّم ذِكره.

والثاني: تَطْييبُ الرائحة، فليتطيَّب بأطيب ما يمكنه.

والثالث: بالثياب، فليلبس أجودَ ثيابه، فقد قال عبدُ الله بن سَلام: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ في يوم جُمعةٍ فقال: «ما عَلى أحدكم لو اشْتَرى ثَوبين ليومِ جُمعته سوى ثَوب مِهْنَتِه».

والرابع: البُكور، أخبرنا هِبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٩٦)، وأحمد (١٦١٧٨)، وابن خزيمة (١٧٦٧)، والنسائي في الكبرى (١٧٠٨)، والدارمي ١/ ٣٦٣، والحاكم ١/ ٢٨٢. وقال الترمذي: حديث أوس حديث حسن.

(٣-٣) سقط من (ظ).

يزيد قال: حدثنا ابن أبي ذِئْب عن الزهري عن أبي عبد الله الأغَر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يومُ الجمعة وَقَفت الملائكة على أبواب المسجد، فيكتبون الأوّل فالأول، فَمَثَل المُهجِّر إلى الجمعة، كمثل الذي يُهْدي بَدَنة، ثم كالذي يُهدي بقَرة، ثم كالذي يُهدي كَبْشاً، ثم كالذي يُهدي دَجَاجةً، ثم كالذي يُهدي بَيضةً، فإذا خرجَ الإمامُ وقَعد على المِنبر طَوَوا صُحفهم، وجَلسوا يستمعون الذِّكر»[1] أخرجاه في الصحيحين.

وينبغي للساعي إلى الجامع أن يمشي بسكونٍ وخشوع وينوي الاعتكاف في المسجد إلى وقت خروجه.

والخامس: أن لا يَتخطى رقاب الناس ولا يُفرق بين اثنين، أخبرنا الكَروخي قال: أنبأنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُورْجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا أبو كُرَيب قال: حدثنا رِشْدينُ بنُ سَعد عن زَبّان بن فائد، عن سَهل بن مُعاذ بن أنس الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَخطّى رقاب الناس يوم الجمعة اتَّخذَ جِسراً إلى جهنم»[2]. وفي حديث الأرقم بن أبي الأرقم عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الذي يتخطى رقابَ الناس يوم الجمعة، ويُفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام، كالجارِّ قُصْبَه[3] في النار»[4].

فإن قال قائل: فإن كان الصف الأول خالياً؟ فالجواب: أن التخطّي إليه جائز؛ لأن المتأخرين ضَيَّعوا حُظوظهم منه.

السادس: أن لا يمر بين أيدي المصلين، ففي الصحيحين من حديث أبي الجَهم عن النبي ﷺ أنه قال: «لو يعلم المارُّ بين يَدي المصلي ماذا عليه لكان أن

(١) أخرجه البخاري (٩٢٩)، ومسلم (٨٥٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٥١٣)، وأحمد (١٥٦٠٩)، وابن ماجه (١١١٦)، والطبراني في الكبير ٢٠/(٤١٨)، وأبو يَعلى (١٤٩١)، والبغوي في شرح السنة (١٠٨٦).
(٣) قُصْبَه: أمعاءَه.
(٤) أخرجه أحمد (١٥٤٤٧)، والطبراني في الكبير (٩٠٨)، والحاكم ٣/ ٥٠٤.

يقف أربعين خيراً له من أن يمرَّ بين يديه». قال الراوي: لا أدري أقال أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين سنةً[(١)].

السابع: أن يطلب الصف الأول، وقد ذكرنا فضيلته في باب فضل المسجد إلا أن يخاف أن يرى منكراً أو يسمعه فله حينئذ في التأخر عذر.

الثامن: أن يقطع الصلاة والذكر عند خروج الإمام، ويشتغل بإجابة المؤذن، ثم باستماع الخطبة، فإن كان بعيداً من الإمام لا يسمع جاز له الكلام.

التاسع: أن يُراعي في الاقتداء بالإمام في الجمعة ما ذكرنا في غيرها، فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ إلا الفاتحة في سَكتاتِه. ويُصلي بعد الجمعة ركعتين سنّة، وإن شاء صلى ستَّ ركعات، وفي الصحيحين من حديث ابن عُمر عن النبي ﷺ أنه [(٢)]كان يصلي بعد الجمعة ركعتين[(٣)]. وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال[(٢)]: «مَنْ كان منكم مُصلياً بعد الجمعة فَلْيُصلِّ أربعاً»[(٤)].

قال الترمذي: وبحديث ابن عمر يقول الشافعي وأحمد، وإلى فعل ابن مسعود يذهب سفيان الثوري وابن المبارك. وقال إسحاق: إن صلى في المسجد صلى أربعاً وإن صلى في بيته صلى ركعتين.

العاشر: أن يقيم في المسجد حتى يُصلي العصر، فإن أقام إلى المغرب، فهو أفضل، أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا أبو بكر بن خلف قال: أخبرنا أبو عبد الله الحاكم قال: حدثنا أحمد بن محبوب الرملي قال: حدثنا القاسم بن مهدي قال: حدثنا [(٥)]أبو مصعب الزهري قال: أخبرنا[(٥)] عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٠)، ومسلم (٥٠٧).
(٢-٢) سقط من (ظ).
(٣) أخرجه البخاري (٩٣٧)، ومسلم (٨٨٢)(٧١).
(٤) أخرجه مسلم (٨٨١) (٦٩).
(٥-٥) سقط من (ظ).

سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: «إن لكم في كل جُمعة حجة وعمرة، فالحجة التهجير للجمعة، والعمرة انتظار[١] العصر بعد الجمعة»[٢].

بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يعم جميع النهار

وهي سبعة أمور:

الأول: أن يحضر في مجالس العلم بُكرةً أو بعد الصلاة أو بعد العصر، ولا ينبغي أن يُخلي نفسه في جميع النهار من خيرٍ وذكرٍ ودُعاء حتى تُوافيه الساعة الشريفة وهو على خير.

الثاني: أن يُراقب الساعة الشريفة التي في الجمعة بإحضار القلب وملازمة الذكر، فقد أخبرنا ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعةٌ لا يُوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يَسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه» وأشار رسول الله ﷺ بيده يقللها[٣]. أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ متفق عليه: «في الجمعة ساعة لا يوافقها مسلمٌ وهو يَسأل رَبَّه شيئاً إلا آتاه إياه»[٤]، ولم يذكر الصلاة.

واختلفت الرواية في هذه الساعة؛ ففي أفراد مسلم من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي ما بَين أن يجلسَ الإمام إلى أن تُقضَى الصلاة»[٥] وروى

(١) سقطت من (ظ).

(٢) أخرجه البيهقي ٣/ ٢٤١، وابن عدي في الكامل ٦/ ٣٨، وأورده الهندي في الكنز (٢١١٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢).

(٤) أخرجه مسلم (٨٥٢)(١٥).

(٥) أخرجه مسلم (٨٥٣).

كثير بن عبدِ الله عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ سُئل عنها فقال: «ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن تقضى الصلاة»[١] وفي حديث جابر عن النبي ﷺ أنه ذكر الساعة التي في الجمعة فقال: «التمسوها آخر الساعات بعد العصر»[٢]. وفي حديث أنس عنه عليه السلام أنه قال: «التمسوها ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس»، وفي حديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنها سألت النبي ﷺ عنها، فقال: «إذا تَدلَّى نصف عين الشمسِ للغروب»[٣].

قال الإمام أبو بكر الأثرم: لا تخلو هذه الأحاديث من وجهين: إما أن يكون بعضها أصح من بعض، وإما أن تكون هذه الساعة تَنتقل في الأوقات كانتقال ليلة القدر في ليالي العشر، والصواب التماسها في جميع الأوقات.

الثالث: أنه يُكثر من الصلاة على النبي ﷺ في هذا اليوم، فقد روي عنه أنه قال: «من صلَّى عليَّ في يوم الجمعة ثمانين[٤] مرة غَفر الله له ذُنوب ثمانين سنة»[٥] وإن أحب زاد في الصلاة عليه الدعاء له كقوله: اللهم آتِ محمداً الوَسيلة والفَضيلة، وارفعه الدرجة العظيمة والمقام المحمود الذي وعدته، اللهم اجْزِ نبيَّنا محمداً عنا ما هو أهله. وليضف إلى الصلاة عليه الاستغفار، فإنه مُستحب في ذلك اليوم.

الرابع: أن يُكثر من قراءة القرآن، وليقرأ سورة الكهف خاصة فقد أخبرنا محمد بن ناصر قال: أنبأنا الحسن بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن أحمد الحافظ، قال: أخبرنا عبد الله بن أبي جعفر الوراق قال: حدثنا محمد بن جرير الآملي قال:

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٩٠)، وابن ماجه (١١٣٨)، والبغوي في شرح السنة ٤/ ٢١٠.
(٢) أخرجه أبو داود (١٠٤٨)، والنسائي ٣/ ٩٩، والبيهقي ٣/ ٢٥٠، والحاكم ١/ ٢٧٩.
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٩٧٧).
(٤) سقطت من (ظ).
(٥) أخرجه الخطيب في تاريخه ١٣/ ٤٨٩، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٧٩٦). وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٢١٥) وقال: موضوع.

حدثنا عمر بن عثمان الزُّهري قال: حدثنا عبد الرحمن بن هشام بن عبد الله بن عكرمة المخزومي قال: حدثني أبي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُحدثكم بسورةٍ ملأ عِظَمها ما بين السماء والأرض، ولكاتبها من الأجر مثل ذلك، ومَن قرأها يوم الجمعة غُفر له ما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، ومن قرأ الخمس الأواخر منها عند نومه بَعثه الله أيَّ الليل شاء؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: سورة الكهف»[1].

ويستحب للإنسان أن يختم القرآن في يوم الجمعة أو ليلتها إن قدر، فإن ختم في الليل ختم في ركعتي المغرب، وإن خَتم في النهار ختم في ركعتي الفجر، فإنا قد روينا عن إبراهيم النخعي أنه قال: مَن ختم القرآن ليلاً صلت عليه الملائكة حتى يُصبح، ومن خَتمه نهاراً صلَّت عليه الملائكة حتى يُمسي[2].

ويُستحب له أن يصلي صلاة التسبيح في يوم الجمعة، وسيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

السادس: أن يَصَّدَّقَ بما أمكن، ولتكن صَدقته خارجاً من المسجد؛ لأنه قد جاء الذم لسُؤّال المساجد، فإذا أعطاهم فيه أعانهم على المكروه.

السابع: أن يجعل يوم الجمعة لأعمال الآخرة، ويَكفّ عن جميع أشغال الدنيا.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٠٩، والمتقي الهندي في الكنز (٢٦٠٢)، ونسبه لابن مردويه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/ ٢٦، وأورده السيوطي في الحبائك في أخبار الملائك (٦٩٢) من حديث سعد بن أبي وقاص.

الباب السادس

في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المُريد إلى معرفتها

مسألة الفعل القليل، وإن كان لا يُبطل الصلاة، فهو مكروه إلا لحاجة، كدفع المارّ وقَتل العقرب والقَملة والحَكِّ الذي يحتاج إليه، وإذا تثاءبَ وضَع يده على فيه، وإن عَطس حمد الله في نفسه، فإن بَزَقَ في صلاته لم تبطل؛ لأنه فعل قليل وما يحصل به من صوتٍ لا يُعد كلاماً إلا أنه مكروه.

مسألة: اختلفَ العلماء فيما يُدركه المسبوق هل هو أول صلاته أو آخر صلاته؟ والصحيح: أنه آخر صلاته، وما يقضيه أولها، يأتي فيه بالاستفتاح والتعوّذ وقراءة السورة.

مسألة: من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة، فالورع قَضاء الصلاة، ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رمى بالثوب، وأتم والورع الاستئناف.

مسألة: الوسوسة في نية الصلاة سببها خبل في العقل أو جهل في الشرع؛ لأن امتثال أمر الله مثل امتثال أمر غيره، وتعظيمه كتعظيم غيره في باب القَصد، ومعلوم أن من دخل عليه عالم فقام له، فلو قال: نويتُ أن أَنتصب قائماً تعظيماً لدخول زيدٍ الفاضل لأجل فضله متصلاً بدخوله مقبلاً عليه بوجهي، سُفِّهَ في عقله بل كما يراه ويَعلمُ فضله تَنبعث داعيةُ التعظيم فتُقيمُه، ويكون معظماً إلا أن يقومَ[1] لشغلٍ آخر أو في غفلةٍ، فقيام الإنسان إلى الصلاة ليؤدي الفرض لقضاء حق الله تعالى أمر متصور في النفس في حالة واحدة لا يطول زمانه وإنما يطول زمان نظم الألفاظ الدالة عليه إما تلفظاً باللِّسان، وإما تفكراً بالقلب، وفَرقٌ بين حضور الشيء في

(١) في الأصل: «يكون».

النفس وبين تفصيله بالفِكر، فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه، فكأنه لم يفهم النية، فالوسوسة مَحضُ الجهل، ومِن الجهل بهذه الدقيقة يَثور الوسواس، فإن الموسوس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظُّهرية والأدائية والفرضية في حالةٍ واحدة متصلةٍ بألفاظها، وهو يطالعها، وذلك محال، ولو كلف نفسه ذلك في القيام للعالم على ما ذكرنا لتعذر ذلك عليه، وبهذه المعرفة يندفع الوسواس، وهو أن يعلم أن امتثال أمر الله في النية كامتثال أمر غيره، ثم أزيد عليه في باب السهولة والرخصة حتى أنه يجوز تقديم النية على التكبير بزمنٍ يسير ما لم يفسخها ولم يجر للصحابة من هذه الوساوس شيء، فدل على أن الأمر سهل.

مسألة: لا ينبغي أن يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما وفي سائر الأعمال، ولا ينبغي أن يُساوقَه[١] بل يتبعه ويقفو أثره، فإن النبي ﷺ قال: «إنما جُعلَ الإمامُ ليُؤتَمَّ به، فإذا ركع فاركعوا»[٢]، فإن ساوَقَه[٣] عمداً لم تبطل صلاته، وإن تقدم عليه فركع أو سجد قبله، وجب عليه أن يرجع[٤] ليأتي بذلك معه، فإن لم يفعل حتى لحقه الإمام في الركن لم تبطل صلاته على قول القاضي أبي يعلى، وقال غيره من أصحابنا: تبطل، فإن ركع قبله ورفع قبل أن يركع الإمام عامداً فهل تبطل صلاته؟ على وجهين.

مسألة: من رأى من المصلي إساءةً في صلاته، كمسابقة الإمام أو إساءة في الركوع والسجود، فليأمره بالصواب، فإن ذلك من باب الأمر بالمعروف، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أَما يخاف الذي يَرفع رأسه قبل الإمام أن يُحولَ الله رأسه رأسَ حمار»[٥]. وفي أفرادِ البخاري من حديث حُذيفة رضي الله عنه أنه رأى رجلاً لا يُتم ركوعه ولا سُجوده، فلما انصرف قال له: منذُ كَمْ صليت هذه الصلاة؟ قال: منذ كذا وكذا. قال: ما صلَّيتَ.

---

(١) في (ظ): «يُسابقه»، والمساوقة: المُقارنَة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٨)، ومسلم (٤١٢)(٨٢) وأحمد (٢٤٢٥٠).

(٣) في (ظ): «سابقه».

(٤) في الأصل: «يرفع».

(٥) أخرجه البخاري (٦٩١)، ومسلم (٩٦٣).

الباب السابع

في ذكر النوافل من الصلوات

اعلم أن ما عدا الفَرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام: سُنن، ومُسْتَحبات، وتَطوعات.

ونعني بالسنن: ما نُقلَ عن رسول الله ﷺ المواظبةُ عليه، كالرواتب عَقيب الفرائض، وصلاة الضحى، والوتر؛ لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة، ونعني بالمستحبات ما وردَ الخبر بفضله، ولم ينقل المواظبة عليه، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه. ونعني بالتطوعات ما وراء ذلك ما لم يرد به خبر لكن العبد يتطوع بفعله.

وتسمى هذه الأقسام الثلاثة: نوافل؛ لأن النَّفل هو الزيادة وهذه زوائد على الفرائض.

واعلم أن أفضل تطوعات البدن الصلاة، وآكدها ما سُنَّ لها الجماعة، كصلاة الكُسوف، والاستسقاء، والتراويح، وبعد ذلك السنن الراتبة.

واعلم أن النوافل باعتبار الإضافة إلى مُتعلقاتها تَنقسم إلى ما يتعلق بأسباب كالخسوف والاستسقاء، وإلى ما يتعلق بأوقاتٍ، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بتكرر اليوم والليلة أو بتكرر الأسبوع وبتكرر السَّنَة.

فالجملة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي، وهي ثمانية: خمسة هي رواتبُ الصلوات الخمس، وثلاثة وراءها، وهي: صلاة الضحى، وإحياء ما بين العِشاءين، والتَّهجد.

الأولى: راتبة الصبح وهي رَكعتان، ويدخل وقتهما بطلوع الفجر الثاني،

والمستحب أن يُصليهما في المنزل، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رَكعتا الصبح خَير من الدنيا وما فيها»[(١)].

الثاني: راتبة الظهر، وهي ركعتان قبل صلاة الظهر، وركعتان بعدها، ويُستحب أن يتطوع بأربعٍ قبل الظهر، أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال: أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت قال: أنبأنا علي بن أبي علي المعدّل قال: أنبأنا علي بن عمر الحَرْبي قال: أخبرنا محمد بن إسحاق بن عبد الرحمن قال: أخبرنا أحمد ابن الأزهر قال: حدثنا علي بن عاصم قال: حدثنا يحيى البكاء قال: حدثني عبد الله بن عمر قال: سمعتُ عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ قبل الظهر بعد الزوال يعدلن بمثلهن من صلاة الليل، وليس من شيء إلا وهو يُسبح الله تعالى تلك الساعة»[(٢)] أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا عبيدة يعني ابن مُعَتِّب عن إبراهيم عن سهم بن مِنْجاب عن قَزعة عن القَرْثَع عن أبي أيوب قال: أَدْمَن[(٣)] رسول الله ﷺ أربعَ ركعات عند زوال الشمس قال: فقلتُ: يا رسول الله، ما هذه الركعات التي أراك قد أَدْمَنتها؟ قال: «إن أبوابَ السماء تُفتح عند زوال الشمس فلا تُرْتَج[(٤)] حتى يُصلَّى الظهر، فأُحب أن يَصعد لي فيها خير». قال: قلتُ: يا رسول الله تَقرَأُ فيهن كلهن؟ قال: «نعم» فقلت: فيها سلام فاصل؟ قال: «لا»[(٥)]. قال الإمام أحمد رحمه الله: وأخبرنا وَكيع، قال: حدثنا شُعبة عن إبراهيم بن محمد بن المُنْتَشِر عن

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٥)، والترمذي (٤١٦) من حديث عائشة.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٨).

(٣) أَدْمَنَ، أي: واظَبَ.

(٤) تُرتَج: تُغلَق.

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٨٧)، وأبو داود (١٢٧٠)، وأحمد (٢٣٥٣٢)، وابن ماجه (١١٥٧)، وابن خزيمة (١٢١٤)، والحميدي (٣٨٥)، والطبراني في الكبير (٤٠٣٢)، والبيهقي في السنن ٢/ ٤٨٨.

أبيه قال: سمعتُ عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ لا يَدَع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الفجر على كلِّ حالٍ[١]. انفردَ بإخراجه البخاري. وفي أَفرادِ مُسلم من حديث أُم حَبيبة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبدٍ مُسلم يُصلي لله عز وجل كل يوم اثنتي عشرة ركعةً تطوعاً غير فَريضة إلا بُنيَ له بهنَ بَيتٌ في الجنّة»[٢]. وقد رواه الترمذي مُفسَّراً: أخبرنا به أبو الفَتح الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزْدي وأبو بكر الغورجي قالا: حدثنا الجراحي قال: حدثنا المَحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا محمود بن غَيلان قال: حدثنا مُؤَمّل قال: حدثنا سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن المُسيِّب بن رافع عن عَنْبَسَة عن أُم حَبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «من صلى في يومٍ وليلةٍ اثنتي عشرة ركعةً بني له بيتٌ في الجنة؛ أربعاً قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل صلاة الغداة»[٣].

الثالثة: راتبة العصر، وهي: أربع ركعات قبلها، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «رَحمَ اللهُ عبداً صلى أربعاً قبل العصر»[٤].

الرابعة: راتبة المغرب، وهما ركعتان بعدها، وقد كانوا يتطوعون بركعتين قبل المغرب.

الخامسة: راتبة العشاء، وهما ركعتان أيضاً، ويُستحب التَّطوع بعدها بأربعٍ، فقد أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا أحمد بن المُذهب قال: حدثنا القَطيعي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني عَبّاد بن يعقوب

---

(١) أخرجه البخاري (١١٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٧٢٨)(١٠٣)، وأبو داود (١٢٥٠)، وابن ماجه (١١٤١).

(٣) أخرجه الترمذي (٤١٥)، والنسائي ٣/ ٢٦٢.

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي (١٩٣٦)، وأبو أحمد (١٢٧١)، والترمذي (٤٣٠)، وابن خزيمة (١١٩٣)، وابن حبان (٢٤٥٣)، وأحمد (٥٩٨٠)، والبيهقي ٢/ ٤٧٣ من حديث ابن عمر بلفظ: «رحم الله امرءاً».

قال: حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن مُجاهد قال: أربعُ ركعات بعد عِشاء الآخرة يُعدلن بمثلهنّ من ليلةِ القدر(١).

السادسة: الوتر، وأقله ركعة، وأفضله إحدى عشرة ركعة، يسلم في كل ركعتين، ويوتر بواحدة، وأدنى الكمال ثلاث ركعات بتسليمتين، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ثم يقنت فيها بعد الركوع، ويرفع يديه فيقول: اللهمَّ إنا نَستعينك ونستهديك، ونَستغفرك، ونُؤمن بك، ونتوكل عليه، ونُثْني عليك الخيرَ كله، ونشكرك ولا نَكفُرك، اللهم إياكَ نعبد، ولك نُصلي ونَسجد، وإليكَ نسعى ونَحفِدْ، نرجو رَحمتك ونَخشى عذابك إن عذابك الجِدّ بالكُفار مُلْحِق(٢).

اللهم اهدِني فيمن هَديت، وعافِني فيمن عافيت، وتولَّني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقِني شَرَّ ما قضيت، إنك تَقضي ولا يُقضى عليك، إنه لا يَذلُّ من واليت، ولا يَعزُّ من عادَيت، تباركتَ ربنا وتَعاليت(٣). اللهم إني أعوذ برضاك من سَخطك، وبَعَفْوك من عُقوبتك، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك(٤).

وهل يُمرُّ يَديه على وجهه على روايتين.

---

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٤/ ١٠٢.

(٢) أخرجه البيهقي ٢/ ٢١١ من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٤٦٤)، وأبو داود (١٤٢٥)، وأحمد (١٧١٨)، والبيهقي ٢/ ٩ والنسائي ٣/ ٢٤٨، عن الحسن رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٣٠٦، والطيالسي (١٢٣)، وأبو داود (١٤٢٧)، وأحمد (٧٥١)، والنسائي في الكبرى (٧٧٥٣)، والبيهقي ٣/ ٤٢ من حديث علي رضي الله عنه. وأخرجه مسلم (٤٨٦)، وابن أبي شيبة ١٠/ ١٩١، والنسائي في الكبرى (١٥٨)، وابن ماجه (٣٨٤١) وابن خزيمة (٦٥٥) و(٦٧١)، وأحمد (٢٥٦٥٥)، والبيهقي ١/ ١٢٧، وابن حبان (١٩٣٢)، وأبو داود (٨٧٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والوتر آكد من جميع السُّنن الراتبة؛ لأنه مختلَفٌ في وجوبه، وقال أبو بكر في «التَّنبيه»: إنه واجب، وقد أَوْمى إلى ذلك إمامُنا أحمدُ رحمه الله، ووقته من بعد صلاة العشاء إلى طُلوع الفجر الثاني.

السابعة: صلاة الضُّحى، وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ للجنةِ باباً يُقال له: ضُحى، إذا كانَ يومُ القيامة قيلَ للذين كانوا يدومون على صَلاة الضحى: هذا بابكم فادخُلوه»[(١)]. ووقتها إذا علت الشمس واشتدَّ حرها، والأحاديث تختلف في عددها، فروى جُبير بن مُطعِم أن النبي ﷺ صلاها ركعتين[(٢)]. وأخبرنا هِبَة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا هَمام بن يحيى عن قتادة عن مُعاذَة عن عائشة أن النبي ﷺ كان يُصلي الضحى أربعاً ويزيد ما شاء الله[(٣)]. انفرد بإخراجه مسلم، وقد روي عن جابر أن النبي ﷺ صَلّاها ستَّ رَكعات. وقد أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا القَطيعي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شُعبة عن عمرو بن مُرَّة عن ابن أبي لَيلى قال: ما أَخبرني أحدٌ أنه رأى النبي ﷺ يُصلي الضحى غير أُم هانئٍ، فإنها حدثت أن النبي ﷺ دَخل بيتَها يوم فتحِ مكة، فاغتسل وصلى ثمان ركعات ما رأته صلَّى صلاةً قط أخف منها، غير أنه كان يُتم الركوع والسجود[(٤)] أخرجاه في الصحيحين. وقال الإمام أحمد رحمه الله: هو أصح حديث في الضحى. وقد روي حديث أبي ذَر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنْ

---

(١) أخرجه المصنف مع غيره من أحاديث الضحى في العلل المتناهية ١/ ٤٧٢ من حديث أبي هريرة وقال: هذه الأحاديث لا يصح منها شيء.

(٢) لم أقف عليه من حديث جبير بن مطعم، والمعروف هو حديث أبي ذر عن مسلم (٧٢٠) أنه ﷺ قال: «يُصبح على كل سُلامَى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحةٍ صدقة، وكل تحميدةٍ صدقة، وكل تهليلةٍ صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى».

(٣) أخرجه مسلم (٧١٩)(٧٩).

(٤) أخرجه البخاري (١١٧٦)، ومسلم (٣٣٦).

صليتَ الضُّحى رَكعتين لـم تُكتب من الغافلين، وإن صليتَ أربعاً كُتِبتَ من العابدين، وإن صليتَ ستاً لم يَتبعك في ذلك اليوم ذَنب، وإن صليت ثمانياً كُتبتَ من القانِتين، وإن صليت اثنتي عشرة ركعة بَنَى اللهُ عز وجل لك بيتاً في الجنة»[١]. وقد روى الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن صلَّى الضُّحى اثنتي عشرة ركعة بَنَى الله له قصراً في الجنة من ذهب»[٢] قال الترمذي: هذا حديث غريب. قلت: والذي قبله كذلك والاختيار العمل على حديث أم هانئ.

الثامنة: إحياء ما بين العشاءين، فقد قيل في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]: إنه إحياء ما بين العشاءين، وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن صلى المغرب وصلى بعدها أربعاً كان كمن حَجَّ حجة بعد حجة» قلت: فإنْ صلى بعدها ستاً؟ قال: «يُغفر له ذنوب خمسين عاماً»[٣]. وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ قال: «مَن صلى بعد المغرب أربعاً من غير أن يُكلِّم جَليساً بَنَى اللهُ له قَصرين مُكلَّلين بالدُّرِّ والياقوت، فإن صلى ستاً من غير أن يُكلم جَليساً غَفرَ اللهُ له ذنوبَ أربعين عاماً»[٤]. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى ستَّ ركعات بعد المغرب لم يتكلم بينهن عُدِلْنَ بعبادة اثنتي عشرة سَنَة»[٥]. وفي حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ: «من صَلَّى بعد المغرب ستَّ ركعات غُفرت له ذنوبه وإن كانت مثلَ زَبَدِ البحر»[٦]. وفي حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: «مَن عكفَ نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجدِ جماعة لم يتكلم إلا بصلاةٍ أو قُرآنٍ كان حقاً على الله تعالى أن

---

(١) أخرجه البيهقي ٣/ ٤٨، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٤٦٦.
(٢) أخرجه الترمذي (٤٧٣).
(٣) أخرجه المصنف في العلل المتناهية ١/ ٤٥٨، وقال: لا يصح.
(٤) أخرجه المصنف أيضاً في العلل ١/ ٤٥٨، وقال: لا يصح.
(٥) أخرجه الترمذي (٤٣٥) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زيد بن الحُباب عن عمر بن أبي خثعم.
(٦) أخرجه الطبراني في الصغير ٢/ ٤٨، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢/ ٢٢٣ والمصنف في العلل المتناهية ١/ ٤٥٧.

يَبني له قَصرين في الجنة، مسيرة كل قصر منهما مئة عام، ويغرس له غِراساً لو ضافه أهل الدنيا لوسعهم»[١].

القسم الثاني: ما يتكرر بتكرار السنين وهو صلاة العيدين والتراويح، فأما صلاة العيدين؛ ففَرض على الكفاية، وأول وقتها إذا ارتفعت الشمس، وآخره إذا زالت، ويُسن تقديم الأضحى وتأخير الفطر، وأن يأكل في الفطر قبل الصلاة، ويمسك في الأضحى حتى يُصلي، ويسن التكبير بعد غروب الشمس من ليلة الفطر إلى فَراغ الإمام من الخطبة الثانية في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: إلى حين خروج الإمام للصلاة، وفي الأضحى يَبتدئ به من صلاة الفجر يوم عرفة، وإن كان محرماً فمن صلاة الظهر يوم النحر إلى العصر من آخر أيام التشريق، وَصِفةُ التكبير: اللهُ أكبر اللهُ أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد. ويُكبر عَقيب الفرائض دون النَّوافل، ويُستحب أن يُباكر المأموم بعد صلاة الصبح إلى صلاة العيد على أحسن هيئة وأكمل زينة إلا أن يكون معتكفاً فيخرج في ثياب اعتكافه، ويتأخر الإمام إلى الوقت الذي يصلي بهم فيه، ويستحب إقامتها في الصحراء، ويروح الناس إليها مشاة، ويرجعون في طريق أخرى، ويصلي بهم الإمام ركعتين يُكبر في الأولى بعد تكبيرة الإحرام ودعاء الاستفتاح وقَبْل التعوّذ ستّ تكبيرات، وفي الثانية بعد قيامه من السجود خمس تكبيرات، ويرفع يديه مع كل تكبيرة، ويقول: اللهُ أكبر كبيراً والحمدُ لله كثيراً وسُبحان الله بكرةً وأصيلاً، وصلوات الله على محمد وآله وسلم تسليماً. ويَقرأ في الأولى بعد الفاتحة بسَبِّح[٢] وفي الثانية بالغاشية، وتكون القراءة بعد التكبير، وإذا أدركه المأموم في الركوع أحرمَ وتبعه، ولم يتشاغل بقضاء التكبير، فإن أدركه في التشهد قام إذا سلم الإمام فصلى ركعتين يأتي فيهما بالتكبير، فإن أدركه في الخُطبة استُحبَّ له أن يجلس فيستمع، فإذا انقضت قَضى العيد، وفي صفة القضاء ثلاث روايات:

إحداها: أن يُصلي كما يصلي مع الإمام ركعتين.

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٣/ ٦١٧.

(٢) يعني بسورة الأعلى.

والثانية: يَقضيها أربعاً.

والثالثة: هو مخير بين ركعتين أو أربع.

والأُضحية سنة مؤكدة، وعن الإمام أحمد رحمه الله أنها واجبة مع الغِنى والمسنون أن يأكل الثُّلث، ويُهدي الثُّلث، ويَتصدق بالثُّلث، هذا إذا قلنا: إنها سُنة، فإن قلنا: إنها واجبة احتمل أن يأكل كما نقول في دم التَّمتع والقِران، واحتمل أن لا يأكل كما لو نَذر هَدياً. ولا يجوز بيع جُلودها وجِلالها[(١)] بل يتصدق به، ويُكره لمن أراد أن يُضحي أن يأخذ من بَشرته وشَعره وظُفره شيئاً من حين دخول العَشر[(٢)].

وأما صلاةُ التَّراويح فهي عشرون ركعة، ويُسن لها الجماعة، كما اختاره عُمر رضي الله عنه، ويؤخر الوتر من له تَهجُّد ويكره التطوع بين التراويح، وأما ما يُذكر من صلاة الرَّغائب، وصلاة نِصف شعبان[(٣)]، وصلوات الأُسبوع فلم يثبت من ذلك شيء أصلاً، فلذلك أضربنا عنه.

القسم الثالث من النوافل: ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهي ثمانية:

الأولى: صلاة الكسوف:

وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الشمسَ والقمرَ آيتان من آياتِ الله عز وجل، لا يُخسفان لموتِ أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك، فافزعوا إلى الصلاة»[(٤)].

---

(١) يعني: جلودها.

(٢) يعني: عشر ذي الحجة.

(٣) نقل الزبيدي في الإتحاف ٣/ ٧٠٢ عن العز بن عبد السلام أنه قال: لم يكن ببيت المقدس قط صلاة الرغائب في رجب، ولا صلاة نصف شعبان، فحدث في سنة (٤٤٨)هـ أن قدِم عليهم رجل من نابلس يُعرف بابن الحَي، وكان حسنَ التلاوة، فقام فصلى في المسجد الأقصى ليلة النصف من شعبان، فأحرم خلفه رجل ثم انضاف ثالث ورابع فما خَتم إلا وهم جماعة كثيرة، ثم جاء في العام القابل فصلى معه خلقٌ كثير، وانتشرت في المسجد الأقصى وبيوت الناس ومنازلهم، ثم استقرت كأنها سُنّة إلى يومنا هذا.

(٤) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١)(٣).

فأما وقت صلاة الكسوف؛ فمن حين الكسوف إلى حين التَّجلّي، وأما موضعها؛ فموضع الجمعة ويُنادَى لها: الصلاةُ جامعة. وأما صِفتها؛ فهي أن يصلي بهم ركعتين يُحرم بالأولى ويَستفتح ويَستعيذُ، ويقرأ الفاتحة وسورةَ البقرة يجهر بالقراءة، ثم يركع فيطيل الركوع، ويسبح بمقدار مائة آيةٍ، ثم يرفع فَيُسَمِّعُ ويَحمد[1]، ثم يقرأ الفاتحة وآل عِمران، ثم يركع دون الركوع الأول، ثم يرفع فيُسمِّع ويحمد، ثم يسجد سجدتين فيطيل التسبيح فيهما بقدر الركوع، ثم يقوم إلى الثانية فيفعل مثل ذلك إلا أنه يقرأ بالنِّساء في القيام الأول وبالمائدة في الثاني، ثم يسجد سجدتين، ويتشهد ويُسلِّم، فيكون في كل ركعة قيامان وقِراءتان وركوعان وسجودان.

وعن الإمام أحمد رحمه الله أنه يفعل في كل ركعةٍ أربع ركوعات على نحو ما ذكرنا وسجدتين فإن تجلَّى الكسوف وهو في الصلاة خَفَّفها.

والثانية: صلاة الاستسقاء:

وصفتها في موضعها وأحكامها صفة صلاة العيد. ويُستحب له التَّنظف، ولا يتطيب، وإذا أراد الخروج لذلك وَعظ الناس وأمرهم بالتوبة من الذنوب، والخروج من المظالم، والصيام، والصدقة، ثم يخرج متواضعاً مُتخشعاً مُتذللاً، ويخرج معه الشيوخ والعجائز والصبيان، فإذا صلّى بهم خطب خُطبة يَفتتحها بالتكبير كما يفعل في خطبة العيد، ويُكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، ويقرأ فيها: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] الآيات، ويرفع يديه فيدعو بدعاء النبي ﷺ: «اللهمَّ اسْقِنا غَيثاً مُغيثاً مَريئاً هَنيئاً مُربِعاً غَدَقاً مُجَلِّلاً سَحّاً عامّاً طَبَقاً دائماً، اللهمَّ اسقِنا الغَيثَ ولا تَجعلنا من القانِطين، اللهمّ سُقيا رحمةٍ لا سُقيا عذابٍ ولا مَحْقٍ ولا بَلاءٍ ولا هَدْمٍ، ولا غَرق، اللهمَّ إن بالعبادِ والبلاد والخَلق من اللَّأْواءِ والجَهْدِ والضَّنكِ ما لا شكوى منه إلا إليك، اللهم أَنْبِتْ لنا الزَّرع، وأَدِرَّ لنا الضَّرع، واسْقِنا من بركات السماء، وأَنبِتْ لنا من بركات الأرض، اللهمَّ ارفَع عنَّا الجَهْدَ والجوعَ والعُريَ، واكشف عنّا من البلاء ما لا يكشفه غيرك»[2].

---

(١) أي يقول: سمعَ اللهُ لمن حَمِدَه.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (٧٦١٥)، من حديث أنس بن مالك.

ويستقبل القِبلة في أثناء الخطبة، ويُحوّل رداءه فيجعل ما على عاتِقه الأيمن على الأيسر وما على الأيسر على الأيمن، ولا يجعل أعلاه أسفله، ويفعل الناسُ كذلك، ويتركون ذلك حتى ينزعونه مع ثيابهم، ويدعو سراً في حال استقبال القبلة فيقول: اللهم إنكَ أمرتنا بدعائك وَوَعدتنا إجابتك وقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا.

فإن لم يُسقَوا عادوا ثانياً وثالثاً.

ويُستحب أن يَقفَ في أول المطر، ويُخرج رَحلَه وثيابه ليصيبها، وإذا سال الوادي اغتسل منه وتوضأ، فإذا زادَ المطر بحيث يَضر قال: «اللهمَّ حَوالينا ولا عَلينا، اللهم على الضِّراب ومَنابت الشجر»[(١)]. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية.

الثالثة: صلاة الجنازة:

وهي فرضٌ على الكفاية، وأولى الناس بها وَصِيُّه[(٢)]، ثم السلطان، ثم الأقرب من عَصَباته. وهل يُقدم الزَّوج على العَصَبات على روايتين ويقف[(٣)] حِذاء صَدرِ الرجلِ ووسَطِ المرأة، ويَنوي، ويُكبر أربع تكبيرات يقرأ في الأولى بالفاتحة، ويُصلي على النبي ﷺ في الثانية، ويدعو للميت في الثالثة، فيقول: اللهمَّ اغفِر لحيِّنا ومَيتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأُنثانا إنك تعلم مُنْقَلَبنا ومَثوانا، وأنتَ على كل شيء قدير، اللهمَّ من أحييته منَّا فأحيِه على الإسلام والسنة، ومن تَوفَّيته منا فتوفَّه عليهما»[(٤)]، اللهم إنّه عبدك ابنُ عبدك نزل بك وأنتَ خير منزولٍ به، اللهم إن كان مُحسناً فجازِهِ بإحسانه، وإن كان مُسيئاً فتجاوز عنه،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠١٧)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس.

(٢) يعني من وصَّى به الميت.

(٣) أي الإمام.

(٤) أخرجه أحمد (٨٨٠٩)، والترمذي (١٠٢٤)، وابن ماجه (١٤٩٨)، والحاكم ٣٥٨/١ من حديث أبي هريرة.

اللهم إنا جِئناكَ شُفعاء له فَشفِّعْنا فيه، وَقِهِ فِتنةَ القبر وعذاب النار، واعفُ عنه، وأكرمْ مَثواه، وأَبْدِلْه داراً خيراً له من داره، وجواراً خيراً له من جواره، وافعل لك بنا ولجميع المسلمين، اللهمَّ لا تَحرِمْنا أَجره ولا تَفْتِنَّا بعده.

ويقول في الرابعة: ربنا آتِنا في الدنيا حَسَنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار. ويُسلِّم واحدة عن يمينه.

الرابعة: تحية المسجد ركعتين:

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا مالك عن عامر بن عبد الله ـ يعني ابن الزبير ـ عن عمرو بن سليم عن أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخلَ أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يَجلس»(١) أخرجاه في الصحيحين، وفي بعض الألفاظ الصحيحة: «فلا يَجلس حتى يركع ركعتين»(٢).

فإن اشتغلَ الداخلُ بفعلِ فريضةٍ أو قضاءٍ حَصل المقصود من التحية؛ لأن المراد أن لا يخلو ابتداء الدخول من صلاة.

الخامسة: ركعتان بعد الوضوء:

مُستحبتان؛ لأن الوضوء قُربة مَقصودها الصلاة، وقد ذكرنا فَضل هاتين الركعتين في كتاب الوُضوء(٣)، وإذا صَلّاها نواها نافلةً، ولا يقول: ركعتي الوضوء، كما يقول: تحية المسجد.

السادسة: ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه:

فَقد روى أبو هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا خرجتَ من منزلك فَصلِّ ركعتين تَمنعانِكَ مَخْرجَ السوء، وإذا دخلتَ إلى مَنزلك فَصلِّ ركعتين تَمنعانِكَ مدخل

(١) أخرجه البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤)، من حديث أبي قتادة.
(٢) أخرجه البخاري (١١٦٣)، ومسلم (٧١٤)(٧٠).
(٣) تقدم في الصفحة (٩٥).

السوء»[١]. وفي معنى هذا كل أمر تبتدئ به، مما له وقع، ولذلك وردت ركعتان عند الإحرام[٢]، وركعتان عند ابتداء السفر[٣].

السابعة: صلاة الاستخارة:

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسحاق بن عيسى قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموال المدني قال: حدثنا محمد بن المنكَدر عن جابر بن عبد الله قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يُعلِّمنا الاستخارةَ كما يُعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هَمَّ أحدُكم بالأمر، فليركع رَكعتين من غير الفَريضة، ثم ليقل: اللهمَّ إني أَسْتخِيرك بعلمك، وأستَقدِرك بقُدرتك، وأسألُكَ من فضلك العظيم، فإنك تَقْدر ولا أقدر، وتَعلم ولا أعلم، وأنتَ علام الغيوب، اللهمَّ إن كنتَ تعلم أن هذا الأمر ـ يُسميه باسمِه ـ خَيرٌ لي في ديني ومَعاشي وعاقبة أمري فاقْدُرْه لي ويَسِّره، ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنتَ تعلمُه شرّاً لي في ديني ومعاشي وعاقِبة أمري، فاصرفني عنه واصرفه عني، واقْدُر لي الخير حيث كان ثم أَرْضِني به» انفرد بإخراجه البخاري[٤].

الثامنة: صلاة التَّسبيح: أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب، إذناً، قال: أخبرنا علي بن عمر الدارقطني قال: أخبرنا عبد الله بن سليم بن الأشعث

---

(١) أورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢/ ٤٥ ونسبه للبيهقي في الشُّعَب والبزار، وذكر الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ونسبه للبزار وقال: رجاله موثقون. وأورده المتقي الهندي في الكنز (٥٤٠).

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ حاجاً فلما صلى في مسجده بذي الحُليفة ركعتيه أوجبَ في مجلسه فأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه... أخرجه أبو داود (٧٧٠) والحاكم ١/ ٤٥١.

(٣) أخرج ابن أبي شيبة ٢/ ٨١ عن المطعم بن مقدام قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلف عبد على أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد السفر».

(٤) أخرجه البخاري (١١٦٢) من حديث جابر.

قال: حدثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم قال: حدثنا موسى بن عبد العزيز قال: حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال للعباس: «يا عَمَّاه، ألا أُعطيك، ألا أُعلّمك، ألا أُجيزك، ألا افعل عشر خصال إذا أنت فعلتَ ذلك غَفر الله لك ذَنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سره وعلانيته، عشر خصال: أن تُصلّي أربع ركعات تقرأ في كل ركعةٍ بفاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغتَ من القراءة في أول ركعة وأنتَ قائم قُلتَ: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر خمس عشرة مرة، ثم تركع، فتقولها وأنت راكع عشراً، ثم ترفع رأسك من الركوع، فتقولها عشراً، ثم تَهوي ساجداً، فتقولها وأنت ساجد عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود، فتقولها عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك فتقولها عشراً، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، تَفعل ذلك في أربع ركعات، إن استطعت أن تُصليها في كل يوم مرةً فافعل، فإن لم تفعل، ففي كلِّ جُمعة مرةً، فإن لم تَفعل ففي كلّ شَهرٍ مرةً، فإن لم تَفعل ففي كلِّ سنةٍ مَرةً، فإن لم تَفعل ففي عُمركَ مرةً»[١].

فصل

ولا يتطوع في الأوقات المَنْهي عن الصلاة فيها بصلاةٍ لا سبب لها، كصلاة التسبيح؛ لأن النَّهي مؤكد، وهذه الأشياء ضعيفة فلا يصلح صدمه بها، فأما مالها سبب، كصلاة الكسوف، والاستسقاء، وركعتي الفجر، وتحية المسجد، وركعتي الطواف، وسجود التلاوة والشكر، والوتر إذا فات، وإذا حضرت الجماعة مع إمام الحي وقد كان صلى، فإنه يفعل منها رَكعتي الفجر وركعتي الطواف، ويعيد الجماعة رواية واحدة، وهل يفعل باقيها أم لا؟ على روايتين، أصحهما: أنه يفعلها.

فصل

وللنهي عن الصلاة في الأوقات المنهي عنها ثلاثة أسرار:

---

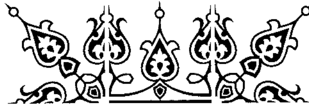
(١) أخرجه أبو داود (١٢٩٧)، وابن ماجه (١٣٨٧)، وابن خزيمة (١٢١٦)، والبيهقي ٣/ ٥١، والحاكم ١/ ٣١٨.

أحدها: ترك التَّشبُّهِ بعَبَدةِ الشَّمس.

والثاني: الحَذر من السجود لمطلع قرن الشيطان، فإن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا ارتفعت فارقها، فإذا استوت قارنها، فإذا زالت فارقها، وإذا تضيَّفت للغروب قارنها.

والثالث: إن سالكي طريق الآخرة مواظبون على العبادات، والمواظَبة على نمطٍ واحدٍ تُورِثُ الملل، فإذا وقع المنع زاد النشاط؛ لأن الإنسان حريصٌ على ما مُنع عنه، فمنع من الصلاة ولم يُمنع من نوع آخر من التعبد كالقراءة والتَّسبيح لينتقل العابد من حالٍ إلى حالٍ، كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيامٍ وقُعودٍ وركوع وسُجود إذ المَلَلُ مُقارنٌ للشيء الواحد.

آخر كتاب الصلاة



كتاب أسرار الزكاة

ومهماتها

الحمدُ لله الذي فَرض في أموال الأغنياء للفقراء قَدر ما يحتاجون، وأمرهم بالصبر عن الفُضول إن كانوا يفهمون، وأعلمهم أن الدنيا مجاز والكل يذهبون، ونَهى الواجدين عن البُخل فيما أُلْزم إن كانوا يسمعون، وأوعدهم على حَبْسِ الحق الواجب وسيعلمون ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].

أما بعد: فإن الله عز وجل جعل الزكاة أحد مباني الإسلام، وقَرَنها بالصلاة التي هي أعلى الأعلام، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] وفي الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «بُنيَ الإسلامُ على خمسٍ: شهادةِ أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاةِ، والحج، وصَوم رمضان»[1].

وقد شَدَّد الله عز وجل الوعيد على من لا يُخرج الزكاة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥] الآية، وقد أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن عُبيد قال: حدثنا الأعمش عن المَعْرور بن سُويد عن أبي ذَر قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو في ظِلِّ

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦)(٢١).

الكعبة فقال: «هُم الأخْسرون ورَبِّ الكَعبة، هُم الأَخسرون وربِّ الكعبة» قال: فأخذني غَمٌّ وجعلتُ أَتنفس، قال: قلتُ: هذا شيءٌ حدث فيَّ، فقلت: مَن هُمْ فِداكَ أبي وأمي؟ قال: «الأكثرون إلا من قال في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، وقليل ما هم، ما من رجلٍ يموتُ فيترك غَنماً أو إبلاً أو بَقراً لم يُؤدِّ زكاتها إلا جاءته يَوم القيامة أعظمَ ما تكون وأسمن حتى تَطأه بأظْلافها وتَنطحه بقرونها حتى يُقضى بين الناس، ثم يعود أولاها على آخرها»[١] أخرجاه في الصحيحين. وأخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعْين السَّرْخسي قال: حدثنا الفِرَبري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا عبد الله بن منير سمع أبا النَّضر قال: حدثنا عبد الرحمن ـ هو ابن عبد الله ـ بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتاهُ الله مالاً فلم يُؤدِّ زكاته مُثِّلَ له مالُه شُجاعاً أَقرع له زَبيبتان يُطوِّقُه يوم القيامة ثُم يأخُذ بِلِهْزمتَيه ـ يعني شِدْقيه ـ يقول: أنا مالُكَ أنا كَنزك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] إلى آخرها»[٢]. وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من صاحبِ ذهبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤدّي منها حقَّها إلا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحت له صَفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم، فيُكوَى بها جَنْبُه وجَبينُه وظَهره كلما رُدَّت أُعيدت في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنةٍ حتى يُقضى بين العباد، فيُرى سَبيلُه إما إلى الجنة وإما إلى النار» قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبل لا يُؤدي منها حقَّها إلا إذا كان يوم القيامة بُطحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ أوفَرَ ما كانت لا يَفقدُ منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها وتَعَضُّه بأ فواهها، كلما مَرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أُخراها في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضَى بين العباد، فيُرى سَبيلُه إما إلى الجنة وإما إلى النار»[٣]، وذكر في البقر مثل ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٠٣).
(٣) أخرجه مسلم (٩٨٦)(٢٣).

فصل

ونحن نكشف عن أسرارِ الزكاة وشُروطها ومعانيها، وذلك في أربعة فصول:

الفصل الأول: في أنواع الزَّكوات وأسباب وجوبها.

الفصل الثاني: في آدابها وشروطها.

الفصل الثالث: في القابض وشروط استحقاقه وآداب قَبضه.

الفصل الرابع: في صَدقة التطوع وفضلها.

الفصل الأول
في أنواع الزكوات وأسباب الوجوب

الزكاةُ واجبةٌ على كلِّ حرٍّ مُسلم تامِّ المِلك، فأما العَبدُ فلا زكاة عليه وإن قلنا: إنه يملك، وكذلك المكاتَبُ وما لم يتم مِلكُ الإنسان عليه، كالدين الذي على المكاتب، فلا زكاة فيه.

ولا يشترط في وجوب الزكاة البلوغ ولا العقل؛ لأنها تَجب في مالِ الصبي والمجنون، فالزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع: زكاة النَّعَم[1]، والنَّقدين، والتجارة، والمعدن، والمعشرات، وزكاة الفِطر.

النوع الأول: زكاة النَّعَم: وهي الإبل، والبقر، والغنم، فأما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ خمساً ويحولَ عليه الحَول، فيجب فيها شاةٌ، فلو أخرج بعيراً لم يُجْزِه، وفي العَشرِ شاتان، وفي خمسةِ عشر ثلاثُ شياه، وفي العشرين أربعُ شياه، ولا يجزي في الغَنَم المخرجةِ إلا الجَذَعُ من الضَّأْن، وهو ماله ستة أشهر، والثَّنِيُّ من المَعْز، وهو ماله سَنَة، وفي خمس وعشرين بنتُ مَخاض وهي التي كَمُلَ لها سَنة، فإن عَدِمها قُبل منه ابنُ لَبون، وهو ماله سَنتان وقد دخل في الثالثة، وفي ستٍ وثلاثين بنت لبون، وفي ستٍ وأربعين حِقَّة وهي ما كمل لها ثلاث سنين ودخلت

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الغنم».

في الرابعة وفي إحدى وستين جَذَعة وهي ما كمل لها أربع سنين ودخلت في الخامسة، وفي ستٍ وسَبعين بِنْتا لبون، وفي إحدى وتِسعين حِقَّتان، ولا شيء في زيادتها حتى تبلغ عشرين ومئة، فإذا زادت استؤنفت الفَريضة، فوجب في كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حِقَّة، وأما البقر فَلا شيء فيها حتى تَبلغ ثلاثين، فيجب فيها تَبيعٌ أو تَبيعةٌ وهو ما كَمُلَ له سَنة، وفي الأربعين مُسِنَّة، وهي ما كَمُل لها سَنَتان إلى ستين فيجب فيها تبيعان، وعلى هذا أبداً في كلّ ثلاثين تَبيعٌ وفي كل أربعين مُسِنَّة.

ولا تجب الزكاة في الظِّباء، وهل تجب في بقر الوحش على روايتين، وتجب في المتولد بين الوحشي والأهلي. والجواميس جنس من البقر.

وأما الغَنم فلا شيء فيها حتى تبلغ أربعين فيجب فيها شاة، وفي المائة وإحدى وعشرين شاتان، وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه إلى أربعمائة، فيكون في كل مئة شاة، وعن الإمام أحمد رحمه الله أنها إذا بلغت ثلثمائة وواحدة ففيها أربع شياه، ثم في كل مائة شاة.

والفُصْلان[١] والعَجاجيل[٢] والسِّخال[٣] تتبع الأمهات في الحول إذا كانت الأمهات نِصاباً، فإن لم تكن نصاباً لكن كَملت بأولادها في أثناء الحول احتَسب حَولَ الجميع من حين الكمال، وعن أحمد أنه يَحتسب حولَ الجميع من حين ملك الأُمهات.

ولا يُؤخذ في الصدقة الرُّبَّى وهي التي تُرَبي ولدَها، ولا الماخِضُ، وهي الحامل، ولا ما طَرَقَها الفَحل؛ لأن الغالب أنها حامل، ولا الأكولة، وهي السَّمينة، ولا فَحلُ الغَنم المُعَد للضِّراب، ولا حَزرَات[٤] المال، وهي خياره، ولا هَرِمة، ولا ذاتُ عوار.

---

(١) الفُصلان: جمع فَصِيل، وهو ولد الناقة إذا فُصل عن أُمه.

(٢) العجاجيل: جمع عِجل، وهو ولد البقرة.

(٣) السخال: جمع سَخلة، وهو ولد الشاة ما كان.

(٤) ورد في هامش (ظ) ما نصه: «هو ما تحزره العين لأجل حُسنه». وحَزْرة الماء خيارُه، =

وإذا اختلطَ نَفْسان أو أكثر من أهل الزكاة في نصابٍ من الماشية حولاً، فحكم زكاتهم كحكم زكاة الواحد، ولا تُؤثر الخُلطة في غير المواشي من الأثمان والحبوب والثمار في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: تُؤثر.

النوع الثاني: زكاةُ المُعَشَّرات: فتَجب الزكاةُ في كل زَرعٍ يُكال ويُدخر سواء كان مُقتاتاً كالحِنطة والشَّعير والأرز والباقِلّى والشَّهْدانَج[1]، أو غير مُقتاتٍ كبزرِ الكَتّان، وبزر الفُجْلِ، وحَبِّ القِثّاء والكَمّون، وسواء كان مما يُنبته الآدميون أو مما يَنبتُ بنفسه كبِزر قَطُونَا، والأُشْنان. وكذلك يجب في الثِّمار التي تُكال وتُدَّخر كالتَّمر والزبيب واللَّوز والفُستق، ولا تَجبُ في الخوج والمشمش والإجاص والكُمَّثْرى والتّين، ولا في الخَضراوات كالبطيخ والقِثاء والباذنجان والبُقول.

واختلفت الرواية في القُطن والزَّيتون والزَّعفران فإن قلنا: تَجب الزكاة في ذلك، فقال القاضي أبو يَعلى: يتوجه أن يجعل نصابه ما قيمته قيمة خَمسة أوسق من أدنى ما تُخرجه الأرضَ مما يجب فيه الزكاة ويخرج الوَرْسَ[2] والعُصْفُر على وَجهين قياساً على الزَّعفران في وجوب الزكاة فيه وفي مقدار نصابه.

ولا زكاةَ في جميع ذلك حتى يبلغ بعد تَصفية الحبوب وجَفاف الثِّمار خمسةَ أوسق الوَسق ستون صاعاً، والصاعُ خَمسة أرطالٍ وثلثٌ بالعِراقي فيكون ذلك ألفاً وستمائة رطل إلا الأرز والعَلَس، وهو نوعٌ من الحِنطة يُدَّخر في قِشره، فإن نصابه عشرة أوسق مع قشره.

ويجب في العَسل العُشر سواءٌ أخذه من موضع يملكه أو لا يملكه، ونصابه عشرة أَفْراقٍ، قال ابن حامدٍ: الفَرَقُ ستون رطلاً، وقال القاضي أبو يَعلى: ستة وثلاثون رطلاً.

= والجمع: حَزَرات، وفي الحديث: «لا تأخذ من حَزرات أنفس الناس شيئاً» سميت كذلك لأن صاحبها لم يزل يحزرها في نفسه. اللسان: (حزر).

(١) الشَّهدانَج: حَبُّ القِنَّب.

(٢) الوَرْس: نبات كالسّمسم، يُصبَغ به.

النوع الثالث: زكاة النقدين: لا زكاةَ في الذَّهب حتى يبلغ عشرين ديناراً، فيجب فيه رُبع العُشر، ولا في الفِضة حتى تبلغ مائتي درهم فيجب فيها خمسة دراهم وما زاد على النِّصاب فيهما فبحسابه، فإن نقص النصاب حبةً أو حبتين لم يمنع وجوب الزكاة، وإن نقص دانِقاً أو دانِقَين فهل يمنع؟ فيه روايتان، وهل يُضَم الذهب إلى الفضة في النِّصاب؟ فيه روايتان، فإن قلنا: يضم، ضم بالأجزاء لا بالقيمة، وقيل: يُضم بما يكون أحوط للفقراء من الأجزاء أو القيمة.

ومن مَلك ذهباً مغشوشاً أو فِضة مغشوشةً فلا زكاة حتى يبلغ مقدار الذهب والفضلة نصاباً، ويُخرج عن الصِّحاح صحاحاً من جنسها، فإن أخرج مُكسَّرة أو بَهْرَجَةً[(١)] زاد فيما يُخرج مقدار ما بينهما من الفَضل.

ولا زكاةَ في الحلي المباح إذا كان معدّاً للاستعمال، والمباح للرجال من الفضة الخاتم وقَبيعةُ[(٢)] السَّيف، وفي حلية المِنطقة روايتان، وعلى قياسها الجَوْشَن[(٣)]، والخُوذَة، والخُف، والرّانُ[(٤)]، والحمائِل[(٥)]، ومن الذهب ما دعت إليه الضرورة كالأنف وما تُربَط به الأَسنان.

والمُباح للنساء من الذهب والفضة ما جَرت العادة لهنَّ بلُبسِه كالخَلْخال والسِّوار والطَّوق والتَّاج، فإن لم يُعدّ ذلك للاستعمال لكن للكراء أو النَّفقة إن احتيج إليه؛ وجبت فيه الزكاة، وتَجب الزكاة في الأواني المتخذة من الذَّهب والفضة.

النوع الرابع: زكاة التجارة: تجب الزكاة في قِيَم عُروض التجارة، وتؤخذ منها لا من العُروض.

النوع الخامس: المعدن: فمن كان من أهل الزكاة، فاستخرجَ من معدنٍ في أرضٍ مباحة أو مملوكةٍ نصاباً من الذهب أو الفضة أو ما يَبلغ قيمته نصاباً من جميع

---

(١) بهرجةً، أي: رديئةً باطلةً.

(٢) قبيعة السيف: ما يُجعَل على طرف القبضة.

(٣) الجوشن: الدرع.

(٤) الرّان: شيء يُلبَس تحت الخُف.

(٥) الحمائل: جمع حمالة، وهي علاقة السيف.

ما يقع عليه اسم المعدن، كالياقوت والزَّبَرجد والعَقيق والصُّفر والزَّيبق والكُحل والنِّفطِ والنُّورةِ وما أشبه ذلك، فَفيه الزكاة في الحال رُبع العشر سواء استخرجه في دَفعةٍ أو دفعات بعد أن لا يترك العمل فيها ترك إهمال.

ولايجب إخراج زكاته إلا بَعد السَّبكِ والتَّصفية، ومصرفه مصرف الزكوات.

وأما ما يُصيبه من البحر كاللؤلؤ والمَرجان والعَنبر والسَّمَك فهل حكمه حكم المعدن؟ فيه روايتان؛ إحداهما: حُكمه حكم المعدن، والثانية: لا شيء فيه بحالٍ.

وأما الرِّكاز، وهو ما وُجد من دِفْنِ الجاهلية في مَواتٍ أو مَملوكٍ لا يُعرف مالِكه، فإنه يجب فيه الخُمس في الحال، أي نوع كان من المال قَلَّ أو كَثُر، فإن وجده في مكانٍ يُعرف مالكه، فإن كان المالك مُسلماً أو ذمياً، فهو لمالك المكان وإن كان المالك حَربياً وقدر عليه بنفسه، فهو رِكاز، وإن لم يقدر عليه إلا بجماعةٍ من المسلمين، فهو غنيمةٌ.

ومصرف الرِّكاز مصرف خُمس الفيء، وعن الإمام أحمد أن مصرفه مصرف الزكوات؟

النوع السادس: صدقة الفِطر: فَرضها رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ فَرض زكاة الفِطر من رمضان صاعاً من تمر أو صاعاً من شَعير على كل حُرٍّ أو عبدٍ ذكرٍ أو أنثى من المسلمين، وأمر بها أن تُؤَدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة.

والواجب في صدقة الفطر صاعٌ قدره خَمسة أرطال وثُلثٌ بالعراقي يخرج من التَّمر أو الزَّبيب أو البُر أو الشَّعير أو دَقيقهما أو سَويقهما، فأما الأقِط فعن الإمام أحمد أنه لا يخرج مع وجود هذه الأصناف، وعنه: يخرج على الإطلاق. فأما ما عدا هذه الأصناف فَلا يجزئ إخراجه مع وجودها، ويجوز إخراج صاعٍ من الأجناس المَنصوص عليها، والأفضل التَّمر، ثم الزَّبيب، ثم البُر، ثم الشَّعير.

وزكاة الفطر واجبة على كل مُسلم فَضَلَ عن قُوتِه وقُوتِ عياله يومَ العيد وليلته صاعٌ، فإن فَضَل بعضُ صاعٍ فهل يلزمه إخراجُه؟ على روايتين.

ومن لزمته فطرةُ نفسه لزمته فطرة من يَمونه من المسلمين إذا وَجَد ما يؤدي عنهم، فإن وَجد ما يؤدي عن بعضهم بدأ بمن يلزمه البداية بنفقته، فيبدأ بنفسه، ثم بزوجته، ثم برقيقه، ثم بولده، ثم بأمه، ثم بأبيه، ثم بإخوته، ثم ببني إخوته، ثم بأعمامه، ثم ببني أعمامه على ترتيب الأقرب في الميراث.

والأفضلُ إخراج الفِطرة قبل صلاة العيد، ويجوز إخراجها قبل ذلك بيومين، فإن أخَّرها عن يوم العيد أَثِم، ووجب عليه القَضاء.

الفصل الثاني
في الأداء وشروطه الظاهرة والباطنة

بيان الشروط الظاهرة: يجب على مؤدي الزكاة مراعاة خَمسة أمور:

الأول: النِّية: وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفرض، ونية الولي تَقوم مقام نية المجنون والصبي، ونية الإمام تقوم مقام نية المالك الممتنع من الزكاة، لكن في ظاهر حكم الدنيا؛ وهو قَطع المُطالبةِ عنه لا في الآخرة، فإن ذِمّته مشغولة لامتناعه، وإذا وكَّل في أداء الزكاة ونَوى عند التوكيل جاز.

الثاني: البِدار عقيب الحَول إلى الإخراج، فإن أخَّر مع القُدرة على الإخراج أثم، فإن تلفَ المالُ قبلَ إمكان الإخراج وبعد حُؤول الحول لم تَسقط عنه، ويجوز تقديم الزكاة على الحول إذا كمل النِّصاب، ولا يجوز تَقديمها لأكثر من حول في إحدى الروايتين، وفي الأخرى يجوز، فإن (١عجَّلها ثم هَلَكَ المالُ قبلَ الحَول فهل يرجع على المسكين؟ فيه وَجهان. فإن١) عجلها إلى فقيرٍ فاستغنى أو مات أو ارتدّ قبل تمام الحول وتم الحول أجزأت عن المُزكّي.

الثالث: أن لا يخرج عوضاً باعتبار القيمة، بل يُخرج المنصوص عليه، وفي رواية أخرى عن الإمام أحمد: أنه يجوز[٢]، والأُولى أصح. فإن من أجاز إنما

(١-١) سقط من الأصل.
(٢) في الأصل: «لا يجوز».

تَلمَّحَ سَدَّ الخَلَّةِ فقط، وليس هو كل المقصود، فإن واجبات الشرع على ثلاثة أقسام: **قسمٌ** هو تَعبُّدٌ مَحضٌ كرَمي الجمرات، فمقصود الشرع فيه الابتلاءُ بالعمل لتظهر عُبودية العبد بفعل ما لا يُعقَلُ له مَعنى؛ لأن ما يُعقَل مَعناه يُساعد عليه الطَّبع ويدعو إليه، فلا يظهر به (١خُلوصُ العبودية١)، إذ خلوص العبودية يظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعنًى آخر.

والقسم الثاني: من واجبات الشرع ما المقصود منه حظ معقول ولا يُقصد منه التَّعبد، كقضاء دين الآدميين، ورَدِّ الغُصوب، فلا جرم لا يعتبر فيه الفعل ولا النية، بل كيف وَصل الحق إلى مُستحقه حَصل المقصود وسقط خطاب الشرع، فهذان قسمان لا تركيب فيهما.

والقسم الثالث: هو المركب الذي يُقصد منه الأمران جميعاً؛ حَظّ العِباد وامتحان المكلَّف بالاستعباد، فيجتمع فيه تَعبُّدُ رمي الجمار وحظ رد الحقوق، ولا ينبغي أن يُنسى أدق المعنيين وهو التَّعبد بسببِ أَجْلاهما، فلعل الأدق هو الأهم، والزكاة من هذا القَبيل، فحظ الفقير مقصودٌ في سَدِّ الخَلَّة وحق التَّعبد في اتِّباع التفاصيل مقصود للشرع، وباعتبار هذا صارت الزكاة قَرينةَ الصلاة والحج لكونهما من مباني الإسلام، ولا شك في أن على المكلَّف تَعباً في تمييز أجناس أمواله وإخراجِ حصة كلِّ مالٍ من نوعه وجنسه وصفته، والتَّساهل في هذا غير قادحٍ في حَظ الفقير، ولكنه قادح في التَّعبد، ويدل على أن التعبد مقصودٌ بتعيين الأنواع أن الشرعَ أوجب في خمسٍ من الإبل شاةً، فعدل عن الإبل إلى الشَّاءِ ولم يعدل إلى النَّقدين والتَّقويم، فلو قُدِّر أن ذلك لقِلَّة النقود في أيدي العرب، بطل بذكره عشرين درهماً في الجُبران[٢] مَع[٣] الشاتين، فهذا يدل على أن الزكاة لم تُترك خالية عن

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) الجبران يكون على من وجبت عليه في زكاة إبله سِنٌّ معينة ولم يَجدها أخرج سنّاً أصغر منها ودفع معها شاتان أو عشرين درهماً، وهذا الفضل يُسمى جُبراناً. الموسوعة الفقهية ١٥/ ١٠٢ ـ ١٠٣، والمقنع مع الشرح الكبير والإنصاف ٦/ ٤١٤ ـ ٤١٥.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «بيع».

التَّعبدات[1] غَير أن الأذهان الضَّعيفة تُقصر عن دَرْكِ[2] المركَبات.

الرابع: أن لا ينقل الصدقة من بلد إلى بلد آخر تُقصر بينهما الصلاة، وذاك لأن أعين المساكين في كل بلدةٍ ممتدةٌ إلى أموالها، فإن فعلَ، فهل يجزيه؟ على روايتين، أصحهما: الإجزاء.

الخامس: استيعابُ الأصناف، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] وذلك يقتضي التَّشْريك في التَّمليك، فإن اقتَصر على صنفٍ واحدٍ لم يُجزه، وهذا اختيارُ أبي بكرٍ عبد العزيز، وأكثر أصحابنا على أن ذلك مستحب، وأنه يجوز الاقتصار على صنفٍ واحد[3]، ومتى قلنا: له أن يقتصر على صنفٍ واحد. جاز أن يدفعها إلى مسكينٍ واحد، وإذا قلنا: لا يقتصر، فلا يجزيه من كل صنفٍ أقل من ثلاثة، إلا العامل فإن ما يأخذه أجرة، فجاز أن يكون واحداً.

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن على مُريد طريق الآخرة في زكاته ثمانية وظائف:

الأولى: أن يفهم المراد من الزكاة، وهو ثلاثة أشياء:

أحدها: ابتلاء مُدَّعي محبة الله بإخراج محبوبه.

والثاني: التَّنزُّه عن صفة البُخل المُهلك.

والثالث: شُكر نِعمة المال.

الثانية: البِدار بالإخراج خَوفاً من عائقٍ، وتعجيلاً لإيصال السرور إلى الفقير مع ما في ضمن التأخير من إثم.

الثالثة: الإسرار، فإنه أبعد من الرياء والسُّمعة، وإذا كان المقصود بإخراج المال دَفع محبوب النفس فحبُّ الجاهِ أشد استيلاءً على النفس من حُب المال،

(١) في الأصل: «التعبد».
(٢) في الأصل: «إدراك».
(٣) ورد في هامش (ظ) ما نصه: «الجزء الثاني من أجزاء الشيخ المصنف».

فلا فائدة في مُخالفةِ داعي البخل وإجابة داعي الرّياء، ثم في الإظهار إذلالٌ للفقير وهَتكٌ لستر عفافه وصيانَته، وربما قال قائل: إذا أخفيتُ الزكاةَ اتُّهِمتُ في الإخراج! فالجواب: أن الآخذين تَختلفُ أحوالهم؛ فمنهم من لا يبالي إذا أُعطي بين الجماعة، ومنهم من ينقبض عن ذلك لعلوّ همَّته، فيكفي في اشتهار إخراجك إظهار ما تُعطي لمن لا يستنكف عن الإظهار، فلا ينبغي التعلل لطلب الرياسة بالإعطاء بهذه العلة، فالناقد بصير، فإن قال قائل: استحياءُ الفقير من أخذ الزكاة نوع كِبْر فلا يُلتفت إليه. فالجواب: إن الشَّرع لا يُنكر على ذِي المروّة عفافُه وتَصَوُّنه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وقال بِشْر الحافي: تُعطون بالليل وتتحدثون بالنهار!

الرابعة: أن يظهر الإخراج إما حيثُ يعلم أن في الإظهار تَرغيباً للناس في الاقتداء ثم يحرس قلبَه عن الرياء، أو لأن السائل إنما سَأل في ملأ من الناس، فهذا قد هتك بالسؤال ستر نفسه، فلا وجه لتغطية حاله.

والخامسة: أن لا يُفسد صدقته بالمنِّ والأذى، والمنّ على الفقير أن يقول له: قد أحسنتُ إليك ونَعَشْتُك(١). وأما الأذى، فمثل أن يقول له: أنتَ أبداً فقير! وقد بُليت بك! وأراحني الله منك!

واعلم أن مَنبعَ المنِّ أن يرى الإنسان نفسه محسناً إلى الفقير ومُنعماً عليه، ولو حقَّق النظر لرأى الفَقير مُحسناً إليه بقبول حق الله الذي هو طُهْرَةٌ له ولو كان على الإنسان دَينٌ لإنسانٍ فأحالَ به عَبده الذي هو مُتكفِّل برزقه، فاعتقد مُؤدي الدين أن القابض تحت منَّتهِ كان سفيهاً؛ لأن المحسن إليه هو المتكفل برزقه لا مؤدي الدين، ومن عرف ما ذكرنا في فهم وجوب الزكاة لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه إما ببذل ماله لحبِّ الله، أو لتطهير نفسه عن رَذيلةٍ، أو لشكر نعمةِ المال، فلا يبقى بَينه وبين الفقير معاملة، ولا يكونُ لطلبه شُكرَه أو مكافأته وَجهٌ.

فأما مَنبعُ الأذى فأمران:

---

(١) يقال: نَعشَ فلان فلاناً، أي: جَبره بعد فَقر.

أحدهما: كراهيته رَفع اليد عن المال، وشدة ذلك على النفس، وذلك يضيق الخلق.

والثاني: رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير بسبب حاجته أنزلُ رتبةً منه، وكلا الأمرين مَنشؤه الجهل، أما كراهةُ تسليم المال فهو حمقٌ لوجهين: أحدهما أن المنعم بالمال قد طلب منه شيئاً يسيراً، فلا وجه للبخل عليه، والثاني: أن المُضاعفة واقعةٌ بالمبذول، فالتوقف في البَذْل مع تَيقّن كثرة الربح حُمق، وأما احتقار الفقير فجهلٌ إذ الفَضل ليس بالمال ولا النَّقص بعَدمه.

السادسة: أن يَستصغر العَطية، فإن المستعظم للفعل مُعجبٌ به والعُجب مفسد، وقد قيل: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تَصغيره وتَعجيله وسَتره. ووجهُ استصغار العطية من أمرين:

أحدهما: أن يرى قِلَّة المفروض في كثير المال.

والثاني: أن يَستحيي لإعطاء أخيه ما لا بد منه، ويخجل كيف لا يعطيه ما يتبرع به.

السابعة: أن ينتقي من ماله أحَلَّه وأجوده وأحبَّه إليه.

أمَّا الحِلّ، فإنَّ الله طيِّب لا يقبل إلَّا طيّباً، وقد قال عليه الصلاةُ والسلام: «لا يقبل اللهُ صَدقةً من غُلول»[1].

وأمّا الأجود: فقد قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وينبغي أن يلاحظ في هذا أمرين:

أحدهما: حقّ الله سبحانه بالتعظيم له، فإنّه أحقّ مَن اختير له، ولو أنّه قدَّم إلى ضيفه طعاماً رديّاً لأوغَرَ صدره، وقد قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤)، والترمذي (١)، وابن ماجه (٢٧٢)، وأحمد (٥٢٠٥) وأبو يَعلى (٥٦١٤)، وابن أبي شيبة ١/ ٤ ـ ٥ من حديث ابن عمر.

والثاني: حقّ نفسه، فإنّ الذي يُقدّمه هو الذي يَلقاه في القيامة، فينبغي أن يختار الأجود من ماله لنفسه.

وأمّا أحبّه إليه؛ فقد قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]، أخبرنا عبدُ الأوّل، قال: أخبرنا الدَّاوُدي قال: أخبرنا ابن أَعْيَن قال: أخبرنا الفِرَبْري قال: أخبرنا البُخاري قال: حدثنا عبد الله بن مَسْلمة عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنسَ بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبّ أمواله إليه بَيْرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يَدخلها ويشرب من ماءٍ فيها طيب، قال أنس: فلمّا نزلت: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ قام أبو طلحة فقال: يا رسولَ الله ﷺ: إنّ الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وإن أحبَّ الأموال إليَّ بَيْرُحاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو بِرَّها وذُخْرها عند الله، فَضَعها حيثُ أراكَ الله. فقال: «بَخٍ ذاك مالٌ رابح أو رائحٌ» شَكَّ ابنُ مسلمة «وقد سمعتُ ما قلتَ وإنّي أرى لكَ أن تجعلها في الأَقْربين» قال أبو طلحة: أَفعلُ ذلك يا رسول الله، فقسَّمها أبو طلحةَ في أقاربه وبَني عمّه. أخرجاه في الصحيحين[(١)].

وفي أفراد مُسلم من حديث عمر بن الخطَّاب أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أصبتُ أرضاً لم أُصب مالاً أحبَّ إليَّ ولا أَنفسَ عندي منها، فقال: «إن شئتَ تصدَّقتَ بها» فتصدَّق بها عمر[(٢)].

قال نافع: وكان ابنُ عمر إذا اشتدَّ عُجبه بشيءٍ من ماله قَرَّبَه لربّه عزَّ وجلَّ، وكانَ رقيقه قد عَرفوا ذلك منه فربَّما شَمَّر أحدُهم فيلزم المسجدَ، فإذا رآه ابنُ عمر على تلك الحال الحسنة أعتقه، فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، والله ما بهم إلَّا أن يخدعوك، فيقول ابن عمر: فمن خَدَعنا بالله انْخَدَعنا له. قال نافع: ولقد رأيتنا ذاتَ عشيّةٍ وراح ابن عُمر على نجيبٍ[(٣)] له قد أخذه بمال، فلمّا أعجبه سَيْرُه

(١) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٦٣٢).
(٣) النجيب: الكريم من الإبل.

أناخَه مكانه ثمّ نزل عنه فقال: يا نافع انزعوا زِمامه ورَحْلَه وحَلِّلوه وأَشْعِروه[١] وأدخلوه في البُدْن[٢].

وروى سعيد بن أبي هلال أنّ ابن عمر نزل الجُحْفَة[٣] وهو شاكٍ[٤] فقال: إنّي لأشتهي حِيتاناً. فالتَمَسوا له فلم يجدوا إلّا حوتاً، فأخذته امرأتُه فصنعته ثمَّ قَرَّبته إليه، فأتى مسكينٌ، فقال ابن عمر: خُذه، فقال أهله: سُبحان الله! قد عَنَّيْتَنا، ومَعَنا زادٌ نُعطيه. فقال: إنّ عبد الله يُحبّه.

وروى نُسيرٌ أنَّ سائلاً وقف بباب الرَّبيع بن خُثَيم، فقال: أطعموه سكّراً. فقالوا: نُطعمه خبزاً أنفع له، فقال: ويحكم أطعموه سكّراً، فإنّ الربيع يُحبّ السُّكَّر.

الثامنة: أن يطلب لصدقته من تَزكُوا به الصَّدقة، وهم خصوصٌ من عمومِ الأصناف الثمانية ولهم صفات ستٌّ:

الأولى: التقوى، فليخصَّ بصدقته المتّقين، فإنه يردّ بها هِمَمَهم إلى الله تعالى إذا شَتَّتَتْها الحاجة.

وقد كان عامر بن عبد الله بن الزبير يَتحيَّن العُبَّاد وهم سجودٌ؛ أبا حازمٍ وصَفوان بن سُلَيم وسُلَيمان بن سُحيم وأشباهَهُم، فيأتيهم بالصُّرَّة فيها الدنانير والدارهم فيضعها عند نِعالهم بحيثُ يُحسُّون بها ولا يَشعرون بمكانه، فيقال له: ما يمنعك أن تُوجِّه بها إليهم؟ فيقول: أكرهُ أن يَتمعَّر وَجهُ أحدهم إذا نظر إلى رسولي أو لقيني.

وبعث ابنُ المُنْكدر شيئاً إلى صَفوان بن سُليم ثم قال لبَنيه: ما ظَنُّكم بمن فَرَّغَ صفوانَ للعبادة؟

---

(١) أشْعِروه: أعلموه لكي يُعرف أنه من الهَدْي.
(٢) البُدْن: جمع بَدَنة، وهي ما يُهدى للحرم من الإبل والبقر.
(٣) الجُحْفة: قرية على بعد اثنين وثمانين ميلاً من مكة، وهي ميقاتُ أهل الشام.
(٤) أي: مريض.

الصفة الثانية: العلم، فإنّ في إعطاء العالم إعانةً على العلم، وبالعلم ينتشر الدين وذلك تقوية للشريعة.

الثالثة: أن يكون ممّن يرى الإنعام من الله وَحده ولا يلتفت إلى الأسباب إلّا بقدر ما نُدِبَ إليه من شُكرها، فأمَّا الذي عادته المدحُ لأجل الإعطاء، فإنَّه سَيَنْدَم حين المنع.

الرابعة: أن يكون صائناً لفقره ساتراً لحاجته كاتماً للشكوى، إمّا لكونه من المعاملين بالفقر، أو لأنّه ممن كان يألف المروءة فذهبت نعمته وبقي عليه أثر التَّجمل، كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. ومثل هؤلاء لا يحصلون في شبكة طالبٍ إلَّا بعد البَحث عنهم، وسؤالِ أهل كلّ مَحلّةٍ عَمَّن هذه صفته.

الخامسة: أن يكون ذا عائلةٍ أو محبوساً بمرضٍ أو دين فهذا[1] من المُحْصَرين، والتصدُّق عليه إطلاق لحَصرِه.

السادسة: أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام الذين لا تلزمه نفقتهم، فيكون التصدّق عليه صدقةً وصلةً، وهو أولى من جميع البُعداء، وإن كانت خِلالهم أزكى، فقد روى سَلمان بن عامر عن النبي ﷺ أنّه قال: «الصَّدقة على ذي الرَّحم اثنتان: صدقةٌ وصِلَة»[2].

وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرَّحم الكاشح»[3].

وكلُّ مَن جمعَ من هذه الخلال خَلَّتين أو أكثر كان إعطاؤه أفضل على قدر ما جَمع.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «قهراً».
(٢) أخرجه الترمذي (٦٥٨)، والنسائي ٥/ ٩٢.
(٣) أخرجه أحمد (٢٣٥٣٠)، والطبراني في الكبير (٤٠١٥)، والأوسط (٣٣٠٣)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢/ ١٢ ـ ١٣ من حديث أبي أيوب الأنصاري. والكاشح: القاطع المُعرض.

الفصل الثالث
في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قَبْضِه

اعلم أنّه لا يستحقُّ الزكاةَ إلا حرٌّ مسلمٌ ليس بهاشميٍّ وفي المُطَّلبي روايتان.

ويكون في المستحقّ صفة من أوصاف الأصناف الثمانية المذكورتين في القرآن.

الصنف الأول: الفقراء، وهم الذين يَقدرون على ما يقع موقعاً من كفياتهم، وهم أشدّ حاجةً من المساكين، فيَدفع إليهم ما يسدُّ حاجتهم[١].

الصنف الثاني: المساكين، وهم الذين يقدرون على مُعظم كفايتهم فيدفع إليهم ما تَتم به الكفاية، ولا يُخرجُ المسكينَ عن المَسْكَنة دارٌ يَسكنها وأثاثها مما يحتاج إليه وثوب يستره على قدر حاله، وكتب العلم التي يحتاج إليها، فإن حكمها حكم الأثاث المحتاج إليه.

الصنف الثالث: العاملون عليها، وهم السُّعاة الذين يجمعونها، ومن شَرط الساعي أن يكون بالغاً عاقلاً أميناً، ويجوز أن يكون غَنيّاً أو عبداً أو من ذوي القُربى؛ لأنّ ما يأخذه أُجرة معلومة يُقاطِعه[٢] الإمام عَليها، وهل يجوز أن يكون كافراً؟ فيه روايتان عن أحمد.

الصنف الرابع: المؤلَّفة قلوبهم، وهم السادة المطاعون في عَشائرهم، وهم ضربان: كفارٌ ومُسلمون؛ فأما الكفّار، فَضربان: من يُرجى إسلامه، ومَن يخاف شَرُّه، فيجوز أن يتألَّفهم بمال الزكاة إن كان في ذلك مصلحة للإسلام في أشهر الروايتين، ونقل حَنْبل أنّ حكمهم انقطع.

وأمّا مُؤلّفة المسلمين، فعلى ضروب: منهم من له شَرفٌ يُرجى بإعطائه إسلامُ نَظيره، ومنهم من يُشكُّ في حُسنِ إسلامه، ويُرجى بإعطائه تَقويةُ إيمانه ومُناصَحتُه في الجهاد، ومنهم قومٌ في أطرافِ بلاد الإسلام إن أُعطوا دَفَعوا عن المسلمين،

---

(١) في (ظ): «خَلّتهم».
(٢) قاطعَ فلانٌ فلاناً على كذا وكذا من الأجر والعمل، أي: وَلّاهُ إياه بأُجرة معينة.

ومنهم قومٌ إذا أُعطوا جَبَوا الزكوات ممّن لا يعطيها إلا أن يخاف، وكلّ هؤلاء يجوز الدفع إليهم من الزكاة.

الصنف الخامس: الرِّقاب، وفيهم روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله:

إحداهما: أنهم المكاتبون فقط إذا لم يكن معهم ما يؤدّون دُفع إليهم بقدر ما يُؤدُّون، والرواية الأخرى: أنَّ الرقاب جميع الرقيق من المكاتبين وغيرهم، فيجوز أن يشتري من زكاته رقبته فيعتقها إذا كانت ممّن لا يَعتق عليه بالرَّحم، ويجوز أن يَفْتكَّ[1] بزكاته أسيراً مسلماً في يد المشركين.

الصنف السادس: الغارمون، وهم صنفان: صنف غَرِمَ لإصلاح ذات البَين، فيدفع إليه وإن كان غَنياً، وصنف غَرم لمصلحة نفسه في مُباحٍ، فيُعطى مع العجز عن قضاء الدين، فإن غَرِمَ في مَعصيةٍ لم يُعطَ إلَّا أن يتوب.

الصنف السابع: الغُزاة الذين لا حقَّ لهم في الديوان، فيدفع إليهم ما يكفيهم لغزوهم وإن كانوا أغنياء، فإن لم يغزوا استَرجع ذلك منهم.

الصنف الثامن: ابن السَّبيل، وهو المسافر المُنْقَطع به دون المُنْشِئ للسفر من بلده، فيعطى بقدر ما يوصله إلى بلاده ولا يُزاد على ذلك، فإن كان سفره في معصيةٍ لم يدفع إليه.

بيان وظائف القابض

وهي أربع:

الوظيفة الأولى: أن يَفهم أنّ الله تعالى إنَّما أوجب صرف الزكاة إليه ليكفيه مُهِمَّهُ ويجعل هُمومه هَمّاً واحداً في طلب رضى الله سُبحانه، فإنّه لما بثَّ النِّعم على الأغنياء وحَماهُ فُضولها ثم ساق إليه قَدْرَ حاجته أنعم عليه بالسلامة من مُخاطرة الأغنياء، فينبغي أن يعرف نِعْمته فيما زَواه عنه، وفيما فرض له، فليستعِن بذلك على تَقوى الله عزّ وجلّ.

(١) في الأصل: «يفك».

الوظيفة الثانية: أن يشكر المعطي ويَدعو له ويُثني عليه، وليكن ذلك بمقدارِ شُكر السَّبب، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[(١)]. وقال: «مَن أَسْدى إليكم معروفاً فكافِئوه، فإن لم تَستطيعوا، فادعوا له حتى تعلموا أنّكم قد كافَأتموه»[(٢)].

ومن تمام الشكر أن لا يَحتقر العَطاء وإن قلَّ ولا يَذمّه، ويُغَطي ما فيه من عَيب فكما أن وظيفة المُعطي الاستِصغار فَوظيفةُ المُعطَى الاستِعظام، وكلّ ذلك لا يُناقض رؤية النِّعْمة من الله عزّ وجلّ، فإن من لا يرى الواسطة واسطةً فهو جاهل، وإنَّما المنكر أن يرى الواسطةَ أصلاً. وقد قال النبي ﷺ: «ما نَفعني مالٌ كمالِ أبي بكر»[(٣)]. وقال: «إنّ أمنَّ الناسِ عَليَّ في صُحبته وماله أبو بكر»[(٤)]. وقال: «ما لأحدٍ عندنا يَدٌ إلَّا وقَد كافَيناه ما خَلا أبي بكر، فإنَّ له عندنا يداً يُكافيه الله بها يداً يومَ القيامة»[(٥)].

الوظيفة الثالثة: أن ينظر فيما يُعطاه، فإن لم يكن من حِلٍّ لم يأخذه أصلاً؛ لأن إخراج مال الغَير ليس بزكاة، وإن كان من شُبهة تَورَّع عنه إلا أن يَضيق عليه الأمر، فإنّه إذا أخرج الزكاة مَن أكثرُ كَسْبِهِ من الحرام ولم يعرف لما أخرجه مالكٌ معين كانت الفَتْوى أن يتصدَّق به، فيجوز لهذا الفَقير أ ن يأخذ قَدْرَ حاجته عند ضيق الأمر عليه وعجزه عن كمال الصافي فيه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وأحمد (٧٥٠٤)، وابن حبان (٣٤٠٧)، والطيالسي (٢٤٩١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٨) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٠٩)، والنسائي في الكبرى (٢٣٤٨)، وأحمد (٥٣٦٥)، والطيالسي (١٨٩٥)، والبيهقي في السنن ٤/ ١٩٩، والحاكم ١/ ٤١٢، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٥٦ من حديث ابن عمر.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧١٤)، وابن أبي عاصم في السنة ٢/ ٥٧٧، وابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٢٥٣، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٢١٠ من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦) و(٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، وأحمد ٣/ ١٨، وابن أبي شيبة ١٢/ ٦، وابن حبان (٦٥٩٤)، وابن سعد ٢/ ٢٢٧، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٧).

(٥) هو قطعة من الحديث ما قبل السابق.

الوظيفة الرابعة: أن يَتوقّى مواقع الرِّيبة والاشتِباه في مقدار ما يأخذ، فلا يأخذ إلّا إذا تحقَّق أنه موصوف بصفةِ الاستحقاق، فيأخذ القَدْر المباح له، فإن كان يأخذ لأجل الغُرْمِ لم يزد على مقدار الدَّين، أو لأجل الغَزو لم يَزِدْ على مقدار ما يحتاج إليه، فإن أخذ بالمَسْكَنة، فلينظر إلى أثاثِ بيته وثيابه وكُتبه هل فيها ما يُستغَنى عنه وكلُّ ذلك موكولٌ إلى اجتهاده وقدرِ حاجته وحاجةِ عياله، والورع تركُ ما يريب.

وقد اختلفَ العلماءُ في الغنَى المانع من أخذ الزكاة؛ فقال قوم: خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب. وقال آخرون: هو أن يملك عشرين ديناراً.

والصحيح: أنّ الغِنى المانع من أخذِ الزكاة أن تكونَ له كفايةٌ على الدوام إمّا من تجارةٍ أو صِناعةٍ أو أُجرة عقارٍ أو غير ذلك، فإن كان له بعض الكفاية أخذ ما يُتَمِّمُها به، وإن لم يكن له أصلاً أخذ ما يكفيه، وليكن ما يأخُذه بقدر ما يكفي سنة، وأن لا يزيد على ذلك، وإنّما اعتَبرنا السنة؛ لأنّها إذا ذَهبت جاء وقت الأخذ، فإذا أخذ لأكثر من سنة ضَيَّق على الفُقراء.

الفصل الرابع
في صدقة التَّطوُّع وفَضلها وآداب أَخذِها وإعطائِها

بيان فضيلة الصدقة من الأخبار والآثار والحثّ على الصدقة

روى البخاري ومسلم في صَحيحيهما من حديث حارثة بن وَهب الخُزاعي، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تَصدَّقوا فيوشك الرجلُ يمشي بصدقته، فيقول الذي أُعطِيها: لو جئتنا بها بالأمس قَبلتُها، وأمّا الآن فلا حاجة لي بها، فلا يجد من يقبلها»(١)، وفي أفراد البخاري من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّكم مالُ وارثِه أحبّ إليه من مالِه؟» قالوا: يا رسول الله ما منّا أحدٌ إلا ماله أحبّ إليه، قال: «فإنَّ ماله ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر»(٢). وفي أفراد مسلم من حديث

(١) أخرجه البخاري (١٤١١)، و(١٤٢٤) و(٧١٢٠)، ومسلم (١٠١١).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن في سفرٍ مع النبي ﷺ إذ جاءَ رجلٌ على راحلةٍ له، فجعل يصرفُ بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فَضْلُ ظهرٍ، فليَعُدْ به على من لا ظَهر له، ومن كان له فَضلُ زادٍ فليَعُدْ به على مَن لا زاد له» قال: فذكر من أصناف المال حتى رأينا أنَّه لا حقَّ لأحدٍ منَّا في فَضل[١].

فضيلة الصدقة

أنبأنا هِبةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر القَطيعي قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا أبو النَّضْر وحسن بن موسى قالا: حدثنا ورْقاء عن عبد الله بن دينار عن سعيد بن يسار عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن تصدَّق بعَدْلِ تمرةٍ من كسبٍ طيّب، ولا يَصعد إلى الله إلَّا طيّبٌ، فإنّ اللهَ يقبلها بيمينه، ثمَّ يُربّيها لصاحبها كما يُربّي أحدُكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل» أخرجاه في الصحيحين[٢]. وفيهما من حديث عَدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشقِّ تَمرة فليفعل»[٣]. وفي أفراد مُسلم من حديث أبي مَسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقةٍ مخطومة[٤] فقال: هذه في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: «لكَ بها يوم القيامة سَبعمائة ناقة كلُّها مَخطومة»[٥].

أخبرنا يحيى بن علي قال: أخبرنا أبو جعفر ابن المسلمة قال: أخبرنا أبو الحسين ابن أخي ميمي قال: حدَثنا البَغَوي قال: حدثنا عُقبة بن مكرم قال: حدثنا عبد الله بن عيسى الخَزَّاز عن يونس بن عبيد عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الصدقةَ لتُطفئ غضبَ الربّ، وتدفع ميتةَ السُّوء»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٤١٠) و(٧٤٣٠) ومسلم (١٠١٤)، والفَلُوّ: المُهر، والأنثى فَلوّة.

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

(٤) مخطومة: أي عليها خطامها، والخِطام: الزمام.

(٥) أخرجه مسلم (١٨٩٢).

(٦) أخرجه الترمذي (٦٦٤).

أخبرنا سعيد بن أحمد قال: أخبرنا أبو القاسم بن البُسْري قال: حدثنا المخَلِّص قال: حدثنا ابن صاعد قال: حدثنا محمّد بن زُنبور قال: حدثنا الحارث بن عمير عن حميد عن أنس عن النبي ﷺ: «تصدقوا، فإن الصَّدقة فِكاككم من النار»[١].

أخبرنا محمد بن عُبيد الله قال: أخبرنا عبد الله بن علي الدقاق قال: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: أخبرنا إسماعيل الصَّفّار قال: أخبرنا سَعْدان[٢] قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن ابن بُريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يُخرج أحدٌ شيئاً من الصَّدقة حتى يَفُكَّ عنها لَحْيَيْ سبعينَ شيطاناً»[٣].

وقال مُغيث بن سُمَي: تعبَّد راهبٌ في صَومعته ستِّين سنةً، ثم نزل يوماً ومعه رَغيف فعرضَتْ له امرأةٌ فتكشَّفت له فوقع عليها، فأدركه الموتُ على تلك الحال، وجاء سائلٌ فأعطاه الرغيفَ ومات، فجيءَ بعملِ ستّين سنة فوُضعَ في كِفَّةٍ وجيءَ بخطيئتِهِ فوُضعت في كِفّةٍ فرجَحَت بعمله حتى جيء بالرَّغيف فوُضع مع عَمله فرجح بخطيئته[٤].

وقال مالكُ بن دينار: أخذَ السَّبعُ صَبيّاً فتصدَّقت أُمّه برغيفٍ، فرمَى به السَّبعُ فَنُودِيَت: لُقمة بلُقمة[٥].

وقال بِشْر بن الحارث الحافي: الصدقة أفضل من الحَجِّ والعُمرة والجِهاد.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٨/ ٩٠، والمنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ١٢، وأورده العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٦٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ١٠٦.

(٢) هو سعدان بن نصر البزّاز.

(٣) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلّام في الأموال (٩٠٤)، وابن زنجويه في الأموال (٣٣١)، وابن خزيمة (٢٤٥٧)، وأحمد (٢٢٩٦٢)، والطبراني في الأوسط (١٠٣٨)، والحاكم ١/ ٤١٧، والبيهقي في السنن ٤/ ١٨٧، وفي الشُّعَب (٣٤٧٤)، واللَّحيان: العَظمان اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لَحيٍ.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٧٨)، وأورده السيوطي في الجامع الكبير: ٤٧٣، والهندي في الكنز (١٦١٧٣).

(٥) أخرجه بنحوه أحمد في الزهد: ١٢٣.

التصدق بما حَضر

روت أم بُجَيد[(١)] أنّها قالت: يا رسول الله، إنّ المسكين ليقوم على بابي فما أَجدُ له شيئاً أُعطيه إياه، فقال: «إن لم تَجدي له شيئاً تعطيه إيّاه إلَّا ظِلْفاً مُحرَّقاً، فادفَعيه إليه في يَده»[(٢)].

وقد تَصدَّقت عائشةُ رضي الله عنها بعنبةٍ وقالت: إنَّ فيها ذَرّاً كثيراً[(٣)].

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما نَقَصت صدقةٌ من مال»[(٤)].

بيانُ أن الباقي ما أُخرِجَ لله تعالى

روت عائشة رضي الله عنها أنّهم ذَبحوا شاةً، فقال النبي ﷺ: «ما بَقي منها؟» فقالت: ما بقي إلَّا كتفها، فقال: «بَقي كلّها غير كتفها»[(٥)].

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «يقول العبدُ: مالي مالي، وإنّما له ما أكل فأفنى، أو لبسَ فأَبْلى، أو أعطى فاقْتَنى، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»[(٦)].

ذكر أفضل أوقات الصدقة

أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر

---

(١) هي أم بُجيد الأنصارية الحارثية، واسمها حواء، وهي مشهورة بكُنيتها.
(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٥٠)، والطيالسي (١٦٥٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٣٨٦)، والطبراني في الكبير ٢٤/(٥٦٠)، وابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٢٩٩، وابن سعد ٨/ ٤٥٩، وأبو داود (١٦٦٧)، والترمذي (٦٦٥)، وابن خزيمة (٢٤٧٣)، وابن حبان (٣٣٧٣)، والحاكم ١/ ٤١٧، والبيهقي ٤/ ١٧٧.
(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢١٠٦)، وأبو عبيد في الأموال (٩١٠).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٤٧٢).
(٦) أخرجه مسلم (٢٩٥٩).

قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا جرير بن عبد الحميد عن عُمارة بن القَعقاع عن أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدَّق وأنت صَحيحٌ شَحيح، تأمل البَقاء وتَخاف الفقر، ولا تُمهِلْ حتى إذا بلغت الحُلقوم قلتَ: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا ألا وقد كان لفلان»[1] أخرجاه في الصحيحين.

فصل

فأما الكلام في إخفاء الصدقة وإظهارها، فقد سبق في ذكر الآداب الباطنة في الزَّكاة[2]، وقد اختلفوا أيّما أفضل للفقير: أن يأخذ من الزكاة أو من الصدقة؟ فقال قوم: من الصدقة، وعلَّلوا بأنّ الأخذَ من الزكاة مزاحمةٌ للمساكين وتَضييقٌ عليهم، وربَّما لم تكمل صفة الاستحقاق في حقِّ الآخذ، والأمرُ في الصدقة أَوسع. وقال قومٌ: بل من الزكاة، وعلَّلوا بأنه إعانة على أداء الواجب، ولأنَّها لا مِنَّةَ فيها للمخلوقين، ولأنّها أخذٌ بالحاجة، والإنسانُ يعلم حاجةَ نفسه، فأمَّا الصدقة، فإنها أخذٌ بالدِّين؛ لأنّ الغالب في حق المتصدّق أنّه إنّما يُعطي مَن يعتقدُ فيه خيراً، ولأنَّ مُوافقة المساكين أدخل في الذُلِّ والمَسْكنة، وأبعد من الكِبر.

والصوابُ أن يقال: إنّ الأَحوال تختلف باختلاف أحوال الشخص وما يحضره من النِّية، فإن كان في ريبٍ من اتِّصافه بصفةِ الاستحقاق كان ترك الزكاةِ في حقِّهِ أولى، وإن عَلم أنه مستحقٌ قطعاً ثم خُيِّر بين الزكاة والصَّدقة، فإن كان المتصدقُ لا يُخرج ذلك المال إلا أن يأخذه هذا الفقير، فليأخذه لتُصرفَ الزكاةُ إلى مستحقِّيها ويكثر الخير، وإن كان المال مُعرَّضاً للصدقة ولم يكن في أخذ ا لزكاة تَضييق على المساكين، فهو مُخيَّر، والأمر فيهما متقارب، وأخذ الزكاة أشدّ في كُره النَّفسِ وإذلالها في أغلب الأحوال.

آخر كتاب الزكاة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢)(٩٣).
(٢) في الصفحة (١٦٦) وما بعدها.

كتاب أَسْرار الصوم ومُهمَّاته

الحمدُ لله الذي فتحَ للمؤمنين باب القُرب إلى الجنّة، فجعل الصلاةَ لهم صِلةً والصومَ جُنَّة، وأعاد بالرياضة النَّفسَ الأمارةَ مُطمئنَّة، فقويت بالمِنَّةِ عليهم في المُجاهدة المنَّة، وأبعدَ الكافرين فسلَّط عليهم الجِنَّة، فمنعوهم الهُدَى فقالوا: قلوبنا في أكِنَّة.

أحمدُه على التوفيق لسَنَنِ السُّنَّة، وأُصلِّي على رسوله محمدٍ أشرف راكبٍ جاذَبَ الأعِنَّة، وعلى آله وأصحابه أُولي الفُهوم المُرْجَحِنَّة، وأُسلِّم تَسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن للصوم خَصيصةً ليست لغيره، وهو إضافته إلى الله عزّ وجلّ من بين العبادات حين قال: «الصوم لي»[1]، والمقصود من هذا الكتاب ينحصر في أربعة فصول:

الفَصل الأول: في بيان فضل الصوم، والثاني في الواجبات والسنن الظاهرة، واللوازم بإفساده، والثالث: في أسرار الصوم وشروطه الباطنة، والرابع في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه.

الفصل الأول
في بيان فضل الصوم

أخبرنا هِبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال:

---

(١) سيأتي بتمامه في الصفحة التالية.

حدثنا وَكيع قال: حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ عملِ ابن آدم يُضاعَف الحَسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف إلى ما شاء الله، يقول الله عزّ وجلّ: إلّا الصوم فإنَّه لي وأنا أَجزي به يَدَعُ طعامَه وشَهوته من أجلي، وللصائم فَرحتان: فرحةٌ عند فِطْره وفَرحة عند لقاء ربِّه، ولَخُلُوفُ فيهِ أطيب عند الله من ريحِ المسك، الصوم جُنَّة الصومُ جُنَّة»[١].

قال الإمام أحمد: وحدَّثنا أحمد بن عبد الملك قال: حدثنا حماد بن زَيد عن أبي حازم عن سَهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ للجنَّة باباً يُقال له: الريَّان، يقال يوم القيامة: أين الصائمون هَلُمُّوا إلى الريَّان، فإذا دخل آخِرهم أُغلق ذلك الباب» وفي لفظ: «فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم»[٢].

قال أحمد: وحدثنا يعقوب قال: حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب: حدثني نافع ابن أبي أَنَس أنّ أباه حَدَّثه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخلَ رمضانُ فُتحت أبوابُ الرحمة، وغُلِّقَت أبوابُ جهنم، وسُلْسِلَت الشَّياطين»[٣] وفي لفظ: «فُتحت أبواب الجنَّة»[٤] وفي لفظ: «أبواب السماء»[٥]. هذه الأحاديث الثلاثة متفق عليها.

وفي حديث أبي أُمامةَ قال: قلتُ: يا رسول الله، مُرني بعملٍ آخُذه عنك ينفعني الله به. قال: «عليكَ بالصوم فإنه لا مِثْل له» قال: فكان أبو أُمامة وامرأته وخادِمه لا يُلقَون إلا صياماً وإذا رأوا ناراً أو دخاناً بالنهار في منزلهم عرفوا أنَّهم اعتراهُم ضَيف[٦].

أخبرنا عبد الوهاب الأنماطي قال: حدثنا حمد بن أحمد الحداد قال: حدثنا

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)(١٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٦٩)، ومسلم (١١٥٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (١٠٧٩)(٢).
(٤) هو عند مسلم (١٠٧٩)(١).
(٥) هو عند البخاري (١٨٩٩).
(٦) أخرجه أحمد (٢٢١٤٠)، والطبراني في الكبير (٧٤٦٥)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٧٥.

أحمد بن عبد الله الأصبَهاني قال: حدثنا حبيب بن الحسن قال: حدثنا عمر بن حفص السَّدوسي قال: حدثنا عاصم بن علي قال: حدثنا مهدي بن ميمون عن واصل مولى أبي عُيَيْنة عن لَقيط عن أبي بُردَة عن أبي موسى قال: خَرجنا غازِين في البَحر فبينما نحنُ والريح لنا طيبة والشِّراع لنا مَرفوع سمعنا مُنادياً يُنادي: يا أهل السفينة قِفوا أُخبركم. حتى والى بين سَبعةِ أصوات، قال أبو موسى: فقمتُ على صَدر السفينة فقلتُ: مَن أنتَ؟ ومن أين أنت؟ أَوَ ماترى أين نحن وهل نَستطيعُ وقوفاً؟! قال: فأجابني الصوت: ألا أخبركم بقضاءٍ قَضاه الله على نفسه؟ قال: قلتُ: بلى أخبرنا. قال: فإنَّ الله قَضى على نفسه أنه من عَطَّش نفسَه لله في يومٍ حارٍّ كان حقاً على الله أن يرويه يَوم القيامة. قال: فكان أبو موسى يَتوخَّى ذلك اليوم الحارَّ الشديد الحرِّ الذي يكاد يَنسلخ فيه الإنسان فيصومه(١).

واعلم أنَّ مِن أعظم فضائل الصوم إضافته إلى الله سبحانه حين قال: «الصومُ لي» وكفَى بهذه الإضافة شرفاً، فإنَّ البيتَ إنما شُرِّف بإضافته إليه في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦] وإنما فضله لمعنيين: أحدهما: أنه سِرٌّ وعملٌ بالباطن لا يراه الخلق ولا يدخله الرياء. والثاني: أنه قَهرٌ لعدو الله لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تَقْوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشَّهواتِ مُخْصِبة فالشياطين يَترددون إلى ذلك المرعى.

الفصل الثاني
في الواجبات واللوازم بالإفطار والسنن الظاهرة

أما الواجبات الظاهرة، فستة(٢):

الأول: مراقبة أول شهرِ رمضان، وذلك لرؤية الهلال، ويحصل ذلك بقولِ عَدْلٍ واحدٍ، ولا يُقبل في سائر الشهور إلَّا عَدْلان، فإن حال دونَ مَطلعِه غَيمٌ أو قَتَرٌ ففيه ثلاث روايات عن الإمام أحمد رحمه الله؛ إحداهن: يجبُ صومه بنيَّةِ رمضان.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٠.
(٢) بعدها في الأصل: «أشياء».

والثانية: لا يجبُ صومه، والثالثة: الناسُ تَبَعٌ للإمام، فإن صامَ صاموا، فإن رآه أهل بلدٍ لزمَ جميع البلاد الصَّوم.

الثاني: النِّية، وهي واجبةٌ في الليل لكلّ يوم من رمضان، وعن الإمام أحمد: تُجزئ نيةٌ واحدةٌ لجميع الشهر.

الثالث: الإمساكُ عن إيصال شيءٍ إلى الجوف، فمن أكل أو شَربَ، أو اسْتَعَطَ[١]، أو اكتحل بما يَصل إلى جوفه أو قَطر في أُذنه فَوصل إلى دماغه، أو داوى المأمومة[٢] والجائفة[٣] بما يصل إلى جوفه، أو احتَقَن أو حَجم أو احتَجم، أو استَقاء أو استَمنى ذاكراً للصوم عالماً بالتحريم بَطَل صومه، وعليه أنْ يُمسك بقية يومه ويَقضي. وإن فعل ذلك ناسياً أو مكرهاً أو جاهلاً التحريمَ لم يَبْطُل صومُه.

فأما ما يصلُ بغيرِ قصدٍ مثل الغُبار والذُّباب، فإنه لا يَضر، وكذلك إذا وصل إلى جوفه ماءُ المضمضةِ والاستِنشاق بغير اختياره، إلَّا أن يكون قَد زاد على الثلاث فيهما أو بالغَ[٤] في الاستِنشاق، فإنه يُفطر في أحدِ الوَجهين.

الرابع: الإمساك عن الجماع فإنه يُفسدُ صومَ الرجلِ والمرأةِ، سواءٌ كانا ذاكِرَين أو ناسِيَيْن، مُخْتارَين أو مُكرَهَين.

فأما الكفارة؛ فإنها تلزمُ الرجلَ مع زوال العُذرِ، وهل يلزمه الإكراه أو النِّسيان؟ على روايتين.

وأما المرأة فلا تَلزمها الكفارة مع العُذر، وهل تَلزمها مع المُطاوَعةِ؟ على روايتين.

وقد نقل ابنُ القاسم عن الإمام أحمد أنه قال: كلُّ أمرٍ غُلبَ عليه الصائم،

---

(١) اسْتَعَطَ: وضع دواءً في أنفه.

(٢) المأمومة: الطعنة تصل أمَّ الرأس وهي الدماغ.

(٣) الجائفة: الطعنة التي تصل إلى الجوف.

(٤) تحرفت في الأصل إلى: «تابع».

فليس عليه قَضاء ولا غيره، وهذا يدل على إسقاط القَضاء والكفارة مع الإكراه والنِّسْيان.

فإن طَلع الفجرُ وهو مُجامعٌ فاستدامَ فعليه القضاءُ والكفارة، وإن نَزع ففيه وجهان: أحدهما عليه القضاء والكفارة. والثاني: لا قَضاء ولا كفارة.

فإن باشر في الصوم دون الفَرجِ، أو قَبَّل أو لمسَ أو كَرَّرَ النَّظر فأَمْنَى، فعليه القَضاء، وفي الكفارة روايتان، وإن لمس فأَمْذَى؛ فالقَضاء وَحْده.

والكفارة: عِتقُ رقبةٍ مؤمنةٍ [(١)]سليمةٍ عن العيوب[(١)]، فإن لم يجد، فصيام شهرين مُتتابعين، فإن لم يَستطع أَطعمَ ستين مسكيناً، فإن لم يَجد سقطت عنه.

وعن الإمام أحمد أنّ الكفَّارة على التَّخْيير بين العِتْقِ والصيامِ والإطعام.

الخامس: الإمساك عن الاستِمناء بجماعٍ أو بغير جماعٍ، فإن فَكَّر فأنزلَ هل يفسدُ صومُه؟ فيه وَجهان.

السادس: الإمساك عن إخراج القَيْءِ، وقد ذكرنا أنّه إذا استقاءَ ذاكراً للصوم عالماً بالتحريم بَطَلَ صومه، فأما إذا غَلبهُ القَيءُ فإنه لا يُفطر، وهل يَفسدُ صومه إذا ابتلع النُّخامةَ؟ فيه روايتان. فإن جمعَ ريقَه في فَمه ثم ابتلعه، فهل يُفطر؟ فيه وَجهان.

ذِكر اللَّوازم بالإفطار

وهي أربعة: القَضاءُ، والكَفَّارةُ، والفِدْيةُ، وإمساكُ بقيَّة النهار تَشبُّهاً[(٢)] بالصائمين.

أما القَضاء؛ فوجوبه عامٌّ[(٣)] على كلِّ مُسلم مُكلَّفٍ تركَ الصوم بعُذرٍ أو غَير عُذر.

(١ـ١) سقط من (ظ).

(٢) في الأصل: «تشبيهاً».

(٣) ليست في الأصل.

فأما الكَفَّارةُ فتَجِبُ بالجِماع، وهل تجب بغَيره؟ قد سبق ذكره هذا.

وأما الفِدْية فتجب على الحامل والمُرضع إذا أَفْطَرتا خوفاً على وَلديهما مع القَضاء.

وهي: إطعام مسكين ومقدارها مُدٌّ مِنْ بُر عن كل يَوم أو نصفُ صاعٍ من تَمر أو شعيرٍ.

فأما العاجز عن الصوم للكِبَرِ أو للمرض الذي لا يُرجى بُرْؤُه، فإنه يُطعم عن كل يومٍ مسكيناً، ولا يجب عليه الصوم.

وأما إمساكُ بقية النهار تَشبُّهاً بالصائمين فيجب على من عَصى بالفِطر، فإن أسلم الكافر، أو بَلغَ الصبي، أو أفاقَ المجنون في أثناء النهار لزِمهم الإمساكُ والقَضاء في إحدى الروايتين، وفي الأخرى لا يَلزمهم. فإن طَهُرَت الحائض والنُّفساء، وقَدِمَ المُسافر، وقامت البَيِّنة برُؤية الهلال في أثناء النهار لزمهم القضاء روايةً واحدةً، وفي وجوب الإمساك روايتان.

ذكر السُّنَن

وهنَّ تِسع إحداهن: التَّسحُّر، ففي الصَّحيحين من حديث أنسٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «تَسحَّروا فإنَّ في السُّحورِ بَركة»[١]. وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «السَّحور أَكلُهُ بركَة، فلا تَدعوه ولو أنْ يَجرَع أحدُكم جرعةً من ماء، فإنَّ الله عزَّ وجل وملائكته يصلّون على المُتَسحِّرين»[٢].

الثانية: تأخير السُّحور، ففي الصَّحيحين من حديث زيد بن ثابت قال: تَسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قُمنا إلى الصلاة. قيل له: كم كانَ قَدْرُ ما بينهما؟ قال: قَدر خمسين آية[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).
(٢) أخرجه أحمد (١١٠٨٦) و(١١٣٩٦).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥)، ومسلم (١٠٩٧).

الثالثة: تَعجيلُ الفِطر، ففي الصحيحين من حديث سَهل بن سَعد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزالُ الناس بخيرٍ ما عَجَّلوا الفِطر»(١) وأخبرنا ابنُ الحصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا الوليد ـ يعني ابن مُسلم ـ قال: حدثنا الأوزاعي، قال: حدثني قُرَّةُ عن الزُّهري عن أبي سَلَمةَ عن أبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «يقولُ الله عز وجل: إن أحبَّ عبادي إليَّ أعجلُهُم فِطْراً»(٢).

الرابعة: الإفطار على التَّمر، أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التميمي، قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا عاصم عن حَفصة عن الرَّباب عن سَلمان بن عامر الضَّبي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أفطرَ أحدُكم فليُفطر على تَمر، فإنْ لم يَجد، فليُفطر على ماء، فإنه له طَهور»(٣). وفي حديث أنس قال: كان رسول الله ﷺ يُفطر على رُطَبات، فإن لم يكن رُطبات فتَمرات، فإن لم تكن تَمرات حَسَى حَسَواتٍ من ماء(٤). وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: إذا صامَ الإنسان زاغَ بصره، فإذا أفطرَ على حلاوةٍ عادَ بَصره.

الخامسة: تَركُ السِّواك بعد الزَّوال، فإنه مكروه في إحدى الروايتين عن الإمام أحمد.

السادسة: الجودُ في رمضان، وفِعلُ المعروف، وكَثرة الصدقة اقتداءً برسولِ الله ﷺ، فإن في الصحيحين من حديث ابن عباسٍ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ أَجودَ بالخَير من الرِّيح المرسَلَة، وكان أجودَ ما يكون في رَمضان(٥). ويظهر في

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٧٢٤١)، والترمذي (٧٠٠)، وابن حبان (٣٥٠٧) و(٣٥٢٨)، والبغوي (١٧٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢٢٥) و(١٦٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (٣٣٢٤) و(٣٣٢٥)، وأبو داود (٢٣٥٥)، والترمذي (٦٥٨) و(٦٨٥) وابن ماجه (١٦٩٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٣٥٦)، والترمذي (٦٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (٦) و(١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٨).

هذا من المعنى أن الرسولَ ﷺ وافق ربه عز وجل في الكَرَم، فإن آثاره تَظهر في رمضان أكثر من غيره لكثرةِ العِتق وعموم الغُفران.

السابعة: دراسة القُرآن، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: كان جبريلُ يأتي رسولَ الله ﷺ في رمضان فيُدارِسُه القرآن(١).

وقد كان الشافعي رحمه الله يَختم القرآن كل يوم خَتمةً، فإذا جاء رمضان ختم ستين ختمة(٢).

الثامنة: الاعتكاف، لا سيما في العشر الأواخر، ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ يعتكف العشرَ الأواخر من رمضان حتى تَوفّاه الله عز وجل(٣).

ولا يصح اعتكاف الرجل إلا في مسجد تقام فيه الجماعة، ويصح من النساء في جميع المساجد. ويصح اعتكاف بعض يوم، ويستحب للمعتكف أن يتشاغل بما يُقربه إلى الله عز وجل، وإذا صح قَصده في قراءة القرآن وتَدريس العلم كان ذلك مستحباً.

التاسعة: زيادة الاجتهاد في العشر الأواخر، ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان يُحيي الليل، ويُوقِظُ أَهله، ويَشُدُّ المِئزَر(٤). وفي لفظٍ أخرجه مسلم قالت: كان رسولُ الله يجتهد في العَشر ما لا يجتهد في غَيره(٥).

وقد ذكر العلماء في مَعنى شد المِئْزر وَجهين: أَحدهما: الإعراضُ عن النِّساء، والثاني: الجِدّ والتَّشمير في العمل. وقالوا: وكان سبب اجتهاده عليه الصلاة

---

(١) هو الحديث السابق.
(٢) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي ٢/ ١٥٩.
(٣) أخرجه البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧٢).
(٤) أخرجه البخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).
(٥) أخرجه مسلم (١١٧٥).

والسلام في هذا العَشر طلب ليلةِ القَدْر، والأولى طلبها في ليالي الوتر، وأخصها ليلة سَبعٍ وعشرين، ففي أفراد مُسلم من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن كان مُتَحرياً فليتحرها ليلةَ سبعٍ وعشرين»(١). وقد كان أُبيّ بن كَعب يَحلفُ أنها ليلة سبعٍ وعشرين(٢). وقد قال أبو قِلابة: ليلة القَدر تَنتقل في العشر الأواخر، فعلى هذا ينبغي لطالبها أن لا يَفْتُرَ في ليالي العشر خُصوصاً في الأفراد منها. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قام ليلةَ القدرِ إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تَقدَّم من ذَنبه»(٣). وقالت عائشة: قلتُ: يا رسول الله، إن وافَقتُ ليلةَ القَدر فبِمَ أدعو؟ قال: «قولي: اللهمَّ إنك عَفُوٌّ تُحب العَفو فاعفُ عنّي»(٤).

الفصل الثالث
في أسرار الصوم وشُروطه الباطنة

للصوم ثلاث مراتب: صومُ العموم، وصومُ الخُصوص، وصوم خُصوصِ الخُصوص.

فأما صوم العُموم؛ فهو كَفُّ البَطنِ والفَرج عن قَضاء الشَّهوة.

وأما صوم الخُصوص؛ فكفُّ البَطن والفَرجِ واللِّسان واليَد والرِّجل والسَّمع والبَصَر وسائر الجوارح عن الآثام.

وأما صوم خُصوصِ الخُصوص؛ فصوم القلب عن الهِمَم الدَّنِية والأفكار المُبعِدَة عن الله تعالى، وكَفِّه عما سوى الله تعالى بالكُلِّيَّةِ، وهذا الصوم له شروحٌ تأتي في غير هذا الموضع، وصوم العموم قد أشرنا إليه آنفاً، فلنذكر آداب صوم الخُصوص، ويجمعها ثلاثة أشياء؛ شيئان ظاهران وشيءٌ باطن.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٧٦٢) (٢٢١).
(٣) أخرجه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠).
(٤) أخرجه أحمد (٢٥٤٩٥) والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠).

فأما الظاهران: **فأحدهما**: غَضّ البصر، وحِفظ اللّسان عمّا يُؤذي من كلامٍ محرم أو مكروهٍ أو ما لا يُفيد، وحراسة باقي الجوارح، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الصيامُ جُنَّة، فإذا كان أحدكم يوماً صائماً، فلا يَجهل ولا يَرفُث، فإن امْرؤٌ قاتله أو شَتَمه، فليقل: إني صائم»[١]. وقد تأول العلماء قوله: «فليقل: إني صائم» تأويلين: أحدهما: أن يقول ذلك بلسانه، والثاني: أن يقول ذلك في نفسه، فكأنه يقول: كيفَ أُجيب وأنا صائم؟

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به والجهل، فليس لله حاجة في أَنْ يدعَ طعامه وشَرابه»[٢]. أخبرنا محمد بن أبي طاهر قال: أخبرنا الجَوهري قال: أخبرنا علي بن محمد بن كَيْسان قال: أخبرنا يوسف القاضي قال: حدثنا أبو الربيع قال: حدثنا إسماعيل بن جَعفر قال: حدثنا عمرو بن أبي عمرو، عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «رُبَّ صائمٍ حَظُّه من صِيامه الجوعُ والعطش، ورُبَّ قائمٍ حَظُّه من قيامه السَّهر»[٣].

والثاني: أن لا يَمتلئ من الطعام في الليل بل يأكل بمقدارٍ، فإنه «ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بطنٍ»[٤]، ومتى شبعَ في أول الليل لم يَنتفع بنفسه في باقِيه، وإذا شَبعَ وقتَ السَّحر لم ينتفع بنفسه إلى قريبٍ من الظهر؛ لأن ذلك يُورثه الكَسَل والفُتور، ثم يفوت المقصود من الصيام؛ لأن المراد من الصائم أن يَذوق طَعم الجوع ويكون تاركاً لما يُشتَهى، فإنَّ الآدمي فوق رُتبةِ البهائم لمكان قُوته على كسر شَهوته، ودون رُتبة الملائكة لاستيلاء الشَّهوات عليه، فإن غَلَبتهُ شَهواتُه كانت

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٣) و(٦٠٥٧).
(٣) أخرجه أحمد (٨٨٥٦)، والدارمي (٢٧٢٠)، وابن ماجه (١٦٩٠)، وابن خزيمة (١٩٩٧)، والبيهقي في السنن ٤/ ٢٧٠، وأبو يعلى (٦٥٥١)، والحاكم ١/ ٤٣١.
(٤) أخرجه أحمد (١٧١٨٦)، والترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وابن حبان (٥٢٣٦)، والبيهقي في الشعب (٥٦٤٩)، والنسائي في الكبرى (٦٧٦٩) من حديث المقدام بن معدي كَرِب.

البهائم أَعْذَر إذْ لا قُوةَ لها تَرُدُّ، وله قُوةٌ، وإن غَلَبها علا على الملائكة، إذْ لا صَادَّ لهم ولهُ صَوادّ.

وأما الأمرُ الباطن؛ فاضطرابُ القلب عند الإفطار بين الخَوف على صومه هل قُبل، وبين رَجائه أن يُقْبل.

الفصل الرابع
في التطوع بالصيام وترتيب الأَوراد فيه

اعلم أن استِحباب الصوم يَتأكد في الأيام الفاضِلة، وفَواضل الأيام بَعضها يوجد في كل سنة، وبعضها في كل شهر، وبعضها في كل أسبوع.

فأما ما يوجد في السنة بعد أيام رَمضان، فمنه أيامٌ، ومنه أشهر، فأما الأَيام، فستةُ أيامٍ من شَوال، ويوم عَرفة، ويوم عاشوراء، والعشرُ الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من المحرم.

فأما الستة من شوال فقد رَوى مسلم في أفراده من حديث أبي أيوب عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ صام رمضان وأتْبعه سِتّاً من شوال كان كَصِيام الدَّهر»[١].

وأما يوم عرفة، فقد روى مسلم في أفراده من حديث أبي قَتادة عن النبي ﷺ أنه سُئلَ عن صَوم يوم عَرفة، فقال: «كفارة سَنَتين»[٢]، وفي لفظٍ: «يُكفِّر السنةَ الماضية والبَاقية»[٣].

وأما يوم عاشوراء، ففي أفراده من حديث أبي قتادة أيضاً أنَّ النبي ﷺ سُئِلَ عن صوم عاشوراء، فقال: «كفارة سَنة»[٤] وفي لفظ: «يُكفِّر السَّنَةَ الماضية»[٥].

(١) أخرجه مسلم (١١٦٤).
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢) (١٩٦).
(٣) أخرجه مسلم (١١٦٢) (١٩٧).
(٤) هو جزء من الحديث قبل السابق.
(٥) تقدم في التعليق رقم (٣).

وأما العشر الأول من ذي الحِجَّة، ففي أفراد البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ أيامٍ العملُ الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام» يعني أيام العشر، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلاً خرجَ بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء»[١]. أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: حدثنا محمد بن علي بن أبي عثمان قال: حدثنا ابن رِزْقَويه قال: حدثنا حَمزة بن محمد قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا محمد بن رُفَيع القَيسي قال: حدثنا مَسعود بن واصل قال: حدثنا النَّهاسُ بنُ قَهْم عن قَتادة عن سَعيد بن المسيّب عن أبي هريرة ذكر أن النبي ﷺ قال: «ما من أيامِ الدُّنيا أيامٌ أحب إلى الله عز وجل أن يُتَعَبَّد له فيها من أيام العشر، يَعدل صيام كل يوم منها بصيامِ سنة، وقيامُ كل ليلةٍ منها كقيام ليلةِ القَدر»[٢].

وأما العشر الأول من المُحرم، فقد قال أبو عثمان النَّهدي: كانوا يفضلون ثلاث عشرات: العشر الأول من ذي الحجة، والعشر الأول من المحرم، والعشر الأخير من رمضان.

وأما الشُّهور، فشَعبان، والأشهر الحُرُم، فأما شعبان ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: ما كان رسولُ الله ﷺ يصوم من شهرٍ من السَّنة أكثر من صيامه من شَعبان كان يصومه كلَّه[٣].

وأمّا الأشهر الحرم، فهي رَجب، وذو القَعدة، وذو الحِجة، والمُحرم، وقد كان جماعة من السَّلف يصومونها لمكان تَعظيمها، منهم الحسن البصري.

فأما رجب فمن صامه لأنه شهر حرام فحَسن، غير أنه يُكره له أن يَصومه كله إلا أن يصله بشَعبان ورمضان، وقد رُويت في صومه أحاديث ليس فيها ما يَثبت.

---

(١) ليس هو من أفراد البخاري كما ذكر المصنف، وإنما أخرجه أحمد (١٩٦٨)، والترمذي (٧٥٧)، وابن ماجه (١٧٢٧)، وابن حبان (٣٢٤)، وأبو داود (٢٤٣٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٧٢٨)، والخطيب البغدادي في تاريخه ١١/٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٠)، ومسلم (١١٥٦) (١٧٦).

وأما ذو القَعدة فليس فيه إلا أنه شهرٌ مُحرَم وكفى بذلك فَضيلة.

وأما ذو الحجة، فقد جمع مع كونه حراماً أنه شهر الحَج، وقد ذكرنا فضائل عَشْرة.

وأما المُحرم، ففي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصيام بعد رمضان شَهر الله المحرم»(١). وفي لفظ: «الذي تَدعونه المُحرم»(٢).

وأما ما يتكرر في الشهور؛ فأول الأشهر وأوسطها وآخرها، فمن صام أول يوم من الشهر، وأوسط يوم منه، وآخره فقد أَحسن، غير أن الأفضل أن يصوم الثلاثة في أيام البِيض(٣)، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة قال: أوصاني خَليلي بثلاث: صيامِ ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أُوتر قَبل أن أنام(٤). وفي أفراد مسلم من حديث أبي قَتادة عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ من كل شَهرٍ، ورَمضانُ إلى رَمضان هذا صيام الدَّهر كُلّه»(٥). وفي أفراده من حديث عائشة أنها سُئِلت: أكانَ رسولُ الله ﷺ يصومُ من كل شهرٍ ثلاثة أيام؟ قالت: نعم. قيل لها: مِن أيّ أيام الشهر كان يصوم؟ قالت: لم يكن يُبالي مِن أيِّ أيام الشهر يَصوم(٦). إلا أنه قد رَوى أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال له: «إذا صُمتَ ثلاثة أيامٍ من الشهر، فَصُم ثلاثَ عشرةَ وأربعَ عشرةَ وخَمسَ عشرة»(٧).

وأما المتكرر في كل أُسبوع؛ فيَوم الإثنين والخَميس، وفي أفراد مسلم من

(١) أخرجه مسلم (١١٦٣).
(٢) هذا اللفظ عند ابن ماجه (١٧٤٢).
(٣) الأيام البيض هي ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة من الشهر، وسميت بالبيض لبياض ليلها كله بالقمر.
(٤) أخرجه البخاري (١٩٨١)، ومسلم (٧٢١).
(٥) أخرجه مسلم (١١٦٢)(١٩٦).
(٦) أخرجه مسلم (١١٦٠).
(٧) أخرجه أحمد (٢١٤٣٧)، والترمذي (٧٦١)، والنسائي ٤/ ٢٢٣.

حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن صَوم يوم الاثنين، فقال: فيه وُلدتُ، وفيه أُنزِلَ عَليَّ[١].

وفي أفرادِه أيضاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أبواب الجنة تُفتح يوم الاثنين والخَميس»[٢]. وفي حديث أُسامةَ بن زَيد قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يَصومُ الأيام يَسرُدُ حتى نَقول: لا يُفطِر، ويُفطر الأيام حتى لا يكاد يصوم، إلا يَومين من الجمعة إن كانا في صيامه ولا صامَهما، فقلت: يا رسول الله، إنك تصومُ لا تَكاد تُفطر، وتُفطر حتى لا تكاد تصوم إلا يومين إن دخلا في صيامك[٣] وإلا صُمتَهُما! قال: «أي يومين؟» قلت: يوم الإثنين ويوم الخَميس قال: «ذانِكَ يَومان تُعرَضُ فيهما الأعمال على رب العالمين، فأحب أن يُعرضَ عملي وأنا صائم»[٤].

وهذه الأيام الفاضِلة التي ذكرناها يُستَحب صيامها، وفِعلُ ما يمكن من الطاعات فيها ليتضاعف بِبَركتها الأجْر.

وأما صومُ بَعضِ الأيام وإفطار بعضها، ففي أَفرادِ مسلم من حديث أبي قَتادة أن عُمر بن الخطاب سألَ رسولَ الله ﷺ فقال: كيفَ بمن يصوم يومين ويفطر يوماً؟ قال: «ويُطيقُ ذلك أحدٌ؟» قال: كيفَ بمن يصوم يَوماً ويُفطر يَومين؟ قال[٥]: «ودِدتُ أني أطيق ذلك» قال: فكيفَ بمن يصوم يوماً ويفطر يوماً؟ قال: «ذلك صوم داود عليه السلام»[٦] وفي الصحيحين من حديثِ عبد الله بن عَمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «أَحبّ الصيامِ إلى الله عز وجل صيامُ داود، كان يصومُ يوماً ويُفطر يوماً»[٧].

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦٢)(١٩٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٥).
(٣) في الأصل: «صومك».
(٤) أخرجه أحمد (٢١٧٥٣)، وعبد الرزاق (٧٩١٧)، وابن أبي شيبة ٣/ ١٠٣ والنسائي ٤/ ٢٠١، والبيهقي في الشُّعَب (٣٨٢١)، والضياء في المختارة (١٣١٩) و(١٣٢٠).
(٥) سقط من (ظ).
(٦) أخرجه مسلم (١١٦٢).
(٧) أخرجه البخاري (١٩٧٦)، ومسلم (١١٥٩)(١٨٩).

وفي لفظٍ متفق عليه: «لا صَومَ فوق صَوم داود»[١].

واعلم أن صومَ يومٍ وإفطار يومٍ يجمع ثلاثةَ معانٍ: الأول[٢]: أنَّ النفس تُعطَى يومَ الفِطر حَظَّها ويُسْتَوفَى مِنها يومَ الصوم تَعبُّدها، وذلك جَمعٌ ما بين مالَها وما عليها، وهو العدل.

والثاني: أن يوم الأكل شكرٌ، ويومَ الصوم صَبرٌ، والإيمان نِصفان شُكرٌ وصَبر، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أجوعُ يَوماً وأَشبع يوماً، فإذا جُوِّعتُ تَضرَّعتُ إلى رَبِّي، وإذا شَبعتُ حَمدْتُه[٣]»[٤].

والثالث: أنه أَشقُّ على النَّفس في المجاهدة؛ لأنها كلما أَنِسَتْ بحالةٍ نُقِلَت عنها.

فأما صوم الدَّهر؛ ففي أفراد مسلم من حديث أبي قتادة أنَّ عُمر سأَلَ رسول الله ﷺ فقال: كيفَ بمن يصوم الدهر كلَّه؟ فقال: «لا صامَ ولا أفطر، أو لم يَصُمْ ولم يُفطر»[٥]. وهذا محمولٌ على مَن سَرد الصومَ في الأيام المنهي عن صيامها، فأما إذا أفطر يَومي العيدين وأيام منى، فلا بأس بذلك، فقد أخبرنا محمد بن أبي طاهر قال: أخبرنا الجوهري قال: أخبرنا إبراهيم بن أحمد الخِرَقي قال: أخبرنا الفِرْيابي قال: حدثنا إسحاق بن راهَويه قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا سُفيان عن عُبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: ما ماتَ عُمر حتى سَردَ الصوم[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٠)، ومسلم (١١٥٩)(١٩١).
(٢) في الأصل: «أحدها».
(٣) سقط من (ظ).
(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٩٠)، والترمذي بإثر الحديث (٢٣٤٧)، والبيهقي في الشُّعَب (١٤٦٧)، والطبراني في الكبير (٧٨٣٥)، وأبو نعيم في الدلائل (٥٤٠) وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٣٣ من حديث أبي أمامة.
(٥) تقدم تخريجه في الصحفة السابقة.
(٦) أورده المصنف في مناقب عمر: ١٦٩، وابن كثير في البداية والنهاية ١٠/ ١٨٥، وعبد الحي اللكنوي في إقامة الحجة: ٦١.

قال الفِرْيابي: وحدثنا قُتيبة قال: حدثنا حَمَّاد بن زيد عن هشام بن عُروة أن أباه كان يَسردُ الصوم. وكانت عائشة تَسرُدُ[١]، وقد رَوى أنس بن مالك قال: سردَ أبو طلحة الصوم بعد رسول الله ﷺ أربعين عاماً[٢].

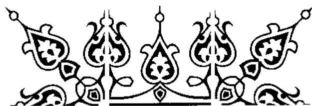
واعلم أن من رُزِقَ فِطْنةً[٣] عَلِمَ مقصودَ الصوم فَحمَّل نَفسه قَدْرَ ما لا يُعجزه عمّا هو أفضل منه، فقد كان ابن مَسعود قليلَ الصوم، وكان يقول: إذا صُمتُ ضَعُفْتُ عن الصلاة، وأنا أختارُ الصلاةَ على الصوم.

وكان آخرُ إذا صام ضَعُفَ عن تلاوة القرآن، فيكثر الفِطْرَ ليقدر على التِّلاوة، وكل إنسان أعلم بحاله وما يصلح.

ومما يُكره من الصيام إفرادُ يوم الجُمعة بالصوم، ويوم السبت، ويُكره الوِصال.

ولا يجوز لمن عليه صيام فرضٍ أن يتطوّع بالصوم في إحدى الروايتين عن الإمام أحمد.

آخر كتاب الصوم



(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٧٥.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٩٨١)، وابن عساكر في تاريخه ١٩/ ٤٢٠.
(٣) في (ظ): «فضيلة».

كتاب أسرار الحَج ومُهمّاته

الحمدُ لله الذي دَلَّ بالصُّوَر على المَعنى، وبالرَّمز[١] على ما يُرْمَزُ إليه ويُعْنَى، بَنَى بَيتاً لنفسه وقد جلَّ عن سُكون وسُكْنى، ثم دَعى عَبده إلى زيارتِه، وقال له: احضُرْنا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥] أحمدُه حمداً حسناً يوجب نيلَ الحُسنى، وأُصلي على رسولِه محمدٍ الذي نالَ مرتبةَ قابَ قوسينِ أو أَدْنى، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا حِرزاً للدين وحِصْناً، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد؛ فإن الله سُبحانه جعلَ الحجَّ من بين أركان الإسلام ومَبانِيه عبادةَ العُمر، وأنزل على رسولِه وقَد حَجَّ ووقفَ بعرفةَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وروى أبو أُمامةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن لم يَحبِسه مَرضٌ، أو حاجةٌ ظاهرةٌ، أو سُلطانٌ جائر، ولم يحج فَليَمت إن شاءَ يَهودياً أو نَصرانياً»[٢].

وإذ قد عُرِفَ قدرُ هذه العبادة، فنحن نذكر أركانها وسُننها وآدابها وأسرارها، وجملةُ ذلك ينكشف بتوفيق الله سبحانه في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في فضائلها، وفضائل مكة والبيت، وجملة أركانها وشرائط وجوبها.

الباث الثاني: في أعمالها الظاهرة على الترتيب من مَبدأ السَّفر إلى الرجوع.

الباب الثالث: في آدابها الدَّقيقة، وأسرارها الخَفيَّة، وأعمالها الباطنة.

---

(١) في (ظ): «بالأمر».

(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٧٥.

الباب الأول

وفيه فصلان:

الفصل الأول
في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة
وشد الرحال إلى المشاهد

فضيلة الحج: قال عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨]. قال مُجاهد: هي منافع الدنيا والآخرة[1]. وقال ابنُ مسعود والحَسن في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]: إنه طريق مكة يَمنعهم من الحج[2].

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا سُفيان قال: حدثني سُمَي عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجُّ المبرورُ ليسَ له جزاءٌ إلا الجنَّة، والعُمرتانِ ـ أو العمرة إلى العمرة ـ تكفِّر ما بينهما»[3]. أخرنا محمد بن محمد الورَّاق، قال: أخبرنا أبو بكر بن سِياووش قال: أخبرنا أبو حامد الإسْفراييني، قال: حدثنا إبراهيم بن عَبْدَاك، قال: حدثنا الحسن بن سُفيان قال: حدثنا العباس بن الوليد النَّرسِي قال: حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة عن منصور بن المُعتَمِر عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من حَجَّ هذا البيتَ، فلم يَرفُث ولم يَفسُق، فرجع كان كما وَلَدتهُ أُمه»[4]. أخبرنا أبو

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٥٢١، وزاد المسير للمصنف ٥/ ٤٢٥.

(٢) زاد المسير ٣/ ١٧٦.

(٣) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (١٥٢١) و(١٨١٩) و(١٨٢٠)، ومسلم (١٣٥٠).

سَعد الزَّوْزني قال: أخبرنا محمد بن الحسين القاضي، قال: أخبرنا عثمان بن عمرو بن المنْتاب، قال: حدثنا ابنُ صاعد، قال: حدثنا الحسين بن الحسن، قال: حدثنا الهَيثم بن جميل قال: حدثنا إبراهيم بن سعد عن الزهري عن سَعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: سُئِل رسولُ الله ﷺ: أيّ الأعمالِ أفضل؟ قال: «إيمانٌ بالله عز وجل» ثم قيل: ماذا؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله عز وجل» قيل: ثم ماذا؟ قال: «ثم الحجُّ المبرور»[١]. هذه الأحاديث الثلاثة مخرجةٌ في الصحيحين. وقد رَوى ابنُ مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما يَنفِيان الفَقْرَ والذُّنوب، كما يَنْفي الكِيرُ خَبَثَ الحديدِ والفضةِ، وما لحجٍ مَبرورٍ جزاءٌ إلا الجنّة»[٢]. وروى ابنُ عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوةُ الحاجِ لا تُرد حتى يَرجع»[٣]. وروى عليٌّ رضيَ الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن أراد دُنيا وآخرة، فليؤُمَّ هذا البيت، ما أتاهُ عبدٌ يسأَل الله دُنيا إلا أَعطاه منها، ولا آخرةَ إلا ذَخَرَ له منها»[٤]. وروى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن جاءَ هذا البيتَ حاجّاً، فطافَ به أُسبوعاً[٥] ثم أتى مَقام إبراهيم، فصلَّى عنده ركعتين، ثم أتى زمزم فشرب من مائها، أخرجه الله تعالى من ذُنوبه كيوم ولدته أمه»[٦]. وروى بُريدة عن النبي ﷺ أنه قال: «النَّفقةُ في الحَج تُضاعف كالنَّفقة في سبيل الله عز وجل الدِّرهَم بسبعِ مِئة»[٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦) و(١٥١٩)، ومسلم (٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٦٩)، والترمذي (٨١٠)، والنسائي ٥/ ١١٥، وفي الكبرى (٣٦١٠)، وابن حبان (٣٦٩٣)، والطبراني في الكبير (١٠٤٠٦)، وأبو يَعلى (٤٩٧٦)، و(٥٢٣٦)، وابن خزيمة (٢٥١٢).

(٣) أخرجه البيهقي في الشُّعَب (١١٢٥)، والفاكهي في أخبار مكة ١/ ٤٢٠.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٨٨٣٤)، والفاكهي في أخبار مكة ١/ ٤٣٢ عن سعيد بن جبير.

(٥) أي: سبعة أشواط.

(٦) أورده القاري في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ١/ ١٨٨، والعجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣٤٠ وقال: رواه الواحدي في تفسيره والجندي في فضائل مكة.

(٧) أخرجه البخاري تعليقاً في تاريخه الكبير ٣/ ٦٣، وابن أبي عاصم في الجهاد (١٧٦) وأحمد (٢٣٠٠٠)، والبيهقي في السنن ٤/ ٣٣٢، وفي الشعب (٤١٢٤) و(٤١٢٥).

ذكر فَضيلة حَج الماشي

أخبرنا أبو مَنصور محمد بن عبد الملك وعبد الرحمن بن محمد قالا: أخبرنا عبد الصَّمد بن المأمون قال: حدثنا الدَّارقُطْني قال: حدثنا ابنُ صاعِد قال: حدثنا علي بن سَعيد بن مسروق قال: حدثنا عيسى بن سَوادة عن إسماعيل بن أبي خالد عن زَاذان قال: مرِضَ ابنُ عباس مرضاً شديداً، فدعى وَلَده فجمعهم، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من حَجَّ من مكةَ ماشياً حتى يرجع إلى مكةَ، كتب اللهُ له بكل خطوةٍ سبعمائة حَسنة من حسناتِ الحَرَم» قيل له: وما حَسنات الحرم؟ قال: «بكل حَسنةٍ مائة ألف حَسنة»[1]. ورَوت عائشةُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الملائكةَ لتُصافح رُكبان[2] الحاج وتَعْتنقُ المُشاة»[3]. وقال مجاهد: حَجَّ إبراهيم وإسماعيل ماشِيين[4]. وقد حجَّ الحسنُ بن علي بن أبي طالب خمس عشرة حجةً ماشياً، وإن النجائب لتُقادُ معه[5].

فَضل البيت

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦].

قال أبو هريرة: كانَت الكَعبةُ حَشْفةً على الماء، عليها مَلكان يُسبِّحان الليلَ والنَّهار، قبل الأرض بألفَي سَنة[6].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٤/ ٣٣١ و١٠/ ٧٨، وفي الشُّعب (٣٩٨١)، والطبراني في الكبير (١٢٦٠٦)، وابن خزيمة (٢٧٩١)، والحاكم ١/ ٤٦٠.

(٢) في (ظ): «ركاب».

(٣) أخرجه البيهقي في الشُّعَب [(٤٠٩٩)، والسيوطي في جمع الجوامع (٥٩٣٩)، وفي الحبائك في أخبار الملائك (٦٧٦).

(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٦/ ٥١٨، وابن أبي شيبة ٤/ ٩٨، والأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٤.

(٥) زاد المسير ٥/ ٤٢٤.

(٦) الحشفة: صخرة رخوةٌ حولها سَهل من الأرض. التاج (حشف)، ويُروى بالخاء بدل الحاء، وبالخاء والعين بدل الحاء والفاء. النهاية ٢/ ٣٤ ـ ٣٥.

فضل الحجر الأَسود

أخبرنا الكَرخي قال: أخبرني الغُورجي قال: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا قُتيبةُ قال: حدثنا جَرير عن عَطاء بن السائب عن سَعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجرُ الأسود من الجنَّة وهو أشدُّ بياضاً من اللَّبن، فسَوَّدتهُ خَطايا بني آدم»(١) وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيُبعثنَّ هذا الحجر يومَ القيامة له عينان يُبصر بهما، ولسان ينطق به يَشهد على من استَلمهُ بحق»(٢).

ذِكر الركن اليماني

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت قال: أخبرنا أبو القاسم بن أبي عثمان قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الوَراق قال: حدثنا عَمرو بن إسحاق قال: حدثنا سَهل بن شَاذويه قال: حدثنا عُمر بن محمد بن الحُسين قال: حدثنا أبي قال: حدثنا عيسى بن موسى عن محمد بن الفضل بن عَطية، عن كُرْز(٣) بن وَبرة عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «على الركن اليماني ملكٌ موكَّلٌ به منذ خلق اللهُ السماوات والأرض، فإذا مَررتم به قولوا: رَبَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حَسنةً، وقنا عذاب النّار، فإنه يقول: آمين آمين»(٤). وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الركن اليماني وكل الله به سبعين مَلكاً، فمن قال: أسألكَ العفو والعافية، ربنا آتنا في الدنيا حَسنةً، وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذابَ النار. قالوا: آمين»(٥).

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٧٧)، وابن خزيمة (٢٧٣٣)، والفاكهي في أخبار مكة (٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٦٤٣) و(٢٧٩٦)، والبيهقي ٥/ ٧٥، والدارمي (١٨٣٩)، والطبراني في الكبير (١٢٤٧٩).

(٣) في الأصل: «كُريز».

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٦٨، والفاكهي في أخبار مكة (٢٤) و(١٥٤).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٩٥٧)، والبيهقي ٥/ ١٢٨، والفاكهي في أخبار مكة (١٥٢).

فضائل الطَّواف

أخبرنا عبد الله بن محمد الحاكم ويحيى بن علي بن المُدِير قالا: أخبرنا ابن النَّقّور قال: أخبرنا ابن حَبابة قال: حدثنا البَغَوي قال: حدثنا هُدبَة قال: حدثنا حماد بن الجَعد قال: حدثنا قَتادة قال: سمعتُ عطاء بن أبي رباح: أن مَولًى لعبد الله بن عَمرو حدَّثه عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن طافَ بالبيت سَبعاً، وصلَّى خلف المقام ركعتين، فهو عَدْلُ مُحَرَّر»[١]. أخبرنا يحيى بن علي قال: أخبرنا جابر بن ياسين وعبد العزيز بن علي وعبد الباقي بن محمد قالوا: أخبرنا المخلص قال: حدثنا ابنُ صاعد قال: حدثنا عبد الله بن عِمران قال: حدثنا يوسف ـ وهو ابنُ السَّفر ـ عن الأوزاعي، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قالَ رسول الله ﷺ: «إن لله عز وجل في كل يومٍ وليلةٍ عشرين ومئة رحمة تَنزِلُ على هذا البيت، فَستّون للطائفين، وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين»[٢]. أخبرنا عبد الله بن علي قال: أخبرنا ابن العلَّاف قال: حدثنا عبد الملك بن بِشْران قال: حدثنا أبو بكر الآجُرّي قال: حدثنا محمد بن اللَّيث الجَوهري قال: حدثنا سفيان بن وكيع قال: حدثنا محمد بن فَضل عن عطاء بن السائب عن عبد ا لله بن عُبيد بن عُمير عن ابن عمر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن طافَ بالبيتِ لم يرفَع قَدَماً، ولم يَضع أُخرى إلا كتب اللهُ عز وجل له بها حسنة وحَطَّ عنه بها خَطيئة، ورفعَ له بها درجةً»، وسمعته يقول: «مَن أحصى أسبوعاً كان كعِتق رَقبة»[٣]. أخبرنا سَعيد بن أحمد قال: أخبرنا أبو القاسم بن البُسْري قال: أخبرنا المخلِّص قال: أخبرنا

(١) أخرجه المصنف في العلل المتناهية ٢/ ٨١، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١٤٧٥)، وابن عساكر في تاريخه ٣٤/ ٣٨٨، والمصنف في العلل المتناهية ٢/ ٨٢، وقال: هذا حديث لا يصح، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (١٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٩٥٩)، وابن خزيمة (٢٧٥٣)، وأحمد (٤٤٦٢)، وأبو يَعلى (٥٦٨٧) و(٥٦٨٨) و(٥٦٨٩)، والبيهقي ٥/ ١١٠، والبغوي في شرح السنة (١٩١٦)، والحاكم ١/ ٤٨٩.

يَحيى بن صاعد قال: حدثنا سُفيان بن وكيع قال: حدثنا يحيى بن يَمان عن شَريك عن أبي إسحاق عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ طاف بالبيتِ خَمسين مرةً خرج من ذنوبه كيوم ولَدَتهُ أُمه»(١).

ذكر فَضل مكَّة

أخبرنا عبد الوهاب ويحيى بن علي قالا: أخبرنا أبو محمد الصَّرِيفيني قال: أخبرنا أبو بكر بن عبدان قال: حدثنا عبد الواحد بن المهتدي بالله قال: حدثنا أيوب بن سُليمان الصُّغدي قال: حدثنا أبو اليَمان قال: حدثنا شُعيب عن الزهري قال: أخبرني أبو سَلمة أن عبد الله بن عدي بن الحَمراء أخبره أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول وهو واقفٌ بالحَزْوَرَة من سوق مكة: «والله إنكِ لخير أرضِ الله، وأحب أرض الله إلى الله تعالى، ولولا أني أُخرِجتُ منك ما خَرَجت»(٢).

ذكر قبول الحاج

أخبرنا أبو منصور القَزاز قال: أخبرنا أبو بكر الخَطيب قال: أخبرنا مكي بن علي قال: حدثنا أبو إسحاق المُزكّي قال: سمعتُ أبا الحسن البَلخي يقول: سمعتُ عبد الرحمن بن عبد الباقي يقول: سمعتُ بعض مشايخنا يقول: قال علي بن الموفَّق(٣): لما تمَّ لي سِتون حِجةً خرجتُ من الطواف، وجلستُ بحِذاء الميزاب، وجعلت أفكر لا أدري أيّ شيءٍ حالي عند الله عز وجل، وقد كثُر تَردُّدي إلى هذا المكان، فغلبتني عَيني، وكأنَّ قائلاً يقول لي: يا عَلي، أتَدعوا إلى بَيتك إلا مَن تُحبه؟ قال: فانتبهتُ وقد سُرِّيَ عني ما كنتُ فيه(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٦٦٦)، وقال: هذا حديث غريب، والمصنف في العلل ٢/ ٨٣.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٥١٠)، وأحمد (١٨٧١٥) و(١٨٧١٦)، والترمذي (٣٩٢٥)، والنسائي في الكبرى (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وابن حبان (٣٧٠٨)، والحاكم ٣/ ٧.

(٣) هو علي بن الموفق، أبو الحسن البغدادي العابد الزاهد، توفي سنة ٢٦٥هـ. تاريخ بغداد ١٢/ ١١٠، حلية الأولياء ١٠/ ٣١٢، صفة الصفوة ٢/ ٣٨٦.

(٤) تاريخ بغداد ١٢/ ١١١.

وبَلغنا من طريقٍ آخر عن علي بن الموفَّق قال: حججتُ في بعضِ السِّنين، فنمتُ ليلةَ عَرفَة في مسجد الخِيف، فرأيتُ في المنام كأنَّ ملكين قد نَزلا من السماء، فنادى أحدُهما صاحبَه: يا عبد الله. فقال: لبيكَ يا عبدَ الله، قال: تَدري كم حَجَّ بيتَ ربنا في هذه السنة؟ قال: لا أدري. قال: حجَّ بيت ربنا ستّ مئة ألف، فتَدري كم قُبِل منهم؟ قال: لا. قال: قُبلَ منهم ستة أنفُس. قال: ثم ارتَفعَا في الهواء، فَغابا عنّي، فانتبهتُ فَزِعاً، فاغتممتُ غمّا شديداً، وأهمني أمري، وقلت: إذا قُبلَ ستة أنفس فأينَ أكونُ أنا في ستة أنفس؟ فلما أَفَضْتُ من عَرفةَ وبِتُّ عند المَشعر الحرام جَعلتُ أفكر في كثرة الخَلق وفي قلةِ من قُبلَ منهم، فحملني النوم، فإذا الشَّخصان قد نزلا على هَيئتهما، فنادى أَحدُهما صاحبه، فأعاد ذلك الكلام بعينه، ثم قال: أَفتدري ماذا حكم ربنا في هذه الليلة؟ قال: لا. قال: فإنه وَهَبَ لكلِّ واحدٍ من السِّتةِ مِئَةَ ألفٍ. فانتبهتُ وبي من السُّرور ما يَجِلُّ عن الوَصف.

ذكر المُجاورة بمكة

اختلفَ العلماء في المجاورة بمكة، فكرهها أبو حَنيفة، ولم يكرهها الإمامُ أحمد بن حنبل في خلقٍ كثير من العلماء، بل استَحبُّوها، فمن كرهها، فلأربعةِ أَوْجه:

أحدها: خوف المَلل.

والثاني: قِلَّة الاحترام لمداومة الأُنْس بالمكان.

والثالث: يهيج الشوق بالمفارقة فَتَنشأ داعِيةُ العَود، فإن تعلُّقَ القلبِ بالكعبة والإنسان في بيته خير من تَعلُّق القلب بالبيت والإنسان عند الكعبة.

والرابع: خَوف ارتكاب الذنوب هناك، فإن الخَطأ ثَمَّ ليس كالخطأ في غيره؛ لأن المعصية هناك تتَضاعف عقوبتها، ولا تَظُنَنَّ أن كراهة المكان تُناقض فَضلَ البُقعة؛ لأن علَّة هذه الكراهة ضَعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع، وأما من استَحبَّهما، فإنه نظر إلى فَضل المكان ومُضاعفة ا لحَسَنات.

فضل المدينة

أخبرنا أبو القاسم هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التَّميمي قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي، قال: حدثنا أنس بن عياض قال: حدثني يَزيد(١) بن خُصَيفة عن عَبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَة عن عَطاء بن يَسار عن السائب بن خَلّاد، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أخافَ أهلَ المدينة ظُلماً أخافَهُ اللهُ، وعليه لعنةُ الله والملائِكةِ والناسِ أجمعين، لا يَقبلُ اللهُ منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»(٢). أخبرنا علي بن عبيد الله قال: أخبرنا ابن النَّقّور قال: حدثنا ابن مَرْدَك قال: حدثنا الحسن بن محمد قال: حدثنا محمد بن عُزَيْز قال: حدثني سلامة عن عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني أنس بن مالك أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «اللهمَّ اجعل بالمدينة ضِعفَي ما جعلتَ بمكةَ من البركة(٣)». وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حَرَّم مكةَ ودعى لأهلها، وإني حَرَّمت المدينة كما حَرَّم إبراهيمُ مكة، وإني دعوتُ في صاعها ومُدِّها بمثلَيْ ما دَعى به إبراهيمُ لأهل مكةَ»(٤). وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «على أَنْقابِ المدينة ملائكةٌ، لا يَدخلها الطاعون ولا الدَّجال»(٥). وفي أفراد البخاري من حديث سَعد بن أبي وَقّاص عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَكيدُ أهلَ المدينةِ أحدٌ إلا انْماعَ كما يَنْماعُ المِلح في الماء»(٦). وفي أفراد مسلم من حديث سَعدٍ أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَثْبُتُ أحدٌ على لأوائِها وجهدها إلا كُنْتُ لهُ شَفيعاً أو شهيداً يوم

---

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «زيد».

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥٥٧) و(١٦٥٥٩) و(١٦٥٦٢) و(١٦٥٦٥)، والطبراني في الكبير (٦٦٣٢) و(٦٦٣٣) و(٦٦٣٥) و(٦٦٣٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩)، وأحمد (١٢٤٥٢)، وأبو يَعلى (٣٥٧٨) و(٣٦٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٩)، ومسلم (١٣٦٠) (٤٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (١٨٨٠) و(٧١٣٣)، ومسلم (١٣٧٩).

(٦) أخرجه البخاري (١٨٧٧).

القيامة»[١]. وفي حديث مَعْقِل بن يَسار قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المدينةُ مُهاجَري، فيها مَضْجَعي، ومنها مَبْعثي، حَقيقٌ على أُمتي حِفظُ جيراني ما اجتَنبوا الكبائر، مَنْ حَفِظَهم كنتُ له شهيداً أو شَفيعاً يومَ القيامة، ومن لم يَحفظهم سُقِي من طينَةِ الخَبال» قيل للمزني وهو معقل: ما طِينةُ الخبال؟ قال: عُصارة أَهلِ النار[٢]. وفي حديث ابنِ عُمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن استطاعَ أنْ يَموتَ بالمدينةِ فليَمُتْ، فإنّ من ماتَ بالمدينةِ شفعتُ له يومَ القيامة»[٣]. وفي حديث ثابتِ بن قَيس بن شَمَّاس عن النبي ﷺ أنه قال: «غُبارُ المدينةِ شِفاءٌ من الجُذام»[٤].

فضيلة مَسجد رسولِ الله ﷺ

أخبرنا عبد الأَول بن عيسى، قال: أخبرنا محمد بن عبد العزيز، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شُريح قال: حدثنا يَحيى بن صاعد قال: حدثنا هارون بن موسى قال: حدثنا عمر بن أبي بكر المُؤمّلي عن القاسم بن عبد الله عن كثير المُزَني عن نافع عن ابن عُمر قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «صلاةٌ في مَسجدي هذا كألفِ صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام». أخرجه مسلم في أفرادِه، وقال فيه: «أفضلُ من ألفِ صلاةٍ»[٥]. أخبرنا عبد الوهاب ويَحيى بن علي قالا: أخبرنا أبو محمد الصَّريفيني قال: حدثنا أبو بكر بن عبدان قال: حدثنا عبد الواحد بن المهتدي بالله قال: حدثنا أيوب بن سُليمان الصُّغدي قال: حدثنا أبو اليَمان قال: حدثنا العَطَّاف بن خالد عن عبد الله بن عثمان بن الأرقم بن أبي الأرقم عن أبيه عن جَدِّه قال: قلتُ لرسول الله ﷺ: إني أريد أَن أَخرجَ إلى بَيت المَقدِس، قال: «فلمَ؟»

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٦٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٧٠).

(٣) أخرجه أحمد (٥٤٣٧) و(٥٨١٨)، والترمذي (٣٩١٧)، وابن ماجه (٣١١٢)، وابن حبان (٣٧٤١)، والبيهقي في الشُّعَب (٤١٨٥) و(٤١٨٦).

(٤) ذكره الفيروزآبادي في المغانم المطابة ١/ ٣٨٥، والسيوطي في الحُجَج المبينة: ٨٥، والمتقي الهندي في الكنز (٣٤٨٢٨) ونسبه لأبي نُعيم في الطب.

(٥) أخرجه مسلم (١٣٩٥).

قلتُ: لصلاةٍ فيه قال: «الصلاةُ ها هنا أفضلُ من الصَّلاة هُناك أَلف مَرّة»(١).

فضل الرَّوْضة

روى البُخاري ومُسلم في الصحيحين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما بَينَ بَيْتي ومِنْبَري رَوضَةٌ من رِياضِ الجَنَّة»(٢).

فضل صلاة الجمعة وصيام رمضان بالمدينة

أخبرنا السِّجْزي، قال: أخبرنا محمد بن عبد العزيز، قال: أخبرنا ابن أبي شُريح، قال: حدثنا ابن صاعد، قال: حدثنا هارون بن موسى، قال: حدثنا عمر بن أبي بكر المؤمّلي، عن القاسم بن عبد الله، عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلاةُ الجمعة بالمدينة، كصيام ألفِ شهرٍ فيما سواها»(٣).

ويتبع هذين الموضعين في الفَضْل بَيتُ المَقْدِس، وقد قال ﷺ: «لا تُشَدُّ الرحالُ إلّا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومَسجدي هذا، والمسجدُ الأَقْصى»(٤).

ثم يتبع هذه المواضع الثغور التي يُرابَطُ فيها.

الفصل الثاني
في شروط وجوب الحج وأركانه وواجباته ومحظوراته

الحج يشتمل على خمسة أشياء: شَرائِط، وأركان، وواجبات، ومَسْنونات، وهَيئات.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠٠٩/ ١)، والضياء في المختارة (١٣٠٠)، و(١٣٠١) و(١٣٠٢)، والطبراني في الكبير (٩٠٧)، والحاكم ٣/ ٥٠٤، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٨٨) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٧)، وابن كثير في البداية والنهاية ٨/ ٣٢٦.
(٢) أخرجه البخاري (١١٩٦) و(١٨٨٨) و(٦٥٨٨) و(٧٣٣٥)، ومسلم (١٣٩١).
(٣) أخرجه المصنف في العلل المتناهية ٢/ ٨٧، وقال: هذا حديث لا يصح.
(٤) أخرجه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧)(٥١١) من حديث أبي هريرة.

فأمّا الشرائط: فقد اشتُرِطَ في محلِّ الوجوب وجودُ خَمس شرائط: البُلوغُ، والعَقلُ، والحُريةُ، والإسلامُ، والزَّاد والراحلة[١].

وأما شرائط الأَداء على العموم، فثلاثة:

[الأول]: تخلية الطريق، وهو أن لا يكون مانع يمنع ما يُخاف منه على النَّفس والمال.

والثاني: أن يُمكِنَ الأداء، وهو أن يكون الوقت مُتَّسِعاً للفِعل أو المسافَرةِ إن كان على مَسافةٍ.

والثالث: أن يكون ممن يَسْتَمسِكُ على الراحلة.

واشتُرِط في حَقِّ الضَّرير أن يكون له قائِدٌ يُلائمه، واشتُرِطَ في حق المرأة المَحْرَمُ، والمَحْرَمُ: الزَّوجُ أَو مَنْ لا يحل له نِكاحُها من المُناسِبين.

واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في المَحْرَم، هل هو من شَرائطِ الوجوب، أو من شَرائط الأداء؟ على روايتين[٢].

وأما الأركان: ففيها ثلاثة روايات عن الإمام أحمد، إحداهن: أنها أربعةٌ: الإحرام، والوُقوف، وطَواف الزِّيارة، والسَّعي.

والرواية الثانية: أنها ثلاثةٌ، والسَّعي سُنة، إذا تركه فلا شيء عليه، وقال أصحابنا: عليه بتركه دَم؛ لأنهم رأوه واجباً.

والرواية الثالثة: أنها رُكنان: الوقوفُ، والطَّواف. فإنه قال فيمن وقف وزار البيت: عليه دمٌ، وحجته صَحيحة.

واما الواجبات: فسبعةٌ: الإحرامُ من الميقات، والوقوف بعَرفة إلى الليل، والمبيت بمزدلفة إلى بَعد نصف الليل، والمبيت بمِنى في ليالي منى، إلا لأهل السِّقاية والرِّعاء، والرَّمي، والحِلاقُ، وطوافُ الوَداع.

---

(١) الزاد والراحلة شرط واحد وهو الاستطاعة.
(٢) يُنظر الكافي لابن قدامة ٢/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

وأما المسنونات: فهي [عشرة]: الاغتسالُ، وصَلاةُ الرَّكعتين عند عقد الإحرام، وطَواف القُدوم، والجَمع بين الليل والنهار في عَرفات ما لم يكن بدأ بالوقوف نهاراً؛ لأنه مخيَّر قبل الدخول في الوقوف بين الجمع بين الزَّمانين وبين إفراد الليل، فإن وقف بالنهار وجب عليه أن يقف جُزءاً من الليل، فإن أَخلَّ بذلك وجب عليه دَم.

والتلبيةُ، وركعتا الطواف، واستلام الركنين، والتَّقبيل، والمَبيتُ بمنى ليلة عرفة إن كان خارجاً إلى عرفات من مكة إلى غَداةِ عرفة، وجميعُ الأذكار في الحج.

وأما الهيئات [فعشرة]: رَفع الصوت بالتَّلبية للرجال، والدخول إلى مكة من أعلاها، وإلى المسجد الحرام من باب بني شَيبة، والاضطباع في الطواف والسَّعي، والإسراع في موضع الإسراع، والمشي في موضع المشي، والعلو على الصفا والمروة، حتى يشاهد البيت، وشدة السَّعي عند مُحَسِّر، والوقوف على المشعر الحرام، وعندَ الجَمَرات.

فمن ترك رُكْناً لم يتم نُسكه إلّا به، ومن ترك واجباً فعليه دَم، ومن تركَ سُنَّةً أو هَيْئةً، فلا شيء عليه.

فإذا تكاملت الشُّروط وَجب البِدارُ إلى الحَجِّ، وهو قول عامَّة العُلماء، خلافاً للشافعي رحمه الله.

ولا خلاف في جواز التَّمتُّع والإفراد والقِران.

والتمتع: أن يحرم بالعُمرة في أشهر الحج من الميقات، ويدخل مكة، ويطوف ويسعى، ويفعل أفعالَ العُمرة، ويَتحلَّل، فإذا كان يوم التَّروية أحرمَ بالحج من مكة، ثم يخرج إلى عرفة، ويفعل أفعال الحج.

والإفراد: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج من الميقات، ويدخل مكة، ويطوف ويسعى، ويفعل أفعال الحج، فإذا تَحلَّل خرج إلى التنعيم، فأحرم بالعمرة، وفعل أفعالها.

والقِرانُ: أن يَنوي الحجَّ والعمرةَ من الميقات، ويطوف لهما.

والكلُّ جائز، لكن الخلاف في الأفضل، فمذهبُ أحمد أن التمتع أفضل، وعند أبي حنيفة أن القران أفضل، وعند مالكٍ والشافعي أن الإفراد أفضل.

فأما محظورات الإحرام فتسعة:

لُبسُ المَخِيطِ، وتَغطيةُ الرَّأس، وحَلقُ الشَّعر، وتَقليمُ الأظفار، وشَمُّ الطِّيب، وقَتلُ الصَّيد، والوَطءُ في الفَرْج، ودونَ الفَرْج، والمُباشرة لشهوة.

فإن لبس ناسياً، أو تَطيَّبَ ناسياً، فعليه الفِدية، وكذلك لو لبس بعضَ يومٍ.

ولا يجوز له تغطيةُ رأسِه، وهل يجوز له تغطية وجهه؟ فيه روايتان.

ولا يجوز له تَظليلُ المحمل روايةً واحدةً، فإن ظَلَّلَ، ففي وجوب الفِدية روايتان. فإن حمل على رأسه شيئاً، أو نصبَ حياله ثوباً يقيه الشَّمس والبرد، أو جلسَ في خيمةٍ أو ظل شجرة، أو تحتَ سقفٍ، فلا شيء عليه.

فإن طيَّنَ رأسَه أو عَصَبه لوجعٍ أو جُرحٍ، فجعل عليه قرطاساً فيه دواءٌ أو خِرقةٌ لزمه الفِدْيَةُ.

ويجوز للمحرم أن يَتَّشِحَ بالرِّداء والقَميص، ولا يَعقده، ويتَّزرُ بالإزار ويعقده، فإن طرحَ على كتفيه القَباء[1] فَعليه الفِدية، وإن لم يدخل يَديه في الكُمَّين[2].

فإن طيّب المحرمُ بعضَ عُضوٍ، وجبت الفِدية.

ولا يجوزُ له لبس ثوبٍ مُبخَّرٍ، وإذا ادَّهنَ بالشِّيرَجِ[3] والزَّيت، ففي وُجوب الفِدية روايتان.

ويحرم عليه شَمُّ الأَدْهان المطيِّبة، وأكل ما فيه طِيبٌ يظهر ريحه أو طعمه في

(١) القَباء ثوب يُلبَس فوق الثياب.
(٢) في (ظ): «كُميه».
(٣) الشّيرج: زيت السمسم.

فمه، وشمُّ المِسك والكافور والعَنْبر والزَّعفران والوَرْس[١]. وهَل تلزمه الفدية بشم شيء من الرياحين؟ فيه روايتان.

ويجوز له شَمُّ السَّفَرجَل والتُّفاح والبِطّيخ والأُتْرُجّ والشِّيح والقَيْصوم.

فإن مَسَّ من الطِّيب ما يَعلق بيده [٢]كالغالية[٣] وماء الورد متعمِّداً فعليه الفدية، وإن مَسَّ ما لا يعلق بيده[٢]، كقِطَعِ الكافور والعنبر فلا فدية. فإن شَمَّ ذلك ففيه الفِديةُ.

فإن حَلَقَ ثلاث شَعرات فَعليه دَمٌ، فإن حَلق ما دون الثَّلاث ففي كل شَعرةٍ مُدٌّ من طَعام، وعن الإمام أحمد: قَبضةٌ من طعام.

وإذا غسل المحرم رأسَه بالسِّدرِ والخَطْمِي، فهل تَلزمه الفِدية؟ فيه روايتان.

فإن قلّم ثلاثةَ أظفارٍ لزمه دَم.

ولا يَصح أن يعقد المحرم عَقد نكاحٍ لا لنفسه ولا لغيره، وهل تصح مُراجعته؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد.

ويكره له الخطبة والشهادة على النِّكاح، ويَحرمُ عليه المباشرة في الفَرْج ودونه لشهوةٍ، والاستمناءُ، فإن فعلَ وجبت عليه الكفّارة. فإن جامع قبل الوُقوف، وجبت عليه بَدَنَة، فإن جامع بعد الوقوف وقَبل التَّحلُّلِ الأوَّل؛ فَسَدَ حَجُّهُ وَعليه بَدَنةٌ، فإن وَطِئَ بعد التَّحلل الأول[٤]، لم يَفسُد حَجُّه، وهل تَلزمُه بَدنةٌ أم شاةٌ؟ فيه روايتان، ويَستأنف إحرامَه من التَّنعيم ويأتي بعمل عُمرةٍ وبالطَّواف والسَّعي وبقيّة أفعال الحجّ.

فإن وَطِئ ناسياً فسدَ حجُّه، فإن أفسدَ العُمرة بالوطءِ لزمَه شاةٌ، فإن وَطِئَ القارِنُ لَزِمَه دَمٌ واحدٌ.

---

(١) الوَرس: نبات كالسمسم يُصبغ به.
(٢-٢) سقط من الأصل.
(٣) الغالية: أخلاطٌ من الطيب.
(٤) تكرر في الأصل.

وإذا صادَ المحرم صَيداً لم يَملِكه، فإن قتل المحرم صيداً له مِثْلٌ ضمِنَه بمثله إن كان له مِثلٌ من النَّعم، ففي النَّعامَة بَدَنة، وفي حِمار الوحش والوَعْلِ بَقَرة، وفي الضَّبع والضَّب كبش، وفي الغَزال والثَّعلب عَنْزٌ، وفي الأرنب عَناق[١]، فإن كان الصيدُ لا مِثلَ له، كالعصافير والقَنابِر، ضَمِنه بقيمته إلا الحَمامَ وما عبَّ[٢] وهَدَرَ[٣] كالفَواخِت[٤] والقَطا والقَبَج[٥]، ففي الواحدة شاةٌ، فإن جَنَى على صَيدٍ ضَمِنَه بما نَقص، فإن قتله خطأً، ففي وُجوب الجَزاءِ روايتان.

(١) العَناق: هي الأُنثى من أولاد المَعْز.
(٢) أي: وضع منقاره في الماء وكَرَعَ كما تركه الشاة، ولا يأخذ قطرةً قطرة.
(٣) هَدَرَ: أي صَوَّتَ.
(٤) الفواخت: جمع فاختة، وهي طائر معروف.
(٥) القَبج: الحَجَل.

الباب الثاني

في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السَّفر إلى الرجوع

وهي عشرة جُمل:

الجملة الأولى: في السنن من أول الخروج إلى الإحرام:

وهي عشرة:

الأولى: في المال، فينبغي أن يبدأ بالتَّوبة، وردّ المظالم، وقَضاء الديون، وإعداد النفقة لكل من يلزمه نفقته إلى وقت الرجوع، ويَرد ما عنده من الوَدائع ويَستصحب من المال الحَلال ما يكفيه لذهابه وإيابه من غير تَقْتير على وَجهٍ يمكنه معه التَّوسع في الزاد، والرفق بالفقراء، ويستصحب ما يُصلحه كالسِّواك والمشْط والمِرآة والمُكْحلة، ويتصدق بشيءٍ قَبل خُروجه، وليَشْتَر ما يحمله أو يَكتريه، فإن اكتَرى فليُظهر للمُكري كلَّ ما يريد أن يحمله من قليلٍ أو كثير، ويحصل رضاه فيه، وقد قال رجلٌ لابن المبارك: احمِل لي هذه الرُّقعةَ إلى فلان، فقال: حتى أَستأذِنَ الجَمَّالَ. وقد أخبرنا ظفر بن علي قال: أنبأنا أبو مُطيع المصري قال: أخبرنا أبو بكر بن مَردويه، قال: حدثنا محمد بن محمد المصري قال: حدثنا مسلم بن إبراهيم قال: حدثنا دُجَين بن ثابت قال: حدثنا أسلم عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من حَجَّ بمالٍ حرامٍ، فقال: لبّيك اللهمَّ لبّيك، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: لا لبّيك لاو سَعْدَيك، وحجُّكَ مَرْدودٌ عليك»(١).

وفي حديث ابن عمر عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «ردُّ دانقٍ من حَرامٍ يَعْدلُ عند الله سَبْعين حجَّة»(٢).

---

(١) أخرجه المصنف في العلل ٢/ ٧٥ وقال: هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ، وأورده السيوطي في الدُّر المنثور ١/ ٣٤٧، والمتقي الهندي في الكنز (١١٩٠٠).

(٢) أورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢/ ١٧٥، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٢٨ =

الثانية: في الرفيق: ينبغي أن يَلتمس رَفيقاً صالحاً مُحبّاً للخيْر مُعيناً عليه، إن نسيَ ذكَّره، وإنْ ذكَر أعانَه، وإن ضاقَ صَدْرُه صَبَّره، وليُؤَمِّر الرُّفقاء أحْسَنهم خُلُقاً، وأرفقهم بالأصحاب، وإنما يحتاجون إلى التأمير؛ لأنَّ الآراء تَختلفُ فلا ينتظم التدبير إلا أن ينفرد بالرأي أمير[(١)]، ثم على الأمير الرفقُ والنظر في مَصلحة القوم، وأن يجعلَ نَفسه وقايةً لهم.

قال عبد الله الرّباطي: صحبتُ عبدَ الله المروَزي، فقال: أَيُّنا الأمير؟ قلت: أنتَ. فلم يزل يَحمل زاد نفسه وزادي، وجاء المطر فأَجلسني في ظلِّ مِيلٍ[(٢)] وقام وغطّاني بكسائه، وكلّما قلتُ له في شيء: لا تفعل. قال: ألم تَقُل: أنتَ الأمير؟! فَوددت أنّي لم أَصحبه لما كان يَحمل على نفسه.

وينبغي أن يُطيب الكلامَ مع رُفقائه، ويُطعم الطعام، ويُظهر محاسن الأَخلاق، فإن السَّفر يُخرج خَبايا الباطن، ومن كان في السَّفر الذي هو مَظِنَّةُ الضَّجر حَسَنَ الخُلق كان في الحَضَر أحسن خُلُقاً.

و[(٣)]قد قيل: إذا أثنى على الرَّجل مُعاملوه في الحَضَر، ورُفَقاؤه في السَّفر، فلا تَشكّوا في صلاحه[(٣)].

الثالثة: أن يُودِّع رُفَقاءَه وإخوانه المُقِيمين، ويَلتمس أَدعيتهم، ويقول لمن يُودِّعه: أستَودِعُ الله دينَكَ وأمانَتكَ وخَواتيم عَملِكَ. كذلك روى ابنُ عمر وأبو هريرة أنّ النبي ﷺ كان إذا وَدَّع أحداً قال له ذلك[(٤)].

= والقاري في الأسرار المرفوعة: ٢٠٧.

(١) في (ظ): «آمر».

(٢) في (ظ): «جبل». والميل: منارٌ يُبنَى للمسافر في الطريق يهتدي به ويدل على المسافة. «المعجم الوسيط»: (ميل).

(٣-٣) سقط من (ظ).

(٤) حديث ابن عمر أخرجه أحمد (٤٥٢٤) و(٥٦٠٥) و(٥٦٠٦)، والترمذي (٣٤٤٣) والنسائي في الكبرى (٨٨٠٥) و(٨٨٠٦) و(١٠٣٥٧)، وابن خزيمة (٢٥٣١)، والحاكم ٢/ ٩٧، والبيهقي في السنن ٥/ ٢٥١، وابن ماجه (٢٨٢٦).

=

وفي رواية أخرى عن النبي ﷺ أنّه كان إذا وَدَّع رجلاً قال له: «زَوَّدك اللهُ التقوى، وغَفر ذنبكَ، ووجَّهكَ للخير حيث ما تَوجَّهت»(١).

الرابعة: أن يجعل خُروجه بُكرةً، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم بارك لأُمتي في بُكورها»(٢).

ولتَكُن يومَ الخميس، فقد روى كعبُ بن مالك، قال: قَلَّما كان رسولُ الله ﷺ يخرجُ إلى سفرٍ إلا يومَ الخميس(٣).

الخامسة: في الخروج من الدار: إذا همّ بالخروج فليصلِّ ركعتين، ثم ليقل: اللَّهمَّ اصحبني في سَفري واخلُفني في أهلي ومالي وولدي، اللهمَّ إنِّي أستودعك جميع أهلي ومالي. ولا يُخَصِّص، فقد أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أنبأنا محمّد بن علي بن سكينة قال: أنبأنا أبو الحسين بن بِشْران قال: أنبأنا الحسين بن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القرشي قال: حدّثني محمد بن الحسين قال: حدّثني عُبيد بن إسحاق قال: حدثنا عاصم بن محمد العمري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: بينا عمر بن الخطاب يُعرض به(٤) الناس إذ مرَّ به رجل معه ابنٌ له على عاتقه، فقال عمر: ما رأيتُ غراباً أشبه بغرابٍ من هذا بهذا. فقال الرجل: أما والله

= وحديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٦٩٤)، وابن ماجه (٢٨٢٥)، وابن السُّني في عمل اليوم والليلة (٥٠٧).

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٤٤)، والحاكم ٢/ ٩٧ من حديث أنس.

(٢) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه أحمد (١٣٢٠) و(١٣٢٣) و(١٣٢٩) و(١٣٣١) و(١٣٣٩)، والبزار (٦٩٦)، وأبو يَعلى (٤٢٥)، والمصنف في العلل ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥، والترمذي في العلل الكبير (١٨٤)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٣٢٣، والرامهرمزي في المحدّث الفاصل ٢٥٦. وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٥٢٩: قد رواه جماعة عن النبي ﷺ منهم: علي، وابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وأبو هريرة، وأنس بن مالك، وعبد الله بن سلام، والنواس بن سمعان، وعمران بن حصين، وجابر بن عبد الله وبعض أسانيده جيدة.

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٩)، وأبو داود (٢٦٠٥)، وابن أبي شيبة ١٢/ ٥١٦، وأحمد (١٥٧٨١)، والطبراني في الكبير ١٩/ (١١٠)، والنسائي في الكبرى (٨٧٨٧).

(٤) سقطت من (ظ).

يا أمير المؤمنين لقد وَلَدته أمه وهي مَيتة. قال: ويحك، وكيف ذاك؟! قال: خرجتُ في بعث كذا وكذا وتركتها حاملاً، وقلت: أستودعُ الله ما في بطنك. فلمّا قدمتُ من سفري أُخبرتُ أنها قد ماتت، فبينا أنا ذات ليلة قاعدٌ في البَقيع مع بني عمٍّ لي إذ نظرت فإذا ضوء شبيهٌ بالسراج في المقابر، فقلت لبني عمّي: ما هذا؟ قالوا: لا ندري، غير أنا نرى هذا الضوء كلّ ليلة عند قبر فُلانة. فأخذتُ معي فأساً ثم انطلقت نحو القبر فإذا القبر مفتوح وإذا هو في حجر أمّه، فَدنوتُ فنادى لي مناد: أيّها المستودع ربّه خُذ وديعتك أما والله لو استودعتَه أمه لوجدتها حيّة(١). فأخذت الصبي وانضم القبر.

السادسة: إذا حصل على باب الدار فليقل: بسم الله، توكّلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، ربّ أعوذ بك أن أَضِلّ أو أَزِلّ، أو أَظلم أو أُظْلَم، أو أَجهل أو يجهل عليَّ، اللهمَّ إني لم أخرج أَشَراً ولا بَطَراً ولا رياءً ولا سمعة، خرجتُ اتقاء سَخطك وابتغاءَ مرضاتِكَ وقَضاء لفَرضك، واتّباعاً لسنّة نبيِّك، وشوقاً إلى لقائك، فإذا مَشى قال: اللهمَّ بك انتشرت، وعليك توكّلت، وبك اعتصمت وإليك توجهت، اللهمَّ أنت ثقتي ورجائي فاكفني ما أهمّني وما لا أهتمّ به وما أنت أعلم به منّي، عزّ جارك، وجل ثناؤك ولا إله غيرك، اللّهمَّ زوّدني التقوى واغفر لي ذنبي، ووجِّهني للخير أينما توجهت. ويدعو بهذا الدعاء في كلّ منزلٍ ترحّل عنه.

السابعة: **في الركوب**؛ فإذا ركب الراحلة فليقل: بسم الله وبالله، الله أكبر الله أكبر، سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنّا له مُقرنين، وإنا إلى ربّنا لمنقلبون، اللهمَّ أنت الصاحبُ في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد، اللهمَّ إنّي أسألك في سَفري هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ما تَرضى، اللّهمَّ هوِّن عليَّ السفر واطْوِ لي البعيد، اللّهمّ إنّي أعوذ بك من وَعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل، ومن الحَوْر بعد الكَور(٢)، اللهمّ اقبض لي الأرض وهَوِّن عليَّ السفر.

---

(١) سقطت من (ظ).

(٢) ورد في هامش (ظ) ما نصه: «الوعثاء هي المشقة، والحور بعد الكور الانقلاب من طاعة إلى معصية».

وليرفق بالدابة ولا يُحمِّلها ما لا تُطيق، ولا يضرب وجهها ولا ينام عليها مهما أمكن، فقد قال أبو الدرداء لبعيرٍ له: أيّها البعير لا تخاصمني إلى ربّك فإنّي لم أكن أُحمّلك فوق طاقتك. ولينزل عنها في وقت فيجمع بذلك بين ترويحها وطيب[(١)] قلب المُكاري ورياضة بدنه بالمشي، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «اركبوا هذه الدوابّ سالمةً[(٢)] ولا تتّخذوها كراسي»[(٣)].

وليكن أكثر سيره بالليل، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالدُّلْجة، فإنّ الأرض تُطوى بالليل»[(٤)].

الثامنة: في النزول؛ فإذا نزل منزلاً فليجتنب النزول في الطريق، روى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا عرَّستم فاجتنبوا الطرق، فإنها طُرق الدوابّ، ومأوى الهوام بالليل»[(٥)]. وفي أفراده من حديث خَولة بنت حكيم عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن نزل منزلاً ثمّ قال: أعوذُ بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلق، لم يضره شيء حتى يَرتحل من منزله ذلك»[(٦)].

وأخبرنا ابن الحصين قال: أنبأنا ابنُ المُذهب قال: أنبأنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا صفوان عن شُريح بن عُبيد الحضرمي أنّه سمع الزبير بين الوليد يحدّث عن عبد الله بن

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «طلب».
(٢) في الأصل: «سائرة».
(٣) أخرجه أحمد (١٥٦٣٩) و(١٥٦٤١)، والدارمي ٢/ ٢٨٦، وابن خزيمة (٢٥٤٤)، وابن حبان (٥٦١٩)، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٣١)، والحاكم ١/ ٤٤٤، والبيهقي في السنن ٥/ ٢٥٥ من حديث معاذ بن أنس.
(٤) أخرجه أحمد (١٤٢٧٧) و(١٥٠٩١)، وعبد الرزاق (٩٢٤٧) وابن خزيمة (٢٥٤٨) و(٢٥٤٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٢٣) وابن ماجه (٣٢٩) بأطول مما هنا من حديث جابر. والدُّلجة: السير بالليل.
(٥) أخرجه مسلم (١٩٢٦)، وأحمد (٨٩١٨)، والترمذي (٢٨٥٨) وابن خزيمة (٢٥٥٠) و(٢٥٥٦)، وقوله: «عرَّستم» أي: نزلتم آخر الليل.
(٦) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) (٥٤)، وأحمد (٢٧١٢٠ـ٢٧١٢٣) و(٢٧١٢٦) و(٢٧٣١٠)، والبخاري في خلق أفعال العباد: ٨٩ـ٩٠، والترمذي (٣٤٣٧)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٩٤).

عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا غَزا أو سافر فأدركه الليل قال: «يا أرضُ ربّي وربّك الله، أعوذ بالله من شَرك وشرّ ما فيك، وشرّ ما خلق فيك، وشرّ ما دَبَّ عليك، أعوذ بالله من شرّ كلّ أسدٍ وأَسود، وحيّةٍ وعَقرب، ومن شرّ ساكن البلدن ومن شرِّ والدٍ وما ولد»(١).

فإذا أراد أن يرتحل من المنزل صلّى ركعتين، فقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه كان إذا سافر فنزل منزلاً، فأراد أن يرتحل صلى ركعتين(٢).

التاسعة: في الحراسة، ينبغي أن لا يمشي وحده خصوصاً بالليل، وفي أفراد البخاري من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «لو يعلم الناسُ ما في الوَحْدة ما سار أحدٌ وحده بليلٍ أبداً»(٣).

وليتناوب الرفقاء بالليل في الحراسة لئلا تفوتَ الصلاة.

العاشرة: أنه إذا علا نَشَزاً(٤) من الأرض كبّر ثلاثاً، وقال: «اللهمَّ لك الشرف على كلّ شرف، ولك الحمد على كلّ حال»(٥) فإذا هبط سبّح(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (٦١٦١)، وأبو داود (٢٦٠٣)، وابن خزيمة (٢٥٧٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٩٨)، والحاكم ١/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧ و٢/ ١٠٠، والبيهقي في السنن ٥/ ٢٥٣، والأسود: هو الحية العظيمة التي فيها سواد، وهو أخبث الحيّات، وساكن البلد: هم الجن الذين هم سكان الأرض، فالبلد من الأرض ما كان مأولى للحيوان، وإن لم يكن فيه بناء ومنزل، وقيل: يحتمل أن المراد بالوالد إبليس، وما ولد: الشياطين، وقيل: يحتمل أن المراد كل والد ومولود على عموم النكرة في الإثبات.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٣١٥) و(٤٣١٦)، والدارمي ٢/ ٢٨٩، والبزار (٧٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٨)، وأحمد (٤٧٤٨) و(٤٧٧٠) و(٥٢٥٢)، وعبد بن حميد (٨٢٤) والدارمي ٢/ ٢٨٩، والبيهقي في السنن ٥/ ٢٥٧، وابن خزيمة (٢٥٦٩)، والحاكم ٢/ ١٠١.

(٤) أي: عالياً من الأرض.

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٨١)، وأبو يعلى (٤٢٩٧)، والطبراني في الدعاء (٨٤٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٢٢)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٣٥ والبيهقي في الدعوات الكبير (٤١٣).

(٦) لحديث جابر رضي الله عنه قال: كنا إذا صعدنا كبَّرنا، وإذا نزلنا سَبَّحنا. أخرجه البخاري (٢٩٩٣) و(٢٩٩٤).

الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة، وهي خمسة:

الأول: أن يغتسل إذا بلغ الميقات، وينوي به غُسل الإحرام، ويتنظَّف بتقليم الأظفار، وحلق العانة، وقصّ الشارب إلى غير ذلك، فإن لم يجد ماءً تيمّم.

الثاني: أن يفارق مَخيط الثياب ويلبس ثوبي إحرامه، فيأتزر بإزار ويرتدي برداء أبيضين نظيفين ويتطيّب لإحرامه، وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت: طيَّبتُ رسولَ الله ﷺ لحُرمِه حين أَحرم ولحلِّه حين أحل بطيبٍ فيه مِسك[١].

الثالث: أن يصلي ركعتين ثم يُحرم عقيبهما، وإن شاء أحرم إذا استَوت به راحلته، فينوي الإحرام بقلبه ثمّ يلبّي، فيقول: لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيكَ لا شريكَ لك لبيك، إن الحمدَ والنعمة لك والملك لا شريك لك[٢].

الرابع: أن يُعيّن ما أحرم به، ويَشترط فيقول: اللهمّ إنّي أريد النُّسك الفُلاني فيسّره لي وتقبَّل منّي، ومحلي حيث حبَستني.

الخامس: تجديد التلبية عقيب الصلوات وإذا علا نَشَزاً أو هبط وادياً، وإذا لقي ركباً، وفي إقبال الليل والنهار وبالأسحار، وإذا سمع مُلبياً أو فعل محظوراً ناسياً، وفي جميع مساجد الحرم وبقاعه.

الجملة الثالثة: في آداب دخول مكّة إلى الطواف، وهي ستّة:

الأول: أن يغتسل لدخول مكّة، وقد ذكرنا الأغسال المستحبّة فيما يتعلّق بالحجّ في كتاب الطَّهارة[٣].

الثاني: أن يقول عند الدخول إلى الحرم: اللهمّ هذا حَرمك وأمنك، فحرّم لحمي ودمي وبشري على النار، وأَمّني من عذابك، واجعلني من أوليائك.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٣٩) و(١٧٥٤) و(٥٩٢٢) و(٥٩٢٨)، ومسلم (١١٨٩) دون قولها: «بطيب فيه مسك» وهي رواية عند مسلم (١١٩١).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٤٩)، ومسلم (١١٨٤) من حديث ابن عمر.

(٣) تقدم في الصفحة ٩٨.

الثالث: أن يدخل مكّة من أعلاها من ثَنية كَداء، فإذا خرج خرج من أسفلها من ثنية كُدَى، والأوّل بفتح الكاف مع المد والثاني بضمّها مع القصر.

ففي الصحيحين من حديث عائشة أنّ النبي ﷺ لما جاء إلى مكّة دخلها من أعلاها وخرج من أسفلها(١).

الرابع: أن يدخل المسجد الحرام من باب بني شَيبة، وليقل: بسم الله، ومن الله، وإلى الله، اللهمَّ افتح لي أبواب فَضلك.

الخامس: أنّه إذا وقع بصرُه على البيت يرفع يديه ويقول: اللهمّ أنتَ السلام ومنك السلام فَحيِّنا ربَّنا بالسلام، اللهمّ زِدْ هذا البيتَ تعظيماً وتكريماً وتشريفاً ومهابةً وبرّاً، وزِدْ من عظَّمه وشرَّفه ممّن حجَّه أو اعتمره تَعظيماً وتَشريفاً ومهابةً وبرّاً(٢)، الحمد لله ربِّ العالمين كثيراً كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، والحمد لله الذي بلغني بيته ورآني لذلك أهلاً، والحمدُ لله على كلّ حال، اللهمّ إنك دعوتَ إلى حجّ بيتك وقد جئناك لذلك، اللهمّ تقبّل مني واعفُ عنّي، وأصلح لي شأني كلّه، لا إله إلا أنت. يرفع بذلك صوتَه.

السادس: أن يقصد الحجر الأسود بعد ذلك ويَمسّه بيده اليمنى ويُقبّله، فإن لم يستطع وقف حياله، ثمّ يطوف طواف القدوم.

الجملة الرابعة: في الطواف:

ينبغي أن يراعى للطواف ستة أشياء:

الأوّل: شروط الصلاة؛ من طهارة الحدث والنَّجس في الثوب والبدن والمطاف وستر العورة، فإنّ الطواف بالبيت صلاة لكن الله تعالى أباح فيه الكلام، وليضطبع قبل الابتداء بالطواف، وهو أن يجعل وسط ردائه تحت عاتقه الأيمن ويطرح طرفه على عاتقه الأيسر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٧٧) ـ (١٥٨١) و(٤٢٩٠) و(٤٢٩١)، ومسلم (١٢٥٨).

(٢) إلى هنا أخرجه الشافعي في مسنده ١/٣٣٨ ـ ٣٣٩ موقوفاً على سعيد بن المسيب.

الثاني: أن يجعل البيت عن يساره، ويبتدئ من الحجر الأسود، وليكن قُدّامه ليمرّ بجميع الحَجر بجميع بدنه في ابتداء طوافه، وليقرب في طوافه من البيت قدر ثلاث خطوات لئلا يطوف على الشاذروان[١]، فإنَّه لا يُجزئه.

الثالث: أن يقول قبل مجاوزة الحَجَر في ابتداء الطواف: بسم الله والله أكبر، إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاءً بعهدك، واتّباعاً لسنّة نبيك محمدٍ ﷺ. فأوّل ما يُجاوز الحجر ينتهي إلى باب البيت فيقول: اللهمّ هذا البيت بيتك، وهذا الحرم حرمك، وهذا الأمن أمنك، وهذا مقامُ العائذ بك من النار. فإذا بلغ الركن العراقي فليقل: اللهمَّ إنّي أعوذُ بك من الشِّرك والشكّ والكُفر والشقاق والنِّفاق وسوء الأخلاق. فإذا بلغ الميزاب قال: اللهمّ أظلّني تحت عرشك يومَ لا ظلّ إلا ظلّك، اللهم اسقني بكأس محمدٍ ﷺ شربةً لا أظمأ بعدها أبداً. فإذا بلغ الركن الشامي قال: اللهمّ اجعله حجّاً مبروراً، وسعياً مشكوراً، وذنباً مغفوراً، وتجارة لن تَبور يا عزيز يا غفور، ربِّ اغفر وارحم، وتَجاوز عما تعلم، وأنت الأعزُّ الأكرم. فإذا بلغ الركن اليماني قال: رَبّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار. فيطوف كذلك سبعةَ أشواطٍ ويدعو في طوافه بما أحبَّ.

الرابع: أن يرمل في ثلاثةِ أشواط، ويمشي في الأربعة الأخيرة.

والرمَل أسرع من المشي مع تَقارب الخُطا، وكان المقصود منه ومن الاضْطباع حين حجّ رسولُ الله ﷺ إظهار القوّة والجَلد؛ لأنّ الكفّار استَضعفوا المسلمين فأُمِروا بذلك، فبقيت تلك السنَّة، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: قدمَ رسول الله ﷺ وأصحابُه وقد وَهَنتهم حُمَّى يَثرب فقال المشركون: إنَّه يَقدم عليكم قومٌ قد وَهَنتهم حُمَّى يثرب ولقوا منها شراً، فجلس المشركون[٢] من الناحية التي تلي الحَجَر، فأطلع الله نبيَّه على ما قالوا، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يرمُلوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلَدهم، ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرمُلوا الأشواط

(١) شاذَروان الكعبة: هو القَدر الذي تُرك خارجاً عن عرض الجدار، مرتفعاً عن وجه الأرض قدر ثلثي ذراع، بعد أن ضُيّق أعلى الجدار، وهو من البيت.

(٢) في (ظ): «المسلمون».

كلَّها إلَّا الإبقاءُ عليهم، فقال المشركون: هؤلاء الذين زَعمتم أنَّ الحمّى قد وَهَنتهم؟! هؤلاء أجلد من كذا وكذا[١].

ومن أمكنه أن يستلم الحجَر في كلّ شوطٍ فهو الأفضل، فإن منعه الزِّحام أشارَ إليه بيده وقبَّل يده، وكذلك يستلم الركن اليماني ويُقبّل يده ولا يُقبّله ليختصّ الحجرَ باللَّمس والتَّقبيل.

الخامس: إذا أتمّ الطواف سَبعاً[٢] فليأت الملتزم، وهو ما بين الحجَر والباب، وليُلصِق بَطنه بالبيت، ويضع عليه خدَّه الأيمن، ويبسط عليه ذراعيه وكفَّيه، ويقول: اللهمَّ يا ربَّ البيت العتيق اعتق رَقبتي من النار، هذا مقامُ العائذِ بك.

السادس: أن ينصرف بعد ذلك إلى المقام فيصلّي خلفه ركعتين يقرأ في الأولى بعد الفاتحة بقل يا أيها الكافرون، وفي الثانية بقل هو الله أحد، ثمّ ليعد إلى الحَجر فيستلمه.

الجملة الخامسة في السَّعي:

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصَّفا، فيَرقى عليه بقدر قامة الرجل ثم يُكبّر ثلاثاً ويقول: الحمد لله على ما هَدانا، لا إله إلا الله وَحده لا شَريك له، لهُ الملك ولهُ الحمد يحيي ويُميت بيده الخير، وهو على كلّ شيءٍ قدير، لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، صدقَ وعده، ونَصَر عبده، [٣]وأعزَّ جندَه[٣]، وهزمَ الأحزاب وَحده، لا إله إلا الله، لا نعبد إلّا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. ثم ينزل من الصفا ويَمشي حتى يكون بينه وبين الميل الأخضر المعلَّق بفناء المسجد نحو ستة أذرع، ثمّ يسعَى سَعياً شديداً حتى يُحاذي الميلين الأخضرين اللذين بفناء المسجد وحِذاء دار العبّاس، ثمّ يمشي حتى يصعد المروة ويفعل مثل ما فعل على الصَّفا، ويُستحبّ أن لا يَسعى إلّا مُتطهّراً مُستتراً، وقد نقل الأثرم أنَّ الطهارة في

(١) أخرجه البخاري (١٦٠٢) و(٤٢٥٦)، ومسلم (١٢٦٦).
(٢) تحرفت في الأصل إلى: «سَعياً».
(٣-٣) سقط من (ظ).

السعي كالطّهارة في الطواف، والمُوالاة شرطٌ في الطواف والسعي، فإن خرج لحاجةٍ وتطاول الفَصل ابتدأ، أو إن كان يسيراً بنى، ويتخرّج أنّ الموالاة سُنَّة.

الجملة السادسة في الوقوف وما قبله:

إن انتهى الحاجّ إلى عرفةَ يوم عرفة فإنه لا يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكّة قبل الوقوف، فإنْ وصلَ قبل ذلك بأيّام وطاف طواف القدوم فمكث محرماً، فإنه إذا كان يوم التروية، وهو اليوم الثامن من ذي الحجّة، يخرج إلى مِنى فيصلّي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ويبيت بها ثمّ يصلّي بها الصبح، فإذا طلعت الشمس على ثَبير[(١)] سار إلى الموقف[(٢)]، واغتسل للوقوف، وأقام بنَمِرَة[(٣)]، وقيل: بعُرَنة[(٤)]، حتى تزول الشمس، فإذا زالت خطب الإمام خُطبةً يعلّم الناس فيها مناسِكهم من موضع الوقوف ووقته[(٥)]، والدفعِ من عرفة إلى غير ذلك، ثمّ ينزل فيصلي بالناس الظهر والعصر يجمع بينهما بإقامةٍ لكلّ صلاة، ولا يجوز الجمعُ والقصر إلّا لمن بينه وبين وَطنه ستة عشر فَرسخاً[(٦)] فصاعداً، ثمّ يروح إلى الموقف، والمستحبّ أن يقف عند الصخرات وجبل الرَّحمة[(٧)] بقرب الإمام، ويستقبل القبلة ويُكثر من الدعاء، وسيأتي في كتاب الأدعية ما تَرومُه من ذلك، فأمّا المختصّ بهذا اليوم؛ فقد أخبرنا أبو الفتح الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو نصر الترياقي وأبو بكر الغُورجي قالوا: حدثنا أبو محمّد الجراحي قال: حدثنا أبو العبّاس المحبوبي قال: أخبرني الترمذي قال: حدثنا مسلم بن عمرو[(٨)] الحذّاء

---

(١) ثَبير: جبل بين مكة ومنى على يمين الداخل منها إلى مكة.
(٢) أي: إلى عرفات، وهو موضع وقوف الحَجيج.
(٣) نَمِرَة: موضع قيل إنه من عرفات، وقيل: بقربها خارج عنها. المصباح المنير: (نمر).
(٤) عُرَنَة: وادٍ بحذاء عرفات غربي المسجد.
(٥) سقطت من (ظ).
(٦) الفرسخ مقياس طول يساوي ثلاثة أميال، ويُقدر حالياً بنحو ستة كيلو مترات. المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ص ٩٤.
(٧) جبل الرحمة: جبل في وسط عرفات كانت العرب تسميه: الإل ـ بكسر الهمزة ـ.
(٨) سقط من الأصل.

قال: حدثني عبد الله بن نافع عن حماد بن أبي حُميد عن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدّه أنّ النبي ﷺ قال: «خَير الدعاءِ يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قَبلي: لا إله إلا الله، وَحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير»[١].

وفي حديث عليّ رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ عشيّة عرفة: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يُحيي ويميت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير اللهمّ اجعل في سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي قلبي نوراً، اللهمّ اغفِر لي ذَنبي، ويسِّر لي أمري، واشرح لي صدري، اللهمّ إنّي أعوذُ بك من وسواس الصَّدر، ومن شَتات الأمر، ومن عذاب القَبر، اللهمَّ إنّي أعوذُ بك من شرّ ما يلج في الليل وشرّ ما يلج في النهار، وشرّ ما تهبّ به الرياح، وشرّ بَوائق الدهر»[٢].

ووقف مُطرف وبَكر بن عبد الله بعرفَة فقال مُطرف: اللهمّ لا تَردَّهُم من أجلي. وقال بكر: ما أشرفَه من موقفٍ وأرجاه لأهله لولا أني فيهم.

ووقف الفُضيل بعرفة والناس يَدعون وهو يبكي بكاء الثَّكْلى المحترقة، فلمّا كادت الشمس تسقط قَبضَ على لحيته ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال: واسَوْءَتا منكَ وإن عَفوت.

الجملة السابعة: في بقيّة أعمال الحجّ بعد الوقوف من المبيت والرمي والنّحر والحِلاق والطّواف:

إذا أراد أن يُفيض من عرفات، فليدفع بعد الغروب إلى المُزدلفة على طريق المأزِمَين[٣]، وحدُّ المزدلفة ما بين المأْزِمين ووادي مُحَسِّر، ويسير وعليه السَّكينة والوقار، فإذا وجد فُرجةً أسرع، فإذا وصل إلى المزدلفة صلّى بها المغرب والعشاء

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥).
(٢) أخرجه البيهقي في السنن ٥/ ١٧٤.
(٣) هما جبلان بين عرفة ومزدلفة.

قبل حَطِّ الرَّحل[١]، وإن صلّى المغرب في طريق المزدلفة أجزأه، ثمّ يَبيت بها إلى أن يَطلع الفجر الثاني، ويأخذ منها حَصى الجِمار، ومن حيثُ أخذ جاز، ويكون الحصى أكبر من الحِمَّصِ ودون البُندق، وعَدده سبعون حصاةً، وهل يُسنّ غَسله؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله، وإن دفع بعد نصف الليل جاز، وإن دفع قبل نصف الليل لزمه دمٌ، فإن وافَى مزدلفة بعد نصف الليل، فلا دمَ عليه، وإن وافاه بعد طلوع الفَجر، فَعَليه دم، ثم يُصلي صلاة الفجر بالمزدلفة في أوّل الوقت، ثمّ يأتي المشعر الحرام، فيَرقى عليه إن أمكنه وإلّا وقف عنده، فيحمد الله ويُهلِّله ويكبّره ويدعو، ويقول في دعائه: اللهمّ كما وَفقتنا فيه وأريتنا إيّاه، فوفّقنا لذِكرك كما هديتنا، واغفر لنا وارحمنا كما وعدتنا بقولك وقولك الحق: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ يقرأ إلى قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٢] [البقرة: ١٩٨ ـ ١٩٩]. فإذا أسفر دفع قبل طلوع الشمس، فإذا بلغ وادي مُحسِّر سَعى إن كان ماشياً، وحرّك إن كان راكباً قدرَ رميةٍ بحَجَر، فإذا وصل إلى مِنى بدأ بجمرة العقبة فيرمي إليها بسبع حَصَيات واحدة بعد واحدة يُكبّر مع كلّ حصاة، ويعلم حصولَها في المرمى، فإن رمى بغير الحَصى مثل الكُحل والرُّخام والبِرام[٣] والذهب والفضة، أو أخذ حجراً من المرمى قد رُمي به فَرمى به لم يُجزِه، ويرفع يده في الرمي حتى يُرى بياضُ إبْطِه، والأَولى أن يكون ماشياً، ويقطع التلبية والتكبير مع أوّل حَصاة، إلّا التكبير عند عقيب الفرائض، فإنّه يكبّر عَقيب صلاة الظهر يوم النَّحر إلى عَقيب العصر من آخر أيّام التَّشريق، وصفةُ التكبير: اللهُ أكبر اللهُ أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر، ولله الحمد، وإنما يكبّر إذا صلى في جَماعةٍ، وهل يُكبّر المنفرد؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد.

فإذا رمى السبع لم يقف عندها، ويَرمي بعد طلوع الشمس، فإن رمى بعد نصف الليل أجزأه، ثمّ ليذبح الهَدْي إن كان مَعه، وقد روت عائشة عن النبي ﷺ أنّه قال:

---

(١) في الأصل: «الرحال».

(٢) هو جزء من حديث جابر الطويل في حجة النبي ﷺ أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) البِرام: جمع بُرمة، وهي القِدر من الحجر، فلا تجزئ الأحجار المكسرة منها في الرمي.

«ما عمل ابنُ آدم يوم النحر من عملٍ أحبّ إلى الله من هِرَاقة دم، وإنّها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظْلافها، وإنّ الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض، فطيبوا بها نَفْساً»[١].

والأولى أن يذبحها بيده، أخبرنا عبد الرحمن بن محمّد القزاز قال: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون قال: أخبرنا ابن حبابة قال: حدثنا البغوي قال: حدثنا أبو نَصر التمار قال: حدثنا أبان بن يزيد عن قتادة عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ ذَبح أُضحيته بيد نفسه وكبَّر عليها[٢].

فإن لم يُحسن الذبح فالأفضل أن يشهدها، فقد روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنّه قال لفاطمة رضي الله عنها: «قومي إلى أُضحيتك فاشهَديها، فإنّ لك بأوّل قطرةٍ تَقطر من دَمها أن يُغفَر لك ما سلفَ من ذنوبك»[٣].

والأفضل عندنا في الأضاحي الإبل ثمّ البقر ثمّ الغنم، .وأفضل الأضاحي الشُّهب[٤] ثمّ الصُّفر ثمّ السود، وتُجزئ الشاة الواحدة عن واحدٍ، والبَدَنة والبَقرة عن سَبعة، والضأن أفضل من المَعْز، ولا يجزئ ما فيه عيبٌ ينقص به اللحم، فلا تُجزئ العَضباء القَرن والأذن، وهي التي ذَهب أكثر قَرْنها وأذنها، ولأصحابنا في الجَمّاء[٥] وَجهان، ولا تجزئ[٦] العَوراءُ البَيّنُ عَوَرها، وهي التي قد انخسفت عَينُها وذهبت، والعَجفاءُ التي لا تُنقي، وهي الهَزيلة التي لا نِقْيَ[٧] لها، والعَرجاءُ البَيِّن ظَلْعُها فلا تَقدر على المشي مع الغنم ولا على مُشاركتهن في العَلْفِ،

(١) أخرجه الترمذي (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣١٢٦)، والبغوي في شرح السنة ٤/ ٣٤٢، والحاكم ٤/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.
(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥٨) و(٥٥٦٥)، ومسلم (١٩٦٦).
(٣) أخرجه البيهقي في السنن ٦/ ٢٨٣، والحاكم٤/ ٢٤٧، والبزار في كشف الأستار (١٢٠٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١٦٢٢).
(٤) الشُّهْب: جمع شَهباء وهي البيضاء النقية البياض.
(٥) الجَمّاء: هي التي لم يُخلَق لها قرن.
(٦) في (ظ): «لا يجوز».
(٧) سقطت من (ظ).

والمريضة البَيّن مَرَضُها، وهي الجَرْباء لأنَّ جَربَها يُفسد اللحمَ.

فأمّا قول عليٍّ رضي الله عنه: «لا يَضحَّى بمقابَلةٍ ولا مُدابَرةٍ ولا خَرقاءَ ولا شَرْقاء»[١]. فإنه نهي تنزيه، والإجزاء يقع، والمقابَلة: التي قُطع شيءٌ من مُقدم أُذنها وبقي معلَّقاً، والمدابَرة: التي قُطع شيءٌ من من مُؤخَّر أذنها، والخَرقاء: التي قد ثَقَبَ الكَيُّ أذنَها، والشَّرقاء: التي شَقَّ الكيُّ أذنَها، ويُجزئ الخَصيُّ.

ويستحبُّ أن تُنحَر الإبل قائمةً معقلةً، ويُذبحُ ما سواها. وأيّام النَّحر ثلاثة؛ يوم العيد ويومان بعده، فإذا خرج وقت النَّحر ذبح الواجب قضاءً، وهل يجوز ذبحُ الأَضاحي في الليل؟ فيه عن الإمام أحمد روايتان. ولا يجوز بيعُ جلودها ولا جِلالها بل يتصدَّق به، والمسنون أن يأكلَ الثلث، ويتصدّق بالثلث، ويُهدي الثلث.

فإذا ذبح حلقَ أو قصَّر جميع[٢] رأسِه في إحدى الروايتين، وفي الأخرى يُجزئه بعضه كالمسح[٣]، فإن لم يكن له شعرٌ استُحبَّ أن يُمرَّ الموسى على رأسه، والمرأة تُقصِّر من شَعرها قدرَ الأنملة، وإذا حلقَ حلَّ له كل محظورٍ في الحجِّ إلّا النِّساء، ثمّ يُفيضُ إلى مكّة، ويطوف طواف الزِّيارة، وأوّل وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر، وأفضل وقته يوم النحر، ولا آخر لوقته، إلّا أنّه يبقى معلّقاً بعُلقةِ الإحرام فلا تحلُّ له النساء حتى يطوف، فإذا طاف سعَى إلا أن يكون قد سعى بعد طواف القُدوم، فيكفي، والأحسن أن يرمي ثم يذبح ثمّ يحلق ثمّ يطوف، فإن قَدَّم الحِلاقَ على الرمي أو على النَّحر جاهلاً بالسنّة، فلا شيء عليه، فإذا فرغ من الطواف عاد إلى مِنى ليبيت بها ثلاثَ ليالٍ إلّا أن يختار التَّعجيل في يومين، ويرمي الجمرات الثلاث في أيّام التشريق بعد الزَّوال كلّ جمرة في كلّ يومٍ بسبعِ حَصَيات، كما وصفنا في جَمرة العقبة، فيبدأ بالجمرة الأولى وهي أبعد الجمرات من مكّة وتَلي مسجد الخيف، فيجعلها عن يَساره ويستقبل القبلة ويرميها، ثمّ يتقدّم عنها إلى

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٠٤)، والنسائي في الكبرى (٤٤٤٦ ـ ٤٤٤٩)، وابن ماجه (٣١٤٢ ـ ٣١٤٤)، والترمذي (١٤٩٨).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) سقطت من (ظ).

موضعٍ لا يصيبه الحصى، ويقف بقدر قراءة سورة البقرة يدعو الله تعالى، ثمّ يرمي الجمرةَ الوسطى ويجعلها عن يمينه ويستقبل القبلة ويقف ويدعو كما فعل في الأولى، ثمّ يرمي جمرةَ العقبة ويَجعلها عن يمينه، ويَسْتبطن الوادي ويستقبل ا لقبلة ولا يقف عندها.

ومن ترك الرمي حتى انقضت أيّامُ التشريق فعليه دَمٌ، فإن ترك حصاةً ففيها أربعُ روايات: إحداهن: يلزمه دم، والثانية: مُدٌّ، وفي حصاتين مُدَّان، وفي ثلاثةٍ دم. والثالثة: يَلزمه نصفُ درهم. والرابعة: لا شيءَ عليه.

فإن ترك المبيت ليالي منى لزمه دم، فإن ترك ليلةً واحدة ففيها الروايات الأربع. ومن نفر في اليوم الثاني قبل غروب الشمس دَفنَ ما بقي معه من الحَصَى، وإن أقام إلى غروب الشمس لزمه البَيتوتة والرَّمي من الغد، وإذا نفرَ استُحِبَّ له أن يأتي الأَبْطح وهو المحصَّب وَحَدُّه ما بين الجبلين إلى المقبرة، فيصلِّي به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثمّ يهجع يسيراً ثمّ يدخل مكة.

الجملة الثامنة في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع:

العمرة واجبة، وأركانها: الإحرام، والطواف، والسَّعي على إحدى الروايتين.

وواجبها: الحِلاق على إحدى الروايتين.

وأمّا سُننها: فالغُسل للإحرام، والأذكارُ المشروعة في الطواف والسَّعي، فمن أراد العمرة أحرم من الميقات بعد أن يغتسل ويتطيّب، ويُصلّي ركعتين، فإن كان بمكّة خرج إلى أدنى الحِلّ فأحرم، والأفضلُ أن يُحرم من التَّنعيم ثمّ يطوف بالبيت ويَسعى ويحلق أو يقصر، وقد حَلَّ.

وينبغي للمقيم بمكّة أن يُكثر من الاعتمار والطواف والنظر إلى البيت، وإذا دخله صلّى بين العمودين المقدَّمين، ويكثر من شُرب ماء زَمْزَم، فقد قال ﷺ: «ماءُ زَمزم لما شُرِبَ له»[١]. ويستحبّ لمن شرب منه أن يقول: بسم الله، اللهمّ اجعله

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٨٤٩)، والطبراني في الأوسط (٨٥٣) و(٩٠٢٣)، وابن عدي في الكامل ٤/ ١٤٥٥ وابن أبي شيبة ٨/ ٩٥، وابن ماجه (٣٠٦٢)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ =

لنا علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاء من كلّ داء، واغسل به قلبي، واملأه من خَشيتك.

وليَعتمِر المقيم في رمضان، ففي الصحيحين من حديث ابن عبّاس أنّ النبي ﷺ قال لامرأةٍ من الأنصار يقال لها: أمّ سِنان: «عُمرةٌ في رمضان تَقضِي حجَّة» أو قال: «حجّة معي»[(١)].

الجملة التاسعة: في طواف الوداع: إذا عزم على الخروج فَليُنجِزْ أشغالَه وليشدَّ رحله، وليجعل آخر عمله وداعَ البيت، وهو أن يطوف به سبعاً من غير رَمَلٍ ولا اضْطِباعٍ، فإذا فرغ صلّى ركعتين خلف المقام وأتى الملتزم ودعا، قال مجاهد: لا يقوم عبدٌ ثَمَّ فيدعو الله بشيءٍ إلّا استجابَ له. وليكن من دعائه: اللهمَّ هذا بيتُك، وأنا عبدُك وابنُ أَمَتك، حملتني على ما سخَّرتَ لي من خَلقك، وسيَّرتني في بلادك حتى بلَّغتني بنعمتك بيتَكَ، وأعنتني على قضاء نُسُكي فإن كنتَ رضيت عني فازدد عنّي رضا، وإلّا فَمُنَّ الآن قبل أن تَنأى عن بيتك داري، هذا أَوانُ انصرافي إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك، ولا راغبٍ عنك ولا عن بيتك، اللهمَّ فأصحبني العافيةَ في بدني، والصحَّةَ في جسمي، والعصمةَ في ديني، وأحسن مُنقَلبي، وارزُقني طاعتك ما أبقيتني، واجمع لي خيرَ الدنيا والآخرة، إنّك على كلّ شيء قدير.

الجملة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها:

روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنّه قال: «من حجَّ فزار قَبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي وصَحبني»[(٢)] وفي لفظ آخر: «من زار قَبري فقد وَجَبَت له شَفاعتي»[(٣)].

= ٣٠٣، والبيهقي في السنن ٥/ ١٤٨، والأزرقي في أخبار مكة ٢/ ٥٢ من حديث جابر.

(١) أخرجه البخاري (١٧٨٢) و(١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦) (٢٢١) و(٢٢٢)، وأحمد (٢٠٢٥) و(٢٨٠٨)، وابن حبان (٣٦٩٩) و(٣٧٠٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤٩٦) و(١٣٤٩٧)، وفي الأوسط (٣٣٧٦)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٧٩٠، والبيهقي في السنن ٥/ ٢٤٦، والدارقطني ٢/ ٢٧٨، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٤٧٠، والألباني في السلسلة الضعيفة (٤٧).

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢/ ٦٧، والبزار في كشف الأستار (١١٩٨) =

فمن قصد زيارة المدينة، فإذا لاحت له فليقل: اللهمَّ هذا حَرمُ رسولك فاجعله لي وقايةً من النار. وليَدْخلها متواضعاً مُعظماً، وليقصد المسجد وليصلّ فيه، فقد سبق فضل الصلاة فيه(١)، ولتكن صلاتُه بين المنبر والقبر فهي الروضة، وقد سبق فضلها(٢)، وليأت قبر النبي ﷺ، وليقف عند وجهه وذلك بأن يستقبل القَبر ويستدبر القِبلة ويجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه، وقد ضرب مِسمارٌ من صُفرٍ(٣) في حائط الحجرة الشريفة فإذا حاذاه القائمُ كان القنديل تحت رأسه.

وليس من السنَّة أن يَمَسَّ الجدار، ولا أن يُقبّله بل الوقوف من بُعْدٍ أقرب إلى الاحترام، وليسلّم فليقل: السلامُ عليكَ يا نبيَّ الله، السلامُ عليكَ يا رسول الله، السلام عليكَ يا سيّد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، جزاك الله عنا ما أنتَ أهله. ثمّ ليقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ثم ليقل: اللهمَّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد وسلّم صلاةً تُرضيه، وآتِه الوسيلةَ والفضيلةَ، وارفعه الدرجةَ العظيمةَ والمقامَ المحمود الذي وَعدته. ثمّ ليقل: أشهدُ أنك بلّغتَ الرسالةَ، وأدّيت الأمانةَ، ونصحتَ الأمة، وجاهدتَ في الله حقّ جهاده، فصلّى الله عليكَ وعلى آلكَ وسلَّم.

ثم يتأخّر قَدْرَ ذراعٍ ويُسلّم على أبي بكر الصدّيق، ثمّ يتأخّر قَدْرَ ذراع ويسلّم على عُمر بن الخطّاب ويقول: السلامُ عليكما يا وَزيري رسولِ الله، جزاكما الله أحسن الجزاء. ثم ليرجع فليقف عند رأسِ رسول الله ﷺ، وليُكثر من الدعاء والصلاة عليه، ثمّ ليقل: اللهمَّ إنّك قلتَ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤] وإنّي قد سمعتُ قولكَ، واتبعتُ أمركَ، وقصدتُ نبيّك مُستشفعاً به إليكَ في ذنوبي، وأنا

= وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٥٠، والدارقطني في السنن ٢/ ٢٧٨، والبيهقي في السنن ٥/ ٢٤٥ وأورده السيوطي في الدر المنثور ٢/ ٤٧٠، وانظر إرواء الغليل (١١٢٨).

(١) تقدم في الصفحة ٢٠٦.

(٢) تقدم في الصفحة ٢٠٧.

(٣) الصُّفر: النحاس.

تائب من زَللي معترف بخطأي، فتُب عليَّ وشفّع نبيَّك فيَّ. ثمّ يأتي الروضة فيُصلّي فيها، ويُستحبّ له أن يزور أهل البَقيع وشُهداء أُحُد، وليزر مسجد قُباء، وليصلّ فيه، وكلَّ موضع يعرفه من المواضع التي كان رسول الله ﷺ يصلّي فيها، أو بئرٍ كان يشرب منها، فإذا أراد الخروج ودَّعَ رسولَ الله ﷺ.

فصل
في سُنن الرجوع من السَّفر

أخبرنا عبد الأوّل قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعين قال: حدثنا الفِرَبري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا إسماعيل قال حدثني مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قَفَل من غَزوٍ أو حجٍّ أو عُمرة يكبّر على كلّ شَرَفٍ من الأرض ثلاثَ تكبيرات، ثمّ يقول: «لا إله إلا الله وَحده لا شريك له، لهُ الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، آيبون تائبون، لربنا حامدون، صدق الله وَعده، ونَصَر عبده، وهزم الأحزابَ وحده». أخرجاه في الصحيحين[(١)].

وينبغي أن يرسل إلى أهله من يُعلمهم بقدومه ليتأهبوا له ولا يطرقُهم ليلاً، ففي الصحيحين من حديث أنس أنّ النبي ﷺ كان لا يطرق أهله ليلاً، كان يدخل غدوةً أو عشيّاً[(٢)]. وفي الصحيحين من حديث جابر عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا أطالَ أحدُكم الغَيْبة فلا يَطْرق أهله ليلاً»[(٣)]. وإذا دخل البلد فليقصد المسجد أوّلاً وليصلّ ركعتين، ففي الصحيحين من حديث كعب بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد فصلّى فيه ركعتين ثمّ جلس فيه[(٤)]. فإذا دخل إلى بيته فليقل: تَوْباً تَوباً. ففي حديث ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ أنّه كان إذا دخل إلى أهله ـ يعني من السفر ـ قال: «توباً توباً، لربّنا أَوباً، لا يغادر علينا حَوْباً»[(٥)]. فإذا استقرّ

(١) أخرجه البخاري (١٧٩٧) و(٢٩٩٥) و(٤١١٦) و(٦٣٨٥)، ومسلم (١٣٤٤).
(٢) أخرجه البخاري (١٨٠٠)، ومسلم (١٩٢٨).
(٣) أخرجه البخاري (٥٢٤٤)، ومسلم في الإمارة ص ١٥٢٨ برقم خاص (١٨٣).
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٨٨)، ومسلم (٧١٦).
(٥) أخرجه أحمد (٢٣١١)، وابن أبي شيبة ١٠/٣٥٨ و٣٦٠، و١٢/٥١٧، وأبو يعلى
=

في منزله فليذكر نِعْمة الله عليه فيما رَزقه من قضاء الحجّ وبلوغ تلك المنازل، وليَسْتشعر غُفران ما مَضى من ذنوبه، وليحذر من العَوْد إلى التَّدنُّس بالذنّوب.

= (٢٣٥٣)، وابن حبان (٢٧١٦)، والطبراني في الكبير (١١٧٣٥) وفي الدعاء (٨٠٩)، وابن السنّي في عمل اليوم والليلة (٥٣١)، والبزار في كشف الأستار (٣١٢٧)، والحاكم ١/ ٤٨٨. والحَوبُ: الذنب والإثم.

الباب الثالث

في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

بيان دقائق الآداب، وهي عشرة:

الأول: أن تكون النفقةُ حلالاً، وتكون اليد خاليةً عن تجارةٍ تَشغَل القلب وتُفرِّقُ الهمَّ ليجتمع في العبادة، أخبرنا أبو منصور القزاز قال: أخبرنا أبو بكر الخطيب قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حَمّويه قال: حدثنا عبد الرحمن بن الحسن السَّرخسي قال: حدثني إسماعيل بن جُميع قال: حدثنا مُغيث بن أحمد البَلخي، قال: حدثني سُليمان بن أبي عبد الرحمن عن مَخْلد بن عبد الرحمن الأندلسي عن محمد بن عطاء عن جعفر ـ يعني ابن سليمان ـ قال: حدثنا ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ يحجُّ أغنياء أُمّتي للنزهة، وأوساطهم للتجارة، وقُرّاؤهم للرياء والسمعة، وفقراؤهم للمسألة».

الثاني: أن لا يعاون الصادّين عن بَيت الله بضرب المَكس من الأعراب فإنّ تسليم المالِ إليهم إعانةٌ على الظلم وتيسيرٌ لأسبابه عليهم، فهو كالإعانة بالنفس، وفي ذلك ذُلٌّ وصَغار على المسلم، وليتلطَّف في الخلاص منهم، فإن لم يقدر، فقد رأى بعضُ العلماء تركَ التنفّل بالحجّ لأجل ذلك.

الثالث: التوسُّع في الزاد وطيبُ النَّفس بالبذل والإنفاق من غير تَقتيرٍ ولا إسرافٍ، فقد أخبرنا يحيى بن علي المُدِير قال: أخبرنا القاضي أبو الحسين السِّمناني قال: أخبرنا أبو طاهر بن مَهدي، قال: حدثنا عُثمان بن أحمد السَّمرقندي، قال: حدثنا أبو أُميَّة قال: حدثنا عَمرو بن عثمان قال: حدثنا موسى بن أَعْين عن عطاء بن السائب عن عَلقمةَ بن مرثد عن ابن بُرَيدة عن أبيه عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «النَّفقة في الحجّ تُضاعف، كالنفقة في سبيل الله الدِّرهم بسبعمائة». وفي حديث جابرٍ عن النبي ﷺ أنّه قال: «حَجٌّ مبرور ليس له جزاءٌ إلّا الجنَّة» قالوا: يا

رسول الله ما برُّ الحجّ؟ قال: «إطعامُ الطعام، وإفشاءُ السلام». وكانَ عبدُ الله بن المبارك يحجُّ بإخوانه فيطعمهم أطيبَ الطعام وأطيب الحلوى، وكان أبو الشَّعثاء لا يُماكِسُ[(١)] في الكِراء إلى مكَّة، ولا في الرقبة يشتريها للعتق، ولا في الأُضحية ويقول: لا نُماكِسُ في كلّ شيءٍ نَتقرَّبُ به إلى الله عزّ وجلّ.

واعلم أنَّ بذلَ المال في تلك الطريق أَوْفَى من بذله في غيرها لأربعةِ مَعانٍ:

أحدها: أنَّ مَسَّ الحاجة هناك أشدّ من مَسّها في غيره. **الثاني**: أنّه لا بَلَدَ يلجأ إليه. **الثالث**: مُجاهدة النفس لقوّة بُخلها بالشيء مخافةَ الحاجة إليه. **والرابع**: أنّه إعانة للقاصدين على القصد.

وقد رُئِيَتْ زُبَيدة[(٢)] في المنام فقيل لها: ما فعَل اللهُ بك؟ فقالت: غَفر لي في أوّل مِعْولٍ ضُرِبَ به في طريق مكّة.

الرابع: تَركُ الرَّفث والفسوق والجدال، والرَّفث اسمٌ جامع للغو والخَنا والفحش من الكلام، ويدخل فيه مُغازلةُ النساء ومداعبتهنّ والتحدّث بشأن الجماع ومقدّماته، فإنّ ذلك يهيج داعية الجماع المحظور، والداعي إلى المحظور محظور. والفُسوق اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يخرج عن طاعة الله تعالى. والجِدال المبالغة في الخصومة والمماراة ممّا يُورثُ الضَّغائن ويناقض حسن الخلق، فينبغي للمسافر إلى الحجِّ حُسن الخلق، وليس هو كف الأذى فحسب بل احتمال الأذى، وإنما سُمِّيَ السَّفَر سَفراً؛ لأنّه يُسفر عن أخلاق الرجال. قال مجاهد: صحبتُ ابنَ عمر وأنا أُريد أن أَخْدمه، فكان يخدمني أكثر.

---

(١) يقال: ماكَسَه في البيع مُماكسةً، أي طلب منه أن ينقص من الثمن.

(٢) هي زبيدة بنت جعفر بن المنصور العباسي، زوجة هارون الرشيد، تزوجها الرشيد سنة (٦٥) هجرية، وكانت شديدة البر تكثر من أعمال الخير، فقد سَقَت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، فأسالت المياه من عشرة أميال إليها، ومهدت طريق الحجاج من بغداد إلى مكة وعملت فيه البِرَك والآبار والمنازل، توفيت سنة (٢١٦ هـ). أعلام النساء ٢/ ١٧.

الخامس: أن يحجَّ ماشياً إن قدر، وقد سبق ذكر فَضل حجّ الماشي، والاستحباب في المشي في المناسك والتردّد من مكّة إلى الموقف وإلى منى آكَدُ منه في الطريق. وقد قال بعضُ العلماء الركوبُ إلى مكّة أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤونة، وهذا بعيدٌ؛ لأنّ مشقَّة البَدَن عند أكثر الناس أعظم من مشقَّة إخراج المال، وقد علّل بعضهم فقال: الركوب أبعد من ضَجَر النفس. ونحنُ نقول: مَن كان ضعيفاً يتأذّى بالمشي فيؤدّيه إلى سوءِ خُلق وقُصور عن عمل، فالركوب له أفضل، ومن سَهُلَ عليه المشي فهو أفضل.

السادس: أن يجتنب المحمل ويركب الزَّامِلة[١]، إلّا أن يخاف أن لا يَسْتَمسِك[٢] على الزامِلة لعذرٍ وفي ذلك معنَيان: **أحدهما**: التَّخفيف عن البَعير، فإنَّ المحمل يُؤذيه. **والثاني**: اجتناب زِيّ المُترفين والمتكبّرين، فإنّ رسول الله ﷺ حجَّ على راحلةٍ وتحته رَحلٌ رَث. وقيل: إنَّ أوّل من أحدث المحامل الحُجّاج.

السابع: أن يكون رَثَّ الهيئة أشعثَ أغبر، غير مستكثرٍ من الزينة، ولا مائلٍ إلى أسباب التفاخر والتَّكاثر، ففي حديث جابرٍ عن النبي ﷺ: «إنّ الله تعالى يُباهي بالحاجّ الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي أَتَوني شُعثاً غُبراً من كلّ فَجٍ عميق أُشهدكم أني قد غَفرتُ لهم. فتقول الملائكة: ربِّ فيهم فلانٌ وفُلانة. فيقول الله عزّ وجلّ: قد غفرتُ لهم. فقال رسول الله ﷺ: فما من يوم أكثر عَتيقاً من يومِ عرفة ولا يُغفَر فيه[٣] لمُختال».

الثامن: أن يرفق بالدابّة ولا يُحمّلها ما لا تطيق، ولا ينام عليها، وقد سبق ذكر هذا في أوّل كتاب الحجّ[٤].

التاسع: أن يتقرّب بإراقةِ دمٍ، ويجتهد أن يكون من سَمين النَّعم ونَفيسِه، وليأكل منه إن كان تطوّعاً ولا يماكِس في شِرائِهِ، وقد سُئلَ رسولُ الله ﷺ: «ما برُّ

(١) الزاملة: البعير الذي يُحمل عليه الزمالة وهي أداة المسافر.

(٢) في الأصل: «يتمسك».

(٣) سقطت من الأصل.

(٤) تقدم في الصفحة: ٢١٧.

الحجّ؟ فقال: العَجُّ والثَّجُّ»، والعجُّ: رفع الصوت بالتلبية، والثَّجُّ: صَبُّ الدم بالنحر. وقد سبقَ فَضلُ الأضاحي[١].

العاشر: أن يكون طَيّب النفسِ بما أنفقه وبما أصابه من أذى في مالٍ أو بَدَن.

بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النيّة وطريق الاعتبار بالمَشاهد الشريفة وكَيفية الافتكار فيها والتذكّر لأسرارها ومعانيها من أوّل الحجّ إلى آخره

اعلم أنَّ أوّل الحجّ الفَهم أعني: فهم موقع الحجّ من الدين، ثمّ الشَّوق إليه، ثمّ العَزم عليه، ثمَّ قَطع العلائق المانِعَة منه، ثمّ شراء ثَوب الإحرام، ثمّ شراء الزاد، ثمّ اكتراء الراحلة، ثمّ الخروج، ثمّ السَّير في البادية، ثمّ الإحرام من الميقات بالتلبية، ثمّ دخول مكّة ثمَ استِتْمام الأفعال كما سبق، وفي كلّ واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكّر، وعبرة للمعتبر، وتنبيه للمريد الصادق، وإشارة للفَطِن، فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتَح بابُها وعُرفَت أسبابها انكشف لكلّ حاجٍّ من أسرارها ما يقتضيه صفاء قَلبه وطهارة باطنه وغزارة علمه.

أمّا **الفهم**: فاعلم أنّه لا وصول إلى الله سبحانه إلا بالتجرُّد له، والانفراد بخدمته، وقد كان الرُّهبان ينفردون في الجبال طَلباً للأُنس بالله عزّ وجلّ، فجُعِلَ الحجُّ رهبانيّةً لهذه الأُمّة، فَشرَّف اللهُ تعالى البيتَ بإضافته إليه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعلَ ما حواليه حَرَماً له تفخيماً لأمرِه، وجعل عَرفةَ كالميدان على فناء حَرَمه، وأكَّد حُرمةَ الموضع بتحريم صَيده وشَجره، ووضَعه على مثال حضرة الملوك يَقصده الزوّار من كلّ فَجّ عميق شُعثاً غُبراً متواضعين لربّ البيت خُضوعاً لجلاله، واستكانةً لعزّته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيتٌ أو يكنّه بلد ليكون ذلك أبلغ في عُبوديَّتهم وأتمّ في دعائهم وانقيادهم، ولذلك وظَّف عليهم في الحجّ أعمالاً لا تأنسُ بها النفوس ولا تَهتدي إلى معانيها العقول، كرمي الجِمار

---

(١) تقدم في الصفحة: ٢٢٦.

بالأحجار، والتردّد بين الصَّفا والمروة مراراً، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمالُ الرِّق والعبوديّة، وفي ذلك عَزلٌ للعقل عن تصرّفه، وصرفٌ للطبع عن محل أُنْسِهِ على ما أشرنا إليه في إخراج القِيَم في الزَّكاة.

وأما الشوق فإنما ينبعث بعد الفَهم والتحقُّق(١) بأنَّ البيتَ بيتُ الله، وأنَّ قاصده قاصدٌ إلى اللهِ سبحانه وزائرٌ له، وأنّ هذا القاصد جدير بأن يُرزَق الزيارة في الآخرة، وأن يُمدّ بصره بقوّة يستعدّ معها للنظر إلى الله سبحانه.

وأمّا العزم، فليعلم أنّه بعزمِه قاصد إلى مُفارقة الأهل والوطن وهجر الشهوات، متوجّه إلى زيارة بيت الله، فليعظم في نفسه قدرَ البيت، وليجعل عزمه خالصاً لله سبحانه، والإخلاص بصحّة القصد وإفراده له واجتناب كلّ ما فيه رياءٌ وسُمعة.

وأمّا قَطعُ العلائقِ، فمعناه: ردّ المظالم؛ لأنّ كلّ مظلمة علاقة، وكلّ علاقة غريمٌ حاضرٌ يتعلّق بتَلبيب(٢) هذا القاصد ويقول: أين تَتَوجَّه؟ أتقصد بيتَ الملك وأنت مُضيّع أمره في منزلك؟ أفما تخاف أن يردّك إذا قَدِمت عليه؟ فنفِّذْ أوامره أوّلاً، وتُب إليه لتكون متوجِّهاً نحوه بوجهِ قلبك، كما أنّك متوجّه إلى بيته بوجه ظاهرك لئلّا يكون نَصيبك النَّصَب.

وليَكتُب وصيّةً، فإنّ المسافر وماله لعَلَى قَلَت(٣) إلّا ما وَقى الله عزَّ وجلّ، وليذكر بذلك قَطع العلائق لسفرِ الآخرة.

وأمّا الزاد، فليطلبه من حِلّه، وإذا رأى نفسه تَطلب من الزاد ما يبقى في طول السفر ولا يَفسد، فليذكر زاد الآخرة، فليحذر أن تكون أعماله فاسدةً بالرياء والتقصير فلا تصحبه، كالطعام الرَّطب الذي يَفسد في أوّل منازل السفر، فيبقى صاحبه وقت الحاجة مُتحيراً.

---

(١) في الأصل «التحقيق».
(٢) التَّلبيب واللَّبَب: ما يقع على اللَّبَّةِ ـ وهي النحر ـ من الثياب.
(٣) القَلَت: الهلاك.

وأمّا الراحلة، فإذا أحضرها فليشكر الله تعالى على ما سخّر له، وليذكر ركوب الجنازة، وربّما ركبها قبل ركوب الناقة.

وأمّا شراء ثوب الإحرام، فليتذكّر عنده الكَفَن، فإنّه سيلقى الله في زيٍّ مخالف لزيّ أهل الدنيا.

وأمّا الخروج عن البلد، فليُحضر قلبه لذلك، وليتفكّر في أنّه زائر لربّه وليَرْجُ الوصول والقبول ثقةً بفضل الله لا إدلالاً بأعماله، فإن لم يصل رَجا أن يُجعل مع الواصلين لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وأمّا دخول البادية ومشاهدة تلك العِقاب، فليتذكّر به ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال، وليذكر من هَول قطّاع الطريق هول سؤال مُنكَر ونَكير، ومن سباع الأودية عَقارب القبر وديدانه، ومن انفراده عن أهله وَحشَة القبر ووَحدته، فليتزوّد لتلك الشدائد.

وأمّا الإحرام والتلبية، فليعلم أنّ معناه إجابة نداء الله تعالى، فليَرْجُ القبول، وليخشَ أن يقال له: لا لبّيك ولا سَعديك. فقد حجّ عليّ بن الحسين، فلما أحرم واستَوت به راحلته اصفرّ لونُه وارتعد ولم يستطع أن يُلبّي، فقيل: مالك لا تُلبّي؟ فقال: أخشى أن يقول لي: لا لبّيك ولا سَعديك. فلما لبّى غُشيَ عليه. ولما حجّ جعفر الصادق فأراد أن يُلبّي تغيّر وجهه، فقيل: ما لك يا ابن رسول الله؟ فقال: أريد أن أُلبّي فأخاف أن أسمع غير الجواب. وقال أحمد بن أبي الحَواري: كنتُ مع أبي سُليمان الداراني[1] حين أراد أن يُحرم فلم يُلبّ حتى سِرنا ميلاً ثمّ غُشي عليه، فأفاق وقال: يا أحمد أوحى الله تعالى إلى موسى: مُرْ ظَلَمةَ بني إسرائيل لا يذكروني، فإنّي أذكر من ذكرني منهم باللّعنة، وَيحك يا أحمد، بلغني أنّ من حجَّ من غير حلّه ثمّ لبّى قال الله عزّ وجلّ: لا لبّيكَ ولا سعديك حتى تردَّ ما في يديك. فما نَأمنُ أن يُقال لنا ذلك.

---

(١) ليست في (ظ).

أخبرنا أبو بكر بن حبيب قال: أخبرنا عليّ بن أبي صادق قال: أخبرنا ابن باكويه قال: (١سمعتُ الحسن بن أحمد الفارسي يقول: سمعت محمد بن داود الدينوري يقول١): سمعت أبا عبد الله بن الجَلّاء يقول: كنتُ بذي الحُليفَة وشابٌّ يُريد أن يُحرم، فكان يقول: يا ربّ، أريد أن أقول: لبّيك اللهمّ لبّيك، فأخشى أن تُجيبني بلا لبّيك ولا سَعديك. يُردِّد ذلك مراراً، ثمّ قال: لبّيكَ اللهمّ. مدَّ بها صوتَه، وخرجت روحه.

وليتذكر المَلَبّي لإجابة نداءِ الله تعالى إذ قال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] إجابةَ الخلق لنداء الصّور، وازدحامَهم في عَرصاتِ القيامة مُنقسمين إلى مقبولٍ ومَردود.

وأما دخول مكّة، فليتذكّر عنده أنّه قد انتهى إلى حرم آمنٍ، فليَرجُ الأمنَ من العقوبة، وليخشَ أن لا يكون أهلاً للقُرب، غير أنّه ينبغي أن يكون الرجاء غالباً؛ لأنّ الكرم عميم، وحقَّ الزائرِ مَرعيٌّ، وذمام[٢] المستجير لا يُضَيَّع.

وأمّا وقوع البصر على البيت، فينبغي أن يُحضر عنده عظمةَ البيت في القلب، فانظر إليه بعين الإضافة لا بعين أنّه حجر، وقدِّر أنك مشاهدٌ لربّ البيت وارْجُ أن يَرزقك النظر إليه كما رزقك النظر إلى بيته، واشكر تبليغك هذه الرتبة، وإلحاقك بزُمرة الوافِدين.

وأمّا الطواف بالبيت، فإنّه صلاةٌ، فأحضِر قلبك من التعظيم والرجاء ما تُحضِرُه في الصلاة، واعلم أنّك مُتشبِّه بالطواف بالملائكة الحافّين حولَ العرش، ولا تظنَّ أنَّ المقصود طوافُ جسمك بالبيت بل طوافُ قلبك بذكر ربِّ البيت.

وأمّا الاستلام، فاعتقِدْ عنده أنّك مُبايع لله على طاعته، فصمِّم عزيمتك على الوفاء ببيعتك، فإنَّ من غَدر استحق المقت. قال ابن عبّاس: الحجر الأسود يمينُ الله في الأرض يُصافح عباده كما يصافح أحدكم أخاه.

(١ـ١) سقط من (ظ).

(٢) الذِّمام: العهد والأمانة والحق والحرمة.

وأمّا التعلُّق بأستار الكعبة والالتصاق بالمُلتَزَم، فتذكَّر به لَجَأَ المذنبِ وقُربَ المُحِبّ، أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا أبو الحُسين بن يعقوب قال: قال لنا القاضي أبو الحَسن بن صَخر الأَزديّ: تعلّقَ رجلٌ بأستارِ الكعبة وأنشد:

سُتورُ بَيتكَ ذيلُ الأمنِ منكَ وقدْ عُلِّقتُها مستجيراً أيّها الباري

وما أَظنكَ لما أن عَلِقْتُ بها خَوفاً من النار تُدْنيني إلى النارِ

وها أنا جارُ بيتٍ أنتَ قُلتَ لنا حُجُّوا إليه وقد أوصيتَ بالجارِ

وأمّا السَّعيُ بين الصفا والمروة، فإنّه يُضاهي تردُّد العبد بفناء دار المَلِك إظهاراً لخلوص الخِدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك ثمّ خرج ولا يَدري ما يقضي به الملكُ في حقّه من قبول أو ردّ، فهو يتردَّد على فناء الدار مرَّةً بعد أُخرى، وليتذكّر عند تردّده تردُّده بين كَفَّتي الميزان في عَرَصات القيامة، وليُمثِّل الصَّفا كفَّة الحسنات، والمَروة كفَّة السيِّئات.

وأمّا الوقوف بعرفة، فاذكُر بما ترى من ازدِحام الخلق، وارتفاع الأصوات، واختلاف اللُّغات، واتّباع كلّ فريق إمامهم في التردّد في المشاعر اقتداءً باتِّباع الأُمم أنبياءَها، وطمعهم في شَفاعتهم، وما يخلو ذلك الجمع من الأولياء وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت هِمَمهم على طلب الرحمة، فلا تَظنَّن أنّ أملهم يَخيب.

وأمّا رمي الجمار، فاقصد به الانقيادَ للأمر إظهاراً للرقِّ والعبوديّة، وانتهاضاً لمجرّد الامتثال من غير حَظٍّ للعقل والنفس، ثمّ اقصد به التشبُّه بالخَليل حين عرضَ له إبليسُ هناك، فإن خَطر لك أنّ إبليس إنّما عرض لذاك ولم يَعرض لي فأرميَهُ، فاعلم أنّ هذا من إلقاء الشيطان ليُفتِّر عزمك ويُخيِّل لك أنّ الرمي فعلٌ لا فائدةَ فيه، فاطرُد هذا عن نفسك بالجدِّ في الرمي، وارمِه لهذا الوسواس.

وأمّا ذبح الهَدي، فاعلم أنه يُقرّب إلى الله عزّ وجلّ بحكم الامتثال فَجوِّدْه وارجُ ثَوابَه.

وأما زيارة المدينة، فإذا لاحت لك فتذكّر أنها البلدة التي اختارها اللهُ سبحانه لنبيِّه ﷺ، وجعل إليها هِجرتَه، وشرع فيها فرائضه وسُنَنه، وجعل فيها تُربته، ثمّ مَثِّل في نفسك مواقع أقدام النبي ﷺ عند تردُّده فيها، وتصوَّر خُشوعه وسكينته في المشي، وتذكّر ما منّ الله به على أصحابه وتأسَّفْ على ما فاتك من ذلك، واذكر أنه قد فاتتك رؤيته في الدنيا، وأنت من رؤيته في الآخرة على خَطَر، ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أنا فَرطُكم على الحَوض، ليُختَلجَنَّ رجالٌ دوني، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: إنّك لا تَدري ما أحدثوا بعدك». وفي الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنّه قال: «لَيردنّ عليَّ أقوامٌ أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحالُ بيني وبينهم». قال أبو حازم: فسمعني النُّعمان بن أبي عَياش وأنا أُحدّثهم هذا الحديث، فقال: وأنا أشهد على أبي سَعيد الخدري لسمعته يزيد: «فيقول: إنّهم منّي. فيقال: لا تدري ما عملوا بعدك. فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن بدَّل بعدي». ثمّ ليترجَّح في قلبك الرجاء بأنّه لا يُحال بينك وبينه، لما رزقك الله تعالى من الإيمان، وأشخَصكَ لزيارته بمَحضِ حبٍّ له[1] وشوقٍ إليه.

فإذا رأيتَ مسجده فتذكّر أنّها العَرصةُ التي اختارها الله تعالى لنَبيّه، ولأوّل المسلمين وأفضلهم، وأنّ فرائضَ الله تعالى إنّما أُقيمت أوّلاً هنالك.

وأمّا زيارة قَبره، فأحضِر قلبك لتعظيمه والهيبة له، ومَثِّل صورتَه الكريمة في خَيالك موضوعاً في اللَّحد بإزائك، وأَحضر عظيم[2] رُتبته في قَلبك، واعلم أنه عالمٌ بحضورك وتَسليمك؛ أخبرنا هبةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن عليّ قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حَدثني أبي قال: حدثنا عبد الله بن يزيد قال: حدثنا حَيوة قال: حدثني أبو صَخر أنَّ يزيد بن

(١) ليست في (ظ).
(٢) في الأصل: «عظم».

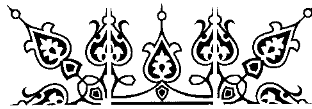
عبد الله بن قُسيط أخبره عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «ما مِن أحدٍ يُسلّم عليَّ إلّا ردَّ اللهُ إليّ[1] روحي حتّى أَرُدَّ عليه السلام»[2].

قال الإمام أحمد: وحدثنا ابن نُمير قال: حدثنا سُفيان بن عبد الله بن السائب عن زاذانَ قال: قال عبدُ الله[3]: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ في الأرض ملائكةً سَيَّاحين، يُبلِّغوني من أمَّتي السَّلام»[4].

ثم ائْتِ المنبر وتَوهَّم صعوده ﷺ عليه، ومَثِّل في قلبك طلعته البهيَّة، قائماً على المنبر، وقد أحدقَ به المهاجرون والأنصار، وهو يحثُّهم على الخير.

فهذه وَظيفةُ القلب في أعمال الحجّ، فإذا فرغ منه كلّها، فينبغي أن يلزم قلبه الخوف، فإنّه لا يدري أقُبِلَ منه حجُّه أم رُدَّ؟ وليتعرَّف ذلك من قلبه وأعماله، فإنْ صادفَ قلبَه قد تجافى عن دار الغرور وانصرفَ إلى الأُنْس بالله سبحانه، ورأى أعماله قد اتَّزَنت بميزان الشرع، فليعلم أنّ هذا دليل القبول، وإنِ كان الأمر بخلاف ذلك، فيوشك أن يكون حظُّه من السفر النَّصَب، نَعوذُ بالله من ذلك.

آخر كتاب أسرار الحج.



(١) ليست في الأصل.

(٢) أخرجه أحمد (١٠٨١٥)، وأبو داود (٢٠٤١)، والبيهقي في السنن ٥/ ٢٤٥، والطبراني في الأوسط (٣١١٦).

(٣) يعني ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٣٦٦٦) و(٤٢١٠) و(٤٣٢٠)، وعبد الرزاق (٣١١٦)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٤٣، وفي عمل اليوم والليلة (٦٦)، والدارمي ٢/ ٣١٧، والبزار (٨٤٥) (زوائد)، والطبراني في الكبير (١٠٥٢٩) و(١٠٥٣٠)، والحاكم ٢/ ٤٢١، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٠٠، والبغوي في شرح السنة (٦٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٨٢).

كتاب آداب تِلاوة القُرآن

الحمدُ لله الذي أنعم علينا بإنزال الكتاب، ودلّنا على فُنون الحكم والآداب، وأعلمنا بإعجازه أنّه كلامُ رَبِّ الأرْباب، لا تَنتهي عجائبه وكلُّه عُجاب، هو حبلُ الله المتين أوثق الأسباب، وأهلُه أهلُ الله فيا شَرَف الانتِساب، نَبَّه ودلّ على ما قلَّ وجلَّ من خطأ أو صَواب، تَشتاق إليه قُلوب العُلماء اشتياق الظمآن إلى[1] الشراب، فإذا تلوه حادثهم فإذا الحاضر قد غاب ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ فإذا استفادوا مادوا[2] مَيْدَ الغُصونِ الرِّطاب، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] أحمده إذا شَغلَنا بتلاوته عن مِزْهَرٍ[3] ورَباب[4]، وأصلّي على رسوله الذي شرّف به على الأنبياء شرف المصحوب على الأصحاب، وعلى كلّ من آبَ إلى اتّباعه إلى يوم الحَشر والمآب.

أمّا بعد: فإنّ القرآن العزيز أعلم العلوم، وفَهم ما فيه أوفى الفهوم؛ لأن شرف العلم بشَرف المعلوم، ونحن نذكر ما يتعلّق بتلاوته وآدابه في أربعة أبواب، والله الموفق للصواب.

الباب الأول: في ذكر فَضل القرآن وأهله.

الباب الثاني: في آداب التلاوة في الظاهر.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) مادوا: أي تحركوا وتمايلوا طرباً.

(٣) المزهر: العود، الآلة الموسيقية المعروفة.

(٤) الرباب: آلة موسيقية شعبية ذات وتر واحد.

الباب الثالث: في الأعمال الباطِنة عند التلاوة.

الباب الرابع: في فَهم القرآنِ[1]، وتفسيره بالرأي وغيره.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «القراءة».

الباب الأول

في فَضل القُرآن وأهله وذمِّ المقصِّرين في تلاوته

أعظم فضائل القرآن أنّه كلام الله عزّ وجلّ، وقد مدحه الله عزّ وجلّ في آياتٍ كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

وفي أفراد البخاري[١] من حديث عثمان بن عفّان عن النبي ﷺ أنّه قال: «خَيركُم من تعلَّم القرآنَ وعلَّمه».

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الصمد قال: حدثنا عبد الرحمن بن بُدَيل العُقيلي عن أبيه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله عزّ وجلّ أهلين من الناس». فقيل: من أهل الله منهم؟ قال: «أهل القرآن هُم أهل الله وخاصَّتُه».

أخبرنا علي بن عُبيد الله وأحمد بن الحسن البَنَّاء وعبد الرحمن بن محمّد القَزَّاز قالوا: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون قال: حدثنا علي بن عمر السكري قال: حدثنا محمّد بن علي الحفّار قال: حدثنا داود بن رشيد قال: حدثنا داود بن الوليد بن مسلم عن ابن لَهيعة عن مِشْرَح بن هاعان عن عُقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يعذِّبُ الله قلباً وَعَى القرآن».

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن عاصم عن زِرٍّ عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال:

---

(١) في (ظ): «وفي الصحيحين»، وهو خطأ فالحديث من أفراد البخاري.

«يُقال لصاحبِ القرآن: اقرأ، وارقَ، ورتِّل كما كنتَ تُرتّل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آيةٍ تَقرؤها».

قال أحمد: وحدثنا أبو نُعيم قال: حدثنا حسين بن المهاجر قال: حدَّثني عبد الله بن بُريدة عن أبيه عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنَّ القُرآن ليلقى صاحبه يومَ القيامة حين ينشق عنه قَبره، كالرجل الشاحب، فيقول: هل تَعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القُرآن الذي أَظمأتُكَ في الهَواجِر(١)، وأسهرتُ ليلك، وإنَّ كلَّ تاجرٍ من وراء تجارته، وإنَّك اليوم من وراء كلّ تجارة. فيعطَى الملكَ بيمينه والخُلدَ بشماله، ويوضَع على رأسه تاجُ الوقار ويُكسى والداه حلَّتين لا تقوم لَهما الدنيا، فيقولان: بما كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذِ ولدكما القرآن. ثمّ يُقال له: اقرأ واصعد في دَرج الجنّة وغُرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذّاً(٢) كان أو ترتيلاً».

أخبرنا علي بن عبد الواحد الدّينوري قال: أخبرنا الحسين بن محمّد الخلال قال: حدثنا أحمد بن جعفر القَطِيعي قال: حدثنا إدريس بن عبد الكريم قال: حدثنا خَلف بن هشام عن بشر بن نُمير عن القاسم مولى خالد بن يزيد قال: أخبرني أبو أُمامة الباهلي أن رسول الله ﷺ قال: «مَن قرأ ثُلث القرآن أُعطي ثلث النبوة، ومن قرأ ثلثَيه أُعطي ثلثَي النبوّة، ومن قَرأ القرآن فكأنَّما أُعطي النبوّة كلّها، ويُقال له يوم القيامة: اقرأْ وارقَ لكلّ آية درجةً حتى ينجز ما معه من القرآن ويقال له: اقبض. فيقبض بيده، ثمّ يقال له: اقبض. فيقبض بيده، ثمّ يقال له: تَدري ما في يديك؟ فإذا في يده اليمنى الخُلد، وفي الأخرى النَّعيم».

أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه عن ابن عبّاس قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ الرجل الذي ليسَ في جوفه من القرآن شَيءٌ كالبَيتِ الخَرِب». وفي حديث سعد بن عُبادة عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما من

(١) جمع هاجرة، وهي اشتداد الحَر منتصف النهار.
(٢) هَذَّ القرآنَ: أسرعَ في قراءته.

امرئٍ يقرأ القرآن ثمّ ينساه إلّا لقيَ الله يوم القيامة أجْذَم»(١).

وقال أبو العالية: كُنّا نَعُدُّ من أعظم الذنوب أن يتعلّم الرجل القرآن ثمّ ينام عنه حتى ينساه. وقال طلقُ بن حَبيب: من تعلَّم القرآنَ ثمّ نَسيه حُطَّ بكلّ آيةٍ درجة، وجاء يوم القيامة مخصوماً.

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُورجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا محمّد بن بَشّار قال: حدثنا أبو بكر الحنفي قال: حدثنا الضحّاك بن عثمان عن أيّوب بن موسى قال: سمعت محمّد بن كعب القُرظي يقول: سمعتُ عبد الله بن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

وقال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناسُ نائمون، وبنهاره إذا الناس مُفطرون، وبحُزنه إذا الناس يَفرحون، وببُكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخُشوعه إذا الناس يختالون(٢).

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً حكيماً حليماً سِكّيتاً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً ولا غافلاً ولا صَخّاباً ولا صَيّاحاً ولا حَديداً(٣).

وقال الحسن: والله ما دون القرآن من غِنى، ولا بعده من فاقَة.

وقال الفُضيل: حامل القرآن حاملُ راية الإسلام، ولا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يَسهو مع من يسهو، ولا يَلغو مع من يلغو تعظيماً لحقّ القرآن، ولا ينبغي أن تكون له إلى أحدٍ حاجة إلى الخلفاء فمن دونهم، وينبغي أن تكون حوائج الناس إليه.

---

(١) الأَجذم: المصاب بالجُذام، وهي علة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط.

(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن: ٥٢، وأحمد في الزهد ٢٠٢ ـ ٢٠٣، والآجرّي في آداب حملة القرآن (٣٩) والبيهقي في شعب الإيمان (١٨٠٧).

(٣) أي صاحب حِدَّةٍ في الخلق فيغضب سريعاً.

وقال أحمد بن حنبل: رأيتُ ربَّ العزَّة في المنام، فقلت: يا ربّ، ما أقرب ما تقرَّبَ به إليكَ المتقرِّبون؟ فقال: كلامي يا أحمد، فقلت: يا ربّ بفَهمٍ أو بَغير فَهم؟ فقال: بفهمٍ وبغير فَهم[١].

---

(١) أخرجه المصنف في مناقب الإمام أحمد: ٥٨٣، ومن الممكن للمؤمن أن يرى ربه في المنام كما حدث للنبي ﷺ حيث قال: «إني قمت من الليل فصليت ما قُدر لي فنعستُ في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدري فيمَ يختصم الملأ الأعلى فقلت: لا أدري...» وهو حديث طويل مشهور في المنام أخرجه أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٣).

الباب الثاني

في ظاهر آداب التلاوة

وهي عشرة:

الأوّل في حال القارئ: وهو أن يكون على وضوء، مستعملاً للأدب، مُطرقاً غير مُتربعٍ ولا متّكئ ولا جالس على هيئة التكبّر، وأفضل الأحوال أن يقرأه في الصلاة قائماً، وأن يكون في المسجد.

الثاني: في مقدار القراءة: وقد اختلفت عادات السَّلف في ذلك، فمنهم من كان يختم كل يومٍ وليلةٍ ختمةً، ومنهم من كان يختم خَتمتين، ومنهم ثلاث ختمات، وهؤلاء الذين غلبت عليهم مبادرة العمر وانتِهائه، ومنهم من كان يختم كلّ أسبوع اشتغالاً بنَشر العلم وتعليمه، أو بنوعٍ من التعبُّد غير القراءة، أو بفَنٍّ من اكتساب الدنيا، ومنهم من كان يَختم كلَّ شهرٍ اشتغالاً بالتَّدبُّر، وأولى الأمور ما لا يمنع الإنسان من أشغاله المهمَّة، ولا يُؤذيه في بَدنه، ولا يَفوتُه معه التَّرتيل والفَهم، وهذا يختلف باختلاف الناس في السرعة والتوقّف، وقلّة الأشغال وكثرتها، وإطاقة البَدن وضَعفه، ومن وجد خلسةً في وقت فاغتنم كثرة الثواب في كثرة التلاوة فقد أحسن، فقد كان عُثمان بن عفّان رضي الله عنه يقرأ القُرآن في ركعةٍ يوتر بها، وكان الشافعي يَختم في رمضان ستين خَتمة.

فأما الدوام فليكن على مقدار الإمكان الذي أشرنا إليه، وأَعدَله أن يختم في كلّ ثلاثةِ أيامٍ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لم يَفقه من قرأ القُرآن في أقلَّ من ثلاث».

وقد استحبَّ بعضُ العلماء أن يختم الإنسان في الأسبوع خَتمتين؛ ختمةً بالليل، وخَتمةً بالنهار، وأن يجعل ختمةَ النهار في بُكرة الاثنين في ركعتي الفَجر أو

بعدهما، وختمة الليل يوم الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما، ليستقبل بالختمة أوّل النهار وأوّل الليل، أخبرنا إسماعيلُ بن أحمد قال: أخبرنا ابن النَّقور قال: أخبرنا ابنُ حَبابة قال: حدثنا البَغوي قال: حدثنا هُدْبة قال: حدثنا حَمَّاد بن سلمة عن أبي مَكين عن طلحة بن مُصرِّف قال: من خَتم القرآن في أيّ ساعةٍ من النهار كانت، صلّت عليه الملائكةُ حتى يُسمي، وأيّ ساعةٍ من الليل كانت صلَّت عليه الملائكة[1] حتى يُصبح. وقد روينا هذا عن طلحة بن مصرّف عن الحكم بن صفوان أنّه قال: وقد روينا في آداب الجمعة عن إبراهيم النخعي مثل هذا.

وقال عبد الرحمن بن الأسود: من قرأ القرآن فختمه نهاراً غُفر له ذلك اليوم، ومن ختمه ليلاً غُفر له تلك الليلة.

وقال مجاهد: تنزل الرحمة عند ختم القرآن.

وقال ابن مسعود: من ختم القرآن فله دعوةٌ مستجابة.

وكان أنس بن مالك إذا ختم القرآن جمع أهله ودَعا.

وقال محمّد بن جُحادة: من خَتم القرآن صلّى عليه كل مَلَك.

الثالث: في وجه القسمة: فَمن أراد خَتْمهُ في يومين قرأَ النصف كلّ يوم، أو في ثلاثة قرأ الثُّلث، أو في أربعة قرأ الربع، كذلك إلى السَّبع لتتساوى الأيّام في مقدار التلاوة، ولا ينقص في يوم ويزيد في يوم.

الرابع: في الكتابة للمصحف: يستحبّ كتابة المصحف وتَبيينُه، ولا يُكره النَّقْط والشَّكلُ لكنه يكون بغير لون المِداد؛ لأنّ ذلك يمنع التالي من اللَّحن، فأمّا مَن كره هذا وقال: جَرِّدوا القرآن. فإنّهم خافوا من فَتح هذا الباب إحداث زيادات، والآن فقد استقرّ الأمر فلا وجهَ للكراهة.

(١) ليست في الأصل.

الخامس: الترتيل: وله مقصودان:

أحدهما: أنه أقرب إلى الاحترام والتعظيم.

والثاني: أنّ المقصود من القراءة التفكُّر، والترتيلُ معينٌ عليه، ولذلك نَعتت أمُّ سلمة قراءةَ رسول الله ﷺ، فإذا هي تنعتُ قراءةً مفسَّرةً حرفاً حرفاً. وقال ابن عباس: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أُرتّلهما وأتدبّرهما أحبّ إليّ من أن أقرأ القُرآن كلّه هَذّاً.

السادس: القراءة بتَحزين وبكاء: وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما أَذِنَ[1] اللهُ لشيء ما أذِن لنبيّ يتغنَّى بالقُرآن». وفي لفظ أخرجه البخاري: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقُرآن».

وقال الشافعي: يتحزَّنُ به: يترنَّم به، يَقرؤه حَدْراً[2] وتحزيناً، وليس من أنّه يَسْتغني به.

وقال ابن الأعرابي[3]: كانت العربُ تَتغنّى بالرّكباني إذا ركبت الإبل، وإذا جلست في الأَفْنية، وعلى أكثر أحوالها، فلمّا نزل القرآن أحبَّ رسول الله ﷺ أن يكون القرآن هِجّيراهُم[4] مكان التغنّي بالركباني[5].

واعلم أنَّ القراءة بالتَّحزين تُحرّك داعية البكاء، فمن أحضر مع ذلك قلبه لفهم الوعد والوَعيد، وتفكَّر في تقصيره في الأوامر والزواجر حَزِن وبكى، فإن لم يجد ذلك، فليبك على عَدمه.

السابع: أن يتعوّذ قبل القراءة: فيقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

---

(١) قوله: «ما أذن» أي: ما استمع.

(٢) حَدَرَ القراءة: أسرعَ فيها. وقول الشافعي أخرجه البيهقي في المناقب ١/ ٢٨٠.

(٣) هو أحمد بن زياد أبو سعيد المحدث نزيل مكة وشيخ الحرم، توفي سنة ٣٤٠ هـ. سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٠٧.

(٤) هجّيراهم: دأبهم وعادتهم.

(٥) أورده الخطابي في معالم السنن ١/ ٢٩١، والقرطبي في التفسير ١/ ١٣.

الثامن: أن يراعي حقّ الآيات: فإذا مرَّ بآية سجدةٍ سجد، وكذلك إذا قصد السَّماع من غيره سجد إذا كان على وضوء، ولكن بشرط أن يسجد التالي، وإذا مرَّ بآيةِ دعاءٍ وسؤالٍ سألَ، أو بآية عقابٍ تعوَّذ.

التاسع: إسرار القراءة في غير الصلاة، فأما حكمها في الصلاة فمَعروف، فقد جاء في الحديث: «فضل قراءة السرِّ على قراءة العَلانية كفضلِ صدقة السرِّ على صدقة العَلانية». وفي لفظٍ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصَّدقة، والمُسِرُّ به كالمُسِرِّ بالصدقة». وقد جاء في الحديث: «إنّ عمل السرّ يَفضُلُ على عمل العلانية سَبعين ضعفاً». إلّا أنّه ينبغي أن يُسمع نفسه، فإنّ ذلك لا ينافي الإسرار، ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات لمقصودٍ صحيح إمّا ليُجوّدَ الحفظ، فإنّ الإعلان أقوى له، أو ليصرف عن نفسه الكَسَل أو النوم، أو لتَنتبه بذلك النفس، أو ليوقظ الوَسْنان، كما قال عُمر[1]، إن صحَّت له هذه النية، ومن كان عنده مُصحف فينبغي أن يقرأ فيه في كلِّ يوم ولو آياتٍ يسيرة لئلا يكون مهجوراً.

العاشر: تحسين القراءة:

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ما أَذِنَ الله لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيّ حَسنِ الصوت بالقرآن يَجهرُ به».

قال ابنُ أبي مُليكة: إذا لم يكن حَسَن الصوت حسَّنَه ما استطاع. وقد استمع رسولُ الله ﷺ قراءة أبي موسى وقال: «لقد أُوتي هذا من مزاميرِ آل داود».

ورأى الهَيثم الفارسي[2] رسولَ الله ﷺ في منامه، فقال له: أنتَ الهيثم الذي تُزيّن القرآن بصوتك؟ فقال: نعم. فقال: جزاكَ اللهُ خيراً[3].

---

(١) أي: عندما سأله النبي ﷺ: «لم تجهرُ بقراءتك؟» فقال: أُفزِعُ الشيطان، وأُوقظُ الوَسنان. يعني النائم. والحديث أخرجه أحمد (٨٦٥) من حديث علي، وأخرجه البيهقي في شُعب الإيمان (٢٦١٢)، والطبري في التفسير ١٥/ ١٨٦عن محمد بن سيرين.

(٢) في الأصل: «القاري».

(٣) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ١٢/ ٢١٤، والقرطبي في التفسير ١٤/ ٣٢٠.

وهذا التَّزْيين إنّما هو تَعاطي التجويد والتَّحزين، فأمّا القراءة بالألحان فقد كرهَها السَّلف ولو رأوا ما قد أحدثوا فيها اليوم لقرَّبوها إلى التحريم(١).

(١) ذكر العلامة ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٧٢ الاختلاف في القراءة بالألحان، ثم قال: «والذي يتحصل من الأدلة أن حُسن الصوت بالقرآن مطلوب، فإن لم يكن حسناً فليُحسنه ما استطاع، ومن جملة تحسينه أن يُراعي فيه قوانين النغم، فإن حسن الصوت يزداد حُسناً بذلك، وإن خرج عنها أثّر ذلك في حُسنه، وغير الحَسن ربما انْجَبر بمراعاتها ما لم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات، فإن خرج عنها لم يفِ تحسين الصوت بقُبح الأداء، ولعل هذا مُستند من كره القراءة بالأنغام؛ لأن الغالب على مَن راعَى الأنغام أن لا يُراعي الأداء، فإن وُجدَ من يُراعيهما معاً، فلا شك في أنه أرجح من غيره، لأنه يأتي بالمطلوب من تحسين الصوت ويجتنب الممنوع من حُرمة الأداء».

الباب الثالث

في أعمال الباطن في التلاوة

وهي عشرة:

فَهمُ أصل الكلام، ثمّ التَّعظيم، ثمّ حضور القلب، ثمّ التّدبر، ثمّ التَّفهُّم، ثمّ التَّخلّي من مَوانع الفَهم، ثمّ التخصّص، ثم التأثّر، ثمّ الترقي، ثمّ التبرّي.

الأول: فَهمُ عظمة الكلام وعلوّه، فلينظر كيف لَطفَ الله سبحانه بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهامهم.

الثاني: التعظيم للمتكلم، وأن يعلم التالي أنّ ما يقرؤه ليسَ من كلام البشر وكما أنّ ظاهر الجِلد والوَرَق محروس عن بَشرة اللّامس إلا إذا كان مُتطهراً، فباطن معناه أيضاً محجوبٌ عن باطن القلب إلّا إذا كان مُتطهراً عن كلّ رِجسٍ، مستنيراً بنور التَّعظيم والتوقير، وكما لا يصلح لَمسُه لكلّ يدٍ لا يصلح لنيل معانيه كلّ قلب، ولهذا التعظيم كان عِكرمةُ بن أبي جهل إذا نشرَ المصحف قال: كلامُ ربي، كلام ربي. فتعظيم الكلام بتعظيم المتكلّم، ولن يُحضِر التالي عظمة المتكلم ما لم يتفكّر في صِفاته وأفعاله، فإذا نظر إلى المخلوقات فرآها في قَبضةِ قُدرتِه بانت له العَظمة.

الثالث: حضور القلب، وتركُ حديثِ النفس، فقد قيل لبعضهم: إذا قرأتَ القرآن تُحدّث نفسك بشيءٍ؟ فقال: أَوَ شيءٌ أحبُّ إليَّ من القرآن أُحدّث به نفسي؟! وهذا إنّما ينشأ من التعظيم والأُنس، وفي القرآن ما يَستأنِسُ به القلب، فكيف يُطلبُ الأُنس بالفِكر في غيره.

الرابع: التَّدبُّر، وهو وراء حُضور القلب، والمقصود من القراءة التدبّر، قال عليّ رضي الله عنه: لا خَير في عبادةٍ لا فِقه فيها، ولا قراءةٍ لا تَدبّر فيها. وإذا لم

يمكن التدبّر إلا بترديد الآية فليردّدها ، وقد رَوى أبو ذَرّ عن النبي ﷺ أنّه قام ليلةً بآيةٍ يُرَدِّدُها : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية [المائدة: ١١٨]، وقام تَميم الداري بآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ(١) ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، وكذلك قام بها الربيع بن خُثيم ليلةً.

وقال أبو سليمان الداراني: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ وخمس ليالٍ، ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوَزتها إلى غيرها.

وقد بقي بعض السلف سنين كثيرة في ختمةٍ فما أَتمَّها.

الخامس: التفهّم، وهو أن يَستوضح من كلّ آيةٍ ما يليق بها، مثل أن تأتي صفاتُ الله عز وجل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، أو ذكرُ أفعاله في قوله تعالى: ﴿خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٩] فليفهم التالي عظمته وليتلمّح قُدرته، ومن لا يراه في كلّ ما يراه فكأنّه ما عرفه، وإذا تلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨] تفكّر في نُطفةٍ متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحمٍ وعِرْقٍ وعظمٍ وعَصَب، وإلى تشكل أعضائها بأشكالٍ مختلفة من رأسٍ ويد ورجلٍ، ثمّ إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة، كالسَّمع والبصر والعقل، وإلى الصفات المذمومة كالغَضَب والشهوة والجهل، فتأمّل هذه العجائب تَترقّى بها إلى معرفة الصفة التي صدرت عنها فترى الصانع في الصنعة.

وإذا تلا أحوال المكذّبين فليَستشعر الخوف من السطوة إن غَفل عن امتثال الأمر، ومتى لم يفهم ما يتلو فكأنّه ما تلا.

السادس: التخلي من موانع الفهم، وموانع الفهم حُجبٌ أربعة:

أوّلها: أن يُخَيل الشيطان إلى التالي أنّه ما حقّق تلاوة الحرف ولا أخرجه من مَخْرجه، فيكرّره التالي، فينصرف الهمُّ إلى ذلك عن فهم المعنى.

وثانيها: أن يكون التالي مُقلّداً في مذهبه، فيتوّهم عند قراءة الآية ما يعتقده

(١) في (ظ): «يعملون» وهو خطأ.

بتقليده مثل أن يتلو: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهو يعتقد أنّ الاستواءَ القُعود[١]، فلو خطر له ما يوجب التَّقديس عن ما يليق بالخلق ردَّه الشيطان، وقال: ليس هذا معتقدك. فوقوفه على ذلك مانع له من الفَهم.

وثالثها: أن يكون مُصرّاً على ذنب، أو متّصفاً بكبرٍ، أو مُبتلى في الجملة بهوىً مُطاع، فإنّ ذلك سبب ظُلمة القلب وصَدئه، فهو كالخَبَثِ[٢] على المرآة يمنع أن يتجلَّى فيه الحقّ، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصَّدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تَتَراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة[٣] الشهوات مثل صَقْلِ الجَلَّاء[٤] للمرآةِ.

ورابعها: أن يكون قد سمع في الآية تفسيراً فجَمَدَ عليه، ولم يعلم أنّ فهم الآية لا يُنافي تفسير لفظها.

السابع: التخصُّص، وهو أن يعلم أنّه المقصود بكلّ خطابٍ في القرآن، وبكلّ وعدٍ ووعيدٍ، وأنّ القَصص لم يُرَدْ بها السَّمَر بل العِبَر، فليتنبّه لذلك، فحينئذ يتلو تلاوة عبدٍ قد كاتبه سيّده بمقصودٍ ليتأمّل الكتابَ ويعلم بمقتضاه.

الثامن: التأثُّر، وهو أن يتأثّر قلبُه بمؤثّراتٍ مختلفة على حسب اختلاف[٥] الآيات من حزن وخوف ورجاء وغير ذلك، ومتى تمَّت معرفته كانت الخَشية أغلب على قلبه، لأنّ التضييق غالبٌ على آيات القرآن ولا تكاد ترى ذكر المغفرة والرحمة إلّا مقروناً بشرطٍ كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ومن فَهم ذلك

---

(١) قال العلامة ابن أبي العز الدمشقي في شرح العقيدة الطحاوية ٣٧٢ ـ ٣٧٣: قال الإمام مالك رحمه الله لما سُئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كيف استوى فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول.

(٢) في النسخ: «كالجرب»، والمثبت من الإحياء، فهو الأنسب للمعنى.

(٣) في (ظ): «في مواطن».

(٤) الجلّاء: هو الذي يجلو المِرآه ويصقلها ويزيل صَدَأها.

(٥) سقطت من (ظ).

فجدير به الخَشية والحزن، وقال الحَسن: والله ما أصبحَ اليومَ عبدٌ يتلو هذا القرآن يؤمن به إلا كَثُر حُزنه، وقَلَّ فرحه، وكَثُر بكاؤه، وقلَّ ضَحِكُه. وقال وُهَيبُ بن الوَرد: نَظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أَرَدَّ للقلوب ولا أشدَّ استجلاباً للحزن من قراءةِ القُرآن وتَفهُّمه وتَدبُّره.

فتأثُّرُ العبدِ بالتلاوة أن يَتضاءَلَ عند تلاوةِ ما يُخوِّفُ، وأن يَفرحَ عند ذكر ما يُفرِحُ، ومن هذا قول النبي ﷺ لابن مسعود: «اقرأ عليَّ» فقرأ عليه من أول سورة النِّساء، فلمَّا بلغ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، بكى وقال: «حَسْبك». وهذا لأنَّ مشاهدة تلك الحال استغرقت قلبَه.

وقد كان من الخائفين من يُغشَى عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من يموت، ومن تلا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ [الممتحنة: ٤] ولم يكن متوكلاً ولا مُنيباً كان حاكياً، ولم يكن حظّه من التلاوة إلّا حركة لسانه، وكان داخلاً في معنى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] وفي قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرَّره مثال من كرَّر كتاب المَلِكِ في كلّ يوم مرَّاتٍ، وقد كتب إليه يأمرُه بعمارةِ مملكته، وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه، فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان أبعد من الاستهزاء واستحقاق المقت.

التاسع: الترقّي، وهو أن يترقّى إلى أن يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه، ودرجاتُ القِراءة(١) ثلاث:

أدناها: أن يُقدِّرَ العبدُ أَنَّه بين يَدي الله تعالى يقرأ عليه والله تعالى مُستمعٌ منه، فيكون حالُه حينئذٍ التَّملُّق والتَّضرُّع والابتهال.

الثانية: أن يُقدّر كأنّ ربّه يُخاطبه ويُناجيه، فمقامه حينئذٍ الحياءُ والتعظيم والإصغاء والفَهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلّم، فيصير مستغرقاً بمشاهدته.

---

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «القرآن».

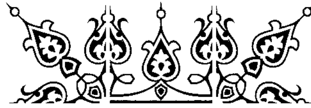
العاشر: التَّبرّي، وهو أن يتبرّأ من حوله وقوّته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية، فإذا تلا آياتِ الوعد والمدح للصالحين لم يَشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين ويتشوّق إلى أن يُلحقه الله تعالى بهم، وإذا تلا آيات المَقْت وذمّ العُصاة شَهدَ نفسَه هُناك وقَدَّر أنّه المُخاطب، ومن رأى نفسه بصورة التقصير كان ذلك سبب قُربه، ومن غلب عليه الرَّجاء انكشف له ما يرجو. قال بعضُ السلف: صلَّيتُ ركعةَ الوتر فرُفِعَت لي روضةٌ خَضراء، فما زلت أنظر إليها حتى أصبحتُ. وكذلك إذا غلبَ الخوفُ. قال أبو سليمان: وصفتُ لأُختي قنطرةً من قَناطِر جهنَّم، فمكثَتْ في صَيحةٍ يوماً وليلةً. قيل له: ما الذي أوجبَ صياحها؟ قال: مَثَّلَت نَفسَها عليها.

الباب الرابع

في فَهم القرآن وتَفسيره بالرأي

أمّا تفسير الأَلفاظ فمُسلَّم إلى أهلِ اللُّغة، وإنَّما يُذمُّ الكلام فيه بالرأي إذا لم يَستند الرأيُ إلى أصلٍ صحيح، فأمَّا ما يُفهم من الآيات فلا يناقض تفسير الألفاظ، وإنّما يُدرك كلّ شخصٍ منه بقدر قُوّة فهمه وصفاءِ قلبه.

آخر كتاب آداب التلاوة.



كتاب الأذكار والدعوات

الحمدُ لله مُبلِّغِ المؤمّلين له غايةَ مطلوبهم، ومُجيبِ دعاء المضطرّين بكشفِ كُروبهم، وذاكرِ الذاكرين بإصلاحِ قلوبهم، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، أَحمدُه على إنعامٍ أعطاني ضاقَت بشُكره أَعْطاني، وما أحقّني بشُكرِ ما أولاني وأولاني، وكيفَ لا والفَضل الربّاني ربَّاني على أنّه قد أطمعَ في كرمه القاصي والدّاني، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وأُصلّي على رسوله محمدٍ صاحب السَّبع المثاني، وعلى جميع أصحابه وأتباعه إلى يوم إعادة المباني، وأُسلّم[١] تَسليماً كثيراً.

أمّا بعد، فإنّه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تُؤدَّى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه، ولا بدّ من شَرح فضيلة الذكر على الجُملة ثمّ على التفصيل في أعيان الأذكار، وشرح فضيلة الدعاء وشروطه وآدابه، ونقل المأثور من الدعوات الجامعة لمقاصد الدين والدنيا، والدعوات الخاصّة لسؤال المغفرة، وغير ذلك، ويتحرَّر المقصود من ذلك بذكر أربعةِ أبواب:

الباب الأول: في فضيلة الذكر وفائدته جملةً وتفصيلاً.

الباب الثاني: في فضيلة الدعاء، والاستغفار، والصلاة على رسول الله ﷺ.

الباب الثالث: في أدعيةٍ مأثورةٍ عن النبي ﷺ وأصحابه ومن بعدهم.

الباب الرابع: في الأدعية المأثورة عند حدوث الحوادث.

---

(١) في (ظ): «وسلم».

الباب الأول

في فضيلة الذكر على الجُملَة والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار[(١)]

قد دلّ على فضيلة الذكر في الجُملة من الآيات قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. قال ثابت البُناني: إنّي لأعلم متى يذكرني ربي. ففزعوا وقالوا: كيف تعلم ذلك؟! قال: إذا ذكرتُه ذكَرني، وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي أن ذكر ربكم لكم[(٢)] أكبر من ذكركم إيّاه. وقد أَمرَ بالذكر فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ومدح الذاكرين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأمّا الأخبار؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإن ذكرني في مَلأ ذكرتُه في ملأٍ هُم خيرٌ منهم، وإن اقتربَ إليَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن تقرَّبَ إليّ ذراعاً اقتربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هَرْولة»، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ أنّه قال: «سَبعةٌ يُظلُّهم اللهُ في ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه ـ فذكر منهم ـ رجلاً ذكر الله خالياً فَفاضت عيناه». وفي أفراد البخاري من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنّه قال: «مثل الذي يذكُر ربَّه والذي لا يَذكُر ربّه، مَثَل الحيّ والميّت». وفي أفرادِ مُسلم من حديثِ أبي هريرة

(١) ليست في الأصل.
(٢) في الأصل: «أن ذكره لكم».

قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يَسير في طريق مكّة، فمرَّ على جبلٍ يُقال له: جُمْدَان[١] فقال: «سيروا هذا جُمدان، سَبَقَ المُفَرّدون» قالوا: وما المُفَرّدون يا رسولَ الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». وفي حديث عبد الله بن بُسْر[٢] أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنّ شرائع الإسلام قد كَثُرت عليَّ، فمُرني بأمرٍ أتشبَّث به. فقال: «لا يَزالُ لسانك رَطباً بذكرِ الله عزَّ وجلَّ». وفي حديث أنسٍ عن النبي ﷺ قال: «يقولُ الله عزّ وجلّ: أَخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافَني في مقام». وفي حديث أبي الدَّرداء عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرّكت بي شَفَتاه». قال أبو الدرداء: وقال رسول الله ﷺ: «ألا أُنبّئكم بخيرِ أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطاء الذَّهب والورق، وأن تلقوا عدوَّكم فتضربون أعناقهم ويَضربون أعناقكم؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذِكْرُ اللهِ تَعالى».

فضيلة مجالس الذِّكر

أخبرنا عبد الأوّل قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أَعين قال: حدثهنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا قُتيبة قال: حدثنا جَرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ للهِ ملائكةً يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذِّكر، فإذا وَجدوا قوماً يذكرون الله تَنادوا: هَلُمّوا إلى حاجَتكم. قال: فيَحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فَيسألهم ربّهم، وهو أعلمُ منهم: ما يقولُ عبادي؟ قالوا: يُسبّحونك ويُكبّرون ويحمدونك ويُمجّدونك قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: فكيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوكَ كانوا أشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك عبادةً، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تَسبيحاً. قال: فيقول: ما يَسألون؟ قال: يسألونَك الجنَّة. قال: يقول: هل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رَأوها. قال: يقول: فكيفَ لو رَأوها؟

(١) جُمدان: جبل في طريق مكة يبعد عنها شمالها نحو مئة كيلو متراً للمتجه إلى المدينة.
(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «بشران».

قال: يقولون: لو أنّهم رأوها كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبةً. قال: فمِمَّ يتعوَّذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهَل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رَأوها. قال: فيقول: فكيف لو رَأوها؟ قال: يقولون: لو رَأوها كانوا أشدَّ منه فراراً، وأشدَّ لها مخافةً. قال: فيقول: فأُشهدكم أنّي قد غفرتُ لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم إنما جاءَ لحاجةٍ.ن قال: هم الجُلَساء لا يَشقى جليسهم». أخرجاه في الصحيحين.

أخبرنا هِبةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا محمّد بن جَعفر قال: حدثنا شُعبة قال: سمعتُ أبا إسحاق يحّدث عن الأَغَرِّ أبي[1] مسلم أنّه قال: أشهدُ على أبي هريرة وأبي سعيدٍ أنّهما شَهدا على النبي ﷺ أنّه قال: «لا يَقعد قومٌ يذكرون اللهَ إلّا حفّتهم الملائكة، وغَشيتهم الرحمة، وتنزَّلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

قال أحمد[2]: وحدثنا علي بن بَحر قال: حدّثني مَرحومُ بن عبد العزيز قال: حدَّثني أبو نَعامة السَّعدي عن أبي عُثمان النَّهدي عن أبي سَعيد الخدري قال: خرج معاويةُ على حلقةٍ في المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله عزّ وجلّ. قال: اللهِ ما أجلَسكم إلّا ذاكَ؟ قالوا: اللهِ ما أجلَسنا إلا ذاك. قال: أما إنّي لم أَستحلِفكُم تُهمةً لكم، وإنَّ رسولَ الله ﷺ خرج على حلقةٍ من أصحابه فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جَلسنا نذكرُ الله عزّ وجلّ، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنَّ علينا بك. قال: اللهِ ما أجلسكُم إلّا ذاك؟ قالوا: الله ما أجلَسَنا إلّا ذاك. قال: أما إنّي لم أستحلفكم تُهمةً لكم، فإنّه أتاني جبريل فأخبرني أنّ الله عزّ وجلّ يُباهي بكم الملائكة». انفردَ بإخراج هذا والذي قَبله مُسلم.

قال أحمد: وحدثنا محمّد بن بكرة قال: حدثنا ميمون المَرَئي قال: حدثنا

---

(١) تصحفت في الأصل إلى: «الأعرابي».

(٢) ليست في الأصل.

مَيمون بن سِياه عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قومٍ اجتمعوا يَذكرون الله عزّ وجلّ، لا يريدون بذلك إلّا وَجهه، إلّا ناداهم مُنادٍ من السماء: أن قوموا مَغفوراً لكم، قد بُدِّلت سَيّئاتكم حَسنات». قال أحمد: وحدثنا عبد الصمد قال: حدثنا محمد يعني ابن ثابت قال: حدّثني أبي عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا مَررتُم برياضِ الجنّة فارتَعوا» قالوا: وما رياضُ الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذّكر».

وقال الحسن: قال داود عليه السلام: إلهي، إذا مَررتُ على ملأٍ يذكرونك فَجاوَزتُهم، فاكسِر الرِّجل التي تَليهم.

ذمّ المجلس الخالي عن الذِّكر

أخبرنا ابن الحُصين قال: أنا ابن المُذهب قال: أنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حَدثنا روح قال: حدثنا حَمَّاد عن سُهيل عن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما جَلسَ قومٌ مجلساً فتفرَّقوا على غير ذكر الله عزّ وجلّ، إلّا تفرَّقوا عن مثل جِيفةِ حمار، وكان ذلك المجلس عليهم حَسرةً يوم القيامة».

أخبرنا محمّد بن ناصر قال: أخبرنا جدي أبو حكيم الخُبْري قال: أخبرنا أبو عبد الله الحُسَين بن أحمد القادِسي قال: أخبرنا أبو بكر المفيد قال: أخبرنا أحمد بن عبد الرحمن السَّقطي قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا شُعبة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «لا يجلس قومٌ مجلساً لا يذكرون الله عزّ وجلّ ولا يُصلّون فيه على النبي ﷺ، إلّا كان عليهم حسرةً، وإن دخلوا الجنّة لما يَرون من الثَّواب».

فَضيلة التَّهليل

أخبرنا هِبةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر ابن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا إسحاق ابن

عيسى قال: أخبرني مالك عن سُمَيّ عن أبي صالح عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن قال: لا إله إلا الله، وَحده لا شَريك له، لهُ الملكُ وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير في يوم[1] مئة مرّة كانت له عَدل عَشر رِقاب، وكُتِبت له مئة حَسَنة، ومُحِيت عنه مئة سَيّئة، وكانت له حِرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلّا أحد عَمِل أكثر من ذلك». أخرجاه في الصحيحين. وأخرجا من حديث أبي أيّوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَن قال: لا إله إلا الله ـ فذكر الكلمات ـ في يومٍ عشر مِرار، كان كمن أعتقَ أربع رقاب من ولد إسماعيل». وفي حديث مُعاذ عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنّة».

وقال نَوف: أَجِدُ في التوراة أنَّ السموات السَّبع والأرضين السبع وما فيهنَّ لو كُنَّ طبقاً من حديد وقالَ عبدٌ: لا إله إلا الله. لخَرقتَهنَّ حتى يصل إلى الله عزّ وجلّ.

وقد سبق في ذِكر الوضوء أنّه: «من توضّأ ثمّ قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، فُتحت له أبوابُ الجنَّةِ الثمانية».

فَضيلة التَّسبيح والتَّحميد وبقيَّة الأذكار

أخبرنا هِبةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا محمد بن فُضيل عن عُمارة عن أبي زُرْعَة عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللِّسان، ثَقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سُبحانَ الله وبحمده سُبحان الله العظيم». أخرجاه في الصحيحين، وفيهما من طريقٍ آخر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَن قال في يومِه مئة مرّة: سُبحان الله وبحمده، حُطَّت خَطاياه، وإن كانت مثل زَبَدِ البحر».

---

(١) سقط من (ظ).

وفي أفراد مسلم من حديث أبي ذرّ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أُخبرك بأحبِّ الكلامِ إلى الله عزّ وجلّ؟ سُبحانَ الله وبحمده». وفي لفظٍ آخر من ألفاظ الصحيح قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الكلام أفضل؟ فقال: «ما اصْطَفى اللهُ[1] لملائكته أو لعباده: سُبحانَ الله وبحمده».

أخبرنا ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا رَوح قال: حدثنا شُعبة عن محمّد بن عبد الرحمن قال: سمعتُ كُرَيباً يحدّث عن ابن عبّاس عن جُويرية بنت الحارث قالت: أتى عليَّ رسولُ الله ﷺ غدوةً وأنا أُسبح، ثمّ انطلقَ لحاجته، ثمّ رجع قريباً من نصف النهار، فقال: «أما زلتِ قاعدة؟» قلتُ: نعم فقال: «ألا أُعلّمك كلماتٍ لو عُدِلنَ بهنَّ عَدَلْنَهنَّ، ولو وُزنَّ بهنَّ وَزَنهنَّ - يَعْني جميعَ ما سَبَّحت - سُبحانَ الله عدَدَ خَلقِه ثلاث مرّاتٍ، سبحان الله زنةَ عرشه ثلاث مرات[2]، سبحان الله رِضا نفسه ثلاث مرّات، سبحان الله مِدادَ كلماته ثلاث مرّات».

قال أحمد: وحدَّثنا عبد الله بن نُمير قال: حدثنا موسى - يعني الجهني - عن مُصعب بن سعد قال: حدّثني أبي قال: كنّا جُلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: أيعجز أحدُكم أن يكسب كلَّ يوم ألف حسنة؟ فسأله سائلٌ من جلسائه: يا نَبيَّ الله، كيف يَكسب أحدنا ألفَ حسنة؟ قال: «يُسبّح مئة تسبيحة فيُكتب له ألف حسنة، أو يُحطّ عنه ألف خَطيئة». انفرد بإخراجه وبإخراج الذي قبله مُسلم، وكذا في صحيحه: «أو يحطّ»، وقد رواه شُعبة وأبو عَوانة ويحيى بن سعيد القطان كلّهم عن موسى فقالوا: «ويحطّ» بغير ألف.

أخبرنا عبد الأوّل قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعين قال: حدثنا الفِربْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا عبد الله بن مَسلمة عن مالك عن نُعيم بن عبد الله المُجْمِر عن عليّ بن يحيى الزُّرَقي عن أبيه عن رِفاعة بن رافع الزُّرَقي قال:

---

(١) ليست في (ظ).
(٢) ليست في الأصل.

كنّا نُصلّي يوماً وراء رسولِ الله ﷺ، فلمّا رفع رسول الله رأسه من الركعةِ وقال: «سمعَ اللهُ لمن حَمدَه»، قال رجلٌ وراءه: ربَّنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. فلمّا انصرف رسولُ الله ﷺ قال: «مَن المتكلّم آنفاً؟» قال: أنا يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُ بضعةً وثلاثين ملكاً يَبتدرونها أيُّهم يكتبها أولاً» انفرد بإخراجه البخاري.

وفي حديث أنس بن مالك قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ جالساً في الحلقة إذ جاء رجل فَسلَّم، فلما جلس قال: الحمدُ لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يُحبّ ربّنا أن يُحمد وينبغي له. فقال له(١) النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد ابتدرها عَشرة أملاكٍ كلّه حريصٌ على أن يكتبها، فما دروا كيف يكتبونها حتّى رَفعوها إلى ذي العِزّة عزّ وجلّ، فقال: اكتُبوها كما قال عبدي».

وفي أفرادِ مسلم من حديث ابن عمر قال: بَينما نحن نُصلّي مع رسول الله ﷺ إذ قال رجل في القوم: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسُبحان الله بكرة وأصيلاً. فقال رسول الله ﷺ: «مَن ا لقائل كذا وكذا؟» قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله، قال: «عَجبتُ لها فُتِحتْ لها أ بواب السماء».

وفي أفراده من حديث أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ أنّه قال: «الحمدُ لله تَملأ الميزان، سُبحان الله والحمدُ لله تَملآن أو تَملأُ ما بين السموات والأرض». وفي أفراده من حديث سَمُرة بن جندب عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أحبُّ الكلام إلى الله تعالى: سُبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرُّك بأيّهن بدأت» وفي أفراده من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «لأن أقول: سُبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحبّ إليّ ممّا طلعت عليه الشمس». وفي أفراده من حديث أبي ذرّ عن النبي ﷺ أنّه قال: «بكلِّ تسبيحةٍ صَدقة، وبكلّ تكبيرةٍ صَدقة، وبكلّ تحميدةٍ صَدقة، وبكلّ تهليلةٍ صدقة».

وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما على الأرضِ رجل

(١) ليست في الأصل.

يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، إلّا كُفِّرتْ عنه ذُنوبه ولو كانت أكثر من زَبَد البحر».

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى أنّ النبي ﷺ قال له[١]: «ألا أُعلّمك كلمةً من كُنوز الجنّة: لا حولَ ولا قوّة إلّا بالله».

تَسبيحات سُليمان التَّيْمي[٢]

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السَّمرقندي قال: أخبرنا محمّد بن هِبة الله الطَّبري قال: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: أخبرنا ابن صَفوان قال: حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمّد القُرشي قال: حدثنا محمّد بن الحُسين قال: حدَّثني الفُضَيل بن عبد الوهّاب قال: حدثني أبو عُمر الخطابي عن المُعْتمر بن سُليمان قال: كان أبي يُحدِّث بخمسةِ أحاديث ثمّ يقول: أمهلوا، سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عَددَ ما خلق، وعدد ما هو خَالق، وزِنة ما خَلق وزنة ما هو خَالق [٣]ملءَ ما خلق وملءَ ما هو خالق[٣]، وملءَ سماواته، وملءَ أرضه، ومثل ذلك، وأضعاف ذلك، وعدد خلقه، وزِنَة عرشه، ومنتهى رَحمته، ومدادَ كلماته، ومبلغَ رضاه، وحتى يرضى، وإذا رضي، وعدد ما ذكره به خلقه في جميع ما مَضى، وعدد ما هم ذاكروه فيما بقي في كلّ سَنةٍ وشهرٍ وجُمعة ويومٍ وليلةٍ وساعةٍ من الساعات، ونسيم ونفسي، من أبدٍ إلى أبد، أَبَدِ الدنيا وأَبَد الآخرة، وأكثر[٤] من ذلك، لا يَنقطع أولُه ولا يَنْفَد آخره.

قال محمد بن الحسين: وحدَّثني بعض البصريّين أنّ يونس بن عُبيد رأى رجلاً ـ كان قد أُصيب ببلاد الروم ـ فيما يرى النائم، فقال: ما أفضل ما رأيت ثَمَّ من الأعمال؟ قال: رأيتُ تسبيحات أبي المعتمر من الله بمكان.

---

(١) ليست في الأصل.

(٢) هو سليمان بن طَرخان أبو المعتمر التيمي البصري المتعبد المتزهد، توفي بالبصرة سنة ١٤٣ هـ. حلية الأولياء ٣/ ٢٧ وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٩٥.

(٣-٣) سقط من الأصل.

(٤) في النسخ: «وأمر» والمثبت من الإحياء.

وقال المُعتمر بن سليمان: رأيتُ عبد الملك بن خالد بعد موته، فقلت: ما صَنعْتَ؟ قال: خيراً. قلت: ترجو للخاطئ شَيئاً؟ قال: يَلتمس تَسبيحات أبي المعتمر، نعمَ الشيء.

فإن قال قائل: كيف فُضِّلَ الذكرُ مع خِفَّته على اللسان على كثيرٍ من الأعمال الشاقَّة؟ فالجواب: أنّ الذكرَ الفاضلَ ما حضرَ فيه القلبُ، وحضورُ القلبِ مع الله سُبحانه مقدَّمٌ على العبادات العمليَّة؛ لأنّه يرقى إلى الأُنس والحبّ، ومن داومَ على الذكرِ صَرَفَت مُداومتُه الوَساوسَ القاطعة، وانغرسَ في قلبه حُبُّ المذكور.

الباب الثاني

في فضيلة الدُّعاء وآدابه وفي فضل بَعض الأدعية المأثورة

فضيلة الدعاء: قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقد روى ابنُ مسعود عن النبي ﷺ أنّه قال: «سَلُوا الله من فضله، فإنّ الله يحبُّ أن يُسأَل».

وروى أبو هُريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ليسَ شيءٌ أكرم على الله من الدُّعاء، وأشرفُ العبادةِ الدُّعاء، ومَن لا يسأل الله عزّ وجلّ يَغضبْ عليه».

آداب الدعاء: وهي أربعة عشر:

الأول: أن يتوخَّى لدُعائه الأوقاتَ الشريفة، كيوم عرفةَ من السنة، ورمضان من الشُّهور، والجُمعة من الأسبوع، والسَّحَر من الليل، وقد رُوي في يوم الأربعاء بين الصلاتين فضيلة؛ فأخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا أبو عامر قال: حدثنا كثير بن زيد(١) قال: حدَّثني عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: حدثني جابر أن النبي ﷺ دعا في مَسجد الفتح يوم الاثنين ويَوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستُجيبَ له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعُرِف البِشْرُ في وَجهه،

(١) تحرف في الأصل إلى: «يزيد».

قال جابر: فلم يَنزل بي [(١)]أمر مهمٌّ[(١)] غائظ[(٢)] إلّا توخَّيتُ تلك الساعة، فأدعو فيها فأعرفُ الإجابةَ.

الثاني: أن يترصَّد الأحوالَ الشريفة مثل ما بين الأَذان والإقامة، وقد روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الدّعاء لا يرد بينَ الأذان والإقامة». ومنَ الأوقاتِ الشريفة عَقيب الصلوات، وعند نُزول الغَيث، وعند القِتال في سبيل الله عزّ وجلّ، وعند خَتمِ القرآن، وفي السجودِ، وعند الإفطار، وعند حُضورِ القَلب ووَجَلِه؛ قال شهر بن حَوْشَب: قالت أمّ الدرداء: إنّما الوَجَل في قلبِ ابن آدم كاحتراقِ السَّعْفةِ، أما تَجدُ لها قُشَعْريرةً؟ قلتُ: بلى. قالت: فادعُ إذا وجدتَ ذلك، فإنَّ الدعاء يُستجاب عند ذلك.

وعلى الحقيقة فإنّ شرفَ الأوقات يرجع إلى شَرفِ الحالات أيضاً، فإنّ وقتَ السَّحَر وقتُ صفاءِ القلب وفَراغِه، وحالةَ السجودِ حالةُ الذلِّ.

الثالث: أن يَدعو مُستقبلَ القبلة، ويرفع يَديه. ففي حديث جابرٍ أنّ النبي ﷺ أَتى الموقِفَ، واستقبلَ القِبلةَ، ولم يزل يَدعو.

وفي حديث سلمان عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنَّ ربّكم حَيٌّ كريمٌ يَستحيي من عَبده إذا رفعَ يديه إليه أن يَردَّهُما صفراً».

ثمّ يَنبغي أن يمسحَ بهما وَجْهه في آخر الدُّعاء، وقد جاء في حديث عمر عن النبي ﷺ أنّه كان إذا مَدَّ يديه في الدعاء، لم يردَّهما حتى يمسح بهما وَجْهه.

الرابع: خَفضُ الصوت: ففي الصحيحين من حديث أبي موسى قال: كُنّا معَ رسول الله ﷺ في غَزاةٍ، فجعلنا لا نَصعدُ شَرفاً ولا نَهبِط وادياً إلّا رَفعنا أصواتَنا بالتكبير[(٣)]، قال: فدنا منّا رسول الله ﷺ فقال: «أيُّها الناس أربَعوا على أنفسكم، فإنَّكم ما تَدْعون أصمّ ولا غائباً، إنّما تدعون سَميعاً بصيراً، إنّ الذي تَدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنقِ راحلته».

(١-١) سقط من (ظ).
(٢) في المسند: «غليظ».
(٣) ليست في (ظ).

الخامس: أن يَبدأ بذكر الله عزّ وجل قبل الدعاء، قالت أمّ سليم: يا رسول الله، علّمني كلماتٍ أدعو بهنَّ، قال: «تُسبِّحين الله عشراً وتَحمدينَهُ عشراً، وتُكبّرينَه عشراً، ثم تَسألي حاجتك، فإنّه يقول: قد فعلتُ قد فعلت».

السادس: أن يُصلّي على رسول الله ﷺ قبل دُعائه، فقد روى الترمذي من حديث ابن مسعود قال: كنتُ أصلي، فلمّا جلستُ بدأت بالثناء على الله تعالى، ثمّ الصلاة على رسول الله ﷺ، ثمّ دعوت لنفسي، فقال رسول الله ﷺ: «سَلْ تُعطَه، سَلْ تُعطَه».

وروى الترمذي بإسناده عن عُمر بن الخطاب قال: الدُّعاء موقوفٌ بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيءٌ حتى تُصلّي على نَبيّكَ ﷺ.

(١)وقال أبو سُليمان الداراني: مَن أراد أن يسأل الله حاجتَه، فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثمّ يسأل حاجته(١)، ثمَّ يختم بالصلاة على النبي ﷺ فإنّ الله تعالى يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يَدَعَ ما بينهما.

السابع: أن لا يتكلف السَّجْعَ في الدعاء، فإنّ التكلّف لا يناسب حال المُتضرّع، ففي أفراد البخاري من حديث عكرمة عن ابن عباس أنّه قال له: انظُر السَّجع من الدعاء فَاجْتَنِبْهُ، فإنّي عهدتُ رسول الله ﷺ وأصحابَه لا يفعلون ذلك، (٢)فإن قيل: فقد جاءت أدعيةٌ مسجوعةٌ كقوله: «أعوذُ بكَ من علمٍ لا يَنفع، ومن عينٍ لا تدمع». فالجوابُ: أنّ ذلك وقَع غير متكلَّفٍ، والمذموم التَّكلُّفُ(٢).

الثامن: أن لا يتجاوز الداعي الدعوات المأثورة، إلّا أن يكون عالماً بالصَّواب فيما يسأله، لئلّا يسألَ مالا تَقتضيه مصلحته، فما كلُّ أحد يُحسنُ أن يَدعو.

التاسع: التضرُّع والخشوعُ والرَّهبةُ، فقد قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: ٤٣].

(١ـ١) سقط من (ظ).
(٢ـ٢) سقط من (ظ).

العاشر: أن يجزمَ الدعاء، ففي الصحيحين من حديث أنس عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إذا دَعَى أحدُكم فَليعزم الدعاء، ولا يقل: إن شئتَ فأعطني، فإنّ الله عزّ وجلّ لا مُسْتَكره له».

الحادي عشر: أن يوقنَ بالإجابة، ففي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «ٱدعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يَقبلُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ».

الثاني عشر: أن يُلحَّ في الدّعاء، فقد روت عائشة عن النبي ﷺ: «إنَّ الله يُحبُّ المُلحِفِين(١) في الدُّعاء».

الثالث عشر: أن ينتظرَ الإجابة، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «يُستجاب لأحدِكم ما لم يَعْجَل، يقول: دعوتُ فلم يُستجبْ لي».

الرابع عشر: وهو الأدبُ الباطن، وهو الأصلُ في الإجابة، والتوبةُ، وردُّ المظالم، ففي أفراد مُسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه ذكر «الرجلَ يُطيل السَّفر أَشْعثَ أغْبَر، ثم يمدُّ يده إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، مَطعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُه حرامٌ، ومَلبَسُهُ حرام، وغُذِي بالحرام، فأنّى يُستجابُ لذلك».

وقال مالك بن دينار: أصابَ بني إسرائيل بلاءٌ، فخرجوا مخرجاً، فأوحى الله إلى نَبيّهم، أن أخبِرهُم: تَخرجُون إلى الصَّعيد بأبدانٍ نَجِسَةٍ، وتَرفَعُون إليَّ أكُفّاً قد سَفكتم بها الدّماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتدّ غضبي عليكم فلن تَزْدادوا إلّا بُعداً.

فضيلةُ الصلاة على رسول الله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(١) المُلحِفين: المُلحِّين، يقال: ألحفَ في المسألة، إذا ألحَّ بها.

وأخبرنا هِبةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا سليمان بن داود قال: أخبرنا إسماعيل قال: أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلّى عليَّ واحدةً يُصلِّي الله عزَّ وجلَّ عليه عشراً». انفرد بإخراجه مسلم.

وفي حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنّه قال: «من صلّى عليَّ واحدة صلَّى الله عليه عشر صلواتٍ، وحَطَّ عنه عَشرَ خَطيئات».

أخبرنا الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزدي وأبو بكر الغُورجي قالا: أخبرنا الجرّاحي قال: حدَّثنا المَحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدَّثنا محمّد بن بشَّار قال: حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمة قال: حدّثني موسى بن يعقوب الزَّمعي قال: حدّثني عبد الله بن كَيْسان أنّ عبد الله بن شَداد أخبره عن عبدِ الله بن مسعود أنّ رسول الله ﷺ قال: «أَولى الناس بي يومَ القيامة أكثرُهُم عليَّ صلاةً». وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ لله عزّ وجلّ ملائكةً سَيَّاحين يُبَلِّغوني من أُمّتي السلامَ».

فضيلة الاستغفار

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه: في كتابِ الله عزّ وجلّ آيتان ما أذنبَ عبدٌ فقرأهما، واستغفر اللهَ إلّا غَفَر له، هذه الآية قَوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ الآية [النساء: ١١٠]، وقد قال عزّ وجلّ: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ٣].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أنّ رجلاً أذنبَ ذنباً، فقال: إنّي أذنبت ذنباً فاغفره لي. فقال تعالى: عَبدي عمل ذَنباً، فعلمَ أنّ له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذ به، قد غفرتُ لعبدي. ثمّ عَمل ذنباً آخر، فقال: ربِّ إنّي عملتُ ذنباً، فاغفره. فقال عزّ وجلّ: علمَ عبدي أنّ له رباً يَغفرُ الذنبَ ويأخُذُ به، قد

غفرتُ لعبدي. ثمّ عمِل ذنباً آخر، فقال: ربِّ إني عملتُ ذنباً فاغفره. فقال عزّ وجلّ: علمَ عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذنبَ ويأخُذُ به، قد غفرتُ لعبدي. ثمّ عمل ذَنباً آخر فقال: ربِّ إنّي عملتُ ذنباً، فاغفره لي. فقال عزّ وجلّ: علمَ عبدي أنّ له رباً يغفرُ الذنبَ ويأخُذُ به، أُشهِدكم أني قد غَفرتُ لعبدي، فليعمل ما شاء».

أخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا محمد بن أبي عَدي قال: حدثنا حُسين ـ يعني المعلم ـ عن عبد[1] الله بن بُريدة عن بَشير بن كعب عن شَدَّاد بن أوس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سَيِّد الاستغفار: اللهمَّ أنتَ ربّي لا إله إلا أنت، خَلَقتني وأنا عَبدُك، وأنا على عَهدِك ووعدكَ ما استَطَعت، أعوذُ بك من شرِّ ما صَنعْت، أبوءُ لك بنعمتكَ عليَّ، وأبوء لك بذنبي فاغفِر لي، فإنَّه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت. مَن قالها بعدَ ما يُصبح مُوقناً بها، فمات من يومه كان من أهل الجنّة، ومَن قالها بعدما يمسي مُوقناً بها، فماتَ من ليلته كان من أهلِ الجنة». قال الإمام أحمد: وحدَّثنا يونس قال: حدثنا حَمَّاد ـ يعني ابن زيد ـ قال: حدثنا ثابت قال: حَدثنا أبو بُرْدة عن الأَغَرِّ المُزَني قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّه لَيُغانُ[2] على قَلْبي، وإنّي لأَستغفرُ اللهَ عزَّ وجلَّ في اليوم مئةَ مرة».

قال أحمد: وحدثنا عبد الرزّاق قال: أخبرنا مَعمَر عن جَعفر الجَزَري عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة قال: قالَ رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم تُذنبوا لذهبَ الله عزَّ وجلَّ بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون، فَيستغفرون الله، فَيغفر لهم» انفرد بهذا الحديث وبالحديث الذي قَبله مُسلم، وانفرد بالأوّل البخاري.

وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنّه قال: «يعجبُ الربُّ من عبده إذا قال: رَبِّ اغفر لي، ويقول: علمَ عبدي أنّه لا يَغفر الذنوب غيري».

---

(١) تحرف في (ظ) إلى: «عبيد».
(٢) ورد هنا في هامش (ظ) ما نصه: «غينَ على قلبه غَيناً: تَغشَّته الشهوة، أو غُطّي عليه وأُلبِس، أو غُشِيَ عليه».

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «قالَ إبليس لربّه عزّ وجلّ: بعزَّتك وجَلالِكَ لا أَبرحُ أُغوي بَني آدمَ ما دامت الأرواح فيهم. فقال له ربُّه عزّ وجلّ: فبعزَّتي وجَلالي لا أبرحُ أغفرُ لهم ما استَغفَروني».

وقال لُقْمان لابنه: يا بُنيَّ، عَوِّدْ لسانَكَ: اللهمَّ اغفِر لي، فإنَّ لله ساعاتٍ لا يَرُدُّ فيهنَّ سائلاً.

الباب الثالث

فيه أدعيةٌ مأثورة عن رسولِ الله ﷺ

أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا ابن نُمير عن هشام عن أبيه عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ كانَ يدعو بهؤلاء الدعوات: «اللهمّ إنّي أعوذُ بك من فِتنةِ النار، وعذاب النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، ومن شَرّ فتنةِ الغِنَى، ومن فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجّال، اللهمّ اغسل خَطاياي بماء الثَّلج والبَرَد، ونَقِّ قلبي من الخَطايا كما نَقَّيت الثوب الأبيض من الدَّنَس، وباعِد بيني وبين خَطايايَ كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، اللهمّ إنّي أعوذُ بك من الكَسَل والهَرَمِ والمَأْثمِ والمَغْرم». أخرجاه في الصحيحين.

وأخرجا من حديث أبي موسى عن النبيّ ﷺ أنّه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهمَّ اغفر لي خَطَئي وجَهلي، وإسرافي في أمري، وما أنتَ أعلمُ به منّي، اللهمَّ اغفر لي جِدّي وهَزْلي، وخَطَئي وعَمْدي، وكلُّ ذلك عندي، اللهمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ، وما أخَّرت، وما أَسررتُ وما أَعلنتُ، وما أنتَ أعلمُ به منّي، أنتَ المقدِّم، وأنتَ المؤخِّر، وأنتَ على كلّ شيءٍ قدير». وأخرجا من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «تَعوَّذوا بالله من جَهد البلاء، ودَرْك الشَّقاء، وسوء القَضاء، وشَماتة الأعداء».

وأخرجا من حديث أنس قال: كان أكثر دُعاء النبي ﷺ: «اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقِنا عذابَ النار».

وفي أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنّه كان يقول: «اللهمَّ إني أعوذُ بك من العَجزِ والكسل، والجُبْنِ والبُخل، والهَرم وعذاب القبر، اللهمَّ آتِ نفسي تقواها، وزَكِّها أنتَ خيرُ من زَكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها، اللهمَّ إنّي أعوذُ

بك من علم لا ينفع، ومن قلبٍ لا يَخشَع، ومن نَفسٍ لا تَشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها».

وفي أفراده من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قُل اللهمَّ إني أسألكَ الهُدى والسَّداد، واذكر بالهُدى هِدايَتك الطريق، وبالسَّداد سَداد السَّهم».

وفي أفراده من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهمَّ أصلح لي ديني الذي هو عِصمة أمري، وأصلح لي دُنياي التي فيها مَعاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعَل الحياة زيادةً لي في كلّ خير، واجعل الموت راحةً لي من كلّ شَرّ».

وفي أفراده من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنّه كان يقول في دُعائه: «اللهمَّ إنّي أعوذُ بك من شرّ ما عملت وما لم أعمل».

وأنّها سمعَتهُ يقول: «اللهمَّ إنّي أعوذُ برضاكَ من سخطك، وبمعافاتكَ من عقوبتك، وأعوذُ بك منك، لا أُحصي ثَناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك».

أخبرنا الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزْدي وأبو بكر الغُورجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المَحبوبي قال: حدثنا التِّرمذي قال: حدثنا محمود بن غَيلان قال: حدَّثنا أبو داود الحَفَري عن سُفيان الثَّوري عن عمرو بن مُرَّة عن عبد الله بن الحارث عن طَلِيق بن قَيس عن ابن عبَّاس قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: «رَبِّ أَعنّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصُرني ولا تَنْصُر عليَّ، وامكُرْ لي ولا تَمكر عليَّ، واهدِني ويَسِّر الهُدى لي، وانْصرني على من بَغى عليَّ، ربّ اجعلني لكَ شَكّاراً، لك ذكّاراً، لك رَهّاباً، لك مِطْواعاً، لك مُخْبِتاً، إليكَ أَوّاهاً مُنيباً، ربِّ تقبَّل تَوبتي، واغسل حَوْبَتي، وأَجِبْ دعوتي، وثبّت حُجّتي، وسدّد لساني، واهدِ قلبي، واسلُلْ سَخيمةَ قلبي» قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن صحيح.

أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا رَوْح قال: حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا كَنَزَ

الناسُ الذهبُ والفضَّة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهمَّ إنّي أسألك الثَّباتَ في الأمر، والعزيمةَ على الرُّشد، وأسألك شَكر نعمتك، وأسألك حُسنَ عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنّك أنت علّام الغيوب».

قال أحمد: وحدثنا عفّان قال: حدثنا حمّاد قال: أخبرنا جُبَير بن حَبيب عن أم كلثوم بنت أبي بكر عن عائشةَ أنّ رسول الله ﷺ علَّمَها هذا الدعاء: «اللهمّ إني أسألك من الخير كُلِّه عاجِله وآجِله ما علمتُ منه وما لم أَعلَم، وأعوذُ بك من الشرِّ كله عاجِله وآجِله ما علمتُ منه وما لم أعلم، اللهمّ إني أسألك من خيرِ ما سألكَ عبدك ونَبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذَ منه عَبدك ونَبيّك، اللهمَّ إنّي أسألكَ الجنّة وما قرَّب إليها من قولٍ أو عمل، وأعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قولٍ أو عمل، وأسألك أن تجعل كلَّ قَضاءٍ تَقضيه لي خيراً».

قال أحمد: وحدثنا يحيى بن سَعيد عن مالك بن[1] مِغْوَل قال: حدثنا عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهمَّ إني أسألك بأنّي أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأَحد الصَّمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: «قَد سألَ باسمِ الله الأعظم، الذي إذا سُئِل به أَعطى، وإذا دُعي به أجاب».

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا نَصر بن أحمد قال: حدثنا ابن رزْقويه قال: حدثنا عبد الله بن جعفر بن درستُوَيه قال: حدثنا قاسم بن المغيرة قال: حدثنا عبد الصمد بن النعمان قال: حدثنا ياسين الزَّيات عن العلاء بن المسيّب عن أبي داود عن البراء عن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبدٍ خيراً علَّمه هؤلاء الكلمات، ثمّ لم ينسهنَّ: اللهمّ إنّي ضعيفٌ فَقَوِّ في رضاكَ ضَعْفي، وخُذ إلى الخير بناصِيتي، واجعل الإسلامَ مُنتهى رِضايَ، اللهمّ إني ضعيف فقوِّني، وإنّي ذَليل فأَعزّني، وإني فقيرٌ فأَغْنِني».

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «عن».

أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال حدثنا وكيع قال: حدّثني عكرمة ابن عمّار عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: جاءت أمُّ سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، علّمني كلماتٍ أدعو بهنَّ. قال: «تُسبحين الله عَشراً، وتَحمدينه عشراً، وتُكبّرينه عَشْراً، ثمَّ تسألي حاجتك، فإنّه يقول: قد فعلتُ قد فَعلتُ».

الباب الرابع

في الأَدعية المأثورة عند الحوادث

قد سبقَ ذكرُ الدعاء عند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وما يقال عقيب الوضوء.

فإذا خرجت إلى المسجد، فقل: اللهمَّ إني أسألكَ بحقّ السائلين عليك وبمَمْشايَ هذا إليك أني لم أخرج أشَراً ولا بَطراً ولا رياءً ولا سُمعةً، خرجتُ اتّقاء سَخَطك وابتغاء مرضاتك، أسألكَ أن تُجيرني من النار، وأن تَغفر لي ذنوبي، إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فإذا دخلت المسجد، فقد رَوى مسلم في صحيحه أنّ النبي ﷺ قال: «إذا دخلَ أحدُكم المسجد فليقل: اللهمَّ افتَح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهمَّ إني أسألك من فَضلك».

فإذا فرغتَ من الصلاة، ففي الصحيحين من حديث المغيرة عن النبي ﷺ أنّه كان يقول في دُبر كلّ صلاة: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، لهُ الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا مُعْطي لما مَنعت، ولا ينفع ذا الجَدّ منكَ الجَد».

وفي أفراد مسلم من حديث ابن الزبير عن النبي ﷺ أنّه كان يقول إذا سلّم في دُبر كلِّ صلاة[1]: «لا إله إلا الله، وَحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا نَعبد إلّا إيّاه، أهل النعْمة والفَضل والثناء الحسن، لا إله إلا الله، مُخلصين له الدين ولو كَره الكافرون».

وفي أفراده من حديث ثَوبان قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينصرف من

(١) في الأصل: «دبر الصلاة».

صلاته استغفرَ ثلاثَ مرات، ثمّ قال: «أنت السَّلام، ومنكَ السَّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

وفي أفراده من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سبَّح اللهَ عزَّ وجلَّ دُبر كلّ صلاةٍ ثلاثاً وثلاثين، وحمدَ ثلاثاً وثلاثين، وكبَّر ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير. غُفِرت له خَطاياه، وإن كانت مثل زَبَد البحر».

وفي أفراده من حديث كَعب بن عُجْرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «مُعقِّباتٌ[١] لا يخيب قائلهنّ أو فاعلهنَّ دُبر كل صلاةٍ مكتوبة؛ ثلاثاً وثلاثين تَسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، وأربعاً وثلاثين تكبيرة».

فإذا قمتَ من مجلسٍ، فقُل ما رَوى أبو هُريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «من جلس في مجلسٍ فكَثُر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سُبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفركَ وأتوب إليك. إلَّا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك». رواه الترمذي وصحَّحه.

فإذا دخلتَ السوق، ففي حديث بُريدة عن النبي ﷺ أنّه كان إذا دخل السوق قال: «اللهم إنّي أسالك خير هذا السوق وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرِّها وشر ما فيها، اللهمَّ إني أعوذُ بك أن أُصيب فيها يميناً فاجرةً، أو صفقةً خاسرةً».

وفي حديث عمر بن الخطّاب عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَن دخل السوق، فقال: لا إله إلا الله وَحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويُميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخَير، وهو على كلّ شيءٍ قدير، كَتَبَ اللهُ[٢] له ألفَ ألف حسنة، ومَحا عنه ألف ألفِ سيّئة، ورَفع له ألف ألف درجة».

فإذا لبستَ ثوباً جديداً، فَقد أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي

(١) مُعَقِّبات: أي تسبيحات تُفعَل أعقاب الصلوات، أو لأنها تُفعَل مرةً عَقيبَ أُخرى.
(٢) ليست في (ظ).

قال: حدثنا خلف بن الوليد قال: حدثنا ابن المبارك عن سعيد الجُرَيري عن أبي نَضْرة عن أبي سَعيد قال: كان رسول الله ﷺ إذا استجدَّ ثوباً ـ سمّاه باسمه قميص أو عمامة ـ يلبسه ثمّ يقول: «اللهمَّ لك الحمدُ أنت كَسَوْتَنيه، أسألك من خيره وخيرِ ما صُنع له، وأعوذُ بك من شرّه وشرّ ما صُنعَ له».

قال أحمد: وحدثنا يزيد بن هارون قال: حدثنا أصبغ عن أبي العلاء الشامي قال: لبس أبو أُمامة ثوباً جديداً، فلمّا بلغ تَرْقُوتَه قال: الحمدُ لله الذي كَساني ما أُواري به عَوْرتي، وأتجمَّل به في حياتي، ثمّ قال: سمعتُ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «فمن استجدَّ ثوباً فلبسه، فقال حين يبلغ تَرقُوتَه: الحمدُ لله الذي كساني ما أُواري به عَوْرتي وأتَجمَّلُ به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي أَخْلَق ـ أو قال: أَلقَى ـ فتصدَّق به، كان في ذمَّة الله، وفي جوار الله، وفي كَنَف الله حياً وميتاً، حيَّاً وميتاً، حيّاً وميتاً».

وإذا رأيتَ الهلال، فكبِّر ثلاثاً، وقل: اللهمَّ أهِلَّهُ علينا بالأَمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربّي وربّكَ الله.

وإذا هبّت الريح، ففي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفَت الريح قال: «اللهمَّ إنّي أسالكَ خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشرّ ما فيها، وشرّ ما أُرسِلَت به».

وإذا سمعتَ صوتَ الرَّعْدِ، فقد أخبرنا هِبَةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا عَفّان قال: حدثنا عبد الواحد بن زياد قال: حدثنا الحجّاج قال: حدَّثني أبو مَطَر عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرَّعد والصواعق قال: «اللهمَّ لا تقتلنا بغَضبك، ولا تُهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

فإذا غضبتَ، فقُل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وفي الصحيحين من حديث سليمان بن صُرَد قال: كنتُ جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يَسْتَبّان، وأحدهما قد احمرَّ وَجْهه وانتفخت أَوداجُه، فقال النبي ﷺ: «إنّي لأعلم كلمةً لو قالها لذهب

عنه ما يجد، لو قال: أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، ذهبَ ما يجد».

فإذا سمعتَ أذان المغرب، فقل: اللهمَّ إنّي أسألكَ عند استقبالِ ليلكَ، وإدبارِ نهارك، وحُضور صلواتك، وأصوات دُعائِكَ أن تَغفِر لي.

فإذا أصابك كَربٌ أو همٌّ، ففي الصحيحين من حديث ابن عبّاس أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم[1]، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرض وربُّ العَرش الكريم». وفي حديث علي رضي الله عنه قال: علَّمني رسول الله ﷺ إذا نَزل بي كربٌ أن أقول: «لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله، وتبارك الله ربُّ العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين».

أخبرنا هِبةَ الله بن محمَّد قال: أخبرنا أبو علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا فُضَيل بن مرزوق قال: حدثنا أبو سلمة الجُهَني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصابَ أحداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهمَّ إنّي عَبدُكَ وابنُ عَبدك ابنُ أَمَتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمك، عَدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسك أو علَّمته أحداً من خلقك، أو أَنزلته في كتابك، أو استَأْثرتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القُرآن ربيع قلبي ونورَ صدري، وجلاء حُزني، وذهاب هَمّي. إلّا أذهبَ الله عزّ وجلّ هَمَّه وحُزنَه وأَبدَله مكانه فَرحاً» قال: فقيل: يا رسولَ الله ألا نَتعلَّمها؟ فقال: «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلَّمها». وقال ابن مسعود: ما كُرِبَ نَبيٌّ إلا استغاثَ بالتسبيح.

وإذا وجدتَ وَجعاً في جسدك أو في جَسد غيرك، فاستَرْقِ برُقية رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين من حديث عائشة أنّ رسول الله ﷺ كان يُعوِّذُ بعض أهله يَمسح بيده اليُمنى ويقول: «اللهمَّ ربَّ الناس أَذهِبِ البأس، اشْفِ وأنتَ الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يُغادر سَقَماً».

---

(١) في (ظ): «الحكيم».

وفي لفظٍ متفق عليه قال: كان إذا اشتكى الإنسان الشيءَ منه، أو كانت قرحة أو جُرح قال النبي ﷺ بإصبعه هكذا ـ يعني وضع سبَّابته بالأرض ـ ثمّ رفعها، فقال: «بسم الله، تُربةُ أرضِنا، بِرِيقَةِ بعضنا، يُشفَى بها سَقيمُنا، بإذنِ ربِّنا».

وفي أفراد مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص أنّه شكا[1] إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَعْ يدك على الذي يَألَمُ من جسدك، وقُل: بسم الله، ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذُ بالله وقُدرته من شرّ ما أجد وأحاذر».

وفي أفراده من حديث أبي سعيد الخُدري أنّ جبريل أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمّد أَشتكيت؟ فقال: «نعم». قال: «بسم الله أرقيك من كلّ شيء يؤذيك، من شرّ كل نفس أو عين حاسدٍ اللهُ يَشفيك، بسم الله أَرْقيك».

وإذا أردتَ النوم، فتوضَّأ، واستَقبل القبلة، واضطجِعْ على يمينك، وضع يدك تحت خَدِّك، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخِلَةِ إزاره، فإنّه لا يدري ما حدَث بعده، فإذا وضع جنبه فليقل: باسمكَ اللهمَّ وَضعْتُ جَنبي، وبكَ أرفعه، اللهمَّ إن أمسكتَ نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتَها فاحفَظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

وفي الصحيحين من حديث عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أتى على فِراشه في كل ليلةٍ جمع كفَّيه، ثمَّ نَفَث فيهما، وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثمّ مسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وفي الصحيحين من حديث البراء بن عازب أنّ رسول الله ﷺ قال له: «إذا أتيتَ مَضْجعكَ فتوضأ وُضوءك للصلاة ثمَّ اضطجع على شقّك الأيمن ثمّ قل: اللهمّ أسلمت وجهي إليك وفوَّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظَهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا مَلجأَ ولا مَنْجا منكَ إلّا إليك، اللهمَّ آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ ونبيك

(١) في (ظ): «اشتكى».

الذي أرسلتَ، فإن مِتَّ من ليلتك، فأنت على الفِطرة، واجعلهن آخر ما تتكلّم به». قال البراء: فرددتها على رسول الله ﷺ فلمّا بلغتُ: «آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ» قلت: ورسولكَ، قال: «لا، ونبيِّكَ الذي أرسلتَ».

وفي الصحيحين من حديث عليٍّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال له ولفاطمةَ: «إذا أَخذتُما مضاجِعكما، أو أويتما إلى فِراشِكُما، فَسبّحا اللهَ[١] ثلاثاً وثلاثين، واحمَدا ثلاثاً وثلاثين، وكبِّرا أربعاً وثلاثين، فهو خيرٌ لكما من خادم».

وفي أفراد البخاري من حديث حُذَيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَوى إلى فراشه وضَع يده تحت خدّه وقال: «اللهمَّ باسمك أموت، وباسمك أحيا».

وفي أفراده من حديث أبي هُريرة أنّ شَيطاناً قال له: إذا أويتَ إلى فِراشكَ فاقرأ آية الكرسي فإنَّه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شَيطان حتى تُصبح. فأخبرَ رسول الله ﷺ فقال: «أما إنَّه قد صَدَقكَ وهو كَذوب».

وفي أفراد مسلم من حديث أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمدُ لله الذي أَطعمنا وسَقانا، وكَفانا وآوانا، فكم ممّن لا كافيَ له ولا مُؤْوي».

فإذا استقيظتَ لقيامِ الليل، فادعُ بدعاء رسول الله ﷺ حينئذٍ؛ أخبرنا عبد الأوّل قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعْيَن قال: حَدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا علي بن عبد الله قال: حدثنا سُفيان قال: حدثنا سليمان عن طاوس سمع ابن عبّاس قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجّد قال: «اللهمَّ لكَ الحمدُ، أنت قَيّم السماوات والأرض ومَن فيهنَّ، ولك الحمدُ، بديع السماواتِ والأرضِ ومن فيهنّ، ولكَ الحمدُ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمدُ، أنتَ ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمدُ، أنت الحَق، ووَعدك الحق[٢]، ولقاؤك حَق، والجنَّةُ حق، والنارُ حق، والنبيّون حق،

---

(١) ليست في (ظ).
(٢) في (ظ): «حق».

ومحمدٌ حق، والساعةُ حق، اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وبك آمنتُ وعليك توكّلت، وإليكَ أَنَبْتُ، وبك خاصمتُ، وإليك حاكمتُ، فاغفر لي ما قدّمتُ وأخَّرتُ، وما أسررتُ وأعلنتُ، أنتَ المقدم، وأنتَ المؤخر، لا إله إلا أنتَ، ولا إله غيرك». أخرجاه في الصحيحين.

فإذا استيقظت من نومك عند الصباح، ففي أفراد البخاري من حديث حذيفة أنّ النبي ﷺ كان إذا استيقظَ قال: «الحمدُ لله الذي أَحيانا بعدما أماتنا، وإليه النُّشور».

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمسى قال: «أمسينا وأمسى الملكُ لله والحمد لله، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، لهُ الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، ربّ أسألكَ خيرَ ما في هذه الليلة، وخيرَ ما بعدها، وأعوذُ بك من شرّ ما في هذه الليلة، وشَرِّ ما بعدها، ربِّ أعوذُ بكَ من الكسل، وسوء الكِبر، ربّ أعوذ بك من عذابٍ في النار، وعذابٍ في القبر». وإذا أصبحَ قال ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله».

وفي حديث عثمان بن عفان عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ قال (1 في أوّل يومه، أو في أوّل ليلته: بسم الله الذي لا يَضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم. لم يَضرُّه شيء في ذلك اليوم، أو في تلك الليلة».

وفي حديث أبي أيّوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ قال1) حين يُصبح: لا إله إلا الله، وَحده لا شريك له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كلّ شيءٍ قدير. عَشر مرّات، كتبَ اللهُ له بكلّ واحدةٍ قالها عشر حسنات، وكنّ له كعَشْر رقابٍ، وكنّ له مَسْلَحةً[2] من أول النهار إلى آخره، ولم يعمل يَومئذ عملاً يَقهرهنَّ».

وفي حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «مَن قال في دُبر صلاةِ الفَجر، وهو ثانٍ رجليه قبل أن يتكلَّم: لا إله إلا الله، فذكر الكلمات عَشر مرّات، كُتبت له عَشر

(1-1) ساقط من (ظ).
(2) المَسْلَحة: القوم المسلحون في ثغرٍ أو مَخفرٍ للمحافظة والمدافعة.

حسنات، ومُحِيَ عنه عشر سيئات، ورُفع له عَشرُ درجات، وكان يومه ذلك كلّه في حِرْزٍ من كلّ مكروه، وحَرَسٍ من الشَّيطان، ولم ينبغِ لذنبٍ أن يُدركَه في ذلك اليوم إلّا الشرك بالله» رواه الترمذي وصحَّحه، وقد ذكرنا لهذه ا لكلمات ثواباً آخر في فَضائل التهليل، وذكرنا في فضائل الاستغفار حديث شداد بن أوس، وثواب من قاله في الصباح والمساء.

أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابن المُغيرة قال: حدثنا أبو بكر قال: حدثني ضَمْرَة بن حبيب عن أبي الدرداء عن زيد بن ثابت أنّ رسول الله ﷺ عَلَّمه دُعاءً، وأمره أن يتعاهد به أهلَه كلّ يوم قال: «قُلْ حين تُصبح: لبَّيكَ اللهمَّ، لبَّيك وسَعديك، والخير في يَديك، ومنك وبك وإليك، اللهمَّ ما قلتُ من قولٍ أو نذرتُ من نَذرٍ، أو حَلفتُ من حَلِفٍ، فَمشيئتُكَ بين يديه، ما شئتَ كان، وما لم تَشَأْ لم يَكن، ولا حول ولا قوّة إلا بكَ، إنك على كلّ شيء قدير، اللهمَّ وما صلَّيتُ من صلاةٍ فعَلى من صَلَّيتَ، وما لعَنتُ من لعنةٍ فَعلى من لَعنتَ، إنَّك أنتَ وليّي في الدنيا والآخرة، توفّني مسلماً وألحِقني بالصالحين، أسألكَ اللهمَّ الرضا بعد القضاء، وبردَ العيش بعد الممات، ولذةَ نظرٍ إلى وجهك، وشَوقٍ إلى لِقائك من غير ضَرَّاءَ مُضِرَّة، ولا فتنةٍ مُضلّة، أعوذُ بك من أن أَظلمَ أو أُظْلَم، أو أَعتدي أو يُعتدَى عليَّ، أو أكتسبَ خطيئةً مُحبطة أو ذَنباً لا يغفر، اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغَيبِ والشهادة، ذا الجلال والإكرام، فإنّي أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا، وأُشهدك وكفى بك شهيداً أني أشهد أن لا إله إلا أنتَ، وحدَكَ لا شريك لك، لكَ الملكُ، ولكَ الحمد، وأنت على كل شيء قدير، وأشهد أنَّ محمداً عبدكَ ورسولُكَ، وأشهد أنّ وَعدَك حَق، ولقاءكَ حق، والجنّة حق، والساعةَ آتية لا ريب فيها، وأنتَ تبعث من في القبور، وأشهد أنّك إن تَكِلْني إلى نفسي تَكلني إلى ضَيعةٍ وعَورة، وذنبٍ وخَطيئة، وإنّي لا أثق إلّا برحمتك، فاغفر لي ذنبي كلَّه، إنّه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وتُبْ عليَّ إنك أنت التوّابُ الرحيم».

وفي حديث عبد الرحمن بن أبزَى أنّ النبي ﷺ كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى: «أصبحنا على فِطرة الإسلام» أو «أمسينا على فِطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد ﷺ، وعلى ملّة أبينا إبراهيم حنيفاً مُسلماً، وما كان من المشركين».

وفي حديث أبي موسى قال: كان النبي ﷺ إذا صلّى الصبح يَرفع صوته حتى يُسمع أصحابه يقول: «اللهمَّ أصلح لي ديني الذي جَعلته لي عِصمةً ـ ثلاث مرّات ـ اللهمّ أصلح لي دُنياي التي جعلتَ فيها معاشي ـ ثلاث مرات ـ اللهمَّ إنّي أعوذُ برضاك من سَخطك، اللهمّ إنّي أعوذ بعَفوكَ من نِقمتك، اللهمَّ إنّي أعوذ بك منك ـ لا مانع لما أعطيتَ، ولا مُعطيَ لما مَنعْتَ، ولا ينفع ذا الجدّ جَدُّه» مرّةً واحدة.

وفي حديث مَعقل بن يَسار عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ قالَ حين يُصبح ثلاث مرَّات: أعوذُ بالله، السميعِ العليم من الشيطان الرجيم. ثمّ قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وَكَّلَ اللهُ به سبعينَ ألف مَلَك يُصلُّون عليه حين يُمسي، وإن ماتَ في ذلك اليوم كان شهيداً، ومن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة».

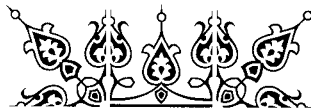
أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا ابن النَّقور قال: أخبرنا ابنُ حبابة قال: حدثنا البَغوي قال: حدثنا هُدبَة بن خالد قال: حدثنا الأغلب بن تميم قال: حدثنا الحجاج بن فرافِصَة عن طَلقٍ قال: جاء رجل إلى أبي الدرداء فقال: يا أبا الدرداء، احترقَ بيتُكَ. فقال: ما احترقَ. ثمّ جاء رجلٌ آخر فقال: يا أبا الدرداء، احترقَ بيتُكَ، قال: ما احترقَ. ثمّ جاء رجل آخر (١فقال: يا أبا الدرداء١) لما انتهت النار إلى بيتك طفِئتْ. قال: قد علمتُ أنّ الله عزّ وجلّ لم يكن ليفعل. قالوا: يا أبا الدرداء، ما ندري أيّ كلامك أعجب، قولك: ما احترقَ أو قولك: قد علمتُ أنّ الله عزّ وجلّ لم يكن ليفعل؟! قال: ذلكَ لكلماتٍ سمعتهنَّ من رسول الله ﷺ مَنْ قالها أوَّلَ النهار لم تُصِبهُ مصيبةٌ حتى يُمسي، ومن قالها آخر النهار لم تصبه مصيبةٌ حتى يُصبح: «اللهمّ إنَّك ربّي لا إله إلا أنت، عليك توكّلت، وأنتَ رب العرش

(١ـ١) سقط من الأصل.

الكريم، ما شاء اللهُ كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، أعلم أنّ الله على كل شيء قدير، وأنّ الله قد أحاطَ بكل شيءٍ علماً، اللهمَّ إنّي أعوذُ بك من شَرِّ نفسي، ومن شَرِّ كل دابّةٍ أنت آخِذٌ بناصيتها، إن ربي على صراطٍ مستقيم».

فهذه أدعيةٌ لا يستغني المُريد عن حِفظها، وقد تَنَكَّبْنا[١] من جنسها ما لا يَثبُت، وأمّا ما يتعلّق من الأدعية بأشياء سِوى ما ذكرنا، كالوضوء والصلاة والسفر، فقد ذكرناه في مَواضعه، فإن قال قائل: إذا كان القَضاء لا يُرَدّ فما فائدة الدعاء؟ فالجواب: أنّ من القَضاء ردّ البلاء بالدعاء، كما أنَّ المِجنّ سببٌ لردّ السَّهم، وليس من شرط الإقرار بالقَضاء ترك حَمل السِّلاح، كيف وقد قال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١]، فقد قَدَّر المقُدِّر لكلّ مقدورٍ سَبباً، ثمّ إنّ الدعاء يَستدعي حُضور القلب، ويردّه إلى الله سبحانه بعد إعراضه عنه، ثمّ يستخرج من الباطن صدق اللَّجأ والذلّ، وذلك كلّه مقصود.

آخر كتاب الأذكار والدعوات.



(١) في (ظ): «تركنا».

كتاب ترتيب الأَوراد

وتَفصيل إِحياء اللَّيل

الحمدُ لله الذي حَثَّ على خِدمته ودَعا، وأكرم من بادر إلى طاعَتِه وسَعَى، واختارَ للخلوة به من فهم عَنه ووَعَى، فخلع عليهم من حُلَل السَّهَر خِلَعاً، وسقاهم من كأسٍ مَحبَّته جُرَعا، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يَدعون ربَّهم خوفاً وطَمعاً.

أَحمدُه حَمدَ من قَوي تَقوى ورَعى ورَعا، وأُصلّي على رسوله محمّدٍ الذي علا على الأنبياء والملائكة معاً، وعلى من تَبعه عالماً أو مُتعلماً، أو مُحباً أو مُستمعاً، وأُسلِّم تَسليماً كثيراً.

أمّا بعد: فإنَّ الناس في هذه الدنيا سَفْرٌ، وأوّل منازلهم المَهْد، وآخرها اللَّحْد، والوطن الجنَّة أو النار، والعُمر مسافَةُ السَّفَر، فَسِنُوهُ مراحله، وشُهوره فَراسِخُه، وأيامه أَمياله، وأنفاسه خُطواته، وطاعته بِضاعته، وأوقاتُه رؤوس أمواله، وشَهواته قُطّاع طريقِه، وربحُه الفَوز بلقاء الله في دار السَّلام مع المُلْكِ الكبير والنَّعيم المقيم، وخُسرانه البُعد من الله مع العذاب الأليم في دَرَكات الجحيم والغافل عن نَفَسٍ من أنفاسه حتى يذهبَ في غير طاعةٍ تُقرّبه إلى الله مُتعرّض لغَبينةٍ(١) وحَسْرةٍ ما لها منتهى، ولهذا الخَطر العظيم والخطب الجسيم، شَمَّر الموفَّقون عن سوق الجدّ، وودَّعوا بالكليّة مَلاذَّ النَّفس، واغتنموا لحظاتِ العمر، ورتَّبوا بحسب تكرّر الأوقات وظائفَ الأوراد طلباً للتقرّب إلى الله سُبحانه، وسعياً إلى دار القرار، فصار من

---

(١) الغَبينة: الخديعة، يقال: لحقَته في تجارته غَبينة.

مُهمّات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قِسمة[1] الأوراد، وتوزيع العبادات على مَقادير الأوقات.

ويَتَّضح هذا المهمُّ بذكر بابين، والله الموفِّق.

الباب الأوّل: في فضيلة الأوراد، وترتيبها في الليل والنهار.

الباب الثاني: في كيفية إحياء الليل، وفَضِيلته وما يتعلّق به.

(١) ليست في (ظ).

الباب الأَوّل

في فضيلة الأوراد وترتيبها، وبيان أنّ المواظبة عليها هو الطريق إلى الله عزّ وجلّ

اعلم أنّه إذا حصلت المعرفة لله سبحانه، والتَّصديقُ بوَعده، والعلم بقِصَرِ العُمر، وجبَ تركُ التَّقصير في هذا العمر القصير، والنفسُ متى وقفت على فنٍّ واحدٍ ملَّتْ، فمنَ التَّلطُّف بها نقلها من فنٍّ إلى فنّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥ ـ ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ـ ٤٠]، فهذه الآيات في نظائرها تَدلُّكَ على أنّ الطريق إلى الله سبحانه مُراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقد قال النبي ﷺ: «أَحبُّ عبادِ الله إلى الله الذينَ يُراعون الشمس والقَمر والأَظِلَّة لذكر الله»، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢] أي يَخلُفُ أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات من الآخر.

بيان عدد الأوراد وترتيبها

اعلم أنّ أورادَ النهار سبعة، وأوراد الليل خمسة، فلنذكر فَضيلة كلّ وِرْدٍ، ووظيفته وما يتعلق به.

أوراد النَّهار

الورد الأول: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وهو وقتٌ شريف، قد أقسم الله سبحانه به فقال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، وتَمَدَّح بإيجاده فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وأمر بالتسبيح فيه فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ

وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [طه: ١٣٠]، وقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وأمّا وظيفته؛ فينبغي للمريد إذا انتبه أن يَذكر الله عزّ وجلّ، فيقول: الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتَنا وإليه النشور، إلى آخر ما قد سَبق ذكره في دُعاء الصُّبح من كتاب الأَدعية، ثمّ يلبس ثوبَه ناوياً بذلك سَتر عَوْرته لامتثالِ أمر الله سبحانه، والاستعانة على عبادته من غير قصد رياءٍ ولا رُعونة، ثمّ يذهب إلى الخَلاء إن احتاج، وقد ذكرنا آدابَه في كتاب الطَّهارة، ثمّ يتوضأ، وقد سَبق ذكر الوُضوء، ثُمَّ يصلّي سُنَّة الصُّبح في منزله، ثمّ يخرج من البيت مُتوجهاً إلى المسجد، وقد سَبق ذكر[1] ما يدعو به في سَعيه وليمش بالسَّكينة، ويُقدم رجله اليُمنى في الدخول، وقد سبق ذكر ما يدعو به، ثمّ يطلب الصفّ الأول إن أمكنه ويجلس[2] منتظراً للجماعة ذاكراً، وقد سبق من الأذكار والدعاء في أول النهار ما يكفي، فليأت بما أمكنه من ذلك، ثمّ يصلّي الفريضة، وقد سبق ذكر آداب الصلاة، فإذا فَرغ لم يبرح من مكانه حتى تطلع الشمس، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ أحدكم إذا توضأ فأحسنَ الوضوء، ثمّ دخل المسجد كان في صلاةٍ ما كانت الصلاة تَحبِسُه، والملائكةُ يصلّون على أحدهم ما دام في مَجلسه الذي صَلّى فيه، يقولون: اللهمَّ اغفر له، اللهمَّ ارحمه، اللهمّ تُبْ عليه، ما لم يؤذِ فيه ما لم يُحدِث فيه».

وفي أفراد مسلم من حديث جابر بن سَمُرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى الغَداة جلسَ في مُصلّاه حتى تَطلُع الشمس حَسَناً.

وروى الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ أنّه قال: «من صلَّى الفجر في جماعةٍ، ثمّ قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثمّ صلّى ركعتين كانت له كَأجر حجّةٍ وعُمرةٍ تامَّة تامَّة تامَّة».

---

(١) ليست في الأصل.
(٢) سقطت من الأصل.

ولتكُن وظائف وقته أربعاً: الدعاء، والذّكر، والقِراءة، والفِكْر، فليأت بما أمكنَه [(١] من الدعاء والذِّكر مما قد سبق ذكره، وليقرأ ما أمكنه [١)].

وليتفكر في فَنَّين: **أحدهما**: تدبير دفع الصَّوارف، [(٢]وقَطعِ القواطع[٢)] الشاغلة له عن الخير، ليؤدّي وظائف يومه.

الثاني: نِعمُ الله عليه ليتوخَّى شكره.

الورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى الضُّحى، وذلك بمُضِيّ ثلاث ساعات من النهار إذا فُرِض النهار اثنتي عَشرة ساعة، [(٣]وهو الربع[٣)]، وهذا وقتٌ شريفٌ أقسمَ الله تعالى به فقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٢]، وقال: ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وفي هذا الربع وَظيفتان: **إحداهما**: صلاةُ الضحى، وقد سبق ذكرها، فإن صَلَّى منها ركعتين عند انبِساط الشمس وارتفاعها، وترك البواقي إلى أن يشتدَّ ارتفاع الشمس كان حسناً.

الوظيفة الثانية: ما يتعلَّق بالناس من عيادةِ مريضٍ، وتشييع جنازةٍ، وحضور مجلسِ علمٍ وقضاءِ حاجةِ مُسلم، فإن لم يفعل شيئاً من ذلك تَشاغَلَ بالقراءة والذّكر.

الورد الثالث: من وَقت الضُّحى الأعلى إلى الزَّوال، والوظيفةُ في هذا الوقت الأَقسام الأربعةُ وزيادة أمرين: **أحدهما**: الاشتغال بالكَسب وتَدبير المَعاش، وحُضور السوق، فإن كان تاجراً فليتَّجر بصدقٍ وأمانة، وإن كان صاحب صِناعةٍ فَبِنُصحٍ وشَفقةٍ، ولا يَنسى ذكرَ الله تعالى في جميع أشغاله، وليقنع بالقليل توفيراً للزمانِ على العبادة.

والثاني: القَيلولة، وهي مما يعين على قيام الليل كما يعين السحور على صيام النهار، فإن نام فليجتهد في الانتباه قُبَيل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء،

(١ـ١) سقط من الأصل.
(٢ـ٢) سقط من (ظ).
(٣ـ٣) سقط من (ظ).

وحضور المسجد قبل دخول الوقت، وإن لم يَكسِب ولم ينَمْ اشتغل بالصلاة والذّكر.

الوردُ الرابع: ما بينَ الزوال إلى الفراغ من صلاة الظُّهر، وهو أقصر أوراد النهار، وأفضلها، فإذا كان قد توضَّأ قبل الزوال وحضر المسجد، فإذا زالت الشمس وأذَّن المؤذّنُ وأجابَ المؤذِّنَ بمثل قوله، فليقم إلى التَّعبُّد ما بين الأذانين، وليصلِّ أربع ركعاتٍ، وقد ذكرناها في صلاة التطوّع، وليُطَوِّل فيها، فإن أبواب السماء تُفتَح حينئذٍ، ثمّ يصلِّي الظهر، ثمّ يصلّي سُنتها ركعتين، ثمّ يَتطوَّع بأربعٍ.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العَصر، وقد استحبُّوا له العُكوف في المسجد شُغلاً بالذّكرِ أو الصلاة أو فنون الخير، والذي أراه أن يُصلي في بَيته إذا لم يقدر على خلوةٍ في المسجد، ففي الصحيحين من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ أنّه قال: «أَفضل صلاةِ الرجل في بيته إلّا المكتوبة».

فإن كان قد نام قبل الزوال، فلا ينبغي أن ينام بعده.

واعلم أنّ اللَّيل والنهارَ أربع وعشرون ساعةً، فالاعتدال في النوم أن يكون ثمان ساعات، وهو الثلث، فمن نام أقلَّ من هذا لم يؤمَن اضطرابُ بَدَنِه، وغلبة اليُبْسِ عليه، ومَن نام أكثر زادَ كَسَلُهُ، فمن نام هذا المِقدار في اللَّيل، فلا وجه لنومِهِ في النهار، بلى من نقص منه استَوفَى ما نَقص بالنهار، وليعلم النائم ثمان ساعاتٍ أنّه قد مَضى ثُلث عمره غير أنّه لا بَقاء للبَدَن إلّا بالنوم، فإنّه كالقُوتِ، وله فائدتان:

إحداهما: انعكاس الحَرارة إلى الباطن، فينهضم الطَّعام.

والثانية: استراحةُ الأعضاء التي قَدْ كَلَّتْ بالأعمال.

الورد السادس: إذا دَخل وقتُ العصر إلى أن تَصفرَّ الشمس، وليس في هذا الورد صلاةٌ سوى أربع ركعات بين الأَذانين، ثم فَرضُ العصر، ثم يتشاغل بالأقسام الأَربعة التي سَبق ذكرها في الورد الأول، والأفضل فيه تلاوة القرآن بالتدبُّر والتَّفهم، فيجمع ذلك الذّكر والدُّعاء والفِكر.

الورد السابع: إذا اصفرَّت الشمس إلى أن تَغرب، فهو وقتٌ شَريف، قال الحسن[١]: كانوا أَشدَّ تعظيماً للعَشِيِّ[٢] من أَول النهار، فيُستحبُّ في هذا الوقت التَّسبيح والاستغفار خاصةً، وقد ذكرنا ما يُدعى به ويُقال عند المساء، وبالغروب تَنْتهي أَوراد النهار، فينبغي أن يُلاحظ العبدُ أحواله ويُحاسب نَفسه، فقد انقَضت من طريقِهِ مَرحلَة، وليعلم أن العُمر أيامٌ تَنقضي جُملتها بانقضاء آحادِها، قال الحَسن: يا ابنَ آدم، إنما أنتَ أيامٌ إذا مضى يَومك مَضى بعضُكَ.

وليتفكَّر في أنَّ نهار العُمرِ له آخِرٌ تغربُ فيه شمسُ الحياة، ولينظر هل ساوى يومَه أمسَه؟ فيكون مَغْبوناً، أو كان شَرّاً منه، فيكون مَلعوناً، فإن رآى أنه قد توفَّر على الخير طول نَهاره، فليشكر الله سُبحانه على التوفيق، وإن تكن الأُخرى، فليتُبْ، وليعزم على تَلافي ما سبق من التفريط باللَّيل، فإن الحَسنات يُذهِبنَ السَّيئات، وليشكرِ الله تعالى على صحَّةِ جسمه، وبقاء بقيةٍ من عُمره يمكن فيها استدراكُ التَّقصير، وقد كان جماعةٌ من السَّلف يستحبّون أن لا ينقضي يومٌ إلا عن صَدَقةٍ، ويجتهدون بما يمكن من كل خَيْر كعيادة المريض وتشييع الجنائز وغير ذلك.

أوراد اللَّيل

الورْد الأول: إذا غَربت الشمس إلى وقتِ العشاء، وإذا غَربت صلَّى المغرب، واشتغَل بإحياء ما بين العِشاءَين، فقد قال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. نزلت في ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ، كانوا يُصلّونَ ما بين المغرب والعشاء، وأما فَضلُ إحياء ما بين العِشاءَين، فقد ذكرناه في صلاة[٣] التَّطوع.

(١) يعني الحسن البصري.
(٢) في (ظ): «العشاء».
(٣) في (ظ): «كتاب».

فإن أقامَ في المسجد مُعتكفاً مُنتظراً للعشاء، فهو أفضل، وإن صلَّى في بيته يقصد الخَلوة فحسَنٌ.

الورد الثاني: مِن وقت غَيبوبة الشَّفَق الأَحمر إلى وَقتِ نَومِ الناس، فليُصلِّ ما بينَ الأذانين ما أمكنَه، وليكن في قراءته: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السَّجدة، و﴿تَبَٰرَكَ﴾ المُلك، فقد كان رسول الله ﷺ لا يَنام حتى يقرأهما، وفي حديث ابن مَسعود عن النبي ﷺ أنه قال[1]: «من قرأَ سورة الواقِعةِ في كلِّ ليلةٍ لم تُصبه فاقَة».

الورد الثالث: الوِتر، وليوتِرْ قبلَ النوم إن لم تكن عادته القِيام، قال أبو هُريرة: أَوصاني رسولُ الله ﷺ أن لا أَنامَ إلا على وِتر. وإن كانَ معتاداً للصلاة بالليل، فَتأخير الوتر أفضل، قالت عائشةُ: أَوترَ رسولُ الله ﷺ أوّل اللَّيل، وأَوسطَه، وانتهى وِتْرُهُ إلى السَّحر.

ثم ليقُل بعد الوِتر: سُبحانَ المَلِكِ القُدّوس، ثلاث مرات.

الورد الرابع: النَّوم، وإنما عَدَدْناه في الأَوراد؛ لأنّه إذا رُوعيت آدابُه وحَسُنَ المقصودُ به احتُسِبَ عبادةً، وقد قال مُعاذٌ: إني لأَحْتَسِبُ في نَومتي ما أَحتَسِبُ في قَوْمَتي.

وآداب النوم عشرة: **الأول**: الطَّهارة، فقد أخبرنا علي بن عُبيد الله قال: أخبرنا عبد الصَّمد بن المأمون، قال: أخبرنا عُبيد الله بن محمد بن حَبابة قال: أخبرنا يَحيى بن محمد بن صاعد قال: أخبرنا العباس بن الوليد بن مَزْيَد[2] قال: أَخبرني أبي قال: سمعتُ الأَوزاعي يقول: حدَّثني الزُّهري عن عُروة عن عائشة قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ أن ينام توضَّأ وُضوءَه للصلاة. وقال عبد الله بن عَمرو بن العاص: إن الأرواح يُعرَجُ بها في مَنامها إلى السماء فَتُؤمَرُ بالسّجود عند العَرش، فما كان منها طاهِراً سَجَد عند العرش، وما كان ليس بطاهرٍ سَجد بعيداً من العرش.

---

(١) ليس في الأصل.

(٢) تصحف في (ظ) إلى: «مَرثَد».

الثاني: أن يتوبَ قبل نَومه؛ لأنه ينبغي لمن طَهَّر ظاهرَهن أن يَجتهد في طَهارة باطِنه قبل النوم، لوجوه، أهمُّها أمران: أحدهما: أنه ربّما مات في نَومِه فليأخذ أُهْبَةَ الرَّحيل.

والثاني: أنَّ النوم مَظِنَّة الرؤيا، ولقاء أرواح الأَنبياء والصالحين، وإلقاء ما يُلقَى من حُجُبِ الغَيب، وذلك لا يصلح إلا لوعاءٍ نَظيفٍ.

الثالث: أن يُزيل كلّ غشٍ في قلبه لمسلمٍ، ولا يَنوي ظُلمه، ولا يعزم على خَطيئةٍ إن استَيْقَظ.

الرابع: أن لا يَبيتَ مَنْ له شيءٌ يوصي فيه إلا ووَصيَّتُه مكتوبةٌ عنده، في الصَّحيحين من حديث ابن عُمر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما حَقُّ امرئٍ مُسلمٍ يَبيتُ لَيلَتينِ، ولَهُ شيءٌ يوصي فيه إلا وصيته مكتوبةٌ عنده».

الخامس: أن لا يُبالغَ في تَمهيد الفِراش مُتَنعماً بذلك، فإن ذلك يَزيدُ في النوم، فإنَّ النبي ﷺ ثُنِيَ له فراشه فقال: «مَنَعَتْني وَطأَتُهُ صَلاتي اللَّيلة».

السادس: أنْ لا ينام ما لم يَغلبْهُ النوم، فقد كان السَّلَفُ لا ينامون إلا عَن غَلبَةٍ.

السابع: أن ينامَ مُستقبلَ القِبلة، والاستقبالُ على ضَربين: الأَول.

استقبالُ المُحتَضِر، وهو للمستَلقي على قَفاه، فيكون وَجهُه وأَخمصاه إلى القِبلة، والثاني: استقبالُ اللَّحدِ، وهو لمن ينام على جَنبٍ، بأن يكونَ وَجههُ إليها إذا نام على الشِّقِّ الأَيمن.

الثامن: الدُّعاء عند النوم، وقد سبقت الأذكار التي تُقالُ عند النوم في كتاب الدَّعوات.

التاسع: أن يتذكَّر عند النوم أنه نَوعُ وفاةٍ، وأن التَّيَقُّظ نَوعُ بَعثٍ، فلينظُر على ماذا ينامُ من العَزائم والنِّيات خَوفاً من أن يَفْجأَهُ الموتُ على ما لا يَصلُحُ.

العاشر: ذِكرُ الله تعالى عند التَّيقُّظِ، وشكْرُهُ على السلامة والعافيةِ، وليجتهد أن

يكون آخر ما يجري على قَلبه ولسانه عند النَّوم ذكرُ الله تعالى، وأول ما يجري عليهما عند التَّيقُّظِ ذكرُ الله تعالى، فهاتان علامَتان على الإيمان، وعلى قَدرِ وجود الصَّفاء في الذكر تكونُ المعرفة للمذكور والمحبةُ له.

الورد الرابع: يَدخلُ بمُضِيِّ النِّصف الأول من اللَّيل إلى أن يبقى من الليل سُدسه، وذلك وقتٌ شريفٌ، وقد رَوى أبو ذَر قال: سألتُ النبي ﷺ: أيُّ صلاةِ الليل أَفضل؟ فقال: «نصفُ اللَّيل، وقَليل فاعِلُه». ورُوي أنّ داود عليه السلام قال: يا ربِّ، أيّ ساعةٍ أقوم لكَ؟ فأوحى اللهُ تعالى إليه: يا داود، لا تَقُم أولَ الليل ولا آخره، ولكن قُمْ في شَطر الليل حين تَخلوا بي وأخْلوا بك، فارفع إليَّ حوائجك.

فإذا قامَ حينئذٍ للتَّهجد، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: بِتُّ عند خالتي ميمونة، فاستيقظَ رسولُ الله ﷺ فجعلَ يمسحُ النَّوم عن وَجهه ثم قرأَ العشر الآيات الخواتم من سورةِ آل عمران.

وليَدْعُ بدُعاءِ رسولِ الله ﷺ عند قيامه باللَّيل، وقد سَبق في كتاب الدَّعوات، ثم يُصلِّي ركعتين خفيفتين، ففي أفراد مسلمٍ من حديث أبي هُريرةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قامَ أحدُكم يُصلي باللَّيل، فَليبدأ بركعتين خَفيفتين». وفي أفراده من حديث عائشةَ قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا قامَ من الليل يُصلّي افتتَح صلاتَه بركعتين خَفيفتين، ثم يُصلِّي مَثْنَى مَثْنَى. وفي أفراد البُخاري من حديث ابن عُمَر قال: قالَ رجلٌ يا رسولَ الله، كيف تأمرنا أن نُصلّي من اللَّيل. قال: «يُصلي أحدُكم مَثْنى مَثْنى، فإذا خشي الصُّبح صلَّى واحدةً، فأوتَرَتْ له ما قَد صَلَّى من الليل». وأكثرُ ما رُوي عن رسولِ الله ﷺ أنه كان يُصلي من اللَّيل ثلاثَ عشرةَ ركعةً مع الوِتْر، وأقلّهنَّ سَبْع.

الورد الخامس: السُّدسُ الأخير من اللَّيل وهو وقتُ السحر، قال الله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]، وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسولُ الله ﷺ ينامُ أولَ اللَّيل ويقومُ آخره، وفي أفراد مسلم من حديث جابرٍ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «مَنْ خَشِي منكم أن لا يَقومَ من آخرِ اللَّيل، فليوتِرْ مِنْ أوّله،

ثم ليَرْقُد، ومن طَمِعَ منكم في أن يقومَ مِنْ آخرِ اللَّيل، فإنَّ قراءةَ آخرِ الليل محضورة». وذلك أفضل. وفي حديث عَمرو بن عَبَسةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «أقربُ ما يكون الربُّ من العَبد في جوف الليل الآخِر، فإن استَطعتَ أن تكون ممّن يَذكُر اللهَ في تلك الساعة فكُن». رواه الترمذي وصَحَّحه، ورواه أبو داود عن عَمرو بن عَبَسة قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أي اللَّيل أَسمَعُ؟ قال: «جَوفُ الليل الآخِر، فَصلِّ ما شئتَ فإنّ الصلاة مَشهودَةٌ مَكتوبةٌ حتى تُصلّي الصُّبح». وجاءَ رجلٌ إلى طاوس وقتَ السَّحر فقال: أهو نائم؟ فقال: ما كنتُ أرى أن أحداً يَنام في السَّحر.

فإذا فرغ المُريدُ من صلاةِ السَّحر، فليستغفِر. قال نافعٌ: كان ابنُ عمر يُحيي اللَّيل صلاةً، ثم يقول: يا نافع، أَسْحَرْنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصَّلاة، ثم يقول: يا نافع، أَسْحَرنا؟ فأقول: نَعم، فيقعد ويَستَغفِر ويدعو حتى يُصبح.

بيانُ اختِلاف الأَوراد باختِلاف الأَحوال

اعلم أن السَّالك لطريق الآخرة لا يخلو من سِتّة أحوال: إما أن يكون عابداً، أو عالماً أو مُتعلماً، أو والياً، أو مُحترفاً، أو مُستغرقاً بمحبّة الله[١] عز وجل مشغولاً عَن غيره.

الأول: العابد، وهو المنقطع عن الأَشغال كُلّها إلى التَّعبد، فهذا يَستعمل ما ذكرناه من الأَوراد، وقد تَختلف وظائفه فقد كانت أحوال المتعبدين من السلف تختلف، فمنهم مَن كان يغلب عليه حُب التلاوة، فكان يختم كل يوم [٢]ومنهم من يختم[٢] مرتين وثلاثاً، وكان فيهم من يُكثر من الصلاة فيصلي مئةَ ركعة، وخمسمئة، وألف ركعة، ومنهم من غَلب عليه حُب الطَّواف بالبيت فكان يطوفُ كلَّ يوم سبعين أُسبوعاً[٣]، وهو يقرأ القرآن مع ذلك مرةً أو مرتين.

(١) في (ظ): «الحق».
(٢-٢) سقط من الأصل.
(٣) الأسبوع: سبع مرّات.

فإن قيل: فما الأَولى أن يُصرَفَ إليه أكثر الأَوقات من هذه الأَوراد؟

فاعلم أن قراءة القرآن في الصلاة قائماً مع التَّدبُّر تَجمعُ الجميعَ، ولكن ربما عَسُرت المواظبة على ذلك، فالأفضل يختلف باختلاف حالِ[1] الشخص.

ومقصودُ الأوراد تزكيةُ القلب وتَطهيره وتخليته للذكر والأُنس، فلينظر المريد إلى ما يراه من التَّعبد أشدّ تأثيراً فيه، فليواظب عليه، فإذا أحسَّ بمللٍ انتقلَ عنه، وقال أبو سُلَيمان الداراني: إذا وجدتَ قلبك في القيام، فلا تركع، أو في الركوع، فلا تَرفَع، أو في السُّجود، فلا ترفع.

الثاني: العالم، وهو الذي يَنتفع الناس بعلمه في فَتوى أو تدريس أو تصنيف أو تذكير، فَترتيبُه للأوراد يُخالف ترتيب العابد، فإنه يحتاج إلى المطالعة للكُتُب، وإلى التصنيف والإفادة، فإن استَغرق الأَوقات في ذلك فهو أفضل ما يَشتَغل به بعد المكتوبات، وقد دلَّ على صحة ما قلنا ما سَبق في بيان فَضيلة العلم والتعليم، وكيف لا يكون كذلك وقد قال عليه الصلاة والسلام لعليٍّ[2]: «والله لأَنْ يَهديَ اللهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مما طلعت عليه الشمس». وهل يهتدي الناس إلا بالعلم؟ فَرُبَّ مسألةٍ تعلَّمها الإنسان صلحت بها عبادة عُمره، ولو لم يتعلمها كان عمله ضائعاً، وإنما يُعنَى بالعلم المُقدَّمُ على العِبادة العلمُ الذي يُرَغِّبُ في الآخرة ويُعين على سلوك طريقها.

فالأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضاً؛ لأن استغراق الأوقات في العلم لا تَصبر عليه النفس، فينبغي أن يَخُصَّ ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأَذكار والأَوراد على ما ذكرنا، ثم بعد طُلوع الشمس إلى الضحى في الإفادة والتَّعليم، فإن لم يكن عنده من يتعلم صَرف ذلك الزمان إلى التفكير في العلوم فإنَّ صفاء القلب بعد الفَراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يُعين على التَّفَطُّنِ للمُشكلات، ثم من ضَحْوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا يترك ذلك إلا في وَقتِ أكلٍ وطَهارةٍ، أو

---

(١) في الأصل: «بحال اختلاف».

(٢) ليست في الأصل.

في مكتوبةٍ وقَيلولةٍ، ومن العصر إلى الاصفرار يَشتغل بسماع ما يُقْرأ، عليه من تفسيرٍ أو حديثٍ أو علم نافعٍ، ومن الاصفرار إلى الغُروب يَشتغل[١] بالاستغفار والتسبيح، فيكون وِرْدُه الأول قبل طُلوع الشمس في عَمل اللِّسان، وَوِرْدُه الثاني في عَمل القَلبِ بالفكرِ إلى ضَحوةٍ، ووِرْده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والنَّسخ، ووِرْده الرابع بعد العصر في عَمل السَّمع لِيُرَوِّحَ فيه العَين واليد، فإنَّ المطالعة والنسخ بعد العصر رُبما أَضرَّت بالعَين، وعند الاصفِرار يعود ذِكر اللِّسان[٢] فلا يَخلو جُزءٌ من النهار من عملٍ بالجوارح مع حُضور القلب في الجميع.

وأما اللَّيل فأحسنُ قِسمةٍ فيه قسمةُ الشافعي، فإنه كان يَقسمُ اللَّيل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول لكتابةِ العلم، الثلث الثاني للصلاة، الثلث الثالث للنوم، وأما الصيف فربما لا يَحتمل ذلك إلا إذا كان أكثرَ النومَ بالنَّهارِ.

الثالث: المُتعلِّم، فإن التَّشاغل بالتعلُّم أفضل من التَّشاغل بالأذكار والنوافل، وقد سبق فضلُ ذلك في كتابِ العلم، وحكمُ المتعلم حكم العالم في تَرتيب الأوراد لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالِمُ بالإفادة، وبالتَّعليق والنَّسخ حين يشتغل العالمُ بالتَّصنيف، فإن كان من العَوام فحضورُه[٣] مجالس الذكر والعلم والوَعظ أفضلُ من اشتغاله بالأوراد المُتَطوَّع بها، قال عليه الصلاة والسلام: «إذا مَرَرْتُم برياضِ الجنة فارتَعوا» قيل: وما رياضُ الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْر».

قال عمار الراهب[٤]: رأيتُ مسكينةَ الطُّفاوية[٥] في منامي وكانت من المُواظِبات على حِلَق الذكر، فقلت: مَرحباً يا مسكينة مرحباً. قالت: هَيهاتَ يا

---

(١) ليست في الأصل.
(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «الليل».
(٣) في الأصل: (فحضور).
(٤) هكذا في النسخ وصفة الصفوة للمصنف، وفي الإحياء: «الزاهد».
(٥) هي مسكينة الطفاوية، منسوبة إلى بني طُفاوة بطن من العرب كانت من العابدات الزاهدات ذكرها المصنف في صفة الصفوة ٤/ ٤٢.

عمار، ذَهبت المسكَنَة وجاء الغِنى الأكبر. قلتُ: هيه[١]. قالت: ما تَسأل عَنْ مَنْ أُبيحَ الجنَّة بحذافيرها يظلُّ منها حيث يَشاء؟ قلت: وبِمَ ذلك؟ قالت: بمجالس الذكر، والصَّبر على الحق. قال عمار: وكانت تحضر معنا مجلس عيسى بن زاذان بالأُبُلَّة[٢]، تَنحَدِرُ من البصرة حتى تأتيه قاصدةً.

وينبغي أن يعلم أن حضور مجلس الوعظ أَنفعُ شيءٍ للعامي إذا كان الواعظ صَدوقاً متحرياً طريقةَ السَّلف فيما يورده فإن تكرار الوَعْظِ على العامي يَثقبُ باطن قلبه، فيستخرج حُبَّ الزَّلل ويودعه جَواهر التَّقوى، وذلك أنفعَ للعامي من ركعاتٍ كثيرةٍ وتَسبيحاتٍ طَويلة.

الرابع: **المُحتَرف**، وهو المحتاج إلى الكَسب له ولعياله، فليس له أن يستغرق الزمان في التعبُّد بل يَجتهد في الكَسب مع دوام الذكر، فإذا حصلَ لهُ ما يكفيه عاود الأوراد، فإن اكتَسبَ أكثر من كفايته فادَّخره لحاجةٍ أو غَرضٍ[٣] له أو لعائلته فهذه نية حسنة، فإنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لأَن تدعَ ورثَتك أَغْنياء خيرٌ لك من أن تَدعهم عالةً يتكفَّفونَ الناس». وإن هو تَصدَّق بما يَفضُل عن حاجته كان ذلك أفضل من الأَوراد؛ لأن نفعَ الصدقةِ يتعدَّى، والكسب على هذه النِّيات عبادةٌ في نفسه وقُربةٌ إلى الله عز وجل.

الخامس: **الوالي**، مثل الإمام والقاضي والمتولّي للنظر في أمرٍ من أمور المسلمين، فقيامُه بحاجات المسلمين وأغراضهم على وَفْقِ الشَّرع وقصدِ الإخلاص أَفضل من الأوراد المذكورة، لأنه عبادةٌ، ثم يفضل على العبادات بتَعدّي نفعه، كما قلنا في العلم، فينبغي له أن يقتصر في النهار على المكتوبات، ثم يَستفرغ باقي الزَّمان في ذلك ويَقْنَعَ بأورادِ اللَّيل.

السادس: **المستغرق بمحبة الله تعالى**، فهذا وِردُه بعدَ المكتوبات حضورُ القلبِ

---

(١) هيه: كلمة استزادة.

(٢) الأبلّة: مدينة على شاطئ دجلة قرب البصرة.

(٣) في الأصل: «تعرض».

مع الله سبحانه، وهو يحركه إلى ما يريد من وردٍ، ولن يَصل إلى هذا واصلٌ إلا بعدَ المواظبة على الأوراد، فلا ينبغي للمُريد أن يَغْترَّ بما يَسمعه من حالِ هذا فيدعيه لنفسه، ويَفْتُرُ عن وظائف عبادته، بل ينبغي أن يدوم على الأوراد لتَتَغيَّر صفاتُ الباطن، فإنه إن لم يُردِفْ الفعلَ بمثله امَّحى أَثرُ الأول، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أَحب الأعمال إلى الله أَدومها وإن قَلَّ». وسُئِلَتْ عائشةُ عن عملِ رسول الله ﷺ فقالت: كان عملُه ديمةً.

الباب الثاني

في الأسباب المُيسِّرَة لقيام الليل، وفي الليالي اللواتي يُستحبُّ إحياؤها وفي فضيلة إحياء الليل، وما بين العِشاءَيْن وكيفية قِسمة اللَّيل

ذكرُ فَضيلة قيام الليل: قال الله عز وجل: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩].

فأما الأحاديث: فأخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أَعْيَن قال: أخبرنا الفِرَبْري قال: حدَّثنا البخاري قال: حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن ابن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَد، يضرب على كلِّ عُقدةٍ: عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقُدْ. فإن استيقظَ فذكرَ الله تعالى انحلَّتْ عُقدَة، فإن تَوضَّأ انحلَّت عُقدة، فإن صَلَّى انحلَّتْ عقدة فأصبحَ نشيطاً طَيِّبَ النَّفس، وإلا أَصبح خبيثَ النفس كَسْلان».

قال البخاري: وحدثنا مُسَدَّد قال: أخبرنا أبو الأحوص قال: أخبرنا منصورعن أبي وائل عن عبد الله[١] قال: ذُكرَ عند النبي ﷺ رجلٌ فقيل: ما زالَ نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة. فقال: «بالَ الشيطان في أُذُنَيه» أخرجاهما في الصحيحين. أخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا رَوْح وعَفَّان

(١) يعني: ابن مسعود.

قالا: حدثنا حماد بن سَلمة قال: أخبرنا عطاء بن السائب عن مُرَّة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «عَجِبَ ربُّنا من رَجُلين؛ رجلٌ ثارَ عن فِراشه[١] ووِطائِه ولحافه من بين حِبِّه وأَهله إلى صَلاته، فيقول ربُّنا: أيا ملائكتي، انظروا إلى عَبدي، ثار من فراشه ووِطائه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشفقةً مما عندي، ورجلٌ غزا في سبيل الله عز وجل، فانهزموا، فعلم ما عليه في الفرار وماله في الرجوع، فرجع حتى أُهريقَ دمُه، فيقول الله عز وجل للملائكة: انظروا إلى عَبدي رجع رغبةً فيما عندي ورهبةً مما عندي حتى أُهريق دمُه».

قال أحمد: وحدثنا عليُّ بن عبد الله قال: حدثنا هُشيم قال: حدثنا هُشَيم قال حدثنا مُجالِد، أخبرنا عن أبي الوَدّاك عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ يضحك الله عزّ وجلّ إليهم: رجل يقوم من الليل، والقوم إذا صَفّوا للصَّلاة، والقوم إذا صفّوا للقِتال». أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو طالب العُشاري قال: أخبرنا أبو الحسين بن أخي ميمي قال: حدثنا أبو علي بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثني محمد بن سَهل التميمي قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني معاوية بن صالح عن رَبيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخَولاني عن أبي أُمامة الباهِلي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليكم بقيام الليل، فإنه دَأبُ الصالحين قبلكم، وهو قُربةٌ إلى ربكم، ومغفرةٌ للسيئات وَمَنْهاةٌ عن الإثم».

وكان الحسن البَصري يقول: إني لم أَجِد من العبادة شيئاً أشدّ من الصلاة في جوف هذا الليل. وقيل له: ما بالُ المتهجّدين أحسن الناس وجوهاً، فقال: لأنهم خَلَوا بالرحمن، فألبسهم من نُوره.

بيانُ الأسباب التي بها يَتيسَّر قيامُ الليل

اعلم أن قيامَ الليل صعبٌ على الناس إلا من وُفِّقَ للقيام بشُروطه الميسّرة له، ومنها ظاهرٌ، ومنها باطن؛ فأما الظاهرة، فأربعةٌ:

---

(١) ليست في (ظ).

الأول: أن لا يُكثر من الأكل، فيكثر الشرب، فيغلبه النوم، وكان بعضهم يقول: يا معاشر[١] المريدين، لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فتناموا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

الثاني: أن لا يُتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تُنْصِب الجوارحَ وتُضعف الأعصاب، فإن ذلك مَجْلَبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها تعين على قيام الليل، وكان الحسن إذا دخل السوق فيسمع لَغَطَهُم قال: أظن ليلَ هؤلاء ليلُ سوء، أما يَقيلُون؟!

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار، قال رجل للحسن: إني أَبيتُ وقد أعددتُ طُهوري فما أقوم حتى أُصبح. فقال: ذُنوبك قَيَّدَتْكَ.

وقال الثَّوري: حُرِمت قيام الليل خمسةَ أشهر بذنبٍ أَذْنَبتُه. قيل: وما هو؟ قال: رَأيتُ رجلاً يبكي، فقلت في نفسي: هذا مُرائي.

ودخلوا على كُرْزِ بن وَبْرة وهو يَبكي فقيل: ما لك؟ قال: بابي مُغْلَق، وسِتْري مُسْبَل، ولم أقرأ حِزبي[٢] البارحة، وما ذاك إلا بذنبٍ أحدثتُه.

واعلمْ أن الذنوب كلها تُورث قَساوة القلب، وتمنع من قيام الليل، وأخصّها بالتأثير تَناول الحرام، وبالعكس اللُّقمةُ الحلال، فإنها تؤثر في تَصفية القَلب وتحريكه إلى الخَير ما لا يُؤثّره غيرها.

فأما المُيَسِّرات الباطنة، فأربعة:

الأول: سلامة القَلب للمسلمين، وخلوّه من البدع، وإعراضه عن فُضول الدنيا فإن مَشغولَ القلب بهموم الدنيا لا يَتَيسَّرُ له القيام، فإن قام، لم يتفكر إلا في مُهماته.

الثاني: خوفٌ غالبٌ يلزم القلب مع قِصَر الأمل، فإنه إذا تفكَّر في أهوال

---

(١) في الأصل: «معشر».
(٢) في (ظ): «جزئي».

الآخرة ودَركات جهنم طار نومه، وعَظُمَ حَذره، كان شَدّاد بن أوس إذا أوَى إلى فراشه كأنه حَبَّة على مِقْلَى، ثم يقول: اللهمَّ إنَّ ذكر جهنّم لا يَدَعني أنام. فيقوم إلى مُصلّاه. وكان طاووس يَفرش فراشه، ثم يضطجع فَيتقلّى كما تُقلى الحبة على المِقلى، ثم يَثِبُ، فَيُدرِجُه[1] ويَستقبل القبلة حتى الصباح، ويقول: طَيَّرَ ذِكْرُ جهنَّم نَومَ العابدين.

وقالت بنتُ الربيع بن خُثيم له: يا أَبتِ، مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تَنام؟ فقال: يا بنيتي، إن أباك يَخاف البَيات.

الثالث: أن يعرف فضلَ قيام الليل بما ذكرناه في فضائله حتى يَقوَى شوقُه إلى الثواب.

الرابع: وهو أَشْرفُ البَواعث، الحبُّ لله وقُوةُ الإيمان بأنه إذا قام ناجَى ربَّه، وأنه حاضِرُه ومُشاهِدُه، فإذا أحبَّ اللهَ أَحَبَّ الخلوةَ به، وتَلذَّذ بمناجاته، فتحمله لذَّةُ المناجاة للحبيب على طول ا لقيام، ولا ينبغي أنْ تُستَبعدَ هذه اللَّذة فإنه يشهد لها العقل والنقل، أما العقل؛ فليعتبر حال المحب لشخصٍ بسبب جَماله، أو لملكٍ بسبب إنعامه كيف يتلذَّذُ بالخلوة به وبمناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليلته.

فإن قيل: فالجميل يُتَلذَّذ بالنَّظر إليه والله سبحانه لا يُرى في حال المناجاة.

فالجواب: أنه لو كان الجميل المحبوب وراء سترٍ، أو كان في بيتٍ مظلمٍ لكان المُحِبُّ يتلذّذ بمحاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواه، وكان يَتنعَّمُ بإظهار حُبه عليه، وذكره بلسانه بمسمعٍ منه، وإن كان ذلك أيضاً معلوماً عنده.

فإن قيل: فإنه ينتظر جوابه [2]فيتلذَّذُ بسماع جوابه[2]، وليس يسمع كلام الله.

فالجواب: أنه إن كان يعلم أنه لا يُجيبه فقد بقيت أيضاً لذةٌ في عرض أحواله عليه، ورفعِ سِرِّه إليه، كيف والمؤمن يستمع من الله كل ما يرد على خاطِره في أثناء

(١) أي: يطويه ويثني بعضه على بعض.
(٢-٢) سقط من (ظ).

مناجاته، فيتلذذ به، وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جُنح الليل يتلذذ به في رجاء إنعامه، والرجاء في حق الله أَصدق، وما عند الله أبقى مما عند غيره، فكيف لا يَلتذُّ بعرضِ الحاجات إليه في الخَلَوات؟!

وأما النقل، فتشهدُ له أحوال قُوّام اللَّيل في تَلذُّذِهم بقيام الليل، واستقصارهم له، كما يَستقصر المحِبُّ ليلةَ وِصالِ الحبيب حتى قيل لبعضهم: كيف أنتَ والليل؟ فقال: يُريني وَجهَهُ ثم ينصرف وما تأملتُه بَعدُ. وقال آخَر: أنا واللَّيل فَرسا رِهانٍ، مَرةً يَسبقني إلى الفجر، ومرة يَقطعني عن الفِكْر، وقال علي بن بَكّار: منذ أربعين سنةً ما أَحْزنني شيءٌ إلا طُلوع الفجر. وقال الفُضيل: إذا غربت الشمس فَرحتُ بالظلام لخلوتي بربّي، وإذا طَلعت حزِنتُ لدخول الناس عليَّ. وقال أبو سُلَيمان: أهل اللَّيل في ليلهم ألذّ من أهل اللَّهو في لَهوهم، ولولا اللَّيل ما أحببتُ البَقاء في الدنيا، وأوحَى اللهُ عز وجلّ إلى بعض مَن أوحَى إليه: إن لي عباداً من عبادي[1] يُحبوني وأحبهم، ويَشْتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهم، ويذكروني وأذكرهم، ويَنظرون إليّ وأَنظُر إليهم، فإن حَذَوتَ طريقهم أَحببتُكَ، وإن عدلتَ عنهم مَقتُّكَ. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يُراعون الظّلال بالنهار كما يراعي الراعي غَنَمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطَّير إلى أوكارها، فإذا جَنَّهُم[2] الليلُ، واختلط الظلامُ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه نَصَبوا لي أَقدامهم، وافْترشوا لي وُجوههم، وناجوني بكلامي، وتملَّقوني بإنْعامي، فبينَ صارخٍ وباكٍ، وبين متأوّهٍ وشاكٍ، بعيني ما يتحمّلون من أجلي، وبِسَمعي ما يشكون من حُبي، إنّ أول ما أعطيهم أقذفُ من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية: لو كانت السماوات السبع والأرضون وما فيهما في موازينهم لاسْتَقْللتُها لهم، والثالثة: أقبل عليهم بوَجهي، فَترى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحدٌ ما أُريد أن أعطيه؟

وشكى بعضُ المريدين إلى شَيخه طول سَهر الليل، وسأله ما يجتلب به النَّوم، فقال له: يا بُني، إن لله نَفحات في اللَّيل والنهار تُصيب القلوب المتيقِّظة وتُخْطِئ

(١) في (ظ): «عبيدي».
(٢) جَنَّهم الليل: أي سترهم وأظلمَ عليهم.

القلوب النائمة، فتعرَّض لتلك النَّفحات. فقال: يا أُستاذ تركْتَني لا أنام بالليل ولا بالنهار.

واعلم أن هذه النَّفحات باللَّيل أَرجى لما في قيام الليل من صَفاء القلب واندفاع الشَّواغل، وفي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في اللَّيل لساعة لا يُوافقها عبدٌ مُسلم يَسأل الله فيها خَيراً إلا آتاهُ إياه، وذلك كل ليلة».

بيان طُرق القِسمة لأجزاء الليل

للقيام من حيث المقدار سَبع مراتب:

المرتبة الأولى: إحياءُ كل اللَّيل، وقد كان هذا طريقُ جماعةٍ من السلف، وكانَ فيهم من يُصلي الصُّبح بوضوء العِشاء، وقد رُوِّينا عن ابن عُمر أنه كان يُحيي اللَّيل صلاةً، وعن عَبْدَة بن هِلال أنه قال: لا يَشهد عليَّ الليلُ بنومٍ. وقالت خادمُ عامر بن عَبدِ قَيس: ما فرشتُ له فراشاً بالليل فاضطجع عليه إلا بالنهار. وقالت أم عُمر ابن المُنْكدر: يا بُنيّ، إني لأشتهي أن أراكَ نائماً. فقال: يا أُماه، والله إن الليلُ ليَرِدُ عليَّ فيهولني، فَينقضي عنّي وما قضيتُ منه أَرَبي، ورُوينا عن عَطاء الخراساني أنه كان يُحيي اللَّيل صلاةً[1]، وعن سليمان التَّيمي أنه صلى الفَجر بوضوء العشاء أربعينَ سنةً، وأن منصور بن زاذان صلى الفَجر بوضوء العِشاء عشرين سنة، ومكثَ هُشَيمٌ يُصلي الفَجر بوضوء العشاء عشرين سنة، وممن اشتهر بقيام الليل كلِّه سعيد بن المسيّب، وصَفوان بن سُلَيم المدنيَّان، وفُضَيل بن عياض، ووُهَيْب بن الوَرد المكيّان، وطاوس ووَهبُ بن مُنَبِّه اليَمانيان، والربيع بن خُثَيم والحكمُ الكوفيان، وأبو سُليمان الداراني وعلي بن بكّار الشاميان، وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العَبّادانِيان[2]، وحَبيب أبو محمد وأبو جابر السَّلْماني الفارسِيّان، ومالك بن دينار وسُلَيمان التَّيمي ويزيد الرّقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويَحيى البَكَّاء البَصريون في جَماعةٍ يَطول ذِكرهم.

---

(١) سقطت من (ظ).
(٢) نسبةً إلى عَبّادان، جزيرة في بحر فارس.

المَرتبة الثانية: أن يَقوم نصف الليل، وقد كان جَماعةٌ من السلف يَفعلون ذلك منهم: ابنُ عباس، قال ابنُ أبي مُليكَة: صَحِبتُه من المدينة إلى مكّة، ومن مكة إلى المدينة، فكان يقومُ شطر الليل يُكْثِر والله في ذلكم التَّسبيح.

وأحسنُ طريقٍ في هذا أن ينامَ الثلث الأول من الليل، والسدس الأخير منه حتى يَقع قيامه في جَوف الليل ووسطه، فهو الأَفضل.

المرتبة الثالثة: أن يقوم ثُلث الليل، فينبغي أن ينام النِّصف الأول والسدس الأخير، وهو قيام داود عليه السلام، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عَمروٍ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «أَحَبُّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثُلثه وينام سُدسه». وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه قال: بِتُّ عندَ خالتي مَيمونة، فنام رسولُ الله ﷺ حتى انتَصفَ الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، فاسْتَيْقَظَ فتوضّأ، ثم صلّى اثنتَي عشرةَ ركعةً، ثم أوتر، ثم اضطجع.

وفي الجملة نوم آخر الليل حَسنٌ؛ لأنه يذهب بآثار النُّعاس من الوَجه بالغَداة، ويُقلل صُفْرته، وفيه إجْمامٌ[1] للبَدَن لتَلقِّي أورادِ النَّهار، وفي الصحيحين من حديث عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا قام توضَّأ وصلّى ما قضى اللهُ له، فإن كانت به حاجةٌ إلى أهله أَتى أَهلَه، وإلّا مالَ إلى فِراشه، فإن كان أتى أَهله نامَ كَهيأَتِهِ لم يَمسَّ ماءً، حتى إذا كان عند أولِ الأذان وَثَبَ، فإن كان جُنُباً أفاض عليه الماءَ، ثمّ صلى ركعتين، ثم خرج إلى المسجد.

المرتبة الرابعة: أن يقومَ سُدس الليل أو خُمسه، وأفضل ذلك ما كان في النِّصف الأخير، وبعضهم يقول: أفضله السّدس الأخير.

المرتبة الخامسة: أن لا يُراعي التَّقدير، فإنَّ مراعاة ذلك تَصعب، ثم في ما يفعله طَريقان: أحدهما: أن يقوم أول الليل إلى أنْ يغلبه النوم فينم، فإذا انتبه قامَ، فإذا غلبه النوم نام، وهذا من أشد المُكابَدة لِلَّيل، وهو طريق جَماعةٍ من السَّلف، وفي الصحيحين من حديث أنس قال: ما كُنّا نَشاءُ أنْ نرى رسولَ الله ﷺ مُصلياً من

---

(١) إجمام: راحة.

الليل إلا رَأيناه، وما كنا نَشاء أن نَراهُ نائماً إلا رَأيناه. وقد قال أَسلَمُ: كان عُمر بن الخطاب يصلي من اللَّيل ما شاءَ الله، حتى إذا كان من آخِر الليل أيقظَ أهله يقول: الصلاةَ الصلاةَ. وقال الضَّحاك: أدركت أقواماً يَستحيون من الله في سوادِ هذا اللّيل مِنْ طول الضَّجْعَة.

والطريق الثاني: أنْ ينام أول الليل، فإذا أخذ حظه من النوم وانتبه قام الباقي، قال سُفيان الثَّوري: إنما هي أول نَومةٍ فإذا انتبهتُ لم أقلها.

المرتبة[١] **السادسة:** وهي الأقل أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين، فقد رُوّينا عن النبي ﷺ أنه قال: «صَلّوا من اللَّيل، صلّوا أربعاً، صلّوا ولو ركعتين، ما من أهلِ بيت تُعرفُ لهم صلاةٌ من الليل إلا نادَى منادٍ: يا أهلَ البيتِ قوموا لصلاتكم». وروى أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هُريرة قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «من اسْتَيقظَ منَ الليل وأيقظَ امرأته فَصَلَّيا جميعاً ركعتين كُتِبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

وكان طَلحة بنُ مُصرِّف يأمُر أهله بقيام الليل [٢]ويقول: صَلّوا ولو ركعتين، فإن الصلاةَ في جوف الليل تَحطُّ الأَوزار.

فهذه طرقُ قِسمة الليل[٢] فليتخيَّر المُريدُ لنفسه ما يَسْهُل عليه، فإن صَعُب عليه القِيام في وَسط الليل، فلا ينبغي أن يُخلَّ بإحياءِ ما بين العِشاءَين ووِردِ السَّحَر ليكون قائماً في الطَّرفين، وهذه مَرتبةٌ سابعة.

فصل

فأما من صَعُبت عليه الطَّهارة باللَّيل، وثقلت عليه الصلاة، فليجلس مُستقبل القبلة، وليذكر الله تَعالى، وليَدْعُ مهما قَدِر، فإنْ لم يجلس فليذكر الله وهو مُضطجع، وفي أفراد البخاري من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال:

(١) في (ظ): «الرتبة».
(٢-٢) سقط من (ظ).

«مَنْ تَعارَّ[١] من الليل، فقال: لا إله إلا الله، وَحده لا شَريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسُبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا استُجيب له، فإن تَوضأ ـ يَعني ـ وصلَّى، قُبلت صَلاتُه».

فصل

ومَن كان عليه وِرْدٌ، فغلبه النوم وفاتَه، فليأتِ به بعد صلاة الضُّحى، ففي أَفراد مُسلم من حديث عُمر بن الخطاب عن النبي ﷺ أنه قال: «من نامَ عن حِزبه أو عَن شيءٍ منه، فقرأه ما بين صلاة الفَجر وصلاة الظُّهر كُتب له كأنما قرأه من اللَّيل».

وليحذر مَن له عادةٌ بقيام الليل أن يَتركها، ففي الصَّحيحين من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يا عبدَ الله، لا تكونَنَّ مثل فُلانٍ كان يقوم الليل، فَترك قيام الليل».

بيان اللَّيالي والأيام الفاضلة

أما اللَّيالي المخصوصات بمزيدٍ من الفَضل اللواتي يُستحب إحياؤها في السَّنة فخمس عشرة ليلة، ولا يصلح للمريد أن يغفَل عنهنّ؛ لأنه إذا غفل التاجر عن موسم الرّبح فمتى يربح؟

فسِتٌّ[٢] من هذه اللَّيالي في رمضان؛ الليلة السابعة عشرة، فهي ليلة في صَبيحتها كانت مَوقعةُ بَدر، وخَمسٌ[٣] هُنَّ أَوتار العَشر، إذ فيهنَّ تُطلَبُ ليلةُ القَدر، وأما التِّسع[٤] الأُخَر؛ فأول ليلةٍ من المحرم، وليلةُ عاشوراء، وأولُ ليلةٍ من رجب،

---

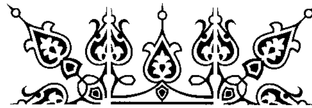
(١) تعارَّ: أي أَرِقَ وتقلَّبَ في فراشه ولم ينم.
(٢) في النسخ: «فسبع»، والمثبت من الإحياء، وهو الصواب.
(٣) في النسخ: «وست»، والمثبت من الإحياء.
(٤) في النسخ: «الثمان»، مع أن المصنف قد عدَّ تسع ليالٍ.

وليلة النصف منه، وليلة سَبعٍ وعشرين منه، فإنها ليلة المعراج، وليلة النّصف من شعبان، وليلة عرفة، وليلتا العيدين، وقد رُويت صلواتٌ لبعض هذه ا لليالي وليسَ فيها ما يثبت فَتنكَّبْناها.

وأما الأيام الفاضلة فتسعة عشر؛ يوم عرفة، ويوم عاشوراء، وقد ذكرنا فَضْلهما، ويوم سبعةٍ وعشرين من رَجب، فقد قال أبو هريرة: مَن صام يومَ سبعةٍ وعشرين من رجب كَتبَ اللهُ له صيام ستّين شهراً، وهو اليوم الذي نَزل فيه جبريل على النّبي ﷺ أول يوم هَبط فيه، ويوم سبعةَ عشر من رمضان، كانت فيه وقعة بدر، ويوم النِّصف من شَعبان، ويوم الجمعة، ويوما العيدين، والأيام المعلومات، وهي عَشر ذي الحجة، والأيام المعدودات، وهي أيام التشريق.

ومن فَواضِل الأيام في الأسبوع؛ الاثنين والخَميس، وقَد سبقَ ذكر فضلهما، وفضل الأشهر الحرم، وأيام البيض، وغير ذلك في كتاب الصيام.

آخر كتاب الأوراد وهو آخر رُبع العِبادات(١).



(١) ورد في (ظ) ما نصه: «آخر الجزء الرابع من أجزاء الشيخ المصنف».



رُبْعُ العادات

كِتاب آداب الأكل

الحمدُ لله الذي أَنشأ الأرض وخلق السماوات، وأنزل القَطْرَ وأخرج النباتَ، وقَسم الرزق وقدَّر الأَقْوات، بين حلوٍ وحامض ومُرٍّ ومُمسك ومُسهل مختلفة الحالات، فالأدوية تدفع الداء والأغذية تَحفظ قوى الحيوانات، ثم منَّ وما مَنَّ فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، أحمدُه حمداً يَتوالى على مرور الأوقات، وأصلي على رسوله محمدٍ ذي المعجزات الباهرات، وعلى أصحابه وأتباعه إلى يوم الفَصل والمِيقات، صلاةً تتضاعفُ بتعاقب الساعات وأُسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإنه لا بلوغ إلى خَير الآخرة إلا بالعلم والعمل في الدنيا، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البَدن، ولا تَصْفو سلامتُه إلا بتناول الحاجة من الأَقْوات، وما هو ذَريعة إلى الدين، فإنه من الدين، فينبغي أن تَظهر أنوار الدين عليه، وأنوار الدين آدابُه وسُننه، قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الرجلَ لَيُؤْجَرُ حتى في اللُّقمة يَرفعها إلى فَمِ امرأته». وإنما يكون ذلك إذا رفعها بالدين، وها نحن نُرشد إلى وظائف الدين في الأكل من فَرضٍ وسُنّة وأدبٍ ومُروءةٍ وهَيْأةٍ في أربعة أبواب، وفصل في آخرها.

الباب الأول: فيما لا بد للآكل من مراعاته وإن انفرد بالأكل.

الباب الثاني: فيما يَزيد من الآداب[1] بسبب الاجتماع على الأكل.

الباب الثالث: فيما يخص تَقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين.

الباب الرابع: فيما يخص الدعوة والضيافة وأسبابها.

---

(١) في الأصل: «الأدب».

الباب الأول

فيما لا بد للمنفرد بالأكل منه

وهو ثلاثة أقسام: قسم قبل الأكل، وقسم مع الأكل، وقسم بعد الفراغ منه.

القسم الأول: في الآداب التي تُقدَّم على الأكل، وهي سبعة:

الأول: أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه طيباً في جهة مكسبه، موافقاً للسنة والورع ولم يكتسب بسببٍ مكروه في الشَّرع، ولا بحكم هَوى ومُداهَنة في دينٍ على ما سيأتي في معنى الطَّيب المطلق في كتاب الحلال والحرام، وقد أمر الله تعالى بأكلِ الطِّيب وهو الحلال، وقَدَّم النَّهيَ عن الأكل بالباطل على القَتل تَفخيماً لأمر الحرام، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٩].

الثاني: في غسل اليد قبل الأكل؛ لأنها لا تخلوا عن دَرَنٍ، وقد روي في حديث: «الوضوء قبل الطعام يَنفي الفَقر، وبَعده يَنفي اللَّمَم»[١] وفَسَّروه بغسل اليد؛ إلا أنه لا يثبت.

الثالث: أن يوضع الطعام على السُّفرة الموضوعة على الأرض، فهو أقرب إلى فعل رسول الله ﷺ مِنْ رَفعه على المائدة، وهو أدنى إلى التواضع، وإن كان الأكل على المائدة ليس بمنهيٍّ عنه، قال أنس: ما أكلَ رسولُ الله ﷺ على خِوانٍ[٢] ولا في سُكُرُّجَة[٣]. قيل: فعلى ماذا كنتُم تأكلون؟ قال: على السُّفَر.

---

(١) اللَّمَم: الجنون.

(٢) الخِوان: المائدة ما لم يكن عليها طعام.

(٣) السكُرُّجة: إناء صغير يُجعل فيه ما يُشتَهي ويَهضِمُ من الموائد حول الأطعمة.

الرابع: أن يُحسن الجلسة على السُّفرة، فينصب رجله اليُمنى، ويجلس على اليسرى.

الخامس: أن ينوي بأكله أن يَتقوّى به على طاعة الله، ليكون مُطيعاً بالأكل، ولا يقصد التَّنعم فقط، علامة صِحَّة هذه النِّية أخذ البُلغة دون الشَّبع، قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم[1] وعاءً شراً من بَطن، حسب ابن آدم أُكلاتٍ يُقمْنَ صُلبَه، فإن كان لا محالةَ، فثلثٌ لطعامه، وثلُ لشرابه، وثلث لنفسه». ومن ضرورة هذه النية أن لا يَمد يَده إلى الطعام إلا وهو جائع وأن يرفع يديه قبل الشبع، ومن فعل ذلك لم يَكد[2] يحتاج إلى طبيب؛ وسيأتي فائدة قلة الأكل، وكيفية التدريج في التَّقلل منه في كتاب كَسْر شِرَّةِ الطعام من رُبع المهلكات إن شاء الله تعالى.

السادس: أن يرضى بالموجود من الرزق، ولا يحتقر اليسير، ولا ينتظر الزيادة والأُدم.

السابع: أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطَّعام ولو من أهله وولده، فقد جاء في الحديث: «أَحبُّ الطعام إلى الله ما كَثُرت عليه الأَيدي».

القسم الثاني في آداب حالة الأكل:

وهو أن يبدأ باسم الله في أَوله، ويحمد الله في آخره، وقد روينا من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخلَ الرجلُ بيتَه، فذكر الله عند دُخوله، وعند طعامه، قال الشَّيطان: لا مَبيتَ لكم ولا عشاء. وإذا دخل فلم يَذكر الله عند دخوله قال الشيطانُ: أَدركتم المَبيتَ. وإن لم يذكر الله عند طعامِه قال الشيطان: أدركتُم المبيتَ والعَشاء».

ومن الأَدب أن يأكل باليمين ويصغّر اللُّقمة، ويُجوّد مَضْغها، ولا يمد يَده إلى أخرى حتى يبتلع الأولى، وأن لا يَذمَّ مَأكولاً، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، أنه ما عاب طعاماً قط، كان إذا اشتهى شيئاً أكله، وإن كرهه تركه.

---

(١) في الأصل: «آدمي».

(٢) في (ظ): «يكن».

ومن الأدب أن يأكل مما يليه، إلا أن يكون الطعام متنوعاً، كالفاكهة، وأن لا يأكل من ذروة القَصْعة، ولا من وسطها فقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه أُتيَ بقَصعةٍ من ثَريد فقال: «كُلوا من حَولها، ولا تأكلوا من وسطها، فإن البركة تَنزل في وسطها».

وليأكل بثلاث أصابع، ففي أفراد مسلم من حديث كعب بن مالك أن رسول ﷺ كان يأكل بثلاث أصابع.

فإذا وقعت لُقمة أَخذها، ففي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سَقطت لقمةُ أحدكم فليأخذها، فليمط ما بِها وليأكلها، ولا يدعها للشيطان».

ومن الأدب أن لا يَنفخ في الطعام الحار بل يصبر حتى يَتهيأ أَكله، ولا يجمع بين التَّمر والنَّوى في طبقٍ، ولا يجمعه في كفه، بل يضعه من فيه على ظَهر كفه ثم يلقيه، وكذا كل ما له عَجْم وثُفْل[1]، ولا يشرب الماء في أثناء الطعام، فإنه أجود في باب الطبّ.

وأما الشرب: فأدبه أن يتناول الإناء بيمينه، ويُسمي وينظر في الإناء قبل أن يشرب، ويمص مَصاً لا عَبّاً، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «مصّوا الماء مَصاً ولا تَعبّوا عَبّاً، فإن الكُبَاد[2] من العَب».

ولا يشرب قائماً، ففي أفراد مسلم من حديث أبي سَعيد أن النبي ﷺ نهى عن الشُّرب قائماً، وقد جاء عنه أنه شرب، فيحتمل أن يكون لِعُذْرٍ أو لبَيان الجَواز، ويتنفس في شُربه ثَلاثاً، ففي الصَّحيحين من حديث أنسٍ أن النبيَّ ﷺ كانَ يتنفس في الإناء ثلاثاً، والمعنى: يتنفس في شُربه من الإناء، بأن يُباعد الإناء عنه ويتنفس، لا أن يكون النَّفس في الإناء، وأن يحمدَ اللهَ عند الفراغ، وأن يُناول الأيمن فالأيمن.

(١) العجم: النوى، والثُّفلْ: ما يتبقى من المادة بعد عصرها.
(٢) الكُباد: وجَع الكبد.

القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام:

وهو أن يُمسك قبل الشِّبع، ويَلعقَ أصابعه، ففي الصَّحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أكل أحدكم طعاماً، فلا يمسح يده حتى يَلعقها أو يُلعِقَها».

وأن يَسْلُتَ[1] القَصْعَةَ، ففي أفرادِ مسلم من حديث جابر قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نَسْلُتَ القصعة، وقال: «إنكم لا تَدرون في أيِّ طعامكم البَركة».

وليحمدِ اللهَ عزوجل، ففي أفراد البخاري من حديث أبي أُمامة قال: كان رسول الله ﷺ إذا فَرغ من طعامه، أو رُفِعت مائدته قال: «الحمدُ لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مَكْفِيٍّ ولا مُودَّع ولا مُستغنًى عنه ربنا عز وجل». وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي أنه قال: «إن اللهَ ليَرضى عن العبدِ أن يأكل الأكلة فيَحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، فإن أفطر عند قوم فليقل: أَفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامَكم الأبرارُ، وصَلَّت عليكم الملائكةُ».

وليَغسل يَده من الغَمْر[2] فقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا باتَ أحدُكم وفي يده غَمْرٌ، فأصابه شيءٌ، فلا يلومنّ إلا نَفسه».

---

(١) سَلَتَ القصعةَ: تتبَّع ما فيها من الطعام ومَسحها.

(٢) الغَمْر: ما يَغمر من رائحة الدسم كل الروائح.

الباب الثاني

فيما يَزيد من الآداب بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل

وهي سبعة:

الأول: أن لا يَبتدئَ بالأكل إذا كان معه من يَستحق التَّقديم بكبرِ سِنٍّ أو زيادة فَضل، إلا أن يكون هو المتبوع.

الثاني: أن لا يسكتوا على الطَّعام، فإن ذلك من سيرة العَجَم، بل يتكلمون بالمعروف، ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأَطعمة وغيرها.

الثالث: أن يقصد كلٌّ منهم الإيثار لرفيقه، ولا يزيد في التناول عليه، ويبسطه إذا انقبض.

الرابع: أن لا يُحْوِجَ رفيقه إلى أن يقول له: كل، بل يَنْبَسط، ولا يتصنَّع بالانقباض.

الخامس: أن لا يَتنخَّمَ في الطّست إذا كان معه غيره، فإن كان وَحْده، فلا بأس، ولا يرفع الطّست حتى يمتلئ، كتبَ عمر بن عبد العزيز إلى الأَمصار: لا تُرفع طَستٌ من بين يدي القوم إلا مَملوءة، ولا تشبّهوا بالعَجَم، وأن يبتدأ بالمَتبوع في تَقديمها إليه، وإن تُدار يَمنةً، وأن يكون الخادم قائماً، وأن يَمجَّ الماء من فيه برفقٍ حتى لا يَنتضح على أحد.

السادس: أن لا يَنظر إلى أصحابه في حالة الأكل، لئلا يَستحيوا، ولا يُمسكُ قبلهم إذا كانوا يَحتشمون الأكل بَعدَه، بل يتناول قليلاً قليلاً إلى أن يَفرغوا، فإن امتنع لسببٍ بَيَّنَ عُذرَه، لئلا يستحيوا.

السابع: أن لا يَفعل ما يَستقذِرُه غيره، فلا يَنفض يده في القَصْعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللُّقمة في فيه، وإذا أخرجَ شيئاً من فِيه ليرمي به صَرف وجهه عن الطعام، وأخذ بيساره، ولا يَغمس اللُّقمة الدَّسمة في الخَل، ولا الخلَّ في الدَّسم، فقد يكرهه غيره، ولا يَغمس بقية اللُّقمة التي أكل منها في المَرَقَة.

الباب الثالث

في آداب تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين

(١)فَضيلة تقديم الطعام إلى الإخوان(١): رَوى عبدُ الله بن سلام عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس، أَفْشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وأَطْعموا الطعام، وصَلّوا بالليل والناسُ نِيام، تَدخلوا الجنة بسلام».

ورُوي عن عَلي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لأَنْ أجمع إخواني على صاع من الطعام أحبّ إلي من أن أعتق رَقبة.

وكان سَعيد بن العاص يَدعو جيرانه وجُلساءَه كلَّ جُمعة، فيَصنعُ لهم الطعام ويكسوهم الثياب، فإذا أرادوا أن يتفرقوا أمر لهم بالجَوائز، وبعث إلى عيالهم(٢) بالنفقة الكثيرة.

وكان خَيثمةُ يصنَع الخَبيصَ(٣) والطَّعام الطَّيب، فيدعو إبراهيم والأَعمش، ويقول: كُلوا فما صَنعتُه إلا لكم.

وكان الحسن إذا دخل عليه إخوانه أتاهم بما يكون عنده، وربما قال لبعضهم: أخرج السلَّة من تحت السرير. فيخرجها، فإذا فيها رُطَبٌ، فيقول: إنما ادَّخرته لكم.

وقال أبو خَلْدَة: دخلنا على ابن سيرين أنا وابن عون فرحَّبَ بنا، وقال: ما أدري كيفَ أُتحفُكم؟ كل رجل منكم في بيته خُبزٌ ولحمٌ، ولكن سَأُطعمكم شيئاً لا أُراه في بيوتكم. فجاء بشَهدةٍ فجعل يَقطع بالسكين ويُلقمنا. وكان أبو جعفر

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) في الأصل: «عيالاتهم».

(٣) الخبيص: الحلواء المخبوصة من التمر والسمن.

محمد بن علي يدعو نفراً من إخوانه كل جمعة فيُطعمهم الطعام الطَّيب ويكسوهم ويُجَمِّرهم[١]، ويروحون إلى المسجد من منزله.

وأما الآداب: فبعضها في الدخول، وبعضها في تقديم الطعام، فأما الدخول فإنه لا ينبغي لأحدٍ إن علم أنَّ قوماً يأكلون أن يدخل عليهم، فإن صادفهم من غير قصدٍ فسألوه الأكل نَظر، فإن علم أنهم إنما يسألوه حَياءً منه، فلا يأكل، وإن علم أنّهم يُحبون أكله معهم، جاز له أن يأكل، ومن دخل دار صديقه فلم يجده وكانَ واثقاً بصداقته عالماً أنه إذا أكل من طَعامه سُرَّ بذلك، جاز له أن يأكل، فقد كان أصحاب الحسن يَدخلون منزله فيأكلون ما يجدون بغير إذن فكان الحسن إذا جاء فَرآهم كذلك سُرَّ، وقال: هكذا كُنا.

وأما آداب تَقديم الطعام، فتقديم ما حَضَر من غير تكلُّف، ولا يقول له: هل أُقدم لك كذا؟ بل يقدمه من غير استئذان، ومن التكلُّف أن يُقدم جميع ما عنده، فَيُجْحِف بعياله، فإن لم يرضَ ما عنده للضيف، وقدر أن يشتري خيراً منه وكان مُحباً لذلك مؤثراً له، فليس هذا من التكلّف، فقد كان إبراهيم بن أدهم يأخذ عليه بالدين ويكرم إخوانه، وربما باع ثيابه وأنفقها عليهم.

وإن قدر أن يُشهّيه ويَلتمس منه أن يقترح عليه إذا كانت نفسه طَيبة بذلك كان أحسن.

ومن آداب الزائر: أنْ لا يَقترح شيئاً بعَينه فربما شَقَّ على المَزُورِ، فإن خُيِّر بينَ طعامين اختار أيسرهما، إلا أن يَعلم أن مُضيفَه يُسرُّ باقتِراحِه، ولا يقصر عن تحصيل ذلك، فقد نزل الشافعي على الزَّعفراني، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رُقعةً بما يُطبَخُ من الألوان ويسلمها إلى الجَارية، فأخذ الشافعي الرُّقعةَ وألحقَ فيها لوناً آخر، فلما علم الزَّعفراني اشتَدَّ فَرحُه.

(١) يُجَمرهم: أي يُبخّرهم بالبخور في المِجمَرة.

الباب الرابع

في آداب الضِّيافة

ومَظانُّ الآداب فيها ستة: الدعوة، ثم الإجابة، ثم الحضور، ثم تقديم الطعام، ثم الأكل، ثم الانصراف.

ولنُقَدِّم على شَرحها فَضيلة الضِّيافة: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضَيْفَه». وفي حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «حَجٌّ مَبْرور ليسَ له جَزاءٌ إلا الجنَّة» قالوا: ما بِرُّ الحجّ؟ قال: «إطعامُ الطَّعام وإفْشاءُ السَّلام».

والأحاديث في فَضل إطعام الطعام كثيرةٌ، وقد كان إبراهيم الخليل عليه السلام إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يَتغذى معه، وكان يكنى أبا الضِّيفان حتى أن مَشهده إلى الآن لا يخلو من ضَيف.

وأما الدَّعوة: فينبغي للداعي أن يقصد بدعوته الأَتقياء دون الفُسّاق، وقد روى أنس عن النبي ﷺ أنه كان إذا أَفطَر عند أهلِ بيتٍ[1] قال لهم: «أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامَكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة».

وقال بعضُ السَّلف: لا تَأكُل إلّا طعامَ تَقيّ، ولا يأكل طعامَك إلا تَقيّ.

واعلم أنّ إطعامَ التَّقي إعانةٌ له على التَّقوى، وإطعامَ الفاسِق تقويةٌ له على الفِسق.

ويَنبغي أن يَقصد الفقراء دون الأَغنياء، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ الطعامِ طعامُ الوَليمة يُدعى إليها الأَغنياء ويُترك الفُقَراء».

---

(١) في الأصل: «بيته».

وينبغي أن لا يُهمل أَقاربه في ضِيافته، فإنّ إهمالهم يوجب الإيحاشَ وقَطيعة الرَّحم، وكذلك يراعي التَّرتيب في أَصدقائه ومَعارفه، فإن في تَخصيص بعضهم إيحاشاً للباقين.

وينبغي أن لا يَقصد بدعوته المباهاة والتَّفاخر بل استعمالَ السنة في إطعام الطعام، واستمالة قلوب الإخوان، وإدخال السرور في قلوب المؤمنين.

وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يَشُقّ عليه الإجابة، وإذا حضر تَأذّى من الحاضرين بسببٍ من الأسباب.

وينبغي أن لا يدعو إلا من يُحب إجابتَه.

أما الإِجابةُ فينظر في الوَليمة، فإن كانت وليمةَ عُرسٍ فالإجابة إليها إذا كان الداعي مُسلماً واجبة، فإن دَعاه في اليوم الثاني استُحِبَّ له الإجابة، فإن دعاه في اليوم الثالث لم يُستحب له الإجابة، وإن كانت وليمةً لغيرِ العُرس، فهي جائزة، والإجابة إليها غير واجبة، وفي الصحيحين من حديث ابن عُمر أن النبي ﷺ قال: «إذا دُعي أحدُكم إلى الوليمة، فَليأتها». وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لو دُعيتُ إلى كُراعٍ[1] أو ذِراع لأَجَبْتُ».

وللإجابة خَمسة آداب:

الأول: أن لا يميز الغَني بالإجابة عن الفقير، فذلك هو التكبّر المَنهي عنه، فقد كان رسولُ الله ﷺ يجيب دعوة المَملوك، ومَرَّ الحسنُ بنُ علي بقومٍ من المساكين قد نَثروا كِسَراً على الأَرض وهم يَأكلون فَقالوا: هَلُمَّ الغداء يا ابنَ رسول الله. فقال: نَعم، إنّ اللهَ لا يُحب المستكبرين. فنزل وقَعَد يأكل معهم، ثم سلم عَليهم، وقال: قد أَجبتكم فَأجيبوني. فحضروا فأَطعمهم وأكل معهم. فأما قولُ مَن قال: ما وَضعتُ يدي في قَصْعةِ أحدٍ إلا وذلت له[2] عنقي. وقول بِشْر:

---

(١) الكُراع من البقر والغنم هو مستَدقُّ الساق والجمع أكرُع، وقيل: أكارع الدابة قوائمها.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «عنه».

من أراد أن يَعزَّ، فلا يأكل طعامَ أحدٍ. فإنّ ذلك يُحمل على كون الدّاعي يَمُنُّ بِفعله، ويَقصدُ المباهاة بطعامه، وقد كان معروف الكَرخي يُجيب كل أحدٍ، ويقول: إنما أنا ضَيف أَنزِلُ حيث يُنزِلني.

الثاني: أن لا يمتنع عن الإجابة لبُعد المسافة، كما لا يَمتنع لفقرِ الدّاعي، وكان معروف يَقول: إمشِ أحدَ عشر ميلاً في مَعونةِ أخيك، إمشِ إثني عَشر ميلاً زُرْ أخاً في الله عزّ وجل.

الثالث: أن لا يَمتنع لكونه صائماً، بل يحضر، فإن كان صومه تطوعاً وعلم أن إفطاره يَسرُّ أخاه المُسلم[1]، فليفطر، فإن إدخال السرور على المسلم أَفضل من صوم التَّطوع، وفي أَفراد مسلم من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دُعيَ أحدُكم إلى طعامٍ فليُجب، فإنْ شاءَ طَعِمَ، وإن شاء تَرك».

وفي أفراده من حديث أبي هريرةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دُعي أحدُكم فليجب، فإن كان صائماً فَليصَلِّ، وإن كان مُفطراً فليَطْعَم».

الرابع: أن يمتنع من الإجابة إن كان الطعام حَراماً، أو المكان، أو البِساط المفروش، أو كان في المكان مُنكرٌ من فَرشٍ أو إناءٍ أو صُور، أو مِزْمار، وكذلك إذا كان الداعي ظالماً، أو فاسقاً، أو مُبتدعاً أو مُفاخراً بدعوته.

الخامس: أن لا يقصد بالإجابة نفسَ الأكل، بل ينوي الاقتداء بالسنّة وإكرامَ أخيه المؤمن بزيارته، وأكل طعامه، وينوي صيانة نفسه عن مُسيءٍ به الظن، فربما قيل عنه إذا امتنع: هذا مُتكبر والأعمال بالنيات.

وأما الحضور: فينبغي أن لا يُفاجئ بالحضور قبل الاستعداد، ولا يتصدّر بل يتواضع في مجلسه، وإن عيَّنَ له صاحب الدار مكاناً لم يَتعدَّه، ولا يجلس في مكانٍ يقابل حُجرةَ النّساء، ولا يكثر النظر إلى المكان الذي يَخرج منه الطَّعام، فإنه دليلٌ على الشَّرَهِ،

---

(١) ليست في (ظ).

وأما إحضار الطَّعام فله خَمسة آداب:

الأول: تعجيله، فذلك من إكرام الضيف، ولا يؤخر عن الجماعة لانتظار شخصٍ أو شخصين، إلا أن يكون المتأخر فقيراً، فيراعى قلبه.

الثاني: تَرتيب الأَطعمة بتقديم الفاكهة أولاً فذلك أصلح في باب الطّب؛ لأنها سريعة الاستحالة، فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وقد قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١]، ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللَّحم خصوصاً المَشوي، فقد قال عز وجل: ﴿جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ كانت تُعجبه الذِّراع، ورَوى أبو رافع قال: صُنِعَ لرسول الله ﷺ شاةٌ مَصْلِيَّةٌ(١) فأُتي بها فقال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولتُه، فقال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته، ثم قال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فقلت: يا رسول الله، وهل للشاة إلا ذِراعين؟! قال: «لو سَكتَّ لناولتَني منها ما دعوتُ به».

ثم أفضل الطعام بعد اللَّحم الثَّريد، وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «فَضلُ عائشةَ على النّساء، كَفضلِ الثَّريد على سائر الطعام»، ثم الحَلواء، فقد كان رسول الله ﷺ (٢تُعجبه الحلواء، وفي الصحيحين من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ٢) يُعجبه العسل والحلواء.

وتتم هذه الطيبات بشربِ الماء البارد، وفي أفراد البخاري من حديث جابر أن رسول الله ﷺ أَتى قوماً من الأنصار، فاستسقى، وجدولٌ قريب منه، فقال: «إن كان عِندكُم ماءٌ قد باتَ في شَنٍّ وإلا كَرَعْنا».

وتكملةُ الأمرِ صَبُّ الماء الفاتر على اليَد عند الغَسل.

الثالث: تقديم جميع الألوان الحاضرة ليأكل مما يُؤثِر، ولا يَنتظر ما يظن، فرُبما لم يكن، وقد حُكي أن جماعةً كانوا في ضيافةِ رجلٍ، فقدم إليهم ألواناً من

(١) مَصْلية: أي مشوية.
(٢ـ٢) سقط من الأصل.

الرُّؤوس طبيخاً ومشوياً، فجعلوا يُقصّرون ويَنتظرونَ مَجيءَ الحُملانِ، فجاء بالطَّستِ (١فجعل بعضهم ينظر إلى بعض١)، فقال بعضهم، وكان مزاحاً: إن الله عز وجل يقدر أن يخلق رؤوساً بلا أبدان. وباتوا ليلتئذٍ جياعاً.

الرابع: أن لا يُبادر إلى رفع الألوان، بل يُمكِّنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا أيديهم عنها، فلعل بعضهم يُؤثر من الذي يَرفعه ما لا يُؤثر من الذي يأتي به، ومن هذا الفَنّ أن لا يرفع صاحبُ المائدة يده قبل القَوم لئلا يَستحيوا.

الخامس: أن يُقدم من الطعام قَدرَ الكفاية فإن القَليل من الكفاية نَقصٌ في المروءة، وينبغي أن يعزل لأهل البَيت نَصيبهم قبل تقديم الطعام، لئلا تكون أعيُنهم طامحةٌ إلى رجوع شيءٍ من ذلك، وربما لم يرجع فَتَضيقُ صدورهم، وتَنطلق في الضِّيفانِ ألسنتُهم، وأما ما يبقى من الطعام فليس للضيفان أَخذُه إلا أن يأذنَ فيه صاحب الطعام.

وأما الانصراف، فله ثلاثة آداب:

الأول: أن يخرج مع الضَّيف إلى باب الدار، فإنه سُنَّة، وذلك من إكرام الضيف، ومن تمام الإكرام طَلاقةُ الوَجه، وطيبُ الحديث عند الدخول والخُروج، وعلى المائدة.

الثاني: أن ينصرف الضيفُ طيّب النفس، وإن جَرَى في حَقّه تَقصير، فذلك من حُسن الخُلق والتواضع، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الرَّجل ليُدرك بحُسنِ خُلُقه درجةَ الصائم القائم».

الثالث: أن لا يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه، ويُراعي قلبه في قدرِ الإقامة، وإذا نزل ضَيفاً فلا يَزيد على ثلاثة أيام، لئلا يتبرَّم به صاحب المنزل، ويُستحب أن يكون عند الإنسان فِراشٌ للضيف النازل قال ﷺ: «فراشٌ للرجل، وفراشٌ للمرأةِ، وفراش للضَّيف، والرابع للشيطان».

(١-١) سقط من الأصل.

فصل
يجمعُ آداباً ومَناهيَ شَرعية وطِبِّية(١)

قال أميرُ المؤمنين علي رضي الله عنه: مَن أرادَ البقاء ـ ولا بقاء ـ فليأكل على نقاء، وليشرب على ظَمأ، وليُقلَّ من شُرب الماء، ويتمدد بعد الغَداء، ويتمشى بعد العَشاء، ولا يَبيتنَّ ليلةً حتى يَعرض نفسه على الخلاء، ودخولُ الحمام على البِطْنة من شَرِّ الداء، ودَخلة الحمام في الصيف خير من عَشرةٍ في الشتاء، ومن ابتدأ غَداءه بملحٍ أذهب اللهُ(٢) عنه سبعينَ نوعاً من البلاء، ومَن أكل كلّ يوم عشرين زبيبةً حمراء لم يَرَ في جَسده ما يكره، واللَّحمُ يُنبتُ اللَّحمَ، ولحمُ البَقَر داء، وألبانها شِفاء، وشحمها دَواء، والسَّمك يُذيب الجَسد، والسِّواك وقراءة القرآن يُذهبان البَلْغَم.

وقال الحارثُ بن كَلَدة: أربعةٌ أشياء تَهدم البَدن؛ الغِشيانُ على البِطْنَة، ودخول الحمام على الامتلاء، وأكل القَديد، ومجامعة العَجوز، ولا تَزوَّجوا من النساء إلا شابَّة، ولا تأكلوا الفاكهة إلا في أَوانِ نُضْجها، ولا يتعالجنَّ أحدكم ما احتملَ بَدنُه الداءَ، وإذا تَغدَّى أحدكم فلينَم على إثر غَدائه ولو ساعةً، وإذا تَعشَّى فليَخْطُ أربعينَ خطوةً.

قال الحكماء: أربعةُ أشياء تُمرض البَدَن: الأكل الكثير، والجماع الكثير، والنوم الكثير، والدم الكثير. وأربعةٌ تُقوّي البدن: أكل اللحم، وشَمُّ الطّيب، وكَثرة الغُسل من غير جِماع، ولُبس الكَتّان. وأربعةٌ توهِنُهُ: كثرة الجماع، وكثرة الهَمِّ، وكثرةُ شُرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحُموضة، ومَنْ قَلَّ أكلُه قلَّتْ عِلَلُه. وقد ذكرنا مِن هذا الفنِّ وغيره الكثير في كتابنا المسمى بـ «لَقْط المنافع» في علم الطب، فاقتصرنا ها هُنا على هذه الكلمات؛ لأنه لكل مقامٍ مَقال.

---

(١) تصحفت في الأصل إلى: «طيبة».
(٢) ليست في الأصل.

كتاب آداب النكاح

الحمدُ لله الذي بَنى الأجسام بالحِكَم الجِسام، فأقامت دهراً، وجمع فيها بين الطبائع المختلفة قَهراً، فلما قضى بنَقضها سلَّط الشَّهوة عليها قَسْراً، ليخرج منها عوضاً[١] فيكون لكسرها جَبراً، فَسُبحانه مِن قادرٍ على ما يَشاء طيَّاً ونَشْراً، وهو الذي خلق من الماء بَشراً فجعله نَسَباً وصِهراً.

أحمدُه وللحامد البُشرى، وأُصلي على رسوله محمدٍ سيد الدنيا والأُخرى، وعلى جميع أصحابه وأتباعه ما نَسَخَ يُسرٌ عُسراً، وأسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد؛ فإن النكاح مُحصنُ الدين، وموهن كَيد الشَّياطين، وسببٌ لتكثير النَّسل الذي يُباهي به سَيد المرسلين سايرَ النَّبيّين، ونحن نَشرحُ المهمَّ من أحكامه وآدابه في ثَلاثة أبواب.

الباب الأول: في الترغيب فيه.

الباب الثاني: في الآداب المَرْعيّة في العَقد والعاقدين.

الباب الثالث: في آداب العَيش بعد العَقد إلى الفِراق.

(١) في (ظ): «عوضها».

الباب الأول

في التَّرغيب في النّكاح

لا يَختلف العُلماء في أنّ النكاح مُستحبٌ ومندوبٌ إليه كثير الفضائل، وقد ذهبَ قومٌ إلى إيجابه، واختلف من رآه سُنّةً هل هو أفضل من نَوافل العبادات أم لا؟ فَقدَّمه أكثرهُم على نَوافل العبادات، لما يتضمن من مَصالح الدّين والدنيا، وقد وَرد في فَضله آياتٌ وأخبارٌ؛ أما الآياتُ، فإن الله تعالى أمر به، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، ومَنَّ به فَقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، فذكر ذلك في معرض الامتِنان.

وأما الأخبار؛ فأخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يَعلى بن عبيد قال: حَدثنا الأعمش بن عُمارة عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: كُنّا مع النبي ﷺ شَباباً ليس لنا شيءٌ فقال: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءَةَ فليتزوَّج، فإنه أَغضُّ للبصر، وأحصَنُ للفرج، ومن لم يستطع فَعليه بالصوم فإن الصوم له وِجاء». أخرجاه في الصحيحين، وأصل الباءَةِ: الموضع الذي يَأوي إليه الإنسان، ومنه اشتُقَّ: مَباءَةُ الغَنم، وهو المراح الذي تأوي إليه، والباءَةُ هاهنا كناية عن النكاح، والوِجاءُ: رَضُّ الأُنثَيين، والخِصاءُ: نَزعُهما. أخبرنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابن المذهب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني [(١]أبي قال: حدثنا حُسَين وعفان قالا: حدثنا خَلَف بن خليفة قال: حدثني[١)] حفصُ بن عمر عن أنس قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يَأمرُ بالباءَةِ، ويَنهى عن التَّبتُّلِ نهياً شديداً، ويقول: «تزوّجوا الوَدود الوَلود، فإني مكاثِرٌ بكم[٢] الأنبياء يوم القيامة».

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) سقطت من الأصل.

وفي أفراد البخاري من حديث سَعيد بن جُبَير قال: قال لي ابنُ عباس: هل تزوجتَ؟ قلتُ: لا. قال: تزوَّج، فإن خَير هذه الأُمة أكثرها نِساءً. وفي حديثِ جابر عن النَّبي ﷺ أنه قال: «أيُّما شابٍ تزوجَ في حَداثةِ سِنِّه عَجَّ شَيطانُه: يا وَيله، عصمَ مني دينَه». وقال طاووس: المرأةُ شَطرُ دين الرجل، ولا يتم نُسك الشاب حتى يَتزوّج.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: ليس العُزوبةُ من أمرِ الإسلام في شيء، ولو كان بِشرُ بن الحارث تزوَّجَ كان قَد تمَّ أَمرُه كلّه[1]، لو تركَ الناسُ النكاحَ لم يُغْزَ ولم يُحَجَّ، وقد تزوج النبيُّ ﷺ أربع عشرة، وكان يُصبح وما عندهم شيء ويُمسي وما عندهم شيء، وماتَ عن تسعٍ، وكان يَختار النكاح ويحثُّ عليه، فمَن رغِبَ عن فعل النّبي ﷺ فَهو على غير الحق، لَبُكاءُ الصَّبيِّ بينَ يدي أبيه مُتَسخطاً يَطلب منه خُبزاً أفضلُ من كَذا وكذا، أينَ يلحقُ التَّعبدَ العَزَبُ.

فأما ما يُروَى: خيركم بعدَ المِئتين الخَفيفُ الحاذ، الذي لا أهلَ له ولا ولد، فشيءٌ لا يثبتُ ولا يصح، ولا يُلتفت إلى قول جماعة من المتزهّدين قَلَّ علمهم فذمّوا النكاح، وقالوا: مَن تزوج فقد مالَ إلى الدنيا. فإن المرّوذي قال: لما مدحَ الإمامُ أحمد النكاح وأثنى عليه قلتُ له: فإنّ إبراهيمَ بن أدهم قال... فما قدرت أن أُتَمم الحديث حتى صاح بي وقال ـ ونحن في بُنَيَّاتِ الطريق[2] ـ: انظُر عافاكَ اللهُ ما كان عليه محمدٌ ﷺ وأصحابُه.

ذِكرُ فوائد النكاح

وهي خمس:

الفائدة الأولى: الولد، وهذه الفائدة هي[3] الأصل فيما وُضع له النكاح؛ لأن المقصود بقاءُ النَّسل، وخُلِقت الشَّهوةُ باعثةً مُستحِثَّةً كالتلطُّف بالطَّير في بَثِّ الحَبِّ،

---

(١) تاريخ بغداد ٧/ ٧٣.
(٢) بُنيات الطريق: الطرق الصغار التي تتشعب من الجادة.
(٣) في الأصل: «التي هي».

ولم تكُن القُدرة قاصرة عن اختراع الأشخاص ابتداءً، لكن الحكمة اقتضَت ترتيبَ المسَبِّبات على الأسباب مع الغَناء عنها إتماماً لعجائب الصنعة، وفي التوصل إلى الولد قُربةٌ من أربعةِ أَوجُه:

الأول: موافقة محبة الله تعالى بالسَّعي في ذلك ليبقى جنس الإنسان.

الثاني: طَلب محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مُباهاتُه.

والثالث: طَلب التَّبرك بدعاء الولد الصالح بعد مَوت الوالد.

والرابع: طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله.

والوجه الأول أقواها عند ذَوي البَصائر النافذة في عجائب صُنع الله تعالى ومَجاري حِكمته، وبيانُ ذلك؛ أن السيد إذا سلَّم إلى عبده البذر وآلات الحرث وهيَّأَ له أرضاً مُهيأَةً للحراثة، وكان العبد قادراً على الحراثة، ووكل به من يَتقاضاه ويحثُّه، فتكاسل وعطَّل آلةَ الحرث، وترك البذر ضائعاً حتى فَسدَ، ودفع الموكل به بنوع من الحِيلِ كان مستحقاً للمَقْتِ والعِقاب من سيده، فالله عز وجل خلقَ الزَّوجين الذكر والأنثى، وأنشأ النُّطفة والرَّحِمَ، وسلَّط متقاضي الشَّهوة عليهما، فهذه الأفعال والآلات تنطق بلسانٍ فصيح عن مُراد خالقها، وتُنادي أربابَ الألباب بتعريف ما أُعِدَّت له، هذا لو لم يصرح الخالق على لسان رسوله بالمراد حين قال: «تناكحوا تَناسلوا» فكل ممتنعٍ عن النكاح مُعرضٌ عن الحِراثة، مُضَيّعٌ للبذر، مُعطِّلٌ ما خُلقَ من الآلة المعدَّة وَجانٍ على مقصود الفِطرة والحِكمة المفهومة من شَواهد الخِلْقة المكتوبة على هذه الأعضاء بخط إلهي ليس برقم حُروف وأصوات[1] يَقرؤه كل من له بَصيرة رَبانية نافذة في إدراك دَقائق الحِكمة الأزلية، ولذلك عظَّم الشرعُ الأمر في قَتل الأولاد وفي الوَأْدِ؛ لأنه مَنعٌ لتمام الوجود، فالناكح ساعٍ في إتمام ما أحبَّ اللهُ تمامَه، والمُعرض مُعطّل ومُضيع لما كره الله ضَياعه، كيفَ وقد قطع النَّسلُ المتصل من آدمَ إليه؟! ولأجل محبة الله سُبحانه لبقاء النُّفوس أمرَ بالإطعام وحثَّ عليه، وعبر عنه بعبارة القَرض، فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

---

(١) في الأصل: «ولا أصوات».

وأما الوجه الثاني، وهو السعي فيما يحبه رسولُ الله ﷺ من تكثير النَّسل، فقد صَرَّح به: «تَزوَّجوا الودود الولود، فإني مكاثِرٌ بكم».

وأما الوجه الثالث: وهو أن يبقى له ولدٌ صالح يدعو له، فقد أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا سليمان بن داوود قال: حدثنا إسماعيل قال: أخبرني العَلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطع عَمَلُه[1] إلا من ثَلاث: إلا من صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنْتَفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له». انفرد بإخراجه مسلم. ولا التفات إلى قول من يَقول: فربما لم يكن الوَلد صالحاً. لأن الغالبَ صلاحُ ولد المؤمن، ثم دعاؤه يُفيد وإن كان فاسِقاً، ثم للوالد نيَّتُه في أنه قَصدَ إيجادَ الصالح.

الوجه الرابع: أن يموت الولدُ قبله، فيكون شَفيعاً له؛ أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى عن مالك قال: حدثني الزُّهْري عن سَعيد بن المسيّب عن أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِن مسلمٍ يموتُ له ثلاثةٌ من الولد لم يَبلغوا الحِنْثَ فتمسّه النار إلا تَحِلَّةَ القَسَم». أخرجاه في الصحيحين، وأخرجا من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «ما منكنّ امرأةٌ يموت لها ثلاثةٌ من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار» فقالت امرأة: أو اثنين، فإنه مات لي اثنان؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنَين». وفي أفراد مسلم من حديث أبي حسان قال: تُوفّيَ ابنان لي، فقلتُ لأبي هُريرة: سمعتَ من رسول الله ﷺ ومسلم حديثاً تُحدِّثناه تُطَيِّبُ أنفسنا عن مَوتانا؟ قال: «صغارهم دَعامِيصُ الجنَّة، يَلقى أحدهم أباه ـ أو قال: أبويه ـ فيأخذ بناحية ثوبه ـ أو قال: يده ـ كما آخذ بِصَنَفَةِ[2] ثوبك هذا،

(١) في الأصل: «عنه عمله».
(٢) صَنَفَةُ الثوب: طرفه.

فلا يفارقه حتى يُدخله الله وأباه الجنة». الدُّعموص: دُويبة صَغيرة تكون في الماء إذا طال مُكثه[١].

وروى مُعاوية بنُ قُرّة عن أبيه: أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابنٌ له فقال له النبي ﷺ: «أتحبه؟» فقال: يا رسول الله، أَحبَّك الله كما أُحبّه ففقده النبي ﷺ فقال: «ما فَعل ابنُ فلان؟» قالوا: يا رسول الله مات، فقال النبي ﷺ لأبيه: «أما تُحب أن لا تَأتي باباً من أبواب الجنة إلا وَجدته ينتظرك؟» فقال له رجلٌ: يا رسول الله، له خاصةً أو لِكُلِّنا؟ قال: «بل لكلكُم».

أخبرنا المحمدان؛ ابن عبد الملك وابن ناصر قالا: أخبرنا أحمد بن الحَسن بن خَيرون قال: أخبرنا أبو علي بن شَاذان، قال: أخبرنا عيسى بن محمد الطوماري قال: أخبرنا محمد بن خلف، حدثنا وكيع قال: كان لإبراهيم الحَربي ابنٌ له إحدى عشر سنةً قد حفظ القرآن، ولقَّنه من الفقه شيئاً كثيراً فمات، فَجئتُ أُعزّيه، فقال لي: كنتُ أَشتهي موتَ ابني هذا. فقلت: يا أبا إسحاق، أنت عالم الدنيا تَقول مثل هذا في صبي قد أَنْجَبَ[٢] وحفظ القرآن ولقَّنْتَه الحديثَ والفِقه؟! فقال: نَعم، رأيتُ في النوم كأن القيامةَ قد قامت، وكأن صِبياناً بأيديهم قِلالٌ فيها ماء يَستقبلون الناس يسقونهم، وكان يوماً حارّاً شديداً حَرُّه فقلتُ لأحدهم: اسقِني من هذا الماء. فنظر إليَّ وقال لي: لستَ[٣] أبي. قلتُ: فأيّ شيء أنتم؟ فقال: نحن الصّبيان الذين مِتْنا في دار الدنيا وخَلَّفنا آباءنا نَستقبلهم ونَسقيهم الماء. فلهذا تمنَّيت موتَه. فقد ظهر بهذه الأوجه الأربعة أن فَضل النكاح لأجلِ كونه سَبباً للولد.

الفائدة الثانية: التَّحصُّن من الشيطان بدفع غَوائِل الشَّهوة، فإنها إذا اندفعَت غُضَّ البصرُ وحُفِظَ الفَرجُ، وهذا المعنى دون الأول؛ لأن الشَّهوة موكَّلٌ مُتقاضٍ، وليس من يُجيب[٤] مولاه رغبة في تحصيل رضاه كمن يُجيبه[٥] لطلب الخلاص من

---

(١) هكذا شرحه المصنف هنا، ودعاميص الجنة: صغارها.
(٢) أَنجَب: نَبُهَ وبان فضله على من كان مثله.
(٣) في (ظ): «أنت».
(٤) في الأصل: «يحب».
(٥) في الأصل: «يحبه».

الموكّل به، إلا أن في وجود هذه الشَّهوة فائدتين: **إحداهما**: التَّنبيه على لَذّاتِ الجنّة؛ لأن التَّنبيه على الشيء بجِنْسه، فقد نَبهت هذه اللّذة المنقطعة على اللّذات الباقية، فحركت على[1] العمل بما يوجب الوصول إلى تلك.

والثانية: دفع الماء المُحتقِن، فإنه إذا اجتَمع آذى، وشغلَ القلبَ بحركته عن الاهتمام بالمصالح، وغاية ما يجتهد المتّقي إذا ترك النكاح أن يغضّ بَصره ويحفظ فَرجه، فأما أن يحرس قلبه من الفِكر والوَساوس في ذلك، فإنه لا يمكنه، وربما عارضَهُ من تصوير الوِقاعِ في أثناء الصلاة ما لو صرَّح به بين يَدي مخلوقٍ لاسْتَحيا، والقلب في حَقِّ الخالق كاللّسان في حق الخلق، ورأس مال المُريد في سلوك طريق الآخرة قَلبُه، ودوام الصوم لا يقطع مادّةَ الوَسْوَسة في الأغلب، قال مُجاهد في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]: لا يصبر عن النساء، وقال قتادة: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: الغُلْمَة[2]. وهذه الشَّهوة هي أقوى آلة الشيطان على الآدمي، وإلى نحو هذا أشار عليه الصلاة والسلام بما روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أَذهبَ لِلُبِّ الرجلِ الحازمِ من إحداكنّ» وإنما كان ذلك لهيجان الشَّهوة.

وكان الجُنَيد يقول: أحتاجُ إلى الجِماع كما أَحتاج إلى القُوت. فالنكاح سببٌ لدفع الوَساوس عن النَّفس، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فيما انفرد بإخراجه مسلم من حديث جابر: «إن المرأةَ تُقبل في صورة شَيطان، وتُدبر في صورة شَيطان، فإذا رأى أحدكم امرأةً فأعجبته، فليأتِ أَهله، فإن ذلك يَرد ممّا في نَفْسِه». ووجه ذلك أن الوَساوس إنما تَقع في أمور النساء لإخراج الفَضْلةِ المُحتقِنَة، ووَطْءُ الزوجة يُزيل ذلك أو يخففه، وقد كان الصحابة يَستكثرون من النكاح لما بيّنّا من طلب الأولاد تارةً، وتحصينِ النفس ودفعِ الوَساوِس عن القلب أُخرى.

وينبغي للمريد أن يكون هَمُّه حراسةُ قلبه، فكيف وَقعت فهو المقصود.

---

(١) في (ظ): «إلى».

(٢) الغُلمة: الشبق وشدة الشهوة.

الفائدة الثالثة: ترويح النَّفس وإيناسها بمخالطة الزوجة والنظر إليها، والملاعبة لها، وفي إراحةِ القَلب تَقويةٌ له على العبادة، فإن النفس تَملُّ من التَّعبُّدِ وتَنفِر من الحق؛ لأنه على خِلاف طبعها، فإذا رُوِّحَتْ بما يلائمها في وَقتٍ قَويَت ونَشطت، وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إليَّ من الدُّنيا النِّساء والطِّيب، وجُعِلَت قُرّة عيني في الصّلاة». وهذه الفائدة لا يُنكرها مَن جَرَّبَ إتْعابَ نفسه في الأذكار والأفكار وصنوف الأعمال، وإذا حَصلت فيها هذه النّية - أعني ترويح النفس لتقوى على التعبُّد - صار النكاح فَضيلة بها.

الفائدة الرابعة: تفريغُ القلبِ عن تَدبير المنزل والتكفُّل بشُغل الطَّبخ والكَنْس والفَرش، وتَنظيف الأواني، وتهيئة أسباب العَيش، فإن الإنسان يتعذَّر عليه أكثر ذلك مع الوحدة، ولو كفل به لضَاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة عونٌ على الدين بهذه الطريق، إذ اختلال هذه الأسباب شواغل للقلب، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تُنكَح المرأةُ لأربعٍ؛ لمالها، ولحسَبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفَر بذاتِ الدين تَرِبَتْ يَداك». وفي أفراد مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الدنيا كلّها مَتاع، وخير مَتاع الدنيا المرأةُ الصالحة». وفي حديث سَعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «مِن سَعادة ابنِ آدم ثلاثة، ومن شِقْوَة ابن آدم ثلاثة: من سَعادة ابن آدم المرأةُ الصالحةُ، والمسكنُ الصالح، والمركبُ الصالح، ومن شِقوة ابن آدمَ: المرأةُ السُّوء، والمسكَنُ السوء، والمركب السوء». وقال ﷺ: «ليتَّخذ أحدكم لساناً ذاكراً، وقَلباً شاكراً، وزوجةً مؤمنة تُعينه على آخِرته».

وقال عمر بن الخطاب: ما أُعطِيَ عبدٌ بعد الإيمان بالله خيراً من امرأةٍ صالحة.

وقال محمد بن كعب القُرَظي في قوله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]: المرأةُ الصالحة. وقال أبو سُليمان الداراني: الزَّوجة الصالحةُ ليست من الدنيا، فإنها تُفَرغك للآخِرة. وإنما يكون تَفريغُها بتدبيرِ المنزل وبقَضاء الشَّهوة جميعاً.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرّعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقِهنَّ، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحِهنّ، وإرشادهنّ إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد، وكل هذه أعمالٌ عظيمةُ الفضل، فإنها رعايةٌ وولايةٌ، والأهلُ والأولاد رَعية، وفَضل الرّعاية عظيم، وإنما يَحتَرِز منها من يَحترز خِيفةً من القُصور عن القيام بحقها، وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره كمن اشتغل بإصلاح نفسه فقط، ولا من صَبَرَ على الأذى كمن رَفَّه نفسه وأراحها، فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجِهاد في سبيل الله عز وجل، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «نَفقةُ الرجل على أهله يَحتسبها صدقة». وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «دينارٌ أنفقتَهُ في سبيل الله عز وجل، ودينارٌ أنفقتَهُ في رَقَبةٍ، ودينار تَصدَّقتَ به، ودينارٌ أنفقتَهُ على أهلك أفضلُها الدّينار الذي أنفقتَهُ على أهلك». وفي أفراده من حديث ثَوْبان عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الدَّنانير دينارٌ ينفقه الرجل على عِياله». وفي أفراده من حديث سَعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال له حين عادَه: «إن نفقتك على عيالك صَدقة، وإن ما تأكل امرأتك من مالك صَدَقة». وقال ابنُ المبارك يوماً لإخوانه في الغزو: تَعلمون عملاً أفضل مما نحنُ فيه؟ قالوا: ما نَعلمُ ذلك. قال: أنا أعلم رجلٌ مُتعفِّفٌ ذو عِيال قامَ من اللَّيل فنظر إلى صِبيانه نِياماً مُتكشِّفين فَسترهُم وغَطّاهم بثوبِه فعمَلُه أَفضَلُ مما نحن فيه.

ثم في الصَّبر على أخلاق الزوجة والعيال رياضةٌ للنفس، وكسرٌ للغَضب، ولا ينتفع بهذه الفائدة إلا أحد رجلَين؛ إما رجلٌ قَصَد المجاهدةَ والرياضة وتهذيب الأخلاق لكونه في بداية الطريق، فلا يبعد أن يرى هذا طريقاً في المجاهدة فَيرتاض به، وإما رجلٌ عابدٌ عَملُه بالجوارح فحسب ليس له سَيرٌ بالباطن، ولا حركةٌ بالفِكر والقلب، فعملُه لأهله وأولاده والقيام بتدبيرهم أفضل له من عبادات البَدَن التي لا يَتعدّى خيرها، فأما الرجل المهذَّب الأخلاق الذي له سَيرٌ بالباطن، فلا ينبغي أن يتزوّج لهذا الغرض.

ذِكرُ آفات النكاح

الأولى: وهي أقواها: العَجز عن طلب الحلال، فإنّ ذلك يصعب، فربما مَدَّ المتزوجُ يَده إلى ما ليس له، وفي الحديث: «يُنادَى يوم القيامة: أينَ الذي أكلَت عيالاتُهم أَماناتِهم». وقلَّ أن يتخلص من هذه الآفة[1] إلا مَن له مال مِن وجهٍ حلال يَفي به وبعياله أو قَناعة منه ومنهم.

الآفة الثانية: القُصور عن القيام بحقوق النّساء، والصّبر على أَخلاقهن وأَذاهنَّ، وفي هذا خطر؛ لأن الرجل راعٍ، وهو مسؤولٌ عن رعيته، ولهذا اعتذر بِشرٌ وقال: يمنعني من النكاح قَوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فلا يسلم من هذه الآفة إلا حكيمٌ عاقل حَسَن الأخلاق بَصيرٌ بعاداتِ النّساء، صَبورٌ عليهنّ، حريصٌ على الوَفاء بحقوقهنّ، متغافل عن زَلَلِهنّ.

الآفة الثالثة: أن يكون الأهلُ والوَلد شاغلاً له عن الله سبحانه، فيقضي ليله ونَهاره في التمتُّع بهن، فلا يتفرغ القَلب للفِكر في الآخرة، والعمل لها.

فهذه مَجامع الآفات والفَوائد، فالحكم على شَخصٍ واحدٍ بأنّ الأفضل له النكاح أو العُزوبة مطلقاً قُصورٌ عن الإحاطةِ بمجامع هذه الأمور، بل ينبغي للمريد أن يعرض [2]نفسه على[2] هذه الأحوال، فإن انتفت عنه الآفات واجتمعت له الفوائد بأن كان له مالٌ[3] حلال، وحُسن خلق، وجِدٌّ في الدين لا يَشغله النكاح عنه، وهو مع ذلك شابٌ يحتاج إلى تسكين الشَّهوة، ومتفردٌ يحتاج إلى تدبير المنزل، فلا شك أن النكاح له أفضل مع ما فيه من السَّعي في تحصيل الولد، وإن انتَفت الفوائد واجتمعت الآفات، وكان ممن لا يحتاج إلى النكاح، فتركه له أصلح، وإن تقابَلَ الأمران فَينبغي أن يُغلّبَ ما يزيد به دينه على ما ينقصه، وهذا كله إنما هو[4] في حق من لم يَحتج إلى النكاح، وأما إذا احتاج، فإنّه يَلزمه.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الأمة».

(٢-٢) سقط من الأصل.

(٣) في الأصل: «وجه».

(٤) ليست في الأصل.

البابُ الثاني

فيما يُراعَى حالةَ العَقدِ من أحوال المَرأة وشُروط العَقد

أما العقد فشروط صحته خَمسة: الولي، وإذن المولَّى عليها، إلا أن الأَب يُزوج أولاده الصغار وبناته الأبكار البُلَّغ بغير إذنهم، والشهود، والإيجاب والقَبول.

وآدابُه: تَقديمُ الخِطْبَة إلى الوَلي، لا في حالِ عدّة المرأة إن كانت مُعتَدّة، ولا في حالِ سَبقِ[1] مَن قد سَكنوا إلى خِطْبته، والنظرُ إلى المرأة قَبلَ النكاح، وإخبارُ الوَليّ إياها بأمرِ الزَّوج، فإن كانت بِكراً فَسُكوتها إذنها، ثم الخُطْبةُ قبل النكاح، وأن يكون الصَّداق معلوماً وخَفيفاً، وإحضار جماعة من أهل الصّلاح مع الشاهدَين.

ومن آدابه أن يَنوي بالنكاح إقامةَ السنَّة، وغضَّ البصر، وطلبَ الولد إلى غير ذلك من الفَوائد التي ذكرناها، ولا يكون قَصدُه مجرد التَّمتع، وأن يعقد في يوم جُمعة بعد العَصر، ويُستحب أن يُقال إذا وقع العقد: باركَ الله لكَ، وباركَ عليك، وجمع بينكما في خَيرٍ وعافية.

وأما المنكوحة فيعتبر فيها نَوعان: أحدُهما: الحِلّ، وهو أن تكون خَليةً من موانع النكاح، مثل أن تكون في نكاح الغَير، أو في عِدَّتِه، أو مُرتدّة أو مُحرمة بالرَّضاع إلى غير ذلك.

والثاني: لطيب المعشر وحُصول المقاصد، وهي ثمانية: الدّين، والخُلُق، والحُسنُ، وخِفّةُ المَهر، والبَكارة، والوِلادة، والنَّسب، وأن لا يكون قَرابة قريبة.

---

(١) في الأصل: «سبق واحدٍ».

فأما **الأول**: وهو الدين، فهو الأَصل، فإنها إذا كانت ضَعيفةَ الدّين في صيانةِ نفسها أَزْرَتْ بزوجها، وكدَّرت عَيشَهُ، فإن سلكَ سبيل الغَيرة لم يَزَل في بلاء، وإن سكتَ كان متهاوناً بعرضه ومنسوباً إلى قلّة الحَميّة، وإن كانت فاسدةَ الدين من وجهٍ آخر مثل استهلاك مالِهِ كان سبباً لفقره، وتَشتيتِ هَمّه، وإنما قال النبي ﷺ: «عليكَ بذاتِ الدين» لأنها تُعينُ على الدين، فإذا لم يكن لها دينٌ أفسدَتْ دين الرجل أو كدَّرت عليه العيش.

الثاني: حُسن الخُلُق، هو أصلٌ مهم، فإنها إذا كانت بَذيئةَ اللّسان سيئةَ الخُلق كافرةً للنعم كان ضَررُها أكثر من نَفعها، ولا سبيل إلى تَعرُّفِ[1] أَخلاقها إلا من خَبيرٍ بها غير حاسدٍ لها فيُقَصِّر، ولا شَديد المَحبة فَيميل.

الثالث: الحُسْنُ، وذلك مطلوبٌ، إذْ به يَحصُلُ التَّحصُّنُ، والدَّميمة لا تكفي غالباً، ولهذا أُمرنا بالنَّظر إلى المنكوحة، وقد كانَ أقوامٌ لا يَنظرون في الحُسن ولا يقصدون التمتع، كما اختار الإمام أحمد رحمه الله امرأةً عوراء على أُختها، إلا أن هذا ينُدر، والطّباع على ضِدّه.

الرابع: خِفَّةُ المَهْر، قال عمر بن الخطاب: لا تُغالوا في مُهور النساء. وقد زَوّج سَعيدُ بن المسيّب ابنتَه على دِرهمين، وكما تُكرَه المُغالاة في المَهر من جِهة المرأة يُكره السُّؤال عن ما لها من جهة الرجل، قال الثَّوري: إذا تزوّج وقال: أيّ شيءٍ للمرأة؟ فاعلم أنه لِص.

الخامس: البكارة، وفي الصحيحين من حديث جابر أن رسول الله ﷺ سأله: «هل تزوّجت؟» فقال: نعم. قال: «ثَيّباً أو بكراً؟» قال: ثيباً. قال: «فهلّا تزوجتَ بكراً تُلاعبها وتُلاعِبُك».

وفي البكارة فائدتان؛ **إحداهما**: أَن البكر تُحبّ الزَّوج وتألَفُه فَيوجِبُ ذلك الوُدَّ، قال عليه الصلاةُ والسلام: «عليكم بالوَدود». والطِّباع مَجْبولةٌ على الأُنْس

(١) في (ظ): «تعريف».

بأول مألوفٍ وآكدُ الحُبِّ غالباً ما يقع[١] مع الحبيب الأول. **والثانية**: أنه أكمل لمودَّته لها؛ لأن الطَّبع يَنفر عن التي مَسَّها غير الزوج، ويثقل عليه تَذكُّرُهُ.

السادس: أن تكون وَلوداً، وذلك يُعتبر بحالتها إن كان لها زَوجٌ قبل ذلك، أو بأقاربها، أو نسبها الموجب لذلك.

السابع: النسب وهو أن تكونَ من بيتِ دينٍ وصَلاح؛ لأنها إذا لم يُربّها أهلُ الدين لم تُحسِن تربيةَ أولادها على ذلك الوصف، قال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخَضراءُ الدِّمَن» فقيل: ما خَضراء الدِّمَنِ؟ فقال: «المرأةُ الحَسناءُ في المَنبت السوء». وقال: «تَخيَّروا لنُطَفِكُم، فإنّ العِرقَ نَزّاع».

الثامن: أن لا تكون من القَرابة القَريبة، فإن ذلك يُقلل الشَّهوة؛ لأن الشهوة إنما تَنبعث بالأمر الغَريب الجديد، والقَرابةُ مألوفةٌ، وقلّةُ الشّهوة توجب أن يكون الولد ضَاوياً[٢]، وكما أنه ينبغي للرجل أن ينظر المرأة، يَنبغي للولي أن ينظر للمرأة في دين الرجل[٣] وأخلاقِه وأحوالِه؛ لأنها تصيرُ بالنكاح مَرقوقَة، ومتى زوَّجها من فاسقٍ أو مُبتدع فقد جنى عليها وعلى دين نَفسه، إذ تعرَّضَ لسَخَطِ رَبّه، قال عليه الصلاة والسلام: «مَن زوَّجَ كريمتَه من فاسقٍ[٤] فقد قَطع رَحمها». وقال رجلٌ للحسن: قد خَطب ابنتي جماعةٌ، فممَّن أزوجها؟ قال: ممّن يَتّقي الله، فإنه إن أحَبَّها أكرمها، وإن أبغَضها لم يَظلمها.

---

(١) ليست في الأصل.
(٢) ضاوياً: هزيلاً.
(٣) في (ظ): «حق الزوج».
(٤) بعدها في (ظ): «أو مبتدع».

الباب الثالث

في آداب المعاشرة ومَا يجري في دوام النكاح والنَّظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

أما الزَّوج؛ فعَليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً: في الوَليمة، والمُعاشرة، والدُّعابَةِ[(١)]، والسياسة، والغَيرة، والنَّفقة، والتعليم، والقَسْمِ، والتَّأديب بالنشوز، والوِقاع، والولادة[(٢)]، والطلاق.

الأدب الأول: الوليمة: وهي سنّة مُستحبةٌ، وفي الصحيحين من حديث أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوَّجَ امرأةً، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أَوْلِمْ ولَوْ بِشاة».

الثاني: حُسنُ الخُلُق مَعَهن، واحتمالُ الأذى منهنَّ لقُصورِ عُقولهنّ، وفي الصحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اسْتَوصوا بالنّساء، فإن المرأة خُلِقَت من ضِلَع، وإنَّ أعوجَ ما في الضِّلع أعلاه، فإن ذهبتَ تُقيمُه كَسرتَهُ، وإن تركتَه لم يزل أعوَج، فاستوصوا بالنّساء». أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا عاصم قال: أخبرنا ابن بِشْران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثنا الحسنُ بن الصَّباح قال: حدثنا مَكّي بنُ إبراهيم قال: حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عُمر عن النبي ﷺ أنه قال: «أيها الناس، إن النِّساءَ عَوانٍ[(٣)] عندكُم، لا يملكن لأنفسهن نَفعاً ولا ضَراً، أخذتموهن بأمانة الله عز وجل، واستَحللتم فُروجهن بكلمة الله، لكُم عليهنّ حَق، ولهنّ عليكم حق، فمِنْ حقكم عليهن أن لا يوطِئْنَ فُرشَكُم ولا يَعصينكم في معروف، فإذا فعلنَ

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «الرعاية».
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) عوانٍ: جمع عانية، أي أسيرة.

ذلك فلهنَّ رِزقهنَّ وكِسْوتُهن بالمعروف، فلا تَضربوهنّ، فإن ضَربتموهن فاضربوهن ضَرباً غير مُبرح».

واعلم أنه ليس حُسن الخُلق مع المرأة كفّ الأذى عنها بل احتمالُ الأذى منها، والحِلم عند(١) طَيشها وغَضبها اقتداءً برسول الله ﷺ، فقد كان أزواجُ رسولِ الله ﷺ يراجِعْنَهُ، وفي الصحيحين من حديث عُمر بن الخطاب قال: تغضَّبْتُ يوماً على امرأتي، فإذا هي تُراجعني، فأنكرت أنْ تُراجعني، فقالت: ما تُنكر أنْ أُراجِعَكَ؟ فو الله إن أزواجَ رسولِ الله ﷺ ليُراجِعنه، وتَهجره إحداهنَّ اليوم إلى الليل. فدخلتُ على حفصةَ فقلتُ: أَتُراجِعْنَ رسولَ الله؟ قالت: نعم. قلتُ: وتَهجرُه إحداكنَّ اليوم إلى الليل؟ قالت: نَعم. قلتُ: قد خابَ مَنْ فعل ذلك منكنَّ وخَسِر.

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن العَيْزار بن حُرَيث عن النُّعمان بن بَشير قال: جاء أبو بكر يَستأذن على النبي ﷺ، فسمعَ عائشةَ وهي رافعة صوتَها على رسولِ الله ﷺ، فأذن لهُ فدخلَ، فقال: يا بنتَ أُمِّ رومان ـ وتَناولها ـ أَترفعينَ صوتكِ على رسولِ الله؟! قال: فحالَ النبيُّ ﷺ بينه وبَينها. قال: فلما خَرج أبو بكر جعل النبيُّ ﷺ يقول لها يَترضَّاها: «ألا تَرين أني قَد حُلتُ بين الرجل وَبينَكِ؟». قال: ثم جاء أبو بكر فاستأذنَ، فوجدها يُضاحكُها فأذن له فَدخل، فقال أبو بكر: يا رسولَ الله أَشْرِكاني في سِلْمِكُما كما أَشركتُماني في حَربِكُما.

الثالث: أن يُداعبها ويُمازِحَها، وقد كان رسول الله ﷺ يُداعب نِساءه، وقال لجابر: «هَلّا تزوجتَ بكراً تُلاعبها وتُلاعبك». وقد سابق عائشةَ فسبقَتهُ، فعاد فَسابقها فَسبقها، فضحكَ وجعل يقول: «هذه بتلك». وفي الصحيحين من حديث عائشةَ قالت: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَستُرني بردائه وأنا أنظر إلى الحَبَشة يَلعبون في المسجد حتى أكون أنا أسأم فأقعد، فاقدروا قَدْرَ الجارية الحديثة السِّنِّ الحريصة

(١) في الأصل: «عن».

على اللَّهو. قالت: وكنتُ ألعبُ بالبَنات، فكان صواحبي يأتين، فكنَّ إذا رأينَ رسولَ الله ﷺ يَنْقَمِعْنَ منه، فكان رسولُ الله ﷺ يُسَرِّبُهنَّ إليَّ يَلعَبنَ معي. وفي حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيْرُكُم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهله».

وقال عُمر بن الخطاب: يَنبغي للرجل أن يكون في أهله مثلَ الصَّبي، فإذا التُمِسَ ما عنده وُجِدَ رجلاً.

الرابع: أن لا يَنبَسِطَ في الدُّعابة وحُسن الخلق إلى أن تَسقطَ هَيبتُه بالكلية عند المرأة، بل يُراعي الاعتدال في ذلك، وليَنْقبِضْ إذا رأى ما يُنكره، وإذا رأى ما يخالف الشرع تَنمَّر(١) وامتَعضَ.

وفي الجملة؛ ينبغي أن يسلك طريق الاقتصاد في المخالفة والموافقة، ويَتتبع الحق في جميع ذلك، ولا بد من لُطفٍ ممزوجٍ بسياسةٍ، وقد رُوِّينا عن عُمر بن الخطاب أنه عَتَبَ على بعض عُماله، فكلّم امرأةَ عُمر، فقالت له: يا أمير المؤمنين فيمَ وجدت عليه؟ فقال: يا عدوَّةَ اللهِ! وفيمَ أنتِ وهذا؟! إنما أنتِ لُعبة يُلعبُ بكِ ثم تُتْركين.

الخامس: الاعتدال في الغَيرة، وهو أن لا يَتغافل عن مَبادئ الأمور التي تُخشَى غَوائلها، ولا يُبالغ في إساءة الظَّن وبتَجسُّسِ البَواطن، وقد نَهى رسولُ الله ﷺ أن يَطرق الرجلُ أهله ليلاً، وفي حديث ابن عمر قال: نَهى رسولُ الله ﷺ عن طُروق النِّساء، فَعجِلَ رجلان فَوجدا عند أهلهما ما يَكرهان.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: لا تُكْثِرِ الغَيرة على أهلك، فتُرمَى بالسّوء من أجلك.

وأما الغَيرة في موضعها فَمحمودَةٌ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يَغار، وإن المؤمن يَغار». وفيهما من حديث المغيرة بن شُعبة عن النبي ﷺ أنه قال: «أَتعجبون من غَيرة سَعد؟ والله لأنا أَغْيَرُ منه، والله أغيَر مني، ومن أَجل غيرة الله حرَّم الفَواحش ما ظَهرَ منها وما بَطَن». وفيهما من حديث

(١) تنمَّر: غضب وتغير وجهه.

ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أحدَ أغْيَر من الله عز وجل». وقد جاء في الحديث: «منَ الغَيرة ما يُحبه الله، وهي الغيرة في الرّيبة، ومنها ما يُبغضه اللهُ، وهي الغَيرة في غير الرّيبة».

واعلم أن المانع لوجود الغَيرة أن لا يَدخُلَ على المرأة الرجالُ، ولا تَخرج هي من البَيت، وقد رُوِّينا أن عليَّ بن أبي طالب قال لفاطمة: ما خَير [حالِ] النساء؟ قالت: لا يَرينَ الرجالَ ولا يرونهنَّ. قال علي: فذكرتُ ذلك للنَّبي ﷺ، فقال: «إنما فاطمة بَضْعةٌ منّي».

ورأى مُعاذ بن جَبل امرأته تَطَّلع من كُوَّةٍ[1]، فَضربها. وقد كان النبي ﷺ يقول: «إذا استأذنَت أحدكم امرأتَه إلى المسجد فَلا يمنعها» فلما رأتْ عائشةُ ما جرى بعده قالت: لو عَلمَ رسولُ الله ما أحدثَ النِّساءُ بعده لمنعهنَّ الخُروج.

وينبغي للمرأة أنْ لا تَخرج من بيتها مهما أمكن، فإذا خرجت فينبغي أن تَغضَّ بصرها عن الرجال، فإنّ نظرها إليهم جائز ما لم يُثِرْ لها شَهوةً، كنظر الرجل إلى الأَمْرَدِ، فإن أثار شَهوةً حَرُمَ.

السادس: الاعتدال في النَّفقة، والقصد دون الإسراف والتقتير قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ولا ينبغي للرجل أن يَستأثر عن أهله بالطعام الطَّيب، فإن ذلك مما يُوغِر الصَّدر، فإن أبى، فليستر ذلك عنهم، وأهمّ ما يجب عليه مُراعاته في الإنفاق على المرأة أن يُطعمها من الحَلال.

السابع: أن يتعلَّم المتزوج مِنْ عِلم الحَيض وأحكامِه وما يَدري به كيفَ مُعاشرة الحائِض، ويُلقِّنها الاعتقادَ الصحيح، ويُزيل عن قلبها بِدعةً إن كانت، ويُعلمها أحكامَ الصلاة، والحيض، والاستحاضةِ، فيُعرفها أنه إذا انقطع دَمُها قبل المغرب بمقدار ركعةٍ فعليها قَضاء الظُّهر والعَصر، وإذا انقطع قبل الصُّبح بمقدار ركعة فعليها

(١) الكوّة: الثُّقبة في الحائط.

قَضاء المغرب والعشاء[١]، وهذا لا يكاد النّساء يُراعِينه، فإن قام الرجل بتَعليمها، فليس لها الخُروج لسؤال العلماء، وإن ناب عنها في سُؤالهم كَفَاها، وإن لم يكن ذلك جازَ لها الخُروج.

الثامن: مَن كان له نِسوةٌ فينبغي أن يعدلَ بينهن، والعَدل في المبيت والعَطاء، لا في الحُبِّ والوَطْءِ، فإن ذلك لا يُملَك، فإن سافَر وأراد استِصْحاب إحداهنّ أَقْرعَ بينَهنّ، كما كانَ رسولُ الله ﷺ يَفعل، وقد رَوى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من كانت له امرأتان يَميل لإحداهما على الأُخرى جاء يومَ القيامة يَجُرُّ أحدَ شِقَّيه ساقِطاً أو مائلاً».

وإذا وَهبَتْ إحداهنَّ ليلتها لصاحبتها ورَضي الزوجُ بذلك ثبتَ الحقُّ لها، وقد كان رسول الله ﷺ أراد طلاقَ سَوْدَةَ فوهبت لَيلتها لعائشةَ وسألته أن يُقرّها على الزَّوجيّة لتُحشَرَ في زُمرَةِ نِسائه ففعل، وكان رسول الله ﷺ إذا تاقَتْ نَفسُه إلى إحدى نِسائه فجامعها في غير يومها طافَ على سائر نسائه في ذلك ا ليوم.

التاسع: النُّشوز، وإذا كان النُّشوز من المرأة فَله أن يُؤدِّبَها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكنه ينبغي أن يتدرج في تأديبها بتقديمِ الوَعظ والتَّخويف، فإن لم يَنجع[٢] ولَّاها ظَهرَه في المَضجَع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت من ليلةٍ إلى ثلاثِ ليالٍ[٣]، فإنْ لم ينفع ضَربَها ضرباً غيرَ مُبرح، وهو أن يُؤلمها ولا يُدْمي لها جسماً، ولا يَضرب وجهها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تَضرب الوَجهَ، ولا تُقَبِّح، ولا تَهجُر إلا في البيت».

العاشر: في آداب الجماع؛ يُستحب البداية بالتَّسمية، والانحرافُ عن القِبلة، وأن يَتغطى هو وأهلُه بثَوبٍ، ولا يكونا مُتجرّدين، وأن يبتدئ بالملاعبة والضَّمِّ

(١) وهذا قول مالك والشافعي وأحمد، وقال الثوري وأبو حنيفة: لا يجب عليها إلا الصلاة التي طهرت في وقتها وحدَها. انظر «المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف» ٣/ ١٨٠.
(٢) نجعَ الشيءُ نجوعاً: نفعَ وظهر أثره.
(٣) ليست في (ظ).

والتَّقبيل، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم إذا أَتى أهلَهُ قال: بسم الله، اللهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجنِبِ الشَّيطان ما رَزَقْتَنا، فإن قُدِّرَ بينهما في ذلكَ وَلَدٌ لم يَضُرّه الشَّيطان أبداً».

ومن العلماء من استحبَّ الجماع يوم الجُمعة لقوله: «مَنْ غَسَّلَ واغتَسلَ». ثم إذا قَضَى وَطره فليتمهَّل على أهله ليقضيَ وَطَرها، فإن إنزالها ربّما تأخَّر، فتتأذّى بتَهيُّجِ شَهوةٍ لم تُقْضَ.

والاعتدالُ أن يَأتيها في كلّ أربع ليالٍ مرةً، ولينظر في قدرِ حاجته وحاجتها إلى التَّحصين فليفعل بمقتضى ذلك، فإنّ تحصينها لازمٌ له، ولا يجوز أن يأتيها في الحيض ولا بعدَ انقطاعه قبل الغُسلِ، ولا في المَأْتى، وله أن يَستمتع بجميعِ بدن الحائضِ دونَ الفَرْج.

ومن الآدابِ أن تَأْتَزِرَ الحائضُ بإزارٍ من حَقوَيها[1] إلى ما فَوق الرُّكبة، ومن أرادَ أن يُجامِعَ مرةً ثانيةً فليغسل فَرجَه، وفي أفراد مسلم من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا غَشِيَ أحدُكم أهلَه ثم أراد أن يعود، فليتوضأ وُضوءَهُ للصلاة».

ومن الأَدب أن لا يحلق شَعره، ولا يُقلم أظفاره، ولا يخرج دماً وهو جُنُب.

وأما العَزْلُ فمباحٌ، وفي الصحيحين من حديث جابر قال: كُنّا نَعزِلُ على عهدِ رسول الله ﷺ والقُرآن ينزل، وقد كُرهَ العزلُ؛ لأنه على خلاف ما وُضِعَ النكاحُ له، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد أنهم سألوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا إنّا نُصيبُ سبايا فَنُحبُّ الأَثْمان، فكيفَ ترى في العَزل؟ فقال: «وإنكم لتفعلون ذلك؟ لا عليكم أن لا تفعلوا، فإنها ليست نَسَمةٌ كتبَ اللهُ أن تَخرُجَ إلا وهي خارجة». وهذه الكراهة كراهةُ فوتِ فَضيلةٍ، كما يُقال: يُكرَه للقاعد في المسجد أن لا يَشتغل بالقرآن، وليست بكراهةِ تحريمٍ ولا تَنزيه؛ لأن الذي يَعزل كأنه لم يَطَأْ؛ لأن الولدَ لا يُخلقُ من ماءِ الرجلِ وَحده، بخلاف ما لو وُطِئَ واختلطَ الماءان، فإن ذلك

(١) الحَقْوُ: الخَصر.

مُستعدٌ لقبول الحياة، فإفساده جِناية، فإن صارَ مُضغةً وعلقةً كانت الجِناية أَفْحش، فإن نُفِخَ فيه الروحُ زادت الجِنايةُ تَفاحُشاً، فوجود الماءَين كوجود الإيجاب والقَبول في العُقود، فمَن أوجب ثم رجَع قبل القَبول لم يُقل: إنه قد جَنى على العقد بالفسخ، وإنما يَجني إذا انضمَّ القَبولُ إلى الإيجاب، وللذي يَعزل ثلاثةُ مقاصد؛ إحداها: حفظ ماله في الجواري لئلا يكونَ الولدُ سبباً للخروج عن كمال المِلك. والثاني: استبقاءُ جَمال المرأة وسِمَنُها لدوام التَّمتع. والثالث: الاحتراز من الحاجة إلى فَضل كسبٍ، وكل ذلك مُباح.

الحادي عشر: في آداب الوِلادة وهي ستة:

الأول: أن لا يَكثر فرحه بالذكَرِ وحُزنه بالأنثى، فإنه لا يدري في أيّهما الخيرة، وفي الصحيحين من حديث عائشةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن ابتُليَ من البناتِ بشيءٍ، فأَحسنَ إليهنَّ كُنَّ سِتراً له من النار». وفي حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن كنَّ له ثلاث بَناتٍ يُؤْويهنَّ ويَرحَمهنّ ويكفلهنّ، وجبت له الجنَّة البَتَّة» قيل: يا رسول الله، فإن كانتا اثنَتين؟ قال: وإن كانتا اثنَتين. قال: فرأى بعض القوم أن لو قالوا له: واحدة. لقال: واحدة.

الأدب الثاني: أن يُؤذّن في أُذن المولود فقد رَوى أبو رافع أن النبي ﷺ أذَّنَ في أُذُن الحَسَنِ بن عليٍّ[1] لما وَلدتهُ فاطمة.

الأدب الثالث: أنْ يُسميه باسمٍ حَسنٍ، وفي أفراد مُسلم من حديث ابن عُمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ أحبَّ أسمائكم إلى الله عز وجل؛ عبد الله وعبد الرحمن». ومن كان له اسمٌ مكروه استُحبَّ له تَبديلُه، فقد غيَّر النبي ﷺ أسماءَ جماعةٍ، وفي أفراد مسلم من حديث ابن عُمر أنّ النبي ﷺ غيَّر اسمَ عاصِيَة، فقال: «أنتِ جَميلة». وقَد كُرِهَ من الأسماء أَفْلَح، ونافع، ويَسار، ورَباح، وبَركة؛ لأنه يُقال: أهُو ثَمَّ؟ فيقال: لا.

الأدب الرابع: العَقيقة عن الذَّكر بشاتَين وعن الأُنثى بشاةٍ، وفي أفراد البخاري

(١) بعدها في (ظ): «للصلاة».

من حديث سَلمان بن عامر أن النبي ﷺ قال: «مع الغُلام عَقيقتُه، فأهريقوا عنه الدَّمَ، وأَميطوا عنه الأَذى». قال ابن سيرين: إن لم تكُن إماطة الأذى حَلق الرأس، فلا أدري ما هو. وروى سَمُرَة عن النبي ﷺ أنه قال: «الغُلام مُرْتَهنٌ بعَقيقتهِ، تُذبَح عنه يومَ السابع، ويُسمَّى ويُحلَق رأسُه». قال الترمذي: هذا حديث صحيحٌ والعمل عليه عند أهل العلم يَستحبون أن تُذبَح عن الغُلام العَقيقة يوم السابع، فإن لم يتهيأ فَيوم الرابع عشر، فإن لم يتهيأ، فَيوم أحدٍ وعشرين، ولا يُجْزِئ في العَقيقة إلا ما يُجزئ في الأُضحية.

الأدب الخامس: أن يُحَنِّكه بتَمرةٍ أو حلاوةٍ، فإن رسول الله ﷺ حَنَّكَ عبد الله بن الزُّبير بتمرة.

الأدب السادس: الخِتان، وفي حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ خَتَنَ الحسنَ والحُسَين يوم السابع وعَقَّ عنهما.

الثاني عشر: في الطلاق، وهو أبغَضُ المباحات إلى الله عزَّ وجل، فيُكره للرجل أن يَفْجَأَ بِهِ المرأة من غير ذَنبٍ، ولا يجوز للمرأةِ أن تُلجِئَهُ إلى طلاقها، فإذا أراد الطلاقَ، فليراعِ أربعة أشياء:

الأول: أن يُطلّقها في طُهرٍ لَم يُجامعها فيه، لئلّا تطولُ عليها العدةُ.

والثاني: أن يَقتصر على طَلْقَةٍ واحدةٍ ليستفيد بها الرَّجعة إن ندم.

والثالث: أن يَتلطَّف الأمرَ في الطلاق بإعطائها ما تَمَتَّعُ به ليَجبُرَ الفاجعَ، فقد رُوي عن الحسن بن علي أنه طلَّقَ امرأةً وبعثَ إليها عشرةَ آلاف درهم، فقالت: مَتاعٌ قَليلٌ من حَبيبٍ مُفارِق.

الرابع: أن لا يُفشي سرَّها، وفي أَفرادِ مسلم من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ منْ شَرِّ الناس عند الله مَنزلةً يوم القيامة الرجلُ يُفضي إلى امرأتِه وتُفْضِي إليه، ثم يَنشُر سِرَّها». وروي عن بعض الصالحين أنه أرادَ طلاقَ امرأته، فقيل له: ما الذي يريبك منها؟ فقال: العاقل لا يَهتِكُ سِتْرَ امرأتِه. فلما طلَّقها قيل: لم طَلَّقْتها؟ فقال: ما لي ولامرأةٍ غَيْري؟ فها كله في بيان ما على الزَّوج.

القسم الثاني من هذا الباب:

النَّظر في حقوق الزَّوج عليها، والقول الشافي فيه أن النكاح نوع رِقٍّ، فعليها طاعة الرقيق في كل ما يَطلبه منها إذا لم يكن معصيةً، أخبرنا إسماعيل بن أحمد وعبد الوهاب بن المبارك ويحيى بن علي المُدير، قالوا: أخبرنا أبو محمد الصَّرِيفيني، قال: حَدثنا أبو حَفص الكتّاني قال: حدثنا الحسن بن علي العدوي قال: حدثنا طالوت قال: حدثنا فَضّال قال: سمعتُ أبا أُمامة يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لو جازَ لأحدٍ أن يسجد لأحد من دون الله عز وجل، لأمرتُ المرأةَ أن تَسجُدَ لزوجها لِعظَم حقّه عليها». أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا عاصم بن الحسن قال: أخبرنا أبو الحسين بن بِشْران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا أبو خَيْثَمة قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الطُّفاوي عن ليثٍ عن عطاءٍ عن ابن عباس قال: سألتْ امرأةٌ رسولَ الله ﷺ، فقالت: ما حقُّ الرجلِ على المرأة؟ قال: «لا تَمنعه نَفسها وإن كانَتْ على رأس قَتَب[١]» قالت: وما حق الرجل على امرأته؟ قال: «لا تَصومُ يوماً تَطوُّعاً إلا بإذنه، فإن فَعلت أَثِمت، ولم يُتقبَّل منها». قالت: وما حق الرجل على امرأته؟ قال: «لا تعطي شيئاً من بَيتها إلا بإذنه، فإن فعلت كان له أجره وعليها الوِزْر». قالت: وما حق الرجل على امرأته؟ قال: «لا تَخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت لَعَنتها ملائكة الرَّحمة وملائكة الغَضب حتى تَؤوب وترجع» قالت: لا جَرمَ والله لا يَملك عَليَّ أمري رجلٌ أبداً.

وفي حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لو صَلُحَ لبشرٍ أن يَسجدَ لبشرٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها من عِظَم حقه عليها، والذي نفسي بيده، لو كان من قَدَمِه إلى مَفرِق رأسه قَرحَةٌ تَبجَّسُ[٢] بالقَيح والصَّديد ثم استقبلَتْه فلَحَسَتْهُ ما أدَّت حقَّه». وقالت عائشة: يا مَعشر النّساء، لو تعلمْنَّ بحق أَزواجكن عليكن لجعَلتِ المرأة منكن تَمسح الغُبار عن قَدَمي زوجها بِحُرِّ وَجْهها. وقالت بنت

---

(١) القَتَب: الرَّحل الصغير على قدر سَنام الجمل.

(٢) القرحة: البَثْرَة، وتبجَّسُ: تَنفجر وتَسيل.

سَعيد بن المسيّب: ما كنّا نُكلم أزواجنا إلا كما تكلموا أُمَراءكُم. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيتُ أكثر أهلِ النار النّساء» قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: «بكُفرهنَّ» قيل: أيكفرنَ بالله؟ قال: «يَكفُرنَ العَشير، ويَكفُرنَ الإحسان، لو أحسنتَ إلى إحداهنّ الدَّهرَ كُلَّه ثم رأَتْ منكَ شيئاً، قالت: ما رأيتُ منكَ خَيراً قَطّ».

واعلم أن حُقوق الزوج على المرأة كثيرةٌ، وأهمها أمران؛ إحداهما: السّتْر والصّيانة، والثاني القَناعةُ، وعلى هذا كان النِّساء في السَّلف، كان الرجل إذا خرجَ من منزله يقول له أهله: إياكَ وكسبَ الحرام فإنّا نَصبر على الجوع ولا نَصبر على النار.

ومن الواجبات عليها أن لا تُفرّط في ماله بل تَحفظه، فإن أَطعمت عن رضاه كان لها مثل أجرِه، وإن أطعمت بغَير رضاه كان له الأجر، وعليها الوِزْر.

وينبغي لوالديها تأديبها قبل نقلها إلى الزَّوج لتعرف آداب العِشرة، كما روي عن أَسماء بن خَارجةَ أنه قال لابنته عند تزويجها: إنك تَخرجين من العُشِّ الذي فيه دَرَجتِ إلى مَنزلٍ لم تَعرفيه، وقَرينٍ لم تَألَفيه، فكوني له أَمةً يَكُن لكِ عَبداً، واحْفَظي أنْفَه وسَمعه وعَينَهُ، فلا يَشمّ منك إلا طَيباً، ولا يسمع إلا حَسَناً، ولا ينظر إلا جَميلاً.

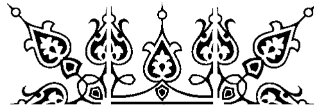
وينبغي للمرأة أنْ تكون قاعدةً في بيتها، لازمةً لِمغْزَلها، قليلةَ الكلام لجيرانها، لا يكثر اطّلاعها، كثيرةَ الانقباض في حالة غَيبةِ زَوجها، تَحفظه غائباً وحاضراً، وتَطلب مَسَرَّتَه في جميع الأحوال، ولا تَخونه في نَفسها ولا في ماله، مُحترزة أن يسمع غريبٌ صوتَها أو يعرف شَخْصَها، هَمّها[1] صلاح شَأنِها وتَدبير بَيتها قائمةً بخدمة الدّار في كل ما أمكنها، فقد قال عليٌّ رضي الله عنه: قلتُ لأُمي فاطمة بنت أَسَد: اكفي فاطمةَ بنتَ رسول الله ﷺ خِدمةَ الخارج تكفيكِ خدمةَ الداخل؛ الطَّحنَ

(١) في الأصل: «همتها».

والعَجْنَ. وكانت أسماء بنتُ أبي بكر رضي الله عنهما تَعلِفُ فرسَ الزُّبير وتَدُقُّ النَّوى لناضِحِه(١)، وتَنقُل النَّوى على رأسها من ثُلُثَي فَرْسَخ.

ولتكن المرأةُ مُقَدِّمةً لحق زوجها على حَقِّ نفسها وحقِّ جميع أقاربها، لا تَتَفاخر عليه بجمالها ولا تَزْدَريه إن كانَ قبيحاً، ولتكن مُستعدةً بالنظافة لاستمتاعه بها، غير ممتنعةٍ منه متى أرادها، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «إذا دَعَى الرجل امرأَته إلى فراشه فَأبت، فبات وهو ساخِطٌ عليها لعنتها الملائكة حتى تُصبِح». وفي لفظ مُتفق عليه: «والذين نَفسي بيده ما مِنْ رجل يَدعو امرأتَه إلى فِراشها فَتأبى عليه إلا كانَ الذي في السَّماء ساخطاً عليها حتى يَرضى عنها». وفي حديثِ معاذِ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تُؤذي امرأةٌ زَوجها في الدنيا إلى قالت زَوجته من الحور العين: لا تُؤْذيه قاتَلكِ اللهُ، فإنما هو عندك دَخيلٌ يوشِكُ أنْ يُفارِقَكِ إلينا».

آخر كِتاب النّكاح



(١) الناضح: الدابةُ يُستَقَى عليها.

كتاب آداب الكسب والمعاش

الحمدُ لله الذي جَلَّ عن مِثلٍ وشِبهٍ وتَحاشَى، وعَلا عن ضِدٍّ ونِدٍّ كلّا وحَاشَى، جعلَ(١) الأرضَ لخَلقِه مِهاداً وقراراً وفراشاً، ونَوَّر النهار ثم أَغْطَشَ اللَّيل إغطاشاً، فسكنوا في الظَّلام وانتعشوا في الضِّياءِ(٢) انتعاشاً ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠ـ ١١].

أحمده حَمدَ نفوسٍ رَواها وقد كانت عِطاشاً، وأصلّي على رسوله الذي صَغُرَ كلُّ فضلٍ عند فضلِه وتلاشَى، وعلى أصحابه وأَتباعه الذين انكمَشوا في إيضاح الدين انكماشاً، وأُسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن اللهَ عز وجل بلطيفِ حكمته جعلَ الدنيا دار تَسبُّبٍ واكتساب، تارةً للمعاش وتارةً للمعاد، ونحن نُورد آدابَ التِّجارات والصناعات، وضُروبَ الأكْساب وأسبابها، ونشرحها في خمسة أبوابٍ إن شاء الله تعالى.

الباب الأول: في فَضل الكَسب والحثِّ عليه.

والبابُ الثاني: في علم صحيح البَيع والشراء والمعاملات.

والباب الثالث: في بَيان العَدل في المعاملة.

الباب الرابع: في بَيان الإحسان فيها.

والباب الخامس: في شَفَقة التاجر على دِيْنِه.

---

(١) في (ظ): «خلق».

(٢) في الأصل: «النهار».

الباب الأول

في فَضل الكَسْب والحَثِّ عليه

أما من القرآن؛ فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النَّبأ: ١١]، فذكره في معرض الامتنان، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، فَجعلها نعمةً وطلبَ الشكرَ عليها، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِۙ﴾ [المزمّل: ٢٠]، وقال: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأما الأحاديث؛ فأخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا محمد بن علي بن الفَتح قال: أخبرنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلّص قال: أخبرنا عُبيد الله بن عبد الرحمن السُّكَّري قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا محمد بن بَكَّار قال: حدثنا زافر بن سُليمان عن لَيث عن مُجاهد عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «طَلبُ الحلال جهادٌ، وإن اللهَ لَيُحبُّ العبدَ المُحترِف». أخبرنا عبد الأوّل بن عيسى قال: أخبرنا الداوُدي، قال: أخبرنا ابنُ أَعْيَن قال: أخبرنا الفِرَبْري، قال: حدثنا البخاري، قال: حدثنا إبراهيم بن موسى قال: أخبرنا عيسى بن يونس عن ثَوْر عن خالد بن مَعْدان عن المِقدام عن النّبي ﷺ أنه قال: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قَطّ خيراً من أن يأكل من عَملِ يَدِه، وإنَّ نبيَّ الله داود كان يَأكُل من عَملِ يَديه». انفرد بإخراجه البُخاري. وفي أَفرادِه من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ: «إنَّ داود النبيّ عليه السَّلام كان لا يَأكل إلا من عَملِ يَدِه». وفي أفراد مُسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان زَكريّا نجاراً». وقال ابنُ عباس: كانَ آدمُ حَرَّاثاً، ونوح نَجاراً، وإدريس خَياطاً، وإبراهيم ولوط زَرَّاعين، وصالح تاجراً، وداود زَرَّاداً، وموسى وشُعيب ومحمد

صلى الله عليهم رُعاة. وفي حديث رافع بن خَديج قيل: يا رسولَ الله، أيّ الكَسْب أطيب؟ قال: «عَملُ الرجل بيده، وكلّ بيعٍ مَبرور».

وأما الآثار؛ فقد قال لُقمان الحكيمُ لابنه: يا بُنيَّ، استَغنِ بالكَسْبِ الحلال، فإنه ما افتَقَر أحدٌ قط إلا أصابه ثلاثُ خِصال: رِقَّةٌ في دينه، وضعفٌ في عَقله، وذَهابُ مُروءَتِه، وأعظمُ من هذه الثلاث استِخفافُ الناس به.

وقال عُمر بن الخطاب: لَأنْ أموتَ بين شُعْبتي رَحْلي أَطلب كفافَ وَجهي أحبّ إليَّ من أن أموتَ غازياً في سبيل الله.

وقال أيوب: قال لي أبو قِلابة: الزَمِ السوقَ، فإنّ الغنى من العافية.

وقيل لإبراهيم بن أدهم وهو في البَحر: أما تَرى هذه الشِّدَّة؟ فقال: إنّما الشدَّة الحاجة إلى الناس.

وقيل لأحمد بن حنبل: ما تقول في رجلٍ جلس في بَيته أو مسجده، وقال: لا أعمل شيئاً حتى يَأتيني رزقي. فقال أحمد: هذا رجلٌ جَهِلَ العلمَ، أما سمعَ قول النبي ﷺ: «إنّ الله جعلَ رزقي تحتَ ظلِّ رُمحي» وقوله حين ذكر الطَّير فقال: «تَغدو خِماصاً وتَروحُ بِطاناً». وكان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يَتَّجرون في البَرّ والبَحر، ويعملون في نَخلهم والقدوةُ بهم.

وقال أبو سُليمان الداراني: ليسَ العبادة عندنا أن تَصفَّ قدميك وغيرك يُقَوّتُ[1] لك، ولكن ابدأْ برَغيفَيكَ فأحرِزْهُما ثم تعبَّد.

واعلم أن المالَ ممدوحٌ لا مَذموم، وقد أُمر الإنسان بإصلاحه، ونُهي عن التَّفريط فيه فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النّساء: ٥] ولوجوده وقَع الاستقراضُ، فقيل ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] وبإخراجه في الخَير فُضِّلَ المُنفِق وضُوعِفَ له الأَجر، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «نِعمَّا بالمال الصّالح للمرء الصالح». وقد كانت الصحابة تكسب المال

(١) في الأصل: «يفت» وسقطت من (ظ) والمثبت من الإحياء.

وتُخلفه، فخلف طَلحةُ ثلاث مئة بُهارٍ، وكل بُهارٍ ثلاثة قَناطير، والبُهار الحِمْل. وكان مالُ الزبير خمسينَ ألف ألف ومئتي ألف، وخَلف ابن مَسعود تسعين ألفاً، وكان سَعيد بن المسيّب يقول: لا خَير فيمن لا يَطلب المال يقضي به دينه، ويصون به عِرْضه، فإن ماتَ تركه ميراثاً لمن بعده. وخَلف ابنُ المسيّب نحو أربع مئة دينار، وخلف سُفيان الثَّوري مئتين، وكان يقول: المالُ في هذا الزمان سلاح.

فإن قيل: فقد قال أبو الدَّرداء: زاولتُ التجارة والعبادة فلم يجتمعا، فاخترتُ العبادة.

فالجواب، أنا لا نقول: إن التجارة تُراد لذاتها بل للاستغناء عن الناس، وإغناء العائلة، وإفاضة الفَضل على الإخوان وأهل الدين، فقد كان ابنُ المبارك يقول: لولا خَمسة ما تَجَرْتُ. ولا شك أن الاشتغال بها يمنع من كثيرٍ من التَّعبد إلا أنه إذا صحت النية فيها وصَفَى الكسبُ وحَسُنَ القَصد كان ذلك أفضل من كثيرٍ من التَّعبد، فأما إن كان المقصود نفس المال وجمعه والتفاخر به، أو أَخذُه من غير وَجهه، فذلك كله مذموم، ومتى كان للعالم والقاضي رِزقٌ يكفُّهما من الأموال المُرصَدة للمصالح كان إقبالهما على ما يَنفع المسلمين أفضل من التَّشاغل بالكَسب، ولهذا أشار الصحابةُ على أبي بكرٍ حين وَليَ الخلافة بترك التجارة، وفرضوا له كفايتَه في بيت المال، فإن لم يجدا ما يُصلحهما من بيت المال وَوَجداه من الزكاة والصدقة أخذا إيثاراً لنفع المسلمين على التَّشاغل بالكسب، فإن لم يقدرا على ذلك إلا بالسُّؤال فالكَسبُ خير، وليكن العقدُ الذي به الاكتساب جامعاً لأمور أربعة: الصحة والعدل والإحسان والشَّفقة على الدِّين، ونحن نعقد في كل واحدٍ باباً ونَبتدئ بذكر أسباب الصِّحة في الباب الثاني إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني

في علم الكَسب بطريق البيع والرِّبا والسَّلَم والإجارة والقِراض والشركة وبيان شروط الشرع في صحة التصرفات التي هي مَدار الكَسب في الشرع

اعلم أن تحصيلَ علم هذا الباب واجب على كل مُكتسب؛ لأن طلب العلم الذي يحتاج إليه فريضة على كل مُسلم، والمكتسب محتاج إلى علم الكَسْب، فإذا حصَّلَ علمَ هذا الباب وقف على مُفسِدات المعاملة فاتَّقاها، وما شذَّ عنه من الفُروع المشكلةِ وقف على سبب إشكالها، فيتوقف فيها إلى أن يَسأل، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفَساد بعلمٍ جُملي لم يدر متى يجب عليه التوقف والسؤال، ولو قال: لا أقدّم العلم ولكنّي أصبر حتى تَقع لي الواقعة، فعندها أتعلم وأستفتي. قيل له: وبمَ تعلمُ وقوع الواقِعة إذا لم تعلم جُمَلَ مفسدات العُقود، فإنك تستمر في التَّصرفات تظنّها صحيحة مباحة، فلا بدَّ من هذا القَدر من علم التجارة ليتميّز المباح من المحظور، ولهذا كان عمر يقول: لا يَتَّجِرْ في سوقنا إلا من تَفقَّه، وإلا أكلَ الرِّبا شاء أم أَبى. وعِلم العقود كثير ولكن لا تنفك المكاسب عن هذه العقود السّتة التي ذكرناها، وهي البيع، والرِّبا، والسَّلم، والإجارة، والقِراض، والشّركة فلنشرح شُروطها.

العقد الأول: البيع: وله ثلاثة أركان: العاقد، والمعقود عليه، واللَّفظ.

أما **العاقد**: فينبغي للتاجر أن لا يُعامل المجنون لأنه غير مكلف فبيعه لا يصح ولا يعامل العبد إلا أن يَعلم أنه مأذونٌ له، ويكفيه انتشار ذلك في البلد فيعَوّل على الاستِفاضة، وكذلك الصَّبي لا يُعامل إلا أن يكون قد أَذِنَ له الأب أو الوَصي،

فيصير بمنزلة العبد المأذون له، وهذا مذهبنا، وبه قال أبو حنيفة، إلا أن عنده أنه يصير مأذوناً له في جَميع الأشياء كالعبد. وقال الشافعي: لا تصح عقودُ الصبي. وأما مُعاملة الأعمى فعندنا يصح بَيعه وشراؤه، وعند الشافعي لا يَصح، فالورع أن لا يعامل إلا أن يوكل وكيلاً بَصيراً، وأما الكافر فيجوز مُعاملته لكن لا يُباع منه المصحف ولا العبد المسلم ولا السّلاح إن كان من أهل الحرب، فإن فعل فهي معاملات مَردودةٌ وهو عاصٍ بذلك، وأمّا اللُّصوص والظَّلَمة ومَنْ أكثرُ ماله حرامٌ، فلا ينبغي أن يعامَل إلا في شيءٍ تُعرَفُ عينُه أنها حَلالٌ.

الركن الثاني: في المعقود عليه: وهو المال المقصود نقله من أحدِ العاقدين إلى الآخر ثمناً كان أو مثمناً، فيعتبر فيه ستة شروط:

الأول: أن لا يكون نَجِساً في عينه، فلا يصح بيع كَلبٍ ولا خنزير، فأمّا البَغلُ والحمار فَيجوز بَيعهما سواء قلنا: إنهما طاهران أو نجسان.

الثاني: أن يكون منتَفَعاً فيه، فلا يجوز بيع الحَشرات، وسباع البهائم التي لا تصلح للاصطياد، واختلفت الرواية في بَيع الفيل والفَهد والسِّنَّور والبازي والصَّقر والشاهين، ولا يجوز بيع العودِ والمِزْمار والصُّوَر المصنوعة من الطين إذا كانت صور حيوان.

الثالث: أن يكون المتصرَّفُ فيه مملوكاً للعاقد أو مأذوناً له في التصرف فيه(١) من جهة المالك.

الرابع: أن يكون المعقودُ عليه مقدوراً على تَسليمه حسَّاً وشَرعاً، أما الحس فالطَّير في الهواء والعبد الآبِق(٢) والجمل الشارد، فهذه الأشياء لا يُقدَر على تسليمها حسّاً، وأما الشَّرع فالمرهون، وبيع الأم دون الولد الصغير، أو الولد دون الأم، فهذه ممنوعة التَّسليم شرعاً.

---

(١) ليست في الأصل.
(٢) الآبق: الهارب من سيده.

الخامس: أن يكون المبيع معلومَ العَين إما بالرؤية، فيقول: بعتُكَ هذا الثوب بهذا الدينار. أو بالصفة، مثل أن يقول: بعتُكَ عبدي التُّركي ومِنْ صفتِه كذا وكذا.

السادس: أن يكون المبيعُ مقبوضاً إن كان قد استفاد ملكه بمعاوضة، فقد نَهى رسول الله ﷺ عن بَيع ما لم يُقْبَض.

الركن الثالث: لفظ العقد: وهو الإيجاب والقَبول، فإن تقدَّم القبول على الإيجاب لم يصح البيع في إحدى الروايتين، وفي الأُخرى يصح، سواء كان بلفظ الماضي بأن يقول: ابتعتُ منك هذا الثوب بدرهم. فيقول البائِع: بعتُك. أو بلفظ الطلب بأن يقول: بِعني ثوبَك بدرهمٍ. فيقول: بعتُكَ. فإن تَبايعا بالمُعاطاة نحو أن يقول: أعطني بهذا الدينار خُبزاً. فيعطيه ما يَرضى أو يقول: خُذْ هذا الثوب بدينار. فيأخذه، فظاهر كلام الإمام أحمد رحمه الله صحةُ البيع، وقال القاضي أبو يعلى: يَصح ذلك في الأشياء اليَسيرة دون الكثيرة، وهذا أصلح الأقوال، أعني أن تكون المعاطاة بَيعاً في الأشياء المحتقرة دون الأشياء النَّفيسة لجريان العادات بذلك، إلا أنّ ذا الورع يَنبغي أن لا يَترك الإيجاب والقَبول ليخرج عن شُبهة الخِلاف.

العقد الثاني: عقد الربا: وقد شَدَّد الله عزَّ وجلّ الأمر في الرِّبا، فيجب الاحتراز على المتعاملين بالنَّقدين من الفَضل والنَّسيئة، فأمّا رِبا الفَضْل، فيحرم بعلةِ كونه مَكيلَ جنسٍ أو مَوزونَ جنسٍ، فمتى باع مكيلاً بجنسه حَرُمَ فيه التفاضل، سواء كان مأكولاً كالحِنْطة والتّمر، أو غير مأكولٍ كالنُّورةِ[1] والأُشنان[2] وكذلك إن باعَ موزوناً بجنسه كالفِضَّة بالفضة والحديد بالحديد، هذا في إحدى الروايات عن الإمام أحمد، والرواية الثانية: يَحرم التفاضل بعلة كونه مَطعومَ جنسٍ وفي غير الطعام بعلَّة الثُّمْنِيَّةِ، فَيَختصُّ ذلك بالذهب والفضة. والثالثة: يحرم التَّفاضل في غَير الذهب والفِضَّة بعلّة كونه مَطعوماً مكيلاً أو مطعوماً موزوناً في جنس، ولا يحرم

---

(١) النُّورة: أخلاط من أملاح الكالسيوم والباريون تستعمل لإزالة الشعر. المعجم الوسيط: (نور).

(٢) الأُشنان: شجر ينبت في الأرض الرملية يُستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي.

التفاضل في مطعومٍ لا يُكال ولا يوزن كالرُّمان والبِطّيخ، ولا في مكيلٍ أو مَوزونٍ لا يُؤكل، كالحديد والأُشْنان، ومتى اختلف الجِنسان جازَ التَّفاضل على جميع الروايات.

وأما ربا النَّسِيئَة؛ فكل شَيأين علة ربا الفَضل فيهما واحدة، لا يجوز بيع أحدهما بالآخر نَساءً، ولا يجوز بيع جنسٍ فيه الرِّبا بعضُه ببعض، ومع أحدهما من غير جنسهما كَمُدِّ عَجْوةٍ ودرهم بمدَّيْ عجوةٍ، فعلى هذا لا يجوز أن يَشتري قِلادةً فيها خَرَزٌ[1] وذَهب بذهب، ولا ثوباً مَنسوجاً بذهبٍ يحصل منه ذهبٌ مقصود عند عَرضه على النّار بذهبٍ، ولا أن يَشتري الخبزَ بحِنطةٍ، ولا السِّيرج[2] بسِمْسِمٍ ولا الزُّبدَ باللَّبن.

العقد الثالث: السَّلَم: وهو نوع من البيع ينعقد بكل لفظٍ ينعقد به البيع، وينعقد بلفظ السَّلَم والسَّلَف، ويصح في كل مالٍ يُضبط بالصِّفة كالثّمار والحُبوب والثِّياب والدَّقيق والخُبز والقُطن والإبريسَم[3] والكتّان والكَاغَد[4] والحَيوان والرَّقيق واللُّحوم والرؤوس والجلود والأَطراف والحديد والرَّصاص والنُّحاس والصُّفْر والأَحجار والأَخشاب والأَدوية والطِّيب والمائِعات من الخَلِّ والدُّهنِ واللَّبن وغير ذلك، ولا يصح إلا بخمسة شرائط:

أحدها: أن يَذكر كل وصفٍ يختلف الثمن لأجله عند أهل الخِبرة، فإذا أسلمَ في طعامٍ ذكر الجنسَ فقال: حنطة. والنوعَ، فقال: بَغدادية واسِطِيّة. واللَّونَ: حمراء صَفراء، والقَدْرَ: كِبار الحب أو صِغار الحب، وحديثٌ أو عَتيق، وَجيد أو رَديء، وخاليةٌ من الغِش.

والشرط الثاني: أنِ يَذكر المقدار، فيشترط في المكيل كيلاً مَعلوماً، وفي

(١) تحرفت في الأصل إلى: «حرير».
(٢) السّيرج: زيت السمسم.
(٣) الإبريسم: أحسن الحرير.
(٤) الكاغد: القِرطاس الذي يُكتب فيه.

الموزون وَزناً معلوماً، وكذلك في المَذْروع[١] والمَعْدود، فإن أَسلمَ فيما يُكال بالوزن لم يَصح، وكذلك يُخرج إذا أسلم فيما يوزن كيلاً وفيما يُذْرَعُ وزناً، فأما المعدود المختلف، كالبيض والجوز والرُّمان والسَّفَرجل والبِطّيخ والقِثّاء والباذِنْجان وما أشبه ذلك، فيصح السَّلَم فيه في إحدى الروايتين، وهل يسلم فيه عدداً أو وزناً على روايتين.

والشرط الثالث: أن يشترط أجلاً مَعلوماً له وقع في الثَّمن، كالشَّهر والشَّهرين فصاعداً، فإن أسلم حالاً أو شرط ساعةً أو يوماً لم يصح، إلا أن يُسلِمَ في خبزٍ أو لحمٍ يأخذ منه كل يومٍ أَرْطالاً معلومةً، فإنه يَصح.

والشرط الرابع: أن يَشترط محلاً يكون المُسلَمُ فيه عامّ الوجود، فإن أسلم في العِنَبِ وجعل محلّه شهرَ شُباط لم يصح.

والشرط الخامس: أن يَقبض رأس المال المسلَم في مَجلس العقد، ويكون معلومَ الصِّفة والمقدار، كالمسلم سواء، فإن تَفرَّقا قبل القَبض بَطلَ السَّلَم، فإن أقبَضَه بعضَه في المجلس ثم تفرقا بطل العَقد في الجميع في إحدى الروايتين، والأخرى يَبطل فيما لم يُقبَض، ولا يصح السَّلَمُ فيما لا يُضبَطُ بالصِّفة، كالجواهر من الدُّرِّ والياقوت واللُّؤلؤ.

العقد الرابع: الإجارة: وهي عقدٌ على المنافع لازمٌ من الطرفين، لا يصح إلا من جائِز التَّصرف في المال، وهي على ضَربين: متعلقة بالذِّمة، كالاستئجار لتحصيل بناءٍ أو خِياطة أو حمل شيءٍ من مكان إلى مكان، ومتعلقة بالعينِ كاستئجار الدّار للسُّكنَى، والدابة للركوب، والإنسان للخدمة، فإن تَلِفَت العَينُ انفسخت الإجارة فيما بَقي من المُدة، فإن كانت داراً فانهدَمت، أو أرضاً للزَّرع فانقطع مَاؤها انفسخت الإجارة فيما بَقي في أحد الوجهين، وفي الآخَرِ يثبت للمستأجر خِيارُ الفَسخ.

ولا تَصح الإِجارة إلا على مُدة معلومةِ القدر إما بالزمان كسُكْنى شَهرٍ، وخدمةِ

---

(١) المذروع: أي الذي يُقاس بالذراع.

سَنةٍ، أو بالعمل كالإجارة على بناءِ دارٍ أو خياطةِ قَميصٍ أو الركوب إلى مَوضعٍ مُعين.

العقد الخامس: القِراض: وهو المُضارَبةُ، وهو أن يدفع الإنسان مالَهُ إلى آخر يَتَّجِرُ به، والربح بينهما يَستحِقُّه ربُّ المال بماله والمُضارب بعَمله، ومَبْناها على الأَمانة والوَكالة لأنه بدَفعِ المالِ إلى المُضارب ائْتَمنَهُ، وبإذنه أن يَشتريَ ويبيع وَكَّلَهُ، فإذا ظَهر الرِّبح صار شَريكَه فيه؛ لأنه يَستحق منه جُزءاً.

ولا تَصح المُضاربةُ إلا بالدَّنانير والدراهم في إحدى الروايتين، وفي الأخرى: تَصح بالعُروض على أن تُقَوَّمَ حال العَقدِ.

ولا تَصح إلا على جزءٍ معلومٍ من الرِّبح لكل واحدٍ منهما، فإن شَرَطا ما لا يعود بجهالةِ الربح، فذلك على ضَربين صحيح وفاسد، فالصحيح أن يُضاربه على أن لا يَتَّجر إلا في البُرِّ أو البَزِّ[1] أو على أَنْ لا يَبيع ويشتري إلا ببغداد، والفاسد أن يَشترط على المضارب ضَمان المال أو سَهماً من الوَضِيعة.

العقد السادس: الشركة: وهي على ضَربين؛ شركة أملاك، وشركة عقود، فشركة الأملاك تَحصل بفعلهما في ملكٍ مُعيَّن مثل أن يَشتريا أو يوهَب لهما فَيقبلا، وبغير فعلهما مثل أن يَرِثا، فكل واحدٍ منهما في نَصيب شريكه كالأجنبي، لا يجوز له التصرف فيه إلا بإذنه، فإن تصرف ببيعٍ أو هبةٍ أو رهنٍ نَفَذَ في حِصّته.

وأما شَرِكة العُقود، فلا تَصحُّ إلا من جائزي التَّصرف، وهي على خمسة أَضرُب: شَركة عنان، وشركة وجوه، وشركة أبدان، وشركة مُفاوضة، وشركة مُضاربة.

فأما شركة العِنان، فتعتمد على المال والوكالة، فتنعقِد على ماليهما وعمل كل واحدٍ منهما في المالين بحكم الملك في حِصَّته، وبحكم الوكالة في حِصَّة شريكِه، ولا تَصح إلا في جنس الأثمان في إحدى الرِّوايتين، وسواء اتفقَ المالان في

---

(١) البَزّ: نوع من الثياب.

الجِنس والصفة (١أو اختلفا فأخرج أَحدهما دَراهم والآخرُ دنانير، أو أحدهما قُراضَةً١) والآخر صِحاحاً، وفي الرواية الأخرى: تصح في العُروض أيضاً، ويجعل رأس المال قيمتها وقت العقد، وتصح وإن لم يخلطا المالين، وما يشتريه كل واحد منهما بماله بعد عقد الشركة فهو له ولشريكه، وكذلك إن تَلِفَ أحد المالين فهو من ضمانِهما، والرِّبح فيها على ما شَرطاه. والوَضيعة على قَدر المال، فإن شَرَطا التَّساوي في الوَضيعة مع التفاضل في المال، فالشرط باطلٌ، والعقد صحيح.

ويجوز لكل واحدٍ من شريكي العِنان أن يَبيع ويشتري، ويَقبض ويُقبِّضَ، ويُطالب بالدين ويخاصم فيه، ويُحيلَ ويحتالَ، ويردَّ بالعَيب، ويفعل كل ما هو من مصالح تجارتهما بمطلق الشركة، ولا يجوز لأحدهما أن يكاتب ولا يعتق على مالٍ ولا يُزوج الرَّقيق ولا يَهَبَه ولا يُقرض ولا يُحابي ولا يُضارب بمال الشركة إلا أن يأذنَ شريكه. وهل يجوز أن يُودِعَ أو يُسافر بالمال أو يَبيع نَساءً أو يُبضِعَ أو يوكّل فيما يتولى مثله بنفسه أو يَرهَنَ أو يَرتهن، أو يُقايِلَ، على وجهين.

فإن قيل: ما معنى هذه التسمية أعني شركة العِنان؟ فالجواب: أنه قد ذكر فيها أهل اللغةِ قولين؛ أحدهما: أنه مِنْ عَنَّ لفلانٍ كذا أي عَرَضَ له كأنّ ذلك الشيء عَنَّ[٢] لهما، أي: عَرضَ، فاشتركا فيه. والثاني: أنه من عِنان الدابة إذا استَويا في الشيء فكان لكل واحدٍ منهما أن يَعِنَّ، أي: يمنع صاحبه من التصرف، وذلك إذا أراد فسخَ الشركة.

وأما شركة الوُجوه: وهي أن يَشتركا في ربحِ ما يَشتريان في ذِمّتهما بِجَاهِهِما وثِقَة التّجار بهما من غير أن يكون لهما رأسُ مال، فهي شركة صحيحة مَبنية على أن يكون كل واحد منهما وكيلاً لصاحبه فيما يشتريه ويبيعه، كفيلاً عنه بالثمن، ولا فرق بين أن يُعيّنا المشتري أو يقول كل واحد منهما: ما اشتريت من شيءٍ فهو بَيننا. فكيف شرطا وقوع المشتري بينهما جازَ، فإذا باعا ووَفَّيا ما عليهما قَسَما الرِّبح على ما شَرَطاه من مُساواةٍ أو تفضيلٍ. والوَضيعة على قَدرِ ملكيهما في

(١-١) سقط من (ظ).
(٢) في الأصل: «عرض».

المُشْتَرَى فِي أحد الوجهين، وفي الآخرِ: أنَّ الربحَ والوَضيعةَ على قدر مِلكيهما في المشْتَرى وهما في جميع التَّصرفات بمنزلة شَريكي العِنان.

وأما شركة الأبدان: وهي أن يَشتركا فيما يكسبان بأبدانهما، فهي شركة صحيحة مَبنية على أن كل ما يَتقبَّله كل واحد منهما من الأعمال يصير في ضَمانه وضمان شريكه، يطالب به كل واحد منهما، ويلزمه عمله، وهي جائزة مع اتّفاق الصَّنائع، فأما مع اختِلافها، فيَحتمل وجهين أصحهما أنه لا تَصح.

وتصح الشركة في الاحتِشاشِ والاحتِطابِ والاصطياد، والثمار المأخوذة من الجِبال، وفي التَّلصُّصِ على دار الحَربِ وسائر المباحات.

وأما شركة المفاوضة: فهي على ضربين: أحدهما: أن يفوض كل واحدٍ منهما إلى صاحبه الشِّراء والبيع والتوكيل والابْتياع في الذمَّة، والمسافرة بالمال والمضاربة به، وضمان ما يرى من الأعمال، فهذه شركة صحيحة. والرِّبحُ فيها على ما شَرَطاه، والوضيعة على قدر المال.

والضرب الثاني: أن يدخلا في الشركة المذكورة ما يلزم كل واحد منهما من غَصبٍ، أو بيعٍ فاسد، أو ضمان مال، أو أرش جنايةٍ، وأن يكون بينهما ما يجدان من لُقَطَةٍ أو رِكاز، وما يحصل لهما بالميراث، فهذه شركة باطلة، ولكل واحدٍ منهما ربح ماله وأجرة عمله، وما يجده أو يرثه، ويختص بضمان ما غَصَبه أو جَناه أو ضَمِنه عن الغير.

وأما شركة المضاربة: فهي أن يَدفع الإنسان ماله إلى آخر يَتَّجر به والربح بينهما يستحقه رب المال بماله والمضارب بعمله، ومَبْناها على الأمانة والوكالة، وقد ذكرنا هذا في القِراض، فإن القِراض هو المُضاربة، وكلما جاز لأحدِ الشريكين فعله بمطلقِ عقد الشركة جازَ للمضارب فعله بمطلقِ المضاربة، وما ليس للشريك فعله إلا بإذن شريكه فليسَ للمضارب فعله إلا بإذن ربِّ المال، وليس للمضارب أن يُضارب لرجلٍ آخر إذا كان في ذلك ضَرر على الأول، فإن فعل وربح رده في شركة الأول، فإن مات المُضارب ولم تُعرَف المضاربة بعينها، فإنها تصير دَيناً عليه.

الباب الثالث

في بيان العَدل واجتناب الظلم في المعاملة

اعلم أن المعاملة قد تجري على وَجهٍ يَحكُمُ المفتي[(١)] بصحتها وانعقادها، لكنها تشتمل على ظُلم يتعرض به المعامل لِسَخَطِ الله عز وجل، إذ ليس كل نهيٍ يقتضي فساد العقد، وهذا الظلم نَعني به ما يَستضرُّ به الغَيرُ، وهو منقسم إلى ما يعمّ ضَررُه، وإلى ما يخص المُعامِل.

القسم الأول: فيما يعمّ ضرره، وهو أنواع:

الأول: الاحتكار: وهو مَنهيٌّ عنه لما فيه من غلاء السِّعر، وتَضييق الأَقْوات على الناس، وصِفَتُه أن يَستكثر من ابتِياع الغَلّات في الغَلاء، ويتربَّص بها زيادة الأسعار، ولا يَبيع شيئاً منها، فأما إذا دَخلت له غَلَّةٌ من ضَيعتِهِ فحبَسها يتربَّص بها الأسعار، فليس محتكراً، وكذلك إذا اشترى في حال الاتّساع والرُّخص على صفةٍ لا يُضيّقُ على الناس، فإنه لا يكون مُحتكراً، وإن لم يكن غلاء لكنه ابتاعه على وَجهٍ يُضيق على الناس بابتياعه، وهو أن تَدخل قافلةٌ فيبادر رجل له مال فيشتري ذلك يُضيق على الناس، فإنه يَدخل تحت النهي، ويكون محتكراً، وإذا ثبت أنه ممنوع من الاحتكار، فهل هو نَهيُ تَحريم أم تَنزيه؟ يحتمل وجهين، وإنما يكون هذا الحكم إذا كان ذلك في بلدٍ بالناس فيه ضيق وقَحطٌ، كالحرمين والثُّغور، فأما إذا كان من البلاد الواسعة الكثيرة الخَير والجلَب، كبغداد والبَصرة، فلا، ثم إنما يكون الاحتكار في الأقواتِ خاصةً دونَ غيرها من التَّمر والعَسل ونحو ذلك، وفي الجملة تُكره التجارة في القُوت؛ لأنه قوام الآدمي، وكان بعض السَّلف يقول في أموال الدَّقاقين[(٢)]: أموال جُمِعَت من عُموم المسلمين.

---

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «المستفتي».

(٢) الدقاق: من يدق الأبازير للناس يطحنها لهم.

النوع الثاني: ترويج الزّائف من الدراهم في أثناء النقد، وهو الذي لا ذهبَ فيه أصلاً أو لا فِضَّة فيه أصلاً، فإنه يَستضرُّ به المُعامِل إن لم يَعرف، وإن عرف فَسَيُرَوِّجُه على غَيْره، ولا يزال يتردد في الأيدي ويعمُّ الضَّرر به، وللمُبَهْرِج[١] الأول نصيب من آثام الكل، فينبغي للتاجر تعلُّم النقد لكي لا يُسلم إلى مسلم زائفاً وهو لا يدري، ولو علما جميعاً به فإن البائع يأخذُه ليُروِّجَه على غيره خصوصاً إذا علم أنه يستحل تَرويجه، وفي ذلك إعانة له على الشَّر.

القسم الثاني: ما يخص ضَررُه المُعامل:

وينبغي أن يحب لأَخيه ما يحبُّ لنفسه، فمن ذلك أن لا يُثني على السِّلعة بما ليس فيها، وأن لا يكتم من عُيوبها وخفايا صِفاتها شيئاً، وقد رُوِّينا عن يونس بن عُبيد أنه كان خَزَّازاً[٢]، وأن غلامه أخرجَ لطالبٍ حزمةً فقال الغُلام: صلى الله عليك يا رسول الله[٣]، فقال يونس: رُدَّها، ولم يَبع. وقد قال النبي ﷺ: «مَن غشَّنا فليسَ مِنّا». وقال جرير: بايعتُ رسولَ الله ﷺ على النُّصحِ لكل مسلم. وأخرج مُجمِّعٌ شاةً يبيعها فقال: أَظنُّ في لبنها مُلوحة.

وقال الحسن بن صالح في جاريةٍ باعها: إنها تَنَخَّمَتْ عندنا مرةً دماً.

ومن اعتقدَ أن كِتمان هذه الأشياء يَزيد في رِزْقه فقد جَهِل، وفي الصحيحين من حديث حَكيم بن حِزام عن النبي ﷺ أنه قال: «البَيِّعانِ بالخِيار ما لم يَتفرَّقا، فإن صَدقا وبَيَّنا رزِقا بركةَ بيعهما، وإن كَذَبا وكَتَما مُحِقَت بَركةُ بَيعها».

فأما اليمين الفاجرةُ في تَنْفيقِ السِّلعة، ففي أفراد مُسلم من حديث أبي قَتادة عن النَّبي ﷺ أنه قال: «إياكم وكَثرة الحَلفِ في البيع، فإنه ينفق ثم يَمْحَق». وفي أفراده من حديث أبي ذَرٍّ عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلاثَةٌ لا يُكلمهم اللهُ، ولا يَنظر إليهم يوم

(١) المُبَهْرِج: المُزَلِّف.
(٢) الخزَّاز: بائع الخَز، وهو نوع من الثياب.
(٣) في الإحياء أن الغلامَ قال: اللهمَّ ارزقنا الجنة، فردَّ يونس البيع لأنه خشي أن يكون غلامه قد مدح السِّلعة.

القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم.» فذكر منهم: «المُنفِق سِلعته بالحلفِ الكاذب».

واعلم أنه لا يَصح النُّصح[١] إلا لمؤمن يعلم أن الخِيانَة لا تزيد في المال والصَّدقة لا تنقصه، وأن ربح الآخرة خير من ربح الدنيا، وأن الأرباح لا تُقاوم العقاب في العاقبة، فلا ينبغي أن يَستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فالخير كله في سَلامة الدّين.

واعلم أن الغِشَّ حرام في البُيوع وفي الصناعات أيضاً، وقد سئل الإمام أحمد عن رَفْوِ[٢] الثَّوب حتى لا يبين فقال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرَّفّاءِ أن يعمله لمن لا يُريده للبيع أو لمن يُظهِر ذلك إذا باعه.

وينبغي للتاجر أن يُحقق الوَزنَ، ولا يتخلص من هذا حتى يُرجِحَ إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، ومتى خلطَ العلّافُ بالطعام تُراباً ثم كالَه، فهو مُطفِّفٌ، أو القَصّاب عظماً لم تَجرِ العادةُ بمثله.

وقد نهي عن النَّجش وهو الزيادة في ثَمن السلعة لِيَغُرَّ وهو لا يُريدها، ونهي عن التَّصْرِيَة[٣].

---

(١) في النسخ: «التصحيح»، والمثبت من الإحياء.

(٢) رفا ثوبه: رَقَعه.

(٣) التصرية: ربط أخلاف البقرة ليجتمع الحليب فيها فيظن الشاري أنها تحلب أكثر من غيرها.

الباب الرابع

في الإحسان في المعاملة

قد أمر الله سُبحانه بالعدل والإحسان، فالعدل سَبب للنجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، والإحسان سبب للفوز ونَيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الرّبح، ولا يعد من العُقلاء من قَنع في معاملات الدنيا برأسِ ماله، فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم، ويدع أبواب الإحسان فقد قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، والإحسان تفضل غير واجب؛ لأن الواجب يدخل في باب العَدل، وتُنال رتبة الإحسان بواحدٍ من ستة أشياء:

الأول: في المُغابنة، فينبغي أن لا يَغبن صاحبه بما لا يُتَغابَنُ في العادة بمثله، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه؛ لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبنٍ ما، ولكن يُراعى فيه التَّقريب، فإن بذلَ المشتري زيادةً على الربح المعتاد إما لشدةِ رغبته أو لقوة حاجته في الحال، فينبغي أن يمتنع البائع من قَبول ذلك، فذلك من الإحسان، فأما إذا كان أحدهما لا يَخْبُرُ سعرَ المبيع فَغَبَنَهُ[1] بما لا يَتغابن الناس بمثله في العادة، فله الخيار عندنا، ومن أصحابنا من حَدَّه بالثلث، أخبرنا المُحمَّدان ابن ناصر وابن عبد الباقي، قالا: أخبرنا حَمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم أحمد بن عبد الله قال: أخبرنا أبو محمد بن حبان قال: حدثنا محمد بن أحمد بن مَعْدَان قال: حدثنا ابنُ وَارةَ قال: حدثنا الأصمعي قال: حدثنا مؤَمّل بن إسماعيل قال: جاء رجلٌ من أهل الشام إلى سوقِ الخَزّازين، فقال: مِطْرَفٌ[2] بأربع مئة. فقال يونس بن عبيد: عندنا بِمئَتين. فنادى مُنادٍ بالصلاة، فانطلقَ يونسُ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «فعنه».
(٢) المطرف: رداء أو ثوب من خَزّ مربع ذو أعلام.

إلى بَني قُشَيرٍ ليُصلي بهم، فجاء وقد باع ابنُ أخيه المِطْرَف من الشّامي بأربع مئة فقال يونس: ما هذه الدراهم؟ فقال: ذاك المِطرف بعناه من هذا الرجل. فقال يونس: يا عبدَ الله، هذا المِطرف الذي عرضت عليك بمئتي درهم، فإن شئتَ فخذه وخذ مِئَتين، وإن شئتَ فدعه. فقال: مَن أنتَ؟ قال: رجلٌ من المسلمين. فقال: بل أسألك بالله من أنتَ وما اسمُكَ؟ قال: يونُس بن عبيد. قال: فَوَالله إنا لنكونُ في بحرِ العَدو فإذا اشتد الأمر عَلينا، قلنا: اللهمَّ ربَّ يونس فَرِّج عنا، أو شبيه هذا. فقال يونس: سُبحان الله، سُبحان الله.

وقد قال علي رضي الله عنه: يا مَعشرَ التُّجار، لا تَرُدّوا قليلَ الربح فَتُحرموا كَثيرَه.

الثاني: احتمال الغبن إذا اشترى شَيئاً من فقيرٍ، فأما إذا اشتراه من غَني فلا، فإنه قد قيل: المغبون لا محمودٌ ولا مَأجور.

الثالث: في استيفاء الثمن والديون، والإحسانُ في ذلك تارةً بالمسامحة، وتارة بحَطِّ البعضِ، وتارةً بالإنظار، وتارة بالتَّساهل في جودة النَّقد، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كانَ رجلٌ يُداين الناس فيقول لفَتاه: إذا أتيتَ مُعسراً فتجاوز عنه لعلَّ الله عزّ وجل يَتجاوز عنا. فلقيَ اللهَ فتجاوزَ عنه». وفيهما من حديث حُذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن رجلاً ممن كان قبلكم أتاه مَلَك ليقبض نفسه، فقال له: هل عملتَ من خير؟ فقال: ما أعلم شيئاً[١] قيل له: انظُر. فقال: ما أعلمُ شيئاً غير أني كنتُ أُبايع الناسَ وأُجازفهم[٢] فأُنظِرُ المعسرَ وأَتجاوزُ عن الموسِرِ. فأدخلَهُ اللهُ الجنة». وفي أفراد البخاري من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «رحمَ اللهُ رجلاً سَمحاً إذا اشتَرى وإذا اقتضى». وفي أفراد مسلم من حديث أبي قَتادة عن النبي ﷺ، أنه قال: «من سَرَّه أن يُنجيه اللهُ من كَربِ يوم القِيامة فَليُنفّس عن مُعسرٍ أَو يَضَع عنه». وفي حديث أبي اليَسَر كَعب بنِ عُجْرَةَ[٣] عن النبي ﷺ أنه

(١) ليست في الأصل.
(٢) جازف: باع الشيءَ لا يُعلمُ كَيلُه أو وزنه.
(٣) تحرفت في الأصل إلى: «عمرو».

قال: «مَنْ أَنظرَ مُعسراً، أو وضع عنه أَظلَّه اللهُ تعالى في ظِلّه يوم لا ظلَّ إلا ظِلُّه». وفي حديث أبي أُمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «دَخلتُ الجنةَ، فرأيت على بابها الصَّدقة بعشرٍ، والقرض بثَمانية عَشر، فسألت جبريل عن ذلك، فقال: لأن الصدقة تقع في يَد الغَني والفَقير، والقرض لا يقع إلا في يَد مُحتاجٍ إليه».

الرابع: في توفية الدَّين، ومن الإحسان فيه حُسن القضاء، وذلك بأن يَمشي إلى صاحب الحق، ولا يُكلّفه التقاضي، وإن قدر أدّاه قبل محله، ثم يُجَوِّدُ ما يَقضيه به، ثم يشكره، فإن كلَّمه عند حُلول الأجل بكلامٍ خَشنٍ احتمله، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رجلاً تَقاضَى رسولَ الله ﷺ بعيراً فقالوا: ما نَجدُ إلا أفضل مِن سِنِّه فقال: «أعطوه» فقال: أوفيتني أَوفى اللهُ لك. فقال: «خيار الناس أَحسنُهم قَضاءً». وفي بعض ألفاظ هذا الحديث الصّحاح: كان لرجلٍ على رسول الله ﷺ حق، فأغلظَ له، فهمَّ به أصحابُ رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «دَعوه، فإن لصاحب الحقِّ مَقالاً». وقد أخبرنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ استسلفَ منه حين غزا حُنَيناً ثلاثين أو أربعين ألفاً، فلما انصرفَ قضاها إيّاه، ثم قال: «باركَ الله لك في أهلك ومالك إنما جزاء السلف الوفاء والحمد». وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن أخذَ أموال الناس يريد أداءَها أَدّاها اللهُ عنه، ومن أخذها يريد إتلافَها أتلفه الله» وكانت عائشة تَدّانُ، فقيل لها: ما لك وللدين؟ فقالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ كانت له نيةٌ في أداءِ دَينهِ إلا كان له من الله عز وجل عَون» فأنا أَلتمِس ذلك العَون.

الخامس: أن يُقيل من يَستقيلُه، فإنه لا يَستقيل إلا مُتضرّر بالبيع، فلا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب[1] استِضْرار أخيه، فقد روى أبو داود في سُننه من

(١) سقطت من الأصل.

حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن أَقالَ مُسلماً أقالَ اللهُ عَثْرتَه».

السادس: أن يُنْسِئَ[١] الفُقراء ويعزم أن لا يُطالبهم إن لم تَظهر لهم مَيسرة.

وفي الجملة التِّجارة مَحَكُّ الرِّجال وبها يَبينُ دينُ الرجل ووَرعُه، شهدَ شاهدٌ عند عمر بن الخطاب فقال: ائتِني بمن يَعرفك. فأتاه برجلٍ فأثنى عليه خيراً، فقال له عمر: أنتَ جاره الأدنى الذي يَعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: كنتَ رفيقه في السفر الذي يَستدل به على مكارم الأَخلاق؟ قال: لا. قال: فَعامَلْتَهُ بالدينار والدّرهم الذي يستبينُ بهما وَرَعُ الرجل؟ قال: لا. قال: أظنك رأيته قائماً في المسجد يُهَمْهِم بالقرآن يخفض رأسه طَوراً ويَرفعه. قال: نعم. قال: اذهب فلستَ تَعرفه. وقال للرجل: اذهب فأتِني بمن يَعرفُك.

(١) أي: يُمهلهم ويؤخرهم.

الباب الخامس

في شَفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

لا ينبغي للتاجر أن يَشغله معاشُه عن مَعادِه، بل يُراعي دينَه، قال مُعاذ بن جبل: إنه لا بد لكَ من نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوَج، فابدأ بنصيبك من الآخرة، فإنه سيأتي على نَصيبك من الدنيا فينتظمه انتظاماً.

وإنما تَتم شفقة التاجر على دينه بمُراعاة سبعة أشياء:

الأول: حُسن النية في التجارة، فلينو بها الاستعفاف عن السّؤال، وكف الطمع عن الناس، والقيام بكفاية العيال ليكون بذلك من جُملة المجاهدين، ولينوِ النُّصح للمسلمين، وأن يحبَّ لهم ما يحب لنفسه، وليَنوِ اتّباع طريق العدل والإحسان في معاملته على ما سَبق ذكره، وليَنو الأمر بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر في كل ما يراه في السوق، فيكون بهذه النِّيات عاملاً في طريق الآخرة، فإن استفاد مالاً فزيادة، وإن خسر المال ربح الأجر في الآخرة.

الثاني: أن يقصد القيام في صناعته أو تجارته بفرضٍ من فروض الكفايات، فإن الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش، فانتظام أمر الكل بتعاون الكل بأن يتكفل كل فريق بعمل إلا أن من الصناعة ما هو مهم، ومنها ما هو يستغنى عنه لكونه متعلقاً بالزّينة أو طلب التّنعم، فليشتغل بصناعةٍ مهمةٍ ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين مُهِمَّاً، وليجتنب صناعة الصياغة والنَّقشِ وتَشييد البُنْيان بالجِصِّ وجميع ما يزخرف به، فإنه مكروه.

ومن المعاصي عمل الملاهي، وخياطة الخَياط القَباء الدِيباج للرجل، ويكره أن يكون جَزاراً؛ لأنه يوجب قَساوة القلب، أو حجاماً، أو كَنَّاساً لما فيه من مُباشرة النجاسة، وفي معناه الدَّبّاغ، وقد استحب السلف التجارة خُصوصاً في البَزِّ

والخِياطة والقِصارة وعمل الخِفافِ وحَذْوِ النِّعال وعمل الحديد والمغازل والصيد والوِراقة، قال عبد الوهاب الورّاق: قال لي الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: ما صِناعتُكَ؟ قلت: الوِراقة. قال: كسب طَيب، لا تكتب إلا مُواصَفَةً واستَثْنِ الحواشي وظهور الأَجْزاء.

ولا يجوزُ أخذُ الأُجرة على تعليم القُرآن والعبادات وفروض الكفايات، كغَسْل الموتى.

الثالث: أن لا تمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وسوق الآخرة المساجد، فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقتِ دخول السوق لآخرته، فيواظب على الأوراد وقد كان صالحوا السَّلف من التجار يجعلون أول النهار وآخره للآخرة، ووَسَطه للتجارة، وإذا سمع الأذان للظهر والعصر، فينبغي له أن يترك المعاش اشتِغالاً بأداء الفَرض.

الرابع: أن يُلازم ذكرَ الله تعالى في السوق، ويَشتغل بالتَّسبيح والتَّهليل، وقد ذكرنا في كتاب الذِّكر ما يُقال في السوق من الأذكار، قال أبو جَعفر الفَرْغاني: كنا عند الجُنَيد فجرى ذكرُ ناسٍ يجلسون في المسجد[1] ويَعيبون من يدخل السوق، فقال: كم مِمَّن هو في السوق حُكمه أن يدخل المسجد ويأخذ بأُذُن بعض مَن فيه فيخرجه ويجلس مكانه، إني لأعرف رجلاً يدخل السوقَ وردُه كلّ يوم ثلاث مئة ركعة وثلاثون ألف تَسبيحة، قال: فسبقَ إلى وَهْمي أنه يَعني نفسَه.

الخامس: أن لا يكون شديدَ الحرص على السّوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخلٍ وآخر خارجٍ، وبأن يركب البحر في التجارة، قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لا تكن أولَ داخلٍ إلى السوق ولا آخر خارجٍ منها، فإنَّ بها باضَ الشيطان وفَرَّخَ. وتمام هذا الاحتراز أن يُراقب حُصولَ كفايته ثم ينصرف، فقد كان حَماد بن سَلَمة إذا حصل له قَدر ما يكفيه قامَ، وقد كان فيهم من يعمل في الأسبوع يَومين أو يوماً على مقدار الحاجة.

---

(١) في الأصل: «المجلس».

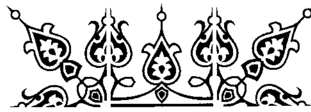
السادس: أن لا يقتصر على اجتنابِ الحرام بل يتوقَّى مواقع الشُّبْهة ومواضع الرِّيَب، ولا يقف مع الفتاوي بل يَستفتي قلبه فيجتنب ما يَحزُّ في القلب، فإن الإثمَ حَزَّازُ[1] القلوب.

وينبغي أن يَنظر إلى من يُعامله، فلا يعامل مَنسوباً إلى ظُلمٍ أو خِيانةٍ، فإنه إذا عامل الظَّلمةَ أعانهم بالمعاملة على ظُلمهم، وفي الصحيحين من حديث حُذَيفة أنه قال: لقد أتى عليَّ زمانٌ وما أُبالي أيّكُم بايَعتُ، لئن كانَ مسلماً ليردَنَّه عليَّ دينُه، ولئن كان يَهودياً أو نَصرانياً ليَردنَّه عليَّ ساعِيه[2]، فأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً.

السابع: أن يُراقبَ جميع ما يجري في معاملته مع كل واحدٍ من مُعامِليه، فإنه محاسب على ذلك.

فهذا ما على المكتسب في مُعاملته من العَدل والإحسان والإشفاق على الدين، فإن اقتصر على العدل كان من الصالحين، وإن أضاف إليه الإحسان كان من المقربين، وإن راعى الوَظائف المذكورة في الباب الخامس كان من الصِّديقين.

آخر كتاب آداب الكَسب



---

(١) الحزّاز: ألم يحزُّ في القلب من وجعٍ أو غيظٍ أو خوف.
(٢) ساعيه: وليّه الذي يقوم بأمور الناس ويستخرج حقوق الناس بعضهم من بعض.

كتاب الحَلال والحَرام

الحمدُ لله الذي خلقَ الإنْسان من الطِّين اللَّازِب والصَّلصال، وأحسنَ تصويره على أتَمِّ تقويم وأكمل اعتدال، ثم غَذاه بما يحفظ بَدَنه وقُوّته عن الانحلال، ففي بُدوِّ نُشوئِهِ باللَّبن يَتغربَلُ في فيه وقد كان يُؤذيه لو سَال، ثم عطف الوالدين عليه يَكسِبان ويُنفقان المال، فلما فهم وطلب كلَّفه تركَ الحرام وأخذَ الحلال.

أَحمَدُه على كل حال، وأُصلي على رسوله محمد قامعِ الزَّيْغ وفاضح الضَّلال، وعلى أصحابه وآله خير آل وأسلِّم تسليماً يدوم بدوام الغُدو والآصال.

اعلَمْ أن طلبَ الحلال فرضٌ على كل مسلم، وقد ادّعى كثير من الجُهّال عدمَ الحلال، وقالوا: لم يبقَ منه إلا الماء الفُرات والحشيش النابت في الموات، وما عداه فقد أفسدَتهُ المعاملات الفاسدة، فلما وقع لهم هذا وعلموا أنه لا بد من الأَقوات توسّعوا في الشبهة[1] والحرام ومثار هذا من قلوبهم الجهل بالعلم، فإن في الصحيحين من حديث النُّعمان بن بَشير عن النبي ﷺ أنه قال: «الحَلال بَيِّن والحَرام بَيِّن، وبينهما مُشتبهات». وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيأتينَّ زمان على الناس لا يُبالي المرء بما أخذ المال من حلالٍ أم من حرام».

ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهّال بِدعة قد عمَّ ضَررها واستطار في الدين شَرَرُها، وجب كشفُ الغِطاء عن فسادها بالإرشاد إلى مَدْرَك الفَرق بين الحلال والشُّبهة، ونحن نوضح ذلك في ستة أبواب:

---

(١) في (ظ): «الشُّبَه».

الباب الأول: في فَضيلة طلب الحلال وذَمّ الحرام، ودرجات الحلال والحرام.

الباب الثاني: في مراتب الشُّبُهات ومثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام.

الباب الثالث: في البحث والسؤال والهجوم والإهمال، ومظانّهما في الحلال والحرام.

الباب الرابع: في كيفية خُروج التائب عن المظالم المالية.

الباب الخامس: في إدْرارات السَّلاطين وصِلاتِهم وما يَحِلّ منها.

الباب السادس: في الدخول على السَّلاطين ومُخالطتهم.

الباب الأول

في فضيلة طلب الحلال وذَمّ الحرام ودرجات الحلال والحرام

فَضيلة الحلال وذَمّ الحرام: قال الله عز وجل: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١]، الطيبات: الحلال، فأمر به قبل العمل، وقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء: ١٠]، وقال: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٧٨_ ٢٧٩] ثم قال: ﴿وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقد أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو النَّضْر قال: حدثنا الفُضيل بن مَرزوق عن عَدي بن ثابت عن أبي حازِم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن الله طَيبٌ لا يقبل إلا طيباً وإن الله عز وجل أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجلَ يُطيل السفر أشعثَ أَغْبَر يمدُّ يده إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ، ومَطعمُه حرامٌ ومَشْرَبُه حرامٌ ومَلبَسُه حرام وغُذِيَ بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك؟» انفرد بإخراجه مسلم. وبالإسناد حدثنا الإمام أحمد بن حنبل قال: حدثنا محمد بن عُبيد قال: حدثنا أَبان بن إسحاق عن الصَّباح بن محمد بن مُرَّة الهَمداني عن ابن مَسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يكتسب عبدٌ مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله عز وجل لا يمحو السيِّئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيِّئَ بالحسن، إن الخَبيث لا يمحو الخبيث». وقد صحَّ عن

رسول الله ﷺ أنه لعن آكل الرِّبا ومُوكِلَه، وروي أن سَعداً سألَ رسول الله ﷺ أن تُستجاب دعوته، فقال له: «أَطِبْ طُعْمَتَك، تُستَجب دَعوتُك».

وقد كان السَّلف ينظرون في الحلال ويُدقّقون، فأكل أبو بكر الصديق رضي الله عنه شيئاً من شُبهةٍ ثم قاءَ، وقال إبراهيم بن أدهم: ما أدركَ من أدرك إلا من كان يَعقل ما يدخل جوفَه. وقال بعض السلف: المعدة حوضُ البَدَن(١)، فإذا تُرك فيها الحلال تحركت الأعضاء بالطاعة، وإذا تُركَ فيها الحرام تحركت الأعضاء بالمعصية.

أصناف الحلال ومداخله: اعلم أن المال إنما يحرم لمعنى في عينه، أو لخلل في جهة اكتسابه، فأما الحرامُ لعينه، فكالخمر، وتَفصيل هذا أن الأعيان المأكولة على وَجه الأرض لا تعدوا ثلاثة أقسام: إما أن تكون من المعادن، كالملح والطين، أو من النبات أو من الحيوان، فأما المعادن فهي أجزاء من الأرض، فلا يحرم أكل ما يخرج منها إلا من حيث يَضر بالآكِلِ. وبعضها يَجري مَجرى السُّم، وأما النّبات فلا يحرم منه إلا ما يُزيل العقل كالمُسْكِر، أو الحياة كالسُّموم، أو الصحة كالأدوية في غير وَقتها، وكان مجموع هذا يرجع إلى الضَّرر إلا في حق المُسْكِر، فإن الذي لا يُسكِرُ منها حرامٌ أيضاً مع قِلّته لعينه وصفته، وهي الشِّدَّة، فأما السُّم فإنه إذا خرج عن كونه مُضراً لقلّته أو لعَجنه بغيره لم يحرم، وأما الحيوانات فتَنقسم إلى ما يُؤكل وإلى ما لا يؤكل، وتفصيل ذلك في كتاب الأَطعمة، وإنما يَحلُّ ما يحل منها إذا ذُبحَ ذبحاً شرعياً يراعى فيه شُروط الذابح والآلة والمذبوح، وذلك مذكور في كتاب الصيد والذبائح، وما لم يُذبَح ذبحاً شرعياً أو مات، فهو حرام، إلا أنه قد أُحلَّت لنا ميتتان: السَّمك والجراد.

القسم الثاني: ما يحرم لخللٍ في جهة إثبات اليد عليه، فنقول: أخذ المال إما أن يكون باختيار المتملّك أو بغير اختياره، فالذي بغير اختياره، كالإرث، والذي باختياره إما أن يكون من مالكٍ كنَيل المعادِن، أو من غير مالك، فإما أن يُؤخَذَ قهراً أو تراضياً، فالمأخوذ قهراً إما أن يكون لسقوط عصمة المالك، كالغنائم أو لاستحقاق الأخذِ كزكَوات الممتنعين والنفقات الواجبة عليهم، والمأخوذ تراضياً

(١) تحرفت في الأصل إلى: «السلف».

إما أن يؤخذ بعِوَضٍ، كالمبيع والصَّداق والأجرة، أو بغير عوض، كالوصية والهِبَة، فيحصل من هذا السِّياق ستَّة أقسام:

الأول: ما لا يُؤخذ من مالكٍ، كالمعادن وإحياء الموات والاصطياد والاحتِطاب والاحتشاش، فهذا حلال بشرط أن لا يكون المأخوذ مختصاً بذي حُرمةٍ من الآدميين، فإذا انفك عن الاختصاص ملكه آخِذُه.

الثاني: المأخوذ قَهراً ممن لا حُرمةَ له، وهو الفَيءُ والغَنيمة وسائر أموال الكفار المحاربين، وذلك حلالٌ للمسلمين إذا أَخرجوا منه الخمس، وقَسموه بين المستحقين بالعدل، ولم يأخذوا من كافرٍ له حرمة وأمان وعهد.

الثالث: ما يؤخذ قَهراً باستحقاقٍ عند امتناع مَنْ وَجب[1] عليه، وذلك حلالٌ إذا تم سبب الاستحقاق، وتم وصف المستحق، واقتصر على القَدر المستحق، واستوفاه من يملك الاستيفاء من سُلطانٍ أو قاضٍ أو مُستحق.

الرابع: ما يُؤخَذ تَراضياً بمعاوضة، وذلك حلالٌ إذا روعي شَرط العِوضين، وشرط العاقدين، وشرط اللَّفظين، أعني: الإيجاب والقَبول، وكان مما يجوز فيه التَّعاطي.

الخامس: ما يُؤخَذ بالرِّضا من غير عِوَض، كالهِبة، وذلك حلالٌ إذا روعي شَرط المعقود عليه، وشرط العَقد، وشرط العاقدين، ولم يُؤدِّ إلى ضررٍ بوارثٍ وغيره.

السادس: ما يَحصل بغير اختيار، كالميراث وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب من وجه حلال، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين، وتنفيذ الوصايا، وتعديل القسمة بين الورثة، وإخراج الحج والكفارة، فهذه مَجامع مَداخِل الحلال أومَأنا إليها[2].

---

(١) سقطت من النسخ، واستدركت من الإحياء.

(٢) ورد هنا في هامش (ظ) ما نصه: «آخر الجزء الخامس من أجزاء الشيخ المصنف».

دَرجات الحلال والحرام

اعلم أن الحلال كُله طيِّب، ولكن بَعضه أطيب من بعض، والحرام كلّه خَبيث، ولكن بعضُه أخبث من بعض، كما أن الطَّبيب يحكم على كل حُلوٍ بالحرارة، ولكنه يقول: هذا حارٌّ في الدَّرجة الأولى، وهذا حار في الثانية وهذا في الثالثة، وهذا في الرابعة. فلنجعل هذا مثالاً لما نذكره من هذا الفن فَنقول: الورع عن الحرام على أربع دَرجات:

الأولى: وَرع العدول، وهو الذي يحصل الفِسق باقتحامه، وتسقط العَدالة به، ويثبت اسم العِصيان بسببه، ويُتَعرَّضُ لنار جهنم من أجله، وهو الوَرع عن كلِّ ما تُحرِّمه فتاوى الفُقهاء.

الثانية: وَرعُ الصالحين، وهو الامتناع عن ما يتطرق إليه احتمال التَّحريم ولكن المفتي يرخص في التَّناول[1] بناءً على الظاهر، وهو من الشُّبهة في الجملة الثالثة ما لا تُحرمه الفَتوى ولا شُبهة في حِلّه، ولكن يُخاف منه أن يؤدّي إلى مُحرم، وهو ترك ما لا بأس به مخافةَ ما به بأس.

الرابعة: ما لا بأسَ به أصلاً، ولا يُخاف أن يؤدّي إلى بأس، ولكنه يُتَناول لغير الله على[2] غير نية التَّقَوّي به على طَاعةِ الله، أو يتطرق إلى بعض أسبابه المُسَهّلة له كراهة أو معصية، فالامتناع منه وَرعُ الصدّيقين.

فهذه درجات الحلال جملةً إلى أن نُفصلها بالأمثلة والشواهد.

وأما الحرام الذي ذكرناه في الدرجة الأولى، وهو الذي يشترط التورع عنه في العدالة واطّراح سِمَةِ الفِسق، فهو أيضاً على درجاتٍ في الخُبثِ؛ فالمأخوذُ بعقدٍ فاسدٍ حَرامٌ، ولكن ليس في درجةِ المغصوب على سَبيل القَهر، بل المغصوب أَغلظ، إذ فيه تَرك طريق الشَّرع في الاكتِساب، وإيذاء الغَير، وليس في العُقود

---

(١) في (ظ): «التأوّل».

(٢) سقطت من الأصل.

الفاسدة إلا تَرك طَريق التَّعبد فقط، ثم ترك طريق التعبد في هذا أهون من تَركه بالرِّبا، وهذا التفاوت يُدرَك بتشديد الشَّرع ووعيده وتأكيده في بعض المناهي على ما سَيأتي في كتاب التَّوبة عند ذِكر الفَرق بين الصغيرة والكبيرة، بل المأخوذ ظُلماً من فقيرٍ أو صالحٍ أو يَتيم أخبث وأغلظ من المأخوذ من قوي أو غني أو فاسقٍ؛ لأن درجات الإيذاء تختلف باختلافِ درجات المُؤْذَى، فهذه دقائق في تفاصيل الخبائثِ لا ينبغي أن يذهلَ عنها، ولولا اختلاف دَرجات العُصاة لما اختلفت دَرَكات النار، وإذا عرفت مَثارات التغليظ فلا حاجة إلى حَصره في ثلاثِ درجاتٍ أو أربع، فإن ذلك جارٍ مَجرى التحكّم والتَّشهي، وهو طلب حَصرٍ فيما لا حاصِلَ له، ويدلُّكَ على اختلاف درجاتِ الحرام في الخُبثِ ما سَيأتي في تعارض المحذورات وتَرجيح بعضها على بعض، مثل ما نقول فيما إذا اضطرَّ إلى أكلِ ميتةٍ، أو أكل طَعامِ الغَير، أو أكل صَيد الحرم، فإنا نُقدم بعض هذه على بَعض.

أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدها:

أما الدرجة الأولى: وهي دَرجة العدول، فكل ما تَقتضي الفتوى تَحريمه، ولا يحتاج إلى أمثلة وشَواهد.

وأما الدرجة الثانية: فأمثلتها كل شُبهة لا يجب اجتنابها، لكن يستحب، كما يأتي في كتاب الشبهات، ومن هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «دَعْ ما يريبُكَ إلى ما لا يريبك».

وأما الدرجة الثالثة: وهو ورع المتَّقين، كما رُوِّينا عن عمر بن الخطاب أنه قَدم عليه مِسكٌ فقال: وَدِدتُ لو أنّ امرأة جيدة الوزن تزن لي حتى أقسمه بين المسلمين. فقالت امرأته عاتِكة: أنا جَيدة الوزن فهلمَّ أَزِنُ لكَ. قال: لا إني أَخشى أن تأخُذيه هكذا فَتجعليه هكذا ـ وأدخلَ أصابعَه في صُدْغَيه ـ وتمسحين عُنقك فأصيب فَضلاً عن المسلمين. وكان عمر يدفع في أوقاتٍ إلى امرأته طيباً من طيبِ المسلمين، تَبيعه، فَجعلت تبيع عَطَّارةً فتكسرُ بأسنانها وتَزن لها، فعلق بإصبعها منه شَيء، فمسحت به خِمارها، فجاء عمر فقال: ما هذه الريح؟ فأخبرته، فانتزع

خِمارها فصبَّ عليه الماء فَغَسله وإنما فَعل هذا زجراً لها لئلّا تعود إلى مثل ذلك، وإلا فغسله لا يفيد المسلمين، وَوُزِنَ بين يَدي عمر بن عبد العزيز مِسكٌ للمسلمين، فأخذ بأنفه وقال: هل يُنتفع إلا بريحه. وماتَ رجلٌ من السلف فأطفأت امرأته السراج وقالت: صار لنا في هذا الزَّيتِ شَريك.

وأما الدرجة الرابعة: فمثاله ما رُوي عن يحيى النَّيسابوري أنه شَربَ دواءً، فقالت امرأته: لو مشيت في الدار قليلاً حتى يَعمل الدواء. فقال: هذه مِشْيةٌ لا أعرفها، وأنا أُحاسب نفسي منذ ثلاثين سنة. فهذا رجلٌ لم تَحضُره نيةٌ في هذه المشية تتعلق بالدين فلم يُقدم عليها. وعن سَرِيٍّ السَّقطي أنه قال: انتهيتُ إلى عُشبٍ في مُستنقع، فقلت: إن كنتُ أكلتُ حَلالاً فاليوم. فهتف بي هاتفٌ: يا سَرِيّ، النَّفَقةُ التي أوصلتكَ إلى ههنا من أين؟ وعن ذي النّون المِصري أنه كان محبوساً، فبعثت له امرأةٌ صالحةٌ شيئاً، فلم يأكل، وقال: جاءني على طبقٍ حرام. يعني يَدَ السَّجان.

ومن هذا التورُّعُ عن كسبٍ حلالٍ اكتسبه خيّاطٌ يَخيطُ في المسجد، وأطفأَ بعضُهم سِراجاً أسرجها غُلامه من قومٍ يكره مالهم، وكره آخرون أن يَستضيئوا بمِشعَلِ ظالمٍ.

فهذه دقائق الورع عند سالكي طريق الآخرة، والتحقيق فيه أن الورع له أول؛ وهو الامتناع مما تحرمه الفَتوى، وهو وَرعُ العُدول، وله غايةٌ هي وَرَعُ الصِّدّيقين، وهي الامتناع من كل ما ليس لله مما أُخِذَ بشهوة أو تُوصِّلَ إليه بمكروه، وبينهما دَرجات في الاحتياط، فكلما كان الإنسان أشدّ تَشديداً كان أسرع جوازاً على الصِّراط وأخف ظَهراً، وتَتَفاوت المنازل في الآخرة (١بحيث تتفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت دركات النار في حق الظَّلمة بحسب١) تفاوت درجات الحرام في الخُبثِ، فإنْ شئتَ فَزِدْ في الاحتياط، وإن شئتَ فترخَّص، فلنفسك تَحتاط، وعليها تَترَخَّص.

(١ـ١) سقط من (ظ).

الباب الثاني

في مراتب الشُّبهات ومَثاراتها وتمييزها عن الحلال والحرام

قال ﷺ: «الحَلال بَيِّن والحرام بَيِّن، وبينهما أمورٌ مُشتَبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتَّقى الشُّبهات فقد استبرأ لِعِرضه ودِينه، ومن وقع في الشُّبهات واقَعَ الحرام، كالراعي حولَ الحمى يوشك أن يَرتعَ فيه». فهذا الحديث نَصٌّ في إثبات الأقسام الثلاثة، والمشكل منها المتوسط الذي لا يَعرفه كثير من الناس، وهو الشبهة، ونحن نكشف الغِطاء عنها فنقول: الحلال المطلق الذي لا يتعلّق بذاته صفة توجب تحريماً لعينه، ولا يتعلق بأسبابه ما يتطرق إليه تحريماً أو كراهةً، مثاله الماء الذي يَأخذه الإنسان من المطر قبل أن يقع على مِلكِ أحدٍ، ويكون هو واقفاً عند أخذه وجَمعه من الهواء في مِلك نفسه، أو في أرضٍ مُباحةٍ.

والحرامُ المحضُ ما فيه صفةٌ محرمةٌ، كالشِّدَّة في الخَمر، والنَّجاسة في البول، أو حصلَ بسبب منهي عنه قَطعاً كالمحصَّلِ بالظلم والرِّبا، فهذان طرفان ظاهران، ويلتحق ما تحقق أمره ولكن احتمل تغيره ولم يكن لذلك الاحتمال سبب يدل عليه، فإن صيد البَرّ والبَحر حلال، إلا أنه من صادَ ظَبيةً أو سمكةً، فإنه يحتمل أن يكون قد ملكها صياد ثم أفلتت منه، وهذا الاحتمال لا يتطرق إلى ماء المطر المختطف من الهواء، فمساكنة ذلك الاحتمال في الصَّيد وَرَعُ المُوَسْوسين؛ لأنه وَهْمٌ مجردٌ لا دلالةَ عليه، فلو أنه دلَّ عليه دليلٌ مثل أن يجد في الظَّبيةِ جرحاً يحتمل أن يكون كَيَّاً لا يقدر عليه إلا بعد الضَّبط، ويحتمل أن يكون جراحة فهذا موضع الورع، وأما إذا انتفت الدّلالة من كل وَجه، فالاحتمال المعدوم دلالته كالاحتمال المعدوم في نفسه، ومن هذا الجنس من يَستعير داراً فيغيب عنه المعير فيخرج منها، ويقول: لعله قد ماتَ وصار الحقّ للوارث. فهذا وَسواس إذ لم يدلّ على موته سببٌ قاطع

أو مُشكِّكٌ، إذ الشُّبهة المحذورة ما تَنشأ من الشك، والشك عبارة عن اعتقادين متقابلين نَشَآ عن سَبَبين، فما لا سبب له لا يثبت عقده في النفس حتى يساوي العقد المقابل له فيصير شكّاً، ومن كان في يده طعامٌ لموروثه الذي لا وارث له سِواه فغاب عنه، فقال: يحتمل أنه قد مات وقد انتقل الملك إليَّ. فأكله، كان على إقْدامه على هذا حراماً محضاً؛ لأنه احتمالٌ لا مُستند له، فلا ينبغي أن يعد هذا النَّمط من أقسام الشُّبهات، وإنما الشُّبهة ما تَعارض فيه اعتقادان صدرا عن سَببين مُقْتضيين للاعتقادين.

ومثاراتُ الشُّبهة كثيرة، والمهم منها اثنان:

المثار الأول: الشَّك في السَّبب المحلل والمحرم، وذلك لا يخلو إما أن يكون مُتعادلاً، أو يغلب أحد الاحتمالين، فإن تَعادل الاحتمال كان الحكم لما عرف قبله فيُستصحب ولا يترك بالشك، وإن غلب أحد الاحتمالين عليه فصدر عن دلالة معتبرة كان الحكم للغالب، ولا يَتبين هذا إلا بمثالٍ وشواهد، فلنقسمه إلى أقسامٍ أربعةٍ:

القسم الأول: أن لا يكون الحِل معلوماً من قَبل ثم يقع الشك في المحلّل، فهذه شُبهة يجب اجتنابها، ويحرم الإقدام عليها، مثاله أن يرمي صَيداً فيجرحه ويقع في الماء، فَيُصادِفه ميتاً، ولا يدري هل مات بالغَرق أو بالجَرح؟ فهذا حرامٌ؛ لأن الأَصل التحريم، إلا إذا مات بطريقٍ معين، وقد وقع الشك في الطريق المعين، فلا يترك اليقين بالشك، كما نقول في الأحداث، والأنجاس، وعدد الركعات وغير ذلك.

القسم الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فالأصل الحِلّ، وله الحكم كما لو طار طائر فقال رجل: إن كانَ هذا غُراباً فامرأته طالق، وقال آخر: إن لم يكن غُراباً فامرأته طالق، ثم التبس أمرُ الطائر، فإنا لا نَقضي بالتحريم في واحدةٍ منهما، إنما الورع اجتنابُهما وتَطليقهما.

القسم الثالث: أن يكون الأَصل التحريم، ولكن طَرَأَ ما أوجبَ التَّحليل بظنٍ غالبٍ، فهو مَشكوك فيه، والغالب حلّه، مثاله أن يَرمي إلى صيدٍ فَيغيب عنه، ثم

يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سَهمه، فهذا يحتمل أن يكون ماتَ بسهمه أو بسببٍ آخر، فإن ظهر عليه أَثر صدمةٍ أو جِراحة أُخرى التحق بالقسم الأول، وإن لم يظهر، فالظاهر الحل؛ لأن الاحتمال إذا لم يستند إلى دلالة التحَقَ بالوَسوسة، فإنه لو جَرحَ رجل رجلاً فغاب، فوجد ميتاً وجب القصاص على جارِحِه، وإن كان يحتمل أنه ثار به خِلطٌ فمات لا مِنَ الجِراحة، ولكن لا يلتفت إلى هذا الاحتمال.

القسم الرابع: أن يكون الحِلُّ معلوماً، ولكن يغلب على الظن (١طريان محرم بسببٍ مُعتَبر في غلبة الظن١) شرعاً، فير فع الاستصحاب ويقضى بالتحريم؛ لأنَّ الاستصحاب يضعف مع غلبة الظن، مثاله: أن يؤدي اجتهاده إلى نَجاسة أحدِ الإنائين بالاعتماد على عَلامةٍ معيَّنة توجب غلبةَ الظن، فيوجب تحريم شربه، كما أوجب منعَ الوضوء به.

المثار الثاني: للشبهة شَكٌّ مَنشَؤُه الاختِلاط، وذلك بأن يختلط الحلالُ والحرام ويشتبه الأمر فلا يتميز، والخلط لا يخلو إما أن يقع بعددٍ لا يحصر من الجانبين، أو من أحدهما أو بعدد محصور، فإن اختلط بمحصورٍ، فلا يخلو إما أن يكون اختلاط امتزاجٍ بخبيثٍ لا يتميز بالإشارة، كاختلاط المائعات، أو يكون اختلاط استِبهامٍ مع تمييزِ الأعيان، كاختلاط الأَعبُد والدّور والأَفْراس، والذي يختلط بالاستبهام، فلا يخلو إما أن يكون مما يقصد عينه، كالعروض، ولا يقصد كالنقود، فيخرج من هذا القسم سَبعة أقسام:

الأول: أن تُشْتَبهم العينُ بعددٍ محصورٍ، كما لو اختلطت المَيتة بذكيةٍ أو بعشرِ ذكيات، أو اختلطت الرضيعة بعشرِ نسوةٍ، أو يتزوج أحد الأختين وتَلتبس، فهذه شبهة يجبُ اجتنابها بالإجماع؛ لأنه لا مجال للاجتهاد والعلامات في هذا، فإذا اختلط بعددٍ محصور صارت الجملة كالشيء الواحد، وتَقابَل فيه يقين التحليل والتحريم، ولا فرق في هذا بين أن يثبت حل فينظر اختلاطه بمحرم، كما لو وقع الطلاق على إحدى زَوجتيه في مسألةِ الطائر التي قد تقدَّمت، أو يختلط قبل

(١-١) سقط من الأصل.

الاستحلال، كما لو اختلطت رَضيعة بأجنبية، فأراد استحلال واحدة، وهذا قد يُشكل في طَرَيان التَّحريم، كطلاق إحدى الزوجتين لما سبق من الاستصحاب، وقد نبهنا على الجواب، وهو أن يقين التحريم قابلَ يقين الحل فَضَعُفَ الاستصحاب، وجانب الحَظر أغلب في نظر الشرع، فلذلك يرجح، وهذا إذا اختلط حلالٌ محصورٌ بحرام محصورٍ، فإن اختلط حلال محصورٌ بحرامٍ غير محصورٍ، فلا يَخفى[1] أنّ الاجتنابَ أولى.

القسم الثاني: حرام محصورٌ بحرامٍ غير مَحصور، كما لو اختلطت رَضيعته أو عشر رضائع بنسوةِ بلدٍ كبير، فلا يلزم بهذا اجتنابُ نكاح أهل البلد، بل له أن ينكح مَنْ شاء منهن، وهذا لا يجوز أن يعلّل بكثرة الحلال؛ لأنه يلزم عليه أن يجوزَ النكاح إذا اختلطت واحدة حرام بتسع حلال، ولا قائل به، بل العِلةُ الغَلَبة والحاجة جميعاً، إذ كل من ضاعَ له رضيع أو قريب أو محرم بمصاهرةٍ أو سببٍ من الأسباب لا يمكن أن يسدّ عليه باب النكاح، وكذلك من علم أن مال الدنيا خالَطه حرامٌ قطعاً، فإنه لا يلزمه ترك الشراء والأكل؛ لأن في ذلك حَرجاً، وما في الدين من حَرَج، وقد علم رسول الله ﷺ وأصحابُه أن في الناس من يُربي في الدراهم، وما تركوا الدراهم بالكلِّية، وإن مِجَنّاً[2] سُرِقَ في زمانه وما تركوا شراء مجَنٍّ، فاجتنابُ هذا من وَرع الوسوسة[3].

القسم الثالث: أن يختلط حرامٌ لا يُحصر بحلالٍ لا يُحصر، كحكم الأَموال في زماننا هذا، فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيء بعينه، إلا أن يقترن بتلك العين علامة تدل على أنه من الحرام، فإن لم يكن في العين علامة، فتركه ورع، ومن العلامات أن يأخذه من يَدِ سُلطانٍ ظالمٍ، ويدل على ما قلنا الأَثَر والقِياس؛ أما الأثر فقد علم في زمان رسول الله ﷺ والخلفاء بعدَه أن أثمانَ الخمور ودَراهم الرِّبا وغُلول الغَنيمة اختلطت بالأموال، وقد أدركت الصحابة نَهْبَ المدينةِ وتصرّفَ

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) المِجَن: التُّرس.

(٣) في (ظ): «الموسوسين».

الظَّلمة، ولم يمتنعوا من الشِّراء من السوق، وأما القِياس؛ فإنه لو فُتح هذا الباب لانسَدَّ باب جميع[١] التصرفات؛ لأن الفسق يغلب على الناس، وإنما الترك لما يمكن ورع.

فإن قيل: كان الحرام في الزَّمن الأول قليلاً فما تَقول الآن والحرام أكثر؟.

فالجواب: إن أردتَ بقولك: الحرام أكثر. كثرةَ الظَّلمة والرِّبا والمعاملات الفاسدة، فليس ذلك بالأكثر؛ لأن الظَّلمة إذا أُضيفوا إلى الناس كانوا قليلاً، والمعاملات الفاسدة إذا أُضيفت إلى الصحيحة كانت قليلاً، وهذا كما يُقال: قَد شاع شربُ الخَمر. ومعلوم أن من لا يَشربها أكثر.

فإن قيل: فأينَ الدينار الذي لم يَتقلَّب في الحرام إلى أن وصل إلى يَدِ المتقي؟ وأين الشاة التي سلمت أصولها من غَصب؟

قلنا: لا نَظَر إلى هذا؛ لأن الأَصل في الأموال قبولها للتصرفات وجواز التراضي عليها، ومن أين يقدر على تَعيين دينارٍ يُقطع بتقلبه في الحرام أو شاةٍ، ثم إن الغالب أن من غَصب شاةً أكلها ولم يستولدها، ومن غَصب بذراً تناوله ولم يَزرعه، ثم يُقدَّرُ أنّ الغالبَ الحرام؟! فالأصل في الأموال الحِل وإذا تعارض أصلٌ وغالب ولا أَمارة على الغالب حُكمَ بالأصل، كما قُلنا في طين الشوارع وجَرِّ النَّصرانية، ثم يقدر أن لهذا المال مالكاً، ولكن لا سَبيل إلى معرفة مالكه، فصار مرصداً لمصالح المسلمين، وجاز التصرف فيه كسائر الأموال الضائعةِ [٢]وجواز التراضي عليها[٢]، ونحن نقول: تجوز الصلاة في الشوارع إذا لم تُرَ نجاسةٌ، وإن طين الشوارع طاهر، والوضوء من أواني المشركين جائزٌ، فقد توضأ عمر من جَرِّ نَصرانيةٍ مع أن مَشْربَهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يَحترِزون من نجاسة، وكانت الصحابة تَلبس الفِراء المدبوغة والثّياب المصبوغة، ومن تأمل أحوال الدَّباغين والصَّباغين عَلم غَلبة النَّجاسة عليهم، وكانوا يمشون حُفاةً ويُصَلّون على

(١) سقطت من (ظ).
(٢-٢) سقط من (ظ).

الأرضِ[١]، فدلَّ على أنهم لم يَحترزوا إلا من نجاسةٍ مشاهدة أو أن يكون عليها علامة، فأما الظَّن الذي يُستَثار من ردِّ الوَهم إلى مَجاري الأحوال، فلم يعتبروه.

فإن قيل: فقد كانوا يتوسَّعون في أمور الطَّهارة ويحترزون في شُبهات الحرام، فقد بان الفرق.

قلنا: إن أردتَ أنهم كانوا يُصلّون مع النَّجاسة فباطل، وإن أردتَ أنهم احترزوا من كل نجاسةٍ وجب اجتنابها فَصحيح، فأما تَورُّعهم عن الشُّبَهِ فكانَ بطريق الكَفِّ للنفسِ عمّا ليس به بأس مخافةَ ما بِهِ بأس، والنفسُ تميل إلى الأموال كيف كانَت بخلاف الأَنْجاس، وقد كانوا يمتنعون مما يَشغل قلوبهم من الحلال، ثم لو أن الحرامَ ملأَ الدُّنيا كلَّها وعلم يقيناً أنه ما بقي فيها حلالٌ أصلاً، لكُنّا نأمر باستئناف تَمهيد شروط الشَّرع، واستئناف قواعده، فإن الرسول ﷺ لما بُعث كانت العَرب تكتسب من الغارةِ، وأهلُ الكتاب يتعاملون بغير شَرعهم، فلم يتعرض لما سَلف، بل خَصَّصَ أربابَ الأيدي بالأموال، ومَهَّد الشرعَ، ومعلومٌ أن ما ثبتَ تحريمه في شرعٍ لا ينقلب حلالاً، فهذا حكم الفَتوى أنه لو عَمَّ الحرام وهو استئناف قواعد الشرع من غير أن يأمر بالتَّقلُّلِ، والذي يليق بالوَرع الاقتصارُ على قَدرِ الحاجة مع الاكتِساب بطرق الشَّرع من أَصحاب الأيدي، ولا نُريدُ بالاقتصار الاقتناع بالحَشيش والصَّيد، فإن ذلك يؤدي إلى تَلف الأبدان، بل نُريد الاقتصار على مَصالحها.

وقد يقع اشتباهٌ في الأدلّة، ويَقع الاشتباه بتعارضِ شهادةِ فاسقين، وقد يوصي بمال للفقهاء فالكامل في الفِقه يدخل فيه، والمبتدئ لا يَدخل وبينهما درجات يقع الاشتباه فيها، وكذلك إذا أوصى للصوفية، والوَرع في الجملة اجتنابُ ما يُشكل، والإثم حَزَّازُ القُلوب، إلا أن الاعتبار بقَلبِ العالم الموقِن[٢]، لا بقلب الجاهلِ المَوسوس.

---

(١) سقطت من (ظ).

(٢) في الأصل: «الموفق».

الباب الثالث

في البحث والسؤال والهجوم والإهمال ومظانّهما

اعلم أنه لو قُدِّمَ لكَ طعام، أو أُهدِيَت لك هَديةٌ، أو أردتَ أن تَشتري شيئاً من شخص، فليس لك أن تقولَ: هذا مما لا أَتحقق حِلّه فأريد أن أفتش عنه. وليس لكَ أن تَتركَ البحثَ مطلقاً، بل السؤال واجبٌ مرةً، وحرام مرةً، ومندوب مرةً، ومكروه مرةً، فلا بد من تفصيله.

والقولُ الشافي فيه أن مَظِنَّةَ السؤال الرّيبة، ومثارها إما من أمرٍ يتعلق بالمال أو بِصاحبِ المال.

المَثارُ الأَول: أحوال المالك: وله بالإضافة إلى مَعرفتك ثلاثة أحوال: أن يكون مَجهولاً، أو مشكوكاً فيه، أو معلوماً بنوعِ ظنٍّ يستند إلى دلالة الحال. الحالةُ الأولى، وهي كَونُه مجهولاً، فالمجهول هو الذي ليس عنده قَرينةٌ تدل على ظُلمه، كَزيِّ الأَجناد، ولا على صلاحه كثياب أهل العلم والزهد والتّجار، ولا يقال عن هذا: إنه مشكوكٌ؛ لأن الشكّ عبارة عن اعتقادين مُتقابلين لهما سَببان متقابلان، فيدل هذا على الشيء وكونه مُسلِماً دلالتان كافيتان في الهجوم على مُعاملته، فليس لك أن تقول: الفساد والظلم غالب على الناس؛ لأن هذه وَسْوَسة وسوء ظن بهذا المسلِم، وهو يستحق بإسلامه أن لا تُسيئ الظن به فإن أسأتَ الظن به لأنك رأيتَ فساداً من غيره، فقد جنيت عليه، فإن سألتَه تأذّى بسؤالك، فإن سألت عنه هَتكتَ سِتْره، فالإثم في إيذاء مُسلم أكثر من الإثم بأكل شُبهةٍ، وقد كانت الصحابة تَغزوا وتنزل القُرى ولا يَتحرَّزون من الأَسواق مع كونِ الحرام فاشياً في زمانهم وما نقل عنهم سؤال إلا عن ريبةٍ، ومن زاد عليهم في الوَرع فَهو مبتدع، إذ لا يبلغ أحد مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه، ولو أَنفق ما في الأرض جَميعاً، وقد أكل رسولُ الله ﷺ من لحمِ تُصدِّقَ به على بَريرة، وقال: «هو لها صَدَقة ولنا هَدية» وكان المتصدق عليها مجهولاً عنده.

الحالة الثانية: أن يكون مشكوكاً فيه بسبب دلالةٍ أورَثَتْ ريبةً، مثل أن يكون على خِلقَةِ الأَتراك وأهل البَوادي المعروفين بالظُّلم وقَطع الطريق، وأن يكون طويل الشارب، وأن يكون شَعره قَزَعاً، كعادة أهل الفَساد، أو يكون عليه قَباءٌ وقَلنسوة ونحو ذلك من زِيّ أهل الظلم، أو أن يُشاهد منه الإقدام على ما لا يَحل، فهذا يجوز مُعاملته؛ لأن اليدَ تَدل على المِلك، وهذه الدلالات ضعاف إلا أن التَّركَ من الورع.

الحالة الثالثة: أن تكون الحال معلومة بنوعِ خبرة وممارسة بحيث يوجب ذلك ظناً في حِلِّ المال وتحريمه، مثل أن يعرف صلاحَ الرجل وديانتَه وعَدالته في الظاهر، ثم يجوز أن يكون الباطن بخلافه، فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز كما قلنا في المجهول بل هذا أولى، فأما إذا علم بالخبرة أنه مُغَنٍّ أو مُرْبٍ وجب السؤال.

المثار الثاني: ما يستند الشك فيه إلى سبب في المال لا في حال المالك، وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال، كما إذا طرح في سوق أحمال من طَعام مغصوب، فاشتراها أهل السوق، فإنه لا يجب على من يشتري في تلك البلدة والسوق أن يسأل عما يَشتريه إلا أن يظهر أن أكثر ما في أيديهم حرام، فعند ذلك يجب السؤال، فإن لم يكن الأكثر كان التَّفتيش وَرَعاً غير واجبٍ؛ لأن حُكم السوق الكبير حكم بلد، ويدل على هذا أن الصحابة رضي الله عنهم لم يمتنعوا من الشِّراء في الأسواق وقد علموا أن فيها دراهم الرِّبا والغلول، وكانوا يأخذون الغنائم من الكفار الذين قد قاتلوا(١) المسلمين وأخذوا أموالهم، وكتب عُمر إلى أَذربيجان: إنكم في بلاد تُذبَحُ فيها المَيتة، فانظروا ذَكيَّةً من مَيتةٍ. فأذن في السؤال عن هذا، ولم يأمر بالسؤال عن الدراهم التي هي أثمانها؛ لأن أكثر دراهمهم لم تكن أثمان الجلود، وإن كانت الجلود تباع أيضاً.

ونفرضُ لإيضاح هذا الباب مسألةً، فنقول: رجلٌ له مالٌ حلالٌ خالَطه حرام، مثل أن يكون تاجراً يُعامل معاملاتٍ صحيحة ويُربي، فهذا إن كان الأكثر من ماله

(١) في (ظ): «قتلوا».

حَراماً لم يَجُزْ قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التَّفتيش، فإن ظهر أن المأخوذَ من وَجهٍ حلال جازَ، وإلا تُرِكَ، وإن كان الحرام أقلّ فالمأخوذُ شُبهة والورع تَركه، وإذا كان التَّفْتيش والسُّؤال من الوَرَع، فلا ينبغي أن يسأل صاحب المال؛ لأنه يغضبه بهذا إلا أن يكون أكثر ماله حراماً، فلا يبالي بغضبِ مثل هذا.

فإن قيل: فأي فائدةٍ في سُؤاله فربما كَذب؟ قلنا: إنما يَسأله إذا لم يكن متهماً، فأما إذا علمتَ أن في ماله حراماً وعلمتَ أن له غرضاً في حضورك وقبولك هديته فلا ثِقةَ بقولِه، وإنما ينبغي أن يسأل غيره.

واعلم أن السّؤال إنما يَقع لأجل الرِّيبة، فلا ينقطع إلا من حيث تَنقطع الرِّيبةُ المُقتضية له، فإن كان صَاحب اليَدِ لا يدري كيف طريق الكَسب الحلال، فإنه إذا قال المعروف بالظلم: هذا اللَّبنُ من شاتي. لم يكتف بهذا، فلو قال: وهذه الشاةُ ولدتها شاتي. لم يكتف بهذا؛ لأن المغصوب يَتوالد في أيدي العرب، فإن قال: اشتريتها. انقطع السؤال.

الباب الرابع

في كيفية خروج التائب عن المظالم المالية

اعلم أنَّ من تابَ وفي يده مالٌ حرامٌ[١] مُختلطٌ، فعليه وظيفتان؛ إحداهما: تَمييز الحرام وإخراجه، والثانية: النَّظر في مصرف المُخْرَج.

أما الأولى، فاعلم أن مَن تاب وفي ماله ما هو حرام معلوم العين من غَصبٍ أو وَديعةٍ فأمره سَهلٌ وعليه تمييز الحرام، وإن كان ملتبساً مختلطاً، فلا يخلو إما أن يكون في مالٍ هو من ذوات الأمثال، كالحبوب والنّقود والأَدْهان، وإما أن يكون في أعيانٍ متمايزة، كالعبيدِ والثياب والدُّورِ، فإن كان في المتماثلات أو كان شائعاً في المال كلّه، مثل أن يكون قَد غَصبَ دُهناً وخَلطَه بدهنِ نفسه، أو حَبّاً أو دراهم، فإن كان ذلك معلومَ القَدر مَيَّزَ ذلك القَدر، فإن أشكل فله طَريقان، أحدهما الأَخذ بغالب الظن، والثاني الأَخذ باليقين، وهو الورع، مثاله أن يَعلم أن نصف ماله حلال وأن ثلثه حرام، فيبقى السدس، فيشك فيه، فإن غلب على ظَنّه التَّحريم أخرجه، وإن غلب الحِلّ أمسكه، هذا هو العمل بغالب الظن، والورع إخراجه.

وربما قلت: يَتعين إخراجه؛ لأنه قد تيقن وجود الحرام وشكّ في هذا، والحظر مقدم.

فإن قيل: فإذا كان المال لا يَتميز فما يؤمنه أن يكون الذي أخرجه هو الحلال؟

فالجواب: إن المال يقبل المعاوضة، فلو غصب درهماً من شخصٍ ولم يَعرف عَينه فرد إليه درهماً، كان كأنه عَوَّضه عنه، ومن ورث مالاً فيه حرام أخرج مقدار الحرام بالتَّحرّي.

---

(١) ليست في (ظ).

النظر الثاني في المصرف، فإذا أَخرجَ الحرام، فَلهُ ثلاثة أحوال: إما أن يكون له مالك مُعين، فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه، وإن كان لذلك زيادة ومَنفعة جمع ذلك له وصرفه إليه، فإن يَئِسَ من معرفة عين ذلك المالك ولم يَدْرِ أَماتَ عن وارثٍ أم لا فليتصدق به، وإن كان من أموال الفَيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين صُرفَ ذلك إلى القناطر والمساجد ومصانع طريق مكة وما يُنتفع به كل مَن يَمرّ به من المسلمين.

فإن قيل: كيف تأمرونه بالتَّصدق بما لا يملك؟

قلنا: لأن هذا المال لا يخلو أن يَضيع أو يُصرف إلى حيز، وتضييعه لا يجوز فتعيّن صرفه إلى خَير.

فإن قيل: فكيفَ تقبل الصدقة من غلول؟

قلنا: ما نطلب بهذه الصدقة الأجر لأنفسنا إنما نُريد الخلاص من المَظلمة، وقد حل لهذا الفَقير فرضينا له الحَلال.

مسألة: إذا كان في يده حلالٌ وشُبهة، فليخصّ نفسه بالحلال، وليُقدّم قُوتَهُ وكسوتَه على أُجرة الحَجّام والزيت وسَجّار التَّنُّورِ، وأصل هذا قوله في كَسبِ الحَجّام: «اعلِفْهُ ناضِحَكَ». فإن كان في يد أَبويه حرامٌ فليمتنع من مؤاكَلتهما، فإن كان شبهة داراهما، فإن لم يقبلا تناول اليَسير، وقد ناوَلتْ بِشرَ الحافي أمُّه تمرةً فأكلها، ثم صعدَ الغُرفة فتقيَّأها.

الباب الخامس

في إدْرارات السلاطين وصِلاتِهم[١]

اعلم أن من أخذ مالاً من سُلطانٍ فلا بد أن يَنظر في ثلاثة أشياء: في مدخل ذلك إلى يَد السلطان من أين هو، وفي صِفته التي يستحق بها الأخذ، وفي المقدار الذي يَأخذه هل يستحقه إذا أضيف إلى حاله وحال شركائه في الاستحقاق؟

النظر الأول: في جهات الدخل للسلطان وكل ما يحل للسلطان سوى ما يُحييه من الأرض وما يشترك فيه الرعية قسمان: مأخوذٌ من الكفار، وهو الغنيمة المأخوذة بالقَهر، والفَيء الذي يحصل من مالهم في يده من غير قتال، والجِزْية وأموال المصالحة، وهي التي تُؤخذ بالشَّرط والمعاقدة. والقسم الثاني: المأخوذُ من المسلمين ولا يحل منه إلا قسمان: مالُ الميت الذي لم يُخلف وارثاً، والأموالُ الضائعة التي لا يتعين لها مالك، والأوقاف التي لا متولي لها، فما يُحالُ به الإنسان من ذلك، كالخُمس الذي قد روعي في أخذه الحَق، والجِزية التي تُؤخذ بقانون الشَّرع فذلك مُباح، إلا أن الأوقاف ينبغي أن يُنظر في شرط الواقِف، ولا يعتبر فيما يُحييه السُّلطان شرط؛ لأنه ملكه يعطي منه من يشاء ما يَشاء، وإنما يُنظر هل أحياه بتَسخيرٍ وظُلم؟ وقد قَبِلَ جماعةٌ من السَّلف عَطايا السُّلطان لعلمهم أن يده تَشتمل على حلالٍ، فإن تناول في وقتٍ ما ليس له لم يُوجب ذلك الامتناع إلا على جِهة الوَرع، وقد تورَّع جماعة عن ذلك، وكان فيهم من يأخذه فَيتصدق به، وأما في هذا الزمان فالاحترازُ أولى؛ لأنه قد علم طريق الأَخذ، ثم لا يُنالُ إلا بالذلِّ والسؤال والسكوت عن الإنكار، وقد كان بعضُ السلف لا يأخذ، ويُعلّل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا، وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنه يأخذ حقَّه ويبقى أولئك في مقام مظلوم وليس المال مُشتركاً.

---

(١) ليست في الأصل.

النظر الثاني: في قَدْر المأخوذ، وصفة الأَخْذِ، ولنفرض المال من أموالِ المصالح، فإنّ ما عداه قد تعيّن مُستحقُّه إن كان من وقفٍ أو صدقةٍ أو خُمسٍ أو غنيمةٍ أو فَيءٍ، ولا يجوز صرف أموال المصالح إلا إلى من فيه مصلحة عامة، فلو أنه اشتغل بالكَسب لتَعطُّلِ ما هو فيه، فَله في بيتِ المال الكفاية، كالعلماء والأَجْناد الذين يَحرسون المملكة، والكُتاب، والحُسّاب، والوكلاء وكل من يُحتاج إليه في ترتيب ديوان الخَراج فإنما نَعني العُمال على الأموال الحلال، وللسلطان أن يزيد مَنْ شاء على قَدر كفايته، وأن يخصَّ بعضَهم بفضلِ جائزةٍ.

الباب السادس

فيما يَحلُّ من مُخالطةِ السلاطين الظَّلَمة ويحرم وحكم غِشْيانِهم وإكرامهم

اعلم أن لكَ مع الأمراء والعُمال الظَّلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: وهي شَرّها؛ أن تَدخُلَ عليهم، والثانية: وهي دونها أن يَدخلوا عليك، والثالثة: وهي الأَسلم أن تَعتَزِل عنهم، فلا تراهم ولا يَرونك.

أما **الحالة الأولى**: وهي الدخول عليهم، فهو مَذمومٌ، فقد أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد يَعني ابن الصَّباح قال: حدثنا إسماعيل بن زكريا، عن الحسن بن حكم النخعي، عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أتى أبوابَ السَّلاطين افتتن، وما ازدادَ عبدٌ من السُّلطان قُرباً إلا ازدادَ منَ اللهِ بُعداً». قال أحمد: وحَدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن ابن خُثيم عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال لِكَعبِ بن عُجْرَة: «أعاذكَ اللهُ من إمارة السُّفهاء» قال: وما إمارة السُّفَهاء؟ قال: «أُمراء يكونون بَعدي لا يقتدون بهَدْيي، ولا يَستنُّونَ بسنَّتي، فمن صدَّقهم بكذبهم وأَعانهم على ظُلمهم، فأولئك ليسوا منّي ولستُ منهم ولا يَرِدونَ علَى حَوضي، ومن لم يُصدِّقهم بكَذِبهم ولم يُعنهم على ظُلمهم، فأولئك مني وأنا منهم، وسَيَرِدون على حَوْضي».

وقال حُذيفة: إياكم ومَواقف الفِتَن. قيل: وما مَواقف الفتن؟ قال: أبوابُ الأُمراء، يدخل أحدكم على الأمير فَيُصدّقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال ميمون بن مِهْران: لا تَدخلنَّ على سُلطانٍ وإن قلتَ: آمرُهُ بطاعةِ الله.

وقيل لعلقَمَة: لو دخلتَ على الأمراء فعرفوا لك شَرفك. فقال: أخافُ أن ينتقصوا منّي أكثر مما أَنتقصُ منهم.

وقال محمد بن واسِع: لَقَضْمُ القَصبِ وسَفُّ التُّراب خيرٌ من الدُّنو من السُّلطان.

وكتب أبو حازم إلى الزُّهري، وكان يُخالط السَّلاطين: اعلم أن أدنى[1] ما ارتكبتَ وأعظم ما احْتَقَبْتَ أن آنَسْتَ الظالم وسَهَّلتَ له طريقَ البَغي بدُنوِّكَ حين أُدنيتَ، وإجابتك حين دُعيتَ، فما أخلقكَ أن تُسأل غداً عن ما أردتَ بإغضائِكَ عن ظُلم الظَّلمة، وإنك أخذتَ ما ليس لمن أَعطاك، جعلوكَ قُطباً تَدورُ عليهِ[2] رَحَى باطِلهم، وجِسراً يعبرون بك إلى بلائِهم، وسُلَّماً إلى ضَلالتهم، يُدخِلونَ بكَ الشَّك على العُلماء، ويَقتادونَ بكَ قُلوبَ الجُهال إليهم، فلم يَبلُغْ أَخَصّ وُزرائهم ولا أَقْوى أَعوانهم إلا دون ما بلغتَ من إصلاحِ فسادهم، فما أيسرَ ما عَمروا لكَ في جَنب ما خَرّبوا عليك، وما أقلَ ما أعطَوك في قدر ما أَخذوا منك، فانظر لنفسك، فإنه لا ينظر لها غَيرُك، وحاسِبْها حسابَ رجلٍ مسؤول، أينَ شُكرك لمن استَحملك كتابه، واستودَعكَ علمه، ما يُؤمِّنك أن تكونَ من الذين قال الله عزَّ وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقال بِشْر الحافي: ما أقبح أن يُقال: أَينَ فلان العالم؟ فيُقال: ببابِ الأَمير.

وقال بعضُ الأُمراء لبعض الزُّهاد: لِمَ لا تأتينا؟ فقال: أخافُ إن أدنيتَني فَتَنْتَني، وإن أَقصَيتَني حَرَمتَني، وليس في يَدك ما أُريده، ولا في يَدي ما أخافُكَ عليه، وإنما أتاكَ مَن أتاكَ ليَستغني بك عن من سِواك، وقد استَغنيتُ عنكَ بمن أَغناكَ عني.

فهذه الآثارُ تبين كراهةَ مُخالطة السّلاطين، ونحن نُفصل ذلك تَفصيلاً فِقهِياً نُميّز فيه المحظور من المكروه والمباح، فنقول: الداخلُ على السُّلطان مُعرض لأن

(١) في (ظ): «أذل».
(٢) في الأصل: «عليك».

يَعصي الله عز وجل إما بفعله، وإما بسكوته، وإما بقوله، وإما باعتقاده، ولا ينفكُّ عن أحد هذه الأمور، أما الفِعل؛ فالدخول عليهم في غالبِ الأحوال يكون إلى دورٍ مَغصوبةٍ، والدخول فيها بغير إذنِ المالك حرامٌ، فإن فُرض الظالم في مَوضعٍ غير مَغصوب كالمَواتِ[(١)] مثلاً، فإن كان تحتَ خيمةٍ أو مظلّةٍ من ماله فهو حَرام، والدخول عليه غير جائز؛ لأنه انتفاعٌ بالحرام، واستظلال به، فإن فرض ذلك حلالاً لم يَعصِ بالدخول من حيث أنه دخول، ولا بقوله: السلام عليكم[(٢)]. ولكن إن سجد أو ركعَ أو مَثُلَ قائماً في سلامِه وخدمته كان مُكرِماً للظالم بسبب ولايته التي هي آلةُ ظُلمه، والتواضع للظالم مَعصية، بل مَن تواضع لغني ليس بظالمٍ لأجل غِناه لا لمعنًى آخر يقتضي التواضع ذهب ثلثا دِينه، فكيف إذا تواضَع للظالم؟ فلا يُباح إلا مجرد السلام، فأما تَقبيل اليد فَهو معصية إلا عند خوفٍ، أو لإمامٍ عادلٍ، أو عالمٍ يستحق ذلك بأمر ديني، وقد قَبَّل أبو عبيدةَ بنُ الجراح يَدَ عمر بنَ الخطاب. فإن ترك الداخلُ جميع ذلك واقتصَر على السلام، فلا يخلو من الجلوس على بِساطهم وأغلب أموالهم الحرام، هذا من حيث الفعل.

فأما السكوت، فهو أنه سيرى في مجالسهم من الفُرُش الحرير وَأواني الفِضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرامٌ، وكل من رأى سَيئةً وسكتَ عليها فهو شريك فيها، بل يسمع من كلامهم ما هو فُحشٌ وكَذب وشَتم وإيذاء، والسكوت عن جميع ذلك حرام؛ لأنه يجب عليه الأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر.

فإن قلتَ: إنه يخاف على نَفسه فهو مَعذورٌ في السكوت.

قلنا: صدقتَ، إلا أنه مُستغنٍ عن أن يُعرِّضَ نفسه لارتكاب ما لا يُباح إلا بعذر؛ لأنه لو لم يَدخل ولم يُشاهد لم يجب عليه الأمر والنَّهي، وكل من علم بفسادٍ في مكانٍ وعلم أنه إذا حضَر لم يقدر على إزالته لم يَجُزْ له أن يحضر.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الميراث».
(٢) في الأصل: «عليك».

وأما القَول؛ فهو أن يَدعوَ للظالم أو يُثني عليه أو يصدقه فيما يقول من باطلٍ بصريح قوله أو بتحريكِ رأسه أو بِاستِبْشارٍ في وجهه، أو يُظهر له الحبَّ والموالاةَ والاشتياقَ إلى لقائِهِ والحرصَ على طول بَقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السّلام بل يتكلم، ولا يَعدو كلامه هذه الأقسام، وأما دُعاؤه فلا يجوز له إلا أن يقول: أصلحكَ اللهُ، أو وفَّقكَ، فقد جاء في الأثر: «من دَعا للظالم بطولِ البَقاء فقد أحبَّ أنْ يُعْصَى اللهُ عزّ وجلّ، فإن جاوزَ الدعاءَ إلى الثَّناءِ كان به كاذباً ومُنافقاً ومكرِماً للظالم»، وفي الأثر: «إن الله ليَغضب إذا مُدِحَ الفاسِقُ». فإن جاوز ذلك إلى التَّصديق له فيما يقول والتَّزكية فيما يعمل كان عاصياً بذلك مُعيناً له على المعصية، فإن جاوز ذلك إلى إظهار المحبَّةِ والتَّشوق إلى لقائه وطول بَقائه، فإن كان كاذباً عصى[1] مَعصيةَ الكذبِ والنِّفاق، وإن كان صادقاً عصى بحبه بَقاء ظالمٍ ينبغي له أن يَمقُتَه في الله، فإن أحبَّه لظُلمِه فهو عاصٍ بمحبته، وإن أحبه لسببٍ آخر، فهو عاصٍ من حيث إنه لم يبغضه، وكان الواجب عليه أن يُبغضه.

فإن سَلِمَ من ذلك كله وهيهات، لم يَسلم من فَسادٍ يتطرق إلى قلبه، فإنه ينظر إلى توسُّعهم في النِّعم فَيزْدري نِعمَ الله عليه، ثم يقتدي به غيره في الدُّخول، ويكون مكَثِّراً لسوادِ الظَّلَمة مُجَمِّلاً لهم، إن كان ممَّن يُتَجمل به، وقد دُعيَ سعيدُ بن المسيّب إلى البيعة للوليد وسليمان ابنَي عبد الملك فقال: لا أُبايع اثنَين ما اختلفَ الليلُ والنهار. فقالوا: ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر. قال: لا والله لا يَقتدي بي أحدٌ من الناس. فَجُلِدَ مِئةً وأُلبسَ المُسوح، فعلى ما بينّا لا يجوز الدخول على الأُمراء الظَّلمة إلا بعُذرين؛ أحدهما: إلزامٌ[2] من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى، والثاني: أن يدخل لرفع ظُلمٍ عن مُسلمٍ، فيجوز بشرطِ أن لا يكذب ولا يُثني ولا يَدَع نصيحةً يتوقع لها قبولاً، فهذا حكمُ الدخول[3].

---

(١) في الأصل: «عصى الله».
(٢) في (ظ): «إلى أمر».
(٣) ورد هنا في هامش (ظ) ما نصه: «للشيخ جلال الدين السيوطي كتاب سمّاه: ما رواه الأساطين في تحريم دخول العلماء على الأمراء والسلاطين». وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٥٧٤ باسم: «ما رواه الأساطين في الدخول على السلاطين».

الحالة الثانية: أن يَدخل عليه السلطان زائراً، فجواب السلام لا بدّ منه، وأما القِيام والإكرام فلا يَحرم مقابلة له على إكرامه، فإنه بإكرام العلم والدينِ مستحقٌ للحمد، كما أنه بالظلم مستحقٌ للذمِّ، فإن دخلَ عليه وَحْدَهُ، وقَدرَ أَنْ لا يقومَ له إعزازاً للدين واحتقاراً للظلم وغضباً لله سبحانه من سوء فِعله كان ذلك الأولى، وإن دخل عليه في جمعٍ فَمُراعاة حِشمةِ أربابِ الولايات فيما بين الرَّعايا مُهم، فلا بأس بالقيام على هذه النّية، وإن علم أن ذلك لا يُورثُ فساداً في الرَّعية ولا يناله أذى من غَضبه، فتركُ القيامِ أولى.

ثم يجبُ عليه أن ينصحه ويُعرفه تحريم ما يَفعله مما لا يدري أنه مُحرَّم، فأما إعلامه بتَحريم الظُّلم وشُربِ الخمرِ فلا فائدة فيه، بل عليه أن يُخوّفَه من ركوب المعاصي مهما ظنَّ أن التخويف يُؤثر فيه، وعليه أن يُرشِده إلى المصالح، ومتى عرف طريقاً للشرع يَحصلُ به غرضُ الظالم عَرَّفه إياه، فإذن يجب عليه تَعريفُه ما يَجهل، وتخويفُه مما يَتجرّأ عليه، وإرشادُه إلى ما هو غافلٌ عنه مما يغنيه عن الظلم، وقد كان جماعةٌ من السَّلَف يدخلون على الأُمراء ويَعظونَهم، وسنذكر جُملةً من ذلك في كتاب الأَمرِ بالمعروف.

فأما العُلماء الذين يُريدون الدنيا فإنهم يَدخلون على السلاطين للتقرُّبِ إليهم، فيدلونهم على الرخص ويَستنبطون لهم بدَقائق الحِيَل طُرقَ السَّعة فيما يوافق أَغْراضهم، وإن وَعَظوهم في خِلال ذلك كان قَصدهم اكتسابَ الجاه عندهم، فإن قالوا: إنما قَصَدنا زَجْرهم. فعلامةُ صِدقهم في ذلك أنه لو تَولّى وَعظهم شخصٌ آخر فرحوا إذ كفوهم هذا المهم، فأما إذا أحبوا وَعْظهم دونَ غيرهم، فقد بان سوء القَصد، وربما قالوا: إنما ندخل لنشفع في مُسلمٍ. ومعيار صِدقهم ما تقدَّم من وقوع شَفاعةِ غيرهم.

الحالة الثالثة: أن يعتزل عنهم، فلا يَراهم ولا يَرونه، والسلامة في ذلك، ثم ينبغي له أن يعتقد بُغْضهم على ظُلمهم، ولا يحب بَقاءَهم، ولا يُثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يتقرب إلى المصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مُفارقتهم، كما قال حاتم الأصم: إنما بَيني وبين الملوك يومٌ واحد؛ أما

أمس فلا يجدون لذَّته، وأنا وإياهم من غدٍ على وَجَل، وإنما هو اليوم، فما عسى أن يكون في اليوم؟

وإذ قد تكلما في الدخول عليهم فلنرسم في الأحوال العارضة في مخالطتهم ومباشرة أموالهم.

مَسائل: مسألة: إذا بعثَ إليكَ السلطان مالاً لتُفرِّقَه على الفُقراء، فإن كان له مالكٌ مُعيَّن لم يحلَّ أخذه، وإن لم يكن، بَل كان حُكْمُه أن يُتَصدَّقَ به كما سبق بيانه، فلك أن تأخذه وتَتَولّى تَفرقته، ومن العلماء من امتنع من أخذه، ولولا ثلاث غوائل لا تُؤمن لرأينا أن الأَولى أخذه:

الغائلة الأولى: أن يظن السُّلطان بسبب أخذك أن مالَه طيبٌ، ولولا ذلك لم تأخذه، فإن كان كذلك، فلا تأخذه، فإنه لا يفي الخير في مباشرتك التفرقة بما يحصل لهم من الجُرأة على كَسبِ الحرام.

الغائلة الثانية: أن ينظر إليك غَيرك من العلماء والجُهّال، فيقتدون بك في الأخذ، ويستدلون به على جوازه ثم لا يفرقون، وهذا يكون تسبباً لإضلال خلقٍ كثيرٍ، قال وَهبُ بن مُنَبّه: أُكرِهَ رجلٌ على أكل لحمِ الخنزير فلم يأكل، فجعلَ له لحم غَنمٍ وقيل: كُلْ. فلم يَفعل، وقال: قد علم الناس أني إنما أُكرِهتُ على لحم الخِنزير، فمن أينَ يعلمون أن الذي أكلتُه لحم غَنم؟ ودخل وهبٌ وطاووس على محمد بن يوسف أخي الحجاج في غداةٍ باردةٍ، فقال لغلامه: هلمَّ ذلك الطَّيلَسان وألقِه على طاووس. فألقاه عليه، فما زال يُحرك كتِفَيه حتى وقع عنه، فغضِبَ محمد بن يوسف، فقال وَهْب: إن كنت لَغَنياً عن أن تُغضِبه، لو أخذتَ الطيلسان فتصدقتَ به. فقال: لولا أن يقول مَن بَعدي: أَخَذه طاوس، ثم لا يَصنع به ما أصنع لفعلتُ.

الغائلة الثالثة: أن يتحرك قلبكَ إلى حُبِّه لتخصيصه إياك وإيثاره لك بما أعطاك، فتحب حينئذٍ بَقاءَهُ وتَكره عَزْلَه، وتُحب اتِّساع ولايتِه، وكل ذلك حبٌ للظلم، فإن كان كذلك، فهذا السُّمُّ القاتل ولا خَير فيما يُحبب إليك أهلَ الظلم، أخبرنا

محمد بن أبي القاسم قال: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نعيم الحافظ قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا هارون بن معروف قال: حدثنا ضَمرةُ عن ابن شَوْذَب قال: قَسَم أميرُ البصرة على أهلِ البصرة، فبعث إلى مالك بن دينار فقبِلَ، فأتاه محمدُ بن واسع فقال: يا مالك، قبلتَ جوائزَ السلطان؟ فقال: يا أبا بكر، سَلْ جُلسائي. فقالوا: اشترى بها رِقاباً فأعتَقَهم. فقال له محمد: أنشدك الله أقلبك له الساعةَ على ما كان قبل أن يُجيزَكَ؟ قال: اللهمَّ لا. قال: ترى أي شيء دخل عليك؟ فقال مالك لجلسائه: إنما مالك حمار، إنما يعبدُ اللهَ مثلَ محمد بن واسع.

مسألة: إذا جاز أخذُ أموالهم وتَفرقتها، فهل يجوز أن تُسرقَ أموالهم، أو تُخفَى وَديعتُهم وتُنكَر وتُفرَّق على الناس؟

فالجواب: لا يجوز؛ لأنه ربما يكون لها مالك معين، ويكون السلطان على عزم أن يردّها عليه، بخلاف ما يبعثه ليتصدَّق به، فإنه قد دلّ بإنْفاذِهِ أنه لا يَعرف مالكه، ثم كيف يسرق ويحتمل أن يكون ما سَرقه مِلكاً للسلطان حصل له بشراءٍ في ذمته؟ فإن اليد دلالة على المِلك.

مسألة: وإذا كان أكثر أموالهم الحرام حرمت معاملتهم، وكل ما فيه إعانتهم على الظلم لا يجوز، ولا يجوز التجارة في الأسواق التي بَنوها بالمال الحرام، وقد لعنَ رسولُ الله ﷺ في الخَمرِ عَشَرة حتى العاصِرَ[1] والمعتصر، ولعن آكل الرِّبا ومُوكِلَه وكاتِبه وشَاهِدَيه.

مسألة: ما يَبْنيه الظَّلَمة من القناطرِ والمساجدِ والسِّقايات ينبغي أن يُنظرَ فيه، فإن كانت تلك الأعيان التي بُنِيَت بها معروفةَ المالك لم يَجُز العبور عليها إلا لضرورة يحل بها مثل ذلك من مالِ الغير، وإن لم يُعرَف مالكها، فحكمها أن تُرْصَد للخيرات، فيجوز العُبور عليها، والوَرَعُ الامتناع.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «العاصي».

كتاب آداب الصحبة والأخوة والمعاشرة مع الخلق

الحمدُ لله الذي جمعَ بين قلوب المتَّقين وقد كانت وُحداناً، وألف بين نُفوس المخلصين فَصاروا خِلّاناً، ونزع الغِلَّ من صدور المؤمنين فباتوا أَخْداناً، ومنَّ عليهم بذلك وأنزل به قُرآناً ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، نَحمدُه إذْ أَوْطَأَنا من أَوطانِ الألفة أَوْطانا، وتَعاهدَنا بلُطفِه[١] أحياناً فأحيانا، ونُصلي على رسوله محمدٍ أشرف الخلائق إنسانا، وعلى آله وأصحابه الذين كانوا أنصاراً للدين وأعواناً، وسلَّمَ تسليماً كثيراً.

أما بعد، فإن المحبةَ في الله تعالى والأُخوة في دينه من أفضل القُرُبات، وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجاري العادات، ولها شروط، وفيها حقوقٌ بمراعاتها تَصفو الأُخوّة عن شَوائبِ الأكْدار ونَزَغات الشَّيطان، فبالقيام بحقوقها يُتقرَّبُ إلى الله سُبحانه، ونحنُ نُبيّن مقاصد هذا الكتاب في ثلاثةِ أبوابٍ إن شاءَ الله تعالى:

الباب الأول: في فَضيلة الأُلفة والأُخوة في الله، وشروطها، ودرجاتها، وفوائدها.

الباب الثاني: في حُقوق الصُّحبة، وآدابها، ولوازمها.

الباب الثالث: في حَق المسلم، والرَّحم، والجِوار، والملك، وكيفية المعاشرة مع من يُدْلي بهذه الأَسباب.

---

(١) بعدها في الأصل: «بالقوم» ولا داعي لها.

الباب الأول

في فَضيلة الأُلفة والأُخوة وشُروطها ودَرجاتها وفَوائدها

فضيلة الألفة والأخوة

اعلم أن الألفة ثمرةُ حُسنِ الخُلق، والتّفرق ثمرة سوء الخُلُق، فَحُسنُ الخُلق يوجب التّحابّ والتّوالف والتوافق، وسوء الخلق يُثمر التّباغض والتّحاسد والتّدابُر، ومهما كان المثمر مَحموداً كانت الثمرة محمودة، ولا يخفى فَضل حُسن الخلق، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعْين قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا عُمر بن حَفص قال: حدثنا أبي قال: حدثنا الأعمش قال: حدثنا شَقيق عن مَسْروق عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «خِيارُكم أحاسِنكم أَخلاقاً». أخرجاه في الصحيحين، وفي حديث أبي الدَّرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما شَيءٌ أثقل في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامة مِنْ خُلُقٍ حَسَن» رواه الترمذي وحكم بصحته، وروى أبو داود من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً». وفي حديث أبي ثَعلبةَ الخُشَني عن النبي ﷺ أنه قال: «أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة محاسِنكُم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة مساوئكم أخلاقاً الثَّرْثارون المُتَفيهِقُون المتَشدِّقون»[١]. وفي حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ المؤمن ليُدركُ بحسن خُلقه درجات قائم الليل وصائم النهار» وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن أكثر ما يُدخل

---

(١) الثرثارون: الذين يُكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق، والمتفيهقون: هم الذين يتوسّعون في الكلام ويفتحون به أفواههم، والمتشدقون: الذين يَلوون شِدقَهم في الكلام تفاصُحاً.

الناس الجنة فقال: «تَقوى الله وحُسنُ الخلق». وفي حديث آخر أن النبي ﷺ كان يدعو، فيقول: «اللهمَّ اهدِني لأحسنِ الأَخلاق، لا يهدي لأَحسنها إلا أنت، واصرِف عني سيِّئها، إنه لا يَصرِف سَيّئها إلا أنت». وقالت أُم حَبيبة: أرأيتَ المرأة يكون لها زَوجان في الدنيا فتموتُ[1] ويموتان، فيدخلون الجنة، فلأَيّهما تكون؟ قال: «لأحسنهما خلقاً يا أم حبيبة، ذهب حسن الخلق بخيرِ الدنيا والآخرة».

وإذا ثبتَ أن ثمرةَ الخلق الحَسَن الأُلفة، فقد ورد الثَّناء على الألفة، لا سيما إذا كانت الرابطة الدّين والتقوى، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وذمَّ الفُرقة فقال: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وأما المَحبّة في الله تعالى، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يُظلهم الله عز وجلَّ في ظِلّه» فذكر منهم «رجلين تَحابّا في الله اجتَمعا على ذلك وتفرَّقا عليه» وفيهما من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلاثٌ من كُنَّ فيه وَجدَ بهنّ حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سِواهما، وأن يحبَّ المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعودَ في الكُفر بعد إذ أَنقذه اللهُ منه، كما يكره أن توقد له نارٌ فيقذف فيها». وفي أفراد مُسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن اللهَ تعالى يقول يوم القيامة: أينَ المتحابّون بجلالي؟ اليومَ أُظلُّهم في ظلّي يوم لا ظلَّ إلا ظِلّي». وروى أبو مسلم الخَولاني عن مُعاذ بن جَبل عن النبي ﷺ أنه قال: «المُتحابّونَ في الله على منابر من نُور في ظلِّ العرش يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه» قال: فلقيتُ عبادةَ بن الصامت فذكرتُ له حديثَ مُعاذ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يحكي عن رَبِّه عزَّ وجل يقول: «حُقَّتْ محبَّتي للمتحابّين فيَّ، وحُقَّت مَحبّتي للمتباذِلين فيَّ، وحُقَّت محبَّتي للمتزاورين فيَّ، والمتحابون في الله على مَنابر من نور في ظلِّ العرش يوم لا ظِلَّ إلا ظله». وفي حديث البَراء بن عازبٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «أَوثَقُ عُرى الإيمان أن تُحِبَّ في الله وتُبغِضَ في الله». وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ مِن عباد الله

(١) في الأصل: «فيموت».

لعباداً يَغْبِطهم الأنبياء والشهداء» قيل: مَن هُم لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قومٌ تَحابّوا بروحِ الله عز وجل على غيرِ أموالٍ ولا أَنْسابٍ، وُجوههم نورٌ، وهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خافَ الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». وفي حديث عمرو بن عَبَسَة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الله عز وجل يقول: حُقَّت محبتي للذين يَتحابون من أجلي وحُقَّت محبتي للذين يَتصافون من أجلي».

وقال أبو أُمامة: مَن أَحبَّ للهِ، وأبغَضَ لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان.

وقال أبو زُرعة بن عمرو بن جَرير: ما تحابَّ رَجُلان في الله عز وجل إلا كانَ أَفضلهما أشدّهما حباً لصاحبه.

وأما زيارة الإخوان: فأخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا حَمّاد بن سلمة عن ثابت البُناني عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خرج رجلٌ يزور أخاً له في الله عز وجل في قريةٍ أُخرى، فأرصدَ اللهُ عزّ وجلّ. بمَدْرَجتِهِ مَلَكاً فلمّا مَرَّ به قال: أين تُريد؟ قال: أريدُ فلاناً. قال: لقرابةٍ؟ قال: لا. قال: فلنعمةٍ له عندك تَرُبُّها؟[1] قال: لا. قال: فلِمَ تأتيه؟ قال: إني أُحبه في الله عز وجل قال: فإني رسول الله إليك أنه يُحبك لحبك إياه فيه». انفردَ بإخراجه مسلم. وفي الصحيحين من حديث ابن مَسعود وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «المَرْءُ مع من أَحبَّ».

وكان عمر بن الخطاب يذكر الأَخ من إخوانه بالليل، فيقول: يا طولَها من ليلةٍ. فإذا صلّى الغداةَ غدا إليه فإذا لَقِيه التَزَمه واعتَنقه.

وقال عِمْران بن حِطّان: لقد أحببتُ في الله ألفَ أخٍ كلُّهم أعرف اسمَه واسمَ أبيه واسمَ قبيلته، وأعرف مكانَ داره. وهذا يدل على أنه كان يزورهم.

وكان معروفُ الكَرخي يقول: امشِ اثنَيْ عشر ميلاً زُرْ أخاً في الله عزَّ وجلّ.

---

(١) تربُّها: تحفظها.

بيان معنى الأخوة في الله تعالى وتَمييزها عن الأخوة في الدنيا

اعلم أن الصُّحبةَ قد تقعُ بالاتّفاق، كصُحبةِ المسافرين والجيران، وتقع بالقَصدِ، فتوجب المجالسةَ والمخالطةَ والمجاورةَ، ولا يكون هذا إلا لمحبوبٍ، فإنّ غير المحبوب يُجتنَب، والمحبوب إما أن يُحبَّ لذاته، أو ليتوصل به إلى مَقصودٍ، وذلك المقصود، إما أن يكون مقصوراً على الدُّنيا وحظوظها، أو متعلقاً بالآخرة أو بالله تعالى، فهذه أربعة أقسام:

القسم الأول: وهو حبُّ الإنسان لذاته، فإنه ممكنٌ، وهو أن يكون في ذاتِه محبوباً عندك تلتَذُّ برؤيته ومعرفته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك لها، وكلُّ جميلٍ لذيذٌ في حقِّ من أدركَ جمالَه، وكل لذيذٍ محبوبٌ، واللذَّة تَتْبع الاسْتِحسان، والاستحسان يَتبع المناسبة والملاءمة والموافقة بين الطباع، ثم ذلك المستَحسَن إما أن يكون في الصُّورة الظاهرة، وهي حُسن الخِلقة، أو في الصورة الباطِنة، وهي كمال العَقل وحُسن الخُلُق، ويتبع حسنُ الأخلاق حُسن الأَفعال، وكل ذلك مستحسن عند الطَّبع السليم، وكل مستحسن مُسْتَلذٌّ به ومحبوبٌ بل في ائتلافِ القلوب أمر أَغمضُ من هذا وهو المناسبة الباطِنة الموجبة للأُلفة، فإن شبه الشيء يَنجذب إليه بالطبع، وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «الأَرْواحُ جنودٌ مُجنّدة، فما تعارف منها ائْتَلَف، وما تَناكَرَ منها اخْتَلف». والائتلافُ نتيجة التَّناسب الذي عُبِّر عنه بالتعارف، والتَّناكُرُ نتيجة التَّباين، قال الشاعر:

وقائلٍ كيفَ تَفارقْتُما ... فقلتُ قولاً فيه إنصاف
لم يَك من شكلي ففارقتُهُ ... والناس أشكالٌ وأُلّاف

فقد ظهرَ من هذا أن الإنسان قد يُحَبُّ لذاتِه بمجرد المجانسة والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية، ويدخل في هذا القسم الحبُّ للجمال إذا لم يكن المقصود قَضاء الشَّهوة فإن الصورة الجميلة مُستلذَّةٌ في عينها، وإن قُدِّرَ فَقدُ أصلِ

الشَّهوة حتى يستلذَّ النظرُ إلى الفَواكه والأَنوار والأَزهار والتُّفاح المُشْرَب بحمرة وإلى الماء والخُضْرة من غير غرضٍ سوى عينها، وهذا هو الحبُّ بالطَّبع.

القسم الثاني: أن يحبه لينال من ذاته غير ذاته، فيكون وسيلة إلى محبوب غيره، والوسيلة إلى المحبوب محبوب، وما يحب لغيره كان ذلك الغير هو المحبوب بالحقيقة، ولكن الطريق إلى المحبوب محبوب، ولذلك أحبَّ الناسُ الذهبَ والفضةَ ولا غرضَ فيهما إلا أنهما وسيلة إلى المحبوبات، فمن الناس من يُحَبُّ كما يُحَبُّ الذهبُ والفِضة من حيث إنهما وَسيلةٌ إلى المقصود، إذ بهما يُتوصل إلى نَيلِ جاهٍ أو مالٍ أو علمٍ، كما يحب الرجل سُلطاناً لانتفاعه بماله أو جاهه، ويحب خواصّه لتحسينهم حاله عنده، فالمتوسل إليه إن كان مقصورَ الفائدة على الدنيا لم يكن من جُملة الحب في الله، وإن لم يكن مقصورَ الفائدة على الدنيا ولكنه لا يقصد به إلا الدنيا، كحب التلميذ لأُستاذه، فهو أيضاً خارجٌ عن الحب لله، فإنه إنما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه، فمحبوبه العلم، فإذا كان لا يقصد العلمَ للتقرب إلى الله بل لينال به الجاهَ والمالَ والقَبول عند الخلق، فَمحبوبه الجاه والقبول، والعلم وسيلة إليه، و الأستاذ وسيلة إلى العلم، فليس في شيءٍ من ذلك حبٌّ لله، إذ يتصور كل ذلك ممن لا يؤمن بالله أصلاً.

ثم ينقسم هذا إلى مذمومٍ ومُباحٍ، فإن كان يقصد به التوصُّل إلى مَقاصد مذمومة من قَهر الأقران وظُلم الرَّعايا بولايةِ القضاء كان الحبُّ مذموماً، وإن كان يقصد به التوصُّلَ إلى مُباحٍ، فهو مباحٌ، وإنما تكتسبُ الوَسيلةُ الحكمَ والصِّفةَ من المقصد المتوسَّل إليه، فإنها تابعة له غير قائمة بنفسها.

القسم الثالث: أن يُحبه لا لذاته بل لغيره، وذلك الغير ليس راجعاً إلى حُظوظه في الدنيا بل يرجع إلى حُظوظه في الآخرة، فهذا أيضاً ظاهر لا غُموض فيه، وذلك كمن يحب أُستاذه وشَيخه؛ لأنه يتوسَّل به إلى تحصيل العلم، وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل الفَوز في الآخرة، فهذا من جُملة المحبّين في الله، وكذلك من يُحب تلميذه؛ لأنه يتلقَّف منه العلم، وينال بواسطته رُتبة التعليم، ويرقَى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء، إذ قال عيسى ابن مريم عليه السَّلام: مَن

علم وعَمِل وعلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيماً في ملكوت السماء. ولا يتم التعليم إلا بمُتعلِّم، فهو إذن آلة في تحصيل هذا الكمال، وإن أحبه، لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعةً لحرثِه الذي هو سَبب تَرقِّيه إلى رُتبة التعظيم[١] في ملكوت السماء، فهو مُحب في الله، بل الذي يَتصدق بأموال لله، ويجمع الضِّيفان ويُهيِّئ لهم الأطعمة اللذيذة تَقرُّباً إلى الله عز وجل، فأحب طباخاً لحسن صَنعته في الطَّبخ، فهو في جملة المحبين في الله عز وجل، وكذا لو أحب من يتولى له إيصال الصَّدقة إلى المستحقّين، فقد أحبه في الله، بل نَزيدُ على هذا ونقول: إذا أحبَّ من يخدمه بنفسه في غَسلِ ثيابه، وكَنْسِ بَيته، وطبخ طعامه وتفرغه بذلك للعلم والعمل ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة، فهو محب في الله، بل نزيد عليه ونَقول: إذا أحبَّ من يُنفق ماله عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومَسكنه وجميع أغراضه التي يَقصدها في دنياه، ومقصوده من جملة ذلك الفراغ للعلم والعمل للتقرُّب إلى الله تعالى، فهو مُحبٌ في الله، فقد كان جماعة من السَّلف تكفل بكفاياتهم جماعةٌ من أهل الثَّروة، وكان المُواسي والمُواسَى جميعاً من المتحابين في الله، بل نزيد على ذلك ونقول: من نكحَ امرأةً صالحةً ليتحصنَ بها عن وَساوسِ الشيطان، ويصون بها دينه، وليولد له ولدٌ صالح يدعو له، فأحب زوجته لأنها آلته في هذه المقاصد الدينية، فهو محبٌ في الله سبحانه، فلذلك قال في الإنفاق على العيال: «حتى اللُّقمة يرفعها الرجل إلى فم امرأته».

واعلم أن كل حب لولا الإيمان بالله واليوم الآخر لم يوجد، فهو حب في الله، وكذلك كل زيادة في الحب لولا الإيمان بالله [٢]واليوم الآخر[٢] لم تكن تلك الزيادة، فتلك الزيادة من الحب في الله، فذلك وإن دقَّ فهو عَزيز.

القسم الرابع: أن يُحب لله وفي الله، لا لينال منه علماً أو عملاً، أو يتوسل به إلى أمرٍ وراء ذاته، وهذا أعلى الدرجات، وهو أدقّها وأغمضها.

---

(١) في (ظ): «العظمة».
(٢ـ٢) سقط من (ظ).

ومن آثار الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق بالمحبوب، فإن من أحبَّ إنساناً حُباً شديداً أحب مُحبَّ ذلك الإنسان، وأحب مَحبوبَه ومَن يَخدِمه ويُثني (١علیه أو یثني المحبوب علیه١) ومنه قول القائل(٢):

أَمـرُّ عـلـى الـدِّيـارِ ديـارِ لَـيـلـى ... أُقـبـلُ ذَا الـجِـدارَ وذَا الـجِـدارا
وَمـا حُـبُّ الـدِّيـارِ شَـغَـفْـنَ قَـلـبـي ... ولـكِـنْ حُـبُّ مَـنْ سـكَـنَ الـدِّيـارا

وهذا إنما يقع من إفراطِ المحبة وقُوّتها، فمن أحب اللهَ تعالى واستولى حبه على قلبه أحب كل موجودٍ من آثار قُدرتِه، فإنّ من أحب إنساناً أحبَّ خَطَّه وصَنعته.

وحبُّ اللهِ تعالى تارة يكون لصدقِ الرجاء في وَعده، وتارةً لما سبق من زيادته، وتارةً لذاته، وسيأتي تحقيق ذلك في كتاب المحبة إن شاء الله تعالى.

وكيف ما اتفقت محبةُ الله، فإذا قويت تعدَّت إلى كلِّ متعلق به ضرباً من التعلق حتى يتعلَّق بما هو مؤلم مَكروه، إلا أنَّ فرطَ الحبِّ يُضعف الإحساس بالألم، كالفرح بقرصةٍ من المحبوب فيها نوع مُعاتبة، وقد انتهت محبةُ الله بقوم قالوا: لا نُفرق بينَ البلاء والنِّعمة إذ الكل من الله. وسيأتي تحقيقُ ذلك في كتاب المحبة إن شاء الله.

والمقصود أن حب الله تعالى إذا قوي أثمر حبّ كل من يقوم بحق عبادة الله في علمٍ أو عملٍ، وأثمر حبَّ كل من فيه صفة هي مَرضية عند الله من خُلقٍ حَسن، أو تأدب بأدب الشرع، وما من مؤمنٍ مُحب للآخرة ومحبٍ لله سُبحانه إذا أخبر عن حال رجلين أحدهما عالم عابد والآخر جاهل فاسق إلا وجد في نفسه ميلاً إلى العالم العابد، ثم يضعف ذلك الميل ويقوى بحسب ضعف إيمانه وقوته، وبحسب ضعْف حُبه لله وقوّته، ولو كان الحبُّ مَقصوراً على حظ يُنال من المحبوب في الحال أو المآل لما تصور حبّ الموتى من العلماء والعُبّاد بل من الأنبياء، ومعلوم أن حب الجميع مَكنونٌ(٣) في قلب كل مسلمٍ متدينٍ ويَبين ذلك بغَضَبه عند طَعنِ

(١-١) سقط من (ظ).
(٢) هو مجنون ليلى قيس بن المُلوّح.
(٣) في (ظ): «مكتوب».

أعدائهم فيهم وبفرحه عند الثناء عليهم، وكل ذلك حب لله؛ لأنهم خواصّ عباد الله، ومن أحب ملكاً احبَّ خواصه وخَدَمه، وقد يغلب الحب فلا يبقى للنفس حَظٌّ إلا فيما هو حَظُّ المحبوب، وقد يكون الحب بحيث يترك بعض الحظوظ دون بعض، كمن تسمح نفسه بأن يُشاطر محبوبه ماله، فمقادير الأموال موازين المحبة إذ لا تُعرف درجة المحبوب إلا بمحبوبٍ يُترك في مقابلته، فمن استغرقه الحب لم يبقَ له محبوبٌ سوى رَبه، فحصل من هذا أن كلّ من أحب عالماً أو عابداً، أو أحب عبداً راغباً في علمٍ أو عبادةٍ أو في خير، فإنما أحبه لله وفي الله، وله في ذلك من الثواب بقدرِ قوة حُبه، فهذا شرح الحب في الله ودَرجاته، وبهذا يتضح البُغض في الله أيضاً، ولكن نَزيدُه بياناً.

بيانُ البُغْضِ في الله عزَّ وجَل: اعلم أن من يحب في الله لا بد أن يُبغض في الله، فإنك إذا أحببتَ إنساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عنده، فإن عصاه فلا بد أن تُبغضه؛ لأنه عاصٍ لله عز وجل وممقوت عنده، ومن أحبَّ لسببٍ أبغض لوجود ضده، ولكل واحد من الحب والبُغض دَفين في القلب يترشَّح بظهور أفعال المُحبين والمبغضين في المقاربة والمباعدة والمخالفة والموافقة، فإذا ظهر في الفعل سُمي موالاة ومُعاداة، ولذلك قال: هل واليتَ فيَّ وَلياً أو عاديتَ فيَّ عدواً؟

ومَن اجتمعت فيه خِصالٌ مَحمودةٌ ومَكروهةٌ فإنك تحبه من وَجهٍ وتُبغضه من وجه، كمن له زوجةٌ حسناء فاجرة، فينبغي أن تُحبَّ المسلمَ لإسلامه وتُبغضُه لمعصيته، فتكون معه على حالٍ متوسطة بين الانقباض والاسْتِرسال، والتَّودد والتَّوحش، ولا تُبالغ في إكرامه مُبالغتك في إكرام من يُوافقك على جميع أغراضك، ثم يميل ذلك التوسط إلى جانب الإهانة عند غلبة الخيانة، وإلى طرف الإكرام والمجاملة عند غَلبة الموافقة، فأما ما يجري منه مجرى الهَفوة التي تَعلم أنه نادمٌ عليها، فالأَولى حينئذٍ الإغماض والسَّتر، فإذا أصر على مَعصيته فلا بد من إظهار أثر البُغْض بالإعراض عنه والتَّباعد، وتَغليظ القول له على حسب غِلَظِ المعصية وخِفَّتها، وأما في الفعل فتَقطَعُ معونته ونَصرَه، وتَسعى في إفساد أغراضه عليه، كفعل الأعداء المبغضين، ولكن فيما يفسد عليه طريق المَعصية لا فيما لا يؤثر.

بيان مراتب الذين يبغضون في الله وكيف معاملتهم: اعلم أن المخالف لأمرِ الله تعالى لا يخلو إما أن يكون مُخالفاً في عَقده، أو في عمله، والمخالف في العقد إما كافر أو مبتدع، والمبتدع إما داعٍ إلى بِدعته أو ساكتٌ إما لعجزه أو باختياره، فأقسام الفَساد في الاعتقاد ثلاثة.

الأول: الكفر، والكافر إن كان مُحارباً، فهو مستحق للقتل والإرقاق، وليس بعد هذين الأمرين إهانة، وأما الذِّمّي، فإنه لا يجوز إيذاؤه إلا بالإعراض عنه والتَّحقير له بالاضطرار إلى أَضيق الطُّرق، وبترك المفاتحة بالسَّلام، فإذا قال: السلامُ عليك. قلت: وعليك. والأَولى الكف عن مُخالطته ومعاملته ومؤاكلته، ومن المكروه الاسْتِرسال إليه والانبساط معه كما يفعل بالأَصدقاء، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

الثاني: المُبتَدع الذي يَدعو إلى بدعته، فإن كانت البدعة بحيثُ يَكفُر بها، فأمره أشدّ من الذميّ؛ لأنه لا يُقِرُّ بجزْيَةٍ ولا يُسامح بعقد ذمةٍ، وإن كان ممن لا يَكفر بها، فأمره بينه وبين الله تعالى أخف من أمر الكافر لا محالةَ، ولكن الأمر في الإنكار عليه أشدّ منه على الكافر؛ لأن شرَّ الكافر غير مُتعدٍّ، فإن المسلمين اعتقدوا كفره فَلا يلتفتون إلى قوله، إذ لا يدَّعي لنفسه الإسلام واعتقادَ الحق، فأما المبتَدع الذي يَدعو إلى البدعة، وزعم أن ما يدعو إليه حق، فهو سبب لِغوايَةِ الخلق، فَشرُّه مُتعدٍّ، فالاستحباب في إظهار بُغضه ومعاداته والانقطاع عنه وتحقيره والتَّشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه أشد، وإن سلَّم في خلوةٍ، فلا بأس بردِّ جَوابه، وإن علم أن الإِعراض عنه والسُّكوت عن جوابه يُقَبح في نَفسه بدعتَه ويُؤثّر في زَجرِه، فتركُ الجواب أَولى، وإن كان في ملأٍ، فتركُ الجواب أولى تنفيراً للناس عنه وتقبيحاً لبدعته في أعينهم. قال سُفيان الثَّوري: من صافَح مُبتدعاً فقد نقضَ الإسلام عروةً عُروةً. وقال الفُضَيل: من أحبَّ صاحب بِدعةٍ أحبطَ اللهُ عمله، وأخرجَ نورَ الإسلام من قَلبِه.

الثالث: المبتدع العامي الذي لا يقدر أن يدعو ولا يُخافُ الاقتداء به، فأمره أَهون والأولى أن يتلطف به في النُّصح، فإن قلوب العوام سَريعة التقلّب، فإن لم يَنفع النُّصح وكان في الإعراض عنه تَقبيحٌ[١] لبدعته في عينه تأكَّدَ الاستحباب في الإِعراض، وإن علم أن ذلك لا يُؤثّر فيه لجمودِ طَبعِه، ورسوخِ اعتقاده في قَلبه، فالإعراض أَولى؛ لأن البدعة إذا لم يُبالغ في تقبيحها شاعت بين الخَلق وعمَّ فسادها، وأما العاصي بفعله وبعمله لا باعتقاده، فلا يخلو إما أن يكون بحيثُ يتأذَّى به غَيره، كالظُّلم والغَصبِ وشَهادةِ الزُّور والغِيبة والمشي بالنَّميمة وأمثال ذلك، أو يكون مما لا يقتصر عليه ويُؤذي غيره، وذلك ينقسم إلى من يَدعو غيره إلى الفَساد، كصاحب الماخور[٢] الذي يجمع بين الرجال والنساء ويُهيِّئ أسبابَ الشُّرب والفَساد لأهل الفَساد، أو لا يدعو غيرَه إلى فعله، كالذي يَسرق ويزني، وهذا الذي لا يدعو غيره إما أن يكون عِصيانه بكبيرةٍ أو بصغيرةٍ، وإما أن يكون مُصرّاً أو غير مُصِرٍّ، فهذه التقسيمات يتحصل منها ثلاثةُ أقسام، ولكل قسمٍ منها رُتبة، وبعضها أشدّ من بَعض، فلا نسلك بالكل مَسلكاً واحداً.

القسم الأول: وهو أشدّها؛ ما يتضرر به الناس، كالظلم والغَصب وشَهادة الزور والغيبة والنَّميمة، فهؤلاء الأَولى الإعراض عنهم، وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم؛ لأن المعصيةَ شديدة فيما يرجع إلى إيذاء الخَلق، ثم هؤلاء ينقسمون إلى من يَظلم في الدِّماء، وإلى من يَظلم في الأموال، وإلى من يظلم في الأَعراض، وبعضها أشد من بعض، والاستحباب في إهانتهم والإعراض عنهم مُؤكَّد جداً، ومتى توقع من الإهانة لهم الزَّجر لهم ولغيرهم تأكَّدَ.

الثاني: صاحب الماخور الذي يُهيِّئ أسبابَ الفَساد ويُسهل طرقَه على الخلق، فهذا يؤذي الناس في دينهم، وذلك يقتضي الإهانة والإعراض والمقاطعة.

الثالث: الذي يَفسُق في نَفسه بشُربِ خمرٍ، أو تركِ واجب، أو مُقارفة محظور

(١) في الأصل: «يقبح».
(٢) الماخور: بيت الريبة ومجمع أهل الفِسق والفساد.

يخصه، فالأمر فيه أخف، ولكنه في وقتِ مُباشرته إن صودِفَ وجبَ منعه بما يمتنع به، فإن كان النُّصحُ يرده نَصحَ وتلطّف به، وإن كان التَّغليظُ أنفع فعل.

بيان الصِّفات المشروطة فيمن تُختارُ(١) صحبته: قد رُوِّينا عن النبي ﷺ أنه قال: «المرءُ على دين خَليله، فلينظر أحدُكم من يُخالِلْ».

واعلم أنه لا يَصلح للصحبة كل أحدٍ، ولا بد أن يتميز المصحوب بصفاتٍ وخصالٍ يرغب بسببها في صُحبته، وتشترط تلك الخصال بحسب الفَوائد المطلوبة من الصُّحبة، إذ معنى الشَّرط ما لا بد منه للوصول، ويُطلَب من الصُّحبة فوائد دينية ودُنيوية.

أما الدنياوية؛ فكالانتفاع بالمال أو الجاه أو مجرد الاستِئْناس بالمشاهدة والمحاورة وليس ذلك من غَرضنا.

وأما الدِّينية فيجتمع فيها أغراضٌ مختلفة، فمنها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من الجاه تَحصّناً به عن إيذاءٍ يُكدر القَلب ويَصدُّ عن العبادة، ومنها الاستفادةُ بالمال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القُوت، ومنها الاستعانةُ في المهمات، فيكون عدة في المصائب، وقوة في الأحوال، ومنها التَّبرُّكُ لمجرد الدعاء، ومنها انتظارُ الشفاعة في الآخرة، كما قال بعض السَّلف: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمنٍ شفاعة. فهذه فوائد تَستدعي كل فائدة شروطاً لا تحصل إلا بها.

وفي الجملة؛ فينبغي أن يكون فيمن يؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً، حَسنَ الخُلق، غير فاسقٍ، ولا مبتدع، ولا حريصٍ على الدنيا.

أما العقل، فهو رأس المال، وهو الأصل ولا خَير في صُحبةِ الأحمق، قال عليٌّ رضي الله عنه:

فلا تَصحَبْ أخا الجهلِ وإيّاكَ وإيّاهُ

(١) في الأصل: «يختار».

فــكــم مــن جــاهــلٍ أَرْدى ... حــكــيــمــاً حــيــن آخــاهُ
يُــقــاسُ الــمــرءُ بــالــمــرءِ ... إذا مــا هــو مــا شــاهُ
ولــلــشــيء عــلــى الــشــيء ... مــقــايــيــسٌ وأشــبــاهُ
ولــلــقــلــب عــلــى الــقــلــبِ ... دلــيــلٌ حــيــن يــلــقــاهُ

واعلم أن الأحمق يريد أن ينفعكَ فيضرك، ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه إما بنَفسه وإما إذا فُهِّمَ.

وأما حُسن الخلق فلا بد منه، إذ رُبَّ عاقلٍ يُدرك الأَشياء على ما هي عليه، ولكن إذا غلبه غضبٌ أو شَهوة أطاعَ هَواه وخالفَ ما هو المعلوم عنده لعجزِهِ عن قَهر الهَوى، فلا خير في صُحبته.

وأما الفاسق المصر على الفِسق، فإنه لا يَخاف الله، ومن لا يخاف الله لا تُؤمَنُ غائلتُه، ولا يوثَق بصَداقته، وقد قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجم: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان: ١٥].

وأما المُبتدع، فيُخاف من صحبته سِراية البِدعة، وقد قال عُمر بن الخطاب: عليكَ بإخوانِ الصِّدق تَعِشْ في أكنافهم، فإنهم زينةٌ في الرخاء، وعُدّةٌ في البلاء، وضع أمرَ أخيك على أَحسنه حتى يَجيئكَ[١] ما يغلبك منه، واعتزل عدوكَ، واحذَر صَديقك إلا الأَمين، ولا أمين إلا من يخشى الله، ولا تَصحب الفاجر تعلم من فُجوره، ولا تُطْلِعه على سرّك، واستشر في أمرك الذين يَخشَون الله تعالى، وقال حكيم لابنه: اصحَب من إذا صَحِبتَه زانَك، وإن خَدمته صانَكَ، وإن قعدتْ بك مُؤنةٌ مانَكَ[٢]. وقال آخر: لا تَصحب إلا مَنْ يَكتم سِرَّكَ، ويستر عَيبَك، ويؤثرك بالرغائب، ويكون معك في النوائب، ويَنشر حَسَنَك، ويَطوي سَيِّئَك، فإن لم تجده فلا تَصحب إلا نفسَك. وروي عن علي رضي الله عنه:

---

(١) في الأصل: «يحبك».
(٢) مانَه موناً: احتمل مؤونته وقام بكفايته.

إنَّ أخاكَ الصدق من كان مَعك　　ومَن يضرّ نفسه ليَنفعكْ
ومَن إذا رَيبُ الزمانِ صَدَعَك　　شَتَّتَ شملَ نفسه ليَجمعَكْ

وقال حكيمٌ: الناس أربعةٌ؛ فواحد حُلوٌ كله، فلا تَشبَع منه، وآخر مُرٌّ كلّه، فلا تَأكل منه، وآخر فيه حُموضة فَخذ منه قبل أن يَأخذ منك، وآخر فيه مُلوحة فَخُذ منه وقتَ الحاجة فقط.

وقال جعفر الصادق: لا تَصحب خمسة: الكذاب، فإنك منه على غُرور، وهو مثل السراب؛ يُقرب منك البعيد ويبعد منك القَريب، والأحمق، فإنك لستَ منه على شيء، يُريد أن ينفعك فيضرّك، والبخيل، فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجَبان، فإنه يُسلمك ونفسه عند الشدائد[1]، والفاسق، فإنه يبيعك بأكلةٍ أو أقل منها. قيل: وما أقل منها؟ قال: الطَّمع فيها ثم لا ينالها.

وأما الديانة وعدم الفسق، فإن الفاسق يهون المعصية، وأما الحريص على الدنيا، فإن الطبع يَسرق من الطبع من حيث لا يدري، فمجالسة الحريص تُحرك الحِرص، كما أن مجالسة الزاهد تُحرك الزُّهد، ومَنْ لم يجد من فيه هذه الشَّرائط فالوحدة خَيرٌ له، قال أبو ذر: الوحدة خَيرٌ من جَليس السوء، والجليس الصالح خيرٌ من الوَحدة.

---

(١) في الأصل: «الشدة».

الباب الثاني

في حقوق الأخوة والصُّحبة

اعلم أن عقد الأُخوّة رابطةٌ بين الشَّخصين، كعقدِ النكاح بين الزَّوجين، فكما أن النكاحَ يَقْتضي حُقوقاً يلزم الوفاء بها، فكذا عقد الأُخوّة، فلأخيك عليكَ ثمان حقوق.

الحق الأول: في المال، وذلك على ثلاث مراتب:

أدناها: أن تُنزِلَه منزلةَ عبدك أو خادِمك، فتقوم بحاجته من فُضول مالكَ من غير أن تُحْوِجَهُ إلى السؤال، فإن أَحْوجته إلى السؤال فذلك غاية التَّقصير في حق الأُخوة.

المرتبة الثانية: أن تُنزله منزلةَ نفسك، وترضى بمشاركته إياك في مالكَ حتى تسمح بمشاطرته مالَكَ، وفي الصحيحين من حديث أنس أن النبي ﷺ آخَى بين عبد الرحمن بن عَوف وسعد بن الرَّبيع، فقال سعدٌ لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم مالي نصفين، وليَ امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فَسَمِّها لي أُطلِّقها، فإذا انقضَتْ عِدَّتها فتزوَّجها. فقال: بارَكَ اللهُ لكَ في أهلك ومالِكَ، أينَ سوقكم؟ فدلّوه على السوق فما انقلب إلا ومعه فَضلٌ من أَقِطٍ وسَمن.

المرتبة الثالثة: وهي العُليا أن تُؤثره على نَفسك، وتُقدّم حاجتَه على حاجتك، وهذا مُنتهى دَرجات المتحابّين، وقد رُوّينا أن أَخَوين في الله تعالى جَازا في بَرّية، فإذا سَبُعٌ، فقال أحدُهما للآخر: قِفْ حتى أَمضي أنا فيشتغل بي عنك، فقال: والله ما تَطيبُ نفسي. فَمرّا جميعاً، فلم يَعرِض الأسد لهما.

واعلم أنه إذا لم تكُنْ مع أخيك في بعض هذه الرُّتَب الثلاثة، فاعلم أن عقدَ الأُخوّةِ لم يَنعقد بعدُ في الباطن، وإنما الجاري بينكما مُخالطةٌ رَسمية لا وَقع لها.

قال الحسنُ البَصري: كنّا نَعد البَخيل الذي يُقرض أخاه، وليس من المروءة أن يربح الرجل على صديقه.

وكان مُوَرِّق العِجْلي يَأتي بالصُّرَّة فيها الأربع مئة والخمس مئة فَيودِعُها الأَخ من إخوانه ثم يلقاه بعد فيقول: انتفع بها فهي لك. وروينا أن مَسروقاً ادَّانَ دَيناً ثَقيلاً، وكان على خيثمة دَينٌ، فذهب مسروق فقضى دين خَيْثمةَ وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فَقضى دين مَسروق وهو لا يعلم.

ودخلوا على الحسن وهو نائم فجعلَ بعضُهم يأكل من فاكهةٍ في بيته فانتبه، فقال: رحمكَ الله، هذا والله فعل الإخوان.

وقال أبو جعفر الباقر لأصحابه: أَيُدخِلُ أَحدُكم يدَه في كُمِّ أخيه فيأخذُ ما يُريد؟ قالوا: لا. قال: فلستُم بإخوان كما تَزعمون. وَوَرِثَ خيثمةُ مئةَ[1] ألف فأنفقها على إخوانه، وكان بعضُ السلف يقول: إنّي لأَستحي من الله أن أسأل اللهَ الجنَّة لأخٍ من إخواني وأبخلُ عليه بدينارٍ أو درهم. وجاءَ رجلٌ إلى صديقٍ له فأخبره بدينٍ عليه، فدخل إلى بَيته فوزَنَ له أربع مئة دينار[2] ثم خرج فأعطاه ثم دخل باكياً، فقالت له زوجته: هلَّا تعلَّلتَ عليه إذا كان إعطاؤه يَشقُّ عليك. فقال: إنّما أبكي لأني لم أَتفقد حالَه، فاحتاج أن يقول لي ذلك. وقال[3] أبو سُليمان الدّاراني: لو أن الدنيا كلها لقمة ثم جاءني أخٌ لي لأحببتُ أن أَضعها في فيه. وقال يَحيى بن مُعاذ: بئسَ الصديق صديقٌ تحتاج أن تقول له: اذكُرني في دُعائِكَ، أو أن تَعيشَ معه بالمُداراة، أو تَحتاج أن تعتذر إليه. أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا حَمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نعيم الأصفهاني قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أحمد بن محمد بن عمر قال: حدثنا أبو بكر بن سُفيان قال: حدثنا رياح بن الجراح العَبْدي قال: جاء فَتْح الموصلي إلى صَديقٍ له يُقال له: عيسى التَّمار، فلم يجده في المنزل، فقال للخادم: أَخرِجي إليَّ كيسَ أخي. فأخرجَتهُ، فأَخذ منه درهمين،

(١) في (ظ): «مئتا».
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) تحرفت في الأصل إلى: «وكان».

وجاء عيسى إلى مَنزله، فأخبرته الجارية بمجيء فَتحٍ وأخذِه الدِّرهمين فقال: إنْ كنتِ صادقةً فأنتِ حُرَّة. فنظر فإذا هي صادقة، فَعتقت.

الحق الثاني: في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها، وهذه أيضاً لها درجات، كما أن للمواساة بالمال درجات، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة لكن مع البَشاشة والاستِبْشار، وأوسطها القِيام بالحوائج لا عن سؤال، وأعلاها تقديم حوائجه على حوائج النَّفس، وقد كان في السلف مَن يتفقَّد عيال أَخيه بعدَ موته أربعين سنةً يقوم بحوائجهم. واعلم أن هذا التفقُّد ثمرةُ الشَّفقةِ، والشفقةُ ثمرةُ الأُخوة، فإذا لم تُثمر الأُخوة شفقةً، فليست أُخوة، ومِنْ تَمام الشَّفقة تَنَغُّصُ العيش في المَلذوذ عندَ فقد الأَخِ، والاسْتيحاشُ له عند الانفراد بذلك.

الحق الثالث: على اللّسان بالسكوت تارةً، وبالنطق أخرى، أما السكوتُ؛ فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في حَضرته وغَيبته، وعن الرد عليه ومماراته ومنافسته، وعن السؤال عن ما يكره ظهوره من أحواله، ولا يسأله إذا لقيه: إلى أين؟ فربَّما لم يرد إعلامه بذلك، وأن يكتم أَسراره ولو بعد القَطيعة، ولا يَقدح في أحبابه وأهله، ولا يُبلِغه قَدحَ غيره فيه، فإن الذي سَبَّكَ مَنْ بَلَّغك، وقد كان النبي ﷺ لا يُواجه أحداً بشيءٍ يكرهه، بل ينبغي أن لا يُخفي ما يَسمع[1] من الثَّناء عليه، فإن السرور بذلك يَحصل من المُبلِّغ ثم من القائل، وإخفاءُ ذلك من الحَسَد.

وفي الجُملةِ ينبغي أن يَسكت عن كل كلامٍ يكرهه إلا إذا وجبَ عليه النُّطق في أمر بمعروفٍ ونهيٍ عن مُنكر، ولم يجد رخصةً في السكوت، فإن مواجهته بذلك إحسان إليه في المعنى، وإن كان أساء في الظاهر، فأما ذكرُ مَساوئه وعُيوبه فهو من الغيبة، وذلك حرامٌ، وينبغي أن يَرُدَّ عن ذلك شَيئان، أحدهما: مُطالعة أحوال النفس، فإنك سترى فيك مَذموماً، وقَدِّرْ أنه عاجزٌ عن قَهرِ نفسه في تلك الخصلة الواحدة، كما أنك عاجز فيما أنت مُبْتَلى[2] به، و: أيُّ الرجالِ المهذَّبُ.

(١) في الأصل: «ما لا يسمع».
(٢) تحرفت في الأصل إلى: «صلى».

والثاني: أن تعلم أنك لو طلبتَ مُنزهاً عن كل عَيبٍ لم تَجد، وما أحدٌ إلا له محاسن ومَساوئ، فإذا غلبت المحاسنُ فهو الغاية، قال ابنُ المبارك: المؤمنُ من يَطلب المعاذير، والمنافق يطلب العَثَرات. وقال الفُضَيل: الفُتوّة: الصفح عن زَلّات الإخوان.

وكما أنه يجب عليك السكوت بلسانك عن مساوئه يجب عليك السكوتُ بقلبك، وذلك بتركِ إساءة الظن به، وذلك بأن تحمل أفعاله على الحسن مهما أمكن، وأما ما انكشفَ بيقينٍ ومشاهدةٍ فاحمله (١على سَهوٍ١) ونسيانٍ ما أمكنَ.

واعلم أن سوءَ الظنِّ به ينقسم إلى ما يُسمى تَفرُّساً، وهو الذي يَستند إلى علامةٍ، فإنّ ذلك يُحرك الظن تحريكاً ضرورياً لا يمكن دفعه، وإلى ما مَنْشَؤُه سوء اعتقادكَ فيه، فإذا صدر منه فعلٌ له وَجهان حملكَ سوءُ الاعتقاد على أن تُنزِلَه على الوَجه الرَّديء من غير علامةٍ تُخصصه به، وذلك جناية عليه بالباطن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إيّاكم والظّن، فإن الظنّ أكْذب الحَديث».

واعلم أن سوءَ الظن يدعو إلى التَّجسس، وقد قال عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تَقاطعوا ولا تَدابروا وكونوا عِباد الله إخوانا».

واعلم أنَّ سَتر العيوب والتغافل عنها شِيمةُ أهل الدين، ويكفيك في هذا أنك تدعو فتقول: يا مَن أظهرَ الجميل وستَر القَبيح. فالمرضي عند الله تعالى من تخلّق بأخلاقه.

واعلم أنه لا يكمل إيمانُ المرء حتى يُحبّ لأخيه ما يُحب لنفسه، وأقل درجات الأخوة أن يعامل أخاه بما يحب أن يعامله به، ولا شك أنك تَنتظر من أخيك أن يَستُر عورتَك، وأن يسكتَ عن مَساوِئك، فلو ظهر لكَ منه ضدّ ذلك اشتد غيظك، فكيف تنتظر منه ما لا تَعزِم عليه له ومتى التمستَ من الإنصاف ما لا تسمح به دخلت في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣]. ومَنشأ التَّقصير في سَتر العورة أو

(١-١) سقط من الأصل.

السَّعي في كشفها الحقد والحَسد، فإنّ الحقود الحسود يَمتلئ باطِنه بالخُبث، ولكنه يحبسه في باطنه ويُخفيه ما لم يجد له مجالاً، فإذا وجدَ فرصةً رشَح الباطنُ بخبثه الدّفين، ومتى انطوى الباطن على حقدٍ وحَسدٍ كان الافتراق أَولى من الاجتماع.

ومن ذلك أن يسكتَ عن إفشاءِ سرِّه الذي استودَعه، وفي أفراد البخاري من حديث أبي بكر الصديق أنه قال: لم أكُن لأُفشيَ سرَّ رسولِ الله ﷺ. وفي الصحيحين من حديث أنسٍ قال: قلتُ لأمي: بعثني رسولُ الله ﷺ في حاجةٍ قالت: وما هي؟ قلت: سِرٌّ. قالت: احفَظ على رسولِ الله سِرَّه. وفي حديث جابرِ بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حَدَّثَ الرجلُ ثم التفتَ فهي أمانةٌ». وقالَ العباس لابنه عبد الله: إني أرى هذا الرجل يُقدّمكَ ـ يعني: عمر ـ فلا تُفشِينَّ له سِراً. وقال عَمرو بن العاص: ما وَضعتُ سِرّي عند أحدٍ فلُمتُه على إفشائه، وكيف أَلومه وقد ضِقْتُ به ذرعاً. وقال الحسنُ البَصري: من الخيانة أن تُحدِّثَ بسرِّ أخيك. وقال ذو النُّون: لا خَيْرَ في صُحبةٍ من لا يُحب أن يَراكَ إلا معصوماً، ومن أَفشى السِّرَّ عند الغَضب فهو اللَّئيم؛ لأن إخفاءَه عند الرِّضا تقتضيه الطِّباع السليمة كلها. وقيل لأبي يَزيد: مَن نَصحَبُ؟[1] قال: مَن يعلمُ منكَ ما يَعلمه الله ثم يَستُر عليك كما يَستر الله عزَّ وجل. وقال بعضُ الحُكماء: مَن ارتادَ لسرِّه فقد ضَيَّعه، وما كنت كاتِمه من عَدوّكَ فاكتُمه من صَديقك. وقيل لأَعرابي: كيف كتمانك للسرِّ؟ فقال: أَلْتَحِفُ عليه التِحافَ الجناحِ على الخَوافي. وقال ابنُ المعتز:

ومُستَودعي سِراً تَبوَّأتُ كَتْمَهُ ... فأودعتُه صَدْري فَصار له قَبْراً

فعارضَه آخر[2] فقال:

وما السِّرُّ في صَدري كثاوٍ بقَبرِهِ ... لأني أرى المَقبورَ ينتظر النَّشْرا
ولكنني أنساه حتى كأنّني ... بما كانَ منه لم أُحِطْ ساعةً خُبرا
ولو جازَ كَتْمُ السرِّ بيني وبَينه ... عن السِّرِّ والأَحشاء لم تَعلم السرَّا

---

(١) في الأصل: «يصحب».
(٢) هو محمد بن داود الأصبهاني كما في الإتحاف ٧/ ١٠٢.

ومن ذلك: السكوت عن المُماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به الأخ، رَوى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَستكمل عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يَدَع المِراء وإن كان مُحقاً». واعلم أن أشدَّ الأسباب لإثارةِ الحقدِ بين الإخوان المُماراةُ، ولا يَبعث عليها إلا إظهار التَّمييز بزيادة الفَضل والعقل واحتقار المردود عليه، ومن مارى أخاهُ فقد نَسَبه إلى الجهل والحُمق، أو إلى الغَفْلة والسَّهو عن فَهم الشيء على ما هو عليه، وكل ذلك استحقارٌ، وهو يُوغِرُ الصَّدر، ويوجب المُعاداة، وهي ضد الأُخوَّة.

الحق الرابع: على اللِّسان بالنُّطق، فإنّ الأخوَّة كما تقتضي السكوت عن المكروه تقتضي النُّطق بالمحبوب، بل هو أخص الأُخوة؛ لأن من قَنع بالسكوت صَحِبَ أهلَ القُبور، وإنما يُراد الإخوان ليُستفاد منهم لا ليتخلَّص من أذاهم؛ لأن السكوت معناه كف الأذى، فعليه أن يتودَّد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله، ويسأله عما عرضَ له، ويُظهر شغل قلبه بسببه، ويُبدي السرور بما يُسرُّ بِهِ، وفي حديث المِقدام بن مَعدي كَرِب عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحبَّ أحدكم أخاه فليُعلمه». رواه الترمذي وصححه. وأخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا زَيد[1] ـ يعني ابن الحُباب ـ قال: حدثني حُسين بن واقد قال: حدثني ثابت البناني قال: حدثني أنس بن مالك قال: كنتُ جالساً عند رسول الله ﷺ إذْ مرَّ رجلٌ فقال رجل من القوم: يا رسول الله، إني لأحب هذا الرجل. قال: «هل أَعلمتَه ذلك؟» فقال: لا. فقال: «قم فأَعلمه» فقام إليه فقال: يا هذا والله إني لأُحبك في الله عز وجل. قال: أحبَّكَ الذي أَحببتني له. وإنما أمره بإعلامه؛ لأنه إذا علم بحب هذا أحبه، والتحابُّ بين المؤمنين مطلوبٌ شرعاً، وفي أفراد مسلمٍ من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نَفسي بيده لا تَدخلوا الجنةَ حتى تُؤمنوا، ولا تُؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلا أَدُلّكم على شيءٍ إذا فَعلتموه تحاببتم؟ أَفْشوا السَّلامَ بينكم». ومن ذلك أن يدعوه

---

(١) تحرف في (ظ) إلى: «يزيد».

بأحبِّ أسمائه إليه، (١وقال عمر بن الخطاب: ثلاثٌ يُصفّينَ لكَ وُدَّ أخيك: تُسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحبِّ أسمائه١).

ومن ذلك أن تُثنيَ عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يُؤثر هو الثّناء عنده، فإن ذلك من أعظم الأَسباب في جلب المحبة، وكذلك الثَّناء على أولاده وأهلِه وأفعاله حتى على خُلُقه وعَقله(٢) وهَيأتِه وخَطِّه وتَصنيفه وجميع ما يفرح به من غير إفراطٍ ولا كذبٍ، وآكد من ذلك أن تُبلغه ثناءَ من أَثنى عليه مع إظهار الفَرح به، فإن إخفاء ذلك محضُ الحسدِ، ومن ذلك أن تَشكره على صَنيعته في حقك، بل على نِيته وإن لم يُتمم، فإن من لم يَحمَد أخاه على حُسن نيته لم يحمده على حُسن الصَّنيعة.

وأعظمُ من ذلك تأثيراً في جلبِ المحبة الذَّبُّ عنه في غَيبته إذا قُصِدَ بسوءٍ، فحق الأُخوة التَّشمير في الحماية والنُّصرة وتَبكيت المُغتاب، فالسكوت عن ذلك تَقصيرٌ في حق الأُخوة، وموجبٌ لتنفير القلب، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلمُ أخو المسلم لا يَظْلمه ولا يُسْلمه». ومعلومٌ أن إهماله للذبِّ عن عِرضه إسلامٌ له، وأخسس بأخٍ يراك والكلاب تمزق لحمك فلا تحركه الشفقة للذبّ عنك، ومعلومٌ أن تمزيق العِرض أشدّ من تمزيق اللّحم، ولك في ذلك معياران: أحدهما: أن تُقَدِّرَ أن الذي قيل فيه قد قيلَ فيك، وهو حاضر، فتقول: ما تُحبُّ أن يَقولَه. والثاني: أن تُقدّر أنه حاضرٌ من وراء جدار يتسمَّع عليك، فما تَحرَّكَ في قَلبك من نُصرته في حضوره ينبغي أن يتحرك في غَيبته، ومن لم يكن مخلصاً في إخائه فهو منافق ومن لم يُحَقِّق في هذا الأمر فالعزلة أولى به من المخالطة.

ومن ذلك التعليم والنَّصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإذا كنت غنياً بالعلم فواسِهِ وأرشِده، فإن أرشدته فلم يعمل بمُقتضى ذلك فَعليك نُصحه بأن تبين له قبح فِعله وتُحسن له الحَسَن، إلا أن ذلك ينبغي أن يكون

(١-١) سقط من الأصل.
(٢) سقطت من (ظ).

في سِر، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عز وجل يُدني المؤمنَ فيضع عليه كَنَفه ويَستُره من الناس ويُقرّره بذُنوبه ويقول له: أتعرف ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قَرَّره بذنوبه ورأى في نَفسه أنه قد هلكَ قال: فإني قد سَترتُها عليك في الدنيا، وأنا أَغفرها لك اليوم». وقيل لمِسْعَر: أتُحب أن يخبرك أحدٌ بعيوبك؟ فقال: إن كانَ ناصحاً فنعم، وإن كان يُريد أن يُؤنِّبني فلا. فالفرقُ بين التَّوبيخ والنَّصيحة الإعلانُ والإسرار، كما أن الفرقَ بين المُداراة والمُداهَنَة بالغرض الباعث على الإغْضاء، فإن أغضيتَ لسلامةِ دينك ولما تَرى فيه من إصلاح[1] أخيك بالإغضاء فأنتَ مُدارٍ، وإن أغضَيتَ لحظِّ نفسكَ واجْتِلاب شَهواتك وسَلامة جاهك، فأنت مُداهنٌ.

فإن قلتَ: ذكرُ العُيوب يوحِشُ القلوب[2] فيؤثر في الأُخوة.

قلنا: إنما أَمرناك أن تُنبِّههُ على ما قد خَفي عنه، إما مِنْ خَطأ ظاهرٍ قد خَفيَ عنه قُبح إيثاره له، أو من زَللٍ باطنٍ لا يدري به، فتكون كمن حذَّر شخصاً من عقربٍ تحتَ ذَيله، وذلك ينبعث من الشفقة ويزيد في الأُخوة عند العُقلاء، وقد رُوي عن عمر أنه كان يقول: رحمَ الله امرءاً أَهْدَى إلينا عُيوبنا. وكتب حُذَيفة المَرعَشي إلى يوسف بن أَسْباط: بلغني أنكَ بعتَ دينك بِحبَّتين وقفتَ على صاحب لبنٍ[3] فقلتَ: بكم هذا؟ فقال: بسُدسٍ. فقلتَ له: لا بل بثُمنٍ. فقال: هوَ لكَ، وكان يعرفُكَ. اكشِفْ عن رأسِكَ قِناعَ الغافلين، وانتبه من رَقْدَةِ الموتى.

الحق الخامس: العَفو عن الزَّلات، فإن كانت زلّته في دينه فتلطَّف في نُصحه مهما أمكن، ولا تَترك زَجره ووَعظه، فإن أبى فالمُصارَمَة، ولا تكون إلا إذا لم يبق حيلة؛ لأن المقصود رَدعُه بالتَّلطف والاحتيال، فإذا لم يَنجح كانت المصارمة الرادعة، فقد رُوي أن بعض القُدماء مال عن الاستِقامة، فقيل لأخيه: ألا تَهجره؟

---

(١) في الأصل: «إسلام».
(٢) في الأصل: «القلب».
(٣) تحرفت في (ظ): إلى: «لي».

فقال: أَحوج ما كان إليّ الآن، آخُذ بيده وأتلطَّفه في المعاتبة. وحُكيَ أن أَخَوين عابدين في بني إسرائيل رأى أحدُهما امرأةً فأحبّها فواقَعها وأقام عندها واستَحى أن يرجع إلى أخيه، فافتقده أخوه وسَأل عنه، فدُلَّ عليه فدخل إليه وهو عندها فاعتَنَقه وجعل يُقبله، فأنكره الآخَرُ، وقال: لا أعرفكَ. لقوة استحيائه منه، فقال: قُمْ يا أخي فقد علمتُ شأنكَ وما كنتَ قَطّ أحبّ إليّ ولا أعزَّ عندي من ساعتك هذه. فلما رأى أن ذلك لم يُسقِطه من عينه قامَ فانصرفَ معه.

وإن كانت الزلَّة في حق الأخ مما يوجب إيحاشَه فَالأولى العَفو والاحتمال وإقامة الأعذار، فإذا رأيتَ قلبك لا يقبل العُذرَ فقل له: أنتَ المَعيب لا هُو. قال الشاعر:

خُذْ مِنْ خَليلكَ ما صَفا ... دون الذي فيه الكَدَر
فالعمرُ أقصرُ مِنْ مُعا ... تَبةِ الخليلِ على الغِيَر

وقال آخر:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلمُّه ... على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ

وإذا رأيت ذلك التَّجني يتسلَّق إلى المودّة فيُشعِّثها فتلطَّف في عِتابه سراً.

الحق السادس: الدُّعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما تَدعو به لنفسك، ولا تُفرق بينكَ وبينه في ذلك، وفي أفراد مسلم من حديث أبي الدّرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «دَعوةُ المرءِ المسلم لأَخيه بظهرِ الغَيب مُستجابة، عند رأسه مَلكٌ موكّل كلّما دَعا لأخيه بخيرٍ قال الملك الموكّل به: آمين، ولك بمثل». وقد كان أبو الدرداء يَدعو لخلق كثيرٍ من إخوانه يُسمّيهم بأسمائهم، وكان الإمام أحمد بن حنبل يدعو في السَّحَر لستّةِ نَفرٍ.

وأما الدّعاء بعد الموتِ، فقد قال عَمرو بن حُرَيث[1]: إذا دَعا العبدُ لأخيه الميت أتى بها مَلكٌ قَبرَه، فقال: يا صاحبَ القبرِ الغَريب هذه هديةٌ من أخٍ عليك شَفيق.

---

(١) تحرفت في النسخ إلى: «جرير».

الحق السابع: الوَفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء الثبات على الحب، وإدامته إلى الموت، وبعد موت الأخ مع أولاده وأصدقائه؛ لأن الحب إنما يراد للآخرة ولا وجه لانقطاعه، وقد أكرم النبي ﷺ عجوزاً، وقال: «إنها كانت تَغْشانا في أيام خَديجة وإنَّ حُسنَ العهدِ من الإيمان». ومن الوفاء أن لا يتغيَّر على أخيه في التواضع وإن ارتفع شأنُه، واتسعت ولايته، وعَظُمَ جاهُه، وقد روى الربيع عن الشافعي أنه آخَى رجلاً ببغداد فَوليَ السِّيبَيْنِ[1]، فتغير له عما كان عليه، فكتب إليه الشافعي:

اذهبْ فودُّكَ من فؤادي طالقٌ ... أبداً وليسَ طلاقُ ذاتِ البَيْنِ
فإن ارعويتَ فإنها تَطليقةٌ ... ويَدومُ وُدّكَ لي على ثِنْتَينِ
وإن امتنعتَ شَفعتُها بمثالها ... فتكون تطليقين في حَيضَينِ
فإذا الثلاثُ أتَتْكَ مني بَتَّةً ... لم تُغنِ عنكَ ولايةُ السِّيبَيْنِ

واعلم أنه ليس من الوَفاء موافقة الأخ فيما يخالف الدّين، فقد كان الشافعي آخَى محمدَ بن عبد الحكم وكان يُقربه ويُقبل عليه، فلما احتُضِرَ قيل له: إلى من نَجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فاستشرفَ له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليؤمئَ إليه فقال: أبو يعقوب البُوَيطي. فانكسَر لها محمد، مع أن محمداً كان قد حَمل عنه مذهبه، لكن البويطي كان أقرب إلى الزُّهد والوَرَع فَنَصحَ الشافعيُّ المُسلمين وتركَ المُداهَنَة فانقلبَ ابنُ عبدِ الحكم عن مَذهبَ الشافعي وصار من أصحاب مالكٍ.

ومن الوفاء الجزع من مُفارقة الأخ، كما قال الشاعر:

وَجدتُ مُصيبات الزمانِ جَميعها ... سوى فُرقَة الأحباب هَيِّنةُ الخَطْبِ

وقال معروف الكَرْخي: لو أحببتُ أحداً لم أُحب مفارقته ليلاً ولا نهاراً، ولزُرته في كل وقتٍ، ولآثرتُه على نفسي في كل حالٍ.

---

(١) السِّيبين: هما السيب الأعلى والسيب الأسفل، اسم كورةٍ بالعراق.

ومن الوفاء أن لا يَسمع بلاغات الناس على صديقه، ولا يُصادق عدوَّ صديقهِ، قال الشافعي: إذا أطاع صديقُكَ عَدوَّك، فقد اشتَركا في عَداوتِكَ.

الحق الثامن: التخفيف، وترك التكلُّف والتكليف، وذلك بأن لا يكلّفَ أخاه ما يشقّ عليه، بل يُرَوِّحُ سِرَّه عن مُهماته وحاجاتِه، ولا يستمد من جاهِهِ ولا ماله، ولا يكلفه التَّفقد لأحواله والقيام بحقوقِه[1]، ولا التواضع له، بل يكون قَصده بمحبتهِ اللهَ تعالى وَحده، والتَّبركَ بدعائه، والاستئناسَ بلقائه، والاستعانة به على دينه، و التقرُّبَ إلى الله بالقيام بحقوقه، وتمامُ التَّخفيف طَيُّ بساطِ الاحتِشام حتى لا يَستحي منه فيما لا يستحي فيه من نفسه، قال جعفر بن محمد: أَثقل إخواني عليَّ من يتكلّف لي وأتحفَّظ منه، وأخفُّهم على قَلبي من أكونُ معه كما أكون وَحدي. وقال يوسفُ بن الحُسَين: قلتُ لذي النُّون: مَن أَصْحَب؟ قال: مَنْ إذا أذنبتَ تاب. وقال بعضُ الحكماء: مَن سقطت كُلفته دامت أُلفته.

ومِن تمامِ هذا الأمر أن تَرى الفضلَ لإخوانك عليك، فتكون لهم على نَفسك لا لنفسك عليهم، فَتُنزل نفسك معهم مَنزلة الخادِم، وتَنظر إلى محاسنهم لا إلى عُيوبهم فإنْ أبصرتَهم بعَينِكَ نظرتَ إليهم نظر مودَّة، وإذا سمعتَ كلامهم سمعتَهُ متلذِّذاً به مُسْتبشراً من غير أن تَقطعه عليهم ولا تعارضهم فيه، ولا تَقبض يدك عن معاونتهم، وأن تمشي وراءهم مشي الأَتباع، ومتى تَمَّ الاتحاد خَفَّت هذه الحقوق وانْطَوى بساط التكلُّف.

خاتمة لهذا الباب نذكر فيها جملة من آداب المعاشرة للخلق:

مِنْ حُسنِ المعاشرة أن تَتوقَّر في غير كِبَر، وتَتَواضع في غير ذِلَّة، وأن تَلقى الصديقَ والعدوَّ بوجه الرضا من غير ذُلٍّ لهم ولا خوف منهم، وتَحفَّظْ في مجالسك من تَشبيكِ أصابعكَ، والعَبث بلحيتك وخاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال إصبعك في أنفك، وكثرة بُصاقِكَ، وطَرد الذباب عن وَجهك، والتَّثاؤب[2]، وأصغِ إلى من

---

(١) في الأصل: «لحقوقه».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «الثياب».

حَدَّثكَ، ولا تسأله الإعادة، ولا تَحَدَّثْ عن إعجابك بوَلدك وجاريتك وتَصنيفك، ولا تَتصنَّع تَصنُّعَ المرأة في التزيّن، ولا تَبذَّل تَبذُّل العَبد، ولا يَعلم أهلُكَ فضلاً عن غيرهم مقدار مالك، فإنهم إن رأَوه قليلاً هُنتَ عندهم، وإن كان كثيراً لم تبلغ رضاهم أبداً، وخَوِّفْهُم من غير عُنف، وَلِنْ لهم من غير ضَعف، ولا تُهازل أَمتَك وعبدَكَ فيسقط وَقارك، ولا تُكثر الالتفاتَ إلى ما وراءك، ولا تُجالس السُّلطان، فإن فعلت فاحذر الكذبَ والغيبة، وصُنْ سِرَّهُ، واحذَرْ الدُّعابة عنده، وتَحفَّظ من الجُشَاءِ بحضرته والتَّخلُّل، فإن قَرَّبكَ فكُن منه على حَذَر، وإن استرسَل إليك فلا تَأمَن انقلابه عَليك، وارفق به رفقَك بالصَّبي، وكلِّمه بما يَشتهيه، ولا تَدخل بينه وبين أهله وحَشَمه، فإنها زَلَّةٌ لا تُقال، وربما احتملَ الملكُ كلَّ شيءٍ إلا إفشاء السِّر والقدح في الملك والتَّعرض للحُرَم، وإياك وصديقَ العافية، ولا تجعل مالكَ أكرمَ من عِرضك، وإذا دخلتَ مجلساً فاجلسْ فيما هو أقرب إلى التَّواضع، ولا تجلس على الطريق فإن جلستَ فَغُضَّ البصر، وانصُرِ المظلومَ، وأرشد الضَّالَّ، ولا تبصُق في جِهة القِبلة، ولا عن يَمينك لكن عن يسارك تحت قَدمك اليسرى، واحذر مُجالسة العوام، فإن فعلتَ فبالتَّغافل عن ما يَجري من سوء أخلاقهم، وترك الخوض في حديثهم، واحذر المُزاح فإنَّ اللبيب يَحقدُ عليك في المزاح، والسَّفيه يَجترئ عليك.

الباب الثالث

في حقوق المسلم والرَّحم والجِوار والملك وكَيفية المعاشرة مَع من يُدلي بهذه الأسباب

اعلم أنه لا بد للإنسان من مُخالطةِ جنسه، فيتعين لذلك أدب المُخالطةِ، وأدب الخَليط على قدرِ حَقه، وحقّه على قَدرِ الرابطةِ التي بها وقَعت المُخالطة، والرابطة إما القَرابة، وهي أخصها، أو أُخوّة الإسلام، وهي أعمها، أو الجِوار، أو صُحبة السَّفر، أو الدرس، أو الصداقة والأُخوة، ولكل واحدةٍ من هذه الروابط دَرجات، فالقرابة لها حق، ولكن حق الرَّحم المحرم آكَد، وللمحرم حقٌّ ولكن حق الوالدين آكد، وكذلك حق الجار يَختلف بحسب قُربه من الدار وبُعدِه.

ويَتأكّد حق المسلم بتأكد المعرفةِ، والتعلم آكَدُ من حقِّ صُحبة السَّفر، وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أُخوة، فإن ازدادت صارت محبةً، فإن ازدادت صارت خلّةً. والمحبةُ ما يتمكّن من حَبَّةِ القَلب، والخلّة ما يتخلّل جميع أجزاء القَلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» يشير إلى أنه لم يكن يَستوعب قلبه سوى حُب الله عز وجل، وقد اتخذ علياً أخاً فقال له: «أما تَرضى أن تكونَ منّي بمنزلة هارونَ من موسى إلا أنّه لا نَبيَّ بَعدي» فعدل بعلي عن النّبوة، كما عدل بأبي بكرٍ عن الخلّة، فقد شارك أبو بكر علياً في الأُخوة وزاد عليه بمقُاربة الخلَّة وأهليته لها لو كان للشركة في الخلّة مجال، وليس قبل المعرفة رابطةٌ، ولا بعدَ الخلّةِ درجة، وما سواهما من الدّرجات بينهما.

وقد ذكرنا حقَّ الصُّحبة والأُخوة، ويدَخل فيه ما وراءهما من المحبة والخلّة، وإنما تَتَفاوت الرُّتَب في تلك الحقوق كما سبق بحسبِ تفاوتِ رُتَبِ الأُخوة والمحبة حتى يَنتهي أقصاها إلى أن يوجب الإيثار بالنَّفس والمال، كما آثر أبو بكرٍ

رسولَ الله ﷺ بالسَّلامة حين سَدَّ ثُقبَ الغار برجله، وآثره طَلحةُ بنُ عُبيد الله حين وَقَاه بيده، وكان عَمرو بن قَميئة قد عَلا رسولَ الله ﷺ فَضربه بالسيفِ على شِقِّه الأيمن يوم أحد فاتَّقاه طلحةُ بيده فَشَلَّتْ يده.

ونحنُ الآن نذكر حقَّ أُخوّةِ الإسلام، وحقَّ الرَّحِم، وحقَّ الوالدين، وحق الجِوار، وحق المِلكِ يعني: ملك اليَمين فإن ملك النكاح قد تَقدَّم في كتابه.

حقوق المسلم: يُسلّمُ عليه إذا لَقِيه، ويُجيبه إذا دَعاه، ويُشَمِّته إذا عَطَس، ويَعودُه إذا مِرضَ ويَشهدُ جنازته إذا ماتَ، ويبرُّ قَسمه إذا أَقسمَ عليه، وينصحُ له إذا استَنصحه، ويَحفظه بظهر الغَيب إذا غاب، ويحب له ما يُحبّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وجميع هذا منقولٌ في الآثار، وقد أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن مُصعب قال: حدثنا الأَوزاعي عن الزُّهري عن سَعيد بن المسيّب عن أبي هُريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «حَقُّ المسلمِ على المسلمِ خَمسٌ: يُسلم عليه إذا لَقيه، ويُشمِّته إذا عَطَس، ويَعودُه إذا مَرض، ويَشهد[1] جنازته إذا مات، ويجيبه إذا دَعاه» أخرجاه في الصحيحين، ورواه مسلم في أفراده فقال فيه: «حقُّ المسلمِ على المسلم سِت فزاد: وإذا استَنصحك فانْصَح له».

ومن الحقوق العامة أن يُحب للمسلمين كافةً ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه؛ لأن المسلمين كالجَسدِ الواحد، وفي الصحيحين من حديث النُّعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثلُ المؤمنين في تَوادّهم وتَراحُمهم وتَعاطفهم مثل الجَسَدِ إذا اشتكى منهُ عُضو تَداعى له سائِر الجَسَدِ بالسَّهر والحُمى». وفي الصحيحين من حديث أنسٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يُؤمن عبد حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه». وفيهما من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمنُ للمؤمن كالبُنْيان يَشُدُّ بعضُه بعضاً» وشَبَّك بين أصابِعِه.

---

(١) في (ظ): «يُشيع».

ومنها: أن لا يُؤذي أحداً من المسلمين بفعلٍ ولا قول، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى قال: قالوا: يا رسولَ الله أي المسلمين أفضل؟ قال: «مَن سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لِسانِهِ ويَدِه». وفيهما من حديث عبد الله بن عمرو [(١] عن النبي ﷺ أنه قال: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لِسانه ويَدِه» [١)]. وفي أفراد مُسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لقد رأيتُ رجلاً يتقلَّبُ في الجنة في شَجرةٍ قَطعها عن الطريق كانت تُؤذي الناس». وفي أفراده من حديث أبي بَرْزَةَ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، عَلِّمني شَيئاً أَنتفع به. قال: «اعزل الأَذى عن طَريق المسلمين» وقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحلّ لمسلمٍ أن يُروّعَ مُسلماً».

ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يَتكبَّر عليه، وفي أفراد البخاري من حديث أنس قال: إنْ كانت الأَمَةُ من أهلِ المدينة لَتَأخُذُ بيدِ رسولِ الله ﷺ فتَنطلق به في حاجتها حيثُ شاءت.

ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض، ولا يُبلغ بعضهم ما يسمع من بَعض، وفي الصحيحين من حديث حُذَيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَدخل الجنَّة قَتَّات» وفي لفظٍ: «نمام». وفي الصَّحيحين من حديث ابنِ عباس عنه أنه مَرَّ بقَبرينِ فقال: «إنهما ليُعذَّبان، وما يُعذَّبان في كبير؛ أما أحدُهما فكانَ لا يَستبرِئُ منْ بَولِه، وأما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنَّميمة».

ومنها أن لا يزيد في الهجرة لمن يَعرفه على ثلاثة أيام، وفي الصحيحين من حديث أبي أيوب وأنس كِلاهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أَخاه فوق ثلاثٍ، يلتقيان فَيصدُّ هذا ويَصدُّ هذا، وخَيرهما الذي يَبدأ بالسَّلام». وفي أفراد مسلم من حديثِ أبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أبوابَ الجنة تُفتَحُ يوم الاثنين والخَميس، فيغفر لكل عبدٍ لا يُشركُ بالله شيئاً، إلا رجل بينَهُ وبين أخيه شَحْناء فيُقال: أَنظِروهُما حتى يَصْطَلِحا. مرَّتين». وفي حَديث أبي خِراش السُّلَمي

(١ـ١) سقط من: (ظ).

عن النبي ﷺ أنه قال: (١«من هجر أخاه سنةً فهو كَسَفْكِ دَمِه». وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال١): «لا يَحلُّ لرجلٍ أن يَهجر مؤمناً فوق ثلاثة أيام، فإذا مرَّت به ثلاثة أيام فليلقَه فليُسلِّم عليه، فإن ردَّ عليه السلام فقد اشتركا الأَجر، وإن لم يردّ عليه، فقد بَرِئَ المُسَلِّمُ من الهجرة».

واعلم أن هذه الهجرة إنما هي فيما يتعلق بأمور الدنيا مما يوجب عتباً ومَوْجِدَةً كتقصيرٍ في حقوق العِشْرة ونحوها، فينبغي أن يقنع في التأديب بهجر ثلاثٍ، ثم يَعفو، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما زادَ اللهُ عبداً بعفوٍ إلا عزاً». فأما ما كان في حق الدين فإن هَجْر أهل الأهواء والبِدَع والمعاصي يَنبغي أن يدوم ما لم تَظهر منهم التَّوبة والرجوع إلى الحق، فإن النبي ﷺ قد نَهى الناسَ عن تكليم كَعب بن مالكٍ وصاحِبَيه إلى أن نَزلت التَّوبة.

ومنها أن يُحسنَ إلى كلٍّ من قَدر أن يُحسن إليه من المسلمين ما استَطاع، ففي أفراد البخاري من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ معروفٍ صدقة، ومن المعروف أن تَلقَى أخاكَ بوجهٍ طَلق، وأنْ تُفرغَ من دَلوِكَ في إنائِه» أخبرنا ابنُ الحُصين قال: أخبرنا أبو علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأَعمش عن أبي صالح عن أبي هُريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُربِ الدنيا نَفَّسَ اللهُ عنه كُربةً من كُرَبِ يوم القِيامة، ومن سَتَر مسلماً سَتَرهُ الله في الدنيا والآخرة، ومن يَسَّرَ على مُعْسرٍ يَسَّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، والله في عَوْنِ العَبدِ ما كانَ العَبدُ في عَونِ أخيه». انفردَ بإخراجه مسلم. قال أحمد: وحدثنا يزيد قال: أخبرنا سَلّام بن مِسكين عن عَقيل بن طلحة قال: حدثنا أبو جُرَي الهُجَيمي، قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنا قومٌ من أهل الباديةِ فعلِّمنا شيئاً يَنفعنا اللهُ به. قال: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تُفرغَ مِن دَلوِكَ في إناءِ المُسْتَسقي، ولو أن تكلم أخاكَ وَوَجْهك إليه مُنبسط، وإن امرؤٌ سَبَّك بما يعلم فيكَ، فلا تَسُبَّه بما تعلم فيه، فإن أجره لكَ ووبالهُ على مَن قاله».

(١ـ١) سقط من (ظ).

ومنها: أن لا يَدخُلَ على أحدٍ من المسلمين إلا بإذنه، ويَستأذن ثلاثاً، فإن لم يُؤذن له انصرفَ، وفي الصحيحين من حديث أبي سَعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن استَأذن ثلاثاً فلم يُؤذن له فليرجع».

ومنها: أن يُخالق الناس بخُلقٍ حَسن، وذلك أن يعامل كلّاً على حَسب طريقته، فإنه متى لقيَ الجاهل بالعلم واللّاهي بالفِقه، والغَنيَّ بالبيان آذَى وتَأذَّى.

ومنها: أن يُوقِّر المشايخ، ويَرحم الصبيان، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منّا من لم يُوقِّر كبيرنا، ويَرحم الصبيان» وقال عليه الصلاة والسلام: «من إجْلال اللهِ إكرامُ ذي الشَّيبة المُسلم». ومن تَمام توقير المشايخ أن لا يَتكلم بين أيديهم إلا أن يَأذنوا، وقد روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أكرمَ شابٌ شيخاً لسنِّه إلا قَيَّضَ اللهُ له من يُكرمه عند سِنّه». وفي هذا الحديث بِشارة بطولِ العُمر فليتنبه لها، فلا يُوفَّق لتَوقير الشيوخ إلا مَن قَضى اللهُ له بطول العُمر. وكان التَّلطُّف بالصِّبيان من عادةِ رسول الله ﷺ، وكان يقول لأخي أنس: «يا أبا عُمَير ما فَعَلَ النُّغَير». وفي أفراد مسلم من حديث عبد الله بن جَعفر قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا قَدِمَ من سَفرٍ تُلُقِّيَ بالصِّبيان من أهل بيته، وإنه قَدِم مرةً من سفره فَسُبق بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحدِ ابنَي فاطمة إما حَسنٌ وإما حُسَين، فأردفَه خَلفه، فدخلنا المدينة ثلاثة على دَابة.

ومنها: أن يكونَ مع الخلق كافةً طلقَ الوجهِ رفيقاً، وقد ذكرنا في حديث أبي جُرَي: «ولو أن تُكلِّم أخاك ووجهك إليه مُنبَسِط». وذكرنا في حديث عَدي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «اتَّقوا النار ولو بشقِّ تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

وقال عليٌ رضي الله عنه: حُرِّمت النار على كل هَيّن ليّن سهل قريب.

وقال عروة: مكتوبٌ في الحكمة: لتكن كلمتك طيبةً، وليكن وَجهك بَسيطاً تكن أحبّ إلى الناس ممن يُعطيهم العَطاء.

وقال عبد الملك بن عُمير: إذا أحبَّ اللهُ عبداً أحسنَ خَلقه وخُلُقَه. ووصفَ ابنُ المبارك حُسنَ الخُلُق فقال: بَسطُ الوَجه، وبَذلُ المعروف، وكَفُّ الأذى.

ومنها: أن لا يَعِدَ بوعدٍ إلا وَفَى به، فقد أخبرنا أبو بكر المَزْرَفي وأبو الحَسن الموحِّد وأبو عَبد الله البارع وأبو سَعد الزَّوْزَني وأبو منصور القَزّاز وأبو النَّجم الشَّيخي قالوا: أخبرنا أبو جَعفر بن المسلمة قال: أخبرنا أبو الفَضل الزهري قال: حدثنا أبو جعفر الفِرْيابي، قال: حدثنا قُتيبة قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر عن أبي سُهيل بن مالك عن أبيه عن أبي هُريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافق ثلاث؛ إذا حدَّث كَذب، وإذا وَعَدَ أخلفَ، وإذا أؤتُمِنَ خان». أخرجاه في الصحيحين.

ومنها: أن يُنصف الناس من نَفسه، ولا يأتي إليهم إلا ما يُحب أن يؤتى إليه، قال الحسن البَصري: اصحب الناس بما تُحب أن يُصاحبوك به تكن مسلماً. وقال الحسن: أَوحى اللهُ تعالى إلى آدم أربع كلمات، وقال: فيهنَّ جِماع الأمر لكَ ولولدك، وواحدة لي، وواحدةٌ لك، وواحدة بيني وبينك، وواحدة بينك وبين الخلق، فأما التي لي؛ تَعبُدني ولا تُشرك بي شيئاً، وأما التي لك؛ فعملك أَجزيك به أفقر ما تكون إليه، وأما التي بيني وبَينك؛ فعليك الدُّعاء وعليَّ الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس؛ فتصحبهم بالذي تُحِب أن يَصحبوكَ به.

وسأل موسى ربَّه عزَّ وجل: أي عبادك أعدل؟ قال: مَن أنصف من نفسه.

ومنها: زيادة التَّوقير لذَوي الهَيئات فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إذا أَتاكُم كريمُ قومٍ فأكرِموه» وقال: «أَقِيلوا ذَوي الهيئات عَثَراتهم».

ومنها: أن يُصلحَ ذات البين بين المسلمين، وفي الصحيحين من حديث أُم كلثوم بنت عُقبة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليسَ الكَذاب الذي يُصلح بين الناس، فينمي خيراً، أو يقول خيراً» قالت: ولم أسمعه يُرخِّص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاثٍ؛ في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديثِ الرجلِ امرأتَه، وحديث المرأةِ زَوجها.

ومنها: أن يَستر عَورات المسلمين، وقد ذكرنا آنفاً عن النبي ﷺ أنه قال: «من سَتر مسلماً ستَرهُ اللهُ في الدنيا والآخرة.»

واعلم أنه من تأمّل سَتْرَ الله عز وجل على العُصاة اقْتَدى بلُطفه، فإنه جَعل الشهادة في الزِّنا أن يَشهد أربعةٌ من العُدول أنّهم شاهدوا ذلك كالميلِ في المُكحُلة، وهذا لا يتفق. ومن هذا أَثَرُ كَرمِه في الدنيا يُرجى منه ذلك في الآخرة.

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال: «بايعوني على أن لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تَسرقوا، ولا تَزنوا، ولا تَقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببُهتانٍ تَفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروفٍ، فمن وَفى منكم فأجرُه على الله، ومن أصاب من ذلك شَيئاً (١فعوقِبَ في الدنيا، فهو كفارةٌ له، ومن أصاب من ذلك شَيئاً١) فسَترهُ الله، فهو إلى الله إن شاءَ عفى عنه، وإن شاء عاقَبه» فبايَعْناهُ على ذلك. وقد روى علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن أذنبَ في الدنيا ذنباً فستَره اللهُ عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيءٍ قد عفا عنه». وقد أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أسود بن عامر قال: حدثنا أبو بكر ـ يعني ابن عَيَّاش ـ عن الأَعمش عن سَعيد بن عبد الله بن جُرَيج عن أبي بَرْزَةَ الأَسْلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشرَ من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عَوراتهم يتبع اللهُ عَورتَه، ومن يتبع الله عورتَه يَفْضَحه في بَيته».

ومنها: أن يَتَّقي مواضع التُّهَم صيانةً لقلوب الناس عن سُوءِ الظَّن به، ولألسنتهم عن غِيبته، فإنهم إذا عَصوا الله بذِكرِه وكان هو السَّبب في ذلك كان شَريكاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عَمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «مِنَ الكبائر شَتم الرَّجلِ والديه» قالوا: يا رسولَ الله، وهل يَشتُم الرجلُ والديه؟ قال: «نعم، يَسبُّ أبا الرجل فَيسبُّ أباه، ويسبُّ أُمّه فَيسبُّ أُمّه». وفيهما من حديث صَفية بنت حُيَي قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ مُعتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً،

(١-١) سقط من (ظ).

فحدَّثتُه ثم قمتُ فانقلبتُ، فقام معي، فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رِسْلِكُما فإنها صَفية بنت حُيَي» فقالا: سُبحان الله يا رسول الله! قال: «إن الشيطانَ يَجري من الإنسان مَجرى الدَّم، وإني خَشِيت أن يَقذفَ في قُلوبكما شراً ـ أو قال: شيئاً». وفي هذا الحديث من الفِقه أنه يُستحب للإنسان أن يتحرَّز من كل أمرٍ من المكروه تَجري به الظنون ويَخطر بالقلوب طلباً لسلامتهِ منَ الناس وسلامتهم من سُوء الظنِّ به، وقد قال عُمر رضي الله عنه: مَنْ أقامَ نفسَه مقامَ تُهمةٍ فلا يَلومَنَّ مَنْ أساء به الظَّن.

ومنها: أن يَشفع لكلِّ من له حاجةٌ من المسلمين إلى مَن له عنده منزلة، ويَسعى في قَضاء حوائجهم، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه كان[1] إذا أتاه طالبُ حاجةٍ أَقبلَ على جُلسائه فقال: «اشْفَعوا تُؤجَروا، وليقض الله على لسان نَبيِّه ما أحبَّ». وقال ﷺ لبَريرةَ في حقِّ زَوْجها: «لو راجَعْتيه» فقالت: أتأمُرني؟ قال: «لا، إنما أنا شَفيعٌ».

ومنها: أن يَبدأ بالسلام على[2] كل مُسلم قبل أن يكلمه، فقد ذكرنا آنفاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَفْشوا السلامَ بينكم». وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عَمروٍ رضي الله عنهما أن رجلاً سألَ رسول الله ﷺ: أيّ الإسلام خَير؟ قال: «تُطعِمُ الطعامَ، وتَقْرأُ السلام على مَنْ عرفتَ ومَنْ لم تَعْرِفْ». وفيهما من حديث ثابتٍ[3] قال: مَرَّ أنسٌ على صِبيانٍ فسلّم عليهم، وقال: كانَ النبي ﷺ يَفعلُهُ. وفيهما من حديث أبي هُريرة، عن النبي ﷺ قال: «ليُسَلِّمِ الصغيرُ على الكبير، والمارُّ على القاعد، والقليلُ على الكثير».

ومن السنَّة المصافَحةُ، ففي أفراد البخاري من حديث قتادة قال: قلتُ لأنس: أكانَت المصافحةُ في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نَعم. وفي حديثٍ آخرَ عن

(١) تحرفت في الأصل إلى: «قال».
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) هو ثابت البُناني.

أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقدمُ عليكم غداً قومٌ هُمْ أرق قلوباً للإسلام منكم» فقدِمَ الأَشْعَريّون، فيهم أبو موسى، فلما دَنَوا من المدينة جَعلوا يرتَجِزون ويقولون:

غـداً نَـلـقَـى الأَحِـبَّـة مُـحـمّـداً وحِـزْبَـه

فلما أن قدموا تصافَحوا، فكانوا أوّل من أحدثَ المصافحة.

أخبرنا أبو القاسم بن عبد الواحد، قال: أخبرنا أبو علي ابن المُذْهِب، قال: أخبرنا أبو بكر ابن مالك، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا محمد بن بكر، قال: حدثنا مَيمون المَرَئي، قال: حدثنا ميمون بن سِياه، عن أنس بن مالك، عن نَبي الله ﷺ قال: «ما مِنْ مُسلمَين التَقَيا، فأخذَ أحدُهما بيد صاحبه إلا كان حقاً على الله عَزَّ وجل أن يحضر دعاءَهما ولا يفرّق بين أيديهما حتى يَغفر لهما».

أخبرنا محمد بن عُمر الأُرْمَوي، قال: أخبرنا أبو الحُسَين المهتدي قال: أخبرنا مُحمد بن الحسين الخَفَّاف، قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد الله المؤدِّب، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الأُشْناني، قال: حدثنا يَحيى بن معين، قال: حدثنا عبد الله بن إدريس، قال: أَخبرنا شُعبة، عن عَمرو بن مُرَّةَ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن البراء رضي الله عنه قال: صافَحني النبيُّ ﷺ فغمزَ على كفي، فقال لي: «يا بَراء، أتدري لِمَ غمزتُ على كَفّكَ؟» قلتُ: لا يا رسولَ الله. قال: «إذا صافَح المؤمِنُ المؤمِنَ نَزَلت عليهما مِئة رَحمة، تِسعةٌ وتسعون لأَبَشِّهِما وأَحسنهما خُلُقاً».

ولا بأس بتقبيلِ يَدِ المُعَظَّم في الدين تبرُّكاً به، فقد روى ابنُ عمر قال: قَبَّلْنا يدَ رسول الله ﷺ. وقد قَبَّلَ عُمرُ رأسَ أبي بكرٍ، ولقي أبو عبيدةَ عُمر بن الخطاب فقبَّل يَده.

ولا بأس بالمُعانقَةِ، فقد قالت عائشةُ: لما قَدِمَ جعفر، تَلقّاه رسولُ الله ﷺ واعتَنَقه. وقال الشَّعبي: كان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا قَدِموا من سَفرٍ تَعانقوا.

وأما الانْحِناءُ فمنهيٌ عنه، روى أنسٌ قال: قُلنا: يا رسولَ الله، أَيَنْحَني بعضُنا لبعض؟ فقال: «لا».

وأما الأَخْذُ بالرِّكاب لتَوقير العُلماء، فقد فَعل ذلك ابنُ عَباس بزَيدِ بن ثَابتٍ.

وأما القِيامُ على سَبيل الإكرام لأهلِ الدين فَحَسنٌ.

ومنها: أن يصونَ عرضَ أخيه المسلم ونَفسَه وماله عن ظُلم الغَير، ويناضل دونه ويَنصره.

وفي أفراد البُخاري من حَديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «انصُر أخاكَ ظالماً أو مَظلوماً» قيل: يا رسولَ الله هذا ينصُرهُ مَظلوماً، فكيف يَنصُره ظالماً؟ قال: «يمنَعه منَ الظُّلم». وفي حديث أبي الدَّرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِن امرئٍ مسلم يَردُّ عن عِرضِ أخيه إلا كانَ حَقاً على الله عزَّ وجل أن يردَّ عنه نار جهنّم يوم القيامة». وفي حديث جابر عن النبي ﷺ: «ما من امرئٍ مسلم يَخذل مُسلماً في مَوطنٍ يُنتَقَص فيه من عِرضه ويُنتَهكُ فيه من حُرمتِه إلا خَذَلَهُ اللهُ في موطنٍ يحب فيه نُصرتَه، وما من امرئٍ مسلم يَنصُر مسلماً في موطنٍ يُنتَقَص فيه من عِرضه ويُنْتَهَكُ فيه من حُرمته إلا نَصَره الله في مَوطنٍ يحب فيه نُصرَتَه». وفي حديث أبي أُمامة بن سَهل عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أُذِلَّ عنده مؤمنٌ وهو يَقدر على أن يَنصره، فلم يَنصره أَذَلَّهُ الله عز وجل على رؤوسِ الخَلائق».

ومنها: تَشْميتُ العاطِس، وفي حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا عَطَس أحدُكم فليقل: الحمدُ لله، وليقل مَن حوله: يَرحمك الله، وليقل هو: يَهديكم اللهُ ويُصلح بالَكم». أنبأنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا شُعبَة عن مُحمد بن أبي لَيلى عن أخيه عن أبيه عن أبي أيوب عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا عَطَسَ أحدكم، فليقل: الحمدُ لله على كل حال، وليقل الذي يُشَمِّتُه: يَرحمكُمُ اللهُ. وليقل الذي يَردُّ عليه: يَهديكم اللهُ ويُصلح بَالكُم». وفي أفراد البخاري من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يُحبُّ العُطاسَ ويَكره التَّثاؤب، فإذا عطسَ أحدُكم وحَمِدَ اللهَ كان حقاً على كل مُسلم سَمِعَه أن يقول له: يَرحمك الله». وفي الصحيحين من حديث أَنس قال: عطسَ رَجُلان عند

النبي ﷺ فَشَمَّتَ أَحدَهما، ولم يُشَمِّت الآخر، فقال الذي لم يُشَمِّته: عَطَس فلانٌ فَشَمَّتَّه وعَطستُ فلم تُشَمِّتْني. فقال: «إنَّ هذا حَمِدَ الله وإنك لم تَحمَدِ الله».

ومنها: أنه إذا بُليَ بذي شَرٍّ فينبغي[1] أن يُجامِلَه ويتَّقيه، وفي الصَّحيحين من حديث عائشة قالت: استأذنَ رجلٌ على رسول الله ﷺ وأنا عنده، فقال: «بئسَ أخو العَشيرة، وبئسَ ابنُ العَشيرة» ثم أذنَ له، فلما جلس تَطلَّقَ النبيُّ ﷺ في وَجهه وانْبَسَطَ، فلما خرجَ قلتُ: يا رسول الله قلتَ له ما قلتَ ثم أَلَنْتَ له القَول؟ قال: «يا عائشة، متى عَهِدتيني فَحاشاً؟ إنَّ شَرَّ الناس عندَ الله مَنزلةً مَنْ تركَهُ الناسُ اتّقاءَ فُحشِه». وقال أبو الدَّرداء: إنّا لَنُكَشِّرُ في وُجوه أقوام ونَضحكُ إليهم وإن قلوبنا لتَلعَنُهم. وقال محمد ابنُ الحَنفية: ليس بحكيمٍ من لم يُعاشِرْ بالمعروف مَن لا يجد من مُعاشرته بُداً حتى يَجعل اللهُ له فَرَجاً.

ومنها: أن يَجتنبَ مُخالطة الأَغنياء، ويختلط بالمساكين، ويُحسنَ إلى الأَيتام، فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهمَّ أَحيِني مِسكيناً، وأَمِتْني مسكيناً، واحشُرني في زُمرة المساكين». وأما اليتيم، فَفي أفراد البُخاري من حديث سَهل بن سَعدٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا وكافِل اليَتيم كهاتَينِ في الجَنَّة» وأشار بالسَّبابة والوُسطَى. وفي حديثِ أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيرُ بَيتٍ من المُسلِمين بيتٌ فيه يَتيم يُحْسَنُ إليه، وشَرُّ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يَتيمٌ يُساءُ إليه».

ومنها: النَّصيحة لكل مسلم، وفي الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله قال: بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنُّصحِ لكلِّ مُسلم. وفي أَفراد مُسلم [٢]من حَديث تَميم الدَّاري عن النّبي ﷺ أنه قال: «إنّ الدّينَ النَّصيحة، إنّ الدين النَّصيحة، إنّ الدين النَّصيحة». قالوا: لمن يا رسولَ الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولنَبيّه، ولأئمة المؤمنين وعامّتهم».

ومنها: عيادةُ مَرْضَاهم، وفي الصحيحين من حديث البَراء بن عازبٍ: أَمَرنا رسولُ الله ﷺ بعيادةِ المريض. وفي أَفرادِ مُسلم[٢] من حديث ثَوبان عن النبي ﷺ

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢-٢) سقط من (ظ).

أنه قال: «عائدُ المريضِ في مَخْرَفَةِ[١] الجنَّة». وفي لفظٍ: «مَنْ عادَ مريضاً لم يَزَل في خُرفَة الجنَّة حتى يَرجع» قيل: يا رسول الله، وما خُرفَةُ الجنَّة؟ قال: «جَناها». وفي حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من عادَ مَريضاً بُكرةً شَيَّعَهُ سَبعونَ ألفَ مَلَك كلُّهم يَستغفِرُ له حتى يُمسي، وكان له خَريفٌ في الجنَّة، وإن عادَهُ مساءً شَيَّعهُ سَبعونَ ألف ملك كلّهم يَستغفر له حتى يُصبح، وكان له خَريفٌ في الجنة».

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا عادَ المسلمُ أخاه أو زارَهُ قال الله عز وجل: طِبتَ وطابَ مَمْشاك، وتبوَّأتَ في الجنَّةِ مَنزِلاً».

ومن آداب[٢] العائِدِ أن يَضَع يَده على المريض ويَسأله كيف هو، وليخفّف الجُلوس، ويُظهر الرِّقة، ويدعو بالعافِية، ويَغض البصر عن عَورات المكان، وفي الصحيحين من حديث عائشة أن رسولَ الله ﷺ كان إذا أَتى مريضاً أو أُتي به قال: «أَذْهِبِ البأس، ربّ الناس، اشْفِ وأنتَ الشافي، لا شِفاءَ إلا شِفاؤك، شفاءً لا يُغادِرُ سَقَماً» قالت: وكانَ يقول بإصبعه هكذا ـ تعني أنه يَضع السَّبابةَ على الأرضِ ـ ثم يَرفعها ويقول: «بسم الله، تُربةُ أرضِنا، بريقةِ بَعضِنا، يُشفَى به سَقيمنا بإذنِ رَبِّنا».

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبدٍ مسلم يعودُ مريضاً لم يحضُر أَجَلُه فيقول سبعَ مرات: أَسألُ اللهَ العظيمَ، ربَّ العرشِ العظيم أَن يَشفيك. إلا عُوفيَ».

ويُستَحب للمريض أن يَفعل ما أخرجه مُسلم في أفراده من حديث عُثمان بن أبي العاص أنه شَكى إلى رسول الله ﷺ وَجَعاً يجده في جَسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ على الذي يَألَمُ من جَسدِكَ، وقل: بسم الله، ثلاثاً، وقُل سَبْعَ مراتٍ: أعوذُ بالله وقُدرته من شَرِّ ما أَجِدُ وأُحاذِرْ».

---

(١) المخرفة: موضع خَرفِ الثمار وقطعها وجَنيها، ومخارف الجنة: مَجاني ثمارها.
(٢) في (ظ): «أدب».

وجُملةُ أدب المريض: حُسنُ الصَّبرِ، وقِلّةُ الشَّكوى والتَّضجر، والفَزَعُ إلى الدعاء، والتوكل على الله سبحانه.

ومنها: أن يُشَيِّع جنائزَهُم، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن شَهِدَ جنازةً حتى يُصلَّى عليها فلَه قيراطٌ، ومَنْ شهدها حتى تُدفَن فله قيراطان» قيل: ما القِيراطان يا رسولَ الله؟ قال: «مثل الجَبَلين العظيمين».

واعلم أن المقصودَ من التشييع قَضاءُ حق المسلمين والاعتبارُ، قال الأَعمش: كُنّا نَشهدُ الجنائز فلا نَدري مَنْ نُعزّي لحُزنِ القوم كلِّهم. وفي الصحيحين من حديث أنسٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «يَتبع الميتَ ثَلاثةٌ، فيرجع اثنان ويَبقى معه واحدٌ؛ يتبعه أهلُه ومالُه وعَملُه، فيرجع أهلُه ومالُه ويَبقى عمله».

ومنها: أن يزورَ قبورهم، والمقصود من ذلك الدّعاء والاعْتبار وتَرقيق القلب، (١وفي أفراد مسلم من حديث بُرَيدة عن النَّبي ﷺ أنه قال: «نَهَيتكُم عن زيارةِ القُبور فَزوروها» قال: وكان يُعلمهم إذا خَرجوا إلى المقابر أن يقول قائِلهم: السلامُ عليكم أهلَ الدِّيار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحقون، أنتم لنا فَرَط، ونحنُ لكم تَبَع، فنسأل اللهَ لنا ولكم العافية. وسيأتي في ذكر الموت ما يتعلَّق بالقبور١).

وأدبُ تَشييع الجنائز لزومُ الخُشوع، وتركُ الحديث، وملاحظةُ الميّت، والتفكُّر في الموت والاستعدادُ له، والمشيُ أمام الجنازة.

فهذه جملةٌ تنبه على آداب المعاشَرة مع عُموم الخلق، والجملة الجامعة أن لا تَستَصْغِرَ منهم أحداً فلعله خَيرٌ منك، ولا تُعظم صاحبَ الدنيا منهم لدنياه، فالدنيا كلها صغيرة، ولا تَبذُلَنَّ دِينَكَ لتَنال به الدُّنيا، ولا تُعادينَّهم إلا أن تَرى معصيةً فتُعادي أفعالهم، وانظر إليهم بعَين[٢] الرَّحمة لتَعَرُّضِهمْ لمقْتِ الله وعُقوبَتِه، ولا تسكن إلى مَدْحِهم لكَ، ولا تَشْكُ إليهم أحوالَكَ فَيكِلكَ اللهُ إليهم، ولا تَطمع

(١ـ١) سقط من (ظ).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «بغير».

أن يكونوا لك في الغَيبِ كما هم في العَلانية، ولا تَطمع بما في أيديهم فتَستعجلَ الذُّلَّ، ولا تَعْلُ[١] عليهم تكبّراً لاستغنائك عنهم فربما عوقِبتَ بالاحتياج إليهم، وإذا سألتَ أحداً منهم حاجةً فقَضاها فهو أَخٌ مُستَفاد، وإن لم يَقْضِها، فلا تُعاتبه فَيصير عدواً تطولُ عليك مُقاساتُه، ولا تَشتَغِل بوعظِ من لا تَرى فيه مَخايل القَبول فيعاديك، ولا تُكافِئهم على سُوءٍ فيزيد الضَّرر ويَضيع العمر، وكن فيهم سَميعاً لحقِّهم نَطوقاً به، أصمَّ عن باطِلهم صَموتاً عنه، واحذَر الأكثرين منهم فصُحبتهم خُسران، ويندر من يَصلح، ظاهِرُهم ثيابٌ، وباطِنهم ذِئابٌ، يَقطعون بالظُّنون، ويتغامزون وَراءَكَ بالعيون، ويتربصون لصديقهم من حَسَدهم رَيْبَ المَنون، يُحصونَ عليكَ العَثَرات في صُحبتهم ليَجْبَهوك بها في غَضَبهم فلا تَعقِد خِنْصَركَ[٢] إلا على مَن جرَّبتَه في فَقرٍ وغِنى، وعَزْلٍ وولايةٍ، وسَفَرٍ وحَضَر، ومُعاملةٍ وشِدَّة، فإذا رَضيتَهُ في هذه الأحوال فاتَّخِذْهُ أباً إنْ كان كبيراً، وابناً إن كان صَغيراً، وأخاً إن كانَ مِثْلاً.

وأما حقوق الجار: فاعلم أن الجِوار يقتضي حقاً وراء ما تَقتضيه أُخوّة الإسلام، فيستحق الجارُ المسلم ما يَستحقه كل مسلم وزيادة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخِر، فلا يؤذِ جَاره». وفيهما من حديث ابن عُمَر وعائشة كلاهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما زال جبريل يُوصني بالجار حتى ظَننتُ أنّه سَيورثه». وفي أفراد البخاري من حديث عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارَين، فإلى أَيّهما أُهدِي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً» وفي أفراده من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لا والله لا يؤمن، لا والله لا يُؤمن، لا والله لا يُؤمن» قالوا: ومن ذاك يا رسول الله؟ قال: «جارٌ لا يَأمَنُ جاره بوائِقه» قيل: ما بواشِقُه؟ قال: «شَرُّه». وفي أفراد مسلم من حديث أبي ذَر أنَّ رسول الله ﷺ قال[٣] له: «يا أبا ذر، إذا طبخت قِدْراً فأَكثر

(١) تحرفت في النسخ إلى: «تصل»، والمثبت من الإحياء.
(٢) أي لا تعدَّ صديقاً إلا من اتصف بالآتي، وكانوا إذا بدأوا العدَّ أشاروا بالخنصر أولاً.
(٣) سقطت من الأصل.

المَرَقَة، وتعاهَد جيرانَك، أو اقسم بين جيرانك» وفي حديث أبي هُريرة قال: قالوا للنبي ﷺ: إن فُلانة تَصومُ الدَّهر، وتقوم الليل وتُؤذي جيرانها بلسانها. قال: «لا خَير فيها، هي في النار». وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ليس المؤمن الذي يَشبع وجارُه جائع».

وقال الحسن البَصري: يا ابن آدم، أحسِنْ جِوار مَنْ جاورك تكُنْ مؤمناً. وسُئِل عن الجارِ فقال: أربعون داراً أمامه، وأربعون خلفه، وأربعون عن يَمينه وأربعون عن يَسارِه.

وجاء في الحديث: «الجيرانُ ثلاثةٌ: جارٌ له حَقٌّ واحدٌ، وجارٌ له حَقّان، وجارٌ له ثلاثةُ حقوق؛ فالجار الذي له ثلاثةُ حقوق: الجار المسلم ذو الرحم، فله حقُّ الجِوار، وحَق الإسلام، وحق الرحم. وأما الذي له حَقَّان: فالجارُ المسلم، فله حَقُّ الجِوار وحق الإسلام، وأما الذي له حَقٌّ واحد: فَالجار المُشرِك».

واعلم أنه ليس حقّ الجوار كَفّ الأذى فقط، بل احتمال الأذى، ثم الرِّفق وإسداء الخَير.

وجُملةُ حَقِّ الجار أن يَبْدأه بالسَّلام، ولا يُطيلَ معه الكلام، ولا يُكثر عن حاله السؤال، ويَعوده في المرضى ويُعزّيه في المصيبة، ويُهنِّيه في الفَرح، ويُظهرَ له المشاركة في السّرور معه، ويصفح عن زَلّاته ولا يتطلع إلى داره، ولا يُضايقه في وَضع الخَشب على جداره، ولا في صَبِّ الماء في مِيزابه ولا في مطرح التراب من فِنائه، ولا يُتبعه النظر فيما يحملُه إلى داره، ويَستُر ما ينكشف له من عَوراته، ولا يتسمَّع عليه كلامَه، ويغض طرفه عن حرمته[1]، ويُنعشُه من صَرْعته إذا نابته نائِبةٌ، ويلاحظ حَوائِجَ أهله إذا غاب.

حقوق الأقارب والرَّحم: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عزَّ وجل خلقَ الخلقَ حتى إذا فرغَ منهم

(١) في (ظ): «حرمه».

قامَت الرَّحم فقالت: هذا مقامُ العائِذِ من القَطيعة. قال: نعم، أما تَرضين أنْ أَصِلَ من وَصَلك، وأقطعَ مَنْ قَطعكِ؟ قالت: بَلى. قال: فذاكَ لكِ» ثم قال رسول الله ﷺ: «اقـرأوا إنْ شِـئـتـم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾». [محمد: ٢٢-٢٣]. وفيهما من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «الرحمُ مُعلَّقةٌ بالعرش تقول: من وَصَلني وَصَلهُ الله، ومن قَطَعني قَطَعهُ الله». وفيهما من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: مَن أحبَّ أن يوسّعَ الله عز وجل عليه في رِزقه، ويَنْسَأ له في أثره، فليصل رَحِمَه». وفي أفراد البخاري من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصِل الذي إذا قُطِعت رَحمه وَصَلها». وفي أفراد مُسلم من حديث أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابةً أصلُهُم ويَقطعوني، وأُحسِنُ إليهم ويُسيؤون إليَّ، وأَحلُمُ عنهم ويَجْهَلون عليَّ. قال: «إنْ كُنتَ كما تقول فكأنّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولا يزال معكَ من الله ظَهير ما دُمتَ على ذلك». والمعنى: أنك مَنصورٌ عليهم قد انقطع احتجاجهم عَليك بحقِّ القَرابة، كما ينقطع كلامُ من سَفَّ المَلَّةَ، وهي الرَّماد الحَارّ، ومنه قول العرب: بِفيكَ الأَثْلب. أي: ا لحَجَر الذي يُسكتُ الناطقَ.

وفي الصحيحين من حديث جُبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال: «لا يدخُلُ الجنَّةَ قاطِع» قال سُفيان: يَعني قاطع رَحم. وفي حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أعمالَ بَني آدم تُعرَضُ على الله عزّ وجل كلّ خَميس فَلا يقبلُ عَمل قاطِع رحم» وروى عبدُ الله ابن أبي أَوفى عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الرحمةَ لا تَنْزل على قومٍ فيهم قاطِع رحم».

أخبرنا الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزْدي وأبو بكر الغورجي قالا: أخبرنا الجَراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثني أبو عيسى التّرمذِي قال: حدثني علي بن حجر قال: أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم عن عُيَيْنة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بَكرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ ذَنبٍ أَجدر أنْ يُعجّلَ اللهُ لصاحبِهِ العُقوبةَ في الدنيا مع ما يَدَّخِر له في الآخرة من البَغي وقَطيعةِ الرَّحم» قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وقد ذكرنا في كِتاب الصَّدقة أن النبي ﷺ قال: «أفضل الصَّدقة على ذي الرَّحم الكاشِح[١]». وقال لأبي طلحةَ وقد تصدَّق بحائِطه: «أَرَى أنْ تَجعله في قَرابَتِكَ». ورُوي عن عُمر بن الخطاب أنه كَتَب إلى عُمّاله: مُرو الأقارب أن يَتَزاوروا لا يتجاوروا. وإنما قال ذلك؛ لأن التجاور يوجب التَّزاحم على الحقوق، وربما يورث ذلك الوَحشة والقطيعة.

حقوق الوالدين: أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداوودي قال: أخبرنا ابن أَعين قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا آدم قال: حدثنا شُعبةُ قال: حدثنا حَبيب بن أبي ثابت عن أبي العَباس المكي عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجلٌ يَستأذن النبيَّ ﷺ في الجهاد فقال له رسولُ الله ﷺ: «أَحَيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «فَفيهما فَجَاهِد». أخرجاه في الصحيحين، وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَجزي ولدٌ والِدَه إلا أن يَجده مَملوكاً فَيشتريه فَيُعتِقَه». وفي أفراده من حديث ابن عُمر أنه كان إذا خَرج إلى مكةَ كان له حِمارٌ يتروَّح عليه إذا مَلَّ ركوب الراحلة، وعمامة يشدُّ بها رأسه، فبينما هو يوماً على ذلك الحمار إذ مَرَّ به أعرابي، فقال: ألستَ فُلانَ بن فُلان؟ قال: بَلى، فأعطاه الحمار وقال: اركب هذا. والعمامة وقال: اشدُدْ بها رأسَكَ. فقال له أصحابُه: غفرَ اللهُ لك أعطيتَ هذا الأعرابي حماراً كنتَ تُرَوِّحُ عليه، وعمامةً كنت تَشدُّ بها رأسَك؟ فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ مِن أَبَرِّ البِرِّ صِلَةُ الرجلِ أهلَ وُدِّ أَبيه بعد أن يُولّي»، وإنَّ أباهُ كان صَديقاً لعُمَر.

تَقديمُ الأمِّ في البِرِّ: أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: حدثنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا هاشم قال: حدثنا محمد بن طلحة عن عبد الله بن شُبْرُمَة عن أبي زُرْعةَ عن أبي هُريرة قال: قال رجلٌ: يا رسول الله،أيُّ الناس أَحقّ مني بحُسْنِ الصُّحبة؟ قال: «أُمك»

(١) الكاشح: هو الذي يُضمر العداوة ويطوي عليها كَشْحَه، والكَشْحُ: ما بين الخاصرة والضلوع.

قال: ثم مَنْ؟ قال: «ثم أُمك» قال: ثم مَن؟ قال: «ثم أُمك» قال: ثم مَنْ؟ قال: «ثم أبوكَ» أخرجاه في الصحيحين.

قال الإمام أحمد: وحدثنا خَلَف بن الوليد قال: حدثنا ابنُ عَيَّاش عن بَحِير بن سَعد عن خالد بن معدان عن المِقدام بن مَعدي كَرِب عن النبي ﷺ قال: «إن اللهَ يوصيكم بأمّهاتكم، إن الله يوصيكم بأمهاتكم، إن الله يوصيكم بآبائكم، إن الله يوصيكم بالأَقرب فالأَقرب».

قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن الزُّهري عن عَمْرَةَ عن عائشة قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «نِمْتُ فَرأيتُني في الجنَّة، فسمعت صوتَ قارئٍ يقرأ، فقلتُ: من هذا؟ قالوا: هذا حارثةُ بن النُّعمان». قال رسولُ الله: «كَذاكَ البِرّ، كَذاكَ البِرّ» وكانَ أَبرَّ الناس بأُمّه.

وقالت عائشةُ: رَجُلان من أصحاب رسولِ الله ﷺ كانا أبرَّ من كان في هذه الأُمة بأُمّهما: عُثمان بن عَفّان، وحارثةُ بن النُّعمان، فأما عثمان فإنه قال: ما قَدَرتُ أنْ أتأمّلَ أُمي منذُ أسلمتُ، وأما حارثةُ فإنه كان يَفْلي رأسَ أُمِّه ويُطعِمُها بيده، ولم يَستفهِمْها كلاماً قَطُّ تأمُر به حتى يَسأل مَنْ عِنْدَهُ بعدَ أنْ تَخرُجَ: ماذا قالت أمي؟

وكان أبو هريرة إذا أرادَ أن يخرجَ من بيته وقَفَ على بابِ أُمّه فقال: السلامُ عليك يا أُماه ورحمةُ الله وبركاتُه. فتقول: وعليكَ السلام يا بُنيّ ورحمةُ الله وبركاتُه. فيقول: رحمكِ اللهُ كما رَبَّيتِني صَغيراً. فتقولُ: رحمكَ اللهُ كما بَرَرْتَني كبيراً. وإذا أراد أن يَدخل صَنع مِثله.

أخبرنا عُمر بن ظَفَر قال: أخبرنا أبو غالب ابن الباقِلّاوي قال: أخبرنا القاضي أبو العلاء الواسطي قال: أخبرنا أبو نصر الباركي قال: أخبرنا أبو الخير الكرماني، قال: حدثنا أبو عبد الله البخاري قال: (1)حدثنا سعيد بن أبي مريم قال: أخبرنا محمد بن جعفر بن أبي كثير قال(1): أخبرني زيد بن أسلم عن عطاء بن يَسار عن

(١-١) سقط من الأصل.

ابن عباس أنه أَتاه رجلٌ فقال: إني خَطبتُ امرأةً فأبت أن تَنكحني، وخَطبها غَيري فأحبَّت أن تنكحه، فَغِرْتُ عليها فقتلتُها، فهل لي من تَوبة؟ قال: أُمك حَيَّة؟ قال: لا. قال: تُب إلى الله وتَقرَّبْ إليه ما استَطعتَ. فسألتُ ابنَ عباسٍ لمَ سألتَهُ عن حياةِ أُمه؟ فقال: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بِرّ الوالدين.

وقال محمد بن المُنكَدِر: بِتُّ أَغْمِزُ[١] رجلَ أُمي وباتَ عُمر[٢] يصلي وما يَسرُّني أن ليلتي بليلتِه. وكانَ مُحمد بن المنكدر يَضَع خَدَّه بالأَرض ثم يقول لأمه: ضَعي قدمَكِ عليه.

وكان ظبيان بن علي من أَبَرِّ الناس بأُمه فباتَتْ أُمه ليلةً وفي صدرها عليه شَيءٌ فَقامَ على رجليه قائماً وكَره أن يُوقظها، وكَرِهَ أن يقعد حتى إذا ضَعفَ جاء غلامان من غلمانه فما زال مُعتمداً عليهما حتى استَيقظت من قِبَلِ نَفسها.

وقال سُفيان بن عُيَيْنة: قَدِمَ رجلٌ من سَفرٍ فصادفَ أُمّه قائمةً تُصلي فَكَرِهَ أن يَقعد وهي قائمة، فعلمت ما أراد فطوّلَت ليؤجَرَ.

وكان محمد بن سِيرين إذا دَخل على أُمه لم يكلمها بلسانه كُلِّه تَخَشُّعاً.

وروّينا عن ابن عَونٍ أن أُمه نادته يوماً فأجابها، فعلا صوتُه على صوتِها، فأعتَقَ رَقَبتين.

وقال بِشْرُ الحافي: الولَدُ بقرب أُمّه بحيثُ تَسْمَعُ نَفَسَهُ أفضلُ من الذي يَضْرب بسَيفه في سبيل الله عز وجل، والنَّظر إليها أَفضل من كل شيء.

وفي الصحيحين من حديث أبي بَكْرةَ وعبد الله بن عَمرو وأنس عن النبي ﷺ أنه عَدَّ في الكبائر عقوقَ الوالدين، أخبرنا هِبَةُ الله بن مُحمد الحَريري قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الخَيّاط قال أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن يوسف العلّاف، قال: حدثنا عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم الخُراساني قال: حدثنا

---

(١) أي: يُدلكها ويكبسها لتستريح.
(٢) يعني أخاه عمر بن المنكدر، والخبر في سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥٩.

أحمد بن عُبيد بن ناصح قال: حدثنا شَبابَةُ بن سَوّار قال: حدثنا المغيرة بن مُسلم عن عَطاء عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن أمسَى مَرْضياً لوالديه وأَصبح أَصبحَ وله بابانِ مَفْتوحان من الجَنَّة، ومَن أصبح وأمسى مُسخطاً لوالديه أصبح وأمسى وله بابان مَفتوحان إلى النار، وإنْ واحداً فواحداً» فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلماه؟ فقال: «وإن ظَلَماه، وإن ظَلَماه، وإن ظَلَماه»

(١وقال ابن عُمر: بُكاء الوالدَين من العُقوق١).

قال ابنُ مُحَيْريز: من مَشى بين يدي أبيه فقد عَقَّه، إلا أن يَمشي فَيُميط الأذَى عن طريقه، ومن دَعا أباه باسمِه أو بكُنيَتِه فقَد عقَّه، إلا أن يقول: يا أَبَة.

ويَنبغي للولد أن يتَّقي المُسابَّةَ لئلّا يكون سَبباً في سَبِّ والديه، فإنه قد رُوي في الصَّحيحين من حديثِ عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ مِن أكبرِ الكَبائِر أنْ يَلعن الرجلُ والديه» قيل: وكيفَ يَلعنُ الرجلُ والِدَيه؟ قال: «يَسُبُّ أبا الرَّجل فَيسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّه فَيسُبُّ أُمَّه».

حقوق الولد: لما كانت الطِّباع تَميلُ عن الوالدين إهمالاً احتيج إلى زيادةِ وصيَّةٍ بهما ولما كانت تميل إلى الولد لم يُحتَج إلى تأكيدِ الوصية به، إلا أنه قَد يغلب هَوَى الوالِد للوَلد فَيتركُ تَعليمه وتأديبَه، وقد قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، قال المفسرون: معناه عَلِّموهم وأَدِّبوهم.

وينبغي للوالِدِ أنْ يُحسنَ اسمَ ولدِه وأدبه، ويعقَّ(٢) عنه إذا وُلدَ، فإذا بلغ سَبعَ سنين أَمَره بالصلاة، وجَنَّبه قُرناءَهُ، فإذا بَلَغَ زَوَّجَه.

حقوق المَمْلوك: قد سبق بيانُ حُقوق ملكِ النكاح، وأما ملك اليَمين، فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال عند مَوته: «الصلاة، وما مَلكَتْ أَيْمانُكم». وفي الصحيحين من حديث المَعْرور بن سُوَيد قال: لقيتُ أبا ذَرٍّ بالرَّبَذَة وعليه حُلَّة،

(١ـ١) سقط من (ظ).

(٢) أي يذبح عنه عقيقة، وهي عن الغلام شاتين وعن الأُنثى شاة.

وعلى غُلامِه حُلةٌ، فسألته عن ذلك، فقال: قال لي النبيُّ ﷺ: «إخوانُكم خَوَلُكم جعلهم اللهُ تحتَ أيديكم، فمن كان أَخوهُ تحتَ يده فليُطعِمهُ مما يَأكُل، وليُلبِسه مما يَلبَس، ولا تُكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم». وفيهما من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من قذفَ مملوكَه وهو بريء مما قال جُلِدَ يومَ القيامة، إلا أن يكون كما قال».

وفي أفراد البُخاري من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أَتى أحدَكم خادمُه بطَعامه، فإن لم يُجلسه معه فليُناوِلْهُ لُقْمةً أو لُقْمتين، أو أكلة أو أكلتين، فإنه وَلِيَ علاجَهُ».

وأخرجَ مُسلمٌ في أفراده من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «للمَملوك طعامُه وكسوتُه، ولا يكلّف من العمل إلا ما يُطيق».

وفي أفراده من حَديث أبي مَسعودٍ قال: بَيْنا أنا أضرِبُ مملوكاً لي إذا رجل يُنادي من خَلفي: اعلَم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ فقال: «والله للهُ أَقدَرُ عليكَ منكَ على هذا» قال: فحلفتُ أن لا أَضربَ مملوكاً أبداً. وفي لفظٍ: فقلتُ: يا رسولَ الله، هو حُرٌّ لوجه الله. فقال: «أَما لو لَم تَفعل لَلَفحتْكَ النّار».

وفي أفراده من حديثِ ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ ضَربَ غلاماً له حَدّاً لم يَأته، أو لَطَمه، فإنّ كفارته أن يُعتِقَه».

ودخلَ رجلٌ على سَلمان وهو يَعجن، فقال: أَتْعَبْنا[1] الخادم في شُغل فكرهنا أن نَجمع عليه عَمَلين.

وقيل للأحنف بن قَيْس: ممن تَعلَّمتَ الحِلم؟ فقال: من قَيس بن عاصم. قيل: فما بلغ مِن حِلمِه؟ قال: بينما هو جالسٌ في بَيته أَتَتْهُ جاريةٌ له بسَفُّودٍ[2] عليه شِواءٌ،

---

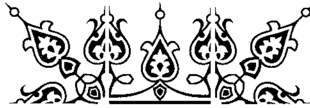
(١) في الأصل: «بعثنا».
(٢) السفود: عود من حديد يُنظَم فيه اللَّحمُ ليُشوَى.

فَسقط السَّفُّودُ من يَدِها على ابنٍ له فَماتَ، فدهشَتِ الجارية، فقال: أنتِ حُرَّة لا بأسَ عليكِ.

وكانَ عبدُ الله بن عَون إذا عصاه غُلامه قال: ما أشبهكَ بمولاكَ، مولاكَ يَعصي مَولاه وأنتَ تَعصي مولاكَ. وأَغْضَبه يوماً فقال: إنما تُريدُ أَنْ أَضْربك، اذهَبْ فأنتَ حُر.

فجُملةُ حقِّ المملوك أن يُطعمه، ويَكسوه، ولا يُكلّفه ما لا يُطيق، ولا ينظر إليه بعينِ الازْدِراء، وأن يَعفو عن زَلَّتِه، وليتذكَّر عند زَلَلِه زَلَلَ نفسِه، فيعفو عنه رجاءَ عَفو اللهِ عنه.

آخر كتاب آداب الصُحبة



كتاب العُزْلَة

الحمدُ لله الذي آنَسَ العارفَ له بخَلوَتِه، وشَغله بلذَّةِ مُناجاته عن خَليقَتِه، فاعتزل عن زُخرف الهَوَى وزَهْرَته، ففتح له في الوَحدة بُستان فِكْرَته، فهو يَميسُ بحضرتِه في خُضْرَتِه[1] فيرى الفَرق بين الفِردوس والمَزْبَلة ببَصَرِ بَصيرتِه.

أحمده على سُبوغ نِعمته وأفضلها بلوغ مَعرفَته، وأُصلّي على رسوله محمدٍ أَخَصّ خَاصَّتِه، وعلى أصحابه وأَتباعه على مِلَّته، وأُسلّم تَسليماً كثيراً.

أما بعد، فإنَّ الناس اختلَفوا في العُزلةِ والمخالطة أيتهما أفضل مع أن كل واحدةٍ منهما لا تنفك عن فوائد وغَوائل، فأكثر الزُّهاد اختاروا العُزلة، وكشفُ الغِطاء عن الحقِّ في ذلك مُهمٌّ ويَحصلُ ذلك برسم بابين:

البابُ الأول: في نقل المذاهب والحُجج فيها.

الباب الثاني: في كشف الغِطاء عن الحق بحصر الفوائد والغَوائل.

---

(١) في الأصل: «لخضرته».

الباب الأول

في نقل المذاهب والحجج فيها

أما المذاهب: فقد ذهبَ إلى اختيار العُزلَة وتفضيلها على المخالطة سفيان الثَّوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، والفُضَيل، وسُلَيمان الخَوّاص، ويوسف بن أَسباط، وحُذَيفة المرعشي، وبشْر الحافي في آخرين.

واستحبَّ قومٌ المخالطة واستكثارَ المعارف والإخوان تَعاوناً على البرِّ، وإلى هذا مالَ سعيدُ بن المسيّب، وشُريح، والشَّعبي، وابنُ أبي لَيلى، وهشامُ بن عُروة وابن شُبرمة، وشَريك بن عبد الله، وابن عُيَيْنَة، وابن المُبارَك في آخرين.

والمأثور عن العُلماء من الكلمات ينقسم إلى كلماتٍ مطلقة تدل على المَيل إلى أحد الرأيَين، وإلى كلمات مقرونةٍ بما يُشير إلى عِلّة المَيْل، فلنذكر من مُطلقات الكلمات لنُبَيِّنَ المذاهبَ فيها، ونُؤخِّر ما هو مقرون بذكر العلة فَنُورده عند التعرض لذكر الغَوائل والفوائد.

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداوودي قال: حدثنا ابن أَعين السَّرخسي قال: حدثنا الفِرَبْرِي قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا أبو اليمان قال: حدثنا شُعيب عن الزُّهري عن عطاء بن يَزيد عن أبي سَعيد قال: قيلَ: يا رسول الله، أيُّ الناس خَير؟ قال: «رجلٌ يُجاهد بنفسِه وماله، ورجلٌ في شِعبٍ من الشعاب يعبد رَبه ويَدع الناس من شَرِّه». أخرجاه في الصحيحين.

وفي حديث عُقبةَ بن عامر قال: قلت: يا رسولَ الله، ما النَّجاة؟ قال: «املك عليكَ لسانَك، وليَسَعْكَ بيتُك، وابكِ على خَطيئتِك».

وقال عمر بن الخطاب: خُذوا بحظكم من العُزلَة.

وقال سَعدُ بن أبي وَقّاص: والله لوددتُ أنَّ بَيني وبين الناس باباً من حديد لا يُكلّمني أحد ولا أُكلّمه حتى ألحقَ بالله سُبحانه.

وقال ابن مَسعود لأصحابه: كونوا يَنابيع العِلم، مصابيح الليل، أحلاسَ[١] البيوت، جُدد القلوب، خُلْقان[٢] الثِّياب، تُعرفون في أهل السماء، وتَخفون على أهل الأَرض.

وكان أبو الجُهَيم الحارث بن الصِّمَّة لا يُجالس الأَنصار، فإذا ذُكرتْ له الوحدة قال: الناسُ شَرٌّ من الوحدة.

وقال حُذيفةُ: والله لوددت أن لي إنساناً يكون في مالي، ثم أُغلق عليَّ باباً فلا يَدخلُ عليَّ أحدٌ حتى أَلحقَ بالله عز وجل.

وقال أبو الدَّرداء: نِعمَ صومعةُ المرءِ المسلم بَيتُه، يكُفُّ لسانَه وفَرْجه وبَصره، وإياكم ومجالس الأَسواق[٣]، فإنها تُلهي وتُلغي.

وقال سَعيد بن المسيِّب: عليك بالعُزلة فإنّها عِبادة.

وقال مَكحول إنْ كان الفَضل في الجَماعة، فإن السَّلامة في العُزلة.

وقال داود الطّائي: فِرَّ منَ الناس كما تَفرّ من الأَسد.

وقال سُفيان الثَّوري: ما شَيْءٌ خَيرٌ للإنسان من جُحْرٍ يَدخلُ فيه.

وقال أبو مُهلهل: أخذ بيَدي سُفيان الثّوري، فأخرجني إلى الجَبّان[٤]، فاعتزلَنا ناحيةً فَبكا، ثم قال: يا أبا مُهلهل، إن استَطعتَ أنْ لا تُخالِطْ في زَمانك هذا أحداً فَافعل، وليكن هَمُّكَ[٥] مَرَمَّةُ[٦] جَهازك.

وقال عبد الله بن مرزوق: استَشرتُ سُفيان الثّوري: أينَ أَنزل؟ فقال: بِمَرِّ الظَّهْران، حيث لا يَعرفك إنسان.

---

(١) أحلاس: جمع حِلس، وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير، والمقصود: مُلازمو البيوت.
(٢) يقال: خلق الثوبُ، أي: بلي.
(٣) في (ظ): «الأشراف»، وكتبت بالهامش إلى جانبها: «الأسواق».
(٤) الجبان والجبانة: المقبرة.
(٥) سقطت من الأصل.
(٦) مَرمَّةٌ: من الترميم، أي: الإصلاح، يعني إصلاح جهازه للآخرة.

وقال له رجل: أَوصني. فقال: هذا زمانُ السُّكوت، ولزوم البيوت.

وجاء رجلٌ إلى الفُضَيل فجلس إليه، فقال له: ما أجلسكَ إليَّ؟ فقال: رأيتكَ وَحدكَ. فقال: أما إنّكَ لو لم تَجلسْ إليَّ لكانَ خيراً لي ولكَ، فاختر إما أن أقومَ عنك، وإما أن تقومَ عنّي. فقال: بل أنا أقومُ، فأَوْصِني. فقال: اخفِ مكانَك، واحفَظْ لسانَك.

وجاء رجلٌ إلى شُعيبِ بن حَرب، فقال: ما جاءَ بك؟ قال: جئتُ أُؤنِسُكَ. قال: جئت تُؤنِسُني وأنا أعالج الوحدة منذ أربعين سنة؟!

وقال مالك بن أنس: كان الناس الذين مَضوا يُحبُّون العُزلة والانفراد من الناس.

فهذه أقاويل المائلين إلى العُزلة.

ذكر حُجج المائِلين إلى المُخالَطة وَوَجه ضَعفها:

احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٥] وبقوله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] فامتنّ عليهم بالسَّبَب المؤلف، وهذا ضعيف؛ لأن المرادَ تفرق الآراء والمَذاهب في أصول الشَّريعة، والمراد بالأُلفة نَزْع الغِلِّ من الصُّدور، واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ إلفٌ مَألوفٌ، ولا خير في من لا يألَفُ ولا يُؤلَف». وهذا ضعيفٌ؛ لأن الإشارة به إلى سوء الخلق الذي يَمنع المؤالفة.

واحتجوا بقوله عليه الصلاة والسلام: «من فارقَ الجماعةَ فماتَ فميتةٌ جاهِلية». وهذا ضعيفٌ؛ لأن المرادَ الاجتماع على إمام تُعقَدُ له البَيعة.

واحتجوا بقوله: «لا هجرةَ فوقَ ثلاث». قالوا: والعُزلَةُ هِجرةٌ بالكليَّة. وهذا ضعيف؛ لأن المراد به قَطع الكلامِ والسلامِ والمخالطةِ المعتادة.

واحتجّوا بما رَوى معاذُ بن جَبل عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الشَّيطان ذئبُ الإنسان، كذئب الغَنَم، يأخذُ الشاةَ القاصيةَ والناحية، فإياكم والشِّعاب، وعليكم

بالجماعة والعامة والمسجد، وهذا إنما يُراد به المفارقةُ للجماعة على الإطلاق، والانقطاع عن المساجد، فأما مَنْ قامَ بالواجبات والسُّنَن ثم اعتزل، فلا وَجه لذَمِّه».

ذكر حُجَجِ المائلينَ إلى تفضيل العُزلة:

احتجّوا بقوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٨ـ ٤٩]، فأشار إلى أن ذلك بركة العزلة، وهذا ليس بشيءٍ؛ لأن مُخالطةَ الكفار ليسَ فيها فائدة سوى دَعوتهم إلى الدِّين، وذلك المقدار واجبٌ على الرُّسُل، وإنما الكلام في مُخالطة المسلمين وما فيها من البَركة، فإن رسولَ الله ﷺ أراد أن يَشرب من سِقايةِ مَكَّة، قيل له: ألا نأتيكَ بشرابٍ أنظف من هذا؟ فقال: «لا، اسقُوني من هذا الماء الذي يشرب منه الناس وإنما أَلتمس بركة أَيدي المسلمين» فشَرب منه.

واحتجّوا بقصة أهل الكَهف في قوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ [الكهف: ١٦] ولا حجة في هذا؛ لأنه اعتزال للكفار.

واحتجوا بما تقدم من حديث أبي سَعيد وعُقبة بن عامر، وهما محمولان على من تكون سلامَته في العُزلة، فإن رسول الله ﷺ لم يأمر جميع أصحابه وقد قال عليه الصلاة والسلام: «المؤمنُ الذي يُخالط الناس ويَصبر على أَذاهُم، خيرٌ من الذي لا يُخالطهم ولا يَصبر على أذاهم».

فإذا قد ظَهَر أنَّ الأدلة لا شِفاءَ فيها من الجانبين، فلا بدّ فيها من كشفِ الغِطاء بالتَّصريح بفوائد العُزلة وغَوائِلها، ومُقايَسة بعضها ببعض ليتَبيَّن الحق فيها إن شاء الله.

الباب الثاني

في ذِكر فوائد العُزلة وغَوائِلها وكَشف الحق في تَفضيلها

اعلم أنَّ اختلافَ الناس في هذا يُضاهي[١] اختلافهم في فضيلة النكاح والعُزوبة، وقد ذكرنا أن ذلك يَختلف بالأحوال والأشخاص بحسب ما بيّناه من آفات النكاح وفَوائده، فكذلك القول فيما نحن فيه.

فلنذكر أولاً **فَوائِد العُزلة**: وهي تنقسم إلى فَوائد دينية ودنياوية.

والدّينية تَنقسم إلى ما يُمكن من تَحصيل الطاعات في الخَلوة بالمواظبة على العبادة والفِكر، وتَربية العلم وإلى ما يُخلص من ارتكاب المناهي التي يَتعرض الإنسان لها بالمخالطة، كالزّنا، والغِيبة، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ومُسارَقَة الطَّبع من الأخلاق الرديئة من جُلَساء السوء.

وأما الدنياوية؛ فَتنقسم إلى تَمكُّنٍ من التَّحصيل بالخلوة، كتَمكن المحتَرِفِ في خَلوته، وإلى تَخلُّصٍ من محذوراتٍ يَتعرض لها بالمخالطة، كالنظر إلى زَهرة الدنيا، وإقبال الخلق عليها، وطمعهِ في الناس، وطمعِ الناسِ فيه، والتأذّي بسوء خُلق الجليس أو سوء ظَنِّه، أو نَميمته، أو حَسَده، فهذه مجامع فَوائد العُزلة، فلنحصرها في سِتِّ فَوائد:

الفائدة الأولى: الفراغُ للعبادة، والفكر، والاستيناس بمُناجاة اللهِ سُبحانه عن مُحادثةِ الخَلق، والاشتغال باستكشافِ أَسرار الله عز وجل في أمر الدنيا والآخرة، وملكوت السموات والأَرض، فإن ذلك يَستدعي فَراغاً، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وَسيلةٌ إلى ذلك، خُصوصاً في البداية، وقد كان النبي ﷺ يَنفرد في جبلِ

---

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «أيضاً هو».

حِراء، فلما قَوي نور النُّبوة لم يَحجبه الخلق عن الله تعالى، فكان ببدنه مع الخَلق، وبقلبه مع الله سُبحانه، وقد أخبرنا باسْتغراق هَمِّه بالله حينَ قال: «لو كنتُ مُتَّخِذاً خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ولكنّ صاحبكم خليلُ الله». ولن يتَّسع للجمع بين مُخالطة الخلقِ ظاهراً والإقبال على الله سِرّاً إلا قُوّة النُّبوة، فلا يَنبغي أن يَغْتَرَّ كل ضعيفٍ بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تَنتهي درجة بعض الأَولياء إلى نحو ذلك.

فقد قال الجُنَيد: أَنا أُكلم اللهَ منذ ثَلاثين سنةً، والناس يظنون أنّي أُكلِّمُهم. وهذا إنما يَتيَسَّرُ للمستَغرق بحبِّ الله تعالى استغراقاً لا يَبقى لغيره فيه مُتَّسع، ومثل هذا لا يُنكَر، فإن العشق للمخلوقين قد يُفرط فَيستغرق العاشق، فلا يدري ما الناس فيه وهو مخالطهم، فأمر الآخِرة أعظم، إلا أن هذا يَنْدُر، فالعُزلَةُ أولى بالمُريد.

وقد قيل لبعض الحُكماء: إلى أيّ شيءٍ أفضى بهم الزهد والخَلوة؟ فقال: إلى الأنس بالله.

وقيل لغزوان: لو جالستَ إخوانك؟ فقال: إني أَصَبتُ راحةَ قَلبي في مُجالسة من عِندَه حاجَتي.

وقيل للحسن: إنّ هاهُنا رجلاً لم نَرَهُ قَطّ إلا جالساً وحده خلف ساريةٍ. فقال: إذا رأيتُموه فأخبروني، فأخبروه، فأتاه فقال: يا عَبد الله، ما يمنعك من مُجالسة الناس؟ فقال: ما أَشغلني عن الناس. قال: فما يَمنعك أن تأتيَ هذا الرجلَ الذي يُقال له: الحَسن، فتجلس إليه؟ فقال: ما أشغلني عن الحسن وعن الناس. قال: فما الذي شَغلك رحمك الله؟ قال: أنّي أُمسي وأُصبح بينَ ذَنْبٍ ونعمةٍ، فرأيتُ أن أشغل نفسي بالاستغفار للذَنبِ، والشُّكْرِ لله على النِّعمة. فقال له الحَسن: أنت يا عبدَ الله عندي أَفْقَهُ من الحسن، الزمْ ما أنتَ عليه.

وقال أُوَيس: ما كنتُ أرى أن أحداً يعرف رَبَّه فيأنس بغيره.

وقال بعضُ الحكماء: إنما يَستوحش الإنسان من الخلوةِ لخلوِّ ذاته عن الفَضيلة، فيطرد عن نفسه الاستيحاش بمُلاقاةِ الناس، فإذا كانت ذاته فاضلة طلبَ

الوحدة ليستعين بها على الفِكرة، ويستخرج العلم والحكمة، واعلم أن من تيسر له بدوام الذكر الأُنسُ بالله، أو بدوامِ الفكر تَحقيقُ معرفة الله، فالتجرُّدُ لذلك أفضل مِنْ كل ما يَتعلَّق بالمخالطة، فإن غاية المعاملة أن تَرْقَى إلى المعرفة والمحبة، ولا معرفةَ إلا بدوام الفِكْرِ، ولا محبة إلا بالأُنس الحاصل[1] بدوام الذكر، وفَراغُ القلب شرطٌ لكلِّ واحدٍ منهما، ولا فراغ معَ المخالطة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعُزلة من المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويَسلَم منها في العُزلة، وهي أربعةٌ: الغِيبة، والرّياءُ، والسّكوتُ عن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ومُسارقة الطَّبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

أما الغِيبة، فإذا عرفتَ[2] في كتاب آفات اللِّسان من رُبعِ المُهلِكات وُجوهَها عرفت أن التَّحرزَ منها مع المخالطة عظيمٌ لا ينجو منها إلا الصدِّيقون، فإن عادةَ الناس التَّمَضْمُضَ بالأَعْراض والتَّفكُّهَ بها، فإن خالطْتَهم ووافقتَ أَثِمتَ وتعرَّضت لسخَطِ الله، وإن سكتَّ كنتَ شَريكاً، والمُستَمع أحدُ المُغْتابين، وإن أنكرتَ أبغَضوكَ وتَركوا ذلك المغتاب واغتابوكَ، فازدادوا غِيبةً إلى الغِيبة، وربما خَرجوا إلى الشَّتم.

وأما الأَمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر فَهو من أصول الدين، وهو واجبٌ على ما سيأتي بيانُه في آخر هذا الرُّبع إن شاء الله تعالى.

ومن خالطَ الناس لم يَخْلُ من مُشاهدة المنكرات، فإن سكتَ عَصى اللهَ عز وجل، وإن أنكَرَ تعرَّض لأَنواعٍ من الضَّرر، وفي العُزلَةِ سلامةٌ مِن هذا.

وأما الرِّياءُ، فهو الدّاء العُضال الذي يَعسُر الاحتِراز منه، وأقل ما في مُخالطة الناس إظهار التَّشوق إليهم، ولا يخلو ذلك من كذبٍ إما في الأصل وإما في الزّيادة، وقد كان السَّلفُ يحترزونَ في جواب قولِ القائل: كيفَ أصبحتَ؟ وكيفَ

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «الخالص».
(٢) في (ظ): «نظرتَ».

أمسيت؟ وكان أُوَيس[١] إذا قيل له: كيف أصبحتَ؟ قال: كيف يُصبح رجلٌ إذا أَمسى لا يَدري هل يُصبح، وإذا أصبح لا يَدري هل يمسي؟

وكان الرَّبيع بن خُثَيم إذا قيل له: كيفَ أصبحت؟ قال: أصبحنا ضُعفاء مُذْنِبين، نَأكلُ أرزاقَنا، ونَنْتَظِرُ آجالَنا.

وقيل لحامدٍ اللَّفاف: كيفَ أصبحتَ؟ فقال: أصبحتُ أَشتهي عافيةَ يومٍ إلى الليل. فقيل له: ألستَ في عافيةٍ؟ فقال: عافيةُ يومٍ أَنْ لا أَعصي فيه.

وقيل لبعض الحُكماء: كيفَ أصبحتَ؟ فقال: أصبحتُ لا أَرضى حياتي لِموتي، ولا نَفسي لربّي.

وقيل لرجلٍ وهو في المَوت: ما حالك؟ فقال: ما حالُ مَنْ يُريدُ سفراً بعيداً بِلا زادٍ، ويَدخل قبراً موحشاً بلا مُؤْنِس، وينطلق إلى مَلكٍ عادلٍ بلا حُجَّة.

واعلمْ أنه إذا كان سُؤال السائل لأخيه: كيفَ أصبحتَ؟ لا يَبعثه شفقة عليه ومحبةٌ لصلاحِ حاله كان تَكلُّفاً ورياءً، وربما سَأله وفي القلبِ ضِغنٌ وحِقد يؤثِرُ أن يعلمَ فَسادَ حالِهِ، وفي العُزلةِ الخَلاصُ من هذا؛ لأنه من لقيَ الخلقَ ولم يُخالقهم بأخلاقِهم مَقَتُوه واسْتَثْقَلوه واغتابوه، فيذهب دينُهم فيه، ويذهب دينُه ودُنياه في الانتقام منهم.

وأما مُسارَقةُ الطَّبع لما يُشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم، فهو داءٌ دَفين قَلَّما يَتنبَّهُ له العُقلاء، فَضلاً عن الغافلين، فَقَلَّ أن يُجالسَ الإنسانُ فاسقاً مدةً مع كونه مُنكراً عليه في باطنِه إلا ولو قاسَ نفسه إلى ما قَبلَ مُجالستِه وجدَ فرقاً في النُّفورِ عن الفَساد واستِثقاله؛ لأن الفَساد يَصيرُ بكَثْرةِ المُشاهَدَةِ هَيّناً على الطَّبع، ويَسقطُ وَقْعُه واستِعظامه، وإنّما الوازعُ عنه شِدّة وَقعِهِ في القَلب، فإذا صار مُسْتَصْغراً بِطولِ المُشاهَدةِ أَوْشَكَ أن تَنْحلَّ القوةُ الوازِعَةُ ويُذْعِنَ الطبعُ للميلِ إليه، أوْ لِما دونه، ومَهما طالت مُشاهدة الإنسان للكبائر من غيره احتقَر الصَّغائرَ من نفسه، ولذلك

(١) يعني أويس بن عامر القَرني.

تُؤَثِّرُ مجالسةُ الأَغنياء ازدراءَ الفقير نِعمةَ اللهِ عليه، وتُؤَثِّرُ مُجالسةُ الفقراء استعظامَ النِّعم، فكذلك النظر إلى المطيعين والعُصاة يؤثر[١] في الطَّبع.

ومَنْ لاحظَ أحوالَ السَّلَف في الزُّهد والتَّعبد احتقَر نَفسَه، واستَصغر عبادته، فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد، ومَن نظر إلى الأَحوال الغالبة على أهلِ الزمان وإعْراضِهم عن الله، وإقبالهم على الدُّنيا، واعتيادهم المعاصي استَعظمَ أمر نَفْسه بأدنى رغبةٍ في الخَير يُصادفها في قلبه، ويكفي في تَغيير الطَّبع مُجرَّد سماعِ الخَير والشَّر فَضلاً عن مُشاهدته، وبهذه الدَّقيقة يُعرفُ سرُّ قولِ القائلِ: عند ذكر الصّالحين تَتنزل الرحمة. وليسَ المراد ذكر أَعيانهم، بل عندما يجلبه ذكرهم من انبِعاثِ الرَّغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم، والاستنكاف عن ما هو مُلابسٌ له من القُصور والتَّقصير، ومُبتَدأُ الرحمةِ فِعلُ الخَير، ومُبتَدأ فِعل الخَير الرَّغبة، ومُبتَدأ الرَّغبة ذِكرُ أحوال الصالحين، فهذا معنى نُزول الرَّحمة.

ويُفهَمُ من فَحوى هذا الكلام أن عندَ ذكر الفاسقين تَتَنَزَّل اللعنة؛ لأن كثرة ذكرهم تُهوّنُ على الطَّبع أمر المعاصي، واللعنة هي البُعد، ومُبتدأ البُعد من الله تعالى المعاصي والإعراض عن الله بالإقبال على الحُظوظ العاجِلة والشَّهوات الحاضرة لا على المشروع، ومُبتَدأ المعاصي سقوطُ ثِقلها وتَفاحشها عن القَلب، ومُبتَدأ سقوط ذلك وقوعُ الأُنْسِ بها بكثرةِ السَّماع، وإذا كان هذا ذِكرُ حال الصالحين والفاسقين، فما ظنكَ بمشاهدتهم ومجالستهم؟ وقد ذَكرَ ذلكَ رسولُ الله ﷺ: أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداوودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: أخبرنا الفِربري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا محمد بن العَلاء قال: حدثنا أبو أسامة عن بُرَيد، عن أبي بُرْدَة، عن أبي موسى عن النَّبي ﷺ قال: «مَثَلُ الجليسِ الصالح وجَليسِ السّوء، كحامِلِ المِسكِ ونَافِخ الكير، فحامِلُ المسك إما أن يُحْذِيَكَ وإما أَنْ تَبْتاعَ منه، وإما أن تَجد منه ريحاً طيبةً، ونافخ الكير إما أن يُحرقَ ثيابكَ، وإما أن تَجدَ ريحاً خبيثةً». أخرجاه في الصحيحين.

---

(١) سقطت من (ظ).

ولهذا المعنى الذي ذكرتُه أقول: من عرف من عالمٍ زَلَّةً حَرُمَ عليه حِكايتها لعلَّتين: إحداهما: أن ذِكرها غِيبة. والثانية: وهي أعظمها، أن حكايتَها تُهوِّن على المستَمعينَ أمرَ تلكَ الزلَّةِ، ويَسقطُ من قُلوبهم استعظامُهم الإقدامَ عليها، فيكون ذلك سَبباً لتهوين تلك المعصية؛ لأنهم يقولون: إذا جَرى هذا للعلماء، فكيف نحن؟! وكم من شَخصٍ يحرص على جَمع الدنيا، ويَتَهالك على حُبِّ الرياسة، ويَستشهد بقول الله إخباراً عن سُليمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] ويُقدِّرُ أنَّه أرادَ الهَوى والرِّياسَة، وربما احتَجَّ بقِتال عليٍّ ومُعاويةَ[١]، وظنَّ أنَّ ذلك كان لطلبِ الرِّياسَة لا لِطَلبِ الحَقِّ، وهذا الاعتِقاد الخَطأ يُهوِّنُ عليه أمرَ الرياسة ولوازمها من المعاصي، والطبع اللئيم يميلُ إلى اتِّباع الهَفَوات والإعراض عن الحَسنات بل إلى تَقدير الهَفوة فيما لا هَفوةَ فيه بالتنزيل على مُقتضى الشهوة ليتعلل به، وهذه من دقائق مَكائِد الشَّيطان، فأهل اليَقظةِ يَتَنَبَّهون لمحاسن الأشياء، كما قال الله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، وأهل الغَفلة يَتناولون شَرَّ ما يسمَعون، ويَحملون المسموع على شَرِّ ما يَفْهمون، كما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل الذي يَستمع الحِكمة ثم لا يَعمل إلا بشَرِّ ما يَسمع، كمثل رَجلٍ أتى راعياً فقال له: يا راعي أَجْزِرني[٢] شاةً من غَنَمك. فقال: اذهب فخُذْ خَير شاةٍ فيها، فذهبَ فأخذ بأُذُنِ كلبِ الغَنَمِ». فكلُّ مَن يَنقل هَفوات الأئِمة، فَهذا مَثَلُه.

ومما يدلُّ على سُقوطِ وَقْعِ الشَّيْءِ عن القلب بسببِ تكرُّرِه ومشاهَدته أن أكثرَ الناس إذا رَأَوا مُسلماً قد أَفْطَرَ في رمضان اسْتَفْظَعوا ذلكَ حتى يكاد يُفضي إلى اعتِقادهم فيه الكُفر، وقد يُشاهدون من يُؤَخِّرُ الصَّلوات عن أوقاتها فلا ينفرون عنه نُفورهم عن تأخير الصَّوم، مع أن ترك صلاةٍ واحدة يُخرج إلى الكُفر، ولا سببَ لذلك إلا أنَّ الصلاةَ تتكرَّر، والتساهل فيها يكثر، فَيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب، وكذلك لو لبس الفَقيه ثوباً من حريرٍ أو خاتَماً من ذَهبٍ، أو شَرب من إناءٍ

(١) يعني بذلك ما جرى من وقعة صِفِّين سنة ٣٧ للهجرة، ينظر: تاريخ الطبري ٥/ ٥ وما بعدها، والبداية والنهاية ١٠/ ٥٠٢ وما بعدها.

(٢) يقال: أجزرت للقوم، أي: أعطيتهم شاةً يذبحونها. ولا يقال إلا في الغنم خاصةً.

من فضةٍ لاستَبعدتْهُ النّفوس واشتدَّ إنكاره، وقد يُشاهَدُ ذلك الفَقيه يَغْتابُ الناس، فلا يُستعظَمُ ذلك، والغِيبةُ أشدّ من لُبسِ الحرير، ولكن كَثرة سماعها ومشاهدة المغتابين أسقطَ عن القُلوب وَقْعها، وهَوَّن على النُّفوس أمرَها، فَتفَطَّنْ لهذه الدَّقائق واحذَرْ مُجالسةَ الناس، فإنك لا تَكادُ تَرى منهم إلا ما يَزيد في حِرصك على الدنيا، وغفلتك عن الآخرة، ويُهوِّنُ عليكَ المعصية، ويُضعف رغبتك في الطاعة، فإن وجدتَ جليساً يَذكر الله شَخصُه وسيرتُه فلا تفارِقْه، فإنه غَنيمة المؤمن.

الفائدة الثالثة: الخَلاصُ من الفِتَن والخُصومات، وصيانَةُ الدينِ عن الخَوض فيها والتعرض لأخطارها، وقَلَّما تَخلو البلاد من العَصبية والخُصومات، والمعتَزل عنهم سليم[(١)]. وقد رَوى عبدُ الله بن عمرو أن النبي ﷺ ذَكر الفتن وَوَصفها وقال: «إذا رأَيتَ الناسَ قد مَرجَتْ عُهودهم، وخَفَّتْ أماناتُهم، وكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه» فقلت: ما تَأمُرني؟ فقال: «الزَمْ بيتَك، واملِكْ عليكَ لسانَك، وخُذْ ما تَعرف، ودَعْ ما تُنكر، وعليكَ بأمرِ الخاصَّة، ودع عنكَ أمرَ العامَّة». وفي أفراد البخاري من حديث أبي سَعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «يوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ المسلم غَنَمٌ يتبع بها شَعَفَ[(٢)] الجِبال ومَواقع القَطْر، يَفِرُّ بدينه مِنَ الفِتَن» وفي أفراد مسلم من حديث أبي بَكرةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «ستكونُ فتنةٌ القاعِدُ خَيرٌ من الماشي فيها، والماشي فيها خَيرٌ من السَّاعي إليها، أَلا فإذا نَزلَت أو وَقعت، فمن كان له إبلٌ فَليلحَقْ بإبلِه، ومَنْ كان له غَنَمٌ فَليلحق بغَنمه، ومن كانَت له أرضٌ فليلحق بأَرضه». فقال رجل: يا رسولَ الله، أرأيتَ مَنْ لم تكن له إبلٌ ولا غَنَمٌ ولا أَرض؟ قال: «يَعمد إلى سَيفه فَيدقُّ على حَدِّهِ بحَجرٍ، ثم لِيَنْجُ إن استَطاع النَّجا، اللهمَّ هل بَلَّغت» فقال رجل: يا رسول الله، أرأيتَ إن أكرِهتُ حتى ينطلق بي إلى أحدِ الصَّفين أو إحدى الفِئَتينِ فضربني رجل بسَيفه أو يَجيء سَهمٌ فَيقتُلني؟ فقال: «يَبوء بإثمِه وإثمِكَ فيكون من أصحاب النار». فإذَن الحذَر من الخُصومات ومثار الفِتَن إحدى فوائِد العُزلة.

(١) في (ظ): «مسلم».
(٢) شَعَف الجبال: رؤوس الجبال.

الفائدة الرابعة: التخلص من شر الناس فإنهم يُؤذونَك مرةً بالغِيبة، ومرةً بالنَّميمةِ، ومرةً بسوءِ الظنِّ؛ مرةً بالتُّهمة، ومرةً بالأَطماع الكاذِبة، وقد يَرونَ منك أعمالاً وأقوالاً لا يَفهمون المقصودَ منها، فإذا لاحَتْ لهم فُرصةٌ قالوا فيكَ.

ومَنْ خالطَ الناسَ لم ينفكّ عن حاسدٍ وعدوٍ يُسيءُ الظنَّ به، ويَنصب المكيدة عليه.

وأنواع الشَّرِّ التي يَلقاها الإنسان إنما هي من معارفه، وفي العزلة خلاصٌ من جميع ذلك، كما قال ابن الرومي:

عَدوّكَ من صَديقك مُستَفاد ... فلا تَستَكثِرنَّ من الصِّحابِ

فإنَّ الداءَ أكثر ما تَراهُ ... يكون من الطعام أو الشَّرابِ

وقد قال عُمر رضي الله عنه: في العُزلةِ[1] راحةٌ من خُلَطاء السُّوء.

وقال أبو الدَّرداء: كان الناس وَرَقاً لا شَوكَ فيه، فصاروا شَوكاً لا وَرَقَ فيه.

وقال بعضُهم: كان الناس دَواء يُتداوَى به، فصاروا داءً لا دواء لهم.

وقال سفيان بن عُيَيْنة: أَوصاني الثَّوري فقال: أَقِلَّ من معرفة الناس.

وقال إبراهيم بن أَدهم: لا تَتعرف إلى من لا يَعرفك، وأنكِر من تَعرفه.

وقال رجلٌ لأخيه: أَصحبُكَ إلى الحج؟ فقال: دَعنا نعيش في سَتر الله، فإنا نخاف أن يَرى بَعضُنا ببعضٍ ما نَتماقَتُ عليه. وهذه فائدةٌ أخرى في العزلة، وهو بقاء السَّتر على الدّين والمروءة وسائِر العَورات.

قال الشاعر:

مَن حَمِدَ الناسَ ولم يَبْلُهُمْ ... ثمَّ بَلاهُمْ ذَمَّ مَنْ يَحمدْ

وصارَ بالوَحدةِ مُسْتَأنِساً ... بوَحْشةِ الأقربِ والأَبْعَدْ

(١) في الأصل: «الوحدة».

وقال آخر:

اخفِض الصوتَ إن نَطَقتَ بلَيلٍ والتَفِت بالنَّهارِ قبلَ الكلامِ

الفائدة الخامسة: أن يَنقطع طمعُ الناس عنكَ، وطمعك عَنهم، أما انقِطاع طَمعهم؛ فإنّ رضاهم غايةٌ لا تُدرَك. فالمنقطع عَنهم قاطعٌ لطمعهم في حُضور وَلائِمهم وإملاكاتِهم وغير ذلك، وقد قيل: من عمَّ الناسَ بالحِرمان رَضوا عنه كلُّهم.

وأما انقِطاع طمعك عنهم، فإن من نظر إلى زَهرة الدُّنيا تحرَّكَ حرصُه فانبعثَ بقوة الحرصِ طمعُهُ، ولا يرى إلا الخَيبة في أكثر المطامع، فيتأذَّى، وإذا اعتزل لم يَرَ فلم يَطمع ولم يَشْتَهِ، قال اللهُ عزَّ وجل: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال ﷺ: «انْظُروا إلى مَنْ هو دُونكُم، ولا تَنظروا إلى مَنْ هُو فَوقكم، فإنه أجدَرُ أن لا تَزْدَروا نِعمةَ الله عَليكم».

وقال عَونُ بن عبد الله: كنتُ أُجالس الأَغنياء، فلا أَزالُ مَغموماً كلّما رأيتُ ثَوباً أحسن من ثَوبي، ودابةً أفْرَه من دابتي، فجالستُ الفقراء فاستَرحتُ.

واعلم أنَّ من رأى زينةَ الدنيا تحرَّكَ طبعُه لتَحصيل مِثلها، فإن فَعل خَسِرَ، وإن جاهدَ نفسه تجرَّعَ مرارةَ الصَّبر، كيفَ وقد قيل لسيِّدِ الكُلِّ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨].

الفائدة السادسة: الخلاصُ من مُشاهدة الثُّقلاء والحَمقى ومقاساة أخلاقهم، قال جالينوس: النَّظر إلى الثُّقلاء حُمَّى الروح.

قال الشافعي: ما جالست ثقيلاً إلا وجدتُ الجانبَ الذي يَليه مِنْ بَدني كأنه أثقلُ عليَّ من الجانب الآخر.

واعلم أنَّ الإنسان إذا تَأذَّى بالثُّقلاء لم يلبث أن يَغتابهم، فإن آذوه بالقَدْح فيه كافأهم فانجرَّ الأمرُ إلى فسادِ الدينِ، والعُزلةُ سلامةٌ من ذلك.

آفاتُ العُزلَة
[وفوائد المخالطة][(١)]

اعلم أن مِنَ المقاصد الدينية والدُّنياوية ما يُستفاد من الاستعانة بالغَير، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة فكل ما يُستفاد من المخالطة يفوتُ بالعزلة، وفواته من آفات العُزلة.

ومن فوائد المخالطة: التَّعليم، والتَّعلم، والنَّفع والانتفاع، والتأديب، والتأدُّب والاستِئْناس، والإِيناس، ونَيل الثَّواب، وإنالته في القِيام بالحقوق، واعتياد التَّواضع، واستفادة التجارب من مُشاهدة الأحوال والاعتبار بها، فهذه سبع فوائد، فلنفصِّلها:

الفائدة الأولى: التعليم والتعلم؛ وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم، وهما أعظم العبادات في الدنيا، ولا يُتصور ذلك إلا بالمخالطة، إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مَندوحةٌ، فالمحتاج إلى التعلّم لما هو فرضٌ عليه عاصٍ بالعُزلة، فإنْ تعلَّم الفرضَ ورأى أنه لا يَتأتّى منه الخَوض في العلوم، ورأى الاشْتغال بالعبادة، فليعتزل، وإن كان يَقدر على التَّبرِيزِ في علوم الشَّرع فالعزلة في حقه قَبل التعلُّم غاية الخِسْران، ولهذا قال الرَّبيع بن خُثيم: تَفقَّه ثمّ اعتَزِل.

ومَن اعتزلَ قبل التعلُّم فغايته أن يَستغرق الأَوقات بأورادٍ يعملها بيدَيه لا ينفكُّ فيها من الغُرور الذي يُخيِّبُ سَعيه ويُبطل عَمَله من حيث لا يَشعُر، ولا ينفك في اعتقاده في الله سُبحانه وصفاته عن تَوهُّماتٍ يأنَس بها وخَواطر فاسدة تَعتَريه، فيكون في أكثر أَحواله ضُحكة للشيطان وهو يَرى نَفْسَه من العُبّاد.

فالعِلم أصلُ الدين ولا خَير في عُزلةِ العوام والجُهّال، فمثال النفس مثال مَريضٍ يفتقر إلى طَبيب مُتلطف يُعالجه، فالمريض الجاهل إذا خَلا بنفسه عن طَبيبٍ قبل أن يتعلَّم الطِّب تَضاعفَ لا محالة ضَرُرُه.

---

(١) زيادة ليست في النسخ.

ولا تَليقُ العُزلةُ إلا بالعلم، وسئل بعضُ العلماء: ما تقولُ في عُزلةِ الجاهل؟ فقال: خَبالٌ ووَبَالٌ. فقيل له: والعالم؟ فقال: ما لكَ ولَها؟ معها حِذاؤها وسِقاؤُها تَرِدُ الماء وتَرعى الشَّجر حتى يَلقاها رَبُّها[١].

وأما التعليم: ففيه ثوابٌ عظيم إذا صَحَّت نِيّة المعلّم، ومتى كان القَصدُ [٢]إقامةَ الجاه والاستكثار من الأتباع فهو هلاك الدين، وقد سبق بيان هذا في كتاب العلم.

والغالب في هذا الزمان سوء[٢] القصد من المتعلمين، فلا تكاد تَرى إلا طالباً لكلامٍ مُزخرفٍ، يُستمالُ به العوام في مَعرض الوَعظ أو لجدالٍ مُعقدٍ يُتوصَّل به إلى إفحامِ الأَقران، ويُستَعمل في معرض المُباهاة.

وأقربُ علمٍ مرغوب فيه المَذهبُ، ولا يكاد يُطلب غالباً إلا للتوصل إلى التَّقدم على الأمثال، وتَولِّي الولايات، وهؤلاء كلّهم يَقتضي الدينُ والحزمُ الاعتزالُ عنهم.

فإن صودف طالبٌ لله، ومتقربٌ بالعلم إليه لم يَجُز الاعتزال عنه، ولم يَحلّ كتمان العلم منه، ولا يَنبغي أن يغترَّ بقول من قال: تعلَّمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكونَ إلا لله. فإنه أشار بهذا إلى علم[٣] القرآن والحديث ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذير، وهو سببٌ لإثارة الخوف من الله سُبحانه، فإن لم يؤثر في الحال أثَّر في المآل.

فأما الكلام وعلم الخِلاف فإنه لا يَردُّ الراغبَ في الدنيا إلى الله، بل لا يزال صاحبُه متمادياً في حرصه إلى آخرِ عمره، فلا ينبغي للإنسان أن يُخادع نفسه، فإن المقصِّرَ العالمَ بتقصيره أسعدُ حالاً من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون،

---

(١) شَبَّه هنا عُزلة العالم الذي قد حصَّلَ من أدوات العلم ما يُغنيه، بتركِ ضالَّةِ الإبل حيث أمر النبيُّ ﷺ بتركها وعدم التعرض لها، فمعها حذاؤها وسقاؤها وترد المرعى فلا يُخشى عليها شيء، حتى يجدها صاحبها، بخلاف ضالَّة الغنم.

(٢-٢) سقط من الأصل.

(٣) في (ظ): «علوم».

وبَعيدٌ[١] أن يحرص عالم على التعليم إلا وغرضُه القبول والجاه، وحظُّهُ تَلذُّذُ النفس بما يُورده، والإدلالُ على الجهّال والتكبرُ عليهم، فآفةُ العلم الخُيَلاء، ولهذا يَصير كالخادم لأصحابه، يسعى في أغراضهم ليتبعوه، وربما قامَ لهم بالرِّزق، أو طلبَ لهم من السُّلطان، ويُخيل إليه أنه بذلك يَنشُر الشريعةَ، ولو تفكَّر لعَلمَ أنّ أكثر فساد الزمان وجود أمثال هؤلاء المتعلمين، الذين يَتناولون ما يَجدون من حلالٍ أو حَرام.

الفائدة الثانية: النَّفعُ والانتفاع

أما الانتفاع بالناس، فبالكسب والمعاملة، وذلك لا يتأتّى إلا بالمخالطة، والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العُزلة، فيقع في جهادٍ من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه، كما ذكرنا في كتاب الكَسب، وإن كان معه ما يُقنعه فالعزلة أفضل له، إلا أن يقصد التصدُّق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تَكون العزلة مفيدة له معرفةَ الله تعالى والأُنْسَ به لا عن أوهامٍ وخَيالات فاسدة.

وأما النفعُ؛ فهو أن ينفع الناس إمّا بماله أو ببَدَنِه، فيقوم بحاجاتهم على سَبيل الحِسْبة، ففي النُّهوض بقَضاء حوائج المُسلمين ثواب، وذلك لا يَتأتّى[٢] إلا بالمخالطة، ومن قدر عليه مع القيام بحدود الشرع فَهو أفضل له من العُزلة إن كان لا يَشتغل في عُزلته إلا بنوافل الصَّلوات والأعمال البَدَنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقَلب بدوام ذكرٍ أو فكرٍ، فذلك الذي لا يُعدَلُ به غَيره البَتَّة.

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب، ونَعني به الارتياض بمقاساة الناس، والمجاهدة في تحمل أذاهم، كسراً للنفس، وقهراً للشَّهوات، وهي من الفوائد التي تُستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب بعدُ أخلاقه.

وينبغي أن يُفهمَ أن الرياضة لا تُرادُ لنفسها، كما لا يُراد من رياضة الدابّة عينُ رياضتها، بل المرادُ منها أن تُتَّخَذَ مركباً تُقطع به المراحل. والبدن مطيةٌ تُسْلَكُ بها

---

(١) في الأصل: «يتعذر».
(٢) في الأصل: «ينال».

طريق الآخرة، وفيها شَهواتٌ إن لم تكسر جَمَحت براكبها في الطريق، فمن اشتغل طولَ عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طولَ عُمر الدابة برياضَتها ولم يَركبها، فلا يَستفيد منها إلا الخَلاص من عَضِّها ورَفسها ورَمْحِها، وهي لَعَمري فائدة، لكن ليست مُعظم المقصود، كما قيل لراهبٍ: يا راهب. فقال: لستُ براهبٍ، وإنما أنا كلبٌ عَقورٌ، حَبستُ نفسي حتى لا أَعقِرَ الناس. وهذا حسنٌ بالإضافة إلى من يَعقر، ولكن لا يَنبغي أن يقتصر عليه، فينبغي أن يبتدئ بالمخالطة ثم يختم بالعزلة.

وأما التأديب: فإنما نَعني به أن يُروِّضَ غيره، وهو حال شَيخ المتزهِّدين، فإنه لا يَقدر على تَهذيبهم إلا بمُخالطتهم، فحالُه حالُ المعلِّم، وحكمُه حكمُه، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرِّياء ما يتطرق إلى نَشْرِ العِلم.

الفائدة الرابعة: الاستِئناس والإيناس، وقد يكون مُستحباً كالاستئناس بأهل التَّقوى، وقد يقصد به تَرويحُ القلوب مِن كرب الوحدة، فينبغي أن يكون الاستئناس في بَعض الأوقات[1] لمن لا يفسد بقيتها، وليحرص أن يكون حديثه عند الاستئناس في أُمور الدين، وفي الجُملة يَنبغي أن ينتقيَ الجليسَ، ويَتفقَّد حالَ القَلب في المُؤانسَة.

الفائدة الخامسة: في نَيل الثَّواب وإنالَته؛ أما النَّيل فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور العيدين والإملاكات والدَّعوات، ففيها ثَوابٌ من جهة إدخال السرور على المؤمن.

أما إنالته؛ فهو أنْ يفتح بابَه للناس ليُعزُّوه، أو يُهنِّئوه، أو يعودوه، فإنهم يَنالون بذلك ثواباً، وكذلك إن كانَ من العلماء فأذن لهم في زيارته، ولكن ينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها، فَيُرجِّح العزلة أو المخالطة وقد كان أكثر السلف يُؤثرون العزلةَ عليها.

الفائدة السادسة: **التواضع**: ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكِبْرُ سبباً

---

(١) في (ظ): «الساعات».

في اختيار[١] العزلة، فكم من معتزلٍ في بيته باعثُه التَّكبُّر، ومانِعُه من المحافل التَّقصير في إكرامه وتقديمه، وربما تَرفَّع عن مُخالطتهم لارتفاعِ محله عند نفسه، أو ليُبقي طراوةَ ذكره بين الناس، وقد يَعتزل خِيفةَ ظهور مقابِحِه لو خالطَ، فلا يُعتقد فيه الزُّهد والاشتِغال بالعبادة، فيتخذُ من البيتِ ستراً لمقَابِحِه إبقاءً على اعتقادِ الناس فيه الزُّهدَ والتَّعبُّدَ.

وعلامةُ مَن هذه صِفَته أنه يُحب أن يُزار ولا يُحب أن يَزور، ويفرح بتقرُّب السَّلاطين والعوام إليه، واجتماعهم على بابه وتَقبيلهم يَده، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يُبغِّض إليه المُخالطةَ لأبغضَ زيارةَ الناس له، كما قال حاتمٌ الأَصم لأميرٍ زارهُ، فقال له: أَلكَ حاجةٌ؟ قال: أن لا أراكَ ولا تَراني.

والعُزلة بهذا السبب جَهلٌ من وَجهين:

أحدهما: أن التواضع والمخالطة لا يَغضُّ من مَنصبِ مَن هو كبيرٌ بِعلمه أو دينِهِ، فقد كان النبي ﷺ يَمشي في السوق، ويُجيب دَعوةَ المملوك، ويَسعى في حاجة الأَمَةِ، ويشتري الشَّيْءَ فيحمله بنَفسِه، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يَحلب لبعض الفُقراء غَنَمهم، ويحمل الثياب إلى السوق ليَتَّجِرَ بها، وكان عُمر رضي الله عنه يَعُسُّ[٢] المدينةَ بنفسه، وَيمشي في حوائِجه. وكان عثمان رضي الله عنه يقيل في المسجد، ويجالس الناس كأحدهم. وكان علي رضي الله عنه يَستَقي بأُجرةٍ ويَحمل الحاجةَ إلى أهله، ويقول:

لا يُنقِصُ الكامِلَ مِنْ كَمالِهِ ... ما جَرَّ مِن نَفْعٍ إلى عِيالِهِ

وكان أبو هُريرة يحمل حُزمةَ[٣] الحطب على ظَهره وهو أميرُ المدينة من قِبَلِ مَروان، ويقول: طَرِّقُوا لأميركم، وكان الحسن بن علي يَجلس مع المساكين، وهذا الأمر كان عامّاً في القوم شاملاً لهم.

---

(١) ليست في الأصل.
(٢) يعس: يطوف بالليل يكشف عن أهل الريبة.
(٣) في (ظ): «جرزة».

وتحتَ هذا دقيقةٌ، وهي: أن الناقصَ يُتممُ نَقصَه بكبره، والكاملُ لا يحتاج إلى تَتمة؛ لأن فَخْرَه بنفسه، فتراه إذا دخل مَجلساً جلسَ في أدناه؛ لأنه لا يَرى العلوَّ بالمكان، بل بالمكانةِ ولهذا قال العلماء: من تكبَّر في ولايته، فالولاية أكبر منه، ومن تَواضع فيها، فهو أكبر منها.

الوجه الثاني: أن الذي يُشغِلُ نفسَه بطلبِ رِضَا الناس عنه، وتحسين اعتقادهم فيه مَغرور[١]؛ لأنه لو عرفَ حقَّ المعرفة عَلمَ أنهم لن يُغنوا عنه من الله شَيئاً، وأن الضَّرر والنَّفعَ بيد الله، قالت عائشةُ: مَنْ أرضَى الناسَ بسَخَطِ الله عادَ حامِدُه من الناس ذَامّاً. وقالت امرأةٌ عابدةٌ: إذا كان هو يَقسمُ الثَّناء فلمن نَتصنَّعْ؟

فإذن مَن حَبَس نفسَه في البيتِ ليُحسِّنَ اعتقادَ الناس فيه وأقوالَهم، فهو في عذابٍ في الدنيا، ولعذابُ الآخرة أكبر لو كانوا يَعلمون.

فهذه غَوائِل خَفيةٌ في اختِيار العُزلةِ يَنبغي أن تُتَّقى، فإنها مُهلكاتٌ في صُوَرِ مُنْجِيات.

الفائدة السابعة: التَّجارب، فإنها تُستَفاد مِن مُخالطة الخَلْق، ومجاري أَحْوالهم، والعَقل الغَريزيُّ ليس كافياً في تَفَهُّم[٢] مصالح الدين والدنيا، وإنما تُفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عُزلَةِ مَن لم تُحنِّكْهُ التَّجارب، فإذا اعتزل الصَّبيُ بَقي غَمْراً[٣] جاهلاً، بل يَنبغي أن يَشتغل بالتَّعلُّم ويحصل له في مُدّة التعلُّم ما يحتاج إليه من التَّجارب فيكفيه ذلك، ويحصل بقية التَّجارب بسماع الأَحوال، فلا يحتاج إلى المخالطة، ومن أهمّ التَّجارب أن يُجرِّبَ نفسه وأَخلاقه وصفات باطنه، وذلك لا يَقدرُ عليه في الخَلوة، فإنه إذا خَلا الحَقودُ والحَسودُ وذو الشَّرِّ لم يَترشَّح منه خُبْثُه، وهذه الصِّفاتُ مُهلكاتٌ يجب إماطَتُها وقَهرها، ولا يكفي تَسْكينُها بالتَّباعد عَمَّا يُحركها، والمخالطة تُحركها فَيعلم مقدارها.

---

(١) في (ظ): «ليس له معرفة».

(٢) في الأصل: «تفهيم».

(٣) الغَمر: الذي لم يُجرّب الأمور.

أخبرنا محمد بن عبد الباقي، قال: أخبرنا حَمْدُ بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم الحافِظ، قال: أخبرنا جعفر بن محمد الخُلدي قال: حدثني الجُنَيد قال: سمعتُ السَّريَّ يقول: خَفِيتْ عليَّ علةٌ ثَلاثين سنةً؛ وذلك أنا كُنّا جماعة نُبكِّرُ إلى الجُمعة، ولنا أماكن قد عُرفَت بنا لا نَكادُ نَخلوا عنها، فماتَ رجلٌ من جيراننا يومَ جُمعةٍ، فشيَّعتُ جنازته، فأصبحتُ عَن وَقتي ثم جِئت فلما أن قربت من المسجد قالت لي نفسي: الآنَ يرونَكَ وقد أصبحتَ وتخلفتَ عن وَقتك، فَشقَّ ذلك عليَّ، فقلتُ لنفسي: أَراكِ مرائِيةً منذ ثلاثينَ سنة وأنا لا أدري! فتركتُ ذلك المكان الذي كنتُ آتِيهِ، وجعلتُ أُصلّي في أماكن مُختلفة لئلا يُعرفَ مكاني. وقد حَكى بعضُهم عن سَرِيٍّ أنه قال: فأَعدتُ صلاةَ ثلاثينَ سنةً.

فإذا عرفتَ فوائدَ العُزلةِ وغَوائِلَها تحققتَ أن الحُكم عَليها مُطلقاً بالتَّفضيل نَفياً أو إثباتاً خَطأٌ، بل يَنبغي أن يُنظَر إلى الشَّخصِ وحاله، وإلى الباعثِ على مُخالطته، وإلى الفائِتِ بسببِ مُخالطته منَ الفَوائد، ويُقاسُ الفائِتُ بالحاصل، فعند ذلكَ يَتبيَّنُ الحقُّ ويَتَّضِحُ الأَفضل، وقد قال الشّافعي: الانقِباضُ عن الناس مَكْسَبةٌ للعداوة، والانبساطُ إليهم مَجلبةٌ لقُرناءِ السُّوء، فكُن بينَ المنقبض والمُنْبَسِط.

كذلك يجب الاعتدال في المُخالطة والعُزلة، ويختلف ذلك بالأحوال. وبملاحظة الفَوائدِ والآفات[1] يَبينُ الأفضل، فهذا هو الحقُّ الصُّراحُ، وكل ما ذُكِرَ سوى هذا فَهو قاصرٌ، وإنما هو إخبارُ كلِّ واحدٍ عن حالةٍ خاصةٍ هو فيها، فلا يجوزُ أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال.

فإن قيل: فما آدابُ العُزلة؟

قلنا: ينبغي للمعتزلِ أنْ يَنوي بعُزلتهِ كَفَّ شَرِّ نفسِه عن الناس أولاً، ثم طلبَ السلامةِ من شَرِّ الأَشرار ثانياً، ثم الخلاصَ من آفَةِ القُصور عن القِيام بحقوق المسلمين ثالثاً، ثم تَجريدَ الهمَّة لعبادةِ الله رابعاً، فهذه آداب نيَّته.

ثم ليكن في خَلوته مُواظباً على العِلمِ والعَملِ والذِّكرِ والفِكر ليَجتني ثمرةَ

(١) تحرف في (ظ) إلى: «وربما خطر الفوائد والأوقات».

العُزلة، وليمنع الناسَ عن أن يكثروا غِشْيانه وزيارَتَه، ليصفو وقته، وليكفَّ عن السُّؤال عن أَخبارهم وعن الإِصْغاءِ إلى أَراجيف البَلَد، وما الناس مشغولون به، فإن جميع ذلك يَنْغَرس في القَلب حتى ينبعث في أثناء الصَّلاة، فوقوع الأخبار في السَّمع كوقوع البذر في الأَرض، لا بد أن ينبت وتَتَفرَّع العُروق والأَغصان.

وأحد مهمات المعتزِل قَطعُ الوَساوس الصَّارفة عن ذكرِ الله تعالى، والأَخبارُ ينابيعُ الوَساوِسِ وأصولُها، وليقنع باليَسير من المعيشة وإلا اضطرَّه التوسُّع إلى مُخالطة الناس، وليكن صَبوراً على ما يَلْقاه من أَذى الناس، ولا يُصغي إلى الثَّناء عليه بالعُزلَةِ ولا القَدْحِ فيه بتَركِ الخُلْطَةِ، فإنّ ذلك يُؤثر في القلب، فيقف عن السَّيرِ.

والسَّيرُ في طريق الآخرة إما بالوِردِ والذِّكر مع حُضور القَلب، أو بالفِكْر في عَظمةِ الله ومُلكه، أو بالتأمُّل لدقائق الأعمال ومفسداتِ القَلبِ[1]، وطلب الخلاص منها، وكل ذلك يَفتقر إلى الفَراغ، فلا يحتمل ما يكدر القَلب ويَشغله، وليكن له جليسٌ صالحٌ يَستريح إليه ساعةً عن كَدِّ المُواظَبَةِ ففي ذلك عونٌ على بَقيةِ الساعات.

ولا يَتمُّ له الصبرُ في العُزلة إلا بقَطع الطَّمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقِصَر الأَمل، فيُقَدِّرُ أنّه إذا أصبحَ لا يُمسي، وإذا أَمسَى لا يُصبح، فيسهل عليه صَبرُ يومٍ، وليكن كثيرَ الذِّكْر للموتِ وَوَحدة القَبْر متى ضاقَ قلبه من الوحدة، وليتحققَ أن من لَم يَحصُل في قلبه مِن ذكرِ الله ومَعرفته ما يأْنَسُ به لَم يُطق وَحشةَ الوحدة بعد الموت، وأنَّ من أَنِسَ بذكرِ الله ومعرفته لم يَزل الموتُ أُنْسَهُ؛ لأن الموتَ لا يهدم محلَّ الأُنْس والمعرفةِ، كما قال تعالى في حَقِّ الشُّهداء: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وكل مُتجردٍ لله في جهادِ نفسه، فهو شَهيدٌ، كما قال [بعض الصحابة][2] رجعنا من الجِهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.

آخر كتاب العزلة

(١) في (ظ): «القلوب».

(٢) زيادة يستقيم بها السياق.

كتابُ آداب السَّفَر

الحمدُ لله الذي هَيَّأَ قُلوب أَوليائِه لقُبول العِبر، فَتلقَّفَتْها في الحَضَرِ والسَّفَر، وتأثَّرت بما شاهدت منها أحسنَ الأثر، وفَهِمت المراد بها وخَبِرَت الخَبَر، وصلوات الله على نَبيِّه محمدٍ سَيّد البَشَر، وعلى أصحابه الميامين الغُرَر، المُقْتَفين آثارَه في الأَخلاق والسِّيَر، وسلّم تَسليماً كثيراً.

أما بعد؛ فإن السَّفر وسيلةٌ إلى الخَلاص من مَهروبٍ عنه، أو الوصول إلى مَرغوبٍ فيه، والسفر سَفَران: سَفَرٌ بظاهرِ البَدَن عن الوطن إلى البَرِّ، وسَفَرٌ بسِرِّ القَلبِ عن أَسفَلِ السّافِلين إلى ملكوتِ السماوات.

وأشرفُ السَّفَرين السَّفَر الباطن، فإن الواقفَ على الحالةِ التي نَشأ عليها عَقيب الوِلادة الجامدَ على ما تَلقَّنَه بالتقليد من الآباءِ لازمٌ درجةَ القُصور، وقانِعٌ برُتبة النَّقص، ومستبدلٌ بمتَّسَعٍ عرضُه السماوات والأرض ظلمةَ السِّجن وضيقَ الحَبس.

قال أبو الطَّيِّب:

وَلَمْ أَرَ في عيوبِ الناسِ شَيئاً كَنقْصِ القَادِرين على التَّمام

إلا أن هذا السَّفر لما كانَ مُقتَحِمهُ في خَطبٍ خطيرٍ لغُموض السَّبيل وفقد الخفير، انْدَرَسَتْ مسالِكُه، وانقَطع فيه الرِّفاق، فمن يُسِّرَ له هذا السَّفَرُ لم يَزل مُتنزِّهاً في الجنة وهو ساكنٌ ببَدنِه في الوَطَن، وغنائم هذا السَّفَر دائمةٌ غير ممنوعة، وثَمراته مُتزايدةٌ غير مَقطوعة، إلا أنْ يُغيِّر المسافر في سَيره، فإنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يُغيّروا ما بأنفُسِهم.

فأما سَفر البَدَن؛ فقد يكون في طَلَبِ العلمِ والدينِ والكفاية.

وله آدابٌ وشُروطٌ مَن قام بها كان من عُمّال الآخِرة، ومَن أَهمَلها كان من عُمّال الدنيا، ونحنُ نذكر آدابَهُ وشُروطَهُ في بابَين إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

(١الباب الأول: في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع.

الباب الثاني: فيما لا بد للمسافر من تعلُّمه مِن رُخَص السَّفر وأدلة القبلةِ والأوقات١).

(١ـ١) ليس في الأصل.

الباب الأول

في الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع

وفيه فصلان:

الفصل الأول
في فوائد السَّفر وفَضله ونيَّته

اعلم أن للسَّفر فَوائد وآفات، فالفوائدُ الباعثةُ على السَّفر لا تَخلو من هَربٍ أو طلب، فإنَّ المُسافِر إما أن يكون له مُزعجٌ عن مقامه، ولولاه لما كان له مَقصد يُسافر إليه، وإما أن يكونَ له مقصد ومَطلب.

والمهروبُ عنه: إما أَمرٌ له نِكايةٌ في الأُمور الدُّنْياويَّة، كالطَّاعون والوَباء إذا ظهر ببلدٍ، أو خَوفٌ سببه فِتنة وخصومةٌ، أو غلاءُ سِعرٍ، وهو إمّا عامٌّ كما ذَكرنا، أو خاصٌّ كمن يَقصد تأذِّيه في بَلدِه فيهرب منها.

وإما أمرٌ له نِكايةٌ في الدين، كمن ابتُلي في بلده بجاهٍ ومالٍ واتِّساع أسبابٍ تَصدُّه عن التَّجرد لله تعالى، فَيُؤثر الغُربة والخمول[1]، ويَجتنب السَّعةَ والجاهَ، وكمن يُدعى إلى بدعةٍ قَهراً، أو إلى وِلايَةِ عَملٍ لا تَحلُّ مباشرته، فيطلب الفرار منه.

وأما المطلوبُ، فهو إما دُنياوي، كالمال والجاه، أو ديني، والديني، إما عِلمٌ أو عَمَل، والعلمُ إما منَ العُلوم الدِّينية، وإما علمٌ بأخلاق المُسافر وصِفاته على سَبيل التَّجربة، وإما علمٌ بآياتِ الأرض وعَجائِبها، كسَفَر ذي القَرنَين.

والعمل: إما عِبادةٌ، كالحج والعُمرة والجِهاد، وإما زِيارة، كَقَصد المدينة وبَيتِ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «المحمول».

المقدس والثُّغور، فإنّ الرِّباط بها قُربةٌ، وقد يُقصد بها الأَولياء والعُلماء، وقد خرجَ من هذه القسمة أقسامٌ:

القسم الأول: السَّفرُ في طَلب العِلم، وهو إما واجبٌ وإما نَفل، وذلك بحسَبِ كَونِ العلم واجباً أو نَفلاً، وذلك العلم إما علمٌ بأمور دينية، أو بأخلاقه في نَفسه، أو بآياتِ الله في أرضه، وقد قال الرسول ﷺ: «مَنْ خَرجَ من بَيته في طلبِ العِلم، فَهو في سبيل الله حتى يرجع، ومن سلكَ طريقاً يَلتمس فيه عِلماً سَهَّل اللهُ لهُ طريقاً إلى الجنة».

وكان سعيدُ بن المسيّب يُسافر الأيامَ في طلب الحديث الواحد.

وقال الشَّعْبي: لو سافَرَ رجلٌ من أَقْصى الشام إلى أَقْصى اليَمَن في كلمةٍ تَدُلُّهُ على هُدى ما كان سَفره ضائعاً. وقد رحلَ جابرُ بن عبد الله من المدينة إلى مصر، فَسار شَهراً في حديثٍ بَلغه.

وقلَّ مذكور بالعلم محصل من زَمان الصَّحابةِ إلى زَماننا إلا وَقد حَصَّل العلم بالسَّفر وسافر لأجله.

وأما عِلمُه بنَفسه وأخلاقه، فذلك أيضاً فهمٌ، فإن طريقَ الآخرة لا يُمكن سُلوكها إلا بتَحسين الخُلُق وتَهذيبه، ومن لا يطلع على أسرارِ[1] باطِنه وخَبائِث صِفاتِه لا يَقدر على تَطهير القَلب منها، وإنما سُمّيَ السَّفَرُ سَفراً؛ لأنه يُسفِرُ عَن الأخلاق.

وبالجُملة؛ فالنَّفسُ في الوطن لا تُظهِرُ خَبائِثَ أخلاقها لاستئناسِها بما يُوافق طَبعها من المألوفات المعهودة، وامتُحِنَتْ بمَشاقّ الغُرْبة انكشفت غَوائِلها، ووقع الوقوف على عُيوبها، فيمكن الاشتغال بعلاجها.

وقد ذكَرنا في كتاب العُزلَة فوائد المُخالطة مع زيادةِ أشغالٍ واحتمال مَشاق.

وأما آياتُ الله في أرضِه، ففي مُشاهدتِها فوائد للمستَبصر، ففيها قِطَعٌ مُتجاورات، وفيها الجبال والبَراري والبحار، وأنواع الحيوان والنَّبات، وما من

(١) في الأصل: «بأسرار».

شَيءٍ إلا وهو شاهدٌ لله تعالى بالوَحْدانيَّة، ومُسَبِّحٌ له بلسانٍ ذَلِقٍ[١] لا يُدركه إلا من ألقى السَّمع وهو شَهيد، وأما الجاحدون والغافِلون والمُغْتَرون بلامعِ السَّراب مِن زَهرة الدُّنيا، فإنهم لا يبصرون ولا يَسمعون؛ لأنهم عن السَّمع معزولون وعن آيات ربهم محجوبون ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وما يريد بذلك السَّمع الظاهر وإنما المراد السَّمع الباطن، فَبِهِ يُدركُ نُطْق لسانِ الحال، كقول القائل حكاية لكلام الوَتد والحائِط: قال الجدار للوَتد: لـمَ تَشَقُّني؟ فقال: سَلْ مَن يدقُّني فلم يتركْني، ورائي الحجر الذي ورائي.

وما من ذرَّةٍ في السماوات والأرض إلا وَلها أنواعُ شَهاداتٍ لله سُبحانه بالوَحدانية هي توحيدها، وأنواعُ شهاداتٍ لصانِعها بالتقديس هي تَسبيحها، ولكن لا يَفقهونَ تسبيحها؛ لأنهم لم يُسافروا من مَضيق سَمع الظاهر إلى فَضاءِ سمع الباطن، ومن رَكاكة لسانِ المقال إلى فَصاحة لسان الحال، ومَن يُسافر ليَستقرِئ هذه الشَّهادات من الأسطر المكتوبة بالخُطوط الإلهية على صَفحات الجامدات، لم يُطِلْ سفَرَه بالبَدَن، بل يَستقر في مَوضع ويُفرغ قَلبه للتمتع بسَماع نَغمات التَّسبيحات من آحاد الذرات، فماله وللتَّردد في الفَلَوات وله غُنيةٌ في مَلكوت السماوات والشمس والقمر والنجوم مسخرات، وهي إلى أبصار ذوي البَصائر مسافِرات في الشهر والسنة مرات، بل هي دائِبةٌ في الحركة على تَوالي الأوقات، فمن الغرائب أن يدأَبَ في الطَّواف بآحاد المساجِد مَن أُمِرت الكَعبةُ أن تَطوفَ به، ومن الغرائب أن يَطوف في أكنافِ الأرض مَن تَطوف به أقطار السَّماء، ثم ما دام المسافر مُفتقراً إلى أن يُبصر عالـم الملك والشَّهادة بالبَصَر الظاهر فهو بَعدُ في المنزل الأول من مَنازل السائرين إلى الله تعالى والمسافرين إلى حضرته، وكأنه معتكفٌ على باب الوَطن لم يُفضِ به السَّير إلى مُتَّسعِ الفَضاء، ولا سببَ لطولِ المقام في هذا المنزل إلا الجُبن أو القُصور، فرب سالك أخذ التوفيق بيده فأرشده إلى سَواء السَّبيل، والأكثرون من ركّاب هذه الطريق هالكون في التّيهِ، فإن الذي يَملك، ولا يتصدَّى لطلب الملك العاجزُ الجبانُ لعظمِ الخَطر وطول التَّعب:

---

(١) ذلِقٍ: فصيح.

وإذا كانت النفوس كباراً تَعبَتْ في مرادِها الأجسامُ

وما أودع الله العِزَّ والملك في الدين والدنيا إلا في مَتن الخطر، فهذا حُكم السفر الظاهر إذا أُريد به السَّفر الباطن لمطالعة آيات الأرض، فلنرجع إلى الغَرض الذي كُنا نقصده، ولنبين:

القِسم الثاني: وهو أن يُسافر لأجل العِبادة، إما لجهادٍ أو حَج، وقد ذكرنا فضلَ ذلك وآدابَه وأعمالَه الظَّاهرة والباطنة في كتاب أَسرار الحَج، ويدخل في جُملته زيارة قُبور الأنبياء والأولياء[1] والصالحين، وزيارة الأَحياء أَولى من زيارة الأَموات للتخلُّقِ بأخلاقهم، والنظرِ إليهم سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المُستفادة من أنفاسهم وأَفعالهم، وأما البِقاع فَلا معنى لزيارتها سوى المَساجد الثَّلاثة، والثغور للرباط بها، وقد ذكرنا فَضائل الحَرمين في كتاب الحج، وبيت المقدس له فضل أيضاً.

القسم الثالث: أن يكونَ السفر للهَرب من سَببٍ مُشَوِّشٍ للدين، وذلك أيضاً حسنٌ، فالفرار مما لا يُطاق من سُنَن المرسلين، ومما يجب الهربُ منه الوِلاية والجاهُ وكَثرةُ العلائِق، والأسباب إذا كانت تكدِّر فراغَ القلب، والدينُ لا يَتم إلا بقلبٍ فارغٍ عن غَير الله عز وجل، فإن لم يتم فَراغه، فبِقَدْرِ فراغه يُتَصوَّر أن يَشتغل بالدين، ولا يُتصوّر فراغ القلب في الدنيا عن مُهمات الدنيا والحاجات الضّرورية، ولكن يُتصوَّر تَخفيفُها وتَقليلها، وقد نَجى المُخِفُّون وهلك المُثْقِلون، والمُخِفُّ هو الذي ليست الدنيا أكبر هَمِّه، وذلك لا يَتيسَّر في الوَطن لمن اتَّسع جاهُه وكَثُرت علائِقُه فلا يتم مَقصوده إلا بالغُربة والخمول وقَطع العلائق التي له عنها بُدٌّ حتى يُروض نَفسه مُدّةً، ثم ربما يمدّه الله تعالى بمعونتِه، فينعم عليه بما يُقوي به نَفسه ويطمئن به قلبه، فيستوي عنده الحَضَر والسَّفر ويَتقاربُ عنده وُجود الأسباب والعلائق وعدمها، فلا يَصدُّه شيء منها عما هو بصدده من ذكرِ الله تعالى، وذلك مما يَعزُّ وجوده جداً، بل الغالب على القلوب الضَّعف والقُصور عن

---

(١) ليست في (ظ).

الاتّساع للخلق والخالق، وإنما يَسعَدُ بهذه القوة الأنبياء والأولياء، والوصول إليها بالكسب شَديد، وإن كان للاجتهاد والكسب فيه مدخل أيضاً.

ومثال تَفاوت القوة الباطنة فيه تَفاوت القوة الظاهرة في الأعضاء، فرب رجل قوي ذي مِرَّة سَوي شديد الأعصاب مُحكَم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلاً، فلو أرادَ الضَّعيف المريض أن يَنال رُتبته بممارسة الحَمل والتَّدريج فيه قليلاً قليلاً لم يقدر عليه، ولكن الممارسة والجهد يزيد في قوته زيادةً ما، وإن كان ذلك لا يُبلغه درجته فلا ينبغي أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا، فإن ذلك غاية الجهل وقد كان من عادة السَّلَفِ مُفارقة الوطن خيفةً من الفتن، قال سُفيان الثَّوري: هذا زَمانٌ ينتقل فيه الرجلُ من بلدٍ إلى بلدٍ كلّما عُرِفَ في موضعٍ تحوَّل إلى غيره.

القسم الرابع: السفَر هرباً مما يَقدح في البدن، كالطاعون، أو في المال، كغلاء السِّعْر وما يجري مجراه، فأمّا الهَرب من الطاعون فمُستثنًى لورود النَّهي عنه، ففي الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عَوف عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سَمعتُم به يعني الطاعون بأرضٍ فلا تَقدَموا عليه، فإذا وقَع بأرضٍ وأنتم بها، فَلا تخرجوا فراراً منه».

وفيهما من حديث أُسامةَ بن زَيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سَمعتُم بالطاعون بأرضٍ فلا تَدخُلوها، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا منها». وفي أفراد البخاري من حديث عائِشة أنها سألت نبيَّ الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها «إنه كان عذاباً يَبعثه الله عز وجل على من يَشاء فجعله الله عز وجل رحمةً للمؤمنين، فليس من عبد يَقع الطاعون فيمكث في بلدهِ صابراً مُحتسباً يعلم أنه لم يُصبه إلا ما كتَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ له، إلا كانَ له مثل أجر الشَّهيد». وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «الطَّاعون شَهادةٌ لكل مسلم».

وأمّا الخُروج لغلاء السِّعرِ فحَسَنٌ، قال أبو نُعيم: رأيتُ سُفيان الثوري وقد علق قُلَّتَه بيده ووضع جرابه على ظهره فقلتُ: إلى أينَ يا أبا عبد الله؟ فقال: قد بَلغَني عن قَريةٍ فيها رُخْصٌ أُريد أن أُقيم بها. فقيل: وتَفعل هذا يا أبا عبد الله؟ فقال:

نعم، إذا بلغك أن قرية فيها رُخصٌ فأقم بها فإنه أسلَمُ لدينكَ، وأقل لهمِّكَ. وهذا هربٌ من غَلاءِ السِّعر.

فهذه أقسام الأسفار، وقد خرج منها أن السَّفر ينقسم إلى مَذموم ومحمودٍ ومباحٍ، والمذمومُ ينقسم إلى حرام، كإباقِ العبد وسَفر العاقّ، وإلى مكروهٍ، كالخروجِ من بلد الطاعون، والمحمودُ يَنقسم إلى واجبٍ كالحج وطلبِ العلم الذي هو فَريضة على كلِّ مسلم، وإلى مندوبٍ كزيارة العُلماء.

وينبغي أن تكونَ النية في السفر طلبَ الآخرة إلا أنّ ذلك ظاهر في الواجب والمندوب، ومُحال في المكروه والمحظور، وأما المباح فمتى كان قَصده بطلب المال التَّعفُّف عن السؤال ورعاية سَتر المروءة على الأَهل والعيال، والتَّصدق بما فَضل من مبلغ الحاجة صار هذا المباحُ بهذه النِّية من أعمال الآخرة، ولو خرج إلى الحج وباعِثُه الرّياء والسُّمعة خَرج عن كونه من أعمال الآخرة، والأعمال بالنّيات.

وأمّا النظر في أن السَّفر أفضل أو الإقامة؟ فهو يُضاهي النَّظر في أن الأفضل هو العُزلة، أو المخالطة، وقد ذكرنا مِنهاجه في كتاب العُزلة، فليفهم هذا منه، فإن السفر نوعُ مخالطةٍ مع زيادة تَعبٍ ومشقَّة تُفرِّقُ الهَمَّ وتُشتِّتُ القلبَ في حق الأكثرين فتارةً يخاف المسافر على نَفسِه ومالِه، وتارةً ينزعج لمفارَقة ما أَلِفَه واعتادَه في إقامته، وإن لم يكن معه مالٌ لم يَخل من الطَّمع والاستِشْراف إلى الخَلق، والأفضل ما هو الأعْوَن على الدين، ونهاية ثمرة الدين في الدنيا تحصيلُ معرفةِ الله تعالى والأُنس بذكره، وكلاهما يحصل بدوام الفِكر، والسَّفر معينٌ على التعلُّم في الابتداء، والإقامة هي المعينة على العمل بالمتعلَّمِ في الانتهاء.

وأمّا السِّياحةُ في الأَرض لا لمقصودٍ ولا إلى مكانٍ معروف فأمرٌ مَنهيٌّ عنه، فقد رُوِّينا من حديث طاووس أنَّ النبي ﷺ قال: «لا رَهْبانيةَ ولا تَبتُّلَ ولا سياحة في الإسلام». وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما السِّياحةُ من الإسلام في شيءٍ، ولا من فِعل النَّبيين ولا الصالحين. وقد أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال:

حدثنا أيوب بن النجار عن طَيب بن محمد بن عطاء بن أبي رَباح عن أبي هريرة قال: لعنَ رسولُ الله ﷺ راكبَ الفلاة وَحده.

وقد ذكرنا أن السَّفر يُشتت القلبَ، فلا ينبغي للمريد أن يُسافر إلا في طلب علمٍ أو مشاهدةِ شيخٍ يَقتدي به في سيرته، وكلّما قوي عند المُريد الفِكر أَوْ حُب العملِ والجد كان السكونُ به أَولى، فهذا القول في أقسام السَّفر ونيّةِ المسافر.

الفصل الثاني
في آداب المسافر من أول نُهوضِه إلى آخر رُجوعه

وهي خمسة عشر أدباً:

الأول: أن يبدأ بردِّ المظالم، وقَضاء الديون، وإعداد النّفقة لمن يلزمه نفقته، وردِّ الودائع، وقد ذكرنا هذا مع تمامه في كتاب الحج.

الثاني: أن يَختار رفيقاً.

الثالث: أن يودع الأهل والأصدقاء، وكل هذا مشروح في كتاب الحج.

الرابع: أن يُصلّي صلاةَ الاستخارة، وقد سبقت في كتاب الصَّلاة.

الخامس: البُكور.

السادس: أن يكون سَفَره يوم الخميس.

السابع: الخروج من منزله.

الثامن: إذا حصل على باب الدار.

التاسع: في الركوب.

العاشر: أن يكون أكثر سيره بالليل.

الحادي عشر: أن لا يمشي منفرداً.

الثاني عشر: ما يقول إذا علا نشزاً أو هبط وادياً.

الثالث عشر: في النّزول وما يقول في المنزل.

الرابع عشر: أن يَستصحب معه ما يصلحه كالسواك والمشط والمكحلة والمرآة[١].

الخامس عشر: في آداب الرجوع من السفر، وكل هذه الأشياء مَشروحةٌ في كتاب الحج فلم نَرَ إعادتها، فلتُطالَع من هُناك.

وأمّا الآدابُ الباطنة، فجملتها: أن لا يُسافر إلا إذا كان دينه يَزيد بالسَّفر، ومتى وجد قلبه مُتغيراً إلى نُقصانٍ فليقف، وليعلم أن سَفره مَعلول، ولْيَنْوِ في دخول كل بَلدة أن يَرى شُيوخَها، وأن يستفيد من عُلومهم وآدابهم ليعمل بذلك، لا ليقول: لقيت. فإذا قصد الشيخ أقام على بابه حتى يخرج، ويستأذنه في السؤال قبل أن يَسأل، فإن زارَ أخاً له لم يقم عنده أكثر من ثلاثة أيام، فإنه حَدُّ الضِّيافةِ، وليكن سَفر المريد من وَطنِ هواه ليعزَّ[٢] في غربته.

---

(١) ليست في (ظ).

(٢) في الأصل «ليفر».

الباب الثاني

فيما لا بد للمسافر من تَعلُّمه من رُخَصِ السّفر وأدلَّة القِبلة والأَوقات

ينبغي للمسافر أن يتزوَّد للدنيا والآخرة، فأمّا زاد الدنيا فالمَطعم والمشرب وما يحتاج إليه، وما يَنبغي أن يقول: أخرجُ متوكلاً، فلا أحمل معي زاداً. فإنَّ حملَ الزاد لا يُناقض التوكل، وقد قال تعالى: ﴿وَتَكَزَوَّدُواْ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقد تزوَّد موسى في لقاءِ الخَضِر، وتزود رسول الله ﷺ في خُروجه إلى المَدينة، وإنما نَبغَ قومٌ لم يَفهموا فظنّوا أن التوكل قَطعُ الأسباب وهو جَهل منهم بالعلم وأوضاع الحِكمة، ولو كان التوكل تركُ الأسباب لبطل على زَعمهم تَحمُّل الرَّشَأ والدَّلو لينزع الماء من البئر، فإذا لم يقدح حملُ ذلك في التّوكل مع كونه آلة في التَّوصل إلى الماء، فكذلك حَملُ عين الماء والمطعم.

وأمّا زادُ الآخرةِ فَهو العِلم الذي يحتاج إليه في طَهارته وصلاته وعباداته، فإن السفر تارةً يُخَفف عنه أشياء، فيحتاج إلى مَعرفة القَدر الذي يُخفِّفه السفر، كالقَصر والجَمعِ والفِطر، وتارةً يشدّد عليه أموراً كانت خَفيفةً عليه في الحَضَر، كالعِلم بالقِبلة وأوقات الصلاة، فإنه قد كان يكتفي في الحَضَر بأذانِ المؤذنين ومحاريبِ المساجدِ، فإذاً ما يَفتقر إلى تعلُّمه يَنقسم إلى قِسمين:

القسم الأول: العلم برُخَص السَّفر، والسَّفر يُفيد في الطَّهارة رُخصَتين تتعلق بمَسح الخُفِّ والتَّيمُّم، وفي صلاة الفَرض رُخصتين تتعلق بالقَصرِ والجَمع، وفي النَّفلِ رُخصتين الصلاة على الراحلةِ والصلاة ماشياً، وفي الصوم رُخصةٌ واحدةٌ، وهي الفِطر، هذه سَبعُ رُخَص.

الرخْصَة الأولى: المسح على الخُفَّين، وفي أفراد مسلم من حديث علي رضي الله عنه أنّه سُئِلَ عن المسح على الخُفين، فقال: جعلَ رسول الله ﷺ ثلاثةَ

أيامٍ ولياليهن للمسافر، ويوماً وليلةً للمقيم. وفي حديث صَفوان بن عَسّال قال: كُنّا نكونُ مع رسول الله ﷺ يعني في السَّفر فيأمرنا أن لا نَنْزِعَ خِفافَنا ثلاثة أيام إلّا من جَنابةٍ، ولكن من غائطٍ وبَولٍ ونَوم.

ويجوزُ المسحُ على الخُفَّين والجُرْموقَين(١) والجَوربين ومن شَرطِ جواز المَسح أن يلبس الجميعَ بعد كَمال الطَّهارة، وعن الإمام أحمد: لا يُشترط ذلك. ولا يَجوز المسح إلا على ما يَستُر مَحلَّ الفَرض من الرِّجلين ويَثبتُ بنفسه سواء كان جُلوداً أو لُبوداً أو خَشباً أو زُجاجاً، فإن كان فيه خَرقٌ يَبدو منه بعضُ القدم، أو كانَ المقطوع واسعاً بحيث يرى منه الكَعبان، وكان الجَورب خفيفاً يَصف القَدم أو واسعاً يَسقُطُ من الرِّجل لم يَجُز المسح، فإن لبس مع الجَوْربين نَعلين فَثَبتا بهما جاز المسحُ عليهما، فمتى خلعَ النعلين بَطل وضوءُه.

والسُّنة أن يَمسح أعلى الخفِّ دون أَسفله وعَقِبه، فيضع يده على موضع الأَصابع ثم يجرّها إلى ساقه، وابتداءُ مدَّة المسح مِن حين الحَدَث بعد اللُّبْس في أصحّ الرّوايتين، وفي الأُخرى: من حين المسح بعد الحدث. وإذا ظهر من قدمه وانقضَتْ مُدَّة المسح استأنفَ الوضوء في إحدى الروايتين، وفي الأخرى يُجزئه غسل قَدَميه.

ومَن مَسحَ وهو مقيم ثم سافَر، أو مَسح وهو مُسافر ثم أقام أتمَّ مَسْحَ مُقيم، وعن الإمام أحمد فيمن مسح وهو مقيمٌ ثم سافر أنَّه يُتمُّ مَسح مُسافر، فإن شكَّ هل ابتدأَ المسح في الحَضَر أو في السَّفر؟ احتاطَ فبنى على مَسح حاضرٍ، ومَن ابتدأ المسحَ في السَّفر أتمَّ مَسْحَ مُسافر، وإن كان قد وجد منه الحدث في الحَضَر.

ويُستحب لمن أراد لُبسُ خُفَّيه أن يَنفضهما حَذَراً من آفةٍ تكون فيهما كَشوكةٍ أو عَقرب.

الرخصة الثانية: التَّيمُّم، وهو بَدلٌ عن الماء عند العُذر، وقد يُفقَدُ الماء وقد يكون موجوداً لكنَّه يَحول بَينهما سَبُعٌ أو عدوٌ، أو يحتاج إلى شُربه، فإن احتاج إليه

---

(١) الجرموق: ما يُلبس فوق الخف لشدة البرد.

لطبخِ مَرقةٍ أو لحمٍ، أو بَلِّ فَتيتٍ[(١)] لم يَجُزْ له التَّيمم؛ لأنه يُمكنُه أن يَجْتزِئَ بالفَتيت اليابس ويترك تناول المرقة، فإن وُهِبَ له الماءُ وجبَ عليه القَبول، وإن وُهِبَ له ثَمنه لم يَجب عليه أن يَقبل لما فيه من المِنَّة، وإن بيع بثمنِ المثل لزمَه الشِّراء.

وإذا عدم الماء وجب عليه الطَّلب بتفتيش الرَّحلِ، وطلب البقايا في الأَواني، والتَّردد حول المنزل.

وإذا نَسي الماء في مَوضعٍ لولا النِّسيان لاستعمله وَصلّى بالتَّيمم أعاد، فإن رجا وجودَ الماء أخَّر التيمم إلى آخِر الوَقت.

وقد ذكرنا كيفية التَّيمم في كتاب الطَّهارة.

وإذا وجد ما يكفيه لبعض بَدَنِه لزمه استِعماله وتيمَّم للباقي إن كان جُنباً، وإن كان مُحدِثاً فهل يَلزمه استعماله؟ فيه وَجهان، وإذا تيمّم صلّى صلاةَ الوقتِ وقَضى فَوائِتَ وجمع بين الصَّلاتين، ويتنفل إلى أن يخرج الوقتُ، فإذا خرج استأنفَ التَّيمُّم للصَّلاةِ الأُخرى في إحدى الرّوايتين، وفي الأخرى يُصلّي به حتى يُحدِثَ، وإذا [(٢)]خافَ زيادةَ المرضِ أو تَباطُؤَ البُرْءِ باستعمالِ الماء جازَ له التيمُّم، وإذا[(٢)] خاف من شِدَّة البَرد تيمَّم وصلَّى ولا إعادة عليه إن كان مُسافراً، وإن كان حاضراً؟ فَعلى روايتين.

ومَنْ لم يجد ماءً ولا تراباً صلَّى، وهل يلزمه الإعادة؟ على روايتين.

الرُّخصَة الثالثة: في الصلاة المفروضة القَصر، ومتى سافر سفراً يَبلُغ مرحلتين كل مَرحلة ثمانية فَراسخ، وكل فرسخٍ ثلاثة أميال، وكل ميلٍ أربعة آلاف خطوة، وكان ذلك في غَير معصيةٍ مثل أن يخرج عاقّاً لوالديه، أو هارباً من مالِكِه، أو من غَريمه مع يَساره، أو إلى قَطع طريقٍ، أو سَعيٍ في فَسادٍ، فله أن يَقصر الرُّباعيَّة فَيُصَليها ركعتين إذا فارقَ بُيوت قَريته، أو خيام قومه، فأمّا إذا خرجَ لا إلى مَقصودٍ كالسّائح، فلا يجوز له التَّرخُّص[(٣)].

---

(١) الفتيت: الخبز اليابس الذي يُفَتُّ ويُكسر ويبلل بالمرق ليؤكل.

(٢ـ٢) سقط من (ظ).

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «الرخص».

والقَصْرُ أفضلُ من الإتمام، وإذا نوى الإقامة أكثر من أربعة أيام أتمّ، وعن الإمام أحمد: إن نَوى اثنينِ وعشرين صلاةً أتمّ، وإن نوى دونها قَصَرَ، وإن أقام لقضاءِ حاجةٍ ولم ينو الإقامة قَصَر أبداً، وكذلك إذا حبسه سُلطان أو عَدوٌ وهو في السّفر.

وإذا أحرمَ في الحَضَرِ ثم سافَر، أو أحرمَ في السَّفر ثم أقام أو ائتَمَّ بمُقيمٍ أو بمَنْ يَشكُّ وهو مُقيم أو مُسافرٌ، أو لم يَنْوِ القَصرَ لزمه أن يُتمَّ.

وإذا نسيَ صلاةَ سفرٍ فذكرها في الحَضَر، أو صلاةَ حَضَرٍ فذكرها في السَّفر، أو سافر بعدَ دُخول الوقت لم يَجُزْ له القَصرُ.

الرخصة الرابعة: الجَمعُ بين الظهر والعَصر في وَقتيهما، وبَين المغربِ والعشاء في وَقْتيهما، وذلك جائزٌ في السفر الطَّويل دون القَصير، وهو مُخيَّرٌ بينَ تأخير الأُولى إلى وقت الثانية، وبين تَقديم الثانية إلى وَقتِ الأولى، والمستحبُّ التأخير، فإن جمعَ في وقتِ الأُولى افتقرَ إلى ثلاثةِ شُروط: أن يُقدِّم الأُولى، وأنْ يَنوي الجمعَ عند الإحرامِ بالأُولى في أحد الوَجهين، وفي الآخر: يَجوز أن يَنوي بعد الفراغ من الأولى، وأن لا يُفرق بينهما إلا بقَدرِ الإقامة أو الوضوء، فإن صلّى بينهما سُنَّةَ الصلاة بَطل الجَمعُ في إحدى الروايتين، وفي الأُخرى: لا يَبطل.

وإذا أرادَ الجمعَ في وقت الثانية كَفاه نيَّةُ الجمع في وقت الأُولى إلا أن يَبقى منه قدر ما يُصليها، والتَّرتيب، وهل يُشترط أن لا يفرق على وَجهين أصحُّهما أنه لا يُشترط، وقال أبو بَكر ـ من أصحابنا ـ: لا يَفتقر الجَمعُ والقَصر إلى أن يَنويهما، ولا ينبغي أن تُهمل النوافل في السَّفر؛ لأن ثوابها أكثر من ربح السَّفر.

وعُذْرُ المطر مُجوِّزٌ للجمع كَعُذر السفر، وترك الجمعة أيضاً من رُخَصِ السَّفر، ولو نوى الإقامة بعد أن صَلَّى العَصرَ فأدرك وقت العصر في الحضر، فعليه أداء العَصر وما مضى إنَّما كان مُجزئاً بشرط أن يَبقى العُذر إلى خروج وَقت العصر.

(١)**الرخصة الخامّسة**: التنفُّل على الراحلة(١)، ولا يجب عليه في التنفُّل في السفر

(١ـ١) سقط من الأصل.

استقبال القبلة، بل يُصلّي حيث توجَّه فإن أمكنه افتتاحُ الصّلاةِ إلى القبلة لزمه ذلك، وأتمَّ الصلاة على حسب حاله، وسواء كان راكباً أو ماشياً.

الرخصة السادسة: التَّنَفُّلُ للماشي، وهو جائز في السَّفر، ويومئ بالركوع والسجود، ولا يَعقدُ للتشهد؛ لأن ذلك يُبطل فائدة الرُّخصَة، وحكمه حكم الراكب، لكن ينبغي أن يُحرم بالصلاة مُستقبلاً للقِبلة؛ لأن انحرافَه في لحظةٍ لا عُسرَ فيه بخلافِ الراكب، وكل هاربٍ من عدوٍ أو سَيلٍ أو سَبُعٍ، فله أن يُصلّي الفَريضة راكباً وماشياً على ما يمكن.

الرخصة السابعة: الفِطر، وله أن يُفطر إلا إذا أصبحَ مقيماً ثم سافرَ، فإنه لا يَجوز له إفطار ذلك اليوم، وعن الإمام أحمد روايةٌ أخرى: يَجوزُ له الإفطار، فإن قدم المسافر في أثناء النَّهار وهو مُفْطرٌ لزمه القَضاء رواية واحدة، وهل يجبُ عليه أن يُمسكَ بقيةَ يومِهِ؟ فيه روايتان.

والفِطرُ والقَصرُ في حقِّ المسافر أفضل من الصَّوم والإتمام، فإن قيل: هل يجبُ على المسافر تعلّم علم هذه الرُّخَص قَبل السفر؟ فالجواب: أنه إذا لم يَعزم على التَّرخص لم يلزمه إلا علم التَّيمم وَحده، فإن فقد الماء ليس إليه إلا أن يُسافر على شاطئ نهرٍ يُوثَق ببقاءِ مائِهِ، أو يكون معه عالم يقدر على استِفتائه عند الحاجة فله أن يُؤخّر إلى وقت الحاجة.

فإن قيل: كيفَ قُلتم: يجبُ عليه عِلْمُ التيمُّم، والصلاةُ التي يتيمَّمُ لها ما وَجَبَتْ بعدُ؟

قلنا: كما يجبُ تعلُّم المناسك قبل الإحرام.

القِسم الثاني: ما يتجدَّدُ من الوَظيفة بسبب السَّفر، وهو علم القِبلة والأوقات وذلك أيضاً واجب في الحَضَر ولكنه في الحَضَر يُلْغَى في ذلك بمحرابٍ متَّفقٍ عليه وبمؤذنٍ يُراعي الوَقت، فأما المسافر فلا بدّ له (١من العلم١) بأدلة القِبلةِ والمواقيت.

(١ـ١) سقط من الأصل.

ويُستَدلُّ على القبلة بالنُّجوم والشَّمس والرِّياح والمياه والجِبال والمَجرَّة، فأما النجوم، فأثبتُها الجَدْيُ، وهو نَجْمٌ خَفي يُعْرف مكانه بالفَرْقَدَين؛ لأنهما دونَه، وحَوله بَناتُ نَعْشٍ[1]، فإذا جعله المصلِّي حِذاء ظهر أُذُنه اليُمنى على علوّها كان مُتوجهاً إلى باب البيت[2].

وأما الشَّمس، فإنها تطلع أبداً من يَسرة المصلي محاذيةً لحرف كَتفه اليُسرى، وتغربُ حِذاء حرف كتفِه اليُمنى.

وأما الرّياح، فالجنوب تهبُّ مُستقبلة لبطنِ كتف المصلي الأَيسر مارَّةً مما يلي وَجهَهُ إلى يَمينه، والشَّمال مقابلتها تهبُّ من يَمينه مارَّةً إلى مَهبِّ الجَنوب، والدَّبُورُ مُستقبلة شطر وَجْه المصلي الأيمن، والصَّبَا مُقابِلتُها تهبُّ من ظَهر المُصلي.

وأما المياه، فإنها تَجري من يمين المُصلي إلى يَسرته على انحرافٍ قليل كدجلة والفُرات ولا اعتبار بالأنهارِ المحدَثَةِ ولا بنهرٍ بخُراسان وآخَر بالشام يسمى كل واحد منهما المَقلوب[3]؛ لأنه يجري ماؤه من يَسرة المصلى إلى يمينه.

والجبال: فأَوْجُهها جميعاً مستقبلة البيت[4].

وأما المجرَّةُ، وتُسمى سرج السماء تكون أول الليل مُمتدة على كتف المصلي اليسرى إلى القِبلة ثم يَلتوي رأسها حتى يصيرَ في آخر الليل على كتفه اليمنى.

وإذا اشتَبَهتْ عليه القِبلة صلّى بالاجتهاد، فإذا حضرت صلاةٌ أخرى اجتهدَ أيضاً، فإن خالف اجتهاده الأول لم يُعدِ الصلاة الأولى؛ لأن الاجتهاد لا يُنقَضُ بالاجتهاد.

---

(١) بنات نعش: سبعة كواكب تُشاهد جهة القطب الشمالي شُبِّهت بحملة النعش.

(٢) يتحدث المصنف رحمه الله في هذا الموقع وما بعده عن المصلي الموجود في بلاد الشام وما والاها، أما لمن في بلاد اليمن ومصر والمغرب والمشرق فإن ذلك يختلف كلٌّ بحسب موقعه.

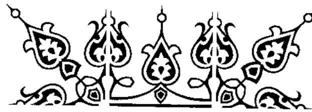
(٣) النهر الذي يقصده هو نهر العاصي الذي يجري قرب مدينة حماة السورية، ويصب في البحر قرب أنطاكية، وسمي بالعاصي لأن الأنهار القريبة تتوجه من الشمال إلى الجنوب، وهو بعكسها. معجم البلدان ٤/ ٦٧.

(٤) فيما ذكره المصنف هنا نظر، فالواقع والمشاهدة يخالفان ذلك.

وأما معرفةُ أوقات الصلواتِ الخَمْس فلا بد منها، ووقت الظهر يَدخل بالزَّوال، وكل شخص يقع له في ابتداء النَّهار ظِلٌ مستطيل في جانبِ المغرب، ثم لا يزال ينقص إلى وقتِ الزَّوال، ثم يأخذ في الزّيادة في جِهَة المشرق، ولا يزال يَزيد إلى الغروب، فليقم المسافر في موضعٍ أو لينصب عوداً مستقيماً وليعلم على رأس الظل، ولينظر، فإن رآه في النُّقصان فما دخَل بعدُ وقتُ الصلاة، فإذا أخذ في الزِّيادة فقد زالت الشمس وهو أول وَقت الظُّهر، وآخرُه إذا صارَ ظلُّ كل شيءٍ مثلَيْه، وعن الإمام أحمد: أن آخره ما لم تَصْفرَّ الشمس، ثم يخرج وقتُ الاختيار ويبقى وقت الجواز إلى الغُروب، وأول وَقتِ المغرب إذا غابت الشَّمس، وآخره إذا غابَ الشَّفقُ الأحمر، فحينئذٍ تَجب العِشاء وآخر وَقتِها ثلث الليل، وعن الإمام أحمد: نِصْفُه، والأفضل تأخيرها إلى آخر وَقتها، ثم يذهب وقتُ الاختيار ويَبقى وقت الجواز إلى طُلوع الفجر الثاني، فإذا طلع فهو وَقتُ صلاة الفَجر.

ومَن أدركَ من الصلاةِ ركعةً قبل أن يخرج الوَقتُ فقد أدركها، ولا يجوز له أن يُصلي حتى يتيقَّن دخولَ الوقتِ أو يَغلب على ظنِّه.

آخر كتاب السَّفَر



كتاب السَّماع والوَجْد

الحمدُ لله الذي خَصَّ أولياءَه بحقيقةِ معرفته، وأَوقَد في قلوبهم نيرانَ مَحَبَّتِه[١]، وشَوَّقهُم إلى لقائِه ورُؤيتِه، على أنهم يرونه في كل وقتٍ في صَنْعَتِه، فيسمعون خطابِه من كل مخلوقٍ بعبارةِ عَبْرَته، أحمدُه والحمدُ من مِنَّتِه، وأُصلي على رسوله محمدٍ وصَحابته وتابعيهم بإحسانٍ على سُنَّتِه، وسلّم تسليماً كثيراً.

واعلم أنَّ السماعَ الذي نَعني به الغِناء مِن أكبر ما تَطرَّقَ به إبليس إلى فَساد القلوب، وغَرَّ بِهِ خَلقاً لا يُحْصى من العلماء والزُّهاد فضلاً عن العَوام حتى ادَّعوا حُضور القلوب[٢] مع الله عند سَماع الأغاني المُطربة، وظَنّوا أنّ ما أَوجَبَ السَّماع من طَربِ القُلوب وانزعاجها وَجْدٌ يتعلق بالآخرة حتى رُبما خَفيَ على النَّفس حال النفس، وإذا أردتَ أن تعرفَ الحقَّ، فانظُر في السِّربِ الأَول هل فعل رسولُ الله ﷺ شيئاً من ذلك وأصحابه؟ ثم انظر إلى أقْوال التابعين وتابِعيهم وفُقهاء الأُمة كمالكٍ وأبي حنيفةَ والشافعي وأحمد وكل القوم ذَمُّوا الغِناء حتى قال مالك: إذا اشتَرى جاريةً فَوَجدها مغنية كان له رَدُّها، وسُئِل عن الغِناء فقال: إنما يَفعلُه عندنا الفُسّاق، وسُئِل الإمام أحمد عن رجلٍ ماتَ وخلَّف ولداً وجاريةً مُغنِّيةً، واحتاجَ الصبيُّ إلى بَيعها فقال: تُباع على أنها ساذَجة لا مُغَنّية، فقيل له: إنها تُساوي ثلاثين ألفاً، وإذا بيعت ساذَجَة ربما سَويت عشرين ديناراً. فقال: لا تُباع إلَّا على أنها ساذَجة. وقد أطبقَ الفُقهاء على الزَّجر عن الغِناء، ومن المتأخِّرين أبو الطَّيّب الطَّبري من كِبار أصحابِ الشافعي صنَّفَ فيه كتاباً سمعناه عنه، وبالغَ في النَّهي

(١) في الأصل: «معرفته».
(٢) في الأصل: «القلب».

عنه، وإنما تعلَّق بإباحته قومٌ مَفتونون وقالوا: قد أجازَهُ قومٌ من السَّلَف، وقد سمع أحمد بن حنبل قولَ قَوَّالٍ فقال: لا بأس بهذا. ويَنبغي للعاقل أن ينظر فيما أَفْتى بجوازه [١]من أفتى[١] فليسَ سوى الأشعار الزُّهْدية وما يُشبهها من غير ضَربٍ بقضيبٍ أو آلةٍ تُطرب، ولا ضَمِّ تصفيقٍ إلى ذلك ولا رقص، وعلى هذا يُحمل حديث عائشة قالت: دخل عليَّ أبو بكرٍ وعندي جاريتان من جَواري الأَنصار تُغنِّيان بما تَقاولَت به الأنصار يومَ بُعاث[٢] فقال أبو بكر: أبمَزْمورِ الشَّيطان في بيتِ رسول الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «دَعْهما يا أبا بكر، إن لكلِّ قومٍ عيداً وهذا عيدُنا». ومعلوم أن ما تَقاولَت به الأنصار لا يُطرِب ولو لحن، وسُئل الإمامُ أحمد عن القَصائد الرِّقاق التي يقولونها، فقال: مثل أي شَيءٍ؟ فقيل له:

إذا ما قالَ لي ربّي   ما استَحْيَيتَ تَعصيني

فقال: أَعِدْ عليَّ. فهذا كانَ غناء القَوم وما يُشبهه، والفقيه كالطَّبيب ينبغي أن يَزِنَ الزَّمانَ والشَّخص ثم يَصف، ولهذا قالت عائشة: لو عَلم رسولُ الله ﷺ ما أحدثَ النِّساءُ بَعده لمنعهنَّ المسجد.

وغيرُ خافٍ أنه لم يكن للأَوائل ما أَحدَثه الأَواخر من الدُّفِّ بالصَّنْج والشَّبّابَة والشِّعر الرقيق الذي يَقولون فيه إذا غنّوا:

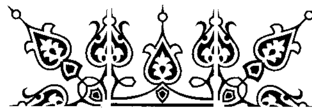
ذَهبيُّ اللونِ تَحسَبُ من وَجْنَتيه النارُ تَقتَدِحُ
خَوَّفوني من فضيحته ليتَهُ وافَى وأَفْتَضِحُ
ثمَّ لا يَدري لِنَخْوتهِ أننا في اليوم نَصْطلحُ

وهذه الأشياء تُثيرُ دَفائِنَ النفوس من الهَوى الكامِن فَيُزْعجُ، فيحسبُ الجاهل أنّ هذا الانزعاج يتعلَّق بالآخرة وهيهات! وَلَيتَهُم قالوا: هذا مُباحٌ من اللَّهو نَستريح إليه. وإنما يَظنُّونه قُربةً، ويسمُّونَ الطَّربَ المخرِجَ عن حَدِّ العَقلِ وَجْداً، وربما

(١ـ١) سقط من الأصل.
(٢) بُعاث: موضع قرب المدينة وفيه كانت آخر موقعةٍ بين الأوس والخزرج.

أوجبَ الطَّربُ ما لا يحلُّ من تَمزيقِ الثّياب وتخبُّط الواجِدِ، وكل هذا بمعزلٍ من طريق السَّلف، وغير خافٍ على العاقل أنه ضلالٌ عن الجادة، فلا يَنبغي أن يُغالط نَفسه، وإنما الوَجدُ الصحيح وُجْدان القَلب عند سَماع القُرآن والمواعظ، فحينئذٍ يثور من الباطن خَوفٌ من الوَعيد وشَوقٌ إلى الوَعد، ونَدمٌ على التَّفريط، وعَزم على الجدِّ، وجميعُ هذه الحركات الباطنة تُوجب سكونَ الظاهر وخموده لا الجَمْزُ[(١)] والتَّصفيق، ولم يَضِق علينا القُرآن والمَواعظ وأَشعار الزُّهد حتى احتَجنا في إحضار القُلوب إلى باب الله تعالى أن نذكر سَلمى وسُعدَى، ولا ننكر أنه قد يتفق في بعض تلك الأشعار ما يَصلح أن يؤخذ إشارة إلا أن الأَغلبَ فيها إمالة القلوب إلى الهوى الدُّنياوي، فمثل من أراد أن يأخذ منها ما يصلح للآخرة كمثل مَن قال: أنا أنظُرُ إلى الأَمردِ المُستَحسن لأتعجَّب من صَنعةِ القادر. فإنه قد أخطأَ الطريق؛ لأن ما تَستلبه الشَّهوة والطَّبع عند النّظر يُكدِّر طريقَ الفِكر ويَشغل عنه، فلذلك نَمنعُه ونَقول: انظُر إلى ما لا مُكدِّرَ فيه ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦] ومن قال: إنه لا يؤثر عندي ما يُؤثر عند غيري من انجِذاب الطبع إلى الهوى. كان مُدَّعياً ما يُخالف الجِبلَّة، فلا يلتفت إلى دَعواه، وقد كان صالحو السَّلف إذا سَمعوا القرآن بكوا، وفيهم من كان يُغشَى عليه ويموت، وقد كان فيهم من يَسمع بيتاً من الشِّعر فيأخذ منه إشارة تُزعجه وتبكيه، فأمّا الغِناء المطرب فإفساده أكثر من إصلاحه، وقد بالغتُ في الكَشف عن هذا كلِّه في كتابي المسمَّى: «تَلبيسُ إبليس» فلم أرَ التَّطويل هاهنا بذكر ذلك، (٢وفيما ذكرته كفاية٢).

آخر كتاب السَّماع والوَجد



(١) الجَمز: الوَثب.

(٢-٢) ليس في (ظ).

كتاب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر

الحمدُ لله أولى من يُعبَدُ ويُذكَر، وأحقُّ مَن يُمدَحُ ويُشكَر، المعروف عند أرباب[1] العقول فلا يُنكَر، زجَر عن المعاصي وخوَّفَ وذكَّر، وأقامَ أولياءَه يَأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

أحمدُه حَمدَ من فهم وتَفكَّر، وأصلّي على رسوله محمّدٍ أشرف من راحَ وبَكَّر، وعلى أصحابه وأتباعه إلى أن يَتذكَّر في الآخرة من لم يتذكَّر، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد، فإن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هو القُطبُ الأعظمُ في الدِّين، وهو المهم الذي ابتعثَ اللهُ تعالى له النبيين أجمعين، ولو طُوِيَ بساطُه وأهمل عَملُه وعِلمه تَعطَّلت النبوَّة واضمحلّت الديانة، وفَشَتِ الضَّلالة، واستَشْرى الفَساد، وخَربت البلاد، والآن فقد استولَت على القلوب مُداهنة الخلق، وانمحقت منها مراقَبةُ الخالق، واسترسَل الناسُ في اتِّباع الشَّهوات استِرْسال البَهائم وقَلَّ من لا يأخذه في الله لومَة لائم، فمن سَعى في تلافي هذه الفَترة وسدِّ هذه الثُّلمة إمّا متكفلاً بعلمها أو مُشمِّراً في عَملها كان مُستأثِراً من بين الخَلق بإحياء سُنَّةٍ أفْضى الزّمان إلى إماتَتِها، ومُستبدّاً بقُربةٍ تَتَضاءل دَرجاتُ القُرَبِ دون ذِرْوَتها، وها نحنُ نشرح ذلك في أربعة أبواب:

---

(١) ليست في (ظ).

الباب الأول: في وجوب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وفضيلته.

الباب الثاني: في أركانه وشُروطه.

الباب الثالث: في مَجاريه وبَيان المنكرات المألوفة في العادات.

الباب الرابع: في أمر الأُمراء والسَّلاطين بالمعروف ونَهيهم عن المنكر.

الباب الأول

في وجوب الأمر بالمعروف وفَضيلته والنهي عن المنكر والمذمَّة في إهماله

أمّا الآيات، فقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ففيها بيان أنه فَرضُ كفايةٍ لا فرض عَينٍ، وأنه إذا قامَ به أُمةٌ سَقط الفَرضُ عن الآخرين إذْ لم يَقُل: كونوا كلّكم آمرين بالمعروف. بل قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ فإذاً مهما قامَ به واحدٌ أو جماعةٌ سَقطَ الحَرَجُ عن الآخرين، واختصَّ الفَلاحُ بالقائمين به المُباشرين له، وإن تقاعدَ عنه الخلق أجمعون عمَّ الحَرَج كافَّةَ القادرين عليه لا محالة، وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ـ ١١٤]، فلم يَشهد لهم بالصَّلاح بمجردِ الإيمان بالله واليوم الآخر حتّى أضافَ إليه الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [التوبة: ٧١]، فنعَتَ المؤمنين بأنَّهم يأمُرون بالمعروف والَّذي هجرَ الأمر بالمعروف خارجٌ عن هؤلاء المؤمنين المَنعوتين في هذه الآية وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾ [المائدة: ٧٨ـ ٧٩] وقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ الآية [هود: ١١٦] وقال: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] والآيات في هذا كثيرةٌ.

وأما الأخبار: ذِكر الأخذِ على يد الظالم والفاجر: أخبرنا هِبَةُ الله بن محمَّد بن

الحصين قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن سعيد عن زكريا قال: حدثنا عامر قال: سمعتُ النُّعمانَ بن بَشير يَخطُب ـ وأومأ بإصبعيه إلى أُذُنَيه ـ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مثلُ القائم على حُدود الله، والواقع فيها، والمُدهن فيها مَثل قوم ركبوا سفينةً فأصابَ بعضُهم أسفَلها وأَوْعَرها وشرَّها وأصابَ بعضُهم أعلاها، فكان الّذي في أسفلها إذا استَقَوا الماء مَرُّوا على من فَوقهم فآذوهم، فقالوا: لو خَرقْنا في نصيبنا خَرقاً فاستَسْقينا منه ولم نُؤذِ مَنْ فَوقنا. فإن تَركوهم وأمرهم هَلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أَيديهم نَجَوا جميعاً». انفردَ بإخراجه البخاري.

ذكر مراتب الإنكار: أنبأنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا ابن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثني أبو مُعاوية قال: حدثنا الأَعمش عن إسماعيل بن رَجاء عن أبيه عن أبي سَعيد الخدري قال: أخرجَ مروان المنبر في يومِ عيد ولم يكُ يخرج به، وبدأ بالخطبة قبل الصلاة، ولم يكُ يبدأ بها، فقام رجل فقال: يا مروان، خالفت السنّة، أخرجت المنبر في يوم عيد ولم تك تخرج به في يوم عيد، وبدأت بالخطبةِ قبل الصلاة ولم تك تبدأ بها. قال: فقال أبو سعيد الخدريّ: من هذا؟ فقالوا: فُلان بنُ فلان. قال: فقال أبو سَعيد: أمّا هذا فقد قَضى ما عليه، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأى منكم مُنكراً فإن استَطاع أن يُغيره فليفعل». وقال مرّةً: «فليغيره، فإن لم يَستطع بيده فبلسانه، فإن لم يَستطع بلسانه فبقلبه، وذاك أضعف الإيمان». انفرد بإخراجه مسلم.

وسُئل حُذيفةُ عن ميِّتِ الأحياء فَقال: الّذي لا يُنكر المُنكَر بيده ولا بِلسانه ولا بقَلبه.

ذكر الإنكار على من يخاف: أخبرنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابن نُمير قال: حدثنا الأعمش عن عَمرو بن مُرَّة عن أبي البَختري عن

أبي سَعيد الخدريّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَحقرنَّ أحدُكم نَفسه أن يَرى أمراً لله عزَّ وجلّ فيه مَقالٌ ثم لا يَقوله، فيقول الله عزّ وجلّ: ما منعكَ أن تقولَ فيه؟ فيقول: رَبِّ خشيتُ النّاس. فيقول: فأنا أحقُّ أن تَخشى». قال الإمام أحمد: وحدثنا ابنُ أبي عَدي عن سُليمان عن أبي نَضْرةَ عن أبي سَعيد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يمنعنَّ أحدَكُم هَيبةُ النّاس أن يقولَ في حقٍّ إذا رآهُ أو سمعه»، قال: وقال أبو سعيد: وددت أني لم أسمعه. وهذا الحديث يُنبِّه على أنه لا يجوز لأحدٍ أن يتعرض لرؤيةِ منكرٍ لا يُطيق إزالته كالدخول إلى دار ظالمٍ أو النظر إلى مُنكرات يوم العيد ونحو ذلك، ورَوى أبو داود في سُننه من حديث أبي سعيد عن النبيّ ﷺ أنه سُئل: ما أفضل الجهاد؟ فقال: «كلمةُ عدلٍ عند سُلطانٍ جائرٍ». أخبرنا يَحيى بن علي قال: أخبرنا أبو بكر الخَيّاط قال: حدثنا أبو علي بن حكمان الفقيه قال: حدثنا أبو بكر النقّاش قال: حدثنا أبو نُعيم الاستراباذي، قال: حدثنا الرَّبيع بن سُليمان قال: سمعتُ الشافعيَّ يقول: أشدُّ الأعمال ثلاثةٌ: الجودُ من قلَّةٍ، والورع في خَلوةٍ، وكلمةُ الحقِّ عندَ من يُرجى ويُخاف.

الجدُّ في الأمر بالمعروف وتَركُ المُحاباة: أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرّحمن بن محمّد المحاربي قال: حدثنا الحسن بن عمرو عن أبي الزُّبير عن عبد الله بن عمرو: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتَ أُمّتي تهاب الظّالم أن تقولَ له: أنتَ ظالم، فقد تُودِّعَ منهم». وفي حديثِ ابن مسعودٍ عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ مَن كان قبلكم كانَ إذا عمل العاملُ فيهم بالخطيئةِ نَهاه النّاهي تعذيراً، وإذا كان الغد جالَسهَ وواكَلَه وشارَبه، كأنّه لم يره على الخَطيئة بالأمس، فلمّا رأى اللهُ ذلك منهم ضربَ بقلوبِ بعضهم على بَعض، ثم لعنهم على لسانِ داود وعيسى ابن مريم، والّذي نفسُ محمّدٍ بيده لتأمُرنَّ بالمعروف ولَتنهَونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يَدي السَّفيهِ فلتأطُرنَّهُ[1] على الحقِّ أَطْراً أو لَيضرِبنَّ اللهُ بقلوب بعضكم

(١) لتأطرنّه: أي تعيدوه إلى الحق.

على بَعض ثم يَلعنكم كما لعنَهم». أخبرنا محمّد بن أبي منصور قال: أخبرنا جَعفر بن أحمد السَّراج قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدَّثنا سَيَّار قال: حدثنا جَعفر قال: حدثنا مالك بن دينار قال: كانَ حَبرٌ من أَحْبار بني إسرائيل يَغْشَى منزِلَهُ الرِّجال والنِّساء، فَيعظُهم ويُذكّرهم بأيّام الله، قال: فرأى بعضَ بنيه يوماً غمزَ النِّساء، فقال: مَهلاً يا بُنيَّ، مهلاً يا بنيّ. مرَّتين، قال: فسقطَ من سَريره فانقطعَ نُخاعُه، وأسقطَت امرأتُه، وقُتِلَ بنوه في الجَيش، وأَوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى نَبيّهم أن أخبر فُلاناً الحَبرَ أنّي لا أُخرجُ من صُلبكَ صدّيقاً أبداً، ما كانَ غَضبك لي إلّا أن قُلتَ: مهلاً يا بنيّ مَهلاً!

إثمُ من تَركَ الإنْكار وهو يَقدر: أَخبرنا هِبَةُ الله بن محمّد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا عبد الله بن نُمَير قال: حدثنا إسماعيل يعني ابن أبي خالد - عن قَيس قال: قامَ أبو بكرٍ فَحمِدَ اللهَ عزّ وجلّ وأثنى عليه، ثم قال: أيّها النّاس إنكم تَقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنّا سمعنا رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الناسَ إذا رأوا المنكر فلم يُغيروه أوشَكَ أن يعمَّهُم اللهُ عزَّ وجلَّ بعِقابه». أخبرنا علي بن عُبيد الله ويحيى بن الحَسَن وعبد الرّحمن بن محمّد قالوا: أخبرنا عبد الصَّمد بن المأمون قال: حَدثنا علي بن عُمر السُّكري قال: حدثنا جَعفر بن أحمد ابن الصّباح قال: حدّثنا سَلَمة بن صباح الجُعفي عن أبي إسحاق الهمداني عن عبد الله بن جرير عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من قوم فيهم رجل يعمل بالمعاصي هم أَعَزُّ منهُ لا يُغيّروا إلّا أصابهم الله عزّ وجلّ بعقابٍ». وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر أو لَيُسلِّطنَّ الله عزَّ وجلَّ شِرارُكم على خيارِكُم، فيدعوا خيارُكم فلا يُستَجاب لَهم». وفي حديث عائشةَ قالت: دخلَ رسول الله ﷺ وقد حَفزَه النَّفَس، فعرفتُ في وَجهه أنْ قد حَفزه شَيءٌ، فما تكلّم حتّى توضّأ وخَرجَ، فلصقت بالحجرة، فصعد المنبر، فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى

عليه، ثم قال: «أيُّها الناس، إن الله عزَّ وجلَّ يقول لكم: مُروا بالمعروف وانْهَوا عن المنكر قبل أن تَدْعوني فلا أُجيبكم، وتَسألوني فلا أُعطيكم، وتَسْتَنْصرونِي فلا أَنصركم». وفي حديثِ ابن مسعودٍ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «كيف بكُم إذا كَثُرت أُمراؤكم، وطغَتْ نِساؤكم» قالوا: وإنّ ذلك لكائنٌ يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأشدّ من ذلك» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «لا تأمرونَ بمعروفٍ، ولا تَنهونَ عن مُنكرٍ» قالوا: وإنّ ذلك لكائنٌ يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأكثر منه» قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «لا تعرفون المعروفَ، ولا تُنكرون المنكر» قالوا: وإنّ ذلك لكائنٌ؟ قال: «نعم، وأكثر من ذلك، يكون المعروف فيكم مُنكراً، والمنكر فيكُم مَعروفاً».

وقال مالك بن دينار: قرأتُ في التَّوراة: مَن كان له جارٌ يَعمل بالمَعاصي فلم ينهه، فهو شَريكُه.

وقال مِسْعَر: أُمِرَ مَلَكٌ أن يَخسِفَ بقريةٍ فقال: يا ربّ، فيها فلانٌ العابد. فأوحى الله إليه: أن به فَابدأ، فإنه لم يَتمعَّر[1] وَجهُه فيَّ ساعةً قطُّ.

(١) تَمعَّر وجهه: تغير وعلَتْه صُفرة.

الباب الثاني

في أركان الأمر بالمعروف وشروطه

اعلم أنَّ الأركانَ في الحِسبةِ الّتي هي عبارةٌ شاملة للأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أربعةٌ: المحتَسِبُ، والمحتَسَبُ عَليه، والمحتَسب فيه، ونفس الاحتِساب، فهذه أربعة أركان ولكل واحد منها شُروط.

الركن الأول: المُحتَسِب: وله شروطٌ؛ وهو أن يكون مكلَّفاً مُسلماً قادراً، فيخرجُ منه المجنون والصَّبي والكافر، ويدخل فيه آحادُ الرَّعايا، وإن لم يكونوا مأذونين، ويدخل فيه الفاسقُ والرَّقيق والمَرأةُ، فلنذكر وجهَ اشتراطِ ما اشترطناه ووجه اطِّراح ما اطَّرحْناه:

أمّا الشرط الأول: وهو التكليف: فلا يخفى وجه اشتراطِه، فإن غير المكلَّف لا يَلومه أمرٌ، وما ذكرناه أردنا به أنه شرطُ الوجوب، فأمّا إمكان العقل وجوازه فلا يستدعي إلّا العقل حتى إن الصّبي المميّز المراهِق وإن لم يكن مكلفاً، فله إنكار المنكر، وله أن يُريق الخَمر، ويَكسر الملاهي، وإذا فعل ذلك نال به ثواباً، ولم يكن لأحدٍ منعُه من حيث إنّه ليس بمكلَّف، فإنَّ هذه قُربة، وهو من أهلها، كالصلاة والإمامة فيها، وسائر القُربات، وليس حكمه حكم الولايات حتّى يشترط فيه التكليف، ولذلك أَثبتناهُ للعبدِ وآحادِ الرَّعيَّة، وإن كان في ذلك نوعُ ولايةٍ، إلّا أنَها تُستَفاد بمجرّد الإيمان، كقتل المشرك، فإنّ للصّبي أن يفعل ذلك، فالمنعُ من الفسق كالمنع من الكُفر.

وأمّا الشرط الثاني: وهو الإيمان: فلا يخفى وجه اشتراطِه؛ لأن هذه نُصرةٌ للدين فكيفَ يكون من أهلها مَن هو جاحدٌ لأصل الدّين وعَدُوٌّ له؟ فإن منع هذا الكافر المسلم بالقهر فليس له أن يَقهرَ مسلماً، ولا هذه مَرتبتُه.

وأمّا الشرط الثالث: فهو العدالة: فقد اعتبرها قومٌ، وقالوا: ليسَ للفاسق أن

يَحتسب. وربما استدلُّوا بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، وبما أوحى اللهُ إلى عيسى عليه السلام: عِظْ نفسك، فإن اتَّعَظْتْ، فعِظ النّاس، وإلّا فَاستحي منّي.

ومن حيث القياس فإن هداية الغير فَرعٌ للاهتداء، وكذلك تقويم الغَير فرع للاستقامة، والإصلاح زكاةُ نصاب الصَّلاح، فمن ليس بصالحٍ في نفسه كيف يُصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظلُّ والعُود أعوج؟ وهذا كله لا حجَّةَ فيه؛ لأنّه إنكار لترك المعروف لا لأجل الأمر به، والحقّ أن للفاسق أن يحتسب، وبُرهان ذلك أن نقول: هل يُشترط في الاحتساب أن يكون مُتعاطيه مَعصوماً عن المعاصي كلّها؟ فإن شرط ذلك، فهو خرق للإجماع وحسمٌ لبابِ الاحتساب، إذ لا عِصمةَ للصّحابة فمن دونهم، وقد اختُلفَ في عصمة الأنبياء عليهم السَّلام، وإن زعموا أنّ ذلك لا يُشترط عن الصَّغائر حتى يجوز للابس الحرير أن يمنع من الزِّنا وشُرب الخمر فنقول: وهل لشارب الخمر أن يَغْزوَ الكفّار؟ فإن قالوا: لا. خَرقوا الإجماع، إذ جنود المسلمين مشتملة على البَرِّ والفاجر، ولم يُمنعوا من الغَزو قَطّ، فإن قالوا: نعم. قلنا: فَهل لشاربِ الخمر أن يمنع من القَتل؟ فإن قالوا: لا. قلنا: فما الفَرقُ بينه وبين لابس الحَرير إذْ جاز له المنع من الخَمر؟ والقَتلُ كبيرةٌ بالنّسبة إلى الشُّرب، كالشّرب بالنسبة إلى لُبس الحرير، ولا فرق. فإن قالوا: نعم. وفَصَّلوا الأمر فيه بأنّ كل مُقدمٍ على شيءٍ لا يَمنع عن مثله ولا عمّا هو دونه، وإنّما يمنع عمّا هو فَوقه، فهذا تحكمٌ، فإنه كما لا يَبعدُ أن يَمنعَ الشَّاربُ من الزِّنا والقَتل، فمن أين يَبعدُ أن يمنع الزّاني من الشُّرب؟ بل من أين يَبعدُ أن يَشرب ويَمنعَ غِلمانه وخَدَمه من الشُّرب؟ ويقول: قد وَجَبَ عليَّ الانتهاء والنَّهي، فمن أين يَلزمُني بالعِصيان في أَحدِهما أن أعصي اللهَ بالثاني؟ وإذا كان النَّهيُ واجباً عليَّ فمن أينَ وجب سُقوطه بإقدامي؟ إذ يَستحيل أن يقال: يجب النَّهيُ عن شُرب الخمر عليه ما لم يَشرب، فإذا شَرِبَ سقطَ عنه النَّهي.

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يقول القائل: قد وجبَ عليَّ الوضوء والصَّلاة فَأنا أتوضأ وإن لم أصلِّ. قلنا: الوضوءُ لازمٌ والصلاة أيضاً، فمن توضَّأ ولم يُصَلِّ كان

مُؤدياً أحدَ الفَرْضَين، وكان عقابه أقلّ ممن يترك الوضوء والصّلاةَ جميعاً، فليكُن مَنْ تركَ النَّهيَ والانتهاء أكبر عِقاباً ممن نَهى ولم يَنتَهِ، كيفَ والوضوء شرطٌ لا يُرادُ لنفسه بل للصلاة، فلا حكم له دونَ الصلاة، فأمّا الحسبة فليست شرطاً في الانتهاء والائتمار، فلا مُشابهةَ بينهما.

فإن قيل: فيلزم على هذا أنه لو زَنا بامرأةٍ وهي مُكرهةٌ مَستورة الوجه فكشفَت وَجهها باختيارها، فقال لها: استُري وَجهكِ لأنك مُكرهة في الزِّنا لا في كشفِ الوجه. فإنّ هذا احتسابٌ شَنيعٌ.

قلنا: إنّما كان شَنيعاً؛ لأنه اشتغالٌ بمهم عمّا هو أهمّ منه، كمن غُصِبَ منه فرسٌ بلجامها فأخذ يَطلب اللِّجام ويَترك ذِكرَ الفَرس.

واعلم أن أمر الفاسقِ بالمعروف [(١]ونهيَهُ عن المنكر[١)] لا يُفيد، لعلمِ الناسِ بفِسْقِهِ، بل إن قدر على المنع أفادَ، كإراقَتِهِ الخُمور وكَسرِهِ للملاهي.

الشرط الرابع: كونه مأذوناً من جهة الإمام والوالي: فقد شرط قومٌ هذا ولم يُجيزوا لآحادِ الرعيَّة الحِسبةَ، وهذا الاشتراط فاسد، فإن الآيات والأخبار الّتي أوردناها تدلُّ على أنَّ كلّ مَن رأى منكراً فسكتَ عنه عَصى فالتَّخصيصُ بشرطِ التفويض من الإمام تَحكُّمٌ لا أصلَ له، والعَجَبُ أنّ الرّوافضَ زادوا على هذا فقالوا: لا يجوزُ الأمرُ بالمعروف ما لم يَخرج الإمام المعصوم وهؤلاء أَخسُّ رتبةً من أن يكلَّموا، بل جوابهم أن يُقال لهم إذا جاؤوا إلى القُضاة طالبين حُقوقهم في دِمائهم وأموالهم: إنّ نُصرتَكم أمرٌ بالمعروف، واستخراجُ حُقوقكُم ممن يُدْمِنُ ظُلمَكم نَهيٌ عن المنكر، وطلبكم لحقوقكم من جُملة المعروف، وما هذا زمان النَّهي عن الظلم وطلبِ الحقوق؛ لأنّ الإمام لم يَخرج بعدُ.

فإن قيل: في الأمر بالمعروف إثباتُ سَلْطَنةٍ وولايَةٍ على المحكوم عليه، ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقاً، فينبغي أن لا يَثبت لآحادِ الرَّعيَّةِ إلّا بتفويض من السُّلطان.

(١ـ١) سقط من (ظ).

قُلنا: أمّا الكافر، فَممنوع لما في ذلك من السَّلْطنة وعِزِّ الاحتكام ولا يستحق الكافرُ الذَّليلُ أن ينال عزَّ التحكُّم على المُسلم، وأمّا آحادُ المسلمين، فَيستحقّون هذا العِزَّ بالدين والمعرفة، وما في ذلك من عِزِّ السَّلطنة والاحتكام لا يُحوِجُ إلى تَفويضٍ كعِزِّ التعليم[1] والتعريف، إذ لا خلاف في أنَّ تعريفَ التّحريم والإيجاب لمن هو جاهلٌ ومُقدِمٌ على المنكر لجهله لا يَحتاج إلى إذنِ الوالي، وفيه عزُّ الإرشاد، وعلى المعرَّفِ ذُلُّ التَّجهيل وذلك يكفي فيه مُجرد الدِّين، فكذلك النَّهي.

وشرحُ هذا أن الحِسبةَ لها خَمسُ مراتب:

الأولى: التَّعريف.

والثانية: الوَعظ بالكلام اللَّطيف.

والثالثة: السَّبُّ والتَّعنيف، ولسنا نعني السبَّ الفاحشَ، بل أن يقول له: يا جاهل، يا أحمق، ألا تخافُ من الله، ونحو هذا.

والرابعة: المنع بالقَهر ككَسرِ الملاهي، وإراقَة الخَمر.

والخامسة: التَّخويف والتَّهديد بالضرب، أو مباشرة الضَّرب له حتّى يمتنع عمّا هو عليه، فهذه المرتبة تَحتاج إلى الإمام دون ما قَبلها؛ لأنّه ربّما جَرَّ إلى فِتنةٍ.

واستمرارُ عاداتِ السَّلَفِ على الحِسبةِ على الولاة قاطعٌ بإجماعهم على الاستغناء عن التَّفْويض، وكلُّ من أَمر بمعروفٍ فإنْ كان الوالي راضياً بذلك، فهو المقصود، وإن كان ساخِطاً فَسخطه مُنكرٌ يجب فيه الإنكار عليه، فكيف يُحتاج إلى إذنه في الإنكار عليه؟ وقد روينا أنَّ رجلاً قام إلى مَروانَ فأنكر عليه، فقال أبو سعيد الخدْري: أمّا هذا فَقد قَضى ما عليه.

وقد كان خلقٌ كثير[2] يعظون السَّلاطين ويَنْبَسِطونَ[3] عليهم ويتحمّلهم السّلاطين لعلمهم بحُسنِ قَصدهم، وسيأتي ذكرُ طَرَفٍ من أخبارهم.

---

(١) في (ظ): «التعظيم».

(٢) ليست في (ظ).

(٣) في الأصل: «يتسلطون».

فإنْ قيل: فهل تَثبتُ الحِسبةُ للولد على الوالد؟ والعبد على السيِّد؟ والزّوجة على الزَّوج؟ والرعيّة على الوالي؟

قلنا: أصلُ الوِلاية ثابتٌ للكلّ، وقد رتَّبنا للحِسبة خمسَ مراتب، فللولدِ الحِسبةُ بالرّتْبتين الأُوليين، وهما: التعريف ثم الوَعظ والنُّصح باللّطف، وله من المرتبة الخامسة أن يَكسر العودَ، ويُريقَ الخمر، ويَردَّ الغَصبَ، ويبطل الصُّوَر المنقوشَةَ على حيطانِه، وهذا الترتيب يَنبغي أن يجري في العَبد والزوجة، فإنّ السيِّد والزَّوج قَريبان من مَرتبة الوالد، وأمَّا الرعيَّةُ مع السُّلطان، فالأمر فيه أشدُّ من الوالد، فليس له معه إلا التعريف والنُّصح.

الشرط الخامس: كونه قادراً: ولا يخفى أن العاجزَ ليس عليه حِسْبة إلّا بقلبه، ولا يقف سقوط الوجوب على العَجز الحِسِّيِّ، بل يلتحق به خوف مكروهٍ يَناله وذلك في معنى العجز، وكذلك إذا علم أن إنكاره لا يَنفع، فيخرج في حقِّ الآمِرِ بالمعروف أربعة أحوال:

أحدها: أن يعلمَ أنّ المنكر يزولُ بقوله وفِعله، ولا يُقدَرُ له على مكروه، فيجب عليه الإنكار.

الحالة الثانية: أن يَعلم أنّ كلامه لا يَنفع، وأنَّه إن تكلَّم ضُرِبَ، فيرتفع الوجوبُ عنه.

والثالثة: أن يعلمَ أنَّ إنكاره لا يُفيد، لكنّه لا يَخاف مكروهاً، فلا[1] يجب عليه الأمر لعدم الفائدة، لكن يُستحبُّ لإظهار شِعار الإسلام والتذكير بالدّين.

والرابعة: أن يعلم أنّه يُصابُ بمكروهٍ، ولكن يَبطُلُ المنكر بفعله، مثل أن يكسرَ العودَ ويُريقَ الخمر، ويعلم أنّه يُضربُ عَقيب ذلك، فيرتفع الوجوب عنه، ويبقى مُستحبَّاً، للحديث الّذي أوردناه في فَضل كلمة الحقِّ عند الإمام الجائر.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

(١) في الأصل: «ولا».

قلنا: قالَ ابن عباس: المرادُ بها تَركُ النَّفقة في سبيل الله، وقال البَراءُ بن عازب: هو أن يُذنب الذَّنبَ ثم يقول: لا يُتابُ عليَّ. ولا خلافَ أنَّ المسلمَ الواحدَ له أن يَهجُمَ على صفِّ الكُفّار ويُقاتل، وإن علم أَنَّه يُقتل؛ لأن ذلك يَكسِرُ قلوبَ الكُفار، ويُبين لهم قوةَ دليل الإسلام، وإذا جازَ ذلك في القِتال جازَ في الحِسبة، بلى لو علم أنّه لا نِكايةَ لهجومه على الكفَّار، كالأعمى يَطرح نفسه على الصَّفِّ حَرُمَ ذلك ودخل تحت عُموم الآية، وكذلك لو رأى فاسقاً وَحده وعنده سَيفٌ وبيده قَدَح، وعلم أنه إن أنكر عليه لَشَربَ القَدَح وضَرب عُنقه، لم يَجُزْ له الإقدام على ذلك؛ لأن هذا لا يُؤثّر في الدّين أثراً يَفديه بنفسه، وإنّما يُستحب له الإنكار إذا قَدر على إبطال المنكر، أو ظهر لفعله فائدة، فإن علم أنه يُضربُ معه غيره مِن أصحابه وأقاربه ورُفقائه لم يَجُز له الحِسبة؛ لأنه عجزَ عن دفع المنكر إلّا بأن يُفضي ذلك إلى مُنكرٍ آخر، وليس ذلك من القُدرة في شيءٍ.

ولسنا نعني بالعِلم في هذه المواضِع إلّا غلبة الظّنِّ، فمتى غَلبَ على ظَنّه أنه يُصيبه مكروه لم يَجب عليه الإنكار، وإن غلب على ظنّه أنه لا يُصيبه مكروه وَجب، فإن شَكَّ، فإنَّ مجرَّدَ التَّجويز لا يُسقطُ الوجوبَ، ولا اعتبارَ بحالةِ الجبان، فإنّه يَخاف وقوع ما لا يقع، ولا بالشُّجاع المُتهوِّر الذي يُبعِدُ وقوع المكروه، بل الاعتبار بالمعتدِل الطَّبع السَّليم المِزاج.

ونَعني بالمكروه: الضَّربَ أو القَتل، فلو علم أنّه لا يُضرب بل يُسوَّدُ وَجهُه ويُشهَرُ في البلد رُخِّصَ له في السّكوت؛ لأن هذا مُؤلمٌ للقلب أكثر من الضَّرب، وكذلك إذا علم أنَّه يُنهَبُ مالُه، إلّا أنّه يَبقى الاستحباب له في هذين الموضعين.

فأمّا السَّبُّ والشَّتْمُ، فليس بعُذرٍ في السُّكوت؛ لأنّ الآمرَ بالمعروف لا بدّ أن يلقى ذلك.

فإن قيل: فلو قَصدَ إنسانٌ قَطعَ طرفِ آخرَ أفيقاتِلُ على هذا؟

فإن قلتم: نعم، وكيف يتعرَّض بإتلاف نفسٍ لخوف إتلافِ طرف؟ قلنا نَمنعه عن ذلك ونُقاتله؛ لأنّه ليس غرضنا حِفظ الطَّرف فقط، بل حَسم سَبيل المُنكرات،

وقَتله في الإنكار عليه ليسَ بمعصيةٍ، وقَطعُهُ الطَّرفَ معصيةٌ، فصار كدفعِ الصائِلِ على مالِ مُسلمٍ بما يأتي على قتله، فإنّه جائز لا لأجل افتِداءِ درهمٍ بروحٍ، بل لأنّ أخذَ أموال المسلمين مَعصيةٌ، وقتله في الدَّفع عن المعصية ليس بمعصية.

الرّكن الثاني للحسبة: ما فيه الحِسبةُ: وهو كلّ منكرٍ موجود في الحال ظاهرٍ للمحتسب بغير تَجسُّسٍ، معلومٍ كونه منكراً بغير اجتهاد، فهذه أربعةُ شروطٍ فلنبحث[1] عنها:

الأول: كونه منكراً، ونَعني بذلك كونه مَحذورَ الوقوع في الشَّرع، وعَدَلنا من لفظِ المعصيةِ إلى هذا؛ لأن المنكَر أعمُّ من المعصية، إذ مَن رأى صَبياً أو مَجنوناً يشربُ الخَمر، فعليه أن [٢]يُريق خَمرَهُ ويَمنعه، وكذلك إذا رأى مجنوناً يَزْني بمجنونةٍ أو بَهيمة، فَعليه أن[٢] يمنعه منه، وذلك لا يسمّى معصيةً في حقِّ المجنون، فلفظ المنكر أدلُّ عليه وأعمّ من لفظ المعصية، وقد أدرجنا في عموم هذا الصَّغيرةَ والكبيرةَ.

الشرط الثاني: أن يكونَ موجوداً في الحال، وهو احترازٌ عن الحِسبة على من فَرغَ من شُرب الخمر، فإنّ ذلك ليس إلى الآحاد، واحترازٌ عَمّا سَيوجد في ثاني الحال، كمن يَعلم بقرينةِ حاله أنّه عازمٌ على الشُّربِ اللّيلةَ، فلا حِسبةَ عليه إلّا بالوَعظِ، وإن لم يَعلم عَزمَه على ذلك لم يَجُزْ وَعظُه فيه؛ لأنَّ في ذلك إساءَةَ ظَنٍّ بالمسلم.

الشرط الثالث: أن يكونَ المنكَر ظاهراً للمحتسِب بغير تجسُّسٍ، فكلُّ من سَتَر معصيةً في داره وأغلقَ بابَه لم يجز أن يُتجسَّسَ عليه إلّا أنْ يَظهر مِنْ ذلك ما يَعرفه مَن هو خارج الدَّار، كأصواتِ المزامير والعِيدان، فلمن سمعَ ذلك أن يَدخُلَ ويَكسر الملاهي، وكذلك إذا ارتفعت أصواتُ السّكارى بالكلمات المألوفَةِ بينهم، فسمعها أهل الشارع، فإنْ فاحت رائحةُ الخَمر فالأظهَرُ جوازُ الإنكار، وكذلك إذا

---

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «فليجتنب».
(٢-٢) سقط من (ظ).

كان العودُ مُغطّى، فإنّ شكله يُعرف كما تُعرف الخمر بالرائحة، فأمّا إذا كانت الآنيةُ تحتَ ذيلِ فاسقٍ لم يَجُزْ أن يُتعرَّضَ بها لجواز أن يكون خَلاً، وليسَ لأحدٍ أن يقول له: أَرِني لأنظر. فإنّه تجسُّسٌ.

الشرط الرابع: أن يكونَ كونه منكراً معلوماً بغيرِ اجتهاد، فكلُّ ما هو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه، فليس للحَنَفيِّ أن يُنكر على الشافِعيّ أكلُه مَتْروكَ التَّسمية، ولا للشافعيِّ أن يُنكر على الحنفيِّ شُربه النبيذ الذي ليس بمُسْكِر.

الركن الثالث: المحتَسَبُ عليه: وشَرطه أن يكون بصفةٍ يَصير الفِعلُ الممنوع منه في حَقِّه مُنكراً، ويكفي في ذلك كونه إنساناً، ولا يشترط كونه مكلّفاً، فقد بَيّنّا أنَّ الصبيَّ لو شَربَ الخَمر مُنعَ منه، واحتُسِبَ عليه، وإن كان قَبلَ البلوغ، ولا يُشتَرط كونه مُمَيِّزاً، فقد بَيَّنا أن المجنونَ لو كان يَزني بمجنونةٍ أو يأتي بَهيمةً وجبَ منعُه.

فإن قيل: فاكْتَفِ بكونه حَيواناً ولا تَشتَرط كونه إنساناً، فإن البهيمةَ لو أفسدت زَرْعاً لمنَعناها كما يُمنَع المجنون من الزِّنا.

قُلنا: لا وَجهَ لتسمية مَنعِ البَهيمةِ حِسبةً؛ لأن الحِسْبةَ مَنعٌ عن مُنكرٍ لحقِّ اللهِ تَعالى، وصيانَةٌ للمَمنوع من مُقارفَةِ المنكر، ولسنا نَمنعُ البَهيمة صيانةً لها، بل لحفظِ مال المسلم.

الركن الرابع: نَفسُ الاحتساب: وله دَرجاتٌ وآدابٌ.

فأوّلها التَّعرف، ثم التَّعريف، ثم النَّهي ثم الوَعظُ والنُّصحُ، ثم السَّبُّ والتَّعنيفُ، ثم التَّغييرُ باليد، ثم التَّهديدُ بالضَّرب، ثم إيقاع الضَّرب وتَحقيقُه، ثم شَهْرُ السِّلاح، ثم الاستِظْهار فيه بالأعوان والجُنود.

أمّا الدَّرجة الأولى: فهو التَّعرفُ، ونَعني به طلب المعرفة بجَريانِ المنكر، وذلك مَنْهيٌّ عنه، وهو التَّجسُّسُ الذي ذكرناه، فلا ينبغي أنْ يَسترقَ السَّمعَ على دار غَيره ليسمعَ صوت الأوتار، ولا أن يتعرَّض للشَّمِّ ليُدركَ رائحةَ الخَمر، ولا أن

يَمسَّ ما قد سُتِرَ بثوبٍ ليعرف شكل المِزمار، ولا أن يستخبر جيرانَه ليُخبروه بما يَجري، بلى لو أخْبَره عَدْلان ابتداءً من غير استِخْبار أنَّ فلاناً يَشرب الخَمر في داره، أو أنَّ في داره خَمراً أعدَّه للشرب، فله إذ ذاكَ أن يَدخل ولا يَلزمه الاستِئذان.

الدرجة الثانية: التَّعريف، فإنّ الجاهلَ يُقدم على الشيء لا يظنُّه منكراً، فإذا عَرفَ أقلع عنه، كالسَّوادِي(١) يُصلّي ولا يُقيم الرّكوعَ والسُّجود، فيجب تعريفه باللُّطفِ أن هذه ليست صلاةً، ولولا أنه يُريد الصّلاة لترك أصلَ الصَّلاة، ومن ضمن التعريف نسبةٌ إلى الجهل، والتجهيل إيذاءٌ، والطِّباع أحرص على سَتْر عورة الجهل أكثر منها على سَتر العورة الحقيقية؛ لأنّ الجَهل قُبْحٌ في صورة النفس، وسَوادٌ في وَجه القَلب وقُبْحُ السَّوْءَةِ يرجع إلى صورة البَدَن، والنَّفسُ أشرفُ من البَدَن، وقُبحها أشدّ من قُبح البَدَن، فيعظم تألُّم الإنسان بظُهور جَهله، ويَعظُمُ ابتهاجُه في نَفسه بعِلمه، ثم لَذَّته عند ظهور جَمال عِلمه لغيره.

وإذا كانَ التعريفُ كَشفاً للعورة مؤذياً للقلب، فلا بدَّ أن يعالج دفع أذاه بلُطفِ الرِّفقِ. فَيُقال له: يا هذا، إنّ الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنّا جاهلين بأمورِ الصلاة حتّى عَلَّمنا العُلماء، ولعلَّ قَريتك خالية عن أَهل العلم، أو عالمها مُقصّر في شَرح الصلاة وإيضاحها فهكذا يُتَلطَّفُ به ليحصل التَّعريف من غير إيذاء، ومن اجْتنبَ مَحذور السّكوت عن المنكر واستَبدل عنه محذورَ الإيذاء للمسلم مع الاستغناء عنه، فَقد غسلَ الدَّمَ بالبول.

فأمّا إذا وقفتَ على خطأٍ من غَير أمرِ الدِّين، فلا يَنبغي أن تَردَّه عليه، فإنّه يَستفيد منك علماً ويَصير لك عدوّاً، إلّا إذا علمتَ أنّه يَغتنِم العلمَ، وذلك عزيزٌ جداً.

الدرجة الثالثة: النَّهيُ بالوعظِ والنُّصح والتّخويف بالله، وذلك فيمن يُقدم على الأمر وهو عالمٌ بكون منكراً، أو فيمن أَصرَّ عليه بعد أن عرفَ أنّه منكر، كالذي

(١) السَّوادي: المنسوب إلى السَّواد، وهو القرى والمزارع المحيطة بالمدينة.

يُواظب على الشُّرب، أو الظُّلم، أو الغيبة، فَينبغي أن يوعَظ ويخوَّفَ بالله تعالى، وتُورَدَ عليه الأخبارُ الواردةُ بالوَعيد في ذلك ويُحكَى له سيرةُ السَّلف وعادةُ المُتَّقين، وكلّ ذلك بشَفَقةٍ ولُطفٍ من غير عنفٍ وغضب[١]، بل ينظر إليه نظر الرَّاحم له، ويرى إقدام ذلك على المعصية مصيبة في نفسه هو؛ لأنَّ المسلمين كنفسٍ واحدةٍ وهاهنا آفةٌ عظيمةٌ، ينبغي أن يتوقَّاها فإنَّها مَهلكةٌ، وهي أن العالم يرى عند التعريف عِزّ نَفسه بالعلم، وذُلَّ غيره بالجهل، فربّما يقصد بالتعريف الإذلالَ وإظهارَ التميّز بشرفِ العلم، وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خِسَّةِ الجهل، فإن كان الباعثُ هذا فهذا المنكر أَقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه، ومثالُ هذا المحتَسب مثالُ من يُخلِّصُ غيرَهُ من النّار بإحراقِ نَفسِه، وهو غاية الجَهل.

وهذه مَزَلَّةٌ[٢] عظيمةٌ وغائلةٌ هائلة، وغرورٌ للشيطان يَتدلَّى بحبله كلّ إنسان إلّا من عرَّفه الله تعالى عُيوبَ نفسِه، وفَتح بَصيرته بنور هِدايته، فإن في الاحتكام على الغير لذَّةً للنفس عظيمةً من وجهين: أحدهما: من جهة دالَّةِ العِلم، والآخر من جهة دالَّةِ الاحتكام والسُّلْطَنة، وذلك يرجع إلى الرِّياء وطَلب الجاه، وهو الشَّهوة الخَفيّة المتداعية إلى الشِّرك الخَفيّ، وله مَحَكٌ ومِعيارٌ ينبغي أن يُمتَحنَ به[٣] المُحتَسِبُ نفسُه، وهو أن يكون امتناع ذلك الإنسان عن المنكر بنفسه أو باحتساب غيره أحبّ إليه من امتناعه باحتسابه، فإن كانت الحِسبةُ شاقةٌ عليه ثقيلةٌ على نفسه، وهو يودُّ أن يُكفَى بغيره فليَحتسِب، فإنّ باعثه هو الدّين، وإنْ كان اتّعاظُ ذلك العاصي بوَعظه وانزجارُه بزَجْره أحبّ إليه من اتّعاظِه بوعظ غيره، فما هو إلّا مُتَّبع[٤] هوى نفسه ويتوسَّل إلى إظهاره جاهِ نفسه بواسطةِ حِسبته، فليتقّ الله تعالى، وليحتسب أولاً على نفسه، وعند هذا يُقال له: عِظْ نفسكَ، فإنِ اتَّعظتْ، فعظِ النّاس وإلّا فاستحي منّي.

---

(١) ليست في الأصل.
(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «منزلةٍ».
(٣) سقطت من الأصل.
(٤) في الأصل: «مبتغٍ».

وقيلَ لداود الطّائي: أرأيتَ رجلاً دخلَ على هؤلاء الأُمراء فأمرهُم بالمعروف ونَهاهُم عن المنكر؟ قال: أخافُ عليه السَّوْط. قيل: هو يَقوى عليه. قال: أخافُ عليه السَّيف. قيل: إنّه يَقوى. قال: أخافُ عليه الدّاء الدَّفين العُجْب.

إلّا أنّ في هذا دَقيقةً خفيَّةً، وهي أنّه يجب أن يزولَ المنكر بإنكاره ليكون له أجر الإنكار، لا نظراً إلى دالَّةِ العلم ولا إلى الاحتكام وهذا يَندر.

الدرجة الرابعة: السَّبُّ والتَّعنيف بالقول الغَليظ الخَشِن، وإنما يُعدل إلى هذا عند العَجز عن المنع باللُّطف وظُهور مبادئ الإصرار والاستهزاء بالوَعظ والنُّصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، ولسنا نَعني بالسَّبِّ الفُحش والكَذب بل أن يُخاطِبه بما فيه مما لا يعد فُحشاً، كقوله: يا فاسق، يا أحمق، يا جاهل، ألا تخاف الله، وكقوله: يا سَواديّ، يا غَبيّ وما يجري هذا المجرى، فإن كل فاسقٍ أحمق وجاهل، ولولا حُمقُه لما عَصى الله تعالى، ولهذه الرُّتبة أدَبان:

أحدهما: أن لا يُقدِمَ عليه إلّا عند الضّرورة والعجز عن اللُّطف.

والثاني: أن لا ينطق إلّا بالصِّدق، ولا يَسترسل فيه، فينطلق لسانُه بما لا يُحتاج إليه، بل يَقتصر على قَدر الحاجة، فإن علم أنّ خطابه بهذه الكلمات لا يَزجُره، فليقتصر على إظهار الغَضب والاحتقار له، والازدراء بمحلّه لأجل المعصية، وإن علم أنّه إن تكلَّم ضُرب ولو اكفَهرَّ وأظهرَ الكَراهة بوجهه لم يُضرَب لزمه ولم يكفه الإنكار بالقلب بل يلزمه أن يُقطِّبَ وَجهه ويُظهر الإنكار.

الدرجة الخامسة: التَّغيير باليد، وذلك ككَسرِ الملاهي وإراقة الخَمر وإخراجه من الدّار المغصوبة، وفي هذه الدرجة أَدَبان:

أحدهما: أن لا يُباشِرَ بيده التغيير ما لم يعجز عن تكليف المحتَسب عليه ذلك، فإذا أمكنه أن يُكلّفه المشي في الخروج عن الأرض المغصوبة والمسجد، فلا ينبغي أن يدفعه أو يَجرَّه، وإذا قدر على أن يُكلّفه إراقةَ الخمر وكَسر الملاهي، فلا ينبغي أن يُباشر ذلك بنفسه.

الثاني: أن يقتصر في طريق التَّغيير على القَدرِ المحتاج إليه، وهو أن لا يَجرّه برجله إذا قَدر على جرّه بيده، فإنّ زيادة الأَذى فيه مُستغنًى عنه ولا يَحرق الملاهي بل يُبطل صَلاحيتها للفَساد بالكَسر، وحدُّ الكَسر أن تصيرَ إلى حالٍ يحتاج في استئناف إصلاحها إلى تعبٍ يُساوي تعب الاستئناف من الخَشب ابتداء، ويَتوقَّى في إراقةِ الخُمور كَسر الأواني إن وجدَ إليه سبيلاً، فإن لم يقدر إلّا بأن يَرمي ظروفها بحجرٍ فله ذلك، وتَسقط قيمة الظُّروف لأنّها كانت حائلاً[١] بينه وبين الخَمر، ولو ستر الخمر بيديه لكنّا نقصد يديه بالضَّرب لنتوصَّل إلى إراقة الخَمر فإنه لا تَزيد حرمةُ ملكه في الظُّروف على حُرمة نفسه، ولو كانت الخمر في قوارير ضَيِّقة الرؤوس، فإذا اشتغل بإراقتها طالَ الزَّمان وأدركه الفُسَّاق فمنعوه، فله كَسرها، فهذا عذر، وإن لم يحذَر من الفُسَّاق لكن كان يُضيِّع زمانه وتَتعطَّل أَشغاله في صَبها فله كسرها، فإن تَيسَّرت الإراقة كالكسر لم يجز له أن يكسر.

فإن قيل: فهلّا جازَ الكسرُ زجراً والجَرُّ بالرّجل في الإخراج من الدّار المغصوبة زجراً؟

قلنا: إنّما يكون الزَّجرُ عن المستقبل، والعُقوبة على الماضي، والدّفع عن الحاضر الرّاهن، وليس إلى آحاد الرَّعية إلّا الدَّفع، وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر إعدام المنكر فهو إمّا عقوبةٌ على جَريمةٍ سابقة، أو زجرٌ عن لاحقٍ، وذلك إلى الولاة لا إلى الرعيَّة، فللوالي أن يفعل ذلك إذا رأى المصلحة فيه.

فإن قيل: فَهلّا جازَ للسُّلطان تَخريبُ ديار الفُسَّاق زَجراً؟

قلنا: لو وردَ الشّرعُ بذلك لم يكن خارجاً عن سنن المصالح، ولكنّا لا نَبتدع المصالح بل نَتَّبعُ فيها، وكسر الظروف قد كان في بداية الشَّرع عند شدَّة الحاجة إلى الزَّجر، وتركُه بعد ذلك لعدم شدَّةِ الحاجة لا يكون نَسخاً، بل الحكم يَزول بزوال العلَّة، ويعود بعودها، وإنّما جوَّزنا ذلك للإمام بحكم الاتّباع ومَنعنا منه آحاد الرعيَّة لخَفاء وَجْهِ الاجتهاد فيه، فنقول: لو أُريقَت الخمور أولاً لم يَجُز كسر الأَواني

(١) في (ظ): «حائلة».

بعدها، وإنّما جاز كسرها تَبعاً للخمر، فإذا خَلَت عنها، فهو إتلاف مالٍ إلّا أن تكون ضاريةً[١] بالخمر لا تَصلح إلّا لها، فكأن الفعل المنقول عن العَصر الأوّل كان مقروناً بمعنيين: أحدهما: شدَّة الحاجة إلى الزَّجر، والآخر: تَبعية الظروف للخمر التي هي مشغولة بها، وهما مَعنيان مؤثران لا سبيل إلى حَذفهما، ومعنى ثالث وهو صُدور هذا عن رأي صاحب الأَمر لعلمه بشدَّة الحاجة إلى الزَّجر، وهما مَعنيان مؤثران لا سبيل إلى حَذفهما، ومعنى ثالث وهو صُدور هذا عن رأي صاحب الأَمر لعلمه بشدَّة الحاجة إلى الزَّجر، وهو معنى مُؤثر، فلا سبيل إلى الغاية، فهذه تصرُّفاتٌ دقيقةٌ فقهيّةٌ يحتاج المحتَسِبُ إلى معرفتها.

الدّرجة السادسة: التَّهديد والتَّخويف، كقوله: دَعْ عنكَ هذا وإلّا فعلتُ بكَ كذا وكَذا. وهذا ينبغي أن يُقدَّم على تَحقيق الضَّرب إذا أمكن تقديمه.

والأدبُ في هذه الرُّتبة أن لا يُهدّده بوعيدٍ لا يجوز له تحقيقه، كقوله: لأَنْهَبنَّ دارِكَ أو لأَسْبِيَنَّ زوجتَكَ؛ لأنّه إن قال ذلك عن عزمٍ، فهو حرام، وإن قال عن غير عَزمٍ، فهو كذاب، وله أن يزيدَ في الوعيد على ما هو عزمه الباطن إذا علم أنَّ ذلك مما يَردعُه.

الدّرجة السابعة: مباشرةُ الضَّرب باليدِ والرِّجل وغير ذلك، مما ليس[٢] فيه إشهارُ سلاح، وذلك جائز للآحاد بشرطِ الضّرورة، والاقتصار على قدر الحاجة في الدَّفع، فإذا اندفَع المنكر فَينبغي أن يَكُفَّ.

الدرجة الثامنة: أن لا يَقدر عليه بنفسه، ويحتاج إلى أعوانٍ يُشهرون السّلاح، وربّما يَستمد الفاسق أيضاً بأعوانه ويؤدي إلى القِتال، فهذا مما اختُلف فيه، فقال قوم: لا يحتاج إلى إذنِ الإمام، فإنَّ آحاد الغُزاة يجوز لهم قتال الكُفّار، فكذلك آحاد الناس لهم قَمعُ أهل الفَساد. وقال آخرون: يُحتاج إلى إذن الإمام؛ لأنّه يُؤدّي إلى الفِتَن وهَيَجان الفَساد، وهو الصَّحيح.

---

(١) ضارية: أي ملازمة للخمر لا تُستخدم إلا لها.
(٢) سقطت من الأصل.

بَيانُ
آدابِ[١] المحتَسِب

قد ذكرنا تَفاصيل الآداب في آحاد الدَّرجات، ونذكر الآن جُمَلَها ومَصادرها فَنقول: جَميع آداب المحتسب مَصدرها ثلاث صِفاتٍ في المحتسب: العِلم، والوَرع، وحُسنُ الخُلق.

أمّا **العلم**: فليعلم مواقع الحِسْبة، وحدودها، ومجاريها، ومواقعها ليقتصر على حَدِّ الشَّرع فيه.

والورع: ليَزَعه عن مُخالفة مَعلومِه، فما كلّ مَن علم عَملَ بعلمه، بل ربَّما يعلم أنه مُسرفٌ في الحِسبة وزائد على الحدِّ المأذونِ شَرعاً، ولكن يحمله عليه غَرضٌ من الأغراض، وليكون كلامه ووعظه مقبولاً، فإنّ الفاسق يَهزأ به إذا احتسب، ويورث ذلك جُرأة.

وأمّا **حُسن الخلق**: فليتمكن من اللُّطف والرِّفق، وهو أصل الباب وأساسُه، فإنّ الغَضَب إذا هاجَ لم يكفِ مجرَّد العلم والورع في قَمْعه ما لم يكن في الطَّبع قبول له بحُسن الخُلق، وعلى التحقيق فلا يَتم الورع إلّا مع حُسن الخلق والقُدرة على ضَبط الشَّهوة والغَضب، وبه يَصبر المحتسب على ما أصابه في دين الله تعالى، وإلّا فإذا أُصيب بشتمٍ أو ضَربٍ نَسي الحِسْبة وغفل عن دين الله تعالى، واشتغل بنفسه، بل ربّما يُقدم عليه ابتداءً لطلب الجاه والاسم.

فهذه الصّفات الثّلاث بها تَصير الحِسبة من القُرُبات، وبها تَندفع المنكرات، وإن فُقِدت لم يَندفع المنكر.

وربما كانت الحِسبة أيضاً منكرة لمجاوزة حدِّ الشرع فيها، ولهذا قال بعض السَّلَف: لا يَأمر بالمعروف إلّا رفيق فيما يَأمر به، رفيقٌ فيما يَنهَى عنه، حليمٌ فيما يَأمر به، حليمٌ فيما يَنهى عنه، فَقيهٌ فيما يأمر به، فقيهٌ فيما يَنهى عنه.

---

(١) في (ظ): «أدب».

وقال الحَسَن البَصريّ: إذا كنتَ ممّن يَأمر بالمعروف، فكن مِن آخَذِ الناسِ به، وإلّا هلكتَ.

أنبأنا عبد الأوّل بن عيسى قال: أخبرنا الدّاودي قال: أخبرنا ابنُ أَعيَن قال: حدثنا الفِرَبري قال: حدثنا البُخاريّ قال: حدثنا علي بن عبد الله قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا الأعمش عن أبي وائل عن أُسامة عن النّبي ﷺ قال: «يُجاءُ بالرجل يومَ القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أَقتابُه(١) في النّار، فيدور كما يَدور الحِمار برَحاه، فيجتمع أهلُ النّار عليه، فيقولون: أفلان؟ ما شأنك؟ أليس كنتَ تأمُرنا بالمعروف وتَنهانا عن المنكر؟ قال: كنتُ آمُركم بالمعروف ولا آتيهِ، وأنهاكم عن المنكر وآتيهِ». أخرجاه في الصّحيحين. وقد أنشدوا في هذا المعنى:

لا تَلُمِ المرءَ على فِعلهِ وأنتَ مَنسوبٌ إلى مِثلهِ
مَن عابَ شَيئاً وأتى مثلَه فإنّما يُزري على عَقْلهِ

ومن الآداب: تَقليلُ العَلائق، وقَطعُ الطَّمع من الخلائق لتزولَ المُداهَنَة، فقد حُكي عن بعضِ المشايخ أنّه كان له سِنَّورٌ، وكان يأخذُ من قَصّابٍ في جواره كلّ يومٍ شيئاً من الغُدَدِ لسنَّوره، فرأى على القصّاب منكراً، فدخل الدَّار فأخرج السنَّور ثم جاء وأنكر على القَصّاب فقال له: لا أَعطيتُكَ بعدَ هذا شيئاً لسنَّوركَ. فقال: ما أنكرتُ عليكَ إلّا بعد إخراجِ السِّنَّور وقَطعِ الطّمع منك. وهذا صحيحٌ فإنّ مَن لم يقطع الطّمع من النّاس من شيئين لم يَقدر على الإنكار، أحدهما: من لُطفٍ ينالونه به، والثاني: من رضاهم عنه وثنائهم عليه.

وأمّا الرِّفق فَمتعيِّن، فإنّ موسى عليه السلام لما بُعث إلى فِرعون قيل له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا أبو المطهّر الأصبهاني قال: أخبرنا أبو نُعيم أحمد بن عبد الله قال: حَدثنا سُليمان بن أحمد قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الرّزاق عن مَعْمر عن أَيوب عن أبي قِلابة أَنّ أبا الدّرداء مرَّ على رجلٍ قد أصابَ ذَنباً، فكانوا يسبُّونه، فقال: أرأيتم

(١) أقتابه: أمعاؤه.

لو وَجدتموه في قَليبٍ[١] ألم تكونوا مُسْتَخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تَسبّوا أَخاكم، واحمدوا الله الَّذي عافاكم. قالوا: فلا تُبغِضُه قال: إنّما أُبغضُ عمله، فإذا تَركَه فهو أخي.

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا جعفر بن أحمد السَّراج قال: أخبرنا الحسن بن عليّ التَّميمي قال: حدثنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني هارون بن عبد الله قال: حدثنا سَيَّار قال: حدثنا جَعفر قال: حدثنا ثابت البُناني قال: كان صِلَةُ بنُ أَشْيَم يَخرج إلى الجَبَّان[٢] فَيتعبَّدُ فيها، فكان يَمرُّ عليه شَبابٌ يلهون ويَلعبون، فيقول لهم: أخبِروني عن قومٍ أرادوا سَفراً فَحادوا النَّهار عن الطَّريق وباتوا باللّيل، متى يَقطعون سفرهم؟ قال: فكانَ كذلك يمرُّ بهم فيعظهم قال: فمرَّ بهم ذات يومٍ فقال لهم هذه المقالةَ فقال شاب منهم: يا قوم إنّه والله ما يَعني بهذا غيرنا نحن بالنّهار نَلهو وباللّيل نَنام. ثم اتّبعَ صِلة فلم يزل يختلف مَعه إلى الجبَّان ويتعبّد معه حتى مات.

ومَرَّ بصلة بن أَشيم فتى يجرُّ ثَوبه فهمّ أصحابُ صِلةَ أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شَديداً، فقال صلة: دَعوني أكفِكُم أَمره. ثم قال له: يا ابنَ أخي إنَّ لي إليكَ حاجةً. قال: ما هي؟ قال: أُحبُّ أن تَرفع إزاركَ. قال: نَعم ونُعمَى عَين. فرفع إزاره، فقال صِلةُ لأصحابه: هذا كان أمثل ممّا أردتُم لو شَتمتموه وآذَيتُموه لشَتمكم.

وقال سُليمان التَّيمي: ما أَغضبتَ أحداً فقبل منك.

ودُعيَ الحسن البَصري إلى عُرسٍ فجيء بجامٍ من فِضّة فيه خَبيصٌ أو طعام، فتناوله فقلَبه على رغيف فأصابَ منه، فقال رجل: هذا نَهيٌ في سُكون.

ورأى مُحمد بن المنكدِر رجلاً مع امرأةٍ في خرابٍ وهو يكلِّمها، فقال: إنَّ الله يَراكُما، سَتَرنا اللهُ وإيّاكُما.

---

(١) القليب: البئر.

(٢) الجبان والجبانة: المقبرة.

وقال فَتح بن شُخْرف: تعلَّق رجلٌ بامرأةٍ وبيده سِكّين لا يَدنو منه أحدٌ إلّا عَقره، وكان شديد البَدَن، فَبينا الناسُ كذلك والمرأةُ تَصيحُ مَرَّ بِشْرُ بن الحارث فَدنا منه وحكَّ كتِفَه بكتِف الرَّجل فوقع الرّجل إلى الأرض ومرّت المرأةُ ومضى بشر، فدنوا من الرّجل وهو يَرشح عَرقاً فسألوه: ما حالكَ؟ فقال: ما أدري، ولكن حاكّني شيخٌ وقال: إنَّ الله عزّ وجلَّ ناظرٌ إليك وإلى ما تَعمل. فَضَعُفَتْ لقوله قَدَميَّ وهِبتُه هيبةً شديدةً لا أدري مَنْ ذلك الرجل. فقالوا له: ذاك بِشْرُ بن الحارث. فقال: واسَوأتاه، كيفَ ينظر إليَّ بعد اليوم؟ وحُمَّ الرجل من يومه ومات في اليوم السّابع.

وقد سبق في باب الحبِّ في الله والبُغض في الله من هذا الجنس أيضاً، وهذا تَمام النَّظَر في دَرجات الاحتساب.

الباب الثالث

في المنكرات المألوفة في العادات

نُشير منها إلى جمل يستدل بها على أمثالها إذ لا مَطمع في حَصرها واستقصائها، فمن ذلك:

مُنكَرات المساجد: اعلم أنَّ المنكرات تنقسم إلى مكروهةٍ وإلى محظورة، فإذا قُلنا: هذا منكر مكروه، فاعلم أن المنعَ منه مُستحبٌّ والسُّكوتَ عنه مكروه، وليس بحرام، إلّا إذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه، فينبغي أن يُعرَّف؛ لأنّ الكراهة حُكم في الشرع ينبغي تَبليغه إلى من لا يَعرفه، وإذا قُلنا: مُنكرٌ مَحظورٌ، أو قلنا: منكر، مطلقاً، فإنا نُريدُ به المحظور، ويكون السُّكوت عنه مع القُدرة محظوراً.

فممّا يُشاهد كثيراً في المساجد إساءةُ الصلاة بترك الطُّمأنينة في ركوعها وسجودها، وهو منكر مُبطلٌ للصلاة، فيجب النَّهي عنه، إلّا للحنفيِّ الذي يعتقد أن ذلك لا يَمنع صحَّة الصّلاة، ومن رأى مُنكراً فسكتَ عن إنكاره شاركَ[1] الفاعل في الإثم، وكذلك كلّ ما يَقدح في الصلاة من نجاسةٍ على ثوب المصلِّي لا يراها، وانحرافٍ عن القبلة بسبب ظلام أو عمى، فكلّ ذلك تَجب الحِسبة فيه.

ومنها: اللَّحْنُ في القِراءة، فإنّه يجب النَّهي عنه، وتلقين الصّحيح، واشتغال المعتكف بإنكار هذه الأشياء وتعريفها أفضل من ذكره وتطوُّعه؛ لأنّ هذا فرض، وفائدة الأمر به تتعدّى، فهي أفضل من نافلة تقتصر عليه.

ومنها: تراسل المؤذنين[2] في الأذان وتَطويلهم مدّ كلماته، أو انفراد كل واحد

---

(١) في الأصل: «يشارك».

(٢) تراسل المؤذنين: هو أن يجتمعوا على الأذان فيبدأ أحدهم ويمد صوته ثم يسكت ويأخذ غيره في مدِّ الصوت ثم يرجع الأول وهكذا إلى آخر الأذان.

منهم بأذان قبل إتمام الآخر، وذلك يوجب تخليط جواب الأذان على الحاضرين، فهذه منكرات مكروهة ينبغي أن تُعرف ويمنع منها.

ومنها: ما يخلط به المؤذن الأذان من التَّسبيحات والأذكار قبل الأذان وبعده حتّى لا يتميّز الأذانُ من غيره.

ومن ذلك: أن يكون على الخطيب ثوب حرير، أو بيده سيف مُذهَّب.

ومن ذلك: ما يجري من القُصّاصِ في المساجد من الكذب والأشياء المَنْهيّ عنها، كالخَوض الموجب للفتن، أو ذكر ما يوجب الرّجاء وحده ويُجَرِّئ على المعاصي كان منكراً، أو كان الرجال مُختلطين بالنساء، فينبغي إنكار ذلك عليهم، وقد ذكرت من هذا طرفاً في كتاب القُصَّاص.

ومنها: الحِلَقُ(١) يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات، وقيام السُّؤَّال وإنشادهم الأشعار، ونحو هذا، فهذه منها ما هو حرام لكونه تلبيساً وكذباً كالكذّابين من طُرُقِيَّةِ الأطبّاء وأهل الشَّعبدة وبيع التَّعويذات في الأغلب، فإنّ أصحابها يُلَبِّسون على الصبيان والسّوادية، فهذا ممنوع منه في المسجد وخارج المسجد.

ومنها: ما هو مُباح خارج المسجد، كالخياطة وبيع الأدوية والكتب والأطعمة، فهذا في المسجد أيضاً لا يحرم إذا كان في أوقاتٍ نادرة إلّا بعارض، وهو أن يضيق المكان على المصلِّين ويكدّر عليهم صلاتهم، فأمّا اتخاذ المسجد دكاناً على الدوام فيحرم.

ومنها: دخول الصِّبيان والمجانين والسّكارى إلى المسجد، فأمّا الصبيّ؛ فَيجوز دخوله إلّا أن يتّخذ المكان ملعباً على الدّوام، فيمنع، وأمّا المجنون؛ فلا بأس بدخوله إلّا أن يُخشى تلويثه المكان أو نُطقه بالفُحش أو تعاطيه المنكر ككشف العَورة، فأمّا المجنون السّاكن السّاكت، فلا يجب إخراجه من المسجد. والسَّكران

(١) الحِلَق: جمع حلقة، أي اتخاذ الحِلَق يوم الجمعة.

في معنى المجنون، فإن خيف منه القَيْء أو الإيذاء باللّسان، وجب إخراجه، وإن كان ريحه تفوح أخرج فإنّ النبيّ ﷺ نَهى مَنْ أَكَلَ البصل والثّوم أن يَحضر المسجد، وهما مباحان فكيف بريح الخمر؟

منكرات الأسواق: من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المرابحة وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريتُ هذه السِّلعة بعشرة وأربح فيها درهماً، وكان كاذباً، فهو فاسق، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه فإن سكتَ مراعاةً لقلب البائع كان شَريكاً له في الخيانة، وكذا إذا علم به عيباً لزمه أن يُنبِّه المشتري عليه، لئلا يضيع مال المسلم، وكذلك بيع الثوب المقصور الذي يوهم أنّه جَديد، وكذلك تلبيس انخِراق الثوب بالرَّفْو، وكل تلبيس، وكذلك التفاوت في الميزان والذِّراع يجب على كلٍّ من عرفه تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالي حتّى يغيّره.

ومنها: الشُّروط الفاسدة، واستعمال الرِّبا، وبيع الملاهي، وبيع الصُّور المُجَسَّمة.

منكرات الشَّوارع: من المنكر المعتاد في الشّوارع وضع الأساطين وبناء الدِّكاك متّصلة بالأبنية المملوكة، وإخراج الأجنحة، وغرس الأشجار، إذا كان ذلك يؤدي إلى تَضييق الطّريق واستِضْرار المارَّة به، فإن لم يؤدِّ لم يمنع منه، وأمّا وَضع الحطب والطَّعام في الطَّريق بمقدار ما يُنقل إلى البيوت فجائز، فإنّ ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافّة، وكذلك ربط الدَّواب على الطريق بحيث يضيق الطريق ويؤذي المارّين منكر يَجب المنع منه إلّا بمقدار حاجة النُّزول والركوب، وهذا لأن الشّوارع مشتركة المنفعة، وليس لأحدٍ أن يختصَّ بها إلَّا بقدر الحاجة.

ومنها سَوقُ الدَّواب وعليها الشّوك بحيث تُمزّق ثياب الناس، فذلك مُنكر إذا أمكن شَدُّه وضمُّه بحيث لا تُمزق الثّياب أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، فإن لم يمكن لم يمنع منه؛ لأنّ حاجة أهل البلد تمسُّ إلى ذلك، ولكن لا تترك مُلقاة على الشّوارع إلّا بقدر مدّة نقلها، وكذلك تَحميل الدَّواب من الأحمال ما لا تطيقه منكر يجب منع المالك منه، وكذلك ذبح القَصَّاب على باب دُكّانه وتلويث

الطريق بالدَّم مُنكر يجب المنع منه؛ لأنّه إضرارٌ بالنّاس من جهة تَضييق الطريق وتَرْشيش النَّجاسة واستِقذار الطّباع ذلك، وكذلك طرح الكُناسة على جَوادِّ الطرق وتَبديد قُشور البِطيخ أو رشِّ الماء بحيث يُخشى منه الزَّلَق، والماء الّذي يجتمع من ميزاب معين فعلى صاحبه رفعه، فإن كان من المطر فعلى الولاة تكليف النّاس رفع ذلك، وليس للآحاد في ذلك إلّا الوعظ فقط.

مُنكرات الحمامات: من ذلك صور الحيوانات على باب الحمام أو داخله [١]فذلك منكر[١]، فيجب إزالته على كلّ من دخل الحمام أو رأى الصّوَر إن قدر عليها، فإن كان الموضع مرتفعاً لا تصل يده إليه لم يجز له الدّخول إلّا لضرورةٍ، فليعدل إلى حمام آخر، ويكفيه أن يُشوّه وُجوهها بحيث يبطل به تصويرها.

ومنها: كشفُ العورات والنظر إليها، ومن جملتها كشفُ المدلّك عن الفَخِذ وما تَحت السُّرَّة لتَنْحِيَةِ الوسخ أو مَسُّ العَورة، ولا يجوز للمُسلمَة أن تكشفَ بَدَنَها في الحمّام للذِّميّات.

ومنها: غمسُ اليَد والأواني النَّجِسة في المياه القَليلة، فإنه مُنَجسٌ للماء إلّا أنه إذا فعل ذلك مالكي لم يُنكر عليه بل يتلطف به ويقول له: يمكنك أن لا تؤذيني بتَفويتِ الطَّهارة عليَّ.

ومن ذلك أن يكون في مداخل بُيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة مكسرة[٢] ملسٌ مزلقةٌ يزلق فيها الغافلون، فهذا مما ينكر على الحمامي إهماله، وكذلك ترك السِّدْر المُزلق على أرض الحمام.

منكرات الضيافة: فمن ذلك؛ فَرش الحرير للرّجالِ والبُخور في مِجْمَرةٍ من فِضَّة أو ذهب، وكذلك الشُّرب فيهما، واستعمال ماء الورد منهما أو مما رأسه منهما، وكذلك تعليق السُّتور وفيها الصّور، وسماع القَينات[٣] والأوتار واطّلاع النّساء على

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) القَينات: جمع قَينة، وهي المغنّية.

الشَّباب الذين يُخاف فتنتهم، فكلُّ ذلك مُنكر يجب تَغييره، ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج.

وأمّا الصّور على النَّمارق والبُسُط فليس بمنكر، ولا يجوز على الأطباق والقِصاع، ولا يجوز القعود مع فاسقٍ يلبس الحرير وخاتم الذهب من غَير ضرورة.

وأمّا تزيّن النِّساء بالذّهب والحرير، فجائز، ولا رُخصةَ في تَثقيبِ أُذن الصِّبْية لأجل تَعليق الذهب فيها، فإن ذلك جرح مُؤلم ومثله موجب للقِصاص، فلا يجوز إلّا لحاجة مهمَّة كالفَصدِ والحِجامة والخِتان، والتزيّن بالحلق غير مهم بل تعليقه على الأذن تَفريط وفي المَخانق[١] والإسورة كفاية عنه، فهو حرام والمنع منه واجب، والاستِئجار عليه غير صحيح، والأجرة المأخوذة عليه حرام.

ومنها: أن يكون في الضِّيافة مُبتدع يتكلم في بِدعته، فيجوز الحضور لمن يَقدر على الردِّ عليه على عَزم الردِّ، فإن كان لا يقدر عليه لم يجز، وإن كان المبتدع لا يتكلَّم ببدعته جاز الحضور مع إظهار الكَراهة له والإعراض عنه، وإن كان هناك مُضحك بالفُحش والكَذب لم يَجُز له الحضور، وعند الحضور يجب الإنكار، فإن كان ذلك لِمَزْحٍ لا كذبَ فيه ولا فُحش أُبيح ما يقلُّ من ذلك، فأمّا اتّخاذه صناعةً وعادةً فممنوع.

ومنها: الإسراف في الطعام والبِناء، فإنّه مُنكر، وفي المال مُنكرات منها الإضاعة ومنها الإسراف، والإضاعة؛ تَفويت مالٍ بلا فائدة يُعتدُّ بها، كإحراق الثوب وتمزيقه، وهدم البناء من غير غرض، وإلقاء المال في البَحر، وفي مَعناه صرف المال إلى النّائحةِ والمطرب وفي أنواع الفَساد؛ لأنها فوائد محرَّمة شَرعاً، فصارت كالمعدومة، وأمثال هذه المنكرات كثيرة ولا يمكن حصرها.

المنكرات العامة: مَن تيقَّنَ أنّ في السّوق مُنكراً يجري على الدَّوام أو في وقتٍ بعينه وهو قادرٌ على تَغييره لم يَجُزْ له أن يسقط عنه ذلك بالقُعُود في بيته، بل يلزمه الخروج، فإن قَدر على تغيير البعض لزمه.

---

(١) المخانق: القلائد التي تُعلَّق في العنق.

وحق على كلّ مسلم أن يبدأ بنفسه فَيصلحها بالمواظبة على الفَرائض وترك المحرمات، ثم يُعلّم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدّى إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلّته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل[1] السَّواد كذلك إلى أقصى العالم، فإن قام بذلك الأدنى سقط عن الأبعد، وإلّا خرجَ به كل قادر عليه.

(١) سقطت من (ظ).

الباب الرابع

في أَمر الأُمراء والسّلاطين بالمعروف ونَهيهم عن المنكر

قد ذكرنا دَرجات الأمر بالمعروف، وأنّ أولها التعريف، وثانيها الوَعظ، وثالثها تَخشين القَول، ورابعها المَنع بالقَهر، والجائز من جُملة ذلك مع السَّلاطين الرُّتبتان الأُوليان، وهما: التعريف والوعظ، وأمّا تَخشين القَول كقولك: يا ظالم، يا مَن لا يَخاف الله ونحو هذا، فإن كان ذلك يُحرّك فتنةً يتعدّى شرُّها إلى الغَير لم يَجز، وإن كان لا يخاف إلّا على نفس القائل فَهو جائز عند جمهور العلماء، وقد كان من عادة السّلف التَّعرض للأخطار من غير مبالاة بهلاكِ المهجة، والّذي أُراه المنع من ذلك؛ لأنّ المقصود إزالة المنكر، وحمل السلطان بالانْبساط عليه على قَتلِ المُنكِرِ أكبَر من المنكَرِ الّذي قصد إزالته، وذلك أنّ قُوتَ السّلاطين التَّعظيم، فإذا سَمعوا من آحاد الرعيّة: يا ظالم يا فاسق، رأوا غايةَ الذُّل، فلم يصبروا عليها.

قال الإمام أحمد بن حنبل: لا تَتعرَّض بالسلطان فَسيفُه مسلول.

وأمّا ما جَرى للسَّلَف فإن أمراءهم كانوا يَهابون العلماء والزُّهاد، فإذا انْبَسطوا عليهم احتملوهم في الأغلب، وقد جمعتُ مَواعظ السَّلَف للخلفاء والأمراء في كتاب (المصباح المضيء)[1] وأنا أَنتخب منه هاهنا حِكايات: أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبّار قال: أخبرنا أحمد بن علي قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: أخبرنا علي بن أحمد بن أبي قيس قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثني يَعقوب بن عُبيد قال: حدثنا أبو مُسْهِر، قال: حدثنا سَعيد بن

(١) يعني كتابه (المصباح المضي في خلافة المستضيء)، طبع بتحقيق ناجية عبد الله إبراهيم في بغداد سنة ١٩٩٧م. ينظر «قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي» ص١١٣.

عبد العزيز قال: قال سعيد بن عامر بن حِذْيَم لعُمر[١]: إني موصيكَ بكلمات من جوامع الإسلام ومعالمه؛ اخْشَ الله في الناس، ولا تَخشَ الناس في الله، ولا يُخالف قولُك فعلَك، فإن خير القول ما صدَّقه الفعل، وأحِب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تُحبُّ لنفسك وأهل بيتك، وخُضْ الغَمرات إلى الحقّ حيث عَلِمته، ولا تَخَف في الله لومة لائم. قال: ومَن يستطيع ذلك يا سعيد؟ قال: مَن ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك.

وقال قَتادة: خرج عُمر بن الخطاب من المسجد ومعه الجارود العَبْدي فإذا امرأةٌ بَرزَةٌ[٢] على ظهر الطريق، فسلّم عليها عمر فردَّت عليه، أو سلّمت عليه فردّ عليها السلام، فقالت: هيه يا عُمَر عهدتك وأنتَ تسمَّى عُمَيراً في سوق عُكاظ تصارع الصِّبيان، فلم تذهب الأيام حتى سُمّيت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمّيت أميرَ المؤمنين فاتقِ الله في الرَّعية، واعلم أنّه من خافَ الموتَ خشي الفَوت. فبكى عمر، فقال الجارود: هيه، فقد اجْتَرأتِ على أمير المؤمنين وأبكيته فقال عمر: دَعْها، أما تعرف هذه؟ هذه خَولةُ بنتُ حَكيم التي سمعَ اللهُ قولَها من فوق سمائه، فعُمَر والله أَحرى أن يَسمع كلامها.

أنبأنا عبد الوهّاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبّار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوَّزي قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: أخبرنا علي بن أبي قَيس قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا العَباس بن هشام بن محمد عن أبيه عن شَيخ من الأَزْدِ أنَّ أبا بكرةَ دخل على معاوية فقال: اتَّقِ اللهَ يا معاوية، واعلم أَنك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تَأتي عليك لا تَزداد من الدنيا إلّا بعداً ومن الآخرة إلّا قرباً، وعلى إثركَ طالب لا تَفوتُه وقد نصب لك علم لا تجوزه، فما أسرع ما تَبلغُ العَلَم، وما أوشكَ أو يلحقكَ الطالب وإنا وما نحنُ فيه وأنتَ زائل، وفي الذي نحن صائِرون إليه باقٍ، إنْ خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) البرزة: التي تظهر للرجال وتجالسهم.

أخبرنا سَلمان بن مسعود قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبّار قال: أخبرنا محمد بن علي البَيضاوي قال: حدثنا ابن حَيّوية قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القُرشي قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثني شِهاب بن عبّاد عن سُويد الكَلبي أن زِرَّ بنَ حُبَيشٍ كتبَ إلى عبد الملك بن مروان كتاباً[(١)] يَعظه فيه، فكان في آخر كتابه: ولا يُطمِعنَّكَ يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما يظهر من صحَّة بَدَنك فأنت أعلم بنفسك، واذكر ما تكلّم به الأوّلون:

إذا الـــرِّجـــالُ وَلـــدَتْ أولادهـــا وبَـلِـيـتْ مـن كِـبَـرٍ أجـسـادُهـا

وجَـعـلـت أَسْـقـامُـهـا تَـعـتـادُهـا تـلـك زُروعٌ قـد دَنـا حَـصـادُهـا

فلمّا قرأ عبد الملك الكتاب بكى حتّى بلَّ طرف ثوبه، ثم قال: صدق، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أَرْفق.

أخبرنا عبد الخالق بن أحمد قال: أخبرنا عليّ بن محمد بن إسحاق قال: أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد الرّازي قال: أخبرنا جعفر بن عبد الله بن يعقوب قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني قال: حدثنا أبو سَلمة يحيى بن المغيرة قال: حدثنا عبد الجبار بن عبد العزيز بن أبي حازم قال: حدثني أبي عن أبيه أبي حازم قال: دخل سُليمان بن عبد الملك المدينة فأقام بها ثلثاً، فقال: ما هاهنا رجلٌ ممّن أدرك أصحابَ رسول الله ﷺ يحدّثنا؟ فقيل له: بلى ههنا رجلٌ يقال له: أبو حازم، فبعث إليه فجاءه، فقال له سُليمان: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ فقال له أبو حازم: وأيُّ جَفاءٍ رأيتَ منّي؟ فقال له سُليمان: أتاني وُجوه أهلِ المدينة كلهم، ولم تأتني. قال: ما جَرى بيني وبينك مَعرفةٌ آتيكَ عليها. قال: صدقَ الشيخُ، يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أَخربتُم آخِرتكم وعَمَّرتم دُنياكم وأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العُمران إلى الخَراب. قال: صدقتَ، يا أبا حازم فكيف القُدوم على الله؟ قال: أمّا المُحسِن فكالغائِب يَقدمُ على أَهله، وأمّا المُسيء

(١) سقطت من (ظ).

فكالآبِقِ[(١)] يقدم على مَوْلاه. قال: فبكى سليمان وقال: ليتَ شِعري مالنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: اعرِض نفسكَ على كتاب الله فإنك تعلم مالكَ عند الله. قال: يا أبا حازم: وأَنَّى أُصيب تلك المعرفة من كتاب الله عز وجل؟ قال: عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ـ ١٤] قال: يا أبا حازم فأينَ رحمةُ الله؟ قال: ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال: يا أبا حازم مَنْ أعقل الناس؟ قال: مَن تعلَّم الحِكمةَ وعلَّمها الناس. قال: فمن أحمقُ الناس؟ قال: من حَطَّ في هوى رجل وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره. قال: يا أبا حازم، فما أسمعُ الدُّعاء؟ قال: دُعاء المُخْبِتين. قال: فما أزكى الصَّدقة؟ قال: جهد المُقِلِّ. قال: يا أبا حازم، ما تقول فيما نحن فيه؟ فقال: اعفِني عن هذا. قال سُليمان: نَصيحةٌ تُلقيها. قال أبو حازم: إنّ ناساً أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مُشاورةٍ من المؤمنين ولا إجماع من رأيهم، فسفكوا فيه الدّماء على طَلب الدنيا، ثم ارتحلوا عنها، فليست شِعري ما قالوا وما قيل لهم فقال بعض جلسائه: بِئسَ ما قلتَ يا شَيخ. قال أبو حازم: كذبتَ إن الله تعالى أخذَ على العلماء: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران ١٨٧] قال سُليمان: اصحَبْنا يا أبا حازم تُصِب منّا ونُصِب منك. قال: أعوذُ بالله من ذلك. قال: ولِمَ؟ قال: أخافُ أن أركَنَ إليكم شيئاً قليلاً فيُذيقني ضِعفَ الحياة وضِعفَ الممات قال: فأشِرْ عليَّ. قال: اتَّقِ اللهَ أن يراكَ حيثُ نَهاك وأن يفقدك حيث أمرك. قال: يا أبا حازم ادعُ لنا بخيرٍ فقال: اللهمَّ[(٢)] إنْ كانَ سُليمان وَليَّك فيسِّره للخير، وإن كان عَدوّك فخُذْ إلى الخَير بناصِيته. فقال: يا غُلام هاتِ مئة دينار، ثم قال: خُذها يا أبا حازم. قال: لا حاجةَ لي فيها، لي ولغَيري في هذا المال أُسوة، فإن آسَيْتَ بيننا، وإلّا فلا حاجة لي فيها، إنّي أخاف أن يكون لما سمعت من كلامي. فكأنّ سُليمان أُعجب بأبي حازم فقال الزُّهري إنّه لجاري منذ ثلاثينَ سنة ما كلَّمته قَط. فقال أبو حازم: إنّك نَسيتَ اللهَ فَنسيتَني. قال الزُّهريّ: أتَشْتمني؟ قال سُليمان: بل أنتَ

---

(١) الآبق: العبد الهارب من سيده.

(٢) سقطت من الأصل.

شَتمتَ نفسَك، أما علمتَ أن للجار على جاره حقاً؟ قال أبو حازم: إنَّ بني إسرائيل لما كانوا على الصَّواب كانت الأُمراء تَحتاج إلى العلماء، وكانت العلماء تَفِرُّ بدينها من الأمراء، فلمّا رأى ذلك قوم من أَذِلّة النّاس تعلّموا ذلك العلم وأتوا به إلى الأمراء، فاستَغنت به عن العلماء، واجتمع القوم على المعصية فسقطوا وانتكسوا، ولو كان علماؤنا يَصونون علمهم لم تزل الأمراء تَهابهم. قال الزّهريّ: كأنك إياي تُريد وبي تُعرّض؟ قال: هو ما تَسمع.

أخبرنا المبارك بن علي قال: أخبرتنا فاطمة بنت عبد الله الخبري قالت: أخبرنا علي بن الحسن بن الفَضل قال: أخبرنا أحمد بن محمّد بن خالد قال: أخبرنا علي بن عبد الله بن المغيرة قال: حدثنا أحمد بن سعيد الدّمشقي قال: حدثني الزُّبير بن بكّار قال: حدثني علي بن محمد المدائني قال: قال عُمر بن عبد العزيز لسُليمان بن عبد الملك: إن بالباب يا أمير المؤمنين رجلاً له حزمٌ ولسان. قال: أَدخِله، فدخل فقال: إنّي مُكلّمُكَ يا أمير المؤمنين بكلامٍ فاحتَمِلْه إنْ كَرِهتَه، فإن وراءَهُ ما تُحِبّ إن قَبلته. فقال: قُل يا أعرابي. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتَنفَكَ رجالٌ ابتاعوا دُنياك بدينهم، ورضاكَ بسخط ربهم، خافوكَ في الله ولم يَخافوه فيك، خَرّبوا الآخرة وعَمروا الدنيا، فهم حربٌ للآخرة، سِلمٌ للدنيا، فلا تَأتَمِنهم على ما ائتَمنك اللهُ عليه، فإنه لن يألوا الأمانةَ تضييعاً، والأمةَ خَسفاً، وأنتَ مسؤولٌ عمّا اجتَرحوا، وليسوا بمسؤولين عمّا اجتَرحتَ، فلا تُصلح دنياهم بفَساد آخِرتكَ، فإن أعظم الناس غبناً بائع آخرته بدنيا غَيره. فقال سُليمان: أما أنتَ فقد سَللتَ لسانك وهو أقطع من سَيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك. قال: فهل من حاجةٍ في ذات نفسك؟ فقال: أمّا خاصّة دون عامةٍ فلا، ثم قام فخرج، فقال سُليمان: للهِ دَرُّه ما أشرفَ أصلَه، وأجمعَ قلبَه، وأذربَ لسانَه، وأصدق نيّته، وأورع نَفْسه، هكذا فليكن الشَّرف والعَقل.

أنبأنا أبو البركات الأَنماطي قال: أخبرنا أبو الحسين الحمّامي قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوزي قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: حدثنا أبو الحسن علي بن أحمد قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا محمد بن الحسين قال: حدثنا

يَعقوب بن محمد بن عيسى الزُّهري عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه قال: قال لي عُمر بن عبد العزيز: عِظْني. قلت: اضطجِعْ، ثم اجعلِ الموتَ عند رأسك، ثم انظُر ما تُحبُّ أن يكونَ فيك تلك السّاعة فخذ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن الصَّلْت قال: أخبرنا أحمد بن جعفر بن المُنادي قال: حدثني جدّي قال: حدثنا عبد الله بن بَكر السَّهمي قال: حدثنا شَيخٌ من بني سُليم، قال: قال محمد بن كَعب لعُمَر بن عبد العزيز: يا أميرَ المؤمنين، إنّما الدنيا سوقٌ من الأسواق، فمنها خرج النّاس بما ضَرَّهم، ومنها خرجوا بما نَفعهم، وكم من قومٍ غَرَّهُم منها مثل الذي أصبَحنا فيه حتى أتاهم الموت فاستوعبهم، فخرجوا منها مَلومين لم يأخذوا منها لما أحبّوا من الآخرة عُدَّةً، ولا لما كَرِهوا جُنَّةً، واقتسم ما جمعوا مَنْ لم يَحمدهم، وصاروا إلى مَن لا يعذرهم، فنحن مَحقوقون يا أمير المؤمنين أن نَنظر إلى تلك الأعمال الّتي نَغبطهم بها فَنَخلفهم فيها، وإلى الأعمال التي نَتخوّف عليهم فيها فنكفَّ عنها، فاتقّ الله فيها يا أمير المؤمنين وافتح الأبواب[1]، وسَهِّل الحِجاب، وانصُر المظلوم، ورُدَّ الظالم، ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه استكملَ الإيمان بالله عزّ وجل: مَن إذا رَضي لم يُدخله رِضاه في الباطل، وإذا غضب لم يُخرجه غضبه من الحق، وإذا قَدر لم يتناول ما ليس له.

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ قال: أخبرنا أبو منصور العُكبَري قال: أخبرنا عبد الله بن أبي مُسلم الفَرَضي قال: أخبرنا علي بن عبد الله بن المغيرة الجوهريّ قال: أخبرنا أحمد بن سعيد الدّمشقي قال: حدثني الزُّبير بن بَكّار قال: [2]حدثني الحارث بن محمد العوفي، قال: حدثني نَوفل بن عمارة، قال[2]: قال عُمر بن عبد العزيز: إنّ أوّل من أَيقظني لهذا الشأن مُزاحم؛ حَبستُ رجلاً فجاوَزتُ في حَبسِهِ القَدْرَ الّذي يجب عليه، فكلّمني في إطلاقه فقلت: ما أنا بمخرجه حتّى أبلغ

---

(١) في (ظ): «الباب».

(٢-٢) سقط من (ظ).

في الحِيطة عليه بما هو أكثر مما مرّ عليه. فقال مُزاحم: يا عُمر بن عبد العزيز، إنّي أُحذرك ليلةً تَمَخَّضُ بالقِيامة، في صَبيحتها(١) تقومُ السّاعة، يا عمر ولقد كِدتُ أنسى اسمكَ مما أسمع: قال الأمير، وقال الأمير. فوالله ما هو إلّا أنْ قال ذاكَ فكأنّما كشَف عن وجهي غطاء، فذكِّروا أنفسكم رحمكم الله، فإنّ الذكرى تَنفع المؤمنين.

أنبأنا أبو منصور بن خيرون قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي الخَطيب قال: أخبرني أبو الحسن علي بن أيوب قال: أخبرنا أبو عُبيد الله محمد بن عمران المَرزُباني قال: حدثنا محمد بن أحمد الكاتب قال: حدثنا عبد الله بن أبي سَعد الورّاق قال: حدثنا عمر بن شَبَّة قال: حدثني سعيد بن منصور الرَّقّي قال: حدثني عثمان بن عطاء الخراساني قال: انطلقتُ مع أبي وهو يُريد هشامَ بن عبد الملك، فلمّا قَرُبنا إذا شيخٌ أسود على حمار عليه قَميص دَنِس وجُبّةٌ دَنِسَة وقَلَنسوة لاطئة دَنِسَة وركاباه من خَشب، فضحكتُ وقلت لأبي: مَن هذا الأعرابي؟ قال: اسكُت، هذا سَيِّد فُقهاء أهل الحجاز، هذا عطاء بن أبي رباح، فلمّا قرب نزل أبي عن بَغلته ونزل هو عن حماره فاعتنقا وتَساءلا، ثم عادا فركبا وانطلقا حتّى وقفا بباب هشام، فلمّا رجع أبي سألته، فقلت: حَدِّثني ما كان منكما؟ قال: لمّا قيل لهشام: عطاء بن أبي رباح، أذنَ له، فوالله ما دخلت إلّا بسَببه، فلمّا رآه هشام قال: مرحباً مرحباً هاهُنا هاهُنا، فرفعه حتّى مَسَّتْ رُكبتُه رُكبتَه، وعنده أشراف النّاس يتحدّثون، فسكتوا، فقال هشام: ما حاجتك يا أبا محمّد؟ قال: يا أمير المؤمنين، أهلُ الحرمين أهلُ الله وجيران رَسول الله ﷺ تَقسِمُ فيهم أُعطياتهم وأرزاقَهم. قال: نعم، يا غُلام اكتب لأهلِ المدينة وأهل مكّةَ بعَطاءَين وأرزاقهم لسنة، ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمّد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقادة الإسلام، تَرُدُّ فيهم فُضولَ صدقاتهم. قال: نعم، اكتب يا غلام بأنْ تُرَدَّ فيهم صدقاتهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمّد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثُّغور يَرمون من وراء بَيضتكم ويُقاتلون عدوّكم، قد أجريتم لهم أرزاقاً فذرّها عليهم، فإنّهم إن هلكوا غُزيتم. قال: نعم اكتب تُحمل أرزاقهم إليهم

(١) تحرفت في الأصل إلى: «فضيحتها».

يا غلام، هل من حاجة غيرها يا أبا محمّد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذِمّتكم لا يُجبَى صغارهم، ولا يُتَعتع كبارهم ولا يُكلَّفون إلّا ما يُطيقون، فإنّ ما تجبونه معونةٌ لكم على عدوّكم. قال: نعم، اكتب يا غُلام بأن لا يُحمّلوا إلا ما يُطيقون، هل من حاجة غيرها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتَّقِ الله في نَفسك، فإنك خُلقت وحدَك، وتموتُ وَحدك، وتُحشَر وَحدك، وتُحاسَب وَحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد. قال: فأكبَّ هِشامٌ وقام عطاء، فلمّا كنّا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيسٍ ما أدري ما فيه أدراهم أم دنانير، وقال: إنّ أمير المؤمنين أمر لك بهذا. قال: لا أَسألكم عليه أجراً إنْ أَجريَ إلّا على ربّ العالمين. ثم خرج ولا والله ما شَربَ عندهم حَسْوةً من ماء فما فوقه.

أنبأنا علي بن عُبيد الله قال: أخبرنا محمد بن أبي نَصر الحُميدي قال: أخبرنا أبو محمد علي بن أحمد الفَقيه قال: حدثنا الكِناني قال: أخبرني أحمد بن خليل قال: حدثنا خالد بن سَعد قال: أخبرني عمر بن حفص بن غالب قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال: أخبرنا الشافعي عن محمد بن علي قال: إني لحاضرٌ مجلس أمير المؤمنين المنصور، وفيه ابنُ أبي ذُؤَيب[1]، وكان والي المدينة الحسن بن زَيد، فأتى الغِفاريّونَ فشكَوا إلى أبي جَعفر شيئاً من أمر الحَسن بن زَيد، فقال الحسن: سَلْ عنهم ابن أبي ذؤيب، قال: فسأله فقال: ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب؟ فقال: يا أمير المؤمنين أشهد إنّهم أهلُ تَحطُّمٍ في أعراضِ الناس[2]، كثيروا الأذى لهم. فقال أبو جَعفر: قد سمعتم. فقال الغِفَاريّون: يا أمير المؤمنين فسله عن الحَسن بن زَيد. فقال: يا ابن أبي ذُؤَيب، ما تقول في الحَسَن بن زَيد؟ فقال: أشهدُ إنّه يحكم بغير الحَقّ. فقال: قد سمعتَ يا حسن ما قال ابن أبي ذُؤيب؟ فقال: يا أمير المؤمنين سَله عن نفسك. فقال:

---

(١) في النسخ «ابن أبي ذئب» والصواب «ذؤيب» وهو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذؤيب ـ واسمه هشام ـ بن شعبة القرشي المدني، توفي بالكوفة سنة ١٥٩هـ.

(٢) أي: يقعون فيها كثيراً.

ما تقول فيَّ؟ قال: أَوَيَعْفيني أمير المؤمنين؟ فقال: والله لتخبرني. فقال: أشهد إنَّكَ أخذتَ هذا المال من غير حَقِّه، وجعلتَه في غير أَهلِه. فوضع يده في قَفا ابن أبي ذؤيب وجَعل يقول له: أما والله لولا أَنَا لأخذتْ أبناءُ فارس والرُّوم والدَّيلم والتُّرك بهذا المكان منك. فقال ابن أبي ذؤيب: قد ولي أبو بكر وعُمر فأخذا بالحقِّ وقَسَما بالسَّويَّة وأخذا بأَقفاء فارس والرُّوم. فخلّاه أبو جَعفر وقال: والله لولا أنّي أعلم أنك صادقٌ لقتلتك. فقال ابن أبي ذؤيب: والله يا أمير المؤمنين إنّي لأَنصحُ لك من ابنك المَهدي.

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا أحمد بن الحَسَن بن خَيْرون قال: أخبرنا الحسَن بن أحمد بن شاذان قال: أخبرنا عبد الله بن إسْحاق الخُراساني، قال: حدثنا أحمد بن عُبيد بن ناصح، قال: حدثنا محمد بن مصعب القرقساني قال: حدثني الأَوزاعيُّ قال: بعثَ إليّ المنصور أمير المؤمنين وأنا بالسّاحل، فأتيته، فلمّا وصلتُ إليه وسلّمتُ عليه بالخلافة ردَّ عليَّ واستجلَسني، ثم قال: ما الّذي بَطَّأَ بك عنّا يا أوزاعيّ؟ قلت: وما الّذي تُريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أُريد الأَخذ عنكم والاقتباسَ منكم. قلت: فانظُر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تَعمل به. فصاح بي الرَّبيعُ[1] وأهوى بيده إلى السَّيف، فانْتَهزَهُ المنصور وقال: هذا مَجلسُ مَثوبةٍ لا مجلس عُقوبة. فطابَت نَفسي وانبسطتُ في الكلام، فقلتُ: يا أمير المؤمنين حدَّثني مكحولٌ عن عَطيّة بن بِشْر قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أَيُّما والٍ باتَ غاشَّاً لِرَعِيَّته حرَّمَ اللهُ عليه الجنَّة». يا أمير المؤمنين، قد كنتَ في شُغل شاغلٍ من خاصَّةِ نفسك عن عامَّة النّاس الّذين أصبحتَ تملكهم أحمرِهم وأسودِهم، ومُسلمهم وكافرهم، وكلٌّ له عليك نَصيبٌ من العدل، فكيف بك إذا انبعثَ منهم فِئامٌ[2] وراءَ فِئام، وليس منهم أحد إلّا وهو يَشكو بَليّةً أدخلتَها عليه، أو ظُلامةً سُقتَها إليه، يا أمير المؤمنين، حدَّثني مكحول عن زياد بن جَارِية[3] عن

(١) يعني حاجب المنصور.

(٢) الفِئام: الجماعة الكثيرة من الناس.

(٣) تصحف في الأصل إلى: «حارثة».

حبيب بن مسلمة أنّ رسول الله ﷺ دَعَى إلى القِصاص من نفسه في خَدْشٍ خَدَشَهُ أعرابيّاً لم يَتعمَّده، فأتاه جبريل فقال: يا محمّد، إنّ الله لم يَبعثك جباراً مُتكبراً. فدعى النبيّ ﷺ الأعرابيَّ فقال: «اقتَصَّ منّي» فقال الأعرابي: قد أحللتُكَ بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو أتيتَ على نفسي. فدعا له بخيرٍ، يا أمير المؤمنين، رُضْ نفسكَ لنفسك، وخُذْ لها الأمان من ربِّك، يا أمير المؤمنين، إن المُلكَ لو بقي لمن قبلك لم يَصل إليك، وكذا لا يَبقى لك كما لم يبق لغيرك، يا أمير المؤمنين، جاء في تأويل هذه الآية عن جَدِّك: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، قال: الصَّغيرة التَّبسُّم والكبيرة الضَّحك، فكيف بما عملَته الأيدي وحَصدَتْهُ الأَلسُن؟! يا أمير المؤمنين، بلغني أن عمر بن الخطاب قال: لو ماتَت سَخلَةٌ على شاطئ الفُرات ضَيعةً لخشيتُ أن أُسأَل عنها. فكيف بمن حُرِمَ عدلَكَ وهو على بساطك؟! يا أمير المؤمنين، جاء في تأويل هذه الآية عن جَدِّكَ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]، قال: يا داود إذا قَعد الخصمان بين يديك وكان لك في أحدهما هوًى فلا تَتمنَّينَّ في نفسك أن يكون الحقُّ له فيفلج[1] على صاحبه فأمحوك من نُبوّتي ثم لا تكون خليفتي، يا داود، إنّما جَعلتُ رُسُلي إلى عبادي رعاةً كرُعاة الإِبل لعلمِهم بالرِّعاية ورِفقهم بالسِّياسة ليَجْبُروا الكَسير، ويَدلُّوا الهَزيل على الكَلأ والماء، يا أمير المؤمنين إنّك قد بُليتَ بأمرٍ لو عُرِضَ على السماوات والأرض والجِبال لأَبينَ أن يحمِلْنَه وأَشْفَقنَ منه، يا أمير المؤمنين، حدَّثني يزيد[2] بن جابر عن عبد الرحمن بن أبي عَمْرة الأنصاريّ أن عمر بن الخطّاب استَعمل رجلاً من الأنصار على الصَّدقة، فرآه بعد أيامٍ مقيماً، فقال له: ما منعكَ من الخروج إلى عملك، أما علمت أنّ لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله؟ قال: لا. قال: وكيف ذاك؟ قال: لأنّه بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «ما من والٍ يَلي شَيئاً من أُمور النّاس

(١) فلج: ظهر وظفر وفاز على خصمه.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «زيد». وهو يزيد بن يزيد بن جابر الأزدي الشامي توفي سنة ١٣٣هـ.

إلّا أُتي به يوم القيامة مَغْلولاً يده إلى عُنقه يوقَفُ على جِسرٍ في النّار يَنْتفِضُ به ذلك الجسر انتفاضةً تُزيل كلَّ عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسَب، فإن كان مُحسناً نَجا بإحسانه، وإن كان مُسيئاً انخرَقَ به ذلك الجسر فَهوى به في النّار سبعين خريفاً». فقال له: ممن سمعتَ هذا؟ فقال: من أبي ذَرّ وسَلمان، فأرسلَ إليهما عُمر فسألهما، فقالا: نعم، سَمعناه من رسول الله ﷺ فقال عمر: واعُمَراه، من يتولّاها بما فيها؟ فقال أبو ذرّ: من سَلتَ اللهُ أنفَه وألصَقَ خَدَّه بالأرض. فأخذ المنديل ـ يعني المنصور ـ فوضعه على وَجهه ثم بكى وانتحب حتّى أبكاني، ثم قلتُ: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدُّكَ العبّاسُ النبيَّ ﷺ إمارةً على مكّة أو الطائف أو اليَمن، فقال له النبي ﷺ: «يا عَم، نَفسٌ تُنجيها خير من إمارةٍ لا تُحصيها» نصيحةٌ منه لعمّه، وشفقة منه عليه، وإنّه لا يُغني عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله عزّ وجلّ إليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقال: «يا عبّاس، ويا صفيّة، ويا فاطمة إنّي لستُ أُغني عنكم من الله شيئاً، لي عملي ولكم عملكم». وقد قال عُمر بن الخطاب: لا يُقيم أمر النّاس إلّا حَصيفُ العقل لا تَأخذه في الله لومةُ لائم، وقال: السُّلطان أَربعة أُمراء فأميرٌ ظَلَفَ[1] نَفسه وعُمّاله، فذلك كالمجاهد في سبيل الله يَدُ الله عليه باسطة بالرَّحمة، وأمير ضعيفٌ ظَلَفَ نفسَه وأَرْتَع عُمّاله لضَعفه، فهو على شَفا هلالٍ إلّا أن يُرحَم، وأميرٌ ظَلَفَ عمّاله وأرتَعَ نفسَه، فذلك الحُطَمة الّذي قال رسول الله ﷺ: «شرّ الرّعاء الحطمة، فهو الهالك وحده». وأميرٌ أرتَع نفسَه وعُماله، فهلكوا جميعاً، وقد بلغني يا أمير المؤمنين أنّ جِبرائيل أَتَى النبيَّ ﷺ فقال: «أتيتُكَ حين أمر الله بمنافيخ النّار فوُضعَت على النّار تُسَعَّر ليومِ القيامة، فقال له: يا جبريل، صف لي النّار. فقال: إنّ الله عزَّ وجلَّ أمر بها فأُوقِدَ عليها ألف عام حتّى احمرَّت، ثم أوقِدَ عليها ألف عام حتّى اصفرَّت، ثم أوقِدَ عليها ألف عام حتّى اسودَّتْ، فهي سوداء مُظلمة لا يُضيء لهبها ولا يُطفَأ جَمرها، والّذي بعثكَ بالحقِّ لو أنَّ ثَوباً من ثياب[2] أهل النّار أُظهرَ لأهل الأرض لماتوا

---

(١) ظلفَ: أي منعَ.
(٢) في الأصل: «أثواب».

جَميعاً، ولو أنّ ذَنوباً من شَرابِها صُبَّ في ماء الأرض جَميعاً لقُتل مَنْ ذاقَه، ولو أنَّ ذِراعاً من السِّلسِلة التي ذكر الله عزّ وجلّ وُضع على جبالِ الأرض جميعاً لذابَت وما استقلَّت، ولو أنّ رجلاً دخل النّار ثم أُخرج منها لماتَ أهل الأرض من نَتْنِ ريحهِ وتَشوُّهِ خَلْقِه» فبكى النبيُّ ﷺ وبكى جبريلُ لبكائِه وقال: «أتبكي يا محمَّد وقد غَفر اللهُ لك ما تقدمَ من ذَنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟ ولَمَ بكيتَ يا جبريل وأنت الرُّوحُ الأمين؟ فقال: أَخافُ أنْ أُبتَلى بمثل ما ابتُليَ به هاروتُ وماروتُ».

يا أمير المؤمنين، إنّ أشدّ الشدّة القيام لله لحقّه، وإن أكرم الكَرم عند الله التَّقوى، وإنه مَن طلب العزَّ بطاعةِ الله رفَعه اللهُ وأعزَّه، ومَن طلبه بمعصيةِ اللهِ أذلَّه اللهُ وَوَضَعه، فهي نصيحتي، والسَّلامُ عليك. ثم نهضتُ، فقال: إلى أينَ؟ فقلت: إلى الولدِ والوَطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله. فقال: قد أذنتُ لكَ وشكرتُ لك نصيحتكَ وقَبلتُها بقَبولها، والله الموفق للخير، والمعين عليه، وبه أستعين، وعليه أتوكّل، وهو حَسبي ونعم الوكيل، فلا تُخْلِني من مُطالعتك إيايَ بمثلها، فإنك المقبولُ القول غيرُ المُتَّهم في النصيحة. قلتُ: أفعلُ إن شاء الله. قال محمدُ بن مُصعب: وأمرَ له بمالٍ يستعينُ به على خروجه فلم يقبله، وقال: أنا في غِنًى عنه، وما كنت لأبيعَ نَصيحتي بعَرَضِ الدُّنيا كلّها، وعرفَ المنصور مَذهبه فلم يَجِدْ عليه في ذلك.

أنبأنا محمد بن أبي طاهر قال: أنبأنا أبو الطَّيِّب الطَّبري قال: أخبرنا المُعافَى بن زكريا قال: حدثنا أحمد بن الحسن بن منصور قال: حدثنا أبو قِلابةَ قال: حدثني نَصر بن يَزيد قال: حدثني أبو عمرو الشغافي قال: صلَّينا مع المَهْدي المَغربَ، ومعنى العَوْفي وكانَ على مَظالم المَهْدي، فلما انصرفَ المَهدي من المغرب جاء العَوفي حتى قَعد في قِبلته، فقام يتنفَّلُ فجذب ثَوبَه، فقال: ما شَأنك؟ قال: شَيءٌ أولى بكَ من النّافِلة. قال: وما ذاك؟ قال: سَلّامُ مَوْلاك ـ قال: وهو قائمٌ على رأسه ـ أَوْطأَ قَوماً الخَيلَ وغَصَبهُم على ضَيعتهم، وقد صحَّ ذلك عندي، تأمُرُ بردّها وتَبعثُ مَنْ يُخرِجُهم. فقال المَهدي: نُصْبحُ إنْ شاء الله. فقال العوفي:

لا، إلّا السّاعةَ. فقال المَهدي: فلانٌ القائد، اذهَب الساعةَ إلى مَوضع كذا وكذا فأَخرِج مَن فيه، وسَلِّم الضَّيعةَ إلى فُلان. قال: فما أَصبحوا حتى رُدَّت الضَّيعةُ على صاحبها.

أخبرنا أبو مَنصور القزاز قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي الحافظ قال: أخبرنا القاضي أبو العلاء الواسِطي قال: حدثنا محمد بن جعفَر التَّميمي، قال: أخبرنا أبو القاسم الحسَن بن محمد قال: أخبرنا وكيع قال: أخبرني إبراهيم بن أبي عثمان عن يَحيى بن عبد الصَّمد قال: خُوصِمَ موسى أمير المؤمنين إلى أبي يُوسف في بُستانه، فكان الحُكم في الظاهر لأمير المؤمنين، وكان الأَمر على خلافِ ذلك، فقال أمير المؤمنين لأبي يوسف: ما صنعتَ في الأَمر الذي يُتنازَعُ إليكَ فيه؟ قال: خَصمُ أميرِ المؤمنين يَسألُني أن أُحلِّفَ أمير المؤمنين أن شُهودَه شَهدوا على حَق. فقال له موسى: وتَرى ذلك؟ قال: كان ابنُ أبي لَيلى يَراه. قال: فارْدُد البُستان عليه. وإنَّما احتالَ عليه أبو يوسُف.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا إبراهيم بن سَعد الحَبّال قال: أخبرنا أبو العَباس أحمد بن محمد بن الجرَّاح قال: حدثنا محمد بن جَعفر بن دُرَّان قال: حدّثنا هارون بن عَبد العزيز العباسي قال: حدثنا محمد بن خَلف بن حيّان قال: حدثنا محمد بن إسحاق بن عبد الرحمن البَغَوي قال: سمعتُ سعيد بن سُليمان يقول: كنت بمكَّة في زقاق الشَّطَوي وإلى جَنبي عبدُ الله بن عبد العزيز العُمريّ، وقد حجَّ هارون الرَّشيد فقال له إنسان: يا أبا عبد الله، هُوَ ذا أميرُ المؤمنين يَسعى قد أُخليَ له السَّعي. فقال العُمَري للرَّجل: لا جَزاكَ اللهُ عنّي خَيراً، كلَّفتَني أمراً كنتُ عنه غَنياً. ثم تعلَّق نَعليه وقامَ فتَبعتُه، فأقبل الرَّشيدُ من المَروةِ يُريد الصَّفا، فصاحَ به: يا هارون. فلمّا نَظرَ إليه قال: لبيكَ يا عَمّ. قال: ارْقَ الصَّفا، فلما رَقيه قال: ارمِ بطَرْفكَ إلى البيت. قال: قد فعلتُ. قال: كم هُمْ؟ قال: ومَن يُحصيهم؟ قال فكم في النّاس مثلُهم؟ قال: خَلقٌ لا يُحصيهم إلّا الله. قال: اعلم أيها الرَّجل أنّ كل واحدٍ منهم يُسأَلُ عن خاصَّةِ نَفسه، وأنتَ وَحْدكَ تُسأَل عنهم كلّهم، فانظر كيف تكون. قال: فَبكى هارون وجَلس، وجعلوا يُعطونه منديلاً للدّموع. قال

العُمَري: وأُخرى أقولُها. قال: قُل يا عَم. قال: والله إنّ الرَّجل ليُسْرعُ في ماله فيستحقّ الحَجْر عَليه، فكيف بمن أسرعَ في مال المسلمين؟ ثم مَضى وهارون يَبكي.

قال محمد بن خَلَف: وسمعتُ محمد بن عَبد الرّحمن يقول: بلغني أنَّ هارون الرَّشيد قال: إنّي لأُحبُّ أن أَحجَّ كل سَنةٍ ما يمنعُني إلّا رجلٌ من ولد عُمر ثَمَّ يُسمعني ما أكره.

وفي رواية أُخرى أنّه لمّا لَقيه قال: يا هارون، فعلتَ وفعلتَ فجلس هارون بجَنْبِهِ(١) وجعلَ يَستمع إليه ويقول: مقبولٌ منك يا عَم، على الرَّأس والعَين. فقال له: يا أمير المؤمنين، مِنْ حالِ الناس كَيْتَ وكَيْتَ. فقال: عَن غيرِ علمي وأمري. فما زال واقفاً حتى سكتَ العُمري، فلمّا رآه قد سكت مَضَى.

أخبرنا محمد بن أبي مَنصور قال: أخبرنا محمد بن عبد الملك الأَسَدي قال: أخبرنا الحُسَين بن جعفر السَّلماسي قال: حدثنا المُعافَى بن زكريّا، قال: حدثنا محمد بن مَخْلَد قال: حدثنا حَمَّاد بن المُؤمَّل قال: حدثنا زَيد بن العباس قال: لمّا حَجَّ الرَّشيدُ قيلَ له: يا أمير المؤمنين، قد حَجَّ شَيْبانُ. قال: اطلبوه لي. فطلبوه فأَتوه به، فقال له: يا شَيبان، عِظْني قال: يا أميرَ المؤمنين، أنا رجلٌ أَلْكَن لا أفصح بالعَربية، فجئني بمن يَفهم كلامي حتى أُكلّمه. فأُتي برجلٍ يَفهم كلامَه، فقال له بالنَّبَطيةِ: قُل له: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الذي يُخوفكَ قبلَ أن تَبلغَ المأمن أنصح لكَ من الذي يُؤَمِّنُك قبلَ أن تبلغ الخَوف. فَقال له: أيّ شيءٍ تفسير هذا؟ قال: قل له: الذي يقول لك: اتَّقِ الله، فإنك رجلٌ مَسؤول عن هذه الأمّة، اسْتَرعاكَ اللهُ عَليها، وقَلَّدك أُمورها، وأنت مَسؤولٌ عنها، فاعدِل في الرَّعيةِ، واقسِم بالسَّويَّةِ، وانْفِر في السَّريَّة(٢)، واتَّقِ الله في نَفسك، هذا الذي يُخوّفك، فإذا بلغتَ المأمَنَ أمِنتَ، هو أنصحُ لك ممّن يقول لكَ: أنتُم أهلُ بيتٍ مَغفور لكُم، وأنتم قَرابةُ نَبيّكم، وفي

---

(١) في (ظ): «يجيبه».
(٢) تحرفت في الأصل إلى: «السوية».

شَفاعته، فلا يزال يُؤَمِّنُكَ حتى إذا بلغتَ الخوف[١] عطبت. قال: فبكى هارونُ حتى رَحمه مَن حَوله، ثم قال: زِدْني. قال: حَسْبُكَ.

أخبرنا محمد بن أبي مَنصور قال أخبرنا عبد القادر بن محمد قال: أخبرنا إبراهيم بن عمر البَرْمكي قال: أخبرنا علي بن عبد العزيز بن مردك قال: حدثنا عبد الرّحمن بن أبي حاتم قال: حدثنا أبو حُميد الحِمصي قال: حدثنا يَحيى بن سَعيد قال: حدثنا يزيد بن عَطاء عن علقمة بن مَرْثد قال: لمّا قَدم عُمرُ بنُ هُبَيرة العراق أرسل إلى الحسن وإلى الشَّعبي فأمرَ لهما ببيتٍ فكانا فيه شهراً أو نحوه ثم إنّ الخَصِيَّ غَدا عليهما ذاتَ يومٍ فقال: إن الأمير داخلٌ عليكما، فجاء عُمر يَتَوكَّأ على عصًى له، فسلم ثم جلس مُعظِّماً لهما، فقال: إنّ أمير المؤمنين يَزيدَ بن عبد الملك يكتبُ إليَّ كُتُباً أعرف أنّ في إنفاذِها الهَلكة، فإن أَطَعْتُهُ عصيتُ الله، وإن عَصيتُه أطعتُ الله، فهل تَرَيان في مُتابعتي إيّاه فَرجاً؟ فقال الحسن: يا أبا عَمرو، أَجِبِ الأَمير. فتكلَّم الشَّعبيُّ فانحطَّ في حبل ابنِ هُبيرةَ. فقال: ما تقولُ أَنتَ يا أبا سَعيد؟ قال: أيّها الأمير، قد قالَ الشَّعبي ما قَد سمعتَ. فقال: ما تقول أنتَ؟ قال: أقول: يا عُمر بن هبيرة أوشَكَ أنْ يَنزل بكَ مَلكٌ مِنْ مَلائكة الله تعالى فَظٌ غَليظ لا يَعصي الله ما أَمره، فيخرجك من سَعَة قَصْرك إلى ضيقِ قَبرك، يا عمر بن هُبيرة، إن تَتَّقي الله يَعصمك مِنْ يَزيد بن عبد الملك، ولن يَعصمك يَزيد بن عبد الملك منَ الله، يا عُمر بن هُبيرة لا تَأمَن أن يَنظر اللهُ إليك على أقبح ما تَعمل في طاعة يَزيد بن عبد الملك فتُغلق به باب المغفرة دونك، يا عُمر بن هُبَيرة، لقد أدركتُ ناساً من صَدر هذه الأُمّة كانوا عن الدّنيا وهي مقبلةٌ عليهم أَشدّ إدباراً من إقبالكم عليها وَهي مُدبرة، يا عُمر بن هُبَيرة، إني أُخوّفكَ مَقاماً خَوَّفكَهُ الله فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤] يا عمر بن هُبَيرة، إن تكُ مع الله في طاعَته كَفاكَ يَزيدَ بن عبد الملك، وإن تك مع يَزيد على معاصي الله وكَلَكَ اللهُ إليه. فبكى عُمر بنُ هَبيرة وقامَ لعَبْرته، فلما كان من الغَد أرسل إليهما بإذنهما وجَوائزهما، وأكثر فيها للحسَن، وكان في جائزة الشَّعبي بعض الإقْتار، فخرج

(١) سقطت من الأصل.

الشَّعبي إلى المَسجد فقال: أيها الناس، من استطاع منكم أن يُؤْثر اللهَ على خَلقه فَليفعل، فوالذي نفسي في يَده ما علمَ الحسنُ منه شيئاً فجهلتُه، ولكنّي أردتُ وجهَ ابن هُبيرة، فأَقْصاني اللهُ منه.

أنْبأنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوَّزي قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: أخبرنا علي بن أبي قيس قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنامحمد بن يحيى قال: سمعتُ الخَطّاب أبا عُمر يقول: دخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بُردة في يومٍ حار وبِلالُ في خيشه وعنده الثَّلج[١]، فقال: يا أبا عبد الله، كيف ترى بَيتَنا هذا؟ قال: إن بَيتك لطيّب والجنّة أطيب منه، وذِكر النّار يُلهي عنه. قال: ما تَقول في القَدر؟ قال: جيرانك أهل القُبور ففكّر فيهم، فإنّ فيهم شُغلاً عن القَدَر. قال: ادعُ لي. قال: وما تَصنع بدعائي وعلى بابِك كذا وكذا كلٌ يقولون: إنك ظلمتَهم يرتفعُ دعاؤهم قَبلَ دُعائي؟ لا تَظلم فلا تَحتاج إلى دعائي.

أخبرنا عبد الرّحمن بن محمد القَزّاز قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت قال: أخبرنا عليّ بن المحسن قال: أخبرنا طَلحة بن محمد بن جعفر قال: قال لي ابنُ حَبيب الدّارع: كُنّا ونحنُ أحداثٌ مع أبي حازم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضي، فكنّا نُقعِدُه قاضياً ونَتقدَّم إليه في الخُصومات فما مضَت الأيام واللّيالي حتّى صار قاضياً. قال طلحة: وقال أبو الحسين عبد الواحد بن محمد الخَضيبي وبلغَ من شِدَّته في الحُكم أنّ المعتَضد وجَّه إليه بطريفٍ المخلدي فقال له: إنّ لي على الضُّبَعي بيع كان للمعتضد ولغيره مالاً، وقد بلغني أن غُرَماءَه ثبتوا عندك وقد قَسَّطتَ[٢] لهم من ماله فاجعَلنا كأحدهم. فقال له أبو حازم: قل له: أميرُ المؤمنين أطالَ الله بقاءَه ذاكرٌ لما قال لي وقتَ أن قَلَّدني أنّه قد أخرجَ الأمرَ منْ عُنُقه وجعلَه في عُنقي، فلا يجوز لي أنْ أحكم في مالِ رجلٍ لمدَّعٍ إلا ببَيِّنَة. فرجع إليه طريفٌ فَأخبره فقال: قُل له: فلانٌ وفُلانٌ يَشهدان ـ يعني رَجلين جَليلين كانا في ذلك

---

(١) تصحفت في الأصل إلى: «البلح».

(٢) في (ظ): «بسطت».

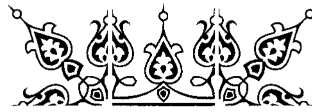
الوقت ـ فقال: يَشهدان عندي وأسألُ عنهما فإن زُكِّيا قَبلتُ شَهادتَهما، وإلّا أمضيتُ ما قَد ثَبتَ عِندي. فامتنعَ أولئك من الشَّهادة فزعاً، ولم يَدفع إلى المعتضد شيئاً.

فهذا(١) مختصرٌ من أخبار من وَعظ الأُمراء، فمن أراد الزّيادة، فلينظر في كتاب «المِصباح المضيء» وهذه كانَت سيرة العلماء وعادتهم في الأَمر والنَّهي، وقلَّة مُبالاتهم بسَطَوات السَّلاطين إيثاراً لإقامة حَقّ الله سُبحانه على بَقائهم، واختياراً لإعْزازِ الشَّرع على حِفظ مُهَجِهِم، واسْتِسلاماً للشهادة إن حَصلت لهم، إلّا أنّ السّلاطين كانوا يَعرفون حقَّ العِلم وفَضلَه فيصبرون على مَضَضِ مَواعظ هؤلاء، والذي أُراه الآن الهَرب من السَّلاطين، فهو الأَولى، فإنْ قُدِّرَ لقاءٌ اقْتُنِعَ بلَطيفِ الموعظةِ فحسب، ولذلك سَببان:

أحدهما: يتعلق بالواعِظ وهو سوء قَصده وسيلة إلى الدّنيا والرِّياء، فلا يخلص له وَعْظه.

الثاني: يتعلَّق بالموعوظ، فإن حُب الدّنيا قد شغل الأكثرين عن ذِكر الآخرة، وتعظيمُهم لها أنساهم تعظيم العُلماء، وليس للمؤمن أن يُذلَّ نفسه.

آخر كتاب الأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر



(١) قبلها في (ظ): «قال المصنف».

كتاب آداب المعيشة وأخلاق النُّبوة

الحمدُ لله الذي خلق كل شيءٍ فأحكم تركيبَه وصوَّر كل مُصَوَّرٍ فأحسنَ تَرتيبَه، وأدّبَ نبيَّه محمداًﷺ فأحسنَ تَأْديبَه، وطَهَّرَ خِلالَه واتَّخذه خَليلَه وحبيبه، ووَفَّر من كل خُلقٍ جميلٍ نَصيبَه، وضوَّع في المَشرقَين والمَغرِبَين طِيبَه، وأرغَمَ كلَّ حسود أراد تكذيبه، وجعل البُراق ليلةَ المِعراج نَجيبَه[١] وزَاد في حالة قابِ قَوْسَين تَقريبَه، ووفَّق للاقتداء به مَن أراد تَهذيبَه، فصلّى الله عليه وعلى أصحابه وآلِه ما طلبَ نجمٌ طالع مَغيبَه، وسلّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد؛ فإنّ آدابَ الظَّواهر عنوان أدب البَواطن، وحركاتُ الجوارح ثَمرات الخَواطر، والأعمال نتائج الأَخلاق، والآداب رَشْحُ المعارف، وسرائر القلوب هي مَغارس الأَفعال ومنابعها، وأنوار[٢] السَّرائر هي التي تُشرقُ على الظَّواهر فَتُّزَينُها وتُحلّيها، وتُبدِّل بالمَحاسِنِ مَساويها، ومَنْ لم يَخشع قَلبُه لم تَخشع جَوارحه، ومَن لم يكن صَدرُه مِشكاةَ الأَنوار الإلهيّة لم يَفض على ظاهِره جَمال الآداب النَّبوية، وقد كان يَصلح أن نَختم هذا الرُّبع بكتابٍ جامع لآدابِ العَيش، إلّا أنّ ربُع العبادات ورُبع العادات قَد أتيا على جُملةٍ من الآداب، فلا يصلح إعادتها؛ لأنّ الطِّباع مجبولةٌ على مُعاداةِ المُعادات، فاقتَصرنا في هذا الكتاب على ذِكر آداب رسولِ الله ﷺ وأخلاقِه ليجتمع مع جَمع الآداب تأكيد الإيمان بمشاهدةِ أخلاقه الكريمة التي تشهدُ آحادها بأنه أكرمُ الخَلق وأعلاهم رُتبة وأجلّهم قَدراً، فكيف مجموعها؟

---

(١) النَّجيب: واحد النجائب، وهي خيار الإبل.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «أنواع».

ولنذكر فيه أولاً: بيان تأديب الله تعالى إياه بالقُرآن، ثم بيان جوامع من محاسن أخلاقه وآدابِهِ وكلامه وحلمه وسخائه وشجاعته وتواضُعه وصُورته ومُعجزاته وآياته ﷺ.

بيان

تأديب الله عزّ وجل حبيبه محمداً ﷺ بالقُرآن

كان [(١] رسول الله [١)] ﷺ كثير الابتهال، دائم السّؤال لله عز وجل أن يُزيِّنَه بمحاسِن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دُعائه: «اللهمَّ حَسِّن خُلُقي وخَلْقي، اللهّم جَنِّبْني مُنكرات الأَخلاق». فاستجابَ اللهُ عزّ وجل دَعاءَه فأدَّبه بالقُرآن، فقالت عائشةُ وقد سُئلت عن خُلُق رسولِ الله فقالت: كانَ خُلُقه القُرآن. وإنّما أدَّبه بمثل قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣] إلى غَيْر ذلك من الآداب[(٢)] التي يَتضمَّنُها القُرآنُ، ولمّا كُسِرت رَباعيته فقال: «فكيفَ يُفلح قومٌ فعلوا هذا بنَبيِّهم»؟ أنزلَ اللهُ تعالى عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] تأديباً له وحثّاً له على الصَّفح، ثمّ لمّا أكمل الله تَعال خُلقه أَثنى عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فسبحانَ مَن أعطى ثم أَثْنى.

ثم بيَّن رسولُ الله للخلق أنّ الله عز وجلَّ يُحب مكارمَ الأخلاق ويُبغض سَفسافَها، ومن مكارم الأخلاق حُسنُ المعاشرة، وكَرمُ الصَّنيعة، ولينُ الجانبِ، وبَذلُ المعروف، وإطعام الطّعام، وإفشاءُ السَّلام، وعيادةُ المريض، وتشييع الجنائز، وحُسنُ الجِوار، وتَوقير ذي الشَّيبة المسلم، وإجابةُ الطعام[(٣)]، والعَفو، والإِصلاح بين النّاس، والجودُ، والكرمُ، والسَّماحَةُ، والابتداءُ بالسَّلام، وكَظْمُ

(١ـ١) ليس في (ظ).
(٢) في الأصل: «الآيات».
(٣) يعني إجابة الداعي لدعوة الطعام.

الغَيظ، والعَفو، وتركُ الكَذبِ، والغيبة، والبخل، والشُّحِّ، والجَفاءِ، والمكرِ والخَديعة، والنَّميمةِ، والقَطيعةِ، وسوءِ الخُلُق، والتّكبّر[١]، والفَخر، والاخْتيال، والفُحش[٢] والحِقدِ، والحَسَد، والطِّيرةِ، والبَغْيِ، والظُّلمِ.

(١) في الأصل: «الكبر».
(٢) ليست في (ظ).

بيان

جُملة من محاسن أَخلاقِه ﷺ

كانَ رسولُ الله ﷺ أحلمَ[١] النّاس، وأشجعَ الناس، وأسخَى النّاس، وأعفَّ النّاس، لم تمسّ يدُه يدَ امرأةٍ لا يَملكها، لا يردُّ سائلاً، وكانَ يَخْصِفُ النَّعلَ[٢]، ويَرقَعُ الثَّوب وهو في مَهْنةِ[٣] أهلِه، وكانَ أشدّ حياءً من العَذْراء في خِدْرها، وكان يُجيبُ دَعوة المَمْلوك، ويَعودُ المَرضَى، ويَمشي وَحدَه، ويُردِفُ خَلفه، ويَقبَلُ الهديَّة، ويُكافئ عليها، ويأكلها ولا يَأكل الصَّدقة، وكان لا يَجدُ من الدَّقَلِ[٤] ما يَملأ بَطنه، ولم يَشْبع من خُبزِ بُرٍّ ثلاثة أيامٍ تِباعاً، ويَعْصب على بَطنه الحَجَرَ من الجوع، وكان يَأكل ما حَضَر، ولا يَذمُّ طعَاماً قَطّ، ولا يأكل مُتّكِئاً، ويأكل مما يَليه، وكان أحبَّ الطعام إليه اللَّحم، ومنَ الشاةِ الكَتِف، ومن البُقول الدُّبّاء[٥]، ومن الصِّباغ[٦] الخَلُّ، ومن التَّمْرِ العَجوةُ، ويَلبسُ ما وَجَدَ، فمرةً بُرْدَ حِبَرَةٍ، ومرّةً جُبَّةَ صوفٍ، ويركبُ تارةً بعيراً، وتارة بَغلةً، وتارةً حماراً، ويَمشي مرّةً راجلاً حافياً، يُحبُّ الطِّيبَ ويكرهُ الرّائحةَ الرَّديئةَ، ويكرم أهلَ الفَضل، ويتألَّفُ أهلَ الشَّرف، ولا يَجْفُو على أحدٍ، يَقبلُ معذرةَ المعتَذِر إليه، يَمزَحُ ولا يقولُ إلّا حَقّاً، يَضحك من غَير قَهْقَهةٍ، ويَدخل إلى بساتين أصحابه، ولا يَمضي عليه وقت في غير عَملٍ لله تعالى أو فيما لا بُدَّ منه من صَلاح نَفسه، وما لَعَنَ امرأةً ولا خادماً قَطُّ، وقال: «مَن سَبَبْتُه مِنَ المسلمين فاجعَلْ ذلك لهُ زَكاةً وأجراً». وما ضَربَ بيده أحداً

(١) في (ظ): «أحكم».
(٢) يخصف النعل: أي يصلحها بترقيعٍ وخرزٍ.
(٣) أي في خدمتهم.
(٤) الدَّقَل: التمر الرديء.
(٥) الدُّباء: القرع وهو اليقطين.
(٦) الصِّباغ: الإدامُ المائع.

قَطُّ إلا أن يَضرب بها في سَبيل الله، وما انتقَم لنَفسه قَطّ، إلّا أنْ تُنتَهكَ مَحارمُ الله، وما خُيِّر بينَ أمرين قط[١] إلّا اختارَ أيسرهما، إلّا أن يكون مأثماً أو قطيعةَ رحم، فيكون أبعدَ النّاس منه.

وقال أَنس: خَدَمتُه تسعَ سِنين فَما قال لي لشيءٍ فعلتُه: لم فَعلتَه؟ ولا: ألا فَعلتَ كَذا.

ومِن صِفتِه في التَّوراة: مُحمدٌ رسولُ الله عَبدي المختار، لا فَظٌّ ولا غَليظٌ، ولا صَخَّابٌ في الأَسواق، ولا يَجزي بالسَّيئةِ السَّيئةَ، ولكن يَعفو ويَصفح.

وكانَ مِن خُلقه أنْ يَبدأ بالسَّلام مَنْ لَقيَهُ ومن قاوَمه[٢] لحاجةٍ صابَرَهُ حتى يكون هو المنصرف، وما أخذَ أحدٌ يَده فأرسل يَده حتى يُرسلها الآخِذُ، وكان لا يَدعوه أحدٌ إلّا قال له: لبَّيك. وكانَ يجلس حيثُ انتهى به المَجلس مختلطاً بأصحابه كأنّه أحدهم، فيأتي الغَريبُ فلا يدري أيُّهم هُو حتى يَسأل عنه، وكان يُعطي كلَّ جليسٍ نَصيبه من وَجهه وأُتي برجلٍ فأرعدَ من هَيْبته فقال: «هَوِّن عَليك، فَلستُ بملِكٍ، إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ منْ قُريش، كانَت تأكُل القَديد».

وكانَ طويلَ السُّكوتِ، فإذا تكلّم لم يَسرُد الكلامَ، بل يتثبت فيه ويكرِّرُه ليُفهَم، وكان يَعفو مع القُدرة، وقال له رجلٌ: اعدِل فما عدلتَ. فقال: «فمن يَعدل إذا لم أَعدِل؟». وقَالَ: «رحمَ اللهُ أخي موسى قَد أوذي بأكثر من هذا فَصبر».

وكان رقيقَ البَشَرةِ يُعرفُ في وَجهه غَضبُه ورِضاه، وكان إذا اشتدَّ وَجدُه أكثرَ من مَسِّ لحيتِهِ، وكان لا يواجه أحداً بما يَكره، رَأى على رجلٍ صُفرةً فقال: «لو قُلتم لهذا أن يَدَع هذه» يعني: الصُّفرةَ.

وكان أصدق النّاس لهجةً، وأوفاهم ذِمَّةً، وألينَهم عريكةً، وأكرمهم عَشيرةً، مَنْ رآه بَديهةً هابَهُ، ومَنْ خالطه مَعرفةً أحبَّه.

---

(١) ليست في الأصل.
(٢) قاومه: أي قام معه ووقف.

وكان أصحابُه إذا تكلّموا في أمور الدّنيا تكلّم[١] معهم، وكانوا يَتَذاكرون أمرَ الجاهلية فيضحكون ويبتسم، وأتاهُ رجلٌ، فَسأله، فأعطاه غنماً بينَ جَبَلين، فرجع إلى قَومه فقال: أَسلِموا فإنّ محمداً يُعطي عطاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفَاقةَ.

وقال: «لو كان عِندي عَدَد[٢] هذه العِضاه[٣] نَعماً لقَسمتُه بَينكم، ثم لا تَجدوني بَخيلاً، ولا كذّاباً، ولا جَباناً».

وكان أشجع النّاس، قال بعض أَصحابه: كنا إذا احمَرَّ البَأسُ اتَّقَيْنا برسولِ الله.

ولم يكُنْ بالطويل البَائِن، ولا بالقصير المتردِّد[٤]، وكان رَبْعَةً من القَومِ، وكان أَزهرَ اللَّون، ولم يكن بالآدم[٥]، وكان رَجْلَ الشَّعر ليس بالسَّبْطِ ولا الجَعْد القَطَط[٦] واسعَ الجبهة أَزجَّ الحواجِبِ[٧]، أَدْعجَ العَينَين[٨] أهدبَ الأشفار، أَقْنى العِرْنين[٩]، سهلَ الخَدَّين، كثَّ اللِّحْية، كأن عُنُقه جيدُ دُميَةٍ، عريضَ الصَّدر، سَواءَ البَطن والصَّدرِ، رَحبَ الرَّاحتَين، طويلَ الزَّنْدَين، كفُّه أَليَن من الحَرير.

وكانَ إذا مَشى كأنَّه يتقلَّع ويَنْحدِر من صَبَب، يخطو مُتكفِّئاً، ويَمشي الهُوَينا.

وأما أسماؤه: فأحمد، ومُحمد، والماحي، والحاشِر، والعاقِب، والمُقَفِّي، ونَبيُّ الرَّحمةِ، ونبيُّ التَّوبةِ، ونبيُّ المَلاحِم، والشاهدُ، والمُبَشِّر، والنَّذيرُ، والضَّحوكُ، والقَتّال، والمتوكّل، والفاتح، والأمين، والخاتم، والمُصطفَى، والرّسول، والنَّبي، والأُمّي، والقُثَم.

---

(١) في (ظ): «تحدث»
(٢) تحرفت في (ظ) إلى: «عقد».
(٣) العضاه: جمع عضاهه، وهي الشجرة لها شوك.
(٤) أي الذي يتردَّدُ بعض خَلقه على بعض من القِصَر المفرط.
(٥) الآدم: الشديد السُّمرَة.
(٦) الجعد القَطط: الشديد الجعودة.
(٧) أزجّ الحواجب: أي حاجباه مقوّسان مع كثرة شعرهما.
(٨) أدعج العينين: شديد سواد حدقتهما.
(٩) أقنى العرنين: العرنين أول الأنف، والقَنى في الأنف طوله ورقّةُ أرنبته مع حَدبٍ في وسطه.

فالماحي الذي يُمحى به الكُفر، والحاشر الذي يُعشَرُ النّاسُ على قَدَمَيه، أي: يَقدمهم وهُم خَلفَه، والعاقِب: آخر الأنبياء، والمقفِّي بمعنى العاقب لأنه تَبع الأنبياء، والملاحم الحُروب، والضَّحوك صِفتُه في التَّوراة، وإنمّا قيل له: الضّحوك؛ لأنه كان[1] طَيّبَ النَّفْسِ فكهاً.

والقُثَمُ من مَعنَيين: أحدهما: من القَثْم الذي هو الإعطاء، يُقال: قَثَم له من الخَير يَقثِمُ: إذا أعطاه، وكان أجود بالخير من الرّيح الهابَّةِ. والثّاني: من القَثم الذي هو الجَمع، يُقالُ للرَّجل الجَموعِ للخَير: قَثوم وقُثَم.

وأمّا مُعجزاته ﷺ، فإنّ من شاهدَ أحواله وتسمع أخبارَه المشتملة على أَخلاقه وأفعاله وآدابِه وبَدائع تَدْبيراته لمصالح الخَلْق، ومحاسن إشاراته في تَفصيل ظاهِر الشَّرع الذي يَعجز العُقلاء والفُقهاء عن إدراك أوائِل دَقائقها في طول أعمارهم لم يَبقَ له رَيبٌ في أنّ ذلك لم يكن مكتسَباً بحيلةٍ تقوم بها القُوة البَشرية وأنّه لا يُتصوَّرُ ذلك إلا باستِمدادٍ من تأييدٍ سَماوي وقوة إلهية، فإنّ ذلك لا يَصح لمُلَبِّسٍ ولا لكذّاب، بل كانت شمائِلُه وأحواله شَواهد قاطعةٌ بصِدقه، ولهذا قال مَن رآه من المُتيقِّظين، منهم عبدُ الله بن سَلام: رأيتُه فَعلمتُ أنّه ليسَ بوجهِ كذّاب. فعرفَ بما آتاه اللهُ تعالى من ذلك صدقَه، فإنّه رجلٌ أمّي لم يُمارس العلمَ، ولم يُطالع الكُتب، ولم يُسافِر في طلب العلوم، ولم يَزَل بين أَظْهُر الجهّال منَ العرب يَتيماً ضعيفاً مُستَضْعَفاً، فَلولا الوَحي لم يَستقلّ بذلك، ولو لم يكن من مُعجزاته إلا هذا لكَفَى، وقد ظهَرَ على يَديه من المُعجِزات ما أَعْظَمهُ القُرآن العَزيز الذي عجز الخلائق عن الإتيان بمثله، فَمُعجِزُ كل نَبيٍ انقَضى بذهابه، وهذا المُعجِزُ باقٍ أبداً، وقد وقع التَّعجيزُ بلفظِهِ تارةً، وبما يحتوي عليه من الإخبار بالغائبات، وأنهّا ستكون على وصف فكانت كما أخبر كقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤]. ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥]، وقوله: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

---

(١) ليست في الأصل.

ثم أُضيفَ إلى هذا المُعجز مثل انشقاق القَمر، ونبعِ الماء من بَين أصابِعه، وإطعامِه الخَلق الكثير من الطعام اليَسير، ورَميه بحَصَياتٍ يَسيرةٍ فَوصلت إلى أَعيُن الخَلق الكثير، وحَنِينُ الجِذع إليه كما تَحِنُّ العِشائر.

ثم إخبارُه بالغائِبات، فكانت مثلَ قَوْله، كقوله لعثمان: «سَيُصيبُكَ بَلاء»، ولعمّار: «تَقتُلكَ الفِئَةُ الباغِيةُ»، وللحسن: «يُصلحُ الله به[1] بينَ فِئَتَينِ عَظيمتين»، وأخبرَ فاطمة أنها أولُ أهلِه لحاقاً به، فكان كذلك، وأخبر نِساءَهُ أنَّ أطولهنَّ يداً أسرعهنَّ لَحاقاً به، فكانت زَينب بنت جَحْش أطولهنَّ يَداً بالصَّدقةِ وأولهنَّ لحاقاً به، وندَرَتْ[2] عَينُ قَتادةَ بن النُّعمان فَردَّها بيَده، فكانت أحسنَ عينيه، وتَفَلَ في عينِ عليٍّ رضيَ الله عنه وهو أَرْمَدُ فصحَّ من وَقْتِه، إلى غير ذلك من المعجزات التي شاعت بينَ العدوِّ والصَّديق، ولم يوجد سبيلٌ إلى نكرِها[3] لشياعها، فمن استَرابَ بها كانَ كالمُسْتَريب بسخَاءِ حاتم وشَجاعة عَلي، ومعلوم أنَّ آحادَ أخبارهم غير متواترة، ولكن مجموع الوقائع أورثَ علماً ضرورياً، فأَعظمْ بغباوةِ مَنْ يَنظر في أحواله، ثم في أَقْواله، ثم في أخلاقه، ثم في مُعجزاته، ثم في استمرار شَرعه إلى الآن، ثم في انتِشاره في أَقْطار العالَم، ثم إذعان المُلوكِ له في عَصره وبَعدَهُ، ثم يَتمارَى في صِدقه.

فنسألُ الله عزَّ وجل أنْ يوفِّقَنا للإيقانِ به، والاقتداءِ بأَخْلاقه، إنَّهُ كريمٌ مُجيب.

آخر كتاب أخلاق النبوة

(٤وهو آخر رُبع العَادات٤)

---

(١) في (ظ): «بك».

(٢) ندَرَت: سقطت وخرجت من مكانها.

(٣) في (ظ): «نكيرها».

(٤ـ٤) ليست في الأصل.

مِنهاجُ القاصِدين

ومفيدُ الصَّادِقين

أبي الفرج عبدِ الرَّحمنِ بنِ علي

ابن الجوزي

تحقيق

كامل محمَّد الخرّاط

المجلَّد الثَّاني

المُهلِكات

دار التوفيق

للطِباعة والنشر والتوزيع



رُبع المُهلِكات

وهو الربع الثالث من هذا الكتاب

كتاب شَرح عجائب القَلب

وهو الأول من رُبع المهلكات

الحمدُ لله فالقِ النَّوى والحَبّ، خالقِ الفاكهةِ والأَبّ، رازقِ كل ما دَرَجَ ودَبَّ، الذي حامَى عن أَوليائِه وذَبّ، ولطف بجميع مَصنوعاته ورَبّ، فمن نَظَر في المَرْبوب عرفَ الرَّبّ، يُقلِّبُ القلوب ويَفعل ما أَحَبّ، ويُشتِّتُ الأَمرَ وقد اجتمَعَ واسْتَتَبّ، ويُمرض النُّفوسَ فإذا شاءَ طَبَّ[1]، ويُرقِدُ من أرادَ فإذا أرادَ هَبّ، جَرى قَدَرُه فأسلمَ وَحْشِيٌّ وقَد قَتَل وسَبّ، وتَبَّتْ يدا أبي لهبٍ وتَبّ، فسُبحان من يُعطي ويَقضي إذا شاءَ بالسَّلْب، إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قَلب.

أَحمدُه ما جَرَتْ ريحٌ في مَهَبّ، وأُصلّي على رَسوله محمدٍ ما سار راكبٌ وخَبّ، وعلى أصحابه وأتباعه ما هَدَرَ حمامٌ وعَبّ، صلاةً تدومُ فكلّما شابَ ذِكْرُها شَبّ، وسلّم تسليماً كثيراً.

اعلموا وفّقكم الله أنّ أشرفَ ما في الإنسان قَلبُه، فهو العالِمُ بالله، العامل له، السّاعي إليه، المتقرّب المُكاشِف بما عنده، وإنما الجوارح أتباعٌ وخدَمٌ للقَلب، يستخدمها استخدامَ المُلوك للعبيد والرَّاعي للرَّعيّة، والذي يَنْتَشر عَلى الجوارح من العبادات أَنوارُ القلب، والذي يَسْري إليها من الفَواحش آثارُه، فتارةً يُظْلم بالزَّلَل، وتارةً يَستَنيرُ بالتَّقوى، ومَن عرفَ قلبَه عرفَ رَبَّه، فأكثرُ الخَلقِ جاهلون بقُلوبهم ونُفوسهم، والله يَحولُ بينَ المَرْءِ وقَلبه، وحيلولته أن يَمنعه من مَعرفته ومُشاهدته

(١) طَبَّ: داوى وعالج.

ومُراقَبته، فَمعرِفَةُ القَلب وصفاته أَصلُ الدّين، وأساس طريق[1] السّالِكين.

وقد سبقَ في الشَّطر الأولِ من هذا الكتاب الكلامُ فيما يجري على الجَوارح من العبادات والعَادات، ووَعدنا أن نَشرح في الشَّطر الثّاني ما يَجري على القُلوب من الصِّفات المُهلِكات والمُنجيات، ونحنُ نُقَدِّمُ على ذلك كتابين:

كتاباً في صِفات القَلب وأخلاقِه.

وكتاباً في كيفية رياضَةِ القلب وتهذيب أخلاقه. ثم نفصِّل المُهلِكات والمُنجِيات، إن شاء الله تعالى.

(١) في الأصل: «أهل».

بَيانُ

مَعنى النَّفسِ، والرُّوحِ، والقَلب والعَقل، وما المُراد بهذه الأسماء[١]

أمّا لفظُ **القلب**، فإنّه يُطلَقُ لمعنيين:

أحدهما: اللّحمُ الصُّنوبَري الشَّكل المودَعُ في الجانب الأَيسَر من الصُّدور، وفي باطنه تجويفٌ، وفي التَّجويف دَمٌ أسود، وهو مَنبَعُ الرُّوح، وهذا القلب مَوجودٌ للبهائم، بل للميّت أيضاً، وليس الكلامُ في صُورَتِهِ مِنْ غَرَضنا.

والمعنى الثّاني: هو لَطيفةٌ ربّانِيّةٌ روحانيةٌ لها بهذا القلب الجِسْماني تَعلُّق، وتلك اللَّطيفة هي حَقيقة الإنسان، وهو المُدرِكُ العالمُ العارِفُ من الإنسان، وهو المخاطَب المطالَب المعاتَبُ، والإشارة في كتابنا هذا بالقَلب إلى هذه اللَّطيفة، وعلمُ المُعاملة يَفتقِرُ إلى معرفةِ صفاتِها وأحوالها لا إلى ذكر حَقيقتها.

اللَّفظ الثاني: الرّوح: وهو أيضاً يُطلق فيما يتعلق بجنسِ غرضنا لمعنَيَيْن:

أحدهما: جسم لطيفٌ مَنبعُه تَجويفُ القَلب الجسماني فَينْتَشِرُ بواسطة العُروق الضَّوارب إلى جَميع أجزاء البَدَن، وجَريانُه في البَدَن وفَيضُ أنوار الحياة والحِسّ والسَّمع والبَصر والشَّمّ منه على أَعضائِه يُضاهي فَيضَ النُّور من السِّراج الذي يُدار[٢] في زَوايا البيت، فإنه لا يَنتهي إلى جزءٍ من البَيت إلّا ويَستنيرُ به، فالحياة مثالُها النُّورُ الحاصل في الحِيطان، والرّوحُ مثاله السِّراج، وسَريان الرّوح وحَركته في الباطن مثالُه حَركة السِّراج في جَوانب البَيت بتحريك مُحرّكه.

والأطباء إذا أَطلقوا الرُّوح أرادوا هذا المعنى، وهو بُخارٌ لطيفٌ أَنْضَجته حَرارةُ

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الأشياء».
(٢) في الأصل: «يُنار».

القلبِ، وليس من غَرضنا شرحُه؛ لأنّه إنمّا يتعلَّق بغرض الأطباء الذين يُعالجون الأَبْدان لا بغرضِ الأطبّاء الذِين يُعالجون القُلوب.

والمعني الثاني: هو اللّطيفة العالمةُ المُدرِكَةُ من الإنسان، وهو الذي شرَحناه في أحَدِ مَعْنَيَي القَلب، وهو الذي أرادَه الله تعالى بقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهو أمر عجيب رَبَّانيٌّ تعجز أكثر العقول والأفهام عن دَرْكِ كُنْهِ حَقيقته.

اللّفظ الثّالث: النّفس: وهذا[١] أيضاً مشترك بين مَعاني ويتعلق بغرضنا منه مَعنَيان.

أحدهما: أنّه يُراد به المَعنى الجامع لقوة الغَضَب والشَّهوة في الإنسان، وإلى هذا يُشارُ في ذكر مُجاهدة النَّفس، ومنه قولُ النبي ﷺ: «المجاهد من جَاهدَ نفسه في الله عز وجل»، وقوله: «ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعة، ولكنّه الذي يملك نَفسه عند الغضب».

المعنى الثّاني: هي اللّطيفة التي ذكرناها التي هي الإنسان بالحقيقة، وهي نَفس الإنسان، ولكنّها توصف بأوصافٍ مختلفَة بحسب اختلاف أحوالها، فإذا سَكنت تحتَ الأَمنِ وزايَلَها[٢] الاضْطرابُ بِسَببِ مُعارضة الشَّهوات سُمِّيَت: مُطمئنّة، وإن لم يتم سُكونها لكنّها صارت مُدافعةً للنّفس الشَّهوانية ومُعترضة عليها سُمِّيتْ: لَوَّامَة. وإن انْقادَت لمُقتضى الشَّهوات ودَواعي الشَّيطان سُميت: أمّارَة بالسّوء.

ويَجوز أن يُقال: النّفس بالمعنى الأول مَذمومة، لما بينّا، وبالثاني مَحمودة؛ لأنّها حَقيقة الإنسان.

اللفّظ الرّابع: العَقل: وقد تكلَّمنا عليه في كتاب العلم، وقد يُشارُ بِهِ إلى اللّطيفة التي هي الإنسان.

ولمّا جاء في كلام المتقدمين خاطر القَلب، وخاطر النَّفس، وخاطر الرّوح، وخاطر العقل افتَقَرنا إلى بَيان ذلك.

---

(١) في الأصل: «هو».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «زوائلها».

بَيانُ

جُنود القَلب

القَلبُ كالمَلك، وله جُنْدان: جُندٌ يُرَى بالأَبصار، وجُندٌ يُرَى بالبَصائر.

فأمّا جُنوده[١] المُشاهَدة؛ فالأعضاء الظاهرة والباطنة، فإنّها خُلقت خادمةً له لا تَستطيع له خِلافاً، فإذا أَمَر العَينَ بالانفِتاح انْفَتَحتْ، وإذا أمرَ الرِّجلَ بالحَركة تحركَتْ، فكذلك جميعُ الأعضاء تسخيراً له وتذليلاً، لا أنّها توصَف بامتثال أمرٍ.

وإنّما افتقَرَ القلبُ إلى هذه الجنود؛ لأنّه مفتقرٌ إلى المَركَبِ والزّاد لسَفرَه الذي لأجله خُلقَ، وهو السَّفر إلى الله تعالى، وقطع المنازل إلى لقائِه، ومَركبُه البَدَن، وزادُه العِلم، والمنزلُ الأدنى الدُّنيا، والمنزل الأقصى الآخِرَة، فافْتَقَر إلى تَعهُّدِ المَركب الذي هو البَدَن وحِفظه، وذلك بجلبِ ما يُوافقُه من الغِذاء وغَيره، وبأن يدفع عنه ما يُنافيه ويُهلكُه، فافْتقر لأَجل جَلبِ الغذاء إلى جُنْدَين؛ باطنٍ، وهو الشَّهوة، وظاهرٍ وهو اليَدُ والأعضاء الجالبة للغذاء، فخُلقَ في القلب من الشَّهوات ما احتاج إليه، وخُلقت الأعضاء التي هي آلاتُ الشَّهوةِ.

وافتقر لأجل دَفع المُهلِكات إلى جُنْدَين، باطنٍ وهو الغَضَبُ الذي به تُدفع المهلكات ويُنْتَقَمُ من الأعداء، وظاهرٍ وهي الأعضاء التي بها يُعمل بمُقتَضى الغَضَب كاليد والرِّجل، وكمل ذلك بأمورٍ خارجةٍ عن البَدَن، كالأسلحةِ وغيرها.

ثم المُحتاج إلى الغِذاء إذا لم يَعرف الغِذاء لم تَنفعهُ شَهوةُ الغِذاء وآلَتُه، فافْتَقر للمَعرفة إلى جُندَين؛ باطنٍ، وهو إدراك البَصَر والذّوقِ والشَّمِّ والسَّمعِ واللَّمْسِ، وظاهرٍ، وهو العَينُ والأُذُنُ والأَنف وغَيرها.

---

(١) في الأصل: «جنده».

وتفصيلُ وَجهِ الحاجة إليها ووجهِ الحكمةِ فيها يَطول شرحُه[١]، وقد أشَرنا إلى طرفٍ يسيرٍ منه في كتاب الشُّكْر.

فجُملةُ جنود القَلب يَحصرها ثلاثة أَصناف:

صنفٌ باعثٌ ومُسْتحِثٌ إمّا إلى جلبِ المُوافق النّافع، كالشهوة، وإمّا إلى دَفع الضَّار المُنافي، كالغضب، وقد يُعبَّر عن هذا الباعث بالإرادة.

والثّاني هو المحرك للأعضاء إلى تَحصيل هذه المقاصد، ويعبَّر عن هذا الثاني بالقُدرة، وهي جنودٌ مبثوثةٌ في جميع الأَعضاء لاسيَّما العَضلات منها والأوتار.

والثّالث وهو المدرك المتعرف للأَشياء كالجَواسيس، وهي قوة البَصَر والسَّمع والشَّمِّ والذَّوق وغيرها، وهي مبثوثةٌ في أعضاءَ معيّنةٍ، ويعبَّر عن هذا بالعلم والإدراك.

ومع كلِّ واحدٍ من هذه الجنود الباطِنة جنودٌ ظاهرةٌ، وهي الأَعضاء المركّبة من الشَّحم واللَّحم والعَصَب والدَّم والعَظم التي أُعدَّت آلاتٍ لهذه الجنود، وإن قُوّة البَطش إنّما تَبطش بالأصابع، وقوة البَصَر إنّما تُدرِكُ[٢] الشيءَ بالعين، وكذا سائر القُوى.

ولسنا نتكلَّم في الجنود الظاهرة التي هي الأعضاء، فإنّها مَعلومةٌ، وإنّما نتكلَّم في جنودٍ لم تَروْها. وهذا المُدركُ من هذه الجُملة يَنقسمُ إلى ما أسكنَ المنازل الظاهرةَ وهي الحواس الخَمس، أعني السَّمعَ والبَصر والشَّمَّ والذَّوقَ واللَّمسَ، وإلى ما أسكنَ منازلَ باطنة وهي تَجاويف الدِّماغ وهي أيضاً خمسة، فإن الإنسان بَعد رُؤيةِ الشَّيء يُغمضُ عَينَيه، فيدرك صورته في نَفسه وهو الخيال، ثم تَبقى تلك الصّورة معه بسببِ شيءٍ يحفظه، وهو الجُند الحافظ، ثم يتفكّر فيما حَفِظه، فيركب بعضَ ذلك إلى بعضٍ، ثم يتذكَّر ما نَسِيَه ويعود إليه، ثم يجمع جملة معاني المُحسّات في خياله بالحسِّ المشترك بين المُحسّات ففي الباطن حِسٌ مُشتركٌ وتخيُّلٌ

(١) في (ظ): «ذكره».
(٢) سقطت من الأصل.

وتفكُّر وتَذكُّر وحفظٌ لولا خلقَ الله تعالى قُوة الحِفظِ والفِكر والذّكر والتَّخيُّل لكانَ يَخلو الدّماغ عنه كما تَخلو عنه اليَدُ والرِّجل، فتلك القُوى جنودٌ باطنةٌ وأماكنها أيضاً باطنةٌ.

فهذه أقسام جُنود القلب، وينتفع بذلك أقوياء العلماء، فأمّا شرح ذلك بحيث يُدركه فَهمُ الضُّعفاء، فإنّه يطول، إلا أنا نَجتهد في تَفهيم الضُّعفاء بضَربِ الأمثلة.

بيان

أمثلة القلب مع جنوده الباطنة

اعلم أن جُنْدَي الغَضَبِ والشَّهوةِ قد يَنقادان للقلب، انقياداً تاماً، فَيُعينه[١] ذلك على طريقِه الذي يَسلكه، وقد يَستعصيان عليه استعصاءَ بَغيٍ وتَمرُّدٍ حتى يَملكاه ويَستَعْبداه، وفي ذلك هلاكُه وانقطاعُه عن سَفَره الذي به وُصولُه إلى سَعادة الأَبَد.

وللقلبِ جندٌ آخر، وهو العلم والحِكْمةُ والتفكُّر، كما سَيأتي شرحه، فينبغي له أن يَستعين بهذا الجُند الذي هو حِزبُ الله على هذين الجُندَين اللذين قد يَلتحقان بحزبِ الشَّيطان، فإنْ تَرَكَ الاستعانةَ وسلَّطَ على نفسِهِ جندَ الغَضَبِ والشهوةِ هَلَكَ يقيناً، وخَسِرَ خُسراناً مُبيناً، وذلك حالُ أكثرِ الخلقِ، فإنّ عُقولهم صارت مُسَخَّرةً لشهواتهم في استنباط الحِيل لقَضاءِ الشَّهوة، وكان يَنبغي أن تكون الشَّهوة مُسَخَّرة لعُقولهم فيما يَفتقر العقل إليه.

ونحن نُقرّب هذا إلى القَلبِ بثلاثة أمثلة:

المثال الأول: أن نقول: مَثَلُ نفسِ الإنسان في بَدَنه ـ ونعني بالنفْسِ اللطيفة المذكورة ـ كمَثَلِ والٍ في مدينتهِ ومملكتهِ، فإنَّ البدنَ مملكةُ النفس وعالَمَها ومُستقرّها ومَدينتها، وجوارحُه بمنزلةِ الصُّنَّاعِ والفَعَلَةِ، والقوةُ العَقلية المفكّرة له كالمُشير النّاصح والوزير العاقل، والشَّهوةُ له كعبد سوءٍ يجلب الطعامَ والمِيرةَ إلى المَدينة، والغضبُ والحَميَّةُ له كَصاحبِ الشُّرطة، والعبدُ الجالبُ للميرة كذّاب مُمَار مُخادع خَبيثٌ يتمثل بصورةِ الناصح، وتحتَ نُصحِهِ الشَّر الهائل، والسُّمُّ القاتل، ودَيْدَنُهُ مُعاداةُ الوزير الناصح في كل تدبير يدبّره، فلا يخلو عن معارضته في آرائه ساعة، والوالي في مَملكته متى استشار في تَدبيراته وزيرَه معرِضاً عن قَول هذا العبدِ

(١) تحرفت في (ظ) إلى: «يعود».

الخَبيثِ، بل مستدلّاً بإشاراته على أن الصَّواب في ضد ما يُشير به، وأدَّبَ صاحبَ شُرطته، وأمره أن يأتمِر لوزيره، وأن يتسلَّط من جهة الوَزير على هذا العبد الخَبيث وأتباعه وأنصاره حتى يكونَ العبدُ مَسوساً لا سائساً، ومأموراً[١] مدبَّراً لا أميراً[٢] مُدَبِّراً؛ استقامَ أمر بَلده، وانتظم العدلُ بسببه، فكذلك النفس، متى استعانَت بالعَقل، وأدبتِ الحَميَّةَ والغضبَ، وسلَّطتهُ على الشَّهوة؛ اعتدلت قواها، وحسُنت أخلاقها، ومن عدل عن هذه الطريقة أضلَّه الله على عِلم.

وسيأتي كيفيّة مُجاهدة هذه الجنود، وتَسليط بعضها على بعض في كتاب رياضة النَّفس، إن شاء الله تعالى.

المثال الثاني: إن البدن كالمدينة، والعقل ـ أعني: المدركَ من الإنسان ـ كمَلكٍ مُدَبِّرٍ لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيّته، والنَّفس الأَمَّارة بالسوء التي هي الشَّهوة والغضب كعدوٍّ يُنازعه في مملكته، ويَسعى في إهلاك رعيَّته، فصار بدنه كثَغرٍ، ونَفْسُه فيه كمُرابطٍ، فإنْ جاهد عدوَّه فقهره حَمِدَ إثْرَ ذلك، وإن ضيَّعَ ثغرَهُ ذَمَّ عاقبةَ فعلِهِ، فقيل له: يا راعي السُّوء، أكلتَ اللحم، وشَربتَ اللبنَ، ولم تردَّ الضّالة ولم تَجبُرِ الكَسير.

وإلى هذه المجاهدة أشارَ صلى الله عليه وسلم بقوله: «رَجعتُم من الجِهاد الأَصغر إلى الجِهاد الأكبر».

المثال الثالث: مَثَلُ العقل كمثل فارسٍ متصيّد، وشَهوتُه كَفَرسه، وغضَبُه ككلبه، فمتى كان الفارسُ حاذقاً، وفرسهُ مُرَوَّضاً، وكلبُهُ مُؤَدَّباً ومُعَلَّماً، كان جديراً بالنُّجحِ، ومتى كان هو في نفسه أخْرقَ، وكان الفرسُ جَموحاً، والكلبُ عقوراً؛ فلا فرسُهُ ينبعثُ تحتَه مُنقاداً، ولا كلبُهُ يَسترسلُ بإشارته مُطيعاً، فهو خَليقٌ بأن يَعْطَبَ، فضلاً عن أن ينال ما طلبَ، وإنما خَرَقُ[٣] الفارس مثالٌ لجهلِ الإنسانِ

(١) سقطت من (ظ).
(٢) سقطت من (ظ).
(٣) في (ظ): «خروق».

وقِلَّةِ حكمتِهِ، وكَلالِ بَصيرته، وجِماحُ الفرس مثالٌ لغَلبة الشَّهوة، خصوصاً شَهوةُ البطنِ والفرجِ، وعقرُ الكلبِ مثالٌ لِغَلَبَةِ الغضبِ واستيلائه.

بيانُ

خاصِّيَّة قَلبِ الإنسان

اعلم أن جميعَ الحيوانِ قد شاركَ الآدميَّ في وُجودِ الشهوةِ والغَضبِ والحواسِّ الظاهرة والباطنة، حتى إنَّ الشاةَ ترى الذئبَ بعينها، وتعلمُ عداوتَه لها بقلبها فتهرب منه، فذلك إدراكٌ بالباطن.

فأمّا ما يختصُّ به قلب الإنسان الذي لأجله عَظُمَ شرفه وصَلح للقرب من الله تعالى، فهو راجع إلى علمٍ وإرادةٍ.

أمّا العلمُ، فهو العلم بالأمور الدُّنْيَوية والأُخْرَوية والحقائق العقلية، فإن هذه أمور وراء المُحَسَّات لا يُشارك الآدمي فيها الحيوانات، بل العلوم الكلِّية الضّرورية من خواصّ العَقل، فإن الإنسان يحكم أنّ الفرس الواحد لا يتصور أن يكون في مكانَين في حالةٍ واحدةٍ، وهذا حكمٌ منه على كل فَرس، ومعلوم أنه لم يُدرك بالحسّ إلا بعض الأفراس، فحُكمه على جميع الأفراس زائدٌ على ما أدركه بالحسّ، وإذا فهمتَ هذا في العلم الضّروري، فهو في جميع النَّظريات أظهر.

وأمّا الإرادة، فإنّه إذا أَدرك بالعقل عاقبة الأَمر وطريقَ الصّلاح فيه انبعث من ذاته شَوقٌ إلى وَجه المَصلحة وإلى تَعاطي أسبابها وإرادتها، وذلك غير إرادة الشَّهوة، فإنّ العاقل يُريد الفَصْدَ والحِجامة ويَترك لذيذَ الطعام في المَرَض، والشَّهوة تنفر من ذلك، ولو خلق الله تعالى العقلَ المعرِّف لعواقب الأمور ولم يخلق هذا الباعث المُحرّك للأعضاء على مُقتضى حكم العَقل لكانَ حكمُ العقلِ ضائعاً، فقد بانَ اختصاصُ قلبِ الإنسان بعلومٍ وإراداتٍ تنفك عنها سائر الحيوانات، بل ينفك عنها الصَّبيُّ في أوّل الفِطرة، وإنّما تحدث فيه عند البُلوغ وإنّما الموجود في الصَّبي الشَّهوة والغَضَب والحَواسُّ الظاهرة والباطنة، ثم للصبي في حصول هذه العلوم فيه درجتان:

إحداهما: أن يشتمل قلبُه على جُملة العلوم الضرورية الأولية، كالعلم باستحالةِ المستَحيلات وجواز الجائزات الظاهرة، فتكونُ العلوم النَّظرية فيه غير حاصلةٍ، إلّا أنّها صارت ممكنة قريبة الإمكان والحصولِ، فيكون كمن عرفَ الحروف المفردة دون المركَّبة، فإنّه قد قاربَ الكِتابة.

والدَّرجةُ الثانيةُ: أن تحصل له العلوم المُكتَسَبةُ بالتجارب والفكر، وتكون كالمخزونة عنده، فإذا شاء رجع إليها وحالُه حالُ الحاذِق بالكتابة يُقال له: كاتب، وإن لم يُباشِر الكتابة لقُدرته عليها.

وهذا الذي ذكرناه هو غاية درجة الإنسانية إلا أن في هذه الدَّرجة مراتب يتفاوت الخَلقُ فيها تارةً بكثرة المعلومات وقِلَّتِها، وتارةً بشرف المعلومات وحُسنها، وتارةً بطريق تَحصيلها إذ بَعضُها يَحصلُ لبعض القُلوب بإلهامٍ إلّهي على سبيل المُكاشفة، وبعضُها بتعلُّمٍ واكتسابٍ، وفي هذا المقام تَتباينُ منازل العُلماء والحُكماء والأولياء والأنبياء، ولا حصر لتلك المَنازل، وإنّما يعرف كلُّ سالكٍ المنزل الذي بَلَغه، فَيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل لا ما بين يَديه، كما لا يعرف الجَنينُ حالَ الطفل، ولا الطفلُ حال المميز، ولا المميّز حالَ العاقل، ولا العاقل حال الأولياء والأنبياء، وأَقْصَى الرُّتب فيها رُتبة النَّبي الذي تَنكشِفُ له الحَقائق من غير اكتسابٍ بل بكشفٍ إلّهي في أسرع وقت.

فقد بانَ من هذه الجُملة أنَّ خاصية الإنسان العِلم والحكمة، وأشرف أنواع العلمِ العلمُ بالله وصفاتِهِ، فالبدن مَركَبُ النَّفس، والنَّفس محل العِلم، والعلم خاصية الإنسان التي لها خُلِقَ، فكما أنّ الفرس يُشارك الحمار في قُوّة الحمل ويختصُّ بالكَرِّ والفَرِّ وحُسنِ الهَيْئَة، فيكون الفَرسُ مخلوقاً لأجل تلك الخاصية، فإن فُقدت منه نَزل إلى حَضيض رُتبة الحمار، فكذلك الإنسانُ يُشاركُ الحِمارَ والفرسَ في أمورٍ، ويفارقه في أمور وهي خاصيّتُه، وتلك الخاصية من صفات الملائكة المُقَرَّبين، والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة، فإنَّ الإنسانَ من حيثُ يَتغذَّى ويَنسلُ نَباتٌ، ومن حيث يُحسُّ ويَتحرّك حَيوانٌ، ومن حَيث صورته وقامتِه فكالصّورة المَنقوشة على الحائط، وإنَّما خاصِيّته معرفة حقائق الأشياء، فمن

استعمل جميع أَعضائه وقُواهُ على وجه الاستعانَةِ بها على العِلم والعمل فَقد تشبَّه بالملائكة، فحقيق بأن يلتحق بهم، وجدير بأن يُسمّى ملكاً ورَبّانيّاً، ومن صَرَفَ همَّتَه إلى اتّباع اللذّات البَدنية، فقد انْحطَّ إلى حضيض البَهائم، فيصير إمّا غُمراً كثورٍ، وإمّا شَرِهاً كخنزير، وإمّا ضَرِعاً ككلب، وإمّا حقوداً كجملٍ، وإمّا متكبراً كنَمِر، وإمّا ذا رَوَغانٍ كثعلبٍ، أو يَجمع ذلك كله[1] كشيطانٍ مَريدٍ، فمن قُدِّرت له السّعادةُ كان قلبه مُستقر مُلكه، فهو يُجْري القوةَ الخيالية المودَعة في مُقدّم الدّماغ مَجْرى خازِنه، واللّسان مَجرى ترجُمانِهِ، والأعضاء المتحركة مَجرى كتابه، والحَواسّ الخَمس مَجرى جَواسِيسِه فإنّها أصحابُ أخبار تَلتقطها من العالم، فالعين تَلتقط أخبار الألوان، والسَّمْع أخبار الأصْوات، وكذلك البقيّة، فإذا التَقَطت الأخبار أدَّتْها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحبِ البَريد، ويُسلمها صاحب البَريد إلى الخازن، وهي الحافِظه، ويَعرِضُها الخازن على المَلك، فَيقتَبس منها ما يَحتاج إليه في تدبير مملكته وإتْمام سفره الذي هو بصدَدِه، وقمع عَدوّه الذي هو مُبتَلى به، فإذا فعل ذلك كان موفَّقاً شاكراً لنعمةِ الله، وإذا عطَّل هذه الجُملة أو استعملها في مراعاة أعدائِه وهم الشَّهوةُ والغَضَب وسائر الحُظوظِ العاجلةِ، أو في عمارة طريقه وهي الدُّنيا دون مَنزلِهِ، وهو الآخرة، كان مَخذولاً كافراً لنعمة الله تعالى.

---

(١) ليست في الأصل.

بيان

مَجامِع أوصافِ القَلبِ ومثاله

اعلم أن الإنسانَ قد صحبَ في تركيبه وخلقته أربع صفات: السَّبعيَّة، والبَهيميَّة والشَّيطانية والرَّبّانية، فهو من حيث سُلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السِّباع من العَداوةِ والتَّهجم على النّاس بالضَّرب والشَّتْم، ومن حيثُ سُلِّطت عليه الشَّهوة يَتعاطى أفعالَ البهائم من الشَّرهِ والحِرْصِ والشَّبَقِ، ومن حيثُ مشاركته للبهائم في الغَضَب والشَّهوة وطبعُه يدعوه إلى تحصيل الأغراض بالمَكر والخِداع فيه شيطانية، ومن حيث أنه في نفسه أمرٌ ربّاني كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، فهو يحب الاستعلاءَ والاستبداد بالأمور والانسلال عن ربقة العبوديّة، ويشتهي الاطّلاع[١] على العلوم كلها، وكل هذه الصّفات مجموعةٌ في القلب، فكأنَّ المجموعَ في إهابِ الإنسانِ خِنزيرٌ وكَلبٌ وشَيطانٌ وحكيمٌ؛ فَالخنزير الشَّهوة تدعو إلى الفَحشاء، والكلبُ الغَضَبُ يدعو إلى الظلم والإيذاء، والشَّيطانُ هَوىً يُهيِّجُ شَهوةَ الخِنْزير وغَيظَ السَّبُع، ويُغري أَحدَهما بالآخَر، ويُحسِّنُ لَهما ما همُا مَجبولان عليه، والحكيم الذي هو مثال العَقْل مأمورٌ بأن يَدفعَ كيدَ الشَّيطان، ويكسر شَرَهَ الخِنْزير، فإنْ قهرَ الكلَّ وجَعلهم تحتَ سِياسَتِهِ ظَهرَ العدلُ في المملكة واستقام الأمر، وإن عجز عن قَهرهم قَهَروهُ، فاستخدموه، فلا يزال في اسْتنباط الحِيَل وتَدقيق الفِكر لِيُشبعَ الخِنزيرَ ويُرضي الكلبَ، وهذا حال[٢] أكثر الناس مَهْما كانَ أكثر هَمِّهم البطنُ والفَرْجُ ومُنافسةُ الأعداء، فهؤلاء في طاعة أَهْوائهم كعُبّاد الأَصنام، فكيف يُنكرون عليهم؟ وأيُّ ظُلم أكبر من أن يجعل العَقلَ وهو المالك مملوكاً؟! فأصبح وهو السَّيد عبداً.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الأضلاع».

(٢) في الأصل: «وهذه حالة».

ومَن فعل ذلك انتشر إلى قَلبه من هذه الأَحوال صِفاتٌ تَتَراكمُ عليه، فَتَصيرُ رَيْناً وطَابَعاً، وذلك أنّ طاعةَ الشَّهوة تورِثُ الخُبثَ والوقاحة واللَّعب والحِرصَ والمَلَق والحَسَد وغير ذلك.

وأمّا طاعة الغَضب يَنتشر منها إلى القَلب صفةُ التَّهوُّر والبَذَخ والتَّكبر والعُجْب واحتِقار الخَلق وشَهوة الظُّلم وغَير ذلك.

وأمّا طاعةُ الشيطان وطاعة الشَّهوة والغَضب فيحصل منها صفةُ المكر والخِداع والدَّهاء والتَّلْبيس والخب والغِشّ وغير ذلك.

ولو عكَسَ الأمرَ وقَهَرَ الجميع تحتَ سِياسة الصِّفة الرَّبانية لاستَقرَّ في القَلب من الصِّفات الرَّبانيَّة العلمُ والحكمةُ، ولانتشَر إليه من ضَبطِ الشَّهوة ورَدِّها إلى الاعتدال صفاتٌ شريفةٌ كالعِفَّةِ والقَناعةِ والزُّهْدِ والوَرَع والتَّقوى والحَياء وأمثال ذلك.

ويَحصُل له من ضَبط قوة الغَضب وردِّها إلى حدّ الاعتدال صفةُ الشَّجاعةِ والكرمِ والصَّبر والحلم والاحتمال والعَفو والوقار وغير ذلك.

والقَلبُ في حُكم مرآة وقد اكتنَفَتْهُ هذه الأمور المؤثرة فيه، وهذه الآثار على التَّوالي واصلةٌ إلى القلبِ؛ أما الآثار المحمودةُ التي ذَكرناها فإنَّها تزيدُ مِرآةَ القلبِ جلاءً وإشْراقاً ونُوراً وضِياءً حتى ينكشف له حقيقة الأمر المطلوب في الدّين، فيصير للإنسان من قلبه واعظٌ، كما قال عليه الصّلاة والسلام: «إذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خَيْراً جعلَ له واعِظاً من قَلبه».

وأمّا الآثارُ المذمومة فإنّها مِثلُ دُخانٍ مُظلم يتصاعد إلى مِرآة القلب ولا يَزال يَتراكم إلى أن يسودَّ القَلبُ ويُظلم، فيصير محجوباً عن الله تعالى بالكليَّة، كما قال تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠] فإذا طُبعَ على القَلب عَظَّمَ أمرَ الدُّنيا واستهانَ بأمر الآخرة، فإذا طرق سمعه ذكر الآخرة دخل من أذنٍ وخرج من أُذُن، ولم يَصل إلى القلب، وقد قال عليه الصلاةُ والسَّلام: «إن المؤمنَ إذا أذْنَبَ كانَت نُكتَةٌ سَوداء في قَلبه، فإذا تابَ ونزعَ واستَغفر صَقل قلبَه، وإن زادَ

زادَت حتى تَعلو قلبَه». فذلك الرَّان الذي ذكر الله عزَّ وجل في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وأمّا من أتبع المعصيةَ حسنةً فإنّه كمن يتنفّس في المرآة ثم يَمسح النَّفَس، فيزولُ ما سَتَر وَجْهَ المرآة.

بيان

مثال القلب بالإضافة إلى العلوم خاصةً

اعلم أن محلّ العلوم هو القَلب، أعني اللَّطيفةَ المدبّرةَ لجميع الجوارح المطاعة المخدومة من جميع الأَعضاء وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلوّنات(١)، فكما أن للمُتلوّن(٢) صورة، ومثالُ تلك الصّورة يَنْطبع في المرآة فيحصل، فكذلك لكل معلومٍ حقيقةٌ، وتلك الحقيقة صورته، فتنطبع في مرآة القلب وتَتَّضح فيها، وكما أنّ المرآةَ غَير وصورة الأشخاص غَير، وحصول مثالها في المرآة غير، فهي ثلاثة أمور، فكذلك هاهنا ثلاثة أمور: القلب، وحَقائق الأشياء، وحصول نفس الحقائق في القلب وحضورها فيه.

فالعالم عبارة عن القلب الذي يَحلّ فيه مثال حقائق الأشياء، والمعلوم عبارة عن حقائق الأشياء، والعلم عبارة عن حصول المثال في المِرآة، كما أنّ القَبضَ مثلاً يَستدعي قابضاً، كاليَد، ومقبوضاً كالسَّيف، ووصولاً بين السّيف واليَد بحصول السَّيف في اليَد ويُسمى قابضاً، فكذلك وُصول مثال المعلوم إلى القَلب يُسمى عِلماً، وقد كانت الحقيقة موجودة والقَلب موجوداً ولم يكن العلم حاصلاً؛ لأنّ العلم عبارة عن وُصول الحقيقة إلى القَلب، كما كان السَّيف موجوداً واليد موجودةً ولم يكن اسم الأَخذ والقَبضِ حاصلاً لعدم وقوع السَّيف في اليَد، إلا أنّ القَبض عبارة عن حصول السَّيف بعَينه في اليَد، والمعلوم بعينه لا يَحصل في القلب، فمن علم النَّار لم يَحصُل عَينُ النَّار في قَلبه، ولكنّ الحاصل حَدُّها وحَقيقتها المطابق لصورتها، فَتَمثيلُه بالمرآة أَولى؛ لأنّ عين الإنسان لا تَحصُل في المرآة، وإنّما يَحصل مثالٌ مطابق له، فكذلك حصول مثالٍ مُطابقٍ لحقيقةِ المعلوم في القلب يُسمَّى عِلماً.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «المتكونات».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «المتلون».

واعلم أنه قد يمتنع انكشافُ الصُّورة في المرآة لخمسة أشياء:

أحدها: نُقصان صورتها كجوهرِ الحديد قبل أن يُدوَّر ويُشكَّل ويُصقَل.

والثّاني: لخُبثِهِ وصَدَئِهِ وكُدُورَتِهِ، وإن كان تامّ الشَّكل.

والثّالث: لكونه مَعدولاً به عن جهة الصّورة إلى غيرها، كما إذا كانت الصّورة وراء المرآة.

والرّابع: لحجابٍ مرسلٍ بين المرآة والصّورة.

والخامس: للجهل بالجهة التي فيها الصّورة المطلوبة حتى يتعذَّر بسببه أن يُحاذي بها شَطرَ الصّورة وجهتَها.

فكذلك القلبُ مرآةٌ مستعدَّةٌ لأَنْ يَنجليَ فيها الحقّ في الأمور كلها، وإنّما خَلَت القلوبُ عن العلوم التي خَلَت عنها لهذه الأسباب الخمسة:

أولها: نُقصانٌ[1] في ذاته كقلبِ الصَّبي فإنّه لا تَتَجلَّى له المعلوماتُ لنُقصانه.

والثّاني: لكُدورة المعاصي والخُبْثِ الذي تَراكم على وَجه القلب من كَثرة الشّهوات، فإنَّ ذلك يمنعُ صفاءَ القلب وجلاءه فيمتنعُ ظهورُ الحقِّ فيه بقَدْر ظلمته وتَراكمه.

والثالث: أن يكون مَعْدولاً به عن جهة الحقيقةِ المطلوبة، فإنّ قلب المُطيع الصّالح وإن كان صافياً، فإنّه ليس يَتَّضح فيه جَليّة الحقّ لأنّه ليس يطلب الحق وليسَ يُحاذِي بمرآتِهِ شَطر المطلوب، بل ربّما يكون مُسْتوعَبَ الهَمِّ بتَهيئةِ أسبابِ المَعاش، أو بتفصيل الطاعات البَدَنيَّة، ولا يصرف فكرَهُ إلى الحَقائق الخَفِيَّةِ الإلهية، فلا ينكشف إلّا ما هو متفكِّر فيه.

والرابع: الحِجاب، فإن المُطيع القاهر لشَهواتِهِ المتجرّد للفكر في حقيقةٍ من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك، لكونه محجوباً عنه باعتقاد سَبَقَ إليه منذُ الصِّبَا على

(١) في الأصل: «نقصان الصورة» وهي زيادة.

سَبيل التَّقليد، وبهذا حُجِبَ أكثرُ المتكلِّمين والمتَعصِّبين للمذاهب، بل أكثر الصَّالحين؛ لأنهم محجوبونَ باعتقاداتٍ تقليديَّةٍ رَسَختْ في قلوبهم، فصارت حجاباً بينهم وبينَ إدراك الحقائق.

والخامس: الجهل بالجهة التي منها يقَعُ العُثور على المطلوب، فإنّ طالب العلم ليسَ يمكنُه أن يُحصِّل العلم بالمجهول إلّا بالتَّذكُّر للعلوم التي تُناسِبُ مَطلوبه حتّى إذا تذكرها ورتَّبها في نفسه ترتيباً مَخْصوصاً يَعرفه العُلماء بطرائق[١] الاعتبار، فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المَطلوب فتَنْجلي حقيقة المطلوب لقَلبه، فإن العلوم المطلوبة التي ليست فِطْريةً لا تُقْتَنصُ إلا بشبكةِ العُلوم الحاصلة، بل كلُّ علم فلا يَحصُل إلا بعلمين سابقين يَأْتَلِفان ويَزْدَوِجان على وَجهٍ مَخْصوصٍ، فيحصل من ازدواجِهِما علمٌ ثالثٌ على مِثال ما يَحصل النِّتاج من ازْدواج الفَحْل والأُنْثى، فالجهل بتلك الأُصول وبكيفيَّة الازْدِواج هو المانع من العلم.

ومثاله: أن يُريدَ الإنْسانُ أن يَرى ظَهْرهُ في المرآةِ، فإنَّه إنْ رفع المرآة بإزاء وَجهِهِ لم يكن قد حاذَى بها شَطر الظَّهْر فلا يظهر فيها الظَّهْرُ، وإن رَفعها وراء ظَهرِه وبإزائه كانَ قد عدل بالمرآةِ عن العَينِ فلا يَرى المرآةَ ولا صورة الظَّهر فيها، فيحتاج إلى مِرآةٍ أُخرى يَنصِبُها وراء الظَّهر وهذه في مُقابلتها بحيث يُبصرها حتى تَنْطبع صورةُ الظَّهر في المرآة المحاذِية للظَّهر، ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الأُخرى التي في مُقابلة العَين، ثم تُدرك العين صورة الظَّهر، وكذلك في اقتناص العُلوم طرقٌ عَجيبةٌ فيها ازْوِراراتٌ وتحريفات أعجب ممّا ذكرنا في المرآة وقليلٌ من يَهتدي إلى الحِيلةِ في تلك الازْورارات.

فهذه هي الأَسْباب المانعةُ للقلوب من معرفة حَقائق الأُمور، وإلّا فكلُّ قلبٍ هو صالح بالفِطْرة لمعرفة الحَقائق؛ لأنّه أَمرٌ رَبَّانيٌ شَريفٌ فارقَ سائر جَواهِر العالم بهذه الخاصّية والشَّرف؛ وبهذه الخاصيَّةِ حَمَل أمانة الله عزَّ وجَل التي عجزت عن حملها السّماواتُ والأَرضُ والجِبال، وتلكَ الأمانةُ هي المعرفةُ والتوحيدُ، فقلبُ

(١) في (ظ): «بطريق».

كل آدمي مُستعدٌّ لحملِ الأمانة ومُطيقٌ لها في الأصل، ولكن تُثَبِّطُه عن النُّهوضِ بأعبائها والوصول إلى تَحقيقها الأسبابُ التي ذكرناها، ولذلك قال عليه الصلاة والسّلام: «كُلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطْرة، وإنّما أَبواهُ يُهَوِّدانِهِ وَيُنصِّرانِه. . .».

وهذا التَّجلِّي والإيمان[1] له ثَلاثُ مراتب:

المرتبة الأولى: إيمانُ العوام في بداياتهم وهو إيمانُ المقلّد المَحْض.

والثاني: إيمانُ العلماء بالدَّليل.

والثالث: إيمان المُوقِنين، واليَقين أبلغُ العُلوم المكتَسَبة.

ونُبيِّنُ لك هذه المراتب بمثال؛ وهو أنّ تَصْديقَكَ بكونِ زيدٍ مثلاً في الدّار له ثلاث دَرَجات:

الأولى: أن يُخبركَ به مَنْ جَرَّبْتَ عليه الصِّدقَ ولم تَعرف منه الكَذب، فإنَّ قلبكَ يَسكُنُ إليه ويَطمئنُّ، وهذا هو الإيمان بمجرَّد التَّقليد، وهو مثل إيمان العَوام.

الرّتبة الثانية: أن تَسمَعَ كلامَ زَيدٍ وصَوْتَهُ في الدّار، ولكن منْ وَراء جدار، فَتَستدل به على كَونه في الدّار، فيكون هذا التَّصديق أَقوى من التَّصْديق بالخَبر عنه، هذا إيمانٌ ممزوج بدليلٍ، ويتطرق إليه الخَطَأ من جهة أنَّ الأَصْوات تَشْتَبِهُ.

الرّتبةُ الثّالثة: أن تدخل الدّار فَتَراهُ بعَينك، فهذه هي المعرفة الحَقيقيةُ، وهي معرفة الصِّدّيقين والمُقَرّبين، ثم يتفاوت أهل هذا المقام في مَقادير العلوم، ودرجات الكشف مثلَ أنْ تَرى زَيداً قريباً منكَ في وقتِ إشْراقِ الشمس، ويَراهُ آخرُ من بعُدٍ في وَقت العِشاء، فهذا مُتيقِّن[2] إلا أنّه لا يَبينُ له خَفايا صُورته.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في الأصل: «موقن».

بيانُ

حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنياوية والأُخراوية

اعلم أنَّ القلبَ بغريزته مستعدٌّ لقبول حقائق المعلومات كما سبق، ولكنّ العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وشرعية.

فالعقلية تنقسم إلى ضرورية ومُكتسَبةٍ، والمكتَسبةُ تنقسم إلى دنياويةٍ وأُخراوية.

أمّا العقلية، فنعني بها ما تَقضي به غريزة العقل ولا يؤخَذُ بالسَّماع والتَّقليد.

وهي تنقسم إلى ضرورية لا يُدرى من أينَ تحصل ولا كيفَ حصلت، كعلم الإنسان أنَّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً موجوداً معدوماً مَعاً، فإنّ هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصِّبا مفطوراً عليها، ولا يدري متى حصل له هذا العلم، ولا من أينَ حصل، غير أنّه يعلم أن الله تعالى هو الذي خلقه.

وإلى مُكتَسَبة، وهي المستفادة بالتَّعلُّم والاستدلال، والقلبُ جارٍ مَجرى العين، وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البَصَر في العين.

وأمّا العلوم الدّينية، فهي المأخوذة من الأنبياء عليهم السّلام، وذلك يَحصل بالتَّعلم لكتابِ الله وسُنَّة رسوله وفهم معانيهما، وبه كمال صفة القلب وسَلامته من الأمراض؛ لأنّ العلوم العَقلية غير كافية في سَلامته وإن كان مُحتاجاً إليها، كما أن العقل غَيْر كافٍ في استدامةِ أسباب صحة البَدَن، بل يحتاج إلى معرفة خواصِّ الأدوية[1] والعَقاقير بطريق التَّعلُّم من الأطباء، إذ مُجرَّد العقل لا يَهدي إليه، ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه إلا بالعقل، ولا غنى بالعقل عن السَّمع، ولا بالسَّمع عن العقل، فالدّاعي إلى محض التقليد، مع عزل العقل بالكُلِّية جاهلٌ، والمكتفي

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الأسماء».

بمجرَّد العقل عن القُرآن والسُّنَّة مَغرورٌ، فاجمع بينَ الأصلين، فإن العلومَ العقليةَ كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدويةِ، والمريضُ يَتضرَّر بالغذاء إذا فاتَه الدَّواء ،فكذلك أمراضُ القلب لا يمكن عِلاجُها إلّا بأدويةٍ مُسْتفادةٍ من الشَّريعة ،وهي لَطائف العبادات والأعمال التي ركَّبها الأنبياءُ لإصلاح القُلوب ، فَمَن لا يُداوي قَلبه المَريض بمعالجات العبادات الشَّرعية اكتفاءً بالعلوم العَقلية ، فإنّه يَستَضِرُّ بها كما يَستَضرُّ المريضُ بالغِذاء .

ومَن ظَنَّ أنّ العلوم العقلية مُناقضةٌ للعلوم الشرعية ، وأنَّ الجمع بينهما غير ممكنٍ ، فهو ظَنٌّ صادر عن عَمىً في عَين البَصيرة ، وهذا ربَّما خَفِيَ عليه الجَمعُ بين بَعض علوم الشرع فظنّ بَعضَها مناقضاً لبعضٍ ، فانسَلَّ من الدِّين انْسِلالَ(١) الشعرةِ منَ العجين ، وذلك لأنَّ عجزَه خيَّل إليه تناقُضاً في الدّين ، فَمَثلُهُ كمَثلِ أَعمى دَخلَ داراً فتعثَّر فيها بأواني الدّار، فقال: ما بالُ هذه الأواني تُركَت على الطَّريق؟ وهَلّاَ رُدَّتُ إلى مَواضِعها. فقيل له: الأواني في مَواضعها، وإنّما أنتَ لا تَهتدي إلى الطَّريق لعَماكَ، فالعَجَبُ منكَ كيف لم تُحِلْ تَعثُّرَكَ(٢) على عَماكَ، وأَحَلتَه على تقصيرِ غَيرك .

واعلم أن العلوم العقليةِ تَنقسم إلى: دُنياويةٍ، كعلم الطب والحِساب والهندسة.

وأخراوية، كالعلم بالله وصفاته وأفعاله، والعلم بأحوال القَلب وآفات الأعمال. وَقَلَّ أنْ يَشتغل أحدٌ بأحدِ القِسْمين. إلّا ويُقصّر في الآخر.

ومتى رأيتَ مشغولاً بعلوم الدّنيا يجحد بعضَ علوم الدّين فاعلم أنّ ذلك لبُعده عنه، ومِن أينَ يَظفرُ سالكُ الشَّرق بما في طريقِ الغَرب؟

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩ - ٣٠].

---

(١) في الأصل: «كانسلال».
(٢) في الأصل: «بعَثرتك».

بَيان

الفَرقِ بين الإلهام والتَّعليم

اعلم أنَّ العلوم التي ليست ضَرورية وإنّما تَحصُلُ في القلب في بعض الأحوال يختلف الحالُ[١] في حُصولها، فتارةً تَهجُمُ على القَلب من حيث لا يَدري، وتارةً تُكتَسَبُ بطريق الاستدلال والتَّعلُّم.

فأمّا الذي يَهجُمُ على القَلب، فمنه مالا يَدري العبدُ كيفَ حصَل، وذلك الإلهامُ، وهو للأولياء.

ومنه ما يُعرَفُ سببه، وذلك الوَحيُ، وهو للأنْبياء.

ومنه ما يَحصل بطريق الاكتِسابِ، وهو يختصُّ بالعُلماء.

وحَقيقةُ القَولِ في هذا: أن القلبَ مُستعدٌ لتجلِّي الحقائق فيه، وإنّما حِيلَ بينه وبينها بالأسباب الخَمسة التي سبقَ ذكرها[٢]، فهي كالحِجاب المُسْدَل، والحجابُ تارةً يُزالُ بيَدٍ، وتارةً بهُبوبِ ريحٍ تُحَرِّكُه.

---

(١) في الأصل: «الأحوال».

(٢) تقدمت في الصفحة ٥٨٠ ـ ٥٨١.

بيان

تَسلُّط الشَّيطان على القَلب بالوَسواس

القَلبُ بأصلِ فِطرته قابلٌ للهُدَى[١]، وبما[٢] وُضِعَ فيه من الشَّهوة والهَوى مائلٌ إلى ذلك، والتَّطاردُ فيه بينَ جُنْدَي الملائكة والشَّياطين دائمٌ إلى أن يَنْفَتِحَ[٣] القَلبُ لأحدهما فيتمكَّن ويَستوطن، ويكون اجْتيازُ[٤] الثّاني اختلاساً، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ٤]، وهو الذي إذا ذُكِرَ اللهُ خَنَسَ، وإذا وَقعت الغَفلةُ انْبَسَطَ.

وأَكثرُ القلوبِ قد فَتَحها جُندُ الشَّيطان ومَلَكَها، فامتلأت بالوَساوس الدَّاعية إلى إيثار العاجِلة واطِّراح الآخرة، ومَبْدأ استيلائها[٥] اتِّباعُ الهوى، ولا يَطردُ جندَ الشَّيطان من القَلب إلا ذكرُ اللهِ تعالى؛ لأنّه لا قَرارَ لجُنْدِهِ مع الذِّكرِ.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الهوى».
(٢) تحرفت في الأصل إلى: «ربما».
(٣) في (ظ): «ينفسح».
(٤) في (ظ): «اختيار».
(٥) في (ظ): «استلابها».

بيان

تفصيل مداخل الشَّيطان إلى القَلب

اعلم أنّ مَثَلَ القَلب كمثل حِصنٍ، والشَّيطانُ عَدوٌّ يُريد أنْ يدخلَ الحِصْنَ ويملكه ويَستولي عليه، ولا يُمكن حِفظُ الحصنِ إلا بحراسةِ أبوابه وثُلَمِهِ[١]، ولا يَقدر على حراسةِ أبوابه مَنْ لا يَعْرف أبوابَه.

ولا يُتَوصَّل إلى دَفعِ الشيطان إلا بمعرفةِ مَداخِله، ومَداخلُ الشَّيطان وأبوابُه صِفاتُ[٢] العبدِ وهي كثيرةٌ، إلّا أنّا نُشير إلى الأبواب العظيمَة الجارية مَجرى الدُّروب التي لا تَضيق عن كثرة جُنود الشيطان.

فمن أبوابه العظيمة: الحَسَد والحِرص، ومتى كان العبدُ حريصاً على شيءٍ أعماهُ حِرصُه وأَصَمَّه، وغطّى نورَ البصيرة التي تَعرفُ مداخلَ الشَّيطان، وكذلك إذا كان حَسوداً، فيجد حينئذ الشيّطانُ الفُرصَةَ، فَيُحَسِّنُ عندَ الحَريصِ كلَّ ما يوصِلُه إلى شَهوته، وإن كان مُنكراً وفاحشاً، وقد رُويَ أنَّ إبليس ركبَ السَّفينة مع نوحٍ، وقال له: إنّما أُهلك النّاس بالحسد والحِرص، فبالحسدِ لُعِنْتُ، وبالحرصِ أَصَبتُ حاجتي من آدم.

ومن أبوابه العَظيمة: الغَضَبُ والشَّهوةُ، فإن الغَضَب غُوْلُ العقل، وإذا ضَعُفَ جندُ العقل هجمَ جندُ الشَّيطان فَلعِبَ بالإنسان، وقد رُوي أنّ إبليس يقول: إذا كانَ العبدُ حديداً قلبناهُ كما يَقلب الصِّبيان الكُرة. وقال: كيف يَغْلبني ابنُ آدم وإذا رضي جئتُ[٣] حتى أكون في قلبه، وإذا غضب طِرتُ حتى أكونَ في رأسه.

(١) الثُّلَم: جمعُ ثُلمَة، وهي الشّقُّ.
(٢) في (ظ): (وصفات).
(٣) تحرفت في الأصل إلى: (حيث).

ومِن أبوابه: حُبُّ التَّزَيُّن في المنزل والثياب والأثاث، فلا يَزال يَدعو إلى عِمارة الدّار وتَزيين سُقوفها وحيطانها والتَّزَيُّنِ بالثياب والأثاثِ، فَيَسْتَسخِرُ الإنسانَ طولَ عُمره في ذلك.

ومن أَبوابه: الشِّبَع، فإنّه يُقَوي الشَّهوة ويُثقِل عن الطَّاعة.

ومن أَبوابه: الطَّمع في النّاس، فإنّ مَن طمِعَ في شخصٍ بالغ في الثَّناء عليه بما ليس فيه، وداهَنَهُ[١]، ولم يأمره بمعروفٍ، ولم يَنْهَهُ عن مُنكر.

ومن أبوابه: العَجَلة وترك التَّثبُّتِ، وقد قال عليه الصلاة والسَّلام: العَجلةُ من الشَّيطان، والتأنّي من الله تعالى.

وإنّما ذُمَّت العَجَلة؛ لأن العَمل ينبغي أن يكون على بَصيرةٍ، ولا تَحصلُ البَصيرة إلّا بالتَّثبُّت، وقد أوصى إبليس أَعوانَهُ فقال: ائتو بَني آدم من قِبَلِ العَجَلةِ والخِفَّة[٢].

ومن أَبوابه: حُبُّ المال، ومتى تمكَّن من قَلبٍ أَفسده وحَمله على الطَّلب له من غَيْرِ وَجهه، وأخرجه إلى البُخل وخَوَّفه الفَقر، فمنعَ الحقوقَ اللازمة.

ومن أبوابه: حَمل العَوام على التَّعصُّبات في المَذاهب دون العمل بمُقتَضاها، فترى مَن يتَعصَّبُ لأبي بكرٍ أو لعليٍّ يَلبَسُ الحرير ويَشربُ الخَمر، ويَظن أنَّ نَفسَ التَّعصُّبِ يَنفعه.

ومن أبوابه: حمل العوام على التفكُّر في ذات اللهِ وصفاته، وفي أمور لا يَبلُغها حَدُّ عقولهم حتى يُشكِّكَهم في أصل الدِّين، ويُخيِّل لهم في الله تعالى خيالاً يتقدَّسُ عنه، فيصير الإنسانُ بذلك كافراً أو مُبتدعاً، وهو مسرور بما وَقَر في صَدره يَظنُّ أنّ ذلك معرفةً.

ومن أبوابه: سوء الظَّن بالمسلمين، ومَن حَكمَ على مسلم بسوءِ ظَنِّه فيه احتَقَرهُ وأطلق لسانَهُ بغِيبتِه، ورأى نَفسه خيراً منه، وإنَّما يترشَّحُ سوءُ الظَنِّ لخُبثِ الظّانِّ؛ لأنّ المؤمن يَطلب المعاذيرَ للمؤمن، والمنافق يَبحث عن عُيوبه.

---

(١) داهنَه: داراه ولايَنَهُ.

(٢) الخِفَّة: الطَّيش.

ويَنبغِي للعاقل الاحترازُ عن مَواقف التُّهم لئلا يُساء به الظَّنّ، فقد قال عليه الصلاة والسّلام لرَجُلَين رَأياه يَمشي مع امرأةٍ باللَّيلِ: «إنَّها صَفِيَّة».

فهذا طرفٌ من ذِكر مَداخلِ الشَّيطان، وعلاجُ هذه الآفات سَدُّ المداخلِ وتطهيرُ القَلب من الصِّفات المذمومة، وسيأتي لكل صِفة منها كتابٌ إن شاء الله تعالى.

وإذا قُلِعَت من القَلب أُصول هذه الصّفات بَقي للشَّيطان بالقلبِ خَطَراتٌ واجْتيازاتٌ[١] من غَيْر استقرار، فيمنعه من ذلك الذّكر لله تعالى، إلّا أنّه لا يكون الذّكر ذكراً إلّا بَعدَ تَطهير القَلب من الصِّفات المذمومة، وعمارتِهِ بالتَقوى، وإلّا كان الذّكر كحديثِ النَّفس، لا يَدفع سُلطانَ الشيطان.

ومثال الشَّيطان مثالُ كلبٍ جائع يقربُ منك، فإنْ لم يكن بَينَ يديك لحمٌ أو خُبزٌ، فإنّه يَنْزَجرُ بأنْ تَقولَ له: اخْسَأْ. فمجرَّد الصَّوت يَدْفَعه، وإن كانَ بينَ يديكَ شيٌ من ذلك وهو جائعٌ لم يندفع بمجرّد الكلام، فكذلك القلب الخالي عن قُوتِ[٢] الشَيطان يَنزجرُ بمجرَّد الذِّكْر.

وأمّا القلوبُ التي يَغلبُ عليها الهَوى، فإنّها تَدفَع حقيقةَ الذِّكر إلى حواشي القَلب، فلا يتمكن من سُوَيدائه[٣]، فيَستقرُّ الشَّيطان في السُّوَيداء.

وإذا أردتَ مِصداق هذا، فتأمَّل حالكَ في صلاتِكَ، وانظُر إلى الشَّيطان كيف يجذبُ[٤] قلبكَ في مثل هذه المواضع إلى ذكرِ السُّوق وحساب المُعاملين وتَدبير أمور الدّنيا، وذلك لأنَّ القَلبَ مَشحونٌ بالأخْلاط، فدخولُ شَربةِ الدَّواء إليها يُثيرُها[٥]، وإنّما يَنبغي استعمال الحِمية قبلَ الشَّربة، لينتفع بالدَّواء ويَستخرجَ بَقايا مُحتَبسة.

---

(١) تصحفت في النسخ إلى «اختيارات»، والمثبت من (الإحياء).
(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (قرب).
(٣) في النسخ (سويدائها)، والمثبت من (الإحياء)، وسويداء القلب: داخله.
(٤) تصحفت في (ظ) إلى: (يحدث).
(٥) تحرفت في الأصل إلى: (شرها).

بَيان

مايُؤاخَذ به العَبدُ من وَساوس القُلوب وخَواطرها ومايُعْفى عنه

اعلم أنّه قد عُفي عن حَديث النَّفس، ويدخل في ذلك ما هَمَّت به، ومَن تْركَه لعائقٍ رَجَونا له المُسامَحة، إلّا أن يكون عَزماً، فإنّ العزمَ على الخَطيئة خَطيئة، قال عليه الصَّلاةُ والسلام: «إذا التقى المسلمانِ بسَيْفَيهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النار» قيل: مابالُ المقتول؟ قال: «إنّه أرادَ قتلَ صاحبه».

وكيف لا تقع المؤاخذةُ بالعزم والأعمالُ بالنِّية؟! وهل الكِبرُ والرِّياء والعُجبُ إلا أمورٌ باطِنَةٌ؟! ولو أنّ إنساناً رأى على فراشه أجنبيةً وظنَّها زَوجته لم يأثم بوَطئِها، ولو رأى زَوجته فَظنَّها أجنبيةً أثِمَ، وكلّ هذا مُتعلِّقٌ بقَصْدِ القلبِ.

فإن قيلَ: هل يُتصوَّر انقلاع الوَسواس منَ القَلب؟

فالجواب: أنّه يجوز أن يَنقطع الوسواس عن قَوم وقتاً دون وَقت، أو في حالٍ دون حال، فأمّا على الدَّوام في كل الأحوال فلا، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لَبِسَ خَميصَةً[1]، فقال: «شَغَلتني أعلامُها». ولبس خاتماً ثم رَماهُ، وقال: «نَظْرةٌ إليكم ونَظرةٌ إليه».

وإنما تَزيدُ الوَساوس بأسبابها، ومَنْ أنْشَبَ مَخالبَهُ في الدُّنيا وطَمعَ أنْ يَتخلَّص[2] من الشيطان، كان كمن انْغَمَسَ في العَسَل وظَنَّ أنّ الذُّباب لا يَقَعُ[3] عليه.

(١) الخميصة: ثوب أسود أو أحمر له أعلام.
(٢) في الأصل: (يخلص).
(٣) في الأصل: (يقع).

بَيان

سُرعة تَقَلُّب القُلوب

اعلم أنَّ القلبَ تكتنفه الصِّفات التي ذكرناها، وتنصَبُّ إليه الآثار من الأبواب التي وصفناها، فكأنّه هدفٌ يُصاب على الدَّوام من كل جانب، فإذا أصابه شيء فتأثَّر به أصابه من جانبٍ آخر ما يُضادُّه فَتَغيَّرَ وَصفُه، فإنّ الشيطان ينزل به فيدعوه إلى الهوى، فينزلُ الملكُ فيصرفه عنه، وتارةً يجذبه شيطانٌ إلى شَيءٍ وشَيطانٌ آخرُ إلى غَيره.

ولاطِّلاع رسولِ الله ﷺ على عَظيم[1] صُنعِ الله في القُلوب كانَ يحلفُ فيقول: «لا ومُقلِّب القُلوب». أخبرنا عبد الأوَّل قال: أخبرنا الداوودي قال: أخبرنا ابن أَعيَن قال: أخبرنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا محمد بن يوسف عن سُفيان عن موسى بن عُقْبة عن سالم عن ابن عُمر قال: كانت يَمينُ رسولِ الله ﷺ إذا حلفَ: «لا ومقلِّب القُلوب». انفرد بإخراجه البُخاري. وأخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو عبد الرَّحْمن قال: حدثنا حَيْوَةُ قال: أخبرني أبو هانئ أنّه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلي أنّه سمع عبد الله بن عمرو أنّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ قُلوبَ بَني آدم كُلّها بين أصبُعين من أصابع الرحمن تبارك وتعالى كقلبٍ واحدٍ يُصرِّفُ كيفَ يَشاء» ثم قال رسول الله: «اللّهمَّ مُصرِّفَ القُلوب اصرف قُلوبَنا إلى طاعَتك». انفردَ بإخراجه مسلم.

وفي حديث أنس عن النَّبي ﷺ أنّه كان يُكثر أن يقول: «اللّهم يا مُقلِّبَ القُلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك». قال: فقُلنا له: يارسولَ الله آمنَّا بكَ وبما جئتَ به، فهل

(١) في الأصل: (عظم).

تخافُ عَلينا؟ قال: نعم، إنّ القُلوبَ بين أُصبعين من أصابع الله عز وجل يُقلّبها تبارك وتعالى».

أخبرنا عبد الرّحمن بن محمد، قال: أخبرنا محمد بن علي الدَّجّاجي قال: أخبرنا علي بن معروف قال: حدثنا محمد بن الهَيْثم قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبَّار قال: حدثنا أبو بكر بن عَيَّاش عن الأعمش عن أبي سُفيان عن أنَس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ القَلبِ كمَثَلِ رِيشَةٍ بأرضِ فلاةٍ تقلِّبُها الرِّياح».

واعلم أنَّ القلوبَ في الثَّباتِ[1] على الخَيرِ والشَّرِّ والتَّردُّدِ بينَهما ثلاثةٌ:

الأول: قلبٌ عُمِّرَ بالتَّقوى، وزُكِّي بالرّياضَة، وطُهِّرَ عن خَبائِث الأخلاق، فتنقدِحُ فيه خَواطر الخَير من خزائن الغَيب، فيُمدُّه المَلَكُ بالهُدى.

والقلب الثاني: قلبٌ مَخذول مشحون بالهوى، مُدنَّسٌ بالخبائث، مُلوَّثٌ بالأخلاق الذَّميمة، قد أَلِفَ عقلُه خِدمةَ الهَوى، فانْبسطت فيه الظُّلمات فَقوي فيه سُلطانُ الشَّيطان لاتِّساع مَكانه بسبب انتِشار الهَوى، فَيُقبل عليه بالتَّزيينِ والغُرور، فيضعف سُلطانُ الإيمان بالوعد والوعيد، ويَمتلئ القَلبُ بدخانِ الهَوى، فينعدم النُّور، ويَصيرُ كالعَين المُمتلئة بالدُّخان لا يمكنها النَّظر، فلا يُؤَثِّر عنده زَجْرٌ ولا وَعْظ.

القلب الثّالث: قلبٌ يَبتدئ فيه خاطر الهوى، فيدعو إلى الشَّرِّ، فيلحقُه خاطر الإيمان فيَدعو إلى الخَير، فتَنبعث النَّفسُ بشَهوتها إلى نُصرَة خاطرِ الشَّرِّ[2]، فتقوى الشَّهوةُ، فينبعثُ العقلُ، فَيدفع في وجه الهَوى ويُقبح فِعْله ويُشبهه بالبَهيمة والسَّبُعِ في تَهجُّمِه على الشَّرِّ وقلَّةِ اكتراثه بالعَواقبِ، فتميل النَّفسُ إلى نُصح العَقل، فيحمل الشيطانُ حملةً على العَقل ويُقَوِّي داعي الهَوى، ويقول: أما تَرى فُلاناً وفُلاناً كيف يُطلقون أنفسَهم في هَواهَا؟ حتى يَعُدَّ له جماعةً من العُلماء، فتميلُ النَّفسُ إلى الشَّيطان، فيحمل الملَكُ حملةً على الشَّيطان ويَقول[3]: هَلْ هلكَ إلا مَن نَسِيَ

(١) تصحفت في الأصل إلى (النيات).
(٢) سقط من (ظ).
(٣) سقطت من الأصل.

العاقبةَ؟ أَفتستَثقِلُ الصَّبرَ عن شَهْوةٍ ولا تَستثقلُ ألم النّار؟ أو تَغْترُّ بغفلةِ الناس عن أنفسهم؟ أرأيتَ لو وُقِفوا كلّهم في الصَّيف في الشَّمس ولكَ بيتٌ باردٌ أكنتَ تُوافقهم أم تَطلبُ المصلحة؟ أفتُخالِفُهُم في مَرِّ الشمسِ ولا تُخالهم فيما يَؤول إلى النّار؟! فتميلُ النَّفسُ إلى قولِ المَلكِ، ويَقعُ التَّردُّد بين الجُنْدَينِ إلى أن يَغلبَ على القلبِ ما هو أَولى به منَ الصِّفات المَلَكيةِ أو الشَّيطانية، فمن خُلِقَ للخير يُسِّرَ له، أو للشرِّ يُسِّرَ له، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فهذا القَدرُ من شَرحِ أحوال القَلبِ يكفي في مَعرفة أغْوار عِلم المُعاملة وأسرارها، فلينتفع به مَنْ لا يقنع بالظواهر ولا يجتزئ بالقُشور عن اللُّباب.

آخر كتاب عَجائب القَلب(١)

(١) ورد هنا في هامش النسخة (ظ) ما نصه: (آخر الجزء الثامن من أصل الشيخ المصنف).

كتاب رياضَة النَّفس وتَهذيب الخُلُق ومُعالجة أمراض القَلب

الحمدُ لله الذي صرَّف الأمور بتَدبيره، وأجرى الأحوالَ على تقديره، وفوَّض تحسينَ الأخلاق إلى العبدِ وتَشميره، واستَحثَّه على تَهذيبها بترغيبه وتحذيره، وسهَّل على خواصِّ عباده إصلاحها بتَيسيره.

أحمدُه على قليل الإنعام وكثيره، وأصلّي على محمدٍ صَفيِّه ونَبيِّه وبَشيره ونَذيره، وعلى آله وأصحابه ما رقصَ غُصنٌ بوُرْقٍ[1] على غَديره، وسلّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد، فالخُلُقُ الحَسَن صِفةُ الأنبياء والصِّدِّيقين، والأخلاق السَّيئة سُمومٌ قاتلةٌ تَنخرطُ بصاحبها في سلك الشَّيطان، وأمراضٌ تُفَوّتُ حياةَ الأبد، فينبغي تَعرّفُ العلل ثم التَّشميرُ[2] في مُعالجتها.

ونحن نُشير في هذا الكتاب إلى جُملٍ من أمراض القُلوب وكيفية القَول في مُعالجتها في الجملة من غير تفصيلٍ لعلاج خصوص الأمراض، فإن ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الرُّبع، وغَرَضُنا الآن النَّظر الكُلِّي في تهذيب الأخلاق وتمهيد منهاجها، ونحن نَذكُر ذلك ونجعل علاج البَدَن مِثالاً له ليَقرُبَ من الأَفْهام دَرْكُه،

(١) الوُرق: جمع ورقاء، وهي الحمامة.
(٢) تحرفت في الأصل إلى: (التعرف).

ويتّضح ذلك ببيان فَضيلة حُسْن الخُلُق، ثم بيان حقيقة حُسْن الخُلُق، ثم بيان قَبول الأخلاق للتَّغيُّر بالرّياضَة، ثم بيان السَّبب الذي به [(١] يُنال حُسْن الخُلُق، ثم بَيان تفضيل الطَّريق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة النُّفوس، ثم بَيان العلامات التي بها يُعرف مَرَض القلوب، ثم [١)] بيان الطريق الذي به يَتعرف الإنسان عُيوبَ نفسه، ثم بيان شَواهد العَقل على أنَّ طريق المُعالجةِ للقلوب بترك الشَّهوات، ثم بيان علامات حُسْن الخُلُق، ثم بيان الطريق في رياضة الصِّبيان في أوّل النُّشُوء، ثم بيان شروط الإرادة ومُقدمات المجاهدة، فهي أحد عشر فَصلاً تجمعُ مقاصدَ الكتاب إن شاء اللهُ تعالى.

(١-١) سقط من (ظ).

بيان

فَضيلة حُسْن الخُلُق وذَمّ سوء الخُلُق

قَد ذكرنا في أولِ كتابِ آدابِ الصُّحبَة فَضائل حُسْن الخُلُق، فَلَيُنظَر من ثَمَّ لئلا يُعاد.

واعلم أنَّ النَّاسَ قد تكلّموا في حُسْن الخُلُق مُتعرِّضين لثمرته لا لحقيقته، ثم لم يَستوعِبوا جَميع ثَمراته، بل ذكر كلٌّ منهم مِنْ ثمراتِه ما حَضَر في ذِهْنه، فقال الحَسَن(١): حُسنُ الخُلق: بَسطُ الوجه، وبَذْلُ النَّدى، وكَفُّ الأذى.

وقال قومٌ: احتمالُ الأَذى، وبَذلُ المال. وأقوالهم في هذا كثيرة، وكلُّها يَعرِضُ لبعض ثمرات حُسْن الخُلُق لا لنَفسه.

وكشفُ الحقيقة في هذا أن يُقال: كثيرٌ ما يُستَعمل ذكر الخَلْق مع الخُلُق، فيُقال: فُلانٌ حَسَنُ الخَلْقِ والخُلُق. أي: حَسنُ الظاهِرِ والباطِن.

فالمرادُ بالخَلْقِ: الصُّورةُ الظاهرةُ، ويُرادُ بالخُلُق: الصورةُ الباطنةُ، وذلك لأن الإنسانَ مركَّبٌ من جَسَدٍ ونَفسٍ، فالجَسد مُدرَكٌ بالبَصَر، والنَّفسُ مُدرَكةٌ بالبَصيرة، ولكل واحدٍ منهما هَيئةٌ وصورة إمّا قَبيحة، وإمّا جَميلة، والنّفس المُدرَكةُ بالبَصيرة أعظمُ قَدْراً من الجسد المُدرَك بالبَصر، ولذلك عَظَّم اللهُ سبحانه أمره بأن إضافَهُ إلى نَفْسه، فقال: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧١-٧٢]، فَنبَّهَ على أن الجسدَ منسوبٌ إلى الطِّين، والرّوحَ مَنسوبةٌ إلى الله تعالى.

والمُرادُ بالنَّفس والرُّوحِ هاهنا شَيءٌ واحد، فالخُلُق عبارةٌ عن هَيئةٍ للنَّفس راسخةٍ تَصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجةٍ إلى فكرٍ ورَويَّةٍ، فإن كانت

---

(١) يعني الحسن البصري رحمه الله.

الهَيئةُ بحيثُ تصدر عنها الأَفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشَرعاً سُمِّيت الهيئةُ خُلُقاً حَسناً.

وإن كان الصادر منها أفعالاً قبيحةً سُمِّيت الهيئةُ التي هي المَصدر خُلُقاً سَيِّئاً.

وإنّما قُلنا: إنّها هَيئةٌ راسخةٌ، لأنّ مَنْ يَصدُر منه بَذلُ المال على النُّدورِ لحالةٍ عارضةٍ لا يُقال: خُلُقُه السَّخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثُبوتَ رسوخٍ.

وإنّما شَرَحْنَا أن تصدر منه الأفعال بسهولةٍ من غير رَوِيَّةٍ؛ لأنَّ من تكلَّف بَذلَ المال أو السكوت عند الغَضَب بجهدٍ ورَويَّةٍ لا يُقال: خُلُقُه السَّخاء والحِلْم.

فها هنا أَرْبعة أُمور:

أحدها: فعل الجَميل والقَبيح.

والثاني: القُدرة عَليهما.

والثالث: المعرفة بهما.

والرّابع: هَيئةٌ للنَّفس بها تَميل إلى أحد الجانبين وتُيسِّر عليها أحد الأمرين إمّا الحَسَن وإمّا القَبيح.

وليسَ الخُلُق عبارة عن الفِعل، فربَّ شخصٍ خُلُقه السَّخاء ولا يَبْذُل، إمّا لفقدِ المال أو لمانعٍ، وربّما يكونُ خُلُقه البُخْل وهو يَبذُل المالَ لباعثٍ أو لرياء.

وليس هو عبارة عن القُوة؛ لأن نِسْبة القُوة إلى الإمساك والإعْطاء بَل إلى الضِّدَّين واحدةٌ، وكل إنسانٍ قَد خُلقَ بالفِطْرة قادراً على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يُوجبُ خُلُق البُخل ولا خُلقَ السَّخاء.

ولا هو عبارة عن المَعرفة، فإن المعرفة تتعلّقُ بالجَميل والقَبيح جمعاً على وجهٍ واحدٍ، بل هو عبارة عن المَعنى الرّابع، وهي الهيئة التي[1] بها تَستعدُّ النَّفسُ لأن يصدر منها الإمساك أو البَذل.

---

(١) سقطت من الأصل.

فالحق إذن عبارة عن هَيئةِ النَّفس وصُورتها الباطنةِ، كما أن حُسن الصّورة الظاهرة مُطلقاً لا يتم بحُسنِ العَيْنَين دون الأنف والفَم والخَد، بل لابدّ من حُسن الجميع ليَتم حُسن الظّاهر، فكذلك في الباطن أربعةٌ أركانٍ لابدَ من الحسن في جَميعها حتى يتم حُسنْ الخُلُق، فإذا استَوت الأركان الأربعةُ واعتدلت وتَناسَبت حصل حُسن الخُلُق، وهي: قُوّة العِلم، وقُوّة الغَضب، وقوة الشَّهوة، وقُوّة العَدل بين هذه القِوى الثلاث.

أمّا قُوّة العلم فَحُسْنُها وصَلاحُها في أن تَصير بحيث يَسهل بها دَرْكُ الفَرق بين الصِّدق والكَذِب في الأقوال، وبين الحقِّ والباطلِ في الاعتقادات، وبين القَبيح والجميل في الأفعال، وإذا صَلُحت هذه القوة أثمرت الحِكمةَ، والحكمةُ رأس الأخلاق الحَسَنة.

وأمّا قُوة الغَضب، فحُسنها في أن يقتصر انقباضُها وانبِساطها على حَدّ ما تَقتضيه الحكمة، وكذلك الشَّهوة حُسنها وصَلاحُها في أن تكون تحتَ إشارة، الحِكمة ـ أعني إشارة الدِّين والعَقل.

وأمّا قُوة العَدْل فهي في ضَبط قُوّة الغَضَب والشَّهوة تحت إشارة العَقل والشَّرع، فالعَقلُ مَنزلتُه مَنْزِلة النّاصح المُشير وقوة العَدل هي القُدرة، ومنزلتها مَنزلة المنَفِّذ المُمْضي إشارة العَقل، والغَضب هو الذي تُنفَّذ فيه الإشارة.

ومثال الغَضَب مثال كَلبِ الصَّيد، فإنّه يحتاج إلى أن يُؤدَّبَ حتى يكون استِرسالُهُ وتَوقفه بحسَب الإشارة لا بِحَسَبِ هَيَجان النَّفس.

ومثالُ الشّهوة مثالُ الفَرَس الذي يُركَبُ في طلب الصَّيد، فإنّه تارةً يكون مُروَّضاً مؤدّباً، وتارةً لا يكونُ.

فَمن استَوتْ فيه هذه الصِّفات واعتدلت فهو حَسَن الخُلُق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصةً، كالذي يحسن بعض أجزاء وَجههِ دون بعض.

وحُسن القُوة الغَضَبية واعتدالُها يُعبَّر عنه بالشَّجاعة، وحُسنُ قوة الشَّهوة واعتدالها يُعبَّر عنه بالعِفَّة، فإنْ مالت قُوة الغَضَب عن الاعتدال إلى طرفِ الزِّيادة سُمِّي ذلك

تهَوُّراً، وإن مالَت إلى الضَّعف والنُّقصان سُمّي ذلك جُبْناً وخَوَراً، وإن مالت قُوة الشَّهوة إلى طرف الزِّيادة سُمّي شَرَها، وإن مالت إلى النُّقْصان سُمّي جموداً.

والمحمود هو الوسط، وهو الفَضيلة، والطَّرفان رَذيلتان مَذْمومتان.

والعَدْلُ إذا[1] فاتَ فليسَ له طَرفان زِيادة ونقصان، بل له ضِدٌّ واحدٌ، وهو الجَوْر.

وأما الحكمة فَيُسمى إفراطُها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خِبّاً[2]، ويُسمّى تَفريطها بَلَهاً، والوسَط هُو الذي يُخصّ باسم الحِكمة.

فإذن أمّهات الأخلاق وأُصولها أربعةٌ: الحكمةُ والشجاعةُ والعِفَّةُ والعدل.

ونَعني بالحكمة حالةً للنَّفس بها يُدرَك الصَّواب من الخَطأ في جميع الأفعال[3] الاختيارية.

ونَعني بالعَدل حالة للنَّفس وقوة بها تَسوسُ الغَضَبَ والشَّهوةَ وتَحملهما على مُقتضى الحكمة وتَضبطهُما في الاسترسال والانْقباض على حَسب مقتضاها.

ونَعني بالشَّجاعة كون قوة الغَضَب مُنقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

ونعني بالعِفَّة تَأَدُّب قوة الشَّهوة بتأديب[4] العَقل والشَّرع. فمِنْ اعتدال هذه الأُصول الأربعة تَصدرُ الأخلاق الجَميلة كلُّها، إذْ من اعتدال قوة العَقل يصدُر حُسنُ التَّدبير وجَودَةُ الذِّهْن وثَقابَةُ[5] الرأي، وإصابةُ الظَّنّ والتَّفطّنُ لدقائق[6] الأعمال وخَفايا آفات النُّفوس.

ومن إفراطها يَصدر المُنكَر والخِداع والدَّهاء.

---

(١) في الأصل: (فإذا).

(٢) الخِب: الخداع والغش.

(٣) في الأصل: (الأحوال).

(٤) في النسخ: (بتعديل) والمثبت من الإحياء.

(٥) في الأصل: (نقاية)، وثقابة الرأي: نفوذه في إصابة الصواب.

(٦) في الأصل: (بدقائق).

ومن تَفريطها يَصدر البَلَهُ والحُمقُ والجُنونُ، والفَرقُ بينَ الحُمقِ والجُنونِ أنّ الأحمقَ مقصودُه صَحيح ولكن سُلوكه للطريق فاسدٌ فلا تكون له رؤيةٌ صَحيحةٌ في طريق الوصول إلى الغرض، وأمّا المجنون فإنّه يَختار ما لا يَنبغي أن يَختار، فيكون أصلُ إيثاره واختياره فاسداً.

وأمّا خُلق[1] الشجاعة فيصدر منه الكَرمُ والنَّجدةُ والشَّهامَةُ[2] والاحتمال والحِلمُ والثَّباتُ وكَظمُ الغَيْظ والوَقار والتُّؤَدَة وأمثالها، وهي أخلاقٌ مَحْمودة.

وأمّا إفراطُها، وهو التهوُّر، فيصدر منه الصَّلَفُ والبَذخُ والاستِشاطَةُ والتّكبُّر والعُجْبُ.

وأمّا تفريطها فيصدر منه المَهانَة والذِلَّةُ والجَزَع والخَساسَةُ وصغر النَّفس والانْقِباضُ عن تناول الحق الواجب.

وأمّا خُلق العِفَّة فيَصدر منه السَّخاء والحَياء والصَّبر والمُسامَحةُ والقَناعة والوَرَع والطَّلاقة[3] والظّرف وقِلَّةُ الطَّمع.

وأمّا مَيلها إلى الإفْراط والتَّفريط فيصدر منه الحِرصُ والشَّرَهُ والوَقاحة والخُبثُ والتَّبذير والتَّقتير والرّياء والمَلَق والحَسَد والشَّماتَة وغير ذلك.

فأمّهات محاسن الأخلاق هذه الأربع، وهي: الحكمةُ والشّجاعة والعِفّة والعَدل، والباقي فروعها، فمَن جمع كمالَ هذه الأخلاق استحقَّ أن يكون بين الخَلق مَلِكاً مُطاعاً يَرجعون إليه ويَقتدون به، ومن انْفكَّ عن هذه الأخلاق واتَّصف بأضْدادها، فينبغي أن يُبعدَ كما يُبْعَدالشيطان، فالإيمان بالله ورسوله ثَمرةُ العَقل ومنتهى الحِكمة، والمُجاهَدةُ بالمال هو السَّخاء الذي يَرجع إلى ضَبط قوة الشَّهوة، والمُجاهدة بالنَّفس هي الشَّجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط

---

(١) تحرفت في (ظ) إلى: (حكم).
(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (الشهادة).
(٣) سقطت من (ظ).

العقل وحد الاعتدال، وقد وصفَ الله تعالى الصَّحابة فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فأشار إلى أن للشّدة مَوضعاً وللرَّحمة مَوضعاً، وليس الكمال في الشِّدّة بكلِّ حالٍ، ولا في الرَّحمة بكل حال.

فهذا بيانُ مَعنى الخُلُق وحُسنِه وقُبْحِه، وبَيان أركانِه وثمراتِه وفُرُوعِهِ.

بيان

قبول الأخلاق للتَّغيير بطريق الرِّياضة

قد زعم بعضُ من غلبت عليه البَطالة فاستثقل الرِّياضة أنّ الأخلاق لا يُتصور تَغيّرها، واستدلَّ على ذلك بشيئين:

أحدهما: أن الخُلُق هو صورة الباطن، كما أن الخَلْقَ هو صورة الظاهر، فكما لا يُمكن تغيير الخِلْقة الظاهرة بأن يجعل القبيح حَسناً، فكذلك لا يمكن تغيير الخِلْقة الباطنة.

والثّاني: أنّ الغَضبَ والشَّهوةَ من مُقْتَضى المِزاجِ والطَّبع، ولا يمكن تَغيير الطبع.

والجواب: أنّه لو كانت الأخلاق لا تَقْبَل التَّغيير لم يكن للمواعظ والوَصايا معنى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «حَسِّنوا أخْلاقكم». وكيف يُنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصَّيدَ المتوحش يُنقَل إلى الأُنْسِ، والكلبَ يُعلمُ ترك الأكل، والفرسَ يُعلَّم حُسنَ المشي وجَودةَ الانْقياد.

وكَشفُ الغِطاء عن ذلك أنا نقول: ما خُلِقَ كاملاً لا يحتمل التَّغيير لا يتغيَّر، وما وُجد ناقصاً وجُعِلَت فيه قوةُ الكمال إنْ وجد شرطه أمكن تكميله، فإنّ النَّواة ليست نخلةً، ولكنها خُلقت خلقةً يمكن أن تصير نخلةً بشرط أن يُضافَ إليها التَّربية، وإذا كانت النَّواة تقبل الانتقال لأنّها هُيِّئت لذلك، فالأخلاق أقبل.

ولسنا نُريد برياضة الغَضب والشَّهوة قمع[1] أثرهما بالكلِّيَّة، لأنَّه لا يمكن، وإنّما نريد أن نَقودَهُما بالرِّياضة إلى مَقام الاعتدال، وذلك ممكن، ولذلك أَمرتْ به

(١) في (ظ): (منع).

الشَّريعة، إلّا أنَّ بعضَ المُرَوَّض سَريع القَبول للصَّلاح، وبَعضه مُستَصعَب، ولاختلاف الأشياء في ذلك سَببان:

أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجِبلَّة وامتداد مدة الوجود، وأصعبُ الأحوال أمراً وأعصاهُ على التَّغيير الشَّهوةُ، فإنَّ الشَّهوةَ أقدم وجوداً في الإنسان، لأنّها مخلوقة في فِطرة الصَّبي، والغضبُ يُخلَق له بعد ذلك بمُدةٍ.

والثّاني: أن الخُلُقَ قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه وباعتقاد كونه حَسَناً، وبإدامَةِ الرِّياضة وتَعريف الصَّواب يَتَقشَّع غيم العادة.

وأمّا خَيالُ من وَقع له أنَّ مافي الجِبلَّة لا يتغيَّر فقد بينَّا أنّه ليس المقصود قَمْع هذه الصّفات بالكليَّة، كيف والشهوة إنّما خُلقت لفائدةٍ ضروريةٍ في الجبلَّة؟ ولو انقطعت شهوةُ الطعام لهلكَ الإنسانُ، أو شهوة الوقاع لانقطع النَّسلُ، أو انعدمَ الغضبُ بالكلِّية لم يَدفع الإنسانُ عن نَفسه ما يُهلكه، ومتى بقي أصلُ الشَّهوة بَقي حُبُ المال الذي يُوصله إلى الشَّهوة.

وإنّما المطلوبُ من الرِّياضة ردُّ الشَّهوة إلى الاعتدال الذي هو وَسطٌ بين الإفراطِ والتَّفريط، فكذلك المطلوب من الغضب حُسن الحَميَّة وأنْ يَخْلوَ عن التَّهوُّر والجُبْن جَميعاً، وقد قال عز وجل ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وإنما تصدر الشدّة عن الغَضب، ولو بَطل الغضبُ لامتنع جهادُ الكفَّار، وكيف يُقْصَدُ قَلعُ الغضب والرَّسول ﷺ يقول: «إنّما أنا بَشَر أَغضبُ كما يَغضبُ البَشَر». وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وما قال: الفاقِدين الغيظ.

وممّا يدلُّ على أنَّ المُراد من الرّياضة الاعتدال أنَّ السَّخاء خُلُقٌ مطلوبٌ شَرعاً، وهو وَسطٌ بين طَرَفي التَّبذير والتَّقْتير، وقد أثنى الله عز وجل عليه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۝٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧]، وكذلك المطلوبُ في شَهوة الطَّعام الاعتدال دونَ الشَّرَهِ والتَّقلُّلِ، قال الله عز وجل: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، إلا أنَّ الشيخَ المُرشِدَ للمُريد إذا رأى له مَيلاً إلى الغَضَب والشَّهوة حَسُنَ أن يُبالغَ في ذَمِّهما على الإطلاق ليَردَّهُ إلى التَّوسُّطِ.

بيان

السبب الذي به يُنال حُسنُ الخُلُق في الجملة

قد بَيَّنَّا أنّ حُسنَ الخُلُق يكون بالاعتدال، وهذا الاعتدالُ تارةً يَحصُل بكمالٍ في الفِطْرةِ مَنحهُ الخالقُ، فكم من صَبيٍ يُخلَق صادقاً سخياً حكيماً، وتارةً يَحصُل بالاكتِساب وذلك بالرِّياضة، وهي حَملُ النَّفسِ على الأعمال الجالِبَةِ[١] للخُلُقِ المَطلوب، فمن أرادَ أن يُحصِّل خُلُقَ الجودِ فليتكلَّف فِعلَ الجَواد مِنَ البَذْل ليصيرَ ذلك طبْعاً له، وكذلك مَنْ أرادَ التَّواضع تكلَّف أفعالَ المتواضعين، وكذلك جميعُ الأخلاق المحمودة.

وإنْ كانَ بين المحبِّ لما يفعلُه والمتكلِّف لما يكرهُه تباعُدٌ إلا أنَّ للعادة أثراً، فمن أرادَ أن يكون كاتباً تَعاطَى فعلَ الكُتَّاب، أو فَقيهاً تَعاطى فِعلَ الفُقَهاءِ من التكرار حتى تَنعطفَ على قلبه صفةُ الفِقه، إلا أنّه لا ينبغي أن يَطلبَ تأثيرَ ذلك في يومين وثلاثةٍ، وإنّما يُؤثِّر في الدَّوام، كما لا يُطلب في النُّموِّ عُلوُّ القامة في يَومين وثلاثة.

وكما لا ينبغي أن يُستهان بقليل الطاعات، فإنّ دَوامها يُؤثّر، كذلك لا يُستَهان بيَسير الذُّنوب، وكما أنَّ تَعاطي أسبابَ الفَضائل يُؤثّر في النَّفس ويُغيِّر طَبعها، فَمُساكَنَة الكَسَل تَصير عادةً فيُحرم كلّ خير، وقد تُكتسب الأخلاق الحَسَنة بمصاحبةِ أهلِ الخير، فإنَّ الطَّبع لِصٌّ يَسرقُ الخَيرَ والشَّر.

---

(١) تصحفت في الأصول إلى: (الخالية).

بيان

تَفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفتَ أنّ الاعتدال في الأخلاق هو صحةٌ في النَّفس والميل عن الاعتدال سَقَمٌ ومَرَض، فاعلم أنّ مثال النَّفس في علاجها بمحو الرَّذائل وكسبِ الفضائل مثال البَدَن، وعلاجُه بِمَحو العِلل عنه واكتِساب الصِّحة لهُ وجلبها إليه، فكما أنَّ الغالب على أصل[1] المزاج الاعتدال والعلّة عارضة، فكذلك كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفِطرة، وإنّما أَبَواه يَهوِّدانه ويُنَصرانه، وذلك بالتَّعويد والتَّعليم.

وكما أنّ البَدَن في الابتداء لا يُخلَق كاملاً وإنّما يكمل بالنُّشوء والتَّربية بالغِذاء، فكذلك النَّفس تُخلقُ ناقصةً قابلةً للكمال، وإنما تكمُلُ بالتزكيةِ وتهذيب الأخلاق والتَّغذية بالعلم.

وكما أنّ البَدَن إن كان صحيحاً فَشَأنُ الطبيب تَمهيد القانون الحافظ للصِّحّة، وإن كان مريضاً فشأنه جَلبُ الصِّحّة إليه، فكذا النَّفس إن كانت زَكيَّة طاهرةً مُهذَّبَةَ الأَخلاقِ فينبغي أن يَسعى لحفظِها وحفظ صحَّتها وجلب مَزيد قوة إليها واكتساب زيادة صَفاءٍ لها، وإن كانت عديمة الكمال والصَّفاء فيَنبغي أن يَسعى لجلب ذلك إليها.

وكما أنَّ العلَّة المغيِّرة لاعتدال البَدَن الموجبة للمرض لا تُعالَج إلا[2] بضدّها إن كانت من حرارةٍ فبالبُرودة، وإن كانت من بُرودةٍ فبالحَرارة، فكذا الرَّذيلة التي هي مَرضُ القلب عِلاجُها بضدِّها، فيعالَجُ مَرضُ الجهلِ بالتَّعلُّم، ومَرَضُ البُخل بالتَّسَخِّي[3]، ومَرَضُ الكِبْر بالتَّواضع ومَرَض الشَّرَهِ[4] بالكَفِّ عن المُشْتَهى تكلُّفاً.

---

(١) ليست في (ظ).

(٢) سقطت من (ظ).

(٣) أي حَضُّ النفس على السخاء.

(٤) في الأصل: (الشهوة).

وكما أنّه لابدَّ من احتمال مَرارة الدَّواء وشدة الصّبر عن المُشْتَهيات لعلاج الأبدان المريضةِ فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصَّبر لمُداواة مرض القَلب بل هو أولى، فإنّ مرض البَدَن يُخلِّص منه الموت، ومرض القلب عذابٌ يَدوم بعد الموت أبداً، وكما أن كلَّ مُبرِّدٍ لا يَكفي لعلّةٍ سببها الحَرارة إلّا إذا كان على حَدٍّ مخْصوص، ويختلف ذلك بالشدّة والضَّعف والكَثرة والقِلّة، ولابدّ له من عِيارٍ يُعرف به مقدار النَّافع منه، فإن لم يُحفَظ عِيارُهُ زادَ الفساد، فكذلك ما تُعالَج به الأخلاق، فإنّ الطبيب لا يعالج مالم يعرف أنَّ العلة من حرارةٍ أو بُرودةٍ، فإن كانت من حَرارةٍ نظر إلى دَرَجتها، هل هي ضَعيفة أو قَويَّة، فإذا عرف ذلك التفتَ إلى أحوال البَدن وأحوال الزَّمان وسِنِّ المريض وصناعته وأحواله، ثم عالجَ بحسب ذلك، فكذلك المُعلِّم الذي يَطبُّ نُفوس المُريدين ينبغي له أن لا يَهجُمَ عليهم بالرّياضَة في[1] فَنٍّ مَخصوص حتى يَعرف أخلاقَهم وأمراضَهم، إذْ ليس علاج كلِّ مرضٍ واحداً؛ فإذا رأى جاهلاً بالشَّرع علّمه، وإذا رأى مُتكبِّراً حمله على ما يوجب التَّواضُع، أو شديد الغَضب ألزمه الحِلم، وإن رآه لا يَسْخو بتَرك خُلُقِه دَرَّجَهُ إلى التَّغيير.

وليس غَرَضنا ذكر دواءِ كلِّ مَرض؛ لأن ذلك سَيأتي في بَقية الكتب إن شاء الله تعالى، وإنّما الغَرضُ الآن التَّنبيه على أن الطَّريق الكُلِّي مُخَالفةُ النَّفس فيما قد أَلِفَت من المَذْمومات.

وأشدُّ حاجةِ الرَّائضِ لنفسهِ إلى قُوة العَزم، فمتى كانَ مُتردِّداً بَعُدَ فَلاحُهُ[2]، ومتى أحسَّ من نفسه ضَعْفَ العزم تصبَّر، فإن نقضَتْ نفسُه عزيمتَها عاقَبها لئلا تُعاود، كما قال رجلٌ لنفسه: تتكلَّمين فيما لا يَعنيكِ، لأُعاقبنَّكِ بصوم سَنَة.

---

(١) في الأصل: (إلى).

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (فلا وجه).

بيان

علامات مَرَض القَلب وعلامات عوده إلى الصِّحَّة

اعلم أنّه كما أن كل عُضو من أعضاء البَدَن خُلقَ لفعلٍ خاصٍ به، وإنما مرضه أن يتعذَّر عليه الفِعل الذي خُلِق له حتى لا تصدر منه أصلاً، أو تصدر مع نوعٍ من الاضطراب، فَمَرضُ اليَدِ أنْ يتعذَّرَ عليها البَطْش، ومرض العَين أنْ يتعذّر عليها الإبصار، ومرض القَلب أن يتعذَّر عليه[1] فعله الخاص به الذي خُلق لأجله وهو العلمُ والحكمةُ والمعرفةُ وحُبُّ الله تعالى وعبادتُه وإيثارُ ذلك على كلّ شهوة.

ولو أن الإنسانَ عرفَ كل شيءٍ، ولم يعرف الله تعالى كان كأنه لم يعرف شيئاً، وعلامة المعرفة المحبةُ فَمن عرفَ اللهَ أحبَهُ، وعلامةُ المحبَّةِ أن لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات، فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فَقلبه مَريضٌ، كما أنّ المعدة التي تُؤثر أكلَ الطِّين على الخُبزِ، أو قد سقطت عنها شَهوةُ الخبزِ مريضةٌ.

ومرضُ القلب خَفيٌّ قد لا يَعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه، فإنْ عرفه صَعُبَ عليه الصَّبرُ على مَرارة دوائه؛ لأنّ دَواءَهُ مُخالفةُ الهوى، وذلك نَزْع الرُّوح، وإن وَجَدَ من نَفسه الصَّبرَ لم يجد طبيباً حاذقاً يُعالجه، فإن الأطباء هُم العلماء، وقد استولى المَرضُ عليهم، والطبيب المريض قَلَّ ما يُلتَفت إلى علاجه، فلهذا صار الدَّاءُ عُضالاً والمرضُ مُزمناً، واندَرسَ هذا العلم وأُنكِرَ بالكليَّةِ طِبُّ القُلوب ومَرضُها، وأقبل النَّاس على أعمال ظاهرها عبادات وباطِنُها عادات ومُراءاةٌ، فهذه علامة أصل المرض.

فأمّا علامةُ عَودِه إلى الصِّحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر في العلّة التي يُعالجها، فإن كان يُعالج داءَ البُخل، فعلاجُه بِبَذْل المال وإنفاقه، ولكنّه قد يَبذُل

(١) في الأصل: (عليها).

المال إلى حَدٍّ يَصير به مُبذّراً، فَيكون التَّبذير أيضاً داء، ويكون كمن يُعالج البُرودة بالحرارة حتى تَغلب الحرارةُ، وهو أيضاً داءٌ، بل المطلوبُ الاعتدالُ بين الحرارةِ والبُرودة، وكذلك المطلوب الاعتدالُ بين التَّقتير والتَّبذير حتى يكون على الوَسط، فإنْ أردتَ أن تعرفَ الوسطَ، فانظر إلى الفعل الذي يُوجبه الخُلُق المحذور، فإن كانَ أسهلَ عليك وألذَّ منَ الذي يُضادّه، فالغالب عليك ذلك الخُلق الموجب له، مثل أن يكون إمساكُ المال وجَمعُهُ ألذَّ عندك وأيسَرَ عليك من بذله لمُستَحقِّيه، فاعلم أنَّ الغالب عليك خُلقُ البُخل، فَزِدْ في المواظَبةِ على البَذْل، فإنْ صار البذلُ للمستحقِّ ألذَّ عندك وأخفَّ عليك من الإمساك بالحقِّ فَقد غلب عليك التَّبذير، فارجع إلى المواظبةِ على الإمساك.

ولا تَزال تُراقبُ نَفسك وتستدلّ على خُلقك بتَيسير الأفعال وتَعسُّرِها حتى تنقطع علاقةُ قلبك عن المال، فلا تميل إلى بَذْله ولا إلى إمساكه، بل يَصيرُ عندك كالماء، فلا تميل إلى بَذْله ولا إلى إمساكه، بل يَصيرُ عندك كالماء، فلا تطلبُ فيه إلا إمساكه لحاجةِ مُحتاج (١أو بَذله لحاجة محتاج١)، ولا يَرجع عندك البَذلُ على الإمساك، فكلُّ قلبٍ صار كذلك فقد جاء الله سليماً عن هذا المقام خاصةً، ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقةٌ بشيءٍ ممّا يتعلّق بالدنيا حتى ترحل النّفس عن الدّنيا مُنقطعةَ العلائق عنها، غير مُلتفتةٍ إليها ولا مُتشوِّفةٍ إلى أسبابها، فحينئذ تَرجع إلى ربِّها رُجوعَ النَّفس المطمئنَّة.

ولمَّا كان الوسطُ الحقيقيُّ بينَ الطَّرفين في غاية الغُموض بل هو أَدَقُّ من الشَّعر وأَحدُّ من السَّيف، فلا جَرَمَ مَن استوى على[٢] هذا الصراط المستقيم في الدّنيا جازَ على مثل هذا الصّراط في الآخرة، وقلَّما يَنفكُّ العبدُ عن ميلٍ عن الصّراط المستقيم ـ أعني الوسط ـ حتى لا يميل إلى أَحَدِ الجانبين، فيكون قلبه متعلقاً بالجانب الذي مالَ إليه، فلذلك لا ينفكُّ عن عذابٍ ما واجتيازٍ على النّار وإن كان مثل البرق.

(١ـ١) سقطت من الأصل.

(٢) في الأصل: (إلى).

ولأجل عُسْرِ الاستقامة قيل للعبد: قُل في كل يوم مَراتٍ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [القاتحة: ٦]، ورأى بعضُهم رسولَ الله ﷺ [(١)] في المنام [(١)]، فقال: يارسول الله، قلتَ: شَيَّبَتْني هود[(٢)]. فلمَ قُلتَ ذلك؟قال: لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢][(٣)].

فالاستقامةُ على سَواء السَّبيل في غاية الغُمُوض، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القُرْب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقة الاستقامة، فمن أراد النَّجاة فليعلم أنّه لا نجاة إلّا بالعمل الصّالح، ولا تَصدُر الأَعمالُ الصّالحةُ إلّا عن الأخلاق الحَسَنة، فليتفَقَّد كل عبدٍ صِفاته وأخلاقه، وليَشتغل بعلاجِ واحدٍ منها بعدَ واحد.

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) بعدها في الأصل: (وأخواتها).

(٣) الرائي هو محمد بن عمر بن شبّويه الشَّبوي المروزي راوي صحيح البخاري عن أبي عبد الله الفِرَبْري، كان من كبار مشايخ الصوفية، توفي نحو سنة (٣٨٠)هـ. والخبر في الرسالة القشيرية: ٩٤، وشعب الإيمان للبيهقي (٢٤٣٩)، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٢٥، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤، والدر المنثور للسيوطي ٨/ ٩، وجامع العلوم والحكم ١/ ٥٠٩.

بيان

الطريقِ الذي به يَتبيَّن الإنسانُ عُيوب نَفسه

اعلم أنّ الله تعالى إذا أرادَ بعبدٍ خيراً بصَّره بعيوب نفسه، فَمَن كَملت بَصيرته لم تَخفَ عليه عيوبه، وإذا عرفَ العُيوب أمكنه العلاج، ولكنّ أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يَرى أحدهم القَذى[1] في عين أخيه ولا يرى الجِذْعَ في عين نَفسه، فمن أراد أن يقف على عَيب نفسه، فله أربع طرق:

الطريق الأول: أن يجلس بَين يدي شيخٍ بصيرٍ بعيوب النَّفس، مطلعٍ على خفايا الآفاتِ ويُحكِّمه على نَفسه، ويتبع إشارته في مجاهدته، فيُعرِّفه الشيخُ عَيبَ نفسه، ويُعرِّفه طريقَ علاجه، وهذا أمرٌ قد عَزَّ في هذا الزّمان وُجوده، فمن وقعَ (٢به فقد وقع٢) بالطبيب الحاذِق، فلا ينبغي أن يُفارقه.

الطريق الثاني: أن يطلبَ صديقاً صَدوقاً بصيراً متديِّناً ويُنَصّبَه رقيباً على نفسه ليُلاحظ أحواله وأفعاله، فَينبِّههُ على المكروه من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة، وقد كان عُمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امْرءاً أهدى إلينا عُيوبنا.

وسأل سلمانَ لما قدم عليه عن عيوبه، فقال: سمعتُ أنّك جَمعتَ بينَ أُدْمَين[3] على مائدةٍ، وأنَّ لك حُلّتينِ؛ حلة بالنَّهار وحلة بالليل. فقال: هل بلغكَ غير هذا؟ قال: لا. قال: أمّا هذان فقد كُفيتهما.

وكان يَسألُ حُذَيفةَ: هل أنا من المُنافقين؟وهذا لأنّ كلَّ مَن علت مَرتبتهُ في اليَقظة زاد اتّهامه لنفسه، إلا أن هذا قد عَسُرَ أيضاً؛ لأنّه قد قلَّ في الأصدقاء من

(١) القَذى: جمع قَذاة، وهي ما يقع في العين من تبنٍ وترابٍ ووسخ.
(٢-٢) سقط من (ظ).
(٣) الأُدم والإدام: الطعام.

يَتركُ المُداهَنَة فَيُخبر بالعَيب أو يترك الحسد فلا يزيد على القدر الواجب، فإنّ المداهن يُخفي بَعضَ عُيوبك، والحَسود يَرى ما ليس بعيبٍ عَيباً، فقد كان السَّلف يُحبّون من يُنَبِّههم على عُيوبهم، ونحن الآن أَبغضُ النّاس إلينا من يُعرِّفنا عيوبَنا، وهذا دليل على ضعف إيماننا؛ لأنّ الأخلاقَ السَّيئةَ كالعقارب، ولو أنَّ مُنَبِّهاً نَبَّهَنا على أَنَّ تحتَ ثوبِ أحدنا عَقرباً لتقلَّدنا له مِنَّةً واشتغلنا بقتل العقرب، وإنّما نِكايةُ لدغها على البدن ولا يَدوم أَلَمها أكثر من يومٍ، ونكاية الأخلاق الرَّديئة على القَلب، وألمها في الآخرة دائم، فكوننا لا نفرح بقول مَن يُنبِّهنا عليها دليل على ضَعف الإيمان.

الطريق الثالث: أن يَستفيدَ معرفة عُيوب نَفسه من أَلْسِنة أعدائه، فإنّ عينَ السُّخطِ تُبدي المساوئ، وانتفاع الإنسان بعَدوٍّ مُشاحنٍ يَذكُر عيوبَه أكثر من انتفاعه بصديقٍ مُداهنٍ يُخفي عنه عُيوبه.

الطريق الرّابع: أن يُخالط النّاس، فكل ما يراه مَذموماً فيما بينَ الخَلق فليجتَنِبه.

قيل لعيسى عليه وعلى نبينا السلام: مَنْ أَدَّبك؟ فقال: ما أدَّبني أحدٌ، رأيتُ جَهلَ الجاهل فجانَبتُه.

بيان

الشواهد على أنَّ الطريق
في معالجة أمراض القلوب تَركُ الشَّهوات

اعلم أنّ شهوات النفوس[١] لم توضَع إلا لفائدةٍ قد سبق بيانها، إذ لولا شَهوةُ المطعم ما تُنووِلَ الغِذاء، ولولا شَهوة النّكاح لانقطع النَّسل، وإنّما المذموم فُضولُ الشَّهوات وطغيانها وإنّ قوماً لم يفهموا هذا القدر، فأخذوا يتركون كل ما تَشتهيه النَّفس، وهذا ظُلم لها بإسقاطِ حَقّها، إذْ لها على الآدميِّ حقٌّ لقول الشّارع: «إنَّ لنفسك عليكَ حقاً» حتى إن قائلاً منهم يقول: منذ كذا وكذا سنة أشتَهي كذا فلا أَتناوله. وهذا انحِرافٌ عن الجادَّة، فقد كان رسولُ الله ﷺ يتناول المُشتَهى من الحَلْواء والعَسل، وكان أحبّ الشاةِ إليه الذِّراع فيطلبها، ويختار الماء البائت، ويُقبّل المَرأة، ويَمَصُّ اللِّسان وهذا أقوى تنبيه للشهوة، فلا تَلْتفتنَّ إلى زاهدٍ قلَّ علمُه، فحرمَ نَفسه حظها من المُشتَهى على الإطلاق، فإنَّه إلى الظلم أقرب منه إلى العدل.

وإنّما يُترك المُشتَهى إذا صَعُبت الطريق إليه، مثل أن لا يحصل إلّا بوجهٍ مكروه، أو خيف من تناوله انحلال عزمٍ فتطمع النَّفس في استدامته، أو حَذِرَ من ذلك زيادة شبعٍ فيثقل عن عبادة ربِّه[٢]، فينبغي حينئذ جهاد النَّفس في إنالتها مُرادها، فذاك كالطِّب للمريض يُمْدح ولا يذم.

ولا بأس بالرّفق بالنّفس لتقوى على السّلوك، ومَنْ قَويَت عزيمتُه فأطاقَ جهادَها بالكليَّة إلّا أنّه لا يَمنعها مَصالحها، فما أحسن تلك الحال لأنّها تكونُ معه

(١) في (ظ): (النفس).
(٢) ليست في (ظ).

كالبازي[١] تُخاطُ عينُه[٢] ليحصل له الفِطام عن الطيران ويَنسى ما كان قد أَلِفَهُ من ذلك، ثمَّ يُطعَمُ على الكَفِّ ليأنَسَ بالمُطعِمِ، فكذلك مَن قَويت عزيمتُه يحبس نفسه في الخلوة ليمنع السمعَ والبصرَ ما أَلِفا، ثم يعوّدُ نفسه الذِّكرَ ليأنَسَ بالمذكور، فليصبر ذو العزمِ على مَضَضِ هذا الأمر، فإنّه سيحلو له كما يحلو الفِطام للطفل بعد كراهتِهِ له، فلو رُدَّ إلى الثَّدي كرهه، ومَنْ عرف قِصَر العُمر بالإضافة إلى مُدّة حياة الآخرة حَمَل مشقَّة سفر أيامٍ لتَنَعُّمِ الأبد، فعند الصَّباح يَحمدُ القومُ السُّرَى[٣].

(١) البازي: جنسٌ من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم، تميل أجنحتها إلى القِصر، وتميل أرجلها وأذنابها إلى الطول، ومن أنواعه الباشق والبَيدق.

(٢) في (ظ): (عينيه).

(٣) يُضرب هذا المثل للرجل يتحمل المشقة رجاء الراحة، ويُقال: إن أول من قاله خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما توجه من اليمامة إلى العراق عبر الصحراء، وحمل معه الماء في بطون مئةٍ من الإبل كما أشار عليه رافع الطائي فلما اجتازها ووصل إلى الماء قال:

لله دَرُّ رافعٍ أنّى اهتدى ... فَوَّزَ من قرارٍ إلى سوى
خمساً إذا سار به الجيشُ بكى ... ما سارها من قبله إنسٌ يُرى
عند الصباح يحمد القومُ السرى ... وتنجلي عنهم غيابات الكرى

يُنظر مجمع الأمثال للميداني ١/ ٦٢٣.

بيان

علامات حُسْن الخُلُق

ربما جاهد المريد نَفسه حتى ترك فَواحش المعاصي ثم ظَنَّ أنّه قد هذَّبَ خُلُقَه واستغنى عن المجاهدة، وليس كذلك، فإن حسن الخُلُق مجموعُ صفات المؤمنين، وقد وصَفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، وقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١٠]، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى آخر السورة [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٧]، فمَن أَشْكل عليه حالُه، فليعرض نَفسه على هذه الآيات، فوجود جميع هذه الصّفات علامةُ حُسنِ الخُلُق، وفَقْدُ جميعها علامةُ سوء الخُلُق، ووجود بَعضها دون البَعض يدلّ على البعض دون البعض، فَلْيشتغل بحفظ ما وَجده وتحصيل ما فَقده.

وقد وصفَ رسولُ الله ﷺ المؤمن[١] بصفاتٍ كثيرة وأشار بجميعها إلى مَحاسن الأخلاق، ففي الصَّحيحين من حديث أنسٍ عن النبي ﷺ أنّه قال: «والذي نفسي بيده، لا يُؤمنُ عبدٌ حتى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنَفسه». وفيهما من حَديث أبي هُريرة عن النَّبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤذي جارَه، ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضَيفه» و «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخِرَ فَليقُل خَيراً أو ليصمت».

وفي حديث أبي هريرة عن النّبي ﷺ أنّه قال: «أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً».

---

(١) في (ظ): (المؤمنين).

ومِن حُسن الخُلُق احتمالُ الأذى، فَفي الصَّحيحين من حديث أَنس قال: كنتُ أَمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ نَجْراني غَليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌ فَجَبَذَهُ[١] برداءه جَبْذَةً شديدةً حتى نظرتُ إلى صَفحة عاتِقِ رسول الله قد أثّرت بها حاشيةُ البُرد من شدة جَبْذَته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي منْ مال الله الذي عندك. فالتفتَ إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا آذاهُ قَومُه يقول: «اللهمّ اغفِر لقومي فإنّهم لا يَعلمون».

وقيلَ للأحنف بن قَيس: ممّن تَعلّمتَ حُسنَ الخُلُق؟

فقال: من قَيس بن عاصم، بينا هو جالسٌ في داره إذ جاءت خادمٌ له بسَفُّودٍ[٢] عليه شِواء، فسقط من يَدها، فوقع على ابن له فمات، فدُهِشَت الجارية، فقال: لا رَوعَ عليكِ أنتِ حُرّةٌ لوجه الله.

وكان أُوَيس[٣] إذا رماهُ الصِّبيانُ بالحجارة يقول: يا إخوتاه إن كان ولا بدَّ فارموني بالصِّغار لئلا تُدموا ساقَيَّ فتمنعوني من الصَّلاة.

وقالت امرأةٌ لمالك بن دينار: يا مُرائي. فقال: وَجدتِ اسمي الذي أَضلَّه أهلُ البَصرة.

وخرَج إبراهيمُ بن أَدهم إلى بعضِ البراري فاستقبله جُنديٌ فقال: أينَ العمران؟ فأشار إلى المَقبرةِ، فضرب رأسَه[٤] فشجَّه، فلمّا أُخبِرَ أنّه إبراهيم بن أدهم جَعل يُقبّل يَده ورجله، فقال: إنّه لمّا ضربَ رأسي سألتُ الله لهُ الجنَّة، لأنّي علمتُ أنّي أُوجَرُ بضربِه إياي، فلم أُحبّ أن يكون نَصيبي منه الخَير ونصيبُه منّي الشَّرّ.

---

(١) الجَبْذُ والجَذبُ واحدٌ.

(٢) السَّفّود: عودٌ من حديد يُنظَم اللحمُ فيه ليُشوى.

(٣) يعني أويس بن عامر القَرَني.

(٤) في الأصل: (رأسه ووجهه).

ودَعى رجلٌ أبا عثمان الحِيري[١] إلى دعوةٍ فلمّا بلغ منزله قال له: ليس لهذا وَجهٌ. فرجع أبو عثمان فعادَ، فدعاه فجاء، فقال: ارجع. ثم رجع فَدعاه فجاء، فلمّا رآه لا يتغيَّر قال: إنّما أردتُ أن أختبرك. فقال أبو عثمان: الذي رأيتَ منّي خُلُق كلبٍ إذا دُعيَ أجابَ، وإذا زُجِرَ انْزَجر.

واجتازَ بسكّةٍ فَطُرَح عليه رَمادٌ من سَطحٍ، فجعلَ أصحابُه يتكلمون، فقال: من استَحقَّ النّار فَصُولِحَ على الرَّماد لا يَنبغي أنْ يَغضب.

فهذه نُفوسٌ ذُلِّلَت بالرِّياضة، فاعتدلت أَخلاقُها، ونُقِّيَت عن الغِش[٢] بَواطنُها فأثمرت الرِّضا بالقَضاء، وهذا مُنتهى حُسن الخُلُق، ومن لم يَجد من نَفسه بعضَ هذه العلامات التي وَجدَها هؤلاء، فينبغي له أن يُداوم الرِّياضة ليصل، فإنّه بعدُ ما وصَلَ.

---

(١) هو سعد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، صحبَ شاه الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي، توفي سنة (٢٩٨)هـ.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (الغبن).

بيان

الطريق في رياضة الصِّبيان في أول النُّشوء وَوجهُ تأديبهم وتَحسين أَخْلاقهم

اعلم أنَّ الصَّبي أمانةٌ عند والديه، وقلبُه جوهرةٌ نَفيسةٌ ساذجةٌ خاليةٌ عن كل نَقش وصورة، وهو قابل لكل نَقشٍ، ومائلٌ إلى كل ما يُمالُ به إليه، فإن عُوِّدَ الخير وعُلِّمه نَشأ عليه وشاركه في ثوابه أبواه ومؤدِّبُه، وإن عُوِّد الشرَّ وأُهمِلَ إهمالَ البهائم شَقيَ وهلكَ وكان الوزر في عنق الوالي عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، قالَ عليّ بن أبي طالبٍ في تفسيرها: عَلِّموهُم وأَدِّبوهم.

ولا شكَّ في أنَّ الأبَ يَحذرُ عليه من أن تُصيبه نار الدُّنيا، فيَنبغي أن يكون أَحذرَ عليه من نار الأُخرى.

وصيانَتُه بأنْ يؤدِّبه ويهذبّه ويُعلّمه محاسنَ الأَخلاق ويَحفَظه من قُرناء السُّوء، ولا يُعوّدَه التَّنعُّم، ولا يُحَبِّبَ إليه الزِّينةَ وأسباب الرَّفاهية فيُضيِّع عمره في طلبها إذا كَبر، بل يَنبغي أن يُراقِبَه من أَوّل عُمره، فلا يَستعملُ في رَضاعه وحَضانته إلا امرأةً صالحةً مُتديّنةً تأكُل الحلالَ، فإنّ اللّبنَ الحاصل له من الحَرام لا بركةَ فيه، فإذا نَشأ عليه الصَّبيُّ انْعجنَت طينَتُه من الخَبيث، فمَال طَبعُهُ إلى ما يُناسب ذلك من الخَبائث.

فإذا بَدَت فيه مَخايلُ[1] التَّمييز وأَولها الحَياء، وذلك من إشراقِ نور العقل عليه، فتلك بِشارةُ النَّجابة، لأنَّها تدل على اعتدال الأخلاقِ وصفاء القَلب، وهي مُبشّرةٌ بكمال العقل عند البلوغ، وهذا يُستعانُ على تأديبه بحيائه.

وأولُ ما يَغلبُ عليه من الصِّفات شَرَهُ الطَّعام، فينبغي أن يُعلَّمَ آدابَ الأَكلِ منَ التَّسمِية، والأكل باليمين، وتصغير اللُّقَم إلى غير ذلك، ويُعوَّدَ الخُبْزَ وَحدَهُ في

(١) المخايل: الدلائل والمَظانّ.

بعض الأَوقات لئلا يألفَ الإدام فَيراه كالحَتْم، ويُقبَّحُ عنده كثرةُ الأكل، فإنّه يُشَبّه الكثير الأكل بالبهائم[(١)]، ويُحَبَّب إليه الثِّيابُ البِيض[(٢)] دون المُلونّة والإبرَيْسَم[(٣)]، ويُقرَّر عنده أنّ ذلك من شَأنِ النِّساء والمُخَنَّثين، ويُمنَع من مُخالطة الصِّبيان الذين عُوِّدوا التَّنعُّم، وعن من يُسمِعُه ما يُرغِّبه في ذلك، فإنّ الصَّبيَّ إذا أُهمِلَ في ابتداء نُشُوئِه خَرَجَ رديءَ الأخلاق.

ثم يُشْغَلَ في المكتب بتعلُّم القرآن وأحاديث الأخيار لينغرِسَ في قلبه حُبُّ الصّالحين، ويُحفَّظ مِنَ الأشعار التي فيها ذكر العِشق وأهله.

ومتى ظَهَر من الصّبي خلقٌ جميل أو فعل حَميد، فينبغي أن يُكرمَ عليه ويُجازى عليه بما يَفرح به، ويُمدَح بين أَظهُرِ الناس، فإذا خالفَ ذلك في بعض الأَحوال تُغوفِلَ عَنه ولم يُكاشَف، فإنّ إظهار ذلك ربّما يُفيده جَسارةً حتى لا يُبالي بالمُكاشفة بعد ذلك، فإنْ عاودَ عوتِبَ سرّاً، وخُوِّفَ من اطّلاع النّاس عليه، ولا يكثر عليه العتاب؛ لأنّ ذلك يُهوِّن عنده سماعَ المَلامة.

وليَكنِ الأبُ حافظاً هَيبةَ الكلام مَعه ولا يُوبِّخه إلّا أحياناً.

ويَنْبغي للأم أن تُخوِّفَه بالأب، وتَزْجُره عن القَبائح.

ويَنبغي أن يُمنَع النَّوم نَهاراً، فإنّه يورث الكَسَل، ولا يُمنَع النوم ليلاً، ولكن يُمنع الفُرُشَ الوَطيئة[(٤)] لتَتصلَّب أعضاؤه ولا يَسخُفَ[(٥)] بَدَنُه فلا يَصبر عن التَّنعُّم، بل يُعوَّد الخُشونة في المفرش والمَلْبَس والمَطعم، ويُعوَّد في بعض النَّهار المَشْيَ والحركةَ والرّياضَة لئلا يغلب عليه الكَسَل، ويُمنَعَ أن يَفتخرَ على أَقرانه بشيءٍ مما يملكه والداه أو بمطاعمه ومَلابِسه، ويعوَّد التَّواضع والإكرام لمن عاشَره، ويُمنَع أن

---

(١) في الأصل: (بأن يُشبه بالبهائم).
(٢) في الأصل: (البياض).
(٣) الإبرَيسَم: أحسنُ الحرير.
(٤) الوطيئة: اللَّينة.
(٥) يَسخف: يرق ويلين.

يأخذ شيئاً من صَبي مثله، ويُعلَّم أنَّ الأخذَ لُؤمٌ ودَناءةٌ، وأنَّ الرِّفعةَ في الإعطاء والجُود، ويُقَبّح عنده حُبُّ الذَّهب والفِضّة.

ويُعوَّدَ أن لا يَبْصُقَ في مَجلسه، ولا يَتثاءَبَ، ولا يَمْتَخِطَ بحضرةِ غيره، ولا يَستدبر أحداً، ولا يَضع رِجلاً على رِجلٍ.

ويُمنع من كثرة الكَلام ويُعوّد أن لا يَتكلم إلّا جواباً، وأن يُحسن الاستماع إذا تكلَّم غَيْره ممّن هو أكبر منه، وأن يقوم لمن فَوقَه، ويجلس بين يَديه، ويُمنع من لَهو الكلام وفُحشه ومن مخالطة من يَفعل ذلك.

وأصلُ تأديب الصِّبيان حفظُهم من قُرناء السّوء.

ويَحسُنُ أنْ يُفسَحَ له بعد خروجه من المَكتب في لعبٍ جميل يستريحُ به من تعب التَّأديب، كما قيل: رَوِّحُوا القُلوبَ تَعي الذِّكْرَ[١].

وينبغي أن يُعلَّم طاعةَ والديه ومُعلمِه وتَعظيمهم، وإذا بلغَ سبع سنين أُمِر بالصَّلاة ولم يُسامَح في ترك الطَّهارة ليتعوَّد، ويُخوَّف من الكَذِب والخِيانة، وإذا قاربَ البُلوغ أُلقيت إليه أَسرار الأُمور.

وأُعْلِمَ أنَّ الأطعمة أدويةٌ، ومقصودُها تَقويةُ البَدن على طاعة الله، وأنَّ الدُّنيا لا بَقاءَ لها، وأنَّ الموتَ يَقطع نعيمها، وهو منتظرٌ في كل ساعةٍ، وأنّ العاقل من تَزوَّد لآخِرَتِهِ.

فإنْ كان نُشوءُه صالحاً ثَبتَ[٢] هذا في قلبه كما يَثبتُ النَّقشُ في الحَجَر، وإن لم يكن، نَبا[٣] هذا عن قلبه.

وقد قال سَهلُ بن عبد الله: كنتُ ابنَ ثلاث سنين وأنا أقوم بالليل أَنظُرُ إلى صلاة خالي محمد بن سَوّار، فقال لي خالي يوماً: ألا تَذكر الله الذي خَلَقكَ؟ قلتُ:

---

(١) هو في مصنف ابن أبي شيبة (٣٦١٢٤)، وحلية الأولياء ٣/ ١٠٤، من قول قَسامة بن زهير المازني البصري التابعي المتوفى نحو سنة ٨٠ هجرية، ينظر تهذيب الكمال ٢٣/ ٦٠٢.

(٢) في الأصل: (يثبت).

(٣) أي جاوزه ولم يثبت فيه.

كيفَ أذكُره؟ قال: قل بقَلبك عند تقلُّبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تُحرّك لسانَك: اللهُ مَعي، اللهُ ناظِرٌ إليَّ، اللهُ شاهدي[١] فقلتُ ذلك ليالي ثم أَعلمتُه، فقال: قُلْها في كل ليلةٍ سَبْعَ مرات. فقلتُ ذلك ثم أعلمتُه، فقال: قُلْها في كل ليلةٍ إحدى عشرَة مرّة. فقلتُ ذلك، فوقع في قَلبي حلاوتُه، فلما كان بعد سنةٍ قال لي خالي: احفَظ ما علَّمْتك ودُمْ عليه إلى أَنْ تَدخُلَ القَبر. فلم أَزَل على ذلك سِنين[٢]، فوجدتُ له حلاوةً في سِرّي[٣]، ثم قال لي خالي: يا سَهْل، من كان الله معه وهو ناظرٌ إليه وشَاهِدُه يَعْصيه؟إيّاكَ والمَعصِية. ومَضيتُ إلى المكتب وحَفظتُ القُرآن وأنا ابنُ ستِّ سنين أو سبع، ثم كنتُ أصوم الدَّهرَ وقُوتي من خُبزِ الشَّعير، ثم وقعت لي مسألةٌ وأنا ابنُ ثلاث عشرةَ سنةً، فجئتُ البَصرةَ وسألتُ عُلماءَها فلم يَشْفِني أحد، فجئتُ إلى عَبّادان[٤] إلى رجلٍ يُعرفُ بأبي حَبيب العَبّاداني[٥]، فسألته عنها فأجابني، فَأَقمتُ عنده مدةً أنتفعُ بكلامه، ثم كنت أقوم اللَّيل كلَّه.

---

(١) في (ظ): (مشاهدي).

(٢) في (ظ): (عشر سنين).

(٣) في الأصل: (قلبي).

(٤) عبادان: جزيرة قرب البصرة.

(٥) واسمه حمزة بن عبد الله.

بيان

شُروط الإرادة ومقدّمات المجاهَدَة وتَدريج المُريد في سُلوك سُبُل الرّياضة

اعلم أنّ مَن شاهد الآخِرَة بقَلبه مُشاهدةَ يقين أصبح بالضّرورة مُريداً حَرْثَ[١] الآخرة مُشتاقاً إليها سالكاً سَبيلها، مُسْتَهيناً بالدّنيا ولذّاتها، فإنَّ من كان معه خَرزَةٌ فَرأى[٢] جوهرةً نَفيسَةً لم يَبق له رغبة في الخَرَزة، فإذا قيل له: بِعْها بالجَوهرة أسرعَ.

فمن رزقَه الله تعالى الانتباهَ لذلك، فليعلم أنّ لذلك شرطاً لابُدّ من تقديمه في بداية الإرادة، ومُعتَصماً لابُدَّ من التّمسك به، وحصناً لابدّ من التَّحَصُّن[٣] به ليَأمنَ الأعداء القاطعين عليه الطريق، ووظائف[٤] لابدّ له من مُلازَمتها في وَقتِ (٥سلوك الطريق٥).

وأمّا الشَّرطُ الذي لابدّ من تَقدمه؛ فرَفْعُ الحِجاب الذي يَحجُبه عن الحقّ، وهو الذّنوب.

وأمّا المُعتَصَم؛ فشَيْخٌ يَدُلُّهُ على الطّريق لئلا تَتخَطَّفه الشياطينُ في السُّبُل.

وأمّا الحِصنُ، فالخَلْوة، وبها يَحصُل الصَّمتُ عن الفُضول، وغَضُّ البَصر عمّا يَشغل القلب، ويَصْفو الفِكرُ للنظر[٦] في الأخلاق فيدفَعُ منها ما يؤذي ويُقوّمُ ما مالَ.

---

(١) تصحفت في (ظ) إلى: (حزب).
(٢) في الأصل: (فأري).
(٣) في الأصل: (التحصين).
(٤) في الأصل: (وضائف).
(٥ـ٥) سقط من الأصل.
(٦) في الأصل: (عن النظر).

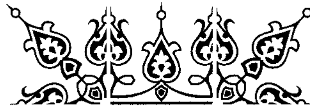
وأمّا الوظائف، فمخالفةُ الهَوى وكثرةُ الذِّكر والاقتصاد في الأوراد، ومُنْتَهى الرّياضة أن يَجِدَ قلبه مع الله أبداً، ولا يُمكن ذلك، إلّا بأن يَخلو من غَيْره، ولا يَخلو إلا بطول المجاهدَة، فهذا مِنهاج رياضَة الُمريد وتَرتيبه في التدريج.

فأما تفصيلُ الرّياضة في كل صفةٍ، فسيأتي بيانه، فإنّ أغلب الصّفات على الإنسان شَهوة بَطنِه وفَرْجِه ولسانِه، ثم الغَضَب الذي هو كالجُنْدِ لحماية الشَّهوات، ثم مهما أحبّ الإنسان شهوة البَطن والفَرْج وأنِسَ بها أَحبَّ الدُّنيا ولا يتمكّن منها إلا بالمال والجاه، وإذا طلبَ المالَ والجاهَ حدث فيه الكِبرُ والعُجب والرّياسة، فإذا ظهر ذلك ولم تَسمح نَفسُه بترك الدّين رأساً تمسَّك من الدين بما فيه الرّياسة وغلب عليه الغُرور.

وها نَحنُ نَسْتكملُ رُبعَ المهلِكات بالكُتب التي وَعدنا بها في أول كتابنا هذا، ونَختمها بكتاب الغُرور وتَعرُّفِ طُرقِ المُعالجة[1]، فإنَّ ما ذَكَرناهُ في الكتاب الأول من هذا الرُّبع[2] شرحٌ لصفاتِ القلبِ الذي هو مَعدِن صورة المُنْجيات والمُهلِكات، وما ذكرناه في الكتاب الثاني[3]، إشارةٌ كُلِّيَّةٌ إلى طريق تَهذيب الأخلاق ومُعالجة أمراض القُلوب.

وأمّا تفصيلها، ففي هذه الكتب الآتيةِ يأتي إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

آخر كتاب رياضة النَّفْس



(١) في الأصل: (المجاهدة).

(٢) يعني كتاب شرح عجائب القلب.

(٣) يعني كتاب رياضة النَّفس وتهذيب الأخلاق.

كتاب كَسْرِ الشَّهْوَتَيْن شَهوةِ البَطنِ وشهوةِ الفَرْجِ

وهو الكتاب الثالث من رُبع المهلكات

الحمدُ لله الحكيمِ فيما يَقْضيه[١]، العادلِ فيما يُمضيه، الكريم فيما يُسْديه، العليمِ بما يُسِرُّهُ العبدُ ويُبْديه، فهو الذي يُمرضُه ويَشفيه، وهو الذي يُميتُه ويُحْييه، وهو الذي يُطعِمُه ويَسْقِيه، سَلَّطَ عليه شهوةَ البَطْنِ ليُحَصِّل غذاءَهُ مما يَشْتَهيه، وشَهوةَ الفَرجِ ليظهر خَلَفَه كما كان خلَفاً لأبيه، وأمَره برَدِّ اشْتِطاطِهما يَمْتحِنُه ويَبْتليه، لينظر كيفَ يُطيعه ويَنْزجر عن مَعاصيه.

أَحمدُهُ على نِعَمِه الوافرة وأياديه، وأُقرُّ له بالتَّوحيد عن تَرَوٍّ لا عَنْ بَديه، وأُصلّي على نبيِّه النَّبيه[٢] ورسوله الوَجيه، صلاةً تُزْلِفُه لديه وتُحْظِيه وترفع مَنزلتَه وتُعْليه، وعلى آله وأصحابه وتابعيه، وتَدومُ إلى يوم يفرُّ المرءُ من أخيه، وأمّه وأَبيه، وسَلَّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد؛ فإنّ مِنْ أعظم المُهلكات شَهوةَ البطنِ[٣]، فَبِها أُخْرِج آدمُ من الجنَّة، والبَطنُ ينبوع الآفات؛ لأنَّ مِن شهوته تحدُثُ شهوة الفَرج، ثم يَتبع شهوة المطعم

---

(١) في الأصل: (يقتضيه).
(٢) تصحفت في الأصل إلى : (البينة).
(٣) بعدها في (ظ): (والفرج).

والمَنْكَح شدّة الرَّغبة في المال والجاه، ثم يَتبع ذلك أنواع الرُّعونات من المُنافسة والحَسَد والتَّفاخُر والكِبْر ويَتداعى الأمرُ في ذلك إلى الحِقدِ والعداوة، ثم يُفضي بصاحبه إلى اقتحام الفَحشاء والمنكر، وكل ذلك مُتولّدٌ من بَطَر الشّبع.

وإذْ قد بانَ عِظَمُ آفةِ شَهوة البَطن وَجبَ شرحُ غوائِلها وآفاتِها، وإيضاحُ طريق[١] المُجاهَدة لها، ونحنُ نوضحُ ذلك بعونِ الله تعالى في فُصولٍ يجمعها بيانُ فَضيلة الجوع، ثم فوائد الجوع، ثم طريق الرّياضة في التَّقَلُّل، ثم بَيان اختِلاف حُكم الجوع وفَضيلته باختلاف أحوال النّاس، ثم بيان الرّياء في ترك الشَّهوة، ثم القَول في شَهوة الفَرجِ، (٢ثم بيانُ ما يَصلح للمُريد من النِّكاح وتَركِهِ، ثم بَيان فَضيلةِ من يُخالفُ شَهوة الفَرْجِ٢) والعَيْنِ.

---

(١) في الأصل: (طرق).

(٢ـ٢) سقط من (ظ).

بيانُ

فَضيلَة الجُوعِ وذَمِّ الشِّبَع

أخبرنا عبدُ الأوّل قال: أخبرنا الدّاودي قال: أخبرنا ابنُ أَعْين قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا مالك عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «يَأكُلُ المسلمُ في مِعَىً واحدٍ، والكافر في سَبعة أَمْعاء».

قال البُخاري: وحدثنا محمد بن يَسار، قال: حدثنا عبد الصَّمد قال: حدثنا شُعْبةُ عن واقِد بن محمد عن نافع قال: كانَ ابنُ عُمر لا يأكل حتى يُؤتى بمِسكينٍ يأكل مَعه فأدخلتُ رجلاً يأكل معه فأكل كثيراً، فقال: يا نافع، لا تُدخِل هذا عليَّ، فإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «المؤمنُ يأكل في مِعىً واحدٍ، والكافِرُ يأكلُ في سَبعةِ أمعاء». أخرجاهُ والذي قبله في الصَّحيحين.

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هُريرةَ عن النَّبي ﷺ أنّه قال: «طعامُ الاثنَينِ كافي الثَّلاثة، وطَعامُ الثلاثةِ كافي الأربعة».

وفي أفراد مُسلم من حديث جابر عن النَّبي ﷺ مِثلُه، وزادَ: «وطَعامُ الأربعةِ يكفي الثمانية».

أخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا سُليمان بن سُلَيم الكِناني قال: حدثنا يحيى بن جابر الطَّائي قال: سمعتُ المِقْدام بن مَعدي كَرِب يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدميٌ وعاءً شرّاً من بَطنٍ، حسبُ ابن آدمَ أُكلاتٍ يُقِمْنَ صُلبَه، فإنْ كان لا محالةَ فثلثٌ لطعامِه وثلثٌ لشَرابه وثلثٌ لنَفَسِه».

قال الإمام أحمد: وحدثنا محمد بن جَعفر، قال: حدثنا شُعْبَةُ قال: سمعتُ أبا إسرائيل يقول: سمعتُ جَعْدَةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وَرأى رجلاً سَميناً، فجعل النَّبيُّ ﷺ يُومِئ إلى بَطنِهِ بيده ويقول: «لوكانَ هذا في غير هذا لكانَ خَيراً لكَ».

وقال رجلٌ لابن عُمر: أَجعلُ لكَ جُوارِش[١]؟ قال: وأيّ شَيءٍ الجُوارِش؟ قال: شيءٌ، إذا كَظَّكَ[٢] الطعامُ وأَصبتَ منه سَهَّلَ عليك. فقال ابن عمر: ما شَبِعتُ من الطَّعام منذُ أربعة أشهرٍ، وما ذاكَ أنْ لا أكونَ له واجداً، ولكنّي عَهدتُ قوماً يَشبعون مرّةً ويجوعون أُخرى.

وقيل لسَمُرة: إنّ ابنَكَ لم يَنَم اللّيلة. قال: أَبَشَماً[٣]؟ قيل: بَشَماً. قال: لو ماتَ لم أُصَلِّ عليه.

وقال عُقبةُ الرّاسِبي: دخلتُ على الحَسَن[٤] فوافَقتُه يتغدَّى، فقال: هَلُمّ. فقلتُ: أكلتُ حتى لا أستطيعُ أن آكُلَ. فقال: سُبحانَ الله وَيأكُلُ المُسلم حتى لا يَستطيع أنْ يَأكل؟

فَصل

واعلم أنّه قد رُويت في هذا المعنى أحاديثُ لا تَثْبت فَتنكَّبْناها.

وقد بالغَ جماعةٌ من الزُّهّاد والصُّوفية في التَّقلُّل والصَّبر على الجوع وأمروا به، وحَثُّوا عليه، وكلُّ ذلك من سوء الفَهم للمقصود، وقد بَيّنّا عيبَ ما سَلكوا في كتابنا المُسمّى بتلبيس إبليس، وهذا الكتاب قد ضمنّا تَنزيهَه عن ذكر ما لا يَصلُح لئلا يذهب الزّمانُ بِبَيان رَدِّ الفاسد، وأَودَعْنا بيان الغَلَطِ المذكور من ذلك في الكتاب

(١) الجُوارش: معجون فارسي معرب، معناه بالعربية: الهاضوم، لأنه يستعمل لإصلاح المعدة والأطعمة وتحليل الرياح قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل ١/ ٤٠٢.
(٢) كَظَّكَ الطعامُ: ملأ بَطنكَ حتى لا تكاد تُطيق النَّفَس.
(٣) البَشَمُ: الإكثارُ من الطعام حتى التُّخمة.
(٤) يعني الحسن البصري.

الذي صُنِّف هذا الكتاب عليه في كتابٍ آخر[١]، ونحنُ نَصدعُ بِمُرِّ الحقِّ من غير مُحاباةٍ، فنقول:

اعلم أنّ اللهَ عز وجل جعل قِوامَ هذا البَدَن بالأغذيةِ، وأقامَ الشَّهوةَ تحثُّ على تناولها، إلّاَ أنَّ للأغذية انْبِساطاً في المِعَى بعد التَّناول، فينبغي للإنسان أنْ يرفع يده عن الطَّعام وهو يَشْتهيه بعضَ الشَّهوة؛ لأنّه يَنْبَسِطُ في المعدةِ فَيذهب أثر ذلك المتقاضى.

فأمّا الشِّبَع فإنّه يؤذي؛ لأنّه تَناولٌ بما تَقْتضيه الشَّهوةُ، فإذا انْبَسط الطَّعام تأذّى المُتناول، فلذلك ذُمَّ، وهو يُوجب رَهَلَ البَدَنِ[٢] وتكاسُله وكثرة النَّوم وبَلادَةَ الذِّهنِ وذلك[٣] بتكثير البُخار في الدِّماغِ حتَّى يُغَطّي مكانَ الفِكر وموضع الذِّكر، وَيجلبَ أمراضاً أُخَر[٤].

ومَقام العدل رفعُ اليَد مع بقاء شيءٍ من الشَّهوة، ونهاية المقام الحَسَن قول النّبي ﷺ: «ثلثٌ طعامٌ، وثُلُثٌ شرابٌ، وثلثٌ نَفَس». : فالأكلُ على مَقام العَدل يُصِحُّ البَدَن ويَنْفي المَرَض، وذلك أنْ لا يَتناول الطَّعام حتى يَشْتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتَهيه، فمن قَصَّر عن هذه الحالة بقي في نَفَسه المُنازعةُ إلى الطَّعام، فشغَل ذلك قَلبَه، كما لو كان عنده وَقْتَ أكلِهِ كلبٌ فلم يُلقِ إليه، فإنَّه لا يُهَنِّيه الأكل.

ثم الدَّوام على التَّقلُّل يُضعفُ القُوى، فإن عَرَض جهادٌ لم يَجِدْ قوةً، وإن كانت له زَوْجةً لم يُمكن قضاء حقِّها، وإن افتَقَر إلى كَسْبٍ لم يقدِر على القيام به.

وقد قَلَّلَ أقوامٌ مَطاعمهم حتى قَصَّروا عن الفَرائض، وظَنّوا بجَهلهم أنَّ ما فَعلوه فَضيلة، وليس كذلك، فإنّها حالةٌ ما سَلكها رسول الله ﷺ ولا أصحابُه، وإنّما كانوا

---

(١) يريد المصنف كتابه (إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء) ينظر ما تقدم في الصفحة ٨.
(٢) أي: استرخاؤه وسِمنه.
(٣) ليست في (ظ).
(٤) ليست في (ظ).

يجوعون إذا لم يَجدوا، وربّما وَجدوا وآثَروا، وكانوا لا يَشْبعون إذا أكلوا ويَذُمّون البِطْنَةَ، ويمدحون الجوعَ إشارةً منهم إلى الحالةِ المتوسِطة التي ذكرناها[(١)].

فأمّا التَّقلُّل المَحكي عن الجاهلين بأحوال السَّلف وأوضاع الحكم مثل أنَّ أحدهم كان يَزنُ قُوْتَه بكَرَبةٍ[(٢)]، فَتَنشَفُ كل يوم، وآخر قلَّل حتى وقف على رغيفٍ في كل يوم، فهذا إلى النَّهي والكَراهة أقرب منه إلى الفضيلة.

وقد كَرِه العُلماءُ التَّقَلُّل منهم: الإمام أحمد، فقال: لا يُعجبني.

وحُكي عن ابن مَهدي أنَّ قوماً تقلَّلوا فقَطعَهُم عن الفَرض، وهذا لما ذكرنا منْ أنَّ التَّقلُّل يُضعف القُوى، ثم هو موجبٌ لتنشيف الرُّطوبات، ويُبس الدِّماغ فيُخرجُ الإنسانَ إلى الخَيالات الفاسدة، وربّما خَرج إلى الجنون.

فهذه أحوالٌ مَسروقةٌ من التَّرهبُنِ لقُربِ عهدِ هذه الشَّريعةِ بتلك.

والاعتبارُ ينبغي أن يكون بحالة نَبيِّنا ﷺ وأصحابه، فما منهم مَن سلكَ هذه الطَّريق، إلّا أنّه قد نُقِلَ عن ابن الزُّبَير أنَّه كان يبقى أياماً لا يَأكل، وهذا يحتمل أن يكون عادةً له، ويحتمل أن يكون لا يأكل الخُبزَ ويَقنَع بغيره، فإنَّ العربَ ربّما اقتَنعت بالتَّمرات أو بِشَرْبةِ لبنٍ عن الخُبزِ، ويحتمل أن يكون ذلك في حالةِ قتاله ومُحاصَرته[(٣)]، فهي قَضيَّةٌ في عينٍ مُحْتملة.

---

(١) في (ظ): (التي أشرنا إليها).

(٢) الكَرَبة: هي أصل السَّعفة الغليظة التي تَيبَسُ فتصير مثل الكتف. اللسان (كرب)، والمخصص لابن سِيده ١١/١٠٦، والمقصود أنه يزن طعامه بالكَرَبةِ الرطبة فيكون كثيراً، ثم في كل يومٍ تنشف الكربة ويخف وزنها وبالتالي يخف وزن طعامه الذي يأكله، وقد ذكر ذلك المصنف في صيد الخاطر: ٥٧.

(٣) وذلك في سنة (٧٣) هجرية عندما حاصره الحجاج بن يوسف الثقفي في مكة لكي ينزل تحت طاعة عبد الملك بن مروان، ودام الحصار نحو خمسة أشهر ونصف إلى أن أصابته ضربة منجنيق فمات منها رحمه الله تعالى. ينظر البداية والنهاية ١٢/ ١٧٧ وما بعدها.

بَيانُ

طريقِ الرِّياضة في كسر شَهوْة البطْن

مَن تعوَّدَ استِدامَةَ الشِّبَع فينبغي له أنْ يُقلِّل من مَطعمه يَسيراً يسيراً مع الزَّمان إلى أن يقف على[1] حَدٍّ لا يُنقِص فيه قُوَّتَه ولا يُضعِفُ بَدَنَه.

فأمّا التَّقلُّل الذي يُضعفُ القُوى فَقد بينَّا وَجهَ ذَمِّهِ، فلا يُلتَفت إلى كلامِ مَنْ مَدَحَهُ.

---

(١) في الأصل: (في).

بيان

اختلاف حُكم الجوع وفَضيلته باختلاف أحوال الناس

اعلم أنّ المطلوبَ الأقصى في جميع الأحوال والأخلاق الوَسَطُ، إذْ خَيرُ الأُمور أَوساطُها، وما جاء في المَنقولات ممّا قد أوردنا بَعضه من فضائل الجوع إنّما المُراد به التَّوسُّط، إلّا أنّ من أسرار الشَّرع أنَّه إذا رأى الطَّبعَ مائلاً بالكُلِّيَّةِ إلى فَنٍّ يطلب فيه الغَرَضَ الأقصى جاء بالمبالغة في المَنع، فَظنَّ الجاهلُ أنّ المُراد مُضادَّةُ ما يَقتضيه الطَّبْعُ بغايةِ الإمكان، فأمّا العالم فيعلم أنّ المَقصود الوَسَط، وإنّما نَظر إلى غايةٍ فَقابلها بغايةٍ ليَتقابل الباعِثُ والمانِعُ، فيتقاومان، فيحصل الاعتدال.

وهذا القَدْرُ خَفِيَ عن جُهّال المُتزهِّدين، فبالغوا في التَّقلُّل قَصداً للتقرُّبِ، وإنّما قَربوا من الظلم؛ لأنّ الذي طلبوه من بَقاء البَدَن بلا غذاءٍ أو بيَسيرٍ لا يمكن؛ لأنّه موضوعٌ على خلاف هذا، فالأولى في الأكل تناول مالا يُثقل عن العبادة ولا يمنع من الطَّاعة، ويكون سبباً لبقاءِ القوّة، فلا يُحسُّ المُتناول بجوعٍ ولا شبعٍ، فحينئذٍ يَصحُّ البَدَنُ، ويَجتمعُ[1] الهَمُّ، ويَصفو الفِكرُ.

(١) في (ظ): (يُجمع).

بيانُ

آفَةِ الرِّياء المتَطرِّق
إلى من يَترك أكلَ الشَّهوات أو يُقلِّل الأَكل

اعلم أنَّ تاركَ الشَّهوات تدخلُ عليه آفتانِ عظيمتان هُما أعظمُ من أكل الشهوات:

إحداهُما: أن لا يقدر على تَرك بعض الشَّهوات ويريد أن لا يعرف بأنّه يَشتهيها، فَيأكلها في الخَلوة، وهذا شِرْكٌ خَفِي، بل ينبغي[1] له إذا ابتُليَ بذلك أن يُظهره فيكون إظهارُه بَدلاً عن المجاهدة بالتَّرك، وقد كان أهلُ المعرفة على ضِدِّ هذا، كان أحدُهم يَشْتري الشَّهوةَ ويُعلِّقُها في بَيته وهو زاهدٌ فيها ليَسْتُرَ زُهْدَه، وهذا هو الزُّهدُ في الزُّهد بإظهارِ ضِدِّه، وهو عملُ الصِّدّيقين؛ لأنّه تَجْريعٌ للنَّفسِ كأسَ الصَّبرِ مَرَّتين، والثانيةُ أَمَرُّ.

والآفة الثّانية: أن يَشتهي أن يُشْتَهَر بتركِ الشَّهوة، فهذا قد خالفَ شهوةً ضعيفةً، وهي شهوةُ الأكل، وأطاع شهوةً هي شَرٌّ منها، وهي شهوةُ الجاه، وهي الشَّهوة الخَفِيَّةُ، وكسر هذه الشّهوة أَوْلى من كسر الأُولى؛ لأنّ مَنْ تَركَ شهوةَ الطَّعام ووقع في شهوةِ الرِّياء كمَن هربَ من عقربٍ إلى حَيَّةٍ، فليتناول منها، فهو أصلحُ له.

قال أبو سُلَيمان[2]: إذا قُدِّمَت إليكَ شهوةٌ وقد كُنتَ تاركاً لها فأَصِبْ منها يَسيراً، ولا تُعْطِ نَفسكَ مُناها فتكون قد أسقطتَ عن نَفسك الشُّهْرَةَ بالأَكل ونَغَّصْتَ[3] عليها إذْ لم تُبالغ.

(١) سقطت من الأصل.
(٢) هو أبو سليمان الداراني.
(٣) تصحفت في الأصل إلى: «وتعصب».

القَول في شَهوة الفَرْج

اعلم أنَّ شَهوةَ الوِقاع سُلِّطَت على الآدمي لفائدتين:

إحداهما: أن يُدرك لذَّةً يقيس عليها لذّات الآخرة، وما لم يُدرَك جِنسُه بالذَّوق لا يَعظم الشَّوق إليه.

والثّانية: بَقاء النَّسل، إلا أنّه إذا لم تُرَدّ هذه الشَّهوة إلى حالة الاعتدال جَلَبت آفاتٍ ومِحناً، ولولا هذه الشهوة ما كان «النِّساءُ حَبائلُ[(١)] الشَّيطان»، وقد قال إبليس: سَهْمي الذي إذا رَمَيتُ به لم أُخطِئ: النِّساءُ.

وقد أخبرنا مَوهوب بن أحمد قال: أخبرنا أبو القاسم بن البُسْري قال: حدثنا المخلّص قال: حدّثنا البَغَوي قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شَيْبة قال: حدثنا أبو خالد الأحمر قال: حدثنا سُليمان التَّيْمي عن أبي عُثمان عن أُسامة بن زَيد عن النَّبي ﷺ قال: «ما تركتُ في الناس بَعدي فِتنةً أَضرَّ على الرّجال من النِّساء»[(٢)].

وقال سعيدُ بن المُسَيّب: ما يَئِسَ الشَّيطانُ من ابنِ آدمَ قَطّ إلّا أتاهُ مِن قِبَلِ النِّساء. ثم قال وهو ابنُ تسعٍ وثمانين سنةً، وقد ذهبت إحدى عَينَيه وهو يَعْشو[(٣)] بالأُخرى: وما شَيءٌ عندي أَخوفُ من النِّساء[(٤)].

وقال يوسفُ بنُ أَسباط: لو ائتمنني رجلٌ على بيتِ مالٍ لظَننتُ أنّي أُؤدّي إليه الأَمانة، ولو ائتمنني على زنجيَّةٍ أنْ أَخلو معها ساعةً واحدةً ما ائتمنتُ نَفْسي عليها.

وقال الثَّوري: ائْتَمِنّي على بيتٍ مَملوءٍ مالاً، ولا تَأتَمنّي على جاريةٍ سَوداء لا تَحلُّ لي.

---

(١) الحبائل: جمع حِبالة، وهو ما يُصادُ به من أي شيءٍ كان.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢١٨٢٩)، والنسائي في الكبرى (٩٢٧٠) والبزار في مسنده (٢٥٩٦).

(٣) أي يُبصر بها بصراً ضعيفاً.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٣٧.

واعلم أنه للخوف من مواقعة هذه الزَّلَّة حُرِّمَت الخَلْوةُ بالأجنبيَّة؛ أخبرنا سعيد ابن أحمد [١]بن الحسن[١] قال: أخبرنا علي بن أحمد بن البُسري قال: أخبرنا المخلّص قال: حدثنا البَغوي قال: حدثنا الحسن بن عَرفة قال: حدثنا جرير بن عبد الحميد عن عبد الملك بن عُمير عن جابر بن سَمُرَة قال: خطب عُمر بالجابية[٢] فقال: إنّ رسول الله ﷺ قام في مثل مَقامي هذا فقال: «ألا لا يَخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ، فإنّ ثالثهما الشَّيطان».

وقد رُوِّينا أن إبليس لقيَ موسى عليه السلام فقال له: يا موسى، لا تخلُ بامرأةٍ لا تحِلُّ لكَ، فإنّه ما خَلا رجلٌ بامرأةٍ لا تحلُّ له إلّا كُنتُ صاحبَه دونَ أصحابي حتى أَفتنه بها[٣].

فصل

واعلم أن هذه الشَّهوة لها إفراطٌ يَقهر العقل حتى يصرف همّةَ الرّجل إلى التَّمتّع بالنِّساء، فَيَشغله عن ذكر الآخرة، وربّما جرَّ إلى الفواحش وقد ينتهي بأربابها إلى أمرين شَنيعَين:

أحدهما: أن يتناولوا ما يُقوِّي شَهواتهم للاستكثار من الوِقاع، ومَثَلهم كمثل مَنْ بُلي بسِباعٍ ضاريةٍ فنامت عنه في بعض الأوقات، فاحتال لإثارتها وتَهْييجها، ثم احتالَ لمُعالجتها، وهؤلاء يُحركون أنفسهم لإخراج الحرارة الغَريزيّةِ، وقَلَّ أنْ يطولَ بَقاؤُهم.

والأمر الثاني: أنّه قد تَنتهي هذه الشَّهوة ببعض أربابها إلى العِشق، وهو مجاوَزَةٌ في البَهيميّة لحدِّ البَهائم؛ لأنّ المتعشِّق لم يَقنع بإراقة شهوةِ الوقاع، وهي أقبح الشّهوات وأجدرها أن يُستَحى منها حتى اعتقد أنّ الشّهوة لا تنقضي إلّا من

(١ـ١) ليس في (ظ).

(٢) الجابية: قرية في الجنوب الغربي من مدينة دمشق.

(٣) أورده المصنف في كتاب (ذم الهوى): ١٦٣.

محلٍّ واحد، والبهيمة تقضي الشّهوة أينَ اتَّفق وتكتفي به، وهذا لا يكتفي [إلا][١] بمحلٍّ واحدٍ معينٍ حتى يزداد بمطلوبه ذُلّاً إلى ذُل وعبوديةً إلى عبوديةٍ، وحتى يَسْتَسْخِر العَقلَ لخِدمة الشَّهوة، وإنّما خُلق العقلُ ليكونَ مُطاعاً لا خادماً للشَّهوة مُحْتالاً لها، وما العشق إلا مَرضُ قلبٍ فارغ لا همَّة له، وإنّما يجب الاحتراز من أوائِله بترك معاودة النَّظرِ والفِكر، وإلا فمتى استحكم عَسُرَ قلعُه، وقد وضعتُ لهذا كتاباً كبيراً سمَّيتُه بذمِّ الهَوى[٢]، وذكرتُ فيه علاجَ هذا المرض إذا وَقع.

واعلم أن مَثَل مَن يَكسِرُ العِشقَ في أوّل انْبعاثِه مَثل من يَصرف عنان الدَّابة عند توجُّهِها إلى بابٍ لتَدخُله،وما أهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يُعالجه بعد اسْتحكامِه مثل من يترك الدّابّة حتى تَدخل وتُجاوز الباب ثم يأخذ بذَيلها يَجرُّها إلى وَراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين.

فليَكن الاحتياطُ في بدايات الأمور، فإنّ أواخرها يَفتقر إلى علاجٍ شديد، وقد لا ينجع، وقد يقع عند خَلقٍ من النّاس عشقُ المال والجاهِ واللّعب بالنَّرْد والشِّطرنْج والطيور، فتستولي هذه الأشياءُ على القُلوب فلا يَصبرون عنها، ويُنَغّصُ عليهم الدّين والدّنيا، ومتى أفرطت شَهوةُ الوقاع كُسِرَتْ بالنِّكاح تارةً وبالجوع أُخرى، وفي الصحيحين أنّ النّبي ﷺ قال: «يا مَعشَر الشَّباب، عليكم بالبَاءة، فمن لم يَسْتطِع فليَصُم، فإنّ الصَّومَ له وِجاء».

---

(١) ليست في النسخ، وأُثبتت من الإحياء.

(٢) وقد طُبع بدار الجيل في بيروت سنة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م بتحقيق عصام فارس الحرستاني ومحمد إبراهيم الزغلي.

بَيان

ما على المُريد في ترك التَّزويج وفِعله

اعلم أنَّ للسُّلوك حلاوةً تَشْغل المُبتدئ، قال ابنُ مَسروق: كنتُ مع الجُنَيد فمرَّ في بعض دُروب بَغداد، وإذا مُغَنٍّ يَقول:

مـنـازلٌ كـنـتَ تَـهـواهـا وتَـأْلَـفُـهـا أيـامَ كُـنـتَ عـلـى الأيـامِ مَـنـصـورُ

فبكى وقال: ذكرتُ بدايتي وجِدَّة سَعْيي.

واعلم أنّه إذا كُشفَ الحجابُ عن قلب المُريد في بدايته لُهِي عن شَهوات الدُّنيا وصارت الخَلوةُ حبيباً له، والصَّوم أليفاً، وجهادُ النَّفس مُستلذّاً، فمتى وجد هذا فليُقبل على ما فُتح له منه، وليَشْتغل به حتى يتمكَّن ممّا قد حصل له.

وكذلك طالب العلم ينبغي له أن يجمع هَمَّه في الطَّلب ويؤخر النِّكاح إلى أن يتمكّن ممّا يريد، فإن الإمام أحمد لم يَتزوَّج حتى بلغ الأَربعين سنةً، وإنّما يفعل هذا مالم يَخفْ على نفسه من فتنة، وعلامةُ الفتنة ضَعْفُه عن غَضّ بَصَرِهِ[١]، أو وَسْواسٍ يَطرأ على قلبه، وتصويرٍ لنَيلِ هذه الشّهوة.

وإذا كان الجوعُ والصَّوم لا يَمنع إطلاق البَصر ولا يَدفع هذه الوَسْوسَةَ، فليُبادر بالنِّكاح، فقد قال عليه الصَّلاة والسّلام: «زِنا العَينين النَّظر»، وأوّل هذه الآفة النَّظر.

وليَكُن المتعبّد حذراً من مجالسةِ المُردان والنَّظر إليهم، فإنَّ المتعبّد قد أغلق باب النَّظر إلى النِّساء في الغالب ولاذَ به الصِّبيان للتعلم والطَّلب، فَخطرُه في ذلك أعظم من خَطر النِّساء.

---

(١) في الأصل: (البصر).

وقد قال بعض التّابعين: ما أنا بأخوف على الشّابِّ التّائبِ من سَبُعٍ ضارٍ[١] من غُلامٍ أَمرَد يجلسُ إليه، وقد ذكرنا في هذا باباً طويلاً في كتاب ذَمّ الهَوى.

ومعلوم قوة الفِتْنة بهذا الفَنّ فكم قد زَلَّ فيها من مُتَعَبِّدٍ.

ومن أراد النِّكاح لتسكين هذه الفَورة فلينظرْ إلى امرأةٍ تُعفُّه، ولينظر في مطلوب نفسه، فإنّ الناس يتفاوتون، فمنهم من يَقنع بأيّ امرأةٍ كانت، فإنّ الإمام أحمد خطبَ امرأةً فسمعت بالخِطبة أُختُها وهي عَوْراء فكأنها انكسرت، فخطبَ العَوراء، وهذا أمرٌ لا يَصبر عليه كلُّ أَحد، ومن النَّاس من لا يُعفُّه إلا المُستَحْسَن، فيَتعيَّنُ عليه أن يَطلب المستَحسن، ولكن ينبغي أن يُراعي جانب الدّين في المرأة أولا، فإنّ المسْتَحسَنةَ إذا لم يكن لها دينٌ هَلكت وأهلكت، ولم يحصل المقصود منها.

والبِكْرُ أولى ما اختير؛ لأنّها تَنْشأ على أخلاق الزَّوج وتألفه، فليجتهد في تحصيل بِكْرٍ مُستَحسنةٍ قد رُبِّيت في بيتِ أهل دينٍ فُقراء، فهذه الغاية، وقد تقدم ما يتعلّق بالنِّكاح في كتابه.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا حَمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نعيم أحمد ابن عبد الله قال: حدثنا عُمر بن أحمد بن عثمان قال: حدثنا عبدُ الله بن سُليمان بن الأَشعث قال: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وَهب قال: حدثني عَمِّي عبد الله بن وهب، [عن عَطّاف بن خالد][٢] عن ابن حَرْملةَ عن ابن أبي وَداعة قال: كنتُ أُجالس سَعيد بن المسَيِّب فَفقَدني أياماً، فلمّا جئتُه قال: أين كنتَ؟ قلت: تُوفّيت أهلي فاشتَغلتُ بها. فقال: ألا أَخبرتَنا فشَهِدناها، قال: ثم أردتُ أن أقومَ، فقال: هل استَحدَثْتَ امرأةً؟ فقلتُ: يرحمك الله! ومَنْ يُزوّجني وما أملك إلّا دِرْهَمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا. فقلت: أَوَ تفعل؟ قال: نعم، ثم حمد الله وصلى على النبيّ ﷺ وزوَّجني على دِرهمين ـ أو قال: ثلاثة ـ فقمتُ وما أدري ما أصنع من الفَرح، فصرتُ إلى منزلي وجعلتُ أتفكَّر ممّن آخذُ وممّن أسْتدينُ، فصلَّيتُ المغربَ

(١) السبع الضاري: المولع بأكل اللحم.
(٢) ما بين معقوفين سقط من النسخ، واستُدرك من المصادر.

وانصرفتُ إلى منزلي وكنت وحدي صائماً، فقدَّمتُ عشائي لأُفطِرَ وكان خُبزاً وزَيتاً، فإذا بالباب يُقرع، فقلتُ: من هذا؟ فقال: سَعيد. قال: ففكرتُ في كلّ إنسانٍ اسمه سعيد إلّا سعيد بن المسيِّب فإنّه لم يُرَ أربعينَ سنةً إلّا بينَ بيته والمسجد، فقمتُ فخرجتُ فإذا سعيد بن المسيِّب، فظننتُ أنّه قد بَدا له فقلت: يا أبا محمد، ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك[1]؟ قال: لا، أنتَ أحقُّ أنْ يُؤتَى. قلت: فما تَأمرُ؟ فقال: إنك كنت رَجُلاً عَزَباً فتزوَّجتَ، فكرهتُ أن أُبَيِّتَك اللّيلة وَحدك، وهذه امرأتك. فإذا هي قائمةٌ من خَلفِه في طوله، ثم أخذ بيدها فدَفَعها في الباب وردَّ البابَ، فسقطت المرأةُ من الحَياء، فاستَوثَقْتُ من الباب ثم تَقدمتُها إلى القَصْعة التي فيها الزَّيت والخُبز، فوضعتُها في ظلِّ السِّراج لكي لا تراه، ثم صعدتُ إلى السَّطح فرميتُ الجيران فجاؤوني فقالوا: ما شأنك؟ قلت: وَيْحكم زَوَّجني سعيد بن المسيِّب بنته اليوم وقد جاء بها على غفلةٍ. فقالوا: سعيد بن المسيِّب زَوَّجك؟! قلتُ: نعم، وهو ذا هي في الدَّار. فنزلوا إليها وبلغ أمّي فجاءت وقالت: وجهي من وَجهك حرامٌ إنْ مَسِسْتَها قبل أن أُصلحها إلى ثلاثة أيام. قال: فأقمْتُ ثلاثاً ثم دخلتُ بها، فإذا هي من أجملِ النّاس، وإذا هي أحفظُ النّاس لكتابِ الله عز وجل وأعلمُهم بسنَّة رسولِ الله ﷺ وأعرفهم بحقِّ زوجٍ. قال: فمكثتُ شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلمّا كان قُرب الشَّهر أتيتُ سعيداً وهو في حَلقته، فسلَّمتُ عليه فردَّ عليَّ السَّلامَ ولم يُكلمني حتى تقوَّضَ[2] أهلُ المجلس، فلمّا لم يبقَ غيري قال: ما حالُ ذلك الإنسان؟ قلت: خيراً يا أبا محمد، على ما يُحبُّ الصَّديق ويَكره العَدو. قال: إنْ رابَكَ شَيءٌ فالعَصا. وانصرفتُ إلى منزلي فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم[3].

قال عبدُ الله بن سُليمان[4]: وكانت بنتُ سعيد بن المسيِّب قد خَطبها عبدُ الملك بنُ مَروان لابنه الوليد حين ولّاه العَهدَ فأبى سعيد أن يُزوِّجَه، فلم يَزل عبدُ

---

(١) في الأصل: (فأتيتك).

(٢) تقوَّض: تفرَّق.

(٣) القصة في حلية الأولياء ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٩، والمنتظم للمصنف ٦/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٤) هو عبد الله بن سليمان بن الأشعث راوي القصة.

الملك يَحتال على سَعيد حتى ضَربه مِئة سَوطٍ في يومٍ باردٍ، وصَبَّ عليه جَرَّةَ ماءٍ، وألبَسه جُبَّةَ صُوف.

قال عبد الله: وابنُ أبي وَداعة هذا هو كثير بن المطَّلب بن أبي وَداعة[1].

(١) هو كثير بن المطلب بن أبي وداعة، أبو سعيد السهمي القرشي المكي، تنظر ترجمته في التاريخ الكبير للبخاري ٧/ ٢٠٨، والثقات لابن حبان ٥/ ٣٣١، وتهذيب الكمال ٢٤/ ١٦١.

بيان

فضيلة من يُخالف[1] شهوة الفَرْجِ والعين

شَهوةُ الفَرْجِ أغلب الشَّهوات وأعصاها على العَقل إذا هاجت، فمن امتنع عن مُواقعتها في الحرام للحياء من الخَلق أو لخوفهم أو لحفظِ مَنصِبه، فلا ثوابَ له في امتناعه؛ لأنّه آثَر حَظاً من حُظوظ النَّفس على حظٍّ آخر، إلّا أنّ من العِصمة أن لا يقدر، وقد أفادته هذه العوائق دفعَ الإثم، وإنّما الفَضلُ والأجرُ في ترك الحرام مع القُدرة خوفاً من الله عزَّ وجل، قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، قال مجاهد: هو الذي إذا هَمَّ بمعصيةٍ ذكرَ مَقامَ ربِّه عليه فيها فانتهى[2].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنّه قال: «سَبعةٌ يُظلُّهم اللهُ عز وجل في ظلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه.. » فعدَّ منهم رجلاً دعته امرأة ذات مَنصبٍ وجمال إلى نفسها فقال: إني أخاف الله عز وجل.

وفي الصحيحين من حديث ابن عُمَر عن النَّبي ﷺ: «أنَّ ثلاثةَ نَفَرٍ دخلوا غاراً فانحطَّتْ على فَمِ غارهم صخرةٌ من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضُهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها للهِ صالحة فادعوه بها لعلّه يُفرّج عنكم. فقال أحدهم: اللّهمَّ إنّه كانت لي ابنة عَمٍّ أُحبها كأشد ما يحبُّ الرّجالُ النِّساءَ، فطلبتُ إليها نَفسها فأَبَت حتى آتيها بمئةِ دينار، فسعيتُ حتى جمعتُ مئةَ دينارٍ فلمّا قعدتُ بينَ رِجليها قالت: يا عبدَ الله، اتَّقِ اللهَ ولا تفُضَّ[3] الخاتَم إلّا بحقِّه. فقُمتُ عنها، اللَّهمَّ إنْ كنتَ تعلمُ أنّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهكَ فَافرُجْ لَنا منها، ففرج لهم منها فرجة» وذكر قصة الآخرين.

---

(١) في الأصل: (يخاف).

(٢) تفسير الطبري ٢٢/٢٣٦، وأورده المصنف في كتاب ذم الهوى: ٢٥٦.

(٣) في (ظ): (تفتح).

وقد رُوِّينا عن سُليمان بن يَسار[١] أنَّ امرأةً دخلت إليه فسألته نَفْسَه، فامتنع عليها، فقالت له: أدْنُ، فخرج هارباً من منزله، وتركها فيه، فرأى في منامه يوسف النبي [٢]على نبينا و[٢] عليه السّلام، فقال: أنتَ يوسف؟ قال: نعم أنا يوسف الذي هَمَمْتُ، وأنتَ سُليمان الذي لم تهم[٣].

ورُوِّينا عن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال: كان عندنا بالكوفة شابٌّ متعبّد ملازم للمسجد الجامع لا يكاد يخرج منه، وكان حَسنَ الوجه، فنظرتْ إليه امرأةٌ ذاتُ جمالٍ وعقلٍ فشُغِفَت به، وطال ذلك عليها[٤] فوقفت له يوماً على طريقه، فقالت له: يا فَتى اسمع منّي كلمات. فمضى ولم يُكلّمها، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه، فقالت: اسمع منّي كلمات. فأطرقَ وقال: هذا موقف تُهمة وأنا والله[٥] أكرهُ أن أكون للتُّهمةِ موضِعاً. فقالت له: والله ما وقفتُ مَوقفي هذا جهالةً منّي بأمرك، وأنتم مَعاشر العُبّاد في مثال القَوارير إلّا أنّ جملة ما أكلِّمك به أنّ جَوارحي كلّها مَشغولة بك، فاللهَ اللهَ في أمري وأمرك. فمضى الشّاب إلى مَنزله وأراد أن يُصلّي فلم يَعقل كيف يصلّي فأخذ قِرطاساً وكتب كتاباً وخرج، فإذا المرأة واقفة، فألقى إليها الكتاب ورجع، وكان في الكتاب: اعلمي أيّتها المرأةُ أنّ الله تعالى إذا عُصِيَ حَلُمَ، وإذا عاود العبدُ المَعصية سَتَرَ، فإذا لَبسَ العبدُ للمعصية ملابسها غَضِبَ اللهُ تعالى لنفسه غَضبةً تضيقُ منها السّماوات والأرض، فمن ذا[٦]

---

(١) هو سليمان بن يسار أبو أيوب المدني مولى أم المؤمنين ميمونة، تنظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٥/ ١٧٤، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٤.

(٢-٢) ليس في الأصل.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ١٩٠ - ١٩١، وشعب الإيمان (٧١١١) و(٧٢٨٠)، وذكرها المصنف في صفة الصفوة ٢/ ٨٢، وفي كتاب ذم الهوى: ٢٧١، وأوردها الذهبي في السير ٤/ ٤٤٦، وقال: إسنادها منقطع.
ومثل هذه الرؤى والأحلام لا تعني تفضيل أحدٍ من العُباد والزّهاد على أي نبيٍ من الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة و السلام، ويوسف عليه السلام لم يقع منه همٌ البتة بل هو منفي لوجود البرهان، قال تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ ينظر البحر المحيط لأبي حيان ٥/ ٢٩٥.

(٤) في (ظ): «عليه».

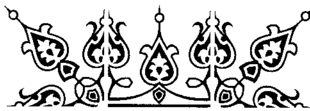
(٥) ليست في (ظ).

(٦) في الأصل: (الذي).

يُطيق غَضَبه؟ فإنْ كان ما ذكرتِ باطلاً فإنّي أُذكّركِ يَوماً تكون السّماء كالمُهلِ، وتكونُ الجِبالُ كالعِهْن، وتَجثو الأُمَم لصَولةِ الجبّار العَظيم، وإنّي والله قد ضَعُفتُ عن إصلاح نَفْسي فكيفَ بإصلاح غَيري؟ وإن كان ما ذكرتِ حقّاً فإنيّ أدلُّك على طبيبٍ يُداوي[1] الكُلومَ المُمرضَة والأوجاعَ المُرمِضَة[2]، ذاك اللهُ ربُّ العالمين، فاقصديه على صدق المسألة، فإنّي مُتشاغلٌ عنكِ بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٨ ـ ١٩]، فأينَ المهربُ من هذه الآية؟ ثم جاءت بعد ذلك بأيام، فَوقفت له على طريقه فلمّا رآها من بعيدٍ أراد أن يرجع[3] إلى منزله، فقالت: يا فَتى لا تَرجع، فلا كان المُلتقى بَعدها أبداً إلّا بينَ يَدَي الله تعالى. وبَكتْ بُكاءً كثيراً، وقالت: امْنُنْ عليَّ بموعظةٍ أَحملها وأوصني بوصيةٍ أعمَلُ بها. فقال: أوصيكِ بحفظِ نَفْسك من نَفسك وأُذكِّركِ قولَه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، فأطرقَتْ وبكت بكاءً شديداً أشدّ من بُكائها الأول، ثم أفاقت فلزمَت بَيتَها وأخذتْ في العبادة، فلم تَزل على ذلك حتى ماتَت كمداً، وكان الفَتى يَذكرها بعد مَوتها ويَبكي ويقول: إنّي ذَبحتُ طمعَها منّي في أوّل أمرِها، وجعلتُ قَطْعَها ذَخيرةً لي عند الله عزَّ وجل[4].

وقد[5] ذكرتُ من هذا الفنِّ الكثيرَ في كتاب ذم الهوى فليُطالَع مِن هناك.

آخر كتاب كَسر الشهوتَين



(١) تحرفت في النسخ إلى: (هذا وولي)، وفي ذم الهوى: (هو أولى) والمثبت من الإحياء.
(٢) المُرْمِضَة: المُحرِقة.
(٣) في (ظ): (الرجوع).
(٤) أوردها المصنف في كتاب ذم الهوى: ٥١١ ـ ٥١٣.
(٥) قبلها في (ظ): (قال المصنف).

كتاب
آفات اللِّسان

وهو الكتاب الرابع من رُبع المهلكات

الحمد لله الذي خلقَ الإنسان وجمَّلَه، ووهبَ له الإيمانَ وكَمَّله، وأنزل إليه القرآن وراسَلَه، وعلَّمه البَيانَ ففضَّلَه، وأطلقَ له بما يُريدُ[١] مِقوَلَه، فنطقَ بشكر ما أَعطاهُ وخوَّلَه، وكشف ستر الضَّمير الذي أسْبَلَه وأبرز كلَّ علمٍ حواهُ وحصَّلَه، وكما رَبَّ[٢] اللِّسانُ أَمرَهُ فربّما قَتَلَه.

أحمدُه ما كبَّرهُ عبدٌ أو هلَّلَه، وأشهدُ أنّه الواحدُ لا شريك له، وأصلّي على رسوله محمدٍ الذي أرسله، ونَبيِّه الذي فَخَّمَه وبَجَّلَه، وعلى مَنْ صحبهُ وتبعه وقَبلَه، وسلّم تسليماً كثيراً.

أمّا بعد؛ فإنَّ اللّسانَ من نعم الله العظيمة، ولطائفِ صُنعِهِ[٣] الغَريبة، فإنّه صغيرٌ جِرمُه عَظيمٌ طاعتُه وجُرمُه، إذْ لا يتبيَّنُ الكفرُ والإيمانُ ـ وهما غاية الطاعة والعِصيان ـ إلا بشهادة اللِّسان، فاللِّسان مُتَعرضٌ بالموجود والمعدوم والخالق والمخلوق والمظنون والموهوم بالإثبات والنَّفي وهذه خاصيَّةٌ لا توجد في سائر الأَعضاء، فإنَّ العينَ لا تصل إلى غير الألوان والصّور، والأُذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الإجسام، واللّسان ليس لمجالِه مُنْتَهى، وأعصى

(١) في (ظ): (ما يزيد).
(٢) رَبَّ: أصلحَ.
(٣) في الأصل: (صنعته).

الأشياء على الإنسان اللّسان، فمَن أَرخَى عنانه ساقَه إلى البَوار، «وهل يَكبُّ النّاسَ على مناخرهم في النّار إلّا حصائدُ أَلسنتهم».

وقد تساهل أكثر النّاس في الاحتراز عن آفاته وغفلوا عن غوائله، ونحنُ بتوفيق الله تعالى نُفصّل مَجامع آفات اللّسان، ونذكر واحدةً واحدةً منها بحدودها وأسبابها وغوائلها، وتعريف طريق الاحتراز منها، وإيراد ما وردَ في ذَمِّها؛ فنذكر أولاً فَضل الصَّوت، ونُردفُه بذكر آفةِ الكلام فيما لا يَعني، ثم آفة فضول الكلام، ثم آفة الخَوض في الباطل، ثم آفة المِراء والمُجادَلة، ثم آفة الخُصومَة، ثمّ آفة التَّقَعُّرِ في الكلام وتكلُّفِ التَّصُّنع في الفَصاحة، ثم آفة الفُحْش والسَّبِّ والبَذاء، ثم آفة اللَّعْن، ثم آفة الغِناء والشِّعر، ثم آفة المُزاح، ثمّ آفة السّخرية والاستِهْزاء، ثم آفة إفْشَاء السِّر، ثم آفة الوَعد الكاذب، ثم آفة الكَذِب في القَول واليمين، ثم آفة الغِيبة، ثم آفة النَّميمة، ثم آفة ذي اللِّسانَين، ثم آفة المَدْح، ثم آفة الغَفلة عن دقائق الخَطأ في فَحوى الكلام لا سيَّما فيما يتعلَّق بالله وصفاته ويَرتبط بأمر الدّين، ثم آفة سُؤال العَوام عن صفات الله سُبحانه، وعن كلامه، وجُملة هذه الآفات عشرون آفَة.

بيان

عِظَم خَطر اللِّسان وفَضيلة الصَّمت

اعلم أن خَطر اللّسان عظيم لكثرة آفات الكلام، ولهذه الآفات في القلب حلاوة، ولها من الطَّبع بَواعثُ، ولا نجاة من هذا الخَطر إلّا بالصَّمت، فلذلك مَدَحَ الشّرعُ الصَّمتَ، ففي الصَّمت نَجاةٌ من الآفات مع أنّه يجمع الهمَّ ويفرغ الفِكْر.

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عفّان قال: حدثنا عُمر بن علي قال: سمعتُ أبا حازم عن سَهْل بن سَعد عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ توكَّلَ لي ما بينَ لَحْييه[1] وما بينَ رجليه، توكَّلتُ له بالجنَّة»[2].

قال الإمام أحمد: وأخبرنا ابنُ نُمير ويَعْلى قالا: حدثنا حَجَّاج ـ يعني ابن دينار ـ عن شُعَيب بن خالد عن حُسين بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مِنْ حُسنِ إسلام المَرء قّلة الكلام فيما لا يَعنيه»[3].

قال الإمام أحمد: حدثنا زَيد بن الحُباب قال: أخبرني عليُّ بن مَسعَدة قال: حدثنا قَتادَةُ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَستقيم إيمانُ عبدٍ حتى يَستقيمَ قَلبُه، ولا يَستقيمُ قَلبُه حتى يَستقيمَ لسانُه، ولا يَدخُلُ رجلٌ الجنَّةَ حتى يأمنَ جارُهُ بوائِقَه»[4].

---

(١) اللَّحيُ: عَظمُ الحنك، والمعنى: من ضمن لي حفظ فمه وفرجه..

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٨٢٣)، والبخاري (٦٤٧٤) و (٦٨٠٧) والترمذي (٢٤٠٨)، والبيهقي في الشعب (٥٤٠٧)، وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٥)، وابن حبان (٥٧٠١).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣٢) وإسناده ضعيف لانقطاعه فشعيب بن خالد لم يُدرك الحسين بن علي.

(٤) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨)، وإسناده ضعيف لضعف علي بن مسعدة الباهلي، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٩)، وفي مكارم الأخلاق (٣٤٢) والقُضاعي في مسند الشهاب (٨٨٧) من طريق زيد بن الحباب به.

قال الإمام أحمد: حدثنا قُتَيبَةُ قال: حدثنا بكر بن مُضَر عن يَزيد بن الهَاد عن مُحمد بن إبراهيم عن عيسى بن طلحة عن أبي هُريرة أنّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إن العبدَ لَيتكلَّمُ بالكلمةِ يَزلُّ[١] بها في النّار أبعد ما بينَ المَشرقِ والمَغرب»[٢].

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا محمد بن عمرو بن عَلقمة اللَّيثي عن أبيه عن جَدِّه عَلقمةَ عن بِلال بن الحارث قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّم بالكلمةِ مِن رضوانِ الله، ما يظنُّ أنْ تبلُغَ ما بَلغتْ، يكتبُ الله عز وجلّ بها له رضوانه إلى يوم يَلقاه، وإنّ الرَّجل ليتكلّمُ بالكلمةِ من سَخَطِ الله، ما يظنّ أن تَبلُغَ ما بلغت فيكتبُ الله بها عليه سَخَطهُ إلى يوم القِيامة»[٣]. فكانَ علقمةُ يقول: كَمْ مِن كلامٍ قد مَنَعنيه حديثُ بلال بن الحارث.

قال [٤]الإمام أحمد[٤]: حدثنا عبد الرَّزاق قال: أخبرنا مَعْمَر عن عاصم بن أبي النَّجود عن أبي وائل عن معاذ بن جَبَل قال: كنتُ معَ رسول الله ﷺ في سَفرٍ، فأصبحتُ يوماً قريباً منه ونحن نَسير، فقلتُ: يا نَبيَّ الله، أخبرني بعملٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ، ويُباعِدُني منَ النّار. قال: «لقد سألتَ عن عظيم، وإنّه ليَسيرٌ على من يَسّره اللهُ عليه، تَعبدُ اللهَ ولا تُشركُ به شيئاً، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزَّكاة، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البَيتَ» ثم قال: «ألا أدلُّكَ على أبواب الخَير؟ الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدقةُ تُطفِئُ الخَطيئةَ، وصَلاةُ الرَّجلِ في جَوفِ اللَّيل» ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حتّى بلغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧]، ثم قال: «ألا أُخبرك برأس الأَمر وعَموده وذِروة سَنامه؟» فقلتُ: بلى يا رسول الله. قال: «رأسُ الأمر

(١) تصحَّفت في الأصل إلى: (نزل).
(٢) أخرجه أحمد (٨٩٢٣)، والبخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) (٤٩) و(٥٠).
(٣) أخرجه أحمد (١٥٨٢٥)، والحميدي (٩١١)، وهَنّاد في الزهد (١١٤١)، والترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩) وابن حبان (٢٨٠) و(٢٨١) و(٢٨٧)، والطبراني في الكبير (١١٢٩) ـ (١١٣٢)، والحاكم ١/ ٤٥ والبيهقي في السنن ٨/ ١٦٥، وفي الشُّعَب (٤٩٥٧)، والبغوي في شرح السنة (٤١٢٤).
(٤ـ٤) ليس في (ظ).

الإسلام، وعَمودُه الصَّلاةُ، وذِروةُ سَنامه الجِهاد» ثم قال: «ألا أُخبِرك بِمَلاكِ ذلك كلِّه؟» فقلتُ: بلى يا نبيَّ الله. فأخذَ بلسانه، فقال: «كُفَّ عليكَ هذا» فقلتُ: يا رسول الله، وإنا لَمُؤاخَذون بما نتكلّم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعاذ، وهل يَكُبُّ النّاسَ في النّار على وُجوههم - أو قال: على مَناخِرِهم - إلّا حَصائِدُ أَلسِنَتهم؟!»[١].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا [٢]علي بن[٢] إسحاق قال: أخبرنا عبد الله[٣]، قال: أخبرنا مَعْمَر عن الزُّهري عن عبد الرحمن بن ماعِز عن سُفيان بن[٤] عبد الله الثَّقفي قال: قلت: يا رسولَ الله، حَدِّثني بأمرٍ أَعتصِمْ به. قال: «قُلْ:ربِّيَ الله، ثم استَقِمْ». قال: قلتُ: يا رسولَ الله، ما أخوفُ ما تَخافُ عليَّ؟ قال: فأخذ بلسانِ نَفْسه، ثم قال: «هذا»[٥].

وروى ابنُ مسعود عن النَّبي ﷺ أنّه قال: «إنَّ أكثر خطايا ابن آدم في لسانه».

وروى ابنُ عمر عن النبيِّ ﷺ، أنّه قال: «مَن كفَّ لسانَه سَتَر اللهُ عَوْرتَه».

وقال قَيسٌ[٦]: رأيتُ أبا بكرٍ الصّدّيق أَخَذَ بطرَفِ لسانه، وهو يقول: هذا أوْرَدني المَوارد.

وقد سُئلَ رسولُ الله ﷺ: ما أكثر ما يُدخِل النَّار؟ قال: «الأجْوَفان؛ الفَمُ والفَرْجُ».

وقال ابنُ مَسعود: واللهِ ما شيءٌ أحوج إلى طولِ سِجنٍ منْ لسان.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، وعبد الرزاق (٢٠٣٠٣)، والطبراني في الكبير ٢٠/(٢٦٦) والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤).

(٢-٢) سقط من (ظ).

(٣) يعني عبد الله بن المبارك.

(٤) تحرفت في الأصل إلى: (عن).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٤١٩)، والترمذي (٢٤١٠) وابن أبي الدنيا في الصمت (٧)، وابن حبان (٥٦٩٩)، والبيهقي في الشعب (٤٩٢٠).

(٦) هو قيس بن أبي حازم البجلي، أبو عبد الله الكوفي، تقريب التهذيب: ٣٩٢.

وقال شَدّاد بن أَوس لغُلامه: ائْتِنا بالسُّفرة نَعبَثْ بها. فأُنْكِرَتْ عليه، فقال: والله ما تكلمتُ منذ أسلمتُ بكلمةٍ إلّا وأنا أَخْطمها وأَزُمُّها[١] إلا كلمتي هذه.

وقال أبو الدَّرداء: أَنْصِفْ أُذنَيك مِنْ فِيك، فإنّما جُعلت لكَ أُذُنان وفمٌ واحدٌ لتسمع أكثر[٢] مما تتكلم به.

وقال فُضَيل الرّقاشي: لا تَقطع النَّهار بكَيْتَ وكَيْت، فإنّه محفوظٌ عليكَ ما قُلْتَ.

وكان الرَّبيعُ بنُ خَيثَم شَديدَ الاحْتراز في الكلام، فقالت لهُ بُنَيَّةٌ لهُ: يا أبةِ، أَذهبُ ألعب؟ قال: اذهبي فقولي خيراً. فقيل له: وما عليك أنْ تقول لها. فقال: وما عليَّ أنْ لا يُكتب هذا في صَحيفتي.

وصَحِبَه رجلٌ عشرينَ سنةً قال: فما سمعتُ منه كلمةً تُعابُ.

وقال مجاهد: كانوا يكتفُون من الكلام باليسير.

وقال يونس بن عُبيد: ما من النّاس أحدٌ يكون لسانه منه على بالٍ إلا رأيتَ ذلك صَلاحاً في سائر عمله.

وقال بِشر بن مَنصور: كُنّا عند أيّوب فَلَغَطْنا[٣] وتكلَّمنا فقال: كُفُّوا، فلو أردتُ أن أُخبرَكُم بكل شيء تكلمتُ به اليوم لفَعلت.

وقال خارجةُ بن مُصعب: صَحبتُ ابنَ عَوْن أربعاً وعشرين سنةً، فما أعلم أنّ الملائكة كَتبتْ عليه خَطيئَة.

وكان وَهْبُ بنُ مُنَبِّه يَعدُّ كلامه كلَّ يومٍ ويَحفظه.

وقال الفُضَيل بن عياض: كان بعضُ أصحابنا يَعدُّ كلامَه مِنَ الجُمعة إلى الجمعة.

---

(١) أي يضع لها الخطام والزّمام يشدها به.

(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (الخير).

(٣) تصحفت في الأصل إلى: (فلفظنا).

وقال عُمر بنُ عبدالعزيز: مَن لم يَعدّ كلامَه مِنْ عَمله كَثُرت ذُنوبُه.

وقال مَخْلَد بن الحُسين: ما تكلَّمتُ بكلمةٍ أُريدُ أن أعتذر منها خَمسينَ سنة.

وقال شُمَيط بنُ عَجْلان: يا ابن آدم، إنّك ما دُمْتَ ساكتاً فأنتَ سالمٌ، فإذا تكلَّمتَ فَخُذْ حذرك.

وقال حاتم الأَصَم: لو أنّ صاحب حِبْرٍ جلسَ إليكَ يكتبُ كلامكَ لاحترزْتَ منه، وكلامُك يُعرضُ على الله عزَّ وجل فلا تَحترزْ!

وقال معروف الكَرخي: كلام العبد فيما [1] لا يَعنيه خِذْلان من الله تعالى.

وقال بعضُ الحكماء: اللّسانُ حَيَّةٌ مَسكنُها الفَم.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (مما).

ذِكرُ آفات الكلام

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعني

اعلم أنّه مَن علم قَدْر زَمنِه وأنّه رأسُ ماله لم يُنفقهُ إلّا في فائدةٍ، وهذا العلم يوجب حَبْسَ اللِّسان عمّا لا يَعني؛ لأنّه مَنْ ترك ذكرَ الله تعالى واشتَغل بمباحٍ لا يَعنيه كان كَمَن قَدر على أخذِ[1] جَوهرةٍ فأخذ عِوضها مَدَرةً[2]، وهذا خُسران للعُمر الشَّريف القَدر.

أخبرنا ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: أخبرنا القَطيعي قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا موسى بن داود قال: حدثنا عبدالله بن عمر[3] عن ابن شِهابٍ عن عليّ بن حُسَين عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مِنْ حُسنِ إسلام المَرْء، تركُه ما لا يعنيه»[4].

وقال أنس: استُشهدَ منّا غلامٌ يومَ أُحد، فوُجِدَ على بَطْنِه صَخرةٌ مَربوطة من الجوع، فَمَسحتْ أمُّه التُّرابَ عن وَجهه، وقالت: هنيئاً لك يا بنيَّ بالجنَّة. فقال النَّبيُّ ﷺ: «وما يُدريكِ؟ لعلّه كانَ يتكلم فيما لا يعنيه، ويَمنع ما لا يَضرُّه».

قال عُمر بن الخَطاب: لا تَتعرَّض[5] لما لا يعنيك.

وقيل لِلُقمان الحَكيم: ما بلغَ من حِكمتك؟ فقال: لا أسألُ عمّا كُفيتُ، ولا أتكلَّف ما لا يَعنيني.

---

(١) ليست في (ظ).
(٢) المدرة: قطعة من الطين.
(٣) هو عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب. تقريب التهذيب: ٢٥٦.
(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٧)، والطبراني في الكبير (٢٨٨٦)، وفي الصغير (١٠٨٠).
(٥) في الأصل: (لا تعرضن فيما)، وفي (ظ): (لا تعترض ما)، والمثبت من الإحياء.

وقال معاويةُ لرجلٍ: (١ما بلغ من حِلمك١)؟ قال: لا يَعنيني ما لا يعنيني.

وقال مُوَرِّق العجْلي: أَمرٌ أنا في طلبه منذ عشرين سَنة لم أقدر عليه، ولستُ بتاركٍ طلبه أبداً. قالوا: وما هو؟ قال: الصَّمْتُ عمّا لا يَعنيني.

واعلم أنك إذا سألتَ غيرك عمّا لا يَعنيك ضَيَّعت وَقتكَ، وألجأتَ المسؤول إلى أن يُضَيِّع زَمانَه بالجواب، وربَّما لقيتَ شَخصاً فقلتَ: من أين؟ فكَرِه أنْ يُخبِرِكَ، فإن صدقَ لَحِقَهُ ضَرَرٌ، وإنْ كذبَ لَحِقَه إثمٌ.

وقد رُوي أنَّ لُقمان دخلَ على داود عليه السَّلام وهو يَسرُدُ الدِّرعَ(٢)، فجعلَ يتعجَّبُ ممّا رأى، وأراد أن يَسأله عن ذلك فمنعته حكمتُه، فأمسكَ نَفسه ولم يسأله، فلما فرغَ قامَ داود فلبس الدِّرعَ، ثم قال: نِعْمَ الدِّرع للحَرب.

فقال لُقمان: الصَّمتُ حُكمٌ وقليلٌ فاعلُه(٣). أي حَصَلَ العلم بالمُراد من غَير سُؤال.

الآفة الثانية: فُضول الكلام

وهذا يتناول الخَوض في ما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قَدر الحاجة، ومتى حصل المَقصود بكلمتَين فذِكر الثَّالثةِ فُضول، إلّا أنْ يُراد بها التَّوكيد، فيكون مقصوداً صحيحاً.

قال ابنُ مسعود: أَنذرتكم فُضول القَول، بحسبِ أحدكم ما أبلغَ(٤) حاجتَه.

وقال عَطاء بنُ أبي رَباح: كان مَنْ قبلكم يَكرهون فُضول الكلام، أما يَستحيي أَحُدكم أنْ لو نُشرت صَحيفتُه التي أملاها صدرَ نهارِه كانَ أكثر ما فيها ليسَ مِنْ أمرِ دينه ولا دُنْياه.

(١-١) في (ظ): (ما بقي حلمك).

(٢) سَرَدَ الدرع: نَسجَها، فشكَّ طرفي كل حلقتين وسمَّرهما.

(٣) شعب الإيمان (٥٠٢٦).

(٤) في الأصل: (ما بلغ).

وقال إبراهيم النَّخعي: يهلك الناس في خَلَّتين: فضول الكلام، وفضول المال.

وعلاجُ هذه الآفةِ من جِنْسِ علاج التي قَبلها، وذلك بالنَّظر إلى قَدْرِ شرف العُمر، فليحذر من التَّفريط فيه.

الآفة الثالثة: الخَوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي، كذِكر مَجالس الخَمر، ومَقاماتِ الفُسّاق، وأنواعُ الباطل لا تُحصَى لكثرتها، وقد ذكرنا في حديث بلال بن الحارث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إن الرّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ من سَخَط الله ما يَظنّ أنْ تبلغَ ما بَلغت، يكتبُ الله بها عليه سَخَطه إلى يوم القِيامة»(١).

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة يَزلُّ بها في النّار أبعدَ ما بينَ المَشْرق والمَغرب»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنّ أعظم النّاس خطايا يوم القيامة أكثرُهم خَوْضاً في الباطل».

ورأى أبو الدَّرداء امرأةً سَليطةَ اللِّسان، فقال: لو كانت هذه خَرْساء لكانَ خَيْراً لها.

الآفة الرابعة: المِراء والمجادلة

فقد رُوي عن ابن عباس عن النّبي ﷺ أنّه قال: «لا تُمارِ أخاك».

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ ترك المِراءَ وهو مُحقٌّ بُنيَ له(٣) بَيتٌ في رَبَضِ الجَنَّة».

---

(١) تقدم في الصفحة ٦٤٨.

(٢) تقدم في الصفحة ٦٤٨.

(٣) في (ظ): (بنى الله له).

وقال مُسلم بن يَسار: إياكم والمِراء فإنّها ساعةُ جَهل العالم، وبها يَبتغي الشيطانُ زَلَّته.

واعلم أنَّ المِراءَ هو كَثرة المُلاحاة للشَّخص لبيان غَلَطِه وإفحامه، والباعثُ عليه التَّرفُّعُ وبيانُ نقص المُلاحَى، وهما شَهوتان للنَّفس باطِنتان.

أمَّا قصدُ التَّرفُّع فمُقتَضى الكِبْر.

وأما بيان نَقص الغَير فَطبع السَّبُعيَّة، وهاتان الخَلَّتان تُخرج إلى فنون من المعاصي.

وإنّما ينبغي للإنسان أن يُنْكِرَ المنكرَ من القول ويُبيِّن الصَّواب ، فإن قبل منه وإلا تركَ المُماراة، هذا إذا كان الأمرُ متعلّقاً بالدّين، فأمّا إذا كان في أمور الدُّنيا فلا وَجْهَ للمُجادَلة فيه.

وعلاجُ هذه الآفَة بكسرِ الكِبْرِ الباعثِ على إظهارِ الفَضلِ وتَنقُّص الغَير؛ لأنَّ علاجَ كلّ علَّةٍ بإماطَةِ سَبَبها، وسَبب المِراء ما ذَكرناه، وقد سَبقَ ذِكر المِراء في كتاب آدابُ الصُّحْبة.

الآفةُ الخامسة: الخُصومة

وهو أمرٌ وراءَ المِراء؛ لأنّ المِراءَ طَعنٌ في كلام الغَير لإظهار خَللٍ فيه، والخُصومةُ لَجاجٌ في الكلام يُقصَد بها اسْتيفاءُ مَطلوب.

وفي الصّحيحين من حديث عائشةَ عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «إنّ أبغض الرِّجال إلى الله عزَّ وجل الأَلدُّ الخَصِم».

وروى أبو هُريرة عن النّبي ﷺ أنه قال: «مَنْ جادَل في خُصومةٍ بغير علمٍ لم يَزَلْ في سَخَطِ الله حَتى يَنْزِعَ».

وقال عُمر بن عبد العَزيز: مَنْ جعلَ دينَه غَرضاً للخُصومات أكثر التَّنَقُّلَ.

واعلم أنَّ ذَمَّ الخُصومات إنّما يتعلّق بمَن خاصمَ بغير علمٍ، أو خاصَم بالباطل، ومن النّاس من يَقصد بالخُصومة قَهْرَ الخَصم حتى يقول: مُرادي غَلَبتُه، ولو أخذتُ منه المال الذي أُخاصِمه فيه رَمَيتُه في بِئر ولا أُبالي.

وبَعدُ؛ فالأوَلى لمن له حَقٌّ أن يَصدِف[١] عن الخصومة مهما أمكن؛ لأنّ الخُصومةَ تُوغِرُ الصَّدرَ وتهيجُ الغَضَب وتُورثُ الحِقدَ، وتُخرِجُ إلى تَناول العِرْض، ووقوفُ المُخاصِم على حَدِّ الاعتدال مُتعذِّرٌ.

الآفة السّادسة: التَّقعُّرُ في الكلام

وذلك يكون بالتَّشدُّقِ وتكلُّفِ التَّسْجيع وغريب الكلام.

أخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: حدثنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن أبي عَدي، عن داود عن مَكحول، عن أبي ثَعْلبةَ الخُشَني قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدَكُم مِنّي في الآخِرةِ مَساوئكم أخلاقاً، الثَّرثارون المتَفَيْهِقون المُتَشدِّقون»[٢].

أخبرنا عليُّ بن محمد بن حَسّون قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا أبو القاسم بن المُنذِر قال: أخبرنا ابنُ صَفْوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا ابنُ أبي شَيْبَة قال: حدثنا حفصُ بن غِياث عن إسماعيل بن أبي خالد عن مُصعب قال: جاء عُمر بن سَعد إلى أبيه يَسأله حاجةً فتكلَّم بين يَدي حاجته بكلام، فقال له سَعد[٣]: ما كُنتَ من حاجَتك بأبعد منها اليَوم، إنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يأتي على النّاس زَمانٌ يَتخلَّلون فيه الكلامَ بألسنتهم كما تتخلَّلُ البقرُ الكلأ بألسنتها».

---

(١) صَدَفَ عن الشيء: مال عنه وأعرضَ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٣٢) و(١٧٧٤٣) وابن أبي شيبة ٨/ ٥١٥، وابن حبان (٤٨٢)، و الطبراني في الكبير ٢٢/ (٥٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٩٨٩)، وقوله: الثرثارون: هم الذين يكثرون الكلام تكلفاً وخروجاً عن الحق، والمتفيهقون: هم الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم، من الفَهق، وهو الإملاء والاتساع بلا احتياط.

(٣) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

قال القُرشي[١]: وحدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثنا علي بن ثابت عن عبد الحميد بن جَعفر الأنصاري عبد الله بن الحسن عن أمّه فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنتِ رسول الله ﷺ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «شِرارُ أُمَّتي الذينَ غُذوا بالنَّعيم، الذين يأكلون ألوانَ الطَّعام، ويَلبسون ألوانَ الثياب، ويتشدَّقونَ في الكلام»[٢].

وقال عُمر بن الخَطاب: إنَّ شَقاشِق[٣] الكلام من شَقاشِق الشَّيطان.

واعلم أنّه إنّما كان التَّقعُّر مكروهاً لمَكان التكلُّفِ والتَّصنُّع، ثم لا يَليقُ بالمُحاورات التَّقعُّرُ [٤]وتكليف الغَريب[٤]؛ لأنّ المقصودَ الفهمُ، فربمّا لم يفهم، وكذل تكلُّف السَّجعِ في المحاورات، كما قال ذلك الأعرابي: أَنَدي[٥] مَنْ لا أَكَل ولا شَرِبَ ولا استَهَل[٦]، ومثلُ ذلكَ يُطَلّ[٧].

ولا يَدخُل في هذه الكَراهة تَحسينُ ألفاظِ الخُطَب والتَّذكير مِن غير إفراطٍ ولا اغتراب؛ لأنّ المَقصود من ذلك تحريكُ القُلوب وتَشويقُها وقَبْضُها وبَسْطُها، ولرشاقةِ اللَّفظِ تأثيرٌ، فهو لائقٌ بِه.

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان، أبو بكر القرشي الشهير بابن أبي الدنيا، صاحب التصانيف الكثيرة، توفي سنة (٢٨١)هـ. سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٩٧، وطبقات الحنابلة ١/ ١٩٢.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الغيبة والنميمة (١٠)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٥٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٦٦٩)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٠٩٦).

(٣) الشقاشق: جمع شِقْشِقة، وهي الكلام بتفاصحٍ وتقعُّر.

(٤ـ٤) ليس في (ظ).

(٥) أي: ندفع الدِّية.

(٦) استهلَّ الصبيُ: رفع صوته بالبكاء وصاح عند الولادة.

(٧) يقال: طَلَّ دمه، أي هَدَر وبَطل ولم يُثأر به ولم تُؤخذ ديته، وقال له رسول الله ﷺ لما قال ذلك: (أسجعاً كسجع الأعراب؟). الحديث أخرجه أحمد و(١/ ١٨١٣) و(١٨١٤٨) و(١٨١٤٩) و(١٨١٧٧)، ومسلم (١٦٨٢)، وعبد الرزاق (١٨٣٥١)، وابن أبي شيبة ٩/ ٢٥٥، وأبو داود (٤٥٦٩)، والنسائي في الكبرى (٧٠٢٦ ـ ٧٠٢٨) من حديث المغيرة بن شعبة.

الآفة السابعة: الفُحْشُ والسَّبُّ والبَذاء

وهو مذمومٌ مَنهيٌّ عنه، ومصدره الخُبث واللُّؤم، رُوي عن عَبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنّه قال: «إياكم والفُحْش، فإنّ الله لا يُحبُّ الفُحْشَ ولا التَّفَحُّشَ»[(١)]، «الجَنَّةُ حرامٌ على كلِّ فاحشٍ يَدخُلها»[(٢)].

وقال عليه الصلاةُ والسلام: «أربعةٌ يؤذون أهل النار على ما بِهم من الأذَى، يَسعَون بينَ الحَميم والجحيم، يدعون بالوَيل والثُّبور..» فذكر منهم «رجلاً يسيلُ فُوهُ قَيحاً ودماً، فيُقال له: ما بالُ الأَبْعد قد آذانا على ما بنا منَ الأذى؟ فيقول: إنَّ الأَبعد كانَ يَنظُر إلى كلّ كلمةٍ قَذِعةٍ[(٣)] خَبيثةٍ، فيستلذُّها كما يَستلذُّ الرَّفَث».

وقال ابنُ مسعود: أَلأَم خُلُق المؤمن الفُحْشُ.

واعلم أنّ الفُحش والبَذاء هو التَّعبير عن الأُمور المُستقبَحة بالعِبارات الصَّريحة، وأكثر ذلك في ألفاظ الجِماع وما يتعلَّق به، فإنّ أهل الخَير يَتحاشَون عن تلك العبارات ويَكْنونَ عنها، كما قال ابن عباس: إنَّ الله حَيي كَريمٌ يَكْني بالحَسَن عن القَبيح، كَنَى باللَّمْسِ عن الجِماع.

ومن هذا الجنس أن لا يُقال للأبرص ومن به البَواسير: كيف بَرَصُكَ؟ بَل: كيفَ العارض الذي تَشكوه؟

وكان عُمر بن عبد العزيز يتحفَّظ في مَنطِقه ولا يتكلّم بشيءٍ فخرج له خراج في إبْطِه، فقالوا: أيّ شيءٍ عسى أن يقول الآن؟ فسألوه: أينَ خرج هذا منك؟ فقال: في باطن يدي.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٥١٩)، وهو بطوله عند أحمد (٦٤٨٧)، وابن حبان (٥١٧٦)، والطيالسي (٢٢٧٢)، والبيهقي في الشعب (٧٤٥٨) و(١٠٨٣٤) وفي السنن: ١٠/ ٢٤٣.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٨٨، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١١٧، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين ٧/ ٤٧٨، وأورده المناوي في فيض القدير ٣/ ٣٦٣ ونسبه لابن أبي الدنيا في فضل الصمت، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) قذعة: قبيحة سيئة.

وأمّا السَّبُّ؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «سِبابُ المُسلم فُسوق، والمُسْتَبَّان ما قالا فَعلى البادي ما لم يعتدِ المَظلوم».

الآفة الثامنة: اللَّعْن

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الدّاودي قال: أخبرنا ابنُ أَعْين السَّرخسي قال: أخبرنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا موسى بن إسماعيل قال: حدثنا وُهَيب قال: حدثنا أيوب عن أبي قِلابَة عن ثابت بن الضَّحاك عن النَّبي ﷺ أنّه قال: «لَعنُ المُؤمنِ كَقَتلِه». أخرجاه في الصَّحيحين.

وفي أفراد مُسلم من حديث أبي الدَّرداء عن النَّبي ﷺ: «إنَّ اللَّعّانينَ لا يكونون شُهداء ولا شُفعاء يوم القِيامة».

وفي أفراده من حديث أبي هريرة عن النَّبي ﷺ قال: «لا ينبغي لصدِّيقٍ أنْ يكونَ لَعَّاناً».

وقال حُذَيفةُ: ما تَلاعَنَ قومٌ قَطّ إلّا حَقَّ عليهم القَول.

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحَسن بن علي التّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا أيوب عن أبي قِلابة عن أبي المهلَّب عن عمران بن حُصَين قال: بينما رسولُ الله ﷺ في بَعض أَسْفاره وامرأةٌ منَ الأَنْصار على ناقةٍ، فضَجِرَتْ فلَعَنتها، فسمعَ ذلك رسولُ الله ﷺ فقال: «خُذُوا ما عليها ودَعوها، فإنّها مَلعونَة». قال عمران: فكأنّي أَنْظُرُ إليها الآن تمشي في النّاس ما يَعرِضُ لها أَحد؛ يعني النّاقة[1]. انفرد بإخراجه مسلم، وإنّما نَهاهُم عن ركوب النّاقة عُقوبةً لصاحبها اللّاعِنِ لها.

وقالت عائشةُ: سمعَ النبيُّ ﷺ أبا بكرٍ لَعَنَ[2] بعضَ رَقيقه، فقال له النبي ﷺ:

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (الناس)، والحديث أخرجه مسلم (٢٥٩٥) (٨٠) وأحمد (١٩٨٧٠).

(٢) في الأصل: (يلعن).

«يا أبا بَكر، الصّديقون لعَّانون!» قال: فأعتق أبو بكرٍ يومئذٍ بعضَ رَقيقه، وجاء إلى النّبي ﷺ فقال: واللهِ لا أعودُ.

واعلم أنَّ الأَولى بالإنسان حِفْظُ لسانه، فربّما لَعَنَ من لا يجوزُ لَعنُه.

وقد قال ابن عَون: إنّما هما كَلمتان تَخْرُجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلّا الله، ولَعَنَ اللهُ فلاناً، ولأن يَخرج من صحيفتي: لا إله إلا الله، أحبّ إليّ من أن يخرج: لعنَ اللهُ فلاناً.

الآفة التاسعة: الغِناء والشِّعر

فأما الكلام في الغناء، فقد سبق.

وأمّا الشِّعر، فإنّه كلامٌ مَنظومٌ، حَسَنُه كَحَسنِ الكلام وقَبيحُه كقَبيح الكلام، قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ من الشِّعر لحِكْمة». إلا أنّ التَّجرّدَ له عن بقية العُلوم مَذموم.

قال عليه الصلاة والسّلام: «لأنْ يَمتلئ جُوفُ أحدِكُم قَيْحاً يَرِيه[1]، خيرٌ له منْ أَنْ يمتلئ شِعراً».

الآفَة العاشرة: المُزاح

فإنّه دليلٌ على انْبساطٍ وطيبِ قلب، فلا يُنْهَى عمّا كان يَسيراً وكان صدقاً، فقد كان عليه الصلاة والسلام يمزَح، وكان من مُزاحِه ﷺ أنّه قال لرجلٍ: «يا ذا الأذنَين».

وقال لآخر: «إنّي حامِلُكَ على ولد النَّاقةِ» فقال: وكيف يُطيقُني ولدُ النّاقة؟ فقال: «وهل تلد الإبِلَ إلّا النُّوقُ»، وقال لعجوزٍ: «إنّه لا تدخلُ الجنَّةَ عَجوزٌ» ثم قرأ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾﴾ [الواقعة: ٣٥]، وقال لأخرى: «زَوجُك الذي في عَينِه بَياض».

---

(١) يريه، من الوَري، أي: حتى يغلبه ويشغله عن ذكر الله ويفسده.

وقد اتَّفقَ في مُزاحِه عليه الصلاة والسّلام ثلاثةُ أشياء:

أحدها: كَونُه حقّاً، فقد قال عليه الصلاة والسّلام: «إنّي لأَمزَحُ ولا أقول إلّا حَقّاً».

والثاني: أنّ جُمهور مُزاحِه كانَ مع النِّساء والصِّبيان ومن يَحْتاجُ إلى ملاينةٍ من ضعفاءِ الرّجال.

الثالث: أنّه كان نادراً، فلا ينبغي أن يَحتجَّ به من يُريد الدَّوام عليه، فإنّ حُكمَ النّادر ليس كحكم الدّائم، ولو أنّ إنساناً دارَ مع الحَبَشَةِ ليلاً ونهاراً يَنظر إلى لَعِبهم، واحتجَّ بأن رسولَ الله ﷺ وقفَ لعائشة وأَذِنَ لها أن تَنظُرَ إلى لعب[1] الحَبَشة لكانَ غَالطاً؛ لِنُدورِ ذلك، [2]فالإفراطُ في المُزاح والمُداومةُ عليه مَنهيٌّ عنه[2]؛ لأنّه يُخرجُ إلى هَوانِ المُمازِح وإضحاكِ الناس به ويُسقِطُ الوَقار، ويُوجبُ الضَّغائن والأحْقاد، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تُمار أخاكَ ولا تُمازِحه». وقال عُمر: مَن مَزَح استُخِفَّ به.

وقال سَعيد بن العاص لابنه: يا بنيَّ، لا تُمازِح الشَّريف فيحقد عليك، ولا الدَّنيءَ فيجترئ عليك.

وقال عُمر بن عبد العزيز: إياكَ[3] والمزاحة، فإنّها تُورِثُ الضَّغينة.

الآفةُ الحادية عشرة: السُّخرية والاستهْزاء

ومعنى السُّخرية: الاحتِقار والاستِهانَة والتَّنبيه على العُيوب والنَّقائصِ على وَجهٍ يُضحَكُ منه، وقد يكون ذلك بالمُحاكاةِ في الفِعْلِ والقَول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وكلّه مَمنوع منه في الشّرع، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١].

---

(١) ليست في الأصل.
(٢ـ٢) في العبارة في (ظ) تقديم وتأخير.
(٣) تحرفت في الأصل إلى: (إياي).

وروت أم هانئٍ عن النّبي ﷺ أنّه قال في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، قال: «كانوا يَحذِفونَ أَهلَ الطَّريقِ، ويَسْخَرونَ منهم».

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: حَكَيتُ[1] إنساناً، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «ما أُحبُّ أنّي حَكيتُ إنْساناً وأنّ لي كَذا وكذا».

ورَوى مُعاذٌ عن النّبي ﷺ أنّه قال: «مَنْ عَيَّر أَخاهُ بذَنبٍ قد تابَ منه، لم يَمُت حتى يَعمَلَه».

وروى الحَسَن عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنّ المستهزِئين بالنّاس يُفتَح لأحدهم بابٌ من الجنّة، فيُقال: هَلُمّ هَلُمّ، فَيَجيءُ بكَرْبِهِ وغَمِّه، فإذا أتى أُغلِقَ دونه، ثم يُفتح له بابٌ آخر، فيُقال: هَلُمّ هَلُمّ، فيجيء بكَرْبِهِ وغَمِّه، فإذا أتى أُغلِقَ دونَه، فما يَزال كذلك حتى إنّ الرّجلَ ليُفتح له البابُ فيُقال: هَلمَّ هَلُمَّ، فما يأتيه».

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السِّر

وهو مَنهيٌ عَنه لما فيه من الإيذاءِ والتّهاون بحقِّ المعارِف والأصدقاء.

وفي الصَّحيحين من حديث أنسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ بَعَثه في حاجةٍ، فقالت له أمُّ سُليم: ما حَبَسَكَ؟ فقال: بَعَثني رسولُ الله ﷺ في حاجةٍ. فقالت: وما هي؟ قال: سِرٌّ. قالت: احفَظْ على رَسول اللهِ سِرَّه. قال: مَما حدَّثتُ به أحداً بعدُ.

وفي أفراد البُخاري من حديث أبي بَكر الصِّديق أنّه قال: لم أكُنْ لأُفْشي سِرَّ رسولِ الله.

ورَوَى جابرٌ عن النبي ﷺ أنّه قال: «إذا حَدَّثَ الرجلُ [بحديثٍ][2] ثم التَفَتَ، فَهِي أمانةٌ»[3].

---

(١) يقال: حكاه وحاكاه أي: ماثله وقلّده وشابهه في قولٍ أو فعل.
(٢) ليست في النسخ، وأثبتت من مصادر التخريج.
(٣) أخرجه أحمد (١٥٠٦٢)، وأبو يعلى (٢٢١٢).

وقال عَمرو بنُ العاص: ما وضَعتُ سِرِّي عند أحدٍ فلُمتُه على إفشائِه، وكيف أَلومُه وقد ضِقْتُ به ذَرْعاً(١).

وقال الحسَنُ(٢): من الخِيانة أنْ تُحدِّثَ بسِرِّ أخيك.

قال بعضُ الحُكماء: مَن ارتادَ لسِرِّه فَقد ضَيَّعهُ، وما كنتَ كاتِمه من عَدوّك، (٣فلا تُظْهِرْ عليه٣) صديقَك.

وقيلَ لأعرابي: كيفَ كِتْمانُك للسِّرّ؟ فقال: أَلْتَحِفُ عليه التِحافَ الجَناح على الخَوافي(٤).

وقال آخر: إنَّ سِرَّكَ من دمك، فلا تضعه إلّا عند مَنْ تثقُ به.

وقدسبقَ في كتاب آداب الصُّحبة الكلام في كِتمان السِّرِّ.

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب

فإنّ اللِّسانَ سَبّاقٌ إلى الوَعد، والنَّفسُ ربّما لم تَسمح بالوفاء فيصير الوَعدُ خُلْفاً، وذلك من علامات النِّفاق، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]. وقد أثنى الله عزّ وجل على نبيِّه إسماعيل، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤].

قال يزيد الرَّقاشي: وَعدَ إسماعيلُ نَبيُّ اللهِ رجلاً ميعاداً، فجلس له إسماعيل اثنين وعشرين يوماً مَكانَه لا يَبرح لميعاده، ولَهَى الآخَرُ عن ذلك حتى جاء بعد ذلك.

وفي مُرْسَلات الحَسَن عن النَّبيﷺ أنّه قال: «العِدَةُ(٥) عَطيّة».

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٨٦).
(٢) يعني الحسن البصري.
(٣-٣) في الأصل: (فاكتمه من).
(٤) الخوافي: جمع خافية، وهي إحدى ريشاتٍ أربع إذا ضمَّ الطائر جناحه خَفيت.
(٥) العِدَةُ: الوعد، والمقصود أنها بمنزلة العطية فلا ينبغي الخُلفُ فيها كما لا ينبغي الرجوع في العطية.

أخبرنا عليُّ بن محمد بن حَسّون قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم بن المنذر قال: أخبرنا ابن صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم قال: حدثنا محمد بن سِنان العَوفي قال: حدثنا إبراهيم بن طَهْمان عن بُدَيْل بن مَيسرة عن عبد الكريم بن عبد الله بن شَقيق عن أبيه عن عبد الله بن أبي الحَمْساء[١] قال: بايَعتُ النَّبيَّ ﷺ ببيعٍ قبل أن يُبعَث فبقيَتْ له بَقيةٌ فَوَعدتُه أن آتيه بها في مكانه ذلك، فنسيتُ يومي والغَد، وأتيتُه في اليوم الثّالث وهو في مَكانِه فَقال: «يا فَتى، لقد شَقَقْتَ عليَّ، أنا ها هُنا منذ ثلاث أَنتَظِرك».

قال أحمد بن إبراهيم: وَحدّثني محمد بن كَثير عن الأوْزاعي عن هارون بن رِئاب[٢] قال: لما حضَرتْ عبَد الله بنَ عمروٍ الوَفاةُ قال: إنّه كان خَطبَ إليَّ ابنتي رجلٌ من قُريش، وقد كان منّي إليه شَبيهٌ بالوَعد، فوالله لا أَلْقَى اللهَ بثلثِ النِّفاق، اشْهَدوا أنّي قد زَوجتُها إيّاه.

وإنّما أشار إلى الحديث الصّحيح: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فهو مُنافق؛ إذا وَعَدَ أَخْلَف..»، غير أنَّ العُلماءَ حَملوا هذه على مَنْ وعدَ وهو على عَزْمِ الإخْلافِ وتركِ الوَفاءِ من غير عُذر، فأمّا مَنْ عزمَ على الوفاء وعَرضَ له عُذْرٌ مَنعَه من الوَفاء، فليس بمنافِقٍ، إلّا أنّه يَنْبغي له أن يَحترزَ من صورة النّفاق كما يحترز من حَقيقته.

وقال عبدُ رَبِّهِ القَصّاب: واعَدتُ ابنَ سيرين فنسيتُ، ثم ذكرتُ فأتيتُه قريباً من نصف النَّهار، وإذا به يَنتظرني، فقال: لو لم تَجِئْ حتى غَربت الشَّمس ما قُمت من مَقامي هذا إلّا إلى صَلاةٍ أو حاجةٍ لا بدَّ منها.

وقال شُعبة: ما واعدتُ أيوب مَوعداً قط إلا قال لي حين يُفارقُني: ليس بَيني وبينك مَوعد. فإذا جئتُ وجدتُه قد سَبَقني.

---

(١) تحرف في (ظ) إلى: (الحسماء) وهو عبد الله بن أبي الحمساء العامري. الإصابة ت (٥٢٢٧).

(٢) تصحفت في النسخ إلى: (رباب)، ينظر تقريب التهذيب: ٤٩٩.

وكان أصحابُ عبد الله بن مسعود يقولون: إذا وَعَد فقال: إنْ شاءَ الله. فَما أَخْلف.

وكان يقول عَوْفُ بن النُّعمان في الجاهلية: لأَن أموتَ قائماً عطشاناً أحبّ إليَّ من أن أكون مِخْلافاً للوَعد.

الآفةُ الرّابعة عشرة: الكَذب في القَول واليمين

أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحَسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاويةَ قال: حدثنا الأَعْمش عن شَقيقٍ عَن عبد الله[١] قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليكم بالصِّدق، فإنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِر، وإنّ البِرَّ يَهدي إلى الجنَّة، وما يزال الرَّجلُ يَصدُق حتى يُكتبَ عندَ الله صِدّيقاً، وإياكُم والكذب، فإن الكذب يَهدي إلى الفُجور، وإنَّ الفُجورَ يهدي إلى النّار، وما يزَالُ الرّجل يكذب ويَتحرَّى الكذبَ حتى يُكتبَ عند الله كَذّاباً»[٢] أَخرجاه في الصَّحيحين.

وأخرجا من حديث أبي هريرة عن النّبي ﷺ أنّه قال: «آيةُ المُنافِق ثَلاث؛ إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَد أَخلَفَ، وإذا ائتُمِنَ خَان»[٣].

وأخرجا من حديث سَمُرةَ عن النَّبي ﷺ قال: «هل رأى أحدٌ منكم اللَّيلة رُؤيا؟» فقلت: لا. قال: «لكن أنا رأيتُ اللَّيلةَ رَجُلين أَتياني، فأخذا بيدي، فأخرجاني إلى فَضاءٍ، فَمرّا بي على رَجلٍ، ورجلٌ قائم بيَده كَلّوبٌ[٤] من حَديد فيُدخِلُه في شِدْقِه،

---

(١) يعني ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٣٨)و (٣٧٢٧) و(٣٨٩٦) و(٤٠٢٢) و(٤٠٩٥) و(٤١٠٨) و(٤١٦٠) و(٤١٨٧)، والبخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)(١٠٣) - (١٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣) و(٢٦٨٢) و(٢٧٤٩) و(٦٠٩٥)، ومسلم (٥٩).

(٤) الكلّوب والكُلاّب: حديدة معوجّة الرأس يُنشَل بها الشيء أو يُعلّق.

فيَشُقُّه حتى يَبلُغ قَفاه، (١ثم يُخرجُه١) فَيُدخِلُه في شِدْقه الآخر، ويَلْتَئِمُ[٢] هذا الشِّدق، فقلتُ: مَنْ هذا؟. . .، فقالا: هو كَذَّابٌ يكذبُ[٣] الكِذْبَةَ فتُحمَلُ عنه في الآفاق، فهو يُصنَعُ به ما رأيتَ إلى يوم القِيامة، ثم يَصنع الله به ما شاء»[٤].

وأخرجا من حديث أنس عن النّبي ﷺ أنّه قال: «ألا أُنبئكم بأكبر الكَبائر؟ قَول الزُّور» [أو قال][٥]: «شَهادةُ الزّور»[٦].

وأخرجا من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «المتَشبِّع[٧] بما لمْ يُعْطَ كلابِسِ ثَوْبَي زُور»[٨].

وروى سَعدُ بن أبي وَقّاص عن النّبي ﷺ قال: «كُلُّ خَلَّةٍ يُطبَعُ أو يُطوى عليها المؤمن، إلا الخِيانة والكَذِب».

وقالت عائشةُ: ما كان خُلُقٌ أشَد عند أصحاب رسولِ الله ﷺ من الكذِب، ولقد كانَ رسولُ الله ﷺ يَطَّلعُ منَ الرَّجل من أصحابه على الكِذْبَةِ[٩] فما تَنْحَلُّ من صَدره حتى يَعلم أنّه قد أَحدَثَ للهِ منها تَوبةً[١٠].

(١-١) سقط من (ظ).

(٢) في (ظ): (فيلقم).

(٣) تحرفت في الأصل إلى: (يحمل).

(٤) أخرجه بطوله أحمد (٢٠١٦٥)، والبخاري (١٣٨٦) و(٧٠٤٧، وأخرجه مسلم (٢٢٧٥) مختصراً.

(٥) ليست في النسخ، وأثبتت من مصادر التخريج.

(٦) أخرجه أحمد (١٢٣٣٦)، والبخاري (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨).

(٧) المتشبِّع: الذي يُظهر الشبع وليس بشَبعان، ومعناه هنا: أنه يُظهر أنه حصل له فضيلة وليست حاصلة.

(٨) أخرجه أحمد (٢٦٩٢١)، والبخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠)، وقوله: (كلابس ثَوبي زور) أي: كمن أحاط به الزور من كل جانب، فنيَّتُه وعمله كلاهما زور.

(٩) في النسخ: (الكذب)، والمثبت من مصادر التخريج.

(١٠) أخرجه أحمد (٢٥١٨٣)، والبيهقي في الشعب (٤٨١٧)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠١٩٥)، وابن حبان (٥٧٣٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٧٦).

وقال عليه الصلاة والسلام: «اكفلوا لي بسِتٍّ أكفل لكم بالجنَّة؛ إذا حدَّث أحدُكم فلا يَكذِب».

وقال أبو بكر الصّدّيق: إيّاكم والكَذب، فإنّه مجانبٌ للإيمان.

وقال عُمر: مَن يكذب يفْجُر، ومَن يفْجُر يَهلك.

وقال علي بن أبي طالب: أعظم الخَطايا عند الله، اللِّسانُ الكَذُوب.

وقال ابنُ مَسعود: لا يَصلُح الكَذِبُ في جِدٍّ ولا هَزْل، ولا أن يَعِدَ أحدُكم صَبِيَّهُ شَيئاً ثم لا يُنْجِزه له.

وقال مسروق: ليس شيءٌ عند الله أعظم من الكذب.

وقال اللَّيثُ بن سَعد: كانت تَرمَصُ[1] عَيْنا سعيد بن المسيِّب حتى يَبلغ الرَّمَصُ خارجَ عَينيه إلى المآقي، فيقال: لو مَسَحتَ هذا، فيقول: فأينَ قول الطَّبيب: لا تمسَّ عَيْنَيك، فأقول: لا أَفْعل.

وقال عُمر بن عبد العزيز[(٢]ما كَذَبتُ كِذْبَةً مُنذُ شَدَدتُ عليَّ إزاري. وكلَّمه الوَليد في شيءٍ فقال له: كَذَبتَ. فقال له عمر[٢)]: ما كذبتُ منذ علمتُ أنَّ الكذِبَ يشينُ صاحِبَه.

وقال ابنُ السَّماك: ما أُراني أُؤجَر على تركي الكَذب، إنّما أَدَعه أَنَفَةً.

وقال ابنُ المبارك: أول عقوبةِ الكاذب مِن كذبه أن يُرَدَّ عليه صِدقُه.

فأمّا الكذبُ في اليمين بالله تعالى، ففي الصَّحيحين من حديث عَبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ قال: «الكبائر: الإشراكُ بالله، وعُقوق الوالدين، وقَتل النَّفس، واليَمينُ الغَموس».

وأخرجا من حديث ابن مَسعودٍ عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «من حَلفَ على يمينٍ هو فيها فاجِرٌ ليَقتطعَ بها مالَ امْرئٍ مسلمٍ، لقي الله عزَّ وجلَّ وهو عليه غَضْبان».

---

(١) رمِصَت العينُ تَرْمص رَمصاً: اجتمع في موقها وسخٌ أبيض.
(٢-٢) سقط من (ظ).

وفي أفرادِ مسلم من حديث أبي أُمامَةَ عن النَّبي ﷺ قال: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ[١] امرئٍ مُسلمٍ بيمينه، فقد أَوجبَ اللهُ له النّار، وحَرَّم عليه الجَنَّةَ» فقال له رجلٌ: وإنْ كانَ شيئاً يَسيراً؟ قال: «وإنْ كان قَضيباً مِنْ أَراك»[٢].

(١) في الأصل: (مال) وما في (ظ) موافق لرواية مسلم.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٧).

بيان

ما رُخِّصَ فيه من الكَذِب

اعلم أنَّ الكلامَ وسيلةٌ إلى المقاصدِ، فكلُّ مقصودٍ محمودٌ يُمكنُ التَّوصلُ إليه بالصّدق والكذب جميعاً، فالكذبُ فيه حَرامٌ، وإن أمكنَ التَّوصُّلُ إليه بالكذبِ دون الصِّدقِ، فالكذبُ فيه مُباحٌ إنْ كانَ تحصيلُ ذلك المَقصود مُباحاً، وواجبٌ إنْ كانَ المقصودُ واجباً، كما أنَّ عِصمةَ دَم المُسلم واجبٌ، فمَهما كانَ في الصِّدق سَفكُ دمِ مسلمٍ قَد اختفى من ظالمٍ، فالكذبُ فيه واجبٌ، ومَهما كان لا يَتمُّ مقصودُ حَربٍ، أو إصلاحِ ذاتِ البين، أو استمالةِ قَلبِ المَجْنيِّ عليه إلا بكذبٍ، فالكذبُ مُباحٌ.

إلّا أنّه يَنبغي أنْ يُحتَرزَ عنه ما أمكنَ، لأنّه إذا فُتِح بابُ الكذبِ فربّما تَداعَى إلى ما يمكن أن يُستَغْنى عنه وإلى مالا يقتصر إلى حدِّ الضّرور، [(١]فبانَ من هذا أنّ الكذبَ حرامٌ في الأصل إلا لضَرورةٍ[١)].

وقد بُيِّنَت[(٢)] الضّرورة فيما أخبرنا به ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يعقوب قال: [(٣]حدثنا أبي عن صالح[٣)] بن كَيسان، قال: حدثنا محمد بن مُسلم أنَّ حُميدَ بن عبد الرَّحمن بن عَوف أخبره أنَّ أمَّه أُمَّ كُلثوم بنتُ عُقبةَ أَخبرتهُ أنّها سمعَت رسولَ الله ﷺ يقول: «ليس الكذابُ بالذي يُصلح بينَ الناس فَيَنْمي[(٤)] خَيراً أو يقول خَيراً». وقالت: لم أسمعهُ يُرخِّصُ في شيءٍ مِمّا يَقول النّاس إلّا في

(١ـ١) سقط من (ظ).

(٢) تصحفت في الأصل إلى: (ثبتت).

(٣ـ٣) في الأصل: (عن أبي صالح) وهو غلط.

(٤) فَيَنمي: أي ينقل من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر خيراً، مما يُرجى به الإصلاح بينهما، وإن لم يطابق الواقع.

ثلاث: في الحَرب، والإصلاح بينَ النّاس، وحديثِ الرَّجل امرأتَه، وحديثِ المرأةِ زوجها». أخرجاه في الصَّحيحين[(١)].

أخبرنا علي بن محمد بن حَسّون قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا أبو القاسم بن المُنْذر قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا داود بن عمرو الضَّبيّ قال: حدثنا داود بن عبد الرحمن العَطّار عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيم عن شَهْر بن حَوْشَب عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله ﷺ قال: «أيّها النّاس، ما يَحملكم على أنْ تَتَتايَعوا[(٢)] بالكذبِ كما يَتَتايَعُ الفَراشُ في النّار؟ كلُّ الكذبِ يُكتبُ على ابنِ آدمَ إلا ثلاث خِصال: رجلٌ كَذَبَ امرأتَهُ ليُرضيها، ورجل كَذَب بين امْرَأينِ ليُصلح بَينهما، ورجلٌ كذَبَ في خَديعةِ الحَرب».

فهذه الثلاثُ ورد فيها صَريحُ الاستِثناء، ويُضافُ إليها ما في معناها إذا ارتبط به غَرضٌ مَقصودٌ صحيح له أو لغيره.

أمّا الذي له؛ فمثل أن يأخذَه ظالم ويسأله عن ماله، فله أن يُنكر، أو يأخذه السُّلطان ويَسأله عن فاحشةٍ بينه وبين الله ارتكبها، فله أن يُنكر ويقول: ما زَنَيتُ ولا شَربتُ. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتى شَيئاً من هذه القاذورات، فليَسْتَتِر بسِتْر الله». وذلك، لأنَّ إظهارَ الفاحشة فاحشةٌ أُخرى، فللرّجُل أن يحفظَ دَمَه وماله الذي يُؤخذ ظُلماً وعرضَه بِلسانه، وإن كان كاذباً.

وأمّا عِرضُ غيره؛ فمثل أن يُسأَلَ عن سِرِّ أخيه، فله أن ينكره، وأن يُصلح بين اثنين وبين الضَّرَّتينِ من نِسائه بأن يُظهِر لكلِّ واحدةٍ منهما أنّها أحبّ إليه [(٣)]من الأخرى[(٣)]، وإن كانت امرأته لا تُطيعه إلا بأن يَعدها مالا يَقدر عليه، فله أن يَعدها في الحال تَطييباً لقلبها، وكذلك إذا احتاجَ أن يعتذر إلى إنسانٍ، ولم يصحّ قبول الاعتذار إلا بإنكارِ ذنبٍ وزيادةِ تودُّدٍ، فلا بأسَ به.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٢) ومسلم (٢٦٠٥) وأحمد (٢٧٢٧٢).
(٢) يقال: تتايع فلانٌ في الشر وعليه، أي: تهافت وأسرع.
(٣-٣) سقط من (ظ).

وإنّما أُبيح الكذب في هذه الأشياء، وإن كان محذوراً؛ لأنّ الصِّدق فيها يتولَّد منه محذورٌ أيضاً، فينبغي أن يُقابل المحذورين ويزنهما بميزان عدلٍ، فإذا رأى أنَّ المحذورَ الحاصلَ بالصّدق أشدّ وقعاً في الشَّرع من الكذبِ، فله الكذب، وإن كان ذلك المقصود أَهْون من مقصود الصِّدق، وَجَبَ الصِّدقُ، فإنْ تَقابَل الأَمرُ[1] وتردَّدَ، فالصِّدق أولى؛ لأنّ الكذب مُباح لضرورة وحاجة مهمّة، فإذا شكّ في كون الحاجة مهمة، فالأصلُ التحريم.

ولأجل غُموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه.

ومهما كانت الحاجةُ له فيُستحبُّ أن يَتركَ أغراضَه ويَهجر الكذب، وأمّا إذا تعلَّق بعرضِ غيره، فلا يجوز المسامحة بحق الغير والإضْرار به.

وأكثرُ كذب الناس إنّما هو لحُظوظ أنفسهم، ثم أكثرهُ لزيادات المال والجاه، ولأمورٍ ليس فواتُها محذوراً، حتى إنّ المرأة لتحكي عن زوجها ما تَتَفاخَرُ به وتكذب لأجلِ مُراغَمةِ الضَّرّات، وذلك حرامٌ.

أخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا هشام بن عروة عن فاطمة بنت المُنذر عن أسماء بنت أبي بكرٍ قالت: جاءت إلى النّبيِّ ﷺ امرأةٌ فقالت: يا رسول الله، إنَّ عليَّ ضَرَّةً، فهل عليَّ جُناحٌ أن أتشَبَّعَ من زَوجي بما لم يُعطِني؟ فقال رسول الله ﷺ: «المُتَشَبِّع بما لم يُعْط، كلابِسِ ثَوبَي زُور». أخرجاه في الصّحيحين[2].

واعلم أنّه يَدخل في هذا فَتْوى العالم بما لا يَتحقَّقُه وروايته للحديث الذي لا يَتثبَّت[3] فيه، إذ غَرَضُه أن يُظهِر فَضلَ نفسه، فهو لذلك يَسْتنكف أن يقول: لا أدري. وذلك حَرام.

---

(١) في (ظ): (الأمران).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠)، وأحمد (١٦٩٢١).

(٣) في الأصل: (يثبت).

ذِكْرُ الكلام في المعاريض

أخبرنا [(١]المُبارك بن علي[١)]، قال: أخبرنا شُجاع بن فارس قال: أخبرنا محمد ابن علي بن الفَتح قال: أخبرنا عمر بن ثابت قال: أخبرنا علي بن أحمد بن أبي قَيس قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا [(٢] إسماعيل بن إبراهيم[٢)] بن بَسّام قال: حدثنا داود بن الزِّبْرِقان عن سَعيد بن أبي عَروبة، عن قَتادة، عن زُرارة بن أَوْفَى، عن عِمْران بن حُصَين قال: قال رسولُ الله ﷺ: إنَّ في المَعاريض[(٣)] لَمَنْدوحة[(٤)] عن الكذب[(٥)].

ورواه أبو عوانة عن قَتادة عن مُطَرف عن عِمران، فَوقَفَه، وهو الأَشْبَه[(٦)].

وقال عُمر بن الخَطّاب: أَمَا في المعاريض ما يغني المسلم عن الكذب[(٧)].

وقال: ما يَسرُّني أنّ لي بما أعلم من مَعاريض القَول مثل أهلي ومالي[(٨)].

واعلم أن المعاريض إنّما تَصلح عند الحاجة إليها، فأمّا مع غير الحاجة فمكروهةٌ؛ لأنّها تُشبهُ الكذبَ.

(١-١) في (ظ): (ابن المبارك). وهو غلط.

(٢-٢) في الأصل: (إبراهيم بن إسماعيل) وهو غلط.

(٣) المعاريض: جمع معراض، من التعريض بالقول، وهو خلاف التصريح، والتورية بالشيء عن الشيء.

(٤) مندوحة: فُسحَة وسَعَة.

(٥) أخرجه عن عمران بن حصين مرفوعاً ابن عدي في الكامل ١/ ٣٥ و٣/ ٩٦، والبيهقي في السنن ١٠/ ١٩٩، وفي الشُّعَبِ (٤٧٩٥)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠١١).

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٥٧)، وابن أبي شيبة (٢٦٠٩٦) والطبراني في الكبير ١٨/ ١٠٦، وهَنّاد في الزهد (١٣٧٨) والبيهقي في السنن ١٠/ ١٩٩، وفي الشُّعَب (٤٧٩٤) موقوفاً، وقال عقيبه: هذا هو الصحيح موقوفاً.

(٧) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٨٤)، وابن أبي شيبة (٢٦٠٩٥)، والبيهقي في الشعب (٤٧٩٣).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٩٤).

قال إبراهيم النَّخعي: لهم كلامٌ يتكلَّمون به إذا خَشوا من شيءٍ يَدْرأون به عن أنفسهم الكَذب(١).

وقال ابن سيرين: الكلامُ أوسَعُ من أنْ يَكذِبَ ظَريفٌ(٢).

فمِنَ المعاريض قول الخَليل عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، قال ابنُ سيرين: لم يكُن سَقيماً، ولكنّه من المعاريض.

وكذلك قال ابنُ عباس في قول موسى عليه السّلام: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣]، قال: لم يكن نَسي ولكنه من معاريض الكلام(٣).

وقال العباس: يا رسولَ الله؛ أترجو لأبي طالبٍ؟ فقال: «كلُّ خَيرٍ أرجوه من ربّي»(٤).

ورُوِّينا عن عبد الله بن رَواحة أنّه أصابَ جاريةً له، فعلمت امرأتُه، فأخَذت شَفْرةً ثم أَتَتْهُ، فوافقته حين قام عنها، فقالت: أفعلتَها؟ فقال: ما فعلتُ شيئاً. قالت: لَتَقْرأنَّ قُرآناً أو لأَبْعَجَنَّك بها. فقال:

وفينا رَسولُ اللهِ يَتلو كتابَه ... إذا انشقَّ مَشهورٌ(٥) من الصُّبح طالعُ
يبيتُ يُجافي جَنبَه عن فِراشِه ... إذا استثقَلَتْ بالكافرين المَضاجِعُ
أرانا الهُدى بعدَ العَمى فقلوبُنا ... بهِ موقناتٌ أنَّ ما قال واقع

فقالت: آمنتُ بالله وكذَّبتُ بَصَري(٦)

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٠٩٨).
(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ٣٢، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٩٨). والظريف: المتصف بالظَّرف، وهو الكياسة والبراعة والحِذق.
(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٩/ ٦١٠، ونسبه لابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٦/ ٣٣٦.
(٥) في (ظ): (مستور).
(٦) سنن الدارقطني (٤٣٢)، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٢٨/ ١١٥ ـ ١١٦، وتفسير القرطبي ٦/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦، وأوردها الذهبي في السير ١/ ٢٣٦ بأبياتٍ مغايرة.

وكان النَّخعي إذا طُلِبَ في بَيته قال للجارية: قولي: اطلبوه في المسجدِ[(١)].

وقد بينَّا أنَّ الأَوْلى تَركُ المَعاريض لمكان المُشابهةِ للكذب، ومن هذا المعنى يحذر الخَليل عليه السلام ويَذكر كلماته وقت سؤال النَّاس له الشَّفاعة[(٢)]، وقد كان كثير من السَّلف يَحذرون المعاريض والتَّجوُّزات تعويداً للّسان أن يُلازِمَ الصَّواب، فروِّينا أنّ أُختَ الرَّبيع بن خَيْثَم جاءت تعودُ ولدَه، فقالت: كيف أنتَ يابُنَي؟ فقال الرَّبيع: أَرْضَعْتيه؟ قالت: لا. قال: فما عليكِ لو قُلتِ: يا ابنَ أخي فَصدَقْتِ؟!

الآفة الخامسة عشرة: الغِيبة

وقد ورد القرآنُ العزيزُ بالنَّهي عنها[(٣)]، وشَبَّه صاحبها بآكلِ لحم المَيتة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنَّ دماءَكم وأموالكم وأعْراضَكم عليكم حَرام».

وفي حديث آخر: «كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرام؛ دَمُه ومَالُه وعِرْضُه».

والغِيبة هي تناول العِرض، فجمع بَينه وبين الدّماء والأموال، أخبرنا أبو غَالب محمد بن الحسن الماوردي قال: أخبرنا شَيْبَان[(٤)] بن عبد الله الأسدي قال: أخبرنا أبو عبد الله بن مَنْدَه، قال: أخبرنا محمد بن يحيى الطائي قال: حدثنا علي بن حَرب قال: حدثنا سُفيان بن عُيَينة قال: حدثنا زِيادُ بن عِلاقة عن أُسامة بن شَريك قال: سمعتُ الأعاريبَ يسألون رسول الله ﷺ: هل علينا جُناحٌ في كَذا وكَذا؟

---

(١) وهي تعني مسجده في بيته لكي لا تكون كاذبة.

(٢) وهو حديث أبي هريرة المطوّل في الشفاعة، أخرجه البخاري (٣٣٤٠) و(٣٣٦١) و(٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) (٣٢٧).

(٣) في (ظ): (عنه).

(٤) تصحفت في الأصل إلى (سنان).

فقال: «عبادَ الله، وَضَع الله الحَرَجَ إلّا امرءاً اقْترضَ[(١)] من عِرض أخيه، فذاك الذي حَرِج»[(٢)].

وروى أبو هريرة عن النّبي ﷺ قال: «أَرْبا الرِّبا استِطالة الرّجل في عِرضِ أخيه»[(٣)].

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أسود بن عامر قال: حدثنا أبو بكر بن عَيَّاش عن الأعمش عن سعيد بن عبد الله عن أبي بَرْزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا مَعشر مَن آمنَ بلسانِه وَلم يَدخُل الإيمانُ قلبَه، لا تَغْتابوا المُسلمين، ولا تَتَّبِعوا عوراتِهم، فإنه مَنْ يَتَّبِعْ عَوْراتهم يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَه، ومَنْ يَتَّبع الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحهُ في بَيْتِهِ[(٤)]».

وروى جابر عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إيّاكُم والغيبة، فإنّ الغيبة أشدّ من الزِّنا، إنَّ الرّجل قد يَزني فيتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغِيبة لا يُغفَر له حتى يَغفر له صاحبه».

وروى أنس عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَررتُ ليةَ أُسْريَ بي على قومٍ يَخْمشونَ وُجوهَهم بأظافيرهم، فقلتُ: يا جبريل، مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يَغتابون النّاس، ويَقعون في أعراضهم»[(٥)].

وقال عمر بن الخطاب: إياكم وذِكر النّاس، فإنّه داء.

وقال الأحْنَف: ما ذكرتُ أحداً بسوءٍ بعد أنْ يقوم مِن عندي.

---

(١) أي اقتطع ونال منه بالغيبة.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٥٤)، وينظر بقية تخريجه ثَمة.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٥٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧٦٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٩٧٧٦) وأبو داود (٤٨٨٠)، وأبو يعلى (٧٤٢٤) وابن أبي الدنيا في الصمت (١٦٨) والبيهقي في السنن ١٠/ ٢٤٧ وفي الشُّعَب (٦٧٠٤).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٣٤٠).

وقال بكرُ بن عبد الله: إذا رأيتم الرَّجل موكَّلاً بعيوب النّاس ناسياً لعَيبِه، فاعلموا أنّه قَدْ مُكِرَ به.

وكان مَيمونُ بن سِياه لا يَغْتابُ أحداً ولا يَدَعُ أحداً[١] يغتاب عنده، يَنْهاهُ، فإن انْتَهى وإلا قامَ عنه.

وكتب فَتْحُ بن شخرف على باب بيته: رحمَ اللهُ مَيتاً دخل على هذا الميت فلم يذكُر الموتى عنده إلا بخير.

أخبرنا عبد الخالق بن عبد الصَّمد قال: أخبرنا أبو الحسين بن النَّقور قال: أخبرنا أبو طاهر المُخَلّص قال: حدثنا البَغَوي قال: حدثنا أبو رَوح البَلدي قال: حدثنا مَخْلد بن الحُسَين عن أبان بن خالد[٢] الرَّبَعي قال: دخلتُ المسجدَ فإذا قومٌ يغتابون رجلاً، فقلتُ: لا تفعلوا، فكفّوا ثم ذَكروه، فنِلْتُ معهم منه، فلما نِمْتُ جاءني آتٍ ومعه قطعةُ لحم خِنزير، فقال لي: كُلْها. فَأَبَيْتُ عليه، فقال: كلها. فأبَيتُ عليه، فقال لي: كُلها. فخِفْتُ منه، فَوضَعتُها في فيَّ، فجعلتُ ألوكُها ولا أقدر أن ألفظها مخافته، وكنتُ هَوِيّاً[٣] منَ اللَّيل وهي في فيّ، ثم أصبحتُ شهراً أَعُدُّه وأنا لا آكل طعاماً ولا أشربُ شراباً إلا وجدتُ طعمه في فيَّ[٤].

وكان الحسن يقول: ابن آدم إنك لن تُصيب حقيقة الإيمان حتى لا تَعيب النّاس بعيبٍ هو فيك، وحتى تبدأ بذلك العيب فتُصلحه من نَفسك، فإذا فعلتَ ذلك كان شُغلكَ في خاصَّةِ نفسِك، وأحبُّ العباد إلى الله مَن كان كذلك.

وروي[٥] أن عيسى عليه السّلام مَرَّ معَ الحواريّين على جيفةِ كلبٍ، فقال الحواريّون: ما أنْتَنَ ريحَ هذا. فقال عيسى: ما أشدّ بياض أسنانه. يَعِظهم وينهاهُم عن الغيبة.

---

(١) سقطت من (ظ).
(٢) هكذا في النسخ، وفي شعب الإيمان: (عن هشام بن حسان عن خالد الربعي).
(٣) الهَوِي: الساعة من الليل.
(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧١٣).
(٥) في (ظ): (وقد روينا).

وقال عليّ بن الحُسين: إياكَ والغِيبة، فإنّها إدام كلاب النّاس.

وسمعَ قُتَيبة بن مسلم رجلاً يَغتابُ رجلاً، فقال: أما والله لقد تلمَّظتَ[1] بمُضغةٍ طالما لَفَظها الكِرام.

(١) يقال: تلمَّظ ولمظ الشيء أي: ذاقه وأكله.

بَيان

مَعنى الغِيبة

اعلم أَنَّ حدَّ الغيبةِ أَنْ تَذكُرَ أخاكَ الغائب بما يكرهه إذا بَلغه، سواءٌ ذكرتَ نُقصاناً في بَدَنِه، أو في نَسَبه، أو في خُلُقه، أو في فِعله ودينه، أو في دنياه، أو في ثوبه.

أمّا في البَدَن؛ فكذكرك العَمَشَ والحَوَل والقَرَع والطّول والقِصَر، وكل ما يكره ذكره من وَصفٍ[(١)].

وأمّا النَّسَبُ؛ فأنْ تقولَ: أبوه نَبَطي أو هندي أو فاسق أو خَسيس أو إسكاف[(٢)] أو زَبّال أو نحو ذلك.

وأمّا الخُلُق؛ فأنْ تقول: هو سَيِء الخُلُق بَخيل، مُتكبّر، مُراء، جَبان، عاجز، ونحو ذلك.

وأمّا في أفعاله المتعلّقة بالدّين، فقولك: كاذب، شاربٌ، خَائنٌ[(٣)]، ظالم، متهاونٌ بالصَّلاة، لا يُحسِن أن يُصلّي، لا يَحترز عن النَّجاسات ونحو ذلك.

وأمّا أفعاله المتعلّقة بالدّنيا؛ فكقولك: إنّه سيء الأدب، كثير الكلام، كثير الأكل، لا يرى لأحدٍ حقّاً.

وأمّا في ثوبه؛ فمثل أن تَقول: هو طَويل الذَّيل، واسعُ الكُمِّ، وَسخ الثِّياب.

ويدل على أن الغيبة ذِكْرُ ما في الإنسان ما أخبرنا به ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال:

---

(١) في (ظ): (وصفه).

(٢) الإسكاف: صانع الأحذية ومصلحها.

(٣) في (ظ): (جائر).

حدثني أبي قال: حدثنا عَفّان قال: حدثنا عبد الرّحمن بن إبراهيم قال: حدثنا العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قيل له: ما الغيبَةُ يا رسولَ الله؟ قال: «ذِكرُكَ أخاكَ بما يَكره». قال: أفرأيتَ إنْ كانَ في أخي ما أقول أيْ رسولَ الله؟ قال: «إنْ كانَ في أخيكَ ما تقول فقد اغْتَبْتَه، وإنْ لم يَكُن فيه ما تَقولُ فَقد بَهَتَّهُ»[١].

أخبرنا ظَفَر[٢] بن علي قال: أخبرنا طلحةُ بن الحُسَين الصالحاني قال: أخبرنا محمد بن عبد الله بن أحمد بن رِيذَة قال: أخبرنا سُليمان بن أحمد الطَّبراني، قال: حدثنا إدريس بن عبد الكريم قال: حدثنا عاصم بن علي قال: حدثنا أبي عن المُثنَّى ابن الصَّبّاح عن عمرو بن شُعَيب عن أبيه عن جده عن مُعاذ بن جَبل قال: كنتُ عند النبي ﷺ، فذكروا عنده رجلاً، فقالوا: ما أعجزه. فقال النَّبي ﷺ: «اغْتَبتُم أخاكم». قالوا: يا رسولَ الله، قُلْنا ما فيه! قال: «إن قُلتم ما ليسَ فيه فَقد بَهتُّموه».

(١) أخرجه أحمد (٧١٤٦) و(٨٩٨٥).
(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (مظفَّر).

بيان
أنَّ الغِيبة لا تَقتَصر على اللِّسان

اعلم أنَّ الذّكرَ باللّسان إنّما حَرُمَ لأنّ فيه تفهيمَ الغَير نُقصان أخيك، فالتَّعريضُ بذلك كالتَّصريح من الإشارة والإيماء والغَمز وكل ما يفهم منه مقصود الذَّمِّ، فهو داخل في الغِيبة، فهو حرام.

وقد حكَتْ عائشةُ امرأةً عند رسول الله ﷺ فذكرت قِصَرها، فقال: «قد اغتَبْتِيها».

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما يَسرُّني أنّي حَكَيتُ إنساناً[١] وأنَّ لي كذا وكذا».

ويَدخُل في هذا الغِيبةُ بالكتاب، فإنَّ القَلَم أحدُ اللِّسانَين، مثل أن يذكر المُصنّف شَخصاً مُعيناً ويُهجِّن[٢] كلامه، إلّا أن يكون ذكرُ ذلك غير مَذموم، فإن قالَ: قالَ قومٌ كذا، ولم يُدْرَ مَن القائل فليسَ بغِيبة، فإن فُهِمَ المُشارُ إليهم فَهو غِيبة.

وأخبثُ أنواع الغِيبة غيبة المُتزهِّدين المُرائين، فإنّهم يَجمعون بين ذَمِّ المَذْكور ومَدح أنفُسهم، ولا يدرون بجَهلم أنهم قد جمعوا بين فاحِشَتين: الغيبة والرِّياء، مثل أن يُذكَر عندهم إنْسانٌ فيقولون: الحمدُ لله الذي لم يبلنا بالدّخول على السُّلطان والتَّبذُّل في طلب الحُطام. أو يَقولون: نَعوذُ بالله من قِلَّة الحَياء، نَسألُ اللهَ أن يَعصِمَنا منه.

وإنّما مَقْصودُهُم تَفهيمُ عَيب الغَير، وقد يُقدِّمونَ مَدحَ المذكور قَبلَ غيبَتِه، فَيقولون: ما أحسنَ ما كانت أحوال فُلان، ماكان يُقصّر في العبادات، لكن قد

---

(١) في الأصل: (أحداً).
(٢) هَجُنَ كلامه: صار معيباً مرذولاً.

اعتَراه فُتورٌ وابْتُلِيَ بما لا نَسلمُ نحنُ منه مِن قِلّة الصَّبر. فيَذْكُرون أنفسهم ومَقصودُهم ذَمُّ غَيرهم ومدحُ أنفسهم[١] بالتَّشبُّه بالصَّالحين في ذمِّ النُّفوس، فيجمعونَ بين الغِيبة والرِّياء وتزكية النَّفس، ويظنّونَ أنّهم من المُتعفِّفين عن الغِيبة.

وربّما ذُكِرَ عيبُ إنسانٍ فَلم يَتنبَّه له بعضُ الحاضِرين، فيقول المُتزهِّد: سُبحانَ الله، ما أعجبَ هذا! ليَتنبَّه على الحال مَنْ لم يَدْرِ، وربّما قال: لقد ساءني ما قد جرى على صديقنا فلان من الاستخفاف به[٢]، فنسألُ الله تعالى أن يُرَوِّحَ سِرَّه. ويكون كاذباً في دعوى الاغْتمام، وفي إظهار الدُّعاء، إذ لو قَصَد الدّعاء لأَخْفاه في خَلوة، ولو كان صادقاً في الاغتمام لاغتمَّ بإظهار حالِ الرَّجل، وربَّما قال: ذلك المسكين قد بُليَ بآفةٍ عظيمةٍ تابَ اللهُ علينا وعليه. فهو يُظهر الدّعاء له ويُخفي قَصده.

ومِنْ ذلك الإصغاء إلى الغِيبة على سَبيل التَّعجُّب، فإنّه إنما يُظهِرُ التعجبَ ليزيد نَشاط المُغْتاب في الغيبة، فيندفع فيها، فكأنه يَستخرجُ الغِيبة منه بهذا الطريق، فيقول: عجيب! ما علمتُ أنّه كذلك، ما عرفته إلى الآن إلّا بالخَير، كنت أحسب فيه غير هذا! عافانا الله من بَلائِه.

واعلم أنّ المُستمع شَريكُ القائل، ولا يتخلّص المستمع من إثم سماع الغيبة إلا أن يُنكر بلسانه فإن خافَ فبقلبه، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلامٍ آخر لزمه ذلك، وإن قال بلسانه: اسكُتْ وقلبه يَشتهي الغيبة، فذلك نِفاق ولا يَكفي أن يُسكِتَ القائلَ بأن يُشير إليه بيده أو بحاجبه؛ لأنّ ذلك استحقارٌ للمذكور، بل ينبغي أن يُعظمه فيذُبُّ عنه صريحاً، وقد قال النبيّ ﷺ: «مَنْ أُذِلَّ عنده مؤمنٌ وهو يقدر على أنْ يَنصره فلم يَنْصُره أذلَّه الله على رُؤوس الخَلائق».

وقال: «من ذَبَّ عن عرضِ أخيه بالمَغيبة، كان حقاً على الله أن يُعتِقَه من النَّار».

(١) في (ظ): (نفوسهم).
(٢) ليست في (ظ).

وقال: «ما من امرئٍ[(١)] يَخْذلُ امرأً مسلماً في موطن تُنتَهكُ فيه حرمته، ويُنتقص فيه من عِرضه إلّا خَذَله الله عز وجل في موطنٍ يحب فيه نُصرته، وما من امرئ مُسلمٍ يَنصر امرأً مُسلماً في موطنٍ يُنتقص فيه من عرضه وتُنتَهك فيه حرمته إلا نصَره الله عز وجل في موطنٍ يُحبّ فيه نُصرَته»[(٢)].

وقال: «مَنْ حَمَى مُؤْمناً من مُنافقٍ يَعيبُهُ بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَلَكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نارِ جَهنَّم، ومن بَغَى[(٣)] مسلماً بشيءٍ يُريد به شَيْنَه حَبَسَه الله على جِسر جهنَّم حتى يخرج ممّا قال»[(٤)].

وقال مَولى لعمرو بن عُتبة: رآني عَمرو وأنا مع رجلٍ وهو يَقعُ في آخر، فقال لي: وَيلك! نَزِّهْ سَمْعَك عن استماع الخَنَا كما تُنزّه لسانك عن القَول به، فإن المُستمعَ شَريكُ القائل، وإنّما نظر إلى شَرِّ ما في وعائِه فأفرغَهُ في وعائك، ولو رددتَ كلمةَ سَفيهٍ في فِيه، لسعد بها رادُّها كما شَقي بها قائِلها.

وقد وَردت أحاديثُ في حَقِّ المسلم على المسلم ووجوب نُصْرته، قد تَقدَّمت في كتاب آداب[(٥)] الصُّحبَة.

---

(١) بعدها في (ظ): (مسلم).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٣٦٨)، وأبو داود (٤٨٨٤)، والطبراني في الكبير (٤٧٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٨٩، والبيهقي في السنن ٨/ ١٦٧ ـ ١٦٨، وابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان (٢٤١) من حديث جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل.

(٣) بَغى: طلبَ.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٤٩)، وأبو داود (٤٨٨٣)، وابن المبارك في الزهد (٦٨٦)، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٣٣)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٨٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦٣١)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٢٧) من حديث معاذ بن أنس الجُهني.

(٥) سقطت من (ظ).

بَيان

الأسباب الباعثة على الغيبة

البواعث على الغيبة كثيرةٌ، ولكن يجمعها أحد عشر سبباً، ثمانية تَطَّردُ في حق العامة، وثلاثةٌ تَخْتص بأهل(١) الدّين والخاصَّة.

أمّا الثمانية:

فالأول: تَشَفِّي الغَيظ وذلك أنه يجري من الإنسان سَببٌ يوجب غيظَ هذا الآخر، فكلما هاجَ غَضبُه تَشفَّى بغيبة ذاكَ، وقد يَحتقنُ غَيظُه في باطنه فَيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً لذكر المَساوئ دائماً، فالغضبُ والحقد من البواعث العَظيمة على الغِيبة.

الثاني: مُوافَقة الأَقْران ومجاملة الرُّفقاء ومُساعدتهم على الكلام، فإنّهم إذا كانوا يَتَفكَّهون بذِكر الأَعراض رأى هذا أنّه إن أنكر أو قطعَ كلامَهم اسْتَثْقلوه ونَفروا عنه، فيُساعدهُم ويرى ذلك من حُسنِ المعاشرة.

الثالث: أن يَسْتَشعر من إنسانٍ أنه سَيقصِدُه ويَبسُط لسانَه فيه، أو يُقبِّح حاله عند مُحتشمٍ، فيبادره قبلَ ذلك بالطَّعن فيه، لئلا يَبقى لشهادته أثر، وقد يبتدئ بالصِّدق في شرح حال من يَغتابُه ليكذب عليه بعد ذلك فَيروج كذبه بالصِّدق الأوَّل، ويقول: ما من عادَتي الكذب، فقد أخبرتكم بحاله وكان كما قلتُ.

والرّابع: أن يُنسَبَ إلى شيءٍ فيُريد أن يَتبرَّأ منه، فيذكر الذي فَعله أو الذي شاركه فيه ليمهّد بذلك عُذرَ نفسه، ولو أنصفَ لاقتصر على تَنزيه نَفسه فَقط.

والخامس: إرادة التَّصنُّع والمُباهاة، وهو أن يَرفع نفسه بتَنقيص غَيره فيقول: فلانٌ جاهل، وفَهمُه رَكيك، وكلامه ضعيف. وغرضُه أن يُثبتَ في ضمنِ ذلك فَضْلَ نفسه، ويُريهم أنّه أعلم منه، أو يَحْذَر أن يُعَظَّمَ مثل تَعظيمه، فيقدح فيه لذلك.

---

(١) تحرفت في (ظ) إلى: (بأمر).

والسادس: الحَسَد، وهو أنّه ربما يَحسُدُ من يُثْني الناسُ عليه ويُحبونه ويُكرمونه، ويثقل عليه سَماع ثنائِهم عليه وإكرامهم له فيُريد زَوال تلك النِّعْمة عنه، فلا يَجدُ سبيلاً إلى ذلك إلّا بالقَدْحِ فيه، وهذا هو الحَسَد، ويُفارقُ الغَضبَ والحقدَ؛ لأنّ ذلك يَستَدْعي جنايةً من المغضوب عليه، والحسدُ قد يكون مع الصَّديق المُحسِنِ والقَريبِ المُوافق.

والسابع: اللَّعبُ والهَزْل والمُطايَبَةُ وتَزْجيةُ الوقت بالضَّحك، فيذكر غيره بما يُضحكُ الناسَ به على سبيل المحاكاة، وقد رأينا مَن كان كسبُه من هذا، فكان يَعِيبُ القُرّاءَ، والوُعّاظَ، والباعةَ، والأعاجِمَ وغيرَهم.

والثامن: السُّخريةُ والاستِهْزاء استحقاراً له ومَنْشَؤُ ذلك التّكبُّر[١] واستصغار المستهْزَء به.

أما الأسبابُ الثّلاثةُ التي في الخاصّة، فهي أغْمَضُها وأدقُّها؛ لأنّها شرورٌ أخرجَها الشَّيطان في معرض الخَير.

الأول: التَّعجبُّ، فيقول: ما أعجبَ ما رأيتُ من فلانٍ! فإنّه قد يكون صادقاً[٢]، ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقُّه أن يتعجَّب ولا يذكر اسم الرَّجل، فسَهَّلَ عليه الشَّيطانُ ذكر اسمه في تعجُّبه، فصار بذلك مُغْتاباً، وكذلك قولُ الرجل: تعجَّبتُ من فُلانٍ كيفَ يُحب جاريته وهي قبيحة، وكيف يَجلسُ بينَ يدي فُلانٍ وهو جاهِلٌ.

والثاني: الرَّحمة، وهو أن يَغتمَّ بسَبَبِ ما ابُتليَ به إنسانٌ فيقول: مسكينٌ فُلان قد غَمَّني أَمرُه وما ابتُلي به. فيكون صادقاً في اغْتمامِه، ويُلْهيهِ الغمُّ عن الحذر عن ذكر اسمه فيذكره، فيصير مغتاباً، فيبطل ثوابَ اغتمامه بغِيبته.

الثّالث: الغَضَب لله، فإنّه قد يَغضب على مُنكرٍ قارفَه إنسانٌ، فيُظهر غَضَبه ويذكر اسم الرجل فيَعلم بالرَّجل مَن لم يَعلم.

---

(١) في (ظ): (الكِبر).
(٢) في الأصل: (صدقاً).

بيان

العِلاج الذي به يُمنَع اللّسانُ من الغيبة

اعلم أن مساوئ الأخَلاق كلّها إنّما تُعالج بمَعجونِ العلمِ والعَمَل، وإنّما علاج كل علَّةٍ بمضادَّة سببها فلنَفْحَص عن سببها.

وعلاجُ كفِّ اللِّسان عن الغِيبة على وَجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التَّفْصيل.

أما على الجملة: فهو أن يعلم تَعرُّضَه بالغِيبة لِسَخَطِ الله عز وجل ومَقْته، وأَنَّها تُنقَلُ حَسناتُه إلى مَن اغتابه، فإن لم تكن له حَسَناتٌ نُقلَ إليه من سَيئاتِ خَصمِه، فمن آمنَ بذلك لم يَنطلق[1] لسانه بالغيبة، وينفعه إذا عَرَضت له الغيبة أن يتفكَّر في عُيوب نفسه فيشتَغِلَ بإصلاحها، أو أن[2] يَسْتَحيي من أن يَعيبَ عليه[3] وهو مَعيب، كما قال الشّاعر:

فإنْ عِبْتَ قوماً بالذي فيك مثله ... فكيفَ يَعيبُ العورَ[4] من هو أَعْوَرُ

وإنْ عِبتَ قَوماً بالذي ليسَ فيهمُ ... فذلك عندَ الله والناسِ أكبَرُ

فإنْ لم يجد في نَفسه عَيْباً تَشاغَلَ بالشكر، ولم يُلوث نَفْسَه بأقبح العُيوب وهو الغِيبة، على (٥أنَّ ظنَّه٥) أنه سليم من العيوب أعظمها.

وينفعه أنْ يَعلم أن تَألُّم غَيره لغيبته كتألُّمه بغيبة غيره له فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يُغتابَ، فينبغي أن لا يَرضى لغيره ما لا يَرضاه لنَفسه، فَهذه مُعالجاتٌ جُمْليَّة.

---

(١) في (ظ): (يَنطق).
(٢) ليست في الأصل.
(٣) ليست في (ظ).
(٤) في (ظ): (الناس).
(٥-٥) سقط من الأصل.

وأما التَّفصيل: فهو أن يَنظر في السَّبب الباعث له على الغِيبة، فإنَّ علاج العلّة بِقَطع سَبَبِها، وقد قَدَّمنا ذكر الأسباب.

فأما الغَضبُ، فَيُعالجه بما سيأتي في كتاب آفات[1] الغَضَب.

وجُملته: أن يَقول: إنْ أمضيتُ غَضبي على هذا الشّخص فربّما أَمضى اللهُ عليَّ غَضبَه بسبب غِيبتي إياه، إذْ نَهاني عنه، وقد جاءَ في بعضِ كُتب الله تعالى: (يا ابنَ آدم، اذكُرني حينَ تَغضب، أذكرك حين أغضَب، فلا أَمحقُكَ فيمَن أَمْحَق).

وأمّا المُوافقة للجُلّاَس[2] فَمُعالجتها بأن يعلَمَ أنَّ الله تعالى يَغضب على من طلبَ رضا المخلوقين بسَخَطِه[3]، فكيفَ يَرضى أن يوقِّر جُلساءه ويَستهين بأمر ناهيه؟! بل يَنبغي أن تَغضب على رُفقائك لله إذْ عَصَوه، وعلى نحو هذا مُعالجةُ البَواقي.

والعَجَبُ لمن يَقصد إقامةَ جاهِهِ بذمِّ غيره، ويَنْسَى أنه قد ابتَدأَ بإسقاطِ جاهِه عند ربِّه، ولمن يَذمُّ شَخصاً بين نَفرٍ ويَنْسى أنه يشتهر بالعُقوبة غداً بين الخَلائق.

---

(١) في الأصل: (آفة).

(٢) في (ظ): (للخلائق).

(٣) في الأصل: (بغضبه).

بيان

تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أنّ غيبةَ القَلب سوء ظنّه بالمسلمين والظنُّ ما تركنُ إليه النَّفس ويميلُ إليه القَلب، وقد قال الله عزَّ وجل: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

وليس لك أن تَظنَّ بالمسلم شَرّاً إلا إذا انكشَف أمرٌ لا يحتمل التَّأويل، وكل دلالة محتملة فلا يَجوز تَصديقها، وعلامة مُساكنة القَلب لهذا الظّنّ أن يتغيَّرَ القلبُ معه عمّا كان عليه فينفرُ عنه ويستثقله، فأما إذا أخبرك بذلك عَدْلٌ، فمالَ ظنُّك إلى تَصْديقه كُنتَ معذوراً؛ لأنّك لو كذبتَه لكنتَ جانياً على هذا العَدْل إذْ ظننتَ به الكَذِب وذلك أيضاً من سوء الظَّنِّ، فلا ينبغي أن تُحسن الظنَّ بواحدٍ وتُسيئه بالآخر، بل ينبغي أن تَبحث هل بَينهما عداوةٌ وحَسدٌ فتطرَّقَ إليه[1] بسبب ذلك.

ومتى خَطر لك خاطر سوء على مُسلمٍ فينبغي أن تَزيد في مُراعاته وتَدعو له بالخير، فإنّ ذلك يَغيظ الشَّيطان ويَدفعه عنكَ، فلا يُلقي إليك خاطر السّوء خِيفَةً من اشتغالك بالدُّعاء والمُراعاة.

فإذا تحقَّقْتَ هَفوةَ مسلم فانْصَحه في السّرِّ ولا تَغتَبْهُ، فإذا وَعظتَه فلا تَعِظْهُ وأنتَ مسرورٌ باطّلاعكَ على نَقْصِه ليُنظر إليكَ بعين التَّعظيم، ويُنظر إليه بعين الاستِصْغار وترتفع عليه بدالَّةِ[2] الوعظ، وليكن قَصدُك تخليصه من الإثم وأنتَ حزينٌ، كما تحزنُ على نفسك إذا دخلَ عليك نُقصان.

ويَنبغي أن يكونَ تركُه لذلك من غير نَصيحتك أحبّ إليكَ من تركه بالنَّصيحة،

---

(١) في (ظ): (إليهما).
(٢) في الأصل: (بدلالة).

فإذا فعلتَ ذلك كُنتَ قد جمعتَ بين أجرِ الوعظِ وأجر الغَمِّ لمُصِيبته[١] وأَجْر الإعانةِ له على دِينه.

ومن ثَمرات سوء الظَّنِّ التَّجسُّس، فإنّ القلب لا يَقنع بالظنّ ويَطلب التَّحقيقَ، فيشتغل بالتَّجسُّس، وذلك مَنهيٌّ عنه؛ لأنّه يوصلُ إلى هَتكِ ستر المُسلم، ولو لم ينكشف كانَ قَلبك[٢] أَسْلَم للمسلم.

وقد ذكرنا التَّجسس في كتاب الأمر بالمعروف.

---

(١) في الأصل: (بمصيبته).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (عليك).

بيان

الأعذار المُرخِّصَة في الغيبة

اعلم أنّ المرخِّص في ذكر مَساوئ الغَير غَرضٌ صَحيح في الشَّرع لا يمكن التَّوصُّل إليه إلا به، فيدفع ذلك إثم الغيبة، وذلك ستَّة أشياء:

الأول: التَّظَلُّم، فإنّ مَنْ ذكر قاضياً بالظُّلم والخيانةِ وأخْذِ الرِّشوة كان مُغتاباً عاصياً، فأمّا المَظلومُ من جهة القاضي فله أنْ يَتظلَّم إلى السُّلطان ويَنْسبه إلى الظُّلم، إذْ لا يمكنه استيفاء حقّه إلّا بذلك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ لصاحب الحَقِّ مقالاً». وقال: «مَطْلُ الغنيِّ ظُلْم»،

وقال: «لَيُّ الواجِدِ يُحلُّ عرضَه وعُقوبَته».

الثاني: الاستعانة على تغيير المُنْكر وَردّ العاصي إلى منهاج الصّلاح، ومتى لم يكن هذا المقصود، كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، مثل أن يقول للمُفتي: قد ظلَمَني أبي أو أخي، فكيفَ طريقي في الخلاص؟

والأسلمُ التَّعريضُ، وهو أن يقول: ما تَقولُ في رجلٍ ظَلمه أبوه أو أخوه؟ وإن كان التَّعيينُ[1] مباحاً لهذا العُذْر، كما قالت هندٌ: إن أبا سُفيان رجلٌ شَحيحٌ، فلم يَزجُرْها رسولُ الله ﷺ، لأن قَصدها الاستفتاء.

الرابع: تحذير المسلمين من الشَّر، مثل أن تَرى مُتفقّهاً يتردَّدُ[2] إلى مُبتدع أو فاسق وتَخافُ أنْ يتعدّى إليه ذلك الشَّر[3] فلكَ أن تكشفَ له الحال، وكذلك لو

(١) في (ظ): (التغيير).
(٢) في الأصل: (متردداً).
(٣) ليست في (ظ).

عرفتَ من عبدك السَّرقة أو الفِسقَ، فلك أن تَذْكُرَ ذلك للمُشْتري؛ لأنَّ مراعاة جانبه أولى من مُراعاة جانبِ العَبد، وكذلك المُزكّي إذا سُئل عن الشَّاهد فله الطَّعْنُ، وكذلك المستشار في التَّزويج وإيداع الأمانة له أن يَذكر ما يَعرفه على قَصد النُّصح للمستَشير لا على قَصد الوَقيعة، إذا علم أنّه لا يَنزجر إلا بالتَّصريح، وإن علم أنه يَتركُ التَّزويج بمجرد قوله: لا يَصلح لك، فهو الواجب.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بقلبٍ يُعرِبُ به عن عيبه، كالأعرج والأعمش، فلا إثم على مَنْ يَذكره بما قد عُرفَ به، ولو وَجَد عن ذلك مَعْدلاً كان أولى.

السادس: أن يكون مُجاهراً بالفِسْق، كالمُخنَّث والمُجاهر بشُربِ الخَمر ومصادر الناس، وكان ممَّن يَتظاهر بذلك ولا يَستنكف من أن يُذكر له. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ ألقَى جِلبابَ الحياءِ عن وَجهه فلا غِيبَةَ له».

قال الحَسَن: ليس لمُبتدعٍ غيبة، وليس بينك وبينَ الفاسق حُرمَة.

وقيل له: الفاجِرُ المُعْلن بفُجوره، ذِكْري له بما فيه غِيبَة؟ قال: لا، ولا كَرامةَ.

بيان

كفَّارة الغيبة

اعلم أنّ المُغتابَ قد جَنى جِنايتين:

إحداهُما: على حقّ الله تعالى، إذ فَعل ما نَهاه عنه، فكفارة ذلك التَّوبة والنَّدَم.

الثانية: على عِرض المخلوق، فإن كان الغيبة قد بلغت الرَّجل، جاء إليه فاستحلَّه وذَلَّ له وأظهرَ النَّدم على فعله، فقد أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الدَّاودي قال: أخبرنا ابنُ أَعْيَن قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا مالك قال: حدثني سعيد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كانت عنده مَظلمةٌ لأخيه في مالٍ أو عرضٍ فلْيَأتِهِ فَليستحلّها منه قبل أن تُؤخذَ وليسَ عنده دينارٌ ولا دِرهم، فإن كانت له حَسناتٌ أُخِذَت من حَسناته فأعطيها هذا، وإلا أخذ من سَيِّئاتِ هذا فأُلقيت عليه».

وإنْ كانت الغيبة لم تَبلُغه جعل مكان اسْتِحلاله الاستغفارَ له، لئلا يُخبره بمالم يعلم به فيُوغِر صَدره. فقد روى أنسُ بن مالك عن النّبي ﷺ أنه قال: «كَفَّارةُ مَن اغتبتَ[١] أن تَستغفر له».

وقال مُجاهد: كفارةُ أكلكَ لحمَ أخيك أنْ تُثني عليه وتدعو له بخير. وكذلك إن كان قد مات.

فأمّا قول أبي ضَمْضَم: وقَدْ تَصدَّقتُ بِعرضي.. فمعناه: أني لا أُطالب به في يوم[٢] القيامة من تَناوَله، لا أنَّ التَناول يَحلُّ.

الآفة السادسة عشرة: النَّميمة

قال الله عز وجل: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ⑪﴾ [القلم: ١١].

---

(١) في (ظ): (اغتيب).

(٢) ليست في (ظ).

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي، قال: أخبرنا ابن أَعيَن قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا أبو نُعيم قال: حدثنا سُفيان عن مَنصور عن إبراهيم عن هَمَّام بن الحارث قال: كنّا عند حُذَيفة فقيل: له إنّ فلاناً يرفع إلى عثمان الأحاديث، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قَتّات». أخرجاه في الصحيحين، وفي بعض ألفاظه: «لا يدخل الجنة نَمّام».

وأخرجا من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنّه مَرَّ بقَبرين فقال: «إنهما ليُعذَّبان، وما يُعذَّبان في كبير، أمّا أحدهما فكان لا يَسْتبرئ من بوله، وأمّا الآخر فكان يَمشي بين النّاس بالنَّميمة».

ورَوت أسماء بنت يزيد عن النبي ﷺ أنّه قال: «ألا أُخبركم بِشراركم؟» قالوا: بلى. قال: «المشّاؤون بالنَّميمة، المُغْرون بين الأحِبّة، الباغونَ للبُراءِ العَنَت».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «تجدونَ من شِرار عباد الله عَزَّ وجل يوم القِيامة ذا الوَجْهَين، الذي يأتي هؤلاء بحديثِ هؤلاء، وهؤلاء بحديث هؤلاء».

فصل

واعلم أنَّ النَّميمة تُطلق في الأغلب على نَقل قول إنْسانٍ في إنسانٍ مثل أن يقول له: قال فيك فُلانٌ كذا وكذا. وليست النَّميمة مخصوصة بهذا، بل حدُّها كشف ما يكره كشفه، سواء كان من الأقوال أو من الأعمال حتى لو رآه يَدفن مالاً لنفسه فذكره فهو نَميمة.

والباعثُ على النَّميمة إما إرادةُ السُّوء بالمَحكي عنه، أو إظهارُ الحُبّ للمَحكي له، أو التَّفرُّجُ بالحديث والخوضُ في الفُضول.

فصل

وكلُّ مَنْ نُقلَت إليه النَّميمة مثل أن يقال له: قالَ فيك فلانٌ كذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يُدبِّر في إفساد أمرك، ونحو هذا، فعليه ستّة أَشياء:

الأول: أن لا يُصَدِّق الناقل؛ لأنّ النّمام فاسقٌ مردودُ الشَّهادة قال اللهُ عز وجل: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦].

الثاني: أن يَنْهاه عن ذلك ويَنصَحه ويُقبِّح له فعله، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

الثالث: أنْ يُبْغِضه في الله، فإنه بَغيض عند الله ويَجبُ بُغضُ من يُبغضه الله عزَّ وجل.

الرابع: أن لا يَظنَّ بأخيه الغائب السُّوء؛ لقوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] وقد ثبت فسق هذا الناقل فلا تَقويل على خَبَره.

والخامس: أن لا يَحمله ما حَكَى له على التجسس والتَّبحُّث ليتحقَّق الأمر لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات: ١٢].

السّادس: أنْ لا تَرضى لنفسك ما نَهيتَ النّمامَ عنه، فلا تَحكي نَميمته وتَقول: فلانٌ قد حكى كذا وكذا، فتكونَ بهذا نَمّاماً ومُغتاباً، فتكون قد أَتيتَ بما عنه قد نَهيتَ.

وقال سُليمان بن عبد الملك لرجلٍ: بلغَني أنك وقعتَ فيَّ، وقُلتَ كذا وكذا. فقال الرّجلُ: ما فعلتُ ولا قُلتُ. فقال سليمان: إنّ الذي أخبرني صادق. فقال الزُّهري: النَّمّام لا يكون صادقاً، فقال سُليمان: صدقتَ، اذهب بسلامٍ.

وقال الحسنُ: مَنْ نَمَّ إليك[1] نَمَّ عليكَ. وهذا إشارةٌ إلى أنَّ النَّمّام ينبغي أن يُبْغَض ولا يُوثَق بصَداقَته، وكيف لا يُبغَض وهو لا ينفكُّ عن الكذب والغِيبة والغَدْر والخيانةِ والغِلِّ والحَسدِ والنِّفاق والإفسادِ بين النّاس والخَديعة، وهو ممَّن يَسعى في قَطعِ ما قد أُمِرَ به أن يُوصَل.

ورُوي عن علي رضي الله عنه أنّ رجلاً أتاهُ يَسعى إليه برجلٍ، فقال: يا هذا، نحن نسأل عما قُلتَ، فإنْ كنتَ صادقاً مَقَتْناك، وإن كنتَ كاذباً عاقَبْناك، وإن شئتَ أن نُقيلَكَ أَقَلْناك. قال: أَقِلْني يا أمير المؤمنين.

وقال كَعب: اتّقوا النَّميمة، فإنّ صاحبها لا يَستريح من عذاب القَبر.

(١) في الأصل: (لك).

وقال رجل لرجلٍ: إن فلاناً يَذكرك بسوءٍ. فقال: ما رعيتَ حقَّ مُجالسة الرّجل حيثُ نَقلتَ حديثَه إلينا، ولا أدَّيت حقَّنا حين أبْلَغتَنا، أَعلِمهُ أنَّ الموتَ يَعمّنا، والقَبرَ يَضمُّنا، واللهَ يحكمُ بيننا، وهو خير الحاكمين.

وذُكِرت السِّعايةُ عند بعض الحكماء، فقال: ما ظنُّك بقومٍ يُحمَدُ الصِّدقُ من كل طبقةٍ إلا منهم.

وقال يحيى بن أبي كثير: يُفسد النَّمام في ساعةٍ ما لا يفسد السَّاحر في شَهر.

أخبرنا علي بن محمد بن حَسّون قال: أخبرنا أبو محمد بن أبي عثمان قال: أخبرنا القاضي أبو القاسم بن المنذر قال: أخبرنا الحُسين بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر بن أبي الدُّنيا قال: حدثنا إبراهيم أبو إسحاق قال: حدثنا زَيد بن عوف قال: حدثنا حَمّاد بن سَلَمة عن حُميد أنَّ رجلاً ساومَ بعَبدٍ فقال مولاه: إنّي أَبرأُ إليكَ من النَميمة فقال: نعم، أنتَ بَريءٌ منها. قال: فاشْتراه فجعلَ يَقول لمَولاه: إنَّ امرأتكَ تَبغي، وتَفْعَل وتفعل، وإنّها تُريد أن تَقتُلكَ. ويَقول للمرأة: إن زَوْجكِ يُريد أن يتزوَّدَ عليكِ ويَتسرَّى[1] فإنْ أردتِ أن أَعَطِّفَهُ عليكِ فلا يتزوَّج عليكِ ولا يَتَسرَّى فَخُذي الموسى واحلِقي شَعرهُ مِن خَلفِه إذا نامَ. وقالَ للزّوج: إنّها تُريدُ أن تَقتُلكَ إذا نِمتَ. قال: فذهبَ فتناومَ لها، فجاءَت بموسى لتَحلِقَ شَعْرَهُ من خَلفِه، فأخذ بيدها فقَتلها، فجاء أهلُها فاسْتَعْدَوا عليه فَقَتلوه.

الآفة السّابعة عشرة: كلامُ ذي اللِّسانَين

الذي يتردَّد بين المُتعاديين وينقُل كلام واحدٍ في الآخر إليه، ويُكلِّمُ كلَّ واحدٍ بكلامٍ يوافقه، أو يَعِدُه بأن يَنصره، أو يُثني على الواحد في وَجهه، ويَذمُّه عند الآخر.

وفي الصَّحيحينِ من حديث أبي هُريرة عن النَّبي ﷺ أنّه قال: «إنَّ شَرَّ النّاس ذو الوَجْهَين، الذي يأتي هؤلاء بَوجهٍ وهؤلاء بوَجهٍ».

---

(١) يتسرّى: أي يشتري سُرِّية، وهي الجارية يصيبها.

وروى أنسٌ عن النَّبي ﷺ أنه قال: «من كانَ له لِسانان في الدُّنيا جُعِلَ له لِسانان مِنْ نار يومَ القِيامة».

وفي أفراد البخاري أنّه قيل لابن عُمر: إنّا ندخل على أُمرائِنا فنقولُ القَولَ، فإذا خَرجنا قُلنا غَيره؟! فقال: كُنّا نَعُدُّ هذا على عَهدِ رسول الله ﷺ من النِّفاق.

واعلم أنَّ هذا فيمن لم يُضطرَّ إلى ذلك، فأما إذا اضطرَّ إلى مُدارة الأُمراء جازَ، ومتى قَدر أن لا يُظهر مُوافَقتهم لم يَجُزْ له، فلو صدَّق قولَهم الباطل وحرَّكَ رأسَه في معرض تَقرير كلامهم الباطل، أو أَثنى عليهم، فهو منافق، إلّا أن يكون ذلك لضرورةٍ أو إكراهٍ يُباح الكذب بمثله.

قال أبو الدَّرداء: إنّا لَنُكَشِّر[١] في وجوه أَقوامٍ وإنَّ قُلوبنا تلعنهم.

الآفة الثامنة عشرة: المَدح

وتَدخُله سِتُّ آفات؛ أربعٌ في المادح، واثنتان في المَمْدوح.

فأمّا آفاتُ المادح:

فالأولى: أنّه قد يقول ما لا يتحقَّقُه، ولا سبيل له إلى الاطّلاع عليه، مثل أن يقول: إنّه وَرع، إنّه زاهِد.

أخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا عفّان، قال: حدثنا وُهَيب ويَزيد يعني ابن زُرَيع قالا: حدثنا خالد الحذَّاء عن عبد الرحمن بن أبي بَكرة قال: مدح رجلٌ رجلاً عند النَّبي ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ: «وَيلك؟ قطعتَ عُنُقَ صاحِبك[٢] - مراراً - إذا كان أحدُكم مادحاً صاحبَه لا مَحالةَ، فليقُلْ: أَحسَبُ فلاناً، واللهُ حَسيبُهُ، ولا أُزَكّي على الله أحداً، أحسَبُه كذا وكذا، وإن كان يَعلم ذلك». أخرجه في الصَّحيحين[٣].

---

(١) لنكشر: أي نُظهر لهم الأنس والفرح والضحك والملاطفة.

(٢) في (ظ): (أخيك).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) (٦٥)، وأحمد (٢٠٤٦٢).

وقد رُوِّينا عن عُمَر أنّه سَمع رجلاً يُثني على رجل فقال: أسافرْتَ معه؟ قال: لا. ؟ قال: أَخالطتَهُ قال: لا. قال: والله الذي لا إله إلا هو ما تَعرفُه.

والثانية: أنه قَد يُفرّط فَينتهي إلى الكذب.

قال خالد بن مَعْدان: من مدَح أحداً بما ليسَ فيه على رؤوس الأَشهاد بَعثَهُ اللهُ يومَ القيامةِ يَتعثَّرُ لسانُه.

والثالثة: أنّه قد يَدخُله الرِّياء، فإنّه بالمدح مظهرٌ للحبِّ، وقد لا يكون مُضمراً له ولا مُعْتقداً لجميع ما يقوله، فيصير به مُرائياً منافِقاً.

والرَّابعة: أنّه قد يَمدح مَن يَنبغي أنْ يُذَمّ.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الله تعالى يَغضب إذا مُدِحَ الفاسِقُ».

وقال الحَسن: مَن دَعا لظالمٍ بالبَقاء، فقد أحبَّ أن يُعصَى الله.

وأما المَمدوح: فيضرّه من وجهين:

أحدهما: أنه يُحدث فيه كِبراً وإعجاباً، وهما مُهلِكان، وقد رُوّينا عن الحَسَن أنّه قال: كان عُمر قاعداً وَمعه الدِّرَّة، والنّاس حوله إذْ أقبل الجارود، فقال رجلٌ: هذا سَيِّدُ رَبيعة. فَسمِعَها عُمر ومَنْ حَولَهُ، وسمعَها الجارودُ، فلمّا دَنا منه خَفَقه بالدِّرَّة، فقال: مالي ولكَ يا أمير المؤمنين؟ فقال: مالي ولك؟ أما والله لقد سمعتَها. قال: سَمعتُها، فَمَهْ[1]؟ قال: خشيتُ أَنْ يُخالطَ قَلبكَ منها شَيءٌ، فأحببتُ أنْ أُطأطِئ مِنكَ.

الثانية: أنه إذا أُثْنيَ عليه بالخير رضي عن نَفسه وظنَّ أنّه قد بَلغ المقصودَ ففتر عن العَمل، وإنّما يُشَمِّرُ للعمل مَن يرى نفسه مقصِّراً، ولهذا قال ﷺ: «قطعتَ عنق صاحبك»[2].

(١) يعني: فأي شيء؟ وهي ما الاستفهامية حُذفت ألفها عند الوقف، وجاءت في الأصل: (مِن فمِهِ) وهو تحريف.

(٢) يعني في الحديث المتقدم قبل قليل.

وقال عُمر: المَدحُ ذَبحٌ. وهذا لأنَّ المَذبوح يَفترُ عن الحركة.

وأثنى رجلٌ على عُمر فقال: أَتُهلِكُني وتُهلكُ نَفسَك!.

واعلم أنّه إذا سَلمَ المَدحُ من هذه الآفات لم يَكن به بَأسٌ، فقد مدحَ رسولُ الله ﷺ، وقد أَثنى رسولُ الله ﷺ على أبي بكرٍ وعُمر وغيرِهما من الصَّحابة، إلّا أنّه لمّا كانَ ذلك حقاً ولم يُغَيِّر المَمْدوح حَسُنَ.

بيانُ ما على المَمْدوح

عليه أَنْ يكون شَديدَ الاحْتراز من آفةِ الكِبْر والعُجْبِ والفُتور، ولا يَنجو من هذه الآفات (١إلا أنْ يَعرفَ١) نفسه، ويَتفكَّر في أنّ المادح لو عرفَ منه ما يَعرفُ من نَفسه ما مَدَحه، ثم يكون خائفاً من دقائق الرِّياء وآفاتِ الأعمال، ثم يتأمَّل خَطر الخاتمةِ، ثم يَكره المَدحَ.

قالَ مُطَرِّف: ما سمعتُ مِدْحَتي إلّا تصاغَرَتْ إليَّ نَفسي.

وقال ابنُ عُيَينة: ليس يَضرُّ المَدحُ مَن عرف نفسه.

وأُثنيَ على رجلٍ من الصّالحين، فقال: اللّهمَّ إنّ هؤلاء لا يَعرفوني وأنتَ تَعْرِفُني.

الآفة التاسعة عشرة: في الغَفلة عن دَقائِق الخَطأ في فَحوى الكلام

لا سِيَّما فيما يتعلَّق بالله وصفاته، ويرتبطُ بأمور الدّين، فلا يَقدر على تقويم اللَّفظ فيه إلّا العُلماء الفُصَحاء، فمن قصَّر في علمٍ أو فصاحةٍ لم يَخلُ كلامُه عن الزَّلل، لكنّ اللهَ يَعفو عنه لجَهلِهِ.

مثالُ هذا: ما رَوى حُذَيفةُ عن النَّبي ﷺ أنه قال: «لا يَقُل أحدُكم: ما شاءَ اللهُ وشئتَ، ولكن ليقُل: ما شاء الله ثم شئتَ». وذلك لأنَّ في العطفِ المطلقِ تَشريكٌ أو تَسويةٌ، وذلك على خِلاف الاحتِرام.

(١-١) تحرفت في الأصل إلى: (أن لا يعرف).

وقَد روى ابنُ عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فكلَّمه، فقال: ما شاءَ اللهُ وشئتَ. فقال رسولُ الله ﷺ: «أَجَعلتَني للهِ عدلاً! بَل ما شاءَ اللهُ وَحدَه»(١).

وخَطَبَ رجلٌ عند رسول الله ﷺ فقال: مَنْ يُطع الله ورسولَه فَقد رَشَد، ومَنْ يَعْصِهما فقد غوَى. فقال ﷺ: «قُل: ومَنْ يعصِ الله ورسوله». فكره قَوله: ومن يَعصِهما؛ لأنّه تسويةٌ وجَمع.

وقال ﷺ: «لا يَقُل أحدُكم: عَبدي وأَمَتي، كُلُّكم عَبيد الله، وكلُّ نِسائكم إماء الله، ولكن ليَقُل: غُلامي وجارِيتي».

وكَره إبراهيم النَّخعي أن يقولَ الرَّجلُ: أعوذُ بالله وبك. ورخّص أن يقول: أعوذُ بالله ثم بك. وكره أن يَقول: لولا الله وفُلان. ورخَّص أن يقول: لولا الله ثُمّ فُلان.

وقال أبو عِمران الجَوْني: أدركتُ أربعةً من أفضل مَن أدركت كانوا يَكرهون أن يَقولون: اللَّهمّ أَعتِقنا من النّار، ويقولون: إنّما يُعتَقُ منها مَنْ دَخلها، وكانوا يَقولون: نَعوذُ بالله من النَّار.

وقال النَّخعي: إذا قال الرَّجُل للرجل: يا حمار، يا خِنزير، قيل له يَومَ القِيامة: أرأيتَني خَلقتَهُ حِماراً؟ أرأيتَني خلقتَه خِنزيراً؟ فهذا وأمثاله مما يَدخل في الكلام ولا يمكن حصره، ومن تأمَّل ما أوردناه في آفات اللِّسان علمَ أنَّه إذا أطلقَ لسانَه لم يَسلم، وعند ذلك يعرف سرَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ صَمَتَ نَجا»؛ لأن هذه الآفات مَهالك، وهي على طريق المُتَكلم، فإن سكتَ سَلِمَ، وإن تكلَّم خاطَر، إلّا أنْ يُرافقَه عِلمٌ وَورَعٌ ومُراقَبَةٌ، فمَن لم يتيقَّن أنه بكلامه يَغْنَمْ، فَليَسكُت يَسْلَم، فإنَّ السّلامةَ إحدى الغَنيمتَين.

الآفة العشرون: سُؤال العَوام عن صفات الله سُبحانه وكلامِه

واعلم أنّ الشَّيطان يُخيِّل إلى العامي(٢): إنك بخَوضِكَ في العلم تكون من العُلماء وأهل الفَضل، فلا يَزال يحبِّب إليه ذلك حتى يتكلَّمَ بما هو كُفرٌ، فلا

(١) ليست في الأصل.
(٢) في الأصل: (العوام).

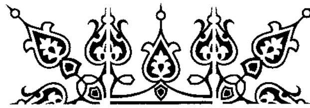
يَدري، والأَولى بالعامّيِّ الإيمانُ بما ورد به القُرآنُ، والتَّسليمُ لما جاء به الرَّسولُ ﷺ، من غير بحثٍ، والإقبالُ على العبادات، فاشتغاله بالبَحث عن أسرار العلم كبحث ساسَةِ الدَّواب عن أسرار المُلك.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ذَروني ما تَركتُكُم، فإنَّما هلكَ مَن كانَ قبلكم بِسؤالهم واختِلافهم على أنبيائهم، إذا نَهيتكُم عن شيءٍ، فاجتنبوه، وإذا أمرتكُم بأمرٍ، فَأتوا منه ما اسْتَطعتُم».

وقال عليه الصلاة والسلام: «يُوشكُ النّاسُ أن يَتساءلوا حتى يقولوا: هذا اللهُ خلقَ الخَلَقَ، فمن خَلقَ الله؟».

فسؤال العَوام[1] عن غَوامض العلم من أعظم الآفات، وبحثهم[2] عن معاني الصِّفات ممّا يُفسدهم لا مِمّا يُصلحهم، إذ الواجبُ عليهم التَّسْليم.

آخر كتاب آفات اللِّسان



(١) تحرفت في الأصل إلى: (العامي).
(٢) في (ظ): (وسؤالهم).

كتاب ذَمِّ الغَضَب والحِقد والحَسَد

وهو الكتاب الخامس من رُبع المهلكات

الحمدُ لله الذي لاذَ بعَفوه الخائِفون، وحَذِر من عقابه العارفون، وانزعجَ لوَعيده الآمنون، ابتَلى عبادَه بتركِ ما يَشتَهون ليَنظر كيفَ يعملون، فأمَرهم بكظمِ الغَيظِ حين يَغضبون، وبمَحْو الحِقد حين يَحقِدون، وبِرَفض الحَسَد لمن يَحسُدون، وحَثَّهم على العُلا فكلُّ ما دونَ العُلا دون، ومَدَحَ العافين حين يُبْغَى عليهم ويُظلَمون فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

أَحمدُه على ما كان ويَكون، وأُقرُّ له بالتَّوحيد إقراراً تُقِرُّ بهِ العُيون، وأُصلّي على رسوله محمدٍ أشرفِ أمينٍ وخيرِ مأمون، وعلى آله وأصحابه وتابعيهم على القانون، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإنَّ الغَضَبَ شُعْلةُ نارٍ اقتبسَتْ من نار الله الموقَدَة، إلا أنّها لا تَطَّلِعُ إلا على الأفئدة، وإنّها لمُسْتكِنَّةٌ في طَيِّ الفُؤاد اسْتِكنانَ الجَمر في الرَّماد، ويستخرجها الكِبْرُ الدَّفين في قلبِ كل جَبَّار عنيد، كما يستخرجُ الحَجَرُ النارَ منَ الحديد، وقد انكشفَ للنَّاظرين بنور اليَقين أنَّ الإنسانَ ينزع منه عرقٌ إلى الشَّيطان اللَّعين، فمَن استَفزَّتهُ نارُ الغضبِ فقد قَوِيَتْ فيه قَرابة الشَّيطان حيثُ قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فإنَّ شأن الطّينِ السُّكون والوَقار، وشأن النّار

التَّلَظِّي والاشتعال والحركة والاضطراب، ومن نتائج الغَضب الحِقدُ والحَسَد، وبهما هَلكَ مَنْ هَلك، وفسدَ مَنْ فَسد، ومُفيضُهُما مُضغةٌ إذا صَلحت صَلح لها سائرُ الجَسَد.

وإذا كان الحِقدُ والحَسَدُ والغَضبُ ممّا يَسوقُ العبدَ إلى مَواطن العَطَب، فما أَحوجه إلى معرفة مَعاطِبهِ ومساويه، لعلَّه يحذَر ذاك ويَتَّقيه، ويُميطُه عن القَلب إن كانَ ويَنْفِيه، ويُعالجُه إن رسخ في قلبه ويُداويه؛ لأنَّ من لا يَعرف الشَّرَّ يَقَعْ فيه، ومَنْ عَرَفه فالمعرفة لا تكفيه مالم يَعرف الطَّريق الذي به يَدفَع الشَّرَّ ويُقْصِيه[1].

ونحنُ نذكُر ذمَّ الغَضب وآفات الحِقد والحَسَد في هذا الكتاب ويَجمعها: بَيانُ ذَمِ الغَضب، ثم بَيان حقيقة الغَضب، ثم بيانُ هل يُمكنُ إزالة أصل الغَضب بالرِّياضة أم لا، ثم بيانُ الأسباب المُهَيِّجةِ للغضب، ثم بيان علاج الغَضب بعد هَيَجانه، ثم بيان فَضيلة كَظمِ الغَيظ، ثم بيان فَضيلة الحِلم، ثم بيان القَدْرِ الذي يجوز به الانتِصار والتَّشفِّي من الكلام، ثم القَول في معنى الحِقد ونتائجه، وفَضيلة العَفو والرِّفق، ثم القول في ذَمِّ الحسَد، وفي حَقيقته وأسبابه ومُعالجته، والواجب في إزالته، ثم بَيان السَّبب في كثرة الحسَد بين الأمثال والأَقْران والإخوة والأقارب وتَأكُّدِه، وقلَّتِهِ في غيرهم وضَعفِه، ثم بيان الدَّواء الذي به يُنْفَى[2] مرض الحَسَد عن القلب، ثم بيان القَدر الواجب في نَفي الحَسَد عن القلب.

---

(١) تصحفت في الأصل إلى: (يقتضيه).

(٢) في الأصل: (يُشفى).

بيان

ذَمّ الغَضَب

أخبرنا عبد الأوّل قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعيَن، قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا يحيى بن يوسف قال: حدثنا أبو بكر بن عَيّاش عن أبي حُصَين عن أبي صالح عن أبي هُرَيرة قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: أَوْصِني. قال: «لا تَغْضَبْ» فردَّد ذلك مراراً، قال: «لا تَغْضَب».

قال البخاري: وحدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن ابن شِهاب عن ابن المُسَيّب عن أبي هريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ليس الشَّديد بالصُرَعَة(١)، إنَّما الشَّديد الذي يَملك نَفسه عند الغضَب». أخرجاه وانفرَد البخاري بالأول.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هِبَة الله الطَّبري وعبدُ الله بن يحيى المَوصلي قالا: أخبرنا أبو الحُسين بن بِشْران، قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بَكر القُرشي، قال: حدثنا أبو خَيْثَمة قال: حدثنا الحَسَن بن موسى عن ابنِ لَهيعَة عن دَرَّاج عن عَبد الرّحمن بن جُبير بن عبد الله بن عَمرو أنّه سألَ رسولَ الله ﷺ: ماذا يُبعِدُني من غَضَب الله تعالى؟ قال: «لا تَغْضَبْ».

قال القُرشي: وحدثنا أبو يوسف الفلوسي قال: أخبرنا محمد بن عَرْعَرة، قال: حدثنا سُكَيْن ـ وهو ابن أبي سراج ـ قال: حدثني عبد الله بن دينار عن عبدالله بن عُمر عن النّبي ﷺ قال: «مَنْ كَفَّ غَضَبه سَتَر اللهُ عَورَته».

وقد رواه أنسٌ فقال: فيه: «مَنْ كفَّ غَضَبه كفَّ اللهُ عنهُ عَذابَه».

وقال سُليمان بن داود لابنه: يا بُنَي، إيّاكَ وكثرة الغَضب، فإن كثرة الغَضب تَستَخِفُّ فؤادَ الرَّجلِ الحليم.

---

(١) الصُّرَعَة: الذي يغلب الناسَ في الصراع.

وقال ابنُ مَسعود: انظروا إلى حلم الرّجل عند غضبه، وإلى أمانته عند طَمَعه.

وقال عكرمةُ في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]. قال: السَّيّد الذي لا يَغلبُه غَضبُه.

وقال الحَسن: ابنَ آدم، كلّما غضبتَ ووثَبْتَ (١يوشِكُ أَنْ تَثِبَ١) وَثبةً تَقَعُ في النّار.

وقد رُوّينا أنّ ذا القَرنين لقيَ مَلَكاً من الملائكة فقال: عَلِّمْني علماً أَزْدادُ به إيماناً ويقيناً. قال: لا تَغضبْ، فإنْ الشَّيطان أَقدَر ما يكون على ابنِ آدم حينَ يَغضب، فَرُدَّ الغَضبَ بالكَظْم، وسَكِّنْهُ بالتُّؤَدة، وإياكَ والعَجَلة، فإنّك إذا عَجِلتَ أخطأتَ حَظَّك، وكُنْ سَهلاً ولَيِّناً للقريب والبَعيد، ولا تكُن جَبّاراً عَنيداً.

وقد رُوّينا أنَّ إبليس تَبَدَّى(٢) لموسى عليه السلام، فقال له: يا موسى، إياكَ والحدَّة فإنّي أَلعبُ بالرَّجل الحَديد كما يَلعبُ الصِّبيانُ بالكُرَةِ، وإيّاكَ والنِّساء، فإنّي لم أَنْصِبْ فَخّاً قَط أَثْبت في نَفسي من فَخٍّ أَنْصِبه بامرأة، وإيّاكَ والشُّحَّ، فإنّي أُفسد على الشَّحيح الدُّنيا والآخِرة.

وقال خَيثمةُ: كانوا يَقولون: إن الشَّيطان يقول: وكيفَ يَغلبُني ابنُ آدم وإذا رضي جئتُ حتى أكون في قلبه وإذا غَضِبَ طِرتُ حتى أكون في رأسه؟!.

وقال جَعفر بن محمد: الغَضبُ مفتاح كلِّ شَرٍّ.

وقال بعضُ الأَنصار: رأسُ الحُمْقِ الحِدَّةُ، وقائدُه الغَضَبُ.

وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: الكُفرُ أربعةُ أركان؛ فركنٌ منه الغَضب، وركنٌ منه الشَّهوةُ، وركنٌ منه الخوف، وركنٌ منه الطَّمَع.

وقيل لابنِ المُبارَكِ: اجمَعْ لنا حُسنَ الخُلُق في كلمةٍ. فقال: تَرْكُ الغَضَب.

(١ـ١) في الأصل: (يوشك بعد أن وثبت).

(٢) تبدَّى: ظهر.

وقيل لبعضِ الحُكماء: ما أملَكَ فُلاناً لنفسه! قال: إذاً لا تُذِلُّه الشَّهوةُ، ولا يَصرعه الغَضَب، ولا يغلبُه الهَوَى.

وكان يُقال: إيّاكَ وعِزَّةَ الغَضَبِ، فإنّها تؤولُ بكَ إلى ذُلِّ الاعتِذار.

وكان يُقال: اتَّقوا الغَضَب، فإنّه يُفسدُ الإيمانَ كما يُفسدُ الصَّبِرُ[1] العَسَلَ، والغَضَبُ عَدوُّ العَقلِ.

بيانُ حقيقة الغَضب

اعلم أنَّ اللهَ تعالى لمّا خلقَ الحيوان مُعَرضاً للفَساد والتَّوى[2] بأسبابٍ في داخل بَدنِه، وأسبابٍ خارجةٍ عنه، أنعمَ عليه بما يحميه من الفسَاد ويَدفع عنه الهَلاك إلى أجلٍ معلوم.

أمّا السَّبب الدَّاخل؛ فهو أنّه ركَّبهُ من الرُّطوبة والحرارة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوةً ومُضادةً فلا تزال الحرارةُ تحلل الرطوبة وتُجفّفها حتى يَتغشَّى أجزاؤها بخاراً يتصاعد منها، فلو لم يتصل بالرّطوبة مَدَدٌ من الغذاء يَجبُر ما انحلَّ لفسد الحيوان، فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان، وخلق في الحيوان شهْوةً تبعثه على تناول الغذاء كالموكَّل به في جَبْر ما انكسر وسَدِّ ما انْثَلم ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك لهذا السَّبب.

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان فكالسَّيف والسِّنان وسائر المُهلكات التي يُقصَدُ بها، فافتقر إلى قوةٍ وحَمِيَّةٍ تَثور من باطنِه فَتدفعُ المُهلكات عنه، فخلقَ الله سُبحانه الغَضَب من النّار، وغَرَزَه في الإنسان وعَجنه بطينتِه [3]فَمَتى قُصد في غَرضٍ من أغراضِه[3] اشتعلت نارُ الغَضب وثارت ثَوراناً يغلي به دَمُ القَلب ويَنتَشِر في العروقِ ويرتفع إلى أعالي البَدَن كما تَرتفع النّار، وكما يَرتفع الماء الذي

(١) الصَّبِر: عُصارة شجرٍ مُرٍّ، واحدته: صَبِرَة.

(٢) التَّوى: الهلاك.

(٣-٣) وردت العبارة في الإحياء: (فمهما صُدَّ عن غرضٍ من أغراضه).

يغلي في القِدْر ولذلك يحمرُّ الوَجهُ والعين والبَشَرة، وكل ذلك يحكي لونَ ما وراءَهُ من حُمرة الدَّم كما تَحكي الزُّجاجةُ لونَ مافيها.

وإنّما ينبسط الدَّم إذا غضب على مَن دونه واستشعر القُدرة عليه، فإن صدر الغضبُ ممّن فَوقه وكان معه يَأسٌ من الانتقام تولَّد منه انقِباضُ الدَّم من ظاهر الجِلد إلى جوف القَلب، فصار حُزناً، ولذلك يَصفَرُّ اللَّونُ، وإنْ كان على نَظيرٍ يَشكُّ فيه تردَّد الدَّم بينَ انقباضٍ وانبساطٍ فَيَحمرُّ ويَصفرُّ ويضطرب.

وفي الجملة فقوةُ الغَضب محلُّها القَلب، ومعناها غَليان دَمِ القَلب لطَلبِ الانتقام، وإنّما تَتَوجَّه هذه القوة عند ثَوَرانها إلى دفع المؤذِيات قبل وقوعها وإلى التَّشفِّي والانتقام بعد وقوعها، والانتقام قُوتُ هذه القوّة وشَهوتُها، وفيه لذتها، فلا تَسكن إلا بهِ، ثم النّاسُ في هذه القوة على دَرجاتٍ ثلاث في أول الفِطرة من التَّفريطِ والإفراطِ والاعتدال.

أمّا التَّفريط؛ فَبِفَقْدِ هذه القُوة أو ضَعفها، وذلك مَذمومٌ، وهو صفةُ من لا حَميَّةَ له، قال الشّافعي: من استُغضِبَ فلم يَغضب فهو حِمار. فَمن فقد قُوَّةَ الحميةِ والغَضب أصلاً فهو ناقص جداً؛ لأنَّه دَليل على صِغَر النَّفس، ومن ثَمراتِهِ عَدَمُ الغَيرة على الحُرَمِ، وقال النَّبي ﷺ: «إن سَعْداً لغيورٌ، وأنا أَغْيَرُ من سَعد، واللهُ أَغْيَرُ مِنّي».

وإنّما خُلقت الغَيرة لحفظ الأنساب[1]، ومَنْ ضَعُفَ غضبُه سكتَ عند رؤيةِ المنكرات، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]، وقال لنَبيِّه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وإنّما الغِلْظة من آثار قوة الحميَّة وهو الغضب، ووصف اللهُ تعالى الصَّحابة به فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومَنْ فَقَد الغَضَبَ عجزَ عن رياضة نَفسه، إذ الرّياضة إنّما تَتمُّ بتَسليط الغَضب على الشَّهوة، فيغضب على نفسه عند الميل إلى الشَّهوات الخَسيسة، ففَقدُ الغضب مَذْموم.

(١) تصحفت في الأصل إلى: (الإنسان).

وأمّا الإفراط؛ فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تَخرجَ عن سياسة العقل والدّين وطاعته، فلا يَبقى للإنسان مع الغَضب نَظرٌ ولا فِكْر ولا اختيار، بل يَصيرُ في صورة المضطرِّ.

وسَبب هذه الغَلَبة(١) أمورٌ غَريزيَّة وأمورٌ اعتياديَّة، فَرُبَّ إنسانٍ هو بالفِطرة مستعدٌّ لسُرعةِ الغَضب حتى كأنَّ صورته في الفِطرة صورة غَضبان، ويُعين على ذلك حرارة مِزاج القَلب؛ لأن الغَضب من النّار.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبة الله الطبري قال: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بَكر القُرشي قال: حدثنا خالد ابن خداش قال: حدثنا حمّاد بن زَيد عن عَلي بن زَيد عن أبي نَضْرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «ألا إنَّ الغَضبَ جمرةٌ في قلب ابن آدم، ألا تَرونَ إلى حُمرة عَينَيه وانتِفاخ أَوْداجه، (٢فَمَن وجدَ من ذلك شيئاً٢)، فليُلصِق خَدَّه بالأرض».

وأما الأسباب الاعتيادية؛ فأن يُخالط قَوماً يَتبجَّحون بتَشفِّي الغيظ وطاعة الغضب ويُسمّونَ ذلك شَجاعةً ورُجوليةً، فيقول الواحدُ منهم: أنا الذي لا أحتمل من أحد شيئاً، ومعنى هذا القول: لا عقل لي ولا حِلم. فيذكرُ ذلك في معرض الفَخْر بجَهله، فيرسخُ في نفس الجاهل الذي يسمعه حُسنُ الغَضب وحبُّ التَّشبُّه بالقَوم، فيقوى بذلك الغَضب.

ومتى قويت نارُ الغضب والتَهبت أَعمَتْ صاحبها وأَصمَّتهُ عن كل مَوعظةٍ، وربّما زاده الوَعظُ غَضباً؛ لأن معدِنَ الفِكر الدِّماغُ، وقد تَصاعد عند شدَّة الغضب من غَليان دَمِ القَلبِ دُخانٌ إلى الدِّماغ مُظلمٌ فاستولى على معادن الفكر، وربَّما تعدَّى إلى معادن الحِسِّ فتُظلم عَينُه حتى لا يَرى بعينه، وتَسودُّ الدُّنيا في وَجْهه ويكون دماغُه على مثال كَهفٍ أُضْرِمَت فيه نارٌ فاسْوَدَّ جَوُّه، وحَمِيَ مُستَقَرُّه، وامتلأ بالدُّخان جُوَّانِيُّه، وكان فيه سراجٌ ضَعيف فانْطَفأ، فلا تَثبتُ فيه قدم ولا تُسمَعُ فيه

(١) سقطت من الأصل.
(٢-٢) تكررت في الأصل.

كلمة، ولا تُرى فيه صورة، ولا يُقْدَرُ على إطفاء النّار المتَضرِّمَةِ فيه لا مِنْ داخلٍ ولا مِنْ خارج بل ينبغي أنْ يُصبَرَ إلى أن يَحترق جميعُ ما يَقبل الاحتراقَ، فكذلك يَفعل الغضبُ بالقلب والدِّماغ.

وربّما تَقوى نارُ الغَضب فَتُفْني الرُّطوبةَ التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غَيظاً، كما تقوى النّار في الكَهف فَيتشقَّقُ وتَنهدُّ أَعاليه على أسافله، وذلك لإبطالِ النّار ما في جَوانِبه من القُوة المُمْسِكةِ الجامعة لأجزائِه، فهكذا حال القَلب مع الغَضب.

وعلى الحَقيقة فإن السَّفينة في مُلتَطم الأمواج عند اضطراب الرِّياح في لُجَّةِ البَحر أَحسنُ حالاً وأَرجى سلامةً من النَّفس المُضطربةِ غيظاً، إذْ في السَّفينةِ من يَحتالُ لتسكينها وتدبيرها ويَنظر لها ويُسوّيها، وها هنا صاحب السَّفينة القلبُ، وقد سَقطت حيلته، إذْ أَعْماه الغَضبُ وأَصَمَّه.

ومن آثار هذا الغَضب في الظاهر تَغيُّر اللَّون، وشِدَّة الرِّعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن التَّرتيب والانتِظام واضطرابِ الحركة والكلام حتى تَحْمرَّ الأَحداق، ويَظهر الزَّبَدُ على الأشْداق، وتَنقلب المناخِر وتَستحيلُ الخِلقة، ولو رأى الغضبانُ في حال غَضبه قُبحَ صورته واستحالة خِلقتِه لأَنِفَ لنفسه من تلك الحال، ومعلومٌ أنَّ قُبْحَ الباطنِ أعظم من قُبح الظَّاهر؛ لأنه إنّما قَبُحَ الباطنُ أَولاً ثم انتشر القُبحُ إلى الظاهر، فكان الظاهر كالعُنوان لما في الباطن، فهذا أَثره في الجَسَد.

فأمّا أثره في اللِّسان؛ فانطلاقُه بالشَّتْم والفُحْش وقَبائح الكلام الذي يَستحيي منه ذَوُو العُقول، ثمّ يَستحيي منه قائِله عند سكونِ الغضب، وذلك مع اضطراب اللَّفظِ وتَخَبُّطِ النَّظْم.

وأما أثره على الأعضاء فبالتَّهجُّم بالضَّرب والجَرْح والقَتل، فإن هربَ المغضوبُ عليه أو عَجز الغضبانُ عن التَّشَفّي منه، يرجع الغضب على الغَضبان فيُمزّق ثوبَ نفسه ويَلطم نَفسَه ويضرب بيديه على الأرض، وقد يَعدو وراء المغضوب عليه عَدْوَ الوالِهِ المَدْهوش، وربّما سقط صريعاً لا يُطيق العَدْوَ ولا

النُّهوضَ لشدَّة الغَضب، ويعتريه مثل الغَشْي، وربّما ضربَ الجمادات والحيوانات، وقد يكونُ على المائدة فيغضبُ فيكسِرُ المائدةَ ويتعاطى أفعال المجانين، وقد يغضب على البَهيمةِ فيَشتمها ويقول: إلى متى يا كيتَ وكَيت كأنه يُخاطب عاقلاً، وربّما رَفسَتْهُ البَهيمة فرَفَسها مقابَلةً لها.

وأمّا أثره في القلب مع المغضوب عليه، فالحِقد والحَسَد وإضمار السوء والشَّماتَةُ بالمساءات، والحزن بالسرور، والعَزم على إفشاء السِّرّ وهَتك السِّتر، والاسْتهزاء وغير ذلك من المقابح، فهذه ثمرة الغضب المُفرِط.

وقد بيَّنا عيبَ عدمِ الغَضَب، فالمحمودُ غَضبٌ يَنتظر(١) إشارة العقل والدِّين، فينبعث حيث تَجبُ الحَميَّة، ويَنطفئ حيث يَحسن الحِلمُ، وحِفظُه على حَدِّ(٢) الاعتدال هو الاستِقامة، وخيرُ الأُمور أوساطُها، فمن كان غَضبُه إلى الفُتور فأحسَّ من نَفسه باحتمالِ الذُّلِّ والضِّيم في غير محلِّه وضعف الغَيرة، فينبغي أن يُعالج نفسه (٣حتى يَقوى غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جَرَّه إلى التهوُّر واقتحام الفَواحش، فينبغي أن يُعالج نفسه٣) ليغضَّ من سورةِ الغضب ويقف على الوسطِ بين الطرفين، فهو الصِّراط المستقيم، فإن عجز عنه، فليَطلُب القُرب منه، فقد قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

بيان هل يمكن إزالة أصل الغضب بالرياضة أم لا ؟

قد ظَنَّ قومٌ أنَّه يُتَصوَّر بالرِّياضة مَحو الغَضب بالكلِّيَّة ، وظَنَّ آخرون أنّه لا يَقبل العلاج ،وكلا الظَّنَّينِ فاسدٌ، والتَّحقيق أنْ يُقال : مادامَ الإنسانُ يُحبُّ شيئاً (٤ويكره شيئاً٤) فلا يخلو من الغَيظ والغضب، ومادام يوافقه شَيءٌ ويخالفه شَيء آخر، فلا بدَّ

(١) في (ظ): (ينتظم).
(٢) في (ظ): (هذا).
(٣-٣) سقط من الأصل.
(٤-٤) سقط من الأصل.

أن يُحبَّ ما يوافقه ويكره ما يُخالفُه، والغَضبُ يَتبع ذلك ، فإنَّه مهما أُخِذَ منه محبوبهُ غضبَ لا محالة ، وإذا قُصِدَ بمكروهٍ غضب لا محالةَ ، إلّا أنّ ما يُحبّه الإنسان يَنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول : ما هو ضرورة في حقّ النّاس كافَّة ، و هو القُوتُ والمَسكن والمَلبس وصحة البَدَن ، فمَن قُصِدَ بدنُه بالضَّرب والجَرْح ، فلا بدَّ أن يَغضبَ ، وكذلك إذا أُخِذَ منه ثوبه الذي يَستُر عورتَه ، وكذلك إذا أُخرجَ من داره التي يسكنها ، أو أُريقَ ماؤه الذي هو لعطشهِ ، فهذه ضرورة لا يخلو الإنسان من كراهةِ زَوالها من غيظٍ على مَن يتعرَّضُ لها.

القسم الثّاني : ما ليسَ ضرورياً لأحدٍ من الخلق ، كالجاه والمال الكثير و الغِلمان والدَّواب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور حتى صار الذَّهبُ والفضَّةُ محبوبَين في أنفسهما فَيُكنَزان ، ويَغضبُ الإنسان على من يَسرقهُما ، وإن كان مُستغنياً عنهما في القُوتِ ، فهذا الجِنسُ مما يُتصوَّر أن ينفكَّ الإنسان عن أصل الغَيظ فيه ، فإذا كانت له دارٌ زائدةٌ على مَسكنه فهدَمها ظالمٌ فيجوزُ أن لا يَغضب ، إذْ يَجوزُ أن يكون بصيراً بأمور الدُّنيا فَيزهَدَ في الزّيادة على الحاجة ، فلا يغضب بأَخْذِها ، (١فإنه لا يحب وجودها ، ولو أحبِّ وجودها لغضب على الضرورة بأخذها١).

وأكثر غضب الإنسان على ما هو غير ضروري ، كالجاهِ والصيتِ والتَّصدُّرِ في المجالس و المُباهاة بالعلم ، فمَن غلب هذا الحُبُّ عليه فإنّه يَغضب لا محالةَ إذا زاحَمهُ مُزاحِمٌ على الصَّدْر في المحافل، ومن لا يُحبُّ ذلك ولا يُبالي لو جَلسَ في صفّ النِّعال فإنه لا يغضب إذا جلس غيرُه فوقَه، وهذه العادات الرَّديئة هي التي أكثرت مَحابَّ الإنسان ومكارِهَهُ، فأكثرت غَضبه.

وكلَّما كانت الإراداتُ والشَّهوات أكثر كان صاحبها أحطّ رتبةً وأنقص؛ لأن الحاجةَ صفةُ نقصٍ، فمَهْما كثُرَت كَثُر النَّقصُ، والجاهل أبداً جهده في أن يَزيد في

(١-١) سقط من الأصل.

حاجاته وشَهواته، وهو لا يدري أنه مستكثر من أَسباب الغَمّ والحُزن، حتى ينتهي بعض الجُهّال بالعادات الرَّديئة ومُخالطة قُرناء السُّوء إلى أن يَغضب لو قيلَ له: إنّك لا تُحسِنُ اللَّعِبُ بالطُّيور واللّعب بالشّطرنج، ولا تَقدِر على شُرب الخَمْر الكثير وتَناول الطّعام الكثير، وما يجري مُجراه من الرّذائل.

والغَضب على هذا الجنس ليس بضروري؛ لأنّ حُبَّه ليس بضروري.

القسم الثالث: ما يكون ضرورياً في حق بعض النّاس دون بعض كالكِتاب ـ مثلاً ـ للعالم، فإنّه مُضطرٌّ إليه فيحبّه، فيغضب على من يُحرقه ويُغرقه، وكذلك أدوات الصِّناعات في حق المُكتسِب الذي لا يمكنه التَّوصُّل إلى القُوت إلّا بها، فإنَّ ما هو وسيلة إلى الضَّروري والمحبوبِ يَصيرُ ضرورياً ومحبوباً، وهذا يَختلفُ بالأشخاص. وإنّما الحبُّ الضّروري ما أشار إليه رسولُ الله ﷺ بقوله: «مَنْ أصبح آمناً في سِرْبِه، مُعافى في بَدَنِه، عنده قوتُ يَومه، فكأنّما حيزَتْ له الدُّنيا بحَذافيرها».

فمَن كان بصيراً بحقائق الأُمور، وسَلِمَ له هذه الثلاث تصور أن لا يَغضب في غيرها.

هذه ثلاثة أقسام، فلنذكُر غاية الرّياضة في كلّ واحدٍ منها:

أما القسم الأول: فليست الرّياضَة فيه ليَنعدمَ غيظُ القلب، ولكن لكي يقدر على أن لا يُطيع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلا على حَدٍّ يَسْتَحِبُّه الشَّرع ويستحسنه العَقل، وذلك ممكنٌ بالمُجاهدة وتكلُّف الحِلم والاحتمال مدةً حتى يصير الحلم والاحتمال خُلُقاً راسخاً.

فأمّا قَمعُ أصل الغَيظِ من القَلب، فذلك مُقتضى الطَّبع، وهو غير ممكن، إلا أنّه يُمكن كَسْرُ فَورته وَوَهنه حتّى لا يَشتد هَيَجان الغَيظ في الباطِن ويَنتهي وَهَنُه إلى أن لا يَظهر أثره في الوجه، ولكن ذلك شديد جداً، وهذا حكم القسم الثالث أيضاً؛ لأنّ ما صار ضرورياً في حقِّ شخص، فلا يمنعه من الغيظ[1] استغناءُ غيره عنه، فالرّياضةُ فِيه تمنع العمل به وتُضعفُ هَيَجانه في الباطن حتى لا يشتد التألُّم بالصّبر عليه.

(١) بعدها في الأصل: (فيه).

وأما القِسم الثاني: فيمكن التوصُّل بالرّياضة إلى الانْفِكاكِ عن الغَضب عليه إذ يمكن إخراج حُبِّه من القلب، وذلك بأن يعلم الإنسان أن وَطنه القَبْر ومُستقرّه الآخِرة، وإنما الدُّنيا مَعبَرٌ، وإنّما يُؤخذ منها قَدرُ الضّرورة، وما وراء ذلك وبالٌ على صاحبه، فَيزهد في الدُّنيا، ويَنمحي حُبُّها من قلبه، ولو كان للإنسان كَلبٌ لا يُحبُّه لم يَغضب إذا ضُرِبَ، فالغضبُ تبعٌ[1] للحبِّ، والرّياضةُ في هذا قد تَنتهي إلى قَمع أصلِ الغَضب، وهو نادر جداً، وقد تَنتهي إلى المَنع من استعمال الغَضب والعمل بموجبه، وهو أهون.

فإنْ قيل: فالضّروري من القسم الأول هو التألُّم بفَوات المُحتاج إليه دون الغَضب، فإنَّ مَنْ ماتت له شاةٌ وهي قُوْتُهُ لم يغضب على أحدٍ، وإن حصلت له كراهةٌ لذلك، وليس من ضرورة كلِّ كراهة غَضبٌ، فإنّ الإنسان يتألّم بالقَصْدِ والحِجامة، ولا يَغضبُ على الفَصَّاد والحَجَّام، فمن غلب عليه التَّوحيد حتّى يرى الأشياء كلها من الله تعالى لم يغضب على أحدٍ من خلقه، إذ يَراهم مُسخَّرين في قَبضة قُدْرتِه، كالقَلم في يَدِ الكاتب، ومَن وقَّعَ ملكٌ بضربِ عُنْقِه لم يَغضب على القَلم، فلا يَغضبُ على مَنْ ذَبَح شاتَهُ التي هي قُوْته، كما لا يغضب إذا ماتت؛ لأنّه يرى الذَّبح والموتَ من الله تعالى، فيندفع الغضبُ بغلبةِ التوحيد، ويندفع أيضاً لحُسنِ ظَنِّه بالله، وهو أنْ يرى أنَّ الكُلَّ منه، وأنّه لا يُقَدّر له إلا ما فيه الخِيرة، وربّما تكونُ الخِيرة في جوعه، ومَرَضه وجرحه وقتله، فلا يغضب كما لا يَغضب على الفَصّاد؛ لأنّه يرى أن الخِيرة في الفَصد.

فالجواب: أنّ هذا على هذا الوجه غير مُحال، ولكن غلَبة التَّوحيد إلى هذا الحدِّ إنّما تكون كالبَرقِ الخاطِف يغلب في أوقاتٍ مختطفة ولا يدوم، ثم يرجع القلبُ إلى الالتفات إلى الوسائط رجوعاً طَبَعياً لا يندفع عنه، ولو تُصُوّرَ ذلك على الدَّوام لبَشرٍ لَتُصوِّرَ لرسولِ الله ﷺ، فإنّه كان يغضب حتى تَحمرَّ وَجْنَتاه، حتى قال في رواية جابر: «إنَّما أنا بَشر، وإنّي أشترطُ على ربّي عزَّ وجل أيّ عبدٍ من المُسلمين شَتمتُه أو سَبَبْتُه أن يَكون ذلك له زكاةً وأَجْراً» انفرد بإخراجه مسلم.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (مع).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال: «اللهمَّ وأيّما عبدٍ مؤمنٍ سَبَبْتُه، فاجعَل ذلك له إليك قُربةً يومَ القيامة».

وفي أفراد مسلم من حديث عائشة أنَّ رسولَ الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فَغِرْتُ عليه فجاءَ فرأى ما أصنعُ، فقال: «مالَكِ يا عائشة؟ أَغِرتِ؟» فقلتُ: ومالي لا يَغَارُ مثلي على مثلك؟ فقال: «أَقَدْ جاءَكِ شَيْطانُكِ؟» قلت: يا رسولَ الله، أَوَ معي شَيطان؟ قال: «نعم»، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم». قلت: ومعكَ يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولكنّ ربّي عز وجل أعانني عليه حتى أسلمَ»[1].

وفي أفراده من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما منكم من أحدٍ إلّا وقد وَكَّلَ اللهُ به قَرينَه من الجنِّ». قالوا: وإياكَ يا رسول الله؟ قال: «وإيّايَ، ولكنّ الله عزوجل أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلّا بخَير»[2]. وأراد ﷺ أنّه لا يَحملني على الشَّر، فقد بانَ بما ذكرنا أنّ رسولَ الله ﷺ كان يلتفت إلى الوَسائط في الجُملة.

وقد يُفقَدُ أصلُ الغَيظِ فيما هو ضروري إذا كان القَلب مشغولاً بضروري أهمّ منه، فلا يكون في القلب مُتَّسعٌ للغضب لاشتغاله بغيره، فإنَّ استغراق القلب ببَعْضِ المُهمَّات يَمنع الإحساس بما عَداه، وهذا كما رُوي أن سلمان الفارسي شُتِمَ، فقال: إنْ خفَّت مَوازيني فأنا شرٌّ ممّا تقول، وإن ثَقُلت موازيني لم يضرّني ما تقول. فهذا قد كان قلبُه مَصروفاً إلى الآخرة[3] فلم يتأثّر قلبُه بالشَّتم.

وشُتِمَ الرَّبيع بن خُثَيم فقال للشّاتم: يا هذا، قد سمعَ الله كلامَكَ، وإنَّ دونَ الجنَّة عقبة إن قَطعتُها لم يَضرُّني ما تَقول، وإن لم أَقْطَعها فأنا شَرٌّ ممّا تَقول.

وسبَّ رجلٌ الشَّعبيَّ فقال: إن كنتَ صادقاً فغفرَ الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفرَ اللهُ لكَ.

وقالت امرأةٌ لمالك بن دينار: يا مُرائي. فقال: ما عرَفني غيرُكِ.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨١٥).
(٢) صحيح مسلم (٢٨١٤).
(٣) في الأصل: (مشغولاً بالآخرة).

فهذا كانَ مشغولاً (١ بنفي آفة الرياء عن نفسه منكراً عليه ما يُلقيه الشيطان من ذلك فلم يغضب لما نُسِبَ إليه. وسبَّ رجلٌ رجلاً فقال له: ما سَتَر اللهُ عنكَ أكثر. فهذا كان مشغولاً١) بالنظر في تقصيره عن تقوى الله عز وجل حقَّ تُقاتِه، فلم يغضبه أن يُنسب إليه نَقص.

فهذه الأخبارُ عن هؤلاء تحتمل أن يكونوا لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمّات دينهم واحتقار نفوسهم التي يكون الغضب لها، ويحتمل أن يكون ذلك أثَّر في قلوبهم لكن شغلهم عن النَّظر فيه ما هو أهمُّ منه، ويحتمل أن يكونوا علموا شرفَ العَفو والحِلم، فاستعملوا ذلك لتحصيل ثوابِه، وأعظمُ طريق للخلاص من نارِ الغضب مَحْوُ حُبِّ الدّنيا من القَلب، وذلك بمعرفة آفاتها وغَوائلها على ما سيأتي في كتاب ذَمِّ الدُّنيا.

ومن أخرج حُبَّ المزايا من قلبه تَخلَّص من أكثر أسباب الغضب، وما لا يُمكِنُ مَحوُهُ يمكن كَسرُه ووَهنُه، فيضعُف الغضب بالوهن، ويهون حينئذٍ الدَّفع.

بيان الأسباب المُهيِّجةِ للغضب

قد عرفتَ أنّ علاج كل علّةٍ بحَسْمِ مادَّتها وإزالةِ أسبابها، فلا بدَّ من معرفة أسباب الغضب.

والأسبابُ المهيِّجةُ للغضب: الزَّهْوُ والعجبُ والمَزْحُ والهُزْءُ والتَّعْيير والمُماراة والمُضادَّة والغَدر وشدَّة الحرص على فُضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاقٌ رديئة مذمومةٌ شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بَقاء هذه الأسباب، فلا بد من إزالتها بأضدادها، فينبغي أن تُميتَ الزَّهوَ بالتَّواضُع والعُجبَ بالمعرفة بنفسك كما سيأتي بيانُه في كتاب الكِبْر والعُجب، وتُزيلَ الفَخرَ بأنَّكَ من جِنس عَبدك إذِ النّاس يَجمعُهم في الانْتِسابِ أَبٌ، وإنّما الفَخْرُ بالفَضائِل.

(١ـ١) سقط من الأصل.

والفَخرُ والعُجْبُ أكبر الرَّذائل، وهي رأسها وأصلُها، فإذا لم تَخْلُ عنها فلا فضل لك على غيرك، فلِمَ تَفتخر وأنت من جِنس عبدك من حيث البِنْية والنَّسب والأعضاء الظاهرة والباطنة؟.

وأمّا المَزحُ؛ فتُزيله بالتَّشاغُل بالمُهمَّات الدّينية التي تَستوعب العُمر وتَفضُل عنه إذا عرفتَ ذلك.

وأما الهزلُ؛ فتُزيله بالجِدِّ في طلب الفضائل والأخلاقِ الحسنة والعلوم الدينية التي تُبلّغكَ إلى سعادة الآخرة.

وأمّا الهُزْءُ؛ فتُزيلُه بالتكرُّمِ عن إيذاء النّاس وبِصيانة النّفس عن أن يُسْتَهزأ بك.

وأما التَّعيير؛ فتزيله[١] بالتَّحرُّزِ[٢] عن القَول القبيح وصيانة النَّفس عن مُرِّ الجَواب.

وأما شِدَّة الحِرص على فُضول العَيش؛ فتُزال بالقَناعة بقدر الضَّرورة طلباً[٣] لعزِّ الاستِغْناء وتَرَفُّعاً عن ذُلِّ الحاجةِ.

وكل خُلقٍ من هذه الأخْلاق وصفةٍ من هذه الصِّفات يَفْتقر في علاجه إلى رياضةٍ وتَحمُّل مشقَّةٍ، وحاصِلُ رياضتها يرجع إلى معرفة غَوائلها لتَرغب النَّفسُ عنها وتَنفرَ عن قُبحها، ثم المواظبة عن مباشرة أضدادها مدةً مديدةً حتّى تصير بالعادة مألوفةً هَيِّنةً على النَّفس، وإذا انمَحت عن النّفس فقد زكت وطَهُرَت عن هذه الرَّذائل وتخلَّصت أيضاً عن الغَضب الذي يَتولَّد منها.

ومن أشدِّ البَواعث على الغَضب عند أكثر الجُهَّال تَسميتهم الغَضبَ شجاعةً ورجوليَّةً وعزَّةَ نفس وكِبْرَ هِمَّة، وتَلقيبه بالألقاب المَحمودة غَباوة وجَهلاً حتى تميلَ النَّفسُ إليه وتستحسنَه، وقد يتأكّد ذلك بحكاية شدَّة الغضبِ عن الأكابر في معرِض المَدح بالشَّجاعة، والنَّفسُ مائلةٌ إلى التَّشبُّهِ بالأكابر، فَيهيج الغضب في القلب بسبَبه، وتَسميةُ هذا عزةَ نفسٍ وشجاعةً جهلٌ، بل هو مرضُ قلبٍ ونُقصانُ عَقلٍ،

(١) ليست في (ظ).
(٢) في (ظ): (فبالحذر).
(٣) في (ظ): (طالباً).

وهذا لضَعفِ النَّفس ونُقصانها وآيَةُ أنَّهُ لضعف النَّفس أنَّ المريضَ أسرعُ غضباً من الصَّحيح، والمرأة أسرع غَضَباً من الرَّجل، وكذلك الصَّبي والشَّيخُ الضَّعيف أسرعُ غضباً من الشّاب ومن الكَهل، وذو الخُلق السَّيِّء والرَّذائل القَبيحة أسرعُ غضباً من صاحب الفَضائل فالمَرذول يَغضب لشهوتِه إذا فاتَتهُ اللُّقْمةُ، ولبُخلِهِ إذا فاتَته الحَبَّةُ حتى يغضب على أهله وَوَلده وأصحابه، بل القَويُّ من يَملك نفسَه عند الغَضب، كما روينا عن النبي ﷺ أنّه قال: «ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعة، إنّما الشَّديدُ الذي يَملكُ نفسَه عندَ الغَضب».

وينبغي أن يُعالَجَ هذا الجاهلُ بأن تُتْلَى عليه حكاياتُ أهل الحِلم[١] والعَفو وما استُحسِنَ منهم من كَظْم الغَيظ، فإنَّ ذلك منقولٌ عن الأنبياء والحُكماء والعلماء وأكابر الملوك الفُضلاء، وضد ذلك منقول عن الأتراك والأكراد والجَهَلة والأغبياء الذين لا عَقْل لهم ولا فضل.

(١) تحرفت في الأصل إلى: (العلم).

بيان

عِلاج الغَضب بعد هَيَجانِهِ

الذي قدَّمنا ذِكرَه هو حَسمٌ لموادِّ الغَضب، وقَطعٌ لأسبابه حتّى لا يهيج، فإذا جَرى سببٌ هَيَّجه فعنده يجب التَّثبت حتى لا يَضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم.

وإنّما يعالَجُ الغضب عند هَيَجانه بمعْجونِ العلمِ والعَمَل.

أمّا العلم؛ فهو ستة أمور:

الأول: أن يتفكَّر في الأخبار التي سنوردها في فضلِ كظمِ الغَيظ والعَفو والحلم والاحتمال، فيرغب في ثوابه، فتمنعه شدَّةُ الحرص على ثواب الكَظم عن التَّشَفّي والانتقام، فَيَنْطفئ[1] غيظُه.

وفي أفراد البخاري من حديث ابن عباس قال: استأذنَ الحُرُّ بنُ قَيس لعُيَيْنَةَ بنِ حصن على عُمر بن الخَطَّاب فأذِنَ له، فقال: يا ابنَ الخَطّاب واللهِ ما تُعْطينا الجَزْلَ، ولا تَحكمُ بَيننا بالعَدل. فغَضِبَ عُمرُ حتى هَمَّ أن يوقِعَ به، فقال الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الله تعالى قال لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وإنَّ هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزَها عُمرُ حين تلاها عليه، وكان وَقّافاً عند كتاب الله عز وجل.

والثاني: أن يُخوّف نفسه عقاب[2] الله، وهو أن يقول: قُدرة الله عليَّ أعظم من قُدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضَيْتُ غَضبي عليه لم آمَنْ أن يُمضي الله عزَّ وجلَّ

(١) في الأصل: (فينتفي).
(٢) في (ظ): (عذاب).

غضبَهُ عليَّ يوم القِيامةِ أحوجَ ما أكون إلى العَفو، وقد قال اللهُ تعالى في بَعضِ الكتب: يا ابنَ آدم، اذكُرني حينَ تَغضَب، أَذكُركَ حين أَغضب فلا أمحقك فيمن أَمْحَق.

الثّالث: أن يُحذِّر نفسه عاقبةَ العَداوة والانتقام، وتَشَمُّر العدو لمقابلته والسَّعي في هَدْمِ أغراضه، (١)والشَّماتة بمصائِبه، وهو لا يخلو عن المصائب، فيخوّف نفسه عواقبَ الغَضب في الدُّنيا(١) إن كان لا يخاف من الآخرة، وهذا هو تَسليطُ شَهوةٍ على غضب، ولا ثواب عليه؛ لأنّه تقديمٌ لبعض الحُظوظ على بعض إلا أن يكون مَحذورُه أن يتغيَّر عليه أمر(٢) يُعينه على الآخرة، فَيُثابُ على ذلك.

الرّابع: أن يتفكّر في قُبْح صورته عند الغَضب، بأن يتذكَّر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكّر في قُبح الغضب في نفسه ومُشابهة صاحبه للكَلبِ الضَّاري والسَّبُع العادي، ومشابهة الحَليم الهادي التارك للغَضب للأنبياء والعُلماء والحُكماء، ويُخَيِّر نَفسه بين أن يُشبه الكلابَ والسِّباع أو أراذِل الناس، وبين أن يُشبه الأنبياءَ والعلماء في عادتهم لتميل نفسُه إلى حُبِّ الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مُسكةٌ من عَقل.

الخامس: أن يتفكَّر في السَّبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كَظم الغَيظِ، ولا بد أن يكون له سببٌ مثل قول الشَّيطان له: إنَّ هذا يُحمَل منك على العجز وصِغَرِ النَّفس والذِّلَّة والمَهانَة، فتصير حقيراً في أعيُنِ الناس. فليَقُل لنفسِهِ: ما أعجبَكِ تَأْنَفينَ من الاحتمال الآن ولا تَأنفين من خِزْي يوم القِيامة والافتِضَاح إذا أخذ هذا بيدك وانتُقم منك؟ وتَحذرين من أن تَصغُري في أَعيُنِ الناس ولا تحذرين من أن تَصغُري عند الله وعند الملائكة والنَّبيِّين؟ فمَهما كظمَ الغيظَ فينبغي أن يَكظمه لله عزَّ وجل، وذلك يُعظمه عند الله، فما له وللنّاس؟ وذُلُّ من ظَلمه يومَ القِيامةِ أشدُّ من ذُلِّهِ لو انتقَمَ منه الآن، أفلا يُحبُّ أن يكونَ هو القائم إذا نُوديَ يوم القيامة: لِيَقُم

(١-١) سقط من (ظ).
(٢) سقطت من (ظ).

من وقع أجرُه على الله. فلا يَقوم إلا مَن عَفا، فهَذا وأمثالُه يَنبغي أن يُقرِّره على قَلبه.

السَّادس: أن يَعلمَ أنَّ غضبه إنّما كان من شيءٍ جَرى على وَفقِ مُرادِ الله لا على وفق مُراده، فكيف يُقدم مرادَه على مُرادِ الله؟

وأمّا العَمل: فمنه السّكوتُ، ومنه التَّعوُّذ، ومنه تَغيير الحال، فإن كان قائماً جلسَ، وإن كان جالساً اضطجعَ، وقد أُمِرَ بالوضوء أيضاً، أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحَسَن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جَعفر قال: حدثنا شُعبةُ قال: سمعتُ لَيثاً قال: سمعتُ طاووساً يُحدّث عن ابن عباس عن النّبي ﷺ: «إنّي لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهبَ ما يجده، لو قال: أعوذ بالله من الشَّيطان الرّجيم ذَهب عنه ما يَجدُ». فقالوا له: إنّ النبي ﷺ قد قال: «تعوَّذ بالله من الشَّيطان الرّجيم». فقال: وهل بي من جُنون؟!

وقد رَوى أبو ذَر رضي الله عنه عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إذا غَضب أحُدكم وهو قائمٌ فَليَجلس، فإنْ ذهبَ عنه الغَضب، وإلا فليضطَجِع».

واعلم أنّ القائم مُتَهيِّئٌ للحركة والبَطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيُشبه أن يكونَ أمرُهُ بالقُعود والاضطجاع لئلا يَبْدُرَ منه في حال قِيامِه وقُعوده بادرةٌ يَندم عليها فيما بعد، ويمكنُ أن يكون أمرُه بالقُعُود والاضطجاع لتَسكُنَ الحَرارة، فإنَّ سبب الغَضب اشتِدادُ الحرارة، ولذلك أَمَرَ بالوضوء.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد ابن هبة الله الطبري قال: أخبرنا ابنُ بِشرْان، قال: حدثنا ابنُ صَفوان. قال: حدثنا أبو بَكر القُرشي قال: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرَة قال: حدثنا إبراهيم بن خالد الصَّنعاني قال: حدثنا أبو وائل القَاص قال: كُنّا عندَ عُروةَ بن محمد فكلَّمهُ رجلٌ بكلامٍ، فغضب غضباً شديداً، فقام فتوضَّأ ثم جاء، فقال: حدثني أبي عن

جَدِّي عَطيَّة، وكانت له صُحبة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الغضبَ من الشَّيطان، وإن الشيطان خُلقَ من النّار، وإنّما تُطفأ النّارُ بالماء، فإذا غضبَ أحدُكم فَليتوضَّأ».

وغضبَ عُمر بن الخطَّاب يوماً فَدعى بماء فاسْتنشَق وقال: إنَّ الغضب من الشيطان، وهذا يذهبُ بالغَضب.

ويمكن أن يكون إنما أُمِرَ بالجلوس والاضطجاع ليَقرُبَ إلى الأرض التي منها خُلق فيذكر أصله فَيذلَّ(١)، ويمكن أن يكون ليتواضع بِذُلِّه؛ لأنّ الغضب يَنْشَأ عن الكِبر، وقد روينا آنِفاً من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنّه ذكر الغضبَ فقال: «مَنْ وجدَ من ذلك شيئاً فليُلصِقْ خَدَّه بالأرض».

وهذا يُبيِّنُ أنَّ المرادَ إذلالُ أَعَزِّ الأشياء لتَسْتَشْعِر النَّفسُ بذلك الذُّلَّ وتُزايلَ العِزَّة والزَّهوَ الَّذين هُما سببُ الغضب.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هبةِ الله قال: أخبرنا ابن بِشْران قال: أخبرنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القُرشي قال: حدثني محمد بن عمر بن علي بن الزُّبَير قال: حدثنا سَعيد بن عامر قال: حدثنا المُعتَمِر بن سُلَيمان قال: كان رَجلٌ ممّن كان قَبلكم يَغضب فيشتدُّ غَضبه، فكتب ثلاث صحائفَ، فأعطى كلَّ صحيفة رجلاً، وقال لصاحب الصحيفة الأولى: إذا رأَيْتني قد غضبتُ فاشتد غَضبي، فقُمْ إليَّ بهذه الصَّحيفة. قال: وأعطى الصَّحيفة الأُخرى رجلاً وقال: إذا رأيتَني قد سكنَ بعضُ غَضبي فقُم إليَّ بهذه الصَّحيفة. قال: وأعطى الصَّحيفة الثالثة رجلاً وقال: إذا رأيتَني قد ذهبَ بعضُ غَضبي فقُمْ إليَّ بهذه الصَّحيفة. قال: فغضبَ يوماً فاشتدَّ غضبُه، فقامَ إليه صاحب الصَّحيفة الأولى فإذا في صحيفته: أَقْصِر، ما أنتَ وهذا الغَضب؟ إنَّكَ لستَ بإله، إنّما أنتَ بَشَر أَوْشكَ أن يأكل بعضُك بعضاً. قال: فسكنَ بعضُ غَضبه، فقام إليه صاحب الصَّحيفة الثانية، فإذا في صَحيفته: ارحم مَنْ في الأرض يَرحمك من في السَّماء. فسكنَ

(١) في الأصل: (فيتبدل).

بعضُ غَضبه، فقام إليه صاحبُ الصَّحيفة الثالثة، وإذا في صَحيفته: خُذ الناسَ بحقِّ الله، فإنّه لا يُصلحهم إلا ذاك.

قال سعيدُ بن عامر: يقول: لا تُعطِّل الحُدود.

قالَ القُرشي: وحدثني القاسمُ بن هاشم قال: حدثنا أحمد بن يونس البزّار قال: غضبَ المَهديُّ على رجلٍ، فدعا بالسِّياط، فلمّا رأى شَبيبٌ شدَّة غضبه وإطراقَ الناسِ فلم يتكلّموا بشَيء، قال شَبيب: يا أمير المؤمنين، لا تَغضبَنَّ لله بأشَدَّ مما غضب لنفسه. فقال: خَلُّو سَبيله.

فضيلة كَظْم الغَيظ

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فذكرَ ذلك في معرض المَدح.

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الله ابن يزيد قال: حدثنا سعيد ـ يعني: ابن أبي أيوب ـ قال: حدثني أبو مَرْحوم عن سَهْل بن مُعاذ عن أبيه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيظاً وهو قادِرٌ[1] على أنْ يُنْفِذَهُ، دَعاه اللهُ تبارك وتعالى على رؤوس الخَلائق حتّى يُخيِّرهُ منْ أيِّ الحور العين شاء»[2].

قال الإمام أحمد: حدثنا عليُّ بن عاصم عَن يونس بن عُبيد قال: أخبرنا الحَسن عن ابن عُمر قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما تَجرَّعَ عبدٌ جُرعةً أفضلَ عندَ الله من جُرْعةِ غَيظٍ يكظِمُها ابتغاءَ وجه الله تبارك وتعالى»[3].

---

(١) في الأصل: (يقدر) وهي رواية.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٣٧)، والترمذي (٢٠٢١) و(٢٤٩٣)، وأبو داود (٤٧٧٧)، وابن ماجه (٤١٨٦) وأبو يعلى (٤٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٦١١٤)، والطبراني في مكارم الأخلاق(٥١)، والبيهقي في الشعب (٨٣٠٧).

وفي روايةٍ أُخرى عن ابن عُمر عن النّبي ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيظاً ولو شاءَ أنْ يُمضيَه أمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رِضاً».

وفي روايةِ أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كَظَمَ غَيظاً وهو يَقدر على إنْفاذِه، ملأ اللهُ قَلبه أَمناً وإيماناً».

ومرَّ النّبي ﷺ على قومٍ يتحادون مِهراساً[1] فقال: أَتَحسبون أنَّ الشّدّةَ في حمل الحِجارة؟! إنّما الشِّدّة أنْ يَمتلئ أحدُكم غَيظاً ثم يَغلِبُه».

وروينا عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ لجهنَّمَ باباً لا يَدخُله إلّا من يَشْفي غَيظَه بمعصية الله».

وقد رويَ عن عُمر بن الخَطاب أنَّه قال: من اتَّقى الله لم يَشْفِ غَيظَه، ومن خافَ الله لم يَفعل ما يُريد، ولولا يوم القيامة لكانَ غيرَ ما تَرون.

وقال مالك بن زياد الأشْجعي: مَن كَظم غَيظه وهو يَقدر على إمضائه حَشَى اللهُ قلبَه إيماناً كما تُحشَى الرُّمَّانةُ حَبّاً.

وقال ابنُ السَّماك: أذنَبَ غلامٌ لامرأةٍ من قُريش، فأخذت السَّوط ومَضَتْ نحوه، حتى إذا قارَبَته رَمت بالسَّوط، وقالت: ما تركتِ التَّقوى أحداً يشفي غَيظَه.

فَضيلة الحِلْم

اعلم أَنَّ الحلمَ أفضل من كَظْم الغَيظ؛ لأنّ كَظمَ الغَيظِ عبارة عن التَّحلُّم، أي تكلُّف الحِلم، فلا يحتاج إلى كظم الغَيظ إلا مَن هاجَ غَيظُه، ويحتاج فيه إلى مُجاهدةٍ شديدةٍ، ولكن إذا تعوَّد ذلك مدّة صار ذلك اعتياداً، فلا يهيج الغَيظ، وإن هاجَ فلا يكونُ في كَظمِه تَعب، وهو الحِلم الطَّبَعي، وهودلالة كمال العَقل واستيلائِه وانكِسار قوة الغَضب وخضوعها للعقل: ولكن ابتداؤه التَّحلُّم وكَظْمُ الغَيظ تكلُّفاً.

---

(١) المِهْراس: حجر مستطيل منقور يُتوضَّأ منه، وهو حجر ضخم لا يُقلُّه الرجال ولا يحركونه لثقله، يسع ماءً كثيراً. تاج العروس (هرس).

وقد روى أبو هريرة عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنّما العِلمُ بالتَّعلُّم، والحِلم بالتَّحلُّم، اطلبوا العلم واطلبوا مع العِلم السَّكينة والحلمَ، لِينوا لمن تُعلِّمون ولمن تتعلَّمون منه، ولا تكونوا من جَبابرة العُلماء فَيغلب جَهلكم علمَكم».

وقال عليه الصلاة والسَّلام لأشَجِّ عبد القَيْس: «إنَّ فيكَ خَلَّتين يُحبّهما اللهُ ورسولهُ: الحِلم والأناة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «أيعجز أحدُكم أن يكون كأبي ضَمْضَم؟ رجلٌ كانَ قَبلكم، كان يقول إذا أصبح: اللّهم إنّي قدتَصَدقتُ بعِرضي على من ظَلمني».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا جمعَ الله الخلائق يومَ القيامة نادَى مُنادٍ: أينَ أهلُ الفَضل؟ فيقوم ناسٌ وهم يسير، فينطلقونَ سريعاً إلى الجنّة، فتتلقّاهم الملائكة، فيقولون: إنّا نَراكُم سِراعاً إلى الجنَّة، فمنْ أنتم؟ فيقولون: نحنُ أهلُ الفَضل. فَيقولون: ما كانَ فَضلكم؟ فيقولون: كُنّا إذا ظُلِمنا صَبَرنا، وإذا أُسِيءَ إلينا غَفَرنا، وإذا جُهِلَ علينا حَلمنا. فيُقال لهم: ادخُلوا الجَنَّة فنعمَ أجرُ العامِلِين».

وقال أبو الدرداء: إنْ ناقَدتَ النّاس ناقَدوك، وإنْ تركتَهم لم يَتركوك، وإن هربتَ منهم أدركوك. قال: فما تأمُرني.؟ قال: هَبْ عِرضَكَ ليوم فَقْرك.

وقال عَمرو بن الأَهْتَم: أشجعُ النّاس مَنْ رَدَّ جَهلَه بحِلمِه.

وقال الخَليلُ بن أحمد: كان يُقال: مَنْ أساءَ فأُحسِنَ إليه جُعلَ له حاجزٌ من قَلبه يَردعُه عن مثل إساءته.

وقال سِنانُ بن لَقيط: إذا لم تَنْكأْ عدوَّكَ إلا بما يُؤذي دِينَك، فبنفسِكَ بَدأتَ.

ذكر طرف من أخبار الحُلَماء

سَبَّ رجلٌ الحسنَ بن علي فلم يَرُدَّ عليه، ثم قال له: لو استَحملتنا حملناكَ، وإن استَرْفَدتنا أَرفدناك، وإن استَعنت بنا أَعنّاك. وبعثَ إليه مروانُ يَسبُّه فقال للرسول: قل له: مَوعدك الله عز وجل.

شتمَ رجلٌ ابنَ عباس، فلمّا قَضى مَقالتَه قال: يا عِكرمة، انظُر هل للرَّجل حاجة فَنَقضيها. فنكَّس الرّجل رأسه واستحيا.

وأسمعَ رجلٌ معاوية كلاماً شديداً، فقيل له: لو عاقَبتَه. فقال: إنّي لأسْتَحيي من الله أن يَضيقَ حَلمي عن ذنبِ أحدٍ من رَعيّتي.

وقَسم معاويةُ قُطُفاً، فبعث منها بقَطيفةٍ إلى شيخٍ من أهل دمشق، فلم تُعجبه، فجعل عليه يميناً أن يضرب بها رأس مُعاوية، فأتى مُعاوية فأخبره، فقال له معاويةُ: أَوْفِ بنَذرك، وليَرفُق الشَّيخُ بالشَّيخ.

وشهدَ عنده أعرابيٌ شَهادةً، فقال له معاويةُ: كذبتَ. فقال: الكاذبُ المُتزَملُ في ثيابك. فقال معاوية: هذا جوابُ من عَجِلَ.

وجاءَ غلامٌ لأبي ذَرٍّ وقد كَسَر رِجْلَ شاةٍ له، فقال له: مَن كْسرَ رجل هذه؟ قال: أنا فَعلتُه عمداً لأغيظك فتضربني فتأثَم. فقال: لأَغيظنَّ مَن حرَّضكَ عَلى غيظي. فأعتقهُ.

وشتم رجلٌ عَديَّ بن حاتم وهو ساكت، فلمّا فرغَ من مقالته قال: إن كان بَقي عندكَ شَيءٌ فقُل قبل أن يأتي شَباب الحي، فإنّهم إن سمعوكَ تقول هذا لشَيخهم لم يَرضَوه.

وكانَ بين عاصم بن عُمر بن الخَطاب وبينَ رجل من قُرَيش خُصومة في أرض، فقال القُرشي لعاصم: فإن كنتَ صادقاً فادخُلها. فقال عاصم: وقد بلغ بك الغضبُ هذا! هي لك. فقال القُرَشي: سَبقتَني، هي لكَ. فتَركاها لا يأخُذها واحدٌ منهما حتى هَلَكا، ولم يَعرض لها أولادُهما.

وزَحَمتْ راحلةُ سالم بنِ عبد الله رجلاً، فقال له الرّجل: ما أراكَ إلا رجل سوء. فقال: ما أحسبك أَبْعدتَ.

ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلةً في الظُّلمة، فمرَّ برجلٍ نائم[1] فَعَثَر به،

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (قائم).

فرفع رأسه وقال: أمجنونٌ أنتَ؟! فقال عمر: لا، فهمَّ به الحرسُ، فقال عُمر: مَهْ، إنّما سَألني أَمجنونٌ أنتَ؟ فقلت: لا.

وقام إليه رجلٌ وهو على المِنبر فقال: أشهدُ إنّك من الفاسِقين. فقال: وما يُدريك؟ أنتَ شاهد زُور، ولا نُجيزُ شَهادَتك. وكلمّه رجلٌ فأغلظ له، فقال: أردتَ أن يستفزَّني الشَّيطان بِعزِّ السُّلطان فأنالُ منك اليومَ ما تناله منّي غَداً.

ولقي رجلٌ عليَّ بنَ الحُسين فسبَّه، فثارت إليه العبيد[1]، فقال: مهلاً، ثم أقبل عليه فقال: ما سُتِرَ عنك من أمرنا أكثر، أَلكَ حاجةٌ نُعينُكَ عليها؟ فاستحيا الرّجل فألقى إليه خَميصةً كانت عليه وأمر له بألف درهم، فكان الرّجل بعدَ ذلك يقول: أشهد إنَّك من أولاد الرُّسُل.

واستَطال عليه يوماً رجلٌ فَتغافل عنه، فقال له الرَّجلُ: إياكَ أعني. فقال له: وعَنكَ أُغْضِي.

وأغلَظ له رجلٌ فقال له: يا أخي، إن كنتَ صادقاً فيما قلتَ، فغفر اللهُ لي، وإن كنتَ كاذباً، فغفر اللهُ لك.

وكان عنده ضيفٌ فاستعجل خادمَه بشِواءٍ كان في التَّنُّور، فأقبل بِهِ، فسقط السُّفّود من يده على بُنَي لعليٍّ فأصابَ رأسه فَقتله، فقال عليٌّ للغُلام: أنتَ حُرٌّ، إنّك لم تَتَعمَّده.

ومرَّ الرَّبيع بن خُثَيم في السُّوق فَسَقط عليه حجر فشجَّه، فجعل يمسح الدَّم عن وَجهه ويقول: اللهمَّ اغفر له فإنّه لم يتعمَّدني.

وقال رجلٌ لوَهْبِ بن مُنَبِّه: إنَّ فلاناً شَتَمكَ. فقال: ما وجدَ الشَّيطانُ بريداً غَيرك؟!

وقال رجلٌ للفَضل بن مَروان[2]: إن فُلاناً يَقَعُ فيك. فقال: لأغيظنَّ من أَمَرَهُ، غفر اللهُ له. قيل له: مَنْ أَمرهُ؟ قال: الشَّيطان.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (البعيد).

(٢) تحرف في الأصل إلى: (الفضيل بن بزوان).

وكان الرَّجل يأتي الحارثَ بن سُوَيد فيسبّه فإذا فرغ قال الحارث: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وكان أبو السَّوَّار العَدوي يَعرِضُ له الرّجل فيشتُمه، فيقول: إن كنتُ كما قلتَ إني إذن لرجلُ سوء.

وشتم رجلٌ محمدَ بن واسع وهو لا يردُّ عليه شيئاً، فلمّا سكتَ قال: يا مَغرور يوشك أن تَندم.

ونازعَ رجلٌ ابن عون فقال: لولا أن يُكتبَ عليَّ لقلتُ.

وشتم رجلٌ الوليدَ بن أبي حُبرة، فقال له: هي صحيفتك فأملِ فيها ما شِئتَ.

وشتم رجلٌ ابنَ ذَرٍّ فقال له: يا هذا، لا تُغرِق في شَتْمِنا، ودَعْ للصُّلح مَوضعاً، فإنّا لا نُكافِئُ من عَصى الله فينا بأكثر من أن نُطيعَ الله فيه.

ومرَّ المُهلَّبُ بنُ أبي صُفْرة بقومٍ فعظَّموه، فقال رجل: ألهذا الأعور تُسَوِّدون! واللهِ لو أُخرج إلى السُّوق ما جاء إلّا بألفَي دِرهم. فلمّا رجع إلى منزله أرسلَ إلى الرَّجل بألفَي درهمٍ، فقال: أما إنَّكَ لو زِدَتنا في القيمة لزِدناكَ في العَطية.

وكان بين رَجلين مُنازعةٌ، فتسَرَّع إحدهما إلى صاحبه، فقال السّاكت: أما لولا أنَّ الله عز وجل يَسمعُ كلامي لتكلَّمتُ.

وقال رجلٌ لرجلٍ: إنّي لأرحمُكَ مما يقول النّاسُ فيك. قال: أَفَتَسْمعُني أقول فيهم؟ قال: لا. قال: فإيّاهُم فارحَم.

وشتم رجلٌ رجلاً، فقال له: آجَرَكَ الله على الصَّواب، وغفرَ لك الخَطَأ.

وقال رجلٌ لرجلٍ: واللهِ لأشتُمنَّك شَتْماً يَدخلُ معكَ قَبْرَكَ. فقال: معكَ واللهِ يَدخُلُ لا مَعي.

بيان

القَدر الذي يَجوز الانْتِصار والتَّشَفِّي به من الكلام

اعلم أنَّ كل ظُلم صدر من شَخصٍ فلا يجوزُ مقابلته بمثله، فلا يجوز مقابلة الغِيبة بالغِيبة، ولا مقابلة التّجسّس بالتّجسّس ولا مقابلة السَّبِّ بالسَّبِّ، وكذا سائر المَعاصي، وإنّما القِصاص والغَرامةُ على ما ورد الشَّرعُ به، قال النَّبي ﷺ: «فإن امرؤٌ عَيَّرَكَ بما فيك فلا تُعَيِّرْهُ بما فيه».

وشتَمَ رجلٌ أبا بكرٍ والنَّبيُّ ﷺ ساكتٌ، فلما ابتدأ أبو بكرٍ يَنْتَصر قامَ رسول الله ﷺ، فقال: إنك كُنتَ ساكتاً لمّا شَتمني، فلمّا تكلمتُ قُمْتَ؟ فقال: «لأنَّ المَلَكَ كان يُجيبُ عنك، فلما تكلَّمتَ ذهبَ المَلَكُ وجاء الشَّيطانُ، فلم أكُن لأَجلسَ في مَجلسٍ فيه الشيطان».

وقال قومٌ: تَجوزُ المُقابلةُ بما لا كَذِبَ فيه؛ مثل أن يَقول لمن أساء الأدبَ عليه: يا جاهل، ونحو ذلك، واستدلّوا بما أخبرنا به ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شُعْبَةُ قال: سمعتُ العلاءَ يُحدِّث عن أبيه عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المُسْتَبّان ما قالا فَعلى البادِئ، ما لم يَعتدِ المظلوم». انفرد بإخراجه مسلم.

وفي الصَّحيحين من حديث عائشة قالت: دَخلَتْ زينبُ فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ أزواجَكَ أَرسَلْنَني إليكَ يَسألنَك العَدل في ابنةِ أبي قُحافَة[1]. قالت ثم وَقَعَتْ بي زينبُ، فطفِقتُ أنْظُر إلى النَّبي ﷺ متى يأذن لي فيها، فلم أزل حتى عرفتُ أنه لا

---

(١) أي يسألونه التسوية في المحبة، أو في إرسال الناس الهدايا، فإنهم كانوا يتحرَّون يومها بالهدايا، فأردن أن يتركوا التَّحري ويرسلوا إليه الهدايا حيث كان.

يَكرهُ أن أَنْتصِر فوقعتُ بزينَب، فلم أَنْشِبْها[١] أن أَفْحَمْتُها[٢]، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «إنَّها ابنةُ أبي بَكر»[٣]. فهذا وأمثالُه رُخصةٌ على سَبيل القِصاص، والأفضل تَركُه؛ لأنّه يَجرُّ إلى ما وراءه، ولا يمكن الاقتِصارُ على مقدار الحقِّ فيه؛ لأن أكثر النّاس لا يَضبطُ نفسه في فَورة الغضب.

ولهذا لا ينبغي للسُّلطان أن يُعاقب في حال غَضبه؛ لئلا يتعدّى الحقَّ انتصاراً لنفسه لا لله تعالى، قال عمرُ بنُ عبد العزيز لرجلٍ أغضبه: لولا أنَّكَ أغْضَبتني لعاقَبْتُكَ.

القَول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العَفو والرِّفْق

اعلم أن الغَيظَ إذا كُظِم لعجزٍ عن التَّشَفِّي في الحال رجع إلى الباطن واحتقنَ فيه، فصار حقداً.

وعلامةُ الحِقدِ دوامُ بُغْضِ ذلك الشخص واستِثْقالُه[٤] والنُّفورُ منه.

والحِقدُ ثَمرة الغَضب، والحقدُ يُثمِرُ ثمانية أشياء:

الأول: الحَسد، وذلك أنّه يَحمل الإنسان على أن يَتمنَّى زوال النِّعمة على المَحقود عليه، والغَمَّ بنعمةٍ إن أصابها، والسُّرورَ بمُصيبةٍ إن نَزلتْ به، وسيأتي في ذمِّ الحَسَد.

والثّاني: أن يزيد على إضمار الحَسَد في الباطن، فيشمت ظاهراً بما يُصيبه من البلاء.

والثالث: أن يَهجره ويُصارِمَه.

والرّابع: أن يُعرضَ عنه استِصْغاراً له.

(١) لم أَنْشبها: أي لم أُمهِلها.
(٢) أفحمتها: أَسْكَتُّها.
(٣) أخرجه البخاري (٢٥٨١)، ومسلم (٢٤٤٢).
(٤) تحرفت في الأصل: (اشتغاله).

والخامس: أن يتكلم فيه بما لا يحلُّ من كذبٍ وغيبةٍ، وإفشاءِ سِرٍّ، وهَتك سِتْر.

والسادس: أن يَحكيهِ استهزاءً به، وسُخرِيةً منه.

والسابع: أن يُؤذيه بالضَّرب والإيلام.

والثّامن: أن يَمنعه حقَّه من صلةِ رحمٍ، أو قضاء دَينٍ، أو ردِّ مَظْلمةٍ، وكل ذلك حرام، فيجب على من وَجدَفي قلبه حِقداً على مُسلمٍ أن لا يخرج بالحقد إلى معصيةٍ، والأولى له أن يَزيد في بِرِّ ذلك الشَّخْص والإحسان إليه مجاهدةً للنّفس وإرغاماً للشيطان، ويجتهد في إزالة أثر الحِقد من باطنه.

فللحقود ثلاثةُ أحوال عند القُدرة:

أحدها: أن يستَوفي حقَّه الذي يَستحقُّه من غير زيادةٍ ولا نُقصان، وهو العَدل، وهو دَرجةُ الصَّالحين.

الثاني: أن يُحسنَ إليه بالعَفو والصِّلة، وذلك هو الفضل، وهو اختيار الصِّدِّيقين.

والثالث: أن يَظلمه بما لا يَستحقُّه، وذلك هو الجَوْرُ، وهو اختيارُ الأَرذلين.

ذكر فضيلة العَفو

اعلم أنَّ معنى العَفو أن يَستحقَّ حقّاً فيُسقِطَه ويَبرأ عنه مِن قصاصٍ أو غَرامةٍ، وهو غير الحِلم وكَظمِ الغَيظ، فلذلك أفردناه.

قال الله عزوجل: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هِبة الله الطَّبري قال: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: أخبرنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بَكر القرشي قال: حدثنا يحيى

ابن أيوب قال: حدثنا إسماعيل بن جَعفر قال: أخبرني العلاءُ بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هُريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصت صدقة من مالٍ، وما زادَ اللهُ عَبداً بعَفْوٍ إلّا عِزّاً».

وروى عبد الرّحمن بن عَوف أنّ النّبي ﷺ قال: «ثَلاثٌ ـ والذي نفسي بيده ـ إن كنتُ لحالفاً عليهنّ: ما نَقصت صدقةٌ من مالٍ، فتصدَّقوا، ولا عَفا رجلٌ عن مَظلمةٍ يَبتغي بها وجه الله عزَّ وجل إلا زاده اللهُ بها عزّاً يوم القِيامة، ولا فتح رجلٌ باب مَسْألةٍ إلا فَتح اللهُ عزَّ وجل عليه بابَ فَقرٍ».

ورَوى عقبةُ بن عامر قال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «يا عُقبة، ألا أُخبركَ بأفضل أخلاق أهل الدُّنيا والآخرة؟ تَصِلُ مَن قَطَعك، وتُعطي من حَرمك وتَعفو عَمَّن ظلمك».

سألَ موسى عليه السّلام ربَّه عزَّ وجل: أيّ عبادك أعزّ؟ قال: الذي إذا قَدر عَفا.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إذا قَدرتَ على عدوِّكَ فاجعل العَفوَ عنهُ شُكراً للقُدرةِ عليه.

وقال معاويةُ: عليكم بالحِلم والاحتمال حتى تمكنكم الفُرصة، فإذا أمكَنتكُم فعَليكم بالصَّفح والإفْضال.

وقال الحسُ البَصري: أفضلُ أخلاق المؤمنين العَفو.

وقال: يُنادي مُنادٍ يومَ القِيامةِ: ليَقُم مَنْ وقعَ أَجرُهُ على الله عزَّ وجلَّ. فلا يَقومُ إلّا رجلٌ قَد عَفا عن مَظلمة.

وأُتيَ عبدُ الملك بأُسارى ابن الأَشعث، فقال لرجاءِ بن حَيوَة: ما ترى؟ فقال: إن الله عز وجلَّ قد أعطاكَ ما تُحبُّ من الظَّفَرَ، فأعطِه ما يُحبُّ من العَفوِ. فعَفا عنهم.

وقال أيوبُ السَّخْتياني: لا يَنْبُل الرَّجل حتى تكونَ فيه خَصلَتان: العِفَّةُ عمّا في أيدي الناس، والتَّجاوز عن ما يكون منهم.

وسُرِقَت دنانير من رجلٍ فبكى، فقيل له: على المال تَبكي؟ قال: لا، ولكن مثلتني أنا وإيّاه بينَ يَدي الله، فأشرفَ عقلي على إدْحاضِ حُجَّته، فبكيتُ رحمةً له.

وكتبَ ابنُ المُقفَّع إلى صديقٍ له يسأله العَفوَ عن بعض إخوانِه: فُلانٌ هاربٌ من زَلَّته إلى عَفوكَ لائذٌ منكَ بك، واعلم أنّه لن يَزداد الذَّنب عِظَماً إلا ازدادَ العَفوُ فَضلاً[1].

فَضيلة الرِّفق

الرِّفقُ نتيجةُ حُسنِ الخُلق، ولا يَحسُنُ الخُلُق إلا بضَبطِ قُوَّةِ الغَضب وقوة الشَّهوة وحفظِهما على الاعتدال.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هِبَة الله الطَّبري قال: أخبرنا أبو الحُسين بن بِشْران قال: أخبرنا ابنُ صَفوان قال: أخبرنا أبو بَكر القُرشي قال: حدَّثني عليّ بن الجَعد قال: أخبرني عبد الرَّحمن بن أبي بكر عن القاسم بن محمد قال: سمعتُ عائشةَ رضي الله عنها تقول: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، إنه مَن أُعطِي حظَّه من الرِّفق أُعطيَ حظَّه من خَير الدُّنيا والآخرة، ومن حُرِم حَظَّه من الرِّفق، حُرِمَ حَظَّه من خَير الدُّنيا والآخرة».

قال القُرَشي: وحدثنا سَعيد بن محمد الجَرْمي، قال: حدثنا أبو عُبيدة الحَدَّاد قال: حدثنا سعيد بن أبي عَروبة عن قَتادة عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفق، ويُعطي عليه ما لا يُعطي على العُنف».

وفي الصَّحيحين من حديث عائشةَ عن النبي ﷺ أنّه قال: «إن الله عزَّ وجل يحبُّ الرِّفق في الأمر كُلِّه».

وفي أفراد مُسلم من حديث عائشةَ عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانَه، ولا يُنْزَعُ من شَيءٍ إلّا شانَه».

---

(١) في (ظ): (عظماً).

وفي أَفراده من حديث جَرير بن عبد الله عن النّبي ﷺ قال: «مَنْ يُحرم الرِّفْق، يُحْرَم الخَير».

القول

في ذمِّ الحَسَد وفي حَقيقته وأَسبابه ومُعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيانُ

ذمِّ الحَسَد

اعلم أنَّ الحسدَ من نَتَائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، فهو فَرعُ فَرعِ[1] الغضب.

ثم للحسد من الفُروع المَذمومةِ ما لا يكادُ يُحصى، أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحَسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا هشام عن يحيى بن أبي كثير عن يعيش بن الوليد عن الزُّبَير بن العَوّام قال: قال رسول الله ﷺ: «دَبَّ إليكم داء الأُمَم قبلكم: الحَسَدُ والبَغْضَاء، والبَغضاءُ هي الحالِقَةُ، حالقةُ الدِّينِ لا حالقةُ الشَّعر، والّذي نفسُ محمدٍ بيده، لا تُؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أنبِّئكم بشيءٍ إذا فَعلتموه تحابَبْتُم، أَفْشوا السَّلام بَينكم».

وفي الصحيحين من حديث أنس عن النَّبي ﷺ أنّه قال: «لا تبَاغَضوا، ولا تَقاطعوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تدابَروا، وكونوا عبادَ الله إخوانا».

ورُوي عن أنسٍ عن النّبي ﷺ أنّه قال: «الحَسَدُ يأكلُ الحَسنات كما تأكلُ النَّارُ الحَطَبَ».

---

(١) سقطت من الأصل.

وفي حديثٍ آخر عن أنس أنَّ النّبي ﷺ قال: «يطلعُ عليكم من هذا الفَجِّ رجلٌ من أهل الجنَّة»، فطلع رجلٌ، فسئل عن عَمله فقال: إنّي لا أجد لأحدٍ من المسلمين في نفسي[1] غِشّاً ولا حسداً على خَيرٍ أعطاه اللهُ إيّاه.

وروى أبو هريرة عن النّبي ﷺ أنّه قال: «ثلاثٌ لا يَنجو منهنَّ أحد: الظَّنُّ، والطِّيرَةُ، والحَسَد، وسأحَدثكم بالمخرج من ذلك؛ إذا ظَنْنتَ فلا تُحَقِّق، وإذا تَطيَّرتَ فامض، وإذا حَسدتَ فلا تَبْغِ».

ورَوى واثلةُ بن الأسْقَع عَن النّبي ﷺ قال: «لا تُظْهِر الشَّماتةَ بأخيك، فيرحمه اللهُ ويَبْتليك».

وقال عَمرو بن ميمون: رأى موسى عليه السَّلام رجلاً عند العرش فغبطه بمكانه فسأل عنه فقالوا: نُخبرك بعمله؛ لا يَحسُد النّاسَ على ما آتاهُم اللهُ من فضله، ولا يمشي بالنَّميمة، ولا يَعُقّ والديه.

وقال عبد الملك بن عُمير: استعملَ عمرُ أبا عُبيدة على الشّام وعَزَلَ خالد بن الوليد، فقال خالد: بُعِثَ عليكم أمينُ هذه الأمة، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أمينُ هذه الأمة أبو عُبيدة بن الجرَّاح»، وقال أبو عُبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خالدُ سيفٌ من سُيوف الله عز وجل ونِعْمَ فَتَى العَشيرة».

وروينا أن اللهَ تعالى يقول: الحاسدُ عَدوٌّ لِنعمتي، مُتَسخِّطٌ لقضائي، غير راضٍ بِقسمتي التي قَسَمتُ بينَ عبادي.

وقال معاويةُ: كلُّ النّاس أَقدِر على رضاه إلّا حاسد نِعمةٍ، فإنّه لا يُرضيه إلا زوالُها.

وقال الأَصمعي: سمعتُ أعرابياً يقول: ما رأيتُ ظالماً أشبَهَ بمظلومٍ من الحاسِد، حُزنٌ لازِمٌ، ونَفَسٌ دائمٌ، وعقل هائِمٌ، وحسرة لا تَنقضي.

حدثنا المبارك بن علي الصَّيرفي قال: أخبرنا هبةُ الله بن أحمد بن ثابت قال: أخبرنا محمد بن علي بن الفَتح قال: أخبرنا ابنُ أَخي ميمي قال: أخبرنا أحمد بن

---

(١) في الأصل: (قلبي).

محمد بن جعفر قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا الحسنُ[١] بن علي قال: حدثنا عفّان قال: حدثنا حَمَّاد بن سَلَمة قال: حدثنا حُمَيد عن بكر بن عبد الله أنّ رجلاً كان يَغْشَى بعضَ الملوكِ، فيقوم بحذاء الملِك فيقول: أحسِنْ إلى المحسِن بإحسانه، والمُسيءُ تكفيه مَساوئه. فحسَده رجلٌ على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى المَلِك، فقال: إن هذا الذي يقومُ بحِذائك ويقول ما يقول زعمَ أنَّ الملكَ أَبْخرَ. فقال له الملك: وكيف يصحُّ ذلك عندي؟ فقال: تدعو به إليك، فإنَّه إذا دنا منكَ وضَع يده على أنفِه [٢]لئلا يشمَّ ريحَ البَخَر. فقال له: انصَرِف حتى أنظر، فَخَرَج من عند الملكِ[٢]، فدعا الرَّجلَ إلى منزله فأطعَمه طعاماً فيه ثوم، فخرجَ الرَّجلُ من عنده فجاء إلى الملك، فقام بحذائه، فقال: أَحسِن إلى المُحسِن بإحسانِه والمسيء ستكفيه مَساوئه. فقال: أُدنُ منّي. فدنا منه، فوَضع يده على فَمه مخَافَة أن يشمَّ الملكُ منه ريح الثُّوم، فقال الملكُ في نفسه: ما أرى فُلاناً إلّا قد صَدَقني. وكان الملكُ لا يكتبُ بخطه إلا بجائزةٍ أو صلةٍ أو معروفٍ، فكتبَ له كتاباً بخطِّه إلى عاملٍ من عُمَّاله: إذا أتاكَ صاحبُ كتابي هذا فاذبَحهُ واسلُخْهُ واحشِ جلدَهُ تِبْناً، وابعث به إليَّ. فأخذَ الكتابَ وخرجَ، فلقيهُ الرّجلُ الذي سَعى به، فقال: ما هذا الكتاب؟ قال: كتبَ لي الملكُ بخطِّه إلى عاملٍ من عُمّاله. قال: هَبْهُ لي اجْزِني به. قال: هو لكَ، فأخذَ الكتابَ ومَضى إلى العامل، فقرأه العاملُ فقال: أَتدري ما في كتابك؟ يأمُرني أَنْ أذبَحكَ وأسلخكَ وأَحْشو جلدكَ تِبْناً وأبعث بك إليه. فقال: إن هذا الكتاب ليسَ هو لي، اللهَ اللهَ، راجع المَلك! قال: ليس لكتابِ الملك مُراجَعة، فذبحه وسلخه وحَشا جِلده تِبْناً وبَعثَ به إلى الملك، وجاءَ الرَّجُل كما يجيءُ فقال: أَحْسِن إلى المُحْسِن بإحسانه، والمُسيءُ سَتكفيه مَساوئه. فقال له الملك: ما فعلَ الذي كتبتُ لك بخَطِّي؟ قال: لَقِيني فلانٌ فاسْتوهبَهُ منّي فوهبتُه له. قال: إنّه ذكر لي أنّك تَزعُم أنّي أَبْخَر؟ قال: ما فعلتُ. قال: فلمَ وَضعتَ يدكَ على أنفِكَ حين دَنوتَ منّي؟ قال: إنّما وضَعتُها على فمي لأنَّه أطعمني طعاماً فيه ثُومٌ

(١) في الأصل: (أبو الحسن).
(٢-٢) سقط من (ظ).

فكرِهتُ أن يَشمَّ الملكُ ريح الثُّوم. قال: صدقتَ، فَقُم ذلك المقام وقُلْ ما كنتَ تقول.

وقال ابن سِيرين: ما حَسدتُ أحداً على شيءٍ من أمر الدّنيا؛ لأنّه إن كان من أهل الجنَّة فكيفَ أحسده على شيء من أمر الدُّنيا وهو يَصير إلى الجنَّة؟ وإن كان من أهل النّار فكيفَ أحسده على شيءٍ من أمر الدُّنيا وهو يَصير إلى النّار؟

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩]، قال: حَسَداً.

وقال إبليسُ لنوحٍ عليه السّلام: احذَر الحَسَدَ، فإنَّه صَيَّرَني إلى هذه الحال، والحِرصَ فإنَّه أَخرجَ آدمَ من الجنَّة.

وقد روينا أنَّ رجلاً انقطع إلى بعض الكُرماء فألَحَقهُ[١] بحشَمِه وكفاهُ مُؤنَته، فَبطِر النِّعمةَ وسَعى بالكريم إلى الأمير، فأرسل إليه الأميرُ فذكر له ما قال عنه فأنكر، فقال: فلان يُخبرُ عنك بذلك. فسكتَ متعجِّباً، فقال الأمير: مالك؟فقال: أَخافُ أن أكون قَصَّرتُ في الإحسان إليه فحملته على مَساوئ أخلاقِه. فقال الأمير: سُبحانَ الله ما أعجب ما بَينكما في الطَّبع! أنتَ تَحنو عليه، وهو يَسعى في سفكِ دمك! أشهدُ إنَّك لكريم، وإنّه لَلَئيم. ثم أَذنَ له في الانصراف، فلما وَلَّى قال الأميرُ: أدامَ اللهُ عَيْشَ مثلك في النّاس.

(١) في (ظ): (فأتحفه).

بيان

حَقيقة الحَسَد وحُكمه ومَراتبه

اعلم أنّه لا حَسَد إلا على نِعمة، فإذا أنعمَ اللهُ على أخيكَ نِعْمةً فلك فيها حالتان:

إحداهُما: أن تَكره تلكَ النِّعمةَ وتُحبَّ زَوالها، وهذه الحالة تُسمَّى حَسَداً؛ لأنَّ الحسدَ كراهةُ النِّعمة وحبُّ زَوالها عن المُنعَم عليه.

والحالة الثانية: أن لا تُحبَّ زَوالها ولا تكرهَ وجودها ودوامَها لكنَّك تَشْتَهي لنفسك مثلَها، وهذا يُسمى غِبْطَة.

قال العُلماء: والحسدُ حرامٌ؛ لأنّه تَسخُّطٌ لقَضاء اللهِ في تَفضيل بعض عبادِه على بعض.

قلتُ[1]: واعلم أنّي ما رأيتُ أحداً حقَّقَ الكلام في هذا كما ينبغي، ولا بدَّ من كشفِه، فأقول:

فاعلم أنَّ النَّفسَ قد جُبِلَت على حُبِّ الرِّفعَة، فهي لا تحبُّ أن يعلوها جنسها فيما يمكن حصولُه لها من النِّعم، فإذا علا عليها جنسُها في ذلك شَقَّ عليها وكرهته، وأحبَّت زوالَ ما علاها به الجِنس ليقع التَّساوي، وهذا أمر مَرْكوزٌ في الطِّباع لا يَسلم منه أحد، ولا يقدر على صرفه عن نفسه، وقد روينا آنفاً عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ لا يَنجو منهنَّ أحدٌ» فذكر منهنَّ الحسد.

وإنّما يُعالج ذلك تارةً بالرِّضا بالقضاء، وتارةً بالزُّهد في الدُّنيا وحساب الآخرة، فَيتسلّى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النَّفس أصلاً ولا ينطق، كما

---

(١) قبلها في (ظ): (قال الشيخ المصنف).

أخبرنا المبارك بن علي قال: أخبرنا هِبةُ الله بن أحمد بن ثابت قال: أخبرنا أبو طالب العُشاري قال: أخبرنا أبو الحسين بن أخي ميمي قال: حدثنا أحمد بن محمد بن جعفر قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا محمد بن سَلام الجُمَحي قال: حدثنا حَمّاد بن سَلَمة عن حُميد قال: سمعتُ رجلاً يَسألُ الحسنَ: هل يَحسُدُ المؤمن؟ قال: ما أَنساكَ بني يعقوب لا أبالك؟ نعم، ولكن غُمَّهُ في صدرك ولا يَضرُّك.

قلت[1]: وهذا القول يوضّح ما ذكرته، فإنّه من لم يَعمل بمُقتضى مافي جبلَّته من الحَسد كما فعل إخوةُ يوسف ولم ينطق بذمِّ المَحسود لم يَضرُّه ما وُضع في الجبلَّة، وتكون كَراهتُه لما في جبلَّته من ذلك تكفِّر ذلك.

وهذا إنّما يقربُ الأمر فيه إذا كانت النِّعم تَتعلَّق بالأغراض الدُّنيوية المحضَة.

وأمّا مَن يحسدُ نَبيّاً على نبوته فيُحِبُّ أن لا يكون، أو عالماً على ما رُزِقَ من العلم، فيُؤثر أنْ لا يُرزَق ذلك، أو أن يَزول عنه، فهذا لا عذر فيه، ولا تُجبَلُ عليه إلا النُّفوس الكافرة أو الشريرة.

فأمّا إذا تَشاغَل بالعلم فأحبَّ أن يَسبقَ أقرانَه، ويطَّلع على مالم يُدركوه، فإنه لا يَأثم؛ لأنّه لا يؤثر زَوال ذلك عنهم، بل أحبَّ الارتفاعَ عليهم لتزيدَ حُظْوَته عند ربِّه، كما لو استبَق عبدان إلى حاجةِ مَولاهما فأحبَّ أحدُهما أن يسبق صاحبه[2]، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وفي الصَّحيحين من حديث ابن عمر عن النّبي ﷺ أنّه قال: «لا حَسَد إلّا في اثنتَين: رجلٌ آتاهُ الله القُرآن، فهو يَقومُ بهِ آناءَ اللّيل والنَّهار، ورجلٌ آتاه الله مالاً، فهو يُنفِقُه في الحَقّ آناء اللَّيل والنَّهار».

---

(١) قبلها في (ظ): (قال المصنف).
(٢) سقطت من (ظ).

بيانُ

أسباب الحَسَد والمُنافَسة

أما المُنافَسة:

فسببُها حُبُّ ما فيه المنافَسة، فإنْ كان ذلك أمراً دينياً فسببه حبُّ الله تعالى وطاعته، وإن كان دنيوياً، فسَببُه حبُّ مُباحات الدُّنيا والتَّنعُّم بها. وإنّما نَنظر الآن في الحسد المَذموم، ومداخله كثيرةٌ جداً، ولكن يَحصر جملتها سبعةُ أسباب: العَداوة، والتَّعزُّز، والتكبُّر، والتَّعجبُ، والخَوف من فَوت المقاصد المحبوبة، وحبُّ الرِّياسة، وخُبثُ[1] النَّفس وبُخلها، فإنّه إنّما يكره النِّعمة عليه إمّا لأنّه عدوه، فلا يريد له الخَير، وهذا لا يختصُّ بالأمْثال، بل قد يَحسُدُ الخَسيسُ الملكَ ويُحبُّ زوال نعمته؛ لأنّه مبغضٌ له بسبب إساءته إليه أو إلى مَن يحبه، وإمّا أن يكون من حيثُ يعلمُ أنّه يستكبِر بالنِّعمة عليه وهو لا يُطيق احتمال كِبْرِه لعزَّة نَفسه، وهو المرادُ بالتَّعزُّز، وإما أن يكون في طبعه أن يتكبَّر على المحسود ويمتنع ذلك عليه بنعمته، وهو المراد بالتكبُّر، وإمّا أن تكون النعمةُ عظيمةً والمنصب كبيراً فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النِّعمة وهو التَّعجُّب، وإمّا أن يخاف من فَوات مقاصده بسبب نعمته بأن يتوصَّل بها إلى مُزاحمته في أغراضه، وإما أن يكون لحُبِّ الرِّياسة التي تنبني على الاختصاص بنعمةٍ لا يُساوى فيها، وإما أن لا يكون لسببٍ من هذه الأسباب بل لخُبثِ النَّفس[2] وشُحِّها بالخير على عباد الله تعالى.

ولابد من شرح هذه الأسباب:

السبب الأول: العداوة والبغضاء: وهو أشد أسباب الحَسد، فإن من آذاه إنسانٌ بسببٍ من الأسباب وخالفه في غَرضه بوجهٍ من الوجوه أبغضه قلبُه وغضب عليه،

---

(١) في الأصل: (حب).

(٢) في (ظ): (النفوس).

ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يَقتضي التَّشفّي والانتقام، فإن عجز المُبغض عن أن يتشفَّى بنفسه أحبَّ أن يَتشفَّى منه الزمان، وربّما يُحِيلُ ذلك على كرامَته عند الله، فمهما أصاب عدوه بَليَّة فرح وظنَّه مُكافأة من جهة الله على بُغضه وأنّه لأجله، ومهما أصابتهُ نعمةٌ ساءه ذلك؛ لأنه ضدّ مُراده، وربّما يظهر له أنّه لا مَنزلةَ له عند الله حين لم يَنتقم له من عَدوِّه الذي آذاه، بل أنعمَ عليه.

وبالجملة؛ فالحسدُ يَلزم البغضَ والعداوةَ ولا يفارقهما وإنما غاية التُّقَى أن لا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه. فأمّا أن يُبغض إنساناً ثم يَستوي عنده مَسرَّته ومساءَته فهذا غير ممكن، وقد وصف الله سُبحانه الكُفار بالحَسد للعداوة، فقال عزَّ وجلّ: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠].

واعلم أنّ الحَسَد بِسبَب[١] البُغضِ ربَّما أفضَى إلى التَّنازُع والقِتال واستِغْراق العمر في التَّحيُّل لإزالة نِعْمة المحسود.

السَّبَب الثّاني: التَّعزُّز: وهو أن يَثقُل عليه أن يترفَّع عليه غَيره، فإذا أصاب بعضُ نُظرائه ولايةً أو مالاً خافَ أن يتكبَّر عليه، وهو لا يُطيق تكبُّره، ولا تسمح نفسُه باحتمال تَفاخُره عليه، فليس من غرضه أن يتكبَّر، بل من غرضه أن يَدفع كِبْرَه، فإنّه قَد رضيَ بمساواتِهِ مثلاً، ولكن لا يَرضى بترفُّعه[٢] عليه.

السَّبب الثالث: أن يكون في طبعه أن يتكبَّر عليه ويَستَصْغِره ويستخدمه، ويتوقع منه الانْقِياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمةً خافَ أن لا يَحتمل تكبُّره ويترفَّع عن مُتابعته، أو ربّما يَتشوَّف إلى مُساواته أو إلى أن يترفَّع عليه، فيعود مُتكبِّراً بعد أَنْ كان مُتكَبَّراً عليه.

ومن التَّعَزُّزِ والتكبُّر كان حَسَدُ أكثر الكُفار لرسول الله ﷺ، فأَنِفوا[٣] أَنْ يتقدَّم

(١) ليست في (ظ).
(٢) في (ظ): (يرتفع).
(٣) تصحفت في الأصل إلى: (فاتقوا).

عليهم يَتيمٌ فَقير فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، والمعنى: لو كان هذا، لم يَثقُل علينا اتِّباعُ مَن هو عظيم. وكذلك قالوا في المؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، احتقاراً لهم وأَنَفةً منهم.

السَّبب الرّابع: التَّعجُّب: كما أخبر اللهُ تعالى عن الأُمم الماضِية إذ قالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، وقالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤]، فتعجَّبوا من أن يَفوزَ برتبة الرِّسالة بَشرٌ مثلهم، فَحسدوهم وأحبُّوا زوالَ تلك الرتبة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخِلقة لا عن قَصد تكبُّر وطلب رئاسةٍ وتَقدُّم عَداوة، وقالوا مُتَعجِّبين: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] فقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

السبب الخامس: الخوف من فَوت المقاصد: وذلك يختصُّ بمتزاحمين على مقصودٍ واحدٍ، فإن كل واحدٍ يحسدُ صاحبه في كل نعمةٍ تكون عوناً له في الانفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسُد الضَّرَّات في التَّزاحُم على مَقاصِد الزَّوجية، وتحاسُد الإخوَة في التَّزاحُم على نَيل المَرتبة من قَلبَي الأَبَوين للتوصل إلى مَقاصد الكَرامَة والمال، وكذلك تَحاسُد التِّلْميذَين لأستاذٍ واحدٍ في نَيل المنزلة من قلب الأستاذ، وتحاسُد نُدماء المَلك وخَواصِّه في نَيل المنزلة من قلبه للتوصل به إلى الجاه والمال، وكذلك تحاسد الواعِظين في البَلدة الواحدة إذا كان غَرضُها المال ونَيل القبول.

السَّبب السادس: حُبُّ الرِّياسة، وطلب نفس الجاه من غير تَوسُّلٍ به إلى مَقصود، وذلك كالرَّجل الذي يُريد أن يكونَ عديمَ النَّظير في فَنٍّ من الفُنون إذا غَلب عليه حبُّ الثَّناء واستفزَّه الفَرحُ بما يُمدَح به من أنّه واحِدُ الدَّهر وفريد العَصر في فَنِّه، وأنَّه لا نَظير له فإذا سمع بنظيرٍ له في أقصى العالم ساءَهُ ذلك، وأحبَّ موتَه أو زوال النِّعمة التي بها يُشاركه في المنزلة من علمٍ أو شَجاعةٍ أو عبادةٍ أو صناعةٍ أو ثروة أو غير ذلك ممّا يتفرَّدُ هو به ويَفرح لسببِ تفرُّدِه، وليس السّبب في هذا عداوةً

ولا تَعزُّزاً ولا تكَبراً على المَحسود، ولا خوفاً من فَوات مَقصود سوى تمحض الرّياسة بدعوى الانفراد، وهذا وراء ما بين آحاد العُلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب النّاس للتوصُّل إلى مقاصد سوى الرّياسة.

وقد كان علماء اليهود يُنكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون خِيفَة أن تَبطُل رئاستهم واستتباعهم.

السَّبب السابع: خبْثُ النَّفس: وشُحُّها على عباد الله عز وجل، فإنّك تجد من لا يَشتغل برئاسةٍ ولا تكبُّرٍ ولا طلبِ مال، فإذا وُصِفَ عنده حُسنُ حالِ عبدٍ من عبادِ الله تعالى فيما أنعم به عليه شَقَّ ذلك عليه، وإذا وُصِفَ له اضطرابُ أُمور النَّاس وإدبارهم وفَوات مقاصدهم وتَنغُّص عَيشهم، فرح به، فهو أبداً يحبُّ الإدبار لغَيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من مُلكه وخَزَائنه، وقد قال العلماء: البَخيلُ مَن يبخل بمالِ نفسِه، والشَّحيحُ الذي يَبخلُ بمالِ غيره، فهذا يَبخَلُ بنعمةِ الله على عباده الذين ليسَ بينه وبينهم عَداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سببٌ إلا خُبثٌ في النَّفس ورذالةٌ في الطَّبع من جهة الجِبلَّة، ومُعالجته شديدةٌ؛ لأنَّ الحسد الثابت بسائر الأسباب[1]. أسبابه عارضةٌ، يُتَصوَّر زوالها فيُطمع في إزالتها، وهذا خبثٌ في الجِبلَّة[2] لا عن سَببٍ عارضٍ فَتَعسُر إزالته.

فهذه أسباب الحسد، وقد يجتمع بعضها أو أكثرها أو جميعها في شخصٍ واحدٍ، فيعظم فيه الحَسَد لذلك، فلا يقدر على إخفاء ما عنده فيُظهر العداوةَ بالمُكاشَفَة، وأكثر المحاسدات يجتمع فيها جُملة من هذه الأسباب وقلّما يتجرّد سببٌ منها.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في النسخ: (الجملة) والمثبت من الإحياء.

بيانُ

السَّبب في كثرة الحَسَد بين الأمثال والأقْران والإخوة وبني العَمِّ وذوي القُرْبى وتأكُّده وقلَّته في غيرهم وضعفه

اعلم أن الحسد إنَّما يكثُر بين قَوْم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها وإنّما يَقوى بين قَوم تجتمعُ فيهم جُملة من هذه الأسباب وتَتَظاهَر، إذِ الشخص الواحدُ يجوز أن يَحسُد لأنّه يمتنع من قبول التّكبُّر، ولأنّه يتكبَّر، ولأنّه عدوٌّ، ولغير ذلك من الأسباب.

وهذه الأسباب إنّما تَكثُر بين أقوامٍ تَجمعهم رَوابط يجتمعون بسببها في مجالس المُخاطبات، ويتواردون على الأغْراض، فإذا خالف واحدٌ صاحبَه في غرضٍ من أغراضِه نَفَر طبعه وأبغضَه، وثبتَ الحقدُ في قلبه، فعند ذلك يريد أن يَستحقره ويتكبَّر عليه ويكافِئه على مُخالفته لغَرَضه، ويكره تمكُّنه من النِّعمة التي تُوصله إلى أغراضاه.

وتترادف جُملة الأسباب، إذ لا رابطةَ بين شخصين في بَلدين، فلا يكون بينهما مُحاسَدة، إنّما إذا تجاوروا في مَسكنٍ أو سوق أو مسجدٍ أو مدرسةٍ تواردا على مقاصد تَتناقض فيها أغراضُهم، فَيثورُ من التَّناقض التَّنافُر والتَّباغُض، ومنه تَثورُ بقيَّةُ أسبابِ الحَسَد، فلذلك تَرى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يَحسُد العابد دون العالم، والتّاجر يَحسُد التَّاجر، بل الإسكاف[1] يَحسد الإسكاف ولا يحسد البَزَّاز[2] إلا لسبَبٍ آخر سوى الاجتماع في الحِرفة، ويحسد الرَّجل أخاه وابنَ عمِّه

(١) الإسكاف: صانع الأحذية ومُصلحها.

(٢) البَزَّاز: بائع البَزِّ، وهو نوع من الثياب.

أكثر مما يحسُد الأجانب، والمرأةُ تحسدُ ضَرَّتَها وسُرِّيَةَ زوجها أكثر مما تَحسد أُمَّ الزَّوجِ وابنتَه؛ لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف، فلا يَتزاحمون على المقاصد، إذ مقصد البَزَّاز الثَّروة ولا يُحصِّلها إلا بكثرة الزّبون، وإنّما يُنازعه في ذلك بَزّازٌ آخر، إذ حَريفُ[1] البَزَّازِ لا يَطلب الإسكاف، بل البزّاز، ثم مُزاحمةُ البَزَّاز المجاورِ له أكثر من مُزاحمةِ البعيد عنه إلى طَرف السُّوق، فلا جرمَ يكون حَسدُه للجارِ أكثر، وكذلك الشُّجاعُ يحسد الشُّجاعَ ولا يحسد العالم؛ لأن مَقصِده أن يُذكر بالشَّجاعة ويَشتهر بها وينفرد بهذه الخَصْلة، ولا يزاحمه العالم على هذا الغَرض، وكذلك يَحسدُ العالمُ العالمَ ولا يَحسدُ الشُّجاعَ، ثم حَسدُ الواعظِ للواعظِ أكثر من حسده للفقيه والطبيب؛ لأنَّ التَّزاحم بينهما على مقصودٍ أخصّ.

فأصلُ هذه المحاسَدات العَداوة، وأصل العَداوة التَّزاحم على غرضٍ واحد، والغرض الواحد لا يَجمَع مُتباعِدَين، بل يجمع مُتناسبَين، فلذلك يكثر الحسدُ بينهم.

إلا أنَّ من اشتدَّ حرصُه على الجاهِ وأحبَّ الصِّيتَ في جميع أطراف العالَم بما هو فيه، فإنّه يَحسُد كلَّ من هو في العالَم وإنْ بَعُدَ ممن يُساهمه في الخَصلة التي يَتفاخَرُ بها.

ومَنشأ جميع ذلك حبُّ الدُّنيا، فإنَّ الدنيا هي التي تَضيقُ على المتزاحمين، وأما الآخرة فلا ضيقَ فيها، وإنّما مثالُ الآخرة نِعمة العِلم، فمن أحبَّ معرفةَ الله تعالى ومعرفة صِفاته وملائكته وأنبيائه ومَلكوت أرضِه وسَمائه، لم يَحسُد غيره إذا عرفَ ذلك أيضاً؛ لأن المعرفة لا تَضيقُ على العارفين بل المعلوم الواحد يَعرفه ألفُ ألفِ عالم، ويَفرح بمعرفته ويَلتذُّ به، ولا تَنقُصُ لذَّةُ واحدٍ بسبب غيره، بل يَحصُل بكثرةِ[2] العارفين زيادة الأُنس وثمرةُ الإفادة والاستِفادة، فلذلك لا يكون بَين علماء الدّين محاسدة؛ لأن مَقصودهم معرفةُ الله، وهو بحرٌ واسع لا ضيق فيه،

(١) الحَريفُ، كشَريفٍ: المُعامِل لصاحب الحِرفة، والجمع حُرَفاء.
(٢) تحرفت في (ظ) إلى: (فكرة).

وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيقَ فيها أيضاً فيما عند الله؛ لأن أجلَّ ما عند الله من النَّعيم لذة بقائه وليس فيها مُمانَعة ولا مُزاحمة، ولا يُضيّقُ بعض النَّاظرين على بعض، بل يَزيد الأُنس بكثرتهم، إلا أنّه إذا قَصَد العلماءُ بالعلم المالَ والجاهَ تحاسدوا، لأن المال هو أعيانٌ وأَجسام إذا وقعت في يَدِ واحدٍ خَلت عنها يَدُ الآخر، ومَعنى الجاه مُلكُ القلوب، ومتى امتلأ قلبُ شَخصٍ بتعظيم عالمٍ انصَرف عن تعظيم الآخَر أو نقص منه لا محالة، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة، وإذا امتلأ قَلبُ شخصٍ بالفَرح بمعرفة الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قَلبُ غيره به وأن يفرحَ به، فالفرق بين العلم والمال أنَّ المال لا يحلُّ في يدٍ ما لم يرتحل عن يدٍ أُخرى، والعلمُ في قلبِ العالم مستقرٌّ ويحلُّ في قلب غَيره بتعليمه من غَير أن يرتحل عن قلبه، فالمالُ أجسامٌ وأعيانٌ ولها نهاية، فلو ملك الإنسانُ جميع ما في الأرض لم يبقَ بعده مالٌ ليملكه غيرُه، والعلم لا نِهاية له، ولا يُتصوَّر استيعابُه، فمَن عوَّد نَفسه الفِكر في جَلال الله وعظمته وملكوته صار ذلك ألذّ عنده من كل نعيم، ولم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحَماً فيه، فلا يكون في قلبه حسدٌ لواحدٍ من الخلق؛ لأن غيره لو عرف مثل مَعرفته لما نَقص من لذته بل زادت لذّته بمؤانسته، فتكونُ لذة هذا في مطالعته عجائب المَلكوت على الدَّوام أعظم من لذَّة من يَنظُر إلى أشجار الجنَّةِ وبَساتينها بالعَين الظَّاهرة، فإنَّ نعيم العارفِ وجنَّته معرفتُهُ التي هي صفة ذاته يَأمنُ زَوالها ويَجني أبداً ثِمارها، فهو بروحِهِ وقَلبِهِ مُغتَذٍ بفاكهة علمه، وهي فاكهةٌ قُطوفُها دانيةٌ، غير مَقطوعة ولا ممنوعة، فإن وُجد كثير من العارفين لم يكونوا مُتحاسدين، بل إخواناً على سُررٍ مُتقابلين، فهذه حالُهم وهم في الدُّنيا، فمَا يُظَنُّ بهم عند انكشاف الغِطاءِ ومشاهدة المحبوب في العُقبى؟

فقد عرفتَ أنّه لا حسدَ إلا في التّوارد على مَقصودٍ يَضيق عن الوفاء بالكُلِّ، ولهذا لا تَرى النّاس يَتحاسدون على النَّظر إلى زينة السماء لأنَّها لسِعةِ الأَقْطار وافيةٌ بجميع الأَبْصار، فعليكَ إن كنتَ بَصيراً وعلى نفسك مُشفقاً أن تَطلب نَعيماً لا زَحمة فيه ولذَّةً لا مُكدِّر لها، ولا يوجد ذلك في الدُّنيا إلا في معرفة الله سُبحانه ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوته ولا يُنال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً،

فإن كنتَ لا تَشتاقُ إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذَّتها وضَعفت فيها رغبتك، فلست برجلٍ، إنّما هذا شأنُ الرّجال؛ لأنَّ الشَّوقَ بعد الذَّوق، ومن لم يَذُقْ لم يعرف، ومن لم يَعرف لم يَشْتقْ، ومن لم يَشتَقْ لم يَطلُب، ومن لَم يَطلُب لم يُدرِك، ومَن لم يُدرِك بَقيَ مع المحرومين.

بيانُ

الدَّواء الذي به يُنفَى مرضُ الحسَد عن القلب

اعلم أنَّ الحسدَ من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تُداوى أمراضُ القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلمُ النافعُ لمرض الحسَد هو أن تَعرفَ تحقيقاً أنَّ الحسد ضَررٌ عليكَ في الدين والدّنيا، وأنّه لا ضَرر به على المَحسود في الدّنيا والدّين، بل ينتفع به في الدّنيا والدّين، فإذا عرفتَ هذا عن بصيرةٍ ولم تكُن عدوَّ نفسكَ وصديق عَدوِّكَ فارقتَ الحسَدَ لا مَحالة.

أمّا كونه ضَرراً عليك في الدّين؛ فإنّك بالحسد سَخطتَ قضاءَ الله تعالى، وكرهتَ نعمته التي قَسمها لعباده وعدله الذي أقامَه في مُلكه بخَفيِّ حِكمته، فاستنكرتَ ذلك واسْتَبشعتَه، وهذه جنايةٌ على عين التَّوحيد وقَذىً في بصر الإيمان، وناهِيكَ بها جناية على الدِّين، وقد انْضافَ إليه[١] أنّكَ غَشَشْتَ رجلاً من المؤمنين[٢] وتركتَ نَصيحته، وفارقتَ أنبياء الله عزَّ وجل وأولياءَه في حُبِّهم الخيرَ لعباده، وشاركتَ إبليسَ وسائر الكُفّار في محبَّتهم للمؤمنين البَلايا وزَوالَ النِّعم، وهذه خبائث في القلب تأكل حَسنات القلب كما تأكل النّار الحطب وتمحوها كما يمحو اللّيل النَّهار.

وأمَّا كونُه ضَرراً في الدنيا عليكَ؛ فهو أنّك تَتألَّم[٣] بجسدك وتتعذّب به، ولا تزال في كَمَدٍ وغَمٍّ، إذْ أعداؤكَ لا يُخْليهم اللهُ عن نِعَم يُفِيضُها عليهم، فلا تزال تَتعذَّبُ بكل نعمةٍ تراها، وتتألّم بكل بَليةٍ تَنصرف عنهم، فتَبقى مغْموماً مَحروماً[٤]

(١) في الأصل: (إليك).
(٢) في الأصل: (المسلمين).
(٣) تحرفت في (ظ) إلى: (سالم).
(٤) في النسخ: (مرحوماً)، والمثبت من الإحياء.

مُتَشعِّبَ القَلب ضَيِّقَ الصَّدر كما لا تَشتهي لأعدائِك، وكما يَشْتَهي أَعداؤُكَ لكَ، فقد كنتَ تريدُ المحنةَ لعدوّك فتنَجزَّت في الحالِ محنَتُكَ وغَمُّكَ نقداً، ولا تَزولُ النِّعمَةُ عن المَحسود بحسدِكَ.

ولو لم تكن تُؤمِنُ بالبعث والحِساب لكان مُقتضى الفِطنة إنْ كنتَ عاقلاً أن تحذر من الحَسَد لما فيه من ألم القَلبِ ومَساءَتِه مع عَدم النَّفع، فكيف وأنتَ عالمٌ بما في الحَسد من العذاب الشدَّيد في الآخرة؟ فالعجبُ من عاقلٍ يتعرَّضُ لسخط الله من غير نَفعٍ يَناله بل مع ضَررٍ يَحتمله وألمٍ يُقاسيه، فَيُهلك دِينَه ودُنياه من غَير جَدوى ولا فائِدة.

وأمّا قَوْلُنا: لا ضَرر على المحسود في دينه ودُنياه. فواضحٌ؛ لأنَّ النّعمة لا تزولُ عنه بحسدك، بل ما قدَّره اللهُ من إقبالٍ ونعمةٍ فلا بد أن يدوم إلى أجلٍ قَدَّره الله، فلا حيلة في دفعه ولا سبيل إلى تغييره، إذْ لكل أجلٍ كتابٌ، وإذا لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المَحسود ضَرَرٌ في الدُّنيا ولا إثم في الأخرى.

وأما قولنا: إنَّ المحسودَ ينتفع به في الدّين والدّنيا. فَواضح؛ أما منفعته في الدّين، فهو أنّه مَظلوم من جهتك لا سيَّما إذا أخرجك[1] الحسدُ إلى القول والفِعْل بالغيبة والقَدح فيه وذِكر مساوئه وهتكِ ستره، فإنك تُهْدي إليه بذلك حَسناتك، فتلقاه في القيامة وأنتَ مُفلسٌ، فلكأنكَ أردتَ زوال النِّعمة عنه فلم تَزُل وزالت نِعمٌ كانت عليك إذ نَقلتَ إليه حسناتك فأضَفت إلى نعمته نعمةً وأضفتَ إلى شَقاوتك شقاوةً[2].

وأمَّا منفعتُه في الدّنيا، فهو أنّ أهم أغراض الخَلْقِ غَمُّ الأعداء وشَقاوتهم، ولا عذاب أعظم ممّا أنت فيه من الحسد، وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمةٍ وأن تكونَ في حَسرةٍ بسببهم، وقد فعلتَ بنفسك ما هو مُرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوك مَوتَك بل يَشتهي طول حَياتك في عذابِ الحسد لتَنظُرَ إلى نعمة الله عليه فيتقطَّع قلبُك حَسداً، كما قال الشّاعر:

---

(١) في النسخ: (أخرجت)، و المثبت من الإحياء.
(٢) سقطت من الأصل.

لا مـاتَ أعـداؤكَ بـل خُـلِّـدوا حـتـى يَـرَوا مـنـك الـذي يُـكـمِـدُ
لا زلـتَ مـحـسـوداً عـلـى نـعـمـةٍ فـإنّـمـا الـكـامِـلُ مـن يُـحـسَـدُ

فَفَرحُ عدوّكَ بغمِّكَ وحَسدك أعظم من فَرَحه بنعمته، ولو علم خلاصَك من ألم الحَسد وعذابهِ لكانَ ذلك أعظم بَليّةٍ عليه، فمَا أنت فيما تُلازمه من غَمِّ الحَسَد إلا كما يشتهيه عدوّك، فإذا تأمَّلت ما ذكرنا علمتَ أنَّك عَدوّ نفسك وصديق عدوِّكَ إذا تَعاطَيتَ ما تضرَّرتَ به في الدُّنيا والآخرة وانتفعَ به عدوكَ في الدّنيا والآخرة، وصرتَ مذموماً عند الخلق والخالق، شَقيّاً في الحال والمآل، ونعمةُ المحسود دائمةٌ شئتَ أو أَبيت.

ثم لم تَقْتَصر على تَحصيل مراد عدوك حتى تَوصَّلت إلى إدخال أعظم سُرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك؛ لأنّه لـمّا رآكَ قد حُرمتَ النِّعم التي خُصَّ عدوّك بها خافَ أن تحبَّ ذلك له فتشاركه في الثَّواب بسبب المحبّة؛ لأنّ من أحبَّ الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير، ومَنْ فاتَه اللحاقُ بدرجة الأكابر في الدّين، فلا ينبغي أن يَفوته ثوابُ الحبِّ لهم، فلمّا خافَ إبليس أن تُحبَّ ما أنعمَ اللهُ له على عبده في دينه ودُنياه فَتفوز بثواب الحُبِّ بَغَّضه إليكَ حتى لا تَلحقه بحبك كما لم تَلحقه بعملك.

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعودٍ وأبي موسى عن النَّبي ﷺ أنّه قال: «المرءُ معَ من أَحبَّ».

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الدَّاوودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا سُليمان بن حَرب قال: حدثنا حمَّاد بن زَيد[١] عن ثابت عن أنس أنّ رجلاً سأل النبيَّ ﷺ عن السَّاعة، فقال: مَتى السَّاعةُ؟ قال: «وماذا أعددتَ لها؟» قال: لا شيء، إلا أنّي أُحبُّ الله ورسولَه. فقال: «أنتَ مع من أحبَبْتَ». قال أنس: فَما فَرِحنا بشيءٍ فَرَحنا بقولِ النَّبي ﷺ: «أنتَ مع مَنْ

(١) تحرف في النسخ إلى: (زياد) والمثبت من صحيح البخاري (٣٦٨٨).

أحبَبْتَ». قال أنس: فأنا أُحبُّ النَّبيَّ ﷺ وأبا بَكرٍ وعُمَر، وأرجو أن أكونَ معهم بحُبِّي إياهم وإن لم أعمَل بمثل أعمالهم. أخرجاه في الصَّحيحين.

فانظر إلى إبليس كيفَ حسدكَ ففوَّتَ عليك ثوابَ الحُبِّ، ثم لم يَقنَعْ بذلك حتى بغَّضَه إليك حتى أَثِمتَ، وكيف لا تأثُمُ؟! وربَّما حسدتَ عالماً وأحببت أن يُخطِئ في دين الله ويَنكشف خَطؤُه ويَفْتضح، وتُحبُّ أن يَخرسَ لسانُه حتّى لايتكلم، ويَمرضَ حتى لا يُعَلِّم ولا يتعلَّم، فلَيْتَك إذْ فاتَكَ اللَّحاقُ به ثم اغْتَممتَ بسَبَبِهِ سلمتَ من الإثم، فقد نَفِدَ عليكَ حَسَدُ إبليس وما نَفِدَ حسدُكَ على عدوّك بل على نفسك بل لو كوشِفْتَ بحالك في يَقظةٍ أو مَنامٍ لرأيتَ نفسكَ في صورة من يَرمي حجراً إلى عَدوِّه ليُصيب به مَقْتَله، فلا يصيبه، بل يرجع على حَدَقته اليُمنى فَيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود يَرميه بأشدّ من الأولى فيرجع الحَجَرُ على عينه الأُخرى فيعميها، فيزداد غَيظُه، فيعود فَيرميه ثالثاً فيعود الحجر على رأسه فَيشجُّه، وعدوُّه سالمٌ يَضحك به.

واعلم أنّ حالك في الحسد أَقبحُ حالاً من هذا المثل؛ لأنّ الحَجَر العائد لم يُفَوِّت إلا العَينَ، ولو بَقيتْ لفاتَت بالموت، والحسد يَعود بالإثم، والإثم لا يَفوتُ بالمَوتِ،ولعلَّهُ يُسوقُ إلى غضبِ الله تَعالى وإلى النّار، فذهابُ العَين في الدُّنيا خَيرٌ من بقاء عَينٍ يَدخلُ بها إلى النَّار.

فانظر كيف انتقم اللهُ من الحاسد إذْ أراد زَوال النِّعمة عن المَحْسود، فلم يُزِلها عنه وأزال نِعْمة الحاسد إذ السَّلامةُ من الغمِّ والكَمَدِ نعمة، والسَّلامة من الإثم نِعْمة، وقد زالتا عَنه تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وربُمّا يُبتَلَى بعَينِ ما يشتَهيهِ لعَدوِّه، وقلَّ ما يَشْمتُ شامتٌ بمساءةٍ إلا ويُبتَلى بمثلها، فقد روينا عن النّبي ﷺ أنّه قال: «لا تُظْهِر الشَّماتةَ لأخيكَ، فَيُعافيه اللهُ وَيَبتليك». فهذا إثم الحَسد نفسُه، فكيفَ ما يَجرُّ إليه الحسد من الأخلاق وجُحودِ الحَقّ وإطلاقِ اللِّسان واليد بالفَواحِش في التَّشفِّي من الأعداء، وهو الدَّاء الذي هلكت فيه الأُمَم السّالفة.

فهذه هي الأدويةُ العِلميةُ، فإذا تفكَّر الإنسانُ فيها بذهنٍ صافٍ وقلبٍ حاضرٍ خَمَدت نارُ الحَسَد من قلبه؛ لأنّه يَعلم أنّه مُسْخِطٌ رَبَّه ومُهْلكٌ نفسَهُ ومُفرحٌ عَدوَّه ومُنَغِّصٌ عَيشَه.

أمّا العَمل النّافع فيه، فهو أن يتكلَّف بقبضِ ما يأمره به الحَسَد، فإذا بعثه على القَدح في المحسود كلَّف نَفسَه المَدح له والثَّناء عليه، وإن حمله التكبُّر عليه ألزمَ نفسَه التَّواضُع له والاعتذار إليه، وإن بعثه على كفِّ الإنعام عنه أَلزمَ نفسَه الزِّيادة في الإنعام، وقد كان جماعةٌ من السَّلف إذا بلغَهم أنّ شَخصاً اغتابَهُم أَهدوا إليه وأعطوه، وأخبرنا أبو منصور القَزّاز قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت قال: حدثني التَّنوخي قال: كنتُ في جامع المَنصور والخَطيبُ على المِنبر، وعلى يَساري عَليُّ بن طَلحة البَصري، فَمددتُ عيني فرأيتُ عبد الصَّمدِ[1] بالقُرب منِّي، فقام ومَشى نحوي، فقمتُ إليه فقال لي: اجلس أيُّها القاضي فليس إليك قَصدتُ، ولا لكَ أردتُ بمجيئي، أنا هذا أَردتُ وإليه قَصدتُ - يعني ابنَ طَلحة - وذلك أنَّ نفسي تَأباه، فأردتُ أن أُذِلَّها بقَصده وأُخالف إرادتها. فقامَ ابنُ طلحة إليه وقبَّل رأسَه.

واعلم أنّه إذا جَرت المواصَلةُ والثَّناءُ والتَّواضُع والمُهاداةُ للحَسود انقطعت في الغالب مادَّة الحَسَد؛ لأنَّ السُّرور بالنّعمة يستميل قلبَ المنعَم عليه ويَسْتعطفه ويَحمله على مُقابلة ذلك بالإحسان، ثم يَصير تكلُّف المحسود في العَطاء والمُواصلة طبعاً يوجب طيبَ قلبه للحاسد فتنكسر سَوْرَة العَداوةِ[2] من الجانبين ويُفَلُّ غَربُها[3] ويقرِّبُ القلوبَ من التَّآلُفِ ويُبعد عن التَّناقض، وقد قال عليه الصّلاة والسّلام: «تَهادوا تَحابُّوا».

ولا ينبغي أن تَسمعَ قولَ إبليس: إنَّ مُصانَعتك للحسود مَذلَّة ومَهانة. فإنَّ ذلك من خِدَع العَدوِّ؛ لأن المقصودَ سلامةُ القُلوب والأديان وبذلك تَحصل.

---

(١) هو عبد الصمد بن عمر بن محمد أبو القاسم الواعظ، والخبر في تاريخ بغداد ١١/ ٤٤.

(٢) في النسخ: (العدو)، والمثبت من الإحياء.

(٣) يُفَلُّ غربها، أي: يُكسر حَدُّها.

فهذه أدويةُ الحَسَد، وهي نافعةٌ جدّاً، إلّا أنها مُرَّةٌ بمَرَّة، ومما يُسهِّل شُربَها أن تَعلمَ أنّه ما يكون كل ماتُريد، فأرِدْ ما يَكون، وهذا هو الدَّواء الكُلّي.

وأما الدَّواء المُفصَّل؛ فَهو تَتبُّع أسباب الحَسَدَ من الكِبْر وعِزَّة النَّفس وغير ذلك مما سَبقَ.

وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مَواضعها، فإنّها مَوادُّ هذا المَرض، ولا يَنْقمع المرضُ إلّا بقَمع المادَّة، وإذا لم تُقمع المادَّة لم يَحصُلْ إلا تَسكينُ المرض وتَطْفِئتُه، ثم لا يزال يعود مرةً بعد أُخرى ويطول التَّعب في تسكينه مع بقاء موادِّه، فإنه ما دامَ مُحبّاً للجاهِ فلا بدَّ أن يحسد مَن استأثر بالجاه والمَنْزلة في قُلوب الناس دونه، ويغمّه ذلك لا مَحالة، وإنّما غايته أن يُهوِّنَ الغَمَّ على نفسه ولا يُظهِر شَيئاً من آثاره بلسانه ولا يده، وأمَّا الخُلُوُّ عنه رأساً، فلا يمكنه.

بيان

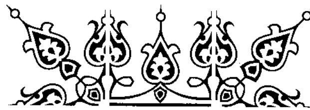
القَدر الواجب في نَفي الحسد عن القَلب

اعلم أنَّ المُؤذي مَمقوتٌ بالطَّبع، ومن آذاكَ لم يمكنك أن لا تُبْغضه غالباً، فإذا تَيسَّرت[1] له نعمةٌ فلا يمكنك أن لا تَكرهها له، ولا يزال الشَّيطان يَجرُّك إلى الحسد له، فإن قَوي ذلك فيك حتى بَعثكَ على إظهارِ الحسَدِ بقولٍ أو فعلٍ بحيث يُعرفُ ذلك من ظاهِرك بأفعالك الاختيارية، فأنت حَسودٌ عاصٍ بحسَدك، وإن كفَفْتَ ظاهركَ بالكُلِّية إلا أنكَ بباطنك تحبُّ زَوال النِّعمة، فقد سبق الكلام في هذا، وبَيّنّا أنَّ من المَركوزِ في الطِّباع كراهية ارتفاع الجِنس على الجنس، وأنّ ذلك إذا كان في الأمور الدُّنيوية قريب الحال فيما يختلج في الباطن من الكراهة، فأمّا في أمور الدّين وأحوال الآخرة، فلا مُسامَحة في ذلك.

ويَنبغي للعاقل أنْ يَمقُتَ نفسَه إذا وَجدَ منها الحسدَ على شيءٍ من الدُّنيا، ويَوَدُّ لو قَدر على إزالة ذلك من باطِنه ليُقابل ما قد وُضعَ في الطبع بتلك المجاهدة.

فأمّا تَغيير الطَّبع فلا يُمكن إلّا أن يكون الإنسانُ مستغرقاً بمحبَّة الله سُبحانه، فلا يَلتفت إلى المَحسود ولا إلى ما يحسد عليه من الدنيا، وهذا قد يقع لشخصٍ ثمَّ لا يثبت، فيعود الطَّبع.

آخر كتاب ذمِّ الغَضب والحِقد والحَسَد.



(١) في (ظ): (انتشرت).

كتاب ذَمِّ الدُّنيا

وهو الكتاب السادس من رُبع المهلكات

الحمدُ لله الذي كشفَ عُيوب الدُّنيا لأهل النَّظَر والافتِقاد، وفَضَح زائفَ دِرهمها عند أرباب الانتِقاد، فمَا يَفي فَرحُها بتَرحها ولا بُغْضُها بالوِداد، إنْ بَذَرَتْ حُلواً قَطَعَتْهُ قبل الحَصاد، أووَعدت روحاً أَخلَفَتْ الميعاد، تتزيَّنُ لطُلابها فإذا صاروا من أحبابها رمَتهم بصيابها بينَ الأَشْهاد، لا يَسلم طُلوعها من كُسوفها، والمنكر داخلٌ في مَعروفها والأمنُ يَعِزُّ في مَخوفها والنَّقص في المُسْتَزاد، من استراحَ بها أَلِم ومَن ارتاحَ إليها نَدِمَ ومن طلبَ مَأمولَه منها عَدِم ولا والله ما سَلم منها إلا الزُّهَّاد، هي لمُكرِمها مُهينَة؛ لأنَّها مَهينَة، والغَدرُ جِبلَّةٌ فيها في أصلِ الطِّينَة، ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

أَحمدُه على التَّوفيق للسَّداد، وأسألُه[١] مواهبَ الهُدى والرَّشاد، وأُقِرُّ بأنَّه واحدٌ لا كالآحاد، وأُصلّي على رسوله محمدٍ المَبعوثِ إلى جَميع العِباد، وعلى آله وأصحابه صلاةً تُحظيهم بغايات المُراد، وتبقى وتدوم إلى حين قِيام الأشهاد وسلّم تسليماً كثيراً.

أمّا بَعد؛ فإن القُرآنَ العزيزَ قد أطلقَ عيبَ الدُّنيا وجاء ذلك في النَّقل الصَّحيح، وما زال العُقلاءُ يُطلقون ذمَّها ويُحذِّرونَ مَكرها وغَوائلها.

---

(١) قبلها في الأصل: (وأشكره).

ولا بدَّ أولاً من مَعرفة حقيقة الدُّنيا وما هي، وما الحكمةُ في خَلقها مع وجود آفاتها وعيوبها، وما مَداخل غرورها وشرورها، ونحن نذكر من ذلك ما يَحصل به المقصود إن شاء الله تعالى.

بَيان

ذَمِّ الدُّنيا

الآياتُ الواردةُ في عيب الدُّنيا والتَّزهيد فيها وضرب الأمثال لها كثيرة، كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٤ ـ١٥]، وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٣٠].

وأمَّا الأحاديثُ والآثار؛ فقد أخبرنا هِبةُ الله بن محمد الشيباني قال: أخبرنا الحسَن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قَيس عن المُسْتَورِد قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما الدُّنيا في الآخرة إلا كمِثْلِ ما يَجعلُ أحدُكم إصْبَعَه هذه في اليَمِّ، فلينظُرْ بمَ ترجع». وأشار بالسَّبّابَة[(١)].

وأخبرنا أبو الفَتح الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُورجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا التِّرمذي قال: حدثنا قُتيبة قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العَلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنيا سِجنُ المؤمن وجَنَّةُ الكافِر».

قال قُتيبة: وحدثنا عبد الحميد بن سُليمان عن أبي حازم عن سَهل بن سَعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدُّنيا تَعدِلُ عند الله جَناحَ بَعوضةٍ ما سَقَى

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٨٠٠٨)، ومسلم (٢٨٥٨).

كافراً منها شَربة ماء». هذا حديث حكمَ بصحته التّرمذي، وأمّا اللّذان قَبله فانفرد بإخراجهما مسلم[١].

أخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عَفّان قال: حدثنا حَمّاد ابن زَيد[٢] قال: حدثنا مُجالد بن سَعيد عن قَيس بن أبي حازم عن المُسْتَورِد قال: كنتُ في رَكبٍ مع رسول الله ﷺ إذ مَرَّ بسَخْلةٍ مَيتةٍ مَنبوذةٍ، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَرون هذه هانت على أهلها؟» فقالوا: يا رسول الله، مِنْ هَوانِها أَلقَوْها. قال: «فَوَالذي نَفسُ محمدٍ بيده للدُّنيا أَهونُ على الله من هذه على أهلها»[٣].

قال الإمامُ أحمد: وحدثنا أبو سعيد قال: حدثنا سُليمان عن عَمرو بن أبي عَمرو عن عاصم عن عُمَر بن قتادة عن محمود بن لَبيد أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ عزَ وجلَّ لَيَحمي عبدَه المُؤمنَ الدُّنيا وهو يُحبُّه، كما تَحمون مَريضَكم الطعامَ والشَّرابَ تخافونَه عليه»[٤].

قال الإمام أحمد: وحدثنا أبو مُعاوية قال: حدثنا الأعمش عن شِمْرِ بن عَطيَّةَ عن مُغيرةَ بن سَعد بن الأخْرَم عن أبيه عن عبد الله[٥] قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَتَّخِذوا الضَّيعةَ فترغَبوا في الدنيا»[٦].

وروى محمد بن المُنكَدِر عن أبيه عن النّبي ﷺ أنّه قال: «الدُّنيا مَلعونَةٌ ملعونٌ ما فيها إلّا ما كانَ للهِ منها».

---

(١) في الأصل: (فأخرجهما مسلم).
(٢) تحرف في الأصل إلى: (يزيد).
(٣) أخرجه أحمد (١٨٠١٣) و(١٨٠٢٠).
(٤) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٢) و(٢٣٦٢٧) و(٢٣٦٣٢).
(٥) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٦) أخرجه أحمد (٣٥٧٩) و(٤٠٤٨) و(٤٢٣٤)، والضَّيعة: حرفة الرجل وصناعته ومعاشُه وكسبُه، والنهي عن اتخاذ الضَّيعة إنما يُراد به التوسُّع في ذلك والانصراف إليه بالكلية، وإهمال الواجبات الأخرى المطلوبة منه، أما عمله في حرفته أو صناعته أو زراعته ليكفي نفسه وعياله ويفيد الناس ويستفيد، فهو مما حضَّ عليه رسول الله ﷺ.

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ قال: «من أحبَّ آخرتَه أَضَرَّ بدُنياه، فآثِروا ما يَبقى على ما يَفْنَى».

ووصفَ عليُّ بنُ أبي طالب الدُّنيا فقال: دَارُ مَنْ صَحَّ فيها سَقِم، ومَن أَمِنَ فيها نَدِم، ومن افتقَرَ فيها حَزن، ومَن استغنى فيها فُتِن، في حَلالها الحِساب، وفي حَرامها النَّار.

وقال ابنُ مسعود: الدُّنيا دارُ مَنْ لا دار له، ومالُ مَنْ لا مالَ له، ولها يَجمَع من لا عَقلَ له.

(١أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا الحُسَين بن أحمد بن البَنَّا قال: أخبرنا ابن بِشْران قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بَكر القُرشي١) قال: حدثنا أبو جعفَر محمد بن يزيد الأَدَمي قال: حدثنا مَعْن بن عيسى قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن أبي الأسود عن الحَسَن أنَّه كتب إلى عُمر بن عبد العزيز: أمَّا بَعد، فإنَّ الدُّنيا دار ظَعْن ليست بدار إقامة، وإنّما أُنزلَ آدمُ إليها عُقوبةً، فاحذَرْها يا أمير المُؤمنين، فإن الزّاد منها تركها والغِنى فيها فَقرُها، لها في كل حينٍ قَتيل، تُذلُّ من أعزَّها، وتُفْقِرُ مَن جمعَها، هي كالسُّمِّ يأكُله من لا يَعرفُه وهو حَتفُه، فكُنْ فيها كالمُداوي جراحتَه يَحتمي قليلاً مخافة طول البَلاء، فاحذر هذه الدَّار الغَرّارة الخَتَّالَة الخَدَّاعة، التي قد تَزيَّنت بخدعها، وفَتنت بغُرورها، وخَتَلت بآمالها، وتشوَّفَت لخُطَّابِها فأصبحت كالعَروس المَجْلوَّة، فالعُيوب إليها ناظِرَة، والقُلوب عليها والِهَة، والنُّفوسُ لها عاشِقَة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي مُعْتَبِر، ولا الآخر بالأول مُزْدَجِر، ولا العارفُ بالله عزّ وجل حين أخبره عنها مُدَّكِر، فَعاشقٌ لها قد ظَفِرَ منها بحاجته فاغتر وطَغى ونَسي المَعاد، فشغل فيها لُبَّه حتى زَلَّت عنها قَدمُه، فَعظُمت نَدامته وكَثُرت حَسرته، واجتمعت عليه سَكَراتُ المَوت وأَلَمُه، وحَسَرات الفَوت بغُصَّته، فذهبَ بكمَدِه ولم يُدرك منها ما طَلَب، ولم يُروِّح نفسه

(١-١) سقط من (ظ)، وورد في حاشيتها ما نصه: (هذا السطر كان قد انطمسَ بالتِصاق جزء المصنف فليُحقَّق من مناقب الحسن).

من التَّعب، فخرج بغَير زاد، وقدم على غير مِهاد، فاحذَرها يا أمير المؤمنين، وكُنْ أسَرَّ ما تكون فيها أَحَذَر ما تكون لها، فإنَّ صاحب الدُّنيا كلّما اطمأنَّ منها إلى سُرور أَشْخَصَتْهُ إلى مَكروه، السَّارَّةُ فيها غَداً ضَارَّة، وقد وُصِلَ الرَّخاءُ منها بالبلاء، وجُعِلَ البَقاء فيها إلى فَنَاء، فَسُرورُها مَشوبٌ بالحُزْن، لا يَرجع منها ما ولَّى فأدبر، ولا يُدرى ما هو آتٍ فيُنتَظَر، أمانيها كاذِبة، وآمالُها باطلة، وصَفُوها كَدِر، وعَيْشُها نَكِد، فلو كانَ الخالقُ لم يُخبِر عنها خَبراً ولـم يَضرب لها مثلاً لكانَت الدُّنيا قد أَيقظت النّائم ونبَّهت الغافل، فكيف وقد جاءَ مُنذ الله عز وجلَّ عنها زاجِرٌ، وفيها واعِظ، فمَا لها عند الله تَعالى قَدرٌ ولا وَزْن، وما نَظر إليها منُ خَلقها، ولقد عُرضَت على نَبينا ﷺ بمفاتيحها وخَزائنها لا يُنقِصه ذلك عند الله جناح بعوضة، فأبى أنْ يَقبلها وكرِهَ أنْ يُحبَّ ما أبغَضَ خالقُه أو يرفع ما وضَع مَليكه، فزَواها عن الصَّالحين اختياراً، وبَسطَها لأعدائه اغتِراراً، فيظنُّ المغرور بها المُقتَدر عليها أنّه أُكرِمَ بها ونَسِيَ ما صنعَ اللهُ بمحمدٍ حينَ شَدَّ الحَجَرَ على بَطْنِهِ.

وقال الحَسن: واللهِ ما أحدٌ من النّاس بُسِطَ له دُنيا فلم يَخَفْ أن يكون قد مُكِرَ به فيها إلا كانَ قد نَقص عقلُهُ وعجز رأيُه، وما أمسكَ اللهُ عن عبدٍ فلم يَظنَّ أنه قد خِيرَ له فيها إلا كان قد نَقص عقله وعجز رأيه.

ابنَ آدم، لا تُعلِّق قلبَكَ بالدُّنيا فتعلِّقه بِشَرٍّ مُعَلَّق، قَطِّعْ حِبالَها، وغَلِّقْ أَبْوابَها، حَسبُكَ أيّها المَرءُ ما بلَّغَك المَحلَّ، هَيهات هَيهات، ذهبت الدنيا بحالِ بابِها وبقيت الأعمال قَلائِدُ في الأعناق.

وكانَ يقول: خَباث، كُلّ عيدانِكِ قد مَصَصْنا فوجدنا مُرّاً.

وكان يقول: إن قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشُب، فَأَهينوها، فأهنأ ما تكونُ إذا أهنتموها.

وقال مالك بن دينار: اتَّقوا السَّحّارة، فإنّها تَسْحَر قلوبَ العُلماء. يعني الدُّنيا.

وقال: بقدرِ ما تَحزَنُ للدُّنيا، فكذلك تُخرِجُ هَمَّ الآخِرة من قَلبك، وبقدر ما تَحزنُ للآخرة، فكذلك تُخرِجُ هَمَّ الدّنيا من قَلبك.

وقد روينا أن عيسى عليه السلام قال: لا تَتَّخذوا الدّنيا رَبّاً فَتتَّخِذكُم الدُّنيا عَبيداً، اعبُروها ولا تعمروها، واعلموا أنَّ أصلَ كل خَطيئةٍ حبُّ الدّنيا، ورُبَّ شَهْوةٍ أورثَتْ أهلها حُزناً طويلاً. ما سَكنَت الدُّنيا في قلبِ عبدٍ إلا الْتاطَ قلبُه منها بثلاثٍ: شُغل لا يَنفك عَناؤه وفَقر لا يدرك غناؤه، وأمل لا يدرك مُنْتَهاه. الدُّنيا طالبةٌ ومطلوبة، فطالب الآخِرة تَطلبه الدُّنيا حتى يَستكمل فيها رزقَه، وطالب الدُّنيا تَطلبه الآخرة حتى يَجيء الموتُ فَيأخذ بعُنُقِه، يا مَعشر الحواريّين، ارضوا بدَنيءِ الدُّنيا مع سلامة الدّين، كما رَضْي أَهل الدُّنيا بدَنيءِ الدّين مع سلامة الدُّنيا.

أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا أبو علي ابن البَنّا قال: أخبرنا أبو الحُسَين بن بِشْران قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القُرشي قال: حدثنا هارون بن عبد الله قال: حدثنا سَيَّار قال: حدثنا جَعفر قال: حدثنا مالك بن دينار قال: قال أبو هُريرة: الدُّنيا مُرَفْرفَةٌ ما بينَ السَّماء والأَرض كالشَّنِّ البالي تُنادي رَبَّها منذُ خَلقها إلى يوم يُفْنيها: ياربّ، لمَ تُبغِضني؟ ياربّ لِمَ تُبغِضُني؟ فيقول لها: اسكُتي يا لا شَيء، اسكُتي يالا شَيء.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن علي قال: حدثنا أبو إسحاق قال: سمعتُ الفُضيل يقول: تَجيءُ الدُّنيا يومَ القِيامة تَتَبَخْتَر في زينتِها ونُضرتها، فَتقول: يارب، اجعلني لأحسن عبادك داراً. فيقول لها: لا أرضاكِ له، أنتِ لا شَيء، فكوني هباءً منثوراً، فتكون هباءً منثوراً.

بيانُ

صِفة الدُّنيا بالأَمثلة

اعلم أنَّ الدُّنيا سريعةُ الفَناء، قريبة الانقِضاء، تعدُ بالبَقاء ثم تُخلف في الوفاء، تَنظر إليها فتَراها ساكنة مُستَقرَّة، وهي سائرة سَيراً عنيفاً، ومرتحلةٌ ارتحالاً سريعاً، ولكنَّ النّاظِر إليها لا يُحِسُّ بحركتها، إنّما يُحسُّ عند انقضائها، ومثالها الظِلُّ، فإنّه مُتحركٌ في الحَقيقةِ ساكنٌ في الظاهر، لا تُدرَكُ حركته بالبَصر الظاهِر بل بالبَصيرة الباطنة، ولما ذُكرت الدُّنيا عند الحَسَن البصري أَنشد:

أحــلامُ نَــومٍ أو كَــظِــلٍّ زائــلٍ إنَّ الـلَّـبـيـب بـمـثـلـهـا لا يُـخـدَعُ

وكان الحسن [بن علي رضي الله عنه][1] يتمثل:

يـا أهـلَ لَـذَّاتِ دُنـيـا لا بـقـاء لـهـا إنَّ اغـتِـراراً بـظـلٍّ زائـلٍ حُـمُـقُ

ونزل أعرابي بقومٍ فقدَّموا له طعاماً، فأكل ثم قام إلى ظلِّ خَيمةٍ فنام، فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه فقام وهو يقول:

ألا إنّـمـا الـدُّنـيـا كـظـلٍّ نَـبـيـتُـهُ ولابــدَّ يــومــاً أنَّ ظِــلَّــكَ زائــلُ

وقال آخر:

وإنَّ امــرأً دُنــيــاه أكــبــر هَــمِّــهِ لَـمُـسْـتـمـسكٌ مـنـهـا بـحـبـلِ غُـرورِ

مثالٌ آخرَ[2]: الدُّنيا من حيثُ التَّغرير بخيالاتها ثم الإفْلاس منها بعد إفلاتها تُشْبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام.

قال يونُس بن عُبَيد: ما شبَّهت الدُّنيا إلا كرجلٍ نامَ، فرأى في مَنامه ما يكره وما

---

(١) في النسخ: (وكان يتمثل) والمثبت من الإحياء والإتحاف.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (وقال).

يُحبُّ، فبينما هو كذلك انتَبه. ومثل هذا قَولُهم: النّاسُ نِيامٌ، فإذا ماتوا انتَبهوا. والمعنى: أنّهم ينتبهونَ بالموت وليس في أيديهم شيء ممّا ركنوا إليه وفرحوا به.

وقيل لبعضِ الحكماء: أَيُّ شيءٍ أَشبه بالدُّنيا؟ فقال: أحلامُ النّائم.

مثالٌ آخر للدنيا في عداوتها لأهلها وإهلاكها بَنيها: اعلم أن طبع الدُّنيا التَّلطُّف في الاستدراج أولاً، والتَّوصُّل إلى الإهلاكِ آخراً، فهي كامرأةٍ تتزيَّنُ للخُطّابِ حتى إذا نَكحتهُمْ ذَبحتهم.

أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا الحَسن بن أحمد بن البَنّا قال: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر القُرشي قال: حدثني أبو علي الطَّائي قال: حدثنا عبد الرّحمن المُحاربي عن لَيْث أنَّ عيسى ابنَ مَريم رأى الدُّنيا في صورة عَجوز هَتْماء عليها من كلِّ زينةٍ، فقال لها: كم تَزوَّجتِ؟ فقالت: لا أُحصيهم. قال: فكلُّهم ماتَ عنكِ أو كلُّهم طلَّقكِ؟ قالت: بل كلّهم قَتلتُ. فقال عيسى عليه السلام: بُؤساً لأزواجِكِ الباقين كيف (١لا يعتبرون بأزواجِكِ الماضين كيفَ١) تُهلكيهم واحداً واحداً. ولا يكونون منكِ على حَذَر.

مثال آخر في مُخالفَة باطِنها لظاهرها:

اعلم أنَّ الدُّنيا مزيَّنة الظَّواهر قبيحة السَّرائر، تُشبه عجوزاً مزيَّنة تَخدَع النّاس بظاهرها، فإذا كشَفوا قِناعها ووقفوا على باطِنها بانَت لهم قبائحها، فندموا على اتِّباعهم لها، وخجلوا من الاغترار بها.

أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن البنَّا، قال: أخبرنا ابن بِشْران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا محمد بن علي بن شقيق قال: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال: سمعتُ الفُضَيل بن عياض يقول: قال ابن عبّاس: يُؤتى بالدُّنيا يوم القيامة في صورة عَجوزٍ شَمْطاء زَرقاء، أنيابُها بادية، مُشَوَّهٌ خَلقها، فتُشرفُ على الخَلائق فيقال: تَعرفون هذه؟

(١ـ١) سقط من (ظ).

فيقولون: نعوذُ بالله من معرفة هذه. فيُقال: هذه الدّنيا التي تَناحرتم عليها، بها تَقاطعتُم الأرحام، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم. ثم تُقذَف في جهنّم فتُنادي: يا رب أين أتباعي وأشياعي. فيقول الله عز وجل: ألحِقوا بها أَتباعها وأَشياعَها.

قال القُرشي: وحدثنا إسحاق بن إسماعيل قال: حدثنا رَوْح بن عُبادة قال: حدثنا عوف عن أَوفَى بن دَلْهم عن أبي العَلاء قال: رأيتُ في النَّوم عجوزاً كبيرةً مُتغضِّنَة الجِلد، عليها من كلِّ زينة الدُّنيا، والنّاس عُكوفٌ عليها مُتعجِّبونَ يَنظُرون إليها، فجئتُ فنظرتُ، فعجبتُ من نظرهم إليها وإقبالهم عليها، فقلت لها: وَيلكِ منْ أنتِ؟ قالت: أما تَعرفني؟ قلت: لا، ما أدري ما أنتِ. قالت: فإنّي أنا الدُّنيا. قال: قلتُ: أعوذ بالله من شَرِّك. قالت: فإن أحببتَ أن تُعاذَ من شَرِّي فأَبغض الدِّرهَم.

قال القُرشي: وحدثنا إبراهيم بن سعيد الجَوهري قال: حدثنا سُفيانَ بن عُيَيْنَة قال: قال لي أبو بكر بن عَيّاش: رأيتُ الدّنيا في النّوم عجوزاً شمطاء[1] مشوَّهةً حَدْباء.

وحدثني غير إبراهيم بن سعيد أنَّ أبا بكر بن عياش قال: رأيتُ في النَّوم عجوزاً شَمطاء مُشوَّهةً تُصفقُ بيديها، وخَلفها خلقٌ يتبعونها ويُصَفِّقون ويَرقصون، فلمّا كانت بِحذائي أقبلت عليَّ فقالت: لو ظَفِرتُ بكَ صنعتُ بك ما صنَعتُ بهؤلاء. قال: ثم بكى أبو بكر وقال: رأيتُ هذا قبل أن أقدم إلى بغداد.

قال القُرشي: وحدثنا محمد بن علي قال: حدثنا إبراهيم بن الأشعثُ قال: سمعتُ الفُضَيل قال: بلغني أنَّ رجلاً عرج بِروحه فإذا بامرأةٍ على قارعة الطَّريقِ عليها من كل زينة الحلي والثّياب، وإذا لا يمرُّ بها أحدٌ إلا جَرحَته، وإذا هي أدبَرت كانت أحسن شيءٍ رآه النّاس، وإذا أَقبلت أقبح شيء، عجوزاً شَمطاء زَرْقاء عَمْشاء، فقلت: أعوذ بالله منكِ. قالت: لا والله، لا يُعيذُك اللهُ حتى تُبغض الدِّرهم. قال: قلت: من أنتِ؟ قالت: أما تَعرفني؟ قلتُ: لا. قالت: أنا الدّنيا.

---

(١) ليست في الأصل.

مثال آخر للدنيا وعُبور الناس بها:

اعلم أنَّ أحوالك ثلاث: حالة لم تكن فيها شيئاً، وهي ما قبل أن توجد، وحالة أخرى، وهي من ساعة مَوتك إلى ما لا نهاية له من البقاء السَّرمَد، فلنفسِكَ وجودٌ بعد خُروجها من البَدَن، إمّا في الجنَّة وإمّا في النّار، ثم تُعادُ إلى بَدَنكَ فتُجازى بعملك وتسكن إحدى الدَّارين وهو الخلود الدّائم، وبين هاتين الحالتَين ـ أعني ما قبل وجودك وما بعد موتك ـ حالة متوسطة، وهي أيامُ حياتك في الدّنيا، فانظر إلى مقدار زمانها وانسِبْهُ إلى الحالتين تعلم أنه أقل من طَرْفةِ عَين في مقدار عمر الدُّنيا.

ومن رأى الدُّنيا(١) بهذه العَين لم يَركَن إليها ولم يُبالِ كيفَ تَقضَّتْ أيامُه بها في ضُرٍّ وضيقٍ أو سَعَةٍ ورَفاهية، ولهذا لم يَضَع رسولُ الله ﷺ لَبِنَةً على لَبنةٍ ولا قَصبةً على قَصَبةٍ، وقال: «مالي وللدُّنيا، إنما مَثَلي ومَثَل الدُّنيا كراكبٍ قالَ تحتَ شجرةٍ ثم راحَ وتركها»، وقال ﷺ: «ما الدُّنيا في الآخرة إلا كَمثلِ ما يجعلُ أحدُكم إصبَعه هذه في اليَمِّ، فلينظُر بمَ تَرجع».

وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حين قال: الدُّنيا قنطرةٌ، فاعبروها ولا تَعْمروها. وهذا مَثلٌ واضح، فإنَّ الحياةَ الدُّنيا مَعبر إلى الآخرة، والمَهدُ هو الرُّكنُ الأول على أول القَنطرة، واللَّحدُ الرُّكنُ الثاني على آخرها، ومن النّاس مَن قد قطع نصفَ القَنْطرة، ومنهم من قطع ثُلثيها، ومنهم من لم يبقَ له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيف ما كان فلا بدَّ من العُبور، فمَن وقف يَبني على القَنطرة ويُزَيِّنها بأصنافِ الزِّينة وهو يُسْتَحثُّ للعُبور، فهُو في غاية الجَهْل والحُمْقِ.

مثالٌ آخر للدّنيا في لينِ مأخَذِها وخُشونَة مَصْدرها:

اعلم أنَّ أوائل الدُّنيا تبدو هَيِّنة ليِّنة، فإذا خاضَ فيها الخائضُ واستطابها أهلكته، فمثلها كمثل الحَيَّة لَيِّنٌ مَسُّها وهي تَقتُل بسُمِّها، فينبغي أن يكونَ الإنسانُ أَسَرَّ ما يكون فيها أَحذَر ما يكون لها، فإن صاحبها كلَما اطمأنَّ منها إلى سرور أَشْخَصه عنه مكروه.

---

(١) قبلها في الأصل: (مقدار).

مثال آخر للدّنيا في تعذُّر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها:

مَنْ أَوغَل في طلب الدُّنيا وظَنَّ السلامة من شَرِّها، كان كمن مَشَى في الماء وظنَّ أنَّ قدميه لا تبتل.

مثال آخر: مَثَلُ ما بقي من الدُّنيا وقلَّته بالإضافة إلى ما سَبَقَ كمثل ثوبٍ شُقَّ من أوَّله إلى آخره فبقي متعلِّقاً بخيطٍ في آخره، فيوشِك ذلك الخيط أن ينقطع.

مثال آخر لتأديةِ علائق الدُّنيا بعضها إلى بَعض حتى تُهلك صاحبها:

قال عيسى ابن مريم: مثل طالب الدُّنيا كمَثل شاربِ ماءِ البَحر، كلَّما ازدادَ شُرْباً ازدادَ عَطَشاً حتى يَقتُله.

مثالٌ آخر لمخالفة آخر الدُّنيا أوَّلها إذ بدايتها تلذ وعاقِبَتُها مُرَّة:

اعلم أن شهوات الدُّنيا في القلب لذيذة كشهوات الأطعمة في المَعِدة، وسَيَجِدُ العبدُ عندَ الموتِ لشَهوات الدُّنيا في قَلبه من الكراهة والنَّتنِ والقُبحِ ما يَجده للأطعمة اللَّذيذة إذا انتهَت في المَعدة غايتها، وكما أنّ الأطعمة كلما كانت ألذَّ طعماً وأكثرَ دَسَماً وأظهر حلاوةً كان رَجيعُها أَقذر، فكذلك كلُّ شهوةٍ كانت في النَّفسِ ألذّ وأقوى فتنةً[1]، فالتَّأذّي بها عند الموت أشدّ، كما أن تَفَجُّعَ الإنسان بمحبوبه إذا فقد يَقوَى بقدر محبة المَحبوب.

قال ﷺ للضَّحاكَ بن سُفيان[2]: «ألسْتَ تُؤتَى بطعامكَ وقد مُلِّحَ وقُزِّحَ[3]، ثم تَشربُ عليه اللَّبن والماءَ؟» قال: بلى. قال: «فإلى ما يَصير؟» قال: إلى ما قد علمتَ. قال: «فإنَّ الله عز وجل ضَرَب مَثَل الدّنيا ما يَصير إليه طعام ابن آدم»[4].

وكان بعضُ السَّلف يقول لأصحابه: انطلِقوا حتى أريكم الدُّنيا. فيَذهبُ بهم إلى مَزْبَلةٍ، فيقول: انظُروا إلى ثمارهم ودَجاجِهم وعَسَلهم وسَمْنِهم.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (فيه).

(٢) كان من عمّال النبي ﷺ على الصدقات، وقيل: كان سيّافاً لرسول الله ﷺ.

(٣) قُزِّحَ: أي أُصلِحَ بالقِزْحِ، وهي الأبزار التي توضع في القدر.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٧٤٧) والطبراني في الكبير (٨١٣٨).

مثالٌ آخر للدّنيا وأهلها في اشتغالهم بنَعيمها عن الآخرة، وما يعقبهم ذلك من الحَسَرات:

اعلم أنّ مَثَل أهل الدُّنيا في غَفْلتهم مَثَلُ قَومٍ ركبوا سَفينةً فانتهتْ بهم إلى جَزيرةٍ، فأمرهم المَلّاح بالخُروج لقَضاء الحاجة، وحَذَّرهم الإبطاءَ، وخَوَّفهم مُرور السَّفينة واستعجالَها، فتفرَّقوا في نَواحي الجزيرة، فقضى بعضُهم حاجته وبادر إلى السفينة، فصادفَ المكان خالياً، فأخذَ أوسع الأماكن وألينها وأوفَقَها لمُراده، وتوقَّف بعضُهم في الجَزيرة يَنظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ونغمات طيرها، وحُسْنِ أحجارها ومعادنها، ثم تنبَّه لخَطر فَوْتِ السَّفينة، فرجع فلم يُصادف إلا مكاناً ضَيِّقاً فجلس فيه، وأكبَّ بعضُهم على تلك الأحجار المُسْتَحسنة، والأزهار الفائقة، فحمل منها جُملةً، فلما جاء لم يَجد في السَّفينة (١إلا مكاناً ضيقاً، وزاده ما حَمله ضيقاً، فصار محموله ثقلاً عليه ووبالاً، ولم يقدر على نَبذه، ولم يجدْ له في السَّفينة موضعاً١)، فحمَله على عُنقه، فَنَدم على أخذه، ولم ينفعه النَّدم، ثم ذَبُلت الأَزْهار وتغيَّرت أراييجُها وآذاهُ نَتْنُها، وتَولَّج بعضُهم في تلك الغِياض ونَسيَ السَّفينة وأبعد في تنزُّهِه حتى إنَّ الملاح نادَى بالنّاس عند دَفع السَّفينة فلم يَبلُغه صوته لاشتغاله بملاهيه، فهو تارةً يتناول من الثَّمر، وتارةً يشمُّ تلك الأَنوار، وتارةً يَعجبُ من حُسن الأَشجار، وهو على ذلك خائفٌ من سَبُعٍ يخرج عليه، حَذِرٌ من نكبةٍ تَلحقه غير مُنفكٍّ عن شَوكٍ يتشبَّثُ بثيابه ويدخل في قَدمه، وغُصنٍ يَجرحُ بَدَنه، وعَوْسَجٍ يخرق ثيابه ويَهتكُ عورَتَه، أو صوتٍ هائلٍ يفزع منه، فمِن هؤلاء من لَحِقَ السفينةَ ولم يبقَ فيها موضع، فماتَ على السَّاحل، ومنهم من شَغَله لَهوُه فافترسته السِّباع، ومنهم من نَهَشته الحَيَّاتُ، ومنهم من تاهَ فهامَ على وَجهِهِ حتى هَلك.

فهذا مَثَلَ أهل الدُّنيا في اشتغالهم بحُظوظهم العاجلة ونِسيانهم مَوردهم وعاقبة أمرهم، وما أقبح بالعاقل أنْ تَغرّه أحجارٌ ونَباتٌ يَصير هشيماً، فهو شاغلٌ له في الدُّنيا بالخوف عليه والحُزْنِ لفقده، ثم يصيرُ عليه عند رَحيله وَبالاً ولا يَصحبه حينئذٍ.

(١ـ١) سقط من (ظ).

مثالٌ آخر لاغتِرار الخَلق بالدُّنيا وضَعفِ إيمانهم بالآخرة:

أخبرنا أحمد بن محمد المذاري قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن البَنَّا قال: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: أخبرنا ابنُ صَفوان قال: أخبرنا أبو بَكر بن عُبيد قال: أخبرنا إسحاق بن إسماعيل قال: أخبرنا رَوحُ بن عُبادة قال: أخبرنا هشام بن حَسَّان عن الحَسَن[١] قال: بلغني أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لأصحابه: إنما مَثَلي ومَثَلكم ومثل الدنيا كمثَل قوم سَلَكوا مَفازَةً غبراء حتى إذا لم يَدْروا ما سَلكوا منها أكثر أو ما بَقِيَ أنْفَدوا الزَّاد[٢] وحَسَروا الظَّهرَ[٣] وبقوا بَينَ ظَهرانَي المَفازة لا زَادَ ولا حمولةَ، فأيقَنوا بالهَلَكةِ، فبينما هم كذلك إذْ خرج عليهم رجلٌ في حُلَّةٍ يَقطرُ رأسُه فقالوا: إن هذا قريبُ عهدٍ بالرِّيف، وما جاءكم هذا إلا من قَريب؟ قال: فلما انتهى إليهم قال: يا هؤلاء. قالوا: يا هذا. قال: علامَ أنتُم؟ قالوا: على ما تَرى. قال: أرأيتَكم إنْ هَديتُكم إلى ماءٍ رَواءٍ ورياضٍ خُضْرٍ ما تعملون؟ قالوا: لا نَعصيكَ شيئاً. قال: عُهودكم ومَواثيقكم بالله. قال: فأعطَوه عُهودَهم ومواثيقهم بالله لا يَعصونه شيئاً، قال: فأوردَهم ماءً رَواءً ورياضاً خُضراً، قال: فمكثَ فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء. قالوا: يا هذا. قال: الرَّحيل. قالوا: إلى أَين؟ قال: إلى ماءٍ ليس كمائِكُم وإلى رياضٍ ليست كرِياضِكم. قال: فقال جُلُّ القَوم، وهم أكثرُهم: واللهِ ما وَجدنا هذا حتى ظَنَنَّا أنّا لن نَجده، وما نَصنع بعيشٍ خيرٍ من هذا؟ قال: وقالت طائفةٌ منهم،وهم أقلُّهم: ألم تُعطُوا هذا الرجلَ عهودَكم ومواثيقَكم بالله لا تَعصونه شيئاً؟ وقد صدقكم في أوّل حديثه، فوالله لَيَصدقنكم في آخره.

قال: فراحَ فيمن اتَّبعه وتخلَّف بقيتهم، فَنذر[٤] بهم عدوٌّ فأصبحوا من بين أَسيرٍ وقَتيل.

أخبرنا عبد الأوّل، قال: أخبرنا الداوودي، قال: أخبرنا ابنَ أَعْيَن، قال: حدثنا الفِرَبْري، قال: حدثنا البخاري، قال: حدثنا أبو كُريب، قال: حدثنا

---

(١) أي الحسن البصري.

(٢) أنفدوا الزاد: فني زادهم.

(٣) حسروا الظهر: أي أعروه، وهو كناية عن هلاك ما يركبونه.

(٤) نذر بهم: أغار عليهم.

أبو أُسامة، عن بُرَيد[(١)]، عن أبي بُردة، عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّما مَثَلي ومثل ما بعثني اللهُ به كمثلِ رجلٍ أتى قومَه فقال: يا قَوم، إني رأيتُ الجيشَ بعَيني، وإنّي أنا النَّذيرُ العُريان، فالنَّجاءَ، فأطاعه طائفةٌ من قومه، فأدْلَجوا، وانطلقوا على مَهلِهم، فَنَجوا، وكذَّبته طائفةٌ منهم، فأصبحوا مكانَهم، فصبَّحهُم الجيشُ، فأهلكهم واجتاحَهم، فذلك مَثَل من أطاعني واتَّبع ما جئتُ به، ومَثَل من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق». أخرجاه في الصَّحيحين.

مثال آخر لتنعُّم الناس بالدنيا ثم شدة[(٢)] تفجعهم على فراقها:

اعلم أن مثل الناس فيما أُعطوا من الدنيا مثل رجل هيَّأَ داراً وزيَّنها، ودعى الناس إلى داره واحداً بعد واحد، وكان يُقَدِّم إلى الداخل طبقاً من ذهب عليه مجمر عود، فيتطيَّب به ذلك الداخل، ثم ينهض عنه إلى مكانه شاكراً لصاحب الدار، فدخل رجلٌ، فقدَّمه إليه ليتطيّب به، فظنَّ أنه قد وَهَبه له، فتعلَّق قلبه بذلك، فلما أُخِذَ منه تفجَّع وتَقلقل وتسخَّط، ولو عرف رسم صاحب الدار لم يَنزعج.

وكذلك من عَرف سُنَّة الله في الدنيا، علم أنها دار ضيافة، سُبِّلت على المجتازين لا على المُقيمين، ليتزوَّدوا منها، وينتفعوا بما فيها، كما ينتفع المسافرون بالعَواري[(٣)]، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم، فتَعظم مصائبهم عند فراقها، وهذا المعنى الذي نبَّهت عليه أمّ سُلَيم حين مات ابنُها؛ أخبرنا هِبةُ الله بن محمد، قال: أخبرنا الحسن بن علي، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا بَهْز، قال: حدثنا سُليمان بن المُغيرة، عن ثابت، عن أنس رضي الله عنه قال: ماتَ ابنٌ لأبي طلحة من أُمِّ سُلَيم، فقالت لأهلها: لا تُحدِّثوا أبا طلحةَ بابنه، حتى أكون أنا أُحَدِّثه، قال: فجاء فقرَّبتْ إليه عَشاءً فأكل وشرب، قال: ثمَّ تصنَّعتْ له أحسنَ ما كانت تَصنَّع قبل

---

(١) تصحف في الأصل إلى: (يزيد).

(٢) ليست في (ظ).

(٣) العواري: جمع عاريَّة، وهي ما تُعطيه غيرك على أن يعيده إليك.

ذلك، فوقَع بها، فلما رأت أنه قد شَبع وأصابَ منها قالت: يا أبا طلحةَ، أرأيتَ لو أنَّ قوماً أعاروا عاريتهم أهلَ بيتٍ، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يَمنعوهم؟ قال: لا، قالت: احتَسِبْ ابنَكَ.

بيان

حقيقة الدنيا وماهيَّتها والمذموم منها والمحمود

قد سمع خَلقٌ كثير ذمَّ الدُّنيا مطلقاً، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه الموجودات التي خُلقت للمنافع فأعرضوا عن ما يُصلحهم من المطاعم والمَشارِب، وقد وضَع الله سبحانه في الطِّباع تَوَقانَ النَّفسِ إلى ما يُصلحها، فكلّما تاقَت مَنَعوها ظَنّاً منهم أن هذا هو المراد وجهلاً بحقوق النفس، وعلى هذاأكثر المتزهِّدين، وإنما نقلوا ذلك لقلّةِ العلم بالمراد وسوء الفَهم للمقصود، ونحن نَصدع بالحق من غير مُحاباة فنقول:

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة، للإنسان فيها حظٌّ، وهي الأرض وما عليها، فإنّ الأرض مسكن للآدميّ، وما عليها ملبسٌ له ومطعم ومَشرب ومَنكح، وقد جُعلت المعادن فيها كالخَزائن فيها ما يحتاج إليه، وخلق النبات لقُوتِه وكسوته ومصالحه، والحيوانات ليأكل من لحمها ويَسْتَسخِر بعضَها، كل ذلك عَلَقٌ لراحلة بَدَنه السائر إلى الله عز وجل، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح، كما لا تبقى النّاقةُ في طريق الحج إلا بما يُصلحها، فمن تناول منها ما يُصلحه على الوجه المأمور به مُدِحَ ولم يُذمَّ، ومن أخذ منها فوقَ الحاجة بكفِّ الشَّرَهِ وقع الذمُّ لفعِله وأُضيفَ إلى الدنيا تجوُزاً.

وليس للشَّره في تناول الدنيا وجهٌ؛ لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى ويشغلَ عن طلب الآخرة، فيفوت المقصود، ويصير بمثابة من أقبل يَعلف الناقةَ وبرَّد لها الماء ويُغَيِّر عليها ألوانَ الثِّياب، ويَنسى أنَّ الرفقة قد سارت، فإنه يبقى في البادية فريسةً للسِّباع هو وناقته.

ولا وجهَ للتقصير في تناول الحاجة من الدنيا؛ لأن الناقةَ لا تَقوى على السَّير إلّا بتناول ما يُصلحها.

ولمّا كانت الحاجةُ إلى المطعم والملبس والمسكن ضرورة افتقر الناس إلى الفِلاحة والحِياكة والبِناء، ثم احتاجت كل صناعةٍ من هذه إلى الآلات كالحدادة والنِّجارة، ثم احتاج الناس إلى الاجتماع إذ لا يكفل كلّ شخص منهم بجلب جميع مصالحه، وحصل التّناسُل وتولَّدت الخصائم، فافْتَقَروا إلى سائِسٍ، ثم قد تخلو بعض البلدان عمّا يحتاج إليه فألقي في قلوب التجار الحِرص فجلبوه، ومن الناس من يعجز عن صناعةٍ لمكان التكاسُل، فيحتال في أخذ ما ليس له أو في فتح باب الكُدْيَة(١).

ثم لا تَزال أشغالُ الدنيا تَتَسلسل إلى أن تَشغَل القلبَ عن الآخرة شُغلاً كلياً، فتكاد النفوس تظنُّ لكثرة اهتمامها بمصالحها من المطعم والملبَس والمسكن تظنُّ أن المقصود دفعُ الزّمان بذلك فحسب، وقد أَنْساها انهماكُها على اكتسابها أن هذا إنّما هو زادٌ للمسير إلى مقصودٍ آخر، فترى خَلقاً كثيراً هَمهم جمعُ المال فحسب؛ لأنهم رأوه سبباً لبلوغ الأغراض فأحبّوه لذاته ونسوا ما وُضِعَ له، وخلقاً هَمُّهم ما يأكلون، فهم يَعملون طولَ النّهار ليأكلوا، ويأكلون ليعملوا، وخَلقاً همُّهم في اجتِلاب ما يوجب لهم المدح والثّناء والتّفاخر، وانهماك هؤلاء كلُّهم على ما انهمكوا عليه يُخرجهم إلى الكِبْر والحَسَد والشَّرَه وغير ذلك من الأخلاق الذَّميمة.

فهذا بيانُ أن ضرورة العَيش جَرَّ إلى غيره، فَنُسي بذلك ما وُضع الأصل له، فالذَّمُّ إذاً لا لصورةِ الدُّنيا، وقد روينا أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه خطب فقال: الدُّنيا دار صدقٍ لمن صَدقها، ودارعاقبة لمن فهم عنها، ومطلب نُجحٍ لمن سالمها، فيها مساجدُ الله، ومَهبطُ وَحيه، ومصلَّى ملائكته، ومَتجرُ أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية، فمن ذا يَذمُّها وقد آذَنَتْ بِبَيْنِها، ونَعت نَفْسها وأهلَها، فمثَّلت ببلائها البلاء، وشوَّقت بسرورها إلى السرور تخويفاً وتحذيراً وترغيباً، فذمَّها قومٌ غداة النَّدامة، وحمدها آخرون ذَكَّرَتْهُم فذكروا ووَعظَتْهم فانتَهَوا، فأيّها الذّامُّ للدنيا المُغْتَرُّ بتغريرها متى استذَمَّت إليك؟ بل متى غَرَّتكَ؟

(١) الكُدْية: حرفة السائل المُلح الذي تكفَّف الناس، وهي الشِّحاذة.

أبمنازلِ آبائك في الثَّرى؟ أم بمضاجع أمهاتك في البِلى؟ كم رأيتَ موروثاً، كم عللَّتَ بكفَّيكَ عَليلاً؟ كم مَرَّضتَ بيديكَ مريضاً تبتغي له الشِّفاء وتَستَوصف له الأطبّاء؟ لم تنفعه بشفاعتك، ولم تُسعِفْه بطلبك، مَثَّلتْ لكَ الدنيا غَداةَ مَصْرعِهِ مصرعَك ومَضجعه مضجعك. ثم التفَتَ إلى المَقابِر فقال: يا أهل الغُرْبة وأهل التربة، أمّا الدُّورُ فقد سُكِنَت، وأمّا الأموالُ فقد اقتُسِمَت، وأمّا الأَزْواج فقد نُكِحَتْ، فهذا خَبَرُ ما عندنا فَهاتوا خبر ما عندكم. ثم التفتَ إلى أصحابه فقال: أمّا لو أُذِنَ لهم لأخبروكم أن خير الزّادِ التَّقوى[1].

ولمّا تنبّهَ أقوامٌ للإعراض عن الدُّنيا والزُّهد فيها حَسَدهم إبليسُ فقسمهم طوائف؛ فمنهم طائفةٌ أراهم أن الصَّواب تعجيلُ الانتقال عن الدنيا إلى الآخرة، فإن الواصل إليها سعيد كيفَما وصل، فقتلوا أنفسهم ليتخلَّصوا من الدنيا، وعلى هذا جماعة من أهل الهِند يتهجَّمون على النار ويقتلون أنفسهم ظنّاً منهم أنهم يتخلَّصون بذلك من محن الدنيا.

ومنهم طائفةٌ أوهمَهُمْ أنه لا بد من رياضةٍ تُميت الصفات البَشَريَّة وتقلَعُها بالكُليَّة، فشدَّدوا في المجاهدة على أنفسهم حتى هلك أكثرهم لشدَّة الرياضة، ومنهم من فَسَدَ عقلُه، ومنهم من مرضٍ.

ومن هؤلاء مَن بالغ في الرياضة فرأى أن الطَّبعَ لا ينقلع، فتوهَّم أن ما كلَّفه الشرعُ محالٌ فوقع في الإلحاد، ووقع لبعضهم أن هذه المجاهدات لا فائدة فيها؛ لأن الله تعالى مستغْنٍ عنها فلا تنفعه طاعة ولا تَضرُّه مَعصية، فسلكوا مسلكَ الإباحة وطووا بساط الشَّرع، وظنّوا أن ذلك من صفاء تَوحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مُسْتَغنٍ عن عبادةِ عباده.

وظنَّ آخرون أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، فاستَغنى عن التَّعب، وزعموا أنه قد ارتفعَ

(١) ذكره ابن أبي الدنيا في (ذم الدنيا) (١٤٧) وابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/ ١٩٤ - ١٩٥، واليعقوبي في تاريخه ٢/ ٢٠٨.

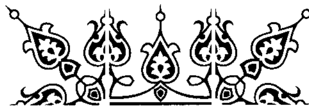
محلُّهم في معرفة الله أن يُمتَهَنوا بالتكليف، وإنما التكليف على العَوام. وثَمَّةَ طُرقٌ غير هذه من هذا الجنس قد ذكرتها في كتابي المسمَّى بتلبيس إبليس، وإنما الطريق السَّليم المَحَجَّة الوسطى وهو أن تأخُذَ من الدنيا قدرَ ما تَحتاجُ إليه من الزاد للسلوك وإن كان مُشتهىً، فإن إعطاءَ النَّفسِ ما تَشتهيه مما يُصلحها عونٌ لها وقضاءٌ لحقِّها، فقد كان سُفيان الثَّوري يأكل في أوقاتٍ من طَيِّب الطعام، وكان إذا سافَر كان في سُفْرتِه حَمَلٌ مَشْوي وفالوذَج[1]، وكان إبراهيمُ بنُ أَدهم يأكلُ من الطَّيبات في بعض الأوقات، ويقول: إذا وَجدنا أكلنا أَكلَ الرجال، وإذا فقدنا صَبرنا صبر الرجال.

ولنَنظُر في سِيَر الرسول ﷺ وأصحابِه، فإنهم ما كانَ لهم إفراط في تناول الدُّنيا ولا تَفريطٌ في حقُوق النفوس، بل كانوا أَمَّةً وسطاً، بل ينبغي أن يُتلمَّح حَظُّ النَّفس في المُشتهى، فإن كان في حَظِّها حِفْظُها وما يُقيمها ويُصلحها ويبسطها للخَير، فلا ينبغي أن تُمنَع منه وإن كان حَظّها مُجرّد شهوةٍ ليست متعلقة بمصالحها المذكورة، فذاكَ حَظٌّ مذموم، والزّهد فيه يكون.

وينبغي تَعويد النَّفس الزّهد في بعض الحَظِّ الأول خُصوصاً في بداية رياضتها لئلا تَتعوَّد الانبِساط في الشهوات كما قال عُمَر وقد أُتي بشَربة عَسَل: اعزلوا عني حسابها.

وفي الجُملة ينبغي لكَ أن تقوم بالقِسطِ في حِفظِ النَّفس فلا تمنعها من حُظوظها ما تَقوى به على التَّقوى، ولاتُطْلقها فيما يُخافُ ضَرَرُه من شَهواتِها، فإن الوادي بين الجَبَلين.

آخِر كتاب ذَمِّ الدُّنيا



(١) الفالوذج: حلواء تُعمل من الدقيق والماء والعسل أو من النَّشاء والماء السكر.

كتاب
ذَمِّ البُخْل وذَمّ حُبِّ المال

الحمدُ لله الذي ابتَلى عبادَه بِبَلوى المال لينظر من استقامَ منهم مِمَّنْ مال، فبعضُهم بالإكثار منه وبعضهم بالإقلال، وبعضهم بأَخْذِه من الحرام وبعضُهم من الحَلال، ودرجَ في كَسبهم له الحرصَ والقناعةَ والجودَ والبُخل فاختلفت الحال.

أحمدُه على بُلوغ الآمال، وأشهدُ أنَّ كل معبودٍ سواه مُحال، وأُصلّي على رسوله محمدٍ أشرف آدميٍّ قالَ وقال(١)، وعلى أصحابه وآله خير آل، صلاةً تدوم بدوام الغُدوِّ والآصال، وسلّم تسليماً كثيراً.

قد بَيّنا في كتاب ذَمِّ الدُّنيا أن الآدميَّ مفتقِرٌ إلى مَطعمٍ وملبسٍ ومَسكنٍ، وقد جُعلت الأموال لنَيلِ تلكَ الأغراض، فلا غنى بالآدميِّ عن الأموال، والسَّلامَةُ من شَرِّها بعيدة؛ لأنها إذا فُقِدَت وَقع الفقرُ الذي كاد يكون كُفْراً، وإن وُجدت خِيفَ منها الطُّغيان.

واعلم أنَّ المالَ بعضُ جزاء الدنيا، والكلام فيما يتعلق بالدُّنيا يَعمُّ المال إلا أنا أَفْردنا ذِكرَ غَوائِل المال وآفاته في هذا الكتاب، إذْ للإنسان من فَقدِه صفة الفَقْر، ومن وجوده صفة الغِنى، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان، ثم للفاقدِ حالتان: القَناعة والحِرص، وإحداهما مذمومةٌ والأُخرى محمودة، وللحريص حالتان: طمع فيما في أيدي الناس أو تَشَمُّرٌ للحرف والصِّناعات، والطَّمعُ شَرٌّ

(١) ورد في هامش (ظ) ما نصه: (قوله: قال وقال، الأول من القَيلولة والثاني من القَول).

الحالتين. وللواجدِ حالتان: إمساكٌ بحكم البُخل والشُّحِّ، وإنفاق. وللمُنفقِ حالتان: تَبذيرٌ وإقْتار، والمحمودُ الاقتصاد. وهذه أمورٌ مُشتبهةٌ وكشفُ الغِطاء عن غامِضها مُهمّ.

ونحن نشرحُ ذلك في أربعة عشر فصلاً إن شاء الله تعالى، وهي:

بَيانُ ذمِّ المال، ثم مدحه، ثم تفصيل فوائده وآفاته، ثم ذمُّ الحِرص والطمع، ثم علاجهما، ثم فَضيلة السَّخاء، ثم أخبار الأسْخِياء، ثم ذَمُّ البُخل، ثم أخبار البُخلاء، ثم الإيثار وفَضله، ثم حدُّ السَّخاء والبخل، (١ثم علاج البخل١)، ثم مجموع الوظائِف في المال، ثم ذمُّ الغِنَى ومَدح الفقر.

(١-١) سقط من (ظ).

بيانُ

ذمِّ المال

اعلم أن المال لا يُذَمُّ لذاته كما قلنا في الدنيا، بل يقع الذمُّ لمعنى من الآدميِّ يتعلق بالمال، فَيُتجوزُ بإطلاق ذمِّ المال، وذلك المعنى إمّا شدَّة الحرص على طلبه، أو تناوله من غير حِلِّه، أو حبسه عن حقه، أو إخراجه في غير وَجهه، أو المفاخرة والمباهاة به، قال الله عز وجل: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]. وأخبرنا الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزدي وأبو بكر الغورجي قالا: أخبرنا الجَراحي قال: أخبرنا المحبوبي قال: أخبرنا الترمذي قال: أخبرنا سُويد بن نَصر قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك عن زكريَّا بن أبي زائدة عن محمد بن عبد الرحمن بن سَعد بن زُرارة عن ابن كَعب ابن مالك الأنصاري عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ماذِئْبان جائِعانِ أُرسِلا في غَنم بأَفْسَد لها من حِرص المرء على المال والشَّرف لدينه». قال الترمذي: هذا حديثٌ صحيح.

وفي الصَّحيحين من حديث أبي ذَرٍّ قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو في ظلِّ الكَعبة فقال: «هُمُ الأَخسرون وربِّ الكعبة، هم الأَخسرون» قلت: مَنْ هُم؟ قال: «الأكثرون [أموالاً][(١)] إلا مَنْ قال في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا»[(٢)].

وقد كان السلفُ يخافون فِتنةَ المال فكان عمر بن الخطاب إذا رأى الفُتوح يَبكي ويقول: ما حَبسَ الله هذا عن نَبيِّه وعن أبي بكرٍ لشرٍّ أراده لهما وأعطاهم عمر إرادة الخير له.

---

(١) ليست في النسخ وأثبتت من الصحيحين فهو في البخاري (٦٦٣٨)، ومسلم (٩٩٠).

(٢) أي: أعطى عن يمينه وشماله وأمامه.

وكان يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لاتُفتَح الدُّنيا على أحدٍ إلا ألقى اللهُ بينهم العداوة والبَغضاء إلى يوم القيامة وأنا أُشفِقُ من ذلك».

ولما بعثَ عمر رضي الله عنه إلى زَينبَ بعطائها قالت: اللهمَّ لا يُدركني عطاءُ عمر بعدها.

وقال يحيى بن مُعاذ: الدِّرهم عَقرب، فإن لم تُحسن رُقيتَه فلا تأخذه، فإنه إنْ لدغكَ قَتَلك سُمُّه. قيل: ما رُقْيَتُه؟ قال: أَخذُه من حِلِّه ووضْعُه في حَقِّه. وقال: مُصيبتان لم يَسمع الخلائق بمثلهما للعبد في ماله عند موته. قيل: وما هُمَا؟ قال: يُؤخَذ منه كُلّه، ويُسأَلُ عنه كلّه.

بَيان

مَدح المال والجمع بينه وبين الذمِّ

قد بيَّنا أن المالَ لا يذمُّ لذاته بل ينبغي أن يُمدَح؛ لأنه سببٌ للتوصل إلى مصالح الدِّين والدنيا، وقد سمَّاه الله عزَّ وجل خَيراً فقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، وأمر بحفظِه (١ وأعلمَ أنَّ قِوامَ الآدميِّ به١) فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] وقال النبيُّ ﷺ: «نِعِمَّا بالمالِ الصَّالح للمرءِ الصَّالح».

وقال سعيد بن المسيَّب: لا خيرَ فيمن لا يُريد جمع المال من حلِّه يكفُّ به وَجْهه عن الناس، ويَصِلُ منه رَحمه، ويُعطي منه حقَّه. وخلف ابن المسيّب مالاً.

وقال أبو إسحاق السَّبيعي: كانوا يَرَون السَّعةَ عوناً على الدين.

وقال ابن المُنكَدِر: نِعمَ العَونُ على التَّقوى الغِنَى.

وقال سفيان الثوري: المالُ في زماننا هذا سلاحُ المؤمن، وخلَّف سفيان مالاً.

وقال يوسف بن أَسْباط: ما كان المالُ منذ كانت الدنيا أنفع منه في هذا الزمان.

واعلم أنّ المالَ لمّا كان سبباً لحفظِ البَدَن، وحراسة البدن سبب لحفظ النفس، وبقاء النفس سببٌ للمعرفة والعلم والعمل، عُرِفَ بهذه الطريق شرف المال، وإنّما يقعُ الذمُّ لما جُعل منه وَسيلة إلى المقاصد الفاسدة، والذمُّ للجاعِلِ لا للمجعول، كما قال ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدِّينار، وتعس عبد الدِّرهم».

ولمّا كانت الطِّباع تميل إلى فُضول المال، ويتجدد من ذلك شرّ في الأغلب، قال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ اجعل رِزْقَ آل محمدٍ قُوتاً». هذا وهو مأمون عليه فتنة المال، فكيف بغيره؟

(١ـ١) سقط من الأصل.

بيان

تَفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حَيّةٍ فيها سُمٌّ وتِرْيَاقٌ، ففوائده تِرياقه، وغوائلُه سُمومُه، فمن عرفَ غوائِلَه وفوائدَه أمكنه أن يَحترز من شَرِّه ويَسْتَدِرَّ من خَيره.

أمّا الفَوائد: فهي تنقسم إلى دنيويَّة ودينيَّة.

أمّا الدنيويّة: فالخَلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأمّا الدينيّة: فتنحصر في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يُنفقه على نفسه، إمّا في عبادة أو في الاستعانة على العبادة.

أمّا في العِبادة فكالاستعانة به على الحَجِّ والجِهاد، وهما من أُمَّهات القُرُبات، والفَقير قد حُرِمَهما للفقر، وأما فيما يُقويه على العبادة كالمَطعم والمَلبَس والمَسكن والمَنكح وضرورات المعيشة، فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسَّر كان القلبُ منصرفاً إلى تَدبيرها، فلا يتفرغ للدّين، وما لا يُوصل إلى العبادة إلّا به فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدُّنيا للاستعانةِ على الدِّين من الفَوائد الدِّينية، ولا يدخل في هذا التَّنعُّم والزِّيادة على الحاجة فإن ذلك من حُظوظِ الدُّنيا فَقط.

النوع الثاني: ما يَصرفه إلى الناس، وهو أربعة أقسام: الصَّدقة والمروءة ووقاية العرض وأُجرة الاستخدام.

أمّا الصّدقة: فقد سبق ذكر فضائلها.

أمّا المروءة: فنَعني بها صَرفَ المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافةٍ وهديّةٍ وإعانةٍ وما يجري مجراه، وهذا من الفَوائد الدينيّة إذ به يَكتسب العبد الإخوانَ والأصدقاءَ وصفة السَّخاء، والأخبار في الضِّيافة والهدايا كثيرة.

وأمّا وقاية العرض: فنعني به بَذلَ المال لدفع هجو الشُّعراء وثَلْبِ السُّفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شَرِّهم، وهو مع تَنجُّزِ فائدته في العاجلة هو من الحُظوظ الدينية أيضاً، قال النبيّ ﷺ: «ما وَقَى به المرءُ عرضَه فهو صدقة». وهذا لأنه يمنع المغتاب عن معصية الغِيبة ويحترز مما يثير كلامه من العداوة التي تَحمل في الانتقام على مُجاوزة حدود الشَّريعة.

وأمّا الاستخدام: فإن الأعمال التي يَحتاج إليها الإنسان لتَهيئة أسبابه كثيرة، ولو تولاها بنَفسه ضاعت أوقاتُه وتعذَّر عليه سلوك سَبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى[١] مَقامات السالكين، ومن لا مال له فإنه يَفتقر إلى أن يتولّى خِدمة نَفسه بنفسه، وكل ما يتصوَّر أن يقوم به غيرك ويحصل بذلك غرضك فإن تَشاغُلكَ به غَبنٌ؛ لأن احتياجك إلى التَّشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والفِكر والذكر أَشدّ.

النوع الثالث: ما لا يصرفه إلى إنسانٍ معيَّنٍ، ولكن يحصل به خيرٌ عامٌ، كبِناء المساجد والقناطر والوقوف المؤبَّدة.

فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحُظوظ العاجلة من الخَلاص من ذلِّ السُّؤال وحَقارة الفَقر وكثرة الإخوان والأصدقاء والعِزِّ بين الخَلق والكَرامة في القلوب والوقار.

أمّا الآفات: فدينيَّة ودُنيويَّة:

أمّا الدينيَّة فثلاث:

الأولى: أنه يَجرُّ إلى المعاصي غالباً؛ لأن الشَّهوات متقاضية، والعَجْزَ حائلٌ، ومن العصمة أنْ لا يقدر، ومتى يَئِسَ الإنسان من المعصية لم تَتحرك داعيته إليها، فإذا استشعر القُدرة عليها انبعثت داعيتُه، والمالُ نوعٌ من القُدرة يحرّك داعية المعاصي، فإن اقتحَم ما يَشتهي هلكَ، وإن صبر لقي شِدَّةً من معاناة الصَّبر مع القُدرة، وفتنة السَّرَّاء أعظم من فتنة الضرّاء.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (أصل أعلى).

الثانية: أنه يُحرِّك إلى التنعُّم في المباحات، ومتى تمكَّن الغَنيُّ أن يأكل خبز الشعير مع غِناه كما كان سُليمان بن داود يفعل، فإذا تَنَّعم بالمباحات صارت عادةً. وإلفاً فلا يصبر عنها، وربما لم يقدر على استدامتها إلا بكسبٍ فيه شُبهة فَيَقتحمُ[(١)] الشُّبهات ويتسلسل الأمر ويَرقى إلى آفاتٍ من مُداهنةٍ ونفاقٍ وغير ذلك ليتيسَّر له تنعُّمه، فإن من كَثُر ماله خَالطَ الناس، ومن خالطَهم لم يَسلم من نفاقٍ وعداوة وحسدٍ وحقدٍ وغيبةٍ، وكل ذلك يلزم من الحاجة إلى إصلاح المال.

الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد، وهو أنه يُلهيه إصلاحُ ماله عن ذِكر الله تعالى، قال عيسى ابنُ مريم: في المال ثلاثٌ: أن يَأخذه من غير حِلِّه. فقيل: فإن أخذه من حِلِّه؟ قال: وَضعه في غير حَقِّه. قيل: فإن وَضَعه في غير حَقِّه. قيل: فإن وَضَعه في حقه؟ قال: يَشْغله إصلاحُه عن الله[(٢)] عزَّ وجلَّ، وهذا هو الداء العُضال فإنَّ أصلَ العِبادات ومُخَّها ذِكرُ الله تعالى والتفكُّرُ في جَلالِه وعَظمته، وذلك يَستدعي قلباً فارغاً، وصاحبُ الضَّيْعةِ يمسي ويُصبح متفكراً في خُصومة الفَلاح ومُحاسبته وخِيانَته[(٣)]، وشُركائه ومُنازعتهم في الحدود والماء، وأعوانِ السّلطان في الخَراج، والأُجَراء على التَّقصير في العمارة، وصاحبُ التجارة يكون متفكراً في خيانةِ شَريكه وتقصيره في العمل وتضييعه للمال، [(٤)]وكذا سائر أصناف المال. وأبعدُها عن كَثرةِ الشُّغل[(٤)] المالُ المكنوزُ تحتَ الأرض، والفكر مترددٌ في كيفية حِفظه وفي الخَوف ممن يَعثر عليه، وأوديةُ أفكار أهل الدنيا لا نهايةَ لها، ومَنْ له قوتُ يومه في سلامةٍ من جميع ذلك.

فهذه جُمَلُ الآفات الدُّنيوية سوى ما يُقاسيه أربابُ الأموال في الدنيا من الخوف والحُزنِ والغَمِّ والهَمِّ والتَّعبِ في دَفعِ الحُسَّاد وتَجشُّم المَصاعب في حفظ الأموال وكَسبها، فإذاً تِرياقُ المالِ أخذُ القوتِ منه وصرفُ الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سُمومٌ وآفات.

---

(١) في (ظ): (فتُفتح).
(٢) في (ظ): (عن ذكر الله).
(٣) تصحفت في (ظ) إلى: (جنايته).
(٤-٤) سقط من (ظ).

بيانُ

ذَمِّ الحِرص والطَّمع ومَدح القَناعة واليَأس مما في أَيدي النَّاس

اعلم أن الفقرَ محمودٌ كما سيأتي بيانُه في كتاب الفقر، ولكن ينبغي للفقير أن يكون قانعاً مُنقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفتٍ إلى ما في أيدي الناس، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنعَ بقدر الضرورة من المطعَمِ والمَلبس، ويقتصر على أقلِّه قدراً وأَخسِّه نوعاً، ويردَّ أمله إلى يومه، فإن لم يُطق فإلى شَهره، ومتى طال أملُه أو تَشوَّفَ إلى الكثير، فاتَهُ عِزُّ القَناعة وتدنَّس بأوساخِ الطَّمع وجرَّهُ الحِرصُ والطَّمع إلى مساوئ الأخلاق.

وقد جُبل الآدميّ على الحِرص والطمع وقلّة القناعة، وقد روينا أنه كان فيما يُتلى ثم رُفع: (لو كانَ لابنِ آدمَ واديانِ من ذهبٍ لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التُّراب). وفي الصَّحيحين من حديثِ أنس بن مالك عن النّبي ﷺ أنه قال: «يَهرمُ ابنُ آدم وتَشِبُّ منه اثنتان: الحِرص والأَمل»، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النّبي ﷺ أنه قال: «قَلبُ الشَّيخ شابٌّ على حُبِّ اثنتين: طولِ الحياة وحُبِّ المال».

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه: لا يُدركُ حريصٌ مالم يُقدَّر له.

وقال الشَّعبيُّ: وَجدتُ البَلايا في الدنيا إنّما يَسوقها إلى أهلها الحِرص والشَّرَه.

ولمّا كانت جِبِلَّة الآدمي على هذا أَثنى الشرعُ على القَناعة والتعفُّف، أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا عبد الله بن يزيد قال: حدثنا سعيد بن أبي أيوب قال: حدَّثني شُرَحْبيل بن شَريك عن أبي عبد الرحمن الحُبلي

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسولَ الله ﷺ قال: «قَدْ أفلحَ مَنْ أسلمَ ورُزِقَ كَفافاً وقَنَّعهُ اللهُ عزَّ وجل بما آتاه». انفرد بإخراجه مسلم.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليسَ الغِنَى عن كَثْرة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غِنَى النَّفس».

وفيهما من حديث حَكيم بن حِزام عن النّبي ﷺ أنّه قال: «مَن يَستعفّ يُعفّه الله، ومن يَستغنِ يُغْنِه الله».

وفي حديث ابن مسعود عن النبيّ ﷺ أنه قال: «ليسَ المسكينُ بالطّوّاف ولا بالذّي تَردُّهُ التَّمرةُ والتَّمرتَان، ولا اللُّقْمةُ ولا اللُّقْمتان، ولكن المِسكين المتعفِّف الذي لا يَسأل النّاس شَيئاً، ولا يُفطَنُ له فيُتَصدق عَليه».

وقد روينا أن موسى عليه السَّلام قال: يا ربّ، أي عِبادك أغنى؟ قال: أَقْنعهم.

وقد روينا أن سُليمان بن داود عليه السّلام قال: قَدْ جَرَّبْنا العَيشَ كلّه لَيِّنه وشَديده، فَوجدناه يكفي منه أدناه.

وقال عُزَيرٌ: ربِّ، ما علامة مَنْ صافَيتَهُ من خَلقك؟ فأوحى الله إليه: أُقَنِّعُه باليَسير، وأَدَّخِرُ له في الآخرة الكَثير.

وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ القَناعةَ مالٌ لا يَنْفَد».

وفي حديث ابن عبّاس عنه ﷺ قال: «إنّما يكفي أحدكم ما قَنعتْ به نَفسُه».

وفي حديث أبي هريرة عنه ﷺ أنه قال له: «ارْضَ بما قَسَم اللهُ لكَ تكُنْ أَغْنَى الناس».

وكان أبو ذَرٍّ جالساً مع الناس(١)، فأتته امرأتُه فقالت: تجلس بين هؤلاء واللهِ ما في البيت هفَّةٌ ولا سفَّة! فقال: يا هذه إنَّ بين أيدينا عَقبةً كَؤودٌ لا ينجو منها إلا كلُّ مُخِفٍّ. فرجعت وهي راضية.

---

(١) في (ظ): (النبي).

وقال وَهبُ بن مُنبِّه في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. قال: القَناعةُ.

وكان محمّد بن واسع يبلُّ الخبز بالماء ويأكله ويقول: مَن قَنع بهذا لم يحتجْ إلى أحد.

وكان الحسنُ يقول: اللّهمَّ إنّا نعوذُ بك أن نملَّ معافاتك. قالوا: كيفَ ذلك يا أبا سَعيد؟ فقال: الرجل يكون في بلده في خَفضٍ ودَعَةٍ فتدعوه نفسُه إلى أن يَطلب الرِّزق في غيره.

وقال أبو حازم: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه فَقدْ كَمُلَ عقلُه: مَن عرفَ نفسه، وحَفِظَ لسانَه، وقَنع بما رزقه الله عزَّ وجل.

وقال بعضُ الحكماء: أنتَ أخو العِزِّ ما التحفتَ بالقَناعة.

وأنشدوا في هذا المعنى:

حتّى متى أنا في حِلٍّ وترحالِ ... وطول سَعْي وإدبارٍ وإقبالِ
ونازح الدّار لا أنفكُّ مُغترباً ... عن الأحبَّة لا يَدرون ما حالي
بمَشرقِ الأرض طوراً ثم مَغربها ... لايَخطر الموتُ من حِرصي على بالي
ولو قَنعتُ أتاني الرزق في دَعَةٍ ... إن القُنوعَ الغِنى لا كَثْرة المالِ

وأنشدوا أيضاً:

يا جامعاً مانعاً والدَّهرُ يَرمُقه ... مُقدِّراً أيّ بابٍ عنه يُغلقهُ
مفكراً كيف تأتيه مَنِيَّتُه ... أغادياً أم بها يَسري فتَطرقهُ
جمعتَ مالاً فقُل لي هل جمعتَ له ... يا جامعَ المال أياماً تُفرِّقهُ
المالُ عندكَ مخزونٌ لوارثه ... ما المالُ مالُكَ إلا يوم تُنفقهُ
أرفه[1] ببالِ فتىً يغدو على ثقةٍ ... إن الّذي قَسَّم الأرزاق يَرزُقهُ

(١) أرفه: من الرفاهية، وهي سعة العَيش.

فـالـعـرضُ مـنـه مـصـون لا يُـدنِّـسُـهُ والـوَجـه مـنـه جـديـد لـيـس يُـخْـلِـقُـهُ
إنَّ الـقَـنـاعـةَ مـن يَـحـلـل بـسـاحـتِـهـا لـم يَـلـق فـي ظِـلِّـهـا هَـمَّـاً يُـؤرِّقُـه

وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن شدَّةِ الحِرص فقال: «أيُّها الناس، أَجْمِلوا في الطَّلب، فإنَّه ليس لعبدٍ إلا ما كُتِبَ لهُ»(١).

وقال شَبيبُ بن شَيبة: حِرصُ المرء يَهتك قَدره، والقُنوع يصون أهله.

وقال بِشْر الحافي: مَنْ باع الحِرصَ(٢) بالقَناعة ظَفِرَ بالغِنى.

ونهى عليه الصلاة والسَّلام عن الطَّمع فقال: «أَجمعِ اليَأسَ مما في أيدي الناس»(٣).

وقال عمر بن الخَطَّاب: تعلَّموا أن الطَّمعَ فَقر، وأنَّ اليَأسَ غِنىً، (٤وأنه من يَيأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم٤).

وقال أبو بكر الوَرَّاق: لو قيلَ للطمع: مَنْ أبوك؟ قال: الشَّكُّ في المَقدور. ولو قيلَ: ما حِرفَتك؟ قال: اكتِسابُ الذُّل. ولو قيل: ما غايَتُك؟ قال: الحِرمان.

وقال: بَعضُ الحكماء: أكثرُ مصارع العُقول تحتَ بُروق الطَّمع، والمَطامع هي وَثاق(٥) الذُّل. وقال آخر: الطَّمع يُذِلُّ الأمير، واليأسُ يُعِزُّ الفقير(٦).

---

(١) في (ظ): (ما كتب الله له).
(٢) في (ظ): (العز).
(٣) أخرجه أحمد (٢٣٤٩٨) من حديث أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: عِظني وأوجز. فقال: (إذا قُمتَ في صلاتك فصَلِّ صلاة مودِّع، ولا تَكلَّمْ بكلامٍ تعتذر منه غداً، وأَجْمِعِ الإياس مما في يد الناس).
(٤-٤) وردت في النسخ مضربة: (وأن المراد إياس من شيء استغنى عنه) والمثبت من الإحياء.
(٥) تحرفت في (ظ) إلى: (وثائق).
(٦) في (ظ): (يغني).

بَيان

علاج الحِرص والطَّمع
والدَّواء الذي تُكتسَبُ به صفة القَناعة

اعلم أنَّ هذا الدواء مُركَّب من ثلاثة أركان: الصَّبر، والعِلم، والعَمل، ومجموع ذلك خَمسَة أمور:

الأول: وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق، فمن أراد عِزَّ القناعة فينبغي أن يَسُدَّ عن نفسه أبوابَ الخَرج ما أمكنه، ويرد نفسه إلى مالا بدّ له منه، فمن كَثُرَ خَرْجُه واتَّسع إنفاقُه لم تُمكِنهُ القناعة بل إن كان وحده فينبغي أن يقنع بثوبٍ واحدٍ خَشنٍ ويقنع بأي طعامٍ كان، ويقلل من الإدام ما أمكنه، ويوطِّن نفسه عليه، وإن كان له عِيالٌ فيردُّ كل واحد إلى هذا القدر، فإن هذا القدر يَتيسَّرُ بأدنى جهد، ويمكن معه الإجمال في الطَّلب.

والاقتصادُ في المعيشة هو الأصلُ في القَناعة، ونَعني به الرفقَ في الإنفاق وتَرك الخُرْقِ فيه، قال ﷺ: «إنَّ اللهَ يحب الرِّفق في الأمر كله» وقال: «ما عالَ من اقتَصد». وقال: «ثَلاثٌ مُنجيات: خَشيةُ الله في السِّرِّ والعلانية، والقَصد في الغِنى والفَقر، والعدل في الرضا والغَضب» وفي الحديث: «التَّدبير نِصف العَيش».

ورأى رجلٌ أبا الدَّرداء يلتقطُ حَبّاً من الأرض ويقول: إنَّ من فِقهك رفقُك في مَعيشتك.

والثاني: أنه إذا تَيسَّر له في الحال ما يَكفيه، فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل، ويُعينُه على ذلك قِصَر الأمل واليقين بأن رزقه المقدَّر له لابد أن يأتيه وإن لم يحرص، وأن شدة الحرص ليس هو السبب لوصول الرزق، وليعلم أن الشيطان يَعده الفقر ويأمره بالفحشاء، فيخوفه أن يمرض أو يعجز أو

يحتاج ويحثُّه على شِدَّة الحِرص واحتمالِ الذُّل[١]، ثم يضحك به إذ يَستعجل الذلَّ والحرص لأجلٍ متوهم في ثاني الأمر، وقد قال الشاعر:

ومَنْ يُنفق الأيام[٢] في جمع مالِهِ   مَخافةَ فَقرٍ فالذي فَعَلَ الفَقر

وقد روى ابنُ مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفسٍ تموت حتى تَسْتَوفي رِزْقها، فاتّقوا الله وأَجْمِلوا في الطَّلب، ولا يحملنكم استبطاء الرِّزق أن تَطلبوه بمعاصي الله عز وجل، فإنه لا يُدرَكُ ما عند الله عزَّ وجل إلا بطاعته».

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «لو فَرَّ أحدكم من رزقه لأدركَه كما يدركه الموت».

وقال عُمر بن الخطاب: ما مِنْ امرئٍ إلا وله أثر هو واطِئُه، ورزقٌ هو آكِلُه، وأجلٌ هو بالِغُه، وحَتفٌ هو قاتِلُه، حتى لو أن رجلاً هربَ من رزقه لاتَّبعه حتى يُدركه كما أن الموت مدركٌ مَنْ هرب منه.

وقال أبو حازم: وجدتُ الدنيا شَيئَين: فشَيءٌ هو لي، فلن أُعجله قبل أَجله ولو طَلبتُه بقوة السماوات والأرض، وشيءٌ هو لغَيري، فذلك لم أَنله فيما مضى ولا أرجوه فيما بَقي، يُمنَع الذي لي من غَيري كما يُمنع الذي لغَيري مني، ففي أي هذين أُفْني عمري؟ ووجدتُ ما أُعطيتُ من الدُّنيا شيئين: فَشَيءٌ يأتي أَجَلُه قبل أجلي فأغْلب عليه، وشيءٌ يأتي أجلي قبل أجله، فأموت وأُخلّفه لمن بَعدي، ففي أي هذين أعصي ربي؟

واعلم أنه لا ينفك الإنسان عن الحِرص إلا بُحسنِ ثقته بتَدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد، وأن ذلك يصل لا محالة، مع الإجمال في الطَّلب، بل ينبغي أن يَعلم أن رزق العبد من حيث لا يَحتسب أكثر، فإذا انْسَدَّ عليه بابٌ كان ينتظر

(١) في الأصل: (أذى الذل).
(٢) في الأصل: (الأيام الساعات) هكذا. والبيت له رواية أخرى: (ومن ينفق الساعات).

الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبُه، فقد قال عليه الصَّلاة والسلام: «أَبى اللهُ أنْ يَرزُقَ عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب».

فهذا دَواءٌ من جهة المعرفة لا بدَّ منه لدفع تَخويف الشَّيطان وإنذاره بالفقر.

الثالث: أن يَعرف ما في القَناعة من عِزِّ الاستغناء، وما في الطَّمع والحرص من الذلِّ، فإذا تحقَّق عندَه ذلك انبعثت رَغبتُه إلى القَناعة، لأنه لا يَخْلو في الحرص من تَعبٍ وفي الطَّمع من ذُلٍّ، وليس في القَناعة إلا ألم الصَّبر عن الشَّهَوات والفُضُول، وهذا ألمٌ لا يَطَّلع عليه أحد، وفيه ثواب الآخرة[1]، وذلك المتقدم يُضاف إليه نظر الناس، وفيه الوَبال والمأثم، ثم إنه يَفوتُه عِزُّ النَّفس والقُدرة على متابعة الحق، فإن من كَثُر طمعه وحِرصه كثرت حاجَتُه إلى الناس فلا يمكنهُ أن يدعوهم إلى الحق، فيحتاج إلى أن يُداهن، ومن لم يُؤْثِر عِزَّ النَّفس على شَهوة البَطنِ فَهو ركيك العَقل ناقص الإيمان، قال ﷺ: «عِزُّ المؤمن استغناؤه عن الناس». ففي القنَاعة الحرية والعِز، ولذلك قيل: استَغنِ عَمَّن شئتَ فأنتَ نظيره، واحتج إلى مَنْ شئتَ فأنتَ أسيرُه، وأَحسِن إلى من شِئتَ فأنتَ أميرُهُ.

الرابع: أن يكثر تفكُّره في تَنعُّم اليَهود والنَّصَارى وأراذِل الناس والحمقى منهم ومن لا دين له ولا عقل، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء والصّالحين، ويسمع أحاديثهم ويُطالع أحوالهم، ويُخيِّر عقلَه بين أن يكونَ على مشابهة أراذل الخَلق، أو على الاقتداء بمن هو أعزُّ أصناف الخَلق عند الله حتى يَهون بذلك الصبر على القليل والقناعة باليسير، فإنه إنْ تَنعَّم بالمطعم فالبَهيمة أكثر منه أكلاً، وإن تَنعَّمَ بالوَطءِ فالعُصفور أكثر سِفَاداً منه، وإن قنع بالقَليل لم يُساهِمْهُ[2] في رُتبته إلا الأنبياء والأولياء.

الخامس: أن يَفهم ما في جَمع المال من الخَطر، كما ذكرناه في آفات المال وما فيه من خوف السَّرقة والنَّهبِ والضَّياع، وما في خُلوِّ اليَدِ من الأَمنِ والفَراغ

---

(١) في النسخ: (الأجر)، والمثبت من الإحياء.
(٢) في الأصل: (يشابهه)، ويُساهمه، أي: يُشاركه.

وثواب الفقر، ويُتَمم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من هو دونَه في الدنيا لا إلى من فَوقَه، فإن الشيطان أبداً يصرف نظر الآدمي إلى من فوقه في الدنيا ودونه في الدِّين، وقد أخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا مَعمر عن هَمّام بن مُنبِّه قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدُكم إلى مَنْ فَضَّل اللهُ عليه في المال والخَلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممّن فَضَّل الله عليه». أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظٍ: «انظُروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فَوقكم، فإنه أجدرُ أن لا تَزْدَروا نِعْمَةَ الله عليكم».

واعلم أنه مَن حقق العمل بهذه الأشياء قَدر على اكتساب خُلُقِ القَناعة، وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أيام قلائل لتَمتُّعٍ دائم، فيكون كالمريض الذي يَصبر على مَرارة الدَّواء لما يرجوه من الشِّفاء.

بَيانٌ

فَضيلة السَّخاء

ينبغي لمن فقد المال أن يَستعمل القناعة والصَّبر، ولمن وجده أن يَستعمل السَّخاء والإيثار واصطِناع المعروف، فإن السَّخاء من أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ يومٍ يُصبح[1] العبادُ فيه إلا مَلكان يَنْزِلان، فيقول أحدُهما: اللهمَّ أَعْطِ مُنفقاً خَلَفاً. ويقول الآخر: اللهمَّ أَعْطِ مُمسِكاً تَلَفاً».

وقد روى جابرٌ عن النبي ﷺ أنه قال: «قال جبريل: قال الله عز وجل: إنَّ هذا دينٌ - وفي لفظٍ: الإسلام دين - ارتَضَيْتُهُ لنفسي، ولن يُصلحه إلا السَّخاء وحُسنُ الخُلُق، فأكرموه بهما ماصَحبتموه».

وروى جابر أيضاً عن النبي ﷺ أنه قيل له: أيّ الإيمان خير؟ قال: «الصَّبرُ والسَّماحة».

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه قال: «تَجافوا عن ذنب السَّخي، فإن الله آخِذٌ بيده كلما عَثَر».

وروت عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «الجنة دار الأسخياء».

وما جُبِلَ وليٌ لله عز وجل إلا على السخاء، والسَّخِيُّ قريبٌ من الله بعيد عن النار قريبٌ من الجنة، والبَخيلُ بعيد من الله بعيدٌ من الجنة بعيدٌ من الناس قريب من النار، والجاهل السَّخِيّ أحبّ إلى الله من العابد البَخيل، ورَوى أبو هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «السَّخاء شَجرةٌ في الجنَّة، فمن كانَ سخيّاً أخذ بغصنٍ منها فلم يَتركه

(١) في (ظ): (أصبح).

ذلك الغُصن حتى يُدخله الجنَّة، والشُّحّ شَجرةٌ في النار، فمن كانَ شَحيحاً أَخذَ بغُصنٍ منها، فلم يتركه ذلك الغُصن حتى يُدخله النار».

وروى أنسٌ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ بُدَلاء أُمّتي لم يدخلوا الجنة بصلاةٍ ولا بصيامٍ، ولكن دخلوها بِسَخاءِ الأنفس وسَلامة الصُّدور والنُّصح للمسلمين».

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحبَّ عبادِ الله عزَّ وجل إلى الله مَنْ حُبِّبَ إليه المعروف وحُبِّبَ إليه فَعَالُه، وفِعلُ المعروف يَقي مصارع السُّوء، وإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ للمعروفِ وُجوهاً من خَلقِه، حَبَّبَ إليهم المعروف، وحَبَّبَ إليهم فعاله، ووجَّهَ طُلّاَبَ المعروف إليهم، ويَسَّر عليهم إعطاءَه، كما يَسَّرَ[1] الغَيثَ إلى البلدة الجَدْبة، فيُحييها ويُحيي بها أهلَها».

وروى ابنُ عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «عليكم باصطِناع المعروف، فإنه يَمنع مصارعُ السُّوء».

وروى عنه حُذَيفة أنه قال: «كلُّ معروفٍ صَدَقة».

وروى عنه ابنُ عمر رضي الله عنهما أنه قال: «إن لله عزَّ وجلَّ قوماً يختصُّهم بالنِّعَم لمنافِعِ العِباد، ويُقرُّها فيهم ما بَذَلوها، فإذا مَنَعوها نَزَعها منهم فحوَّلها إلى غيرهم».

وقال ابن السَّمَّاك: عَجبتُ ممّن يَشتَري المماليكَ بمالِه كيفَ لا يَشتري الأحرارَ بمعروفِهِ[2][3].

حكايات عن الأسْخِياء

قد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه كان أجودَ بالخير من الريحِ المُرسلةِ[4]، وأنه ما

(١) في (ظ): (يتيسَّر).
(٢) في (ظ): (به).
(٣) هنا نهاية نسخة الظاهرية المرموز لها بالحرف (ظ).
(٤) البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨).

سُئِلَ شيئاً قط فقال: لا[(١)]. وأنّ رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين جَبلين، فأتى الرجلُ قومَه فقال: أسلِموا، فإنَّ محمداً يُعطي عطاءَ من لا يَخْشى الفاقة[(٢)].

وقال موسى بن طلحة: كان لعثمانَ على طلحة[(٣)] خَمسونَ ألفَ درهمٍ، فخرجَ يوماً عُثمانُ إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيّأَ مالُكَ فاقبِضه. فقال [عثمان]: هو لك يا أبا محمد معونةً على مُروءَتِك.

وقال طلحةُ يوماً: عندي مالٌ قد غمَّني. فَقَسَمهُ، وكان أربعَ مئةِ ألف[(٤)].

وجاءَ أعرابيٌّ إلى طلحة فسأله، وتَقرَّبَ إليه برحِمٍ، فقال: إنَّ هذه لَرَحِمٌ ما سألني بها أحدٌ قَبْلَكَ. فأعطاه ثلاثَ مئةِ ألف[(٥)].

وقال عُروة[(٦)]: رأيتُ عائشةَ تقسِمُ سبعينَ ألفاً، وهي ترقعُ دِرْعَها[(٧)]. وروت أُمُّ ذَرَّةَ[(٨)]، أنه بُعِثَ إلى عائشةَ بمالٍ في غِرارَتين[(٩)]، ثمانينَ ومئةَ ألفِ درهمٍ، فدعت بطبقٍ، فجعلت تَقْسِمُهُ بينَ الناس، فلما أمسَتْ قالت لجاريتها: يا جاريةُ، هَلُمِّي فطوري. فجاءتها بخُبزٍ وزيت، فقالت لها أم ذَرَّة: ما استَطعتِ فيما قَسَمتِ اليومَ أن تشتري لنا بدرهمٍ لحماً نُفْطِرُ عليه؟ فقالت: لو ذكَّرتِني لفعلت.

---

(١) البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٢).
(٣) يعني طلحةَ بن عُبيد الله القرشي أبا محمد التيمي، أحد العشرة المبشرين بالجنة. سير أعلام النبلاء ١/ ٢٣.
(٤) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٤٥٨، والطبراني في الكبير (٩٥) وأبو نعيم في الحلية ١/ ٨٨.
(٥) حلية الأولياء ١/ ٨٨، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٣١.
(٦) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي أبو عبد الله، من كبار التابعين، توفي سنة ٩٤هـ. السير ٤/ ٤٢١.
(٧) درع المرأة: قميصها.
(٨) هي أم ذَرَّة المدنية، مولاة عائشة رضي الله عنها.
(٩) الغِرارة: وعاءٌ يستعمل للتبن وغيره، والجمع غرائر.

واشترى عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ من خالدِ بن عُقبة دارَه التي في السوق بتسعينَ ألفِ درهم، فلما كان الليل، سَمِعَ بُكاءَ أهلِ خالدٍ، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكونَ على دارهم[١]. قال: يا غلام، إيتهم فأعلِمْهم أن المالَ والدارَ لهم جميعاً.

ورأى عُبيدُ اللهِ بنُ أبي بكرة على أبي الأسود الدُّؤَلي جُبَّةً رَثَّةً، فقال: أما تَمَلُّ هذه الجُبَّة؟ فقال: رُبَّ مملولٍ لا يُستَطاعُ فِراقُه. فبعثَ إليهِ مئةَ ثوبٍ.

وبعثَ رجلٌ[٢] إلى عُبيدِ اللهِ: إنه قد وُصِفَ لي لبنُ البقرِ، فابعثْ إليَّ بَقَرةً أشربُ مِنْ لبنِها. فبعثَ إليه سبعَ مئةِ بقرةٍ ورعاتِها، وقال: القَريةُ التي كانت ترعى فيها لكَ.

ودخل عليُّ بن الحُسين على محمد بن أسامة بن زَيد في مرضه، فجعل يبكي، فقال: ما شأنُك؟ قال: عليَّ دينٌ. قال: كم هو؟ قال: خمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ. أو: بضعةَ عشرَ ألف دينار. قال: فهيَ عَليَّ[٣].

وقال عبدُ الله بن سَلمة: سألَ رجلٌ في مَسجدنا، وللمسجد بابان، فقام رجلٌ مِنّا فقال: من خرجَ من هذا البابِ فَعليه خمسُ مئةِ درهمٍ، ومن خرج من هذا الباب فعليه ثلاثُ مئةِ درهمٍ. فازْدَحمَ الناسُ على بابِ الخمسِ مئةِ درهم.

أنبأنا يحيى بن الحسن[٤] بن البناء، قال: أخبرنا أبو الحسين[٥] محمد بن أحمد [ابن] الآبنوسي، قال: أخبرنا الدارقطني، قال: أخبرنا أبو بكر ابن الأنباري قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو عكرمةَ الضَّبِّيُّ، قال: حدثنا سُليمان بن أبي شَيخ، قال: حدثنا الواقديُّ، قال: أَضَقْتُ[٦] مرةً، وأنا مع يحيى بن خالد البَرمكي،

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (دراهم).
(٢) هو المهلَّبُ بن أبي صُفرة كما في سير أعلام النبلاء ٤/ ١٣٨.
(٣) حلية الأولياء ٣/ ١٤١.
(٤) تحرف في الأصل إلى: (الحسين).
(٥) تحرف في الأصل إلى: (الحسن)
(٦) في الأصل: (ضقت). وأضاق الرجل: ذهب ماله وأصابته ضائقة.

وحضرَ عيدٌ، وجاءتني جاريةٌ، فقالت: قد حضرَ العيدُ، وليسَ عندنا من آلته شيءٌ. فمضيتُ إلى صديقٍ لي من التُّجارِ، فَعرَّفُته حاجتي إلى القَرضِ، فأخرجَ كيساً مختوماً، فيه ألفٌ ومئِتا درهمٍ، فأخذتُه، وانصرفتُ إلى منزلي، فما اسْتَقْرَرْتُ فيه حتّى جاءني صديقٌ لي هاشميٌّ، فَشكا إليَّ تأخُّرَ غَلَّتِهِ، وحاَجَتَهُ إلى القَرضِ، فدخلتُ إلى زوجتي وأخبرتُها، فقالت: على أيِّ شيءٍ عزمتَ؟ قلتُ على أن أُقاسِمه الكيس. فقالت: ما صنعتَ شيئاً، أتيتَ رجلاً سُوقَةً[1]، فأعطاكَ ألفاً ومئتي درهم، وجاءكَ رجلٌ، وله من رسول الله ﷺ رحمٌ ماسَّةٌ، تُعطيه نصفَ ما أعطاك السُّوقَةُ؟ ما هذا شيئاً، أعطِه الكيسَ كُلَّه. فأخرجتُ الكيسَ، فدفعتُه إليه، ومضَى صديقي التّاجر إلى الهامشي، وكان له صديقاً، فسأله القَرْضَ، فأخرجَ الهاشميُّ إليه الكيسَ، فلمَّا رأى خاتَمَهُ عرفَهُ، وانصرفَ إليَّ فخبَّرني بالأمر، وجاءني رسول يحيى ابن خالد، فركبتُ إليه، فأخبرتُه بخبر الكيس، فقال: يا غُلام، هاتِ تلك الدَّنانير، فجاءه بعشرة آلافِ دينارٍ، فقال: خُذْ ألفَي دينار لك، وألفين لصديقك التَّاجر، وألفين للهاشمي، وأربعة آلافٍ لزوجتك، فإنَّها أكرمُكُم[2].

أخبرنا أبو منصور القزاز، قال: حدثنا أبو بكر بنُ ثابت، قال: أخبرنا الحسَن ابن محمد النَّصِيبي، قال: أخبرنا إسماعيلُ بنُ سَعيد المُعدِّل، قال: أخبرنا ابنُ دُريد، قال: أخبرنا أبو مُعاذ المؤدِّب، قال: أخبرنا أبو عُثمان المازِني، قال: حَدَّثني صاحبُ شُرطَةِ مَعن[3]، قال: بينما أنا على رأس مَعن، إذا هو براكبٍ يُوضِع[4]، فقال لحاجبه: لا تَحجُبه. فجاء حَتَّى مَثل بين يديه، فقال:

أَصلحكَ اللهُ قَلَّ ما بِيَدي ... فما أُطيقُ العِيالَ إذْ كَثُروا
أَلحَّ دَهرٌ رَمى بِكَلْكَلِه ... فأرسَلوني إليكَ وانتَظَروا

---

(١) السوقة: الرعية وعامة الناس.
(٢) تاريخ بغداد ٣/ ١٩ ـ ٢٠.
(٣) هو مَعن بن زائدة بن مطر، من الأسخياء المشهورين، كان والياً على اليمن ثم سجستان ثم البصرة، قتله الخوارج سنة ١٥٢هـ. السير ٧/ ٩٧.
(٤) أوضعَ الراكب الدابة: حملها على السير السريع،

فقال معن ـ وأخذته أَرْيَحيَّةٌ[١]: لا جَرَمَ ـ والله ـ لأُعجلنَّ أَوْبَتَك. ثم قال: يا غلام، ناقتي الفلانية، وألف دينار. فدفعها إليه وهو لا يعرفه.

وبلغنا عن مَعنٍ، أن شاعراً أقام ببابه مدَّةً، فلم يتهيأْ له لقاؤه، فقال لبعض خَدمه: إذا دخل الأميرُ البستانَ فعرِّفْني. فلمّا دخل أَعْلَمَه، فكتبَ الشاعرُ بيتاً على خشبةٍ، وألقاها في الماء الذي يدخل بُستانَ مَعنٍ، فلمّا بَصُرَ معنٌ، بالخشبةَ أخذها، فإذا عليها مكتوبٌ:

أيا جودَ مَعْنٍ ناجِ مَعناً بحاجَتي فمالي إلى مَعنٍ سواكَ شَفيعُ

فقال: مَن صاحب هذه؟ فدُعي الرَّجل فقال له: كيفَ قلتَ؟ فقالَ، فأمرَ له بعشر بِدَرٍ[٢]، فأخذها، ووضعَ الأميرُ الخشبةَ تحتَ بِساطه، فلمّا كان اليومُ الثاني أخرجها من تحتِ البساط، وقرأَ ما فيها، ودَعا بالرّجل، فدفعَ إليه مِئَةَ ألفِ درهم، فلَّما أخذها الرَّجل خافَ أن يعودَ فيستعيدَها منه، فخرجَ، فلّما كان في اليومِ الثالثِ، قرأَ ما فيها، ودَعا بالرَّجُلِ، فَطُلِبَ، فلم يُوجد، فقال مَعْنٌ: حَقٌّ عليَّ أن أُعطيه حتّى لا يَبقى في بيت مالي درهمٌ ولا دينارٌ.

ومرضَ قيسُ بن سعد بن عُبادة، فاستَبْطَأَ إخوانَه، فقيل له: إنَّهم يَستحيُونَ مِمَّا لَكَ عليهم من الدَّين. فقال: أَخزى اللهُ مالاً يَمنعُ الإخوانَ من الزِّيارَةِ. ثُمَّ أَمَر مُنادياً فنادى: من كان عليه لقيسٍ حقٌّ فهوَ منهُ في حِلٍّ. قال: فكُسِرت دَرجتُه بالعَشيِّ لكثرةِ من عادَه.

وقام رجلٌ إلى سعيدِ بن العاص فسأله: فأمر له بمئةِ ألفِ درهم فبكى، فقال سعيد: ما يُبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكلَ مثلك. فأمرَ لهُ بمئةِ ألفٍ أُخرى.

---

(١) أخذته أريحية: أي خِفة وهَشَّةٌ، وارتاح للندى والكرم.

(٢) بدَر: جمع بَدْرة، وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار.

بيانُ

ذَمِّ البُخل

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧].

وروى أبو سَعيد، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «خَصْلَتَانِ لا تَجْتمعانِ في مُؤمنٍ؛ البُخلُ، وسوءُ الخُلُقِ»(١) و[قال ﷺ](٢): «إنَّ أَحدَكم لَيَسْأَلُني المسأَلَةَ، فأُعْطيها إيَّاهُ، فيَخْرُجُ مُتَأَبِّطَها، وما هيَ لَه إلا نارٌ». فقال عمر: يا رسولَ الله فلمَ تُعطيهم؟ قال: «إنَّهم يأبَون إلا أن يَسْأَلوني، ويأبى اللهُ ليَ البخلَ»(٣). وقال ﷺ: «لا يَجتمعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قلبِ عبدٍ أبداً»(٤).

وفي أفراد مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنّه قال: «اتَّقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ من كان قبلكم، حملَهم على أن سَفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم»(٥).

---

(١) حديث حسن، أخرجه الطيالسي (٢٢٠٨) وعبد بن حميد في المنتخب (٩٩٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٢)، والترمذي (١٩٦٢)، وأبو يعلى (١٣٢٨) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٩) و(٣٦٩)، وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٥٨ و٣٨٨، والقُضاعي في مسند الشهاب (٣١٩)، والبيهقي في الشُّعب (٨٠١٨) و(١٠٨٣٠)، والخطيب في البخلاء (٤٠)، والطبري في تهذيب الآثار (١٦٥) مسند عمر.

(٢) ما بين معقوفين ليس في الأصل، ولا بد منه، فهما حديثان لا حديث واحد.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٧) و(٢٣٤)، ومسلم (١٠٥٦) (١٢٧) من حديث عمر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (١١٠٠٤) و(١١١٢٣) و(١١١٢٤)، والبزار (٩٢٤) في الكشف، وأبو يعلى (١٣٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٧٤٨٠) و(٨٤٧٩)، والطيالسي (٢٤٦١)، وسعيد بن منصور (٢٤٠١) و(٢٤٠٢)، وابن أبي شيبة ٥/٣٣٤، و٩/٩٧، وهنّاد في الزهد (٤٧٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨١) وفي التاريخ الكبير ٤/٣٠٧، من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

وفي أفراد مسلم من حديث زيد بن أَرقم، عن النبيّ ﷺ أنّه كان يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعوذُ بكَ مِنَ الجُبنِ والبُخلِ»[1].

أنبأنا أحمدُ بنُ أحمد[2] المتوكِّلي، قال: أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت، قال: أخبرنا ابنُ بِشْران، قال: حدثنا ابن صَفوان، قال: حدثنا أبو بَكر القُرشيّ، قال: حدثنا سلمةُ بن شَبيب، قال: حدثنا مروان بن محمّد، عن ابن لَهيعة، عن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جَدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «نَجّى أَوَّلَ هذه الأمةِ اليقينُ والزُّهدُ، ويُهلكُ آخرَ هذه الأمةِ البخلُ والأملُ»[3].

وروى جابرُ بن عبد الله عن النبي ﷺ أنّه قال لبني سَلمة: «يا بني سلمة، من سَيِّدكم؟» قالوا: جَدُّ بنُ قيس، على أَنَّا نُبَخِّلُه. قال: «وأيُّ داءٍ أَدْوَأُ من البُخل؟! بل سيّدكم الأبيضُ عمرو بنُ الجَموح»[4].

وفي روايةٍ أخرى: «بل سيّدُكم بشرُ بنُ البراءِ بنِ مَعْرور»[5] وهي أصحُّ من ذكرِ عمروِ بنِ الجَموحِ، وغَلِطَ بعض الرُّواة فقال: البراء بن معرور[6]. والبراءُ مات قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).
(٢) في الأصل: (محمد)، والتصويب من السير ١٩/ ٤٩٨.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في اليقين (٣)، والطبراني في الأوسط (٧٦٤٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٤٤) و(١٠٨٤٥).
(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٠٨)، وأبو الشيخ في الأمثال (٩١)، (٩٢)، (٩٣) والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٦)، والبزار (٢٧٠٥) كشف الأستار، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٣١٧، والقُضاعي في مسند الشهاب (٢٨٦) و(٢٨٧) والبيهقي في الشُّعَب (١٠٨٥٧) و(١٠٨٥٩) و(١٠٨٦٠).
(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢/ (١٢٠٣)، وابن عدي في الكامل ٤/ ٤٥٩، والحاكم ٣/ ٢١٩ و٤/ ١٦٣، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢/ ٢٥١، والبيهقي في الشُّعَب (١٠٨٥٦).
(٦) أخرجه أبو الشيخ في الأمثال (٩٤) عن أبي هريرة. وأخرجه البيهقي في الشُّعب (١٠٨٥٨) عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك مرسلاً.

قال أبو محمّد الرّامَهُرمزي[١]: إنّما يُشَبَّهُ البخلُ بالدّاء لأنه يُفسِدُ الخُلُقَ، ويَدفَعُ عنِ السُّؤْدُدِ، ويُكْسِبُ سوءَ الثناءِ والمَذمَّةَ، كما أن الدَّاءَ يُضعفُ الجسمَ، ويُبْطِلُ الشَّهوةَ، ويغيِّرُ اللّونَ، ثمَّ إنَّ البخيلَ إذا أنفق أَلِمَ كما يألَمُ صاحبُ الدّاء. وقد قال الحكماء: الكريمُ حرٌّ لأنه يملكُ مالَه، والبخيلُ لا يستحقُّ اسم الحرّيةِ، لأنَّ مالَه يَمْلِكُهُ.

وقد روينا عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «لا يَدخل الجنّة بَخيل»[٢].

وقال ﷺ: «ثلاثٌ مُهلكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوىً متّبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنَفسِه»[٣].

قال الخَطّابيّ: الشُّحُّ أبلغُ في المنعِ من البُخلِ، وإنّما الشُّحُّ بمنزلةِ الجِنسِ، والبُخلُ بمنزلةِ النّوعِ، فالبخلُ في أفراد الأمور، والشحُّ عامٌّ، وهو كالوصفِ اللازمِ للإنسانِ من قِبَلِ الطَّبْعِ والجِبِلَّةِ.

وقال بعضُهم: البُخلُ أن يَضنَّ بمالِهِ، والشُّحُّ أن يبخَلَ بمالِهِ ومعروفِهِ.

وروى أبو الدرداء، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ما طَلعت شمسٌ قطُّ إلّاَ بعثَ اللهُ بجنبتيها[٤] مَلَكَين يُناديان، يُسْمِعَان الخلائق كُلَّها غيرَ الثَّقلين: اللَّهُمَّ عَجِّل لمنفقٍ خَلفاً، وأعطِ مُمسكاً تلفاً»[٥].

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الفارسي، الحافظ المحدث، صنف كتاب (المحدث الفاصل بين الراوي والواعي) و(النوادر) و(أدب الناطق) وغيرها. توفي نحو سنة ٣٦٠هـ. بمدينة رامَهُرمُز من بلاد فارس. السير ١٦/ ٧٣.

(٢) أخرجه أحمد (١٣) و(٣٢)، والترمذي (١٩٦٣) والمروزي في مسند أبي بكر (٩٨)، وأبو يعلى (٩٥)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٥٥) و(٣٥٦) و(٧١٩) و(٧٢٠) والبيهقي في الشُّعب (١٠٨٦٢) والخطيب في البخلاء (٥٠) و(٥١) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٦٢)، والطبراني في الأوسط (٥٤٤٨) وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٤٣، والقُضاعي في مسند الشهاب (٣٢٥) ـ (٣٢٧) والبيهقي في الشُّعب (٧٤٥) وابن عبد البر في جامع بيان العلم ١/ ١٤٣، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) في الأصل: (بجنبتها) والمثبت من مصادر التخريج.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٧٢١)، والطيالسي (٩٧٩)، وابن حبان (٦٨٦)، و(٣٣٢٩)، والحاكم ٢/ ٤٤٥، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٣٣ والقضاعي في مسند الشهاب (٨١٠)، والبيهقي في الشعب (٣٤١٢) و(١٠٣٧٣)، والبغوي في شرح السنة (٤٠٤٥).

وروت عائشةُ عن النبي ﷺ أنه قال: «السَّخيُّ الجهولُ أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ مِنَ العابدِ البخيلِ»(١).

وفي حديث ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ غرس جنّة عَدْن بيده وزَخْرفها وقال: وعزَّتي وجَلالي لا يُجاورني فيك بخيل»(٢).

وقال سلمان الفارسيّ: إذا مات السَّخيُّ قالت الأرض والحَفَظَةُ(٣): رَبِّ تجاوز عن عبدكَ بسَخائه في الدنيا. وإذا ماتَ البخيلُ قالت: اللَّهُمَّ احجُبْ هذا العبدَ عن الجنَّةِ، كما حجبَ عبادَكَ عمَّا جعلتَ في يَديه من الدنيا(٤).

وقالت أُمُّ البَنِين أختُ عمرَ بن عبد العزيز: أُفٍّ للبخلِ، لوكان قَميصاً ما لبستُه، أو طريقاً ما سَلكتُه(٥).

وقال أبو حَنيفة: لا أرى أن أُعَدِّلَ بخيلاً؛ لأنَّ البُخْلَ يحمِلُهُ على الاستِقصاءِ، فيأخذ فوقَ حقِّهِ خيفةَ أن يُغْبَنَ.

وقال ابن المَعتَز: أبخلُ الناسِ بمالِه أجودُهم بِعرضِهِ.

وقال بعض الحكماء: من كانَ بخيلاً ورثَ مالَه عدوُّهُ.

ووصفَ أعرابيٌّ رجلاً فقال: لقد صَغُر في عَيني لِعِظَمِ الدُّنْيا في عينه، وذمَّ أعرابيٌّ قوماً فقال: يصومون عن المعروف ويُفْطِرُون على الفَواحش.

حكايات عن البُخلاء

روى أبو صالح عن ابن عبّاس قال: كان الحُباحِبُ رَجُلاً من العرب، وكان بخيلاً، فكان لا يُوقِدُ ناراً بليلٍ؛ كراهيَةَ أن يَراها راءٍ فينتفعَ بضوئها، فإذا احتاجَ إلى إيقادِها أوقدَها، فإذا بَصُرَ بمستضيء بها أطفأها.

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١١٩، والخطيب في البخلاء (٣٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢/ (١٢٧٢٣)، والأوسط (٥٥١٤).

(٣) الحَفَظة: الملائكة الموكلون بالعباد يُحصونَ أعمالهم.

(٤) أخرجه الخطيب في البخلاء (٥٨) بإسناد ساقط.

(٥) أخرجه الخطيب في البخلاء (٩٢).

أنبأنا أحمدُ بن محمّدٍ الهاشميُّ، قال: أخبرنا أحمدُ بن عليِّ بنِ ثابتٍ، قال: أخبرنا أبو الحسن محمّدُ بنُ أحمدَ بنِ عبدِ الله التميميُّ في كتابه إليَّ، قال: أخبرنا أبو جعفرٍ أحمدُ بنُ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ الخزَّازُ، قال: حدثنا أبو بكر عبدُ اللهِ بنُ بحرٍ بنِ طَيفور، قال: حدثنا عمرُ بنُ محمّدٍ بنِ عبدِ الحكم، قال: حدثنا نَاجِيَةُ بنُ عبدِ اللهِ البَصريُّ، قال: كانَ عندنا بالبَصرة رجلٌ مُوسِرٌ، وكانَ بخيلاً، فدعاهُ بعضُ جيرانِه، فوضعَ بينَ يديه طَبَاهِجَةً[1] ببيضٍ، فأكلَ فأكثر، وجعلَ يشربُ الماءَ، فانتفخَ بطنُه، ونزل بهِ الكربُ والموتُ، فجعلَ يَتلوَّى، فلمَّا أجهدَه الأمرُ، وخافَ الموتَ على نفسه، بعثَ إلى جارٍ له مُتَطَبِّبٌ[2]، فدخلَ عليه، فقال: ما حالُكَ؟ قال: أكلتُ طَباهِجَةً ببيضٍ، وشربتُ ماءً كثيراً، وقد نَزَلَ بي الموتُ. قال: فلا بأسَ عليك، قُمْ فتقيَّأْ ما أكلتَ، وقد شُفيتَ. فقال: هاه! أَتَقَيَّأُ طباهِجَةً ببيض؟! أموتُ، ولا أتقيأ طباهِجَةً ببيضٍ أبداً[3].

أنبأنا أحمد بن أحمد، قال: حدثنا أبو بكر الخطيب، قال: قرأتُ على الجوهريِّ، عن أبي عُبيد الله[4] المرزُبانيّ قال: أخبرني يوسفُ بنُ يحيى بنِ علي ابنِ المُنَجِّم، عن أبيه قال: حدثني ابن مَهرويه، قال: حدثنا علي بن محمّد النَّوفلي، قال: سمعتُ أبي يقول: كان مروانُ بنُ أبي حَفصةَ لا يأكلُ اللَّحمَ حتَّى يَقْرَمَ[5] إليه، فإذا قَرِمَ أَرسلَ غُلامَهُ، فاشترى له رأساً، فأكلَه، فقيل له: نراكَ لا تأكلُ إلاّ الرؤوسَ في الصَّيف والشِّتاء، فلم تختارُ ذلك؟ فقال: نعم، الرأسُ أعرفُ سعرَه، فآمنُ خيانةَ الغلامِ، ولا يستطيعُ أن يَغْبِنَني فيه، وليسَ بلحم فيطبُخَهُ، فيقدرَ أن يَأكلَ منه، إن مَسَّ عيناً أو أُذُناً أو خَدّاً وقفتُ على ذلك، وآكلُ منه ألواناً، آكلُ

(١) الطَّباهجة: اللحم المشرَّح.
(٢) أي يتعاطى علم الطب.
(٣) البخلاء للخطيب البغدادي (٩٣).
(٤) في الأصل: (عبد الله) والتصويب من السير ١٦/ ٤٤٧.
(٥) يقرم: أي تشتد شهوته لأكل اللحم.

منهُ عينيه لوناً، وأُذُنيه لوناً، وغَلْصَمَتَهُ[١] لوناً، ودِماغَهُ لوناً، وأُكْفى مُؤْنَةَ طبخِهِ، فقد اجتمعت لي فيه مرافق[٢].

قال المَرزُباني: وأخبرني أحمد بن عيسى الكَرجي، قال: حدثنا أبو العَيناء محمّد بنُ القاسم، قال: كان مروانُ بنُ أبي حَفصةَ من أبخلِ الناس، خرجَ يُريدُ المهديَّ، فقالت له امرأةٌ من أهله: مالي عليك إن رجعتَ بالجائزة؟ قال: إن أُعطيتُ مِئَةَ ألفِ درهمٍ أَعطيتُكِ درهماً. فأُعطيَ ستينَ ألفَ درهمٍ، فأعطاها أربعة دوانيق[٣].

أنبأنا أحمد قال: حدثنا أبو بكر، قال: أخبرنا الحسنُ بنُ عليٍّ العطارُ، قال: أخبرنا أبو الحسنِ محمدُ بنُ جعفرٍ التميميُّ، قال: حدثنا أبو القاسمِ السَّكونيُّ، قال: حدثني الحسينُ بن محمّدٍ، قال: حدثني يوسفُ بن تميمٍ، قال: حدثنا بعضُ شبابِ أهلِ البصرةِ، أن رجلاً موسِراً كثيرَ المالِ كان ينظرُ في دقائقِ الأشياء، فاشترى حوائجَ له، ودَعى حَمَّالاً، فقال: بكم تحمل هذه الحوائج؟ قال: بحبَّة[٤]. قال: أَحسن[٥]. قال: أقلَّ من حَبَّة؟ لا أدري ما أقول. قال: نَشتري بالحبَّةِ جَزَراً، فنجلسُ جميعاً فنأكلُهُ[٦].

أنبأنا محمدُ بنُ أبي طاهر، قال: حدثنا القاضي أبو القاسم التّنوخي، قال: أخبرني أبي، أَنَّ أبا عبد الله محمد بن أحمد العسكري حدَّثَه، قال: كنتُ أكتُبُ لأبي أحمدَ ابنِ فادَوَيه الأهوازي ـ وكان من أبخلِ مَنْ رأيتُ ـ على شيءٍ من المأكولات، وكان يحبِسُني عندَه للأكلِ، فأجلسُ معه على الطعام، ولا آكل كثيرَ شيءٍ، فاحتبَسَني يوماً وعنده جماعةٌ، فأكلوا، وجَرَيتُ على عادتي في التَّقْتِيرِ، وكانَ

---

(١) الغَلصَمة: اللحم بين الرأس والعنق.
(٢) البخلاء للخطيب (١١٧).
(٣) الدوانيق: جمع دانق، وهو سُدس الدرهم. و القصة في البخلاء للخطيب (١١٩).
(٤) الحَبَّة: سدس ثمن الدرهم، أي جزءٌ من ثمانيةٍ وأربعين جزءاً من الدرهم.
(٥) أي: يريد عرضاً أحسن من هذا.
(٦) البخلاء للخطيب (١٣٣).

قد قَدَّم في بعضِ الطّعامِ أَرُزّاً، وجَدْياً مَشويّاً، ولونين من أطرافه، وسَقْطيَّةً، فلمَّا فرغنا من ذلك أقبلَ غلامُه، وعلى يده طَيفوريَّةٌ فيها الجَديُّ، فأقبل هو علينا، فقال: أمّا أنا فقد شَبعتُ، ولم يبقَ فيَّ فَضلٌ، فما تَقولونَ أنتم؟ فقلتُ أنا: أَمَّا أنَا فقد شبِعتُ. فقالتِ الجماعةَ كقولي. فقال: فَيُجْعَلُ الجَديُ لِغَدٍ، وَنَأْكُلُهُ مُبَرَّداً. فقلتُ: هذا هو الصواب. فقال: ما أَظُنُّكم إلّاَ وفيكم فَضْلةٌ للأكلِ، وإِنَّما قُلْتم أَنَّكم قد شَبِعتُمْ مُسَاعَدةً لي. فقلتُ: لا والله يا سيِّدي، ما فِيَّ فَضْلٌ. فقال للذي يَليني: ما تقول؟ فقال: ما فيَّ فَضْلٌ. فقال: لو كنتَ شبعاناً لحلفَتَ كما حلفَ أبو عبد الله. فحلفَ الرجلُ أَنَّه شَبعانٌ، (١فقال للآخر الذي بجانبه، فحلَفَ، فلم يزل يَسْتَقْرِي واحداً واحداً، ويَحلِفُ أنّه شَبعانٌ١)، ومن لم يَحلف قال له: لو كنتَ شَبعاناً لحلَفتَ. فيحلفُ الرجلُ، فلّما استَوْثَقَ من جماعتنا بِالأَيْمانِ، وثَلَجَ صَدرُه(٢) أَنَّه لا حِيلةَ لأحدٍ مِنَّا في الأَكْلِ، قال: أَمَّا أنا فقد تَتَبَّعَتْ نَفسي أكلَ شحمِ كُلَاهُ حارّاً. فقلنا له: كُلْ، هَنَّأَكَ اللهُ. فقال: يا غُلام، ضَعِ الطيفوريَّةَ فتُرِكَتْ بينَ يَدَيه، فأكلَ أكثرَ الجَدي وحدَه، وأَمرَ برفعِ باقيه وحِفْظِهِ(٣).

(١ـ١) ليس في الأصل، واستُدرك من كتاب البخلاء للخطيب البغدادي.

(٢) في الأصل: (ثلج في صدره)، والمثبت من البخلاء، وثلج صدره: أي اطمأنَّ.

(٣) البخلاء للخطيب (٢٢٧).

بيانُ

الإيثارِ وفَضْلِهِ

اعلمْ أَنَّ السَّخاءَ والبُخلَ درجاتٌ، فأَرْفَعُ درجاتِ السَّخاءِ هوَ الإيثارُ، وهوَ أَنْ تَجودَ بالمالِ معَ الحاجةِ إليه، وإنَّما السَّخاءُ بَذْلُ ما لا يُحتاجُ إليه لمُحتاجٍ أَوْ غَيْرِ مُحتاجٍ، والبَذْلُ معَ الحاجَةِ أَشَدُّ، وكما أَنَّ السَّخاءَ قد يَنتهي إلى أن يَسْخوَ الإنسانُ على غَيرِهِ معَ الاحتياجِ، فالبُخلُ قَدْ يَنتهي إلى أَنْ يَبْخَلَ على نَفْسه مع الحاجةِ، فكم مِنْ بخيلٍ يُمسِكُ المالَ، ويَمْرَضُ فلا يَتَداوي، ويَشْتَهي الشَّهْوَةَ فلا يمنعُهُ منها إلا البخلُ بالثمنِ، فكم بينَ مَن بَخِلَ على نفسِهِ معَ الحاجَةِ وبينَ مَنْ يُؤْثِرُ على نفسه، فالأخلاقُ عَطايا يَضَعُها اللهُ تعالى حيثُ يشاء، وليسَ بعدَ الإيثارِ درجةٌ في السَّخاءِ، وقد أثنى اللهُ عَزَّ وجلَّ على أصحابِ رسول اللهِ ﷺ بالإيثار فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

أخبرنا عبد الأوَّلِ بنُ عيسى، قال: حدثنا الدّاوُديّ، قال: أخبرنا ابنُ أَعْيَنَ، قال: حدثنا الفِرَبْريّ قال: حدثنا البُخاريُّ، قال: حدثنا مسدَّدٌ، قال: حدثنا عبدُ اللهِ ابنُ داودَ، عن فُضَيلِ بن غَزوانَ، عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعثَ إلى نسائِهِ، فقُلْنَ: ما عندنا[١] إلا الماءُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «من يَضُمُّ ـ أو يُضِيْفُ ـ هذا؟». فقال رجلٌ مِنَ الأنصارِ: أنا. فانطلقَ به إلى امْرَأَتِهِ، فقال: أكْرِمي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قُوتُ الصِّبيان[٢]. فقال: هَيِّئي طعامَكِ، وأَصْبِحي سِراجَكِ، ونَوِّمي صبيانَكِ إذا أرادوا عشاءً. فَهَيَّأَتْ طعامَها، وأَصْبَحتْ[٣] سِراجَها، ونَوَّمَتْ صِبيانَها، ثُمَّ قامتْ كَأَنَّها

(١) هكذا في الأصل، وفي البخاري: (ما معنا).

(٢) في البخاري: (صبياني).

(٣) في الأصل: (أصلحت) والمثبت من البخاري، وأصبحت: أوقدت وأشعلت.

تُصْلِحُ سِراجَها، فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلا يُريانِهِ أَنَّهُما يَأْكُلان، فباتا طاوِيَيْنِ. فلمّا أصبحَ غدا إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: «ضَحِكَ اللهُ اللَّيلةَ ـ أو: عجبَ ـ مِنْ فَعَالِكُما». فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. أخرجاه في الصحيحين[١].

أخبرنا عبدُ الأوَّلِ ومحمّدُ بنُ ناصرٍ، قالا: أخبرنا أبو الحسين بنُ عبدِ الجبّارِ، قال: أخبرنا أبو محمّد الجَوهريّ، قال: أخبرنا أبو عمرَ بنُ حَيّوية، قال: حدثنا أبو بكرِ ابنُ الأنباريّ، قال: حدثني أحمدُ بنُ عبيد، عن ابنِ الأعرابيّ، قال: استشهدَ باليرموكِ عكرمةُ بنُ أبي جهل، وسهيلُ بنُ عمروٍ، والحارثُ بنُ هشام رضي الله عنهم، وجماعةٌ من بَني المغيرة، فأُتُوا بماءٍ وهم صَرعَى، فتدافَعُوه حتّى ماتوا، ولم يَذُوقُوه، أُتيَ عكرمةُ بالماءِ، فنظر إلى سُهيلِ بنِ عمروٍ يَنْظُرُ إليه، فقال: ابْدَؤوا بهذا. فنظرَ سهيلٌ إلى الحارثِ بنِ هشامٍ يَنْظُرُ إليه، فقال: ابْدَؤوا بهذا، فماتوا كُلُّهم قَبْلَ أَنْ يَشْرَبُوا، فمرَّ بهم خالدُ بنُ الوليدِ، فقال: بنفسي أنتم.

وأُهْدِيَ إلى رَجلٍ مِنَ الصَّحابَةِ رأسُ شاةٍ، فقالَ: إنَّ أخي أَحوجُ إليهِ مِنِّي. فبعثَ به إليه، فبعثَ به ذلك إلى آخر، حتَّى تداوَلَه سبعةُ أبياتٍ، فَرَجَعَ إلى الأَوَّلِ.

وخرجَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ إلى ضَيعةٍ له، فنزلَ على نخلٍ لقوم، وفيها غلامٌ أسود يعمل فيها، إذْ أُتيَ الغلامُ بقُوتِهِ، ودخلَ الحائط كلبٌ، فدَنَا مِنَ الغلام، فرمى إليهِ الغلامُ قُرصاً فأكلَه، ثُمَّ رمى إليه الثاني والثالثَ فأكلَه، وعبدُ اللهِ يَنظُرُ، فقالَ: يا غلامُ، كم قوتُكَ كُلَّ يوم؟ قال: ما رأيتَ. قال[٢]: فلمَ آثرتَ به هذا الكلبَ؟ قال: ما هيَ بأرضِ كلابٍ، إنَّه جاءَ مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ جائِعاً، فكرِهْتُ رَدَّه. فقال: وما أنتَ صانع؟ قال: أَطْوي[٣] يومي هذا. فقالَ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ: أُلامُ على السخاءِ؟! وهذا أَسْخَى مِنِّي. فاشترى الغلامَ والحائِطَ وما فيه من الآلات، وأَعْتَقَ الغلامَ، ووهَبَهُ له.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) سقطت من الأصل.

(٣) أطوي: أي أظل خالي البطن جائعاً بلا طعام.

واجتمعَ جماعةٌ مِنَ الفُقراءِ في مَوْضِعٍ لهم، وبينَ أيديهم أَرْغِفَةٌ معدودةٌ لا تكفيهم، فكسَروا الرُّغْفَانَ، وأطفؤوا السِّراجَ، وجلسوا للأكلِ، فلمّا رُفعَ الطعامُ إذا هو بحاله، ولم يَأكُلْ أَحدٌ منهم شيئاً إيثاراً لأَصْحابِه.

بيانُ

حَدِّ السَّخاءِ والبُخْلِ وحقيقتهما

قد ذهبَ قومٌ إلى أَنَّ حَدَّ البخلِ منعُ الواجبِ، وأَنَّ مَنْ أَدَّى ما يجبُ عليه فليسَ ببخيل. وهذا غيرُ كافٍ، فإنَّ من يُسْلِمُ إلى عِيالِهِ القدرَ الّذي يَفرِضُهُ الحاكمُ، ثُمَّ يُضايِقُهُمْ في زيادةِ اللُّقمةِ والتَّمرةِ، فإنَّه معدودٌ مِنَ البخلاءِ.

وقال قومٌ: البخيلُ الّذي يَسْتَصْعِبُ العطاء. وهذا أيضاً قاصرٌ، فإنَّه إن أُريدَ أَنَّه يَستصعِبُ كُلَّ عطيّةٍ، فكم مِنْ بخيلٍ لا يَستصعِبُ العطيةَ القليلةَ كالحبَّةِ، ويَستصعِبُ ما فَوقَها. ومتى أُريدَ بهذا أَنَّه يَستصعِبُ بعضَ العطايا، فما مِنْ جَوادٍ إلا وقد يَستصعِبُ بذلَ المالِ العَظيمِ، وهذا لا يُوجِبُ الحُكْمَ بالبخلِ.

وكذلك تكلَّموا في الجود، فقالَ قومٌ: هوَ عطاءٌ بلا مَنٍّ. وقيل: عطاءٌ مِنْ غيرِ مَسأَلةٍ. وقيل: هو الفَرحُ بالعطاءِ، والسّرورُ بالسّائِلِ. وقيل: مَنْ أَعطى بعضَ مالِه فَهُوَ سَخيٌّ، ومَن أَعطى الأكثرَ فَهُوَ جوادٌ، ومن آثرَ بالبُلْغَةِ[١] فهوَ مؤثرٌ، ومن لم يَبْذُل شيئاً فهوَ بخيلٌ.

وهذا المذكورُ كلُّه لا يُحيطُ بحقيقةِ البُخْلِ والجودِ، لكنَّا نقول: المالُ إنَّما خُلِقَ لِحِكْمةٍ ومَقْصُودٍ، وهوَ صلاحُهُ لحاجاتِ الخلقِ، ويُمكِنُ إمْسَاكُهُ عنِ الصَّرفِ إلى ما خُلِقَ الصَّرْفُ إليه، ويمكِنُ بَذْلُه بالصَّرفِ إلى ما لا يَحْسُنُ الصَّرفُ إليه، ويُمْكِنُ التَّصَرُّفُ فيه بالعدلِ، وهوَ أن يُحْفَظُ حيثُ يجبُ الحفظُ، ويُبْذَلَ حيثُ يجبُ البذْلُ.

والجودُ وسطٌ بينَ الإِسْرافِ والإقْتَارِ، وبينَ البَسْطِ والقبضِ، والبَراءَةُ مِنَ البُخْلِ تَحْصُلُ بِفِعْلِ الواجبِ في الشَّرْعِ، واللازمِ بطريقِ المرُوءَةِ؛ فهو تركُ المُضايَقَةِ والاسْتِقْصَاءِ في المُحقَّراتِ، فإنَّ ذلِكَ يُسْتَقْبَحُ، واسْتِقْباحُهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ

(١) البُلغة: ما يُتَبلَّغُ به من العَيش، أي ما يكفي للعيش دون زيادة.

الأحوالِ والأشْخَاصِ، فقد يُسْتَقْبَحُ مِنَ الغَنِيِّ مِنَ المضايَقَةِ مالا يُستَقْبَحُ مِنَ الفَقِير، ويُسْتَقبَحُ من الرَّجُلِ مِنَ المضايَقَةِ لأَهلِهِ وأقارِبِه وجيرانِه ما لا يُسْتَقْبَحُ معَ الأجانبِ.

فالبخيلُ هو الّذي يَمنعُ ما لا يَنبغي أن يُمْنَعَ، إمَّا بحكم الشَّرعِ أو بحكم المروءَةِ، وذلك لا يُمكنُ التَّنْصيصُ على مِقْدارِهِ، فَمَنْ قامَ بواجبِ الشَّرعِ ولازَمَ المروءَةَ فقد تبرَّأَ مِنَ البُخْلِ، لكنَّهُ لا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ الجودِ والسَّخاءِ ما لم يَبْذُلْ زيادةً على ذلك، فإذا بَذَلَ ما لم يُوجبْهُ الشَّرعُ، ولا تَتَوجَّهُ الملامَةُ في العادةِ على مَنْعِهِ فهوَ جَوَادٌ، إلا أنَّ للجُودِ درجاتٍ، وبعضُ النّاسِ أَجْوَدُ مِنْ بعضٍ، واصْطِناعُ المعروفِ وراءَ ما تُوجِبُهُ العادةُ، والمروءةُ جُودٌ، ولكنْ بشرطِ أن تكونَ على طيبِ نفسٍ، ولا تكونَ على طمعٍ في مُكافَأَةٍ أو شُكرٍ، فإنَّ الطَّامِعَ في الشُّكرِ والثَّناءِ بَيَّاعٌ لا جَوادٌ؛ لأَنَّه يشتَري المدْحَ بماله. وإنَّما الجودُ بَذلٌ بِلا عِوَضٍ، ولا يُتَصَوَّرُ ذلكَ إلا مِنَ اللهِ سُبحانَه. وأمَّا الآدميُّ فَاسْمُ الجُودِ عليه مجازٌ؛ لأَنَّه لا يَبذُلُ الشيءَ إلا لِغَرضٍ، ولكن إذا لم يكُنْ غرضُهُ إلا ثوابَ الآخرةِ، واكتسابَ فضيلةِ الجودِ، أو تَطْهيرَ النفسِ عن مَرْذُولِ البخلِ، سُمِّيَ جواداً، ومتى كانَ الباعثُ على الجودِ الخوفَ من لومِ الناسِ، أو هجائِهم، أو تَوَقُّعَ نَفْعٍ مِنَ المُنعَمِ عليه، لم يَكُنْ جَوَاداً؛ لأَنَّه مُتَعَوِّضٌ (١).

---

(١) أي: يطلب عوضاً مقابل ما يقدمه.

بيانُ

علاجِ البُخْلِ

اعلم أَنَّ سببَ البُخْلِ حبُّ المالِ، ولِحُبِّ المالِ سببان: أحدهما: حبُّ الشهواتِ التي لا وُصولَ إليها إلا بالمالِ، معَ طولِ الأمل، فإنَّ الإنسانَ لو علمَ أَنَّه يموتُ بعدَ يوم لم يَبخَلْ بماله؛ لأَنَّ قدْرَ ما يحتاجُ إليهِ في يوم قريبٌ، وإنْ كانَ قصيرَ الأملِ ولكنْ له أولادٌ فإنَّ الولدَ يَقومُ مَقامَ طولِ الأمل؛ لأنَهُ يُقَدِّرُ بقاءهم كبقاءِ نَفْسِهِ، فيُمْسِكُ لأَجلِهِم، ولذلك قال ﷺ: «الولدُ مَبخَلةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ»(١)، فإذا انْضَافَ إلى ذلكَ خوفُ الفقرِ، وقِلَّةُ الثِّقَةِ بِمَجيءِ الرِّزْقِ، قَوِيَ البُخْلُ لا مَحالَةَ.

السببُ الثاني: أن يُحِبَّ عَيْنَ المالِ، فَمِنَ الناسِ مَنْ مَعَهُ ما يَكْفيْهِ لِبَقيَّةِ عمره، إذا اقْتَصَرَ على مَا جَرتْ عَادَتُهُ بِنفقَتِهِ، وتَفْضُلُ آلافٌ، وهوَ شيخٌ ولا وَلَدَ له، ثُمَّ لا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بإخْراجِ الزَّكاةِ، ولا بالتَّداوي عند المرَضِ، بل هوَ عَاشِقٌ لِعَيْنِ المالِ، يَلْتَذُّ بِوُجُودِهِ في يدِه، وبِقُدْرَتِهِ عليه، فَيَكْنِزُهُ تَحْتَ الأرضِ، ويَعْلَمُ أَنَّه يَضيعُ إذا ماتَ، أَو يَأْخُذُهُ أَعْدَاؤُه، ثُمَّ لا تَسْمَحُ نَفْسُهُ مَعَ هذا بأنْ يَأْكُلَ أو يَتَصَدَّقَ منه، وهذا مرضٌ مُزْمِنٌ عَسِرٌ، لا يُرْجى عِلاجُهُ. ومثالُ صاحِبه مثالُ رجلٍ عَشِقَ شخصاً، فَأَحَبَّ رَسُولَهُ، ثُمَّ نَسِيَ محبُوبَهُ، واشْتَغَلَ بالرَّسُولِ، فإنَّ الدنانيرَ رسولٌ مُبَلِّغٌ إلى الحاجاتِ، فصارتْ محبوبةً لذلك، لأنَّ الموصلَ إلى اللَّذيذِ لذيذٌ، ثُمَّ قد يَنسى الحاجاتِ ويُحبُّ الدنانيرَ لذاتِها، وهو غايةُ الضَّلالِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٥٦٢)، وابن أبي شيبة ١٢/ ٩٧، وابن ماجه (٣٦٦٦)، والطبراني في الكبير ٣/ (٢٥٨٧) و٢٢/ (٧٠٣)، والحاكم في المستدرك ٣/ ١٦٤، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٥) و(٢٦)، والبيهقي في السنن ١٠/ ٢٠٢، وفي الأسماء والصفات ٢/ ٢٠٧، عن يعلى بن مرة العامري.

واعلم أنَّ عِلاجَ كُلِّ عِلَّةٍ بمُضَادَّةِ سَبَبِها، فيُعالِجُ حبُّ الشهواتِ بالقناعةِ والصَّبرِ، وطولُ الأملِ بكثرةِ ذكرِ الموتِ، والتَّفَكُّرِ في ذهابِ القُرَناءِ، وضَياعِ المالِ بَعْدَ جامِعِه، ويُعالَجُ التِفاتُ القلبِ إلى الوَلَدِ بِأَنَّ الَّذي خَلَقَه خَلَقَ مَعَهُ رِزْقَه، وكَمْ مِنْ وَلَدٍ لم يَرِثْ مِنْ أبيه مالاً هو أحسنُ مِمَّن وَرِثَ حالاً، فَلْيَحْذرْ أَنْ يَترُكَ لِوَلَدِهِ الخيرَ، ويَقْدُمَ هوَ على اللهِ بِشَرٍّ، فإنَّ وَلَدَهُ إنْ كانَ صالحاً فاللهُ يتولّاه، وإنْ كان فاسقاً فإنَّهُ يَستعينُ به على المعاصي، ولْيُرَدِّدْ على سَمْعِهِ ما ذكرنا في ذمِّ البخلِ، ومَدْحِ السَّخاءِ، وَلْيَتأَمَّلْ أحوالَ البُخَلاءِ، ونَفْرَةَ الطَّبْعِ عنهم، واسْتِقْباحَ حالِهِمْ، حتَّى أنَّ البخيل يَسْتَقْبِحُ البُخْل مِنْ غيرِه، ولْيَتَفَكَّرْ في مَقاصِدِ المالِ، ولْيَنْظُرْ لماذا خُلِقَ.

ولا تَزُولُ صِفَةُ البخلِ إلّاَ بالبَذْلِ تكلُّفاً، كما لا يَزولُ العِشْقُ إلّاَ بمفارقةِ المعشوق، فإذا صبرَ سَلا.

فإذَنْ عِلاجُ البُخْلِ بِعِلْم وعَمَل، فالعِلْمُ يَرْجِعُ إلى مَعْرِفَةِ آفةِ البُخل، وفائدةِ الجودِ، والعملُ يَرْجِعُ إلى البَذْلِ على سبيلِ التكلُّفِ، إلّاَ أنَّه قد يَقوى البخلُ بحيثُ يُعمي ويُصمُّ، فيَمنعُ تَحقُّقَ المعرفَةِ بآفَتِه، فلا تتحرَّكُ الرغبةُ، ولا يَتَيَسَّرُ العملُ، فتبقى العِلَّةُ مُزْمِنةً، كالمرضِ الذي يَمنعُ مَعْرِفَةَ الدواءِ وإمكانَ استعمالِهِ له، فإنه لا حيلةَ فيه إلا الصَّبرُ إلى الموت.

واعلم أَنَّه إذا كُثرتِ المحبوباتُ في الدنيا كَثُرتِ المصائب بفقدها، فمن عَرَفَ آفةَ المالِ لم يأنَسْ به، ولم يأخذْ منهُ إلّاَ قَدْرَ حاجَتِهِ، ومَنْ أَمْسَكَ مالاً لحاجَتِهِ فليسَ ببخيلٍ.

بَيانٌ

مجموعِ الوظائفِ الَّتي على العبدِ في مالِهِ

قد ذكرنا فيما تَقدَّمَ أَنَّ مَثَلَ المالِ كمثَلِ حَيَّةٍ فيها تِرْيَاقٌ وسُمٌّ، فالرّاقي يستخرجُ دِرْيَاقِها[١]، والجاهلُ إذا تَناولها قتلَهُ سُمُّها. ولا يسلَمُ مِنْ سُمِّ المالِ إلا بالمحافظة على خمس وظائف:

الأُولى: أن يَعرفَ مقصودَ المالِ، ولماذا خُلقَ ولِمَ احتيجَ إليه؟ فلا يَحفظُ إلّا مِقْدارَ الحاجةِ، ولا يُعطيه من هِمَّتِهِ فوقَ ما يَستحقُّهُ.

الثانية: أن يُراعي جِهَةَ دَخْلِ المالِ فيَجتنبَ الحرامَ المحضَ، وما الغالبُ عليه الحرامُ، كأموالِ الظَّلَمةِ، ويَجتنِب الجهاتِ المكروهةَ القادحةَ في المروءَةِ، كالهدايا التّي فيها شوائِبُ الرِّشوةِ، والسؤالِ الّذي فيه الذُّلُّ وهَتكُ المروءةِ.

الثالثة: في المقدارِ الّذي يَكتسِبُه، فلا يَستكثرُ منه ولا يَستقلُّ، بل بمقدارِ الحاجةِ، والحاجةُ مَسكنٌ ومطعمٌ وملبسٌ، ولكلِّ واحدٍ ثلاثُ درجاتٍ: أدنى، وأوسطُ، وأعلا.

ومتى مالَ إلى القناعةِ قاربَ النجاةَ، ومتى جاوزَ ذلكَ وقعَ في هاويةٍ لا نهايةَ لعُمقِها، وقد ذكرنا تفصيلَ هذه الدرجاتِ في كتابِ الزُّهدِ.

الرابعة: أن يُراعي جِهةَ الخَرجِ، ويَقتَصِدَ في الإنفاقِ، غيرَ مُبذِّرٍ ولا مُقتِّرٍ، فيضع ما اكتسبَه من حِلّه في حَقّه، فإنَّ الإثمَ في الأخذِ مِنْ غيرِ حَقِّهِ، والوضعِ في غير حقِّهِ سواءٌ.

الخامسة: أن يُصْلِحَ نِيَّتَه في الأَخْذِ والتَّركِ والإنفاقِ والإمساكِ، فيَأخذ ما يَأخُذُ

(١) الدِّرياق: هو الترياق، وهو دواءٌ نافع من لدغ الهوام السَّبُعيَّة.

لِيَسْتَعينَ به على العبادةِ، ويَترك ما يَتركُ زُهْداً فيه واحتقاراً له، وإذا فعلَ ذلك لم يَضُرَّهُ وجودُ المالِ.

فاجتهِدْ أَنْ تكونَ حركاتُكَ وسَكناتُكَ لله تعالى مَقصورةً على عبادةٍ، أو ما يُعينُ على العبادةِ، فإِنَّ أبعدَ الحركاتِ عنِ العبادةِ الأكلُ وقضاءُ الحاجة، وهما مُعينانِ على الحاجة، فإذا قصدتَ بهما الاستعانةَ على العبادة صارتا عبادةً في حَقِّكَ، فَمَنْ حَسُنَ قَصْدُه في جمعِ المالِ لم يَضُرَّه، وهذه كانت حالةُ الصحابةِ في كثرةِ أموالِهم، فإذا أرادَ الجاهلُ أن يَتَشَبَّهَ بهم في جمعِ المالِ، كانَ كالصَّبيِّ إذا تَشَبَّهَ بالرّاقي في تناوُلِ الحيَّةِ.

بيانُ

خَطَرِ الغِنى وسَلامةِ الفقرِ

اعلم أنَّ أقواماً فَضَّلوا الغِنى، وأقواماً فَضَّلوا الفقرَ، ونحنُ نَصْدعُ بالتحقيقِ مِن غير تطويلٍ بذكر ما قالوا، إذْ هُوَ قليلُ الجَدوى، فإنَّ قوماً احتجُّوا لتفضيلِ الفقرِ بأحاديثَ لا يَثْبُتُ أكثرُها، والثباتُ منها له وجوهٌ، وذكروا غوائِلَ الغِنَى وآفاتِهِ، فَخوَّفوا منه، ولا يُنكَرُ أَنَّ فيه مُخاطرةٌ.

والصَّوابُ أن يُقالَ: طريقُ الفَقرِ في الغالبِ طريقُ السَّلامَةِ، ومَثَلُ صاحبِهِ كمَثَلِ مريضٍ قد حُبِسَ بمرضه عن أغراضِه، فهوَ يُثابُ على مرضِه، ويُجزى على حُسْنِ صَبْرِه.

وأمّا الغِنى فَيُقَيَّدُ بسلامَةِ الغنيِّ في كَسْبه وجَمْعِهِ وقَصْدِهِ ومَنْعِهِ، فَخَطَرُهُ عظيمٌ، فإذا سَلِمَ كَسْبُهُ، وحَسُنَ قَصْدُهُ في جَمْعِه، وإخراجه في وجهِهِ، فذلكَ أفضلُ مِنَ الفقرِ؛ لأَنَّ نَفْعَ ذلكَ يَتعدَّى، فيكونُ الفقيرُ كالمتعبِّدِ المنقطِعِ إلى زوايةٍ، والغَنيُّ المنفقُ في الخَيرِ كالمفتي والمجاهد.

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، أَنَّ فُقَراء المهاجرينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فقالوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجاتِ العُلَى والنَّعِيم المقيم. فقال: «مَا ذَاكَ؟» قالوا: (١يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصُومُونَ كما نَصُومُ، ويَتصدَّقُونَ ولا نَتَصَدَّق١)، ويُعتِقُونَ ولا نُعْتِقُ. فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أفلا أُعَلِّمُكم شيئاً تُدْرِكونَ به من سَبَقكم، وتَسبقُونَ به من بَعْدَكُمْ، ولا يَكونُ أحدٌ أَفْضَلَ منكم إلّا مَنْ صَنَعَ مثلَ ما صَنَعْتُم؟» قالوا: بلى يا رَسُولَ الله. قال: « تُسَبِّحونَ وتكبرون وتَحْمَدُونَ، دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثاً وثلاثينَ». قال أبو صالح(٢): فَرجَعَ فقراءُ المهاجرينَ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فقالوا:

(١ـ١) ليس في الأصل.

(٢) هو أبو صالح السمَّان، ذَكوان بن عبد الله الزيات المدني، روى عن جمع من الصحابة، وهو من أوثق الناس وأثبتهم في أبي هريرة، توفي سنة ١٠١هـ. السيرة ٥/٣٦.

سَمِعَ إِخْوانُنا أَهلُ الأَموالِ بما فعلنا، فَفَعلوا مِثْلَهُ. فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ»[١].

وقد كَسَبَتِ الصَّحابةُ وجَمَعَتْ وخَلَّفَتِ الأموال، وقد سَبَقَ بَيانُ وَجْهِ المدحِ لِلمالِ والذمِّ له، وأَنَّ ذلكَ يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ العبدِ لا بعينِ المالِ، لأَنَّ المالَ آلةٌ. ولِسَبَبِ إِخْراجِ المالِ قالَ ﷺ: «ما نَفَعني مالٌ كمالِ أبي بَكرٍ»[٢].

أخبرنا محمّدُ بنُ أبي منصورٍ، قال: حدثنا جَعفرُ بنُ أحمدَ، قال: حدثنا الحسنُ ابنُ عليّ التّميمي، قال: حدثنا أبو بكر بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بنُ أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا أبو المغيرة، قال: حدثنا صفوان، عن يزيدَ بنِ ميسرةَ، قال: كانَ رجلٌ مِمَّن مَضى جَمعَ مالاً وولداً فَأَوعى، ثُمَّ أَقْبَلَ على نَفْسِهِ وهو في أهله قد جَمَعَ، فقال: انْعَمي لِسِنينَ. فأَتاهُ مَلَكُ الموتِ، فقَرَعَ البابَ، فخرجوا إليه وهو مُتَمثِّلٌ بمسكينٍ، فقال لهم: ادعُوا لي صاحبَ الدَّارِ. فقالوا: يَخرجُ سيِّدُنا إلى مِثْلِك؟! ثُمَّ مَكثَ قليلاً، ثمَّ عادَ فقرعَ بابَ الدّارِ، وصَنَعَ مثلَ ذلك، وقال: أَخبروه أَنّي ملَكُ الموت. فلمَّا سَمِعَ سَيِّدُهم قَعَدَ فَزِعاً، وقال: أَلينُوا له بالكلام. قالوا: ما تُريدُ غيرَ سَيِّدِنا باركَ اللهُ فيك؟ قال: لا. فدَخلَ عليه، فقال له: قُم فأوصِ ما كنتَ موصياً، فإنّي قابضٌ نَفْسَكَ قبلَ أن أخرجَ. قال: فصاحَ أَهلُهُ وبَكوا، ثم قال: افتَحُوا الصناديقَ والتَّوابيتَ، وافتحوا أوعيةَ المالِ. ففتحوها جميعاً، فأقبلَ على المالِ يلعنُهُ ويَسُبُّه، ويقولُ: لُعِنْتَ مِنْ مالٍ، أنتَ الّذي أَنسَيْتَني ربِّي تبارك وتعالى، وأغفلتني عن العملِ لآخرتي، حتّى بلغني أجلي. فتكلَّمَ المالُ، فقالَ: لا تَسُبَّني، ألم تكُن وَضيعاً في أعيُنِ النّاسِ فرفعتُك؟ ألم تَرَ عليكَ من أثري، وكنتَ تَحضُرُ سُدَدَ[٣] الملوكِ والسَّادةِ، فَتُنْكَح، ويَخْطُبُ عبادُ اللهِ الصّالحونَ فلا يُنْكَحُون؟

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٧٤٤٦) و(٨٧٩٠)، وابن أبي شيبة ١٢/٦ ـ٧، والترمذي (٣٦٦١)، والنسائي في الكبرى (٨٠٥٦)، وابن ماجه (٩٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٩)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١٥٨/٤، وفي شرح مشكل الآثار (١٥٩٩)، وابن حبان (٦٨٥٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) السُّدَد: جمع سُدَّة، وهي باب الدار، والفِناء والساحة تكون بين يدي باب الدار.

ألم تَكُنْ تُنْفِقُني في سبيلِ الجبتِ[١] فَلا أتعاصى؟ ولو أَنْفَقْتَني في سبيلِ اللهِ لم أتعاصَ عليك، فأنتَ أَلْوَمُ مِنِّي، إِنَّما خُلِقْتُ أنا وأنتم يا بني آدمَ من تُرابٍ، فمُنْطَلِقٌ ببِرٍّ، ومُنْطَلِقٌ بإثم. فهكذا يقولُ المالُ فاحذروا.

---

(١) الجِبت: الصَّنم والكاهن والسِّحر والساحر، وكل ما عُبِدَ من دون الله تعالى.

كتابُ
ذَمِّ الجاهِ والرِّياءِ[1]

الحمدُ للهِ المطَّلعِ على سَرائرِ القُلوبِ، المتجاوِزِ عن كبائرِ الذُّنوبِ، العالِمِ بكوامِنِ[2] الغُيوبِ، البصيرِ ببواطِنِ العُيُوبِ، لا يَعْزُبُ عنه ما يَعرِضُ في السرِّ ويَنوبُ، ولا خالصُ القُصودِ مِنَ الطَّلَبِ المشوب، كُلُّ عملٍ لا يُرادُ به وجْهُهُ يَضْمَحِلُّ ويَذوبُ، وكُلُّ طاعةٍ يُتَزَيَّنُ فيها لِخَلْقِهِ إثمٌ وَحُوب[3].

أحمدُه حَمْدَ مُعترفٍ بأنَّه مَرْبُوب، وأُصلِّي على رسوله مُحَمَّدٍ أَشْرَفِ مولودٍ وخيرِ مَنْسوب، وعلى أصحابِهِ وأتباعِهِ ما اخْتَلَفَتِ الشَّمالُ والجنوب، وأُسَلِّمُ تسليماً كثيراً.

أمّا بعدُ، فقد رُوي عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قال: «إنَّ أَخوفَ ما أخافُ على أُمَّتي الرِّياءُ والشّهوةُ الخفيَّة»[4].

---

(١) من هنا تبدأ نسخة مكتبة برنستون والمصورة من مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، والمرموز لها بالحرف (ف).

(٢) هكذا في (ف)، وفي الأصل: (بخفايا).

(٣) الحُوبُ: الإثم والبلاء والهلاك.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ١٢٢، وفي تاريخ أصفهان ٢/ ٦٦، والبيهقي في الشُّعَب (٦٨٢٤) و(٦٨٢٥) وفي الزهد (٣١٦)، وبَحشل في تاريخ واسط: ٢٢٠، وابن عدي في الكامل ٥/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧ من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم.
وأخرجه أحمد (١٧٢٠)، وابن ماجه (٤٢٠٥) والطبراني في الكبير ٧/ (٧١٤٤) و(٧١٤٥)، وفي مسند الشاميين (٢٢٣٦)، والحاكم ٤/ ٣٣٠، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٨، والبيهقي في الشُّعَب (٦٨٣٠) من حديث شداد بن أوس.

والرياءُ مِنَ الشهوةِ الخفيّةِ، وهذهِ الشهوةُ الخفيَّةُ يَعْجَزُ عنِ الوقوفِ على غوائلها كبارُ العُلَماءِ، فَضْلاً عَنْ عَامَّةِ العُبَّادِ والأتْقياءِ، وهيَ مِنْ أواخِرِ غوائِلِ النَّفْسِ وبَواطِنِ مكايدِها.

وإنّما يُبتلى بها العلماءُ والعُبَّادُ المُشَمِّرُونَ عن ساقِ الجِدِّ لسلوكِ سبيلِ الآخرةِ، فإنَّهم لمَّا قَهرُوا نُفوسَهُم وجاهدوها، وفطمُوها عنِ الشهوات، وصانُوها عنِ الشُّبُهات، وحملُوها بالقَهرِ على أصنافِ العبادات، لم تَطْمَعْ في المعاصي الظاهرةِ الواقعةِ على الجوارحِ، واستراحتْ إلى التظاهر بالعلمِ والعملِ، ووَجَدَتْ مَخْلَصاً من شِدَّةِ المجاهَدَةِ في لَذَّةِ القَبولِ عندَ الخلق، ونظرِهم إليهم بَعينِ الوَقارِ والتَّعظيم، فَتَوَصَّلوا إلى اطِّلاعِ الخَلْقِ، ولم يَقنَعُوا باطِّلاعِ الخالق، وفَرِحُوا بِحَمْدِ النَّاسِ، ولم يَقْنَعوا بحمدِ اللهِ وحدَه، وعلِموا أنَّ الناسَ إذا عَرَفُوا منهم تركَ الشَّهواتِ، وتَحَمُّلَ العباداتِ، بالَغوا في مدحِهم واحترامِهم، وتبرَّكوا بمُشاهَدتِهم ولقائِهم ودعائِهم، وسامَحوهم في المعاملاتِ، وتواضَعوا لهم، فأصابتِ النفسُ في ذلك لَذَّةً هيَ أعظمُ اللَّذَّاتِ، وشهوةً هي أغْلَبُ الشَّهواتِ، فاحتَقَرَتْ فيه تَركَ المعاصي والهَفَواتِ، واسْتَلانتْ خُشُونَةَ المواظبةِ على الطَّاعاتِ. فَأَحَدُهم يَرى أنه مُخْلِصٌ لِلهِ، وقد أَبْطَنَ بهذه الشهوةِ التزيُّنَ للعِبادِ، والتصنُّعَ للخلقِ، والفرحَ بما نالَ مِنَ المنزلةِ، فَحَبِطَتْ بذلكَ أُجُورُ طاعاتِه، وأُثْبِتَ في ديوانِ المنافقين، وهذه مَكيدةٌ للنَّفْسِ لا يَسلَمُ منها إلاَّ الصِّدِّيقون، ومَهْوَاةٌ لا يَرقى منها إلا المقرَّبُون، ولذلك قيل: آخرُ ما يَخرجُ من رُؤُوسِ الصدِّيقينَ حُبُّ الرِّياسَةِ.

وإذا كانَ الرِّياءُ هوَ الدَّاءَ الدَّفينَ، الذي هو أعظمُ شبكةٍ للشياطين، وَجَبَ شرحُ القَولِ في سببهِ وحقيقَتِهِ، ودرجاتِهِ وأقسامِهِ، وطُرُقِ[1] مُعالَجَتِهِ، والحذَرِ منه.

ويَتَّضِحُ الغَرَضُ منه في ترتيبِ هذا الكتابِ على شطرين:

الشطرُ الأول: في حُبِّ الجاه والشُّهرة، وفيه: بيانُ ذَمِّ الشُّهرةُ، وبيانُ فَضيلةِ

---

(١) في الأصل: (طريق).

الخُمولِ، وبيانُ ذَمِّ الجاهِ، وبيانُ معنى الجاهِ وحقيقتِهِ، وبيانُ السببِ في كونِهِ محبوباً أشدَّ مِنْ حُبِّ المالِ، وبيانُ أَنَّ الجاهَ كمالٌ وهميٌّ، وليسَ بكمالٍ حقيقي، وبيانُ ما يُحمَدُ مِنْ حُبِّ الجاهِ وما يُذَمُّ، وبيانُ السببِ في حُبِّ المدحِ والثَّناءِ، وكراهةِ الذَّمِّ، وبيانُ العِلاجِ في حُبِّ الجاهِ، وبيانُ عِلاجِ حُبِّ المدحِ، وبيانُ عِلاجِ كراهةِ الذمِّ، وبيانُ اختلافِ أحوالِ النّاسِ في الذَّمِّ والمدحِ، فهيَ اثنا عشرَ فَصْلاً، منها تَنْشأ معاني الرِّياءِ، فلا بُدَّ من تقديمها.

بيانُ

ذَمِّ الشُّهْرَةِ وانْتِشارِ[1] الصِّيتِ

اعلم أنَّ أَصلَ الجاهِ هو انتشارُ الصِّيتِ والاشتهارُ، وذلكَ خَطرٌ عظيمٌ، تَبعُدُ سلامةُ صاحبه، والسَّلامَةُ في الخُمولِ، إلّا أَنْ تكونَ الشُّهْرَةُ مِنَ اللهِ تعالى للشَّخْصِ بمعنىً ما قصدَهُ الشخصُ، كما شُهِرَ الإمامُ أحمدُ ابنُ حنبل رحمه الله حينَ نَصَرَ القرآنَ[2]، وقد كانَ ابنُ سيرينَ إذا دَخَلَ السوقَ كبَّرَ الناسُ، وقد قال أبو حَبيبٍ البَدويُّ لسفيانَ الثوريِّ: أنتَ سفيانُ الّذي يُقال؟ قال: نعم، نَسأَلُ اللهَ بركةَ ما يُقال.

أخبرنا الكَرُوخيُّ، قال: أخبرنا أبو عامرٍ الأَزْدِيُّ وأبو بكر الغُورجيُّ، قالا: أنبأنا الجَرَّاحيُّ، قال: حدَّثنا المحبوبيُّ، قال: حدثنا الترمذيُّ، قال: حدَّثنا يُوسفُ ابنُ سَلْمانَ، قال: حدَّثنا حاتِمُ بنُ إسماعيلَ، عن مُحمَّدِ بن عَجْلانَ، عن القعقاع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ شَيءٍ شِرَّةً[3]، ولِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرةً، فإنْ كانَ صَاحِبُها سَدَّدَ وقَاربَ فَارْجُوهُ، وإنْ أُشِيرَ إليهِ بِالأَصَابعِ فَلا تَعدُّوه»[4].

---

(١) في الأصل: (إيثار).

(٢) وذلك في المحنة التي جَرَت عليه حينما زيَّنَ جماعةٌ من المعتزلة للمأمون القولَ بخلق القرآن، فامتحن بذلك جماعةً من العلماء، فأجاب بعضهم إيثاراً للسلامة، وثبت البعض، ومنهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى حيث توالت عليه المحنة زمن المأمون ثم المعتصم ثم الواثق وضُربَ وحُبس وعُذِّبَ وبقي ثابتاً على الحق صابراً محتسباً حتى أنهى المتوكل هذه المحنة. انظر مناقب الإمام أحمد للمصنف ٤٣٠ وما بعدها، ومحنة الإمام أحمد للمقدسي.

(٣) الشِّرَّة: الحرص والرَّغبة والنشاط.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٢٤٢)، وابن حبان (٣٤٩).

قال الترمذي: هذا حديث حَسَنٌ صحيح، غريب من هذا الوجه.

وقد روى أَنَسُ بن مالكٍ، عن النبي ﷺ أنه قال: «امْرئٍ من الشَّرِّ ـ إلا من عصمه الله ـ أن يُشيرَ الناسُ إليه بالأصابع في دينه ودنياه»[١].

وقد ذَكر الحسنُ البصريُّ رحمه الله لهذا الحديثِ تأْوِيلاً حسناً، فإنَّه لمَّا رَوَاه قالوا له: فإنَّ الناسَ إذا رأوكَ أشاروا إلَيْكَ بالأصَابعِ. فقال: إنَّه لم يَعْنِ هذا، إنما عَنى به المبتدعَ في دينه والفاسِقَ في دنياه.

واعلم أَنَّ أهلَ الخير لم يَقصِدوا الشُّهْرَةَ، ولم يتعرضوا بها ولا بأَسبابها، فإذا وقعت مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالى فَرُّوا منها، وقطعوا أسبابها.

وقد روينا عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج مِنْ منزلِهِ فَتبِعَه ناسٌ، فالتَفَتَ إليهم، فقال: على ما تَتْبعوني؟! فَوَاللهِ لو علمتُمْ ما أُغلِقُ عليه بابي ما اتَّبعني منكم رجلان. وفي لفظٍ آخر أنه قال: ارجعوا، فإنَّه ذِلَّةٌ للتابعِ، وفتنةٌ للمتبوع.

وخرجَ الحسنُ البصريُّ يوماً فاتَّبَعَهُ قومٌ، فقال: هل لكم مِنْ حاجةٍ؟ وما عسى أن يُبقي هذا مِنْ قلبِ المؤمن؟! وقال: إنَّ خفقَ النِّعالِ خَلفَ أعقابِ الرجالِ قَلَّما تَلْبَثُ عليهِ قلوبُ الحمقى.

وقيل لعلقمةَ[٢]: ألا تَدخلُ المسجدَ فَنَجْتَمِع إليكَ ونَسأل. فقال: إنّي أكرهُ أَنْ يُوطَأَ عَقبي ويقالَ: هذا عَلقمةُ، هذا علقمة[٣].

وخرج أيوبُ[٤] في سَفَرٍ فشيَّعهُ ناسٌ كثيرٌ، فقال: لولا أَنِّي أعلمُ أَنَّ اللهَ تعالى يَعلمُ مِنْ قلبي أَنِّي لِهذا كارهٌ لخشيتُ المَقْتَ مِنَ اللهِ تعالى. وقال مَعْمَرٌ: عاتبتُ أيوبَ على طولِ قميصِهِ، فقال: إنَّ الشُّهرةَ فيما مضى كانت في طُولِهِ، وهيَ اليومَ في تَشْميرِهِ. وقال أيوبُ: واللهِ ما صَدَقَ اللهَ عبدٌ إلّاَ سَرَّهُ أَنْ لا يُعْلَم مكانُهُ.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشُّعَب (٦٩٧٧).

(٢) هو علقمة بن قيس النَّخعي، أبو شبل الكوفي، ولد في حياة النبي ﷺ ولم يَرَه، وروى عن الخلفاء الأربعة وجمع من الصحابة توفي بعد سنة ٦٠هـ. السير ٤/ ٥٣.

(٣) الحلية ٢/ ١٠٠، والسير ٤/ ٥٩.

(٤) يعني أيوب السختياني.

وكانَ أبو العاليةِ إذا جلسَ إليه أكثرُ مِنْ أربعةٍ قامَ[(١)] . وكانَ خالدُ بن مَعْدانَ إذا عَظُمَت حَلقتُهُ قامَ، فانصرفَ كراهِيَّةَ الشُّهرةِ.

وصحبَ رجلٌ ابنَ مُحَيْرِيز في سفرٍ، فلمَّا أرادَ فراقَهُ قال: أَوْصِني. قال: إن استطعتَ أن تَعرفَ ولا تُعرفَ، وتمشي ولا يُمشى إليكَ، وتَسألَ ولا تُسْأَلَ فافعل[(٢)] .

وقال الثوري: ما رأيتُ الزهدَ في شيءٍ أقلَّ منه في الرياسةِ، تَرى الرَّجُلَ يَزْهَدُ في المطعمِ والمشربِ والمالِ، فإذا نُوزِعَ الرِّياسةَ حامى عليها وعادى.

وقال رجلٌ لبشرِ بنِ الحارث[(٣)] : أَوْصِني. قال: أَخْمِلْ ذِكْرَكَ، وطَيِّب مَطْعَمَكَ. وقال: لا يجدُ حلاوةَ الآخرةِ رجلٌ يحبُّ أن يَعرفَهُ النَّاسُ[(٤)] .

---

(١) الحلية ٢/ ٢١٨.
(٢) الحلية ٥/ ١٤١.
(٣) في (ف): (البشر الحافي) وكلاهما صحيح فهو بشر بن الحارث الزاهد المعروف ببشر الحافي، توفي سنة ٢٢٧هـ. وللمصنف رحمه الله كتاب في مناقبه. السير ١٠/ ٤٦٩.
(٤) حلية الأولياء ٨/ ٣٤٣.

بَيانُ

فَضيلة الخُمول

أخبرنا هبةُ اللهِ بنُ محمّدٍ، قال: أخبرنا الحسنُ بنُ علي، قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جعفرٍ، قال: حدثنا عبدُ اللهِ بنُ أحمد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا عبدُ الكبير ابنُ عبدِ المجيدِ، قال: حدثنا بُكَيرُ بنُ مِسْمَارٍ، عن عامرِ بنِ سعدٍ، أَنَّ أخاه عمرَ[١] انطلق إلى سعدٍ[٢] وهوَ في غنم لَهُ خارجاً من المدينة، فلمّا رآه سعدٌ قال: أعوذُ باللهِ مِنْ شَرِّ هذا الراكب. فلمّا أتاه قال: يا أَبةِ، أَرَضيتَ أن تكونَ أعرابياً في غَنَمِكَ، والنّاسُ يَتَنَازَعون في المُلْكِ بالمدينةِ؟ فضربَ سعدٌ صدرَ عُمَرَ، وقال: اسكُتْ، إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُحِبُّ العَبْدَ التقيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ». انفرد بإخراجه مسلم[٣].

وفي أفراده من حديث أبي هريرةَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغبرَ[٤] مدفوعٍ بِالأَبْوابِ لَوْ أَقْسَمَ على اللهِ لأَبرَّهُ»[٥].

وفي أفرادِ البخاريِّ مِنْ حديثِ أبي هريرةَ عَنِ النبيّ ﷺ أنّه قال: «طوبى لعبدٍ آخذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ في سبيلِ الله، أشعثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاه، إن كانَ في الحِراسَةِ كانَ في الحِراسَةِ، وإن كانَ في السَّاقَةِ[٦] كانَ في السَّاقَةِ، إنِ اسْتَأذَنَ لم يُؤْذَنْ له، وإِنْ شَفَعَ لم يُشَفَّعْ»[٧].

---

(١) ليس في (ف).
(٢) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.
(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٥)، وهو في المسند (١٤٤١).
(٤) كلمة أغبر ليست عند مسلم.
(٥) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) و(٢٨٥٤).
(٦) ساقة الجيش: مؤخره.
(٧) صحيح البخاري (٢٨٨٧).

أخبرنا ابن الحُصَين، قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِب، قال: أخبرنا أبو بكر بنُ مالكٍ، قال: حدثنا عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا عليُّ بنُ صالحٍ، عن أبي[١] المهلَّبِ، عن عبيدِ[٢] اللهِ بنِ زَحْرٍ، عن عليِّ بن يزيدَ، عن القاسِمِ، عن أبي أُمامةَ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ أَغْبَطَ أَوْليائي عندي مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الحاذِ[٣]، ذُو حَظٍّ من صلاةٍ، أحسنَ عبادةَ ربِّهِ، وكانَ في الناس غامضاً، لا يُشارُ إليه بالأصابعِ، فَعُجِّلت مَنِيَّتُهُ، وقَلَّ تُراثُه، وقَلَّت بواكيه»[٤].

ورَوينا أَنَّ عمرَ دخلَ المسجدَ، فإذا بمعاذِ بنِ جبلٍ يبكي عند قبرِ[٥] رسولِ الله ﷺ، فقال له: ما يُبكيك؟ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اليسيرَ مِنَ الرياءِ شِركٌ، وإنَّ اللهَ يحبُّ الأَتقياءَ الأَخفياءَ، الذين إن غابوا لم يُفْتَقدوا، وإن حَضَروا لم يُعْرَفوا»[٦].

وقال عليّ رضي الله عنه: طُوبى لِكُلِّ عبدٍ نُوَمَةٍ[٧]، عَرَفَ النّاس، ولم يَعرفْه النّاسُ، أُولئِكَ مصابيحُ الهدى، يَكْشِفُ اللهُ عنهم كُلَّ فِتْنَةٍ مُظْلِمَةٍ[٨].

وكانَ ابنُ مسعود يُوصي أصحابَه فيقولُ: كُونوا ينابيعَ العلم، مصابيحَ الهُدى أحلاسَ[٩] البيوتِ، سُرُجَ الليلِ، جُدُدَ القُلُوبِ، خُلْقانَ الثِّيابِ، تُعْرَفُون في السماءِ، و تَخْفُونَ على أَهْلِ الأَرْضِ[١٠].

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: (ابن).
(٢) تحرف في (ف) إلى: (عبد).
(٣) خفيف الحاذ: أي قليل المال والعيال.
(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٦٧)، والترمذي (٢٣٤٧)، والطبراني في الكبير ٨/ (٧٨٢٩) والحاكم ٤/ ١٢٣، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٥، والبيهقي في الشُّعب (٦٨١٤).
(٥) في (ف): (منبر).
(٦) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٧٩٨)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٢١) والحاكم ٤/ ٣٢٨، وتمام في الفوائد (١٦٧٣)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٥، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٧١)، والبيهقي في الشُّعب (٦٨١٢) وابن ماجه (٣٩٨٩) عن عبد الله بن عمر.
(٧) النُّوَمَة، كهُمَزة: خامل الذِّكر، الغامض في الناس.
(٨) التواضع لابن أبي الدنيا (١٠).
(٩) يقال: هو حِلسُ بيته؛ إذا لم يَبرح مكانه، والحِلس ما يُبسط في البيت تحت حُرِّ الثياب.
(١٠) التواضع والخمول (١١).

وقال الحسنُ البَصري: إن كانَ الرجلُ ليكونُ فقيهاً جالساً مع القوم، فيرى بعضَ النّاس أنَّ به عِيّاً[١]، وما به من عِيٍّ، إلاّ كراهةَ أنْ يَشْتَهِر. وقال الثوري: وجدتُ قلبي يصلُح بمكة والمدينة، معَ قومٍ غُرباء، أصحابِ بُتُوتٍ[٢] وعَباءٍ[٣].

واعلم أنه إنَّما فُضِّلَ الخُمولُ، لأَنَّه سَليمٌ مِنِ انتشارِ الصّيتِ الموجبِ للجاهِ والمنزلةِ في القلوبِ، وإذا وقعتِ المنزلةُ للإنسانِ في القلوبِ أحبَّها وسعى في ترتيبِها، وسلامتُه من ذلك بعيدة.

فإن قال قائل: فلا شُهرةَ أكثرُ مِنْ شُهْرَةِ الأنبياءِ وأَئِمَّةِ العُلماءِ. فقد سَلَفَ جوابُ هذا، وهوأَنَّ المذمومَ طلبُ الإنسانِ للشهرةِ، وأَمَّا وُجُودُها منْ جِهةِ اللهِ سبحانه وتعالى مِنْ غَيْرِ طَلبِ الإنسان، فليسَ بمذمومٍ، غيرَ أَنَّ في وُجُودِها فتنةٌ على الضُّعفاءِ، فَمَثَلُ الضَّعيفِ كالغريقِ القليلِ الصنعةِ في السِّباحةِ، فإنَّ الأَوْلى له أن لا يَتعلَّقَ به أحد من [٤]الغَرقى[٤]، لئلا يَغرقَ ويُغرقهم، فأمَّا السَّابِحُ النِّحْرِير[٥]، فإنْ تَعَلَّقَ الغَرقى به تَسَبَّبَ لخَلاصِهم.

---

(١) العِيّ: العَجز عن إحكام الأمر أو الكلام.

(٢) في النسخ: (بيوت)، والمثبت من حلية الأولياء، والبتوت: جمع بَت، وهو الطيلسان، كساءٌ من وبرٍ وصوفٍ يوضع على الرأس والأكتاف.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ٦.

(٤ـ٤) ليست في الأصل.

(٥) النِّحْرير: الحاذق الماهر المتقن الفَطِن.

بيانُ

ذَمّ الجاه

اعلم أن الجاهَ محبوبٌ للنفس، إلا أنّه إذا غلب حُبُّه عليها فسَعتْ في تحصيله لم تَسْلم من إثم.

وقد روى كعبُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ماذئبانِ جائعانِ أُرسِلا في غَنمٍ بأَفْسدَ لها من حِرص المرء على المال والشَّرف لدينه»[1]. [2]رواه أحمد والترمذي وقال: حسنٌ صحيح[2].

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٨٤) و(١٥٧٩٤)، وابن أبي شيبة ٣/ ٢٤١، و الترمذي (٢٣٧٦)، والنسائي في الكبرى (١١٧٩٦)، وابن حبان (٣٢٢٨).

(٢-٢) ليس في الأصل.

بيانُ

معنى الجاهِ وحقيقته

اعلم أنَّ الجاهَ والمالَ هما رُكنا الدنيا، ومعنى المال مِلْكُ الأَعْيانِ المنتَفَع بها، ومعنى الجاهِ مِلْكُ القُلُوبِ المطلوبِ تعظيمُها وطاعتُها، وكما أَنَّ الغنيَّ هُوَ الذي يَملِكُ الدَّارهمَ والدنانيرَ، ليَتَوَصَّلَ بهما إلى الأَغراضِ والشَّهواتِ، فكذلكَ ذُو الجاهِ، هوَ الذي يَمْلِكُ قُلوبَ النّاسِ، ويَقْدِرُ على التَّصَرُّفِ فيها، ليَسْتَعمِلَ بِواسِطَتِها أَرْبَابَها في أغْراضِهِ وَمَآرِبِه.

وكما أَنَّه يُكْتَسَبُ الأَموالُ بالصِّناعات، فكذلكَ تُكْتَسَبُ قُلوبُ الخَلقِ بأنواعِ المعاملاتِ، ولا تَتَسَخَّرُ القُلُوبُ إلا بالاعْتِقادِ، فَكُلُّ مَنِ اعتقَدَ في شَخْصٍ وَصْفاً مِنْ أَوْصافِ الكمالِ انقادَ له، بِحسَبِ قُوَّةِ اعتقادِهِ فيه، ولا يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ ذلكَ الوصفُ كَمالاً في نفسِهِ، بل قد يكونُ كمالاً في ظَنِّ المُعْتَقِدِ.

وكما أَنَّ مُحِبَّ المالِ يَطلُبُ أَن يَملِكَ العبيدَ، فطالبُ الجاهِ يَطلُبُ أَنْ يَسْتَرِقَّ الأَحرارَ ويَسْتَعْبِدَهُم بِتَمَلُّكِهِ لِقُلوبِهِم، وهذا التَّمَلُّكُ أقوى مِن تَمَلُّكِ المرقُوقِ[1]؛ لأَنَّ ذلكَ مَمْلُوكٌ قَهْراً، وهؤلاءِ مملوكونَ طَوعاً، معَ فرحهم بالعبوديَّةِ، فالذي يَطلُبُه هذا فوقَ ما يَطلُبُه مالِكُ الرِّقِّ بدرجات.

فإِذَنْ معنى الجاهِ: قيامُ المنزلةِ في قلوبِ الناسِ، وهوَ اعتقادُ القلوبِ نَعتاً من نُعوتِ الكمالِ في هذا الشخصِ، إِمَّا بعِلْمٍ، أو عِبادَةٍ، أو نَسَبٍ، أَو حُسْنِ خُلُقٍ، أو قُوَّةٍ في بَدَنٍ، أو حُسْنِ صُورَةٍ، أو غَيرِ ذلكَ مما يَعتقدُهُ النّاسُ كمالاً، فَبِقَدْرِ ما يَعْتَقِدونَ له من ذلكَ تُذْعِنُ قلُوبُهم لطاعتِهِ، ومِنْ ثمراتِ ذلكَ مدحُهُم وإِطراؤُهُم وخِدْمَتُهم وتَوقيرُهم.

---

(١) المرقوق: هو الرقيق، وهو العبد والمملوك.

بيانُ

سببِ كونِ الجاهِ محبوباً بالطبع
حتى لا يَخلوُ عنهُ قلبٌ إلّاَ بعدَ شِدَّةِ المجاهدةِ

اعلم أَنَّ السببَ الذي يقتضي كونَ الذَّهبِ والفضَّةِ وسائرِ أنواعِ المالِ محبوباً، هوَ بعينِه يَقتضي كونَ الجاهِ محبوباً، بل يَقتضي أن يكونَ أحبَّ مِنَ المالِ، كما يقتضي أن يكونَ الذَّهبُ أحبّ مِنَ الفضَّة. وذاكَ أنكَ تَعْلَمُ أَنَّ الدّراهمَ والدَّنانيرَ لا غَرضَ في أعيانها، لأنها والحَصى سواءٌ، لكنها تُحَبُّ لأنها وسيلةٌ إلى المحابِّ، فكذلكَ الجاهُ.

وقد بَيَّنَّا أَنَّ معنى الجاهِ مِلكُ القلوبِ، وكما أَنَّ مِلْكَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ يُفيدُ قُدْرَةً يَتوَصَّلُ الإنسان بها إلى جميع أغراضِه، فكذَلكَ مِلكُ قُلوبِ الأحرارِ، والقدرةُ على اسْتِسْخارِها، يُفيدُ قُدرةً على التَّوصُّلِ إلى جميعِ الأَغراضِ، فالاشتراكُ في السبب اقتضى الاشْتِراكَ في المحبَّةِ، وترجيحُ الجاهِ على المالِ اقتضى أن يكونَ الجاهُ أَحبَّ مِنَ المالِ.

ولِملْكِ القلوبِ ترجيحٌ على مِلْكِ المالِ مِنْ ثلاثةِ أَوْجُهٍ:

الأَوّل: أَنَّ التوصُّلَ بالجاهِ إلى المالِ أَيْسَرُ مِنَ التَّوَصُّلِ بِالمَالِ إلى الجاهِ، فالعالِمُ أوِ الزاهدُ الذي قد تَقرَّرَ له جاهٌ في القلوبِ، إذا قَصَدَ اكتسابَ المالِ تَيسَّرَ له، فإنَّ أَموالَ أَربابِ القلوبِ مُسَخَّرةٌ للقلوبِ، ومَبذولةٌ لِمَنْ اعتُقِدَ فيهِ الكمالُ. وأَمَّا الرَّجُلُ الخَسيسُ، الّذي لا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ كمالٍ، إذا وَجدَ كنزاً، ولم يكنْ له جاهٌ يَحفَظُ مالَه، وأَرادَ أن يَتَوَصَّلَ بالمالِ إلى الجاهِ، لم يَتَيَسَّرْ له.

فإذَنْ الجاهُ آلةٌ ووسيلةٌ إلى المالِ، فمن مَلَكَ الجاهَ فَقَدْ مَلَكَ المالَ، ومَنْ مَلَكَ المالَ لم يَمْلِكِ الجاهَ، فلذلكَ صارَ الجاهُ أَحبَّ.

والثاني: أَنَّ المالَ مُعَرَّضٌ للتَّوَى[١]، بأن يُسرَقَ ويُغصَبَ، ويَطمعَ فيهِ الظَّلَمةُ، ويَحتاجُ إلى الحَفَظةِ، والقلوبُ إذا مُلِكَتْ لم تَتَعَرَّضْ لهذه الآفاتِ، فهيَ خزَائِنُ عَتيدةٌ، لا يَقدِرُ عليها السُّرَّاقُ.

الثالث: أَنَّ مِلكَ القلوبِ يَسري ويَنمو وَيتزايدُ مِنْ غيرِ تَعَبٍ في تحصيلِ ذلك، فإنَّ القلوبَ إذا أَذْعَنَتْ لِشَخْصٍ، واعْتَقَدَتْ كمالَهُ، أَفْصَحَتِ الأَلْسُنُ بِوَصْفِ ما تَعْتَقِدُهُ للغير، فَيَقَعُ بذلكَ اقتناصُ خَلْقٍ آخَرين، بخلافِ المالِ، فإنَّ اسْتِنْمَاءَهُ لا يكونُ إلّاَ بعدَ تعبٍ، والجاهُ أبداً يَنْمي بنفسِهِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: مَعلومٌ أَنَّ مَن أَحبَّ مِنَ المالِ أَوْ مِنَ الجاهِ ما يَنالُ به أغراضَه فمعذورٌ، فما وَجْهُ مَحَبَّةِ الإنسانِ استكثارَ الأموالِ، حتّى لو كانَ له واديانِ مِنْ ذَهَبٍ لابتغى إليهما ثالثاً. وما وجهُ مَحَبَّتِهِ لانتشارِ صِيتِه إلى أقاصي البلاد التي يعلمُ أنّه لا يَطؤها، ولا يَجيءُ أَصحابُها إليه فَيَنْفَعُوهُ بحالٍ؟

فالجواب: أَنَّ هذهِ المحبةَ لها سببانِ؛ أَحَدُهُما جَليٌّ، والآخرُ خَفِيٌّ، والخفيُّ أقوى السببينِ؛ لأَنَّه يكونُ مِنْ طَبيعةٍ مُسْتَكِنَّةٍ في الطَّبْعِ، لا يَقِفُ عليها إلا الغَوّاصُونَ مِنَ العلماءِ.

فأمّا السببُ الأَوّلُ: فهوَ دَفْعُ أَلَمِ الخوفِ، فإنَّ الشَّفيقَ[٢] بسوءِ الظنِّ مُولَعٌ، والإنسانُ وإنْ كانَ مَكفياً[٣] في الحالِ، إلّاَ أَنَّه طويلُ الأَمَلِ، فيخطرُ ببالِه، أَنَّ المالَ الذي فيهِ كِفَايَتُهُ رُبَّمَا تَلِفَ، فاحتاجَ إلى غيرِهِ، فَيَهيجُ الخوفُ عندَ ذلكَ الخاطِرِ، فلا يَدْفَعُهُ إلّاَ الأَمْنُ الحاصلُ بوجودِ مالٍ آخرَ يَفْزَعُ إليهِ إنِ اجْتيحَ[٤]هذا، ومتى قُدِّرَ هُجُومُ الحاجاتِ، وتَطَرُّقُ الآفاتِ إلى الأموالِ وَقعَ الخوفُ، ولا مَوْقِفَ لهذا الخوفِ عندَ مِقدارٍ مخصوصٍ مِنَ المالِ، ومِثْلُ هذِهِ العِلَّةِ تَطَّرِدُ في حُبِّهِ للجاهِ في

(١) التَّوَى: الهلاك.
(٢) الشفيق: الخائف.
(٣) في الأصل: (مكتفياً).
(٤) اجتيح: استؤصِلَ وأُهلكَ.

قُلوبِ الأباعدِ، لأنَّهُ يُقَدِّرُ وُجودَ سَببٍ يُزْعِجُهُ عن وطنِهِ، أو يُزْعِجُ أُولئِكَ إليهِ، فَيحتَاجُ إلى الاسْتِعَانَةِ بهم، ومتى كانَ ذلكَ مُمْكناً كانَ للنَّفْسِ فَرحٌ والْتِذَاذٌ بقيامِ الجاهِ في قُلوبِ أَولَئِكَ، لِمَا في ذلك من الأمن عن هذا الخوف.

وأما السببُ الثاني: فاعلم أنَّ للنفسِ مَيلاً إلى صفاتٍ بهيميَّةٍ، كالأكلِ والجِماعِ، وإلى صِفاتٍ سَبُعِيَّةٍ، كالقتلِ والضربِ والإيذاءِ، وإلى صِفاتٍ شَيْطانِيَّةٍ، كالمكرِ والخِداعِ، وإلى صفاتٍ رُبُوبِيَّةٍ، كالعِزِّ والعُلُوِّ والكِبْرِ، والإنسانُ لما فيه من الأمر الرباني يحب الرُّبوبية بالطبع. ومعنى الربوبيَّة: التوحُّدُ بالكمالِ، والتفرُّد بالوجودِ[1] على سبيلِ الاستقلالِ، إذِ المشارَكَةُ في الوُجودِ نَقْصٌ لا مَحالَة، بدليلِ أَنَّ كمالَ الشمسِ في وجودِها وَحْدَها، فَلَوْ كانَ مَعَها شمسٌ أُخرى كانَ ذلكَ نقصاً في حَقِّها، إذْ لا تكونُ مُنْفَرِدَةً بكمالِ معنى الشمسيَّةِ. والمنفردُ بالوجودِ هوَ اللهُ تعالى، إذْ ليسَ مَعَهُ مَوجُودٌ سِواهُ، فإنَّ ما سِواهُ أَثَرٌ مِن آثارِ قُدْرَتِهِ، لا قِوامَ لهُ بِذَاتِهِ، بل هُوَ قائِمٌ به، فَلَمْ يَكن مَوجوداً مَعَهُ؛ لأَنَّ المعِيَّةَ تُوجِبُ المُساواة في الرُّتْبَةِ، والمُساواةُ في الرُّتْبَةِ نُقْصَانٌ في الكمالِ، إذِ الكامِلُ مَنْ لا نَظيرَ لهُ في رُتْبَتِهِ، فإشْراقُ نُورِ الشمسِ [2]في الآفاقِ[2] ليسَ نُقصاناً في الشمسِ، بل هوَ مِن جُملَةِ كَمالها، وإنَّما نُقْصانُ الشمسِ بوجودِ شمسٍ أُخرى تُساويها في الرُّتبةِ، معَ الاسْتِغْنَاءِ عنها، فكذلكَ وُجودُ كُلِّ ما في العالمِ يَرْجِعُ إلى إِشْراقِ أَنْوارِ القُدْرَةِ، فَيكونُ تابِعاً، ولا يكُونُ مَعاً.

فإذَنْ معنى الرُّبُوبيَّةِ: التفردُ بالوجودِ، وَهُوَ الكمالُ، وكُلُّ إنسانٍ يُحبُّ بطبعِهِ أَنْ يكونَ مُنفرداً بالكمالِ، فإذا عَجزَتِ النفسُ عن دَركِ مُنتهى الكمالِ لم تَسقُطْ شَهوتُها للكمالِ، فهيَ مُحبَّةٌ له، ومُلْتَذَّةٌ به لذاتِهِ، لا لمعنىً آخرَ وراءَ الكمالِ.

وإنَّ أكملَ الكمالِ أَن يكونَ وُجودُ غيرِكَ مِنكَ، فإنْ لم يكن منكَ فَأَنْ تكونَ مُستولياً عليه، فصارَ الاستيلاءُ على الكُلِّ مَحبوباً بالطبعِ؛ لأنَّه نوعُ كمالٍ، ولهذا

---

(١) سقطت من (ف).

(٢-٢) ليس في (ف).

يُحبُّ الإنسانُ الاسْتيلاءَ على السماواتِ والأفلاكِ، وعجائبِ البحارِ، وكُلِّ صناعةٍ بالعلمِ، والإحاطةَ بأسرارِها؛ لأنَّ العالِمَ بالشيءِ كالمستولي عليه، وقد يُحبُّ أن يَعْلَمَ مِنَ العلومِ مالا يَتَوصَّلُ به إلى أغراضِهِ، لِما في ذلكَ مِنَ الاسْتيلاء على المعلومات.

فأمَّا ما يَتَصَوَّرُ له الاسْتيلاءُ على ذاتِه كالأموالِ والعبيدِ، فإنَّه يُحبُّ الاسْتيلاءَ على صُوَرِها، ولذلكَ أَحبَّ الاسْتيلاءَ على القلوبِ بإقامتِهِ الجاهَ عندَها، فمهما بَقيَ معلومٌ أو مقدورٌ فشَوقُ الإنسانِ لا يَسْكُنُ لِمَا يَطلُبُه مِنَ الكمالِ.

بيانُ

الكمالِ الحقيقي والكمالِ الوهميّ الذي لا حقيقةَ له

اعلم أَنَّ الكمالَ الحقيقيَّ العلمُ والحرَّيةُ، أَمَّا العلمُ فمعرفةُ الله سبحانه وتعالى، وأمّا الحريّةُ فالخَلاصُ من أَسْرِ الشهواتِ تَشَبُّهاً[١] بالملائكةِ، الذين لا تَستفزُّهم شهوةٌ، ولا يَسْتهويهم غضبٌ.

وللعبدِ طريقٌ إلى اكتسابِ كمالِ العلمِ وكمالِ الحريّةِ، وذلكَ لا يَنعدمُ بالموتِ، بل يبقى عندَه كمالاً ووسيلةً إلى القربِ إلى الله تعالى، فأمَّا قدرتُه على أَعيانِ الأموالِ واستسخارِ القلوبِ بالجاهِ، فهيَ منقطعةٌ بالموت.

فانظر إلى الجاهلينَ الذين طلبوا كمالَ القُدرةِ بالمالِ والجاهِ، فذلك الكمالُ لا يَسلمُ، وإنْ سَلِمَ فلا بقاءَ له، وأَعْرَضُوا عن كمالِ العلمِ والحريَّةِ الباقيَين، وهؤلاءِ هُمُ الذينَ اشتروا الحياةَ[٢] الدنيا بالآخرة.

فقد بانَ بما ذكرنا أَنَّ كمالَ القدرةِ بالمالِ والجاهِ كمالٌ ظنيٌّ، لا أَصلَ له، وأَنَّ من قَصَرَ الوقتَ على طلبِ ذلكَ فهوَ جاهلٌ، إلا أَنْ يُحَصِّلَ قَدْرَ البُلْغَةِ منهما إلى الكمالِ الحقيقيِّ.

---

(١) في (ف): (شبهاً).

(٢) سقطت من الأصل.

بيانُ

ما يُحْمَدُ مِنْ حُبِّ الجاهِ ويُذَمُّ

معلومٌ أنه لا بُدَّ مِنْ مالٍ لضرورةِ المطعَمِ والمَلْبَسِ، فكذلكَ لابُدَّ من جاهٍ لضرورةِ المعيشةِ مَعَ الخلقِ؛ لأَنَّ الإنسانَ لا يَخلو مِنَ الحاجةِ إلى سُلْطانٍ يَحرُسُهُ، ورفيقٍ يُعيْنُهُ، وخادمٍ يَخْدُمُهُ، فَحُبُّه أَنْ يكونَ له محلٌّ في قلبِ سُلطانِه، ليَحُثَّهُ ذَلك على دَفْعِ الشَّرِّ عنهُ، وفي قلبِ رَفيقِهِ ليُحْسِنَ مُرافَقَتَهُ، وفي قلبِ خادِمِهِ ليُحْسِنَ خِدْمَتَهُ ليسَ بمذموم؛ لأَنَّ الجاهَ وَسيلةٌ إلى الأغراضِ كالمالِ، إلا أنَّ التحقيقَ في هذا يُفْضِي إلى أَنْ[١] لا يكونَ المالُ والجاهُ محبوبينِ لأعيانِهما، بل كما يُحبُّ الإنسانُ أَنْ يكونَ في دارِه بيتُ ماءٍ لضرورةِ قضاءِ الحاجة، وقد يُحبُّهما لأعيانِهما، كما قَدَّمنا ذِكْرَه في الفَصْلِ المتقدِّمِ، كما يُحبُّ شخصٌ زَوْجَتَهُ لا لِنَفْسِ قضاءِ الشهوَةِ منها.

ومتى طلبَ قيامَ جاهِهِ في القلوبِ لأجلِ صفةٍ هوَ مُتَّصِفٌ بها كانَ ذلكَ مُباحاً، كقولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. أو قَصَدَ إخفاءَ عَيبٍ مِنْ عُيُوبِهِ، لِئَلا تَزُولَ منزلتُه فهوَ مباحٌ أيضاً.

فأَمَّا إذا طلبَ المنزلةَ باعتِقادِهم فيه صفةً ليست فيه، كالعلمِ والورَعِ والنَّسَبِ، فذلكَ محظورٌ، وكذلكَ لوحسَّنَ الصلاةَ بينَ أيديهم، ليَعْتَقِدُوا فيهِ الخُشوعَ، فإنَّه مُراءٍ بذلك، وكما أنّه لا يَجوزُ تَملُّكُ المالِ بتلْبيسٍ، فلا يَجوزُ تَملُّكُ القلوبِ بتَزْويرٍ.

---

(١) في (ف): (يقتضى أن).

بيانُ

السببِ في حُبِّ المدحِ والثناءِ، وارتياحِ النفسِ به، ومَيلِ الطِّباعِ إليهِ وبُغْضِها للذَّمِّ ونُفورِها منه

اعلم أَنَّ لِحبِّ المدحِ والْتِذاذِ القلبِ به أربعةُ أسباب:

السبب[1] **الأوَّلُ**: وهو الأقوى ـ شُعُورُ النفسِ بالكمالِ، فإنَّا قد بيَّنَّا أَنَّ الكمالَ مَحبوبٌ، وكُلُّ مَحبوبٍ فإدراكُهُ لَذيذ، فإذا شَعَرَتِ النَّفْسُ بكمالِها ارتاحتْ وتَلَذَّذَتْ.

والمدحُ يُشْعِرُ نَفْسَ الممدوح بكمالِها، فإنَّ الوصفَ الذي به مُدِحَ لا يَخلو: إمَّا أن يكونَ جليّاً ظاهراً، [2]أو يكونَ مشكوكاً فيه، فإن كان جَليّاً ظاهراً[2] كانتِ اللَّذَّةُ فيهِ أقلَّ، ولكنَّه لا يَخلو عن لَذَّةٍ، كثنائه عليه بأَنَّه طويلُ القامةِ، أبيضُ اللونِ، فإنَّ هذا نوعُ كمالٍ، ولكنَّ النَّفْسَ تَغْفَلُ عنه، فيخلو عن لَذَّتِه، فإذا أُشعِرتْ به لم يَخْلُ حُدوثُ الشُّعورِ مِنْ حُدُوثِ لَذَّةٍ.

فإن كانَ ذلكَ الوصفُ مِمَّا يتطرَّقُ إليهِ الشَّكُّ فاللذَّةُ فيه أعظمُ، كالثَّناءِ عليه بكمالِ العلمِ، وكمالِ الورَعِ، أو بالحُسْنِ المطلَق، فإنَّ الإنسانَ رُبَّما يكونُ شاكّاً في كمالِ حُسْنِهِ، وكمالِ عِلمِهِ، وكمالِ وَرَعِهِ، ويكونُ مُشْتاقاً إلى زَوالِ هذا الشكِّ، بأن يَصيرَ مُسْتيْقِناً، فإذا ذَكَرَ ذلكَ غَيرُهُ أَوْرَثَهُ ذلك طُمَأْنينةً وثقةً باسْتِشْعَارِ ذلكَ الجمالِ، فَتَعْظُمُ لَذَّتُه.

وإنَّما تَعْظُمُ اللَّذَّةُ إذا صَدَرَ الثناءُ مِنْ بَصيرٍ بهذهِ الصفاتِ، خبيرٍ بها، لا يُحرِّفُ في القولِ، وذلكَ كفرحِ التلميذِ بثناءِ أُسْتاذِهِ عليه بالذكاءِ وغَزَارَةِ الفَضْلِ، وإنْ صَدَرَ مِمَّن يُحرِّفُ في الكلامِ، أو لا يكونُ بَصيراً بذلكَ الوصفِ، ضَعُفَتِ اللَّذَّةُ، وبهذهِ

(١) ليست في (ف).
(٢ـ٢) سقط من الأصل.

العِلَّةِ يبغضُ الذَّمَّ ويَكْرَهُهُ؛ لأَنَّهُ يُشْعِرُ الإنسانَ بنقصانِ نفسِه، والنقصانُ ضِدُّ الكمالِ[١] المحبوبِ، فهوَ ممقوتٌ، والشُّعورُ به مُؤْلِمٌ، ويَعظُمُ الأَلَمُ إذا صَدَرَ الذَّمُّ مِن بَصيرٍ مَوثوقٍ به كما ذكرنا في المدحِ.

السببُ الثاني: أَنَّ المدحَ يَدُلُّ على أَنَّ قلبَ المادِحِ مملوكٌ للممدوحِ، وأنه مُعْتَقِدٌ فيه، ومِلْكُ القُلُوبِ مَحْبُوبٌ، والشعورُ بِحُصُولِهِ لَذِيذٌ، وبهذِه العِلَّةِ تَعْظُمُ اللَّذَّةُ إذا صَدرَ الثناءُ ممن تَتَّسِعُ قُدْرَتُه، ويُنْتَفَعُ باقْتِنَاصِ قلبِه، كالملوكِ والأكابرِ، وتَضْعُفُ إذا كانَ المُثني لا يُؤْبَهُ له، ولا يَقْدِرُ على شيءٍ؛ لأنَّ القُدْرَةَ على قلبِ هذا قُدْرَةٌ على أمرٍ حقيرٍ، فلا يَدُلُّ المدحُ إلّاَ على قُدْرَةٍ قاصِرةٍ، وبهذِهِ العِلَّةِ أيضاً يُكْرَهُ الذَّمُّ، ويَتألَّمُ به القلبُ، وإذا كانَ مِنَ الأكابرِ كانت نِكايَتُه أَعَظَمَ؛ لأَنَّ الفَائِتَ مِنْهُ أَعظَمُ.

السبب الثالثُ: أَنَّ ثناءَ المُثْني ومَدحَ المادحِ سببٌ لاصطيادِ قَلْبِ كلِّ مَنْ يَسْمَعُه، لا سِيَّما إذا كان ذلكَ مِمَّنْ يُلتفتُ إلى قولِهِ، ويُعْتَدُّ بثنائِهِ، وهذا يَختَصُّ بثناءٍ يَقَعُ بين الملأ، وكُلَّما كان الجمعُ أكثرَ[٢] والمُثني أَجدرَ بأَنْ يُلتَفَتَ إلى قولِهِ كانَ المدحُ أَلذَّ، والذمُّ على النفسِ أَشدَّ.

السببُ الرابعُ: أَنَّ المدحَ يدلُّ على حِشمَةِ الممدوحِ، واضطرارِهِ المادِحِ إلى إطلاقِ اللسانِ بالثناءِ عليهِ، إِمَّا عن طَوعٍ، وإمَّا عن قَهْرٍ، فَإِنَّ الحِشْمَةَ أيضاً لذيذةٌ، لِما فيها مِنَ القَهْرِ والقُدرَةِ، وهِذهِ اللَّذَّةُ تَحصُلُ وإنْ كانَ المادحُ لا يَعتقدُ في الباطنِ ما قَدَحَ به، ولكنْ كونُه مُضطرّاً إلى ذِكرِهِ نوعُ قَهْرٍ واسْتيلاءٌ عليه، فلا جَرَمَ[٣] تكونُ لَذَّتُهُ بِقَدْرِ تَمنُّعِ المادِحِ وقُوَّتِه، فتكونُ لَذَّةُ ثَناءِ القويِّ المُمْتَنِعِ عنِ التواضعِ بالثناءِ أشدَّ.

فهذِهِ الأسبابُ الأَرْبَعَةُ قد تَجْتَمِعُ في مَدْحِ مادحٍ واحدٍ، فيَعْظُمُ بها الالْتِذَاذُ، وقد تَفْتَرِقُ، فَتَنقُص[٤] اللذَّةُ بها.

---

(١) ليست في النسخ، واستُدركت من الإحياء.
(٢) ليست في الأصل.
(٣) لا جَرَمَ: لابدَّ، أو حقاً، أو لا محالة، ثم كثُر استعمالها حتى تحولت إلى معنى القسم.
(٤) سقطت من النسخ، واستدركت من الإحياء.

وأمَّا العِلَّةُ الأولى: وهي اسْتِشْعارُ الكمالِ، فَتَندَفِعُ بأَنْ يَعلمَ الممدوحُ أَنَّ المادحَ غيرُ صادقٍ في مَدْحِه، كما إذا مُدِحَ بِأَنَّه عالمٌ بكذا، أو سَخيٌّ، وهو يَعْلمُ مِنْ نفسِهِ ضِدَّ ذلك، فتزولُ اللَّذةُ التي سَبَّبها اسْتِشْعارُ الكمالِ، وتَبقى لَذَّةُ الاسْتيلاءِ على قَلْبِهِ وعلى لِسانه، وبقيَّةُ اللَّذاتِ.

فإنْ كانَ يَعلَمُ أَنَّ المادِحَ ليسَ يَعْتَقِدُ ما يَقولُه بَطَلَتِ اللَّذةُ الثانيةُ، وهيَ اسْتيلاؤُهُ على قَلْبِهِ، وبَقِيَتْ لَذَّةُ الاسْتيلاءِ بالحِشْمَةِ على اضطِرارِ لِسانِه إلى النُّطقِ بالثَّناءِ، فإنْ لم يَكنْ ذلكَ عن خَوفٍ، بلْ كانَ بطريقِ اللَّعِبِ بَطَلَتِ اللَّذاتُ كُلُّها، لِفواتِ الأَسْبابِ الثَّلاثَةِ.

فها ما يَكشِفُ الغِطاءَ عنْ عِلَّةِ الْتِذاذِ النَّفْسِ بالمدْحِ، وتَأَلُّمِها بالذَّمِّ، وإنَّما ذَكرناه لِتَعْرِفَ طريقَ العِلاجِ لِحُبِّ الجاهِ، وحُبِّ المَحْمَدَةِ، وخَوفِ المذَمَّةِ، فإنَّ ما لا يُعرَفُ سَبَبُهُ لا يُمكنُ مُعالَجَتُهُ، إذِ العِلاجُ عِبارَةٌ عَنْ حَلِّ أسباب المرضِ.

بيانُ

علاجِ حُبِّ الجاهِ

اعلم أَنَّ مَنْ غَلَبَ على قلْبِهِ حُبُّ الجاهِ، صارَ مَقصورَ الهَمِّ على مُراعاةِ الخَلْقِ، مَشْغوفاً بالتَّوَدُّدِ إليهم، والمُراءَاةِ لهم، ولا يَزالُ في أَقوالِهِ وأَفْعالِهِ مُلْتَفِتاً إلى ما يُعْظِمُ مَنْزِلَتَه عِنْدَهم، وذلكَ بَذْرُ النِّفاقِ، وأَصْلُ الفسادِ؛ لأَنَّ كُلَّ مَنْ طلَبَ المنزِلةَ في قُلُوبِ النَّاسِ، اضْطُرَّ إلى أن يُنافِقَهم، بإظهارِ ما هُوَ خالٍ عنه، ويَجرُّ ذلكَ إلى المراءَاةِ بالعباداتِ، واقتحام المحظورات، للتَّوَصُّلِ إلى اقْتِناصِ القُلوب، ولذلِكَ شَبَّهَ رسولُ الله ﷺ حُبَّ المالِ والشَّرَفِ، وإفسادَهما للدِّينِ بذِئْبَينِ ضاريين(١)، فحُبُّ الجاهِ إذاً مِنَ المُهْلِكَاتِ، فَيَجِبُ عِلاجُهُ، وعِلاجُه مُرَكَّبٌ مِنْ عِلمٍ وعَمَلٍ.

أمَّا العلم: فهوَ أَنْ يَعلَم السببَ الذي لأَجْلِهِ أحبَّ الجاهَ، وهوَ كمالُ القُدْرَةِ على أَخلاصِ النَّاسِ وعلى قلوبِهِم، وقد بَيَّنَّا أَنَّ ذلِكَ إِنْ صَفَى وسَلِمَ فآخِرُهُ الموتُ، وسيَهْلَكُ عن قريبٍ ذُو الجاهِ ومن ذَلَّ له، فلا يَنبغي أن يُتركَ بهذا الدينُ الذي هو الحياةُ الأبديَّةُ.

ومَنْ فَهِمَ الكمالَ الحقيقيَّ والكمالَ الوهميَّ، كما سَبقَ، صَغُر الجاهُ في عينِهِ، إلاّ أَنَّ ذلك إِنَّما يَصْغُرُ في عينِ من يَنْظُرُ إلى الآخرةِ كأَنَّهُ يُشاهِدُها، كما كتبَ الحسنُ إلى عمرَ بن عبدِ العزيز: أَمَّا بَعْدُ، فكأَنَّكَ بآخِرِ من كُتِبَ عليه الموتُ قَدْ ماتَ، فانظر كيفَ مَدَّ نظرَهُ نحوَ المستقبلِ فكتبَ إليهِ عمرُ في جوابه: أَمَّا بعدُ فكأَنَّكَ بالدُّنيا لم تَكُنْ، وبالآخرةِ لم تَزَلْ. فهؤلاءِ كانَ التِفاتُهم إلى العاقِبَةِ للمُتَّقين، فاحتَقَروا المالَ والجاهَ، وأبصارُ أكثرِ الناسِ ضعيفةٌ، مَقْصورةٌ على العاجلَةِ، لا يَمْتدُّ نُورها إلى مُشاهَدَةِ العواقِبِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

---

(١) كما تقدم في الحديث قريباً في الصفحة ٨٢٦.

ومَنْ هذا حدُّهُ، فينبغي أن يُعالِجَ قَلْبَه مِن حُبِّ الجاهِ، بالعِلمِ بالآفاتِ العاجِلةِ، وهوَ أن يَتَفكَّرَ في الأخطارِ، الّتي يُسْتَهْدَفُ لها أربابُ الجاهِ في الدنيا، فإنَّ كُلَّ ذي جاهٍ محسودٌ، ومقصودٌ بالإيذاءِ، وخائفٌ على الدَّوامِ على جاهِهِ، ومُحتَرِزٌ مِنْ أَنْ تَتغيَّرَ مَنزِلتُهُ في القلوبِ، والقلوبُ أشدُّ تَغَيُّراً مِنَ القِدْرِ في غَلَيانِها، وهي مُرَدَّدَةٌ بينَ الإقبالِ والإعْراضِ، فَكُلُّ ما يُبْنَى على قُلوبِ الخَلْقِ، يُضاهي ما يُبنى على أمواجِ البحرِ، فإنَّه لا ثَباتَ له، والاشْتِغالُ بمراعاةِ القُلوبِ، وحِفظِ الجاهِ، ودَفْعِ كَيدِ الحُسَّادِ، ومَنْعِ أَذى الأعْداءِ، كُلُّ ذلكَ غُمومٌ عاجِلَةٌ، ومُكَدِّرَةٌ لَذَّةَ الجاهِ، فلا يَفِي مَرْجُوُّ الدنيا[(١)] بِمَخُوفِها، فَضلاً عَمَّا يَفوتُ في الآخرةِ، فبهذا يَنْبَغي أَن تُعالَجَ البَصيرةُ الضعيفةُ. وأَمَّا مَنْ نَفَذَتْ بَصيرَتُه، وقويَ إيمانُه، فإنَّه لا يَلتَفِتُ إلى الدنيا، فهذا هوَ العِلاجُ مِن حيثُ العلم.

وأَمَّا مِن حيثُ العَملِ: فإسقاطُ الجاهِ مِنْ قلوبِ الخلقِ بأفعالٍ توجبُ ذلك، كما رَوينا أَنَّ بعضَ الملوكِ قَصَدَ زِيارةَ رجلٍ زاهدٍ، فلمَّا قَرُبَ منه استدعى الزاهدُ طعاماً وبقلاً ولبناً، وأَخذَ يأكُلُ بِشَرَهٍ، ويُعْظِمُ اللُّقْمَةَ، فلَّما نظَرَ إليهِ الملِكُ سَقَطَ من عَيْنِهِ. وأَنَّ إبراهيمَ النَّخَعيَّ لما أُريدَ للقضاء لَبِسَ قميصاً أَحمرَ وقَعدَ في السُّوق.

واعلم أَنَّ انقطاعَ الزاهدِ عنِ الناسِ يُوجبُ له جاهاً عندَهم، فإذا خافَ مِن ذلكَ الفتنةَ فَلْيُخالِطْهُم على وَجْهِ السَّلامَة، ولْيَمشِ في الأسواقِ، ولْيَشْتَرِ حاجَته ويَحْمِلْها، ولْيَقْطَعْ طَمَعَهُ مِنْ دُنْياهُم، وقَدْ تَمَّ مُرادُهُ، وقد كانَ بِشرُ الحافي يَجلِسُ إلى عطارٍ، وما كانوا يُراعونَ نَواميسَ المُتَزَهِّدينَ اليومَ.

---

(١) في (ف): (الآخرة).

بيانُ

وجهِ العِلاج لحُبِّ المدحِ وكراهةِ الذَّمِّ

اعلم أَنَّ أكثرَ الناسِ إنَّما هَلكوا بخوفِ مَذَمَّةِ الناسِ(١)، وحُبِّ مَدْحِهِمْ، فصارتْ حركاتُهم كُلُّها مَوْقُوفَةً على ما يُوافِقُ رضا النّاسِ، رجاءً للمدحِ، وخوفاً من الذَّمِّ، وذلكَ مِنَ المُهْلِكات، فَوَجَبَ مُعَالَجَتُهُ، وطريقُ ذلك ملاحظةُ الأسبابِ الَّتي لأَجْلِها يُحبُّ المدحُ ويُكْرَهُ الذَّمُّ:

أمّا السببُ الأَوَّلُ: فهوَ استِشعارُ الكمالِ بسببِ قولِ المادحِ، فطريقُكَ فيه أَن تَرْجِعَ إلى عقلِكَ، وتَنْظُرَ: هل أَنْتَ مُتَّصِفٌ بما وَصَفَكَ به؟ فإنْ كُنتَ مُتَّصِفاً بتلكَ الصِّفَةِ، فانظر: هل هيَ صِفةٌ لا يَصْلُحُ أَنْ يُفْرَحَ بها كالجاهِ والمالِ؟ فإنَّه كالفَرَحِ بِنَباتِ الأرضِ، الذي يَصيرُ عن قليلٍ هَشيماً، وهذا يكونُ مِن قِلَّةِ العَقْلِ، بلِ العاقِلُ يقولُ:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدي في سُرورٍ   تَيَقَّنَ عنه صاحِبُهُ انْتِقالا(٢)

فلا يَنْبَغي للعاقِلِ أن يَفرَحَ بِعَرَضِ الدنيا، فإنْ فَرِحَ فلا يَنْبَغي أَنْ يَفرحَ بمَدحِ المادِحِ بها.

وإنْ كانتِ الصفةُ مما يُفْرَحُ بها كالعلمِ والورَع، فيَنبغي أَنْ يَحذَرَ مِنَ الخاتِمةِ، فإنَّ في الخَوفِ منها شُغْلاً عَنِ الفَرَحِ، والدنيا دارُ غُموم، لا دار سُرورٍ، ثُمَّ إنْ كُنتَ تَفْرَحُ بها على رَجَاءِ حُسْنِ الخاتمةِ، فيَنبغي أَنْ يكونَ فَرَحُكَ بفضلِ اللهِ عليكَ بالعلمِ والتقوى، لا بمَدحِ المادحِ، فإنَّ اللَّذَّةَ في اسْتِشْعارِ الكمالِ، والكمالُ موجودٌ مِن فَضْلِ اللهِ لا مِنَ المَدْحِ، والمدحُ تابعٌ له، فَلِمَ تَفْرَحُ بالمدْحِ والمدْحُ لا يَزيدُك فَضْلاً؟

---

(١) في الأصل: (الخلق).

(٢) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٣/ ٣٤١.

وإنْ كنتَ خالياً عنِ الصِّفَةِ التي مُدِحْتَ بها فَفرحُكَ بالمدحِ غايَةُ الجُنون، ومَثَلُكَ مِثالُ من قيل له: ما أطيبَ ريحَ عَذِرَتِك[1] ففرحَ بذلك[2].

فإذاً إنْ صَدَقَ المادِحُ، فليكن فرحُكَ بصِفَتِكَ التي هيَ من فضل اللهِ عليك، وإن كَذَبَ فينبغي أن يَغُمَّكَ ذلِكَ.

وأمّا السببُ الثاني: وهوَ دَلالةُ المدحِ على تَسخيرِ قلبِ المادِحِ، وكونُه سبباً لتَسْخيرِ قلبِ آخر، فهذا يَرجِعُ إلى حُبِّ الجاهِ والمنزلةِ في القلوبِ، وقد سبقَ ذِكْرُ معالجته، وذلك بِقطْعِ الطَّمَعِ وطلبِ المنزلَةِ عندَ الله، وبأنْ تعلَمَ أَنَّ طلبَكَ المنزِلَة في قُلُوبِ الناسِ يُسْقِطُ منزِلَتكَ عندَ الله، فكيفَ تَفْرَحُ؟

وأمّا السببُ الثالث: وهو الحِشْمةُ التي اضْطَرَّتِ المادِحَ إلى المدحِ، فهوَ يَرْجِعُ إلى قُدْرَةٍ عارِضَةٍ لا ثباتَ لها، ولا تَسْتَحِقُّ الفَرَحَ، بل يَنبغي أنْ يَغُمَّكَ مدْحُ المادِحِ وتكْرَهَهُ؛ لأَنَّ آفةَ المدحِ على الممدوحِ عظيمةٌ، كما ذكرنا في كتابِ آفاتِ اللسانِ، وكانَ السَّلَفُ يَنْفِرُونَ مِنَ المدحِ، ويَغضَبُونَ على المادِحِ.

---

(١) العَذِرةُ: الغائط.

(٢) ليست في (ف).

بيانُ

عِلاجِ كراهِيَةِ الذَّمِّ

قد سبقَ أَنَّ العِلَّةَ في كراهَةِ الذَّمِّ، هي ضِدُّ العلَّة في حُبِّ المدحِ، فعِلاجُهُ يُفْهَمُ مِن ذلك، والقولُ الوجيزُ فيه، أَنَّ مَنْ ذَمَّكَ لا يَخلو مِن (١ثلاثةِ أحوال١):

١ ـ أنْ يكونَ قد صدقَ فيما قال، وقصدَ النُّصْحَ والشَّفَقَةَ، فينبغي أَن تَتَقلَّدَ مِنَّته، ولا تغضب، فإنَّ مَن أهدى[٢] إليكَ عُيُوبَكَ فقد حَذَّركَ المهالِك، ثُمَّ اشْتَغِلْ بإزالةِ ما ذَمَّكَ به.

٢ ـ وإن كانَ قَصْدُه العيب فقد جنى هو على دينِهِ، وانتفعتَ أنتَ بقولِهِ؛ لأَنَّه قَدْ عَرَّفَكَ ما لم تَعرِفْ، وأَذْكَرَكَ مِن خطاياك[٣] ما نَسيتَ.

٣ ـ وإنِ افترى عليكَ ما أنتَ منهُ بريءٌ، فينبغي أَنْ تتفكرَ في ثلاثةِ أشياء:

أحدها: أَنَّكَ إنْ خَلَوتَ مِن ذلِكَ العيبِ، فَمَا تَخلو مِن أمثالِه، وما سترَ اللهُ مِن عُيوبِكَ أكثر، فاشكُرِ اللهَ إذْ لم يُطْلِعْهُ على عُيوبِك، ودَفَعَهُ عنكَ بذكرِ ما أَنتَ بريءٌ منه.

والثاني: أَنَّ ذلكَ كفّاراتٌ لذنوبِكَ.

والثالث: أنّه جَنى على دينِه، وتَعرَّضَ لِغَضَبِ اللهِ، فينبغي أَنْ تَسأَلَ اللهَ العفوَ عنه، لِئلا تكونَ عَوناً للشيطانِ عليه.

وقد رَوَيْنَا أَنَّ رجلاً شَجَّ رأسَ إبراهيمَ بنَ أدهمَ، فدعى له بالمغفرة، وقال: صِرتُ مَأْجوراً بسببه، فلا أَجعلُه مُعاقباً بسَببي.

(١ـ١) ليست في النسخ، و استدركت من الإحياء.

(٢) تحرفت في (ف) إلى: (اهتدى).

(٣) في الأصل: (خطأك).

بيانُ اختلافِ أَحوالِ الناسِ في الذَّمِّ والمدحِ

عمومُ الناسِ على حُبِّ المدحِ وكراهيَةِ الذَّمِّ، إلّاَ أَنَّ أَربابَ الرِّياضةِ نَظروا في العواقبِ، فقدَّموا مَصالحَ دينِهم على أَغراضِ نُفُوسِهم، فصاروا يَكرهونَ المدحِ، لِمَا يَخافُونَ منْ عاقِبَتِهِ، ويُؤْثِرونَ الذَّمَّ لَتَنَبُّهِهِمْ به على عُيوبهم، وهذهِ كَراهَةُ إيمانٍ، وإيثارُ إيمانٍ، والطبعُ عن ذلِكَ بِمَعْزِلٍ، ورُبَّما صَعِدَتِ الرياضةُ بصاحبه[1] إلى أن يُوافِق الطبع على ما ليسَ مِنْ عَادَتِهِ، كما قال بعضُهم: دافَعْتُ الشهوات، حتى صارَتْ شَهوْتي المُدافَعةَ.

---

(١) أي: بصاحب الطبع.

الشطر الثاني منَ الكتاب

في طلبِ الجاهِ والمنزلةِ بالعباداتِ وهو الرِّياءُ

وفيه: بيَانُ ذَمِّ الرِّياءِ، وبَيانُ حقيقةِ الرِّياء، وما يُراءَى به، وبَيانُ درجاتِ الرِّياء، وبَيانُ الرِّياءِ الخفيِّ، وبَيانُ ما يُحبِطُ العملَ مِنَ الرِّياءِ وما لا يُحبطُ، وبَيانُ دواءِ الرِّياءِ وعلاجِه، وبَيانُ الرُّخصةِ في إظهارِ الطاعاتِ، (١وبَيانُ الرُّخصةِ في كِتْمَانِ الذُّنُوبِ، وبَيانُ تَرْكِ الطَّاعاتِ١) خَوفاً مِنَ الرِّياءِ والآفاتِ، وبَيانُ ما يَصِحُّ مِنْ نشاطِ العبدِ للعِبادةِ بِسَبَبِ رُؤْيَةِ الخلقِ، وبَيانُ ما يَجبُ على المُريدِ أَنْ يُلْزِمَهُ قلبَه قبلَ الطَّاعةِ وبعدَها، وهيَ عَشرةُ فُصُولٍ.

(١ـ١) سقط من (ف).

بيانُ

ذَمِّ الرِّياء

اعلم أَنَّ الرِّياءَ حرامٌ، والمُرائي عندَ اللهِ ممقوتٌ، وقد شهد بذلكَ الآياتُ والأخبارُ.

فمنَ الآياتِ: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ [الماعون: ٣-٦]. وقولُه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومِنَ الأخبار: ما أخبرنا به ابنُ الحُصَين، قال: أخبرنا ابنُ المُذْهِبْ، قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جعفرٍ، قال: حدثنا عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ، قال: حدثني أبي، قال: حدّثنا حجّاجٌ، عنِ ابنِ جُرَيْجٍ، قال: حدّثني يونسُ بن يوسفَ، عن سُليمانَ بنِ يَسار، قال: تَفرَّجَ الناسُ عن أبي هريرةَ، فقال له ناتِلٌ[1] الشّاميُّ: أَيُّها الشيخُ، حدِّثْنا حديثاً سمعتَه من رسولِ الله ﷺ [2]فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول[2]: «إنَّ أَوَّلَ النّاسِ يُقضى فيهِ يومَ القيامَةِ ثلاثةٌ: رجُلٌ استُشْهِدَ، فأُتيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرفَها، فقال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قاتَلْتُ فيكَ حتى قُتِلْتُ. قال: كذبتَ، ولكِنَّكَ قاتَلْتَ ليُقَالَ: هُوَ جريءٌ، فَقَدْ قيل. ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتَّى أُلْقيَ في النار. ورجلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وعَلَّمَهُ، وقَرَأَ القرآنَ، فأُتيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرفَها، فقال: ما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ فيكَ العِلْمَ وعَلَّمْتُهُ، وقَرأْتُ فيكَ القرآنَ. فقال: كذَبْتَ، ولكِنَّكَ تعلَّمْتَ ليُقال: هُوَ عالِمٌ، فَقَدْ قيل، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قارِئٌ، فَقَدْ قيل. ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النَّار. ورَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ

(١) تصحف في النسخ إلى (نائل)، وهو ناتل بن زيد بن قيس الشامي. تهذيب الكمال ٢٩/ ٢٥٠.

(٢-٢) سقط من (ف).

عَليهِ، وأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المالِ كُلِّهِ، فأُتِيَ به، فَعرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرفَها، فقال: ما عَمِلْتَ فيها؟ فقال: ما تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيها إلا أَنْفَقْتُ فيها لَكَ. قالَ: كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: هُوَ جَوادٌ، فَقَدْ قيل. ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وَجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّار»(١). انفردَ بإخراجِهِ مُسْلِمٌ.

وفي أفْرَادِهِ مِنْ حديثِ أبي هريرةَ أيضاً، عنِ النبيِّ ﷺ، يَرْويهِ عن ربِّه عَزَّ وجلَّ، أَنَّه قال: «أنا خَيرُ الشُّركاءِ، فمن عَمِلَ عملاً فأشْرَكَ فيه غَيرِي، فأَنا بَريءٌ منه، وهوَ للذي أَشْرَكَ»(٢).

أخبرنا هِبَةُ اللهِ بنُ مُحَمَّدٍ، قال: أخبرنا الحسنُ بنُ علي التميمي، قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك، قال: حدثنا عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا يونسُ، قال: حدثنا ليثٌ، عن يَزيدَ ـ يعني ابنَ الهادِ(٣) ـ عن عمروٍ، عن محمود بن لَبيد، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: إنَّ أخوف ما أخافُ عليكم الشركَ الأصغر». قالوا: وما الشركُ الأصغر؟ قال: «الرِّياءُ، يقولُ الله عَزَّ وجلَّ لهم يومَ القيامةِ إذا جُزِي الناسُ بِأَعْمَالِهِم: اذْهَبوا إلى الذينَ كُنتُمْ تُراؤونَ في الدنيا، فانظُروا هل تَجِدُونَ عِنْدَهُم جَزَاءً»(٤).

وقالَ أبو العالية: قال لي أصحابُ رسولِ الله ﷺ: لا تَعْمَلْ لغيرِ اللهِ، فَيكِلَكَ اللهُ إلى مَنْ عَمِلْتَ له.

وقال الرَّبيعُ بنُ خُثَيْم: كُلُّ ما لَمْ يُرَدْ به وَجْهُ اللهِ عَزَّ وجلَّ يَضْمحِلُّ فيَذْهَبُ.

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: مَن تَزَيَّنَ للنَّاسِ بشَيءٍ يَعلَمُ اللهُ مِنْهُ غَيْرَهُ شَانَهُ اللهُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٢٧٧)، ومسلم (١٩٠٥)، والنسائي في الكبرى (٤٣٣٠) و(١١٤٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٩٩) بهذا اللفظ، ومسلم (٢٩٨٥)، وابن خزيمة (٩٣٨)، وابن حبان (٣٩٥)، والطيالسي (٢٥٥٩)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، والبيهقي في الشُّعَب (٦٨١٦).

(٣) تحرف في (ف) إلى: (العاد).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠) و(٢٣٦٣١) و(٢٣٦٣٦)، والبغوي في شرح السنة (٤١٣٥) وابن أبي شيبة ٢/ ٤٨١، وابن خزيمة (٩٣٧).

وقال بِشْرُ الحافي: لأَنْ أَطلبَ الدُّنيا بمِزْمَارٍ أَحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أَطْلُبها بالدِّين.

أخبرنا أبو منصورٍ القزَّازُ، قال: أخبرنا أبو بكر أحمدُ بنُ علي، قال: حدثني عليُّ بنُ أبي علي المُعَدِّل، قال: حدثنا أبو بكرِ ابنُ أبي موسى القاضي، وأبو إِسحاقَ الطبري، وغيرُهما، قالوا: سمعنا أبا جعفرٍ عبدَ اللهِ بنَ إسماعيلَ بنِ بُرَيْهٍ يقولُ: رأيتُ أبا بكرٍ الأَدَميَّ القارئ في النَّوم بعدَ موتِهِ يمدُّ يَدَهُ، فَقُلْتُ له: ما فعلَ اللهُ بِكَ؟ فقال: وَقَفَني بينَ يديه، وقاسَيْتُ شَدائِدَ وأُموراً صَعبةً. فقلتُ له: فتلكَ الليالي والمواقفُ والقرآن؟ فقال: ما كانَ شيءٌ أَضرَّ عليَّ منها؛ لأَنَّها كانت للدنيا. فقلتُ له: فإلى أيِّ شيءٍ انتهى أَمْرُكَ[1]؟ قال: قال لي تعالى: آليتُ على نفسي أَنْ لا أُعَذِّبَ أَبناءَ الثَّمانين.

---

(١) سقطت من (ف).

بيانُ

حقيقةِ الرِّياءِ وما يُرائَى به

اعلم أَنَّ الرِّياءَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرُّؤْيةِ، والسُّمْعَة مُشْتَقَّةٌ منَ السَّماعِ، فالمُرائي يُري النَاسَ ما يَطلُبُ به الحُظْوَةَ عِندَهم.

ويَجْمَعُ ذَلِكَ خَمْسَةُ أَقْسَامٍ، هيَ مَجامِعُ ما يَتَزَيَّنُ به العبدُ للنَّاس: البَدنُ، والزِّيُّ، والقَولُ، والعَمَلُ، والأتباعُ والأشياءُ الخارجة.

وأهلُ الدُّنيا يُراؤُونَ بهذِهِ الخَمْسِ، إلّا أَنَّ طَلَبَ الجاهِ وقَصْدَ الرِّياءِ بأَعْمالٍ ليستْ مِنْ جُمْلَةِ الطاعاتِ أَهْوَنُ مِنَ الرِّياءِ بالطاعات.

القسمُ الأَوَّلُ: الرِّياءُ في الدِّينِ مِنْ جِهَةِ البَدَن، بإظْهَارِ النُّحولِ والصَّفارِ[١]، لِيُريَهم بذلكَ شَدَّةَ الاجْتهادِ، وغَلَبَةَ خَوْفِ الآخِرَةِ، وليَدُلَّ بالنُّحولِ على قِلَّةِ الأَكْلِ، وبالصَّفارِ على سَهَرِ اللَّيل، وكَثْرَةِ الاجْتِهادِ، وكذلِكَ يُرائي بشَعَثِ الشَّعَرِ، ليَدُلَّ به على اسْتِغْراقِ الهَمِّ بالدِّين، وعَدَمِ التَّفَرُّغِ لِتَسْرِيحِ الشَّعَرِ، فهذِهِ الأسبابُ إذا ظَهرتْ استَدَلَّ الناسُ بها على هذه الأُمور، فارتاحَتِ النفسُ لمعرفتِهم، فالنفسُ تَدعو إلى إظهارِها لتَنالَ تلكَ الراحةَ.

ويَقرُبُ مِنْ هذا خَفْضُ الصوتِ، وإغارَةُ العَيْنَيْنِ، وذُبُولُ الشَّفَتين، لِيُسْتَدَلَّ بذلِكَ على أَنَّهُ مُواظِبٌ على الصَّوم، وأَنَّ تَوقيرَ الشَّرْعِ هوَ الذي خَفَضَ مِنْ صَوْتِهِ، وشِدَّةَ الجوعِ هي التي وَهَنَتْ قُواهُ، ولهذا قال عيسى عليه السلام: إذا صامَ أَحدُكُم فَلْيَدْهَنْ رَأْسَهُ ويُرَجِّلْ شَعَرَهُ[٢] وذلك لما يُخافُ على الصائِمِ مِنْ آفاتِ الرِّياءِ، فهذِهِ مُراءَاةُ أَهْلِ الدِّينِ بالبَدَنِ.

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: (الصفات).

(٢) الزهد لأحمد ص: ٧٤.

وأمَّا أَهْلُ الدُّنيا فيُراؤُونَ بإظْهارِ السِّمَنِ، وصَفاءِ اللَّونِ، واعتِدالِ القامَةِ، وحُسْنِ الوَجْهِ، ونَظَافةِ البَدَنِ.

القسم الثاني: الرِّياءُ بالزِّيِّ والهَيئَةِ؛ أَمَّا الهَيْئَةُ فَتَشْعيثُ شَعَرِ الرَّأْسِ، وحَلْقُ الشَّارِبِ، والإطراقُ[1] في حالةِ المشي، وإبقاءُ أَثَرِ السجودِ على الوجه، وغِلَظُ الثِّيابِ، ولُبْسُ الصُّوفِ، وتَشْميرُها كثيراً، وتَقْصيرُ الأَكمام، وتَركُ الثَّوبِ مُخَرَّقاً، غيرَ نظيفٍ، كُلُّ ذلكَ لِيُظْهِرَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِلسُّنَّةِ، ومُقْتَدٍ[2] بالصَّالحين.

ومِنْ ذَلِكَ لُبْسُ المُرَقَّعَةِ، والثيابِ الزُّرْقِ تَشَبُّهاً بالصُّوفيَّةِ، مَعَ الإفلاسِ مِنْ صِفَاتِهِم في الباطن.

ومنه التَّقَنُّعُ فَوقَ العِمامةِ لاتِّقاءِ غُبَارِ الطريق، ولِتَنْصَرِفَ إليهِ الأَعْينُ بِتَمَيُّزِهِ بتلكَ العَلامة، وكذلِكَ لُبْسُ الطَّيلَسَانِ لمن ليسَ مِنَ العُلَمَاء، ليُوهِمَ أَنَّه مِنْهم.

والمراؤُونَ بالزِّيِّ على طبقاتٍ، فمنهم من يَطلُبُ المنزلةَ عندَ أَهلِ الصَّلاحِ بإظهارِ التَّزَهُّدِ[3]، فَيَلْبَسُ الثِّيابَ المُخَرَّقَةَ الغليظَةَ، الوسِخَةَ القصيرةَ، ليُرائِيَ بغِلَظِها وقِصَرِها، ووَسَخِها وتَخَرُّقِها، ولو كُلِّفَ أَنْ يَلْبَسَ ثَوباً وَسَطاً نَظيفاً، مِمَّا كانَ السَّلَفُ يَلْبَسُونَه، لكانَ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الذَّبحِ، لخَوفِهِ أَنْ يقولَ النَّاسُ: قد بَدا له مِنَ الزُّهْدِ، وقَدْ رَجَعَ عن تِلكَ الطريقةِ.

وطبقةٌ أُخرى يَطلُبونَ القَبولَ عِنْدَ أَهلِ الصَّلاحِ، وعندَ أَهلِ الدُّنيا مِنَ الملوكِ والتُّجارِ، فَلَو أَنَّهم لَبِسُوا الثيابَ الفاخِرَة، لم يَقْبَلْهُمُ القُرَّاءُ، ولو لَبِسُوا الثِّيابَ المُخَرَّقَةَ الدَّنيئةَ، لازْدَرَتْهُم أَعيُنُ الملوكِ والأَغْنياءِ، فَهُمْ يُريدُونَ الجَمْعَ بينَ قَبُولِ أَهْلِ الدينِ والدنيا، فيَطلُبونَ الأَصْوافَ الدَّقيقةَ، والأَكْسِيَةَ الرَّقيقةَ، والفُوَطَ الرَّفيعةَ، فَيَلْبَسُونَها، ولعلَّ قِيمَةَ ثَوبِ أَحَدِهِم قيمةُ ثَوبِ الغنيِّ، ولونَهُ وهَيئَتَهُ لونُ ثيابِ الصُّلَحَاءِ، فَيَلْمِسُونَ القَبولَ عِندَ الفريقين.

(١) تصحفت في الأصل إلى: (الأطراف).
(٢) تحرفت في الأصل إلى: (معتقد).
(٣) في الأصل: (الزهد).

وهؤلاءِ لو كُلِّفوا لُبْسَ ثوبٍ خَشِنٍ أو وَسِخٍ لكانَ عِندَهم كالذَّبْحِ، خَوفاً مِنَ السُّقُوطِ مِنْ أعيُنِ الملوكِ والأغنياءِ[١]، ولوكُلِّفوا لُبْسَ الدَّبِيقيِّ[٢]، والكَتَّانِ الرَّقيقِ الأَبيَضِ، أَو القَصَبِ[٣] المعَلَّم ـ وإِنْ كانت قيمتُهُ دُونَ قِيمَةِ ثيابِهِم ـ لَعَظُمَ عليهم ذلِكَ، خَوفاً مِنْ أَنْ يَقولَ أَهلُ الصَّلاحِ: قد رَغِبوا في زِيِّ أَهْلِ الدنيا.

وكُلُّ من رَأَى مَنزلَتَه تَثْبُتُ له بِزِيٍّ مَخصوصٍ، ثَقُلَ عليه الانْتِقالُ إلى ما دونَه، أو فَوقَهُ خَوفاً مِن المَذَمَّةِ.

وأَمَّا أَهلُ الدنيا فمُراءَاتُهم بالثيابِ النَّفيسَةِ، والمراكِبِ الرَّفيعَةِ، وأَنواعِ التَّجملِ في المَلْبَسِ والمَسْكَنِ وأثاثِ البيتِ، وهم يَلبَسُونَ في بُيُوتِهِمُ الثِّيابَ الخَشِنَة، ويَشْتَدُّ عليهم لو بَرَزُوا بتلكَ الهيئةِ.

القسمُ الثالثُ: الرِّياءُ بالقولِ، ورِياءُ أَهلِ الدِّينِ بالوَعْظِ والتَّذْكيرِ، وحِفْظِ الأَخْبارِ والآثارِ لأَجْلِ المُحاوَرَةِ، إِظْهاراً لغَزَارَةِ العِلْمِ، ودَلالةً على شِدَّةِ العِنايَةِ بأَحْوالِ السَّلَفِ الصَّالحينَ، وتَحريكِ الشَّفَتَيْنِ بالذِّكْرِ في مَحْضَرِ النَّاسِ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ بِمَشْهَدِ الخَلْقِ، وإِظْهارِ الغَضَبِ للمُنْكَراتِ، والأَسَفِ على مُقارفَةِ الناسِ المعاصي، وخَفضِ الصَّوتِ في الكلامِ، وتَرْقيقِهِ بقراءَةِ القُرآنِ، لِيَدُلُّوا بذلك على الحُزْنِ والخوفِ، وادِّعاءِ حِفْظِ الحديثِ ولِقاءِ الشُّيوخِ، وقَصْدِ إفحامِ المُناظِرِ، إلى غيرِ ذلِكَ. وأَمَّا أَهلُ الدُّنيا، فمُراءَاتُهم بِحفْظِ الأَشْعارِ والأَمثالِ، والتَّفاصُحِ في الكلامِ، وحِفْظِ الغَريبِ للإغْرابِ، وإظهارِ التَّوَدُّدِ إلى النَّاسِ لاسْتِمالَةِ القُلوبِ.

القسمُ الرابعُ: الرِّياءُ بالعَمَلِ، كمُراءَاةِ المُصَلّي بطولِ القيامِ ومَدِّهِ، وتَطويلِ الرُّكوعِ والسُّجود، وإطراقِ الرأسِ، وتَرْكِ الالْتِفَاتِ، وإظهارِ الخُشُوعِ، وتَسْوِيَةِ

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) الدَّبيقي من الثياب: نسبةً إلى دَبيق، بلدة كانت من قرى دمياط بمصر تُعمل فيها الثياب الرقيقة.

(٣) القصب: ثياب ناعمة رقيقة من الكتان، وأحدها: قَصَبي.

القَدَمينِ واليَدَينِ، وكذلِكَ بالصومِ والغَزْوِ، والحجِّ والصَّدقةِ، وإطعامِ الطَّعامِ، والإخْباتِ في المشيِ، كإرْخاءِ الجُفونِ، وتَنكيسِ الرَّأْسِ، حتَّى إنَّ المُرائي قد يُسْرِعُ في حاجَتِهِ، فإذا رَآهُ أحدٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ، رَجَعَ إلى الوَقَّار، خَوفاً مِنْ أَنْ يَنْسِبَهُ إلى العَجلةِ وقِلَّةِ الأَدَب، فإذا غابَ الرَّجُلُ عادَ إلى عَجَلتِهِ، ومِنَ النّاسِ مَنْ يَتكلَّفُ هذه المِشْيَةَ في الخلْوَةِ، لِئَلَّا يُغيِّرَها في حال الجَلْوَة[١]، وهذا قد صارَ مُرائياً في الخَلْوةِ أيضاً؛ لأَنَّه إنَّما حَسَّنَها في الخَلوَةِ، ليَكونَ كذلِكَ في الجَلوَة.

وأمَّا أَهلُ الدنيا، فمُراءاتُهم بالتَّبَخْتُرِ والاخْتِيالِ، وتَحريكِ اليَدَينِ[٢]، وتَقْريبِ الخُطا، والأَخْذِ بأَطْرافِ الذَّيْلِ، وإدَارَةِ العِطْفَيْنِ[٣]، لِيَدُلُّوا بذَلِكَ على الحشْمَةِ.

القِسْمُ الخامس: المُراءاةُ بالأَصْحابِ والزَّائِرينَ والمُخالِطين، كالَّذي يَتكلَّفُ أَنْ يَسْتَزِيرَ عالِماً، ليُقَالَ: إنَّ فُلاناً قد زَارَ فُلاناً. أو عابِداً، ليُقالَ: إنَّ أَهلَ الدِّينِ يَتبرَّكُون به [٤]ويَتَرَدَّدُونَ إليه. أَو مَلِكاً مِنَ الملوكِ، أو عَامِلاً مِنْ عُمَّالِ السَّلاطينِ، ليُقالَ: إنَّهم يَتَبَرَّكُونَ به[٤]، [٥]لِعِظَمِ رُتْبَتِهِ في الدِّين. وكالذي يُكْثِرُ ذِكرَ الشُّيوخِ، ليُقالَ[٥]: إنَّه لَقِي شُيوخاً كثيرةً، واستفَادَ منهم. فيُباهي بِشُيُوخِهِ، ورُبَّما قال عندَ مُجادَلَتِهِ لِغَيْرِهِ: ومَنْ لَقِيتَ أَنْتَ؟ أنا قَدْ لَقِيتُ فُلاناً، ودُرْتُ البلادَ، وخَدَمْتُ الشُّيوخ.

فَهذِهِ مَجامِعُ ما يُرائي به المُراؤُون، وهم يَطلُبُونَ بذلكَ الجاهَ والمنزلَةَ في قُلوبِ العبادِ، ومِنهم مَنْ يَقنَعُ بِحُسْنِ الاعْتِقاداتِ فيه، فكم مِنْ راهبٍ[٦] انزوى إلى دَيْرِهِ سِنينَ كثيرةً، وكم مِن عابدٍ اعْتَزَلَ إلى قُلَّةِ[٧] جبلٍ مُدَّةً مَديدةً، وإنَّما حياتُه من حَيثُ

---

(١) سقطت من الأصل، والجلوة: التكشُّفُ والظهور.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (البدن).

(٣) العِطفان: المنكبان أو الإبطان.

(٤-٤) سقط من الأصل.

(٥-٥) سقط من (ف).

(٦) في (ف): (زاهد)؟

(٧) القُلَّة: أعلى الشيء، وخصّها بعضهم بالرأس والسَّنام والجبل.

عِلْمُهُ بقيامِ جاهِهِ في قُلُوبِ الخَلْقِ، معَ أَنَّه قَدْ قَطَعَ طَمَعَهُ مِنْ أَموْالِهِم، لكنَّهُ يُحِبُّ مُجَرَّدَ الجاهِ، فإنَّه لذيذٌ على ما سَبَقَ بَيانُه، بل يَلْتَمِسُ معَ ذلكَ إطلاقَ الأَلْسُنِ بالثَّناءِ. ومنهم مَنْ يُريدُ انتشارَ الصِّيتِ في البِلادِ لتَكثُرَ الرِّحْلَةُ إليه. ومنهم من يُريدُ الاشْتِهارَ عندَ المُلوكِ لتُقْبَلَ شَفاعتُه، وتُنْجَزَ الحوائِجُ على يديه، فيَقومُ له بذلك جاهٌ عندَ العامَّةِ. ومنهم من يَقْصِدُ التَّوَصُّلَ بذلكَ إلى جَمْعِ حُطامٍ.

فإنْ قيل: هلِ الرِّياءُ حرامٌ، أَمْ مباحٌ، أَمْ مكروهٌ؟

فالجوابُ: أَنَّ فيهِ تَفصيلاً، فإنَّ الرِّياءَ هُوَ طَلَبُ الجاهِ، وهُوَ إمَّا أَنْ يَكونَ بالعِباداتِ، أَوْ بغيرِها، فإنْ كانَ بغيرِ العِباداتِ فَهُوَ كَطَلَبِ المالِ، فلا يَحْرُمُ مِنْ حَيثُ إنَّهُ طَلَبُ[1] مَنزِلَةٍ في قُلوبِ العِبادِ، ولكنْ كما يُمْكِنُ كَسْبُ المالِ بتَلْبيساتٍ وأَسْبابٍ مَحْظُورَةٍ، فكذلِكَ الجاهُ، وكما أَنَّ كَسْبَ قليل مِنَ المالِ ـ وهُوَ ما يَحتاجُ إليهِ الإنسانُ ـ محمودٌ، فكَسْبُ قليلٍ مِنَ الجاهِ ـ وهُوَ ما يَسْلَمُ بهِ مِنَ الآفاتِ ـ حَسَنٌ، وهوَ الَّذي طَلَبَهُ يُوسفُ عليه السلامُ في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]

وكما أَنَّ المالَ[2] فيهِ سُمٌّ ناقِعٌ وتِرْيَاقٌ فكذلك الجاهُ، بل أَشَدُّ، فإنَّ فِتْنَةَ الجاهِ أَعظَمُ مِنْ فِتْنَةِ المالِ، وكما أَنَّا لا نَقُولُ: تَمَلُّكُ المالِ الكثيرِ حرامٌ، فلا نَقولُ أيضاً: تَمَلُّكُ القلوبِ الكثيرةِ حرامٌ، إلاّ إذا حَمَلَهُ كَثْرَةُ المالِ وكَثْرَةُ الجاهِ على مُباشَرةِ ما لا يجوزُ، غيرَ أَنَّ انصِرافَ الهَمِّ إلى سَعَةِ الجاهِ، كانصِرافِ الهَمِّ إلى كَثْرَةِ المالِ، لا يَقْدِرُ مُحِبُّ الجاهِ والمالِ على تَرْكِ معاصي القلبِ واللِّسانِ وغيرِها.

فأَمَّا سَعَةُ الجاهِ مِنْ غيرِ حِرْصٍ مِنْكَ على طَلَبِهِ، ومِنْ غَيْرِ اغتِمامٍ بزَوَالِهِ إنْ زَالَ، فلا ضَرَرَ فيه، إذْ لا جاهَ أَوْسَعُ مِنْ جاهِ رَسُولِ الله ﷺ، وعُلَماءِ الدِّينِ بَعْدَهُ، ولكنَّ انْصِرافَ الهَمِّ إلى طَلَبِ الجاهِ نُقْصانٌ في الدِّينِ، ولا يُوصَفُ بالتَّحريم.

فعلى هذا نَقُولُ: تَحسِينُ الثَّوبِ الذي يَلْبَسُهُ الإنسانُ عندَ الخُروجِ إلى النّاسِ، إنَّما هوَ ليَراهُ النَّاسُ، وكذلِكَ: كُلُّ تَجَمُّلٍ لَهُم، ولا يُقالُ: إنَّه مَنْهيٌّ عنه، وقد تَخْتَلِفُ

(١) سقطت من (ف).
(٢) سقطت من (ف).

المقاصِدُ بذلِك، فأكْثَرُ النَّاسِ يُحِبُّونَ أَنْ لا يُرَوا بعينِ نَقْصٍ في حالٍ، فَهُم يَتَزَيَّنُونَ لِتَتِمَّة أَحْوالِهم، وهذا لا يُذَمُّ، وفي أفرادِ مُسْلِم، مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ، عنِ النبيِّ ﷺ، أَنَّهُ قالَ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». فقالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنَاً، ونَعْلُهُ حَسَنَةً[1]. قال: «إِنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»[2].

ومِنَ الناسِ مَنْ يُؤْثِرُ إِظْهارَ نِعْمَةِ اللهِ عليه، وقَدْ أَمَرَ بذلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فأخبرنا هبةُ اللهِ بنُ مالِكٍ، قال: حَدَّثَنا عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ، قال: حَدَّثني أبي، قال: حَدَّثنا محمدُ بنُ جعفرٍ، قال: حَدَّثنا شُعْبَةُ، عن أبي إِسْحاقَ، قال: سمعتُ أبا الأَحْوَصِ يُحَدِّثُ عن أَبيهِ، قال: أَتيتُ رسولَ الله ﷺ وأَنا قَشِفُ[3] الهيئَةِ، فقالَ: «هل لكَ مالٌ؟» قال: قلتُ: نعم. قال: «مِنْ أَيِّ المالِ؟» قال: قلتُ: مِنْ كُلِّ المالِ، مِنَ الإبلِ والرقيقِ والخَيلِ والغَنَم. فقال: «إذا آتاكَ اللهُ مالاً فَلْيُرَ عليكَ»[4].

ومنهم مَنْ يُحبُّ أَنْ لا يُزْدرى، ومنهم من يُؤْثِر أَن يَتَزَيَّنَ لِزَوجَتِهِ، كما قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ أَتزَيَّنَ لها كما أُحِبُّ أَنْ تَتزَيَّنَ لِي. إلى غيرِ ذلكَ مِنَ المقاصِد التي لا تُذَمُّ.

وقد كانَ السَّلَفُ إذا تَزاوروا تَجَمَّلوا في اللِّباسِ، وكانوا يَلْبَسُونَ أَجْوَدَ الثِّيابِ للجُمُعَةِ والعيدين، ومنهُ حديثُ عُمَرَ أَنَّه قالَ لرسولِ الله ﷺ: لو اشتريتَ هذهِ الحُلَّةَ فَلِبسْتَها للوَفْدِ. ولم يُنْكِرْ عليه رسولُ الله ﷺ[5].

---

(١) في (ف): (حسناً).

(٢) أخرجه مسلم (٩١)، وبَطَر الحق: إنكاره، وغَمطُ الناس: احتقارهم.

(٣) قَشِف الهيئة: رَثُّ الهيئة لم يتعهد نفسه بالغسل والنظافة.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٨٨٨)، والطيالسي (١٣٠٣)، وعبد الرزاق (٢٠٥١٣)، وأبو داود (٤٠٦٣)، والترمذي (٢٠٠٦)، والنسائي في الكبرى (٩٤٨٤) ـ (٩٤٨٦)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٠٤١) ـ (٣٠٤٣)، وابن حبان (٥٤١٦) و(٥٤١٧) والطبراني في الكبير ١٩/ (٦٠٧) ـ (٦٢٤)، والحاكم ١/ ٢٤ ـ ٢٥ و ٤/ ١٨١.

(٥) قول المصنف رحمه الله: (ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ. غير سديد، بل قد أنكر رسول الله ﷺ على عمر اختياره لتلك الحلة لكونها من الحرير وقال فيها: (إنما يلبس هذه مَن لا خلاق له في الآخرة). والحديث في البخاري (٨٨٦) و(٩٤٨)، ومسلم (٢٠٦٨).

وكان مالك بن أنسٍ[(١)] يَلْبَسُ أَجْوَدَ ثِيابِهِ وَيَتطَيّبُ، إذا أرادَ أَنْ يَرويَ حديثَ رسولِ الله ﷺ.

وأَمَّا العِباداتُ كالصَّدَقَةِ والصلاةِ والغَزْوِ والحجِّ، فللمُرائي فيها حالتان:

إحداهما: أن لا يكونَ له قَصْدٌ إلّا الرِّياءَ المحضَ دُونَ الأَجْرِ، وهذا يُبْطِلُ عِبادَتَهُ؛ لأَنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ، وهذا لا يَقصِدُ العِبادَةَ، ثم لا يَقتَصِرُ على إحباطِ عِبادتِهِ حتّى نَقولَ: عادَ كما كان قبلَ العبادة، بل نَقولُ: يَعصي بذلكَ ويَأثَمُ لمَعْنَيين:

أحدُهما: يَتعلَّقُ بالعِبادِ، وهوَ التَّلْبيسُ والمَكْرُ؛ لأَنَّهُ خَيَّلَ إليهم أَنَّه مُطيعٌ باللهِ تعالى، وَهُوَ أَنَّه إذا قَصَدَ بعِبادَةِ اللهِ سِواهُ فهوَ مُسْتَهزِئٌ، ومِثالُه مِثالُ مَنْ وَقَفَ طُولَ النَّهارِ بينَ يَدَي الملِكِ، ومُرادُهُ مُلاحَظَةُ جاريَتِهِ، فإنَّ هذا يَسْتَهْزِئُ بالملكِ؛ لأَنَّه لم يَقصِدِ التَّقَرُّبَ إليهِ بِخدْمَتِه، وأيُّ مِحْنَةٍ تَزيدُ على أَنْ يَقصِد العَبْدُ بطاعَةِ اللهِ تعالى مُراعاةَ عبدٍ ضَعيفٍ لا يَملِكُ له ضَرّاً ولا نَفْعاً؟ وهل ذلكَ إلا لأَنَّه ظَنَّ أَنَّ ذلِكَ العبدَ أَقْدَرُ على تَحْصيلِ أغراضِهِ مِنَ اللهِ تعالى؟ وأَنَّه أَوْلَى بالتَّقرُّبِ إليهِ مِنَ الله تعالى إذْ آثَرَهُ على مَلِكِ الملوكِ، فجعلَهُ مَقْصُودَ عِبادتِهِ، ورَفَعَهُ على المولى؟ ولهذا سَمَّاهُ رسولُ الله ﷺ: الشِّرْكَ الأَصْغَرَ.

إلا أَنَّ بعضَ دَرَجاتِ الرِّياء أَشَدُّ مِنْ بعضٍ، كما سيَأْتي بَيانُهُ إن شاءَ اللهُ تعالى. ولا يَخْلو شَيءٌ مِنهُ عن إثم، ولو لم يكن في الرِّياءِ إلا أَنَّه يَركَعُ ويَسْجُدُ لِغيرِ اللهِ لكانَ فيه كِفاية، فإنَّا مَنْ لم يَقْصِدِ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ فقدْ قَصَدَ غيرَ اللهِ، إلا أَنَّ المُرائي يَقْصِدُ تَعظيمَ نَفْسِهِ في قَلبِ من عَظُمَ عِندَهُ، بإظهارِ صُورةِ التَّعظيم للهِ، فلذلِكَ يَكونُ شِرْكُهُ خَفيّاً لا جليّاً، وهذا لا يَقَعُ إلّا عِندَ مَنْ يُوهِمُهُ الشَّيطانُ أَنَّ العِبادَ يَمْلِكُونَ مِنْ ضَرِّهِ ونَفْعِهِ، ورِزْقِهِ وأَجلِهِ، ومَصالِحِ حالِهِ[(٢)] ومآلِهِ أَكثَرَ مما يَمْلكه اللهُ تعالى، فذلكَ عَدَلَ بوجِهِهِ عنِ اللهِ إليهم، وأَقْبَلَ بِقلْبِهِ عليهم، يَسْتَميلُ ذلكَ قُلُوبَهُم،

---

(١) في (ف): (أنس بن مالك). وما في الأصل هو الصواب. انظر السير ٨/ ٦٤.
(٢) تحرفت في (ف) إلى: (أجله).

ولو وَكَلَهُ اللهُ إليهم في الدنيا لكانَ ذلكَ أَقَلَّ مُكافَأةٍ له على صَنيعِهِ؛ لأَنَّهم عاجِزُونَ عن أَنْفُسِهِم، فكيفَ لغيرهم[١]؟! هذا في الدنيا، فكيف في يوم لا يَجزي والدٌ عن ولَدِه، والأنبياءُ تقول فيه: «نَفْسي نَفْسي»[٢]؟!

فكيف يَستبدِلُ[٣] الجاهلُ ما يَرْتَقِبُهُ بطمَعِهِ الكاذِبِ في الدنيا مِنَ الناسِ، عنْ ثوابِ الآخرةِ ونَيلِ القُرْبِ مِنَ اللهِ سبحانَه؟!

فلا يَنبغي أَنْ يُشَكَّ في أَنَّ المرائيَ بطاعةِ الله في سَخَطِ الله.

[الحالة الثانية: أَنْ يَقْصِدَ بعمَلِهِ الرِّياءَ ويَقْصِدَ مَعَهُ الأجْرَ والثَّواب، وفي ذلكَ تفْصيلٌ سيأتي بيانُه إن شاءَ اللهُ تعالى][٤].

---

(١) في الأصل: (بغيرهم).

(٢) قطعة من حديث الشفاعة، أخرجه البخاري (٣٣٤٠) و(٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: (يستدل).

(٤) ما بين معقوفين زيادة لا بد منها، فقد تابع المصنف رحمه الله الغزالي في عدم ذكر الحالة الثانية التي ربما لم تُذكر سهواً، وهي ستأتي مفصلة في الباب التالي.

بيانُ

دَرجاتِ الرِّياء

اعلم أَنَّ بعضَ أَبوابِ الرِّياءِ أَشدُّ وأَغْلَظُ مِنْ بَعضٍ، واخْتِلافُه باخْتِلافِ أَركانِهِ وتفاوت الدرجاتِ فيه، وأَرْكانُه ثلاثةٌ:

١ ـ نَفْسُ قَصْدِ الرِّياءِ.

٢ ـ والمراءَى به.

٣ ـ والمراءَى لأجله.

١ ـ الرُّكنُ الأَوَّلُ: نَفْسُ قَصْدِ الرِّياءِ:

وذلكَ لا يَخلو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُجرَّداً دُونَ إرادةِ اللهِ والثَّوابِ، وإِمَّا أَنْ يكونَ معَ إرادَةِ اللهِ والثَّوابِ، ثُمَّ لا يَخلو أَن تكونَ إرادةُ الثَّوابِ، وإِمَّا أَنْ يكونَ مع إرادَةِ اللهِ والثَّوابِ، ثُمَّ لا يَخلو أَنْ تكونَ إرادةُ الثَّوابِ أَقوى وأَغلبَ، أَو أَضعفَ، أو مُساوِيَةً لإرادةِ العِبادة[1]، فتكونُ الدَّرجاتُ أربعاً:

الدرجةُ الأولى: ـ وهيَ أَغلَظُها ـ أَن لا يَكونَ مُرادُهُ الثَّوابَ أَصْلاً، كالَّذي يُصَلِّي بينَ أَظْهُرِ النَّاسِ، ولو انْفَرَدَ لكانَ لا يُصَلِّي، بل رُبَّما يُصَلِّي بِغَيرِ طهارةٍ مَعَ النَّاسِ، فهذا قدْ جَرَّدَ قَصْدَهُ للرِّياءِ، فهوَ الممقُوتُ عِندَ اللهِ، وكذلكَ مَنْ يُخْرِجُ الصَّدَقَةَ خَوفاً مِنْ مَذَمَّةِ النَّاسِ، وَهُو لا يَقْصِدُ الثَّوابَ، ولو خَلا بنفسِهِ لما أَدَّاها، فهذِهِ الدَّرجةُ العُلْيا مِنَ الرِّياءِ.

الثانية: أَنْ يكونَ له قَصْدُ الثَّوابِ أيضاً، لكنْ قَصْداً ضعيفاً، بحيثُ لو كانَ في الخَلْوَةِ لكانَ لا يَفعلُهُ، ولا يَحمِلُه ذلكَ القَصْدُ[2] على العَمَلِ، فهذا قَرِيبٌ مِمَّا قَبْلَهُ،

---

(١) في النسخ: (العباد)، والمثبت من الإحياء.

(٢) سقطت من (ف).

وما فيه مِنْ شائِبَةِ قَصْدِ الثَّوابِ لا يَسْتَقِلُّ بِحَمْلِهِ على العَمَلِ، فلا يَنْفِي عَنْهُ الإِثْمَ والمَقْتَ.

الثالثة: أَنْ يكونَ له قَصْدُ الثَّوابِ وقَصْدُ الرِّياءِ مُتَساوِيَيْنِ، بحيثُ لو كانَ كلُّ واحدٍ منهما[1] خالياً عنِ الآخَرِ لم يَبْعثْهُ على العَمَلِ، فلمَّا اجتمعا انْبَعَثَتِ الرَّغْبَةُ، أَو كانَ كُلُّ واحدٍ لو انفرَدَ لاسْتَقَلَّ بِحَمْلِهِ على العَمَلِ، فهذا قد أَفْسَدَ مِثْلَ ما أَصْلَحَ وما يَسْلَمُ مِنَ الإِثْمِ.

الرابعة: أن يكونَ اطِّلاعُ النَّاسِ مُقَوِّيَاً لنَشاطِهِ، ولو لم يكُن لكانَ لا يَتْرُكُ العبادةَ، ولو كانَ قَصْدُ الرِّياءِ وَحْدَهُ لَما أَقْدَمَ، فهذا يُثابُ على قَصْدِهِ الصَّحيحِ، ويُعاقَبُ على قَصْدِهِ الفاسِدِ.

٢ ـ الركنُ الثاني المُراءَى به وهوَ الطاعات:

وذَلِكَ يَنْقَسِمُ إلى الرِّياءِ بأُصولِ العباداتِ، وإلى الرِّياءِ بأَوْصَافِها:

القِسْمُ الأَوَّلُ ـ وهو الأَغْلَظُ ـ: الرِّياءُ بالأُصولِ، وهوَ على ثلاثِ دَرَجاتٍ: الدَّرَجَةُ الأُولى: الرِّياءُ بَأَصْلِ الإيمانِ، وهذا أَغْلَظُ أَبْوابِ الرِّياءِ، وصاحِبُهُ كافِرٌ مُخَلَّدٌ في النَّارِ، وهُوَ الَّذي يُظْهِرُ كلمَتَي الشهادَةِ، وباطِنُهُ مَشْحُونٌ بالتَّكْذِيبِ، وهو يُرائي بِظاهِرِ الإِسْلامِ، وهذِهِ صِفَةُ المنافِقِ، قالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في صِفَتِهِم: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وهذِهِ الصِّفَةُ تَقِلُّ في زَمَانِنا، ولكن يَكْثُرُ نِفَاقُ مَنْ يَنْسَلُّ مِنَ الدِّينِ بَاطِناً، فَيَجْحَدُ الجَنَّةَ والنَّارَ والدَّارَ الآخِرَةَ مَيْلاً إلى قَوْلِ المُلْحِدَةِ، أَو يَعْتَقِدُ طَيَّ بِسَاطِ[2] الشَّرْعِ والأَحْكامِ، مَيْلاً إلى أَهْلِ الإباحَةِ، أَو يَعْتَقِدُ كُفْراً أَوْ بِدْعَةً وهُوَ يُظْهِرُ خِلافَهُ.

فهؤلاءِ مِنَ المنافِقينَ المُرائينَ المُخَلَّدينَ في النَّارِ، وليسَ وراءَ هذا الرِّياءِ رياءٌ، وحَالُ هؤلاءِ أَشَدُّ مِنْ حالِ الكُفَّارِ المُجاهِرينَ؛ لأَنَّهم جَمَعُوا بينَ كُفْرِ الباطِنِ ونِفاقِ الظَّاهِرِ.

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) تحرفت في (ف) إلى: (بمناط).

الدَّرَجَةُ الثانية: الرِّياءُ بأُصولِ العِبادَاتِ معَ التَّصدِيقِ بأَصْلِ الدِّينِ، وهذا أيضاً عظيمٌ عِندَ اللهِ، ولكنَّهُ دُونَ الأَوَّلِ بكثيرٍ، ومِثالُهُ: أَنْ يكونَ مالُ الرَّجُلِ في يدِ غيرِهِ، فيأْمُرَهُ بإخْراجِ الزَّكاةِ خوفاً من ذَمِّهِ، واللهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لو كانَ في يدِهِ لَمَا أَخْرَجَها، أو يَدْخُلَ وَقْتُ الصَّلاةِ وهوَ في جَمْعٍ، وعادَتُهُ تَرْكُ الصَّلاةِ في الخَلْوةِ، وكذلِكَ يَصومُ رمضانَ، وهو يَشتهي خَلْوَةً مِنَ الخَلْقِ لِيُفْطِرَ، وكذلِكَ يَحْضُرُ الجُمُعَةَ، ولولا مَذَمَّةُ النَّاسِ لم يَحْضُرْ، أو يَصِلُ رَحِمَهُ، ويَبَرُّ والِدَيْهِ، لا عن رَغْبَةٍ لكن خوفاً مِنَ النَّاسِ[1]، أو يَغْزُو أو يَحُجُّ لذلك، فهذا مُراءٍ، مَعَهُ أَصْلُ الإيمانِ باللهِ، يَعْتَقِدُ أَنَّه لا مَعْبُودَ سِواهُ، ولو كُلِّفَ أَنْ يَعْبُدَ[2] غيرَ اللهِ أو يَسْجُدَ لِغَيرِهِ لم يَفْعَلْ، ولكنَّه يَتْرُكُ العِباداتِ لِلْكَسَلِ، وَيَنْشَطُ عِنْدَ اطِّلاعِ النَّاسِ فتكونُ منزِلَتُهُ عِندَ الخَلْقِ أَحبَّ إليهِ مِنْ منزِلَتِهِ عِنْدَ الخالقِ، وخَوفُهُ مِنْ مَذَمَّةِ النّاسِ أَعظمَ مِنْ خَوفِهِ مِنْ عِقَابِ اللهِ، ورَغْبَتُه في مَحْمَدَتِهم أَشَدَّ مِنْ رَغْبَتِهِ في ثَوابِ الله، وهذا غايَةُ الجَهْلِ، وما أَجْدَرَ صاحِبَهُ بالمَقْتِ.

الدرجةُ الثالثةُ: أنْ لا يُرائي بالأعمالِ ولا بالفرائِضِ، ولكنْ يُرائي بالسُّنَنِ والنَّوافِلِ التي لو تَرَكَها لم يَعْصِ، ولكنَّه يَكسَلُ عنها في الخَلْوَةِ، لفُتورِ رَغْبَتِهِ في ثَوابِها، ولإيثارِهِ لذَّةَ الكَسَلِ على ما يُرجى مِنَ الأَجْرِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُ الرِّياءُ على الفِعْلِ، وذلِكَ كحُضُورِ الجَماعةِ في الصَّلاةِ، وعِيادَةِ المريضِ، واتِّباعِ الجَنائِزِ، وغَسْلِ المَيِّتِ، والتَّهجُّدِ باللَّيلِ، وصِيامِ عَرَفَةَ وعاشُوراءَ، والإثنينِ والخميسِ، فقدْ يَفْعَلُ المُرائي جُمْلَةً مِنْ ذَلِكَ خَوفاً مِنَ المَذَمَّةِ، أو طَلَباً لِلْمَحْمَدَةِ، ويَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ أَنَّه لو خَلا بِنَفْسِهِ لما زادَ على أداءِ الفرائِضِ، فهذا أيضاً عظيمٌ، ولكنَّه دُونَ ما قَبْلَهُ، فإنَّ الذي قَبْلَهُ آثَرَ حَمْدَ الخَلْقِ على حَمْدِ الخالِقِ، وهذا أيضاً قد فَعَلَ ذلكَ، واتَّقى ذَمَّ الخَلْقِ دُونَ ذَمِّ الخالِقِ، فكانَ ذَمُّ الخَلْقِ عِنْدَهُ أَعْظَمَ مِنْ عِقابِ اللهِ، وأَمَّا هذا فلم يَفْعَلْ ذلكَ؛ لأَنَّهُ لم يَخَفْ عِقاباً على تَرْكِ النَّافِلَةِ لو تَرَكَها، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ عِقَابُهُ نِصْفَ عِقَابِ الأَوَّلِ، فهذا هوَ الرِّياءُ بأُصُولِ العِبادات.

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) في الأصل: (يقصد).

القسم الثَّاني: الرِّياءُ بأَوْصافِ العِباداتِ لا بأُصولِها، وهوَ أيضاً على ثلاثِ دَرَجات:

الدرجةُ الأُولى: أَنْ يُرائي بفِعْلِ ما في تَرْكِهِ نُقْصانُ العِبادَةِ، كالّذي غَرَضُهُ أَنْ يُخَفِّفَ الرُّكوعَ والسَّجودَ، ولا يُطيلُ القِراءَةَ، فإذا رَآهُ الناسُ أَحْسَنَ الرُّكوعَ والسُّجودَ[١]، وتَرَكَ الالْتِفاتَ، وتَمَّمَ القُعُودَ بينَ السَّجْدَتين، وهذا يَتَضَمَّنُ زِيادةَ تَعْظيمِ الخَلْقِ على تَعْظيمِ الخالِقِ، كما لو كانَ بَينَ يَدَي إنسانٍ مُتَّكِئاً، فدَخَلَ غُلامُهُ، فاستوى، فإنَّ ذَلِكَ تَقديمٌ للغُلامِ على السَّيِّدِ، وكذلِكَ الذي يَعتادُ إخْراجَ الزَّكاةِ مِنَ الذَّهَبِ الرَّديء والحَبِّ الرَّديء، فإذا اطَّلَعَ[٢] عليهِ أَحَدٌ أَخْرَجَهُ مِنَ الجَيِّدِ خَوفاً مِنْ مَذَمَّتِهِ، وكذلِكَ الصائِمُ، يَصونُ صَومَهُ عَنِ الغِيبَةِ والرَّفَثِ خَوفاً مِنَ المَذَمَّةِ، فهذا أيضاً مِنَ الرِّياءِ المَحْظورِ؛ لأَنَّ فيهِ تَقْديماً للمَخْلُوقِ على الخالِقِ، ولكِنَّهُ دُونَ الرِّياءِ بِأُصولِ التَّطَوُّعاتِ.

فإنْ قالَ المُرائي: إنَّما فَعَلْتُ ذلِكَ صِيانَةً لألْسِنَتِهم عَنِ الغيبةِ، فإنَّهُمْ إذا رَأَوا تَخْفيفَ الرُّكوعِ والسُّجودِ، وكَثْرَةَ الالْتِفاتِ أَطْلَقُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِذَمِّي وغِيبَتي.

فَيُقالُ لَهُ: هذِهِ مَكيدَةٌ مِنَ الشَّيطانِ، فإنَّ ضَرَرَكَ بِنُقْصانِ صَلاتِكَ أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِكَ بِغيبَةِ غَيرِكَ، فلَو كانَ باعِثُكَ الدِّينَ لكانَتْ شَفَقَتُكَ على نَفْسِكَ أَكْثَرَ، فإنَّ مَنْ يُراعي جانِبَ غُلامِ الملِكِ يَنْبغي أَنْ تَكُونَ مُراقبَتُهُ لِلْمَلِكِ أَكْثَرَ، إلاّ أَنَّ لِلْمُرائي في هذا حالتين:

إحداهُما: أَنْ يَطلُبَ بذلِكَ المنزِلَةَ والمَحْمَدَةَ عِنْدَ النَّاسِ، وذلِكَ حرامٌ.

والثانيةُ: أَنْ يَقولَ: ليسَ يَحْضُرُني الإخلاصُ في تحسين الرُّكوعِ والسُّجودِ، ولو خَفَّفْتُ كانت صلاتي عندَ اللهِ ناقصةً، وآذاني الناسُ بِذَمِّهم وغِيبتِهم، فأَسْتَفيدُ بِتَحْسِينِ الهَيئَةِ دَفْعَ مَذَمَّتِهم[٣]، ولا أرجُو عليهِ ثَواباً، فهوَ خَيرٌ مِنْ أَنْ أَتْرُكَ تَحسِينَ الصَّلاةِ، فَيَفُوتَ الثَّوابُ وتَحْصُلَ المَذَمَّةُ.

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) في الأصل: (طلع).

(٣) في (ف): (ذمهم).

فيُقالُ له: الواجِبُ عليكَ أَنْ تُحسِّنَ العِبادَةَ وتُخْلِصَ، ولا يَجوزُ لكَ أَنْ تَدْفَعَ[١] الذَّمَّ بالمُراءَاةِ.

الدرَجةُ الثانيةُ: أَنْ يُرائي بفِعْلٍ ما لا نُقْصَانَ في تَرْكِهِ، ولكنَّ فِعْلَهُ[٢] في حُكْمِ التَّكمِلَةِ والتَّتِمَّةِ لِلْعِبَادَةِ، كالتَّطويلِ في الرُّكُوعِ والسُّجود[٣]، ومَدِّ القِيامِ، وتَحسينِ الهَيئَةِ في رَفْعِ اليَدَين، والمُبادَرَةِ إلى التَّكْبيرَةِ الأُولى، وتَحْسِينِ الاعْتِدالِ، والزِّيَادَةِ في القِراءَةِ على السُّوَرِ المُعْتَادَةِ، وكذلِكَ طُولُ الصَّمْتِ في الصَّومِ، واخْتِيارُ الأَجْوَدِ في الزَّكاةِ، وإِعْتَاقُ الرَّقَبَةِ الغَالِيَةِ، وكُلُّ ذَلِكَ مما لَو خَلا بِنَفْسِهِ لَكَانَ لا يَفْعَلُهُ. قالَ بِشْر الحافي: سَمِعتُ خالداً الطَّحانَ يقولُ: اتَّقوا سَرائِرَ الشِّرْكِ. قلتُ: وما هيَ؟ قال: أَنْ تُصَلِّيَ فَتَلْحَظَكَ العيونُ، فَتُطِيلَ السُّجودَ.

الدرجةُ الثالثةُ: أَنْ يُرائي بزياداتٍ خارجةٍ عَنْ نَفْسِ النّوافِلِ أيضاً، كحُضُورِهِ الجماعةَ قَبْلَ القَومِ، وقَصْدِهِ الصفَّ الأَوّلَ، وتَوَجُّهِهِ إلى يَمينِ الإمامِ، ونَحوِ ذلكَ وكُلُّ ذلكَ يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ أَنَّهُ لو خَلا بِنَفْسِه لكانَ لا يُبالي أَينَ وَقَفَ، ولا متى أَحْرَمَ، فهذِهِ دَرَجاتُ الرِّياءِ بالإضافَةِ إلى ما يُراءَى به، وبَعْضُهُ أَشَدُّ من بَعضٍ، والكلُّ مَذْمُومٌ.

٣ـ الركنُ الثالثُ: المُراءَى لأَجْلِهِ:

فإنَّ لِلْمُرائي مَقْصُوداً لا مَحالَةَ، وإِنَّما يُرائي لإدْراكِ مالٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ غَرَضٍ مِن الأَغْرَاضِ، وله أيضاً ثلاثُ درجاتٍ:

الدَّرَجةُ الأُولى: وهيَ أَشَدُّها وأَعْظَمُها؛ أَنْ يكونَ مَقْصُودُهُ التَّمكُّنَ مِنْ مَعْصِيةٍ، كالذي يُرائي بعباداتِهِ، ويُظْهِرُ التقوى والوَرَعَ، ويَمْتَنِعُ مِنَ الشُّبُهاتِ، وغَرَضُهُ أن يُعْرَفَ بالأمانَةِ، فيُوَلّى القضاءَ والأوقافَ وأموالَ اليتامى فيأْخُذَها، أو يُعطى الصَّدَقاتِ ليُفَرِّقَها، فَيَسْتَأْثِرُ بما يَقْدِرُ عليه منها، أو يُودَعَ الوَدَائِعَ، ونحوِ ذلك.

---

(١) في (ف): (ترفع).
(٢) في الأصل: (حكمه).
(٣) سقطت من الأصل.

وقد يُظْهِرُ بَعْضُهُمْ زِيَّ التَّصوُّفِ، وهَيْئَةَ الخُشُوعِ والمَواعِظَ، وقَصْدُهُ بُلُوغُ غَرَضٍ لا يَحِلُّ، ورُبَّما حَضَر مجالِسَ الوَعْظِ ومَقْصودُهُ مُلاحَظَةُ النِّسْوانِ، أو يَخرُجُ إلى الحَجِّ ومُرادُهُ الظَّفَرُ بمَعْصيةٍ في الطَّريقِ، فهؤلاءِ أَبْغَضُ المُرائينَ إلى اللهِ تعالى؛ لأَنَّهم جَعَلوا طاعَةَ[1] رَبِّهم سُلَّماً إلى مَعصِيَتِهِ، ويَقْرُبُ مِنْ هَؤُلاءِ مَن اتُّهِمَ بِجَريمةٍ وَهُوَ مُصِرٌّ عليها، ويُريدُ أَنْ يَنْفيَ التُّهْمَةَ عن نَفْسِهِ، فيُظْهِرُ التَّقوى لِنَفْيِ التُّهْمَةِ، وكالَّذي جَحَدَ وَديعَةً واتَّهمَهُ النَّاسُ بها، فأَخَذَ يَتَصَدَّقُ بالمالِ لِيُقالَ: هذا يَتَصَدَّقُ بمالِ نَفْسِهِ، فَكَيْفَ يَسْتَحِلُّ مالَ غَيْرِهِ؟

الدرجةُ الثانيةُ: أَنْ يكونَ غَرَضُهُ نَيْلَ حَظٍّ مُباحٍ مِنْ مالٍ أو نِكاحِ امْرَأَةٍ، فَيَتَشاغَلُ بِالذِّكْرِ وإظْهارِ الزُّهْدِ لِيُرْغَب فيهِ، وكالَّذي يَرْغَبُ أَن يَتَزَوَّجَ بِنْتَ عالمٍ عابدٍ، فَيُظْهِرُ العِلْمَ والعِبادَةَ لِيَرْغَبَ في تَزْويجِهِ ابْنَتَهُ، فهذا رِياءٌ مَحظُورٌ؛ لأَنَّهُ طَلَبَ بِطَاعَةِ اللهِ مَتاعَ الدُّنيا، ولَكِنَّهُ دُونَ الأَوَّلِ؛ لأَنَّ المَطلُوبَ بهذا مُباحٌ في نَفْسِهِ.

الدرجةُ الثالثةُ: أَنْ لا يَقْصِدَ نَيْلَ حَظٍّ وإدْراكَ مالٍ أو نِكاحٍ، ولكن يُظْهِرُ عِبادَتَه خِيفَةً مِنْ أَنْ يُنْظَرَ إليهِ بِعَينِ النَّقْصِ، أَوْ يُعْتَقَدَ أَنَّه مِنْ جُمْلَةِ العامَّةِ، وهُوَ يُريدُ أَنْ يُعَدَّ مِنَ الخاصَّةِ والزُّهَّادِ، كالَّذي يَمْشي فَيَطَّلِعُ عليه النَّاسُ، فَيُحْسِنُ المَشْيَ، ويَتْرُكُ العَجَلَةَ، كي لا يُقالَ: إنَّه مِنْ أَهْلِ اللَّهْوِ لا مِنْ أَهْلِ الوَقارِ. وكذلكَ يَسْبِقُ إلى الضَّحِكِ، أَو يَبدُو[2] مِنْهُ المُزاحُ، فيَخافُ أَنْ يُنْظَرَ إليهِ بِعَيْنِ الاحْتِقَارِ، فيُتْبِعُ ذلكَ بالاسْتِغْفَارِ، وتَنَفُّسِ الصُّعَداءِ، وإظْهارِ الحُزْنِ ويَقولُ: ما أَعْظَمَ غَفْلَةَ الآدَميِّ عن نَفْسِهِ. واللهُ يَعْلَمُ منه أَنَّهُ لو كانَ في خَلْوَةٍ لم يَثْقُل عليهِ ذلك، وإنّما يَخافُ أَنْ يُنْظَرَ إليه بِعَيْنِ الاحْتِقَارِ، لا بِعَيْنِ التَّوقيرِ.

وكالَّذي يَرى جَماعةً يُصَلُّونَ التَّراويحَ، أو يَتَهجَّدونَ، أو يَصومُونَ الاثنينِ والخميسِ، أو يَتَصَدَّقُونَ، فَيُوافِقُهم خِيفَةَ أَنْ يُنْسَبَ إلى الكَسَلِ، ولَو خلا بِنَفْسِهِ لكانَ لا يَفْعَلُ شيئاً مِنْ ذلك.

---

(١) في الأصل: (إطاعة).

(٢) في الأصل: (يندر).

وكالذي يعْطَشُ في يوم عَرَفَةَ أو عاشُوراءَ، وفي الأشهُرِ الحُرُمِ، فلا يَشْرَبُ خَوفاً مِنْ أَن يَعْلَمَ الناسُ أَنَّه غيرُ صائِم، فإذا ظَنّوا به الصومَ امتنعَ عنِ الأَكْلِ لأَجْلِهِ، أو يُدْعى إلى طَعامٍ فَيَمْتَنِعُ لِيُظَنَّ أَنَّه صائم، وقد لا يُصَرِّحُ بأنه صائمٌ، ولكنْ يَقول: لي عُذْرٌ. وهوَ جَمعَ بَيْنَ خَبيثَينِ، فإنّه يُري أنّه صائِمٌ، ثُمَّ يُري أَنَّه مُخْلِصٌ لَيسَ بِمُراءٍ، وأَنَّه يَحْتَرِزُ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ عِبادَتَه لِلنَّاسِ فيكونَ مرائياً، فيُريدُ أَنْ يُقالَ: إنّه ساترٌ لِعبادَتِه. ثُمَّ إنِ اضْطُرَّ إلى شُرْبٍ لم يَصْبِرْ عن أنْ يَذْكُرَ لنفْسِهِ فيهِ عُذْراً تَصْريحاً أَو تَعْريضاً، بأَنْ يَتَعَلَّلَ بَمَرَضٍ يَقْتَضي فَرْطَ العَطَشِ ويَمْنَعُ مِنَ الصَّومِ، أَو يقولَ: أَفْطَرْتُ تَطْييباً لِقَلْبِ فُلانٍ، ثُمَّ قَدْ لا يَذْكُرُ ذلِكَ مُتَّصِلاً بِشُرْبِهِ، كي لا يُظَنَّ به أنّه يَعْتذِرُ رِياءً، ولكنّه يَصْبرُ، ثُمَّ يَذْكُرْ عُذْرَهُ في مَعْرِضِ حِكايَةٍ، مِثْلَ أَنْ يَقولَ: إنَّ فُلاناً مُحِبٌّ للإخْوانِ، شَديدُ الرَّغْبَةِ في أَنْ يَأكُل الإنسانُ مِنْ طَعَامِهِ، وقَدْ أَلَحَّ علَيَّ اليومَ، ولَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنْ تَطْييبِ قَلْبِهِ. ومِثْلَ أَنْ يَقولَ: إنَّ أُمّي ضَعيفَةُ القَلْبِ، مُشْفِقَةٌ عَلَيَّ، تَظُنُّ أَنّي لَو صُمْتُ يَوماً مَرِضتُ، فلا تَدَعُني أَصُومُ.

فهذا وما يَجري مجراهُ علاماتُ الرِّياءِ، فلا يَسْبِقُ إلى اللِّسانِ إلّا لِرُسُوخِ عِرْقِ الرِّياءِ في الباطِنِ، وأَمَّا المُخْلِصُ فإِنَّهُ لا يُبالي كيفَ نَظَر الخَلْق إِلَيْهِ، بَلْ يَقْنَعُ بِعِلْمِ اللهِ سُبحانَه.

فهذِهِ دَرَجاتُ الرِّياءِ ومَراتبُ أَصْنَافِ المُرائين، وجَميعُهُمْ تَحْتَ مَقْتِ اللهِ وغَضَبِه، وهوَ مِنْ أَشَدِّ المُهْلِكاتِ، وقد يَزِلُّ في دَقَائِقِهِ فُحُولُ العُلَماءِ، فَضْلاً عَنِ العُبَّادِ الجَهَلَةِ بِآفاتِ النُّفوسِ، وغَوائِلِ القُلُوبِ[١].

---

(١) في الأصل: (وشر غوائل).

بيانُ

الرِّياءِ الخَفِيِّ الذي هُوَ أَخْفى مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ

اعلم أَنَّ الرِّياءَ جَلِيٌّ وخَفِيٌّ.

فالجَليُّ: هوَ الَّذي يَبْعَثُ على العَمَلِ ويَحْمِلُ عليهِ، ولو قَصَدَ الثَّوابَ، وهوَ أَجْلاه.

وأَخْفى مِنْهُ قَليلاً هُوَ مالا يَحْمِلُ على العَمَلِ مُجرَّدُهُ، إلاّ أَنَّه يُخَفِّفُ العَمَلَ الذي أُريدَ به وَجْهُ اللهِ، كالّذي يَعْتادُ التَّهَجُّدَ كُلَّ لَيلَةٍ، ويَثْقُلُ عَلَيهِ، فإذا نَزَلَ عِنْدَهُ ضَيْفٌ نَشَطَ لَهُ، وخَفَّ عَلَيه، وعَلِمَ أَنَّه لَولا رَجاءُ الثَّوابِ لَكانَ لا يُصَلّي لِمُجَرَّدِ رِياءِ الضِّيفانِ.

وأخفى مِنْ ذلكَ ما لا يُؤَثِّرُ في العَمَلِ، ولا في التَّسْهيلِ والتَّخْفيفِ أيضاً، ولكنَّه معَ ذلِكَ مُسْتَبْطِنٌ في القَلْبِ، ومتى لم يُؤَثِّرْ في الدُّعاءِ إلى العَمَلِ لم يُمْكِنْ أَنْ يُعْرَفَ إلا بالعَلاماتِ.

وأَجْلى عَلاماتِه أَنْ يُسَرَّ باطِّلاعِ النَّاسِ على طاعَتِهِ، فرُبَّ عَبْدٍ يُخْلِصُ في عَمَلِه، ولا يَعْتَقِدُ الرِّياءَ، بلْ يَكْرَهُهُ ويَرُدُّهُ، ويُتَمِّمُ العَمَلَ كذلكَ، ولكنْ إذا اطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيهِ سَرَّهُ ذلكَ، وارْتاحَ له، وروَّحَ ذَلِكَ عن قَلْبِهِ شِدَّةَ العِبادَةِ، وهذا السُّرورُ يَدُلُّ على رياءٍ خَفِيٍّ، مِنْهُ تَرَشَّحَ السُّرورُ، ولَولا الْتِفاتُ القَلْبِ إلى النّاسِ لَما ظَهَرَ سُرُورُه عِنْدَ اطِّلاعِ النَّاسِ، فلَقَدْ كانَ الرِّياءُ مُسْتَكِنّاً في القَلبِ اسْتِكْنانَ النّارِ في الحَجَرِ، فأَظْهَرَ مِنْهُ اطِّلاعُ الخَلْقِ أَثَرَ الفَرَحِ والسُّرورِ، ثُمَّ إذا اسْتَشْعَرَ لَذَّةَ السُّرورِ بالاطِّلاعِ، ولَمْ يُقابِلْ ذلكَ بكراهِيةٍ، فيَصيرُ ذَلِكَ قُوتاً وغِذاءً للعِرْقِ الخَفِيِّ مِنَ الرِّياءِ، حتّى يَتَحَرَّكَ حَرَكَةً خَفِيَّةً، فَيَتَقَاضَى تَقَاضِياً خَفيّاً، أَنْ يَتَكَلَّفَ شَيئاً يُطَّلَعُ عليه بالتَّعْريضِ، وإلقاءِ الكلامِ عَرَضاً، وإِنْ كانَ لا يَدْعُو إلى التَّصْريحِ.

وقدْ يَخْفى فلا يَدْعُو إلى الإظْهارِ بالنُّطْقِ تَعْريضاً لا تَصْريحاً، ولكنْ بالشَّمائِلِ،

كإظهارِ النُّحولِ والصَّفَارِ، وخَفْضِ الصَّوتِ، ويُبْسِ[١] الشَّفَتَينِ، وجَفافِ[٢] الرِّيقِ، وآثارِ الدُّموعِ، وغَلَبَةِ النُّعاسِ الدَّالِّ على طُول التَّهجُّدِ.

وأخفى مِنْ ذلكَ أَنْ يَخْتَفيَ بحيثُ لا يُريدُ الاطِّلاعَ عَلَيه، لكنَّه معَ ذلِكَ إذا رأى الناسَ أَحَبَّ أَنْ يَبْدَؤُوهُ بالسَّلامِ، وأَنْ يُقابِلُوهُ بالبَشَاشَةِ والتَّوقير، وأَنْ يُثْنُوا عليهِ، ويَنْشَطوا في قَضَاءِ حَوائِجِهِ، ويُسامِحوهُ في المُعامَلةِ، ويُوَسِّعوا له المكانَ، فإنْ قَصَّرَ في ذلكَ مُقصِّرٌ ثَقُل ذلِكَ على قَلْبِهِ، كأنَّ نَفْسَهُ تَتَقَاضى الاحْتِرامَ على الطَّاعَةِ التي أَخْفَاها، معَ أَنَّه لمْ يُطَّلَعْ عَليهِ، ولو لمْ تَكُنْ قد سَبَقَتْ مِنْهُ تِلْكَ الطَّاعَةُ لَمَا كانَ يَسْتَبْعِدُ تَقْصِيرَ النَّاسِ في حَقِّه، ومتى لمْ يَكنْ وُجودُ العِبادَةِ كَعَدَمِها في كُلِّ ما يَتعلَّقُ بالخَلْقِ، لمْ يَكُنْ قَدْ قَنِعَ بعِلْمِ اللهِ، ولم يَكُنْ خالياً عن شَوبٍ[٣] خَفِيٍّ مِنَ الرِّياءِ، أَخْفَى مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ، وكُلُّ ذلِكَ يُوشِكُ أَنْ يُحْبِطَ الأجْرَ، ولا يَسْلَمُ مِنْهُ إلاّ الصِّدِّيقُون.

وقد رَوَينا عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أَنَّ رجُلاً مِنَ العُبَّادِ قالَ لأصْحابِهِ: إنَّا قد فارَقْنا الأموالَ والأَوْلادَ مَخافَةَ الطُّغْيَانِ، وإنَّا نَخافُ أن يَكُونَ قد دَخَلَ عَلَينا في أَمْرِنا هذا مِنَ الطُّغْيَانِ أكثرَ مِمَّا دَخلَ على أَهْلِ الأموالِ في أَمْوالِهم، إنَّ أَحَدَنا إذا لُقِيَ أَحَبَّ أَنْ يُعَظَّمَ لِمكانِ دِينهِ، وإنْ سَأَلَ حاجةً أَحَبَّ أَنْ تُقْضَى له[٤] لِمَكانِ دِينه، وإنِ اشترَى شَيئاً أَحَبَّ أَنْ يُرَخَّصَ لَهُ لِمَكانِ دِينهِ. فبَلَغَ ذَلِكَ مَلِكَهم، فَركِبَ في مَوْكِبِهِ، فإذا السَّهْلُ والجَبَلُ قَدِ امتلأَ مِنَ النّاسِ، فقالَ العابدُ: ما هذا؟ قيل: هذا الملِكُ. فقالَ لِصَاحِبِه: ائتِني بطعام. فأتاه بِبَقْلٍ وزَيتٍ وقُلُوبِ الشَّجَرِ، فَجَعَلَ يَحْشُو شِدْقَهُ، ويأكُلُ أكلاً عنيفاً، (٥فقالَ الملكُ: أَينَ صاحبُكم؟ قالوا: هذا. فقال له: كيفَ أنتَ؟ قال: كالناسِ. فقال الملكُ: ما عندَ هذا خير. فانصرفَ عنه، فقال: الحمدُ للهِ الذي٥) صَرَفَهُ عَنِّي وهُوَ لي لائم[٦].

(١) في (ف): (تيبُّس).
(٢) في (ف): (جفوف).
(٣) الشَّوْب: الخلط.
(٤) سقطت من (ف).
(٥ـ٥) سقط من الأصل.
(٦) حلية الأولياء ٤/٤٨ ـ ٤٩.

ولم يَزَلِ المُخْلِصُونَ خائفينَ مِنَ الرِّياءِ الخفيِّ، يَجْتَهِدُونَ لِذَلِكَ في مُخادَعَةِ الناسِ عَنْ أَعْمالِهم الصَّالحةِ، ويَحْرِصونَ على إخْفائِها أَعظَمَ ما يَحرصُ الناسُ على إخفاءِ فَواحِشِهم، كُلُّ ذلِكَ رَجاءَ أَنْ يَخْلُصَ عَمَلُهُم، فيُجازِيَهُمُ اللهُ في القيامةِ بإخْلاصِهِم، فكانوا كزُوَّارِ بيتِ اللهِ إذا تَوَجَّهوا إلى مكةَ، فإنَّهم يَسْتَصْحِبُونَ مَعَهُم الذَّهَبَ الخالِصَ، لِعِلْمِهم أَنَّ أَرْبَابَ البوادي لا يَرُوجُ عِندَهُمُ الزائِفُ والبَهْرَجُ[١]، والحاجَةُ تَشتدُّ في الباديةِ[٢]، ولا وَطَنَ يُفْزَعُ إليهِ، فلا يُنْجي إلاّ الخالصُ مِنَ النَّقْدِ، فكذا يُشاهِدُ أَربابُ القُلوبِ القِيامَةَ والزَّادَ الذي يَتَزَوَّدُونَهُ مِنَ التقوى.

فإذاً شَوائِبُ الرِّياءِ الخَفِيِّ كثيرةٌ لا تَنْحَصِرُ، ومتى أَدرَكَ الإنسانُ من نَفْسِهِ تَفْرِقَةً، بَيْنَ أَنْ يَطَّلِعَ على عِبادَتِهِ إنسانٌ أو بَهِيمَةٌ أو طِفْلٌ، فَفِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ الرِّياءِ، فإنَّه لمَّا قَطَعَ طَمَعَهُ عنِ البهائِمِ، لمْ يُبالِ حَضَرَتْ أَم غابَتْ، فلَو كانَ مُخْلِصاً قانِعاً بِعِلْمِ اللهِ، لاسْتَحقَرَ عُقَلاءَ العِبادِ كما احتقَرَ صِبْيانَهُمْ ومَجانينَهُمْ، وعَلِمَ أَنَّ العُقلاءَ لا يَقْدِرُونَ له على رَزْقٍ ولا أَجَلٍ، ولا زِيادَةِ ثَوابٍ، ونُقْصانِ عِقابٍ، كما لا يَقْدِرُ عليه البَهائِمُ والصِّبْيانُ والمجانينُ، فإذا لَمْ يَجدْ ذلكَ فَفِيهِ شَوبٌ خَفِيٌّ، ولكن ليسَ كلُّ شَوبٍ مُحْبِطاً لِلأَجْرِ ومُفْسِداً للعَمَلِ، بلْ فيهِ تَفصيلٌ.

فإن قِيلَ: فما تَرى أحداً يَنْفَكُّ عنِ السُّرورِ إذا عُرِفَتْ طاعتُه، فهلْ جَميعُ ذلكَ مَذْمُومٌ؟

فالجوابُ: إنَّ السُّرور يَنْقَسِمُ إلى مَحمودٍ ومَذْمُومٍ؛ فأَمَّا المحمودُ فأَرْبَعَةُ أَقْسامٍ:

الأَوَّلُ: أَنْ يَكونَ قَصْدُه إخفاءَ الطَّاعةِ والإخلاصَ لله، ولكن لمّا اطَّلَعَ[٣] عَليهِ الخلقُ عَلِمَ أَنَّ اللهَ أَطْلَعهم، وأَظْهَرَ الجميلَ مِنْ أَحْوالِهِ، فَيَسْتَدِلّ بذلِكَ على حُسْنِ صَنيعِ اللهِ، ونَظَرِهِ لهُ، ولُطْفِهِ بِهِ، وأَنَّهُ يَسْتُرُ الطَّاعَةَ والمَعْصِيَةَ، فيُظْهِرُ اللهُ عليهِ الطاعَةَ، ويَسْتُرُ عليهِ المَعْصِيَةَ، ولا لُطْفَ أَعظَمُ مِنْ سَترِ القَبيحِ، وإظْهارِ الجَميلِ،

---

(١) البهرج: الردئ والباطل.
(٢) تحرفت في (ف) إلى: (الباطنة).
(٣) بعدها في الأصل لفظ الجلالة.

فَيكونُ فَرَحُهُ بجميلِ نَظَرِ اللهِ لَهُ، لا بِحَمْدِ النّاسِ وقِيامِ المَنْزِلَةِ في قُلُوبهم، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]

الثاني: أَنْ يَسْتَدِلَّ بإِظْهارِ اللهِ الجَميلَ وسِتْرِهِ القَبيحَ عليهِ في الدُّنيا، أَنّه كذلِكَ يَفْعَلُ بهِ في الآخرة، فَقَدْ رَوى عليٌّ رضي الله عنهُ، عنِ النبيِّ ﷺ أَنّه قال: «مَنْ أَذْنَبَ ذنباً في الدُّنيا، فَسَتَرَ اللهُ عليه، وعَفى عنه، فاللهُ أَكْرَمُ مِنْ أَن يَعُودَ في شيءٍ قد عَفى عنه»[١].

فعلى الأَوَّلِ؛ يكونُ الفَرَحُ بالقَبُولِ في الحالِ، مِنْ غَيرِ مُلاحَظَةِ المُسْتَقْبَلِ، وعلى الثاني؛ يكونُ الالتفاتُ إلى المستقبلِ.

والثالث: أَنْ يَظُنَّ رَغْبَةَ المُطَّلِعينَ على الاقْتِداءِ به في الطاعةِ، فَيَتَضاعفُ بذلكَ أَجْرُهُ، فيكونُ لَهُ أَجْرُ العَلانيَةِ بما ظَهَرَ آخِراً، وأَجْرُ السِّرِّ بما قَصَدَهُ أَوّلاً، ومنِ اقْتُدِيَ بهِ في طاعةٍ فَلَهُ أَجْرُ أَعمالِ المُقْتَدينَ به[٢]، مِنْ غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ، وتَوَقُّعُ ذلِكَ جَديرٌ بأَنْ يكونَ سَبَبَ السُّرورِ، فإِنَّ ظُهورَ مَخايِلِ الرِّبْحِ لَذيذَةٌ، ومُوجِبَةٌ للسُّرورِ لا مَحالَةَ، وفي أفرادِ مسلم مِنْ حَديثِ أبي ذَرٍّ قالَ: قِيلَ لِرسول اللهِ: أَرَأَيتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، ويَحْمَدُهُ النّاسُ عَلَيْهِ؟ قال: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرى المُؤْمِنِ»[٣].

والرابعُ: أَنْ يَحْمَدَهُ المُطَّلِعُونَ على طاعتِه، فَيَفْرَحَ بطاعَتِهم للهِ في مَدْحِهم، وبحُبِّهِمْ للمُطيعِ، وبِمَيْلِ قُلُوبِهِم إلى الطّاعَةِ، إِذْ في النّاسِ من يَحْسُدُ المُطيعَ ويَذُمُّهُ، ويَهْزَأُ به، ويَنْسبُهُ إلى الرِّياءِ، فَيَفْرَحُ هذا بِحُسْنِ إيمانِ عِبادِ اللهِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧٥)، والترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢٦٠٤)، والبزار (٤٨٢)، والطحاوي في شرح المشكل (٢١٨١)، والطبراني في الصغير (٤٦)، والحاكم ٢/ ٤٤٥، و٤/ ٣٨٨، والبيهقي في السنن ٨/ ٣٢٨.

(٢) ليست في (ف).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٢)، والطيالسي (٤٥٥)، وابن أبي شيبة ١١/ ٥٣، وأحمد (٢١٣٨٠) و(٢١٤٠٠) و(٢١٤٧٧)، وابن ماجه (٤٢٢٥) وابن حبان (٣٦٧).

والخامسُ: أَن يَكونَ فَرَحُهُ لِقِيامِ مَنْزِلَتِهِ في قُلُوبِ النَّاسِ، حتَّى يَمْدَحُونَه ويُعَظِّمُونَهُ، ويَقُومُونَ بِقَضَاءِ حَوائِجِهِ، ويُكْرِمُونَهُ، فهذا المَكْرُوهُ المَذْمُومُ.

فإنْ قِيلَ: فما وَجْهُ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رَجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، الرجلُ يَعْمَلُ العَمَلَ فَيُسِرُّهُ، فإذا اطُّلِعَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ ذَلِك. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَهُ أَجْرَانِ، أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ العَلانِيَةِ»[1].

فالجوابُ من وُجُوهٍ:

أَحَدُها: تَضْعيفُ هذا الحديثِ، فإِنَّ أَكْثَرَ مَنْ يَرْوِيهِ يَقِفُهُ على أبي صَالحٍ، ولا يَذْكُرُ فيهِ أبا هُرَيْرَةَ. وقد رَواهُ التِّرْمِذِيّ عنْ أَبي صَالحٍ، عنْ أبي هُريرةَ مرفوعاً، وقالَ: هوَ حديثٌ غريبٌ[2].

والثاني[3]: ذَكَرَ الترمذيُّ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ العِلْمِ فَسَّرَهُ فقالَ: مَعْناهُ أَنْ يُعْجِبَهُ ثَناءُ النّاسِ عليه بالخَير، لِقَولِهِ ﷺ: «أَنتم شُهَداءُ اللهِ في الأَرْضِ»[4]. فأَمَّا إذا أَعْجَبَهُ لِيَعْلَمَ النّاسُ منهُ الخيرَ ويُكْرَمَ عليهِ، فهذا رِياءٌ.

الثالث: قالَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: يُعْجِبُهُ إذا اطُّلِعَ عليه، رَجَاءَ أَنْ يُعْمَلَ بِعَمَلِهِ، فيَكونَ له مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٤٣٠)، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/٢٢٨، و الترمذي (٢٣٨٤) وابن ماجه (٤٢٢٦)، وابن حبان (٣٧٥)، والطبراني في الأوسط (٤٦٩٩)، والبغوي في شرح السنة (٤١٤١) عن أبي صالح ذكوان عن أبي هريرة مرفوعاً.
وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢/٢٢٨ من عدة طرق عن أبي صالح مرسلاً.

(٢) هكذا في النسخ وتحفة الأشراف ٩/٣٤٢، وشرح السنة (٤١٤١)، وفي مطبوع سنن الترمذي: (حديث حسن غريب).

(٣) ليست في النسخ، واستدركت من سنن الترمذي لبيان بقية الوجوه في الجواب.

(٤) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

بَيانُ

ما يُحْبِطُ العَمَلَ مِنَ الرِّياءِ الخَفِيِّ والجَلِيِّ وما لا يُحْبِطُ

إذا عَقَدَ العَبدُ العِبادةَ على الإخلاصِ، ثُمَّ وَرَدَ عليهِ وارِدُ الرِّياءِ، فلا يَخلو أَنْ يكونَ وَرَدَ عليهِ بَعدَ فَراغِهِ، أَو قَبْلَ الفَراغِ.

فإنْ وَرَدَ عليهِ بَعْدَ الفراغِ سُرورٌ بالظُّهورِ مِنْ غَيرِ إظهارٍ، فهذا لا يُحبِطُ العَمَلَ، إذِ العَمَلُ قَدْ تَمَّ على نَعْتِ الإخلاصِ، فلا يَنْعَطِفُ ما طَرَأَ بَعْدَهُ عليهِ، لا سِيَما إذا لم يَتكلَّفْ هُوَ إِظْهارَهُ والتَّحدُّثَ به، وإنّما اتَّفَقَ إظهارُه بإظْهارِ اللهِ لَهُ.

فأَمَّا إنْ تَحدَّثَ به بَعْدَ تَمامِه، وأَظْهَرَهُ فهذا مَخُوفٌ، والغالِبُ على مَنْ أَخْبَرَ بالعَمَلِ بَعْدَ تَمامِهِ لِيُمْدَحَ، أَنَّهُ قد كان في قَلْبِهِ وَقتَ مُباشرةِ العملِ نَوعُ رِياءٍ، فإنْ سَلِمَ مِنْ ذلِكَ أُثيبَ على إِخْلاصِهِ، وعُوقِبَ على رِيائِه بالتَّحديثِ، فإنْ نَجا من ذلك نَقَصَ أَجْرُهُ.

كما رَوَينا عن سُفيانَ الثَّوريِّ أَنّه قال: بَلَغَني: «أَنَّ العَبْدَ يَعْمَلُ العَمَلَ سِرّاً، فلا يَزالُ الشَّيطانُ بِهِ حتَّى يُعْلِنَهُ، فَيُكْتَبَ في العلانِيَةِ، ثُمَّ لا يَزالُ الشَّيطانُ به حتّى يُحبَّ أَنْ يُحْمَدَ عليه، فيُنْسَخَ مِنَ العَلانِيَةِ، فَيُثْبَتَ(١) في الرِّياءِ»(٢).

فانظرْ إلى هذا الكَيدِ الخَفيّ، فإنّ بينَ عَمَلِ السِّرِّ والعلانِيَةِ سَبعينَ دَرَجةً.

وأَمّا إذا وَرَدَ وارِدُ الرّياءِ قَبْلَ الفَراغِ مِنَ الصّلاةِ التي عَقَدَها على الإخْلاصِ،

---

(١) في الأصل: (فيُكتب).

(٢) لا يصح مرفوعاً، فالزهري لم يذكر عمن أخذه، وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٦/ ٦٣، والمصنف في الموضوعات ٣/ ١٥٤ من حديث أنس بنحوه، وإسناده تالف، فيه خلف بن محمد وهو ضعيف جداً، وعيسى بن موسى غُنجار يروي عن الكذابين ويدلّس، وإسماعيل بن أبي زياد السكوني، دجال كذاب، وأبان بن أبي عيّاش متروك.

فإنْ كانَ مُجَرّدَ سُرورٍ لم يُؤَثِّرْ في العَمَلِ، وإنْ كانَ رِياءً باعثاً على العَملِ، وخُتِمَتْ به العِبادَةُ، حَبِطَ الأَجْرُ، مِثْلَ أَنْ يكونَ في صَلاةٍ فَيَحْضُرَ مَنْ يَنْظرُ إليه، فيُطيلَ ليُرى.

فأمّا ما يُقارِنُ العِبادةَ حالَ العَقْدِ، بأَنْ يَبْتَدِئَ الصّلاةَ على قَصْدِ الرّياءِ، فإنْ أَتمَّها على ذلكَ لم يُعْتَدَّ بها، وإنْ نَدِمَ فيها على فِعْلِهِ فالذي أَراهُ: لَهُ ابْتِداؤُها.

بيانُ

دَواءِ الرّياءِ، وطريقِ مُعالَجَةَ القلبِ فيهِ

قد عَرْفتَ بما تَقَدَّم أَنَّ الرّياءَ مُحْبِطٌ للأعمالِ، وسَببٌ لِمَقْتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وأَنَّه مِنَ المُهْلِكاتِ، وما هذا حالُه فجديرٌ بالتَّشميرِ عنْ سَاقِ الجِدِّ في إزالَتِهِ، وهذهِ المُجاهدَةُ يَضْطَرُّ إليها الخلقُ كُلُّهم؛ لأَنَّ الصَّبيَّ يُخْلَقُ ضَعيفَ العَقلِ والتميزِ، فيَرى تَصنُّعَ النّاسِ بعضِهم لبعضٍ، فَيَغْلِبُ عليهِ حُبُّ التَّصنُّعِ ضَرُورَةً، وإنَّما يَعْلَمُ أَنَّ التَّصنُّعَ مُهْلِكٌ بَعْدَ كمالِ عقلِهِ، وقد انْغَرَسَ الرِّياءُ في قَلْبِهِ، فَيَفْتَقِرُ حِينئِذٍ في قَمْعِهِ إلى مُجاهَدةٍ شَديدَةٍ، ومُكابَدَةٍ قويَّةٍ، ولا يَنْفَكُّ عنِ الاحْتياجِ إلى هذِهِ المجاهَدَةِ، ولكنَّها تَشُقُّ أَوَّلاً، وتَخِفُّ آخِراً، وفي عِلاجِهِ مَقامانِ:

أحدُهما: قَلْعُ عُروقِهِ وأُصولِهِ التي مِنها انْشِعابُهُ.

والثاني: رَفْعُ ما يَخطُرُ منهُ في الحالِ.

المقامُ الأوَّلُ: في قَلْع عُروقِهِ، واسْتِئْصالِ أُصولِهِ: وأَصْلُهُ حُبُّ الجاهِ والمنْزِلَةِ، وإذا فُصِّلَ رَجَعَ إلى ثَلاثَةِ أُصولٍ، وهي:

١ ـ حُبُّ لَذَّةِ الحَمْدِ.

٢ ـ الفِرارُ مِنْ أَلَمِ الذَّمِّ.

٣ ـ الطَّمَعُ فيما في أيدي النّاسِ.

ويَشْهَدُ لِلرّياءِ بهذِهِ الأَسبابِ، وأَنَّها الباعِثَةُ للمُرائي، ما أخبرنا به هِبَةُ اللهِ بنُ محمدٍ، قال: أخبرنا الحسنُ بنُ عليٍّ التميميُّ، قال: أخبرنا أحمدُ بنُ جعفرٍ، قال: حدّثنا عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ، قال: حدّثني أبي، قال: حَدّثنا أبو مُعاويةَ، قال: حَدّثنا الأَعْمَشُ، عن شَقيقٍ، عن أبي موسى، قالَ: جاء رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيتَ الرَّجُلَ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقَاتِلُ رِياءً، فأَيُّ ذَلِكَ في

سَبيلِ اللهِ؟ قالَ: فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هيَ العُلْيا، فَهُوَ في سَبيلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ» أَخْرجاهُ في الصحيحين(١).

ومعنى قولِهِ: يُقاتِلُ شجاعةً. أي: لِيُذْكَرَ ويُحْمَدَ بِالأَلْسِنَةِ. ومعنى قولِهِ: حَمِيَّةً. أَنَّه يَأْنَفُ أَنْ يُقْهَرَ، أَو يُذَمَّ بِأَنَّهُ مَقْهُورٌ. ومعنى: يُقاتِلُ رِياءً. أي: لِيُرى مكانُه، وهذا هوَ طَلَبُ لَذَّةِ الجاهِ والقَدْرِ في القلُوبِ.

وقد لا يَشْتَهي الإنسانُ الحَمْدَ، ولا يَطْمَعُ فيه، ولكِنَّهُ يَحذَرُ مِنَ الذَّمِّ، كالبَخيلِ بَينَ الأَسْخِياءِ، فإنّهم(٢) إذا تَصدَّقوا(٣) تصدَّقَ كي لا يُبَخَّلَ، وكذلِكَ الجَبانُ بَينَ الشُّجعانِ، فإنّه يَثْبُتُ ولا يَفِرُّ لِئَلّا يُذَمَّ، فَكِلاهُما لا يَطمَعُ في الحَمْدِ؛ لأَنّهُ قد يَئِسَ مِنْهُ، لكنَّهُ يَتَّقي الذَّمَّ، وقد يُفتي الإنسانُ بِغَيرِ عِلْمٍ حَذَراً مِنَ الذَّمِّ بالجَهْلِ.

فهذِهِ الأُمورُ الثَّلاثَةُ هيَ الّتي تُحَرِّكُ المُرائي إلى الرِّياءِ، وعِلاجُهُ ما ذَكَرْناهُ في الشَّطْرِ الأَوَّلِ مِنَ الكِتابِ على الجُمْلَةِ، ولكنّا نَذْكُرُ الآنَ ما يَخُصُّ الرِّياءَ.

وليسَ يَخفى أنّ الإنسانَ إنّما يَقْصِدُ الشَّيءَ ويَرْغبُ فيهِ، لِظَنِّهِ أَنّه خَيرٌ لهُ ونافعٌ ولذيذٌ، إمّا في الحالِ وإمّا في المآلِ، فإنْ عَلِمَ أَنّه لَذيذٌ في الحالِ ولكنّه ضارٌّ في المآلِ، سَهُلَ عليهِ قَطْعُ الرَّغْبَةِ عنه، كمنْ يَعْلَمُ أَنَّ العَسَلَ لَذِيذٌ، ولكنْ إذا بَانَ لَهُ أَنَّ فِيهِ سُمّاً أَعْرَضَ عنه، وكذلِك طريقُ هذهِ الرَّغْبَةِ، أَنْ يَعْلَمَ ما فيها مِنَ المَضَرَّةِ، ومتى عَرَفَ الإنسانُ مَضَرَّةَ الرِّياءِ، وما يَفُوتُهُ مِنْ صَلاحِ قَلْبِهِ، ومِنَ المَنْزِلةِ في الآخِرَةِ، وما يَتَعرَّضُ له مِنَ العِقابِ والمَقْتِ والخِزْيِ، حينَ يُنادى عليهِ على رُؤوسِ العِبادِ: يا فاجرُ يا مُرائي(٤) [كانَ ذلكَ رادِعاً له عنه](٥) هذا مع ما يَتعرَّضُ له من تَشَتُّتِ الهَمِّ بسببِ مُلاحَظَةِ قُلوبِ الخَلْقِ، فإنَّ رِضى النّاسِ غايةٌ لا تُدْرَكُ، فكُلُّ ما يَرضى به فريقٌ يَسخَطُ به فريقٌ، ومنْ طَلَبَ رِضاهُمْ في سَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عليهِ وأَسخَطَهُم

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٥٤٣)، والبخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).
(٢) في (ف): (فإنه).
(٣) سقطت من (ف).
(٤) أخرجه الديلمي في الفردوس (٦٦١٩) عن جبلة اليحصبي مرسلاً.
(٥) زيادة من الإحياء يتم بها المعنى.

عليه، ثُمَّ أَيُ غَرَضٍ لَهُ في مَدْحِهِم وإيثارِ ذَمِّ اللهِ لأَجْلِ حَمْدِهِمْ، ولا يَزيدُهُ حَمدُهُم[١] رِزْقاً ولا أَجَلاً، ولا يَنْفَعُهُ يَومَ فَقْرِهِ وفَاقَتِه؟!!

وأَمّا الطَّمَعُ فيما في أَيديْهِمْ فَيُزيلُهُ بِأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ هو المُسخِّرُ لِلْقُلوبِ بالمَنْعِ والإعْطاءِ، وأَنَّهُ لا رَازِقَ إلا اللهُ، ومَنْ طَمِعَ في الخَلْق لَمْ يَخْلُ مِنَ الذُّلِّ والخَيبَةِ، وإِنْ وَصَلَ إلى المُرادِ لَمْ يَخْلُ عنِ المِنَّةِ والمَهانَةِ، فكيفَ يَتْرُكُ ما عِنْدَ اللهِ بِرَجاءٍ[٢] كاذِبٍ، ووَهْمٍ فاسدٍ قد يُصيبُ وقَدْ يُخْطِئ؟! وإذا أَصابَ لَمْ تَفِ لَذَّتُهُ بِأَلَمِ مِنَّتِهِ ومَذَلَّتِهِ.

وأَمّا ذَمُّهُم فَلِمَ يَحْذرُ مِنْه؟! ولا يَزيدُه ذَمُّهُم شَيئاً لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عليه؟! ولا يُعَجِّلُ أَجَلَهُ، ولا يُؤَخِّرُ رِزْقَه؟! فالعِبادُ كُلُّهم عَجزَةٌ، لا يَمْلِكونَ لأَنفُسِهِمْ نَفعاً ولا ضَرّاً، ولا يَمْلِكون مَوتاً ولا حَياةً ولا نُشُوراً.

فإذا قَرَّرَ في (٣نَفْسِهِ آفَةَ٣) هذه الأسبابِ وضَرَرِها، فَتَرَتْ رَغْبَتُهُ، وأَقْبَلَ على اللهِ قَلْبُهُ، فإِنَّ العاقِلَ لا يَرْغَبُ فيما يَكثُرُ ضَرَرُهُ ويَقِلُّ نفعه، ويَكْفيهِ أَنَّ النّاسَ لَو عَلِموا ما في باطِنِه مِنْ قَصْدِ الرِّياءِ لَمَقَتُوه، وسَيَكْشِفُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عن سِرِّهِ، حتّى يُبَغِّضَه إلى النّاسِ، ويُعَرِّفَهُمْ أَنَّهُ مُراءٍ مَقيتٌ عِند اللهِ، ولَو أَخْلَصَ للهِ لَكَشَفَ اللهُ لَهُم إِخْلاصَهُ، وَحَبَّبَهُ إليهم، وسَخَّرَهُمْ لَهُ، وأَطْلَقَ أَلْسِنَتَهُمْ بِحَمْدِهِ والثَّناءِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ لا كَمالَ[٤] في مَدْحِهِمْ، ولا نُقْصَانَ في ذَمِّهِم، كما قالَ شاعرُ بَني تميمٍ[٥]: إِنَّ مَدْحي زَينٌ، وإنَّ ذَمِّي شَيْنٌ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكَ اللهُ»[٦].

(١) في (ف): (مدحهم).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (جائر).

(٣-٣) سقط من الأصل.

(٤) في الأصل: (جمال).

(٥) هو الأقرع بن حابس التميمي المجاشعي، صحابي من الأشراف في الجاهلية والإسلام، كان من المؤلفة قلوبهم ثم حَسنَ إسلامه وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف، واستشهد بجوزجان نحو سنة (٣١)هـ. الإصابة ١/ ١٠١، الأعلام ٢/ ٥.

(٦) أخرجه أحمد (١٥٩٩١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٧٨)، والطبراني في الكبير (٨٧٨)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٠٣٣) وابن الأثير في أُسد الغابة ١/ ١٣٠، =

وأَيُّ خَيرٍ لِلإنسانِ في مَدْحِ النّاسِ إذا كانَ عِندَ اللهِ مَذْمُوماً؟! وأَيُّ شَرٍّ لَهُ في ذَمِّهِمْ إذا كانَ عِندَ اللهِ مَحْمُوداً؟!

فمنْ أَحْضَرَ في قَلْبِهِ الآخِرةَ ونَعيمَها المُؤبَّدَ، احْتَقرَ ما يَتَعلَّقُ بالخَلْقِ أيّامَ الحياةِ، معَ ما فيهِ مِنَ الكَدَرِ والتَّنْغِيصِ، واجْتَمَعَ هَمُّهُ، وانصَرَفَ إلى اللهِ سُبْحانَهُ قَلْبُهُ، وتَخَلَّصَ مِنْ مَذَلَّةِ الرِّياءِ ومُقَاسَاةِ قُلُوبِ الخَلْقِ، وانْعَطَفَ مِنْ إخْلاصِهِ أنوارٌ على قَلْبِهِ، يَنْشَرِحُ بها صَدْرُهُ، ويَنْفَتِحُ لهُ مِنْ لَطَائِفِ المُكاشَفاتِ ما يَزيدُ بِهِ أُنْسُهُ باللهِ عَزَّ وجلَّ، وَوَحْشَتُهُ مِنَ الخَلْقِ، واحْتِقَارُهُ للدُّنْيا، واسْتِعْظامُهُ للآخِرةِ، وسَقَطَ مَحَلُّ الخَلْقِ مِنْ قَلْبِهِ، وانْحَلَّتْ عنهُ دَاعِيَةُ الرِّياءِ، وتَذَلَّلَ لَهُ مَنْهَجُ الإخْلاصِ. فهذا وما قَدَّمْناهُ في الشَّطرِ الأَوّلِ هِيَ الأَدوِيَةُ العِلْمِيَّةُ القَالِعَةُ مَغَارِسَ الرِّياءِ.

وأَمَّا الدَّواءُ العَمَلِيُّ فهُوَ: أَنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ إِخْفاءَ العِبادَاتِ، وإِغْلاقَ الأَبْوابِ دُونها، كما تُغْلَقُ الأَبْوابُ دُونَ الفَواحِشِ، حَتّى يَقْنَعَ قَلْبُهُ بِعلْمِ اللهِ واطِّلاعِهِ على عِبادتِهِ، ولا تُنازِعَهُ النَّفْسُ إلى طَلَبِ عِلْمِ غيرِ اللهِ بهِ.

ولا دَواءَ لِلرِّياءِ مِثْلَ إخْفاءِ الأَعْمَالِ، وذلكَ يَشُقُّ في بِدَايَةِ المُجَاهَدَةِ، وإذا صَبَرَ عَليهِ مُدَّةً بالتَّكَلُّفِ سَقَطَ عَنهُ ثِقلهُ، وَهَانَ عَليهِ ذلكَ بِتَواصُلِ أَلْطافِ اللهِ، وما يَمُدُّ بِهِ عِبادَهُ مِنْ حُسْنِ التَّوفيقِ والتَّأْيِيدِ، فَعَلى العَبْدِ المُجاهَدَةُ، ومنَ اللهِ التَّوفِيقُ.

المَقامُ الثاني: في دَفْعِ العارِضِ مِنهُ في أَثْناءِ العِبادَةِ، وذلكَ لابُدَّ مِنْ تَعَلُّمِهِ أيضاً، فإنَّ مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ، وقَلَعَ مَغَارِسَ الرِّياءِ مِنْ قَلْبِهِ بالقناعَةِ وقَطْعِ[1] الطَّمَعِ، وإسْقاطِ نَفْسِهِ مِنْ أَعْيُنِ المَخْلُوقين، واحتِقَارِ مَدْحِهِمْ وذَمِّهِمْ، فالشَّيطانُ لا يَتْرُكُهُ في أثناءِ العِبادةِ، بلْ يُعارِضُهُ بِخَطَراتِ الرِّياءِ، ولا تَنْقَطعُ عنهُ نَزَغَاتُهُ، وهَوى النَّفْسِ ومَيلُها لا يَنْمَحي بالكُلِّيَّةِ، فلابُدَّ أَنْ يَتَشَمَّرَ لِدَفْعِ ما يَعْرِضُ مِنْ خَاطِرِ الرِّياء.

وخَواطِرُ الرِّياءِ ثَلاثَةٌ، قد تَخْطُرُ دَفْعَةً واحدةً كالخاطِرِ الواحِدِ، وقد تَترادَفُ على التَّدْرِيجِ:

= عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس، وإسناده ضعيف لانقطاعه، فأبو سلمة لم يسمع من الأقرع.

(١) سقطت من (ف).

فالأوَّلُ: العِلْمُ باطِّلاعِ الخَلْقِ ورَجاءُ اطِّلاعِهِم، ثُمَّ يَتْلُوه هَيَجانُ الرَّغْبَةِ مِنَ النَّفْسِ في حَمْدِهِم وحُصولِ المنزلَةِ عِنْدَهُم، [وهو الثَّاني][1]، ثم يَتْلُوه قَبُولُ النَّفْسِ له والرُّكونُ إليهِ، وعَقْدُ الضَّميرِ على تَحْقِيقِهِ، [وهو الثَّالثُ][2].

فالأوَّلُ: مَعْرِفَةٌ. والثّاني: حَالَةٌ تُسمَّى الشَّهوَةَ والرَّغْبَةَ. والثّالثُ: فِعْلٌ يُسمَّى العَزْمَ وتَصميمَ العَقْدِ.

وإنَّما كَمالُ القُوَّةِ في دَفْعِ الخاطِرِ الأوَّلِ، ورَدِّهِ قَبْلَ أَنْ يَتْلُوَهُ الثّاني. فإذا خَطَرَ لهُ مَعْرِفَةُ اطِّلاعِ الخَلْقِ أو رَجاءُ اطِّلاعِهِمْ، دَفَعَ ذلكَ بِأَنْ قال: مَالَكَ ولِلْخَلْقِ عَلِمُوا أو لم يَعْلَمُوا؟! واللهُ عَليمٌ بِحالِكَ، فأَيُّ فائِدَةٍ في عِلْمِ غَيرِه؟!

فإنْ هاجَتِ الرَّغْبةُ إلى لَذَّةِ الحَمْدِ بِذِكْرِ ما رَسَخَ في قَلْبِهِ مِنْ ذلكَ ذَكَّرَها آفاتِ الرِّياءِ، وتَعَرُّضَهُ لِلْمَقْتِ، وخَيْبَتَهُ في أَحْوَجِ أَوْقاتِهِ إلى أعْمالِهِ، فكما أَنَّ مَعْرِفَةَ اطِّلاعِ النّاسِ تُثيرُ شَهْوَةً وَرَغبَةً في الرِّياءِ، فمَعْرِفَةُ آفَةِ[3] الرِّياءِ تُثيرُ كراهةً له تُقابِلُ تِلْكَ الشَّهْوَةَ، والشَّهْوَةُ تَدعُو إلى القَبولِ، والكراهةُ تَدعُو إلى الإباءِ، والنَّفْسُ تُطاوِعُ أَقواهُما وأَغْلَبَهُما، فإذاً لابُدَّ في رَدِّ الرِّياءِ مِنْ ثلاثةِ أُمورٍ: المَعْرِفَةُ والكراهَةُ والإباءُ.

وقد يَشْرَعُ العَبْدُ في العِبادَةِ على عَزْمِ الإخْلاصِ، ثُمَّ يَرِدُ خاطِرُ الرِّياءِ فَيَقْبَلُهُ، ولا تَحْضُرُهُ المَعْرِفَةُ، ولا الكراهَةُ التي كانَ الضَّميرُ مُنْطَوِياً عليها، وسَبَبُ ذلكَ امْتِلاءُ القَلْبِ بِخَوفِ الذَّمِّ وحُبِّ الحَمْدِ، واسْتيلاءُ الحِرْصِ عليه، بحيثُ لا يَبقى في القَلْبِ مُتَّسَعٌ لِغَيْرِهِ[4]، فَتَعْزُبُ عنِ القلبِ المَعْرِفَةُ السَّابِقَةُ بآفاتِ الرِّياءِ وشُؤْمِ عاقِبَتِهِ، إذْ لم يَبْقَ مَوْضِعٌ في القَلْبِ خالٍ عَنْ شَهوَةِ الحَمْدِ خَوفِ الذَّمِّ، وهوَ كالّذي يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بالحِلْمِ وذَمِّ الغَضَبِ، ويَعْزِمُ على التَّحَلُّمِ عِنْدَ جَرَيانِ سَبَبِ الغضَبِ، ثُمَّ يُجري

(١) زيادة من الإحياء يقتضيها السياق.
(٢) زيادة من الإحياء يقتضيها السياق.
(٣) في الأصل: (آفات).
(٤) في الأصل: (لغير الله) والمثبت من (ف) موافق للإحياء والإتحاف.

مِنَ الأَسْبابِ ما يَشْتَدُّ به غَضَبُهُ، فَيَنْسى سابِقَ عَزْمِهِ، ويَمْتَلِئُ قَلْبُهُ غيظاً يَمْنَعُ مِنْ تَذَكُّرِ آفَةِ الغَضَبِ، ويُشْغَلُ عنه، فكذلِكَ حَلاوَةُ الشَّهْوَةِ تَمْلأُ القَلْبَ، وتَدْفَعُ نُورَ المَعْرِفَةِ، مِثْلُ مَرارَةِ الغَضَبِ، ومثلث هذا ما جَرى للصَّحابَة حينَ بايَعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ (١تَحْتَ الشَّجَرَة١) أَنْ لا يَفِرُّوا[٢]، ثُمَّ إِنَّ أَكثَرَ القُلوبِ امتَلأَتْ يومَ حُنَينٍ بالخَوفِ، فَفَرُّوا ناسِينَ للعَهدِ السّابِقِ[٣].

وأَكثرُ الشّهواتِ الّتي تَهْجُمُ فَجْأَةً هكذا تكُونُ، فَتُنْسَى مَعْرِفَةُ المَضَرَّةِ الدّاخِلَةُ في عَقْدِ الإيمانِ، فإذا نُسِيَتِ المَعْرِفَةُ لَمْ تَظْهَرِ الكراهَةُ، فإنَّ الكراهَةَ ثَمَرَةُ المَعرِفَةِ.

وقد يَتذكَّرُ، فَيَعْلَمُ أَنَّ الذي خَطَرَ لهُ هوَ خاطِرُ الرِّياءِ الذي يُعَرِّضُه لِسَخَطِ اللهِ، ولكِنّهُ يَسْتَمِرُّ عَليهِ لِشِدَّةِ شَهوتِهِ، فَيَغْلِبُ هَواهُ عَقْلَهُ، ولا يَقْدِرُ على تَرْكِ لَذَّةِ الحالِ، فَيُسَوِّفُ بالتّوبةِ، أو يَتَشاغَلُ عنِ التَّفَكُّرِ في ذلكَ لِشِدَّةِ الشَّهْوَةِ، فكم مِنْ عالِمٍ يَحْضُرُهُ كلامٌ لا يَدْعوهُ إلى قَوْلِهِ إلا رِياءُ الخلْقِ، وهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ، ويَستَمِرُّ عَليهِ، ولا تَنْفَعُهُ معرفته إذا خَلَتِ المعرِفَةُ عنِ الكراهَةِ.

وقد تَحْضُرُ المَعْرِفَةُ الكراهَةُ، ثُمَّ يُجيبُ داعيَ الرّياءِ، وذلكَ حينَ تكونُ الكراهَةُ ضَعيفةً بالإضافَةِ إلى قُوَّةِ الشَّهْوَةِ، وهذا أيضاً لا يَنْتَفِعُ بكراهَتِهِ، إذِ الغَرَضُ مِنَ الكراهَةِ أَنْ تَصْرِفَ عنِ الفِعلِ.

فإذاً لا فائِدَةَ إلّا في اجْتِماعِ الثّلاثِ: المَعْرِفَةِ والكراهَةِ والإباءِ، فالإباءُ ثَمَرَةُ الكراهَةِ، والكراهَةُ ثَمَرَةُ المَعْرِفَةِ، وقُوَّةُ المَعْرِفَةِ بِحَسَبِ قُوَّةِ الإيمانِ ونورِ المعرفةِ، وضَعْفُ المَعْرِفَةِ بحَسَبِ الغَفْلَةِ وحُبِّ الدنيا ونِسْيانِ الآخرةِ، وقِلَّةِ التَّفَكُّرِ فيما عِنْدَ اللهِ، وقِلَّةِ التَّأَمُّلِ في آفاتِ الحياة الدُّنيا وعَظيمِ نَعيمِ الآخرَةِ، وبَعضُ ذلِكَ يُنْتِجُ بَعضاً ويُثَمِّرُهُ، وأَصْلُ ذلكَ كُلِّهِ حُبُّ الدنيا وغَلَبَةُ الشّهوات، فهوَ رأسُ كُلِّ خَطيئَةٍ،

(١-١) سقط من الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠) من حديث سلمة بن الأكوع، وفيه أن البيعة كانت على الموت، وأخرجه مسلم (١٨٥٦) من حديث جابر و(١٨٥٨) من حديث معقل ابن يسار، ولفظه: (بايعناه على أن لا نَفر، ولم نبايعه على الموت).

(٣) حديث غزوة حنين أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديث العباس رضي الله عنه.

ومَنْبَعُ كُلِّ ذَنْبٍ؛ لأَنَّ حَلاوَةَ حُبِّ الجاهِ والمَنْزِلَةِ ونعيم الدنيا هيَ التي تَسْتَلِبُ القلْبَ، وتَحولُ بَينَهُ وبَينَ التَّفَكُّرِ في العاقِبَةِ، والاستضاءَةِ بأَنْوارِ العِلْمِ.

فإِنْ قيلَ: فما تَقُولُ فيمَنْ لا يَرى إلا أَنّ طَبْعَهُ يُحِبُّ الرِّياءَ؟ فالجوابُ: أَنَّهُ لم يُكَلّفِ الإنسانُ مَحْوَ ما في طَبْعِهِ، إنّما كُلِّفَ مُخالَفَةَ ما في طِباعِهِ.

بيانُ

الرُّخصَةِ في قَصْدِ إِظْهَارِ الطَّاعَاتِ

اعلَمْ أَنَّ في إسْرارِ الأعْمالِ فَائِدَةَ الإخْلاصِ، والنَّجاةَ مِنَ الرِّياءِ، وفي الإظْهارِ فائدةَ الاقتداءِ، وتَرْغيبَ النَّاسِ في الخَيرِ، ولكنَّ فِيهِ آفَةَ الرِّيَاءِ.

والإظْهارُ قِسْمانِ: أحدُهما: في نفس العَمَلِ، والآخَرُ: بالتَّحَدُّثِ بالعَمَلِ.

فالقِسْمُ الأَوَّلُ: كإظْهارِ الصَّدَقَةِ في المَلأ لِترغيبِ النّاسِ فيها، كما رُوِيَ في الصحيحِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَثَّ على الصَّدَقَةِ، فجاءَ أنصاريٌّ بِصُرَّةٍ، فَتَتَابَعَ النّاسُ، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً في الإِسْلام حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بها بَعْدَهُ، مِنْ غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجورِهِمْ شَيءٌ»(١).

واعلمْ أَنَّ الأَعْمالَ مِنْها ما لا يُمْكِنُ إِسْرارُهُ، فالمُبادَرةُ إليهِ ليسَ مِنَ الإعلانِ، بلْ هوَ تَحريضٌ مُجرَّدٌ، كالحجِّ والجهادِ، فالأفضلُ البِدارُ إليهِ للتَّحريضِ(٢) لا للرِّياءِ، ومنها ما يُمكنُ إسرارُهُ، كالصّدقةِ والصّلاةِ، فإنْ كانَ إظهارُ الصَّدقةِ يُؤْذي المُتَصَدَّقَ عليهِ، لكنَّهُ يُرغِّبُ النّاسَ في الصَّدَقَةِ، فالسِّرُّ أفضلُ؛ لأنَّ الإيذاءَ حرامٌ، فإنْ لَمْ يكنْ فيهِ إيذاءٌ فقدِ اخْتَلَفَ النّاسُ في الأفْضَلِ، فقالَ قومٌ: السِّرُّ أَفْضَلُ مِنَ العلانِيَةِ، وإنْ كانَ فيها قُدوةٌ وقالَ قومٌ: السِّرُّ أَفْضَلُ مِنْ علانِيَةٍ لا قُدْوَةَ فيها، والعلانِيَةُ للقُدوَةِ أَفضلُ منَ السِّرِّ. وهذا هُوَ الصَّحيحُ لِمَكانِ فَضْلِ الاقتِداءِ، وإنّما

---

(١) أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧) (٦٩) [٤/ ٢٠٦٠]، والطيالسي (٦٧٠)، وابن أبي شيبة ٣/ ١٠٩ ـ ١١٠، والنسائي في المجتبى ٥/ ٧٥٨ وفي ا لكبرى (٢٣٣٥) وابن حبان (٣٣٠٨) والطبراني في الكبير (٢٣٧٢) والبيهقي في السنن ٤/ ١٧٥ وفي الشُّعَب (٣٣١٩) والبغوي في شرح السنة (١٦٦١)، عن جرير بن عبد الله البجلي.

(٢) في الأصل: (للتحريض إليه).

يُخافُ مِنَ الظُّهورِ الرِّياءُ، ومتى حَصَلتْ شائِبَةُ الرِّياءِ لم يَنْفَعْهُ اقتداءُ غيرِهِ، إلا أَنَّ على الذي يُظْهِرُ العملَ وظيفتان:

إحداهُما: أَنْ يُظْهِرَهُ حيثُ يَعْلَمُ أَنَّه يُقْتدى به، أو يَظنُّ ذلكَ ظنّاً، وإنَّما يَصِحُّ الإظْهارُ بِنِيَّةِ القُدْوَةِ مِمَّن هُوَ في مَحَلِّ القُدْوَةِ، على منْ هوَ في مَحَلِّ الاقتِداءِ بهِ.

والثّانيةُ: أنْ يُراقِبَ قلبَهُ، فإِنَّهُ رُبَّما يكونُ فيهِ حُبُّ الرّياءِ الخفيِّ، فَيَدْعُوهُ إلى الإظهارِ بحجَّةِ الاقتِداءِ، وإنّما شَهْوَتُهُ التَّجَمُّلُ بالعملِ، وبكونِهِ مُقْتَدىً بِهِ، وهذا حالُ كُلِّ مَنْ يُظْهِرُ أعمالَهُ، إلّا الأقوياء المخْلِصون، وقليلٌ ما هُمْ، فلا يَنبغي للضّعيفِ أَنْ يَخْدَعَ نَفْسَهُ بذلك، فَيَهْلِكَ وهُوَ لا يَشعُرُ، فإنَّ مِثالَ الضّعيفِ مثالُ الغريقِ الذي يُحْسِنُ سِباحةً ضعيفةً، فنظَرَ إلى جماعةٍ مِنَ الغرقى فَرَحِمَهُمْ، فأقْبَلَ عليهِمْ حتّى يَتَشَبَّثُوا به، فهلَكُوا وهَلَكَ، ويا ليتَ الرّياءَ كانَ كالغَرَقِ، فإنَّ أَلَمَ الغَرَقِ ساعةٌ، وعذابَ الرّياءِ دائمٌ مُدَّةً مَدِيدةً، وها هُنا مَزَلَّةُ أقدامِ العُبَّادِ والعُلماءِ، فإنّهمْ يَتَشَبَّهونَ بالأقوياءِ في الإظهارِ، ولا تَقْوَى قُلوبُهُمْ على الإخلاصِ، فَتَحْبَط أُجورُهُمْ بالرّياء.

والتَّفَطُّنُ لذلكَ غامِضٌ، ومَحَكُّ ذلكَ أَنْ يَعْرِضَ على نَفْسِهِ، أَنّهُ لو قيلَ لهُ: أَخْفِ العملَ حتّى يَقتديَ النّاسُ بعالِمٍ آخرَ مِنْ أقرانِكَ، ويكونَ لكَ في السِّرِّ مِثْلُ أجرِ الإعلانِ. فإنْ مالَ قلبُهُ إلى أَنْ يكونَ هوَ المقتدى به، وهوَ المُظْهِرَ للعملِ، فباعِثُهُ الرّياءُ دُون طَلَبِ الأجرِ؛ لأَنَّهُ إنّما يَميلُ إلى الإظهارِ لِقَصْدِ مُلاحَظةِ أَعيُنِ النّاسِ، فَلْيَحْذَرِ العبدُ خَدْعَ النَّفسِ، وفي الإظْهارِ أَخْطارٌ، والسَّلامةُ في الإخفاءِ.

القِسْمُ الثّاني: أَنْ يَتَحدَّثَ بما فَعَلَهُ بَعْدَ الفَراغِ، وحُكْمُهُ حُكْمُ إظهارِ نَفْسِ العملِ، والخطرُ في هذا أَشَدُّ لأنَّ مؤونَةَ النّطقِ خَفيفةٌ على اللّسانِ، وقدْ تجري في الحكايةِ زِيادَةٌ ومُبالغَةٌ، وللنَّفْسِ لَذَّةٌ في إظْهارِ الدَّعاوى عظيمةٌ، إلا أَنّه لَو تَطَرَّقَ إليه الرّياءُ، لم يُؤَثِّرْ في إفْسادِ العِبادَةِ الماضِيَةِ بَعْدَ الفَراغِ مِنها، فهوَ مِنْ هذا الوَجْهِ أَهْوَنُ، والحكمُ فيهِ: أَنَّ مَنْ قَوِيَ وتَمَّ إخْلاصُهُ، وصَغُرَ النّاسُ في عَيْنِهِ، واستَوى عِندَهُ مَدحُهُمْ وذَمُّهُمْ، وذَكَرَ ذَلِكَ عِنْدَ مَنْ يَرجُو الاقتداءَ بِهِ فجائِزٌ، بلْ مَندوبٌ إليه إنْ صَفَتِ النيّةُ وسَلِمَتْ؛ لأَنَّهُ ترغيبٌ في الخيرِ، والتَّرغيبُ في الخيرِ خيرٌ.

وقدْ نُقِلَ مِثْلُ هذا عَنْ جماعةٍ. فقالَ عمرُ: ما أُبالي أَصْبحتُ على يُسرٍ أو على عُسْرٍ؛ لأنّي لا أدري أَيُّهما خَيرٌ لي. وقال عثمانُ بنُ عفانٍ رضيَ الله عنه: ما تَغَنَّيْتُ ولا تَمَنَّيتُ، ولا مَسَسْتُ ذَكَري بيميني منذُ بايعتُ رسولَ اللهِ[١]. وقالَ ابنُ مسعودٍ: ما أَصْبحتُ على حالٍ فتمنّيتُ أَن أكونَ على حالٍ[٢] غيرِها. وقال شَدّادُ بنُ أَوسٍ: ما تكلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ منذُ أَسْلَمتُ إلّاَ وأنا أَزُمُّها وأَخْطِمُها[٣] غيرَ كِلْمَتي هذِهِ. وكانَ قد قالَ لغُلامِهِ: ائْتِنا بالسُّفْرَةِ نَعْبَث بها[٤]. وقالَ أبو سُفيانَ المُغيرةُ[٥] لأهلِهِ حينَ احْتُضِرَ: لا تبكُوا عَلَيَّ، فإنّي ما تَنَطَّفْتُ[٦] بخطيئَةٍ منذُ أَسْلَمْتُ.

وهذا كثيرٌ في كلامِ السَّلَفِ، وكُلُّهُ إظهارٌ لأحوالٍ شريفةٍ، وفيها غايَةُ المُراءَاةِ إذا صَدَرَتْ مِمّنْ يُرائي بها، وغايةُ التّرغيبِ إذا صَدَرَتْ مِمَّنْ يُقتدى به، فيَجُوزُ مِثْلُ هذا للأقوياءِ بالشّروطِ التي ذَكَرْناها.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٩٥٨) مطولاً عن أنس بن مالك في سياق قصة، وهو حديث موضوع، في إسناده صقر بن عبد الرحمن، كذاب، وقال ابن حجر في المطالب العالية (٣٨٤٢): هذا حديث موضوع فيه كلام.

(٢) سقطت من (ف).

(٣) أزمُّها وأخطمها: أي أضع لها زماماً وخطاماً كي لا تخرج، وإن خرجت تكون مضبوطة محكمة كالدابة عليها الزمام والخطام.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٢٦٥.

(٥) في الأصل و(ف): (أبو سفيان بن المغيرة)، وهو خطأ، فهو أبو سفيان المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ، توفي سنة (٢٠)هـ. السير ١/ ٢٠٢.

(٦) تحرفت في (ف) إلى: (ما نطقت). وقوله: (ما تَنَطَّفتُ) أي: ما تَلَطَّختُ ولا تنجَّستُ ولا اتُّهِمتُ بخطيئة.

بيانُ

الرُّخصَةِ في كِتْمانِ الذُّنُوبِ وكراهَةِ اطِّلاعِ النّاسِ على المُذْنِبِ، وكراهَةِ ذَمِّهِمْ له

رُبّما ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ كِتْمانَ الخطايا رِياءٌ، وليسَ كذلكَ، إنّما المحظورُ أَنْ يَسْتُرَ الإنسانُ الخطايا لِيُرى أنّه وَرِعٌ، وأنّهُ خائِفٌ مِنَ اللهِ، وهوَ ليسَ كذلك.

فأمّا الصَّادقُ الذي لا يُرائي فلَه سَتْرُ المَعاصي، ويَصِحُّ قَصْدُهُ في ذلك، واغْتِمامُهُ باطِّلاعِ النّاسِ عَليهِ مِنْ أَوجُهٍ:

الأوّلُ: أَنْ يَفْرَحَ بسترِ الله تعالى عَليه، وإذا افْتُضِحَ اغْتَمَّ بِهَتْكِ اللهِ سِتْرَهُ، وخافَ أَنْ يَهْتِكَ سِتْرَهُ في القِيامةِ، فهذا غَمٌّ يَنْشَأُ مِنْ قُوَّةِ الإيمانِ.

الثاني: أنّه قد عَلِمَ أَنَّ اللهَ تعالى يَكرَهُ ظُهورَ المَعاصي، ويُحِبُّ سترها، كما قالَ ﷺ: «مَنِ ارْتَكَبَ شيئاً مِنْ هذِهِ القاذُوراتِ فلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ»[1].

فهذا وإنْ عَصى بالذَّنبِ فلمْ يَخلُ قلبُهُ عن مَحبَّةِ ما أَحَبَّه اللهُ، وهذا يَنْشَأُ مِنْ قُوَّةِ الإيمانِ بكَراهةِ اللهِ ظُهورَ المَعاصي، وأَثَرُ الصِّدقِ فيهِ أَنْ يَكرَهَ ظُهورَ الذَّنبِ مِنْ غَيرهِ أيضاً، ويَغْتَمَّ به.

الثالث: أَنْ يَكْرَهَ ذَمَّ النَّاسِ له به، مِنْ حيثُ أَنَّ ذلكَ يَغُمُّهُ، ويَشْغَلُ قَلْبَهُ وعَقْلَه عنْ طاعةِ الله تعالى، فإنَّ الطَّبعَ يَتأَثَّرُ بالذَّمِّ، وبهذِهِ العِلّةِ أيضاً يَنبغي أَنْ يَكْرَهَ الحَمْدَ الذي يَشْغَلُهُ عنِ اللهِ تعالى، ويَسْتَغْرِقُ قَلْبَهُ، ويَصْرِفُهُ عنِ الذِّكْرِ، وهذا أيضاً مِنْ قُوَّةِ الإيمانِ، إذْ صِدْقُ الرّغْبَةِ في فَراغِ القلبِ لأَجْلِ الطّاعةِ مِنَ الإيمانِ.

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٩١)، والحاكم ٤/ ٢٤٤ و٣٨٣، و البيهقي في السنن ٨/ ٣٣٠ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

فإنْ قيل: فهل يَجُوزُ للإنسانِ أَنْ يُحِبَّ حَمْدَ النّاسِ لهُ بالصَّلاحِ وحُبَّهُمْ إيّاهُ بسَبَبِهِ؟ وقد قالَ رَجُلٌ للنّبيّ ﷺ: دُلَّني على عَمَلٍ يُحِبُّني الله عليهِ، ويُحِبُّني النّاسُ. فقالﷺ: «ازْهَدْ في الدُّنيا يُحبَّكَ اللهُ، وانبِذْ إليهِمْ هذا الحُطَامَ يُحِبُّوكَ»[١]؟

فالجوابُ: إنَّ مَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ لِيُعرَفَ بهِ حُبُّ اللهِ لهُ فهذا مَحْمُودٌ[٢]؛ لأَنّهُ إذَا أَحَبَّهُ حَبَّبَهُ إلى عِبَادِهِ، ومَنْ أَحَبَّ ذلِكَ على طاعَةٍ بِعَيْنِها فقدْ طَلَبَ العِوَضَ عنها[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ١١، والطبراني في الكبير ٦/ ٥٩٧٢)، وابن عدي في الكامل ٣/ ٤٥٨، والحاكم ٤/ ٣١٣، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ١٣٦، وفي أخبار أصفهان ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، والقُضاعي في مسند الشهاب (٦٤٣)، والبيهقي في الشُّعَب (١٠٥٢٢)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٣٥٢) من طريق خالد ابن عمرو، عن الثوري، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً.

(٢) ورد هنا في هامش (ف) حاشية نصها: (فالأولى محمودة، والثانية مذمومة، إذ لم يقنع بثواب الله، بقي حالة ثالثة مباحة، أن تحب أن يحبوك بصفات محمودة سوى الطاعات، وذلك كحُبِّ المال، لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك المال، فلا فرق).

(٣) جاء في (ف) بعد هذا زيادة، ولعلها من الناسخ، ونصها: (رواه ابن ماجه وغيره عن سهل ابن سعد الساعدي قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عملٍ إذا أنا عملتُه أحبني الله وأحبني الناس. فقال ﷺ: (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّوك). لفظ ابن ماجه. قال الترمذي حديث حسن.

هكذا ورد في متن (ف): (الترمذي) وشطب الناسخ عليها، فالحديث ليس عند الترمذي، وورد في الهامش كلمة لعلها: (النووي) فقد أورده النووي في رياض الصالحين (٤٧٢) وحسَّنه.

بيانُ

تَرْكِ الطَّاعاتِ خَوفاً مِنَ الرِّياءِ والآفاتِ

اعلمْ أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتْرُكُ العَمَلَ خَوْفاً مِنْ أَنْ يكونَ مُرائِياً به، وذَلِكَ غَلَطٌ، ومُوافَقَةٌ لِلشَّيطانِ، إلّا أَنَّا نُفَصِّلُ فَنقُولُ:

الطَّاعاتُ تَنْقَسِمُ إلى:

١ ـ ما لا لَذَّةَ في عَيْنِهِ، كالصَّلاةِ، والصَّومِ، والحَجِّ، والغزْوِ، فَإنّها مُجاهَداتٌ، وإنّما تَصِيرُ لَذيذَةً مِنْ حَيثُ إنّها تُوصِلُ إلى حَمْدِ النّاسِ، وحَمْدُ النّاسِ لَذيذٌ.

٢ ـ وإلى ما هُوَ لَذيذٌ، كالخِلافَةِ، والقَضاءِ، والوِلاياتِ، (١وإمامةِ الصّلاةِ١)، والتَّذْكيرِ، والتَّدْريسِ، وإنْفاقِ المالِ على الخَلْقِ، وغَير ذلكَ مِمَّا تَعْظُمُ الآفَةُ فيهِ لِتَعَلُّقِهِ بالخَلْقِ، ولِمَا فِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ.

فأمّا القِسْمُ الأَوَّلُ: وهوَ الطَّاعاتُ اللازِمَةُ لِلْبَدَنِ، التي لا تَتَعلَّقُ بِالْغَيرِ، ولا لَذَّةَ في عَيْنِها، كالصَّلاةِ، والصَّومِ، فَخَطَراتُ الرِّياءِ فيها ثلاثٌ:

إحْداهُنَّ: ما يَدْخُلُ قبلَ العَمَلِ، فَيَبْعَثُ على الابْتِداءِ لِرُؤْيَةِ النّاسِ، ولَيسَ مَعَهُ باعِثُ الدِّينِ، فهذا يَنْبَغي أَنْ يُتْرَكَ؛ لأَنَّهُ مَعْصِيَةٌ لا طاعةَ فيه؛ لأَنّهُ تَشَبُّثٌ[٢] بِصُورَةِ الطَّاعَةِ إلى طَلَبِ المَنْزِلَةِ.

الثّانيةُ: أَنْ يَنْبَعِثَ لأَجْلِ اللهِ، ولكنْ يَعْتَرِضُ الرّياءُ معَ عَقْدِ العِبادَةِ أَوَّلِها، فلا يَنْبَغي أَنْ يَتْرُكَ العَملَ؛ لأَنَّهُ وَجَدَ باعِثاً دِينيّاً، فَلْيَشْرَعْ في العَمَلِ، ولْيُجاهِدْ نَفْسَهُ في دَفْعِ الرِّياءِ، وتَحْصيلِ الإخْلاصِ بالمُعالَجَةِ التي ذَكرناها، مِنْ إلْزامِ النّفْسِ كراهةَ الرّياءِ، والإباءَ عنِ القَبُولِ.

(١ـ١) سقط من (ف).

(٢) تحرفت في الأصل إلى: (بسبب).

الثّالثةُ: أَنْ يَتْرُكَ العَملَ خَوفاً مِنْ أَنْ يُقالَ: هوَ مُراءٍ، وذلكَ مِنْ مَكائِدِ الشَّيطانِ. قالَ إبراهيمُ النَّخَعِيُّ: إذا أتاكَ الشَّيطانُ وأنتَ في صَلاةٍ، فقالَ: إنّكَ تُرائي. فَزِدْها طُولاً.

فإنْ قيلَ: فقد رُويَ عن جَماعةٍ مِنَ السّلَفِ أَنّهم تَركُوا العِبادَةَ خَوفاً من الرِّياءِ، فَنُقِلَ عَنْ إبراهيمَ النّخَعيّ[1] أنّ إنساناً دَخَلَ عَليه، فَأَطْبَقَ المُصْحَفَ، وتَرَكَ القِرَاءَةَ، وقالَ: لا يَرى هذا أَنّي أَقْرَأُ كُلَّ ساعَةٍ[2]. وكانَ بَعضُهُم يَأتيهِ البُكاءُ فَيَصْرِفُهُ إلى الضّحِكِ مَخافَةَ الشُّهْرَةِ.

فالجوابُ: أَنّا قدْ رَوَيْنا عَنْهُمْ كثيراً مِنْ إظْهارِهِمُ الطّاعاتِ، فَيُحْمَلُ هذا المُضادُّ لذلِكَ على أَنّهم أَحَسُّوا من نُفُوسِهِمْ بِنَوعِ تَزَيُّنٍ فَقَطَعُوا.

وأَمّا القِسْمُ الثّاني: وهوَ ما يَتَعَلَّقُ بالخَلْقِ، وتَعْظُمُ فيهِ الآفاتُ والأَخطارُ، فأعْظَمُها الخِلافَةُ، فإنّها مِنْ أَعْظَم العبادات، وفي الصّحيحين: أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ...» فَذَكَرَ مِنْهُمْ الإمامَ العادلَ[3].

إلّاَ أَنَّ السَّلَفَ ما زالُوا يَهْرُبُونَ[4] مِنَ الإمارَةِ لِمَا فيها مِنَ الخَطَرِ، وذلِكَ أَنّها تُوجِبُ الجاهَ، وتُحَصِّلُ لَذَّةَ الاسْتيلاءِ، ونَفاذَ الأَمْرِ، وهوَ أَعْظَمُ مَلاذِّ الدُّنيا، والأَغْلَبُ على صاحِبِها مُوافَقَةُ هَواهُ، ولِذَلكَ قالَ ﷺ لعبدِ الرّحمنِ بنِ سَمُرَةَ: يا عبدَ الرّحمنِ، لا تَسْأَلِ الإمَارَةَ[5].

فالأقوِياءُ لا تَضُرُّهُمُ الوِلاياتُ[6]، والضُّعفَاءُ تُؤْذيهمْ، ولِذلكَ تَوَلّاها أبو بكرٍ

---

(١) سقطت من (ف).

(٢) حلية الأولياء ٤/ ٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة.

(٤) في (ف): (يرهبون).

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(٦) في (ف): (الولاية).

الصِّدّيقُ رضي الله عنه، وقالَ لِرَجُلٍ(١): لا تَأَمَّرَنَّ على اثْنينِ(٢). والقضاءُ إمارَةٌ، فهوَ كالخِلافَةِ، ومَنْ لَمْ يَتمكَّنْ مِنَ القضاءِ بالحَقِّ ثُمَّ كَرِهَ العَزْلَ فقدْ كانَ خادِماً لِهَواهُ.

وأمّا الفَتوى والتَّدْريسُ والوَعْظُ وروايَةُ الحَديثِ فآفَتُهُ عَظِيمَةٌ كآفَةِ الولاياتِ، وقد كانَ الخائِفونَ مِنَ السَّلَفِ يَتَدافَعونَ الفَتوى، والواعِظُ يَجِدُ لِقَبولِ كلامِهِ وصِيَاحِ النّاسِ (٣في مجلِسِهِ٣) لَذّةً شَديدَةً، فلا يُؤْمَنُ لِذلِكَ أَنْ يَميلَ إلى زُخْرُفٍ مِنَ الكلامِ باطِلٍ، ليَنالَ به مَقْصُودَهُ مِنْ تَحريكِ القُلُوبِ، لِيُعَظَّمَ بِهِ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَهُمْ، وعلامَةُ هذا أَنّهُ يَفْرَحُ إذا سَمِعَ شيئاً يَصْلُحُ لِلْمِنبرِ، ولَوْ كانَ مُحِقّاً لَفَرِحَ به لأجْلِ صَلاحِهِ لِطَريقِ السَّعادَةِ.

فإنْ قيلَ: فهذا القَولُ يُوجِبُ تَعْطيلَ القضاءِ والفَتْوى والتَّذْكيرَ.

قلنا: ليسَ كذلِكَ، فإنّ حُبَّ الرِّئاسَةِ لا يَتْرُكُ ذلكَ يَنْدَرِسُ، على أَنّا لا نُذُمُّ العلومَ، إنَّما نَذُمُّ سُوءَ القَصْدِ بها، وعَلامةَ الصَّحيحِ القَصْدِ أَنّهُ لَوْ ظَهَرَ أعلَمُ مِنْهُ لَمْ يَحْسُدْهُ، لكنْ لا بأسَ بالغِبْطَةِ، فإذا رَأيتَ العُلماءَ يَتَحاسَدُونَ ويَتَغايَرونَ، فمُرادُهُمُ الدُّنيا لا الآخِرَةَ.

---

(١) هو رافع بن عمرو الطائي أبو الحسن السنبسي، صحابي من العارفين بمفاوز الصحراء، توفي آخر خلافة عمر. الإصابة ٢/ ٤٤٠.

(٢) الأثر أخرجه ابن حجر في الإصابة ٢/ ٤٤٠، وصحَّ مرفوعاً من حديث أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال له: (يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تَولينَّ مالَ يتيم). أخرجه أحمد (٢١٥٦٣)، ومسلم (١٨٢٦)، وأبو داود (٢٨٦٨)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢٥٥، وفي الكبرى (٦٤٦١) وابن حبان (٥٥٦٤).

(٣-٣) سقط من (ف).

بَيَانُ

ما يَصِحُّ مِنْ نَشاطِ العَبْدِ لِلْعِبادَةِ بِسَبَبِ رُؤْيَةِ الخَلْقِ ومَا لا يَصِحُّ

قدْ يَبِيْتُ الرَّجُلُ معَ المُتَهَجِّدِينَ، فَيُصَلُّونَ أَكْثَرَ اللَّيْلِ، وعادَتُهُ قِيامُ ساعةٍ قَرِيبَةٍ، فَيُوافِقُهُمْ، أَوْ يَصُومُونَ فَيَصُومُ، ولَولاهم ما انْبَعَثَ هذا النَّشاطُ، فرُبَّما ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ هذا رَياءٌ، وليسَ كذلكَ على الإطْلاقِ، بلْ فيهِ تَفْصيلٌ؛ وهوَ أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ يَرْغَبُ في عِبادَةِ اللهِ تعالى، ولكنْ تَعُوْقُهُ العَوائِقُ، وتَسْتَهْوِيهِ الغَفْلَةُ، فَرُبَّما كانتْ مُشاهَدَةُ الغَيرِ سَبَباً في زَوالِ الغَفْلَةِ وانْدفاعِ العَوائِقِ، فإنَّ الإنسان إذا كانَ في مَنْزِلِهِ تَمَكَّنَ من النَّومِ على فِراشٍ وَثيرٍ[1]، وتَمَتَّعَ بِزَوْجَتِهِ، فإذا باتَ في مَكانٍ غَريبٍ انْدَفَعَتْ هذِهِ الشَّوَاغِلُ، وحَصَلَتْ لَهُ أَسبابٌ تَبْعَثُ على الخيرِ، منها مُشاهَدَةُ العابِدِين، وهِيَ مُوجِبَةٌ لِتَحَرُّكِ دَاعِيَةِ الدِّينِ، ورُبَّما صَعُبَ عليهِ النَّومُ لِتَغَيُّرِ مَكانِه، فاغْتَنَمَ زَوالَ النَّومِ، وقدْ يَعْسُرُ عَليهِ الصَّومُ في مَنْزِلِهِ لِكَثْرَةِ المَطاعِمِ الشَّهِيَّةِ في مَنْزِلِهِ، فإذا لم يَجِدْها في غَيْرِهِ لَمْ يَشُقَّ عَلَيْهِ الصَّومُ، وفي مِثْلِ هَذِهِ الأَحوالِ يَنْتَدِبُ الشَّيطانُ لِلصَّدِ عَنِ الطَّاعَةِ، ويَقولُ: إنْ عَمِلْتَ كُنْتَ مُرائِياً، لأَنَّها لَيْسَتْ بِعَادَتِكَ. فلا يَنْبَغي لَهُ أَنْ يَلْتَفِتَ إليهِ.

وكذا إذا قالَ لَهُ: تَعَبَّدْ لِكَيْلا يرمُوكَ بالكَسَلِ.

وإنّما يَنْبَغي أَنْ يَنْظُرَ إلى قَصْدِهِ الباطِنِ، ولا يَلْتَفِتَ إلى وَسَاوِسِ الشَّيطانِ، ويَبْلُو[2] أَمْرَهُ، بِأَنْ يُمَاثِلَ القَوْمَ في مَكانٍ يَراهُمْ فِيهِ وهُمْ لا يَرَوْنَهُ، فإنْ رَأَى نَفْسَهُ تَسْخُو بالتَّعَبُّدِ فَذاكَ للهِ، وإِنْ لَمْ تَسْخُ كانَ سَخاؤُها عِنْدَهُم رِياءً، وكذلِك قدْ يُوجِبُ

---

(١) ورد في هامش (ف) ما نصه: (مختصر العين، حاشية: الوثير الوطيء، وقد وَثُرَ وثارةً).

(٢) يبلو: يختبر ويمتحن.

بُكاءُ النّاسِ عِنْدَ التَّذْكِرَةِ بُكاءَ مَنْ لَوْلا بُكَاؤُهُم ما بَكى، واخْتِبارُ هذا بالعَلامَةِ التي ذَكَرْنَاهَا، وهي أَنَّهُ يُمَثِّلُ نَفْسَهُ في مَكانٍ لا يَرَونَهُ، فإنْ كانَ البُكاءُ يَهِيْجُ حِينَئِذٍ لأَجْلِ بُكائِهِمْ فهُوَ للهِ، وإنْ لَمْ يَهِجْ إلا عِنْدَهُمْ فَهُوَ رِياءٌ، وقِسْ على هذا مَا لَمْ نَذْكُرْهُ مِنَ الأَنِينِ والقَلَقِ.

وقدْ يَقَعُ في الأَنِينِ الّذي يُوجِبُهُ الخوفُ نَوعٌ مِنَ الرّياءِ، وهوَ تَطويلُ مَدِّهِ، وفي الدَّمْعَةِ حِفْظُها على الخَدِّ حتى تُرى، وقدْ يُصْعَقُ صَعْقَةً صَحِيحَةً، ثُمَّ تَزُولُ سَرِيعاً، فَيَسْتَدِيمُ إظْهارَ الضَّعْفِ والأَنِينِ، وَيتَّكِئُ[1] على غَيرِهِ، يُري أَنَّهُ يَضْعُفُ عَنِ القِيامِ، ويَتَمَايَلُ في المَشْيِ، ويُقَرِّبُ الخُطا، فهذِهِ كُلُّها مَكائِدُ مِنَ الشَّيْطان، فإذا خَطَرَتْ فَعِلاجُها أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنَّ النّاسَ لو عَرَفُوا نِفَاقَهُ في الباطِنِ واطَّلَعُوا على ضَمِيرِهِ لَمَقَتُوهُ، وأَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ضَمِيرِهِ، وهُوَ لَهُ أَشَدُّ مَقْتاً.

وقد كانَ مِنْ دُعاءِ عليِّ بنِ الحُسَينِ رضي الله عنهما: اللَّهمَّ إنّي أعوذُ بكَ مِنْ أَنْ تَحْسُنَ في لامِعَةِ العُيُونِ عَلانيَتي، وتَقْبُحَ لكَ فِيما أَخْلُو بهِ سَريرتي[2].

وهذهِ جُمَلُ آفاتِ الرِّياءِ، فكُنْ بَحّاثاً عنها، وتَفَقَّدْ نِيَّتَكَ، فإنّ الرِّياءَ أَخفى مِنْ دَبيبِ النَّمْلِ، حتّى إنَّهُ رُبَّما خفيَ رِياءُ النَّفْسِ على النَّفْسِ.

---

(١) في النسخ: (يبكي) وهو تصحيف، والمثبت من الإحياء.
(٢) حلية الأولياء ٣/ ١٣٤.

بيانُ

ما يَنبغي للمُريدِ أَنْ يُلْزِمَ نَفْسَهُ قَبْلَ العَمَلِ وبَعْدَهُ وفيهِ

أَولى ما أَلْزَمَ المُريدُ قَلْبَهُ القَناعَةَ بعِلْمِ اللهِ في جَميعِ طاعاتِهِ، وإنّما يَقْنَعُ بِذَلِكَ مَنْ خافَ اللهَ ورَجاهُ، فأَمَّا مَنْ خَافَ غَيرَهُ وارْتَجاهُ فإِنَّهُ يَشْتهِي اطِّلاعَهُ على مَحاسِنِ أحوالِهِ، فلْيَحْذَرْ مَنْ يَجِدُ ذَلِكَ مِنْ مَقْتِ اللهِ، وَلْيُراقِبْ نَفْسَهُ عِندَ الطَّاعاتِ الشَّاقَّةِ، فإِنَّ النَّفْسَ حِينَئِذٍ تَكادُ تَغْلي حِرْصاً على الإفْشاءِ، وتَقولُ: مِثْلُ هذا العِلْمِ العظيمِ والتَّعبُّدِ الكَثيرِ لَو عَرَفَهُ النَّاسُ لَسَجَدُوا لكَ، فكيفَ تُخْفِيهِ، فيُجْهَلُ مَحَلُّكَ؟!

فَلْيُجبْها، وَلْيَقُلْ: وكيفَ أَبيعُ هذا العَمَلَ بِحَمْدِ الخَلْقِ، وهُم عاجِزُونَ عَنْ نَفْعي وضَرِّي؟!

ولا يَنْبَغي أَنْ يُؤْيِسَ نَفْسَهُ مِنَ الإخْلاصِ، بأَنْ يَقولَ: إنَّما يَقْدِرُ على الإخْلاصِ الأقوياءُ، وأَنَا مِنَ المُخَلِّطين. فَيَتْرُكُ لذَلكَ المُجاهَدَةَ في تَحصيلِ الإخْلاصِ، لأَنَّ المُخَلِّطَ إلى ذَلِكَ أَحْوجُ مِنَ المُتَّقي؛ لأَنَّ المُتَّقي إنْ فَسدتْ نَوافِلُه بَقِيتْ فرائِضُه كامِلةً، والمُخَلِّطُ لا تَخْلُو فرائِضُه عنْ نقصانٍ وحاجةٍ إلى جُبرانٍ بالنّوافِلِ، وقد رَوى أبو هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قالَ: «إنَّ أَوَّلَ ما يُحاسَبُ بِهِ العَبْدُ يومَ القِيامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ، فإنْ صَلَحَتْ فقدْ أَفْلَحَ وأَنْجحَ، وإنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خابَ وخَسِرَ، فإنِ انْتَقَصَ مِنْ فريضَتِهِ شيئاً قالَ الرَّبُّ تباركَ وتعالى: انْظُرُوا، هلْ لِعَبْدي مِنْ تَطوُّعٍ؟ فَيُكَمَّل بِهِ ما انْتَقَصَ مِنَ الفَريضَة، ثُمَّ يكونُ سائِرُ عَمَلِهِ على ذلكَ»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٠٢) و(٩٤٩٤)، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٣٣ ـ ٣٥، وأبو داود (٨٦٤) و (٨٦٥)، والترمذي (٤١٣)، والنسائي في المجتبى ١/ ٢٣٢، وفي الكبرى (٣٢٢)، وابن ماجه (١٤٢٥) و(١٤٢٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٥٥٣)، والدارقطني في العلل ٨/ ٢٤٨.

ويَنْبَغي لِلإنسانِ الخوفُ مِنَ الرِّياءِ الخفيِّ أَنْ يَدخُلَ عليهِ ولا يَعْلَمُ، وأَنْ يَكتُمَ عَمَلَهُ بعدَ الفراغِ منهُ، ويَنْبَغي لِلْمُتَقرِّبِ إلى اللهِ تعالى بتعليمِ العِلْمِ أَنْ لا يأْخُذَ على ذلكَ أجراً، لِيَصحَّ قَصْدُه ـ كما ذكرناهُ في كِتابِ العِلْمِ[١] مِنْ أخلاقِ العُلماءِ ـ في ذلكَ.

ويَنْبغي لِلزّاهِدِ المُعتزِلِ عنِ النّاسِ أَنْ لا يَخطُرَ بقلْبِهِ مَعرِفَةُ النّاسِ زُهْدَهُ واستعظامُهُم مَحَلَّهُ، فإنَّ ذلِكَ يَغْرِسُ الرِّياءَ في صَدْرِهِ، فَتَتَيَسَّرُ عليهِ العِباداتُ في خَلْوَتِهِ، وإنّما يُسَهِّلُها مَعْرِفَتُهُ بأَنَّ النّاسَ يَعْلَمُونَ اعْتِزالَهُ.

قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ: تَعَلَّمْتُ المَعرِفَةَ مِنْ راهبٍ يُقالُ له: سَمْعَانُ، دَخَلْتُ عليهِ صَومَعَتَهُ، فقلتُ لهُ: مُنْذُ كَمْ أَنْتَ في صَوْمَعَتِكَ هذِهِ؟ قال: مُنْذُ سبعينَ سنةً، قُلتُ: ما طعامُكَ؟ قال: يا حَنِيفيُّ، وما دَعاكَ إلى هذا؟ قلتُ: أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ. قال: في كُلِّ لَيلَةٍ حِمِّصَةٌ. قُلْتُ: فما الّذي يَهِيجُ مِنْ قَلْبِكَ حتّى تَكْفِيكَ هذهِ الحِمِّصَةُ؟ قال: ترى الدَّيرَ بحِذائِكَ؟ قلتُ: نعم. قال: إنَّهم يَأْتُوني في كُلِّ سَنةٍ يوماً واحداً، فيُزَيِّنُون صَوْمَعَتي، ويَطُوفُونَ حولَها، ويُعَظِّموني بذلِكَ، فَكُلَّما تَثاقَلَتْ نَفْسي عَنِ العِبادَةِ ذَكَّرْتُها عِزَّ تِلْكَ السَّاعَةِ، فأَنَا أَحْتَمِلُ جُهْدَ سَنَةٍ لِعِزِّ سَاعَةٍ، فاحْتَمِلْ يا حَنِيفيُّ جُهْدَ ساعةٍ لِعِزِّ الأَبَدِ. فَوَقَّرَ في قلْبيَ المَعْرِفَةَ فقالَ: أَزِيْدُكَ؟ فقلتُ: نعم. قالَ: انزِلْ عنِ الصَّومَعَةِ. فَنَزَلْتُ، فأدلى إليَّ رَكْوَةً[٢] فيها عِشرونَ حِمِّصَةً، فقالَ لي: ادخُلِ الدَّيْرَ، فقد رَأوا ما أَدْلَيتُ إلَيكَ. فلما دخلتُ الدَّيرَ اجتمعت النَّصارى، فقالوا: يا حَنيفي، ما الذي أدلى إليك الشَّيخُ؟ قلتُ: مِنْ قُوْتِهِ. قالوا: وما تَصْنَعُ به؟ نحنُ أَحقُّ بِهِ. قالوا: ساوِمْ. قلتُ: عِشرينَ ديناراً. فأَعْطوْنِي عِشرينَ دِيناراً، فَرَجَعْتُ إلى الشَّيخِ، فقالَ: [٣]يا حَنيفيُّ، ما الّذي صَنَعْتَ؟ قلتُ: بِعتُهُ مِنْهُم. قالَ: بكم؟ قلتُ: بعشرين ديناراً[٣]. قالَ: أَخطأْتَ، لو ساوَمْتَهُم عِشرينَ أَلفاً لأعْطوكَ، هذا عِزُّ مَنْ لا يَعْبُدُهُ، فانظرْ كيفَ يَكُونُ عِزُّ من يَعْبُدُه؟ يا حَنِيفيُّ، أَقْبِلْ على رَبِّكَ، [٤]ودَعِ الذَّهابَ والجِيْئَةَ[٤].

---

(١) تحرفت في (ف) إلى (العمل).

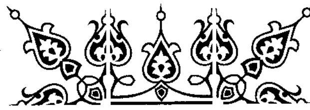
(٢) الرَّكوة: إناء صغير من الجلد يُشرب فيه الماء.

(٣ـ٣) زيادة من الإحياء والحلية.

(٤ـ٤) زيادة من الإحياء والحلية. والقصة أوردها أبو نعيم في الحلية ٨/٢٩.

فقدْ بانَ بهذا أَنَّ اسْتِشْعارَ النُّفوس عِزَّ العَظَمَةِ في القُلوب يَكونُ باعِثاً في الخَلْوَةِ، وقدْ لا يَشْعُرُ الإنسانُ مِن نَفْسِهِ بهذِهِ الآفَةِ، وعَلامَةُ سَلامَتِهِ مِنْها أَنْ يَكونَ الخَلْقُ عِنْدَهُ والبَهائِمُ بِمَثابةٍ[١]، ويَكُونَ عَمَلُهُ عَمَلَ مَنْ لَيسَ على الأرضِ غَيرُهُ، فإذا خَطَرَتْ خَطَراتٌ ضَعِيفةٌ مِنَ الالْتِفاتِ إلى الخَلْقِ سَهُلَ رَدُّها، ومِنَ المعْلُومِ أَنَّ زِيادَةَ الإقْبالِ على الغَنِيِّ لا على الفَقيرِ مَحْضُ حُبٍّ لِلدُّنيا، إلّا أَنْ يكونَ في الغَنِيِّ مَعْنىً يَزيدُ به على الفَقير، فإن وُجِدَ ذلِكَ المعنى في الفَقيرِ فالفَقيرُ أَحَقُّ بالإكرامِ، ولمَّا كانَ مَقْصُودُ سُفيانَ الثَّوريِّ صحيحاً كانَ الأَغْنِياءُ أَذَلَّ النَّاسِ في مَجْلِسِهِ[٢].

آخرُ كتابِ ذَمِّ الجاهِ والرِّياء.



(١) أي: بمثابةٍ واحدة.

(٢) في (ف): (الدنيا).

كتابُ
ذَمِّ الكِبْر والعُجب

الحمدُ لله المُتعالي في عِزَّتِه عن شَبيه، المُتقدِّس في عَظَمته عن تشبيه، الكبرياءُ رداؤُه ومُنازعُه سَفيه، ذَمَّ المتعظِّم ـ وقد خلق ذليلاً ـ بما ليس فيه ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾[1] [غافر: ٥٦] أحمَدُه على إنعامٍ لا أُحصيه، وأشهدُ أنه لا مثل يُوازيه، ولا نِدَّ يُناويه، وأصلِّي على رسولِه محمدٍ وآلِهِ وتابعيه، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد؛ فقد رَوى مسلمٌ في أَفراده من حديث الأَغَرِّ عن أبي هُريرة وأبي سَعيد أنهما قالا: قالَ رسول الله ﷺ: «يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: العِزُّ إزاري، والكِبرياء رِدائي، فَمن نازَعني شيئاً منهما عَذَّبتُه»[2].

قال أبو سليمان الخَطابي: ومعنى هذا الكلام أنَّ الكِبرياء والعَظَمةَ صفتان لله اختصَّ بهما لا يَشْركُه فيهما أحد، ولا ينبغي لمخلوقٍ أن يتعاطاهُما؛ لأن صفةَ المخلوق التَّواضُعُ والتَّذلل، وضربَ الرِّداءَ والإزارَمثلاً، يَقول ـ واللهُ أعلم ـ : كما لا يَشْرَكُ الإنسانَ في ردائه وإزاره أحدٌ، فكذلك لا يَشرَكُني في الكبرياء والعظمة مخلوق.

وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ مُهلكاتٌ: شُحٌّ مُطاع، وهَوىً مُتَّبع، وإعجابُ المرءِ بنَفسِه».

---

(١) في الأصل: (قلوبهم)، وهو خطأ، والمثبت نص الآية.
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٠).

فالكِبرْ والعُجْب داءان مُهلكان والمتكبر والمُعْجَبُ سَقيمان بمرضهما، ممقوتان عند خالقهما.

ونحن نَقسم هذا الكتاب شطرين؛ شطر في الكِبر، وشَطر في العُجْب، نستقصي فيهما بيانهما والله الموفق.

الشَّطْر الأول من الكتاب

وفيه بيانُ ذَمِّ الكِبْر، وبيانُ ذَمِّ الاخْتيال، وبيانُ فَضيلةِ التَّواضع، وبيانُ حَقيقة الكِبْر وآفته، وبيان من يتكبر عليه، ودَرجاتُ الكِبر، وبيان ما بِه التكبُّر، وبيانُ البَواعث على التكبر، وبيانُ أخلاقِ المتواضعين، وما يَظهر فيه الكِبر، وبيانُ امتحان النَّفس في خلق الكبر، وبَيان المحمود من خُلُق التَّواضع والمذموم منه.

بيانُ

ذَمِّ الكِبْر

قد ذمّ اللهُ تعالى الكِبرَ في مواضع من كتابه، وذم كل جَبارٍ مُتكبر، فقال عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ [إبراهيم: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقال: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

أنبأنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو الجَوَّاب، قال: حدثنا عَمّار بن رُزَيق عن عَطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه كانَ يتعوَّذُ من الشَّيطان من هَمْزِهِ ونَفْثِهِ ونَفْخِهِ. قال: وهَمْزه: المُوتَةُ، ونَفْثُه: الشِّعر، ونَفخُه: الكِبرياء[1].

أخبرنا محمد بن عُمر الأرموي وأحمد بن ظَفر المغازلي قالا: أخبرنا عبد الصمد بن المأمون قال: أخبرنا علي بن عمر الدارقُطني قال: حدثنا أبو محمد بن صاعد قال: حدثنا أحمد بن مَنيع قال: حدثنا مروان بن شُجاع قال: حدثنا إبراهيم ابن أبي عَبْلة عن أبي سلمة قال: التَقى عبدُ الله بن عمرو وابنُ عُمَر على المَروة، فنزلا فتحدَّثا، ثم مَضى عبدُ الله بن عمرو وقعد ابنُ عُمر يبكي، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: هذا - يعني عبد الله بن عمرو - زعم أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول:

(١) أخرجه أحمد (٣٨٢٨)، وأبو يعلى (٥٣٨٠) والبيهقي في السنن ٢/ ٣٦.

«مَنْ كانَ في قَلبه مِثْقال حَبَّة من خَرْدلٍ من كِبْر كَبَّهُ الله عَزَّ وجلَّ في النار على وَجْهه».

قال الدارقطني: وأنبأنا محمد بن القاسم بن زكريا قال: أخبرنا أبو كُرَيب قال: حدثنا أبو مُعاوية عن عمر بن راشد عن إياس بن سَلمة عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَزالُ الرجل يَذهبُ بنَفسه حتى يُكتب من الجَبّارين حتى يُصيبه ما أصابهم».

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: «لا يَدخُل الجنَّةَ مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر».

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قالت النّار: أُوثرت بالمتكبّرين والمتَجبِّرين».

وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وَهب عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أُخبركم بأهل النار؛ كل جَوَّاظٍ جَعْظَريٍّ[1] مُستكبر»[2].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَخرجُ عُنقٌ من النّار يومَ القيامة له عَينان يُبصر بهما، وأُذنان يَسمع بهما، ولسان يَنطق به، فيقول: إنّي وُكِّلتُ بثلاثةٍ: بكلِّ جبارٍ عَنيد، وبكلِّ من ادَّعى معَ الله إلهاً آخر، وبالمُصوِّرين»[3].

أخبرنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا: حدثنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا محمد بن يحيى الأزدي قال: حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، قال: حدثنا هاشم بن سعيد

---

(١) ورد هنا بحاشية (ف) ما نصه: (الجوّاظ: الجَموع المَنوع، وقيل: الكثير اللحم المُختالُ في مشيته، وقيل: الذي لا يستقيم على أمرٍ يصانع هنا وهنا، وقيل: الفاجر، والجَعْظَرِيّ فُسِّرَ في الحديث بأنه الغليظ الفَظ، وقيل: هو الذي يتمدَّح وينتفخ بما ليس عنده وفيه بَطَر.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (١٨٧٢٨)، وأخرجه البخاري (٤٩١٨) و(٦٠٧١) و(٦٦٥٧)، ومسلم (٢٨٥٣)، وأحمد (١٨٧٣٠) بلفظ: (كل عُتُل جَواظ مُستكبر).

الكوفي قال: حدثني زيد الخَثْعمي عن أسماء بنت عُميس قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بئسَ العبدُ عبدٌ تَخيَّلَ واختالَ ونسي الكبير المُتَعال، وبِئسَ العبدُ عبدٌ تَجبَّرَ واعتَدى ونَسِيَ الجبَّار الأَعلى، بئسَ العبدُ عبدٌ سَها ولَها ونَسِي المقابر والبِلَى، بئسَ العبدُ عبدٌ عَتَا وطَغَى ونسي المبتدأ والمنتهى، بئسَ العبدُ عبدٌ يختل الدنيا بالدين، وبئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد طمعٌ يقودُه، بئس العبد عبد هَوىً يُضلُّه، بئس العبدُ عبدٌ رَغِبَ بِذُلِّه».

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحشَرُ الجَبّارونَ المُتَكبرون يومَ القيامة في صور الذَّرِّ تَطَؤُهم الناسُ لهوانِهم على الله عز وجل».

وقال محمد بن واسع: دخلتُ على بلال بن أبي بُردة فقلتُ له: إنَّ أباكَ حدَّثني عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ في جهنَّمَ وادياً يُقال له: هَبْهَب، حقاً على الله أن يُسكِنه كلّ جَبّار، فإياكَ أن تكون ممن يَسكُنه».

أنبأنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بن إسحاق قال: حدثنا ابن المبارك عن مَعْمَر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال: تَراهم يَهدرونَ عنده هَدير الفِحالَةِ: أنتَ واللهِ، أنتَ واللهِ. وتَراه مُقنِعاً ساكِتاً، يَحسَبُ حُمَيِّق[1] أنه كما يقال له. قال: وتَرى أحدُهم يتحرك في مشيته يَسحب عظامَه عَظماً عَظماً لا يمشي طبيعته.

وقال سُفيان بن عُيَيْنَة: من كانت مَعصيته في شَهوةٍ فارْجُ له التَّوبة، فإنّ آدم عليه السلام عَصَى مُشْتهياً فغُفِرَ له، فإذا كانت مَعصيتُه في كِبرٍ فاخْشَ على صاحبه اللَّعنة، فإن إبليسَ عَصى مُتكبراً فَلُعِن.

(١) في (ف): (حمق). وحُمَيِّق: تصغير أحمق.

بَيانُ

ذَمّ الاختيال وإظهار آثار الكِبْر في المَشي وجَرِّ الثِّياب

قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ [القيامة: ٣٣]، قال مجاهد: يَتَبختَر. قال الفَرّاء: المطا: هو الظهر، فهو يلوي ظَهره تبختراً[١].

أخبرنا عبد الأول بن عيسى قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعْيَن السَّرخسي قال: أخبرنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا أحمد بن يونس قال: حدثنا زُهير قال: حدثنا موسى بن عُقبة عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن جَرَّ ثَوبه خُيَلاءِ لم يَنظُر اللهُ إليه يوم القيامة» قال أبو بكر: يا رسول الله، إن أَحَدَ شِقَّي إزاري لَيَستَرخي، إلا أني أَتعاهد ذلك منه. فقال رسول الله ﷺ: «لست ممَّن يَصنعُه خُيَلاء». قال البخاري: وحدثنا عبدُ الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن أبي الزِّناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَنظُر اللهُ يومَ القيامة إلى من جَرَّ إزاره بَطَراً».

قال البخاري: حدثنا آدم قال: حدثنا شُعبة قال: حدثنا محمد بن زياد عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ قال: «بَينما رجلٌ يَمشي في حُلَّةٍ تُعجبه نَفسُه، مُرجِّلٌ جُمَّتَهُ[٢]، خَسَفَ اللهُ به، فهو يتجَلْجَل[٣] إلى يوم القيامة». هذه الأحاديث الثلاثة مخرجة في الصحيحين.

---

(١) في (ف): (كِبراً).

(٢) الجُمَّة: ما ترامَى من شعر الرأس على المنكبين.

(٣) ورد هنا في هامش (ف) حاشية نصها: (بجيمَين للكافة، ورواه بعضهم بخاءين معجمتين والأول أصح وأعرفُ، والتَّجلجُل: التَّنوُّخ في الأرض مع حركةٍ واضطراب قال الخليل: قال الأصمعي: هو الذهاب بالشيء والمجيء به، وأصله التردّد، ومنه: تجلجل في كلامه وتَلَجلج، إذا تردد. وأما يَتَخلخل فَبعيدٌ هاهنا إلا أن يكون من قولهم: خَلخَلتُ العظمَ، أي: أخذتُ ما عليه من لحم، أو من التخلُّل والتداخل خلال الأرض، وأظهر التضعيف. قال القاضي: ورويناه في غير البخاري ومسلم: يتحَلحل، بحاءين مهملتين).

أخبرنا هِبة الله بن مُحمد قال: أخبرنا أبو علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن جَعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو النَّضر. قال: حدثنا جَرير عن عبد الرحمن بن مَيسَرة عن جُبَير بن نُفَير عن بُسْر بن جَحَّاش القُرَشي أن النبي ﷺ بَزَقَ يوماً في كَفِّه، فوضع عليها إصبعه ثم قال: «(١قال الله١): يا ابن آدم أَنَّى تُعجِزُني وقد خَلقتُكَ من مِثل هذه، حتى إذا سَوَّيتُكَ وعدَّلتُكَ مشيتَ بين بُرْدَين وللأرض منك وَئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بَلغَت التَّراقيَ قُلتَ: أَتصدَّقُ. وأَنَّى أَوانُ الصَّدقة؟!»(٢).

أخبرنا هِبَةُ الله بن أحمد الجَريري قال: أخبرنا أبو طالب العُشاري قال: حدثنا ابن سَمعون قال: حدثنا علي بن أحمد بن الهيثم قال: حدثنا عيسى بن موسى قال: حدثنا يحيى بن أبي بُكَير قال: حدثنا الرَّبيع بن بَدر عن هارون بن رِئاب عن مُجاهد عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ريح الجَنَّة توجَدُ من مَسيرة عام، لا يجد ريحها مُختالٌ، ولا مَنّان بعمله، ولا مُدْمِنُ خَمْر».

ورَوى عُروة عن عائشة قالت: لَبِستُ مرةً دِرعاً لي جديداً، فجعلتُ أنظر إليه وأعجبُ به، فقال أبو بكر: ما تَنظرين؟! إنّ الله ليسَ بناظرٍ إليك؟ قلتُ: وممَّ ذاك؟ قال: أما علمتِ أن العبدَ إذا دَخله العُجبُ بزينةِ الدنيا مَقَتَه ربُّه حتى يُفارق تلك الزينة؟ قالت: فَنَزعتُه فتَصدَّقتُ به. فقال أبو بكر: عسى ذاكَ أن يكفِّر عَنكِ.

وقال يزيد بن مَيْسرة: كانت أحبار بني إسرائيل ـ الصَّغير منهم والكَبير ـ لا يَمشون إلا بالعِصيّ مَخافة أن يختال الماشي في مِشيته.

وقال أبو بَكر الهُذَلي: بينما نحن مع الحَسَن إذ مرَّ عليه ابنُ الأَهْتَم، يُريد المقصورة، وعليه جِبابُ خَزٍّ قد نُضِّدَ بعضُها على بعض على ساقه وهو يَمشي يَتبَختر، فنظر إليه الحسن فقال: أُف أُف، شامخٌ بأنفِهِ، ثاني عِطْفه، مُصَعِّرٌ خَدَّه

(١ـ١) سقط من الأصل.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٤٢) ـ (١٧٨٤٥)، والتراقي: العظام المكتنفة لنُقرةِ النَّحر عن يمين وشمال، وواحدتها: تَرقوة. ويكنى ببلوغ النفس التراقي عن الإشفاء على الموت واقترابه.

يَنظر في عِطْفيه، أَيْ حُمَيِّق أَنتَ تنظر في عِطفيك في نعم غير مَشكورة ولا مذكورة، غير مأخوذٍ بأمر الله فيها، ولا مُؤدي حقَّ الله منها، واللهِ أَنْ يَمشي أحدهم طَبيعته أو يَتخلَّج إلا تَخلُّجَ المَجنون، في كل عُضوٍ من أعضائه لله نِعمة، وللشَّيطان بِهِ لُعبَة. فسمع ابنُ الأَهتم فرجع يَعتذر إليه، فقال: لا تَعتذر إليَّ، وتُب إلى رَبك، أما سَمعتَ قولَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

ومرَّ بالحسَن شابٌّ عليه بِزَّةٌ حَسَنَة، فدعاه فقال: ابنُ آدم مُعجبٌ بشبَابِه، معجب بجَماله، كأن القَبر قد وارى بدنك، وكأنك قد لاقيتَ عملك، ويحك! داوِ قَلبكَ، فإن حاجةَ الله إلى العباد صلاح قلوبهم.

وروي أن عمر بن عبد العزيز حجَّ قبل أن يُستَخلف، فنظر إليه طاووس وهو يَختال في مِشيته، فغمَز جَنبَه بإصبعه، ثم قال: ليست هذه مشية مَنْ في بطنِه خُرْء. فقال عُمر كالمعتذر: يا عم، لقد ضُرِبَ كلّ عضوٍ مني على هذه المشية حتى تعلمتها.

أنبأنا أحمد بن أحمد المُتَوكِّلي قال: أخبرنا أبو بكر بن ثابت قال: أخبرنا علي بن المظفَّر الأصبهاني[1] قال: حدثنا أحمد بن محمد الشَّطَوي قال: حدثنا حُسين بن جَعفر بن سليمان الضُّبَعي قال: سمعتُ أبي يقول: مَرَّ والي البَصرة بمالك بن دينار يَرفُل، فصَاح به مالك: أقِلَّ من مشيتك هذه. فهمَّ خَدَمُه به فقال: دَعوه، ما أراكَ تعرفني. فقال له مالك: ومَنْ أَعرَفُ بكَ مني؟! أَمَّا أوَّ لُكَ فنُطفَةٌ مَذِرَة، وأما آخِركَ فَجيفَةٌ قَذِرَة، ثم أنتَ بين ذلك تَحملُ العَذِرَة. فنكس الوالي رأسه ومَشى.

(١) ليست في (ف).

بيان

فَضيلة التَّواضُع

أخبرنا إسماعيل بن أحمد السَّمرقَندي قال: أخبرنا محمد بن هِبة الله الطَّبري قال: أخبرنا علي بن محمد بن بِشْران قال: أخبرنا الحسن بن صَفوان قال: حدثنا عبد الله قال: حدثنا يَحيى بن أيوب قال: حدثنا إسماعيل بن جَعفر قال: أخبرني العَلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هُريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما تَواضع أحدٌ لله عزَّ وجلَّ إلا رَفَعه الله عزَّ وجل». انفرد بإخراجه مسلم.

وروى أبو أُمامةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ أحدٍ إلا ومَعَه مَلَكان، وعليه حَكَمةٌ[1] يُمسِكانها، فإنْ هو رَفعَ رأسَهُ جَبَذاها ثم قالا: اللهمَّ ضَعْهُ، وإن وضَع نَفسَه قالا: اللهمَّ ارفَعْهُ».

وروى رَكبٌ المِصري عن النبي ﷺ أنه قال: «طُوبَى لمن تَواضَع في غَير مَنْقَصة».

وقال عليه الصلاة والسلام: «خَيَّرني رَبِّي بينَ أن أكونَ عبداً رسولاً، أو ملكاً نبياً، وكان صَفِيِّي من الملائكة جبريل، فرفعتُ رأسي، فقال: تَواضَع لربك. فقلتُ: عبداً رسولاً».

وقال عمر بن الخطاب: إنَّ العبدَ إذا تواضَع لله رفعَ الله حكمتَه وقال: انتعِشْ[2] رَفعكَ الله. وإذا تَكبَّر وعَدا طَوْرَه وَهَصَه[3] اللهُ إلى الأرض وقال: اخْسَأ خَسأكَ اللهُ. فهو في نفسهِ كبيرٌ، وفي أَعيُن الناس حَقير حتى إنَّه لأحقَرُ عندهم من الخِنْزير.

(١) الحَكَمة محركةً: نحو لجام الدابة، سميت بذلك لأنها تحكمها وتُذَلِّلها لراكبها.

(٢) انتَعِش: أي ارتفِع.

(٣) وَهَصَه: رماه رمياً عنيفاً.

وقال جَرير: انتهيتُ مرةً إلى شجرةٍ تحتها رجل نائمٌ قد استظلَّ بنِطْعٍ[1] له وقد جاوَزَت الشَّمسُ النِّطعَ فَسَوَّيتُه عليه، ثم إنه استيقظ، فإذا هو سَلمانُ الفارسي، فذكرتُ له ما صنَعْتُ، فقال: يا جرير، تواضَع لله في الدنيا، فإنه مَنْ تَواضع لله في الدنيا رَفَعه اللهُ يوم القيامة.

وقالت عائشةُ: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة؛ التَّواضُع.

وفيما أَوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السَّلام: إني إنما أقبلُ صلاةَ مَنْ تَواضَع لعظَمتي، ولم يتعظَّم على خَلقي، وألزَمَ قلبَه خوفي، وقَطَع النَّهار بذِكْري، وكَفَّ نَفسه عن الشَّهوات من أجلي، وأَطعَمَ الجائعَ، وكَسَا العاري، وآوى الغَريب، فذاك الذي يُشرق نور وَجهِهِ يوم القيامة، مثل الشمس، يَدعوني فأُلبّي له، ويَسألني فأُعطيه، أَجعلُ له في الجَهالة حِلماً، وفي الظُّلمات نُوراً، أَكْلَؤه[2] بِعزَّتي، وأَسْتَحفظه بكلاءتي، فمثل ذلك العبد في الناس كمثل جَنات الفِردوس في الجِنان؛ لا تَنقَطع ثِمارُها، ولا تَغَيَّرُ عن حالِها.

وقال الحسن: التَّواضُع أن تَخرُجَ من منزلكَ فلا تلقى مُسلماً إلا رأيتَ له فَضْلاً عليك.

وروينا عن محمد بن واسع أنه شَكَى إليه ابنه فأقبلَ عليه فقال: يا بُني تَستطيل على النّاس وأُمُّك اشتَريتُها بأربعمئةِ درهم، وأما أبوكَ فلا أكثر اللهُ في المسلمينَ مثله.

وقال بَكرُ بن عَبد الله: إذا رأيتَ من هو أكبر منك فقل: سَبقني بالإيمان والعمل الصالح، فهو خَيرٌ مني، وإذا رأيتَ مَن هو أصغرُ منك فقُل: سَبقْتُهُ إلى الذُّنوب، فهو خيرٌ مِنّي، وإذا رأيتَ إخوانك يُعظِّمونك ويَصفونك، فَقُل: هذا فَضْلٌ أخذوا به، وإذا رأيتَ منهم تقصيراً فقُل: هذا ذَنبٌ أَحدَثْتُه.

---

(١) النِّطْع: بساط من الجلد.
(٢) أكلؤه: أَحفظُه.

وقال الفُضَيل: التَّواضُع أَنْ تَخضع للحق وتنقادَ له ولو سمِعتَه من أجهلِ الناس قَبِلتَه.

وقال الفُضَيل لسُفيان بن عُيَينة: إنْ كنتَ تَرى أن في هذا المسجد أحداً هو دونك فقد ابتُليتَ ببليةٍ عظيمةٍ.

وقال أبو سُليمان: لا يَتواضع العبدُ حتى يَعرف نفسَه.

ويُقال: التَّواضع في الخلق كلّهم حَسَنٌ، وفي الأغنياء أحسن، والكِبرُ في الخَلق كلّهم قبيح، وفي الفُقراء أَقْبح.

بَيانَ

حقيقة الكِبْر وآفَته

اعلم أن الكِبَر خُلُقٌ باطِن، وتصدر عنه أعمالٌ هي ثَمرته، فَيَظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النَّفس فوقَ المُتكبَّرِ عليه، فإن الكِبر يَستدعي متكبَّراً عليه ومتكبراً به، وبه يَنفصل الكِبْر عن العُجْبِ كما سيأتي بيانه، فإنَّ العُجْبَ لا يَستدعي غير المعجب بل لو لم يُخلَق الإنسان إلا وَحده تصوَّر أن يكون مُعجباً ولا يتصور أن يكون مُتكبراً إلا أن يكون مع غيره، وهو يرى نفسه فوقَ ذلك الغَير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً، ولا يكفي أن يَستعظم نَفسه ولكن يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه، فلا يتكبر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبَّر، ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل يرى لنفسه مرتبةً ولغيره مرتبةً، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره، فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يَحصل فيه خُلق الكِبر، لا أنَّ هذه الرؤية تَنفي[1] الكِبْر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتدادٌ وهِزَّة وفَرحٌ وركونٌ إلى ما اعتقده، فتلكَ العِزَّة والهزّة والركون إلى العقيدة هي خلق الكبر، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يتعوَّذ من نفخ الشيطان، وقال: نفخُه الكبرياء، وقد قدمنا هذا الحديث، واستأذنَ رجلٌ عمرَ في القَصص فقال: أخشى أن تنتفخَ حتى تبلغ الثُّريا.

فالإنسانُ إذا رأى نفسه بعين الاستعظام كبر وانتفخ وحقَّر مَنْ دونه وازدراه وأنِفَ من مساواته فازداد كبره، وترفَّع عن مجالسته ومؤاكلته، ورأى أن حَقَّه أن يقوم ذلك الشخصُ ماثلاً بين يديه، فإن اشتدَّ كِبرُه استنكف عن استخدامه، وَصِفَةُ هذا المُتكبر أنه ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستخفافاً.

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: (هي).

وآفة الكِبْر عظيمة، وغائلته هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلّما ينفك عنه العُبّاد والزهّاد والعلماء فضلاً عن العوام، وكيف لا تَعظمُ آفتُه وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: لا يَدخل الجنة مَن في قلبه مثقال ذرةٍ من كِبْر. وإنما صار حجاباً دون الجنة؛ لأنه يحولُ بين العبدِ وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكِبر يغلقها كلها؛ لأنه لا يقدر أن يُحبَّ للمؤمنين ما يُحب لنفسه، ولا على التواضع ولا على ترك الحِقد والحسد والغضب وكَظْم الغَيظ وقبول النُّصح وفيه شيءٌ من الكِبر، ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتيابهم، فما مِن خُلقٍ ذَميم إلا والمتكبر مضطر إليه ليحفظ به عِزَّه، والأخلاقُ الذميمة متلازمةٌ، وبعضُها داعٍ إلى بعض، وشَرُّ أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له.

بَيانُ

المتكبَّر عليه وأقسامه ودرجاته وثمرات الكِبر فيه

اعلم أن الآدمي قد خُلِقَ ظلوماً جهولاً، فتارةً يتكبر على الخلق، وتارةً على الخالق، فأما التكبر على الخالق فهو أَفْحشُ أنواع الكبر، ولا مثارَ له إلا الجَهل المحض والطُّغيان مثل قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وصعود نمرود ليُقاتل رَبَّ السماء، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠].

وأما المتكبر على الخلق فينقسم قسمين: **أحدهما**: التكبر على الرُّسل من حيث تَعزُّز النَّفس وترفعها عن الانقياد لبَشَر مثل سائر الناس، وذلك قد يقع عند ابتداء الدِّعاية، فيصرف عن الفِكر في أمر الرسول، فيبقى صاحبه في ظُلمة الجَهل ممتنعاً عن الانقياد، وهو يظن أنه في ذلك مُحق، وقد تحصل لصاحبه المعرفة بصدقِ الرسول ولكن لا تُطاوعه نَفسه على الانقياد للحق، كما حكى الله عز وجل عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النَّمل: ١٤]، وحكى عن قولهم: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال فرعون: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]، فقال عزَّ وجل: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩]، فهذا متكبر على الله وعلى رسولِه. قال وَهبُ بن مُنَبِّه: قال له موسى: آمِنْ ولكَ مُلكُك. قال: حتى أُشاور هامانَ. فشاوره فقال: بَينما أنتَ رَبٌّ تُعبدَ صِرتَ عبداً تَعْبُدُ. فاستنكفَ عن عُبودية الله وعن اتِّباع موسى.

وقال تعالى فيما حَكَى عن المشركين: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فطلبوا مَنْ هو أعلى رُتبةً في الدنيا من رسول الله ﷺ،

وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وهذا قريب من التكبُّر على الله، وإن كان دونه؛ لأنه تكبرٌ على قبول أمر الله والتَّواضع لرسوله.

والقسم الثاني: التكبر على العِباد باحتقارهم عند استعِظامه لنفسه، وهذا عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكِبر والعَظمة لا يَليق إلا بالمَلك القادر لا بالعبد المَمْلوك العاجز، فالمتكبر منازع لله عزَّ وجل في صفةٍ لا تَليقُ إلا بجلاله، ومثاله أن يأخذ الغلام قَلَنْسوةَ الملك فَيضَعها على رأسه وَيجلس على سريره، فما أعظم استخفافه بالملك، ولهذا قال تعالى فيما قَدَّمناه: العِزُّ إزاري والكِبرياءِ ردائي فَمَنْ نازَعني شيئاً منهما عَذَّبتُه». وإذا كان الكِبرُ على عِبادة لا يَليق إلا به، فالمتكبر عليهم قد جَنَى عليه؛لأن من استَرذَل خَواصَّ السُّلطان و ترفَّع عليهم واستأثر بما حقُّ الملك أن يَستأثر به منهم، فهو منازع للملك.

الوجه الثاني: أن الكبر يدعو إلى مُخالفةِ الله تعالى في أوامره؛ لأن المتكبر إذا سمعَ الحقَّ من عبدٍ من عباد الله تعالى استنكف من قَبوله وتشمَّر لجَحْدِه، ولذلك ترى أكثر المُناظرين يَأنَفون من قبول الحقِّ إذا اتَّضَح على لسانِ واحدٍ منهم، ويَتشمَّرون لجحدِه، ويحتالون لدَفعِه، وذلك من أخلاق الكفار حين قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكل من ناظر للغلبةِ والإفحام لا لاغْتِنام الظَّفرِ بالحق، فقد شاركهم في هذا الخُلُقِ، وبعضُهم تَحملُه الأَنفةُ من قبول الوعظ، كما قال عَزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

فالتكبُّر على العِباد يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حَمَل إبليسَ كِبْرُهُ على آدمَ أن امتنع من امتِثال أمرِ الله في السجود، ولذلك شرحَ رسولُ الله ﷺ الكِبر بهاتين الآفَتين، فقال: «الكِبرُ مَنْ بَطَر الحَقَّ وغَمَطَ النَّاس». ورواه عبد الله بن مَسعود عن النبي ﷺ أن رجلاً قال: إن الرجل يُحب أن يكونَ ثَوبه حَسناً ونَعله حسنةً؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحبُّ الجَمال، الكِبرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النّاس».

وروى أبو هُريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني رجلٌ حُبِّبَ إليَّ الجَمال، وأُعطيتُ منه ما تَرى حتى ما أحب أن يَفوقني أحدٌ ـ إمّا قال: بِشِراكِ نَعلي، وإما قال: بِشِسْعي[١]، أَفَمِنَ الكبر ذاك؟ قال: لا، ولكن الكبر من بطرَ الحقَّ وغَمَطَ النَّاس. ومَعنى غَمَطَ: أَزْرَى بالنّاس واستخفَّ بهم، ويُقالُ: غَمِطَ بكسر الميم أيضاً، ويُروى غَمصَ وغَمِصَ، بفتح الميم وكسرها وهو بمعنى غَمَطَ.

---

(١) الشِّسْع: سَيرٌ يمسك النَّعلَ بأصابع القدم.

بَيانُ

ما به التَّكَبُّر

اعلم أنه لا يتكبَّر إلا من استَعظَمَ نفسه، ولا يَستَعظِمها إلا وهو يعتقد لها صفةً من صفات الكمال، ومَجامع ذلك يرجع إلى كمالٍ ديني أو دنيوي، والديني: هو العلم والعمل، والدُّنيوي: هو النَّسب والجمال والقُوة والمال وكَثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب:

الأول: العلم؛ وما أسرع الكبر إلى العُلماء، فإن العالم لا يلبث أن يتعزَّز بعزِّ العِلم فيستَعظم نفسه ويحتقر الناس، وينظر إليهم نَظرهُ إلى البهائم، ويتوقع أن يَبدؤوه بالسلام، فإن بَدَأَ أحداً منهم، أو ردَّ عليه بِبِشْرٍ، أو قامَ له، أو أجاب دعوته رأى له صَنيعةً عنده ويَداً عليه يلزم شكرها؛ لأنه يرى أن له عليهم أن يزوروه ولا يَزورهم، ويعودوه ولا يَعودهم، ويَسْتَسخِرهم في حَوائجه كأنهم عبيدٌ له أو أُجَراء، هذا فيما يتعلق بالدنيا.

وأما في أمر الآخرة فتكبُّره عليهم بأن يَرى نفسه عند الله أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نَفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وهذا بأن يُسمَّى جاهلاً أَوْلى من أن يُسمّى عالماً، بل العلم الحقيقي هو الذي يَعرفُ الإنسان به نَفْسَه وربَّه، وخطَر الخاتمة، وحجةَ الله على العُلماء، وعظمَ خَطَر العِلم، كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم، وهذه العلوم تزيد العالم خوفاً وتواضعاً وتَخشُّعاً، وتقتضي أن يرى أن كل الناس خير منه لعظم حجة الله عليه بالعلم، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم، ولهذا قال أبو الدَّرداء: مَن ازدادَ علماً ازدادَ وَجَعاً.

فإن قيل: فما بال بعض العُلماء يزداد بالعلم كِبْراً وأَمْناً؟

فالجواب: أن لذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغالُه بما يُسمّى علماً وليسَ بعلمٍ حقيقي، كعلم المُجادلةِ والنَّحو واللُّغة والشِّعر والحِساب والطِّبِّ، فهذه الأشياء إذاً امتلأ منها الإنسان امتلأ بها كِبْراً، وهي بأن تُسمَّى صناعات أولى من أن تُسمَّى علوماً، بل العلم هو ما يَعرفُ به العَبدُ ربَّه ونَفسَه وخَطَر أمره في لقاء الله، وهذا يورِثُ الخَشيةَ والتَّواضعَ دون الكبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

السبب الثاني: أن يخوضَ العَبدُ في العلم وهو خَبيثُ الدَّخلةِ سَيّئ الأخلاق، لم يَشتغِل أولاً بتهذيب نفسه ورياضتها، ولا بتزكية قَلبه بالمجاهدات، فيبقى [١] خبيثَ الجوهر، فأيّ علمٍ حلَّ في قَلبه صادفَ منزلاً [١] خَبيثاً، فلم تَطِبْ ثماره ولم يظهر في الخير أثره، وقد ضربَ وَهْبُ بن مُنَبِّه لهذا مثلاً، فقال: العلمُ كالغَيث، ينزل من السَّماء حلواً صافياً، فَتَشربُه الأشجار بعُروقها، فتحوِّله على قَدر طُعومها، فيزداد المُرُّ مَرارةً والحُلوُ حلاوةً، فكذلك العلم، يحفظه الرجال فتُحوّلُه[٢] على قدر هِمَمها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تَواضعاً، وهذا لأن من كانت هِمَّته الكِبر وهو جاهل، فإذا حفظَ وَجدَ ما يتكبَّر به، فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله، فإذا ازداد علماً علم أن الحجة قد تأكَّدت عليه فيزداد خَوفاً وإِشْفاقاً وذُلاً وتَواضعاً، فالعلم من أعظم ما يتكبر به، ولذلك قال عمر بن الخطاب: لا تكونوا جَبابرة العُلماء، فلا يَفي علمكم بجهلكم.

ورُوي عن حُذَيفة أنه صلَّى بقوم، فلمّا سلَّمَ قال: لَتَلتَمِسُنَّ إماماً غيري أو لَتُصلُّنَّ وُحداناً، إني رأيتُ [في نفسي][٣] أنه ليسَ في القوم أَفضل مِنّي. فإذا كان مثل حُذيفةَ لم يَسلَم، فكيف بالضُّعفاء؟

وما أعزَّ وجود عالم يستحق أن يقال له: عالم، ثم لا يحركه عِزّ العِلم وخُيلاؤُه، فإن وُجد ذلكٍ فهو صِدّيقُ زمانه، وذلك الذي يكون النظرُ إليه عبادةً

(١ـ١) سقط من (ف).

(٢) في (ف): (فتحفظه).

(٣) زيادة من الإحياء توضح المعنى.

فضلاً عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله، هيهات بَعيدٌ وُجود ذلك في زَماننا، بل يَبعُد في زماننا وجود عالم يَختلجُ في قلبه التأسُّفُ والحُزنُ على فَوات هذه الخَصْلَة.

الثاني: العمل والعبادة؛ وليس يخلو أربابها من الكبر، ويظهر أثر ذلك منهم في الدنيا والدين.

أما الدنيا: فهو أنهم يَرَون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارةِ غيرهم، ويتوقَّعون قيامَ الناس بقضاء حوائجهم وتَوقيرهم، والتَّوسيع لهم في المجالس، وذكرهم بالتقوى، وتقديمهم على سائر الناس على نحوِ ما ذكرنا في حق العلماء، وكأنهم يَرَون عبادتهم مِنَّةً على الخَلق.

وأما في الدين فهو أنهم يَرون الناس هالكين، ويرون أنفسهم ناجية. وفي أفراد مُسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قال الرَّجلُ: هَلَكَ الناسُ، فهو أهلكُهم»[(١)].

وإنما يَقول هذا من يَزدَري عبادَ الله ويحتقرهم، فهم على ما بهم ربما كانوا خَيراً من هذا القائل؛ لأنهم يتقرَّبون إلى الله بالدُّنو منه، وهو يَتَمَقَّت إليه بالتَّباعد عنهم، فما أجدره أن ينزل إلى مقامهم بسوء اعتقادِه، ويَصعدون إلى مكانه بحسن ظُنونهم، كما وري أن بعضَ فُسّاقِ بني إسرائيل رَأى عابداً فقرب منه، فأنف منه العابد فتباعد، فأوحى الله تعالى إلى نَبِيِّ ذلك الزَّمان: قل لهما فَليستأنفا العَمل، فقد غُفِرَ لهذا وأُحبِطَ عَمل هذا. وهذا لأنَّ المُراد من العِباد القُلوب، فإذا ذَلَّ قَلبُ العاصي، فَقد أطاع الله بقلبه، وإذا تكبَّر قلبُ الطائع، فَقْد عصى الله بقلبه، ولذلك قال الحسن: إن أقواماً جَعلوا الكبر في قلوبهم، والتَّواضع في ثيابهم، كَصَاحبِ الكِساءِ في كِسائه أعجبُ من صاحب المِطْرَف[(٢)] بمِطَرفِه، مالَهم تَفاقدوا؟ وهذا لأنّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٢٣)، وأهلكهم: رُويَت بضم الكاف وهي الرواية المشهورة، أي: أشدُّهم هلاكاً أو أحقُّهم بإهلاك، ورُويت بفتح الكاف، أي: هو جَعَلهم هالِكين، فهو أهلكَهم لكونه أقنطَ عبادَ اللهِ عن رحمته.

(٢) المِطرَف: ثوب مربع له أعلام.

صاحب الخَزِّ يَذِلُّ، وصاحب الصُّوفِ يُذِلُّ، وهذه الآفَةُ قَلَّما يَنفكُّ عنها أكثر العُبَّاد، حتى إنه لو آذاه مُؤذٍ استبعد أن يَغفر الله له، واعتقد أنّ اللهَ قد مقتَ ذلك الشخص، ولو آذى ذلك غيره لم يكبر عنده وهذا لِعظَم قدره عند نَفسه، وهذا جَهلٌ وجمعٌ بين العُجبِ والكبر، وربما تحدَّى بَعضُهم إذا أُوذي فقال: سَترون ما يَجري على هذا المؤذي لي. فإنْ نُكِبَ ذلك الشخصُ زعم هذا أنه من كراماته، مع أنه يَرى أن خَلقاً من الكفار يُؤذون الله ورسوله ويَسْلَمون في الدنيا من المكارِه، فهذه حالة المُغْتَرّين، فأما الأَكْياس، فعلى مثل حالة عَطاء السلمي، كان إذا وقعت صاعقةٌ ظنَّ أنَّ ما يصيبُ الناسَ بسببه، وكما قال بَكر المُزَني بعَرَفة: ما أشرَفه من مَقام لولا أَني فيهم. فكم بَين هؤلاء وبين من يَمْتَنُّ[1] بعَمله، ومن اعتقد جَزماً أنه فوقَ أحدٍ من المسلمين فقد أحبط عمل نفسه بجهله.

واعلم أن العُلماء والعُبّاد في آفةِ الكبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يكون الكِبرُ مُستقراً في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نَفْسه خَيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه، فهذا في قلبه شَجرةُ الكبر مغروسة، إلا أنه قد قَطع أغصانها.

الدرجة الثانية: أن يَظهر ذلك على أفعاله بالتَّرفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يُقصّر في حَقِّه، فترى العالم يُصَعِّرُ خَدَّه للناس، كأنه معرضٌ عنهم، والعابد يَعبس وَجهه كأنه مُسْتَقذرٌ لهم، وهذان قد جَهِلا ما أَدَّبَ الله به نبيَّه حين قال: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥] مَناً منهما بعَملهما.

الدرجة الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه كالدعاوي والمُفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والتّشمير لغَلبةِ الغَير في العِلم والعَمَل،ويقول العابد في معرض المُفاخَرة لغيره: مَنْ هُو؟ وما عَمَله؟ وما زُهده؟ أنا لم أُفْطِر منذ كذا وكذا، ولا أنامُ الليل، وأَختم القُرآن كل يوم، وقَصَدني فُلانٌ فَهلك أو أُخِذَ مالُه أو مَرض.

---

(١) في (ف): (تميز).

وهذا إذا حصلَ مع قوم يُصلُّون باللَّيل رُبّما كلَّف نفسه أكثر من تَعبُّدِهم ليُظهِر لهم قُوَّتَه وعَجْزَهم. ويَقول العالم في مُفاخرتِه: أنا مُتفنِّنٌ في العلوم، ومُطَّلعٌ على الحَقائق، رأيتُ فُلاناً وفُلاناً، فَمَن فُلانٌ؟ ومَنْ لَقِيَ؟ ثم يجتهدُ في المُناظرة أن يَغلب ولا يُغلَبَ، ويَسهر اللَّيل في تحصيل علومٍ يتجمَّل بها في المحَافِل، كعلم الجَدَل والعلوم الغريبة ليُغْرِبَ[١] بها على الأقران، ويتحفظ الأحاديث بألفاظها وأسانيدها ليردَّ على من أخطأ فيها، فَيَبينُ فَضْلُه ونُقصان أقرانه، ويفرح إذا أخطأ واحدٌ منهم ليردّ عليه، ويَسوءُهُ إذا أصابَ وأحسنَ أن يرى أنه أعظم منه.

فهذه أخلاقُ الكِبر التي ثَمرتها التَّعزُّز بالعلم والعمل، فليت شِعري مَن عرف هذه الأخلاق مِنْ نفسه، وسمعَ قولَ رسول الله ﷺ: ((لا يَدخلُ الجنَّة مَن في قَلبه مِثْقال حَبَّةٍ من خَردلٍ من كبر)) كيف يَستعظم نَفسه ويتكبَّر على غيره؟ وهو على مُقتَضى قولِ رسولِ الله ﷺ من أهل النار؟ فهذا هو الكِبر بالعلم والعَمل.

الثالث: التكبر بالنَّسب والحَسَب؛ فالذي له نَسبٌ شَريف يستَحقِر مَن ليس له ذلك النَّسب، وإن كان أرفع منه علماً وعَملاً، وقد يرى بعضهم أن الناس له مَوالي وعَبيد، ويأنف من مُخالطتهم.

وثمرةُ هذا الكِبر على اللّسان التَّفاخر به، فيقول لغيره: يا نَبَطي، يا أَرْمَني، يا عامي، مَن أنتَ ومَن أبوك؟ وأنا فُلان بن فُلان، وكيفَ يُكلّمني مثلُكَ؟ وهذا عِرقٌ في النَّفس لا يَنفكُّ عنه نسيب[٢] وإن كان صالحاً أو عاقلاً، إلا أنه قد لا يترشَّح منه ذلك عند اعتدال أحواله، فإنْ غلبَه غَضبٌ، أطفأَ نورَ بَصيرته وتَرَشَّحَ منه. قالَ ابن عباس: بقولُ الرجل للرجل: أنا أكرمُ منك. وليسَ أحدٌ أكرم من أحد إلا بتَقوى الله تَعالى.

الرابع: التَّفاخُر بالجمال؛ وأكثر ما يجري هذا بين النِّساء، ويدعوهن إلى التَّنَقُّص والثَّلْبِ[٣] والغيبةِ وذكرِ العيوب، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها

(١) يُغرِب: أي يأتي بالغَريب الذي يَعسُر فَهمه.
(٢) تصحفت في (ف) إلى: (بسبب).
(٣) ثَلَبَ فلانٌ فلاناً: عابَه وتَنقَّصَه.

حَكَت امرأةً عند رسول الله ﷺ ذكرت قِصَرها، فقال النبي ﷺ: «قد اغْتَبتيها». وهذا إنما يَنْشأ من الكِبر، لأنها لو كانَتْ قصيرةً لما ذكرَتْها بالقِصَر، فكأنها أُعجِبت بطول نَفْسها، فاستقصرت المرأة في جَنبها[1].

الخامس: الكِبرُ بالمال؛ وذلك يَجري بين الملوك في الخزائن، وبَين التُّجار في البَضائع، وبين الدَّهاقين[2] في الأرضين، وبين المُتَجمّلين في لباسهم وخُيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغَنيُّ الفَقيرَ ويتكبَّر عليه، ويقول له: أنتَ مُكْدِي[3] ومِسكين، وأنا لو أردتُ لاشتريت مثلك واستَخدمتُ مَن هو فَوقك، ومَنْ أنتَ؟ وما معكَ؟ وأثاثُ بَيتي يُساوي أكثر من جَميع مالك، وأنا أُنفق في اليوم ما لا تأكله في سَنةٍ. وكلُّ ذلك لاستِعظامِه الغِنَى واحتقارِه الفَقْرَ، وكل ذلك جهلٌ منه بآفةِ الغِنَى وفَضيلةِ الفَقر، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف: ٣٤]، حتى أجابه وقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾.. الآية [الكهف: ٣٩ ـ ٤٠]، وإنما كان ذلك منه تكبراً بالمال والولد، ومن ذلك تَكبُّر قارون إذ قال تعالى في وَصفِه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾.. إلى قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩].

السادس: التكبر بالقوَّة، وشدة البَطش على أهل الضَّعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغِلمان والعَشيرة والأقارب والبَنين؛ ويجري ذلك بين المُلوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء بالمُستفيدين.

وفي الجُملة؛ فكل ما هو نِعمةٌ وأمكن أن يُعتقد كمالاً وإن لم يكن في نَفسه كمالاً أمكن أن يتكبر به، حتى إن المُخَنَّث يتكبر على أَقرانه بزيادة مَعرفته وقُدرته في صَنْعة التَّخنيث؛ لأنه يَرى ذلك كمالاً فيفتخر به، وكذلك الفاسق قد يَفتخر بكثرة الشُّرب والفُجور لظنّه أن ذلك كمال.

---

(١) تصحفت في الأصل إلى: (حُسنها).

(٢) الدَّهاقين: جمع دِهقان، وهو رئيس القرية.

(٣) المُكدي: هو السائل الفقير، فالكُدية حِرفة السائل المُلِح.

فهذه مجامع ما يتكبَّر به العبادُ بعضُهم على بَعض، فيتكبر من يُدلي بشيءٍ من ذلك على من لا يُدْلي بما هو دونه في اعتقاده، وربما كان مثله وفوقه عند الله، كالعالم الذي يتكبر بعلمِه على من هو أعلم منه، لظنِّه أنه الأعلم، ولحسن اعتقاده في نفسه.

بَيانُ

البَواعِث على التكبُّر وأسبابه المُهيِّجَة له

قد ذكرنا أن الكِبرَ خُلقٌ باطن، وأن ما يَظهر من الأفعال والأخلاق ثمرته، وينبغي أن يُسمى تكبراً، ويخص باسم الكبر المعنى الباطن، وهذا الباطن له موجب واحد، وهو العجب، فإنّ من أُعجِبَ بنفسه وبعمله وعلمه أو شيءٍ من أسبابه استعظَمَ نفسه وتكبر.

فأمّا التكبر الظاهر فأسبابه ثلاثةٌ: سببٌ في المتكبر، وسببٌ في المتكبَّر عليه، وسببٌ يتعلق بغيرهما.

أما السبب الذي في المتكبِّر، فهو العُجب.

والذي يتعلّق بالمتكبَّر عليه؛ هو الحقد والحَسد.

والذي يتعلق بغَيرهما هو الرِّياء.

فتصيرُ الأسبابُ بهذا الاعتبار أربعة: العُجبُ، والحِقدُ، والحسَدُ، والرِّياء.

أما العُجب: فقد ذكرنا أنه يُورثُ الكِبرَ الباطن، (١والكبرُ الباطنُ١) يُثمر التكبر الظّاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

وأما الحقد؛ فإنه قد يَحمل على التكبر من عُجب، كالذي يتكبر على من يَرى أنه مثله أو فوقه، ولكن قد غضب عليه بسبب سَبقٍ منه، فأورثه الغَضَب حِقداً ورسخ في قلبه بُغضُه، ولا تُطاوعه نفسه أن يَتواضع له، وإن كان عنده مستحقاً للتواضع، فكم من رَذْلٍ[٢] لا تُطاوعه النَّفس على التواضع لواحدٍ من الأكابر لحقده

(١ـ١) سقط من (ف).

(٢) سقطت من (ف)، والرَّذل: الرديء.

عليه وبُغضه له، ويحمله ذلك على رَدِّ الحق إذا جاءه من جهته وعلى الأنفة من قبول نُصحِه، وعلى أن يجتهد في التَّقدم عليه، وإن علم أنه لا يَستحق ذلك، وعلى أن لا يَستحلّه وإن ظلمَه، ولا يعتذر إليه وإن جنى عليه، ولا يسأله عَمّا هو جاهل به.

وأما الحسد[1]، فإنه أيضاً يوجب البُغض للمحسود وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغَضب والحقد، ويَدعو الحسد أيضاً إلى جَحْد الحق حتى يمنع من قبول النُّصح وتعلُّم العِلم، فكم من جاهلٍ يَشتاق إلى العِلم وقد بقي في رَذيلة الجَهل لاستنكافه أن يَستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حَسَداً وبَغْياً عليه، فهو يُعرضُ عنه ويتكبر عليه مع مَعرفته بأنه يَستحق التواضع له لفضل علمه، ولكن الحسد يَبعثُه على أن يُعامله بأخلاق التَّكبر، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه.

وأما الرياء؛ فهو أيضاً يدعو إلى أخلاق المتكبرين حتى إن الرجل لَيُناظر من يَعلم أنه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة أن يقول الناس: إنه أفضل منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرَّد، ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه، وأما الذي يتكبر بالعُجب أو الحَسَد أو الحقد فإنه يتكبر أيضاً عند الخلوة به ما لم يكن معهما ثالث، وكذلك قد يَنتمي إلى نَسبٍ شريفٍ كاذباً، وهو يعلم أنه كاذبٌ، ثم يتكبر به على مَنْ ليس يُنْسَبُ إلى ذلك النَّسَب، ويترفع عليه في المجالس، ويتقدم عليه في الطَّريق، ولا يَرضى بمساواته في الكرامة والتَّوقير، وهو عالم باطناً بأنه لا يَستحق ذلك، ولا كِبرَ في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النَّسب، ولكن يحمله الرّياء على أفعال المتكبرين.

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: (الحقد).

بيانُ

أخلاق المتواضعين ومَجامع ما يَظهر فيه أثر التَّواضُع والتَّكبُّر

اعلم أن التكبر يَظهر في شمائل الرجل، كَصَعرٍ[١] في وَجْهِه ونَظره شَزراً[٢]، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفي أقواله حتى في صوته ونَغمته، وصيغةِ إيراده الكلام، ويظهر في مَشيِهِ وتَبختُره وقِيامه وجُلوسه وحَركاته وسَكناته وسائر تقلُّباتِه في أحواله وأقواله، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كلَّه، ومنهم من يتكبر في بعضِ ذلك ويتواضع في بعضه.

ومن خصال المتكبر[٣] أن يُحب قيام الناس له أو بين يديه، والقيام للإنسان على ضَربين: قيامٌ على رأسه وهو قاعد، فهذا مَنهيٌّ عنه قال عليه الصلاة والسلام: «مَن أحبَّ أن يتمثَّلَ له الرجالُ قياماً، فَليتبوَّأ مَقعدَه من النار». وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين.

وقيامٌ عند مجيء الإنسان، وقد كان السلف لا يكادون يَفعلون ذلك. قال أنَس: لم يكن شخصٌ أحبّ إليهم من رسولِ الله ﷺ، وكانوا إذا رَأَوه لم يقوموا له؛ لما يَعلمون من كراهته لذلك؟

وقد قال العلماء: يُستحب القيامُ للوالدين، والإمامِ العادلِ، وفُضَلاءِ الناس. واعلم أنه قد صار هذا كالشِّعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان في حَقٍّ من يَصلح أن يُفعَل في حقِّه لم يُؤمن أن ينسبه إلى إهانته والتَّقصير في حقِّه، فيوجب ذلك نوعَ

---

(١) الصَّعَر: المَيل والأزْوِرار.
(٢) نظر شزراً: أي نظر بمؤخر عينه كالمُعرِض المُتَغضِّب.
(٣) في (ف) : (المتكبرين).

حقدٍ، فاستحباب هذا للقائم لا يمنع الذي يُقام له أن يكره ذلك ويرى أنه ليس بأهل لذلك.

ومنها: أن لا يَمشي إلا ومعه من يَمشي خلفَه، وقد كان السَّلف يكرهون هذا، وقد روينا عن ابن مسعود أن ناساً تبعوه، فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، ولكن أردنا أن نمشي معك. قال: فارجعوا، فإنه ذِلَّةٌ للتابعِ، وفِتنةٌ للمتبوع. ومَشَى قومٌ خلف الحسن فمنعهم، وكان ابنُ سيرين لا يَترك أحداً يَمشي معه.

ومنها: أن لا يزور أحداً تكبراً على النّاس، وقد روينا أن سُفيان الثوري قدم الرَّملةَ، فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أنْ تعالَ فحدِّثنا، فجاءهم سفيان، فقيل له: يا أبا إسحاق، تَبعثُ إليه بمثل هذا؟ فقال: أردتُ أن أنظر كيفَ تَواضُعه.

ومنها: أن يَستنكف من جلوس (١مَنْ ليس في مَرتبته١) إلى جانبه، أو مشيه معه، وقد أنبأنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا هُشَيم قال: حدثنا حُميد عن أنس قال: إنْ كانت الأمَةُ من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق به في حاجتها. وقال ابنُ وَهب: جَلستُ إلى عبد العزيز بن أبي رَوَّاد تَمسُّ فَخِذي فَخِذَه، فنَحيَّتُ نَفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرَّني إليه، وقال لي: لم تفعلون بي ما تَفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف منكم رجلاً شرّاً مني؟!

ومنها: أن لا يَتعاطى بيده شُغلاً في بيته، وقد أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شُعبةُ عن الحكم عن إبراهيم عن الأسود قال: قلتُ لعائشةَ: ما كانَ النبيُّ ﷺ يَصنعُ إذا دَخلَ بيته؟ قالت: كانَ يكونُ في مَهْنَةِ[٢] أهله، فإذا حَضرتِ الصلاةُ خَرجَ فصلَّى. انفرد بإخراجه البخاري[٣].

(١ـ١) في (ف) بدلاً عنها: (غيره).

(٢) مَهنة أهله: خدمة أهله.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٦)، وأحمد (٢٤٢٢٦) و(٢٤٩٤٨).

وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز أنه بات عنده ضَيْفٌ فكادَ السِّراجُ يُطْفَأ، فقال الضيفُ: أقومُ فأصلحه؟ فقال له: ليس من كَرَمِ الرجل أن يَستخدم ضَيفَه. قال: فأوقِظُ الغُلامَ؟ فقال: لا. فقامَ هو وأصلح المصباح، ثم قال: قُمتُ وأنا عُمر، ورجعتُ وأنا عُمر.

ومنها: أنْ لا يحمل متاعه من سوقه إلى بَيته، وقد اشترى رسولُ الله ﷺ شيئاً وحَمله، وكان أبو بكر يحمل الثياب إلى السوق يَتَّجر فيها، واشترى عُمر لحماً فعلَّقه بيده وحمله إلى بيته، واشترى عليٌّ بن أبي طالب تمراً بدرهم فحمله في مِلْحَفته، فقال له قائل: أحمِل عَنكَ؟ قال: لا، أبو العِيال أحق أن يحمل. وكان أبو عُبيدة بنُ الجراح يحمل سَطْلاً له إلى الحمَّام، ودخل حُذَيفةُ المدائن وهو أميرٌ عليها وهو راكب على بَغلٍ بإكافٍ وبيده رَغيفٌ وعَرْقٌ[1] وهو يَأكُله. وأقبل أبو هريرة يوماً من السوق وقد حمل حُزمة حطبٍ وهو يَومئذ خَليفة مروان، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير.

ومنها: التَّرفُّع في اللِّباس وقد قال عليه الصلاة والسلام: البَذاذَةُ من الإيمان. أشارَ بذلك إلى الثِّياب الدُّونِ، وكان عُمر بن الخطاب يلبس إزاراً فيه اثنتا عشرة رُقْعة، وكان عُمر بن عبد العزيز يرقَعُ قَميصه من بين يديه ومن خلفه.

فإن قيل: فقد رويتم عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً أمن الكبر هو؟ قال: لا.

فالجوابُ: أن الناس يختلفون في ذلك؛ فمنهم من يَقصد الثوب الجميل لنفسه لا ليتكبر به، وعلى هذا يُحملُ الحديث، ومنهم من يُريد بذلك الكِبر، والغالب أن من قصد الرفيع لرؤية الناس أراد التكبر.

ومنها: أن لا يحتمل الأذى، فربما قابل بأوفى منه، وقد ذكرنا في كتاب الغضب فَضل الحِلم والصَّفح، وفي الجملة من أراد أن ينفي الكبر ويَستعمل التَّواضع فعليه بسيرة رسولِ الله ﷺ، وقد سبقت إشارتنا إليها في كتاب آداب المَعيشة.

---

(١) العَرْق: العَظم أُخِذ عنه مُعظم اللحم وبقي عليه لحوم رقيقة.

بَيان

الطريق في مُعالجة الكِبر واكتِساب التواضع

اعلم أن الكِبر من المُهلكات، ولا يخلو منه أحد، فمداواته فَرضُ عينٍ.

وفي معالجته مقامان: **أحدهما**: استئصالُ أصله من سِنْخِه[1] وقَلعُ شَجرته من مَغْرسها في القلب.

والثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

المقام الأول في استئصال أصله: وعلاجُه علمي وعَمَلي، ولا يتم الشِّفاء إلا بمجموعهما.

أما العِلمي: فهو أن يعرف نفسه ويعرفَ ربَّه، ويكفيه ذلك في إزالة الكِبر، فإذا عرفَ نفسه حقَّ المعرفة علم أنه أَذَلُّ من كل ذَليل، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذُّل، وإذا عرف ربَّه علم أن العَظمةَ والكِبرياء لا تَليق إلا بالله سُبحانه، وأما معرفته ربَّه وعظمته فَيكفيه أن ينظر في آثار قُدرته وعجائب صُنعه، فتلوح له العَظمة وتظهر له المعرفة، وأما معرفة نفسه فيكفيه أن ينظر في أصل وجوده بعدَ العَدَم من تُراب ثم من نُطفةٍ خرجت من مَجرى البَول، ثم من علقَةٍ، ثم من مُضْغةٍ، فقد صار شيئاً مذكوراً وهو من أَخَسِّ[2] الموجودات لكونه جماداً لا يسمع ولا يُبصر ولا يُحسُّ ولا يتحرك، فقد ابتُدِئ بموته قبل حياته، وبضَعفه قبل قُوته، وبِجَهلِهِ قبل علمه، وبِبَكَمِهِ قبلَ نُطْقِه، وبعَجزه قبل قُدرته، وبفَقره قبل غِناه، وقد أشار اللهُ عزَّ وجلَّ إلى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: ١٨ - ١٩]، ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس: ٢٠] قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا

---

(١) سِنْخُ كل شيء أصله، والجمع أسناخ.

(٢) تصحفت في (ف) إلى: (أحسن).

بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. فأحياهُ بعد الموت، وأحسن تصويره وأخرجه إلى الدنيا فأشبعَه وأرواه وكَساه وهَدَاه وقَوَّاه، وإنما أوجده بعد العَدم وخلَقه من النُّطفة ليُعرِّفه خَساسَةَ ذاته فَتَبينُ له آثارُ نِعَمِه عليه، ومَن هذه بدايته فأيُّ وَجْهٍ لكِبره وفَخره وبطَره؟ على أنه لو أدامَ له الوجودَ على اختياره لكانَ لطُغيانه طريق، فأما وقد سلَّطَ عليه الأخلاطَ المتضادَّة والأمراضَ الهائلة، ثم بينما بُنيانُه قَد تَمَّ وَهَى وتَهدَّم، فلا يملك لنفسه ضَرّاً ولا نَفعاً، بينا هو يذكر الشيء نسيه ويَستَلذُّ (١الشيءَ فَيُرديه، ويَرومُ١) الشَّيء فَلا يناله، ثم لا يأمن أن يُسلَبَ حياتَه بغتةً، هذا وَسَطُ أحواله، وذاك أول أمره، وأما آخر مورده فالموتُ الذي يُعيده جَماداً كما كان، ثم يُلقَى في التراب فَيصيرُ جيفةً مُنتنة، ثم تَبْلَى أعضاؤه وتنخر عظامه ويأكل الدُّود أجزاءه، وأحسنُ حاله أن يَعودَ تُراباً يُعمل منه الكيزان، ويُعمر منه البُنيان، ثم ما أحسن حاله لو تُرِكَ، لا بل يُحييهِ بعد طول البِلَى ليُقاسي شَدائد البَلاء، فَيَجمَعُ أجزاءَهُ المتفرقة، ويُحضره عَرْصَة[٢] القيامة، فيرى أرضاً مُبدَّلَة، وجبالاً مُسَيَّرةً، وسماءً مُشَقَّقة، ونجوماً مُنكَدِرَة، وشَمساً مُكَوَّرة، وأحوالاً مظلمة، وجحيماً تَزْفِرُ، وصحائف تُنْشَر، ويقال له: اقرأ كتابَكَ. فيقول: وما كتابي؟ فيقال: كانَ قد وُكِّلَ بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتَتكبر بنعيمها مَلَكان يُحصيان ما تنطِقُ به أو تَعمَل من قليل أو كثيرٍ وقيامٍ وقُعودٍ وأكلٍ وشرب، وقد نسيتَ ذلك وأحصاهُ اللهُ، فَهلمَّ إلى الحساب عليه، واستعد جواباً له، وإلا فأنتَ تُساقُ إلى النار. فما لمن هذه حالُه والتَّكبُّر؟ فإن صار إلى النّار، فالبَهائم أصلحُ حالاً منه، لأنها تعود إلى التراب آمِنَةً للعذاب، فإن دخل إلى النار فمن يَصفُ قُبحَ منظره، ونَتْنَ ريحه وشِدَّةَ عذابه، ومَن هذه حالُه وهو على شَكٍّ من العَفو عن خَطَئه كيفَ يتكبر؟ ومَن الذي يَسلَمُ من ذنبٍ يستحق به العُقوبة؟ وما مَثَله إلا كمثَل رَجلٍ جَنى على مَلِكٍ جنايةً استحقَّ أن يُضرب لأجلها ألف سَوْط، فَحُبِسَ في السِّجن ليخرَج فَيُعاقب، فهو مُنتظرٌ أَنْ يُدعى به لذلك، أفتراه يَتكبَّر على أهل السِّجن؟ وهل الدنيا إلا سجن؟ وهل المعاصي إلا موجبةٌ للعقاب؟

(١ـ١) سقط من (ف).
(٢) العَرْصة: ساحة الدار، أو البقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

فهذا هو العلاج العلمي القالع لأصل الكبر.

وأما العِلاج العَمَلي؛ فهو التَّواضع بالفِعل لله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال أخلاق المتواضعين، وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه كان يأكل على الأرض، ويُجيب دعوةَ المملوك، ويرقع ثَوبه ويَخصِفُ نَعْلَه إلى غير ذلك من أخلاقه الظاهرة، ولا يتم التواضع إلا بالعمل، ولهذا أُمر العرب بالصلاة؛ لأنهم كانوا يأنفون من الانحناء، فظهرت مذلّتهم بالسُّجود.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة:

وقد ذكرنا في كتاب ذَمِّ الجاه أن الكمال الحقيقي هو العِلم والعمل، وما عداه مما يفنى بالموت فكمالٌ وَهْمِي، فَمِن هذا يَعْسُر على العالم أن لا يتكبَّر، ولكنّا نذكر طريق[1] العلاج من العلم والعمل في جميع الأسباب السبعة:

فنبدأ بالنَّسب، فنقول: من اعتراه الكِبرُ من جهة النَّسَب، فليُداوي قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن هذا تَعزُّزٌ بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئن فَخَرْتَ بآباءٍ ذَوي شَرَفٍ ... لقد صَدَقْتَ ولكن بِئْسَ ما وَلَدوا

وكيف يَجْبُرُ الخَسيسُ في صفات ذاته خِسَّته بكمال غيره؟!

والثاني: أن يعرف نَسبه الحقيقي، فيعرف أباه وجَدَّه، فإن أباه القَريب نُطفةٌ قَذِرة، وجدَّه البَعيد تُرابٌ ذَليل، فأَخَسُّ الأشياء ما إليه انتِسابه.

السبب الثاني: الكبر بالجَمال: ودَواؤه أن ينظر إلى باطنه نَظَر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومتى نظر إلى باطنه رأى من القَبائح ما يُكَدِّر تَعزُّزَه بجماله فإن الرَّجيع في أمعائه والبَولَ في مَثانَتِه، والبُصاقَ في فيه، والمُخاطَ في أنفه، والوسخَ في أُذُنيه، والدَّمَ في عُروقه، والرِّيح المُنتنة في مَغابِنِه، يتردَّد إلى الخلاء، ويغسل آثار الأنْجاس، ويعلم ما يخرج منه، ثم قد علم أنه قد خُلِقَ من

(١) ليست في (ف).

الأَقذار الشَّنيعة من نُطفةٍ ودَم حَيض وأُجْرِيَ في مجاري الأَقذار، ولولا تعاهُده لنفسه بتنظيف ظاهرِه لكان أقذر من البهائم بكثير، ثم سيصير جيفةً أقذر من كل قَذر، فكيف يفتخر بجماله الذي هوكَخَضْرَاء الدِّمَن[(١)]، ثم هو بعَرَضِ التَّغيُّر، ثم كيفَ يَحسُنُ أن يفتخر على من نَقصُه ليس إليه؟ ومن تأمل هذه الأمور أخرجت من قلبه داء الكِبر بالجَمال.

السبب الثالث: التكبر بالقوة: ويدفع ذلك أن يعلم أنه لو آلَمَهُ عِرقٌ عاد أعجز من كل عاجز، وأَنَّ حُمَّى يَوم تُحَلِّلُ من قُوَّته مالا يعود في مُدة، وأنَّ شوكةً لو دخلت في رجله لأعجزته، وبَقَّةً لو دخلت في أُذُنه لَقَلْقَلَتْهُ، ثم هو يمشي إلى الضَّعف ويَدنو من العجز، كما قال شابٌّ لشيخٍ رآه يمشي كالمُقَيَّد فقال: يا شَيخ، مَنْ قَيَّدَك؟ قال: الذي خَلَّفتُهُ يَفتِلُ قَيْدَك.

ثم أيّ فَخرٍ في صفةٍ تَسبق إليها البَهائم، فإنَّ الفيلَ والجملَ أقوى من الآدمي.

السبب الرابع: الغِنى وكثرة المال: وفي معناه كَثرةُ الأتباع والأَنصار، والتكبر بتَوليَةِ السُّلطان، وكلّ ذلك تكبُّر بمعنىً خارجٍ عن ذات الإنْسان، وهو أقبح أنواع الكِبر، فإن المُتكبر بماله يَتكبَّرُ بفَرسِه ودارِه، ولو مات فَرسُه وانهدمت دارُه عاد ذَليلاً، والمُتكبِّر بتَمكين السلطان له في الولاية بَنَى أمرَه على قَلْبٍ هو أشدّ تقلباً من الرِّيشةِ في أرض صَفْصَفٍ[(٢)] في يوم ريحٍ عاصف، فإن تغيَّر عليه عاد أذلَّ الخلق، والمتكبر بالغِنى لو تأمَّل خَلقاً من اليهود وَجدهم أغنى منه فَأُفٍّ لشرفٍ يَسبقُكَ به اليهود، ويَستلبه السارقُ في لحظة، فيعود صاحبه ذَليلاً.

فهذه أسبابٌ ليست في ذات الإنسان، وقد علم أن ما في ذاته ليس إليه دوام وجوده، وكلُّ ما ليس إليك فليس لك، وكل الأشياء لواهِبها، إن أبقاها بَقيتْ، وإن استَرجَعها زالت، وإنما أنتَ عبدٌ مَملوك لا تقدر على شيء، ومن عرف هذا زال كِبرُه، فإن الإنسان لو افتَخر بماله ومَنازله وغِلمانه وخَيلِهِ وحُرِّيته فَشهد شاهدان

---

(١) خضراء الدِّمَن: الشجرة الخضراء في المنبت السوء، تكون سريعة الفساد ولا تُثمِر.

(٢) أرض صَفْصَف: فَلاةٌ لا نبات فيها.

عَدلان عند الحاكم أنه رَقيق لفُلان وأَنَّ أبويه كانا مملوكين له، فحكم بذلك الحاكم وجاء مالكه فأَخذه وما في يديه، وهو يَخشى مع ذلك أن يُنكل به في العُقوبة لتفريطه في ماله وتَقصيره عن طلب مالكه، فحبسه في منزلٍ قد أحاطت به الحَيّاتُ والهَوام، فبقي لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقاً للخلاص، فهل يَحسُن بهذا أن يَفتخر أو يذلّ ويخضع؟ وهذه صفة الآدمي إذا تفكر في نفسه وماله وأنه لا يملك من ذلك شيئاً، ثم هو بين آفاتٍ وشَهوات وأمراضٍ هي كالحيات والعَقارب، ومَن هذه حالُه لا يتكبر بُقدرته وقُوَّته، إذْ لا قُدرةَ له ولا قوة.

فهذا طريقُ علاج التكبر بالأسباب، وهو أهون من علاج التكبر بالعِلم والعَمل، فإنهما كمالان في النَّفس جَديران بأن يفرح بهما، ولكن في التكبر بهما أيضاً نوعٌ من الجهل خَفِيٌّ على ما سنذكره.

السبب الخامس: التكبر بالعلم: وهو أعظم الآفات، وأغلب الأدواء، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بعد جهد جهيد، وهذا لأن قدر العلم عظيم عند الله وعند الناس فهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدر لهما أصلاً إلا إذا كان معهما علم وعَمَل، فالعالم عاجزٌ عن أن لا يَستعظم نَفسه بالإضافة إلى الجاهل مع معرفته بفضل العلم، ولن يقدر العالم على دَفع الكبر إلا بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن يعلم أَنَّ حُجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يُغفَر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يُغفر للعالم ذَنبٌ واحد؛ لأن مَن عَصى عن معرفةٍ وعلمٍ فجنايتُه[1] أَفْحش؛ إذ لم يَقض حقَّ نعمة الله عليه في العلم، وقد مَثَّل اللهُ عزَّ وجلَّ من يعلم ولا يعمل بالكلب والحِمار فقال في بِلْعام[2]: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ

---

(١) تصحفت في (ف) إلى: (فخيانته).

(٢) هو بلعام بن باعوراء، يقال إنه كان يعلم الاسم الأعظم، وأن قومه سألوه أن يدعو على موسى عليه السلام، فلما أجابهم جعل لسانه لا يطيعه بل ينطلق بالدعاء على نفسه وقومه ينظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٠٧ ـ ٥١٢.

يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال في اليهود: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وفي الصحيحين من حديث أُسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال: «يُجاءُ بالرجل يومَ القيامة فيُلقى في النار، فَتَندَلق أَقْتابُه، فيدوركما يدور الحمار برَحاه، فيجتمع أهلُ النار عليه، فيقولون: أي فلان، ما شَأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتَنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

ويكفي العالم هذا الخَطَر، فأي عالمٍ لم يَأمر بما لم يأتِه؟

فمتى خَطر للعالم عِظم قدره بالإضافة إلى الجاهل، فليتفكر في الخَطر العظيم الذي هو بصدده، فإن خطره أعظم من خَطر غيره، كما أنّ قدره أعظم من قَدر غيره، فهذا بذاك، وهو كالمَلِك المخاطر بروحه في مُلكه لكثرة أعدائه، فإنه إذا أَخَذ وقَهَر وَدَّ لو كانَ فقيراً، فكم من عالمٍ يَودُّ في الآخرة سلامةَ الجُهَّال، ولا ينتهي العالم إلى أن يكون أكبر من الصحابة، وقد كان أحدهم يقول: ليتني كنتُ طائراً. ويقول الآخر: ليتني كنتُ تِبْنَةً[١]. ويقول الآخر: ليتني إذا مِتُّ لا أُبعث. وكذلك لخوفِ خطر العاقبة، فمتى أَخْطَرَ العالمُ بخاطره ذكرَ خَطَره زال كِبْرُه ورأى نفسه كأنه شَرّ الخَلق، ومثاله مثالُ عبدٍ أمره سيّده بأوامر فَشَرع فيها وترك بعضها وأدخل النُّقصان في بعضها، وشكَّ في بعضها هل أَدّاه على ما يَرتضيه سيده أم لا؟ فأخبره مخبرٌ أنَّ مَولاه مرسِلٌ إليه رسولاً يُخرجه من كل ما هو فيه عُرياناً ذَليلاً، ويُلقيه على بابه في الشَّمس والحَرِّ زماناً طويلاً حتى إذا ضاقَ عليه الأمر وبلغ به الجهد أمر برفع حسابه وفَتَّش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها، ثم أمر به إلى سجنٍ ضَيّق وعذابٍ دائم، وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم، وهو لا يدري هل يُعفَى عنه أم لا؟ فإذا تفكَّر في ذلك انكسرت نفسُه، وبَطل كبره، وظهر خَوفه وتواضع لكل الخلق لعل واحداً منهم يكون من شفعائه إن نزل به عذاب، فكذلك العالم إذا تفكَّر فيما ضَيَّعه من أوامر ربه بجناياته الظاهرة

(١) سيرد بعد قليل أن عمر رضي الله عنه هو الذي كان يقول ذلك.

بجوارحه وذنوبه الباطنة من الرِّياء والعُجب والنِّفاق وغير ذلك، وعلم ما هو بصَددِه من الخَطَر العظيم فارقَه الكِبر.

الثاني: أن العالم يَعلم أن الكبر لا يليق إلا بالله سُبحانه وأنه إذا تكبر صار ممْقوتاً عند الله بَغيضاً[(١)]، وقد أحب الله منه أن يتواضع، وقال له: إن لك عندي قدراً ما لم تَرَ لنفسك قدراً، فإن رأيتَ لنفسك قدراً فلا قَدْرَ لك. فلابد أن يُكلف نفسه ما يُحب مولاه وهذا يزيل التكبر عن قلبه، ولو تيقَّن أنه لا ذَنبَ له؛ أن من نازع الله رداء الكبرياء قَصَمه.

فإن قيل: كيف يصح للعالم أن يَتَواضع للفاسق والمُبتدع ويَرى نفسه دونهما، فإذن يكون جاهلاً بقدر العلم؟

فالجواب: أنه إنما يمكن ذلك بالتفكُّر في خَطَر الخاتمة، فإنه لو رأى كافراً تصوَّر إسلام ذلك وكُفْره هو، وكذلك إذا رأى مُبتدعاً تصوَّر هدايته وضَلال نفسِه، فالعواقب مَطويةٌ عن العباد، وإذا رأى جاهلاً قال: هذا عَصى الله بجهلٍ وأنا عَصيتُه بعلم، فهو أعذر مني. وإن نظر إلى أكبر منه قال: هذا أطاعَ اللهَ قبلي. وإن نظر إلى صغيرٍ قال: إني عصيتُ الله قَبلَه.

فإن قال قائل: قد أُمِرتُ ببُغضِ المبتدع والفاسق فكيف أتواضع لهما؟

فالجواب: أن هذا قد يشتبه على أكثر الناس لامتزاج الغَضب لله سبحانه في إنكار البدعة والفِسق بكبر النَّفس والإذلال بالعلم والورع، فكم من عابدٍ جاهلٍ وعالم مَغرور إذا رأى فاسِقاً قد جلس إلى جنبه أزعجه من مكانه وتَنزَّه عنه لكبرٍ باطنٍ في نَفسه[(٢)]، وهو يظن أنه قد غَضب لله، وذلك أن التكبر على المُطيع شَرٌّ، فالحذر منه ممكن، فأما التكبر على الفاسق والمبتدع، فإنه يُشبه الغضب لله وهو خير، فإن الغَضبان يتكبر على من غَضب عليه، والمتكبر يغضب فهما ممتزجان وملتبسان لا يُميزُ بَينهما إلا المُوَفَّقون.

---

(١) تصحفت في (ف) إلى: (تغيظاً).

(٢) في (ف): (قلبه).

والذي يُخلِّصُكَ من هذا أن تُحضِرَ في قلبك عند مشاهدة المُبتدع أو الفاسق، أو عند أمرِهما بالمعروف ونَهيهما عن المنكر ثلاثة أشياء:

أحدها: التِفاتُكَ إلى ما سَبق من ذنوبك وخطاياك، ليَصغرُ عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث أن ذلك نعمة من الله عليك وله المنة فيه لا لك، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك، وإذا لم تعجب لم تتكبَّر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته، فربما خُتم له بالخير ولكَ بالشَّر، وذلك يَشغلك عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟.

فأقول: تغضب لمولاك إذا أمرك أن تغضب لا لنفسك، وأنت في غضبك لا تَرى نفسك ناجياً وصاحبك هالكاً، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خَفايا ذنوبك أكثر من خَوفك عليه مع الجهل بالخاتمة، وأُعرِّفُكَ ذلك بمثالٍ لتعلمَ أنه ليس من ضرورة الغَضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قَدركَ فوق قدره. فأقول: إذا كان للملك غُلامٌ وولدٌ هو قُرَّة عينه، وقد وَكَّل الغُلامَ بالوَلد وأمره أن يَضربه إذا أساء، ويغضب عليه، فإن الغلام يغضب على الولد كلما أساء، ويكون غضبه لمولاه، ولأنه أمره بذلك، ويطلب بالغضب التَّقرب إلى سيده من غير أن يَتكبر على الولد؛ لأن الولد أعز منه لا محالة، فليس من ضرورة الغضب التكبر، فكذلك يمكنك أن تَنظر إلى المبتدع والفاسق وتَظن أنه ربما كان قَدرهما عند الله في الآخرة أعظم، لجواز أن يكونَ سبقت لهما الحسنى ولك الشَّر، فتغضب بحكم الأمر محبةً لمولاك، إذ جرى ما يكرهه، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة، فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس فينضم إليه الخَوف والتواضع، فأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لغيره مع جهل العاقبة، وذلك غاية الغرور، فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البِدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر.

السبب السابع: التكبر بالوَرع والعِبادة: وذلك من أعظم الفِتن على العُبَّاد، وعلاجه أن يُلزِمَ العابدُ قلبَه التَّواضع لجميع العِباد، فإذا رأى عالماً تَواضع له لما قد عَرَفَ من فَضيلة العلم، فقد قال رسول الله ﷺ: «فَضلُ العالم على العابد كَفضلي على أَدناكم».

فإن قال العابدُ: إنما ذلك لعالمٍ عاملٍ بعلمه، فما تقول في عالمٍ فاجرٍ؟

فيقال له: إن الحسنات يُذهبن السَّيئات، وكما أن العلم حجة على العالم، فهو وسيلة له، وكفارة لذنوبه، وإذا كان الأمر في ذلك غائباً عنا لزمنا التواضع لصورة العلم.

فإن قيل: فهذا الخبر الذي ذكرتموه يقتضي أن يرى العالم نفسه فوق العابد.

فالجواب: أنّ خوف العالم من العواقب يمنعه من ذلك، إذ من الجائز أن يموتَ على حالةٍ تكون حالةُ الجاهل الفاسق خيراً منها، فربما كان ذلك لذنبٍ يحسبه هَيناً وهو عند الله عظيم قد أوجب له المقت، كما قال الحسنُ: أخافُ أن يكون اطَّلعَ عليَّ في بعض ذنوبي، فقال: اذهبْ لا غفَرْتُ لكَ.

على أنه يَنبغي للعالم والعابد أن يكون كل واحد منهما خائفاً على نَفسه راجياً لغيره، فيندفع التكبر، فهذه حال العابد مع العالم.

فأما مع غير العالم، فهم ينقسمون في حقّه إلى مستورين وإلى مكشوفين، فينبغي أن لا يتكبر على المستور، فلعله أقل منه ذنوباً، وأكثر منه عبادة، وأشد منه حباً لله تعالى، وأما المكشوف حاله فما يمكنك أن تقول: إن ذنوبه أكثر من ذنوبي؛ لأن عدد الذنب من الجهتين غير ممكن، بلى يمكن أن يعلم أن ذنوبه أشد كالقتل والشرب والزنا، ومع ذلك فَلا ينبغي أن يتكبر عليه، إذ ذُنوب القلب من الكبر والرياء ومُساكنة الوساوس في صفات الحق كلها شَديد، وربما أوجب بعضها المَقتَ، وربما حصلت من ذلك الفاسق طاعات كالخوف لله والحب له والإخلاص في الأعمال تُكفِّر عنه قَبائحه، فإذا انكشف الغطاء في القيامة رأيتَه فوقك بدرجاتٍ وربما سَلِمَ وهلكتَ.

والإمْكانُ البَعيد فيما عَليك ينبغي أن يكون قريباً عندك إن كنتَ مُشفقاً على نفسك، فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك، بل فيما هو مخوف في حقك، فإنه لا تَزِرُ وزرةٌ وِزْرَ أُخرى، وعذاب غيرك لا يُخفف شيئاً من عذابك، فإذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شُغل شاغلٌ عن التكبر وعن أن ترى نَفسك فوق غيرك.

واعلم أنه من جُوِّزَ أن يكون عند الله شقياً، فلا سبيل له إلى التكبر، ومَن غلبه الخوف رأى كل أحدٍ خيراً منه، أخبرنا محمد بن أبي منصور وعلي بن أبي عُمر قالا: أخبرنا طِراد ورزق الله قالا: أخبرنا أبو الحسين بن بِشران قال: أخبرنا ابن صفوان. قال: حدثنا عبد الله بن محمد القُرشي قال: حدثني إبراهيم بن سعيد قال: حدثني صُبيح الفَرغاني قال: حدثنا مَخلد بن الحُسين عن الجَلْدِ بن أيوب قال: كان عابد في بني إسرائيل في صومعته منذ ستين سنة، وأنه أُتيَ في منامه فقيل له: إن فلاناً الإسكاف خَيرٌ منك. فلما انتبَه قال: رؤيا، ثم سكت، فلما كان من القابلة رأى مثل ذلك في منامه، فلم يزل يرى في منامه مراراً حتى تبيَّن له أنه أمرٌ فنزل من صومعته فأتى الإسكاف، فلما رآهُ الإسكاف قام من عمله وتلقَّاه وجَعل يتمسَّح به، وقال له: ما أَنْزَلكَ من صومعتك؟ قال: أنتَ أنزلتني، أخبِرني ما عملك؟ فكأنه كره أن يخبره ثم قال: أجل، أَعملُ النهار وأكسب، فما رزقَ الله من شيءٍ أتصدقُ بنصفه، وآكُل مع عيالي النِّصف، وأصوم النَّهار. فانطلقَ من عنده، فلما كان أيضاً قيل للراهب(١): سَلْهُ ممَّ صُفرة وَجهه؟ فأتاه فقال: ممَّ صُفرةُ وَجهك؟ فقال: إني رَجلٌ لا يكاد يُرفع لي أحدٌ إلا ظننتُ أنه في الجنة وأنا في النار. قال: فإنما فُضِّلَ على الراهب بإزرائِه على نَفسه.

والذي يدل على فَضيلة هذه الخَصلة قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أي يُؤتون الطاعات وهم على وَجَلٍ من قَبولها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧]، وقد وصف الله الملائكة مع سلامتهم من الذنوب ومواظبتهم على العبادة بالإشفاق، فقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠] ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

---

(١) أي: قيل له في الرؤيا.

واعلم أنه إذا زالَ الخَوفُ مما سبق به القَضاء حصل الأَمنُ من فكرِ الله فوقع الكبر، وهو سبب الهلاك، فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخَلق أكثر مما يُصلحه بظاهر الأعمال.

فهذه معارف بها يُزال داءُ الكبر، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تُضمر التواضع وتدعي البراءة من التكبر، وهي كاذبة، فإذا جاء الابتلاء عادت إلى طَبعها، فلا ينبغي أن يُكتَفى في المداواة بمجرد المعرفة، بل ينبغي أن تُكمل بالعمل وتجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هَيَجان الكبر من النفس، وبيانه أن يمتحن النفس بامتحانات خمسة هي أدلة على استخراج ما في الباطن:

الأول: أنه إذا تكلَّم في مسألةٍ مع بعض أقرانه، فظهر شيءٌ من الحق على لسان القَرين، فثقُلَ عليه قبوله والانقياد له والاعتراف له والشكر على تَنبيههِ وتعريفه، فذلك يدل على أن فيه كِبراً دفيناً، فليتق الله وليشتغل بعلاجه، إما من حيث العلم فبأن يُذَكِّرَ نفسَه خِسَّةَ نفسه وخَطَر عاقبته، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى، وإما بالمال فبأن يُكلِّفَ نَفسه ما ثَقُل عليه من الاعتراف بالحق، فيطلق اللِّسان بالحمد والثناء، ويُقرُّ على نفسه بالعَجز، ويشكره على الاستفادة، ويقول: ما أحسنَ ما تفطَّنْتَ له، وقد كنتُ غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له، فالحكمة ضالَّةُ المؤمن، فإذا وجدها فَينبغي أن يشكر من دلَّه عليها، فإذا واظب على ذلك مراتٍ متوالية صار ذلك طبعاً، ومتى ثَقُلَ عليه الثَّناء على أقرانه بما فيهم، ففيه كبر، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخَلوة ويَثقل عليه في الملأ، فليس فيه كبر، وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من دَوائه، وإن ثَقُلَ عليه في الخلوة والملأ جَميعاً، ففيه الكبر والرياء جميعاً، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني، فليعالج كِلا الداءين فإنهما جميعاً مُهلكان.

الامتحان الثاني: أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل، فيقدمهم على نفسه، ويمشي خلفهم، ويجلس دونهم، فإن ثَقُل عليه ذلك، فهو متكبر، فليواظب عليه تكلُّفاً حتى يَسقُطَ عنه ثِقله، فبذلك يزايله الكِبر. وهاهنا للشيطان مَكيدة؛ وهو أن يجلس في صف النِّعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأراذل، فيظن أن

ذلك تواضع وهو عين الكبر، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضيل، فيكون قد تكبر، وتكبر بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس إلى جانبهم، ولا ينحط عنهم إلى صف النِّعال، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن.

الامتحان الثالث: أن يجيب دعوةَ الفقير، ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثَقُلَ ذلك عليه فهو كِبر؛ لأن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق، وثوابها جَزيلٌ، فنفُور النفس عنها ليس إلا لخبثٍ في الباطن، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل دَاء الكِبر.

الامتحان الرابع: أَنْ يَحمل حاجة نفسه وحاجةَ أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبت نفسُه ذلك فَهو كِبرٌ ورياء، فإن كان لا يَثقلُ إلا عند مشاهدة الناس، فهو رياء، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم يتدارك، وقد أهمل الناس طِبَّ القلوب واشتغلوا بطب الأجساد، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت والقلوب دائمة السلامة، وقد ذكرنا في أخلاق المتواضعين أنهم كانوا يحملون حاجات نُفوسهم.

الامتحان الخامس: أن يلبس ثياب بِذْلَةٍ، فإن نُفور النفس عن ذلك في المَلأ رياء، وفي الخلوة كبر، وقد كان النبي ﷺ يلبَسُ الصوفَ، ويحلب الشاةَ، ويَلعَقُ أصابِعه، ويُجيبُ دَعوة المملوك، وقيل لأبي موسى الأشعري: إنهم يتخلفون عن الجمعات بسبب ثيابهم[١]. فَلبِسَ عباءةً فصلى فيها بالناس.

وكان لعمر بن عبد العزيز مِسْحٌ[٢] يلبسه بالليل.

وقد بيّنا أن ما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكون في الخلوة فهو الكبر، فليعرف ذلك، فإن من لا يعرف الشَّرَّ لا يَتَّقيه، ومن لا يُدرك المَرض لا يُداويه.

---

(١) أي سبب ابتذالها واهترائها فهم يستحيون الحضور فيها إلى الجمعات.

(٢) المِسح: كساء من صوف أسود.

بَيانُ

غايَة الرِّياضة في خُلُق التَّواضع

اعلم أن هذا الخُلقَ كسائر الأخلاق، له طَرَفان وَوسط، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يُسمى: تكبُّراً، وطرفه الذي يَميل إلى النُّقصان يسمى: تَخاسُساً ومَذلّة، والوَسط يسمى تَواضُعاً.

والمحمود أن يَتواضع في غير مذلَّةٍ، ومن غير تَخاسس، فخير الأمور أوساطها، فمن تقدم على أمثاله فهو مُتكبر، ومن تأخَّر عنهم فهَو مُتواضع؛ لأنه قد وَضع شيئاً من قدره، فإذا دخل على العالم إسكافٌ فَتَنحى له عن مجلسه وأَجلسه فيه، ثم قدم له نَعله ومَشَى خَلفَه إلى باب الدار، فهذا تَخاسُسٌ وتَذلُّلٌ، وذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يُعطي كل ذي حَقٍّ حَقَّه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأمثاله ولمن يقرب منه درجته، فبهذا يكون متواضعاً، فإن فعل ذلك وليس يَخِفُّ عليه، فهو متكلِّفٌ للتَّواضع لا متواضع؛ لأن الخُلُقَ ما صدر بسهولة من غير رَويَّةٍ، وأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبِشر في الكلام، والرفق في السؤال، وإجابة دعوته، والسَّعي في حاجته وأمثال ذلك، وأن لا يرى نفسه خيراً منه، بل يكون على نَفسه أخوف منه على غيره، فلا يحقره ولا يَستصغره، ولأنه لا يَعرف الخاتمتين، فمن نزل عن مراعاة قَدره جداً، فقد خرج إلى طَرفِ النُّقصان، فليرفع نفسه، فليس للمؤمن أن يذلَّ نفسه على أن المَيل إلى النُّقصان أهون من المَيل إلى طرف الزيادة بالتكبر، كما أن المَيلَ إلى طرف التَّبذير في المال أحمد من الميل إلى البُخْلِ، فالتبذير والبُخل مذمومان، وأحدهما أَفحشُ، وكذلك التكبر والتَّذلل والمحمود العدل.

الشطر الثاني من الكتاب في العُجْبِ

وفيه بيان ذم العُجبِ، وآفته، وبيان حقيقة العُجب والإدلال وحدِّهما، وبيان صلاح العُجب على الجُملة، وبيان أقسام ما به العُجب، وتفصيل علاجه.

بيان

ذَمِّ العُجب وآفاته

العُجبُ مذموم في القرآن والسنة، وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥] فذكر ذلك في معرض الإنكار عليهم، وقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، والمَنّ نتيجة استعظام الصَّدقة واستِعظامها هو العجب بها، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «بَينا رجلٌ يَتبختر في بُردين وقد أعجبته نَفسُه فخُسِفَ به الأرض، فهو يَتَجلجَل[1] فيها حتى يوم القيامة».

وقال ﷺ: «ثلاثٌ مُهلكات: شُحٌّ مُطاعٌ، وهَوىً مُتَّبع، وإعجابُ المرء بنفسه».

أنبأنا ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي قال: حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صُهيب

(١) تصحفت في (ف) إلى: (يتخلخل).

قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى هَمَس شيئاً لا أفهمه ولا يُخبرنا به، فقال: «أَفَطنتم لي؟» قلنا: نعم. قال: «إني ذكرتُ نبياً من الأَنبياء أُعطيَ جنوداً من قَومه، فقال: مَنْ يُكافئ هؤلاء ـ أو: مَنْ يقوم لهؤلاء؟ ـ أو غيرها من الكلام، فأُوحي إليه: أن اختر لقومك إحدى ثلاثٍ: إما أن نُسَلِّط عليهم عَدواً من غيرهم، أو الجوع، أو الموت؟ فاستشار قَومَه في ذلك، فقالوا: أنتَ نبيُّ الله نَكِلُ ذلك إليك خِرْ لَنا. فقام إلى صَلاته فَصلّى ما شاء اللهُ ثم قال: أَيْ رَبِّ، أَمّا عَدوٌ من غيرهم فلا، أو الجوعَ فلا، ولكن الموتُ. فَسُلِّطَ عليهم المَوتُ، فماتَ منهم سبعونَ ألفاً، فهَمْسي الذي تَرَون أني أقول: اللهمَّ بكَ أُقاتِلُ، وبكَ أُصاوِلُ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»[1].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم تُذْنبوا لخشيتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجب العُجب». فجعل العُجبَ أكبر من الذنوب.

وروي عن ابن مسعود أنه قال: الهَلاكُ في اثنَتين القُنوط والعُجبُ. وإنما جَمَعَ بينهما لأن السعادة لا تُنال إلا بالطَّلب والتَّشمير، والقانِط لا يَطلب، والمُعجَبُ يظن أنه قد ظَفِرَ بمُراده، فَلا يسعى.

وقال مُطَرِّف: لأن أبيت نائماً وأُصبح نادماً، أحب إليَّ من أن أبيتَ قائماً وأصبح مُعجباً.

وقيل لداود الطائي: أرأيتَ رجلاً دخلَ على هؤلاء الأُمراء فأَمَرهُم بالمعروف ونَهاهم عن المنكر؟ قال: أخافُ عليه السَّوط. قيل: إنه يَقْوى. قال: أخافُ عليه السَّيفَ. قيل: إنه يَقْوى. قال: أخافُ عليه الدَّاءَ الدَّفين العُجْب.

وقال أبو سُليمان الداراني: سمعتُ أبا جعفر يَبكي في خُطبته، فحضرتني نِيَّةٌ في أن أقوم إليه فأكلّمه بما أعرف من فِعله إذا نزل، ثم تفكَّرتُ في أني أقوم إلى خَليفةٍ أَعِظُه والناس جلوس، فيرمقوني بأبصارهم، فيتداخَلُني التَّزيُّن، فيأمر بي فأُقتَل على غَير تَصحيح، فَسكَتُّ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٢٧)، وابن حبان في صحيحه (١٩٧٥).

بَيانٌ

آفةِ العُجب

العُجب يَدعو إلى الكبر؛ لأنه أحد أسبابه كما سبق بيانه، فيتولَّد من العُجب الكِبر، ومن الِكبر الآفات الكثيرة، هذا مع الخلق، فأما مع الخالق، فإن العُجب بالطاعات نتيجة استِعظامها والتَّبجح بها، فكأنه يَمنُّ على الله سبحانه بفِعلها، ويَنسى نعمته عليه بتوفيقه لها، ثم يُثمر إعجابه بها العَمى عن آفاتها، وربَّ آفةٍ دخلت فيها فأفسدتها.

وإنما يتفقد آفات الأعمال[١] مَنْ خافَ رَدَّها دونَ مَن رضِيها فأعجب بها، ثم يظن أنها قد جَعلت له من الله مكاناً، وأنه قد استوجب بها أجراً، ويُثمر ذلك الظن حَمدَه لنفسه والثَّناءَ عليها، ونِسيانَه للذنوب الكثيرة احتقاراً لها، فلا يَتشاغل بتلافيها ظنّاً منه أن ما قد عظم عنده من حَسناته يَغمرها.

فَصل

فإن أُعجِبَ برأيه وعِلمه وعَقلِه، فإن ذلك العجب يَمنعه من الازدياد مما به عجب، فيقتنع بما عنده، ويستنكف من التعلم والاستشارة، وربما عجب برأيٍ فاسدٍ، ويَمنعه العُجبُ من سماع قَولِ نَصيحٍ[٢]، ولهذا قال الحُكماء: عُجْبُ المرء بنَفسه أحدُ حُسّاد عَقله وما أضَرَّ العُجبَ بالمَحاسِن. وقال إبراهيم الخَوّاص: العُجبُ يَمنع من مَعرفة قَدر النَّفس.

فصل

وربما عَجب الإنسان برأيه في باب الاعتقاد، وكان ما عجب به من واقعاته ضَلالاً فهلك، ولو أنه استعان بالعلماء على واقعةٍ لانكشفَ له الخَطأ والصواب.

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: (آيات).

(٢) تحرفت في (ف) إلى: (تقبيح).

بيانُ

حَقيقة العُجب والإدْلال وحَدُّهما

العُجبُ إنما يكون بوَصف كمالٍ من علمٍ أو عملٍ أو مالٍ أو غير ذلك، فيسكن المُعجب إلى ذلك الوَصف سكون ناسٍ للمنعَم به، فإن انْضافَ إلى ذلك أن يرى ذلك حقاً له عند الله، لصفاءِ جوهره أو في مُقابلة طاعتِه، كان إدْلالاً، فكأنه يرى لنفسه على الله دالَّة، كما لو أعطى هو فَقيراً شيئاً فمنَّ عليه به كان معجباً، فإن استخدم الفقيرَ أو استبعد تَخلُّفه عن خِدمته كان مُدلّاً عليه، فالعُجب يحصل باستِعظام ما عجب به، والإدْلال يوجب تَوقُّعَ الجزاء، مثل من يتوقع إجابةَ دعائه، ويُنكر رَده، ولا يتعجب من رَدِّ دُعاء الفُساق، فهذا المُدِلّ.

بَيانُ

علاجِ العُجب على الجُملة

اعلم أنّ عِلاج كل علّة هو مُقابلةُ سَببها بضدّه، وعلى العُجب الجَهل المَحض، فعلاجه المعرفة المضادَّة لذلك الجهل فقط، فلنَفرِض العُجب بفعلٍ داخلٍ تحت اختيار العبد، كالعبادة، والصَّدقة، والغَزو، وسياسة الخَلق، فإن العُجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره، فنقول: لا يخلو أن يعجب المتعبد بالعَمل من جهة أنه مَحلّه ومجراه أو من جهة أنه بقوته وقدرته، فإن كان يعجب به من جهة أنه محلّه ومجراه، فهذا جهل؛ لأن المحل مجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجب بما ليس إليه؟ وإن كان يعجب به من جهة أنه منه وباختياره، فينبغي أن يتأمل الأسباب التي بها تَمَّ عملُه من أعضائه وقُدرته، فيعلم أن وجودها من كَرم الله سبحانه إذ منعَ غيره ما رزقَه من كمال الأعضاء واستِعمال القدرة في الطاعة، فإن خطر له: إنّ اللهَ سُبحانه رآني أهلاً لما أنعم به عليَّ. فالتأهُّل للنعمةِ نعمةٌ من مَنِّه، وإذا كان الكل منه فَينبغي أن يعجبك جودُه لا نَفسك، فهو المنعم بإيجادك، وإيجاد صفاتك، وإيجاد أعمالك، وأسباب أعمالك، فلا معنى لعجب عاملٍ بعمله، ولا عالمٍ بعلمه، ولا جميلٍ بجماله، ولا غَني بغناه، إذ كل ذلك من فَضل الله سبحانه، وإنما الآدمي محل لفَيْضِ النِّعَم عليه، وكونه محلاً نعمة أيضاً.

فإن قال قائل: لا يمكنني أن أجهل أعمالي، وأني أنا عملتها، ولولا أنها أعمالي ما انتظرت عليها ثواباً، وإذا كانت أعمالي فكيفَ لا أعجب بها؟

فالجواب من وجهين: أحدهما: هو صريح الحق، والآخر فيه مُسامحة.

أما صريح الحق، فهو: أنك وقدرتك وإرادتك وحركتك كله من خلق[1] الله

---

(١) ليست في الأصل.

تعالى، واختراعه، فما عملتَ إذ عملتَ، ولا رميتَ إذْ رميت؛ لأنه خلقكَ، وخلق أعضاءَك، وخلق فيها القوة والقدرة والصّحة، وخلق لك العقلَ والعلمَ والإرادة، ولو أردتَ أن تَنفي عن نفسك شيئاً من هذا لم تَقدر، ثم خلق الحركات في أعضائك مُستبداً باختراعها من غير مُشاركة من جهتك معه في الاختراع، إلا أنه خلق ذلك على ترتيبٍ، فلم يخلق الحركة حتى خلقَ في العضو قُوّةً، وفي القلب إرادةً، ولم يخلق الإرادة حتى خلق العلم بالمراد، ولم يخلق العلم حتى خلقَ القلبَ الذي هو محل العلم، فتدريجه في الخلق شيئاً بعد شيءٍ هو الذي خَيَّلَ إليكَ أنك أوجدتَ عملك، وقد غلطتَ، وإيضاحُ ذلك وكيفيةُ الثواب على عَملٍ هو من خَلقِ الله سَيأتي تقريرُه في كتاب الشُّكر، فإنه أَلْيَقُ به فارجع إليه.

ونحن الآن نُزيل إشكالك بالجواب الثاني الذي فيه المسامحة، فنقول: احسِبْ أن العملَ حصل بقُدرتك، فمن أين قدرتك؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ووجود عملك وإرادتك وقدرتك، وكل ذلك من الله تعالى لا منك، فإن كان العمل بالقدرة فالقُدرة مفتاحه، وهذا المفتاح بيد الله، وما لم يُعْطِكَ المفتاح لا يمكنك العمل، كما لو قعدتَ عند خزانةٍ مُغلقةٍ لم تقدر على ما فيها إلا أن تُعطَى مفتاحها، فإذا نُووِلتَ المفتاح فمددتَ يدك فأخذته، فينبغي أن يكون إعجابك بإعطاء الخازن المفتاح لا بمَدِّ يَدِكَ؛ لأن مؤنة مَدِّ اليد يَسيرة، وإنما الشأن في تسليم المفتاح، فكذلك إذا خُلقت لكَ القُدرة، وسُلِّطَت الإرادة الجازمة، وحُرِّكَت الدواعي، وصُرِفت الصَّوارِفُ، فحينئذ يَسهل العمل عليك، فمن العجائب أن تعجب بنفسك وتَنسى تسهيل الأمور التي بتَسهيلها سَهُلَ عملك، أما سَلَّطَ دواعي الفَساد على الفُسّاق وحَرَّك دواعي الخَير عندك؟ لا بوسيلةٍ سبقت منك ولا بجريمة سَبقت منهم، بل لإيثاره إيّاك واصطفائِه لك؟

وسيأتي في كتاب التَّوحيد والتوكُّل من بيان تَسلسُل الأسباب والمُسبّبات ما يَستبين به أنه لا فاعل إلا الله ولا خالق سواه.

والعَجَبُ ممن رَزَقه الله عَقْلاً وأَفقره، كيف يعترض ويقول: ما هذا الفَقر مع وجود العلم والعقل؟ أفصارت النعمة حجة لطلب نعمة أخرى؟ وكيف لم تَبِنْ

للعاقل وجوه الحِكمة في الفَقر فيثمر ذلك عنده الصبر، ولو خفيت عليه الحكمة لكفاه التسليم للمالك، ثم إن المؤمن يَشغله خوفه من سَلب ما أُنعمَ به عليه من النِّعم عن إعجابه بها، خُصُوصاً إذا تفكر فعلم أنها وُهِبت بغير وَسيلةٍ، وحُرِمَها أقوامٌ من غير جِناية، وأن المعطي يَفعل ما يشاء، فهذا هو العلاج القامع لمادة العُجب من القَلب، (١وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنَّة» قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللهُ بفضلٍ منه»(١).

(١-١) سقط من الأصل.

بَيان

أقسام ما به العُجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العُجبَ يكون بالأسباب التي بها يقع الكِبر، وقد سبق ذكر هذا، وقد يكون العُجبُ بما لا يُتكبَّر به كعُجبِ الإنسان بالرأي الخطأ. وجملة ما يقع به العُجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يُعجب ببدَنِه وحُسنِ صورته وجمال نفسه، وينسى أن ذلك نِعْمة من الله تعالى، وأنه بعرضةِ الزوال[1].

وعلاجه: ما ذكرنا في الكِبر بالجمال، وهو التفكر في أقذارِ الباطن وبداية الأمر ونهايته من البلى.

والثاني: العُجب بالقوة والبَطش، كما عجب قومُ عاد فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فأهلكوا بالريح، وعجب عُوجٌ[2] بقوَّته فاقتلَع قطعةً من جبلٍ ليُلقيها على قوم موسى فَنَقبَها اللهُ عزَّ وجلَّ فصارت في عُنقه، وقد يَتَّكل الإنسانُ على قُوّتِه، كما قد روينا أن بَني إسرائيل تَذاكروا: هل يمكن الإنسان أن يمضي عليه يوم ولا يعصي الله فيه؟ فحدث داود نَفسه بذلك سكوناً إلى قُوَّته في المُجاهدة فابتُلي يومئذ بالذَّنب، وقال سُلَيمان: لأطوفَنَّ الليلة على مئِة امرأةٍ تَلِدُ كل امرأة منهن غُلاماً يُجاهد في سَبيل الله، فحرم ذلك.

وقد يورث العُجبُ بالقوة التهجُّم في الحروب على التَّهلُكة، وعلاج ذلك أن يعلم أن ذلك أمرٌ زائل، وأن حُمَّى يوم تُزيلُ قوة البَدَن، ويسير من الفتن يدفع قوة العزائم.

---

(١) أي أنه مظنة أن يعرض له الزوال.

(٢) هو عُوج بن عُنق، قيل: إنه ولد في منزل آدم عليه السلام وعاش إلى زمن موسى عليه السلام، وقيل: هو رجل من الفراعنة كان يوصف من الطول بأمرٍ شنيع لا يكاد يُصدق، وذُكر أنه كان إذا قام كان السحابُ له مِئزراً، ولعل ذلك من الإسرائيليات.

الثالث: العُجبُ بالعقل والكياسة، والتَّفطُّن لدقائق الأمور، وهذا يثمر الاستبداد بالرأي وترك المشاورة، واستجهال المخالفين لرأيه.

وعلاجُه: أن يتعرف مقدار عقله من أعدائه لا من أصدقائه، ومن الحكماء لا من نفسه، فربما عظَّمَ من نفسه ما ليس بمعظَّم، ثم يشكر الله تعالى على ما رَزَقه، (١وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً١)، ثم ليعلم أنه بأدْنى مَرضٍ يُصيبُ الدماغ يفسد ذلك، ثم يكون خائفاً من تَحوّل الحال، وأن يُعاقَب لعدم شكره على تلك النِّعم بزوالها.

الرابع: العجب بالنَّسب، كما يتخيل الشَّريف أنه ينجو بسبب شرفِ آبائه، ويظن بعضهم أن جميع الخَلق عبيدٌ لهم.

وعلاجه: أن يعلم أنه متى خالف آباءَه في أفعالهم وظنَّ أنه يلحق بهم، فقد جهل، وإن اقتدى بآبائه، فإنه لم يكن العجب من أخلاقهم، بل الخَوف والإزْراءُ على النَّفس، وإنما شَرُفوا بالطاعة والخِصال المحمودة لا بنفس النسب، فإنه قد شاركهم فيه مَن ليس بمؤمن، وقد بيَّن اللهُ سبحانه أن الشَّرفَ بالتَّقوى لا بالنسب فقال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «يا فاطمة، لا أُغْني عنكِ من الله شيئاً». فمن علم أن آباءَه كانوا على قَدَم التَّقوى والتواضع ولم يقف في مقامهم، فقط طَعن في نَسبِ نفسه بلسان حاله.

فإن قال قائل: إنما يَرجو الشريف أن يشفع فيه ذو قَرابته.

فالجواب: أن كل المسلمين يرجون الشَّفاعة، وقد يُشفع في الشخص بعد إحراقه بالنار، وقد يقوى الذنب فلا تُنْجي منه الشفاعة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أُلفِينَّ أحدكم يَجيءُ يوم القِيامة على رَقَبته بَعيرٌ له رُغاء، فيقول: يا رسولَ الله أغِثْني. فأقول: لا أَملكُ لكَ شيئاً، قد أَبلَغْتُك».

وَمَثلُ المُنْهَمِكِ في الذنوب اعتماداً على رجاء الشَّفاعة كَمثل المَريض المُنهمك في الشَّهوات اعتماداً على أنْ يَطبَّهُ طَبيبُه الحاذق المُشفق، وذلك جهل، فإن اجتهاد

(١-١) سقط من (ف).

الطَّبيب يَنفع بعضَ الأمراض لا الكُل، ويوضّح هذا أن سادات الصحابة كانوا خائِفين من الآخرة، فكان أبو بكر يقول: لَيتني كنت كبشاً ذبحني أهلي. وقال عُمر: لَيتني كنتُ تِبْنَةً في حائطٍ ولا أُحاسب. وقالت عائشة: لَيتني كنتُ نَسْياً مَنْسياً. فكيف يَتَّكِلُ على الشَّفاعة من ليس له مثل مَراتب هؤلاء؟

الخامس: العُجبُ بنَسب ظَلمةِ الأُمراء.

وعلاجه: أن يتفكَّر في مَخازيهم ويتذكر ذُلَّهم في القيامة واحتقارَهم وتعلق الخصماء بهم، فينبغي لمن عُصِمَ مِن أَوْلادِهم[1] من مثل أفعالهم أن يَشكر الله تعالى على سَلامة دينه ويستغفر لهم.

السادس: العُجبُ بكثرة العَدد من الأولاد والخَدم والعَشيرة والأقارب والأتباع، كما قال الكفار: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَلًا وَأَوْلَدًا﴾ [سبأ: ٣٥].

وعلاجه: ما ذكرنا في الكبر، وهو أن يتفكر في ضَعفِه وضعفهم، وأن كلهم عبيد عَجَزة لا يملكون لأنفسهم ضَراً ولا نفعاً، وأنهم سيفترقون عنه إذا مات، وينفرد عنهم في قبره، ويهربون منه في يوم القيامة، فأيّ غَناءٍ عند من يُفارقك في أشد أحوالك؟

السابع: العُجب بالمال، كما قال صاحب البُستان ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

وعلاجه: أن يتفكر في آفاتِ المال، وكثرةِ حُقوقه، وعِظَم غَوائله، والسؤالِ عن كَسبِه وإنفاقِه، وسبقِ الفقراء له إلى الجنة، وفيما ذكرناه في كتاب الزُّهد، وكتاب ذَمِّ الدنيا، وكتاب ذَمِّ المال ما يخوف من الغِنى.

الثامن: العُجب بالرأي الخطأ، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨] وقال: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وجميع أهل البدع إنما أَصرّوا عليها إعجابهم بآرائهم.

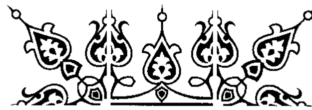
---

(١) تحرفت في (ف) إلى: (هؤلاء).

وعلاج هذا أشد من علاج غيره؛ لأن ذا الرأي الخطأ جاهلٌ بخطئِه، ومُعالجة الداء الذي لا يُعرف لا تُمكِن، والجهل داءٌ لا يُعرَف فَتَعسُر مداواته، ومتى كان هذا الشخص معجباً برأيه لم يُصغِ إلى نَصيحٍ، وكيف يترك ما يعتقده نجاةً له.

وإنما علاج مثل هذا في الجملة: أن يكون مُتَّهماً لرأيه أبداً، لا يغتَرُّ به إلا أن يَشهد له قاطع من كتابٍ أو سنةٍ أو دليل عقلي جامعٍ لشروط الأدلة، ولن يعرف ذلك إلا بمجالسة أهل العلم وممارسة الكتاب والسنة، والأَولى لمن لا يتفرغ لاستغراق العُمر في العلم أن لا يَخوض في المذاهب، ولكن يقف على اعتقاد الجُمَل، وأَنَّ الله سبحانه واحدٌ لا شريك له، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأن رسولَه صادق فيما جاء به، ويُؤمن بما جاءَ به القرآن من غير بَحثٍ ولا تَنْقِير[1]، ويَصرف زمَنه في التقوى وأداء الطاعات، فمتى خاض في المذاهب ورامَ ما لا يصل إلى معرفته مثله هلك.

آخر كتاب ذم الكِبر والعُجب



(١) التَّنقير: التفتيش والبحث الشديد.

كتاب
ذَمّ الغُرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات

الحمدُ لله مُدبِّرِ الأَحوال والأمور، ومُدَهِّرِ الأَحيان والدُّهور، ومُصرِّفِ الأوقات والعُصور، ومُعيد الصُّوَرِ عند نَفح الصُّوْر بمَشيئتِه السلامةُ والثُّبور، وبإرادته الحُزن والحُبور، وبحكمته الكسرُ والجُبور، وإلى قَضائِه السُّرور والشُّرور، بَثَّ الشُّبَهَ بينَ الحُجَجِ ثمَّ شَعْشَعَ النُّور، وأقامَ العقل نَصيحاً يَصيحُ قبل العُثور: فلا تَغرنَّكُم الحياةُ الدنيا، ولا يَغرنّكُم بالله الغَرور.

أَحمدُه حَمداً يَدوم بدوام الأَيام والشُّهور، وأشهدُ له بالتَّوحيد شَهادةً تُخرجُ قائلها من الظُّلماتِ إلى النور، وأن محمداً عبده ورسوله أرسلَه وقَد زَيَّنَ الشيطانُ الخِدعَ والغُرور، فأوضحَ الحقَّ وهتكَ الزُّورَ، ونسخَ بنهار شَريعتِه ظلامَ كلِّ دَيْجور، صلَّى الله عليه وعلى من بايَعه وتابَعَه إلى يوم الحَشْر والحُضور.

أما بعد: فإنّ مفتاح السَّعادة التَّيقُّظ والفِطنة، ومنبع الشَّقاوة الغُرور والغَفلة، فلا نعمة أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وصول إلى ذلك إلا بنور البَصيرة، ولا نِقمة أعظم من الكُفر والمعصية، ولا داعي إلى ذلك إلا عَمَى القلب بظُلمة الجهالة، فقلوب أرباب اليَقَظة كمِشْكاةٍ فيها مصباح، وقلوب المغترين كظُلماتٍ في بَحرٍ لُجِّيٍ.

وإذا عُرِفَ أن الغُرور هو أُمُّ الشَّقاء ومَنبعُ الهلكة، فلا بد من شَرح مداخِلِه ومجاريه، وتفصيل ما يكثر وقوع الغُرور فيه، ليحذره المريد.

وفِرقُ المغترين كثيرةٌ، وأحوالهم مختلفة، فمنهم من يَرى المنكر معروفاً، كمن يُزَخرف المسَاجد من المالِ الحرام، ومنهم من لا يُميز بين ما يَسعى فيه لنفسه وبين ما يَسعى فيه لله سبحانه، كالواعظ الذي غرضُه القبول والجاه، ومنهم من يترك الفَرْضَ ويشتغل بالنّافلة، كمن يتعبَّد ويترك الكَسبَ للعيال، ومنهم من يَشتغل بالقِشر عن اللُّبِّ، كمن هو مقصورٌ في الصَّلاة على تَصحيح مخارجِ الحروف دون فَهِم ما يَتلوه.

بَيان ذَمِّ الغُرور

يَكفي في ذَمِّ الغُرور قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] وقوله: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ [الحديد: ١٤]، وقال النبي ﷺ: ((الكَيِّسُ من دانَ نفسَه وعَمِلَ لما بعدَ المَوت، والعاجزُ من أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأماني)).

وكلُّ ما ورد في فَضل العلم وذَمِّ الجَهل فهو دليل على ذم الغرور؛ لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجَهل، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به، والغرور جهل، إلا أنه ليس كل جهلٍ بغرور، بل يستدعي الغرور مَغروراً فيه مخصوصاً ومغروراً به، ومتى اعتقدَ الإنسان شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شُبهة ومَخيلة فاسدة تُظَنُّ دليلاً سُمِّيَ الجهلُ الحاصل بذلك غروراً، فالغرور سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شُبهةٍ وخدعة من الشيطان، ودرجاتُ الغرور تَتَفاوت.

ذِكرُ غُرور الكُفّار

منهم من غَرَّتهُ الدنيا، فقال: النَّقدُ خَيرٌ من النَّسيئة، والدنيا نَقدٌ والآخرة نَسيئة، ومنهم من قال: لذّات الدنيا مُتيقَّنة، ولذات الآخرة مَشكوكٌ فيها، واليقين خيرٌ من الشَّك؟

وعلاجُ هذا الغرور بالنَّظر في دليل التوحيد وصدقِ الرسول، فحينئذٍ يثبت خبره بأن الآخرة خير.

فأما قولهم: النَّقْدُ خير من النَّسيئة. فهو محل التَّلْبيس، وذلك لأنه إذا كان النَّقد مثل النَّسيئة، فالنقد خير، وإن كان أقل منه[1]، فالنَّسيئة خير، ولذلك يَبذُل هذا

(١) في (ف): (منها).

الكافرُ في تجارته درهماً ليأخذ عشرةً نَسيئةً، ولا يقول حينئذ: النقد خير من النَّسيئة، ويترك لذيذ الأطعمة خوفاً من ألم المَرض في المستقبل، ومعلوم أن عُمر الإنسان بالإضافة إلى مُدَّة الآخرة ليس بجزء من ألفِ ألفِ جزءٍ، إلى أن ينقطع النفس من الآخرة، بل ترك شيئاً حقيراً ليأخذ ما لا نهاية لعدده ولا منقطع لأمَدِهِ، وإنما أراد من قال: النقدُ خيرٌ من النَّسيئة إذا كانت النسيئة مثل النقد.

وأما قولهم: اليقينُ خيرٌ من الشَّك، (١يجعلها يقيناً١)، فإنا قد رَأينا من يَترك مُتيقناً لمشكوكٍ يرجو بتركه أفضل مما ترك، أو يخاف من تناول ما تناول، فإن التاجر في بَيعه على يقين، وفي ربحه على شَك، والمتفقِّهُ في اجتهاده على يَقين، وفي إدراكه رُتبة العلم على شَك، والمريضُ يَشرب الدواء المُرَّ وهو من الشفاءِ في شَك، ثم إنّ الجزمَ دأب العقلاء بالاتفاق، وكل ذلك تركٌ لليقين بالشَّكِّ، فمن شَكَّ في الآخرة فإن الجزم عنده أن يصبر عما نُهِيَ عنه مُدةَ عمره، وهي قليلة بالإضافة إلى أيام الآخرة، فلو لم تكن الآخرة وَعْداً صادقاً لم يَفُتْهُ إلا التَّنعُّمُ في مُدة حِياتِهِ المحتَقرة، وإن كانت صدقاً، فَعذاب النار لا يُطاق، ومن هذا قول أبي العلاء:

قالَ المنَجِّمُ والطَّبيبُ كِلاهُما ... لا تُنْشَرُ الأمواتُ قلتُ إليكُما

إنْ صَحَّ قولُكُما فلسْتُ بخاسِرٍ ... أوْ صَحَّ قولي فالخَسارُ عَليكُما

هذا جوابٌ مَقصودُه إفحامُ المعترض بقوله: اليَقين خيرٌ من الشَّك، وإلا فالآخرة مُتيقَّنة، وإنما يحصل اليقين بها بالنظر في صِدقِ الرسول المخبِر عنها بالمعجزات الخارِقَة.

وأما مُلابِسو المعاصي مع سَلامة عَقائِدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور؛ لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من جهة أنَّ أصل الإيمان يَمنعهم من عقاب الأبد.

وقد يغتر الكافر بأن يقول: إن كانَ ثَمَّ مَعادٌ فأنا أحقّ به من غيري. كقول ذلك القائل: ﴿وَلَبِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقول الآخر:

(١-١) ليس في (ف).

﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، وسبب هذا الاغترار أنهم رأوا نِعَمَ الدنيا متوفرة عليهم والعذابَ بعيداً عنهم، فقاسوا أمر الآخرة على ذلك، وزعموا أن الإحسانَ يقتضي المحبَّة، ولولا أنه يحبنا ما أعطانا، ومن أحسنَ في الماضي أحسن في المستقبل، ولو علموا أن ما أُعطوه عليهم لا لهم لم يقولوا هذا، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وما مُنِعَه المؤمن من الدنيا فحِمْيَةٌ، وقد كشفَ هذا قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]. أي ليس هذا بكرامة ولا هذا بهوان.

وعلاجُ هذا الغرور معرفة دلائل الكرامة ودلائل الهوان.

ومن هذا الجنس اغترارُ العُصاة بقولهم: إن الله كريمٌ، وإنّا نَتَّكل على عَفوِه ونَتوسَّلُ إليه بالتوحيد. وربما اغتَروا بصلاح آبائهم كالشُّرفاء، وقياسهم: أن من أحب إنساناً أحبَّ أولاده، وأن الله عز وجل يحب آباءَنا، وقدنَسوا أن نوحاً عليه السلام أراد أن يَستصحبَ ابنَه في السفينة فقيل له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، وأن استغفارَ إبراهيم لأبيه لم ينفعه، ولا شفاعة محمدٍ في أُمِّه، وإنما يحبُّ الله عزَّ وجلَّ المطيع، فلو أن ولداً عصى وكان الأبُ مطيعاً لم يُبغض الوالد بمعصية الولد، فكذلك طاعة الوالد لا توجب محبةَ الوَلد، ومن ظَنَّ أنه ينجو بتقوى أبيه كان كمن ظن أنه يَشبع بأكلِ أبيه، والتَّقوى فرضُ عين.

وقولهم: إن الله كريمٌ. كلامٌ صحيح، ولكن الشياطين تخدعهم به، وقد كشفَ ذلكَ قولُ الرسول ﷺ: «والعاجز من أَتبعَ نفسَه هواها وتمنّى على الله».

وأما تعلُّقهم بالرجاء؛ فإن الرجاء له أسباب، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فبيَّن أنَّ الرجاء بمثل هؤلاء يَليق، أفتَرى من استُؤْجِرَ لإصلاحِ أواني فكسَرَها، يحسن أن يرجو أخذَ الأُجرة؟ وقد قال العلماء: من رَجَا شيئاً طَلَبه، ومن خافَ شيئاً هرب منه، والعَجَبُ ممن لم يَنكح كيف يرجو الولد، فمن تاب ورَجا العَفو،

فرجاؤه صحيح، ومن رَجَا الغُفْران مع الإصرار فهو مَغرور، وليعلم أن الله سبحانه مع سَعَةِ رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتَخليد الكُفّار في النار مع أنه لا يَضرُّه كفرهم، وقد سلط الأمراضَ والمِحَنَ على خلقٍ من عباده في الدنيا، وهو قادر على إزالتها، ثم قد خَوَّفنا عقابَه، فكيف لا نخاف؟ فالخوفُ والرجاء سائقان يَبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غُرور.

ويوضح هذا: أن رجاءَ أكثر الخلق يحملهم على البَطالة وإيثار المعاصي، فعلمت أنه غرور، والعَجَبُ من القَرنِ الأول عَمِلوا وخافوا، ثم أهلُ هذا الزمان أَمِنوا مع التَّقصير واطمأنوا تَراهم عرفوا من كَرَم الله عز وجل ما لم يَعرفهُ الأنبياء وصالحِو السَّلَف؟ وإذا كان هذا الأمر يُدرك بالمُنى فلمَ تَعِبَ أولئك وكَثُرَ بكاؤهم؟ وهل ذَمَّ أهلَ الكتاب بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] إلا لمثلِ هذه الحال؟

فَصل

ويَقرُبُ من هذا الغرور غُرور أقوامٍ لهم طاعات ومعاصي إلا أنّ معاصيهم أكثر، فهم يظنون أن حَسناتهم تَرجح، فتَرى الواحدَ منهم يتصدق بدراهم[١] ويكون ما تَناوله من الغَصْب أضعاف ذلك، ولعل الذي تصدَّق به من المغصوب، ويتَّكلُ على تلك الصدقة، وما هذا إلا كمن وضَع دِرْهَماً في كِفَّةٍ وألفاً في أخرى، ثم رَجا أن يرجح الدرهم بالألف.

ومنهم من يَظنُّ أن طاعاته أكثر من معاصيه، وسبب هذا الظن أنه يحفظ عدد حسناتِه ولا يُحاسبُ [٢]على سَيئاته[٢] ولا يتفقد ذنوبه كالذي يستغفر الله أو يُسَبحه[٣] مئةَ مرةٍ في يوم، ثم يغتاب المسلمين ويتكلم بما لا يُرضي طول النهار، فهو ينظر في فضائل الاستغفار والتسبيح، ولا ينظر في عقوبة الغِيبة والكلام المَنهيِّ عنه.

(١) في (ف): (بدرهم).
(٢-٢) سقط من الأصل.
(٣) ليست في الأصل.

فَصل

ويَقع الاغتِرار في الأَغلب في حقِّ أربع طوائف: العُلماء، والعُبَّاد، والمتَصوِّفَة، والأغنياء.

فأما أهل العلم، فالمغترون منهم فِرقٌ: ففرقةٌ منهم أَحكموا العلوم الشَّرعية والعَقلية، وتعمقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تَفقُّد الجوارح وحِفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظَنّوا أنهم من الله بمكانٍ، وأنه لا يعذب مثلهم، وقد بلغوا ما بلغوا من العلم، بل يقبل في الخلق شَفاعتهم، ولو نظر هؤلاء بعَين البَصيرة علموا أن علمَ المُعاملة لا يُرادُ إلا للعمل، ولولا العمل لم يكن له قَدر، ومثال هذا كمريضٍ به عِلَّة لا يُزيلها إلا دواءٌ مركَّبٌ من أَخْلاطٍ كثيرةٍ لا يعرفها إلا حُذَّاقُ الأَطباء، فسعى في طلب طبيبٍ حاذقٍ فعلَّمه الدواءَ وبين له معادن الأخلاط ومقاديرها وكيف تُجمعُ، فكتبَ نُسخةً وعاد إلى منزله، فجعل يُكرر قِراءة النُّسخة ويُعلمها المَرضَى، ولا يشتغل بشُربها، فهل ينفعه ذلك من مَرضه؟ هيهات؟ لا وَجه لنفعه إلا أن يستعمل الدواء الموصوف ويصبر على مرارته، ثم هو على خَطرٍ من الشفاء، فهكذا الفَقيه إذا أحكم علم الطاعات ولم يَعملها، وعَلمَ المعاصي ولم يَجتنبها، وعَلِمَ الأخلاقَ المذمومة ولم يُطهر نفسَه منها، فإن الله تعالى قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩]، ولم يقل: قد أفلح من تعلَّم كيف يُزَكّيها[1]، فإن تَلا عليه الشيطانُ فضائل العلم فليذكُر له ما ورد في العالم الفاجر، كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وقد سبقَ في كتاب العلم من هذا كثير.

فأما من يَدَّعي علمَ معرفة اللهِ سُبحانه ثم يُضيع أوامِرَه وحُدوده فغروره[2] أشد، ومثاله مثال من أراد خِدمةَ ملكٍ فعرف المَلِكَ وعَرفَ أخلاقَهُ وأوصافَه، ولم يتعرف ما يُحبه ويَكرهه، وما يَغضب لأجله ويرضى به، أو عرف ذلك إلا أنه لا بَسَ ما

(١) في (ف): (تزكيتها).
(٢) سقطت من (ف).

يَغضب به وتَعطَّل عن ما يُحبه، ثم أراد التَّقرب إلى الملك وهو مُتلوثٌ بكل ما يَكرهه، عاطلٌ عن كل ما يحبه، فتوسل إليه بمعرفته، فهذا مغرورٌ جداً، إذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفة ما يُحبه ويَكرهه كان ذلك أقرب له إلى نَيلِ مُراده، بل تقصيره في التقوى واتِّباعه للهوى دليل على أنه لم يَنكشف له من معرفة الله سبحانه إلا الأسماء دون المعاني، إذ لو عرف اللهَ سُبحانَه حق معرفته لخافَ منه واتقاه، فمن عرفَ من صفاتِ الله تعالى أنه يُهلك الخلقَ ولا يُبالي، ويُعذب من يَشَاء، ولا تأخذه رِقَّةٌ، فإنه يشتد خَوفُه منه. وما أحسن ما قال الحسن البَصري وقد قيل له في مسألةٍ: خالفتَ الفُقهاء. فقال: وهل رأيتُ فقيهاً قَطُّ؟ إنما الفَقيهُ الذي يخشى الله عَز وجل.

وفرقةٌ أُخرى أَحكموا العلم والعَمَلَ، فواظبوا على الطاعات[1] الظاهرة وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قُلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة[2] منها، كالكبر، والحسَد، والرِّياء، وطَلب العُلوِّ، وإرادة السوء للنظراء، وطلب الشُّهرة[3]، وربما لم يعلم بَعضُهم أن هذا مذمومٌ، فلم يحترز منه، ولم يتأمل قول النبي ﷺ: «أدنى الرِّياء شِرْكٌ»، وقوله: «لا يَدخُل الجنَّةَ من في قلبه مِثقالُ ذرةٍ من كِبْر»، وقوله: «الحَسَدُ يأكل الحَسَنات كما تَأكل النارُ الحطبَ»، وغير ذلك من الأخبار التي يحويها رُبع المهلكات في الأخلاق المذمومة، فهؤلاء زَيَّنوا ظواهرهم وأَهملوا بواطنهم ونَسوا قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله لا يَنظُر إلى صُوَركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، فتعاهدوا الأعمال ولم يَتعاهدوا القلوب، والقلب هو الأصل إذْ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، ومثال هؤلاء كبِئْرِ الحُشِّ[4] ظاهرها جِصٌّ وباطنها نَتْنٌ، وكالقبور ظاهرها مُزيَّن وباطنها جِيفةٌ، وكبيتٍ باطنه مُظلم وعلى سَطحه سِراج، وأقرب الأمثلة من هذا رجلٌ زَرَع زرعاً فنَبَت ونَبت

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: (الصفات).
(٢) سقطت من (ف).
(٣) تحرفت في (ف) إلى (الشهوة).
(٤) الحُش: الكَنيف.

معه حَشيشٌ يُفسده، فأُمر بتنقية الزَّرع من الحَشيش بقلعه، فأخذ يَجُزُّ رؤوسه وأطرافَه ويترك أُصوله، [(١)فلم تزل أصوله(١)] تَقوى وتَنبت، فمغارس المعاصي هي الأخلاق الذَّميمة في القلب، فمن لم يُطهر القلبَ منها لم تتمَّ له الطاعات الظاهرة إلا مع آفاتٍ كثيرة، فمثلُه كمثل من به جَرَبٌ فأُمِرَ بالطِّلاء وشُرب الدَّواء، فالطلاء لإزالة الظاهر والدواء لقَلع المادة من الباطن، فقنع بالطِّلاء وتركَ شُربَ الدَّواء، ثم تناول مما يزيد في المادة فلم يَزُلْ ما به.

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مَذمومةٌ، إلا أنهم لعُجبهم بأنفسهم يَظنون أنهم مُنفكّون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يَبتليهم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم، فإذا ظهر عليهم مَخايل الكِبر والرِّئاسة وطلب العُلُو قال أحدهم: ما هذا كِبر، وإنما هو طلبُ عِزِّ الدِّين وإظهارُ شَرف العلم وإرغامُ أنف المبتدعين، فإني لو لبست الدُّونَ من الثياب، وجلستُ في الدّون من المجلس شَمتَ بي أعداء الدين وفرحوا بذلك، وكان ذلي ذُلاً للإسلام. ويَنسى المَغرور أن إبليس هو الذي قد سوَّلَ له هذا، بدليل أن رسولَ الله ﷺ وأصحابَه كانوا يتواضعون ويُؤثرون الفَقر والمَسكنة، وقد روينا عن عمر بن الخطاب أنه لما قَدِمَ الشام عرضت له مَخاضَةٌ[(٢)]، فنزل عن بَعيره، فقال أبو عُبيدة: لقد صنعتَ اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض. فصكَّ في صَدره[(٣)] وقال: أَوَّه لو غَيرك يقول هذا يا أبا عبيدة؟ إنكم كنتم أذلّ الناس وأحقر الناس فأعزَّكُم اللهُ برسوله، فمهما تطلبوا العِزَّ بغيره يُذِلّكُم الله. وفي رواية عنه أنه لما قَدِمَ الشّام استَقبله الناسُ وهو على بَعيره، فقيل له: لو ركبتَ بِرْذَوناً[(٤)] يلقاكَ عظماءُ الناس ووجوهُهم. فقال عمر: ألا أراكم هاهنا إنما الأمر من ههنا ـ وأشار بيده إلى السماء ـ خَلّوا سَبيل جَمَلي.

---

(١) سقط من (ف).

(٢) المخاضة: الموضع القليل الماء الذي يعبر فيه الناس النهر مشاةً ورُكباناً.

(٣) أي: ضرب في صدره ودفعه بقوة.

(٤) البِرذَون: يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، عظيم الخلقة قوي الأرجُل غليظ الأعضاء.

ثم العَجَب من مَغرورٍ يَطلب عِزَّ الدين بالثياب الرَّفيعة والخيُول الفارهة، وربما طلبه بلبُس الحرير، وربما أطلق لسانَه في أقْرانِه حَسَداً، وزعم أنه إنما تكلَّم غضباً للحق، وينكشف هذا بأنه لو طُعِنَ في غيره من أهل العلم أو زوحم غَيره في رئاسةٍ فهل كان يغضب لذلك غضبه لنفسه إن كان غضبه للإسلام؟ هيهات؟ بل ربما فَرِحَ بذلك، فتبين أن غضبه كان لنفسه، وأنه حاسد لأقرانه.

وإذا خَطَر له خاطر الرِّياء قال: إنما غَرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخَلق بي ليهتدوا إلى الدين. ولو كان هذا قَصده[1] لفرح باقتداء الناس بغيره، كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضُه صلاح الخَلق لفرح بصلاحهم على يد من كان،كمن له عبيد مَرضى يُريد معالجتهم، فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيبٍ آخر، وربما قال: لو هُدوا على يدي كان الأجر لي، فأنا أفرحُ بثواب الله تعالى لا بقول الخَلق. واللهُ يَطَّلعُ من ضَميره أنه لو أخبره نَبيٌّ بأن ثوابَه في إخفاء العلم أكثر من ثوابه في الإظهار، ثم حُبس مع ذلك في سجن وسُلسِلَ لاحتال في هدم السِّجن وحَلِّ السَّلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به تظهر رياسَته من تدريسٍ أو وعظٍ أو غيره.

وكذلك يدخل على السلطان ويتودَّد إليه ويُثني عليه ويَتواضع له، وإذا خطر له أن التَّواضع للظَّلمة حرامٌ قال: إنما غَرضي أن أشفعَ في مسلم وأدفعَ الضَّرَرَ عنه. والله يعلم من باطنه أنه لو ظَهر لبعض أقرانه قَبولٌ عند ذلك السلطان، فصار يُشفِّعُه في كلِّ مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثَقُلَ ذلك عليه، ولو قدر أن يُقبِّحَ حالَه عند السُّلطان بالطَّعن فيه والكذب عليه لفعل.

وقد ينتهي غُرور بعضهم إلى أن يأخذ من أموالهم وإذا خطر له أنه حرام قال: هذا مالٌ لا مالكَ له، وهو لمصالح المسلمين وأنت إمام من أئمتهم، فيجوز لك أن تأخذه قدر حاجتك. فيَغتَرُّ بهذا التَّلبيس في ثلاثة أشياء:

أحدها: أنه مالٌ لا مالكَ له، فإنه قد يعرف من أخذ منه، فإن كان مات فَوَرثَتُه أحياء، وغاية الأمر وقوع الاختلاط في الأموال، ومعلوم أن من غَصبَ مئةَ دينار

---

(١) في (ف): (قصده بالمدح).

من عَشرة أنفس وخلطها، فإنه مال حرام ولا يُقالُ: لا مالكَ له. ويجب أن يقسمه بين العشرة، ويَردّ إلى كل واحدٍ عشرة، وإن كان مالُ كلّ واحد منهم قد اختلط بمال الآخر.

والثاني: في قوله: إنه في مصالح المُسلمين وبك قوام الدين. [(1] وربما كان لاستحلاله مثل هذا من الدَّجالين في الدين[1)]؛ لأن إمام الدين هو العامل بعلمه، وقد ضربَ عيسى ابنُ مريم لعالم السوء مثلاً فقال: هو كَصخرةٍ وقفت في فَم الوادي، فلا هي تَشرب الماءَ ولا تتركه يَخلُص إلى الزَّرع[(2)].

وأصنافُ غُرور العلماء في هذا العَصر خارجة عن الحصر، وفيما ذكرنا تَنبيه على ذلك.

وفرقةٌ أخرى أحكموا العِلمَ وطَهَّروا الجوارح، وزيَّنوها بالطّاعات، واجتنبوا ظاهر المعاصي، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحَسَد والكِبر والحِقد، فقلعوا منابتها من القُلوب، ولكن بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخَبايا خِداع النَّفس دقائقُ غامضة، فلم يَفطَنوا لها وأهملوها، ومثالهم كمثل من أراد تَنقية الزَّرع من الحَشيش فنقَّاه وفتَّش على كل ما رآه فقلَعَه، إلا أنه لم يُفتّش عن مالم يُخرج رأسه بعدُ من تحت الأرض ظناً منه أن الكلَّ قد بَرزَ، فنبتت تلك الخَفِيّات، فأفسدت الزّرعَ من حيث لا يدري، فكذلك مَن لم يتفقَّد الدَّقائق، فتراه يَسهر ليلَه ويَنْصَبُ نهاره في جَمع العلوم وتَزيينها وتحسين ألفاظها، يرى أن باعثه على ذلك الحِرص على إظهار دين الله ونَشر شَريعته، وربما كان الباعث طلبَ الذِّكر وانتشارَ الصِّيت وانطلاقَ الألسن في الثَّناء عليه والتَّلذُّذَ بِحُسنِ الإصغاء إلى إيراده والتَّمتعَ بتحريك الرؤوس عن سماع كلامه، والفرحَ بكثرة الأَصحاب والمستفيدين، والسرورَ بالتَّفرُّدِ بهذه الخاصية من بين أقرانه، والتمكن بذلك من إطلاق اللسان له في الطَّعن على المقبلين على الدنيا، لا لأجل التَّفَجُّع لمصيبة

(١ـ١) سقط من (ف).
(٢) لم يذكر المصنف الأمر الثالث، ولعله في قوله: أنت إمام من أئمتهم. . .

الدين، ولكن عن إدلالٍ بالتميُّز واعتدادٍ بالتخصُّص، ولعل حياة هذا المغرور بانتظام أمره وأمارته وتَوفير توقيره، فلو تغيرت عليه القُلوب تكدَّر قلبُه وضاعت أوراده، وربما احتاج إلى استعمال الكَذِب في تَغطية عيوبه، وربما قدم بعض جلسائه وخَدمته؛ لأنه أَتْبَعُ لمرادِه وأشدّ إصغاءً إليه، ولا يتفقَّد من نفسه تصحيحَ النِّية، وعَساه لو وُعِدَ بالثَّواب في إيثار الخُمول في إخفاء العلم لم يرغب فيه لفقدِهِ لذة القبول وعزِّ الرياسة، وربما صنَّفَ ظانّاً أنه يجمع العلم لينتفع به، ونيته استِطارَةُ اسمه بحُسن التَّصنيف، فلو ادّعى مُدَّعٍ تصنيفَهُ، ومَحى عنه اسمَه، ونَسبه إلى نفسه ثَقُلَ عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التَّصنيف إنما يَرجع إلى المصنِّف والله العالم بأنه المصنِّفُ لا من ادَّعاه، ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثَّناء على نفسه إما صريحاً بالدعاوى الطويلة العريضة، وإما ضِمْناً بالطَّعن في غيره ليُستبان من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طَعن فيه وأعظم منه علماً، ولعلَّه يَحكي من الكلام المزيّف ما يريد تزييفه فينسبه إلى قائله، وما يَستحسنه لا يَنسبه ليظن أنه من كلامه فينقله بعينه، كالسارق، أو يغيره كالذي يَسرق قميصاً فيتخذه قَباءً حتى لا يُعرف أنه مسروق، ولعلَّه يفرح بزيادة أتباعهِ على أَتْباعِ مَن غَيره أحقّ منه بذلك، وإن انقطعَ من أصحابه أحدٌ إلى غَيره ثَقُلَ عليه ومال بوجهه عنه، مع علمه أن الفائدة تَحصل من المَوضِعَين، وربما كان المكان الذي انتقل إليه أصلح للدين، وربما اغتيبَ نَظيره بين يديه فوافق إظهاراً للغَضب للدين لا للنفس، فإن أُثنيَ عليه كره الثَّناء.

فهذا وأمثاله من خَفايا العيوب لا يَفطنُ له إلا الأَكْياس ولا يَتَنزَّهُ عنه إلا الأقوياء، ولا مَطمعَ فيه لأمثالنا من الضُّعفاء، إلا أنَّ أقل الدرجات أن يَعرف الإنسان عيوبَ نَفسه ويحرص على صلاحها، ومَن سَرَّتهُ حَسنتُه وساءَتْهُ سيئته فهو مَرجُوُّ الحالِ، وأمره أقرب من المَغرور المُزَكّي نَفسَه الظَّانّ أنه من خِيار الخلق.

فهذا غرور الذين حَصَّلوا العلوم المهمة، ولكنهم قَصَّروا في العمل بالعلم.

ولنذكر الآن غُرور الذين قَنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم، وهم بذلك مفترون؛ إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإما لاقتصارهم عليه:

فمنهم فرقةٌ اقتصروا على علم الفَتاوى في الحكومات والخُصومات، وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش وخَصَّصوا اسمَ الفِقه بها وسمّوه: الفقه وعلم المذهب، وربما ضَيَّعوا مع ذلك الأعمالَ الظاهرة والباطنة، فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة، ولا البَطنَ عن الحرام، ولا القَدم عن المشي إلى مالا يجوز، ولا القلوبَ عن الكِبر والرِّياء والحَسَد وجميع المُهلكات، فهؤلاء مغرورون من وَجهين:

أحدهما: من حيث العمل.

والآخر: من حيث العلم.

أما العمل: فقد ذكرنا وَجهَ الغرور فيه، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نُسخة الدَّواء واشتغل بتكراره وتَعليمه، لا بل مثالهم مثال من به علّةُ البِرْسام[1] وهو مشرفٌ على الهَلاك، فاشتغل بتعلُّمِ دواء الاستحاضة وجعلَ يُكرر ذلك ليلاً ونهاراً، مع علمه بأنه رجلٌ لا يَحيض ولا يُستحاض، ولكنه يقول: ربما تقع علّة الاستحاضة لامرأةٍ وتَسألني عن ذلك. وذلك غاية الغرور، فكذلك المُتَفقِّه الذي قد تسلَّطَ عليه حبُّ الدنيا واتباعُ الشَّهوات والحَسَد والكِبر والرِّياء وجميع المُهلِكات الباطنة، وربما يختطفه الموت قبل التَّوبة والتَّلافي فيهلك، فترك ذلك كلّه واشتغل بعِلمِ السَّلَم والإدارة والظِّهار واللِّعان والدِّيات والحَيض، وربما لم يَحتجْ إلى شيءٍ من ذلك لنفسه قط، وإذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والمال والرياسة، وقد دهاه الشَّيطان وما يَشعر، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغولٌ بفرض دينه وليس يَدري أن الاشتغال بفرضِ الكفاية قبل الفَراغ من فرض العين معصية، هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال، وكان قد قصد بالفقه وجهَ الله تعالى، فإنه وإن قصدَ وجه الله فهو باشتغاله به مُعرضٌ عن فرض عَينهِ في جَوارحه وقَلبه، فهذا غروره من حيث العمل.

(١) البِرسام: هو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة، ويسمى أيضاً: ذات الجنب.

وأما غروره من حيث العِلم؛ فحيث اقتصر على علم (١الفَتاوى، فظنَّ أنه كل علم الدين، وربما طَعن على١) المحدِّثين وقال: إنهم نَقَلةٌ وحَمَلةُ أسفار لا يفقهون، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق، وتركَ الفقه عن الله بإدراك جَلاله وعَظمته، وهو العلم الذي يورث الخَوف والهيبة والخُشوع، ويحمل على التقوى، فتراه آمناً من الله مغتراً به متكلاً على أنه لابد أن يرحمه، لأنه قِوامُ دينه، لأنه لو لم يَشتغل بالفتاوى لتعطَّل علمُ الحلال والحرام، فقد ترك العلوم التي هي أهم وهو غافل مَغرور، وسبب غروره ما سمع في النَّقل من تعظيم الفِقه، ولم يَدْرِ أن الفِقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المَخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى، فقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، والذي يَحصُل به الإنذار غير هذا العلم، فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات، وحفظ الأبدان بالأموال، ودفع القَتل والجراحات، والمال في طريق الله آلة، والبدن مركب، وإنما العلم المهم مَعرفة سلوك الطريق وقطع عقاب القلب التي هي الصفات المذمومة، فهي الحجاب بين العبد وبين الله، وإذا مات متلوثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله، فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصَر من سلوك طريق الحَج على عِلم خَرْزِ الرّاويَة(٢) والخفُ، ولا شك في أنه لا بد من ذلك، ولكن ليس من الحج في شيءٍ.

ومن هؤلاء من اقتصر مِنْ علم الفِقه على الخِلافيات(٣)، ولم يهمه إلا تعلُّم طريق المُجادلة والإلزام وإفْحام الخُصوم ودفع الحق لأجل الغَلَبة والمباهاة، فهو طول النَّهار والليل في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الأقران، وهؤلاء هم سِباع الإنْس، طَبعُهم الإيذاء، وهَمُّهم السَّفَه، ولا يقصدون من العلم إلا ما يلزمهم في مباهاة الأقران ويحتقرون مالا يحتاجون إليه في

(١-١) سقط من (ف).

(٢) الراوية: آلة من الجلد يُستقى بها الماءُ، وخَرْزُها: خياطتها.

(٣) في (ف): (الحذاقيات).

المباهاة، كعلم القَلب، وعلم سلوك الطريق إلى الله سُبحانه بمحو الصِّفاتِ المذمومة وتَبديلها بالمحمودة، ويسمُّون ذلك: التَّزْويقَ وكلام الوُعّاظ، وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العَربدة التي تجري بين المتصارعين في الجَدَل، وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين قبلَهم في علم الفَتاوى، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فُروض الكِفايات أيضاً بل جميع دقائق الجَدل في الفقه بدعة لم يعرفها السَّلف، وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب، ، وهو كتاب الله وسنة رسوله وفَهم معانيهما، وأما حِيَلُ الجَدل من الكَسْرِ والقَلبِ وفساد الوَضْعِ والتَّركيب والتَّعدية فإنما أُبْدِعَت لإظهار الغَلَبةِ والإفهام، وإقامةِ سوق الجدل به، فغرور هؤلاء أشد من غرور من قَبلهم.

وفرقةٌ أُخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرَّدِّ على المخالفين وتَتبُّعِ مناقضاتهم، واستكثَروا من معرفة المقالات المختلفة، واشتغلوا بتعلُّم الطُّرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرةً، واعتقدوا أنه لا يكون لعبدٍ عملٌ إلا بإيمانٍ، ولا يصح الإيمان إلا بأن يتعلَّمَ جَدَلهم وما سموه أدلة عقائدهم، فظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم، ثم هُمْ فِرقتان: ضَالَّة ومُحِقَّة؛ فالضَّالَّةُ هي التي تَدعو إلى غير السُّنَّة، والمُحِقَّة هي التي تَدعو إلى السُّنَّة، والغُرور شاملٌ لجميعهم.

أمّا الضَّالة: فلغفلتها عن ضلالتها وظنها بنفسها النجاة، وهم فرق كثيرة يُكفر بعضُهم بعضاً، وإنما أُتِيَت من حيث أنها لم تَتَّهم رأيَها ولم تُحكِمْ أولاً شروط الأدلة ومنهاجها، فرأى أحدُهم الشُّبهةَ دليلاً والدَّليلَ شُبهةً.

وأما الفرقة المُحِقَّة فاغترارها من حيث أنها ظنت أن الجَدل أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله، وزعمت أنه لا يتم لأحدٍ دينه مالم يَبحث، وأن من صَدَّقَ الله ورسوله من غير تحرير دليلٍ فليس بمؤمن أو بكامل الإيمان، فلهذا الظن الفاسد قَطعت أعمارَها في تعلم الجَدل والبحث عن المقالات وهَذَيانات المُبتدعة ومُناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى خفيت عنهم خَطاياهم، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أقرب له إلى الله تعالى، وهو لمكان التِذاذِه بالغَلبةِ والرِّياسة وعِزِّ

الانتماء إلى الذَّبِّ عن دين الله قَد عَمِيتَ بصيرتُه، فلم يلتفت إلى القَرن الأول وأن النبي ﷺ شَهدَ لهم بأنهم خَيرُ الخَلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من البِدع والهَوى فما جعلوا أعمارهم ودينَهم غرضاً للخصومات والمجادلات، ولا اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم، بل لم يتكلموا فيه إلا لضرورةٍ رَدُّوا بها الضَّال، فإن رأوه مُصراً على بدعةٍ هَجَروه من غير مُماراة ولا جدل، وقد روى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضَلَّ قومٌ قط بعد هدى إلا أوتوا الجَدَل».

وفرقةٌ أخرى اشتَغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النَّفس وصِفات القلب من الخوف والرجاء والصَّبر والشكر والتوكل والزُّهد والتَّقوى والإخلاص واليقين[١]، وهم مغرورون يَظنّون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكّون عنها عند الله إلا عن قدرٍ يسيرٍ لا ينفكُّ عنه عوامُّ المسلمين أنهم من أهلها، فيظنون أنهم ما تَبحّروا في علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلا وهم مخلصون، وما وقفوا على خَفايا عيوب النَّفس إلا وهم منزَّهون عنها، ولولا أنهم سالكون ما شرحوا السلوك، فأحدهم يرى أنه خائف وهو آمن، وأنه راجٍ وهو مُغتَر، وأنه مُخلص وهو مُرائي، بل يصف الإخلاص بلا إخلاص في وصفه، ويصف الرياء وهو يُرائي بذكره ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصف الزُّهد لشدة حرصه على الدنيا، فهو يدعو إلى الله وهو هاربٌ منه، ويُخوف به وهو له آمِن، ويُذكِّر به وهو له ناسٍ، ويذم الصِّفات المذمومة وهو بها موصوف، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من يُقبل الناس عليه ويَصلُحوا على يديه لماتَ غماً وحَسَداً، ولو أثنى أحدٌ من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض الناس إليه، فهؤلاء أعظم الناس غِرَّةً، وأبعدهم عن التَّنَبه؛ لأن المرغِّبَ في الأخلاق المحمودة والمنفِّر عن المذمومة هو العلم بفوائدها وغوائلها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه، وشغله حبُّ دعاء الناس إلى العلم عن العمل به فبماذا[٢] يُعالَج؟ وإنما يمكن أن يُدَلَّ على طريق

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) في (ف): (فلماذا).

الامتحان والتجربة، وهو أن يُقال له: أنتَ تدَّعي الخَوفَ، فعن ماذا منعك؟ وتدعي الزُّهد فماذا تركت؟ وتدعي الأنس فمتى طابَت لك الخَلوة؟ ومتى استَوحَشْتَ من مشاهدة الخَلق؟. كيف وأنت تَستوحش وحدك وتفرح إذا أَحْدَق المريدون بك؟ فالأكياس يُطالبون أنفسهم بالتحقيق ولا يَقنعون منها بالتَّزويق، والمُغْترّون يُحسنون الظن بها، وإنما يقع الغرور لهؤلاء، لأنهم يُصادفون في قلوبهم شيئاً ضَعيفاً من أَول هذه المعاني؛ وهي حب الله، والخوف منه، والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك على وَصف المنازل العالية، فظنوا أنهم ما رُزقوا ذلك إلا لاتِّصافهم به، وذهب عنهم أن وصفَ الشيء غير الاتِّصاف به، فمثلهم كمثل مريض فصيحٍ يحسن أن يصفَ المرض والصّحةَ دون غيره من المرضَى، فهو مشاركهم في المرض، وإن انفرد عنهم بالوصف، فهذا غرور الوُعّاظ الذين لا عيبَ في كلامهم، بل منهاجُ وَعْظِهِم منهاجُ وعظِ الحسن وأمثالِه.

وفرقةٌ أخرى منهم عَدَلوا عن المنهاج الواجب في الوَعظ، وهم عامَّة وُعّاظِ هذا الزمان إلا النادر، فاشتغلوا بالطامّات والشَّطْحِ وتَلفيق كلامٍ خارجٍ عن قانون الشَّرع والعقل طلباً للإغراب، ومنهم طائفةٌ يَسشهدونَ بأشعارِ الوصالً والفِراق، وغرضهم أن يَكثُر في مجالسهم الصِّياح والتَّواجد ولو على أغراضٍ فاسدةٍ، فهؤلاء شياطين الإنس ضَلُّوا وأضلّوا، فإن الأولين إن لم يُصلحوا أنفسهم فقد أصحلوا غَيرهم وصحَّحوا كلامهم، وهؤلاء يصدون عن سَبيل الله ويَحثّون الناسَ على الاغترار بالله بما يزعمون أنه رجاء، فيزيد كلامُهم العصاةَ جرأةً على المعاصي ورغبةً في الدنيا، لاسيّما إذا كان الواعظ مُتزيناً بزينة الدنيا، فإن حاله تَشهد بحرصه عليها، ولا يَخفَى وجه كونه مغروراً.

وفرقةٌ أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزُّهاد ومَواعظهم من غير معرفة لمعانيها، وهم يظنون أنهم بحفظِ ما يوردونه قد نالوا الغَرضَ من غير أن يحفظوا نفوسهم من الذنوب، فهؤلاء أظهرُ غروراً ممن قبلهم.

وفرقةٌ أخرى استَغرقوا أوقاتهم في سَماع الحديث وجمع رواياته وأسانيده الغَريبة والعالية، فَهَمُّ أَحَدِهم أنْ يدور في البلاد ويَرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فُلان، وقد لَقيتُ فلاناً، ولي من الإسنادِ ما ليس لغيري. وغُرورهم من وجوه:

منها: أنهم يَقتصرون على لفظِ ما نقلوا ولا يَفهمون معناه.

ومنها: أنهم لا يَعملون بما فهموا منه.

ومنها: أنهم اشتغلوا بذلك عن فُروضهم المتعينة من تطهير الأخلاق.

ومنها: تَحريفهم في تناول الحديث، فربما نام أحدهم في المجلس ثم كتب سماعَه، أو قرأ على شيخٍ لا يدري ما يقرأ عليه، أو رأى كتاباً فيه اسمه ولم يَذكر أنه قد سمع من ذلك الشيخ، وقد جازف كثير من المحدثين في هذه الأشياء.

وفرقةٌ أخرى اشتَغلوا بعلم النحو و اللغة والشِّعر، وزعموا أنهم من علماء الأُمة، وأن اشتغالهم بهذا سبب الغُفران لهم إذ قوام الدين بالكتاب والسنة، وعلمُ اللغة والنحو يوضحهما، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق تلك العلوم، ومثالهم مثال من أَفْنى جميع العمر في تعلُّم الخَطِّ وتصحيح الحروف وتحسينها، ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخطِّ بحيث يمكنه أن يَقرأ، والباقي زيادة على الكفاية، وكذلك الأديب لو عقل لعرفَ أن لغةَ العرب كلُغَةِ التُّركِ والمُضيّع عُمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عُمره في معرفة لغة التُّرك، وإنما فارقتها لغةُ العَرَب لأجل ورود الشَّريعة بها، فيكفي من اللغة علم الغَريبين؛ غريب القرآن والحديث، ومن النَّحو ما يُقوِّمُ اللسان، فأما التعمق فيه إلى درجاتٍ لا تَتَناهى، فذلك يشغل عن ما هو أَجود منه وألزم، ومثال المتعمِّق في ذلك كمثال من ضَيَّع عُمره في تصحيح مخارج الحروف في القُرآن مقتصراً على ذلك، وذلك غرور، لأن المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف ظُروف وأدوات، ومن احتاج إلى شرب السَّكَنْجَبين(١) لإزالةِ الصفراء فضيع وقته في تَحسين القَدَح الذي يَشربُ فيه، فهو مغرور.

والسعيد من أخذ من كل شيءٍ من هذا حاجته المهمة، وتجاوز إلى العمل ثم عبر إلى لُبابه، فطالب قلبه بحقيقة العمل، وحمل نفسه على ذلك، واجتهد في تصحيح الأعمال وتصفيتها من الشوائب، فهذا هو المقصود المَخْدوم من جميع

(١) السَّكَنْجَبين: دواء مركبٌ من الخَل والعسل.

علوم الشرع وسائر العلوم خَدمٌ له ووسائل إليه ومنازل توصل إلى ما هو المقصود، غير أن هذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغترَّ بها أربهابها.

وفرقةٌ أخرى عَظُم غرورهم في فَنِّ الفِقه فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء، فوضعوا الحيل في دفع الحقوق، وذلك غرور، فإن الإنسان إذا ألجأ زوجتَه إلى أن تُبرئه من حَقِّها لم يَبرأ فيما بينه وبين الله، وكذلك لو طلبَ رجلٌ من رجل في ملأ من الناس فخاف مَذمَّة الخلق فأعطى لم يكن العطاء طيباً، وكذلك من يُعطَى اتِّقاءً لشرِّه فهو حرام عليه، ومن هذا هِبةُ الرجل مال الزكاة في آخرِ الحول من زَوجته واتِّهابِه مالَها لإسقاط الزكاة، فإنه لا يسلم بذلك في القيامة، ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للعلماء، والمغرورون منهم يرون أن كل مالا تَتمُّ رعونتهم إلا به حاجة، وذلك محض الغرور، بل كلُّ ما تناوله العبد للاستعانة به على العبادة فهو حاجة، وما عدا ذلك فَفُضول وشهوة، فهذه أمثلة تُعرِّفُ أجناس الغرور.

الصنف الثاني: أرباب التَّعبد والعمل، والمغرورون منهم فرق:

ففرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفَضائل والنَّوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى السَّرَف كالمتوسوس في الوضوء ولا يَرضى بالماء المحكوم بطهارته شرعاً، بل يُقدِّر له الاحتمالات البعيدة في التَّنجيس، ولا يُقدِّر ذلك في مَطعمه، فلو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى المطعم كان أشبه بسِيَرِ السَّلف، فإن عُمر قد تَوضأ من جَرَّةِ نَصْرانيةٍ مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام.

ثم فيهم من يخرج إلى الإسراف في صب الماء وقد يطول به الأمر حتى تَضيع الصلاة منه ويخرج وقتها، فإن لم يَخرج وقتها فقد غُرَّ بما أفاته من فضيلة أول الوقت، ثم هو مغرورٌ لإسرافه في الماء، ثم غروره بتَضييع العمر الذي هو أعزُّ الأشياء فيما له مَندوحة عنه، فالشيطان لا يصد العباد إلا بما يُخيل إليهم أنه عبادة.

وفرقة غلبت عليها الوسوسة في نية الصَّلاة حتى ربما فاتَتهم ركعةٌ مع الإمام، وقد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط، ثم يغفلون في باقي الصلاة ظناً منهم أنّ تصحيح الابتداء كافٍ، وهذا غرور.

وفرقةٌ أخرى تغلب عليها الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال أحدهم يَحتاط في التَّشديدات والفَرق بين الضَّاد والظاء فوق الحاجة، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره، ولا يتفكر فيما سواه، ذاهلٌ عن معنى القرآن والاتِّعاظِ به، وصرف الفهم إلى أسراره، وهذا من أقبح أنواع الغرور، فإنه لم يكلّف الخلق في تلاوتهم القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا ما جَرَت به عادتهم في الكلام، ومثال هؤلاء مثال من حَملَ رسالةً إلى سُلطانٍ فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنق في مخارج الحروف وتكرارها، وهو غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حُرمة المجلس، فما أَحراه بالطَّردِ والتَّأديب.

وفرقة أُخرى اغتروا بقراءة القُرآن فهم يَهذُّونَه هَذّاً[١]، وربما خَتموا في اليوم مرتين ولسانُ أحدهم يَجري به وقلبه يتردَّد في أودية الأماني، إذ ليس بمتفكّرٍ في مَعانيه لينزجر بزواجره ويَتَّعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونَواهيه، ويعتبر بمواضع[٢] الاعتبار فيه إلى غير ذلك بما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة، فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن التلاوة فقط، ومثال هذا مثالُ عبدٍ كتبَ إليه مالكه كتاباً يأمره فيه ويَنهاه، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، لكنه اقتصر على حفظه وتكريره ظاناً أن ذلك هو المراد منه مع استمراره على خلاف ما أمره به مولاه، فهذا مستحق للعقوبة، ومتى ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور، وإنما تُرادُ تلاوته ليُحفَظ ولا ينسى، ثم المُرادُ من اللَّفظ معناه، ثم المراد من المعنى العمل به والانتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوتٌ طيب فهو يَقرأ ويَلتذُّ بقراءته ويغتَرُّ باسْتِلْذاذِه، ويظن أن ذلك لذَّةُ مُناجاة، وإنما هو لذةٌ بصوته، ولو ردد تلك الألحان بشعرٍ وكلامٍ لا لتذَّ به ذلك الالتذاذ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرف هل التِذَاذُه بالنَّظمِ أو بالصَّوتِ أو بالمعاني؟

(١) يهذّونه هَذّاً: يسرعون بقراءته.

(٢) في الأصل: (بمواعظ).

وفرقة أخرى منهم اغترّوا بالصوم فأكثروا منه وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغِيبة والفُضول، ولا خَواطرهم من الرِّياء، ولا بُطونهم من الحرام عند الإفطار، فيُهمِلون الفَرضَ ويحفظون النَّفل، وذلك غاية الغرور[١].

وفرقةٌ أخرى اغتروا بالحج، فيخرجون من غير خُروجٍ عن المَظالم وقَضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزَّاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سُقوط حجِّ الفَرضِ، ويُضيعون في الطريق الصلاةَ والفَرائض، ويعجزون عن طهارة الثَّوب والبَدَن، ويتعرَّضون لمَكْسِ[٢] الظَّلمة حتى يُؤخذ منهم، ولا يحترزون من الرَّفث والخِصام، وربما جمع بعضهُم الحرامَ وأنفقه على الرُّفقاء في الطريق يطلب به السُّمعةَ والرياء، فيعصي اللهَ عزَّ وجل في كَسبه وفي إنفاقه، ثم يحضر البيتَ بقلبٍ ملوثٍ بَرذائلِ الأخلاق وذَميم الصِّفات، لم يُطهَّر قبل الحضور، وهو مع ذلك يظن أنه على خَير، وهو مغرور.

وفرقةٌ أخرى أخذوا في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ونسوا أنفسهم فإذا أَمَروا عَنَّفوا وطلبوا التَّعَزُّزَ والرِّياسة، وقد يجمع أحدهم الناس للإقدام على الإنكار، فمن تأخر ذَمَّه، ومنهم من يُؤذِّنُ[٣] ويظن أن ذلك لله، ولو أَذَّنَ[٤] غيرُه عند غَيبته قامت عليه القيامة، وقال: قد زاحمني في مَرتبتي. ومنهم من يَؤُمُّ في مسجدٍ، فلو تقدم أعلم منه وأَوْرع ثَقُل عليه.

وفرقةٌ أخرى جاوَروا بمكة والمدينة واغتروا بذلك، ولم يراقبوا قلوبهم، وهي متعلقةٌ ببلادهم ملتفتة إلى قول الناس: فلانٌ مُجاورٌ بمكة، ومنهم من يقول: جاورتُ بمكة كذا وكذا سنةً. ثم إنه يجاور ويَطمع في أوساخ الناس، ثم يجمعه ويشحّ به فيجتمع له الطَّلبُ والشُّحُّ وجملةٌ من المُهلكات أَوْجَبتها المجاورة، فهو مغرور.

---

(١) في النسخ: (غاية أخرى)، والمثبت من الإحياء.
(٢) هو ما يفرضه الصادّون عن الطريق على كل حاج للسماح له بالمرور.
(٣) تصحفت في الأصل: (يؤدب).
(٤) تصحفت في الأصل إلى (أدب).

وما من عملٍ إلا وفيه آفاتٌ فمن لم يَعرفها ساكَنها فَغُرَّ، ومن أراد تَعرُّفَها فلينظر في كتابنا هذا، فلينظر إلى مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة وفي الحج والزكاة والتلاوة وجميع القُرُبات من الكُتب المرتَّبة في هذا الكتاب، وإنما الغَرَض الآن الإشارة إلى مجامع ما سبق في الكتب.

وفرقةٌ أخرى زَهدت في المال وقنعت بالدُّون من اللِّباس والطَّعام، ومن المسكن بالمساجد، وظَنَّت أنها أدركت رُتبةَ الزُّهاد وهم مع هذا شَديدوا الرَّغبة في الرِّياسة والجاه، فقد تركوا أهونَ الأمرين وباؤا بأعظم المَهْلَكَين، فإن شَرَّ طلب الرياسة أعظم من شَرِّ المال، فهؤلاء مغرورون إذ ظَنّوا أنهم من الزُّهاد، ولم يفهموا الدُّنيا، ولم يَدروا أن منتهى لَذَّتها الرِّياسة، وأن الراغب فيها لا بد أن يكون حَسوداً ومنافقاً ومتكبراً ومُرائياً ومُتَّصفاً بخبائِثِ الأخلاق، وقد يترك الرِّياسة ويؤثر العُزلةَ وهو مغرور أيضاً من جهة أنه يَتطاول بذلك على الأغنياء ويحتقرهم، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، ويعجب بعمله، ويتصف بجملةٍ من خَبائث القلوب، ولا يَدري.

وربما يُعطَى المالَ فلا يأخذه خيفةَ أن يُقال: بَطل زُهدُه. رغبةً في حَمْدِ الناس، وهو ألذُّ أبواب الدنيا، وربما لا يخلو عن تقديم الأغنياء على القراء ومن الميل إلى المريدين له والنّفور عن المائلين إلى غيره من الزُّهاد، وكل ذلك غُرور وخدعةٌ من الشيطان.

وفي العُبَّاد من يُشَدّد على نَفسِهِ في أعمال الجوارح فربما صلَّى في اليوم والليلة ألفَ ركعة، وختم القرآن، وهو مع ذلك لا يَخطر له مُراعاةُ القلب وتَفقده وتَطهيره من الرِّياء والكِبر والعُجْب وسائر المُهلكات ولا يدري أن ذلك مُهلكٌ، وإن علم، فلا يظن بنفسه ذلك، وإن ظنَّ بنفسه ذلك، وإن ظنَّ بنفسه ذلك توهَّم أنه مغفورٌ له لأجل عمله الظاهر، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القَلب، وإن توهم ذلك ظنَّ أن العبادات الظاهرة ترجح بها الحسنات وهَيهات! فَذَرَّةٌ من ذي تَقوى، وخلقٌ واحدٌ من أخلاقِ الأكياس أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح، ثم لا يخلو من الرياء وحب الثناء، فإذا قيل له: أنتَ من أَوتادِ الأرض، فَرح وزاد غُروره وظنَّ أن تزكيةَ

الناس له دليلٌ على كونه مَرضياً عند الله تعالى، ولا يدري أن ذلك لجهلِ الناسي بخبائثِ باطِنه.

وفرقةٌ أخرى حَرصت على النَّوافل ولم يَعظم اعتدادها بالفرائض، فترى أحدَهم يفرح بصلاة الضُّحى وصلاةِ الليل وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذةً، ولا يشتد حرصه على المُبادرة بها في أول الوقت ويَنسَى قولَه عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن رَبِّه عز وجل: «ما تقرَّبَ المتَقرِّبونَ إليَّ بمثل أداءِ ما افترَضْتُ عليهم».

واعلم أنه قد يَتعيَّن على الإنسان فَرضان، أحدُهما يَفوت والآخر لا يَفوت، أو فَضْلان أحدهما يَضيق وَقتُه والآخر يَتَّسع وَقتُه، فإن لم يحفظ التَّرتيب في ذلك كان مغروراً، ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى؛ فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تَقديم بعض الطَّاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلّها على النَّوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكِفايات، وتقديم فَرض كفايةٍ لا قائم به على ما قامَ به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوتُ على مالا يَفوت، وهذا كما يَجب أن يقدم حاجةَ الوالدة على حاجة الوالد، لأن رسولَ الله ﷺ سُئلَ: مَن أَبر؟ قال: «أُمّك» قال: ثم من؟ قال: «قال: «أُمّك». قال: ثم من؟ قال: «أُمّك». قال: ثمّ من؟ قال: «أباك، ثم الأقرب فالأقرب». فَينبغي أن يبدأ في الصِّلة بالأقرب، فإن استَويا فبالأَحوج، فإن استَويا فالأتقى والأورع، وكذلك مَن لا يَفي مالُه بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج وهو مَغرور، بل يَنبغي أن يُقدِّم حقَّهما على الحج، وهذا من تقديم فرضٍ أهم على فَرضٍ هو دونه، وكذلك إذا كان بين اثنين وَعدٌ ودخل وقتُ الجمعة فالجمعة تفوت، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان طاعة في نفسه، وكذلك تُصيب ثوبه النَّجاسة فَيُغلِظُ القولَ على أبويه وأهلِه بسببه، فالنجاسة محذورةٌ وإيذاؤهما مَحذورٌ، والحذر من الأذى لهما أهمّ من الحذر من النَّجاسة، والأمثلة في تقابل المحذورات والطَّاعات لا تَنحصر، ومن تركَ التَّرتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغُموض؛ لأن المغرور فيه في طاعةٍ إلا أنَّه لا يَفطَنُ لصَيرورة الطَّاعة معصيةً حيث ترك بها طاعةً واجبة هي أهم منها، ومن جملة ذلك: اشتغالُ الإنسان بالمذهب والخِلاف وقد بَقي عليه شغل من الطاعات

والمعاصي المتعلقات بالبَدَن والقلب، إلا أن حُبَّ الرِّياسة والجاه وقَهر الأَقْران غَطَّى عليه، فظن أنه مشغول بمهم دينه.

الصنف الثالث: المُتَصوِّفَة، والمغترون منهم فرق:

ففرقةٌ هم مُتصوِّفةُ أهل هذا الزمان إلا مَن عَصَمه الله تعالى اغترّوا بالزّيِّ والنُّطقِ والهيئة، فشابهوا الصادقين من الصوفية في زيِّهم وهَيئتهم وألفاظهم وآدابهم وطَهارتهم وخُشوعهم وتَنفُّسِ الصُّعداء وخَفضِ الصوت إلى غير ذلك من الشَّمائل والهَيئات، فلما تَشبَّهوا بهم في ذلك ظَنّوا أنهم صوفية، ولم يُتعبوا أنفسهم قَطّ في المجاهدة والرِّياضة وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجَليَّةِ والخَفِيَّة، وكل ذلك من أوائل منازل التَّصوف، ثم هم يتكالبون على الحرام والشُّبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والحبَّة ويُمزّق بعضهم أعراضَ بعضٍ إذا اختلفوا في غرضٍ، وهؤلاء غُرورهم ظاهر، ومثالهم مثال عَجوزٍ سَمعَتْ أن الشُّجعانَ والأبطالَ من المُقاتلين تُثبَتُ أسماؤهم في الديوان ويُقطَع كلُّ واحدٍ منهم قُطراً من أقطار المَملكة، فتاقَت نَفسُها إلى ذلك فَلبسَت دِرعاً وَوضعت على رأسها مِغْفَراً[١] وتعلمت من رَجزِ الأبطال أبياتاً وتعوَّدت إيرادَ تلك الأبياتِ بنغماتهم حتى تَيسَّرت عليها، وتعلمت كيفية تَبَخْتُرهم في المَيدان، وكيفَ تحريكهم الأيدي، وتلقَّفت جميعَ شمائلهم في الزّيِّ والمَنطق والحَركات والسَّكنات، ثم توجَّهت إلى المُعسكر لتثبت اسمَها في ديوان الشجعان، فلما حَضرت ديوان العَرض أُمِرَ بأن تُجَرَّدَ عن المِغفر والدِّرع، ويُنظر ما تَحته وتُمتَحن بالمبارزة لبعض الشُّجعان ليعرف قدر شجاعتها، فلما جُرِّدَت فإذا هي عَجوزٌ ضعيفةٌ زَمنةٌ[٢] لا تُطيق حملَ الدِّرع و المِغفَر، فقيل لها: أَجِئتِ تَستهزئين بالمَلِك وأهلِ حضرته بهذا التَّلبيس؟ خُذوها فألقوها بين يَدي الفيل. فأُلقِيت إلى الفيل. فهكذا يكون حال المُدَّعين للتَّصَوّف في القيامة إذا كُشِفَ عنهم الغِطاء وعُرضوا على الحاكم الأكبر الذي ينظر إلى القلب لا إلى الزّيِّ والمُرَقَّعات.

---

(١) المِغْفَر: زَرَدٌ يُنسَج من الدروع على قدر الرأس يُلبَس تحت القَلَنسوة.

(٢) زَمِنة: أي مريضة مرضاً دائماً وهو مرض الهرم وتقدم العمر.

وفرقةٌ أخرى زادت على هؤلاء في الغرور إذ شقَّ عليها الاقتداء بهم في بَذاذة[١] الثياب والرِّضا بالدُّون، وأرادت أن تتظاهر بالتَّصوف ولم تَجِد بُدّاً من التَّزيّي بزيِّهم، فتَركوا الخَزَّ والإبريسم، وطلبوا المرقَّعات النَّفيسة والفُوَط الرفيعةَ والسّجادات المَصبوغة، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمةً من الخَزِّ والإبريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه مُتَصوّف بمجرد لون الثَّوب وكونه مُرقَّعاً، ونسي أنهم إنما لوَّنوا الثياب لتحمل الوسَخ فيطول زمان الغَسل، وإنما لبسوا المرقَّعات؛ لأن ثيابهم تخرقت فرقَّعوها، فأما تقطيع الفُوَط الرَّفيعة قطعة قطعة وخياطة المرقَّعَات منها فمن أين يُشبه ما اعتادوه؟ فهؤلاء أظهر حماقةً من جميع المغترين، فإنهم يتنعَّمون بنفيس الثياب ولذيذِ الأطعمة، ويَطلبون رَغَد العيش ويأكلون أموال السَّلاطين، ولا يَجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، وشَرُّ هؤلاء يتَعدَّى إلى الخَلق؛ لأن المقتدي بهم هالكٌ، ومن لا يَقتدي بهم تَفسد عقيدته في المتصوِّفةكافةً، فيقع في الصادقين منهم، وذلك بِشُؤْمِ المتشبّهين بهم.

وفرقةٌ أُخرى ادَّعت علمَ المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال، والوصول إلى القرب، ولا يعرفون من تلك الأمور إلا الأسامي، فأحدهم يُرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفُقهاء والمُحدِّثين وأصنافِ العلماء بعين الإِزْراء فَضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فِلاحته والحائكَ يترك حِياكته ويُلازمهم أياماً معدودةً، ويتلقَّف منهم تلك الكلمات المزيَّفة، فيرددها كأنه يتكلَّم عن الوحي، ويحتقر في ذلك جميع العلماء والعُبّاد ويقول في العلماء: إنهم محجوبون عن الله بالعلم، وفي العُبّاد: إنهم أُجَراء مُتعَبون. ويَدَّعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين وهو عند الله من الفُجّار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحَمقى الجاهلين، لم يُحكِمْ علماً قط، ولم يُهذب خُلُقاً، ولم يراقب قلباً سوى اتّباع الهوى[٢] وحفظِ الهَذَيان.

---

(١) بَذاذة الثياب: رثاثتها وسوء حالها.

(٢) سقطت من (ف).

وفرقةٌ منهم وَقعت في الإباحة وَطووا بِساطَ الشرع ورفضوا الأحكام وسوَّوا بين الحلال والحرام، فبعضهم يقول: إن الله مُستغنٍ عن عملي فلمَ أُتعبُ نفسي؟ وبعضهم يقول: قد كُلِّفَ الناس تَطهيرَ القلوب عن الشهوات وحب الدنيا، وذلك لا يمكن، وإنما يغتر بذلك التكليف من لم يُجرِّب، ونحن فقد جربنا وعلمنا أن ذلك محال. ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلّفوا قلعَ الشهوة والغضب من أصلهما، بل تأديبهما حتى ينقاد كل واحدٍ منهما لحكم العقل والشّرع، وبعضهم يقول: الأعمالُ بالجوارح لا قدر لها وإنما النَّظر إلى القلوب، وقلوبنا والهةٌ بِحُبِّ الله وواصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفةٌ في الحضرة الربّانية، فنحن مع الشَّهوات بالظاهر لا بالقلوب. ويزعمون أنهم قد ترفَّعوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البَدَنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم عن درجة الأنبياء؛ لأن الأنبياء كانوا يَبكون على خطيئةٍ واحدة سنين.

وأصنافُ غرور أهل الإباحة من المتشبِّهين بالصوفية لا تُحصى، وكلّ ذلك بناءً على أغاليط ووساوس خَدَعهم الشيطانُ بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ومن غير اقتداءٍ بشيخ مُتقِنٍ في الدين والعلم صالحٍ للاقتداء به، وإحصاءُ أصنافهم يَطول.

وفرقةٌ أخرى جاوَزت حدَّ هؤلاء وأحسنت الأعمال، وطَلبت الحلال، واشتغلت بتفقُّد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزُّهد والتَّوكل والرِّضا والحُب من غير وقوفٍ على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدّعي الوَجدَ والحبَّ لله تعالى، ويزعم أنه والِهٌ بالله، ولعله قد يُخيَّلُ له في الله خَيالات هي كُفرٌ أو بدعةٌ، فيدعي حُبَّ الله قبلَ معرفته، ثم إنه لا يخلو عن مقارفَةِ ما يكره اللهُ وعن إيثار هَوى نفسه على أمر الله، وعن ترك بعض الأمور حياءً من الخلق، ولو خلا لما تركه حياءً من الله، ولا يدري أن كل ذلك يُناقض الحبَّ.

وبعضُهم ربَّما يميلُ إلى القَناعة والتَّوكل، فيخوض البوادي من غير زادٍ ليُصحح دَعوى معنى التَّوكُّل، وليس يدري أن ذلك بدعة لم تُنقَل عن الصحابة والسَّلف

الصالح، وقد كانوا أعرف بالتَّوكل منه، فما فهموا أن التَّوكل المُخاطرة بالروح وتَرك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سببٍ من الأسباب واثق به.

وقد ذكرنا مَداخِلَ الآفات في رُبع المُنْجِيات(١)، فلا نُعيده.

وفرقة أخرى ضَيَّقت على أنفسها في أمر القُوت حتى طلبت منه الحلالَ الخالصَ وأهملوا تفقد القَلب والجَوارح في غير هذه الخَصلة الواحدة، ومنهم من أهملَ الحلال في مَطعمه ومَلبَسه ومكسبه، وأخذ يتعمق في غير ذلك، وليس يدري المسكين أنّ الله لم يرضَ مِن عبدهِ بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بجميع الأعمال دون طلب الحلال، بل لا يُرضيه إلا تَفقد جميع الطاعات والمعاصي، فمن ظن أن بعضَ هذه الأمور يَكفيه ويُنجيه فهو مغرور.

وفرقةٌ منهم ادّعوا حُسن الخُلُق والتواضع والسَّماحة، فتصدوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قوماً وتكلّفوا بخِدمتهم، واتخذوا ذلك شَبكةً للرياسة وجمع المال، وإنما غَرَضهم التَّكبر وهم يُظهرون الخِدمة والتواضع، وغرضُهم الارتفاق وهم يُظهرون أن غَرضهم الإرْفاق، وغَرضُهم الاستتباع وهم يُظهرون أن غرضَهم الخِدمة والتَّبعية، ثم إنهم يجمعون من الحرام أو الشُّبهات ويُنفقون عليهم لتكثر أتباعهم ويَنتشر بالخدمة اسمهم، وبعضهم يأخذ أموال السَّلاطين وينفق عليهم، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصُّوفية ويزعم أن غَرَضه البر والإرفاق، وباعث جميعهم الرِّياء والسُّمعة، وآيةُ ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى ظاهراً وباطناً، ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه، ومثال من يُنفق الحرام في طَريق الحج لإرادة الخير كمن يَعمُر مَساجد الله ويُطَيّنها بالعَذِرَة(٢) ويزعم أن قصده العمارة.

وفرقةٌ أخرى اشتغَلوا بالمجاهدة وتَهذيب الأخلاق وتطهير النُّفوس من عيوبها، وصاروا يَتَعَمَّقون فيها، فاتَّخذوا البَحثَ عن عيوب النَّفس واستنباط دَقائق الكلام

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: (المهلكات).

(٢) العَذِرة: الغائِط.

في آفاتها، فيقولون: في النفس عيبٌ، والغَفلةُ من كونها عيباً عيبٌ، والالتفات إلى كونه عيباً عيبٌ. ويُشْغَفونَ فيه بكلماتٍ مسلسلةٍ تَضيع الأوقات في تَلفيقها، ومَن جعلَ طول عُمره في التفتيش عن العيوب وتَحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج ولم يَسلك طريقَ الحج، فذلك لا يعنيه.

وفرقةٌ أُخرى جاوزوا هذه الرُّتبةَ، وابتدأوا سلوكَ الطريق وافتتح لهم باب المعرفة، فلما استَنشقوا مبادئ ريح المعرفة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غَرابَتُها، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكُّر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم، وكل ذلك غرور، لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية، فلو وقفَ مع كل أعجوبةٍ وتقيَّد بها قصرت خُطاه وحُرِمَ الوصول إلى المقصد، وكان مثاله مثال من قصد ملكاً فرأى على بابه روضةً فيها أزهار لم يكن رأى قبل ذلك مثلها، فوقف ينظر إليها حتى فاتَه الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

وفرقةٌ أُخرى جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يَفيضُ عليهم من الأنوار في الطريق وإلى ما يتسير لهم من العطايا الجَزيلة، ولم يعرجوا على الفَرح بها والالتفات إليها جادّين في السَّير حتى قاربوا فَوَصلوا إلى حَدِّ القُربة إلى الله، فظنوا أنهم وصلوا إلى الله فَوقَفوا وغلطوا، وربَّ ناظرٍ إلى نورٍ هو حجابٌ يَظنه المقصود، ولهذا لما نظر النَّصارى إلى إشراق نور الله قد تلألأ على المسيح غلطوا فيه، كمن رأى كوكباً في مرآةٍ أو في ماء فظن أن الكوكبَ في المرآة أو في الماء، فمدَّ يده إليه ليأخذه وهو مغرور.

الصنف الرابع: أرباب الأموال: والمغتَرّون منهم فِرَق:

ففرقةٌ منهم يَحرصون على بناء المساجد والمدارس(١) والرِّباطات والقَناطِر وما يَظهر للناس، ويكتبون أسماءَهم بالآجُرِّ عليها ليتخلَّد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم قد استَحقّوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين:

---

(١) في (ف): «المدائن».

أحدهما: أنهم يَبنونها من أموالٍ كَسبوها من الظُّلم والرُّشا والجِهات المحظورة، فهم قد تعرضوا لسَخَط الله في كَسْبِها، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كَسبها، فإذا عصوا الله تعالى بكسبها كان الواجب عليهم التَّوبة ورَدّها إلى مُلاكِها إما بأعيانها إن كانت باقيةً، وإلا فَرَدُّ بدلها، فإن عجزوا عن المُلاك، رَدّوها إلى الوَرَثة، فإن لم يبق للمظلوم وارثٌ فالواجب صرفها إلى أهم المصالح، وربما كان الأهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفةً من أن يظهر ذلك للناس، فيبنون الأبنية بالآجرِ وغرضهم الرياء واجتلاب الثَّناء، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم بها لا لبقاء الخير.

والوجه الثاني: أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصدَ الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كُلِّف واحد منهم أن يُنفقَ ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشقَّ عليه، ولم تسمح به نفسه، فالله مُطَّلع عليه كتبَ اسمَه أو لم يكتب، فلولا أنه يُريد به وجهَ الناس لا وجه الله ما فعل ذلك.

وفرقةٌ أُخرى ربما اكتَسبَت المالَ من الحلال وأنفقت على المساجد، وهي أيضاً مغرورة من وجهين:

أحدهما: الرياء وطلب الثناء، فإنه ربما يكون في بلده أو في جواره فقراء فَصرفُ المال إليهم أهم من الصرف إلى المساجد وزينتها، وإنما يَخفُّ عليه الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك على الناس.

والثاني: أنه يصرف ذلك إلى زَخْرَفة المسجد وتَزْيينه بالنُّقوش التي هي مَنهيٌّ عنها وشاغلة أبصارَ المصلّين وقلوبَهم، والمقصود من الصلاة الخُشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين ويُحبط ثوابهم، ووَبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يَغترُّ به ويرى أنه من الخَيرات، ويعتدُّ بذلك وسيلةً إلى الله تعالى، وهو بذلك قد تعرض لسَخَط الله تعالى وهو يظن أنه مُطيع لله وممتثل لأمره، وقد كدَّرَ قلوبَ الناس بما زَخرف من المسجد وربما شَوَّقهم به إلى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه، وَوَبال ذلك كلّه عليه، إذ المسجد

إنما جُعِل للتواضعِ وحُضورِ القلب، قال مالك بن دينار: أتى رجلٌ مسجداً فوقف على الباب، فقال: مثلي يدخل بيتَ الله؟ فكُتبَ في مكانه صِدِّيقاً، فبهذا ينبغي أن تُعظم المساجد، وهو أن يَرى تلويثَ المسجد بنفسه جنايةً على المسجد، لا أن يَرى تلويثَ المسجد بالحرام أو بزَخرفة الدنيا منَّةً على الله تعالى، فغرور هذا من حيث إنه رأى المنكر معروفاً واتَّكل عليه.

وفرقة أخرى يُنفقون الأموال في الصَّدقات وعلى الفقراء ويَطلبون به المحافِلَ الجامعةَ ومنَ الفُقراء من عادَته الشُّكرُ والإفشاءُ للمعروف، ويكرهون التصدق في السِّرِّ، ويَرَون إخفاء الفقير لما أخذ منهم جنايةً عليهم وكُفراناً، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحَجِّ فَيحجُّون مرةً بعد أخرى، وربما تَركوا جيرانهم جياعاً، وقد قال رجل لِبشْر الحافي: قد عزمتُ على الحج. فقال: كَمْ أعددتَ للنَّفقة؟ قال: ألفي درهم. قال: فأيّ شيءٍ تبغي بحجِّكَ؟ قال: رِضا الله عزَّ وجل. قال: إن أصبتَ رضا الله في إنفاقها وأنتَ في منزلك أتفعل؟ قال: نعم. قال: اقضِ دينَ مَدينٍ، ورُمَّ شَعْثَ فقير، وأحْيِ عائلة معيلٍ، وفَرِّح يتيماً، وإن قوي قلبك أن تُعطيها واحداً فافعَل، فإن إدخالكَ السرور على المسلم وإغاثةَ اللَّهْفان أفضل من مئةِ حجة. قال: سَفَري أقوى في قَلبي. فقال: إذا جُمعَ المالُ من الشبُّهات اقتَضت النَّفسُ أنْ تَقضيَ به وَطَراً، واللهُ لا يقبلُ إلا عمل المتَّقين(١).

وفرقةٌ أخرى من أرباب الأموال يَحفظون الأموال ويُمسِكونها بُخلاً، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يُحتاج فيها إلى نفقةٍ، كصيام النهار وقيام الليل وخَتم القرآن، وهم مَغْرورونَ؛ لأن البُخلَ المُهلكَ قد استولى على قُلوبهم، فهم محتاجون إلى قَمعِهِ بإخراج المال، فقد اشتغلوا بطلب فَضائل هم مُستغنون عنها، ومثالهم مثال من دَخل في ثوبه حَيَّةٌ فاشتغل بِطَبْخِ السَّكَنْجَبين ليُسكِّنَ به الصَّفراء.

وفرقةٌ أُخرى غَلَبهم البُخلُ، فلا تَسمح نفوسهم إلا بأداءِ الزَّكاةِ فقط، ثم إنهم يُخرجون من المال الرَّديء ويَطلبون من الفقراء من يَخدمهم ويتردد في حاجاتهم،

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: (النفس).

أو من يحتاجون إليه في المستقبل لخدمة، أو مَن لهم فيه على الجُملة غَرَض، أو يُسلّمون ذلك إلى بَعض الأكابر ليفرِّقه لينالوا بذلك عنده منزلةً، فيقوم لحاجاتهم، وكل ذلك مفسدٌ للنية وصاحبه مغرورٌ؛ لأنه يطلب بعبادة الله عز وجل عِوَضاً من غيره، وغرورُ أرباب الأموال كثير وإنّما نبهنا بما ذكرنا على جِنْسِه.

وفرقةٌ أُخرى من عوام الخَلق وأرباب الأموال والفقراء اغْتَروا بحضور مجالس الذِّكْر وجَعلوه عادةً[١] واعتقدوا أن ذلك يَكفيهم، ويظنّون أن لهم بنفس السَّماع أجراً دون العمل والاتِّعاظ، وهؤلاء مَغرورون؛ لأن مجلسَ الذكر إنما فُضِّلَ لكونه مرغِّباً في الخير، وكل ما يراد لغيره إذا لم يُوصِل إلى ذلك الغَير فلا وَقْعَ له، وربما اغترُّوا بما يَسمعونَ من الواعِظِ[٢] من فَضيلة حُضور المجلس وفَضل البكاء، وإنما فُضِّلَ العمل به، وفُضِّل البكاءُ لأنّه سببٌ للندم الذي هو تَوبة، فإذا لم يحصل المقصود بذلك لم ينفع وجوده، وربما سمع أحدهم التَّخويف فلا يَزيد على قوله: يا سَلام سَلِّم، أو: أعوذُ بالله، ويَظنُّ أنه قد أَتى بالمقصود، وهذا غرورٌ، وإنما مثاله مثال مريض [٣]يحضر عند الأطباء فيسمع ما يجري، والجائع الذي[٣] يحضر عند من يصفُ له الأطعمةَ اللذيذة ثم ينصرف وذلك لا يغني عنه، فكذلك سَماعُ وَصفِ الطّاعات دونَ العمل بها، فكلُّ وَعْظٍ لم يُغير منكَ صفةً تتغير بها أفعالك فهو حجة عليك، فإذا رأيته وسيلةً لك كنتَ مغروراً.

فإن قيل: فما ذكرتَه من مداخل الغُرور أمرٌ لا يَكاد أحدٌ يتخلص منه، فهذا يوجبُ اليأس.

فالجواب: أنّ من فَترت هِمتُه عن شيءٍ أظهر اليأسَ منه، واستعظم الأمر واستَوْعَر الطَّريق، ومن صَحَّ منه الهَوى أرشد إلى الحيل واستَنبط بدَقيقِ[٤] النَّظر خَفايا الطرق في الوصول إلى الغَرض، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يَستَنْزِل الطَّيرَ

(١) في (ف): (عبادة).
(٢) في (ف): (الوعظ).
(٣-٣) سقط من الأصل.
(٤) في الأصل: (بطريق).

المحلَّقَ في جَوِّ السماء مع بُعده منه استَنْزَله، أو يُخرِجَ الحوتَ من قَرار البَحر، أو يستخرجَ الذهبَ من تحتِ الجبال، أو يَقْتَنِصَ[١] الوُحوشَ من البراري، أو يَستسخِرَ الفِيَلةَ، أو يأخذ التِّرياقَ من أجواف الأفاعي فَعل، وقد استخرجوا وهُم على الأرض معرفةَ مقادير الكواكب، كلُّ ذلك لأن أمور الدنيا أهمتهم، فلو أهمهم أمر الآخرة لنالوه؛ لأن مداره على معنى واحد، وهو تقويم القلب، وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تَبعهم بإحسانٍ، ولا يعجز إلا من لم تَصدُق نيَّته.

فإن قيل: فبمَ[٢] ينجو من الغرور؟

فالجواب: بثلاثةِ أشياء: بالعقل والعِلم والمعرفة.

أما العقل؛ فنعني به الفطرة الغريزيَّة والنور الأصلي الذي به يُدرك الإنسانُ حقائق الأشياء، فالفِطنَة والكَيْسُ فطرة، والحمقُ والبَلادة فِطرة، والبليد لا يقدر على التَحفظ من الغرور، وصفاء العقل وذكاء الفَهم لا بد منه في أصل الفِطرة، وإذا لم يكن في الفطرة لم يمكن اكتسابُهُ، وإنما إذا حصل أمكنت تقويته بالممارسَة، فأساس السعادات كلها العَقل، وقد سبقَ بيانُ فَضله في كتاب العلم.

وأما المعرفة، فنعني بها أن يعرف نَفسه وربَّه ودُنياه وآخرته، فأما معرفة[٣] نَفسه، فبالعبودية، ومعرفة رَبِّه فبالإلهية، وفي كتاب المحبة وكتاب شَرح عجائب القلب وكتاب التَّفكُّر وكتاب الشُّكر إشارات إلى وَصف النفس، وإلى وصف جلال الله سبحانه، وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه في كتاب ذَمّ الدنيا وكتاب ذكر الموت، فإذا حصلت له هذه المعارف ثارَ من قلبه بمعرفة الله حبُّ الله، وبمعرفة الآخرة شِدَّة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرَّغبة عنها، فيصير أهم أموره إليه ما يوصله إلى الله ويَنفعه في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قَلبه صَحَّتْ نِيَّتُه في الأمور كلها، فإن أكل مثلاً أو اشتغلَ بقضاء حاجة كان قَصده من ذلك

(١) في (ف): (يستقبض).
(٢) في (ف): (فمتى).
(٣) ليست في (ف).

الاستعانة على سُلوك طريق الآخرة، واندفَعَ عنه كل غرور مَنشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا لصحة نِيتِّه، ومتى كانت الدنيا أحبَّ إليه من الآخرة وهَوى نفسه آثَر عنده من رِضا الله لم يمكنه الخلاصُ من الغرور، فإذا غلب حُبُّ الله على قلبه لمعرفته به وبنفسه احتاجَ إلى المعنى الثالث وهو العلم؛ ونعني به العِلم بكيفية سلوك الطّريق إلى الله وآفاتها والعلم بما يقرِّبُه منه وما يُبعده عنه، وجميع ذلك في كتابنا هذا فيعرف من رُبع العبادات شروطها فَيُراعيها، وآفاتها فَيتَّقيها، ومن رُبع العادات أسرار المعايش وما هو مُضطرٌّ إليه فيأخذه بأدب الشرع، وما هو مُسْتَغنٍ عنه فيُعرِضُ عنه، ومن رُبع المُهلكات علم جميع العقبات المانعة في طريق الله تعالى، فإن المانع عن الله الصفات المذمومة في الخُلق، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه، ويعرف من رُبع المُنْجِيات الصِّفات المحمودة التي لا بدّ أن تُوضَع خلفاً من المذمومة بعد مَحوِها، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحَذَر من الأنواع التي أَشَرنا إليها من الغُرور، وأصلُ ذلك كلّه أن يغلب حبّ الله على القلب ويَسقط حب الدنيا منه حتى تَقوى به الإرادة وتَصِحّ به النِّية ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فإن قيل: فإذا فعل جميعَ ذلك فما الذي تَخافُ عليه؟

فالجواب: أخافُ عليه أن يَخدعه الشَّيطان بأن يدعوه إلى نُصح الخَلق ونَشْر العلم ودعاء الناس إلى ما عرفَه، فإنَّ المُريد المخلص إذا فرغَ من تَهذيب نفسه وأخلاقه وراقبَ(١) القَلبَ حتى صَفَّاهُ من جميع الأكدار، واستَوى على الصراط المستقيم وصَغُرت الدنيا في عينه فتركها، وانقطع طمعه من الخلق فلم يلتفت إليهم، لم يَبقَ له إلا هَمٌّ واحدٌ وهو الحق سبحانه والتَّلذُّذ بذكره ومناجاته والشَّوق إلى لقائِه، وقد عجز الشيطان عن إغوائه من جهة الدنيا وشَهواتها فأتاه من جهة الدين ودَعاه إلى الشَّفقة على الخلق والنُّصح لهم، إذ قَد رآهم حَيارى سُكارى مَرضى من غير طبيب، وهو يعلم دَواءهم، فَمَثله كمثل رجلٍ كان به داءٌ عظيم لا

(١) في الأصل: (وراقب الله القلب). وهو خطأ ظاهر.

يُطاق أَلَمه، فيسهر له لَيلَه ويَقلق نَهاره، فوجد دواءً سهلاً بغير ثمنٍ ولا مَرارةٍ فاستعمله فبرأ ثم نظر إلى خلقٍ كثيرٍ بهم ذلك المرضى فَرَحمهم، ولم يجد مندوحة من مداواتهم، فكذلك هذا المخلص لما اهتَدى ورأى الخلقَ مَرضى انبعثت من نفسه رحمةٌ للخَلقِ وحَرَّضَه الشيطانُ على ذلك رجاءَ أن يجد مجالاً للفتنة، فيدعوه إلى طلب الرياسة دعاءً أخفى من دَبيب النَّمل لا يَشعر به المُريد، ثم يدعوه ذلك إلى التَّصنع والتَّزين للخلق في حركاته وألفاظِه، فيقبل الناس عليه، فيعظمونه ويُجلونَه ويُوقِّرونه، وصاروا له كالعبيد، فتتحرك حينئذٍ النفسُ بما التذَّت به من ذلك، فيجد الشيطانُ فُرصةً فيستعمله في كلّ ما يحفظ عليه تلك اللَّذَّة.

وأمارة حركة النفس وإيثار الطبع والركون إلى الهَوى أنه لو رُدَّ عليه خَطؤه في محفلٍ غضب، فلو أنكر على نفسه الغَضب لخيَّلَ إليه الشيطان أن هذا الغَضب لله؛ لأن متى لم يَحسُن اعتقادُ المُريدين فيك انقطَعوا عن الطريق، فوقع في الغرور، وربما أخرجه ذلك إلى الوقوع فيمن ردَّ عليه فيقع في الغِيبة المحظورة بعد تركه للحلال المتَّسع، وفي الكبر بعد تركه للخطرات الرديَّة وأخذ في التصنع، فلو ضَحك لجزعت نفسُه من اطِّلاع الناس عليه في تلك الحال لئلا يَسقط قبوله، وربما أَتبعَ ذلك باستغفارٍ وتَنفُّس الصُّعداء[١] وربما زاد في الطاعات لأجلهم، يُخيِّلُ إليه الشيطانُ: إنك إنما تفعل ذلك لئلا يَفتُروا عن الخير، وإنما هو جزع من النفس خوفاً من فَوتِ الرياسة، وآية ذلك أنه لو اطَّلعَ الناس على مثل ذلك من أقرانه لم يجزع بل ربما أحب ذلك، ولو ظهر من أقرانه مَن مالت القلوب إلى قبوله وزاد أثر كلامه على كلامه شَقَّ ذلك عليه، ولولا أن النَّفس قد استلذَّت الرياسة لكان يَغتنم ذلك، لأن مثَله كمثل رجل يرى جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئرٍ وتَغطَّى رأسُ البئر بحجرٍ كبير يمنعهم من الصعود، فرقَّ لهم فجاء ليرفع الحجر فشقَّ عليه فجاء من أعانه على ذلك، فإنه يعظم بذلك فرحه إذْ غرضه خلاص إخوانه من البئر، فكذلك الناصح إذا كان غرضُه خلاصُ إخوانه المسلمين، فإذا ظهر من يُعينه على

(١) سقطت من النسخ وأثبتت من الأحياء.

ذلك أو يَكفيه ذلك لم يثقل عليه إن كان غرضه هِدايتهم، ومتى تَمكَّن الشيطان منه في هذا الباب دعاه إلى جَميع كبائر القلوب وفَواحش الجوارح فأهلكه.

فإن قيل: فمتى يَصح له أن يَشتغل بنُصحِ الخَلق؟

فالجواب: إذا لم يكن له قصدٌ سوى هدايتهم، وكان يَودُّ لو وجد من يُعينه، أَوْ لَو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طَمعه عن ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده حَمدُهم وذَمُّهم، ولم يَتزيَّن لهم كما لا يتزيَّنُ راعي البُهمِ لها[1] إذ هو مقصوده رعايتها ودفع الذِّئب عَنها دون نَظر الماشية إليه، فمتى لم يكن كذلك لم يؤمَن عليه أن يُصلح ويُفسد، فيكون كالشَّمعة تُضيء لغَيرها وتُحرق نَفسها.

فإن قيل: فلو ترك الوُعّاظ الوَعظ إلا عند نَيل هذه المنزلة خلت الدنيا من الوَعظ وخربت القلوب؟.

فالجواب: ولولا حُبُّ الدنيا خَربت وبطلت المعايش، ومع هذا فهو خطر وله آفات، فما تزال ألسِنَة الوعّاظ مُنطلقة حباً للرياسة، فانظر لنفسك، فإن الله تعالى قد يُصلح خلقاً بشخصٍ ليس بصالحٍ، وإنه ليؤيّد الدينَ بالرَّجل الفاجر.

فإن قيل: فإن فَهم المريدُ هذه المكيدةُ فاشتغل بنفسه عن الخَلق أو نصحهم وراعى شرط الإخلاص، فهل بقي عليه خوف؟

فالجواب: إنه قد بقي عليه أعظم الخوف، وهو أن يُوسوس له الشيطانُ فيقول: قد أَعْجزتَني بذكائك، ولولا محلّك عند الله ما قَوَّاكَ على قَهري وفَطَّنك لجميع مداخل غُروري. فإن صَدَّقه في ذلك عجب بنفسه في فراره من الغُرور، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور، وهو المهلك الأكبر، وقد روينا أن إبليس يقول: من ظَنَّ أنه يخلص بعلمهِ منّي فبجهله وقع في حبالي.

فإن قيل: فإن سلم من العُجْبِ بنفسه إذ علم أن ذلك من الله لا منه، وأنه لم يقدر على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله تعالى، فهل بقي عليه خوف؟

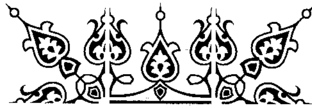
---

(١) البهم: الصغار من الضَّأن.

فالجواب: إننا نخافُ عليه الأمنَ من مكرِ الله، فإنه ربما ظنَّ أنه قد أُهِّلَ لشيءٍ فسكن إلى تلك العَطيَّة، ولم يخف من التغيير بل سبيله أن يكون مشاهداً لجملة ذلك من فَضلَ الله، ثم يكون خائفاً أن يكون قد شَذَّتْ عنه صفة من صفات كماله من حُبِّ الدنيا أو رياء الناس أو التفات إلى عِزٍّ، ثم يخاف أن يُسلب حاله في كل طَرفة عين، ثم يراقب خَطَر الخاتمة فإنه لا أَمنَ منْ ذلك إلا بعد مُجاوزة الصراط، ولذلك قيل: والمخلصون على خَطر. وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت: فُتَّني[1]: لا بَعدُ.

فقد بان بما ذكرنا أن المغرور هالكٌ، وأن المخلص الهارب من الغرور على خَطَر، فلذلك لا ينبغي أن يُفارق الخوفُ قلوبَ الأولياء أبداً، وقد أوسعنا الكلام في الغرور وأبوابه في كتابنا المسمَّى بتلبيس إبليس، فلنقتصر ها هنا على هذا المقدار، ونحن نسأل الله عزَّ وجلَّ السلامة من الغُرور وحُسن الخاتمة، إنه قريب مجيب.

تم كتاب الغرور وبه تمَّ ربع المهلكات.



(١) فُتَّني: أي نجوتَ مني ولم أستطع إغواءَك.

مِنهاجُ القاصِدِين

ومُفيدُ الصَّادِقين

أَبي الفرج عبدِ الرَّحمنِ بنِ علي

ابن الجوزي

تحقِيق

كامل محمَّد الخرّاط

المجلَّد الثَّالِث

المُنجِيَّات

دار التوفيق

للطِباعةِ والنشر والتوزيع



ربع المنجيات

كتاب التوبة

وهو الأول من رُبع المُنْجِيات

الحمدُ لله الذي وضع الآدمي وضع العجاب، فَطَبْعُه إلى الخطأ وعَقلُه إلى الصَّواب والخصامُ بينهما دائم عند أُولي الألباب، فأما الغافلون فمعَ عَذْب المُشتهى ناسين مُرَّ العذاب(١)، فمنهم من لم ينقلب عن زَلَلهِ إلى حين الانقلاب، ومنهم من تَنبَّه لخطئه فارعَوى وتاب، فهو يرجو ويخاف من المنتقم الوَهّاب، غافر الذَّنب وقابل التَّوب شَديد العقاب.

أحمَدُه حمداً يَفوتُ(٢) الإحصاء والحساب، وأشهدُ بوحدانيته شهادةً تصدر عن صدرٍ غيرِ مُرْتاب، وأصلّي على رسوله أشرف نَبيٍ نزل عليه الكتاب، وعلى أزواجهِ وأتباعهِ وكلِّ الأصحاب، صلاةً يُنالُ بها الزُّلفى وحسنُ المآب.

أما بعد: فإنَّ التوبة من الذنوب مبدأ طريق السالكين، وأول إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ورأسُ مال الفائزين، وأول من زلَّ من الناس واجْتَرمَ أبو العالم ومبتدأ الأمم، فإذا زَلَّتْ من بَعضِ ولدِه القَدَمُ فمن أشبه أباه فما ظَلَم، غير أنه ينبغي أن يُماثله في قَرعِ سِنِّ النَّدم.

وليعلم أن السلامة من الخطأ حالُ الملائكة المقرَّبين، والتجرد للخطأ وصف المَرَدة والشياطين، والآدمي يَخْرِق ويَرقع ويَحُطُّ ويرفع، وبذلك يصح نسبه إلى آدم، وإذا ثبت أن الشرَّ معجونٌ في طين الآدمي عَجْناً محكماً فليعلم أنه لا يُخلصه

---

(١) في (ف): «يائسين من العذاب».

(٢) في (ف): «يفوق».

إلا نار النَّدم في الدنيا أو جهنَّم في الأخرى، فالعاقل من اختار أهونَ الشَّرين، وبادر إلى أخفِّ الأَمرين، قبل أن يُطوى بِساطُ الاختيار ولا يبقى إلا عمل النار.

ونحن نشرحُ حقيقةَ التَّوبة، وشَرطَها، وسببَها، وعلامتها، وثَمَرتها، والآفات المانعة منها، والأدويةَ الميسرة لها، ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان:

الركن الأول: في نفس التوبة وبيان حَدِّها وحقيقتها، وأنها واجبة على الفَور، وأنها إذا صَحَّتْ كانت مقبولة.

الركن الثاني: فيما عنه التوبة، وهو الذنوب، وبيان انقسامها إلى صغائرها وكبائرها، وما يتعلق بالعباد، وما يتعلق بحق الله تعالىٰ، وبيان كيفية توزع الدرجات على الحسنات والسيئات، وبيان الأسباب التي بها تعظم الصغائر.

الركن الثالث: في بيان شروط التوبة في دوامها، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم، وكيفية تكفير الذنوب، وبيان أقسام التَّائبين(١) في دوام التوبة.

الركن الرابع: في السبب الباعث على التوبة، وكيفية العلاج في حَلِّ عُقدة(٢) إصرار المذنبين، ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

---

(١) في (ف): «الناس».

(٢) سقطت من الأصل.

الركن الأول

في نفس التوبة

بَيان حقيقة التوبة

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أشياء مرتبة: علمٌ، وحالٌ، وفعل. فالعلم أول، والحال ثانٍ، والفعل ثالث. والأول موجبٌ للثاني، والثاني موجبٌ للثالث إيجاباً اقتضاه اطِّراد سُنَّة الله في الملك والملكوت.

أما العلم؛ فهو معرفة ضَرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفةً محققةً بيقينٍ غالبٍ على قلبه ثار من هذه المعرفة تألُّم القلب بسبب فَوات المحبوب، فإن القلب إذا شَعر بفوات محبوبه تألَّم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المُفَوّت فيسمى تألُّمه بسبب فعله المُفَوِّت لمحبوبه نَدَماً، فإذا غلب هذا الألم[1] على القَلب واستولى انبعثَ من هذا الألم في القلب حالة أخرى تُسمى إرادةً وقصداً إلى فعلٍ له تعلق بالحال والماضي وبالاستقبال؛ أما تعلُّقه بالحال؛ فبالتَّركِ للذنب الذي كان مُلابِساً، وأما بالاستقبال؛ فبالعزم على تَرك الذنب المُفَوِّتِ للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضي؛ فبتَلافي ما فات بالجَبْرِ والقَضاء إن كان قابلاً للجبر.

فالعلم هو الأول، وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سُمومٌ مهلكة، واليقين عن تأكُّد هذا التَّصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نورُ هذا الإيمان إذا أشرقَ على القلب نارَ الندم، فيتألم به القلب حتى يُبصر بإشراق نور الإيمان أنه قد صار محجوباً عن محبوبه، كمن يُشرقُ عليه نور الشمس وقد كان في ظُلمةٍ، فسطَع النور

(١) في الأصل: «الندم».

فرأى محبوبه قد أشرفَ على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه، فتنبعث بتلك النيران إرادَتُه للانتهاض للتدارك، فالعلم والندم والقَصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثةُ معانٍ مُرتبةٌ في الحصول يُطلق اسمُ التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى النَّدم وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخر، وبهذا الاعتبار قال النبي ﷺ: «النَّدمُ تَوْبَةٌ» إذْ لا يخلو الندم من علم أَوْجَبَهُ وأثمره، وعن عزمٍ يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفاً بطَرفيه. أعني: ثمرته ومثمره. وبهذا الاعتبار قيل في حَدِّ التوبة: إنه ذَوبان الحَشَا لما سبق من الخطأ. وهذا تعرضٌ لمجرد الألم، وكذلك قيل: هو نارٌ في القَلب تلتهب، وصَدْعٌ في الكَبد[1] لا يَنْشَعِب[2]، وباعتبار معنى التَّرك قيل في حد التوبة: إنه خَلعُ لباس الجَفاء، ونَشرُ بساط الوَفاء.

وقال سَهلُ بن عبد الله: التَّوبة تبديل الحَركات المذمومة بالحركات المحمودة، ولا يتم ذلك إلا بالخَلوة والصَّمت وأكل الحلال. وكأنَّه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة.

والأقوالُ في حدود التوبة كثيرةٌ، فإذا فَهمت هذه المعاني الثلاثة وتَلازمها وتَرتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حُدودها قاصرٌ عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلبُ العلم بحقائق الأمور أهمُّ من طلب الألفاظ المجرَّدة.

بيان وجوب التوبة

اعلم أن وجوب التوبة ظاهرٌ بالآيات[3] والأخبار، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى قدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مُستَغنياً عن قائدٍ يقوده في كل خطوة؛ لأن السالك إما أعمى لا يستغني عن القائد وإما بصير يُهدَى إلى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه،

(١) في (ف): «في القلب والكبد».
(٢) لا ينشعب: أي لا ينجبر ولا يلتئم.
(٣) تحرفت في الأصل إلى: «بالآثار».

فكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون إلى هذا الانقسام؛ فمِن قاصرٍ لا يقدر على مُجاوزة التقليد في خطوة فيفتقر إلى أن يستمع في كل قدم نصاً من كتاب الله عز وجل أو سُنة رسوله، وربما أعوزه ذلك فتحيَّر، فَسَيرُ هذا وإن طال عمره مختصر وخُطاه قصيرة، ومِن سعيدٍ شرحَ الله صدره للإسلام، فهو على نورٍ من ربه يَتنبَّه بأدنى إشارة لسلوك طرق صعبة وقطع عَقبات مُتعبة، فَيُشرقُ في قلبه نورُ القرآن ونور الإيمان، وهو لشدة نور باطنه يجتزىء بأدنى بيان، يَكاد زَيتُه يُضيء ولو لم تمسسه نار، فإذا مَسَّته نار فهو نور على نور، فهذا لا يَحتاج إلى نَص منقول في كل واقعة.

فَمَنْ هذه حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة نظر أولاً بنور البَصيرة إلى التوبة ما هي، ثم إلى الوجوب ما معناه، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة، فلا يشكّ في ثبوته لها، وذلك بأن يعلم أن معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سَعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبَد، وأنه لولا تَعلُّق السَّعادة والشقاء بفعل الشيء وتركه لم يكن لوَصفه بكونه واجباً معنى، وإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سَعادة الأبد، وعلم أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله، وأن كل محجوبٍ عنه شَقي لا محالة، قد منع كلّ ما يشتهيه، واحترقَ بنار الفراق في نار جهنم، وعلم أنه لا مُبعِد عن لقاء الله تعالىٰ إلا اتِّباع الشَّهوات والإكباب على حب الهوى، ولا مقرب من لقاء الله سبحانه إلا الإقبال عليه بالكليَّة والمحبة له، وأن الذنوب تبعد عنه وتحجب، ولا شك أن الانصراف عما يبعد واجبٌ للوصول إلى القُرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والنَّدم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسبابٌ للبعد عن المحبوب لم يَتندَّم ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البُعد، وإذا لم يتوجَّع لم يرجع، والمعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، فهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البَصيرة، فأما من لم يقدر على هذا المقام ففي التَّقليد والاتِّباع له مجالٌ رحب يتوصل به إلى النَّجاة من الهلاك، فليلاحظ في ذلك الآثار والأحاديث

ذِكرُ الأمرِ بالتوبة

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [التحريم: ٨]، والنصوح الخالصة من شَوْبٍ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد الشَّيباني قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن سعيد قال: حدثنا شُعبة قال: حدثنا عمرو بن مُرَّة قال: سمعتُ أبا بُردةَ قال: سمعتُ الأَغَرَّ يحدث ابنَ عمر أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس(١)، توبوا إلى ربكم فإني أتوبُ إليه في اليوم مئة مرة».

ذكر فَرح الله عز وجل بتوبة التائبين

أنبأنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي بن المُذْهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن إبراهيم التَّيمي عن الحارث بن سُويد قال: حدثنا عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَلّهُ عزَّ وجل أفرحُ بتوبة أحدكم من رجلٍ خرجَ بأرضٍ دَوِيَّةٍ(٢) مَهْلَكةٍ، معه راحلتُه عليها طعامُه وشرابُه وزاده وما يُصلحه، فأضلها، فخرج في طلبها، حتى إذا أدركه الموت ولم يجدها قال: أَرجِعُ إلى مكاني الذي أضْللتُها فيه فأموتُ فيه. قال: فأتى مكانه فَغلبته عينُه، قال: فاستيقظَ فإذا راحلتُه عند رأسه عليها طعامُه وشرابُه وزادُه وما يُصلحه» أخرجاه في

---

(١) في (ف): «يا أيها الذين آمنوا».

(٢) ورد هنا في هامش (ف) ما نصه: «هي القَفر الخلاء، منسوبة إلى الدَّوِّ، وهو القَفر، وقال أبو عبيدة: أرض دَوِيةٌ بتخفيف الواو: ذات أدواء».

الصحيحين[١]، وقد أخرجا معناه من حديث أنس وأبي هريرة[٢] عن النبي ﷺ.

وأخرج مسلم في أفراده من حديث النُّعمان بن بَشير، وفي أفراده من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ليس أحد أحب إليه العذر من الله عز وجل»[٣].

وفي حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يُحبُّ العبدَ المؤمن المُفَتَّنَ[٤] التَّوابَ»[٥]. والأحاديث في هذا كثيرة.

ثم إن الإجماع منعقد على وجوب التوبة؛ لأن الذنوب مُهلكات مُبعدات عن الله تعالىٰ، فيلزم ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الاستقبال، وتدارك ما وقع من التَّقصير في سابق الأحوال، وكل ذلك واجب.

والنَّدم على ما سَبق روح التَّوبة وبه يتم التَّلافي، وهو نَوعُ ألمٍ يحصل عند المعرفة بما أوجبَ سَخط الله وضيَّع العمر فيما تُؤذي عواقبه.

فإن قيل: تَألُّم القلب لا يَدخل تحت الاختِيار فكيفَ يوصَف بالوجوب؟

فالجواب: إن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب، وللإنسان سبيل إلى تحصيل سببه، وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحتَ الوجوب لا بمعنى أن العلم يُحدثه الإنسان في نَفسه، بل الكل من خَلق الله تعالىٰ، واختيار العبد من خَلق الله أيضاً، فإن الله تعالىٰ خلق اليدَ الصَّحيحةَ وخلقَ الطعام اللَّذيذ، وخلقَ الشَّهوة للطعام، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام مسكن للشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مَضَرَّة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا؟ ثم خلق العلم بأنه لا مانع، فعند اجتماع هذه الأسباب تَنجزم الإرادة الباعثة على التناول، وانجزامها بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد قوة

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٢٧) و(٣٦٢٨)، والبخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) (٣).

(٢) حديث أنس أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، وحديث أبي هريرة أخرجه مسلم (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٦٠) (٣٥).

(٤) المُفَتَّن: هو الذي يُفتَن ويُمتَحن بالذنوب.

(٥) أخرجه أحمد (٦٠٥) و(٨١٠) وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٧٨، وأبو يعلى (٤٨٣).

الشهوة للطعام، فيسمى انجزامها اختياراً، وانجزامها خَلق لله تعالىٰ، فَتُحَرِّكُ اليدُ الصحيحة إلى الطعام.

وبعض هذه المخلوقات يَترتَّب على بعضٍ ترتيباً جَرَتْ به سُنَّة الله في خَلقِه، فلا يخلق الله حركةَ اليد بكتابةٍ منظومة ما لم يخلق فيها صِفةً تسمى قُدرة، وما لم يخلق فيها حياة، وما لم يخلق إرادةً، ولا يخلق الإرادة الجازمة ما لم يَخلق شهوةً وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا المَيلُ انبعاثاً تاماً ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس إما في الحال أو في المآل، ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسبابٍ أُخَر ترجع إلى حركة وإرادةٍ وعلمٍ، فالعلم[1] والميل الطَّبعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة، والإرادة والقدرة أبداً تستردفُ الحركة، وهذا الترتيب في كل فعل، والكل من اختراع الله تعالىٰ، ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض، كما لا يخلق الإرادة إلا بعد العلم، ولا العلم إلا بعد الحياة ولا الحياة إلا بعد الجسم، ويكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة، لا أن الحياة تتولّد من الجسم، ويكون خَلق الحياة شرطاً لخلق العلم، لا أن العلم يتولد من الحياة، ولكن لا يَستعد المحل لقبول العلم إلا إذا كان حيّاً، ويكون خلق العلم شرطاً لجزم الإرادة، إلا أن العلم يولد الإرادة، ولكن لا يقبل التغيير، فمتى وُجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف، فحصل ذلك الوصفُ من القُدرة الإلهية عند حصول الاستعداد، ولما كان للاستعدادِ بسبب الشروط ترتيبٌ كان لحصول الحوادث بفعل الله ترتيب، والعبد مَجرى[2] هذه الحوادث المرتبة، وهي مرتبة في قَضاء الله عز وجل ترتيباً كلياً لا يتغير كلمحٍ بالبصر، وظهورها بالتفصيل مقدرٌ بقدر لا يتعداها وأما العِباد فإنهم مُسَخَّرون تحتَ مجاري القضاء والقدر، ومن جملة القدر حركة في يد الكاتب بعد خلق صفةٍ مخصوصةٍ في يده تُسمَّى القُدرة، وبعده خلق مَيلٍ قوي جازمٍ في النفس يُسمَّى القصد، فيقال للفاعل: قد تحركتَ وكتبتَ ورميتَ، ويُقال من سُرادِقات المَلكوت: وما رميتَ إذْ رميتَ. وعند هذا يتحيَّر الخلق، فمِن قائلٍ يقول: إنه جَبرٌ مَحض. ومن قائلٍ: إنّه اختراعٌ

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: «فالعمل».

(٢) أي هو محل لجريانها عليه.

صرف. ومن متوسطٍ يميل إلى أنه كسْب، وكل هؤلاء صادقٌ من وَجْهٍ، وإن لم يُدرك أحدٌ منهم كُنْهَ هذا الأمر، وهذا يظهر بمثالٍ، وذلك أن جماعة من العُميان سَمِعوا بأنه قد دخلَ إلى البلدة حيوانٌ عجيب يُسمى: الفيل، فقالوا: لا بد أن نَتَعَرَّفَ هذا الحيوان باللَّمس الذي هو غاية قُدرتنا، فلما لَمَسوهُ وقعت يد بعضهم على رِجله، ووقعت يد أحدهم على نابه، ووقعت يَدُ بعضهم على أُذنه، فلما انصرفوا سألهم بقية العُميان، فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرِّجل: إن الفيلَ مثل الأسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه أَلْيَن منها. وقال الذي لمس النَّابَ: ليس كذلك بل هو صَلبٌ لا لينَ فيه وأملس لا خشونة فيه، وهو مثل عمودٍ لا مثل أسطوانة وقال الذي لمس الأُذن: لَعَمري إنه لَيِّن لكن فيه خُشونة. وكلٌّ منهم صدقَ من وجهٍ إذ أخبر عمّا أصابه من معرفة الفيل، ولكنهم بجملتهم قَصَّروا عن الإحاطة بكُنْهِ صورة الفيل، فاستَبْصِر بهذا المثال فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه، فالأفعال كَسْبٌ للعبد، وكسبُه من خلق الله عز وجل.

بَيانُ وجوب التَّوبة على الفَور

لما كانت المعاصي مُهلكات وَجبَ على الفور الهربُ منها؛ لأن كل علم يُراد لعملٍ لا يقع التَّفصي عن عُهدته ما لم يصر باعثاً، فالعلم بضرر الذنوب إنما أُريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها وقع الخلل في إيمانه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يَزْني الزّاني حينَ يَزني وهو مؤمن» وليست الإشارة إلى الإيمان بالله وَوَحدانيته، ولكنها الإشارة إلى نفي الإيمان بكون الزنا مُبعداً عن الله تعالىٰ، كما لو قال الطبيب: هذا سُمٌّ فلا تَقربه. فإنه إذا تناوله لم يكن غير مؤمن بوجود الطَّبيب وكونه طبيباً، بل هو غير مصدق بقوله: إنه سُمٌّ مُهلِك، فإن العالم بالسم لا يتناوله، فالعاصي ناقص الإيمان لذلك، على أن الإيمان إذا لم يثبت في اليقين[1] أصله ولم تَنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور مَلَك الموت، وخيف على صاحبه سوء الخاتمة، وقول العاصي للمطيع: أنا مؤمن كما أنك

(١) في (ف): «النفس».

مؤمن، كقول شجرة الدُّبّاء لشَجَرة الصّنوبر: أنا شجرةٌ وأنتِ شجرة. فتقولُ شَجرة الصنوبر: ستعرفين اغْترارَكِ بشُمول الاسم إذا عصفَت رياح الخَريف، فعند ذلك تَتقلّع أصولك وتَتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجر، كما قال القائل:

سوفَ تَرى إذا انْجَلى الغُبارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أَمْ حِمارُ

فهذا أمرٌ يظهر عند الخاتمة، وما يؤمن على العاصي انقلاب قَلبه عن أصل الإيمان لاجتماع الدواهي في طول عمره، كما أن المأكولات المُضِرَّةَ تجتمع ثم تَنهض مفسدة للمزاج موجبة للتلف، وإنما تقطعت نِياطُ قلوب العارفين خَوفاً من دَواهي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلّون، وهناك يضطرب أصل الإيمان في صدمات تلك الأهوال.

وإذا ثبتَ أن المعاصي كالسُّمِّ، فمتناول السُّمِّ إذا نَدم على ما تناول وجبَ عليه أن يَتقيَّأ ويُخرج السُّم كيف أمكن، ويبطل فعله كيف قدر على سبيل الفَور تلافيه لبدنه الذي لا يفوته بتلفه إلا حياة الدنيا، فمتناول سُموم المعاصي أولى بأن يتدارك أمره لئلا تفوته الآخرة وفي فواتها نار الجحيم الدائمة، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً لا يعمل فيه رأي الأطباء، ولا ينفع بعده الاحتماء، ولا يَنجع نُصح الناصحين.

بيان أن وجوب التَّوبة عامٌّ لا ينفك عنه أحد

قد دلَّ على عموم ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ [النور: ٣١] ثم إن نور البَصيرة يُرشد إلى ذلك أيضاً إذ معنى التوبة الرُّجوع عن الطريق المبعد من الله المقرب إلى الشَّيطان، والآدمي مُركب على أحوالٍ تقتضي وقوع الخطأ، وقيامُ الحرب بين العقل والهوى دائمٌ، وقد ثبتَ أن الشَّهوات تَسبق إلى الآدمي قبل كمال عقله، فيأنس بها وتَستولي عليه، وإنما يأتي العقل بالتدريج، فإذا كمل احتاج إلى قَمعِ جُنود الشيطان ومفارقة العادات ورَدِّ الطبع على سَبيل القَهر إلى العِبادة، وهذا معنى التَّوبة وليس هذا مختصاً بآدم وحده بل بالكُل.

فلا تَحسَبَنْ هنداً لها الغَدْرُ وَحدَها   سَجِيَّةُ نَفسٍ كُلُّ غانيةٍ هِنْدُ

وهذا كالحكم الإلهي المكتوب على جنس الإنس لا بد من وقوعه، فعلى هذا نقول: من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من جَهله وكفره، فإن بلغ مسلماً تَبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه، فعليه التَّوبة من غفلته وتَفَهُّم معنى الإسلام، وأنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئاً ما لم يُسلم بنفسه، فإن فهم ذلك، فعليه الرجوع عن عادته وإلْفِهِ للاسترسال وراء الشهوات من غير صارفٍ بالرجوع إلى حدود الله عز وجل في المنع والإطلاق والانكفاف والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الأكثرون، فدلَّ على أنَّ التوبة فرضُ عينٍ في حق كل شخص لا يُتصوّر أن يستغني عنها أحد من البشر.

وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال، فهو أن كل بَشرٍ لا يخلو عن معصيةٍ؛ فإن خَلا عن معصيةِ الجوارح لم يخل عن الهَمِّ بالذَّنب بالقلب، وإن خلا عن الهَمِّ لم يخل عن وَسْواس الشَّيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالىٰ، فإن خلا عنه لم يَخلُ عن غفلةٍ وقصورٍ في العلم بالله سبحانه وصفاتِه وأفعالِه، وكل ذلك نقص، وله أسباب، وتركُ أسبابه بالتَّشاغل بأضدادها رجوعٌ عن طريقٍ إلى ضده، والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يُتَصوَّر خُلوُّ آدمي من هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، فأما الأصل فلا بد منه، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنّه لَيُغانُ[1] على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة سَبعين مرةً»[2]. ولذلك أكرمه الله تعالىٰ بأن قال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟ ثم من ضاعَ من عمره الذي لا قيمةَ له شيء فيما يؤذيه في آخرته، فكيف لا يندم على الفعل المؤذي وعلى الجَوهَر الضائع؟ فإنَّ كل ساعةٍ من العمر بل كل نَفَسٍ جوهرة لا قيمةَ لها؛ لأنها صالحة للإنقاذِ من شَقاوة الأبَد،

(١) لَيُغانُ على قلبي: أي ما يَتغشى القَلبَ، وقيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فَتَرَ عنه أو غَفل عَدَّ ذلك ذنباً واستغفر منه.

(٢) هكذا في النسخ والإحياء بلفظ: «سبعين مرة»، وأخرجه مسلم (٢٧٠٢) وأحمد (١٧٨٤٨) وابن المبارك في الزهد (١١٤٠)، وأبو داود (١٥١٥) بلفظ «مئة مرة».

والإيصال إلى سَعادة الأَبد، فصرفها في الغَفلةِ خُسْران، وفي المعصية هَلاك.

بيان أنّ التوبة إذا اجتمعت شَرائِطُها فهي مقبولةٌ لا محالةَ

اعلم أنك إذا فَهمت معنى القبول لم تشكَّ في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة، وذلك أن القلب خُلِقَ سليماً، فكل مولود يولد على الفِطرة، وإنما تَفوته السَّلامة بكُدورةٍ تَرهَقُ وَجهه من غَبرة الذنوب وظُلمتها، فإذا تاب كُشِفَ ما كُشِفَ ونسخَ نورُ الحَسَنات ظلامَ السَّيئات نسخَ النهارِ اللَّيلَ.

وقد بان لأهلِ البَصائر أنَّ القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات، فيُستعار للمعاصي لفظ الظُّلْمة، وللطاعات لفظ النُور، وبين الظُّلمة والنور تَضاد لا يتصور معه اجتماعهما، فمن تصور أنَّ التوبة تصح ولا تُقبل، كمن توهم أن الشَّمس تطلع ولا يَزول الظلام، وإنما الشَّأنُ في تصحيح التَّوبة، ولا نقول كما قالت المُعتزلة: إن قبول التوبة واجبٌ على الله تعالىٰ. بل نقول: إنه خَلَقَ الحسنةَ ماحية للسيئة، كما خلق الماء مزيلاً للعطش.

فإن قيل: فالتائبُ شاكٌّ في القبول بخلاف العَطشان، فإنه لا يشك في الرِّي إذا شرب.

قلنا: إنما يقع الشكُّ في وجود شرائط الصحة واجتماعها.

فهذا البيان يكفي أهل البصائر في قبول التوبة، لكنا نَعضده بالآيات والأخبار والآثار:

قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥] وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] وقد ذكرنا عن النبي ﷺ أنه قال: «للهُ أَفْرَحُ بِتوبةِ عَبْده..» والفَرحُ وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة.

وأنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أَعْين قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا محمد بن بَشَّار[1] قال: حدثنا محمد بن

(١) تصحفت في (ف) إلى: «يسار».

أبي عَدي عن شُعْبَة عن قَتادةَ عن أبي الصِّدّيق النَّاجي عن أبي سَعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «كانَ في بني إسرائيل رجلٌ قتلَ تِسعةً وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل، فأتى راهباً فسأله هل له توبة. قال: لا. فقتله، وجعل يَسأل، فقال له رجل: ائتِ قرية كذا وكذا، فأدركَهُ الموتُ، فَناءَ بصدرِه نحوها، فاختصَمت فيه ملائكة الرَّحمة وملائكةُ العذاب، فأوحى الله تعالىٰ إلى هذه أن تَقرَّبي، وأوحى إلى هذه أن تَباعَدي. وقال: قِيسوا ما بينهما. فوجدوه إلى هذه أقرب بشبرٍ، فغُفِرَ له». أخرجاه في الصحيحين(١).

أنبأنا ابنُ الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حُسين بن محمد قال: حدثنا محمد بن مُطَرِّف عن زَيد بن أسلم عن عبد الرحمن بن البَيْلَماني قال: اجتمعَ أربعةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالىٰ يَقبلُ توبةَ العبد قبل أن يموتَ بيوم». فقال الثاني: آنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يقبلُ توبةَ العبد قبلَ أن يموتَ بنصف يَوم». فقال الثالثُ: آنتَ سمعتَ هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الله يقبلُ توبةَ العبد قبل أن يموت بضَحوةٍ» فقال الرابع: آنتَ سمعت رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرغِر بنَفْسِهِ»(٢).

وروى صفوانُ بن عَسّال عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ من قِبَلِ المغرب باباً مَسيرة أربعين سنة أو سبعين سنة، فَتحه الله للتوبة يوم خَلق السماوات والأرض، فلا يُغلق حتى تَطلعَ الشمسُ منه». وقال عليه الصلاة والسلام: «النَّدمُ تَوبةٌ».

وسيأتي في الركن الرابع حديثُ أبي بكر: «مَن أذنب ثم صلّى ركعتين ثم استغفر غُفِر له». وقولُ ابن مسعود: من قرأ آيتين بعد ذنبه غُفِر له.

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٤٩٩).

وقال ابن عمر: من ذكر خطيئةً أَلَمَّ بها، فوجل منها قلبه مُحِيَت عنه.

وقال عبد الله بن سَلام: لا أحدثكم إلا عن نَبي مُرسلٍ أو كتابٍ مُنزل؛ إن العبد إذا عَملَ ذنباً ثم نَدِم عليه طَرفة عين سقطَ عنه أسرع من طَرفة عين.

وقال سعيد بن المسيِّب: أُنزلَ قولهُ: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] في الرجل يُذنب ثم يَتوب، ثم يُذنب ثم يَتوب.

وكان في بني إسرائيل رجلٌ عصى بعد التَّعبد مدة، ثم خَطر له الرجوعُ إلى التّوبة، فقال: أتُراه يَقبلني؟ فسمع هاتفاً يقول: أحبَبْتَنا فأحبَبْناكَ، وتركتَنا فتركْناك، وعَصيتنا فأمْهَلناك، فإن رَجَعتَ قَبِلْناك

* * *

الركن الثاني

فيما عنه التَّوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها

اعلم أن التَّوبةَ تركٌ للذنب، فلا بد من معرفته لِيُترك، والذنب كل ما خالفَ أمرَ الله تعالىٰ في تركٍ أو فعلٍ، وتفصيلُ ذلك يَستدعي شرح التَّكليفات من أولها إلى آخرها، وليس ذلك من غرضنا، ولكنا نُشير إلى مَجامعها وروابطها وأقسامها.

بيانُ أقسام الذُّنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة على ما عُرفَ شَرحُه في كتاب عَجائب القلب ولكن تنحصر(١) مثارات الذنوب في أربع صفات: صفات رُبوبية، وصفات شَيطانية، وصفاتٍ بَهيمية، وصفات سَبُعيَّة، وذلك لأن طينة الإنسان عُجِنَت من أخلاطٍ مختلفة، فاقتَضى كل واحد من الأَخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار، كما يقتضي السُّكر والخَلّ والزَّعفران في السَّكَنْجَبين آثاراً مختلفة.

وأما ما يقتضيه النُّزوع إلى صفات الربوبية فمثل الكِبرِ والفَخر(٢) وحب المدح والثَّناء، والعِز والغِنى، وحب دَوام البَقاء، وطلب الاستعلاء حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا يتشعَّبُ منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق، ولم يَعدّوها ذنوباً وهي المُهلكاتُ العظيمةُ التي هي كالأمَّهات لأكثر المعاصي كما استَقصيناهُ في ربع المُهلِكات.

الثانية: الصفة الشيطانية التي منها يتشعّب الحسدُ والبَغي والحِيل والخِداع والأمر بالفَساد والمُنكر، وفيه يدخل الغِشُّ والنِّفاق، والدُّعاء إلى البِدَع والضَّلالات.

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: «تخطر».

(٢) في (ف): «العُجب».

الثالثة: الصفة البَهيميَّة، ومنها يَتشعَّب الشَّرَهُ والحِرصُ على قضاء شَهوة البَطن والفَرج ومنه يتشعَّب الزِّنا واللِّواط والسَّرقة، وأكلُ مال الأيتام، وأخذُ الحطام لأجل الشَّهوات.

الرابعة: الصِّفة السَّبُعيَّة، ومنها يتشعَّب الغَضَبُ والحِقدُ، والتَّهجُّم على النّاس بالشَّتمِ والضَّربِ والقتلِ وأخذِ الأموال.

وهذه الصفات لها تَدريج في الفِطرة؛ فالصفة البَهيمية هي التي تَغلب أولاً، ثم تتلوها الصفة السَّبُعية ثانياً، فإذا اجتمَعتا استَعملتا العقلَ في الخِداع والمَكرِ والحيل، وهي الصفة الشَّيطانية، ثم تغلب الصفات الرُّبوبية، وهي الفَخرُ والعِزُّ والعُلو والكِبر وقصد الاستيلاء على جَميع الخلق.

فهذه أُمَّهات الذُّنوب ومَنبعها، ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع إلى الجوارح، فبعضها في القلب خاصة، كالكُفر، والبِدعة، والنِّفاق، وإضمار السوء للناس، وبعضها على العَين والسَّمع، وبَعضها على اللِّسان، وبعضها على البَطنِ والفَرج، وبعضها على اليَدين والرِّجلين، وبعضها على جَميع البَدن، ولا حاجة إلى بيان تَفصيل ذلك فإنه واضح.

قسمةٌ ثانيةٌ: اعلم أن الذُّنوب تَنقسم إلى ما بين العَبدِ وبينَ الله، وإلى ما يتعلَّق بحقوق العِباد، فما يتعلَّق بالعَبد خاصة، كتركِه الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وما يتعلق بحقوق العباد، كتركه الزكاة[1]، وقتلِه النفس، وغَصبه الأموال، وشَتمِه الأَعراض وكل متناول من حق الغير من نفسٍ أو طَرَفٍ أو مالٍ أو عِرضٍ أو دينٍ أو جاهٍ، وتناول الدين بالإغواء والدعاء إلى البِدعة، والترغيب في المعاصي، وتَهييج أسباب الجُرأة على الله عزَّ وجل، كما يفعل بعض القُصّاص بتَغليب جانبِ الرَّجاء على جانب الخَوف.

وما يتعلق بالعباد فالأمرُ فيه أغلظُ، وما بينَ العبد وبينَ الله عز وجل إذا لم يكن شِركاً، فالعَفو أرجى وأَقرب.

---

(١) في (ف): «الصلاة».

وقد جاء في الخَبر الدَّواوين ثلاثة؛ أخبرنا ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابنُ المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يَزيد قال: أخبرنا صَدَقةُ بن موسى قال: حدثنا أبو عِمران الجَوني عن يَزيد بن بابَنوس عن عائشةَ قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدَّواوين عند الله عز وجل ثلاثةٌ: ديوان لا يَعبأ اللهُ به شيئاً، وديوان لا يَتركُ اللهُ منه شيئاً، وديوان لا يَغفره الله، فأما الدِّيوان الذي لا يَغفره اللهُ؛ فالشِّركُ، قال الله عز وجل: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأما الديوان الذي لا يَعبأ الله به شيئاً؛ فظلمُ العَبدِ نَفسَه فيما بينه وبينَ رَبِّه من صومِ يوم تركه، أو صلاةٍ تركها، فإن الله عز وجل يَغفر ذلك ويَتجاوز إن شاء، وأما الديوانُ الذي لا يَتركُ منه شَيئاً؛ فظلمُ العبادِ بَعضِهم بعضاً، القِصاصُ لا مَحالة»(١).

قسمةٌ ثالثة: اعلم أن الذنوب تَنقسم إلى صَغائر وكبائر، وقد كَثُرَ اختلافُ الناسِ فيها، فقال قائلون: لا صغيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة. وهذا لا يصح لقوله تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، وفي أفراد مسلم من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الصَّلواتُ الخَمس، والجُمعة إلى الجُمعة، ورَمضان إلى رَمضان مُكَفِّرات لما بينهنَّ إذا اجتُنِبت الكَبائر».

وقد اختلفت الأَحاديث في عدد الكبائر، واختلف العلماء على أحد عشر قولاً، وقد ذكرتُ الأَحاديث بأسانيدها في كتاب المُغني في تَفسير القُرآن، وذكرها يطول، إلا أن الأحاديث الصِّحاح ذكرها في خَمْسة:

الأول: حديثُ أبي هريرة وهو في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اجتَنبوا السَّبعَ الموبِقات» قالوا: يا رسولَ الله وما هُنَّ؟ قال: «الشِّركُ بالله، والسِّحر، وقَتل النَّفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مال اليتيم، والتَّولِّي يومَ الزَّحف، وقَذفُ المحصنات المؤمنات الغَافلات».

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٠٣١).

الثاني: حديثُ ابن مسعود في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سُئل: أيُّ الذَّنب أكبر؟ قال: «أن تَجعلَ لله نِداً وهو خَلقك». قال: ثم أيّ؟ قال: «أن تَقتُلَ وَلدكَ خَشيةَ أن يَطْعمَ معكَ، قال: ثم أيّ؟ قال: أن تُزاني حَليلةَ جارِكَ».

والثالث: حديثُ عبد الله بن عمرو[١]، وهو في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقَتلُ النَّفس، واليمينُ الغموس».

والرابع: حديث أنس وهو في الصحيحين أن النبي ﷺ ذكر الكبائر أو سُئل عنها فقال: «الشركُ بالله، وقَتلُ النَّفس، وعُقوق الوالدين» وقال: «ألا أُنبئكم بأكبر الكَبائر: قول الزُّور ـ أو قال ـ شَهادةُ الزُّور».

والخامس: حديث أبي بَكْرة، وهو في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه ذُكرَت الكَبائر عنده، فقال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «وشَهادة الزّور ـ أو قول الزور» فما زال يُكررها حتى قُلنا: ليتَه سَكَت.

وقد رُوي عن ابن مسعود قال: هي أَربعٌ وعن ابن عمر أنهن سَبعٌ، وعن عبد الله بن عمرو أنهنَّ تِسعٌ، وكان ابنُ عباس إذا بلغَه قولُ ابن عمر أنهن سبعٌ قال: هي إلى سَبعين أقرب منها إلى سبع.

وقال أبو صالح عن ابن عباس: ما أَوجبَ الحدَّ في الدنيا.

وعن ابن مسعودٍ: أن الكبائر من فاتحة سورة النِّساء إلى قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ [النساء: ٣١].

وقال الحسن وسَعيد بن جُبير ومُجاهد: هي كل ذَنب أَوْعدَ اللهُ عليه النار.

وقال أبو طالب المكي[٢]: الكبائر سبع عشرة جَمعتُها من جُملة الأخبار: أربعةٌ في القَلب: الشِّركُ، والإِصْرار على المعصية، والقُنوطُ من الرَّحمة، والأَمنُ من مكرِ الله. وأربعةٌ في اللِّسان: شَهادةُ الزُّور، وقذفُ المُحصَنِ، واليمينُ الغَموس، والسِّحر. وثَلاثةٌ في البَطن: شُربُ الخَمرِ، وأكلُ مال اليَتيم ظُلماً، وأكل الرِّبا.

---

(١) تحرف في الأصل إلى: «عبد الرحمن بن عوف».

(٢) هو محمد بن علي بن عطية، أبو طالب الحارثي المكي، له كتاب (قوت القلوب).

واثنتان في الفَرج: الزِّنا واللِّواط. واثنتان في اليَدين: القَتلُ والسَّرقة، وواحدةٌ في الرِّجلين وهي الفرار من الزَّحف. وواحدةٌ في جَميع الجَسَد وهي عُقوق الوالدين.

وهذا الذي ذكره لا يَحصل به الشِّفاء؛ لأنه يمكن أن يُزاد عليه ويُنقص منه فإن ضربَ اليتيم وتَعذيبه أكبر من أكل مالِه، ولم يذكره.

وكَشفُ الغِطاء عن هذا أن نقول: الكَبير والصَّغير من المُضافات، فما من ذنبٍ إلا وهو كبيرٌ بالإضافة إلى ما دونه، وصغيرٌ بالإضافة إلى ما فوقه، فإن مضاجعةَ الأجنبية كبيرةٌ بالإضافة إلى النَّظر، صغيرةٌ بالإضافة إلى الزِّنا، وقَطعَ يدِ المسلم كبيرةٌ بالإضافة إلى ضَربِهِ، صغيرةٌ بالإضافة إلى قَتْلِه.

والتحقيق أن يُقال: الذنوب مُنقسمةٌ في نَظَرِ الشرع إلى ما يُعلم اسْتِعظامُه إيّاها، وإلى ما يُعلم أنه معدودٌ في الصَّغائر، وإلى ما يُشَكُّ فيه فلا يُدرَى حُكمه، والطَّمع في معرفة حَدٍّ حاصرٍ أو عَددٍ جامعٍ طلبٌ لما لا يُمكن، والأحاديث في الكَبائر لا تدل على أنَّه حَصَرها فيها، ولعلَّ الشرعَ قصدَ الإبْهام ليكون الناسُ على وَجَلٍ من الذنوب، إلا أنه لنا سبيلٌ كُلِّي يمكننا أن نَعرف به أجناسَ الكبائر وأنواعها بالتحقيق، وأما أعيانها فتُعرفُ بالظنِّ والتَّقريب، وتُعرف أيضاً أكبر الكبائر، وأما أصغر الصَّغائِر فلا سَبيل إلى معرفته.

وبيان ذلك: أننا نَعلمُ بشَواهد الشَّرع وبَصائر الفَهم أنّ مقصود الشرائع كلها سِياقَةُ الخَلقِ إلى جوار الله تعالىٰ ولقائه، وأنه لا وصول إلى ذلك إلا بمعرفَةِ الله تعالىٰ، ومعرفة صفاته ورُسُلِه وكُتُبِهِ، ولا يكونُ العبد عَبداً ما لم يعرف رَبّه بالرّبوبية، ونَفْسَه بالعُبودية، ولا بد أن يعرف نفسه وربَّه، فهذا هو المقصود بِبَعْثَةِ الأنبياء، ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا، وهي المعني بقوله عليه الصلاة والسلام: «الدُّنيا مَزْرعةُ الآخرة» فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين؛ لأنه وسيلة إليه.

والمُتَعلِّق من الدنيا بالآخرة شَيئان: النُّفوس والأَموال، فكل ما يَسدُّ بابَ معرفة الله، فهو أكبر الكبائر، ويَليه ما يَسدُّ بابَ حياة النُّفوس، ويلي ذلك ما يَسدُّ

باب المعايش التي بها حَياة النّفوس، فهذه ثلاث مراتب؛ فحفظُ المعرفة على القُلوب والحياةِ على الأَبدانِ والأَموالِ على الأشخاص ضروري في مَقصود الشرائع كلها، وهذه ثلاثةُ أمورٍ لا يُتصور أن تختلف فيها المِلَل، فلا يجوز أن يَبعثَ اللهُ نبياً يريد ببِعثَته إصلاحَ الخلق في دينهم ودنياهم، ثم يأمرهم بما يَمنعهم من مَعرفته ومعرفة رُسُله، أو يأمرهم بإهلاكِ النُّفوس والأموال، فحصل من هذا أن الكبائر ثلاث مراتب:

الأولى: ما يَمنع معرفةَ الله ومعرفةَ رُسله، وهو الكفر، فلا كبيرةَ فوق الكُفر، إذ الحجاب بينَ العبدِ وبين الله عزَّ وجلَّ هو الجَهلُ، والوسيلة المقرِّبة له إليه هو العلم والمعرفة، وقُرْبُه بقَدر معرفته، وبُعدُه بقَدر جَهله، ويتلو الجَهل الذي يُسمّى كُفراً الأَمنُ مِنْ مكرِ الله والقُنوطُ من رَحمته، فإن هذا أيضاً عين الجَهل، فمن عرفَ الله عزَّ وجل لم يتصور أن يكون آمناً، ولا أن يكون آيِساً.

ويَتلو هذه الرُّتبة البِدَع كلّها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله، وبعضها أشد من بعض، وتَفاوتها على حسب تَفاوت الجهل بها، وعلى حسب تعلقها بذات الله سُبحانه وبأفعاله وشرائعه وبأوامره ونَواهيه، ومراتب ذلك لا تَنحصر، وهي تنقسم إلى ما يُعلم أنها داخلة تحت ذكرِ الكبائر المذكورة في القُرآن، وإلى ما لا يُعلم أنها لا تدخل، وإلى ما يُشكُّ فيه، وطلب رفع الشَّكِّ في القِسم المتوسط طَمعٌ في غير مَطمَع.

الرتبة الثانية: النُّفوس، إذْ ببقائها وحِفظها تَدوم الحياة، وتحصل المعرفة بالله تعالىٰ، فقتل النفس لا محالةَ من الكبائر، وإن كان دون الكفر؛ لأن ذلك يصدم عين المقصود، وهذا يصدم وسيلة المقصود، إذ حَياةُ الدنيا لا تُراد إلا للآخرة، والتوصل إليها بمعرفة الله عز وجل، ويتلو هذه الكبيرة قَطع الأطراف وكل ما يُفضي إلى الهلاك حتى الضرب، وبعضُها أكثر من بعض، ويقع في هذه الرتبة تحريمُ الزِّنا واللِّواط؛ لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذّكور في قَضاء الشَّهوات انقطع النَّسل، ودَفعُ الوجود قريبٌ من قَطع الوجود وأما الزِّنا فإنه لا يُفوت أصلَ الوجود ولكن يُشَوّشُ الأنساب ويُبطل التوارثَ والتَّناصر وجُملةً من الأمور التي لا يَنتظم

العيشُ إلا بها، بل كيف يتم النِّظام مع إباحة الزِّنا ولا تَنتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفَحلُ منها بإناثٍ عن سائر الفُحول ؟! ولذلك لا يُتصور أن يكون الزِّنا مُباحاً في شرعٍ.

وينبغي أن يكون الزِّنا في الرُّتبة دونَ القَتل؛ لأنه ليس يُفوِّت دوافع الوجود، ولا يمنع أصله، ولكنه يفوت تَميُّزَ الأَنساب، ويوجب الخُصومة، وينبغي أن يكون أشدّ من اللِّواط؛ لأن الشَّهوة داعيةٌ إليه من الجانبين، فيكثر وقوعه، ويعظم أثر الضَّرر بكثرته.

الرتبة الثالثة: الأموال، فإنها معايش الناس، فلا يجوز تَسليط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسَّرقة، بل ينبغي أن تُحفظ لتَبقى ببقائها النُّفوس، إلا أن الأموال إذا أُخذت أمكن استِردادها، وإن أُكلت أمكن تَغريمُها، فليس يعظم الأمر فيها، بلى إذا جرى تناولها بطريقٍ يَعسر التَّدارك له، فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر، وذلك بأربع طرق:

إحداها: السَّرقة، فإنه إذا لم يطلع عليه غالباً فكيف يتدارك.

والثاني: أكل مال اليتيم، والولي مؤتمن فيه، وليس له خصمٌ سوى اليتيم، وهو صغير لا يعرف ذلك، فتعظيم الأمر فيه واجبٌ، بخلاف الغصب؛ لأنه ظاهر يُعرف، وبخلاف الخيانة في الوَديعة، فإن المودِعَ خصمٌ يَنتصفُ لنفسه.

الثالث: تَفويتُها بشهادة الزور.

والرابع: جَحْد الوَديعة وغيرها باليَمين الغَموس.

فإن هذه طُرق لا يمكن فيها التَّدارك، ولا يجوز أن تختلف الشَّرائع في تحريمها أصلاً، وبعضها أشد من بعض، وكلها دون الرتبة الثانية[1] المُتعلقة بالنفوس، وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مُرادة بالكبائر، وإن لم يوجب الشرع الحدَّ في بعضها، ولكن قد كَثُر الوعيد عليها، وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها، وأما أكلُ الرِّبا فليس فيه إلا أكلُ مالِ الغَير بالتَّراضي مع الإِخلال بشرط وضَعه الشَّرع، ولا يبعد أن

(١) تحرفت في (ف) إلى: «الثالثة».

تختلف الشرائع في مثله، وإذا لم يُجعل الغَصبُ الذي هو أكلُ مال الغَير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكَبائر، فأكل الرِّبا أكلٌ برِضا المالك دون رضا الشَّرع، وإن عظَّم الشرعُ الرِّبا بالزَّجر عنه، إلا أن أكثر مَيل الظن إلى أنه غير داخلٍ في الكبائر، بل ينبغي أن تَختصَّ الكبيرةُ بما لا يجوز اختلافُ الشرائع فيه ليكون ضرورياً في الدين.

فيَبقى مما ذكره أبو طالب المكّي القَذفُ والشُّربُ والسِّحر والفرارُ من الزَّحف وعقوقُ الوالدين.

فأما القذف، فالقياسُ بمجرَّده لا يدل على أنه من الكَبائر، وقد عدُّوا كل ما يجب به الحد كبيرة فإذاً يلتحق بالكبائر في حقٍّ من عرف حكم الشرع، فأما من ظنَّ أن له أن يَشهد وَحدَه أو ظن أنه يُساعده على الشَّهادة غَيره، فلا ينبغي أن يُجعلَ في حقه من الكبائر.

وأما الشرب لما يُزيل العقلَ، فإنه جَديرٌ أن يكون من الكبائر؛ لأن العقلَ محفوظٌ كما أن النفس محفوظةٌ، بل لا خيرَ في النَّفس دون العقل، وإيجابُ الحَدِّ به دليلٌ على تعظيم أمره.

أما السِّحر، فإن كان فيه كُفر خرجَ بصاحبه إلى الكُفر، وإلا فَعظمتُه بحسب الضَّرر الذي يتولد منه هلاك نفسٍ أو مرضٍ أو غيره.

وأما الفرار من الزَّحف وعُقوق الوالدين؛ فالأَحاديث المتقدمة تدل على أنهما من الكبائر.

فإن قيل: فإذا لم تعرف الكَبائر يقيناً، فكيفَ وردَ الشرعُ بذكرها؟

فالجواب: أن الكبيرة لا يتعلق حكمها بالدنيا، فجاز تَطرّق الإبهام إليها ليكون الناس على وَجَل.

فإن قيل: فالشَّهادةُ لا تُقبل إلا ممن يَجتنب الكبائر (١ والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا(١).

(١) سقط من (ف)

(١ فالجواب: أنا لا نُخصص ردَّ الشهادة بالكبائر ١)، ولا خلاف في أن من يَلبس الحرير، ويتختَّم بالذهب، ويَشرب في أوانيه لا تُقبل شهادته، وكل ذلك ليس من الكبائر إجماعاً، بل كل الذنوب تَقدح في العدالة إلا ما يخلو منه الإنسان غالباً بمقتضى مجاري العادات، كالغِيبة والتَّجسس، وترك الأمر بالمعروف، وضرب الولد والغلام بحكم الغَضب زائداً على حَدِّ المصلحة، ولو اشترطنا السلامة من مثل هذه الأشياء في الشهادة عَزَّ وجود شاهدٍ، ثم لو واظبَ على أحد هذه الصغائر أثَّر رد الشهادة كمن واظب على الغِيبة.

بيان كيفية توزع الدَّرجات والدَّركات في الآخرة إلى الحسنات والسيئات في الدنيا

الناس يَتفاوتون في الآخرة كما تفاوتوا في الدنيا، وينقسمون إلى أربعة أقسام: هالكين، ومُعذَّبين، وناجين، وفائزين.

ومثالُه: أن يَستولي مَلِكٌ من الملوك على إقليم، فيقتلُ بعضَهم فهم الهالكون، ويُعذِّبُ بعضهم مدةً ولا يَقتلهم، فهم المعذَّبون، ويُخَلّي بَعضَهم، فهم النَّاجون، ويَخلعُ على بَعضهم، فهم الفائزون، وإذا كان الملكُ عادلاً لم يَقسمهم كذلك إلا باستحقاق، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاقه الملك معانداً له في أصل الولاية، ولا يُعذِّبُ إلا من قَصَّر في خِدمته مع الاعتراف بملكه، ولا يُخَلّي إلا معترفاً له برتبة المُلك، إلا أنه لم يُقصِّر فَيُعذَّب، ولا خَدَمَ فَيخلعُ عليه، ولا يَخلعُ إلا على من أَبلى عُذرَه في الخِدمة والنُّصرة، ثم ينبغي أن تَكون خِلَعُ الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجات (٢خِدمتهم، وإهلاك الهالكين إما تحقيقاً بِحَزِّ الرَّقَبةِ، أو تَنكيلاً بالمُثلةِ بحسب دَرجات٢) مُعانَدتهم، وتَعذيب المعذَّبين في الخِفَّة والشِّدة وطولِ المدة وقِصَرها وإيجاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تَقصيرهم.

(١-١) سقط من (ف).

(٢-٢) سقط من (ف).

فالناسُ في الآخرة هكذا يتفاوتون، فَمِن هالكٍ، ومن مُعذَّبٍ مدةً، ومن ناجٍ يحل في دار السَّلام، ومن فائزٍ.

والفائزون يَنقسمون إلى مَن يحلُّ في جنَّاتِ عَدنٍ أو جناتِ المأوى أو جنات الفِردوس، والمعذَّبون يَنقسمون إلى من يُعذب قليلاً، وإلى من يُعذب ألف سَنة إلى سبعة آلاف سنة، كما جاء في الحديث(١).

وكذلك الهالِكون الآيِسون من رحمة الله تعالىٰ تَتَفاوت درجاتهم، وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطّاعات والمعاصي، فلنذكر كيفية تَوزُّعها عليها:

أما الرتبة الأولى: وهي الهُلاَّك، ونَعني بالهالكين: الآيسين من رحمةِ الله تعالىٰ، إذْ الذي قَتله المَلك في المِثال الذي ضَربناه آيسٌ من رضا الملك وإكرامه، وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين المُكذبين بالله ورُسُله، فهم محجوبون عن ربهم، محترقون بنار الفراق في نار جهنم وألمُ الفُؤاد بنار الفِراق أضعاف ألم الجَسَد بنار جهنم، وفي مثل ذلك قيل:

فـفـي فُـؤادِ الـمُـحِـبِّ نـارُ هَـوىً ... أَحَـرُّ نـارِ الـجَـحـيـمِ أَبْـرَدُهـا

ولا ينبغي أن ينكر هذا في عالم الآخرة، فقد وُجد نظيره في عالم الدنيا، وقد رُئيَ من غلبَ عليه الوَجْدُ فعدا على النّار وعلى أُصول القَصَب الجارِحَةِ للقَدم وهو لا يحس بذلك، وترى الغَضبان يَستولي عليه الغَضب في القِتال، فتُصيبه جراحة وهو لا يشعر بها في الحال؛ لأن الغَضب نارٌ في القلب، واحتراقُ الفؤاد أشدّ من احتراق الأَجساد، والأَشدُّ يُبطل الإحساس بالأَضعفِ، فالمفرق بين القَلب ومحبوبه أَشدّ من الذي يفرق تأليف الأجسام، غير أن هذا لا يُدركه إلا أرباب الفُهوم والبَصائر، فإن الصَّبي لو خُيِّر بين أن يُمنعَ من الكرةِ والصَّوْلَجانِ(٢) وبين أن يُمنع مَرتبة السُّلطان، لاختار مرتبةَ الصَّولجان؛ لأنه لا يعرف رُتبة السلطان، وكذلك من تَغلبه شَهوة البَطن لو خُيِّرَ بين الحَلْواء وبينَ فعلٍ جميلٍ يقهر به الأَعداء ويفرح به

(١) رواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة، وفيه: «وأطولُكم مُكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خُلقت إلى يوم القيامة، وذلك سبعة آلاف سنة».

(٢) الصَّوْلَجان: عصا معقوفٌ طرفُها يضربُ بها الفارسُ الكُرةَ.

الأصدقاء، لاختار الحَلواء، وهذا كله لفَقدِ المعنى الذي بوجوده يَصير الجاه محبوباً، ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لَذيذاً، وذلك في حق من اسْترقَّته صفات البَهائم والسِّباع، ولم تظهر فيه الصفات الملكية التي لا يلذها إلا القُرب من رب العالمين، وكما لا يكون الذَّوق إلا في اللِّسان فهذه الصِّفة لا تكون إلا في القلب، فمَن لا قلبَ له ليس له هذا الحِسّ، ونعني بالقلب: السِّرَّ الذي هذا القلبُ اللَّحميُّ عَرشُهُ.

الرتبة الثانية: رتبة المعذَّبين، وهذه رتبةُ من تحلّى بأصل الإيمان، ولكن قَصَّر في الوفاء بمُقتَضاه، فإن رأس الإيمان هو التَّوحيد، ومن اتَّبعَ هواه فهو مُوحِّدٌ بلسانهِ لا بالحقيقة، ولما لم يَخلُ أحدٌ من اتِّباع الهوى، وذلك قادحٌ في كَمال التوحيد بقدر مَيله عن الاستقامة، فذلك يَقتضي نُقصاناً في درجة القرب، ومع كل نُقصانٍ ناران: نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم، فيكون كل مائلٍ عن الصِّراط المستقيم مُعذباً من الوجهين، ولكن شدة العذاب وخِفَّته وتَفاوته يكون بسبب أمرين:

أحدهما: قوة الإيمان وضَعفه.

والثاني: كثرة اتّباع الهَوى وقلته. ولا يخلو بَشَرٌ في غالب الأمر من واحدٍ من الأمرين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

وقد روينا في الأحاديث أنَّ من الناس من يَمرُّ على الصِّراط كالبَرقِ الخاطف، ومنهم من يَبقى في النار سَبعة آلاف سنة وبَينَ اللَّحظة وسبعة آلاف سنة تَفاوت كبير.

فأما الاختلاف بالشِّدَّة فلا نهاية لأعلاه، وأدناه التَّعذيبُ بالمناقَشة في الحساب، كما أن الملك قد يُعذب بعضَ المقصِّرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب، ثم يَعفو، وقد يَضرب بالسِّياط، وقد يُعذب بأنواعٍ أُخَر من العذاب، ويتطرق إلى العذاب اختلافٌ ثالث في غَير المدة والشِّدة، وهو اختلاف الأنواع: إذ ليس من

يُعذب بمصادرة المال فقط كمن يُعذَّبُ بأخذِ المال وقَتلِ الولدِ وقَطع اللسان واليَدِ وغير ذلك، فهذه الاختلافات ثابتةٌ في عذاب الآخرة قد دلَّت عليها الدلالات[(١)]، وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضَعفه، وكثرة الطاعات وقلتها، وكثرة السَّيئات وقلَّتها، وأما شِدَّةُ العذاب فبشدّة قُبح السَّيئات وكثرتها[(٢)]، وأما كثرته فبكثرتها، وأما اختلاف أنواعها فباختلاف أنواع السَّيئات، قال الله عز وجل: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧] وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] على أن جانبَ العفو أرجح لقوله عز وجل فيما أخبر به عنه نَبيه ﷺ: «سَبَقَتْ رَحمتي غَضَبي».

فهذه الأمور الكلية من ارتباطِ الدَّرجات والدَّرَكات بالحَسنات والسيئات معلومة بالنقل ونور المعرفة، فأما التفصيل فيستند إلى ظَواهر الأخبار والظن المستمد من الاستبصار، فنقول: كل من أحكم أصلَ الإيمان واجتنبَ جميع الكبائر، وأحسنَ جميع الفرائض، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لا يصر عليها، فيشبه أن يُعفى عنه، وقد نص القرآن على أن اجتنابَ الكبائر مُكفر للصغائر، فأما التحاقُه بأصحاب اليمين أو بالمقرَّبين فذلك يتبع إيمانه ويقينه، فإن قلَّ أو ضَعف دنت منزلته، وإن كثر وقَوي علَتْ.

ثم إن المقربين على أصنافٍ يتفاوتون بحسبِ تَفاوت معرفتهم بالله تعالىٰ، ودرجات العارفين في المعرفة لا تَنحصر إذْ بحر المعرفة لا ساحلَ له، وإنما يَغوصُ فيه الغَوّاصون بقَدْرِ قواهم، فأعلى درجات أصحاب اليمين أدنى درجات المقربين، هذا حال من اجتنبَ الكبائر وأدّى الفَرائض، وأما من ارتكبَ كبيرةً، أو أهمل بعضَ أركان الإسلام، فإنه إن تابَ توبةً نصوحاً قبل قُرب الأجل التَحَقَ بمن لم يرتكب؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتَّسخ أصلاً، وإن مات قبل التوبة فأمره مُشكلٌ إذْ ربما يكون مَوته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فَيُختَمُ له بسوء الخاتمة، لاسيما إذا كان إيمانه تقليدياً، فإنه قابلٌ للانحلال بأدنى

---

(١) في (ف): «المقولات».

(٢) في الأصل: «كبرها».

شَكٍّ وخَيالٍ، والعارفُ الموقِنُ أبعد من أن يُخاف عليه سوء الخاتمة، ثم إن عذاب الميت عن غير تَوبةٍ يكون بحسب قُبح الكَبائر ومدة الإصرار، ثم يَنزل البُلْهُ[١] المقلِّدون الجنَّة، وينزل العارفون المستبصرونَ أعلى عِلّيين.

وما ذكرناه من مراتب العباد في المَعاد حُكمٌ بظاهر الأسباب يُضاهي حكمَ الطبيب على مريضٍ بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج، وعلى مريض آخر بأن عارضه خَفيف وعلاجه هَين، فإن ذلك ظَنٌّ يُصيب غالباً، وقد تَثوبُ[٢] إلى المُشرِفِ على الهَلاكِ نَفسُه من حيث لا يَشعر الطَّبيب، ويُساقُ إلى ذي العارضِ الخَفيف أَجَلُه من حيثُ لا يطَّلع عليه، وذلك لأسرارِ الله تعالىٰ الخفيّة في أرواح الأَحياء، وغموضِ الأسباب التي رتَّبها المسبب، وليس في قوة البشر الوقوف على كُنْهِها، فكذلك الفَوز والهلاكُ في الآخرة لهما أسبابٌ خفيةٌ ليس في قوة البشر الاطِّلاع عليها، فلذلك يجوز العَفو عن العاصي وإن كَثُرت سَيِّئاته، والغَضبُ على المطيعِ وإن كَثُرت طاعاتُه الظاهرة، فإن الاعتماد على التَّقوى، والتَّقوى في القلب، وأحوال القلب قد تَخفى على صاحبه، فكيف على غيره.

الرتبة الثالثة: رتبة النَّاجين، وأعني بالنَّجاة السلامةَ فقط دون السعادة[٣] والفَوز، وهم قوم لم يَخدموا فيخلع عليهم، ولم يقصّروا فيعذَّبوا، ويشبه أن يكون هذا حال المجانين وأولادِ الكفار والذين لم تَبلغهم الدعوة، فعاشوا[٤] على عدم المعرفة، فلم تكن لهم معرفةٌ ولا جُحودٌ ولا طاعةٌ ولا معصيةٌ، ولا وسيلةٌ تُقربهم، ولا جِناية تُبعدهم، ويصلح أن يكونوا على الأعراف[٥].

الرتبة الرابعة: الفائزون، وهم العارفون دون المقلّدون، وهم المقرَّبون السابِقون، وهؤلاء الذين لا تَعلم نَفسٌ ما أُخفيَ لهم من قُرَّة أعين، وليس حرصهم

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: «الثلاثة».
(٢) تثوب: ترجع.
(٣) تحرفت في (ف) إلى: «العبادة».
(٤) في (ف): «فاعتمدوا».
(٥) الأعراف: سور بين الجنة والنار.

على الجنَّة بل على لقاء الله سبحانه والنظر إليه، ومثالُهم مثال العاشق المستَهتَر[١] بمعشوقِهِ، فإنه في تلك الحالة غافل عن نفسه لا يُحس بما يصيبه في بَدنه، ولا همَّ له سوى محبوبه، فهؤلاء الواصلون إلى قرة أعين وما لم يخطر على قلب بَشر.

فهذا القدر كافٍ في بيان تَوزُّع الدرجات على الحسنات.

بيان ما تَعظُم به الصَّغائر من الذُّنوب

اعلم أن الصغيرة تَكبر بأسبابٍ:

منها: الإصرار والمواظبة، وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صَغيرةَ مع إصرار، ولا كبيرةَ مع استِغفار».

واعلم أن العفو عن كبيرةٍ قد انقضت ولم يتبعها مثلها أرجى من العَفو عن صغيرةٍ يواظب العبد عليها، ومثال ذلك: قَطراتٌ من الماء تَقَعُ على حَجَرٍ متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولو جُمِعت تلك القَطَرات في مرة وصُبَّت عليه لم تُؤثِّر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أحبُّ العمل إلى الله أَدْوَمُه وإن قَلَّ».

فإذا كان النافعُ من العمل هو الدائم وإن قَلَّ، فالكثير المُتَصرِّم قليل النفع في تَنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السَّيئات إذا دام عَظُم تأثيره في إظلامِ القَلب.

إلا أن الكَبيرة قلَّما يُتصور الهجوم عليها بَغْتةً من غير سوابق ولَواحِق من الصَّغائر، فقلَّما يَزني الزاني بغتةً من غير مُراودةٍ ومقدمات، وقَلَّما يَقتُل بغتةً من غير مخاصمةٍ سابقة ومُعاداةٍ، فكل كبيرة يكتنفها صغائر، ولو تُصوِّرَت كبيرةٌ وَحْدَها بَغتةً ولم يتفق إليها عَوْدٌ، فربما كان العَفو فيها أَرْجَى من صغيرةٍ تتردَّد.

ومنها: أن يَستصغر الذنب، فإن الذنب كلَّما استَعظمه العبدُ صَغُر عند الله، وكلَّما استَصغره كَبُر عند الله؛ لأن استِعظامَه يَصدر عن نُفور القَلب منه وكراهته له، وذلك النُّفور يمنع من شِدَّةِ تَأَثُّره به، واستصغارُه يَصدر عن الإِلف له، وذلك يوجب

(١) المستهتر: أي المولَع به المدهوش في حبه.

شِدَّة الأَثر في القلب، والقلب هو المطلوب تَنويره بالطاعات، والمحذور تَسويده بالسَّيئات، ولذلك لا يُؤاخَذ الإنسان بما يجري عليه في حال الغَفلة، فإن القلبَ لا يتأثر بما يَجري في الغفلة.

أنبأنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن إبراهيم التَّيمي عن الحارث بن سُوَيد قال: قال عبدُ الله بن مَسعود: إن المؤمن يَرى ذنوبه كأنه في أصل جبلٍ يخاف أن يَقع عليه، وإن الفاجرَ يَرى ذُنوبه كذبابٍ وقع على أَنفه فقال به هكذا فطار. أخرجاه في الصحيحين[1].

وإنما يَعظم الذنب في قلب المؤمن لِعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عَظَمة من عَصَى رأى الصغيرَ كبيراً، وفي أفراد البخاري من حديث أنسٍ قال: إنكم لتعملون أعمالاً لهي أدقّ في أَعينكم من الشَّعر، إن كُنّا لَنعدُّها على عهدِ رسولِ الله ﷺ من الموبِقات.

وقال بلال بن سَعد: لا تَنظُر إلى صِغر الخَطيئة، ولكن انظُر مَن عَصيتَ.

فلما كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتمّ كانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جَلال الله كبائر، وبهذا السَّبب يَعظُم من العالِم ما لا يَعظُم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمورٍ لا يُتجاوز في أمثالها عن العارف؛ لأن الذَّنبَ والمخالفةَ تكثُر بمعرفة قدر المخالف.

ومنها: السُّرور بالصَّغيرة والفرح والتَّبجح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سببَ الشَّقاوة، فكلما غَلبت حلاوةُ الصغيرة عند العبد كَبُرت الصَّغيرة وعَظُم أثرها في تَسويد قلبه حتى إنَّ من المذنبين من يتمدَّحُ بذنبه ويَتبَجَّحُ لشدَّة فَرَحه بمُقارفَتِهِ إياه، كما يقول: أما رَأيتَني كيف مزَّقتُ عِرضَ فلانٍ وذكرتُ مساوئه حتى خَجَّلتُه، وكيفَ استَخففتُ به ؟ ويقول المعامل في التِّجارة: أما رأيتَني

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) (٣) و(٤)، وأحمد (٣٦٢٧) و(٣٦٢٨) و(٣٦٢٩).

كيف رَوَّجتْ عليه الزَّائفَ، وكيف خدعتُه وغَبَنْتُه ؟ فهذا وأمثاله تكبُر به الصغائر، فإن الذنوب مُهلكات، فإذا وقع الإنسان فيها فينبغي أن يَحزن لغلبة عدوّه إياه، ولبُعده عن الله تعالىٰ، ومتى فرح المريضُ بانكسار إنائه الذي فيه دواؤه ليتخلَّص من شُربه لم يُرْجَ شِفاؤه.

ومنها: أن يتهاون بستر الله تعالىٰ عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدري أنه إنما يُمهل مَقتاً ليزداد بالإمهال إثْماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالىٰ به، فيكون ذلك لأَمنِه من مَكرِ الله وجَهله بمكامنِ الغرور بالله تعالىٰ، كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

ومنها: أنه يأتي الذنبَ، ثم يذكره بعد إتيانه، أو يأتيه بمحضرٍ من غيره، فإن ذلك جِناية على ستر الله تعالىٰ الذي أَسدَلَهُ عليه، وتحريكٌ لرغبة الشرِّ فيمن أَسْمَعه ذَنبَه أو أشهده فعله، فهما جنايتان[1] انْضَمتا إلى جنايته فتغلَّظت بذلك، فإن أُضيف إلى ذلك ترغيبُ الغير فيه وحمله عليه صارت جناية رابعة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ أمتي مُعافًى إلا المجاهِرين، وإن من المجاهرة أن يَعمل الرجلُ بالليل عملاً ثم يُصبح وقد سَتَره الله عليه، فيقول: يا فُلان عملتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد باتَ يَستُره ربُّه».

والمجاهرون هم الذين يُجاهرون بالمعاصي ويتحدثون بما فعلوه منها سراً، فالناس في عافيةٍ، من جهة أنهم مَستورون، وهؤلاء مُفتضحون، وإذا ثبت أن من نِعمة الله تعالىٰ على العبد ستر المعاصي، فإظهارُ المعصية كُفرانٌ لهذه النِّعمة، أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا حَمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم الحافظ قال: أخبرنا أحمد بن السندي قال: أخبرنا الحسن بن عَلُّويَة قال: حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار قال: حدثنا إسحاق بن بِشْر عن جُويبر عن الضَّحاك عن ابن عباس أنه قال: يا صاحب الذَّنب لا تأمننَّ سوء عاقِبَتِهِ، ولَما يَتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، قِلَّةُ حيائِكَ مِمَّن على اليمين وعلى الشمال وأنتَ على الذنب

(١) تصحفت في (ف) إلى: «خيانتان».

أعظمُ من الذنب الذي عملتَه، وضَحِكَكَ وأنتَ لا تَدري ما اللهُ صانعٌ بكَ أعظمُ من الذنب، وفَرحُكَ بالذَّنب إذا ظفرتَ به أعظمُ من الذَّنبِ، وحُزنك على الذنب إذا فاتَكَ أعظمُ من الذنب إذا ظفرتَ به، وخَوفُك من الريح إذا حركت سِتْرَ بابكَ وأنت على الذنب ولا يَضطرب فؤادُكَ من نَظرِ اللهِ إليك أعظمُ من الذنب إذا عملتَه.

ومنها: أن يكونَ المذنب عالماً يُقتدَى به، فإذا عُلمَ منه الذنبُ كَبُرَ ذنبُه، كلُبْسِه الحَرير ودخوله على الظَّلَمة مع تَركِ الإنكار عليهم، وإطلاقه اللسان في الأَعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يُقصَد منه إلا الجاهُ، كعلمِ الجَدَلِ، فهذه ذنوبٌ يُتَّبَعُ العالم عليها فيموت ويَبقى شرهُ مُستطيراً في العالم. فطوبى لمن إذا ماتَ ماتت ذنوبه معه، وقد قال الله عز وجل: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ [يس: ١٢] وفي أفراد مسلم من حديث جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سَنَّ سُنةً في الإسلام حَسنةً، فله أجرُها وأجرُ من عمل بها بعده من غير أن يُنتَقَصَ من أُجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليهِ وِزْرُها ووِزرُ من عمل بها من غير أن يُنتقصَ من أوزارهم شيء».

وقال ابنُ عباس: وَيلٌ للعالم إذا زَلَّ ورجع عنها كيف يحتملها الناس فيذهبون في الآفاق.

وقال بعضُهم: مَثَلُ زلةِ العالم مثل انكسارِ السَّفينة تَغرقُ ويغرق أهلُها.

وفي الإسرائيليات: أن عالماً كان يُضِلُّ الناس بالبِدعة، ثم أدركته توبةٌ، فأَوحى الله تعالىٰ إلى نَبيّهم: قل له: إنَّ ذنبكَ لو كان فيما بَيني وبينك لغفرتُه لكَ، ولكن كيفَ بمن أضللتَ من عبادي فأدخَلتهم النار ؟

فبهذا يتضح أن أمر العلماء مُخْطِرٌ، فعليهم وَظيفتان: إحداهما: تَركُ الذنب. والثانية: إخفاؤه إذا أَتوه، وكما تَتضاعفُ أَوزارهم إذا اتُّبِعوا على الذنوب، فكذلك تَتضاعف حَسناتهم إذا اتُّبِعوا على الخَير.

وينبغي للعالم أن يتوسَّط الأَمرَ في مَلبسهِ ونَفَقته، وليكن إلى التَّقلُّلِ والتَّقشُّف أَميل، فإن الناس يَنظرون إلى فعلِ الطَّبيب في الحِميَةِ ما لا ينظرون إلى أوصافه،

وقد كان عَليٌّ رضي الله عنه يلبَسُ الدُّونَ من الثياب ويقول: هو أجدَرُ أن يَقتدي به المسلم[١]. وقال الشَّعْبي: كُنّا نَضْحَكُ ونَمزَح، فإذا صرنا أئمةً يُقتدى بنا فما أَظنّه يَسَعُنا التَّبسُّم.

ومتى مال العالم إلى التَّجمُّلِ في ثيابه ومركبه ونَفَقته خاطر بالناس؛ لأنهم ربما طَلبوا ذلك فلم يَقدروا عليه إلا من الشُّبُهات والدخولِ على الظلمة، ومتى تَرخَّصَ العالمُ في الدخول على السَّلاطين وجمع الحُطام، فاقتدى به غيره كان الإثم عليه، وربما سَلم في دخوله ولم يَفهموا كيفية سَلامته، فينبغي له الاحتِراز مما يُقتَدى فيه بصورةِ فعله، فقد روينا أن ملكاً كان يُكرِهُ الناسَ على أكل لحم الخِنزير، فجيء برجلٍ عالم، فقال له حاجِبُ الملك: قد ذَبحتُ لكَ جَدْياً فَكُلْ منه. فلما دخلَ قُرِّبَ إليه فَلَم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أَقُل لكَ: إنه جَدي؟ فقال: ومِنْ أينَ يَعلم بِحالي مَن يَقتدي بي؟.

فقد بانَ بما ذكرنا أن حَركات العُلماء في باب الخَير والشَّرِّ تَتضاعف آثارها، وهذا القدرُ كافٍ في تَفاصيل الذُّنوب التي يُتابُ منها.

* * *

(١) حلية الأولياء ١/ ٨٣، وصفة الصفوة للمصنف ١/ ٣٣٣.

الركن الثالث

في تمام التَّوبة وشُروطها في دَوامها إلى آخر العمر

فقد ذكرنا أنَّ التوبةَ عبارةٌ عن نَدمٍ يورث عَزماً وقَصداً، وذلك النَّدم أورثه العلم بكون المعاصي حائلاً بينه وبين محبوبه، ولكل واحدٍ من العلم والندم والعَزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط، ولا بد من بيان ذلك.

أما العلم، فالنظر فيه نظر في سَبب التَّوبة وسَيأتي.

وأما النَّدم فهو توجُّع القلب عند شعوره بفَوات المحبوب، وعلامته طول الحَسْرة والحزن، وانسكاب الدَّمع وطول البكاء، فمن استَشْعر عقوبةً نازلةً بولده أو ببعضِ من يَعزُّ عليه طال بُكاؤه واشتدَّت مُصيبته، وأي عَزيزٍ أعزُّ عليه من نَفسه ؟ وأي عقوبةٍ أشدُّ من النار وأي سببٍ أدل على نُزول العقوبة من المعاصي ؟ وأي مُخبرٍ أَصدق من اللهِ ورسولِهِ ؟ ولو حدَّثه طبيبٌ أن مرضَ ولده لا يَبرأ لاشتدَّ في الحال حُزنُه، وليس ولده بأعزّ من نَفسه، ولا الطبيب بأعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشدّ من النار، ولا المرض أدلّ على الموت من المعاصي على سَخَط الله تعالىٰ والتعرض بها للنار، فألم الندم كلّما كان أشدّ كان تكفير الذنوب أرجى، فعلامة صحة النَّدم رقة القلب وغزارة الدمع، وقد قال عمر بن الخطاب: جالسوا التَّوابين فإنهم أرق شيء أَفئدةً.

ومن علامته أن تتمكّن مرارةُ تلك الذنوب من قلبه بدلاً عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهة، وبالرغبة نُفْرَةً.

فإن قيل: فالذنوب مُشتهاة بالطَّبع، فكيف يَجِدُ مرارتها ؟

فالجواب: أن من تناول عَسلاً فيه سُمٌّ ولم يَدرِ بالسُّمّ فمرض، فإنه إذا قُدّم إليه

مثل ذلك العَسل وفيه سُمٌّ وهو في غاية الجوع والشَّهوة للحلاوة نَفَرت نفسه عن ذلك العسل، وربما نَفَرت عن كل عَسلٍ ليس فيه سم لموضع شُبهة بذلك العسل، فكذلك وجدان التائب مرارة الذَّنب لعلمِه بأن كلَّ الذنوب ذَوقها ذوق العسل وعملها عمل السُّم، ولما عَزَّت هذه الصفة عزَّت التَّوبة والتائبون، فلا تكاد تَرى إلا مُعرضاً عن الله، مُتهاوناً بالذنوب، مصراً عليها، فهذا شرط تمام النَّدم، وينبغي أن يدوم إلى الموت، وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وإن لم يكن قَد ارتكَبها من قبل، كما يجد مُتناول السمِّ في العسل النُّفْرة من الماء البارد إذا علم أن فيه مثل ذلك السُّم، إذ لم يكن استِضْراره بالعَسل بل بما كان فيه، ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقةٌ وزنا، بل من مخالفة أمرِ الله تعالىٰ، وذلك جارٍ في كل ذنبٍ.

وأما القَصدُ الذي ينبعث منه، وهو إرادة التَّدارك فله تعلُّقٌ بالحال؛ وهو موجبٌ تركَ كلِّ محظورٍ هو ملابسٌ له، وأداءَ كل فرضٍ هو متوجِّهٌ عليه في الحال، وله تعلقٌ بالماضي؛ وهو تداركُ ما فَرَطَ، وبالمستقبل؛ وهو دوام الطاعة ودوامُ تركِ المعصية إلى الموت.

وشرطُ صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يَرُدَّ فِكره إلى أول يومٍ بلغ فيه السِّنَّ أو الاحتلام وتفتيش ما مضى من عمره سنةً سنةً، وشهراً شهراً، ويوماً يوماً، ونَفَساً نَفَساً، وينظر إلى الطاعات ما الذي قَصَّر منها، وإلى المعاصي ما الذي قارفَهُ منها، فإن كان قد تَركَ صلاة أو صلاها في ثوب نجسٍ أو بنيةٍ غير صحيحةٍ لجهله النيَّة، قضاها عن آخرها، فإن شكَّ في عددِ ما فاته حسبَ من مُدَّة بلوغه وتركَ القدر الذي يَستيقن أنَّه أداه وقضى الباقي، وله أن يأخذ في ذلك بغالبِ الظَّن والتَّحري.

وأما الصَّوم؛ فإن كان قد أفطرَ عمداً أو لم يَنوِ في الليل، نَظر في مجموع ذلك وقضاه بالتَّحري والاجتهاد، فإن فَرَّط في قضاء أيامٍ أفطرها من رمضان حتى جاء رمضان آخر قضاها وأطعم عن كل يومٍ مسكيناً.

وأما الزَّكاة؛ فيحسب جَميع مالهِ ويَعد السِّنين من أول مِلكه لا من زمان بُلوغه؛ لأن الزكاة تَجب في مال الصَّبي، فيؤدي ما يعلم بغالب الظَّن أنه في ذِمَّته.

وأما الحج؛ فإن كان قد استَطاع في بعض السِّنين ولم يَخرج ثم أفلس، فَليتُب من تَفريطه، وليعلم أنه باقٍ في ذمَّته، فهذا طريق تَفتيشه عن الطاعات وتداركها.

وأما المعاصي؛ فينبغي أن يُفتش من أول بلوغه عن سمعِه ولسانِه وبَصَرِه وبَطنه وسائر جَوارحِه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، وينظر في معاصيه كلها، فما كان من ذلك بينَه وبين الله تعالىٰ لا يتعلّق بمَظْلمةٍ، كنظرٍ إلى مُحرم، ومَسِّ مُصحفٍ بلا وُضوءٍ، وشُربِ خمرٍ، وسَماعِ مَلاهٍ، واعتقادِ بدعة، فالتَّوبة منه النَّدم والتَّأسُّف، ثم ينظر إلى مقادير ذُنوبه من حيث المدَّة والكَثرة، فيطلب لكل معصيةٍ منها حَسنةً تُناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدارِ تلكَ السَّيئات، لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقد قال بعضُ السَّلف: أَتبعِ السيئةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها، فإنه ليس شيء أسرع لحاقاً بشيء من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قَديم.

فينبغي أن يُكَفِّرَ سَماعَ الملاهي بسَماع القرآن ومجالس الذكر، ويُكفر مَسَّ المصحف مُحدِثاً بإكرامه وكَثرة القراءة منه، وبأن يكتب مُصحفاً ويَقفه، ويُكفر شُربَ الخَمر بالتَّصدق بالشَّراب الحلال، وعلى هذا يسلك طريق المضادَّة؛ لأن المرضَ إنَّما يُعالَج بضدِّه، وكل ظُلمَةٍ ارتفعت على القَلب بمعصيةٍ لا يمحوها إلا نورٌ يرتفع إليها بحَسَنةٍ تُضادُّها، وهذا التَّدريج من التَّلطُّف في طريق المَحو، فهو أحسن من المواظبة على نوعٍ واحدٍ من العبادات، وإن كان ذلك مؤثراً في المحو، فهذا حكم ما بينه وبين الله عز وجل.

وأما مَظالم العِباد؛ فَفيها أيضاً معصية وجِناية على حَقِّ الله تعالىٰ؛ لأنه نَهى عن ظُلم العِباد، فما يتعلق بحقِّه يُتدارك بالنَّدم والتَّحسُّر والعَزم على تَرك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادَّة لتلكَ، فيقابل إيذاءَه للناس بالإحسان إليهم، ويُكَفر غصبَ أموالهم بالتَّصدق بماله الحلال، ويُكفر تَناول أعراضهم بالثَّناء على أهل الدِّين، ويُكَفِّر قَتلَ النُّفوس بالعتق؛ لأنه إحياءٌ، إذِ العبدُ مفقودٌ لنفسه موجودٌ لسيده، فالإعتاق إيجادٌ لا يقدر الآدمي على أكثر منه، فيقابل الإعدام بالإيجاد، وبهذا يعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادَّة في التكفير والمَحو مشهود له في الشَّرع حيث كَفَّر القَتلَ بإعتاقِ رَقبةٍ، ثم إذا فَعل ذلك كله لم يكفه حتى يَخرج من

مَظالِم العباد، ومَظالمهم إما في النُّفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب.

أما في النفوس؛ فإنه إن قَتل خطأً أوصلَ الدِّيَةَ إلى مُستحقِّها، إما منهُ أو من عاقِلَتِهِ[١]، وإن قتل عمداً أوجب عليه القِصاص، فإن لم يُعرَف وَجب عليه أن يَعترفَ عند وليِّ الدَّم ويُحكّمه في روحه، فإن شاء قتله وإن شاء عَفا عنه، ولا يَكفيه غير هذا، ولا يجوز له إخفاء أمره بخلاف ما لو زَنا أو سرقَ أو شَرب أو قَطع الطريق أو باشَر ما يجب فيه حَدٌّ للهِ تعالىٰ، فإنه لا يلزمه في التَّوبة أن يَفضحَ نفسه، ويَهتك ستره، ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله، بل عليه أن يَسْتَتِر بِستر الله، فإن رُفِعَ أمرُه إلى الوالي حتى يُقيم عليه الحدَّ وقع ذلك مَوقعه، وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله عز وجل، بدليل تسليم ماعزٍ نَفسه والغامِديَّة؛ أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحَسَن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو نُعيم قال: حدثنا بشير بن المهاجر قال: حدثني عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: كنتُ جالساً عند النبي ﷺ إذْ جاءه رجلٌ يُقال له: ماعِز بن مالك. فقال: يا نَبيَّ الله، إنّي قد زَنيتُ، وأنا أريد أن تُطهِّرني. فقال له النبي ﷺ: «ارجع». ثم أرسل النبيُّ ﷺ إلى قومه فسَألهم عنه، فقال لهم: «ما تَعلمون من ماعِز بن مالكٍ؟ هل تَرون به بَأساً أو تُنكرون من عَقله شَيئاً؟» قالوا: ما نَرى به بأساً ولا نُنكر من عقله شيئاً. ثم عاد إلى النبي ﷺ فاعترفَ عنده بالزِّنا، فأرسل إلى قَومه فسألهم عنه فقالوا: ما نَرى به بأساً، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ الرابعةَ فاعترف عنده بالزِّنا أَمر النبيُّ ﷺ فحفر له حفرة فَجُعل فيها إلى صدره ثم أمر الناس أن يرجموه[٢].

وقال بُريدةُ: كنتُ جالساً عند النبي ﷺ فجاءته امرأةٌ من غامدٍ فقالت: يا نَبيَّ الله، إني قد زَنَيْتُ، وأنا أريد أن تُطهِّرني. فقال لها النبي ﷺ: «ارجِعي». فلما كان من

(١) العاقلة: عَصَبة الرجل من جهة الأب الذين يشتركون في دفع ديته.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٩٤٢)، ومسلم (١٦٩٥) (٢٣)، وأبو داوود (٤٤٣٤)، والدارمي (٢٣٢٠)، والنسائي في الكبرى (٧٢٠٢) وأبو عوانة (٦٢٩٤)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ١٤٣.١٤٤.

الغَد أتته أيضاً فاعترفت عنده بالزنا، فقالت: يا رسولَ الله، إني قد زَنيتُ، وأنا أريد أن تُطهِّرني. فقال لها النبي ﷺ: «ارجِعي» فلما كان من الغَد أتته أيضاً، فاعترفت عنده بالزنا، فقالت: يا نبيَّ الله طَهِّرني، فلعلَّك أَنْ تُرَدِّدَني كما رَدَّدْتَ ماعزَ بن مالك، فوالله إنّي لَحُبلى. فقال لها النبي ﷺ: «ارجعي حتى تَلدي». فلما ولدت جاءت بالصَّبي تحمله، فقالت: يا نبيَّ الله، هذا قد ولدتُ. قال: «فاذهَبي فأَرضِعيه حتى تَفْطِميهِ». فلما فَطَمته جاءت بالصَّبي في يده كِسرة خُبز قالت: يا نَبيَّ الله، هذا قد فَطمتُه. فأمر النبي ﷺ بالصَّبي فدُفع إلى رَجلٍ من المُسلمين، وأَمَر بها فَحُفِرَ لها حُفْرةٌ فجُعلَت فيها إلى صَدرها، ثم أمر الناسَ أن يَرجُموها، فأقبل خالدُ بن الوليد بحَجرٍ فَرمى رأسَها، فنضح الدَّمُ على وَجنةِ خالدٍ فَسَبَّها، فسمع النبي ﷺ سَبَّه إياها، فقال: «مَهلاً يا خالد، لا تَسُبَّها، فوالذي نَفسي بيده لقد تابَتْ توبةً لو تابَها صاحب مَكْسٍ لَغُفِرَ له». فأمر بها فَصلَّى عليها ودُفِنَتْ(١).

وكذلك حَدُّ القَذف لا بد من تَحكيم المستحق فيه، وإن كان ما تَناوله بغَصبٍ أو خيانةٍ أو تَلبيسٍ في معاملةٍ يُوجِبُ غُبْناً أو تَرويجَ زائفٍ أو نَقصَ أجرة أجير، فكل ذلك يجب إخراجه، وإن كان الولي قَصَّر في بعضه حالة كون المالك صبياً أخرجه إذا بلغ، إذ الحقوق المالية يَستوي فيها الصبي والبالغ. وليناقِش نَفسَه قبل أن يُناقَش، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسِبوا أنفسكم قبلَ أن تُحاسبوا، وزِنُوها قبل أن توزَنوا.

وليكتُبْ أسماءَ أصحاب المَظالم وليطلبهم، وليؤدِّ حقوقهم، وليستحلها، وهذه الحالة تشق على الظَّلَمة والتُّجار، فإنهم لا يقدرون على طلب المعامِلين كلهم ولا على وَرثتهم، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل ما يقدر عليه من ذلك، وإذا عجز لم يبقَ له طريقٌ إلا الاستِكْثارُ من الحَسنات لتؤخذ منه في الاقتِصاص يوم

---

(١) أخرجه أحمد (٣٣٩٤٩)، ومسلم (١٦٩٥) (٢٣)، وأبو داود (٤٤٣٤)، وأبو عوانة (٦٢٩٦) وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٣٢. والمَكس: الضريبةُ التي يأخذها الماكس وهو العَشّار، وأصلُه الجباية، وغلب استعماله فيما يأخذه أعوان الظَّلَمة عند البيع والشراء.

القيامة فتوضَع في موازين أرباب المظالم، فإنها إن لم تَفِ حسناتُه أُخِذ من سيئات المظلومين فَوضِعت فوق سيئاته، هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

فأما الأموال الحاضرةُ فليردَّ إلى المُلاّك ما يعرف مالكه، فإن لم يَعرفه ولا وَرثته تصدَّق به، فإن اختلطَ الحلالُ بالحرام عرفَ قدرَ الحرام بالاجتهاد وتصدق بذلك المقدار، كما سبق بيانه في كتاب الحلال والحرام.

وأما الجنايةُ على القُلوب بالإيذاء فَمُشافَهةُ الناس بما يَسوؤهم، فَليطلب كلَّ واحدٍ منهم وليستحلَّه، وليعرف قدر الجِناية فإن الاستحلال المُبهَم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك لم تَطِب نفسه بالإحلال إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كَثُر الأذَى، كنسبته إلى عَيبٍ من خَفايا عيوبه، أو كزِناه بجاريته، فليجتهد في التَّلطُّف به والإحسان إليه، ثم ليستحلَّه، ولا بد أن يتقي في مثل هذا مَظْلِمةٌ تُجبَر بالحَسنات يوم القيامة، فأما من مات من هؤلاء الغُرماء فقد فاتَ أمره، فلا يُتدارك الحال إلا بتكثير الحَسنات (١لتؤخذ منه عوضاً في يوم القيامة، فلا خلاص إلا برُجْحانِ الحَسنات١)، ويدل عليه حديث أبي سَعيد أن رجلاً قتل مِئَةَ نَفسٍ وأنه لما كان أقربَ إلى موطنِ الخير بيسيرٍ غُفِر له، وقد تقدم الحديثُ آنفا[٢]، وبهذا يعرف أنه لا خلاصَ إلا برُجحان ميزان الحسنات ولو بمثقالٍ، فلا بد للتائب من تكثير الحَسنات، هذا حكم القصد المتعلق بالماضي.

وأما العزمُ المرتبطُ في الاستقبال؛ فهو أن يعقد مع الله تعالىٰ عقداً مؤكّداً، ويعاهده بعهد وَثيقٍ أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مَرضه أن الفاكهة تَضرُّه مثلاً، فيعزم عَزماً جزماً أنه لا يَتناول الفاكهةَ ما لم يَزُل مَرَضُه. فإن هذا العزمَ يتأكّد في الحال، وإن كان يتصور أن تَغلبه الشَّهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال، ولا يُتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أَمرِه إلا بالعُزلَة والصَّمت، وقلَّةِ الأكل والنوم، وإحراز قوتٍ حلال، فإن كان له مالٌ مَوروثٌ حلالٌ، أو كانت له حرفةٌ يكتسب بها قدر الكِفاية فليقتصر

(١-١) سقط من (ف).

(٢) في باب بيان أن التوبة إذا اجتمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة.

عليه، فإن رأسَ المعاصي أكلُ الحرام، وكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه ولا يكتفي بالحلال وتركِ الشُّبهات من لا يقدر على ترك الشهوات من المأكولات والملبوسات؟ قال بعضُهم: مَن صَدقَ في ترك شهوةٍ وجاهدَ نفسه لله سَبعَ مراتٍ[١] لم يُبتَلَ بها، وقال آخر: مَن تاب من ذنبٍ واستقام سبعَ سنين[٢] لم يعد إليه أبداً.

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلّم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة، وإذا لم يُؤثر العزلةَ لم تَتم له الاستقامة، فأما إذا تاب من بعض الذنوب فقد قال قومٌ: تصحُّ هذه التوبة. وقال آخرون: لا تَصح. ونَحن نقول: لا يَخلو أن يتوب من الكبائر دون الصَّغائر، أو من الصَّغائر دون الكبائر، أو من كبيرةٍ دون كبيرةٍ، فإن تابَ من الكبائر فممكن؛ لأنها أعظم عند الله، وإن تاب من بعض الكبائر فممكن؛ لاعتقاده أن بعضها أشد من بعض، كالذي يتوب من القتل والظُّلم ويُهملُ ما بينه وبين الله تعالىٰ؛ لأن العفو إلى ذلك أقرب، وقد يتوب من بعض الكبائر دون بعضٍ لتَرجُّح ما تابَ منه على غيره، كشرب خَمرٍ مثلاً، فإنه أصلُ كلِّ شَرٍّ، فإن تابَ عن صغيرةٍ وهو مصرٌّ على كبيرةٍ، فممكن أيضاً؛ لأنه ربما أراد غلبةَ الشيطان في بعض الذُّنوب لعلّه يُكَفر ما غلَبه الشَّيطان فيه، ولهذا يصوم الفاسق ويُصلي ليمحو بعضَ الذنوب أو لتخف عقوبته، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «التّائبُ من الذَّنبِ كمن لا ذنبَ له». ولم يقل: من الذنوب، وفَرقٌ بين ما ذكرنا من قوله: أنا تائب أن أشربَ من هذا الدَّنِّ[٣] دون هذا؛ لأن الدِّنانَ متماثلة في حق الشَّهوة وفي التَّعرض لسخط الله، بل يجوز أن يتوب من الخمر دون النَّبيذ لتفاوتهما في اقتِضاء السَّخَط، ويتوب من الكثير دون القليل؛ لأن لكثرة المعصية تأثيراً في كَثرة العقوبة.

فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب من شيءٍ ولا يتوب من مثله، بل لا بد أن يكون ما تاب منه مُخالفاً لما بقي عليه، إما في شدة المعصية، أو في غَلبة الشَّهوة.

---

(١) في (ف): «سنين».
(٢) في الأصل: «مرات».
(٣) الدَّن: وعاءٌ ضَخم للخمر ونحوها.

فإن قيل: إذا فَرضنا اثنين أحدُهما قد سكَنت نَفسُه عن النُّزوع إلى الذَّنب، والآخرُ في نَفسِه نزوعٌ إليه، وهو يجاهدها، فأيهما أفضل ؟

فالجواب: إن الناسَ اختلفوا في ذلك، والصواب أن نَقول: أما الذي انقطع نُزوعُ نفسه فله حالتان:

إحداهما: أن يكون انقطاع نزوعه بفُتورٍ في نَفسِ الشَّهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا، إذ تركه بالمجاهدة قدراً على قوة يَقينِه[١] واستيلاء دينِه[٢] على شَهوَتِه.

الحالة الثانية: أن يكون بُطلان النُّزوع بسببِ قوة اليقين وصِدقِ المجاهدة السَّابقة، إذ قد بلغ مبلغاً قمعَ فيه هَيَجان الشَّهوة حتى تأدبت بأدب الشَّرع، فلا تَهيج إلا بإشارة الدين، وقد سَكنت بسببِ استيلاء الدِّين عليها، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المُقاسي لهَيَجان الشَّهوة وقَمعها.

فإن قال قائل: الذي يُجاهد نفسَه له فضل جِهادٍ.

فالجوابُ: إن الجهاد ليس مقصوداً لعَينهِ بل المقصود قَطعُ ضراوة العدو حتى لا يَستَجِرَّ إلى شَهواته ولا يَصدّ عن سلوك طريق الدّين، فإذا قهره الإنسان فقد ظَفِرَ، وما دام في المجاهدة فهو بعد في طلب الظَّفَر، ومثاله مثال من قَهر العَدوَّ واسترقَّ بالإضافة إلى من هو مشغولٌ بالجهاد في صفِّ القِتال، ولا يدري كيف يَسلم، وقد ظنَّ قوم أن الجِهاد هو المقصود الأَقصى، وذلك غلط؛ إنما المُرادُ منه الخَلاص من عوائق الطريق، وظن آخرون أن قَمع الشَّهوات وإماطتها بالكلية مقصود، فجرَّبَ بعضُهم فعجز، فقال: هذا مُحالٌ، فكذب بالشرع وسلكَ سبيل الإباحة وكل ذلك جهل، وقد بينا هذا في كتاب رياضة النفس.

فإن قيل: فما تَقول في تائِبَين: أحدُهما نَسي الذنبَ ولم يتفكر فيه، والآخر جعله نُصبَ عينيه، فلا يزال يتفكَّر فيه ويحترق نَدماً عليه، فأيهما أفضل ؟

فالجواب: إن هذا مما اختلفَ القُدماء فيه، فقال قومٌ: حقيقة التوبة أن تَنصب

---

(١) في (ف): «نفسه».

(٢) تصحفت في (ف) إلى «ذنبه».

ذنبكَ بين عينيك. وقال قومٌ: حَقيقة التَّوبة أن تَنسى ذنبك. وكل واحد من المَذهبين عندنا حَق، ولكن بالإضافة إلى حالين، فتصوُّر الذنب وذكره والتَّفَجُّعُ عليه كمال في حق المبتدىء؛ لأنه إذا نَسيه لم يكثر احتراقُه فلم تَقْوَ إرادتُه وابنعاثُه لسلوك الطريق، ولأن ذلك يَستخرجُ منه الحزنَ والخوفَ الوازعَ عن الرجوع إلى مثله، وذلك بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان؛ لأنه إذا ظهرت له مبادىء الوصول وانكشفت له أنوار المعرفة استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسعٌ للالتفات إلى ما سَبق من أحواله.

فنقول: شرطُ دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في نعيم الآخرة لتزيد رغبته، فإن كان شاباً فلا ينبغي أن يُطيل فكره في كل ما له نظيرٌ في الدنيا، كالحور والقصور، فإن ذلك الفكر ربما حَرَّك رغبته فطلب العاجلة، بل ينبغي أن يتفكَّر في النظر إلى الله تعالىٰ فقط، فذلك لا نظير له في الدنيا، وكذلك تذكُّر الذنب قد يكون محركا للشَّهوة، فيستَضرّ به المبتدىء، فيكون النِّسْيان أفضل له عند ذلك.

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

طبقات التائبين[1] أربع:

الطبقة الأولى: أن يتوبَ العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، ويتدارك ما فَرَطَ من أمره، ولا يُحدث نفسه بالعَود إلى ذُنوبه إلا الزَّلاّت التي لا ينفك عنها البشر في العادات، فهذه هي الاستقامة في التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات، واسم هذه التوبة: التَّوبة النَّصوح، واسم هذه النَّفس: المطمئنة، وهؤلاء يختلفون من حيث النزوع إلى الشهوات؛ فمنهم من سكنت شَهوته تحت قهر المعرفة فَفَتَر نزاعها، ومنهم من تُنازعه نفسه، وهو مليءٌ بمجاهَدتها.

الطبقة الثانية: تائب سلكَ طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفَواحش، إلا أنه لا ينفكُّ عن ذنوبٍ تَعتريه لا عن عمدٍ، ولكنه يُبتَلَى بها في مجاري أحواله من غير أن يُقدم عزماً على الإقدام عليها، فكلما أتى شيئاً منها لامَ

(١) في (ف): «الناس».

نفسَه وندم، وعزم على الاحتراز من أسبابها، فهذه هي النَّفس اللَّوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على ما يَستهدفُ له من الأحوال الذَّميمة، فهذه رتبة عالية أيضاً، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى فهي أغلب أحوال التائبين؛ لأن الشرَّ معجونٌ بطينة الآدمي قَلَّما ينفك عنه، وإنما غاية سَعيه أن يغلب خيرُه شَرَّه حتى يَثقل ميزانه فترجح كفة الخيرات، فأما أن تخلو كفة السَّيئات بالكلية فذلك بعيد، وهؤلاء لهم حسن الوَعد من الله تعالىٰ إذ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، فكل إلمام بصغيرة لا عَنْ توطينِ النَّفسِ عليه فهو من اللَّمم المعفو عنه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لندمهم ولَومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارةُ بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله يحبُّ المؤمن المُفَتَّنَ[(١)] التَّواب» وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ المؤمن كمثل السُّنبلة تَميل أحياناً وتقومُ أحياناً».

فكل ذلك أدلةٌ قاطعةٌ على أن هذا القَدر لا يُنقص التوبة، ولا يُلحق صاحبَها بدرجة المُصِرِّين[(٢)]، والذي يُؤيِسُ هذا من دَرجة التائبين، كالفَقيه الذي يؤيس المتفقِّه من نَيل درجة الفُقهاء بفُتورٍ يَعتريه عن التكرار في وقت، وهذا يدل على نُقصانٍ في الفَقيه؛ لأن الفقيه لا يُؤيس الناسَ من السعادة بما يعرض لهم من الفتور، قال الله عز وجل: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [القصص: ٥٤]، فما وصفهم بعدم السَّيئة، وفي التوراة: ابن آدم خَطَّاء، وخَيرُ الخَطّائين المُستغفرون.

الطبقة الثالثة: أن يتوبَ ويستمرَّ على الاستقامة مدة ثم تَغلبه شهوتُه في بعض الذنوب، فيُقدم عليها لعجزه عن قَهر الشَّهوة، إلا أنه مع ذلك مُواظب على الطّاعات وترك جملةٍ من الذنوب مع القُدرة عليها والشهوة لها، وإنما قَهرتهُ شَهوةٌ واحدةٌ أو شَهوتان وهو يودُّ لو أقدره الله تعالىٰ على قمعها وكفاه شَرَّها، فإذا انتهت نَدِم لكنه

(١) في الأصل: «المفتتن».

(٢) تحرفت في (ف) إلى: «المقربين».

يَعدُ نفسه بالتَّوبة عن ذلك الذنب، فهذه النفسُ تُسمى: المسوِّلَة[1]، وصاحبها من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فأمرُ هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكَراهيته لما تعاطاه مَرْجوٌّ، فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مُخْطِرة من حيث تَسويفه وتأخيره، فربما يُختَطف قبل التوبة، ومتى صار الذنب نقداً والتَّوبة نَسيئة كان هذا من علامات الخذلان، وفي حديث سهلِ بن سَعدٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهلِ النار، وإنه من أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخَواتيم». فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة، وكل نَفَسٍ فهو خاتمةٌ؛ لأنه يمكن أن يتصل به الموتُ، فليراقب هذا الرجل الأنفاس، وليحذر وقوع المحذور.

الطبقة الرابعة: أن يتوب ويَجري مدةً على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب منهمكاً فيها من غير أن يُحدث نفسه بالتوبة من غير أن يَتأسف على فعله، فهذا من المُصرِّين، وهذه النفس هي الأَمارةُ بالسوء، ويُخاف على هذا سوء الخاتمة، فإنْ مات هذا على التوحيد رُجيَ له الخَلاص من النار ولو بعد حين، ولا يستحيل أن يشمله عموم العَفو بسببٍ خَفي لا يُطَّلع عليه، كما لا يَستحيل أن يدخل الإنسان خَرابةً ليجد كنزاً فيجده؛ إلا أن التَّعويل على هذا لا يصلح، فإن من قال: إن الله كريمٌ وخَزائنه واسعة ومعصيتي لا تَضرُّه، ثم تراه يركب البِحار في طلب دينارٍ، فلو قيل له: فإذا كان الحق كريماً فاجلس في بيتك لعله يَرزقك. استجهل قائل هذا، وقال: إنما الأرزاق بالكَسب. فيقال له: فهكذا النجاة بالكَسب.

بيانُ ما يَنبغي أن يُبادر إليه التّائبُ إذا جَرى عليه ذَنب

الواجبُ عليه التَّوبة والنَّدم وتكفير ما فَعل بحسنةٍ تُضادُّه على ما سبق بَيانُه، فإن لم تُساعده النفس على العَزم على التّرك لغلبة شَهوته، فقد عجز عن أحد الواجبين، فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني، وهو أن يَدرأ بالحسنةِ السيئةَ ليمحوها، فيكون ممن خَلط عملاً صالحاً وآخر سَيِّئاً.

---

(١) في الأصل: «المسوِّفة».

والحسناتُ المكفِّرة للسيِّئات إمّا بالقلب أو باللسان وإمّا بالجوارح، فلتكن الحسنَةُ في محلِّ السيِّئة وفي ما يتعلّق بأسبابها.

فأمّا بالقَلب؛ فليُكفّرها بالتضرُّع إلى الله تعالىٰ في سؤالِ العفو، ويتذلَّل تَذلُّلَ العبد الآبقِ المذنب.

وأمّا باللِّسان؛ فالاعترافُ بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: ربِّ إنِّي ظلمتُ نَفسي فاغفر لي.

وأمّا بالجوارح؛ فبالطاعات والصَّدقات وأنواع العبادات.

وممّا يُرجى به مَحوُ الذنب[١] بعد الندم عليه: أن يُصلّي ركعتين، ويَستغفر، أنبأنا هِبةُ الله بن محمّد، قال: أخبرنا أبو علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدّثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا سفيان عن عثمان ابن المغيرة الثقفي عن علي بن ربيعة الوالبي عن أسماء بن الحكم الفَزاري عن عليٍّ رضي الله عنه قال: حدثني أبو بكر أنّه سمع النبي ﷺ يقول: «ما من رَجلٍ يُذنبُ ذنباً فيتوضّأ فيُحسِنُ الوضوء، ثمّ يُصلّي ركعتين فَيَستغفرُ الله عزَّ وجلَّ إلاّ غُفِرَ لهُ»[٢].

وقال ابن مَسعود: إنّي لأعلم آيتين في كتاب الله عزَّ وجلَّ لا يَقرؤهما عبدٌ عند ذنبٍ يُصيبه ثم يَستغفر الله منه إلاّ غفر له؛ قوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله﴾.. الآية [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.. الآية [آل عمران؛ ١٣٥].

* * *

(١) في (ف): «الذنوب».

(٢) أخرجه أحمد (٢)، والحميدي (٤) وابن ماجه (١٣٩٥)، وأبو يعلى (١٢).

الركنُ الرابع

في دواء[1] التَّوبة وطريق العِلاج[2] لحلِّ عُقدة الإصرار

الناس قِسمان: شابٌّ لا صَبْوةَ له، نَشَأَ على الخير واجتنابِ الشَّرِّ، وهو المذكور فيما أخبرنا به عبدُ الوهاب الحافظ قال: أنبأنا أبو الحُسَين بن النَّقُّور قال: أخبرنا عيسى بن علي الوَزير قال: أخبرنا أبو القاسم البَغَوي قال: حدثنا كامل بن طَلحة قال: حدثنا ابنُ لَهيعةَ عن أبي عُشَّانَةَ[3] عن عُقبةَ بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنا تباركَ وتعالىٰ من شابٍّ ليست له صَبْوة»[4] وهذا عَزيزٌ نادرٌ.

والقسم الثاني: من لا يخلو من مُقارفَةِ الذنوب، ثمّ هؤلاء يَنقسمون إلى مُصِرِّين وإلى تائبين، وغرضنا هاهنا أن نُبيّن العِلاجَ في حَلِّ عُقدة الإصرار، ونذكر الدواء لذلك.

واعلم أنَّه لا يَقفُ على الدَّواء من لا يَقف على الداء، إذ لا معنى للدَّواء إلاّ مُناقضته أسباب الداء، فكلُّ داءٍ حصل من سَببٍ، فدواؤه حَلُّ ذلك السبب ورفعه وإبطاله، ولا يَبطُل الشيءُ إلاّ بضِدِّه، ولا سبب للإصرار إلاّ الغَفلة والشَّهوة، ولا يضادّ الغفلةَ إلاّ العلمُ، ولا يضادُّ الشهوةَ إلاّ الصبرُ على قَطع الأسباب المحرِّكة للشَّهوة، والغَفلةُ رأسُ الخطايا، قال تعالىٰ: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨-١٠٩].

فلا دواء إذن للتوبة إلاّ معجونٌ يُعجَنُ من حلاوة العلم ومَرارة الصَّبر، كما

(١) تحرفت في (ف) إلى: «دوام».
(٢) سقطت من الأصل.
(٣) تصحفت في الأصل إلى: «غسان»، وأبو عُشّانة هو حَيّ بن يُؤمن المصري.
(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٧١) والطبراني في الكبير (١٧/ ٨٥٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٧١)، وأبو يعلى (١٧٤٩). والصَّبوة: الميل إلى هوى النَّفس بمقتضى السِّن.

يُجمع في السَّكَنجَبين بين حَلاوة السُّكّر وحُموضة الخَلّ، فبمجموعهما تَنْقمع الأَسباب المهيّجةُ للصَّفراء.

وإذا كان لهذا الدواء أصلان: العلم والصبر، فلا بدّ من بَيانهما، فنقول: يحتاج المريض إلى تَصديقٍ بأمور:

الأول: أن يُصَدق في الجملة أن للمرض والصحة أسباباً يُتوصل إليها بالاختيار على ما رتَّبه مُسَبِّب الأسباب، وهذا هو الإيمان بأصل الطِّب، فإنّ من لا يُصدّق به لا يَشتغل بالعلاج، وَوِزانُ هذا مما نحن فيه؛ الإيمان بأصل الشَّرع، وهو أنَّ للسعادة في الآخرة سَبباً هو الطاعة، وللشقاوة سبباً وهو المعصية.

والثاني: أنه لا بدَّ أن يعتقد المريض في طبيبٍ معيّنٍ أنّه عالمٌ بالطب حاذقٌ فيه صادقٌ فيما يُخبر به، فإنّ إيمانه بأصل الطِّب لا يَنفعه بمجرَّده دون هذا الإيمان، وَوِزانُه ممّا نحن فيه؛ العلمُ بتصديق الرسولِ ﷺ، والإيمانُ بأنّ كلَّ ما يقوله حقٌّ.

والثالث: أنَّه لا بد أن يُصغي إلى الطبيب فيما يُحذِّرهُ من تَناول الأشياء المضرَّة حتى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء، فتكون شدة الخوف باعِثة له على الاحتماء، وِزانُه من الدين؛ الإِصغاء إلى الآياتِ والأخبار المشتملة على التَّرغيب في التقوى، والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى، والتصديق بذلك من غير شكّ حتى ينبعث به الخوف المقوّي على الصبر.

والرابع: أن يُصغي إلى الطَّبيب فيما يَخصُّ مرضه وفيما يلزمه الاحتماء عنه، فليس على كلّ مريضٍ الاحتماء من كل شيءٍ، بل لكلّ عِلّة علمٌ خاص وعلاجٌ خاص، وِزانُه من الدين؛ أنَّ لكل مؤمن ذنباً مخصوصاً أو ذنوباً، وحاجته مُرْهِقَةٌ إلى العلم بأنها ذنوب، ثم إلى العلم بآفاتها وقَدْرِ ضررها في الدين، ثمّ إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثمّ إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها، فهذه علوم يَختصُّ بها أطباء الدِّين، وهم العلماء، (١ فالعاصي إنْ علمَ عصيانه فعليه طلبُ العلاج من الطَّبيب وهو العالم١)، وإن كان لا يدري أنَّ ما يرتكبه ذنبٌ، فعلى العالم

(١-١) سقط من (ف).

أن يُعرِّفه، وذلك يَقعُ بِتَصدّي العُلماء في كل قطرٍ إلى تعليم الناس دينَهم وذكر ما ينفعهم ويَضرهم، فإنّ مرضى القلوب لا يَعرفون أمراضهم، وهذا فرضُ عَيْنٍ على العلماء كافَّة، وعلى السَّلاطين أن يُرتِّبوا في كل قرية ومَحَلةٍ فَقيهاً مُتديناً يُعلِّم الناسَ دينهم، فإن الناس يولدون جُهالاً فلا بدَّ من تَبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع، ومَرَضُ القلوب أكثر من مرض الأبدان، فالعلماء أطباء، والسَّلاطين قُوَّامُ دارِ المَرضى، فكل مريضٍ لا يَقبل علاج العالم يُسلَّم إلى السلطان ليكفَّ شَرَّه، كما يُسلَّم المجنون إلى القَيِّم ليُقيده، وإنّما صار مرضُ القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداها: أن المريض به لا يدري أنه مريض.

والثانية: أن عاقبتَه غيرُ مُشاهدة في هذا العالم بخلاف مَرَض البَدَن، فإن عاقبته مَوتٌ مُشاهدٌ يَنفر الطبعُ منه، وما بعد الموت غير مشاهد فَقلَّت النُّفرةُ عن الذنوب وإن عَلمَها مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فَضل الله في مَرضِ القلب، ويجتهد في علاج البدن من غير اتّكال.

والثالثة: وهي الداء العُضال؛ فَقْدُ الطَّبيب، فإنّ الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأَعْصار مَرضاً شديداً عجزوا عن علاجه، وصارت لهم سَلوةٌ في عموم المَرض حتى لا يَظهر نُقصانهم، فاضطروا إلى أن يُشيروا على الناس بما يزيدهم مَرضاً؛ لأن الداء المُهلك هو حُبُّ الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدروا على تحذير الخَلق منه استنكافاً من أن يقال لهم: فما بالكم تَأمرونَ بالعِلاج وتَنسَون أنفسكم فبهذا السبب عمَّ الدّاءُ وانقطع الدَّواء، وهلكَ خلقٌ لفَقد الأطباء، لا بل اشتغل الأطباء بفُنونِ الإغواء، فَلَيتَهُم إذْ لم يُصلحوا لم يُفسدوا، ولَيتهم سَكتوا وما نَطقوا، فإنهم إذا تكلموا لم يهمّهم في مَواعظهم إلا ما يَستميل قلوبَ العَالم ويوجب صُراخهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بتَغليب أسباب الرَّجاء؛ لأن ذلك ألذُّ في الأسماع، وأخَفُّ على الطِّباع، فينصرف الناس عن مَجالسِ الوعظ وقد استفادوا مَزيدَ جُرأةٍ على المعاصي ومزيدَ ثقةٍ بالعَفو، ومتى كان الطبيبُ جاهلاً أو خائناً أهلكَ بالدواء حيث يَضعهُ في غير مَوضعه، فالرجاء والخوف دواءان، ولكن

لشَخصين مُتَضادَّي العِلّة، أما الذي غلبَ عليه الخوفُ حتى هجر الدنيا بالكلية وكلَّف نفسه ما لا تُطيق، وضَيَّقَ العَيشَ على نفسه، فذلك الذي تُكسَرُ سَوْرَة إسرافه في الخَوف بذكرِ أسباب الرَّجاء ليعود إلى الاعتدال، وكذلك المصرُّ على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنعُ عنها لحكم القُنوط واليَأس استعظاماً لذنوبه التي سَبقت، يعالَج أيضاً بأسباب الرَّجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب، وأما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء فَتُضاهي مُعالجةَ المَحرورِ بالعَسل، وذلك من دأب الأغنياء، فإذاً فسادُ الأَطباء مُعضلة لا تَقبل الدَّواء أصلاً.

فإن قيل: فما الطَّريق الذي يَنبغي للواعظ سُلوكه مع الخَلق؟.

فالجواب: إنَّ ذلك يطول، لكنا نُشير إلى الأعمال النافعة في حَلِّ عُقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب، وذلك أربعة أنواع:

النوع الأول: أن يذكر ما في القُرآن من الآياتِ المُخوِّفة للمُذنبين، وما ورد في الأخبار والآثار من ذلك، ويمزج ذم العاصي بمدح التائبين.

النوع الثاني: حكاياتُ الأنبياء عليهم السلام، والسلف الصالح، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، كحالةِ آدمَ وما لقيَ في عِصيانه من الإخراج من الجَنَّة، وما جرى لداودَ وسُليمانَ من البكاء والحُزن، ومعاقبة يُوسف بقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، **ولم يَرِد القرآنُ والأخبارُ بهذه الأشياء ورودَ الأسمار**[1]، بل المرادُ منه التنبيه والاعتبار، وإنما كانت سعادة الأَنبياء مُعاجَلتِهم[2] بالعُقوبة، والأشقياء يُمهَلون ليزدادوا إثماً، ولأنّ عذاب الآخرة أشد، فهذا ينبغي أن يُكثرَ من تكرير جنسِه على أسماع المُصرِّين، فإنه نافعٌ في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يُقرر عندهم أنّ تعجيلَ العُقوبة في الدنيا مُتَوقَّع على الذنب، وأن كل ما يُصيب العبد من المصائب، فهو بسبب جناياته، فربَّ عبدٍ يَتساهل في

(١) الأسمار: الحكايات التي يتسامر الناس بها في المجالس.
(٢) تحرفت في النسخ إلى: «معالجتهم»، والمثبت من الإحياء.

أمرِ الآخرة ويَخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرطِ جهله، فينبغي أن يخوَّف بذلك، فإن الذنوب قد يَتعجَّلُ في الدنيا شُؤمها في الغالب، كما قال ﷺ: «إنَّ العبد ليُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنب يُصيبُه».

(١) وقال ابنُ مسعود: إني لأحسب أن العبدَ يَنسى العلم بذنبٍ يُصيبه (١).

وقال بعض السلف: ليست اللَّعنة سواداً في الوَجه إنما اللَّعنةُ أن لا تَخرجَ من ذنبٍ إلا وَقعْتَ في مثله أو في شَرٍّ منهُ.

وحُكي عن بَعضِ العارفين أنه كان يمشي في الوَحلِ مُحترزاً جامعاً ثيابه، فزلَقت رجلُه فَخاضَ، وجعل يَبكي ويقول: هذا مَثَل العبد لا يزال يَتوقَّى الذنوب ويُجانِبها حتى يقعَ في ذنبٍ وذَنبين، فعندها يخوض في الذنوب خَوضاً، وفي هذا إشارة إلى أن تعجيل عُقوبة الذَّنب الوقوعُ في ذنبٍ آخر، وقد قال الفُضَيل بن عياض: إني لأعصي الله عزَّ وجل فأعرف ذلك في خُلُقِ حماري وجاريتي(٢).

وقال أبو سُليمان الداراني: الاحتلامُ عقوبة، ولا يفوت أحداً صلاةُ جماعةٍ إلا بذنب يُذنبه.

ونظر رجلٌ إلى صبي نَصراني فعوقِبَ بأن نَسي القُرآن بعد أربعين سنة.

واعلم أنه لا يُذنب العبدُ ذنباً إلا ويَسوَدُّ وَجْهُ قلبهِ، وتؤثر الذنوب في ظاهره، وتتكدر أحواله كلها، أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا صَفوان بن عيسى قال: أخبرنا ابن عَجلان عن القَعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنبَ كانت نُكتةٌ سوداءُ في قَلبه، فإن تابَ ونَزع واستغفر صُقِلَ قلبُه، وإن زادَ زادتْ، حتى يَعلوَ قلبَه ذاكَ الرَّانُ الذي ذكرَ الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»(٣) [المطففين: ١٤]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(١-١) سقط من (ف).

(٢) في (ف): «خادمي».

(٣) أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

أنبأنا أحمد بن أحمد الهاشمي قال: أخبرنا أبو بَكر الخَطيب قال: أخبرنا أبو سعيد بن شاذان قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصفهاني قال: حدثنا أبو بكر بن عُبيد قال: حدثني حسن بن مَحبوب قال: حدثنا الفَيض بن إسحاق الرَّقيّ قال: قال حُذيفة المَرعَشي: أخبرنا عمار بن سيف عن الأعمش قال: كُنّا عند مُجاهد، فقال: القَلبُ هكذا. وبَسَطَ كفَّه. فإذا أذنبَ الرجلُ ذنباً قالَ هكذا. فعقد واحداً. ثم أذنبَ. وعقد اثنين، ثم ثلاثاً، ثم أربعاً، ثم رد الإبهامَ على الأصابع في الذَّنب الخامس. يَطبع على قلبه. قال مجاهد: فأيّكم يَرى أنه لم يُطبع على قَلبه؟

وقال حُذيفةُ بن اليَمان: إذا أَذنب العبدُ نُكِتَ في قلبه نُكتةٌ سَوداء حتى يَصير قلبه كالشَّاة الرَّبْداء[١].

وقال الحسن: للحسنةِ نورٌ في القلب، وقوةٌ في البدن، وللسيئة ظُلمةٌ في القلب، وَوَهنٌ في البَدَن.

النَّوعُ الرابع: ذكرُ ما وردَ من العقوبات في آحادِ الذنوب، كالخمر والزِّنا والقَتل والكِبر والحَسَد والغِيبة، وفي الجملة يَنبغي أن يكون طبيباً يَعلم الدّاء ويَدري كيف يصنع الدواء، فإن رجلاً سألَ رسول الله ﷺ فقال: أوصني قال: «لاَ تَغْضَب»، وقال له آخر: أَوصني، فقال: «عليكَ باليأسِ مما في أيدي الناس»، فكأنه تَخايل في الأول مَخايلَ الغضبِ، وفي الآخر مَخايل الطَّمع.

وينبغي للنَّصيح أن تكون عنايته مَصروفة إلى تَفرُّسِ الصفاتِ الخَفيَّة، وتَوسُّمِ الأحوال اللاَّئقة ليُداويها بما يلائمها، فإن كان الواعظ يتكلم في جمع، أو سأله من لا يدري باطنَ حالهِ، فسبيله أن يَعِظه بما يَشترك فيه الخلقُ كافة أو الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذيةٌ وأدويةٌ، فالأغذية للكافة، والأدوية لأرباب العِلل، ومثالُه: قول الحسن لرجل قال له: أوصني. فقال: [٢]أعِزَّ أمر الله يُعزُّك الله.

وقول أبي حازم لرجلٍ قال له: أوصني فقال[٢]: اضطجِعْ واجعَل الموتَ عند

---

(١) الشاة الربداء: أي السوداء المنقَّطة بحُمرَة.

(٢-٢) سقط من (ف).

رأسكَ، فما سرَّك أن تكون فيه حينئذٍ فاعمل به، وما كرهتَه فدعه.

فهذه المواعظ مثل الأَغذية يشترك في الانتفاع بها الكافّة، ولأجل فقد مثل هؤلاء الوُعّاظ استَشْرى الفَساد، وبُليَ الناسُ بوُعَّاظٍ مقصودهم زَخرفة الأَلفاظ فقط، فلذلك عُدِمَ النَّفع.

الأصل الثاني: الصَّبر، ووجهُ الحاجةِ إليه أن المريض إنّما يطولُ مرضُه لتناوله ما يَضرُّه، وإنما يتناول ذلك إما لغَفلته عن مَضَرَّته، وإما لشدةِ غلبة شَهوته، فالذي قد ذكرناه هو علاج الغَفلة، فيبقى علاج الشَّهوة، وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النَّفس، وحاصله: أن المريض إذا اشتدَّت ضَرارته بمأكولٍ مُضرٍ وطَريقُه أن يستشعر عِظَمَ ضَرره ثم يغيب ذلك عن عينه، فلا يراه، ثم يتسلَّى عنه بما يَقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تَركه، فلا بد على كل حالٍ من مَرارة الصَّبر، فكذلك تُعالج الشهوة في المعاصي، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوةُ فصار لا يقدر على حفظ عينهِ وحفظ قلبه، أو حفظ جوارحه في السَّعي وراء شَهوته، فينبغي أن يَستشعر ضرر دينه بأن يَستقرىء المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالىٰ وسُنة رسوله ﷺ، فإذا اشتدَّ خوفه تباعد عن الأسباب المهيِّجة لشَهوته، ومُهيّج الشهوةِ من خارجٍ هو حضور المُشتَهى والنظر إليه، وعلاجُه الهَرب والعُزلة، ومن داخلٍ تناول لَذائذِ الأطعمة[1]، وعلاجه الجوع والصوم الدائم، وكل ذلك لا يتم إلا بصَبرٍ، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يَخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بَصيرة، فأول الأمر حُضور مجالس الذِّكر، ثم الاستماع بقَلبٍ مجرَّد عن الشَّواغل، ثم التفكُّر فيما قيل، فينبعث الخوف إذن فيسهل الصبر، وتَتَيسَّرُ الدَّواعي لطلب العلاج، وتوفيق الله سبحانه من وراء ذلك.

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمِه بقُبح عواقبه؟

فالجواب: لوجوه:

أحدها: أن العقاب الموعود ليس بحاضرٍ، والنفس قد جُبلت متأثرة بالحاضرِ،

(١-١) سقط من (ف).

فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر.

والثاني: أن الشَّهوات الباعثة على الذنوب لَذّاتها ناجِزَة، وهي في الحال آخذة بقياد النفوس، وصار ذلك عادةً، والعادة طبيعة خامسة، والنزوع عن العاجل لخوفِ الآجل شديدٌ على النَّفس، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [**القيامة: ٢٠-٢١**] وفي الصحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «حُفَّت النار بالشَّهوات وحُفَّت الجنَّة بالمكاره». وفي لفظ البخاري: «حُجِبَتْ» مكان: «حُفَّتْ».

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن بِشر قال: حدثنا محمد بن عَمرو قال: حدثنا أبو سَلمة عن أبي هُريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لما خلقَ الله عزّ وجلّ الجنةَ والنارَ أرسل جبريلَ - يعني إلى الجنة - فقال: انظُر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها. فجاءَ فنظرَ إليها وإلى ما أعدَّ الله عزّ وجل لأهلها فيها، فرجع إليه، فقال: وعزَّتِكَ لا يَسمع بها أحدٌ إلا دَخلها. فأمرَ بها فحُجِبَتْ بالمَكارِهِ، وقال: ارجِعْ فانظُر إليها (١وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها. فرجع فإذا هي قد حُجبت بالمَكاره، فرجع إليه)[١] فقال: وعزَّتكَ لقد خشيتُ أن لا يَدخُلها أحد. قال: اذهب إلى النّار فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها فجاءها، فنظر إليها وإلى ما أعدَّ لأهلها فيها، فإذا هي يركبُ بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزَّتِكَ، لا يَسمع بها أحدٌ فيَدخُلَها. فأَمَرَ بها فحفَّتْ بالشَّهوات، وقال له: ارجعْ فانظُرْ إليها. فرجعَ فنظر فيها، فإذا هي قد حُفَّت بالشَّهوات، فرجع إليه، فقال: وعزَّتِكَ لقد خَشيتُ أن لا ينجوَ منها أَحدٌ إلا دخلها»[٢]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

وإذا كانت الشهوة مُرْهقةٌ في الحال، والعقاب متأخرٌ، فذانك سَببان ظاهران في

(١) سقط من (ف).

(٢) أخرجه أحمد (٨٣٩٨) و(٨٦٤٨) و(٨٨٦١)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي ٧/ ٤٠٣، وأبو يَعلى (٥٩٤٠).

الاستِرسال وإن حصل أصل الإيمان، فإن الإنسان إذا عَطِشَ في مرضه فَشرِبَ الثلجَ لم يكن مُكذباً بأصل الطِّبِّ في أن هذا يَضرّه، ولكنه مغلوبُ الشَّهوة، وألمُ الصَّبر عن ذلك ناجِزٌ، فهوَّنَ عليه ذلك الألَم ما ينتظر.

والثالث: أنه ما من مؤمن يُذنب إلا وهو عازمٌ على التوبة، وقد وُعد بأن ذلك يَجبُرُ ما فعل، إلا أن طول الأمل غالبٌ على الطِّباع، فلا يَزالُ يُسَوِّفُ التَّوبة، فلما رجا التوبة أقدم على الذنب.

والرابع: أنه ما من مؤمنٍ إلا وهو معتقدٌ أن الذنبَ لا يُوجب العُقوبة إيجاباً لا يمكن العَفو عنها، فهو يُذنب وينتظر العفو اتّكالاً على فَضل الله عزَّ وجل.

فهذه أسبابٌ أربعةٌ موجبة للإصرار على الذَّنب مع بَقاء أصلِ الإيمان، فأما من أقدمَ شاكاً في صدقِ الرُّسُل، فهذا كافرٌ.

فإن قيل: فما علاجُ هذه الأسباب؟

فالجواب: أن علاجها: الفِكر بأن يُقرِّر على نَفسه في السَّبب الأول، وهو تأخُّر العقل، أن كل ما هو آتٍ قَريبٌ، وأنه لا يأمن هجومَ الموت، وأنه لو خَوَّفه طبيبٌ نَصراني في مرضه تَناوُل ما يَشتهيه تركه، فما يقول في قَولِ الأَنبياء المؤيَّدين بالوحي في عَواقب الذنوب؟ وكيفَ يكونُ عذابُ النار أخفَّ عنده من عذاب المرض؟ وبهذا الفكر يُعالج اللَّذة الغالبةَ، ويكلف نفسه الصبر، ويقول: إذا كنتُ لا أقدر على تَركِ لَذّاتِ أيام العمر وهي قلائل فكيفَ أقدرُ على ذلك أَبَدَ الآباد؟ وإذا لم أطِقْ ألم الصّبر، فكيف أُطيقُ ألم النار؟ وإذا لم أَصبر على زَخارف الدنيا مع كَدَرها كيف أصبر عن نعيم الآخرة؟

فأما تَسويفُ التَّوبة فيُعالجه بالفِكر في أن أكثر صياحِ أهل النار من التَّسويف؛ لأن المُسوِّفَ يبني الأَمر على ما ليسَ إليه وهو البَقاء، فلعله لا يَبقى، وإن بقي فربما لم يَقدِر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم، وهل عجز في الحال إلا لغَلبةِ الشَّهوة، والشَّهوة غير مفارقة له غداً، بل تَتأكَّدُ بالاعتياد، وعن هذا هلك المُسَوِّفون؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن

تركُ الشَّهوات فيها أبداً شاقٌّ، وما مثال المسوِّفِ إلا مثال من احتاجَ إلى قلعِ شَجرةٍ، فرآها قَوِيّةً لا تَنقلعُ إلا بمشقةٍ شديدةٍ، فقال: أُؤَخِّرها سنةً. ثم يعودُ إليها وهو يعلم أن الشجرةَ كلما بَقيت ازدادَ رسوخُها، وهو كلما طال عُمُره ازدادَ ضَعْفُه، فالعَجَب من عَجزه مع قوته عن مقاومةِ ضعيفٍ كيف انتظرَ الغَلبةَ له إذا ضَعُفَ هُوَ وقَوي الضَّعيف.

وأما المعنى الرابع؛ وهو انتظار عفو الله تعالىٰ، فعلاجه الأخذ بالحَزْم وترك المُجوّزات البَعيدة، ومَثَله في حاله كمثَل من أنفق أمواله كلّها وتركَ نفسَه وعيالَه فقراء منتظراً من فَضل الله تعالىٰ أن يَرزقه العثور على كنزٍ في خَرِبَةٍ، أو مثل من رأى الظَّلَمة يَنْتَهبونَ البلدَ، وذخائرُ أموالهِ في صحنِ دارِه، وقد قَدَر على دَفْنها وإخفائها، فلم يفعل، وقال: أنتظر من فَضل الله أن يُسَلِّط غَفْلَةً على الظالم المُنْتَهِب فلا يتفرغ إلى داري، وإذا بلغَ داري ماتَ على باب الدار. فهذا ممكنٌ إلا أن صاحبه مُلقَّبٌ بالأحمق ومثلُه إمكانُ العَفو عن الذَّنب.

فأما الشكُّ والكُفر، فعلاجُه النَّظر في صدق الرُّسُل، ويمكن أن يعالَج بعلمٍ قريبٍ يليقُ بحَدِّ عَقله فيُقال له: هل صِدقُ الأنبياء مُمكن أو مُستحيل ؟ فإن قال: مُستحيل. فهو مَعتوه، وإن قال: أنا شاكٌّ في ذلك. قيل له: فلو تركتَ طعاماً في بيتك فَأخبركَ شخصٌ مجهولٌ أنه قد وَلَغَتْ فيه حَيَّةٌ وقذفَتْ فيه سمَّها، هل تأكله أو تتركه؟ فإنه سيقول: أتركُه؛ لأنه إن كذبَ المُخبر لم يَفُتْني غيرَ هذا الطعام والصَّبر عنه قريبٌ، وإن صدقَ فاتَتني الحياةُ، والموتُ بالإضافة إلى الصَّبر عنِ الطعام شَديدٌ. فيقالُ له: كيفَ تُؤَخِّرُ صدقَ الأنبياء كلهم مع ما ظهرَ لهم من المعجزات، وصدق العلماء والحكماء كافةً بل جميع أصناف العُقلاء عن صدقِ رجلٍ واحدٍ مجهول لعله له غرضٌ فيما قال، وليس في العقلاء إلا مَن صدَّق باليَوم الآخرِ، وأثبت ثواباً، وإن اختلفوا في كيفيته، فإن صَدَقوا فقد أشرفتَ على عذابٍ يَبقى على الآباد، وإن كَذَبوا فما يَفوتكَ إلا بعض شَهوات هذه الدنيا الفانية المكدَّرة، فلا يبقى له توقُّفٌ إن كان عاقلاً مع هذا الفكر، إذ لا نسبةَ لمدة العمر إلى أبد الآباد، بل لو قَدَّرنا الدنيا مملوءة بالذُّرَةِ، وقدَّرْنا طائراً يلتقط في كلِّ ألفِ ألفِ سنةٍ حبةً واحدةً

منها لَفَنِيَت الذُّرَة ولم تَنقطع الآباد فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشَّهوات منه سنة مثلاً لأجل سعادةٍ تبقى أبدَ الآباد ؟ ومن هذا النحو الذي ذكرناه قول الشاعر:

قالَ المُنَجِّمُ والطَّبيبُ كلاهُما لا تُبْعَثُ الأَمواتُ قلتُ إليكما
إنْ صَحَّ قَولُكما فلستُ بخاسرٍ أو صحَّ قَولي فالخَسارُ عَليكُما

فإن قيل: فالإيمانُ لا ينبغي أن يقع بتردُّد.

قلنا: إنما ذكرنا هذا تدريجاً لإقامة الحجةِ على هذا المُفَرِّط، فهو من جنس قوله تعالىٰ: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ [فصلت: ٥٢] وقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وإلا فالأدلة على الإيمان جَليةٌ.

فإن قيل: هذه أمورٌ واضحة فما بال القُلوب هَجَرت الفِكْرَ فيها واستَثْقَلته ؟ وما عِلاج القلوب لترجع إلى الفِكر فيها لاسيَّما من آمن بأصل بالشرع ؟

فالجواب: إنّ المانع من الفكر أمران:

أحدهما: أن الفكر النّافع هو الفِكر في عقاب الآخرة وأهوالها وحَسَراتِ العاصين على حِرمان النَّعيم المُقيم، وهذا فكرٌ لَذَّاعٌ مُؤلم للقَلب، فَيَنفر القَلْبُ عنه، ويَلتذُّ بالفكر في أمورِ الدُّنيا على سبيل التَّفرج والاستراحة.

والثاني: أن الفِكر شُغلٌ في الحال مانعٌ من لذائذ الدنيا وقَضاء الشَّهوات، وما مِن إنسانٍ إلا وَله في كل حالةٍ من أحواله ونَفَسٍ من أنفاسِه شَهوة قد تسلَّطت عليه واسْتَرَقَّ فصار عقلُه مُسَخَّراً لشهوتهِ، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مُباشرة قضاء الشَّهوة، والفكر يمنعه من ذلك.

وعلاج هذين المانِعَين أن يقول الإنسان لقلبه: ما أشدَّ غباوتَك في الاحترازِ من الفكر في الموت وما بعده تَألُّماً بذِكره مع احتقار ألم مُواقَعته، فكيف تَصبر على مُقاساته إذا وَقع وأنت عاجزٌ عن الصَّبر على تقدير الموت وما بعده ومتألم به ؟

وأما الثاني: وهو كون الفِكر مُفَوِّتاً للذَّاتِ الدنيا هو أن يتحقق أن فَوات لذاتِ الآخرة أشد وأعظم؛ لأنها لا آخر لها ولا كَدَر فيها، ولذات الدنيا مَشوبةٌ بالكدر سريعة الذهاب، ثم في التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تَلذُّذٌ بمناجاة الله تعالىٰ، واستراحة بمعرفته وطاعته وطولِ الأُنسِ به، ولو لم يكن للمُطيع جزاء على عمله إلا ما يَجده من حَلاوة الطاعة ورُوح الأُنس بمناجاة الله تعالىٰ لكان ذلك كافياً، فكيفَ بما يُضاف إليه من نَعيم الآخرة؟ إلا أنَّ هذه اللَّذةَ لا تكون في ابتداء التَّوبة، وتكون بصبرِ مدةٍ[1] مَديدةٍ، وقد صار الخيرُ دَيْدَناً، والنفسُ قابلةٌ تتعوّد بما عوَّدتَها، فهذه الأفكار هي المهيجة للخَوف المهيج لقوَّة الصَّبر عن اللَّذات، ومُهيج هذه الأفكار وَعظُ الوعّاظِ، وتنبيهات تَقع للقلبِ بأسبابٍ تَتَّفِقُ لا تدخل تحتَ الحصر، فيَصير الفكر موافقاً للطبع، فيميل القَلب إليه، ويُسمَّى السَّببُ الذي أوقعَ الموافَقَةَ بين الطَّبعِ وبين الفِكرِ الذي هو سَببُ الخَير: توفيقاً، إذ التَّوفيق هو التأليفُ بين الإرادةِ وبينَ المعنى الذي هو طاعةٌ نافعةٌ في الآخرة، وهذا القَدْرُ في التَّوبة كافٍ.

وإذا كان الصَّبرُ رُكناً من أركانِ دَوامِ التَّوبة، فلا بدَّ من بيانِه، فنذكره في كتابٍ مُفردٍ يلي هذا إن شاء الله تعالىٰ.

آخر كتاب التوبة

* * *

(١) ليست في الأصل.

كتاب الصَّبر والشُّكر

وهو الكتاب الثاني من رُبع المُنْجِيات

الحمدُ للهِ المتفرِّدِ بالعِزِّ والعَلاء، المتوحِّدِ بالمَجْدِ والكِبرياء، أهلِ المَدحِ والحَمدِ[١] والثَّناء ربِّ العِزَّة والعَرشِ والبِناء، بَثَّ للابتلاءِ فُنونَ الضَّراء والسَّرَّاء، وحثَّ عبادَه على الصَّبر على البَلاء والشكرِ على الرَّخاء، ليجزيهم أحسنَ ما عملوا في دار البَقاء، فأخذ مرضُ الفُتور يَدِبُّ في الأَعْضاء، فانتبهَ أقوامٌ لمداواة هذا الدّاء، فاستعدّوا وعَدُّوا الهَوى من الأعداء وآثروا الباقي نُفوراً عن فَناء الفَناء، ويكفي في مَدحهم قول ربِّ الأرضِ والسَّماء: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

أَحمدُه على جَزيل النَّعماء، حَمداً يدوم بدوام هُبوب الرِّيح وجَرْيِ الماء، وأُصلي على رسولِهِ محمدٍ سيدِ الأنبياء، وعلى أصحابِه الكرامِ البَررةِ الأَتقياء، والقائمين بشرعه إلى يوم القيامة في فَضاء القَضاء، وسلّم تسليماً كثيراً يَفوت العَدَّ والإِحصاء.

أما بعد: فإنّ الإيمانَ نِصفان: نصفٌ صَبرٌ ونِصفٌ شُكر، فالجهل بحقيقة الصَّبر والشُّكر جهلٌ بكلا شَطْري الإيمان فكيف يُتَصور سلوكُ سبيل الإيمان دونَ معرفة ما بِهِ الإيمان، فما أحوجَ كِلا الشَّطرين إلى الإيضاح والبيان، ونحن نُوضح الشَّطرين في كتابٍ واحدٍ لارتباطِ أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) في (ف): «المجد».

الشَّطر الأول في الصَّبر

وفيه بَيانُ فضيلة الصبر، وبَيانُ حَدِّه وحَقيقتهِ، وبيانُ كونه نِصف الإيمان، وبيانُ اختلاف أساميه باختلاف مُتعلقاته، وبيانُ أقسامه بحسَب القُوة والضَّعف، وبيانُ مَظانِّ الحاجة إلى الصَّبر، وبيان دَواء الصَّبر وما يستعان به عليه.

فهي سبعةُ فصول تشتمل على جميع مقاصده.

بيانُ فَضيلة الصَّبر

قد ذكرَ اللهُ عزَّ وجلَّ الصبرَ في نحوٍ من تسعين مَوضعاً من القُرآن، فأضاف أكثر الخيراتِ والدَّرجات إلى الصَّبر، وجعلها ثمرةً له، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال: ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [النحل: ٩٦]، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] فما من قُربةٍ إلا وأَجرُها بتقديرٍ وحسابٍ إلا الصبر، ولأجل كون الصَّوم من الصبر قال تعالىٰ: «الصَّومُ لي وأنا أَجْزي به»(١)، فأضافه إلى نَفسه من بين سائر العبادات، ووعد الصابرين بأنه معهم فقال: ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦] وعلَّق النَّصر على الصبر فقال: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وجمع للصابرين بين أمورٍ لم

(١) أخرجه مسلم (١١٥١) (١٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يجمعها لغيرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، والآيات في هذا كثيرة.

وأما الأحاديث والآثار: ففي الصَّحيحين من حديث أبي سعيدٍ الخُدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصَّبر».

وقال عُمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضلُ عيشٍ أدركنا بالصَّبر، ولو أن الصبر كان من الرِّجال كان كريماً.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: ألا إنّ الصبرَ من الإيمان بمنزلةِ الرأسِ من الجَسَدِ، فإذا قُطِعَ الرأسُ ماتَ الجَسد. ثم رفع صوته فقال: ألا إنَّه لا إيمان لمن لا صَبر له.

وقال الحسن: الصَّبرُ كنزٌ من كُنوزِ الجنَّة، لا يُعطيه اللهُ عزَّ وجلَّ إلا لعبدٍ كريم عليه.

وقال عُمر بن عَبد العزيز: ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً فانتزعها منه، فعاضَه مكانَ ما انتزعَ منه الصَّبرَ إلا كان ما عَوَّضه خَيراً مما انْتَزَع منه.

وقال ميمون بن مِهران: ما نالَ أحدٌ شيئاً من جسيم الخَير، نَبيٌّ فمن دونه إلا بالصَّبر.

وقال سُليمان بن القاسم: كل عملٍ يعرف ثَوابُه إلا الصَّبر، قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهَمِر.

وكانَ بعضُ العارفين في جَيبه رُقْعَةٌ يُخرجها في كل ساعةٍ يُطالِعُها، وفيها: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾ [الطور: ٤٨].

بيانُ حَقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصَّبر مقامٌ من مَقامات الدِّين، ومنزلٌ من منازل السّالكين، وجميع مقامات الدين إنما تَنتظم من ثَلاثة أشياء: معارف وأَحوال وأَعمال.

فالمعارف هي الأُصول، وهي تورث الأحوالَ، والأحوالُ تُثْمِر الأَعمال، فالمعارفُ كالأشجار، والأحوالُ كالأغصانِ، والأعمالُ كالثِّمار، وهذا المُطَّرِدُ في

جَميع منازل السالكين إلى الله، واسمُ الإيمان تارةً يُخَصُّ بالمعارف، وتارةً يُطلق على الكل كما ذكرنا في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب (قواعد العَقائد)[١].

وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفةٍ سابقةٍ وبحالةٍ قائمةٍ، فالصَّبر على التَّحقيق عبارة عنها، وبعملٍ هو كالثَّمرة يَصدُر عنها، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبَهائم، فإن الصبر خاصيّة الإنس، ولا يُتَصور ذلك في الملائكة والبهائم، أما في البهائم فلنُقصانها، وأما في الملائكة فلكمالها، وبيانه: أن البهائم سُلِّطَت عليها الشهوات فصارت مسخرةً لها ولا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشَّهوة، وليس فيها قوة تُصادم الشهوة وتردّها عن مقتضاها حتى يُسمى ثباتُ تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صَبراً.

وأما الملائكةُ فإنهم جُرِّدوا للشوق إلى حَضرة الرُّبوبية والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تُسَلَّط عليهم شهوةٌ صارفة عنها حتى تحتاج إلى مُصادمة ما يصرفها عن حَضرة الجلال.

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصِّبَا ناقصاً مثل البَهيمة لم يُخلق فيه إلا شَهوة الغذاء الذي هو محتاجٌ إليه، ثم تَظهر فيه شَهوة اللَّعِب والزِّينة، ثم شَهوة النّكاح، وليس له قوة الصبر البَتَّة، إذ الصبر عبارةٌ عن ثَباتِ جُندٍ في مقابلة جُندٍ آخر قامَ القتال بينهما لتَضادِّ مقتَضياتِهما ومَطالِبِهما، وليس في الصَّبي إلا جُند الهوى كما في البهائم، فإذا تحرك العقلُ وقويَ ظهرت مَبادىء إشراق نُور الهداية عند سِنِّ التمييز، وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ، كما يبدو نورُ الصبح إلى أن يَطلع قرص الشمس، ولكنها هدايةٌ قاصرة لا تُرشدُ إلى مضارِّ الآخرة بل إلى مضار الدنيا، ولذلك يُضرَب على ترك الصَّلوات ولا يُعاقب على ذلك في الآخرة، فإذا قَوِيَ العقلُ تَلمَّح العواقبَ فيما يتعلَّق بالدنيا، فإذا عُضِدَ بمعرفةِ الشَّرع تلمَّح ما يتعلَّق بالآخرة وكثر سلاحه، إلا أن الطَّبع يقتضي ما يُحب، وباعث العقل والدين يَمنع،

(١) هذا من كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ، فكتاب قواعد العقائد من مصنفاته.

والحربُ بينهما قائمة، وهي سِجالٌ، ومعركةُ هذا القتال قَلبُ العَبدِ، والصبرُ عبارةٌ عن ثَبات باعثِ الدِّين في مقابلة باعثِ الشَّهوة، فإن ثبتَ حتى قهره التحقَ بالصّابرين، وإن ضَعُفَ حتى غلبت الشَّهوة ولم يَصبِر في دفعها التحقَ بأتباع الشياطين، فإنَّ تركَ الأفعالِ المُشْتَهاة عملٌ يُثمِرُهُ حالٌ يُسمى الصَّبر، وهو ثباتُ باعث الدين الذي في مقابلة باعث الشَّهوة، وثباتُ باعثِ الدين حالٌ تُثمرها المعرفةُ بعداوة الشَّهوات ومُضادَّتها لأسبابِ السعادات في الدنيا والآخرة، فمن قَوي يَقينُه قويَ ثَبات باعثِ دينه، وإذا قوي ثباتُه تَمت الأفعال على خِلاف ما تَتقاضاه الشَّهوة، فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضادِّ لباعث الشَّهوة، وقُوة المعرفة والإيمان تُقَبِّحُ مَغَبَّةَ الشَّهوات وسُوء عاقِبتها، وإذا ثبت أنَّ الصبر عبارة عن ثَبات باعث الدين في مقاومة باعثِ الهَوى، فهذه المقاومةُ من خاصِيَّة الآدميّين.

بَيان كون الصَّبر نصفُ الإيمان

الصَّبرُ نصفُ الإيمان باعتبارين، وعلى مقتضى إطلاقين:

أحدهما: أن يُطلق على التَّصديقات والأعمال جميعاً، ولأن للإيمان ركنان؛ أحدهما اليَقين، والآخر الصبر، والمراد باليقين: المعارفُ القَطعية الحاصلة بهداية الله عَبدَه إلى أصول الدين، والمراد بالصبر: العملُ بمقتضى اليقين، إذ اليقين يُعرِّفُه أنَّ المعصيةَ ضارة والطاعة نافعة، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر، وهو استعمال باعث الدين في قَهر باعثِ الهوى والكسل، فيكون الصبرُ نصفُ الإيمان بهذا الاعتبار.

والاعتبار الثاني: أن يُطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف، وعند ذلك ينقسم جميع ما يُلاقيه العبدُ إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يَضره فيهما، وله بالإضافة إلى ما يَضرُّه حال الصَّبر، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشُّكر، فيكون الشُّكر أحدَ شَطْري الإيمان بهذا الاعتبار، كما كان اليقينُ أحدَ الشَّطرين بالاعتبار الأول، وبهذا الاعتبار قال ابنُ مَسعود: الإيمانُ نِصفان: نِصفٌ صَبرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ.

ولما كان الصبرُ صبراً عن بَواعِث الهَوى بثباتِ باعثِ الدين، وكان باعث الهوى قسمين: باعثٌ من جهة الشَّهوة، وباعثٌ من جهة الغَضَب فالشهوةُ لطلب اللَّذيذ، والغَضبُ للهرب من المُؤلم، فكان الصومُ صبراً عن مُقتضى الشَّهوة فقط وهي شَهوة البَطن والفَرج دون مُقتضى الغَضَب، فلهذا قيل: الصومُ نصفُ الصَّبر؛ لأن كمالَ الصبر بالصبر عن داعي الشَّهوة وداعي الغَضَب جميعاً فيكون الصوم[1] بهذا الاعتبار رُبع الإيمان، فهكذا ينبغي أن تُفهَمَ تقديراتُ الشَّرع لحدود الأَعمال والأحوال ونسبتها إلى الإيمان.

بيانُ الأَسامي التي تَتجدَّد للصَّبر بالإضافة إلى ما عَنْهُ الصَّبر

اعلم أن الصَّبر ضَربان:

ضربٌ بَدَني، لتحمل المشاقِّ بالبَدن والثَّبات عليه، وهو إما بالفعل، كتعاطي الأعمال الشاقَّة إما من العبادات أو من غيرها، وإما بالاحتمال، كالصَّبر على الضَّرب الشديد والمرضِ العظيم والجِراحات الهائلة، وذلك قد يكون مَحموداً إذا وافق الشَّرع، ولكن المحمود التام هو الضَّرب الآخر، وهو الصَّبر النَّفساني عن مُشتهيات[2] الطبع ومقتضيات الهَوى، ثم هذا الضَّرب إن كان صبراً عن شَهوةِ البَطن والفَرج سُمِّي عِفَّة وإن كان على احتمال مكروهٍ اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المَكروه الذي عليه الصَّبر؛ فإن كان في مُصيبةٍ اقتصر على اسم الصَّبر، وتُضادّه حالةٌ تُسمَّى الجَزَع والهَلَع، وهو إطلاق داعي الهَوى ليسترسِلَ في رفع الصَّوت وضربِ الخُدود وشَقِّ الجُيوب وغيرها، وإن كان في احتمال الغِنَى سُمي ضبطَ النَّفس، وتُضاده حالةٌ تُسمّى البَطَر، وإن كان في حَربٍ وقتالٍ سُمّي شَجاعةً، ويُضاده الجُبن، فإن كان في كَظْمِ الغَيظ والغَضب سُمّي حِلْماً، ويُضادُّه التَّذمُّر[3]، وإن كان في نائبةٍ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الصبر».
(٢) تحرفت في (ف) إلى: «تشبيهات».
(٣) تحرفت في (ف) إلى: «الندم».

من نوائبِ الزَّمان مُضجرةٍ سُمّي سَعَةَ صَدرٍ، ويُضادّه الضَّجَر والتَّبرُّم وضِيق الصَّدر، وإن كان في إخفاء كلامٍ سُمي كِتْمان السِّر، وسُمي صاحبُه كَتوماً، وإن كان في فُضول العَيش سُمِّي زُهداً، ويُضاده الحِرص، فإن كان صبراً على قَدرٍ يَسير من الحظوظ سُمِّي قناعةً، ويُضاده الشَّرَه، فأكثر أَخلاقِ الإيمان داخلةٌ في الصبر، فهذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاته.

بيانُ أقسام الصَّبر بحسب اختلاف القُوة والضَّعف

اعلم أن باعثَ الدين بالإضافة إلى باعثِ الهَوى له ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يقهر دواعي الهَوى، فَلا تَبقى له قوة المنازعة، ويُتوصل إليه بدوام الصبر، ولهذا يُقال: مَن صَبر قَدر. والواصلون إلى هذه الرتبة هُم الأقلّون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

الحالة الثانية: أن تَغلبَ دواعي الهوى وتَسقط بالكلية مُنازعة باعثِ الدين، فيُسلم نفسَه إلى جُند الشيطان[١]، ولا يُجاهد ليَأْسِه من المُجاهدة، وهؤلاء هم الغافلون، وهم الأكثرون، وهم الذين استرقَّتهم شَهواتهم وغَلبت عليهم شِقْوتهم، الذين اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخرة، وهذه الحالة علامتُها اليَأس والقُنوط والغُرورُ بالأماني، وهي غاية الحُمق، قال النبي ﷺ: «والعاجزُ من أَتْبَعَ نَفسه هَواها وتَمنّى على الله الأَماني»[٢]. وصاحبُ هذه الحالة إذا وُعِظَ قال: أنا مُشتاق إلى التَّوبة ولكنها قد تَعذَّرت عليَّ، فلستُ أطمعُ فيها. وربما لم يَشتق إلى التَّوبة ولكن يقول: اللهُ غَفورٌ رَحيم، لا حاجة به إلى تَوبتي، وهذا المِسكين قد صار عقلُه رقيقاً لشَهوته فلا يَستعمل عقله إلا في استنباط دَقائق[٣] الحِيَل التي بها يَتوصّل إلى قَضاء شَهواته، وقد صار عقلُه في يدِ شَهواته كمُسلمٍ أسيرٍ في أَيدي الكُفار، فَهُم

(١) تحرفت في (ف) إلى: «السلطان».
(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣) والطيالسي (١١١٢)، والترمذي (٢٤٥٩)، والطبراني في الكبير (٧١٤٣) والبيهقي في السنن ٣/ ٣٦٩ من حديث شداد بن أوس.
(٣) سقطت من (ف).

يَستسخرونَه في رعاية الخَنازير وحِفظ الخمر وحملها، ومحله عند الله محل من يَقهَرُ مُسلماً ويُسلمه إلى الكفار ويجعله أسيراً عندهم؛ لأن سَبب تَفاحُشِ جنايته أنه سَخَّر ما كان يَنبغي أن يَسْتَسخِرَ، وسلَّط على من حقُّه أن يتسلَّط عليه، ولما سَخَّر المعنى الشريفَ الذي هو حزبُ الله عزَّ وجلَّ للمعنى الخَسيس الذي هو من حِزب الشَّياطين، كان كَمن أَرقَّ مُسلماً لكافرٍ، بل هو كمن قَصد المَلِكَ المنعم عليه فأخذ أعزَّ أولاده فسلَّمه إلى بعض أعدائه، فانظر كيف يَستَوجب نِقمته؛ لأن الهوى أَبغضُ إلهٍ عُبِدَ في الأرض إلى الله، والعقل أعزّ موجودٍ خُلق.

الحالةُ الثالثةُ: أن تكون الحربُ سِجالاً بينَ الجُندَين، فتارةً له اليد وتارة عليه، وأهل هذه الحالة هم الذين خَلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، هذا باعتبار القوة والضعف، ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوالٍ باعتبار عدد ما يصبر عنه، فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات فهو الكامل، أو لا يغلب شيئاً منها، فأولئك يُشبَّهون بالأنعام بل هم أَضلّ، إذ البَهيمة لم تُخلق لها معرفةٌ ولا قُدرة تُجاهد بهما الشَّهوات، وهذا قد خُلق له ذلك فعطَّله، أو يغلب بعضها دون بعض، فهو في مقام ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] ومن الناس من يَصبر بجهد جَهيد وتعبٍ شَديد، وهذا التَّصبُّر، ومنهم من يصبر بأدنى حَملٍ على النفس، فهذا هو الصبر.

فمثال الأول: مثالُ مصارعٍ صارعَ رجلاً شديداً فهو لا يَقهره إلا بعد تعبٍ شَديد، ومثال الثاني: أن يصارع ضعيفاً فهو يَصرعه بغير تعبٍ، وهكذا تكون المصارعة بين باعثِ الدين وباعثِ الهَوى، فإنه على التحقيق صراعٌ بين جنود الملائكة وجنود الشَّياطين، ومتى أَذْعَنت الشَّهوات وانقَمعت وتيسَّر الصبرُ بطولِ المُواظَبة أَورثَ ذلك مقام الرِّضا.

واعلم أن الصبر يَنقسم باعتبار حُكمه إلى فرضٍ ونَفلٍ ومَكروهٍ ومُحرم، فالصبر عن المحظورات فرض، وعن المكروه نَفل، وعلى الأذى المحظور محظور، كمن يقطع يَدَ نفسه ويَصبر على ذلك، أو يقصد حُرمته بشهوةٍ مُحرَّمة فَتهيج غيرته فَيصبر عن الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله، فهذا الصَّبر مُحرم، والصبر المكروه هو الصبر على أَذى يَناله بجهةٍ مكروهةٍ في الشرع، فليكن الشرعُ محكَّ الصَّبر.

بَيان مَظانّ الحاجةِ إلى الصَّبر وأن العبد لا يَستغني عنه في حالٍ من الأحوال

اعلم أن جميع ما يَلقى العبد في الدنيا لا يخلو من نَوعين: أحدهما يوافق هواه، والآخر يكرهه، وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما.

أما النوع الموافق للهوى: فهو الصحة والسلامة، والمال والجاه، وكَثرةُ العَشيرة والأَتباع، وجميع مَلاذّ الدنيا، والعبد محتاجٌ إلى الصبر في هذه الأمور، فلا يركن إليها ولا يَبطَر بها ولا يَنهمك في التَّلذُّذ واللَّعب، ويُراعي حقَّ الله تعالىٰ في ماله بالإنفاق وفي بدنه بالمعونة للخلق، ومتى لم يَضبط نفسه عن الانهماك في ملاذّها والركون إليها أخرجه ذلك إلى البَطَر والطُّغيان حتى قال بعض العارفين: البَلاء يَصبر عليه المؤمن ولا يصبر على العافية إلا صِدِّيق.

وقال عبد الرحمن بن عوف: ابتُلينا بالضَّراء فصَبرنا، وابتُلينا بالسَّراء فلم نَصبر.

ولذلك حذَّر اللهُ عزَّ وجل عبادَه من فتنة المال والأزواج والأولاد، فقال تعالىٰ: ﴿لا تُلهِكُم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ [المنافقون: ٩]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال النبي ﷺ: «الوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَة».

أَخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا زَيد بن حُباب قال: حدثني حُسَين بن واقد قال: حدثني عبد الله بن بُرَيدة قال: سمعتُ أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسنُ والحُسين عليهما قميصان أحمران يَمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فَوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدقَ الله ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥]، نظرتُ إلى هذين الصَّبيين يَمشِيان ويَعْثُران فلم أصبر حتى قَطعتُ حديثي ورَفعتهما»[1].

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٥) والترمذي (٣٧٧٤) وأبو داود (١١٠٩)، وابن أبي شيبة ٨/ ٣٦٨، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وابن حبان (٦٠٣٨)، والحاكم ٤/ ١٨٩.

فالرجلُ كلُّ الرجلِ مَن يَصبر على العافية على ما سَبق بيانُه، وهذا الصبر متصلٌ بالشُّكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر وإنما كان الصبر على السَّراء أشد؛ لأنه مقرونٌ بالقُدرةِ، والجائع عند غَيبة الطعام أقدر على الصَّبر منه عند حُضور الأطعمة اللَّذيذة.

وأما النوع الثاني المخالف للهوى: فذلك لا يخلو من أن يرتبط باختيار العبد، كالطاعات والمعاصي، أو لا يرتبط باختياره، كالمصائب، أو لا يرتبط أوله باختياره ولكن له اختيار في إزالته، كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه، فهي ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يَرتبط باختياره، وهو جميع أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية، فأما الطاعة فإن العبد يحتاج إلى الصبر عليها؛ لأن النفس بطَبعها تَنفِرُ عن العبودية وتَشتهي الربوبية، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكَسَل، كالصلاة، ومنها ما يُكره بسبب البُخل، كالزكاة، ومنها ما يُكره بسببهما جميعاً، كالحج والجهاد.

ويحتاج المريدُ إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: قبل الطاعة، وذلك تصحيح النية والإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الوَفاء، وذلك من الصبر الشَّديد عند من يعرف حقيقةَ النية والإخلاصِ وآفاتِ الرياء ومكائدِ الشيطان، وقد نبَّه النبيُّ ﷺ على ذلك إذْ قال: «إنَّما الأَعمالُ بالنِّيات، وإنما لكل امرىءٍ ما نَوى»، وقال الله تعالىٰ: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ [البينة: ٥]، ولهذا المعنى قَدَّم الله الصَّبر على العمل، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: الصَّبرُ على أربع شُعَب: على الشَّوق والإشفاق والزَّهادة والتَّرقُّب، فمن اشتاق إلى الجنَّة سلا عن الشَّهوات، ومن أَشفق من النار رجع عن المحرَّمات، ومن زَهِدَ في الدنيا تَهاونَ بالمُصيبات، ومن ارتَقَب الموتَ سارع إلى الخَيرات.

الحالة الثانية: حالة العمل، كي لا يَغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل

عن تحقيق آدابِهِ وسُنَنِهِ، فيلازم الصَّبر عن دواعي الفُتور إلى الفراغ.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتَّظاهر به للسُّمعَةِ والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب، وعن كل ما يبطل عمله، فمن لم يَصبر بعد الصدقة عن المَنِّ والأذى أبْطَلها، والطاعات[1] تنقسم إلى فَرضٍ ونَفلٍ والإنسان يَحتاج إلى الصبر عليهما جميعاً، قال سفيان: كان يُقال: يحتاج المؤمن إلى الصَّبر كما يَحتاج إلى الطعام والشراب.

الضربُ الثاني: **المعاصي**؛ فما أحوج العبد إلى الصبر عنها، والمعاصي مقتضى باعث الهَوى.

وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصَّبرُ عن المألوفات منها بالعادة؛ لأن العادة طبيعةٌ خامسة، فإذا أُضيفت إلى الشَّهوة تَظاهر الجُنْدان من جنود الشيطان على جند الله عز وجل فلا يقوى باعث الدين على قَمعهما.

ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسَّر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللِّسان من الغِيبة والكَذب والمراء والثَّناء على النَّفس تعريضاً وتصريحاً، وضروب الكلمات[2] التي يُقصد بها الإزراء والاحتقار، وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيَرهم، فإن ذلك في ظاهره غِيبة وفي باطنه ثَناء على النفس، فللنفس فيه شَهوتان؛ نَفي الغَير وإثبات النَّفس، وذلك أثر الرُّبوبية التي في الطبع، وهي ضد ما أُمر به من العبودية ولاجتماع الشَّهوتين وتَيسُّرِ تحريك اللِّسان ويَصير ذلك معتاداً في المحاورات التي يَعسر الصبر عنها حتى بَطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكررها وعموم الأنس بها، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستهول فعله، ويغتاب الناس طول النهار فلا يستنكر ذلك، ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر لم تُنْجِه إلا العُزلة، فإن الصبر على الوحدة أهون من الصبر على السُّكوت مع المخالطة.

---

(١) في (ف): «الصدقات».

(٢) تحرفت في (ف) إلى: «الكمالات».

وتختلف شدَّة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضَعفها، وأيسر من حركة اللِّسان حركة الخَواطر باختلاج الوَساوس، فلا جَرَم يبقى حديث النَّفس في العُزلة، فلا يمكن الصَّبرُ عنه أصلاً إلا بأن يَغلب على القلبِ هَمٌّ آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبحت هُمومه همّاً واحداً، وقد روى عَمرو بن شُعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا جَمَعَ اللهُ الخلائقَ نادى مُنادٍ: أين أهلُ الصَّبر ؟ قال: فيقوم ناسٌ وهم يَسيرٌ، فينطلقون سِراعاً إلى الجنَّة فتتلقّاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سِراعاً إلى الجنَّة، فمن أنتم ؟ فيقولون: نحنُ أهلُ الصَّبر. فيقولون: وما كانَ صبركم ؟ فيقولون: كُنّا نَصبر على طاعة الله عزَّ وجل، وكنّا نَصبر عن معاصي الله عز وجل. فيُقال لهم: ادخُلوا الجنَّة فنِعمَ أجرُ العاملين».

وروى عليٌّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الصبرُ ثَلاثة: فصبرٌ على المُصيبةِ، وصبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المَعصِية، فمن صبرَ على المُصيبة حتى يَرُدَّها بحُسن عَزائها كتبَ الله له ثلاث مئةِ درجة بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومَن صبر على الطَّاعة كتبَ الله له ستَّ مئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بينَ تُخوم[1] الأرض إلى مُنتَهى العرش، ومن صبر على المعصية كتب الله له تسع مئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تُخوم الأرض إلى مُنتهى العرش مَرَّتين»[2].

وقال مَيمون بن مِهْران: الصَّبرُ صَبران: الصبرُ على المصيبة حَسَنٌ، وأفضل من ذلك الصبر على المعاصي.

وقال الفُضيل في قوله تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، قال: صَبروا على ما أُمِروا به وعن ما نهوا عنه.

القسم الثاني: ما لا يَرتبط هجومه باختياره وله اختيارٌ في دفعه، كما لو أُوذيَ بفعلٍ أو قولٍ وجُنِيَ عليه في نَفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بتركِ المكافأة تارةً يكون واجباً، وتارة يكون فضيلةً، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ

(١) التُّخوم: جمع تُخم، وهو الحَدُّ الفاصلُ بين أرضين.
(٢) أورده المناوي في فيض القدير ٤/ ٢٣٥.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، **وقال:** ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، **وقال:** ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [**الحجر**: ٩٧-٩٨]، وقسم رسول الله ﷺ مالاً فقال بعضُ الناس: هذه قسمةٌ ما أُريدَ بها وجهُ الله. فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «رَحِمَ اللهُ أخي موسى، قد أوذيَ بأكثر من هذا فصَبر». فالصبرُ على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر؛ لأنه يَتعاون فيه باعثُ الدين وباعثُ الشَّهوة والغَضب جميعاً.

القسم الثالث: ما لا يَدخلُ تحتَ الاختيار أوله وآخره، كالمصائب، مثل مَوتِ الأَعزَّة، وهَلاك الأَموال، وعَمَى العين، وزوال الصّحة بالمرض، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر؛ لأن مستنده اليَقين.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَن يُردِ اللهُ به خَيراً يُصِبْ منه». وقال: «أَسأَلُكَ من اليقين ما تُهَوِّنُ به عليَّ مصائبَ الدُّنيا».

أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو اليَمان قال: أخبرنا شُعَيب عن الزُّهري قال: أخبرني عُروة أن عائشةَ قالت: قال النبي ﷺ: «ما مِن مُصيبة تُصيب المسلمَ إلاَّ كفَّر اللهُ عزَّ وجل بها عنه حتى الشَّوكَة يُشاكُها». أخرجاه في الصحيحين[(١)].

وفيهما من حديث أبي سَعيد وأبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يُصيبُ المسلمَ من نَصب ولا وَصَبٍ[(٢)]، ولا هَمٍّ ولا حزن، ولا أذىً ولا غَمٍّ حتى الشَّوكَةِ يُشاكُها إلا كَفَّرَ اللهُ بها من خَطاياه»[(٣)].

وفي أفراد مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يُصيبُ المؤمنَ مِنْ شَوكةٍ فما فَوقها إلا رَفعه اللهُ عزَّ وجلَّ بها درجةً، وحَطَّ عنه بها خَطيئةً»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢) (٤٩)، وأحمد (٢٤٥٧٣).
(٢) الوَصَب: الوجع والمرض.
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣)، وأحمد (٨٠٢٧) و(٨٤٢٤) و(١١١٤١).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٢) (٤٧).

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَزال البلاءُ بالمؤمن أو المؤمنةِ في جَسده، وفي ماله، وفي وَلدِه حتى يَلقى الله وما عليه خَطيئة»[١].

وفي حديث سَعد بن أبي وقاص قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيّ الناس أشدّ بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثَل فالأمثل من الناس، يُبْتَلى الرجلُ على حَسَبِ دينه، فإن كان في دينه صَلابة زِيدَ في بلائهِ، وإن كان في دينه رِقَّة خُفِّف عنه، وما يزالُ البلاءُ بالعبدِ حتى يَمشي على الأرض وليس عليه خَطيئة»[٢].

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «قالَ الله تعالىٰ: إذا وَجَّهتُ إلى عبد من عَبيدي مُصيبةً في بَدنهِ أو ماله أو وَلده، ثم استقبَل ذلكَ بصَبرٍ جميل، استَحْيَيْتُ منه يوم القِيامة أن أَنصِبَ له ميزاناً أو أَنْشُر له ديواناً»[٣]،

وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا أحبَّ الله قَوماً ابتَلاهُم».

وقال: «إذا أرادَ الله بعبدٍ خَيراً صَبَّ عليه البَلاء صَبّاً».

ذكر المصائب في البَدَن وثَوابها

أنبأنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسنُ بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا أبو مُعاوية قال: حدثنا الأعمش عن إبراهيم التَّيمي عن الحارث بن سُوَيد عن عبد الله[٤] قال: دخلتُ على النبي ﷺ وهو يوعَكُ[٥]، فَمَسِسْتُه فقلت: يا رسول الله، إنك لَتوعَكُ وَعْكاً شديداً؟ قال: «أجل إني أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلان منكم». قلتُ: إن لكَ أجرين؟ قال:

(١) أخرجه أحمد (٧٨٥٩) و(٩٨١١)، وابن حبان (٢٩١٣)، والترمذي (٢٣٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٨١) و(١٤٩٤)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٧٨٣)، والطيالسي (٢١٥)، وابن حبان (٢٩٠٠) و(٢٩٢١).

(٣) أخرجه القُضاعي في مسند الشِّهاب ٢/ ٣٣٠، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢/ ٢٩٠.

(٤) يعني ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) الوَعَكُ: الحُمّى، وقيل: ألم الحمى، وقيل: هو إرعادُ الحمى المريض وتحريكها إياه.

«نَعم، والذي نَفسي بيده، ما على الأرض مُسلمٌ يُصيبه أذىً من مرضٍ فما سِواه، إلا حَطَّ اللهُ عنه به خَطاياه، كما تَحطُّ الشجرةُ اليابسة وَرَقها» أخرجاه في الصحيحين(١).

وفيهما من حديث عائشة قالت: ما رأيتُ الوجع على أحدٍ أشدّ منه على رسول الله ﷺ.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الرجل ليكون له الدَّرجة عند الله تعالىٰ لا يَبلغها بعملٍ حتى يُبتَلى ببلاءٍ في جسمه، فيَبلغها بذلك».

وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا اشتكى المؤمن أخلَصه ذلك من الذنوب، كما يُخلص الكيرُ الخَبَثَ من الحديد».

ذِكر الحُمَّى

روى مسلم في أفراده من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ دخل على امرأةٍ، فقال: «ما لَكِ تُزَفْزِفين(٢)»؟ قالت: الحُمّى لا باركَ الله فيها. قال: «لا تَسُبِّي الحمّى، فإنها تُذهِبُ خَطايا بني آدم كما يُذهب الكيرُ خَبَثَ الحَديد»(٣).

وفي حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن وُعِكَ ليلةً فَصبر ورضي عن الله تعالىٰ، خَرج من ذُنوبه كيوم وَلدته أُمُّه».

وقال الحسن: إنه ليكفر عن العبد خَطاياه كلّها بحمّى ليلة.

ذِكر الصُّداع

روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مؤمنٍ مريضٍ يُصيبه صُداع في رأسه أو شوكة تؤذيه أو ما سوى ذلك من الأذى، إلا رفعه اللهُ عزَّ وجلَّ بها درجة يوم القيامة، وكَفَّر عنه بها خَطيئة».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٧) و(٥٦٤٨) و(٥٦٦٠) و(٥٦٦١) و(٥٦٦٧)، ومسلم (٢٥٧١) (٤٥) وأحمد (٣٦١٨) و(٣٦١٩) و(٤٢٠٥) و(٤٣٤٦).

(٢) تُزفزفين: أي ترتعدين.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٥).

ذِكْر الطَّاعون

روى البُخاري ومسلم في الصَّحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «الطَّاعون شَهادةٌ لكل مسلم».

وفي أفراد البخاري من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «ليسَ من عبدٍ يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لن يُصيبه إلا ما كتبَ الله عز وجل لَه، إلا كان له مثل أَجرِ الشَّهيد».

ذِكْر ذَهاب البَصر

روى البخاري في أفراده من حديث أنس عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: إذا ابتَليتُ عبدي بحَبيبَتَيْهِ ثم صَبَرَ عَوَّضتُه عنهما الجنَّة». يريد عَينَيه، وفي لفظٍ لم يخرجه البخاري: فقال أنس: يا رسولَ الله، وإن كانت واحدة ؟ قال: «ولو كانت واحدة».

ذِكْر مَوتِ الوَلَد

روى مسلم في أفراده من حديث أبي حَسّان قال: تُوفِّي ابنان لي، فقلتُ لأبي هُريرة: سمعتَ من رسولِ الله ﷺ حديثاً تُحدِّثناه تَطيب أنفسنا عن موتانا ؟ قال: نَعم: «صغارهم دَعاميصُ الجَنَّة، يلقى أَحدُهم أباه ـ أو قال: أبويه ـ فيأخذ بناصية ثوبه أو يده كما آخُذ بِصَنِفةِ[1] ثوبك هذا، فلا يفارقه حتى يُدخله الله وأَباه الجنَّة»، الدُّعموص: دُويبةٌ صَغيرة تكون في الماء.

وفي الصحيحين من حديث أبي سَعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال للنساء: «ما مِنكنّ امرأة يَموت لها ثلاثةٌ من الولد، إلا كانوا لها حِجاباً من النار». فقالت امرأة: أو اثنين ؟ فإنه مات لي اثنان. فقال رسول الله ﷺ: «واثنَين».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِن مُسلمٍ يموتُ له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنث، فَتَمسّه النار إلا تَحِلَّةَ القَسَم».

---

(١) صَنِفَةُ الثوب: حاشيته أو جانبه الذي لا هُدبَ له.

أخبرنا علي بن عبد الله قال: أخبرنا ابن النَّقور قال: أخبرنا أبو حَفص الكِناني قال: حدثنا العباس بن الوَليد النَّرسي قال: حدثنا زكريا بن يحيى قال: حدثنا عبد العزيز بن صُهَيب عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من الناس مسلم يموتُ له ثلاثةٌ لم يَبلغوا الحِنْثَ، إلا أدخله الله الجنَّة بفضل رَحمتِه إيّاهم». انفرد بإخراجه البخاري.

فَصل

ومن آداب الصبر: استعماله في أول صَدمة، أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين قال: حدثنا الفربري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا آدم قال: حدثنا شُعبة قال: حدثنا ثابت عن أنس قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأةٍ تبكي عند قَبرٍ، فقال: «اتَّقِ الله واصْبِري» فقالت: إليكَ عني، فإنك لم تُصَب بمُصيبتي. فلم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بَوّابين، فقالت: لم أَعرِفك. فقال: «إنَّما الصَّبرُ عند الصَّدمةِ الأُولى». هذا حديث متفق على صحته.

ومن الأدب في المصائب الاستِرْجاع: فقد رَوى مسلم في أفراده من حديث أم سلمة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مُسلمٍ تُصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهمَّ أجُرْني في مُصيبتي واخلف لي خيراً منها. إلا أخلفَ الله خيراً منها». قالت: فلما ماتَ أبو سلمةَ قلتُ: أيّ المسلمين خير من أبي سَلمة؟ ثم إني قُلتها، فأخلفَ الله لي رسولَ الله ﷺ.

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: يا مَلكَ الموت، قبضتَ ولدَ عبدي؟ قبضتَ قُرَّة عينه وثَمرةَ فؤاده؟ فيقول: نعم. قال: فما قال؟ قال: حَمَدَكَ واستَرجع. قال: ابنوا له بَيتاً في الجنَّة، وسمّوه بيتَ الحَمد».

وروى الحُسين بن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مُسلم ولا مُسلمةٍ يُصاب بمصيبةٍ فيذكرها، وإن قدم عهدها فَيُحدِث لذلكَ استِرْجاعاً إلاَّ جدَّد الله له عند ذلك، فأعطاه أجرها يوم أُصيب بها».

ومن الآداب في المصيبة: سكونُ الجوارح، وسكوتُ اللسان، فأما البُكاء فجائزٌ لأنه لا يُملك، وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس منّا من شَقَّ الجيوبَ، ولطمَ الخُدودَ، ودعا بدَعوى الجاهِلية».

وفي الصحيحين من حديث عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «الميتُ يُعذب في قَبره بالنِّياحَةِ عليه».

وفي أفراد مسلم من حديث أبي مالك الأَشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «النائحة إذا لم تَتُب قَبلَ موتها تُقام يوم القيامة وعليها سِرْبالٌ[١] من قَطِران ودرع من جَرَب».

وقال بعض الحكماء: الجَزَعُ لا يَرد الفائت، ولكن يَسُرُّ الشامِت.

فَصل

ومن حُسنِ الصَّبر: أن لا يَظهر أثَرُ المصيبة[٢]، على المصاب، [٣] وقد كانوا يتجلَّدون عند المصائب لئلاّ يتبين أثر المصيبة[٣]، [٤] وسُئل ربيعة ابن أبي عبد الرحمن: ما مُنتهى الصَّبر ؟ فقال: أن يكون يوم تُصيبه المصيبة مثله قبل أن تُصيبه [٤].

أخبرنا ابن الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا بَهْز قال: حدثنا سُليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: ماتَ ابنٌ لأَبي طلحةَ من أُم سُلَيم، فقالت لأهلها: لا تُحدِّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أُحَدِّثه. فقرَّبت إليه عَشاء، فأكل وشرب، ثم تَصنَّعَت له أحسنَ ما كانت تَصَنَّعُ قبلَ ذلك، فوقع بها، فلما رأتْ أنه قد شَبِعَ وأصابَ منها، قالت: يا أبا طلحةَ، أرأيتَ لو أن قَوماً أعاروا عاريَّتَهم أهلَ بيتٍ فطلبوا عاريَّتَهم أَلَهُمْ أن يَمنعوهم ؟ قال: لا. قالت: فاحتَسِب ابنَكَ. فانطلقَ حتى

---

(١) السِّربال: القميص.

(٢) في (ف): «المصائب».

(٣-٣) سقط من (ف).

(٤-٤) سقط من الأصل.

أتى رسولَ الله ﷺ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «باركَ اللهُ لكُما في لَيلتكما» قال: فَحَمَلت. انفردَ بإخراجه مسلم وقد أخرجه البخاري مختصراً(١).

وقال ثابت البُناني: ماتَ عبدُ الله بن المُطرف، فخرج مُطرفٌ على قومه في ثيابٍ حسنةٍ وقد ادَّهَنَ، فغضبوا وقالوا: يموت عبد الله ثم تَخرج في ثياب مثل هذه مدهناً ؟! قال: أَفأستكين لها وقد وَعدني ربي تباركَ وتعالىٰ ثلاثَ خصال كل خصلة منها أحبّ إليَّ من الدنيا كلها؛ قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦ـ١٥٧] وقال مُطَرف: ما شَيءٌ أُعطى به في الآخرة قَدْرَ كوزٍ من ماء إلا وَددت أنه أُخِذَ مني في الدنيا.

قال ثابت البُناني: وكان صِلَةُ بن أَشْيَم في مَغْزىً له ومعه ابنٌ له فقال: أي بُنَي، تقدَّم فقاتل حتى أحتسبك. فحَمل فقاتَل حتى قُتِل، ثم تقدَّم فقُتِل، فاجتمعت النِّساء عند امرأتِه مُعاذَة العَدويّة، فقالت: مرحباً، إن كنتنَّ جئتُن لتُهنئنني فمَرحباً بكن، وإن كنتن جئتن لغَير ذلك فارجِعن.

وقد رَوى شَدّاد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «يقولُ اللهُ عزَّ وجل: إني إذا ابتَليتُ عبداً من عبادي فحَمدني على ما ابتَليته، فإنه يقوم من مَضْجَعِه ذلك كيوم ولدته أمه من الخَطايا».

فَصل

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كِتمانه، فكِتمانُها من مُعاملة الله عز وجل الخَفيَّة، روى أبو هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مرضَ العبدُ بعثَ اللهُ تعالىٰ إليه مَلَكين، فيقول: انظُرا ما يقول لعوَّادِه. فإن هو إذا دخلوا عليه حَمِدَ اللهَ عزَّ وجل رَفَعا ذلك إلى الله تعالىٰ، وهو أعلم، فيقول: لعَبْدي إن أنا تَوفَّيته أن أُدخِلَه الجنَّة، وإن أنا شَفَيته أن أُبدِلَه لحماً خيراً من لَحمِه، ودَماً خيراً من دَمِه، وأن أكفِّر عنه من سَيِّئاته».

(١) أخرجه مسلم (١٠٧) الصفحة ١٩٠٩، وأحمد (١٣٠٢٦) مطولاً، وأخرجه البخاري (١٣٠١) مختصراً.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: من إجلالِ اللهِ ومَعرفة حَقِّه أن لا تَشكو وَجَعَك ولا تَذكُر مُصِيبَتَك.

وقال الأَحنفُ: لقد ذهبت عَيني منذُ أربعين سنَةً ما ذكَرتُها لأحدٍ.

وقال رجل للإمام أحمد: كيفَ تَجِدُك يا أبا عبد الله ؟ فقال: بخيرٍ في عافيةٍ. فقال: حُمِمْتَ البارحةَ. قال: إذا قلتُ لكَ أنا في عافِية فَحسبك، لا تُخرِجْني إلى ما أكره.

وقال إبراهيم الحَربي: ما شَكوتُ الحُمَّى قَط إلى أُمي ولا إلى أُختي ولا إلى امرأتي، الرجل الذي يُدخِلُ غَمَّه على نَفسِه ولا يَغُمُّ عياله، كان بي شَقيقة خَمْساً وأربعين سنةً فما أخبرتُ بها أحداً، ولي عشرين سنة أُبصر بعينٍ واحدةٍ ما أَخبرتُ بذلك أحداً.

قال الحكماء: من كنوز البِرِّ كِتْمان المَصائب.

وقال شَقيق البَلْخي: مَن شكا مُصيبةً نزلت به إلى غيرِ الله، لم يجد في قَلبه لطاعةِ الله حلاوةً أبداً.

فصل

وقد كانوا يفرحون بالمصائب نَظراً إلى ثَوابها.

قال أبو الأَحوص الجُشَمي: دخلنا على ابن مسعود وعنده بَنون له ثلاثة، كأنهم الدَّنانير حُسناً، فجعلنا نعجب من حُسنهم، فقال لنا: كأنكم تَغبطوني بهم ؟ قلنا: إي والله، لمثل هؤلاء يُغبطُ المرءُ المسلم. فرفع رأسه إلى سَقفِ بيتٍ له صغير وقد عَشَّشَ له فيه خُطَّافٌ[1] وباضَ، فقال: والذي نَفسي بيده، لأن أكون نَفضتُ يدي من تُراب قبورهم أحبّ إلي من أن يَسقطَ عُشُّ هذا الخُطّاف ويَنكسر بَيضُه.

وقال أبو الدَّرداء: ثلاثٌ يَكرههن الناس وأُحبهن: الفَقر، والمَرض، والمَوت.

---

(١) الخُطّاف: هو السّنونو، وهو ضربٌ من الطيور القواطع عريض المنقار، دقيق الجناح طويله، مُنتفش الذيل.

وقال أبو جُحَيفة: إنّا لمتوجِّهون إلى مهران ومعنا رجلٌ من الأسد، فجعل يبكي فقلتُ له: أَجزَعٌ هذا؟ قال: لا، ولكن تركتُ ابني في الرَّحْلِ ولوددت أنه كان معي فدَخلنا الجنة جميعاً.

وروى أبو حَيَّان التَّيمي عن أبيه قال: دَخلتُ على سُوَيد بن مَثْعَبة[(١)]، وكان قد أَضْنَى، فإذا هو مُكِبٌّ على وَجهِهِ مُسجّى بثوبٍ، فلولا أن امرأته قالت: أَهلي فداؤك، ما نُطعمك؟ ما نَسقيك؟ ما ظننتُ تحتَ الثَّوب شيئاً. فلما رآني قال: يا ابنَ أخي، دَبِرَت الحَراقِفُ[(٢)] والصُّلْبُ، فما من ضَجْعَةٍ غيرَ ما ترى، واللهِ ما أُحبُّ أني نُقِصْتُ منه قُلامَةَ ظُفر[(٣)].

أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا جَعفرَ بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا منصور بن بشير، قال: حدثنا عثمان بن عَبد الحميد بن لاحق عن أبيه عن ابن يَسار ـ يعني مُسلماً ـ قال: قدمتُ البَحرين أو اليمامة في تجارةٍ، فإذا بالناس مُقْبلين ومُدْبرين نحو منزلٍ، فقصدته، فإذا أنا بامرأةٍ جالسةٍ في مُصلًّى لها، عليها ثيابٌ غليظة، وإذا هي كئيبة محزونة قليلة الكلام، وإذا كُلُّ مَن رأيتُ وَلَدَها وخَوَلها وعَبيدَها، والناس يأتون إليهم بالبِياعات والتِّجارات، فقَضيتُ حاجتي ثم أَتيتُها فَودَّعتها، فقالت: حاجتنا إليك أن تَأتينا إن عُدتَ وتُنزِلَ بنا حاجَتَك. قال: فانصرفتُ ولبثتُ حيناً، ثم إني تَوجَّهتُ إلى بلدتها في حاجةٍ، فلما قدمتُ لم أَرَ دونَ مَنزلها شيئاً مما كنتُ رأيتُ، فأتيتُ منزلها فلم أَرَ أحداً، فأتيتُ البابَ فاستفحتُ، فإذا أنا بضَحِك امرأةٍ وكلامها، ففُتح لي فدَخلتُ، وإذا أنا بها جالسة في بيتٍ، وإذا عليها ثياب حَسنةٌ رَقيقةٌ، وإذا الضحك الذي سَمعته ضَحكها وكلامها، وإذا امرأةٌ

---

(١) هكذا في النسخ وطبقات ابن سعد والزهد لابن المبارك، وفي صفة الصفوة للمصنف والزهد لابن أبي عاصم: «شعبة».

(٢) الحراقف: جمع حَرقَفَة، وهي مجتمع رأس الوَرك ورأس الفخذين، ودبرت أي: تَقرَّحت.

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ١٦٠، والزهد لابن أبي عاصم ١/ ٣٥٩، والزهد لابن المبارك ١/ ١٥٧، وصفة الصفوة ٣/ ٤٢.

معها في بيتها فقط، فاستنكرتُ وقلت: لقد رأيتُكِ على حالين فَهُما عجب! حالُكِ في قَدْمَتي الأولى وحالُكِ في هذه. قالت: لا تَعجب فإنّ الذي رأيتَ من حالتي الأولى أني كنتُ فيما رأيتَ من الخَيرِ والسَّعةِ، وكنتُ لا أُصاب بمُصيبةٍ في ولدٍ ولا خَوَلٍ ولا مالٍ، ولا أُوَجِّهُ من تجارةٍ إلا سَلِمَتْ، ولا يُبتاع لي شَيءٌ إلا ربحَ، فتخوَّفتُ أن لا يكون لي عند الله عزَّ وجلَّ خيرٌ، فكنتُ مُكتئبةً في ذلك، وقلتُ: لو كان لي عند الله خَيْرٌ ابْتَلاني، فتوالت عليَّ المصائِب في وَلدي الذي رأيتَ وخَوَلي ومالي فما بقي لي منه شيء، فرجوت أن يكون الله تعالىٰ قد أراد بي خيراً فابتلاني وذكرني، ففرحت لذلك وطابت نفسي. قال: فانصرفتُ فلقيتُ عبدَ الله بن عُمَر، فأخبرتُه خَبَرها فقال: هذه واللهِ ما فاتَها[١] أيوبُ النبي عليه السلام إلا بقليلٍ، لكني تَخرَّقَ مِطْرَفي[٢] هذا. أو كلمة نحوها. فأَمرتُ به أَنْ يُصلحَ، فلم يُعمَل كما كنتُ أُريد، فأَحزنني ذلك.

وقد روينا أنه لما ماتَ عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز دَفَنَه عمرُ وسَوَّى عليه، ثم استوى قائماً وأحاطَ به الناسُ، فقال: رَحمكَ اللهُ يا بُنَي، فقد كنتَ بَرّاً بأبيك، واللهِ ما زلتُ منذ وَهبكَ اللهُ لي مسروراً بكَ، ولا والله ما كنتُ قَطّ أَشَدّ بكَ سروراً، ولا أرجى لِحَظِّي من الله تعالىٰ فيك منذ وَضَعْتك في هذا المنزل الذي صيَّركَ اللهُ إليه.

ولما ماتَ ولدُ الفُضَيل وقفَ على قَبرِه فترحَّم عليه، وقال: يابُنَي، لأَسْتكملنَّ فيك الأجر، لا أخرجتُ عليكَ من عيني دَمعةً.

وقال إبراهيم النَّخعي: أُقْعِدَت أُم الأَسود من رِجْليها، فَجزعت ابنةٌ لها، فقالت: اللهمَّ إن كان خَيراً فَزِدْ.

وقال أَبانُ بن تَغْلِب: رأيتُ أعرابيةً تُمرِّض ابناً لها، وهو لما به، فلما فاض[٣] أغمضَتهُ، ثم تنحَّتْ عن مقعدها عند رأسه ورجعت إلى مجلسها تجاهه، وقالت:

---

(١) ما فاتها، أي: ما سبقها.

(٢) المِطْرَف: رداءٌ أو ثوبٌ من خَزٍّ مربَّع ذو أعلام.

(٣) تحرفت في (ف) إلى: «فاق». وفاضت نفسه: مات.

يا فلان، ما حَقُّ من أُلبِسَ العافية، وأُسْبغَت عليه النِّعمَة، وأطيلت له النَّظِرة أن لا يعجز عن التَّوثُّق لنفسه قبل حَلِّ عقدته، والحُلول بعَقْوَته[١]، والحال بينَه وبين نَفْسِه. قال: فأجابها أعرابي: إنّا لم نزل نَسمع أن الجَزع إنما هو للنّساء، فلا يَجْزعَنَّ رجل بمصيبةٍ بعدك، ولقد كرم صَبركِ وما أشبهتِ النِّساء. فأقبلت عليه بوجهها وقالت: ما ميَّزَ رجلٌ بين الصَّبر والجَزَع إلا أصابَ بينهما منهجين بَعيدَي التَّفاوت في حالتهما؛ أما الصَّبر؛ فَحَسَنُ العلانية، محمودُ العاقبة، وأما الجَزَع؛ فَغير مُعوِّضٍ مع مأثمه، ولو كانا رجلين في صورةٍ لكان الصبر أولاهُما بالغَلبة وحُسن الصورة مع كرم الطبيعة في عاجلةٍ من الدين وآجلةٍ من الثَّواب، وكفى ما وعد الله فيه لمن ألهمه إليه.

فصل

وقد كانوا يَتلذَّذون بالبلاء نَظَراً إلى ثوابه أو إلى رضَا الله به، فكان بعض السلف يقول: إن لله عز وجل عباداً لو علموا مجاري أقداره لتلقَّفوها تَلَقُّفاً.

وقال آخر: ليس بصادقٍ في حُبه من لم يتلذَّذ بضَربِه.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا أحمد بن حَمد قال: حدثنا أبو نُعيم الحافظ قال: حدثنا عُمر بن شاهين قال: حدثنا العَباس بن المُغيرة الجَوهري قال: حدثنا عَمِّي قال: حدثنا أبو بَكر بن عَفَّان قال: سمعتُ بشرَ بن الحارث يقول: بلغني أن بِنْتاً لفَتْحِ المَوصِلي عَرِيَت، فقيل له: ألا نَطلبُ من يَكسوها ؟ فقال: لا، دَعها حتى يَرى اللهُ عز وجل عُرْيَها وصَبري عليها. قال: فكان إذا كان ليالي الشتاء جَمع عيالَه وقالَ بكسائه عليهم، ثم قال: أفقرتَني وأفقرت عيالي، وجوَّعْتني وجوَّعتَ عيالي، وأعريتني وأعريتَ عيالي، بأي وسيلةٍ توسَّلتُها إليك ؟ وإنما تفعل هذا بأوليائك وأحبائك فهل أنا منهم حتى أَفْرَح ؟

وقد روينا عن امرأةِ فتحِ الموصلي أنها عَثَرت فانقطع ظُفرُ إبهامها، فضَحكت وقالت: أَنْساني حلاوةُ ثوابِه مَرارةَ وَجَعِه.

(١) العَقْوَةُ: الساحة والموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولهما.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب[١]، فلا قدرة للآدمي على هذا، وإن كان الفرح بوجودها كما قد ذكرته عن هؤلاء السادة، فذاك أبعد وأبعد، فكيف يَتهيأ الصبر ؟!

فالجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا ينهى عما لا يَدخل تحت الكَسب، وهو انزِعاج الباطن، إنما يُنهى عن المكتَسبِ، كشَقِّ الجيوب ولَطْمِ الخدود وقول اللسان، فأما من حكينا عنه أنه فَرِحَ بالمصائب فذاك فَرحٌ شَرعي لا طَبَعي، إذ الطبع لا بد له من كراهية المصائب، ومثال هذا مثال رجلٍ مَريض وُصفت له شَربةٌ فسَعى في طلب حوائجها وأنفقَ عليها مالاً، فلما تمت فَرِحَ بتمامها وتناولها لما يرجو بها من العافية، فأما طَبعه فما زالت عنه كراهة التَّناول أصلاً، ولو أن مَلِكاً قال لرجل فقيرٍ كلَّما ضَربتُكَ بهذا العود اللَّطيف ضَربةً أعطيتُكَ مئة ألف دينار، لأحبَّ كثرةَ الضَّربِ، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجو من عاقبته وإن أبكاه، فكذلك السلف تَلمَّحوا الثَّواب فهان عليهم البلاء.

فصل

وقد بان بما تقدم ذِكره أن وجوبَ الصَّبر عام في جميع الأحوال، فإن المعتزل عن الناس لا بدَّ له من الصبرِ على العُزلة وعن وَساوس الشَّيطان، فإن اختلاجَ الخواطر لا يُملَك ولا يَفتر، ومن الذي يَسلم من غفلةٍ توجب مَيلَ الفِكر إلى وجوهِ الاحتيال لقَضاء الشَّهوات ؟

بيانُ دواء الصَّبر وما يُستَعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشِّفاء، فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتَحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنهما تُركَّب الأَدوية لأمراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرضٍ إلى علم آخر وعملٍ آخر.

وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العِلل المانعة منها مختلفة، وإذا اختلفت

(١) في (ف): «الحزن بالمصائب».

العلل اختلف العلاج، إذ معنى العلاج مُضادَّة العلّة وقَمعها، ونَضرب لذلك مثالاً فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصَّبر عن شَهوة الوِقاع وقد غلبت عليه بحيث لا يَملِكُ معها فرجَه أو يملكه، ولا يملك عَينه أو يملكها، ولكن لا يملك قلبه[١] إذ لا يزال يُحدِّثُه بمقتضيات الشَّهوة ويَصرفه عن المواظبة على الذِّكر والفِكر، فنقول له: قد قدَّمنا أن الصبرَ عبارة عن مُصارعة باعثِ الدين مع باعث الهوى، وكل متصارعين أردنا [٢]أن يَغلب أحدهما الآخر، فلا طريق لنا فيه إلا تَقويةُ من أردنا[٢] أن تكون له اليد العليا وتَضْعيف الآخر، فَلزِمَنا ههنا تقويةُ باعثِ الدِّين وتَضعيف باعثِ الشَّهوة، فأما باعثُ الشَّهوة فَسبيلُ تَضعيفه ثلاثة أشياء:

أحدها: أن نَنظُر إلى مادَّة قوة هذه الشَّهوة فَنجدها الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها وكثرتها، وقطعها بالصَّوم الدائم، والاقتصار عند الإفطار على طعامٍ قليلٍ في نفسه ضعيفٍ في جنسه.

والثاني: قَطعُ أسبابه المُهيِّجةِ له في الحال، فإنه إنما يَهيجُ بالنَّظر، والنَّظر يُحركُ القَلبَ، والقلبُ يحرك الشَّهوة، ودواء هذا العُزلةُ والاحتِرازُ مِن مظانِّ وقوع البَصَر[٣] على الصُّوَر المُشْتَهاة، وقد قال النبي ﷺ: «النَّظرُ إلى مَحاسِنِ المرأةِ سَهمٌ مَسمومٌ من سِهام الشَّيطان».

فهذا السَّهمُ يُسدِّده إبليس، ولا تُرسَ يمنع منه إلا تَغميضُ الجَفن أو الهَرَبُ من صَوبِ رَميه، فإنه إنما يَرمي هذا السَّهمَ عن قوسِ الصُّوَر، فإذا انفتَلْتَ عن صَوْبِ الصُّوَر لم يُصِبكَ سَهمُه.

والثالث: تَسليةُ النَّفس بالمُباح من الجِنس الذي تَشتهيه، وذلك بالنكاح، فإنَّ كلَّ ما يَشتهيه الطَّبع ففي المباحات غُنيةٌ عن المحظور منه، وهذا هو العِلاج الأنفع في حَقِّ الأكثر، فإن قطعَ الغذاء يُضعف عن جميع الأعمال، ثم قد لا تُقمع الشهوة في حق الأكثرين، فالعلاج الأول، وهوقَطع الطعام، يُضاهي قطعَ العَلف عن البَهيمة

(١) سقطت من (ف).
(٢-٢) سقطت من (ف).
(٣) تحرفت في (ف) إلى: «الصبر».

الجَموح وعن الكَلبِ الضَّاري لتَضعف قُوته، والثاني: يُضاهي تَغْييبَ اللَّحم عن الكلبِ والشَّعيرِ عن البَهيمة حتى لا تتحركَ بواطنهما بسببِ مشاهدتهما، والثالثُ: يُضاهي تَسْليتها بشيءٍ قليلٍ مما يَميلُ طبعُها إليه حتى يَبقى معها من القُوة ما تَصبر على التَّأديب.

وأما تقويةُ باعثِ الدِّين فإنه يكون بطريقين:

أحدهما: إطماعُه في فَوائد المُجاهدة وثمراتها في الدِّين والدُّنيا، وذلك بإجالةِ الفِكرِ بالأحاديث التي تقدَّمت في فَضل الصَّبر وفي حسن عواقبه في الدُّنيا والآخرة حتى أن المُعافى يَتمنَّى في الآخرة أنْ لو كان مريضاً لما يَرى من ثواب أهل البَلاء، ومَن تَخايَلَ فَناءَ المجزي به وبَقاء الجزاء ثم تفكَّر في فَوْتِ الفَضائل سَهُلَ عليه التَّفريق.

أخبرنا يَحيى بن علي المُدير[1] قال: أخبرنا أبو الحُسين بن المُهتدي قال: أخبرنا عمر بن شاهين قال: حدَّثنا البَغَوي قال: حدثنا الفَضْل بن غانم قال: حدثنا عبد الرحمن بن مَغْراء عن الأعمش عن أبي الزُّبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يودُّ أهلُ العافية يومَ القِيامة أنَّ لحومهم قُرِضَتْ بالمقاريض مما يَرونَ من ثَواب الله لأهلِ البلاءِ».

والثاني: أن يُعوِّدَ هذا الباعثُ مصارعةَ باعثِ الهَوى تدريجاً قليلاً قليلاً حتى يُدرك لذَّة الظَّفر بها، فتقوى مُنَّتُه[2] في مُصارعتها، فإن الاعتياد لممارسةِ الأعمال الشاقة يُؤكِّد القُوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تَزيدُ قوةُ الفَلاَّحين والحَمَّالين والمُمارسين للأعمال الشاقَّة بخلاف العَطَّارين والخَياطين؛ لأن قواهم لم تَتأكد بالممارسة، فالعلاج الأول يُضاهي إطْماعَ المُصارع[3] في الخِلْعَة عند الغَلَبةِ ووَعدُه بأنواع الكَرامة، والثاني يُضاهي تَعويدَ الصَّبيِّ الذي تُراد منه المصارعة والمقابلة مُباشرةَ أسباب ذلك عند الصبي حتى يَأنس به وتَقوى مُنَّته، فمن تركَ

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: «المديني».
(٢) مُنَّته: قُوَّتُه.
(٣) سقطت من (ف).

بالكُلِّية المُجاهدة ضَعُفَ فيه باعثُ الدين ولا يَقْوَى على الشَّهوة وإن ضَعُفَت، ومَن عوَّد نفسَه مُخالفة الهَوى غَلبها متى أراد.

فهذا مِنهاج العِلاج في جميع أنواع الصَّبر، وأشدها كَفُّ الباطن عن حَديثِ النَّفس، وإنما يَشتدُّ على من تَفرَّغ واعتَزل، فإن الوساوس لا تَزال تُجاذِبه، ولا علاجَ لهذا إلا قطعُ العَلائِقِ وجَعلُ الهمومِ هَمّاً واحداً، وصرفُ الفِكر إلى مَلَكوتِ السماوات والأرض وعجائبِ صُنعِ الله عزَّ وجل وجميعِ أبوابِ معرفة الله، حتى إذا استَولى ذلك على قَلبه دفَع اشتغالُه بذلك مُجاذَبَة[1] الشَّيطان وَوسواسه، وإن لم يكن له سيرٌ بالباطن فلا يُنجيه إلا الأوراد المُتواصلة من القِراءة والأذكار والصَّلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحُضور، فإن الفِكر بالباطن هو الذي يَستغرق القلب دون الأَوراد الظاهرة.

وأما النوع الثاني وهو أشدّ ضرورة من الأول، وهو اشتِغاله بالمَطعَم والمَلْبَس وأسباب المَعاشِ، فإنّ تَهيئة ذلك أيضاً تُحوج إلى شُغلٍ، إن تَولاّه بنفسه وإن تولاّه غَيره فلا يخلو عن شَغلِ قلبِ من يَتولاّه، ولكن بعد قَطع العَلائق كلّها تسلم له أكثر أوقاته، والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يُمكن أن تُنال بالاكتساب والجهد، فأما مَقاديرُ ما يَنكشف ومَبالغ ما يَرِدُ من لُطفِ الله تعالىٰ في الأحوال والأعمال، فذلك يَجري مَجرى الصَّيد، وهو بحسب الرِّزق، فقد يَقلُّ الجهد ويَجِلُّ الصَّيد، وقد يَطول الجهد ويقلُّ الصَّيد، والمُعوَّل وراء هذا الاجتهاد على جَذْبةٍ من جَذبات الرَّحمن عزَّ وجل، فإنها تُوازي أعمال الثَّقَلين، وليس ذلك باختيارِ العبد، بَل اختيارُه في أن يتعرَّض لتلك الجَذْبة، بأن يقطع عن قَلبه جَواذِبَ الدُّنيا، فإن المجذوب إلى أَسفل السافلين لا يُجذَب إلى أعلى عِلِّيين، وكل منهومٍ بالدنيا فهو مُنجذبٌ إليها، فقَطعُ العلائق الجاذِبة هو المُراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ لِرَبِّكم في أيام دَهرِكُم نَفَحات، ألا فَتَعَرَّضُوا لها». والذي علينا تَفريغ المحلِّ والانتظار لنزول الرَّحمة، كالذي يُصلح الأرض ويُنَقيها من الحشيش، ويَبُث[2] البذرَ

(١) تصحفت في الأصل إلى: «محادثة».
(٢) تصحفت في (ف) إلى: «نبت».

فيها، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطَرٍ، ولا يدري متى يُقدِّر اللهُ أسبابَ المطر، إلا أنه يَثِقُ بفضل الله أنه لا تخلو سَنة عن مَطر، وكذلك قَلَّما تخلو سنةٌ وشَهر ويومٌ عن جَذْبةٍ من الجَذبات ونَفحةٍ من النَّفحات، فينبغي أن يكون العَبدُ قد طَهَّرَ القلبَ من حَشيشِ الشَّهوات، وبذرَ فيه بذرَ الإرادة والإخلاص، وعَرَّضه لمهبَّاتِ[1] ريح الرَّحمة وكما يقوى انتِظار الأَمطار في أوقاتِ الرَّبيع وعند ظهور الغَيث، يَقوى انتظار تلك النَّفحات في الأَوقات الشَّريفةِ وعند اجتماع الهِمَم وتَساعد القلوب، كيوم عَرَفة والجمعة وأيام رَمضان، فإنّ الهِمم والأَنفاسَ أسبابٌ بحكم تَقدير اللهِ تعالىٰ لاستِدرار رَحمته حتى تُستَدرَّ بها الأمطارُ في أوقاتِ الاستسقاء، وهي لاستِدرارِ أمطار المكاشفة ولَطائف المعارف من خَزائن المَلكوت أشدّ مناسبةً منها لاستِدرار قَطراتِ الماء واستجرار الغُيوم من أقطار الجِبال والبحار، بل الأحوال والمُكاشَفات حاضرةٌ معك في قَلبك، وإنما أنت مشغولٌ عنها بعلائِقك وشَهَواتك فصار ذلك حجاباً بينكَ وبينها، فلا تَحتاجُ إلاّ إلى أن تَفتَح الشَقَّ وتَرفعَ الحجاب فتُشرق أنوار المعارف من باطن القَلب، ومَعلومٌ أن إظهار ماء الأرضِ بِحَفرِ القُنِيِّ أسهلُ وأقربُ من استِنْزال الماء إليها من مكانٍ بعيدٍ منخفضٍ عنها، ولكونه حاضراً في القلب ومَنسيّاً بالشغل عنه سَمَّى الله تعالىٰ جميعَ معارف الإيمان تذكراً فقال: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فهذا علاجُ الصَّبر عن الوَساوس، وهو آخر دَرجات الصَّبر، وإنما الصَّبر عن العلائِق كلّها مقدَّمٌ على الصَّبر عن الخَواطر.

قال الجُنَيد: المَسير من الدُّنيا إلى الآخرة سَهلٌ على المؤمن، وهجران الخَلقِ في حُبِّ الحَقِّ شَديد، والمَسير من النَّفس إلى الله صَعبٌ شديد، والصبر مع الله أشد. فذكرَ شدَّةَ الصَّبرِ عن شَواغِل القلب، ثم شِدَّةَ هجران الخَلق.

وأشدّ العلائق على النفس عُلقَة الخلق[2] وحُبِّ الجاه، فإن لذَّة الرياسة والغَلبة والاستِعلاء والاستِتْباع أغلب اللَّذات في الدنيا على نُفوس العقلاء، وكيف لا تكون أعلى اللَّذات ومطلوبها صفةٌ من صفات اللهِ عزَّ وجل؟ والرُّبوبية مطلوبة ومحبوبة

(١) تحرفت في الأصل إلى: «لمهمات».
(٢) في (ف): «النفس».

بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة للأمور الرُّبوبية، وليس القلب مذموماً على ذلك، وكيف يُذم وهو يَطلب بقاءً لا فَناء فيه، وعِزّاً لا ذُلَّ معه، وأمناً لا خوفَ فيه، وغنىً لا فَقر فيه، وكمالاً لا نُقصان فيه ؟ وهذه أوصافُ الرُّبوبية، وإنما يذم على غَلطٍ وقع له، وهو أن يطلب ذلك في غير محله، وإنما جاءتِ الرسلُ لدُعاء الخَلق إلى المُلكِ الدائم في الدُّنيا لعلمه أنها لا تدوم ولا تَصفو، وأن ملكَ الآخرة يَفوتُ بطَلب الدُّنيا، إذ الدنيا والآخرة ضَرَّتان، ولما كان الزُّهدُ في الدنيا مُلكاً حاضراً حَسَد الشيطانُ المؤمنَ عليه فصدَّه عنه، ومعنى الزُّهد أن يَملكَ العبدُ شهوتَه وغَضبَه، فينقادان لباعث الدين، وإشارة الإيمان، وهذا الملك حقاً؛ لأن صاحبه يَصير حُرّاً، وباستيلاء الشهوة عليه يَصير عبداً لبطنه وفَرجِه وسائر أغراضه، فيكون مُسخَّراً مثل البَهيمة مملوكاً[١] يقودُه زِمام الشَّهوة إلى حيث يَشاء، فما أجهل من ظنَّ أن يَنال الملك بأن يَصير مملوكاً ويَنال الرُّبوبية بأن يَصير عبداً.

وقد روينا أن بعضَ الملوك قال لبعض الزُّهَّاد: لم لا تَزورُني وأنتَ عَبْدي ؟ قال: بل أنتَ عَبدُ عَبدي. قال: وكيفَ ؟ قال: لأنكَ عبدُ الهوى، والهوى عَبدي، فهذا هو الملك في الدنيا وهو الذي يَسوقُ إلى المُلكِ في الآخرة، فالمنخدعون بغُرور الشَّيطان خَسروا الدنيا والآخرة جميعاً، والمُوَفَّقونَ لسلوك الصِّراط المستقيم فازوا بمُلْكِ الدّارين.

فإذا قد عرفتَ الآن معنى المُلك، وهو معنى العُبودية، ومدخلَ الغَلطِ في ذلك وتَلبيس الشيطان فيه سَهُل عليك النُّزوعُ عن المُلك والجاه، والصَّبر عند فواته، إذ يَصير تركه مُلكاً في الحال وتَرجو به مُلكاً في الآخرة، ومَنْ كُوشِفَ بهذه الأمور بعدَ أن أَلِفَ الجاهَ وأَنِس به، لم يكفِه في العلاج مُجرّد العلم والكشف، بل لا بدَّ أن يُضيف إليه العمل، وعملُه في ثلاثَة أمور:

أحدها: أن يَهرب عن مَوضع الجاه كي لا يُشاهد أسبابه، فيعسر عليه الصبر مع الأسباب، كما يهربُ من غَلبَتْهُ الشَّهوة عن مُشاهدة الصُّور المحرِّكة.

(١) سقطت من الأصل.

الثاني: أن يُكلّفَ نَفسه في أعماله أفعالاً تُخالف ما اعتادَه، فَيُبَدل التَّكلُّفَ بالتَّبذُّل[١]، وزِيَّ الحِشْمَةِ بزيِّ التَّواضع، وكذلك كلّ هَيئةٍ وحالٍ وفعلٍ في مَسكن وملبسٍ ومطعمٍ إذ لا مَعنى للمعالجة إلا المُضادَّة.

الثالث: أن يُراعي في ذلك التَّلَطُّف والتَّدريج، فلا يَنتقل دفعةً واحدة إلى الطرف الأَقصى من التَّبذُّل، فإن الطَّبع نَفورٌ، ولا يمكن نقله من أخلاقه إلا بالتَّدريج، فيتركُ البَعضَ ويُسلّي بالبَعض، فإذا قَنِعت نفسُه بذلك البَعض ابتدأ بتَركِ البَعضِ من ذلك البعض، ثم يتدرَّج إلى أن يقمع تلك الصِّفات التي رسخَت فيه، وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ هذا الدين مَتين، فأوغِلْ فيه برِفق، ولا تُبَغِّضْ إلى نفسكَ عبادةَ الله، فإن المُنْبَتَّ لا أرضاً قَطَعَ ولا ظَهراً أبقى».

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعْين قال: حدثني الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا عبد السلام بن مُطَهِّر قال: حدثنا عُمر بن علي عن ابن محمد الغفاري عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري عن أبي هُرَيرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ الدينَ يُسرٌ، ولَن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلَبه، فسدِّدوا وقاربوا، وأبْشِروا واستَعينوا بالغَدْوةِ والرَّوحَة وشَيءٍ من الدُّلْجَة».

فهذا الذي ذكرناه في علاج الصبر عن الوَسْواس وعن الشَّهوة وعن الجاه أَضِفه إلى ما قَد ذكرناه من قَوانين طُرُقِ المجاهدة في كتاب الرِّياضة من رُبع المهلكات، واتَّخِذهُ دستورَكَ لتعرف به صَلاح الصَّبر في جَميع الأَقسام التي فَصَّلناها من قبل، فإنَّ تَفصيل الآحاد يَطول، ومَن راعَى التَّدريج يَرقى به الصَّبرُ إلى حالةٍ لا يشق عليه الصبر دونه كما كان يَشقُّ عليه الصبر معه، فتَنعكِسُ أموره فيصير ما كان مَحبوباً عنده مَمقوتاً، وما كان مكروهاً عنده هنيئاً لا يَصبر عَنه، وهذا لا يُعرفُ إلا بالتَّجربةِ والذَّوق، ولهذا الذي ذكرناه نَظيرٌ في العادات؛ فإنّ الصبي يُحمَل على التَّعليم في الابتداء قَهراً فَيشقُّ عليه الصبر عن اللَّعِب والصَّبر على العلم، حتى إذا انفَتحت

(١) التَّبذُّل: ترك التَّصوُّن والاحتراز.

بَصيرته وأَنِس بالعِلم انقلبَ الأمرُ فَصارَ يَشقُّ عليه الصَّبر عن العلم والصبر على اللعب، وقد روينا عن بعض السَّلفِ أنه قال: دافَعْتُ الشَّهوات حتى صارَت شَهوَتي المُدافَعة.

هذا آخر ما أَردنا شَرحَه من عُلوم الصَّبر وأسرارِه.

* * *

الشطر الثاني من الكتاب

في الشُّكْر

وله ثلاثة أركان:

الركن الأول: في فَضيلة الشُّكر وحقيقتهِ وأَقسامه وأحكامه.

الركن الثاني: في حَقيقة النِّعمة وأقسامها الخاصّة والعامّة.

الركن الثالث: في بيان الأَفضل من الصَّبر والشُّكر

الركن الأول: في نفس الشكر

بيانُ فَضيلة الشُّكر

اعلم أن الله عزَّ وجلَّ قرنَ الشكر بالذكر فقال تعالىٰ: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ [البقرة: ١٥٢] وقال: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ [النساء: ١٤٣]، وقال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥] وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقطع بالمزيد مع الشُّكر فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، مع كونه وقف أشياء كثيرة على المَشيئة منها الإغناء، قال تعالىٰ: ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء﴾ [التوبة: ٢٨]، والإجابة: ﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾ [الأنعام: ٤١]، والرِّزق: ﴿ويرزق من يشاء﴾ [آل عمران: ٣٧] والمغفرة: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ [النساء: ٤٨]، والتَّوبة: ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ [التوبة: ١٥]، وقد سمَّى الله عزَّ وجل نفسَه الشَّكور، ولما عرف إبْليسُ قدرَ الشُّكر قال في الطَّعن على بني آدم: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وأما الأخبار؛ فقد روت عائشةُ أن رسول الله ﷺ كان إذا صلَّى قام حتى تَتَفطَّر رِجلاه فقالت: أَتصنعُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذَنبك وما تأخر؟ قال: «أَفلا أكونُ عَبداً شَكوراً».

روى ابنُ عباس عن النبي ﷺ قال: «أربعٌ من أعطيهنَّ فَقد أُعطي خَير الدُّنيا والآخرة: قَلْبٌ شاكرٌ، ولسانٌ ذاكِرٌ، وبَدَنٌ على البَلاءِ صَابِرٌ، وزوجة لا تَبغيه خَوْناً في نفسها ولا ماله».

وقال مُعاذ بن جَبل: قال لي النبي ﷺ: «إني أُحبك، فَقُل: اللهمَّ أَعِنّي على ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبادَتِكَ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، وأبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩)، وابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠) و(٢٠٢١).

أنبأنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا علي بن الحُسين بن أيوب قال: أخبرنا أبو علي بن شاذان قال: حدثنا أبو بكر النَّجاد قال: حدَّثنا عبدُ الله بن محمد القُرشي قال: حدثني الحسن بن الصَّبّاح قال: حدَّثني محمد بن سُلَيمان قال: أخبرنا هشام بن زياد عن أبي الزِّناد عن القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ما أنعمَ اللهُ عزَّ وجل على عَبدٍ نِعْمَةً، فعلم أنها من عند الله عزَّ وجل إلا كتبَ اللهُ عزَّ وجلَّ له شُكرها، وما علم الله عزَّ وجل من عبدٍ ندامةً على ذنبٍ إلا غفر له قبل أن يَستغفره، وإن الرجلَ لَيشتري الثَّوبَ بالدِّينار فَيلبَسه، فيَحمد الله عز وجل، فما يَبلغ رُكبتيه حتى يُغفَر له»[1].

بيانُ الشُّكر وحَقيقته

اعلم أن الشُّكر من جُملة مَقامات السَّالكين، وهو أيضاً ينتظم من علمٍ وحالٍ وعَملٍ.

فالعلم، هو الأصل، فيورث الحال، والحال يورث العَمل.

أما العلم؛ فهو معرفة النِّعْمة من المنعِم، والحال؛ هو الفَرح الحاصلُ بإنعامه، والعمل؛ هو القيام بما هو مقصود المُنْعِم ومحبوبُه، ويتعلق ذلك بالعمل بالقلب وبالجوارح وباللسان، ولا بد من بَيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطةُ بحقيقة الشُّكر، فإنّ كل ما قيل في حَدِّ الشُّكر قاصرٌ عن الإحاطة بكمال معانيه.

فالأصل الأول العلم؛ وهو علم بثلاثة أمور: بعَينِ النِّعْمة ووجه كونها نِعْمة في حقِّه، وبذات المُنعمِ ووجود صفاته التي بها يَتم الإنعام، وبصُدور الإنعام منه عليه، فإنه لا بد من نِعْمَةٍ ومُنعِمٍ ومُنْعَمٍ عليه تصل إليه النِّعمة من المنعِمِ بقصدٍ وإرادةٍ، فهذه الأمور لا بد من معرفتها، هذا في حق غير الله، فأما حق الله، فلا يتم إلا بأن يَعرف أن النِّعم كلّها من الله وهو المنعم، والوسائط مُسَخَّرون من جِهته.

وهذه المعرفةُ وراء التَّقديس والتَّوحيد إذْ قَدْ دخَل التَّقديس والتَّوحيد فيها، بل

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ٢٠.

الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس، ثم إذا عرف ذاتاً مقدَّمة عرف أنه لا مُقدَّسَ إلا واحدٌ وما عَداه غير مُقَدَّس، وهو التَّوحيد، ثم يعلم أن كلَّ ما في العالم فهو موجودٌ من ذلك الواحد فقط، فالكلّ نِعمةٌ منه، فَتَقَعُ هذه المعرفة في الرُّتبة الثالثة، إذ ينطوي فيها مع التَّقديس والتَّوحيد كمالُ القُدرة والانفرادُ بالفِعل.

وتمامُ هذه المعرفة نَفيُ الشِّركِ في الأفعال، ولا تَرى النِّعمةَ إلا من المُنعِم وَحدَه، ولا تَرى الوكيلَ والخازنَ؛ لأنَّهما مُضطرّان إلى امتِثالِ أمرِ المَلِك، كما أنه لا تَرى الكاغَدَ[١] الذي وقَّعَ عليه المَلِك ولا القَلم، فكلُّ مَن وَصلتْ إليكَ نعمةٌ على يده فهو مُضطر إلى إعطائك؛ لأن الله تعالىٰ سلَّط عليه الإرادة، وهيّجَ عليه الدَّواعي، وألقى في قَلبه غَرَضاً، وأوقعَ له أنَّ غرضَه لا يتم إلا بإعطائك، فهو إذن يُعطيك لغَرضِه لا لغَرضِكَ، فلو لم يكن غَرضُه في العَطاء لما أَعطاك، ولو لم يعلم أن مَنفعته في منفعتك ما نَفعكَ، فهو إذن يَطلبُ نفعَ نفسِه بنفعِكَ، فليس مُنعِماً عليك، إنما اتخذكَ وسيلةً إلى نعمةٍ أُخرى يرجوها، وإنما الذي أَنعمَ عليك هو الذي سَخَّره لكَ، وأَلقى في قلبه من الاعتقاد والإرادة ما صارَ بهِ مضطراً إلى الإيصال إليك.

فإن عرفتَ الأمور كذلك فقد عرفتَ الله، وعرفتَ فعله، وكنت موحِّداً، وقدرتَ على شُكره، بل كنت بمجرّد هذه المعرفة شاكراً، ولهذا قال موسى عليه السلام: إلهي، خلقتَ آدمَ بيدك، وفَعلتَ ما فعلتَ، فكيفَ شَكرُكَ؟ فقال عزَّ من قائلٍ: عَلمَ أن ذلك منّي، فكانت معرفته شُكراً. فإذن لا تَشكُر إلا بأن تَعرف أن الكلَّ منه، فإن خالجكَ رَيبٌ في هذا لم تَكُن عارفاً بالنِّعمة ولا بالمُنعِم، ولا تَفرح بالمنعِم وَحده بل بغيره، فبنقصان معرفتكَ يَنقص حالك في الفَرح، وبنقصان فرحك ينقص عَملك، فهذا بيان هذا الأصل.

الأصل الثاني: الحال المُستَثمَرةُ من أصل المعرفة، وهو الفرح بالمُنعِم مع هَيئةِ الخُضوع والتَّواضع هو أيضاً في نَفسه شُكر على تجرُّده، كما أن المعرفةَ شُكر،

---

(١) الكاغَد: القِرطاس، وهو الصحيفة يُكتب فيها.

ولكن إنما يكون شكراً إذا كان جامعاً لشروطه، وشَرْطُه أن يكون فَرحك بالمُنْعِم لا بالنِّعمةِ ولا بالإنعام، ولعل هذا مما يتعذَّر عليكَ فهمه، فنضربُ لك مثالاً، فنقول: إذا أراد الملك الخروج إلى سفرٍ فأنعم بفرسٍ على إنسان، تُصُوِّرَ أن يَفرح المنعَمُ عليه بالفَرس من ثلاثةِ أَوْجُه:

أحدها: أن يَفرح بالفَرس من حيث أنه فَرسٌ، وأنه مالٌ يُنتفع به، ومركوبٌ يُوافق غَرضَه، وأنه جوادٌ نَفيس، وهذا فَرَحُ من لا حَظَّ له في المَلِك، بل غَرضُه الفَرَس فقط، ولو وجده في الصَّحراء فأخذه، لكان فرحه مثل ذلك.

الوجه الثاني: أن يفرحَ به لا من حيث أنه فرسٌ، بل من حيث يَستدلُّ به على عنايةِ المَلِكِ به واهتمامه لجانبه، حتى لو أَعطاه ذلك غير الملك أو وجده في صَحراء لكانَ لا يفرح به أصلاً لاستغنائه عن الفَرس، أو لاحتقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نَيْلِ المحلِّ في قلبِ المَلكِ.

الوجه الثالث: أن يَفرح به ليركبه فيخرج في خِدمة المَلك ويَحتمل مشقَّة السَّفر لينالَ بخدمَتِه رُتبةَ القُرب منه، ويرتقي إلى دَرجة الوَزارة من حيث أنه ليس يقنع بأن يكون محلّه في قَلب المَلِك أن يعطيه فَرساً ويعتني به هذا القدر من العناية، بل هو طالبٌ لأن لا يُنعِمَ الملكُ بشيءٍ من مالهِ على أحدٍ إلا بواسِطَته، ثم إنه ليس يُريدُ من الوزارةِ الوزارةَ أيضاً، بل مُشاهدةَ الملك والقُربَ منه، حتى لو خُيِّر بين القُربِ دون الوَزارةِ وبينَ الوزارةِ دون القُربِ لاختارَ القُربَ، فهذه ثلاثُ دَرجات.

فالأُولى: لا يَدخل فيها معنى الشكر أصلاً؛ لأن نَظر صاحبها مقصورٌ على الفَرَس، فَفَرحه بالفَرس لا بالمُعْطي، وهذا حال كلّ من فَرح بنعمةٍ من حيث إنها لَذيذةٌ ومُوافِقَةٌ لغَرضه، فهو بعيدٌ عن مَعنى الشُّكر.

والثانية: داخل فيها معنى الشكر من حيث إنه فَرح بالمُنعِم عليه، ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تَستَحثُّهُ على الإنعام في المُستقبل، وهذا حال الصّالحين الذين يَعبدون الله ويشكرونه خَوفاً من عقابه ورجاءً لثوابه.

وإنما الشُّكر التامُّ في الفرح.

الثالث: وهو أن يكون فَرحُ العبدِ بنعمةِ الله من حيث إنه يقدر بها على التَّوصلِ إلى القُرب منه والنزول في جِواره، والنَّظر في وجهه على الدَّوام، فهذا هو الرُّتبة العُليا، وأَمارَتُه أَنْ لا يَفرح من الدُّنيا إلا بما هو مَزرعةٌ للآخرة ومُعينةٌ عليها، ويَحزنُ بكلِّ نعمةٍ تُلهيه عن ذكرِ الله وتَصدُّه عن سبيله؛ لأنه ليس يُريد النِّعمةَ لأنها لذيذةٌ كما لم يُرِد صاحب الفَرس الفَرسَ لأنَّه جوادٌ ومُهَمْلِجٌ[١] بل من حيثُ إنه يحملُ في صُحبةِ المَلِك حتى تَدومَ مُشاهدتُه له وقُربُه منه، ولذلك قال الشِّبْلي[٢]: الشُّكر رُؤية المُنعِمِ لا رؤية النِّعمَة. وقال الخَوّاص[٣]: شُكرُ العامَّة على المَطعَمِ والمَلبَس، وشُكر الخاصَّة على واردات القُلوب، وهذه رُتبة لا يُدرِكها مَن قد انحَصَرت عنده اللَّذات في البَطن والفَرْجِ ومُدرَكات الحواس عن لذَّة القَلب، فإن القَلب لا يَلْتذُّ في حال الصّحة إلا بذكر الله ومعرفته ولقائه، وإنما يلتذ بغَيره إذا مرضَ بسوءِ العادات، كما يَلتذُّ بعض الناس بأكل الطِّين، وكما يَستَبشِعُ بعضُ المرضى الأشياء الحلوة ويَستحلي الأَشياء المُرّة كما قيل:

وَمَــنْ يَــكُ ذا فَــمٍ مُــرٍّ مَــريــضٍ ... يَــجِــدْ مُــرّاً بِــه الــمــاءَ الــزُّلالا

فإذن هذا شَرطُ الفَرح بنعمة الله تعالىٰ، فإن لم تَكُن إبلٌ فمِعْزى، فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية، أما الأولى فخارجَة عن كلِّ حساب، فكم من فَرقٍ بين من يُريد المَلِكَ للفَرَس وبَين من يُريد الفَرَس للمَلِك، فكذلك كم من فَرقٍ بين من يُريد الله ليُنعِمَ عليه، وبَين من يُريد نِعمة الله ليَصل بها إليه.

الأصل الثالث: العَملُ بموجِب الفَرَح، أما بالقَلب؛ فقصدُ الخَير وإضمارُه للخلق كافّة وأما باللِّسان؛ فإظهار الشُّكر لله بالتَّحميدات الدالَّة عليه، وأما الجَوارح؛

---

(١) المُهَملِجُ من الدواب: الحَسَن السَّير في سُرعَةٍ وبَخْتَرة.

(٢) هو أبو بكر الشبلي، وقد اختُلف في اسمه فقيل: دُلَف بن جعفر، وقيل: دلف بن جَحدَر، وقيل: جعفر بن يونس، كان من أئمة مشايخ الصوفية، أصله من قريةٍ يقال لها: شِبْلِيَّة من بلاد خراسان، وولد بسامرّاء، وتوفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ. سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٧، البداية والنهاية ١٥/ ١٧٥.

(٣) هو إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الصوفي الواعظ، كان من أقران الجنيد، توفي سنة (٣٠)هـ. سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٨٧، البداية والنهاية ١٤/ ٧٨٢.

فاستعمال نِعَم الله في طاعته والتَّوقِّي من الاستعانة بها على مَعصيته، حتى إن من شُكرِ العَينَين أن تَسْتُر كل عيبٍ تراه لمسلمٍ، ومن شُكرِ الأُذُنين أن تَستُر كل عَيبٍ تَسمعه، فهذا يدخل في جُملة شُكر نِعْمةِ هذه الأَعضاء، والشكر باللِّسان إظهارُ الرِّضا عن الله، وهو مأمور به.

وقد روينا أن النبي ﷺ دخل على العَبّاس، فقال: «كيفَ أصبحتُم» قال: بخير نحمدُ الله، فكيف أصبحتَ يا رسول الله؟ فقال: «أصبحتُ بخيرٍ أحمدُ الله».

وأن النبي ﷺ مرَّ برجلٍ فَسلَّم عليه وقال: «كيف أصبحتَ»؟ قال: أحمدُ الله إليك ثم عادَ عليه مرةً أُخرى فقال: «كيف أنت؟» قال: أحمدُ الله إليك. ثم أتاه مرةً أخرى، فسأله فقال الرجُلُ: ما أبقاكَ اللهُ فهو بخيرٍ. فمضى رسول الله ﷺ ولم يقف ولم يُسائِله، وقال: «كنتُ أُسائِلُه ليَحمد الله عزَّ وجل».

وأن رَجلين من الأَنصار التَقيا، فقال أحدُهما لصاحبه: كيف أصبحتم؟ فقال: نحمدُ الله عز وجل. فقال النبيُّ ﷺ: «قولوا هكذا».

وقال النبي ﷺ: «التَّحدُّث بالنِّعمِ شُكرٌ، وتركُها كُفر».

وروينا أن رجلاً سلَّم على عمر بن الخطاب فردَّ عليه، ثم قال له عُمر: كيف أنتَ؟ قال: أحمدُ الله. فقال عمر: ذاكَ الذي أردتُ.

وقد كان السَّلف يتساءلون ومُرادهم استخراج الشُّكر لله، فيكون الشاكر مُطيعاً، والمُستَنطِق له مُطيعاً.

وقال أبو عبد الرحمن الحُبُلِّي: إن الرجلَ إذا سلَّم على الرجل وسأله: كيف أصبحت؟ فقال له الآخر: أحمدُ الله إليكَ قال: يقول الملَكُ الذي عن يَساره للذي عن يَمينه: كيف تَكتبُه؟ قال: أكتُبه من الحَمّادين. وكان أبو عبد الرحمن إذا سُئل: كيف أصبحت؟ يقول: أحمد الله إليكَ وإلى جميع خَلقه.

واعلم أن كل عبدٍ سُئل عن حالٍ فهو بين أن يَشكر أو يَشكو، فالشُّكر طاعة، والشَّكوى مَعصية قبيحة من أهل الدّين، وكيف لا تَقبُح شَكوى مملوكٍ من ملكِ المُلوك؟! والأَحرى بالعبد إن لم يُحسن الصَّبر على البلاء وأَفضى به الضَّعْفُ إلى

الشَّكوى أن تكون شَكواه إلى الله تعالىٰ، فهو المُبْلي، وهو القادر على إزالة البَلاء، والشَّكوى ذُلٌّ، وذلُّ العبدِ لمولاه عِزٌّ وإظهار الذُّلِّ للعَبيد مع كونهم أذلاَّء قُبْح، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

والشُّكر باللِّسان من جُملة الشُّكر، أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا علي بن أيوب قال: أخبرنا أبو علي بن شَاذان قال: حدثنا أبو بكر النَّجاد قال: حدثنا عبد الله بن محمد القُرَشي قال: حدثنا الحسن بن الصَّباح قال: حدثنا عُمر بن يونس قال: حدثنا عيسى بن عَون عن حَفص بن الفرافِصة عن عبد الملك بن زُرارة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم اللهُ عزَّ وجل على عبدٍ نعمةً في أهلٍ أو مالٍ أو ولدٍ، فيقول: ما شاء اللهُ، لا قوَّةَ إلا بالله، فيرى فيه آفةً دون المَوت»[(١)].

قال القرشي: وحدثني عمر بن أبي الحارث قال: حدثنا سَلم بن قادم قال: حدثنا هشام ابن عيسى الحمصي قال: حدثنا الحارث بن مسلم عن الزُّهري عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ، إذا نَظَر وَجهَهُ في المرآةِ قال: «الحمدُ لله الذي سَوَّى خَلْقي فعَدله وكرَّم صورةَ وَجْهي وحَسَّنها، وجَعلني من المُسلمين»[(٢)].

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَن لبس ثوباً فقال حينَ يَبلغ تَرقُوَته[(٣)]: الحمدُ لله الذي كَساني ما أُواري به عَوْرتي، وأتجمَّلُ به في حَياتي، ثم عمد إلى ثوبه الخَلَق[(٤)] فكساه مِسكيناً، لم يزل في جِوار الله وفي ذِمَّة الله وفي كَنَف الله عزَّ وجل حيّاً ومَيتاً، حيّاً وميتاً، حيّاً وميتاً، ما بقيَ من الثوب شِلْوٌ»[(٥)].

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ١٠.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ٣٨.
(٣) الترقوة: العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق، وهما تَرقُوتان.
(٤) الخَلَق: البالي.
(٥) في النسخ: «سلك» والمثبت من كتاب الشكر لابن أبي الدنيا: ٢٦، والشِّلْو: القطعة.

وكان رسولُ الله ﷺ إذا شربَ الماء قال: «الحمدُ لله الذي جَعلَه عَذْباً فُراتاً برحمتِه، ولم يجعله مِلْحاً أُجاجاً بذنوبِنا»[١].

وقال موسى عليه السلام: يا ربّ، ما الشُّكر الذي يَنبغي لك؟ قال: أن لا يَزال لسانُك رَطباً من ذِكري[٢].

وكان نُوح عليه السلام إذا أكلَ قال: الحمدُ لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمدُ لله، فسمّاه الله عز وجل عَبداً شَكوراً[٣].

وقد روينا أن وفداً قَدِموا على عُمر بن عبد العزيز فقام شاب ليتكلم، فقال عمر: الكُبْر الكُبْر[٤]. فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر بالسِّنِّ لكان في المسلمين مَن هو أَسنّ منك. فقال: تكلم. فقال: لسنا وَفدَ الرَّغبة، ولا وفد الرهبة، أما الرَّغبةُ فقد أوصَلها إلينا فَضلُك، وأما الرَّهْبة فقد آمَنَنا منها عَدْلُك، وإنما نحنُ وَفد الشُّكر، جئناكَ نَشكُرك باللِّسان ونَنْصِرف. فهذه هي أُصول معاني الشكر المُحيطة بمجموع حَقيقته.

فأما قول من قال: إنَّ الشُّكر هو الاعتراف بنعمة المنعِم على وَجه الخُضوع. فهو نظرٌ إلى فِعْل اللِّسان مع بعض أحوال القلب، وقول من قال: إن الشُّكر هو الثناء على المُحسِن بذكر إحسانه، نَظرٌ إلى مجرد عمل اللِّسان، وقَول القائل: إنّ الشُّكر هو اعتكافٌ على بِساط الشُّهود بإدامةِ حفظِ الحُرمةِ جامعٌ لأكثر مَعاني الشُّكر لا يَشذُّ منه إلا عمل اللِّسان. وقَول حَمدون القَصّار: شكرُ النِّعْمة أن تَرى نفسك فيه طُفيلياً. إشارة إلى مَعنى المعرفة من معاني الشُّكر فقط. وقَول الجُنَيد: الشُّكر أن لا تَرى نفسك أهلاً للنِّعمة. إشارة إلى حالٍ من أحوال القَلب على الخُصوص، وهؤلاء أقوالُهم تُعربُ عن أحوالهم، ولذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق، ثم قد يختلف جوابُ واحدٍ في حالتين؛ لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة

---

(١) أخرجه ابن أبي الدينا في الشكر: ٢٥.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ١٨.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر: ٦١.
(٤) الكُبْر الكُبر: أي قَدّموا للتكلم الأكبر فالأكبر.

عليهم اشتغالاً بما يهمّهم عما لا يهمّهم، أو يتكلمون بما يرونه لائقاً بحالِ السائل اقتصاراً على ذِكر القَدرِ الذي يحتاج إليه، وإعراضاً عمّا لا يحتاج إليه.

بَيان طريق كَشف الغِطا عن الشُّكر في حَقِّ الله عزَّ وجلَّ

لعله يخطر ببالك أن الشُّكر إنما يُعقَل في حقِّ منعمٍ هو صاحب حَظٍّ في الشُّكر، فإنا نَشكر الملوكَ إما بالثَّناء ليزيد محلهم في القُلوبِ ويَظهر كرمهم عند الناس، فيزيد به صيتُهم وَجاهُهم، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بَعض أغراضهم، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخَدم، وذلك تكثيرٌ لسَوادِهم وسَببٌ لزيادة جاهِهم، فلا نكون شاكرين لهم إلا بشيءٍ من ذلك، وهذا محالٌ في حقِّ الله تعالىٰ من وَجهين:

أحدهما: أن الله عزَّ وجلَّ مُنزَّهٌ عن الحُظوظ والأَغراض، مُقدَّسٌ عن الحاجة إلى الخِدمة والإعانة، وعن نَشر الجاه والحِشمة بالثَّناء والإِطراء، وعن تَكثير سوادِ الخَدم بالمُثول بين يَديه راكعاً أو ساجداً، فشكرنا إياه بما لا حَظَّ له فيه يُضاهي شكرنا المَلِكَ المُنعم علينا بأن نَنام في بُيوتنا أو نَسجد أو نركع، إذ لا حَظَّ للملكِ فيه، ولا حَظَّ لله تعالىٰ في أفعالنا كلّها.

والوَجه الثاني: أنّ جميع ما نتعاطاه باختيارنا، فهو نعمةٌ أُخرى من نعم الله تعالىٰ، إذ جَوارحنا وقُدرتنا وإرادتنا وداعيتنا من خَلق الله تعالىٰ ونعمته، فكيف نَشكرُ نعمته بنعمته، ولو أعطانا المَلكُ مركوباً فَأخذنا مركوباً آخر له فركبناه، أو أعطانا مركوباً آخر لم يكن الثاني شُكراً للأول منّا، بل كان الثاني يَحتاج إلى شُكرٍ كما يَحتاج الأول، ثم لا يمكن شكر الشُّكر إلا بنعمةٍ أخرىٰ، فيؤدي إلىٰ أن يكون الشُّكر مُحالاً في حقِّ الله تعالىٰ من هذين الوَجهَين، ولسنا نشكُّ في الأمرين جميعاً، والشرع قد ورد به، فكيف السبيل إلى الجمع؟

فاعلم أنَّ هذا الخاطر قد خَطر لداود عليه السلام، فقال: يا رب كيفَ أشكرُكَ وشُكري لكَ نعمةٌ أُخرىٰ منك تُوجبُ عليَّ الشُّكر لكَ؟ فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: إذا عرفتَ هذا فقد شَكرتَني.

فإن قيل: كيف تكون مَعرفةُ استحالةِ الشّكر شكراً فإن هذا العلم[(١)] أيضاً نِعمةٌ، فكيف صارت شكراً، وكأن الحاصل يرجع إلى أنَّ من لم يَشكُر فقد شَكَر، وأن قبول الخِلْعَة الثانية من المَلِك شكر للخِلعَةِ الأولىٰ ؟

فالجواب: أن من نظر بعين التَّوحيد المَحضِ عرفَ أنَّ الله هو الشاكر[(٢)] والمشكور، وأنه هو المُحِب وهو المحبوب، وبيان ذلك أن غيره لاقوام له إلا به والموجود بغَيره كالمعدوم؛ لأنه لو قُدِّر عَدم ما قامَ به لم يوجد، فعلىٰ هذا كل الأشياء منه، فهو الذي أعطى وأثنىٰ على عطائه.

ويتضح هذا بأن نَقول: إذا أحبَّ المُصنِّفُ تصنيفَه والصّانع صَنعته، فقد أحبَّ نفسه، وكل ما في الوجود تَصنيفُ اللهِ تعالىٰ وصنعتُه، فإذا أحبَّه فما أحبَّ إلا عن نفسه، وإلى هذه الحالة يُشير من يَقول بفناء النَّفس، فيُقال: فلانٌ قد فَنِيَ، أي: عن نفسه وعن غَير رَبِّه، فلم يَرَ إلا الله، ثم إن المنتفع بالشكر هو العبدُ لا الربّ لاستحالة وصول النَّفع إليه، وكما أن المَلِك إذا أعطى عبداً فرساً ليركبها في صُحبته مع غِنى الملك عنه، تُصوِّر أن يكون شاكراً وكافراً، ويكون شكره أن يستعملَ ما أَنْفَذَه إليه مولاه فيم أحبَّه لأجله لا لأجل نَفسِه، وكُفرُه أن يُعطِّل ذلك ويَستعمله فيما يَزيد في بعده منه، فَنِعَمُ اللهِ سُبحانه آلاتٌ يترقَّىٰ العبد بها من أسفل سافلين، خَلَقَها اللهُ تعالىٰ لأجل العَبد حتىٰ ينالَ بها سعادة القُرب، والله غَنيٌّ عنه قَرُبَ أو بَعُدَ، والعَبدُ إذا استعمَلها في الطَّاعة كان شاكراً، لموافقة محبة مولاه، وبينَ أن يَستعملها في مَعصيته في مَعصيته، فيكون قد كفره، لاقتحامه ما يكرهه مَولاه، وإن عَطَّلها، فهو كُفرانٌ أيضاً للنعمة بالتَّضْييع، فالمعصية والطاعة تَشملهما المَشيئَة ولكن لا تشملهما المحبَّة والكراهة له، بل رُبَّ مُرادٍ محبوبٌ، ورُبَّ مرادٍ مكروهٌ، ووراء بيان هذه الدقيقة سر القَدر الذي منع من إفشائه، وقد انحلَّ بهذا الإشكال الأول؛ وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حَظٌّ فكيف يكون الشكر ؟ وبهذا أيضاً يَنحل الإشكال الثاني، فإنا لم نَعن بالشكر إلا انصِرافَ نعمةِ اللهِ في جِهة محبَّة الله، فإذا انصرفت

(١) تحرفت في (ف) إلى: «العالم».

(٢) باعتبار أنه هو الملهم لعباده والموفق لهم أن يشكروه.

النِّعمة في جهة المحبة بِفِعْلِ الله تعالىٰ فَقد حصل المُراد، وفعلك عطاءٌ من الله عزَّ وجلَّ، ومن حيث أنت محله، فقد أثنىٰ عليك وثَناؤه نِعمةٌ أخرى منه إليك، فهو الذي أعطىٰ، وهو الذي أثنىٰ، وصار أحدُ فِعْلَيه سَبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبَّته، فله الشكر على كل حال، وأنت موصوف بأنك شاكرٌ بمعنىٰ أنك محل المعنىٰ الذي الشكر عبارة عنه، لا بمعنىٰ أنك مُوجِدٌ[1] له، كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لابمعنى أنك خالقُ العلمِ وموجده، ولكن بمعنىٰ أنك محلٌّ له، وقد وجد بالقُدرة الأَزليّة فيكَ، فوصفُكَ بأنك شاكرٌ إثبات شَيْئيَّةٍ لك وأنتَ شيءٌ إذْ جعلك خالقُ الأشياء شيئاً، وإنما أنتَ لا شيء إذا كنت أنتَ ظانّاً لنفسك شَيئيّةً من ذاتك، فأما باعتبار النظر الذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذا جعلك شيئاً فإن قطع النظر عن جعله شيئاً كنتَ لا شيء تحقيقاً، وإلىٰ هذا أشارَ النبيُّ ﷺ بقوله: «اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ له». فبَيَّن أن الخَلقَ مجاري قَدَر الله تعالىٰ ومَحل أفعاله، فإن كانوا هُم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله مَحلٌّ للبعض، وقوله: «اعملوا». وإن كان جارياً علىٰ لسانِ الرسولِ ﷺ فهو فعلٌ من أَفعاله، وهو سببٌ لعلم الخلق بأن العمل نافعٌ، وعلمهم فِعلٌ من أفعال اللهِ عزَّ وجل، والعلم سببٌ لانْبعاث داعيةٍ جازمةٍ إلى الحركة والطاعة، وانبعاثُ الداعية أيضاً من أفعالِ الله تعالىٰ، وهو سببٌ لحركةِ الأعضاء، وهي أيضاً من أفعال الله، ولكن بعضُ أفعاله سببٌ للبعض، أي: الأول شرطٌ للثاني، كما كان خَلق الجسم سبباً لخلق العَرَض إذ لا يخلق العَرَض قبله، وخلق الحياة شَرطٌ[2]، لخلقِ العلم، وخَلقُ العلم شرطٌ لخلقِ الإرادة، والكلُّ من أفعال الله عزَّ وجل، وبعضها سببٌ للبعض، أي هو شرطٌ، ومعنىٰ كونه شرطاً أنه لا يستعدُّ لقبول فِعل الحياة إلا جَوهرٌ، ولا يَستعدُّ لقبول العِلم إلا ذُو حَياةٍ، ولا لقبول الإرادة إلا ذو علمٍ ليكون بعض أفعاله سبباً للبعض.

فإن قيل: فإذا كان الكلُّ من الله تعالىٰ، فما إلى تارك العمل حتىٰ يُذَمَّ ؟

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «موجود».

(٢) في الأصل: «سبب».

فالجواب: أن التخويف من ترك العمل سبب لحصول الاعتقاد فينا، والاعتقاد سَببٌ لهَيجانِ الخوف، وهَيجان الخوف سَببٌ لتركِ الزَّلل، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالىٰ مُسَبِّبُ الأَسْباب وهو مرتِّبها، فمن سبقت له السَّعادة يُسِّرَت له هذه الأسباب حتى تَقودَه إلى الجنة، وهو مَعْنى «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلقَ لَهُ»، ومن لم تَسبِق له الحُسنىٰ بَعُدَ عن سَماع الزَّواجر، فلا يَعلم، وإذا لم يَعلم لم يَعمل، وإذا لم يَعمل لم يَخَف، وإذا لم يَخَف لم يَترك الرّكونَ إلى الدُّنيا، فيبقىٰ في حِزْبِ الشَّيطان.

فإذا عرفتَ هذا تعجَّبتَ من قومٍ يُقادون إلى الجنة بالسَّلاسل، وكلُّ أحدٍ يُقادُ إلى الجنَّة بسلاسلِ الأَسْباب، وهو تَسليط العِلم والخَوف عليه، وما من مخذولٍ إلا وهو مَقودٌ إلى الله بالسَّلاسل، وهو تَسليطُ الغَفْلةِ والأَمن والغُرور عليه، فالكل يُساقون قَهراً إلىٰ الجنَّة وإلى النار، ولا قاهر إلا الله تعالىٰ، فإذا انكشف الغِطاء عن أعين الجاهلين فَشاهدوا الأمرَ كذلك سمِعوا عند ذلك نداءَ المُنادي ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [المؤمن: ١٦] وما زال المُلكُ له، غير أن الغَافلين لا يَفهمون ذلك إلا ذلكَ اليوم، فهو نَبأٌ عمّا يتجدَّد للغافِلين من كشف الأَهوال حيث لا يَنفعهم الكَشْف.

بيانُ تَمييز ما يُحبّه اللهُ عزَّ وجلَّ عَمّا يَكرهه

اعلم أن فعلَ الشُّكرِ وتركَ الغُفران لا يَتمُّ إلا بمعرِفَةِ ما يُحبه الله عز وجل، إذ معنىٰ الشُّكر استعمالُ نِعَمِه في محابِّه، ومعنىٰ الكُفر نَقيضُ ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارِهه، ولتَمييز ما يُحبه الله فيه عمّا يكرهه مَدركان:

أحدُهما: السَّمع، ومُستَندُه الآياتُ والأخبار.

والثاني: بَصيرةُ القلب، وهو النظر بعين الاعتبار، وهذا الأخير عَسِرٌ، وهو لأجل ذلك عزيزٌ، فلذلك أرسل اللهُ تعالىٰ الرسلَ وسهَّل بهم الطريق علىٰ الخَلق، ومعرفة ذلك تَنبني علىٰ معرفة جميع أحكام[1] الشرع في أفعال العباد، فمن لا يطّلع

(١) تحرفت في الأصل إلى: «أنواع».

علىٰ حكم الشرع في جَميع أفعاله لم يمكنه القيام بحقّ الشكر أصلاً.

وأما الثاني؛ وهو النظر بعين الاعتبار، فهو إدراكُ حِكمة الله تعالىٰ في كلّ موجودٍ خَلَقه، إذْ ما خلقَ اللهُ تعالىٰ شيئاً في العالم إلا وفيه حكمةٌ، وتحت الحِكمة مقصودٌ، وذلك المَقصودُ هو المَحبوب.

وتلك الحكمة مُنقسمة إلىٰ جَليَّةٍ وخَفيَّةٍ، أما الجَليَّةُ؛ فكالعِلم بأنَّ الحِكمةَ في خَلق الشَّمس أن يَحصل الليلُ والنَّهار فيكون النهار معاشاً والليل سُباتاً، فتَتيسَّرُ الحركةُ عند الإبصار والسكون عند الاسْتِتار، فهذا من جُملةِ حِكَم الشَّمس لا كلّ الحكَمِ التي فيها، وكذلك مَعرفة الحِكمة في الغَيم ونُزول الأَمطار وانْشِقاقِ الأَرض بأنواع النَّبات مَطعماً للخَلق ومَرعىٰ للأنعام، وقد بانَت هذه الحكمة في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس: ٢٥-٢٩].

وأما الحِكمة في خَلق الكواكب فَخَفية لا يَطَّلع عليها كلّ الخَلق، والذي تَحتمله أفهامهم أنها زينةٌ للسَّماء لتَلتَذَّ العينُ بالنَّظر إليها، وقد كشف عن ذلك قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، وجميع أجزاء العالم كلّه لا تَخلو منه ذَرّةٌ عن حِكم، وكذلك أعضاء الحيوان منها ما تَبينُ حِكمتُه كالعلم بأن العَين للإبصار، واليَدَ للبَطش، والرِّجلَ للمَشي، فأما الأعضاء الباطِنةُ كالمرارةِ والكِلية والكَبِد، وآحاد العروق والأَعصاب وما فيها من التَّجاوب والاشتباكِ والدِّقة والغِلَظِ، فلا يَعرفُ الحكمةَ فيها كل الناس، والذين يعرفونها إنما يعرفون منها قدراً يسيراً بالإضافة إلىٰ علم الله تعالىٰ.

فإذن كلّ من استَعمل شيئاً في جهةٍ غير الجهةِ التي خُلق لها، لاعلىٰ الوجه الذي أُريد به، فقد كَفَر نعمةَ الله فيه، فمن ضربَ غَيره بيده فقد كفَر نعمةَ اليد؛ لأنها خُلقَت ليَدفَعَ بها عن نفسه ما يؤذيه، ويتناول ما ينفعه، لا ليؤذي بها الغَير، ومن نَظر إلى وَجهٍ محرمٍ فقد كفرَ نعمةَ العَينِ ونعمةَ الشَّمسِ، إذ الإبصار يَتم بهما، وإنما خُلِقا ليبصر بهما ما يَنفعه في دينه ودُنياه، وينفي بهما ما يَضرُّه فيهما، فقد استعملهما في غَير ما أُريد به، وهذا لأن المُراد من خَلقِ الخَلق وخَلْقِ الدُّنيا

وأسبابها أن يستعين الخلق بها علىٰ الوصول إلى الله، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأُنسِ به في الدنيا والتَّجافي عن غُرور الدنيا، ولا أُنْسَ إلا بدوام الذِّكر، ولا مَحبَّة إلا بالمعرفة الحاصِلَة بدوام الفِكر، ولا يمكن الدَّوام على الفِكر والذّكر إلا بدَوام البَدَن، ولا يَبقىٰ البَدن إلا بالماء والأَرض والهواء والغِذاء، ولا يتم ذلك إلا بخَلق السَّماء والأرض، وخلق جميع الأعضاء الباطنة والظّاهرة، فكل ذلك لأجلِ البَدن، والبَدن مَطِيَّة النَّفس، والراجعُ إلى الله هي النَّفسُ المُطمئِنَّة بطول العِبادةِ والمَعرفةِ، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكلُّ من استَعمل شيئاً في غَير طاعةِ الله فقد كَفَر نِعمةَ الله في جميع الأَسباب التي لا بدّ منها لإِقدامه علىٰ تلك المَعصية.

ولنذكر مثالاً واحداً للحِكَم الخَفِيَّةِ التي ليسَت في غايةِ الخَفاء حتى يُعتَبر بها ويُعلَمَ طَريق الشُّكرِ والكُفْرانِ علىٰ النِّعم، فنقول:

مِنْ نعم اللهِ عزَّ وجلَّ خَلقُ الدراهم والدَّنانير وبهما قِوام الدُّنيا، وهما حَجَران لا مَنفعةَ في أَعيانِهما، ولكن يضطرُّ الخلق إليهما من حيثُ إن كل إنسانٍ يحتاج إلىٰ أعيانٍ كثيرةٍ في مَطعمِه ومَلبسه ومَشربِه وسائر حاجاته، وقد يعجز عما يَحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه، كمن يملك مثلاً الزَّعفران وهو يحتاج إلىٰ جَملٍ يركَبُه ومن يملك الجَمل ربما يَستَغني عنه ويحتاج إلى الزَّعفران، فلا بد من مُعاوضَةٍ، ولا بد في مقدار العِوض من تَقدير، إذ لا يُبدل صاحب الجَمل جَمَله بكلّ مِقدار من الزَّعفران، ولا مناسبةَ بين الزَّعفران والجَمل حتىٰ يُقال: يعطى مثله في الوزن والصورة، وكذا من يَشتري داراً بثياب، أو عبداً بخُفٍّ، أو دقيقاً بحمارٍ، فهذه أشياء لا تَناسُب فيها، فلا يُدرَى كم يُساوي الجَمل بالزَّعْفران فتتعذَّر المعاملات جداً، فافتقَرت هذه الأَعيانُ المُتنافرة المُتباعدة[١] إلىٰ مُتوسطٍ بينها يَحكُم فيها بحكمٍ عدلٍ، فيعرف من كلِّ واحدٍ رُتبتَه ومنزلته حتىٰ إذا تَقررت المنازل وتَرتَّبت الرُّتَب علم بعد ذلك المُساوي من غَير المُساوي، فخلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ الدراهمَ والدَّنانير حاكِمين ومُتوسِّطين بينَ سائر الأَموال حتىٰ تُقدَّر الأموال بهما، فيقال: هذا الجَمل يُساوي

(١) تحرفت في (ف) إلى: «المشاهدة».

مئةً، وهذا القَدرُ من الزَّعفران يُساوي مئةً، فهما من حيث أنهما مساويانِ لشيءٍ واحدٍ إذن متساويان، وإنما أمكن التعديل بالنّقدَين[١] إذْ لا غَرض في أَعيانهما، ولو كان في أعيانهما غَرضٌ لربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حقِّ صاحبِ الغَرضِ تَرجيحاً، ولم يَقتضِ ذلك في حَقِّ مَنْ لا غَرَضَ له، لا يَنتظم الأمر، فإذاً خلقهما الله عزَّ وجَلَّ لتتداولهما الأيدي ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل، ولحكمةٍ أخرى وهي التوسُّل بهما إلى سائر الأموال؛ لأنهما عَزيزان في أنفسُهما ولا غرض في أعيانهما، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة، فمن ملكهما فكأنه ملكَ كلَّ شيء لا كمنْ ملكَ ثَوباً، فإنه لا يملك إلا الثَّوب، فلو احتاجَ إلىٰ طَعامٍ فَرُبَّما لم يَرغب صاحب الطَّعام في الثَّوب فاحتيج إلى شيءٍ هو في صورته، كأنه ليس بشيءٍ، وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشيءُ إنما تَستوي نسبته إلىٰ المُختلفات إذا لم يكن له صورة خاصة يُفيدُها بخصوصها كالمرآة لا لونَ لها وتَحكي كلَّ لون، فكذلك النَّقد لا غَرض فيه وهو وسيلةٌ إلى كلِّ عرض، وكالحرف لا مَعنىٰ له في نَفسه وتَظهر به المعاني في غَيره، فكل مَن عمِل فيهما عملاً لا يَليق بالحكم بل هو مُخالفٌ للغَرض المَقصود بالحكم، فقد كَفَر نعمةَ الله فيهما، فإذن مَن كَنَزهما فقد ظَلمهما وأَبطل الحِكمة فيهما، وكان كمن حَبَس حاكم المسلمين في سجنٍ يمتنع عليه الحكم بِسَببه؛ لأنه إذا كَنَزَ فقد ضَيَّعَ، ولا يحصلُ الغَرضُ المقصودُ به، وما خُلِقت الدَّراهم لزَيدٍ خاصةً إذ لا غَرض للآحاد في أعيانِهما، فإنهما حَجَران وإنما خُلِقا لتَتداوَلَهُما الأَيدي فيَكونان حاكمين بين الناس وعلامةً معرفةً للمَقادير مُقومةً للمراتب، فأخبر الله الذين يعجزون عن قراءة الأَسطر الإلهية المكتوبة علىٰ صَفحات الموجودات بخطٍ إلٰهي لا يُدرَك بعَين البَصر بل بعين البَصيرة، فأخبرهم بكلام سَمِعوه من رَسوله عبَّر عن ذلك المعنىٰ، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤].

فكلُّ من اتَّخذَ الدَّراهم والدَّنانير آنيةً فقد كَفَر النِّعمة، وكان أسوأ حالاً ممن كَنَز؛

(١) تحرفت في النسخ إلى: «التقدير»، والمثبت من الإحياء.

لأن مثال هذا مثال من استَسْخَر حاكمَ البلد في الحِياكة والكَنْسِ والأَعمال التي يَقوم بها أَخِسّاء النّاس، والحبسُ أهونُ منه، وذلك أن الخَزَف والحديد والرّصاص والنُّحاس تَنوبُ مَنابَ الذَّهبِ والفِضَّة في حفظِ المائعات من أن تتبَدَّد، ولا يكفي الخَزفُ والحَديدُ في المَقصود الذي أُريد به النقود، فمن لم ينكشف له هذا انكشَف له بالرَّحمةِ الإلهية، وقيل له: مَن شَربَ في آنيةِ الذَّهب والفِضَّة فكأنَّما يُجَرجِرُ في بَطنه نارَ جهنَّم، وكلُّ من عامَل بالرِّبا في الدّراهم والدّنانير فَقد كفرَ النِّعمة وظَلم؛ لأنهما خُلِقا لغَيرهما لا لأنفُسِهما إذ لا غَرضَ في عَينهما، فإذا اتجَّرَ في عَينهِما فقد اتخذهما مَقصوداً علىٰ خِلاف وَضعِ الحِكمة إذ طلبُ النَّقد لغير ما وُضع له ظلمٌ، ومَن معه ثوبٌ ولا نَقدَ معه فقد لا يَقدر علىٰ أن يشتري طعاماً ودابّةً، وربما لا يُباع الطَّعامُ والدّابة بالثَّوب فهو معذور في بيته بنقدٍ ليُحصّل النَّقد فيتوصل به إلىٰ مَقصوده، فإنهما وسيلتان إلى الغَير لا غَرض في أعيانهما، ووقعهما من الأموال كوَقْع الخَزَفَ، فإنه جاء لمعنىٰ في غَيره.

فإن قيل: فلِمَ جاز بَيعُ أَحَدِ النَّقدَين بالآخر؟

فاعلم أنَّ أحد النَّقدين مخالف للآخر في مَقصود التَّوصل إذ قد تيسَّر التوصُّل بأحدهما من حيث كثرته، كالدَّراهم تتفرَّقُ في الحاجات قَليلاً قَليلاً، ففي المَنع منه ما يُكدِّر المقصود الخاصَّ به، وهو تَيَسُّر التَّوسل به إلىٰ غيره، فأما الأَطعمة فإنها خُلقت ليُتَغذّىٰ بها ويُتداوى، فلو فُتح بابُ المعاملة فيها أَوجب تقييدها في الأَيدي وتَأخير الأكل الذي خُلِقت له عنها، فمن باع طعاماً بطعام فكلاهما مُستغنٍ عما أخرجَ، فأما ما لو باعه بغيرِ الطَّعام فإنه قد يَحتاج إلى غير الطَّعام، وإنما عُذرُ بائع البُرِّ بالتَّمرِ بأن أحدهما لا يَسدُّ مَسَدَّ الآخر في الغَرَض.

فهذا مثالٌ واحدٌ لحكمةٍ خَفيَّةٍ من حِكَم النَّقدين، فَينبغي أن يُعتبر شُكرُ النِّعمة وكُفرانها بهذا المثال، وكلُّ ما خُلِقَ لحكمةٍ فَلا ينبغي أن يُصرف عنها، ولا يَعرفُ هذا إلا من عَرفَ الحِكمة، ولا تُصادَفُ جواهرُ الحِكمة في قلوبٍ هي مَزابلُ الشَّهوات وملاعبُ الشَّياطين.

وإذا عرفتَ هذا المِثال فَقِسْ عليه حَركتكَ وسُكونَك ونُطقَكَ وسكوتَكَ وكلَّ فِعلٍ

صادرٍ منك، فإنه إما شكرٌ وإما كُفر، إذ لا يُتصوَّر أن يَنفكَّ عنهما، وبعض ذلك تَصفه بالكَراهة وبَعضُه بالحَظْر، وأقول مثلاً: لو استَنْجَيتَ باليَمين فقد كفرتَ نعمة اليَدين؛ لأن الله تعالىٰ لما خَلقَ لك اليدين وجعل إحداهما أَقوىٰ من الأُخرى استحقَّ الأقوىٰ بمَزيدِ رُجْحانه في الغالب التَّشريف والتَّفضيل، إذ تَفضيل النّاقِص عُدولٌ عن العَدل، والله لا يَأمر إلاّ بالعَدل، ثم قد أحوجَكَ مَنْ أعطاك اليَدين إلى أعمالٍ بعضُها شريفةٌ، كأخذِ المُصحَفِ، وبعضُها خَسيسَةٌ، كإزالة النَّجاسة، فإذا أَخذتَ المُصحفَ باليَسار وأزَلتَ النَّجاسةَ باليمين فَقد خصصتَ الشَّريف بما هو خَسيس فَظَلمتَه، وكذلك إذا بَصَقْتَ مثلاً في وَجهِ القِبلةِ أو استَقبلْتَها في قَضاءِ الحاجةِ، فَقد كفرتَ نِعمةَ الله في خَلقِ الجِهات؛ لأنه خَلقها لتكونَ مُتَّسَعاً لحركاتِك، وقَسمها إلى ما شَرَّفه وإلى ما لم يُشرفه بأن وضع بيتاً أضافَه إلى نَفسِه استِمالةً لقلبك(١) إليه ليتقيَّد به قلبُكَ فَيتقيَّد بسببه بَدنُك في تلك الجهة علىٰ معنىٰ الوقار في العبادة، فلما انقسمت أفعالُك إلى شَريفٍ، كالطَّاعة، وإلى خَسيس، كَرمي البُصاق، فإذا رميتَه إلى جِهة القِبلةِ فقد ظَلمتَها وكفرتَ نعمةَ الله تعالىٰ عليكَ بوضع القِبلة التي بوَضعها كمالُ عبادتك، وكذلك إذا لبستَ خُفَّكَ فابتدأتَ باليُسرىٰ فقد ظَلمت؛ لأن الخُفَّ وقايةٌ للرِّجلِ فلها فيه حَظٌّ، والبِداية بالحُظوظِ يَنبغي أن تكون بالأشرف، فذلك العَدل والوفاء بالحكمة، ونقيضه الظُّلم والكُفران لنعمةِ الرِّجل والخُفِّ، وكذلك من كَسَر غُصناً من شجرةٍ من غير حاجةٍ مُهمةٍ وغرضٍ صَحيح، فقد كفَر نِعمةَ الله في خَلق الأَشجار وخَلق اليَد، أما اليد فإنها لم تُخْلَق للعبث، وأما الأَشجار فَلِلمَنفَعة، فكَسْرُ الغُصن قبل مُنتهى نُشوئهِ لا عَلى وَجهٍ يُنتفعُ به مخالفةٌ لمقصودِ الحِكمة وعدولٌ عن العَدل، فإن كان غرضٌ صَحيح فله ذلك، إذ الشَّجر والحيوان جُعل فِداءً لأغراض النّاس، فإن كان كَسرُ ذلك من ملكِ غيره فهو ظالمٌ، وإن كان محتاجاً.

فإن قيل: قد رَجَعَ حاصِلُ الكلام إلى أن للهِ تعالىٰ حِكمةً في كلّ شيءٍ، وأنه جعل بعضَ أَفْعال العِباد سَبباً لتمام تلك الحِكمة وبلوغها غاية المراد منها، وجعل

(١) تحرفت في (ف) إلى: «القبلتك».

بعضَ أفعالهم مانعاً من تمام الحِكمة، فكلّ فعلٍ وافقَ مُقتضىٰ الحكمة حتىٰ انساقَت الحكمة إلىٰ غايتها فهو شكر، وكلُّ ما خالفَ وَضع الأَسباب من أن تَنْساق إلىٰ الغاية المرادة بها فهو كفران، وهذا كله مفهوم، إنما الإشكال باقٍ، وهو أن فعل العبد المنقسم إلى ما يُتمّم الحِكمة وإلى ما يَدفعها هو أَيْضاً من فعل الله، فأين العَبدُ في البَين حتىٰ يكون شاكراً مرةً وكافراً أخرى ؟

فقد رَمَزنا إلىٰ جوابِ هذا في تَلويحات تَقدَّمت ونحن نُعبر عنها الآن بعبارةٍ يَفهمها من عرف منطق الطير، فنقول: لله تعالىٰ صفةٌ تُسمىٰ القُدرة يَصدر عنها الخَلقُ والاختِراع، ثم ينقسم الخَلقُ إلى أَقسامٍ وصفاتٍ صدرت عن المَشيئة، ثم انقسمت الأَفعال الصادرة من القُدرة إلى ما يَنساق إلى المُنتهى الذي هو غاية حكمها، وإلى ما يَقف دون الغاية، وقيل للبالغ إلى المنتهى: مَحبوب، وللواقف دون البُلوغ: مكروه، ثم انقسم عِبادُه الذين هم أيضاً من خَلقِه واختراعِه إلى من سَبقت له في المَشيئةِ أنْ يَستعمله لاستئِنافِ حِكمتهِ دونَ غايتها؛ (١ويكون ذلك بتسليط الدواعي عليهم، وإلى من سبقت له في الأَزَل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها١) في الأمور، فكان لكل واحد من الفريقين نِسْبة إلى المَشيئة خاصة، واستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحِكمة بهم عبارة الرِّضا، واستُعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغَضب، وظهر علىٰ من غَضِب عليه في الأزل فعلٌ وقضَت الحِكمةُ به دون غايتها، فاستعير له الكُفْران، وظَهر على مَن ارتَضاه في الأَزَل فعلٌ انساقت بسَببهِ الحِكمةُ إلىٰ غَايتها، فاستعير له عبارة الشُّكرِ، وأردف بخِلْعة الثّناء والإِطْراءِ زيادةً في الرِّضا والقبول، فكان الحاصل أنه أَعطىٰ الجَمال ثم أَثنىٰ، وأَعطى النّكال ثم قَبّح وأَرْدَى، وكان مثاله أن يُنظِّفَ الملكُ عَبده الوَسِخَ من أَوساخِهِ ثم يُلبسه من مَحاسِن ثيابه، فإذا أتمَّ زِينَته قال: يا جَميل، ما أجملكَ وأجمل ثيابك وأَنْظَف وجهك. فيَكون هو المُجَمِّلُ وهو المُثْنِي على الجَمال، وكأنه لم يُثْنِ من حَيثُ المعنىٰ إلا عَلى نَفسهِ، وإنما العَبدُ هدفُ الثَّناء من حيثُ الظّاهر والصورة، فهكذا كانت الأمور في الأَزَل، وهكذا تَسَلْسُلُ الأَسباب

(١-١) سقط من الأصل.

والمسبّبات بتقدير المُسبِّب، ولم يكن ذلك عن اتفاق، بل عن إرادةٍ وحكمةٍ وحُكمٍ حَق استُعير له لَفظُ القَضاء، فَفَاضَت بِحارُ المَقادير بحكم ذلك القَضاء الجَزم فاستُعيرَ لتَرتُّبِ آحادِ المَقْدورات بَعضها علىٰ بعض لفظ القَدَر، فكان لفظ القَضاء بإزاءِ الأَمر الواحد الكُلِّي، ولفظ القَدَر بإزاءِ التَّفضيل المُتمادي إلىٰ غَير نهايةٍ، فلما لم يُطقْ أكثر الناس ملاحظة كنه هذا الأمر وقالوا: كيفَ انتَظَمَ العدلُ مع هذا التَّفاوت؟ أُلجِموا عن الخَوضِ في غَمرتِه، وقيل: اسكُتوا، فما لهذا خُلِقتُم. وامتلأت مِشكاةُ بَعضهم نوراً مُقتبساً من نورِ الله، فأدركوا الأُمور علىٰ ما هيَ عليه، وقيل لهم: إذا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمسِكوا فإنَّ حولكم ضُعفاء الأَبصار، فسيروا بسير أَضعفِكُم، ولا تكشفوا حِجابَ الشمس لأبصارِ الخَفافيش فيكون ذلك سبب هَلاكهم.

فهذه رموزٌ إلى معنىٰ الكَراهة والمحبَّةِ والرِّضا والغَضَب والشكر والكُفران لا يَليقُ بعِلمِ المُعاملة أكثر منها، ومَن رأى لعب الخَيال من وراء السِّتر وكان صَبياً ظنّها تتحرك بنفسها، فأما العاقلُ فيعلم أنها محرَّكة والخلق صِبيان والعلماء رجال.

فلنَرجِع إلىٰ مَقاصد الشكر فنقول: إذا رَجَعتْ حَقيقةُ الشكر إلى كَون العَبدِ مُستعمَلاً في إتمام حِكمة الله تعالىٰ فأَشكَرُ العِباد أحبّهم إلى الله وأقربهم إليه، وأقربهم إلى الله الملائكة، وما منهم إلا له مَقامٌ مَعلوم، ويليهم الأَنبياء، فَقد أصلح اللهُ الأنبياء بالملائكةِ، وأصلحَ الخلقَ بالأَنبياء، وأعلى الكلّ رتبةُ النبي ﷺ، ويليهم العُلماء، فقد أَصلحَ اللهُ بهم جَميع الخَلق، ويليهم الصالحون الذين أَصلحوا نُفوسهم فقط، فلم تَتم حكمة الله بهم (١بَل فيهم١) ومَن عَدا هؤلاء فَهَمجٌ رِعاعٌ.

* * *

(١-١) سقط من النسخ، وأُثبت من الإحياء.

الرّكن الثاني من أركان الشُّكر

(١ما عليه الشكر١)

ولنذكر فيه حقيقةَ النِّعمة وأقسام دَرجاتها وأصنافها، فإن إحصاء نِعَم الله عزَّ وجل علىٰ عباده خارجٌ عن مقدور البَشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤] فنُقدم أموراً كُلِّية تجري مجرىٰ القَوانين في معرفة النِّعَم ثم نَشتغل بذكر الآحاد.

بَيانُ حَقيقة النِّعمة وأَقسامها

اعلم أن كل مطلوب يُسمّى نِعمةً، ولكن النِّعمة بالحقيقة هي السَّعادة الأُخرويَّة، وتَسمية ما عداها نِعمة تَجَوُّزٌ، كتسمية السَّعادة الدُّنيوية التي لا تُعين علىٰ الآخرة نِعمةً، فإن ذلك غلطٌ مَحْضٌ، وتسميةُ ما يُوصل إلىٰ السَّعادة الآخرة نعمةً صحيحٌ.

واللَّذّاتُ المُسمّاةُ نِعمةً لِشرحها تَقسيمات:

القِسمةُ الأولىٰ: اعلم أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تَنقَسِمُ إلى ما هو نافعٌ في الدنيا والآخرة جميعاً، كالعلم وحُسنِ الخُلق، وإلىٰ ما هو ضارٌّ فيهما، كالجهل وسُوء الخُلق، وإلىٰ ما ينفع في الحال ويَضُرُّ في المَآل، كالتَّلذُّذ باتِّباع الشَّهوات، وإلى ما يَضرُّ في الحال ويُؤلم، ولكنه ينفع في المَآل، كقَمع الشَّهوات ومُخالفة النَّفس، والنافع في الحال والمَآل وهو النعمة حقيقة، كالعلم وحُسنِ الخُلُق، والضّارُّ فيهما هو البَلاء تَحقيقاً، وهو ضِدّهما، والنافع في الحال المُضِرُّ في المَآل بلاءٌ مَحضٌ عندَ ذَوي الأبصار، ويظنُّه الجاهلُ نعمةً، ومِثالُه الجائع إذا وَجَدَ عَسلاً فيه سُمٌّ فإنه يَعدُّه نعمةً إن كان جاهلاً، وإذا علمه علم أنَّ ذلك بلاءٌ سبق إليه، والضَّارُّ في الحالِ النّافِعُ في المَآل نعمةٌ عند ذَوي الألباب، بَلاءٌ عند الجُهّال، ومثالُه الدَّواء البَشِعُ في الحال مَذاقُه، إلا أنه شَافٍ من الأمراضِ والأَسقام جالبٌ للصحة والسَّلامة، فالصبي الجاهل إذا كُلِّفَ شُربَه ظَنَّه بلاءً، والعاقل يَعُدُّه نعمةً ويَتقبَّل المِنَّة

(١-١) سقط من الأصل.

ممَّن يُهديه إليه ويهيىء له أسبابه، ولذلك تَمنعُ الأمُّ وَلدها من الحِجامةِ، والأبُ يدعوه إليها، فإنَّ الأبَ بكمالِ عَقله يَلحظُ العاقِبةَ، والأمُّ لقُصورِها وفَرْطِ حُبِّها تَلحَظُ الحالَ، والصَّبيُّ لجهله يتقلَّدُ مِنَّةً من أُمه دونَ أبيه، ويَأنس إليها وإلى شَفَقتها، ويُقدِّرُ الأبَ عدواً له، ولو عقلَ لعلم أنَّ الأمَّ عدوٌّ باطنٌ في صورةِ صديق؛ لأن مَنعَها إياه من الحِجامةِ يَسوقُه إلىٰ أَمراضٍ وآلامٍ أشَدّ من الحِجامة ولكنَّ الصديقَ الجاهل شَرٌّ من العَدو العاقل، وكلُّ إنسانٍ فإنه صَديق نَفسه ولكنه صديقٌ جاهل، فلذلك تَعمل به ما لا يَعمل به العدو.

قسمة ثانية: اعلم أن الأسباب الدُّنيوية مُختلطةٌ قد امتزجَ خَيرُها بشرِّها فَقلَّما يَصفو خيرها، كالمال والأَهل، والولد والأقارب والجاه وسائر الأَسباب، ولكن تَنقسِم إلى ما نَفعه أكثر من ضَرِّه، كقدر الكِفاية من المال والجاه وسائر الأسباب، وإلى ما ضَرُّه أكثر من نَفعه في حق أكثر الأَشخاص، كالمال الكثير والجاه الواسع، وإلى ما يكافىء ضَررُه نَفعَه، وهذه أمور تختلف بالأشخاص، فرُبَّ إنسانٍ صالح يَنتفع بالمال الصالح، وإن كثر فيُنفقه في سَبيل الله ويَصرفه إلى الخَيرات، فهو مع هذا التَّوفيق نعمةٌ في حقه، ورُبَّ إنسانٍ يَستضرُّ بالقَليل إذ لا يَزالُ مُسْتَصغراً له شاكياً من رَبِّه طالباً للزيادة عليه، فيكون ذلك مع هذا الخِذلان بلاءٌ في حَقِّه.

القسمة الثالثة: اعلم أن الخَيرات باعتبارٍ آخَرَ تَنقسم إلى ما هو مُؤثَر لذاته، وإلىٰ مؤثر لغيره، وإلىٰ مؤثر لذاته ولغَيره.

فالأول: ما يُؤثَر لِذاته لا لغَيره، كلذَّةِ النَّظر إلىٰ وَجه الله تعالىٰ وسعادةِ لقائه، وبالجملة سَعادة الآخرة التي لا انْقضاء لها، فإنها لا تُطلَب ليُتوصَّل بها إلىٰ غايةٍ أُخرىٰ مقصودَة وَراءَها، بل تُطلبُ لذاتها.

الثاني: ما يُقصَدُ لغَيره ولا غرض أصلاً في ذاته، كالدَّراهم والدَّنانير، فإن الحاجات لو كانت لا تَنقضي بها لكانت هي والحَصَى بمثابةٍ واحدةٍ، ولكن لما كانت وسيلةً إلىٰ اللَّذات سَريعة الإيصال إليها صارت إلىٰ الجُهّال مَحبوبة في أَنفُسها حتىٰ يَجمعونها ويكنزونها ويتصارفون بالرِّبا، ويَظنون أنها مقصودة، ومثال هؤلاء مثالُ من يُحب شخصاً فَيحب بسببه رَسولَه الذي يَجمع بينهما، ثم يَنسى في مَحبَّةِ

الرسول محبَّةَ الأَصلِ فَيُعرِضُ عنه طول عمره، ولا يزال مَشْغولاً بتعهُّد الرسول ومراعاته وتَفقُّده، وهو غاية الجهل.

الثالث: ما يُقصَد لذاته ولغيره، كالصِّحة والسَّلامة، فإنها تُقصد ليُقدَر بسَببها علىٰ الفِكر والذِّكر الموصلَين إلى الله تعالىٰ، وليُتوصَّل بها إلىٰ استيفاء لَذَّات الدنيا، فَتُقصَدُ أيضاً لِذاتها فإنَّ الإنسان وإن استَغنىٰ عن المَشْي الذي تُرادُ سلامَةُ الرِّجلِ لأجله، فهو يريد أيضاً سلامةَ الرِّجل من حيث إنها سلامة.

فإذن المُؤثَر لذاتِه فَقط الخَير والنِّعمة تحقيقاً، وما يُؤثَر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأول، فأما ما لا يُؤثر إلا لغيره، كالنَّقدين فلا يُوصفان في أنفسهما من حيث هما جَوهران بأنهما نِعمة بل من حيث هما وَسيلتان، فيكونان نعمة في حقّ مَن يقصد أمراً ليس يُمكنه أن يَتوصل إليه إلا بهما، فلو كان مَقصده العلم والعِبادة، ومعه الكِفاية التي هي ضرورة حَياتِه استَوىٰ عنده الذهبُ والمَدَرُ، وكان وجودهما وعَدمهما عنده بمثابةٍ واحدةٍ، بل ربما شَغَله وجودهما عن الفِكر والعبادة، فيكونان بلاءً في حَقِّه لا نِعمة.

قِسمةٌ رابعة: اعلَم أن الخَيرات باعتبارٍ آخر تَنقسم إلىٰ نافعٍ وجَميلٍ ولذيذٍ؛ فاللَّذيذ هو الذي تُدرَك راحته في الحال، والنافعُ هو الذي يُفيد في المَآل، والجميل هو الذي يُسْتَحسنُ في جميع الأَحوال.

والشُّرورُ أيضاً تَنقسمُ إلىٰ ضارٍّ وقَبيحٍ ومُؤلمٍ، وكل واحدٍ من القِسمَين ضَربان: مُطلَق ومُقيَّد.

فالمُطلَق: هو الذي اجتمع فيه الأَوصاف الثلاثة؛ أما في الخير، فكالعِلم والحِكمة، فإنها نافعةٌ وجَميلة ولَذيذةٌ عند أهل العلم والحِكمة، وأما في الشَّر، فكالجهل، فإنه ضارٌّ وقَبيحٌ ومؤلمٌ، وإنما يُحِسُّ الجاهلُ بألمِ جَهله إذا عرفَ أنه جاهلٌ بأن يَرى غيرَه عالماً ويرىٰ نفسه جاهلاً، فيُدركُ ألم النَّقص، فتَنبعثُ منه شَهوةُ العِلم للذَّته، ثم قد يَمنعه الحَسَد والكِبْر والشَّهوات البَدَنية عن التَّعلُّم، فَيتجاذَبُه مُتضادّان، فيعظم أَلمُه، فإنه إن تَرك التَّعلم تألَّم بالجهل ودَرك النُّقصان، وإن اشتغلَ

بالتَّعلم تَألّم بتركِ الشَّهوات أو بتَركِ الكِبْرِ وذُلِّ التعلم، ومثل هذا الشخص لا يَزال في عذابٍ دائمٍ لا مَحالَةَ.

والضرب الثاني(١) **مُقَيَّد**: وهو الذي جمعَ بعضَ هذه الأوصاف(٢) دونَ بعضٍ، فرُبَّ نافعٍ مُؤلمٍ كَقطعِ الإصبَع المتأكِّلَةِ والسِّلْعةِ(٣) الخارجة من البَدن، ورُبَّ نافعٍ قَبيح، كالحُمق، فإنه بالإضافة إلى بَعضِ الأهوال نافعٌ، وقد قيل: استَراح من لا عَقلَ له. فإنه لا يَهتمُّ بالعاقِبةِ فَيستريح في الحال إلى أن يحين وقتُ هلاكِهِ، ورُبَّ نافعٍ من وَجهٍ ضَارٌّ من وجه، كإلقاء المال في البَحر عند خَوفِ الغَرَق، فإنه ضارٌّ للمال نافعٌ للنَّفس في نَجاتها.

القِسمة الخامسة: اعلم أن النِّعمة يُعبَّر بها عن كلِّ لَذيذ، واللَّذاتُ بالإضافة إلىٰ الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مُشاركته لغيره ثلاثة أنواع: عَقلية، وبَدنية مشتركة مع بعض الحيوانات، (٤وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات٤).

أما العقلية: فكلذَّة العِلم والحِكمة، إذ ليس يَستلذُّها السَّمعُ والبَصَرُ والشَّمُّ ولا البطن ولا الفرج، وإنما يَستَلذُّها القَلبُ لاختصاصه بصفةٍ يُعبَّر عنها بالعَقل، وهذه أقلُّ اللَّذات وجوداً وهي أَشرفُها، أما قِلَّتُها فلأنَّ العِلم لا يَستلذُّه إلا عالمٌ، والحِكمة لايَستلذُّها إلا حَكيم، وما أقلَّ أهل العِلم والحكمة، وما أكثر المُتَسمِّينَ باسمِهم والمُترسِّمين برَسمِهم. وأمّا شَرفُها؛ فإنها لازمةٌ لا تَزولُ أبداً لا في الدنيا ولافي الآخرة، ودائمةٌ لا تُملُّ، فالطَّعام يُشبَع مِنهُ فَيُملُّ، وشَهوةُ الوِقاع يُفرغُ منها فَتُسْتَثْقَل، والعلم والحكمة لايُتصوَّرُ أن تُملَّ وتُسْتَثقل، ومَنْ قَدر على الشَّريف الباقي أَبَدَ الآباد إذا رَضِيَ بالخَسيس الفاني في أقربِ الآمادِ فهوَ مُصابٌ في عَقله محرومٌ بِشَقاوتِه وإدباره، وأقلّ أمرٍ فيه أنَّ العِلمَ والعقلَ لا يحتاج إلىٰ أعوانٍ وحَفَظة بخلاف المال، إذ العلمُ يَحرُسُكَ وأنتَ تَحرسُ المالَ، والعلمُ يَزيد بالإنفاق والمالُ يَنقص

---

(١) سقطت من الأصل.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «الأصناف».

(٣) السِّلعة: ورمٌ غليظ غير ملتصق باللحم يتحرك عند تحريكه.

(٤-٤) سقط من النسخ، واستُدرك من الإحياء.

بالإنفاق، والمالُ يُسرَق، والولاية يُعزَلُ عنها، والعلمُ لا تَمتدُّ إليه أيدي السُّرّاق بالأَخذِ، ولا أيدي السّلاطين بالعَزْلِ، فيكون صاحبه في رَوْحِ الأَمْنِ أبداً، وصاحبُ المالِ والجاهِ في كَربِ الخَوفِ أبداً، ثم العلمُ نافعٌ ولَذيذٌ وجَميلٌ في كل حالٍ أبداً، والمالُ تارةً يَجذِبُ إلى الهلاك، وتارةً يجذبُ إلى النَّجاة.

وأما قُصورُ أكثر الخَلق عن إدارك لذَّةِ العلم، فإما لعَدم الذَّوق، فمن لم يَذُق لم يَعرِف ولم يَشتَقْ، إذ الشَّوق تَبَعٌ للذَّوق، وإما لفسادِ أَمزِجَتِهم ومَرَضِ قُلوبهم بسبب اتِّباع الشَّهوات، كالمريض الذي لا يُدرك حلاوة العَسَل ويَراه مُرّاً، وإما لقُصورِ فِطرتهم، إذ لم تُخلَق لهم بعدُ الصفة التي تَستلذُّ العلمَ، كالطِّفل الرضيع الذي لا يدرك لذَّة العَسل ولا يَستلذ إلا اللَّبَن، فهو عنده ألذُّ الأشياء.

فالقاصرون عن دَركِ لذَّةِ العلم والحكمةِ ثَلاثةٌ: إمّا مَنْ لم يَحْيَ باطِنُه، كالطفل، وإما من ماتَ بعد الحياةِ باتِّباع الشَّهوات، وإما مَن مَرض بسببِ اتِّباع الشَّهوات.

الثانيةُ: لَذةٌ يُشارك الإنسانُ فيها بعضَ الحيوانات، كلذَّة الرئاسة والغَلبةِ والاستيلاء، وذلك موجودٌ في الأَسَد والنَّمِر.

والثالثة: ما يُشارِكُ بها جميعَ الحيوانات، كلذَّة البَطن والفَرْج، وهذه أكثرها وُجوداً وأَخَسُّها، ولذلك اشترك فيها كل ما دَبَّ ودَرَجَ، ومَن جاوز هذه الرُّتبةَ تشبَّثتْ به لذةُ الغَلبة، وهي أشدُّها التِصاقاً بالمُتعاقِلين، فإن جاوَزَ ذلك ارتَقىٰ إلىٰ الثالثة، فصار أغلب اللذاتِ عليه لذة العِلم والحِكمة، لاسيما لذة معرفة الله تعالىٰ ومعرفة صِفاته وأَفعاله، وهذه رتبة الصِّدّيقين، ولا يُنالُ تَمامها إلا بخُروج استيلاء حُبِّ الرئاسة من القَلب، وآخر ما يخرج من رُؤوس الصِّديقين حُبُّ الرئاسة، وأما شَرَهُ البَطنِ والفَرْجِ فكَسْرُه مما يَقوىٰ عليه الصّالحون، وشَهوة الرّئاسة لا يَقوىٰ علىٰ قَهرِها إلا الصِّديقون، فأما قَمعُها بالكُلِّية حتىٰ لا يَقع فيها الإحساس علىٰ الدوام وفي اختلافِ الأحوال فَيُشبهُ أن يكون خارجاً عن مَقدور البَشَر.

نعم تَغلبُ لذةُ مَعرفة الله تعالىٰ في أحوالٍ لا يقع معها الإحساس بلذَّة الرئاسة والغَلبة، ولكن ذلك لا يَدوم طول العمر، بل تَعتَريه الفَتَرات فتعود إليه الصِّفات

البَشَريةُ فتكون موجودةً لكن تكونُ مَقْهورة لا تَقوىٰ علىٰ حملِ النَّفس علىٰ العُدول عن العَدل، وعند هذا تَنقسم القُلوب أربعةَ أقسام:

قلبٌ لا يُحب إلاّ الله، ولا يَستريح إلا بزيادةِ المَعرفة والفِكر فيه. وقلبٌ لا يَدري ما لذَّة المعرفةِ وما مَعنىٰ الأُنس بالله، وإنما لَذّتُه بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشَّهوات البدنية. وقلبٌ أَغلبُ أحواله الأُنس بالله والتَّلذُّذ بمعرفته والفكر فيه (١ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرجوع إلى الأوصاف البشرية، وقلبٌ أغلب أحواله التلذُّذ بالصفات البشرية)[١]، ولكن قد يَعتريه في بعض الأحوال تَلذُّذٌ بالعِلم والمَعرفة.

أما الأول، وإن كان ممكناً في الوُجود فهو في غاية البُعد.

وأما الثاني، فالدُّنيا طافِحةٌ به. وأما الثّالث والرابع، فموجود ولكن علىٰ غاية النُّدور، ولا يُتصور أن يكون إلا نادراً شاذاً، وهو مع النُّدور يَتفاوت في القِلّة والكَثرة، وإنما تَكون كَثرتُه في الأَعْصار القَريبة من أَعْصار الأَنبياء، فلا يَزال يَزداد العَهدُ طولاً وتَزداد مثل هذه القلوب قِلَّة إلىٰ أن تَقرُبَ الساعة، وإنما وجبَ أن يكون هذا نادراً؛ لأنه مَبادىء ملكِ الآخرة، والملك عَزيز، والملوك لا يَكثُرون، فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادراً وأكثر الناس من دونهم، فكذا في ملك الآخرة، فإن الدنيا مِرآةُ الآخرة، فإنها عالَمُ الشَّهادة وعِبارةٌ عن عالم الغَيب، وعالَم الشَّهادة هو التّابع لعالَم الغَيب، كما أنَّ الصورةَ في المرآة تابعةٌ لصورة النّاظر في المرآة، والصّورة في المرآة وإن كانَت هي الثَّانية في رُتبة الوجود، فإنها أول في حَقِّ رُؤيتكَ، فإنك تَرى صورتَك في المرآة أولاً، فتعرف بها صورتَك التي هي قائمة بك ثانياً علىٰ سبيل المحاكاة، فانقلب التابعُ في الوجود مَتْبوعاً في حق المعرفة وانقلب المتأخر مُتقدماً وهذا نَوعٌ من الانعِكاس، والانعِكاسُ والانتِكاس ضرورةُ هذا العالم، فكذلك عالم الملك والشَّهادة مُحاكٍ لعالَم الغيبِ والمَلكوت، فمن الناس من يُيَسّرُ له نَظرُ الاعتبارِ فلا يَنظر في شيء من عالم الملك إلا ويَعبرُ به إلىٰ عالم الملكوت

---

(١) سقط من النسخ، واستُدرك من الإحياء.

فيُسمّى عُبوره: عِبرةً، وقد أمر الخلقُ به فقيل لهم ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ [الحشر: ٢]، ومنهم من عَمِيَت بَصيرته فلم يَعبُر، فاحتُبِسَ في عالم الملك والشَّهادة وسَتُفتح له أبوابُ جهنم، فقد بانَ بما ذَكرنا أنَّ القلبَ الصالحَ لملكِ الآخرةِ لا يكون إلا عَزيزاً، كالشَّخص الصالح لملك الدُّنيا.

القِسمةُ السادسةُ حاويةٌ لمجامع النِّعَم: اعلم أن النِّعَمَ تنقسمُ إلى ما هي غاية مطلوبةٌ لذاتها، وإلى ما هي مطلوبةٌ لأجل الغاية، أما الغاية؛ فهي سَعادة الآخرة، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور: بَقاءٌ لا فَناء له، وسرورٌ لا غَمَّ فيه، وعلمٌ لا جَهْلَ معه، وغِنىٰ لا فقر بعده. وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال ﷺ: «لا عيشَ إلا عيشُ الآخِرة». وإنما قال ذلك في وقتِ حَفر الخندقِ وهم في شِدّة، فَسَلّى نفسَه بذلك، وقال رجلٌ: اللهمَّ إني أسألكَ تَمامَ النِّعمة، فقال ﷺ: «وهل تَدري ما تَمام النعمة ؟» قال: لا. قال: «دخول الجنة».

وأما الوسائل فتنقسمُ إلىٰ الأقرب الأَخصِّ، كفضائل النفس، وإلىٰ ما يليه في القُرب، كفضائل البَدَن وهو الثاني، وإلى ما يليه في القُرب ويجاوز إلىٰ غير البدن، كالأسباب المُطيفَةِ بالبَدن في المال والأهل والعَشيرة، وإلىٰ ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النَّفس وبين الحاصلة على النفس، كالتوفيق والهِداية، فهي إذن أربعة أنواع:

النوع الأول، وهو الأَخصُّ: الفضائل النفسية، ويرجع حاصلها مع انْشِعابِ[١] أطرافها إلىٰ الإيمان وحسن الخلق، وينقسم الإيمان إلىٰ علم المُكاشَفة، وهو العلم بالله وصِفاته وملائكته ورُسُله، وإلىٰ علومِ المُعاملة، وحُسنِ الخُلق يَنقسم إلىٰ قِسمين: تَرك مُقتضىٰ الشَّهوة والغَضب، واسمه: العِفَّة. ومُراعاة العدل في الكَفِّ عن مُقتضىٰ الشَّهوات والإقدام حتىٰ لايمتنع أصلاً ولا يُقدم كيف شَاء، بل يكون إقدامُه وإحجامه بالميزان العَدل، فمن جَبَّ[٢] نفسه لتركِ شَهوةِ النكاح، أو تَركَ النّكاحَ مع القُدرة والأمن من الآفات، أو تركَ الأكلَ حتىٰ ضَعُفَ عن العبادة والذّكر

(١) في (ف): «استيعاب».
(٢) جَبَّ نفسه: قطع خصيتيه.

والفِكر فقد أَخْسَرَ الميزان، ومن انهمكَ في شَهوةِ البَطنِ والفَرْجِ، فَقد طَغَىٰ في الميزان، فإذن الفضائل الخاصَّة بالنَّفس المقرِّبةُ إلىٰ الله تعالىٰ علمُ مكاشفةٍ وعلمُ مُعامَلةٍ وعِفَّةٌ وعَدالةٌ، فلا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالنوع الثاني، وهي الفضائل البَدَنية وهي أربعةٌ: الصّحة والقُوّة والجَمال وطُول العمر، ولا تَتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنَّوع الثالث، وهو النِّعم المُطيفَةُ بالبَدن، وهي أربعةٌ: المالُ والأَهلُ والجاهُ وكَرمُ العَشيرة، ولا يُنتفع بشيءٍ من هذه الأسباب الخارجةِ والبَدنية إلا بالنَّوع الرابع، وهي الأسبابُ التي تجمع بينها وبين ما يُناسبُ الفَضائل النفسيةَ الداخلة، وهي أربعة: هِدايةُ الله، وإرشادُه، وتَسديدُه، وتأييده.

فمجموعُ هذه النّعم سِتَّ عشرةَ، قسمناها إلىٰ أربعةٍ، وقَسمنا كلَّ واحدٍ إلىٰ أربعةٍ، وهذه الجملةُ يحتاج البعض منها إلىٰ البعضِ إما حاجة ضروريةً أو نافعةً، أما الحاجة الضّرورية، كحاجة سَعادة الآخرة إلىٰ الإيمان وحُسن الخُلُق، إذ لا سَبيل للوصول إلىٰ سعادة الآخرة البتَّةَ إلا بهما، وليس لأحدٍ في الآخرة إلا ما تَزوَّدَ في الدنيا، وكذلك حاجةُ الفضائل النَّفسية ككَسبِ العلوم وتَهذيبِ الأخلاق إلىٰ صحّة البَدن ضروري، وأما الحاجةُ النافعةُ علىٰ الجملةِ، كحاجة هذه النِّعم النَّفسية والبَدَنية إلىٰ النِّعم الخارجة مثل المال والعِز والأَهل، فإن ذلك لو عُدِمَ ربما تطرَّق الخَلل إلىٰ بَعض النِّعم الداخلة.

فإن قيل: ما وَجهُ الحاجة لطريق الآخرةِ إلىٰ النِّعم الخارجة من المال والجاه والأَهل والعَشيرة؟

فاعلم أن هذه الأسباب جاريةٌ مَجرىٰ الجَناح المبلِّغ والآلةِ المسهِّلة للمَقصود، أما المال، فإن الفَقيرَ[١] في طلب العلم والكمال إذا لم تكن معه كِفايتهُ كساعٍ إلى الهَيْجا[٢] بغيرِ سلاح، وكَبازٍ[٣] يَرومُ الصيدَ بلا جَناح، ولذلك قال النبي ﷺ: «نِعمَ المالُ الصالح للرجل الصالح». وكيف لا ومَن عدم المالَ يصيرُ مستَغرقَ الأوقات

(١) تحرفت في النسخ إلى: «الفقيه»، والمثبت من الإحياء.
(٢) الهَيجا: ميدان الحرب.
(٣) الباز: ضرب من الصقور يستخدم في الصيد.

في طلبِ القُوتِ وفي تَهيئةِ اللِّباس والمَسكنِ وضرورات المَعيشة، ثم يتعرض لأنواعٍ من البَلاء والأذىٰ تَشغله عن الفِكر والذّكر لا تَندفع إلا بِسلاح المال، ثم يُحرمُ مع ذلك فَضيلةَ الحجِّ والزكاةِ والصَّدقات وإفاضةِ الخيرات، وقد قيل لبعض الحكماء: ما النَّعيم؟ فقال: الغِنَى، فإني رأيتُ الفَقير لا عيشَ له. قيل: زِدنا. قال: العافية، فإني رأيت المريضَ لا عيشَ له. قيل: زدنا. قال: الأمن، فإني رأيتُ الخائف لا عيشَ له. قيل: زِدْنا. قال الشباب، فإني رأيتُ الهَرِمَ لا عَيشَ له. وهذا الذي ذكره إشارة إلىٰ نعيم الدنيا، ولكنه من حيث إنه مُعينٌ علىٰ الآخرة فهو نِعمة.

وأما الأهل والولدُ الصالح فَلا يَخفى وَجهُ الحاجةِ إليهما، أما الزَّوجةُ؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «الدُّنيا كلُّها مَتاع، وخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا المرأةُ الصَّالحة». وقال في الولد: «إذا ماتَ العبدُ انقطعَ عملُه إلا من ثلاث: ولدٍ صالح يَدعو له...». وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النِّكاح، وأما الأقارب فإنهم إذا كثروا كانوا للإنسان مثلَ الأَعين والأَيدي له بهم من الأُمور الدنياوية المهمَّة في دينه ما لَو انفرد به لطالَ شُغله، وكلّ ما يُفرغ قلبَك عن ضرورات الدنيا فهو مُعينٌ علىٰ الدِّين، فهو إذن نِعمة.

وأما العزُّ والجاهُ فَبِهِ يَدفعُ الإنسانُ عن نَفسه الذُّلَّ والضَّيمَ، ولا يستغني عنه مسلم؛ لأنه لا ينفك من عدوٍ يُؤذيه وظالمٍ يُشَوِّشُ عليه عِلمه وعَمَله وفَراغه ويَشغل قَلبَه، وقلبُه رأسُ مالِهِ، وإنما تَندفع هذه الشَّواغل بالعِزِّ والجاه، قال الله عز وجل: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ [البقرة: ٢٥١]، ولا معنىٰ للجاه إلا مِلكُ القلوب، كما لا مَعنىٰ للغِنى إلا مِلك الدَّراهم، ومن مَلكَ القلوبَ تَسخَّر له أربابُها لدفع الأذىٰ عنه، وكما يحتاج الإنسان إلىٰ سقفٍ يَدفعُ عنه المَطر وجُبَّةٍ تَدفعُ عنه البَردَ، فكذلك يحتاجُ إلىٰ من يَدفع به الشرَّ عن نفسه، فكرمُ العَشيرة وشَرفُ الأهل من النِّعم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الأَئمةُ من قُريش». وقال: «إيّاكُم وخَضراء الدِّمَن» فقيل: وما خَضراءُ الدِّمَنِ؟ فقال: «المرأةُ الحَسَنَةُ في المَنبت السُّوء».

ولسنا نَعني بمدح العَشيرة الانتسابَ إلى الظَّلَمةِ وأَربابِ الدُّنيا، بل إلىٰ شجرةِ

رسولِ الله ﷺ، وإلىٰ أئمة العلماء، وإلىٰ الصالحين والأبرار، والمُزَيَّنين بالعلم والعمل.

فإن قيل: فما غَناءُ الفضائل البَدنية؟

فالجواب: إنه لا خَفاءَ بشدَّة الحاجة إلىٰ الصّحة والقُوة وإلى طول العمر، إذ لا يَتم علمٌ وعملٌ إلا بها، فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نِعمتانِ مَغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس، الصّحةُ والفَراغ». وأخبرنا الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزدي وأبو بكر الغُورْجي قالا: أخبرنا الجَرّاحي قال: أخبرنا المَحبوبي قال: حدثنا التِّرمذي قال: حدثنا عمرو بن علي قال: حدثنا خالد بن الحارث قال: حدثنا شُعبَةُ عن علي بن زَيد عن عبد الرحمن بن أبي بَكرَةَ عن أبيه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خَير؟ قال: «مَنْ طالَ عُمره وحَسُنَ عَمله» قال: أيُّ الناس شَرّ؟ قال: «مَن طالَ عُمره وساءَ عمله»[١]. قال الترمذي: هذا حديثٌ صَحيح.

فأما الجَمال فقَليل الغَناء، ولكنه من الخَيرات أيضاً، وأثره ظاهرٌ من ثلاثة أَوجه:

أحدها: أن القَبيح مذمومٌ والطِّباع عنه نافِرة.

والثاني: أنّ حاجات الجَميل إلىٰ الإجابة أَقرب وجاههُ في الصدور أكثر، فله بذلك نَوع قُدرةٍ، وكل مُعينٍ علىٰ قَضاء حاجاتِ الدنيا معينٌ علىٰ الآخرةِ بواسطتها.

والثالث: أنّ الجمال في الغالب يَدلُّ على فَضيلةِ النَّفس؛ لأن نورَ النفس إذا تَمّ إشراقه تأدّى إلىٰ البدَن، فالمَنظَر والمَخْبَرُ كثيراً ما يَتلازمان، ولذلك عوَّلَ أصحابُ الفراسَةِ في معرفة مكارمِ النَّفس علىٰ هَيْئات البَدَن، فقالوا: الوَجهُ والعَينُ مِرآة الباطن، ولهذا يَظهر فيهما أَثَرُ السُّرور والغَضبِ والغَمِّ، وقال بعضُ الحكماء: ما عَلىٰ وَجه الأرض قبيحٌ إلا وَوجهُهُ أحسن ما فيه. واستعرضَ المأمونُ جَيشاً فعُرِضَ عليه رجلٌ قَبيحٌ، فاستَنطقَه فإذا هو أَلْكَن[٢]، فأسقط اسمَه من الدِّيوان،

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠).

(٢) لَكِنَ فلانٌ لكناً ولُكنةً: عيٌّ وثقل لسانه.

وقال: إذا أشرقَت الرُّوحُ علىٰ الظَّاهرِ فَصَباحَةٌ، أو على البَاطِنِ فَفَصاحَة، وهذا ليس له ظاهرٌ ولا باطِن.

وقد روينا في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلُبوا الخيرَ عند حِسانِ الوُجوه».

وقال عُمر بنُ الخَطاب رضي الله عنه: إذا بَعثتُم رسولاً فاطلبوه حَسنَ الوَجه، حَسن الاسمِ.

ولسنا نَعني بالحُسن ما يُحرِّكُ الشَّهوة، فإن ذلك أنوثة، وإنما نَعني به ارتفاع القامةِ علىٰ الاستقامة مع الاعتِدال في اللَّحمِ وتَناسُبِ الأَعضاء بحيثُ لا تَنْبو الطِّباع عن النَّظر إليه.

فإن قيل: فقد جَعلتَ المالَ والجاهَ والنَّسبَ والأهلَ والولدَ في حَيّز النعم، وأكثرُها فتنةٌ!

فالجواب: إنها كلها نِعمٌ معينة على أمر الآخرة إلا أنَّ فيها فِتَناً، فمثالُ المالِ مثالُ الحيَّة التي فيها تِرْياق نافعٌ وسُمٌّ ناقع، فإنْ أَصابَها المُعَزِّمُ[1] الذي يَعرف وَجهَ الاحتراز من سُمِّها وطريقَ استخراج تِرياقِها النّافِع كانت نِعمة، وإن أَصابَها السَّوادي[2] الغِرُّ[3]، فهي عليه بَلاء وهَلاك، وهي مثل البَحر الذي تحتَه أصنافُ الجَواهر واللآلىء، فمن ظَفِر بالبَحر وكان عالماً بالسِّباحة والغَوص وطريق الاحتِراز من مُهلكات البَحر فقد ظفر بنعمةٍ، وإن خاضَه جاهلٌ به هلكَ، ولذلك مدح اللهُ تعالىٰ المالَ وسمّاه خيراً، ومَدحه الرسولُ ﷺ فقال: «نِعمَ المالُ الصالحُ للمرءِ الصالح». وكذلك مدحَ الجاهَ والعِزَّ إذْ مَنَّ اللهُ علىٰ رسوله بأن أَظْهَره على الدِّين كُلِّه وحَبَّبه إلىٰ قُلوب الناس، وهذا هو الجاه، وقد سبق الكلام في المال والجاه، وإنما يُحذِّر العَوام منهما مَخافةَ الهَلاك بسُمِّهما قَبل الوصول إلىٰ نفعهما، ولو كانا مَذمومين علىٰ الإطلاق لما انضافَ إلىٰ النُّبوة المُلكُ والغِنى.

---

(١) المُعَزِّم: الراقي الذي يقرأ العَزائم.

(٢) السوادي: المنسوب إلى السواد، وهو ما حول المدينة من القرى.

(٣) الغِرّ: الجاهل.

وحَقُّ كل مسافرٍ أن لا يحمل من الزادِ إلا بقدر حاجَته في سَفره إذا عزم علىٰ أن يختصَّ بما يحمله، فأما إذا سَمحت نفسُه بإطعام الطَّعام وتوسيع الزّادِ علىٰ الرُّفَقاء، فلا بأسَ بالاسْتِكثار، وقولهُ عليه الصلاة والسلام: «ليَكُن بَلاغُ أحدِكُم من الدُّنيا كَزادِ الرّاكبِ». مَعناه: لأنفسكُم خاصةً.

إذن النِّعمُ الدّنياوية مَشوبَةٌ قد امتزجَ داؤُها بدوائها، ومَرجُوُّها بِمَخوفها، ونَفعُها بِضُرِّها، فمن وَثق ببَصيرته وكمال مَعرفته فَله أن يَقرُبَ منها مُتَّقياً داءَها مُسْتَخْرِجاً دَواءَها، ومَن لا، فالفرار الفرار عن مَظانِّ الأَخْطار ولا يَعدل بالسَّلامة شيئاً.

فإن قيل: فما مَعنى النِّعم التَّوفيقية الراجعة إلى الهِداية والإرشاد والتأييد والتَّسديد ؟

فاعلم أنَّ التَّوفيق لا يَستَغني عنه أحدٌ، وهو عِبارة عن التَّأليف والتَّلفيق، وقد خُصَّ اسمُ التَّوفيق بما يُوافق السَّعادة من جُملة قَضاء الله تعالىٰ وقَدَره، كما أنَّ الإلحاد عِبارة عن المَيلِ، وقد خُصِّصَ بمن يَميل عن الحق إلىٰ البَاطل، ولا خَفاءَ بالحاجةِ إلىٰ التَّوفيق، ولذلك قيل:

إذا لم يَكُنْ عَونٌ من الله للفَتى ... فأكثرُ ما يجني عليه اجتهادُه

وأما الهِداية، فلا سبيل لأحدٍ إلىٰ طلب السَّعادة إلاَّ بها؛ لأن داعيةَ الإنسان قد تَكون مائلة إلىٰ ما فيه صَلاح آخِرته، ولكن إذا لم يَعلم ما فيه صلاحُ آخرته حتى يَظنّ الفسادَ صلاحاً فمِن أينَ تَنفَعه مجرَّد الإرادة ؟ فلا فائدة في الإرادة والقُدرة والأسبابِ إلا بعدَ الهِداية، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء﴾ [النور: ٢١].

وللهداية ثلاثُ منازل:

الأولى: مَعرفة طريق الخير والشر المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقد أنعم الله به علىٰ عباده كافَّة، فبعضه بالعقل وبعضه علىٰ لسان الرُّسل، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فأسبابُ الهُدَى هي الكُتُبُ والرُّسُلُ وبَصائرُ العقول، وهي مَبذولة لا يَمنعُ منها

إلا الكِبْرُ والحَسَد وحُبُّ الدنيا والأسبابُ التي تُعْمي القلوب، ومن جُملتها الإلفُ والعادةُ وحُبُّ استِصحابها، وإليه أُشير بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، **وقوله:** ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤] **فهذه المُعَمِّيات هي التي مَنعت الاهتِداء.**

والهداية الثانية: وراءَ هذه الهداية العامة، وهي التي يُمِدُّ الله تعالىٰ بها العبدَ حالاً بعد حالٍ، وهي ثمرة المُجاهدة حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

الهداية الثالثة: وراء الثانية، وهي النُور الذي يُشرق في عالم النُبوةِ والوِلايةِ بعد كمال المجاهدة، فيَهتَدي بها إلىٰ ما لا يُهتَدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تَعلُّم العُلوم، وهو الهُدَى المُطلق وما عداه حجابٌ له ومقدمات، وهو الذي شَرَّفه الله تعالىٰ بتَخصيص الإضافة إليه، وإن كان الكُلُّ من جهَته، فقال تعالىٰ: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ [الأنعام: ٧١]، وهو المسمىٰ: حياةً في قوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ [الزمر: ٢٢].

وأما الإرشادُ فنَعني به الإنعام الإلهي الذي يُعين الإنسان عند تَوجُّهه إلىٰ مقاصدِه، فيُقَوّيه على مافيه صَلاحُه ويُفَتِّره عَمَّا فيه فسادُه، وذلك من الباطن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]، فالرشد عبارةٌ عن هِدايةٍ باعثةٍ إلىٰ جهةِ السَّعادة محركةٍ إليها، فالصَّبي إذا بلغَ خبيراً بحفظ المال وطُرق التجارة والاستِنماء[1]، ولكنه مع ذلك يُبذِّر ولا يُريد الاستِنْماء لا يُسمى رَشيداً، لا لعدم هِدايته عن تحريك داعيته، فكم من شخصٍ يُقدِمُ علىٰ ما يَعلم أنَّه يَضرُّه، فقد أُعْطِيَ الهدايةَ ومُيِّز بها عن الجاهل الذي لا يَدري أنه يَضره، ولكن ما أُعطِيَ الرُّشْدَ، فالرُّشدُ بهذا الاعتبار أكمل من مجرَّد الهِداية إلىٰ وُجوه الأعمال، وهي نعمةٌ عظيمةٌ.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الاستمناء».

وأما التَّسديدُ، فهو تَوجيهُ حركاتِه إلىٰ صَوبِ المَطلوب وتَيسيرها عليه ليَسْتَدَّ في صَوبِ الصَّواب في أسرع وَقت، فإن الهِداية بمجرّدها لا تَكفي، بل لا بد من هدايةٍ محركة للدّاعية، وهي الرُّشد، والرُّشد لا يَكفي بل لا بد من تَيسير الحَركات بمساعدة الأَعضاء والآلات حتى يَتمَّ المُراد ممّا انبعَثت الداعية إليه، فالهداية مَحضُ التَّعريف، والرُّشدُ هو تَنبيهُ الدَّاعية لتَسْتَيقظ وتتحرك، والتَّسْديد إعانةٌ ونُصرَة بتحريك الأَعضاء في صَوبِ السَّداد.

وأما التَّأْييدُ؛ فكأنه جامعٌ للكل، وهو عبارة عن تَقويةِ البَصيرة من داخل وتقوية البَطش ومُساعدة الأسباب من خارج، وهو المراد بقوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]، ويقرب منه العِصمة، وهي عبارة عن جُودٍ إلٰهي يَسبحُ في الباطن يَقوَىٰ به الإنسانُ على تَحرِّي الخَيْر وتَجنُّب الشَّرّ حتى يصير كمانع من باطِنه غير مُحَسٍّ، وإياه عُني بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: ٢٤].

فهذه هي مَجامعُ النِّعم ولن تَسْتَتبت إلا بمايُخوّلُه الله عزَّ وجلَّ من الفَهم الصافي الثاقب، والسَّمعِ الواعي، والقَلبِ البَصير المتواضع المُراعي، والمعلمِ النَّاصحِ، والمالِ الزَّائد علىٰ ما يقصر عن المهمات بقلبه القاصر عن ما يشغل عن الدين بكثرته، والعِزّ الذي يصونه عن سَفَه السُّفَهاء وظُلم الأعداء.

ويستدعي كلّ واحدٍ من هذه الأسباب السِتّة عشر سبباً، وتستدعي تلك الأسباب أسباباً إلىٰ أن يَنتهي آخرها إلىٰ مُسَبِّب الأسباب، وإذا كانت تلك الأسباب لا يَحتمل الكتاب استقصاءَها، فلنذكر منها كالأُنموذَج يُعلَمُ به معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨].

بَيانُ وجهِ الأُنموذج في كَثرةِ نِعم اللهِ تَعالىٰ وتَسَلسُلها وخروجها عن حَد الحَصر والإحصاء

اعلم أنا جَمعنا النِّعم في سِتّة عشر ضَرباً، وجعلنا صحَّة البَدن نعمةً من النِّعم الواقعة في الرُّتبة المتأخِّرة، فهذه النعمة الواحدة لو أَردنا أن نَسْتَقصي الأسبابَ التي

تمَّت هذه النِّعمة بها لم نَقدر عليها، ولكن الأكل أَحدُ أسباب الصّحة، فلنذكر نُبذةً من جُملة الأَسباب التي بها تَتمُّ نعمة الأكل، فلا يَخفَى أن الأكلَ فعلٌ، وكل فعلٍ من هذا النّوع فهو حَركة، وكل حركةٍ فلا بدّ لها من جِسم مُتحرّك هو آلتُها، ولا بد لها من قُدرةٍ علىٰ الحركة، ولا بد من إرادة للحركة، ولا بد من علم بالمُراد وإدراكٍ له، ولا بُدَّ للأكلِ من مأكولٍ، ولا بد للمأكول من أصلٍ منه يَحصُل، ولا بد له من صانعٍ يُصلحه، فلنذكر أسبابَ الإدراك، ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القُدرة، ثم أسبابَ المأكول علىٰ سَبيل التَّلويح لا علىٰ سبيل الاستِقصاء.

الطرف الأول في نِعَم اللهِ تعالىٰ في خَلقِ أسبابِ الإدراك

اعلم أن الله تعالىٰ خلقَ النَّبات، وهو أكرم وجوداً من الحجرِ والمَدَر والحَديد والنحاس وسائر الجَواهر التي لا تَنمو ولا تَغتَذي، فإن النَّبات خُلق فيه قُوةٌ بها يَجتذبُ الغِذاء إلىٰ نَفسِه من جهةِ أصله وعُروقه التي في الأرض، ثم يَجتذبُ ذلك من العروق الدقيقة التي تَراها في كل ورقةٍ تَغلظُ أصولها، ثم تَتَشعَّب ولا تزالُ تَستَدقُّ وتتشعَّب إلىٰ عروقٍ شَعريةٍ تَنبسط في آخرِ الورقة حتىٰ تَغيبَ عن البَصَر، إلا أنَّ النبات مع هذا الكمال ناقص، فإنه لو أَعْوَزهُ غِذاءٌ يُساق إليه ويُماسُّ أصلَه جَفَّ ويَبِسَ، ولم يمكنه طلبُ الغِذاء من مَوضعٍ آخر، فإن الطلب إنما يكون بمعرفةِ المَطلوب والانتقالِ إليه، والنَّبات عاجزٌ عن ذلك، فمن نعمة الله تعالىٰ عليكَ أن خلقَ لك آلةَ الإحساس وآلةَ الحركة في طلب الغذاء، فانظر إلىٰ ترتيبِ حِكمةِ الله تعالىٰ في خَلق الحَواسّ الخَمس التي هي آلةُ الإدرك:

فأولها: حاسَّة اللَّمس، وإنما خُلقت لكَ حتىٰ إذا مَسَّتكَ نارٌ مُحرقةٌ أو سَيفٌ جارحٌ تُحسُّ به فتَهرب منه، وهو أول حِسٍّ يُخلق للحيوان، ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحِسّ؛ لأنه إذا لم يُحس أصلاً فليسَ بحيوان، وأنقصُ دَرجات الحسِّ أَنْ يُحسّ بما يُلاصِقُه ويُماسُّه، فإن الإحساسَ بما يَبعد منه إحساسٌ أتم لا محالة، فافتقرتَ إلىٰ حسٍ تُدرِكُ به ما بَعدَ عنك فخلقَ لك الشَّمَّ، إلا أنكَ تُدرك به الرائحةَ ولا تَدري من أيِّ ناحيةٍ جاءَت، فتحتاجُ إلىٰ أن تَطوفَ كثيراً من الجوانب

فربما تَعثُر على الذي شَمَمْتَ رائحتَه، وربما لم تَعثُر، فتكون في غاية النُّقصان، لو لم يَخلق لك إلا هذا، فخلقَ لك البَصَر لتُدرك به ما بَعُدَ عنك، وتُدرك جِهَتَه فَتقصد تلك الجهة بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنتَ ناقصاً، إذ لا تدرك بهذا ما وراءَ الجُدرانِ والحُجُبِ، فتُبصر غذاءً ليس بينَك وبينه حجابٌ، وتُبصر عدواً لا حجاب بينكَ وبينه، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قُربِ العدو فتَعجز عن الهرب، فخلق لك السَّمعَ حتىٰ تُدرك به الأَصوات من وراء الحُجُرات عند جَريان الحركات، ولأنك لا تُدرك بالبَصَر الأشياء حاضراً، وأما الغائب فلا يُمكنك معرفته إلا بكلامٍ يُدرك بحسِّ السَّمع، فاشتدت إليه حاجتك، فخلق لك ذلك ومُيِّزْتَ بفَهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يُغنيكَ لو لم يكن لك حِسُّ الذَّوق، إذ قد يصل الغذاءُ إليكَ فلا تُدركُ أنه موافق لك أو مُخالف، فتأكله فتهلك، كالشجرةِ يُصبُّ في أصلها كلُّ مائع ولا ذَوقَ لها فَتجذبه، وربما يكون سببَ جفافها، ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يُخلَق في مقدمة دِماغك إدراك آخر يُسمّى حِساً مُشتركاً تتأدى إليه هذه الحواسّ الخمس وتجتمع فيه، ولولاه لطال الأمرُ عليك، فإنك إذا أكلتَ شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مُرّاً مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرةً أخرى تعرف أنه مُضر ما لم تَذقه ثانياً لولا الحس المشترك إذ العَين تُبصر الصُّفرة ولا تُدرك المرارة فكيف تمتنع عنه ؟ والذوق يُدرك المرارة ولا يدرك الصُّفرة، فلا بد من حاكمٍ تجتمع عنده الصُّفرة والمرارة جميعاً حتى إذا أدركَ الصفرة حَكمَ بأنه مُرٌّ فيمتنع عنْ تناوله ثانياً، وهذا كله تُشاركك فيه الحيوانات؛ إذ للشّاة هذه الحواس كلها، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنتَ ناقصاً، فإن البهيمةَ يُحتال عليها فتؤخذ ولا تَدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها، وكيف تتخلص إذا قُيِّدَت، وقد تُلقي نفسهافي بئر ولا تدري أن ذلك يُهلكها، وكذلك قد تَأكل البَهيمةُ ما تَستلذه في الحال ويَضرها في ثاني الحال فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، فأما إدراك العواقب فلا، فميَّزكَ الله تعالىٰ وأكرمكَ بصفةٍ أخرى وهي أشرف من الكل وهو العقل، فبه تُدرَك مَضرَّة الأطعمة ومَنفعتها وما يضرُّ في المآل، وبه تُدركُ طَبخَ الأطعمةِ وتأليفها وإعدادَ أسبابها، فتَنتفعُ بعقلكَ في الأكل الذي هو سببُ صحتك وهو أَخَسُّ فوائد العقل

وأقل الحِكم فيه، بل الحكمةُ الكُبرى فيه معرفةُ الله تعالىٰ ومعرفةُ أفعاله، وعند ذلك تَنقلب فائدة الحواس في حقك، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكَّلين بنواحي المملكة، وقد وُكِّلَت واحدةٌ منها بأخبار الألوان، والأخرى بأخبار الأصوات، والأخرى بأخبار الروائح، والأخرى بأخبار الطعوم، والأخرى بأخبار الحرِّ والبَرد والخُشونة والمَلاسة واللِّين والصَّلابة، وهؤلاء البُرُد والجواسيس يَقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويُسلمونها إلى الحسِّ المشترك، والحسُّ المشترك قائم في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص على باب الملك، يجمع القصص والكُتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة، إذ ليس له إلا أخذها وحفظها، فأما معرفة حقائق ما فيها فلا، ولكن إذا صادف القلب الذي هو المَلِك سلَّمها إليه مختومة، فينظر فيها الملك ويطّلع على أسرار المملكة، ويحكم فيها بأحكامٍ عجيبة وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يُحرك الجنودَ، وهي الأعضاء، مرةً في الطلب ومرةً في الهرب، ومرة في إتمام التدبيرات التي تَعِنُّ له.

فهذه سياقةُ نعمة الله عليك في الإدراكات، ولا تظننَّ أنا استَوفيناها، فإن الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات، والبَصر واحد من جملة الحواس، والعَين آلة له، وقد رُكبت العينُ من عَشر طبقات مختلفة، بعضها رطوبات، وبعضهاأغشية، وبعضُ الأغشية كأنها نسيج العنكبوت، وبعضها كالمشيمة، وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجَمَد، ولكل واحدةٍ من الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وتَدوير وتركيب، لو اختلفت طبقة واحدة من جُملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختلَّ البَصر وعجز عنه الأطباء كلهم.

فهذا في حِسٍّ واحدٍ، فَقِسْ عليه حاسة السَّمع وسائر الحواس، بل لا يمكن أن تَسْتَوفيَ حِكَمَ الله تعالىٰ وأنواعَ نِعَمِهِ في جسمِ البصرِ وطبقاته في مجلداتٍ كثيرةٍ مع صِغَرِ حجمه، فكيف ظنك بجميع البدن ؟ فهذه مَرامِزُ إلى نِعَمِ اللهِ تعالىٰ في خَلقِ الإدراكات.

الطرف الثاني

في أصناف النعم في خَلق الإرادات

اعلم أنه لو خُلِقَ لكَ البصرُ حتىٰ تُدركَ به الغِذاء من بُعْدٍ ولم يُخلَقْ لكَ مَيْلٌ في الطَّبع والشَوقُ إليه وشَهوةٌ له تَسْتَحِثُكَ علىٰ الحركة، لكانَ البصرُ معطَّلاً، فكم من مريضٍ يَرىٰ الطَّعامَ وهو أَنفع الأشياء له وقد سَقطت شَهوتُه فلا يَتناوله، فيبقىٰ البصرُ معطلاً في حَقِّه، فاضطررتَ إلىٰ أن يكونَ لك مَيلٌ إلىٰ ما يُوافقك يُسمَّى شَهوةً، ونُفْرة عَمَّا يُخالفك تُسَمّىٰ كَراهةً، لتطلب بالشَّهوة وتَهرب بالكراهة، فخلقَ اللهُ تعالىٰ فيكَ شهوةَ الطَّعام وسلَّطها عليكَ ووكلها بك، كالمتقاضي الذي يَضطركَ إلى التَّناول حتىٰ تَتناول وتَغتَذي، فتَبقىٰ بالغذاء وهذا مما يُشاركُكَ فيه الحيوان دونَ النَّبات، ثم هذه الشَّهوة لو لم تَسْكُنْ إذا أَخذتَ مقدار الحاجةِ أَسرفْتَ وأهلكْتَ نَفسك فخلقَ الله تعالىٰ الكراهةَ عند الشّبَع لتَتركَ الأكل بها، لا كالزَّرعِ، فإنه لا يزال يَجتذبُ الماء إذا انْصبَّ في أسافله حتىٰ يَفسد، فيحتاج إلىٰ آدمي يُقَدِّر غذاءَه بقَدر الحاجة، فَيَسقيه مرةً ويقطع عنه الماء أُخرىٰ، وكما خَلَق لكَ هذه الشهوة حتى تأكلَ فيبقى به بَدنُك خلق لكَ شَهوةَ الوِقاع حتىٰ تُجامِعَ فيبقىٰ به نَسْلُكَ.

ولو قَصصنا عليكَ عجائبَ صُنعِ اللهِ تعالىٰ في خَلق الرَّحِم، وخَلقِ دمِ الحَيض، وتأليف الجَنين من النُّطْفةِ والحيض، وكيفية خلق الأُنثَيين والعُروق السالكةِ إليها من الفَقار الذي هو مُستَقر النُّطفة، وكيفية انْصِبابِ ماء المَرأةِ من التَّرائِب بواسطة العُروق، وكيفية انقِسام مَقْعَرِ الرَّحِم إلىٰ قَوالب تَقعُ النُّطفة في بَعضها فتتشكَّل بشكل الذكور، وتَقعُ في بَعضها فَتَتشكَّل بشكل الإناث، وكيفية إدارتها في أَطوار خَلْقها مُضغةً، ثمَّ عَلَقةً، ثم عَظماً ولَحماً ودماً، وكيفية قِسمة أجزائها إلىٰ رَأْسٍ ورجلٍ وبَطن وظَهرٍ ويَدٍ وسائر الأعضاء، لقضَيتَ من أنواع نِعَم اللهِ عليكَ في مَبدأ خَلقكَ كلَّ العَجَب، فضلاً مما تراه الآن، ولكنَّا لسنا نُريد أن نَتعرَّض إلا لنعمِ اللهِ تعالىٰ في الأكلِ وَحده كي لا يَطول الكلام.

فإذن شَهوةُ الطَّعام أحد ضُروبِ الإرادات وذلك لا يَكفيك، فإنه تأتيكَ

المُهلِكات من الجوانب، فلو لم يُخلق فيك الغَضَبُ الذي به تَدفع كلَّ ما يُضادّك ولا يوافِقك لبقيت عُرضةً للآفات، ولأُخِذَ منك كلُّ ما حصَّلته من الغذاء، فإنّ كل أحدٍ يشتهي ما في يَديك، فَتَحتاج إلىٰ داعيةٍ في دفعِه ومُقاتَلته وهي داعية الغضب، ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغَضب لايَدعوان إلاّ إلى ما يَضرُّ ويَنفعُ في الحال، أمّا في المآل فلا تكفي فيه هذه الإرادة، فخلقَ اللهُ تعالىٰ لك إرادةً أخرىٰ مُسخَّرة تحتَ إشارة العَقل المُعَرِّفِ للعواقب، كما خلقَ الشهوة والغضب مُسَخَّرة تحت إدراك الحسِّ المدرِكِ للحالة الحاضرة، فَتَمَّ بها انتفاعُكَ بالعقل، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشَّهوة مثلاً تضرُّكَ لا يُغنيكَ في الاحتراز عنها ما لم يَكُن لكَ مَيلٌ إلىٰ العمل بموجِبِ المَعرفةِ، وهذه الإرادةُ أُفرِدتَ بها عن البَهائم إكراماً لبني آدم، كما أُفْرِدتَ بمعرفةِ العَواقب، وقد سَمَّينا هذه الإرادةَ باعثاً دينياً وفَصَّلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أَوْفَى مِن هذا.

الطرفُ الثالث في نِعَم اللهِ تعالىٰ في خَلقِ القُدرَة وآلاتِ الحركَة

اعلم أنَّ الحسَّ لا يُفيد إلا الإدراك، والإرادة لا معنىٰ لها إلا المَيل إلى الطَّلب أو الهَرب، وهذا لا كِفاية فيه ما لم تكن فيكَ آلةُ الطَّلب والهَرب، فكم من زَمِنٍ[١] مُشتاقٍ إلىٰ بَعيدٍ عنه مُدركٍ له لكنه لا يُمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يَده أو لِخَدَرٍ فيها، فلا بد من آلاتٍ للحركة، وقُدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمُقتَضىٰ الشَّهوة طلباً، وبمقتضىٰ الكراهة هَرباً، فلذلك خَلقَ لك الأعضاءَ التي تَنظرُ إلىٰ ظاهرها ولا تَعرفُ أسرارَها، فمنها ما هو للطلب، كالرِّجلِ للإنسان، والجَناح للطير، والقَوائم للدَّواب، ومنها ما هو للدَّفع، كالأسلحةِ للإنسان، والقُرون للحيوان، وفي هذا يختلفُ الحيوانات اختلافاً كثيراً، فمنها ما يكثر أعداؤه ويَبعدُ غِذاؤه فَيحتاج إلىٰ سُرعةِ الحركة، فخلقَ له الجَناح ليطير بسُرعةٍ، ومنها ما خُلقَ له أربعُ قوائم، ومنها ماله رِجْلان، ومنها مايَدِبُّ، وذِكرُ ذلك

(١) الزَّمِن: المريض الذي يطول به مرضه زمناً طويلاً.

يَطول، فلنذكر الأعضاء التي يَتمُّ بها الأكل فقط ليقاس عليها غيرها.

فنقول: رُؤيتكَ الطَّعام من بُعدٍ وحَركتك إليه لا تكفي ما لَم تَأخذه، فافتقرتَ إلىٰ آلةٍ فأنعمَ اللهُ عليكَ بخلقِ اليَدين فتَمْتَدّانِ إلى الأَشياء، وهما مُشتملتان علىٰ مَفاصل كثيرة لتتَحركَ في الجِهات فتَمتد وتَنثني إليك، ولا تكون كَخشبةٍ مَنصوبة، ثم جعلَ رأسَ اليَدِ عريضاً لخلقِ الكَفِّ، ثم قسم رأسَ الكَفِّ بخمسة أقسام هي: الأصابع، وجعلها في صَفَّين بحيث يكون الإبهام في جانبٍ ويدور علىٰ الأربع البواقي، ولو كانَت مجتمعةً أو متراكمةً لم يَحصل بها تَمامُ غَرضِكَ، فوَضَعَها وَضْعاً إن بَسطتَها كانت لك مِجْرفَةً، وإن ضَمَمْتَها وثَنَيتها كانت لك مِغْرَفةً، وإن جَمعتَها كانت لكَ آلةً للضرب، وإذا نَشرتَها ثم قَبضتها كانت لك آلةً في القَبضِ، ثم خلقَ لها أظفاراً وأسندَ إليها رؤوسَ الأصابع حتىٰ لا تَتفتت وحتىٰ تَلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أَظافرك.

ثم هَبْ أنَّك أخذتَ الطعام باليد، فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلىٰ المعدة وهي في الباطن؟ فلا بد أن يكون من الظاهر دِهليزٌ إليها حتىٰ يَدخل الطعام منه، فجعلَ الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحِكم الكثيرة سوىٰ كونه مَنفذاً للطعام إلىٰ المعدة، ثم إن وضعتَ الطَّعام في الفَم وهو قِطعة واحدة لم يَتيسَّر ابتلاعه، فتَحتاج إلى طاحونةٍ تَطحنُ بها الطعامَ فخلق لك اللَّحْيَين من عَظمين وركَّب فيهما الأسنان وطبق الأضراسَ من العُليا علىٰ السُّفلىٰ لتَطحن بها الطعام طحناً، ثم الطعام تارةً يحتاج إلىٰ الكسرِ، وتارة إلى القَطع، ثم يحتاجُ إلى الطَّحن بعد ذلك، فقسم الأسنان إلىٰ عَريضةٍ طواحن كالأَضراس وإلىٰ حادَّة قَواطع كالرَّباعِيات[١] وإلى ما يَصلح للكَسر كالأنياب ثم جعل مَفْصِل اللَّحْيين مُتخلخلاً بحيث يتقدَّم الفَكُّ الأسفل ويتأخَّر حتىٰ يدور على الفَكِّ الأعلىٰ دَوَران الرَّحَىٰ ولولاه لم يتيسَّر إلا ضَربُ أحدهما علىٰ الآخر، مثل تصفيق اليدين مثلاً، وبذلك لا يتم الطَّحنُ، فجعل اللَّحْيَ الأسفل مُتحركاً حركةً دورية واللَّحْيَ الأعلىٰ ثابتاً لا يتحرك، فانظر إلىٰ

(١) الرَّباعيات: جمع رباعية، وهي السن بين الثنية والنَّاب، وهي أربع.

عجيب صُنعِ الله تعالىٰ فإن كل رَحى صَنعها الخلقُ يثبت منها الحجر الأسفل ويَدور الأعلىٰ، إلا هذه الرَّحىٰ التي صنعها الله تعالىٰ، فإنه يدور منها الأسفل علىٰ الأعلىٰ، إذ لو دار الأعلىٰ خُوطِرَ بالأعضاء الشَّريفة التي يحتوي عليها.

ثم هَبْ أنكَ وَضَعْتَ الطعامَ في فَضاء الفَم، فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان؟ أو كيفَ تَستجِرُّه الأَسنانُ إلىٰ نفسها؟ أو كيف ينصرف باليد إلى داخل الفم؟ فانظر كيفَ أنعمَ اللهُ عليكَ بخَلقِ اللِّسان، فإنه يَطوف في جوانب الفَم ويردُّ الطعامَ من الوَسط إلىٰ الأَسنان بحَسب الحاجة، كالمِجرَفَة التي تَردُّ الطعامَ إلى الرَّحىٰ، هذا مع ما فيه من فائدة الذَّوق وعجائب قُوة النُّطق التي لسنا نُطنِبُ[1] بذكرها.

ثم هب أنك قطعتَ الطعامَ وطَحنتَه وهو يابسٌ فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن يَنْزَلِقَ على الحَلق بنوعِ رُطوبةٍ، فانظر كيفَ خلقَ اللهُ تعالىٰ تحتَ اللِّسان عَيناً يَفيضُ اللُّعاب منها ويَنصَبُّ بقَدرِ الحاجَةِ حتىٰ يَنعَجِنَ به الطَّعام، فانظر كيف سَخَّرها لهذا الأمر، فإنك ترىٰ الطعامَ من بُعدٍ فيثور الحَنكانِ للخِدمة ويَنصبُّ اللُّعابُ حتى تَتَحلَّب أَشْدَاقُكَ والطعامُ بَعدُ بَعيد منكَ.

ثم هذا الطعام المطحون المُنعجن مَن يوصله إلىٰ المعدة وهو في الفم؟ ولا تقدر علىٰ أن تدفعه باليد، ولا في المعدة يَدٌ تَمتدُّ فتجذبه، فانظر كيف هيَّأ الله تعالىٰ المَريء والحُنجرةَ، وجعل علىٰ رأسها طَبقات تَنفتح لأَخذِ الطَّعام ثم تنطبق وتَنْضَغِطُ حتىٰ يَنقلب الطعام بضَغطه فيهوي إلىٰ المعدة في دِهليز المريء، فإذا ورد الطعامُ على المعدة، فهو خبزٌ وفاكهةٌ مقطعة، فلا يصلح أن يصير لحماً وعظماً ودَماً علىٰ هذه الهَيئة، بل لا بد أن يُطبخ طَبخاً تاماً، فخلق الله تعالىٰ المعدة علىٰ هَيئة قِدرٍ فيقع فيها الطعام، فتحتوي عليه وتُغلق عليه الأبواب، فلا يَزال لابثاً فيها حتىٰ يَتمَّ الهَضم والنُّضج بالحَرارة التي تُحيط بالمعدة من الأَعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكَبِد، ومن الأَيْسر الطّحال، ومن قُدَّامِ الثَّرْب[2]، ومن خَلفٍ لحم الصُّلب،

(١) في (ف): «نطيل».

(٢) الثَّرب: شحم رقيق يُغشي الكرش والأمعاء.

فتتَعدى الحرارةُ إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتىٰ يَنطبخ الطعام ويصير مائعاً مُتشابهاً يصلح للنفوذِ في تجاويف العروق، وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقَّتِهِ وهو بعدُ لا يصلح للتغذية، فخلقَ الله تعالىٰ بينها وبين الكبد مجاري من العروق، وجعل لها فوهاتٍ كثيرة حتىٰ يَنصبَّ الطعام فيها فينتهي إلىٰ الكَبد، والكبد معجونة من طينةِ الدم حتىٰ كأنها دَم، وفيها عروق كثيرة شعريةٌ مُنتشرة في أجزاء الكَبد، فينصبُّ الطعام الرَّقيق النافِذُ فيها وينتشر في أجزائها حتىٰ تَستولي عليه قوةُ الكَبد فتَصبغه بلون الدَّم، فيستقر فيها ريثما يصلح له نُضجٌ آخر ويَحصل له هيئةُ الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء.

إلا أنَّ حرارةَ الكبد هي التي تُنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فَضْلَتان، كما يتولد من جميع ما يُطبخ: إحداهما شَبيهةٌ بالدُّرْدِيِّ(١) والعَكَر وهو الخِلْطُ السَّوداوي، والأخرىٰ شَبيهةٌ بالرَّغوة، وهي الصَّفراء، ولو لم تُفْصَل هاتان الفَضْلتان فَسَد مزاجُ الأعضاء، فخلق الله تعالىٰ المرارة والطِّحال، وجَعل لكلٍّ واحدٍ منهما عُنُقاً ممدوداً إلىٰ الكبد داخلاً في تَجويفه فتَجذِبُ المَرارةُ الفَضلة الصَّفراء، ويَجذبُ الطِّحالُ العَكَر السَّوْداوي، فيبقىٰ الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رِقَّةٍ ورطوبةٍ لما فيه من المائيَّة ولولاها لما انتشرَ في تلك العُروق الشَّعرية، ولا خرجَ منها مُتصاعداً إلىٰ الأعضاء، فخلق الله تعالىٰ الكُلْيَتَينِ وأخرجَ من كلٍّ واحدةٍ عُنقاً طويلاً إلىٰ الكَبِد، ومن عجائب حِكمةِ الله تعالىٰ أن عنقهما ليس داخلاً في تَجويف الكَبِد بل هو مُتصل بالعروق الطالعةِ من حَدبة الكبد حتىٰ يجذب مائيّتها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد، إذ لو اجتُذِبَ قَبل وذلك لَغَلُظَ ولم يَخرُج من العُروق، فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدَّم صافياً من الفَضَلات الثلاث نَقياً من كل ما يفسد الغِذاء، ثم إنّ الله تعالىٰ أطلع من الكبد عُروقاً ثم قَسمها بعد الطلوع أقساماً وشَعبَ كلَّ قسمٍ بشعب وانتشر ذلك في البدن كلّه من القَرنِ إلىٰ القَدم ظاهراً وباطناً، فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى جَميع الأعضاء حتى تَصير العروقُ المنقسمة شعرية كَعروقِ الأَوراق والأَشجار بحيث لاتُدرَكُ بالأَبصار، فيَصلُ منها الغذاءُ بالرَّشحِ إلىٰ جَميع

---

(١) الدُّردي: ما يتبقى في أسفل الزَّيت.

الأَعضاء، ولو حَلَّت بالمَرارةِ آفةٌ لفسدَ الدمُ وحصلت منه الأمراض الصَّفراوية كاليَرقان[١] والبُثور والحُمرَة، وإن حَلَّت بالطّحال آفةٌ فلم يَجذب الخِلْطَ السَّوداوي حدثت الأمراض السَّوداوية كالبَهَقِ[٢] والجُذَام[٣] والماليخوليا[٤] وغير ذلك، وإن لم تَندفع المائيَّة نحو الكُلَىٰ حدثَ منه الاستِسقاء وغيره.

ثم انظُر إلىٰ حِكمةِ الفاطِر الحَكيم كَيفَ رتَّب منافع هذه الفَضَلات الثلاث الخَسيسة؛ أما المَرارة، فإنها تَجذبُ بأَحد عُنقيها وتَقذف بعنقٍ آخر إلىٰ الأمعاء ليحصل له في ثُفْلِ الطَّعام رُطوبةٌ مُزَلِّقةٌ، ويحدث في الأمعاء لَذعٌ يُحركها للدفع فتضغط حتىٰ يَندفع الثُّفْلُ ويَنزلق، وتكون صفرته لذلك، وأما الطِّحالُ فإنه يُحيل تلكَ الفَضلة إحالةً يحصل بها فيه حموضةٌ وقبضٌ، ثم يُرسل منها في كل يومٍ شيئاً إلىٰ فم المَعدة، فيُحركُ الشَّهوةَ في حموضته ويُنَبِّهُها ويُثيرها ويخرج الباقي مع الثُّفْل. وأما الكُلْية؛ فإنها تَغْتذي بما في تلك المائية من دَمٍ وتُرسلُ الباقي إلىٰ المَثانة.

ولنقتصر علىٰ هذا القَدر من بَيان نعم الله تعالىٰ في الأسباب التي أُعدت للأكل، ولو ذكرنا كيفية احتِياجِ الكَبد إلىٰ القَلبِ والدِّماغ، واحتياجِ كلٍّ واحدٍ من هذه الأعضاء الرَّئيسَةِ إلىٰ صاحبه، وكيفية انْبعاثِ العُروق الضَّوارب من القَلب إلىٰ جَميع البَدن التي بواسطتها تصل الروح، وكيفية انشِعاب الأعصاب[٥] من الدِّماغ إلىٰ جَميع البَدن وبواسطتها يَصل الحِس، وكيفية انشِعاب العُروق السَّواكن من الكَبِد إلىٰ جميع البدن وبواسطتها يصل الغذاء، ثم كيفية تركيب الأعضاء وعَدد عِظامِها وعَضَلاتِها وعُروقها وأَوتارها ورِباطاتها وغَضَاريفها ورُطوباتها لطالَ الكلامُ، وكل ذلك يُحتاج

---

(١) اليرقان: حالة مرضية تمنع الصفراء من بلوغ المِعَى بسهولة فتختلط بالدم فتصفر لذلك أنسجة الحيوان.

(٢) البَهَق والبُهاق: داء يذهب بلون الجلد فتظهر فيه بقعٌ بيض.

(٣) الجُذام: علة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط.

(٤) الماليخوليا: مرض يؤدي إلى تَشوُّش الفِكر، وسوء الخُلق، وفساد الظنون، وكثرة التخيلات، والخوف والتخليط في الكلام والتصرفات. تذكرة أولي الألباب ٣/ ١٤٩، القانون لابن سينا ٢/ ٦٥، مفاتيح العلوم: ١٣١.

(٥) تحرفت في الأصل إلى: «الأعضاء».

إليه للأكل ولأمورٍ أخرى سواه، بل في الآدمي من الفَضَلات والعروق والأعصاب ما لا يُحصى مختلفة بالصِّغَر والكِبَر والدِّقة والغِلَظ وكثرة الانقِسام وقلّتِه، ولا شيء منها إلا وفيه حِكمةٌ بَل حِكَمٌ، وكل ذلك نِعمٌ من الله تعالىٰ عليك، ثم لو سَكَنَ من جُملتِها عِرقٌ متحركٌ أو تَحركَ عرقٌ ساكِنٌ لهلكتَ يا مِسكين، فانظر إلىٰ نِعمةِ الله تعالىٰ أولاً لتَقوى علىٰ الشكر، فإنك لا تَعرف من نعمةِ الله عزَّ وجلَّ إلا الأكلَ، وهي أَخَسُّها، ثم لا تَعرف منها إلا أنكَ تجوعُ فتأكل، والبهيمةُ أيضاً تعلمُ أنها تجوع فتأكل، وتتعب فتنام، وتشتهي فتُجامِع، وتَستريحُ فتَرمَح(١)، فإذا لم تَعرف أنتَ من نفسك إلا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله تعالىٰ ؟

وهذا الذي رَمزنا إليه علىٰ الإيجاز قَطرةٌ من بحرٍ واحدٍ من بحارِ نِعَم الله عزَّ وجل، فقِس علىٰ الإجمال ما أَهملناهُ من جملة ما عَرفناه حذراً من التَّطويل، وجُملة ما عَرفناه وعرفَه الخلقُ كلُّهم بالإضافة إلىٰ ما لم يَعرفوه من نِعم الله تعالىٰ أقل من قَطرةٍ من بحرٍ واحدٍ، إلا أنَّ من علم شيئاً من هذا أدرك شَمَّةً من معاني قول الله تعالىٰ: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١١١].

ثم انظر كيفَ بسطَ اللهُ تعالىٰ قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها بِبُخارٍ لطيفٍ يَتصاعَدُ من الأَخْلاط الأربعة ومُستقرُّه القَلب، ويسْري في جميع البدن بواسطة العروق الضَّوارب فلا يَنتهي إلىٰ أجزاء البَدَن إلا ويَحدثُ عند وصوله في تلك الأجزاء ما تَحتاجُ إليه من قُوةِ حِسٍّ وإدراكٍ وقوةِ حركةٍ وغير ذلك، كالسِّراج الذي يُدارُ في أطرافِ البَيتِ، فلا يَصلُ إلىٰ جزءٍ إلا ويَحصل بسبب وصوله ضَوءٌ علىٰ أجزاء البيت من خَلق الله واختراعه، ولكنه جعلَ السِّراج سَبباً له لحكمته، وهذا البُخارُ اللَّطيفُ هو الذي يُسمّيه الأَطباء: الرُّوح، ومحلُّه القَلب، ومثاله جِرْمُ نارِ السِّراج والقَلبُ له كالمِسْرَجة، والدَّم الأسود الذي في باطن القَلب له كالفَتِيلةِ، والغذاء له كالزَّيت، والحياةُ الظاهرة في جميع البَدن بسببه كالضوء للسِّراج في جملة البيت، وكما أنَّ السراج إذا انقطعَ زَيتُه انْطَفأ، فسِراجُ الرُّوح أيضاً يَنطفىء إذا انقطع غِذاؤه، كما أن الفَتيلة قد تَحترق وتَصير رماداً بحيث لا تَقبل الزيتَ قَبولاً تتشبَّثُ

(١) رمحت الدابة: رَفست برجليها.

النارُ به، وكما أن السراج نارُه تَنْطفىء تارةً بسببٍ من داخلٍ كما ذكرنا، وتارةً بسببٍ من خارجٍ كريحٍ عاصفةٍ، فكذلك الروح تارةً تَنْطفىء بسببٍ من داخلٍ، وتارةً بسببٍ من خارجٍ، وهو القَتل، وكما أن انْطِفاء السِّراج لا يكون إلا بأسبابٍ مقدَّرةٍ في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر، فكذلك انْطفاء الرّوح، وكما أن انْطِفاءَ السِّراج هو مُنتهىٰ وقت وجودهِ، فيكون ذلك أَجَلهُ الذي أُجِّلَ له في أُمِّ الكِتاب، فكذلك انطفاء الرّوح، وكما أن السِّراج إذا انْطَفَأَ أظلمَ البيتُ كلُّه، فالروحُ إذا انْطفأَ أظلَمَ البَدَنُ كلُّه، وفارقته أنواره التي كان يَستفيدها من الروح، وهي أنوار الإحساس والقُدرة والإرادات، وجميعها يَجمعها لفظُ الحياة، فهذا أيضاً رَمزٌ وَجيزٌ إلىٰ عالم آخر من عَوالم نِعَم الله تعالىٰ وعجائب صُنعه وحِكمته، فَتَعْساً لمن كفرَ به، وسُحقاً.

فإن قيل: فقد وصَفْتَ الروحَ ومثَّلته، ورسولُ الله ﷺ لما سُئِلَ عن الرّوح لم يَزد علىٰ أن قال: «الروح من أمر ربي».

فالجواب: أن الروح اسمٌ مشترَك يُطلق لمعانٍ كثيرةٍ، ونحن إنما وصَفنا من جُملتها جسماً لطيفاً يُسمّيه الأطباء روحاً، وقد عرفوا صِفَة وجوده، وكيفية سَريانهِ في الأعضاء، وكيفيةَ حصولِ الإحساس والقُوىٰ في الأعضاء به، حتىٰ إذا خَدِرَ بعضُ الأعضاء علموا أنَّ ذلك لوقوع سدَّةٍ في مَجرىٰ هذا الروح، فلا يعالجون موضع الخَدَر بل مَنابت الأَعصاب[1] ومواقع السدَّةِ منها ويعالجونها بما يَفتح السدَّةَ، فإن هذا الجسم بلُطفِه ينفذ في شِباكِ العَصَب وبواسطته يَتأدّى من القلب إلىٰ جَميع الأعضاء، وما تَرتقي إليه معرفةُ الأطباء فأَمرُه سَهلٌ، فأما الرّوح التي هي الأَصل فَسِرٌّ من أسرارِ الله عزَّ وجلَّ لم نَصِفْهُ ولا رُخصَة في وَصفِه، إلا أن يقال: هو أَمرٌ ربّاني، كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، والأُمور الربّانية لا تَتحمل العقول وَصفَها، بل تتحير فيها عقول أكثر الخَلق، وأما الأَوهام والخَيالات فقاصرةٌ عنها بالضّرورة قصورَ البَصرِ عن إدراك الأصوات، وتَتزلزَلُ في ذكر مبادىء وَصفها معاقِد العُقول المقيَّدة بالجوهر والعَرَضِ، المحبوسة في مَضيقِهما، فلا يُدرَكُ بالعقل شَيءٌ من وَصفِه، بل بنورٍ آخر أعلى وأَشرف من العقل

(١) تحرفت في النسخ إلى: «الأغصان»، والمثبت من الإحياء.

يُشرقُ ذلك النّور في عالم الولاية والنُّبوة، فنِسبَته إلىٰ العَقل نسبة العقل إلىٰ الوهم والخَيال وقد خلقَ الله تعالىٰ الخلقَ أطواراً، فكما يُدرك الصبيُّ المُحَسّات ولا يدرك المَعقولات؛ لأن ذلك طورٌ لم يَبلغه بعد، فكذلك يُدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراءَها، لأن ذلك طور لم يَبلغه بعد، وإنّه لَمَشرَبٌ عذبٌ غير أن ذلك المَشرب أعزُّ مِنْ أن يكون شريعة[1] لكلِّ واردٍ، بل لا يطَّلعُ عليه إلا واحداً بعد واحدٍ، وإنما المعنىٰ المسمىٰ رُوحاً عند الطَّبيب بالإضافة إلىٰ هذا الأمر الربَّاني كالكُرةِ التي يُحركها صَوْلَجانُ المَلكِ بالإضافة إلىٰ المَلِك، فمَن عرف الروحَ الطِّبّي فظنَّ أنه أدركَ الأمرَ الربّانيَّ، كان كمن رَأىٰ الكُرةَ فظنَّ أنه رَأىٰ الملِكَ، فلا يُشَكُّ في أنَّ خَطَأَه فاحشٌ، وهذا الخَطأ أَفحش منه.

ولما كانت العقول التي بها يَحصُلُ التكليف وتُدرَك مَصالح الدنيا قاصِرة عن مُلاحظة كُنْهِ هذا الأمر لم يأذن الله تعالىٰ لرسوله أنْ يُحدِّثَ عنه، بل أمره أن يكلِّمَ الناس علىٰ قدرِ عقولهم، ولم يذكر الله عز وجل في كتابه من حقيقةِ هذا الأمر شيئاً، لكن ذكر نِسْبته وفعله، ولم يذكر ذاته، أما نِسبته ففي قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ أَمْـرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وأما فعله ففي قوله تعالىٰ: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ [الفجر: ٢٧ـ٢٨].

ولنَرجع الآن إلى الغَرض، فإنّ المقصود ذكر نعم الله تعالىٰ في آلاتِ الأكل.

الطرف الرابع في نعم الله تعالىٰ
في الأصول التي منها تَحصل الأطعمة وتصير صالحة لأنْ يُصلحها الآدميُّ بعد ذلك بصنعته

اعلم أن الأَطعمة كثيرة، ولله تعالىٰ في خَلقها عجائب كثيرة لاتحصىٰ، وأسبابٌ متوالية لا تَتَناهىٰ، وذِكرُ ذلك في كلّ طعام يَطول، فإن الأَطعمة إما أدويةٌ، وإما فَواكه، وإما أغذية، فلنأخذ الأَغذية، فإنها الأصل، ولنأخُذ من جُملتها حَبَّةً من البُرِّ، ولنَدَع سائر الأَغذية.

---

(١) الشريعة: مَوردُ الماء الذي يُستقى منه بلا رشاءٍ.

فنقول: إذا وجدتَ حبةً أو حباتٍ فلو أكلتَها فَنِيت وبَقيتَ جائعاً، فما أحوجَكَ إلىٰ أن تَنمو الحبَّةُ في نَفسها وتَزيد وتَتَضاعف حتىٰ تَفي بتمام حاجَتك، فخلقَ الله في حبَّة الحِنْطة من القُوىٰ ما تَغتَذي به، كما خَلق فيكَ، فإن النَّبات إنما يفارقُكَ في الحِسِّ والحركةِ ولا يُخالفك في الاغْتِذاء، فإنه يَغتَذي بالماء، ويَجتذب إلىٰ باطِنه بواسطة العروق كما تَغْتذي أنتَ وتَجتَذب.

ولسنا نُطنِبُ في ذكر آلاتِ النَّبات في اجتذاب الغِذاء إلىٰ نَفسه، ولكن نُشيرُ إلى غِذائِه، فنَقول: كما أن الخَشب والتُّراب لا يُغذيك بل تَحتاج إلىٰ طعامٍ مَخصوصٍ، فكذلك الحبَّةُ لا تَغتذي بكل شيء، بل تحتاج إلىٰ شيءٍ مَخْصوص، بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تَزِدْ؛ لأنه ليس يُحيط بها إلا الهواء، ومجرّد الهواء لايَصلح لِغذائها، ولو تركتَها في الماء لم تَزِد، ولو تركتها في أرضٍ لا ماء فيها لم تَزِد، بل لا بد من أرضٍ فيها ماء يمتزج ماؤُها بالأرض فَيصير طيناً، وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٤-٢٦]. ثم لا يكفي الماء والتُّراب، إذْ لو تُرِكت في أرضٍ نَديَّةٍ صلبةٍ متراكمةٍ لم تَنبت لفقد الهواء، فتَحتاجُ إلىٰ تركها في أرضٍ رخوةٍ مُتَخلخِلة ليَتَغلغل الهواءُ إليها، ثم الهواء لا يَتحرك إليها بنفسه فتَحتاج إلىٰ ريح تُحركُ الهَواء وتَضربُه بقَهرٍ وعُنفٍ علىٰ الأرض حتىٰ يَنفُذ فيها، وإليه الإشارةُ بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحِجر: ٢٢]، وإنما إلقاحها في إيقاع الازدِواج بين الهواء والماء والأرض، ثم كل ذلك لايُغني لو كان في بَردٍ مُفرطٍ، فيُحتاج إلى حرارة الرَّبيع والصَّيف.

فقد بانَ احتياجُ غذائه[١] إلىٰ هذه الأربعة، فانظر إلى ما يَحتاج كل واحدٍ، إذ يحتاجُ الماء أن يَنساق إلىٰ أرضِ الزراعة، فانظر كيف خَلَقَ البحارَ وفَجَّر العيون وأَجرىٰ منها الأنهار، ثم الأرض قد تكون مُرتفعة والمياه لاتَرتفع إليها، فانظر كيف خَلق الغُيوم، وكيف سلَّط الرياح عليها لتَسوقها بإذنه إلىٰ أَقطار العالم وهي سحبٌ ثِقالٌ حَواملُ للماء، ثم انظر كيف يُرسله علىٰ الأرض مِدراراً في وقتِ الحاجة إليه، وانظر كيفَ خلقَ الجبالَ حافظةً للمياه تتفجر منها العُيون تدريجاً، فلو خرجَت دفعةً

(١) يعني غذاء النبات.

لغَرِقَت البلاد وهلكَ الزرع والمواشي، ونِعَمُ الله تعالىٰ في الجبال والسَّحاب والبِحار والأَمطار لا يمكن إحصاؤها.

وأما الحرارةُ، فإنها لا تَحصل بين الماء والأرض، وكلاهما بارد، فانظر كيف سخَّر الشَّمس، وكيف خَلقها مع بُعدها عن الأرض مُسَخّنة للأرضِ في وقتٍ دونَ وَقت ليحصل البَردُ عند الحاجة إلى البَرد، والحر عند الحاجة إلىٰ الحر، فهذه إحدىٰ حِكَم الشَّمس والحِكَمُ فيها أكثر من أن تُحصىٰ.

ثم النَّباتُ إذا ارتفعَ عن الأرض كان في الفَواكه انعِقادٌ وصلابةٌ فافتقرت إلىٰ رطوبة تُنضِجُها، فانظر كيف خلقَ القمرَ وجعلَ من خاصيَّتِهِ التَّرطيب، كما جعل من خاصيَّة الشَّمس التَّسْخين، فهو يُنضِج الفَواكه ويَصبغها بتقديرِ الفاطرِ الحكيم، ولذلك إذا كانت الأَشجار في ظِلٍّ يَمنع طُلوع الشمس والقَمر وجميع الكواكب عليها كانَت فاسدة ناقصة، حتىٰ إن الشجرةَ الصغيرةَ تَفسد إذا أظَلَّتها شجرةٌ كبيرةٌ، وتَعرفُ تَرطيبَ القَمر بأنه إذا انكشفَ رأسُكَ في اللَّيل، فإنه يغلب علىٰ رأسك الرُّطوبة التي يُعبَّر عنها بالزُّكام، فكما يُرطّب رأسك يُرطّب الفاكهة أيضاً.

ولا نطول فيما لا مطمعَ في استقصائِه بل نقول: كلُّ كوكبٍ في السماء قد سُخِّرَ لنوعِ فائدةٍ كما سُخِّرت الشَّمس للتَّسخين، والقَمر للتَّرطيب، فلا يخلو واحد منها عن حِكَمٍ كثيرةٍ لا تَفي قُوة البَشَر بإحصائها، وكما أنه ليس في أعضاء بَدَنِكَ عُضو إلا لفائدةٍ، فليس في أعضاءِ بَدن العالم عُضوٌ إلا لفائدةٍ، والعالم كله كشخصٍ واحدٍ وآحاد أجسامه كالأعضاء له، وهي متعاونة تَعاونَ أعضاءِ بدنك في جملةِ بَدَنك، وشرح ذلك يطول.

ولا ينبغي أن تظنّ أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخّرات بأمر الله تعالىٰ في أمورٍ جُعلت أسباباً لها بحكمِ الحِكمة مخالفٌ للشرع لما ورد من النَّهي عن علمِ النُّجوم وتَصديق المُنجِّمين، إنما المَنهيُّ عنه في النجوم أمران:

أحدهما: أن تُصدق بأنها فاعلة لآثارها ومُستقلة بها، وأنها ليست مسخَّرة تحتَ تدبير مُدبِّرٍ خلقها وقَهرها، وهذا لُغْز.

والثاني: تَصديق المُنجِّمِين في تَفصيل ما يُخبرون به من الآثار التي لا يَشترك الخلقُ كافةً في دَرْكها؛ لأنهم يقولون ذلك عن جهلٍ، واعتقادُ كون الكواكب أسباباً لآثارٍ تحصل بخلقِ الله تعالىٰ في الأرضِ والنباتِ والحيوانِ ليس قادحاً في الدين، بل هو الحق، ولكن دَعوى العلم بتلك الآثار علىٰ التَّفصيل مع الجَهل قادحٌ في الدين، ولذلك إذا كان معكَ ثوبٌ قد غَسلته وتريد تَجفيفه فقال لك قائل: أَخرِج الثَّوب وابْسُطْه، فإنّ الشمسَ قد طلعت والهواء قد حَمِي. فإنك لا تكذبه ولا تُنكر عليه لحَوالتِه حُموَّ الهواء علىٰ طُلوع الشمس، ولو سألتَه عن تَغيُّر وَجْهِهِ فقال: قَرَعَتْني الشمسُ في طريقي فأثَّرت في وَجهي. لم تُكذبه.

وقِسْ علىٰ هذا جميعَ الآثار، إلا أنَّ الآثار بَعضُها معلوم وبعضُها مجهول، فالمجهول لا يَجوز ادّعاءُ العِلم فيه، والمعلوم بَعضُه معلومٌ للنّاس كافَّة كحصول الزُّكام والحرارةِ بطُلوع الشَّمس، وبعضُه لبعضِ الناس كحُصول الزُّكام بشروقِ القَمر، فأما مَن فهم من ملكوت السماوات لونَ السماء وضَوْءَ الكواكب فذلك مما تَعرفه البَهائم أيضاً، فلله سبُحانه في ملكوتِ السَّماوات والأَنفس[1] والحيوانات والنَّبات عجائب يَطلبُ معرفتها المحبون لله، فإنَّ من أحب عالماً لم يزل مشغوفاً بطلب تصانيفه ليزدادَ بمزيد الوقوف علىٰ عَجائب علمه حُبّاً له، فكذلك الأمرُ في عجائب صُنع الله تعالىٰ، فإن العالَم كلَّه من تَصنيفه بل تَصنيف المصنِّفين من تَصنيفه الذي صنَّفه بواسطة قلوبِ عباده، فإن تعجَّبت من تصنيفٍ فلا تَتعجب من المُصنّف، بل من الذي سخَّر المصنف لتأليفه بما أنعم عليه من هِدايته وتَسديده وتعريفه، كما إذا رأيتَ لُعَبَ المُشَعبِذِ[2] ترقص وتتحرَّك حركاتٍ موزونةٍ متناسبةٍ فلا تتعجَّبْ من اللُّعَب فإنها خِرَقٌ محركةٌ لا متحركة، ولكن تعجَّب من حِذقِ المشعبذِ المحركِ لها بروابطَ دَقيقة خَفية عن الأَبصار.

فإذن المقصود أن غذاء النبات لا يَتم إلا بالماء والهواء والشمس والقَمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مَركوزةٌ فيها، ولا تَتم الأَفلاك إلا

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: «الإنس».
(٢) المشعبذ والمشعوذ واحدٌ.

بحركاتها، ولا تتم حَركاتُها إلا بملائكةٍ سماويةٍ يُحركونها، فلنقتصر علىٰ هذا من ذِكر أسبابِ غِذاء النَّبات.

الطرف الخامس في نِعَم الله عزَّ وجلَّ في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أنَّ الأَطعمةَ كلّها لا توجد في كلّ مكان، بل لها شروطٌ مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دونَ بعض، والناس يَنتشرون علىٰ وَجه الأَرض، وقَد تَبعُد عنهم الأَطعمة وتحولُ بَينهم وبينها البَراري، فانظر كيف سخَّر الله عزَّ وجلَّ التُّجَّارَ وسلَّطَ عليهم الحِرصَ علىٰ جمع المال وشَرَهِ الأرباح، مع أنه لا يُغنيهم في غالبِ الأمر شيء بل يجمعونَ، فإما أن تَغرقَ بها السُّفن، أو ينهبَها قُطّاع الطريق، أو يَموتون في بعض البلاد فتَأخُذها السَّلاطين، وأحسنُ أحوالهم أن يأخذها وَرثتهم وهم أشدّ أعدائهم لو عرفوا.

فانظر كيف سلَّطَ اللهُ الجهلَ والغَفْلَةَ عليهم حتىٰ يُقاسون الشَّدائد في طَلبِ الربح ويركبون الأَخطار ويُغرِّرونَ بالأرواح في ركوب البِحار فَيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصىٰ الشرق والغربِ إليك، فانظر كيف علَّمهم الله عز وجل صناعة السُّفن وكَيفية الركوب فيها، وانظر كيف خَلق الحيوانات وسخَّرها للركوب والحَمل في البَراري، وانظر إلىٰ الإبل كيف خُلقت، وإلىٰ الفَرس كيف أُمِدَّت بسُرعة الحركة، وإلىٰ الحِمار كيف جُعل صبوراً علىٰ التَّعب، وإلىٰ الجِمال كيف تَقطع البراري وتَطوي المراحِلَ تحتَ الأَعباء الثَّقيلة علىٰ الجُوع والعَطش، وانظر كيفَ سَيَّرهم الله تعالىٰ بواسطة السُّفن والحَيوانات في البرِّ والبَحر ليحملوا إليكَ الأطعمة وسائر الحوائج، وتأمل ما تحتاج إليه الحَيوانات من أسبابها وأدواتها وعَلفها، وما تَحتاج إليه السُّفن فقد خلقَ الله تعالىٰ جَميع ذلك إلىٰ حَدِّ الحاجة وفَوق الحاجة، وإحصاء ذلك غير ممكن، ويتمادى هذا إلىٰ أمور خارجةٍ عن الحَصر نَرىٰ تركها طلباً للإيجاز

الطرف السادس في إصلاح[١] الأطعمة

اعلم أن الذي يَنبت من الأَرض من النّبات وما يُخلق من الحيوانات لا يمكن أن يُقْضَم ويُؤكل وهو كذلك، بل لا بد لكل واحدٍ من إصلاحٍ وطَبخٍ وتركيبٍ وتَنظيفٍ بإلقاءِ البَعض وإبقاء البَعض إلىٰ أمورٍ أخرىٰ لا تُحصىٰ، واقتضاء ذلك في كلِّ طَعامٍ طويلٌ، فَلنُعيِّن رغيفاً واحداً ولنَنظر إلىٰ ما يحتاج إليه الرَّغيف الواحد حتىٰ يَستدير ويَصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض، وأولُ ما يُحتاج إليه الحرَّاث ليَزرع ويُصلح الأرض، ثم الثَّور الذي يُثيرُ به الأرضَ، والفَدّان[٢] وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التَّعهد بِسَقْي الماء؛ ثم تَنْقيةُ الأرض من الحَشيش، ثم الحَصاد، ثم الفَركُ والتَّنقية، ثم الطَّحنُ، ثم العَجنُ ثم الخَبْزُ، فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نَذكره، وعدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يُحتاج إليها من الحَديد والخَشَب والحَجر وغيره، وانظر إلىٰ أعمال الصُّنّاع في إصلاح آلات الحِراثة والطَّحن والخَبْز من نَجّارٍ وحَدادٍ وغيره، وانظر إلىٰ حاجةِ الحَدّاد إلىٰ الحديد والرصاص والنُّحاس، وانظر كيف خلقَ الله الجِبال والأحجارَ والمعادن، وكيف جعلَ الأرضَ قِطعاً مُتجاورات مختلفة، فإن فتَّشْتَ علمتَ أنَّ رغيفاً واحداً لا يَستديرُ بحيث يَصلح لأكلِكَ يا مسكين ما لم يَعمل فيه أكثر من ألف صانعٍ، فابتدِىء من الملَكِ الذي يُزجي سَحاباً لينزل الماء إلىٰ آخر الأعمال من جهة الملائكة حتى تَنْتهي النَّوبة إلىٰ عَملِ الإنسان، ولو نظرتَ في المِقْراض وهما جَلَمان[٣] مُتطابقان ينطبق أَحدهما علىٰ الآخر فيتناولان الشَّيء معاً ويقطعانه بسرعة، ولولا أن الله تعالىٰ كشفَ طريقَ اتِّخاذِ هذا لمن قَبلَنا لكنّا نَحتاجُ إلىٰ استِنباط الطَّريق فيه بفِكرنا، ثم إلىٰ تحصيل الآلات التي يُعمل بها المقراض لذَهبت الأعمار في ذلك.

فاعلم الآن أنه لو خَلا بلدُكَ من الطَّحان أو الحَدّاد أو الحَجّام الذي هو أَخسّ

---

(١) تحرفت في (ف) إلى: «اصطلاح».
(٢) الفَدّان: الخشب الذي يوضع على عنق الثورين للحراثة.
(٣) تحرفت في (ف) إلى: «حكمان». والجَلمان والجَلَمُ: آلة يُجزُّ بها الحشيش.

العُمّال، وعن الحائك أو عن واحدٍ من جملة الصُّنّاع لاضطربَت أموركم، فسُبحانَ من سَخَّر بعضَ العِبادِ لبعضٍ حتىٰ بانَت بذلك حِكمَتُه.

الطرف السابع في إصلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصنّاع المُصلحين للأطعمة وغيرها لو تَفَرقت آراؤهم وتَنافَرت طباعهم تَنافُرَ طِباع الوحشِ لتبدَّدوا وتَباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض، بل كانوا كالوَحش لا يَحويهم مكان واحد ولا يَجمعهم غَرضٌ واحد، فانظر كيفَ أَلَّفَ الله تعالىٰ بينَ قُلوبهم، وسلَّطَ الأُنْسَ والمحبَّةَ عليهم، فاجتمعوا وبَنوا المدائن ورتبوا المساكن والأسواق، ثم هذه المحبة تزولُ بأغراضٍ يَزدحمون عليها ويَتنافسون فيها، وفي جِبِلَّة الآدميّ الغَيظُ والحَسد والمنافسةُ، وذلك يؤدي إلىٰ التَّنافُر والمخاصمة، فسلَّط الله سبحانه السَّلاطين وأمدَّهم بالقُوة والعُدَّة وألقىٰ رُعبَهم في قُلوب الرَّعايا حتىٰ أَذْعنوا لهم طَوعاً وكَرهاً.

ثم كيفَ هَدى الله السَّلاطين إلىٰ طريق إصلاح البلاد حتىٰ رَتَّبوا أجزاء البَلد كأنها أجزاء شَخصٍ واحدٍ يَتعاون علىٰ غرض واحد، ينتفع البعضُ منها بالبَعض، فرتبوا الرُّؤساء والقُضاة والشّحن[1] واضطروا الخَلقَ إلىٰ قانون العَدل وأَلزموهم التَّساعد والتَّعاون حتى صار الحداد يَنتفع بالقَصّاب والخَبّاز وسائر أهل البَلد، وكلّهم ينتفعون بالحدّاد، وصار الحجَّام ينتفع بالحَرّاث، والحَرّاث بالحَجّام، وينتفع كل واحدٍ بكل واحدٍ، كما يتعاون أعضاء البَدن وينتفع بعضها ببعض.

وانظر كيف بُعِثَ الأنبياء حتىٰ أصلحوا السَّلاطين المُصلحين للرَّعايا وعرَّفوهم قوانين الشَّرع في حفظِ العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضَبطهم، وكشفوا من أحكام الإمامةِ والسَّلطنةِ وأحكامِ الفقه ما اهتَدوا به إلىٰ إصلاح الدُّنيا فضلاً عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين، وانظر كيف أصلح الله عزَّ وجلَّ الأنبياءَ بالملائكةِ، وكيفَ أصلح الملائكةَ بعضَهم ببعضٍ إلىٰ أن تَنتهي إلىٰ المَلَكِ المُقَرَّب الذي ليس

---

(١) الشحن: جمع شِحْنَة وهو الحاكم على البلد، أو الجماعة يقيمها السلطان في بلدٍ ما لضبطه.

بينه وبين الله تعالىٰ واسطة، فالخَبّاز يُصلح العجينَ بالإنْضاج، والطَّحانُ يُصلح الحبَّ بالطَّحن، والحَرّاث يُصلحه بالحَصاد، والحّداد يُصلح آلات الحِراثة والنَّجار يُصلح آلات الحَدّاد، وهكذا جميع أرباب الصِّناعات المُصلحين لآلات الأطعمة، فالسلطان يُصلح الصُّنَّاع، والأنبياء يُصلحون العلماء، والعلماء يُصلحون السَّلاطين، والملائكةُ يُصلحون الأنبياء إلىٰ أن تَنتهي إلىٰ حَضرة الرُّبوبية التي هي ينبوع كلِّ نِظام ومطلعُ كلِّ حُسْنٍ وجَمال ومَنْشأ كلِّ ترتيبٍ وتأليف، كل ذلك نِعمٌ من ربِّ الأَرباب ومُسَبِّب الأسباب، ولولا فضله ما اهتدينا إلىٰ مَعرفة هذه النُّبذة اليَسيرةِ من نِعَم الله تعالىٰ، ولولا عَزله إيّانا عن أن نَطْمَح بعينِ الطَّمع إلىٰ الإحاطةِ بكُنهِ نِعَمِه لتَشوَّقْنا إلىٰ طَلبِ الإحاطة والاستِقْصاء، ولكنّه عَزَلنا بحكم القَهْر والقُدرة، فقال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [النحل: ١٨]، فإن تكلَّمنا فبإذنه انْبَسطنا، وإن سَكتنا فبقَهره انقَبَضْنا، إذْ لا مُعطِيَ لما مَنع، ولا مانعَ لما أَعطَى.

الطرف الثامن في بَيان نعمة الله تعالىٰ في خَلقِ الملائكة

قد بانَتْ نِعْمةُ الله تعالىٰ في خلقِ الملائكة بإصلاحهِمُ الأنبياء وتَبليغ الوَحي إليهم، ولا تَظننَّ أنهم مقتصرون في أفعَالهم علىٰ ذلك القدر، بل لهم أعمالٌ كثيرة تَختصُّ بكَ، فهم يُصوِّرون نُطفَتَكَ، ويُهيئونَ أسبابَ رزقِكَ، ويُراعون ما يَصلُ من الدَّمِ الذي يَطبخه الكَبِد إلىٰ كلِّ عُضْو بمقدارِ حاجَته، فنسبَهُ قومٌ إلى القوةِ المَوضوعة في الآدمي، وقومٌ يُسمُّون تلك القُوة مَلَكاً.

وكيف تُحصَى نِعَمُ اللهِ تعالىٰ وفي كل نَفَسٍ يَنْبَسِطُ وينقبض نِعمتان، إذْ بانبِساطِه يَخرجُ الدُّخان المحتَرق من القَلب، ولو لم يَخرج لهلكَ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلىٰ القلب، ولو سُدَّ مُتنفَّسه لاحترق قلبُه بانقطاع روح الهواء وبرودته وهلك، بل اليوم والليلة أربعٌ وعشرون ساعة، وفي كل ساعةٍ قريب من ألفِ نَفَسٍ، وكل نفسٍ قَريب من عَشر لَحَظات، وفي كل لحظةٍ ألفٌ من النِّعم في كل جزء من أجزائك، وإذا كان جميع ما ذكرنا يرجع إلىٰ المطعم والمَشرب فاعتبر بما سواه من النِّعَم.

بيان السبب الصّارف للخلق عن الشُّكر

اعلم أنه لم يُقَصِّر بالخلقِ عن شُكرِ النِّعمة إلا الجَهل والغَفلة، فإنهم مُنِعُوا بالجهلِ والغَفلة عن مَعرفة النِّعم، ولا يُتَصوَّر شُكر النِّعمة إلا بعدَ معرفتها، ثم إن عرفوا نعمةً ظنّوا أن الشكر عليها أن يقولَ بلسانه: الحمد لله، الشكر لله. ولم يعرفوا أن معنىٰ الشكر أن يَستعملَ النِّعمةَ في إتمام الحكمة التي أُريد بها، وهي طاعة الله تعالىٰ، فلا يمنع من الشكر بعد حُصول هاتين المعرفتين إلا غَلبةُ الشَّهوة واستيلاءُ الشيطان.

أما الغَفلة عن النِّعم، فلها أسباب، وأحد أسبابها أنَّ الناس بجَهلِهم لا يَعدون ما أنعمَ اللهُ على الخلقِ في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يَشكرون علىٰ جُملة ما ذكرناه من النِّعم؛ لأنها عامّة للخلق مَبذولةٌ لهم في جميع أحوالهم، فلا يرىٰ كلّ واحد لنَفسه اختِصاصاً به فلا يَعدُّه نِعمة، فلا تَراهم يَشكرون الله تعالىٰ علىٰ روح الهواء ولو أُخِذَ بمخنَقِهم(١) لحظةً حتىٰ انقطَعَ الهواء عنهم ماتوا، ولو حُبِسوا في حَمّام أو في بئرٍ ماتوا غَمّاً، فإن ابتُلِيَ أحدهم بشَيءٍ من ذلك ثم نجَىٰ قدَّرَ ذلك نِعمةً فشكر الله عليها، وهذا غايةُ الجَهلِ إذْ صارَ شكرهم موقوفاً على أن تُسلَبَ عنهم النِّعمة ثم تُردّ إليهم في بعض الأحوال، والنِّعمةُ في جميع الأَحوال أولىٰ بأن تُشكَر من النعمةِ في بعضها، فلا تَرىٰ البصير يَشكر صِحَّة بصره إلا أن يَعمَى، فإذا أُعِيدَ بَصره أحسَّ بالنِّعمة وشكرَها وعدَّها نِعْمةً، ولما كانت نعمةُ الله واسعة عَمَّ الخلقَ بها وبَذلها لهم في جميع الأحوال، فلم يَعدَّها الجاهل نِعمةً، وهو مثل عَبد السُّوء يُضربُ دائماً، فإذا تُرِكَ ضَربُه ساعةً تقلَّد بها مِنَّةً، فإن تُرِكَ ضَربُه أصلاً غلبه البَطَر وتَركَ الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المالَ الذي يتطرق إليه الاختصاص من حيث الكَثرة والقِلَّة، وينسون جميع نعم الله تعالىٰ عليهم، كما روي أن بعضهم شكىٰ فقره إلىٰ بعض أرباب البَصائر وأظهر شِدَّةَ اغتمامه بذلك فقال له: أَيسرُّكَ أنك أعمىٰ ولكَ عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا. فقال: أيسرُّكَ أنك أخرس ولك عشرة

(١) المِخنَق: موضع المِخنَق. وهي القلادة. من العنق.

آلاف ؟ قال: لا. قال: أيسرُّك أنك أَقطع اليَدين والرِّجلين ولك عشرون ألفاً ؟ قال: لا. قال: أيسرُّك أنكَ مَجنونٌ ولك عشرة آلاف ؟ قال: لا. قال: أما تَستَحي ؟ تشكو مولاكَ وله عندكَ عُروضٌ بخمسين ألفاً ؟

وحكيَ عن بَعضِ القُرّاء أنه اشتدَّ به الفَقر حتىٰ ضاقَ به ذَرْعاً، فرأىٰ في المنام كأنَّ قائلاً يقول له: أتودُّ أنَّا أَنْسيناك سورةَ الأنعام وأنَّ لكَ ألفَ دينار ؟ قال: لا. قال: فَسورة هود ؟ قال: لا. قال: فَسورة يوسف ؟ قال: لا. قال: فمعكَ قيمة مائة ألف دينار وأنتَ تشكو ؟ فأَصبح وقَد سُرِّيَ عنه.

ودخل ابنُ السَّمّاك علىٰ الرَّشيد فوعَظه فبكى، ثم دَعا بماءٍ فأُتي بقدحٍ فيه ماء، فقال: يا أمير المُؤمنين، لو مُنِعتَ هذه الشَّربةَ إلا بالدُّنيا وما فيها كنتَ تَفديها بها ؟ قال: نعم. قال: اشرب رِياً بارك الله فيك، فلما شرب قال: يا أمير المؤمنين، أرأيتَ لو مُنعتَ إخراج هذه الشَّربة منك إلا بالدنيا وما فيها أكنت تفديها بالدنيا وما فيها ؟ قال: نعم. قال: يا أَميرَ المؤمنين، فما تَصنع بشيءٍ شَربةُ ماءٍ خَيرٌ منه ؟!

فبهذا تبيَّن أن نِعمةَ الله تعالىٰ علىٰ العبد في شَربة ماءٍ عند العَطش أعظم من مُلك الأرض كلها، ثم تَسهيل خُروج الحَدث من أَعظم النِّعم.

وكان الحسنُ يَقول: يا لَها من نِعمة، تَأكُل لذَّةً تخرج سَرحاً، كان ملكٌ من ملوك هذه القَرية يَرىٰ الغُلام من غِلمانه يأتي الحُبَّ[١] فَيكتازُ[٢]، ثم يُجرجِرُ قائماً، فيقول: يا لَيتني مثلك ما يشرب حتىٰ يَقطع عنقه العَطَش، فإذا شربَ كان له في تِلك الشَّربة مَوتات، فيا لها نِعمة، تأكل لذةً وتخرج سَرْحاً.

وإذْ كانت الطِّباع مائلةً إلىٰ الاعتداد بالنِّعمة الخاصة نعمةً دون النعمة العامة، وقد ذكرنا النِّعم العامة، فلنذكر إشارةً وجيزةً إلىٰ النِّعم الخاصَّة، فنقول: ما من عبدٍ إلا ولو أمعن النَّظَر في أحواله رأىٰ من الله تعالىٰ نِعْمةً أو نعماً كثيرة تَخصُّه[٣] ولا يُشاركه فيها الناس كافَّة بل يُشاركه عدد يَسير من الناس، وربما لايشاركه فيها أحد، وذلك

(١) الحُبُّ: الجرة العظيمة.

(٢) يكتاز: يشرب كوزاً من الماء.

(٣) تحرفت في (ف) إلىٰ: «لا تحصى».

يَعترف به كلُّ عبدٍ في ثلاثة أمور في العَقل والخُلُق والعِلم.

أما العَقل فما من عبدٍ لله تعالىٰ إلا وهو راضٍ عن الله سبحانه في عَقله يَعتقد أنه أعقل الناس، وقلَّما يَسألُ اللهَ العقلَ، وإنّ من شَرفِ العقل أنْ يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتَّصف به، فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجبٌ عليه أن يَشكر؛ لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فينبغي أن يَشكر؛ لأن اعتقادَ حصول ذلك له نعمة.

وأما الخُلُق، فما من عبدٍ إلا ويرى في غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمُّها، وإنما يَذمُّه من حَيثُ يَرىٰ نفسه بريأ عنها، فينبغي أن يَتَشاغل بشكرِ اللهِ تعالىٰ إذا حَسَّنَ خُلُقَه وابتَلىٰ غيره بالخُلُق السيء.

وأما العلم، فما من أحدٍ إلا ويَعرف من بَواطن أمور نفسه وخَفايا أَفكاره ما هو مُنفرد به ولو كُشِفَ الغِطاءُ حتى اطَّلع عليه أحدٌ من الخَلق لافْتَضح، فكيف لو اطلع الناسُ كافّة؟ فإذن لكل عبدٍ علمٌ بأمرٍ خاصٍّ لا يُشاركُه فيه أحد من عباد الله تعالىٰ، فلمَ لا يشكر سِترَ الله الجَميل الذي أَرسله علىٰ وَجه مَساوئه فأظهرَ الجَميل وسَتَرَ القَبيح وأخفىٰ ذلك عن أَعين الخَلق وخَصَّص علمه به حتى لا يَطَّلع عليه أحد.

فهذه ثلاثٌ من النِّعم خاصَّة يعترف بها كلُّ عبدٍ إما مُطلقاً وإما في بعض الأُمور، فَلْننزِل عن هذا إلىٰ طَبقة أعمّ منها قليلاً، فنقول: ما من عبدٍ إلا وقد رزقه اللهُ تعالىٰ في صورته أو شَخصه أو أخلاقه أو صِفاته أو أَهله أو وَلده أو مَسكَنِه أو بَلده أو رَفيقه أو أقاربه أو عِزِّه أو جاهِهِ أو في سائر مَحابِّهِ أموراً لو سُلبَ ذلك منه أو أُعطيَ ما خُصِّصَ به غَيرُه لكان لا يَرضى به، وذلك مثل أن جَعله مؤمناً لا كافراً، وحياً لا جَماداً، وإنساناً لابَهيمةً، وذكراً لا أُنثى، وصَحيحاً لا مَريضاً، وسليماً لا مَعيباً، فإن كل هذه خَصائص وإن كان فيها عُموم أيضاً، فإن هذه الأحوال لو بُدِّلَ بأضْدادها لم يَرض به، بل له أمورٌ لا يُبدلها بأحوال الآدميين أيضاً، وذلك إما أن يكون بحيث لا يُبدّله بما خُصَّ به أحدٌ من الخَلق، أو لا يُبدِّله بما خُصَّ به الأكثر، فإن كان لا يُبدّل حالَ نَفسهِ بحالِ غيره، فإذن حاله أَحسن من حال غيره، فإن كان لا يَعرف شخصاً يرتضي لنفسه حاله بَدلاً من حالِ نفسهِ إما علىٰ الجُملة وإمّا في أمرٍ خاص،

فإذن للهِ تعالىٰ عليه نِعَمٌ ليست له علىٰ أحدٍ من عباده سِواه، وإن كان يُبدّلُ حالَ نفسه بحالِ بعضهم دونَ البَعض فلينظر إلىٰ عدد المَغبوطين عنده، فإنه لا مَحالةَ يَراهم أقل بالإضافة إلىٰ غَيرهم فيكون مَنْ دونه في الحال أكثر بكثير ممن هو فَوقه، فما باله يَنظر إلىٰ من هو فَوقه ليَزْدَري نِعَمَ الله تعالىٰ علىٰ نَفسه، ولا ينظر إلىٰ من دونه ليَسْتعظِمَ نِعمَ اللهِ تعالىٰ عليه ؟ فقد أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحَسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرزّاق قال: حدثنا مَعْمَر عن هَمّام بن مُنَبِّه قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نَظَرَ أَحدُكم إلىٰ مَنْ فُضِّلَ عليه في المالِ والخَلْقِ، فَلينظر إلىٰ من هو أسفلُ منه ممَّن فُضِّلَ عَليه». أخرجاهُ في الصَّحيحين[١]، وقد رواه الترمذي بلفظ آخر: «وانظروا إلىٰ مَن هو أَسفل منكم، ولا تَنظروا إلىٰ من فَوقكم، فإنه أَجْدَر أن لا تَزْدروا نِعمةَ الله عليكم»[٢].

فإذن كلُّ من اعتبَر حالَ نفسِه وفَتَّش ما خُصَّ به وَجَدَ للهِ تعالىٰ عَليه نِعَماً كثيرة، لاسيما مَن خُصَّ بالإيمان والقُرآن والعِلم والسُّنَّة، ثم الفَراغ والصِّحَة والأَمن وغير ذلك، فقد رَوينا عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قَرأ القُرآنُ فهو غَني»، وفي لفظٍ: «القُرآنُ غِنىً لا فَقْر بَعده ولا غِنى دونه»[٣]. وروينا أن امرأةً أَتَتهُ فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنَّ زَوجي مِسكين. فقال رسول الله ﷺ لِزوجها: «أَتقرأُ منَ القرآنِ شيئاً» ؟ فقال: أَقرأُ سورةَ كذا وكذا. فقال رسولُ الله ﷺ: «بَخٍ بَخٍ، زَوجك غَنِي فالزَميه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَن أصبح آمناً في سِربهِ، مُعافىً في بَدنهِ، عندهُ قُوتُ يَومه، فكأنما حِيزَتْ له الدُّنيا بحذَافيرها»[٤]. وقال الشاعر:

إذا ما القوتُ يَأتيكَ ... كذا الصِّحَّةُ والأَمْنُ
وأصبحتَ أخا حُزْنٍ ... فلا فارقكَ الحُزْنُ

(١) أخرجه أحمد (٨١٤٧)، والبخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).
(٢) أخرجه أحمد (٧٤٤٩)، والترمذي (٢٥١٣).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١/ ٢٥٥ وسعيد بن منصور في السنن ١/ ٣٢.
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١)، والطبراني في الأوسط ٢/ ٢٣٠.

وقال آخر:

مَنْ أَصبَحتْ نَفسُه سَليمة ... فإنها أعظَمُ الغَنيمة

إنَّ المُعافَى وما أُراهُ ... يَدري لفي نِعْمةٍ عَظيمَة

ومتى تأمَّلتَ الناسَ كلهم وَجدتهم يَشكون ويَتألمون من أمورٍ وراء هذه الثلاثة مع أنها وَبالٌ عليهم، ولا يشكرون الله في هذه الثلاثة، ولا في الإيمان الذي به وُصولهم إلى النَّعيم المقيم، بل البَصير يَنبغي أن لا يَفرح إلا بالمعرفة والإيمان واليَقين، ونحن نَعلم أن من العُلماء مَنْ لو سُلِّمَ إليه جميع مُلكِ مُلوك الأرض وقيل له: خُذها عِوَضاً عن عِلمك أو عَن عُشْرِ عُشرِهِ. لم يأخذه، وذلك لرَجائه أنَّ نعمةَ العلم تُفْضي به إلى قُربِ الله تعالىٰ في الآخرة، بل لو قيل له: لكَ في الآخرة ما تَرجوه بكماله وخُذ هذه اللَّذات في الدنيا بَدلاً عن التِذاذِكَ بالعلم في الدنيا وفَرحك به. لَم يَفعل، لعلمِه أنَّ لذةَ العلم دائِمةٌ لا تَنقطع، وثابِتَةٌ لا تُسْرَق ولا تُغْصَب، وصافيةٌ لا كَدرَ فيها، ولذاتُ الدنيا كلّها ناقصة مُكدَّرة لا يَفي مَرجُوُّها بمَخوفِها، ولا أَلمها بلذَّتها، ولا فَرحها بغَمِّها، وإنما تَخلُب العقولَ الناقصةَ حتى إذا انخدَعت وتَقيَّدت بها استَعصت عليها، كالمرأةِ الجَميلة تَتزيَّن للشَّاب الشَّبِقِ[1]، فإذا تَقيَّد بها قلبُه استَعصت عليه واحْتَجَبَت عنه، فلا يزال معها في عَناءٍ دائم، وكل ذلك لاغْتِرارِهِ بلذَّة النَّظر إليها في لحظةٍ، ولو غَضَّ بصرَه في أول الأمر واستَهان بتلك اللَّذة سَلِمَ جميع عمره، فهكذا وقوعُ أهل الدنيا في حَبائلها.

ولا يَنبغي أن يُقال: إن المُعرضَ عن الدنيا مُتألِّم بالصَّبر عنها.

فإن المُقبل عليها أيضاً مُتألّم بالصَّبر عليها وحِفظها وتَحصيلها، وتألُّم المُعرض يُفضي إلى لَذَّةٍ في الآخرة، وتألُّم المُقبِل يُفضي إلىٰ آلامٍ في الآخرة، فليقرأ المُعرض عن الدُّنيا على نَفسه قولَه تعالىٰ: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾ [النساء: ١٠٤].

---

(١) الشَّبق: الكثير الشهوة.

فإذن إنّما انْسدَّ طريقُ الشُّكر على الخلق لجهلهم بضُروب النِّعم الظاهِرَةِ والبَاطنة والخاصَّة والعامّة.

فإن قيل: فما عِلاجُ هذه القُلوب الغافلة حتى تَشعُر بنعم الله تعالىٰ فعساها تشكر؟

فالجواب: أما القلوب المُبصِرة فعِلاجها التَّأمل فيما رَمزنا إليه من أصنافِ نِعَمِ اللهِ عزَّ وجلَّ العامَّة، وأما القلوب البَليدة التي لا تَعدُّ النِّعمةَ نعمةً إلا إذا نبَّه البلاءُ عليها، فسبيلُ صاحبها أن يَنظر أبداً إلى من هو دونه، ويفعل ما كان يفعله بعضُ القُدماء، فإنه كان يَحضُر دارَ المَرضى ليُشاهد أنواع بلاء الله عزَّ وجلَّ عليهم، ثم يتأمل صحتَه وسلامتَه، فيشعر قلبَه بنعمة الصحة عند شُعوره ببلاء الأَمراض، ويُشاهد الجُناةَ الذين يُقتَلون وتُقطَع أَطرافهم ويُعذَّبون، فيشكر الله تعالىٰ على عِصمته من الجنايات[1] ومن تلك العقوبات، ويَشكر الله تعالىٰ على نِعمة الأَمن، ويحضر المَقابر فيعلم أنَّ أحبَّ الأشياء إلى المَوتى أن يُرَدّوا إلى الدنيا ولو يوماً واحداً ليتدارك مَنْ عَصى وليزيد في طاعته مَن أَطاع، فإن يومَ القيامة يوم التَّغابُن، أما غُبنُ العاصي فظاهرٌ، وأما غُبنُ الطَّائع فمِن جهة تَقصيره، فإذا شاهد المَقابر وعلم أنَّ أحب الأشياء إليهم الاستِدراك صَرفَ بقيةَ العُمر [2]إلى ما يتمنَّون العَودَ لأجله ليعرف بذلك نِعمةَ الله تعالىٰ في بقية العمر[2] وفي الإمهال، فيشكر بأن يَصرف العمرَ إلى ما خُلِقَ العمرُ لأجله، وهو التزوُّد للآخرة.

فهذا علاج القلوب الغافلة، على أنه قد كان بعضُ المُتيقِّظين حفرَ لنفسه قَبراً، وكان يغلُّ نَفسَه ويَضطجعُ في لَحدِه ويقول: رَبِّ ارجعون. ثم يَقوم ويقول: قد أعطيتَ ما سَألت فاعمَل قبلَ أن تَسأل الرجوعَ فلا تُرَدّ.

ومما ينبغي أن تُعالَج به القلوب البَعيدة عن الشُّكر أن تَعرف أن النِّعمة إذا لم تُشكر زالت، وكان الفُضيلُ يقول: عليكُم بمداومة الشُّكر على النِّعَم، فقلَّ نعمةٌ زالت عن قوم فَعادت إليهم. وفي الحَديث: «ما عَظُمَت نعمةُ اللهِ تعالىٰ على عبدٍ إلا كَثُرتْ حَوائجُ النَّاس إليه، فمن تَهاونَ بهم عَرَّض تلكَ النِّعمة للزَّوال». وقد قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) تصحفت في (ف) إلى: «الخيانات».
(٢-٢) سقط من (ف).

الركن الثالث
من كتاب الصبر والشكر فيما يَشترك فيه الصَّبر والشُّكر ويرتبط من أحدهما بالآخر

بيان اجتماع الصَّبر والشُّكر على شَيءٍ واحد

لعلَّكَ تقولُ: إن ما ذكرتَه من النِّعم إشارة إلى أن الله تعالىٰ له في كل موجود نعمة، وهذا يُشير إلى أن البَلاء لا وجود له أصلاً، فما معنى الصبر إذن ؟ وإن كان البلاء موجوداً، فما معنى الشكر على البلاء ؟ وكيف يُشكر على ما يُصبر عليه والصبر يَستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً ؟ وهما متضادان، وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالىٰ في كل ما أوجده نعمة على عِباده ؟

فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النِّعمة يوجب القول بإثبات البَلاء؛ لأنهما متضادان، ففقدُ البلاءِ نِعمة، وفَقد النِّعمة بَلاء، ولكن قد سَبقَ أن النِّعمة تَنقسم إلى نعمةٍ مُطلقةٍ من كل وَجه؛ أما في الآخرة فكَسعادة العبد بالنزول في جوار الله عزَّ وجلَّ، وأما في الدنيا، فبالإيمان وحُسن الخلق وما يعين عليهما، وإلى نعمةٍ مُقيَّدة من وجهٍ دون وَجه، كالمال الذي يُصلح الدِّين من وَجه ويُفسده من وَجهٍ.

وكذلك البَلاءُ يَنقسم إلى مُطلق ومُقيَّد، أما المُطلق في الآخرة فالبُعد من الله تعالىٰ إما مدة وإما أبداً، وأما في الدنيا فالكُفر والمَعصية وسوء الخُلق، وهي التي تُفضي إلى البلاء المُطلق، وأما المُقيَّد فكالفَقر والمرض والخَوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاءً في الدين بل في الدنيا، فالشكر المطلق للنعمة المطلقة، فأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصَّبر عليه؛ لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه، وكذا المعصية، بل حق الكافر أن يَترك كفره وكذا حق العاصي، إلا أن الكافر لا يعلم أنه كافر، فيكون كمن به عِلَّة وهو لا يتألم بها بسبب غَشيةٍ أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاصٍ فعليه ترك المعصية، بل كلُّ بلاء يَقدرُ الإنسان على دَفعِه لا يؤمر بالصبر عليه، فلو ترك الإنسانُ الماءَ مع طول العطش حتى عَظُمَ

ألمُه لم يُؤمر بالصَّبر، بل يُؤمر بإزالةِ الألم، وإنما الصَّبر على ألمٍ ليس إلى العبد إزالته.

فإذن رجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاءٍ مُطلقٍ، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه، فلذلك يُتصور أن تَجتمع عليه وَظيفة الشُّكر والصَّبر، فإن الغِنى مثلاً يجوز أن يصير سببَ هلاكِ الإنسان حتى يُقصد بسبب ماله فَيُقتل ويُقتل أولاده، والصحة أيضاً كذلك، فما من نعمة من هذه النعم الدُّنياوية إلا ويجوز أن تَصير نعمةً، ولكن بالإضافة إلى حالةٍ من تكون الخيرة له في الفَقر والمَرض، ولو صحَّ بدنه وكَثُر ماله لَبَطِرَ ولَبغى، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧] وكذلك الزَّوجة والولَد والقَريب، وكل ما ذكرناه في الأَقسام الستّة عشر من النِّعم سوى الإيمان وحُسن الخُلق، فإنها تتصور أن تكون بلاء في حَقٍّ بعض الناس فتكون أَضْدادها إذن نِعَماً في حَقِّهم، إذ قَد سبق أن المعرفةَ كَمالٌ ونعمةٌ، فإنها صفةٌ من صفاتِ الله عزَّ وجل، ولكن قد تكون على العَبد في بَعض الأمور بلاء، ويكون فَقدها نِعمة، مثاله: جَهلُ الإنسان بأَجَله، فإنها نعمةٌ عليه إذ لو عرفه تَنغَّص عليه العَيش، وطالَ بذلك غَمُّهُ، وكذلك جَهلُه بما يُضمره النّاس له من مَعارفه وأقاربه نعمةٌ عليه، إذ لو اطَّلعَ عليه لطال أَلمُه وحِقدُه وحَسَده واشتغالُه بالانتقام، وكذلك جَهلُه بالصِّفات المذمومة من غَيره نعمةٌ عليه، إذ لو عرفه أبغضه وآذاه، وكان ذلك وبالاً عليه في الدنيا والآخرة، بل جَهله بالخِصال المَحمودة في غَيره قد يكون نِعمة عليه، فإنه ربما يكون وَليّاً لله تعالىٰ وهو يُضطرُّ إلى إيذائه وإهانته، ولو عرفه فآذاه[1] كان إثمه أعظم؛ إذ ليس مَن آذى نَبيّاً أو وَليّاً وهو يَعرفه كمَن آذاه وهو لا يَعرفه، ومنها إبهامُ الله عزَّ وجلَّ أمرَ القيامة، وليلةَ القدر، وساعةَ الجُمعة، وبعضَ الكبائر، وكل ذلك نِعمة؛ لأن هذا الجهل يُوفِّر الدَّواعي على الطَّلَب والاجتهاد.

فهذه وُجوه نِعَم اللهِ تعالىٰ في الجَهل فكيفَ في العِلم ؟ وقد قُلنا: إنه عز وجل له في كل موجودٍ نعمة حتى إن الآلام قد تكون نقمة في حقِّ المتألم وتكون نِعمة في حقِّ غَيره، كألم الكُفار في النار، فإنه نعمةٌ في حقِّ أهل الجنة، إذ لو لم يُعذب

(١) تحرفت في الأصل إلى: «قدره».

قوم ما عرف المتنعمون قَدْرَ نَعيمهم[١]، وإنما يتضاعف فَرحُ أهل الجنة إذا ذَكروا أَلَمَ أهلِ النار، ألا ترى أن أهلَ الدنيا لا يَشتدُّ فَرحُهم بنور الشمس مع شِدَّة حاجتهم إليها من جهة أنها عامة مبذولة، ولا بالنظر إلى زينة السّماء وهي أحسن من كل بُستان؛ لأنها عامة، فلذلك لم يَشعروا بها ولم يَفرحوا بسببها.

فإذن، قد صحَّ بما ذكرناه أنَّ اللّهَ تعالىٰ لم يَخلق شيئاً إلا وفيه حِكمة ونعمة، إما على جميع عباده أو على بَعضهم، فإذن في خَلق الله تعالىٰ البلاء أيضاً نِعمة، إما على المُبتَلى، وإما على غَير المُبتَلى، فإذن كل حالةٍ لا تُوصف بأنها بلاء مُطلق ولا نِعمة مُطلَقة يَجتمع فيها على العَبد وَظيفتان الصَّبر والشكر جَميعاً.

فإن قيل: فَهما مُتضادان فكيف يَجتمعان إذ لا صَبر إلا على غَمٍّ ولا شُكر إلا على فَرَح؟

فاعلم أنَّ الشَّيءَ الواحد قد يُغتَمُّ به من وَجهٍ ويُفرَح به من وَجهٍ آخر، فيكون الصَّبر من حيثُ الاغتِمام، والشُّكر من حيثُ الفَرح، وفي كلِّ فَقرٍ ومرضٍ وخَوفٍ وبلاءٍ في الدنيا خمسة أشياء ينبغي أن يَفرح العاقل بها ويَشكر عليها:

أحدها: أن كل مصيبة ومرضٍ يُتصور أن يكون أكثر منها، إذ مقدورات الله تعالىٰ لا تَتَناهى، فلو ضَاعفها اللهُ عزَّ وجلَّ وزادَها ماذا كان يَمنعه؟ فليشكر إذ لم تَكُن أَعظم.

والثاني: أنه كان يُمكن أن تَكون في الدِّين، قال عُمر بن الخطاب: ما ابتُليتُ ببلاءٍ إلا كان للهِ تعالىٰ عليَّ فيه أربع نِعَم: إذْ لم يَكن في ديني، وإذ لم يَكُن أعظم، وإذ لم أُحرم الرِّضا به وإذ أرجو الثَّواب عليه.

وقال رجلٌ لسهلِ بن عبد الله: دخلَ اللِّصُّ بَيتي، فأخذَ مَتاعي. فقال: اشكُر اللّهَ لو دخل الشيطانُ قلبكَ فأفسدَ توحيدَكَ ماذا كنتَ تَصنع؟

فإذن ما من إنسان قَد أُصيب ببلاءٍ إلا ولو تأمَّل سوءَ أَدبِه ظاهراً وباطناً لعلم أنه يَستحق أكثر مما أصابه، ومن استحقَّ عليك أن يَضربَكَ مئة سَوط فاقتصَرَ على

(١) في (ف): «نعمتهم».

عَشرة، فهو مستحقٌ للشُّكر، ومن استحقَّ أن يَقطع يَديك فترك إحداهما، فهو مُستحق للشُّكر، ومن هذا ما روينا عن مالكِ بن دينار أنه قيل له: ألا تَسْتَسْقي؟ فقال: أَنتُم تَسْتَبطِئونَ المطر وأنا أَسْتَبطِىء الحجارةَ. وجازَ بعضُ الصالحين في طريقٍ فأُلقيَ من سطحٍ رَمادٌ فوقعَ عليه، فغضب أصحابُه، فقال: مَن استحقَّ النارَ فَصُولِحَ على الرَّماد، فلا يَنبغي أن يَغضَب.

فإن قالَ قائلٌ: كيف أَفرحُ وأنا أرى جَماعةً ممن زادت مَعصيتهم على مَعصِيتي حتى الكُفار لا يُصابون بما أُصِبتُ به؟

فاعلم أنَّ الكافر قد خُبِّىءَ له ما هو أكثر، وإنما أُمهِلَ ليستكثر من الإثم ويطول عليه العِقاب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وأما المعاصي، فمِن أينَ تَعلم أن في العالم من هو أَعصى مِنك؟ وربَّ خاطرٍ بسوءِ أدبٍ في حقِّ اللهِ تعالىٰ وفي صِفاته أعظم من شُربِ الخَمر والزِّنا وسائر المَعاصي بالجوارح، ولذلك قال عزَّ وجلَّ في مثل هذا: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ [النور: ١٥]، ثم لعل ذاكَ قد أُخِّرَت عُقوبته إلى الآخرة وعُجِّلَت عقوبتُك في الدُّنيا، فلِمَ لا تَشكر اللهَ تعالىٰ على ذلك؟

وهذا **الوجه الثالث** في الشكر، وهو أنه ما من عقوبةٍ إلا وقد كان يُتصور أن تُؤخَّر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يُتَسلَّى عنها فتَخف، ومصيبةُ الآخرة دائمة، وإن لم تَدُم فلا سبيل إلى تخفيفها، ومن عُجِّلت عقوبته في الدُّنيا لم يُعاقب ثانياً، أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حَجّاج قال: حدثنا يونسُ بن أبي إسحاق أَخبرني عن أبي إسحاق عن أبي جُحَيفة عن عليٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَذْنَبَ فِي الدُّنيا ذَنباً فَعوقبَ به، فاللهُ أَعدلُ من أن يُثنِّي عُقوبَته على عَبده، ومن أذنبَ في الدُّنيا ذنباً فَسَترَهُ اللهُ عليه وعَفا عنه، فاللهُ أكرمُ من أن يعودَ في شَيءٍ قد عَفَا عَنه»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧٥)، وابن ماجه (٢٦٠٤)، والترمذي (٢٦٢٦)، والبزار (٤٨٢).

قال الإمام أحمد رحمه الله: وحدثنا وكيع قال: حدثنا ابن أبي خالد عن أبي بكر بن زُهير الثقفي قال: لما نَزلت ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: يا رسول الله، إنا لَنُجازَى بكل سوءٍ نَعمله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يَرحمُكَ الله يا أبا بكر أَلَستَ تَنصَبْ؟ أَلستَ تَحزنْ؟ ألستَ تُصيبكَ الَّلأْواء؟ فهذا ما تُجزَونَ به»(١).

وفي أَفراد مسلم من حديث أبي هُريرة قال: «لما نَزلت ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ بَلغت من المُسلمين مَبلغاً شَديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قَارِبوا وسَدِّدوا فَفِي كُلِّ ما يُصابُ به المُسْلِمُ كَفارةٌ حتى النَّكْبَةِ يُنكَبها أو الشَّوكةِ يُشاكُها»(٢).

الرابع: أنَّ هذه المُصيبة كانت مَكتوبة عليه في أُمِّ الكتاب، ولم يكن بدٌّ من وصولها إليه، وقد وصلت واستراح من بعضها أو من جَميعها، فهذه نِعمةٌ.

والخامس: أن ثَوابها أكثر منها، فإنّ مصائب الدنيا طُرقٌ إلى الآخرة من وجهين: أحدهما: الوجه الذي به يكون الدَّواء الكريه نِعمة في حقِّ المَريض، وكما يكون المَنع من أسباب اللَّعب نِعمة في حقِّ الصبي، فإنه لو خُلِّيَ واللَّعب لكان يَمنعه ذلك من العِلم والأَدَب، فكان يَخسر جميعَ عُمره، فكذلك المالُ والأهلُ والأقاربُ والأعضاء حتى العَين التي هي أعزّ الأَشياء قد تكون سبباً لهلاكه، فالمُلْحِدة غداً يَتمنون أن لو كانوا مَجانين أو صِبياناً، ولم يتصرفوا بعُقولهم في دينِ الله، فما من شيءٍ من هذه الأسباب يوجد من العَبد إلا ويُتصوَّر أن يكون له في ذلك خِيرة دينيَّة، فعليه أن يُحسن الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ، ويقدر في ذلك الخِيرة، ويشكر الله تعالىٰ عليه، فإن حكمةَ الله واسعة، وهو بمصالح العباد أَعلم منهم، وغداً يَشكره العبادُ على البَلاء إذا رأوا ثوابَه، كما يشكر الصبيُّ بعد البلوغ أُستاذَه وأَباه على ضَربه وتَأديبه إذا رأى ثمرة ما استفَاده من التَّأديب، والبلاءُ تأديبٌ من الله تعالىٰ، ولُطفه بعباده أَتَمّ وأوفى من عناية الآباء بالأولاد وقد روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «عَجِبتُ للمؤمن أنَّ الله تعالىٰ لا يَقضى له قضاء إلا كان خيراً له». وروينا

(١) أخرجه أحمد (٧١)، والَّلأواءُ: الشِّدَّة وضيق المعيشة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

أن رجلاً أتى رسولَ اللهِ ﷺ فقال: أَوْصِني. فقال: «لا تَتَّهِم اللهَ في شيءٍ قَضاه لك».

والوجه الثاني أن رأسَ الخطايا المُهلكة حبُّ الدنيا ورأسَ أسبابِ النَّجاة التَّجافي بالقَلبِ عنها، ومُواتاة النِّعم على وَفق المُراد من غير امتزاجٍ ببلاءٍ ومُصيبةٍ يورث طُمأنينة القَلب إلى الدنيا وأُنسه بها، وإذا كَثُرت المصائب انزعجَ القلب عن الدنيا ولم يَسكن إليها، فصارت سِجناً له، فكانت نجاته منها غاية المراد، كَخلاص المسجون من السِّجن.

وأما التَّألُّم فهو ضروري، وذلك يُضاهي فرحك بمن يَحجمُكَ أو يَسقيكَ دواءً نافعاً بلا أَجر، فإنك تتألَّم وتَفرحُ فتَصبِرُ على الألم وتَشكر على سبب الفَرح، فكل بلاء في الأمور الدنياوية مثاله: الدَّواء الذي يُؤلم في الحال وينفع في المآل، بل من دخل دارَ مَلِكٍ مع النَّظَّارة وعلم أنه يخرج منها لا مَحالة فرأى وجهاً حسناً لا يَقدر عليه ولا يخرج معه من الدار كان ذلك بلاء عليه؛ لأنه يورِثه الأُنسَ بمنزلٍ لا يُمكنه المُقامُ فيه، ثم عليه خَطر من أن الملكَ ربما اطَّلعَ عليه فعذَّبه، فإذا أصابه ما يكره فَنفَّره عن المقام كان ذلك نِعمة عليه، والدنيا مَنزل وقد دخلها الناس وهم خارجون منها، فكل شيء يوجب أُنسَهم بالمنزل فَهو بلاء، وكل ما يُزعجُ قلوبَهم عنها ويقطع أُنسَهم بها، فهو نِعمة، فمن عرف هذا تُصوِّر منه أن يَشكر على البلاء، ومن لم يَعرف هذه النِّعمة في البلاء لم يُتصور منه الشُّكر؛ لأن الشُّكر يتبع معرفة النِّعمة، ومن لا يُؤمن أنَّ ثَواب المُصيبة أكبر منها لم يُتصوَّر منه الشُّكر على المُصيبة، وقد روي أن أعرابياً عَزَّى ابنَ عبّاس، فقال:

اصبِرْ نكُنْ بكَ صابرين فإنَّما ... صَبْرُ الرَّعيةِ بَعدَ صَبْرِ الرّاسِ
خَيرٌ من العبّاسِ أَجرُكَ بَعدَهُ ... واللهُ خَيرٌ منْكَ للعَبّاسِ

فقال ابن عباس: ما عَزَّاني أحدٌ أحسنَ من تَعزيته.

وقد سبق ذِكرُ أنواع البلاء وثوابِ الصَّبر عليها

بيانُ فَضلِ النِّعمةِ على البَلاء

لعلك تقولُ: إن الأخبار الواردةَ في فضلِ الصَّبر تدلُّ على أنَّ البلاءَ في الدُّنيا خيرٌ من النِّعم، فهل لنا أن نَسألَ الله عزَّ وجلَّ البلاءَ؟

فالجواب: إنه لا وَجه لذلك، أخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر ابن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا ابن أبي عَدي عن حُميد عن ثابت عن أنس أنَّ رسولَ الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صارَ مثلَ الفَرْخِ، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «هل كُنتَ تدعو بشيءٍ أو تَسأله إياه»؟ فقال: نعم، كنت أقول: اللهمَّ ما كنتَ مُعاقبي به في الآخرة فَعجِّلهُ لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحانَ الله! لا تُطيقه ولا تَستطيعه، فهلاّ قُلتَ: اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنا عذابَ النَّار»(١).

قال الإمام أحمد: حدثنا حُسين بن علي عن زائِدَةَ عن يزيدَ بن أبي زِياد عن عبد الله بن الحارث، عن العباس قال: أَتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، عَلِّمني شيئاً أَدْعو به فقال: «سَلِ اللهَ العَفْوَ والعافية». قال: ثم أتيته مرةً أخرى، فقلت: يا رسولَ الله، علمني شيئاً أدعو به. فقال: «يا عباس، يا عَمَّ رسولِ الله، سلِ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرة»(٢).

أنبأنا محمد بن عبد الباقي البَزّار قال: أخبرنا أبو إسحاق البرمكي قال: أخبرنا أبو محمد بن ماسي قال: أخبرنا أبو مسلم البَصري قال: حدَّثنا القَعْنَبي قال: أخبرنا سَلَمةُ بن وَرْدان عن أَنس بن مالك أن رجلاً قال: يا نَبيَّ اللهِ، أَيُّ الدُّعاء أفضل؟ قال: «سَلِ الله العَفوَ والعافيةَ في الدنيا والآخرة». ثم أتاه الغَد فقال: يا رسولَ الله، أيُّ الدعاء أَفضل؟ قال: «سَلِ الله العَفوَ والعافية في الدنيا والآخرة». ثم أتاهُ اليومَ

(١) أخرجه أحمد (١٢٠٤٩)، ومسلم (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٤٨٧)، وابن حبان (٩٣٦) و(٩٤١).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٨٣)، والترمذي (٣٥١٤)، وأبو يَعلى (٦٦٩٦).

الثالث فقال: «سَلِ الله العفوَ والعافيةَ في الدنيا والآخرة، فإذا أُعطيتَ العفوَ والعافية في الدنيا والآخرة فقد أفلحتَ»[١].

وفي الصَّحيحين من حديث أنسِ بنِ مالكٍ قال: كانَ أكثرُ دعاءِ النَّبي ﷺ: «اللهمَّ آتِنا في الدُّنيا حَسَنة وفي الآخرةِ حَسنةً وَقِنا عذابَ النّار».

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «تَعوَّذوا بالله من جَهدِ البَلاء، ودَرْكِ الشَّقاءِ، وسوءِ القَضاء، وشَماتةِ الأَعْداء»[٢].

وقال مُطَرِّف: لأَن أُعافَى فأَشْكُر أحبُّ إليَّ من أَنْ أُبتَلى فَأَصبِر.

فإن قيل: فقد تَمنَّى أقوامٌ البلاء، وقال سُمْنون[٣]: فكيفَ ما شئتَ فاختَبِرني.

فالجوابُ: أنَّ حالَ من تمنَّى البلاء يُحملُ على الشُّكر لشدَّة المحبة، فلو قد زَايَلَه شُكره علم أن ما قد غلبَ عليه كان حالةً لا حقيقةَ لها، وقد كان سُمنون ابتُلِيَ بعُسْرِ البَولِ، فكانَ يدورُ على المكاتب ويقول للصِّبيان: ادعوا لعَمِّكم الكَذّاب. فأما قولُ أبي الدَّرداء: ثلاثٌ يَكرههنّ الناسُ وأُحبُّهنَّ: الفَقرُ، والمَرضُ، والمَوت. فهذه محبَّةٌ شَرعيةٌ لا طَبَعِية، كما يحب الإنسان شُربَ الدَّواء المُرِّ لما يَرجو من عاقبته، ومن تَرقَّى في هذه الحال استَشعَرَ رِضا مَحبوبه في البَلاء فَغَطَّت لذَّةُ استِشْعارِ الرِّضا على أَلَم البَلاء، على أن هذه الحالة بَعيدة الثُّبوت على ما بَيّنا.

بيان الأَفضل من الصَّبر والشُّكر

اختلفَ الناسُ في ذلك، فقال قومٌ: الصَّبرُ أفضل، وقال آخرون: الشُّكرُ أفضل. وقال قَومٌ: هما سِيّان.

ونحنُ نَقول: في بَيانِ ذلك مَقامان:

المقام الأول: البيانُ على سَبيل التَّساهل، وهو أن يَنظر إلى ظاهر الأمر

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٢)، وابن ماجه (٣٨٤٨)، وأحمد (١٢٢٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٧٠٧).

(٣) هو سُمْنون بن حمزة أبو الحسن البغدادي، من أصحاب السَّري السَّقطي.

ولا يَطلب بالتَّفتيش بحقيقته، وهو البيان الذي يَنبغي أن يُخاطَب به عوامُّ الخلق لقُصور أَفْهامهم عن دَرْكِ الحقائق الغامضة، وهذا الفَنُّ من الكَلام هو الذي يَنبغي أن يَعتمده الوُعّاظ، إذ مَقصودُ كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم، والظِّئْرُ[1] المُشفِقَةُ لا يَنبغي أن تُصلحَ الطِّفلَ بالدَّجاج السَّمين والحَلاوات، بل باللَّبن اللَّطيف إلى أن يحتمل الأطعمة، فنقول: هذا المقامُ في البيان يأبَى البحثَ والتَّفصيل، ومقتضاه النَّظرُ إلى ظاهر المفهوم من مَوارد الشرع، وذلك يَقتضي تَفضيل الصَّبر، فإنّ الشُّكر وإن وردت أخبارٌ في فَضلِه، فإنه إذا أُضيفَ إليه ما ورد في فَضيلة الصَّبر كانت فَضائل الصبر أكثر، وقد سبقت الأَحاديث في تَفضيل الصَّبر والصابرين، فأما ما يُروى عن النبي ﷺ أنه قال: «الطَّاعمُ الشَّاكرُ بمنزلة الصَّائمِ الصَّابرِ» فهو دليلٌ على الفَضيلة في الصَّبر؛ لأنه ذكرَ ذلكَ في معرض المُبالغة لرفع درجة الشُّكر، فألحقَه بالصبر فكان هذا منتهى درجته، ولولا أنه فهم من الشَّرع علوَّ درجة الصبر لما كان إلحاق الشُّكر به مُبالغة في الشُّكر، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: «جِهادُ المرأة حُسنُ التَّبَعُّل، والجمعةُ حَجُّ المَساكين» و«شاربُ الخَمر كعابدِ وَثَن» وأبداً المُشَبَّه به يَنبغي أن يكون أعلى رُتبة، وكذلك قوله: «الصَّبر نِصفُ الإيمان». فإنَّ كل ما ينقسم نصفين يُسمَّى أحدهما نِصفاً، وإن كان بينهما تفاوتٌ، كما يُقال: الإيمان عِلمٌ وعَمَل، فالعمل نِصفُ الإيمان، ولا يدل على أن العمل يُساوي العِلم، وكل ما ورد في فَضائل الفَقر يدل على فَضيلة الصَّبر؛ لأن الصَّبر حالُ الفقير، والشُّكرُ حالُ الغَني فهذا المقام هو الذي يقنع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم.

المقام الثاني: هو البَيان الذي نَقصد به تَعريف أهلِ العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطَريق الكَشف والإيضاح، فنقول فيه: كلُّ أَمرين مُبهَمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الإبهام ما لم يُكشَف عن حقيقة كل واحدٍ منهما، وكل مكشوفٍ يشتمل على أقسامٍ لا يمكن الموازنة بين الجُملة والجملة بل يجب أن تُفردَ الآحاد بالموازنة حتى يتبيَّن الرُّجْحان والنُّقصان مع الإجمال، فنقول: قد ذكرنا أن هذه المقامات

(١) الظِّئر: المرأةُ المرضعة لغير ولدها.

تَنتظم من ثلاثة أمور: عُلومٍ وأحوالٍ وأعمالٍ، والشُّكر والصَّبر وسائر المقامات هي كذلك، وهذه الثلاثة إذا وُزِنَ البعضُ منها بالبَعض لاحَ للنّاظر إلى الظواهر أن العلومَ تُرادُ للأحوال، والأحوال تُراد للأعمال، والأعمال هي الأفضل، وأما أرباب البَصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك، فإن الأعمال تُراد للأحوال، والأحوال تُراد للعلوم، والأفضل العلم، ثم الأحوال، ثم الأعمال؛ لأن كل مرادٍ لغيره فذلك الغَير لا محالة أفضل منه.

وأما آحادُ هذه الثَّلاثة فالأعمال قد تَتَساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض، وكذا آحاد المَعارف، وأفضل المعارف علوم المكاشفة، وهي أرفع من علوم المعاملة، بل علوم المعاملة دون المعاملة، فإنها تُراد للمُعاملة ففائدتها إصلاح العَمل، وإنما فَضل العالم بالمعاملة على العباد إذا كان علمه مما يَعمُّ نفعُه، فيكون بالإضافة إلى علمٍ خاص أَفضل، وإلا فالعلم القَاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر.

فنقول: فائدةُ إصلاح العَمل إصلاحُ حالِ القَلب، وفائدة إصلاح حالِ القَلب أَنْ ينكشف له جَلال الله في ذاته وصِفاته وأفعاله، فأرفع عُلوم المكاشفة معرفة الله سبحانه، وهي الغاية التي تُطلب لذاتها، فإن السَّعادة تُنال بها، بل هي عين السعادة، ولكن قد لا يَشعر القلب في الدنيا بأنها عين السَّعادة، وإنما يشعر بها في الآخرة، فهي المعرفة الحرة التي لا قَيد عليها ولا تَتقيد بغيرها، وكل ما عداها من المعارف عَبيدٌ وخَدَم بالإضافة إليها، فإنها إنما تُراد لأجلها، ولما كانت مُرادة لأجلها كان تَفاوتها بحسب نَفعها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالىٰ، فإن بعضَ المعارف يُفضي إلى بعض إما بواسطة وإما بوسائط كثيرة، فكل ما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالىٰ أقل فهي أفضل.

وأما الأحوال فنَعني بها أحوالَ القلب في تصفيته وتَطهيره عن شَوائب الدُّنيا وشَواغلها حتى إذا طَهُرَ وَصفا اتَّضحت له حقيقة الحَق، فإذن فضائل الأحوال بقَدر تأثيرها في إصلاح القَلب وتطهيره وإعداده لأَن تحصل له علومُ المكاشفة وكما أنَّ تَصقيلَ[1] المِرآة يَحتاج إلى أن يتقدم على تَمامه أحوالٌ للمرآة بعضها أقرب إلى

(١) تحرفت في (ف) إلى: «تفصيل».

الصِّقالة من بعض، فكذلك أحوال القلب، فالحالة القريبة أو المقرِّبة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لا محالة بسبب القُرب من المقصود، وهكذا ترتيبُ الأعمال، فإن تأثيرها في تأكُّد صفات القلب وجَلب الأحوال إليه، وكل عملٍ فإما أن يجلبَ إليه حالةً مانعةً من المُكاشفة موجبةً ظُلمةَ القلب جاذبةً إلى زَخارف الدنيا، وإما أن تَجلبَ إليه حالةً مهيِّئةً للمكان موجبةً صفاءَ القلب وقطعَ علائق الدنيا عنه، واسم الأول معصيةٌ، واسمُ الثاني الطاعةُ، والمعاصي من حيثُ التأثير في ظُلمة القَلب وقَساوته مُتفاوتةٌ، وكذا الطاعات في تَنوير القلب وتصفيتِهِ، فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها، وكذلك تختلف باختلاف الأحوال، وذلك أنا بالقول المطلق ربما نَقول: الصلاةُ النافلةُ أفضلُ من كل عبادةٍ نافلة، وأن الحجَّ أفضل من الصَّدقة، وأن قيام الليل أفضل من غَيره، ولكن التحقيق فيه أن الغَنيَّ الذي معه مالٌ وقد غلبه البُخلُ وحبُّ المال إخراجُ درهمٍ أفضل له من قيام لَيالي وصيام أيامٍ؛ لأنَّ الصيام يليق بمن غَلبتهُ شَهوةُ البَطن فأراد كَسْرها، ومنعه الشِّبع عن صَفاء الفِكر في علوم المكاشفة، فأراد تَصفية القلبِ بالجوع، فأما هذا المُدبر إن لم تكن حالهُ هذه الحالة فليس يَستضرُّ بشهوةِ بَطنه، ولا هو مشتغل بنوعِ فكرٍ يمنع الشِّبع منه، فاشتغالُه بالصوم خروجٌ منه عن حالِهِ إلى حالٍ غيره، وهو كالمريض الذي يَشكو وجعَ البَطن إذا استعملَ دواء الصُّداع فإنه لا ينتفع به، بل حقُّه أن يَنظر في المُهلك الذي استَولى عليه، والشُّحُّ المُطاعُ من جُملة المهلكات، ولا يُزيل صيام مئةِ سنةٍ وقيامُ ألفِ ليلةٍ منه ذَرَّة، وإنما يُزيله إخراجُ المال، وقد ذكرنا تَفصيل هذا في ربع المهلكات فليُنظَر فيه.

فإذن باعتبارِ هذه الأَحوال يختلف الأمر، وعند ذلك يَعرف البصيرُ أن الجوابَ المطلق فيه خَطأ، إذ لو قال لنا قائل: الخُبزُ أفضل أم الماء؟ لم يكن فيه جواب حقٌّ إلا أن الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، فينظر إلى الأغلب، فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل، وإن تَساويا فهما متساويان، وكذا لو قيل: السَّكَنْجبينُ أفضل أو شَرابُ النَّيْلوفَر[1]؟ لم يصحَّ الجواب عنه مُطلقاً

---

(١) النيلوفر واللينوفر: هو نبات يخرج في البِرَك والأنهار عند زيادة الماء، والشرابُ المتَّخَذُ منه مرطب نافع للسعال وذات الجنب والصداع.

أصلاً، بلى لو قيل لنا: السَّكَنْجبين أفضلُ أم عَدَمُ الصَّفراء؟ قلنا: عَدمُ الصَّفراء؛ لأن السَّكَنجبين مرادٌ لغيره، وما يراد لغيره فَذلك الغير أفضل منه لا محالة، فإذن في بَذل المال عملٌ وهو الإنْفاق ويحصل به حالٌ وهو زَوالُ البُخلِ وخُروج حُبِّ الدُّنيا من القَلب، ويَتهيأ القلب بسبب خُروج حُبِّ الدنيا من القلب لمعرفة الله عزَّ وجل، وحُبُّه أفضل، والأفضل المعرفة، دونها الحال، ودونها العمل.

فإن قيل: فقد حَثَّ الشرعُ على الأَعمال (١وبالغ في ذكر فضلها فكيف لا يكون الفعل، وهو الإنفاق، أفضل؟١).

فاعلم أنَّ الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدلّ على أن الدواء مُرادٌ لعينه، ولا أنَّه أفضل من الشِّفاء الحاصل به، ولكن الأعمال علاجٌ لمرض القلوب، ومرضُ القُلوب مما لا يُشعَر به غالباً، فيقع الحثُّ على العمل لمقصودٍ هو شِفاءُ القَلب، كمن قال لولده وفيه تَوانٍ عن دراسة القُرآن: عَلِّمْ غِلماني القُرآن وأنا أُعطيكَ كذا وكذا. وكان مقصودُ الوالد تَكرار الوَلد ليثبت معه القرآن لا العبيد، فإن قال الولد: ما بالي استُخدِمتُ لأجلِ العَبيد وأنا أَجلُّ منهم؟ فترك تعليمهم حُرِمَ هو الحِفظ للقرآن من حيث لا يَدري، وقد انخدعَ بمثل هذا الخيال[٢] طائفة سَلكوا طَريق الإباحة، وقالوا: إنَّ الله غني عن عبادتنا وعن الاستقراض منّا لأجل المَساكين، فلا حظَّ لنا في إعطاء المَساكين ولا لله في تعبدنا. فهلكوا كما هلك الصَّبي.

فاعلم إذاً أنَّ الفَقير الآخذَ لصدقتك يستخرجُ منك داءَ البُخلِ، كالحَجّامِ يَستخرج الدَّمَ المُهلكَ، فالحَجّام خادمٌ لك لا أنتَ خادمٌ للحجّام.

والمقصود أنَّ الأعمال مؤثراتٌ في القلب، والقلب بحسب تأثيرها يستعد لقبول الهِداية ونور المعرفة، فهذا هو القَول الكُلِّي والقانون الأَصلي الذي يَنبغي أن يُرجَع إليه في معرفةِ فَضائل الأعمال والأحوال والمعارف.

فلنرجع الآن إلى خُصوص ما نحنُ فيه من الشُّكر والصبر، فنقول: في كل واحدٍ

(١-١) سقط من النسخ، واستُدرك من الإحياء.

(٢) في (ف): «الحال».

منهما معرفةٌ وحالٌ وعَملٌ، فلا يجوز أن تُقابَل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر، بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبعد التَّناسُب يَظهر الفَضل، ومهما قوبلت معرفة الشّاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفةٍ واحدةٍ إذْ مَعرفةُ الشّاكر أن يَرى نِعمة العَينين مثلاً من الله، ومعرفةُ الصّابر أن يَرى العَمى من الله، وهما مَعرفَتان مُتلازمتان ومُتَساويتان، هذا إن اعتُبرتا في البلاء والمصائب.

وقد بيَّنا أن الصَّبر قد يكون على الطَّاعة وعن المَعصية وفيهما يَتَّحد الصَّبر والشُّكر؛ لأن الصبرَ على الطاعة هو عَينُ شُكر الطَّاعة؛ لأن الشُّكر يرجع إلى صَرف نعمةِ الله تعالىٰ إلى ما هو المقصود منها بالحِكمة، والصَّبر يرجع إلى ثَبات باعثِ الدِّين في مُقابلة باعث الهَوى، فالصَّبر والشُّكر فيه اسمانِ لمسمّى وَاحدٍ باعتبارين مختلفين، فإثبات باعث الدين في مُقاومة باعث الهوى يُسمّى صَبراً بالإضافة إلى باعث الهَوى، ويُسمّى شُكراً بالإضافة إلى باعث الدين، إذ باعث الدين إنما خُلق لهذه الحكمة، وهو أن يُصرع به باعثُ الشَّهوة، فقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معبّرٍ واحد، فكيف يُفضَّل الشيء على نفسه ؟

فإذن مجاري الصَّبر ثَلاثة: الطّاعة والمَعصية والبلايا، وقد ظهر حُكمها في الطّاعة والمَعصية.

أما البلاء، فهو عبارة عن فَقد نِعمةٍ، والنعمة إما أن تكون تقع ضرورية كالعينين مثلاً، وإما أن تَقع في محل الحاجة، كالزيادة على قَدر الكفاية من المال، أما العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يُظهر الشكوى ويُضمر الرِّضا بقَضاء الله تعالىٰ ولا يترخَّص بسبب العمى في بعض المعاصي، وشُكرُ البَصير عليهما من حيث العمل بأمرين: أَحدُهما أن لا يَستعين بهما على مَعصيةٍ، والآخر: أن يَستعملهما في الطاعة، وكل واحد من الأمرين لا يخلو عن الصَّبر، فإن الأعمى قد كُفِيَ الصَّبر عن الصُّور الجميلة؛ لأنه لا يَراها، والبَصير إذا وَقع بَصرُه على جَميلٍ فصبرَ كان شاكراً لنعمة العينين، فإن أَتْبَعَ النَّظر فقد كَفَر نعمةَ العَينين، فقد دخل الصبرُ في شُكره، وكذلك إذا استعانَ بالعينين على الطّاعة، فلا بدَّ فيه أيضاً من صَبرٍ على الطَّاعة، ثم قَد يَشكُرها بالنَّظر إلى عَجائبِ صُنعِ الله عزَّ وجلَّ ليتوصَّل به إلى مَعرفةِ الله تعالىٰ

فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر، ولولا هذا لكانت رُتبة شُعَيبٍ فوق رتبة موسى عليهما السلام؛ صبر على فقده البَصر، وموسى لم يصبر، ولكن الكَمال في أن يُسلبَ الإنسانُ أطرافه كلها ويُترك كلَحمٍ على وَضَم[١] وذلك مُحال؛ لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين فيفوتُ بفَواتها ذلك الرّكن من الدين، وشُكرها استعمالها فيما هي آلة فيه من الدين، وذلك لا يكون إلا بصبرٍ.

وأما ما يقع في محل الحاجة، كالزيادة على الكفاية من المال، فإنه إذا لم يؤتَ إلا قدرَ الضرورة وهو محتاجٌ إلى ما وراءه، ففي الصبر عنه مُجاهدة، وهو جهاد الفُقراء، ووجود الزيادة نعمة وشُكرها أن تُصرَف إلى الخيرات، أو أن لا تُستعمَل في المعصية، فإن أُضيفَ الصَّبر إلى الشُّكر الذي هُو صَرفٌ للطاعة فالشكر أفضل؛ لأنه تضمَّن الصبرَ أيضاً، وفيه فَرحٌ بنعمة الله عزَّ وجل، وفيه احتمالُ ألمٍ في صرفه إلى الفقراء، وترك صرفه إلى التنعم المباح، وأما إذا كان شُكره بأن لا يستعين به على مَعصيةٍ بل يَصْرِفه إلى التَّنعم المباح فالصَّبر ها هنا أفضل من الشُّكر، والفقير الصابر أفضل من الغَني المُمْسِكِ ماله الصارفِ له إلى المُباحات، لا من الغَني الصارفِ ماله إلى الخَيرات؛ لأن الفقير قد جاهد نَفسه وكسر نَهْمتها وأحسن الصَّبر على بلاء الله، وهذه الحالة تَستدعي قوةً، والغَني اتَّبع نهمتَه وأطاعَ شَهوته، ولكنه اقتصرَ في التَّنعم على المُباح، وفي المباح مَندوحةٌ عن الحَرام، لكن لا بد من قُوةٍ في الصبر عن الحرام أيضاً، لأن القوة التي يصدر عنها صبرُ الفقير أعلى وأتمّ من القوة التي عنها يَصدر الاقتصار في التَّنعم على المُباح، والشَّرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها، فإن الأعمال لا تُراد إلا لأحوال القلب، وتلك القوة حالة القلب تختلف بحسب قوة الإيمان فما دلَّ على زيادة قوةٍ في الإيمان، فهو أفضل لا محالة.

وجميعُ ما ورد من تفضيل أَجرِ الصَّبر على أَجْرِ[٢] الشكر إنما أُريد به هذه الرتبة على الخصوص؛ لأن السابق إلى أفهام الناس من النِّعمة الأموال والغِنَى بها،

(١) الوضم: كل ما يوضع عليه اللحم من خشبٍ أو حصير أو نحو ذلك يوقى به من الأرض.
(٢) في (ف): «أجزاء».

والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يَقول الإنسان: الحمد لله، ولا يستعين بالنِّعمة على المعصية، فإذن الصبر الذي يَفهمه العامة أفضل من هذا الشكر الذي يفهمونه؛ لأن مَن صَبر على ألمٍ أحسنُ حالاً ممن باشرَ التَّنعم.

ومتى لاحظتَ المعاني التي ذكرناها علمتَ أن لكلٍّ واحدٍ من القَولين وجهاً في بعض الأحوال، فربَّ فقيرٍ صابرٍ أفضل من غنيٍّ شاكر، كما سبق، ورُبَّ غنيٍّ شاكرٍ أفضل من فَقيرٍ صابر، وذلك هو الغَنيُّ الذي يَرى نفسه مثل الفقير الذي لا يُمسك لنفسه من المال إلا قَدر الضَّرورة ويصرف الباقي إلى الخَيرات أو يُمسكه على اعتِقاد أنه خازنٌ للمُحتاجين، وإنما ينتظر حاجة تَسنح حتى يصرف إليها، فإذا صرفه لم يصرفه لطلب جاهٍ وصيتٍ، ولا لتَقليدِ مِنَّةٍ، بل أداء لحق الله سبحانه في تفقُّد عباده، فهذا أفضل من الصَّبر.

فإن قيل: فهذا لا يَثقُل على النَّفس، والفقر يَثقُل على الفَقير؛ لأن هذا يَستشعر لذَّة القُدرة وذاك يَستشعر ألَمَ الصبر، فإن كان متألماً بفراقِ المال انْجَبَر ذلك بلذَّتِهِ في القُدرة على الإنفاق.

فالجواب: أن الذي ينفق ماله عن رغبةٍ وطيبِ نَفسٍ أكمل حالاً ممن يُنفقه وهو بخيلٌ به يقهرُ نَفسه على ذلك، وقد ذَكرنا تفصيل هذا في كتاب التوبة، وبيَّنا أنَّ إيلامَ النفس ليس مطلوباً لعَينه بل لتأديبها، وذلك يُضاهي ضَربَ كلبِ الصَّيد، والكلب المتأدب أكمل من المحتاج إلى التأديب وإن صبر على الضرب.

فإن أردتَ أكثر الناس فقل: الصبرُ أفضل، فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأَفهام، وإن أردتَ التحقيقَ فَفصِّل، فإن للصَّبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهة، ووراءها الرضى وهو مقامٌ وراءَ الصبر، ووراءه الشُّكر على البلاء، وهو وراء الرِّضا، إذ الصبر مع التألُّم والرِّضا يمكن بما لا ألَمَ فيه ولا فرح، والشكرُ لا يمكن إلا على محبوبٍ مَفروحٍ به، وكذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا أَقصاها ويدخل في جُملتها أمور دونها؛ فإنَّ حياءَ العبدِ من تَتابع نِعم الله عليه شكرٌ، والاعترافَ بأن النعمَ ابتداءٌ من الله من غير استحقاق شكرٌ، والعلمَ بأن الشُّكرَ نعمةٌ من نعم الله وموهبةٌ منه شُكرٌ، وحسنَ التواضع في النِّعم والتذلل فيها شكرٌ، وشكرَ

الوسائط شكرٌ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَشكر الله من لا يَشكر النَّاس»(١). وقِلَّةَ الاعتراض وحسنَ الأدب بين يَدي المنعم شكرٌ، وتلقِّي النِّعَم بحُسن القَبول واستعظامَ صغيرها شكرٌ، فما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهي درجات مختفة، فكيف يمكن إجمال القَول بتفضيل أحدِهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخُصوص باللفظ العام؟

قال بعضُ السَّلف: رأيتُ في سَفَري شَيخاً كبيراً قد طعنَ في السنِّ، فسألته عن حاله، فقال: إني كنتُ في ابتداءِ عُمري أَهوى ابنةَ عمٍّ لي، وكانت تَهواني، فتزوجتها فقلتُ لها ليلةَ زفافها: تعالي حتى نُحيي هذه الليلةَ شكراً لله على جَمعِنا. فَصلَّينا تلكَ اللَّيلة ولم يتفرَّغ أحدُنا لصاحِبه، فلما كانت الليلةُ الثانيةُ قلنا مثل ذلك، فصلَّينا طولَ اللَّيل، فمنذُ سَبعين أو ثمانين سنة نحن على تلكَ الحالة كلَّ ليلةٍ أليس كذلك يا فُلانة؟ فقالت العجوز: هو كما قال الشَّيخ. فانظر إلى هذين لو صَبرا على بَلاءِ الفُرقَةِ أن لو لم يَجمع اللهُ بينهما وانسب صَبر الفُرقةِ إلى شُكر الوِصال على هذا الوجه، فلا يخفى عليك أنَّ هذا الشكر أفضل، فإذن لا وقوفَ على حقائق المُفَضَّلات إلا بتَفصيلٍ كما سبق، والله أعلم.

آخر كتاب الصبر والشكر(٢)

* * *

(١) أخرجه الترمذي (١٩٥٤).

(٢) هنا نهاية النسخة (ف) وقد ورد في آخرها ما نصه: «وهو آخر الجزء الثالث من كتاب منهاج القاصدين من أصل المصنف وخَطِّه، ويليه كتاب الرجاء والخوف، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين».

كتاب الرجاء والخوف

الحمدُ لله الصانع الحَكيم، المانع الكريم، المعاقب الحليم، خلق الآدميَّ من المُتماثِلات فإذا هو مُستقيم، وخوَّفه حتى حَذر البَري والسَّقيم، ثم أكَنَّه في أرجاء الرَّجاء فكأنه في حَريم، وقلَّبَ قلبَه بين الحالَتين والمُرادُ التَّقويم ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

أحمده على التَّفهيم والتَّعليم، وأَشكرُه على إنعامه الجَمِّ العَميم، وأُقِرُّ له بالوَحدانية إقراراً عن دليلٍ قَويم، وأُصلي على رسوله محمدٍ أشرفِ ظاعِنٍ وخَير مُقيم، وعلى أصحابه وأَزواجه وأَتباعه إلى يوم الحَشر العظيم، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

أما بعد: فإنَّ الرجاءَ والخَوف جَناحان بهما يطير المُقرَّبون إلى كل مَقامٍ محمود، ومَطيَّتان بهما يُقطَع من طُرق الآخرة كل عَقبةٍ كَؤُود[1]، فالرَّجاء يَقود إلى قُرب الرحمن، والخَوفُ يَصدُّ من عذاب النِّيران، فلا بد إذن من بيان حَقيقتهما وفضيلتهما، وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما، ونحن نجمع ذكرهما في كتابٍ واحد مُشتملٍ على شَطرين: الشَّطر الأول: في الرجاء، والشَّطر الثاني: في الخوف.

أما الشطر الأول: فيشتمل على بَيان حقيقة الرَّجاء وبَيان فَضيلة الرَّجاء وبيان دواء الرَّجاء، والطَّريق الذي به يُجتلب الرجاء.

---

(١) كؤود: أي صعبةُ المرتقى.

بَيانُ حقيقة الرجاء

اعلم أن الرجاء من جُملة مَقامات السَّالكين وأحوال الطالبين، وإنما يُسمى الوَصف مقاماً إذا ثبتَ وأقام، فإذا كان عارضاً سريعَ الزَّوال سُمِّي حالاً، كما أن الصُّفْرة تَنقسم إلى ثابتةٍ كصُفرة الذَّهَب، وإلى سريعة الزوال كصُفرة الوَجَل[١]، وإلى ما هو بينهما كصُفرَة المَرض، فكذلك صفات القَلب تَنقسم إلى هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يُسمى حالاً؛ لأنه يحول عن القلب، وهذا جارٍ في كل وصفٍ من أوصاف القلب.

وغرضنا الآن حَقيقة الرجاء، والرجاء يتم من علمٍ وحالٍ وعَمل، فالعلم سبب يُثمر الحال، والحال يَقتضي العمل، وكان الرجاء اسم للحال من جُملة الثلاثة وبيانه: أن كل ما يُلاقيكَ من مكروهٍ ومحبوبٍ ينقسم إلى موجودٍ في الحال، وإلى موجود فيما مضى، وإلى منتظر في الاستقبال، فإذا خطر ببالك مَوجود فيما مَضى سُمِّي ذِكراً، وإن كان ما خَطر بقلبك موجوداً في الحال سُمِّي وَجْداً أو ذَوقاً وإدراكاً، وإنما يسمى وجداً؛ لأنها حالة تجدها من نَفسك، فإن كان قد خَطر ببالك وجود شيءٍ في الاستقبال وغلبَ ذلك على قلبك سُمِّي انتِظاراً وتوقُّعاً، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألمٌ في القلب يُسمَّى خوفاً وإشفاقاً، وإن كان مَحبوباً حصل من انتظاره وتُعلّقِ القلبِ به وإِخطار وجوده بالبال لَذَّةٌ في القَلب وارتياحٌ يسمى ذلك الارتياح رجاءً، فالرجاء هو ارتياح القلب[٢] لانتظاره ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد أن يكون له سببٌ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه، فاسم الرجاء عليه صادقٌ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخِرام أسبابِه واضطرابها، فاسم الغرور والحُمق عليه أصدق من اسم الرجاء، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتِفاء فاسم التَّمنِّي أصدق على انتظاره؛ لأنه انتظار من غير سبب.

---

(١) الوَجَل: الخوف.

(٢) ليست في الأصل، واستدركت من الإحياء.

وعلى كل حال فلا يُطلق اسم الرجاء والخَوف إلا على ما يُتَردَّد فيه، وأما ما يُقطَع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوعَ الشمس. وقت الطُّلوع، وأخاف غُروبها. وقت الغروب؛ لأن ذلك مَقطوع به، بل يقال: أرجو نزول المطر وأخافُ انقطاعه.

وقد علم أربابُ القلوب أن الدُّنيا مَزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالنبت فيه، والطاعات جارية مجرى تَقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها، والقلب المُستهتر[1] بالدنيا المُستغرق بها كالأرض السَّبخة التي لا يَنمو فيها البذر، ويوم القيامة يوم الحصاد، ولا يَحصدُ أحدٌ إلا ما زَرَع، ولا ينمو زرعٌ إلا لمن بذر الإيمان وقَلَّما ينفع إيمانٌ مع خُبث القلب وسوءِ أخلاقه كما لا ينمو بذر في الأرض السَّبخة، فينبغي أن يُقاس رجاءُ العبدِ المَغفرةَ برجاءِ صاحب الزرع، فكلُّ من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جَيداً غير عَفِنٍ ولا مُسَوّسٍ، ثم ساقَ الماء إليه في أوقاتِ حاجته، ثم نَقَّى الأرضَ من الشَّوك والحشيشِ وكل ما يمنع من نبات البذر أو يُفسده، ثم جلس منتظراً من فَضل الله دفعَ الصَّواعق والآفات المفسدة إلى أن يَتم الزَّرع ويبلغ غايته، سُمِّيَ انتظاره رجاءً، وإن بَثَّ البذر في أرضٍ صلبة سَبْخةٍ مرتفعةٍ لا يصل إليها الماء، ولم يشتغل بتعهُّد البذر أصلاً ثم انتظر الحَصاد سُمِّي انتظاره حُمْقاً وغُروراً لا رجاءً، وإن بَثَّ البذر في أرضٍ طيبة ولكن لا ماءَ لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار سُمِّي انتظارُه تَمنِّياً لا رجاءً.

فإذن اسمُ الرجاء إنما يَصدق على انتظارِ محبوبٍ تمهدت جميعُ أسبابه الداخلة تحتَ اختيار العبد، ولم يبقَ إلا ما ليسَ يَدخل تحت اختياره، وهو فَضلُ الله تعالىٰ بصرفِ القَواطع والمُفسِدات، فالعبدُ إذا بَثَّ بذرَ الإيمان، وسَقاه ماءَ الطاعات، وطَهَّر القَلبَ من شَوكِ الأخلاق الرَّديَّةِ، وانتظر من فضلِ الله تعالىٰ تَثبيتَه على ذلك إلى الموت وحُسن الخاتمة المُفضية إلى المَغفرة كان انتظاره رجاءً حقيقياً محموداً في نفسه، باعثاً له على المُواظبة والقيام بمقتضى الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت، وإن قطع عن بذر الإيمان تَعهُّدهُ بماء الطاعات، أو تركَ القلبَ مَشحوناً

---

(١) المُستَهْتَر بها: المولَع المفتون بها.

برذائلِ الأَخلاق، وانهمك في طَلبِ لَذّاتِ الدنيا ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حُمقٌ وغُرورٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وذم القائل: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦].

أخبرنا هِبةُ الله بن مُحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عليُّ بنُ إسحاق، قال: أخبرنا عبد الله (. يعني ابن المبارك .)(١) قال: أخبرنا أبو بكر بن أبي مَريم عن ضَمْرةَ بن حَبيب عن شَدّاد بن أَوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ من دَانَ نَفسَه وعَمِلَ لما بَعدَ المَوت، والعاجزُ مَن أَتْبَعَ نَفسَهُ هَواها، وتَمنَّى على الله عز وجل»(٢).

فإذن العبدُ المجتهدُ في الطَّاعات المجتَنب للمَعاصي حَقيقٌ بأن ينتظر من فَضل الله عزَّ وجل تمامَ النِّعمة، وليس ذلك إلا دخول الجنة، وأما العاصي فإنه إذا تَابَ وتَدارك جميع ما فَرطَ من تَقصيره، فحقيقٌ أن يرجو قبول التوبة.

فأما قبل التَّوبة، فإنه إذا كان كارهاً للمعصية تَسوءُهُ السيئةُ وتَسرُّه الحَسَنة، وهو يَذمُّ نفسه ويلومها ويشتهي التوبة، جرى ذلك مجرى السَّبب الذي قد يُفضي إلى التوبة، وإنما الرجاء بعد تأكُّد الأسباب، ولذلك قال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨] والمعنى: أولئك يَستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تَخصيص وجود الرَّجاء؛ لأن غيرهم أيضاً قد يَرجو ذلك فأما من يَنهمك فيما يَكرهُه اللهُ عزَّ وجل، ولا يَذمُّ نفسَه عليه، ولا يَعزمُ على التَّوبة والرّجوع، فرجاؤُه للمغفرة حُمقٌ، كرجاء من بَثَّ البذر في أرضٍ سَبْخَةٍ وعزمَ أن لا يتعاهَده بسقيٍ ولا تَربيةٍ.

(١) ليست في الأصل، واستدركت من مسند أحمد.
(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وابن المبارك في الزهد (١٧١).

قال مَعروف الكرخي: رجاؤك لرحمةِ من لا تُطيعه خِذلانٌ وحُمقٌ.

وقال يَحيى بن مُعاذ: مِن أعظمِ الاغْتِرار التَّمادي في الذُّنوب على رجاءِ العفو من غير نَدَم، وتوقُّع القُرب من الله تعالىٰ بغير طاعة، وانتظار زَرع الجنَّة ببذرِ النَّار، وطلب دار المُطيعين بالمَعاصي، والتَّمنّي على الله عزَّ وجل مع الإِفراط.

فإذا عرفتَ حقيقةَ الرَّجاء ومَظِنَّته، فقد علمتَ أنها حالة أثمرها العِلم بجَريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تُثمر الاجتهادَ في القيام ببقيةِ الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حَسُن بذرُه وطابَت أَرضُه وغَزُرَ ماؤُه صَدقَ رجاؤه، فلا يَزال يَحملُه صدقُ الرجاء على تَفقُّد الأرض وتَعهدها وتَنقِيتها من كلِّ ما يُؤذي الزَّرعَ إلى وَقتِ الحَصاد، وهذا لأن الرَّجاء يُضاده اليأس، واليأس يَمنع من التَّعاهد، فمن عرفَ أن الأرضَ سَبْخةٌ، وأن الماء مُعْوِزٌ، وأن البذر لا يَنْبت تَركَ تفقُّدَ الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

والرجاء محمود لأنه باعثٌ، واليأسُ مَذمومٌ لأنه صارفٌ عن العمل، والخَوفُ ليس بضدٍّ للرجاء بل هو رفيقٌ له كما سيأتي، بل هو باعثٌ بطريق الرَّغبة.

فإذن حالُ الرجاء يورثُ طولَ المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثارِه التَّلذُّذ بدوام الإقبال على الله تعالىٰ، والتَّنعم بمناجاته، والتَّلطف في التَّملق له، فإن هذه الأحوال لا بدَّ أن تَظهر على كلِّ من يرجو مَلِكاً من الملوك أو شَخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حقِّ الله تعالىٰ، فإن كان ذلك لا يظهر فليُستدلّ به على حرمانِ مقام الرَّجاء والنزول في حَضيض الغُرور والتَّمني.

فهذا بَيانُ حالِ الرَّجاء وما أَثمره من العِلم وما استُثمر منه من العَمل، ويدل على إثماره لهذه الأعمال أنَّ رجلاً سألَ رسولَ الله ﷺ عن علامةِ الله فيمن يُريد ومَن لا يُريد فقال له: «كيفَ أصبحتَ» قال: أصبحتُ أُحبُّ الخَير وأهلَه، وإذا قَدرتُ على شيءٍ منه سارَعتُ إليه، وأيقنتُ بثَوابه، وإذا فاتَني منه شيءٌ حَزنتُ عليه وحَننت إليه. فقال: «هذه عَلامةُ الله فيمن يُريد، ولو أرادك للأُخرى هَيَّأَكَ لها ثم لا يُبالي في أيِّ أَوْدِيَتها هَلَكتَ».

فهذا بَيانُ علامة الخَير والشَّر، فمن رَجا أن يكون مُراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مَغرور.

بيان فَضيلة الرَّجاء والتَّرغيب فيه

اعلم أن العملَ على الرَّجاء أعلى منه على الخَوف؛ لأنَّ أقرب العِباد إلى الله أحبّهم له، والحب يَغلب الرَّجاء، ولهذا حَرُمَ أصلُ اليَأس، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «قالَ اللهُ عزَّ وجل: أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي»[١]. ورواه واثلة بن الأَسقع فزاد فيه: «فَليظنَّ ظانٌّ ما شاء»[٢].

وفي أَفرادِ مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يَموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسن بالله الظَنَّ»[٣].

ودخل رسولُ الله ﷺ على رجل وهو في النَّزْعِ، فقال: «كيف تَجدُكَ؟» فقال: أَجدُني أخافُ ذنوبي وأرجو رحمةَ ربي. فقال رسولُ الله ﷺ: «ما اجْتَمعا في قلبِ عبدٍ في هذا المَوطن إلا أَعطاه اللهُ ما رَجا وآمنَه مما يَخاف»[٤].

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلى داود: أَحِبَّني وأحبَّ من يُحبني وحَبِّبني إلى خَلقي. قال: يا رَبِّ، كيف أُحبِّبكَ إلى خَلقِكَ؟ قال: اذكُرني بالحَسَن الجميل، واذكر آلائي وإِحساني[٥].

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عبد الواحد بن محمد بن عبد الله الأسلي قال: أخبرنا علي بن أحمد بن عُمر الحَمّامي قال: أخبرنا أبو جعفر بن بُرَيه قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، وابن حبان (٦٤١)، والطبراني في الكبير ٢٢/(٢٠٩)، وفي الأوسط (٤٠٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٣١) من حديث أنس.

(٥) قال عنه العراقي في المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار: لم أجد له أصلاً، وكأنه من الإسرائيليات.

أخبرنا أبو بكر القُرَشي قال: أخبرنا إبراهيم بن راشد قال: أخبرنا أبو رَبيعة قال: حدثنا حَمَّاد بن سَلمة عن ثابت عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُخرَجُ من النار رَجُلان فَيُعرضان على ربهما، فيأمر بهما إلى النار، فيلتفت أحدهما فيقول: أَيْ رَبِّ، قد كنتُ أرجو إذ أَخْرَجتَني منها أن لا تُعيدني فيها. قال: فَيُنجيه اللهُ منها»[١].

أخبرنا المُحمَّدان ابن ناصر وابن عبد الباقي قالا: أخبرنا حمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم الحافظ قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: أخبرنا يوسف الصفار قال: أخبرنا أبو بكر بن عياش عن أبي يَحيى القَتّات عن مُجاهد قال: يُؤمَرُ بالعَبد إلى النّار يوم القيامة، فيقول: ما كانَ هذا ظني! فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أنْ تغفرَ لي. فيقول: خَلّوا سبيلَهُ.

بيان دواء الرجاء والسبب الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يَحتاج إليه رَجلان: إما رجلٌ غلبَ عليه اليأسُ فترك العِبادة، وإما رَجلٌ غلب عليه الخَوفُ وأسرفَ في المُواظبة على العِبادة حتى أَضَرَّ بنفسهِ وأهلِهِ، وهٰذان رجلان مائِلان عن الاعتدال إلى طَرفي الإِفراط والتَّفريط، فيحتاجان إلى علاجٍ يَردُّهما إلى الاعتدال.

فأما العاصي المَغرور المُتَمني على الله مع الإعراض عن العِبادة واقتِحام المعاصي فأدويةُ الرَّجاء تَنقلبُ في حقِّه سُموماً مُهلكةً، وتَتنزَّل منزلةَ العَسل الذي هو شفاءٌ لمن غلب عليه البَرد، وهو مُهلك لمن غلبت عليه الحَرارة، بل المغرور لا يُستعمل في حقه إلا أدوية الخَوف والأسباب المهيجة له، فلهذا يجب أن يكون واعظُ الناس مُتَلطِّفاً ناظراً إلى موقع العلل، معالجاً كل علّة بما يُضادها لا بما يزيد فيها، فإن المطلوبَ هو العَدلُ والقَصدُ في الصِّفات والأخلاق كلّها، فخير الأمور أوساطها، فإذا جاوز الوسط إلى أحدِ الطَّرفين عولج بما يَردُّه إلى الوَسط لا بما يزيد

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (٧٠).

في مَيله عن الوَسط، وهذا الزمان زَمانٌ لا ينبغي أن يُستعمل فيه مع الخلق أسبابُ الرَّجاء، بل المبالغة في التَّخويف؛ لأن ذكرَ أسباب الرجاء يُرْدِيهم بالكُلِّية، وإنما يَذكر الواعظُ للعصاةِ أسبابَ الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القُلوب إليه لإصلاح المَرضى، وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: إنما العالِمُ الذي لا يُقَنِّطُ النّاسَ من رحمةِ الله، ولا يُؤمِّنهم مَكرَ الله.

ونحنُ نذكرُ أسبابَ الرَّجاء ليُستَعمل في حق الآيِس، أو فيمن غلب عليه الخوف، والعالِمُ الحاذِقُ يَعرف كيف يَضع الدّواء.

وحالُ الرّجاء يَغلبُ بفَنَّين: **أحدهما**: الاعتبار، **والآخر**: استقراء الآيات والأخبار والآثار.

فأما الاعتبار؛ فهو أن يتأمل جميعَ ما ذكرناه في أصناف النِّعم من كتاب الشُّكر حتى إذا علم لطائفَ الله تعالىٰ لعباده في الدنيا وعجائب حِكَمِه التي راعاها في فِطرة الإنسان حتى أعدَّ له في الدنيا كل ما هو ضروري في دوام وجوده، كآلات الغِذاء وما هو محتاج إليه، كالأصابع والأظفار، وما هو زينة له، كاستِقْواسِ الحاجبَين وحُمرة الشَّفتين وغير ذلك مما كان لايَنْثَلِمُ بفَقده غرضٌ مقصود، وإنما كان يفوت به مزية جمال، فاللُّطفُ الإلهي لم يقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق، ولم يرض أن يفوتهم الزيادة في الزينة، فكيف يرضى سياقهم إلى الهَلاك المؤبَّد، ومَن لَطفَ في الدنيا يَلطُفُ في الآخرة؛ لأن مُدَبِّر الدارين واحدٌ، فهذا مما يقوي أسباب الرجاء.

ومن الاعتبار أيضاً؛ النظر في حِكمة الشَّريعة وسُنَّتها في مصالح الدنيا حتى كان بعضُ العلماء يرى آيةَ الدَّين[١] من أقوى أسباب الرجاء، فقيل له: وما فيها من الرجاء ؟ قال: الدُّنيا كلها قَليلٌ، ورزقُ الإنسان منها قليل، والدَّين قَليل من رزقه، فانظر كيف أنزلَ الله عزَّ وجل فيه أطولَ آيةٍ ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دَيْنِه، فكيف لا يَحفظ دِينَه الذي لا عِوَضَ له منه ؟

(١) يعني الآية التي ذُكر فيها الدَّين وهي الآية ٢٨٢ من سورة البقرة.

الفن الثاني: استقراءُ الآياتِ والأخبار الواردة في الرَّجاء: وذلك كثير، فمن ذلك قولُه تعالىٰ: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [الزمر: ٥٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، وأخبر الله تعالىٰ أن النار أعدَّها لأعدائه، وإنما خَوَّف بها أولياءَه فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذي كذب وتولى﴾ [الليل: ١٤-١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

ومن الأخبار: أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن حَمدان قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو سَلمة قال: أخبرنا ليث عن يَزيد بن الهاد عن عمرو عن أبي سعيد الخدري قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ إبليس قال لربِّه عز وجل: بعزَّتِكَ وجَلالِكَ لا أَبرحُ أُغوي بَني آدمَ ما دامت الأَرواحُ فيهم. فقال له الله: فَبِعزَّتي وجَلالي لا أَبرحُ أَغفِرُ لهم ما اسْتَغْفَروني»[1].

قال الإمام أحمد: وحدثنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن جَعفَر الجَزَري عن يَزيد بن الأَصمّ عن أبي هُريرة قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «والذي نَفسي بيَده، لو لَم تُذنبوا لذَهبَ اللهُ عزَّ وجلَّ بكُم، ولجاءَ بقومٍ يُذنبونَ فَيستَغفرونَ الله، فَيغفِرُ لهم»[2]. انفرد بإخراجه مسلم.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «سَدِّدوا وقارِبوا، وأبشروا، فإنه لن يُدخل الجنةَ أحداً عَملُه» قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يَتَغمدني اللهُ عزَّ وجلَّ منه برَحمة».

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يقولُ اللهُ عزَّ

---

(١) أخرجه أحمد (١١٢٤٤)، والطبراني في الأوسط (٨٧٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٨٢)، ومسلم (٢٧٤٩) (١١)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٢٧١)، والطبراني في الدعاء (١٨٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧١٠٢).

وجل يوم القيامة: يا آدمُ، قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ النار. فيقول: لَبّيكَ وسَعديك، والخير في يَديك، يا رب، وما بَعث النّار؟ قال: من كل ألفٍ تسع مئةٍ وتسعةٍ وتسعين. فحينئذٍ يَشيب المَولود، وتَضَع كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَملها، وتَرى النَّاسَ سُكارى وما هُمْ بِسُكارى، ولكنَّ عذابَ الله شَديد». فَشقَّ ذلكَ على النَّاس حتى تَغيَّرت وجوههم، وقالوا: يا رسول الله، وأَيُّنا ذلك الواحد؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «مِن يَأجوج ومَأجوج تسع مئةٍ وتسعة وتِسعون، ومنكم واحد». فقال الناس: اللهُ أكبر. فقال رسولُ الله ﷺ: «واللهِ إنّي لأَرجو أن تكونوا رُبعَ أهل الجنة، واللهِ إنّي لأرجو أن تكونوا ثُلثَ أهلِ الجنّة، واللهِ إنّي لأرجو أن تكونوا نِصفَ أهلِ الجنَّة» فكبَّر الناسُ. فقال: «ما أنتُم يومئذٍ في الناس إلا كالشَّعرة البَيضاء في الثَّور الأَسود، أو كالشَّعرة السَّوداء في الثور الأَبيض»[1].

فانظر كيف جاءَ بالتَّخويف، فلما أزعج جاء باللُّطف، ومتى اطمأنت القُلوب إلى الهَوى فينبغي أن تُزعَج، وإذا اشتَدَّ قَلقُها فينبغي أن تُسَكَّن ليعتدل الأمر.

وقال ابنُ مَسعود: ليغفرنَّ اللهُ يومَ القيامة مغفرةً لم تخطر على قلبِ بَشَر.

ويُروى أن مجوسياً استَضاف إبراهيمَ الخليلَ عليه السَّلام فلم يُضفه، وقال: إن أسلمتَ ضفتُكَ. فأَوحى اللهُ تعالىٰ إليه: يا إبراهيم، منذ سَبعين سنةً أُطعِمه على كُفره. فَسعى إبراهيمُ خَلفه فردَّه وأخبره بالحال، فعجبَ من لُطف الله تعالىٰ، فأسلم.

فهذه هي الأَسباب التي يُجتلب بها روح الرجاء إلى قُلوب الخائفين والآيسين، فأما الحَمقى المغرورونَ فلا ينبغي أن يُسمعوا شيئاً من ذلك، بل يُسمعون ما سَنورده من أسبابِ الخَوف، فإن أكثر الناس لا يَصلح إلا على الخوف، كعبد السّوء والصَّبي العَرِم الذي لا يستقيم إلا بالعَصا.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢).

الشَّطر الثاني من الكتاب
في الخوف

وفيه بيانُ حَقيقة الخوف، وبيانُ درجات الخَوف، وبيان أَقسام المخاوف، وبيان فَضيلة الخَوف، وبيان الأفضل من الخوف والرّجاء، وبيان دواء الخَوف، وبيان معنى سوء الخَاتمة، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء والصالحين.

بيان حَقيقة الخَوف

اعلم أن الخَوفَ عبارة عن تألُّم القَلب واحتراقِه بسببِ توقُّع مكروهٍ في الاستقبال، وقد ظَهر هذا في بَيان حقيقة الرَّجاء.

واعلم أن حالَ الخوف يَنتظم من علمٍ وحالٍ وعَمَل:

أما العِلم، فهو العلم بالسَّبب المُفضي إلى المَكروه، وذلك كمن جَنى على مَلِكٍ ثم وَقع في يَده، فيخاف القَتل مثلاً ويَرجو العفو، ولكن يكون تألُّم قلبه بالخوف بحسب قُوة علمه بالأسباب المُفضية إلى قَتلِه، وتَفاحُشِ جنايته وتأثيرها عند الملك، وكون المَلِك في نَفسه منتقِماً، وكونه محفوفاً بمن يَحثُّه على الانتقام، خالياً عن من يَشفع إليه في حقه، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كلِّ وَسيلة وحَسَنةٍ، فالعلم بتَظاهر هذه الأسباب سببٌ لقوة الخَوف وشدةِ تألُّم القلب، وبحَسب ضَعف هذه الأسباب يَضعُف الخَوف، وقد يكونُ الخَوف لا عن سببِ جنايةٍ قارَفَها الخائف، بل عن صفةِ المخوف، كالذي وقعَ في مخالبِ سَبُعٍ، فإنه يَخاف السَّبُع لصفةِ ذات السَّبع وهي سَطْوتُه وحرصُه على الافتراس.

فالعلمُ بأسباب المَكروه هو السَّبب الباعثُ على احتراقِ القلب وتَألُّمه، وذلك الاحتراق هو الخَوف، فكذا الخوفُ من الله عزَّ وجل تارةً يكون لمعرفةِ الله تعالىٰ، ومعرفةِ صفاته، وأنه لو أهلكَ العالمين لم يُبالِ، ولم يَمنعه مانع، وتارةً يكون لكثرةِ جِنايَة العَبد ومعاصيه، وبحسب معرفة الإنسان بعيوب نَفسه وبجلالِ اللهِ واستِغنائه،

وأنه لا يُسأَلُ عما يَفعل تكونُ قوّة خَوفه، فأخوف الناس أَعرَفُهم بنفسه وبربِّه، ولذلك قال ﷺ: «أنا أَعرَفُكم بالله وأَشدّكم له خَوفاً». ولذلك قال الله عزَّ وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وإذا كَمُلَت المعرفة أورَثَت الخوف، ففاض أثره من القَلب على جميع الجَوارح، وعلى الصفات؛ أما في البَدَن فبالنُّحولِ والاصفِرار والبُكاء والغَشْيِ، وقد تَنشَقُّ منه المرارةُ فَيُفضي إلى الموت، وقد يصعَد إلى الدِّماغ فيُفسد العقل، أو يَقوى فَيُورثُ القُنوط واليأسَ، وأما في الجَوارح فَيَكفُّها عن المعاصي ويُلزمها الطاعات تَلافياً لما فَرَطَ واستعداداً للمُستقبل، ولذلك قيل: ليسَ الخائفُ من بَكى وعَصَر عينيه، إنما الخائف من تَرك ما يَقدر عليه. وقال آخرُ: مَنْ خافَ أَدْلَجَ.

وأما في الصِّفات فإنه يَقمع الشَّهوات ويُكدِّر اللَّذات، فتصير المعاصي المَحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العَسل مكروهاً عند من يَشتهيه إذا علم أن فيه سُمّاً، فتحترق الشهوات بالخوف وتَتأدَّبُ الجَوارح ويَذلُّ القَلبُ ويَستكين، ويفارقه الكِبْرُ والحِقدُ والحَسَد، بل يصير مُستوعبَ الهَمِّ بخَوفهِ والنَّظرِ في خَطر عاقبته، فلا يتفرغُ لغيره، ولا يكون له شُغل إلا المراقبة والمحاسبةُ والمجاهدةُ والضِّنَّةُ[1] بالأنفاس واللَّحظات، ومؤاخذةُ النفس في الخَطَرات والخَطوات والكَلمات، ويكون حاله كحالِ من وَقع في مخالبِ سَبُعٍ ضارٍ لا يَدري أَيَغفل عَنه فيفلت، أو يَهجم عليه فَيهلك، ولا شُغل له إلا ما وَقع فيه.

فقُوة المُراقبة والمُحاسبة بحَسب قوة الخوف، وقُوة الخوف بحسب قوة المَعرفة بجلالِ الله تعالىٰ وصفاته، وبعيوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقلّ درجات الخَوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يَمنع من المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التَّحريم سُمِّيَ وَرعاً، فإذا انضمَّ إليه التَّجرُّد في الخِدمة والاشتِغال بها عن فُضول العَيش، فهو الصِّدق.

(١) ضَنَّ يَضِنُّ: بَخِلَ.

بيان درجات الخَوف واختلافه في القوة والضَّعف

اعلم أن الخَوف محمودٌ، وربما يُظنُّ أن كلَّ ما هو محمود فكلّما كان أقوى وأكثر كان أحمد، وهو غلط، بل الخوف سوطُ الله تعالىٰ يَسوقُ به عباده إلى المُواظبة على العلم والعَمل لينالوا بهما رُتبة القُرب من الله تعالىٰ، والأصلح للبهيمة أن لا تَخلو عن سوط، ولكن ذلك لا يدل على أن المُبالغة في الضَّرب مَحمودة، فكذلك الخوف له قصورٌ، وله إفراطٌ، وله اعتدال، والمحمود هو الاعتِدال، فأما القاصِرُ منه، فهو الذي يجري مجرى الرِّقَّة من النِّساء، يخطر بالبال عند سماع آيةٍ أو سبب هائلٍ يُثيرُ البُكاء، فإذا غابَ ذلك السَّبب عن الحِسِّ رجعَ القلبُ إلى الغَفلة، فهذا خوفٌ قاصِرٌ قليلُ الجَدوى ضعيف النَّفع، وهو كالقَضيب الضَّعيف الذي تُضرَب به دابَّة قَوية ولا يُؤلمها ألماً مُبرحاً، فلا يَسوقها إلى المقصد ولا يَصلح لرياضتها، وهكذا خَوف الناس كلهم إلا العارفون والعلماء ولست أعني بالعلماء المُتَرسِّمين برسوم العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخَوف، وإنما أعني العُلماء بالله وبآياته، وذلك مما قد عَزَّ وجوده.

وأما المُفرط، فهو الذي يَقوى ويُجاوز حَدَّ الاعتِدال حتى يخرج إلى اليَأس والقُنوط، وهو مَذمومٌ أيضاً؛ لأنه يمنع من العمل، والمرادُ من الخَوف ما يُراد من السَّوط، وهو الحَمل على العَمل، وقد يخرج إلى المَرض والوَلَه وزَوال العقل، وقد يخرج إلى المَوت، وهو كالضَّرب الذي يَقتل الصَّبي والسَّوطِ الذي يُمرض الدَّابةَ أو يُهلكها أو يَكسر عضواً من أعضائها، وإنما ذكر رسول الله ﷺ أسبابَ الرَّجاء ليُعالج بها صَدمةَ الخوف المُفرط.

فكل ما يُراد لأمرٍ فالمحمود منه ما يُفضي إلى المُراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يُجاوزه فإنه مَذموم.

وفائدةُ الخَوف الحَذَر والوَرع والتَّقوى والمُجاهدة والفِكر والذِّكر والتَّعبُّد وسائر الأسباب التي تُوصل إلى الله تعالىٰ، وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في شيء من ذلك كان مذموماً.

فإن قيل: فما تقول فيمن ماتَ من الخَوف ؟

فالجواب: أنه ينال بموته على تلك الحال مرتبةً لا ينالها لو مات حينئذ من غير خوف، إلا أنه لو عاشَ فترقَّى إلى درجات المعارف والمُعاملة كان أفضل فإنَّ أفضل السَّعادات طول العمر في طاعة الله، فكل ما أبطل العمر أو العَقل أو الصّحة فهو خُسران ونُقصان.

وأعلى الخَوف ما شغل القلبَ بالله وَحده مع بقاء الصحة والعقل، فإن أثر فيهما فَهُو مرض يَجب علاجه، وقد كان سهل بن عَبد الله يقول للمريدين المتجوِّعين: احفَظوا عقولكم، فإنه لم يكن لله تعالىٰ وَليٌّ ناقص العقل.

بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يُخاف منه

اعلم أن الخَوف لا يتحقَّق إلا بانتظارِ مكروهٍ، والمكروه إنما يكون مكروهاً في ذاته، كالنار، أو لإفضائه إلى ما يُكره، كإفضاء المعاصي إلى العِقاب، ولا بد لكل خائف أن يتمثَّل في نفسه مكروهاً ويقوى انتظاره عنده حتى يحترق قلبه بسبب استِشْعاره ذلك المكروه.

ومَقامات الخائفين تَختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات، فمنهم من يَغلب على قلبه ما يُكره لغيره لا لذاته، كخوفِ المَوت قبل التَّوبة، أو خوفِ نَقض التَّوبة، أو ضعفِ القُوة عن الوفاء بحقِّ الله تعالىٰ، أو خوفِ تَبدل رِقَّة القلب بالقَساوة، أو خوفِ المَيل عن الاستقامة، أو خوفِ الاستِدْراج بالنِّعَم، أو خوفِ ما لا يدري[1] حُدوثه في بَقية العُمر، أو خَوفِ اطّلاع الله تعالىٰ على سَريرته في حال غَفلته عنه، أو خوفِ خاتمةِ السُّوء، وخوفُ الخاتمة أغلب المخاوف على قُلوب المتَّقين، وأعلى من هذا المقام خوف السَّابقة؛ لأن الخاتمة فرعُ السابقةِ، والالتفات إلى القَضاء السابق أَوْفَى من الالتِفات إلى ما يظهر عنه، أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحَسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن حَمدان قال: حدثنا

(١) ليست في الأصل واستُدركت من الإحياء.

عبد الله بن أحمد قال: حَدثني أبي قال: حدثنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا لَيث قال: حدثني أبو قَبيل المَعافِري عن شُفَيّ الأَصْبَحي عن عَبد الله بن عَمرو قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ وفي يَدِه كتابان فقال: «أَتَدرونَ ما هَذان الكِتابان ؟» قلنا: لا. فقال للذي في يده اليُمنى: «هٰذا كتاب من ربِّ العالمين تباركَ وتَعالىٰ، بأسماء أهل الجَنَّة وأسماء آبائهم وقَبائلهم، لا يزاد فيهم ولا يُنقَص منهم أبداً» ثم قال للذي في يَساره: «هذا كتابُ أهلِ النار، بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، لا يُزاد فيهم ولا يُنقص منهم أبداً»[1].

واعلم أن الخائفين الذين ذكرنا أحوالهم يَنقسمون إلى من يَخاف من معصيته، وإلى من يَخاف الله تعالىٰ لجلاله وصفته، فالأول خوفُ الصالحين، والثاني خَوفُ العُلماء والصِّدّيقين، وهو ثَمرة المعرفةِ بالله، فإنَّ من عرف الله سبحانه رآه قد رفع محمداً ﷺ من غير وَسيلة سَبقت منه قَبل وُجوده، ووضع أبا جهلٍ من غير جناية سَبقت منه قَبل وجوده، وهذا أَجدر بأن يُخاف لصفة جَلاله، فإن من أطاعَ إنما أطاع بأن سَلَّط عليه إرادةَ الطاعة وآتاهُ القُدرةَ، ومن عَصى، فإنما عصى لأنّه سَلَّط عليه إرادةَ المعصية وآتاه القُدرة، فهل لإكرام ذلك بتَسليط إرادةِ الطاعة عليه موجبٌ ؟ وهل لإهانةِ الآخر [2]بتسليطِ دواعي المعصية عليه موجبٌ ؟ وكيف يُحالُ ذلك على العبد[2] وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القَضاء القديم من غير وسيلةٍ ولا جِناية، فالخوف ممن يقضي ما يشاء هو الحَزم، ووراء هذا المعنى سرّ القَدَر الذي لا يَجوز إفشاؤه، ولا يمكن تفهيم الخوف منه إلا بمثالٍ لولا إذن الشرع فيه لم نجترىء على ذِكره، وهو جاء في الحديث أن الله تعالىٰ أوحى إلى داود: يا داود خَفْني كما تَخافُ السَّبُع[3]. فهذا المثال يُفهمك حاصل المعنى وإن لم يقف بك على سببه،

---

(١) أخرجه أحمد (٦٥٦٣)، والترمذي (٢١٤١)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٤٨)، والنسائي في الكبرى (١١٤٧٣) بأطول مما هنا.

(٢-٢) سقط من الأصل واستدرك من الإحياء.

(٣) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار: لم أجد له أصلاً، ولعل المصنف قصد بإيراده أنه من الإسرائيليات. ينظر إتحاف السادة المتقين ١١/ ٤٠٤.

والحاصل أن السَّبُعَ يُخاف لبَطشه لا لجنايةٍ تقدَّمت، وإنما يَفعل ما يَفعل ولا يُبالي، فإن قتلكَ لم يرقَّ قلبُه ولم يتألّم، وإن تركَكَ لم يَتركك شَفقةً عليك، بل أنتَ عنده أَخسّ من أن يَلتفت إليك حياً كنتَ أو ميتاً، بل إهلاكُ ألفٍ مثلك وإهلاكُ نَملةٍ عنده سَواء، إذ لا يَقدح ذلك في عالم سَبُعيَّتِه وما هو موصوف به من قدرته وسطوته، ولله المَثَل الأعلى، وقد قال: «هؤلاء في الجَنَّة ولا أُبالي، وهؤلاء في النّار ولا أُبالي»(١).

الطبقة الثانية من الخائفين: أن يتمثل في أنفسهم ما هو المكروه، مثل سَكَرات المَوت وشِدّته، أو سؤال مُنكر ونَكير، أو عَذاب القبر، أو هيئة المَوقِف بين يَدي الله تعالىٰ والخوف من المُناقشة، ومن العبور على الصِّراط، أو من النار وأَهْوالها، أو حِرمان الجَنَّة، أو الحجاب عن الله تعالىٰ، وكل هذه الأسباب مَكروهة في أَنفُسها مَخوفة.

فأعلاها رُتبة خَوف الحِجاب عن الله تعالىٰ، وهو خَوف العارفين، وما قَبل ذلك خَوف الزاهدين والعابدين.

ومَن لم تكمل معرفته ولم يَشعُر بلذة الوصال ولم يَأْلَم بالبُعدِ والفِراق، فهو لا يَعرف إلا اللَّذَّات الحِسِّيَّة.

بَيان فَضيلة الخَوف والتَّرغيب فيه

اعلم أن فَضلَ الخوف يُعرف تارةً بالتأمُّل والاعتِبار، وتارةً بالآيات والأَخبار، فأما الاعتبار؛ فسبيله أن فضيلة الشَّيء بقدر إعانته على طلب السَّعادة، وهي لقاء الله تعالىٰ والقُرب منه، فكلُّ ما أعانَ على ذلك فله فَضيلة، وفضيلته بقدر إعانته.

وقد عُلم أنه لا وُصول إلى قُربِ الله تعالىٰ ولقائه إلا بتحصيلِ مَحبَّته والأُنسِ به في الدنيا، ولا تَحصلُ المحبَّة إلا بالمعرفة، ولا تَحصل المعرفة إلا بدوام الفِكرِ،

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٦٠)، وابن حبان (٣٣٨)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٤٥)، والحاكم ١/ ٣١ من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي.

ولا يحصل الأُنسُ إلا بالمحبَّة ودوام الذِّكر، ولا تَسهُل المواظبة على الذِّكر والفِكر إلا بانقِلاع حُبِّ الدنيا من القَلب، ولا ينقلع ذلك إلا بترك شَهوات الدنيا، ولا يمكن تركُ المُشتَهيات إلا بالخَوف، فالخَوفُ هو النارُ المحرقةُ للشَّهوات، فإذاً فَضيلتُه بقَدر ما يُحرق من الشَّهوةِ، وبقدر ما يكفُّ عن المعاصي ويَحثُّ على الطاعات، وكيف لا يكون الخَوف ذا فضيلةٍ وبه تَحصل العِفَّة والوَرَع والتَّقوى والمُجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة التي يُتقرَّبُ بها إلى الله سُبحانه؟!.

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار، فكقوله تعالىٰ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقوله: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ [البينة: ٨]، وقوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

وكلُّ ما دَلَّ على فَضيلة العلم دلَّ على فَضيلة الخَوف؛ لأن الخوفَ ثَمرةُ العلم، فمن نظر إلى مُثمِر الخَوف وجدَ العلمَ، أو إلى ثمرته رأى الورعَ والتَّقوى، ولا يخفى فَضلُ تلك الأشياء، أنبأنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المُبارك بن عبد الجبّار قال: أخبرنا محمد بن علي الخَيّاط قال: أخبرنا أبو عَبد الله بن دُوسْت قال: أخبرنا الحسين بن صَفوان قال: أخبرنا أبو بكر القرشي قال: حدثنا يَحيى بن عبد الحميد قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد عن يَزيد بن الهَاد عن مُحمد بن إبراهيم التَّيمي عن أم كلثوم بنت العَباس عن العَباس بن عبد المُطَّلب قال: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «إذا اقْشَعرَّ جَسَدُ العَبدِ من مخافةِ الله تحاتَّتْ عَنهُ ذُنوبه كما يَتَحاتُّ عن الشَّجرة اليابِسَةِ وَرَقُها»[١].

وقد روى أبو كاهل عن النَّبي ﷺ أنه قال: «لَن يَغضبَ الله على من كانَ في قَلبِهِ مَخافة، ولا تَأكل النار منه هُدبَةً»[٢].

وقال النبيُّ ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: وعزَّتي لا أجمعُ على عبدي خَوفَين،

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٣٢٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ١١٧.

(٢) أورده المصنف في الموضوعات ٣/ ١٦٣.

ولا أجمع له أمنين، إن أَمِنَني في الدُّنيا أَخَفتُه يومَ القيامةِ، وإذا خافَني في الدنيا أَمَّنتُه يومَ القِيامة»(١).

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: قلتُ: يا رسولَ الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الرجلُ يَسرق ويَزني؟ قال: «لا، بل هو الرجلُ يَصومُ ويُصلّي ويَتَصدَّق ويَخاف أن لا يُقبلَ منه»(٢).

وقيل للحسن: ما نَصنعُ بمجالسة أقوام يخوفونا حتى تَكاد قلوبُنا تَطير؟ فقال: إنك والله إنْ تَصحبْ قوماً يُخوفونكَ حتى يُدركك أَمنٌ خيرٌ لك من أن تَصحبَ قوماً يؤمّنونك حتى يُدركك الخَوف.

وقال الداراني: كلُّ قلبٍ ليس فيه مخافة، فهو قلبٌ خَرِب.

وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، وفي هذا ثناءٌ على الخَوف؛ لأنه ضدّ الأَمن، وكل ما وردَ في فضيلة البُكاء من خَشية الله عز وجل دليلٌ على فَضلِ الخَشية؛ لأن البُكاء ثمرة الخَشية، وفي الصَّحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «سَبعةٌ يُظلُّهم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظلُّه. منهم. رجلٌ ذَكرَ الله خالياً فَفاضت عيناه»(٣).

أخبرنا الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزْدي وأبو بكر الغُورْجي قالا: أخبرنا الجَراحي قال: حدثنا المَحبوبي قال: حدثنا الترمذي قال: حدثنا هَنّاد قال: حدثنا ابنُ المبارك عن عَبد الرحمن بن عبد الله المَسعودي عن محمد بن عبد الرحمن عن عيسى بن طلحة عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَلج النَّار رجلٌ بَكى من خَشيةِ الله حتى يَعود اللَّبنُ في الضَّرْع، ولا يَجتمع غُبارٌ في سَبيل الله ودُخانُ جهنَّم»(٤). قال التِّرمذي: هذا حديثٌ صحيح.

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ١/ ٣٩٥، والمنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣١.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٢٦٣) و(٢٥٧٠٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، والطبري في التفسير ١٧/ ٧٠، والحاكم ٢/ ٣٩٣، والسيوطي في الدر المنثور ١٠/ ٥٩٩.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠) و(١٤٢٣) و(٦٤٧٩)، ومسلم (١٠٣١) (٩١).

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٣٣) و(٢٣١١)، وأحمد (١٠٥٦٠)، وابن المبارك في الجهاد (٣٠) وهنّاد في الزهد (٤٦٥).

وروى ابنُ عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عَينان لا تَمسّهما النّار؛ عينٌ بَكَت في جَوفِ اللَّيل من خشيةِ الله، وعينٌ باتَت تَحرُس في سَبيل الله»[(١)].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ عينٍ باكية يومَ القيامة إلا عينٌ غَضَّت عن مَحارمِ الله، وعينٌ سَهرت في سَبيل الله، وعينٌ يخرج منها مثل رأس الذُّباب من خَشيةِ الله».

وروى أبو أُمامة عن النَّبي ﷺ أنه قال: «ليس شيءٌ أحبَّ إلى الله عزَّ وجلَّ من قَطرتَين؛ قطرة دمعٍ من خَشية الله، وقَطرة دَمٍ يُهراقُ في سَبيل الله».

وروى أَنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّها الناس، ابكوا، فإن لم تَبكوا فَتَباكوا، فإنَّ أهلَ النار يَبكون حتى تَصير الدُّموع في وجوههم جَداول، فتنفد الدموع، فتقرح الجفون، حتى لو أن السفن أُجرِيَت فيها لَجَرَت».

وقال عبدُ الله بن عَمرو بن العاص[(٢)]: لأنْ أَدمع دمعةً من خشية الله عزَّ وجلَّ أحب إليَّ من أن أتصدقَ بألفِ دينار.

وقال كعب: لأنْ أبكي من خَشيةِ الله حتى تَسيل دُموعي على وَجنتي أحبّ إليَّ من أن أَتصدَّق بجَبَلٍ من ذَهب.

وقال الحسن: لو بَكى عبد من خَشيةِ الله لرُحِمَ مَن حَولَه، ولو كانوا عِشرين ألفاً.

وقال خالد بن مَعْدان: إنَّ الدمعة لتُطفِيء البُحور من النِّيران، فإن سالَتْ على خَدِّ باكيها لم يَر ذلك الوَجهُ النارَ.

وقال مالكُ بن دينار: البُكاء على الخَطيئة يحطُّ الذنوبَ كما تَحطُّ الريحُ الورقَ اليابسَ.

وقال محمد بن عَلي بن الحسين: ما اغْرَورَقَتْ عينٌ بمائها إلا حُرِّمَ وجهُ صاحِبها على النّار، فإن سالَتْ على الخَدَّين لم يَرهق وجهه قَتَرٌ ولا ذِلَّة، وما من

(١) أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، والحاكم ٢/ ٩٢.

(٢) في الإحياء: عبد الله بن عمر.

شيءٍ إلا له جَزاء إلا الدَّمعة، فإنَّ الله يُكفِّر بها بُحورَ الخَطايا.

وكان عونُ بن عبد الله إذا بَكى يَمسح وَجهه بدموعه، فإذا سُئِل عن ذلك، قال: بلغني أنَّه لا تُصيبُ دُموع الإنسانِ مكاناً من جسده إلا حرَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك المكان على النَّار.

بيان الأفضل من غَلبة الخوف أو غَلبة الرجاء أو اعتِدالهما

اعلم أن قولَ القائل: أيما أَفضل الخوف أو الرجاء؟ كقوله: أَيّما أفضل الخُبز أو الماء؟

وجَوابُه: أن يُقال: الخبزُ أفضلُ للجائع، والماءُ أفضل للعَطشان، فإن اجتَمعا نُظِر إلى الأغلب، فإن استَويا فهما متساويان، وهذا لأنَّ كل ما يُراد لمقصودٍ ففضلُه يَظهر بالإضافة إلى مَقصوده لا إلى نفسه، والخوف والرجاء دَواءان تُداوى بهما القُلوب، فَفضلُهما بحسب الدّاء الموجود، وإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله، فالخوف أفضل، وإن كان اليأسُ والقُنوط، فالرَّجاء أفضل وكذلك إن كان الغَالب على العَبد المعصيةُ، فالخوف أفضل، ويجوز أن يُقال: مُطلقاً الخَوفُ أفضل، كما يُقال: الخبز أفضل من السَّكَنْجَبين؛ لأن الخبز يُعالَجُ به مرضُ الجوعِ، والسَّكَنْجَبين يُعالج به مَرض الصَّفراء، ومرضُ الجوع أغلبُ وأكثر، فالحاجةُ إلى الخبز أكثر. فالخوف أفضل بهذا الاعتبار؛ لأن المعاصي والاغترار على الخلق أغلب، وإن نُظر إلى موضع الخَوف والرجاء، فالرجاء أفضل؛ لأنه يَستقي من بحر الرَّحمة والخَوفُ يَستقي من بحر الغَضَب، ومن لاحظ من صفات الله تعالىٰ ما يقتضي اللُّطفَ والرَّحمة كانت المحبة عليه أغلب، وليس وراء المحبة مقامٌ، وأما الخوف فَمُستَنده الالتفات إلى الصِّفات التي تَقتضي العنف، فلا تُمازِجُه المحبة مُمازَجتها للرجاء.

وعلى الجُملة فما يُراد لغيره ينبغي أن يُستعمل فيه لفظُ الأصلح لا لفظ الأفضل، فيقال: الخوف أفضل لأكثر الخلق من الرجاء لأجل غَلبة المعاصي، وأما المُتقي فالأفضلُ عنده اعتدالُ الخوف والرَّجاء، ولذلك قيل: لو وُزِنَ رجاءُ المؤمن وخَوفه لاعتَدَلا.

قال بعضُ السَّلَف[١] : لو نُودِيَ : ليَدخل الجنَّة كلُّ الناس إلا رجل واحد . لخشيتُ أن أكونَ ذلك الرجل، ولو نودِيَ : ليَدخل النَّار كلُّ الناس إلا رجلٌ واحدٌ . لرجوتُ أن أكونَ ذلك الرجل . وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقي ، فأما العاصي فإنه إذا ظَنَّ أنَّه الرجلُ المُستَثنى من دُخول النار كان ذلك دَليلاً على اغتراره .

فإن قيل : كيفَ اعتَدَلا في قلب المؤمن والمؤمنُ على قَدَم التَّقوى ، فينبغي أن يكون رَجاؤُه أقوى ؟

فالجواب : أن المؤمن غير متيقن من صحة عمله ، فمثله كمثل من بَذَر بذراً لم يُجرب جِنْسَه في أرضٍ غريبة ، والبذر الإيمان ، وشروط صحته دقيقة ، والأرض القَلب ، وخفايا خُبثه وصَفائِه من الشِّرك الخَفي والنِّفاق وخَبايا الأخلاق فيه غامِضة ، والصواعقُ أَهوالُ سَكَرات المَوت ، وهناك تَضطرب العَقائد وكل هذا يُوجب غلبةَ الخَوف ، فإن كان الإنسان ثابتَ الجَنان بأمر المعرفة استَوى خوفه ورَجاؤه ، وأما أن يَغلب فلا ، وكيف لا يخاف المؤمن وهذا عمر بن الخطاب يَسأل حُذيفةَ : هل أنا من المُنافقين ؟ وإنما خاف عُمر أن يُلَبَّسَ حالُه عليه ويُستَرَ عيبُه عَنه .

فالخَوفُ المحمود هو الذي يحثُّ على العَمل ويُزعجُ القلبَ عن الرّكون إلى الدنيا ، فإذا نزل المَوت فالأصلح الرجاء ؛ لأن الخوف كالسَّوط الباعث على العَمل ، وليس عند الموت عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذٍ إلا تَقطيع نِياط قَلبه ، وأما الرجاء حينئذٍ فإنه يُقوي قلبه ، ويُحبب إليه ربَّه ، ولا ينبغي لأحدٍ أن يُفارقَ الدُّنيا إلا مُحباً لله تعالىٰ ، ليكون محباً للقائِه ، وقد قال سُليمان التَّيمي لابنه عند موته : حَدِّثني بالرُّخَص لعلّي ألقَى الله تعالىٰ وأنا حَسَنُ الظَّنِّ به .

بيانُ الدَّواء الذي به يُستجلَبُ حالُ الخوف

اعلم أن ما ذكرناه في دَواء الصَّبر وشَرحناه في كتاب الصَّبر والشُّكر هو كاف في هذا الغَرض ؛ لأن الصَّبر لا يمكن إلا بعد حُصول الخَوف والرَّجاء ، فأولُ مَقاماتِ الدِّين اليقينُ الذي هو عبارة عن قُوة الإيمان بالله وباليوم الآخر والجنَّة والنار ، وهذا

(١) ذكر في الإحياء أنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

اليقينُ بالضرورة يُهيّجُ الخَوفَ من النّار والرجاء للجنة، والخوف والرجاء يُقويّان على الصبر، فإن الجنَّةَ قد حُفَّتْ بالمَكارِه، ولا يُصبَر على تَحمّلها إلا بقوة الرجاء، والنار قد حُفَّت بالشَّهوات، ولا يُصبَر على قَمعِها إلا بقوَّة الخَوف، ولذلك قال علي رضي الله عنه: من اشتاقَ إلى الجنَّة سَلا عن الشَّهوات، ومَن أشفقَ من النار رَجع عن المُحرمات.

ثم يؤدي مقامُ الصبر المستفاد من الخَوف والرجاء إلى مَقام المُجاهدة والتَّجرُّد لِذكر الله والفِكرِ فيه على الدَّوام، ويؤدي دوامُ الذِّكر إلى الأُنس، ودوام الفِكر إلى كمال المَعرفة، ويؤدي كمال المعرفة والأُنس إلى المحبة، ويتبعها مقام الرِّضا والتَّوكل وسائر المقامات، فهذا هو الترتيبُ في سلوكِ منازل الدين، فليس بعدَ أصل اليقين مقامٌ سوى الخَوف والرَّجاء، ولا بعدهما مقامٌ سوى الصَّبرُ والمجاهدة والتَّجرد لله ظاهراً وباطناً، ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهِداية والمَعرفة، ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبّة والأُنس، ومن ضرورة المحبة الرضا.

واعلم أن الخَوفَ يحصل بطريقين مختلفين، أحدهما أعلى من الآخر، ومثالُه: أن الصبي إذا كان في بَيتٍ فدخل عليه سَبُعٌ أو حَيَّةٌ فربما لم يَخَفْ، وربما مَدَّ يده إلى الحيَّة ليأخذها ويلعب بها، ولكن إذا كانَ معه أبوه فهرب من الحيَّة وخافَها هربَ الصَّبيُّ وخافَ موافقةً لأبيه، فخوفُ الأبِ عن معرفةٍ، وخوفُ الوَلد عن تَقليد؛ لأنه قد علم أنَّ أباه لا يخاف إلا مما يُخاف منه.

فإذا عرفتَ هذا فاعلم أن الخوفَ من الله تعالىٰ على مَقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامّة الخَلق، وهو حاصل الإيمان بالجنّة والنار، وكونهما جَزاءَين على الطَّاعة والمَعصية، وضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان أو قوة الغَفلة، وإزالةُ الغفلة تَحصُل بالتَّذكير والفِكر في عذاب الآخرة، ويزيدُ بالنَّظر إلى الخائفين ومجالستهم، فإن فاتت المشاهدة فالسَّماع لأخبارهم لا يخلو من تأثير.

والثاني: الخوفُ منه في ذاته، وهذا خوف العُلماء العارفين من صفاته ما يَقتضي

الهَيبة والخوف والحَذر، فقد اطَّلعوا على سرِّ قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فهم يَخافون البُعدَ والحجابَ عنه ويرجون القُربَ منه، قال ذو النُّون: خَوف النار عند خَوف الفراق كَقطرةٍ قَطَرت في بَحرٍ لُجيٍّ، فهذا خوف العلماء.

ولعامة الناس حَظٌّ من هذه الخَشية، ولكنه بمجرد التقليد يُضاهي خوفَ الصبي من الحيَّة تقليداً لأبيه، وذلك لا يستند إلى بَصيرةٍ، فلذلك يَضعف ويزول على قُربٍ، حتى إن الصبي ربما يَرى المعزِّمَ يُقدِمُ على أخذ الحيّة فينظر إليها فيغترّ به، فيتجرأ على أخذِها تقليداً له، بينما احترز من أخذها تقليداً لأبيه.

والعقائدُ التَّقليدية ضَعيفةٌ في الغالب إلا إذا قَويت بمشاهدة أسبابها المؤكّدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مُقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار.

فإذن من ارتَقى إلى ذِرْوة المعرفة وعرفَ الله خافَهُ بالضَّرورة، فلا يحتاج إلى علاجٍ لجلب الخَوف إلى قَلبه، بل يخاف بالضَّرورة شاء أم أبى، ولذلك أوحى الله تعالىٰ إلى داود عليه السَّلام: خَفْني كما تَخافُ السَّبُعَ الضّاري[1]. ولا حيلة في جَلب الخوف من السَّبع الضاري إلا معرفة السَّبع ومعرفة الوقوع في مَخالبه، فلا يحتاج إلى حيلة سواه، فمن عَرفَ اللهَ عرف أنه يفعل ما يَشاء ولا يبالي، ويَحكُم ما يريد، ولا يخاف قُرب الملائكة من غير وَسيلةٍ سابقةٍ وأبعدَ إبليسَ من غير جَريمةٍ سالفةٍ، بل صفته ما تَرجمه قوله تعالىٰ: «هؤلاء في الجنَّة ولا أُبالي، وهؤلاء في النَّار ولا أُبالي»[2].

وإن خَطَر ببالكَ أنه لا يُعاقِبُ إلا على مَعصيةٍ، ولا يُثيبُ إلا على طاعةٍ، فتأمل كيفَ يمدُّ المُطيع بأسبابِ الطاعة حتى يطيع، فإنه متى خلقَ الغفلة والشَّهوة والقدرة على قَضاء الشهوة كان الفعل واقعاً، وإن كان أَبْعَده لأنه عصاه، فلم حَرّكه إلى

---

(١) تقدم قبل قليل.

(٢) تقدم من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي قبل قليل.

المعصية ؟ هل ذلك بمعصية سابقةٍ حتى يتسلسل إلى غير نهاية ؟ أو يقف على أَوَّل لا عِلَّةَ له من جهة العَبد بل قَضَى عليه في القِدَم ؟ وعن هذا المعنى عبَّر ﷺ في حديث التِقاء آدم وموسى فقال آدم: «فلم تَلومني ؟ على أمرٍ قَدَّره الله عليَّ قبل أن يَخلقني ؟ فحجَّ آدم موسى»[1].

فمن عرفَ السببَ في هذا الأمر معرفةً صادرة عن نور الهداية، فهو من خُصُوص العارفين المطَّلعين على سِرِّ القُدرة، ومن سمع هذا فآمن به وصدَّق بمجرَّدِ السَّماع، فهو من عموم المؤمنين، ويحصل لكل واحد من الفريقين خوفٌ فإن كل أحدٍ واقعٌ في قبضة القُدرة وُقوع الصبي الضَّعيف في مخالب السَّبُع إلا أن السَّبع قد يُخلي فَريسته وقد يُهلكها بالاتفاق، فأما إذا أضيف ذلك إلى علمِ الله تعالىٰ لم يَجُزْ أن يُسمى اتفاقاً، لكنه خَلقَ للجنّة أهلاً يَسوقهم القَدَر المتفرع من القَضاء القَديم الجزم إليها بأسبابها التي سُخِّروا لها شاؤوا أم أَبوا، وكذلك أهل النار، فمن رأى نفسه في تَيّارِ بحرِ القَدَر تَتلاطم به أمواجُه غلبه الخَوفُ ضرورة، فهذه مخاوف العارفين بسرِّ القَدَر، فأما من قَعَدَ به القُصور عن الارتفاع إلى مَقام الاستِبصار، فَسبيله أن يُعالجَ نَفسه بسماعِ الآثار والأَخبار، فيُطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المَغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى؛ لأنهم الأنبياء والعُلماء والأولياء، وأما الآمنون فهم الفَراعنة الجَهلَةُ الأغبياء، وقد أخبرنا عبد الأول أخبرنا الداودي قال: أخبرنا السَّرْخَسي قال: أخبرنا الفِرَبْري قال: حَدَّثنا البُخاري قال: حدثنا أبو اليَمان قال: حدثنا شُعَيب عن الزُّهري قال: حدَّثني خَارِجَة بن زَيد الأنصاري أنَّ أم العلاء ـ امرأة من نسائهم ـ قد بايَعت النبيَّ ﷺ أخبرته أنه اقتُسمَ المهاجرون قرعةً، قالت: فطارَ لنا عُثمانُ بن مظعون، فاشتكى فمرَّضْناه حتى إذا تُوفي وجَعلناه في ثيابه دخلَ علينا رسولُ الله ﷺ فقلتُ: رحمةُ الله عليكَ أبا السّائبِ، فَشهادتي عليكَ لقد أكرمك الله. فقال لي النَّبيُّ ﷺ: «وما يدريكِ أنَّ الله أكرمه ؟» فقلتُ: لا أدري بأبي أنتَ وأُمي يا رسولَ الله. قال رسول الله ﷺ: «أمّا عُثمانُ فقد جاءه واللهِ اليَقين، واللهِ إنّي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) (١٣)، وأحمد (٧٣٨٧).

لأَرجو له الخَير، والله ما أدري وأنا رسولُ الله ما يُفعلُ بي» قالت: فواللهِ لا أُزكّي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، قالت: فنمتُ فأُريتُ لعثمان عَيناً تَجري، فجئتُ إلى رسولِ الله ﷺ فأخبرتُه فقال: «ذاكَ عملُه». انفرد بإخراجه البخاري[١].

أخبرنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذْهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وَكيع قال: حدثني طَلحة بن يحيى بن طَلحة بن عُبيد الله عن عَمَّتهِ عائشة بنت طَلحة عن عائشة أُمِّ المؤمنين قالت: دُعي النَّبيُّ ﷺ إلى جنازَةِ غُلامٍ من الأَنصار فقلتُ: يا رسولَ الله، طوبَى لهذا عُصفورٌ من عَصافير الجنَّة لم يُدرك الشَّرَّ ولم يَعمَلْه. قال: «أَوْ غيرَ ذلك، يا عائشة، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ للجنَّةِ أهلاً، خَلقها لهم وهُم في أَصْلابِ آبائهم، وخلقَ للنار أهلاً خلقها لهم وهم في أَصْلاب آبائهم»[٢] انفرد بإخراجه مسلم، وفي لفظ حديث مسلم: «خلقهم لها» في المَوضعَين[٣].

وكيف لا يخاف المؤمنون كلّهم ورسولُ الله ﷺ يقول: «شَيَّبتني هُودٌ وأَخَواتها»، الحاقَّة، والواقِعة، وعمَّ يتساءلون، وهل أتاك حديث الغاشية، قال العلماء: لعلَّ ذلك لما فيهنَّ من التَّخويف والوعيد، كقوله تعالىٰ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، وفي الحاقَّة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٥-٦] وفي الواقعة: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]، ومعناه: جَفَّ القلم بما هو كائنٌ، وتمت السابقة خافضة لأقوامٍ كانوا مرفوعين في الدنيا، ورافعة لآخرين كانوا مَخفوضين في الدنيا، وكذلك باقي السُّوَر، وإن كان القرآن كله يَشتمل على مخاوف، وإن من أعجب ما ظاهره الرَّجاء وهو شديد التَّخويف قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، فإنه علَّق المغفرة على أربعة شروط يَبعد تصحيحها، ومن

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٣) و(٢٦٨٧) و(٣٩٢٩) و(٧٠٠٣) و(٧٠١٨).
(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٣٢) و(٢٥٧٤٢)، ومسلم (٢٦٦٢)، وأبو داود (٤٧١٣)، وابن حبان (٦١٧٣)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٩٥).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٢) (٣١)، وابن ماجه (٨٢).

المُخوّفات قولُه تعالىٰ: ﴿أما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين﴾ [القصص: ٦٧]، وقوله: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، وقوله: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ [الأعراف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ [هـود: ١٠٢]، وقـولـه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، ﴿اعملوا ما شئتم﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾.. الآية [الفرقان: ٢٣]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝﴾ [العصر: ١-٢]، ثم ذكر بَعدها أربعة شروطٍ بها يَقع الخلاصُ من الخُسران، ومن عَرفَ قُصور معرفته عن الإحاطة بكُنْهِ الأمور عَظُمَ خوفُه لا مَحالة.

والطامَّةُ الكبرى ارتباط أمركَ بمشيئة من لا يُبالي بهلاكك، فكم قد أهلكَ قبلكَ مثلكَ، عذَّبهم في الدنيا بأنواعِ الآلام والأمراض، وأمرضَ قُلوبهم بالكُفر والنِّفاق، ثم خَلَّدهم في العذاب على الدوام، ثم قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ومعلومٌ أنه لو كان الأمر مُستأنفاً لامتدَّت الأطماع في التَّخيل، فأما ما حُقَّ في القدم فإنه لا يمكن تَدارُكه، فليس إلا التَّسليم، وإنما يُتَلمَّح خَفِيُّ السابقة من جَليِّ الأسباب الظاهرة على القَلب والجوارح، فمن يُسِّرَت له أسبابُ الشَّرِّ وحِيلَ بينه وبين أسباب الخَير فكأنه رأى السابقةَ بالشَّر، وكذلك من كانت حالُه بالضِّدِّ، فكأنه رأى السابقةَ بالخير، ولكن لو كان الدَّوامُ موثوقاً[1] به، وإنما خَوف التَّغير يَزيد نارَ الخوف استِعاراً، وكيف يُؤمَن التَّغيُّر وقلوبُ المؤمنين بين أصبعين [من أصابع الرحمن][2] والقلب أشد تقلباً من القِدر إذا استَجمعت غَلياناً، وقد قال مُقَلِّب القُلوب: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٨]، فأجهلُ الناس من أَمِنَهُ وهو يناديه بالتحذير من الأمن، وكان الشِّبْليُّ رَحمه الله يُنشد:

أظلَّتْ عَلينا منكَ يوماً سَحابَةٌ ... أضاءَتْ لنا بَرْقاً وَأَبْطا رَشاشُها

---

(١) في الأصل: «موقوفاً»، والمثبت من الإحياء.

(٢) زيادة من الإحياء يتم بها المعنى.

فلا غَيمُها يَجلو فَيَأْيَسُ طامعٌ ولا غَيثُها يأتي فَتَرْوَى عِطاشُها

ولولا أنّ الله تعالى لطفَ بعارِفِيه فروَّحَ قلوبَهم بروح الرَّجاء لاحترقتَ من نارِ الخوف، فأسباب الرجاء رحمةٌ من الله لهم، وأسبابُ الغَفلة رحمةٌ للعوام من جهة أنه لو انكشفَ الغِطاء لزَهقَت النّفوس وتقطَّعت القلوب، وقد كان أبو الدَّرداء يَحلف بالله ما أَحدٌ أمِنَ على إيمانه أن يُسلَبَهُ عند المَوتِ إلا سُلِبَه.

وقد أخبرنا محمد بن عبد الباقي قال: أخبرنا حَمد بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعَيم الحافِظ قال: أخبرنا أبو محمد بن حيان قال: حدثنا محمد بن أحمد بن يَزيد قال: حدثنا عبد الرحمن بن عمر رُسْتَه، قال: حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي قال: ماتَ سُفيات الثَّوري عندي فلما اشتَّد به(١) جعلَ يبكي فقال به رجلٌ: يا أبا عبد الله أراكَ كثيرَ الذُّنوب. فرفعَ شيئاً من الأرض فقال: واللهِ لَذُنوبي أهونُ عندي من ذا، إني أخاف أَنْ أُسلَبَ الإيمانَ قبل أن أَموت.

وكان سَهلٌ يقول: المُريدُ يَخاف أن يُبتَلى بالمعاصي والعارِف يَخاف أن يُبتَلى بالكُفر.

ويُروى أن نبياً من الأنبياء شَكى إلى الله تعالى الجُوعَ والعُريَ، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: عَبدي، أما رضيتَ أَنْ عَصمتُ قلبكَ أن تكفر بي حتى تسألني الدنيا؟ فأخذَ التراب فوضَعه على رأسه، وقال: بلى، قد رضيت يا رب، فاعصِمني من الكُفر.

فإذا كانَ هذا خَوفُ العارفين من سوء الخاتمة مع رُسوخِ أقدامهم وقُوة إيمانهم، فكيف لا يخاف ذلك الضُّعفاء؟

ولسوءِ الخاتمةِ أسبابٌ تَتقدم على الموت، مثل: البِدعة، والنِّفاق، والكِبر، وجملة من الصفات المذمومة على ما سيأتي بيانه، ولذلك اشتدَّ خوفُ السَّلف من النِّفاق، فقال بعضُهم: لو أعلمُ أني بَريءٌ من النِّفاق كان أحب إليَّ مما طلَعت عليه

---

(١) أي اشتدَّ به النَّزْعُ.

الشمس. ولم يريدوا بذلك نِفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال المُرادُ بما أخبرنا به أبو بكر المُزُوني وأبو عبد الله البَارِع وأبو الحَسن الموحِّد وأبو سَعد الزَّوْزَني وأبو مَنصور القَزّاز وبَدْر الشَّيْخي، قالوا: أخبرنا أبو جَعفر بن المُسلِمَة قال: أخبرنا عُبيد الله بن عبد الرحمن الزُّهري قال: أخبرنا جعفر الفِرْيابي قال: حدثنا قُتَيبة قال: حدثنا إسماعيل بن جَعفر عن أبي سُهَيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هُرَيرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «آيَةُ المُنافِقِ ثَلاث: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وَعَدَ أَخلفَ، وإذا اؤتُمِنَ خان» أخرجاه في الصَّحيحين[١]. وفي حديث مسلم: «وإن صامَ وصلَّى وزَعَمَ أنه مُسلم»[٢].

وأخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا جَعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بَكر القَطيعي قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يَحيى بن آدم قال: حدثنا محمد بن خالد الضَّبِّي عن محمد بن سَعيد الأنصاري عن أبي الدَّرْداء قال: استَعيذوا بالله من خُشوع النِّفاق. قيل: وما خُشوع النِّفاق؟ قال: أن يكون الجسدُ خاشِعاً والقلب ليس بخاشِع[٣].

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يَحيى بن إسحاق قال: حدثنا مَهْدي قال: حدثني غَيْلانُ بنُ جَرير عن أنس بن مالك قال: إنكم لتَعملون أعمالاً لهيَ أدقُّ في أعينكُم من الشَّعر، إنْ كُنّا نَعُدُّها على عهدِ رسولِ الله ﷺ من المُوبِقات. انفردَ بإخراجه البخاري[٤].

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا فالخوف لازم لكل مؤمن

.

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).
(٢) أخرجه مسلم (٥٩) (١١٠).
(٣) أخرجه أحمد في الزهد: ١٧٦.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٩٢)، وأحمد (١٢٦٠٤) وأبو يعلى (٤٢٠٧) و(٤٣١٤).

بيان مَعنى سوء الخاتمة

سوء الخاتمة على رُتبتين، إحداهماأعظم من الأخرى.

فأما الرتبة العظيمة الهائلة فهي أن يَغلبَ على القَلب عند سَكرات الموت وظُهور أهواله: إمّا الشَّكُّ، وإما الجُحود فَتُقبَضُ الروح في حالةِ غَلبَةِ الجُحودِ أو الشَّكِّ، فيكون ما غلب على القلب من ذلك حجاباً بينه وبين اللهِ تعالىٰ أبداً، وذلك يَقتضي البُعدَ الدائم والعذابَ الخالد.

والثانية: دونها، وهو أن يتسخَّطَ الأقدار ويتكلَّمَ بالاعتراضِ، أو يجورَ في وَصيَّته أو يموتَ مُصرّاً على ذنبٍ من الذنوب، فقد سمعتُ بعضَ من كان في النَّزْعِ يقول: رَبِّي يَظْلمني. وفي حديث أبي اليَسَر عن النَّبي ﷺ أنه كان يدعو: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ أن يتخبَّطني الشَّيطان عند الموت»(١). قال أبو سُلَيمان الخطابي: وذلك أن يَستولي الشَّيطانُ على الإنسان حيئنذٍ فيُضِلّه، ويَحول بينه وبين التَّوبة ويمنعه الخروجَ من مَظلِمَةٍ، أو يُؤْيِسه من رحمة الله، ويُكَرِّه إليه الموت فلا يَرضى بقضاء الله، وقد روي أن الشَّيطان لا يكون في حالٍ أشدّ على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليومَ لم تلحقوه.

وإذا ثبت تَعلق الصفات المحمودة أو المَذمومة بالقلب عند الموت، فإنها لا تتغيَّر، إذْ لا تَصرُّف في القلوب إلا بأعمال الجوارح، وقد بَطلت الجوارح بالمَوت، فبطلت الأعمال، ولا مطمعَ في الرجوع إلى الدنيا للتدارك، فالترابُ يأكلُ جميعَ الجوارح ثم تُعاد الأجزاء للأبدان، وتُعادُ إليها الروحُ التي هي محلّ الإيمان على ما خَرجت عليه، وقد كانت من وقتِ الموت إلى البَعث إمّا في حَواصِل طَيرٍ خُضْرٍ، وإما على حالٍ تُضادّ هذه، وقد أخبرنا هِبَةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو أحمد قال: حدثنا سُفيان عن الأعمش عن أبي سُفيان

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي ٨/ ٢٨٢.

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعَثُ كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليه». انفردَ بإخراجه مسلم[١].

فإن قيل: فما السببُ الذي يُفضي إلى سوء الخاتمة؟

فالجواب: أنه لا يمكن إحصاءُ ذلك على التَّفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مَجامِعه.

أما الخَتمُ على الشكِّ والجُحود، فسببُه البِدعة، ومعناها: أن يعتقدَ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِه وأفعالِه خلافَ الحقِّ، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشفَ الغِطاء عند الموت بانَ له بُطلانُ ما اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له، فلا يُفرق بين اعتقادٍ صحيحٍ واعتقادٍ فاسدٍ، فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سَبباً لبُطلان بقية اعتقاداته أو لِشَكِّه فيها، فإن اتفقَ زُهوقُ روحه في هذه الحالة قبلَ أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد خُتِمَ له بالسوء، وخَرجت روحُه على الشِّرك، ودخل في جملة المرادين بقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

ومن اعتقد في الله سبحانه وفي صفاتِه اعتقاداً مجملاً على طريقة السَّلف من غير بَحثٍ ولا تَنقير[٢]، كما فعل المتكلّمون، فهو بمعزلٍ من هذا الخَطر.

وأما الخَتمُ على المعاصي، فسببُه ضَعفُ الإيمان في الأصل، وذلك يُورث الانهماك على المعاصي، وهي مُطْفِئَةٌ لنور الإيمان على ضَعفه، وإذا ضعف الإيمان ضَعف حبّ الله، فإذا جاءت سَكرات الموت ازداد ذلك الحبُّ ضَعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا ويَرى ذلك من الله فَيَختلج ضَميره بإنكار ما قُدِّرَ عليه من الموت، وكراهة ذلك من حيث أنه من الله، فَيُخشى أن يَثور في باطنه بُغضُ الله بدل الحب، كما أن الذي يُحب ولده حُباً ضَعيفاً إذا أَخذ ولدُه أموالَه التي هي أحب إليه من ولده وأحرقَها انقلبَ ذلك الحب الضَّعيف بُغضاً، فإن اتفق زُهوقُ نفسه في تلك اللَّحظة

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٨)، وأحمد (١٤٥٤٣) و(١٤٩٤١).

(٢) التَّنقير: التفتيش والبحث الشديد.

التي خطرت فيها هذه الخَطرة، فقد خُتم له بالسوء.

والسببُ الذي يُفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غَلبة حُبِّ الدنيا، والرّكون إليها، والفرح بأسبابها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حُبِّ الله، فمن وجد في قلبه حبّ الله أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخَطر، فكل من مات على محبة الله تعالىٰ قُدِمَ به قُدوم العبد المحسن المُشتاق إلى مولاه، فلا يَخْفَى ما يَلقاه من الفَرح والسُّرور بمجرد القدوم، فَضلاً عما يستحقه من الإكرام، ومن فارقه الروحُ في حالٍ قد خطر فيه بباله الإنكار على الله تعالىٰ في فعله، أو كان مصرّاً على مخالفتهِ قَدم على الله تعالىٰ قُدوم الآبِقِ إذا قُدِمَ به قَهراً، فلا يَخفَى ما يستحقه من النَّكال.

ومن أرادَ طريقَ السلامة تَزحزحَ عن أسباب الهلاك، على أن العلمَ بتقليبِ القلوب وتغيير الأحوال يُقَلقِلُ قلوبَ الخائفين، ومعلومٌ أن من وَقفت سَفينته في لُجَّة البحر، وعصفت عليها الرياح، واختلفت الأمواج، كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك، وقلبُ المؤمن أشدُّ اضطراباً من السفينة، وأمواجُ الخَواطر والفتنِ أعظمُ التِطاماً من أمواج البحر، أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا أبو غَسان محمد بن مُطَرِّف عن أبي حازم عن سَهل بن سَعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليعملُ بعملِ أهل النار، وإنّه لَمِنْ أهلِ الجنَّة، وإنَّ الرجلَ ليعمَلُ بعملِ أهل الجنة، وإنه لمِن أَهلِ النّار، وإنّما الأعمالُ بالخَواتيم».
أخرجاه في الصحيحين[1].

أخبرنا ابنُ ناصر قال: أخبرنا جَعفر بن أحمد قال: أخبرنا أبو علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني سُرَيج قال: حدثنا عَنْبَسَةُ بن عبد الواحد عن مالك بن مِغْوَل أن عبد العزيز بن رُفَيع قال: إذا عُرِجَ بِروح المؤمن إلى السماء قالت الملائكة: سُبحان الذي نَجّى هذا العبدَ من الشَّيطان، يا وَيحه كيف نَجا ؟!

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٣) و(٦٦٠٧) ومسلم (١١٢) وفي الصفحة ٢٠٤٢، وأحمد (٢٢٨١٣) و(٢٢٨٣٥).

فَصل

وإذا قد بانَ لك معنى سوء الخاتِمة فاحذر أسبابها. وأعدّ ما يَصلح لها، وإياك والتَّسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير. وكل نَفس من أنفاسك خاتمتك، إذْ يمكن أن تُختَطف فيه رُوحُك، ولا تَنمْ إلا على الطَّهارتين: الباطِنة والظاهرة، فإن الإنسان لا ينام إلا على ما كان فيه في اليَقظة، فاعمُرْ يَقظتك يَصلُح نَومُكَ، وكذلك لا يموت الإنسان إلا على ما عاش عليه، ولا يُحشَر إلا على ما ماتَ عليه.

واعلم أنَّه لا يَتيسَّر لك الاستعداد بما يصلح إلا أن تَقنعَ بما يُقيمك وتَرفُضَ طلبَ الفضول، وسنوردُ عليك من أخبار الخائفين ما نَرجو أن يُزيلَ بعض القَساوة من قلبك، فإنك محقق أنَّ الأنبياء والأولياء كانوا أَعقَل منكَ وأعلمَ، فتفكَّر في اشتدادِ خَوفهم وكثرةِ بُكائهم لعلَّك تنتبه لنفسك.

ذِكرُ خَوف الملائكة

قال الله عزَّ وجلَّ في صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وقد روينا عن النَّبي ﷺ أنه قال: «لله ملائكةٌ ترعد فَرائِصهم من مَخافَته، ما منهم مَلَكٌ تَقطُر دَمعةٌ من عينه إلا وَقَعت مَلَكاً قائماً يُسبّح، ولله مَلائكةٌ سجودٌ منذُ خلقَ اللهُ السماوات والأرض لم يَرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونَها إلى يوم القيامة، وصفوف لم يَنصرفوا عن مَصافِّهم ولا يَنصرفون إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة تَجلّى لهم ربهم فَينظروا إليه تعالىٰ فقالوا: سُبحانك، ما عبدناك كما يَنبغي لك»[1].

وبلغنا أن من حَمَلةِ العَرش من يَسيل من عينيه الأنهار، فإذا رفع رأسه قال: سُبحانك، ما تُخْشَى حَقَّ خَشيتك. فيقول: لكن الذين يَحلفون باسمي كاذِبين لا يعلمون ذلك.

أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا ابن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو الحسن المَلَطي

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٩١٤) وأبو الشيخ في العظمة (٥١٥)، والسيوطي في الحَبائك: ٢٤.

قال: أخبرنا ابن دوسْت قال: حدثنا ابن سِنان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثني محمد بن عبد المجيد التَّميمي قال: حدثنا عبد الله بن عمرو عن عبد الكريم الجَزَري عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلةُ أُسري بي رأيتُ جبريل كالحِلْسِ[1] البالي مُلقىً من خَشيةِ الله»[2].

قال القُرشي: وحدثني إبراهيم بن سَعيد قال: حدثنا عَمار بن عُثمان قال: حدثنا جَعفر بن سليمان قال: سَمعتُ أبا عمران الجَوني قال: بلغنا أنَّ جبرائيل جاء إلى النبي ﷺ وهو يَبكي، فقال: «ما يُبكيكَ ؟ قال: ما جفَّت لي عينٌ منذ خلقَ الله جهنَّم مخافة أن أَعصيه فيُلقيني فيها».

قال القُرشي: وحدثني محمد بن يَحيى بن أبي حاتم قال: حدثنا الحسين بن محمد قال: حدثنا دُوَيد العابد عن ضِرار عن يَزيد الرَّقاشي قال: إنَّ لله ملائكةً حولَ العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يَميدون[3] كأنما تَنفضهم الريح من خَشية الله عز وجل فيقول لهم الرب تعالىٰ: يا مَلائكتي، ما الذي يُخيفكم وأنتم عندي ؟ فيقولون: يا رب لو أن أهل الأرض اطَّلعوا من عزَّتك وعَظَمتك على ما اطَّلعنا عليه ما أَساغوا طعاماً ولا شَراباً، ولا انبسطوا في فُرشهم، ولَخرجوا إلى الصَّحارى يَخورون كما تَخور البَقَر.

وقد روينا أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «ما لي أرى ميكائيل لا يَضحك ؟» فقال: ما ضَحِكَ ميكائيلُ منذ خُلِقَت النار، وما جَفَّت لي عَينٌ منذ خُلِقَت النار، وما جَفَّت لي عَينٌ منذ خُلِقَت جهنَّم مخافةَ أن أَعصي اللهَ فيَجعلني فيها، ولعلّي أكونُ في عِلمِ اللهِ على غير الحالِ التي أنا عليها، ولعلي أُبتَلى بما ابتُلِيَ به إبليس أو هاروت وماروت.

وقال محمد بن المُنكدِر: لما خُلقتِ النّارُ طارَت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خُلق آدم عادت.

---

(١) الحِلْس: كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل، وما يُبسط في البيت من حصير.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٦٧٩)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٢١).
(٣) يميدون: يتحركون ويضطربون.

وروي أنه لما ظَهر من إبليس ما ظَهر طَفِقَ جبريلُ وميكائيلُ يَبكيان، فأوحى الله تعالىٰ إليهما: ما هذا البكاء؟ قالا: يا رب ما نأمن مَكركَ. فقال تعالىٰ: هكذا فكونا.

ذكر خوف الأنبياء المُتَنَدِّمين

ذكر خوف آدم وبكائه

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا أبو الحسين بن عبد الجبار قال: أخبرنا علي بن أحمد بن علي المَلَطي قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: أخبرنا ابن صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرَشي قال: حَدثني محمد بن الحُسين قال: حدثنا يحيى ابن أبي بُكَير عن الهَيَّاج بن بِسْطام عن أَشْرَس عن وَهب قال: بَكَى آدمُ على الجنة ثلاثَ مئةِ عامٍ، وما رفع رأسه إلى السماء بعد ما أصابَ الخطيئة.

قال عليُّ ابن أبي طَلحة: لما نزل آدمُ إلى الأرض فأحدثَ وجد ريحه، فمكث يبكي سبعين سنةً.

وقال فَتْح المَوصلي: قال آدمُ لابنه: بُنيَّ، كُنّا نَسْلاً من نَسلِ السَّماء فَساءَنا عَدوّنا إبليسُ بالخَطيئةِ، فليس لنا راحة إلا الهم والعَناء حتى يُرَدَّ إلى الدّار التي أُخرجنا منها.

قال ابنُ سابِط: لو عُدِلَ بُكاءُ أهلِ الأرض ببُكاءِ آدمَ حين أُهبِطَ من الجنَّة، كان بكاء آدم أكثر.

ذِكرُ خَوف نوحٍ وبُكائه

قال وَهب بن الوَرد: لما عاتَبَ الله تعالىٰ نوحاً في ابنه، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] بَكى ثلاث مِئةِ عامٍ حتى صارَ تحتَ عينيه أمثال الجَداول من البُكاء.

ذكر خَوف إبراهيم الخَليل

قال أبو الدَّرداء: كان يُسمع أَزيزُ صَردِ إبراهيمَ خليلِ الرحمن إذا قامَ في الصلاة من بُعْدٍ خَوفاً من ربه عزَّ وجلَّ.

ذكر خَوف داود وبُكائِه

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن حَمدان قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا إسماعيل أبو معمر الهُذَلي قال: حدثنا عبدُ الله بن إدريس عن لَيث عن مُجاهد قال: لما أصابَ داود الخَطيئة خَرَّ لله ساجداً أربعينَ يوماً حتى نَبتَ من دُموع عَينَيه من البَقْلِ ما غَطّى رأسه، ثم نادَى: رَبِّ، قَرِحَ الجَبينُ، وجَمدت العَين، وداود لم يرجع إليه في خَطيئته شيء. فَنُودِيَ: أجائعٌ فتُطعَم؟ أم مريضٌ فتُشفى؟ أم مَظلومٌ فَيُنتَصر لكَ؟ فنحبَ نحيباً هاجَ كل شيء نبت، فعند ذلك غُفِرَ له.

قال: وكان يُؤتَى بالإناء فيشرب، فيذكر خَطيئته فينتحب النَّحْبة فتَكاد مفاصِله يزولُ بعضُها من بعض، فَما يشرب إلا بعضَ الإناء حتى يملأه من دموعه. وكان يُقال: دَمعةُ داود تَعدِل دمعةَ الخلائق، ودمعةُ آدمَ تعدِلُ دمعةَ داود ودمعةَ الخلائِق[1].

قال عبدُ الله بن الإمام أحمد: حدثني أبي قال: أخبرنا سَيّار قال: حدثنا جَعفر قال: سمعتُ ثابتاً يقول: اتَّخذَ داود عليه السلام سَبعَ حَشايا[2] من شَعَرٍ وحَشاهُنَّ من الرَّماد، ثم بكى حتى أَنفذَها دموعاً، ولم يَشرب داود شراباً إلا مَمزوجاً بدموع عينيه.

أخبرنا عبد الوَهاب قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الخَياط قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: أخبرنا الحسن بن صَفوان قال: أخبرنا أبو بَكر القُرشي قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثنا عَمرو بن جرير البَجَلي قال: حدثنا عامر بن يِساف عن يحيى بن أبي كثير قال: بَلغنا أنه كان إذا كان يوم نَوْحِ داودَ عليه السلام مكثَ قبل ذلك سبعاً لايَأكُل الطَّعام، ولا يشرب الشراب، ولا يقرب النِّساء، فإذا كان قبل ذلك بيومٍ

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ٢٣/ ١٥٠، وابن أبي شيبة ٦/٣٤٢، وهَنّاد في الزهد ١/ ٢٦٢.
(٢) الحشايا: جمع حَشيَّة، وهي الفِراش المحشو.

أُخرجَ له مِنبرٌ إلى البَرِّيَّةِ، وأمر سُليمانُ منادياً يَستقري البلاد وما حولها من الغِياض والآكام والجِبال والبَراري والدِّيارات والصوامع والبِيَع، فينادي فيها: ألا من أحبَّ أن يستمع نَوْحَ داود فليأت. قال: فتأتي الوحوشُ والسِّباعُ والهوامُّ والطَّير والرُّهبانُ والعَذارى من خُدورِها، ويجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود حتى يَرقى المِنبَر، ويُحيط به بنو إسرائيل، وسليمانُ قائمٌ على رأسه، فيأخذ ﷺ في الثَّناء على ربه فَيَضجّون، ثم يأخذ في ذِكر الجنَّة والنار، فيموت طائفةٌ من الناس، وطائفةٌ من السِّباع، وطائفة من الرُّهبان والعَذارى، ثم يأخذ في ذِكر الموت وأهوالِ القيامة، ويأخذ في النِّياحة فَيموت طائفة من هؤلاء وطائفة من هؤلاء، ومن كل صنف طائفة، فلما رأى سُليمان ما قد كَثُر من الموت في كلِّ فِرقة منهم نادَى: يا أَبتاه، قد مَزَّقْتَ المُستَمِعين كلَّ مُمَزَّقٍ، وماتت طائفة من بَني إسرائيل ومن الوحوش والهوام والسِّباع والرُّهبان. قال: فَيَقطع النِّياحة ويأخذ في الدُّعاء، فَبَينا هو كذلك ناداه بعضُ عُبّادِ بني إسرائيل: يا داود، عَجِلتَ بطَلبِ الجزاء على ربك قال: فخرَّ داود عند ذلك مَغشياً عليه، فأُتي سُليمانُ بسريرٍ فحمَله عليه، ثم أَمر مُنادياً يُنادي: مَن كان له مع داود حَميم أو قُربة فليأتِ بسريرٍ فليحمله، فإن الذين كانوا مع داود قد قَتَلهم ذِكرُ الجنَّة والنَّار. قال: فإنْ كانت المرأةُ لَتأتي بالسَّرير فتَقفُ على أَبيها أو على أَخيها أو قريبها وهو ميت، فإذا أفاق داود من غَشيته نادى: يا سُليمان، ما فَعلت عُبّادُ بني إسرائيل ؟ ما فَعل فُلان وفلان ؟ فيعدُّ نَفراً من عُبّاد بني إسرائيل فيقول سُليمان: يا أَبتاه، ماتوا عن آخِرهم. فيقومُ داود فيَضع يده على رأسِه ثم يدخلُ بيتَ عبادته ويُغلق عليه بابَه، ثم يُنادي: أَغَضْبان أنتَ على آلِ داود، إله داود، لو بصرت به أن يموتَ خوفاً منك، أو فَرَقاً من نارك، أو شَوقاً إلى جنتك ولقائك، إله داود، إله داود. فلا يزال كذلك سَبعاً، فيأتي سُليمان ومعه قُرصٌ من شَعير، فيقول: يا أبتاه، تَقَوَّ على ما تُريد. فيأكل من ذلك القُرص ثم يَخرج إلى بني إسرائيل.

وقال يَزيد الرّقاشي: كان داود إذا أراد أن يَعظ الناس خرجَ بهم إلى الصحراء، فخرج بهم ذاتَ يوم في ثلاثين ألفاً من الناس وَعَظهُم فمات منهم عشرون ألفاً، فرجع في عشرة آلاف من الناس مرضى والهين، وكان له جاريتان اتخذهما، فكان

إذا جاءه الخَوفُ سقطَ واضطربَ قَعدتا على صَدره ورجليه مَخافةَ أن تَتفرق أعضاؤه ومَفاصله فيموت.

وقال سعيد بن أبي هِلال: كان داود عليه السلام يَعُودُه الناسُ لا يظنّون إلا أنه مريض، وما به إلاّ شدَّةُ الفَرَق من الله عزَّ وجلَّ.

ذِكرُ خوف عيسى عليه السلام

كان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يَقطُر جلدُه دَماً.

وروى عطاءُ بن السّائب عن مَيسرةَ قال: إذا قال الله تعالىٰ لعيسى: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ [المائدة: ١١٦] أُرْعِدَ كلُّ مَفصِلٍ منه حتى يَقَعَ مخافةَ أن يكونَ قد قاله، وما قال: إني لم أَقُلْ. ولكنه قال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦].

ذكر خَوف يَحيى بن زكريا وبكائه

أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المُبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا علي بن أحمد المَلَطي قال: أخبرنا أبو عبيد الله بن دُوسْت قال: أخبرنا ابن صَفوان قال: حدثنا عبد الله ابن محمد قال: حدثني محمد بن الحُسين قال: حدثني حاتم بن عبد الله عن ابنِ لَهيعة عن أبي قَبيل عن عبد الله بن عمرو قال: كان يَحيى بن زكريا يَبكي حتى بَدَت أَضْراسُه فقالت له أمه: لو أذنتَ لي يا بُنَي حتى أَتَّخذ لكَ قِطعتين من لُبُودٍ(١) فأُواري بهما أَضْراسَكَ عن النَّاظرين. فقال: أنتِ وذاكَ يا أُمّاه. فاتَّخذت له قِطعتين من لُبُود فألصقَتهما بخدَّيه، فكان يَبكي فَتَنتَقعُ بالدموع، فتجيءُ أمّه فتَعصرهما، فتَسيلُ دموعُه على ذِراعيها.

وقال وُهيب: قال له أبوه زكريا: إنما سألتُ الله ولداً تَقرّ به عيني. قال: يا أبتِ، إنّ جبريلَ أخبرني أن بين الجنة والنار مَفازة لا يَقطها إلا كلُّ بَكّاء.

---

(١) اللبود: جمع لِبد، وهو ما تَلبَّد من الصوف أو الشعر.

ذِكر نُبذةٍ مما نُقل عن عُبّادِ بَني إسرائيل من الخوف

قد ذكرنا أخبارَ جماعةٍ ماتوا من نَوحِ داود عليه السَّلام، وقد روينا أنه ما زال لُقمان يَعِظُ ابنَه حتى انشقَّت مَرارته فمات.

قال فَرقَد السَّبْخي: بلغني أنه دخلَ بيتَ المقدس خَمس مئة عذراء لباسُهم الصُّوف والمُسوح، فذكرنَ ثوابَ الله وعقابَه فَمِتنَ جميعاً في مقامٍ واحد.

وقال يزيد الرّقاشي: بلغني أنَّه كان في بني إسرائيل في زمنِ داود عليه السلام أربع مئة جارية عذراء مُتَبتِّلة[١]، فجئنَ إلى داود عليه السلام يومَ نَوحِه فما بَرِحنَ حتى مِتنَ عن آخِرهنَّ.

ذكر خَوفِ نَبيّنا ﷺ

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا هارون بن معروف قال: حدثنا ابن وَهب قال: أخبرنا عمرو أن أبا النَّضْر حدَّثه عن سُليمان بن يَسار عن عائشة أنها قالت: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ قَطُّ مُستَجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِه[٢]، إنما كان يَتَبَسَّمُ، وكان إذا رأى غَيماً أو ريحاً عُرِفَ ذلك في وَجهه، فقلت: يا رسول الله، الناسُ إذا رأَوا الغَيمَ فَرِحوا رجاءَ أن يكونَ فيه المَطر وأراك إذا رأيتَه عرفتُ في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة، ما يُؤْمِنِّي أن يَكونَ فيه عذابٌ، قد عُذِّبَ قومٌ بالرّيح، وقد رأى قومٌ العذاب فَقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» أخرجاه في الصحيحين[٣].

أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن قال: أخبرنا ابنُ مالك قال: حدثنا

---

(١) تَبتَّلَ إلى الله: انقطعَ إلى عبادته.

(٢) اللَّهَوات: جمع لَهاة، وهي اللحمات في سقف أقصى الفم، وقيل: هي اللحمة الحمراء المعلقةُ في أصل الحَنَك.

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٢٨) و(٤٨٢٩) و(٦٠٩٢)، ومسلم (٨٩٩) (١٦)، وأحمد (٢٤٣٦٩).

عبدُ الله قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا مَعْمَر عن الزُّهري عن عُروة عن عائِشَةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «واللهِ إنَّ أَخشاكم لله وأَحفظكم لحُدودهِ لأَنَا»[١].

أخبرنا عُمر بن أبي الحُسين البسطامي قال: أخبرنا أحمد بن أبي مَنصور الخَليلي قال: أخبرنا أبو القاسم الخُزاعي قال: أخبرنا الهَيثم بن كُلَيب الشَّاشي قال: حدثنا أبو عيسى التِّرمذي قال: حدَّثنا سُويد بن نَصر قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك عن حَمّاد بن سَلَمة عن ثابت عن مُطَرِّف عن أبيه قال: أَتيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يُصلي، ولجوفِهِ أَزيزٌ كأَزيزِ المِرْجَلِ من البُكاء[٢].

وكان من دُعاء رسولِ الله ﷺ: «اللهمّ ارزُقني عَينين هَطّالَتين تَبكيان بذُروفِ الدُّموع، وتَشفياني من خَشيتِك، من قَبل أن تكونَ الدّموعُ دَماً والأَضراسُ جَمراً».

ذِكرُ خَوف الصَّحابة وبُكائهم

قد روينا عن أبي بكر الصّديق رضي الله عنه أنه كان يُمسك لسانه، ويَقول: هذا أَورَدَني المَوارد.

وقال يَوماً لطائرٍ: ما أَنْعمكَ يا طائر، لا حساب ولا عذاب عليك، يا ليتني مثلك.

وقال: لَيتني شَجرة تُعضَد ثم تؤكل.

وكذلك قال طلحةُ وأبو الدرداء وأبو ذر.

وكان عُمر بن الخَطّاب رضي الله عنه يَسمع آيةً فيمرض، فَيُعادُ أياماً، وأخذَ يوماً بِتِبْنَةٍ من الأَرض، وقال: يا ليتني كنتُ هذه التِّبْنَة، يا ليتني لم أَكُ شيئاً مذكوراً، يا ليتَ أمي لم تَلِدْني. وكانَ في وَجهه خَطّانِ أَسودان من البكاء.

(١) أخرجه أحمد (٢٥٨٩٣) وعبد الرزاق (١٠٣٧٥)، والبزار (١٤٥٨) في الزوائد، وابن حبان (٩)، والطبراني في الكبير (٨٣١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٩٠٤)، والأزيز: الصوت، والمِرْجَل: القِدْر من الطين المطبوخ و من النحاس.

وقال عُثمان رضي الله عنه: وَدِدت أني إذا مِتُّ لم أُبْعَث.

وقال عليٌّ رضي الله عنه يوم الجمل: وددتُ أنّي متُّ قبل هذا بعشرين سنة.

وقال أبو عُبيدة بن الجَراح: وددتُ أني كنتُ كَبْشاً، فَذَبحني أهلي فأكلوا لحمي وحَسوا مَرَقي.

وقال ابن مسعود: لو وُقِفْتُ بين الجنة والنار فخُيّرتُ بينهما أو أكون تراباً، لاخترتُ أن أكون تراباً.

قال زيدُ بن وَهب: ورأيتُه بَكى حتى أخذَ بكفه من دُموعه، فقال به هكذا.

وقال عِمران بن حُصَين: يا ليتني رماداً تَذروه الرياح.

وقال سالم مولى أبي حُذَيفة: وَددتُ أنّي بمنزلة أَصحاب الأَعراف.

وقال عبدُ الله بن عمرو بن العاص: لَيتني كنتُ لَبِنَةً من هذا اللِّبنِ، لا عَلَيَّ ولا لي.

وقال حُذَيفة: وَددتُ أن لي إنساناً يكون في مالي، ثم أُغلق عليَّ بابي، فلا يَدخل عليَّ أحد حتى أَلحقَ بالله عزَّ وجل.

وكان مَجرى الدموع في وَجه ابنِ عباس كالشِّراك البالي.

وقالت عائشةُ: يا لَيتني إذا مِتُّ كنتُ نَسياً مَنْسِيّاً.

أخبرنا عبدُ الوهاب الحافِظ قال: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الخَطيب الأَنْباري قال: أخبرنا أبو عبد الله بن دُوسْت قال: أخبرنا الحَسن بن صَفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد القُرَشي قال: حدثنا علي بن الجَعْد قال: أخبرنا عَمرو بن شَمِر قال: حدثني إسماعيل السُّدّي قال: سمعتُ أبا أَراكَةَ قال: صَلَّيتُ مع عَليٍّ رضي الله عنه صلاةَ الفَجر، فلمّا سَلَّم انْفَتَلَ عن يَمينه، ثم مكثَ كأنَّ عليه كَآبَةً، ثم قال: والله لقد رأيتُ أصحابَ محمدٍ ﷺ، فما أرى اليومَ شيئاً يُشبههم، لقد كانوا يُصبحون شُعْثاً غُبْراً، بين أعينهم أمثالُ رُكَبِ المِعزَى[1]، قد باتوا لله سُجَّداً وقِياماً،

---

(١) يعني من أثر السجود.

يتلونَ كتابَ الله، يُراوحون بين جِباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادُوا كَما يَميدُ البَحر في يومِ الرّيح، وهَملَت أَعينُهم حتى تَبُلَّ ثيابَهم، واللهِ لكأنَّ القومَ باتوا غَافلين. ثم نهضَ، فما رُئِيَ بعدَ ذلكَ مُفْتَراً يَضحكُ حتى ضَربه ابنُ مُلْجَم[١].

ذِكرُ خَوف التّابعين ومَن بعدهم

قال هَرِمُ بن حَيّان: وَددتُ واللهِ أني شَجرةٌ أَكَلتني ناقةٌ فَقَذَفَتْني بَعْراً ولم أُكَابِد الحسابَ يوم القيامة، إني أخافُ الدَّاهية الكُبرى.

وكان عليُّ بن الحسين إذا تَوضَّأ اصفَرَّ وتغيَّر، فيُقال له: ما لَكَ ؟ فيقول: أَتدرون بين يَدي من أُريد أن أقوم ؟!

وقال عُبيد الصيرفي: أتيتُ الحسنَ سنةً ما أخطأني يوم أن آتيه، فما مرَّ عليَّ يومٌ أخطأني أَنْ أَرى دُموعه تَتحادر على لحيته.

وقال مالكُ بن دينار: دخلتُ مع الحسن السوقَ فمرَّ بالعطَّارين، فوجد تلك الرائحة، فبكىٰ ثم بكىٰ ثم بكىٰ حتى خِفتُ أن يُغشى عليه، ثم قال لي: يا مالك، واللهِ ما هو إلا حُلول القَرار من الدّارين جميعاً الجنة أو النار، ليس ثَمَّ منزل ثالث، مَن أَخْطَأتْهُ واللهِ الرحمةُ صار إلى عذابِ الله، ثم جعل يبكي فلم يلبث إلا يَسيراً حتى مات.

وقال رجلٌ للحسن: كيفَ حالك ؟ فقال: ما ظَنُّك بناسٍ ركبوا سفينةً حتى تَوسَّطوا البحر، فانكسرت سفينتهم، فتعلق كل إنسانٍ منهم بخَشَبة، على أي حال هم ؟ قال: على حالٍ شَديدة. قال الحسن: حالي أشدّ منهم.

وكان الحسنُ كأنه أسيرٌ قَدْ قُدِّم لتُضرب عُنقه، وعوتب في حُزنه، فقال: ما يُؤمّنني أن يكونَ اطَّلع على بعضِ ذُنوبي فقال: اذهبْ لا غَفَرتُ لكَ.

وقال لبعض أصحابه: إن استطعتَ أن لا تَكونَ عُمرك إلا باكياً فافعل، لعله يَراك على حالةٍ فيرحمك بها، فإذا أنت قد نجوتَ من النار.

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١١/١١.

وكان طاوس يَفرش فِراشه ثم يضطجع عليه، ثم يَثب فيُدرِجه ويقول: طَيَّر ذكرُ جهنم نومَ العابدين.

وكان محمد بن واسع يَبكي عامّة الليل لا يكاد يَفتر.

وقال مالك بن دينار: وَددت أن الله تعالىٰ يقول لي يومَ القيامة: يا مالك. فأقول: لبيكَ. فيأذن لي أن أَسجد بينَ يَديه سجدةً، فأعرفُ أنه قد رَضي عني، فيقول: يا مالك، كن اليومَ تُراباً.

وكان سعيد بن جُبَير يبكي بالليل حتى عمش وفَسدت عيناه.

وقد روينا عن زُرارة بن أَوفَى أنه صَلّى بأصحابه الغَداة، فلما قرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، خَرَّ ميتاً.

وكان عُمر بن عبد العزيز إذا ذَكَرَ الموتَ انتَفَضَ انتفاضَ الطَّير، وبكى حتى تجري دموعه على لحيته، وقال يَزيدُ بن حَوْشَب: ما رأيتُ أَخوفَ من الحَسن وعُمر بنِ عبد العزيز، كأن النارَ لم تُخلَق إلا لَهما.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الخياط قال: حدثنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: أخبرنا الحسن بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: قال محمد بن الحُسين: حدثني محمد بن أيوب الشّامي قال: حدّثني يَزيد بن محمد بن مسلمة بن عبد الملك قال: حدثني مَوليً لنا قال: بكتْ فاطمةُ بنت عبد الملك حتى عَشَا بَصرُها، فدخل عليها أخواها مَسلمة وهشام بن عبد الملك، فقالا: ما هذا الأمر الذي قد دُمْتِ عليه؟ أَجَزَعُكِ على بَعلك فأحقّ مَن جُزِعَ على مثله، أم على شيءٍ فاتَكِ من الدنيا؟ فها نحن بين يديك وأموالنا وأهلونا. فقالت: لا مِن كُلٍّ جَزعتُ، ولا على واحدٍ منهما أَسِفتُ، ولكني والله رأيتُ منه ليلةً منظراً، فعلمت أن الذي أخرجه إلى الذي رأيتُ منه هَولٌ عَظيم قد استكنَّ في قلبه معرفتُه. قالا: وما رأيتِ منه؟ قالت: رأيتُه ذاتَ ليلةٍ قائماً يُصلي، فأتى على هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤،٥]، فصاح: واسُوءَ صَباحاه.

ثم وثبَ فسقطَ، فجعل يَخورُ حتى ظننتُ أن نَفسَه ستخرجُ، ثم هَدَأَ، فظننتُ أنه قد قَضَى، ثم أفاق إفاقةً، فنادى: يا سُوءَ صَباحاه. ثم وثبَ، فجعل يجولُ في الدار ويقول: وَيلي من يوم يكونُ الناس فيه كالفَراشِ المَبثوث وتكونُ الجِبال كالعِهن المَنفوش. قالت: فَلَم يزل كذلك حتى طَلع الفَجر، ثم سقط كأنه ميت حتى أتاه الإذن للصلاة، فوالله ما ذكرتُ ليلتَه تلك إلا غَلبَتني عيناي، فلم أملك ردَّ عَبرتي.

وقرأ عُمرُ يوماً: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ [يونس: ٦١] الآية، فبكى بكاء شديداً، وبكت زوجته، وبكى أهل الدار، فجاء ابنه عبد الملك فدخل وهم على تلك الحال، فقال: يا أبتِ ما يُبكيك ؟ فقال: يا بُني، وَدَّ أبوكَ أنه لم يعرف الدنيا ولم تَعرفه، واللهِ يا بُنَيّ لقد خَشيتُ أن أهلك، والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار.

وبكى عُمر بن عبد العزيز ليلةً، فبكت فاطمةُ، فبكى أهل الدار لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلَّت عنهم العَبرةُ قالت فاطمةُ: بأبي أنتَ يا أمير المؤمنين، ممَّ بَكيت ؟ فقال: ذكرتُ منصرفَ القَوم من بيني يدي الله فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير. ثم صرخَ وغُشِيَ عليه.

وكان عمر يوماً ساكتاً وأصحابه يتحدثون فقالوا: ما لكَ لا تتكلم يا أمير المؤمنين ؟ فقال: كنتُ مفكراً في أهلِ الجنَّة كيفَ يَتزاوَرون فيها، وفي أهل النار كيف يَصطرِخون فيها. ثم بَكى.

قال مَوليً له: وبكى ليلةً فأكثر، فلما أصبح قال لي: لا تأذَن اليوم لأحدٍ عليَّ حتى أُصبح ويَرتفع النهار، فإني أخاف أن لا أعقل عن الناس ولا يفهمون عنّي. فقلت: رأيتُك بكيتَ الليلةَ بكاءً ما رأيتُك بكيت مثله ؟ فبكى ثم بكى، ثم قال: إني ذكرتُ الوقوفَ بين يَدي الله. ثم أغمي عليه فلم يُفق حتى علا النهار، قال: فما رأيتُه بعد ذلك مُبتسماً حتى مات.

ولما أرادَ المنصورُ بيتَ المقدس نزلَ براهبٍ كان ينزل به عمر بن عبد العزيز، فقال له: أخبرني بأعجبِ ما رأيتَ من عُمر. فقال: باتَ ليلةً على سطحِ غُرفتي

هذه، وهو من رُخامٍ، فإذا أنا بماءٍ يَقطُر من الميزابِ، فصعدتُ فإذا هو ساجد، وإذا دموع عينيه تَتَحدَّر من الميزاب.

وقد روينا أن عمر بن عبد العزيز وفتحاً الموصلي بَكيا حتى بكيا الدَّم.

أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا أبو الحسين بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الخياط، قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال: أخبرنا الحسن بن صفوان قال: أخبرنا أبو بكر القُرَشي قال: حدثنا محمد بن إسحاق الثَّقفي قال: حدثني أحمد بن موسى الأنصاري عن منصور بن عمّار قال: حَجَجْتُ حجةً، فنزلتُ سِكَّةً من سِكَكِ الكُوفةِ، فخرجت في ليلةٍ مظلمةٍ فإذا بصارخٍ يَصرخ في جوف الليل وهو يقول: إلهي، وعزَّتك وجَلالِكَ ما أردتُ بمعصيتي خلافَكَ، ولكني عَصيتُكَ إذ عصيتك وما أنا بنَكالِكَ جاهل، ولكن خطيئة عَرضت أعانَني عليها شقائي، وغَرَّني سترك المُرخَى عليَّ، وقد عصيتك بجهدي، وخالفتك بجَهلي، فالآنَ مِن عذابك مَنْ يَسْتَنقذني، وبِحَبلِ مَنْ أَتَّصِل إذا قَطتَ حبلَك مني، واشَباباه، واشَباباه. قال: فلما فرغَ من قوله تلوتُ آيةً من كتاب الله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]. . . الآية فسمعتُ حركةً شديدةً، ثم لم أَسمع بعدها حِسّاً فمضيتُ، فلما كان من الغد رَجعتُ في مدرجتي فإذا بجنازةٍ قد وُضِعَت، وإذا عجوز كبيرة قال: فسألتُها عن أَمرِ[1] المَيّت، فقالت: هذا رجلٌ لا جَزاه الله إلا جزاءَهُ مَرَّ بابني البارحةَ، وهو قائم يُصلي، فتلى آيةً من كتاب الله، فلما سمعَها انفطَرت مرارتُه فوقعَ ميتاً.

وقال ابن السَّمَّاك: قلتُ لرجلٍ من أهل البَصرة: دُلَّني على عُبَّادِكم. فأدخلني على رجلٍ له أمٌّ عَجوز فقالت: لا تَذكروا لابني شيئاً من ذكر جنةٍ ولا نارٍ فتقتلوه، فليس لي غيره. فدخلنا عليه فرفعَ رأسَهُ فنظر إلينا، ثم قال: أما إنّ للناس موقفاً لا بد أن يَقفوه. قلتُ: بينَ يَدي مَن رَحِمَكَ الله؟ فشهق شَهقةً فماتَ.

وقال ضِرغامُ بن وائلٍ لغُلامه: اشدُد كِتافي وعَفِّر خَدّي بالتُّراب. ففعل، فقال:

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «أم».

مَليكي، دَنا الرَّحيل إليكَ ولا بَراءة لي من ذَنبٍ، ولا عُذرَ فأعتذِر، ولا قوةَ لي فأَنتصِر، أنتَ أنتَ لي فتغمَّدْني. وماتَ، فسمعوا قائلاً يقول: استكانَ العبدُ لمولاه فقبله.

وقال إبراهيمُ بن عيسى اليَشْكُري: دخلتُ على رجلٍ بالبَحرين قد اعتزلَ الناس وتفرغ لنفسه، فذاكرته شيئاً من أمرِ الآخرة وذكرِ الموت، فجعل واللهِ يَشهقُ حتى خَرجَت نَفسُه.

وقال حُصَين بن القاسم: كنا عند عبد الواحد بن زَيد وهو يَعِظُ، فناداه رجل من ناحية المسجد: كُفَّ يا أبا عُبيدة، فقد كشفتَ قناع قَلبي. فلم يَلتفت عبد الواحد إلى ذلك ومَرَّ في المَوعظة، فلم يزل الرجل يقول: كُفَّ يا أبا عُبيدة، فقد كشفتَ قِناع قلبي. وعبدُ الواحد لا يَقطع موعظتَه، حتى حَشْرَجَ الرجلُ وماتَ.

وقال مِسْمَع: شهدتُ عبدَ الواحد بن زَيد وهو يعظ، فماتَ يومئذٍ في ذلك المجلس أربعة أَنفس.

وكان يزيد بن مَرْثَد يبكي دائماً، ويقول: إن الله قد تَواعدني إن أنا عَصيتُه أن يَسجُنَني في النّار، واللهِ لو تواعدني أن يَسجنني في الحمّام لكنتُ حَرِياً أن لا تَجِفّ لي عَبرةٌ.

وكان يزيد الرقاشي يقول: ليتني لم أُخلق، وإذا خلقت لم أُوقَف، وإذا وُقِفتُ لم أُحاسب، وإذا حُوسِبْتُ لم أُناقَش.

وقيل لعطاء السُّلَمي: ما تشتهي؟ فبكى وقال: أَشتهي والله أن أكون رماداً لا يجتمع منه ذرة في الدنيا ولا في الآخرة، وأشتهي أن أبكي حتى لا أقدر أن أبكي. وكان يبكي الليلَ والنَّهار.

وقال داود الطّائي: لوددت أن أنجو من النار وأصير رماداً.

وقال علي بن زيد: استراحت الطَّير في السماء، والحيتان في البحار، والوحش في القِفار، وأنا مُرتَهنٌ بعملي.

وكان الفُضَيل بن عياض قد أَلِفَ البُكاء، فكان ربما بَكى في يومه حتى يَسمعه

أهل الدار، وقال: لو خُيِّرتُ بينَ أن أموت فأرى القِيامة وأهوالها والبعثَ والحساب ثم أدخل الجنة، وبين أن أكون كَلباً فأعيش مع الكلاب عمري، ثم أموت فأصير تُراباً، لاخترتُ أن أكونَ كلباً ثم أصير تُراباً، ولا أرى الجنَّةَ ولا النار.

ووقف الفُضَيل يوم عرفة والناس يدعون، وهو يبكي بكاءَ الثَّكْلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمسُ تغرب قَبضَ على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: واسَوْأَتاه منكَ وإن عفوت.

وقيل للفضيل: ما كان سبب موت ابنك علي ؟ قال: باتَ يتلو القرآن في محرابِه، فأصبح مَيتاً.

وكان بعضُ العُبّاد يحمل على نفسه في العبادة، فقالت له أمه: أما تُريد أن تنام ؟ فقال: ليتك كنتِ بي عقيماً، إن لبُنَيَّكِ في القَبر حبساً طويلاً.

وقال عطاء: خَرجنا مع عُتبة الغلام ومِنّا كهولٌ وشُبّان يُصلّونَ الفَجرَ بطهور العِشاء، قد تورَّمَتْ أقدامُهم من طول القِيام وغارت أعينُهم في رؤوسهم، ولصقت جُلودهم على عظامهم، وبقيت العروق كأنها الأَوتار يُصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ، وكأنهم قد خرجوا من القُبور، فبَينا هم يَمشون إذ مرَّ بمكانٍ فخرَّ مغشياً عليه، فجلس أصحابُه حوله يبكون في يومٍ شَديدِ البرد وجبينُه يَرشح عرقاً، فجاؤوا بماءٍ فمسحوا وَجهه فأفاقَ فسألوه عن أمره فقال: إني ذكرتُ أني كنت عصيتُ الله تعالىٰ في ذلك المكان.

وقف قومٌ على عابدٍ وهو يبكي فقالوا: ما يُبكِيكَ ؟ فقال: رَوعةٌ يجدها الخائفون في قلوبهم. قالوا: وما هي ؟ قال: روعة النّداء بالعَرض على الله عزَّ وجلَّ.

ووقف عابدٌ على كيرِ حَدّاد، فجعل ينظر إليه ويَبكي، ثم شهق فمات.

وقال سَرِيّ السَّقَطي: إني لأنظر كلّ يوم إلى أنفي مخافةَ أن يكون قد اسودَّ وجهي.

فهذه مَخاوف الملائكة والأَنبياء والعلماء والأولياء، ونحن أجدر بالخَوف منهم،

ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القُلوب وكمال المعرفة، وإنما أَمِنَّا لغلبة جَهلنا وقوة قَساوتنا.

ومن العجائب أننا إذا أردنا المال تَجَرنا وسَافرنا، وإذا أردنا العِلم تفقَّهنا وتعبنا، ثم إذا طمحت أعينُنا نحو المُلك الدائم قَنعنا بأن نقولَ بألسِنَتنا: اللهمَّ اغفِر لنا وارحَمنا، والذي نرجوه يُنادينا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، ثم لا نَتنبَّه ولا نخرج عن غُرورنا، فنسألُ الله عزَّ وجل إصلاحَنا.

ولنقتصر من ذكر الخائفين على هذا القَدر، فقد قال بعضُ السَّلَف: قُلتُ لراهبٍ: أَوصِني. فقال: إن استطعتَ أن تكونَ بمنزلةِ رجلٍ قد احتَوشَتْهُ السِّباع والهَوام، فهو خائف حَذِرٌ يَخاف أنْ يغفل فَتَفترسه، أو يَسهو فَتَنْهَشَهُ، فهو مذعورٌ، فافعل. فقلتُ: زِدْني. فقال: الظمآن يجزئه من الماء أَيْسره، واعلم أن القلبَ الصافي يحركه أَدنى مخافة، والقلب الجامد يَنبو عنه كل المواعظ.

وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخصٍ احتوشته السِّباع والهوام، فإنه حقيقة في حق المؤمن، فإن من نَظر إلى باطنه بنور بَصيرته رَآه مَشحوناً بالسِّباع والهوام، كالغَضب والحِقد والحَسد والكِبر والعُجب والرِّياء وغير ذلك، وكلهن ينهَشْنَه ويفترِسْنَه إن سها عنهن، إلا أنه محجوبٌ عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء ووُضع في القَبر عاينها متمثلةً حيات وعقارب يَلدَغْنَه، وإنما هي صفاتُه الحاضرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها، وإلا فَليوطِّن نَفسَه على لَدْغِها لصميم قَلبه فضلاً عن ظاهرِ بَشَرَتِهِ، والسلام.

آخر كتاب الرّجاء والخَوف

* * *

كتاب الفَقر والزُّهد

الحمدُ لله الذي وَفَّقَ العارفين لحُسْنِ الخِلال، وأَلهَمهم لحقيقِ التَّقوى وحَسَن الخِصال، وفَتحَ بَصائرهم فأَبصَروا عَيبَ الدنيا وتأمّلوا الحال، فإذا هي عجوزٌ تَختِلُ وإن باتَت تَخْتال، وإذا ماؤُها سَرابٌ وغرورها خيال[١]، وإنما يَغتر بها الصّبيان لا الرِّجال، فزهدوا فيها وأَفقروا من المال، واستقامت قلوبهم وصلحت لهم الحَال، وأمكنهم طلب الأُخرى بقطع تلك الأَشغال، إذ الجمعُ بين الضِّدين من غير شكٍّ مُحال.

أحمده حمداً يزيد على عدد الرِّمال، وأقرُّ له بالتَّوحيد سليماً من ضَلال، وأُصلي على رسوله محمد وعلى آلهِ خير آل، صلاةً تدومُ بدوام الغُدوِّ والآصال، أما بعد:

فإنه إذا كان حبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ، فبُغضُها أساسُ كلِّ طاعة، وقد سبقَ في كتاب ذَمِّ الدُّنيا في رُبع المهلكات، ونحن نَذكر الآن فَضل البُغضِ لها والزُّهد فيها، فإنه رأسُ المُنجيات، ومقاطَعتها إما أن تكون بانزِوائها عن العبد ويُسمّى ذلك فَقْراً، وإما بانزواء العَبد عنها، ويُسمّى ذلك زُهداً، ولكل واحد منهما دَرجةٌ في نَيلِ السَّعادات وحَظٌّ في الإعانة على الفَوز والنَّجاة، ونحن الآن نذكر حقيقةَ الفَقر والزُّهد ودرجاتهما وأقسامِهما وشُروطهما وأحكامِهما، ونذكر الفَقرَ في شَطرٍ من الكتاب، والزُّهدَ في شَطرٍ آخر منه، ونبدأ بذِكر الفَقر.

---

(١) غير واضحة في الأصل.

الشَّطر الأول

من الكتاب في الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر، وبيان فَضيلة الفقر مطلقاً، وبيان فَضيلة خصوص الفقراء، وبيان فَضل الفقر على الغِنى، وبيان أدب الفَقير في فقره، وبيان أدبه في قبول العطاء، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة، وبيان مقدار الغِنى المحرّم للسؤال، وبيان أحوال السائلين.

بيان حَقيقة الفقر
واختلاف أحوال الفقر وأساميه

الفَقير إلى الشيء هو المُحتاجُ إليه، وكل موجود سوى الله فهو فَقير؛ لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال، ودوام وجوده مستفادٌ من فَضل الله وَجودِه، والله عزَّ وجل غَني إذ ليس وُجودُه مستفاداً من غيره، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، هذا معنى الفقر مطلقاً، ولكنّا لسنا نَقصد بيان الفقر المطلق، بل الفَقر من المال على الخُصوص، وإلا فَفقر العَبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا يَنحَصِر، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال، ثم يتصور أن تكون له خمسة أحوال عند فقده، ونحن نميزها، ونخصص كل حال باسم ليتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها:

الحالة الأولى: وهي العليا؛ أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذَّى به وهرب من أخذه، مبغضاً له ومحترزاً من شَرّه وشغله، وهو الزهد، واسم صاحبه الزّاهد.

الثانية: أن يكون لا يَرغَب فيه رغبةً يفرح لحصوله، ولا يَكرهه كراهة يتأذّى

بها، ويزهد فيه لو أتاه، وصاحبُ هذه الحالة يُسمى: راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحبّ إليه من عَدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن يَنهض لطلبه، بل إن أتاه عَفواً صفواً أخذه وفرح به، وإن افتقَر إلى تعبٍ في طلبه لم يَشتغل به، وصاحب هذه الحالة نُسَميه: قانِعاً، إذْ أَقنعَ نفسَه بالموجود حتى ترك الطلبَ مع ما فيه من الرغبة الضَّعيفة.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلافهوراغبٌ فيه رغبةً لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتَّعب لطلبه، أو هو مشغول بالطلب، وصاحب هذه الحالة نُسميه: الحَريص.

الخامسة: أن يكون ما فَقده من المال مضطراً إليه، كالجائع الفاقد للخُبز، والعاري الفاقد للثوب، ويسمى صاحب هذه الحالة: مضطراً، كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية، وقَلّما تَنفكُّ هذه الحالة عن الرَّغبة.

ووراء هذه الأصول الخمسة حالة هي أعلى من الزهد، وهي أن يستوي عنده وجود المال وفَقده، فإن وجده لم يفرح به ولم يَتأذَّ، وإن فقده فكذلك، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنه جاءها مالٌ في غِرارَتَين[1] ففرَّقتهُ في يومها، فقالت جاريتها: أما استطعتِ مما قَسمت أن تَشتري لنا لحماً بدرهمٍ نُفطر عليه؟ فقالت: لو ذكَّرتيني لفعلت.

فمَن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تَضرّه، إذ هو يَرى الأموالَ في خزانة الله لا في نَفسه، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحال: المُستَغني؛ لأنه غَني عن فَقد المال ووجوده جميعاً.

ومتى كان الزاهدُ في الدنيا لا يَرغب في وجودها ولا في عدمها، فهو في غاية الكمال، فإن كان راغباً في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الراضي والقانع والحريص، ونُقصان بالإضافة إلى درجة المستَغني، والكمال استواء وجود المال وعدمه، كما يستوي عندك كَثرةُ الماء وقلته؛ لأنك تقول: أَشربُ منه بقدر الحاجة،

---

(١) الغِرارة: وعاء توضع فيه الدراهم.

وأسقي منه عباد الله. فهكذا ينبغي أن يكون المال.

قال أحمد بن أبي الحَواري: قلتُ لأبي سُليمان الداراني: قال مالكُ بن دينار للمغيرة: اذهب إلى البيت فخذ الرِّكوةَ[(١)] التي أهدَيتَها لي، فإن الشيطان يُوَسوِس إليَّ أن اللِّصَّ قد أَخَذها. فقال أبو سُليمان: هذا من الضَّعْف، هو قد زهِدَ في الدنيا، ما عليه مِن أَخْذِها.

واعلم أن الهربَ من المال والزُّهدَ فيه في حقِّ الضعفاء كَمال، وأما الأَنبياء والأقوياء فسواءٌ عندهم وجوده وعدمه، وقد يظهر القَوي النِّفارَ من المال ليَقتدي به الضُّعفاء في التَّركِ، كما يَفِرُّ المُعَزِّمُ من الحيَّةِ لِيُنفِّرَ أولادَه لا لضَعْفِه عن أَخذها.

بيان فَضيلة الفقر مطلقاً

أما الآيات؛ فقد قال الله عزَّ وجل في معرض المدح: ﴿للفُقراء الذين أُحصِروا في سَبيل الله﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [الحشر: ٨].

وأما الأخبار؛ فكثيرةٌ، منها: ما أخبرنا به هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّيمي قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن سَعيد قال: حدثنا التَّيمي عن أبي عُثمان عن أُسامة بن زَيد عن النبي ﷺ قال: «قُمْتُ على باب الجنَّة، فإذا عامة من يَدخلها الفُقراء، إلا أن أصحاب الجَدِّ مَحبوسون، إلا أهل النار فقد أُمرَ بهم إلى النار، ووقفتُ على باب النّار فإذا عامّة مَن دَخلها النِّساء». أخرجاه في الصحيحين[(٢)].

---

(١) الرِّكوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٦) و(٦٥٤٧)، ومسلم (٢٧٣٦)، وأحمد (٢١٧٨٢) و(٢١٨٢٥)، وقوله: «أصحاب الجَدّ» أي: أصحاب الغِنى. وقوله: «محبوسون» قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٢٠: أي ممنوعون من دخول الجنة مع الفقراء من أجل المحاسبة على المال، وكأن ذلك عند القنطرة التي يتقاصّون فيها بعد الجَواز على الصِّراط.

وفيهما من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلعتُ في الجنَّة فرأيتُ أكثر أهلها الفُقراء»[١].

وفيهما من حديثِ أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهمَّ اجعَل رزقَ آلِ محمدٍ قُوتاً»[٢].

وفيهما من حديث عائشةَ قالت: ما شَبعَ آلُ محمدٍ منذ قدم المدينة من طعامِ البُرِّ ثلاثَ ليالٍ تباعاً حتى قُبِضَ[٣].

وفي أفرادِ مسلم من حديث عُمر بن الخطاب قال: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ يظل اليوم يَلتَوي ما يَجِدُ دَقَلاً[٤] يملأ به بَطنه[٥].

وفي أفراده من حديث عبد الله بن عَمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «إن فُقراء المهاجرين يسبقون الأَغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خَريفاً»[٦].

وفي أفراده من حديث ثَوبان، قال: جاء حَبرٌ من أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أينَ يكونُ الناس يوم تُبدَّل الأرضُ غيرَ الأَرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «هُم في الظُّلمَةِ دونَ الجِسر» قال: فمَن أوّل الناس إجازةً؟ قال: «فُقراء المُهاجرين» قال: صدقتَ[٧].

وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَدخل فُقراء المؤمنين الجنَّة قبل أغنيائهم بخمسِ مئةِ عام»[٨] قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً (٦٤٤٩)، ومسلم (٢٧٣٧)، وأحمد (٢٠٨٦) و(٣٣٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٥)، ومسلم (١٥٥)، وأحمد (٩٧٦٠) و(١٠٢٣٧).
(٣) أخرجه البخاري (٥١٠٠) و(٦٠٨٩)، ومسلم (٢٩٧٠).
(٤) الدَّقَل: أردأ التمر.
(٥) أخرجه مسلم (٢٩٧٨).
(٦) أخرجه مسلم (٢٩٧٩).
(٧) أخرجه مسلم (٣١٥).
(٨) أخرجه الترمذي (٢٣٥٤)، وابن ماجه (٤١٢٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «الفَقر أَزْيَن بالمؤمن من العِذارِ[١] الحَسن على خَدِّ الفَرَس».

وقال لعائشة: «إياكِ ومجالسة الأَغنياء»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما من ذي غِنىً إلا سيودّ يومَ القيامة لو كان إنما أُوتيَ من الدنيا قُوتاً».

وقال: «يُؤتى بالعبد يومَ القيامة، فيعتذر الله عزَّ وجل إليه كما يعتذر الرجلُ للرجل في الدنيا، فيقول: وعِزَّتي وجلالي ما زَويتُ الدّنيا عنك لهوانِكَ عليَّ، ولكن لما أعددتُ لك من الكرامةِ، أخرج يا عبدي إلى هذه الصُّفوف، فمن أطعمكَ أو كساكَ يريد بذلك وَجهي فَخُذ بيده فهو لك».

وقيل لموسىٰ عليه السلام: إذا رأيتَ الفقر مُقبلاً فقُل: مرحباً بشعار الصالحين.

وأما الآثار: فقال أبو الدَّرداء: ذو الدِّرهمين أشدُّ حساباً من ذي الدّرهم. وكان الفقراء يتقدمون في مجلس الثَّوري على الأغنياء.

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلافٍ فلم يقبلها، وقال: تُريد أن أَمحو اسمي من ديوان الفُقراء بهذا ؟ لا أفعلُ.

بَيان فَضيلة خُصوص الفقراء من الراضين والقانِعين والصادقين

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أنبأنا الحسين بن أحمد بن طلحة قال: أخبرنا أبو سَهل محمود بن عمر العُكْبَري قال: أخبرنا علي بن أبي رَوح قال: أخبرنا أبو بكر القُرشي قال: حدثني الحسَن بن الصبَّاح قال: حدثني عُبيد الله بن يزيد عن حَيْوةَ، قال: أخبرنا أبو هانىء أن أبا عَلي الجِيني حدثه أنه سمع فَضالةَ بن عُبيد يقول: أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هُدِيَ إلى الإسلام، وكانَ عَيشُه كفافاً، وقَنعَ بما آتاهُ الله عزَّ وجلَّ».

---

(١) العِذار: ما سال من اللّجام على خد الفرس.

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٨١).

وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «يا ابنَ آدم، عندك ما يكفيكَ وأنت تطلب ما يُطْغِيك، يا ابنَ آدم، لا بقليلٍ تَقنَع، ولا من كثيرٍ تَشبَع، يا ابن آدم إذا أصبحتَ آمناً في سِربِكَ، مُعافًى في بَدنك، عندكَ قوتُ يَومك فَعلى الدنيا العَفاء».

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من قلبٍ لا يَخشع، ومن نفسٍ لا تَشْبَع».

واعلم أن القَناعة يُضادّها الطَّمع، وقد قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: الطَّمع فَقرٌ واليَأس غِنىً.

وقد ذكرنا مما يتعلق بالقَناعة وذَمِّ الحرصِ والطَّمع في كتاب ذَمِّ المال ما يُغني عن الإعادة ها هنا، فينبغي للعاقل أن يُؤثر القناعةَ، ولا يقدرُ على ذلك إلا بعد قوة الصَّبر، وقد أنشدَ بعضُ الحازِمين:

إنْ شَعَّثَ الدَّهرُ من حالٍ وغَيَّرها ... صَبَرتُ للدَّهرِ حتى يَعْجَبَ الدَّهرُ
أَوْ ضَاقَ صدري فإنَّ الصَّدْرَ مُنْشَرِحٌ ... ورُبَّ عُسْرٍ أَتى من بَعدِه يُسْرُ
عِرضي مَصونٌ ونَفسي غَيْرُ تائِقَة ... إلى اللِّئام وَوَجهي ماؤهُ غَمْرُ
لِيَركب الدَّهر منّي كلّ مُعضِلَةٍ ... فالحُرُّ حُرٌّ وإنْ أَودَى به الضُّرُّ

بَيان فَضل الفَقر على الغِنى

اختلفَ الناسُ في هذا، فذهبَ الجُنَيدُ والخَوَّاصُ والأكثرون إلى تَفضيل الفَقر، وذهبَ قومٌ إلى تَفضيل الغِنى، وقد بَيَّنا في كتاب الصَّبر وَجْهَ التَّفاوت بين الصَّبر والشكر، ومهَّدنا سبيل طلبَ الفَضيلة في الأعمال والأَحوال، وأن ذلك لا يمكن إلا بتَفصيل.

وأما الفَقر والغِنى إذا ذُكرا مُطلقاً فظاهر النَّقل يَدلُّ على تفضيلِ الفَقر، ولكن لا بد فيه من تَفصيل، فنقول: إنما يُتصوَّرُ الشَّكُّ في مَقَامين:

أحدهما: فَقير صابر ليس بحريصٍ على الطَّلب، بل هو يَقنع أو راضٍ بالإضافة

إلى غَني مُنفقٍ ماله في الخَيرات، وليس حريصاً على إمساك المال.

والثاني: فقير حريصٌ مع غَني حَريصٍ، إذ لا يَخفى أن الفقير القَنوع أفضل من الغَني الحريص المُمسِك، والغَني المُنفِق مالَه في الخَير أفضلُ من الفَقير الحريصِ، فإن كان الغَنيُّ مُتمتِّعاً بالمال في المُباحات، فالفَقير القنوع أفضل.

وكشفُ الغِطاء في هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر، وهو أنَّ ما لا يُراد لعَينه بل يُراد لغَيرهِ فَينبغي أن يُضاف إلى مَقصوده إذ به يَظهر فضلُه، والدنيا ليست مَحذورة لعينها بل لكَونها عائقة عن الوصول إلى الله تعالىٰ، ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لأن فيه فَقد العائِق عن الله تعالىٰ وعدم التشاغل عنه، وكم من غني ليسَ يَشغله الغِنى عن الله تعالىٰ، كسُليمان عليه السلام، وعثمان، وعبد الرحمن بن عَوف، وكم من فَقيرٍ شَغله الفَقر وصرفَه عن المقصود من حُبِّ الله تعالىٰ والأُنس به؛ لأن ذلك لا يكون إلا بعد المعرفة، وسلوك سبيل المعرفة مع الشَّواغِل غير ممكن، والفقرُ قد يكون من الشواغل، وإنما التشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حبّ الله تعالىٰ في القلب، فالمحب للشيء مَشغول به سواء كان في فراقه أو في وِصاله، وقد يكون شغله في الفراق أكبر، ويكون في الوصال أكثر، والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحروم منها مَشغولٌ بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها.

فإذن إن فرضتَ فارغين عن حُبِّ المال بحيث يَصير المال في حقهما كالماء استوى الفاقِد والواجِدُ، إذ كل واحدٍ غير متمتع إلا بقَدر الحاجة، ووجود قدر الحاجة أفضل من فَقده إذ الجائع يَسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة، وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر فَالفقير عن الخطر أبعد؛ لأن فتنة السَّراء أشد من فتنة الضرّاء، ومن العصمة أن لا يَقدر، ولذلك قالت الصحابة: بُلينا بفتنةِ الضَّراء فصَبرنا، وبُلينا بفتنةِ السَّراء فلم نَصبر. وهذا طَبعُ الآدميين كلهم إلا النادر، ولما كان خطابُ الشَّرع مع الكلِّ، وكانت الضرَّاء أصلح للكل دون ذلك النّادر جاءَ الشرعُ بذمِّ الغِنى وفَضلِ الفقر.

وقد تمثَّلت الدنيا لرسولِ الله ﷺ فقال: «إليكِ عَني».

وكان عليٌّ رضي الله عنه يقول: يا صَفراء يا بَيضاء، غُرِّي غَيري. وذلك إنما هو لاستِشعارِه في نَفسه ظهور مبادىء الاغتِرار لولا أن رأى بُرهان ربه، وذلك هو الغِنى المُطلق لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليس الغِنى عن كَثرةِ العَرَض، إنما الغِنَى غِنَى النَّفس».

فَفقدُ الدنيا أصلحُ للعوام؛ لأن أسبابَها إذا انقطَعت انقطع الأُنس بها وتجافى القلب عنها، فإذا كان المتجافي عنها مؤمناً انصرفَ إلى الله سُبحانه لا محالة، إذ لا يفرغ القلب قَط، فإذن فَضل الغني والفقير بتعلُّقِ قلبيهما بالمال فقط، فإن تَساويا فيه تَساوت دَرجتاهما، إلا أنَّ هاهُنا مَزلَّة قدم وموضع غُرور، وهو أن الغَني ربما يظن أنه مُنقطع القلبِ عن المال، ويكون حبُّه دفيناً في باطنه وهو لا يَشعر به، وإنما يشعر إذا فقده، فليجرب نفسه بتَفريقه، وإذا سُرِقَ منه، فإن وَجد بقلبه إليه التِفاتاً فليعلم أنه كان مَغروراً، فكم من رجلٍ باعَ جاريةً له لظنّه أن قلبَه مُعرضٌ عنها، فلما لزم البيع أصابه القَلق؛ لأن العِشقَ كان مُسْتكِنّا في الفؤاد استِكْنانَ النارِ تحتَ الرَّماد، والسلامة من هذا نادرة، لهذا نقول: إن الفقر أصلح للعوام؛ لأن علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف، وبقدر علاقته يتضاعف ثواب عبادته، فإن حركات اللسان ليست مُرادة لأَعْيانها بل ليتأكد بها الأنس بالمذكور، فلا يكون تأثيرها في إثارة الأُنس في قلبٍ فارغٍ عن غير المذكور كتأثيره في قلبٍ مشغول.

وكان بِشر الحافي يقول: مَثَل الغَني المتعبّد مَثَل روضةٍ على مَزْبلة، ومَثَل الفقير المتعبد مَثل عقد الجَوهر في جيد الحَسْناء.

وقال له رجلٌ: ادعُ لي، فقد أَضَرَّ بي العِيال. فقال: إذا قال لكَ عيالُكَ: ليسَ عندنا دَقيق ولا خُبز فادعُ الله في ذلك الوَقت، فإن دُعاءك أفضل من دعائي.

ثم إن الفَقير قد ربح شدةَ الحِساب، وقد روينا آنفاً عن النبي ﷺ أنه قال: «قمتُ على باب الجنة، فإذا عامة من يَدخلها الفُقراء، إلا أن أصحاب الجَدِّ محبوسون إلا أهل النار، فقد أُمِرَ بهم إلى النار».

أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي بن المُذهِب قال: أخبرنا أبو

بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حُسين قال: حدثنا دُوَيد عن سَلْم بن بَشير بن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «التقَى مؤمنان على باب الجنّة؛ مؤمن غَني ومُؤمن فَقير، كانا في الدنيا، فأُدخل الفقير الجنة وحُبِسَ الغَنيُّ ما شاء الله أن يُحبَسَ، ثم أُدخل الجنَّة، فلقيه الفَقير، فقال: أي أُخي، ماذا حبَسكَ؟ والله لقد احتُبِستَ حتى خِفتُ عليك، فقال: أي أُخَي، إني حُبِستُ بعدكَ مَحبِساً فَظيعاً كريهاً، ما وصلتُ إليك حتى سَالَ منّي من العَرق ما لو وَرَدهُ ألفُ بَعير كلها آكلَةُ حَمْضٍ، لَصدَرَتْ عنه رِواءً»[1].

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «يَجيءُ فُقراء المهاجرين يومَ القيامة على أكوارهم التي هاجروا عليها، فيقال لهم: انطَلقوا فادخلوا الجنَّة، فيذهبون ليدخلوا الجنَّة فيقول لهم الملائكة: انظروا حتى تُحاسَبوا. فيقولون: وهل أَعطَيتمونا شَيئاً فتُحاسبونا عليه؟ فيَدخلون الجنة قبل الأغنياء بخَمسٍ مئة عام».

فقد بان بما ذكرنا نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغَني الشاكر.

المقام الثاني في نِسبة حالِ الفَقير الحَريص إلى الغَني الحريص

ولنَفرض ذلك في شَخصٍ واحد هو طالبٌ للمال وساعٍ فيه وفاقدٌ له ثم وجده، فله حالةُ الفقر وحالةُ الوجود، فأي حالتَيه أفضل؟ نَنظر فإن كانَ مطلوبُه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده أن يَسلُك سبيل الدِّين ويستعين به عليه، فحال الوجود أفضل؛ لأن الفقر يَشغله بالطَّلب، وطالب القُوت لايَقدر على الذِّكر والفِكر إلا قُدرةً مدخولةً بشغل، والمَكفي هو القادر، ولذلك قال ﷺ: «اللهمَّ اجعل رزقَ آل محمدٍ قُوتاً».

وإن كانَ المطلوبُ فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة، ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سُلوك الدين، فحالةُ الفقر أصلح وأفضل؛ لأنهما استَويا في الحِرص وحُب المال، واستويا في أن كل واحدٍ ليس يقصد به الاستعانة على

(١) أخرجه أحمد(٢٧٧٠)، وأخرج نحوه ابن المبارك في الزهد (٥٥٦). والحَمضُ: ما مَلُحَ وأَمرَّ من النبات.

طريق الدين، واستويا في أن كلّ واحد ليس يتعرض لمعصيةٍ بسبب الفَقر والغِنى، ولكنهما افترقا في أن الواجد يأنس بما وَجده فيتأكّدُ حبُّه في قَلبه، ويَطمئن إلى الدنيا، والفاقد المضطر يَتجافَى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده مثل السجن الذي يَبغي الخلاص منه، ومتى استوت الأمور كلها وخَرج من الدنيا رَجلان أحدُهما أشدُّ رُكوناً إلى الدنيا، فحاله لا محالة أشد، إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويَستوحش من الآخرة بقدر أُنْسه بالدنيا، وقد قال ﷺ: «إنَّ روح القُدس نَفثَ في روعي: أحبِبْ مَن أحببت فإنك مُفارِقُه». وهذا تنبيهٌ على أن فراق المحبوب شَديد، فينبغي أن تحبَّ من لا يُفارقك وهو الله تعالىٰ، ولا تُحب ما يفارقك وهو الدنيا، فإنك إذا أحببتَ الدنيا كرهتَ لقاء الله تعالىٰ، فيكون قدومك بالموت على ما تَكرهُه وفراقك لما تُحبه، وكل من فارقَ محبوباً كانَ أَذاهُ في فِراقه بقدر حُبه وقدر أنسه به، وأُنسُ الواجِد بالدنيا أكثر من أُنس الفاقد لها، وإن كانَ حريصاً عليها.

فإذن قد انكشفَ بهذا التحقيق أن الفَقر هو الأشرف والأفضل والأَصلح لكافة الخلق إلا في مَوضعين:

أحدهما: غِنى مثلُ ما روينا عن عائشة رضي الله عنها وتَفرقتها لما جاءَها، فهذا يَستوي عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيداً له؛ لأنه يستفيد به أدعية الفقراء وجَمع هِمَمهم.

والثاني: الفَقر عن مقدار الضَّرورة، فإن ذلك يكاد يكون كفراً، ولا خيرَ فيه بوجهٍ من الوجوه إلا إذا كان وجوده يُبقي حياة من يستعين بحياته على الكُفر والمعاصي، فهذا لو مات جوعاً كان أصلح له.

فهذا تَفصيل القول في الغِنَى والفَقر، ويبقى النظر في فقيرٍ حريصٍ مُتكالبٍ على طَلب المال ليس له همٌّ سِواه، وفي غَني دونه في الحِرص على حِفظ المال ولا يَفجعه فقد المال إذا فقده كتفجع الفقير بفقره، فهذا في محل النظر، والأظهر أن بُعدهما عن الله تعالىٰ بقدر قوة تَفجُّعهما بفقد المال، وقُربهما بقدر ضعف تَفجعهما بفَقده.

بيان آداب الفقير في فقره

للفَقير آدابٌ في باطنِه وظاهره، فَينبغي أن يُراعيها:

فأما أدبُ باطِنه: فأن لا يَكون فيه كَراهةٌ لما ابتَلاه اللهُ تعالىٰ به من الفَقر، فهذا أقلُّ دَرجاته، وهو واجب، ونَقيضُه حرامٌ ومُحبِطٌ ثوابَ الفَقر، وأرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفَقر بل يكون راضياً، وأرفع منه أن يكون طالباً له فَرحاً به لعلمه بغوائل الغِنى، ويكون متوكلاً في باطنه على الله عزَّ وجلَّ واكتِسابه في قَدر ضرورته أن يأتيه لا محالة، فيكون كارهاً للزيادة على الكَفاف، ومتى حَسُنَ خُلُقُ الفَقير في فقره وسكتَ عن الشَّكوى إلى الخَلق وشَكَرَ الله تعالىٰ كان الفَقر في حقِّه مَثوبةً، ومتى عُكِسَت الحال كان الفَقر له عقوبة.

وأما أدبُ ظاهره: فأن يُظهرَ التَّعففَ والتَّجمُّلَ، ولا يُظهر الشَّكوى والفَقر (بل يَستُره)[1] ويسترُ أنه يَستره، وقد قال عزَّ وجل: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وأما في أعماله فأَدبُه أن لا يَتواضع لغَنيٍ لأجل غِناه، قال الفَتحُ بن شُخرف: رأيتُ أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب في النوم، فقلت له: يا أمير المؤمنين، أَوصني. قال: ما أحسنَ تواضُعَ الأغنياء للفُقراء، وأحسن من ذلك تِيهُ الفُقراء على الأَغنياء. فقلت: زِدْني، فَأَومأَ إليَّ بِكفِّه فإذا فيه مكتوبٌ:

قَدْ كُنتَ مَيتاً فَصِرْتَ حَيّاً ... وعن قَليلٍ تَصيرُ مَيتا
أَعْيا بدارِ الفَناءِ بَيتٌ ... فابْنِ بدارِ البَقاءِ بَيْتا

فهذه رتبةٌ، وأقلّ منها أن لا يُخالط الفقيرُ الأغنياءَ ولا يرغب في مجالستهم؛ لأن ذلك من مبادىءِ الطمع، قال الثَّوري: إذا خالطَ الفقيرُ الأغنياءَ فاعلم أنه مرائي، فإذا خالطَ السُّلطان فاعلم أنّه لِصّ.

وأما أدبه في أفعاله فأن لا يَفتُر بسبب الفَقر عن عبادته، ولا يمنع بَذل قليل

---

(١) ليست في الأصل، وأثبتت من الإحياء لتمام المعنى.

ما يَفضل عنه، فإن ذلك جهد المُقِلِّ، روى أبو ذَر قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الصدقةِ أفضل ؟ فقال: «جهدٌ من مُقِلٍّ وسِرٌّ إلى فَقير»(١).

بيانُ آدابِ الفقيرِ في قبولِ العطاء إذا جاءه بغيرِ سؤالٍ

ينبغي أن يُلاحظ الفقيرُ فيما جاءه ثلاثةَ أمور: نفسَ المال، وغَرضَ المُعطي، وغَرضَه في الأخذِ.

أما نفسُ المال، فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشُّبهات كلها فإن كان فيه شُبهة، فليتحرر عن أَخذه، وقد ذكرنا في كتاب الحَلال والحرام درجات الشُّبهة، وما يجب اجتنابه وما يستحب.

وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غَرضه تَطييب قَلبِه وطلب محبته، وهو الهَديّة، أو الثواب، وهو الزكاة والصدقة، أو الرِّياء والسُّمعَة، إما على التَّجرد أو ممزوجاً ببقية الأَغراض.

فأما الأول: فهو الهَديةُ، فلا بأس بقبولها، فإن قبولها سُنَّة، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها مِنَّة، ولا تكون رَشوة على حاجةٍ امتنع منها.

قيل لعُمر بن عَبد العزيز: لمَ لا تَقبَل الهدية وقد قَبِلَها رسولُ الله ﷺ ؟ فقال: كانت لرسولِ الله ﷺ هَدية، وهي لنا رشوة. وقد كان النبي ﷺ يقول: «لقد هممتُ أن لا أَتَّهِبَ إلا من قُرَشي أو ثَقَفي أو دَوْسي».

وقال بعضُ السلف: لا أطلبُ شيئاً إلا من سَرِيِّ السَّقَطي؛ لأنه قد صحَّ عندي زُهده في الدنيا، فهو يَفرح بخروج الشَّيء من يَده ويَتبرَّم ببقائه عنده، فأكون عوناً له على ما يحب.

وجاء خُراساني إلى الجُنَيد بمالٍ، فقال له الجُنَيد: متَى أعيشُ حتى آكل هذا ؟ فقال: ما أريد أن تُنفِقَه في الخَلِّ والبَقل بل في الطَّيبات. فقبل ذلك منه، فقال

(١) أخرجه ابن خزيمة ٤/ ٩٩، والحاكم ١/ ٥٧٤.

الخُراساني: ما أَحدٌ ببغداد أَمَنّ عليَّ منك. فقال الجُنَيد: ولا يَنبغي أن يُقبل إلا من مثلك.

وقد كان العلماء لا يَأخذون أَرفاقَ[١] مَنْ يُعلّمونه على ما ذكرنا في كتاب العلم.

وأما **الثاني**: وهو أن يكون المقصود الثواب، فعليه أن ينظر في صفات نَفسه هل هو مُستحق؟ فإن اشتبه عليه، فهو في محل شُبهة، وقد سبق تفصيل هذا في كتاب أسرار الزكاة، وإن كان صدقةً وكان يعطيه لدينه فَلينظر إلى باطِنه، فإن كان مقارفاً لمعصيةٍ في السِّرِّ يعلم أن المعطي لو علم ذلك لَنَفَرَ طَبعُه ولما تقرَّب إلى الله بالتَّصدق عليه، فهذا حرام أَخْذُه لو أعطاه لظنّه أنه عالمٌ أو عَلَوي ولم يكن.

الثالث: أن يكون غَرضُه الشُّهرة والرِّياء والسُّمعة فينبغي أن يَردَّ عليه قَصده الفاسد ولا يقبله؛ لأنه يكون مُعيناً له على غَرضِه الفاسد، وعوتب بعضهم على رَدِّه ما كانَ يأتيه فقال: إنما أُشفق عليهم لأنهم يَتحدثون بذلك فتحبط أُجورهم.

وأما غرضه في الأخذ، فينبغي أن ينظر أهو محتاجٌ إليه فيما لا بدَّ منه أو هو مُستغنٍ عنه، فإن لم يكن محتاجاً لم يأخذ، وإن كان محتاجاً وقد سَلم من الشُّبهة والآفات التي ذكرناها في المُعطي فالأفضل له الأخذ. أنبأنا ابن الحُصَين قال: أنبأنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو اليَمان قال: أخبرنا شُعَيب عن الزُّهري قال: أخبرني السائبُ بنُ يزيد أن حُوَيطِب بن عبد العُزّى أخبره أن عبد الله بن السَّعدي أخبره عن عُمر أنَّ النبي ﷺ قال: «ما جاءكَ من هذا المال وأنتَ غير مُشرفٍ ولاسائلٍ فَخُذه، وما لا فلا تُتْبِعْهُ نَفسكَ»[٢] أخرجاه في الصحيحين.

وفي حديث خالد بن عَدي الجُهَني عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن جاءه من أخيه معروفٌ من غير إشرافٍ ولا مَسْألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هو رِزقٌ ساقَه الله إليه»[٣].

---

(١) الأرفاق: الهدايا والأشياء النافعة التي يُرتَفَق بها ويُنتَفع.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٦٣)، ومسلم (١٠٤٥) (١١١)، وأحمد (١٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٩٣٦) و(٢٤٠٠٩) (١١).

بيان تَحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفَقير المُضطرّ فيه

اعلم أنه قد وَردت مَنَاهٍ في السُّؤال وتَشديدات، وورد فيه تَرخيصٌ، فروى أبو داود في سُنَنه من حديث الحُسين بن علي عن النبي ﷺ أنه قال: «للسائل حَقٌّ، وإن جاء على فَرَس»(١). ومن حديث أُم بُجَيد أنها قالت: يا رسولَ الله، إن المِسكين ليقومُ على بابي فما أجد له شيئاً أُعطيه إياه فقال: «إنْ لم تَجدي له شيئاً إلا ظِلْفاً مُحرَّقاً، فادفعيه إليه»(٢).

ولو كان السؤالُ حراماً مطلقاً لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه، والإعطاء إعانة، وكَشفُ الغطاء في هذا أن نقول: السؤالُ حرامٌ في الأصل، وإنما يُباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة، فإن كان عنها بُدٌّ فهي حرام، وإنما قلنا: إن الأصلَ فيه التَّحريم؛ لأنه لاينفك عن ثلاثة أمور محرمة:

الأول: إظهار الشَّكوى من الله تعالىٰ، إذْ السؤال إظهارٌ للفقر وذكر لقصور نعمة الله عنه، وهو عين الشَّكوى، وكما أن العبدَ المملوك لو سأل لكان سُؤاله تَشنيعاً على سَيِّده، فكذا سؤال العِباد تشنيعٌ على الله تعالىٰ، وهذا ينبغي أن يَحرُمَ ولا يَحلّ إلا بضرورة، كما تحل المَيتة.

والثاني: أنَّ فيه إذلالُ السائل نفسَه لغير الله تعالىٰ، وليس للمؤمن أن يُذلَّ نفسه لغير الله، بل عليه أن يُذِلَّها لمولاه، فإن فيه عِزَّه، فأما جميع الخلق فإنهم عبادٌ مثله. فلا ينبغي أن يَذلَّ لهم إلا بضرورة، وفي السؤال ذلٌّ للسائل بالإضافة إلى المسؤول.

والثالث: أنه يَنفكُّ عن إيذاء المسؤول غالباً؛ لأنه ربما لا تَسمح نفسه بالبذل عن طيب قلبٍ منه، فإن بذَلَ حياءً من السائل أو رياءً، فهو حرام على الآخِذ، وإن منع ربما اسْتَحيا وتَأذّى في نفسه بالمنع إذ يرى نفسه في صورة البُخلاء، ففي البذل

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٠)، وابن خزيمة (٤٦٨)، وأبو يعلى (٦٧٨٤).
(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٥٠)، وأبو داود (١٦٦٧)، والترمذي (٦٦٥)، وابن حبان (٣٣٧٣).

نُقصانُ ماله، وفي المنع نُقصان جاهِه، وكلاهما مُؤذٍ والسائل هو السبب في الإيذاء، والإيذاء حرام إلا بضرورة.

وإذا فهمتَ هذه المحذورات الثلاث فهمتَ ما ورد من الأحاديث في ذَمِّ المسألة مثل ما أخبرنا به هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا مَعمر عن عبد الله بن مسلم أخي الزُّهري عن حَمزة بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَزالُ المسألةُ بأحدِكم حتى يَلقى اللهَ عزَّ وجلَّ وليس في وَجهِهِ مُزْعَةُ لَحم» أخرجاه في الصحيحين[1].

وفيهما من حديثه أيضاً عن النبي ﷺ أنه ذكر التَّعفُّفَ عن المسألة فقال: «اليَدُ العُليا خَيرٌ من اليد السُّفلى، واليَدُ العُليا المُنفقة، والسُّفلَى السائلة»[2].

وفيهما من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لأَنْ يَحتَطِبَ أحدُكم حُزمةً على ظهره خَيرٌ له من أن يَسأل أحداً فَيُعطيه أو يَمنعه»[3].

وفيهما من حديث حَكيم بن حِزام قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم، إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلوةٌ، فمن أَخَذه بسَخاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، ومَنْ أَخَذه بإشرافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ له فيه، وكان كالّذي يأكُلُ ولا يَشبَع، واليَدُ العليا خَيرٌ من اليَد السُّفلى». قال حكيم: فقلتُ: يا رسولَ الله، والذي بعثكَ بالحق لا أَرْزَأ أحداً بعدكَ شيئاً حتى أُفارق الدنيا. فكان أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه يَدعو حكيماً ليعطيه العَطاء فيَأبى أن يَقبَل منه شيئاً، ثم إن عُمر دَعاهُ ليُعطِيَه فأبى أن يَقبله، فقال: يا مَعشَرَ المسلمين، إني أعرضُ عليه حقَّه الذي قَسَمَ اللهُ له من هذا الفَيء فَيأبى أن يَأخذه.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠)، وأحمد (٤٦٣٨)، وقوله: «مُزعة لحم»، أي: القطعة اليسيرة من اللحم، والمراد أنه يجيءُ ذليلاً لا جاه له ولا قَدر، أو أنه يعذب حتى يسقط لحم وَجهه، وذلك لأنه صرف ماءَ وجهه بسؤال الناس.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦١) و(١٤٠٣)، ومسلم (١٠٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٠) و(٢٠٧٤) و(٢٣٧٤)، ومسلم (١٠٤٢) (١٠٧).

فلم يَرْزَأ حكيمٌ أحداً من الناس بعدَ النبي ﷺ حتى تُوفِّي[(١)].

وفي أفراد مسلم من حديث قبيصة بن المخارِق قال: حُمِّلْتُ حَمَالَةً[(٢)] فأتيْتُ النبي ﷺ فسألتُه فيها فقال: «أَقِمْ حتى تأتينا الصدقة، فإمّا أن نَحمِلها، وإما أنْ نُعينك فيها» وقال: «إن المسألةَ لا تَحِلُّ إلا لثلاثةٍ: لرجلٍ تحمَّل حَمالةَ قَوم فسأل فيها حتى يُؤدّيها ثم يُمسك، ورجلٍ أصابته جائِحةٌ[(٣)] اجتاحَت ماله، فيسأل فيها حتى يُصيب قِواماً من عَيش أو سِداداً من عَيش، ثم يُمسك، ورجلٍ أصابته فاقَةٌ فيَسأل حتى يُصيب قِواماً من عيش أو سِداداً من عيش ثم يمسك، وما سِوى ذلك من المسائل يا قَبيصة سُحتٌ يَأكُله صاحبه سُحتاً»[(٤)].

وفي حديث سَمُرة بن جُندب عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ المسألةَ كَدٌّ يَكُدُّ بها الرجلُ وَجْهَه إلا أن يَسأل الرجلُ سُلطاناً، أو في أَمرٍ لا بدَّ منه»[(٥)]. قال الخَطّابي: المعنى: أن يَسأل السلطانَ حقَّه من بيتِ المال، وليس المُرادُ به استباحةَ ما تحويه يَد السُّلطان من الغُصوب.

وفي حديث حُبْشِيِّ بن جُنادة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سَألَ من غَيرِ فَقرٍ، فإنما يأكُلُ الجَمْرَ»[(٦)].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ سألَ وله ما يُغْنيه جاءَتْ يوم القيامة خُدوشاً أو كُدُوحاً في وَجهه». قالوا: يا رسولَ الله،

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٢) و(٢٧٥٠) و(٣١٤٣) و(٦٤٤١)، ومسلم (١٠٣٥) (٩٦)، وأحمد (١٥٥٧٤) وقوله: «لا أرزأ» أي: لا آخذ من أحدٍ شيئاً، وأصلُ الرُّزءِ النقصان، أي أنه لم ينقص أحداً شيئاً بالأخذ منه.

(٢) أي تكفلتُ مالاً لإصلاح ذات البين، قال الخطابي: الحَمالةُ: هي أن يقعَ بين القوم تَشاحُنٌ في الدماء والأموال، ويُخاف من ذلك فتنٌ عظيمة، فيتوسَّطُ الرجل بينهم لإصلاح ذات البين، ويَضمن لهم ما يرضيهم دفعاً للفتنة.

(٣) الجائحة: الآفة تُصيبُ مالَ الإنسان.

(٤) أخرجه مسلم (١٠٤٤)، وأحمد (١٥٩١٦) و(٢٠٦٠١)، وأبو داود (١٦٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي (٦٨١)، وأبو داود (١٦٣٩)، وابن حبان (٨٤٢).

(٦) أخرجه أحمد (١٧٥٠٨).

وما غِناه ؟ قال: «خمسونَ درهماً أو حسابها من الذَّهب»[١].

وروى ثَوبان عن النبي ﷺ: «مَنْ يَتَقبَّل لي بواحدة وأَتقبَّل له بالجنَّة» ؟ قال: قلتُ: أنا. قال: «لا تَسأل النَّاس شيئاً». فكان ثَوبان يَقعُ سَوطُه وهو راكبٌ فلا يقول لأَحدٍ: ناولنيه حتى يَنزل فَيَتناوله[٢].

وقال ابنُ أبي مُلَيكَة: ربما سَقطَ الخِطامُ من يَدِ أبي بَكرٍ الصِّدّيق، فيَضرب بذراعِ ناقَتِهِ فَيُنيخُها، فيأخذه. قالوا له: هلا أمرتنا نُناوِلَكه ؟ فقال: إنَّ حبيبي ﷺ أَمرني أن لا أسألَ الناسَ شيئاً.

وقال الحسن: لا تَزالُ كريماً على الناس ولا يزال الناس يُكرمونك ما لم تَعاطَ ما في أيديهم، فإذا فَعلتَ ذلك استَخفّوا بك، وكرهوا حديثكَ وأَبغضوك.

وسمع عُمرُ بن الخطاب سائلاً يَسألُ بعد المغرب، فقال لبعض أصحابه: عَشِّ الرَّجلَ. فَعشَّاهُ، ثم سمعه ثانياً يَسأل، فقال: أَلَمْ أَقُل: عَشُّوا الرَّجلَ ؟! فقالوا: قد عَشَّيناه. فنظر عُمر فإذا تحت يَده مِخْلاةٌ مَملوءةٌ خُبزاً، فقال: لستَ سائلاً ولكنك تاجر. (ثم أخذ المِخلاةَ ونثرها بين يدي إبل الصدقة وضربَه بالدِّرة. ومثل)[٣] هذا يَقفُ في فَهمه مَن قَلَّ فِقهه فيقول: أمّا ضَرْبه للتأديب فحسنٌ، فأما المُصادَرةُ بأخذ المال فكيفَ استجازَها ؟

والجواب: أن عمر رضي الله عنه رآه مُستَغنياً عن السُّؤال، وعلم أن مَن أعطاه إنما أعطاه على اعتقاد أنه مُحتاج، وقد كان كاذِباً، فلم يدخل ما أَخذ في ملكه بأخذه مع التَّلبيس، ولمّا عَسُرَ تمييز ما أَخذه وهو مُستحق له وما أخذَه بعد ذلك، وعَسُرَ ردُّه إلى الصَّحابة إذْ لا يُعرَفُ أصحابُه بأعيانِهم، بَقي مالاً لا مالكَ له، فوجب صَرفُه إلى المصالح، وعَلفُ إبلِ الصَّدقة من المصالح، ويُنزل أخذُ السائل مع إظهار الحاجةِ كاذباً منزلةَ أخذ العَلَوي بقوله: أنا عَلَوي. وهو كاذبٌ، فإنه لا يملك

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧٥)، وأبو داود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥١)، والكدوح والخدوش: آثار الخَدْش والقَشْر.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣٨٥)، والطيالسي (٩٩٤).

(٣) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

ما يأخذه، وكأخذ الذي يُعطَى لصلاحه وهو في الباطن مُقارفٌ لمعصيةٍ لو عَرَفَها المُعطي ما أعطاه.

وإذْ قد عرفتَ أن السؤال يُباح لضرورة، فاعلم أنَّ الشيء إنما يكون مضطراً أو محتاجاً إليه حاجة مهمةً، أو حاجة خَفيفةً، أو مُستَغنى عنه، فهذه أربعة أحوال:

أما المضطَّر إليه، فهو سؤال الجائع عند خَوفه على نَفسه موتاً أو مَرضاً، وسؤال العاري وبَدنُه مكشوف ليس له ما يُواريه، وهو مباح متى ما وجد بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحاً، والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن، وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكَسْب، فأما من له خطٌّ فهو قادِرٌ على الكَسْب بالوِراقة[1].

وأما المستَغني، فهو الذي يطلب شيئاً وعنده مثله، فهذا لا يجوز.

وأما المحتاج حاجةً مهمة، كمن له جُبَّةٌ ولا قميص تحتها في الشتاء، فهو يتأذَّى بالبَرد تأذِّياً لا يَنتهي إلى حَدِّ الضَّرورة، وكذلك من يَسأل أُجرة الكِراء[2] وهو قادرٌ على المَشي بمشقة، فهذا سؤال مباح إلا أن تركه أولى.

وأما الحاجة الخَفيفة، فمثل سؤاله الأُدمَ وهو واجدٌ للخُبز، وسؤال الرجل المَحمَلَ وهو قادرٌ على الراحلة، فهذا مباح مع الكَراهة.

وينبغي في مثل هذه المسألة إن يُظهر الشُّكر لله تعالىٰ، ولا يسأل سؤال محتاج بل يقول: أنا مستغنٍ بما أملِكُه، وإنما رُعونةُ النَّفس تُطالبني بالأُدْم. فيخرج بهذا من حَدِّ الشكوى، ويسأل أباه أو قريبه أو صَديقه الذي لا يَنقص بذلك في عينه أو السَّخيَّ الذي قد أعدَّ مالَه للمكارم، فيخرج بذلك من الذل، ولا يُعيّنُ شخصاً بالسؤال؛ بل يُلقي الكلامَ بين جماعة فيخرج بذلك من الإيذاء، إلا أن يكون في الجماعة مرموق بالمال فربما بذلَ خوفاً من الملامة، فإن أخذَ ممن يَعلمُ أنَّ باعِثَ الحياءِ منه أو منَ الحاضرين حَثَّه على إعطائه لم يَجز له الأخذُ؛ حُكم هذا حكم أخذه المالَ بالمصادرة، إذ المصادرة تكون بضربِ الجِلْدِ، وهذا ضربٌ لباطن القَلب

(١) الوراقة: مهنة الورّاقين وهي النَّسخ.
(٢) أي أجرة كراء دابة يركبها.

بسَوطِ الحياء وخوف اللَّوم، ولا يجوز أن يُقال: هذا قد رَضي في الظاهر. لأن هذا فيما بين العَبدِ وبين الله تعالىٰ، والله تعالىٰ هو الحاكم فيه، بخلاف الحكّام الذين يحكمون بالظاهر؛ لأنهم لايَطَّلعون على البَواطن وفي مثل هذا قال ﷺ: «اسْتَفْتِ قَلبكَ»[١]. وما أخذه على هذا الوصف لا يَملكه، ويجب عليه رَدُّه إلى صاحبه، فإن علم أنَّ المُعطي يَستحي أن يستَردَّه أثابَه بقدر قيمته في معرض الهدية، فإن لم يقبل هديته وماتَ ردَّ ذلك إلى وَرَثتِه.

بَيان مِقدار الغِنى المُحَرِّم للسؤال

قد رَوينا آنفاً عن النبي ﷺ ذمَّ من يَسأل مع الغنى، وإنما المُشكِلُ حَدُّ الغِنَى، وقد أَشَرنا في كتاب الزكاة إلى وَصف الفَقير وحاجاته، إلا أنَّا نقول ها هنا: لا يجوز للفقير أن يَسأل إلا مقدار ما يحتاج إليه من بيتٍ يُكِنُّهُ، وثوبٍ يَستُره، وطعامٍ يُقيمه، ويُراعي في هذه الأشياء الثلاثة ما يَدفع الزمان من غير تَشوُّفٍ في شيء من ذلك، فإن كان يعلم أنه يَجِدُ من يَسأله كل يومٍ لم يَجُزْ له أن يَسأل أكثر من قوتِ يومه وليلته، فإن خافَ أن لا يجد من يُعطيه، أو خاف أن يعجز عن السؤال أُبيحَ له السؤال، وإن كان أحد هذين الخوفين ضَعيفاً وقعت الكَراهة.

ولا يجوزُ له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسَنَتِه، وعلى هذا ينزل الحديث الذي رَويناه وفيه التَّقدير بملكِ خَمْسينَ درهماً؛ لأنها تكفي المُنفرد المُقتصد لسَنةٍ، فأما ذو العائلة، فلا.

بيان أحوال السائلين

كان بِشْر الحافي يقول: الفقراءُ ثَلاثة: فَقيرٌ لا يسأل، وإنْ أُعْطِيَ لا يَأخذ، فذاكَ من الرُّوحانيّين، وفقير لا يَسأل، وإن أُعطي أَخذ، فذاكَ من أهل حَظيرة القُدس، وفقير إذا احتاجَ سأل، فكفارةُ مسألته صدقةٌ في السُّؤال.

(١) وهو قوله ﷺ لوابِصَة بن مَعبد، أخرجه أحمد (١٨٠٠١) و(١٨٠٠٥).

قلتُ: وفَصلُ الخِطاب أنه متى قَدر الفقير على دَفع الزَّمان من غير سُؤال لم يَجُز له أن يَسأل، فإن كان يَندفع على مَضَضٍ نظرتَ، فإن كان مثلُه يُحتَمَلُ ولا يُخافُ منه التَّلف، فالسؤال مُباح، وتَركُه فَضيلة، وإن كان مثلُه لا يُحتَمل، وَجَبَ عليه أن يَسأل، قالَ سُفيان الثَّوري: مَنْ جاعَ فلم يَسْأل حتى ماتَ دخلَ النَّار.



الشَّطْر الثاني

من الكتاب في الزُّهد

وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فَضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم والمسكن والأَثاث وأسباب المعيشة وبيان علامة الزهد

بيان حقيقة الزهد

اعلم أنَّ الزهدَ في الدنيا مقامٌ شريف من مقامات السّالكين، وينتظم هذا المقام من علمٍ وحالٍ وعمل، كسائر المقامات، فلنذكر الحال مع طَرفيه من العلم والعمل:

أما الحال، فنعني بها ما يُسمى زهداً، وهو عبارة عن انصراف الرَّغبة عن الشَّيء إلى ما هو خَيرٌ منه، فحاله بالإضافة إلى المَعْدول عنه يُسمَّى زهداً، وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمى رغبةً وحُباً.

فإذن يَستدعي حالُ الزهد مَرغوباً عنه ومرغوباً فيه بوجهٍ من الوجوه، فمن رغب عمّا ليس مَطلوباً في نفسه لم يُسَمَّ ذلك زهداً، كما لا يُسمّى تاركُ التُّرابِ زاهداً.

وشرطُ المرغوبِ فيه أن يكون عنده خيراً من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة.

وقد جَرتِ العادة بتخصيص اسمِ الزاهد بمن يَزهد في الدنيا، فمن زهد في كل شيء ما سوى الله تعالىٰ فهو الزاد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رَغبته في الجنة ونَعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول، فأما من ترك بعضَ حُظوظ الدنيا دون بعضٍ، كالذي يَترك التَّوسُّع في الأكل، ولكنه لا يترك التَّزين باللِّباس، فإنه لا يَستحق اسمَ الزاهد مطلقاً، ودرجته في الزُّهّاد درجة من يَتوب من بعض المعاصي وهي تَوبة صحيحة، وهذا زهد صحيح.

وكما يُشترط في المرغوب فيه أن يكون خيراً عنده، فيُشتَرطُ في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه، ولذلك قال مالكُ بن دينار: إنما الزّاهدُ عمر بن عبد العزيز، قدر على الدنيا فَتركها.

وأما العِلم الذي هو المُثمِر[1] لهذه الحال، فهو العلم بكون المتروك حَقيراً بالإضافة إلى المأخوذ، كعلم التاجر بأن العِوَض خيرٌ من المبيع، وما لم يتحقق هذا العلم لا يُتصور أن تَزول الرغبة عن المبيع، فمن عرف أن الدنيا كالثلج تَذوب والآخرة كالدُّرِّ تَبقى قَويت رَغبته في بيع هذه بهذه، وقد يعلم هذا من لا يَقدر على ترك الدنيا إما لضَعف علمه ويقينه، أو لاستيلاء الشّهوة في الحال عليه، وكونه مقهوراً في يَدِ الشيطان، أو للاغترار بالتّسويف.

وقد دلَّ على خَساسة الدنيا قَوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وعلى نَفاسة الآخرة قوله: ﴿ثوابُ الله خير وما عند الله باق﴾ [القصص: ٨٠].

واعلم أنه ليس من الزهد تركُ المال وبَذل المال على سَبيل السَّخاء والفُتوة وعلى سبيل استحالة القلوب وطلب المدح لا على سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العبادات.

ومن الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة.

بيان فضيلة الزّهد

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠] فنسبَ الزهدَ إلى العلماء، ووَصَفَ أهلَه بالعلم، وهو غاية الثناء، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. قيل: معناه: أيُّهم أزهد فيها. وقال تعالىٰ: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ [طه: ١٣١].

---

(١) في الأصل: «المبين»، والمثبت من الإحياء.

وأما الأخبار: فقد ذكرنا ما وردَ في ذمِّ الدنيا في كتاب ذَمِّها من رُبع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بُغضِ الدنيا والزهد فيها، قال النبي ﷺ: «مَن أصبحَ وهَمُّه الدنيا فَرَّقَ اللهُ عليه أمره، وفرَّقَ عليه ضَيعَته، وجَعلَ فَقْره بين عَيْنَيه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن أصبح وهَمُّه الآخرة جمع الله له هَمَّه، وحفِظَ عليه ضَيْعَتَه، وجعل غِناه في قَلبه، وأَتَتْهُ الدنيا وهي راغِمة». وقال: «ازْهَد في الدُّنيا يحبك الله». فجعل الزهد سَبباً للمحبة وهي أعلى الدرجات، وسُئل عليه الصلاة والسلام عن علامة شَرح الصدر فقال: «التَّجافي عن دار الغُرور، والإنابة إلى دار الخُلود، والاستعداد للموت قبل نُزوله». وقال لعائشةَ: «إن أردتِ اللَّحاقَ بِي فَليكفيك من الدنيا كَزاد الرّاكب، ولا تَسْتَخلقي ثوباً حتى ترقعيه، وإياكِ ومجالسة الأَغنياء». وقال لحارثة: «ما حَقيقة إيمانك؟» فقال: عَزَفَتْ نَفسي عن الدنيا، فاستوى عندي حَجَرها ومَدَرها.

وقال عيسى ابنُ مريم: لاَ تطلبوا الدنيا تهلكوا أنفسكم، اطلبوا الدنيا بترك ما فيها، عُراة دَخلتموها، وعُراة تخرجون منها، كفى اليومَ همّه، وغداً راحل بشُغله.

وقيل لعيسى عليه السلام: لو اتخذتَ بيتاً. قال: يكفينا خلقان من كان قبلنا. وقيل له: لو اتخذتَ حماراً تركبه لحاجتك. قال: أنا أكرم على الله من أن يَجعل لي شَيئاً يشغلني.

وقد عَلمتَ حالَ رسولِ الله ﷺ في زُهده في الدنيا وصَبره على الجوع واختياره الفقر، وكذلك أحوالَ أصحابه في زهدهم، قال ابنُ مسعود: أنتم أطول اجتهاداً وأكثر صلاة، وكانوا خيراً منكم. قيل: بِمَ؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم.

وقال أبو ذَر: إنّي لأقربكم مَجلساً من رسولِ الله ﷺ يوم القيامة؛ وذلك أني سمعته يقول: «إنَّ أقربكم منّي مجلساً يوم القيامة مَن خرج بهَيْئةِ ما تَركتُه فيها» وإنه والله ما منكم أحد إلا وقد تَشبَّثَ منها بشيء.

وجاء إليه حَبيب بن مَسلمة بثلاث مئةِ دينار، فردّها وقال: ما أحدٌ أغنى بالله

منّا، ما لنا إلا ظل يتوالى، وثُلَّةٌ من غَنَمٍ تَروحُ عَلينا، ومَوْلاةٌ لنا تَصدَّقت علينا بِخِدمَتها، ثم إني لأَتَخَوَّفُ الفَضل.

وقال الحسن: أدركتُ أقواماً ما كانوا يَفرحون بشيءٍ من الدنيا أَقْبلَ، ولا يَأْسَفون على شيءٍ منها أَدْبَر، ولهي كانت في أَعْيُنهم أهون من التُّراب، كان أحدهم يَعيش خمسين سَنة وستين سَنةً لم يُطْوَ لَهُ ثوب، ولم يأمُر أهلَه بصنعة طعام.

وقال الحسن: يُحشَر الناس كلّهم عُراة، ما خلا أهل الزُّهد.

وقال: إنّ أقواماً أكرموا الدنيا فصَلَبتهم على الخُشُب، فأهينوها، فَأَهْنَأ ما تكون إذا أَهَنْتُموها.

وقال أبو واقد اللَّيثي: تابَعنا الأعمالَ فلم نجد شيئاً أبلغ في طلب الآخرة من الزُّهد في الدنيا.

وقال عبد الله بن عُتبة: أَتُريدون أن أكتب لكم الخير كله في ظفري قالوا: نعم قال: الزهد في الدنيا.

وقال رجل لسُفيان: أشْتَهي أن أرى عالماً زاهداً. قال: تلكَ ضالَّةٌ لا توجد.

وقال الفُضَيل: جُعِلَ الشَّرُّ كلُّه في بيت، وجُعلَ مفتاحه حُبُّ الدنيا، وجُعلَ الخير كلّه في بَيتٍ، وجُعلَ مفتاحه الزُّهد.

وقال يوسف بن أسباط: أشتهي ثلاث خِصال: أن أموتَ وليسَ في ملكي درهم، ولا عليَّ دَين ولا على عَظمي لحم. فأُعطِيَ ذلكَ كله.

وكان بعضُ السَّلف يقول: الزهد في الدنيا يُريحُ القلبَ والبَدَنَ، والرغبة فيها تكثر الهمَّ والحُزن.

بيان درجات الزهد

وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى المرغوب عنه وإلى المرغوب فيه

اعلم أن الزُّهدَ في نفسه يَتفاوت بحسب تَفاوت قُوته على درجاتٍ ثلاث.

الدرجة الأولىٰ: وهي السفلى، أن يَزهد في الدنيا وهو لها مُشْتَهٍ، وقلبه إليها

مائل، ولكنه يُجاهد نَفسه ويَكفُها، ولهذا يُسمَّى: المُتَزهِّد، وهو مبدأ الزُّهد، فإنّ المتزهِّد يُذيبُ أولاً نفسَه ثم كِيسَه، والزاهد يُذيبُ أولاً كيسه ثم يُذيبُ نفسه في الطاعة لا في الصبر على ما أخرجه.

الدرجة الثانية: أن يَترك الدنيا طوعاً لاحتقاره لها بالإضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهماً لأخذ درهمين، فإنه لا يشقّ عليه ذلك، إلا أن هذا يرىٰ زُهده ويلتفت إليه، كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه، فيكاد تُعجبه نَفسُه وزُهده، ويَرى أنه قد ترك شيئاً له قَدْرٌ لما هو أعظم قدراً منه، وهو أيضاً نُقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا، أن يَزهد طوعاً، وأن يزهد في زُهده، فلا يرى زُهده إذ لا يَرى أنه ترك شيئاً؛ لأنه قد عرف أن الدنيا ليست بشيءٍ، فيكون كمن تركَ خَزفةً وأخذ جَوهرةً، فلا يَرى ذلك مُعاوضةً، ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً، والدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة أخَسّ من خَزَفةٍ بالإضافة إلى جَوهرة، فهذا هو الكمال في الزُّهد، وسَببُه كمالُ المعرفة، ومثل هذا يأمَنُ الالتِفات إلى الدنيا كما يأمن بائِعُ الخَزَفة بالجوهرة طلبَ الإقالة في البَيع.

قال أبو يَزيد لبعض أصحابه: في أي شيءٍ تتكلم؟ قال: في الزُّهد في الدنيا. فقال: ظَنَنتُكَ تتكلم في شَيءٍ، الدنيا ليست بشَيء.

فصل

واعلم أن مَثل مَن ترك الدنيا مثل من مَنعه عن باب المَلكِ كَلبٌ على بابه، فألقى إليه لُقمةً من خبز، فشَغله بذلك ودخل، فقرب من الملك، أَفتُراه يَرى لنَفسه يَداً عند الملك بلُقمةٍ حين ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قَدْ نَالَهُ؟ فالشَّيطان كلبٌ على باب الله عزَّ وجلَّ يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع، والدنيا كلُقمةٍ إن أكلتَها فَلذَّتُها في حال المَضْغ ثم تنقضي بالابتلاع، ثم يبقى ثقلها على المعدة ثم تَنتهي إلى النَّتن ثم تفتقر إلى خُروج ثُفْلِها، فمن تركها لينال عزَّ الملك فكيف يَلتفت إليها؟ ثم نِسْبَتُها، أعني ما يَسلم لكل شخص منها ولو عمِّر بألف سنةٍ بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقلّ من لُقمةٍ بالإضافة إلى مُلك الدنيا، بل

أقل؛ لأن الفَاني لا نسبةَ له إلى البَاقي كيف ومُدَّة العُمرِ قصيرة، ولذَّات الدنيا مُكدِّرة، فإذاً لا يَلتفت الزاهد إلى زُهده إلا إذا التفتَ إلى ما زَهِدَ فيه، ولا يلتفت إلى ما زَهِد فيه إلا لأنه يَراه شيئاً مُعتَدّاً به، ولا يراه شيئاً معتداً به إلا لقصور معرفته فَسَببُ نُقصان الزُّهد نُقصان المعرفة.

فهذا تفاوت درجات الزهد، ولكل درجةٍ من هذه دَرجات إذ تَصَبُّر المُتَزهّد يتفاوت باختلاف قَدر المشقّة في الصبر، وكذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته إلى زُهده.

فصل

وأما انقِسام الزهد بالإضافة إلى المَرغوب فيه، فعلى ثلاثة درجات:

أحدها: الزُّهد للنجاة من العَذاب والحِساب والأهوال التي بين الآدمي، وهذا زهدُ الخائفين، ولقد رَضُوا بالعدم لو أُعدِموا ليتخلصوا من الآلام.

والدرجة الثانية: الزُّهد للرغبة في الثَّواب والنَّعيم الموعود به، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نَعيماً لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهي العليا، وهو أن يَزهد في الدنيا لا للتخلص من الآلام ولا للرغبة في نَيل اللَّذات، بل لطلب لقاء الله تعالىٰ، وهذا زُهدُ المحبّين العارِفين، فإن لذة النَّظر إلى الله تعالىٰ بالإضافة إلى لذّات الجنّة كَلذَّة مُلك الدنيا والاستيلاء عليها كلها بالإضافة إلى لذّة الاستيلاء على عُصفورٍ واللَّعِبِ به.

فصل

فأما انقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب عنه، فيتنوع، وحاصِلُه: أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حُظوظ النفس كلها، وقد تكلم الناس فيه فكلٌّ أشار إلى بعض أَقسامه، فبعضهم يقول: الزهد في الدنيا من الزهد في الناس. وهذا إشارة إلى الزُّهدِ في الجاه خاصة.

وقال بعضهم: الزهد التواضع. وهذا إشارة إلى نفي الجاه والعجب، وقال بعضهم: الزُّهدُ القَناعة. وهذا إشارة إلى المال.

وقال الثَّوري: هو قَصر الأمل، وهذا جامع لجميع الشهوات، فإن من يميل إلى الشَّهوات يُحدّث نفسه بالبقاء فيطولُ أمَله، ومن قصر أمله فكأنما رغب عن الشَّهوات كلها.

واعلم أن الزهد تَرك ما ليس بضرورة في قوام النَّفس، فمن أخذ ما يُبلغه كان كمن أَعطَى الناقةَ عَلَفها، ولا يجوزُ الزهد في مثل ذلك إلا أن يكون بعض ما يبلغ يَنوب عن بَعضٍ في الأَرفَعِ والألَذّ.

بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات[(١)] الحياة

المهمات الضرورية سبعة أشياء: المطعَم، والمَلبَس، والمَسكن، وأثاثُه، والمَنْكحُ، والمالُ، والجاهُ.

فأما الأول هو المطعم: فاعلم أنَّ هِمَّةَ الزاهد منه ما يَدفع به الجوع مما يوافق بَدَنه من غير قَصد الالتِذاذ، قال ﷺ: «إنَّ عبادَ الله ليسوا بالمتنعِّمين».

وأخبرنا ابنُ الحُصَين قال: أنبأنا ابنُ المذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حُسَين بن محمد قال: حدثنا محمد بن مُطَرّف عن أبي حازم عن عُروة أنه سَمع عائشةَ تقول: كان يَمرُّ بنا هلالٌ وهِلالٌ ما يُوقَدُ في بيتٍ من بُيوتِ رسولِ الله ﷺ نارٌ. قلتُ: يا خَالةُ، فعلى أيّ شيءٍ كنتم تَعيشون ؟ قالت: على الأَسوَدَين: التمرِ والماءِ[(٢)].

قال حُسين: وحدثنا دُوَيد عن أبي سَهل عن سُلَيمان بن رومان مَولى عروة عن عُروة رضي الله عنها أنها قالت: والّذي بعثَ محمداً ﷺ بالحق ما رأى منخلاً

(١) تحرفت في الأصل إلى: «ضروبات»، والمثبت من الإحياء.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٢٠) و(٢٤٥٦١)، وابن المبارك في الزهد (٩٦٩)، والطيالسي (١٤٧٢)، وابن سعد ١/ ٤٠٦. وأخرجه البخاري (٢٥٦٧) و(٦٤٥٩)، ومسلم (٢٩٧٢) (٢٨) عن أبي حازم عن يزيد بن رومان عن عروة بأطول مما هنا.

ولا أكلَ خُبزاً منخولاً منذ بَعثَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى أَن قُبِضَ. قلتُ: كيف كنتم تأكلون الشَّعير؟ قالت: كنا نقول: أُفّ.

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الدّاوُدي قال: أخبرنا السَّرْخَسي قال: أخبرنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا يَعقوب عن أبي حازم قال: سألتُ سَهلَ بن سعدٍ فقلتُ له: هل أكلَ رسولُ الله ﷺ النَّقِيَّ؟ فقال سَهل: ما رَأى رسولُ الله النَّقِيَّ من حين ابتعثه الله حتى قَبضَه الله. فقلتُ: هل كانت لكم في عهدِ رسولِ الله ﷺ مَناخِل؟ قال: ما رأى رسولُ الله مُنخلاً من حين ابتَعثه الله تعالىٰ حتى قَبضه الله. قلتُ: كيف كنتم تَأكلون الشعير غير مَنْخول؟ قال: كُنّا نَطحنُه ونَنْفُخه فَيَطير ما طار وما بَقي ثَرَّيناه فأكلناه[١].

وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال: «شِرارُ أُمَّتي الذين وُلدوا في النَّعيم وغُذُوا بِهِ، إنما هِمَّتهم أَلوان الطَّعام، والثياب، ويتشدَّقون في الكلام».

وقد كان جمهور الزُّهاد يُخَشّنون مَطاعمهم إما للعادَة، وإما لأن أَبدانهم تَحتمل، وكان فيهم من لا يُطيقُ ذلك، وكان الثَّوري حسن المطعَم، وربما سافر وفي سُفْرتِه الحمَل المَشوي والفالوذَج. وفي الجملة فالزّاهد يَقصد ما يُصلحُ بَدَنه، ولا يُريد التَّنعم، إلا أن الأبدان تَختلف، فمنها ما لا يَحتمل التَّخَشُّنَ.

فصل

وقد يَدَّخِر الزّاهد الحَلال يَتقوَّته[٢]، فلا يُخرجه ذلك من الزُّهد، فقد كان السِّبْتي يَعمل من السَّبت إلى السَّبت ويَتقوَّته إلى السَّبت.

وَوَرِث داود الطائي عشرينَ ديناراً فأنفقها في عشرين سنةً.

وأما الثاني: وهو المَلبَسُ، فإن الزاهد يَقتصر فيه على ما يَدفعُ الحَرَّ والبَردَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤١٠) و(٥٤١٣)، وأحمد (٤/ ٢٢٨)، والترمذي (٢٣٦٤). والنَّقيُّ: الدقيق الأبيض وهو لُبابُ الدقيق، وثَرَّيناه: أي بللناه بالماء.

(٢) أي يتخذه قوتاً.

ويَستُر العورةَ، ولا بأس أن يكون فيه نَوع تَجمُّلٍ لئلا يُخرجه التَّقشُّف إلى الشُّهرة، وقد كان أكثر لباس السَّلَف خَشِناً، فصار لبس الخَشِن اليوم شُهرة، أخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا أيوب عن حُميد بن هلال عن أبي بُردَة قال: أَخرجَتْ إلينا عائشةُ كساءً مُلَبَّداً وإزاراً غَليظاً، فقالت: قُبِضَ رسولُ الله ﷺ في هذين. أخرجاه في الصَّحيحين[١].

أخبرنا علي بن عُبيد الله وإسماعيل بن أحمد قالا: أخبرنا ابن النَّقّور قال: أخبرنا عيسى بن علي قال: أخبرنا البَغَويّ قال: حدثنا نُعَيم بن الهَيصم قال: حدثنا جَعفربن سُليمان عن مالك بن دينار عن الحَسن قال: خَطبَ عمرُ الناسَ وهو خليفة وعليه إِزارٌ فيه اثنتا عَشرةَ رُقعة.

وقد قال عليٌّ رضي الله عنه لعمر: إن أردتَ أنْ تلحقَ صاحبيك فاقصر الأَمل، وكُلْ دونَ الشِّبَع، وارقَع القَميص، ونَكِّسِ الإزار، واخْصِفِ النَّعلَ تَلحقْ بهما.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يلبس ثوباً قد اشتراه بثلاثة دَراهم، واشترى مرةً ثوبَين غَليظين خَيَّر قَنْبَر[٢] أحدَهما، وعوتب في لباسه، فقال: هو أَدنى إلى التَّواضع وأَجدر أن يَحتَذي بي المُسلم.

وقيل لسلمان الفارسي: ما لكَ لا تَلبَس الجَيِّدَ من الثياب؟ فقال: ما للعبدِ وللثَّوبِ الحَسَن، فإذا أُعتق فله والله ثيابٌ لا تَبلى أبداً.

وقال رجاءُ بنُ حَيْوَة: كانَ عُمر بن عبد العزيز مِن أعطَرِ الناسِ، وألبَسِ الناس، وأَخيَلهم[٣] في مِشيته، فلما استُخلف قَوَّموا ثِيابَه باثني عَشَر درهم؛ كُمَّيه وَعِمامته، وقَميصه، وَقَبَاءَه[٤]، وقُرطَقه، وخُفَّيه، ورداءَه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠) (٣٥)، وأحمد (٢٤٠٣٧).

(٢) قَنْبَر: هو مولى لعليٍّ رضي الله عنه.

(٣) من الخُيَلاء: وهي التكبر والعُجب.

(٤) القَباء: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص.

وقال الحسن لفَرقد السَّبْخي: تَحسَبُ أنَّ لك فَضلاً على الناس بكسائك ؟ بلغني أنَّ أكثر أهل النار أصحابُ الأكْسِية.

وقال علي بن ثابت: رأيتُ سُفيان الثَّوري في طريق مكّة، فقوَّمتُ كلَّ شيءٍ عليه حتى نَعلَيه درهماً وأربعةَ دوانيق.

وقال مروان بن معاوية: رأيتُ على سُفيان إزاراً ما يُساوي درهماً ودانِقَين.

وقال يَحيى بن معين: رأيتُ أبا معاوية الأَسود وهو يَلتقط الخِرَقَ من المَزابل ويَغسلها ويُلفقها ويَلبسها، فقلت: إنك تُكسَى خيراً من هذا. فقال: ما ضَرَّهُم ما أصابهم في الدنيا، جَبَرَ اللهُ لهم بالجنَّة كلَّ مُصيبة.

أما الثالث: وهو المسكن، فللزاهد فيه ثلاث دَرجات:

أعلاها: أن لا يَطلب موضعاً خاصّاً لنفسه، بل يَقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصُّفَّة.

وأوسَطها: أن يطلب مَوضعاً خاصّاً لنفسه، مثل كوخٍ مَبني من سَعَفٍ وما يُشبهه.

وأدناها: أن يَطلب حُجرةً مبنيةً إما بشراءٍ أو إجارةٍ، ومتى طلب التَّشييدَ والسّعةَ وعُلوَّ السَّقف، فقد جاوزَ حَدَّ الزُّهد في المسكن.

وفي الجملة؛ كلّ ما يُراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حدَّ الضرورة، وقد تُوفّي رسول الله ﷺ ولم يَضَع لَبِنةً على لَبِنة.

وقال الحسن: كنتُ إذا دخلتُ بيوتَ رسولِ الله ﷺ نِلتُ السَّقفَ.

واتَّخذَ نوحٌ بيتاً من قَصَب، فقيل له: لو بَنَيتَ ؟ فقال: هذا كثير لمن يموت.

وروى خَبَّاب بن الأَرَت، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الرجلَ يُؤجَرُ في نَفقته كلّها إلا التُّراب».

وقال إبراهيمُ النَّخَعي: إذا كان البُنيان كَفافاً، فلاأَجْرَ ولا وِزْر.

وأما الرابع: وهو أثاثُ البَيت، فينبغي للزاهد أن يَقتصر فيه على الخَشِن، ويستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، فيأكل في القَصعة ويَشرب فيها، ومن خرجَ إلى

كَثرة العَدد في الآلةِ أو في نَفاسةِ الجِنس خرجَ عن الزُّهد.

ولِيُنظَر إلى سيرة الرسول ﷺ، ففي الصحيحين من حديث عائشةَ قالت: كانَ ضِجاعُ رسولِ الله ﷺ الذي يَنام عليه بالليل من أَدَم(١) مَحشواً ليفاً.

وفيهما من حديث عمر بن الخَطاب رضي الله عنه قال: «دخلتُ على رسولِ الله ﷺ، فوالله ما رأيتُ في البَيتِ شيئاً يَردُّ البصرَ غير أُهُبةٍ(٢) ثلاثةٍ، فقلت: أُدعُ اللهَ يا رسول الله أن يُوسِّع على أُمَّتكَ، فقد وَسَّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستَوى جالساً ثم قال: «أفي شَكٍ أنتَ يا ابنَ الخَطاب؟ أولئك قومٌ عُجِّلَت لهم طَيِّباتُهم في الحياة الدنيا».

ورواه مسلم فقال فيه: قال عمر: دخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مُضطجعٌ على حَصيرٍ، وإذا الحصير قد أثَّر في جَنْبيه، فنظرتُ في خزانةِ رسول الله ﷺ فإذا بقَبضَةٍ من شَعيرٍ نحو الصّاع، ومثلها قَرَظاً(٣) في ناحية الغُرفة، وإذا أَفيقٌ(٤) معلَّقٌ، فابتدرَتْ عَيناي، فقال: «ما يُبكيكَ يا ابنَ الخَطّاب»؟ قلتُ: يا نبيَّ الله، ما لي لا أبكي وهذا الحَصيرُ قد أثَّر في جَنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أَرى، وذاك قيصرُ وكِسرى في الثِّمار والأنهار، وأنتَ رسولُ الله وصَفوته؟ فقال: «يا ابنَ الخَطاب، ألا تَرضى أن تكونَ لنا الآخرة ولَهم الدنيا؟» قلتُ: بلى.

وقد روينا أن رسول الله ﷺ رأى سِتْراً على باب مَنزلِ عائشةَ فهتكه، وقال: «كلما رأيتُه ذكرتُ الدنيا، أرسلي به إلى فُلان».

وقال علي رضي الله عنه: لقد تزوجتُ فاطمةَ وما لي ولها فراش غير جلد كَبش كُنا نَنام عليه بالليل، ونعلفُ عليه النَّاضح بالنَّهار، وما لي خادمٌ غيرها، ولقد كانت تَعجن وإنَّ قصبتها لتَضرب حرفَ الجَفْنة من الجهد الذي بها.

---

(١) الأَدَم: الجلد المدبوغ.

(٢) الإهاب: جلد الحيوان.

(٣) القَرَظ: ورق شجرٍ يُصبَغُ به.

(٤) الأَفيقُ: الجِلد.

ودخل رجلٌ على أبي ذَر فجعلَ يُقلّب بَصره في بيته، فقال: يا أبا ذر ما أرى في بيتك متاعاً ولا أثاثاً. فقال: إنّ لنا بيتاً نوجّه إليه صالح مَتاعنا. فقال: إنه لا بدَّ لكَ من مَتاعٍ ما دمت ها هنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يَدعنا فيه.

ولما قدم عُمير بن سَعد على عُمر قال له: ما أرى معكَ شيئاً من الدنيا. فقال: مَعي عصايَ أتوكّأ عليها، وأقتل بها عدواً إن عَرض لي، ومعي جِرابي أحمل فيه طَعامي، وقَصْعتي آكُل فيها وأغسل رأسي وثَوبي، ومِطْهَرتي أحملُ فيها شَرابي ووضوئي، فهل الدنيا إلا تَبعٌ لمتاعي؟

وقال الحسن: أدركتُ أقواماً ما لأحدهم إلا ثَوبه، وما وضعَ بينه وبين الأرض ثوباً قط.

وأما الخامس: وهو المَنكِحَ، فقد كان جماعة يَقولون: لا معنى للزهد في أصلِ النكاح ولا في كَثرته، وإليه ذهب سَهلُ بن عبد الله، وقال: حُبِّبَ إلى رسول الله ﷺ النِّساء، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه مِن أزهدِ الصَّحابة، وكان له أربع نِسوةٍ وبضع عشرة سُرِّيةً.

وكان أبو سُليمان الداراني يقول: كل ما شَغلكَ عن الله من أهلٍ ومالٍ ووَلدٍ فهو مَشْؤومٌ عليكَ.

وكشفُ الغِطاء في هذا أن نقول: مَن غلبت عليه شَهوتُه وخافَ على نفسه تعيَّنَ عليه النِّكاح، فأما من لا يَخاف فهل النّكاح في حَقه أفضل أم التَّعبد؟

قال أكثر العلماء: النِّكاح أفضل. وقال الشّافعي: الاشتِغال بنَفلِ العبادات أفضل.

وعلى التَّحقيق، فالناس مختلفون؛ فمنهم مَن يقصد النِّكاح لطلب النَّسل، وإيجاد الموحدين، ويمكنه الكسبُ الحلال للعائلة، ولا يقدح ذلك في دينه ولا في شَتاتِ قلبه، بل يجمع النكاح هَمَّهُ ويكف بَصَره ويردُّ فِكرَه، فهذه غايةٌ في الفَضيلة وعليه يُحمل حالُ رسولِ الله ﷺ وعليٍّ بن أبي طالب ومن جرى مجراهما، ولا التفاتَ إلى قولِ من يَرى الزُّهدَ بترك الالتذاذِ بالنكاح؛ لأن ذلك يَقع ضمناً

وتبعاً، والمقصود غيره، ولا معنى للزهد فيه، وقد كان في السَّلَفِ من يختار المرأةَ الدُّون على المرأةِ الجميلة، وذلك محمولٌ منهم على أن تلك تكون إلى الدين أَمْيَل، والنفقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يَسير، بخلاف المستحسنة، فإنها تُشَتِّت قلبه وتشغله، وتريدُ زيادةً في النَّفقةِ وربما لم يُمكن، وقد قال مالك بنُ دينار: يَعمد أحدهم فَيتزوَّج ديباجةَ[1] الحَيِّ فتقول: أُريدُ مِرْطاً[2]، فتَمْرطُ[3] دينه. ويترك أن يتزوجها يتيمةً فيكسوها فيؤجر.

وخطب الإمام أحمد رحمه الله امرأةً، وكانت لها أختٌ عوراء، فأجابت، فقال للمرأة التي أرسَلها: سَمِعَتْ أُختها؟ فقالت: نعم. فقال: عودي فاخْطبي لي تلك.

ومن الناس مَن يشغله النكاح عن أداء الفرائض، ويحمله على تناول ما ليس له لأجل الكسب، فالورعُ في حق هذا إما التقليل من النكاح وإما تركُه إن قَدر.

وأمّا السادس: وهو المال، فهو ضروري في المعيشة، فالزّاهد يقتصر منه على ما يَدفعُ به الوقتَ، وكان حماد بن سَلمة إذا فَتحَ حانوتَه فكسبَ حبَّتين قامَ، وقد كان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العَفافَ، فلا يبالي قلَّ أو كثُرَ اشتغاله بها.

قال عمر بن الخطاب: لأَنْ أموتَ بين شُعبَتَي رحلي أَطلبُ كفافَ وَجهي أحبَّ إليَّ من أن أموتَ غازياً في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

وكان سعيد بن المُسيّب يَتَّجِرُ في الزَّيت وخلَّفَ أربع مئة دينار، وقال: إنما تركتُها لأصونَ بها عِرضي وديني.

وكان سُفيان يتَّجِرُ بمالٍ ويُقلِّبُ الدراهم ويقول: لولاكِ لحمدوني.

وأما السابع: وهو الجاه؛ فمعناه ملك القلوب ليتوصّل بها إلى الاستعانة على ما يريده من الأغراض، ودفع ما يؤذيه، فلا بدَّ له من جاهٍ حتى في قلب خادمه،

---

(١) ديباجة الحي: جميلة الحي وحَسناءَه.
(٢) المِرْط: كساء من صوفٍ أو خَز.
(٣) مَرَطَ: نَتف.

واشتغالُ الزاهد بالزهد يُمهِّدُ له محلاً في القلوب، فينبغي أن يَحذر من شرِّ ذلك.

وفي الجُملة؛ فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكم من حريصٍ على الدنيا قَيَّدتهُ بسلاسلها وأغلالها، فلو رام التخلّصَ لم يقدر، فهو كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقد وصف بعضُ الشعراء الحريصَ فقال:

كَدودٌ كَدُودِ القَزِّ يَنسُجُ دائماً ويهلك غَمّاً وَسْطَ ما هو ناسِجُه[1]

وقد كان كثيرٌ من السلف يُعرَّضُ لهم بالمالِ الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخافُ أن يُفسِدَ علينا ديننا.

بيان علامات الزُّهد

قَد يُظَنُّ أن تاركَ المال زاهد، وليس كذلك، فإن تركَ المال وإظهار التَّخَشُّن سهلٌ على من أحبَّ المدحَ بالزُّهد، وكم من راهبٍ قد لازمَ الدَّيرَ وقَلَّلَ المطعَمَ، وقَوّاهُ على ذلك حُبُّ المَحْمَدةِ، كما قد سبقَ ذكره في كتاب الرياء.

فلا بُدَّ من الزهد في فُضول المال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في حظوظ النَّفس، فإذن معرفة الزهد مُشكلٌ.

وقد قال ابنُ المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد.

وينبغي أن يُعَوَّلَ في هذا على علاماتٍ ثلاث:

الأولى: أن لا يَفرح بموجودٍ، ولا يَحزن على مفقود، كما قال تعالىٰ: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ [الحديد: ٢٣] وهذه علامة الزهد في المال.

---

(١) وقبله:

أَلم تَرَ أنَّ المرءَ طولَ حياته مُعَنًّى بأمرٍ لا يزالُ يُعالِجُه

والثانية: أن يَستوي عنده ذامُّه ومادِحه، وهذه علامة الزُّهد في الجاه.

والثالثة: أن يكون أُنْسُه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطّاعة، فأما محبة الدنيا ومحبة الله فهما في القلب، كالماء والهَواء في القَدح، إذا دخل الماءُ خرجَ الهواء فلا يجتمعان، وكلُّ مَن أَنِسَ بالله اشتغلَ به دون غيره، فأما الأُنسُ بالله والأُنس بالدنيا فلا يَجتمعان.

قيل لبعضهم: إلى ماذا أَفضى بهم الزهد ؟ قال: إلى الأُنسِ بالله.

فإذن علامة الزُّهد استواء الغِنى والفَقر، والعِزّ والذُّل، والمَدح والذَّم، وذلك لغلبة الأُنس بالله.

ويتفرّع من هذه العلامات علاماتٌ أخرى، مثل أن لا يُبالي مَن أَخَذَ الدنيا، قال سَرِيٌّ السَّقَطي: لا يَطيب عيشُ الزاهد إذا اشتغلَ عن نَفسه، ولا يطيب عيشُ العارف إذا اشتغل بنَفسِه.

وقال النَّصرآباذي[(١)]: الزاهدُ غريبٌ في الدنيا، والعارف غَريبٌ في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: الزاهد يُسْعِطُكَ[(٢)] الخَلَّ والخَردَلَ، والعارف يُشِمّكَ المِسكَ والعَنبر.

وقال أيضاً: الدنيا كالعَروس، ومن يَطلبها ماشِطَتُها، والزاهد يُسَخِّمُ[(٣)] وَجْهَهَا وينتف شَعرها ويحرق ثَوبها، والعارف مشتغلٌ بالله تعالىٰ عنها.

فهذا ما أردنا ذِكره من حقيقةِ الزّاهد وأ؛ كامه، وإذا كان الزُّهد لا يَتم إلا بالتَّوكُّل، فلنَشْرَع في بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

آخر كتاب الفقر والغنى

---

(١) النصرآباذي: هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد، شيخ خراسان في وقته، كان محدثاً، توفي بمكة المكرمة سنة ٣٦٧هـ.

(٢) السَّعوط: ما يُدخل في الأنف.

(٣) يُسَخِّم: يُسَوِّد.

كتاب التَّوحيد والتوكُّل

الحمدُ لله المُنزَّه عن الأَهل والقَبيل، المقدَّس عن المِثْلِ والعَديل، اختار العارِفين والعارفون قَليل، ودلَّهم عليه فتعلقوا بالدليل، وسكنت نُفوسهم عن مطلوباتها ثقةً بالكَفيل، فلهم على المسَبِّب لا على السَّببِ التَّعويل، فكم جَرَّهم سببٌ فما مالوا ولكن قالوا: حَسبنا الله ونعمَ الوكيل.

أحمده على ما يُعطي ويُنيل، وأوقِنُ بوحدانيّتِهِ عن أدلةٍ تَشفي الغَليل، وأُصلّي على رسوله محمدٍ المقدَّم على الكليم والخَليل، وعلى أصحابه وأتباعه على سواءِ السَّبيل، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإنّ التوكُّل مَنزلٌ من منازِلِ الدّين، ومقامٌ من مقامات الموقنين، بل هو من معالي دَرجات المقرَّبين، وهو في نفسه غامضٌ من حيث العلم، ثم هو شاقٌّ من حيث العَمل، ووَجهُ غموضه من حيث الفَهم أن الاعتمادَ على الأسباب شِركٌ في التَّوحيد، والتباعد عنها بالكُليّةِ قَدحٌ في الشَّرع، (١والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً١) تغييرٌ في وَجه العَقل.

وتحقيقُ معنى التوكُّل على وجهٍ يتوافق فيه مُقتضى التوحيد والعَقل والشَّرع في غايةِ الغموض، ولا يَقوى على كَشفه إلا أَقوياء العُلماء الذين شاهدوا الحقائق ثم أَخبروا عنها.

ونحنُ الآن نبتدىء بذِكر فَضيلة التوكّل، ثم نُردف ذلك بالتَّوحيد في الشَّطر الأول من الكِتاب، ونذكر حال التوكُّل وعمله في الشَّطر الثاني إن شاء الله تعالىٰ.

(١-١) في الأصل: «ومحو الأسباب أن ترى أسباباً»، والمثبت من الإحياء.

بيان فَضيلة التَّوكُّل

أما الآيات: فقد قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأعظِمْ بمقامٍ صاحبُهُ موسومٌ بمحبة الله تعالىٰ فَمَن اللهُ حَسبُهُ ومُحبُّهُ ومُراعيه فقد فازَ الفوزَ العظيم، فإن المحبوب لايُعذَّبُ ولا يُبعَدُ ولا يُحجَب، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] فطالبُ الكَفايةِ من غيره هو التاركُ للتوكُّل، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] أي: عزيزٌ لا يذلُّ من استجار بهِ، ولا يضيع من لاذَ بجنابهِ، وحكيم لا يقصر عن تدبير مَن توكَّل على تدبيره، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] فبيَّنَ أن كل ما سِوى الله عَبدٌ مُسَخَّرٌ حاجَتُه مثل حاجتكَ فكيفَ تتكِلُ عليه ؟ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧] وقال تعالىٰ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣]. وكل ما ذُكِرَ في القرآن من التَّوحيد فهو تَنبيهٌ على قَطع ملاحَظةِ الاعتبار، والتوكُّل على الواحد القَهّار.

وأما الأَخبار: فأخبرنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا سُرَيج قال: حدثنا هُشَيم قال: أخبرنا حُصَين بن عبد الرحمن عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَت عليَّ الأُمَم فرأيتُ النبيَّ ومَعه الرَّهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رُفِعَ إليَّ سوادٌ عظيمٌ فقلتُ: هذه أُمتي. فقيل: هذا موسى وقَومُه، ولكن انظُر إلى الأُفق، فإذا سوادٌ عظيم، ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب الآخر، فإذا سواد عظيم فقيل: هذه

أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ» ثم نهض النبي ﷺ فدخَل، فخاضَ القومُ في ذلك، فقالوا: مَن هؤلاء الذين يَدخلون الجنةَ بغير حسابٍ ولا عذاب؟ فقال بعضهم: لعلهم الذين صَحبوا النبي ﷺ. وقال بعضهم: فلعلّهم الذين وُلِدوا في الإسلام ولم يُشرِكوا بالله شيئاً قَطُّ، وذكروا أشياء فخرجَ إليهم النبي ﷺ فقال: «ما هذا الذي كُنتم تَخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يَكتَوون، ولا يَستَرْقون، ولا يَتَطيَّرون، وعلى رَبِّهم يتوكَّلون».. أخرجاه في الصحيحين[١].

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى الموصلي ونَصر بن أحمد بن البَطِر قالا: أخبرنا أبو الحُسَين بن بِشْران قال: حدثنا الحُسين بن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا مَهدي بن حَفص قال: حدثنا عَبدُ الله بن المبارك عن حَيوةَ بن شُرَيح عن بَكر بن عمرو المعافري عن عَبد الله بن هُبَيرة عن أبي تَميم الجَيشاني عن عمر بن الخَطاب قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكَّلتم على الله حقَّ توكُّله لرزقَكُم كما يَرزقُ الطَّير، تَغدو خماصاً وتروح بِطاناً»[٢].

قال القُرشي: وحدثنا محمد بن الربيع قال: حدثنا عبد الرحيم بن زَيد العَمّي عن أبيه عن مُحمد بن كعب القُرَظي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله»[٣].

قال القُرشي: حدَّثني علي بن إبراهيم اليَشْكُري قال: حدثنا يعقوب بن محمد الزهري قال: حدثنا حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن أبي حسين. كذا قال. عن عطاء بن يَسار عن سُهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرجَ من بيته قال: «بسم الله، ولا قوةَ إلا بالله، التُّكلانُ على الله»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤)، وأحمد (٢٤٤٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (٢)، والترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (١٠).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل (٢٤).

وروى أنس بن مالك قال: كان رسولُ الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهمَّ اجعَلني ممن توكَّل عليك فكفيتَه، واستَهداكَ فهَديتَهُ، واستَنْصركَ فنَصرتَه»[١].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك التوفيقَ لمحابِّكَ من الأعمال، وصدقَ التوكُّل عليك، وحُسْنَ الظَّنِّ بك»[٢].

ولما أُلقِيَ إبراهيم الخَليل في النار قال: حَسبي الله ونعم الوكيل. فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألكَ حاجة ؟ قال: أمّا إليكَ فلا، قال جبريل: فَسَلْ ربكَ. فقال: حَسبي من سُؤالي عِلمُه بحالي. فقال الله عز وجل: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وقال الحسن: العِزُّ والغِنى يَحولان في طلب التوكل، فإذا ظَفِرَ أيقن.

وجاء رجلٌ إلى وهب بن مُنبه فقال: عَلِّمني شيئاً ينفعني الله به. قال: أكثِر من ذِكر الموت، وأَقصِر أَمَلَكَ، وَخصلة ثالثة إن أنت أَصبتها بلغتَ الغاية القصوى وظَفِرتَ بالعبادة. قال: ما هي ؟ قال: التَّوكل.

وقال سَعيد بن جُبير: التوكُّل جِماع الإيمان.

وقال لُقمان لابنه: يا بُنَيَّ، الدنيا بحرٌ عميق قد غَرقَ فيه ناسٌ كثير، فإن استطعتَ أن تكون سفينتك فيها الإيمانُ بالله، وحَشْوها العَمل بطاعةِ الله، وشِراعُها التَّوكُّل على الله لعلك تَنجو.

قال أبو سليمان الداراني: إذا بلغَ غايةً من الزُّهد أخرجه ذلك إلى التَّوكل.

بَيانُ حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكّل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تَنْتَظِم إلا بعلمٍ وحالٍ وعَملٍ، والتوكل كذلك ينتظم من علمٍ هو الأصل، وعمل هو الثمرة، وحالٍ هو المُراد باسمِ التَّوكُّل.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل (٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل (٤).

فلنبدأ ببيان العلم الذي هو الأَصل، وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان، إذ الإيمان هو التَّصديقَ، وكل تَصديقٍ بالقلب فَهو علم، وإذا قَوِيَ سُمِّي يقيناً.

ولكن أبوابَ اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما يُبنىٰ عليه التوكّل، وهو التوحيد الذي يُترجمه قولك: لا إله إلا الله وَحده لا شريكَ له. والإيمان بالقُدرة التي يترجم عنها قولك: له الملكُ. والإيمانُ بالجود والحِكمة الذي يدل عليه قولك: وله الحمد.

والموحِّدون على أربع طَبقات:

الأولى: أن يَقولَ القائِلُ: لا إله إلا الله. وقلبه مُنكِرٌ لله أو غافلٌ عنه، فهذا تَوحيد المُنافقين.

والثانية: أن يُصدق قلبه بمعنى هذا اللَّفظ من غير معرفةِ دليلٍ كاعتقاد العامّة.

والثالثة: أن يُشاهد الأشياء المختلفة فيراها كلها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقرَّبين.

والرابعة: أن لا يَرىٰ في الوجود إلا واحداً، وهو مشاهدة الصِّديقين، وهذا الذي يُشيرونَ به إلى الفَناء في التوحيد؛ لأن صاحبه لا يرى إلا الواحد، فلا يرىٰ نفسه أيضاً.

وهذه الأحوال في ضَرب المثل كالجوزة فإنها في قِشرَتَين، ولها لُبٌّ، ولِلُّبِّ دُهنٌ، فالحالة الأولى كالقِشْرة الأعلى لا تَنفَع إنما تَصونُ ما تَحتها مُدّةً مديدة، فكذلك هذه اللفظة تَحفظ صاحبها إلى وقتِ الموت، والحالة الثانية لها نَفعٌ ولكن لا كنفعِ اللُّبِّ، واللُّبُّ له نفعٌ، ولكن خالَطَهُ الدُّهنُ.

فإن قيل: كيف يُتَصوَّر أن لا يرى الإنسان إلا الواحد القَهّار؟

فالجواب: إنه إذا انكشف للبصائر أنه لا فَاعل سِواه، لم يَنظر الإنسان إلى غيره؛ بل يكون منه الخوف، وله الرجاء، وبه الثِّقة، وعليه التوكل؛ لأنه الفاعل وحده والكل مسخرون، وإنما يصدك عن هذا التَّوحيد الشَّيطانُ في مقامين.

أحدهما: الالتفاتُ إلى الجمادات.

والثاني: الالتفاتُ إلى اختيار الحيوانات، فأما الالتفات إلى الجمادات؛ فكاعتمادِكَ على المَطَر في خروج الزَّرع وعلى الغَيم في نُزول المطر، وعلى الرّيح في سَير السَّفينة، وهذا كلُّه شِركٌ في التوحيد وجهلٌ لحقائق الأمور، ومَن انكشفت له الحقائق علمَ أنَّ الريح لا تَتحرَّكُ بنفسها ما لم تُحرك، وهكذا إلى أن يَنتهي إلى المحرك الأول الذي لا مُحرِّكَ له، ولا هو متحرك في نفسه، فالتفاتُ العبد في النَّجاة إلى الرّيح يُضاهي التفاتَ من أُخِذَ لتُحزَّ عُنقه فوقَّع الملك بالعَفْوِ عنه، فأخذ يَشتغل بذكرِ الحِبر والكاغَدِ والقَلم الذي به كُتب التوقيع، ويقول: لولا القلم ما تَخلَّصت. فيرىٰ تَخليتَهُ من القَلم لا من مُحرِّكِ القَلم، وهذا غاية الجهل، ومَن علم أنَّ القلمَ لا حُكمَ له في نَفسه شكرَ الكاتبَ، وكلُّ المخلوقات في قَهر تَسخِير الخالقِ كالقلم في يَدِ الكاتب، وهذا التمثيل تَقريبٌ إلى فهمك، أعني قولنا: إن الملك هو كاتب التَّوقيع، وإلا فالحق أنَّ الحق هو الكاتب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وإذا انكشفَ لك أن جميع ما في السماوات والأرض مُسخَّر على هذا الوجه، انصرف عنكَ الشَّيطان خائباً ويَئِسَ من مَزْجِ تَوحيدِكَ بهذا السُّلوك، فيأتيكَ في المَهْلكة.

والثاني: وهو الالتفات إلى اختيار الحَيوانات في الأفعال الاختيارية، فنقول: كيف تَرى الكل من الله وهذا الإنسان يُعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاكَ، وإن شاء قطع عنك، وهذا الشَّخص هو الذي يَحُزُّ عنقَكَ بسيفه، وهو قادر عليك، فإن شاء حَزَّ؟.

فالجواب: إن هذا الفاعل مسخَّر أيضاً، وإنما قَصُرت الأفهام فوقَفتْ مع الأسباب، وما من ذرةٍ من الموجودات إلا وهي تُناجي بأسرار الملك، مثاله أن قائلاً قال للكاغَد وقد رآه مُسوَداً بالحبر: ما بالُ وَجهكَ كان أبيضَ مشرقاً فاسودَّ ؟ فقال الكاغَد: أنا ما فعلتُ هذا بنفسي ولكن سالَ الحِبرُ فإنه كان مُستقراً في وَطنٍ فسافر عن وَطنه ونزلَ بساحةِ وجهي. فسأل الحِبرَ، فقال: إني كنتُ في المحبَرة وادعاً فاعتدى عليَّ القلمُ فاختَطَفني وبدَّدني على هذه الساحة البيضاء. فسألَ القلم عن

فعلته، فقال: سَل اليَد والأَصابعَ، فإني كنتُ قَصباً نابتاً على شواطىء الأَنهار، فجاءتني اليَد بسكّينٍ فاقتلعتني من أصلي وأزالت قِشْري ومزَّقَت عني ثيابي وفصلت بين أنابيبي، ثم بَرَتْني وشَقَّت رأسي ثم غَمَستني في سَواد الحِبر، وهي تَستَخدمني، وتُمشّيني على قِمة رأسي فَسل من قَهرني. فسأَلَ اليدَ على تَعدّيها على القلم واستخدامها له، فقالت: ما أنا إلا لحمٌ وعظمٌ ودمٌ، وهل رأيتَ لحماً يَظلم أو جسماً يتحرّك بنفسه، إنما أنا مَركبٌ مسخَّر ركبني فارسٌ يُقال له القُدرة والقُوة، وهي التي تُردّدني وتجول بي في الأرض، أما ترى المَدَر والحَجَر لا يتعدّى مكانه إذا لم يَركبه مثل هذا الفارس القَوي، فسل القُدرةَ عن شأني. فسأَلَ القُدرةَ عن شأنها في استخدام اليَدِ، فقالت: إني كنتُ ساكنة فجاءتني الإرادةُ فحركتني. فسأَلَ الإرادةَ: ما الذي جَرّأَكِ على هذه القُدرة الساكنة حتى صَرَفْتها إلى التَّحرك؟ فقالت الإرادة: إني ما انتهضتُ بنفسي ولكني أُنهِضتُ، وما انبَعثت ولكني بُعثت بحكم قاهرٍ وأمرٍ جازمٍ وكنتُ ساكنة قبل مجيئه، ولكن وَردَ عليَّ من حَضرة القَلب رسولُ العِلم على لسانِ العَقْلِ بالإشْخاص للقُدرَةِ فأَشْخَصتها باضطرارٍ، وأنا مُسخَّرةٌ تحتَ قَهرِ العِلم والعَقل، ولا أدري بأي جُرمٍ سُخِّرتُ لها. فأقبلَ على العَقل والعلم والقلبِ مُعاتباً لهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لإشْخاصِ القُدرة. فقال العقلُ: أما أنا فَسِراجٌ ما اشتَعلتُ بنفسي، ولكني أُشعِلتُ. وقال القلبُ: أما أنا فَلوحٌ ما انبسطتُ بنفسي ولكني بُسِطتُ. وقال العلم: إما أنا فنَقْشٌ في بياضِ لوح القَلب وما انْخَطَطتُ بنفسي، وكم قد كان هذا اللّوح قبلي خالياً عني، فسل القَلم عني فإن الخَطَّ لا يكون إلا بالقلم.

فتحيَّر السائلُ وقال: قد طالَ تَعبي في هذه الطريق، وكَثُرت منازلي، ولا يزال يُحيلُني مَن طمعتُ في معرفة هذا الأمر منه على غيره، ولكني قد كنتُ أَطيبُ نَفساً بكثرةِ التَّرداد لما كنتُ أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعُذراً ظاهراً في دفع السؤال، فأما قولك: إني خَطٌّ ونَقشٌ، وإنما خَطَّني قَلمٌ. فلستُ أفهمه؛ لأني لا أعلمُ قلماً إلا من قَصَب، ولا لوحاً إلا من عَظم أو خَشَب، ولا خَطّاً إلا بالحِبر، ولا سِراجاً إلا من نار، وإني لأسمع في هذا المَنزل حديث اللّوح والسِّراج والخَطّ والقَلم

ولا أُشاهد من ذلك شيئاً، فكأنني أسمع جَعْجَعةً ولا أرى طِحْناً[١].

فقال له العِلم: إن صدقتَ فيما قلتَ فبضاعتُكَ مُزْجاة[٢]، وزادُكَ قَليل، ومركبك ضَعيف، واعلم أن المهالِكَ في الطريق التي توجَّهتَ إليها كثيرة، فالصوابُ لكَ أن تنصرف وتَدع ما أنتَ فيه، فما هذا بعُشِّكَ فادْرُجْ عنه، وإن كنتَ راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد، فألقِ سَمْعكَ وأنت شهيد.

واعلم أنَّ العوالم في طريقك هذه ثلاثة:

عالم المُلكِ والشهادةِ أوّلُها، ولقد كان الكاغَدُ والحِبر والقَلَمُ واليَدُ في هذا العالم، وقد جاوَزتَ تلك المنازل.

والثاني: عالم المَلكوت، وهو ورائي، فإذا جاوَزتَني انتهيتَ إلى منازله، وفيها المَهامِهُ[٣] الفِيحُ[٤] والجبال الشَّواهق والبحار المفرقة، ولا أدري كيف تَسلم فيها.

والثالث: عالم الجَبروت، وهو بين عالم المُلك وعالم المَلكوت، ولقد قطعت منه ثلاثة منازل إذ في أوله منزل القُدرة والإرادة والعلم، وهو واسطة بين عالم المُلك والملكوت؛ لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم الملكوت أوعر منه مَنهجاً، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يُشبه السَّفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء، فلا هي في حَدِّ اضطراب الماء، ولا هي في حد سكون الأرض وثَباتها، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشَّهادة فإن جاوزَت قُوَّتُه إلى حَدٍّ يَقوَى على ركوب السَّفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت، فانصَرِفْ فقد جاوزتَ الأرضَ وخلَّفت السَّفينة ولم يبقَ بين يديك إلا الماء الصافي.

وأول عالم الملكوت مُشاهَدَةُ القَلم الذي يُكتب به العلم، وحصول اليقين الذي

---

(١) الجَعجعةُ: صوت الرحى، والطِّحْنُ بالكسر: اسمٌ بمعنى المطحون.

(٢) مُزجاة: قليلة.

(٣) المَهامِه: جمع مَهمَه، وهي المفازة البعيدة.

(٤) الفِيح: جمع أفيح، وهو الواسع.

يمشي به على الماء، أما سمعتَ قول رسول الله ﷺ لما قيل: إن عيسى كان يمشي على الماء فقال: «لو ازدادَ يقيناً لمشى على الهَواء».

فقال السالك السائِر: قد تحيَّرتُ في أمري، واستشعر قلبي خَوفاً مما وصفته من خَطر الطريق، ولستُ أدري أطيق قطع هذه المَهامِه التي وصفتَها أم لا؟ فهل لذلك علامة؟

فقال: نعم، افتَح بصرك واجمعْ ضَوءَ عينيك وحَدِّقهُ نَحوي، فإن ظهر لك القلمُ الذي به أكتَتِب في لَوح القلب، فيشبه أن تكونَ أهلاً لتِلك الطريق. فقال: لقد فتحتُ بَصري وحدَّقته فما أرى قَصَباً ولا خَشباً، ولا أعلم قَلماً إلا كذلك. فقال العلم: لقد أبعدتَ النُّجَعَة[1]، أما علمت أنّ ذات الإله لا تُشبه الذوات، فكذلك يده لا تشبه الأَيدي وقَلَمه ولَوحه.

فلما استشعر السالكُ قُصور نَفسه ويرى نَفسه بعينِ النَّقص قال له العلم: اغتنم الآن هذه الفُرصة وافتح بَصرك لعلَّكَ تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشفَ له القلم الإلهي، فإذا به ليس من خشب ولا قَصَب، يكتب على الدَّوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم فقضى منه العجب، وقال: نعم الرفيق العلم جزاه الله خيراً، فعند ذلك ودَّع العلم وشَكره، وقال: قد طال مقامي عندك ومُرادَّتي لك، وأنا عازمٌ على السَّفر إلى حَضرة القلم فأسأله عن شأنه، فسار إليه وقال: أيها القَلَم، ما بالك تَخطُّ على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى إشْخاص القُدرة وصَرفها في المَقدورات؟ فقال: لقد نسيت ما رأيتَ في عالم المُلك والشَّهادة وسمعتَه من جواب القَلم إذ سألتَه فأحالك إلى اليد. فقال: لم أَنْسَ ذلك. قال: فجوابي مثل جوابه. قال: وكيفَ وأنت لا تُشبهه؟ فقال القلم: أما سمعتَ أن الله خلق آدم على صورته؟ قال: بلى، قال: فَسَل عن شَأْني اليد التي لا كالأَيدي. فقالت: جَوابي ما سمعتَه من اليمين التي رأيتَها في عالم الشَّهادة، وهو الحَوالة على القُدرة؛ لأنها هي التي تُحرك، فسار إلى القُدرة فسألها فقالت: إنما أنا صفته، فهو

(١) يقال: نَجعَ القوم وانتجعوا: إذا ذهبوا لطلبِ الكلأ في موضعه، ثم كثر استعماله في كل طلب.

القادِر، فنودي من وراء سُرادقات الحَضرة ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فخرَّ صَعِقاً يضطربُ في غشيته مدةً، فلما أفاقَ قال: سُبحانك، تُبتُ إليكَ، وتوكَّلتُ عليكَ، فلا أخافُ غيرك، ولا أرجو سواكَ، ومالي إلا أن أتضرَّعَ إليكَ، فأقول: اشرح صَدري لأعرفك، واحْلُلْ عقدةً من لساني لأُثني عليك. فنودي من وراء الحجاب: إياكَ أن تطمعَ في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء، فارجع إليه، فما آتاكَ فَخُذه، وما نهاكَ عنه فانتَهِ، وما قاله فقُله، فإنه ما زاد في هذه الحَضْرة على أن قال: «سبحانك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أَثنيتَ على نَفسِك».

فقال: إلهي إن لم يكن للِّسان جرأة على الثَّناء عليك فهل القلب مطمعٌ في معرفتك؟ فنودي: إياكَ أن تَتخطّى رقابَ الصدِّيقين، فارجع إلى الصِّديق الأكبر فاقْتَدِ به، فإنه قد قال: سبحانَ من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته. فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنك عاجزٌ عن ملاحظة جَمالنا وجَلالنا.

فعند ذلك رجع السالك مُعتذراً عن أسئلته وقال لليمين والقَلمِ والعِلم والإرادة والقُدرة: اقبَلوا عُذْري، فإني قد كنتُ غريباً حديثَ عهدٍ بالدخول إلى هذه البلاد، ولكل داخلٍ دهشة، فما كان إنكاري عليكم قصورٌ وجهلٌ، والآن فقد صَحَّ عندي عُذْرُكم وانكشَف لي أن المتفرد بالملك والملكوت والعِزّة والجَبَروت هو الواحد القَهّار، فما أنتم إلا مُسخَّرون تحتَ قَهْرِه وقُدرَته، في قَبضته وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

فلما ذكر ذلك في عالم الشّهادة استُبعِدَ ذلكَ منه وقيل له: كيفَ يكون هو الأول والآخِر وهما صفتان مُتناقِضتان؟

فقال: هو الأول بالإضافة إلى الوجود إذا صدر منه الكل على تَرتيبه واحداً بعد واحدٍ، وهو الآخر بالإضافة إلى سير المسافرين إليه، فإنهم لا يَزالون مُترقِّين من منزلٍ إلى منزلٍ إلى أن يقع الانتِهاءُ إلى تلكَ الحَضرة، فيكون ذلك آخر السَّفَر، فهو آخِرٌ في المشاهدة أوّلٌ في الوجود، وهو باطن بالإضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة، الطالبين إدراكه بالحواس، ظاهر بالإضافة إلى من يَطلبه في السِّراج الذي أُشعل في قلبه بالبَصيرة الباطنة النافذة في عالم المَلكوت، فهذه طريق من انكشف له أن الفاعل واحد.

فإن قيل: فما تَقول فيمن لا يَفهم هذا المَشروح؟

فالجواب: إن الجاحد لا علاجَ له إلا أن يُقالَ له: إنكارك لعالم المَلكوت كإنكار من أنكر عالم الجَبَروت، فإن أقواماً حصروا العلوم في الحواس الخَمس، وأنكروا الإرادةَ والقدرةَ والعلم؛ لأنها لا تُدرَك بالحواس الخمس، ولازَموا حَضيضَ عالم الشهادة، وقد أنكرتِ السوفسطائية[١] الحواسَّ الخَمس، وقالوا: لا نَثقُ بما نَراه، فلعلنا نراه في المنام، وهؤلاء كلهم مَرْضَى فاسِدو الأَمزجة، فأما الصحيح المِزاج فإنه يَفهم، ونضرب له الأمثال بالمُحسِّ، ونقرأ عليه: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفَسَدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ليعتقد ذلك فينفعه اعتِقادُه وإن لم يَسلك الطريق، فأما إذا سَلكه فإنه يكونُ على ثِقة، ومَثَلُ المعتَقدِ من غير سلوكٍ مع المُعتَقِدِ السالك، كمَثل سَحَرةِ فرعون مع أصحاب السّامِري، فإن سَحَرةَ فرعون مُطَّلعين على مُنتهى تأثيرِ السِّحر لطول مُشاهدتهم وتجربتهم، فَرأَوا من موسى ما جاوَز حُدودالسِّحر فانكشفت لهم حقيقة الأمر، فَلم يَكترثوا بقولِ فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ [طه: ٧١] بل قالوا: ﴿لن نُؤثرك على ما جاءنا من البَيّنات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض﴾ [طه: ٧٢]، فإنّ البيان والكَشفَ يمنع التَّغير، وأما أصحابُ السّامِري فإنه لما كان إيمانُهم عن النَّظر إلى ظاهِر الثعبان[٢] فلما نظروا إلى عجلِ السّامري تغيَّروا وسَمعوا قولَه: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] ونسوا أنه لا يَرجعُ إليهم قولاً ولا يَملك لهم ضراً ولا نَفْعاً، فكلُّ من آمن بالنَّظر إلى ثُعبانٍ يكفر إذا نظر إلى عجلٍ؛ لأنهما كِلاهما من عالم الشَّهادة، والاختلاف والتَّضاد في عالم الشَّهادة كثير، وأما عالم الملكوت فلا تَجد فيه اختلافاً أصلاً.

فإن قيل: قد بان بما ذكرتُم أن الوسائِط والأسباب مُسخَّرات، وكل ذلك ظاهر إلا في حركاتِ الإنسان، فإنه يتحرك إذا شاءَ، ويسكُن إذا شاء، فكيف يكون مُسَخراً؟

(١) السوفسطائية: هم طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء، ويزعمون أنه ليس هناك ماهيات مختلفة وحقائق متمايزة، فضلاً عن اتصافها بالوجود، بل كلها أوهام لا أصل لها، وسوفسطا: كلمة يونانية معناها: طالب الحكمة.

(٢) يعني الثعبان الذي انقلبت إليه عصا موسى عليه السلام.

فالجواب: إنه لو كان يَشاءُ إذا شاءَ، ولا يشاءُ إن لم يُرِدْ، لكانَ هذا مزلَّة القَدَم، ولكنه يَشاءُ، شاءَ أمْ لم يَشأْ، فليست المشيئةُ إليه إذ لو كانت المشيئةُ إليه لافتقرت إلى مَشيئةٍ أخرى وتتسلسل إلى غير نهاية، وإذا لم تكن المشيئةُ إليه فمهما وجدت المشيئة التي تَصرف القدرة إلى مقدورها انصرفَت القُدرة لا مَحالةَ، ولم يكن لها سبيل إلى المُخالَفة، فالحركَةُ لازمةٌ ضرورة بالقُدرة، والقُدرة محركة ضرورة عند انجزام المشيئة والمشيئة تحدث ضرورة في القلب، فهذه ضروريات تَرتَّبَ بعضُها على بَعض، وليس للعبدِ أن يدفع وجود المشيئة، ولا انصرافَ القُدرة إلى المَقدور بعدها، ولا وجود الحركة بعد بَعثِ المشيئة للقُدرة فهو مضطر في الجميع.

فإن قيل: فهذا جَبرٌ مَحضٌ، والجبر يُناقض الاختيار، وأنتَ لا تُنكر الاختيار، فكيف تكون مُختاراً مُجبَراً؟

فالجواب: إنه لو انكشفَ لك الغِطاء لعرفتَ أنه في عين الاختيار مجبورٌ لما بينا من أنه يحرِّك مَتى يَشاء فَيَفعل.

فإن قيل: هذا فِعلُنا أو فعلُ اللهِ سُبحانه؟

فالجواب: إنه فعلنا من جهةٍ وفعل الله تعالى من جِهةٍ، كما يُقال: قَتلَ الأميرُ فلاناً. وإن لم يُباشِر القتل، فمعنى كون الله تعالى فاعلاً أنه المخترع الموجِد، ومعنى كون العَبد فاعلاً أنه المحلّ الذي خُلقت فيه القُدرة بعد أن خَلق الله تعالى فيه الإرادة بعد أن خُلق فيه العلم، فارتَبطت الإرادةُ بالقُدرة والحركة بالقدرة ارتباط الشَّرط بالمشروط، وارتبط بقُدرة الله ارتباطَ المعلول بالعلّة، وقد نسب الله تعالى الأفعال تارةً إلى الملائكة، وتارةً إلى العباد وتارةً إليه، لما ذكرنا من المعنى، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٩١] وقال: ﴿يعذبهم الله بأيديكم﴾ [التوبة: ١٤]، وقال: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ [الأنفال: ١٧]، وقال: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧]، فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقّق الذي عرفَ الحقّ لأهله، وكل من أضافه إلى غَيره فهو المُتجوِّز المُستَعير في كلامه.

فإن قيل: فإذا كان الكلُّ منه فما معنى الثَّواب والعقاب والغَضَب والرضا؟ وكيفَ غضب على فعلِ نفسه؟

فقد أجبنا عن هذا في كتاب الشُّكر فلا نعيده.

فهذا القَدر الذي رأينا الرَّمزَ إليه من التَّوحيد الذي يورثُ حالَ التوكّل، ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحِكمة، فإن التوحيد يورث النَّظر إلى مُسَبِّبِ الأسباب والإيمانُ بالرحمة وسعتها هو الذي يُورِثُ الثِّقةَ بمسبِّب الأسباب، ولا يتم حال التَّوكل كما سيأتي إلا بالثِّقة بالتوكل وطمأنينة القلب إلى حسن نَظر الكفيل، وهذا الإيمان باب مُهم من أبواب الإيمان، وحاصله أن يُصدّق تصديقاً يقيناً لا رَيب فيه أن الله عز وجل لو خلقَ الخلائق كلهم على عَقْلِ أَعْقَلِهم وعلمِ أعلمِهم، وخَلق لهم من العِلم ما تَحتمله نُفوسهم، وأفاض عليهم من الحِكمة ما لا مُنتهى لوَصفه، ثم زاد مثل عدد جميعهم عِلماً وحكمةً وعقلاً، ثم كشف لهم عن عَواقب الأمور وأطلعهم على أسرار المَلكوت، وعرَّفهم دقائقَ اللُّطف وخَفايا العقوبات حتى اطّلعوا به على الخَير والشَّر والنَّفع والضُّر، ثم أمرهم أن يُدبروا المُلك والمَلكوتَ بما أُعطوا من العلوم والحِكَم، لما اقتضى تَدبير جميعهم مع التَّعاون والتَّظاهُر عليه أن يُزادَ فيما دبَّر الله عزَّ وجل الخَلق به في الدنيا والآخرة جَناحُ بعوضةٍ، ولا أن ينقص منه جناح بعوضة، ولا أن يرفع ذرة، ولا أن يخفض ذَرَّة، ولا أن يدفع مَرضاً عن مَريضٍ أو ضراً على من بُلي به، ولا أن يُنزَلَ كمالٌ عمَّن أُنعم عليه به، بل كل ما قدَّره الله عز وجل عدلٌ مَحضٌ وحقٌّ صرف على الترتيب الواجب كما ينبغي، ولو كان يصلح غير هذا الترتيب فلم يفعله كان بُخلاً يُناقِضُ الجودَ وظلماً يُناقض العدَل، تعالى عن ذلك، بل كل فقر وضُر في الدنيا فهو نُقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة، وكل نَقصٍ في الآخرة بالإضافة إلى شَخصٍ فهو نَعيمٌ بالإضافة إلى غَيره، ولولا النار ما عَرفَ أهلُ الجنة قدرَ النِّعمة، كما أن فِداء أرواح الإنسِ بأرواح البَهائم وتَسليها على ذَبْحها ليس بظُلم، بل تَقديم الكامل على النّاقص عينُ العَدل، فكذلك تَفخيم نعيم أهل الجِنان بتعظيم عُقوبة أهل النِّيران، وفِداءُ أهلِ الإيمان بأهل الكُفران عَينُ العدل، وما لم يُخلَق الناقص لا يُعرف الكاملُ، ولولا خَلق البهائم لم يَظهر

شَرفُ الإنس، فإن الكمال والنقص يظهر بالإضافة فمُقتضى الجود والحِكمة خَلقُ الكامل والنّاقص، وكما أن قَطعَ اليَد إذا تأكّلت إبقاءً على الروح عدلٌ، لأنه فداء كامل بناقصٍ، فكذلك الأمر في التّفاوت الذي بين الخَلق في القِسمة في الدنيا والآخرة، فكل ذلك عدلٌ لا جَوْرَ فيه، وحَقٌّ لا لَعِبَ فيه، وهذا بَحْرٌ آخر عظيم واسعُ الأطراف مُضطربُ الأمواج قَريب في السَّعةِ من بَحرِ التَّوحيد، قد غرق فيه خَلقٌ من القاصرين، ولم يَعلموا أن ذلك غامضٌ لا يعقله إلا العالمون، ووراء هذا البحر من القَدَر الذي تحيَّر فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سرّه المكاشفون.

والحاصلُ: أن الخيرَ والشَّرَّ مَقْضيٌّ به، وقد صار ما قَضى واجبُ الحصول بعد سَبق المشيئة، فلا رادَّ لحُكمِهِ، ولا مُعقِّبَ لقَضائِه.

* * *

الشَّطر الثاني من الكتاب
في أحوال التَّوكل وأَعماله

وفيه بَيان حال التَّوكل، وبيان ما قالوه في حَدِّ التَّوكل، وبيان التوكّل في الكسب للمنفرد والمُعيل، وبيان التوكّل بتركِ الادّخار، وبيان التوكّل في دَفع المضارِّ، وبيان التوكُّل في إزالة الضَّرر بالتداوي وغيره.

بيان حال التَّوكل

قد ذَكرنا أن مقام التوكّل ينتظم من علمٍ وحالٍ وعملٍ، وذكرنا العلم.

فأما الحالُ: فالتوكل بالتَّحقيق عبارة عنه: وإنما العلمُ أصلُه، والعملُ ثمرته، وقد أكثر الخائِضون في بَيان حدِّ التوكل، وقال كل واحدٍ عن مَقام نفسه وأخبر عن حاله، ولا فائدة في الإكثار بذكر ذلك، فلنكشف الغِطاء عنه، فنقول:

التوكُّل من الوكالة، يقال: وَكَلَ فلانٌ أمرَه إلى فُلانٍ أي فَوَّضَه إليه، واعتمد فيه عليه، ويُسمَّى المَوكول إليه وكيلاً، ويُسمّى المُفَوِّضُ إليه مُتَّكلاً ومُتوكّلاً عليه مهما اطمأنَّت نفسه إليه وَوَثِقَ به ولم يتَّهِمه فيه بتقصيرٍ، ولم يعتقد فيه عجزاً وقُصوراً.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده، ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً، فنقول: من ادّعى عليه دعوى باطلة بتلبيس، فوكَّل للخصومة من يَكشفُ ذلك التلبيس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثق القلب مُطمئن النفس إليه إلا إذا اعتقدَ فيه أربعةَ أشياء: مُنتهى الهداية، ومُنتهى القُوة، ومنتهى الفَصاحة، ومنتهى الشَّفَقة.

فأما الهداية، فليَعرف بها مواقع التَّلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحِيَل شيء أصلاً.

وأما القُدرة والقوة فَليجترِىء على التَّصريح بالحقِّ ولا يداهن ولا يخاف

ولا يجبن ولا يستحيي، فإنه ربما يَطَّلع على تلبيسِ خصمه فيمنعه الخَوف أو الجُبن أو الحياء أو غير ذلك من الصوارف المُضعِفة للقلب عن التَّصريح به.

وأما الفَصاحةُ فهي أيضاً من القدرة، إلا أنها قدرة في اللِّسان على الإفصاح عن كُلِّ ما اسْتَجْرأَ القلبُ عليه وأشار إليه، فليس كل عالمٍ بمواقع التَّلبيس قادراً على حَلِّ عقدة التلبيس بلسانه.

أما منتهى الشَّفقة، فليكون باعثاً على بَذل كل ما يقدر عليه من المجهود في حقِّه، فإن قدرته لا تُغني دون العناية به إذا كان لا يُهمه أمره ولا يبالي به ظَفِر بخصمه أو لم يَظفر، هلك حَقُّه أو لم يهلك.

فإن كان شاكّاً في هذه الأربعة أو في واحدٍ منها أو جوَّز أن يكون خَصمه أكمل في هذه الأربعة منه، لم تطمئن نفسه إلى وكيله، بل يبقى مُنزعج القَلبِ مُستغرق الهَمِّ بالحيلة والتَّدبير، ليدفع ما يَحذره من قُصُور وَكيله وسَطوة خَصمه، ويكون تَفاوت أحواله في شدّة الثِّقة والطمأنينة بحسب تَفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه، فإن الاعتقادات والظُّنون تتفاوت في القوة والضعف تفاوتاً لا ينحصر فلا جرم تَتفاوت أحوال المتوكل في قُوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا يَنْحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضَعْف فيه، كما لو كان الوكيل والد الموكِّل، فإنه يحصل له يقينٌ بمُنتهى الشَّفقة والعناية، فتصير خصلة من الأربع قَطعية، وكذلك سائر الخِصال يُتصور أن يَحصل القَطع بها، وذلك بطول الممارسة والتجربة واتصال الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقواهم جَناناً وأَقدرهم على نُصْرة الحق.

فإذا عرفتَ التوكل في هذا المثال، فَقِس عليه التوكل على الله عزَّ وجل، فإذا ثبتَ في نفسك أنه لا فاعل إلا الله، وسبق واعتقدت مع ذلك تمام العِلم والقدرة والرحمة وأنه ليس وراء قُدرتهِ قُدرة، ولا وراء علمه علم ولا وراء رحمته رحمة اتَّكل قَلبُكَ عليه وَحده لا مَحالة، ولم تَلتفت إلى غيره بوجهٍ، ولا إلى نفسك وحَولكَ وقوتكَ، فإن كنتَ لا تجدُ هذه الحالةَ من نفسك فسببه أحد أمرين: إما ضَعف اليقين بأحدِ هذه الخصالِ الأربع، وإما ضَعْفُ القلب ومرضه باستيلاء الجُبنِ عليه وانزعاجه بسببِ الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قَد ينزعج تَبعاً للوهمِ وطاعةً

له من غير نُقصان في اليقين، وإنَّ من كان يَتناول عَسَلاً فشبه بين يديه بالعَذِرَة ربما نَفَرَ طبعُه عنه وتَعذَّر عليه تَناوله، ولو كُلِّفَ العاقلُ أن يبيتَ مع الميت في قبرٍ أو فراشٍ أو بيتٍ نَفر طبعُه من ذلك، وإن كان مُتيقّناً كونه مَيتاً جماداً في الحال، وأن سنة الله مُطَّردة بأنه لا يُحييه الآن وإن كان قادراً عليه، ومع هذا اليقين يَنفر طبعه عن مُضاجَعةِ الميت والمبيت معه في بَيتٍ، ولا ينفِر عن سائرِ الجَمادات، وذلك جبنٌ في القَلب، وهو نوع ضَعْفٍ قَلَّ ما يخلو الإنسان عن شَيءٍ منه وإن قلَّ، وقد يَقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غَلق الباب وإحكامه.

فإذن لا يتم التوكُّل إلا بقوة القَلب وقوة اليقين جميعاً، إذ بهما يحصل سُكون القَلب وطمأنينته، فالسكون في القَلب شيءٌ، واليقين شيءٌ آخر، فكم من يَقينٍ لا طمأنينةَ معه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فالتمسَ أن يُشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت في خياله، فإن النَّفس تتبع الخَيال وتطمئن به، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره، وكم من مُطمئن لا يقين له، فإن اليهودي مُطمئن إلى تَهوُّدِه، فلا يقين له، وإنما يتبع الظنَّ، فإذن الجُبن والجراءة غرائز، ولا يقع اليقين معها، فهي أحد الأسباب التي تُضادّ حال التَّوكل، كما أن ضَعْفَ اليقين بالخِصال الأربع أحد الأسباب، فإذا اجتمعت هذه الأسباب حَصَلت الثِّقة بالله، وفي التوراة مَكتوب: مَلعونٌ من ثِقَتُه إنسانٌ مثلُه.

وإذا انكشفَ معنى التَّوكل وعلمتَ الحالة التي تسمى توكلاً، فاعلم أنّ تلك الحالة لها في القوة والضَّعْف ثَلاث درجات:

الدرجة الأولى: ما ذكرناه؛ وهو أن يكون حالُه في حقِّ الله والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثِّقة بالوكيل.

الثانية: وهي أقوى؛ أن يكون حاله مع الله كحالةِ الطِّفل مع أمه، فإنه لا يَعرف غيرها، ولا يَفزع إلى أحدٍ سواها، ولا يَعتمدُ إلا إياها، فإذا رآها تعلق بها فإن نابَه أمر كان أول خاطرٍ يخطر على قَلبه أمُّه، وأول سابقٍ إلى لسانِه: يا أُمّاه. وقد وَثَقَ بكفالتها وكفايتها وشَفقتها ثقةً ليست خالية عن نوع إدراكٍ بالتمييز الذي له، لكنه لو طولب بتَفصيل هذه الحال لم يَقدر على تلقين لَفظِه مفصَّلاً في ذهنه ولكن كل ذلك

وراءَ الإدراك، فمن كان بالُه إلى الله، ونَظره إليه، واعتماده عليه كَلِفَ به كما يكلف الصبي بأمّه، فيكون متوكلاً حقاً، فإن الطّفل متوكل على أُمّه، والفرقُ بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل قد فني في تَوكُّله عن توكُّله، إذ ليس يلتفتُ قلبهُ إلى التوكل وحقيقته بل إلى المتوكِّل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكَّل عليه وَحده وأما الأول فيتوكَّل بالتكلُّف والكَسب، وليس فانياً عن توكُّله، بل له التفاتٌ إلى توكله وشعورٌ به، وذلك شُغلٌ صارفٌ عن مُلاحظة المتوكَّل عليه وَحده.

والثالثة: وهي أعلاها: أن يكون بين يَدي الله مثل الميت بين يَدي الغاسل، لا يُفارقه إلا في أنه لا يرى نَفسه ميتاً، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه، فإن الصبيَّ يفزعُ إلى أُمّه ويَصيح ويتعلَّق بذَيلها ويَعْدو خَلفَها، بل مثال هذا مثال صَبي علم أنه وإن لم يَصِحْ بأُمه فالأمُّ تَطلُبه، وإن لم يتعلَّق بذَيلها فهي تَحمله، وإن لم يطلب منها الإرضاع فهي تُرضِعُه.

وهذا المقام يُثمِر تركَ الدُّعاء ثقةً بأنه يُعطي أفضل مما يَسأل، والمقام الثاني: لا يَقتضي تَرك الدعاء، وإنما يقتضي تركَ سُؤال غيره، وهذه الأشياء توجد في الخلق إلا أن الدّوام يَبعد، فدوام المقام الثالث كصُفرةِ الوَجَل، فإن انبِساط القلب إلى مُلاحظة الحَولِ والقُوة والأسباب طَبعٌ وانقباضه عارض، كما أن انبساط الدَّم إلى جَميع الأطراف طبعٌ وانقباضه عارض، والوَجَل عبارة عن انقِباض الدَّم عن ظاهر البَشَرة إلى (١)الباطن حتى تنمحي عن ظاهر البشرة(١) الحمرةُ التي كانت تتراءى من وراء الرّقيق من سِتْرِ البَشَرة، فإن البشرة سِترٌ رَقيقٌ تتراأى من ورائه حمرةُ الدّم، وانقباضُه يوجب الصُّفرة وذلك لا يدوم، فكذلك انقباض القَلب بالكليّة عن ملاحظة الحَول والقُوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يَدوم.

وأما المقام الثاني، فإنه يُشبه صُفرةَ المَحموم، وقد يدوم يَوماً ويومين، والأول يُشبه صُفرةَ مريضٍ قد استحكم مَرضُه، فلا يَبعد أن يَدوم، ولا يبعد أن يَزول.

(١-١) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

بيان ما قالوه في التَّوكُّل

قال أبو موسى الدَّيبُلي: قلتُ لأبي يَزيد: ما التوكُّل؟ فقال: ما تقول أنتَ؟ فقلتُ: إن أصحابنا يقولون: لو أن السِّباعَ والأفاعي عن يمينك ويَسارك ما تحركَ لذلك سِرُّكَ. فقال أبو زيد: هذا قريبٌ، ولكن لو أن أهلَ الجنَّة في الجنَّة يَتنعّمون، وأهلَ النار في النار يُعذَّبون، ثم وقعَ لك تمييزٌ بينهما خرجتَ من جُملة التوكل.

فما ذكره أبو موسى خبرٌ عن أجلِّ أَحْوال التَّوكل، وهو المقام الثالث. وما ذكره أبو يَزيد أعزّ أنواع العِلم الذي هو من أصول التَّوكل، وهو العلم بالحِكمة، وأنّ ما فَعله اللهُ فَعله بالحكمة، ولا تمييز بينَ أهل الجنة وأهل النار بالإضافة إلى الحِكمة والعَدل، وهذا أغمض أنواع العِلم وَوراءَه سِرُّ القَدَر، وللشيوخ كلامٌ في هذا، هذا أعلاها، فَلنقتَصِر عليه.

بَيان أَعمال المتوكِّلين

اعلم أن العلم يورثُ الحال، والحال يُثمر الأعمال، وقد يُظنُّ أن معنى التوكُّل تَركُ الكَسبِ بالبدن، وتَركُ التَّدبير بالقَلب، والسقوط على الأرض كالخِرقة المُلْقاةِ أو كلَحمٍ على وَضَم، وهذا ظَنُّ الجُهَّالِ، فإن ذلك حرامٌ في الشَّرع، والشرعُ قد أَثنى على المتوكّلين، فكيفَ يُنالُ مقامٌ من مقاماتِ الدّين بمحظورِ الدين؟ بل نكشِفُ عن الحق فيه فنقول: إنما يظهر تأثير التوكّل في حركة العَبد وسَعيه بعمله إلى مقاصده، وسَعيُ العبدِ باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافعٍ هو مفقود عنده، كالكَسب، أو لحفظِ نافعٍ هو موجودٌ عنده كالادِّخار، أو لدفعِ ضارٍّ لم ينزل به، كدفع الصائِل[1] والسارقِ والسِّباع، أو لإزالة ضارٍّ قد نَزلَ به، كالتداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا يَعدو هذه الفنون الأربعة، وهو جلب النافع، أو حِفظه أو دَفعُ الضارِّ، أو قَطعُه.

فلنذكر شرطَ التوكّل ودرجاته في كل واحدٍ منهما مقروناً بشواهد الشَّرع.

---

(١) يقال: صال على قِرنِه صولاً وصيالاً، فهو صائل، أي: سَطا واستطال.

الفنّ الأوّل في جلب النّافع

فنقول فيه: الأسبابُ التي يُجتلب بها النافع على ثلاث دَرجات: مقطوع به، ومظنون ظنّاً يوثق به، وموهومٌ وَهْماً لا تثق به النفس ثقةً تامّةً ولا تطمئن إليه.

الدرجةُ الأولى: المقطوع به؛ مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطاً مُطَّرِداً لا يختلف، كما إذا كان الطعام موضوعاً بين يديك وأنتَ جائعٌ محتاجٌ، ولكنك لستَ تمدُّ اليد إليه وتقول: أنا متوكّل، وشرطُ التوكُّل تركُ السَّعي، ومَدُّ اليد إلى الطعام سَعيٌ وحركةٌ، وكذلك مَضغُه وابتلاعُه، فهذا جنونٌ مَحضٌ وليس من التوكُّل في شيءٍ، فإنك إذا انتظرتَ أن يَخلق الله تعالى فيك شبعاً دون أكل الخُبز أو يخلق في الخُبز حركةً إليك، أو يُسخّر ملكاً ليَمضَغه ويوصله إلى معدتك، فقد جَهِلتَ سُنَّة الله تعالى، وكذلك لو لم تَزرع وطمعت أن يَخلقَ الله تعالى نباتاً من غير بذرٍ، أو تلد الزوجةُ من غير وِقاعٍ، فكل ذلك جنونٌ، وليس التوكل في هذا المقام بالعمل، بل بالحالِ والعلم، أما العلمُ؛ فهو أن تعلم أن الله تعالى خلقَ الطَّعام واليدَ والأسباب وقوةَ الحركة، وأنه الذي يُطعمك ويَسقيكَ، وأما الحال فَهو أن يكون سكون قلبك واعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام، وكيف تعتمد على صحة يدك وربما جَفَّت[1] في الحال وفُلِجَتْ؟ وكيف تُعَوِّل على قدرتك وربما يَطرأ عليك في الحال ما يُزيل عقلك ويُبطل قوة حركتك؟ وكيف تُعَوِّل على حُضور الطَّعام وربما سلّط الله عليك من يَغلبك عليه؟ فَمدُّ اليدِ إليه لا يُنافي التوكُّل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست مُتعينة لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها، وكأنّ احتمال حُصولها دونها بَعيد، كالذي يُفارق الأَمصار والمسافرين ويَخرج في البوادي التي لا يَطرقها الناس إلا نادراً ولا يستصحب زاداً، فهذا كالمجرب على الله تعالى، وفعله منهيٌّ عنه وحَملُه الزّاد مأمور به، ولا يلتفت إلى قول من يقول: إنما فَعلوا هذا بعد أن راضوا أَنفسهم فصبرت عن الطعام أسبوعاً

(١) جفت يده: يَبست.

وتقوَّتوا بالحَشيش؛ لأنه ربما عدم الطعام بعد أسبوع وربما ضلَّ الطَّريق، وربما قد مرض. ثم قد نَهى رسولُ الله ﷺ عن أن يُسافر الرجل وحده، ولما سافر رسول الله ﷺ إلى مكة استأجَر دليلاً وتزوَّدَ، فهذا فِعل من لا يَعرف العِلم، ولا يدري ما التوكل، وكأنه يريد إبطال الحكمة، وإنما التوكُّل من أَفعال القَلب.

الدرجة الثالثة: مُلابَسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المُسبَّبات من غير ثقةٍ ظاهرةٍ، كالذي يَستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى كان قصده صَحيحاً وخالصاً إلى الله تعالى وفعله لا يَخرجُ عن المشروع لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحِرص إذا طلبَ فُضولَ العَيش.

وليس تركُ الأكل من التوكّل في شَيءٍ إنما هو فِعل البَطّالين الذين آثروا الراحة وتَعلّلوا بالتوكل، قال عُمر بن الخطاب: إنما المُتوكل الذي يُلقي حَبَّهُ في الأَرض ويتوكل على الله.

فإن قيل: هل من دواءٍ يُنتفع به في صَرف القلب عن الركون إلى الأسباب الخَفيّة؟

قلنا: نعم أن يعرف أن سوء الظَّن تَلقينٌ من الشَّيطان وحُسن الظَّن تَلقينٌ من الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

بَيان تَوكُّل المُعيل

قد يقدر على الصَّبر لنفسه فيجوز له أن يصبر عن الأسباب بقدر ما يُطيق، ولا يجوز له أن يَحمل عائلته على ما يؤذيهم، على أنَّا قد بَينّا أنّ التوكُّل لا يُنافي التَّسبُّب.

الفَنُّ الثاني في التَّعرض للأسباب بالادّخار

من وجدَ قوتاً حلالاً يَعزُّ وجودُ مثله أو يَشغله كَسْبُ مثلِهِ عن جمعِ هَمِّهِ، فادّخارُه إيّاه لا يُخرجه عن التَّوكُّل، خُصوصاً إذا كان له عائلة.

وفي الصَّحيحين من حديث عُمر بن الخَطاب أن النبي ﷺ كان يَبيع نَخل بني النَّضير ويَحبس لأهله قُوتَ سَنَتِهم[١].

وروينا عن سَلمان الفارسي أنه اشترى وَسْقاً[٢] من طعام، فقال زَيد بن صُوعان: تَفعل هذا وأنتَ صاحِبُ رسول الله ﷺ فقال: إنَّ النفسَ إذا أَحرَزَتْ قُوتَها اطمأنَّت وتفرَّغت للعبادة، ويَئِسَ منها الوَسواس.

وقد خَلَّف الزُّبير وعبد الرحمن بن عوف وابنُ مسعود وأكابرُ الصحابة أموالاً كثيرةً، وكذلك سادات التابعين ومن بعدهم، كابن المسيّب والثَّوريْ وغيرهما، وقد روينا عن داود الطائي أنه ادَّخَر ميراثاً فأنفقه في عشرين سنة.

ولا ينبغي أن يلتفت إلى قولِ مَن قال: إن المتوكّل لا يَدَّخِر. فإن التوكّل حال القَلب فحسب، ولو أمسكَ الإنسانُ ضَيعةً يكفيه دَخلُها كانَ أَجْمعَ لهمّه، ولم يخرج من التوكل.

فإن قيل: فقَد نهى رسولُ الله ﷺ بلالاً أن يَدَّخِر.

فالجواب: إن الفُقراء كانوا عنده كالضيف، فما كان ينبغي له أنْ يَدَّخِرَ فَيجوعون، ولهذا قال في رجلٍ ماتَ من أهل الصُّفَّةِ وخلَّف دينارين: «كَيَّتان»[٣]؛ لأنه زاحمَ الفُقَراء في الصُّفَّةِ فَضيَّق عليهم، ثم قد استغنى جماعة من أهل الصُّفّةِ بعد أن خرجوا من الصُّفَّة وماتوا وخلَّفوا ولا لومَ عليهم، وقد روينا عن فَتحِ المَوصِلي أنه زار بِشرَ بن الحارث فأكل عنده طعاماً ثم حملَ معه، فقال بِشرٌ لصاحِبه: تَدري لمَ حمل البَاقي؟ قال: لا. قال: عِندهم إذا صَحَّ التوكل لم يَضُرّ الحَمل.

الفنّ الثالث في مُباشرة الأسباب الدّافعة للضرر

ليس من شَرطِ التَّوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر أصلاً، ولا يجوز النَّوم في

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤١) و(٥٠٤٣)، ومسلم (١٧٥٧).

(٢) الوَسق: مكيال معروف يسع ستون صاعاً.

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٤٣) و(٣٩٤٣)، ولعل سبب ذلك أنه كان يُظهر الفَقر والزهد والتوكل وهو يملك دينارين ويخفيهما.

المَسْبَعَة[1] أو مجرى السَّبيل أو تحت الجِدار المائِل، وكل ذلك مَنهيٌّ عنه، ولا يَنقص التَّوكُّل بلُبسِ الدِّرع وإجافَةِ[2] الباب وشدِّ البعير بالعِقال فقد قال عز وجل: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] وقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال لموسى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣].

وقد اختفى رسولُ الله ﷺ في الغار، أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى الموصلي ونَصر بن أحمد قالا: أخبرنا أبو الحُسَين بن بِشْران قال: حدثنا الحُسين بن صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثني أبو حَفص[3] الصَّيرفي قال: حدثنا يحيى بن سَعيد قال: حدثنا المغيرة بن أبي قُرة الدَّوسي قال: سمعتُ أنسَ بن مالك يقول: جاءَ رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أَعقِلُها وأَتوكل أو أُطلِقُها وأَتوكَّل؟ قال: «اعقِلْها وتوكَّل»[4].

فإن قيل: قد ركبَ أَقْوامٌ السِّباع.

قُلنا: ليسَ هذا مما ينبغي أن يُعتَبَر به، فإن ذلك من الكَرامات، ولا يدخل في التوكّل والتعليم، ولكن إن سُخِّر لكَ كلبُكَ الذي معكَ المسمَّى بالغَضَب فَلمْ يَستأسِد إلا بإشارتكَ، فربما ارتفعتْ دَرجُتكَ في تَسخير الأَسَد لك، فما لم يُسخَّر لك هذا فلا تسأل عن ذلك.

فإن قيل: فإذا أَخذ المتوكّل سِلاحَه وغلّق بابه فبأيِّ معنى يكون مُتوكّلاً؟

فالجواب: يكون مُتوكلاً بالعلم والحال، أما العلم: فهو أن يعلم أن العدوَّ إن اندفعَ فَبِدَفْعِ اللهِ تعالى لا بأخذِ السِّلاح، واللِّصَّ إذا سلمَ منه فَبِمنعِ اللهِ تعالى لا بغَلقِ الباب، فيتكِل على المسبِّب لا على السَّبب، وأما الحال: فيكون راضياً بما يَقضي الله به في نَفسه وبَيته، وإنما أَخذ العُدَّة جَرياً على سُنَّةِ الله تعالى التي نَدبَ إليها لا أَنَّها

(١) المَسْبَعة: الأرض الكثيرة السِّباع.
(٢) أجافَ البابَ: رَدَّه وأغلقه.
(٣) تحرف في الأصل إلى: «جعفر» والمثبت من كتاب التوكل.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (١٢).

تحفظُ بنفسها، ومتى عرضَ له إذا سُرِقَ متاعُه أنه لو احتَرز لم يُسرَق، أو أخَذ يَشكو ما جَرى فقد أبانَ بُعده عن التوكل.

فإذا علم أن الخِيرة فيما يَقضي به الله لم يَحزن لما جَرى، وليعلم أن القَدَرَ له كالطَّبيب، فإن قدّم إليه الطَّعام فَرح وقال: لولا أنه علم أن الغِذاء يَنفعني ما قَدَّمه، وإن مَنعه فرح وقال: لولا يَعلم أنه يُؤذيني لما مَنعني.

أخبرنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى الموصلي ونَصر بن البَطِر، قالا: أخبرنا أبو الحُسين بن بِشْران، قال: أخبرنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا الحَسن بن محبوب قال: حدثنا الفَيضُ بنُ إسحاق قال: قلتُ للفُضَيْل: تحدُّ لي التوكل؟ فقال: آه، كيف تتوكل عليه وأنت يختار لك فتَسخط قضاءَه؟ أرأيتَ لو دخلتَ بيتَك فوجدت امرأتك قد عَميت، وابنتك قد أُقعِدَت، وأنتَ قد أصابَكَ الفَالج، كيف كانَ رضاكَ بقَضائه؟ قلت: كنتُ أخافُ أن لا أَصبر. فقال: لا، حتى يَكونَ عندك واحداً تَرضى بكلِّ ما صَنعَ في العافيةِ والبَلاء[1].

واعلم أن كل من لا يَعتقد في لُطفِ الله تعالى ما يَعتقده المريض في الطَّبيب الحاذِق المشفِق، لم يصح توكله، فإن سُرِقَ متاعُه رضي بالقضاء وأحلَّ الآخِذَ شفقةً على المسلمين، فقد شَكَى بعضُ الناس إلى بعض العلماء أنه قُطِعَ عليه الطريقُ وأُخِذَ مالُه، فقال: إن لم يكن غَمُّكَ كيفَ صار في المسلمين من يَفعل هذا أكثر من غَمِّكَ بمالِكَ فما نصحتَ المسلمين.

أخبرنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا جَعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا صالح بن عبد الكريم قال: جاء بعضُ إخوانِ الفُضَيل من أهل خُراسان فجلسَ إلى الفُضيل في المسجد الحَرام يُحدثه، ثم قام يَطوف فَسُرِقَت منه دنانير، قال: ستين أو سَبعين، فخرج الخُراساني يَبكي، فقال له

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التوكل (١٦).

الفُضَيل: مالكَ؟ قال: سُرقَت الدنانير. قال: عليها تبكي؟ قال: لا، مَثلتني وإيّاه بين يَدي الله عزَّ وجل، فأشرف عَقلي على إدْحاضِ حُجَّتِه، فَبَكَيتُ رحمةً له.

الفن الرابع: السَّعي في إزالة الضَّرر كمداواة المَريض ونحو ذلك

اعلم أن الأسباب المُزيلة للضَّرر تنقسم إلى:

مقطوعٍ به كالماءِ المُزيلِ لضَررِ العَطش، والخُبزِ المزيل لضرر الجوع.

وإلى مظنونٍ، كالفَصْدِ والحِجامَة وشُرب المُسْهِلِ وسائِر أبواب الطب، كمعالجة البُرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة.

وإلى مَوهومٍ، كالكَي والرُّقية.

فأما المقطوع به، فليس من التوكّل تَركُه، بل تركه حرام عند خوفِ الموتِ.

وأما الموهوم، كالكَي، فيخرج عن التَّوكل؛ لأن النبي ﷺ وصفَ المتوكِّلين بأنهم لا يَكتَوون[١]، وكان عِمْرانُ بن حُصَين قد سُقيَ بَطنُه، وكانت الملائكة تُسلِّم عليه، فلما اكتوَى انقطع التسليم، وقد حملَ بعضُ العلماء الكيَّ المذكور في قَوله: «لا يكتوون» على ما كانوا يَفعلونه في الجاهلية، فإنهم كانوا يكتوون في وَقتِ العافية ويَسْتَرْقونَ لئلا يَمرضوا، وهذا منهي عنه بدليل أن رسول الله ﷺ قد كَوى أَسعدَ بن زُرارةَ، وكان يَرقي ويُعلّم الرُّقيةَ بعد نُزول المرض.

وأما الدرجةُ المتوسِّطة، وهي المظنونة، كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء، فإنها لا تُناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتَّداوي، فقال: «تَداووا عبادَ الله»[٢].

وقدْ تداوى خَلقٌ كثيرٌ من السَّلفِ، وامتنعَ أقوامٌ عن التَّداوي في هذه المظنونات توكُّلاً، فقيل لأبي بكرٍ رضي الله عنه: ألا ندعوا لك الطَّبيب؟ فقال: قد رآني الطَّبيب. قيل: فما قال؟ قال: قال إني فَعّالٌ لما أُريد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٥)، ومسلم (٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٥٤)، ومسلم (٢٢٠٤).

وقيل لأبي الدَّرْداء في مَرضه: ما تَشتكي؟ قال: ذُنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: رحمةَ ربي. قيل: أفلا نَدعوا لك طَبيباً؟ قال: الطَّبيب أَمرضَني.

قلت: والذي نَنصُرهُ أن التداوي أفضل، ونحملُ حالَ أبي بكرٍ على أنه تداوى ثم أمسك لبعدِ انتفاعِه بالدَّواء، أو أن يكون قد علمَ قُربَ أجله بأمارات، أو كوشِفَ بأَجَله كما قال لعائشة: إنما هُما أَخَواكِ وأُختاكِ[(١)].

أو أن يكون المريضُ مشغولاً بذكرِ عاقبته عن حالته، كما قال أبو الدَّرداء: أَشتكي ذُنوبي أو أن تَكونَ العِلَّة مُزمنةً والدواء الموصوف موهوم النَّفع، ولهذا امتنع الرَّبيع بن خيثم لما فُلِجَ من التداوي؛ لأنه رأى أن الدواء لا يَنفع.

أو أن يقصد ببقاءِ المرض بقاءَ الأَجرِ أو تَكفير الذَّنب، كما قال أهل قُباء، فإنهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يَشكون الحُمّى، فقال: «أتريدون أن أَدعو لكم فتذهب، أو تَبقى طهوراً؟» قالوا: بل تَبقى طهوراً.

ثم قد يستشعر العبدُ من نفسِه مبادىء البَطَر فيترك التداوي ليذل نفسه بالمرض، وقد كان السلف يَستوحشون من فَقد الأمراض والبَلاء، وفي أفراد البخاري من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن يُرد الله به خَيراً يُصِبْ منه»[(٢)].

وقد خطبَ رسولُ الله ﷺ امرأةً، فقيل له: لم تُصدَع[(٣)] قط. فقال: «لا حاجةَ لي فيها»[(٤)].

وأخبرنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن بِشر قال: حدثنا محمد بن عَمرو قال: حدثنا أبو سَلمة عن أبي هريرة قال: دخلَ أعرابيٌّ

---

(١) قال لها أبو بكر رضي الله عنه ذلك في أمرِ الميراث: إنما هما أختاكِ. ولم يكن لها إلا أختٌ واحدة، ولكنه كانت امرأته حاملاً فولدت أُنثى، فعُلمَ أنه كان قد كوشِفَ بأنها حامل بأنثى، فقال لها هذا القول.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٥).

(٣) أي: لم تُصَب بصداع قط.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٥٨٠)، وأبو يعلى (٤٢٣٤).

على رسولِ الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَم[1] قط؟» قال: وما أُمُّ مِلْدَم؟ قال: حَرٌّ يكونُ بينَ الجِلدِ واللَّحم» قال: ما وجدتُ هذا قط. قال: «فهل أخذكَ الصُّداع قط؟» قال: وما الصداع؟ قال: «عروقٌ تَضرب على الإنسان في رَأسه» قال: ما وجدتُ هذا قط. فلما ولّى قال: من أحبَّ أن يَنظر إلى رجلٍ من أهل النار فَلينظر إلى هذا»[2].

وقد ذكرتُ الأحاديث المتعلقة بالطِّب، وبيَّنتُ أن الأفضل التَّداوي في كتابي المسمَّى «بلَقْطِ المَنافِع».

وليُعلم أن الأدوية أسبابٌ مُسخرةٌ بإذن الله تعالى، فكما أن الخُبزَ دواءُ الجوع، والماءَ دواء العطش، والسَّكَنْجَبين دواءُ الصَّفراء، والسَّقَمونيا دَواءُ الإسهال، ولا يقع الفرق إلا بأن ذلك أمرٌ جلي وهذا خفي يدركه بعض الناس دون بعض.

فإن قيل: فكيفَ يكون المُتداوي مُتوكِّلاً؟

فالجواب: يكون متوكلاً بالعِلم والحال كما سبقَ في ذكر فُنون الأعمال الدافعة للضَّرر والجالبة للنفع، فأما شَكوى المريض فمخرجةٌ له من التوكل، وقد كانوا يكرهون أَنينَ المريض؛ لأنه يُتَرجمُ عن الشَّكوى، وكان الفُضيل يقول: أَشتهي مرضاً بلا عُوّاد. وقال رجلٌ للإمام أحمد: كيفَ أنتَ؟ فقال: بخير. قال: حُمِمْتَ البارحةَ؟ فقال: إذا قلتُ لك: أنا بخير، فلا تخرجني إلى ما أكره.

فأما وصفُ المريض ما يجده للطَّبيب فإنه لا يَضره، قد كان بَعضُ السَّلف يفعل ذلك ويقول: إنما أصف قُدرةَ اللهِ فيَّ ويُتصوَّر أن يَصفَ ذلك لتلميذٍ يقصد به تَقويتَه على الصَّبر، أو يرى ذلك البَلاء نعمةً فيصفها، كما يصف النِّعَم شُكراً لها، ولا يكون ذلك شكوى، وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلان منكم»[3].

آخر كتاب التوحيد والتوكل

---

(١) أم مِلدَم: كنية الحُمّى.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٩٥)، وأحمد (٨٣٩٥)، والنسائي في الكبرى (٧٤٩١)، وابن حبان (٢٩١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٢٤)، ومسلم (٢٥٧١).

كتابُ المحبَّة والشَّوق والأُنْس والرِّضا

الحمدُ لله الذي سَلَّم أولياءَه من وَرطات النُّفوس المفتونَة، وفَتح لهم بابَ مَعرفته فوفَّقوا لما يُحبونه، وكشفَ لهم حجابَ محبَّته فلم يَطلبوا دونَه، وجَعلوا أرواحَهم ثمنَ حُبِّه فهم يحبونه ويَودُّونه، وتعلَّقوا بِقَولِ مَولاهُم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

أحمَدُه على نِعمه الظَّاهرة والمكنونة، وأُقِرُّ له بالتَّوحيد عن أَدِلَّةٍ وَثيقةٍ مَأمونة، وأُصلِّي على رسولِهِ محمدٍ الذي كانت أَخلاقه بالكرم مَعجونة، وعلى أصحابه وأتباعِه إلى أن تقوم الأجساد المَدفونَة.

أمّا بعد: فإن المحبَّة لله عزَّ وجل هي الغايةُ القُصوى من المقامات، والذّروة العُليا من الدَّرجات، فما بعدَ إدراكِ المحبَّة مَقامٌ إلا وهو ثمرةٌ من ثمارها وتابعٌ من تَوابعها، كالشوق والأُنس والرِّضا وأَخواتها، ولا قبلَ المحبة مقامٌ إلا وهو مُقدمةٌ من مُقدِّماتها، كالصَّبرِ والزُّهد وغيرها.

وجميعُ المَقامات وإن عزَّ وجودُها لم تَخلُ القلوبُ عن الإيمان بإمكانها، وأما محبةُ اللهِ تعالى فقد عزَّ الإيمان بها حتى أنكر بعضُ العلماء إمكانها، وقال: لا مَعنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى، فأما حقيقةُ المحبة فَمُحالٌ إلا مع الجِنس والمِثل. ولما أنكروا المحبَّة أنكروا الأُنسَ والشَّوقَ ولذةَ المُناجاة وسائِر لوازم الحبِّ وتَوابِعه.

فلا بدَّ من كَشفِ الغِطاء عن هذا الأمر، ونحن نَذكر في هذا الكتاب بيان شَواهد الشَّرع في المحبَّة، ثم بيان حقيقتها وأسبابها، ثم بيان أن لا مستَحقّ للمحبة إلا الله تعالى، ثم بيان أن أعظم اللَّذات لذة النَّظَر إلى الله تعالى، ثم بيان سبب زيادة لَذَّة

النَّظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المُقَوية لحبِّ اللهِ تعالى، ثم بيان السَّبب في تَفاوت الناس في الحُب، ثم بيان السَّبب في قُصور الأَفهام عن مَعرفة الله تعالى، ثم بيان معنى الشَّوق، ثم بيان مَحبَّة الله تعالى للعبد، ثم القول في علامات محبَّة العبدِ لله عزَّ وجل، ثم بيان معنى الأُنسِ بالله عزَّ وجل، ثم بيان معنى الانبِساط في الأُنس، ثم القَول في معنى الرِّضا وبَيان فَضيلته، ثم بيان حقيقته، ثم بيان أن الدُّعاء وكراهة المعاصي لا يُناقضه، وكذا الفرار من المعاصي، ثم ذكر حكاياتٍ وكلماتٍ للمحبين مُتفرقة.

* * *

بيان شَواهد الشَّرع في حُبِّ العبدِ لله عزَّ وجَلَّ

اعلم أن الأُمةَ مُجتمعةٌ على أنَّ الحُبَّ لله تَعالى ولرسولِه فَرضٌ، وكيف يُفرضُ مالا وجودَ له؟ وكيفَ يُفَسَّر الحبُّ بالطاعةِ، والطاعةُ تَبَعٌ للحب وثمرته، فلا بدّ أن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك تَتبعُ الطاعة للمحبوب. ويَدلُّ على إثبات الحبِّ لله تعالى قولُه عزَّ وجل: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقولُه تعالى: ﴿والذين آمنوا أشدُّ حبا لله﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا دليلٌ على إثبات الحب، وإثبات التَّفاوت فيه، وقولُه تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم...﴾ إلى قوله: ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾ [التوبة: ٢٤].

وفي الصَّحيحين من حديث ابن مسعود وأبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «المرءُ معَ مَنْ أَحبَّ».

وفيهما من حديثِ أنسٍ أن رجلاً سألَ رسولَ الله ﷺ عن الساعة فقال: «وما أعددتَ لها؟» قال: (١يا رسولَ الله، ما أعددتُ لها من كثرةِ صلاةٍ ولا صيام١) إلا أني أُحبُّ اللهَ ورسوله فقال: «أنتَ معَ من أحببتَ»[٢].

وفيهما من حديث أنس أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبّ إليه مما سِواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يُحبه إلا لله، وأن يَكره أن يَعودَ في الكُفر بعد إذْ أنقذَهُ اللهُ منه، كما يكرهُ أنْ تُوقَدَ له نارٌ فَيُقذف فيها».

أخبرنا محمد بن أبي القاسم قال: أخبرنا حَمدُ بن أحمد قال: أخبرنا أبو نُعيم الحافظ قال: حدثنا أبو عمرو بن حَمدان قال: حدثنا الحسن بن سُفيان قال: حدثنا إبراهيم الحوراني قال: حدثنا عبد العزيز بن عُمَير قال: حدثنا زيد بن أبي الزَّرقاء

(١-١) سقط من الأصل واستدرك من الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨٤) و(٥٨١٥)، ومسلم (٣٦٣٩).

قال: حدثنا جَعفر بن بُرْقان عن مَيمون بن مِهْران عن يَزيد بن الأَصَم عن عُمر بن الخَطّاب قال: نَظر النبي ﷺ إلى مُصعب بن عُمير مقبلاً وعليه إهابُ كَبشٍ قد تَنطَّقَ(١) به، فقال النبيُّ ﷺ: «انظُروا إلى هذا الرجل الذي قد نَوَّر اللهُ قَلبه، لقد رأيتُه بين أَبوين يَغْذُوانِهِ بأطيب الطَّعام والشَّراب، فدعاهُ حبُّ اللهِ ورسولِه إلى ما تَرون».

وقد رُوي أن ملكَ الموت جاء إلى الخَليل عليه السلام لقبضِ روحه، فقال له: هل رأيتَ خليلاً يُميتُ خَليله؟ فأَوحى اللهُ تعالى إليه: هل رأيتَ حبيباً يكره لقاءَ حَبيبه؟ فقال: يا ملكَ الموت اقبِض.

ومرّ عيسى ابنُ مريم على ثلاثةِ نَفرٍ قد نَحلت أبدانُهم، وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغَ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوفُ من النار. فقال: حَقٌّ على الله تعالى أنْ يُؤمّنَ الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثةٍ آخرين، فإذا هم أشد نُحولاً وتَغَيّراً، فقال لهم: ما الذي بلغَ بكم ما أرى؟ قالوا: الشَّوق إلى الجنَّة. فقال: حَقٌّ على الله أن يُعطيكم ما تَرجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثةٍ آخرين، فإذا هم أشد نُحولاً وتغيراً، فقال: ما الذي بلغَ بكم ما أرى؟ قالوا: حُبُّ اللهِ تعالى. فقال: أنتُم المُقَرَّبون، أنتم المُقَرَّبون.

قال الحسن البَصري: مَن عرفَ ربَّه أحبَّه.

وقال يحيى بن مَعين: عَفوُه يَستَغرِق الذّنوب، فكيفَ رضوانه؟ ورِضوانه يَستَغرق الآمال، فكيفَ حُبّه؟ وحُبُّه يُدهش العقول، فكيف ودُّه؟.

بيان حقيقة المحبَّة وأسبابها
وتحقيق معنى مَحبّة العَبد لله تعالى

اعلم أن المطلوب من هذا الفَصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها، ثم معرفة شُروطها وأسبابها، ثم النظر بعد ذلك في تَحقيق معناها في حقِّ الله تعالى.

(١) تنطَّق به: جعله كهيئةِ النِّطاق، أي: الحِزام.

فأوّل ما ينبغي أن يَتحقَّق أنه لا يُتَصوَّر محبةٌ إلا بعدَ معرفةٍ وإدراكٍ، إذ لا يُحب الإنسان ما لا يَعرفه، ولذلك لم يتصور أن يتَّصف بالحب جَماد بل هو من خاصِّيَّةِ الحيّ المُدرك.

ثم المدرَكات في أَنفسها تَنقسم إلى ما يوافق طبعَ المُدرك ويُلائمه ويلذه وإلى ما يُنافيه وينافره ويؤلمه، وإلى مالا يؤثر فيه بإيلام ولا إلذاذٍ، فكل ما في إدراكه لذّةٌ وراحةٌ فهو محبوبٌ عند المدرك، وما في إدراكه ألمٌ فهو مَبغوضٌ عند المدرك، وما يخلو عن استعْقابِ ألمٍ ولذةٍ، فلا يوصف بكونه محبوباً ولا مكروهاً.

فإذن كل لذيذٍ محبوب عند المُلتذِّ بهِ، ومعنى كونه محبوباً أن في الطبع ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً أن في الطبع نفرةً عنه، فالحب عبارة عن مَيل الطَّبعِ إلى الشَّيء المُلَذّ، فإن تأكّد ذلك الميل وقَوي سُمّي عِشقاً، والبُغضُ عبارة عن نفرةِ الطَّبع عن المُؤلم المُتعِب، فإذا قويَ سُمّيَ مَقْتاً، فهذا أصلٌ في حقيقة معنى الحب لا بدَّ من معرفته.

الأصلُ الثاني: أن الحبَّ لما كان تابعاً للإدراك والمعرفة انقسم لا محالةَ بحسب أقسامِ المُدركات والحَواس، فلكل حاسةٍ إدراكٌ لنَوعٍ من المُدرَكات، ولكل واحدةٍ منها لَذةٌ لبعضِ المُدرَكات، وللطبع بسبب تلكَ اللّذة مَيلٌ إليها، فكانت محبوبات عند الطَّبع السليم، فلذَّةُ العين في الإِبصار وإدراك المُبصَرات الجميلة والصُّور الحَسَنة، ولذَّة الأُذُن في النَّغمات الطيِّبة الموزونة، ولذة الشَّمِّ في الرَّوائح الطَّيبة، ولذَّة الذَّوق في الطُّعوم، ولذَّة اللَّمسِ في اللِّينِ والنُّعومة، ولما كانت هذه المُدرَكات بالحواس ملذة كانت محبوبةً، أي كانَ للطبع السليم مَيلٌ إليها حتى قالَ رسولُ الله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم ثلاث: الطِّيبُ، والنِّساءُ، وجُعِلَت قُرةُ عيني في الصَّلاة»[1] فسمَّى الطِّيبَ محبوباً، ومعلوم أنه لا حَظَّ للعين والسَّمعِ فيه، بل للشَّمِّ فَقط، وسَمَّى النِّساءَ مَحبوبات، ولا حَظَّ فيهنَّ للشَّمِّ والذَّوقِ، وسمَّى الصَّلاةَ قُرةَ عَينٍ وجعلها أَبلغ المحبوبات، ومعلوم أنه ليس تَحظى بها الحواسُّ الخَمسُ، بل

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٩٣) و(١٢٢٩٤) من حديث أنس.

حِسٌّ سادسٌ مَظِنَّته القَلب، لا يُدرِكُه إلاّ من كانَ له قَلبٌ.

ولذاتُ الحواسِّ الخَمسِ تُشارك فيها البهائمُ الإنسانَ، فإن كان الحبُّ مقصوراً على مُدركات الحواس حتى يقال: إن الله تَعالى لا يُدرك بالحواسِّ، ولا يُتَمثَّل في الخَيال، فلا يُحَبُّ، فإذن قد بَطَلت خاصيَّةُ الإنسان، وما تَميز به من الحِسِّ السادسِ الذي يُعبَّر عنه إما بالعقَل أو بالنّور أو بالقَلب أو بما شئتَ من العبارات، فلا مُشاحَّةَ فيها، وهيهات، فالبَصيرةُ الباطنة أَقوى من البَصر الظاهر، والقلبُ أشدُّ إدراكاً من العَين، وجمالُ المعاني المدركة بالعَقل أعظمُ من جمال الصُّور الظاهرةِ للأبصار فتكونُ لا مَحالةَ لذَّةُ القلوب بما تُدركه من الأُمور الشَّريفة الإلهية التي تَجلُّ عن أن تُدركها الحواسُّ أتمّ وأَبلغ، فيكون ميلُ الطَّبع السليم والعَقل الصحيح إليه أقوى، ولا مَعنى للحب إلا المَيْلُ إلى ما في إدراكه لَذة، كما سيأتي تفصيله، فلا يُنكِر إذن حُبَّ الله تعالى إلا مَن قَعَدَ به القصور في درجة البهائم، فلم يُجاوز إدراكَ الحواسِّ أصلاً.

الأصل الثالث: أنَّ الإنسان لا يَخفَى أنه يحب نَفسه، ولا يَخفَى أنه قد يُحب غَيره لأجل نَفسه، وهل يُتَصوَّر أن يحبَّ غيره لذاتِهِ لا لأجلِ نَفسه؟ هذا مما قد يُشكل على الضُّعفاء حتى يَظنوا أنه لا يُتَصوَّر أن يحب الإنسان غيره لذاتِه ما لم يرجع منه حَظٌّ إلى المُحِبِّ سوى إدراك ذاته، والحقُّ إن ذلك مُتَصَوَّرٌ وموجود.

فلنُبيِّن أقسامَ المحبة وأسبابَها:

وبيانُه: أن المحبوبَ الأوَّل عند كلِّ حَيٍّ نفسُه وذاتُه، ومعنى حُبِّهِ لنفسِه أنَّ في طبعه مَيلاً إلى دوام وُجوده ونفرةً عن عَدمه وهلاكه؛ لأن المحبوب بالطَّبع هو الملائم للمحِبِّ، وأيّ شيءٍ أتمّ ملائمةً من نفسه ودوام وجوده؟ وأيّ شيءٍ أعظمُ مَساءَةً ومنافرةً له من عَدَمِه وهلاكه، فلذلك يُحبُّ الإنسانُ دوامَ الوجود، ويَكره الموتَ والقتلَ لا لمجرَّدِ ما يَخافه بعدَ الموت، ولا لمجرد الحَذرِ من سَكرات الموت، بل لو اختُطِفَ من غير ألمٍ وأُميتَ من غير ثوابٍ ولا عقابٍ كان كارهاً لذلك، ولو أنه أحبَّ الموتَ والعَدمَ لم يُحبّه إلا لمقاساةِ ألمٍ في الحياة، فيُحب زوال البلاء، فالهلاك والعدمُ ممقوتٌ، ودوام الوجود محبوبٌ، وكما أن دوام

الوجود محبوبٌ فكمال الوجود أيضاً محبوبٌ؛ لأن النَّقص عدمٌ بالإضافة إلى القَدْر المفقود، وهو هلاكٌ بالنسبة إليه، والهلاك والعَدمُ ممقوت في الصِّفات، وكمال الوجود، كما أنه ممقوتٌ في أصل الذات، ووجود صفات الكمال محبوبٌ، كما أن دوام أصل الوجود محبوب، وهذه غريزة في الطباع بحكم سنَّة الله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

فإذن المحبوبُ الأول للإنسان ذاتُه، ثم سَلامةُ أَعضائه، ثم مالُه ووَلدُه وعَشيرتُه وأصدقاؤه، فالأعضاء محبوبةٌ وسلامتُها مطلوبة؛ لأن كمال الوجود ودوامَ الوجود موقوفٌ عليها، والمالُ محبوبٌ؛ لأنه آلةٌ في دَوامِ الوجود وكمالِه، وكذلك سائر الأسباب، فالإنسان يحبُّ هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباطِ حقِّه في دوام الوجود وكمالِه بها، حتى إنه ليحبُّ ولَده، وإن كان لا يناله منه حَظٌّ بل يتحمَّل المشاقَّ لأجله؛ لأنه يَخْلُفُه في الوجود بعد عَدَمه، فيكون في بقاء نَسلِه نوعُ بقاءٍ له، فلفرطِ حُبِّه لبقاء نفسِه يحبُّ بقاءَ من هو قائمٌ مقامَه، وكأنه جزءٌ منه، لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً، لكن لو خُيِّرَ بين قَتلِه وقَتلِ ولده آثَر بقاءَ نفسه؛ لأن بقاءَ ولده يُشبه بقاءَهُ من وَجهٍ وليسَ هو بقاؤُه المحقق، وكذلك حبُّه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حُبِّه لكمال نَفسه، فإنه يرى نفسَه كثيراً بهم، قوياً بسببهم، متجملاً بمكانهم، فإن العشيرةَ والمالَ والأسبابَ الخارجة كالجناحِ المكمل للإنسان، وكمالُ الوجود ودوامُه محبوبٌ بالطبع لا محالةَ، فإذن المحبوبُ الأول عند كل حَيٍّ ذاتُه، وكمال ذاتِه ودوامُ ذلك، والمكروهُ عنده ضدُّ ذلك، فهذا هو أول الأسباب.

والسببُ الثاني: الإحسانُ، فإن الإنسانَ عبدُ الإحسانِ، وقد جُبلت القلوبُ على حُبِّ من أحسنَ إليها وبُغضِ من أساءَ إليها، وقال رسولُ الله ﷺ: «اللهمَّ لا تجعل لفاجرٍ عندي يَداً فيحبُّه قلبي». أشار بذلك إلى أن حبَّ القلب للمحسن اضطرار لا يُستَطاع دَفعُه، وهو جِبلَّة وفِطرةٌ لا سبيل إلى تغييرها، وبهذا السبب يحب الإنسانُ الأجنبيَّ الذي لا قَرابة بينه وبينه ولا علاقة، وهذا إذا حُقِّقَ رجع إلى السبب الأول، فإن المحسنَ من أمدَّ بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوامِ الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود، إلا أن الفرقَ أن

أعضاء الإنسان محبوبة لأن بها كمال وجوده، وهي عين الكمال المطلوب، فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب، ولكن قد يكون سبباً له، كالطبيب الذي يكون سبباً في دوام صحة الأعضاء، ففرقٌ بين حُبِّ الصّحة وبين حُبِّ الطَّبيب الذي هو سَبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها، والطبيب محبوب لا لذاتها؛ بل لأنه سبب للصحة، وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب، ولكن العلم محبوب لذاته والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب، وكذلك الطَّعام والشراب محبوب، والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطَّعام، فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، وإلا فكل واحدٍ يرجع إلى محبة الإنسان نفسَهُ، فكان من أحبَّ المحسن لإحسانه فما أحبَّ ذاتَه تحقيقاً بل أحب إحسانه، وهو فعل من أفعاله لو زال زالَ الحبُّ، ولو نقصَ نَقص الحبُّ، ولو زادَ زاد.

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظٍّ يُنالُ منه وراءَ ذاته، بل تكون ذاته عينُ حَظِّه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ[1] الذي يوثق بدَوامه، وذلك كحب الجَمال والحُسنِ، فإن كل جمالٍ محبوبٌ عند مُدرِك الجمال، وذلك لعين الجمال؛ لأن إدراكَ الجمال فيه عينُ اللَّذة، واللَّذةُ محبوبةٌ لذاتها لا لغيرها، ولا يظن أن حب الصور الجميلة لأجلها، وإدراكُ نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته، وكيف يُنكَرُ ذلك والخُضرة والماءُ الجاري محبوبٌ لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظُّ نفس الرؤية، وقد كان رسولُ الله ﷺ تُعجبه الخُضرة والماءُ الجاري، والطِّباع السَّليمة قاضيةٌ باستِلْذاذ النَّظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المَليحة الألوان الحسَنة النَّقش، حتى إن الإنسان ليطرح عنه الغموم بالنَّظر إليها لا لطلب حَظٍّ وراء النظر.

فهذه الأسباب ملذّة وكل لذيذٍ محبوب، وكل حُسنٍ وجَمال فلا يخلو إدراكه عن لذَّة، ولا يُنكرُ أحدٌ كونَ الجمال محبوباً بالطَّبع، فإذا ثبتَ أن الله تعالى جميلٌ كان محبوباً لا محالةَ عند من انكشف له جمالُه وجلالُه، كما قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله جَميلٌ يحبُّ الجَمال».

(١) أي: البالغ رتبة الكمال.

الأصل الرابع: في بيان معنى الحُسن والجمال:

اعلم أن المحبوسَ[1] في مَضيق الخيَالات والمُحَسَّات ربما يَظن أنه لا معنى للحُسن والجمال إلا تناسب الخِلقة والشَّكل وحُسن اللون وكون البياض مشوباً بالحمرة وامتداد القامةِ إلى غير ذلك مما يوصف به من جمال شخصِ الإنسان، فإن الحسّ الأغلب على الخلق حِسُّ الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صُوَرِ الأشخاص، فيظن أن ما ليس مُبصَراً ولا متخيَّلاً ولا متشكلاً ولا متلوناً متعذرٌ، لا يُتَصور حُسنه، وإذا لم يُتصوَّر حُسنُه لم يكن في إدراكه لذَّة، فلم يكن محبوباً، وهذا خطأ ظاهر، فإن الحُسنَ ليس مقصوراً على مُدرَكات البَصر، ولا على تَناسب الخلقة وامتزاج البَياض بالحُمرة، فإنّا نقول: هذا خَطٌّ حَسَن، وهذا صوتٌ حَسن، وهذا فَرشٌ حَسن، بل نقول هذا ثوبٌ حسن، وهذا إناءٌ حَسَنٌ، فأيّ معنى لحُسنِ الصَّوت والخَطِّ وسائر الأشياء إذا لم يكن الحُسن إلا في الصّورة؟

ومعلوم أن العَينَ تَسْتَلذُّ النَّظر إلى الخَطِّ الحَسَن، والأذن تستلذُّ استماعَ النَّغمات الحَسَنة الطَّيبة، وما من شيء من المُدرَكات إلا وهي منقسمة إلى حَسَنٍ وقَبيح، فما معنى الحُسن الذي تَشْتَرِكُ فيه هذه الأشياء؟ فلا بدّ من البَحثِ عنه فنقول: كلُّ شيءٍ فجماله وحُسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضُها، فإنه من الحسن والجمال بقَدر ما حَضَر، فالفَرسُ الحَسَنُ هو الذي جمع كلّ ما يليق بالفَرس من هَيئةٍ وشَكلٍ ولَونٍ وحُسْنِ عَدْوٍ، وتَيَسُّرِ كَرٍّ وفَرٍّ عليه، والخَطُّ الحسن كل ما جمع ما يليق بالخَطِّ من تناسب الحروف وتَوازنها واستقامة تَرتيبها وحُسنِ انتظامها، ولكل شيء كمالٌ يليق به، وقد يليق بغيره ضده، فَحُسْنُ كل شيء في كماله الذي يليق به، ولا يحسن الإنسان بما يحسن به الفَرس، ولا يحسن الخَطّ بما يَحسنُ به الصَّوت، ولا تَحسنُ الأَواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء.

فإن قيل: هذه الأشياء وإن لم تُدرك جميعها بحِسِّ البَصر مثل الأَصوات

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «المحسوس»، والمثبت من الإحياء.

والطُّعوم، فإنها لا تَنفكُّ عن إدراك الحواس لها، فهي محسات، وليس يُنكَر الحسن والجمال للمُحَسّات، ولا يُنكر حصول اللذَّة بإدراك حُسنها، وإنما يُنكر ذلك في غير المدرك بالحواس.

فالجواب: إن الحُسنَ والجمالَ موجود في غير المُحَسَّات، إذ يُقال: هذا خُلقٌ حَسَن، وهذا عِلمٌ حَسَن، وهذه سيرةٌ حَسَنة، وهذه أخلاقٌ جَميلة، وإنما يُراد بالأخلاق الجميلة العلم والعَقلُ والعِفَّةُ والشَّجاعةُ والتَّقوى والكَرَم وسائر خِلال الخير، وشيء من هذه الصفات لا يُدركُ بالحواسِّ الخَمس، بل يُدرك بنور البَصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال الجميلة محبوبةٌ، والموصوف بها محبوبٌ بالطبع عند من عرفَ صفاته، وآيةُ أنَّ الأمر كذلك أنَّ الطِّباع مجبولةٌ على حبِّ الأنبياء صلوات الله عليهم، وعلى حبِّ الصَّحابة مع أنهم لم يُشاهدوا، وعلى حب أرباب المذاهب مثل أحمد والشافعي حتى إن الرجل قد تَجاوز به حبه لصاحب مَذهبه حدَّ العشقِ، فيحمله ذلك لأن ينفق جميع أمواله في نَصر مذهبه والذَّبِّ عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يَطعن في إمامه ومتبوعه، فكم من دَمٍ أُريقَ في نُصرة أرباب المذاهب، فليت شعري من يُحب أحمد بن حنبل فلمَ يُحبه ولم يُشاهد قَطُّ صورتَه؟ ولو شاهدَه ربما لم يستحسن صورته، فاستحسانه الذي حمله على إفراط الحُبِّ إنما هو لصورته الباطنة، لا لصورته الظاهرة، فإن صورته الظاهرة ربما كانت كلها اليوم تراباً، وإنما يحبه لصفاتِه الباطنةِ من الدين والتَّقْوى وغَزارة العِلم، وهذه أمورٌ جميلةٌ لا يُدرَكُ جمالُها إلا بنورِ البَصيرة، فأما الحواس فقاصرةٌ عنها، وكذلك من يحب أبا بكرٍ فإنه لا يُحب لحمَه وعَظمَه إذ لو بَلي ذلك كلّه لم تَزُل عنه الصِّدِّيقية، وهي الصفات المحمودة التي هي مَصادر السِّيَر الجَميلة، ولها تكون المحبة، وجميع تلك الأوصاف تَتشعَّبُ عن العِلم والقُدرة، والعلم إدراكُ حقائق الأمور، والقُدرةُ معنىً يقهرُ العَدوَّ والهَوى، وهذان الوصفان غير مُدرَكين بالحِسِّ، ومحلهما من جُملة البَدَن جزءٌ لا يتجزأ، فهو المحبوب على الحقيقة، وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون مَحبوباً لأَجله، وهل يغلب على القلوب حبُّ الصحابة وبُغضُ إبليس وأبي جهل إلا بالإطناب في وصف المحاسن والمقابح؟

وكذلك لما وصفَ الناسُ حاتماً[١] بالسخاء، وخالداً بالشَّجاعة أحبَّتهم القُلوب حُبّاً ضرورياً، وليس ذلك عن نظرٍ إلى صورة محسوسة[٢] ولا عن حَظٍّ يَنالُه المحِبُّ منهم، ولو حُكيَ عن بعض المُلوك في بَعض الأقطار العدل والإحسان لغلبَ حبُّه على القُلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبِّين لبُعدِ المَزار وتَنائي الدِّيار حتى لو أردنا أن نُحبِّبَ شَخصاً ميتاً أو غائباً إلى صبيٍّ لم يكن لنا سبيلٌ إلا بالإطناب في وَصفه.

فإذاً، ليسَ حبُّ الإنسان مقصوراً على مَنْ أحسنَ إليه، بل المُحسنُ في نَفسه محبوبٌ إذِ الإحسانُ جمالٌ وحُسنٌ، وكما تُدرَكُ الصُّور الظاهرةُ بالبَصر تُدرك الصُّور الباطنةُ بالبَصيرة، فمن عدم البَصيرةَ الباطنة لم يدركها، ولم يحبها ولم يلتذَّ بها، ومن كانت البصيرةُ الباطنة أغلب عليه من الحَواسِّ الظاهرة كان حُبُّه للمعاني الباطنة أكثر من حبِّه للمعاني الظاهرة، فَشَتَّان بين من يُحبُّ نَقْشاً مصوَّراً على الحائط لجمال صوره الظاهرة وبين من يُحب نَبِيّاً من الأنبياء لجمالِ صورتِه الباطِنة.

السبب الخامس: المناسبة الخفية بين الحبيب والمحبوب، إذ رُبَّ شخصين تتأكَّد المحبَّةُ بينهما لا بسببِ جمالٍ أو حَظٍّ، ولكن مجرد تناسب الأرواح، كما قال ﷺ: «. . . فما تَعارفَ منها ائتلف»[٣].

وقد حقَّقنا ذلك في كتاب آداب الصُّحبة عند ذكر الحُبِّ في الله تعالى، فليُطلَب منه؛ لأنه من عجائبِ أسباب الحُبِّ.

فإذن رجعت أقسامُ الحبِّ إلى خَمسةِ أقسام: وهي: حبُّ الإنسان وُجودَ نفسِهِ وكماله وبقاءه، وحبُّه من أحسنَ إليه فيما يرجع إلى دَوام وُجودِه ويُعين على بقائِه ودفع المُهلكاتِ عنه، وحُبُّه من كان مُحسناً في نفسِه إلى الناس ولم يكن مُحسناً

---

(١) يعني حاتماً الطائي الجواد المعروف.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «محبة»، والمثبت من الإحياء.

(٣) وتمامه: «الأرواح جنودٌ مجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، أخرجه مسلم (٢٦٣٨) (١٥٩)، وأحمد (٧٩٣٥) و(١٠٨٢٤) و(١٠٩٥٦)، وابن حبان (٦١٦٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٠١) من حديث أبي هريرة.

إليه، وحبُّه لكل ما هو جَميلٌ في ذاتِه سواء كان من الصّور الظاهرة أو الباطنة، وحبُّه لمن بَينه وبَينه مُناسبةٌ خَفيَّة في الباطن، فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخصٍ واحدٍ تضاعفَ له الحب لا محالةَ، كما لو كان للإنسان وَلدٌ جميلُ الصورة حَسَنُ الخُلقِ كاملُ العِلم حَسَنُ التَّدبير مُحسِنٌ إلى الخَلق، ومُحسنٌ إلى الوالد كان محبوباً لا مَحالة غايةَ الحب، وتكونُ قوةُ الحبِّ بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قُوة هذه الخِلال في نَفسها، فإن كانت هذه الصفات في أقصى الكَمال كان الحبُّ لا محالةَ في أعلى الدّرجات.

فلنُبين الآن أن هذه الأسبابَ كلها لا يُتصوّر كمالُها واجتماعها إلا في حَقِّ الله تعالى، فلا يستحق المحبةَ بالحقيقة إلا اللهُ سُبحانه وتعالى.

بيان أنّ المستحقّ للمحبَّة هو اللهُ تعالى وَحْده

اعلم أنَّ مَن أحبَّ غيرَ الله تعالى لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقُصوره في معرفة الله تعالى، فأما إن أحَبَّ الرسولَ ﷺ فذلك عن حُبِّ الله، وكذلك إذا أحبَّ العلماء والأتقياء لأنَّ مَحبوبَ المحبوبِ مَحبوبٌ، ورسول المَحبوبِ مَحبوبٌ، وكل ذلك يرجع إلى حُبِّ الأصل، فلا محبوبَ بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه.

وإيضاحُه: بأن نَرجعَ إلى الأسبابِ الخَمسةِ التي ذكرناها، ونُبين أنها مجتمعة في حقِّ الله تعالى بجُملَتِها، ولا يوجد في غيره إلا آحادها، وأنها حقيقة له، ومهما ثبت ذلك انكشفَ لكل ذي بصيرةٍ ضدّ ما تخيّلَه ضُعفاء العقول من استحالةِ حُبِّ الله تعالى تحقيقاً، وبان أن التَّحقيق يَقتضي أن لا يُحبَّ أحدٌ غير الله تعالى.

فأما السبب الأول: وهو حبُّ الإنسانِ نَفسه وبَقاءَه وكَمالَه ودوام وُجوده، وبغضُه لهلاكه وعَدَمه ونُقصانه وقواطع كَماله، فهذه جِبِلَّةُ كلّ حَي، ولا يتصور أن ينفكَّ عنها، وهذا يقتضي غاية المحبَّة لله تعالى فإن من عرفَ نفسه وعرفَ ربَّه عرف قطعاً أنه لا وجودَ له من ذاته، وإنما وجودُ ذاته ودوامُ وجوده وكمالُ وجوده من الله تعالى وبالله وإلى الله، فهو المخترع الموجِدُ له، وهو المُبقي له، وهو المُكمل

لوجوده بخلقِ صفاتِ الكَمال، وخلقِ الأسباب الموصِلَةِ إليه، وخلق الهِداية إلى استعمال الأسباب، وإلا فالعبدُ من حيث ذاته لا وجودَ له من ذاته، بل هو مَحوٌ مَحْضٌ وعَدَمٌ صرفٌ لولا فَضل الله تعالى عليه بالإيجاد، وهو هالكٌ عقيب وجوده لولا فَضل الله تعالى بالإبقاء، وهو ناقصٌ بعد الوجود لولا فَضل الله عليه بالتكميل لخلقه.

وبالجملة؛ فليس في الوجود شيءٌ له بنفسه قوامٌ إلاّ القيومُ الحيُّ الذي هو قائمٌ بذاتِهِ، وكلّ ما سواه قائمٌ به، فإن أحبَّ العارفُ ذاتَه، ووجودُ ذاتِه مُستفادٌ من غيره، فبالضرورة يُحب المفيدَ لوجوده والمُديمَ له إن عرفَه خالقاً موجداً ومخترعاً مُبقياً وقَيوماً بنفسه مقوماً لغيره، فإن كان لا يحبه فَهو لجهله بنفسه وبربِّه.

والمحبَّةُ ثمرةُ المعرفةِ تَنعدمُ بانعدامها وتَضعفُ بضَعفها وتَقوى بقُوتها، ولذلك قال الحسنُ البَصري: مَن عرفَ ربَّه أحبَّه، ومن عرف الدُّنيا زهد فيها.

وكيف يُتصوَّر أن يحبَّ الإنسانُ نفسَه ولا يحب ربَّه الذي به قوام نفسه، ومعلوم أن المبتَلى بحر الشَّمس لما كان يحب الظلَّ أحب بالضرورة ما يَقوم به الظل كالشَّجر، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قُدرةِ الله تعالى، فهو كالظلِّ بالإضافة إلى الشجر، والنور بالإضافة إلى الشمس، فإن الكل من آثارِ قُدرته، ووجود الكل تابع لوجوده، كما أن وجود النور تابعٌ للشمس ووجود الظلِّ تابع للشجر.

وإذا كان حبُّ الإنسان نفسَه ضرورياً، فحبُّه لمن به قوامه أولاً ودوامُه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضِه أيضاً ضروري إن عرف ذلك، ومن خَلا عن هذا الحبِّ فلأنه اشتَغل بنَفسهِ وشَهواته، وذَهِلَ عن ربِّه وخالِقِه فلم يعرفه حق معرفته، واقتصر نَظرُه على شَهواته ومَحسوسَاتِهِ وهو عالم الشهادة الذي تُشاركه البهائم في التنعم به والاتِّساع فيه دون عالم المَلَكوت الذي لا يَطأ أَرضَه إلا من يَضرب إلى شَبَهٍ من الملائكة، فينظر فيه بقَدر قُربه في الصِّفات من الملائكة ويقصر عنه بقَدر انْحِطاطِه إلى حَضيض عالم البهائم.

وأما السبب الثاني: وهو حبُّه مَنْ أَحسن إليه فَواساه بمالِه ولاطَفَه بكماله،

وأَمدَّه[١] بمعونته وانتدبَ لنُصرته وقَمَع أعداءَه وانتهضَ وَسيلةً إلى جميع أَغراضه، فإنه محبوب لا محالةَ عنده، وهذا بعَينهِ يقتضي أن لا يحبّ إلا الله، فإنه لو عرفه حقَّ المعرفة لعلم أن المحسنَ إليه هو اللهُ تعالى فقط، فأما أنواع إحسانه إلى كلِّ عَبدٍ لا يُحيطُ بها حصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد أشرنا إلى طَرفٍ من هذا في كتابِ الشُّكرِ، ولكِنَّا نَقتصر الآن على بيان أن الإحسانَ من الناس غير مُتصوّر إلا بالمجاز، وإنما المحسنُ هو الله تعالى، ولنَفْرِض ذلك فيمن أنعمَ عليكَ بجميع خَزائنه ومكَّنك منها لتصرف كيف شئت، فإنك تظنُّ أن هذا الإحسانَ منه، وهو غلطٌ، فإنه إنما تمَّ أحسانُه به وبماله وبقُدرته على المال وبداعيته الباعِثَة له على صرف المال إليك، فمن الذي أنعم بخلقه وخَلْقِ ماله وخَلْقِ قدرته وخلق إرادته وداعِيته؟ ومن الذي حَبَّبَكَ إليه وصرفَ وَجههُ إليكَ وألقَى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك؟ ولولا ذلك لما أعطاكَ، فكأنه صار مَقهوراً في التَّسليم لا يستطيع مخالفتَه، فالمحسنُ هو الذي اضطرَّه وسَخَّره لكَ، وسلَّطَ الدّواعي الباعثة له المُرهقة إلى الفعل، وأما يَدُه فواسطةٌ يصل بها إحسانُ اللهِ إليكَ، وصاحب اليَدِ في ذلك مضطرٌّ اضطرارَ مجرى الماء في جَريان الماء فيه، فإن اعتقدتَه مُحسِناً أو شَكرته من حيثُ هو في نفسه محسنٌ لا من حيثُ هو واسطةٌ كنتَ جاهلاً بحقيقةِ الأمر، فإنه لا يُتصور الإحسان من الإنسان إلاّ إلى نَفسه، أما الإحسانُ إلى غَيره فمحالٌ من المخلوقين؛ لأنه لا يبذل ماله إلا لغَرضٍ له في البَذل، إمّا آجِلٌ وهو الثَّواب، وإمّا عاجِل وهو المِنَّة والاستِسْخار أو الثَّناء أو الصِّيت والاشْتِهار بالسَّخاء والكَرم، أو جَذب قلوب الخَلق إلى طاعتِه ومحبَّتِه، وكما أن الإنسان لا يُلقي مالَه في البَحرِ إذ لا غَرضَ له، فلا يُلقيه في يد إنسانٍ إلا لغرضٍ له فيه، وذلك الغَرضُ هو مطلوبه ومقصودُه، وأما أنتَ فلستَ مقصوداً، بل يَدُكَ آلةٌ قد استَسْخَرها لقبضٍ منه ليحصل غَرضُه من الذّكرِ والثَّناء والثواب، فهو إذن مُحسنٌ إلى نَفسه ومعتاضٌ عما بذَله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من مالِه، ولولا رُجْحانُ

(١) تحرفت في الأصل إلى: «أمه»، والمثبت من الإحياء.

ذلك الحَظِّ عنده لما بذلَ من ماله لأجلك أصلاً، فإذن هو غير مُستحق للشُّكر والحب من وجهين:

أحدُهما: أنه مُضطرٌ بتَسليط اللهِ الدَّواعي عليه فلا قُدرةَ له على المُخالفة فهو جارٍ مَجرى خازنِ الأمير، فإنه لا يُرى محسناً بتسليم خِلعةِ الأمير إلى من خَلعَ عليه؛ لأنه من جهةِ الأمير مضطرٌ إلى الطاعةِ والامتثال لما يرسمه، ولو خَلاّه الأميرُ ونَفسه لما سلَّم ذلك، وكذلك كلُّ محسنٍ لو خَلاّهُ الله تعالى ونفسَه لم يبذل حَبَّةً من ماله حتى سَلَّطَ اللهُ الدّواعي عليه وألقى في نفسه أنَّ حظَّه في بَذل ذلك فيبذله.

والثاني: أنه مُعتاضٌ عمّا بَذله حَظّاً هو أَوْفَى عنده وأحبّ مما بذَلَه، فكما لا يُعدُّ البائعُ مُحسناً، لأنه بذل بعوضٍ هو أحب عنده مما بذله، فكذلك الواهب اعتاضَ الثَّوابَ والحمدَ والثناءَ أو غَرضاً آخر، وليس من شرطِ العِوضِ أن يكون عَيْناً مُتمولةً، بل الحُظوظ كلها أعواضٌ تُستَحقَرُ الأموالُ والأعيانُ بالإضافة إليها، فالإحسان في الجود، والجود هو بَذلُ المال من غير عِوَضٍ وحَظٍّ يرجع إلى الباذِل، وذلك مُحالٌ من غَير الله تعالى، فهو الذي أنعمَ على العالَمين وأحسنَ إليهم ولأَجلهم لا لحظٍّ وغَرضٍ يرجع إليه، فإنه يتعالى عن الأَغْراض، فلفظُ الجود والإحسان في حقِّ غيره كذبٌ أو مجازٌ، ومعناه في حَقِّ غيره مُحالٌ وممتنعٌ، فهو المنفردُ بالجودِ والإحسان والطَّولِ والامتِنان.

فإن كان في الطَّبع حُبُّ المحسِنِ فينبغي أن لا يُحبّ العارفُ إلا اللهَ تعالى إذ الإحسانُ من غيره محالٌ، فهو المستحقُّ لهذه المحبةِ، وأما غيره فَيَستحق المحبةَ على الإحسان بشرطِ الجَهل بمعنى الإحسان وحقيقته.

وأما **السبب الثالث**: وهو حبك المحسن في نَفسه وإن لم يَصل إليكَ إحسانُه، وهذا موجودٌ في الطِّباع، فإنه إذا بلغكَ خَبرُ ملكٍ عالمٍ عابدٍ عادلٍ، رَفيقٍ بالناس، مُتَلطف بهم، وهو في قُطرٍ بعيدٍ، وبلغكَ خبر مَلكٍ آخر ظالمٍ فاسقٍ شريرٍ في قُطرٍ بعيدٍ، فإنك تَجدُ في قلبكَ تفرقةً بينهما، فتجدُ مَيلاً إلى الأوّل ونُفرةً عن الثاني، مع أنكَ آيسٌ من خَيرِ الأول وآمنٌ من شَرِّ الثاني، لانقطاع طَمعِكَ عن التَّوغُّلِ إلى

بلادهما، فهذا حبُّ المحسن من حيث أنه مُحسنٌ فَقط، لا من حيث أنه محسن إليك، وهذا أيضاً يقتضي حبّ الله تعالى بل يَقتضي أن لا يحب غَيرُه أصلاً إلا من حيث أن يتعلّق منه بسببٍ، فإن الله تعالى هو المحسنُ إلى الكلِّ كافةً؛ أولاً بإيجادهم، وثانياً بتكميلهم بالأعضاء والأَسباب التي هي من ضروراتهم، (١وثالثاً بترفيههم وتَنعيمهم١) بخلقِ الأسباب التي هي في مَظانِّ حاجاتهم، وإن لم تكن في مظان الضّرورة، ورابعاً بتحميلهم بالمزايا والزوائِد التي هي مَظِنّة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم. ومثال الضروري من الأعضاء الرأس والقَلبُ والكَبد، ومثال المحتاج إليه العَين واليَدُ والرِّجل، ومثال الزِّينة استِقْواصُ الحاجِبَين وحُمْرَةُ الشَّفتين وتَلوُّنُ العينين إلى غير ذلك ممّا لَوْ فاتَ لم تَنْخَرِم به حاجة ولا ضرورة، ومثال الضروري من النِّعم الخارجةِ عن بَدن الإنسان الماء والغذاء، ومثال الحاجة الدواء واللَّحم والفواكه، ومثال المَزايا والزَّوائد خضرة الأشجار، وحسن أشكال الأنوار والأزهار، ولذائذ الفواكه والأَطعمة التي لا تَنْجَزِمُ بعدمها حاجة ولا ضرورة.

وهذه الأقسامُ الثلاثةُ موجودة لكل حيوان، بل لكل نباتٍ، بل لكل صِنْفٍ من أصناف الخَلق، فإذن هو المحسن، وكيفَ يكون غيره مُحسناً وذلك المُحسِنُ حَسَنَةٌ من حَسناتِ قُدرَتِه، فإنه خالق الحَسَن وخالق المُحسِن وخالق الإِحسان وخالق أسبابِ الإحسان، فالحبُّ بهذه العلَّة لغيره جهلٌ مَحضٌ، ومن عرف هذا لم يحب بهذه العلّة إلا الله تعالى.

وأما السبب الرابع: وهو حبُّ كل جَميلٍ لذاتِ الجمال لا لِحَظٍّ يُنالُ منه وراء إدراك الجَمال، فقد بيَّنا أن ذلك مجبولٌ في الطِّباع، وأن الجمال ينقسم إلى جمالٍ في الصورة الظاهرةِ المدرَكة بعينِ الرأس، وإلى جمالِ الصورة الباطنة المدرَكة بعين القَلب، ونُورِ البصيرة، فالأول يُدركه الصبيان والبَهائم، والثاني يختصُّ بدَركِهِ أربابُ القلوب، ولا يشاركهم فيه من لا يَعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، فكل جمالٍ فهو

(١-١) تحرفت في الأصل إلى: «بالتأثير فيهم وبنعيمهم»، والمثبت من الإحياء.

محبوب عند مدركِ الجمال غيرةً على جماله وجَلاله أن يطلع عليه إلا من سَبقت له الحُسنى.

وأما السبب الخامس: فهو المناسبةُ والمُشاكَلةُ؛ لأن شبه الشَّيء يَنجذب إليه، ولهذا يميل الصَّبيُّ إلى الصبيِّ والكَبيرُ إلى الكبير، والطير إلى نوعه، والعالِمُ إلى العالم، وإذا كانت المناسبةُ سببَ التَّحابِّ فليس بين الخَلائق والمخلوق مُناسبة إلا في تَخَلُّقِ العبدِ بأخلاقِ الحق من العِلم والبِرِّ والإحسان وإفاضة الخَير والرَّحمة والنَّصيحة والإرشاد إلى الحق، وإلى نحو هذا يرمز قولُه عليه الصلاة والسلام: «خَلَقَ آدمَ على صُورتِه»[(١)].

ثم كل من يحب مخلوقاً لسببٍ من هذه الأسباب المذكورة يُتَصوَّر أن يحب غيره لمشاركته إياه في موجب الحُبِّ، وليس الموصوف بالكمال الذي لا يُتصور لغَيره ولا يُشاركه فيه سواه إلا الله سبحانه، فبانَ بأنه مستحقٌّ لكَمالِ المحبَّةِ استحقاقاً لا يُسَاهَمُ[(٢)] فيه أَصلاً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١٢) (١١٢)، وأحمد (٧٣٢٣) و(٨١٧١)، والحميدي (١١٢١)، وأبو يعلى (٦٢٧٤)، وابن حبان (٥٦٠٥)، والبيهقي في السنن (٨/ ٣٢٧)، وفي الأسماء والصفات (ص٢٩٠). وقال ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٣): «ومعنى الخبر عندنا: إبانةُ فضل آدم على سائر الخلق، والهاءُ راجعةٌ إلى آدم، والفائدة من رجوع الهاء إلى آدم دون إضافتها إلى البارىء جلَّ وعلا، أنه جعل سببَ الخلق الذي هو المتحركُ النامي بذاته اجتماع الذكر والأنثى، ثم زوال الماء عن قرار الذَّكرِ إلى رحم الأُنثى، ثم تغير ذلك إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم إلى الصورة... ثم الخروج من قراره، ثم الرضاع، ثم الفطام، ثم المراتب الأُخَر إلى حلولِ المنيَّة به، هذا وصف المتحرك النامي من خلقه، وخلقَ اللهُ جلَّ وعلا آدم على صورته التي خلقه عليها وطوله ستون ذراعاً من غير أن تكون تقدمة اجتماع الذكر والأنثى، أو زوال الماء، أو قراره، أو تغيير الماء علقةً أو مضغة، أو تَجسيمه بعده، فأبانَ اللهُ بهذا فضلَه على سائر مَن ذكرنا مِن خلقِه بأنه لم يكن نُطفة فَعَلقة، ولا عَلقة فَمُضغة، ولا مُضغةً فرضيعاً، ولا رضيعاً ففَطيماً، ولا فَطيماً فشاباً، كما كانت هذه حالة غيره».

(٢) لا يُساهَم: لا يُشارَك.

بَيان أن أجلّ اللَّذّات وأعلاها مَعرفةُ الله سبحانه والنظرُ إلى وَجهه الكريم وأنه لا يُتَصوّر أن يُؤثِر على ذلك لذةً أخرى إلا مَن حُرِم هذه اللَّذَّة

اعلم أن اللَّذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامعٌ لجملةٍ من القوى والغرائز، ولكل قوةٍ وغريزة لذة، ولذتها في نَيلها لمقتضى طبعها الذي خُلِقَت له، فإن هذه الغرائز ما رُكِزَت في الإنسان عَبثاً، بل رُكِّبت كل قُوةٍ وغَريزةٍ لأمرٍ منَ الأمور، وهو مقتضاها بالطبع، فَغريزَةُ الغَضب خُلقت للتَّشفّي والانتقام، فلا جَرمَ لذَّتها في الغَلبةِ والانتقام الذي هو مُقتضى طبعها، وغريزة شَهوة الطَّعام خُلقت لتَحصيل الغِذاء الذي به القوام، فلا جَرمَ لذَّتها في نَيل الغِذاء الذي هو مُقتضى طَبعها، وكذلك لذة السَّمعِ والبَصر في الإبْصار والاستِماع، فلا تَخلو غريزةٌ من هذه الغرائز عن ألم ولذةٍ بالإضافة إلى مُدركاتها، فكذلك في القلب غريزة تُسمى النّور الإلهي، وقد تُسمَّى العقل، وتُسمَّى البصيرة الباطنة وتُسمَّى نور الإيمان واليقين، ولا مَعنى للاشتغال بالأسامي، فإن الاصطِلاحات مختلفة والضَّعيف يظن أن الاختِلاف واقعٌ في المعاني؛ لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ، وهو عكس الواجب، فالقلب مفارقٌ لسائر أجزاء البَدن بصفة بها يُدركُ المعاني التي ليست مُتخيَّلة ولا مُحَسَّة، كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالقٍ قديرٍ مدبرٍ حَكيمٍ موصوفٍ بصفاتِ الإلهية، وَلنُسَمِّ تلك الغريزة عَقلاً، فقد اشتهر اسمُ العَقل بهذا، وهذه الغريزة خُلقت ليُعلَمَ بها حقائق الأمور كلها، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذتها، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذَّتها، وليسَ يَخفَى أن في العلمِ والمعرفةِ لذةً حتى إن الذي يُنسب إلى العلم ولو بشَيء خسيسٍ يَفرحُ به، والذي يُنسَب إلى الجَهلِ ولو في شيء حقيرٍ يَغتمُّ به، وكل ذلك لفرطِ لَذَّةِ العلم وما يَستشعره من كمالِ ذاته به، فإن العلمَ من أخَصّ صفاتِ الربوبية وهو مُنتهى الكمال، ولذلك يرتاح الطَّبع إذا أُثنيَ عليه بالذكاءِ وغَزارةِ العلم؛ لأنه يَستشعر عند سَماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه، فَيُعجبُ بذلك ويَلْتذُّ به، ثم ليسَ لذةُ العلم بالحراثة والخِياطة كلذة العِلم بسياسة المُلكِ وتَدبير أمر الخَلق، ولا لذة العلم بالنَّحو والشِّعر كلذَّةِ العلم بالله تعالى وصفاتِه وملائِكته

ومَلكوت السماوات والأرض، بل لذةُ العلم بقَدر شرفِ العِلم، وشَرفُ العلم بقَدر شَرفِ المَعْلوم، حتى إن الذي يَعرف بواطن أحوال الناس ويَخبُرُ ذلك يَجدُ له لذَّةً، وإن جَهله تقاضاهُ طَبعهُ أن يفحصَ عنه، فإن علم بواطن أحوال رئيس البَلدِ وأسرارِ تدبيره في رئاستِه كان ذلك ألذَّ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاحٍ أو حائِكٍ، فإن اطَّلع على أسرارِ الوزير وتَدبيره، فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس، فإن كان خبيراً بباطن أحوال المَلكِ والسُّلطان الذي هو المستَولي على الوزير، كان ذلك أطيب عنده وألَذَّ من علمه بباطن أمور الوزير، وكان تَمدُّحه بذلك وحرصُه على البحث عنه أشدّ، وحبّه له أكثر؛ لأن لَذَّته فيه أعظم.

فبهذا استبانَ أن أَلذَّ المعارف أَشرفها، وشرفها بحسب شَرف المَعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأَشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها، وليتَ شِعري هل في الوجود شيءٌ أجَلّ وأعلى وأَشرف وأكمل وأَعظم من خالق الأَشياء كلها ومُكَمّلها ومُزيّنها ومُبدئها ومُعيدها ومدبرها ومرتبها، وهل يُتصور أن تَكون حَضرةٌ في المُلكِ والكَمال والجمال والبَهاء والجلال أعظم من الحَضْرة الربّانية التي لا يُحيطُ بمبادىء جَلالها وعجائب أَحوالها وصفُ الواصفين، فإن كنتَ لا تشكّ في ذلك، فلا ينبغي أن تشك في أن الاطّلاع على أسرار الرُّبوبية والعلم بتَرتيب الأمور الإلهية المحيطة بكلِّ الموجودات، هو أعلى أنواع المعارف والاطّلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها، وأَحرى ما تَسْتَشعِر النفوسُ عند الاتّصاف به كمالَها وجمالَها، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستِبشار.

وبهذا يتبيَّن أن العِلمَ لذيذٌ، وأن ألذَّ العلوم العلمُ بالله تعالى وصفاتِه وأفعالِه وتَدبيره في مملكته، فينبغي أن يعلم أن لذةَ المعرفة أقوى من جَميع اللَّذات، أعني لذةَ الشَّهوة والغَضب، ولذة جَميع الحواس الخمس، فإن اللَّذات مختلفةٌ بالنَّوع أولاً كمخالفة لذَّة الوِقاع للذَّة السَّماع، ولذة المعرفة للذَّةِ الرِّئاسة، وهي مختلفة بالضَّعْفِ والقوة، كمخالفة لذَّةِ الشَّبِق المُغتَلم[1] من الجماع للذة الفاترِ الشَّهوة، وكمخالفة لذَّة

(١) المغتلم: الهائج الشهوة.

النَّظر إلى الوَجه الفائِقِ الجمال للذَّة النَّظر إلى ما دونه في الجمال.

وإنما تُعرَفُ أَقوى اللَّذات بأن تكونَ مؤثرة على غيرها، فإن المخيَّر بينَ النَّظر إلى صورةٍ جميلةٍ والتَّمتع بمشاهدتها، وبينَ استِنشاقِ روائح طيبة إذا اختارَ النَّظرَ إلى الصُّور الجميلة عُلم أنها عنده ألَذّ من الروائح، وكذلك إذا حَضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعبُ بالشّطرنج على اللّعب وتركَ الأكل، فيعلمُ بذلك أن لذَّة الغَلبةِ في الشّطرنج أقوى عنده من لَذَّة الأكل، فهذا مِعيارٌ صادقٌ في الكَشفِ عن ترجيح اللّذات.

فنعودُ ونَقول: اللّذات تَنقسِمُ إلى ظاهرةٍ، كلذاتِ الحواسِّ الخمس، وإلى باطنةٍ، كلذَّة الرئاسة والغَلبة والكَرم والعلم وغيره إذ ليست هذه اللّذة للعين ولا للأنف ولا للأُذُن ولا للَّمس ولا للذَّوق، والمعاني الباطنة أغلب على ذَوي الكَمال من اللَّذات الظاهرة، فلو خُيِّرَ الرجل بين لذَّةِ الدَّجاج السَّمين واللَّوزينَج، وبين لَذة الرئاسة وقَهرِ الأعداء ونَيل درجة الاستيلاء، فإنْ كان المُخيَّر خَسيسَ الهِمَّةِ مَيّت القلب شديدَ البَهيميَّة اختارَ اللَّحمَ والحَلواء، وإن كان عَلِيَّ الهِمَّةِ كامِلَ العَقل اختارَ الرّئاسةَ، وهانَ عليه الجوعُ والصَّبر عن ضرورة القُوت أياماً كثيرة، فاختياره للرئاسة يَدل على أنها ألذّ عنده من المَطعومات الطَّيبة.

وكما أن لذَّةَ الرئاسةِ أغلب اللَّذات على من جاوزَ نُقصان الناقص الهمة، فلذة مَعرفة الله ومُطالعة جمال حَضْرة الربوبية والنَّظر إلى أسرار الأُمور الإلهية ألذّ من الرئاسة التي هي أعلى اللَّذات الغالبة على الخَلق، وهذا لا يَعرِفُه إلا مَنْ ذاقَ اللَّذَّتين جميعاً، فإنه لا محالةَ يُؤثر التَّبتُّلَ والتَّفرُّدَ والفِكر والذِّكر، وينغمس في بِحار المَعرفةِ، ويَترك الرئاسة، ويحتقر الخلق الذين يَرْأَسُهم لعِلمه بفناء رئاسته وفناء من عليه رئاسته، وكون ذلك مَشوباً بالكَدر، ومقطوعاً بالموت، وتَعظُمُ عنده مَعرفةُ الله تعالى ومُطالعةُ صفاتِه وأفعالِه ونظام مملكته، فإنها خاليةٌ عن المُزاحمات والمُكَدِّرات، متسعةٌ للمتواردين عليها لا تَضيقُ عنهم، فلا يزال العارفُ بمطالعتها في جنَّةٍ عرضُها السماوات والأرض يَرتَعُ في رياضها، ويَقطف من ثَمرها، ويَكرَعُ مِن حِياضِها، وهو آمِنٌ من انقِطاعها، إذ هي أَبديةٌ سَرْمَدِيَّةٌ لا يَقطعُها الموت؛ لأن

الموتَ لا يهدم محلَّ معرفة الله تعالى إذ محلها الرّوح الذي هو أمرٌ ربّاني، وإنما الموت يُغير أحوالها فأما أن يُعدِمها، فلا، فجميع أقطار ملكوت السَّماوات والأرض مَيدان العارف يَتَبوَّأ منه حيثُ يشاء من غَير حاجةٍ إلى أن يتحرك إليها بجسمِه، وهو في جنةٍ واسعةٍ، ولكلِّ عارفٍ مثلها من غَير أن يُضَيّق بعضُهم على بَعض أصلاً، إلاّ أَنَّهم يتفاوتونَ في سَعَةِ مُتَنزَّهاتِهم بقدر تَفاوتهم في اتِّساع نَظرِهم وسَعة معارفهم، وهم درجاتٌ عند الله، ولا يدخل في الحصر تَفاوت دَرجاتهم، فقد ظهر أن لذَّة الرئاسة، وهي باطنة، أقوى في ذوي الكمال من لذّات الحَواسِّ كلّها، وأن هذه اللَّذة لا تكون لبهيمةٍ ولا لصبيٍ ولا لمعتوهٍ، ولا يمكن إثباتُ هذا عند من لا قلبَ له؛ لأن القلبَ مَعدِنُ هذه القوة، كما أنه لا يمكن إثباتُ رُجْحانِ لذة الوِقاع على لذَّةِ اللَّعِب بالصَّولَجان عند الصِّبيان، ولا رُجحانه على لَذَّة شَمِّ البَنَفسَج عند العِنّين[1]؛ لأنه فقد الصِّفةَ التي بها تُدرَكُ هذه اللَّذة، ولكن مَنْ سَلِمَ من آفةِ العُنَّةِ وسَلمت حاسَّةُ شَمِّهِ أدرك التفاوتَ بين اللَّذّتين، وعند هذا لا يَبقى إلا أن يقال: مَن ذاقَ عَرَف.

ولعمري إن طُلاب العلومِ وإن لم يَشتَغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية، فقد استنشقوا رائحة هذه اللَّذة عند انكِشافِ المُشكِلات وانحِلال الشُّبهات التي قَوي حرصُهم على طلبها، فإنها أيضاً معارف وعلوم، وإن كانت معلوماتُها غير شَريفةٍ شَرَفَ المعلوماتِ الإلهية، فأمّا من طالَ فكرُه في معرفة الله تعالى وانكشَف له من أسرار مُلكِ اللهِ ولو الشَّيء اليَسير، فإنه يُصادف في قلبه عند حُصول الكَشفِ من الفَرح ما يكادُ يَطير به، ويتعجب من نفسه في ثباته، وهذا مما لا يُدرك إلا بالذَّوق والحِكاية فيه قليلة الجَدوى.

فهذا القَدر يُنَبِّهكَ على أن معرفةَ اللهِ تعالى ألذّ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها، ولهذا قالَ أبو سُليمان الدّاراني: إن لِلَّهِ تعالى عباداً ليسَ يَشغلهم عن الله عزَّ وجلَّ خوفُ النار ولا رجاءُ الجنَّة، فكيف تَشغلهم الدنيا عن الله؟

وقال بعضُ أصحابِ معروفٍ: قلتُ له: أيُّ شيءٍ أهاجَكَ إلى العبادة؟ فسكتَ.

---

(١) العِنّين: من أصابته علة فأصبح عاجزاً عن الجماع.

فقلتُ: ذِكرُ المَوت؟ فقال: وأيُّ شيءٍ الموت؟ فقلتُ: ذِكرُ القَبر؟ قال: وأي شيء القبر؟ فقلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأيّ شيءٍ هذا؟ إن مَلِكاً هذا كلُّه بيده إن أَحبَبْتَهُ أَنْساكَ جميع ذلك، وإن كانت بينكَ وبينه معرفةٌ كفاك جميعَ هذا.

أخبرنا يَحيى بن علي المُدير، قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن علي الخَياط قال: أخبرنا الحسن بن الحُسين بن حَمَكان قال: حدَّثنا أبو بكر محمد بن الحسن النَّقّاش قال: حدثنا محمد بن إسحاق السَّرّاج قال: سمعتُ أحمدَ بن الفَتح يقول: رأيتُ بِشْرَ بن الحارث في مَنامي، فقلتُ له: ما فَعلَ مَعروف الكَرخي؟ فحرك رأسه ثم قال لي: هَيهات حالَتْ بينَنا وبينَه الحُجُب، إن معروفاً لم يَعُبدِ الله شَوقاً إلى جَنَّتِه، ولا خَوفاً من نارِه، وإنما عَبده شَوقاً إليه، فرفَعه اللهُ تعالى إلى الرَّفيق[1] الأعلى، ورفَع الحُجُبَ بينَه وبينه.

وقالت رابعةُ العَدويَّة[2]: ما عَبدتُه خوفاً من ناره ولا حُبّاً لجَنَّتِهِ، فأكون كأَجير السُّوء، بل عَبدتُه حباً له وشَوقاً إليه.

وكانت امرأةٌ من العابدات تَقول:

أُحِبُّكَ حُبَّينِ حُبَّ الهَوى ... وحُبّاً لأَنَّكَ أَهْلٌ لِذاكا
فأمّا الّذي هُو حُبُّ الهَوَى ... فَشُغْلي بِذِكْركَ عَمَّنْ سِواكا
وأمّا الذي أَنْتَ أَهلٌ لَهُ ... فَكَشْفُكَ للحُجْبِ حتَّى أَراكا
فما الحَمْدُ في ذَا وَفي ذاكَ لي ... ولكنْ لكَ الحَمدُ في ذَا وَذاكا[3]

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الرفيع».

(٢) هي رابعة بنت إسماعيل البصرية العدوية، مولاة آل عتيك، من العابدات الزاهدات توفيت سنة ١٣٥هـ وقيل: ١٨٠هـ. ودفنت ببيت المقدس. سير أعلام النبلاء (٨/ ٢١٥)، وصفة الصفوة للمصنف (٤/ ٢٧).

(٣) تُنسب هذه الأبيات لرابعة العدوية في الكثير من المصادر. الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: ٣٣١.

وإنما أرادت بحبِّ الهَوى حبّ الله لإحسانه وإنعامه بحُظوظ العاجلة، وأرادت بالحب الذي هو أهلٌ له الحبَّ لجماله وجَلاله.

ومتى حصلت مَحبةُ الله لشخصٍ صار القلبُ مستغرقاً بها فلو أُلقي في النار لم يُحسَّ بها، ولو عرضَ عليه نعيم الجنَّة لم يلتفت إليه لكمال نَعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فَوقها غاية، وليت شِعري من لا يَفهم إلا حبّ المُحَسّات كيف يُؤمن بلذة النَّظر إلى الله تعالى وَما له صورةٌ ولا شَكل، وأيّ معنى لوَعدِ الله تعالى به عبادَه وذكره أنه أعظم النِّعم، بل مَن عرفَ الله عرفَ أنّ اللذات المُفرَّقة بالشَّهوات المختلفة كلها تَنطوي تحتَ هذه اللّذة، كما قال بعضُهم:

كانت لقلبي أهواءٌ مُفرَّقةٌ فاستَجْمَعَتْ مُذْ رَأتْكَ العَينُ أَهْوائي
فَصَارَ يحسُدُني مَن كنتُ أَحسُدُهُ وصِرتُ مَوْلَى الوَرى مُذْ صِرتَ مولائي
تركتُ للناس دُنْياهم ودينَهمُ شُغْلاً بذكركَ يا ديني ودُنْيائي

وكذلك قال بعضُهم:

وهَجرُهُ أَعظَمُ مِنْ نارِه وَوَصلُهُ أعظَمُ مِنْ جَنَّتِه

وما أرادوا بهذا إلا لَذَّة القلب في معرفةِ الله تعالى، وتفضيلها على لذَّة الأكل والشُّرب والنِّكاح، فإن الجنة مَعدِنُ تَمتُّعِ الحواس، فأما القلبُ فلذَّتُه في لقاءِ الله فقط.

ومثالُ أَطوار الخَلق في لَذّاتِهم ما نذكُره، وهو أنَّ الصبيَّ في أول حركته وتَمييزه تَظهر فيه غَريزةٌ يَستلذُّ بها اللَّعبَ واللَّهو حتى يكون ذلك عنده ألذّ من سائر الأَشياء، ثم تَظهر بعده لذَّة الزِّينة ولبسِ الثِّياب وركوب الدواب، فيحتقر مَعَها اللَّعِبَ، ثم تظهر بعده لذَّةُ الوِقاع وشَهوةُ النِّساء، فيترك بها جميعَ ما قبلها في الوصول إليها، ثم تظهر لذةُ الرئاسة والعُلوّ والتّكاثُر، وهي آخِر لذات الدنيا وأغلبها وأقواها، كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم بعدَ هذا تظهر غَريزةٌ أُخرى يُدرك بها لذَّةَ معرفةِ الله تعالى ومعرفة أفعاله ليحتقر مَعها جميع ما قبلها، وكل متأخرٍ فهو أقوى، وهذا هو

الأخير، إذ يَظهر حبُّ اللعبِ في سِنِّ التَّميز، وحُبُّ النِّساء والزِّينة في سنِّ البُلوغ، وحبُّ الرئاسة بعدَ العِشرين، وحبُّ العلوم بقُربِ الأَربعين، وهي الغاية العُليا، وكما أن الصبيَّ يَضحكُ على من يَتركُ اللعب ويَشتغل بملاعَبة النِّساء وطلبِ الرّئاسة، فكذلك الرُّؤساء يَضحكون على من يَتركُ الرِّئاسةَ ويَشتغل بمعرفةِ الله تعالى، والعارفونَ يقولون: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٣٨ـ٣٩].

بَيان السبب في زيادة لذّة النَّظر في الآخرة على المعرفة في الدُّنيا

اعلم أن المدرَكات تنقسم إلى ما يَدخل في الخيال، كالصُّور والأجسام المُتَشكِّلةِ من أشخاصِ الحيوان والنَّبات، وإلى ما لا يَدخل في الخَيال، كذاتِ الله تعالى، وكل ما ليس بجسمٍ كالعلمِ والإرادةِ وغيرها، من رأى إنساناً ثم غضَّ بصره وجدَ صورتَه حاضرةً في خَياله كأنه يَنظر إليها، ولكن إذا فتح العينَ وأبصر أدركَ تَفرقةً بينهما، ولا ترجع التَّفرقة إلى اختِلافٍ بين الصُّورتَين؛ لأن الصورةَ المرئيةَ تكونُ موافقةً للمتخيّلةِ، وإنما الافتراقُ بمزيد الوضوح والكشف، فإن صورةَ المرئي صارت بالرؤيةِ أَتمّ انكشافاً ووضوحاً، وهو كشخصٍ يُرى في وقت الإسْفار قبل انتشار ضوء النهار، ثم رُئيَ عند تمام الضَّوء، فإنه لا فرق بين الحالتين إلا في مزيد الانكشاف.

فإذن الخيالُ أولُ الإدراك، والرؤية استكمال الإدراك، وهو غاية الكَشف، وإذا فهمت هذا في المتخيّلات فاعلم أن المعلومات لا تتشكَّل في الخيال أيضاً، بل لمعرفتها وإدراكها درجتان: إحداهما: أُولى، والثانية: استكمالٌ لها، وبين الثانية والأولى من التفاوت في مَزيدِ الكَشف والإيضاح ما بين المُتَخيَّلِ والمرئي، فيسمّى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول مُشاهدةً ولقاءً ورؤيةً، وهذه التسمية حقٌّ؛ لأن الرؤية سُمِّيت رؤيةً لأنها غاية الكَشف. وكما أن سنةَ اللهِ تعالى جاريةٌ بأن تطبيقَ الأَجفان يمنعُ من تمام الكَشف بالرؤية، ويكون حجاباً بين البصر والمرئي، ولا بدَّ من ارتفاع الحُجُب لحصول الرؤية، وما لم تَرتَفع كان الإدراكُ الحاصلُ مجرَّدَ التخيل، فكذلك

مقتضى سنة الله تعالى أَن النفسَ ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية، فإنها لا تَنتَهي إلى المشاهدة في المعلومات الخارجة عن الخيال، بل هذه الحياةُ حجابٌ عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار، والقول في سبب كونه حجاباً يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النَّفسُ وفيها نوعُ تَلوّثٍ بالدنيا، فإذا دخلوا إلى الجنةَ وقد صَفوا عن الأكدار تجلَّى الحق لهم تجلِّياً يكون انكشاف تَجلّيه بالإضافة إلى ما عملوه كانكِشافِ تجلّي المَرئيّات[١] بالإضافة إلى ما تُخيلّه.

وهذه المشاهدة والتَّجلِّي هي التي تُسمّى رؤية، وكل من لا يَعرف اللهَ في الدنيا لا يَراه في الآخرة، وما يستَأنف لأحدٍ في الآخرة ما لم يَصحبه في الدُّنيا ولا يَحصدُ أحدٌ إلا ما زَرَعَ، ولا يموت المرءُ إلا على ما عاش عليه، ولا يُحشَر إلاّ على ما ماتَ عليه، فما صَحِبه من المعرفة هو الذي يتنعَّمُ به بعَينه فقط، إلا أنه يَنقلبُ مشاهدةً بكَشْفِ الغِطاء، فَتَتضاعفُ اللذة به، كما تَتضاعَفُ لذةُ العاشِق إذا استبدل بخيالِ صورةِ المعشوق رؤية[٢] صورته، فإن ذلك هو منتهى لذَّته.

ونَضرب مثلاً لما ذكرنا، فنقول: لذةُ النَّظر إلى وجه المعشوق في الدنيا تَتفاوتُ بأسبابٍ:

أحدها: كمالُ حُسن المَعشوق ونُقصانه، فإنَّ اللَّذة في النظر إلى الأَجمل أكمل.

والثاني: كمال قوة الحُبِّ والشَّهوة والعِشق، فليس التِذاذُ من اشتدَّ عِشقُهُ كالتِذاذِ مَنْ ضَعُفَتْ شَهوته وحُبُّه.

والثالث: كمال الإدراك، فليس التذاذُة برؤية المعشوق في ظُلمةٍ أو من وراءِ سِتْرٍ أو من بُعدٍ، كالتِذاذِه بإدراكه على قُربٍ من غير سِتر، وعند كمال الضوء، ولا إدراكُ لذَّةِ المُضاجعةِ من ثَوبٍ حائلٍ كإدراكها مع التَّجرد.

---

(١) في الإحياء: «المرآة».

(٢) في الأصل: «لرؤية» والمثبت من الإحياء.

والرابع: اندفاع العَوائق المُشوِّشَةِ والآلام الشَّاغِلة للقَلب، فليس التذاذُ الصَّحيح الفارغِ المتجرّدِ للنظر إلى المعشوق، كالتذاذ الخائفِ المَذْعور، أو المريض المتألّم، أو المشغول قلبه بمُهمٍّ من المهمّات، فَقَدِّرْ عاشقاً ضعيفَ العِشْقِ ينظر إلى وَجْهِ مَعْشوقِه من وَراء سِتر رقيقٍ على بُعدٍ بحيث يمنع انكشافَ كُنْهِ صورتِهِ في حَالةٍ اجتمعَ عليه فيها عقاربُ وزَنابير تُؤذيه وتلدغه وتَشغل قلبه، فهو في هذه الحالة لا يَخلو عن لذَّةٍ ما من مشاهدةِ معشوقه فلو طرأت فجأة حالةٌ انْهتَكَ بها الستر وأشرقَ بها الضَّوء واندفَعت المؤْذِيات فتفرَّغَ وهَجَمت عليه الشَّهوةُ القَويةُ والعِشقُ المفرطُ حتى بلغ أَقْصَى الغايات، فانظر كيف تَتَضاعف اللَّذة حتى لا يَبقى للأُولى إليها نسبة يُعتدُّ بها، فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لَذَّة المعرفة، فالسِّتر الرقيق مثال للبَدنِ، والاشتغال به والعقارب والزنابير مثال للشَّهوات المسلَّطة على الإنسان من الجوع والعَطش والغَضَب والغَمّ والحُزن، وضَعفُ الشَّهوةِ والحُبِّ مثالٌ لقُصور النَّفس في الدنيا ونقصانها عن الشَّوق إلى المَلأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل سافلين، وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذَّة الرئاسة والتفاتِه إلى اللَّعب بالعصفور.

فالعارف وإن قويت في الدنيا معرفته، فلا يخلو عن هذه المُشَوّشات، ولا يُتصور أن يخلو عنها البتة، بلى قد تَضعف هذه العَوائق في بعض الأحوال ولا يدوم ذلك، فيلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذَّته بحيث يكاد القَلب يَنفطر لعظمته، ولكن يكون كالبرق الخاطف؛ لأن الشواغل والأفكار والخواطر تَعرضُ فتكدر، وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الدنيا، فلا تزال هذه اللذة مُنغَّصة إلى المَوت، وإنما العيش عيش الآخرة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

إلا أن عيش الآخرة بقدر المعرفة في الدنيا، فهي بذر يُزرع في دار الدنيا في صَعيد القَلب، ويُحصَد في الآخرة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إن من السَّعادة أن يَطول عمر العَبد وأن يَرزقه الله عزَّ وجلَّ الإنابَة» وسُئِلَ عليه الصلاة والسلام: أيّ الناس خَير؟ فقال: «مَن طال عُمره وحَسُنَ عَمله»، وهذا لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتَتَّسع في العمر الطَّويل بمداومة الفِكر، والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب، ويستدعي ذلك زماناً لا محالة.

فقد عرفتَ بما ذكرنا معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية، ومعنى لذة الرؤية، ومعنى كونها ألذ من سائر اللّذائذ عند أهل الكمال.

بَيانُ الأَسبابِ المُقَويَةِ لحبِّ اللهِ تَعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حُبّاً للهِ تَعالى، فإن الآخرةَ معناها القدوم على الله تعالى ودَرك سَعادة لقائه، وما أعظم نعيم المُحِبِّ إذا قَدِمَ على مَحبوبه بعد طولِ شوقه، وتمكَّنَ من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير مُنَغِّصٍ ولا مُكَدِّر ولا خوفِ انقطاع، إلا أنَّ هذا النَّعيم على قدر قوّةِ الحُبِّ، فكلما ازداد الحبُّ ازدادت اللَّذةُ، وأصلُ الحبِّ لا ينفكُّ عنه مؤمن؛ لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة.

وأما قُوة الحبِّ واستيلاؤه حتى ينتهي إلى الاستهتار، فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك لسببين:

أحدهما: قَطعُ علائق الدنيا وإخراج حُبِّ غَير الله من القَلب، فإن القلب مثل الإناء الذي لا يَتَّسِع للخَلِّ مثلاً ما لم يَخرج منه الماءُ، ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، وكمالُ الحب في أن يحبَّ الله عزَّ وجل بكل قَلبه وما دام يَلتفتُ إلى غيره فَزاويةٌ من قَلبه مشغولةٌ بغيره، فَبِقَدر ما يَشتغل بغير الله يَنقص منه حبُّ الله، وبقدر ما يَبقى من الماء في الإناء يَنقص من الخَلّ المَصبوب فيه، فأحدُ أَسْبابِ ضَعْفِ حُبِّ الله في القُلوب قُوةُ حبِّ الدنيا، وبقَدْر ما يأنس بالدُّنيا يَنقص أُنسُه بالله، كما أنه لا يقرب الإنسان من المَشرق إلا ويَبعد بالضّرورة من المَغرب، ولا يَطيب قلبُ امرأتِه بأمرٍ إلا ويَضيق به صدر ضَرَّتها، فالدنيا والآخرة ضَرَّتان، وسبيلُ قلعِ الدنيا من القلب سُلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخَوف والرَّجاء، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصَّبر والزُّهد والخَوف وغير ذلك هي مقدمات ليكتسب بها أحد رُكنَي المحبة، وهو تخلية القَلب عن غير الله تعالى، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم يَتَشعَّبُ منه الرجاء والخوف، ويَتشعَّبُ منهما التَّوبة والصَّبر ثم ينجرُّ ذلك إلى الزُّهدِ، فيحصل من جميع ذلك طهارة القَلب

من غير الله حتى يتَّسعَ لنُزولِ مَعرفته ومحبَّته، فكل ذلك من مقدمات تَطهير القلب، وهو أحد ركني المحبة.

والسبب الثاني: لقوة المحبة: قوة معرفة الله تعالى واتّساعها واستيلاؤها على القَلب، وذلك بعد تطهير القلب من جميع الشَّواغل الدنياوية، وعلائقها تجري مجرى وَضع البذر في الأرض بعد تَنقيتها من الحشيش، وهو الشطر الثاني، ثم يتولّد من هذا البذر شَجرة المحبة.

وإذا حَصلت المعرفةُ تَبِعتها المحبة، كما أن المعتدل المِزاج إذا أبصر الجَميل وأدركه بالعَين الظاهرة أحبه، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شَواغل الدنيا من القَلب إلا بالفِكْرِ الصافي، والذّكرِ الدائم، والتَّشمير في الطَّلب، والاستدلال عليه بأفعاله، وأقل أفعاله الأرض وما عليها بالإضافة إلى الملائكة ومَلكوت السماوات.

والشَّمسُ على ما يُرى من صغرِ حَجمها مثل الأرض مئةً ونَيّفاً وستّينَ مرةً، فانظر إلى صغَر الأرضِ بالإضافَةِ إليها، ثم انظُر إلى صِغَر الشَّمس بالإضافة إلى فَلكِها التي هي مَركوزةٌ فيه فإنه لا نسبة لها إليه، وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فَوقها من السماوات، ثم السماوات السَّبع في الكُرسي كحلَقة في فَلاةٍ، والكُرسي في العرش كذلك، ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التُّراب الذي هو جزءٌ من الأرض وإلى سائر الحيوات، وإلى صِغَره بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تَعرفه من الحيوان البَعوض، فانظر في البعوض بعَقلٍ حاضرٍ وفكرٍ صافٍ كيفَ خلقه الله عزَّ وجلَّ على شكلِ الفيل الذي هو أعظم الحيوانات وزادَه الجناحين، وانظر كيفَ شقَّ سَمعَه وبَصره ودَبَّر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاتِه ما دبَّره في سائر الحيوانات من القوى الجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة، وانظر كيف خلقَ له عينين يُبصر بهما مواضع غِذائه، وكيفَ خلق له الخُرطوم المحدَّد يَضعه على مَسَامِ البَدَن فيمصّ به الدَّم، وانظرِ كيفَ خلقَ له آلَةَ الطَّيران إذا طُلِبَ وانظر إلى حَدَقة كل حيوانٍ صغيرٍ لمّا لم تَحتَمل حَدَقته الأجفانَ لصغره، وكانت الأجفان مُصْقِلةً لمرآةِ الحَدَقَةِ عن القَذى والغُبار خلقَ للبعوضِ وللذباب يدين، فتَنظر

إلى الذُّباب فتَراه على الدّوام يَمسح حَدَقته بيديه، إلا أنَّ بَصرَ البعوض ضَعيف فإذا رأَت النار ظَنَّت أنها في بيتٍ مُظلم فتَذهب إلى الضَّوء فَتَحترق، وليس حالها بعجيب فإنها لا تَعلم، إنما العَجب إلقاءُ الآدمي نفسَه في نارِ جهنَّم بالمعاصي، وأما الإنسان والحيوان الكبير، فإنه خلق لحدقته الأَجفان حتى يَنطبق أحدُهما على الآخر، وأطرافهما حادَّة فتَجمع الغبار الذي يَلحق الحدقةَ وتَرميه إلى أطرافِ الأَهداب، وخَلق الأهدابَ السُّودَ لتَجمع ضَوء العين وتُعين على الإبصار وتُحَسّن صورة العَين، واشتِباكُها يمنع دخولَ الغُبار ولا يَمنع الإبصار.

ولو نَظرتَ إلى النَّحلِ في تَناولها الأَزهار والأَنْوار(١) واحترازِها عن الأَقْذار، وطاعتِها لأكبرها شَخصاً حتى إنه لَيَقتُل منها كلّ ما وردَ عليه وقد أكل مُستقذَراً، ثم انظر إلى اختيارها من جُملة الأشكال الشَّكلَ المُسَدس، ولا تَبني بيتاً مُستديراً ولا مُربعاً ولا مُخَمّساً بل مُسدَّساً لخاصيَّةٍ في شكل المُسدَّس يَقصر فَهمُ المهندسِ عن إدراكها، وهو أن أوسع الأشكال وأَحواها المُستديرة وما يقرب منها، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة، وشكل بيت النَّحل مستديرٌ مُستطيل، فَتركَ المربع حتى لا تَضيع الزوايا فتبقى فارغة، ثم لو بناها مُستديرةً لبقيت خارج البيوت فُرَجٌ ضائعةٌ، فإن الأشكال المُستديرة إذا جُمِعت لم تُجمَع مُتراصَّةً، ولا شَكل في الأشكال ذَواتِ الزَّوايا يقرب في الاحتواء من المُستدير ثم يتراصُّ الجُملةُ منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فُرجةٌ إلا المُسدَّس، وهذه خاصِّيَّةُ هذا الشكل، فانظر كيفَ ألهمَ الله سبحانه النَّحلَ على صِغَر جُرْمِه فعلَ ذلك لتهيئةِ عَيشه.

فاعتبر بهذه اللُّمعة اليَسيرة من مُحقّرات الحيوانات، فإن القَدر الذي بلغَه فَهُمنا القاصِر منه تَنقضي الأَعمار دون إيضاحه، وهو يسير بالإضافة إلى ما أحاطَ به العلماء والأَنبياء، ثم علوم الخلق كلهم ليست بالإضافة إلى علم الحقِّ سُبحانه بشيءٍ، وبالنظر في هذا وأمثاله تَزدادُ المعرفةُ، وبزيادة المَعرفةِ تَزداد المحبَّة.

---

(١) الأنوار: جمع نَور، وهو الزَّهر.

بَيان السَّبب في تفاوت النّاس في الحُبِّ

اعلم أن المؤمنين مُشتركون في أصلِ الحبِّ لكنهم يتفاوتون لتفاوتهم في المعرفة، وأكثر الناس ليس لهم من معرفة[1] اللهِ تعالى إلا الصِّفات والأَسماء التي قَرَعت أسماعَهم.

ونَضْرِبُ لتَفاوت الحُبِّ مثلاً فنقول: أصحابُ أحمد بن حنبل مَثلاً أو أصحابُ الشافعي يَشتركون في حبِّه، الفُقهاءُ والعوامُّ لأنهم قد عرفوا فَضله ودينَه وحُسنَ سيرتِه، ولكن العاميَّ يَعرف علمه مُجْملاً، والفَقيه يعرفه مُفَصلاً، فتكون معرفةُ الفقيه به أَتَمّ، وإعجابه به وحُبّه له أشدّ، فإنَّ من رَأى تصنيف مُصنِّفٍ فاستَحسَنَهُ وعرفَ به فَضله أحبَّه لا محالةَ، ومالَ إليه قلبُه، فإنْ رأى تَصنيفاً آخر أحسنَ منه وأعجبَ تضاعفَ حُبُّه لذلك الشَّخص؛ لأن معرفته بعلمه تَضاعَفت، والعامي يَسمعُ أن فُلاناً مُصنف، وأنه حَسَن التَّصنيف، ولكن لا يَدري ما في التَّصنيف، فتكون محبَته لذلك الشَّخص مُجملة، والعالم إذا نظر في تَصانيفه تضاعفَ حبُّه، لأن حُسن التَّصنيف والصِّناعة يدلُّ على كمالِ صفاتِ الفاعل، والعالَم بجُملته صُنعُ اللهِ وتصنيفه، والعامي يعلم ذلك ويعتقده والعالم البصير يطالع تفصيل صُنع الله تعالى حتى يرى في البعوضِ مثلاً من عجائب صُنعه ما يَنبهرُ به عَقلُه ويتحيَّر فيه لُبُّه، ويزداد له حباً، وكلّما ازدادَ على أعاجيبِ الله اطِّلاعاً استَدلَّ بذلك على عَظمةِ الصانع وجَلاله، وازداد به معرفةً وله حُبّاً.

وبَحرُ هذه المعرفة ـ أعني عجائب صنع الله تعالى ـ لا ساحلَ له، فلا جَرمَ تَفاوتُ أهل المعرفة في الحبِّ لا حَصر له، ومما يَتفاوت بسببه الحبُّ اختلافُ الأَسباب الخَمسة التي ذكرناها للحب، فإن مَن يُحب الله تعالى مثلاً لكونه مُحسناً إليه مُنعماً عليه، ولم يحبه لذاتِه ضَعُفت محبَّته إذْ تَتَغيَّر بتَغيُّرِ الإحسان، فلا يكون حبُّه في حالةِ البَلاء كحبِّه في حالة النَّعماء، وأما من يُحبه لذاتِه ولأنه مُسْتَحق للحبِّ بسبب كمالِه

(١) سقطت من الأصل، واستُدركت من المختصر.

وجَمالِه، فإنه لا يتفاوت حبُّه بتفاوت الإحسان إليه، والتفاوت في المحبة سببٌ للتفاوتِ في سَعادة الآخرة.

بَيان السَّبب في قُصور أفهام الخلق عن مَعْرفة الله تعالى

اعلم أنّ أظهر الموجودات وأَجْلاها هو اللهُتعالى، كما قال القائل:

لقد ظهرتَ فما تَخفىٰ على أَحَدٍ ... إلا على أكْمَهٍ لا يُبْصِرُ القَمَرا

وكان هذا يَقتضي أن تكون معرفته أوّل المَعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على المقول، وتَرى الأمرَ بالضِّد، فلا بُدَّ من بَيان السَّبب فيه.

وإنما قُلنا: إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنىً لا يُفهَمُ إلا بمثال، وهو: أنَّا إذا رَأينا إنساناً يكتبُ أو يَخيط مَثلاً كان كونُه حَيّاً عندنا من أظهر الموجودات، فحياته وعِلمُه وقُدرته وإرادته للخِياطة أجلّ عندنا من سائرِ صفاته الظاهرة والباطنة، إذْ صفاتُه الباطنة كشَهوته وغَضبه وخُلُقِه وصحَّته ومَرضه وكلّ ذلك لا نَعرفه، وصفاته الظّاهرة لا نَعرفُ بَعضَها وبعضها نَشكُّ فيه كمِقْدار طولِه واختلافِ لون بَشَرتِهِ وغير ذلك من صفاته، فأما حياتُه وقُدرته وإرادته وعلمُه وكونُه حَيواناً، فإنه جلِيٌّ عندنا من غير أن يتعلق حِسُّ البَصر بحياته وقُدرته وإرادته، وإن هذه الصفات لا تُحسُّ بشيءٍ من الحَواس الخَمس، ثم لا يمكن أن نَعرف حياتَه وقُدرته وإرادته إلاّ بخياطَتهِ وحركته، فَلو نظَرنا إلى كلّ ما في العالم سواه لم نَعرف به صفته، فما عليه إلا دَليلٌ واحد وهو مع ذلك جَليٌّ واضحٌ، ووجود الله وقُدرتُه وعِلمُه وسائرُ صفاتِهِ يَشهد له بالضّرورة كلّ ما نُشاهِده ونُدركه بالحواسّ الظاهرة والباطنة من حَجَرٍ ومَدرٍ ونَباتٍ وشَجرٍ وحَيوانٍ وسَماءٍ وأَرضٍ وكوكبٍ وبَرٍّ وبَحرٍ ونارٍ وهَواء وجَوهرٍ وعَرَضٍ، بل أَول شاهدٍ عليه أنفُسنا وأَجسامُنا وأوصافُنا وتَقلُّبُ أحوالنا وتَغيّر قلوبنا، وجميع أَّطوارنا في حركاتنا وسكناتنا، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم مَحسوساتنا بالحواس الخَمس، ثم مدركاتنا بالعَقل والبَصيرة.

وجميعُ ما في العالم شَواهدُ ناطقةٌ وأدلةٌ شاهدةٌ بوجود خالِقها ومُدَبرها ومُصرِّفها

ومُحركها، ودالة على عِلمه وقُدرتِه ولُطفِه وحِكمته، والموجودات المُدرَكَةُ لا حَصرَ لها، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يَشهدُ لها إلا شاهدٌ واحدٌ وهو ما أَحْسَسْنا به من حركة يَده، فكيفَ لا يَظهر عندنا ما لا يُتصوَّر في الوجود شَيءٌ داخلَ نفوسنا وخارجها إلاّ وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله، إذ كل ذَرةٍ تُنادي بلسانِ حالها أنه ليس وجودها بنفسها، ولا حركتها بذاتها، وأنها تحتاج إلى مُوحدٍ ومُحرّك لها، يَشهد بذلك أولاً تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولُحومنا وأَعْصابنا ومَنابت شُعورنا وتَشكُّل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرةِ والباطنة، فإنا نعلم أنها لم تَأْتَلِفْ بأنفسها، كما نعلم أن يدَ الكاتب لم تَتحرك بنفسها فلما لم يَبقَ في الوجودِ شَيء إلا وهو شَاهدٌ ومُعرفٌ عِظم ظهوره، فانبهرت العُقول ودهشت عن إدراكه، فإن ما تَقصُرُ عن فَهمِه عُقولُنا فله سَبَبان:

أحدُهما: خَفاؤه في نَفسه وغُموضُه.

والآخر: ما يتناهى وضُوحُه، وهذا كما أن الخفاش يُبصر باللَّيل ولا يُبصر بالنَّهار لا لخفاءِ النَّهار واستِتارِه، ولكن لشدَّة ظهوره، فإن بَصَر الخَفّاش ضَعيف يبهره نورُ الشمس إذا أشرقت فيكون قوة ظُهور النَّهار مع ضَعْف بَصر الخَفاش سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضَّوء بالظلام وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضَعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستِنارة، وفي غاية الاستغراق والشّمول، فصار ظهوره سَبَبَ خفائِه، فسبحان من احتجبَ بإشراقِ نوره، واختَفى عن البصائر والأبصار بظُهوره.

ولا يُتعجَّب من اختِفاء ذلك بسبب الظُّهور فإن الأشياء تُسْتَبانُ بأضدادها، وما عمَّ وجوده حتى إنه لا ضِدَّ له عَسُرَ إدراكُه، فلو اختلفت الأشياء فدلَّ بعضُها دون بعضٍ أُدركَتِ التَّفرقة على قُرب، ولمّا اشتَركَت في الدلالة على نَسقٍ واحدٍ أشكل الأمر، ومثالُه: نور الشمس المشرق على الأرض، فإنا نعلمُ أنه عَرضٌ من الأعراض يَحدث في الأرض ويزول عندَ غيبة الشَّمس، فلو كانت الشَّمس دائمةَ الإشراق لا غُروبَ لها لكُنَّا نَظنُّ أن لا هَيأةَ في الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد والبَياض وغَيرهما، فإنا لا نُشاهد في الأسود إلا السَّواد وفي الأَبيض إلا البَياض، فأما الضَّوء فلا نُدركه

وحده، ولكن لما غابت الشَّمس وأَظلَمتِ المواضع أدركنا تَفرِقَةً بين الحالَين، فعلمنا أن الأجسام كانت قد اسْتَضاءَت بضَوئِه واتَّصَفت بصفةٍ فارقَتها عند الغروب، فعرفنا وجودَ النّور بعدمه، ولم نَطَّلع عليه لولا عَدمه إلا بعُسْرٍ شَديد، وذلك لمشاهدتنا الأجسام مُتشابهة غير مُختلفة في الظلام والنّور، هذا مع أنَّ النور أظهر المحَسّات، إذ بِه تُدرَكُ جميع المحَسَّات.

فانظر إلى ما هو ظاهر في نفسه وهو مُظهر لغيره كيفَ تُصوِّرَ استبهامُ أمره بسبب ظُهوره لولا طَرَيانُ ضدِّه، فالله تعالى هو أَظهر الأُمور، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عَدمٌ أو غَيبةٌ لبطَل المُلكُ والمَلكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به، وبعضُها موجوداً بغيره لأدركتَ التَّفرقةَ بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامّة في الأشياء على نَسقٍ واحدٍ، ووجوده دائم في الأَحوال يَستحيل خلافه، فلا جَرمَ أَورثت شِدَّةُ الظّهور خَفاءً.

فهذا هو السَّبب في قُصور الأفهام.

فأما من قَوِيَت بَصيرته ولم تَضعُف مُنَّتُه[١]، فإنه في حالِ اعتدال أمره لا يَرى إلا الله تعالى وأفعالَه، وأَفعالُه أثرٌ من آثارِ قُدرَتِه، فهي تابعةٌ له، فلا وجود لها بالحقيقة دُونَه، وإنما الوجود (للواحد الحق)[٢] الذي به وجود الأَفعال كلها، ومَن هذه حالُه فلا ينظر في شيءٍ من الأفعال إلا ويَرى فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل من حيث أنه سماءٌ وأَرض وحَيوان وشَجَر، بل ينظر فيه من حيث إنه صنعُ (الواحد الحق)[٣]، فلا يكون نظره مُجاوزاً له إلى غَيره، كمن نَظر في شِعْرِ إنسانٍ أو خَطِّهِ أو تَصنيفه فرأى فيه الشاعر والمصنف ورأى أثره من حيث إنه أثره، لا من حيث إنه حِبرٌ وعَفْصٌ وزَاجٌ[٤] مرقومٌ على بياضٍ، فلا يكون قد نَظر إلى عينِ المصنِّف.

وكلّ العالَم تصنيفُ اللهِ عزَّ وجلّ، فمن نَظر إليه من حيث إنه فِعلُ الله وعَرفَه من

(١) المُنَّةُ: بضم الميم: القوة.

(٢) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

(٣) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

(٤) العَفصُ والزاج: مادتان يُركّب منهما الحِبر.

حيث إنه فعلُ اللهِ، وأحبَّه من حيث إنه فعلُ الله لَم يكن ناظراً إلا في الله، ولا عارفاً إلا بالله، ولا مُحبّاً إلا لله، وكان هو المُوحّدُ الحق الذي لا يَرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نَفسه من حيث نفسه، بل من حيث إنه عَبد الله، فهذا الذي يُقال فيه: إنه فَنِيَ في التَّوحيد، وإنه فَنِيَ عن نَفسِه.

فهذه أمورٌ معلومةٌ عند ذَوي البصائر أشكَلت لضَعْف الأَفهام عن دَركِها وقُصُور قُدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارةٍ مفهمةٍ موصلة للغَرض إلى الأَفهام، أو باشتغالهم بأنفسهم، واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يَعْنيهم.

فهذا هو السَّبب في قُصُور الأَفهام عن مَعرفة الله تعالى، وانضم إليه أن المُدرَكات كلّها التي هي شاهدة على الله إنما يُدركها الإنسان في الصِّبا قَبل حضور العَقل عنده، ثم تَبدو فيه غَريزةُ العَقل قليلاً قليلاً، وهو مُستغرقُ الهمّ بشَهواته وقد أنِسَ بمُدركاته ومُحَسَّاتِه وأَلفها فَسقطَ وَقْعُها عن قَلبه بطول الأُنس، ولذلك إذا رأى فجأةً حيواناً غَريباً، أو نَباتاً ظريفاً، أو فعلاً من أفعال الله تعالى خلافاً للعادة عجيباً، انطلقَ لسانُه بالتَّعجب، فقال: سُبحانَ الله! وهو يَرى طول النَّهار نفسه وأعضاءَه وجميع الحيوانات المألوفة، وكلها شواهد قاطعة، ولا يُحِسُّ بشهادتها لطول الأنسِ بها.

ولو فُرِضَ أعمى بلغَ عاقِلاً، ثم انقَشَعتْ غشاوة عَينيه، فامتدَّ بَصرُه إلى السَّماء والأرض والأَشجار والنَّبات والحيوان دَفعة واحدة لخِيفَ على عقله أن يَنْبَهِرَ لعظم تعجبه من شَهادة هذه العجائب لخالقها.

فهذا وأمثالُه من الأسباب مع الانْهماكِ في الشَّهوات هو الذي سَدَّ على الخَلقِ سَبيلَ الاستِضاءَةِ بأنوار المعرفة والسِّباحة في بحارها الواسعة، فالناس في معرفة الله تَعالى كمن في يَده شيء وهو يَطلبه.

وقد بيّنا أن الجَليّات إذا صارت مَطلوبةً صارت مُعتاصةً.

بَيان مَعنى الشَّوق إلى الله تعالى

اعلم أنَّ من أنكر حَقيقة المحبَّة لله تعالى، فلا بُد أن يُنكر حقيقةَ الشَّوق، إذ لا يُتصور الشوق إلا إلى محبوب، ونحن نُثبت الشَّوق إلى الله تعالى، وكون العارف مُضطراً إليه بطريق الاعتبار والنَّظَر بأنوار البَصائر، وبطريق الأخبار.

فالاعتبار، فيكفي في إثباته ما سبقَ في إثبات الحبّ، فكل محبوبٍ يُشتاقُ إليه في غَيبته لا مَحالةَ، فأما الحاصلُ الحاضِرُ فلا يُشتاق إليه، فإن الشوق طلبٌ وتشوّقٌ لنيلِ أمرٍ، والموجود لا يُطلب، ولكن بيانُه أن الشوق لا يُتصور إلا إلى شيءٍ أُدرِكَ من وجه ولم يُدرَك من وجه، فأما ما لا يُدرَك أصلاً فلا يُشتاق إليه، فإن من لم يَرَ شَخصاً ولم يَسمع وَصفه لا يُتَصوَّر أن يَشتاق إليه، وما أدرك بكماله لا يُتصور أن يُشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، فمن كان في مُشاهدةِ محبوبه مُداوماً للنظر إليه لا يُتصور أن يكون له شَوق، ولكن الشوق أنما يتعلق بما أُدرك من وجهٍ ولم يُدرَك من وجه.

ولا يَنكشفُ إلا بمثالٍ من المُشاهدات، فنقول مثلاً: مَن غابَ عنه مَعشوقُه وبقي في قلبه خَياله، فإنه يشتاق إلى استِكمال خياله بالرؤية، فلو انْمَحى عن قَلبه ذِكره وخَياله حتى نَسيه لم يُتصور أن يَشتاق إليه، ولو رآه لم يُتصور أن يشتاق إليه في وقت الرؤية، فمعنى شَوقه تَشَوُّقُ نفسه إلى استكمال خَياله، وكذلك قَد يَراه في ظُلمةٍ بحيث لا تَنكشفُ له حقيقة صورته، فيشتاق إلى استكمال رؤيته، وتمام الانكشاف في صورته بإشراق الضَّوء عليه، وقد يرى وجه محبوبه ولا يَرى بعض محاسنه كشَعرِه مثلاً، فيشتاق إلى رؤية ذلك، وقد يكون ما رَأى ذلكَ من حَبيبه غير أنه يَعلم أن له محاسن جَميلة لم يُدركها بالرؤية، فيشتاقُ إلى أن ينكشف له ذلك.

والوجهان مُتَصوَّرانِ في حقِّ الله سبحانه وتعالى، ونحن نُبينُ فَنقول: ما اتَّضَح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كانت في غايةِ الإيضاح، فكأنه من وراء سِترٍ رقيقٍ، فلا يكون مُتَّضِحاً غاية الوضوح، بل يكونُ مَشوباً بشَوائب التَّخيلات، فإن التخيلات لا تَفتُر في هذا العالم عن التَّمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات، وهي مُكَدِّراتٌ

للمعارف ومُنَغِّصات، ثم يَنْضافُ إليها شَواغل الدُّنيا، وإنما كمالُ الوضوح بالمشاهدة، وتمام إشراق التَّجلي، ولا يكون ذلك إلا في الآخرة، وذلك بالضرورة يوجب الشَّوق، فإنه مُنتهى محبوب العارِفين، فهذا أحد نَوعي الشَّوق، وهو استكمال الوُضوح فيما اتَّضَحَ إيضاحاً ما.

والثاني: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يَنكشفُ لكل عبدٍ من العِباد بعضها وتبقى أمور لا نهاية لها غامضة، والعارف يعلم وجودها وكونها مَعلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غابَ عن علمه من المعلومات أكثر مما حَضَر، فلا يزال متشوّقاً إلى أن يَحصل له أصل المعرفة فيما لم يَحصل مما بَقي من المعلومات التي لم يَعرفها أصلاً، ولا معرفة واضحة ولا مَعرفة غامضة.

والشوقُ الأول يَنتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يُسمّى رؤية ولقاء ومُشاهدة، ولا يُتصور أن يَسكُنَ في الدنيا، وقد كان إبراهيم بن أدهم من المُشتاقين، فقال يوماً: يا رب، إن كنتَ أعطيتَ أحداً منَ المحبّين لكَ ما يَسكنُ به قُلبُه قبلَ لقائِكَ فأَعطِني، فقد أضَرَّ بي القَلَق. قال: فرأيتُه عزَّ وجلَّ في النوم فقال لي: يا إبراهيم، أما استَحييتَ من أن تَسألني أن أُعطيك ما يَسكنُ به قَلبك قَبل لقائي؟ وهل يسكنُ قلبُ المُشتاق قبل لقاء حَبيبه؟ فقلتُ: يا رب، تُهْتُ في حُبِّكَ فلم أَدْرِ ما أقول. فهذا الشَّوق يَسكُنُ في الآخرة.

فأما الشوق الثاني فيُشبه أن يكون لا نهاية له لا في الدنيا ولا في الآخرة أيضاً؛ لأن نهايته أن ينكشفَ للعبد من جَلال الله تعالى وصِفاتِه وحِكمته وأفعاله ما هو معلومٌ لله تعالى، وهو محال، لأن ذلك لا نهاية له، ولا يزال العبد عالماً بأنه قد بَقي من الجَلال والجَمال ما لم يَتَّضِح له، فلا يَسكن قَطُّ شوقُه، لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة، فهو يَتشوق[1] إلى استِكمال الوصال مع حصولِ أصل الوصال، فهو يجد لذلك شَوقاً لذيذاً لا يَظهر فيه ألمٌ، ولا يبعد أن تكونَ أَلْطافُ الكَشفِ والنَّظر متوالية إلى غَير نهاية، فلا يَزال النَّعيم واللَّذة متزايداً أَبَدَ الآباد،

(١) تحرفت في الأصل إلى: «للشوق».

وتكون لذة ما يَتَجدَّد من لَطائف النَّعيم شاغلاً عن الإحساس بالشَّوق إلى ما لم يَحصل، فهذا القَدْرُ من أنوار البصائر كاشِفٌ لحقائق الشَّوق ومَعانيه.

وأما شَواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تُحصى؛ أخبرنا هِبةُ الله بن محمد الشيباني قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا أبو بكر قال: حدثنا ضَمرةُ بن حَبيب عن أبي الدَّرداء عن زَيد بن ثابت أنّ رسول الله ﷺ علَّمه دُعاءً، وأمره أن يَتعاهَدَ به أهله كل يوم فذكر فيه: «أسألكَ اللهمَّ الرِّضا بعدَ القَضاء، وبَردَ العَيش بعد المَمات، ولذَّة نَظَرٍ إلى وَجهكَ، وشَوقاً إلى لِقائِكَ...»(١).

وفي التَّوراة: يَقول اللهُ عزَّ وجل: طالَ شَوقُ الأَبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشدُّ شَوقاً.

وقال تعالى في أخبار داود عليه السلام: إني خَلقتُ قُلوبَ المُشتاقين من نوري، ونَعَّمتُها بجلالي.

وفي بعض ما أَوحاه عزَّ وجلَّ إلى بعض من أَوحى إليه: إن لي عِباداً من عبادي يُحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاقُ إليهم، ويذكروني وأذكرهم، فإن حَذَوْتَ طريقهم أَحببتك، وإن عدلْتَ عنهم مَقَتُّكَ. قال: يا رب، وما علامتهم؟ قال: يُراعون الظِّلالَ بالنّهار كما يُراعي الراعي الشَّفيق غَنَمه، ويحنّونَ إلى غروب الشَّمس كما تحنُّ الطَّير إلى أَوكارها عند الغروب، فإذا جَنَّهُم اللَّيل واختلط الظلام وفُرِشَت الفُرش وخَلا كلُّ حَبيبٍ بحَبيبه، نصبوا إليَّ أقدامهم، وافتَرشوا لي وُجوههم، وناجوني بكلامي، وتَملَّقوني بإنعامي، فَبينَ صارخٍ وباكٍ، وبينَ مُتأَوِّهٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعد، وبين راكعٍ وساجد، بعيني ما يَتحمّلونَ من أجلي وبسَمعي ما يَشكون من حُبّي.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٦٦٦)، والطبراني في الكبير (٤٨٠٣)، والحاكم (١/ ٥١٦).

بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها

اعلم أن شَواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يُحب عبدَه، فلا بد من معرفة ذلك، ولنقدم الشّواهد على محبته: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٤]، ونَبَّه على أنه لا يُعذِّب من يُحبه إذ ردَّ على من ادّعى أنه حَبيبه بقوله: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ [المائدة: ١٨]، واشترط للمحبة غُفران الذنب، فَقال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنبوكم﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يقول: ما يزال عَبدي يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتى أُحِبّه، فإذا أَحْببتُه كنتُ سَمعَه الذي يَسمع به، وبَصره الذي يُبصر به، ويَده التي يَبطش بها، ورِجلَه التي يَمشي بها، ولئن سألني لأُعطينّه، ولئن استعاذَني لأُعيذنّه»[١].

وقد ذكرنا أن محبةَ العبد لله تعالى حَقيقةٌ وليست بمجازٍ، إذ المحبة في وضع اللِّسان عبارة عن مَيل النَّفس إلى الشَّيء الموافق، والعِشق عبارة عن المَيل الغالبِ المُفرطِ.

وقد بينّا أنَّ الإحسانَ موافقٌ للنَّفس، والجمال موافق أيضاً وأن الجمال والإحسان تارة يُدرَك بالبصر وتارةً بالبَصيرة، والحب يَتبع كل واحدٍ منهما، فلا يختص بالبَصر.

فأما حبُّ اللهِ تعالى للعبد فلا يمكن أن يكونَ بهذا المعنى أصلاً، بل الأسماء كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله تعالى لم تَنطلق عليهما بمعنى واحدٍ أصلاً حتى إنّ اسمَ الموجود الذي هو أعم الأسماء اشْتِراكاً لا يشمل الخالق والخَلق على وجهٍ واحدٍ، بل كل ما سِوى الله تعالى فَوجوده مُستفاد من وجود الله تعالى، والوجود التابع لا يكون مساوياً للوجود المَتبوع، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

وهذا التَّباعد في سائر الأسماء أظهر، كالعلم والإرادة والقُدرة، فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق المخلوق، وواضع اللغة إنما وضَعَ هذه الأسماء أولاً للخلق، فإن الخلق أسبق إلى العُقول والأَفهام من الخالق، فكان استعمالها في حقِّ الخالق بطريقِ الاستِعارة والتَّجوُّز والنَّقل.

والمحبة إنما هي في وَضع اللِّسان عبارةٌ عن مَيل النَّفس إلى موافقٍ ملائم، وهذا إنما يُتصور في نفسٍ ناقصة، فإنها تَلْتَذُّ بنَيلِ ما يُوافقها وتَستفيد بنَيله كمالاً، وهذا مُحالٌ على الله عزَّ وجل، فإن كل كمالٍ وجمالٍ وبهاء وجلال ممكنٌ في الإلهية، فهو حاضرٌ وحاصِلٌ وواجبُ الحصول أبداً وأزلاً، ولا يُتصوَّر تَجدُّده ولا زَواله، فلا يكون له إلى غَيره نَظر من حيث إنه غير، بل نظره إلى ذاته وإلى أفعاله، ولهذا قال بعضُ المشايخ: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ أي: يحبُّ نفسَه؛ لأنه ما أحبَّ إلا أفعالَه فما جاوز حبُّه ذاتَه وفعل ذاتِه، فهو إذن لا يُحب إلا نفسَه، وما وَردَ من الأَلفاظ في حُبِّه لعباده فهو مُتأوَّلٌ، ومعناه يرجع إلى إرادته القديمة التي أوجبت كشفَ الحجاب عن قلب العَبد حتى يتقرَّب من رَبِّه، وقولُه: «لا يَزال العبدُ يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافل حتى أُحبه» أي: حتى يكون تَقرُّبه بالنَّوافل سبباً في إصْفاءِ باطنه وارتفاع الحجاب عن قَلبه، وحصوله في دَرجةِ القُربِ من رَبِّه، وكل ذلك فِعل الله تَعالى ولُطفه بعَبده، فهو مَعنى حُبِّه.

ولا يُفهَمُ هذا إلا بمثالٍ، وهو: أن المَلِكَ قد يُقربُ عبدَه من نفسه ويأذن له في كل وقتٍ في حُضور بِساطهِ لميلِ المَلكِ إليه، إما ليَنصُرَه بقوّته، أو ليستريح بمشاهدته، أو ليَستشيره في رأيه، أو ليُهَيِّىء أسبابَ طعامه وشَرابِه، فيقال: إنَّ الملكَ يُحبه، ويكون معناه مَيلُه إليه لما فيه من المعنى الموافقِ الملائِم له، وقد يُقرِّبُ عبداً ولا يَمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به والاستنجاد، ولكن لكون العبد في نَفسه موصوفاً من الأخلاق المَرضيَّة والخِصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريباً من حَضرة المَلِك وافر الحظ من قُربه، مع أن الملك لا غرض لديه أصلاً، فإذا رفعَ الملكُ الحجابَ بينه وبينه قيل: قد أحبَّهُ، وإذا اكتسبَ من الخِصال الحميدة ما اقتضى رفعَ الحجاب، قيل: قد توصَّلَ وحبَّبَ نفسه إلى الملِك فحبُّ الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول، وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني

بشرط أن لا يَسبق إلى فَهمِكَ دخول تَغيرٍ عليه عند تجدد القُرب، فإن الحبيب هو القَريب من الله تعالى، والقُربُ[1] من الله تعالى يكون بالتَّخلُّقِ بمكارم الأَخلاق، فهو قربٌ بالصِّفة لا بالمكان، ومن لم يكن قَريباً فصار قريباً فقد تغيَّر، فربما يظن بهذا أن القُرب لما تجدَّد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً، إذ صار قريباً بعد أن لم يكن، وهو محال في حق الله عزَّ وجلَّ، إذ التَّغيرُ عليه مُحالٌ، بل لا يزال في نُعوتِ الجمال والكَمال على ما كان عليه في القِدَم.

ولا ينكشف هذا إلا بمثالِ القرب من الأشخاص؛ فإن الشَّخصَين قد يتقاربان بتحركهما جميعاً، وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيكون القُرب بتغيرٍ في أحدهما من غير تغير في الآخر، بل القُرب في الصِّفات أيضاً، كذلك فإن التلميذ يطلبُ القربَ من درجة أستاذه في كمال العلم وجَماله، والأستاذُ واقفٌ في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه، والتلميذ متحركٌ مُتَرَقٍّ من حَضيضِ الجَهل إلى ارتفاع العلم، فلا يزال دائباً في التَّغير والتَّرقّي إلى أن يَقرب من أستاذه، والأستاذ ثابتٌ غير متغير، فكذلك ينبغي أن يُفهمَ تَرَقِّي العبد في درجات القُرب، فكلّما صارَ أكملَ صفةً وأتمَّ علماً وإحاطةً بحقائق الأمور وأثبت قوةً في قَهرِ الشيطانِ وقَمعِ الشَّهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل صارَ أقرب من درجة الكمال.

ومُنتهى الكمال لله تعالى، وقربُ كل واحدٍ منَ اللهِ تعالى بقَدرِ كماله، إلا أنه قد يقدر التلميذ على القُرب من الأُستاذ وعلى مُساواته وعلى مُجاوَزته، وذلك في حق الله تعالى مُحالٌ، فإنه لا نهايةَ لكماله، وسلوكُ العبد في دَرجات القُربِ مُتَناهٍ إلى حَدٍّ مَحدود، فلا مَطمعَ له في بُلوغِه نَهايةَ الكمال، ولا في المساواة، ثم درجاتُ القُرب تَتَفاوت تَفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجلِ انتفاءِ النِّهاية عن ذلك الكمال.

فإذن محبةُ اللهِ تعالى للعبدِ تَقريبُه من نفسه بدفع الشَّواغل والمعاصي عنه، وتطهير باطنه عن كُدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قَلبه حتى يُشاهده كأنه يراه بقلبه.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «القريب»، والمثبت من الإحياء.

فإن قيل: فبمَ يَعرف العبدُ أنه حَبيبُ الله؟

فالجواب: أنه يَستدلُ بالعلامات، وقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الله إذا أحبَّ عَبداً ابتَلاه»(١). ومن أَقوى العلامات حُسنُ التَّدبير له، فتراه يَرُبُّه(٢) منذ الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، ويُنور له عقله فَيتبع كل ما يقربه إليه وينفر عن كل ما يبعده عنه، ثم يتولاّه بتَيسير أُموره من غير ذُلٍّ للخلق، ويُسدد ظاهره وباطنَه، ويجعل هَمَّه واحداً، فإن زادت المحبَّةُ شَغله به عن كلِّ شيء.

فلنذكر الآن علامات محبَّةِ العبدِ لله تعالى، فإنها أيضاً علاماتُ حبِّ اللهِ تعالى للعَبد.

القول في علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أنَّ المحبةَ يَدَّعيها كلّ واحدٍ وما أسهلَ الدعوى، وما أعزَّ المعنى، فلا ينبغي أن يَغْتَرَّ الإنسان بتَلبيس الشيطان وخِداع النَّفس إذا ادَّعَت محبَّةَ الله تعالى ما لم يَمتَحِنها بالعلامات ويُطالبها بالبراهين، والمحبةُ شجرةٌ أصلها ثابت وثمارها تَظهرُ على القَلبِ واللِّسان والجَوارح، وتدلُّ تلك الآثارُ(٣) الفائضة منها على القَلب والجوارح على المحبة دلالةَ الدُّخانِ على النار، والثِّمار على الأَشجار وهي كثيرة.

فمنها: حُبُّ لقاءِ الله تعالى في الجنَّة، فإنه لا يُتصور أن يُحب القلب محبوباً إلا ويحب مُشاهدته ولقاءَه، وهذا لا ينافي كراهةَ الموت، فإن المؤمن يَكره الموتَ، ولقاءُ الله تعالى بعدَ الموت يكون، وفي السَّلف من أحبَّ الموتَ؛ لأن لقاءَ الله تعالى يكون بعده، ومنهم من كَرِهَه لضعف محبَّته، أو كونها مَشُوبة بحبِّ شيءٍ من الدنيا، أو لحبِّ الولد والأهل، ومنهم من كَرهه مع قُوة محبته؛ لأنه يَرى ذُنوبَه فَيحبُّ أن يبقى ليتوب، كما قال أبو سُليمان الداراني: إني لأكرهُ الموتَ وأقول: أبقَى لعلّي أتوبُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨).

(٢) ربَّه: أي وَلِيَهُ وتعهَّدَهُ بما يغذيه ويُنميه ويُؤدبّه.

(٣) في الأصل: «الآيات»، والمثبت من الإحياء.

ومنهم من يَرى نفسه في ابتداءِ مقام المحبَّة فيكره عَجَلة الموت قبل أن يستعدّ للقاء الله تعالى، وهؤلاء كالمُحِبِّ الذي يصلُه الخبرُ بقدوم حَبيبه عليه، فيحبُّ أنْ يتأخَّر قدومُه ساعةً ليُهيِّيء له داره ويُعدَّ له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فارغَ القلب عن الشّواغل، خَفيف الظَّهر عن العَوائق، فالكَراهة بهذا السبب لا تُنافي كمال الحُبِّ أيضاً، وعلامةُ هذا الدُّؤوبُ في العَمل واستِغراق الهَمِّ في الاستِعداد.

ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبَّه الله تعالى على ما يُحبه في ظاهِره وباطنه، فيجتنبُ اتِّباعَ الهوى، ويُعرضُ عن دَعَةِ الكَسَل، ولا يزال (مواظباً على طاعة الله)[١]، ومُتقربا إليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدَّرجات، كما يَطلبُ المحبُّ مَزيدَ القُربِ في قلب مَحبوبه، فأما من استمرَّ على مُتابعة هَواه، فمحبوبه ما يَهواه، بل المحبُّ يترك هوى نَفسِه بمُراد حَبيبه، كما قال القائل:

أُريدُ وِصالَه ويُريدُ هَجْري فَأَتركُ ما أُريدُ لما يُريدُ

بل الحبُّ إذا غلبَ قمع الهَوى، فلم يبق تَنعُّم بغيرِ المحبوب، قال سَهل: علامةُ الحُبِّ إيثارُ الحبيب على النفس.

ثم إنَّ مَن أحبَّ الله تعالى لا يعصيه، قال ابنُ المبارك:

تَعْصِي الإلٰهَ وأنْتَ تُظهِرُ حُبَّهُ هذا لعَمري في الفِعال بَديعُ
لَو كانَ حُبُّكَ صادِقاً لأَطَعْتَهُ إنَّ المُحبَّ لمَنْ يُحبُّ مُطيعُ

إلا أنَّ العِصيان لا يُضادُّ أصلَ المحبةِ، إنما يُضادُّ كَمالها، فكم من إنسانٍ يُحبُّ الصحةَ ويأكل ما يَضرُّه مع علمه بأنه يَضره، وسببه أنّ المعرفةَ قد تَضعُفُ والشَّهوة قد تَغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبَّة، ويدلُّ عليه حديث نُعيمان[٢] أنه كان يُؤْتى به إلى رسولِ الله ﷺ فَيحدُّه[٣] إلى أن أُتيَ به يوماً فحدَّه، فلعنه رجلٌ وقال: ما أكثرَ

(١) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء والمختصر.
(٢) هو نُعيمان بن عمرو بن رفاعة الأنصاري رضي الله عنه، توفي في خلافة معاوية رضي الله عنه. الإصابة (٩١٣٧).
(٣) أي يُقيم عليه الحدَّ لما كان يُصيب من الشراب.

ما يُؤتَى به رسول الله ﷺ. فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تَلعَنْهُ، فإنّه يحبُّ اللهَ ورَسولَه»[١]. فلم يُخرجه بالمَعصيةِ عن المَحبَّة، وإنما تُخرِجُه المعصيةُ عن كمال المحبة.

ومنها: أن يكون مُسْتَهْتَراً[٢] بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانُه، ولا يَخلو عنه قلبه، فمن أحبَّ شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره وذكرِ ما يتعلق به، فعلامة حُبِّ الله تعالى حب ذكره وحبُّ القرآن الذي هو كَلامه، وحبُّ رسول الله ﷺ، وحبُّ كل ما يُنسَب إليه، فإن من يُحب إنساناً يحبُّ كَلْبَ مَحَلَّته، فالمحبة إذا قَويت تَعدَّت من المحبوب إلى كلِّ ما يكتنفُ بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه، وذلك ليس شَركة في الحب، فإن من أحبَّ رسولَ المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، فإنه ما جاوزَ حُبَّه إلى غيره، بل هو دليلُ كمال حُبِّه، ومن غلبَ حبُّ الله تعالى على قَلبه أحبَّ جميع خلق الله؛ لأنهم خلقُه، وكيف لا يحب القرآنَ والرسولَ ﷺ والصالحينَ، وقد ذكرنا تحقيقَ هذا في كتاب الأخوة والصُّحبة، ولذلك قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعض السَّلف: كنتُ قد وَجدتُ حلاوةَ المُناجاة، فكنتُ أُدمِنُ قراءةَ القُرآن، ثم لحِقَتني فَترةٌ، فانقطعت، فرأيت في المنام قائلاً يقول:

إنْ كُنتَ تَزعُمُ حُبِّي فَلِمْ جَفَوتَ كِتابي
أمَا تَدبَّرتَ ما فيهِ مِنْ لَطيفِ عِتابي

قال ابنُ مسعود: مَن يحب القرآن فهو يحب الله تعالى.

ومنها: أن يكون أُنسُهُ بالخَلوةِ ومُناجاةِ الله تعالى وتلاوة كتابه، فيواظب على التَّهجد، ويَغتنم هُدوءَ اللَّيل وصفاءَ الوقت بانقطاع العَوائق، فأقلّ درجات الحبِّ التَّلذُّذ بالخَلوة بالحبيب، والتَّنعُّم بمناجاته.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦) و(٦٧٧٤) و(٦٧٧٥) بذكر الحد فقط من حديث عقبة بن الحارث، وأخرجه (٦٧٨٠) من حديث عمر رضي الله عنه وذكر أن اسم الرجل عبد الله وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ.

(٢) أي مولعاً بذكر الله تعالى.

قيلَ لإبراهيم بن أدهم وقد نزلَ من الجبل: مِن أين أَقبلتَ؟ فقال: من الأُنس بالله عزَّ وجل.

وعلى قَدر الأُنس بالله تَعالى يَستَوحشُ من الخَلق، ومتى أَنِسَ بالخَلق نزل عن دَرجة المحبَّة لله بقَدر ذلك، وفي قِصَّة بُرْخ العابد الذي استَسقَى به موسى عليه السلام أن الله تعالى قال لموسى: إنَّ بُرْخاً نِعمَ العَبد إلا أن فيه عَيباً. قال: يا رب، وما عَيبه؟ قال: يُعجبه نَسيم الأَسحار فَيَسكُنُ إليه، ومَن أحبني لم يَسكُن إلى شيء.

وروي أن عابداً عَبَدَ الله تعالى في غَيْضَةٍ(١) دَهراً، فَنَظَرَ إلى طائرٍ قد عَشَّشَ في شَجرةٍ يَأوي إليها ويُصَفِّر عندها، فقال: لو حَوَّلتُ مسجدي إلى تلكَ الشجرة كنتُ آنس بصوتِ هذا الطائر، ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نَبيِّهم: قُل لفُلانٍ العابد: استأْنَسْتَ بمخلوقٍ! لأحطنَّكَ درجةً لا تنالها بشيءٍ من عَملك أبداً.

فإذن علامة المحبة كَمال الأُنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخَلوة، وكمال الاسْتيحاش من كل ما يُنغِّص عليه الخَلوة ويعوق عن لذَّة المناجاة.

وعلامةُ الأُنسِ أن يصير العقلُ والفَهم كلّه مستَغرقاً بلذَّةِ المناجاة، كالذي يُخاطب مَعشوقَه ويُناجيه، وقد انتهت هذه اللذَّةُ ببعضهم حتى كان في صلاته وَوقع الحريقُ في داره فلم يَشعُر به(٢).

ومتى غلب الحب والأُنس صارت الخلوة والمناجاة قُرة عين تدفع جميع الهموم، بل يَستغرقُ الأُنس والحُبُّ قلبَه حتى لا يَفهم أمور الدنيا ما لم تتكرر على سَمعِه مراراً، مثل العاشِق الوَلْهان، فإنه يُكلِّمُ الناسَ بلسانه وأُنْسُهُ في الباطن بذكر حَبيبه.

ومنها: أن يتأسَّف على ما يفوته مما سوى الله عزَّ وجلَّ، ويعظم تأسُّفه على

---

(١) الغَيضَة: المكان فيه شجرٌ كثيرٌ مُلتَف.

(٢) قيل: هو عروة بن الزبير، وقيل: إنه أصيبت رجله بمرضٍ فأرادوا قطعها، فعرضوا عليه أن يشرب شيئاً يُغيب عقله حتى لا يُحسَّ بالألم فأبى، وأمرهم أن يقطعوها وهو مستغرقٌ في صلاته. البداية والنهاية (١٢/ ٤٧٧-٤٧٨).

فَوْتِ كلّ ساعةٍ ضَلَتْ من ذكرِ الله تعالى وطاعتِه، فيكثر رجوعه عند ذكر الغَفَلات إلى الاستِعطاف والاسْتِعتاب والتوبة.

ومنها: أن يتنعَّم بالطَّاعة ولا يَستَثْقِلها، ويسقط عنه تَعَبها، كما قال ثابت البُناني: كابَدتُ الصلاة(١) عشرين سنة، وتنعَّمت بها عشرين سنة.

وقال الجُنَيد: علامةُ المحبَّة دوام النشاط والدّؤوبُ بشَهوةٍ يَفتُر بَدَنُه ولا يَفتُر قَلبُه.

وقال غيره: العمل على المحبةِ لا يدخله فُتور، وما اشْتَفَى مُحِبٌ للهِ من طاعته.

وكل هذا موجود المِثال في المُشاهدات؛ فإن العاشِقَ لا يَستَثْقِل السَّعيَ في هَوى مَعشوقه، ويَستلذُّ خِدمته بقَلبه وإن كان شاقاً على بدنه، وإذا عجز بدنه كان أحبّ الأشياء إليه أن تُعاوِدَهُ القُدرة وأن يُفارِقَه العَجز، فكل حبٍّ قاهر لا مَحالةَ، فمن كان محبوبه أحبّ إليه من الكَسَل تركَ الكَسَل في خدمته، وإن كان أحبّ إليه من المال تَركَ المال في حُبه، وكان بعضُ المحبِّين للهِ تعالى قد بذَل نفسَه ومالَه حتى لم يَبقَ له شيء، فَسُئِلَ عن سببِ ذلك، فقال: سمعتُ يوماً مُحِباً وقد خَلا بمحبوبه وهو يقول له: أنا واللهِ أُحبّكَ بقلبي كلّه، وأنتَ معرضٌ عني بِوَجهِك كلِّه. فقال له المحبوب: إن كنتَ تُحبني فأيّ شيءٍ تُنفقُ عَليَّ؟ فقال: يا سيدي أُمَلِّكُكَ ما أملِك، ثم أُنفِقُ روحي عليك حتى تَهلك. فقلتُ: هذا خَلْقٌ لخَلْقٍ، فكيفَ بعَبدٍ لمعْبودٍ؟ وكان هذا السبب(٢).

ومنها: أن يكون مُشْفِقاً على جَميع عبادِ الله تعالى، رحيماً بهم، شَديداً على أعدائِهِ، وعلى كلِّ مَن يُقارِفُ شيئاً يكرهه، كما قال عزَّ وجل: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تأخُذه في اللهِ لومَةُ لائم، ولا يَصرِفُه عن الغَضب له صارِفٌ، وقد وصفَ الله تعالى أولياءه في بعضِ كُتبه فقال: يَكْلَفونَ بحبِّي كما يَكلَفُ الصَّبيُّ بالشيءِ، ويأوونَ إلى ذِكرى كما تَأوي النُسور إلى أَوكارِها، ويغضبون

---

(١) في الإحياء: «الليل».

(٢) يعني سبب بذله نفسه وماله في حبِّ الله عزَّ وجل.

لمحارمي كما يَغضَبُ النَّمِرُ إذا حَرِبَ[1].

فانظُر إلى هذا المِثال، فإن الصبيَّ إذا كَلِف بالشَّيء لم يُفارقه أصلاً، فإنْ أُخِذَ منه لم يَكن له شغلٌ إلا البُكاء والصِّياح حتى يُرَدَّ إليه، إن نام أخذه معه في ثيابه، فإذا انتبه تمَسَّكَ به، ومتى وجده ضحك ومتى فارقه بَكى، ومَنْ أعطاهُ إيّاه أحبَّه، ومَن نازَعه فيه أبغَضه، وأما النَّمِر فإنه لا يَملك نفسه عند الغَضب حتى يبلغ من غَضبه أن يُهلكَ نفسه.

فهذه علاماتُ المحبة، فمن تمَّت فيه فقد تَمَّت محبتُه، وصَفا في الآخرةِ شَرابُه وعَذُبَ مَشْرَبُهُ، ومن امتزجَ بحُبِّه حبُّ غيرِ الله عزَّ وجلَّ تَنعَّمَ في الآخرة بقَدْرِ حُبِّه، فَيُمزجُ شَرابُه بشَيءٍ من شَرابِ المُقرَّبين، كما قال عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٣]، ثم قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٥-٢٨] وإنما طابَ شَرابُ الأَبرارِ بما شِيبَ[2] به من الشَّراب الصِّرفِ الذي هو للمقربين، فقوبِلَ الخالِصُ بالصِّرف، والمَشوبُ بالمَشوبِ، وشَوْبُ كلّ شرابٍ على قَدرِ ما سبقَ من الشَّوب في حُبِّه وأعماله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] فمن كان حُبُّه في الدنيا ورجاؤُه لنعيم الجنَّة والحورِ العين والقُصور مُكِّنَ منَ الجنَّة يَتبوّأ منها حيث يَشاء يَتمتَّع، ومن كان مَقْصَده رَبُّ الدار ولم يَغلب عليه إلا حبُّه بالإخلاص والصّدق أُنزلَ في مقعدِ صدقٍ عند مَليكٍ مُقْتَدر، والأبرار يرتعون في البَساتين، ويَتنعَّمون في الجِنان مع الحور والوِلدان، والمقرَّبون ملازمون للحَضْرة عاكِفون عليها يَحتقرون نعيمَ الجِنان بالإضافة إلى ذَرَّة منها، فأولئك بشَهوَتَي البَطن والفَرج مَشغولون، وللمجالَسةِ قَومٌ آخرون.

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً مُتَضائلاً تحتَ الهَيبة والتَّعظيم، وقد يظن أن

(١) حَرِبَ: اشتدَّ غضبه، وفي الإحياء: «حرد» وهما بمعنى.
(٢) شيبَ: خُلِطَ.

الخوف يُضاد الحبَّ، وليس كذلك، بل إدراكُ العَظَمة يوجب الهَيبة، كما أن إدراكَ الجمال يوجب الحبَّ.

ولخصوص المُحِبّين مَخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشدُّ من بعض، فأولها: خَوفُ الإعراض، وأشدُّ منه خوف الحجاب، وأشدُّ منه خوف الإبعاد، وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيَّبَ سَيِّدَ المُحبّين إذْ سَمع قولَه ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ [هود: ٦٨]، وإنما تعظم هَيبة البُعد وخَوفه في قلب من أَلِفَ القُرب وذاقَه وتنعَّم به، فحديث البُعد في حق المُبعَدين يُشَيِّبُ سماعُه أهلَ القُرب في القُرب، ولا يَحِنُّ إلى القُرب من ألف البُعد، ولا يَبكي لخَوفِ البُعد من لم يُمَكَّنْ من بِساط القُرب، ثم خَوفُ وقوف الحال وقَطع المزيد، فقد بينّا أنّ درجات القُرب لا نهايةَ لها، ولا ينبغي للعبدِ أن يجتهد في كلّ نَفَسٍ حتى يزداد فيه قُرباً، ومن هذا ما رواه الحَسن البَصري قال: رأيتُ النبي ﷺ في منامي فقال لي: مَن استَوى يوماه فَهو مَغْبون، ومن كانَ يومُه شرّاً من أَمسِه فَهو مغبون.

وفي أفراد مُسلم من حديث الأَغَرِّ المُزَني عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه لَيُغانُ[1] على قلبي، وإني لأَستغفرُ الله في اليومِ والليلة مئة مرَّة»[2]. وإنما كان استِغفارُه من القدم الأول فإنه كان بُعداً بالإضافة إلى القدم الثاني.

وقد يكون قطعُ المزيد عقوبة، كما روي أن الله تعالى يقول: إنَّ أَدنى ما أصنعُ بالعالِم إذا آثر شَهوات الدنيا على طاعتي أنْ أَسلُبه لذيذَ مناجاتي. فسَلْبُ المزيد بسبب الشهوات عقوبة العموم. فأما الخُصوص فيَحجبُهم عن المزيد مُجرَّدُ الدَّعوى والرُّكون إلى ما ظَهرَ من مبادىء اللُّطف، وهذا من الأمور الخفيَّة التي لا يقدرُ على الاحتراز منها إلا ذَوو الأقدام الراسخة.

ثم خَوفُ فَوْتِ ما لا يُدركُ بعد فَوتِه، سمعَ إبراهيمُ بنُ أدهم قائلاً يقول:

كلُّ شيءٍ منكَ مَغْفورٌ ... سِوَى الإعراض عَنّا

(١) الغَينُ: ما يتَغشّى القلب، والمراد هنا: الفترات والغفلات عن الذِّكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفلَ عدَّ ذلك ذنباً. شرح مسلم للنووي (١٧/ ٢٣-٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) (٤١)، وأحمد (١٧٨٤٨)، وأبو داود (١٥١٥).

قَــدْ وَهَــبْـنــا لــكَ مـا فـا ... تَ فَــهَــبْ مــا فَــاتَ مِــنّــا

ثم خوفُ السُّلُوِّ عن المحبوب، فإنَّ المحبَّ يُلازمه الشوق والطَّلَب الحَثيث، (فلا يَفتُر عن طَلبِ المزيد)[١]، وقد يدخل عليه السُّلوُّ من حيث لا يشعر كما يدخل عليه الحبُّ من حيثُ لا يَشعر، فإن هذه التقلُّبات لها أسبابٌ خَفيَّة ليس في قوة البشر الاطّلاعُ عليها، فإذا أرادَ اللهُ تعالى به مكراً واستدراجاً أخفى عنه ما وردَ عليه من السُّلوِّ، فَيقفُ مع الرجاء، ويغترُّ بحُسنِ الظَّنِّ، أو تَغلبه الغَفلة.

وكما أنَّ مِنْ أوصافِ اللهِ تعالى ما يَقتضي هَيَجانَ الحُبِّ وهي أوصافُ اللُّطفِ والرَّحمةِ، فمِن أوصافه ما يورثُ السُّلوَّ، كأوصاف الجبرية والعِزَّة.

ثم خوف الاستِبدال بالمحبوب بالانتقال من محبَّته إلى محبة غيره، والسُّلُوُّ مُقدمة هذا المقام، والإعراضُ والحجابُ مقدمةُ السُّلوِّ، وانقباضُ الصَّدرِ عن دوامِ الذِّكرِ ومَلالِه الأوراد أسبابُ هذه المعاني ومُقَدماتها، فظهور هذه الأسباب دليلٌ على النَّقلِ من مَقامِ الحُبِّ إلى مقامِ المَقْتِ، وملازمةُ الخوف وشدةُ الحَذَر دليلُ صدقِ الحُبِّ، فإنَّ مَن أحبَّ شيئاً خافَ فَقده.

ومنها: كِتمانُ الحُبِّ، واجتنابُ الدَّعوى، والتَّوَقي من إظهار الوَجد والمحبَّة تَعظيماً للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبةً منه، وغَيرةً على سِرِّه، فإن الحبَّ سِرٌّ من أسرار الحبيب، ولأنه قد يَدخل في الدَّعوى ما يتجاوز حَدَّ المعنى ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء، فيوجبُ الابتلاء في الدنيا والعقوبة في الآخرة.

وقد يَقعُ المحبُّ في سُكرٍ ودَهشٍ فيظهر عليه حبُّه من غير قصدٍ منه، فهو في ذلك مَعذور، (كما قال بعضهم)[٢]:

وَمَـنْ قَـلـبُـه مـعْ غَـيـرِه كـيـفَ حـالُـه ... ومَـنْ سِـرُّهُ فـي جَـفْـنِـهِ كـيـفَ يَـكْـتُـمُ

قال بعضُ العارفين: أكثرُ الناسِ إشارةً به، أَبْعَدُهم منه. وأرادَ بذلك: مَن يُكثر التَّعريضَ به في كلِّ شيءٍ، ويُظهِرُ التَّصَنُّع بذكره عند كلِّ أَحَدٍ.

---

(١) غير واضحة في الأصل، وأثبتت من الإحياء.

(٢) ليس في الأصل، واستدرك من الإحياء والمختصر.

فإنْ قيل: لماذا تُنكرُ على المُحِبِّ إذا أظهرَ المحبَّة؟

فالجواب: أن الإظهار مذمومٌ لوجوه: منها: أنه تَصَنُّعٌ للخَلقِ ولا يَخلو الإظهارُ من دَعوى ومِن تَكبُّرٍ على الغَير بذلك، ثمَّ الخوف من تغيُّر الحال، وأعظمها أن الحبيبَ يُحبُّ كِتمانَ حُبِّه.

ومن العلامات الأُنس والرضا على ما سيأتي.

وفي الجملة: جَميعُ محاسن الدّين ومَكارم الأخلاق ثَمرة الحُب، وما لا يثمره الحب فهو اتّباع الهَوى، وهو من رَذائِل الأخلاق، إلا أن من المحبين من يُحبُّ الله تعالى لإحسانِه إليه، ومنهم من يحبه لجماله وجَلاله.

قال الجُنَيد: الناسُ في محبةِ الله تعالى عامٌّ وخاص؛ فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه وكثرة نِعَمه، فهؤلاء تَقِلُّ محبتهم وتَكثُر على قَدر النِّعم والإحسان، وأما الخاصّةُ فنالوا المحبةَ في مَعرفتهم بعظيم قَدْرِه وعِلمه وحِكمته وتَفرُّده بالمُلكِ، فلما عرفوا صِفاتَه الكاملةَ وأسماءَهُ الحُسنى لم يَمتنعوا من أن أحبّوه؛ لأنه استحقَّ المحبةَ بذلك، ولو أزال عنهم جميعَ النِّعَمِ.

بَيانُ مَعنى الأُنْسِ بالله عزَّ وجلَّ

قد ذكرنا أن الأُنسَ والخَوفَ والشَّوقَ من آثارِ المحبة، إلا أن هذه آثارٌ مختلفةٌ تَختلفُ على المُحِبِّ بحسب نَظره وما يغلب عليه في وَقتِه، فإذا غلب عَليه التَّطلُّع من وراء حُجُبِ الغَيب إلى مُنتهى الجَمال، واستشعر قُصورَه عن الاطِّلاع على كُنْهِ الجَلال انبعثَ القلبُ إلى الطَّلبِ، وانزعجَ له وهاجَ إليه، وتُسمّى هذه الحالةُ في الانزعاج شَوقاً، وهو بالإضافة إلى أمر غائبٍ، فإذا غلبَ عليه الفَرحُ بالقُرب ومُشاهدة الحُضور بما هو حاصلٌ من الكَشفِ، وكان نَظره مقصوراً على مُطالعة الجَمال الحاضِر المكشوف، غير ملتفت إلى ما لم يُدركه بعد، استَبشَر القلبُ بما يلاحظه فيسمى استِبشارُه أُنْساً.

وإن كان نَظرُه إلى صفاتِ العزِّ والاستِغناء وعدم المُبالاة وخطر إمكان الزَّوال

والبُعدِ تألَّمَ القلبُ بهذا الاستِشعار، فَيُسمى تألُّمه خَوفاً، وهذه الأحوال تابعةٌ لهذه الملاحظات، والملاحظات تابعةٌ لأسبابٍ تَقْتَضيها لا يمكن حصرها.

فالأُنسُ مَعناه: استِبْشارُ القَلب وفَرحُه بمطالعة الجَمال، حتى إنه إذا غلب وتجرَّد عن مُلاحظة ما غابَ عنه وما يتطرَّق إليه من خَطر الزَّوال عَظُم نَعيمُه ولذَّتُه، ومن ها هنا نَظر بعضُهم حَيثُ قيل له: أنتَ مشتاق؟ فقال: لا، إنما الشَّوق إلى غائبٍ، فإذا كانَ حاضراً معي فَإلى مَنْ أَشتاق.

وهذا كلامُ مستغرِقٍ بالفَرح بما ناله، غير ملتفت إلى ما بَقي من مَزايا اللُّطف.

ومَن غَلبَ عليه حالُ الأُنسِ لم تكن شَهوته إلا في الانفِراد والخَلوة؛ لأن الأُنس بالله يُلازمه التَّوَحشُ من غير الله، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخَلوة، قال عبدُ الواحد بن زَيد: قلتُ لراهبٍ: لقد أعجبتك الخلوة. فقال: لو ذقتَ حلاوة الوَحدةِ لاستَوحَشْتَ إليها مِن نفسك. قلتُ: متى يَذوقُ العبدُ حلاوةَ الأُنسِ بالله تعالى؟ قال: إذا صَفَا الودُّ خَلصت المعاملة. قلتُ: متى يَصفو الوُدّ؟ قال: إذا اجتَمع الهَمُّ فصارَ هَمّاً واحداً في الطَّاعة.

وقال بعضُ العارفين: عَجباً للخَليقَةِ كيفَ أنِسَت بسواك عنك.

فإن قيل: ما علامةُ الأُنس؟

فاعلم: أن علامَتَه الخاصَّة ضِيقُ الصَّدر من مُعاشرَةِ الخَلْقِ، والتبرم بهم، واستهتار المستَأنِس بالذّكر، فإن خالطَ، فهو كمنفَردٍ غائبٍ في صورة شاهدٍ في غَيبته، مُخالطٍ بالبدن، منفردٍ بالقلب.

وقد أنكرَ بعضُ من لم يَترقَّ فَهمُه وجودَ الشَّوق والأُنسِ والحُبِّ؛ لظنِّه أن ذلك يَدُلُّ على التَّشْبيه، وجَهلهِ بأنَّ جَمالَ المُدرَكات بالبَصائر أكمل من جَمالِ المُبصَرات بالنَّواظر، وهؤلاء وَقَفوا مع صُور التَّعبُّد، ولم يَترقّوا، فمَثلُهم كَمَثَلِ مَنْ رأى قُشورَ الجَوزِ فظنَّ الجوزَ كلَّه خَشَبٌ، فاستحالَ عنده خروج دُهنٍ منه

بيانُ مَعنى الانبِساط والإدلال الذي يُثمرهُ الأُنْس

اعلم أن الأُنْسَ إذا دام وغَلبَ واستَحكم، ولمْ يهوّشْهُ قَلقُ الشَّوق ولم يُنَغِّصه خَوفُ التَّغير والحجاب، فإنه يُثمر نَوعاً من الانبِساط في الأَقوال والأَفعال، والمناجاة مع الله تعالى، وقد يكون مُنكرُ الصُّورة لما فيه من الجُرأةِ وقلَّة الهَيبة، ولكنه يُحتَمل ممَّن أُقيمَ مقام الأُنس، فإما إذا صدرَ ممن لم يَقُم ذلك المقام أشرفَ به صاحبه على الكُفر، فالحالةُ الأولى مثل ما يُروى من مناجاة بُرْخِ العابد أنه خرج يَسْتَسقي فقال: يا رَب، أنتَ بالبُخلِ لا تُرمَى، أَنْفِذْ ما عِندكَ اسقِنا السَّاعةَ فجادت السماء.

ورويناعن الحَسن قال: احترقَت أَخْصاصٌ[١] بالبَصرة وبَقي في وَسَطها خُصٌّ لم يَحترق، وأميرُ البَصرة يومئذٍ أبو موسى الأشْعري، فأُخبرَ بذلك، فبَعث إلى صاحب الخُصِّ فأُتي به، فقال له: يا شَيخ، ما بال خُصِّكَ لم يحترق؟ فقال: إني أقسمتُ على رَبّي أَنْ لا يُحرقه.

وكان أبو حَفصٍ[٢] يمشي يوماً فاستقبله رَجلٌ مَدْهوش، فقال: مالكَ؟ فقال: ضَلَّ حماري ولا أملكُ غيره، فوقفَ أبو حَفصٍ وقال: وعزَّتِكَ لا أَخْطو خطوةً ما لم تَردَّ عليهِ حِمارَه. فظهر الحِمارُ.

ولا يُستَبعَدُ أنه قد يُحتمَل من شخصٍ ما لا يُحتمل من غيره، فإنه قد احتُمل من موسى عليه السلام قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] ما لم يحتَمل من يونُس[٣] عليه السلام، وقد عُفيَ عن إخوة يوسف وعُوقبَ عُزيرٌ في مسألةٍ سأل عَنها من القَدَر[٤]، فأُميتَ، وكان بلعام[٥] من العُلماء، فطلبَ الدُّنيا، فَقيل عنه: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

---

(١) الأخصاص: جمع خُص، وهو البيت يبنى من القصب.

(٢) هو عمر بن سَلم الحدّاد النيسابوري، شيخ الجُنَيد.

(٣) يريد بذلك ذهابَه عليه السلام مغاضباً لقومه قبل أن يُؤمَر.

(٤) وهو ما ورد في قوله عزَّ وجل: ﴿أو كالذي مرَّ على قريةٍ وهي خاوية على عروشها قال أنّى يُحيي هذه الله بعد موتها فأماتَه اللهُ مئة عام ثمَّ بعثه...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٩].

(٥) هو بلعَام بن باعوراء، أحد علماء بني إسرائيل.

القَولُ في مَعنى الرِّضا بقَضاء الله تعالى وحقيقة ما وردَ في فَضيلته

اعلم أن الرِّضا ثمرةٌ من ثِمار المحبَّة، وهو من أعلى مَقامات المُقرَّبين، وحَقيقته غامضة، ولا يَنكشفُ الأمر فيه إلا لمن فَقَّههُ اللهُ في الدِّين، فقد أنكر مُنكرون تصوُّر الرِّضا بما يُخالف الهوى، ثم قالوا: إن أمكن الرِّضا بكل شيء لأنه فِعلُ الله تعالى، فينبغي أن يُرضَى بالكُفر والمعاصي. وانخَدعَ بذلكَ قومٌ فَرأوا الرِّضا بالفُجور والفِسقِ وتركِ الإنكار من باب التَّسليم لقَضاء الله تعالى، ولو انكشَفت هذه الأسرار لمن اقتَصر على سَماع ظَواهرِ الشَّرع لما دَعا رسولُ اللهِ ﷺ لابنِ عباسٍ حيثُ قال: «اللهمَّ فَقِّههُ في الدِّين، وعَلِّمهُ التَّأويل»(١).

فلنبدأ ببَيان فَضيلة الرِّضا، ثم بحكايات أحوال الرّاضين، ثم بذكرِ حقيقةِ الرِّضا وكَيفية تَصوُّره فيما يُخالفُ الهَوى، ثم بذكر ما يُظنّ أنه من تمام الرضا وليس منه، كترك الدّعاء والسكوت عن إنكار المعاصي.

بَيانُ فَضيلة الرِّضا

قال اللهُ عزَّ وجل: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

أخبرنا الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزدي وأبو بكر الغُورْجي قالا: أخبرنا الجَراحي قال: حدّثنا التِّرمذي قال: حديثنا سعيد بن نصر قال: أخبرنا عبدُ الله بن المبارك قال: أخبرنا مالك بن أنس عن زَيد بن أسلم عن عَطاء بن يَسار عن أبي سَعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ اللهَ تعالى يقولُ لأهل الجنَّة: يا أهلَ الجنَّة. فيقولون: لَبيك ربَّنا وسَعدَيك. فيقول: هَل رضيتُم؟ فيقولون: ما لنا لا نَرضى، وقد أَعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خَلقِك. فيقول: أنا أُعطيكم أفضل من ذلك. قالوا: وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ قال: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أَسخَط عليكم أبداً». أخرجاه في الصَّحيحين.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٧) و(٢٨٧٩) و(٣٠٣٢) و(٣١٠٢)، والطبراني في الكبير (١٠٦١٤).

واعلم أن سؤالهم الرِّضا بعد النَّظر دليلٌ على غاية فَضله، وإنما سألوا الرِّضا لأنه سببُ دوامِ النَّظر، فكأنهم راعوا غايةَ الغايات لما ظَفِروا بنَعيم النَّظر.

فأما رِضا العَبد فَسنذكر حقيقته.

وأما رضوان الله تعالى عَن العبد، فهو بمعنى آخر مما ذكرناه في حبِّ الله تعالى للعبد، أخبرنا عبد الوهاب قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أبو طالب العُشاري وأبو بَكر الخياط والنَّهرواني قالوا: أخبرنا ابنُ دُوسْت قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا حمزة بن العباس قال: حدثنا عَبْدان بنُ عُثمان قال: حدثنا ابنُ المبارك قال: أخبرنا عبد الله بن بُجَير قال: حدثني أبو العلاء بن الشِّخِّير حديثاً يرفعه، أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبدٍ خَيراً أرضاهُ بما قَسَمَ له، وبارك له، وإذا لم يُرِد به خَيراً لم يُرضِّهِ بما قَسَمَ له، ولم يُبارِك له فيه»[١].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود؛ إنك لن تَلقاني بعملٍ هو أَرضَى لي عنك، ولا أحطَّ لوِزْرِكَ من الرِّضا بقَضائي.

ونَظر عليُّ بنُ أبي طالب إلى عَدِيّ بن حاتم كئيباً، فقال: يا عَدي، مالي أراكَ كئيباً حَزيناً؟ فقال: وما يَمنعني وقد قُتِلَ ابْنايَ، وفُقِئَت عَيني؟ فقال: يا عَدي، إنه مَن رَضي بقَضاءِ اللهِ جَرى عليه، وكان له أجر، ومن لم يرضَ بقضاء الله جَرى عليه، وحَبِط عَملُه.

ودخل أبو الدرداء على رجلٍ وهو يَموت، وهو يحمد الله، فقال له أبو الدرداء: أصبتَ، إنّ الله إذا قَضى قضاءً أحبَّ أن يُرضَى به.

وقال ابنُ مسعود: إن الله تعالى بقِسطِه وعلمه جعلَ الروحَ والفَرح في اليقين والرِّضا، وجعل الهمَّ والحُزنَ في الشَّكّ والسَّخَط.

وقالت أمُّ الدرداء: إن الرّاضينَ بقضاءِ اللهِ تعالى ما قَضى لهم رَضوا به، لهم في الجنَّة منازل يَغبِطُهم بها الشهداء يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٩٤٦).

وقال علقمةُ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، قال: هي المُصيبة تُصيب الرجلَ، ليعلم أنّها من عندِ الله فيُسلمُ لها.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، قال: الرضا والقَناعة.

وفي الحَديث[١]: إنَّ نبياً من الأَنبياء شكا إلى ربِّه عزَّ وجلَّ الجوعَ والفقرَ عشرَ سنين، فما أُجيبَ إلى ما أراد، ثم أُوحيَ إليه: كم تَشكو؟ هكذا كانَ بَدؤكَ عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبَق لك مني، وهكذا قَضيتُ عليكَ قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد الدنيا من أجلك؟ أم تريد أن أُبدّل ما قَدرتُ لكَ، فيكون ما تُحبُّ فوقَ ما أُحب، ويكون ما تُريد فوق ما أُريد؟ وعزَّتي وجَلالي لئن تَلَجْلَجَ[٢] في صَدْركَ هذا مرةً أخرى لأمحونَّك من ديوان النُّبوة.

وفي زَبورِ داود عليه السلام: هل تَدري من أسرعُ الناس مَرّاً على الصِّراط؟ الذينَ يرضون بحُكمي، وألسنَتُهم رَطبةٌ من ذكري.

وقال داود عليه السلام: يا رب، أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد اسْتَخارني في أمرٍ فَخِرْتُ له، فلم يرضَ.

وقال ابن مَسعود: ما أُبالي إذا رجعت إلى أهلي على أي حالٍ أراهم، أبسَرّاء أم بضَرّاء، وما أصبحتُ على حالٍ فتمنَّيت أني على سِواها.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرورٌ إلا في مواقع القَدَر. وقيل له: ما تَشتهي؟ فقال: ما يَقْضي اللهُ عزَّ وجل.

وقال الحسن: من رَضي بما قسمَ اللهُ له، وَسِعَهُ وباركَ له فيه، ومن لم يرضَ، لم يَسَعْهُ، ولم يُبارك له فيه.

وقال عبد الواحد بن زَيد: الرضا بابُ الله الأعظم، وجنَّة الدنيا، ومُستَراح العابدين.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي الإحياء: «وفي الأخبار السالفة».
(٢) تَلَجْلَجَ: تَرَدَّدَ.

ودخلوا على زَبيد اليامي وهو مَريض، فقالوا: شَفاكَ اللهُ. فقال: أَستَخيرُ اللهَ.

وقال الفُضيلُ: الراضي لا يتمنّى فوقَ منزلته، ومتى استوى عنده المَنعُ والعَطاء فقد رَضي عن الله تعالى.

وقال بعضُ أصحاب الفُضَيل: صَحِبتُه ثلاثين سنةً، فما رأيتُه ضحك إلا يومَ ماتَ ابنُه، وقال: إنّ اللهَ أحبَّ أمراً فأحببتُ ما أحبَّ.

وتذاكروا عند رابعة عابداً كان في بني إسرائيل ينزل من مُتَعبَّدِه، فيأتي مَزْبلةً على باب الملك فيَتَقَمَّمُ[1] من فضول مائدته، فقال رجلٌ: وما على هذا إذْ كان في هذه المنزلة أن يَسأل الله عزّ وجل أن يَجعلَ رزقه من غير هذا؟ فقالت رابعةُ: يا هذا؟ إنّ أولياء الله إذا قَضى لهم قضاءً لم يَتَسخَّطوه.

وسُئِلت رابعةُ: متى يكون الإنسان راضياً عن الله تعالى؟ فقالتْ: إذا كان سُروره بالمُصيبةِ مثلُ سروره بالنِّعمة.

وقال ابن المُبارك: الراضي لا يَتمنَّى خلاف حاله.

وقال أبو سليمان الداراني: أرجو أن أكونَ قد رُزِقتُ طرفاً من الرِّضا، لو أدخَلني النار لكنتُ بذلك راضياً.

وقال أبو عبد الله البَراثي: لن يَرِدَ الآخرة أرفع درجاتٍ من الرَّاضينَ عن الله على كل حال، فمن وُهِبَ له الرِّضا فقد بلغَ أفضلَ الدَّرجات.

وقال سَهْل: حَظُّ العَبيد من اليَقين على قَدرِ حَظِّهم من الرِّضا.

وأصبحَ أعرابيٌّ وقد ماتت له أباعِرُ[2] كثيرةٌ، فقال:

لا وَالّـذي أنـا عـبـدٌ فـي عِـبـادتِـه ... لـولا شَـمـاتَـةُ أعـداءٍ ذَوي إِحَـنِ[3]
مـا سَـرَّنـي أنَّ إِبْـلـي فـي مَـبـارِكـهـا ... وأنَّ شـيـئـاً قَـضـاهُ اللهُ لـم يَـكُـنِ

(١) يتقمَّم: يتتبع القُمامة.
(٢) الأباعر: جمع بعير.
(٣) الإِحَن: جمع إِحْنَة، وهي الحقد والضَّغينة.

بَيان حقيقة الرّضا وتَصوُّره فيما يُخالف الهوى

أما مَن قال: ليس فيما يُخالفُ الهوى إلا الصَّبر، وإن الرضا بذلك لا يُتصوَّر. فإنما أُتيَ من ناحية إنكارِ المحبة، فأما إذا تصُوِّرَ الحبُّ لله تعالى واستغراقُ الهَمِّ به، فلا يَخفى أن الحبَّ يورث الرِّضا بأفعالِ المحبوب، ويكون ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يَبطُلَ الإحساسُ بالألم حتى يَجري عليه المؤلم ولا يُحسُّ، وتُصيبه جِراحةٌ ولا يُدرك أَلَمها، ومثالُه الرجلُ المُحارِبُ[1]، فإنه في حال غَضبه أو في حالِ خَوفه قد تُصيبه جِراحةٌ وهو لا يُحس بها حتى إذا رأى الدَّمَ استدلَّ به على الجرح، بل الذي يَغدو في شُغلٍ مُهم قد تُصيبه شَوكة في قَدمه ولا يُحس بألمِ ذلك لشغلِ قَلبه؛ لأن القلبَ إذا صار مُستغرقاً بأمرٍ من الأمور لم يُدرك ما عداه.

وكذلك العاشقُ المستغرق الهمّ بمشاهدةِ معشوقه أو بُحبِّه، قد يُصيبه ما يؤلم، غير أن عِشقَه يَمنعه الإحساس به، هذا إذا أصابه من غير حَبيبه، فكيف إذا أصابه من حَبيبه؟

وإذا تُصوِّرَ هذا ألم يَسير بسببِ حُبٍّ خَفيفٍ تُصوِّرَ في الألم العظيم بالحبِّ العظيم، فإن الحبَّ أيضاً يُتصوَّرُ تَضاعُفه في القوة، كما يتصور تَضاعف الألم، وكما يَقوَى حبُّ الصُّوَر الجميلةِ المُدرَكةِ بحاسَّةِ البَصَر، فكذا يَقوى حبُّ الصور الجميلة الباطنة المدرَكة بنورِ البَصيرة، وجمالُ حَضرةِ الرُّبوبية وجَلالها لا يُقاس به جَمالٌ ولا جَلال، فمن ينكشف له شيءٌ منه يبهره بحيث يَدْهَش ويُغشىٰ عليه ولا يُحِسُّ بما يجري عليه، كما روينا أن امرأةَ فتحِ المَوصلي عثرت فانقطعَ ظُفر إبهامها فضحكت، فقيل لها: أما وجدتِ أَلَمه؟ فقالت: إنّ لذةَ ثوابِه أَنسَتْني مرارةَ وَجعِه.

والوجه الثاني: أن يُحسَّ به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضياً به راغباً في زيادته، وإن كان كارهاً بطبعه، كالذي يلتمس من الحَجّام الحجامَةَ والفَصْدَ، فإنه يُدرك ألم ذلك إلا أنه راضٍ به وراغبٌ فيه ومُتَقلِّدٌ من الفَصّادِ به مِنّة بفعلِهِ.

---

(١) تصفحت في الأصل إلى: «المخازن».

فهذا حال الراضي بما يَجري عليه من الألم، وكذلك كل من يُسافر في طلبِ الرِّبحِ، فإنه يُدرك مشقَّة السَّفر، ولكن حبه لثمرةِ سَفره طَيَّبَ عنده مشقةَ السَّفر، وجَعله راضياً بها، وكلُّ من أصابته بَليّةٌ من الله تعالى، وكان له يقين بأن ثَوابه الذي ادُّخِرَ له فوق ما فاته، رضي به ورغب فيه وأحبه وشكَر الله عليه، هذا إن كان يُلاحظ الثواب والإحسان الذي يُجازى به عليه.

ويجوز أن يَغلبَ الحبُّ بحيث يكون حَظُّ المحِبِّ في مراد حَبيبه ورضاه لا لمعنىً آخر، وربما يكون مُراد حبيبِه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً، وكل ذلك موجودٌ في المشاهدات في حُبِّ الخِلْقة، وقد وَصفها الواصفون في نَظمهم ونَثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظَةُ جمال الصورة الظاهرة بالبَصر، فإن نُظِرَ إلى الجَمال فما هو إلا جلدٌ على لَحم ودمٍ مشحونٍ بالأَقْذار، بدايتُه من نُطفةٍ مَذِرَة[1]، ونهايَتُه جيفةٌ قَذِرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العَذِرَة[2]، وإن نُظِر إلى المُدرِكِ للجَمال فهي العين التي تَغلطُ فيما تَرى كثيراً، فترى الصَّغير كبيراً والكبير صغيراً، والقبيحَ جميلاً، فإذا تُصوِّرَ استيلاءُ هذا الحب من أين يَستحيل ذلك في حبِّ الجمال الأزلي الأَبدي الذي لا مُنتهى لكماله المُدرَكِ بعينِ البَصيرة التي لا يَعتريها الغَلط، ولا يدركها الموت، بل هي حَيَّةٌ عند الله تعالى، فَرِحَةٌ برزقِه، مُستفيدةٌ بالموت مَزيدَ تَنَبُّهٍ واستِكشاف.

وهذا أمرٌ واضحٌ من حيث النَّظر بعَين الاعتبار، ويشهد لذلك الوجود حكاياتُ أحوال المُحبيّن وأقوالهم؛ قال الجُنَيد: سألتُ سَريّاً: هل يجد المحبُّ ألم البلاء؟ فقال: لا.

وقد روينا عن خلقٍ كثير من أهل البلاء أنهم كانوا يقولون: لو قَطَّعَنا إرْباً إرْباً ما ازْدَدْنا له إلا حبّاً.

وروينا أن يونس عليه السلام قال: يا رب؛ دُلَّني على أَعْبَدِ أهلِ الأرض. فدَلَّه على رجلٍ قَطَعَ الجُذامُ يَديه ورجليه وذهبَ بعَينَيه، فسمعه يقول: مَتَّعتَني بهنَّ

(١) يقال: مَذِرَت البيضة: أي فسدت.
(٢) العَذِرة: الغائط.

ما شِئتَ، وسَلَبْتَنيهنَّ ما شئت، وأبقيتَ لي فيك الأمل يا بَرُّ يا وَصول.

وكان بالرَّبيع بن خَيثم فالجٌ، فكان يقول: حُبُّه يُقرّبني إلى اللهِ تعالى.

وابتُلي سُوَيدُ بن مَثْعَبَة حتى ضَنِيَ وقال: واللهِ ما سَرَّني أنَّ الله ينقصني منه قُلامةَ ظُفر.

وقال بعضُ السَّلف: رأيتُ رجلاً قد ضُربَ ألفَ سوطٍ وهو صابرٌ ثم أُمر به إلى السِّجن فتَبعتُه فقلت: لِمَ ضُرِبتَ؟ قال: لأنّي عاشِق. قلت: ولم سَكتَّ؟ قال: لأن مَعشوقي كان بحذائي يَنظر إليَّ. ويؤكد هذا قصة النِّسوة حين شاهَدنَ يوسف، فإنهنَّ قَطَّعنَ الأيدي وما أَحْسَسْنَ بألم.

قال سُمنون: كان في جيراننا رجلٌ له جاريةٌ يُحبها، فاعتَلَّت، فجلس يُصلح لها حساءً، فبينما هو يُحرّكُ القِدرَ قالت: آه، فدهش وسقَطت المِلعَقةُ من يده وجَعل يُحرّكُ القِدرَ بيده حتى تَساقَطت أصابِعُه وهو لا يعلم.

فقد بان بما ذكرنا أنَّ الرضا بما يُخالفُ الهَوى ليس مُستحيلاً، بل هو مَقامٌ عظيمٌ من مَقامات أهل الدين، وإذا كان ذلك مُمكِناً في حُبِّ الخَلق وحُظوظهم، كانَ ممكناً في حَقِّ الله سُبحانه وحُظوظِ الآخرة، كيف لا وجَمالُ الحَضرةِ الرَّبانية أَو فَى من كلِّ جمال، وإمكانُه من ثَلاثة أوجه:

أحدها: علم المؤمن بأن تَدبير اللهِ تعالى خَيرٌ من تدبيره، فقد قال عليه الصلاةُ والسلام: «ما قَضى اللهُ لمؤمنٍ قَضاء إلا كان خيراً له»(١).

وقد أخبرنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا محمد ابن علي بن الفَتح قال: حدثنا أبو عبد الله بن دُوسْت قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا حَمزة بن العباس قال: حدثنا عَبدان قال: حدثنا ابنُ المبارك قال: حدثنا عمارة عن مَكحول قال: سمعتُ ابنَ عمر يقول: إن

(١) أخرجه أحمد (١٢٦٠) و(١٢٩٠٦)، وهناد في الزهد (٣٩٩)، وأبو يعلى (٤٢١٧) و(٤٢١٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٩٦)، والضياء في المختارة (١٨١٦) و(١٨١٨) من حديث أنس بن مالك.

الرجل يَستخيرُ الله فيختار له، فيتسخَّطُ على رَبِّه، فلاَ يَلبثُ أن يَنظر في العاقبة، فإذا هو قَد خِير لَه.

قال القُرشي: وحدَّثني إبراهيم بن سعيد الجَوهري قال: حدثنا أبو أُسامة قال: حدثنا الأعمش عن مُسلم عن مَسروق قال: كان رجلٌ بالبادية له كلبٌ وحمارٌ وَديكٌ، فالديكُ يوقِظُهم للصَّلاة، والحمار يَنقُلون عليه الماء ويَحمل لهم خِباءَهُم، والكَلبُ يَحرُسهم، فجاءَ الثَّعلبُ فأخذ الدّيك فَحزِنوا، فقال الرجلُ: عَسى أن يكونَ خيراً، ثم جاء ذئبٌ فخرقَ بطنَ الحِمار، فقتَله، فحزنوا، فقال الرجلُ: عسى أن يكون خيراً. ثم أُصيبَ الكلبُ، فقال الرجلُ: عسى أن يكون خَيراً. ثم أصبحوا ذاتَ يومٍ فنظروا فإذا قَد سُبِيَ من حَولَهم وبَقوا هُم، وإنما أُخِذَ أولئك بما كانَ عندهم من الصُّوتِ والجَلَبَةِ ولم يكن عند أولئكَ شَيءٌ يُجْلِبُ[1]، قد ذهبَ كلبُهم وحمارهم وديكُهم.

قال القُرشي: وحدَّثني أحمد بن إبراهيم بن كثير العَبدي قال: حدثنا خَلف بن الوليد عن عبد الرحيم بن زَيد العَمّي عن أبيه عن سعيد بن المُسَيّب قال: قال لقمانُ لابنه: يا بُنَي، لا يَنزلن بكَ أمرٌ رضيتَه أو كرهتَه إلا جعلتَ في الضَّمير منكَ أن ذلك خَيرٌ لك. قال: أما هذه فلا أقدرُ إنْ أُعطيكَها دون أن أعلم ما قلتَ أنه كما قلتَ. قال: يا بُني، إنَّ الله قد بعثَ نبياً، هَلُمَّ حتى نأتيه فعنده بيانُ ما قلتُ لكَ. قال: اذهب بنا نَأتِه. قال: فخرج على حمارٍ وابنُه على حمار، وتزوَّدا ما يُصلحهما ثم سارا أياماً ولياليَ حتى تَلقَّتْهما مَفازَةٌ[2] فأخَذا أُهْبَتَهما لها ودَخَلاها، فسارا ما شاء الله أن يَسيرا حتى ظَهرا، وقد تعالى النَّهار واشتَدَّ الحرُ ونَفِدَ الماء والزَّادُ، فاستَبْطآ حماريهما، فنزل لقمان ونَزل ابنُه فجعلا يَشْتدَّانِ على سُوقِهما فبينما هُما كذلك إذ نَظر لقمانُ أمامه، فإذا هو بسوادٍ عظيم ودُخانٍ، فقال في نَفسه: السَّوادُ شَجْرٌ، والدُّخان عمرانٌ وناسٌ. فبينما هما كذلك يَشْتدّان إذ وطىء ابنُ لقمانَ على عَظم نابٍ على الطَّريق فدخل في باطنِ القَدم حتى ظَهر من أعلاها، فَخرَّ ابنُ لقمان مَغشِياً

(١) جَلبَ وأجلبَ: أصدر جلبةً وهي الصوت والصياح.
(٢) المَفازَةُ: الصحراء.

عليه، فحانت من لقمان التِفاتَةٌ فإذا هو بابنه صَريعٌ، فوثب إليه فَضَّمه إلى صَدره، واستخرجَ العظم بأسنانه، وشَقَّ عمامةً كانت عليه فلاث[١] بها رجلَه، ثم نَظر إلى وَجه ابنه فَذرفت عَيناهُ، فقطرت قطرةٌ من دموعه على خَدِّ الغُلام فانتبه لها، فنظر إلى أبيه وهو يبكي، فقال: يا أبَه، أنتَ تبكي وأنتَ تقول: هذا خَيرٌ لي، كيف يكون هذا خيراً لي وأنتَ تبكي، وقد نَفِدَ الطعامُ والماءُ وبقيتُ أنا وأنتَ في هذا المكان، فإنْ ذهبتَ وتركتَني على حالي ذهبتَ بهَمٍّ وغَمٍّ ما بقيتَ، وإن أَقَمتَ معي مِتْنا جميعاً، فكيفَ يكون هذا خيراً لي؟ قال: أمّا بُكائي يا بني فوددت أني أَفتديك بجميع حَظّي من الدنيا، ولكني والد، ومنّي رقَّة الوالد، وأما ما قلتَ: كيفَ يكون هذا خيراً لي؟ فلعلّ ما صُرفَ عنكَ يا بُنَي أعظم مما ابتُليتَ به، ولعلَّ ما ابتُليتَ به أيْسَر مما صُرِفَ عنك. فَبينما هو يُحاوره إذ نَظر لقمانُ هكذا أمامه فلم يَرَ ذلك الدُّخان والسَّواد، فقال في نَفسه: لم أَرَ. ثم قال: قد رأيتُ ولكنْ لعلَّه يكونُ قد أحدث ربّي بما رأيتُ شيئاً. فبينما هو يفكّر في هذا إذ نظر أمامه فإذا هو بشَخصٍ قد أقبلَ على فَرسٍ أبْلَق[٢] عليه ثيابٌ بياضٌ وعمامةٌ بيضاء تمسحُ الهواءَ مَسحاً، فلم يزل يَرمُقُه بعينه حتى كان منه قريباً، فتوارى عنه، ثم صاح به، فقال: أنتَ لُقمان؟ قال: نعم. قال: ما قالَ لك ابنُكَ هذا السَّفيه؟ قال: يا عبدَ الله من أَنتَ؟ أسمَعُ كلامَكَ ولا أَرى وَجْهَكَ. قال: أنا جبريلُ، لا يراني إلا ملكٌ مُقَرَّبٌ أو نَبيٌّ مُرسَلٌ، لولا ذلك لرأيتني. قال: فما قال لكَ ابنُكَ هذا السَّفيه؟ قال: قال لقمانُ[٣]: إن كنتَ أنتَ جبريل فأنتَ أعلم بما قاله ابني مِنّي. فقال جبريلُ: ما لي بشيءٍ من أَمْرِكُما عِلمٌ، إلا أنَّ حَفَظَتَكُما أتوني وقد أَمَرَني رَبّي بخَسفِ هذه المدينة وما يليها ومَن فيها فأخبروني أنكما تُريدان هذه المدينة، فدعوتُ ربّي أن يَحبِسكُما عنّي بما شاء، فحبسكما عنّي بما ابتَلى به ابنكَ، ولولا ما ابتُليَ به ابنُكَ لخسفتُ بكما معَ مَن خَسَفتُ. قال: ثم مسحَ جبريلُ يدَه على قَدمِ الغُلام فاستوى قائماً، ومسح يَده على الذي كان فيه الطَّعام فامتلأ طعاماً، ومسح يده على الذي كان فيه الماء فامتلأ ماءً،

---

(١) لاث: لفَّ وعصبَ.

(٢) فرسٌ أَبلَق: فيه سواد وبياض.

(٣) بعدها في الأصل: «في نفسه»، ولا داعي لها، والمثبت من المختصر.

ثم حملَهما وحمارَيهما فَرحل بهما وحماريهما كما تَرحل الطير فإذا هُما في الدّار التي خَرَجا منها بعدَ أيامٍ وليالٍ.

والوجه الثاني: الرّضا بالألَم لما يُتوقَّع من الثواب الموجود، كالرِّضا بالفَصدِ والحِجامة وشُربِ الدّواء انتظاراً للشِّفاء.

والثالث: الرّضا به لا لحَظٍّ وراءَه، بَل لكونِه مُراد المحبوب ورِضىً له، فقد يَغلبُ الحبُّ بحيث يَنغَمِرُ مُرادُ المحبِّ في مُرادِ المَحبوب، فيكون ألذّ الأشياء عنده سُرور قَلبِ حَبيبه ورضاه ونُفوذ إرادته ولَو في هلاكِ نَفسه، وكما قيل:

فَما لجُرحٍ إذا أَرْضاكُمُ أَلَمُ(١)

وهذا ممكنٌ مع الإحساس بالألم.

وقد يَستَولي الحبُّ بحيث يدهش عن إدراك الألم على ما سبقَ بيانُه، ولا ينبغي أن يُنكره مَن فَقده من نفسه؛ لأنه إنما فَقده لفَقد سَببٍ وهو فَرطُ حُبِّه، ومَن لم يَذُق طَعمَ الحُبِّ لم يعرف عَجائبه، ولعَمري إنّ من فَقد السَّمع أنكر لذَّة الألحان والنَّغمات، فمن فقد القلبَ فلا بدَّ أن يُنكر هذه اللّذات التي لا مَظِنَّةَ لها سوى القلب.

بيان أنّ الدُّعاء لا يُناقِضُ الرِّضا وكذلك كراهة المعاصي ومَقتُ أهلها وأسبابها والسَّعي في إزالتها

قد غَلِطَ في ذلك بعضُ البَطّالين المغترين، وزعم أن الكُفر والمعاصي من قضَاء الله تعالى وقدرِه، فيجب الرِّضا به، وهذا جهلٌ بالتأويل وغَفلةٌ عن أسرار الشّرع، فأما الدعاء فَقد تعبدنا به، ودُعاءُ رسولِ الله ﷺ وغيره مَعلوم، كما ذكرنا في كتاب الدَّعوات، ورسولُ الله ﷺ في أَعلى مقامات الرِّضا، وقد أثنى الله تعالى على بَعضِ عباده بقَوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وأما إنكارُ المعاصي وكَراهتُها وعدمُ الرضا بها فَقد تعبَّد الله تعالى به عبادَه

(١) عجز بيت للمتنبي وصدره: (إنْ كانَ سَرَّكُمْ ما قال حاسدُنا).

وذَمَّهم على الرِّضا به، فقال: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس: ٧]، وقال تعالى: ﴿ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم﴾ [التوبة: ٩٣]. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «الدّالُّ على الخَيرِ كفاعِلِهِ»[١]، وقال في رَجلٍ يُنفِقُ مالاً وآخر يَقول: لو أنَّ لي مثل ما لهذا عَمِلتُ مثلَ عمله: «هُما في الأَجْرِ سَواء»[٢].

وأما بُغْضُ الكُفّارِ والفُجّار والإنكارُ عليهم ومَقْتهم فَما وردَ فيه من شَواهد القُرآن والأخبار لا يُحصى، مثل قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «المرءُ معَ من أَحَبَّ»، وقال: «أوثَقُ عُرى الإيمان أن تُحبَّ في الله وتُبغضَ في الله»[٣].

وقد ذكرنا شواهد هذا في كتاب الصُّحبة، وفي كتاب الأَمر بالمعروف، فلا نُعيده.

فإن قيل: فقد وَردت الأخبار بالرِّضا بقَضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قَضاء الله فهو مُحال، وإن كانت بقَضاء الله تعالى فكراهَتُها ومَقتُها كراهةٌ لقَضاء الله، فكيف الجمعُ بين هاتين الحالتين؟

فاعلم أن هذا مما يَلتبس على القاصِرين عن الوقوف على أسرار العلم حتى التَبسَ على قومٍ فرأوا السكوتَ عن الإنكار مقاماً من مقامات الرِّضا وسمّوه: حُسنَ خُلُق، وهو جَهلٌ مَحضٌ، بل نَقول: الرِّضا والكَراهةَ يتَضادّان إذا تَواردا على شيءٍ واحدٍ من جهةٍ واحدةٍ على وجهٍ واحدٍ، وليس من التَّضادِّ[٤] في شيءٍ واحدٍ أن يُكرَهَ من وَجهٍ ويُرضَى بِهِ من وَجه، إذْ قَد يموتُ عدوُّكَ الذي هو أيضاً عدوُّ بعضِ أعدائك

(١) أخرجه مسلم (١٨٩٣) وأحمد (٢٢٣٣٩) و(٢٢٣٦٠)، وابن حبان (١٦٥٦٨) من حديث أبي مسعود الأنصاري.
(٢) سيأتي بتمامه بعد قليل في كتاب النية.
(٣) أخرجه أحمد (١٨٥٢٤)، والطيالسي (٧٤٧) والبيهقي في الشُّعَب (١٤) من حديث البراء بن عازب.
(٤) تحرفت في الأصل إلى: «المتضاد».

وساعٍ في إهلاكه، فتكرَهُ مَوتَه من حيث إنه مات عَدوُّ عَدوِّكَ، وتَرضاه من حيثُ إنه ماتَ عدوُّكَ.

وكذلك المعصيةُ لها وَجهان: وَجه إلى الله تعالى من حيث إنها فِعلُه واختياره وإرادته فَترضى بها من هذا الوجه تَسْليماً للمُلْكِ إلى مالكِ المُلْك ورضا بما يَفعله فيه.

ووجهٌ إلى العَبد من حيث إنه كسبُه وَوصفُهُ وعلامةُ كونه ممقوتاً عند الله تعالى وبَغيضاً عنده حيث سَلَّط عليه أسبابَ البُعد والمَقْت، فهو من هذا الوجه مُنكَر ومَذمومٌ.

ولا يَنكشف هذا لكَ إلا بمثالٍ؛ فلنفرِض مَحبوباً من الخَلق قال بينَ يَدي مُحبِّه: إنّي أُريد أن أُمَيِّزَ بين من يُحبني ويُبغضني، وأنصب معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً، وهو أني أقصد إلى فلان فأُؤذيه وأَضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشَّتم لي، حتى إذا شَتمني أَبغَضتُه واتخذتُه عدواً لي، فكل من أحبَّه فأعلمُ أنه أيضاً عَدوي، وكلُّ من أَبغضَه فأعلمُ أنه صَديقي ومُحبّي، ثم فَعلَ ذلك وحَصل له مُراده من الشَّتم الذي هو سبب البُغض، وحصل البُغض الذي هو سَبب العَداوة، فحق على كلّ من هو صادقٌ في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تَدبيرك في إيذاء هذا الشَّخص وضربه وإبعاده، وتَعريضك إياه للبغض والعَداوة فأنا محبٌّ له وراضٍ به، فإنه رأيك وتَدبيرك وفِعلُكَ، وأما شتمه إيّاكَ فإنه عُدْوانٌ من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، ولكنه كان مُرادك منه، فإنك قصدت بضربه استِنْطاقَه بالشَّتم الموجب للمَقت، فهو من حيث إنه حصل على وفقِ مُرادِكَ وتَدبيرك الذي دَبَّرتَه، فأنا راضٍ به، ولو لَم يحصل لكان ذلك نُقصاناً في تَدبيرك وتَعويقاً لمُرادكَ، وأنا كارهٌ لفواتِ مُرادك ولكنه من حيث إنه وَصفٌ لهذا الشَّخص وكسبٌ له وعدوانٌ وتَهجُّمٌ منه عليك على خلاف ما يَقتضيه جَمالك، وإذ كان ذلك يَقتضي أن يحتمل منكَ الضَّرب ولا يُقابِل بالشَّتْم فأنا كارهٌ له من حيثُ نِسْبته إليه، ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تَدبيرك، وأما بُغضك له بسبب شَتمك فأنا راضٍ له ومحبٌّ له؛ لأنه مرادُكَ وأنا على موافقتك أيضاً مُبغض له؛ لأن شرط الحب أن يكون حَبيب المحبوب حَبيباً وعدوّه عَدواً، وأما بُغضه لك فإني أرْضاه من حيث أنك أردتَ أن

يُبغضك[١] إذْ أَبعدتَه وسلَّطت عليه دَواعِي البُغض، ولكن أُبغِضُه من حيث إنه وَصفُ ذلك المبغوض وكَسبُه وفعلُه، وأَمقُتُه لذلك، فهو مَمقوتٌ عندي لمقتِه إياكَ وبُغضه، ومَقتُه لكَ أيضاً مكروهٌ عندي من حيث إنه وصفٌ له، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مَرضيّ، وإنما التناقُضُ أن يقول: هو من حيث إنه مُرادكُ مرضي ومن حيث إنه مرادك مكروه.

فأما إذا كان مكروهاً لا من حيثُ إنه فعله ومراده، بل من حيث إنه وصفُ غيره وكسبه، فهذا لا تَناقُضَ فيه، ويَشهد لذلك كل ما يُرضَى من وجهٍ ويُكرَهُ من وَجه، ونظائر ذلك كثيرة.

فإذن تَسْليطُ الله تعالى دَواعي الشَّهوة والمعصية عليه حتى يجرَّه ذلك إلى حُبِّ المعصية، ويجرّه حبُّ المعصية إلى فِعل المعصية يُضاهي ضَربَ المحبوب للشَّخص الذي ضَربناه مَثلاً ليجرَّه الضربُ إلى الغَضَب والغَضبُ إلى الشَّتم.

ومقتُ اللهِ تعالى لمن عَصاه، وإن كانت مَعصيته بتَدبيره يُشبه بُغضَ المشتوم لمن شَتَمه وإن كان شَتمه إنما حصل بتَدبيره واختيارِه لأسبابه، وفعلُ اللهِ تعالى ذلك لكلِّ عبدٍ من عَبيده. أعني تَسليط دَواعي المعصية عليه. يدل على أنه سَبقت مَشيئتُه بإبعاده ومَقتِه، فواجبٌ على كل عبدٍ مُحِبٍّ لله تعالى أن يُبغضَ مَن أبغضه اللهُ تعالى ويَمقُتَ من مَقتَه اللهُ تعالى، ويُعادي من أَبعدَه اللهُ عن حَضْرتِهِ وإن اضطرّه بقَهره وقُدرته إلى مُعاداتِه ومُخالفته، فإنه بَعيدٌ مَطْرودٌ مَلعونٌ عن الحَضرة، وإن كان بعيداً بإبعاده قَهراً، ومطروداً بطَرده اضطراراً.

والمُبعَدُ عن دَرجاتِ القُرب يَنبغي أن يكون مَقِيتاً بَغيضاً إلى جميع المحبّين موافقةً للمحبوب بإظهار الغَضبِ على مَن أَظهر المحبوبُ الغَضَبَ عليه بإبعاده.

ولهذا يتقرَّر جميع ما وردت به الأخبارُ من البُغضِ في الله والحُبِّ في الله، والتَّشديد على الكُفار، والتَّغليظ عليهم، والمبالغة في مَقْتِهم مع الرِّضا بقَضاء الله تعالى من حيث إنه قَضاء الله عزَّ وجل، وهذا كلُّه يُستمدُّ من سِرِّ القَدَر الذي

(١) في الأصل: «أبغضك»، والمثبت من الإحياء.

لا رُخصَةَ في إفشائه، وهو أن الشَّر والخَير كلاهُما داخِلان في المَشيئة والإرادة، ولكن الشَّر مُرادٌ مكروهٌ والخيرَ مُرادٌ مَرْضيٌّ به.

فمن قال: أليسَ الشرُّ من الله؟ فهو جاهلٌ، وكذا من قالَ: إنهما جميعاً منه. من غير افتراقٍ في الرِّضا والكَراهة، فهو أيضاً مُقَصر.

وكشفُ الغِطاء عنه غير مأذونٍ فيه، والأَولى السّكوتُ والتَّأدُّبُ بآدابِ الشَّرع والوقوفُ مع ما تعبد به الخَلق من الجَمع بين الرّضا بقَضاء الله تعالى ومَقت المعاصي، مع أنها من القضاء وقد ظهر الغرضُ بما كشفنا، وبهذا تعرفُ أيضاً أنَّ الدعاء بالمَغفِرة والعِصمة من المعاصي وجَميع الأسباب المعينة على الدّين غير مُناقضٍ للرضا بقضاء الله تعالى.

فإنّ اللهَ تعالى تعبَّد العبادَ بالدُّعاء ليستخرجَ الدعاءُ منهم صفاء الذِّكرِ وخُشوعَ القلبِ ورقَّة التَّضرع، ويكون ذلك جلاءً للقلب، ومفتاحاً للكشف، وسبباً لتواصل مَزايا اللُّطف كما أن حَملَ الكوزِ وشُربَ الماء ليس مُناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العَطش، وشُرب الماء طلباً لإزالة العَطش مُباشرةً سببٌ رَتَّبهُ مُسبِّبُ الأَسباب، فكذلك الدعاءُ سَببٌ رتَّبهُ اللهُ تعالى وأَمر به.

وقد ذكرنا أنّ التَّمسُّك بالأَسباب جَرياً على سُنّة اللهِ تعالى لا يُناقض التوكل واستَقْصيناهُ في كتاب التّوكل، فهو أيضاً لا يُناقض الرضا؛ لأن الرضا مقامٌ مُلاصق للتَّوكُل ومُتصل به، إنّما الشَّكوى تُناقض الرضا، فلو قال القائل: الفَقرُ بلاءٌ ومحنةٌ، والعِيال هَمٌّ وتَعبٌ فذلك يَقدح في الرضا، بل ينبغي أن يُسلّم التَّدبير لمالِكه.

بَيان الفرار من البلاد التي هي مَظانُّ المعاصي ولا يقدح في الرّضا

ربما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ نَهيَ رسولِ الله ﷺ عن الخروج عن بلدٍ قد ظهر فيه الطّاعون يدلُّ على النَّهي عن الخروج عن بلدٍ ظَهرت فيه المعاصي؛ لأن كل واحد منهما فرار عن قضاء الله تعالى، وذلك مُحال، بل العلّة في النَّهي عن مُفارقة البَلد بعد ظُهور

الطَّاعون أنه لو فُتح هذا الباب لارتَحل عنه الأَصِحَاء وبَقي فيه المَرضى مُهمَلين لا مُتعاهِدَ لهم، فيهلكون هزلاً وضرّاً.

فأما الفرار من أماكن المعاصي فمأمورٌ به، قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، ومن لم يَقدر على الفرار فليكن منكراً بقلبه غيرَ مطمئنٍ، خائفاً من عقوبةٍ تَعُمُّ.

ومما يتعلَّق بالمحبة قيل: أوحى اللهُ تعالى إلى داود عليه السلام: لو يَعلمُ المُدْبِرونَ عني كيف انتظاري لهم، ورِفقي بهم، وشَوقي إلى تَرك معاصيهم، لماتوا شَوقاً إليَّ، وتقطعت أوصالهم من محبتي، يا داود، هذه إرادتي في المُدْبِرين عني فكيفَ إرادتي في المقبلين عليَّ، يا داود أحوج ما يكون العبدُ إليَّ إذا استَغنى عني، وأرحم ما أكون لعبدٍ إذا أَدْبَر عني، وأجل ما يكون عبدي إذا رَجع إليَّ.

وكانت امرأةٌ متعبدةٌ تقول: والله لقد سَئِمتُ الحياة حتى لو وجدتُ الموت يُباع لاشتَريتُه شوقاً إلى الله تعالى وحباً للقائه. قال: فقيل لها: فعلى ثقةٍ أنتِ من عملك؟ قالت: لا، ولكن بحبّي إيّاه، وحُسن ظَنّي به، أفتراه يُعذّبني وأنا أحِّبه.

آخِرُ كتاب المحبَّة والشَّوق

* * *

كتاب النِّيَّةِ والإِخلاص والصِّدق

الحمدُ لله مُنَجّي العارفين، ومُرَجِّي الخائِفين، اختار من العالَمين العالِمين، ثم اصطفى من العالِمين العامِلين، وجعل صحةَ أعمال الدّين مَوقوفة على حُسن قصد القاصدين ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

أحمده حمدَ الشاكرين، وأؤمن به إيمان الموقِنين، وأُقِرُّ بوحدانيَّتِه إقرارَ الصادقين، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه سيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى أصحابه أجمعين.

أما بعد: فقد انكشفَ لأرباب القُلوب ببَصيرة الإيمان وأنوار القُرآن أنه لا وصول إلى السَّعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هَلكَى إلا العالمون، والعالمون هَلكَى إلا العامِلون، والعاملون كلهم هَلْكى إلا المُخلصون، والمخلصون على خَطَرٍ عظيم.

فالعملُ بغير نيةٍ عناء، والنية بغيرِ إخلاص رياء، والإخلاصُ من غير تَحقيقٍ هَباء وقد قال عزَّ وجل فيما لم يُرَدْ به وَجهه: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وليتَ شِعري كيف يُصحِّح نيتَه من لا يعرف حقيقةَ النية، أو كيف يُخلص مَن صَحَّح النية إذا لم يعرف حَقيقة الإخلاص، أو كيف يُطالب المخلص نفسَه بالصدق إذا لم يتحقق معناه، فالوظيفة الأولى على كل عبدٍ أراد طاعة الله تعالى أن يتعلَّم النية أولاً لتحصل المعرفة، ثم يُصححها بالعمل بعد فَهم حقيقة الصدق والإخلاص اللَّذين هما وَسيلتا العَبد إلى النَّجاة والإخلاص.

ونحن نذكر معاني الصِّدق والإخلاص في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في حقيقة النِّية ومَعناها.

الباب الثاني: في الإخلاص وحقائِقه.

الباب الثالث: في الصِّدق وحَقيقته.

* * *

الباب الأول

في النية

وفيه بيانُ فضيلة النية، وبيان حَقيقة النية، وبيان كون النية خيراً
من العمل، وتَفصيل الأعمال المتعلقة بالنفس، وبيان خروج النية عن الاختيار

بيانُ فضيلة النِّيَّة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمُرادُ بتلك الإرادة النية.

أخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أعين الشاشي قال: حدثنا الفِرَبري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا محمد بن كَثير عن سُفيان قال: حدثنا يحيى بن سَعيد بن محمد بن إبراهيم التَّيمي عن علقمةَ بن وقاص قال: سمعتُ عمر بن الخَطّاب قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنِّية، وإنما لكلِّ امرىءٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها أو امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلى ما هاجَرَ إليه»(١).

أنبأنا هبة الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأَعمش عن شَقيق عن أبي موسى قال: جاء رجلٌ إلى النَّبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (١) و(٥٤) و(٢٥٢٩)، و(٣٨٩٨) و(٥٠٧٠) و(٦٦٨٩) و(٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧)، وفي بعض الروايات «ينكحها» بدل: «يتزوجها».

فقال: يا رسول الله، أرأيتَ الرجلَ يقاتل شجاعةً ويُقاتل حَميَّةً ويُقاتل رياءً، فأيّ ذلك في سَبيل الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «من قاتل لتكونَ كلمةُ الله هي العُليا، فهو في سَبيل الله»[١]. أخرجاه في الصحيحين والذي قَبله وقبله.

أخبرنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا كثير. يعني ابن هشام. قال: حدثنا جَعفر. يعني بن بُرقان. قال: حدثنا يَزيد بن الأَصم عن أبي هُريرةَ عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صُوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قُلوبكم وأعمالكم»[٢] انفردَ بإخراجه مسلم، وإنّما نَظر إلى القُلوب لأنها محل النِّية.

أنبأنا ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: اخبرنا أحمد بن جَعفر قال: حدَّثنا عبدُ الله بن احمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وَكيع قال: حدثنا الأعمش عن أبي سُفيان عن جابر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقد خَلَّفتم بالمدينة رجالاً ما قَطعتُم وادياً ولا سَلكتُم طريقاً إلا شركوكُم في الأجر، حَبَسهُم المَرض» أخرجه مسلم[٣] من حديث جابر، وأخرجه البخاري[٤] من حديث أنس بن مالك.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن همَّ بحسنةٍ فلم يَعملها كُتِبت له حَسَنة»[٥].

أنبأنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا التَّميمي قال: أخبرنا القَطيعي قال: حدثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وَكيع قال: حدثنا الأَعمش عن سالم بن أبي الجعد عن أبي كَبشة الأَنْماري قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ هذه الأمةِ مَثَلُ أربعةِ نَفرٍ: رَجلٍ آتاهُ اللهُ مالاً وعلماً، فهو يَعمل به في ماله يُنفقه في حَقّه، ورجلٍ آتاهُ الله عِلماً ولم يؤتِه مالاً، فهو يقول: لو كانَ لي مثل مالِ هذا عملتُ فيه

(١) أخرجه البخاري (١٢٣) و(٢٨١)، ومسلم (١٩٠٤)، وأحمد (١٩٤٩٣) و(١٩٥٤٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤)، وأحمد (٧٨٢٧) و(١٠٩٦٠).
(٣) صحيح مسلم (١٩١١)، وأحمد (١٤٢٠٨).
(٤) صحيح البخاري (٢٦٨٤).
(٥) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

مثل الذي يَعمل» قال رسول الله ﷺ: «فَهُما في الأَجر سَواء، ورجلٍ آتاه الله مالاً ولم يُؤته علماً، فهو يَخبطُ فيه يُنفقه في غير حقِّه، ورجلٍ لم يُؤتِه اللهُ مالاً ولا عِلماً، فهو يقول: لو كان لي مالٌ مثلُ هذا عملتُ فيه مثل الذي يَعمل» قالَ رسولُ الله ﷺ: «فهما في الوِزْرِ سَواء»(١).

وروى أبو داود في سُننه من حديث أبي أُمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن أحبَّ لِله، وأبغَضَ لِله، وأَعطى لله، ومَنَع لله، فقد استَكمل الإيمان».

أنبأنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني علي بن مُسلم قال: حدثنا سَيّار قال: حدثنا جعفر قال: حدثنا أبو عمران الجَوني قال: تَصعدُ الملائكة بالأعمال، فينادَى المَلكُ: ألقِ تلك الصحيفة، ألقِ تلك الصحيفة. قال: فتقول الملائكةُ: ربَّنا، قال خيراً وحفِظناه عليه. فيقول تبارك وتعالى: لم يُرِد به وجهي. قال: ويُنادَى الملكُ: اكتُب لفلانٍ كذا وكذا. مرتين. فيقول: يا رب، إنه لم يَعمله. فيقول عزَّ وجل: قد نَواهُ، قد نَواهُ.

وقال إسماعيل بن أبي حبيبة: أصابت بني إسرائيل مَجاعةٌ، فمرَّ رجلٌ على رملٍ، فقال: وددتُ أن هذاالرَّملَ دقيقٌ فأُطعمه بني إسرائيل. فأُثيب على نيته.

وأما الآثار: فإنه كان من دُعاءِ أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه: اللهمَّ هَبْ لي إيماناً ويَقيناً ومعافاةً ونيةً.

وقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: أفضلُ الأعمال أداءُ ما افترض اللهُ تعالى، والورعُ عما حرَّمَ اللهُ تعالى، وصدقُ النية فيما عند اللهِ تعالى.

وقال سالم بن عبد الله: مَن تَمَّتْ نِيَّته تمَّ عَونُ اللهِ له.

وقال داود الطائي: رأيتُ الخيرَ كلَّه يَجمعُه حُسنُ النِّيَّةِ، وكفاك به خيراً وإن لم تَنْصَب.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٠٢٤)، وهنّاد في الزهد (٥٨٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٦٣)، والترمذي (٢٣٢٦)، وابن ماجه (٤٢٢٨).

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النيَّةَ للعمل كما تتعلمون العمل.

وكان بعضهم يقول: دُلّوني على عملٍ لا أزال به عاملاً لله تعالى. فقيل له: انْوِ الخَيرَ، فإنك لا تزال عاملاً وإنْ لم تَعمل، فالنيةُ تعمل وإن عُدِمَ العملُ، فإنه من نوى أن يُصلي بالليل فنام، كُتِبَ له ثوابُ ما نَوى أن يفعله.

أخبرنا أبو القاسم الكاتب قال: حدثنا أبو علي بن المُذهِب قال: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع، حدثنا أبو جعفر الرازي، عن محمد بن المُنكَدِر، عن سعيد بن جُبير، عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: «ما مِن رَجلٍ تكون له ساعةٌ من الليل يَقومُها، فينام عنها، إلا كُتِبَ له أَجرُ صلاتِه، وكان نَومُه عليه صَدقة تُصُدِّقَ به عليه»[1].

ولذلك إذا نوى المعاصي عازماً عليها، فإنه يأثَمُ لإصراره، سُئِلَ ابنُ المبارك عن المُدْمِن للخمر، فقال: الذي يَشربها اليوم ثم لا يَشربُها ثلاثين سنةً، ومِن رأيه أنه إذا وَجَدها شَرِبها.

بَيان حَقيقة النِّيَّة

اعلم أن النيةَ والإرادةَ والقَصدَ عبارات متواردة على معنى واحدٍ، وهو حالةٌ وصِفةٌ للقلب يَكتنفها أمران: علمٌ وعَمل، فالعلم يَقدُم العَمل؛ لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه؛ لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كلّ عمل. أعني كل حركة وسكون اختياري. فإنه لا يتمّ إلا بثلاثة أمور: علمٍ وإرادةٍ وقُدرةٍ؛ لأنه لا يُريدُ الإنسانُ إلا ما يَعلمه، فلا بد أن يعلم غير أنه لا يعمل ما لم يُرِد، فلا بدَّ من إرادةٍ، ومعنى الإرادة انْبعاثُ القَلب إلى ما يراه مُوافقاً للغَرض إما في الحالِ أو في المآل، فقد خُلق الإنسانُ بحيث توافقه بعضُ الأمور وتلائم غَرضَه، وتُخالفه بعضُ الأمور، فاحتاج إلى جَلب المُلائم الموافق إلى نَفسه، ودَفْع الضَّار المُنافي عن نَفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفةٍ وإدراكٍ للشيءِ المُضِرِّ والنّافع حتى يَجلبَ هذا ويهرب من هذا،

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٤١)، والنسائي في الكبرى (١٤٥٨) وفي المجتبى (٣/ ٢٥٨)، وابن عبد البر في التمهيد (١٢/ ٢٦١).

فإن من لا يبصر الغِذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله، ومن لا يُبصر النار لا يمكنه الهَربُ منها، فخلق الله الهِداية والمعرفةَ، وجعل لها أسباباً، وهي الحواسُّ الظاهرة والباطنة، وليس ذلك من غرضنا. ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه مَيْلٌ إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه، إذ المريض يَرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والمَيل، ولفقد الداعية المحركة إليه، فخلق الله تعالى له المَيلَ والرغبةَ والإرادةَ، أعني بذلك نُزوعاً في نفسه إليه وتَوجهاً في قلبه نحوه. ثم ذلك لا يكفيه، فكم من مُشاهدٍ طعاماً راغبٍ فيه مُريدٍ تَناوله عاجزٍ عنه لكونه زَمِناً، فخلقت له القُدرة والأعضاء المتحركة حتى يتم له التناول، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة، والقدرة تَنتظر الداعيةُ الباعثةُ، والداعية تَنتظر العلم والمعرفة والظن والاعتقاد، وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له.

فإذا جَزَمتِ المعرفةُ بأن الشيءَ موافقٌ ولا بدّ أن يُفعَل، وسَلمت من مَعارضةِ باعثٍ آخر صارفٍ عنه، انبعثَت الإرادةُ وتحقَّق المَيل، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القُدرة لتحريك الأعضاء، فالقُدرة(١) خادمةٌ للإرادة، والإرادة تابعةٌ لحكم الاعتقاد والمعرفة.

فالنّية عبارةٌ عن الصّفةِ المتوسطة وهي الإرادة، وانبعاثُ النَّفسِ بحكم الرَّغبة والمَيل إلى ما هو مُوافقٌ للغَرض إما في الحال وإما في المآل، فالمحرك الأول هو الغَرضُ المطلوب، وهو الباعث، والغرض الباعث هو القصد المَنوي، والانبعاث هو القَصد والنِّية، وانتِهاضُ القدرة لخِدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل.

إلا أنّ انتهاضَ القُدرة للعمل قد يكون بباعثٍ واحدٍ، وقد يكونُ بباعِثين اجتَمعا في فعلٍ واحدٍ، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفردَ لكان كافيّاً بإنهاضِ القُدرة، وقد يكون كل واحد قاصراً عنه إلا بالاجتماع، وقد يكون أحدهما كافياً لولا الآخر لكان الآخر انتهض عاضداً له ومعاوناً، فيخرجُ من هذا التقسيم

---

(١) في الأصل: «بالقدرة».

أربعةُ أقسام؛ فلنذكر لكل واحد مثالاً واسماً:

أما الأول: فهو أن يَنفرد الباعثُ الواحدُ ويتجرَّد، كما إذا هجمَ على الإنسان سَبعٌ فحين رآه قام من مَوضعه، فلا مُزعج له إلا غرضُ الهربِ من السَّبع، فإنه رأى السَّبع وعرفه ضارّاً، فانبعثَت نَفسُه إلى الهرب، ورغبَت فيه، فانتهضت القُدرة عاملة بمُقتَضى الانبعاث، فيُقال: نِيَّتُه الفرار من السَّبع ولا نيَّةَ له في القيام غيره، وهذه النية تسمى خالصة، ويُسمّى العمل بموجبها إخلاصاً، بالإضافة إلى الغرض الباعث، ومعناه: أنه خَلص عن مُشاركة غيره وممازحته.

وأما الثاني: فهو أن يجتمع باعثان كلّ واحدٍ مستقل بالإنهاض لو انفرد، ومثاله من المُحَسِّ أن يتعاونَ رجُلان على حملِ شيءٍ بمقدار من القوة كانت كافية في الحمل لو انفردت، ومثاله في غرضنا: أن يَسأله قريبُه الفقيرُ حاجةً فيقضيها لفقره ولقرابته، وقد علم أنه لولا فقره لكان يَقضيها بمجرد القَرابةِ[1]، ويعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب أيضاً فيه، وكذلك من أَمَره الطبيبُ بترك الطَّعام ودخل عليه يوم عرفة فصامَ وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عَرفة لكان يترك الطَّعام حميةً، ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عَرفة، وقد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل، وكان الباعثُ الثاني رفيق الأول، فَلنُسمِّ هذا موافقةَ البَواعث.

الثالث: أن لا يَستقلَّ كل واحد لو انفرد، ولكن قَويَ مجموعُهما على إنهاض القُدرة، ومثاله: أن يتعاون ضَعيفان على حملِ مالا يَنفرد أحدهما به، ومثاله من غرضنا: أن يقصده قريبه الغَني فيطلبُ درهماً، فلا يعطيه، ويقصده الأَجنبي الفَقير، فيطلب درهماً، فلا يعطيه، ثم يقصده الفقير القَريب فَيُعطيه فيكونُ انبعاثُ داعيته بمجموعِ الباعثين وهو القرابة والفَقر، وكذلك الرجل يتصدَّق بين الناس لغَرضِ الثَّواب ولغرض الثَّناء، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان يبعثه مجرد قَصدِ الثَّواب على العَطاء، ولو كان الطالبُ فاسقاً لا ثَواب في التَّصدق عليه لكان لا يَبعثه مجرد الرياء على العَطاء، ولما اجتمعا أَورثا بمجموعهما تَحريكَ القلب، ولنُسَمِّ هذا

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الفقر»، والمثبت من الإحياء.

الجِنس مشاركةً.

والرابع: أن يكون أحدُ الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه، والثاني لا يستقل، ولكن لمّا انضافَ إلى الأول لم يَنفك عن تأثيرٍ بالإعانة والتَّسهيل، ومثاله: أن يُعاون الضعيفُ الرجلَ القويَّ على الحَمل، ولو انفردَ القويُّ لاستقلَّ، ولو انفردَ الضَّعيفُ لم يَستقل، فإن ذلك بالجملة يُسهل العمل ويؤثر في تَحقيقه[1]، ومثاله من غرضنا: أن يكون للإنسان وِرْدٌ في الصَّلوات وعادةٌ في الصدقات، فاتَّفق أنْ حضر في وقتها جماعةٌ من الناس فصارَ الفعلُ أخفَّ عليه بسبب مُشاهدتهم، وعلم أن عمله لو لم يكن طاعةً لم يكن مجرد الرِّياء يَحمله عليه، فهو شَوْبٌ تطرق إلى النِّيةِ، ولنُسمِّ هذا الجِنسَ: المُعاونة، فالباعثُ الثاني إما أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً، وسنذكر حكمها في باب الإخلاص، والغرضُ الآن بيانُ أقسامِ النِّيّات، فإن العملَ تابعٌ للباعث عليه، فيكتسب الحكم منه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إنّما الأعمال بالنِّيَّة».

بيانُ قَولِه عليه الصلاةُ والسلام: «نِيَّةُ المؤمن خَيرٌ من عمله»[2]

هذا الحديثُ يُروى مرفوعاً إلى رسولِ الله ﷺ من وجوهٍ، وجميعُ جهاتِه لا تَثبت، ولا يَصحُّ رَفعُه بحالٍ، إلا أنَّ الناسَ تكلّموا في معناه على خمسةِ أقوال:

أحدها: أن النيةَ سِرٌّ، والعمل ظاهر، وعمل السِّرِّ أفضل، ولعَمري إن عمل السرِّ في الجُملة أفضل، غير أن ما قالوه يَقتضي أنه إذا نَوى أن يذكر الله أو يتفكّر اقتضى عمومُ الحديث أن تكون نِيَّةُ التفكُّرِ خيراً من التفكر وليس هذا بصحيح.

والثاني: أن النِّية تَدوم إلى آخر العَمل والأعمالُ لا تدوم، وهذا ضعيف؛ لأن معناه يرجع إلى أنّ العملَ الكثير خَيرٌ من القليل، وربَّ قليلٍ كان خيراً من كثير، ثم إن نيةَ أعمالِ الصلاةِ قد لا تدوم إلا في لحظات، والأعمالُ تدوم، والحديث عام.

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الحقيقة»، والمثبت من الإحياء.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ١٨٥).

والثالث: أن النيةَ بمجردها خيرٌ من العمل بمجرده دون النية، وهذا بعيد؛ لأن العمل إذا خَلا عن نيةٍ لم يكن فيه خَير أصلاً، وظاهر الترجيح للمشتركين في أصلِ الخير.

والرابع: أنَّ المؤمنَ يَنوي العمل الكثير فلا يُساعده الوقت ولا القوى، فيعمل مما في نيته، ونِيّتُه أعظم مما يعمل. قالَ الحسنُ البَصري: إن المؤمن تَبلغ نيته وتَضعف قوته.

والخامس: أن كل طاعة تَنتظم بنيةٍ وعمل، فإن النية خَير والعمل خَير، إلا أنَّ النيةَ خير من وجهين:

أحدهما: أنها من عمل القلب، وعمل القَلب خير من عمل الجوارح، فإن القَلب أمير الجوارح، وبينه وبينها علاقة، فإذا تأثرت الجوارح بجراحٍ أَلِمَ، وإذا أَلِمَ تأثرت الجوارح فتغير اللون وارتعدت الفرائص؛ لأنه الأمير الراعي، والجوارح خَدمٌ ورَعايا، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ في الجسدِ مُضغة إذا صَلحت صلح لها سائر الجَسَد، وإذا فَسدت فسد لها سائر الجَسد، ألا وهي القَلب»[1].

والثاني: أن المقصود من عَمل الجوارح أن يُعوِّدَ القلبُ إرادةَ الخَير ويؤكد فيه المَيل إلى ذلك ليتَشاغَل بالذكر والفِكر، فإذن ما يتحرك به القلب من الخير يكونُ أنفس؛ لأنه نفس المقصود، ومثال هذا: أنه قد تَألَمُ المعدةُ فَيُطلَى الصَّدرُ والدّواء الواصل إلى المعدة بالشُّرب خَيرٌ من طِلاء الصَّدر؛ لأن الطِّلاء إنما أُريد به أن يسري أثره إلى المعدة، فإذا لاقَى عينَها فهو المقصود.

وقد عُلمَ أن المراد من جَميع الطاعات إصلاحُ القلوب وتبديلُ صفاتها دون الجوارح، فلا تَظنَّن أن المراد من السجود وضَع الجبهة فَقط، بل المراد منه توكيد صِفة التَّواضع في القلب، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيداً قط، فإنه لو سجَد غافلاً لم يتأثّر بذلك قَلبُه، فكان وجوده كَعَدمه، بل زاده شراً؛ لأنه يؤكدُ الصفةَ المطلوب قَمعها وهي الرياء، فهذا الوجه أحسن الوجوه في تفسير الحديث، وبه

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

تبين معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن همَّ بحسنةٍ فلم يَعملها كُتبت له حَسَنة»[١]، لأن همَّ القلب هو مَيلُه إلى الخير وكذلك قوله: «ما قَطعتم وادياً إلا وقد سَبقوكم إليه»[٢] وذلك بِنيّاتهم.

بَيان تَفصيل الأعمال المتعلّقة بالنِّيَّة

اعلم أنّ الأعمال وإن انقسمت أقساماً كثيرةً من فعلٍ وقَولٍ وحركةٍ وسُكونٍ وجَلبٍ ودَفعٍ وفكْرٍ وذِكرٍ وغيرِ ذلك، فهي ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المعاصي، وهي لا تَتغير عن مَوضعها بالنّية، مثل أن يبني مسجداً بمالٍ حرام يَقصدُ بذلك الخير، فإن النيةَ لا تُؤثر في كَونِ ذلك ظُلماً ومعصيةً، بل قصده الخيرَ بالشَّرِّ على خلافِ مُقتضى الشرع شَرٌّ آخَرُ، فإن عَرفَ ذلكَ فهو مُعاندٌ للشرع، وإن جَهِلَه، فهو عاصٍ بجهله، إذ طلبُ العلم فَريضةٌ على كل مسلم، والخيراتُ إنما تبيَّن كونُها خَيرات بالشَّرع، فكيف يمكن أن يكون الشَّرُّ خَيراً؟ هيهات! بل المُرَوِّجُ لذلك على القَلب خَفيُّ الشَّهوةِ وباطنُ الهوى، فإن القلبَ إذا كان مائلاً إلى طلبِ الجاهِ واستِمالةِ قلوبِ الناس وسائر حُظوظ النفس توسَّلَ الشَّيطانُ به إلى التلبيس على الجاهل، ولذلك قال سَهل بن عبد الله: ما عُصِيَ الله بمعصيةٍ أعظم من الجهل. قيل له: فهل تعرفُ شيئاً أشدّ من الجَهل؟ قال: نَعم الجَهلُ بالجَهلِ. وهذا كما قال؛ لأن الجهلَ بالجهلِ يسدُّ بابَ التعلُّم بالكليّة؛ لأن من ظنَّ نفسَه أنّه عالمٌ فكيفَ يتعلَّم؟ وكذلك أفضل ما أُطيع الله به العِلم، ورأس العلم العلمُ بالعِلم، كما أن رأسَ الجَهل الجهلُ بالجهلِ، فإن من لا يَعلم العلم النافع من العِلم الضَّار يشتغل بما قد أكبَّ الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومَنبع فَساد العالم.

والمقصودُ: أن من قصدَ الخيرَ بمعصيةٍ عن جهلٍ فهو غير معذور إلا إذا كان قريبَ العهد بالإسلام، ولم يجد بَعدُ مُهلةً للتعلم.

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

واعلم أن تَقرُّبَ من تقرَّبَ من السَّلاطين ببناءِ المساجد والمدارس بالمال الحرام، كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسُّفهاء والأَشرار المشغولين بالفِسق، فإن هؤلاء إذا تعلّموا كانوا قُطّاع طريقِ الله، وانتهضَ كلٌّ واحدٍ نائباً عن الدَّجّال يتكالَبُ على الدنيا ويتبع الهوى، ووبال ذلك راجعٌ إلى معلِّمهم الذي علَّمهم مع علمه بفسادِ نِيّاتهم ومقاصِدهم، فكان كمن أَعطَى سَيفاً قاطعَ طريقٍ، وكيف يجوزُ الإمدادُ بالعلم لمن يتَّخِذه سُلماً إلى شَهَواته؟ ومِنْ هذا القبيل تَعليم القُصّاص اليوم القَصَص، فإنَّ مقاصدَ أكثرِهم مَعروفة، وقصدهم اجتلابُ الدنيا وأخذُ الأموال كيفَ اتَّفق، وتعليمُهم إعانةٌ لهم على الفساد، وقد ذكرتُ آفاتهم في كتابِ القُصّاصِ والمُذَكِّرين.

فإذن قولُه عليه الصلاة والسلام: «الأَعمال بالنِّية» يختص من الأقسام الثلاثة بالطَّاعات والمباحات دون المعاصي، إذ الطاعة تنقلب معصيةً بالقَصد، وتَكون طاعة بالقَصد، والمباح ينقلب طاعة ومعصية بالقصد، فأما المعصية فلا تنقلب طاعةً بالقصد أصلاً، بلى للنية دخولٌ فيها؛ وهو أنه إذا انضاف إليها قُصُودٌ خبيثةٌ تضاعف وِزْرها وعَظُم وبالها كما ذكرنا في كتاب التَّوبة.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنّيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها، أما الأصل، فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير، فإن نَوى الرياء صارت معصيةً، فأما تضاعف الفَضل، فبكثرة النِّيات الحَسَنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن يُنوَى بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حَسَنة، ثم تُضاعف كل حسنةٍ عشر أمثالها، ومثاله القُعودُ في المَسجدِ، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي به نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المُتَّقين:

أولها: أن يقصد بدخوله زيارةَ اللهِ تعالى في بيته، وحقٌّ على المَزورِ إكرامُ زائرِهِ.

وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة.

وثالثها: التَّرهب بكفِّ الجَوارح، فإن الاعتكافَ كَفٌّ، وهو نوع تَرهُّبٍ.

ورابعها: عكوفُ الهمِّ على الله تعالى ولزومُ السِّرِّ للفكر في الآخرة، ودفع

الشَّواغل الصارفة عنه بالانقطاع إلى المسجد.

وخامسها: التَّجرد لذكرِ اللهِ، أو لاستماع ذِكره، أو للتذكير به.

وسادسها: أن يقصد إفادة علم، مثل أن يأمر بمعروفٍ وينهى عن المنكر، إذ المسجد لا يخلو عَمَّن يُسيء صَلاتَه أو يَتعاطى ما لا يَحلّ له، فيأمره بالمعروف ويُرشِده إلى الدين، فيكون شريكاً له في خيره الذي تعلَّمه منه، فتضاعف خيراته.

وسابعها: أن يَستفيد أخاً في الله، فإن ذلك غَنيمةً وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد عش أهل الدين.

وثامنها: أن يترك الذنوب حياءً من الله تعالى وخشيةَ أن يتعاطى في بيته ما يقتضي هَتْكَ الحُرمة، وقد قال الحسن بن علي: من أَدمَنَ الاختلاف إلى المسجد رزقه الله تعالى إحدى سَبع خِصال: أخاً مُستفاداً في الله تعالى، أو رحمةً مُستَنزلةً، أو عِلماً مُستَطْرَفاً، أو كلمةً تدلُّه على هُدى أو تَصرفه عن رَدى، أو يترك الذُّنوب خشيةً أو حياءً.

فهذا طريق تكثير النِّيات، وقِسْ به سائرَ الطاعات والمُباحات، إذ ما من طاعةٍ إلا وتحتمل نِيّات كثيرة.

القسم الثالث: المُباحات؛ وما من شيءٍ من المُباحات إلا ويحتمل نيةً أو نيّاتٍ يَصيرُ بها من محاسن القُربات، ويُنالُ به معالي الدرجات، فما أعظم خُسْران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سَهوٍ وغَفْلَةٍ.

ولا ينبغي أن يحتقر العبدُ الخَطَرات والخَطوات واللّحظات، فكل ذلك كان يُسأل عنه في القيامة لِمَ فَعله؟ وما الذي قَصَد به؟ وقد يَتطيَّبُ فينوي بالطِّيب اتباع السنَّة واحترام المسجد ودفع الرَّوائح[1] الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مُخالِطيه، ومعالجة رأسه لتزيدَ به فِطنتُه وذكاؤُه، فيَسهُل عليه إدراكُ مُهمّات دينه، فقد قال الشافعي رحمه الله: من طابَ ريحُه زاد عَقلُه.

وقد يقصد بالطِّيب إظهار التَّفاخر بكثرة المال ورياء النّاس والقُرب إلى قلوب

(١) تحرفت في الأصل إلى: «التراويح»، والمثبت من الإحياء والمختصر.

الأَجْنبيات إلى غير ذلك، فيأثَمُ.

وقد قال بعضُ السَّلفِ: إنّي لأستحبُّ أن يكون لي في كل شيءٍ نية حتى في أكلي وشُربي ونَومي ودُخولي الخَلاء. وكل ذلك مما يمكن أن يُقصَدَ به القُربُ إلى الله تعالى؛ لأن كل ما هو سبب لبقاء البَدن وفراغ القَلب من مهمّات الدين فهو مُعينٌ على الدِّين، فمن قَصَد من الأكل التَّقوِّي على العبادة ومن النكاحِ تَحصينَ دينه وتَطييبَ قَلبِ أهله والتَّوصل إلى ولدٍ يعبد الله تعالى بَعده أُثيبَ.

فلا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك، فإنه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقد روينا أن رجلاً قال للثوري: أرى إزارك مقلوباً. فمدَّه ليصلحه ثم قبض يَده، فقيل له: لِمَ لا تُصلحه؟ فقال: لبستُه لله تعالى فلا أُسوِّيه لغيره.

ودخل رجل على سُفيان وهو يأكل فما كلَّمه حتى فرغ فقال: لولا أنه بدَينٍ لأحببتُ أن يَأكُلَ منه.

فحاسب نفسكَ قبل أن تُحاسَب وصَحِّح نيتَكَ قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نِيَّتِكَ فيما تركته، فإن تَرك الفِعل فِعلٌ.

بيان أن النِّية غير داخلةٍ تحت الاختيار

ربما سمعَ ما أوصينا به من تحسينِ النِّيةِ جاهلٌ فقال عند أكله: نويتُ أن آكُلَ لله تعالى، أو أن أتَّجِرَ لله، أو أن أقرأ لله. وظنَّ أن ذلك نية، وهيهات! فإن ذلك حديث نفسٍ أو لَقْلَقةُ لسانٍ، والنّية بمعزلٍ عن ذلك، وإنما النية انبعاثُ النَّفس وتَوجُّهُها ومَيلُها إلى ما ظَهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً وإما آجلاً، والمَيلُ إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، كقول الشَّبعان: نويتُ أن أَشتهي الطَّعام وأميل إليه. أو قول الفارغ القلب: نويتُ أن أعشق فلاناً وأُعَظمه بقلبي. وذلك محالٌ، إذْ لا طريق إلى اكتساب صرفِ القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وإنما تنبعثُ

النفس إلى الفِعل إجابةً للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها.

وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه مَنوطٌ بفعلٍ من الأفعال فلا يتوجه نحوه قصده، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين، فإذا اعتقد فإنما يتوجه القلبُ إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرضٍ شاغلٍ أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت.

والدَّواعي والصَّوارف لها أسبابٌ كثيرة بها تجتمع، ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال، فإذا غلبت شَهوةُ النكاح مثلاً ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ودُنيا، لا يمكنه أن يواقع على نية الوَلد، بل لا يمكن إلا على نيةِ قضاءِ الشَّهوَة، إذ النية هي إجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولد؟ وإذا لم يَغلب على قلبه أن إقامة سُنة النكاح اتّباع لرسول الله ﷺ فلا يمكن أن يَنوي بالنكاح اتِّباع السنة، إلا أن يقول ذلك بلسانه، وهو حديث محض ليس بنية. بلى طريقُ اكتساب هذه النِّية مثلاً أن يُقَوي إيمانه أولاً بالشَّرع ويقوي إيمانه بعظيم ثواب من سَعى في تكثيرِ أمة محمدٍ ﷺ، ويدفع عن نفسه جميع المُنَفّرات من ثقل المُؤنة وطول التَّعب، فإذا فعل ذلك ربما انبعثت من قلبه رغبةٌ إلى تحصيل الولد للثواب، فتحركه تلك الرغبة وتحرك إعضاءَه لمباشرة العَقدِ، فإذا انتهضت القدرة المحركة للِّسان بقبول العَقد طاعةً لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً، فإن لم يكن كذلك فما يُقدره في نفسه ويُردده في قلبه من فضل الولد وسواس وهذيان، ولهذا امتنع جماعةٌ من السلف من جملةٍ من الطاعات إذ لم تَحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس يَحضُرنا في هذا نِيَّةٌ.

قيل لطاوس: ادعُ لنا. فقال: حتى أجد لذلك نِيَّة. وكان لا يُحدّث إلا بنية.

وقال عيسى بن كثير: مَشيت مع ميمون بن مِهران، فلما انتهى إلى باب دارِه انصرفَ، فقال ابنُه: ألا تعرِضُ عليه العَشاء؟ فقال: ليس من نِيَّتي.

ونادى رجل امرأتَه وهو يُسرح شَعره: هاتِ المِدْرى[1]. فقالت: أجيءُ بالمرآة؟ فسكتَ ساعةً ثم قال: نَعم. فَسُئِل عن ذلك فقال: كان لي في المِدْرى نيّةٌ، ولم

(١) المِدرى: ما يعمل من حديد أو خشبٍ على شكل سنٍ من أسنان المشط أو أطول منه يسرح به الشعر المتلبِّد.

يَحضُرني في المرآةِ نيَّة، فتوقفت حتى هَيَّأها الله تعالى.

ومات حَمّاد بن أبي سُليمان، فقيل للثَّوري: ألا تَحضُر جنازته[١]؟ قال: لو كان لي نيّة لفعلت.

وقيل لنافع بن جُبير بن مُطعم: ألا تشهد الجنازة؟ فقال: كما أنتَ حتى أنوي. ففكَّر هُنَيهةً ثم قال: امضِ.

وقال الثوري: ما عالجتُ شيئاً أشدّ عليَّ من نيّتي؛ لأنها تَقَلَّبُ عليَّ.

وقال يوسف بن أسْباط: تخليصُ النِّية من فسادِها أشدّ على العاملين من طول الاجتهاد.

وقد كان السلف لا يعملون عملاً إلا بالنية، لعلمهم بأن النية روح العمل، وأن العمل بغير نيةٍ صادقةٍ رياءٌ وتكلُّفٌ، وذلك سببُ مَقْتٍ لا سَببُ قُرب، وعلم القَوم أنَّ النيةَ ليست قول القائل: نَويتُ، وإنما هي انبِعاثُ القَلبِ، يجري مَجرى الفُتوح من الله تعالى، فقد تَتيسَّر في بعض الأوقات، وقد تتعذَّر، وإنما تَتيسر في الغالب لمن غَلب على قلبه الدِّين، وأما من مالَ قلبُه إلى الدنيا فيبعد تَيسرها له.

فأما طاعةُ الله تعالى على نِيّة إجلالِ الله لاستحقاقِه الطّاعة والعُبودية، فلا تتيسَّر للراغب في الدنيا، وهذه أعزُّ النيات وأعلاها، ويعز من يفهمها فضلاً عن من يتعاطاها.

ونياتُ الناس في الطاعات أقسام: إذ منهم من يكون عمله إجابةً لباعثِ الخَوف، فإنه يتَّقي النار، ومنهم من يَعمل إجابةً لباعث الرجاء، وهو الرغبة في الجنَّة، وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلى قَصد طاعة الله تعالى وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه، فهو من جُملة النِّيات الصحيحة؛ لأنه مَيلٌ إلى الموعود في الآخرة، وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا.

وأغلب البواعث بواعث الفَرْج والبَطن، وموضع قَضاء وَطَرهما الجنَّة، فالعامل لأجل الجنَّة عامل لبطنِه وفَرْجِه، وعبادةُ ذَوي الألباب لا تُجاوز ذكرَ الله عز وجل

(١) في الأصل: «جماعته»، والمثبت من الإحياء.

والفكر فيه حباً لجماله وجَلاله، وجميع الأعمال تكون مؤكدات ورَوادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمَطعوم في الجنَّة، فهم يرون المتشاغلين بالحُورِ عن الله تعالى كما يَرى العقلاء الصِّبيان المُتَاشغلين بالصُّوَر من الطِّين، وقد حُكي عن أحمد بن خضرويه أنه رأى ربَّ العزةِ في منامه فقال له: كل الناس يَطلبون مني، وأبو يزيد يَطلبني.

وحَكى أبو يزيد أنه رأى ربَّه عزَّ وجل في المنام فقال: يا رب، كيف الطريقُ إليك؟ فقال: اتركْ نَفسك وتَعالَ.

وغَرضُنا أن هذه النِّيات مُتفاوتة الدَّرجات، ومن غلب على قلبه واحدةٌ منها فربما لم يتيسَّر له العُدولُ إلى غيرها، ومن حَضَرت له نيةٌ في مباحٍ، ولم تَحضُر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة وصارت الفَضيلة في الفاضل نقيصة، لعدم النّية له، مثل أن تَحضُره نيةٌ في الأكل والنَّوم ليقوى على العِبادة ويُريح بَدَنه، ولم تنبعث نِيَّته في الحال للصلاة والصوم، فالأكلُ والنوم أفضل له، بل لو مَلَّ العبادةَ لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لو ترفَّه ساعةً بلَهوٍ مُباحٍ وحديثٍ عاد نَشاطُه، فاللَّهوُ أفضل له من التَّعبد حينئذٍ.

قال عليُّ بن أبي طالب: رَوِّحوا القُلوبَ وابتغوا لها طُرَفَ الحِكمةِ، فإنها تَمَلُّ كما تَملُّ الأبدان. وفي لفظٍ آخر عنه: إن هذه القلوب تَملّ كما تَملُّ الأبدان، فالتمسوا لها من الحِكمةِ طُرَفاً.

وقال أبو الدَّرداء: إني لأَسْتَجِمُّ[1] نَفسي ببعض الباطل كراهيةَ أن أحمل عليها من الحقِّ ما يُملُّها.

وكان ابنُ عباسٍ يقول لأصحابه: أَحْمِضوا بنا[2].

وقال قَسامَةُ بن زُهَير: رَوِّحوا القلوبَ تَعِي الذِّكرَ.

وهذه دقائق لا يُدركها إلا سَماسِرة العُلماء، فإن الحاذِقَ بالطِّبِّ قد يُعالج

---

(١) أَستَجم: أطلب جمامَ نفسي، أي: راحتها.
(٢) أَحْمَضَ القومُ: أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث والكلام.

المحرورَ باللَّحم مع حَرارته، ويَستَبعد ذلكَ القاصرُ في: الطبِّ، وإنما ينبغي به أن يُعيدَ أولاً قُوَّتَه ليحتمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقِتال قد يَفرُّ من بين يدي قِرْنِهِ[١] حيلةً منه ليستَجِرّه إلى مَضيقٍ.

فسلوكُ طريقِ اللهِ تعالى كلُّه حَربٌ مع الشيطان ومعالجة للقلب، والبصير الموفَّق يَقف في تلك الطريق على لطائِف من الحيل يستبعدها الضُّعفاء، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خَفي عليهم، بل يُسلمون لهم أحوالهم إلى أن تنكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلكَ المقام.

* * *

(١) قِرْنُ الإنسان: مثيله في الشجاعة والشِّدَّة والقتال وغير ذلك.

الباب الثاني

في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص: قال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦]، وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، قال سعيد بن جبير: لا يُرائي.

وقال الحَواريّون لعيسى: ما الإخلاص لله عز وجل؟ فقال: الذي يعمل العمل لا يُحب أن يحمده عليه أحد. وقال نبينا ﷺ: «طُوبَى للمخلِصين، أولئك مَصابيح الهُدى تنجلي عنهم كلّ فتنةٍ ظلماء».

وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جَبَل: «أخلِص دينك، ويكفِكَ القليلُ من العمل».

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مُختَّمة، فيقول الله عز وجل: ألقوا هذا واقبلوا هذا. فتقولُ الملائكة: وعِزَّتِكَ ما كتبنا إلا ما كان. فيقول: إنّ هذا كان لِغَيري، ولا أقبل اليوم إلا ما كان لي».

وقال ﷺ: «إن الملائكة يَرفعون عمل العبدِ فيكَثِّرونه ويُزكّونه، فيوحي الله تعالى إليهم: أنتم حَفَظةٌ على عمل عبدي، وأنا رَقيبٌ على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يُخلص لي عمله، فاجعلوه في سِجّين، ويَصعدون بعمل يَستقلّونَه، فيوحي الله تعالى: إنكم حَفَظةٌ على عمل عبدي، وأنا رقيبٌ على ما في نفسه، فضاعِفوه واجعلوه في عِلّيين»[1].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد: (١٥٣).

وقد ذكرنا في كتاب الرّياء حديثَ الثلاثة: المجاهد والعالم والمنفق كيف تُسَعَّرُ بهم جهنّم أول الخلق لموضع ريائهم.

وكتبَ عُمر إلى أبي موسى: مَن خَلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد السَّمرقندي قال: أخبرنا عاصم بن الحسن قال: أخبرنا أبو الحُسَين بن بِشْران قال: أخبرنا الحُسين بن صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: سمعتُ سَعيد بن سليمان يحدث عن المبارك بن فَضالَة عن الحَسن قال: كانت شَجرة تُعْبَد من دون الله، فجاء إليها رجلٌ فقال: لأقطعنَّ هذه الجشرةَ، فجاء إليها ليقطَعها غضباً لله تعالى، فلقِيه الشَّيطان في صورةِ إنسان، فقال: ما تُريد؟ قال: أُريد قطعَ هذه الشجرة التي تُعبد من دون الله عزَّ وجل. قال: إذا أنتَ لم تَعبدها فما يَضرّك من عبَدها؟ قال: لأَقطعنَّها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خَيرٌ لك؟ لا تقطعها ولكَ ديناران كلّ يوم إذا أصبحتَ عند وِسادِكَ. قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لكَ. فرجع فوجدَ دينارين عند وِسادِه، ثم أصبح بعدُ فلم يجد شيئاً فقامَ غضبان ليقطعها فتمثَّل له الشيطان في صورته فقال: ما تُريد؟ قال: أُريد أن أَقطعَ هذه الشَّجرةَ التي تُعبَدُ من دون الله عزّ وجلّ. قال: كذبتَ مالكَ إلى ذلك سَبيل. فذهب ليقطعها فضربَ به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله. قال: تدري من أنا؟ أنا الشَّيطان، جئتَ أول مرةٍ غَضباً لله تعالى فلم يَكُن لي عليكَ سَبيل، فخدَعْتك بالدينارين فتركتَها، فلما فَقَدتَهما جئتَ غَضَباً للدينارين فَسُلِّطتُ عليك.

وكان عابدٌ في بني إسرائيل قد عَبد الله في سِرٍّ أربعين سنة، فكانت الملائكة تَرفع عمله ولا يُقبل، فقالت الملائكة: وعِزَّتِكَ ما رفَعنا إليك إلا حقاً. قال: صدقتمُ، ولكنه أحبَّ أن يُعرفَ مكانه.

وقال الفُضيل بن عِياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: أَخلَصَه وأَصْوَبَه. قلتُ: ما أخلَصَه وأصوَبَه؟ قال: إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صَواباً لم يُقبل، وإذا كان صَواباً ولم يكن خالصاً (لم يقبل)[1]، والخالصُ إذا كان لله عزَّ وجل، والصَّوابُ إذا كان على السُّنَّةِ.

(١) في الأصل: «صواباً».

وقال محمد بن واسع: إذا أقبل العبد إلى الله عزَّ وجل أقبل الله بقلوبِ العِباد إليه.

وكان معروف الكرخي يَضربُ نَفسه ويقول: يا نَفسُ أَخلِصي وتَخلَّصي.

وقال أبو سُليمان: طُوبَى لمن صَحَّت له خَطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى.

وقال بعضهم: كنتُ مع أبي عُبيد البُسْري وهو يَحرث أَرضه بعد العَصر من يوم عرفة، فمرَّ به بعضُ إخوته من الأبدال فسارَّه بشيءٍ، فقال أبو عُبيد: لا، فمرَّ كالسَّحاب يَمسحُ الأرضَ حتى غاب عن عَيني، فقلتُ لأبي عُبيد: ما قالَ لك؟ فقال: سألني أن أحجَّ مَعه فقلتُ: لا. قلتُ: فهلا فعلتَ؟ قال: ليس لي في الحج نِيَّة، وقد نويتُ أن أُتَمم هذه الأرض العَشِيَّةَ فأخافُ إن حَجَجتُ معه أن أتعرَّض لمقْتِ الله تعالى؛ لأني أُدخِل في عمل الله تعالى شيئاً غيره.

وحُكي أنَّ رجلاً كان يخرج في زِيِّ النِّساء فيحضُر حيثُ يحضُرنَ من عُرسٍ أو مَأتمٍ فاتفق أن حضر يوماً موضعاً فيه مجمعٌ للنساء، فسُرِقَت دُرَّةٌ، فصاحوا: أن أغلقوا الباب حتى نُفَتِّشَ. فكُنَّ يُفَتِّشنَ واحدةً واحدةً حتى بلغت النَّوبةُ إلى الرجل وإلى امرأةٍ معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجوتُ من هذه الفَضيحة لا أعود إلى مثل هذا. فوُجدت الدُّرَّةُ مع تلك المرأة، فَصاحوا: أطلقوا الحُرَّة، فقد وجَدنا الدُّرَّة.

بيان حقيقة الإِخلاص

اعلم أن كل شيءٍ يُتصور أن يَشوبَهُ غيره، فإذا صَفا عن شَوْبِهِ وخَلص عنه سُمِّي: خَالصاً، ويسمى الفِعل المصفَّى المخلَص: إخلاصاً، قال الله عزّ وجل: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النحل: ٦٦]، وإنما خُلوصُ اللَّبَنِ أنْ لا يكون في شَوبٌ من الدم والفَرْث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به.

والإخلاصُ يُضادُّه الإشراكُ، فمن ليس مُخلصاً فهو مُشرِك، إلا أنَّ الشِّركَ درجات، فالإخلاصُ في التوحيد يُضادُّه الشِّركُ في الإلهية.

والشِّركُ منه خَفِيٌّ ومنه جَلِيٌّ، وكذا الإخلاص.

والإخلاصُ وضِدّه يتواردان على القلبِ، فمحلُّه القلب، وإنما يكون ذلك في القُصودِ والنِّيات، وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحداً على التَّجرُّدِ سُمِّيَ الفعلُ الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المَنوي، فمن تصدق وغرضُه مَحضُ الرِّياء فهو مخلص[1]، ومن كان غرضُه محض التقرّب لله تعالى فهو مخلص.

ولكنَّ العادةَ جاريةٌ بتخصيص اسم الإخلاصِ بتجريدِ قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، كما أن الإلحاد عبارة عن المَيلِ، ولكن خَصَّصته العادةُ بالميلِ عن الحق، ومن كان باعثُه مجرَّدَ الرياء فهو مُعرَّضٌ للهلاك، وقد ذكرنا ما يتعلق بذلك في كتاب الرياء، وإنما نتكلم فيمن انبعثَ لقصدِ التقرُّبِ، ولكن امتزج بهذا الباعثِ باعثٌ آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك: أن يصومَ لينتفعَ بالحميةِ الحاصلةِ بالصوم مع قصدِ التقرب، أو يعتقَ عبداً ليتخلَّص من مَؤونَتِه وسوءِ خُلُقِه، أو يحجَّ ليَصحَّ مزاجُه بحركةِ السَّفر، أو يتخلَّص من شَرٍّ يعرضُ له في بلده، أو ليهربَ عن عَدوٍّ في منزله، أو يتبرَّم[2] بأهله وولده، وبشُغلٍ هو فيه فأراد أن يستريح منه، أو يغزوَ ليمارسَ الحربَ ويتعلَّم أسبابها، أو يُصليَ باللَّيل وله غرضٌ في دفع النعاس عن نفسه ليُراقب رَحلَه أو أهله، أو يتعلمَ العلمَ ليَسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العَشيرةِ، أو ليكون عَقاره وماله محروساً بعِزِّ العلمِ عن الأطماع، أو يَشتَغِلَ بالتَّدريس ليفرح بلذة الكلام، أو يشتغلَ بخدمة الرفقاء لتتوفَّر حرمته عندهم أو لينال رِفقاً في الدنيا، أو يكتبَ مصحفاً ليجوِّدَ خَطَّهُ، أو يحجَّ ماشياً ليربح مؤنةَ الكِراء، أو يتوضأ ليتبرَّدَ أو يَتنظَّف، أو رَوى الحديثَ ليُعرَفَ بعُلوِّ الإسنادِ، أو اعتكفَ في المسجد ليخفَّ عليه كِراءُ المَسكَن، أو صام ليخفِّف عن نفسه التردُّدَ في طبخ الطعام، أو تصدَّق على السائلِ ليقطع إبرامَه في السؤال عن نفسه، أو عادَ مريضاً ليعُادَ إذا مرضَ، أو شَيَّعَ

---

(١) أي مخلص لريائه لهذا الاعتبار.

(٢) يتبرَّم: يَتَضجَّر ويَسْأَم.

جنازةً لتُشيِّعَ جنائز أهله، أو يفعل شيئاً من ذلك ليُعرَفَ بالخير ويُذكر به، ويُنظَر إليه بعينِ الصلاحِ والوقار.

فمتى كان باعثُهُ هو التقرُّب إلى اللهِ تعالى ولكن انضافَ إليه خاطِرٌ من هذه الخواطر حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرجَ عملُه عن حَدِّ الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصاً لله تعالى، وتطرَّقَ الشِّركُ إليه، وقد قال تعالى: «أنا أَغنى الشركاء عن الشِّرك».

وفي الجملة: كل حَظٍّ من حظوظ الدنيا تَستريح إليه النَّفس، ويميلُ إليه القلب، قَلَّ أم كَثُرَ، إذا تطرَّقَ إلى العملِ تكدَّرَ به صَفوه وزال به إخلاصُه.

والإنسانُ مرتبطٌ في حظوظه منغَمسٌ في شَهَواتِه قَلّما يَنفكُّ فعلٌ من أفعاله وعبادةٌ من عباداتِه عن حُظوظ وأغراضٍ عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل: مَن سلم له في عُمره لحظة واحدة خالصةٌ لوجه الله تعالى نجا. وذلك لعِزَّةِ الإخلاص وعُسرِ تَنقِيَةِ القَلب من هذه الشوائب؛ لأن الخالصَ هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القُرب من الله تعالى.

وهذه الحظوظ إن كانت هي الخالصة وحدها فلا تَخفى شدة الأمر على صاحبها، وإنما نَظرُنا فيما إذا كان القَصدُ الأَصلي هو التَّقرب وانضافَت إليه هذه الأمور.

ثم هذه الشَّوائب؛ إما أن تكون في رُتبة الموافقة، أو في رُتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة.

وبالجملة فإما أن يكونَ الباعثُ النفسي مثل الباعث الديني أو أَقوى منه أو أَضعف، ولكل واحد حكمٌ على ما سَنذكره، وإنما الإخلاصُ تخليص العَمل عن هذه الشوائب كلها حتى يَتجرَّد فيه قَصد التَّقرب، فلا يكون فيه باعثٌ سواه، وهذا لا يُتصوَّر إلا من مُحِبٍّ لله مُستَهترٍ به، مُستَغرقِ الهَمِّ بالآخرة بحيث لم يبقَ لحب الدنيا في قلبه قَرار حتى لا يحب الأكل والشرب أيضاً بل تكونُ رغبتُه فيه كرغبتهِ في قَضاء الحاجة من حيث إنه ضرورةُ الجِبلَّةِ، فلا يَشتهي الطعام لأنه طعامٌ، بل لأنه

يُقوّيه على عبادة الله تعالى، ويتمنى أن لو كُفِيَ شرَّ الجوعِ حتى لا يحتاج إلى الأكل، فلا يبقى في قلبه حَظٌّ من الفضول الزائدة على الضرورة، ويكون قدر الضرورة مطلوباً عنده؛ لأنه ضرورة دينه، فلا يكون له هَمٌّ إلا الله تعالى، فمثل هذا الشخص لو أكلَ أو شربَ أو قَضى حاجته كان خالصَ العملِ صحيحَ النِّيةِ في جميع حركاته وسَكناته، فلو نامَ مثلاً ليُريحَ نفسه فيتقوى على العِبادة كان نَومُه عبادةً، وكان له درجة المخلِصين فيه، ومن ليس كذلك فَبابُ الإخلاصِ في الأعمال مسدودٌ عليه إلا على النُّدور.

وكما أن من غلبَ عليه حبُّ الله تعالى وحبُّ الآخرة، فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة هَمِّه وصارت إخلاصاً، فإن[1] الذي يَغلب على نفسه حب الدنيا والعلو والرئاسة قد اكتَسَبت جميعُ حركاته تلك الصفة، فلا تَسلم له عباداته إلا نادراً.

فإذن علاجُ الإخلاص كَسْرُ حُظوظِ النَّفس وقَطعُ الطمع عن الدنيا، والتَّجرد للآخرة بحيث يَغلب ذلك على القلب فَيتيسَّرُ الإخلاص، وكم من أعمالٍ يتعب الإنسان فيها ويَظن أنها خالصة ويكون فيها مَغروراً؛ لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، وقد روينا عن بعض السَّلف أنه كان يُصلي في الصفِّ الأول، فجاء يوماً وقد سُبقَ فصلى في الصف الآخر فَخَجِل، فأعاد صلاتَه سنين، فهذا الرجل لما اعترته خَجلةٌ من تأخُّره علم أن نَظر الناس إليه في الصف الأول كان مَسَرَّته وسببَ استراحة قلبه من حيث لم يشعر.

وهذا دقيقٌ غامضٌ وقلَّما تَسلم الأعمال عن أمثاله، وقلَّ من يَتنبَّه له إلا من وفَّقه الله تعالى، والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سَيئات، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ [الزمر: ٤٧].

وأشد الناس تعرضاً لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نَشر العلم لذة الاستيلاء، والفَرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطانُ يُلَبِّسُ عليهم

(١) في الأصل: «كما أن»، والمثبت من الإحياء.

ذلك ويقول: غرضكم نَشرُ دين الله والنِّضال عن شَرعه. وترى الواعظَ يمنُّ على الله تعالى بنُصحه للخَلق ووعظِه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قولَه وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه فرح بما يُسِّرَ له من نُصرة الدين، ولو ظَهر من أقرانه من هو أحسن منه وَعْظاً، وانصرف الناسُ عنه ساءَهُ ذلك وغَمَّه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذْ كَفاهُ هذا المهمَّ بغيره. ثم إن الشَّيطان مع ذلك لا يُخلِّيه، بل يقول له: إنما غَمُّكَ لانقطاعِ الثواب عنكَ، لا لانصرافِ وجوه الناس إلى غيرك؛ لأنهم إذا اتَّعظوا بقولك كنتَ المُثاب، فاغتمامكَ لفَوتِ الثواب محمودٌ. ولا يَدري المسكينُ أن انقياده للحقِّ وتسليمه الأمر للأفضل أجزلُ ثواباً وأَعْوَدُ عليه في الآخرة من انفرادِه.

وليتَ شِعْري لو اغْتَمَّ عُمر بتَصدِّي أبي بكرٍ للإمامةِ، أكانَ غَمُّه محموداً؟ كلاّ بل لا يَسْتَريبُ ذو دينٍ أنّ غَمَّه كانَ يكون مَذموماً؛ لأن انقياده للحق وتَسليمه الأمر إلى من هو أصلح أَعْوَدُ عليه في الدِّين من تولّيه على من هو أولى منه بالأمر، فالفَرح ووعدُ النَّفس بذلك بَعيدُ الوفاء، فليكن العَبدُ متفقداً لهذه الدقائق، فإن الإخلاصَ بَحرٌ عَميقٌ.

ذكر جملة من أقوال المشايخ في الإخلاص

قال السُّوسي: الإخلاصُ فَقدُ رؤيةِ الإخلاص، لأن من شاهد في إخلاصه الإخلاص، فقد احتاجَ إخلاصه إلى إخلاص. وما ذكره إشارة إلى تَصفية الفعل من العُجبِ بالفِعل، فإن الالتِفات إلى الإخلاص والنَّظر إليه عُجبٌ، وهو من جملة الآفات، والخالص ما صَفا من جميع الآفات، فهذا تعرض لآفةٍ واحدة.

وقال سَهل: الإخلاصُ أن يكون سكون العَبد وحركاته لله تعالى خاصةً. وهذه كلمةٌ جامعةٌ مُحيطةٌ بالغَرَض.

وقيلَ لسَهل: أيّ شيءٍ أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، إذ ليسَ لها فيه نَصيب.

وقال رُوَيم[١]: الإخلاصُ في العمل أن لا يُريد صاحبه عليه عِوَضاً في الدارين. وهذا إشارة إلى أنَّ حُظوظ النَّفسِ آفة، والعابدُ لأجلِ تَنعُّم النَّفسِ بالشَّهوات في الجنة مَعلولٌ، والصِّديقون إنما يُريدون بالأعمال وَجهَ الله تعالى، فأما من يَعمل لرجاء الجنة وخَوف النار، فهو مخلص بالإضافة إلى الحُظوظِ العاجلةِ، وإلا فهو في طلبِ حَظِّ البَطنِ والفَرجِ.

فإن قيل: ما من أحدٍ قط يعمل إلا لحظٍّ، فإن البَراءةَ من الحُظوظ صِفةُ الإلهية.

فالجوابُ: إن الإشارةَ بترك الحُظوظ في حقِّ المخلِصِ إلى ما يُسميه الناس حَظاً وهو الشَّهوات الموصوفات في الجنَّة، فأما التَّلذُّذ بمجرد المَعرفة والمناجاة والنَّظر إلى الله تعالى، فهذا حظُّ هؤلاء، وهذا لا يعده الناس حظاً بل يتعجبون منه.

بيان درجات الشوائب والآفات المُكَدِّرة للإخلاص

اعلم أن الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص بعضُها جَلي، وبَعضُها خَفي، وبعضها ضعيف مع ظهوره، وبعضُها قوي مع خَفائه، ولا يُفهم اختلاف درجاتها في الخَفاء والظهور إلا بمثالٍ، وأظهر مُشَوّشاتِ الإخلاص الرياءُ، فلنذكر منه مثالاً، فنقول:

الشيطان يُدخلُ الآفةَ على المُصلّي إذا كان مُخلصاً في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخلٌ، فيقول له: حَسِّن صَلاتَكَ حتى يَنظرَ إليك هذا الحاضرُ بعينِ الوَقار والصلاح، ولا يَزْدريك ولا يَغتابك، فتخشعَ جوارحه وتَسكنَ أطرافهُ ويُحسن صلاته، فهذا هو الرياء الظاهر، ولا يَخفى ذلك على المُبتَدئين.

الدرجة الثانية: أن يكون المريد قد فَهِمَ هذه الآفةِ وأخذَ منها حَذَره، فصار لا يُطيع الشيطان فيها ولا يَلتفت إليه، ويُشمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخَير فيقول: أنتَ مَتبوعٌ ومُقْتدَى بكَ ومنظورٌ إليكَ، وما تفعلُه يُؤْثَرُ عنكَ، فيتأسَّى بكَ غيركَ فيكون لك ثَوابُ أعمالهم إن أحسنتَ، عليكَ الوِزْرُ إن أسأْتَ فأحسِنْ

(١) هو رُويم بن أحمد البغدادي، كان جامعاً بين الفقه والتصوّف توفي سنة (٣٠٣هـ).

عملك بينَ يدي هذا الذي يراكَ، فعساهُ يقتدي بكَ في الخُشوع وتَحسين العبادة. وهذا أغمضُ من الأول، وقد ينخدع به من لا يَنخدع بالأول، وهو عَين الرِّياء؛ لأنه إذا رأى حُسنَ التَّعبد خيراً لا يَرتضي لغيره تركه، فلم ارتَضى لنفسه ذلك في الخلوة، ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعزّ عليه من نفسه، فهذا محض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به فقد أثيب، وأما هو فمطالب بتَلبيسهِ معاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به.

الدرجة الثالثة: أدق مما قبلها وهو أن يعرف الإنسانُ قُبح زيادة الخشوع في الجلوة على الخلوة، فيأخذ نفسه بتجويد الصَّلاة في الخَلوة ليتعود التجويد في الجَلوة، فهذا من الرياء الغامض، وإنما الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخَلق على وتيرة واحدة، فكأن نفسَ هذا ليست تَسمح بإساءة الصَّلاة بين أظهر الناس، ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تَستوي صلاتُه في الخَلا والمَلا، وهيهات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخَلا والمَلا، فهذا شَخص[1] مشغولُ الهمِّ بالخَلقِ في المَلا والخَلا جميعاً، وهذا من مكايد الشيطان الخَفيَّة.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته، فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشع لأجلهم، فإنه قد عرف أنه تَفَّطن لذلك، فيقول له الشيطان: تفكَّر في عظمةِ الله وجلاله، ومن أنت واقفٌ بين يديه واسْتَحِ من أن يَنظر إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه ويخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص، وهو عين المَكْرِ والخِداع، فإن خُشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخَطْرة تلازمه في الخَلوة، ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأَمْنِ مِنْ هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفُه في الملا، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حُضور الخاطر، كما لا يكون حُضور البهيمة سبباً، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسانٍ ومشاهدة بهيمة، فهو بعدُ خارجٌ عن صَفْو الإخلاص مُدَنَّس الباطن بالشِّرك الخَفي من الرِّياء.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «شخوص».

وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دَبيب النَّملة، ولا يَسلم من الشَّيْطان إلا مَن دَقَّ نَظرُه وسعِدَ بعِصمةِ الله تعالى وتوفيقه وهِدايته، وإلا فالشَّيطان ملازِمٌ للمشمِّرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظةً حتى يحملهم على الرياء في كل حركة حتى في كَحْلِ العَين وقَصِّ الشارب والطيب، فهذه سُنَنٌ وللنفس فيها حَظٌّ خَفي لارتباط نَظر الخلق بها واستئناس الطبع بها، فيدعو الشَّيطان إليها ويقول: هذه سُنّة. ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوة الخَفية، أو تكون بشَوبٍ يُخرج عن حَدِّ الإخلاص بسَببه، وما لا يسلم من هذه الآفات كلها فليس بخالصٍ؛ بل من يَعتكف في مسجدٍ مَعْمورٍ ونَظيف حَسن العمارة يأنس الطبع به، فالشيطان يُرغبه فيه ويُكثر عليه من فَضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرك الخَفي في سِرِّه الأُنس بحُسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويَتبيَّنُ ذلك في مَيله إلى أحد المسجدين إذا كان أحسن من الآخر، وكل ذلك امتزاج بشوائب الطَّبع وأكدار النفس مُبطل حقيقة الإخلاص.

ولعَمري إن الغش الذي يُمزج به الذَّهب الخالِص له درجاتٌ مُتفاوتة منها ما يَغلب، ومنها ما يَقل، ولكن يسهل دَركُه، ومنها ما يَدق بحيثُ لا يُدركه إلا الناقدُ البَصير، وغشُّ القَلب وخُبث النَّفس ودَغَل الشَّيطان(١) أغمض من ذلك وأدق كثيراً، ولهذا قيل: رَكعتانِ من عالمٍ أفضل من سبعين من جاهلٍ. وأريدَ به العالمُ بدَقائق آفات الأعمال حتى يخلُصَ عنها، فإن الجاهلَ يَنظر إلى ظاهر العبادة ويَغترّ بها اغترار السَّوادِي(٢) بحُمْرةِ الدِّينار المموَّه واستدارتِه، وهو مَغْشوشٌ، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقِد خَيرٌ من دينار يَرتضيه الغِرُّ الغبي.

فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدُّ وأعظم، ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فليُقنَع بما ذكرناه مثالاً، والفَطِنُ يُغنيه القَليل، والبَليد لا يَنفعه التَّطويل.

---

(١) دَغَل الشيطان: مَكره.

(٢) السَّوادي: منسوبٌ إلى السَّواد، وهو ما حول المدينة من القرى والريف.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

إذا لم يكن العمل خالصاً لله تعالى بل امتزجَ به شَوْبٌ من الرِّياء أو حظوظ النفس، فقد اختُلفَ في ذلك هل يقتضي ثواباً أو عقاباً؟ أو لا يقتضي شيئاً أصلاً فلا يكون له ولا عليه؟

أما الذي لم يُرِدْ به إلا الرياء فهو على الإنسان لا لَه قَطعاً، وهو سبب المَقْتِ والعِقاب، وأما الخالص لوَجه الله تعالى، فهو سبب الثواب، وإنما النَّظر في المشوب، وظاهرُ الأخبار يدلُّ على أنه لا ثَواب فيه، وليس تَخلو الأخبارُ عن تعارضٍ، والذي ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله، أن ينظر إلى قدر قوة البَواعث، فإن كان الباعثُ الدّيني مُساوياً للباعث النَّفسي تَقاوَما فَسَقطا، وصار العملُ لا له ولا عليه، وإن كان باعثُ الرياء أغلب وأقوى أَضَرّ وأوجب العِقاب أيضاً، لكن عقابه أخفّ من عقاب العمل الذي تجرَّد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التَّقرب، وإن كان قصدُ التقرُّب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر، فله ثوابٌ بقدر ما فَضَل من قوة الباعث الديني، لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالباً على قَصد الرياء حَبِطَ منه القدرُ الذي يساويه، وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد.

وكشفُ الغطاء عن هذا: أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكد صفاتها، فداعية الرياء من المُهلكات، وإنما غِذاء هذا المُهلك وقُوته العمل على وفقه، وداعيةُ الخَير من المنجيات، وإنما قوّتها بالعمل على وَفقها، فإذااجتمعت الصِّفَتان في القَلب فهما مُتَضادتان، فإذا عمل على وَفق مقتضى الرياء، فقد قَوّى تلك الصِّفة، وإذا كان العمل على وَفق مُقتَضى التَّقرُّب فقد قَوَّى أيضاً تلك الصِّفة، وأحدهما مُهلكٌ والآخر مُنجٍ، وإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تَقاوما، فكان كالمُستضِرِّ بالحرارة إذا تناول ما يضره، ثم تناول من المبردات ما يُقاوم قَدر قوته، فيكون بعد تناولهما كأنَّه

لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالبُ عن أثرٍ، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية، ولا ينفك عن أثرٍ في الجسد بحكم سُنَّة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخيرِ والشَّر، ولا يَنفك عن تأثيره في إنارةِ القلب أو تسويده أو تقريبه من الله تعالى أو إبعاده، فإذا جاء بما يُقَرِّبُهُ شِبراً مع ما يُبعده شِبراً فقد عادَ إلى ما كان، فلم يكن له وعليه، وإن كان الفعلُ مما يُقرِّبه شِبْرَين والآخر يُبعده شبراً واحداً فَضَلَ له لا محالةَ شيء، وفي الحديث: «أَتْبِعِ السَّيِّئةَ الحَسَنَةَ تَمحُها».

فإذا كان الرّياءُ المَحضُ يَمْحوهُ الإخلاصُ المحضُ عَقيبه، فإذا اجتمعا فلا بُدَّ أن يَتدافعا بالضّرورة، ويشهد لهذا إجماع الأُمةِ على أن من خَرجَ حاجاً ومعه تجارة صحَّ حَجُّهُ وأُثيبَ عليه، وقد امتزج به حَظٌّ من حُظوظ النَّفس، إلا أنه متى كان الحجُّ هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالتابع لم ينفك السَّفَر عن ثَوابٍ، وكذلك الغُزاةُ إذا قَصدوا الغَزاة والغنيمة، فإن كان قصدُ الغَنيمة على سَبيل التَّبعية حصلَ الثواب بالغَزو، ولكنه لا يُساوي ثوابه ثوابَ من لا يلتفت قلبه إلى الغَنيمة أصلاً.

* * *

الباب الثالث

في الصِّدق وفَضيلته وحَقيقته

فضيلة الصِّدق: قال الله عز وجل: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرّ، والبِرّ يَهدي إلى الجنَّة، وإنّ الرجلَ ليَصدق حتى يُكتبَ عند الله صِدّيقاً»(١).

وقال بِشْرُ الحافي: مَن عامَلَ اللهَ بالصِّدقِ استَوحش من الناس.

وقال محمد بن سعيد المروَزي: إذا طلبتَ الله تعالى بالصِّدق أفادكَ مِرآةً بيدك حتى تُبصِر كلَّ شيءٍ من عجائب الدنيا والآخرة.

بيان حقيقة الصِّدق ومَراتبه

اعلم أن لفظَ الصِّدق يُستعمل في ستَّةِ معانٍ: صدقٌ في القول، وصدقٌ في النِّية، وصدقٌ في الإرادةِ، وصدقٌ في العَزْم، وصدقٌ في الوَفاء بالعَزم، وصدقٌ في العَمَل، وصدقٌ في تحقيق مقامات الدين كلِّها، فمن اتَّصفَ بالصِّدق في جميع ذلك فهو صِدّيق؛ لأنه مبالَغةٌ من الصِّدق ثم هم أيضاً على دَرجات، ومن كان له حَظٌّ من الصِّدق في شيءٍ من الجُملة، فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صِدقُه.

الصِّدق الأول: صدق اللِّسَان

وذلك لا يكون إلا في الإِخبار، أو فيما يتضَمَّن الإخبار ويُنَبّه عليه.

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٦) و(٢٦٠٧).

والخبر إمّا ان يتعلّق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوَعد والخُلف فيه، وحق على كل عَبدٍ أن يَحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصِّدق، وهذا هو أشهر أنواع الصِّدق وأظهرها، فمن حَفِظَ لسانَه عن الإخبار عن الأشياء على خلافِ ما هي عليه، فهو صادق.

ولكن لهذا الصِّدق كمالان: أحدهما الاحترازُ عن المَعاريض[١]، فإنها تُجانس الكَذِبَ؛ لأن المَحذورَ من الكذب تَفهيم الشَّيء على خِلاف ما هو عليه في نفسه، إلا أن ذلك مما تمسّ الحاجة إليه وتَقتَضيه المَصلحةُ في بعضِ الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنّسوان ومن يجري مجراهم، فمن اضطرَّ إلى شيءٍ من ذلك فصِدقُه فيه أن يكون نُطقُه فيه لله تعالى فما يأمره الحقُّ به ويقتَضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق، وإن كان كلامه مُفهماً غير ما هو عليه؛ لأن الصدق ما أُريد لذاته بل للدلالة على الحقّ والدُّعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، وقد كان رسولُ الله ﷺ إذا أرادَ سفَراً وَرَّى بغَيره، وذلك لئلاّ ينتهي الخَبرُ إلى الأَعداء فَيتهيَّؤوا لقِتاله، وقال عليه الصلاة والسلام: «ليسَ بكاذبٍ مَن أَصلحَ بينَ اثنين فَقال خيراً أو نَمى خَيراً»[٢].

وقد شَرحنا هذا في كتاب آفات اللِّسان.

فالصدق هاهنا يتحول إلى النِّية، فلا يُراعىٰ فيه إلا صِدقُ النِّية وإرادة الخير، فمتى صَحَّ القصدُ، وصَدَقَت النِّية، وتجرَّدت للخير الإرادةُ كان صادقاً كيف ما كان اللفظ، فالكَمال الأول في اللَّفظ أن يُحتَرزَ في صريح اللَّفْظ وعن المعاريض إلا عند الضرورة.

والكمال الثاني: أنْ يُراعي مَعنى الصِّدق في ألفاظه التي يُناجي بها رَبَّه، كقوله: وَجَّهتُ وَجهي. فإن كانَ قلبُه مُنصرفاً عن الله تعالى مَشغولاً بالدنيا، فهو كاذِب.

---

(١) المعاريض: التَّورية والفَحوى.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٤٦)، ومسلم (٢٦٠٥).

الصِّدقُ الثاني: في النِّية والإرادة

ويرجع هذا إلى الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعثٌ في الحركات والسَّكنات إلا الله تعالى، فإنْ مازَجَهُ شَوْبٌ من حُظوظِ النَّفس بَطل صدق النِّية، وصاحبه يجوزُ أنْ يكون كاذباً، كما رُوي في حديث الثَّلاثة حين سُئِل القارىء: لمَ قرأتَ القُرآن؟ فقال: لأجلك. قيل: كذبتَ. فإنه لم يُكذبه في قَوله: قرأت القُرآن، وإنما كذَّبَه في إرادتِه ونيَّتِه، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

الصدق الثالث: صدق العَزم

فإن الإنسان قَد يعزم على العمل، فيقول في نفسه: إنْ رَزَقني اللهُ مالاً تصدَّقتُ بجميعه أو بشَطْرِهِ، وإن لقيتُ عدواً في سَبيل الله قاتَلتُ ولم أُبالِ، وإن قُتِلتُ، وإن أَعطاني اللهُ وِلايةً عَدَلتُ. فهذه العَزيمة قد تكون صادقةً وقد يَكون فيها تَردُّد.

الصدق الرابع: في الوَفاء بالعَزم

فإنَّ النفسَ قد تَسْخو بالعَزمِ في الحال إذ لا مشقة في الوَعد والعزم، والمؤنة فيه خَفيفة، فإذا تَحقَّقَت الحقائقُ وحصل التمكُّن وهاجَت الشَّهوات انحلَّت العزيمةُ وغلبت الشَّهوات، ولم يتَّفق الوفاءُ بالعَزمِ، وهذا يُضادُّ الصدقَ فيه، ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي الصحيحين عن أنس بن النَّضر قال: لئن أَشْهَدني اللهُ مَشْهداً ليَرينَّ اللهُ ما أَصنَعُ. فشهدَ أُحداً، فقاتَل حتى قُتِل، فوجد في جَسدِه بضعٌ وثمانون من بين رميةٍ وضَربةٍ وطَعنةٍ.

ووقفَ ثَعلبَةُ على مَلأ، فَقال: لئن آتاني اللهُ من فَضلِه آتيتُ كل ذي حقٍّ حقَّه، وفعلتُ كذا وكذا. فآتاهُ الله من فَضله فأخلفَ ما وعد، فنزلت: ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]، فجعل العزمَ عهداً، وجعل الخُلفَ فيه كذباً.

وهذا الفَنُّ من الصِّدقِ أشد مما قَبله من الصدق، فإن النفس قد تَسْخُو بالعزمِ ثم

تَرجع عن الوفاء لشِدَّتِه، ولذلك قال عمر بن الخطاب: لأَن أُقَدَّم فتُضرَب عُنُقي لا يُقربني ذلك من إثم أحبّ إليَّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بَكر، إلا أن تُسوِّل لي نَفسي عند القَتل شيئاً لا أجده. وإنما خافَ أن يَثقُلَ ذلك عليها فيتغيَّر عَزمُها، وهذه إشارةٌ إلى شدَّةِ الوفاء بالعَزم.

وقال أبو سعيد الجَزّار: رأيتُ في المنام كأن مَلكين نَزلا من السَّماء فقالا لي: ما الصِّدق؟ فقلت: الوَفاء بالعهد. فقالا لي: صَدقتَ، وعَرَجا إلى السَّماء.

الصدق الخامس: في الأعمال

وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمرٍ في باطنِه لا يتصف هوَ به، لا بأن يتركَ الأعمال، ولكن بأن يَستجِرَّ الباطنَ إلى تصديق الظاهر، فربَّ واقفٍ في الصَّلاة على هيئةِ الخُشوع ليس يقصد به مشاهدة الخلق، ولكن قلبه غافلٌ عن الصلاة، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يَدي الله تعالى، وهو بالباطن قائم في السُّوق بين يَدَي شَهوةٍ من شهواته.

فهذه أعمال تُعرِبُ بلسانِ الحال عن الباطِنِ إعراباً هو فيه كاذبٌ، وهو مطالَبٌ بالصِّدق في الأعمال، وكذلك قد يَمشي الرجل على هَيئة السُّكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله، وإن لم يكن مُلتفتاً إلى الخلق ولا مُرائِياً إيّاهم.

قال أبو هُريرة: إيّاكم وتَخَشُّع النِّفاق؛ أن يُرى الجَسدُ خاشِعاً والقَلب ليس بخاشع. ولا نجاة من هذا إلا باستواء السَّريرة والعَلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره، ومن خِيفَةِ هذا كان أيوب السَّخْتياني[1] في ثَوبه بعض التَّذْييل لئلاَّ يُرى بعين الزُّهد في تَشميره.

فإذن مُخالفةُ الظّاهِر للباطن إن كان عن قَصدٍ سُمِّيَ رياءً وفاتَ به الإخْلاص، وإن كان عن غَير قصدٍ فاتَ به الصدقُ.

(١) تحرف في الأصل إلى: «السِّجستاني».

قال مُطْرِّف بن عبد الله: إن العَبدَ إذا استَوت سَريرته وعلانِيتُه فذلك النَّصَف[1]، ومن كانت سريرتُه أفضل من علانِيته فذلك الفَضْل، ومن كانت علانيته أفضل من سَريرته فذلك الجَور.

وقال عبدُ الواحد بن زَيد: كان الحَسن إذا أَمَر بشيءٍ كان من أَعملِ النّاسِ به، وإذا نَهى عن شيءٍ كان من أَتْرَكِ الناسِ لَه، ولم أَر أحداً قَطُّ أَشْبه سريرةً بعلانيةٍ منه.

الصدق السادس
وهو أعلى الدرجات وأعزّها: الصدق في مقامات الدين

كالصّدقِ في الخوف والرجاء، والزُّهدِ والرّضا، والحبّ والتَّوكل، فإن هذه الأمور لها مبادىء ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غَايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشَّيء وتَمَّت حَقيقتُه سُمِّي صاحبُه صادقاً فيه، قال اللهُ عزَّ وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنضرب الخَوف مثلاً، فما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائفٌ من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تَراه إذا خافَ سُلطاناً كيف يَصفرُّ ويَرتَعِد وقد يهربُ فَيستبدلُ الوَحشةَ بالأُنس والتَّعب بالراحة، كل ذلك خوفاً من دَركِ المحذور، ثم إنه يخاف النّار ولا يظهر عليه شيءٌ من ذلك عند فعل المَعصية، ولذلك قال عامر بن عبد قَيس: عجبتُ للجنة نامَ طالبها، وعجبتُ للنار نامَ هاربها.

والتحقيقُ في هذه الأمور عزيزٌ جداً، ولا غاية لهذه المقامات حتى يُنال تمامها، ولكن لكل عبد منه حَظٌّ بحسب حاله؛ إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سُمِّي صادقاً

(١) النَّصَف: العَدل.

فيه قال ﷺ: «مَررتُ ليلةَ أُسرِيَ بي وجبريل كالحِلْسِ البالي من خَشية الله تعالى»(١).

وقد كانت الصحابةُ تخاف، ولكن ما بَلغوا خوفَ رسولِ الله ﷺ.

وقال مُطَرِّف: ما أَحدٌ من الناس إلا وهو أحمق فيما بينه وبين رَبِّه غير أن بعض الحُمْقِ أهوَنُ من بعض.

وقال يوسف بن أَسباط: لأن أَبِيتَ ليلةً واحدة أُعامل الله عزَّ وجل بالصِّدق أحبّ إلي من أن أُقاتل بسيفي في سبيل الله عزَّ وجل.

وإذا علمَ اللهُ من عبدٍ صدقاً صنَعَ له، وما أظن الصدقَ إلا قَدْ رُفِعَ.

والصادق إذن في جميع هذه المقامات عَزيزٌ، ثم درجاتُ الصِّدق لا نهايةَ لها، وقد يكون للعبد صديقٌ في بَعضها دون بَعض، ومن علامات الصِّدق كتمانُ المَصائب والطَّامّات جَميعاً، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك.

تمَّ كتابُ النية.

* * *

(١) تقدم في كتاب الرجاء والخوف.

كتابُ المُحاسَبة والمُراقَبَة

الحمدُ لله الذي صَفَتْ بإرادتهِ الهِمَمُ وتكدَّرَت، ووَفَتْ بمشيئتِهِ العُزُمُ وتَغيَّرت، واسْتَقلَّتْ بقضائِه القَدَمُ وتعثَّرتْ، وقَلَّت بِبَلائِه النِّعَمُ وتَوفَّرَتْ، عَمَّت عَواطِفُهُ فَغَمَرت وسَرَّت، وأَمَرَتْ تكاليفُه فَنَبَّهتْ وأمرَّت، فَلِوَعدِه ووعيده بَكَتِ العُيون وسَهِرَت، فإذا قُرِّبَ الأَحْباب وسُدَّ البابُ في وجوهٍ تأخَّرت، عَلِمَتْ نَفسٌ ما قَدَّمت وأَخَّرت.

أَحمَدُه حَمدَ نفسٍ تَدبَّرَت على الأحوال كيف دُبِّرَت، وأُقِرُّ بوحدانيتهِ عن أدلةٍ قُرِّرَت، وأُصلّي على رسولِه محمدٍ صاحب الشَّريعة التي يَسَّرَتْ، وعلى أصحابه وأتباعه وأزواجه وأشياعه إلى أن تَطيرَ الصُّحفُ وقَد نُشِرَت.

أمَّا بعد: فقد قال الله عزَّ وجل: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾ [المجادلة: ٦]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

فعرفَ بهذا أربابُ البصائر أنهم سيُحاسَبون ويُطالَبون بمثاقيل الذَّرِّ من الخَطَرات

واللَّحظات، وتَحقَّقوا أنهم لا يُنجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصِدق المراقبة، فمن حاسبَ نفسه في الدنيا خفَّ في الآخرة حسابُه، وحَسُنَ مُنقلبُه ومَآبُه، ومن أَهملَ المُحاسَبة دامت حَسَراتُه وقَادَتْهُ إلى الخِزْي سَيّئاتُه، فلما علموا أنه لا يُنجيهم إلاّ الطَّاعة وقد أمرهم بالصبر والمرابطة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسهم أولاً بالمُشارَطَة، ثم بالمراقَبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقَبة، ثم بالمجاهَدَة، ثم بالمعايَنة، فكانت بالمرابَطة سِتَّةُ مقامات، ولا بدّ من شَرحها، وبيان حقيقتها، وتفصيل الأعمال فيها، وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حسابٍ فبعدَ مُشارطة ومُراقَبة ويَتبعُه عند الخُسْرانِ المُعاتَبَةُ والمُعاقَبة، فلنذكر شرحَ هذه المقامات:

* * *

المقام الأول

من المرابطة: المشارَطَة

اعلم أن مطلبَ المتعاملين في التِّجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامةُ الرِّبح، وكما أنَّ التاجرَ يَستَعينُ بِشَريكه فَيُسلِّم إليه المالَ حتى يَتَّجِرَ ثم يُحاسِبه، فكذلك العَقلُ هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه وربحُه تَزكية النَّفس؛ لأن بذلك فلاحها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] وإنما فَلاحها بالأَعمال الصالحة، والعقلُ يستعين بالنَّفس في هذه التِّجارة، إذ يستعمِلُها ويَستَسْخِرُها فيما يُزكّيها، كما يستعينُ التّاجر بشَريكه وغُلامه الذي يَتَّجِرُ في ماله.

وكما أنَّ الشَّريك يكونُ خَصماً مُنازعاً يُجاذِبُهُ في الرِّبح فيحتاج إلى أن يُشارطه أولاً، ويراقبه ثانياً، ويُحاسبه ثالثاً، ويُعاتبه ويُعاقبه رابعاً، وكذلك العَقلُ يحتاج إلى مُشارطَةِ النَّفس أولاً فَيُوظّف عليها الوظائف، ويَشرط عليها الشُّروط، ويُرشِدها إلى طريق الفَلاح ويَجزم عليها الأمرَ بسلوك تلكَ الطُّرق، ثم لا يَغفل عن مراقبتها لحظةً، فإنه لو أهملها لم يَرَ منها إلا الخِيانَةَ وتَضييعَ رأس المال، كالعبد الخائن إذا خلا له الجوُّ وانفردَ بالمال.

ثم بعدَ الفراغ ينبغي أن يُحاسِبَها ويُطالبها بالوَفاء بما شَرطَ عليها، فإن هذه تجارة رِبحُها الفِرْدوس الأعلى، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تَدقيقِه في أرباح الدنيا مع أنها مُحتَقرة بالإضافة إلى نَعيم العُقْبى، ثم كيف ما كانت فَمصيرها إلى التَّصرُّم والانقِضاء، ولا خَيرَ في خَيرٍ لا يَدوم، بل شَرٌّ لا يَدوم خَيرٌ من خَيرٍ لا يدوم؛ لأنَ الشَّرَّ الذي لا يَدوم إذا انقطعَ بَقِيَ الفَرح بانقطاعِه دائماً، وقد انقضى الشر، والخَير الذي لا يَدوم يَبقى الأسف على انقطاعه دائماً، وقد انقضى

الخَير، ولذلك قال الشاعر:

أشَدّ الغَمِّ عندي في سُرورٍ   تَيَقَّنَ عنه صاحِبُه انتقالا

فَحتمٌ على كل ذي حَزمٍ آمنَ بالله واليوم الآخر أن لا يَغفل عن مُحاسَبةِ نَفسِه والتَّضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخَطراتها وخطواتها، فإن كل نَفَس من أنفاس العُمر جَوهرةٌ نَفيسةٌ لا عِوض لها يمكن أن يُشتَرى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نَعيمه أبدَ الآباد، وانقضاء هذه الأنفاس ضائعةً أو مصروفةً إلى ما يجلب الهلاك خُسْران عظيم هائل لا تَسمح به نَفسُ عاقلٍ.

فإذا أصبحَ العبدُ وفرغَ من فريضة الصُّبح، فينبغي أن يُفرغ قَلبه ساعةً لمشارَطةِ النَّفس، كما أن التاجر عند تَسليم البضاعة إلى الشَّريك العامل يفرغ لمشارطته، فيقول للنفس: مالي بِضاعةٌ إلا العُمر، وإذا فَني فَنِيَ رأسُ المال، ووقع اليأس من التجارة وطلبِ الرِّبح، وهذا اليوم الجديد قد أمهَلني اللهُ تعالى فيه وأخَّر أجلي وأنعم عليَّ به، ولو توفّاني لكنتُ أتمنى أن يرجِعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد تُوفِّيتِ، ثم رُدِدتِ، فإياكِ ثُمّ إياكِ أن تُضَيّعي هذا العُمر، فإن كل نَفَس من الأنفاس جَوهرةٌ لا قيمةَ لها، واعلمي يا نَفسُ أن اليومَ والليلة أربعٌ وعشرون ساعة، وأن العبد يُنْشَر له بكل يومٍ وليلة أربعٌ وعشرون خزانةً مصفوفة، فيُفتَح له منها خزانةٌ فيراها مملوءةً نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والسرور بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلة إلى الله تعالى مالو وُزِّعَ على أهل النار لأدهَشَهم ذلك الفَرح عن الإحساس بألمِ النار، ويُفتح له خزانةٌ أُخرى مُظلمة يَفوح نتنها ويَغشاهُ ظَلامها، وهي الساعةُ التي عَصى اللهَ فيها، فيناله من الفَزعِ والحُزن ما لو قُسم على أهلِ الجنَّة لنغَّصَ عليهم نَعيمَهم، ويُفتح له خزانةٌ أخرى فارغة ليس فيها ما يَسرُّه ولا ما يَسوءَه، وهي الساعةُ التي نامَ فيها أو غَفل أو اشتغل بشيءٍ من المُباح فَيتحسَّرُ على خُلوِّها ويَناله ما ينالُ القادر على الربح الكَثير والمُلك الكبير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تُعرض عليه خزائن أوقاته طول عُمره، فيقول لنفسه: اجتَهدي اليومَ في أن تعمري خزائِنك ولا تَدعيها فارغة من كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تميلي إلى الكَسَل والدَّعة والاستراحة، فيفوتك

من درجات عِلِّيين ما يُدركه غيرك، وتَبقى عندك حَسرتُه لا تُفارِقك، وإن دخلتِ الجنة فإنّ ألَمَ الغُبْنِ وحَسرتَه لا تُطاق.

وقد قال بعضُ السَّلف: هَبْ أنَّ المُسيءَ قد عُفي عنه أليس قد فاتَه ثواب المُحسِنين؟

وإنما أشار بهذا إلى الغُبن، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩].

فهذه وصيةٌ لنفسه في أوقاته، ثم ليستأنف لها وصيةً في أعضائِه السَّبعة وهي العَينُ والأُذن واللِّسان والبَطن والفَرْج واليَد والرِّجل، ويسلمها إليها، فإنها رَعايا خادمة للنَّفس في هذه التجارة، وبها تتم أعمال هذه التّجارة، وإن لجهنَّم سبعة أبواب وإنما تَتعيَّنُ تلكَ الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العَينُ: فيحفظها عن النَّظر إلى ما لا يحلُّ النظر إليه، أو إلى مسلم بعينِ الاحتِقار، بل عن كلّ فضولٍ مُستَغنىً عنه، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فُضول النَّظر، كما يسأله عن فُضول الكلام، ثم إذا صَرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خُلقَت له من النَّظر إلى عجائبِ صُنعِ اللهِ تعالى بعينِ الاعتبار والنَّظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، ومطالعة كُتب الحكمة للاتِّعاظِ والاستفادةِ، وهكذا ينبغي أن يُفَصّل الأمر عليها في عُضوٍ عُضوٍ لا سيَّما اللِّسان والبَطن.

أما اللِّسان؛ فلأنه مُنْطلِقٌ بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجِنايته عظيمة بالغِيبةِ والكذِب والنَّميمة وتزكية النَّفس ومَذَمَّة الخلق وغير ذلك مما ذكرناه في آفات اللِّسان، فهو بصَددِ ذلك كله مع أنه خُلِقَ للذِّكر والتَّذكير، وتكرار العلم والتَّعليم، وإرشاد عبادِ الله إلى طريق الله، وإصلاح ذاتِ البَين إلى غير ذلك من الخير، فليَشْتَرط على نفسه أن لا يُحركَ اللِّسانَ طول نَهاره إلا في الذِّكر والخَير، فَنُطقُ المؤمِنِ ذِكرٌ، ونَظَرُه عَبْرةٌ، وصَمتُه فِكرَة، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وأما البَطنُ: فيكلِّفُه تَركَ الشَّرَهِ واجتنابَ الشُّبهات والشَّهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ولا يشترط على نفسه إن خالَفَت شيئاً من ذلك عاقَبها بالمَنعِ من شَهوات البَطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهوتها.

وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء، واستقصاءُ ذلك يطول، ولا تَخفى مَعاصي الأعضاء وطاعاتها.

ثم يستأنف وَصِيَّتها وظائف الطَّاعات التي تتكرَّر عليه في اليوم واللَّيلة، ثم في النوافل التي يقدر عليها، ويقدر على الاستِكثار(١) منها، ويُرتِّب لها تَفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستِعداد لها بأسبابها.

وهذه شُروطٌ يفتقر إليها كل يوم، ولكن إذا تعوَّد الإنسانُ شَرطَ ذلك على نَفسِه أياماً وطاوَعتهُ نفسُه في الوفاء بجميعها استَغنى عن المُشارَطةِ فيها، وإن أطاعت في بعضها بقيت الحاجة إلى تجدد المُشارطَةِ فيما بَقي، ولكن لا يخلو كل يوم من همٍّ جديد وحادثة لها حكمٌ جَديد، ولله تعالى عليه في ذلك حَقٌّ، ويكثر هذا على من يشتغل بشيءٍ من أعمال الدنيا من ولايةٍ أو تجارةٍ أو تَدريسٍ، إذْ قَلَّ أن يخلو يومٌ عن واقعةٍ جَديدةٍ تحتاجُ إلى أن يَقضي حقَّ الله تعالى فيها، فعليه أن يَشرط على نفسه الاستقامةَ فيها والانقِياد للحقِّ في مَجاريها، ويُحذِّرها مَغَبَّةَ الإهمال، ويَعظها كما يوعظ العَبدُ الآبِقُ المُتَمرِّد، فإن النفسَ بالطبع مُتَمرِّدة عن الطّاعات، مستعصية عن العُبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، فقد قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فهذا وما يجري مَجراه هو أول مقام المُرابطة مع النَّفس، وهي محاسبةٌ قَبلَ العَمل، والمحاسبةُ تارةً تكون بعدَ العمل، وتارةً قبله للتَّحذير، قال الله عزّ وجل: ﴿يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وهذا للمستقبل، فالنظر فيما بين يدي العَبد في نَهاره ليعرف زيادته من نُقصانه من المحاسبة، والعاقل من إذا عرضَ له أمرٌ نظر في عاقِبته قبلَ فِعله، فإن علمَ أنه يحمَدُ العاقبةَ وإلا كفَّ عنه، فليميز بين

(١) تصحفت في الأصل إلى: «الاستكبار».

مُكثِ النَّدامة في القلب ومُكث لذَّةِ الشَّهوة.

أنبأنا أبو بكر بن أبي طاهر قال: أخبرنا أبو يَعلَى محمد بن الحُسَين قال: أخبرنا علي بن عُمر السُّكري قال: أخبرنا أحمد بن الحسن الصُّوفي قال: حدثنا الحارث بن شريح قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك قال: أخبرنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم قال: حدثني ضَمْرةُ بن حَبيب عن شَدّاد بن أوس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دانَ نَفْسَه وعَمِلَ لما بعدَ المَوت، والعاجِزُ من أتبع نفسَه هَواها وتَمنّى على الله».

وقال عُمر رضي الله عنه: حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوها قَبل أن تُوزَنوا، وتَهيَّؤوا للعَرضِ الأكبر.

وكَتبَ إلى أبي موسى: حاسِبْ نَفسَك في الرَّخاءِ قبلَ حِساب الشِّدَّة.

* * *

المرابطة الثانية:

المُراقَبة

إذا أوصى الإنسانُ نفسه وشرَطَ عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المُراقبة لها عند الخَوض في الأعمال، وملاحظتها بالعين الكالِئة[١]، فإنها إن تُركت طَغَت وفَسدت.

ولنَذكُر فضيلة المُراقبة، ثم درجاتها:

أما الفضيلة: فقد قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآيِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ [الرعد: ٣٣]، **وقال: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾** [العلق: ١٤]، **وقال: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾** [النساء: ١].

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ، أنه يوماً كان بارزاً للناس، فأتاه رجلٌ فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمانُ أن تُؤمنَ بالله وملائكتِه وكتابه ولِقائه ورسله وتُؤمن بالبَعث» فقال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلامُ أنْ تَعْبُدَ الله ولا تُشركَ به شيئاً، وتقيمَ الصلاةَ، وتُؤدِّيَ الزَّكاةَ المَفْروضَة، وتَصومَ رَمضان». قال: ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تَعْبُدَ الله كأنّكَ تَراه، فإن لم تكُن تَراه فإنَّه يَراك»[٢].

وقال أبو عُثمان[٣]: أَفضلُ ما يُلزِمُ الإنسانُ نَفسَه في هذه الطريقة المحاسبة والمُراقبة وسياسة عَمله بالعلم.

وقال ابن عَطاء[٤]: أَفضل الطّاعات مُراقبة الحَق على دوام الأوقات.

وقال الجُرَيريُّ[٥]: أَمرُنا هذا مَبنيٌّ على أَصلَين: أن تُلزِمَ نفسكَ المُراقَبة لله عزَّ

---

(١) الكالئة: الحافظة.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠) و(٤٧٧٧)، ومسلم (٩).

(٣) هو سعيد بن سلام المغربي.

(٤) هو أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري، شيخ الشام في وقته، توفي سنة (٣٦٩هـ).

(٥) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن الحسين الجُرَيري، توفي سنة (٣١١هـ).

وجل، ويكون العلم على ظاهرك قائماً.

قال أبو عثمان: قال لي أبو حَفص: إذا جلستَ للناس فكُن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرنَّك اجتماعُهم عليك، فإنهم يُراقبون ظاهرك والله رَقيبٌ على باطنك.

وقال رجلٌ للجُنَيد: بِمَ أَسْتَعينُ على غَضِّ البَصر؟ فقال: بعلمك أنَّ نظر الناظر إليك أسبق من نَظركَ إلى المَنظور إليه.

وقال مالك بن دينار: يقول الله عزَّ وجل: إنما يَسكُنُ جَنات عَدْنٍ الذين إذا هَمّوا بالمعاصي ذَكَروا عَظَمتي فراقَبوني، والذين انْثَنَتْ أصلابُهم من خَشْيتي، وعزَّتي وجلالي إني لأَهَمُّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرتُ إلى أهل الجوع والعَطَش من مخافَتي صرفتُ عنهم العذاب.

وسُئِل المُحاسبي[١] عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بُقربِ الله تعالى.

وقال محمد بن علي التِّرمذي: اجعَل مُراقَبتكَ لمن لا تَغيبُ عن نَظَره إليك، واجعل شُكركَ لمن لا تَنقطع نِعَمُه عنك، واجعل طاعتَك لمن لا تَستَغْني عنه، واجعل خُضوعَكَ لمن لا تَخرُجُ عن مُلكه وسُلطانه.

وسئِل ذو النّون: بِمَ ينالُ العبدُ الجنَّةَ؟ فقال: بخمسٍ: استقامةٍ ليس فيها رَوَغان، واجتهادٍ ليس معه سَهْو، ومراقَبةٍ لله تعالى في السِّرِّ والعلانية، وانتظار الموت بالتَّأَهُّبِ له ومحاسبة نَفسك قبل أن تُحاسَب.

وقد قال ابن عمر لراعٍ: بعنا من غَنمِك. فقال: إنها ليست لي، إنها لمولاي. قال: وما عسى أن يقولَ لك مولاك إذا قلتَ: أكلَها الذئبُ؟ فولّى الراعي وهو يقول: فأينَ الله؟!

وخلا رجلٌ بامرأةٍ وقال لها: ما يَرانا إلا الكَواكبُ. فقالت: فأينَ مُكَوكِبُها؟ وأنْشَدوا:

---

(١) يعني الحارث المحاسبي.

إذا ما خلوتَ الدَّهرَ يوماً فلا تَقُل   خَلَوتُ ولكن قُلْ عليَّ رَقيبُ
ولا تَحسَبنَّ اللهَ يَغفُلُ ساعةً   ولا أنَّ ما يَخْفى عَلَيه يَغيبُ

بيان حقيقة المُراقبة ودَرجاتها

اعلم أن حقيقةَ المراقبةِ هي مُلاحظةُ الرَّقيب وانصرافُ الهَمِّ إليه، فمن احتَرزَ في أمرٍ منَ الأمور بسبب غيره قيل: إنه يُراقب فُلاناً ويُراعي جانبه.

ونَعني بهذه المُراقبة حالةً للقلب يُثمرها نوعٌ من المعرفة، وتُثْمِرُ تلكَ الحالةُ أعمالاً في الجَوارح وفي القلب.

أما الحالة: فهي مُراعاةُ القلبِ للرقيب، واشْتِغالُه به، والتِفاتُه إليه، وملاحظتُه إيّاه.

وأما المعرفة التي تُثمر هذا الحال، فهي العلم بأنَّ الله مُطَّلعٌ على الضَّمائر عالمٌ بالسَّرائر، رقيبٌ على أعمال العباد، قائمٌ على كل نفس بما كسَبَتْ، وأن سِرَّ القلبِ في حَقِّه مَكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مشكوف بل أشد، فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً، أعني أنها خَلَت عن الشَّك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقَهَرتهُ، فربَّ علم لا يُشك فيه لا يغلب على القلب، كالعلمِ بالموت، فإذا استولت على القلب استَجرَّت القلبَ إلى مراعاة جانب الرَّقيب، وصرفت همَّه إليه، والموقنون بهذه المعرفة هم المقرَّبون، وهم يَنقسمون إلى الصدِّيقين وإلى أصحاب اليمين، فَمُراقبتهم على درجتين:

الدَّرجة الأولى: مراقبة المقرَّبين من الصّدِّيقين، وهي مراقبةُ التَّعظيم والإجلال، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال، ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه مُتَّسَعٌ للالتفات إلى الغير أصلاً، وهذه مراقبةٌ لا نُطول النَّظَر في تفصيلِ أعمالها، فإنها مقصورة على القلب، والقلبُ هو الراعي، فإذا صار مستغرقاً[(١)] بالإقبال على المعبود، صارت الجوارح مستعملةً على السَّداد والاستقامة من غير

(١) في الأصل: «مستوفى».

تكلُّف، فيتعطَّل التَّلَفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات، فلا تحتاج إلى تدبير، ومن وصل إلى هذه الحالة غَفل عن الخَلق حتى قد لا يدري من بحَضرته، حتى قد قال بعضُهم لرجلٍ: إذا مررتَ بي فَحرِّكْني. ولا يُستَبعَد هذا، فإنك تجدُ في خَدَمِ المُلوك من يُعَظِّمهم فلا يُحسُّ بما يجري عليه في مجالسهم لاستِغراق التَّعظيم قلوبهم، بل قد يَشتغلُ القلبُ بمُهمٍّ حقيرٍ من مُهمّات الدُّنيا فيغوصُ الرجل في الفكر فيه ويمشي، فربما تجاوز الموضع الذي قَصدَه ويَنسىَ الشُّغل الذي نَهضَ له.

وقد روينا عن يحيى بن زكريا أنَّه مرَّ في طريقه بامرأةٍ فدفعها فَسقطَت على وَجهها، فقيل له: لمَ فَعلتَ هذا؟ فقال: ما ظَننتُها إلا جداراً.

وقيل لعبد الواحد بن زيد: هل تعرفُ في زمانكَ هذا رجلاً قد اشتغلَ بحالِه عن الخَلق؟ فقال: ما أعرفه إلا رجلاً سيدخُل عليكم الساعة. فدخل عُتبَةُ[1] الغُلام، فقال له عبد الواحد: من أينَ جئتَ يا عُتبة؟ قال: من موضع كذا. وكان طريقُه على السوق، فقال: مَن لقيتَ في الطريق؟ فقال: ما رأيتُ أحداً.

قال بعضُ السلَف: مررتُ بجماعةٍ يَترامَون ورجلٌ جالسٌ بعيداً منهم؛، فَتقدمتُ إليه فأردتُ أن أُكلّمه، فقال: ذِكر اللهِ تعالى أَشْهى. فقلتُ: أنتَ وحدَك؟ فقال: معي رَبّي وملكاي. فقلتُ: مَن سبقَ من هؤلاء؟ فقال: مَن غفرَ اللهُ له. فقلتُ: أين الطريق؟ فأشار نحو السَّماء وقام يمشي ويقول: أكثر خلقك شاغل عنك.

فهذا كلامُ مُستَغرِق بمشاهدةِ الله تعالى لا يتكلّمُ إلا منه، ولا يسمع إلا فيه، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه.

ودخل الشِّبْلي على أبي الحُسَين النّوري وهو قاعدٌ ساكنٌ لا يتحركُ مِن ظاهره شي، فقال له: مِن أينَ أخذتَ هذه المراقبة والسُّكون؟ فقال: من سِنَّورٍ[2] كانت لنا، وكانت إذا أرادت الصَّيد رابَطت رأس الجُحْرِ حتى لا تتحرَّكُ لها شَعرةٌ.

---

(١) هو عُتبة بن أبان بن تَغلِب.
(٢) السِّنَّور: الهِرَّة.

الدرجة الثانية: مُراقبة الوَرِعين من أَصحاب اليَمين: وهم قَومٌ غلب يَقين[١] اطِّلاعِ اللهِ على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم، ولكن لم تدهشهم مُلاحظة الجلال؛ بل بقيت قلوبُهم على حَدِّ الاعتِدال[٢] مُتَّسعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال، إلا أنها مع مُمارسة الأحوال لا تخلو عن المُراقبة؛ بلى قد غَلَب عليهم الحَياءُ من الله تعالى فلا يُقْدِمون ولا يُحْجِمون إلا بعدَ التَّثبُّت، ويمتنعون عن كلّ ما يفتضحونَ به في القيامة، فإنهم يرون الله تعالى في الدنيا مُطَّلعاً عليهم ولا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

وتعرفُ اختِلافَ الدَّرجتين بالمُشاهدات، فإنك في خَلوتِكَ قد تَتَعاطَى أعمالاً فَيَحضُرُكَ صَبيٌّ أو امرأةٌ فتعلمُ أن ذلك الشَّخص مُطَّلعٌ عليكَ فَتَستَحيي منه، فتُحسن جُلوسَك وتُراعي أحوالك لا عن إجلالٍ وتعظيم بل عن حَياءٍ، فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تَستغرقكَ، فإنها تُهيِّج الحَياء منك، وقد يَدخُل عليكَ مَلِكٌ من الملوك أو كَبير من الأكابر فيَستغرِقُكَ التَّعظيم حتى تتركَ كلَّ ما أنت فيه شُغلاً به لا حياءً منه.

فهكذا تَختلفُ مراتب العِباد في مُراقبة الله تعالى، ومن كان في هذه الدَّرجة احتاجَ أن يُراقِب جميع حَركاته وسَكَناته وخَطَراتِه ولَحظاتِه، وبالجملة جَميعَ اختياراته، وله فيها نَظَران: نَظرٌ قَبلَ العمل، ونَظرٌ في العَمل.

أما قبل العمل؛ فلينظر أنَّ ما ظهر له وتحركَ بفِعله خاطِرُهُ أَهو للهِ خاصّة أو في هَوى النفس ومُتابعةِ الشَّيطان؟ فيتوقَّف فيه ويَتَثبَّت حتى ينكشفَ له ذلك بنور الحَق، فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله تعالى استحيا من الله وانكَفَّ عنه، ثم لامَ[٣] نَفْسَهُ على رَغبته فيه وهمِّه به ومَيلِه إليه، وعرَّفَها سوءَ فِعلها وسَعيها في فضيحتها، وأنها عَدوّةُ نَفسِها إن لم يتداركها اللهُ تعالى بعصمته.

وهذا التَّوقُّف في بداية الأمور إلى حد البيان واجبٌ محتوم لا لأحدٍ مَحيصٌ

---

(١) سقطت من الأصل، واستُدركت من الإحياء.

(٢) في الأصل: «الاطلاع»، والمثبت من الإحياء.

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «الأمر».

عنه، وقد قيل: إنه يُنشَر للعبد في كل حركةٍ من حَركاته وإن صَغُرت ثَلاثةُ دَواوين: الديوان الأول: لمَ؟ والثاني: كيف؟ والثالث: لمن؟ ومعنى لم، أي: لمَ فعلتَ هذا؟ أكانَ عليك أن تفعله لمَولاك، أو ملتَ إليه بشَهوتكَ وهواك؟ فإن سَلِمَ من ذلكَ سُئِلَ من الديوان الثاني، فقيل له: كيفَ فَعلتَ هذا؟ فإن لله تعالى في كلِّ عملٍ شَرطاً وحكماً لا يُدرَكُ قَدرُه ووَقتُه وصفتُه إلا بعلم. فيُقال له: كيفَ فَعلتَ؟ أبعلم محقَّقٍ أم بجهلٍ وظَنّ؟ فإن سَلِمَ من هذا نُشِرَ الديوانُ الثالث، وهو المُطالبةُ بالإخلاص، فقيل له: لمن عَملتَ؟ ألِوَجهِ الله خالصاً، وَفاءً بقولك: لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أو لمراءاةِ خلقٍ مثلك؟ فَخُذ أجرك منه، أو عَمِلتَه لتنال عاجلة دُنياك، فقد وَفَّيناكَ نَصيبَك من الدُّنيا، أو عملتَ بشهوةٍ وغفلة؟ فقد سقطَ أجرك وحَبِطَ عملك وخابَ سَعيُكَ، وإن عملت لغيري فقد استَوجَبتَ مَقْتي وعِقابي إذ كنتَ عَبداً لي تأكل رِزقي وتَترَفَّهُ بنَعيمي، ثم تَعملُ لغيري! أما سَمعتني أقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]، أما سَمِعتَني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣].

فإذا عرفَ العَبدُ أنه بصَدَدِ هذه المطالبات والتَّوبيخات طالبَ نفسَه قبل أن يُطالَب، وأعدّ للسؤال جَواباً، فلا يُبدىء ولا يُعيد إلاّ بعد التَّثبُّت ولا يُحركُ أنملةً إلا بعد التَّأمل.

قال الحسن: رحمَ الله عَبداً وقفَ عند هَمِّه، فإن كان لله مَضَى، وإن كان لغيره تَأخَّر.

فهذا هو النَّظر الأول في هذه المُراقبة، ولا يُخلِّص من هذا إلا العلمُ المتينُ والمعرفةُ الحقيقة بأسرارِ الأعمال وأَغوارِ النَّفس ومكائِد الشَّيطان، فمتى لم يعرف نَفسه ورَبَّه وعدوَّه إبليس، ولم يعرف ما يُوافق هواه، ولم يُميز بينه وبين ما يُحب الله ويَرضاه في نيَّتِهِ وهِمَّته وفِكرَته وسُكونِه وحَركَته فلا يَسلم في هذه المراقبة، بل الأكثرون على الجَهل وهم يَحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً.

ثم إنّ الجاهل لا يُعذَر؛ لأن طلبَ العلمِ فَريضة على كلِّ مُسلم، ولهذا كانت

رَكعتان من عالِمٍ أفضل من ألف رَكعةٍ من غير عالم؛ لأنه يَعلم آفات النُّفوس ومكائِد الشَّيطان ومواضع الغُرور، فيتَّقي ذلك، والجاهل لا يَعرفه فكيفَ يحترز منه؟ فلا يَزال الجاهلُ في تعبٍ والشَّيطان يَشمتُ به ويفرح، فنعوذُ بالله من الجهل والغَفْلة، فهو رأسُ كلّ شَقاوة وأساس كلّ خسران.

فحكَمَ اللهُ تعالى على كلِّ عبد أن يُراقب نَفسَه عند هَمِّه بالفعل وسَعيه بالجارِحة، فيتوقف عن الهَمِّ وعن السَّعي حتى ينكشف له بنورِ العلم أنه لله فيُمضيه، أو هو لهَوَى النَّفس فَيَتَّقيه ويَزجُرُ القَلب عن الفِكر فيه وعن الهَمِّ به، فإنّ الخَطرةَ الأولى في الباطل إنْ لَمْ تُدفَع أَورثَت الرغبةَ، والرغبةُ تورثُ الهَمَّ، والهَمُّ يورِثُ جزمَ القَصد، والقَصدُ يورث الفِعلَ، والفعلُ يورثُ البَوار والمَقتَ، فينبغي أن تُحسَمَ مادة الشَّرِّ من مَنْبَعِه الأول وهو الخاطر، فإن جميع ما وراءَه يَتبعه.

وإذا أشكلَ على العبدِ ذلك وأظلمت الواقِعةُ فلم تَنكَشِف له فَليتَفكَّر في ذلك، وليَستَفِد من مَكرِ الشَّيطان، فإن عجز عن الاجتهاد والفِكر بنفسه استَضاءَ بعُلماء الدِّين لا بِعُلَماء السُّوء، فإن قلوبهم مَحجوبة عن الله تعالى، فلتَكُن هِمَّةُ المُريد في إحكام العلم أو في طلب عالمٍ مُعرضٍ عن الدنيا، أو ضعيفِ الرغبة فيها.

ومعلومٌ أن معرفةَ آفاتِ الأعمال قد انْدرسَت في هذه الأَعصار، فإن الناسَ قد هَجروا هذه العلوم واشتغلوا من العلم بما يوفّر لهم الدنيا، وأعظم نعْمةٍ لله تعالى على عباده العِلمُ وكشْفُ الحَقِّ، قال اللهُ عزَّ وجل: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال علي رضي الله عنه: مِنَ التَّوفيقِ التَّوقُّفُ عند الحَيْرة.

فإذن النَّظر الأول للمراقِب نَظرةُ في الهَمِّ والحركة أهي لله أم للهوى.

النظر الثاني للمراقبة: عند الشُّروع في العَمل، وذلك بتفقُّدِ كيفية العَمل ليقضي حقَّ الله تعالى فيه، ويَتَعاطاه على أكمل ما يمكنه، فإن كان قاعداً فينبغي أن يَقعد مُستقبِلَ القِبلة لقوله ﷺ: «خَير المجالس ما استقبِلَ به القِبلَة». وإن نام استقبل القبلة، وقد ذكرنا الآداب في مواضعها، فإذن لا يخلو العَبدُ إمّا أن يكونَ في طاعةٍ

أو مَعصيةٍ أو مُباحٍ، فَمُراقَبته في الطَّاعة بالإخلاص والإكمال ومُراعاة الآداب وحراستها عن الآفات، ومراقبته في المعصية بالتَّوبة والنَّدم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتَّفكير، وإن كان في مُباحٍ فَمراقَبتُه بمُراعاة الأدب بشهود المُنعم في النِّعمة وبالشُّكر عليها.

ولا يخلو العبد في جُملة أحواله من بَليَّة لا بدَّ له من الصبر عليها، ونعمةٍ لا بدّ له من الشُّكر عليها، وكل ذلك من المراقبة، بل لا ينفكُّ العبدُ في كل حال من فَرضٍ لله عليه، إما فعل يلزمه مباشرته، أو محظور يلزمه تَركُه، أو نَدبٍ حثَّ عليه ليُسارع به إلى مغفرةِ الله عزَّ وجل، ويُسابق به عباد الله، أو مُباحٍ فيه صلاحُ جِسمه وقَلبِه، وفيه عونٌ على طاعتِه، ولكل واحدٍ من ذلك حدودٌ لا بد من مُراعاتها بدوام المراقبة ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ [الطلاق: ١]، فينبغي أن يتفقد العبدُ نفسَه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة، فإذا كان فارغاً من الفرائِض وقَدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها، فإنَّ من فاته مَزيدُ رِبح وهو قادرٌ على دَركِه فهو مغبون، والأرباح تُنال بمزايا الفضائل، فبذلك يأخذُ العبدُ من دنياه لآخرته، وكل ذلك إنما يمكن بصبرِ ساعةٍ واحدةٍ، فإنَّ الساعات ثلاثة: ساعةٌ مضت لا تعب على العَبد فيها كيف ما انقضت في مَشقَّة أو في رَفاهية، وساعةٌ مستقبلةٌ لم تأتِ بَعدُ، لا يَدري العبدُ أيَعيشُ إليها أم لا؟ ولا يدري ما يقضي الله فيها، وساعةٌ راهِنَةٌ ينبغي أن يُجاهد فيها نفسه، ويراقب فيها ربَّه، فإنْ لم تأتِه الساعة الثانية لم يتحسَّر على فواتِ هذه السّاعة، وإن أتَتهُ الساعةُ الثانيةُ استوفى حقَّه منها، كما استوفى من الأولى، فيكونُ ابن وَقتِهِ، كأنه في آخر أنفاسِه، فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجهٍ لا يَكره أن يُدركه الموتُ وهو على تلك الحال وتكون جميعُ أحواله مَقصورةٌ على ما أُخبرنا به محمدُ بن ناصر قال: أنبأنا أحمد بن جعفر قال: أخبرنا الحَسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبدُ الله أحمد قال: حدَّثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مَهدي عن سُفيان عن أبي الأغَرِّ عن وَهبِ بن مُنَبِّه قال: في حكمةِ داود: حَقٌّ على العاقل أن لا يُشغَل عن أربع

ساعات: ساعةٍ يُناجي فيها ربَّه، وساعةٍ يُحاسب فيها نفسَه، وساعةٍ يُفضي إلى إخوانِه الذين يُخبِرونَه بعيوبِه ويَصدُقونه عن نفسه، وساعةٍ يُخلّي بينَ نفسِه وبين لَذّاتها يحل ويحمل، فإنّ هذه الساعة عَونٌ على هذه الساعات وإجمامٌ للقُوة، وحَقٌّ على العاقِل أن يكون عارِفاً بزمانه، حافِظاً للسانِه، مُقبِلاً على شَأْنِه، وحَقٌّ على العاقل أن لا يَظعنَ إلا في إحدى ثلاث: زادٍ لمعادٍ، ومَرَمَّةٍ للمعاش، أو لذَّةٍ في غير مُحَرَّمٍ.

فصل

وهذه الساعةُ التي هو فيها مَشغول الجوارح بالمَطعم والمَشْرب لا ينبغي أن تخلو عن عَملٍ هو أفضل الأعمال، وهو الذِّكْر والفِكر، فإن الطَّعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العَجائب ما لو تفكَّر فيه وفَطِنَ له كان ذلك أفضل من كثيرٍ من أعمال الجوارح، والناسُ فيه أقسام:

قِسمٌ ينظرون إليه بعينِ البَصيرة والاعتبار، فينظرون في عجائبِ صَنعته، وكيفية تقدير الله تعالى لأسبابه، وخلق الشَّهوة الباعِثَة عليه، والآلات المُسخِّرة للشَّهوة فيه كما ذكرنا في كتاب الشُّكر، وهذا مقام ذوي الألباب.

وقسمٌ ينظرون إليه بعينِ المَقْتِ والكَراهةِ، ويلاحظون وجهَ الاضطِرارِ إليه، وبودّهم لو استغنوا عنه، ولكنهم يرون أنفسهم مقهورين فيه، وهذا مقام الزّاهدين.

وقوم يَرَون في الصَّنعة الصانِعَ، ويترقَّونَ منها إلى صِفاتِ الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سَبباً لتَذكُّرِ أبوابٍ من الفِكر تنفتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات، وهو من مقامات العارِفين وعلامات المحبِّين، إذِ المحبُّ إذا رأى صَنعةَ حَبيبه وكتابه وتَصْنيفَه نَسيَ الصَّنعةَ واشتغَلَ قلبُه بالصانِعِ، وكلُّ يتردَّدُ فيه العَبدُ صُنعُ الله تعالى، فله في النَّظر منهُ إلى الصانعِ مجالٌ رَحبٌ إن فُتِحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيزٌ جداً.

فهذه هي المُرابطة الثانية بمراقَبة الأعمال على الدَّوام والاتِّصال، وشرحُ ذلك يَطول، وفيما ذكرنا تنبيهٌ على المِنهاج لمن أحكم الأُصول.

المرابَطةُ الثالثة:

مُحاسبة النَّفس بعد العمل
ولنذكر فضيلة المحاسبة، ثم حقيقتها

أما الفَضيلة: فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، ولذلك قال عُمر رضي الله عنه: حاسِبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وقد رويناه آنفاً.

وينبغي للعاقل أن تكون له ساعة يحاسب فيها نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] والتَّوبة نَظرٌ في الفعل بعد الفراغ منه بالنَّدم عليه، وقد قال النبيُّ ﷺ: «إني لأستغفرُ الله تعالى وأتوبُ إليه في اليومِ مئةَ مَرَّة».

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وقال الحسن: المؤمن قَوّامٌ على نفسه يُحاسب نفسه لله، وإنما خف الحسابُ يوم القيامة على قومٍ حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شَقَّ الحساب يومَ القيامة على قومٍ أخذوا هذا الأمر من غير مُحاسَبةٍ، إن المؤمن يَفْجؤُهُ الشَّيءُ يُعجبه، فيقول: واللهِ إني لأَشتهيكَ، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صِلَةٍ إليك، هَيهات حيلَ بَيني وبينك. ويَفرُطُ منه الشيءُ فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردتِ إلى هذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله. إن المؤمنين قُوّامٌ، وبفَهم القُرآن حيلَ[1] بينهم وبينَ هَلَكَتهم، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاكِ رَقَبته،

(١) في الأصل: «وحال».

لا يأمن شيئاً حتى يَلقى اللهَ، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سَمعِه، وفي بَصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ في ذلك كله.

وقال: إن العبدَ لا يَزال بخيرٍ ما كان له واعظٌ من نَفسِه، وكانت المحاسبةُ من هِمَّتِه.

وقال ميمون بن مِهران: لا يَكون الرجل تَقياً حتى يكون أشدّ محاسبةً لنفسه من الشَّريك لشريكه.

وقال مالك بن دينار: رحمَ اللهُ عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبةَ كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم زَمَّها ثم، خَطَمَها(١)، ثم ألزمها كتاب الله عزَّ وجل فكان لها قائداً.

وقال إبراهيم التَّيمي: مَثَّلت نفسي في الجنَّة آكلُ من ثمارها وأشربُ من أنهارها، وأُعانقُ أبكارَها، وتمثَّلت نفسي في النار آكلُ من زَقّومها، وأشربُ من صَديدِها، وأُعالج سلاسِلها وأغلالَها، فقلتُ لنفسي: أَيْ نَفسُ، أيّ شيءٍ تُريدين؟ قالت: أريدُ أن أُردَّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً. فقلتُ: فأنتِ في الأمنيةِ فاعمَلي.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبدَ كما يكون له وقتٌ في أول النهار يُشارِط فيه نَفسه على سَبيل الوَصيَّة، فينبغي أن يكون له آخر النهار ساعة يُطالب فيها النفس ويُحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التُّجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سَنة أو شهر أو يوم، حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً من أن يَفوتهم منها ما لو فاتَهم لكانت الخِيرَةُ لهم في فَواتِه، ولو حصل ذل لهم لم يبق إلا أياماً قلائل، فكيف لا يُحاسبُ العاقلُ نفسَه فيما يتعلق به خَطر الشَّقاوةِ والسعادة أبدَ الآباد، ما هذه المُساهلة إلا عن الغَفلة والخذلان وقلّة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك.

ومعنى المحاسبة مع الشَّريك أن ينظر في رأسِ المال وفي الرِّبحِ وفي الخُسران

(١) زَمَّها: وضعَ لها زِماماً، وهو الحبل الذي يُقاد به البعير، وخَطَمها: وضع لها خِطاماً، وهو كل ما وضع في أنف البعير ليُقتادَ به.

ليتبيَّن له الزِّيادة من النُّقصان، فرأس مال العبد في دينه الفَرائض، وربحه النَّوافل والفَضائل، وخُسرانُه المعاصي.

وموسمُ هذه التجارة جُملةُ النَّهار، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فليُحاسِبها على الفَرائض أولاً، فإن أدَّتها على وَجهها شكرَ الله تعالى على ذلك، ورغَّبها في مثلها، وإن فوَّتتها من أصلها طالبها بالقَضاء، وإن أدتها ناقصةً كلَّفها الجُبْران، وإن ارتكبت معصيةً اشتغلَ بعِقابها ومعاتَبتها ليَستوفي ما يتدارك به ما فَرَط، كما يصنع التاجر بشَريكه، وكما أنه يفتش في حسابِ الدنيا عن الحبَّةِ والقيراط فيحفظ مَداخل الزِّيادة والنُّقصان حتى لا يُغبَنَ بشيءٍ منها، فينبغي أن يتَّقي غَبينة[1] النَّفس ومَكرَها، فإنها خَدّاعة مُلَبِّسةٌ مَكّارة، فليُطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلَّم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سَيتولاّه غيره في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقُعوده وأكله وشُربه ونومه حتى عن سكوتِه لِمَ سَكَتَ، وعن سكونِه لِمَ سَكَنَ.

فإذا عرف مجموع الواجب على النَّفس وصحَّ عنده قَدرُ أداء الواجب فيه كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي على نَفسه فَليُثبِتهُ عليها وليَكتبه على صَحيفةِ قلبه، كما يكتب الباقي على شَريكه على قلبه وعلى جَريدةِ حسابه.

ثم النَّفسُ غريمٌ يمكن أن يَستوفي منه الديون[2]؛ أما بَعضُها فبالغَرامة والضَّمان، وبعضُها بِرَدِّ عَينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغلَ بعده بالمُطالبة والاستيفاء.

ثم ينبغي أن يُحاسبَ النَّفس على جميع العُمر يوماً يوماً وساعةً ساعةً في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما أخبرنا محمدُ بن ناصر وعليُّ بن أبي عُمر قالا: أنبأنا رِزقُ اللهِ وطِرادٌ قالا: أخبرنا أبو الحُسَين بن بِشْران قال: أخبرنا ابن صَفوان قال: حدثنا أبو بَكر القُرشي قال: حدثني رجلٌ من قريش ذكر أنه من وَلدِ طلحةَ بن

(١) غبنه يغبنه: خدعه، والاسمُ الغَبينة.
(٢) تحرفت في الأصل إلى: «الديوان».

عُبيد الله، قال: كان تَوبةُ بنُ الصِّمَّة بالرَّقَّة، وكان محاسباً لنفسِه، فحسبَ فإذا هو ابن سِتّين سَنة، فحسبَ أيامها فإذا هي أَحَدٌ وعشرونَ ألف يَوم وخمس مئة يوم، فصرخ وقال: يا ويلَتا! أَلْقَى المليكَ بأحدٍ وعشرين ألفِ ذنب؟! كيفَ وفي كل يومٍ عشرة آلافِ ذنب! ثم خرَّ مَغشياً عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لكِ رَكْضة إلى الفِردوس الأعلى[1].

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاسِ، وعلى معصيةٍ بالقلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لو رَمى بكلِّ معصيةٍ يفعلها حَجراً في داره لامتلأت دارُه في مدَّةٍ يَسيرةٍ، ولكنه يَتساهل في حفظ المَعاصي، وهي مُثبتةٌ عليه ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٤٤).

المُرابَطة الرابعة

في مُعاقبة النَّفس على تَقصيرها

إذا حاسبَ المريدُ نفسَه فرأى معاصي وتقصيراً، فلا ينبغي أن يُهملها، فإن فعل سَهُلَتْ عليه مُقارفَةُ[١] الذنوب، وأَنِستْ بها نفسُه، وعَسُر عليه فِطامُها[٢]، فينبغي أن يُعاقبها، إلا أن العقوبة ينبغي أن تكون مُباحةً، وكيف لا يُعاقِبُ ولو صَدر من وَلدِه وأهلِه تقصيرٌ لم يَحتمله ولعاقَبهم أشدّ العقاب.

إلا أنه ليس لهُ أن يجلِدَها بسوطٍ، ولا أن يمنعها ما يُقيمها، ولا يَغتَّر بما يسمع أنَّ رجلاً من بني إسرائيل وَضَع يدهُ على فَخِذِ امرأةٍ فَوضَعها في النَّار حتى يَبِسَت، وأن آخر حوَّل رِجله لينزل إلى امرأةٍ ثم تفكَّر فقال: ماذا أردتُ أن أصنع؟ فلما أراد أن يُعيد رجله قال: هيهات! رِجلٌ خرجت إلى معصيةِ الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطَّعت بالمطر والرياح، وأن آخرَ نَظر إلى امرأةٍ فقلعَ عَينه، فهذا كله ربما كان جائزاً في شريعتهم، فأما في شَرعِنا فَمُحرَّم، وقد سلك نحوه خلقٌ من أهل ملَّتنا حملهم على ذلك الجَهل بالعلم، مع كون أكثرهم من أهل الخير، ولكن العلم شَيء آخر، وذلك ما روينا عن غزوان الزاهدِ أنه نظر إلى امرأةٍ فلطمَ عينه حتى نَفَرَت، وقال: إنَّكِ لَلحّاظَةٌ إلى ما يَضرُّك.

وقد روينا عن ابن الكَرْنَبي[٣] أنه أصابَته جَنابةٌ، وكانَ البردُ شديداً، وأنه وجَد في نفسه توقُّفاً عن الغُسل، فآلى[٤] أن لا يَغتسل إلا في مُرَقَّعَتِه، وأن لا ينزعها

---

(١) تصحفت في الأصل إلى: «مفارقة».

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «فطلبها»، والمثبت من الإحياء.

(٣) هو أبو جعفر ابن الكَرْنَبي البغدادي الصوفي، شيخ الجُنيد، تأدب أكثر نُسّاك بغداد بآدابه، ترجمه الخطيب في تاريخه ١٤/ ٤١٣-٤١٥.

(٤) آلى: حَلفَ.

ولا يَعصرها، وكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلاً[(١)]، وهذا جَهل بالعلم؛ لأنه ليس للإنسان أن يتصرَّف في نفسه بمثل هذا وقد ذكرتُ كثيراً من هذا الفَنّ الصادر من المتَعبدين على الجهل في كتابي المسمّى تبليس إبليس.

وإنما المعاقبةُ للنَّفس مثلُ حديث عمر: أخبرنا محمد بن أبي منصور قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحَسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله ابن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أَسْباطُ قال: حدثنا لَيثٌ عن نافعٍ عن ابن عمر قال: خرجَ عُمر إلى حائِطٍ له، فرجع وقد صلّى الناسُ العصرَ، فقال: إنما خَرجتُ إلى حائطي فرجعتُ وقد صلّى الناسُ، حائطي على المساكين صَدَقة. قال لَيث: إنما فاتَتْهُ في الجماعة.

وكذلك روينا عن عُمر أنه شغَله أمرٌ عن المَغرب حتى طَلَع نَجْمان، فلما صلاَّها أعتق رَقبتين.

وأخبرنا محمد بن أبي منصور، وعلي بن أبي عمر قالا: أنبأنا رِزقُ الله وطِرَادُ قالا: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرَشي قال: حدثني محمد بن الحُسين قال: حدثني يونس بن يحيى عن مُنكدِر بن محمد عن أبيه أنَّ تَميم الدّاري نامَ ليلةً لم يَقم يتهجَّد فيها حتى أصبح، فقام سنةً لم يَنَمْ فيها عُقوبةً للذي صَنَع.

قال القُرَشي: وحدَّثنا خالد بن خِداش عن حَمّاد بن زَيد، عن رزيق بن رُدَيْح عن سَلمة بن مَنصور عن رجل كان يَصحب الأحنفَ بنَ قَيس، قال: كنتُ أصحبه فكان عامة صلاته باللَّيل الدُّعاء، وكان يجيء إلى المصباح فيضَع إصبعه فيه، ثم يقول: حَسِّ[(٢)]. ثم يقول: يا حُنَيف، ما حَملكَ على ما صَنعت يوم كذا؟ ما حملكَ على ما صنعتَ يوم كذا؟

قلتُ: فهذا إذا قرَّب يده إلى النار وَجَدَ حَرَّها من غير كبير أذى فيحصُل من ذلك تَذكُّر العقاب لا الألَم.

(١) تاريخ بغداد ١٤/ ٤١٤.
(٢) حَسِّ: كلمة تُقال عند الألم.

قال القُرشي: وحدثنا الحُسين عن عُبيد الله بن محمد عن عبد الجبار بن النَّضْر السُّلَمي قال: مرَّ حسَّانُ بنُ أبي سِنان بغُرْفَةٍ، فقال: متى بُنِيَت هذه؟ ثم أقبل على نفسه، فقال: تسألين عمّا لا يعنيك، لأُعاقبنّك بصومِ سَنة: فصامها.

* * *

المُرابَطة الخامِسة

المجاهدة

وهو أنه إذا حاسَب نفسه فرآها قد قارَفَت مَعصيةً، فينبغي أن يُعاقبها على ما سبق ذكره، وإن رآها تَتوانَى بحُكمِ الكَسَل في شيءٍ من الفضائل أو وِرْدٍ من الأَوراد، فينبغي أن يُؤدّبها بتثقيل الأوراد عليها جبراً لما فات، وتَدارُكاً لما فَرَطَ.

وقد ذكرنا عن عُمر أنه فاتَتهُ صلاةٌ في جماعةٍ فأحْيا تلكَ اللَّيلة(١).

فإن قال قائل: فإذا لم تُطاوعني نفسي على الأوراد، فما سَبيل معالجتها؟.

فالجوابُ: تُكرِهُها ما استَطَعت، أخبرنا محمد وعلي قالا: أخبرنا رِزقُ الله وطِراد قالا: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: حدثنا ابنُ صفوان قال: حدثنا أبو بكر بن عبيد قال: حدثني أبو عبد الرحمن قال: حدثني مَعْدانُ بنُ سَمُرة قال: سمعتُ أحمد بن الزِّبْرِقان قال: سمعتُ ابن المبارك يقول: إنّ الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفواً، وإن أنفُسنا لا تكاد تُواتينا إلاّ على كُره، فينبغي لنا أن نُكرِهَها.

ومما يُستعان به على النَّفس أن تُسمِعَها ما ورد في فَضلِ المجتهدين وتَصحبَ من تَقدِرُ عليه منهم فَتقتَدي بأفعاله، قال بعضُهم: كنتُ إذا اعتَرتْني فَترةٌ في العِبادة نظرتُ إلى وجهِ محمَّدِ بن واسِع وإلى اجتهاده، فعملتُ على ذلك أسبوعاً. إلاّ أن هذا علاجٌ قد تعذَّرَ لفَقدِ المُجتَهدين، فينبغي أن تَعدل إلى سَماع أخبارِ القوم، كما قال الشاعر:

فـاتَـنـي أَنْ أَرىٰ الـدِّيـارَ بـطَـرْفـي ... فَـلَـعـلّـي أَرى الـدِّيـار بِـسَـمْـعـي

وقد كان عامرُ بن عَبد قَيْس يُصلّي كل يوم ألفَ ركعةٍ، وكان الأسودُ بن يَزيد

---

(١) الذي تقدم أن عمر رضي الله عنه تصدَّق بحائطه حينما فاتته صلاة العصر، والذي أحيا الليلة هو ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنه.

يصومُ حتى يَخضرَّ ويصفَرَّ، وحَجَّ مَسروقُ فما نام إلا ساجِداً، وقيل لرجلٍ: صِف لنا الأَحنف. فقال: ما رأيتُ أحداً أعظم سُلطاناً على نَفسه منه. وقال مُجاهد: ما المجتهد فيكم إلا كاللاّعب قَبلكم. وكان داود الطّائي يَشرب الفَتيتَ[١] مكانَ مَضْغ الخُبزِ، ويقول: بينهما قِراءَةُ خمسين آية. وكان كُرْزُ بنُ وَبرة يختم كل يوم ثلاثَ خَتمات، وكان عمر بن عبد العزيز وفَتْح الموصلي يَبكيانِ الدَّم، وصلى أربعون نَفْساً من القُدماء الفَجر بوضوء عشاءِ الآخرة.

وجاورَ أبو محمد الجُرَيري سَنةً فلم يَنَمْ، ولم يتكلَّم، ولم يَستند إلى حائطٍ، ولم يَمُدَّ رجليه، فمرَّ عليه أبو بكر الكِناني فقال: بمَ قدرت على هذا؟ فقال: علمَ صدقَ باطني فأعانني على ظاهري.

وكان بِبَيتِ المقدس رجلٌ قد بكى حتى عَمِشَ، فقيل له: كم تَبقَى العينُ على هذا البُكاء؟ فقال: كم شاءَ ربّي فليَكُن، وإذا شاء فليذهب، إنما أبكي رجاء الفَرح في الآخرة فإن تكن الأُخرى، فهو واللهِ شَقاءُ الدَّهر وحُزنُ الأَبد. ثم غُشِيَ عليه.

ودخلوا على زُجْلَة[٢] العابدةِ فكلَّموها في الرِّفق بنفسها، فقالت: إنما هي أيامُ مبادرةٍ، فمن فاتَه اليومَ شيءٌ لم يُدركه غداً، واللهِ يا إخوتاه لأُصلّيَن الله ما أَقَلَّتْني جَوارِحي، ولأَصومَنَّ له أيام حياتي ولأَبكينَّ ما حملت الماء عَيناي.

ومن أراد أن ينظر في سِيَر القَوم ويتفرجَ في بَساتين مُجاهداتهم، فلينظر في كتابي المسمَّى بصِفَة الصَّفوة، فإنه يرى من أخبار القَوم ما يَعدُّ نفسَه بالإضافة إليهم من الموتى، لا بل يَرى من أخبار المتَعَبّدات من النِّسوة ما يحتقر نَفسَه عند سماعِه، ورُبَّ أَنَفةٍ حدَثَتْ للعاقِل بعد تَفريطِه إذ تُلِيَ عليه حديثُ أُولي العَزم.

فإنْ قالت لكَ النَّفسُ: إنما تَيسَّر هذا على القُدَماء لكَثرتهم وتَأَسِّي بعضِهم ببَعض، فأمّا في هذا الزَّمان فإنك إن خالفتَهم رأوكَ مجنوناً وسَخِروا بكَ.

---

(١) الفتيت: كسر الخبز المفتوت، وقد تكون مُشربة بماء اللحم.

(٢) تصحفت في الأصل إلى: «رحلة»، وهي زُجلة العابدة مولاة لمعاوية رضي الله عنه، كانت محدثة صالحة. أعلام النساء ٢/ ٣٠.

فقل لها: أرأيتِ لو هَجمَ سَيلٌ جارفٌ وثبتَ أهل البلد وقَدرتِ على سَفينةٍ أفتَتَوقَّفين؟ كلاَّ بَل تأخُذينَ الحَذَر وتَستهزئين بالقاعِدين، فكيفَ لا يقع الهَربُ من نارِ الأَبَد وأنتِ مُتعرِّضةٌ لها بسوء أفعالك؟!.

* * *

المُرابَطة السَّادسة

في تَوبيخ النَّفس ومَعاتَبتها

أنبأنا محمد بن أبي مَنصور وعَلي بن أبي عُمر قالا: أخبرنا رِزْقُ الله وطِراد قالا: أخبرنا أبو الحُسَين بن بِشْران: قال: أخبرنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا الحُسَين بن حَمّاد قال: حَدّثنا إبراهيم بن عُيَينة قال: سمعتُ أبا الصَّباح يَذكر عن أبي نصير عن مولى لأبي بَكر قال: قال أبو بكر الصّديق رضي الله عنه: من مَقَتَ نَفسه في ذات الله آمنه اللهُ من مَقتِه.

قال القُرشي: وحدثنا داود بن عمرو بن محمد بن الحسن الأَسَدي عن جَعفر بن سُليمان قال: قال مالكُ بن دينار: إذا ذُكرَ الصّالحون فأُفٍّ لي وتُفْ.

قال القُرشي: وحدثنا هارون بن عبد الله قال: حدثنا معنُ بن عيسى عن مالك عن أنس عن إسحاق بن عبد الله عن أنس بن مالك قال: سمعتُ عمرَ بنَ الخَطاب رضي اللهُ عنه ودخل حائطاً، فسمعته يقول، وبيني وبينه جدار: عمرُ بن الخطاب أمير المؤمنين، بَخٍ بَخٍ، واللهِ لتتَّقينَّ الله بُنَيَّ الخَطّابِ أو ليُعَذِّبنَّكَ.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن يزيد العجلي قال: حدثنا أبو عامر العقدي قال: حدثنا قُرَّةُ عن الحَسن: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] قال: لا تلقى المؤمنَ إلا يُعاتبُ نفسه: ماذا أردتُ بكلمتي؟ ماذا أردتُ بأكلَتي؟ ماذا أردتُ بشربي؟ والفَاجر يَمضي قُدُماً لا يُعاتب نفَسه.

قال القُرشي: وحدثنا الحسنُ بن عرَفَة قال: حدثنا المبارك بن سعيد عن نُسَيرِ بنِ دُعْلوق قال: حدثنا عبدُ الله بن قيس الغِفاري قال: كُنّا في غَزاةٍ لنا فحضر عَدوّهم، فَصِيحَ في النّاس فَهم يثوبون إلى مَصافِّهم، إذا رجلٌ أمامي رأسُ فَرَسي عند عَجُزِ فَرَسِه، وهو يُعاتب نفسه، فيقول: أَيْ نَفْس، ألم أَشهَد مَشهد كذا وكذا، فقلتِ لي: أهلكَ وعيالَكَ، فأَطَعتُكِ فرجَعتُ، واللهِ لأعرضنَّكِ اليومَ على الله أخَذكِ أم تركك.

فقلتُ: لأَرمُقَنَّه اليومَ، فرَمَقتُه، فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العَدوَّ حملَ على الناسِ فانكَشَفوا فكان في حُماتهم، ثم إن الناس حَمَلوا فكان في أوائِلهم، ثم حَمل العدوُّ فانكشَفَ الناسُ فكان في حُماتهم، فوالله ما زال ذلك دَأْبُه حتى رأَيتُه صَريعاً، فعددتُ به وبِدابَّتِهِ ستين أو أكثر من ستين طعنة.

وقال البَخْتريُّ بنُ حارثة: دخلتُ على عابدٍ فإذا بينَ يديه نارٌ قد أَجَّجَها، وهو يعاتِب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى ماتَ.

واعلمْ أنَّ أَعدى عَدوٍ لك نفسُكَ التي بين جَنبيكَ، وقد خُلقَت أمارةً بالسُّوء مَيّالةً إلى الشَّر، وقد أُمِرتَ بتَزْكيَتِها وتَقويمها وفِطامها عن مُراداتها، وأن تقودَها بسلاسل القَهر إلى عبادة ربِّها، وإن أهملتها جَمَحَت وشَرَدت ولم تَظفَر بها بعد ذلك، وإن لازَمْتَها بالتَّوبيخ والمُعاتَبة رَجونا أن تَصيرَ مُطْمئنَّة، فلا تَغْفلَن عن تذكيرها، وسَبيلُكَ أن تُقْبِلَ عليها فتُقرِّر عندها جَهْلَها وغَباوتَها، وتقول: يا نَفسُ، ما أعظَمَ جهلك، تَدَّعين الذّكاء والفِطنة وأنتِ أشَدّ الناس غَباوةً وحُمقاً، أما تعلمين أنكِ صائرةٌ إلى الجنَّة أو إلى النار، فكيف يَلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟ ربما اختُطِفَ في يَومه أو في غده، أما تعلمين أنَّ كل آتٍ قريب وأنَّ الموتَ يأتي بَغتةً من غير موعِد، ولا يتوقف على سِنٍّ دون سِن، بل كلُّ نَفَسٍ من الأَنفاس يمكن أن يكون فيه الموتُ فجأة، وإن لم يكن فيه الموت فجأة كان المرض فجأةً، ثم يُفضي إلى الموت، فمالك لا تَستعدّين للمَوت وهو قريب منك، يا نَفسُ، إن كانت جُرأتك على معصيةِ الله لاعتِقادكِ أنَّ الله لا يَراكِ فما أعظم كُفرك! وإن كانت مع عِلمك باطّلاعهِ عليكِ، فما أشدَّ وقاحَتكِ وأقَلَّ حَياءكِ! أَلَكِ طاقةٌ على عَذابه؟ جَرِّبي ذلك عليك بالقُعودِ ساعةً في الحمّام، أو قرِّبي إصبعك من النار، أتغتَرّين بكرمِ الله تعالى، فمالكِ لا تُعَوِّلينَ على كَرمِه في مُهمات دُنياك فإذا قصدك عَدوٌّ فلمَ تَسْتَنْبِطينَ الحِيلَ[1] في دَفعه ولا تكلينَه إلى كَرم الله تعالى؟ ويحَكِ يا نفس! كأنك لا تُؤمنين بيوم الحساب، أتظنّين أنكِ إذا متِّ تَخَلَّصتِ؟ هَيهات! لو أَخبرَكِ طفلٌ أنّ في ثوبك

(١) تصحفت في الأصل إلى: «الجَبل».

عقرباً لرميتِ ثوبَكِ في الحال من غير مطالبةٍ بدليلٍ وبُرهان، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء أقلّ عندكِ من قول صبي غبي؟ أم جَهنّم وأغلالها أحقر من عقرب لا تحسين بألمِها إلا بعض يوم؟ ما هذه أفعال العُقَلاء، بل لو انكشَفَ للبهائم حالُكِ لضَحكوا منكِ وسَخِروا من عَقلك، فإن كنتِ يا نفسُ قد عَرفتِ ذلك وآمَنتِ به فمالك تُسوِّفينَ بالعمل والموتُ بالمرصاد؟ أتأْمَنينَ استعجاله؟ ثم قَدِّري أنَّ الاجتهاد في آخر العُمر موصلٌ إلى كلِّ مقصود فلعلَّ اليوم آخر أيامك، فماهذا التَّوقُّف؟ أفتنتظرينَ يوماً يأتيك لا تَعْسُرُ فيه مُخالفة الهَوى؟ أوَ ما الجنَّة مَحفوفةٌ بالمكارِه؟ هيهات! إنَّ ما تعجزين عنه اليومَ أنتِ غداً عنه أعجز؛ لأن الشَّهوة كالشَّجرة الراسخة التي تَعَبَّدَ العَبدُ بقلعها، فإذا عجز عن قلعها للضَّعف وأخَّرَها كان كمن عَجز عن قطع شجرةٍ وهو شاب قوي وأخَّرها إلى سَنةٍ أُخرى، مع العلم بأنّ طول المدّةِ يَزيدُ الشجرة قوةً ورُسوخاً، ويزيدُ القالِعَ ضَعفاً وَوَهناً، فما لا يُقدَر عليه في الشَّباب كيفَ يُطاق في المَشيب؟ والقضبُ الرَّطْبُ يَقبلُ الانحناء، فإذا جَفَّ وطالَ عليه الزَّمانُ لم يقبل ذلك.

فإن كانَ المانعُ لك من الاستِقامة حُبُّ الشَّهوات، فاطلُبي الشَّهوات الباقية الصافية عن كَدَرِها، وإن كنتِ ناظرةً لشَهواتك فانظُري لك بمخالفتها، فَرُبَّ أكلةٍ مَنَعَتْ أكلات.

وما قَولُكِ في عقلِ مَريضٍ أشار عليه الطبيبُ بتركِ الماءِ البارد ثلاثة أيام ليصحَّ ويتهنَّأ بشُربه طول عُمره، فما مُقتَضَى العقل في قضاء حَقِّ الشَّهوة أيَصبر ثلاثَةَ أيامٍ لِيَتنعَّمَ طول العُمر أم يَقضي شهوتَه في الحال ثم يَلزمه الألم أبداً؟ وجميعُ عمركِ بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العُمر، بل أقل من لحظةٍ بالإضافة إلى عُمر الدنيا. وليتَ شِعْري أَلم الصَّبر عن الشَّهوات أشدّ وأطول أم ألم النّار في الدَّركات؟ فمن لا يُطيقُ الصَّبر على المجاهدة كيف يُطيق ألَمَ العَذاب في الآخرة؟

ما أراكِ تَتَوانينَ عن النَّظر لنفسكِ إلا لِكُفرٍ خَفي أو لِحُمْقٍ جَلي، أمّا الكُفر الخَفي؛ فهو ضَعْفُ إيمانك بالجَزاء، وأما الحُمقُ الجَليّ؛ فاعتمادك على العَفو

والكَرم من غير التِفات إلى المَكْرِ والاستِدْراج.

أما علمتِ أن كلَّ من يلتفتُ إلى ملاذ الدُّنيا ويَأنَس بها مع أن الموتَ من ورائه، فإنما يَستكثر من الحَسرةِ عند المُفارقة.

واعَجباً لمن يَبني قَصراً مَرفوعاً إلى السَّماء وقَبرُه محفورٌ تحتَ الأرض، يعمُر الدنيا وهو مُرتحلٌ عنها يقيناً، ويُخربُ الأُخرى وهو صائر إليها قطعاً.

أشَغَلكِ حُبُّ الجاه؟ أَمَا بعدَ ستّين سنة لا تَبقينَ أنتِ ولا مَنْ كان لك عنده جاه، هلاّ تركتِ الدنيا لِخِسَّةِ شُركائِها، وكثرة عَنائها، وحَذَراً من سُرعة فَنائها، أتستبدلين بجوار رَبِّ العالمين صَفَّ النِّعال في صُحبة الحَمقى؟ قد ضاع أكثر البِضاعة، وقد بَقيت من العُمر صُبَابةٌ[1]، فلو استدركتِ نَدمتِ على ما ضاع، فكيفَ إذا أضفتِ الأخير إلى الأول؟ أما الموتُ موعدك، والقَبر منزلكِ، والتّراب فِراشك، والدّود أنيسُكِ، والفَزَعُ الأكبر بين يديكِ، وعسكرُ الموتَى في انتظارِكِ، أما علمتِ أنّهم يتمنَّون الرجوعَ ولو يوماً ليَستدركوا ما فَرَط من تفريطهم، وها أنتِ في أُمْنيتهم تعجبين بعَملكِ، وفيه من الآفات ما لو نجوتِ منها رأساً برأسٍ كان الرّبح في يدك، أَيُّ وَجهٍ للعُجْبِ مع كثرة الخَطايا وبواحدةٍ منها أُخرجَ أبوكِ؟ تفرحينَ بزيادة مالكِ ولا تحزنين لنُقصان عُمرك، تُعرِضينَ عن الآخرة وهي مُقبلة عليكِ، وتُقبلين على الدُّنيا وهي مُعرِضَةٌ عنكِ، وكم من مُستقبِلٍ يوماً لا يَستَكمِلُه، وكم من مُؤَمِّلٍ غداً لا يَبْلُغُه، اعملي في أيامٍ قصارٍ طِوال، وأعِدّي للسُّؤال الجَواب، اخْرُجي من الدنيا خُروج الاختيار قبل أن يكون خُروج اضطِرار، إنه من كانت مَطيَّته اللَّيل والنَّهار سِيرَ بِه وإن لم يَسِرْ، تفكَّري في هذه المَوعظة، فإن عَدمت تأثيرها فابكي على ما أُصبتِ به، فمستَقى الدَّمع من بَحرِ الرَّحمةِ.

آخر كتاب المحاسبة والمراقبة

* * *

(١) الصبُّابة: البقيةُ القليلة من الماء ونحوه.

كِتاب التَّفَكُّر

الحمدُ للهِ الذي لم يطرق إلى ساحةِ صَمديَّته وهماً ولا فِكرا، ولم يَجعل للحسِّ في حَلبةِ أَحَديَّتِهِ سَبيلاً ولا مجرى، فكلما أَسرَى الفِكرُ نحو عِزَّتِه رُدَّ في السرى موثَقاً أَسِرا، وكلما جال الوهمُ في عَظمته عادَ ربحُه خُسْرا، وكلما رامَ العقلُ فهم حكمته قيل له: لقد جئتَ شيئاً إمْرا، وكلما دَخلت النُّفوس مع معرفته حَيِّزاً وقَفت حَيْرَى، وكلما عطشَت سُقِيت من كأس الدّهش فأصبحت سَكْرى، فإذا صَحَتْ شاهدت بحارَ الأَقدار فائضةً على الخلقِ خيراً وشراً، ونفعاً وضَراً، وإيماناً وكُفراً، عُرْفاً ونُكْراً، لا يشاؤن إلا أن يشاء فقد مَلكَهم قَهْراً، فلما عَرفتْ عجزَها وعلمت أنها لا تَملك أمراً، همَّت بالانصراف آيسَةً فنودِيَت من سُرادِقات الجَلالِ: صَبراً صَبراً، فإن معَ العُسرِ يُسراً، إنّ معَ العُسر يُسراً.

أَحمدُه على نِعم جَمَّةٍ تتوالى وتَتْرَى، وأُقِرُّ بواحدانيته إقرار من يرى الدارين إلا منهُ قَفْراً، وأُصلي على رسولِه محمدٍ الذي به إلى قابِ قوسَين أَسْرى، وعلى أصحابه كل منهم في سماءِ الدين بَدراً، ولطوائف المسلمين صَدراً، وتابعيهم بإحسانٍ صلاةً تعيد على من أجرى ذكرهم أجراً، وسلّم، أما بعد:

فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد حَثَّ على التَّدبُّر والاعتبار والنَّظر والافتِكار، وجاء في الحديث: «فِكرةُ ساعةٍ خَيرٌ من عبادة سَنَة».

ثـم لا يـخفى أن الفِكر هو مفتاحُ الأنوار ومبدأ الاستبصار، وشبكةُ العلوم ومصيدة الفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضلَه ورُتبتَه ولكن جَهِلوا حقيقته وثَمرتَه، ومَصدرَه وموردَه، ومَجراه ومَسرحه، وطريقه وكيفيته، فلا يدري أحدهم كيف يتفكَّر، ولماذا يتفكر، وفيماذا يتفكر، وما الذي يطلب به، أهو مرادٌ لعينه أم لثمرةٍ

تُستفاد منه، وإن كان لثمرةٍ فما تلك الثمرة؟ أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً؟

وكشفُ جميع ذلك مهمٌ، ونحن نَذكرُ الآن فضيلةَ التَّفكُّر، ثم حقيقةَ التفكُّر وثمرتَه، ثم مجاري الفِكر ومسارِحَه إن شاء الله تعالى.

* * *

فَضيلة التَّفكُّر

قد أمر الله عزَّ وجل بالتفكُّر والتَّدبُّرِ في كتابه العَزيز في مواضع كثيرة، وأثنى على المتفكِّرين فقال عز وجل: ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ [الروم: ٨]، وقال: ﴿قل إنما أَعِظُكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾ [سبأ: ٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عاصم بن الحسن قال أخبرنا ابنُ بِشْران قال: أخبرنا ابنُ صَفوان قال: أخبرنا أبو بَكر القُرشي قال: حدثنا شُجاع بن الأشْرس قال: حدثنا حَشْرَجُ ابن نُباتَة عن الكلبي، يعني: أبا جَناب، عن عطاء قال: انطلقتُ أنا وابنُ عمر وعُبيد بن عُمَير إلى عائِشة، فقال ابنُ عمر: أخبرينا بأعجبِ شيءٍ رأيتهِ من رسولِ الله ﷺ. قال: فبكَت وقالت: كلُّ أمره كان عَجباً، أتاني في ليلتي حتّى مسَّ جِلدُه جِلْدي ثم قال: «ذَريني حتّى أتعَبد لربّي عزَّ وجلّ» فقلتُ: واللهِ إني لأحب قُربَكَ، وإني لأحب أن تَعْبد ربَّك. قالت: فقام إلى القِربة فتوضَّأ منها ولم يُكثر صبَّ الماء، ثم قام يُصلّي فبكى حتى بَلَّ لحيتَه، ثم سجدَ حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجعَ على جنبِه يَبكي حتى أتاه بِلالٌ يوقِظه لصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله، ما يُبكيكَ وقد غفر الله لك ذَنبكَ ما تقدَّم منه وما تأخَّر؟ قال: «وَيحكَ يا بلال، وما يَمنعني أن أبكي وقد أُنزل عليّ هذه الليلة»: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثم قال: «وَيلٌ لمن قرأها ولم يَتفكَّر فيها».

قال القُرشي: وحدَّثنا إسماعيل بن عبد الله بن زُرارة قال حدثنا علي بن ثابت قال: حدثنا الوازع بن نافع عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَفكَّروا في آلاءِ الله عزَّ وجلَّ، ولا تَتفكَّروا في الله»[1].

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة ٣/ ٥٢٥، وأبو الشيخ في العظمة ١/ ٢١٠.

قال القُرَشي: وحدثنا عبد الأعلى بن واصل الأَسدي قال: حدثني أحمد بن عاصم العَبّاداني قال: حدثني حَفصُ بن عمر بن مَيمون بن عَنبسة بن عبد الرحمن الكوفي عن زَيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعطوا أنفسكم حظَّها من العبادة» قالوا: يا رسولَ الله وما حظُّها من العِبادة؟ قال: «النَّظر في المُصحَف، والتَّفكُّر فيه، والاعتبار عند عجائبه».

قال القُرشي وحدَّثني إسحاقُ بن حاتم المدائني قال: حدثنا يحيى بن سُليم عن عثمان بن أبي دَهرَس، قال: بلغني أنّ رسولَ الله ﷺ انتهى إلى أصحابه وهم سُكونٌ لا يتكلَّمون فقال: «ما لكم لا تَكلَّمون؟» قالوا: نتفكَّر في خلقِ الله عزَّ وجل. قال: «فكذلك فافعَلوا، تفكّروا في خَلقِه ولا تفكَّروا فيه، فإن بهذا المَغرب أرضاً بيضاءَ نُورها بياضُها وبياضها نورها مسيرة لشمس أربعين يوماً، بها خَلقٌ من خلقِ الله لم يَعصوا الله طرفةَ عين قط» قالوا: فأينَ الشَّيطان عنهم؟ قال: «ما يَدرون خُلِقَ الشيطانُ أمْ لم يُخلَق»، قالوا: من وَلدِ آدم هُم؟ قال: «ما يَدرونَ خُلِقَ آدم أم لم يُخلَق».

قال القرشي: وحدثني أحمد بن عيسى المصري، قال: سمعت رِشْدينَ بنَ سعد قال: تفكَّر مَلَكٌ في رَبّه عزَّ وجل فصيحَ به، فهام فَسُمِّي: المفكِّر.

أخبرنا ابن ناصر قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: حدثنا الحسن بن علي التَّميمي قال: حدثنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن عَمرو بن مُرَّة عن سالم بن أبي الجَعْد عن أُمِّ الدَّرداء عن أبي الدَّرداء قال: تَفكُّرُ ساعةٍ خَيرٌ من قيام ليلةٍ.

قال الإمام أحمد: وحدَّثنا وكيع عن مالك بن مغْوَل عن عَون قال: سُئِلت أُم الدَّرداء: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكُّر والاعتبار.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ركعتان مُقتصدتان في تفكُّرٍ خير من قيام ليلةٍ والقَلبُ ساهٍ. وقال: لأَن أقرأَ البقَرةَ في ليلةٍ وأتفكّر فيها أحب إليَّ من أن أقرأ القُرآن هَذْرَمةً[1].

---

(١) الهَذرَمَةُ: الإسراع في القراءة.

وقال أُسَيدُ بنُ حُضَير: ما شَهدتُ جنازةً قط فحدثْتُ نفسي بغير ما هي إليه صائرة.

وقال الحَواريّون: يا رُوحَ الله، هل في الأَرضِ مثلك؟ قال: نعم، من كان مَنطقه ذكراً، وصَمتُه فِكْراً، ونظره عِبراً، فإنه مثلي.

وكان لُقمانُ يجلس وَحده فَسُئل عن ذلك، فقال: طولُ الوحدةِ أفهمُ للفِكرةِ، وطول الفِكرةِ دليلٌ على طريق الجنَّة.

قال الحسن: الفِكرةُ مِرآةٌ تُريكَ حَسَناتكَ وسيّئاتك. وقال: أفضلُ العِبادة التفكُّر والوَرع. وقال: من لم يَكُن كلامُه حِكَماً فهو لَغوٌ، ومن لم يكن سُكوته تَفكُّراً فهو سَهْوٌ، ومَن لم يكن نَظَرُه اعتِباراً، فهو لَهو. وقال: ما زال أَهلُ العِلم يَعودون بالتفكُّر على التَّذكُّر، وبالتذكُّر على التَّفكُّر، ويُناطقون القلوبَ حتى نَطقت، فإذا لها أسماعٌ وأبصار، فنطقت بالحكمة، وضربت الأمثال، وأورثت العلم.

وقال سعيدُ بن المسيّب: العبادة التفكُّر في أمرِ الله، والكَفُّ عن محارم الله.

وقال وَهبُ بنُ مُنَبِّه: ما طالت فِكرةُ امرىءٍ قَطّ إلا فَهِمَ، وما فَهِمَ إلا عَلم، وما عَلمَ إلا عَمِل.

وقال عامر بن عَبد قَيْس لرجلٍ: عليكَ بالصَّمت والحزن والفِكر، فإنك إن نلتَ ذلك لم تَدَع للعابدين مقاماً.

وقال سُفيانُ بنُ عُيينَة: الفكرةُ نورٌ تُدخِلُه قَلبَكَ. وكان يُنشِد:

إذا المَرْءُ كانَت لهُ فِكْرةٌ فَفي كلِّ شَيءٍ لَه عِبْرَةٌ

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إنك لتُطيلُ الفِكرةَ. فقال: الفِكرةُ مُخُّ العَمل.

وقال بِشْر الحافي: لو تفكَّر الناسُ في عَظمةِ الله تعالى لما عَصَوه.

وقال الفِرْيابي في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال: أمنعُ قلوبهم من التفكر في أمري.

وقال أبو عبيدةَ الخوَّاص: الحزنُ جلاءُ القلوب، به تَستَنير مواضع الفكرة.

وقال غيره: ما جُليتِ القلوب بمثل الأَحزان، ولا استنارت بمثل الفِكرة.

وقال صالح المُرِّي: للبكاءِ دَواعٍ: الفكرةُ في الذنوب، فإن أجابت على ذلك القلوب، وإلا نقلتَها إلى الموقف وتلكَ الشَّدائد والأهوال، فإن أَجابت إلى ذلك وإلا فاعرِض عليها التقلُّبَ في أطباق النِّيران.

باتَ هَرِم بن حَيّان عند حُمَمَة، فبات حُمَمةُ يَبكي إلى الصَّباح، فقال له هَرِم: ما أبكاكَ؟ فقال: ذكرتُ ليلةً صَبيحتُها تَناثُر نُجوم السَّماء.

خرج الربيعُ بن خيثم يَمشي مع ابن مسعود، فمرّا على حداد فوقف الربيع يَنظر إلى الحديدة في النار، فتمايل ليسقط، ثم مَرَّا على أتونٍ[1] فلما رأى ابن مسعود النار تلتهبُ فيه قرأ ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، فصعق الرَّبيع بن خَيْثم، فحُمِل إلى أهله، فلم يفق إلاّ في اللَّيل.

وكان عَمرو بن عُتبة يخرجُ على فرسه ليلاً فَيقفُ على القبور، فيقول: يا أهل القُبور، قد طُويَت الصُّحف، قد رُفِعَت الأعمال، ثم يبكي ثم يصفُّ قَدَميه[2] حتى يُصبح.

وقال أبو عاصم الحَبَطي: كنتُ أمشي مع محمد بن واسع فمررنا على المقابر، فقال: لا يَغرنك ما ترى من خُمودها، فكأنك بهم قد وَثبوا فَمِن بينِ مَسرورٍ ومَغموم.

وكان طاووس إذا مرَّ بالرؤوس المَشوية في السّوق لم يتعَشَّ تلك الليلة.

وقام زبيد ليلةً ليتهجَّدَ، فأدخل يده في مَطْهَرةٍ فوجدَ بَرْدَ الماء، فلم يزل كذلك حتى أصبح، فقالت الجاريةُ: لم تُصلِّ الليلةَ؟ قال: إني ذكرتُ ببردِه الزَّمهريرَ فما شعرتُ ببَردِه.

ووقفَ مالكُ بن دينارٍ ليلةً في صحنِ داره إلى الفجر، وقال: ما زال أهل النار يُعرضون عليَّ بسلاسِلهم وأغلالهم إلى الصَّباح.

---

(١) الأتون: الموقد الكبير، كموقد الحمام.

(٢) يصفُّ قدميه، أي: يقف قائماً يصلي.

وكان بعض السلف يقول: زوروا القُبور كل يوم بفِكرِكُم، وشاهدوا الموقف كل يوم بغيوبكم، وانظروا إلى مُنصَرَفِ الفَريقين بتَوهُّمِكُم، واشعُروا عذابَ النار ومَقَامِعَها، فمختارٌ لنفسه من جَنَّبها دخولها.

وكان عمر بن عبد العزيز يوماً ساكتاً، وأصحابه عنده، فقالوا: مالكَ لا تتكلم؟ قال: كنت أتفكَّر في أهل الجنة كيف يَتَزاوَرون فيها، وفي أهل النار كيف يَتشاجرون فيها. وجَمعَ الناسَ يوماً فَخطبَهم وقال: إني فَكَّرتُ في هذا الأمرِ الذي أنتُم إليه صائرون (مجتمعون، فمن صادقٍ ناجٍ ومكذب هالك)[1].

وكان داود الطائي على سَطحٍ في ليلةٍ قَمْراء فتفكَّر في ملكوت السماوات والأرض، فوقع إلى دار جارٍ له، فوثب الرجل عرياناً وبيده سَيفٌ، فلما رآه قال: يا داود، ما الذي أَلقاكَ؟ قال: ما شعرتُ بذلك.

وقال يوسف بن أسباط: إن الدنيا لم تُخلَق ليُنظَر إليها، بل ليُنظَر بها إلى الآخرة. قال: وكان سُفيان من شِدَّة الفِكرةِ يبولُ الدَّمَ.

وقال ابنُ المبارك يوماً لسَهل بن علي ورآه متفكراً: أين بلغتَ؟ فقال: السِّراط. وقرأ عليه يوماً فأطال القراءة، فقال عبد الله: ما تَظنّونَ به؟ قالوا: حُبُّ القِراءةِ. قال: أما الذي أظنُّ فيه أنه ما يعلم أن بحضرته أحداً.

وكانت امرأةٌ تسكُن البادية تقول: لو تطالعت قلوب المتقين بفِكرها إلى ما قد ادّخر لها في حُجُبِ الغيوب من خير الآخرة لم يَصْفَ لهم في الدنيا عَيشٌ ولم تَقرَّ لهم في الدنيا عَين.

وبينا أبو شُرَيح[2] يمشي إذ جلس فتقنَّع بكسائه فجعل يبكي، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: تفكَّرتُ في ذهاب عُمري واقترابِ أَجَلي.

حدثنا أبو بكر بن حبيب قال: أخبرنا أبو سعيد بن أبي صادق قال: حدثنا أبو عبد الله بن باكويه قال: حدثنا محمد بن داذَويه قال: حدثنا عبد الله بن سَهل قال:

---

(١) غير واضح في الأصل.

(٢) هو أبو شريح عبد الرحمن بن شُرَيح المعافري، توفي سنة (١٦٧هـ).

سمعتُ يحيى بن مُعَلّى الرازي يقول: لو سمعَ الخَلائقُ صوتَ النياحة على الدنيا في الغيب من ألسنةِ الفَناء، لملِئَت القلوب منهم حزناً، ولو رأت العقول بعيون الإيمان نزهة الجنة لذابَت النفوسُ شوقاً، ولو أدركت القلوب كُنْهَ المحبَّةِ لخالقها لتخلَّعت مفاصِلها وَلَهاً، ولَطارَت الأرواحُ إليه من أبدانها دَهَشاً، سبحان مَن أغفلَ الخليقة عن كُنْهِ هذه الأشياء، وألهاهُم بالوَصفِ عن حقائق هذه الأنباء.

وقال أبو بكر الكناني: رَوعةٌ عند انتباهةٍ من غَفلةٍ، وانقطاع عن حَظٍّ نَفساني، وارتعادٌ من خَوفِ قَطيعةٍ أفضلُ من عبادةِ الثَّقَلين.

أنبأنا إسماعيل قال: أخبرنا عاصم قال: أخبرنا ابنُ بِشران، أخبرنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثني هارون بن سفيان، قال: حدثني عبد الله بن صالح قال: سمعتُ محمد بن النَّضر الحارثي يقول: إن رجلاً تعبَّد في بني إسرائيل وكان الرجل منهم إذا تعبَّد ثلاثين سنةً أظلَّتهُ غمامة، فتعبَّد الرجلُ ثلاثين سنةً فلم يَرَ شيئاً يُظِلُّه، فَشكى ذلك إلى أُمه فقال: يا أُماه إني قد تعبَّدتُ ثَلاثينَ سنةً ولا أرى شيئاً يُظلني. فقالت: يا بُني، فَكِّر هلْ عملتَ ذَنباً منذ أخذتَ في عبادتك. قال: لا أعلمه. قالت: يا بُني، فكِّر هل هَمَمْتَ؟ ففكَّر ثم قال: ولا هَمَتُ. فقالت: يا بُنَيَّ، بقيَتْ خَصلة إن نجوتَ منها رجوتَ أن يُظلَّك، قال: وما هي؟ قالت: رفَعْتَ طرفَكَ إلى السماء ثم رَدَدتَهُ بغير فكرةٍ؟ قال: كثيراً (فقالت: هي تلك)[١].

وقال جندُب بن سُفيان: دخلتُ ديراً فيه رُهبانٌ فقلت: مَن هاهنا أشد اجتهاداً؟ فأشاروا إلى موضع في الدير، فدخلتُه فإذا فيه قومٌ جلوسٌ، فقلتُ: أيّ شيءٍ تَعملون؟ قالوا: نُصفِّي. فقلتُ: أي شيءٍ تُصفُّون؟ قالوا: نتفكَّر.

وقال بعضُ الحكماء: مَن نظر إلى الدنيا بغيرِ العبرَة انطمسَ من قلبه بقَدْرِ تلكَ الغَفلَة.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا عاصم بن الحسن قال: أخبرنا أبو

(١) غير واضحة في الأصل.

الحُسَين بن بِشْران قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بَكر القُرشي قال: كان رجلٌ من أهل النِّعمةِ واليَسارِ له جاريةٌ كان بها مشغوفاً وكان يتمنى الولَد منها، فمكثت عنده سِنِين ثم إنها اشتَملت على وَلَدٍ فاشتدَّ سُرورُه بذلك وطالَت عليه الأيَامُ لشَوقِه إلى وَلَدها حتى إذا استَكملَت شُهورها وضَرَبها الطَّلْقُ عرضَت له عِلةٌ فمرِضَ أياماً يَسيرةً، وهي في طَلقها، ثم إن الموتَ نَزل به، وولدت الجاريةُ غُلاماً في الليلة التي ماتَ فيها، فقال رجلٌ من قُريش يَعتبر بذلك:

فيمَنْ مَضى لِكَ إنْ فكَّرتَ مُعتَبَرُ ... فَفي اللَّيالي وفي الأيامِ مُزْدَجَرُ
بَيْنا الفَتى بلَذيذِ العَيْشِ مُغتَبِطٌ ... إذْ صارَ في القَبرِ لا عَينٌ ولا أَثَرُ
لو لم يَرَ المرءُ إلا ما يُعايِنُهُ ... لكان فيه له وَعظٌ ومُدَّكَرُ
أما رأيتَ ابنَ حَفْصٍ يرتجي ذَكَراً ... مِن مُنْيَةٍ زَانَها مع دَلِّها خَفَرُ
لما دَنا ذاكَ منها وَامتَلا فَرَحاً ... ومَدَّ عَينَيهِ للمَولودِ يَنتَظِرُ
إذا المَنيَّةُ قد وافَتْهُ من كَثَبٍ ... والصَّفوُ لا بُدَّ مَقرونٌ به الكَدَرُ
فَهْوَ يُعالج كَرْبَ الموتِ مُشْتغِلاً ... وتلكَ في الطَّلقِ قد حَلَّت بها الغِيَرُ
لم يَلبثِ المرءُ حتى مَجَّ مُهجَتَه ... وأَتْبَع الميتَ مولودٌ له ذَكَرُ
يا يُتْمَهُ قبلَ أخْذِ القابِلاتِ لهُ ... أَضْحَى يَتيماً ولم تُقطَع له السُّرَرُ
مَنْ ذَاتَهنَّا بِه مَنْ ذا يُسَرُّ بِه ... لا يَعرف الأبُ إن أَلْفَى له عُمُرُ
يا لَهفَتي للّذي وَلَّى بحَسْرَتِهِ ... وَرحمتي للّذي لم يُنجِهِ الصِّغَرُ
هذا قَضاءُ إلهِ الناسِ فاصْطَبري ... فالصَّبرُ أَفضَلُ شَيءٍ نالَهُ بَشَرُ

قال القُرشي: هذه الجاريةُ كانت لنا ثمّ صارَت لغَيرِنا.

قال: وأنشَدني أبو جعفر القُرشي:

وإذا نظرتَ تُريدُ مُعْتَبراً ... فانظُرْ إليكَ فَفِيكَ مُعتَبرُ
أنتَ الذي يُمسي ويُصبح في الـ ... دنيا وكل أمورِه غَرَرُ

أنتَ المُصَرَّفُ كان في صِغَرٍ ثم استقلَّ بشَخصِكَ الكِبَرُ
أنتَ الذي تَنْعاهُ خِلقَتُهُ يَنْعاهُ منهُ الشَّعرُ والبَشَرُ
أنتَ الذي تُعْطَى وتُسلَبُ لا يُنْجيهِ من أنْ يُسلَبَ الحَذَرُ
أنتَ الذي لا شَيءَ منه لَه وأَحَقُّ منهُ بمالِه القَدَرُ

بيان حقيقة الفِكر وثَمرته

اعلم أن معنى الفِكر هو إحضار مَعرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة.

ومثالُه: أن من مالَ إلى العاجلةِ وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة، فله طريقان:

أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا، فيُقلِّدُه ويُصدِّقه من غير بَصيرة بحقيقة الأمر، وهذا لا يسمى معرفة.

والطريق **الثاني**: أن يعرف أنَّ الأَبقى أولى بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقى، فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالإيثار، ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفَتين السابقتين، فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصُّل به إلى المعرفة الثالثة يسمَّى تَفكُّراً، واعتباراً، وتذكراً، ونَظَراً، وتأمّلاً، وتدبُّراً.

أما التَّدبر والتأمُّل والتَّفكُّر؛ فعباراتٌ مُترادِفةٌ على معنىً واحدٍ ليس تحتها معانٍ مختلفة، وأما اسم التذكُّر والاعتبار والنَّظر؛ فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمَّى واحداً، كما أن اسم الصارِم والمهنَّد والسَّيف يتوارد على شيءٍ واحد ولكن باعتباراتٍ مختلفة؛ فالصارم يدلُّ على السيف من حيث هو قاطع، والمهنَّد يدل عليه من حيث نسبته إلى الموضع، والسيفُ يدلُّ دلالة مطلقةً من غير إشعارٍ بهذه الزوائد، فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبُر منهما إلى معرفةٍ ثالثة، فإن لم يقع العبور ولم يكن إلا التوقّف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التَّذكُّر، لا اسم الاعتبار.

وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يُسمى ناظراً، فكل مُتفكرٍ فهو مُتَذكر، وليس كل مُتذكّرٍ متفكّر.

وفائدة التَّذكار تكرار المعارف على القلب لتترسخ وتتثبت ولا تنمحي عن القلب، وفائدة التفكّر تكثير العلم واستِجْلاب معرفةٍ ليست حاصلة، فهذا هو الفرق بين التذكُّر والتفكُّر.

والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدَوجت مع معرفةٍ أخرى حصل من ذلك نِتاجٌ آخر، وهكذا يتمادى النِّتاج، وتَتمادى العلوم، ويتمادى الفِكر إلى غيرِ نهايةٍ، وإنما يَنسدُّ طريق زيادة[١] العلوم بالموت أو بالعوائق، هذا لمن يقدر على استِثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكر، وأما أكثر الناس فإنما مُنِعوا الزيادةَ في العلوم لفقدهم رأسَ المال، وهي المعارف التي منها تُستَثمر العلوم، كالذي لا بضاعةَ له فإنه لا يَقدر على الرِّبح، وقد يَملك البِضاعةَ ولكن لا يُحسن صناعةَ التجارةِ، فلا يربح شيئاً، وكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكنه ليس يُحسِنُ استِعمالها وتأليفها وإيقاعِ الازدِواج المُفْضي إلى النِّتاج فيها.

ومعرفةُ طريق الاستعمال والاستثمار تارةً تكون بنورٍ إلهي في القلبِ يَحصُل بالفطرة، كما كان للأنبياء صلوات الله عليهم، وذلك عزيزٌ جداً، وقد تكونُ بالتعلُّم والممارسة وهو الأكثر.

ثم المُتفكِّر قد تَحضُره هذه المعارف وتَحصلُ له الثَّمرة وهوَ لا يَشعر بكيفية حُصولها، ولا يَقدر على التَّعبير عنها لقلّة ممارستِه لصناعة التَّعبير في الإيراد، فكم من إنسانٍ يَعلم أنَّ الآخرة أولى بالإيثار علماً حقيقياً، ولو سُئل عن سبب معرفته لم يَقدر على إيراده والتَّعبيرِ عنه، مع أنه لم تَحصُل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين، وهو أن الأَبقَى أولى بالإيثار، وأن الآخرةَ أبقى من الدنيا، فتحصل له معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالإيثار، فرجع حاصلُ الفِكر إلى إحضار مَعرفتين للتَّوصل بهما إلى معرفةٍ ثالثة.

(١) سقطت من الأصل، واستُدركت من الإحياء.

وأما ثمرةُ الفِكر؛ فهي العلوم والأحوال والأعمال، ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير، بلى إذا حصل العلمُ في القَلبِ تغيَّر حالُ القلبِ، وإذا تغيَّر حالُ القَلبِ تغيَّرت أعمالُ الجَوارح، فالعمل تابعُ الحالِ، والحالُ تابعُ العِلم، والعِلمُ تابع الفِكر، فالفكر إذن هو المبدأ أو المِفتاح للخَيرات كُلّها، وهذا هو الذي يَكشف لك عن فَضيلة التفكُّر، وأنه خَيرٌ من الذِّكر والتَّذكُّر والتَّذكر أفضلُ من جُملة الأعمال، وإنما فَضَل التفكُّرُ لأنه يَنقُلُ من المَكارِه إلى المَحَابِّ.

وإذا أردتَ أن تَفهم كيفيةَ تَغيُّر الحال بالفِكر، فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة، فإن الفِكر فيه يُعرفنا أنّ الآخرةَ أولى بالإيثار، فإذا رسَخت هذه المعرفةُ يَقيناً في قلوبنا تغيَّرت القلوبُ إلى الرَّغبة في الآخرة والزُّهد في الدنيا، وهذا ما عَنيناهُ بالحال إذا كان حال القلب قبل هذه المعرفة حُبَّ العاجلةِ والميلَ إليها وقلةَ الرغبة في الآخرة، وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتَبدَّلت إرادته ورَغبته، ثم أَثمَر تَغيُّر الإرادةِ أعمالَ الجوارح في اطِّراحِ الدنيا والإقبال على أعمال الآخرة.

فها هُنا خَمس درجات:

أَوّلها: التَّذكُّر، وهو إحضار المَعرفتين في القَلب.

وثانيها: التفكُّر، وهو طلب المعرفة المَقصودة منهما.

والثالثة: حُصُول المعرفة المطلوبة واستِنارةُ القلب بها.

والرابعة: تَغيُّر حالِ القَلب عَمّا كانَ بسبب حصول المعرفة.

والخامسة: خدمة الجَوارح للقلب بحسب ما تَجدَّد له من الحال، فكما يضرب الحجرُ على الحديد فتَخرجُ نارٌ يستضيء بها المكان فتَصير العينُ مبصرةً بعد أن لم تَكنُ مُبصِرَة، وتَنتَهِضُ الأعضاء للعمل، فكذلك زِنادُ[1] نُورِ المعرفة هو الفِكر، فيجمع بين المعرفتين كما يُجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفاً مخصوصاً، كما يضرب الحَجر على الحديد ضرباً مخصوصاً، فينبعث نُور المعرفة،

(١) الزِّناد: العود الذي تقدَحُ به النار. وقد تصحفت في الأصل إلى: «زيادة».

كما تنبعث النار من الحديد، ويتغير القلبُ بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه، كما يتغير البصرُ بنورِ النار فيرى ما لم يكن يَراه، ثم تَنْتَهِضُ الأَعضاء للعمل بمقتضى حال القلب، كما ينتهض العاجزُ عن العمل بسبب الظُّلْمة للعمل عند إدراك البَصَر ما لم يكن يُبصره.

فإذن ثمرةُ الفِكر العلومُ والأَحوال، والعلوم لا نهايةَ لها، والأحوال التي يُتَصور أن تتقلَّب على القلب لا يمكن حَصرها، ولهذا لو أراد مريدٌ أن يحصر فنونَ الفِكر ومَجاريه، وفي ماذا يتفكر لم يقدر عليه؛ لأن مجاري الفكر غير محصورة، وثمراته غير متناهية ولكنا نجتهد في ضَبْطِ مَجاريه بالإضافة إلى مُهمات العلوم الدينية وبالإضافات إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين، ويكون ذلك ضبطاً جُملياً، فإن تفصيل ذلك يَستدعي شرحَ[1] العلومِ كلها، فلنُشِر إلى ضبط المجامع فيها، فَبِهِ يحصل الوقوف على مجاري الفِكر.

بيان مَجاري الفِكر

اعلم أن الفِكر قد يَجري في أمرٍ يتعلق بالدّين، وقد يجري في أمر يتعلق بغير الدين، وإنما غرضُنا ما يتعلق بالدين، فلنترك القسم الآخر.

ونعني بالدين المعاملة التي بين العبد وبين الربِّ تعالى، فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله، ولا يمكن أن تخرج عن هذين القسمين، وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظراً فيما هو محبوبٌ عند الربّ تعالى أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين، وما يتعلق بالرب تعالى إما أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحُسنى، وإما أن يكون في أَفعالِهِ ومُلكه ومَلكوته.

ويتكشفُ لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثالٍ، وهو: أن حالَ السائرين إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقائه يُضاهي حالَ العُشاق، فلنتخذ العاشق المُسْتَهتَر

(١) سقطت من الأصل، واستدركت من الإحياء.

مثلاً، فنقول: العاشق المستغرق الهمّ بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلق بمعشوقِه أو يتعلق بنفسه، فإن تفكر في معشوقه، فإما أن يتفكر في جماله وحُسنِ صورته في ذاته ليتنعَّمَ بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مُضعفاً للذَّته ومُقوياً لمحبَّته، وإن تفكّر في نفسه، فيكون فكره في صفاته التي تُسقِطه من عين محبوبه حتى يَتنزَّه عنها، أو في الصفات التي تُقربه منه وتُحبّبه إليه حتى يتَّصفَ بها، فإن تفكر في شيءٍ خارج عن هذه الأقسام، فذلك خارجٌ عن حَدِّ العِشق وهو نُقصانٌ فيه؛ لأنَّ العشقَ التامَّ الكاملَ: ما يستغرقُ العاشقَ ويستوفي القلبِ حتى لا يترك فيه مُتَّسعاً لغير المعشوق، فَمُحبُّ الله تعالى ينبغي أنْ يكون كذلك، لا يَعدو نَظَرُه وتَفكُّرُه مَحبوبَه.

ومتى كان تفكُّره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مُقتضى المحبة أصلاً.

فلنبدأ **بالقسم الأول**: وهو **تَفكُّره في صفاتِ نَفسه وفعالها**، ليميز المحبوب منها عن المكروه، فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة الذي هو مقصود هذا الكتاب، وأما القِسم الآخر فيتعلَّق بعلم المكاشَفة.

ثم كل واحدٍ مما هو مكروهٌ عندالله أو محبوبٌ ينقسم إلى ظاهرٍ، كالطّاعات والمعاصي، وإلى باطنٍ، كالصِّفات المُنجِيات والمُهلِكات التي مَحلّها القلب، وقد ذكرنا تَفصيلها في رُبع المُهلكات والمُنجيات، والطَّاعات والمَعاصي تنقسم إلى ما يتعلَّقُ بالأعضاء السَّبعة وإلى ما يُنسَب إلى جميع البَدن، كالفرار من الزَّحف، وعُقوق الوالدين، والسُكنَى في المَسكنِ الحرامِ.

ويجب في كل واحدٍ من المكاره التفكُّر في ثلاثة أُمور:

الأول: في أنه هل هو مكروهٌ عند الله أم لا؟ فرب شيء لا يظهر كونه مكروهاً، بل يدرك بدقيق النَّظر.

والثاني: التفكُّر في أنه إن كان مكروهاً، فما طريق الاحتراز منه؟

والثالث: أن هذا المكروه هل هو مُتَّصفٌ به في الحال، فيتركه، أو هو متعرض

له في الاستقبال فيحترِزُ عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه، وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم هذاالانقسام، فإذا جُمعت هذه الأقسام زادَت مجاري الفكر في هذه الأقسام على مئةٍ، والعبدُ مدفوعٌ إلى التّفكُّرِ إما في جميعها أو في أكثرها، وشرحُ آحاد هذه الأقسام يطول، ولكن انحصر هذا القسمُ في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصّفات المُهلِكات، والصفات المُنجيات، فلنذكر في كل نوع مثالاً ليَقيسَ به المُريد سائِرها، وينفتح له باب الفِكر ويَتَّسع عليه طريقه.

النَّوع الأول: المعاصي

ينبغي أن يُفتش العبدُ صبيحةَ كل يوم جميعَ أعضائه السَّبعة تفصيلاً، ثم بدنه على الجُملة هل هو في الحال مُلابِسٌ لمعصيةٍ بها فيتركها، أو لابَسها بالأمس فيتَداركها بالترك والنَّدم، أو هو مُتَعرضٌ لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتَّباعد منها، فينظر في اللِّسان ويقول: إنه متعرض للغيبة والكَذِب وما لا يعني إلى غير ذلك مما يُكره، فيُقرر أولاً في نفسه أنها مكروهةٌ عند الله تعالى، وينظر فيما ورد في القُرآن والسنَّة في الوعيد عليها، ثم يتفكر في أحواله كيف يتعرَّض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر كيف يحترز منها، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعُزلة أو بأن لا يُجالس إلا صالحاً تقيّاً يُنكر عليه إذا تكلم بما يكرهه الله، وإلا فَيَضع في فيهِ حَجراً إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكِّراً له، فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز.

ويتفكر في سَمعِه أنه يُصغي به إلى الغِيبة والكَذِب وفُضول الكلام وأن ذلك إنما يسمعه في مجالسة الناس، فينبغي أن يحترز منهم بالاعتزال أو بالنَّهي عن المنكر إذا سَمعه.

ويتفكر في بَطنه أنه إنما يعصي الله فيه بالأكل والشُّرب، إما بكثرة الأكل من الحلال فإن ذلك مكروهٌ؛ لأنه مُقَوٍّ للشهوةِ التي هي سلاحُ الشَّيطان، وإما بأكل الحَرام أو الشُّبهة، فينظر من أين مطعَمه ومَلْبسه ومَسْكنه وما يكتسبه[1]، ويتفكر في

---

(١) في الأصل: «ما سكبته».

طريق الحلال ومداخله ثم يتفكَّر في وجوه الحيلة في الاكتساب منه والاحتزار من الحرام، ويقرر على نفسه أنَّ العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها.

فهكذا يتفكَّر في أعضائه، ففي هذا القدر كفاية عن الاستِقصاء فمتى حصلت بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طوال النَّهار حتى يحفظ الأعضاء عنها.

وأما:

النوع الثاني: وهو الطَّاعات

فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه كيفَ يُؤدّيها، وكيف يحرسها عن النُّقصان والتَّقصير، وكيف يجبر نُقصانَها بكثرة النَّوافل، ثم يرجع إلى عُضوٍ عُضوٍ فيتفكَّر في الأفعال التي تتعلَّق بها مما يُحبه الله، فيقول مثلاً: إن العين خُلقت للنَّظر في ملكوت السماوات والأرض عبرةً، ولتُستعمل في طاعةِ الله، وتَنظُر في العلم، وأنا قادر على أن أشغل العَينَ بمُطالعة القُرآن والسنَّة، فلمَ لا أفعله؟ وأنا قادرٌ على أن أنظر إلى فلان المطيع بعين التَّعظيم فأُدخل السرور على قلبه، وأنظر إلى فُلان الفاسق بعين الإزْراء فأَزجُره بذلك عن معصيته، فلمَ لا أفعله؟ وكذلك يقول في سَمعه أنه قادر على استماعِ كلامِ مَلهوفٍ، واستماع علم وحكمةٍ وقراءةٍ وذكرٍ، فما لي أُعطّله؟ وقد أنعمَ اللهُ تعالى عليَّ به وأودَعَنيه لأشكُره، فما لي أكْفُر نعمة اللهِ فيه بتَضْييعهِ وتعطيله؟

وكذلك يتفكّر في اللِّسان، ويقول: إني قادر على أن أتقرَّب إلى اللهِ تعالى بالتعليم والوعظ والتودّد إلى قلوب أهل الصَّلاح بالسؤال عن أحوال الفقراء، وإدخال السرور على قلب زَيدٍ الصالح وعمروٍ العالم بكلمةٍ طيبةٍ، وكل كلمة طيبةٍ فإنها صدقة.

وكذلك يتفكَّر في ماله فيقول: أنا قادر على أن أتصدقَ بالمال الفُلاني فإني مُستغنٍ عنه، ومهما احتجتُ إليه رزقني اللهُ مثلَه، وإن كنتُ محتاجاً الآن فأنا إلى

ثواب الإيثار أحَوج مني إلى ذلك المال، وهكذا يُفتش عن جميع أعضائه وجملةِ بدنه وأمواله، بل عن دوابِّه وغلمانِه وأولاده، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يُطيع الله تعالى بها، فيَستنبطُ بدقيق الفِكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يُرغِّبه في البدار إلى تلك الطاعات، ويتفكر في إخلاص النِّية فيها، ويطلب لها مَظانَّ الاستحقاق حتى يزكو بها عملُه، وقِسْ على هذا سائر الطاعات.

وأما:

النوع الثالث: فهي الصِّفات المُهْلِكة التي محلها القلب

فيعرفها مما ذكرناه في رُبع المُهلِكات، وهي: استيلاءُ الشهوةِ والغَضب والبُخل والكِبْر والعُجب والرِّياء والحسد وسوء الظَّن والغَفلة والغرور وغير ذلك.

ويتفقد من قلبه هذه الصفات، فإن ظنَّ أن قلبه مُنَزَّهٌ عنها، فيتفكَّر في كيفية امتحانه والاستِشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبداً تَعِدُ بالخَير من نَفسها وتُخْلِف، فإذا ادَّعت التواضع والبراءة من الكِبر فينبغي أن تُجرَّبَ بحَملِ حُزمةِ حَطب في السوق، وإذا ادَّعت الحِلمَ جُرِّبَت في كظم الغَيظ، وكذلك في سائر الصفات، وهذا تَفكُّرٌ في هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا؟ ولذلك علامات قد ذكرناها في رُبعِ المُهلِكات، فإذا دلَّت العلامة على وجودها فَكَّر في الأسباب التي تُقبِّح تلك الصفات عنده وتُبَيِّن أن مَنْشَأها من الجهلِ والغفلة، كما لو رأى في نفسه عُجْباً بالعمل، فيتفكَّر ويقول: أنا عملي ببدني وجارِحَتي وإرادتي، وكل ذلك ليس منّي ولا إليَّ، وإنما هو من خَلقِ اللهِ وفَضلِه عليَّ، فهو الذي خَلقَني وخلقَ جَوارحي وقدرتي، وهو الذي حرَّكَ أعضائي بقُدرته، وكذلك قُدرتي وإرادتي، فكيف أعجب بعملي ولا قِوام لنفسي بنفسي؟

وإذا أحسَّ من نفسه الكِبْر قال: إنما الكبيرُ مَن هو كبيرٌ عند الله، وكم من مسلمٍ يموت كافراً وشَقياً، وكم كافرٍ يموتُ مسلماً، وكم يتغيَّر الحالُ عند الموت بسوءِ الخاتمة. ثم يَتعاطى أفعال المتواضِعين.

وإذا وجد في نفسِ شهوة الطَّعام وشَرَهَه، تَفكَّر في أنَّ هذه صفة البهائم، ولو

كان في شَهوة الطَّعام والوِقاعِ كمالٌ لما زاد حَظُّ البهائم منه، وكلُّ من غلبَ عليه الشَّرَهُ فهو بالبهائم أشبَه، وعن الملائكة أبعد.

وكذلك يقرر على نفسه في الغَضَب ثم يتفكَّر في طريق العلاج. وقد سبق ذِكر هذه الأشياء، فَلينظر في ذلك.

وأما:

النَّوع الرابع: وهو المُنْجِيات

فهو التَّوبة والنَّدم على الذُّنوب، والصَّبر على البلاء، والشُّكرُ على النَّعماء، والخَوفُ والرجاء والزُّهد والإخلاص والصِّدق وغير ذلك مما قد ذكرناه في هذا الربع، وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتفكر العبد كل يومٍ في قلبه ما الذي يُعوِزُه من هذه الصِّفات التي هي مُقرِّبةٌ إلى الله تعالى؟ فإذا افتقرَ إلى شيءٍ منها، فليعلم أنها أحوالٌ لا تُثمرها إلا علوم، وإن العلوم لا يُثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه حال التَّوبة والنَّدم، فليُفتِّش ذنوبه أولاً، وليتفكر فيها وليعظمها في قلبه، ثم لينظر في الوَعيد الوارد فيها، وليتحقق أنه مُتعرضٌ لمقتِ اللهِ بذلك حتى يَنبعث له حالُ النَّدم.

وإذا أرادَ أن يستثير من قَلبِهِ حالَ الشُّكْرِ، فلينظر في إحسانِ الله تعالى إليه وأَياديه عَليه، وفي إسْبالِهِ جميل ستره عليه على ما شرَحنا بعضَه في كتاب الشُّكر، فليطالع ذلك.

وإذا أرادَ حالَ المحبةِ والشَّوق فليتفكَّر في جَلال الله وجَماله وعَظمته وكبريائه، وذلك بالنَّظَر في عجائبِ حكمتِه وبَدائعِ صُنْعِه، كما سنُشير إلى طرفٍ منه في القسم الثاني من الفِكر.

فإذا أرادَ حالَ الخَوف، فلينظر أولاً في ذُنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسَكَراتِهِ، ثم فيما بَعده من سؤال مُنكَرٍ ونَكيرٍ، وعذاب القَبر وأهواله، ثم في هَول النِّداء عند نَفْخة الصُّورِ، ثم في هَوْلِ المحشَر عند جَمع الخَلائق في صَعيدٍ واحد، ثم في الحِساب والمُضايَقة في النَّقيرِ[١] والقِطمير[٢]، ثم في الصِّراط، وغير

(١) النَّقير: غلاف البذرة، ويضرب به المثل للشيء لا قيمة له.

(٢) القِطمير: القشرة الرقيقة التي على نواة التمرة كاللفافة، والشيء الهَيِّن الحقير.

ذلك إلى أن يحل دار الإقامة، وليُصوِّر صورةَ جهنَّم وعذابها.

وإذا أراد أن يَسْتَجلبَ حالَ الرَّجاء، فَلينظر إلى الجنَّة ونَعيمها ومُلكَها الدائم، فهكذا طريق الفِكر الذي تطلب منه العُلوم التي تُثمر اجتِلابَ أحوالٍ محبوبةٍ أو التَّنزه عن صفاتٍ مذمومةٍ، وقد ذكرنا في كل واحدٍ من هذه الأحوال كتاباً مفرداً يُستعان به على تَفصيل الفِكر، فأما ذِكرُ مَجامِعه فإنه لا يُوجد فيه أنفع من قِراءة القرآن بالتفكر، ففيه ما يحرك إلى كل مَحمود، ويَزجر عن كل مذموم، فينبغي أن يَقرأه بالتثبُّتِ والتَّدبُّر ويُرَدِّد الآيَةَ التي هو محتاجٌ إلى الفِكر فيها، فإن قراءة آية بتفكر خير من خَتمةٍ بغير تَدبُّر، وكذلك مطالعةُ أحاديث رسولِ الله ﷺ فإنّه أُوتيَ جَوامع الكَلِم، فانظر إلى قوله: «إنَّ روحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي: أحبِب من شِئتَ فإنك مُفارِقه، وعِشْ ما شِئتَ فإنك مَيّت، واعمل ما شئتَ فإنك مَجْزِيٌّ به». فإن هذه الكلمات جامعةٌ حكم الأَولين والآخرين تكفي من تَدبَّرها من كلِّ موعظة.

فهذا هو طريقُ الفِكر في علوم المعاملة وصفات العَبد من حيثُ هي محبوبة عند الله أو مكروهة والمُبتَدي ينبغي أن يكونَ مُستغرق الوَقتِ في هذه الأفكار حتى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودَة والمقامات الشريفة، ويُنزِّهَ باطنه وظاهرَه عن المكروهات، وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من جَميع العبادات، فليس هو غاية المطلوب، بل المشغول به محجوبٌ عن مَطلب الصِّدّيقين وهو التَّنعُّم بالفِكر في جَلالِ اللهِ تعالى وجمالِهِ، واستغراقِ القَلب بحيث يَفنَى عن نَفسه، أي يَنسىٰ نَفسه وأحوالَه ومقاماته وصفاته، فيكون مُستغرق الهَمِّ بالمَحبوب، كالعاشِق المُسْتَهْتَرِ عند لقاء الحبيب فإنه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقى كالمَبهوت الغافل عن نَفسه، وهو منتهى لذَّة العُشّاق.

فأمّا ما ذكرناه فهو تفكُّرٌ في عِمارة الباطن ليصلُحَ للقربِ والوصال، فإذا ضَيَّعَ جميع عُمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعَّمُ بالقُرب؟ فالفناءُ في الواحدِ الحقِّ هو مَقصد الطالبين، ومُنتهى نعيم الصِّدِّيقين.

وأما التنزُّه عن الصفات المُهلكات فإنه يجري مجرى الخروج عن العِدَّةِ في النكاح، وأما الاتِّصاف بالصفات المُنجيات فيجري مجرى تهيئة المرأة جهازها

وتنظيفها وجهَها ومَشطها شَعْرها لتصلح للقاء زوجها، فإن استغرقت جميع عُمرها في تَبرئة الرَّحِم وتزيين الوَجه كان حجاباً لها عن لقاء المحبوب.

فهكذا ينبغي أن تفهمَ طريقَ الدين إن كنتَ من أهل المُجالسة، وإن كنتَ كالعبدِ السّوءِ لا يتحرك إلا خوفاً من الضَّرْب وطمعاً في الأُجرة، فَدونَكَ وإتعابَ البدَنِ، فإن بينك وبين القلب حجاباً كثيفاً، فإذا قضيت حقَّ الأعمال كنتَ من أهل الجنَّة، ولكن للمجالسة أقوامٌ آخرون.

وإذا عرفتَ مجالَ الفِكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين رَبِّه، فينبغي أن تتخذَ ذلك عادتك ودَيْدَنَكَ صباحاً ومساءً، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المُبعدةِ من اللهِ تعالى وأحوالك المُقرِّبة إليه سبحانه وتعالى، بل كل مُريدٍ فينبغي أن تكون له جريدة يُثبت فيها جملةَ الصِّفات المُهلِكات، وجملة الصفات المُنجيات، وجملة المعاصي والطّاعات، ويعرض نفسَه عليها كل يوم.

ويكفيه من المُهلكات النَّظر في عَشرةٍ، فإنه إن سَلِمَ منها سلمَ من غيرها، وهي: البُخْل والكِبْرُ والعُجْب والرّياء والحَسَد وشدّة الغَضَب وشَرَه الطَّعام، وشَرَه الوِقاع، وحبُّ المال، وحُبُّ الجاه.

ومن المُنجيات عشرة: النَّدم على الذنوب، والصَّبر على البلاء، والرِّضا بالقضاء، والشُّكْر على النَّعماء، واعتدالُ الخَوفِ والرَّجاء، والزُّهد في الدُّنيا، والإخلاص في الأعمال، وحُسن الخُلُق مع الخَلْقِ، وحُبُّ الله تعالى والخشوع له.

فهذه عشرون خَصلة، عَشرٌ مذمومةٌ، وعَشرٌ ممدوحةٌ، فَمَتى كُفِيَ من المذمومات واحدة خَطَّ عليها في جريدته، وترك التفكُّرَ فيها وشكر الله تعالى على كفايته إيّاها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ولو وَكَله إلى نفسه لم يقدر على مَحوِ الرَّذائل عن نفسه، فَيُقبل على التِّسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخطَّ على الجميع، وكذلك يُطالب نفسه بالاتِّصاف بالمُنجيات، فإذا اتَّصفَ بواحدةٍ منها كالتوبة والندم مثلاً خطَّ عليها واشتغل بالباقي، وهذا يَحتاجُ إليه المُريد المُشَمِّر، وأمّا أكثر الناس من المعدودين في زُمرة الصالحين، فينبغي أن

يُثبتوا في جَرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهةِ وإطلاق اللسان بالغِيبة والنَّميمة والمِراء والثَّناء على النَّفس والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء، والمداهنة في ترك الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر، فإنَّ أكثر من يعدُّ نفسه من وجوه الصالحين لا ينفكُّ عن جملةٍ من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم تُطَهَّر الجوارح من الآثام لا يمكن الاشتغالُ بعمارة القلب وتطهيره، بل كل فَريقٍ من الناس يَغلب عليهم نوعٌ من المعصية، فينبغي أن يكون تَفقُّدهم لها وتفكُّرهم فيها، لا في معاصٍ هم بمعزلٍ عنها.

مثاله: العالمُ الوَرع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهارِ نفسه بالعلم وطلبِ الشُّهْرة وانتشار الصِّيت، إما بالتدريس، أو بالوَعظ، ومن فعل ذلك فقد تَصدَّى لفِتنةٍ عظيمةٍ لا ينجو منها إلا الصِّديقون، فإنّه إن كان كلامُه مَقبولاً حَسَنَ الوَقع في القُلوب لم يَنفكّ عن الإعجاب والخُيَلاء والتَّزَيُّن والتَّصنُّع، وإن رُدّ كلامهُ لم يَخلُ عن أَنَفَةٍ وغَيظٍ وحقدٍ على من يَردُّه هو أكبر من غَيظِه على من يرد كلام غيره، وقد يُلَبِّسُ الشَّيطان عليه فَيقول له: إن غَيظكَ من حيث إنه رَدَّ الحَقَّ. فإنْ وجدَ تَفرِقَةً بين أن يردّ عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مَغرورٌ وضُحكةٌ للشَّيطان، ثم متى كان له ارتياحٌ بالقول وفرحٌ بالثَّناء واستنكافٌ من الرَّد، لم يَخلُ عن تَكلُّفٍ وتَصنُّعٍ حرصاً على اسْتِجلابِ الثَّناء، والشَّيطانُ قد يُلبِّسُ عليه فيقول: إنما حِرصُكَ على تَحْسينِ الأَلفاظ لتَنشُرَ الحق ويَحْسُنُ مَوقعه من القلوب إعلاءً لدين الله تعالى. فإن كان فَرحه بحُسْنِ ألفاظه وثَناء الناس عليه أكثر من فَرحِه من ثَناء الناس على بَعض أقرانِه، فهو مَخدوعٌ، وإنما يُدَندِنُ حَولَ طلبِ الجاه، وهو يظنُّ أن مَطلبه الدِّين، ومتى اختَلجَ ضَميرُه بهذه الصِّفات ظهرَ ذلكَ على ظاهره حتى إنه يكون للمُوقِّر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً، ويكون بلقائه أشدّ فرحاً ممن يَغلو في مُوالاة غيره وإن كان ذلك الغَير مستحقاً للموالاة.

وربما يَنتهي العلمُ بأهل العلمِ إلى أن يَتَغايَروا كما تَتَغايَرُ النِّساء فيشقُّ على أحدهم أن يختلف بعضُ تلامذته إلى غيره، وإن كان يعلم أنه منتفعٌ من ذلك ومستفيد منه في دينه، وكلُّ هذا من رشحِ الصِّفات المُهلكات المستكِنَّةِ في سِرِّ

القَلب التي قد يظن العالم النجاةَ منها، وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، فَفِتنة العالم عظيمة، وهو إمّا مالكٌ وإمّا هالكٌ ولا مَطْمَعَ له في سلامة العَوام ما لم يَسلم هو من الصفات الذَّميمة.

ومن أَحَسَّ من نفسه بهذه الصِّفات فالواجبُ عليه الانفرادُ، والعُزلةُ، وطَلبُ الخُمول، والمُدافعة للفتاوى، فقد كان الصَّحابة يَتدافعون الفَتوى، وكلٌّ منهم يَودُّ لو أنّ أخاه كفاه، وعند هذا ينبغي أن يَتَّقي شَياطينَ الإنسِ فإنَّهم يَقولون: هذا سببٌ لا نْدِراسِ العُلوم. فَليَقُل لَهم: إن دينَ الإسلام مُستغنٍ عنّي، فلو مِتُّ لم يَنهَدِم، وأنا غَير مُستَغنٍ عن إصلاح قَلبي، وأما أداءُ ذلكَ إلى انْدِراسِ العلم فَخيالٌ فاسدٌ، فإن الناس لو حُبِسوا في السُّجون، وقُيِّدوا بالقُيود، وتُوعِّدوا بالنّار على طَلبِ العِلم لكانَ حبُّ الرئاسة والعُلو يَحملهم على كَسر القُيود وهَدم حيطان السُّجون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم، فالعلم لا يَندرس ما دام الشَّيطان يُحبِّب إلى الخَلق الرِّئاسة، وقد يَنهضُ لنَشرِ العلم أقوام لا نَصيبَ لهم في الآخِرة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله يُؤيّد هذا الدّين بالرَّجُلِ الفَاجِر»[1].

فَلا ينبغي للعالم أنْ يَغتَرَّ بهذه التَّلْبيسات فَيشتغل بمخالطة الخَلق حتى يَتربَّى في قلبه حُبُّ الجاهِ والثَّناء والتَّعظيم، فإن ذلك بذرُ النِّفاق، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في زَريبة غَنمٍ بأفسد لها من حُبِّ المال والشَّرف في دين الرجل المسلم»[2].

ولا يَنقلع حبُّ الجاه من القلب إلا بالعُزْلة وتَركِ كل ما يزيد به جاهه عند الناس، فليكن فكرُ العالم في التَّفَطُّن لخفايا هذه الصِّفات من قلبه وفي استِنباط طريق الخَلاصِ منها، وهذه وظيفة العالِم المتَّقي، فأما أمثالُنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوي إيماننا بيوم الحساب، إذ لو رآنا السَّلَفُ الصالحون لقالوا قطعاً: إن هؤلاء

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١) (١٧٨)، وأحمد (٨٠٩٠)، وابن حبان (٥١٩)، وعبد الرزاق (٩٥٧٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (٥٧٨٤) و(١٥٧٩٤)، وابن حبان (٣٢٢٨)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٨٩) من حديث كعب بن مالك.

لا يؤمنون بيوم الحساب، وذلك لأن من صدَّق بشيءٍ عَمل بمُقْتضاه، وما نراه حصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يُقتدى بنا في الحِرص على الدنيا، ويُقال: لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أولى باجتنابه، فليتنا كُنا كالهَوام إذا مِتنا ماتَت معنا ذُنوبنا، فنسأل الله الصلاحَ بفضله.

فهذه مَجاري أفكار العلماء الصالحين في علم المعاملة، فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلى التَّفكُّر في جلالِ الله وعَظَمته والتَّنعُّم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتم ذلك إلا بعدَ الانفِكاك من جميع المُهلِكات، والاتِّصاف بجميع المنجيات، فإن ظهر شيءٌ منه قبل ذلك كان مدخولاً مُكدَّراً ضَعيفاً كالبَرقِ الخاطِف لا يَثبت، ويكون كالعاشِق الذي خَلا بمَعْشوقِه ولكن تحتَ ثيابه عقاربُ تلدغه، فتُنغِّصُ عليه لذةَ المشاهدة، فلا طريقَ له إلى إكمال التَّنعم إلا بإخراج العقارب من ثيابه، وهذه الصِّفات المذمومة عَقاربُ وحَيّات، وفي القبر يزيدُ ألمُ لدغِها على لدغِ العقارب والحيّات.

فهذا القَدْرُ كافٍ في التَّنبيه على مجاري فِكر العبد في صفات نَفسه المحبوبة والمكروهة عند ربِّه تبارك وتعالى.

القسم الثاني: الفِكرُ في جَلال الله تعالى وعَظمته وكِبريائه:

وفيه مقامان:

المقام الأعلى: الفِكر في ذاتِه وصفاته، وهذا مما مُنعَ منه، وقد روينا آنفاً أن النبي ﷺ قال: «لا تَفكَّروا في الله»، وذلك لأن العُقول تَتحيَّرُ فيه، (وحين يُزحم العقل عند التفكُّر يَتكدَّر)[١]، وإنما يَعظُم عند العوام مَن يُشبهُهم في الصورة، فأعظمُ حالِ العامّي أن يُقدِّر نفسه جَميلَ الصورةِ جالساً على سريرٍ وبين يديه غلمانٌ يَمتثِلون أمره، فلا جَرَم يُقدِّر ذلك في حَقِّ الله سبحانه، حتى يفهم العَظَمة، ولو قيل للعَوام: إنه لا يَحويه قُطرٌ، لا ندَهشَت عُقولُهم، فاقتضَت حكمةُ الشَّرع النَّهي عن التفكُّر في الله تعالى، وأُمروا أن يَعدلوا إلى التفكُّرِ في أفعاله وعجائب صَنعته، فإن

(١) غير واضحة في الأصل.

ذلك يَدلُّ على جلالِه وعَظمته، وجميعُ الموجودات أَثَرٌ من آثارِ قُدْرتِه، وقد جَرت العادةُ أن يوضَع طَسْتٌ فيه ماءٌ لنرى فيه الشَّمس، لعَجزِ الأبصارِ عن النَّظر إلى ذاتها، فلنُشاهد أفعالَه فإنها واسطة.

بَيانُ كيفية التَّفكُّر في خَلقِ اللهِ عزَّ وجَلّ

اعلم أن كل ما في الوُجود ممّا سِوى الله عزَّ وجَل، فهو فعله وخلقه، وفي كل ذرة من الذَّرات عجائب، ولا وَجه للتفكُّر فيما لم نَرَهُ من الملائكةِ والجِنِّ، فلنَعدِل إلى ما نراه من السماوات والأرض وما بينهما، فالسماوات مُشاهدةٌ بكواكبها وشَمسها وقَمرها وحَركاتها، والأرضُ مشاهدةٌ بما فيها من جبالها ومَعادنها وأنهارِها وبحارها وحَيوانها ونَباتِها، وما بين السَّماء والأرض، وهو الجَوُّ، مُدرَكٌ بغُيومه وأمطاره وثُلوجه ورَعده وبَرْقِه وصَواعقه ورياحه.

فهذه هي الأجناسُ المُشاهدةُ، وكل جنسٍ منها ينقسم إلى أنواعٍ، وكل نوعٍ ينقسم إلى أقسامٍ، ويتشعَّب كل قسمٍ إلى أصناف، ولا نهاية لانْشِعاب ذلك وانقسامِه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة، وجمع ذلك مجالٌ للفكر، فما تتحركُ ذَرةٌ من ذلك إلا واللهُ تعالى مُحرّكُها، وفي حَركتها حِكَمٌ تشهد له بالوَحدانية، تدلُّ على جلاله وكِبْريائه.

وقد وردَ القُرآن بالحثِّ على التّفكُّرِ في هذه لآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

فلنذكُر كيفية الفِكر في بعضِ الآيات: فمن آياته الإنسان المخلوق من النُّطفة، وأقرب الأشياء إليك نَفسك، وفيكَ من العجائب الدَّالَّة على عظمةِ الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوفِ على عُشر عُشيره وأنتَ غافلٌ عنه، فيا مَن هُو غافلٌ عن نفسه وجاهلٌ بها، كيفَ تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمركَ الله تعالى بالتَّدبُّر في نفسِكَ، فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، فانظُر إلى النُّطفة، وهي

قطرةٌ من الماء مُستَقذَرةٌ، لو تُركت ساعة فَضربها الهواء فسدَت وأنتَنت، كيف جمع بين الأبوين بالمحبَّة والشَّهوة حتى خَرجت مستورةً عن الهواء، ثم نقلها إلى علقةٍ حمراء، ثم جعلها مُضْغَةً، وقسمها مع تساوي أجزائها إلى عِظامٍ وأعصابٍ وعُروقٍ وأوتارٍ ولحم، ثم دَوَّرَ الرأسَ وشقَّ السَّمعَ والبَصر والأنفَ والفَمَ وسائرَ المنافِذ، ثم مَدَّ اليدَ والرِّجلَ، وقَدَّرَ الأنامِلَ، وركَّبَ الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكَبِد والطِّحال والرِّئة والأمعاء، كل واحد على شكل مخصوص لعملٍ مخصوص، وركب العَينَ من سبع طَبقات، لكل طَبقةٍ وصفٌ مَخصوص، وانظُر إلى العظام القَوية كيفَ خَلقها من نُطفةٍ سَخيفَة رَقيقة، ثم جَعلها قواماً للبَدن وعماداً له، ثم قَدّرها بمقادير مُختلفة وأشكالٍ مختلفة، فمنها المُستطيل والمستَدير والصَّغير، والكَبير والمُصمَت، والمُجوَّف، والعَريض والدَّقيق، ولما كان الإنسان مُحتاجاً إلى الحركة بجُملَةِ بَدنه وببعضِ أعضائِه للتَّردد في حاجاته لم يَجعل عظامه عظماً واحداً، بل عظاماً كثيرةً، بينها مفاصل حتى تَتَيسَّر لها الحركة، وقَدَّر شكلَ كل واحدٍ منها على وَفقِ الحركةِ المطلوبة، ثم وصل مفاصلها ورَبَطَ بعضَها بالبعض بأوتارٍ أَنْبتها من أحدِ طرفي العِظام وألصقه بالطَّرف الآخر كالرِّباط له، ثم خلق في أحد طرفي العظم زَوائد خارِجة منه وفي الآخر حُفراً غائِصة فيه مُوافقة لشكل الزَّوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار الإنسان إن أرادَ تحريكَ جُزء من بَدَنه لم يمتنع عليه، ولولا المَفاصل لتعذَّر عليه ذلك.

ثم انظر كيف خلق عِظامَ الرأس، وكيف جمعها وركَّبها من سبع خَرزاتٍ مجوفات مُستديرات، فيها تحريفات، ثم ركَّبَ خَرز الصُّلب، وركَّبَ عظمَ العَجُز، ثم وَصل عظام الظَّهر بعظام الصَّدر، فمجموع عدد العظام في البدن مئتان وثمانية وأربعون عظماً سوى الصِّغار التي حَشى بها خلل المفاصل.

فانظر كيفَ خلقَ ذلك كلّه من نُطفةٍ سَخيفةٍ ورقيقة، وليس المراد أن يُعرف عَددُها، وإنما الغَرض أن ينظر إلى قدرة خَالقها ومدبرها كيف خَلقها ودبَّرها وقَدَّر أشكالها وخَصَّها بعددٍ مخصوصٍ، فلو زاد واحداً كان وبالاً على الإنسان، ولو نقص لكان نُقصاناً في حَقه يحتاجُ إلى جَبر، فالطبيب ينظر فيها ليعرف العِلاج، وأهلُ

البصائر ينظرون فيها ليستدلّوا على جلال خالقها، فَشتّانَ بين النَّظرين.

ثم انظر كيفَ خلق آلاتٍ لِتَحريك العظام، وهي العضلات، فخلق في بَدنِ الآدميِّ خمسمائة عَضَلةً، وتسعاً وعشرين عَضَلةً، والعَضَلة مركَّبةٌ من لحمٍ وعَصبٍ ورُبُطٍ وأَغْشيةٍ، وهي مُختلفة المَقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها، فأربع وعشرون عضلة منها لتحريك حَدقة العين وأجفانها، لو نقصت واحدة من جُملتها اختلَّ أمرُ العَين، وهذه العين كالعدسَة، وتظهر فيها صورة السماوات، وهكذا لكل عُضوٍ عضلات بعَددٍ مخصوص وقَدرٍ مخصوص، وشرحُ ما في البَدن يَطول، وما فيه من عجائب المعاني والصِّفات التي لا تَظهر للحِسِّ أعجب وأعظم.

فمَنْ هذا صُنعُه في قَطرةِ ماءٍ، فما صُنعُه في ملكوت السماوات والأرض؟ أتُرى لو اجتَمع الخلقُ على أن يخلُقوا للنُّطفة سَمعاً وبَصراً، أو جِلداً، هل كانوا يقدرون؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كُنْهَ حقيقة ذلك وكيفية خَلقِه بعد أن خُلِقَ، هل كان يُمكنهم؟ بل لو نظرت إلى صورةِ إنسانٍ مُصَوَّرٍ على حائطٍ تَأَنَّق النَّقّاشُ في تَصْويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، فإنه يَعظُم تعجُّبك من صَنعة النَّقاش وحِذْقِه وتمام فِطنته، وعَظُمَ في قلبك محلُّه مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تَمَّت بالصِّبغ والقَلم والحائِط وباليد والقُدرة وبالعِلم والإرادة، وشيءٌ من ذلك ليسَ من فِعل النَّقاش ولا خَلقه، بل هو مِنْ خَلقِ غَيْره، وأما مُنتهى فِعله الجَمعُ بين الصِّبغ والحائط على تَرتيبٍ مخصوص، فيكثر تَعجّبك منه وتَسْتَعظمه، وأنتَ تَرى النُّطفةَ كانت مَعدومةً فخلقها خالقها في الأَصْلاب والتَّرائب، ثم أخرجها وشكَّلها فأحسنَ تَشكيلَها وتَقديرها، ورتَّب عُروقَها وأعضَاءها، ومجاري غذائها، ليكون سبباً لبقائها، وجَعلَها سَميعةً بَصيرةً عالمةً ناطقةً، وخلق لها الظَّهر أساساً لبَدَنِها، والبَطنَ حاوياً لآلات غِذائها، والرأسَ جامعاً لحواسِّها، وحَمَى العينَ بالأَجفان لتَسترُها وتحفظها، وشَقَّ الأذنَ وأودَعها ماءً مُراً لحفظِ سَمعِها ودَفعِ الهَوام عنها، وحاطَها بصدفةٍ لتجمع الصوت فتردّه إلى صِماخِها ولتحسَّ بدبيب الهوام إليها، وأودع في الأنفِ حاسَّةَ الشَّمِّ ليستدل باستِنشاق الروائح على المَطاعم، وليستنشِقَ بمنفذ المنخرين روحَ

الهواء غِذاء لقَلبه وتَرويحاً لحرارة باطنه، وأودع الفَمَ اللِّسانَ ناطقاً ومُعرباً عَمَّا في القَلبِ، وسَوَّى الشَّفتين لتتم بهما حُروف الكلام مع كونهما غطاء للفم، ثم خلق الحناجر مُختلفةَ الأشكال في الضِّيق والسَّعة والخُشونَة والملاسَة والصَّلابة والرَّخاوة حتى اختلفت الأصوات، فلا يتشابه صوتان، وزَيَّنَ الرؤوس بالشُّعور والعَين بالهُدب، وقَوَّسَ الحاجبَ، وخلق الأعضاء الباطِنة، وسخَّر كل واحدٍ لفعلٍ مخصوص؛ فَسخَّر المعدة لإِنْضاج الغِذاء، والكَبدَ لإحالته إلى الدَّم، والطِّحالَ والمرارةَ والكُليةَ لخِدمة الكَبِد، فالطِّحال يخدمها بجذب السَّوداء عنها، والمرارة تَخدمها بجَذب الصَّفراء عنها، والكُليةُ تخدمها بجذبِ المائيَّة، والمثانَةُ تخدم الكُلية بقبول الماء عنها، ثم تُخرجه من طريق الإِحْليل، والعُروق تخدم الكبِد في إيصال الدَّم إلى جميع أطراف البَدَن.

ثم خَلقَ اليدين[1] وطَولَهما لتمتَدا إلى المقاصد، ووضع الأصابع الأربع في جانبٍ والإبهامَ في جانب ليدور الإبهام على الجميع، ولو اجتمع الخلائق على أن يستنْبِطوا بدَقيق الفِكر وَجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وُضِعَت عليه من بُعد الإبهام عن الأربع وتَفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صَفٍ واحدٍ لم يَقدروا عليه، إذ بهذا التَّرتيب صلحت اليَد للقَبضِ والإعطاء، فإن بَسطها كانت طبقاً يضع عليه ما يُريد، وإن جمعها كانت آلةً للضرب، وإن ضَمّها ضماً غير تام كانت مِغْرفَةً له، وإن بسطها وضَمَّ أصابعها كانت مِجْرَفَةً له، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينةً للأنامل وعماداً لها من ورائها، وليتلقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأَنامل، وليَحُكَّ بها بَدَنَه عند الحاجة، فالظُّفر الذي هو أَخَسُّ الأَعضاء لو عدمه الإنسان وظَهر به حِكَّةٌ كان أعجز الخَلق وأضعفهم ولم يقم أحدٌ مقامه في حَكِّ بَدَنِه.

هذا كله مخلوقٌ من النُّطفَة وهي في داخل الرحم في ظلماتٍ ثلاث، ولو كُشِفَ الغِطاءُ وامتدَّ البَصر لكان يرى التَّخطيط والتَّصوير يظهر عليه شيئاً فشيئاً، ولا يرى المصوِّر، فهل رأيتَ مُصوراً لا يمسّ مصنوعه وهو يتصرف فيه؟ سُبحانَه ما أعظم

(١) تحرفت في الأصل إلى: «البَدن».

شأنه، ولما ضاقَ الرَّحِمُ عن الصَّبي ألهمه أن يَتَنكَّس ويَطلبَ الخُروج، فلما خرج محتاجاً إلى الغذاء هَداهُ الثَّدْيين، وَدَرَّ له اللَّبنَ؛ لأن جَسَده لا يحتمل الأَغذية الكثيفة، وأنبتَ من الثَّدي حَلَمةً بقدر ما يَسع فَمُ الصَّبي، ثم جعل فيها ثُقوباً، ولا يخرج منها اللبن إلا بعد الجذب بالمَصِّ، وأخَّر خَلقَ الأَسْنانِ[1] إلى وقتِ حاجته إلى ما يَمضغ، ثم حَنَّنَ قلوب الوالدين عليه في حالِ عَجزه، ثم نقله من حال الصِّبا إلى الشَّباب إلى الكُهولة إلى الشَّيخوخة.

فالعجبُ ممن يَرى خَطّاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط يستحسنه فَيَنصرفُ هَمُّه كلَّه إلى التفكُّر في النَّقاش والخَطّاط كيف نقش هذا، ولا يزال يستعظمه، ويقول: ما أحذَقه! ثم ينظر إلى العجائب في نفسه وفي غيره، ثم يغفل عن صانِعه ومُصوِّره، فلا تُدهشه عظمته، ولا تُحيِّره حِكمتُه.

فهذه نُبْذَةٌ من عجائب بَدَنك وأنت مشغول عن هذا ببطنك وفَرجك، لا تعرف من نفسك إلا أن تَجوعَ فتأكُل، وتشبع فتنام، والبهائم كلها تُشاركك في معرفة ذلك، وإنما خاصية الإنسان التي حُجبت البهائمُ عنها معرفةُ الله تعالى بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، وليس هذه المنزلةُ للبهائم ولا لإنسانٍ رضي من الدنيا بشهواتِ البهائم، فإنه شَرٌّ من البهيمة بكثيرٍ إذ لا قُدرةَ للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خُلِقت له القُدرة ثمَّ عَطَّلها وكفَر نعمةَ الله فيها ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وإذْ قَد عرفتَ طريقَ الفكر فيكَ فتفكَّر في مَقرك، فإنه أمسكَ الأرضَ بالجبال أن تتحرَّك، ووسَّعَ أكنافها ثم إنها تَهتَزُّ وتَربو بعجائب النَّبات، وأسال الأنهار وفجَّرَ العُيون، ثم أخرج بهذا الماء ألوانَ النبات، ومتى كان في النَّواة نَخلةٌ مطوقةٌ بأعْذاقِ[2] الرُّطَب، ومتى كان في حبة واحدةٍ سبع سَنابل في كل سُنبلةٍ مِئةُ حَبَّة؟.

ثم أودعَ العَقاقير المنافعَ الغريبة، فهذا النَّباتُ يُغذي، وهذا يُقوّي، وهذا يُبرِّد،

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الإنسان».

(٢) العِذقُ من النَّخل كالعنقود من العِنبِ والجمع أعذاق وعذوق.

وهذا يُسَخِّن، وهذا يَستخرجُ من أعماق العروق الصفراء، وهذا يقمعُ البَلْغَم والسَّوداء، وهذا يستحيل إليهما، وهذا يُفرح، وهذا يُنَوّم، وهذا يحيي وهذا يَقتُل، فما تَنبتُ في الأرض ورقةٌ إلا وفيها منافع لا يَقوى البَشر على الوقوف على كُنْهِها، وكلّ واحد من النبات يَحتاج الفلاح في ترتيبه إلى عملٍ مخصوص؛ فالنَّخيل تُؤَبَّر(١) والكرمُ يُكْسَحُ(٢)، والزَّرع يُنَقَّى عنه الحَشيشُ والدَّغَلُ، وبعضُ ذلك يُستَنْبَتُ بِبَثِّ البذرِ في الأرض، وبعضُه بغرسِ الأغصان، وبعضُه يُركَّب في الشَّجر، وهذا يطول شرحه ولا نبلغ الغرض، فلنكتفِ بهذه النُّبذة.

ومن آياته الجواهرُ المُودَعة في الجِبال، والمعادنُ من الذهب والفضة والفَيروزج وغيرها، فبعضُها ينطبع تحت المطارِقِ كالذَّهب والرَّصاص، وبعضُها لا ينطبع كالفيروزج، وكيف هَدَى اللهُ تعالى الناس إلى استخراجِها وتَنقيتها واتّخاذ الأَواني والآلات والنُّقود والحُلي منها، ثم انظر إلى معادن النِّفطِ والكِبريت والقَارِ(٣) وغيرها، وأقلها المِلح ولا يُحتاج إليه إلا لتطييب الطعام، ولو خلت عنه بلدةٌ لتَسارع الهلاكُ إليها، فانظُر إلى رحمةِ الله تعالى كيفَ خلق بعض الأَرَضين سَبخةً بجواهِرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيَستحيل ملحاً، فما من شيءٍ إلا وفيه حِكَم، وما من شيءٍ خُلق لعَبث، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

ومن آياته أصنافُ الحيوانات وانقِسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رِجلَين، وإلى ما يمشي على أربعٍ، وعلى عشرٍ، وعلى مئةٍ، ثم انقسامها في المنافع والصّور والأَشكال والأخلاق والطِّباع، فانظر إلى طيُور الجَوِّ، وإلى وحوش البَرِّ، وإلى البهائم الأَهلية تَرى فيها من العجائب مالا تَشكُّ معه في عَظَمة خالِقها، وقُدْرَةِ مُقَدِّرها، وحكم مصوِّرها، وكيف يمكن أن نسْتَقصي ذلك، بل لو أردنا أن نذكر عجائِبَ البَقَّة أو النَّملة أو النَّحلة، وهي من صغار

(١) تؤبّر: أي تُلَقَّح حيث توضع شماريخ النخلة الذكر على شماريخ النخلة الأنثى.
(٢) يُكسح: أي يُقطَع ويُنَقَّى ويُقَلَّم.
(٣) القار: الزّفت.

الحيوانات في بنائها بيتها، وفي جمع غذائها، وفي إلْفِها لزَوجها، وفي ادّخارها لنفسها، وفي حذْقها في هندسة بيتها، وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نَقدر على ذلك، فتَرى العنكبوتَ تَبني بيتها فَتَطلبُ أولاً مَوضِعين مُتقاربين بينَهما فُرجَةٌ بمقدار ذِراع فما دونه حتى يمكنها أن تَصِلَ الخَيْطَ بينَ طرفيه، ثم تَبتدي فتُلقي اللُّعابَ الذي هو خَيطها على جانبٍ ليلتصق به، ثم تعدو إلى الجانب الآخر فتُحكمُ الطرفَ الأخيرَ من الخَيط، ثم تتردَّد ثانياً وثالثاً، وتجعل بُعدَ ما بينهما مُتناسباً تَناسباً هندسياً حتى إذا أحكمت معاقد القِمْطِ ورَتَّبَت الخُيوط كالسَّدى[1] اشتغلت باللُّحمةِ، فتضع اللّحمةَ على السَّدى وتضيف بعضَها إلى بعضٍ، وتحكم العَقد على موضع التِقَاءِ اللّحمة بالسَّدى، وتُراعي في جميع ذلك تناسُبَ الهندسة، وتجعل ذلك شبكةً يقع فيها البَقُّ والذُّبابُ، وتقعُد في زاوية مترصدة لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيدُ في الشبكة بادرت إلى أخذه وأكله، فإن عجزت عن الصيد كذلك طلبت لنفسها زاويةً من حائطٍ ووصلت بين طرفي الزاوية بخيطٍ ثم علَّقت نفسها فيه بخيطٍ آخر وبقيت مُنكَّسةً في الهواء تَنتظر ذُبابةً تطير، فإذا طار ذبابٌ رمَت نفسها إليه فأخذته ولفَّت خيطها على رجليه وأحكمته، ثم أكلته.

وما من حيوانٍ صغير ولا كبيرٍ إلا وفيه من هذه العجائب ما لا تُحصى، أفتراه يعلم هذه الصناعة من نفسه، أو من آدمي، أو لا هاديَ له ولا معلم؟ أفيشكُّ ذو بَصيرةٍ في أنه مِسكين ضَعيف عاجزٌ، بل الفيلُ العظيم شَخصه الظاهرةُ قوّتُه عاجزٌ عن أمر نَفسِه، فكيف هذا الحيوان الضَّعيف، أو لا يَشهدُ شكلُه وصورتُه وحركتُه وهدايته وعجائب صَنعته لفاطِره الحكيم وخالقه العليم؟ فالبصير يَرى في هذا الحيوان الصَّغير من عظمة الخالق المدبّر وجلاله وكمال قدره وحِكمته ما تَتَحير فيه الألباب والعقول، فضلاً عن سائر الحيوانات.

وهذا البابُ أيضاً لا حَصرَ له، فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجُّب القلوب منها لأُنسها بكثرة المُشاهدة، بل إذا رأى

---

(١) السَّدى: الخيوط التي تُمدّ طولاً في النَّسيج، مفردها سداة، واللّحمَة: الخيوط التي تُمد عَرضاً، وتُلحم بها السَّدى.

الإنسان حيواناً غريباً تجدَّد تعجُّبه، والإنسانُ أعجبُ الحيوانات وليسَ يتعجَّب من نفسه، بل لو نظر إلى الأنعام التي أَلِفَها ونظر إلى أشكالها وصُورها، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله تعالى لباساً لخَلقِه وأكناناً لهم في ظَعْنِهم وإقامتهم، وآنيةً لأشربتهم، وأوعيةً لأغذيتهم، وصواناً لأقدامهم، وجعل ألبانها ولحومَها أغذيةً لهم، ثم جعل بعضها زينةً للركوب، وبعضها حاملةً للأثقال قاطعةً للبوادي والمفازات، لأكثرَ الناظر التَّعجُّبَ من حكمة خالقها ومصوّرها، فإنه ما خَلقَها إلا بعلمٍ محيطٍ بجيمع منافعها سابقٍ على خلقه إياها.

فَسُبحانَ من الأمور مكشوفَةٌ في علمه من غير تفكّر، ومن غير تأمّل وتَدبُّر، ومن غير استعانةٍ بوزيرٍ أو مُشير، فهو العَليمُ الخبير الحكيم القدير، فلقد استخرج بأقلِّ القليل مما خلقه صدقَ الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلقِ إلا الإذعانُ لقَهرِه وقُدرتِه والاعترافُ بربوبيَّته، والإقرارُ بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته.

ومن آياته البحارُ العميقة المكتنفةُ لأقطار الأرضِ التي هي قطعٌ من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتى إن جميع المكشوف من البَوادي والجبال عن الماء بالإضافة إلى الماء كجزيرةٍ صغيرةٍ في بحرٍ عظيم، وبقية الأرض مستورةٌ بالماء، وعجائبُ ما في البحر أَضْعاف عجائب ما تُشاهده على وجه الأرض، وربما كان فيه الحوت فَيُظن جزيرة فينزل الركابُ عليها فيُحسُّ بالنِّيران إذا اشتعلت فيتحرك فيُعلم أنها حيوان، وما من صنفٍ من أصناف حيوان البَرِّ من فرسٍ أو طيرٍ أو بقرةٍ أو إنسانٍ إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه، وفيه أجناس لا يُعهَدُ لها نظير في البر، وقد جمعَ عجائبه جماعةٌ عُنوا بركوبِ البحر وجمعِ عجائبه.

ثم انظُر كيفَ خَلَقَ اللؤلؤ ودوَّره في صدفةٍ تحت الماء، وانظر كيف أنبتَ المرجان من صُمِّ الصُّخور تحتَ الماء، وإنما هو نباتٌ على هيئةِ شجرٍ ينبت من الحجر، ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر.

ثم انظر إلى عجائب السُّفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسيَّر فيها التجَّار وطلاب الأموال وغيرهم، وسخَّر لهم الفُلكَ لتحمل أَثْقالهم، ثم أرسل

الرياح لتسوقَ السُّفنَ، ثم عَرَّفَ الملاّحين موارد الرياح ومهابَّها ومواقيتها.

وأعجبُ من الكُلِّ قطرةُ الماء وهو جسمٌ رقيقٌ لطيفٌ سيّال، لَطيفُ التّركيب مُسَخَّر، وبه حياةُ كلِّ ما على وجه الأرض من حيوانٍ ونباتٍ، فلو احتاج العبدُ إلى شَربةِ ماءٍ ومُنِعَ منها لبَذَلَ جميع خزائن الأرض وملك[1] الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها، فلو مُنع من إخراجها لبذَلَ جميع خزائن الأرض ومُلك الدنيا في إخراجها.

فالعجَبُ من الآدمي كيف يَستَعظِمُ الدِّينارَ والدِّرهَم ونَفائس الجَواهر ويغفل عن نعمة الله تعالى في شَربةِ ماءٍ إذا احتاجَ إلى شُربها والاستِفراغ عنها بذَل الدنيا كلها فيها.

وكلّ ما ذكرناه شواهد مُتظاهرة وآياتٌ مُتناصِرة ناطقةٌ بلسانِ حالها، مُفصِحةٌ عن جلال بارئِها، معربةٌ عن كمال حكمتِه فيها، مناديةٌ أربابَ القلوبِ بنَغماتها[2]، قائلةٌ لكلِّ ذي لُبٍّ: أما تَراني وترى صورتي وتركيبي ومنافِعي؟ أتظن إني تكوَّنت بنَفسي، أو خَلقني أحدٌ من جِنسي؟ أو ما تستحيي وأنت تنظر إلى كلمةٍ مَرقومةٍ من ثلاثةِ أحرف فتقطَع بأنها كتابة آدمي عالمٍ قادرٍ مريد، ثم تنظر إلى عجائبِ الخطُوطِ الإلهية المرقومة على صَفحات وجهي بالقَلَم الإلهي الذي لا تُدرِكُ الأَبصار ذاته ولا حركته، ثم يغفل قلبك عن جلال صانِعه، وهذه النُّطفة تقولُ لمن ألقى السَّمعَ وهو شهيد: توهَّمني في ظلمة الحَشا مغموسةٌ في دَمِ الحَيض في الوقت الذي يظهر فيه التخطيط والتَّصوير فَينقش النَّقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخَدّي وشَفَتي، فترى النُّقوشَ تظهر شيئاً فشيئاً على التَّدريج ولا ترى داخلَ النُّطفة نَقّاشاً ولا خارجها، ولا داخل الرَّحِم ولا خارجه، ولا خَبَر من ذلك عند الأُم ولا الأب، ولا عند النُّطفة ولا الرحم، فما هذا النَّقاش أعجب ممن تُشاهده ينقش بالقَلم صورةً عجيبةً لو نظرتَ إليها مرة أو مرتين لتعلمته، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النَّقش والتَّصوير الذي يعم ظاهر النُّطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسةٍ للنطفة،

(١) ليست في الأصل.

(٢) تصحفت في الأصل إلى: «تنغماً بها».

ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج؟ فإن كنت لا تَتعجب من هذه العجائب، ولا تفهم بها أن الذي صوَّر ونَقَش وقدَّر لا نظير له ولا يُساويه نَقّاش ولا مُصور، كما أن نَقشه وصُنعَه لا يُساويه نَقش وصُنعٌ، فبين الفاعلين من المبايَنَة والتَّباعد ما بين الفِعلين، فإن كنت لا تَتعجب من هذا فتعجَّب من عدم تَعَجبكَ، فإنه أعجبُ من كل عَجب، فإن الذي أعمَى بصيرتَك مع هذا الوضوح ومنَعَك من التَّبيُّنِ مع هذا البيان جديرٌ بأن تَتعجَّبَ منه، فسبحانَ من هدى وأضلَّ وأشقَى وأسعد، ففتح بصائر أحبابِه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه، وأعمى قُلوبَ أعدائِه واحتجبَ عنهم بعِزِّه وعَلائِه، فله الخَلقُ والأَمر لا رادَّ لحكمِه، ولا معقِّبَ لقَضائِه.

ومن آياتِه الهَواء اللَّطيف المحبوسُ بين مُقعَّر السَّماء ومُحدَّب الأرض لا يُدرك بِحسِّ اللَّمس عند هُبوب الريح جسمُه، ولا يُرى بالعَين شَخصُه، فهو مثل البَحر، والطُّيور محلقةٌ في جَوِّ الهَواء ومُستَبقبةٌ سباحةٌ فيه بأجنحتها، كما تَسبح حيواناتُ البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هُبوب الرِّياح كما تضطرب أمواجُ البحر، فإذا حرك اللهُ الهواء وجعله ريحاً هابَّةً، فإن شاء جعله نَشْراً بينَ يدي رحمته كما قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنَّبات فتَستعدُّ للنَّماء، وإن شاء جعله عذاباً على العُصاة من خليقته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩].

ثم انظر إلى لُطفِ الهَواء، ثم انظر إلى شِدَّته وقُوته إذا ضُبِط في الماء، فإن الزِّقَّ المنفوخ يتحامل عليه الرجلُ القَوي ليغمِسَه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصُّلب يوضع على وجه الماء فيرسُبُ فيه، فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته، وبهذه الحكمة أمسكَ الله تعالى السُّفنَ على وجه الماء، وكذلك كلّ مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء؛ لأن الهواء ينقبض عن الغَوصِ في الماء فلا ينفصل عن السَّطح الداخل من السفينة، فتبقى السَّفينة الثَّقيلة مع قُوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللَّطيف كالذي يقع في بئرٍ فيتعلق بذَيلِ رجل قَوي ممتنعٍ عن الهُوِيِّ في البِئر، فالسَّفينة بمُقَعرها تَتَشبث بأذيال الهواء القَوي حتى تمتنع من الهُوِيِّ والغَوص في الماء، فَسُبحان من عَلَّق المركب الثَّقيل في هواءٍ لطيف من غير علاقة تُشاهد وعُقدةٍ تُشَدّ.

ثم انظر إلى عجائبِ الجَوِّ وما يظهر فيه من الغُيوم والرَّعد والبَرق والمَطر والثَّلج والشُّهُبِ والصَّواعق وغير ذلك من العجائب المُشاهَدة بين السّماء والأرض، فإن لم يكن لك حَظٌّ من ذلك إلا أن ترى المطر بعينِكَ وتسمع الرعدَ بأذنكَ فالبهيمةُ تُشارِكُكَ في هذه المعرفة، فارتفِعْ من حضيض عالم البهائم إلى عالم المَلأِ الأعلى، فقد فتحتَ عينك فأدركتَ ظاهرها، فغمض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطِنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها، فتأمّل السَّحاب الكثيف المُظلم كيف تراه يجتمع في جَوٍّ صافٍ لا كَدَر فيه، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء، وهو مع رَخاوته حاملٌ للماء الثَّقيل وممسكٌ له في جَوِّ السَّماء إلى أن يأذنَ الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى، وعلى الشكل الذي شاءه، فترى السَّحاب يرشُّ الماءَ على الأرض ويُرسله قطرات منفصلة لا تُدركُ قطرةٌ منها قطرةً، ولا تَتَّصلُ واحدةٌ بأخرى، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رُسِمَ لها لا تَعدلُ عنه فلا يتقدم المُتأخِّر ولا يتأخَّر المتقدم، فلو اجتمع الخلقُ كلهم على أن يخلقوا منها قطرةً أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدةٍ واحدةٍ أو بُستانٍ واحدٍ لعَجزو، ولا يعلم عددها إلا الذي أوجدها.

ثم كل قطرةٍ منها عُيِّنَت لجزءٍ من الأرض ولحيوانٍ معروف مكتوب على تلك القطرة بخطٍ إلهي لا يُدرك بالبصر الظاهر: إنها رِزقُ كذا وكذا.

ثم انعقادُ البَرَدِ الصّلب من الماءِ اللَّطيف وتناثر الثلوج كالقُطن النَّديف، وربما قال الجاهل: إنما ينزل الماء لأنه ثقيلٌ بطبعه. ولو قيل له: ما الطَّبع ومن خلق الماء الذي طبعه الثِّقَل؟ وما الذي رَقَّى هذا الماء إلى قَلبِ الشَّجرة حتى انتشر في جميع الثَّمر والورق؟ فتراه يجري في عروقٍ صغار يروي منها العرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروقٌ صغار، فكأنَّ الكبيرَ نَهر وما انْشَعَب عنه جَداول، ثم يَنشعبُ من الجداول سَواقي أصغر منها، ثم تنتشِر منه خُيوط عَنكبوتيّة دقيقة تَخرجُ عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصلُ الماءُ في أجوافها إلى جميع أجزاء الورقة ليُغذيها ويُنَميها، وتبقى طراوتها ونَضارتها، فإن كان الماء يتحرك بطبعِه إلى أسفل، فكيف

تحرك إلى فَوق؟ فإن كان ذلك بجذبِ جاذبٍ فمنِ المُسَخِّر لذلك الجاذب؟ فإن كان ينتهي في الآخِرِ إلى خالقِ الخَلق فلم لا يُحالُ عليه في أول الأمر؟! فنهاية الجاهل بداية العاقِل.

ومن آياته ملكوت السماوات وما فيها من الآيات، فإن كل جسم سوى السَّماوات بالإضافة إلى السَّماوات كقطرةٍ في بَحرٍ أو أصغر، ولذلك عظَّمها الله تعالى في كتابه، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٥]، وذمَّ المعرضين عن التفكُّر فيها، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فانظر إليها، وليس النَّظر بأن تَمدَّ البصرَ فترى زُرْقَةَ السَّماء وضوءَ الكواكب وتَفرُّقَها، فإن البهائم تُشاركُكَ في هذا النظر، وإنما تقدِر على النظر فيها إذا نظرتَ إلى نفسك، ثم إلى مقرِّكَ وهو الأرض، ثم إلى الهواء المُكتَنفِ لك، ثم إلى النَّبات والحيوان، ثم إلى عجائب الجَوِّ، ثم تنظر في السماوات، ثم الكُرسي، ثم العرش، ثم حَملة العرش، ثم تُجاوزُ النَّظر إلى ربِّ العرش، فبينكَ وبين هذه الحالة المَفاوِز الفِيح(١) والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهِقَة، وأنتَ بعد لم تفرغْ من العقبة القريبة النازلة، وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتِكَ وتدَّعي معرفَةَ رَبّكَ وتقول: قد عرفتُه، وعرفتُ خَلقَه ففيماذا أتفكَّر؟ فانظر إلى السمَّاء وكواكبها ودورانها، وشمسها وقمرها وحركتها من غير فُتور، بل تجري بحساب مُقدَّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله تعالى كطَيِّ السِّجلِّ للكتاب، وتَدَبَّر(٢) كواكبها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللَّون الرصاصي، ثم انظر إلى كيفية أشكالها وما منها كوكبٌ إلا ولله تعالى فيه حكم كثيرة في لونه وشكله وموضِعه، ومسيرَ الشمس(٣) وغروبها ليتميز وقتُ الضَّوء عن وقت

---

(١) المفاوز: جمع مَفَازة، وهي الصحراء، والفيح: جمع فيحاء وهي: الواسعة الأطراف.

(٢) تحرفت في الأصل إلى: «مدبر».

(٣) أي تدبر في مسير الشمس.

الظلام، فَيتميَّز زمان المعاش عن زمان النوم، وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيبٍ مخصوص، وانظر إلى إمالته مَسيرَ الشَّمس عن وسط السَّماء حتى اختلفَ بسببه الصَّيفُ والشِّتاء والرَّبيع والخريف، فإذا انخفضت الشمسُ من وسطِ السماء في مسيرها بَرد الهواء وظهر الشِّتاء، وإذا استَوت في وسط السماء اشتدَّ القَيظُ[1]، وإذا كانت فيما بينهما اعتدلَ الزمانُ.

وقد قيل: إن الشمسَ مثل الأرض مئةً ونيفاً وستِّين مرةً، وأصغر الكواكب مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكبٍ واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب وإلى السَّماء التي فيها الكوكب مركوز، ثم انظر إلى سُرعة حركتها وأنتَ لا تُحس بحركتها فضلاً عن إدراك سُرعتها، لكن لا تشك في أنها في لحظةٍ تَسيرُ مقدار عرض كوكب.

وانظر إلى إحاطة عينك بالسَّماء مع صِغَر هذه وكِبَرِ تلك، فانظر إلى بارئها كيف أمسكها بغير عَمَدٍ ولا علاقة من فَوقها.

والعَجبُ منك تدخلُ بيتَ غَني فَتراه مُزوَّقاً بالصِّبغ مُمَوَّهاً بالذَّهب، فلا ينقطع تَعَجبكَ منه ولا تزال تذكُره باقي عمرك، وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضهِ وسقفه وعجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نُقوشه، ثم لا تلتفت نحوه بقلبك، ولا تتفكَّر في بناء الخالق له، فلقد نسيتَ نفسك وربَّك، واشتغلتَ ببطنِكَ وفَرجِكَ، وغايةُ حِشمَتِكَ أن يُقبِل عليك جماعةٌ ينافقونك بألسنتهم، ويُضمرون خَبائث الاعتقاد في حقك، ولو صَدَقوك في مودتهم فإنهم لا يملكون لك ضَرّاً ولا نَفعاً.

وما مَثَلكَ في غَفلتك إلا كمثل نملةٍ تَخرجُ من بيتها الذي حفرته في قصر الملك فتَلقى أُختَها فتتحدث معها حديث بيتها، وكيف بَنَتْهُ، وما جَمعت فيه، ولا تَذكُر قصرَ الملكِ، ولا مَن فيه، فهكذا أنتَ في غفلتك عن بيتِ الله تعالى، فما تعرف من

---

(١) القَيظ: الحر.

السَّماء إلا ما تعرفه النَّملة من سقف بيتك إلا أن النَّملة أعذَر إذ لا طريقَ لها إلى تَعرُّفِ ذلك، (أما أنت فلك)[١] طريقٌ، وما تَسلُكُه.

فهذا بيانُ مَعاقِد الجُمَلِ التي يَجولُ فيها فِكرُ المتفكرين، وإلا فالأعمار تَقصُر والعلومُ[٢] تَقِلُّ عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرتَ من معرفة عجائب المصنوعات كانت معرفتك بجلال الصانعِ أتمّ، كما أنك لو عظَّمتَ عالماً بسبب معرفته ثم اطَّلعت على تصانيفه لزاد قَدْرُه في قلبك، فتفكَّر فيما أَشَرنا إليه ها هنا مع ما أشرنا إليه في كتاب الشُّكرِ، فإنا نظرنا فيما يتعلَّق بهذا الكتاب من حيثُ إنه فعلُ الله تعالى فقط، ونظرنا في كتاب الشكر في فعل الله تعالى من حيث إنه إنعامٌ علينا، ومن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعلُ الله تعالى وصُنعُه استفادَ المعرفةَ بجلالِ الله تعالى وعظمته، ومن قَصَرَ النظرَ عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمُسبِّبِ الأسباب، فقد شَقي.

فنعوذ بالله من مَزَلَّةِ أقدام الجُهّال، ومن الرّكونِ إلى أسبابِ الضَّلال.

آخر كِتاب التَّفكُّر

* * *

(١) سقط من الأصل.

(٢) في الأصل: «والأمور»، والمثبت من المختصر.

كتابُ ذِكرِ الموتِ وما بَعْدَه

الحمدُ لله الذي جَعل الدُنيا قَنطرةَ العُبور، وحكم على كلِّ من فيها أن يَتْوَى[١] ويَبور، وبَنى الصُّوَرَ ليُعرفَ المُصوِّر ثم صَيَّرها إلى الدُّثور، وحبَسها في مضائق البِلى إلى أن يُنفخَ في الصُّور، فالعجب لمتوطِّنٍ في مَبرك رَحْلِه أو للعب مأسور ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

أحمده وهو المحمود المشكور، وأُقِرُّ بوَحدانيَّته عن دليلٍ عن اليقين يدور، وأُصَلّي على رسولِه محمدٍ أشرف من دلَّ على صِدقه بأجْلى نور، وعلى أصحابه وأتباعه وأزواجه وأشياعِه إلى يوم الحَشر والحُضور.

أما بعد: فجديرٌ بمن الموتُ مَصرعُه، والتُّرابُ مَضْجعه، والدُّودُ أنيسُهُ، ومُنكر ونكير جَليسُه، وبطنُ الأرض مَقرُّه، والقَبر مُستَقرُّه، والقِيامةُ مَوعِدُه، والجنَّةُ أو النارُ مَوْرِدُه، أن لا يكون له فِكرٌ إلا في الموت، ولا ذكر إلاّ له، ولا استِعداد إلا لأجله، ولا تَدبُّرَ إلا فيه، ولا تطلُّعَ إلا إليه، ولا تعريجَ إلا عليه، ولا اهتمامَ إلا به، ولا انتظارَ إلا له، وحقيقٌ بأن يَعُدَّ نفسه من الموتَى، ويَراها في أصحاب القُبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب، وقد قال ﷺ: «الكَيِّسُ من دانَ نَفسه وعمل لما بعدَ الموت».

ولن يتيسَّرَ الاستعدادُ للشَّيءِ إلا عند تجدّد ذكره على القلب، ولا يَتجدَّد ذكره إلا عند التّذكر بالإصغاء إلى المذكِّرات له والنَّظر في المُنَبِّهات عليه.

(١) يَتوَى: يهلك.

ونحن نَذكرُ من أمرِ الموتِ ومُقدّماته ولَواحِقِه وأحوال الآخرة والقيامة والجنَّة والنار ما لا بدَّ معه من تذكُّره، ليكون ذلك مُستحثاً له على الاستعداد، فالعُمر يَسير وهو يسير ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

ونحن نذكر ما يتعلَّق بالموتِ في شطرين:

الشَّطر الأول: في مُقدماته، وتوابعه إلى نفحةِ الصّور، وفيه ثمانية أبواب:

البابُ الأول: في فضل ذكر الموت والتَّرغيب فيه.

الباب الثاني: في ذكر طول الأمَل وقِصَره.

الباب الثالث: في ذِكر سَكَرات الموت، وشدَّتِه وما يُستحب من الأحوال عند الموت.

الباب الرابع: في ذكر وفاةِ رسول الله ﷺ، والخُلفاءِ الراشدين بعده.

الباب الخامس: في كلامِ المُحتَضِرين من الخلفاء والأُمراء والصالحين.

الباب السادس: في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر، وحُكم زيارة القبور.

الباب السابع: في حقيقة الموت، وما يلقاه الميت إلى نفخة الصُّور.

الباب الثامن: في ذِكر ما عرف من أحوال الموتَى بالمُكاشَفة في المنام.

* * *

الباب الأول

في ذكر الموت والتَّرغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المُنهَمِكَ في الدنيا، المكبَّ على غُرورها، المُحبَّ لشهواتها يغفل قلبه لا مَحالةَ عن ذِكر الموت، فلا يذكُره، وإذا ذُكِّرَ به كَرِهه ونَفَرَ منه.

ثم إنّ الناسَ إمّا مُنهمكٌ، أو تائبٌ مُبْتَدىء، أو عارفٌ مُنتَهٍ.

فأما المُنهمِكُ؛ فلا يذكر الموت، وإنْ ذكره فَيذكُره للتأسُّف على دُنياه ويَشتَغل بذمِّه، وهذا يزيده ذكرُ الموتِ من الله تعالى بُعداً.

وأما التائب فإنه يُكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فَيَفي بتمام التَّوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها، وقبل إصلاح الزاد، وهو معذورٌ في كراهة الموت، ولا يدخل هذا تحت قوله عليه الصلاة والسلام: «مَن كَرِهَ لقاءَ الله كَرِهَ اللهُ لِقاءَه»[(١)]. فإن هذا لا يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخافُ فَوتَ لقاء الله لقُصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخَّر عن لقاء الحبيب مُشتغلاً بالاستِعداد للقائه على وجهٍ يَرضاه، ولا يُعدُّ كارهاً للقائه، علامةُ هذا أن يكون دائمَ الاستعداد له، لا شُغلَ له سِواه، وإلاّ التحقَ بالمنهمِكِ في الدنيا.

وأما العارف؛ فإنه يذكر الموتَ دائماً؛ لأنه موعدُ لقائه لحبيبه، والحبيبُ لايَنسى موعدَ لقاء الحبيب، وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيءَ الوقت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رَبِّ العالمين، كما قال حُذَيفة: حَبيبٌ جاءَ على فاقَة.

فإذن التائبُ معذورٌ في كراهة الموت، وهذا معذورٌ في حُبِّ الموت وتمنّيه،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت.

وأعلى منهما رُتبةً من فَوَّضَ أمرَه إلى الله تعالى، فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياةً، بل يكون أحبّ الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا قد انتهى بفَرط الحُبِّ والوَلاء إلى مقامِ التَّسليم والرِّضا، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال ففي ذكرِ الموت ثوابٌ وفضل، فإن المنهمك في الدنيا يستفيد بذكر الموت التَّجافي عن الدنيا؛ لأن ذكره يُنَغِّصُ عليه نعيمه، ويُكَدِّر صَفاء لذّاتِه.

بيان فَضل ذكر الموت كيفما كان

أخبرنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله البيضاوي قال: أخبرنا أبو الحُسين بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوَّزي قال: أخبرنا محمد بن عبد الله ابن أخي ميمي قال: أخبرنا الحُسَين بن صفوان قال: حدثنا أبو بَكر القُرشي قال: حدثنا محمود بن غَيلان قال: حدثنا الفَضلُ بن موسى عن محمد بن عمرو عن أبي حازم عن أبي هُريرة قال: كان رسولُ الله ﷺ يُكثر أن يقول: «أكثروا ذِكرَ هاذِمِ اللَّذات»[1]. يَعني الموت.

قال القرشي: وحدثني محمد بن إدريس قال: حدثنا سُنَيدُ بن داود قال: حدثنا هُشَيم قال: حدثنا كوثر بن حكيم عن نافع عن ابن عمر قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ إلى المسجد، فإذا قوم يتحدثون ويَضحكون، فقال: «اذكُروا الموت، أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضَحكتُم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

قال القُرشي: وحَدَّثني إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: حدثنا وُهَيب بن محمد قال: حدثنا جعفر بن سُليمان: قال: حدثنا ثابت عن أنس أن رجلاً ذُكِر عند النبي ﷺ فأحسنوا عليه الثَّناء، فقال النبي ﷺ: «كيفَ كانَ ذِكر صاحبكم للموت؟» قالوا: ما كُنّا نَكادُ نسمعه يَذكُر الموت. قال: «فإن صاحبكم ليس هُنالِكَ»[2].

وروى ابنُ عمر عن النبي ﷺ أنه سُئل: أيّ المؤمنين أكيس؟ فقال: «أكثرُهم

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٢٥)، والنسائي (٤/ ٤)، وابن ماجه (٤٢٥٨)، والترمذي (٢٣٠٧)، وابن حبان (٢٩٩٢) و(٢٩٩٤)، و(٢٩٩٥). وقوله: «هاذم» بالذال المعجمة، أي: قاطع.

(٢) عزاه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤/ ٤٥١) لابن أبي الدنيا في الموت.

ذكراً للموت، وأحسنُهم استعداداً له قبل أن ينزل به، أولئك الأكياس»[١].

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أكثروا ذِكر الموت، فإن كثرة ذكر الموت يمحِّصُ الذُّنوب ويُزَهِّد في الدنيا»[٢].

وكان عيسى ابنُ مريم إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً، وكان يقول للحواريّين: ادعوا الله أن يخفِّفَ عني سَكرةَ الموت، فلقد خفتُ الموتَ خوفاً وقفني على الموت.

وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقِيامة والنار بكى حتى تنخَلعَ أوصاله، فإذا ذكر الرحمةَ رجعت إليه نَفسُه.

وقال الحسن البَصري: فَضحَ الموتُ الدنيا فلم يَتْرُك لِذي لُبٍّ فَرحاً، وما ألزمَ عبدٌ قلبه ذِكرَ الموتِ إلا صَغُرت الدنيا عنده، وهانَ عليه جميع ما فيها.

وكان ابنُ سيرين إذا ذكر عنده الموتُ ماتَ كلُّ عُضوٍ منه على حِدَة.

وقال عُمر بنُ عبد العزيز لرجل: أكثر ذكر الموت، فإنك لا تذكره عند واسعٍ من الأمر إلا ضَيَّقَه عليك، ولا عند ضَيّقٍ من الأمر إلا وسَّعه عليك. وكتبَ إلى أهل بيته: أمّا بعد، فإنكِ إن استَشعَرتِ ذكر الموت في لَيلك ونهارك بغَّضَ إليكِ كل فانٍ؛ وحَبَّبَ إليكِ كلَّ باقٍ، والسلام.

وكان عُمر[٣] إذا ذكر (الموتَ انتفض)[٤] انتفاضَ الطائِر، وكان يجمع كل ليلةٍ الفُقهاء فيتذاكرونَ الموتَ والقيامة، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وكان خُلَيدٌ العَصَري يقول: كلنا قد أيقن بالموت وما نرى له مُستعداً، وكلُّنا قد أيقنَ بالجنَّة وما نرى لها عاملاً، وكلُّنا قد أيقنَ بالنّار وما نرى لها خائفاً، فعلام تُعرِّجون؟ وما عسَيتُم تنتظرون؟ الموت، فهو أول واردٍ عليكم من الله بخيرٍ أو شَرٍّ، فيا إخوتاه، سيروا إلى ربكم سَيراً جميلاً.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩).

(٢) عزاه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٤٥١) لابن أبي الدنيا في الموت.

(٣) يعني ابن عبد العزيز.

(٤) سقط من الأصل.

وقال شُمَيطُ بنُ عجلان: من جعلَ الموتَ نُصب عينيه لم يُبالِ بضيق الدُّنيا ولا بسَعتها.

وقال يزيد بن تميم: من لم يَردعه القُرآن والموت ثم تناطحت الجبال بين يديه لم يرتَدع.

بيان الطَّريق إلى تحقيق[1] ذكر الموت في القَلب

اعلم أن خطر الموت عظيم، وإنما غفل النَّاسُ عنه لقلة فِكرهم فيه وذِكرهم له، ومن تذكَّره منهم فإنما يذكُره بقلبٍ غافلٍ مشغولٍ بشهوات الدنيا، لا بقلب فارغٍ، فلهذا لا ينجع[2] ذكر الموت فيه.

والطريق في ذلك: أن يُفرغَ العبدُ قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يُريدُ أن يُسافر إلى مغارةٍ مُخطِرةٍ، أو يركب البحر فإنه لا يتفكَّر إلا في ذلك، فإذا باشر ذكر الموتِ قلبه فيوشك أن يؤثّر فيه، وعند ذلك يَقلُّ فرحه وسروره بالدنيا، وينكسر قَلبُه.

وأوقعُ طريقٍ[3] فيه أن يُكثِر ذكرَ أشكاله وأقرانه الذين مَضَوا قَبلَه، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التُّراب، ويتذكّر صُورهم مناصِبهم وأحوالهم، وتأمَّلَ كيف مَحَى الترابُ الآنَ حُسنَ صُورِهم، وكيف تَبدَّدت أجزاؤُهم في القُبور وانقطعت آثارهم، فيذكُر رجُلاً رجُلاً، ويتفكر في أمله وانخداعِه بالقُوَّة والشَّباب، وميله إلى الضَّحِك واللَّهو، وغَفْلته عَمَّا بينَ يديه من الموت الذَّريع، والآن فقد تَهدَّم بناؤه وأُكِلَ لسانُه، وكيف كان يُدبِّر لنفسِهِ ما لا يحتاج إليه إلى عَشرِ سنين في وقتٍ لم يكن بينه وبينَ الموت إلا شَهر، وهو غافل عمّا يُراد به حتى جاءه الموت في وقتٍ لم يحتسِبه، وانكشفت له صُورةُ المَلكِ، وقَرعَ سَمعُه التَّبشيرُ بالجنة أو بالنار، فليعلم أن عاقبته كذلك.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «طريق»، والمثبت من الإحياء.
(٢) تحرفت في الأصل إلى: «ينهج»، والمثبت من الإحياء.
(٣) أي أكثر طريق وقعاً في القلب.

قال ابنُ مسعود: السَّعيدُ من وُعِظَ بغيره.

وقال أبو الدرداء: إذا ذكرتَ الموت فَعُدَّ نفسكَ أحدهم.

وقال عمر بن عبد العزيز: في كلِّ يوم تُشَيِّعون غادياً ورائحاً إلى الله، فقد قضى نحبَه وانقضى أجلُه، حتى تَضعوه في صَدْعٍ من الأرض في بطن صَدع، قد خلعَ الأسبابَ، وفارقَ الأحباب، وواجهَ الحِساب.

فمُلازَمة هذه الأفكار وأمثالها مع دُخول المقابر ومُشاهدة المَرضَى هو الذي يُجدد ذكرَ الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيثُ يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعدّ له، ويتجافَى عن دار الغُرور، وإلا فالذكر باللِّسان قليلُ الجدوى، ومتى سكن قلبه إلى شيءٍ من الدنيا فينبغي أن يتذكَّر في الحال أنه لا بد من مُفارقَتِه.

* * *

الباب الثاني

في طول الأمل وفَضيلة قصره، وسبب طوله، وكيفية معالجته

ذكرُ طولِ الأمل:

أنبأنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن شُعبة قال: حدثنا قتادة عن أنس عن النبي ﷺ، قال: «يَهرمُ ابنُ آدم، وتَبقَى منه اثنَتان: الحِرصُ والأَمل»[1] أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ قال: «قلبُ الشيخِ شابٌّ على حُبِّ اثنتين: طولِ الحياة وكثرةِ المال»[2].

أنبأنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى عن سُفيان قال: حدثني أبي عن أَبي يَعلَى عن رَبيع بن خَيثم عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه خَطَّ خَطّاً مربَّعاً، وخَطَّ خَطّاً وَسط الخَطِّ المربَّع، وخُطوطاً إلى جنب الخَطِّ الذي في وسط الخَطِّ المربع، وخَطّاً خارجاً من الخَطِّ المربَّع، قال: «هل تَدرونَ ما هذا؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «هذا الإنسان؛ الخَطُّ الأَوسط، وهذه الخُطوط التي إلى جَنْبِه: الأَعْراض، تَنْهَشُهُ من كلّ مكانٍ، إنْ أَخْطأَهُ هذا، أصابَه هذا، والخَطُّ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧)، وأحمد (١٢٤١٢) و(١٢٢٠٢) و(١٢٧٢١)، و(١٢٩٩٨) و(١٣٦٩٤) و(١٣٩١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦) و(١١٣) وأحمد (٨٢١١) و(٨٦٩٩) و(٩١٢٣) و(٩٧٢٠) و(٩٧٧٦).

المربَّع: الأَجل المحيطُ به، والخَطُّ الخارجُ: الأَمل»[(١)] انفرد بإخراجه البخاري.

أنبأنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحُسَين بن علي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يزيد قال: أخبرنا حَمّاد بن سَلَمة عن عُبيد الله بن أبي بكر، عن أنس بن مالك، أنَّ رسولَ الله ﷺ جمعَ أصابِعَه فَوضَعها على الأرض، فقال: «هذا ابنُ آدم». ثم رفَعها فَوضعها خلفَ ذلك قليلاً، وقال: «هذا أَجَلُه» ثم رَمى بيده أمامه قال: «وثَمَّ أَمَلُهُ»[(٢)].

وكان الحسنُ يقول: يا ابنَ آدم، النار تسعر، والتَّنور يُسْجَر، والكَبش يُعْتَلف.

وكان عَونُ بن عبد الله يقول: ما أُنزل الموتُ مَنزلتَه، فكمْ من مُستقبلٍ يوماً لا يستكملُه، وكم من مؤمّلٍ غداً لا يُدركه، إنكم لو رأيتم الأجل ومَسيرَه، لأَبغَضْتُم الأَمل وغُرورَه.

فضيلة قِصَر الأمل:

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أَعْين قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا عليُّ بن عبد الله قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن الطُّفَاوي عن الأَعْمَش قال: حدثني مجاهد عن عبد الله بن عُمر قال: أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبي فقال: «كُنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سَبيلٍ». وكانَ ابنُ عمر يقول: إذا أمسيتَ فَلا تَنتَظِر الصباح، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تنتظر المساء، وخُذ من صحَّتِك لمرَضِكَ، ومن حَياتك لموتك. انفرد به البخاري[(٣)].

أنبأنا ابن الحُصَين قال: أخبرنا ابن المُذهِب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا علي بن عاصم قال: حدثنا عبد الله بن عثمان ابن خُثَيم عن عثمان بن جُبَير عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاءَ

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٧)، وأحمد (٣٦٥٢)، والترمذي (٢٤٥٤)، وابن ماجه (٤٢٣١)، والدارمي (٢/ ٣٠٤)، وأبو يعلى (٥٢٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٣٨) وابن المبارك في الزهد (٢٥٢)، والترمذي (٢٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٣٢)، وابن حبان (٢٩٩٨)، والطبراني في الأوسط (٧٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والترمذي (٢٤٣٥).

رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: عِظْني وأَوجِزْ. فقال: «إذا قُمتَ في صَلاتِكَ فَصَلِّ صلاةَ مُوَدِّع، ولا تَكلَّمْ بكلامٍ تَعتَذِرُ منه غَداً، وأَجْمعِ اليأس مما في أيدي النّاس»[١].

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزقُ الله بن عبد الوهاب قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن شاذان قال: أخبرنا أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل بن بُرَيه، قال: أخبرنا ابو بكر القُرشي قال: حدثنا الحسن بن محمد الزَّعفراني قال: حدثنا محمد بن معاوية قال: حدثنا علي بن علي قال: حدثني محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخاف على أُمتي الهَوى وطُول الأمل، فأما الهوى فيصدُّ عن الحق، وأما طولُ الأَمل فيُنْسي الآخرة»[٢].

قال القُرشي: وحدثنا العباس بن جعفر قال: حدثنا محمد بن المُصَفَّى قال: حدثنا محمد ابن حسين قال: حدثنا أبو بكر ابن أبي مريم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي سَعيد الخدري قال: اشترى أُسامةُ بن زَيد من زيد بن ثابت وَليدةً بمئة دينار إلى شهرٍ، فسمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ألا تعجبونَ من أُسامة المشتري إلى شَهر! إنَّ أُسامةَ لَطويلُ الأَمل، والذي نَفسي بيَدِه ما طَرفَت عَيناي إلا ظَننتُ أن شَفْرِيَّ لا يَلتقيان حتى يَقبضَ اللهُ عز وجل رُوحي، ولا رَفعتُ طَرْفي فَظننتُ أني واضِعُه حتى أُقْبَض، ولا لَقمتُ لُقمةً إلا ظننتُ أني لا أُسيغها حتى أغصّ بها من المَوت» ثم قال: «يا بَني آدم، إن كنتم تَعقلون فعُدُّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده، إنما توعدون لآتٍ وما أنتم بمُعجِزين».

قال القُرشي: وحدّثنا عِصمةُ بن الفَضل قال: حدثنا يحيى بن يحيى عن عبد الله بن لَهيعة عن أبي هُبَيرة عن حَنَش عن ابن عَبّاس أن رسول الله ﷺ كان يُهَريق الماءَ فيتمسَّح بالتُّراب، فأقول: يا رسولَ الله، إن الماء منك قريب. فيقول: «وما يُدريني، ولعلّي لا أَبلُغه».

قال القُرشي: وحدّثنا سَلمةُ ابن شَبيب، قال: حدثنا مروان بن محمد عن ابن

(١) أخرجه أحمد (٢٣٤٩٨)، وأبو الشيخ في الأمثال (٢٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٦).

لهيعة عن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جَدِّه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «نَجا أولُ هذه الأُمّة باليقين والزُّهد، ويهلكُ آخِر هذه الأُمّة بالبُخل والأمل».

قال القُرشي: وحدثني أحمد بن عبد الأعلى قال: حدثنا أبو سعيد عن مالك بن مِغْوَل عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَكُلُّكُم يُحبُّ أَنْ يَدخل الجنَّة؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «قَصِّروا الأمل، وأثبِتوا آجالكم بينَ أبصارِكُم، واستحيوا من الله عزَّ وجل حقَّ حيائِه».

قال القُرشي: وحدَّثنا أبو خَيثمة قال: حدَّثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم التَّيمي عن الحارث بن سويد قال: قال ابنُ مسعود: هذا المرءُ، وهذه الحُتوفُ حوله شَوارعُ إليه، والهرمُ وراء الحُتوف، والأملُ وراءَ الهرم، وهو يأمل، وهذه الحتوف شَوارع إليه، فأيُّها أُمِرَ به أَخَذه، فإن أخطأته قَتَله الهرَم وهو ينظر إلى الأمل.

قال القُرشي: وحدثنا محمد بن عَبّاد قال: حدثنا غسان بن مالك، قال: حدثنا حَمّادُ بن سَلمة عن داود بن أبي هِند وحُميد قالا: بينما عيسى ابنُ مريم جالسٌ وشَيخٌ يعمل بمِسحاتِه[1] يُثيرُ الأرضَ، فقال: اللهمَّ انزِعْ منه الأَمل. فوضَعَ الشيخُ المِسْحاةَ واضطجعَ، فلبثَ ساعةً، فقال عيسى: اللهمَّ اردُد إليه الأَمل. فقام فجعل يعمل. فقال له عيسى: مالكَ بينما أنتَ تعمل ألقيتَ مِسحاتَكَ واضطجعتَ ساعةً، ثم إنكَ قُمتَ بعدُ فعملتَ؟ قال الشَّيخ: بينما أنا أعمل قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير؟ فألقيتُ المِسحاةَ واضطجعتُ، ثم قالت لي نفسي: واللهِ لا بدَّ لك من عَيشٍ ما بقيتَ، فقمتُ إلى مِسحاتي.

قال القُرشي: وحدثنا خالدُ بن مِرْداس قال: حدثنا خالد بن يحيى عن سُلَيمان التَّيمي عن أبي عثمان النَّهدي عن سلمان الفارسي قال: ثلاثٌ أعْجَبْنَني حتى أَضْحكنَني: مؤمِّلُ الدنيا والموتُ يطلُبه، وغافلٌ ليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٌ مِلْءَ فيه لا يدري أساخِطٌ ربُّ العالمين عليه أم راضٍ عنه.

---

(١) المِسْحاة: أداة للجرف تستخدم في الفِلاحة.

قال القرشي: وحدثنا محمد بن إدريس عن أبي زكريا التميمي قال: بينا سُليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام إذْ أُتيَ بحَجَرٍ مَنقورٍ فطلبَ من يَقرؤه، فأُتي بوَهبِ بن مُنَبِّه فقرأه، فإذا فيه: ابن آدم، إنك لو رأيتَ قُرْبَ ما بقي من أجلك لزهدتَ في طولِ أملِك، ولرغبتَ في الزِّيادة من عملكَ، ولقَصرتَ من حِرصكَ وحِيَلكَ، وإنما يلقاكَ ندمكَ لو قد زَلَّت بك قَدمُك، وأسلمَكَ أَهلُكَ وحَشَمك، فبان منكَ الولدُ القَريبُ ورَفضَك الوالد والنَّسيب، فلا أنتَ إلى دُنياك عائد، ولا في حسناتِك زائِد، فاعمل ليومِ القيامة قَبل الحَسرَةِ والنَّدامَة.

قال القُرشي: وحدَّثني محمد بن العباس قال: حدثنا وكيع عن سُفيان قال: الزُّهدُ في الدنيا قِصَرُ الأَمل، ليس بأكل الغَليظِ، ولا لُبسِ العَباء.

وكان عمرُ بن عبد العزيز يقول: واللهِ ما بَسْطُ أَمَلٍ من لا يَدري لَعلَّهُ لا يُصبح بعدَ مسائِه ولا يُمْسيَ بعد صباحِه، وربَّما كانت بين ذلك خَطفات المَنايا.

وكانَ شُمَيطُ يقول: أَيُّها المُغتَرُّ بطولِ صحتِه، أما رأيتَ مَيتاً قطّ من غير سُقم؟ أيُّها المُغْتَر بطولِ المُهلةِ أما رأيتَ مأخوذاً من غير عِدَة؟

بيانُ السَّبب في طولِ الأَمل وعلاجه

اعلم أن طولَ الأمل له سَبَبان: أحدهما: الجَهل. والآخر: حُبُّ الدنيا.

أما حبُّ الدنيا؛ فهو أنه إذا أَنِس بها وبشَهواتها ولذَّاتها وعلائِقها ثَقُلَ على قلبه مُفارقَتها، فامتنع قَلبه من الفِكر في الموت الذي هو سببُ مُفارقتها، وكلُّ من كره شيئاً دَفعه عن نفسه، والإنسان مشغوفٌ بالأماني الباطِلة يُمَنِّي نفسَه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البَقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهَّمه ويُقَدِّره في نفسه، ويُقَدِّرُ توابعَ البقاء، وما يحتاجُ إليه من مالٍ وأهلٍ ودارٍ وأصدقاء ودوابّ، وسائرِ أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفِكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذِكر الموت، فلا يُقَدِّرُ قُربَه، فإن خَطَر له في بعض الأحوال أَمرُ الموتِ والحاجةُ إلى الاستعداد له سوَّفَ، ووعدَ نفسه وقال: الأَيامُ بينَ يديك، فإلى أن تكبر ثم تَتوب. وإذا كَبِرَ قال: إلى أن تَصير شَيخاً.

فإذا صارَ شيخاً قال: إلى أنْ تَفرغَ من بناء هذه الدار أو عمارة هذه الضَّيعة، أو تَرجِعَ من هذه السَّفْرة، أو تَفرغَ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكنه، أو قَهرِ هذا العدو، فلا يزال يُسوّفُ ويُؤخِّر، ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشُّغل عشرةُ أشغالٍ أخرى، وهكذا على التَّدريج يؤخِّر يوماً بعد يومٍ، ويُفضِي به شغلٌ إلى شُغلٍ بل إلى أشغالٍ إلى أن تختطفه المَنِيَّةُ في وقتٍ لا يَحتَسِبُه، فتطولُ عند ذلك حَسْرتُه، وأكثرُ أهلِ النّار صِياحُهم من «سَوفَ» يقولون: واحُزْناهُ من سَوْفَ.

والمُسَوِّفُ المِسكين لا يدري أنَّ الذي يدعوهُ إلى التَّسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدَّةِ قوة ورُسوخاً، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائِض في الدنيا والحافِظ لها فَراغٌ، هيهات! ما فَرِغَ منها إلا مَن اطَّرَحَها.

فَما قَضَى أحدٌ منها لُبانَتَهُ ولا انْتَهى أَرَبٌ إلاّ إلى أَرَبِ

وأصلُ هذه الأماني كلها حُبُّ الدنيا والأُنس بها، والغَفْلَة عن معنى قول النَّبي ﷺ: «أحبِبْ مَنْ شِئتَ، فإنَّكَ مُفارِقه»[1].

وأما الجهل؛ فهو أن الإنسان قد يُعَوِّلُ على شَبابِه، فيَستبعد قُربَ المَوتِ مع الشَّباب، وليس يتفكَّر المسكين أن مَشايِخَ بلده لو عُدُّوا كانوا أَقلَّ من عُشرِ رجال البَلَد، وإنما قَلُّوا لأنَّ الموتَ في الشَّباب أكثر، فإلى أن يموتَ شيخٌ يموتُ ألف صَبيٍّ وشاب، وقد يستبعد الموتَ لصحَّتِه، ويستبعد الموتَ فجأةً، ولا يدري أن ذلك غَيْر بعيد، فإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد، فكل مرضٍ فإنما يقع فجأةً، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً، ولو تفكَّر هذا العاقلُ وعلم أن الموتَ ليس له وقتٌ مخصوص من شبابٍ ومَشيبٍ[2] وكُهولةٍ، ومن صيفٍ وشتاءٍ وخريفٍ وربيع، ومن ليلٍ ونهارٍ لَعَظُمَ استشعاره واشتغل بالاستِعدادِ لَهُ، ولكن الجهلَ بهذه الأمور وحُبَّ الدنيا دعاهُ إلى طولِ الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب، فهو أبداً يظن أنه يُشيِّع الجنائزَ ولا يُقدِّرُ أن تُشيَّعَ جنازَتُه؛ لأن هذا قد تكرر عليه وأَلِفَهُ،

---

(١) أورده المصنف في العلل المتناهية (٢/ ٨٨٦)، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٢) في الأصل: «شيخ»، والمثبت من الإحياء.

وهو مُشاهدة موت[1] غيره، وأما موتُ نَفسه فلم يألفه، ولا يتصور أن يألفه، وإذا وقع لم يقع دفعةً أُخرى بعدها، فهو الأول وهو الآخر، وسبيله أن يَقيسَ نَفسَه بغيره، ويعلم أنه لا بُدَّ أن تُحمَل جنازته ويُدفَن في قَبره، ولعلّ اللَّبِنَ الذي يُغَطَّى به لَحدُه قد ضُرِبَ وفُرِغَ منه وهو لا يدري، فتسويفه جَهلٌ مَحض.

وإذا عرفتَ أن سَبَبه الجهلُ وحبُّ الدنيا، فعلاجُه دَفعُ سببه.

أما الجهلُ؛ فيُدفع بالفِكر الصافي من القلب الحاضر، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

وأما حبُّ الدنيا فالعِلاجُ في إخراجه من القلب شديدٌ، وهو الداءُ العُضَال، أَعْيا الأَوَّلين والآخِرين علاجُه، ولا علاجَ له إلاّ الإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقوبة وجزيل الثواب، ومهما حصلَ له اليقينُ بذلك ارتحل عن قلبه حُبُّ الدنيا، فإن حبَّ الخطير هو الذي يمحو من القَلبِ حب الحقير، فإذا رأى حَقارةَ الدنيا ونفاسةَ الآخرة استنكفَ أن يلتفت إلى الدنيا كلها، وإن أُعطِيَ مُلكَ الأرض من المَشرِق إلى المَغرب، فكيف وليس لكلِّ عبدٍ من الدنيا إلا قَدرٌ يَسير مُكدَّرٌ مُنَغَّصٌ؟ فكيف يفرح بها؟ أو يترسَخ في القلب حبُّها مع الإيمان بالآخرة، فنسألُ الله تعالى أن يُرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده.

ولا علاجَ في تقديرِ الموتِ في القلب مثل النظر إلى من مات من الأَقران والأَشكال، وكيف جاءهم الموتُ في وقتٍ لم يَحتَسِبوه، ولينظر في أن من كانَ منهم مُستعِداً فقد فازَ فوزاً عظيماً، ومن كان مَغروراً بطولِ الأَمل فقد خَسِر خُسراناً مُبيناً.

ولينظر الإنسانُ في أعضائه كل ساعةٍ، وليتفكر كيفَ يأكلها الدُّود، وليتفكر في عذاب القَبر وسؤالِ مُنكَرٍ ونَكير، وفي الحَشر والنَّشر وأهوال القيامة، فالفِكرُ في هذه الأشياء هو الذي يُجدِّدُ ذِكرَ الموتِ على القلب، ويَدعوه إلى الاستِعداد له.

---

(١) سقطت من الأصل، واستدركت من الإحياء.

بيان مراتب الناس في طول الأَمَل وقِصَرِه

اعلم أن الناس يتفاوتون؛ فمنهم من يأمل البقاء إلى زَمانِ الهَرم، ومنهم من لا يتقطع أمله بحالٍ.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزق الله قال: أخبرنا أبو علي بن شاذان قال: أخبرنا جَعْفَر بن بُرَيْه قال: حدثنا أبو بكر بن عُبيد قال: حدثنا محمد بن عباد بن موسىٰ قال: حدثنا عُبَيدُ الله بن محمد القُرَشي، عن حمّاد بن سَلَمة عن حُمَيد عن أبي عُثمان النَّهدي قال: قد بلغتُ ثلاثينَ ومِئةَ سنةً، وما من شَيءٍ إلاَّ قد عَرفتُ فيه النُّقصان إلا أَمَلي، فإنه كما هو.

ومن الناس من يَقصُر أمله حتى كأنه إنما يَعيشُ سنةً، ومنهم من يقصر أملُه حتى كأنه لا يبقى إلى المساء، ومنهم من يقصر أمله حتى لا يظن أنه يبقى ساعة، ومنهم من زادَ قِصَر أمله حتى يُخايل أنّ الموت يختطفه في أسرعِ طرف.

وقد روينا آنِفاً أنَّ رسول الله ﷺ كان يُهَريق الماء فيتمسَّح بالتُّراب فَيُذكَرُ له الماء فيقول: «لعَلّي لا أَبلُغُه».

وقد روينا عن ابن عمر أنه قال لمجاهِد: إذا أصبحتَ فلا تُحدِّثْ نفسكَ بالمساء، وإذا أمسيتَ فلا تُحدِّثْ نفسَكَ بالصَّباح.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزق الله بن عبد الوهاب قال: أخبرنا ابن شَاذان قال: أخبرنا ابنُ بُرَيه قال: حدثنا أبو بَكر بن عُبَيد قال: حدثني محمد بن العباس قال: حدثنا أبو عبد الرحمن بن عائشة قال: حدثني أبو زكريا قال: قالت امرأةُ حبيبٍ أبي محمد: كان يقول لي: إنْ متُّ اليومَ فأرسِلي إلى فلانٍ يُغسلني، وافعلي كذا وافعلي كذا، واصنعي كذا. فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟ قالت: هكذا يَقولُ في كلِّ يوم.

قال القُرشي: وحدثني أبو علي الجروي، قال: حدثنا أبو حَفص التِّنِّيسي قال: حدثنا رجاء أبو الأَشيَم عن إبراهيم بن نَشِيط، قال: قال أبو زُرْعة: لأقولنَّ لكَ قولاً ما قلتُه لأحدٍ سِواك: ما خَرجتُ من المسجِدِ منذ عشرينَ سنةً فحدَّثتُ نَفسي أنّي أرجعُ إليه.

قال التِّنِّيسي: وحدثني قاسم بن عبد الله بن هشام بن يحيى عن....[1] قال: ما نِمْتُ نَوماً قَط فحدَّثتُ نَفسي أني أَستيقظ منه.

قال القُرشي وحدثني محمد بن عَبّاد بن موسى قال: حدثني عُبَيد الله بن مُحمد القُرَشي عن حَمَّاد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن أن ثلاثة غِلمانٍ اجتَمعوا، فقالوا لأحدهم: ما أَمَلك؟ قال: ما أتى عليَّ شَهرٌ إلا ظَننتُ أني سأموتُ فيه. قال: فقال صاحباه: إن هذا الأمل. فقالوا للآخر: ما أَمَلَك؟ قال: ما أَتَت عليَّ جُمعة إلا ظننتُ أنّي سأموتُ فيها. قال صاحباه: إن هذا الأمل. فقالوا للآخر: ما أَمَلك؟ قال: ما أَمَلُ من نَفسُهُ في يَدِ غَيره.

قال القُرَشي: وحدثني سَعدويه وإسحاق بن إبراهيم عن أبي معاوية عن هشام عن الحسن قال: قيل: يا أبا سعيد، ألا تَغسِل قميصك؟ قال: الأَمرُ أَعجلُ من ذلك.

قال القُرشي: وحدثني محمد بن الحُسَين قال: حدثني عُثمان بن زُفَر قال: حدثني مِسكين بن دينار قال: كان في تَيمِ اللهِ شَيخٌ مُتَعَبِّد يجتمع إليه فِتيانُ الحي ونُسَّاكُهم، فيُذكِّرهم، فإذا أرادوا أن يتفرّقوا قال: يا إخواتاه، قوموا قيامَ قومٍ قد يَئِسوا من المعاودة إلى مجلسهم خوفاً من خَطفات الموكّل بالنفوس. قال: فيبكي والله ويبكون.

قال القُرشي: وحدثني محمد بن قُدامة قال: حدثنا أيوب بن سُليمان قال: سمعتُ أبا سهل النَّهدي يقول: سمعتُ سُفيان الثوري يقول: رأيتُ شيخاً في مسجدِ الكوفة يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنةً أنتظر الموت أن ينزل بي لو أتاني ما أمرتُه بشيءٍ ولا نَهَيتُه عن شيء، ولا لي على أحدِ شيء، ولا لأحدٍ عندي شيء.

قال القُرشي: وحدثني محمد بن الحُسين قال: حدثني محمد بن عبد الحميد الأسدي قال: حدثني عُقبة بن إسحاق عن عُتبة بن عبد الله قال: قالوا لعَونِ بنِ عبد الله: ما أنفع أيام المؤمن له؟ قال: ما ظَنَّ أنه لا يُدرك آخره.

---

(١) كلمة غير واضحة في الأصل.

قال القُرشي: وحدثنا أحمد بن إبرهيم قال: حدثني السَّري بن يوسف الأنصاري عن محمد بن أبي توبة قال: أقام معروفٌ الصلاةَ ثم قال لي: تقدَّم فقلت: إني إن صَلَّيتُ بكم هذه الصلاة لم أُصَلِّ بكم غيرها. فقال معروف: أنتَ تُحدِّثُ نفسك أن تُصلي صلاةً أُخرى؟ نعوذُ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع خيرَ العمل.

وقال الضَّحاك: كان أوّلكم أخوف ما يكونون من الموت أصحّ ما يكونون.

وقد روينا عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: دخلتُ حصناً من حصون الساحل من قُرى الشام، وقد أخذتني السَّماء بالليل، فدخلتُ إلى أتونٍ، وقلتُ: أقعدُ ساعةً حتى يَهدَأَ المطرُ، فإذا أسود يوقِدُ فيه، فسلَّمتُ عليه وقلتُ له: ائذَن لي إلى أن يَسكُنَ المطرُ. فأومأ إليَّ أن أدخل، فدخلتُ فجلستُ، وهو يوقد ولا يكلمني، وهو يُحرك شَفَته ويَلتفتُ يميناً وشمالاً لا يفتُر، فلما أصبحَ قال: لا تَلُمني إن لم أُحسِنْ ضيافَتَكَ، إني عَبدٌ مملوك قد وُكلتُ بما تَرى، فكرهتُ أن اشتغل عن ما وُكِّلتُ به. قُلت: فما كان التِفاتُكَ يميناً وشِمالاً لا تَفتُر؟ فقال: خوفاً من الموت، وقد علمت أنه نازِلٌ بي ولكن لم أعلم من أينَ يأتيني. قلتُ: فما الذي كُنتَ تُحركُ به شَفَتك؟ قال: أحمدُ الله، وأُهَلِّلهُ، وأُسَبِّحه.

فهذه أحوال الزُّهاد في قِصَر الأمل، وكلما قَصُر الأملُ جادَ العَمَلُ؛ لأنه يُقَدِّر أن يموت اليوم فيستعد استعدادَ ميتٍ، فإذا أمسى شَكَر الله على السَّلامة، وقَدَّرَ أنه يَموتُ تلكَ الليلة فيُبادِر ويجتهد، ولا يَتهيّأ هذا إلا لمن لم ينظُر في غَدٍ.

على أنه قد ينتفع بطولِ الأملِ أقوامٌ، كالعالِم فإنه إذا قَصُرَ أملُه لم يُدَرسِ العلمَ ولم يَتشاغل بتصنيفٍ، وكذلك العابد المحقّق الذي يُقلقُه ذكر الموت، فإنه إن لم يقع له نوعُ أملٍ هلكَ، فهذان يَعملان عملَ قصيرِ الأَمَل مع تحديثِ النَّفس بنوع أملٍ، فأما غيرهما ممن عنده غَفلةٌ فقِصَر الأمل أولى به، لأنه يَحثُّه، كما أن الرجاء للعالم ينفعه لئلا يُحرقه الخوف بخلافِ الجاهل.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزقُ الله قال: أخبرنا ابن شاذان قال: حدثنا ابنُ بُرَيه قال: حدثنا عبدُ الله بن محمد القُرشي قال: حدثني محمد بن

الحُسَين قال: حدثنا داود بن مُحَبَّر عن عبد الواحد بن زَيد عن الحسن قال: السَّهوُ والأمل نِعمتان عظيمتان على ابن آدم.

قال محمد: وحدثني عمرو بن محمد بن أبي رَزين قال: حدثنا سُهَيل أخو حَزم عن غالب القَطّان عن بكر بن عبد الله قال: قال مُطَرِّف بن عبد الله: لو علمتُ متى أَجَلي لخَشيتُ على ذهاب عقلي، ولكن الله تعالى منَّ على عبادِه بالغَفْلة عن الموت ولولا الغَفلة ما تَهنَّوا بعيشٍ، ولا قامت بينهم الأسواق.

قال القُرشي: وحدَّثني محمد بن العباس قال: حدثني محمد بن معمر قال: سأل المُفضَّل بنُ فَضالَة ربَّه عزَّ وجَلَّ أن يرفع عنه الأمل، فذهب منه حُبُّ الطَّعام والشَّراب، ثم دعا رَبَّهُ فَردَّ عليه الأملَ، فرجع إلى الطَّعام والشَّراب.

بيان المبادرة إلى العمل وحَذر آفة التأخير

اعلم أن من له أخوان غائبان ينتظر قُدوم أحدهما في غدٍ، وينتظر قُدوم الآخر بعد شهر أو سنةٍ، فإنه لا يستعد للذي يقدُم إلى شهر وسَنةٍ، وإنما يستعدُّ للذي ينتظر قُدومه غداً، فالاستِعدادُ نتيجةُ قُرب الانتظار، فمن انتظر مجيءَ الموت بعد سنةٍ اشتغلَ قلبُه بالمدَّة، ونسي ما وراء المدَّة، ثم يُصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها، لا ينقص منها اليوم الذي مَضى، وذلك يمنعه من المُبادرة بالعمل أبداً، فإنه يرى لنفسه مُتَّسَعاً في تلك السَّنة، فيؤخر العمل، وقد وردَ الشَّرعُ بالحَثِّ على المُبادرة خوفَ النَّوازل والآفات.

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أعيَن قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا مَكِّي بن إبراهيم قال: حدثنا عبدُ الله بن سَعيد بن أبي هند، أنه سمع أباه يُخبر عن ابن عباس قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «الصِّحةُ والفَراغُ نِعمتان من نِعَمِ اللهِ عزَّ وجل مَغْبونٌ فيهما كثيرٌ من النَّاس»[(١)]. انفرد بإخراجه البخاري.

أنبأنا الكَرُوخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُورَجي قالا: أخبرنا

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).

الجَرَّاحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا التِّرمذي قال: حدثنا أبو مُصعَب عن مُحْرِز بن عَون، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أبي هُريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمالِ سَبعاً، هل تَنْتَظرون إلاّ فَقراً مُنْسِياً، أو غِنًى مُطغِياً، أو مَرضاً مُفسِداً، أو هَرَماً مُفَنِّداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدّجال فَشَرُّ غائبٍ يُنتَظر، أو الساعة، فالساعةُ أَدْهَى وأَمَرّ»(١).

أنبأنا أبو القاسم الحريري قال: أخبرنا أبو طالب العُشاري قال: حدثنا أبو الحُسَين بن سَمعون قال: حدثنا محمد بن مَخْلَد العَطّار قال: حدثنا عَنْبَس بن إسماعيل قال ابن سَمعون: وهو جَدُّ أبي قال: حدثنا أَصْرم، يعني ابن حوشب، قال: حدثنا قُرَّة بن خالد وغيرُه عن الضَّحاك عن ابن عباس قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «اليوم الرِّهانُ، وغداً السِّباق، والغاية الجنَّة، والهالكُ من دخلَ النَّار».

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزقُ الله قال: أخبرنا ابن شاذان قال: حدثنا أبو جَعفر بن بُرَيه قال: حدثنا عبد الله بن محمد قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: أخبرنا عبد الله بن سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ لرجلٍ وهو يَعِظُه: «اغْتَنم خَمساً قبل خَمس: شَبابَكَ قبل هَرمِكَ، وصحَّتَك قبل سقمِك، وغِناكَ قَبل فَقْرِكَ، وفَراغَكَ قَبل شُغْلِكَ، وحياتَكَ قبل مَوتِكَ»(٢).

وقال عُمر: التُّؤَدة في كلِّ شيء خَير، إلا ما كانَ من أمرِ الآخرة.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحدٍ أصبح إلا وهو ضَيْفٌ ومالُه عارِيَّة(٣)، فالضَّيفُ مُرتحِلٌ، والعارِيَّةُ مُؤَدّاة.

وقال الحسن: ليس من يومٍ يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم ويقول: أيّها الناس،

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٤٢٥)، وابن المبارك في الزهد (ص٢)، وصَحَّحَ ابن حجر إسناده في فتح الباري (١١/ ٥١٣)، وحسَّنه الألباني في اقتضاء العلم العمل (ص١٧٠).

(٣) تحرفت في الأصل إلى: «رعاية».

إنّي يومٌ جَديد، وأنا على ما يُعمَلُ فيَّ شَهيد، وإني لو قد غَربت شَمسي لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة.

وكان الحسن يقول: عجباً لقوم أُمِروا بالزّاد، ونودِيَ فيهم بالرَّحيل، وحُبِسَ أولُهم على آخِرهم، وهم قُعودٌ يَلعبون. وكان يقول: تَصبَّروا وتشدَّدوا، فإنما هي أيامٌ قلائل.

وقالت رابعةُ لسُفيان: إنما أنتَ أيامٌ معدودةٌ، فإذا ذهبَ يومُك ذهب بَعضُك، ويوشك إذا ذهبَ البعض أن يَذهب الكل، وأنتَ تعلَم فاعمَل.

وقال شُمَيط: يا ابنَ آدم إنما الدنيا غَداءٌ وعَشاء، فإن أخَّرتَ غداءَكَ لعَشائِكَ أمسى ديوانك في ديوان الصائمين.

وقال سُحَيم مولى بني تَميم: جلستُ إلى عامر بن عبد الله وهو يُصلي، فأوجزَ في صلاتِه، ثم أقبل عليَّ فقال: أَرِحني بحاجَتك، فإني أُبادِر. قلتُ: وما تُبادِر؟ قال: مَلك الموت. وكان يُصلي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ.

ومرَّ داود الطائي على رجلٍ فقام فسأله عن حديثٍ، فقال: دعني، إنما أُبادر خُروجَ روحي.

وقد كانوا يُبادرون الأعمال غايةَ ما يُمكن، فكان ابنُ عمر يقومُ في الليل فيتوضأ ويُصلي، ثم يُغفي إغفاء الطَّير، ثم يقوم، يَفعل ذلك في اللَّيل مِراراً.

وكان الأسود بن يَزيد يصوم حتى يَخضَرَّ جَسدُه ويَصفَرَّ، ويختم في رَمضان في كلِّ ليلتين، وفي غير رَمضان في كل سِتِّ ليالٍ، وحَجَّ ثمانين حجّةً.

وكان أبو مُسلم يَصوم في السَّفر ويقول: إنَّ الخَيل لا تجري الغايات وهي بدينة، وإنما تجري وهي ضُمَّر[1]، إنَّ بين أيدينا أياماً لها نعمل.

وكان سعيدُ بن جُبَير يختم القُرآن في كلِّ ليلتين.

---

(١) ضُمَّر: جمع ضامِر ومُضمَّر، يقال: ضَمَّر الفرس للسباق، أي: ربطه وعلفه وسقاه كثيراً مدةً، وركضَه في الميدان حتى يَخفَّ ويَدِق، ومدة التَّضمير عند العرب أربعون يوماً.

وكان عُمير بن هانىء يُسبح كل يومٍ مئةَ ألف تسبيحة.

وصام منصور بن المُعتمر[1] أربعين سنة يَقوم ليلها، ولم يَضَع سُليمان التَّيمي جَنبه على الأرض عشرين سنة.

وقال أبو بكر بن عَيّاش: خَتمتُ القُرآنَ في تلك الزاوية ثمانيةَ عَشَر ألف ختمة.

وقال الثَّوري: بِتُّ عند الحَجاج بن فرافِصة اثنتَي عشرة ليلةً، فما رأيته أكل ولا شَربَ ولا نام.

وكان كُرزُ بن وَبْرة يختم كلَّ يومٍ وليلةٍ ثلاث ختمات.

وكان للشافعي رحمه الله في كل شَهرٍ ثلاثون خَتمةً، وفي رمضان ستّون ختمة.

وكانت رابعةُ العدوية إذا جاء النَّهار قالت: هذا يومي الذي أموتُ فيه. فما تَنام حتى تُمسي، وإذا جاء الليلُ قالت: هذه ليلتي التي أموتُ فيها. فلا تَنام حتى تُصبح.

ودخلوا على أبي بكر النَّهْشَلي وهو في الموت، وهو يركع ويسجد، فقيل له: على هذه الحال؟ فقال: أُبادِرُ طَيَّ الصَّحيفَة.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا رِزقُ الله بن عبد الوهّاب قال: أخبرنا أبو علي بن شاذان قال: أخبرنا أبو جعفر بن بُرَيه قال: حدثنا عبدُ الله بن محمد بن عُبيد قال: حدثني أحمد بن أبي أحمد قال: حدثنا عبد الوهاب بن بَجْدَة قال: حدثنا أبو العَبّاس ـ يعني الوليد بن مسلم ـ قال: قال بَعضُ الخلفاء على المِنبر[2]: اتَّقوا الله عبادَ الله ما استطعتم، وكونوا قَوماً صِيحَ بهم فانتَبَهوا، وعلموا أنَّ الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا، واستَعِدُّوا للمَوت، فقد أَظلَّكُم، وترحَّلوا فقد جدّ بكم، وإن غايةً تُنقصها اللَّحظة وتَهدِمها السّاعة لجديرةٌ بقِصَرِ المدَّة، وإنَّ غائباً يَحدُوهُ الجَديدان اللَّيلُ والنَّهار لحَريٌّ بسُرعة الأوبَة، ،وإن قادماً يحلّ بالفوز أو الشِّقوة لمستحق لأَفضَلِ العُدَّة، فالتَّقِيُّ عندَ ربِّه من ناصَحَ نفسَهُ وقَدَّم تَوبَتَهُ وغَلَبَ شَهوتَهُ، فإن أَجلَه

(١) تحرفت في الأصل إلى: «المعتم».
(٢) يُنسب لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

مَستورٌ عَنه، وأملَه خادِعٌ له، والشَّيطانَ مُوكَّلٌ به يُمَنّيه التَّوبة ليُسَوِّفَها، ويُزيّن له المعصية ليرتكبها، حتى تَهجُم مَنِيَّتُه عليه أَغْفَلَ ما يكونُ عنها، وإنه ما بينَ أحدكم وبينَ الجنَّة أو النار إلا الموت ينزل به، فيالها حَسرة على كلِّ ذي غَفلَة؛ أن يكون عمره عليه حُجَّة، وأن تُؤَدِّيه أيامُه إلى شِقوة، جَعلنا الله وإياكم ممن لا تُبْطِرُه نِعْمة، ولا تُقصِّرُ به عن طاعةِ اللهِ مَعصِية، ولا تَحلّ به بعد الموتِ حَسْرة، إنه سَميعُ الدُّعاء.

وكان بعضُ العلماء يقول: إنما هما شيئان: قَلبُكَ وَوَقتُكَ، فإذا أهملتَ قَلْبَكَ وضَيَّعتَ وَقتك ذَهب منكَ الفوائد.

* * *

الباب الثالث

في سَكَراتِ المَوت وشِدّتِه وما يُستحبُّ من الأحوال عنده

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العَبد المسكين كربٌ ولا هَولٌ[١] سِوى سَكَرات الموت، لكان جديراً بأن يتنغَّصّ عليه عَيشُه، ويتكَدَّر عليه سُروره، وحَقيقٌ أن تَطولَ فيه فِكْرتُه، ويَعظم له استِعدادُه.

والعجب أن الإنسان لو كانَ في أعظم اللَّذات وأطيب مجالس اللَّهو، فانتظر أن يَدخل عليه جُندي فيَضرِبه خمس خَشَبات لتكدَّرتْ عليه لَذَّتُه، وفسدَ عليه عَيْشُه، وهو في كُلِّ نَفَسٍ بصدد أن يدخل عليه مَلكُ المَوتِ بسَكَراتِ النَّزْعِ، وهو غافلٌ عن ذكر ذلك، وليس لهذا سَببٌ إلا الجَهلُ والغُرور.

واعلم أن شِدَّة الألَم في سَكَرات الموت لا يعرفها على الحقيقة إلا من ذاقَها، ومن لم يَذُقها إنما يعرفها إما بالقياس إلى الأُمور التي أدركَها، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النَّزْعِ على شِدَّة ما هم فيه.

فأما القياسُ الذي يَشهد له؛ فهو أن كلَّ عُضو لا رُوحَ فيه لا يُحِسُّ بالألم، فإذا كان فيه الروح، فالمُدرك للألم هو الروح، فمتى أصاب العضوَ جُرحٌ أو حَريقٌ سَرى الأَثَر إلى الرّوح فبِقَدر ما يَسري إلى الروح يتألم، والمؤلم يتفرقُ على اللَّحم والدَّم وسائرِ الأجزاء، فلا يُصيب الروحَ إلا بعض الأثر، فإن كان في الآلام ما يُباشر نَفسَ الرُّوح ولا يلاقي غيره، فما أعظم ذلك الألم وما أشدَّه.

والنَّزْعُ عبارةٌ عن مؤلمٍ نزلَ بنفسِ الرُّوح فاستغرقَ جميعَ أجزائها، حتى لم يبقَ جزءٌ من أجزاء الروحِ المنتشرِ في أعماق البَدَن إلا وقد حَلَّ به الألم، فلو أصابته

(١) تحرفت في الأصل إلى: «حَول».

شوكةٌ فالآلام التي يجدها إنما تجري في جزءٍ من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصباته الشَّوكة، وإنما يَعظم أَثَر الاحتِراق؛ لأن أجزاءَ النار تَغوصُ في أجزاء البَدَنِ، فلا يَبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً إلا وتُصيبه النَّار فتُحسُّه الأجزاء الرُّوحانية المنتشرةُ في جميع أجزاء اللَّحم، أما الجراحة فإنما تُصيب الموضع الذي مسَّه الحديدُ فقط، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، وألم النَّزع يهجُم على نفس الروح، ويستغرق جميع أجزائِه، فإنه المنزوع المَجذُوب من كلِّ عِرقٍ وعَصَبٍ من الأَعصاب ومَفْصلٍ من المفاصل وجزءٍ من الأجزاء، ومن أصلِ كلِّ شَعرة وبَشرة من الفَرْقِ إلى القَدم، فلا تسأل عن كَربِه وأَلمه، فقد قالت عائشةُ: لا أَغبِطُ أحداً يُهوَّنُ عليه الموتُ بعد الذي رأيتُ من شدَّةِ مَوتِ رسولِ الله ﷺ.

أنبأنا محمد بن عبد الله البيضاوي قال: أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوّزي قال: أخبرنا أبو الحسين بن أخي ميمي قال: أخبرنا ابن صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثني محمد بن العباس قال: حدثنا رَوحُ بن عُبادة قال: حدثنا حُرَيثُ بن السائِب عن الحَسن أن رسول الله ﷺ ذكَر الموتَ وغَمَّه وعَلزَه[١]، فقال: «هو قَدْرُ ثلاث مئةِ ضَربةٍ بالسَّيف».

قال القُرشي: وحدثنا خالد بن خِداش قال: حدثنا حَمّاد بن زَيد عن حفص الضُّبَعي عن ابنِ أبي مُلَيكَة قال: لما قُبِضَ إبراهيمُ خليل الرحمن عليه السَّلام، قال الله تعالى: كيفَ وجدتَ الموتَ؟ قال: يا رب كأنَّ نَفْسِي يُنْتَزَعُ بالسُّلاَّء[٢]. قال: هذا وقد هوَّنّا عليك.

قال القُرشي: وحدثني محمد بن العباس قال: حدثنا يحيى بن إسحاق قال: حدثنا شَريك عن أبي إسحاق قال: قيل لموسى عليه السلام: كيفَ وجدتَ طعمَ المَوت؟ قال: وَجدتُه كَسُفُّودٍ أُدخِلَ في جَزَّةِ صوفٍ فامْتُلخَ[٣]. فقال: يا موسى لقد هَوَّنّا عليك.

---

(١) أعلزه الوجع: أقلقه.

(٢) السُّلاّء: شوك النخل، أو نَصل على شكله.

(٣) امتَلَخَ الشيءَ: استلَّه واجتذبه.

وقال عليُّ بنُ أبي طالب: والذي نفسي بيده، لألفُ ضربةٍ بالسَّيف أهونُ من موتٍ على فِراشٍ.

وقال عمرُ لكعبٍ: أخبرني عن الموت. فقال: يا أمير المؤمنين، هو مثل شجرةٍ كثيرة الشَّوك في جوفِ ابن آدم، فليس منه عِرقٌ ولا مَفصِلٌ إلا فيه شوكة، ورجلٌ شَديدُ الذِّراعين يُعالجها يَنتزِعُها. فبكى عُمر.

وكان عمرو بن العاص يقول عندَ الموت: واللهِ لكأنَّ جَنبَيَّ تخت[1]، وكأنّي أتنفَّسُ من سَمِّ إِبْرة، وكأنَّ غُصْن شَوكٍ يُجَرُّ بِهِ من قدمي إلى هامتي، ثم قال: ليتني كنت حَيْضاً[2] عَركتني الإماء بذَريرِ الإِذْخِر.

وقال أنسُ بن مالك: لم يلقَ ابن آدم شيئاً قط منذ خلقَه الله تعالى أشدّ عليه من الموت، ثم إن الموت لأهون مما بَعده.

وقال وَهبُ بن مُنَبِّه: الموت أشدُّ من ضربٍ بالسيوف، ونشرٍ بالمناشير، وغَلي في القدور، ولو أنَّ ألمَ عرقٍ من عروقِ المَيِّتِ قُسم على أهل الأرض لأَوسَعُهم ألماً.

واعلم أنه إنما زادت شدةُ الموتِ على الضَّرب بالسَّيف؛ لأن قطع البَدَنِ بالسَّيف إنما يؤلم لتعلُّقه بالروح، فكيف إذا كان المتناوَلُ المباشَرُ نفسُ الرُّوح؟ وإنما يصيحُ المضروبُ ويستغيثُ لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه، وإنما انقطع صوتُ الميت وصياحُه مع شدَّة ألمِه؛ لأن الكَرْبَ قد بالَغ فيه وتَصاعد على قَلبه، وغلبَ على كل موضعٍ منه فهدَّ كل قوةٍ وضَعَّفَ كلَّ جارحةٍ، فلم يبق له قوة للاستِغاثة. أما العَقلُ فقد غَشِيه وهوَّشَه، وأما اللِّسانُ فقد أَبكَمه، وأما الأطرافُ فقد أضعَفها، ويود الشخص لو قدر على الاستراحة بالأنين والصِّياح والاستغاثة، ولكنه لا يقدر على ذلك، فإن بقيت له قوة سمعتَ له عند نَزْعِ الروح وجَذبها خُواراً وغَرغَرةً من حَلقِه وصَدره، وقد تغيَّر لونُه واربدَّ[3] حتى كأنه ظهر من التُّراب الذي هو أصل فِطرته،

(١) التخت: وِعاء تُصان فيه الثياب.

(٢) غير واضحة في الأصل، والمثبت من تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٥/ ٢٦٠ . تحقيق سكينة الشهابي

(٣) اربدَّ وجهه: احمرَّ حمرةً فيها سواد عند الغضب.

وقد جُذِبَ كل عرقٍ منه على حِياله، فالألم منتشرٌ في داخله وخارجه حتى ترتفع الحَدَقتان إلى أعالي أجفانه، وتتقلَّص الشَّفتان واللسان إلى أصله، وترتفع الأنثيان إلى أعالي مَوضِعهما، وتَخضَرَّ أنامِلُه، فلا تَسأل عن بَدَنٍ يُجذَبُ منه كلُّ عرقٍ من عُروقِه، ولو كان المجذوب عِرقاً واحداً لكان ألمُه عظيماً، فكيف والمجذوبُ نَفْسُ الروح المتألّم لا من عرقٍ واحد بل من جميع العروق؟

ثم يموتُ كل عُضوٍ من أعضائه تدريجاً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فَخِذاه، ولكل عُضو سَكرةٌ بعد سَكرةٍ، وكُربةٌ بعد كُربةٍ حتى يبلغ بها إلى الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نَظَره إلى الدنيا وأهلها ويُغلَقُ دونَه بابُ التوبة، وتُحيط به الحَسرةُ والنَّدامة، قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغَرغِرْ»(١).

ولهذه الشِّدة التي علمها الأنبياء خافوا من الموت، حتى قال عيسى عليه السَّلام: يا معشر الحواريّين، ادعوا الله أن يُخَفِّفَ عنّي هذه السَّكْرَةَ. يعني الموت. فلقد خِفتُ الموتَ خوفاً وقَفَني على الموت.

وقد كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما يَسرُّني أن تُخَفَّفَ عني سَكراتُ الموت؛ لأنه آخِر ما يُؤجَرُ عليه المسلم.

وقال النَّخَعِي: كانوا يستحبّون شِدَّة النَّزعِ، ونحنُ نَسْألُ اللهَ اللُّطفَ، فإنه إذا كان الأنبياءُ قد خافوا من سَكرات الموت، فكيف حالنا، ونحنُ المُنهمكون في المعاصي؟

وللموت دَواهٍ ثلاث:

الأولى: شِدَّةُ النَّزع، كما ذكرنا.

والثانية: مُشاهدة مَلَكِ الموت، ودخول الرَّوع منه والرعبُ في القلبِ، فلو رأى صورتَه التي يقبض فيها روحَ المُذنِبِ أعظمُ الرِّجال قوةً لم يُطِقْ.

وقد روينا أن ملكَ الموتِ زار إبراهيم الخليلَ، فقال له: أَرِني كيف تَقبِض

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣١)وابن ماجه (٤٢٥٣)، والحاكم (٤/ ٢٥٧) من حديث ابن عمر.

أرواح الكُفّار. قال: لا تُطيقُ ذلك. قال: بلى. قال: فأَعْرِض. فأعرَضَ، ثم تَصوَّرَ برجلٍ أسود يَنالُ رأسُه السماءَ، يخرج من فيهِ لهبُ النّار، ليس في جسده شَعرة إلا في صورة رجلٍ يخرج من فيهِ ومَسامِعِه لهبُ النار، فغُشِي على إبراهيم، ثم أفاق، فقال: لو لَم يَلقَ الكافرُ من البَلاء إلا صورتَك لكَفَاه، فأرِني كيفَ تَقبِضُ أرواحَ المؤمنين. قال: أَعرِضْ. فأعرضَ، ثم التفتَ فإذا برجلٍ شابٍ أحسن الناسِ وجهاً وأطيبه ريحاً في ثيابٍ بيض، فقال: لو لَم يَرَ المؤمنُ عند موتِه إلا صُورتَكَ هذه لكان يكفيه.

وقد برزَ ملكُ الموتِ لخلقٍ كثيرٍ فَسألوه التَّوقُّفَ، فقال: هيهاتَ فزادَت حَسَراتهم إذْ آيَسَهم من إمكان التَّدارُكِ، وأعلمَهم بقُربِ التَّلَف، وقد روي أن الإنسانَ يَرى مَلكيه الحافِظَين أيضاً حينئذٍ.

فأنبأنا عبد الوهاب الحافظ قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوَّزي قال: أخبرنا ابنُ أخي ميمي قال: حدثنا ابنُ صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا أبو يَحيى عبد الكريم قال: حدثنا عُبيد الله بن محمد بن يزيد بن خُنَيْس قال: حدثنا أبي عن وُهَيب قال: بلغنا أنه ما من مَيتٍ يموتُ حتى يَتراءَى له مَلكاهُ اللّذان كانا يحفظان عليه عمله في الدنيا، فإن كان صَحِبَهما بطاعة الله، قالا له: جزاكَ اللهُ من جليسٍ خيراً، فربّ مجلس صدق قد أَجْلَستَناه، وعملٍ صالحٍ قد أحضَرْتَناه، وكلامٍ حسنٍ قد أَسْمَعْتَناه، فجزاك الله عنّا من جليسٍ خيراً. وإن كانَ صَحِبَهما بغير ذلك مما ليس لله فيه رِضى قالا: لا جزاكَ اللهُ عنّا من جَليس خَيْراً، فربَّ مجلس سوءٍ قد أَجْلَستَناه. قال: فذلك شُخوصُ بَصَرِ الميتِ إليهما، ولا يرجع إلى الدنيا أبداً.

أنبأنا عبد الله بن علي قال: أخبرنا غانم بن أحمد الحداد قال: أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن أحمد عن عبد الرحمن قال: أخبرنا عمر بن محمد بن جعفر المعدَّل قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن إسماعيل التَّميمي قال: حدثنا موسى بن عامر قال: حدثنا عيسى بن خالد قال: حدثنا عُثمان بن مَطر قال: حدثنا ثابت البُناني عن أنس بن مالك قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَكَّلَ

بعبدِه المؤمن ملكين يَكتُبان عمله، فإذا ماتَ قال المَلكان اللَّذان وُكِّلا به: قد ماتَ أفتأذن لنا أن نصعدَ إلى السماء؟ قال: فيقول الله: إن سمائي مملوءة من ملائكتي يُسبّحوني. فيقولان: فَتأذن لنا أن نُقيم في الأرض؟ فيقولُ الله عزَّ وجلَّ: أرضي مملوءةٌ من خلقي يُسَبِّحوني. فيقولان: فأين؟ قال: فيقول: قُوما عندَ قَبْرِ عبدي فَسبِّحاني واحْمَداني وكَبِّراني وهَلِّلاني واكتُبا ذلك لعبدي إلى يومِ القيامة»[١].

الداهية الثالث: أنّ صاحب النّار يُبشَّر بها، وهو في تلك الأهوال:

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابنُ أعين قال: أخبرنا الفِرَبري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا حَجّاج قال: حدثنا هَمّام قال: حدثنا قَتادة عن أنس عن عُبادة ابن الصامت عن النبي ﷺ قال: «إنَّ المؤمنَ إذا حَضَره الموتُ بُشِّر برِضْوان الله وكرامته، فليس شيء أحبّ إليه مما أمامه، وإن الكافر إذا حضره بُشِّر بعذابِ الله وعُقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه»[٢] أخرجاه في الصَّحيحين.

وقد كان خَلقٌ من السَّلَفِ يخافون سوء الخاتمة خَوْفَ تَقطُّع نِياطِ قُلوبهم، وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة في كتاب الخَوف، وهو لائقٌ بهذا المكان ولكنا لا نُعيدُه.

بَيانُ ما يُستَحب من أحوال المحتَضِر عندَ الموت

المحبوبُ عند الموتِ من صورةِ المُحتَضِر الهدوءُ والسّكونُ، ومِن لسانِه النُّطقُ بالشَّهادة، ومن قَلبِه حُسنُ الظَّنِّ بالله تعالى.

أما السّكون، فكأنه من علامات اللُّطف وهو أمارَةٌ على أنه قد رأى الخير، وقد رَوى بُرَيدَةُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ المؤمنَ ليموتُ بعَرَقِ الجَبين»[٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ١٨٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٧٩)، والديلمي في الفردوس (٤/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٩٦٤)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والترمذي (٩٨٢)، والنسائي (٤/ ٦.٥)، وابن حبان (٣٠١١)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٢٣)، والحاكم (١/ ٣٦١).

قال ابنُ مسعود: مَن شَهد ميتاً فَليمَسَّ جَبينَه، فإن رآه يَرشح عَرَقاً فليَرجُ له، فإنّ روحَ المُؤمنِ تخرجُ رَشحاً، وإنّ روحَ الكافر تَخرُجُ من شِدْقِه كما تَخرُج نَفْسُ الحِمار، وليُلقِّنه: لا إله إلا الله، فإنها لا تكونُ آخِر كلام عبدٍ عند موته إلا دَخل الجنَّة.

وأما النُّطقُ بالشَّهادة؛ فقد رَوى مسلم في أفراده من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لَقِّنوا موتاكم قولَ: لا إله إلا الله»(١).

وينبغي للملَقِّن أن لا يُلحَّ في التَّلقين، وإذا تكلَّم بعدَ الشهادة أعادَ التَّلقين عليه، ليكون آخر كلامه، أنبأنا محمد بن عبد الله البيضاوي قال: أخبرنا المُبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوزي قال: أخبرنا أبو الحسين بن أخي ميمي قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدَّثنا أبو بكر القُرشي قال: حدَّثني إسحاق بن حاتم قال: حدثنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن مروان بن سالم عن أبي حسين البُرْجُمي رَفَعه قال: «احْضُروا موتاكم ولقِّنوهم: لا إله إلا الله، وبَشِّروهم بالجنَّة، فإن الحكيم العليم من الرِّجال والنِّساء يتحيَّر عند ذلك المصرع، وإن إبليس عدوَّ الله أقربُ ما يكون من العَبد في ذلك المَوطِن عند فراق الدنيا وتَركِ الأَحِبَّة، ولا تُقَنِّطوهم، فإن الكربَ شديد، والأمرَ عظيم، والذي نفسُ محمدٍ بيده، لمعالَجةُ مَلَكِ الموت أشدّ من ألفِ ضربةٍ بالسَّيف، وما من ميت يَموتُ إلاّ وكلُّ عرقٍ منه يألم على حِدَتِه»(٢).

وأما حسنُ الظَّنِّ؛ فقد روى مسلم في أفراده من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله»(٣).

وروي أن النبي ﷺ دخلَ على رجلٍ وهو يموت، فقال: «كيفَ تَجدُكَ؟ فقال: أرجو اللهَ وأخافُ ذُنوبي. فقال: «ما اجْتَمعا في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاهُ اللهُ الذي يَرجو، وأَمَّنَه منَ الذي يخاف»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١).

وإنما كان الرجاءُ عند الموت أفضل؛ لأن الخوفَ سَوطٌ يُساقُ به، وعند الموت يقف البَصير، فينبغي أن يتلطَّف به، ولأن الشيطان يأتي حينئذٍ فيُسَخِّطُ العبدَ على الله فيما يجري عليه، ويُخوِّفه مما بين يده، فَحُسنُ الظنِّ أقوى سِلاح يُدفع به العدو، قال سُليمان التَّيمي لابنه عند الموت: يا بُنَي، حَدّثني بالرُّخَصِ لَعَلّي ألقَى الله تعالى وأنا حَسَنُ الظَّنِّ به.

* * *

الباب الرابع

في ذكر وَفاة رسولِ الله ﷺ والخُلفاء الراشدين بَعده

اعلم أن في رسولِ الله أُسوةً حسنةً في كلِّ أحواله، ومعلوم أنه ليسَ في المَخلوقين أحَبّ إلى الله منه، وما أَمهَله حين انقضى أجلُه، فلقي من الموتِ شدة، فروى البُخاري في صحيحه من حديث عائشة قالت: كانَ بين يَدي رسول الله ﷺ رِكْوَةٌ[١] أو علبةٌ فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء ويمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»[٢].

وفي صحيحه من حديث أنس قال: لما ثَقُلَ رسولُ الله ﷺ جَعل يتغشَّاه الكَربُ، فقالت فاطمةُ: واكَربَ أَبَتَاه. فقال لها: «ليس على أبيكِ كَربٌ بعدَ اليوم»[٣].

أنبأنا محمد بن عبد الله البيضاوي قال: أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال: أخبرنا أحمد بن علي التَّوزي قال: أخبرنا أبو الحسين ابن أخي ميمي قال: أخبرنا ابن صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرَشي قال: حدثني محمد بن الحُسين قال: حدثنا حُسَين الجُعْفي قال: حدثنا طُعْمَةُ بن غَيلان قال: قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ إنك تأخُذُ الروحَ من بين العَصَبِ والقَصَب والأنامل، اللهمَّ فأعِنّي على الموت، وهَوِّنْهُ عليَّ».

(١) الرِّكوة: إناءٌ صغير من جلد يُشرب فيه الماء، والدلو الصغيرة.
(٢) أخرجه البخاري (٨٩٠) و(٤٤٤٩).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).

وكان عليه الصلاة والسلام قد خرج في مَرضه فقال: «إنما أنا بَشَر، فأيُّما رجل أَصَبْتُ من عِرضه، فهذا عِرضي، أو من بَشَره فهذا بَشَري، أو من ماله فهذا مالي، واعلموا أن أولاكم بي رَجلٌ كان له من ذلك شَيء فأخذه وحَلَّلني، فلقيتُ ربّي وأنا مُحلَّل لي، ولا يقول أحدكم إني أخافُ العداوةَ والشَّحناء من رسول الله ﷺ، فإنهما ليستا من طبيعتي».

قال ابن مسعود: اجتمعنا في بيتِ أُمِّنا عائشة، فنظر إلينا رسولُ الله ﷺ، فدمَعت عَيناه، فَنَعى إلينا نَفسَهُ، فقال: «مرحباً، حَيَّاكُم اللهُ بالسَّلام، حَفِظكُمُ اللهُ، رَعاكُم اللهُ، جمعكم اللهُ، نَصَركُم الله، وَفَّقكُم الله، نَفَكُم الله، رَفعكُم اللهُ، سَلّمكَم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي باللهَ بكم، وأستخلفه عليكم» قلنا: يا رسول الله، متى أَجَلكَ؟ قال: قد دَنا الأجَل، والمُنقَلبُ إلى اللهِ، وإلى سِدْرَةِ المُنتهى، وجَنَّةِ المأوى، والفِردَوس الأعلى». قُلنا: يا رسول الله، مَن يُغسِّلُك؟ قال: «رجالُ أهل بيتي الأدنى فالأدنى». قلنا: يا سول الله، ففيم نُكَفِّنُكَ؟ فقال: في ثيابي هذه إن شئتم، أو يَمَنيَّةٍ أو بياض مِصر» قُلنا: يا رسولَ الله، مَن يُصلّي عليك؟ وبكينا. فقال: «مهلاً رحمكُم الله، وجزاكم عن نَبيكمُ خيراً، إذا غسلتموني وكَفَّنتُموني، فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم أخرجوا عنّي ساعةً، فإن أوَّلَ من يُصلي عليَّ خليلي وحَبيبي جِبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع ملائكة كثير، ثم ادخلوا عليَّ فَوجاً فَوجاً، فصلّوا عليَّ وسَلِّموا تسليماً، ولا تُؤذوني بتزكيةٍ ولا برنَّةٍ ولا بصَيحة، وليبدأ بالصلاة عليَّ رجال أهل بيتي، ثم نِساؤهم، ثم أنتم بعد، واقرأوا السلامَ على من غابَ عني من أصحابي، وعلى من تبعني على ديني إلى يوم القيامة، ألا وإني أُشهدكم أني قد سَلَّمت على كل من دَخلَ في الإسلام»(١).

ولقد نزلَ عليه جبريل قبل موته بثلاثة أيام فقال: يا أحمد، إنَّ الله أرسلني إليكَ يسألُكَ عمّا هو أعْلَم به منك يقول: كيفَ تَجدُكَ؟ فقال: «أَجِدْني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مَكروباً» فأتاه في اليوم الثاني، فأعاد الكلامَ عليه، فأعاد

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٦٢)، والطبراني في الدعاء.

الجواب، ثم جاءه في اليوم الثالث، فأعاد الكلامَ عليه وأعاد الجواب، فإذا مَلكُ الموتِ يستأذن، فقال جبريل: يا أحمد، هذا مَلَكُ الموت يستأذِنُ عليك، ولم يستأذِن على آدمي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك. فقال: «ائذَن له». فدخل فوقَف بين يديه فقال: إنَّ الله أرسلني إليك، وأمرني أن أُطيعَكَ، فإن أمرتني أن أَقبِضَ نَفْسَك، قَبَضتُها، وإن أمرتني أن أتركها تركتُها. قال: «وتفعل يا ملك الموت؟» قال: كذلك أُمِرت أن أُطيعك. فقال جبريل: يا أحمد، إنّ الله قد اشتاقَ إليك. قال: «فامضِ لما أُمِرتَ به يا مَلك الموت». فقال جبريل: السلامُ عليكَ يا رسولَ الله، هذا آخِر مَوطني في الأرض، وإنما كنتَ حاجَتي من الدُّنيا[١].

فتُوفي ﷺ مستنداً إلى صَدرِ عائشةَ في كساءٍ مُلَبَّدٍ وإزارٍ غَليظٍ، وقامت فاطمة تَندب فتقول: يا أَبتاه، أجابَ رَبّاً دَعاه، يا أَبتاه، جَنَّة الفِردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل أنعاه، يا أبتاه، مِن رَبِّه ما أدناه. فلما دُفِنَ قالت: يا أنس، أطابَت أنفُسكُم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التُّرابَ[٢]!

وقال أبو بكر الصّديق رضي الله عنه:

لـمـا رأيـتُ نَـبِـيَّـنـا مُـتَـجـدِّلاً ... ضـاقَـتْ عـلـيَّ بـعـرضِـهـنَّ الـدُّورُ
وارتَـعْـتُ رَوعـةَ مُـسْـتَـهـامٍ والِـهٍ ... والـعَـظـمُ مِـنّـي واهِـنٌ مَـكـسـورُ
أَعَـتـيقُ[٣] وَيـحـكَ إنَّ حِـبَّـكَ قـد ثَـوى ... وبَـقـيـتَ مُـنـفـرداً وأنـتَ حَـسـيـرُ
يا لَـيتني مِنْ قبل مَهلِكِ صاحِبي ... غُـيِّـبـتُ في جَـدَثٍ عـلـيَّ صُـخـورُ

---

(١) أورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٥)، وقال: رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن ميمون القداح وهو ذاهب الحديث.
(٢) هو حديث أنس المتقدم قبل قليل.
(٣) عَتيق: هو لقب أبي بكر رضي الله عنه قيل: لجماله، وقيل: لقوله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى عتيقٍ من النار فلينظر إلى أبي بكر».

وفاةُ أبي بكر الصِّديق رضي الله تعالى عنه

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن هبة الله الطَّبري قال: أخبرنا أبو الحُسَين بن بِشْران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثنا خَلَف بن هِشام قال: حدثنا أبو شِهاب الحَنَّاط[1] عن إسماعيل بن أبي خالد عن البَهِيِّ[2] قال: لما احتُضِرَ أبو بكر جاءت عائشة فتمثَّلت بهذا البيت:

لَعَمرُكَ ما يُغني الثَّراءُ عَنِ الفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوماً وضاقَ بها الصَّدرُ

فكشف عن وَجهِه وقال: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ [ق: ١٩]، انظُروا ثَوبَيَّ هذين، فاغسِلوهما وكَفِّنوني فيهما، فإنَّ الحيَّ أَحْوج إلى الجديد من المَيّت.

وفاةُ عمر بن الخَطّاب رضي اللهُ تعالى عنه

أنبأنا إسماعيل قال: أخبرنا أبو بكر الطَّبري قال: أخبرنا ابن بِشْران قال: حدثنا ابنُ صَفوان قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدّثنا عليُّ بن الجعد قال: أخبرنا شُعبةُ عن عاصم بن عبد الله قال: سمعتُ سالماً يُحدث عن ابن عُمر قال: كان رأسُ عُمرَ في حجري في مَرضه الذي تُوفّي فيه، فقال: ضَعْ خَدِّي على الأرض. فقلتُ: وما عليكَ إن كان في حجري أمْ على الأرض؟ فقال: ضَعهُ لا أُمَّ لكَ. فوضَعتُه. فقال: وَيلي وويل أُمي إنْ لم يرحمني ربّي.

وفي أفراد البخاري من حديث عمرو بن مَيمون أن عمر بن الخطاب كبَّر وقال: قَتَلني الكلب، أو أكلَني الكَلب. وذلك حينَ طَعنَه[3]، ثم حُمِلَ إلى بَيته، فأُتي بلَبنٍ فشَربَهُ، فخرج من جَوفه، فعرفوا أنه مَيّت، فجاء الناسُ يُثْنونَ عليه وجاءَ رجلٌ شاب فقال: أَبشِر يا أمير المؤمنين ببُشرى اللهِ لكَ مِن صحبة رسولِ الله ﷺ، وقَدَم في الإسلام ما قَد عَلمتَ، ثمَّ وُلِّيتَ فَعَدلْتَ ثم شَهادَةٌ. فقال: وَدِدتُ أن ذلك كان كَفافاً

(١) تصحفت في الأصل إلى: «الخياط».

(٢) هو عبد الله بن يَسار، يُلقب بالبَهِيّ.

(٣) يعني حين طعنه أبو لؤلؤة المجوسي بالخِنجَر.

لا عَليَّ ولا لي. ثم قال: يا عبد الله بن عُمَر انطلِق إلى عائشةَ أم المؤمنين، فقل: يَقرأ عليك عُمَر السلامَ، ولا تقل: أميرُ المؤمنين، فإني لستُ اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يَستَأذِنُ عمرُ بن الخطاب أن يُدفَنَ مع صاحِبَيه. فمضى وسَلَّمَ واستأذَنَ، ثم دَخل عليها فوَجدها قاعدةً تبكي، فقال: يقرأ عليك عُمر السلامَ ويستأذن أن يُدفَنَ مع صاحبيه. فقالت: كنتُ أَريده لنفسي ولأُوثِرَنَّهُ به اليوم على نفسي. فلما أقبل قيل: هذا عبدُ الله بن عُمر قد جاءَ. قال: ارفَعوني. فأسنده رجلٌ إليه فقال: ما لديكَ؟ قال: الذي تُحِبُّ يا أمير المؤمنين، أَذِنت. قال: الحمدُ لله، ما كان شيء أهمّ إلي من ذلك، فإذا أنا قُبِضتُ فاحمِلوني ثم سَلِّم وقُلْ: يستأذنُ عُمرُ بن الخطاب، فإن أَذِنَتْ لي فأدخِلوني، وإن ردَّتني فَردُّوني إلى مَقابِر المسلمين[1].

وفي أفراده من حديث المِسوَر بن مَخْرَمة أنَّ عمر قال: واللهِ لو أنَّ لي طلاعَ الأرض ذهباً لافتَديتُ به من عذابِ اللهِ قبل أن أراه[2].

وفاة عُثمان بن عَفّان رضي الله عنه

أنبأنا المبارك بن علي قال: أخبرنا شُجاع بن فارس قال: أخبرنا أبو طاهر محمد الأُشْناني قال: أخبرنا علي بن أحمد بن عمر الحَمّامي قال: أخبرنا علي بن محمد بن أبي قيس قال: حدثنا أبو بكر القُرشي قال: حدثني الفَضل بن إسحاق قال: حدثنا شَبابَةُ بن سَوَّار قال: حدثني يحيى بن أبي راشِد عن عُقبة بن أسيد ويحيى بن عبد الرحمن كلاهما عن النُّعمان بن بَشير قال: حدثتني نَائِلةُ بنتُ الفَرافِصَة امرأةُ عثمان رضي الله عنه، قالت: لمّا كانَ اليومُ الذي قُتِلَ فيه عُثمان ظَلَّ في اليوم الذي قَبله صائماً، فلما كان عند إفطاره سألهم الماءَ العذب فقالوا: دونَكَ ذلك الرَّكِيَّ[3]. قالت: ورَكِيٌّ في الدار يُلقَى فيه النَّتنُ، فباتَ من قبل أن يُفطر، فلما كانَ في وجه السَّحَر أتيتُ جاراتٍ لي على أجاجيرَ[4] مُتَّصِلَة، فسألتُهم الماءَ العذبَ، فأعطوني

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩٢).

(٣) الرَّكِيُّ والركيّةُ: البئر.

(٤) الأجاجير: جمع إجّار، وهو السطح ليس عليه ما يرد الساقط عنه.

كوزاً من ماءٍ، فأتيتُه فحركتُه فاستيقظَ، فقلتُ: هذا ماءٌ عذبٌ. فرفَع رأسَه فنظر إلى الفَجرِ، فقال: إنّي قد أصبحتُ صائماً، إنَّ رسولَ الله ﷺ اطَّلَع عليَّ من هذا السَّقفِ ومعه ماءٌ عَذبٌ، فقال: اشرَبْ يا عُثمان. فشربتُ حتى رويتُ، ثم قال: ازدَدْ. فشربتُ حتى نَهِلتُ، ثم قال: أَما إنَّ القومَ سَيبكُرونَ عليكَ، فإن قاتَلتَهم ظفرت وإن تَركتَهم أَفْطَرتَ عندنا. قالت: فَدَخلوا عليه مِن يَومِه فقَتلوه[١].

وفاةُ عَلي رَضي الله عنه

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا أبو بكر الطَّبري قال: أخبرنا أبو الحُسين بن بِشْران قال: أخبرنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر بن عُبيد قال: حدثني عبدُ الله بن يونس بن بُكَير قال: حدثني علي بن أبي فاطمة الغَنَوي قال: حدثني الأَصبغُ الحَنظلي قال: لما كانَت اللَّيلة التي أُصيبَ فيها عليٌّ رضيَ الله عنه أتاهُ ابن النَّبّاح حين طلعَ الفَجرُ يُؤذِنُه بالصلاة، وهو مُضطجعٌ متثاقِلٌ، فعاد الثانية، وهو كذلك، ثم عاد الثالثة، فقام عليٌّ يمشي وهو يقول:

شُدَّ حَيازيمكَ للمَوْ ... تِ فإنَّ المَوتَ لاقيكَ
ولا تَجزع منَ الموتِ ... إذا حلَّ بواديك

فلما بلغَ البابَ الصَّغيرَ شَدَّ عليه عَبدُ الرحمن بن مُلْجَم فَضَربه[٢].

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٣٠١،٣٠٢).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٥) وما بعدها.

الباب الخامس

في ذكر نُبذةٍ من كلام المُحتَضرين من الخُلَفاء والأُمراء والصالحين

ذكر كلمات نُقلت عن جماعةٍ من الخلفاء عند موتهم

قد ذكرنا عن أبي بكرٍ وعُمر وعُثمان وعَلي رضي الله عنهم كلماتٍ، وقد روينا عن الحسن بن علي أنه لما نزل به الموتُ قال: أخرجوا فِراشي إلى صَحن الدّار. فأُخرج، فقال: اللهمَّ إني أحتَسِبُ نفسي عندكَ، فإني لم أُصَب بمثلها.

أنبأنا إسماعيل قال: أخبرنا أبو بكر الطَّبري قال: أخبرنا ابنُ بِشْران قال: حدثنا ابن صفوان قال: حدثنا أبو بكر بن عُبَيد قال: حدثني محمد بن عَبَّاد قال: حدثنا هشام بن محمد عن أبي السّائِب المخزومي قال: جعلَ معاويةُ يقول وهو يجود بنفسِه:

إنْ تُناقِش يَكُنْ نِقَاشُكَ يارَبِّ عذاباً لا طَوْقَ لي بالعَذابِ
أو تُجاوِزْ فأنتَ رَبٌّ صَفوحٌ[1] عَن مُسيءٍ ذُنوبُه كالتُّرابِ

وكان عبدُ الملك بن مروان يقول عند مَوته: واللهِ لَوَددتُ أني عبدٌ لرجلٍ من تِهامة أَرعَى غَنَمات في جبالها وأني لم أَكُ.

وقال عُمر بن عبد العزيز عند موته: أَمَرتَني فلم أَئتَمِرْ، وزَجَرْتَني فلم أَنْزَجِرْ، ولكن أَشهدُ أن لا إله إلا الله.

وكان الرشيدُ يقول عند موته: واسَوْأَتاهُ مِنْ رسول الله.

وكان المعتصم يقول: ذهبت الحِيَل فلا حِيلَة.

وقال المُنتَصِر عند موته: لقد ذهبَتِ الدُّنيا وأقبلت الآخرة.

(١) في الأصل: «رحيم»، والمثبت من البداية والنهاية (١٢/ ٣٩٦).

ذكر كلمات نُقِلَت عن جماعةٍ من الصحابة

أنبأنا ابن ناصر قال: أخبرنا جعفر بن أحمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا شُجاع بن الوليد عن عمرو بن قيس عمَّن حدّثه عن مُعاذٍ أنه لما حضَرهُ الموتُ قال: انظُروا هل أصبحنا؟ فأُتي فقيل: لم نُصبِحْ. حتى أُتي في بعض ذلك، فقيلَ له: أصبحنا. فقال: أعوذُ بالله من ليلةٍ صَباحها النّار، مرحباً بالموت مرحباً، لزائرٌ مُغِبٌّ، حَبيبٌ جاءَ على فاقَة، اللهمَّ إني قد كنتُ أخافُكَ، وأنا اليوم أرجوكَ، اللهمَّ إنك تعلم أني لم أكن أُحِبُّ الدنيا وطولَ البقاء فيها لِكَري[1] الأنهار، ولا لغَرسِ الأشجار، ولكن لِظَمَأ الهَاجِر، ومُكابدة السّاعات، ومزاحمة العُلماء بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْرِ[2].

قال عبدُ الله بن أحمد: وحدثني أبي قال: حدثنا زيد بن يحيى الدِّمَشقي قال: حدثنا سعيد بن عبد العزيز قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الله: أن أبا مُسلم قال: جِئتُ أبا الدَّرداء وهو يَجودُ بنفسِه فقال: ألا رجلٌ يَعملُ لمثلِ مَصرعي هذا؟ ألا رجلٌ يعمل لِمثل يَومي هذا؟ ألا رَجُلٌ يعملُ لمثل ساعتي هذه؟ ثم قُبِضَ رحمه الله.

قال[3]: وحدثني أبي قال: حدثنا هارون بن معروف قال: حدثنا ضَمرة عن ابن المسيب قال: لما حضرت أبا هُريرةَ الوفاةُ بَكى، فقيل له: يا أبا هُريرة، ما يُبكيك؟ قال: بُعْدُ المَفازَةِ، وقلَّةُ الزّاد، وعَقبةٌ كَؤودٌ المَهبِطُ منها إلى الجَنَّةِ أو النار.

وقيل لحذَيفةَ في مَرضه: ما تشتهي؟ قال: الجنَّة. قيل: فما تَشتكي؟ قال: الذُّنوب. قالوا: أَفَلا نَدعوا لك الطبيب؟ قال: الطَّبيبُ أمرضَني. ثم قال: أَصبحَنا؟ قالوا: نعم. فقال: اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من صَباحِ النّار.

وبكَى سَلمانُ عند موته، فقيل: ما يُبكيكَ؟ فقال: عَهِدَ إلينا رسولُ الله ﷺ أن

---

(١) كَرْي الأنهار: حَفرُها وإجراؤها.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٨٠).

(٣) يعني عبد الله بن أحمد، والخبر في الزهد (١٧٨).

يكونَ زادُ أَحَدِنا كزادِ الرّاكبِ، وحَولي هذه الأَساوِد. قال: وإنما كانَ حولَه إجّانَة[١] أو جَفنة[٢] ومِطْهَرة[٣].

وكان عمرو بن العاص يقول عند موته:

لَيتني كُنتُ قبل ما قَد بَدا لي   في قِلالِ الجِبال أَرعى الوُعولا

ذِكْر كلماتٍ نُقلت عن جماعةٍ من الصَّالحين

لما احتُضِرَ عامر بن عبد قَيْس بكى، وقال: لا أبكي جَزعاً من الموت، ولا حِرصاً على الدنيا، ولكن لما يَفوتني من ظمأ الهَواجِر، وقِيام ليل الشِّتاء.

ودَخَلوا على محمد بن واسع وهو في الموت، فقال: يا إخوتاه، تَدرونَ أينَ يُذهَبُ بي؟ يُذهَبُ بي واللهِ الذي لا إله إلا هو إلى النّار أو يَعفو عنّي.

وبكى إبراهيم النَّخعي عند مَوتِه، وقال: أنتظرُ منَ الله رسولاً يُبشِّرني بالجنَّة أو النّار.

وقَلِقَ يوسُفُ بنُ أسباط عند الموت، فقيل له: ما هذا أوَانُ القَلقِ! قال: وكيفَ لا، ولا أعلم أنّي صَدَقْتُ الله في شيءٍ من عَمَلي.

وروى المُزَني عن الشافعي رحمه الله، أنه دخل عليه في مَرضِه الذي ماتَ فيه، فقال له: كيفَ أصبحتَ؟ فقال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، وللإخوان مُفارِقاً، ولسوءِ عملي مُلاقياً، ولِكأسِ المَنيَّةِ شارِباً، وعلى رَبّي وارِداً، ولا أدري أَروحي تَصيرُ إلى الجنَّة فأُهَنّيها، أم إلى النار فأُعَزّيها. ثم أنشأ يقول:

ولَمّا قَسى قَلبي وضاقَتْ مَذاهِبي   جَعلتُ رجائي نحو عفوكَ سُلَّما
تَعاظَمَني ذَنْبي فَلما قَرَنْتُهُ   بِعَفوِكَ رَبّي كانَ عَفوكَ أَعْظَما
وما زِلتَ ذا عَفْوٍ عن الذَّنبِ لم تَزَلْ   تَجودُ وتَعفو مِنَّةً وتَكَرُّمَا

---

(١) الإجّانة: إناءٌ تُغسل فيه الثياب.
(٢) الجفنة: القَصعة التي يوضع فيها الطعام.
(٣) المِطْهَرة: كل إناءٍ يُتطَهّر منه كالإبريق والسطل والركوة وغيرها.

الباب السادس

في أقوال العارفين على الجنائز والمقابر وحُكم زيارة القُبور

اعلم أن الجنائِزَ عبرةٌ للبصير لا للغافل، فإن البصيرَ يرى نفسه على الجنازة، فيبكي، والغافل يراها جنازةَ غيره، فأحسن أحواله أن يبكي على الميِّت.

قال أُسَيد بن حُضَير: ما شَهدتُ جنازةً قط فحدَّثتُ نفسي بشيءٍ سوى ما هو مفعولٌ به، وما صائرٌ إليه.

وكان أبو هريرة إذا رأى جنازةً يقول: امضِ فإنّا على الأثَر.

ومن آداب حُضور الجنازة: التَّفكُّر والتَّنبه، والمشي أمامها على هيئة التَّواضع، والرَّجاءُ للميت المسلم.

وقد روينا عن عُمر بن ذَر أنَّه صلّى على جنازةِ رجلٍ مُسرفٍ على نفسه وكان خلق كثيرٌ قد تَجافَى حُضورَها، فلما دُفن الميت وقَف على قَبره، فقال: رحمكَ الله يا أبا فُلان، فقد صَحبتَ عمرك بالتوحيد، وعَفَّرتَ وجهَكَ بالسُّجود، فإن قالوا: مُذْنِب. فمن منّا غَيرُ مذنِبٍ؟

بيان حال القَبر وأقوالهم على القُبور

أنبأنا ابن حُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا يحيى بن معين قال: حدثنا هشام بن يوسف قال: حدثني عبد الله بن بَحِير القَاصّ عن هانِىء مولى عُثمان، قال: كانَ عُثمان إذا وقَفَ على قَبرٍ بكى حتى يَبُلَّ لحيتَه، فقيل له: تذكُر الجنةَ والنّارَ فلا تبكي، وتبكي من هذا؟! فقال: إن رسولَ الله ﷺ قال: «القَبرُ أَوَّلُ مَنازلِ الآخرة، فإن ينجُ منه،

فما بعده أَيْسَر منه، وإن لم يَنجُ منه، فما بعده أشَدّ منه»، قال وقالَ رسولُ الله ﷺ: «ما رأيتُ منظراً قط إلا والقَبر أَفْظَعُ منه»(١).

جازَ عَمرو بن العاص بمقبرة، فنزل وصلّى ركعتين، وقال: ذكرتُ أهلَ القبور وما حِيلَ بينهم وبَينَهُ، فأحببتُ أن أتقرَّب إلى الله تعالى بهما.

وكان أبو الدَّرداء يقعُدُ إلى القُبور، فقيل له في ذلك، فقال: أجلس إلى قَومٍ يُذكروني معادي، وإن قُمتُ لم يغتابوني.

وكان عطاء السُّلَمي إذا جَنَّ الليلُ خرج إلى المقابر، ثم يقول: يا أهلَ القُبور، متُّمْ، فَوَا مَوتَاه، وعاينتُم أعمالكم، فواعملاه، ثم يقول: غداً عَطاءُ في القَبر، غداً عَطاءُ في القَبر، فلا يَزال هذا دَأبه حتى يُصبح.

وقال ميمون بن مِهْران: خرجتُ مع عُمر بن عبد العزيز إلى المقبرة، فلما نظر إلى القُبور بكى، ثم أقبل عليَّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بَني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لَذّاتِهم وعَيشِهم، أما تَراهُم صَرعى، قد حَلَّت بهم المَثُلات، واستحكم فيهم البِلَى، وأصابت الهوام مقيلاً في أبدانهم؟ ثم بكى، وقال: ما أعلمُ أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور، وقد أَمِنَ مِنْ عذابِ الله تعالى.

وُجِدَ على قبرٍ مكتوبٌ:

وَقَفتُ على الأَحِبَّةِ حينَ صَفَّتْ ... قُبورُهُمُ كأفراسِ الرِّهانِ

فَلمّا أن بَكيتُ وفاضَ دَمْعي ... رَأتْ عَينايَ بَينَهُمُ مَكاني

فالبَصير إذا نظر إلى القبور رأى مكانَه بينهم، فاستعدَّ قبل أن يُستَلب، وليتحقق أنه لو عُرِضَ عليهم يومٌ من أيامِه التي يُضَيِّعها، لكانَ أحب إليهم من الدنيا كلها؛ لأنهم عرفوا قَدرَ الأعمال، وانكشفت لهم حقائقُ الأمور.

قال بعضُ السَّلف: رأيتُ رجلاً من الموتى في النَّوم، فقلتُ له: يا فُلان، عشت

---

(١) أخرجه أحمد (٤٥٤)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والترمذي (٢٣٠٨)، والحاكم (٤/ ٣٣٠-٣٣١)، والبزار (٤٤٤)، والبيهقي في الشُّعَب (٣٩٧).

الحمد لله فقال: لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله أحب إلي من الدنيا وما فيها.

فصل

ومن ماتَ له ولدٌ، فينبغي أن يُقدِّرَ أنهما كانا في سَفرٍ، وأن الولَدَ قد سَبقه إلى المَنزلِ، وليَسْلَ عنه بثَوابه، فقد رَوى مسلمٌ في أفراده من حديث أبي حسان قال: توفي ابنانِ لي، فقلتُ لأبي هُريرةَ: سمعتَ من رسولِ الله ﷺ حديثا تحدثنا به فَتُطيِّبَ أنفسنا عن موتانا؟ فقال: نعم: «صِغارهم دَعامِيصُ[1] الجنَّة، يَتلقَّى أحدُهم أباه، أو قال: أبويه. فيأخذ بثوبه. أو قال: بيده. كما آخُذُ أنا بصَنَفَةِ[2] ثوبك هذا، فلا يتناهى حتى يُدخله اللهُ وأباه الجنة»[3].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «ما منكنَّ من امرأةٍ يموتُ لها ثَلاثةٌ من الولد إلا كانوا لها حجاباً من النار». فقالت امرأةٌ: أما أنا فقد ماتَ لي اثنان؟ فقال: «واثنين»[4].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلمٍ يموت له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنثَ، فتمسه النار إلا تَحِلَّةَ القَسَم»[5].

فصل

وتُستَحبُّ زيارةُ القبور، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «زوروا القُبور، فإنها تُذكّركم الآخرة»[6].

---

(١) دعاميص الجنة: صغار أهلها، والمفرد: دعموص.

(٢) صنفة الثوب: طَرفه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (١٠١) و(١٢٤٩) و(٧٣١٠)، ومسلم (٢٦٣٣).

(٥) أخرجه البخاري (١٢٥١)، و(٦٦٥٦)، ومسلم (٢٦٣٢).

(٦) أخرجه مسلم (٩٧٦)، وأبو داود (٣٢٣٤)، وابن ماجه (١٥٦٩) و(١٥٧٢)، والبيهقي في السنن (٤/ ٧٦)، والبغوي (١٥٥٤) من حديث أبي هريرة.

وتكرَهُ زيارةُ القبور للنِّساء، وذلك لقلَّةِ صبرهنَّ ووقوع الفتنة بخروجهن.

ومن زار قبراً فلستقبل وجه الميت، وليُسَلِّم، ولا يمس القبر، وليقرأ شيئاً من القرآن بنيَّةِ إهداء الثَّواب إليه، ولتكُن الزيارة يوم الجمعة.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هِبة الله الطَّبري، قال: أخبرنا أبو الحسين بن بِشران: قال: أخبرنا ابن صفوان، قال: حدثنا أبو بكر القرشي قال: حدثني محمد بن الحسين قال: حدثنا يحيى بن بِسْطام قال: حدثني مسمع بن عاصم قال: حدثني رجل من آل عاصم الجَحدَري، قال: رأيتُ عاصماً في منامي بعد موته بسنتين، فقلت: أَليسَ قد متَّ؟ قال: بلى. قال: فأين أنتَ؟ قال: أنا واللهِ في روضةٍ من رياض الجنة أنا ونَفَر من أصحابي، نجتمع كل ليلة جمعة وصَبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله المُزَني نتلاقى أخباركم. قلت: أجسامُكم أم أرواحُكُم؟ فقال: هيات! بَلِيَت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح. قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعلم بها عشية الجمعة، ويوم الجمعة كله، ويوم السبتِ إلى طلوع الشمس. قلت: وكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضلِ يوم الجمعة وعِظَمه.

قال يحيى بن بسطام: وحدثني عثمان بن سواد الطُّفاوي، وكانت أمّه من العابدات، وكان يقال لها: راهبة. قال: لمّا احتُضِرَت رفعت رأسها إلى السماء، وقالت: يا ذُخْري ويا ذَخيرتي، ومن عليه اعتمادي في حياتي وبعد مماتي، لا تخذلني عند الموت، ولا توحشني في قبري. قال: فماتت، فكنتُ آتيها كل جمعة، وأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور. قال: فرأيتُها ليلةً في منامي، فقلتُ لها: يا أُمّاه، كيف أنتِ؟ فقالت: يا بُني، إنَّ للموتِ لكَربٌ شديد، وأنا والحمد لله في بَرزخٍ محمود، نَفترش فيه الرّيحان، ونتوسَّد فيه السندس والإستَبْرَق إلى يوم النُّشور. فقلت: ألكِ حاجةٌ؟ قالت: نعم. فقلت: ما هي؟ قالت: لا تَدَع ما كنتَ تصنع من زيارتنا والدُّعاءِ لنا، فإني لأُسَرُّ بمجيئك يوم الجمعة إذا أَقبلتَ من أهلكَ، فيُقال لي: يا راهِبة، هذا ابنُكِ قد أقبل. فَأُسَرُّ، ويُسَرُّ بذلك من حولي من الأموات.

قال محمد بن الحُسين: وحدثني محمد بن عبد العزيز بن سَلمان قال: حدثنا

بِشرُ بنُ مَنصور قال: لما كان زمن الطاعون كانَ رجلٌ يختلف إلى الجَبّانَة[١]، فيشهدُ الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى وقف على باب المقابر، فقال: آنسَ اللهُ وحشتكُم، ورحمَ غُربتكم، وتجاوزَ عن سَيِّئاتكُم، وقَبِلَ اللهُ حسناتكم. لا يَزيدُ على هؤلاء الكلمات. قال: فقالَ ذلك الرجل: فأمسيتُ ذاتَ ليلة فانصرفتُ إلى أهلي ولم آتِ المقابر فأدعو كما كنتُ أدعو، فبينا أنا نائم إذا بخلقٍ كثيرٍ قد جاؤوني، فقلت: من أنتُم؟ وما حاجَتكم؟ قالوا: نحنُ أهلُ المقابِر. قلت: ما جاءَ بكم؟ قالوا: إنك كنتَ قد عوَّدتنا منكَ هديةً عند انصرافِكَ إلى أهلِكَ. قلتُ: وما هي؟ قالوا: الدَّعوات التي كنت تدعو بها. قلت: فإنّي أعودُ لذلك، فما تركتُها بعدُ.

قال محمد بن الحسين: وحدثني أبو البُهلول قال: حدثني بَشّار بن غالب البَحراني قال: رأيتُ رابعةَ العدويةَ في منامي وكنتُ كثير الدعاء لها، فقالت لي: يا بَشّار، هداياكَ تأتينا على أطباقٍ من نور مُخَمَّرة بمناديلِ الحَرير. قلت: وكيفَ ذلك؟ قالت: هكذا دُعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى واستُجيب لهم، جُعل ذلك الدُّعاء على أطباقِ النُّور وخُمِّر بمناديل الحرير، ثم أُتي به الذي قد دُعيَ له من الموتى، فقيل له: هذه هَديةُ فُلانٍ إليك.

قال أبو بكر القُرشي: وحدثني الحُسين بن علي العجلي قال: حدثني محمد بن الصلت قال: حدثنا إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سُلَيم قال: حدثنا أبو قِلاَبة قال: أقبلتُ من الشام إلى البَصرة، فنزلتُ الخندق فتطهرتُ وصلَّيتُ ركعتين بليلٍ، ثم وضَعتُ رأسي على قَبرٍ فنمتُ، فإذا صاحبُ القَبرِ يشتكيني يقول: أذيتني منذ الليلة. ثم قال: إنكم لا تعلمون ونحن نعلم، ولا نقدر على العمل. ثم قال: للركعتان اللَّتان ركعتَهما خَيرٌ من الدنيا وما فيها. ثم قال: جَزَى اللهُ عنّا أهل الدنيا خيراً، أَقْرئهم مِنّا السَّلام، فإنه يدخل علينا من دُعائهم نوراً مثال الجبال.

فالمقصودُ من زيارة القُبور اعتبار الزائر، وانتفاعُ المزور بالدعاء له، وإنما يقع الاعتبار بالتفكُّر في حال الميت، وكيف قد بَلي وكيف يُحشَر، وفي حال الزائر أنه سيلحق به قريباً.

(١) الجبانة: المقبرة.

كانت عابدةٌ من عَبد القَيس تَزورُ القُبور تقول: إنَّ القلبَ القاسي إذا جَفا لم تُلَيِّنه إلا رسومُ البِلى، وإني لآتي القبور فكأنّي أنظر إليهم وقد خَرجوا من بين أَطباقها، فيالها من نظرةٍ لو أشْرِبَها العِبادُ قُلوبهم، ما أنْكَل مرارتَها للأنفس، وأشدَّ إتلافها للأَبدان.

ويستحب تَلقينُ الميت على ما سيأتي ذِكره، ويُستحب الثَّناء على الميت، وأن لا يُذكرَ إلا بالجميل.

أنبأنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا شُعبة عن الأعمش عن مُجاهد عن عائشة أن النبي ﷺ قال: «لا تَسبُّوا الأموات، فإنهم قد أَفْضوا إلى ما قَدَّموا»[1]. انفرد بإخراجه البُخاري.

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٣) و(٦٥١٦).

الباب السابع

في حَقيقة الموت وما يَلقاه الميّت في القَبر إلى نَفخةِ الصُّور

بَيان حقيقة الموت

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبةً، فظنَّ البعضُ أن الموتَ هو العَدم، وأنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ، ولا عاقبة للخير والشَّر، وأن موتَ الإنسان كموت الحيوان وجفافِ النبات، وهذا رأيُ الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخِر.

وظنَّ قومٌ أنه ينعدم بالموت، ولا يتألم بعقاب، ولا يتنعَّمُ بثواب ما دام في القبر إلى أن يُعادَ في وقت الحشر.

وقال آخرون: إن الروح باقية لا تنعدم بالموت، وإنما المُثابُ والمعاقَب هي الأرواح دون الأجساد، وإن الأجساد لا تُبعث ولا تُحشَر أصلاً. وكل هذه ظنونٌ فاسدة مائلة عن الحق، بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطِقُ به الآياتُ والأخبار: أن الموتَ معناه تَغيُّر حالٍ فقط، وأن الروحَ باقية بعد مفارقة الجسد إما مُعذَّبَة وإمّا مُنَعَّمَة، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد لخروج الجسد عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها، فَتَبطش باليد، وتسمع بالأذن، وتُبصر بالعين، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب، والقلب هاهنا عبارة عن الروح، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة، وكذلك فقد تتألم بنفسها بأنواع الحُزنِ والغَمِّ والكمدِ، وتَتنعَّم بأنواع الفَرح والسرور، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء، فكل ما هو وصف للروح بنفسها، فيبقى معها بعدَ مفارقة الجسد، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطَّل بموت الجسد إلى أن تُعاد الروح إلى الجسد، ولا يَبعُد أن تُعادَ الروحُ إلى الجَسدِ في القبر، ولا يَبعدُ أن تؤخَّر إلى يوم البعث، والله أعلم بما حَكَم به على كل عبد من عباده.

وإنما تعطُّل الجسد بالموت يضاهي تَعطُّل أعضاء الزَّمِنِ بفساد مزاجٍ يقع فيه، وبسَدَّةٍ تَقَع في الأعصاب تمنع نُفوذَ الروحِ فيها، فتكون الروح العالِمة العاقلة المُدرِكة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استَعصى عليها بعضها، وكل الأعضاء آلات والروحُ هي المستعملة لها، ونعني بالروح: المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولَذَّات الأفراح، ومتى بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات، ولا تبطل منها الأفراح والغموم، ولا يبطل منها قبولها للآلام واللَّذات.

والإنسان في الحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللَّذّات، وذلك لا يموت، أي: لا ينعدم، وإنما معنى الموت انقطاع تصرفه عن البَدَن وخروج البدن عن أن يكون آلة له، كما أن معنى الزَّمانَة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة، فالموت زَمانَة مطلقة في الأعضاء كلها، وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية، ولكن قد تغيَّر حاله من جهتين:

إحداهما: أنه سُلبت منه جوارحُه وأمواله وأهله، ولا فرقَ بين أن تُسلَب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يُسلَبَ الإنسانُ من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفِراق، والفِراق يَحصُل تارةً بأن يُنهَبَ مالُ الرجل، وتارةً بأن يُسبى الرجلُ عن ماله، والألم واحدٌ في الحالتين.

ومعنى الموت سَلبُ الإنسانِ عن أمواله بإزعاجه إلى عالمٍ آخر لا يناسب هذا العالم، فإن كان له في الدنيا شيءٌ يفرحُ به ويستريح إليه ويعتَدُّ بوجوده عَظُمَتْ حسرتُه عليه بعد الموت، وإن كان لا يفرح إلا بذكر الله عزَّ وجل ولا يَأنَسُ إلا به عَظُمَ نعيمُه وتمَّت سَعادته إذا خُلِّيَ بينه وبين محبوبه، وقُطعت عنه العَوائق والشَّواغِل، إذْ جميع أسباب الدنيا شاغلةٌ عن ذكر الله تعالى، فهذا أحدُ وَجهَي المخالفةِ بين حال الموت وحال الحياة.

والثاني: أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له في الحياة، كما ينكشِف للمتيقِّظ ما لم يكن مكشوفاً في النوم، والناس نِيامٌ، فإذا ماتوا انتبَهوا.

وأول ما ينكشف له ما يضرُّه وينفعه من حسناته وسَيِّئاته، وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سِرِّ قلبه، وكان يشغله عن الاطّلاع عليه شواغل الدنيا، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميعُ أعماله، فلا ينظر إلى سيئَةٍ إلا ويتحسَّر عليها تحسُّراً يؤثر أن يخوضَ غَمْرةَ النار للخلاص من تلك الحَسْرة، وكل ذلك ينكشف عند الموت، وتشتعِلُ في القلب نيران فراق الدارِ الفانية.

فأما من أخذَ منها البُلغَةَ فإنه إذا بلغ منها المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد؛ لأنه لم يكن يريد الزَّاد لعَينِهِ، وهذه حالة من لم يأخذ من الدنيا إلا قَدر الضرورة، وكان يود أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه، فقد حصل ما كان يَوّده واستغنى عنه، فهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تَهجم عليه قبل الدَّفن.

ثم عند الدَّفن تُرَدُّ روحُه إلى الجَسد لنوعٍ آخر من العذاب، وقد يُعفى عنه ويكون حال العاصي كحالِ[1] من دخلَ دار الملك في حال غيبة الملك، فتصرَّف في مُلكه وحَرَمِه ظناً منه أن الملك يَتَساهل في أمره، أو على أن الملك ليس يدري ما يتعاطاه من قَبيح أفعاله، فأخذَه الملكُ بَغتةً، وعرضَ عليه جميعَ فواحِشِه وجِناياته، والمَلِكُ قاهرٌ مُتسلِّطٌ غَيور على حُرَمِه، منتقمٌ من الجُناةِ على مُلكه، غير مُلتفتٍ إلى من يتشفَّع إليه في العُصاة عليه.

فانظرْ إلى حال هذا المأخوذ كيف يكون قَبل نزول عذاب الملك به من الخَوف والخجل والحياء والنَّدم، وذلك أعظم من تعذيب الجَسد، فهذا حال الميت الفاجر، وهذه حالة شاهدها أُولو الأَبصار بمشاهدةٍ باطنةٍ أقوى من مُشاهدةِ العَين، وشهد لذلك شواهدُ الكتاب والسنَّة.

إلا أنه لا يمكن كَشفُ الغِطاء عن كُنْهِ حقيقة الموت، إذ لا يَعرفُ الموتَ من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفةِ حقيقة الروح في نفسها، وإدراك ما هية ذاتها، وما أذن للرسول عليه الصلاة والسلام أن يزيد على أن يقول: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، وإنما المأذون ذكرُ حال الرّوح بعد الموت.

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «كمال».

ويدل على أن الموتَ ليسَ بعبارة عن انعِدام الروح وانعدامِ إدراكها آياتٌ وأخبارٌ:

أما الآيات: فقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وروى مسلم في أفراده من حديث مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ فقال: أما إنّا قد سَألنا عن ذلك فقال: «أرواحُهم في جَوفِ طَيرٍ خُضر، لها قناديل مُعلّقة بالعرش، تَسْرَحُ من الجنَّة حيثُ شاءت، ثم تَأْوي إلى تلكَ القناديل، فاطلع إليهم ربُّهم اطلاعَةً فقال: هل تشتهونَ شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نَشْتَهي؟ ونحن نَسْرَحُ من الجنَّة حيث شِئنا. ففعلَ ذلك بهم ثلاثَ مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يَسألوا، قالوا: يا ربّ، نريدُ أن تَرُدَّ أرواحنا في أجسادِنا حتى نُقتَل في سَبيلكَ مرةً أُخرى. فلما رأى أن لا حاجةَ لهم تُرِكوا»(١).

أنبأنا الكروخيُّ قال: أخبرنا أبو عامر الأَزدي وأبو بكر الغُورجي قالا: أخبرنا الجراحي قال: حدثنا المحبوبي قال: حدثنا التِّرمذي قال: حدثنا يحيى بن حبيب بن عربي قال: حدثنا موسى بن إبراهيم بن كثير الأنصاري قال: سمعتُ طلحة بن خِراش قال: سمعتُ جابر بن عبد الله يقول: لَقِيني رسولُ الله ﷺ فقال لي: «يا جابر، مالي أراكَ مُنكسِراً؟» قلتُ: يا رسول الله، استُشهِد أبي، وتركَ عيالاً ودَيناً. قال: «أُبشِّركَ بما لَقِيَ الله به أباك؟» قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: «ما كَلَّمَ الله أحداً قط إلاّ من وراء حجابه، وأحيا أباك فكلَّمه كِفاحاً(٢)، وقال: يا عَبدي، تَمَنَّ عليَّ أُعْطِكَ. قال: يا ربِّ، تُحييني فأُقتَل فيك ثانيةً. قال الرب تعالى: إنَّه قد سبق منّي أنهم إليها لا يُرجَعون. وأُنزلت هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا﴾»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

(٢) كِفاحاً: أي مواجهةً دون حجاب.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٠) و(٢٨٠٠)، والترمذي (٣٠١٠)، وابن أبي عاصم في السنة =

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فأخبر أنهم يُعذَّبون بعد الموت.

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا السَّرخسي قال: حدثنا الفِرَبري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثني مالك بن نافع عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أحدكم إذا ماتَ عُرِضَ له مقعدُه بالغَداة والعَشيِّ، وإن كان من أهل الجنَّة فمِن أهلِ الجنَّة، وإن كانَ من أهلِ النّار فمِن أهلِ النّار، فيقال: هذا مقعدك حتى يَبعثكَ الله إليه يوم القيامة» أخرجاه في الصحيحين[١].

وفي الصحيحن من حديث أبي طلحة أن النبي ﷺ أمر يوم بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صَناديد قُريش فقُذِفوا في طَويٍّ[٢] من أطواءِ بَدر، كان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَة ثلاثَ ليالٍ، فلما كان ببَدرٍ اليوم الثالث أمر براحلته فشُدَّ عليها رَحلُها ثم مَشَى وتَبِعها أصحابُه حتى قامَ على شَفَةِ الرّكيِّ، فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فُلانَ بنَ فُلان، ويا فُلانَ بنَ فُلان، أَيَسرُكُم أنكم أَطعتُم الله ورسولَه؟ فإنّا قد وَجدنا ما وَعدَنا ربنا حقاً، فهل وجدتُم ما وعدكم ربكم حقاً؟» فقال عمر: ما تُكلِّم يا رسول الله من أجسادٍ لا أرواح فيها؟! فقال: «والذي نَفسُ محمدٍ بيده، ما أنتُم بأسمعَ لما أقولُ منهم»[٣]. وهذا نَصٌّ في بقاء الروح وبقاء إدراكها ومعرفتها.

أنبأنا ابنُ الحصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جَعفر قال: أخبرنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثني محمد بن حُمَيد عن معمر عن الزُّهري عن عبد الرحمن بن كَعب عن كَعب. يعني ابن مالك. قال: قال

=(٦٠٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٢/ ٨٩٠)، وابن حبان (٧٠٢٢)، والحاكم (٣/ ٢٠٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٩٨)، والواحدي في أسباب النزول: ٨٦.

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) الطَّوِي: البئر.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥).

رسولُ الله ﷺ: «إنما نَسَمةُ المسلم طَيرٌ تَعْلُقُ في شَجرِ الجنة حتى يَرجِعَها اللهُ عزَّ وجل إلى جَسَده»[١].

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تَفضحوا مَوتاكم بسيِّئات أعمالكم، فإنها تُعرض على أوليائكم من أهل القُبور»[٢].

وكان أبو الدرداء يقول: اللهمَّ إني أعوذُ بك أن أعمل عملاً أُجْزَى به عند عبد الله بن رَواحة[٣].

وقال عبد الله بن عمر: إنما مَثَل المؤمن حين تَخرج نفسُه مثل رجلٍ كان في سجنٍ فأُخرج منه، فهو يتَفسَّحُ في الأرض ويتقلَّب فيها. وهذا صحيح فإن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من فضل اللهِ تعالى وكرامته ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن، فيكون كمحبوسٍ في بيتٍ مظلم فُتح له باب إلى بُستانٍ واسعِ الأكناف، فيه أنواع الأشجار فلا يَسرُّه الرجوع إلى الدنيا، كما لا يسره العَودُ إلى بطن أُمِّه.

وقال مُجاهد: إن المؤمن ليُبشَّر بصلاح وَلَده من بَعده، لِتَقرَّ بذلك عَينُهُ.

وقال عُبيد بن عُمَير: أهل القبور يَتوكَّفون[٤] الأخبارَ، فإذا أتاهُم الميت قالوا: ما فَعلَ فُلان؟ فيقول: صالحٌ. فيقولون: ما فَعل فُلان؟ فيقول: ألم يأتِكُم؟ فيقولون: لا، إنّا لله وإنا إليه راجعون، سُلِكَ به غيرُ سبيلنا. وفي لفظ: ذُهِبَ به إلى أُمِّه الهاوية. وقد روي هذا مروفوعاً ورواه أبو رُهم السَّمَعي عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ نفسَ المؤمن إذا قُبِضَت تَلَقَّاها أهلُ الرحمة كما يُتَلقَّى البَشيرُ في الدنيا، فيقولون: أنظِروا أخاكم حتى يَستريح، فإنه كان في كَرْبٍ شديد، فيَسألونه: ماذا فَعلَ فُلان؟ وماذا فَعلت فُلانة، وهل تزوَّجت فُلانة؟ فإذا سألوه عن

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٧٦) و(١٥٧٧٨) و(١٥٧٨٠) و(١٥٧٨٧) و(١٥٧٩٢)، وابن ماجه (١٤٤٩)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٢٢)، والبيهقي في البعث والنشور (٢٢٦).

(٢) نسبه العراقي لابن أبي الدنيا في الموت، وفي الباب عن أنس عند أحمد (١٢٦٨٣)، وعن أبي أيوب الأنصاري عند الطبراني في الأوسط (١٤٨).

(٣) لأن عبدَ الله بن رواحة خالُه.

(٤) يتوكَّفون: يتوقَّعون ويترقبون.

رجلٍ مات قبله قال: إنه قد مات قبلي. قالوا: إنّا لله وإنا إليه راجعون، ذُهِبَ به إلى أُمِّهِ الهاوية فَبِئْسَتِ الأُمُّ، وبِئْسَت المُرَبِّيَة»[١].

ذكر تلقين المَيّت

روى سعيد بن عبد الله الأودي قال: شهدتُ أبا أُمامة الباهلي وهو في النَّزعِ فقال: يا سعيد، إذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسولُ الله ﷺ فقال: «إذا ماتَ أحدكم فسوَّيتُم عليه التُّراب، فليقُم أحدُكم على رأسِ قَبرِهِ ثم يقول: يا فُلان بن فُلانة، فإنه يسمع ولا يُجيب، ثم ليقل: يا فُلان بن فلانة، الثانية، فإنه يستوي قاعداً، ثم ليقل: يا فُلان بن فلانة، فإنه يقول: أرشِدنا رَحمكَ الله، ولكن لا تسمعون، فيقول: أذكُرْ ما خَرجتَ عليه من الدنيا: شَهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسولُ الله، وأنك رضيتَ بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً، وبالقرآن إماماً، فإنَّ مُنكَر ونكير يتأخر كل واحد منهما فيقول: انطَلق بنا، ما يُقعدنا عند هذا وقَد لُقِّنَ حُجَّتَه؟ ويكون الله عز وجل حَجيجَهُ دونَهما» فقال رجلٌ: يا رسول الله، فإن لم يعرف اسم أُمه؟ قال: يَنسبه إلى حَوّاء».

وأوصى العلاء بن اللَّجْلاج إذا دُفِنَ أن يُقرأ عند رأسِه بفاتحة البقرة وخاتمتها، وقال: سمعتُ ابنَ عُمر يُوصي بذلك.

بيان كلام القَبر للميت وكلام الموتى

أنبأنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغورجي قالا: أخبرنا الجَرّاحي قال: حدثنا المحبوبي، قال: حدثنا التِّرمذي قال: حدثنا محمد بن أحمد بن مَدُّويَة قال: حدثنا القاسم بن الحكم العُرَني، قال: حدثنا عبيد الله بن الوليد الوصّافي عن عَطية عن أبي سعيد قال: دخلَ رسولُ الله ﷺ مُصلاّه، فرأى ناساً كأنهم يَكتشرون[٢] فقال: «أما إنكم لو أكثرتُم ذِكْرَ هاذِمِ اللَّذات، لشَغلكم عَمّا أرى، فأكثروا ذِكرَ هاذِمِ اللَّذات الموت، فإنه لم يَأتِ على القَبر يومٌ إلا تكلَّم

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٤٣) و(٤٤٤).

(٢) يَكتَشرون: أي تظهر أسنانُهم من الضحك.

فيقول: أنا بَيتُ الغُربَة، وأنا بَيتُ الوَحدَة، وأنا بيتُ التُّراب، وأنا بَيتُ الدُّود، فإذا دُفِنَ العَبدُ المؤمن قالَ له القبر: مَرحباً وأهلاً، أما إن كنت لأحبّ من يَمشي على ظهري إليَّ، فإذ وُلِّيتُكَ اليومَ وصرتَ إليَّ، فستَرى صنيعي بكَ. فيتَّسع له مدَّ بصره، ويُفتح له بابٌ إلى الجنة، وإذا دُفِنَ العبدُ الفاجر أو الكافر، قال له القبر: لا مرحباً ولا أهلاً، أما إن كنت لأبغض من يمشي على ظهري إليَّ، فإذ وُلِّيتُكَ اليوم، فسترى صَنيعي بك. قال: فيلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه»، وقال رسولُ الله ﷺ بأصابِعه فأدخل بَعضها في جَوفِ بَعضٍ قال: «ويُقَيَّضُ له سبعون تنّيناً[١]، لو أن واحداً منها نَفخَ في الأرض ما أنبتَتْ شيئاً ما بَقيتِ الدنيا، فينهَشْنَه ويَخدِشْنه حتى يُفْضي به إلى الحِساب» وقال رسولُ الله ﷺ: «إنّما القَبرُ رَوضَةٌ من رِياض الجَنَّة، أو حُفرةٌ من حُفَرِ النّار»[٢].

وربما تعجب من يَسمعُ حَصر العَدد بسبعين تِنّيناً، فإن أعداد ما يُسلّط على العاصي من العذاب على أعدادِ خِصاله المذمومة، وقد تتشعَّب الخَصلة إلى خِصالٍ كالكِبر والحَسَد والغِلّ والرِّياء وغير ذلك، فالقوي منها يَلدغ لَدغَ التِّنين، والضَّعيفُ يَلدغ لدغَ العَقرب، وما بينهما يُؤذي إيذاء الحَيَّة.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول القبر للميت حين يُوضَع فيه: وَيحك يا ابن آدم، ما غَرَّكَ بي؟ ألم تعلم أني بَيتُ الظُّلمة، وبَيتُ الوَحدةِ، وبَيتُ الدُّودِ، ما غَرَّكَ بي إذا كنتَ تمرُّ بي فَدّاداً[٣]. فإن كان مُصلحاً أجابَ عنه مجيبُ القَبر، فيقول: أرأيتَ إن كان يأمرُ بالمعروفِ ويَنهى عن المنكر. فيقول القَبر: إني إذَن أتحول عليه خضراً، ويعود جسدُه نوراً، وتصعد روحُه إلى الله عزَّ وجل[٤].

وقال عُبيد بن عُمير اللَّيثي: ليس من ميت يموتُ إلا نادَتهُ حُفرتُه التي يُدفَنُ فيها: أنا بيتُ الظُّلمةِ والوَحدة والانفراد، فإن كنتَ في حَياتكَ لله مُطيعاً، كنتُ

---

(١) التنين: ضرب من الحيّات.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٦٢).

(٣) الفَداد: هو الذي يمشي يقدم رجلاً ويُؤخِّر أخرى، يعني مشية المُتَبختر.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٢٣٥).

عليك اليوم رَحمة، وإن كنت عاصياً، فأنا عليك اليوم نِقمة، أنا الذي مَن دَخلني مُطيعاً خرجَ مَسروراً، ومن دَخلَني عاصياً خَرج مَثْبوراً.

وقال كَعب: إذا وُضعَ العبدُ الصالحُ في قبره احتَوشَتْهُ[١] أَعماله الصّالحةُ: الصلاةُ والصيامُ والحجُّ والجِهادُ والصَّدقةُ، قال: وتجيء ملائكة العَذاب من قِبَلِ رجليه، فتقولُ الصَّلاةُ: إليكُم عنه، فلا سَبيل لكم عليه، فقد أطالَ بي القيام لله عليهما، فيأتونه من قِبَلِ رأسه، فيقول الصيام)[٢]: لا سبيل لكم عليه، فقد أطال ظمأه لله تعالى في دار الدنيا، فيأتونه من قِبَل جسده، فيقول الحجُّ والجِهاد: إليكم عنه، فقد أنْصَبَ نفسه وأتَعبَ بَدَنهُ وحَجَّ وجاهَدَ لله عز وجل، لا سبيل لكم عليه، فيأتونه من قِبَلِ يَديه، فتقول الصدقة: كُفُّوا عن صاحبي، فكم من صدقةٍ خَرجَت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله عزَّ وجل ابتغاءَ وجهه، فلا سبيل لكم عليه قال: فيُقال له: نَمْ هَنيئاً طِبْتَ حيّاً وطبتَ مَيتاً. قال: وتَأتيه مَلائكة الرَّحمة فَتفرشه فِراشاً من الجنة، ودثاراً من الجنة، ويُفسَحُ له في قَبره مَدَّ بَصرِه، ويُؤتَى بقِنديلٍ من الجنَّة، فَيَستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره.

وقال محمد بن صَبيح: بلغنا أن الرجل إذا وُضع في قَبره فَعُذِّبَ وأصابه بعضُ ما يكره ناداه جيرانُه من الموتى: أيها المخلَّف في الدنيا بعضَ أَخْدانِه[٣]، أما كانَ لك فينا مُعتبراً؟ أما كان لكَ في تقدُّمنا إياكَ فكرةٌ؟ أما رأيتَ انقطاع أعمالنا وأنت في المُهلَةِ؟ فهلاَّ استدركتَ ما فاتَ إخوانك؟ وتُناديه بقاع الأرض: أيها المُغتَرُّ بظاهرِ الدنيا، هلا اعتَبرْت بمن غُيِّبَ من أهلك في بطن الأرض ممن غَرَّتهُ الدنيا قَبلك، ثم سَبقَ به أجله إلى القُبور، وأنت تراه محمولاً تَهاداهُ أَحبَّتُه إلى المنزل الذي لا بُدَّ له منه.

وكان الحسن البصري يقول: يومان وليلتان لم يَسمَع الخلائقُ بمثلهن: ليلةَ تَبيتُ مع أهل القبور ولم تَبِتْ ليلةً قَبْلَها، وليلة صَبيحتُها يوم القيامة، ويوم يأتيكَ البَشيرُ من الله إمّا بالجنَّة وإمّا بالنّار، ويوم تُعطَى كتابَكَ إمّا بيمينك وإمّا بشِمالكَ.

---

(١) احتَوشَتْهُ: أحاطت به وجعلته وسطها.

(٢) سقط من الأصل، واستدرك من الإحياء.

(٣) الأخدان: جمع خِدْن، وهو الصاحب.

بيانُ عذاب القبر وسُؤال مُنْكَر ونكير

أما عذابُ القبر؛ فأخبرنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا السَّرخَسي قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا عُثمان بن أبي شيبة قال: حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مَسْروق عن عائشة قالت: دَخلتْ عليَّ عَجوزان من عُجُزِ يَهود المدينة، فقالتا: إنَّ أهلَ القُبور يُعذَّبون في قُبورهم. قالت: فكذَّبتُهما، ولم أُنْعِمْ أن أُصدّقهما، فخرجتا، ودَخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، فقلتُ له: يا رسول اللهِ، إن عَجوزَين من عُجُزِ يَهود المدينة دَخَلتا عليَّ فَزَعمتا أنَّ أهل القُبور يُعذَّبون في قُبورهم. فقال: «صَدَقَتا، إنَّهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم». قالت: فَما رأيتُه بَعدُ في صلاةٍ إلا يتعوَّذُ من عَذابِ القَبر[١]. أخرجاه في الصَّحيحين.

وفيهما من حديث أبي أيوب الأنصاري قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ بعد ما غَربت الشمسُ، فسمع صوتاً، فقال: يَهودُ تُعَذَّبُ في قُبورِها»[٢].

وفيهما من حديث ابن عباس قال: مَرَّ رسولُ الله ﷺ بقَبرين فقال: «إنَّهما ليُعذبان، وما يُعذَّبان في كبيرٍ، أما أحدهما فكان لا يَستبرىءُ من بَولِه، وأمّا الآخَرُ فكانَ يَمشي بالنَّميمة»[٣].

وفي أفراد البُخاري من حديث أم خالد قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يتعوَّذ من عَذاب القَبر[٤]. وفي أفراد مسلم من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا أن لا تَدافنوا لدعوتُ اللهَ أن يُسمعكم عذابَ القَبر»[٥].

فإن قيل: كيفَ نُؤمن بعذاب القبر ولو كشفناه لم نَرَ لذلك أثراً.

فالجوابُ من ثَلاثَة أوجه:

أحدها: أنه يجب الإيمان به لإخبار الصادق، وإن لم تره هذه العين، فإن

(١) أخرجه البخاري (٦٣٦٦)، ومسلم (٥٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٥)، ومسلم (٢٨٦٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٢)، ومسلم (٢٩٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٣٦٤).
(٥) أخرجه مسلم (٢٨٦٨).

الصحابة كانوا يؤمنون بنزولِ جبريل وإن لم يروه، ويعلمون أنَّ النبي ﷺ يشاهد ما لا يُشاهده غيره، فكذلك الميت قد خرجَ عن حالة الدنيا، فهو يُدرك ما لا يُدركه غيره.

والثاني: أن يتذكَّر حالة النائم وأنه قد يَرى أن حَيةً تَلدغُه، فيصيح في نومه ويَفرق وأنتَ تراه ساكناً.

والثالث: أن الحيةَ لا تُؤذي بنفسها بل السُّمّ، والسُّمُّ لا يؤذي بنفسه، بل التعذيب بالأثر الذي يَحصُل عن السُّمِّ فإذا حصلَ ذلك الأثر لا عن سُمٍّ كان العذاب قد توفَّر، فالصفات المهلكات تَنقلب مُؤذياتٍ للنفوس، ويكون إيلامها كإيلام الحيّات، وقد ينقلب المحبوبُ مؤذياً كانقلاب العِشْق مؤذياً عند موت المعشوق، ومن كان يُحب الدنيا لَدغَه فراقُها لدغَ الحيّات، وقد بيَّنا أن المعنى المُدركَ للآلام لا يموتُ بل عَذابه بعد الموت أشدّ، وجميع هذه الأحوال الثلاثة تُتَصوَّر ولا تُنكر، وربما جُمِعَت على شخصٍ واحدٍ.

ذكر السؤال في القَبر

أنبأنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يوسف قال: حدثنا شَيبان عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن نَبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قَبره وتولَّى عنه أصحابُه، حتى إنه لَيَسمعُ قرعَ نِعالهم أتاهُ مَلكانِ فَيُقعِدانِه، فيقولان له: ما كُنتَ تقول في هذا الرجل؟ ـ لمحمدٍ عليه الصلاة والسلام ـ فأما المؤمن فيقول: أشهدُ أنه عبدُ الله ورسولُه، فيقال: انظر إلى مقعدكَ من النار فقد أبدَلَكَ الله عزَّ وجل به مقعاداً من الجنَّة». قال رسول الله ﷺ: «فَيَراهُما جَميعاً، وأما الكافر والمنافق، فيُقال له: ما كنتَ تَقولُ في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنتُ أقول ما يَقول الناس. فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيتَ، ثم يُضرَبُ بمِطْراقٍ من حديدٍ ضربةً بين أُذنيه، فيصيح صيحةً فَيَسمعها كلُّ مَن يَليه غير الثَّقلَين»[1] أخرجاه في الصَّحيحين.

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٨) و(١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠) و(٧١).

وفيهما من حديث أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «أُوحيَ إليَّ أنكم تُفتَنون في قُبوركُم مثل - أو قال: قريباً - من فتنة المسيح الدَّجال، يُقال: ما عِلمُكَ بهذا الرجل؟ أما المُؤمِن والمُوقن، فيقول: هو محمد، هو رسولُ الله؛ جاءنا بالبينات والهُدى فأجبنا واتَّبَعْنا. فيُقال: نَمْ صالحاً، قد علمنا إن كُنتَ لموقناً به، وأما المنافق أو المُرتاب، فيقول: لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً فَقُلْتُه»[1].

وفيهما من حديث البَراءِ بن عازِب عن النبي ﷺ أنه قال: «المُسلمُ إذا سُئِلَ في القَبرِ يَشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمداً رسولُ الله، فذلك قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾»[2] [إبراهيم: ٢٧].

أنبأنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو عامر قال: حدثنا عَبَّاد يَعني ابن راشد عن داود بن أبي هند عن أبي بَصْرَة عن أبي سعيد الخدري قال: شَهِدنا مع رسول الله ﷺ جنازةً، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أيُّها الناس، إن هذه الأُمة تُبتَلى في قُبورها، فإذا الإنسان دُفِنَ فتفرق عنه أصحابُه جاءَهُ ملكٌ في يده مِطراقٌ[3] فأقْعدَه، وقال: ما تَقولُ في هذا الرجل؟ فإن كان مُؤمناً قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه. فيقول: صدقت. ثم يُفتح له بابٌ من النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرتَ بربكَ، فأما إذْ آمنت فهذا منزلك، فيُفتح له بابٌ إلى الجنَّة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسْكُن، ويُفْسَح له في قَبره، وإن كان كافراً أو مُنافقاً يقول له: ما تقول في هذا الرَّجل؟ فيقول: لا أدري، سمعتُ الناس يقولون شيئاً. فيقول: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ ولا اهتَديتَ. ثم يُفتَح له بابٌ إلى الجنة، فيقول: هذا منزلُكَ لو آمنتَ بربِّك، فأما إذْ كَفَرتَ به فإنَّ الله أبدَلَكَ هذا ويُفتح له بابٌ إلى النار، ثم يَقْمعُه قَمعةً بالمِطراق يَسمعُها خَلقُ الله عزَّ وجلَّ كلهم غير الثَّقلين» فقال بعض القوم: يا رسولَ الله، ما أحدٌ يقوم عليه مَلَكٌ في يده

---

(١) أخرجه البخاري (٨٦) و(١٨٤) و(٩٢٢)، ومسلم (٩٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

(٣) المِطراق: آلة يُضرب بها.

مِطْراق إلا هِيلَ[١] عند ذلك. فقالَ رسولُ الله ﷺ: ﴿يثبتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ذكر ضَغطَةِ القَبر

أنبأنا محمد بن ناصر قال: أخبرنا علي بن محمد الأنباري قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن بشران قال: حدثنا أبو حفص بن شاهين قال: حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد قال: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شَقيق قال: سمعتُ أبي قال: أخبرنا أبو حمزة عن سُليمان الأعمش عن سُليمان. يعني التَّيمي. عن أنس بن مالك قال: لما تُوفِّيت زَينب بنتُ رسولِ الله ﷺ، وكانت امرأةً مِسْقامَةً[٢]، فتبِعها رسولُ الله ﷺ فَساءَنا حالُه، فلما دخلَ القَبرَ التمعَ وَجهُهُ صُفرةً، ثم أَسفَر وَجُهه، فقلنا: يا رسولَ الله، رأينا منكَ أمراً ساءَنا، فلما دَخلتَ القبرَ التَمعَ وَجهُكَ صُفرةً، ثم أسفَر وَجهُكَ، فَمِمَّ ذاك؟ قال: «ذكرتُ ضَعْفَ ابنَتي وشِدَّةَ عذابِ القَبر فأُتيتُ فأُخْبِرتُ أنه قد خُفِّفَ عنها، ولقد ضُغِطَت ضَغةً سمع صوتها ما بَينَ الخافِقَين»[٣].

قال ابنُ شاهين: وحدثنا عبد الله بن سليمان ابن الأشْعث قال: حدثنا علي بن مِهران قال: حدثنا عبد الله بن رُشَيد قال: حدثنا أبو عبيدة وهو مُجّاعَة بن الزُّبَير عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي حازم عن ابن عباس قال: لما أُخرجت جنازة سَعدِ بن معاذ وسَوَّينا عليه التفتَ إلينا رسولُ الله ﷺ فقال: «ما مِن أحدٍ من الناس إلا وله ضَغطة في قبره، ولو كان مُنفَلِتٌ منها أحد لانْفَلَتَ سعدُ بن معاذ» ثم قال: «والذي نفسي بيده، لقد سمعتُ أنينَه ورأيتُ اختلافَ أَضْلاعه في قَبره».

* * *

(١) هِيلَ: أوقِعَ في الهَولِ والفَزع على بناء المفعول، من: هالَه هولاً: إذا أفزَعه.
(٢) مسقامة: كثيرة الأمراض.
(٣) نسبه العراقي في المغني عن حمل الأسفار لابن أبي الدنيا في كتاب الموت.

الباب الثامن

في ذكر ما عُرفَ من أحوال الموتى بالمُكاشَفة في المنام

اعلم أن أنوارَ البَصائرِ المُستفادةِ من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسولِه ﷺ ومن مناهج الاعتبار تُعرِّفُنا أحوالَ الموتى على الجُملة، وانقسامهم إلى سُعداء وأشقياء، ولكن حال زَيد وعمرو بعَينهِ لا ينكشف؛ لأنا إن عَوَّلنا على إيمان زيدٍ فلا ندري على ماذا مات؟ وما الذي خُتم له؟ وإن عوَّلنا على صَلاحِه الظاهر، فمحلُّ التَّقوى القلب، وذلك غامضٌ يَخفى على صاحب التَّقوى فكيفَ على غيره؟ فلا حكم لظاهر الصَّلاح دون التَّقوى الباطنة، قال الله عزَّ وجل: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ [المائدة: ٢٧]، فلا يُمكن معرفةُ حكمِ زَيدٍ وعمروٍ إلا بمشاهدته ومُشاهدة ما يَجري عليه، فإذا ماتَ فقد تحوَّل من عالَم المُلك والشَّهادة إلى عالم الغَيب والمَلكوت، فلا يُرى بالعين الظاهرة، وإنما يدرك بعينٍ أخرى خُلِقت تلك العين في قلب كل إنسان، لكن عليها غشاوة الشَّهوات الدُّنيوية، ولا يتصور أن يُبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغِشاوة عن عين قلبه.

ولما كانت الغِشاوة مُنقَشِعَة عن أعيُن الأنبياء عليهم السلام نَظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائِبَه، والموتى في عالَم الملكوت، فَشاهدوهم وأخبروا، ولذلك رأى رسولُ الله ﷺ ضَغْطَه القَبر في حقِّ ابنَتِه، وفي حَقِّ سَعد بن معاذ، ومثل هذه المشاهدة لا مَطمع فيها لغير الأنبياء، وإنما يَنالُ المؤمن مرتبةَ الرؤيا التي هي جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوة وهو أيضاً انكشافٌ لا يَحصُل إلا بانقِشاعِ الغِشاوة عن القلب، فلذلك لا يُوثق إلا برؤيا الرَّجُلِ الصّالح، ومَن كَثُر كذبه لم تَصْدُق رُؤياه، ومن كَثُرت معاصيه أظلمَ قَلبُه، فكان ما يراه أضْغاث أحلام، ولذلك أمرَ رسولُ الله ﷺ بالطَّهارة عند النَّوم، وفي ذلك إشارةٌ إلى تطهير الباطِن أيضاً؛ لأنه

الأصل، وطهارة الظاهر بمنزلة التَّتِمَّة والتكملة لها، ومتى صَفَا الباطن انكشَف في حَدَقةِ القلب ما سَيكونُ في المُستَقبل، فتكون الرؤيا صادقة.

ومعرفة الغَيب في النَّوم من عجائب صُنعِ الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي، وهو من أوضح الأدلة على عالم المَلَكوت، والخلقُ غافلون عنه لغَفلتهم عن جميع عِجائِبِ القَلبِ وعجائب العالم.

والقولُ في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المُكاشفة، فلا يمكن ذكره علاوةً على علم المعاملة، ولكن القَدر الذي يمكن ذكره هاهنا مثالٌ يفهمك المقصود، وهو أن تَعلمَ أنَّ القَلبَ مثاله مثال مرآةٍ تَتَراءى فيها الصُّوَر وحقائق الأمور، وإن كان ما قدَّر اللهُ تعالى من ابتداء خَلق العالم إلى آخره مَسطورٌ ومُثبتٌ في اللَّوح، واللَّوح في المثال كمرآةٍ تظهر فيها الصُّوَر، فلووُضِع في مُقابلة المرآةِ مرآةٌ أُخرى لكانت صورة تلك المرآة تَتَراءى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب، فالقلبُ مرآة تَقبَلُ رسومَ العلوم، واللّوحُ مرآة رسوم العلوم، كأنها موجودة فيها، واشتِغال القَلب بشهواته ومُقتضى حواسِّه حجابٌ مُرْسَلٌ بينه وبينَ مُطالعة اللَّوح الذي هو من عالم الملكوت، فإن هبَّت ريحٌ حرّكَت هذا الحجاب ورَفعتهُ تلألأَ في مرآةِ القَلبِ شَيءٌ من عالم المَلَكوت، كالبَرق الخاطف، وقد يَثبت ويدوم، وقد لا يدوم، وهو الغالب، وما دام مُتيقِّظاً فهو مشغولٌ بما تُورِده الحواسُّ عليه من عالَم المُلْكِ والشَّهادةِ، وهو حجابٌ من عالم الملكوت، ومعنى النوم أن تَركُدَ الحواسُّ فلا تُورِدُ على القلب، فإذا تخلَّص منه ومن الخيال، وكان صافياً في جَوهَرِه ارتفَعَ الحجابُ بينَه وبينَ اللَّوح المحفوظ، فوقَع في قَلبه شَيءٌ مما في اللَّوح، كما تَقعُ الصُّورَةُ من مرآةٍ في مرآةٍ إذا ارتَفَع الحجاب بينهما، إلا أن النوم مانعٌ لجميع الحَواس عن العَمل، وليس مانعاً للخَيال عن عمله وتحركه، فما يقع في القَلب يَبْتَدِرُه الخيال فَيُحاكيه بمثالٍ يُقاربه، وتكون المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحِفظ، فإذا انتَبَه لم يتذكَّر إلا الخيال، فيحتاج المعبِّر أن ينظر إلى أن هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني، فيرجع إلى المعاني بالمناسبة التي بَينَ المتخيَّل والمعاني، وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التَّعبير، ويكفيكَ مثالٌ واحدٌ؛ وهو أن رجلاً قال لابن

سيرين: رأيتُ كأنَّ بيدي خاتماً أختم به أفواه الرِّجال وفُروجَ النِّساء. فقال: أنتَ مُؤذِّن تُؤذِّنُ قَبلَ الصُّبحِ في رَمضان. فقال: صَدقتَ. فانظر إلى أن روحَ الخَتم هو المنع ولأجله يُراد الختم. وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه، وهو كونه مانعاً للناس من الأكل والشُّرب، ولكن الخيال ألفَ المنعَ عند الخَتم بالخاتم فَتمثَّلَه بالصورة الخيالية التي تَتضمن رُوح المعنى، ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية.

فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ من بحر علمِ الرؤيا الذي لا تَنحصِرُ عجائبه، وكيف لا وهو أخو الموت، وإنما أشبهه من وجهٍ ضعيف أثّر في كَشفِ الغِطاء عن عالم الغَيب حتى صار النّائم يعرف ما سيكون في المُستقبل، فماذا تقولُ في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغِطاء بالكُليَّة؟ حتى يرى الإنسان عند انقطاع النَّفَس من غير تأخيرٍ نَفسَه إما محفوفةً بالأنكال والمَخازي والفضائح، وإما مكنوفاً بنعيمٍ مُقيمٍ لا آخِرَ له، فلو لم يكن للعاقل هَمٌّ وغَمٌّ إلا الفِكرة في خَطر تلك الحال وعن ماذا يرتفع الحجاب، وما الذي ينكشف عنه الغِطاء من شَقاوةٍ لازمةٍ أو سَعادة دائمةٍ، لكان ذلك كافياً في استِغراق جميع العُمر، فالعجب من غَفلَتنا وهذه العظائم بين أيدينا وأعجب من ذلك فَرَحنا بما سَنُفارقه ويفارقنا!

ولما كانت الحقائق مُنْكَشفة لنبينا ﷺ كان في الدنيا كعابرِ سَبيل، لم يَضَعْ لَبنةً على لبنةٍ، ولا قَصَبةً على قَصبةٍ، ولم يُخلِّفْ ديناراً ولا دِرهماً، ولم يتخذ خَليلاً، وبيَّنَ أن خلَّةَ الرحمن تَخلَّلت باطن قلبه فلم تَترك فيه مُتَّسعاً لخليل ولا حبيب، وقد قال لأُمَّته: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، وما اتبعه إلا مَن أعرض عن الدُّنيا وأقبل على الآخرة، وهيهات! كَم بَينكَ وبينَ أتْباعِه! فإنكَ ما تكادُ تتحرَّكُ إلا لعاجِل الدُّنيا.

بيان منامات تكشِفُ عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمن ذلك رؤيا رسول الله ﷺ، وفي الصحيحين من حيث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من رآني في المنام فقد رآني، فإنَّ الشَّيطان لا يتمثَّل في صورتي»[1].

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٣)، ومسلم (٢٢٦٦) (١١).

وقال عمر بن الخطاب: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام فقال: ألستَ المُقبِّلُ وأنت صائم؟ قال: فوالَّذي نَفسي بيده لا أُقَبِّلُ امرأةً وأنا صائمٌ أبداً.

وقال العباس: كنتُ جاراً لعمر بن الخطاب، فما رأيتُ أحداً من الناس كان أفضل من عُمر، إنَّ لَيلَه صلاةٌ، وإن نهارَه صيامٌ وفي حاجات الناس، فلما تُوفِّي عُمر سألتُ اللهَ عزَّ وجل أن يُريَنيه في النَّوم، فرأيتُه في النوم مُقبِلاً مُتَّشِحاً من سوق المدينة، فسلَّمتُ عليه وسلَّمَ عليَّ، ثم قلتُ له: كيفَ أنتَ؟ قال: بخير. فقلتُ له: ما وجدتَ؟ قال: الآنَ حين فَرغتُ من الحِساب ولقد كاد عرشي يَهوي بي لولا أني وجدتُ رَبّاً رحيماً.

ورُئيَ ابنُ سيرين فقيل له: ما صَنَع الحَسَن؟ فقال: رُفِعَ فَوقي بسَبعين درجة. قيل: وبِمَ ذلك؟ قال: بطول حُزنِه.

أنبأنا أبو مَنصور القَزّاز قال: حدثنا أبو بكر بن ثابت قال: أخبرنا محمد بن البزار قال: حدثنا رشيق المصري قال: حدثنا أحمد بن سعيد الورّاق، حدثنا عمر بن سعيد عن عبد الرحمن بن مهدي قال: رأيتُ سُفيان الثَّوري في المنام فقلتُ: ما فَعلَ اللهُ بكَ؟ قال: لم يكن إلا أن وُضِعْتُ في اللَّحدِ حتى وُقِفتُ بين يَدي الله تعالى فحاسَبني حِساباً يسيراً، ثم أمر بي إلى الجنَّة، فبينا أنا أدورُ بين أشجارها وأنهارها، ولا أسمع حِسّاً ولا حركةً إذْ سمعتُ قائلاً يَقول: سُفيان بن سعيد؟ فقلت: سُفيان بن سعيد. فقال: تَحفظ أنك آثرتَ اللهَ على هَواكَ يوماً؟ قلتُ: إي والله. فأخذتني هواتف البشائِر من جميع الجنة.

قال قَبيصةُ: رأيتُ سُفيانَ في النَّوم فقلتُ: ما فَعل الله بك؟ فقال:

نَظرتُ إلى رَبّي كِفاحاً وقال لي ... هَنيئاً رضائي عنكَ يا ابنَ سَعيدِ

فَقد كُنتَ قَوّاماً إذا أظلمَ الدُّجى ... بِعَبرةِ مُشتاقٍ وقَلبِ عَميدِ

فدونَكَ فاختَر أيَّ قصرٍ أَرَدْتَهُ ... وَزُرْني فإنّي منكَ غيرِ بَعيدِ

أنبأنا عُمر بن ظَفَر قال: أخبرنا يحيى بن أحمد السِّيبي قال: أخبرنا محمد بن المظفَّر الدِّينوري قال: حدثنا أبو إسحاق المُزَكّي قال: حدثني عبد الله قال: سمعتُ

حَوثَرة بن محمد المقري يقول: رأيتُ يزيدَ بن هارون في المنام بعد موته بأربع ليالي، فقلت: ما فعلَ اللهُ بكَ؟ قال: تقبَّل مني الحَسَنات، وتجاوزَ عن السَّيئات وَوَكَلَ التَّبِعات. قلتُ: وما كان بعد ذلك؟ قال: وهل يكونُ من الكريم إلا الكَرَم؟ غَفَر لي ذنوبي، وأدخلني الجنَّة. قلتُ: بما نِلتَ الذي نلت؟ قال: بمجالس الذكر، وقولي الحق، وصِدقي في الحديث، وطول قِيامي في الصلاة، وصَبري على الفَقر. قلتُ: مُنكرٌ ونكيرٌ حَقٌ؟ قال: إي والله، إي والله الذي لا إله إلا هو، لقد أقعداني وسألاني: مَن رَبُّك؟ وما دينك؟ ومن نَبيُّكَ؟ فجعلتُ أنفُضُ لحيتي البيضاء من التُّراب وقلتُ: مثلي يُسأل؟ أنا يزيد بن هارون الواسطي، كنتُ في دار الدنيا ستّين سنة أُعلِّم الناس. فقال أحدهما: صدقَ، هو يزيد بن هارون، نَمْ نومةَ العَروس، فلا رَوعة لك بعد اليوم. قال أحدهما: كتبتَ عن جَرير بن عُثمان؟ قلتُ: نَعم، وكان ثقةً في الحديث. قال: ثقة، ولكنه كان يُبغضُ علياً أبغَضَه اللهُ.

أنبأنا إسماعيل بن أحمد قال: أخبرنا محمد بن هِبة الله الطَّبري قال: أخبرنا أبو الحسين بن بِشْران قال: حدثنا أبو علي البَردهي قال: حدثنا أبو بكر بن عُبَيد قال حدثني محمد بن الحسين قال: حدثني عيسى بن مرحوم قال: حدثتني عَبدةُ بنت أبي شوّال، وكانت من خِيار إماء الله وكانت تخدم رابعة قالت: كانت رابعةُ تُصلّي الليلَ كُلَّه، فإذا طلَعَ الفجرُ هَجَعت في مُصَلّاها هجعةً خفيفةً حتى يُسفِرَ الفَجرُ، فكنت أسمعها تَقول إذا وثبت من مرقدها ذلك فَزِعَةً: يا نَفسُ، كم تَنامين؟ وإلى كم تقومين؟ يوشك أن تنامي نومةً لا تقومين منها إلا لصرخَةِ يوم النُّشور. قالت: فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت، فلما حضَرَتها الوفاةُ دعتني فقالت: يا عَبدة، لا تُؤْذِني بموتي أحداً، وكفِّنيني في جُبَّتي هذه؛ جُبَّةٌ من شعر كانت تقوم بها[1] إذا هَدَأت العُيون، قالت: فَكفَّناها في تلك الجُبَّة وخمارِ صوفٍ كانت تَلبَسُه. قالت عبدة: فرأَيتُها بعد ذلك بسَنةٍ أو نحوها في منامي وعليها جُبَّةُ إستَبرق خضراء، وخمارٌ من سُنْدس أخضر لم أَرَ شيئاً قَطّ أخضر منه، فقلت: يا رابعة، ما فَعلَتِ الجُبَّةُ التي كَفَّناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنه والله نُزع عَنّي وبُدِّلتُ به هذا الذي تَرينه،

(١) سقطت من الأصل.

وطُويَت أكفاني، وخُتم عليها، ورُفعت في عِلِّيين ليكمل لي بها ثوابها يوم القيامة. قالت: فقلتُ لها: لهذا كنتِ تَعْملين أيامَ الدنيا؟ فقالت: وما هذا عندما رأيتُ من كَرامةِ الله عزَّ وجل لأوليائِه؟! فقلتُ: فما فَعَلت عَبْدةُ بنتُ أبي كلاب؟ فقالت: هيهاتَ هيهات! سَبقتنا والله إلى الدَّرجات. قُلتُ: هي سبقت، وقد كُنتِ عند الناس أكبر منها؟! قالت: إنها لم تكن تُبالي على أيِّ حال أصبحت من الدنيا أو أَمسَتْ. فقلتُ: فما فَعل أبو مالك؟ يعني ضَيغَماً. قالت: يَزُورُ الله عزَّ وجل متى شاءَ. قلتُ: فما فعل بِشْرُ بنُ السَّري؟ قالت: بَخٍ بَخٍ، أُعطيَ والله فوقَ ما كان يَأمل. قلتُ: فَمُريني بأمرٍ أتقرَّب به إلى الله تعالى. قالت: عليكِ بكثرةِ ذكرِ الله عزَّ وجل، فيوشك أن تُغبَطي بذلك في قَبرِك.

وقال يزيد بن مَذعور: رأيتُ الأوزاعيَّ في المنام، فقلتُ: يا أبا عمرو، دُلَّني على عملٍ أتقرَّبُ به إلى الله عزَّ وجلَّ. فقال: ما رأيتُ هناك درجةً أرفع من درجةِ العُلماء، ثم درجة المَحْزونين.

وقال أحمد بن أبي الحواري: رأيتُ في النوم جاريةً ما رأيتُ أحسنَ منها، وكانَ وَجْهُها يَتلألأُ نوراً، فقلتُ لها: مِمّاذا ضَوءُ وَجهكِ؟ فقالت: أتذكُر الليلةَ التي بَكيتَ فيها؟ قلتُ: نعم. قالت: أخذتُ دمعتَكَ فمسحتُ بها وَجهي فَمن ثَمَّ ضَوء وَجْهي كما ترى.

وقال علي الطَّلحي: رأيتُ في المنام إمرأةً لا تُشبِهُ نِساء الدنيا، فقلت: مَن أنتِ؟ فقالت: حَوْراء. قلتُ: زَوِّجيني نَفسَكِ. فقالت: اخْطبني إلى سَيِّدي وأَمْهِرني. قلتُ: ما مَهرُكِ؟ قالت: حَبسُ نَفسِكَ عن مَألوفاتِها.

وقال الربيعُ بن سُليمان: رأيتُ الشافعيَّ في المنام فقلتُ: ما صَنعَ اللهُ بكَ؟ قال: أجلسني على كُرسيٍّ من ذَهَب، ونَثَر عليَّ اللُّؤلؤَ الرَّطب.

وقال المَرُّوذيُّ: رأيتُ الإمام أحمدَ بن حنبل في النوم كأنَّه في رَوضةٍ وعَليه حُلَّتان خضر، وعلى رَأسِه تاجٌ من النُّور، وإذا هو يَمشي مِشيةً لم أكن[1] أعرفها له،

(١) تحرفت في الأصل إلى: «مشية المراكن».

قلت: يا أحمد، ما هذه المشية التي لا أعرفها لك؟ فقال: هذه مِشية الخُدّام في دار السَّلام. فقلتُ له: ما هذا التَّاجُ الذي أراه على رأسِك[١]؟ فقال: إنّ ربّي عزَّ وجلّ وَقَفني، فحاسبني حساباً يَسيراً، وكَساني وحَبَاني[٢] وقربني وأباحَني النَّظرَ إليه[٣] وتَوَّجني بهذا التَّاج، وقال لي: يا أحمدُ، هذا تاجُ الوَقار، تَوَّجتُكَ به كما قلتَ القُرآن كلامي: غَير مخلوق.

* * *

(١) تحرفت في الأصل إلى: «نفسك».

(٢) حَباني: أعطاني، والحِباء: العطاء.

(٣) سقطت من الأصل.

الشَّطر الثاني من كتاب ذِكر الموت

نذكر فيه أحوال الميت من وقتِ نَفْخةِ الصُّور إلى حين الاستِقرار في الجنَّة أو النّار

فيدخل في ذلك: حديثُ نَفخِ الصُّور، والحَشر، وطول القِيامة ودَواهيها، وصِفة الحَوض والشَّفاعة، والصراط، وصفة جهنَّم، وصفة الجنَّة، وصفة النَّظر إلى الله تعالى، ثم نختم الكتاب ببَيان سَعِة رحمةِ الله تعالى.

ذكر النَّفخ في الصُّور

قد أشرنا إلى أهوالِ الموت والقَبر، وأن أشد من ذلك نَفخ الصُّور والبَعث، والحساب ونَصبِ الميزان لمعرفة مَقادير الأعمال، وجَواز الصِّراط على دِقَّته وحدته ثم النداء بالسَّعادة أو الشَّقاوة، فهذه أحوال يجب الإيمان بها وينبغي تَطويل الفِكر فيها لتَنبعِثَ من القلب دواعي الاستعداد لها.

وجمهورُ الناس لم يتمكن من قلوبهم الإيمان بالآخرة كما ينبغي، بدليل تشميرهم للدنيا وتَهاونهم بالعمل للآخرة، إنما ينطقون بالإيمان من غير عملٍ بمقتضاه، فمثَلُهم كمثَل من قيل له: لا تأكل هذا الطعام فإنّه مَسموم. فقال للمُخبِرِ: صدَقتَ، ثُمَّ مَدَّ يده ليأكل، فهذا مُصدِّقٌ بلسانِه، مُكَذِّبٌ بفِعلهِ، وإنما تَفتُر البواطن إذا قَلَّ اليقينُ، ويَصعبُ التَّصديقُ بالبَعثِ لقلَّةِ الفَهم لمثل ذلك، ولو أن الإنسان لم يُشاهد تَوالد الحيوانات، ثم قيلَ له: إن صانعاً يَصنع من هذه النُّطفةِ القَذِرةِ مثلَ هذا الآدمي المصوَّر العاقل المتكلِّم المتصرف، لاشتدَّ نُفور باطنِه عن التَّصديق بذلك، فخلقُهُ على ما فيه من الأعاجيب يزيدُ على بعثه وإعادته، فكيف يُنكر ذلكَ مِن قُدرةِ الله وحِكمتِه مَن يُشاهد البِداية؟

فإن كان في إيمانك ضَعفٌ فَقَوِّ الإيمان بالنَّظر في النَّشْأةِ الأُولى، فإن الثانية

مثلها وأسهل منها، وإن كنتَ قويَّ الإيمان بها فأَشْعِر قلبكَ تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكُّر والاعتِبار ليَحثَّك ذلكَ على الجِدِّ والتَّشْمير.

وتفكَّر في أول ما يقرعُ أسماعَ الموتى فيثورون في دفعةٍ واحدةٍ، وهو صوت النَّفخ في الصُّورِ، فتوهَّم نفسَكَ وقد قُمتَ ذاهِلاً مبهوتاً شاخِصاً نحو النِّداء، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

أنبأنا الكروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأزدي وأبو بكر الغُورجي قالا: أخبرنا الجَرَّاحي قال: حدَّثنا المحبوبي قال: حدَّثنا التِّرمذي قال: حدثنا ابن أبي عُمر قال: حدثنا سُفيان عن مُطَرِّف عن عَطيةَ العَوفي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كيف أنعَمُ وقد التَقَمَ صاحبُ القَرنِ القَرنَ، حَنَى جَبهتَهُ، وأَصغى سَمعه ينتظر أنْ يُؤمَرَ أن يَنفخ فَينفخ» قال المسلمون: فكيف نقولُ يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حَسبُنا الله ونعمَ الوَكيل، وتوكَّلنا على الله»[1].

فتفكَّر في حالةِ القيامِ حينئذٍ، والمُتَجبِّرون كالذَّرِّ يَطَؤهم الناسُ، وحُشِرَت الجنُّ والإنسُ والطَّيرُ والهوام والوحوشُ كلها ذَليلةٌ من غير خَطيئةٍ تَدنَّست بها.

صِفةُ أرضِ المَحشَر وأهله

ثم انظر كيف يُساقون بعد البعث حُفاةً عُراةً إلى أرضِ المحشر، وهي قاعٌ ليس فيها رَبوة يَختفي الإنسانُ وراءها، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعدٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بَيضاءَ عَفْراء، كقُرْصَةِ النَّقيِّ»[2].

وفيهما من حديث عائشةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تُحشرون يومَ القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً». قالت عائشة: يا رسولَ الله، الرجالُ والنِّساء يَنظُر بَعضُهم إلى بعض؟! قال: «يا عائِشة، إن الأمر أشد من أن يُهِمَّهم ذلكَ»[3].

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠). وقوله: «عَفراء» أي: بياضها يضرب إلى حُمرةٍ قليلة، وقوله: «كقرصة النقي» أي كالخُبز النقي عن القشر والنخالة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) (٥٦)، وأحمد (٢٤٢٦٥)، وقوله: «غُرْلاً» أي: غير مختونين.

وفيهما من حديث أنس أن رجلاً قال: يا نَبيَّ الله، كيف يُحشَر الكافرُ على وَجهِهِ؟ فقال: «أليس الذي أمشاه على الرِّجلين في الدنيا قادرٌ على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة؟»[١].

أنبأنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى بن بَهز بن حكيم عن أبيه عن جَدِّه عن النبي ﷺ قال: «إنكم مَحشورونَ رجالاً ورُكباناً، وتُجَرّون على وُجوهكم»[٢].

ثم تفكَّر في ازدِحام الخَلائق، وقُربِ الشَّمس من رؤوس الناس، وشِدَّة العَرق مع ما في القُلوب من القَلق، فأَقدام الناس في ازدِحامها كالنَّبلِ في الجعبة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَعْرقُ الناسُ يومَ القيامة حتى يذهب عَرقُهم في الأرض سَبعين ذراعاً، ويُلجِمهم حتى يَبلغ آذانَهم»[٣].

وفيهما من حديث ابن عُمر عن النبي ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: «يَقومُ أحدهم في رَشْحِه إلى أنصافِ أُذُنَيه»[٤].

أنبأنا ابن الحُصين قال: أخبرنا ابن المُذهِب قال: أخبرنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا إبراهيم بن إسحاق قال: حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: حدثني سُليم بن عامر قال: حدثني المِقداد قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا كان يومُ القيامة أُدْنِيَت الشَّمسُ من العِباد حتى تكون قِيدَ ميلٍ أو ميلَين» قال: «فتَصْهَرُهم الشمسُ، فيكونون في العَرَقِ كقَدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عَقِبيه، ومنهم من يأخذه إلى رُكبَتيه،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٦٠) و(٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٠٣١) و(٢٠٠٥٠)، والترمذي (٢١٩٢) و(٢٤٢٤) و(٣١٤٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٩٧٦)، والحاكم (٤/ ٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٢)، ومسلم (٢٨٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٣٨) و(٦٥٣١)، ومسلم (٢٨٦٢).

ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيه، ومنهم من يُلجِمُه إلجاماً». انفردَ بإخراجه مسلم[١].

واعلم أنه من لم يَعرَق في التَّعب في طاعةِ الله، فسيَعرقُ في مَقام النَّدم والخَجل في يوم كان مقدارُه خَمسينَ ألف سَنَة.

قالَ الحَسَن: ما ظَنُّكَ بقوم قاموا على أقدامهم خَمسينَ ألف سنةٍ، لم يأكلوا ولم يشربوا، حتى إذا انقطعت أعنَاقُهم عَطَشاً، واحترقت أجوافُهم جُوعاً، انُصرِفَ بهم إلى النار، فَسُقوا من عينٍ آنيةٍ.

فتفكَّر في طول ذلك اليوم ليَهونَ عليك الصبرُ عن المعاصي في أيام قصارٍ، على أن ذلك اليوم الطويل يُهَوَّنُ على المؤمن، فَيكون كمِقدار صَلاةٍ مكتوبةٍ، ويَروَى من الحوض إذا عَطِشَ الأكثرون، فإنه حَوضٌ عَظيمٌ، آنِيتُه عدد نجوم السَّماء، أول الناس وروداً عليه فُقراء المهاجرين؛ لأنهم عَطِشوا من مَشارب الهَوَى فصَبروا فَسُقُوا، فَيالَه من يومٍ تَرى السماءَ فيه قد انفطرَت، والكواكبُ قد انتَشَرت، والنجومَ الزَّواهرَ قد انكَدرتْ، والشمسَ قد كُوِّرَت، والجبالَ قد سُيِّرت، والبحارَ قد سُجِّرَت، والجحيمَ قد سُعِّرَت، وظَهرت الفَضائح، وشَهِدَتِ الجَوارح، فواعجباً لمن يُؤمن بالآخرة ويَعلم قُربَها، ثم يَسكُن إلى الدنيا ويُؤثر الهَوَى!

ذِكر المُساءَلَة

ثم تفكَّر يا مسكين في سُؤال رَبِّك إيّاكَ عن أعمالِكَ بغير واسطةٍ، فقد رَوى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «يُعرض الناسُ يومَ القيامة ثَلاث عَرضات: فأمّا عَرضتان؛ فجدالٌ ومَعاذير، وأما الثالثة؛ فعند ذلك تَطيرُ الصُّحفُ في الأَيدي، فآخِذٌ بيَمينِه، وآخِذٌ بشِمالِه»[٢].

وفي الصحيحين من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن نُوقش يومَ القِيامة عُذِّبَ»[٣].

أنبأن الكَروخي قال: أخبرنا أبو عامر الأَزدي وأبو بكر الغُورَجي قالا: أخبرنا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، وأحمد (٢٣٨١٣)، والترمذي (٢٤٢١)، وابن حبان (٨٣٣٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٢٥)، وابن ماجه (٤٢٧٧).
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

الجَرّاحي قال: حدثنا المَحبوبي قال: حدثنا التِّرمذي قال: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن قال: أخبرنا الأسود بن عامر قال: حدثنا أبو بكر بن عَيّاش عن الأعمش عن سَعيد بن عبد الله بن جُريج عن أبي بَرْزَةَ الأَسلمي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَزولُ قَدَما عبدٍ حتى يُسأَل عن عُمره فيما أَفناه، وعن عِلمه فيما فَعَل فيه، وعن ماله من أين اكتَسبه وفيما أَنْفَقه»[(١)].

أنبأنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن خيثمةَ عن عدي بن حاتم قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنكم من أحدٍ إلا سَيُكلِّمه رَبُّه تباركَ وتعالى ليس بينه وبَينه تَرْجُمان، فينظر عن أيمن منه، فلا يرى إلا شيئاً قَدَّمَه، وينظر عن أشأَم منه، فلا يرى إلا شيئاً قدَّمَه، وينظر أمامه فَتَسْتَقبِلُه النار، فمن استطاع مِنكم أن يتَّقي النارَ ولو بشِقِّ تَمرة، فَليفعل»[(٢)].

قال أحمد: وحدثنا عفّان، قال: حدثنا هَمّام قال: حدثنا قَتادة عن صَفوان بن مُحرِز قال: كنتُ آخِذاً بيد ابنِ عمر إذ عَرضَ له رجلٌ، فقال: كيفَ سمعتَ رسولَ الله ﷺ يَقولُ في النَّجوى[(٣)] يومَ القيامة؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدني المُؤمن، فيضَع عليه كَنَفَه[(٤)] ويَسْتُره من النّار، ويُقرِّره[(٥)] بذُنوبه، ويقول له: أتعْرِف ذَنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قَرَّرَهُ بذنوبه ورأى في نَفسه أنه قد هَلَكَ، قال: فإنّي قد سَترتُها عليكَ في الدنيا، وأنا أغفِرها لكَ اليوم» قال: «ثم يُعطَى كتابَ حَسناته، فأما الكُفّار والمُنافِقون ﴿يقول الأشهاد هولاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [هود: ١٨]»[(٦)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦) (٦٧)، وأحمد (١٨٢٤٦)، والترمذي (٢٤١٥)، وابن ماجه (١٨٥) و(١٨٤٣).

(٣) أي في النجوى بين الله تعالى وبين العبد.

(٤) الكنَفَ: الحِرز والستر.

(٥) يُقرِّره: أي يَحمله على الإقرار.

(٦) أخرجه البخاري (٢٤٤١) و(٦٠٧٠) و(٧٥١٤)، ومسلم (٢٧٦٨).

فَصل

وإذا قالت الملائِكَةُ للشَّخص: قُم يا فُلان إلى الحِساب. ارتَعدت الفَرائِصُ[(١)]، واضطربت الجوارح، وتمنى أقوامٌ أن لو حُمِلوا إلى النار ولا تُعرَضُ قبائحهم على خالِقهم، ثم يُؤتَى بجهنم فتَزفرُ، فَيَجثو الناسُ على رُكَبِهم، ويقول كل نَبيٍّ: نَفسي نَفسي. تَبلغ القلوبُ الحَناجِرَ، وتَذهَلُ العقول، فتوهَّمْ نَفْسَك يا مِسكين وقد أَخَذت الملائكة بيدِكَ وأقامَتْكَ بين يَدَي رَبِّكَ، فيقول: ألم أُنعِم عليكَ؟ ألم أفعل بك؟ ألم أَفعل بك؟ فإن أنكرتَ شَهِدَتْ جوارحُكَ، ومن الناس مَنْ يقولُ: لا أُجيزُ عليَّ إلا شاهداً مني. فيُخْتَمُ على لِسانه وتَنطِقُ أركانُه، ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام، فيقول لجوراحه: بُعداً لكنَّ وسُحقاً، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِل، يا ليتَ شعري بأيِّ قَدم تَقِفُ بينَ يديه؟ وبأيِّ لسانٍ تُخاطِبه؟ وماذا تقولُ إذا قال: ما استَحييتَ مِنّي، أظننتَ أنيِّ لا أراك؟

صِفَةُ الميزان

ثم تفكَّر في الميزان، فقد قال عزَّ وجل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها بكت يوماً عند رسولِ الله ﷺ فقال لها: «ما يُبكيكِ؟» قالت: هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال: «أما في ثلاثةِ مَواطن فلا يَذكُر أحدٌ أحداً: عندَ الميزان حتى يُوضَع حتى يَعلم أَتَثقُل موازينُه أم تخِف؟ وعندَ الكِتاب حين يقال ﴿هاؤم اقرؤا كتابِيه﴾ [الحاقة: ١٩] حتى يعلم أين يقع كتابُه في يَمينه أم في شِماله، أم وراء ظهره؟ وعند الصِّراط حين يُوضع بين ظَهراني جهنَّم حتى يعلم أَيَنجو أم لا ينجو».

واعلم أنَّ الناسَ يفترقون بعدَ السؤال إلى ثلاثِ فرق:

فرقةٌ ليست لهم حَسَنة، فتأخذهم النّار، وفرقة لا سَيِّئَةَ لهم، فيدخلون الجَنَّة، والفِرقةُ الثالثةُ هم الأكثرون، خَلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيُعَرِّفُهمُ العدلَ بالميزان.

---

(١) الفرائص: جمع فريصة، وهي لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الخوف.

صِفَة الخُصَماء ورَدِّ المَظالم

أما من رَدَّ المَظالم في الدنيا وتَنزَّه عنها فقد سَلِمَ، وأما من ماتَ قبل رَدِّها، فإنَّ خُصَماءَه يُحيطون به في القيامة، فهذا يقول: ظَلَمني. وهذا يقول: استَهزَأ بي. وهذا يَقول: أساءَ جواري. وهذا يقول: غَشَّني. ولا خلاصَ لكَ من أيديهم، فإذا توهَّمتَ الخلاص منهم قيل: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

أنبأنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي الواعظ قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا رَوح قال: حدثنا سعيد بن قتادة عن أبي الصِّدّيق النّاجي عن أبي سَعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ المؤمنونَ يومَ القيامة من النّار، فَيُحبَسون على قَنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنّار، فَيُقْتَصُّ لبَعضِهم من بعضٍ مَظالمُ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذِنَ لهم في دخول الجنة»(١).

قال أحمد: وحدثنا سليمان بن داود قال: أخبرنا إسماعيل قال: أخبرني العلاء عن أبيه عن أبي هُريرة أن النبي ﷺ قال: «تَدرونَ مَنِ المُفْلِس؟» قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهَمَ له ولا مَتاع. قال: «إن المُفْلِسَ مِنْ أُمّتي مَن يَأتي يوم القِيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزَكاةٍ، ويأتي قد شَتَمَ هذا، وقَذَف هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فَيُقضى هذا مِن حَسناتِه، وهذا من حَسناتِه، فإن فَنِيَت حسناتُه قبل أن يَقضي ما عليه، أُخِذَ من خَطاياهُم، فَطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار»(٢).

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لَتُؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامة، حتى يُقاد للشاة الجَلْحاء مِنَ الشّاةِ القَرناء»(٣). هذا الحديث والحديث الذي قبله انفرد بإخراجهما مُسلم، وانفرد بإخراج الذي قبلهما البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٥)، وأحمد (١١٠٩٥) و(١١٠٩٨) و(١١٥٤٨) و(١١٦٠٣) و(١١٧٠٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، وأحمد (٨٨٤٢)، والبيهقي في السنن (٦/ ٩٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)، والجَلحاء: التي لا قَرْنَ لها. والقَرناء: ذات القرون.

فانظر وفَّقك اللهُ تعالى بعد سلامةِ حسناتك لدُخول آفاتِ الرِّياء عليها، فإذا سَلمت حسنةٌ أَخَذها الخُصومُ، وأيّ يومٍ صُمتَ وما اغْتَبْتَ فأخذتِ الغِيبةُ ثَوابَ الصَّوم، غير ما يجري يومئذٍ من الزَّلاّت.

ذكر الصِّراط

وتفكَّر فيما ينزل عليك من الجَزَع[١] إذا رأيتَ دِقَّةَ الصِّراط وشاهَدتَ جهنَّم تحته، وقد كُلِّفتَ أن تمشي عليه، والناسُ بين يديك يَتعثَّرون ويُسْتَلَبونَ بخطاطيف.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يُضرَبُ جِسرٌ على جَهنَّم، فأكونُ أوَّل مَنْ يُجيزُ»[٢].

وفيهما من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤتَى بالجِسْر فيُجعل بين ظهراني جهنَّم» قالوا: يا رسولَ الله، ما الجِسر؟ قال: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عليه خَطاطيفُ وكَلاليبُ وحَسَكٌ، المؤمِنُ عليه كالطَّرْفِ، وكَالبَرقِ، وكالرّيح، وكأَجاويدِ الخَيل والرِّكابِ، فَناجٍ مُسْلَّمٌ، ونَاجٍ مَخْدوشٌ، حتى يَمرَّ آخِرُهم يُسحَبُ سَحباً»[٣].

وفي أفراد مُسلم من حديث حُذَيفة وأبي هريرة قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «تُرسَل الأمانةُ والرَّحِمُ، فَتقومانِ جَنَبتي الصِّراط يميناً وشمالاً، فَيمرُّ أوَّلُكُم كالبرق، ثم كَمَرِّ الريحِ، ثم كَمَرِّ الطَّيرِ وشَدِّ[٤] الرِّجال تجري بهم أعمالهم، ونَبيّكم قائمٌ على الصِّراط يقول: رَبِّ سَلِّم سَلِّم. حتى تعجز أعمالُ العِباد، حتى يجيءَ الرجلُ فلا يَستطيع السَّير إلا زَحفاً» قال: «وفي حافَتَي الصِّراط كَلاليبُ مُعلَّقةٌ مأمورةٌ بأَخْذِ مَن أُمِرَت به، فَمخدوشٌ ناجٍ، ومَكدوسٌ في النّار»[٥].

فإن كنتَ غير مؤمنٍ بهذا فما أطول مقامك مع الكُفار، وإن كنتَ مؤمناً مُتهاوناً،

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: «الجوع».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) (٢٩٩)، وأحمد (٧٧١٧).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) (٣٠٢).

(٤) أي كعدوِ الرجال وجَريهم.

(٥) أخرجه مسلم (١٩٥).

فما أعظم خُسْرانَك، فانتبه لنفسك، وخَف ما بين يَديك، فإن الله لا يَجمع على عبده خَوفَيْنِ، ولَسنا نُريد بالخوف رقّةَ النِّساء، فتبكي ساعةً ثم تَترك العَمل لذلك اليوم، وإنما نُريد وجود خوفٍ يمنع عن المعاصي ويحثُّ على الطاعة، فأما خوفُ الحَمقَى، فإنهم اقتصروا على سَماعِ الأَهوال على أن يقولوا: استَعَنّا بالله، نَعوذُ بالله، يا رب سَلِّم. وهُم مع ذلك مُصِرُّون على القَبائح، والشَّيطانُ يَسخَرُ بهم، كما يَسخَرُ بمن يَقصده سَبُعٌ ضارٍ وهو إلى جانبِ حصنٍ، فإذا رآه قال: أعوذ بهذا الحِصنِ الحَصين، وأستعيذُ بشدَّة بُنيانِه. يقول هذا، ولا يَبرح من مَكانِه.

فصل

وكن في الدنيا مُحِباً لرسولِ الله ﷺ، حَريصاً على تَعظيم سُنَّتِه، لعله يَشفعُ فيكَ في الآخرة، فله شَفاعةٌ يتقدمُ فيها على الأنبياء كلهم، ويسأل في أهل الكبائر فينجيهم، واستَكْثِر من الإخوان الصالحين، فلكلِّ مؤمنٍ شَفاعةٌ، ولا تحملنك العِزَّةُ على التَّواني، ويُسمَّى هذا رجاء، فإن من رَجَا شيئاً طَلَبه.

ذِكرُ جَهنَّم

قال الله عزَّ وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١]، فقد تَبيَّنتَ أنكَ واردٌ على كلِّ حالٍ، والنَّجاةُ بعدَ الورود إنما هي للمتقين، وما تدري هل أنتَ منهم، يَبعدُ ذلك في حقك.

أنبأنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي قال: أخبرنا أبو بكر بن مالك قال: حدَّثنا عبدُ الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا حُسَين بن محمد قال: حدثنا خلف يَعني ابن خليفة عن يزيد بن كَيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: كُنّا عند النبي ﷺ يوماً فَسَمِعنا وَجْبَةً، فقال النبي ﷺ: «أتَدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسولُه أعلم. قال: «هذا حَجَرٌ أُرسِلَ في جهنم منذ سَبعين خريفاً، فالآن انتَهى إلى قَعرها»[1] انفرد بإخراجه مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٤).

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: حدثنا ابن أَعْيَن قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البخاري قال: حدثنا إسماعيل قال: حدثنا مالك عن أبي الزِّناد عن الأَعرج عن أبي هُريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ناركم هذه ما يُوقِدُ بنو آدمَ جزءٌ واحدٌ من سبعين جُزءاً من حر جهنم» قالوا: واللهِ إن كانت لكافيةً يا رسول الله. قال: «فإنها فُضِّلَت عليها بتسعةٍ وستِّين جُزءاً، كلُّهن مثلَ حَرِّها»(١). أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اشتكَتِ النارُ إلى رَبِّها عزَّ وجلَّ، فقالت: رَبِّ أكل بَعضي بعضاً فَنَفِّسني، فأذنَ لها في كلِّ عام بنفَسَين، فأشد ما تجدون من البَرد من زَمهريرِ جَهنَّم، وأشد ما تجدون من الحَرِّ من حَرِّ جهنم»(٢).

وفيهما من حديث النُّعمان بن بَشير عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ أهونَ أهلِ النار عذاباً يومَ القيامة لرجلٌ يوضع في أخمص قَدَميه جَمْرَتان يَغلي منهما دِماغُه»(٣).

وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤتَى بجهنَّم يومئذٍ لها سبعونَ ألف زِمام مع كلِّ زِمامٍ سبعونَ ألف مَلَك يجرُّونَها»(٤).

وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أُوقِدَ على النّار ألف سَنَةٍ حتى احمرَّت، ثم أُوقِدَ عليها ألفَ سنَةٍ حتى ابيضَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألفَ سنَةٍ حتى اسودَّت، فهي سَوداءُ مُظلِمة»(٥).

وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أنَّ قطرةً من الزَّقوم قَطَرت في الأرض لأَمَرَّت على أهل الدنيا مَعيشَتَهم، فكيفَ بمن هو طعامه وليس له طعامٌ غَيرُه؟!»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٧) و(٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧) (١٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦١)، ومسلم (٢١٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٥٩١)، وابن ماجه (٤٣٢٠).

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٣٥)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، والترمذي (٥٢٨٥)، وابن حبان (٧٤٧٠)، والطبراني في الكبير (١١٠٦٨)، والحاكم (١/ ٢٩٤) و(٤٥١).

وقال أبو موسى: يا أيها الناس، ابكوا، فإنْ لم تَبكوا فَتباكوا، فإنّ أهل النار يبكون الدموع حتى تنقطع، ثم يبكون الدِّماء حتى لو أُرسِلَت فيها السُّفنُ لجَرَت.

وقال كعب: لو فُتح من جَهنَّم قَدر مِنخَرِ ثَورٍ بالمشرق، ورجُلٌ بالمغرب، لَغَلى دِماغُه حتى يَسيلَ من حَرِّها.

أنبأنا عبد الخالق بن عبد الصمد قال: أخبرنا أبو الحسين بن النَّقُّور قال: أخبرنا أبو طاهر بن المُخَلِّص قال: حدثنا البَغَوي قال: حدثنا أبو رَوح البَلَدي قال: حدثنا أبو شِهاب الحَنَّاط، عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن شَهر بن حَوْشَب عن أبي الدَّرداء قال: يُلقَى على أهلِ النارِ الجوعُ، فيَعدل عندهم ما هُم فيه من العذاب، فيستَغيثون بالطعام، فيُغاثون بالضَّريع، لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوع، فيستغيثون فَيُغاثون بطعامٍ ذي غُصَّة، فيذكرون أنهم كانوا يُجيزونَ الغُصَّةَ بالشَّراب، فيستغيثون بالشَّراب فَيُغاثون بالحَميم يَنالونه بكَلاليبَ من حديدٍ، فإذا دَنا منهم شَوَى وجوهَهُم، وإذا دَخَل في بُطونهم قَطَّعَ ما في بُطونهم، فيطلبون إلى خَزَنةِ جهنّم أن ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، فيجيبونهم: ﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ [غافر: ٥٠]، فيقولون: سَلوا مالِكاً، فيقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إنكم ما كثون﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيقولون: لا أحد خير لكم من ربكم، فيقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فيقول الله عز وجل: ﴿اخسأوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فعند ذلك يَيأسونَ من كل خير، ويأخذونَ في الشَّهيقِ والوَيل والثُّبور(١).

وتفكَّر في حَيّاتها وعقاربِها، ففي الحديث: إن حَيَّاتها أمثال أعناق البُخت(٢)، وعَقاربها كالبِغال الموكَفَة(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٨٩).

(٢) البُختُ: الإبل الخراسانية، واحداها بُخْتي.

(٣) الموكَفة: التي عليها الوكاف، وهو البَرْدَعة، والحديث أخرجه أحمد (١٧٧١٢)، وابن حبان (٧٤٧١)، والحاكم (٤/ ٥٩٣) من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزَّبيدي.

وقال الحسن: تأكُلهم النارُ كلَّ يومٍ سبعين ألفَ مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا. فيعودون كما كانوا.

واعلم أن صفةَ جهنم تطول، وأيسرُ اليَسير من ذلك يَنبغي أن يكفي في التَّخويف، فالمسكين من آثر لذةً مُنقطعةً، فاشتَرى بها عذاباً شديداً دائماً.

ذِكرُ صفَةِ الجَنَّة

أنبأنا هِبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الصمد قال: حدثنا أبو قُدامة الحارث بن عُبيد، قال: حدثنا أبو عِمران عن أبي بكر بن عبد الله بن قَيس عن أبيه أن النبيَّ ﷺ قال: «جِنانُ الفِردَوسِ أربعٌ: ثِنتان من ذَهبٍ، حِلْيَتُهما وآنِيتُهما وما فيهما، وثِنْتان من فِضَّة، آنيتهما وحِليَتُهما وما فيهما، وليس بين القوم وبينَ أن ينظروا إلى رَبِّهم عزَّ وجلَّ إلا رِداءُ الكِبرياء على وَجهه في جَنَّةِ عَدنٍ»[1] أخرجاه في الصحيحين.

وفيهما من حديث أبي موسى أيضاً عن النبي ﷺ: «إن في الجنَّة لخيمةً من لؤلؤةٍ مجوفةٍ عَرضُها ستون ميلاً، في كل زاويةٍ منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوفُ عليهم المؤمن»[2].

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: أعدَدْتُ لعبادي الصّالحين ما لا عَينٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قلبِ بَشَر»[3].

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أولُ زُمرةٍ تَلِجُ الجنَّة

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨) و(٤٨٨٠) و(٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠)، وأحمد (١٨٩٦٨٢) و(١٩٧٣١)، والترمذي (٢٥٢٨)، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٥) و(١١٤٤١)، وابن ماجه (١٨٦)، وابن حبان (٧٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٤٤) و(٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤) (٢) و(٣).

صورتُهم على صورةِ القمر ليلةَ البَدر، لا يبصقون فيها، ولا يَمْتَخِطون، ولا يَتغوَّطون، آنيتُهم فيها الذَّهب، أمشاطهم منَ الذهب والفِضَّة، ومَجامِرهم الأَلُوَّةُ[١]، ورَشْحُهم المِسك، ولكلِّ واحدٍ منهم زَوجَتان يُرى مخُّ سوقهما وراء اللحم من الحسن، لا اختلافَ بينهم ولا تَباغُض، قلوبهم قَلبٌ واحدٌ يُسبّحون الله بُكرةً وعَشِياً»[٢].

وفيهما من حديث أبي ذَر عن النَّبي ﷺ أنه قال في حديث المعراج: «... ثمَّ أُدخِلتُ الجنةَ، فإذا فيها جَنابِذُ[٣] اللُّؤلؤ، وإذا تُرابها المِسك»[٤].

وفيهما من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهلَ الجنَّةِ يَتراءَونَ أَهلَ الغُرَفِ من فَوقهم، كما تَتراءَونَ الكَوكَب الدُّرِّي الغابرَ في الأُفُق من المَشرقِ أو المَغرب لتَفاضُل ما بينهم» قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازل الأنبياء لا يَبلغها غيرهم. قال: «بَلى، والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصَدَّقوا المرسَلين»[٥].

وفيهما من حديث سهل بن سعد[٦] وأبي سعيد[٧] وأبي هريرة[٨] وأنس[٩] كلهم عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ في الجنة لشجرةً يَسيرُ الراكبُ في ظِلّها مِئةَ عام لا يَقطعها».

وفي أفراد مسلم من حديث أنس عن النبي ﷺ، قال: «إنَّ في الجنة لسوقاً يأتونها كلّ جُمعة، فتهبُّ ريحُ الشَّمال، فَتَحثو في وُجوههم وثيابهم، فيزادوا حُسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسناً وجَمالاً، فيقول لهم أهلوهم: واللهِ لقد ازدَدتُم

(١) الأَلُوَّة: العود الذي يُتَبخَّرُ به.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤٥) و(٣٢٤٦) و(٣٢٥٤) و(٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤).
(٣) الجنابذ: جمع جنبذة، وهي القُبَّة.
(٤) أخرجه البخاري (٣٤٩) و(١٦٣٦) و(٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).
(٥) أخرجه البخاري (٣٢٥٦) و(٦٥٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).
(٦) اخرجه البخاري (٦٥٥٢)، ومسلم (٢٨٢٧).
(٧) أخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).
(٨) أخرجه البخاري (٢٣٥٢) و(٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦).
(٩) أخرجه البخاري (٣٢٥١)، ولم يخرجه مسلم كما ذكر المصنف.

بَعدَنا حُسناً وجمالاً! فيَقولون: وأنتم واللهِ لقد ازدَدتُم بَعدنا حُسناً وجمالاً»[١].

أنبأنا أبو القاسم بن الكاتب قال: أخبرنا أبو علي بن المذهب قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو النَّضر قال: حدثنا زُهَير قال: حدثنا سعد أبو مجاهد قال: حدثنا أبو المُدِلَّةِ أنه سمعَ أبا هُريرةَ يقول: قُلنا: يا رسولَ الله، حدِّثنا عن الجنَّة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ من ذهبٍ، ولَبِنةٌ من فِضَّة، وملاطُها[٢] المِسكُ الأذفر، وحَصْباؤُها اللُّؤلؤُ والياقوت، وتُرابها الزَّعفران، من يدخلها يَنعَمُ لا يبؤُسُ، ويَخلُدُ لا يَموت، لا تَبلَى ثيابُه، ولا يَفنى شَبابُه»[٣].

وفي حديث أُسامةَ بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال يوماً وذكرَ الجنة، فقال: «ألا مُشمِّرٍ لها؟ هيَ وربُّ الكعبةِ رَيحانَة تَهتَزُّ، ونورٌ يَتلألأ، ونَهر مُطَّرِد، وزَوجةٌ لا تَموت، في حُبورٍ ونَعيم مُقامٍ أبداً» فقالوا: نَحنُ المُشَمِّرون لها يا رسول الله. قال: «قولوا: إنْ شاء الله»[٤].

وقد روينا عن سلمان الفارسي أنه أخَذَ عُوَيداً صغيراً، ثم قال لجريرِ بن عبد الله: إنك لو طلبتَ في الجنة مثلَ هذا لم تَجِده. فقال له: يا أبا عبد الله، فأين النَّخلُ والشَّجر؟ قال: أُصولُها اللُّؤلؤ والذَّهب وأعلاها الثَّمر.

واعلم أن الله تعالى ذكر نعيم الجنَّة مَبسوطاً في مواضع في القرآن، ثم جَمعه في آياتٍ، منها قوله تعالى: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فهذه الآيات الثلاثة قد جَمعتْ كلَّ نعيمٍ، ثم زاد على الكُلِّ بقوله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٨].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٣).
(٢) المِلاطُ: الجِصُّ ونحوه مما تتصل به اللَّبِنات.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٢٦)، وأحمد (٨٠٤٣)، وعبد بن حميد (١٤٢٠)، وابن المبارك في الزهد (١٠٧٥)، وابن حبان (٧٣٨٧).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣٣٢).

وصفاتُ الجنَّةِ والنارِ كثيرةٌ، فلنقتصر على ما ذكرنا.

وأفضلُ ما يُنال في الجنَّة رؤيةُ اللهِ عزَّ وجل، وهو في الصحيحين من حديث أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه قيل له: يا رسولَ الله، هل نَرى ربَّنا؟ فقال: «هل تُضارُّونَ في الشَّمسِ ليسَ دونَها سَحاب؟» قالوا: لا. قال: «فهل تُضارُّونَ في القمر ليلةَ البدر ليس دونه حِجاب؟». قالوا: لا. قال: «فإنكم تَرونَه يومَ القيامة كذلك»[١].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد نحوه[٢].

وفيهما من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلا رداء الكِبرياء على وجهه في جنَّة عَدْنٍ»[٣].

وفيهما من حديث جرير عن عبد الله قال: كُنّا عند رسول الله ﷺ ليلةَ البدر، فقال: «إنكم سَترون ربكم عزَّ وجلَّ كما تَرونَ القَمر لا تُضامّونَ في رُؤيَتِهِ»[٤].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).
(٣) تقدم في ذكر صفة الجنة قبل قليل.
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٥١) و(٧٤٣٤) و(٧٤٣٥)، ومسلم (٦٣٣) (٢١١) و(٢١٢).

نختم الكتاب في ذكر سَعةِ رحمة الله تعالى نَترجّى بذلك فَضله إذ ليس لنا أعمال نرجو بها العفو

قال الله عزَّ وجل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

أنبأنا هبةُ الله بن محمد قال: أخبرنا الحسن بن علي التَّميمي قال: أخبرنا أحمد بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا مَعْمَر عن هَمّام قال: حدثنا أبو هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لما قَضى اللهُ الخَلقَ كتبَ في كتابِهِ، فهو عنده فوقَ العرش: إنَّ رَحمتي غلبت غَضَبي»[1]. أخرجاه في الصحيحين، وفي بعض ألفاظ الصحيح: «سَبقت غَضَبي»[2].

أنبأنا عبد الأول قال: أخبرنا الداودي قال: أخبرنا ابن أَعْيَن قال: حدثنا الفِرَبْري قال: حدثنا البُخاري قال: حدثنا قُتَيبة قال: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو بن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُري عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقَ الرحمةَ يومَ خلقَها مئةَ رحمةٍ، فأمسك عنده تسعةٍ وتسعينَ رحمةً، وأرسلَ في خلقه كلِّهم رحمةً واحدةً، فلو يَعلمُ الكافر بكلِّ الذي عندَ الله من الرَّحمة لم يَيْأَس من الجنَّة، ولو يعلم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العَذاب لم يأمَنِ النّار»[3].

أنبأنا أبو القاسم الكاتب قال: أخبرنا أبو علي التَّميمي قال: حدثنا أبو بكر بن

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١) (١٤)، وأحمد (٧٥٠٠).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) (١٥).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٩).

جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا يحيى عن عبد الله عن عطاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لله عزَّ وجلَّ مئةُ رحمةٍ، أنزلَ منها رحمةً واحدةً بينَ الإنْسِ والجِنِّ والهَوامِّ، فَبِها يتَعاطَفون، وبها يتراحمون، وبها تَعطِفُ الوَحشُ على أولادها، وأَخَّر تِسْعاً وتسعين إلى يوم القيامة، يَرحمُ بها عِبادَه»[(١)].

قال أحمد وحدثنا عَفّان قال: حدثنا جعفر بن سليمان قال: حدثنا الجعد أبو عثمان عن أبي رجاء العُطارِدي عن ابن عباس قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إن ربكم تَباركَ وتعالى رَحيمٌ، من هَمَّ بحسنَةٍ فلم يَعملها كُتِبَتْ له حسنةً، فإن عملها كُتبت له عشراً إلى سبع مئةٍ، إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئةٍ فَلم يَعملها كُتبت له حسنةً، فإن عَمِلَها كُتِبَتْ له واحدةً، أو يَمحوها الله، ولا يَهلِكُ على الله تعالى إلا هالِك»[(٢)].

قال الإمام أحمد: وحدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن المَعْرور بن سُوَيد عن أبي ذَر قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: مَن عمِل حسنةً فَله عَشرُ أمالها أو أَزْيَد، ومن عمل سيئةً فجزاؤها مثلها أو أغفِرُ، ومَن عمل قُرابَ الأَرض خَطيئة، ثم لَقِيني لا يُشرك بي شيئاً جعلتُ له مثلها مغفِرةً، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربتُ إليه ذِراعاً ومن اقترب إليَّ ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يَمشي أَتيتُه هَروَلة»[(٣)].

قال أحمد: وحدثنا يزيد قال: أخبرنا هَمّام بن يحيى عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هُريرة عن النبي ﷺ: «إنَّ رجلاً أذنبَ ذنباً، فقال: ربِّ، إنّي أذنبتُ ذَنباً فاغفِره. فقال تباركَ وتعالى: عبدي عمل

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٢) (١٩)، وأحمد (٩٦٠٩)، وابن المبارك في الزهد (٨٩٣)، وابن ماجه (٤٢٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٣١) (٢٠٨)، وأحمد (٢٥١٩)، والطبراني في الكبير (١٢٧٦٠)، والبيهقي في الشعب (٣٣٤) و(٣٣٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٨٧)، وأحمد (٢١٣٦٠)، وابن ماجه (٣٨٢١).

ذَنْباً، فعلمَ أنَّ له رباً يغفر الذنبَ ويأخذ به، قد غَفَرتُ لعبدي. ثم عملَ ذَنباً آخر، فقال: ربِّ، إنّي عملتُ ذنباً فاغفِره، فقال عزَّ وجلَّ: عبدي علمَ أن له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخُذ به، أُشهِدكم أنّي قد غَفرتُ لعبدي، فليَعمل ما شاء»[١].

هذه الأحاديث كلها صِحاح.

وفي الصحيحين من حديث عُمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قُدِمَ على رسولِ اللهِ ﷺ بسَبْيٍ، فإذا امرأةٌ من السَّبيِ تَسعى إذا وجدت صَبياً في السَّبيِ أَخَذته فألصَقَتهُ ببطنها فأرضعته، فقال رسولُ الله ﷺ: «أَتُرونَ هذه المرأةَ طارحةً ولدَها في النار؟» قُلنا: لا والله، قال: «للهُ أرحمُ بعِباده من هذه المرأة بولَدها»[٢].

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبدٍ قال: لا إله إلا الله. ثم مات على ذلك إلا دَخَل الجنَّة» قلت: وإن زَنَى وإن سَرق؟ قال: «وإن زَنى وإن سَرَق». ثم قال في الرابعة: على رَغمِ أنْفِ أبي ذَر»[٣].

وفيهما من حديث عِتْبان بن مالك عن النبي ﷺ، أنه قال: «إنَّ الله قد حَرَّم على النّار مَنْ قال: لا إله إلا الله. يبتغي بذلك وَجهَ الله»[٤].

وفيهما من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ، أنه قال: يُخرَجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخَير ما يَزِنُ شعيرةً، ثم يُخرَجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكانَ في قلبه من الخير ما يَزِنُ بُرَّةً، ثم يُخرَجُ من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذَرَّةً»[٥].

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا فرغَ اللهُ عزَّ وجلَّ من القضاء بين العِباد، وأراد أن يُخرِجَ من النار من أراد أن يرحم ممن كان يَشهدُ أن لا إله إلا الله، أمرَ الملائكة أن يُخرجوهم، فيعرفونَهم بعلامةِ السُّجود، وحرم الله

(١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)، وأحمد (٧٩٤٨) و(٩٢٥٦) و(١٠٣٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).
(٣) أخرجه البخاري (٥٨٢٧)،، مسلم (٩٤).
(٤) أخرجه البخاري (٤٢٥) و(٤٠٠٩) و(٤٠١٠)، ومسلم (٣٣)، وأحمد (١٦٤٨٢).
(٥) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣) (٣٢٥).

على النار أن تأكُل من ابنِ آدمَ أثَر السُّجود، فيُخرجوهم قد امتَحَشوا[١]، فيُصَبُّ عليهم من ماءٍ يُقال له: ماءُ الحياة؛ فينبُتون نَباتَ الحِبَّةِ[٢] في حَميلِ السَّيل[٣]، ويبقى رَجلٌ يُقبِل بوجهه إلى النار، فيقول: يا ربِّ قد قَشَبَني[٤] ريحها وأحرقَني ذَكاؤها[٥]، فاصرِف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو الله حتى يقول: فلعلّي إن أعطَيتُك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعِزَّتِكَ، لا أسألكَ غيره. فيَصرفُ وَجهَهُ عن النار، فيقول بعد ذلك: يا رَبِّ، قَرِّبني إلى بابِ الجنة. فيقول: أَوَليس قد زعمتَ أن لا تسألني غيره ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فلا يزال يدعو حتى يقول: فلعلي إن أعطيتك ذلك أن لا تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزَّتك لا أسأُلكَ غيره. ويُعطي الله من عهودِه ومواثيقِه أن لا يسأله غيره، فَيُقرِّبه إلى باب الجنَّة، فإذا دَنَا منها انفهقت[٦] له الجنة، فإذا رأى ما فيها من الحَبْرةِ والسّرور سكتَ ما شاءَ الله أن يسكُتَ، ثم يقول: يا ربّ، أدخِلني الجنَّةَ. فيقول: أَوَليس قد زَعمتَ أنْ لا تسألني غيره؟ وقد أعْطَيتَ عهودَكَ ومواثيقك أن لا تسألني غيره؟ فيقول: يا ربِّ، لا تجعلني أَشْقى خَلقِك، فلا يزال يدعو الله عزَّ وجلَّ حتى يضحك، فإذا ضَحِكَ منه أذِن له بالدُّخول فيها، فإذا دخل، قيل له: تَمَنَّ من كذا، فيتمنَّى، ثم يُقال: تَمَنَّ من كذا، فيتمنَّى حتى تنقطع الأماني، فيُقال: هذا لكَ ومثلُه معه»[٧]. قال: وأبو سعيد جالس مع أبي هريرة لا يُغير عليه شيئاً من قوله حتى انتهى إلى قوله: «هذا لكَ ومثلُه معه» قال أبو سعيد: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «هذا لكَ وعشرةُ أمثاله مَعَه». قال أبو هريرة: «حفظت: «ومثلُه معه» وقال أبو هريرة: وذلك الرجلُ آخِرُ أهل الجنَّةِ دُخولاً الجنَّة.

(١) امتحشوا: احترقوا واسودّوا.
(٢) الحِبَّة: بذور الصحراء مما ليس بقوت.
(٣) حَميل السيل: ما يحمله السيل من البذور والطين وغيرهما.
(٤) قَشَبني: أهلكني.
(٥) ذكاؤها: لَهَبُها واشتعالُها.
(٦) انفهقت: انفتحت واتَّسعت.
(٧) هو حديث أبي هريرة في الرؤية، وقد تقدم قبل قليل في ذكر صفة الجنة.

أنبأنا أبو القاسم بن عبد الواحد قال: حدثنا أبو علي التَّميمي قال: حدثنا أبو بكر بن جعفر قال: حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو المغيرة قال: حدثنا يزيد عن أبي بُردة عن أبي موسى قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا كانَ يومُ القيامة لم يَبقَ مؤمنٌ إلا أُتيَ بيَهوديٍّ أو نَصراني حتى يُدفَع إليه، يُقال له: هذا فِداؤكَ من النَّار»[١].

قال أحمد: وحدثنا إبراهيم بن إسحاق الطّالقاني قال: حدثنا ابنُ المبارك، عن ليث بن سعد قال: حدثني عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَستخلص رَجُلاً من أُمتي على رُؤوسِ الخلائق يوم القيامة، فينشُر عليه تِسعةً وتِسعين سِجِلاً، كلُّ سِجِلٍّ مَدَّ البَصر، ثم يقول له: أتنكرُ من هذا شيئاً؟ أَظَلَمتْكَ كَتَبَتي الحافِظون؟ قال: لا يا رَبِّ. فيقول: أَلكَ عُذرٌ أو حَسنة؟ فَيُبهَتُ الرجلُ، فيقول: لا يارَبِّ. فيقول: بَلى، إنَّ لكَ عندنا حَسنةً واحدةً، لا ظُلم اليوم عليك. فَتُخرَجُ له بطاقةٌ فيها: أشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبدُه ورسولُه. فيقول: أحضروه. فيقول: يا ربِّ، ما هذه البِطاقة مع هذه السِّجِلاّت؟ فيقال: إنكَ لا تُظلَم. قال: فتُوضع السِّجِلاّتُ في كِفَّةٍ والبِطاقَةُ في كِفَّةٍ، قال: فَطاشَت السِّجِلاّت وثَقُلَت البطاقة، ولا يَثقُل شيءٌ اسمَ الله»[٢].

وكان الفُضيل بن عياض يقول: ما من لَيلةٍ اختلطَ ظَلامُها إلا نادَى الجَليلُ جلَّ جلالُه: مَن أَعظَمُ مِنّي جوداً؟! عِبادي لي عاصون وأنا أَكْلَؤُهم في مَضاجِعهم كأنَّهم لم يَعصوني، وأتولى حفظهم كأنهم لم يُذنبوا، أجود بالفَضلِ على العاصي، وأتفضَّلُ على المُسيء، من ذا الذي دعاني فلم أُلَبِّه؟ أو من ذا الذي سألني فلم أعطِه؟ أنا الجَوادُ، ومنِّي الجود، أنا الكريمُ، ومنِّي الكَرم، فأينَ عنِّي يَهربُ الخَلق؟ وأينَ عن بابي ينتجي العاصون؟

ونَظر الفُضَيل إلى تَسبيح الناس وبُكائهم يومَ عَرَفة، فقال: أرأيتم لو أنَّ هؤلاء

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٠٠) بلفظه، وأخرجه بنحوه مسلم (٢٧٦٧) (٥٠).
(٢) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبان (٢٢٥).

صاروا إلى رجلٍ فسألوه دانِقاً[١]، أكانَ يَردّهم؟ قيل: لا. فقال: واللهِ للمغفرةُ عند الله عزَّ وجل أَهوَنُ من إجابة الرجل لهم بدانقٍ.

أنبأنا ابن ناصر عن أبي القاسم بن البُسْري عن أبي عبد الله بن بَطَّة قال: حدثنا أبو بكر بن المطيري قال: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن عن محمد بن عمرو بن حَنَان الحمصي قال: حدثنا بَقيَّةُ بن الوليد عن إبراهيم بن أدهم قال: خَلا لي الطَّوافُ في ليلةٍ مُظلمةٍ شديدةِ المَطَر، فلم أَزَل أطوفُ إلى السَّحَر، ثم رفَعت يَدي إلى السماء، فقلتُ: اللهمَّ إني أسألكَ أن تعصمني عن جميع ما تكرَه، فإذا قائلٌ يقولُ من الهَواء: أنتَ تسألني العِصمةَ، وكلُّ خَلقي يَسألني العِصمة، فإذا عَصمتكُم فعلى مَنْ أتفضَّل؟

فهذه الأحاديثُ مع ما ذكرناه في كتاب الرَّجاء تُبشِّرنا بسَعةِ رحمةِ الله تعالى وجودِه، ونحن نرجو من اللهِ عزَّ وجل أن لا يُعامِلنا بما نَسْتحقُّه، وأن يَتفضَّل علينا بما هو أهلُه، ونحن نَستغفرُ اللهَ عزَّ وجلَّ من أقوالنا التي تُخالف أعمالَنا، ومن كلِّ تصنع تَزَيَّنّا به للناس في كل كتابٍ أَلَّفناه، أو علمٍ أَفَدناه، ومن كل علمٍ وعَملٍ قَصدناهُ به ثم خالَطَهُ ما يُكدِّره، فبِكَرمِه نَسْتَشفع إلى كَرمِه، وبجودِه نسأل من جُودِه، إنه قَريبٌ مُجيب.

تَمَّ الكِتاب، وللهِ الحمدُ والمِنَّةُ، ونحنُ نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أن يَنفعنا به والمسلمين أجمعين، فمن قَرأَ فيه أو انتَفع به، فليَدعُ لمؤلِّفه بالعَفوِ فَرُبَّ دعاءٍ لا يُرَدُّ.

وصلّى اللهُ على سَيِّدِنا محمدٍ المُصطفى وآلِه وصحبِه وسلَّم[٢].

---

(١) الدانِق: سُدس الدرهم.

(٢) ورد هنا في آخر نسخة الأصل ما نصه: «وقد وقع الفراغُ من كتابة هذه النسخة الشريفة عن يد الفقير الحقير أحمد بن عمر الشهير بحافظ كلام الله القديم في شهر ربيع الأول من هجرة من له العِزُّ والشرف، ولسنةِ أربعٍ وثمانين وألف، راجياً من الله تعالى لُطفه الخَفيَّ والجَليّ».

فهرس الموضوعات

ربع المنجيات